عبد الرحمن مُنيف



مُدُن المِلح

التيه

علي مولا

I

«التيه» الجزء الأول من خماسية مدن الملح، الرواية التي تتحدث عن الانقلاب الكبير نتيجة اكتشاف النفط: الثروة المفاجئة، وبداية رحيل سكان الواحات، والشروع في بناء مدن الحديد والاسمنت، ثم تدفق الحالمين بالثروة، والصراع على المال والسلطة.

هذا الجزء من الرواية يرصد أهم التحولات في بلدان النفط العربية، مازجاً الواقع بالخيال، من أجل تقديم صورة لما جرى، وما يحتمل أن يقع، وكيف تتصادم الإرادات وتتواجه القوى، لتبدأ بعد ذلك الأسئلة والتوقعات.

عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

أرض السواد (3 اجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

عالم بلا خرائط
(بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

أم النذور

سيرة مدينة
(عمان في الأربعينات)

النهايات

لوعة الغياب

الكاتب والمنفى

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة

بين الثقافة والسياسة

عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي

الإخراج:
آنيا مورينغ

صورة الكاتب:
رسم لمروان قصاب باشي

عبد الرحمن منيف

مدن الملح

التيه

I

المركز
الثقافي
العربي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عبد الرحمن منيف

مدن الملح

التيه

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف: 5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي (الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

إلى

علي منيف

الذي رحل قبل الأوان

إنه وادي العيون...

فجأة، وسط الصحراء القاسية العنيدة، تنبثق هذه البقعة الخضراء، وكأنها انفجرت من باطن الأرض أو سقطت من السماء، فهي تختلف عن كل ما حولها، أو بالأحرى ليس بنيها وبين ما حولها أية صلة، حتى ليحار الإنسان وينبهر، فيندفع إلى التساؤل ثم العجب «كيف انفجرت المياه والخضرة في مكان مثل هذا؟» لكن هذا العجب يزول تدريجياً ليحل مكانه نوع من الإكبار الغامض ثم التأمل. إنها حالة من الحالات القليلة التي تعبّر فيها الطبيعة عن عبقريتها وجموحها، وتبقى هكذا عصيّة على أي تفسير.

وادي العيون قد يبدو بنظر الذين يسكنون فيه مألوفاً، وبعض الأحيان لا يثير تساؤلات كبيرة، لأن هؤلاء تعودوا أن يروا أشجار النخيل تملأ الوادي، وتعودوا أن يروا الينابيع تتفجر في أمكنة عديدة خلال فصل الشتاء ثم بداية الربيع، إلا أنهم. رغم العادة، يحسون أن قدرة مباركة هي التي ترعاهم وتيسر لهم الحياة. أما إذا جاءت القوافل، وقد جللتها أكوام الغبار وهدها التعب والعطش، وأخذت تجدّ في السير، خاصة في المرحلة الأخيرة، لتصل إلى وادي العيون بأسرع وقت، فكانت القافلة كلها تمتلئ نشوة أقرب إلى الرعونة، لكنها لا تلبث أن تسيطر على اندفاعها حين ترى الماء، متذرعة بحجة أن الذي خلق الدنيا والبشر خلق في نفس الوقت وادي العيون في هذا المكان بالذات، ليكون إنقاذاً من الموت في هذه الصحراء الغادرة الملعونة. فإذا استقرت القافلة، وفكت أحمالها، وارتوى الرجال والدواب، فإن نوعاً من الخدر اللذيذ، لا يلبث أن يتحول إلى رضى عارم، يسيطر على كل شيء، ولا يعرف ما إذا كان ذلك يتولد من

المناخ أم من عذوبة الماء، أو ربما نتيجة الشعور بزوال الخطر، لأنه لا يقتصر على البشر وحدهم، إذ يتجاوزهم ليصيب الحيوانات أيضاً، فتصبح أقل طاعة وأقل رغبة على الاستجابة للأحمال الثقيلة أو على مواصلة السفر بعد ذلك.

وادي العيون بالنسبة للقوافل شيء خارق، أعجوبة لا يصدقها من يراها لأول مرة، ومن يراها لا ينساها بعد ذلك، حتى ليتردد اسم الوادي في جميع مراحل الطريق، في الذهاب والعودة: «كم بقي لنصل إلى وادي العيون؟» «إذا وصلنا وادي العيون وأمرحنا هناك سوف نستريح أياماً قبل أن نواصل السفر» «أين أنت يا وادي العيون يا جنة الدنيا».

هذا الإلحاح على ذكر وادي العيون يعني الكثير، إذ إضافة إلى الإنقاذ الذي يشكّله للقوافل والمسافرين، فإنه في هذا الموقع بالذات، يمكّن رجال القوافل من التأكّد من أشياء كثيرة: متى مرت القوافل الأخرى وإلى أين ذهبت. ماذا تحمل هذه القوافل وكم تحمل.... هذا زيادة على معرفة الأسعار وأصحاب الأحمال وغير ذلك من المعلومات، وعلى ضوئها يقرر رجال القافلة إن كان عليهم أن يبيعوا في هذا المكان أو ذاك، أن يسرعوا في السفر أو يؤخروه أياماً، ثم ما يجب تداركه في الطريق من أعمال ومواد... أو معاودة السؤال.

لو ترك لمتعب الهذال أن يتحدث عن وادي العيون لقال كلاماً لا يصدقه أحد، لأنه لا يقتصر على طيب الهواء وعذوبة الماء الذي لا يتوقف يوماً واحداً في السنة، ولا عن روعة الليل، إنه يضيف أشياء أخرى كثيرة خارقة، ويروي قصصاً يعود بعضها إلى أيام نوح، كما تؤكد العجائز! بين متعب الهذال ووادي العيون علاقة خاصة، عشق من نوع لا يتكرر كثيراً. أما الذين عاشوا خلال فترتين، الفترة التي كان فيها وادي العيون كما يراه متعب الهذال، ثم الفترة التي تلت ذلك، فسوف يتحدثون بطريقة مختلفة. سوف يقولون إن هذا الوادي، بالنخيل الذي يملؤه، بالمياه التي تروي الناس الذين يعيشون حوله، والتي توقف المسافرين أياماً لكي يستريحوا ويتزودوا بما يحتاجون إليه ثم يواصلون رحيلهم بعد ذلك، ربما إلى أماكن

أفضل. . إن هذا الوادي في هذا المكان من الأرض لا غنى عنه، ولو لم يكن موجوداً لما كان هناك بشر أو حياة، ولما كانت هناك طريق أيضاً، ولما جاءت إليه القبائل، وما كان لمتعب وقبيلته العتوم أن يعيشوا في هذا المكان من الأرض.

يمتد الوادي مسافة ثلاثة أميال أو تزيد قليلاً. وهذا الامتداد العريض في البداية، لا يلبث أن يضيق شيئاً فشيئاً حتى يصبح في نهايته مجرد شريط رفيع تتناثر فيه أشجار قليلة من النخيل، وهذه الأشجار تعيش على ما يتسرب إليها من بقايا الماء، وربما من بقايا البشر والحيوانات، ولذلك فهي في نهاية الوادي أقل نمواً وتتباعد بطريقة لافتة للنظر. فإذا وقف الإنسان عند شجرة النخيل الأخيرة فإن الأرض الرملية المملوحة تبدأ هناك، وهذه الأرض الخاصة المتميزة هي جزء من الوادي وجزء من الصحراء، لأنها، بعد ذلك، تنهض بسرعة لترتفع قليلاً قليلاً إلى أن تصبح هي والصحراء التي تليها شيئاً واحداً. وحين تهب الرياح فإن الرمال تتراكم على هذا الجزء المنحني، لكن شجيرات الأثل ثم السدر والشيح القصيرة المستدقة، والتي تتكاثر عند نهاية الوادي، تمنع تقدم الرمال وتجعل الأرض داكنة بعض الشيء وتجعلها أكثر تماسكاً أيضاً، مما يساعدها على أن توقف حركة الرمال، أو على الأقل تحد من حركتها وامتدادها.

بعد الوادي وحوله تقوم بعض الهضاب، وهي هضاب رملية متحركة، لكن اتجاه الرياح ثم طبيعة التربة تجعلها أكثر ثباتاً من غيرها، وتجعلها مشرفة على مساحات واسعة من الأرض المحيطة بها، ولذلك يستدل بها الناس ويطلقون عليها أسماء لتمييزها، فمن جهة الشرق تقوم الظهرة، أما من جهة الشمال فالوطفة وأم الأثل، ومن ناحيتي الغرب والجنوب تقوم هضاب أقل أهمية ولا تعني الكثير بالنسبة للوادي أو المسافرين، ومع ذلك أطلقت عليها الأسماء، لأن طبيعة الصحراء تجعل للأسماء أهمية تفوق غيرها، وهذه لم تخلق نتيجة الرغبة أو في لحظة من لحظات الجنون، وإنما خلقتها الطبيعة ذاتها وأعطتها من الأسماء ما يوازي أهميتها أو الصفات التي تحملها.

الذين سافروا وعرفوا الأمكنة، يعرفون أن البحر ليس بعيداً عن وادي العيون، إنه على مسيرة سبعة أو ثمانية أيام، لكن طريق القوافل لا تصل البحر، وإن كانت تقترب منه أو تبتعد عنه تبعاً لوجود الماء والواحات. أما نهاية الصحراء، من الناحية الثانية، فلا أحد أبداً يقدّر نهايتها، قد تكون بعيدة وقد لا تكون، لكنها بنظر الجميع سر لا يعرف أحد الوصول إلى حقيقته.

في سنوات الخير يظهر الخير، أول ما يظهر، في وادي العيون، إذ إضافة إلى غزارة المياه التي تملأ الأحواض الثلاثة المحيطة بالنبع، فإن مياه العيون تنحدر إلى أماكن لم يكن متوقعاً أن تصلها. وفي تلك السنين تزرع الخضرة، وتظهر النباتات المختلفة، خاصة التي تأتي مع الأمطار المبكرة، ويتصرف الناس في الوادي بطريقة لا يصدقها المسافرون الذين تعودوا المرور على محطات كثيرة مشابهة، إذ يسرف أهل الوادي في الإلحاح على المسافرين للبقاء فترة أطول، ويظهرون تعففاً زائداً في أن يأخذوا مقابل ما يعطون، وتصطنع المناسبات لكي تجعل الكثيرين يمسكون عن الرحيل؛ وفي مثل هذه السنين يتبدى الكرم حتى يبلغ حدّ الإسراف فيستغرب المسافرون ويقولون إن أهل وادي العيون أقرب إلى السفه والرعونة، وإنهم لا يفكرون في الغد، ولا يتذكرون الأيام الصعبة التي مرت عليهم في السنين السابقة.

أما في سنوات الجفاف، وهي أكثر السنوات، فإن أهل وادي العيون يتصرفون بطريقة مختلفة، إذ يبدون أكثر حزناً، وأقرب إلى الانطواء، ويتركون المسافرين يتصرفون بالطريقة التي تروق لهم، دون إلحاح منهم ودون إزعاج أيضاً، أما إذا عرضت عليهم بعض السلع مقابل ما يقدّمون من تمر وماء وخدمات أخرى، فإنهم يتقبلونها شاكرين، وبأقل الكلمات. وإذا ألحف أهل الوادي بطلب شيء فإنهم يلحفون بأن توافق القافلة على أن تحمل معها بعض المسافرين الجدد، وهؤلاء يكونون قد استعدوا منذ وقت طويل وانتظروا وقتاً أطول، وبرحيلهم يشعر الوادي ببعض الراحة وببعض الأمل، لأنه تخلص من أعباء كانت تثقله، ولأنه، أكثر من ذلك، ينتظر

آمالاً سوف تأتي ذات يوم مع الذين رحلوا، ولا بد أن يعودوا. وما بين الراحة والأمل، وباستمرار الماء والقوافل يستمر الوادي عزيزاً قوياً، لا يخاف ولا يتردد، لأنه سيجد طريقته، ـ ودائماً يكتشف هذه الطريقة ـ لمواجهة المصاعب والتغلب عليها.

بشر وادي العيون، إذن، مثل مياهه: إذا زادوا عن حد معين فلا بد أن يفيضوا، أن يتدفقوا إلى الخارج، وهذه الزيادة، فالهجرة، لازمتهم منذ أمد بعيد. فجأة يحسون أنهم تكاثروا، وأن الوادي لم يعد قادراً على احتمالهم، ولا بد للشباب القادرين على السفر من اكتشاف أماكن جديدة، ليشدوا الرحال إليها من أجل الإقامة والرزق. إن حالة مثل هذه تبدو خفية غامضة، وقد لا تتعلق دائماً بالأمطار أو المواسم، كما هي الحال في أماكن أخرى، إذ رغم المطر الذي قد يأتي في سنة من السنين، ورغم المراعي التي تحيط بالوادي، والمياه التي تفيض وتمتد إلى مسافات لم تكن تصلها في أوقات أخرى، فإن هاجساً ملعوناً ينمو بخفاء وبطء في القلوب. وهذا الهاجس الذي يحسه الكبار، لكن يتكتمون عليه ويقاومونه، ينام وينهض في قلوب الشباب والأمهات، فيأخذ شكلاً حاداً عصبياً عند الشباب، وشكلاً حزيناً يائساً عند الأمهات. لكن رغبة اكتشاف العالم، وحلم الغنى، وذلك الحنين إلى شيء ما، يلح على الشباب إلى درجة لا يستطيعون معه الصبر أو احتمال نصائح المسنين، ولذلك يقررون وحدهم، مهما كانت هذه القرارات قاسية.

لا يوجد واحد من الرجال في الوادي، خاصة في سن معينة، لم تستول عليه رغبة السفر، وقلما يوجد واحد من المسنين لم يسافر إلى مكان من الأمكنة. صحيح أن هذه الرغبات والسفرات تتفاوت من حيث المدة والنتائج، إذ قد تستمر سنوات طويلة، وقد تمتد فتشمل العمر كله، وبعضها قد لا يدوم أكثر من شهور، يعود بعدها المسافر خائباً أو ظافراً، لكنه يعود أيضاً مملوءاً بالحنين في الحالتين، ومثقلاً بالأفكار والذكريات وحلم السفر مرة أخرى. أما النتائج التي جناها المسافرون من أهل وادي العيون فلا يمكن أن تلخص بكلمات قليلة، لأن لكل مسافر مقاييسه

وتصوراته، وأغلب الأحيان لا يتفق معه الآخرون في هذه المقاييس والتصورات، فالنجاح والفشل، الغنى والفقر، لا يعني مفهوماً واحداً بالنسبة للجميع، فقد صادف، في حالات كثيرة، إن عاد بعض المسافرين من أهل الوادي، ورافق عودتهم الكثير الكثير من الأحاديث والأفكار والقصص، ثم الليالي الطويلة من الأحلام، لكن ظل هؤلاء المسافرون فقراء، أو أقرب إلى الفقر، ومع ذلك لا يكفّون، ولا يكفّ غيرهم، عن تذكر عشرات القصص حول الأعمال التي قاموا بها والمبالغ التي وصلت لأيديهم، ثم كيف ذهبت، وإن الحياة لا تدوم لأحد.

هذه القصص وغيرها تتردد كثيراً في وادي العيون، وهي تثير الخيال وتخلق تحريضاً لا يمكن مقاومته. والأبناء الذين يقدمون الوعود القاطعة أن سفراتهم لن تطول، وأن عودتهم ستكون في الربيع أو الخريف، يدركون أن المسنين لا يصدقونهم، لكن شعوراً أقرب إلى اليأس والتسليم يدفعهم إلى الموافقة والتصديق. أما إذا جاء ذكر الموت، وسقطت دمعة أم، أو صدرت عن الأب كلمة من نوع معين، وأحس الأبناء بقرب الأجل، فإنهم يحسون أيضاً بروح شيطانية تسيطر عليهم وتجعلهم أكثر قسوة وأكثر استخفافاً، لكنهم في اللحظة الأخيرة يهدأون ويتراجعون.

حديث وادي العيون والسفر له بداية بالنسبة لأي شخص، لكن ليس له نهاية. وهذه الحالة يعرفها الكبار والصغار، وتعودوا عليها وألفوها إلى درجة لم تعد تثير أحداً أو تخلق أحزاناً لا يمكن مقاومتها. حتى الأمهات اللواتي يردن أن يبقى أولادهن في الوادي، وأن يستمروا فيه إلى النهاية، لأنهم يخفن الأمكنة الأخرى، ولا يتصورن وجود أمكنة أفضل، لا بد أن يسلمن في فترة من الفترات، لكنه تسليم العاجز اليائس، مع أمل أن يعود هؤلاء في وقت من الأوقات، لكن بعد أن يكونوا قد شبعوا من السفر!

❀ ❀ ❀

.. وتصرفات الناس أيضاً في وادي العيون خليط عجيب من الوداعة والجنون، إذ بمقدار ما يبدون مسالمين ممتلئين رضا، فيندفعون إلى

المساعدة بهمة كبيرة، دون انتظار مقابل من أي نوع، فإنهم في أوقات أخرى أميل إلى الكسل والأحلام، حتى رجال القوافل الذي لا يقيمون في الوادي، إلا فترات قصيرة، عرفوا في الناس هذه الصفات، واحتملوا كثيراً من التصرفات التي لا تبدو مقبولة في أماكن أخرى. كانوا يقولون «أهل الوادي أطفال كبار، الكلمة تحييهم وتقتلهم، وعلى الإنسان أن يعرف كيف يتكلم معهم وكيف يعاملهم». لذلك يجب أن يكون التصرف مع أهل الوادي بطريقة خاصة، وهذه الطريقة قد تعبر عن نفسها دون كلمات بعض الأحيان، لأن الناس هنا ينظرون إلى الآخرين، ويرقبون الحركات والتصرفات بانتباه شديد. فإذا كوّنوا قناعة أو وصلوا إلى رأي، أصبحوا أسرى لهذه القناعة ولهذا الرأي، وقلما غيّر أحد أهل الوادي نظرته أو تصرف وفقاً لقناعة مغايرة، وحتى لو اختلفوا فيما بينهم حول أشخاص معينين أو حول بعض المواقف، كان ينبري من يقول: «لا تتعجلوا! لقد رأينا آلاف البشر، وعلمتنا الحياة الكثير، فانتظروا». إن كلمة من هذا النوع تضع حداً لمناقشات كثيرة، لأن رهاناً ضمنياً يقوم في تلك اللحظة، والأيام وحدها ستثبت من يكون مصيباً ومن هو المخطئ.

وكثيراً ما يؤكد المسافرون ويوصي بعضهم بعضاً أن يكون التعامل مع أهل الوادي بطريقة مختلفة عما تعودوا، لأن خطأ بسيطاً أو تصرفاً يتسم بالحماقة ينعكس على القافلة كلها، ويؤثر على العلاقة لأمد طويل. فالذين كانوا يحرصون على أن يناموا إلى جانب أحمالهم وبضائعهم، لا يتركونها ولا يسهون عنها لحظة واحدة، ولا يثقون بالآخرين إذا أبدوا رغبتهم في حراستها، إن هؤلاء يتخلون بثقة ورضاً عن هذه المهمة إذا وصلوا الوادي، لأنهم يعرفون مدى الأمانة والحرص اللذين يميزان الناس هنا. أما إذا جرت عمليات البيع والشراء، فإن أهل الوادي يفضلون أن تجري بسرعة ودون مساومات أو إكراه، لأن المساومات إذا جرت ينظرون إليها باستغراب مشوب بعدم الثقة وعدم التصديق، خاصة إذا التقى رجال قافلتين وبدأت تلك المفاوضات القاسية الطويلة والتي يتخللها الكثير من مظاهر عدم الرغبة في الشراء، أو الاختلاف الكبير فيما يعرضه المشترون وما

يطلبه البائعون، حتى إذا انتهت تلك المفاوضات بشكل مفاجئ، وبالأثمان والشروط التي حددها المشترون ووافق عليها البائعون، بدت مظاهر الاستغراب، وبعض الأحيان صرخات عدم التصديق أو الاستنكار، لكن الضحكات التي تملأ وجوه الطرفين، والتي تدل على الرضا، تدفع بعض رجال الوادي لأن يقول: .

ـ هؤلاء التجار شياطين في ثياب بشر، لأنهم لا يعرفون الحلال ولا يخافون من الحرام.

فإذا تصدى من يقول أن التجارة تعتمد على المساومة وعلى المفاوضة، ثم الرضا في النهاية، وإن مال التجارة حلال مثل مطر السماء، كان أهل الوادي ينظرون إليه بنوع من الشفقة الممزوجة بالسخرية، ويقولون له أو في أنفسهم «وكيف يتساوى من يعمل طوال العام لكي يكسب رزقه بمن يربح أكثر المال في لحظة؟».

ما يميز أهل الوادي ويجعلهم نمطاً خاصاً من الناس يظهر أكثر ما يظهر في العتوم، لأنهم في المكان الذي اختاروه سكناً لهم، في الظهرة، ثم العلاقة التي تربطهم بالعشيرة الكبيرة المنتشرة على مدى الصحراء، كوّنت لهم نظرة للحياة والعلاقات والسلوك قد تختلف عن الآخرين، فهم ليسوا مضطرين لاستقبال القوافل لحظة وصولها، لأن القوافل أول ما تتجه إلى الماء وإلى الخان القريب، والعتوم في أعلى الظهرة يرون ويعرفون لكنهم لا ينزلون إلا بتروٍ وبعد وقت من وصول هذه القوافل. أما انهم جزء من العشيرة الكبيرة فيعطيهم قوة وشعوراً بالثقة، لذلك ينظرون إلى الأشياء والمال نظرة فيها ذلك الترفع، وبعض الأحيان فيها الاستهتار، لأنهم على ثقة أن الحياة مهما قست عليهم لا يمكن أن تطحنهم، وهذا يدفعهم في حالات كثيرة إلى نوع من السلوك فيه فظاظة وشيء من الخشونة، لكنهم إذا وثقوا، إذا أحبوا، أعطوا كل شيء دون تردد، ورضوا بأي شيء دون شعور بالمرارة.

والعتوم في وادي العيون أكثر الناس فقراً، لكنهم أكثر الناس ترفعاً، وربما كان هذا الترفع ناشئاً عن الفقر ذاته، لأن أي واحد من العتوم لا

يمكن أن يصبح غنياً حتى لو أراد، إذ في ساعة من تلك الساعات التي لا يعرف أحد متى تأتي يبدّد كل ما جمعه دون شعور بالأسف ودون ندم أيضاً، ويبدأ من جديد، لكن بهمة لا تعرف التعب أو التوقف، حتى إذا جمع شيئاً زائداً بدأ اللعبة ذاتها مرة أخرى!

والناس في وادي العيون، أيضاً، فقراء، لكنهم يبدون الرضا عن الحياة التي يعيشونها، وقد يسرفون بعض الأحيان إلى درجة المبالغة. ومع ذلك فإنهم في أوقات معينة يبدون السخط، لأن التمر الجاف واللبن، وهذا الخبز القاسي الذي يضطرون لأكله أياماً متوالية، يجعلهم في حالة من العصبية نظراً للآلام التي تتولد في أمعائهم، ثم ذلك الجفاف الذي يصيب الوجوه والأطراف، وما يعقبه من الضعف، حتى إن الرجل إذا قام من مكانه أصابه الدوار وسقط. والأطفال الذين تظهر عليهم آثار ذلك من النحول والصفرة، وبعض الأحيان من القيء والإسهال اللذين يتواليان في أيام الصيف بأوقات متقاربة.. هذه المظاهر حين تتكرر وتزداد المخاوف وتشعر الناس أنهم بحاجة إلى الأدام وإلى قليل من اللحم لكي تقوى أجسادهم على المقاومة. وفي مثل هذه الحالات ينتظر الوادي وصول قافلة، لأن مجيء القافلة يعني تغييراً في طبيعة الحياة، وإمكانية أكبر على ذبح عدد من رؤوس الغنم، مقابل ما يحصل عليه أهل الوادي. فإذا تأخرت القوافل كثيراً، فلا بد أن تصطنع مناسبة ما لكي يذبح جمل ويأكل الوادي كله.. وعند ذاك تتغير الحياة.

إذا تغيرت الحياة تتغير طبائع الناس وتصرفاتهم. يصبحون أكثر رغبة في الحديث، وأكثر استعداداً للسهر، وفي ليالي الصيف لا يكتفون بالجلوس حول دلال القهوة أو تبادل الأحاديث، إذ تصيبهم حمى الغناء وبعض الأحيان الرقص، وفي هذه الليالي تتفجر الأفكار والأحزان والذكريات، وتطغى على الرجال الرغبة في المضاجعة، وبعض الأحيان الرغبة في العراك، كل ذلك يتم لأسباب غامضة، وفي حالات أخرى دون أسباب، إذ ما يكاد الجوع يفتك بالأمعاء، وما تكاد أواني اللبن تدور حتى يصرخ أحد الرجال:

ـ الشواء.... نعم الشواء ما يجب أن يؤكل في هذه الليلة...

ولقد صدف مراراً أنه خلال الليل، بشكل سريع ومفاجئ، ربما نتيجة رهانات قديمة، يتم الاتفاق على أن يذبح جمل في الفجر. وحين يبدأ الإعداد لذلك تظهر البراعة والخفة، وتظهر أنواع لا حصر لها من المساعدة والتعاون، إذ تهيّئ جماعات الحطب وتهيئ غيرها القدور، وثالثة تعد خبزاً جديداً، أما الذين يبدون استعدادهم للذبح والسلخ والتقطيع فكثيرون، وخلال فترة قصيرة يتحول الوادي إلى خلية من النشاط والحركة. إنها حركة من نوع خاص، فيها القدرة على البقاء والتحدي واصطناع الأسباب لمقاومة الفقر والأحزان.

نتيجة لهذه الحياة اكتسب الناس في وادي العيون صفات في الجسد شديدة الظهور، فهم أميل إلى الطول، مع اتساق في العظام. أما الأطراف فمستقيمة ناحلة وكذلك الخصور والأكتاف، حتى ليظن من ينظر إليهم وكأنهم مجموعة من الخيول التي طال ترويضها وإتعابها، فضمرت أكثر مما ينبغي، لكن ظلت قوية مفتولة وجميلة أيضاً. أما الوجوه فإنها أميل إلى الطول لكنها تفيض بالراحة لفرط تناسقها وانسامجها، حيث تظهر الشفاه الرقيقة، مع الوجنات المنسكبة دون بروز أو نتوءات من أي نوع، عكس المناطق الأخرى، والتي كثيراً ما تظهر عيوباً حادة في مكان من الوجه أو الجسد.

ولأن الناس متشابهون في وادي العيون، سواء بالملامح وطبيعة الحياة، فإنه لا يمكن التمييز بين واحد وآخر إلا بحكم السن أو رجاحة العقل، أو ربما بالقرابة مع العون الجد، والذي يعتبر جد الوادي وأقوى شخصية فيه، رغم أنه قضى منذ سنين طويلة، لكن القصص التي تروى عن شجاعته وكرمه، ثم ذلك التفاني الذي ميّز كل حركاته وسكناته، جعلته بنظر الجميع خارقاً ومهيمناً.

وإذا كان إبراهيم العون وقبيلة العتوم قد جاءوا من الصحراء البعيدة واستقروا في وادي العيون، فإن للطبيعة والأمكنة أيضاً قوانينها التي قد تبدو غير مفهومة.

وآل العون، ومنهم جازي الهذال، وقبله أبوه متعب، انزرعوا في هذا المكان كأشجار النخيل. كان يتنازعهم حنين العودة من حيث أتوا، وحنين السفر إلى الأماكن الأخرى، لكنهم كانوا يحسون أيضاً أن قضية غامضة مناطة بهم. وإذا كان الناس لا يزالون يتذكرون جازي الهذال قبل أربعين أو خمسين سنة، وما فعله ضد الأتراك، وكيف جعل حياتهم في وادي العيون جحيماً لا يطاق، كيف كان يختفي فترة حتى يظن الكثيرون أنه قد قتل أو قد مات، ولم يعد له أثر ويكاد ينساه الناس، بمن فيهم الأتراك أنفسهم، حتى ينفجر مرة أخرى فيقتل ويدمر ويحرق ويأخذ ما يستطيع أخذه ويغيب في الصحراء فترة من الزمن يعتبرها كافية للنسيان، فإذا عاد مرة ثانية حوّل الوادي إلى جحيم.

لقد فعل جازي ذلك مرات عديدة، حتى قبل أن يصبح الأتراك أعداء بنظر الناس، واستمر كذلك إلى أن تركوا. أما محاولات القيادة التركية ملاحقته والقبض عليه فقد انتهت بأن قتل قواد الحملتين اللتين سيّرتا عليه، وحوّل الأفراد إلى جزء من جماعته يغزو بهم ويقطع الطريق، وقيل إنهم ظلوا معه إلى النهاية.

هذه القضية التي سيطرت على آل الهذال وعذبتهم كانت تعرض لهم بأشكال وصور تتغير فترة بعد أخرى، وربما هي السبب الذي دفعهم لاختيار هذا المكان المتوسط، محطة للذين يسافرون ويرجعون، وليكونوا أيضاً شهوداً على فترة من الحياة والتاريخ لا تقع إلا مرة واحدة ثم لا تتكرر، وليقولوا بعد ذلك للناس ما رأوا من أعاجيب وغرائب!

في ذلك اليوم البعيد، الذي يشبه آلاف الأيام قبله، ولد لمتعب الهذال آخر أولاده الذكور. حدث ذلك أواخر الربيع، عند العصر. كانت الحرارة قد اشتدت ذلك اليوم والأيام التي سبقته، وثمار النخيل برعمت وتكورت، وكان على متعب الهذال أن ينتهي بسرعة من وضع العصي تحت عتوق «أم الخشب» ويربطها بقوة، لكي ينصرف إلى بيته في الظهرة، وليعرف وليطمئن ماذا حصل، كما يجب أن يعدّ القهوة مبكراً، لكن لما رأى ابنه فواز راكضاً نحوه، وقد امتلأ وجهه بالفرح، فقد أدرك أن زوجته وضعت، وأنه جاء ولد ذكر، فظل نصف معلق على النخلة ينتظر وصول فواز ويتوقع أن يسمع البشارة. تلفت حواليه أكثر من مرة، بدا له وادي العيون تلك اللحظات أكثر خضرة. قال في نفسه: «أمطار السنة كانت كثيرة» قال فواز وكان لا يزال بعيداً:

ـ يوبه... يا يوبه.. البشارة

قال متعب الهذال لنفسه: إذا أقبلت.. أقبلت.

ولم يتردد، مثلما حصل في المرات السابقة، في تسمية الغلام، وكأنه هيأ نفسه لذلك منذ وقت طويل. فما كادت قدماه تلمسان الأرض، وينظر بإمعان في عيني الصبي، وقد امتلأ وجهه بالفرح والغبار وحبات العرق، حتى سأله بطريقة تقريرية صلبة:

ـ قلت، يا وليدي أن «مقبل» جاء؟

تطلع الصبي إلى أبيه بارتباك، تصور للحظات أن أباه لم يفهم ما قاله له. قال وقد هدأت أنفاسه:

ـ جاءنا أخ.. يوبه

قال متعب الهذال وهو يضع يده الكبيرة على رأس الصغير:

ـ قلت لي جاء مقبل. . ها؟

وضحك بصوت عال ثم أضاف:

ـ الله يبشرك بالخير. . يا وليدي

وبعد أن فك حزامه وأرخى ثوبه ونفض يديه سارا بهدوء متجهين إلى البيت في الظهرة. سارا بصمت، لكن توهجاً داخلياً أقرب إلى الصخب كان يدفع متعب الهذال. بدت له الظهرة بعيدة أكثر من مرات سابقة، وكاد أن يسرع، وفكر أن يهرول، لكنه تراجع، قال في نفسه «لو كان الولد الأول، أو لو كان الوقت غير هذا الوقت!» وضحك بصوت عالٍ. التفت فواز حواليه أكثر من مرة، ثم تطلع إليه. قال متعب الهذال:

ـ «شقرة مبارك» الصغيرة لمقبل.

وفي المساء أولم متعب وليمة كبيرة، ذبح خروفاً ودعا الكثيرين. وفي الليل المتقدم، بعد أن غادر الرجال، جلس وحيداً في ضوء القمر. مرت أمام عينيه حياته كلها مثل شريط طويل. كان يرى أيامه ولياليه. تذكر نفسه حين كان صغيراً، وتذكر أول أسفاره، أما حين تذكر وضحة لما جاءته بأول ولد فقد ابتسم. كانت خائفة، وفي الليل المتأخر بكت فرحاً وهي تتطلع إليه. في هذه الليلة، لما تطلع إليها كانت متعبة، لم تضحك ولم تبك. ولا يعرف متعب الهذال لماذا أراد أن يحفر بأظافره الأرض القاسية تحت البساط، وكأنه يعلّمها، يريد أن يترك فيها أثراً قوياً. أما حين دخل البيت في هذا الوقت المتأخر فقد كان مصمماً على أن يخرج العصملية وأن يطلق بضع رصاصات. خطرت له الفكرة بسرعة، مثل التماع البرق. إنه يفعل ذلك بعد مجيء كل ولد. المرة الأولى حين جاءه ثويني. ثويني كان ولده الأول، الذي مات منذ وقت طويل. أخرج العصملية تلك الليلة أمام الرجال، وفي جو من الفرح والانفعال أطلق مشطاً كاملاً، وقد شاركه الذين كانوا يحملون مسدساتهم. يتذكر أن ابن مبارك والحويزي وشعلان أطلقوا رصاصاً غزيراً، ويتذكر أيضاً أن الحويزي أطلق كل ما يحمله من رصاص يوم جاء شعلان، وكذلك حاول القحطاني، إلا أن مسدسه بعد

الرصاصة الأولى استعصى. كان الرجال في كل المرات فرحين منفعلين. أكلوا وضحكوا وأطلقوا رصاصاً غزيراً. هذه المرة لم يكونوا مثل المرات السابقة. كان الفرح في تلك الليلة باهراً كبيراً، ومع ذلك فإن ثويني مات صغيراً. هذه الليلة أكلوا وشربوا وفرحوا، وقال القحطاني بفرح أن أيام الخير أقبلت بمقبل، لكنهم لم يطلقوا ناراً، حتى هو لم يفكر بذلك، قال لنفسه بنوع من الحزن «كانت الأيام الماضية أيام خير.. أحسن من هذه الأيام».

تعمّد أن يحدث بعض الضجة، لكي لا يخلق رعباً أو مفاجأة، وهو يستخرج العصملية. وقف إلى جانب فراش وضحة، وكانت أخته سارة تهدهد الطفل الصغير، ويبدو أنها فرغت لتوها من إعطائه لحسة العسل.

تطلعت إليه المرأتان. كانت وضحة متعبة، نصف نائمة، أما حين رأت العصملية فقد تحركت بتحفز، وكأن شعوراً بالخوف أو الفرح سرى في جسدها فغيّرها. تطلعت إليه بانتباه وهي ترتفع قليلاً. داخله شعور بالاعتزاز. دق العصملية على الأرض، وكأنه إعلان عن أمر ما. سارة كانت تكلم الطفل الذي ظل يبكي. كانت كلماتها أقرب إلى التوضيح «تفيدك يا وليدي، تقوّيك، وباكر تصير رجّال. الرجال لازم يصيروا رجال» أما حين سمعت دقة البندقية على الأرض فقد التفتت. تطلعت إلى متعب بتساؤل، ثم تطلعت إلى وضحة،. قال متعب:

ـ يا جماعة الخير..

قال هذه الكلمات بطريقة بطيئة وكأنه يمهّد لحديث طويل. لما رأى المرأتين تنظران إليه، تنظران إلى البندقية بتساؤل، تابع بلهجة مرحة:

ـ صحيح من قال: من خلف ما مات...

توقف لحظة، ابتسم، هزّ رأسه أكثر من مرة وخرج صوته حزيناً:

ـ الله يرحم والدينا ووالد والدينا.

وبهدوء شديد رفع البندقية. شد الترباس وأدخل طلقة في بيت النار، ثم استدار وخرج.

كان الصمت، وكان القمر. كان متعب الهذال في الفلاة الكبيرة

وحيداً. تأمل السماء والنجوم واستنشق الهواء بقوة. شعر أنه يريد أن يفعل شيئاً غير عادي. قال بصوت أقرب إلى الانفعال والحدة:

ـ دوك يا جوف الليل.

رفع البندقية باتجاه السماء، باتجاه القمر وأطلق. دوت الطلقة، فخدشت الصمت، وملأت رائحتها رئتي متعب الهذال. جر الترباس فخرجت الطلقة الفارغة بقوة وعبقت في أنفه رائحة البارود أكثر من قبل. تذكر أياماً بعيدة. قال في نفسه «اللهم اجعلها أيام خير، واجعلنا أقوى وأكثر صبراً!» ولما جر الترباس مرة أخرى ودخلت الطلقة الثانية بيت النار سمع حركة داخل البيت. قدّر إنها ليست حركة وضحة أو سارة، أما لما سمع الصوت فقد أدرك أن واحداً من أولاده قد استيقظ على صوت الطلقة. التفت قليلاً، لم ير أحداً أول الأمر، ارتمى على البساط، بعد لحظات جاءه شعلان. كان وجهه متسائلاً وأقرب إلى الخوف. قال متعب الهذال، وهو يسند البندقية إلى الأرض بوضع مائلَ:

ـ ها، يا وليدي، تراك خفت؟!

ابتسم شعلان وتطلع إلى أبيه بتساؤل، لما رآه هادئاً مستقراً هزّ رأسه دلالة النفي. قال متعب الهذال وقد اشتعل وجهه بالفرح في ضوء القمر:

ـ لما جيت للدنيا شعلناها بارود للصبح . . .

هزّ الشاب رأسه وقد امتلأ بالاعتزاز. تابع متعب الهذال:

ـ واليوم، يا وليدي، جاءك أخ.

ضحك شعلان دلالة المعرفة والموافقة. أضاف متعب الهذال.

ـ ويلزم أخوك أن يشمّ ريحة البارود. . حتى إذا كبر ما يفزع.

قالت سارة من الداخل، وكأنها تنصت للحديث:

ـ ولّم قهوتك يا أبو ثويني. . ترى رجال وادي العيون يصلونك هالحين نوبة ثانية.

ـ القهوة حاضرة يا سارة. . ويا مرحبا بهم. .

ـ إذا جاءوا تشتعل للصبح.

رد شعلان بانفعال:

ـ يوبه... عطني البندق

دفع متعب الهذال بندقيته إلى ولده بزهو. كان يريد أحداً يشاركه هذه اللعبة الغامضة والمثيرة. كان يفيض في تلك اللحظة بمشاعر حادة سريعة، وبخفة أقرب إلى الانفعال، رفع شعلان البندقية ودوت الطلقة فملأت وادي العيون كله. كان صوتها، هذه المرة، قوياً مجلجلاً أكثر من الطلقة الأولى في أذني متعب الهذال، أما رائحة البارود فقد عبقت وملأت الجو بلذة موحشة. لما خيم الصمت من جديد، جاء صوت سارة من الداخل:

ـ الخير بالجايات، والجايات أكثر من الرايحات.. يا أبو ثويني..

قال متعب:

ـ وكّلي الله يا سارة.. الزمان طويل!

وحين دوّت الطلقة الثالثة قال متعب الهذال لابنه:

ـ يكفي.. يا وليدي...

توقف لحظة، ثم أضاف وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ جماعتنا وحنا أدرى بهم، أما سراجين أو ظلمة.. طلقة ثانية وكلهم بالظهرة.

وضحك من جديد. كان متعب الهذال يكلّم نفسه، يكلّم الآخرين، وكان يحس أن كل شيء حوله يتحرك بقوة، حتى القمر والنجوم بدت له مختلفة عن أيام كثيرة سابقة، وأحس أن لسعة البرد التي عبرت الدنيا في تلك اللحظة تعطيه قوة ونوعاً من الثقة فتمطى يريد أن يدفع جسده كله لكي يستجيب إلى التفجر الذي يملأ روحه، وأن يقول كلمات تنحفر ليس في الذاكرة وحدها، وإنما تنزل إلى القلب لتستقر هناك. قال وهو يتطلع إلى القمر، إلى وجه شعلان، إلى الباب المفتوح قبالته، وقد وقفت هناك سارة:

ـ إذا كبر ولدك فخاوه

قالت سارة، وقد أخذها جو الانفعال والفرح:

ـ إذا أقبل البخت، يا أبو ثويني، باضت الدجاجة على الوتد.

رد عليها وهو يقهقه:

ـ وإذا أدبرت، يا سارة، بال الحمار على الأسد

صرخت وضحة من الداخل، وجاء صوتها متعباً مديداً:

ـ وكلوا الله يا جماعة الخير.

مقبل بن متعب الهذال ولد في وادي العيون، هذه واقعة مؤكدة تماماً، أما الواقعة غير المؤكدة فسنة ولادته. وهذا الخلاف ناشئ عن النسيان أو لاختلاط الوقائع وتشابهها، فخالته وسمة، تؤكد أنه ولد في سنة الجراد. كانت تلك السنة سوداء قاسية، ولما ولد قال متعب الهذال: انتهت أيام الجوع وأقبلت أيام الخير. وفي محاولة لأن يؤكد هذه الرغبة سمّاه «مقبل». وتضيف وسمة أن أخاها سعد، جاء تلك السنة بعد غياب طويل، وأن ما حمله معه من سكر وطحين وأقمشة كان السبب في بقاء العائلة في وادي العيون فلم تغادره كما فعل الكثيرون. وزيادة في التأكيد تقول أنها لبست ثوباً من الأثواب التي حملها إليها سعد، وأنها وضعت مقبل على كتفها، فبال على الثوب الجديد، ورغم ذلك فقد استبشرت وقالت أن الأيام الصعبة سوف تنتهي قريباً!

سارة، أم ثنيان، تقول إنه ولد في سنة فاضت فيها الغدران، أما سنة الجراد التي تتحدث عنها وسمة فكانت قبل هذه السنة بثلاث سنوات. وتتذكر أن البدوان تلك السنة لم يصلوا وادي العيون إلا في وقت متأخر، لأن الخير في البادية كان كثيراً والمياه ملأت الغدران. وزيادة في التأكيد تقول أن الفقع والعكّوب والخبّيز تلك السنة كانت من الكثرة إلى درجة لا تتذكر أنها رأت شيئاً مشابهاً في أية سنة أخرى. أما تسميته بهذا الاسم فقد كان باقتراح منها، هي التي اقترحت الاسم وهي التي أصرّت عليه، «لأن متعب كان يريد تسميته ثويني أو ذياب، ثويني على اسم المرحوم، وذياب بعد حادثة الغنم التي جرت في الوادي».

الخلاف بين وسمة وسارة حول السنة التي ولد فيها مقبل لم يحسم،

لأن كل واحدة تصرّ على رأيها، ولأن الشواهد لدى كل واحدة منهما لا يمكن أن تخدع الإنسان إلى الدرجة التي تفترض ما تدعيه الأخرى، كما لا يمكن أن تخون الذاكرة إلى هذه الدرجة.

وإذا كانت ولادة أحد في وادي العيون لا تحمل امتيازاً من أي نوع، ولا تثير أي مقدار من الخلاف، فإن ما زاد في تعقيد الأمور في تلك الفترة أن الحكومة أرسلت لجنة من ثلاثة أشخاص لكي تسجّل أسماء الذكور والمواليد الأحياء، وقد مرت اللجنة على مناطق كثيرة في البادية، وكانت تحمل أوراقاً ودفاتر كبيرة، ولم يعرف الناس لماذا جاءت أو الغاية الحقيقية من التسجيل. وهذا الخوف دفع الناس في وادي العيون إلى التعامل معها بتحفظ شديد: اخفوا الكثير من المعلومات، ولم يذكروا شيئاً عن المسافرين، كذلك لم يسجلوا الإناث ولم يشيروا إليهن. أما الذكور فقد سجلوا قسماً منهم ولم يسجلوا القسم الآخر، وزيادة في الحيطة فقد طُلب من الصبية، بين الثامنة والرابعة عشرة، أن يغيبوا، أن يذهبوا إلى البساتين خلال النهار، وتعمد الآباء أن يذكروا وقائع مبهمة للغاية حول سنة ولادة أبنائهم.

هذا ما فعله الجميع، تقريباً، في وادي العيون، لأن الجندية كانت تنتظر الشبان، كما راجت الإشاعة قبل وصول اللجنة بأسابيع، لكن هذا لم يمنع ثلاثة أو أربعة في الوادي من عمل شيء مناقض تماماً، إذ سجلوا الذكور كلهم، وسجلوا المسافرين، ولم يتردد بعضهم من إضافة أسماء بعض الذين ماتوا خلال السنوات الأخيرة. فعلوا ذلك لأنهم سمعوا من أحد رجال اللجنة، إذ قال لهم ذلك بحذر شديد، وطلب أن لا يذكر شيء عن الأمر، قال لهم أن كميات من الطحين والسكر والقماش سوف توزع في الوادي وفي الأماكن الأخرى، تبعاً لعدد الأفراد. سخر الناس كثيراً من هذه الأخبار، وأكدوا أنها مجرد أكاذيب للإيقاع بهم، لأن الحكومة لم تفعل ذلك من قبل، حتى في السنوات التي مات خلالها الناس عطشاً.

في وقت لاحق لما ذكر لسليمان الهديب سنة ولادة مقبل تمهّل قبل أن يؤكد أو ينفي، وحين أكدوا له أن سجلات الحكومة لا تخطئ ولا تعتمد

على الذاكرة، فقد ابتسم بسخرية، وبعد أن هزّ رأسه عدة مرات قال:

ـ إذا كان دليلهم كتابهم فخطأهم أكثر من صوابهم.

وتذكر هو كيف تعامل الناس في الحدرة مع اللجنة التي جاءت تلك السنة!

أما الخالة ودعة، خالة الوادي كما كان يطلق عليها، فتقول شيئاً مختلفاً تماماً عن سنة ولادة مقبل، تقول أنه أكبر من عنود بثماني أو تسع سنوات. تتذكر ذلك لأن مقبل بعمر حليمة التي ماتت وعمرها سنة واحدة، وبين حليمة وعنود بطنان، ولذلك يجب أن يكون مقبل قد ولد سنة «الحرب العمومي»، لأن هزاع، زوجها، سجن أيام تلك الحرب في مصر، بعد أن رفض بيع الغنم التي كانت معه، وهرّبها، أو حاول تهريبها، لكن ألقي القبض عليه وسجن. ويتذكر هزاع، كما تؤكد الخالة، ودعة، أن «الحرب العمومي» بين الألمان والطليان والإنكليز والهنود والسنغال كادت تسوقه إلى طرابلس الغرب لولا رحمة الله، وإن هذه الحرب استمرت سنوات وسنوات، وأن حليمة ولدت بعد سفر أبيها بخمسة شهور.

كانت الخالة ودعة في وقت من الأوقات تؤكد هذه المعلومات بقوة، لأن مقبل كان أقوى المرشحين للزواج بعنود، لكن بعد أن انتظرت فترة طويلة، ولما ظل مقبل متردداً ويتهرب من إعطاء جواب نهائي، ثم لما جاء واحد من جماعة هزاع وطلب أن يتزوج عنوداً ووافق أبوها وتزوجت، فقد أصبحت الخالة ودعة أقل حماسة في تأكيد المعلومات السابقة، بل وادعت أنها لا تتذكر جيداً، لكنها لا تتردد أيضاً في الموافقة على رأي أختها وسمة، مؤكدة في نفس الوقت أن ما تقوله سارة ليس صحيحاً، وأنه مجرد تلفيقات بقصد ترتيب زواج مقبل من إحدى قريباتها.

إذن لا حاجة أبداً لأن يرهق أحد ذاكرته في تقصي سنة ولادة مقبل. الأمر من التعقيد إلى درجة كبيرة، يضاف إلى هذا أن لا فائدة ترجى من وراء ذلك، ولا أهمية لأن يكون ولد في سنة الجراد، أو في سنة الطوفان، وربما ولد قبل ذلك أو بعده، لكن الشيء المؤكد أن هذه الولادة كانت قبل الفترة الشديدة الاضطراب العاصفة، لأن الوادي، وطريق القوافل، والناس

جميعاً أصبحوا بعد ذلك في حالة من الصعوبة والفقر والانتظار. وكانت أصداء العالم البعيد تصل بين فترة وأخرى مع القوافل أو مع الأقرباء الذين غابوا سنوات طويلة، وقد اضطر الكثيرون منهم إلى العودة في هذه الفترة، خوفاً من أن يساقوا إلى الحرب، إضافة إلى أن أبواب رزقهم قد ضاقت.

كانت أصداء العالم وأخباره تختلط وتتداخل، وفي تلك الفترة كان فواز صبياً أقرب إلى سن الشباب، لأنه أصبح يجلس في مضافة الرجال. هذا ما تؤكده سارة أيضاً حين تتذكر، لأنه في الليل، مع القصيد والسوالف وعواء الذئاب البعيدة، سمعت، لأول مرة، أن فواز يريد أن يسافر.

وإذا كان وصول قافلة يعني الكثير للصغار والكبار، ولا يترك أحداً والاّ يحرّك فيه رغبة من نوع أو آخر، فإن الرجال الذين يظهرون مقداراً كبيراً من الهدوء والاتزان، ويتأخرون في الوصول إلى العين أو إلى الخان، يعرفون أشياء كثيرة قبل أن يروا القافلة وقبل أن يصلوها، لأن الصغار الذين يتراكضون مثل القطط يحملون الأخبار بسرعة: كم عدد رجال القافلة وعدد جمالها، ماذا تحمل، ومتى جاءت وإلى أين هي ذاهبة؟ إن الصغار لفرط شغفهم وحب الاستطلاع لديهم يندفعون بسرعة لكي يعرفوا كل شيء ويتأكدوا بأنفسهم، ثم لا يلبثون أن ينقلوا للكبار ما رأوا! هذا ما حصل بالنسبة لجميع القوافل التي مرت؛ والكبار الذين يستمعون باهتمام، لكن دون أن يظهر عليهم ذلك، لأنهم قد سمعوا شيئاً من القوافل الأخرى، من طارش مرّ قبل أيام، أو من حساب الأوقات بين رحلة وأخرى، بين مكان وآخر. فإذا وصل الكبار إلى العين ثم إلى الخان نظروا بإمعان إلى كل شيء، حتى إلى روث الدواب، لكي يقدروا ويعرفوا.

في هذه الفترة بالذات توقف فواز عن مشاركة الصغار الركض، وأخذ يتعمد مثل رجال العتوم التأخر في الوصول إلى العين، لكنه كان يضيق مع ذلك من تأخر أبيه في الوصول، فيسبقه؛ فإذا بدأت القوافل تستعد للرحيل ومواصلة السفر، بعد استراحة يومين أو ثلاثة، فلا بدّ أن يحاول شيئاً، إذ إضافة إلى مساعدة المسافرين، كان يحاول إقناع أبيه والآخرين. فمع كل حمل يُرفع ويشدّ على ناقة أو بعير، ومع كل حبل يدور من جهة إلى أخرى

أثناء حزم الأمتعة، كان يبدي براعة وقوة، ولا يتوقف عن محاولة الإقناع بطريقة أو أخرى. فإذا جاءت ساعة الرحيل الحقيقية، وكانت الأيدي المعروقة السمراء تمتد بقوة، لكن بخفة أيضاً، للسلام والوداع، كان فواز يمتلئ غيظاً ومرارة لأنه لم يكن في هذه القافلة. لكن كان يقنع نفسه أن هذا سيتاح له في المرة القادمة، مع قافلة أخرى.

قال متعب الهذال لابنه، بعد أن سافرت قافلة جديدة:

ـ بعد سنتين أو ثلاث تكبر وتسافر.. يا وليدي

وحين ألحّ عليه فواز واتخذ موقفاً أقرب إلى العناد، وتصرف تصرف الرجال أثناء رحيل القافلة، قال متعب الهذال:

ـ يا وليدي.. هذه الديرة أحسن من غيرها..

يصمت قليلاً، يتذكر، ثم يضيف:

ـ ما وراء السفر غير التعب.

وحين يؤكد له فواز أن في القافلة التي رحلت اليوم، وفي القافلة التي رحلت قبل أسبوعين، فتياناً في مثل عمره، أو أصغر قليلاً، كان متعب يقول مخاطباً زوجته:

ـ يا وضحة، شعلان بعده ما رجع، وفواز يريد يسافر.. حضري له الزهاب وتوكلي على الله.

في هذا الوقت، عند هذا الحد، ينسحب متعب الهذال ليبدأ دور زوجته، فإذا كان هو مستعداً للمناقشة، ثم التنازل الظاهري، إرضاء لغرور الشاب، فإن رفض وضحة مؤكد ولا يقبل التراجع، لأنها بغريزتها بما تملكه من قوة خفية، وبعض الأحيان بنظرة حزن وانكسار، تجعله يتراجع ويترك الفكرة بعض الوقت. كانت تؤكد له أنه بعد سنوات قليلة سيصبح أكثر قوة وقدرة على تحمل أعباء سفرة قد تمتد عشر سنين، أما الآن، وقبل أن ينبت شاربه، فيجب أن تبقى فكرة السفر أملاً. وتأتي له بأمثلة كثيرة عن أبيه، عن أقربائه الذين سافروا: متى بدأوا وكم تحملوا من المتاعب والآلام، وما تزال تحدّثه، تحاول معه، إلى أن يقتنع أو يتظاهر بالاقتناع. فإذا حان موعد ورود الماء كان أبوه يقول له بلهجة تحدٍ:

ـ إذا كبرت وأصبحت قوياً فورد الدواب. وعد سالماً.

ومعنى أن يأخذ فتى في مثل عمره عدداً من الدواب بمفرده، أن يكون قوياً وماهراً، لأن وقت الغروب في وادي العيون، حيث تأتي الدواب لتستقي، من أصعب الأوقات وأكثرها مشقة وخطورة، إذ إضافة إلى ضرورة الوصول إلى العين في وقت مناسب، فإن السيطرة على الحيوانات وعدم اختلاطها، وما يرافق ذلك من مناقشات، وبعض الأحيان من نزاع، لا يقوى عليها إلا الرجال أو الفتيان الأقوياء، وكثيراً ما تطلب الأمر وجود أكثر من شخص واحد لكي تجري السقاية بسرعة ودون ضرر.

لذلك حين طلب متعب الهذال من ابنه الذهاب بمفرده، شعر فواز بالزهو والتحدي، أما حين أشارت أمه إلى أخيه إبراهيم، والذي يصغره بسنة، أن يذهب معه، فقد رفض فواز بإصرار، قال بما يشبه التحدي:

ـ وحدي، ما أريد أحداً، وارجع قبل الجميع.

ذهب فواز بمفرده، لكنه لم يرجع مبكراً كما وعد. رجع متأخراً، متأخراً جداً! وحين يتذكر اليوم الأول الذي ذهب فيه بمفرده للسقاية، وأنه عاد متأخراً، يتذكر أن هذا لم يحدث نتيجة عدم القدرة، وإنما نتيجة سبب آخر، أكثر أهمية، وهو الذي أخّره.. وهذا السبب نفسه هو الذي منعه من السفر.. بعد ذلك.

فبعد أن غابت الشمس وبدأت الظلمة الخفيفة تغطي كل شيء، وكانت الجمال والغنم تولد في مدى النور المتراجع المتداخل الألوان حركة وأصواتاً لا حصر لها، ومع الحركة الثقيلة والاحتكاك، ثم الأصوات المبعثرة، كان فواز يحس بالرهبة والثقة في وقت واحد، وكان يحس أيضاً بالحصار. ورغم الأصوات العمياء التي كان يدفعها أمامه، حاثاً الدواب على أن تسرع، فقد بقيت الحركة رتيبة وأقرب إلى البطء، وفي وقت متأخر شعر بالندم أنه استسلم لهذا الإغراء الخفيّ، وبقي ساعة أو أكثر يتنقل بين الدواب وحلقة الرجال الصغيرة قرب مضافة ابن الراشد. أما حين وصل إلى الظهرة، ووجد العجوز جالسة في مكان متقدم، وكأنها بجلستها تلك، قريباً من الأرض، تحاول أن تخترق الظلمة والمسافة، كما يفعل

الإنسان أثناء النهار، حين يقف منتصباً أو يجلس على ربوة عالية، واضعاً يده فوق عينيه، لكي يمعن النظر في البعيد ويتأكد من الأطياف والحركات. . . كانت العجوز في الظلمة تجلس بتلك الطريقة، وقد انتابها القلق الذي أصبح خوفاً. أما إبراهيم فقد أخذ يدور حوله بطريقة ماكرة، دون أن يقول كلمة، لكن ليشعره أيضاً بأهميته والفائدة التي كان يمكن أن يجنيها لو كان معه.

تابع فواز طريقه دون أن يتوقف أو يقول كلمة ليفسر تأخره، لكن شيئاً عصبياً سيطر على حركاته وجعله يصرخ على الغنم بقسوة لكي تدخل الحظيرة بسرعة، وعلى الجمال لكي تتوقف تمهيداً لإناختها وعقلها، وبعد قليل صرخ في وجه إبراهيم، الذي كان لا يزال يدور حوله، طالباً منه إنجاز ما تبقى من أعمال.

لم يكن في تلك اللحظة مستعداً للتبرير، كان يريد أن ينقل لأبيه ما شاهده وما سمعه. لكن ما كاد ينظر إلى وجهه، على ضوء النور الخفيف المنبعث من بقايا الحطب الذي ما زال مشتعلاً، حتى التمعت عينا متعب الهذال بابتسامة هي بين السخرية والشفقة، وكأنه يريد أن يقول له دون كلمات «يجب أن تكف عن العناد وطلب السفر. . ما زلت صغيراً ويجب أن تنتظر!» أما حين أنزل عينيه واستمر في تقليب الجمر، فقد شعر فواز أن أباه لا يريد تفسيراً أو تبريراً لما وقع، إذ استمر بحركته الخفيفة المتقنة في تقليب الجمر تمهيداً لمواصلة لصنع القهوة.

شعر فواز بالخيبة وأسقط في يده. فجلسة العجوز على مسافة من البيت، وبتلك الطريقة، ثم حركة إبراهيم المليئة بالرعونة والتحدي، وهذه النظرة السريعة المثقلة بالعتاب من أبيه، وبما يشبه عدم الثقة، ثم الصمت الذي ميّز هذه المواقف جميعها، كل ذلك أشعره بالخيبة تماماً، ثم بالخطأ الفادح. تصور أن الساعة التي قضاها متنقلاً بين مضافة ابن الراشد والدواب، وبين وجوه هؤلاء الضيوف الغرباء الغامضين، والركض السريع لكي يتأكد أن الجمال والغنم رويت ولم تؤذ أحداً، جعله يتساءل مرة بعد أخرى إن كان عليه أن يعود بسرعة أو أن يشهد هذا الشيء الغريب الذي

يراه لأول مرة، قال لأبيه الذي ظل واثقاً من حركاته وانشغاله:

ـ عند ابن الراشد ضيوف غرباء...

سقطت كلماته بين الجمر وأصوات الدلال، وظل أبوه يواصل عمله، كأنه لم يسمع ولا يريد تبريراً للتأخر. شعر بالتحدي، قال بصوت حادّ وعصبي:

ـ من الفرنج ويتكلمون العربي.

لما قال هذه الكلمات رفع أبوه إليه عينين متسائلتين، وانتظر أن يسمع شيئاً جديداً. أضاف وهو يجلس مقابله والنار ودلال القهوة بينهما:

ـ ثلاثة أجانب، ومعهم اثنان من عرب الزور، ويتكلمون العربية.

وتغيّرت لهجة فواز ليخلق تأثيراً قوياً:

ـ يتكلمون بطريقة مختلفة عن طريقتنا، بطريقة مضحكة، لكن يمكن أن نفهم ما يقولون.

وفجأة رأى أباه يتغير، تتجمع حواسه في عينيه، ينظر إليه بإمعان وحدة، وكأنه يريد أن يقرأ في وجهه وعينيه ما رأى، وأية انطباعات ترسبت في نفسه، لكي يقدر أي نوع من الرجال أولئك الذين رآهم. سأل ببطء:

ـ وعرفت منين هم ويش يريدون؟

ـ الناس حول المضيف قالوا إنهم نصارى.

ـ ويش يريدون؟

ـ سمعت ابن الراشد يقول لواحد منهم: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله وقال الرجل وراءه: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ـ وما يبغون؟

ـ الناس يقولون إنهم جاءوا ليبحثوا عن الماء

ـ وأنتْ.. أنتْ ويش سمعتهم يقولون؟

ـ كان الناس حولهم كثيرين.. ولم أسمع إلا كلمات من هنا ومن هنا.

بنفس التحفز الذي بدا في عينيه حين قال له إنهم أجانب، وأخرجه من

جو العتاب واللوم الذي بدا عليه أول الأمر، تجمع جسده بحركة سريعة وخفيفة، قال وهو ينهض:

ـ لازم اشوف بنفسي

وخلال فترة قصيرة أسرج هو وفواز الحصانين، أما محاولات مقبل في أن يتشبث به، أن يأخذه معه، فقد انتهت بسرعة وحزم قال لزوجته:

ـ امسكي الزغير، خذيه عنا

وبعد أن امتطى حصانه أضاف وهو يتهيأ للانطلاق:

ـ الله العليم أنّا نتأخر ويجوز ننام عند ابن الراشد.

وفي فترة قصيرة تحركا وسارا. ظلا غارقين في الصمت، فلا يسمع إلا الوقع الهش لحوافر الخيل، أما حين وصلا مضافة ابن الراشد، فقد جلس متعب الهذال قريباً من الضيوف، وجلس فواز مع الفتيان الذين كانوا في مثل عمره، غير بعيد عن باب المضيف.

متعب الهذال، وهو يوافق بسرعة على قضاء الليل عند ابن الراشد، ويقضي النهار التالي حتى الغروب، يرقب الأجانب الثلاثة، ويتحدث معهم، ويسأل نفسه ويسأل الآخرين عن الأسباب التي دعت هؤلاء إلى المجيء، ثم تلك العودة البطيئة الحزينة، وما تخللها من وقفات وأحاديث، والطريقة التي عامل بها ابنه، سواء في التصرف أو الحديث، كل هذا جعل فواز الهذال رجلاً قبل الأوان، وترك في نفسه هذه الذكرى التي لا تمحى.

خلال رحلة العودة إلى الظهرة، اختار متعب الهذال طريقاً طويلاً، طريقاً لا يسلكه إلا نادراً، وبدا رجلاً جديداً لكل من رآه ولكل من عرفه. كان شديد الحيرة والحزن. تكلم بطريقة مختلفة عن أية مرة سابقة، بنبرة الصوت، بنوع الأحاديث، بالأسئلة الكثيرة التي يطرحها على ابنه، وكان في الحقيقة يطرحها على نفسه وعلى الآخرين. وفواز الذي حرص طوال رحلة العودة على أن يبقى صامتاً، كانت كلمات أبيه من الغرابة إلى درجة لا يمكن أن تنسى: «أكيد هؤلاء لم يأتوا من أجل الماء، إنهم يريدون شيئاً آخر. ولكن ما عساهم يريدون؟ وأية أشياء في هذه الفلاة غير الجوع والرمل والعجاج؟ ويقولون إنهم سيقضون هنا وقتاً طويلاً؟ كيف سيعيشون؟ كانوا وهم يأكلون أشبه بالدجاج. والأسئلة التي يسألونها خبيثة، ملعونة، وتؤكد إنهم ليسوا مثل الذين جاءوا من قبل: «هل جاء أجانب غيرنا؟» «هل سمعتم عن أجانب، عن إنكليز وفرنسيين، جاءوا إلى هنا؟» «هل بقوا فترة طويلة؟ هل فعلوا شيئاً؟» إنهم خائفون، عندهم ما يخافون منه، وأنت تعرف أن الذي يعمل عملاً خبيثاً يخاف من الآخرين. لو كانوا صادقين

وجاءوا من أجل الماء، فالماء معروف مكانه، لا يريدون أن يبقوا في هذا المكان، يريدون أن يتجولوا، أن يذهبوا ويرجعوا، وبعدهم سيأتي غيرهم، هكذا قالوا، وقالوا «انتظروا، اصبروا، سوف يصبح كل واحد منكم غنياً!» ولكن ماذا يريدون منا وما همهم إذا أصبحنا أغنياء أو بقينا على حالنا؟ انظر إلى عيونهم، إلى أقوالهم وتصرفاتهم، إنهم شياطين، ولا يمكن لأحد أن يثق بهم. إنهم ألعن من اليهود.. ويحفظون القرآن أولاد الحرام... عجايب».

فإذا توقف وتطلع إلى ابنه ليسأله الرأي فيما يقوله، كان فواز يبقى صامتاً، لأن هذا الذي يجري لا يفهم منه إلا القليل. صحيح أنه سمع الفتيان يقولون عنهم كلمات قاسية، ويشيرون إليهم ويضحكون، ورآهم كيف يأكلون وكيف يتكلمون، لكن لم يستطع أن يدرك ما يدور حوله. حتى إذا وصلا إلى الظهرة، وروى متعب الهذال للرجال الآخرين بعض ما رأى وبعض ما سمع، كان يتطلع إلى ابنه يريده أن يتحدث، أن يؤكد، بطريقة ما، ما كان يقوله هو، في الوقت الذي علمه طوال السنوات السابقة أن يبقى صامتاً إذا تكلم الكبار، وأن يبقى واقفاً حين يكون الضيوف، وأن يتصرف متعب الهذال بطريقة مختلفة: «يا جماعة الخير، الواحد لا يصدق: واحد منهم، الله أعلم... شيخهم، يعرف العربية، لكنه لا يريد أن يتكلم بها. أنا متأكد. لاحظته، كان مثل الصقر يراقب ويتنصت. سألته إن كان يعرف العربي أم لا قال: «شوية.. شوية» ابن الملعونة يعرف أحسن من الجميع، لكنه خبيث، وحين يريد شيئاً يتكلم بلغته ويطلب من الآخرين أن يسألوا! والماء؟ وادي العيون ماؤه يكفيه، لا نريد أكثر من هذا الماء. لو أرادوا الماء، لو أرادوا مساعدة الناس لذهبوا إلى أماكن أخرى».

خلال الأيام التالية حرص متعب الهذال أن يقوم بالسقاية بنفسه، ولكي يمتحن شكوكه طلب من جميع الرجال أن يذهبوا ويشاهدوا هؤلاء الأجانب بأنفسهم.

أكثر من ذلك كان يطلب من ابنه، فواز، أن يعود بالدواب لكي يتعلل هو عند ابن الراشد. وفي كل مرة يعود بأفكار جديدة كلها تؤكد شكوكه

السابقة وتزيده اقتناعاً أن «هؤلاء الشياطين لا يمكن أن يفعلوا خيراً لوجه الله».

إنهم يقضون النهار كله في حركة دائمة، يذهبون إلى أماكن لا أحد يفكر بالذهاب إليها. يجمعون أشياء لا تخطر ببال. معهم قطع حديدية لا يعرف الإنسان ما هي أو ماذا يفعلون بها، حتى إذا رجعوا عند المساء رجعوا ومعهم أكياس من الرمل وقطع من الحجارة، وقد جلبوا معهم مرة أغصاناً من الإثل والقيصوم والشيح. كسروا الأغصان بطريقة عجيبة ولصقوا عليها أوراقاً كتبوا عليها أشياء غريبة. لم يكونوا يكتفون بذلك، كانوا يضعون علامات من الخشب أو قضبان الحديد في جميع الأماكن التي يمرون بها، وكانوا يكتبون عليها ويكتبون على قراطيس يحملونها أشياء لم تفهم أبداً، لكن هذه العلامات لا تلبث أن تختفي أو تغيّر أماكنها حالما يغيبون. كان صبية الوادي يفعلون ذلك، والكبار لا يعترضون، وقد جمع الصبية عدداً من هذه العلامات. ولما جاء فواز ببعض القضبان الحديدية، حين كان يسرح بالغنم، قلّبها أبوه باهتمام وببعض الخوف. دقها على حجر، دقها ببعضها، وتنصت إليها مدة طويلة ثم أكد على ضرورة عدم تقريبها من النار.

والماء.. أين الماء وكيف سيجدونه؟ والحكومة.. هل تعرف أين هم وماذا يفعلون؟ حين سأل متعب الهذال ابن الراشد، أكد هذا الأخير أن معهم تفويضاً من الأمير، وإنهم قضوا أسبوعاً في ضيافته، وحين سأل الدليلين أكدا أن الأمير أرسلهم، وإنهما جاءا معهم لهذا السبب.

ومع كل جديد يزداد تشاؤم متعب الهذال، وتزداد شتائمه ومخاوفه، حتى أصبح لا يتحدث إلا في هذا الموضوع. وإذا كان الرجال من حوله يشتركون معه في الحديث فإنهم لم يكونوا جميعاً يشاركونه في الرأي، لكن بحكم المنزلة والسن كانوا يتركونه يتحدث كما يريد، ويشتم كما يريد.

كان يحس أن شيئاً خطيراً يوشك أن يقع، لم يكن يدري ما هو أو متى، ولم تفده التوضيحات التي قدمها الكثيرون، إذ بمجرد أن رأى

هؤلاء، بحركتهم اليومية الدائمة، بالأدوات التي يحملونها، ثم وهم ينقلون أكياس الرمل والحجارة ويكدسونها بعد أن يكتبوا في دفاترهم، ويضعوا عليها علامات، ثم تلك المناقشات التي تمتد من الغروب إلى ما بعد العشاء بقليل، وما يعقبها من الكتابة، وهذه الأسئلة الملعونة التي يسألونها، عن القبائل ولهجاتها ونزاعاتها، ثم عن الدين والمذاهب، وعن الطرق والرياح ومواعيد المطر، هذه الأشياء كلها ولدت لديه مخاوف تزيد يوماً بعد يوم أن هؤلاء يريدون شراً بالوادي وبالناس. وأهل وادي العيون الذين نظروا باستخفاف، أول الأمر، لما يفعله الأجانب الثلاثة، وضحكوا كثيراً حين رأوهم يحملون الرمال والحجارة، بدوا أكثر دهشة وحيرة وهم يكتشفون يوماً بعد آخر أن هؤلاء يعرفون الكثير عن حياة البدو والصحراء والعشائر والدين. أما كلمة الشهادة التي يرددونها حين يطلب منهم ذلك، ثم الأحاديث التاريخية الطويلة، فقد دفعت الكثيرين من أهل الوادي إلى سؤال أنفسهم ثم التساؤل فيما بينهم إن كان هؤلاء مسلمين أم أنهم جن، لأن بشراً مثلهم يعرفون كل ذلك، ويتكلمون العربية، ولا يصلون وليسوا مسلمين، لا يمكن أن يكون أمرهم طبيعياً.

وابن الراشد الذي بدا شخصاً مختلفاً منذ أن وصل هؤلاء الأجانب، وبالغ بالكرم والعناية، وإظهار هذا الكرم وهذه العناية، وكأنه كان على علم سابق بوصولهم، أو ربما نتيجة تعليمات مشددة من قبل الأمير، نقلها إليه الرجال الذين جاءوا معهم، فقد كان في دخيلته يحس أن مغانم كبيرة يمكن أن تجنى من هؤلاء، ولذلك بالغ في كل شيء، حتى في الحديث والتصرف، وكان هذا أكثر مما يطيق الوادي وأكثر مما يحتمل الناس. وإذا كان الكثيرون داخلهم شعور الكبرياء في الأيام الأولى، وكأن الوادي يعيش في بحبوحة ورخاء، ويعرف كيف يحتفي بالضيوف، فقد بدأ الشك يخامرهم وتساءلوا ما إذا كانوا قادرين على الاستمرار، خاصة وإن إقامة هؤلاء الأجانب قد طالت، وبدا أنها ستطول أكثر.

هذا السلوك من ابن الراشد لشدّ ما أثار متعب الهذال وأدخل الغضب إلى قلبه. صحيح أنه يحب الكرم، ويعرف كيف يكون كريماً، فيقدم

للضيوف أحسن ما عنده، حتى لو ترك أهل بيته جياعاً، لكنه لا يعرف لماذا بدا ابن الراشد خائفاً مستسلماً أكثر مما ينبغي أمام هؤلاء. قال له بعد مرور أيام على وصول الأميركان:

ـ اسمع يا ابن الراشد: نأكل التراب، ونقدّم للضيوف أولادنا، لكن لا نرضى أن نهز رؤوسنا مثل العبيد لكل كلمة يقولونها.

ولما ابتسم ابن الراشد في محاولة للتغلب على غضب متعب الهذال قال الأخير:

ـ حتى الطريقة التي تبتسم بها أو تنظر إليهم لا يقبلها أهل الوادي. إنهم رجال مثلنا، ولولا أن الأمير أرسلهم لأرجعناهم من حيث جاءوا، لأن الماء في الوادي يكفي ولا نريد مساعدة من أحد. . .

توقف ابن هذال لحظات. بان على وجهه الأسى، هزّ رأسه عدة مرات ثم تابع:

ـ تكلم معهم مثل الرجال. تعامل معهم مثل الرجال، يا ابن الراشد.

ـ الله يصلحك يا أبو ثويني. . ثقلت كلامك.

ـ والله من يوم جاءوا ما لك شغلة ألا تضحك مثل العجيان.

رد ابن الراشد بمكر:

ـ يا أبو ثويني الجماعة ما هم مثل جماعتنا، لازم نكون معهم كرماء حتى يقولوا إننا عرب.

رد متعب الهذال بعصبية:

ـ نحن عرب يا ابن الراشد وما نبغي شهادة من أحد.

وتغيّرت لهجته:

ـ اذبح لهم، اضحك، سولف. . لكن مثل الرجال.

وإذا كانت القوافل قد استمرت تمر بوادي العيون، فقد كان يلذ لمتعب الهذال أن يقصر الحديث ـ بعد أن يسأل المسافرين الأسئلة الضرورية والتقليدية ـ عن هؤلاء الأجانب الخبثاء الغدارين، فهم جاءوا لا يعرف لأي سبب، أو ماذا سيفعلون، ثم ماذا ستكون النتائج في النهاية. لم

يكن يكتفي بذلك، كان يريد من جميع رجال القافلة أن يروا الأميركان الثلاثة لكي يتأكدوا، وأن يساعدوه على اكتشاف السر وراء مجيئهم. والمسافرون الذين يسمعون حديث متعب الهذال، كانوا يتصرفون بطريقة تؤكد شكوكه إلى أقصى حد «رأينا في الطريق إلى وادي العيون عدداً منهم: كانوا يبدون مثل الخراف المسلوخة من حرارة الشمس، كانوا يتراكضون في الفلاة، أما حين أمرحنا ورأينا الأمير قبل خمسة أيام فقد قال لنا «من يعترض طريقهم سيلقى جزاءه... إنهم خويا، وجاءوا لمساعدتنا!» وحين يستوضح متعب الهذال عن المساعدة التي يمكن أن يقدمها هؤلاء، ويؤكد أن حالنا بخير ولا نريد مساعدتهم، كان الرجال يتبادلون النظرات فيما بينهم ولا يتكلمون.

فإذا رأى رجال القوافل الأجانب الثلاثة وتحدثوا إليهم، كانت شكوكهم تزيد ومخاوفهم تكبر، لأنهم يتساءلون ويتحدثون عن أمور وأماكن لا يتوقعها ولا يصلها أحد، ولذلك لا يمكن أن يصدّق إنهم جاءوا من أجل الماء.

هذا ما حصل في تلك الفترة، أما لماذا كان متعب الهذال بهذا الشكل ولماذا نظر إلى هؤلاء الأجانب تلك النظرة القاسية المليئة بالمخاوف، فإن حالة من الألهام، أقرب إلى النبوة ملأت نفسه وحياته في السنوات الأخيرة!

على غير انتظار أو توقع وصل هديب وشعلان مع إحدى القوافل، وصلا بعد غياب عن الوادي استمر ثلاث سنين. لا زال الكثيرون يتذكرون ذلك اليوم، لأن خبر وصولهما، حين نقله الصبية الذين استقبلوا القافلة على طريق الخبرة الشرقية، جاء مشوشاً مضطرباً؛ قال بعض الصبية أن الذي وصل هو الخوش، وقد وقع هذا الخطأ نتيجة اختلاط الصور والأسماء في أذهان الصغار، وما كاد هذا الخبر يصل إلى وادي العيون، وإلى أم الخوش بالذات حتى بدأت ترقص وتبكي وتضحك وتزغرد في آن واحد. كانت لا تعرف هل تندفع لملاقاة القافلة أم تذهب إلى البيت لتحضره وتستعد. كانت تتراكض في كل الاتجاهات وتتراجع كالمذهولة، أما حين وصلت القافلة وتبين أن اللذين وصلا هما هديب وشعلان فقد تغير كل شيء: خيّم الصمت والهبوط ثم جاء الحزن، خاصة لما ملأت ولولة أم الخوش الوادي، وزاد حزنها أكثر من أية مرة سابقة. ومتعب الهذال الذي حاول أن يفرح لم يستطع، فقد غلبه الحزن تماماً، ودّ في أعماقه لو لم يصل هذا المسافران.

في الليل، وأمام عدد من الرجال، ذكر متعب الهذال أنه لم يتوقع عودة المسافرين، بل وذهبت به الظنون، في فترة معينة، إلى أنهما لن يعودا أبداً. أما الآن وقد عادا فقد تذكر كيف أنه وهديب بذلا جهوداً كبيرة حتى جمعا ما يكفي لشراء ثلاثة جمال حملت مجموعة من البضائع كانت في وادي العيون لرجل انفصل عن القافلة التي كان فيها.

قال متعب الهذال هذا والتفت إلى ابنه شعلان، الذي كان يتابع بلهفة قصته كأنه ليس طرفاً فيها:

ـ شعلان كان يسرح بالحلال، لا شاف ولا سمع، لكن ما إن جاء وشاف خاله يستعد حتى جن وسافر معه.

وضحك متعب بصوتٍ عال، ثم ذكر كيف أنه لم يستطع شيئاً لمنع شعلان، قال وهو يستعيد قصة قديمة:

ـ قلت لامه: يا أم ثويني.. هذا ابنك وهذا أخوك، وقريشاتنا وقريشات الناس أمانة بين أيديهم، فإذا جعنا، وإذا شتمنا الناس فلا تسأليني، اسألي الرجال...

وأشار إلى هديب وإلى شعلان ثم تابع بتهديد:

ـ قلت لها: إذا كانوا مثل أهل وادي العيون، يزرعون بكل ديرة شجرة وينتظرون ثمرها، ما كانوا ولا كان يومهم، أما إذا رحمونا ورجعوا بعد سنة سنتين عشنا وخلصنا من حلوق الناس.

وضحك ضحكة فرحة، مليئة بالثقة. وتذكر كيف أن وضحة تولت بعد ذلك كل الأمور، كيف أعدّت لشعلان وهديب ما يحتاجان إليه، وكانت في كل خطوة، مع كل حركة، تلح على ابنها أن يعود، أن يعود بسرعة، وشعلان الذي كان يؤكد لأمه أنه سيفعل، ويريد من أبيه أن يسمع، كان أغلب الوقت مشغولاً بإعداد لوازم السفر، حسب ما يتصور وحسب ما رأى المسافرين الآخرين يفعلون. أما الساعات الأخيرة قبل السفر فقد اتسمت بذلك الحزن القاسي، فبدت الكلمات عديمة الجدوى، وتتلاشى قبل أن تُسمع، ولذلك قرر متعب الهذال أن يترك الظهرة إلى الوادي. حرص على النزول مبكراً، وقد تعمد قبل أن يترك الظهرة أن يقول لزوجته:

ـ البلاد طلبت أهلها، وهديب وشعلان مثل الخوش، قد لا يعودان قبل سنين.

وحين أكدت له أن أخاها وعدها أن يعود سريعاً، وإنه لن يغيب إلا فترة قصيرة، بمقدار ما يحتاجه الطريق، رد بسخرية:

ـ إذا شفت أولاد شعلان يا وضحة فاحمدي ربك.

وسقطت دموع وضحة بصمت. كانت في أعماقها تشارك زوجها رأيه تماماً، وربما كانت لديها مخاوف أكبر منه.

الآن.. وهديب وشعلان يعودان بهذا الشكل المفاجئ أثارا من الفرح بمقدار ما أثارا من المفاجأة. وإذا كانت وضحة قد اختلطت دموعها بابتسامتها، وهي تقبل ابنها وأخاها، فإنها لا تعرف هل تضحك أم تبكي أم تتذكر.

كان متعب الهذال يحكي أشياء كثيرة متعمداً. كان يحكيها وينظر إلى ابنه فواز، وكأنه يريده أن يتعلم درساً، أو على الأقل أن يستوعب هذا الدرس.

وبطريقة بارعة وجه الأمور نحو أحاديث معينة، يريد أن يتفرغ، في أسرع وقت، إلى المسافرين ليسألهما، وكأنه مدفوع بقوة خفية، عن هؤلاء العفاريت الذين وصلوا في الأيام الأخيرة، أي شيء يمكن أن يعملوا، وماذا يقول الناس في الأماكن الأخرى.

أن العلاقة بين متعب الهذال ونسيبه هديب الحمد علاقة خاصة، إذ بمقدار ما فيها من مودة، فيها من التحدي والمشاكسة الشيء الكثير. كان متعب الهذال يعتبر أن العمر وحده الذي يعلّم الإنسان، وينظر إلى الصغار بقليل من الثقة، وبعض الأحيان بشك، وكان لا يخفي ذلك. أما هديب الحمد فإنه يرى أن السفر، الانتقال من مكان إلى آخر، الالتقاء بالبشر، ما يعلّم الإنسان ويجعله أكثر معرفة ودراية.

وتلك الليلة حين جرى الحديث مرة أخرى عن السفر وأنه وحده الذي يعلّم ويغير علّق متعب وهو يضحك بصخب، لأنه تذكر ما كان يقوله هديب:

ـ العمر وحده يا ابن أخي يعلّم من يريد أن يتعلم

ـ ما قولك بالدريبي؟

ـ وقبل أن يجيب تابع

ـ أي نعم الدريبي.. هذا اللي يقول إنه راح للهند والسند، واللي يحكي مصري كأنه ولد بمصر.. تعرفه...

وحين هزّ هديب رأسه دلالة أنه يعرف تابع متعب:

ـ أول أمس، قبل كم يوم، راح مع الجماعة إلى الخبرة الشرقية، ولما التفتوا ما وجدوا له أثراً.. ضاع الدريبي، ملح وذاب، ولولا رحمة الله وفطنة حمار من حمير الوادي لظل بمكانه ومات.

ابتسم هديب ابتسامة ساخرة. وحرك كتفيه، قال متعب:

ـ أتعرف من رجّعه لوادي العيون؟

لم يجب هديب، قال متعب وهو يضحك:

ـ حمار ابن المدور هو اللي قاده وهو اللي رجعه!

وأضاف بعد قليل وقد أخذت لهجته نبرة جديدة:

ـ الصخرة، يا ابن أخي، تعلم ولا تتعلم.. البشر هم اللي يعلّمون ويتعلمون.. والبني آدم كل شيء يعلّمه وكل يوم يطلع له قلب جديد.

كان متعب الهذال يتحين الفرصة لكي يسأل ويعرف، كان يريد أن يرى أثر السفر في هذين الرجلين اللذين يعودان الآن. كان يسترق النظر، بين فترة وأخرى، إلى ابنه شعلان يقرأ في وجهه وعينيه آثار ذلك السفر الطويل. وإذ أخذ الرجلان يتحدثان عن البشر والأماكن، عن المشاق والصعوبات، عن الجوّ والليالي الباردة، ثم عن القوافل التي ضاعت وهلكت، وعن المرض الذي حلّ بمصر وكيف إنهما وُضعا مع المئات في أماكن خاصة محاطة بالأسلاك، وكان الجنود، والأسلحة بأيديهم، يمنعون الدخول والخروج، حتى إذا انقضت فترة، وكانوا قبلها أصحّاء معافين، خرجوا من الكرنتينا وقد هدهم التعب والمرض والجوع. وبعد ذلك تحدثا عن الطعام والفاكهة، عن المياه الباردة التي تتدفق في شوارع الشام في كل وقت. ومتعب الذي سمع بانتباه وأبدى إعجابه وسأل عن الكثير من التفاصيل، وكان يستعيد في لحظات معينة بعض الوقائع والأسماء، ويبدي دهشته لضياع القافلة التي كان فيها فلان وفلان، ويبدي أسفه لموت فلان الذي يعرفه وسافر معه في وقت من الأوقات، كان يريد أن يصل إلى الأمور التي تهمه أكثر من غيرها. أن يعرف لماذا جاء هؤلاء الأجانب وماذا

سيفعلون. وهديب الذي أبدى معرفة تفوق معرفة شعلان، قال وهو يؤكد على الكلمات التي يقولها:

ـ بلى يا أبو ثويني. لقيناهم في كل مكان. والناس يقولون إنهم سيحفرون الأرض ويقلبون عاليها سافلها، ولا أحد يعرف. . .

توقف قليلاً وتوالت هزّات رأسه حزناً وأسفاً ثم تابع:

ـ قبل أيام، عند المديرج، رأينا عشرة أو أكثر منهم، كانوا في أربع خيام، ومعهم عدد من جماعتنا، ولما طلبنا أن نمرح عندهم قالوا: «تشربون وتمشون، تمرحون بمكان ثانٍ»، وشربنا ومشينا. ولما جئنا الأمير قال: «هذا بعلمنا وما لكم لازم».

تركت هذه الكلمات علامات الدهشة والغضب على وجه متعب الهذال، قال بحدة:

ـ والله إذا تركناهم، يقلبون الوادي فوق رؤوسنا، كفار ولا يرحمون.

قال شعلان، وكان يتكلم وينظر إلى أبيه بما يشبه اللوم:

ـ هذا عمل حكومة يوبه. . وما دامت الحكومة تعرف والأمير قال مالكم لازم، الاعتراض ما يفيد.

تطلع متعب الهذال إلى ابنه شعلان وكأنه فوجئ بوجوده وكلامه، حتى إنه لم يصدق أذنيه أول الأمر، فلما استقرت الكلمات في عقله، قال بسخرية:

ـ يا وليدي. . خالك يقول السفر يعلّم. أراك ما تعلّمت شيء!

سقطت الكلمات على رأس شعلان كما تسقط الصخور الثقيلة الحادة، أو كما يسقط الزيت الغالي. وإذا كان قد تعود، منذ وقت طويل، أن يكون فظاً قاسياً مع الآخرين، وفي حالات معينة أقرب إلى الحماقة، فإنه تجاه أبيه شديد الضعف. شعر في تلك اللحظة أنه عاجز عن الإجابة، وشعر أنه لا يحتمل الكلمات الساخرة التي قالها أبوه، وإذا كان الصمت قد امتد ثقيلاً فوق رؤوس الرجال فقد أحس شعلان بالاختناق وأنه لا يقوى على البقاء فخرج.

كان متعب الهذال في حالة من الغضب والانفعال إلى درجة قد يفعل شيئاً غير عادي، أحس هديب بذلك أكثر من الآخرين، قال في محاولة لأن يغير الجو:

- يا أبو ثويني، أردنا أو لا العفاريت ستصل ديرتنا، والقضية ما منها حيلة.

رد متعب بعصبية:

- العفاريت وصلت يا هديب. وصلت.. وصلت.

- وما قولك يا أبو ثويني؟

- قولي نشوف الأمير، نشوف الجماعة.. هناك، وبعدها الله كريم.

قال هديب بخبث:

- ظني ما منها فائدة.. يا بو ثويني.

- وين الفايدة يا مبارك؟

- الفايدة باللي يقسمه الله.

استراح قليلاً وأردف بصوت مخنوق:

- يا أبو ثويني، يا ولد العم، الناس غيري وغيرك. الناس مع الأمير وابن الراشد، الواحد منهم خايف أو طمعان، وانت أكثر مني تعرف: تسعين أبرة ما يجن مخرز، وهذه الحكومة يا متعب ما ترحم.

- ما لنا وهذه البلية؟ ما لنا والحكومة؟

أجاب هديب بحزن:

- هذا رأي الحكومة يا ولد العم.

- اسمع يا هديب، الحكومة ما هي حكومة ابن الراشد وأمثاله، الحكومة تعرف أكثر الناس أن وادي العيون لأهله، وتعرف كم صار من البلايا على الماء، وإذا كانت ذيك المشاكل انتهت والناس عاشت فابن الراشد اليوم حوّاس ويلعب.

- ابن الراشد ما هو بشي يا ولد العم، ابن الراشد ذويل ويقول ما يسمع.

ـ لكنه هذه الأيام هو والأمير شي واحد، وانت تعرف إنه إذا تصادق الرعيان ضاعت الغنم.

ـ يا أبو ثويني، ابن الراشد ما هو بشي، الجماعة هناك هم أساس المشكلة.

ـ ابن الراشد أساس البلية، كل يوم والثاني عند الأمير: وادي العيون يبغي ماء، البدوان أخذوا الماء. وادي العيون مات من العطش ولازم تحفرون لنا بيار جديدة. وادي العيون ما يمر فيه أحد.. وادي العيون.. وادي العيون. لو فكّ شره ابن الراشد عن وادي العيون ترانا بخير وسلامة.

ـ يا ولد العم، حتى الأمير ما له يد، وسوالف ابن الراشد سوالف ليل، المشكلة أكبر من الاثنين.

ـ ما قولك لو بعثنا طارش للجماعة هناك؟

ـ أم البيض مصيودة يا أبو ثويني، والجماعة هناك موكدين وادي العيون وما هم تاركيه ولو بعثنا طارش والف طارش، اللي بروسهم لا بد نراه ولا بد يصير.

بعد ذلك تشعّب الحديث. لم يبق أحد من الرجال إلا وتحدث، وشعلان الذي عاد بدا خجولاً مطعوناً، لكن ما كاد يمر بعض الوقت حتى قال أشياء كثيرة لكي يوضح موقفه ويفسر الكلمات التي قالها من قبل. لم يتحدث إلى أبيه مباشرة، لكن صوته، طريقته في الحديث، وبعض الأحيان النظرات الحذرة الخفية نحوه، كانت بهدف أن يسمع أبوه، أن لا يخطئ في فهمه. ومتعب الهذال الذي لم يترك شتيمة إلا وقالها، ولم يترك فرصة من أجل توضيح الشرور التي ستواجه وادي العيون والديرة كلها، كان يشعر بحزن شديد، وتمنى لو أن شعلان لم يأت أو لم يقل الكلمات التي قالها.

قال أحد المسنين ينهي الحديث، ويخفض من حدة متعب الهذال:

ـ طولوا بالكم يا جماعة الخير.

فلما تطلعت إليه العيون تابع:

ـ ديرتنا وحنا نعرفها: تبلع ألف عفريت.

وضحك الرجل المسن بصوت خشن أقرب إلى الحشرجة ثم أضاف:

ـ وحرام عليكم أن تتعاركوا وتختلفوا قبل ما تصل العفاريت، وإذا تعاركتم واختلفتم العفاريت تخرب بيتكم. وتنام على صدوركم.

قال متعب الهذال وكأنه يحدث نفسه:

ـ لازم نعرف كيف نمنعهم من الوصول، وإذا وصلوا ندفنهم أو نهججهم ونلعن والديهم.

بعد سبعة عشر يوماً رحل الأميركيون ومعهم الدليلان، لكن رحيلهم هذه المرة كان إلى الداخل وليس من حيث أتوا. ومتعب الهذال الذي لم يقتنع بهذا الرحيل، وإنما اعتبره دليلاً أكبر على الشؤم، قال في مضافة ابن الراشد في ذات الليلة التي رحلوا فيها، وأمام عدد من رجال وادي العيون:

ـ الجماعة عندهم سالفة، والماء حجة. . .

ضحك بسخرية وتابع:

ـ يدورون عن جن، عن عفاريت ما يندرى، لكن ابشروا يا أهل الوادي، إذا طلع الشيء اللي يدورون عليه ما ظل منكم أحد حياً.

لم يكن هذا الحديث، والذي جاء على هذه الصورة من الحدة والغرابة، مفاجئاً للرجال، لأن المفاجأة التي وقعت في الأيام الأولى زالت وحلّت مكانها أسئلة غامضة، حتى أصبح الحديث الوحيد الذي يجري بين أي اثنين، في أي مكان وفي كل وقت، عن هؤلاء، ولم يعد أحد بحاجة إلى مقدمات من أي نوع لكي يتحدث عنهم؛ وفي وقت لاحق أصبح الحديث موصولاً، بحيث يستطيع الإنسان أن يبدأ كلاماً مع جماعة ويواصله مع آخرين، لأن كل شيء يقع يُعرف وينتشر بسرعة، وأن التصرفات التي بدرت من هؤلاء خلقت شكوكاً لا نهاية لها. فليرات الذهب الإنكليزية والرشادية التي كانت توزع بسخاء، لقاء أبسط الخدمات، ثم الأثمان المرتفعة التي أعطيت مقابل الصناديق الخشبية والأكياس التي استعملت لخزن كميات من الرمال والحجارة، وأخيراً ما دفع لابن الراشد مقابل الناقتين اللتين اشتراهما هؤلاء، وهذه التصرفات وغيرها جعلت أهل

وادي العيون في حيرة كبيرة وحتى الذين أبدوا تسامحاً، وقالوا ننتظر قبل أن نحكم، ساورهم الشك في أن يكون أولئك الأميركيون قد جاءوا من أجل الماء.

ووادي العيون الذي تعود على مرور القوافل، ورأى بشراً من أنماط كثيرة، كان الأميركيون الثلاثة بالنسبة له بشراً من نوع غير مألوف، نوع مختلف تماماً، بطريقة حياتهم وتصرفاتهم والأسئلة التي يسألونها. ثم ذلك السخاء الذي لا يظهر أبداً من المسافرين الآخرين.

وابن الراشد الذي بدا مستعداً، أول الأمر، لأن يدافع عن هؤلاء، ويؤكد بطرق شتى أن الأمير أرسلهم، وأنهم أصدقاء جاءوا للمساعدة، لم يعد متحمساً للدفاع. أكثر من ذلك أكّد للذين سألوه عن هؤلاء الأجانب، كيف ينامون وكيف يتصرفون حين يكونون وحيدين، أكّد أن لهم تصرفات عجيبة للغاية، وأن لهم رائحة خاصة. وما الإسراف باستعمال العطور وإشعال البخور إلا لكي تغيب هذه الرائحة. كما أكّد أنهم لا ينامون في ليلة من الليالي قبل أن يكتبوا أشياء كثيرة وربما كانوا يسحرون. وفي حالات عديدة كانوا يتوقفون عن الكتابة، يتبادلون بعض الكلمات ثم يعاودون مرة أخرى، خاصة ذلك الذي لا يتكلم العربية، إذ كان أكثرهم اهتماماً، كان يشرف على خزن الرمال التي يأتون بها، ويكتب على الصناديق، ويضع علامات بألوان وأشكال غريبة للغاية. أما في الصباح فإنهم يصلّون بطريقة عجيبة. إذ يبدأون برفع أيديهم وأرجلهم في الهواء، ويحركون أجسامهم كلها ذات اليمين وذات اليسار، لا يتوقفون إلا بعد أن يزخّهم العرق ويبدأون باللهاث.

قال أحد الرجال مخاطباً ابن الراشد:

ـ دوّر تحت الفراش، تحت الرمل، يا أبو محمد، يمكن تركوا وراءهم بلايا مسحورة.

ومتعب الهذال الذي كان يسمع وتتوالى هزات رأسه علّق بلهجة ساخرة:

ـ ابن الراشد لازم ينقل المضافة من المكان كله، لأن الجن سكنها من يوم وصلها الكفار ودخلوها.

ولما وجد نوعاً من الاهتمام والموافقة لما قاله تغيرت نبرة صوته:

ـ حتى لو ما بها جن رائحتهم تقتل الطير.

قال أحد الرجال وهو ينهض:

ـ يا جماعة الخير.. الفلاة، تحت السماء، أخير من هذا المكان.

بدا ابن الراشد محرجاً، إذ لا يستطيع أن يدافع عنهم كما فعل في البداية، كما لا يستطيع أن يتنكر لقيم الضيافة، قال لينهي الموضوع:

ـ القول قولكم: الفلاة أطيب، والله يلعنهم ويلعن ساعتهم، والحمد لله خلصنا منهم.

قال متعب الهذال الذي كان يسير إلى جانب ابن الراشد:

ـ ولّف نفسك من جديد يا ابن الراشد، تراهم راجعين نوبة ثانية.

رد ابن الراشد بعصبية:

ـ ذكر الشيطان ولا ذكرهم يا رجل.

لم تمض عشرة أيام وعاد الرجل الذي يتظاهر أنه لا يعرف العربية، ومعه معظم الأحمال التي حملوها؛ قضى ليلة واحدة في وادي العيون مع دليله، وفي فجر اليوم التالي واصل سفره، أما الاثنان الآخران فلم يعرف عنهما شيء لفترة طويلة.

ويوماً بعد آخر بدأت الحياة الطبيعية تعود إلى وادي العيون وأخذت صور الأميركان تبتعد وتُنسى، إلا في ذاكرة متعب الهذال، الذي أخذ يراقب كل شيء بنفسه. وإذا كان تعوّد ألا يسأل أحداً عن الكثير من الأمور، فقد أصبح حريصاً أشد الحرص على أن يستقبل أية قافلة تأتي، ومن أية جهة تأتي، فإن جاءت من ناحية البحر والشام كان يسأل بشكل مبهم إن رأى المسافرون أحداً أو شيئاً غير مألوف. أما إذا جاءت القوافل من الداخل فكان يسأل عن رجلين من الجن دخلا الصحراء قبل فترة ثم

انقطعت أخبارهما، وكان يود في أعماقه لو يأتي من يخبره أنهما ماتا عطشاً أو أكلتهما الذئاب. كان يريد أن يعرف أي شيء عن هذين الغولين، فإذا جاءت الأخبار من هذه الناحية أو تلك غامضة مشوشة، فلا يكتفي بواحد يسأله، إذ كان يتعمد سؤال الكثيرين، ويتعمد السؤال عن أشياء كثيرة، حتى إذا سمع كل ما قيل يطيل التأمل والتفكير. أما وضحة التي كانت تشغلها أمور أخرى في هذه الدنيا فما لبثت إن دخلت في الجحيم الذي أراده متعب الهذال، فإذا ضاقت بأسئلته، بالعصبية المفاجئة التي اتسمت بها حركاته وتصرفاته، تقول له بيأس يصل درجة التوسل:

ـ اترك هذه السوالف يا رجل.. الحكومة تعرف أكثر من الجميع.

فيرد عليها بسخرية:

ـ أي والله الحكومة تعرف أكثر من...

ولا يكمل عبارته لأنه لا زال متردداً. ربما كانت الحكومة لا تعرف ماذا يفعل هؤلاء الشياطين.



مرّ الصيف كله وجاء بعده الخريف. وغابت نهائياً صورة أولئك الأجانب الذين مروا في الوادي قبل شهور طويلة، ولم يعد أحد يسأل عنهم أو يتذكرهم. ومتعب الهذال الذي ظل خائفاً مترقباً، وجد ان استمرار الحديث عنهم أو السؤال يضاعف همومه ومخاوفه، خاصة وأن الآخرين بدأوا يضيقون من أسئلته وهواجسه، ويعتبرون مجرد ذكرهم شؤماً يجب أن يبتعدوا عنه. ولذلك طوى متعب الهذال هذا الموضوع أو كاد، لكنه مع ذلك لم يستطع أن ينجو من الأحلام والهواجس التي تطارده في الليل. أصبح ليله ثقيلاً صعباً، فأخذ يهرب من النوم، أو يكتفي بنوم ساعات قليلة، وغالباً ما تكون خلال النهار وبشكل متقطع أيضاً. وإذا كانت وضحة وآخرون قد لاحظوا ذلك فقد خافوا عليه، وتوقعوا أن تنهار صحته، فأخذت أحاديثهم معه تنحو منحى معيّناً لعله ينسى، وأخذت تصرفاتهم تتسم بمقدار كبير من العناية والشفقة، لكن هذا اللون من الأحاديث، وهذه

الطريقة في التصرف، بدل أن تخفف عنه وتشغله أو تنسيه بدأت تثيره وتجعله أكثر حدة وتطرفاً.

ولما وصل خبر الحالة التي ألمّت بمتعب الهذال إلى ابن الراشد قال لاثنين أو ثلاثة حوله، وقد بدا صوته حزيناً:

ـ العتوم دائماً بهذا الشكل، إذا كبر الواحد منهم ينهبل أو يذبح.

وخفض صوته كثيراً، حتى أصبح همساً:

ـ لازم يسرح بالغنم أو يلعّب الأولاد.. متعب الهذال.

أشفق الكثيرون على الرجل وأخذوا يراقبون حركاته وتصرفاته، أما هديب فكان أكثر الناس خوفاً وقلقاً. كان يتصور أن متعب الهذال إذا تُرك أو لم يشغل نفسه بعمل من الأعمال، فإن كلام ابن الراشد عنه سوف يتحقق. قال له في غروب يوم من أيام الخريف، وقد هبت نسمة عذبة بعد نهار قائظ:

ـ أظنها تكون سنة خير هذه السنة.. يا أبو ثويني...

التفت إليه متعب، وقد فوجئ، فلما وجده يعبّ الهواء بقوة، أدار رأسه في الأفق وكأنه يستطلع الجو، ثم تابع:

ـ وإذا جاء الوسمي وكانت الأمطار كثيرة تتغير حياة الناس ويتغير الوادي

ـ الله يسمع منك.. يا ابن أخي.

ـ واشوف بيتك تضعضع يا أبو ثويني، وخاف يشيله المطر والريح.

وبكثير من البراعة والهمة والتعاون، وبعد أن تجند عدد من الشبان، أصدقاء شعلان وأقرباؤه، بدأت على الظهرة عمليات بناء دائبة، رافقها الكثير من المزاح والتحديات، وقد اشترك فيها متعب الهذال نفسه بحماسة كبيرة وبهمة لا تعرف التعب: رممت الأسوار الطينية، أضيفت إلى الحظيرة أجزاء جديدة، أما الأسطحة فقد دُحلت عدة مرات وأصلحت الجوانب، كما جددت بعض الأعمدة الخشبية، ونظفت مساقط المياه. وفي غمرة العمل بدا لمتعب الهذال أنه بالإمكان إقامة غرفة جديدة، خاصة وأن

وضحة أشارت في الليلة قبل الفائتة إلى أن شعلان أصبح في سن ووضع يجب معهما التفكير باختيار امرأة له. ولذلك لم يتردد في أن يشرع فوراً بالبناء، ورافق العمل بعض الإشارات الخفية التي تدل على أن أموراً جديدة وهامة يمكن أن تحصل في بيت متعب الهذال خلال فترة من الزمن، وهذه الإشارات لم تكن تحتاج إلى فراسة كبيرة لكي تستنتج، خاصة وأن الشبان أثناء جبل الطين أو نقل الحجارة كانوا يتصرفون ويبتسمون بطريقة توحي أنهم يعرفون كل شيء، وكان متعب الهذال يقابل كل ذلك برضى واعتزاز!

ومثلما تغيرت حالته كثيراً في الفترة السابقة، فقد تغيرت من جديد: أصبح يأكل بشهية وينام نوماً عميقاً متصلاً. كما استعاد قوته وثقته، وإن كانت الأحلام لم تتوقف عن ملاحقته وإتعابه، لكنه في غمرة التعب والانشغال الكامل كان ينسى كل شيء.

قبل أن ينتهي البناء والترميم بيومين أو ثلاثة، ومثل عادتها كل صباح وكل مساء جاءت وضحة تحمل إبريق الشاي، لكي «يشرب النشامة الذين تعبوا وعطشوا»، قال لها هديب وهو يتناول الإبريق والكؤوس:

ـ أبو ثويني رجع أكثر شباباً مما كان.

ـ أولاد الحرام اللي جاءوا طوّشوا رأسه.. وإلا كان أقوى من الشباب.

ـ راحوا وعسى أنهم ما يردّون.

ـ لا كانوا ولا كان يومهم.

وفي اليوم الأخير، ذبح متعب الهذال خروفاً عند عتبة الغرفة الجديدة، وتعالت صيحات الشباب وصخبهم وهم ينقّلون نظراتهم بين شعلان وأبيه، ويتطلع بعضهم إلى بعض، قال أحد الشباب:

ـ ولّفنا المعلف، ما بقي إلا الفرس.

رد متعب الهذال وهو يضحك بصوتٍ عالٍ.

ـ وكلوا الله. ما يحول الحول إلا ويعرّس.

سأل هديب بمكر:

ـ شعلان أو أبوه؟

ـ شعلان وأبو شعلان يا ابن الحلال!

هكذا رد متعب الهذال، وقد طغت على الجميع موجة من الفرح والرضا، وكانت ليلة كبيرة من ليالي وادي العيون.

وإذا كان البيت قد رمم تحسباً من الأمطار التي قد تأتي، فلم يكن متعب الهذال بحاجة إلى من يقنعه بضرورة تحضير أرض البستان في الوادي وتهيئة بعض البذور. انطلق بنشاط، قلب الأرض مرتين، فتح فيها أثلاماً، رفع النباتات الطفيلية والأشواك، ثم وضع كميات من الزبل وخلطها خلطاً جيداً مع التربة. نظف القناة الشمالية، التي طمرتها الأتربة والرمال، استعداداً للأمطار وتوقعاً أنها ستكون أكثر من سنوات غيرها. قال في نفسه وهو يحفر برغبة وهمة: «هذه الأرض مثل الكنز لا يُعرف ما بداخلها حتى تأتي الأمطار.. فإذا جاءت الأمطار مبكرة وكثيرة جاء معها العجب» وتذكر سنوات معينة، سنوات الخير، فابتسم ورفع رأسه إلى السماء وتنشق الهواء بقوة.

وفي هذه الفترة شعر متعب الهذال أنه أكثر قوة، ولام نفسه أنه انشغل بقصة أولاد الحرام الذين مروا بالوادي قبل شهور. قال في نفسه: «سالفة وانقضت، وهذا الوادي ياما شاف وياما سمع.. واللي مروا بالوادي أكثر من التراب، لكن ما بقى منهم أثر وعسى اولاد الحرام اللي مروا يغيب أثرهم ويغيب ذكرهم». وأحس أكثر من أية فترة سابقة بروابط تشده إلى الأرض والنخيل وأشجار التين وإلى الناس في الوادي أيضاً. قال لمقبل ابنه الصغير الذي كان يدور حوله، وينظر بإعجاب إلى كل حركة من حركاته:

ـ ذيك النخلة، الرابعة على اليسار، بعمرك يا وليدي؛ وكل ما تكبر أنت يوماً تكبر معك، وباكر انت تزرع نخلة لابنك، وابنك يزرع نخلة لابنه، وسنة بعد سنة ويظل وادي العيون أخضر، ويظل الناس يمرون بالوادي ويشربون من ماء الوادي، ويترحمون على الأموات، ويقولون، وهم بظل الشجر، الله يرحم كل من زرع نخلة وعرقاً أخضر.

وظل مقبل، مثل كلب صغير، يدور حول أبيه، يداعبه، يقفز على ظهره إذا انحنى، فإذا انقضى النهار وأقبلت الظلمة التصق به، أمسك ثوبه بقوة لا يريد أن يتركه أو أن يبتعد عنه، فإذا وصلا إلى العين، وكان الأولاد قد انتهوا من السقاية، وساروا بالدواب إلى الظهرة، كان متعب الهذال يتمهل قليلاً، يغسل وجهه ويديه من ماء العين، يترنم فتصدر عنه أصوات فرحة تعبيراً عن الارتياح والشكر، ثم يواصل طريقه مصعّداً بالتل، لكنه لا يتوقف عن الحديث إلى ابنه، وهو يدرك أن الصغير لا يفهم أكثر الأشياء التي يقولها، ومع ذلك يستمر.

قالت وضحة مخاطبة هديب، وكانا يلمحان طيف متعب يقترب:

ـ سبحان الرب المعبود، ترى الرجل راح ورّد.

رد هديب بصوت خفيض، لا يكاد يسمع:

ـ العمل يحيي الرجال، يا أم ثويني.

وبدا أن كل شيء في الوادي عاد إلى حالته الطبيعية، لكن المخاوف، ثم تلك الأحلام التي ملأت ليالي متعب الهذال، لم تنته!

كانت من الأمور المألوفة أنه إذا جاءت قافلة أو سافرت قافلة.. أو حتى الرسائل التي قد تأتي من المسافرين، أن تدفع سؤالاً إلى الأذهان أو الشفاه: «ما هي أخبار الخوش وما هي علومه؟» إن هذا السؤال، لفرط ما تكرر ووجه إلى الكثيرين، أصبح له معنى خاص ووقع مختلف عن عشرات الأسئلة المماثلة التي تطرح للسؤال عن المسافرين. فالخوش أصبح معروفاً حتى للذين لا يعرفونه. صحيح أن له ملامح تختلف من واحد لآخر، ولاسمه وقعاً متفاوتاً أشد التفاوت، لكن لا أحد يعيش في وادي العيون أو يمر فيه إلا ويجب أن تكون له صلة بهذا الإنسان بشكل أو بآخر.

لماذا أصبحت للخوش هذه الصورة؟ وهل هو إنسان حقيقي من لحم ودم أو مجرد شخصية من نسج الخيال؟ وإذا كان رجلاً حقيقياً فلماذا تحيط به هذه الهالة من الغموض ويثير هذا المقدار من الأسئلة؟ هل لأنه مسافر؟ ألأنه لم يعد ولم تسمع أخباره؟ ولكن المسافرين من وادي العيون أكثر عدداً من المقيمين فيه، حتى لا يخلو بيت أو مضرب في الوادي والظهرة والمنطقة القريبة من مسافر أو أكثر. بعض هؤلاء امتد بهم الزمن وطالت غيبتهم، انقطعت أخبار بعضهم فترات طويلة لكنهم عادوا في النهاية، أو على الأقل بدأت تأتي أخبارهم ثم رسائلهم ومعها تلك الأقمشة الملونة التي لا ينسى أحد من المسافرين أن يرسلها.

هناك إذن شيء يميز الخوش ويجعل له وضعاً مختلفاً عن الآخرين. يمكن لكل واحد من أهل الوادي أن يقول شيئاً، وقد يكون ما يقوله مختلفاً عن قول الآخرين، لكن يبقى صحيحاً مع ذلك. فالذين يقولون إنه شجاع

وإن شجاعته مضرب المثل صادقون. . والذين يقولون أنه كان أقدر الناس على العدو، ويستطيع أن يأتي بالجمل الهائج حتى لو كان على مسيرة نصف يوم، وإن كثيرين رأوه متعلقاً بذيل جمل، والجمل يمرجحه كما لو أنه مجرد ثوب أو كأنه بلا وزن، إن هؤلاء صادقون أيضاً. . أما إذا وصل الحديث إلى مدى تحمل البشر، خاصة للجوع والعطش، وذكرت بعض القصص عن رجال تحملوا، فإن أكثر القصص إثارة تلك المتعلقة بالخوش. هذه أمور لفرط ما تكررت واستعيدت أصبحت مألوفة إلى درجة كبيرة، ومع الأيام فقدت إثارتها وبريقها، إلا في لحظات التحدي أو أمام الغرباء. لكن ما ظل مثيراً في أمر الخوش طريقة اختفائه.

فبعد أن سافر في قافلة السالمي، واستمر معها حتى الجوف، لم يره أحد بعد ذلك. اختفى دون إنذار وبلا مبررات واضحة، ولولا أن المسافرين الذين كانوا في القافلة أكدوا أنه استمر معهم، ثم تركهم في الجوف، بعد مسيرة سبعة أيام من العيون، لولا هذه التأكيدات القوية الجازمة لقال الناس أن الأرض ابتلعته، أو أن حيواناً افترسه. طبيعي لم يسلّم أحد باختفائه، لكن الرجال الذين نقلوا تلك الأخبار كانوا من الثقات المعروفين، ثم التواتر الذي حصل بعد ذلك من قبل آخرين. أما القوافل التي جاءت من الجوف فقد ذكرت أشياء متناقضة مضطربة، وهذه بدورها عززت الشكوك وزادتها، ورغم أن عدداً من المسافرين ألحّ في السؤال عنه، وتبرع آخرون باستقصاء أخباره، فإن أياً منهم لم يصل إلى جواب قطعي، أو إلى مجرد جواب يمكن الاطمئنان إليه، ولذلك انقطعت أخباره دفعة واحدة.

ما كان اختفاء الخوش أو انقطاع أخباره ليثير هذا المقدار من الاهتمام والتساؤل، ثم الشفقة، لولا تلك الأم، أمه. كان ابنها الوحيد، ومنذ أن مات أبوه ـ وقد حصل هذا قبل سنوات طويلة ـ اكتسبت الأم من صفات الرجال ومظهرهم الشيء الكثير، إذ إضافة إلى العناية ببضع نخلات، وهي ما تبقى لها من مال الدنيا بعد رحيل زوجها، فقد ربّت ثلاثة أو أربعة رؤوس من الماعز وبضع دجاجات، وكانت تبيع للمسافرين الحليب

والبيض، وتقدم بعض الخدمات التي يحتاجها هؤلاء، كأن تصنع حبالاً أو ترفو الثياب الممزقة أو تجمع بقايا الأشياء التي يتركها المسافرون، وتظل تعالجها بصبر ودأب حتى تصنع منها شيئاً نافعاً. بهذه الطريقة الصعبة المكابرة ربت الخوش، والخوش الذي لم يحس بفقد أبيه أول الأمر، لصغر سنه، لم يحس بالغضاضة بعد ذلك، لأن كثيراً من الأطفال حوله كانوا بلا آباء، إما لأن هؤلاء مسافرون أو لأنهم ماتوا.

ظلت الأمور تسير بشكل طبيعي، رغم المصاعب، حتى كبر الخوش وأصبح أقرب إلى الرجال، والأم التي صبرت واحتملت وجدت في الرجل الجديد، الشجاع القوي، والذي ينظر إليه أهل الوادي بإكبار، سلوتها، حتى قال الكثيرون، بمن فيهم متعب الهذال، أن الأم بعد أن كبر الخوش أصبحت أكثر فتوة وشباباً. لكن أم الخوش التي تسمع مثل هذا الكلام، دون أن يعني لها شيئاً، تتصرف بطريقة لا تترك لأحد أن يتجاوز حدوداً معينة، والناس الذين تعودوا عليها بهذا الشكل وأحبوها، ثم ما اكتسبته من صفات نتيجة العمر والتجربة جعلتها محبوبة أكثر من قبل وموضع احترام وتقدير.

كل هذا جزء من تاريخ الوادي الأقرب إلى النسيان، لأن ما تلا ذلك كان هو الذي يحفر في وجدان الناس وذاكرتهم، تماماً كما تفعل المياه في المنحدرات، خاصة إذا جاءت سخية مفاجئة. إذ ما كاد الخوش يختفي بتلك الطريقة الغامضة حتى انتهى الفرح وجاءت أحزان لا نهاية لها. فالمرأة التي بدأت تسأل المسافرين ولا تجد جواباً، ما لبثت أن أخذت تنتظر في فم الوادي أكثر ساعات النهار، لعل قافلة تأتي وتحمل إليها خبراً عن الخوش، وإذا كانت قد تعودت أن تظهر الحزم والصرامة، وهي تسأل، وكأن الأمر عادي جداً، تحولت يوماً بعد يوم إلى امرأة من نوع آخر: أصبحت تلحف في السؤال ولا تترك أحداً في القافلة إلا وتسأله، والذين لا يعرفون الخوش ولم يسمعوا باسمه، تتحدث لهم عنه. كان يلذ لها أن تتحدث الساعات الطويلة.

وأهل الوادي الذين عرفوا الخوش وأمه حزنوا أشد الحزن أن تنقطع

أخباره بهذا الشكل، وكانوا، في البداية، مثل أمه حماسة للسؤال عنه، وتكليف المسافرين أن يسألوا. كتبوا الرسائل إلى الأقرباء والمعارف ليوافوهم بأية أخبار عنه، لكن الأيام تنقضي ولا يأتي خبر، والناس الذين يكادون ينسون الخوش في غمرة العذاب اليومي من أجل البحث عن الرزق، يطالعهم كل يوم وجه العجوز، فلا يستطيعون نسيانه يوماً واحداً. كان أكثر وجوداً من الناس الأحياء الموجودين، وكان وجوده يزداد كثافه ما دام الحزن يغرق العجوز أول الأمر ثم يغيرها فتصبح امرأة لا يدري الإنسان كيف ينظر إليها أو كيف يتعامل معها. فالحديث الذي لا ينتهي عن الخوش، بمقدار ما يثير من الابتسامات، لما يتخلله من حوار وأسئلة، يثير الحزن، لأن العجوز في غمرة الأسئلة والحديث لا تلبث أن تنتحب، وقد تتكلم بطريقة شديدة الانفعال، وتختار كلمات بعينها، وبعض الأحيان تردد أبياتاً من الشعر، وقد تغنيها.

كانت تفعل ذلك دون شعور بالخوف أو الحرج، وبحماسة كبيرة وصوت عالٍ، كأنها تخاطب عدداً كبيراً من الناس. وفي أحيان أخرى تخاطب الدجاج والماعز وتتحدث إليها ساعات متواصلة، وكأنها تروي قصة بلا نهاية.

من يسمع أم الخوش تتحدث لأول مرة يظنها امرأة شديدة الاتزان، حين تبدأ برواية قصة سفر ابنها، ترويها وكأنها تعني امرأة أخرى، أما التفاصيل الصغيرة الغارقة في ظلام الوادي البعيد المنسي، والتي تطفو بشكل مفاجئ، فكأنها حدثت في الليلة الفائتة. تستمر كذلك فترة من الزمن، ثم فجأة تتغير لهجتها ونبرة صوتها، تتلفت حولها بفزع، تتلمس الأرض كأنها تخاف أن تنفتح فتصرخ بانفعال:

ـ اسمعوا يا أهل الوادي: المنام ما يكذب. جاءني ثلاثة ملائكة، كانوا في ثياب بيضاء وقالوا لي: الخوش يكون هنا يوم الخميس. الملاك الكبير له وجه مثل وجه الخوش ويضحك مثله، وكان الصغير بقوة الخوش، والثالث ما شفته لأنه كان يعطيني ظهره.

وحين يطلب منها أن تكف عن هذا وأن تصبر وتنتظر ترد باستهزاء:

ـ يا أهل وادي العيون أنتم ظلاّم وما عندكم رحم، أنتم تتركون أولادكم مثل ما تتركون الدواب، وبعد مدة الدابة اللي تنذبح تجرونها وتذبحونها، والدابة اللي ما تنذبح ترمونها بالحجارة إلى أن تبتعد عن الوادي وتموت، وأنا ما أريد اصير مثل أهل الوادي.

وتظل العجوز تردد وتنغّم: «الخميس.. يوم الخميس.. هذا الخميس»، والناس ينظرون إلى بعضهم وينظرون إليها، وتختلط ابتسامات الشفقة بالتساؤل، ويقولون في أنفسهم: «الدنيا عذبت العجوز، أكبر العذاب انتظار من لن يأتي»، لكن أحداً لا يستطيع أن يقول كلمة من هذا النوع للعجوز، لأنها قد تقتلها، ولذلك كانوا يتركونها تنتظر... وكانوا ينتظرون معها لعل شيئاً ما يقع.

الرسائل والدراهم وتلك الأقمشة الملونة التي يبعث بها المسافرون كانت مثل حبال خفية تربط المقيمين بالغائبين، وتجعل المسافرين موجودين بأصواتهم وملامح وجوههم، وتجعل الحياة ممكنة لهؤلاء الذين لا يتعبون من الانتظار في وادي العيون. كانت أم الخوش تتمنى انتظاراً من هذا النوع. إن ما تريده رسالة تأتيها، قطعة من القماش الملون، وليبق الخوش بعد ذلك حيث يريد. أما أن تظل هكذا، لا تعرف شيئاً، ولا يقول لها أحد كلمة واحدة، فإن ذلك أقسى عليها من الموت، ومع ذلك فإنها شديدة الثقة والتأكد أنه سيأتي، وهي إذ تبالغ في إكرام القادمين الجدد، وفي الحوام حول القافلة منذ لحظة الوصول وحتى لحظة المغادرة، فلأنها تتوقع أن تسمع كلمة تؤكد لها أن الخوش لا يزال حياً، وإنه في مكان ما يتاجر، يبيع ويشتري، وصار عنده عدد لا حصر له من الإبل والغنم.

كانت أم الخوش تفعل ذلك حين تأتي القوافل، أما إذا رحلت القوافل فكانت تدور في الوادي منذ الفجر وحتى الغروب أو بعده قليلاً، وفي ذلك الطواف الذي لا ينتهي تخاطب الكبار والصغار، تتحدث مع الأشجار والحيوانات، وتسأل كل من يصادفها إن رأى الخوش أو سمع شيئاً من أخباره. وإذا كانت العادة، في أغلب الأماكن، أن يصبح هذا النوع من الناس مجالاً للسخرية والتندر، وبعض الأحيان هدفاً لاعتداء الصبية

وتسليتهم، فإن وادي العيون لم يفعل ذلك؛ لأن أحداً لم يقل عن هذه المرأة شيئاً رديئاً، وإنما كانت موضع عطف واهتمام الجميع. كانت تدخل البيوت والخيام في الوادي والظهرة وكأنها تدخل بيتها، وفي تلك البيوت تستقبل استقبالاً كريماً، ويستمع إليها الرجال والنسوة ويتكلمون معها كلاماً عاقلاً موزوناً.

كان ذلك يجري دون اتفاق أو تدبير سابق وإنما نتيجة لتلك العلاقات التي تطبع الحياة في الوادي، وتجعل الناس وكأنهم أسرة واحدة. صحيح أن قرابات من نوع أو آخر تجمع الناس هنا، لكن العلاقات التي تتحكم أقوى من تلك القرابات. فإذا سافر الأزواج والأخوة كان أصدقاؤهم يهتمون بالنخيل وبزراعة بعض المحاصيل نيابة عنهم. إنها عادة من عادات الوادي، وهذا ما حصل بالنسبة للبستان الصغير الذي كان لأم الخوش، إذ بعد أن انشغلت بهذه القضية لم تعد قادرة على العناية بالنخيل، أو بزرع القليل من الخضرة، فتولى عنها ذلك عدد من الرجال. كانوا يقومون به دون أن يكلفهم أحد، وبصمت، كأنهم يفعلون ذلك لأنفسهم، حتى إذا جاءت بعض النقود ثمناً للثمر الذي يباع للمسافرين أعطوها ما تستحق، فتنظر إلى النقود التي توضع في يدها بفرح وتسأل بلهفة الأطفال:

ـ ها الخوش هو اللي أرسل القريشات؟

وحين يصمت الذي أعطاها، خوف أن تجرحها أو تبكيها كلمات النفي، كانت تعابير وجهها تمتلئ بالحزن ويخيم عليها الصمت، لكن تصرح فجأة:

ـ هذه الفلوس، فوق اللي عندي، تكفي لزواج الخوش!

وتستسلم فترة قصيرة لهذه النشوة، تضحك، تزغرد، تسافر، تحلم، ثم فجأة تجهش بالبكاء. كان بكاؤها حاداً مكتوماً في البداية، ثم ما يلبث أن يصبح أقرب إلى الاستغاثة، حتى أن الأنسان لا يطيق أن يسمعه، فيترك الرجال المكان، أما النسوة والصبية فإنهم ينظرون إليها بدهش ثم بحزن، وكثيراً ما كانت النساء يشاركنها في نحيب مكتوم، حتى إذا هدأت ران صمت ثقيل موجع. ولما كان البدو، ووادي العيون بشكل خاص، لا

يعرفون البكاء ولا يحبونه، ويستغربون كيف يبكي الناس أو لماذا، فإنهم حين يرون ذلك يصبحون أقرب إلى الضعف والحيرة ويغرقون في التشاؤم.

إن ارتباطاً غامضاً حدث ما بين حالة مثل هذه ونوع من البلاء حلّ بوادي العيون بعد ذلك، حتى ليصعب على الإنسان أن يفسر الأمر. وإذا كان متعب الهذال قد حضر ذلك اللقاء بين أم الخوش وذاك الذي زرع البستان ورعى النخيل، ثم ما تلا ذلك من النشوة والضحك فالبكاء، فقد سمعه أكثر من شخص يقول:

ـ يا رب، يا صاحب الخيمة الزرقا، أنت العالي وتعرف ما بالقلوب، احرس الوادي وجنبه البلاء.

وتذكر هو، وتذكر آخرون، المرة السابقة، حين جاء أحد البدو من الداخل، من مكان بعيد، وقد لفت نظر متعب الهذال الحول في عينيه وافتراق أسنانه العليا. هذا البدوي الذي حمل لأم الخوش مبلغاً من المال، وهي بين سؤالها عن الخوش، وفرحتها أن أمراً جديداً يحصل، رفض الرجل أن يقول شيئاً قبل أن يحضر بعض الناس، فلما جاء عدد منهم، وكان متعب الهذال من بينهم، أوضح الرجل أن عبد الله المكتوم. والد الخوش، كان قد بضّعه في يوم من الأيام، وقد جرى هذا قبل عشرين عاماً أو أكثر، وإنه الآن جاء ليرد ما بذمته من مال، ويريد أن يكون الموجودون شهوداً.

هذه الحادثة، وما تخللها ثم ما تلاها من فرح وبكاء، لم تمض عليها إلا بضعة أسابيع حتى حلّ بالوادي مرض غريب قضى على عدد كبير من البشر والماشية، وقال بعض الناس أنه أصاب الأشجار أيضاً.

تذكر متعب الهذال هذا الحادث وما تلاه حين وصل الأجانب الثلاثة، وتأكد أن أمراً مشؤوماً لا بد أن يقع. لم يكن متأكداً من أفكاره وهواجسه، لكن شعوراً قوياً ملأه وسيطر عليه، وظل تحت وطأة هذا الشعور فترة من الزمن يردد:

ـ إذا كان بدوي واحد أسنانه فرقاء وعينه حولاء جاب كل البلاء. فهذه المرة، وبعد أن جاء أصحاب العيون الزرق والأسنان الفرق لا بد أن يفنى الوادي ويهلك البشر!

صحيح أن الكثيرين لم يشاركوا متعب الهذال أفكاره وقناعاته أول الأمر، ولم تملأهم الهواجس التي ملأت رأسه، لكن ما كان لأحد أيضاً القدرة على إقناعه بعكس ذلك، وهو نفسه إذا كان عاجزاً عن تفسير هذه الرؤى والهواجس، لا يستطيع أن يقتنع بغيرها. وأهل الوادي الذي استقبلوا الأجانب بنوع من الترقب والحذر، وكان حب الاستطلاع لديهم أقوى من الشك، فإن حالة متعب الهذال اختلفت عن ذلك كثيراً، وهذا يفسر جزءاً من الأفكار والسلوك الذي ملأ عقله ووجدانه في تلك المرحلة.

ما كاد متعب الهذال يتخذ تلك المواقف التي بدت غريبة لبعض الناس حتى سرت الهمسات ثم التساؤلات: «لم يكن الرجل بهذا الشكل، وهؤلاء الشياطين الذين جاؤوا لا بد أن يرحلوا غداً أو بعد غد، لكن «السودا» التي أصابت متعب الهذال لا أحد يعرف متى تخرج منه» ويصمتون قليلاً ثم يضيفون: «أصبح مثل أم الخوش لا يمكن التفاهم معه».

أم الخوش تذرع الوادي من أقصاه إلى أقصاه، وقد بدت، أكثر من أية مرة سابقة، مشعثة الشعر، شديدة الحزن والانفعال، وكانت تردد كلمات بدت غريبة لكل من سمعها: «قبل حلول الحول «القيامة تقوم والوادي يحترق».

يتذكر الرجال هذا حين وصل الأجانب الثلاثة، لأن أم الخوش التي رابطت عند مضافة ابن الراشد لا تتركها لحظة واحدة في اليوم الأول، تريد أن تسأل هؤلاء الأجانب عن الخوش، هل رأوه أو سمعوا عنه شيئاً، والأجانب في انشغال كامل عنها، يسألون عن مواسم الأمطار وأيام الحرارة، وأماكن المياه، وعن الرمال كيف تتحرك وفي أي الاتجاهات، والقوافل متى تأتي وكم تبقى ثم أين تذهب، وغير ذلك من الأسئلة التي تهمهم، وهي التي تنظر بعيون مدهوشة وتتابع كل حركة تصرخ بين فترة وأخرى:

ـ يا جماعة الخير.. من منكم سمع علوم الخوش؟

وحين لا تجد جواباً تصرخ بصوت أعلى:

ـ يا جماعة اللي سمع منكم علوم الخوش يعلمني.. وما يخاف.

ورجال الوادي الذين سمعوا هذا السؤال آلاف المرات، وليس لديهم جواب عنه، لا يعرفون كيف يدارون هذه المرأة وكيف يصرفونها. أما الأجانب الذين كان يخرجهم السؤال، بين فترة وأخرى، عما هم فيه، فلا يفهمون ما تقوله العجوز، ولا يعرفون إن كان الكلام موجهاً إليهم أم إلى غيرهم، خاصة وأن النظرة الأولى لوجه المرأة توحي بالحذر وما يشبه الخوف، حتى إذا صرخ في وجهها ابن الراشد:

ـ يا بلية كفي شرك ـ الجماعة ما يعرفون الخوش وما عندهم علومه.

قامت أم الخوش، اقتربت من ابن الراشد، نظرت إليه باستهزاء، ثم نظرت إلى الضيوف الثلاثة الذين تحركوا إلى الوراء حركة لا شعورية نتيجة الخوف وفيما يشبه الدفاع عن النفس. كانت نظرتها إليهم متفحصة متهمة، ولقد استمرت فترة غير قصيرة، والسكون يمتد ثقيلاً منذراً فوق الجميع، حتى إذا ضاق ابن الراشد ذرعاً وتوقع شراً صرخ بأحد رجاله:

ـ خذوا البلية من وجوهنا.

وبحركة عصبية أزاحت أم الخوش يديها إلى الخلف، كأنها تحاول أن تفلت من أيدٍ وهمية تصورت أنها ستطوقها، ونظرت بنصف وجهها إلى اليمين ثم إلى اليسار، وبهدوء تراجعت بظهرها إلى الخلف بخطوات صغيرة، لكن ظلت تصوب عينيها بحقد واستهزاء إلى ابن الراشد، وما كادت تبتعد خطوات أخرى حتى بصقت على الأرض وقالت:

ـ سيحترق هذا الوادي. . وأنت أصل البلاء.

ولكي يبقى ابن الراشد مسيطراً، وفي محاولة لأن يكتم انفعالاته، قال وهو يضحك بعصبية:

ـ خذوا الحريمة. . خذوها.

يتذكر الرجال الذين كانوا في المضيف هذا الذي وقع، ثم يتذكرون أم الخوش كيف بدأت تذرع الوادي، وتتكلم بتلك الطريقة الصاخبة، وحين تتعب من ذلك تختار مكاناً قريباً من مضافة ابن الراشد، لكن دون أن تقترب إلى الدرجة التي تعرّضها للإهانة أو الطرد، لعلها تظفر بسؤال هؤلاء الأجانب إن كانوا قد رأوا الخوش أو سمعوا عنه شيئاً. لكن ابن الراشد

الذي داخله الخوف أن تتصرف أم الخوش تصرفاً قد يسبب أذى لهؤلاء، ثم الحذر الذي بدا من الأجانب أنفسهم، وابتعادهم قدر ما يستطيعون عن هذه المرأة «الشريرة»، منعاها تماماً من طرح ذلك السؤال أو الظفر بجواب عنه!

بعد أن انشغل الوادي أياماً بالأجانب الثلاثة، وظلت الأسئلة والهواجس تدور مثل زوبعة الصحراء، ما دام هؤلاء موجودين، ثم بعد رحيلهم بفترة قصيرة، بدأت الحياة تعود إلى سابق عهدها، إذ أخذ الوادي يتطلع إلى هذه الجهة ويتطلع إلى الجهة الأخرى منتظراً وصول القوافل والمطر والمسافرين، لكن الهاجس الملعون الذي توارى في قلوب أكثر الناس برحيل الأجانب، ظل يرفع رأسه ويلح على اثنين: أم الخوش ومتعب الهذال.

لقد تأكدت أم الخوش بعد رحيل الأجانب أنهم ما جاءوا إلاّ ليبلغوا الوادي أمراً متعلقاً بالخوش، ولهذا السبب أبعدوها عنهم، لم يتركوا لها فرصة لكي تسألهم وتعرف، وإلا لماذا بدا الفزع على وجوههم عندما اقتربت منهم في مضافة ابن الراشد وصمتوا حين سألتهم؟ هل قتلوه وجاءوا لكي يصالحوا على دمه؟ وإذا كان هناك من يصالح بعد رحيل عبد الله المكتوم فليس غيرها، لكن لم يسألها أحد، لم يتكلم معها أحد. وحتى لو لم يكونوا هم القتلة فلا بد أن يعرفوا الشيء الكثير عنه! ثم ألا يحتمل أن يكون الخوش قد أصبح غنياً ويملك الشيء الكثير وأرسل هؤلاء لكي يبلغوا وادي العيون أين هو وكيف أصبح؟ ولو قال هؤلاء شيئاً عن الثروة التي يملكها الخوش ألا يجب أن تعرف؟ أليست أمه وأرضعته من صدرها؟ وهم، من يعرفه مثلها ومن يحبه مثلها؟ ولماذا يتقاسمونه وهو حيّ ولا تدري؟

كانت متأكدة أن شيئاً ما قد أصاب الخوش. كان ابن الراشد والسحيمي وعبد الله المعيوف يمازحونها من قبل. كانوا يقولون لها «اصبري.. الصبر مفتاح الفرج، باكر يجي الخوش ويعرّس وتفرحين، وكل وادي العيون يفرح.. بس وكلي الله!» كانوا يقولون هذا ويقولون أكثر منه. وفي أحيان أخرى كانوا يمزحون ويسألون، إذا كانت تنوي الزواج بعد

عودة الخوش، فإذا قلبت شفتيها دلالة السخرية والاستنكار كانوا يقولون بتأكيد «سوف تحنين يديك ورجليك، وسوف ترقصين سبعة أيام وسبع ليالٍ، وحتى لو جاء الخوش ومعه حريمه راح تظلين وراه حتى تزوجيه مرة ثانية!» وحين تسمع مثل هذه الكلمات تطوف في رأسها الصور والخيالات فتفرح، تبتسم، تتطلع إلى البعيد، تحس بنشوة، لكن فجأة ترتعش وتعود بسرعة، تتطلع إلى وجوه الذين يكلمونها، تتطلع إليهم بتلك الطريقة الوحشية، وكأنها تريد أن تكتشف ما وراء الكلمات التي تسمعها. والرجال الذين يديرون وجوههم بسرعة، خشية أن تلتقي نظراتها بنظراتهم، كانوا يخافون تلك العيون.

أما الآن، في مضافة ابن الراشد فكان السحيمي والمعيوف وآخرون، لم يتحرك أحد منهم حين حاولت أن تسأل الأجانب الثلاثة، تركوا ابن الراشد يطردها كما تطرد الكلاب. نسوا الكلمات التي كانوا يقولونها لها. نسوا أيام كان عبد الله المكتوم حياً، ونسوا الخوش تماماً. لا . . . إنهم لم ينسوا شيئاً، لكن الشياطين الثلاثة جاءوا ليقولوا لهم أن الخوش مات، أو أنه لا يريد أن يعود. لو أنهم أبلغوهم بشيء آخر لقالوه لها، يمكن أن توافق على أن يبقى حيث هو، وأن يتزوج، أما إذا بقي فقيراً فقد كان أبوه قبله فقيراً، الفقر لا يشين أحداً. تحملت الكثير، ولا تزال قوية وقادرة على التحمل. وإذا كان قد مات فمن دفنه؟ وأين دفن؟ ولماذا لا تعرف؟ هل يبدو هؤلاء الشياطين إنهم هم الذين قتلوه أو يعرفون من قتله. . ؟ كانوا يدفعون الليرات الرشادية والإنكليزية ثمناً لقطع صغيرة من القماش وبعض الصناديق المصنوعة من سعف النخيل. . هل هم مجانين ليدفعوا كل هذه الفلوس لو لم يكونوا قد قتلوه؟

قال الكثيرون من أهل الوادي «المرأة ودّعت. كان فيها رجاء قبل فترة. . أما اليوم. . . ».

ويمد أحد الرجال يده إلى فمه حين يسمع هذا الكلام، يضع الإبهام على الأسنان الأمامية العليا ثم يسحبه بسرعة دلالة على أنه لم يبق شيء.

وأم الخوش التي أصبح ينظر إليها هذه النظرة أخذ يتجنبها الكثيرون،

يديرون وجوههم إذا مرت، يصمتون إذا جلست في مكان قريب. ولم يتردد البعض في أن يطلب من الصبية، وقد جرى ذلك بشكل خفي، أن «يسرحوا» بها! والصبية الذين كانوا يبدون التردد، وبعض الأحيان الخوف أن يسيئوا إليها خلال الفترات السابقة، خشية تأنيب الكبار وعقابهم، أصبحوا الآن شديدي الحماس لتنفيذ ما يُطلب إليهم. كانوا يتفننون في اختراع عشرات القصص والحيل، لكي يبعدوها عن الرجال، وعند ذاك لا يتركون طريقة أو كلمة لإثارتها: «الخوش رجع. . رأيناه عند العين» «جاءت قافلة والرجال هناك يسألون عن أم الخوش».

إن ما جرى في هذه الفترة بمقدار ما يثير الضحك، والذي لا يمكن مقاومته، خلّف أحزاناً لا نهاية لها، لأن المرأة التي تركض مثل كلبة لأية كلمة تتعلق بالخوش، تصدق كل ما يقال لها. وتبدو في حالات كثيرة أقرب إلى الأطفال في ابتساماتها وركضها، حتى إذا اصطدمت بالفراغ، بوحشة الأمكنة، باللاشيء، اقتعدت الأرض وبدأت تبكي. كان بكاؤها يقطع القلوب، يسحقها، والأطفال الذين تسببوا في كل ذلك، كانوا يركّضونها ويركضون معها، وهم يضحكون ويصرخون، حتى هؤلاء أو بعضهم يصاب بحالة من الألم والانفعال حين يرونها قد انهارت وأصبحت كومة من النشيج.

الرجل الوحيد، أو من الناس القلائل، الذي استمر على نظرته وموقفه، لا بل زاد عطفاً عليها هو متعب الهذال. أصبح يتعمد أن يكون قريباً منها أغلب الأحيان، لكي يمنع عنها الأذى، ويطرد الأطفال، ولكي ينقذها من حالة الانهيار التي تهدّها إذا سقطت في موجة البكاء والنحيب.

كان يقول لها كلمات طيبة لكي يعيدها إلى حالة من التوازن، وبعض الأحيان يربت على ظهرها طالباً منها أن تكف عن هذا البكاء الذي لا يليق بها، وكان يقول لها أن الخوش نفسه لو رآها على هذه الحال لا بد أن يستبد به الغضب، وشيئاً فشيئاً تكف وتهدأ، ثم لا تلبث أن تعود إلى حالة من الصفاء فتتكلم كلام العقلاء وتستمع إلى ما يقال، وقد تتذكر الأشياء القديمة وبعض الأشعار فلا تتردد في أن تقولها.

لم تخطئ توقعات هديب ولم يخب أمل متعب الهذال، إذ سقطت على وادي العيون وعلى المناطق المجاورة أمطار مبكرة وغزيرة، فتفاءل الناس وفرحوا، وتوقعوا أن تكون هذه السنة من سنين الخير. وقد زاد في التفاؤل أن القوافل التي وصلت الوادي في أواخر أيام الخريف، ثم بعد ذلك، أكدت أن الأمطار وقعت على مسيرة أيام، وأن الأودية سالت والغدران امتلأت، وقد عزّز التفاؤل أن أسعار بعض المواد التي حملتها القوافل لم ترتفع، كما هي العادة كل سنة في مثل هذا الوقت. أما الجو فقد أصبح أقرب إلى البرودة المنعشة، امتلأ الهواء بالرطوبة، وأصبحت الريح الخفيفة التي تهب من جهة الغرب والشمال، في بعض الليالي، تحمل معها رائحة الخصوبة، وتخلق في الجسد والروح معاً حالة من العنفوان. كان هذا يظهر واضحاً في كل شيء، في الإنسان والحيوان وحتى في الطبيعة القاسية الجامدة. وتتذكر وضحة أن شعلان، لأول مرة، قال لها أنه يريد أن يتزوج، لكنه لم يلح ولم يتشبث، ورغم أنها لم تجبه بوضوح، فقد ضحكت من الفرح، وأكدت أنها حالما تفرغ من هديب، الذي أتعبها ولم يقتنع ولم يوافق بعد، سوف تتفرغ له، وسوف تختار له أجمل فتاة في وادي العيون، فإذا لم تعجبه أية واحدة منهن فلن تتردد في الذهاب إلى عجرة، وسوف تستعين هناك بقريباتها.

أما متعب الهذال الذي تغيّر كثيراً، خاصة بعد الأمطار الغزيرة، فقد أصبح يقضي يومه كله في البستان الصغير الذي يملكه، رغم أن لا عمل له فيه، ورغم أن وجوده أو غيابه لا يغيّر شيئاً، لكن كان يروق له أن يرقب قطرات الماء وهي تنحدر إلى باطن الأرض، حتى إذا استقرت هناك،

بدأت بجنون تفعل أشياء لا يصدقها العقل ولا يستوعبها الإنسان. فبعد أيام قليلة من وقوع الأمطار، وكما قال متعب الهذال نفسه، اهتزت الأرض اهتزازاً موصولاً، أقرب إلى الارتجاف، وبدأ باطن الأرض يتدفق إلى خارجها. قال هذا بحمى وهو يتحدث إلى هديب، بعد أن رأى كثيراً من البذور التي نثرها قبل أسابيع، وقد بدأت تندفع من داخل الأرض بقوة وترفع رؤوسها الصغيرة، بل كانت تكبر في كل لحظة. وفي محاولة لأن يقنع هديب، ويعبر له عن الأحاسيس التي شعر بها في أوقات عديدة، خاصة ارتجاف الأرض، قال أن ذلك يشبه الالتحام بين رجل وامرأة، ويشبه لحظة النشوة التي يحس بها الإنسان.

ورغم أن متعب الهذال كان يعبر بصدق عما أحس به، فقد تعمّد أن يستعمل هذه الطريقة وهذه الأوصاف، في محاولة ماكرة منه ليحرض هديب على الزواج، كما اتفق مع وضحة على أن يفعل! أما عندما أسرّت في أذنه أن شعلان يريد أن يعرّس أيضاً، وقد حدثها في الأمر، فقد ضحك متعب بصوتٍ عالٍ، وقال إن بناء الغرفة الجديدة فأل حسن ويدل أيضاً على بعد النظر.

في هذه الفترة خيّمت حالة من الرضى على أهل وادي العيون كلهم حتى أم الخوش أصبحت أكثر هدوءاً، وقد أحس رجال القوافل بالأمر قبل غيرهم، وقبل أن يدرك أهل الوادي ذلك. وابن الراشد الذي كان لا يوفّر أحداً من تعليقاته ولسانه اللاذع، والذي قال في أكثر من مكان أن متعب الهذال انتهى، ولم يبق أمامه إلا أن يسرح بالغنم، ما لبث أن قام بزيارته في البستان أولاً ثم في الظهرة بعد ذلك، وقد بدا خلال الزيارتين ودوداً طيباً، فلم تخرج منه أية كلمة يمكن أن تفسر على أنها تعريض، بل وبدا لكثيرين أن العلاقة بين الاثنين أقوى وأمتن مما تصوروا أو افترضوا. أما عندما جاء ذكر الأميركان عرضاً فقال بنوع من الضيق:

ـ أيام وراحت يا أبو ثويني، تنذكر ما تنعاد.

وأشار بعد ذلك، بأكثر من طريقة، إلى أنه لو تُرك وادي العيون وشأنه

لعاش بسلام ورضا، ولظل محطة أساسية في الطريق لا غنى عنها لأكثر القوافل.

وفي هذه الفترة أيضاً وافق هديب على أن يتزوج. لقد عبّر عن هذه الموافقة بطريقة غير مباشرة، قال أمام متعب ووضحة أنه لا يعترض على فكرة الزواج، ويمكن أن يتزوج غداً أو بعد غد، إذا وجد بنت الحلال التي تناسبه. ووضحة التي اعتبرت هذه الموافقة كافية، قالت لتحسم الأمر:

ـ اترك بنت الحلال عليّ.

وضحكوا ثلاثتهم وبدأت هي تستعرض في ذاكرتها المرشحات واحدة بعد واحدة، وما زالت توافق وتستبعد وتتردد، إلى أن تقدم الليل، فتركت الأمر للغد لكي تتابعه.

حتى متعب الهذال الذي قضى فترات طويلة يرقب الأشجار والزرع، وانقطع عن القوافل ومضافة ابن الراشد، أحس أنه لم يعد بحاجة إلى الأخبار، وإن الأخبار لو تأخرت عليه يوماً أو اثنين فلن يغيّر ذلك شيئاً. أما حين بعث ابن الراشد يعاتبه، ويذكّره أنه زاره مرتين، وأن انقطاعه الطويل عن المضافة لا يمكن أن يفسّر أو يفهم من الآخرين على أنه موقف ودي، فقد رد عليه مع شعلان أن الذي يؤخره هو الزرع فإذا نما واستوى فسوف يزوره.

استمرت الأمور هكذا من مطلع الخريف إلى منتصف المربعانية، وقد تأكد تماماً خلال هذه الفترة أن المياه ستكون كثيرة، وستصل إلى نهاية الوادي، فالقناة الشمالية سالت من الأمطار، والعشب ملأ الفلاة كلها، أما الحيوانات فقد انتفخت وتوقع الكثيرون أن تلد الشياه اثنين اثنين، أما الكلاب فقد أصبحت تسلية للكبار والصغار معاً وهي تتعارك وتتهارش ثم تتجامع فتستعصي! وفواز الذي ذكر أباه بوعده، طالباً منه بأن يسمح له بالسفر في فترة قريبة، فقد رد عليه في إحدى الليالي وكان المطر كثيفاً متواصلاً، قال وهو يقلب القهوة في محماسه:

ـ يا وليدي تنتظر إلى أن يعرّس أخوك، ونحصد الشعير وبعدها الله كريم.

ولما أراد فواز أن يعترض، وقد بدا ذلك من نظرته، رد أبوه وهو يضحك:

ـ الخان ضاق باللي فيه، والجماعة فوق بعضهم من أيام، يخافون من السفر والسيل، وأنت تريد تسافر؟

وبإشارة خفية، لكن شديدة التأثير، رغم أنها دون كلمات، غمز هديب بعينه، طالباً من فواز أن يؤجل الموضوع، وأنه سيتولى عنه ترتيب كل شيء، فأخذ الحديث مجرى آخر وتأجل السفر وتأجلت أمور أخرى كثيرة.



في الأيام العشرة الأخيرة من المربعانية، وعلى حين فجأة، دون توقع أو انتظار، وصل إلى وادي العيون ذلك الأميركي الذي سافر قبل شهور طويلة، وصل ومعه أربعة آخرون وعدد من رجال الأمير. كان متعب الهذال قد سمّاه النحس، وسمّاه آخرون الغراب، أما هذه المرة فقد جاء باسم جديد: عبد الله. لا أحد يعرف من أعطاه هذا الإسم أو لماذا. كان رجال الأمير يسمُّونه بهذا الإسم، وكان هو إذا تحدث إلى أحد أو سأله أحد أي سؤال يدق على صدره مرة أو مرتين ويقول: «عبد الله. . عبد الله!».

خلال أيام قليلة تغير كل شيء في وادي العيون: البشر والطبيعة والحيوانات! فما كاد هذا الأميركي ورفاقه يمضون بضعة أيام حتى وصل إلى الوادي عدد كبير من الناس. بشر بأشكال وألوان لا تخطر على بال، فيهم القصير المليء الأحمر الشعر، والطويل الذي يستطيع أن يمد يده ويقطف الثمر. فيهم الأسود الذي يشبه الليل، وفيهم الأشقر والأحمر، أجسامهم تشبه الخراف المذبوحة، عيونهم زرق، وأشكالهم تدعو إلى الخوف والتساؤل. جاءوا على الجمال والخيل، وجلبوا معهم أشياء لا حصر لها من الصناديق والأحمال والخيام، وخلال فترة قصيرة، غير بعيد عن نبع الماء، أنزلوا الصناديق والأحمال ونصبوا الخيام. وبدا المنظر الذي

تكوّن خلال ساعات قليلة أشبه ما يكون بالحلم، ومتعب الهذال الذي لم يفطن للأمر بسرعة، لأنه كان في البستان، انتفض وهو يسمع ما يقوله الآخرون، ثم اصفر لونه، وفي لمح البصر هرول إلى العين، إلى مضافة ابن الراشد، ليعرف أي شيء حصل في وادي العيون.

كثيرون يتذكرون لحظة وصوله، يتذكرون كيف كان يرتجف مثل سعفة، وكيف كان ينظر كذئب، أما وهو يرقب إقامة المعكسر فقد كانت الشتائم تتساقط على رؤوس الناس كما يتساقط المطر. كان يريد أن يحطم وأن يدمر، لكن الكثيرين منعوه.. وقال الكثيرون في وقت لاحق:

ـ كان متعب الهذال على حق... نعم كان على حق!



ما كاد المعسكر يقام، والأحمال تنزل وتنظم، والرجال يخططون الأرض، ويقيمون سياجاً من أسلاك، ووراءه أخشاب بيضاء قصيرة، ثم ينثرون مواد غريبة حول الخيام، ويرشون الأرض بماء له رائحة نافذة، حتى بدأوا يفتحون صندوقاً خشبياً ويخرجون منه قطعاً حديدية سوداء، وخلال فترة قصيرة أخذ صوت، يشبه الرعد، يهدر من هذه الآلة، ففزع البشر والحيوانات والطيور، وبعد عدة دقائق من الهدير والدويّ رفع أحد الأميركان يده مشيراً إلى آخر فهمد صوت الآلة، وخلّف في الآذان دوياً قوياً ظل يطن فترة طويلة من الزمن.

ما كاد هذا يتم، وبطريقة سريعة تشبه لعبة يؤديها السحرة، والناس يراقبون كل ما يجري بصمت وخوف، حتى بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وبدا أن وادي العيون يعيش ليلة لم يعش مثلها من قبل. لكن ما إن بدأت أصوات الحيوانات تملأ ساعة الغروب، حتى هدرت تلك الآلة من جديد، وبصوت أفزع الجميع، ورافق هديرها هذه المرة أضواء قوية تخطف الأبصار، وخلال فترة قصيرة اشتعلت عشرات الشموس الصغيرة القوية، وامتلأ المكان بنور لا يمكن للإنسان أن يتصوره أو يتحمله. تراجع الرجال والصبية ونظروا إلى الأضواء مجدداً ليتأكدوا أنهم لا يزالون يرونها،

نظر بعضهم إلى بعض بخوف وتساؤل. أما الحيوانات التي كانت تقترب تلك الأثناء فقد تراجعت بذعر، فهجّت الجمال، واضطربت الغنم. قال متعب الهذال الذي كان يقف غير بعيد عن المكان، قال بصوت قوي ليتغلب على الخوف وعلى صوت الآلة:

- ارجعوا يا أهل وادي العيون.. إذا لم ترجعوا حرقتكم النار وما بقي منكم أثر.

هذه الذكرى التي تبدو باهرة، غير ممكنة التصديق، في بداية الأمر، تحولت مع الأيام إلى شيء عادي، لأن الرجال الذين ظلوا فترة من الزمن صامتين يرقبون كل شيء بذعر ممزوج بالترقب، ما لبثوا أن تعودوا، وتجرأ ابن الراشد وسأل الغراب ليشرح له كيف تولدت هذه الأضواء وهذا الصوت، ورغم أن الشرح طال وتخللته تفاصيل كثيرة، لم يستطع أحد أن يفهم شيئاً.

توقع الناس وانتظروا حصول أشياء كثيرة في الليلة الأولى، مثلما توقع الإنسان الرعد بعد البرق، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث. وانقضت هذه الليلة، وانقضت ليالٍ بعدها والخوف لا يزال قوياً في القلوب، إلا أن الحركة الغامضة التي بدأت في كل مكان لم تترك مجالاً لسؤال بعينه، لأن كل حركة، وكل سكنة لا بد أن يعقبها شيء ما. وهؤلاء الأجانب الذين يتحركون ويصخبون، ويرفعون أيديهم بإشارات كثيرة، ويتصرفون بغرابة غير مألوفة، لم يحسوا بوجود الناس حولهم أو باستغرابهم، كانوا في انشغال كامل عنهم. وفي اللحظات القليلة، خلال الحركة والانتقال من مكان لآخر، وحين يصطدمون بالرجال والأطفال، يمدون أيديهم إلى الأكتاف يرتبون عليها أو إلى الخدود يداعبونها. كانوا بهذه التصرفات وكأنهم يداعبون حيوانات أو مخلوقات غريبة.

كل الذين رأوا متعب الهذال في الليلة الأولى لاحظوا إصراره على الجميع أن يبتعدوا عن المكان، وأن يظلوا منتبهين طوال الليل، إذ لا بد أن يحصل شيء ما قبل أن يطلع فجر اليوم التالي. كما أصر أيضاً على أن يبعد الأطفال والنسوة، ويخرجوا إلى الظهرة. أما هو فقد ظل متوقعاً في كل

لحظة أن يتفجر المكان، ويخرج منه هؤلاء، بعد أن يسدوا المنافذ، شاهرين أسلحتهم في محاولة لأن يقتلوا جميع الناس.

لقد رأى متعب الهذال رأي العين أشياء عديدة غامضة حصلت وراء الأسلاك، ونبه عدداً من الرجال إلى ذلك، وظل طوال الوقت شديد الانتباه والحذر، لأن شخصاً طويلاً أسود كان يترقب وينتظر اللحظة المناسبة لكي ينقضّ ويقتل ويفتك، إلا أن عيني متعب الهذال اللتين لم تعرفا النوم ولم تغمضا لحظة واحدة، فوتت على ذلك الشخص أن يفعل شيئاً، لكن في غبش الصباح لم يعد يرى الشخص نفسه، وإنما رأى مكانه، أو إلى جانب المكان الذي كان فيه، عموداً!

كيف استقبل الرجال في وادي العيون هذا الذي حصل وكيف كان رد فعلهم؟ أية مخاوف وأية أوهام استبدت بهم؟ والناس في الظهرة هل كان وضعهم أفضل من الذين كانوا في الوادي؟

إن هذه الأمور وعشرات غيرها لا يمكن أن تروى بكلمات، لأن الكلمات تضعفها أو ربما تغيرها، فالخوف يزيد لحظة بعد أخرى، والتوقع يسيطر على الناس ويشلهم، والمفاجأة هي الشيء الوحيد الذي يتكرر بلا انتهاء.

بعد ثلاثة أيام من السهر والمراقبة، في الليل والنهار، دون نوم حقيقي، وبأقل قدر من الأكل والماء، رجع متعب الهذال إلى الظهرة إنساناً آخر. كان شخصاً جديداً تماماً: إذ بعد أن نزل عن فرسه، وبدا مترنحاً زائغ النظرات، وفي حالة من الأعياء الشديد أو ربما المرض، سقط عند باب البيت، ولم تجد محاولات زوجته في أن تقيمه من مكانه، فأتت له بفراش ومساند، لكي ينام ويرتاح. أما محاولاتها إقناعه بأن يغسل وجهه ويتناول فنجاناً أو اثنين من القهوة فقد انتهت دون جدوى، لأنه بمقدار ما كان رافضاً مصراً كان خائر القوى ضعيفاً، وبدا في أشد حالات الحزن والإعياء، وكأن الدنيا في نهايتها. أما حين بدأ يتكلم فقد كان أشد ما يكون وعياً وبأساً «يقولون: يوم القيامة؟ اليوم هو يوم القيامة. يقولون: إذا مشى الحديد على الحديد؟ اليوم رأيت الحديد يمشي على الحديد!» وبعد أن

يتوقف ليفكر يتابع بنبرة أشد: «كان علينا أن نفعل شيئاً منذ وقت طويل يا وضحة، منذ أن جاءوا أول مرة. عرفت أنهم سيرجعون، وأنهم سيفعلون أشياء لا يفكر بها إنس أو جان. جاءوا. رأيتهم بعيني. في مثل لمح البصر أطلقوا عشرات الجن والعفاريت. وهذه العفاريت تتوقد وتهدر في الليل والنهار، إنها أشياء مثل رحى الطاحون تظل تدور وتدور دون أن تتعب ودون أن يديرها أحد. ماذا سيحصل في هذه الدنيا؟ وكيف سنقضي عليهم قبل أن يقضوا علينا؟».

بدا موقفه أقرب إلى العناد والبلاهة، وبدا أنه لا يليق بعمره ومنزلته، فإذا كان الأمر أمر قوة فإن أهل وادي العيون والظهرة من الكثرة والشراسة إلى درجة أن أحداً لا يفكر بالاعتداء عليهم أو غزوهم. أما إذا كان الأمر متعلقاً بالذكاء ورجاحة العقل فإن مضارب العتوم والسحيمي والمرزوق والروضان لا تخلو بين أسبوع وآخر من متقاضين جاءوا من أماكن بعيدة، راضين مختارين، أن يكون واحد من أهل العيون حكماً بينهم. وإذا كان الأمر متعلقاً بهؤلاء الغرباء، الذين جاءوا إلى الوادي، ونصبوا الخيام يريدون الإقامة، فلا بد أن توجد طريقة ما لإجلائهم أو التفاهم معهم على الماء، خاصة وإن رجال الأمير معهم هذه المرة، وليس الحال كما كان حين جاءوا أول مرة.

في الهزيع الأخير من الليل، سيطر حلم ملعون على متعب الهذال وأرقه فاستيقظ مرعوباً، ودون أن يكلم أحداً التقط بندقيته وبخفة ركب فرسه ونزل إلى الوادي.

لم تحدث جريمة قتل في تلك الليلة، أو في الليالي القليلة التي تليها، لأن حالة الذهول في البداية، ثم حالة الانتظار بعد ذلك، جعلت كل شيء مؤجلاً. ومتعب الهذال الذي لم يتعود أن يحمل بندقيته إلا نادراً، إذا كان على أهبة السفر أو إذا سمع صوت ذئب قريب من الغنم، وفي لحظات التحدي، والتي قليلاً ما تقع، جعل وضحة شديدة الخوف حين رأته يحمل البندقية ويخرج، ليس لأنها بطبيعتها تخاف من هذه المشاهد شأن أغلبية النساء، وتؤثر السلامة على أي مكسب، وإنما لأن الحالة التي كان عليها متعب الهذال جعلتها شديدة الحذر ثم الخوف، قالت لفواز الذي استيقظ على ضجة أبيه، بحزم أقرب إلى الأمر:

ـ اذهب وراءه. لا تتركه، ولا تجعله يراك أو يحس بك. . .

وتغيرت نبرتها:

ـ قد يحتاج إليك.

كانت وضحة قادرة على اتخاذ القرارات الضرورية في أوقاتها، وإن بدت امرأة مسالمة، حتى ليظن من يراها أنها لا تستطيع شيئاً. وكلماتها القصيرة الواضحة في عتمة الليل الأخيرة، جعلت فواز قوياً، لكن عصبياً أيضاً، ودون أية كلمة وبلا انتظار تبع أباه.

على غير عادته نزل متعب إلى الوادي سالكاً أطول الطرق وأصعبها، وكأنه باختياره ذلك الطريق أراد أن يرى المشهد كله، فبعد أن رأى المعسكر من ناحية الظهرة، أمعن النظر بالوادي والتلال المحيطة يريد أن يراه من الناحية المقابلة، أو ربما كان يخشى أمراً، ويضمر شراً، قال فواز لنفسه «إذا أطلق النار يشتعل الوادي كله، لن نكون وحدنا، لأن أهل

الوادي لا يتركون الإنسان يحارب وحده، إنهم يحاربون معه حتى النهاية، وبعد أن تنتهي الحرب يسألون لماذا حاربوا» لقد سمع مثل هذا الكلام مرات كثيرة، روى ذلك المسنون والشباب، والصغار الذين لم يروا حرباً ولم يعيشوا في تلك الزوابع التي يتحدث عنها الكبار، كانوا في شوق لأن يروا شيئاً من ذلك. أما حين أفلتت كلمات من أفواه الفتيان والصغار عن هؤلاء الكفرة وضرورة قتلهم، فقد نظر الكبار إلى الصغار نظرة مستغربة أقرب إلى التأنيب، مؤكدين أنهم لا يخافون، لكنهم لا يستطيعون أن يرفعوا سلاحهم في وجوه الأصدقاء، وما دام الأمير قد أرسل هؤلاء فهم أصدقاء إذن. صحيح أن أحداً لم يشعر بالراحة لمجيئهم، ودخلت الوساوس والظنون إلى كل عقل وكل قلب، لكن لم يفكر أحد أيضاً أن يرفع السلاح. أما الآن ومتعب الهذال يخب في الظلمة والبندقية على كتفه فلا بد أن يقع أمر غير عادي.

لم يكن متأكداً من شيء، ولأنه بدا متردداً مأخوذاً، وكأنه لا يصدق، فإن الدروس الأولى التي يتعلمها الإنسان في الصحراء، أن لا يهدد بالسلاح، أن لا يمزح به، ليس لأنه يخاف السلاح وإنما لأنه يحبه إلى درجة لا يقبل أن يكون وسيلة للتهديد أو المزاح، هذه الدروس تتبدد وتضيع، وكأنه لا يعرفها. كان متعب الهذال ينهر أولاده، أو أي إنسان آخر في وادي العيون، حين يراه يحمل سلاحاً ويوجهه في هذا الاتجاه أو ذاك وهو يمزح. قال لشعلان مرة: «لا تلعب بالسلاح أبداً، لأن من يلعب به مرة يلعب به كل مرة. والناس الذين يهابون السلاح الذي يقتل، والرجل الذي يقتل، لا يهابون ولا يحترمون الرجل الذي يلعب بالسلاح». وقال له مرة ثانية «إذا رفعت السلاح فاضرب.. أو لا ترفعه أبداً».

في ظلمة الفجر، وهو يخب حاملاً سلاحه، ثم بعد ذلك الانتظار الطويل، عند نهاية الوادي، وهو يربض في مكان وابنه يربض في مكان آخر، والمكانان لا يبعدان عن بعضهما أكثر من مائة متر، وحصانه إلى جانبه، وبين فترة وأخرى يرفع سلاحه، يصوبه إلى المعسكر، ثم ينزل السلاح، ويبدو في نزوله منكسراً ذليلاً، حتى إذا رفعه في المرة التالية،

ربما بتصميم أكبر، كان بعد ذلك ينزله بذل أكبر. وما زال يرفع بندقيته وينزلها، يجلس ثم ينهض، يغير من وضعية الرمي مرة بعد أخرى، ولا يفعل شيئاً، حتى إذا ارتفعت الشمس وملأت الدنيا، لم يعد فواز يتوقع أن يفعل أبوه شيئاً، كما لم يعد قادراً على أن يظل مختبئاً، فما كاد ينهض من مخبئه ويصرخ منادياً على أبيه، وما كاد يلتفت ويراه حتى أصابته حالة من الفزع والارتباك. كان يود، في تلك اللحظة، لو تنشق الأرض وتبتلعه، لو يموت، أو لو يطلق النار على نفسه أو على حصانه أو على المعسكر. أما حين تقدم فواز من أبيه فقد رآه مصفر الوجه، زائغ النظرات، وكانت شفته السفلى ترتجف من العصبية والانفعال. وكانت يده تزحف بسرعة على ماسورة البندقية صعوداً وهبوطاً، وهي أقرب إلى التشنج. لم يكن في تلك اللحظة مستعداً لأي حديث، حتى عندما سأله فواز إن كان رأى ذئباً أو عدواً، فقد حرك رأسه دلالة النفي، دون أن يتكلم، لكن قالت عيناه أكثر من اللوم وأقسى من العتاب. قالت عيناه «باطن الأرض خير من ظاهرها، ولا أريدك أن ترى ضعفي.. أن تراني هكذا».

بعد وقت غير قصير والصمت يقف قوياً قاسياً بين الاثنين، عدا حركات متعب العصبية في رحلة يائسة على ماسورة البندقية، خرج صوته متعباً:

ـ هل ورّدت الحلال؟

لم ينظر إلى ابنه حين سأله وهو يسمع إجابته، قال الشاب:

ـ اليوم دور شعلان وإبراهيم.

رفع متعب، لأول مرة إلى ابنه، عينين حزينتين مليئتين بأسئلة خرساء: منذ أي وقت أنت هنا تراقبني؟ من الذي طلب إليك أن تأتي وما الذي جاء بك في هذه الساعة؟

ومن جديد تراجعت نظراته وهو يخفض رأسه. كان حائراً متعباً، كان يريد أن يقول أشياء كثيرة، وكان يريد أن يبقى صامتاً.

وإذا كانت ثمة لحظات يشعر الإنسان فيها أنه عارٍ، أو أنه يرتكب إثماً، ولا يريد أحداً أن يرى عريه أو يراه وهو يرتكب الإثم، في مثل هذه

اللحظات يكون الإنسان قاسياً ومجنوناً تجاه نفسه وتجاه الآخرين. قال لفواز بقسوة أقرب إلى الجرح والإهانة:

ـ خذ البندقية وارجع إلى الظهرة.

وبفظاظة ودون انتظار، أخرج الطلقة وسحب المشط، ثم رمى إليه البندقية، كما يرمي عصا. سقطت البندقية بين ساقيه. تركها برهة قبل أن يلتقطها، تابع متعب الهذال وهو يستدير:

ـ يلله.. خذها واغرب من وجهي.

أحس فواز، تلك اللحظة، أن أباه انتهى، أنه سقط في بئر عميقة لا قرارة لها، وإنه لا يريد أن يرى بشراً أو يسمع صوتاً، حتى فرسه التي كانت في الظل إلى جانبه، وبدت وديعة مستأنسة، وكأنها لا تريد مفارقته أبداً، بدا وكأنه يضيق بها. ولا يريدها أن تبقى إلى جانبه، إذ ما كاد فواز يلتقط البندقية ويهم بالمسير حتى قال له بحدة:

ـ اربط الدهماء تحت ذيك النخلة.

وأشار دون أن يلتفت إلى نخلة بعيدة، ثم انقلب على جنبه، كأنه يدخل في ملكوت النوم والغيبوبة وربما الموت.



لم يعد متعب الهذال إلى الظهرة في اليوم الأول ولا في اليوم الذي يليه، وقد سبب غيابه مزيداً من الشعور بالإثم والخطأ لدى فواز، إذ لو لم يره هكذا، ضعيفاً يائساً، لأخذت الأمور مجرى آخر. لو فعل ما كان يدور في رأسه ربما اشتعل وادي العيون وتغيرت أمور كثيرة، أما الآن، لا يعرف أين أو إلى متى، فإن هذا الجرح في روح متعب الهذال لن يشفى أبداً.

ذكر بعض الناس أنهم رأوه مرتين قريباً من المعسكر. كان شديد الغضب، حانقاً، ولم يتردد في الوقوف وتوجيه الشتائم للأميركان يريد أن يستفزهم، لكن الذين سمعوا شتائمه رفعوا رؤوسهم للحظة، التفتوا إليه التفاتة سريعة ثم عادوا إلى ما كانوا به منشغلين. أما في المساء، وفي مضافة ابن الراشد فلم يترك شتيمة، ولم يوفر أحداً. قال إن الحريق بدا في

وادي العيون منذ أن جاء ابن الملعونة النحس أول مرة. كان على الناس أن يفعلوا شيئاً منذ ذلك الوقت، قبل أن يؤكل الأخضر واليابس، أما إذا ظلوا كذلك، إذا صمتوا وانتظروا فسوف يهلك الجميع. وقال للرجال أيضاً أنهم إذا لم يفعلوا شيئاً فسوف يتولى الأمر وحده. أما حين اقترح أحد المسنين أن يذهب وفد لمقابلة الأمير، فقد هزّ متعب الهذال رأسه دلالة السخرية، وقال:

ـ إلحق العيار لباب الدار. الأمير قريّب، لكن ما منه فائدة.

جرى مثل هذا الحوار مرات عديدة، وكان أغلب المرات حواراً يائساً، إذ لا ينتهي إلى نتيجة. فالحركة في وادي العيون وحوله لا تهدأ ولا تتوقف، وابن الراشد يبقى أياماً في الوادي ثم لا يلبث أن يغيب غيبات طويلة غامضة. وإذا كان متعب الهذال يشتم، يتحدى، يغلظ في القول لابن الراشد، فإنه كان يخاف من غيباته أكثر مما يخاف من وجوده ومحاولاته إقناع أهل الوادي أن يرحلوا. كان لا يعرف ماذا يدبر في هذه السفرات، وأية مصائب يمكن أن تحل بالوادي نتيجة زياراته للأمير أو غيره.

ظلت الأمور تراوح بين الأمل واليأس، بين الخوف والرجاء، إذا جاء طارش من هذه الجهة وانفرد به متعب الهذال، وسأله عما رأى وعما سمع، ينتهي إلى نوع من القناعة ينقلها بأسلوبه الخاص إلى أهل وادي العيون. وإذا جاء طارش من الجهة الأخرى ونقل أخباراً من نوع مختلف يحاول متعب الهذال أن يرى فيها أملاً، فإن وجده، عاش أياماً وقد تحول إلى إنسان لا يعرف كيف يستقر، كيف ينقل أحاسيسه إلى الآخرين. فإذا رجع بعد ذلك ابن الراشد، وأراد أن ينقل لأهل الوادي أخبار الشياطين الذين سيبدأون العمل بعد أيام أو أسابيع، هب في وجهه متعب الهذال، فلا يتركه حتى يفرغ ما في جوفه من شتائم وتهديد. وابن الراشد الذي يقابل متعب الهذال بموقف ضاحك ومليء بالمزاح والمداعبة، لا يلبث أن ينقل للناس أخباره واقتراحاته، مشيراً عليهم أن يكونوا حكماء وعاقلين فلا يضروا أنفسهم بأنفسهم، وعليهم أن يكفوا عن سماع هذا الشايب الخرف.

فإذا نقل لمتعب ما قاله ابن الراشد، مع بعض التعريض، كان يهدّ عليه في الليل أو النهار، ضارباً عرض الحائط بكل المجاملات التي تعودها الوادي سنين طويلة، وبطريقة مليئة بالخشونة والتحدي تبدأ تلك المبارزة التي يتابعها أهل الوادي بشوق بين الاثنين.

كان ابن الراشد يصمت، يكتفي بكلمة هنا وبكلمة هناك، رداً على ما يقوله متعب الهذال. فإذا زادت الأمور عن حد معين، كان يعرّض بمتعب، لكن بطريقة ساخرة، مع بعض التهديد الضمني. كان يقول له:

ـ يا ابن هذال، لا تخف، وكّل الله، حقك يصلك، وأنت تعرف: اللي عند الأجاويد ما يضيع.

فإذا رفض متعب الهذال أن يسمع، إذا سخر، كان ابن الراشد يغيّر لهجته:

ـ يا ابن هذال، أنت شيخ الوادي، أنت أعقل من فيه، ولازم تعرف أن الحكومة تتعامل مع الناس بالناموس أو الدبوس.

ـ وتهددني يا ابن الراشد؟

ـ يا ابن هذال، قلنا لك: الرأي رأيهم، ونحن عبيد مأمورين، وأنت بلشتنا بلشة حضران: ركوع وتسليم. ما خلصنا من سالفة، من قضية، إلا بدأت من جديد. يا ولد العم اترك هذه البلشة واترك الحكومة بهمها.

ـ وإذا ما تركتها يا ابن الراشد؟

ـ أول الغضب جنون وآخره ندم. . يا ابن هذال

ـ هذه ديرتنا، يا ابن الراشد، نعرفها، نعرف رجالها وحزومها، نعرف خبرها ومطاويها، وأنت أدرى من غيرك، والأحسن أن تعلّم الجماعة. . . هناك.

ـ يا ابن هذال، يا ولد العم، إن بغيت الفراق فاطلب ما لا يطاق.

ـ والله يا ابن الراشد كل بني آدم آخرته خرقة، وأنت تعرف ابن هذال.

وبطريقة ساخرة وخفية يضع ابن الراشد نهاية لهذا الحوار الذي لا يمكن أن ينتهي إلى نتيجة.

ـ الرسول مبلغ وغير ملوم يا أبو ثويني، وأنت تعرف: منك الصبر وعلينا الوفاء.

ظلت الأمور مضطربة قلقة لبضعة أسابيع، بعد أن أقيم المعسكر، وأصبح الأميركان يقضون وقت الظهيرة من كل يوم في الشمس مبطوحين على وجوههم، لا تستر أجسادهم سوى سراويل قصيرة. كانوا يفعلون ذلك غير مبالين بالناس حولهم من صبية ورجال، وكأن الواحد منهم داخل خيمة.

بدا الأمر شديد الغرابة، وقد أثار من الحنق والغضب الشيء الكثير، حتى ابن الراشد الذي كان يدافع عن عبد الله، ويبذل محاولات متعددة معه، ويؤكد له أن الناس لا يقبلون أن يروا الرجال على هذا الشكل، انتهت محاولاته إلى الفشل. وإذاكان الرجال قد استمروا بالمرور قرب المعسكر، وكذلك الصبية، فإن النسوة اللواتي تعودن الذهاب إلى العين، وجلب الماء، توقفن تماماً، واعتراهن ذعر حقيقي.

وبدا متعب الهذال بنظر الناس حكيماً وأكثر معرفة بما ستؤول إليه الأمور.

بدأت الهمسات ثم التحديات، ثم التفكير بذهاب وفد إلى الأمير «يا طويل العمر: نوافق على أن يأخذوا ماءهم من العين، لكن نموت ولا نوافق على أن ينزلوا على الماء. نساءنا يا طويل العمر، أعراضنا يا طويل العمر، وإذا أردتم أن تحلوا المشكلة حلوها.. وإذا ما أردتم نحلّها بأيدينا».

هكذا كان يجري الحديث في المضافات وبيوت الشعر، والرجال الذين شعروا بالجرح وما يشبه الخوف مما يرون، توجسوا شراً ومنعوا النساء من ورود الماء نهائياً، وكلفوا الصغار بذلك، لكن نبه عليهم أيضاً أن لا يتوقفوا وأن لا ينظروا جهة المعسكر.

كان متعب الهذال في الظهرة، كان بعيداً عن العين، وحتى لو كان قريباً لم يكن ليغير أقواله وقناعاته. أما الرجال الآخرون الذين كانوا يسكنون قريباً من العين، في بطن الوادي، وحول البساتين، فقد شعروا أن

الأمر أكثر خطورة مما قدروا في البداية، وأنه لا يحتمل تأجيلاً أو انتظاراً. خاصة وأن الذين جاءوا من طرف الأمير مع هؤلاء كانوا أعجز من أن يفعلوا شيئاً، كل ما يملكون أن ينقلوا ما يقوله الناس إلى المترجم، وكان المترجم أشد كبرياء وخشونة من الأميركان أنفسهم.

سيطرت حالة من الخوف على الوادي كله. أصبح الرجال أقرب إلى العصبية والنزق، وأصبح متعب الهذال شخصاً لا غنى عنه، فإذا غاب عن الوادي يوماً واحداً، لكي ينام في الظهرة، شعر الناس أنهم بحاجة إليه، وأنه وحده القادر على أن يقول كل شيء، وأن يعبر عن أفكارهم وما يدور في عقولهم ونفوسهم.

كانت الحيرة، في هذا الجو المضطرب الغامض هي السيد، فرغم كلمات الليل الكبيرة والتحديات، ثم الاتفاق والوعود، فإن للنهار سلوكه ومخاوفه وطريقته في التصرف، إذ ما يكاد اليوم الجديد يبدأ حتى يسيطر اتفاق ضمني بين الرجال على تأجيل الذهاب إلى يوم آخر، لعل شيئاً يحصل في ذلك اليوم وينهي هذا الكرب الذي يخيم على الوادي. أما إذا وصلت قافلة، فقد كان يرافق وصولها أخبار وأحداث تشغل الناس عما هم فيه، ثم تبدأ عمليات البيع والشراء والتبادل، حتى إذا جاء المساء انعقدت السهرات وبدأت الأحاديث والأخبار، لكن تظل قضية هؤلاء الأجانب الحديث الذي يطغى على كل الأحاديث، وكان يثير من الاهتمام بقدر ما كان يثير من التساؤل والخوف، ورغم أن المسافرين هم الذين كانوا يتولون الحديث، أغلب الأحيان، لأنهم سافروا ورأوا، ويمكن أن ينقلوا للآخرين شيئاً، فإن الرجال في وادي العيون يملكون الكثير الكثير ليقولوه، خاصة عن هؤلاء الشياطين الذين جاءوا فجأة ولا يعرف إلى متى سيبقون أو ماذا سيفعلون! وكان المسافرون يبدون اهتماماً كبيراً لأنهم سينقلون ما يسمعون إلى الأمكنة الأخرى وإلى الناس الآخرين الذين لم تصلهم بعد أخبار هؤلاء الشياطين.

كانت الأحاديث عن هذه المجموعة من الشياطين تبدأ محايدة عامة، ثم لا تلبث أن تصبح ذات ألوان واضحة شديدة القسوة، ويشترك فيها أكثر

الرجال، فتعطى لكل واحد من هؤلاء صفة تصبح اسماً، وهذه الصفات والأسماء التصقت بهم بسرعة فائقة. وإذا كانت العادة في وادي العيون أن تطلق الصفات على الكثيرين، وتأتي بالمعايشة الطويلة، وبعض الأحيان دون أن يقصد إليها أحد أو يتعمدها، فقد كان إطلاق الصفات أمراً ضرورياً لمواجهة الحالة الجديدة، وتمييز هذه المخلوقات التي بدت في الأيام الأولى شديدة الشبه، حتى ليصعب التفريق بين واحد وآخر، إلا أن المراقبة المستمرة والتدقيق الذي لا يتوقف ولا يتعب بهؤلاء وتصرفاتهم جعلت إطلاق الأسماء والصفات أمراً في غاية اليسر. «فالغراب» أو «ابن الملعونة» هو الاسم الذي سقط على ذاك الذي جاء أول الأمر، والذي تسمى فيما بعد باسم عبد الله. أما الآخرون فالأكحل والبطين والجربوع، والأفصع والمغزل والدجاجة وأبو الحصين، وغير ذلك من الأسماء. أما كيف تم اختيارها ومن أطلقها فلم يكلف أحد نفسه عناء البحث، حتى الصفات التي لا تنطبق بدقة على بعض هؤلاء، ما لبث أن أصبحت شديدة الانطباق وتكاد تكون وحدها الملائمة!

بهذه الطريقة كانت تجري الأحاديث وتروى القصص عن هذه المجموعة التي وصلت، رغم أن معظم أفرادها بعدما استراحوا فترة من الوقت أخذوا يقضون الجزء الأكبر من نهاراتهم في أعمال غامضة وبعيدة عن الأنظار والمراقبة، إذ كانوا منهمكين في داخل الخيام يرسمون ويكتبون، وكانوا بين ساعة وأخرى يحملون أوراقاً كبيرة من خيمة إلى أخرى، وبعض الأحيان يفرشونها على الأرض ويدققون فيها وقتاً طويلاً، ثم يمسكون بعصي صغيرة ويقيسون. كانوا يفعلون هذا غير آبهين بنظرات الناس الذين كانوا يقفون وراء السياج يرقبون كل حركة وكل سكنة. وكان الأطفال والصبية أكثر الذين يتابعون، ومع كل حركة يصرخون ويشيرون متوقعين أن يحصل شيء ما بعد ذلك.

كانت هذه الأحاديث تدور وتنتقل بسرعة من بيت لآخر، ومن خيمة لأخرى. والمسافرون في القوافل يستمعون باهتمام ويستولي عليهم حب الاستطلاع في أن يروا بأنفسهم هذا الذي يتحدث عنه أهل وادي العيون.

فإذا انقضت الليلة وجاء اليوم التالي، اقترب المسافرون من المعسكر، وبدأوا يراقبون، فإذا ما استعادوا في مخيلاتهم القصص التي سمعوها في الليلة الفائتة بدوا شديدي الرغبة لمعرفة من يكون الأفصع ومن يكون الجربوع، وكثيراً ما داخل بعضهم الفرح حين يشير إلى أحد هؤلاء ويقول بلهجة هي بين التأكيد والتساؤل: «هذا هو البطين» أو «هذا هو الأفصع.. اقطع يدي إذا لم يكن هذا هو الأفصع!» فإذا انطبقت الصفة على الموصوف، كان الرجل ينظر إلى الآخرين بزهو يصل حدود الفرح الطفولي، وقد يتصرف بهياج ويصرخ. أما إذا كانت الأصوات عالية والمراهنة ارتبطت بأن يعرف صاحب الاسم أو الصفة أنه المقصود، ينظر مستطلعاً، فعندئذٍ كان يبلغ الفرح درجة لا يتصورها أحد، إذ تعلو الصيحات وترافقها إشارات من أيدي الصغار والكبار، وكلمات الاستحسان، وغير ذلك من التصرفات غير المتوقعة.

كان هذا بعض ما يحصل في محاولة للتغلب على الكرب والمخاوف، أو لنسيان هذا الهمّ الذي يكبر ويزداد كل يوم، فإذا سافرت القافلة، وعاد أهل الوادي إلى مواجهة الحقيقة القاسية، بكل ما فيها من هموم ومخاوف، بدأوا يفكرون ويبحثون عن طريقة لمواجهة هذا البلاء الذي يحاصرهم ويقترب منهم.

الأيام

تمر ثقيلة متباطئة. حرارة الجو تزداد وتدفع بأعداد جديدة من البدو الذين تركوا الوادي في أول الشتاء طلباً للمرعى، إلى العودة والاقتراب من الماء، لأن الصحراء تصبح يوماً بعد آخر، ابتداء من نهاية الربيع، جحيماً لا يطاق. والذين تعودوا على أن يتابعوا الغيوم، وينزلوا عند كل ماء، من أجل أن يطعموا حيواناتهم، ويبقوا على قيد الحياة، والذين عرفوا لكل مكان أياماً في السنة يقيمون فيه خلالها، ويعرفون متى يتركون هذه الأماكن وإلى أين يجب أن يتوجهوا. وأهل الوادي الذين تعودوا على هذه الرحلات وعرفوا مواعيدها، يعرفون أن نهاية الربيع والصيف كله، ثم جزءاً من الخريف، الأوقات التي يضيق الوادي ويتزايد البشر فيه. حتى قوافل المسافرين التي تدفعها السرعة ويدفعها الحنين لأن تواصل رحيلها بعد يوم أو يومين من الراحة في وادي العيون، إذا كان الفصل شتاء أو ربيعاً، فإنها في الأوقات الأخرى تطيل الإقامة وتطيل السؤال، وتنتظر أن يكبر القمر ويساعدها على سير الليل بدل سير النهار الشاق. ومعنى الإقامة الطويلة في الوادي، خاصة في مثل هذا الوقت من السنة، أن الأفواه التي تستقي من العين والآبار تتضاعف، وتزدحم حول الماء ليل نهار، وما يولده ذلك من نزاعات ومصاعب واختلاف. ورغم الطيبة التي تميز أهل الوادي، فإنهم في مثل هذا الوقت يصبحون بشراً من طبيعة مختلفة، يصبحون أكثر حدة وأكثر شراسة، ولا يخفون ضيقهم بأشياء كثيرة، كما تزول الابتسامات عن وجوههم وتفارقهم الرغبة في أن يتحدثوا أو أن يطيلوا الحديث.

إنها إذن أيام الانتظار قبل أن يهجم الصيف بحرارته وعذابه، وهو

انتظار أكثر صعوبة من أية أيام سابقة، خاصة بعد أن جاء هؤلاء الشياطين وأقاموا معسكرهم قريباً من العين، ولا يعرف ماذا سيفعلون وكيف ستكون حال المياه إذا استمروا مثلما يفعلون الآن، ينقلون عشرات الأحمال كل يوم إلى المعسكر، ويسرفون في استعمالها، كما لو أنها شيء مبذول لا يعني أي إنسان.

انقضت أيام عديدة، وطلائع الذين رحلوا بدأت بالوصول، والموعد الذي تعود أن يجيء فيه الأمير ينقضي دون خبر أو إشارة من أي نوع ينبئ عن وقت وصوله، والمسنون الذين أشاروا بهذا الرأي بدوا أكثر قلقاً وخوفاً، فلما عاد متعب الهذال إلى جنونه، وبدأ يلح كل يوم على أن يذهب وفد إلى الأمير، لم يجد اعتراضاً في البداية، ثم وجد تأييداً وموافقة في نهاية الأمر. وفي مضافة ابن الراشد اتفق الرجال أن ينتدبوا عدداً منهم لمواجهة الأمير وأن يعرضوا عليه كل شيء.

كان المكان الذي يقيم فيه الأمير على مسيرة ثلاثة أيام من وادي العيون. وإذا كانت من عادة الأمير الخروج إلى القنص في مثل هذا الوقت من السنة، والمرور بالوادي في طريق الذهاب والعودة، فقد فكر بعض المسنين بالانتظار إلى أن تحين هذه الفرصة، لأن سفر عدد منهم إلى هناك لا يغني عن أن يشاهد الأمير بنفسه هذا الذي يشكون منه ويخافونه. فالمعسكر بالمكان الذي أقيم فيه، وهؤلاء الأجانب بالأجساد العارية، أغلب ساعات النهار، ينتقلون دون تردد أو حرج، ثم هذه الآلات الملعونة التي تخيف الحلال بهديرها الذي لا يتوقف، والتي تسبّبت مرات كثيرة بهياج الإبل وهربها، ثم العناء الذي لحق أصحابها نتيجة ذلك، هذه الأمور لا يمكن أن تتلخص بكلمات، أو تصوّر لإنسان بعيد. يجب أن تشاهد، أن ترى بكل تفاصيلها وجنونها لكي يُدرك مدى الهمّ الذي تولده. لكن مع ذلك قرروا أن يذهب وفد منهم.

كان الرجال يوصون بعضهم، ويلحّون في التوصية، أن يكون الحديث مع الأمير هادئاً متزناً، وأن يتولاه ابن الراشد، باعتباره أكثرهم معرفة بالحديث ومن الكبار فيهم، إضافة إلى ما يتصف به من معرفة قوية

بالأمير، وله دالة عليه، ثم هو الذي استقبل هؤلاء الأميركيين وعرف كل شيء عنهم. والرجال حين يلحون في مثل هذا الأمر إنما يقصدون، بالدرجة الأولى، أن لا يتركوا لمتعب الهذال حرية الكلام والتصرف، لأن العصبية التي ميزت سلوكه، والشتائم التي يكيلها للأميركيين ليل نهار، ثم هذا التحريض الدائم لأهل الوادي أن يفعلوا شيئاً للوقوف في وجه الشياطين، حتى لو اضطروا إلى حمل السلاح أو الذهاب إلى العاصمة ومقابلة السلطان. . . إن هذه الحالة التي ميزت متعب الهذال جعلت الرجال يتخوفون ويتحسبون. ولو كان الأمر يحتمل أن يمنع ابن هذال من الذهاب، أو يطلب إليه البقاء إلى أن يأتي الأمير، لما تردد بعض المسنين في أن يقول ذلك، لكن الجميع أحسوا أن متعب الهذال لن يهدأ له بال، ولن يكف عن الهياج والتحريض، وحتى اللجوء إلى الإهانة، لو ظل بعيداً. ثم ماذا لو ذهب وحاول مع الأمير؟ إنه برغم هذه الصفات يملك مقداراً كبيراً من رجاحة العقل وحسن التصرف. يعرف المجالس وما يمكن أن يقال وما لا يقال، لذلك فإن التخوف الزائد أو التحفظ المبالغ فيه قد يعطي نتيجة معاكسة. فإن كان متعب الهذال في الوفد فهو خير ألف مرة من أن لا يكون، وأن يتحدث مع الأمير خير من أن يمنع. أما هذه التوصيات الأخيرة، التي يؤكد عليها الرجال الآن، وقبل أن يصلوا دار الإمارة، فإنها نوع من التحسب والتحفظ قد يفيد وقد لا يفيد.

بدا الأمير، قبل أن يتكلم ابن الراشد، وكأنه يعرف لماذا جاء الرجال وماذا يريدون، إذ ما كاد يجري الحديث عن القنص والجو ثم وادي العيون، حتى بدأ الأمير:

ـ ستكونون يا أهل وادي العيون أغنى الناس وأسعدهم، وكأن الله لا يرى غيركم. . .

وتغيرت لهجته:

ـ لقد صبرتم وتحملتم كثيراً. . . الشهادة لله، أما الآن فسوف تعيشون وكأنكم في حلم، وسوف تتحدثون عن الأيام القديمة وكأنها سالفة من السوالف.

وعاد إلى لهجته الأولى

ـ والخير، يا جماعة الخير، إذا عمّ عمّ.

كان ابن الراشد قد هيأ الكلمات التي يريد أن يقولها، كيف يبدأ وكيف يسوق الحديث حتى يصل إلى النقاط الحساسة، وكان يريد أن يثير الشك في نفس الأمير إذا لم يقنعه، ثم كان يريد أن يطلب إليه المجيء، وبسرعة، لكي يرى بنفسه، ويتأكد من كل كلمة يقولها له الآن. أما وأن الأمير قد بدأ هذه البداية وساق الحديث في هذا الاتجاه، فقد أسقط في يد ابن الراشد ولم يعرف كيف يستطيع البدء ليصل إلى ما كان يريده. قال في محاولة يائسة:

ـ أنت تعرف، يا طويل العمر: المال ما هو كل شيء في هذه الدنيا، قبل المال: العرض، الأخلاق، العادات التي تعودنا عليها. . .

كان يريد أن يتابع في هذا الاتجاه، لكن الضحكة المجلجلة التي انطلقت من فم الأمير، غيّرت الجو مرة أخرى، وجعلت الرجال في حيرة من أمرهم. قال ابن الراشد بارتباك:

ـ مهما قلنا، يا طويل العمر، العين غير الأذن، والتجربة غير السالفة.

اعتدل الأمير في جلسته، رسم على وجهه سمات الحزم والقسوة:

ـ إذا تكلمت، يا ابن الراشد، عن الأخلاق فأنت تعرف أننا أكثر الناس حرصاً على الأخلاق، وإذا أردت الدين فالدين عندنا ما هو عند غيرنا.

ـ ولكن يجب أن تأتي وتشوف كل شيء بنفسك.

ـ لا تخف، أصلكم، لكن ما أريده منكم أن تقدموا للجماعة كل المساعدة، لأنهم جاءوا من تلفات الدنيا ليساعدونا.

قال متعب الهذال بعصبية:

ـ الله يخزيهم. . ما نريدهم ولا نريد مساعدتهم.

التفت إليه الأمير وقال بسخرية:

ـ ولكن حنا نريد مساعدتهم، وأنت إذا كنت لا تريد فأرض الله واسعة.

ـ أي والله... أرض الله واسعة...

قال ابن الراشد في محاولة لتهدئة الموقف

ـ ولكن ماذا يريدون يا طويل العمر؟

قال الأمير بنفس السخرية:

ـ هم ما يريدون أي شيء، حنا طلبناهم وجاءوا لمساعدتنا.

ـ وأية مساعدة.. يا طويل العمر؟

هكذا، ببراءة، سأل ابن الراشد، فأجابه الأمير:

ـ تحت أرجلنا، يا ابن الراشد، بحار من النفط، بحار من الذهب، والخويا جاءوا ليخرجوا النفط والذهب.

تطلع ابن الراشد إلى الأمير وهز رأسه دلالة الدهشة والثقة، ثم تطلع إلى الرجال الآخرين ليرى وقع كلمات الأمير عليهم، قال بنفس البراءة مخاطباً الأمير

ـ وكيف عرفتم يا طويل العمر؟

رد الأمير بثقة وعصبية:

ـ من يدرينا لولا مساعدتهم؟ هم قالوا لنا: تحت هذه الأرض بحار من الخير، ولأنهم يحبون الخير، ولأنهم أصدقاء قالوا: الجماعة يستاهلون المساعدة وجاءوا.

ـ وهذا الذهب في وادي العيون يا طويل العمر؟

ـ في وادي العيون، هنا، وفي كل مكان من هذي الأرض المباركة، وصاحب الجلالة عندما انتزع هذي الأرض بحد السيف، وحارب الأعداء والكفار، كان يعرف من أجل أي شيء يحارب.

قال متعب الهذال ببرود وتحدٍ:

ـ حنا اللي حاربنا، بسيوفنا أخذنا هذي الأرض شبراً وراء شبر.

تضايق الأمير من هذا التعريض وبتلك اللهجة، قال متجاهلاً كلام متعب الهذال:

ـ بعد ما منَّ الله علينا بالنعمة لازم نشكره، لا أن نخلق المشاكل، ونقول: فلاني وتركاني.

وتغيرت لهجته وتابع:

ـ أنتم كبار وأعقل أهل وادي العيون، وواجبكم أن تسهّلوا عمل الأصدقاء وتخدموهم بعيونكم.. وإن شاء الله ما تحل السنة الجديدة إلا والفلوس لآذانكم.

قال متعب ساخراً:

ـ والله، يا طويل العمر، قبل ما تجي هذه العفاريت كانت حالنا على أحسن حال، لكن من يوم ما حلوا بهذه الديرة أشوف الدنيا مثل بول البعير: كل يوم إلى الوراء.

رد الأمير بحدة:

ـ اسمع يا ابن هذال، وهذا الكلام لك ولغيرك، والحاضر يبلغ الغايب: أي واحد يخلق مشاكل ما له عندنا إلا دواء واحد: هذا.

وأشار إلى سيف كان معلقاً على الجدار، وهز بسبابته تهديداً في نفس الوقت وسأل من جديد:

ـ ما قولك يا ابن هذال؟

ضحك متعب الهذال ضحكة صغيرة، وكأنه يريد من خلالها أن يستمد قوة إضافية ترقد في أعماقه. ران صمت ثقيل على الغرفة، سأل الأمير بعصبية

ـ ها.. ما تقول يا ابن هذال؟

ـ أنتم الحكومة، عندكم العسكر والسلاح، واللي تريدونه يصير، ويجوز باكر، بعد ما يطلّع لكم النصارى الذهب من تحت القاع، تصيرون أقوى، لكن اعلم، يا طويل العمر، أن الأميركان ما يعملون شيء للّه.

كان يريد أن يتابع لكن الأمير قاطعه بعصبية:

ـ اتركنا من هذا الكلام وأجب عن سؤالي: فهمت ما قلته لك أم لا؟

رد متعب الهذال بحدة:

ـ اسمع يا أبو رضوان، أنا شيبة بعمر والدك، وصوتك لا تتركه يفلت، وما بيننا أصقى حتى تسمّعه، وإذا أردت تحمر عينك فما كل الناس تخاف العين الحمراء، وحنّاجينا نقول لك ما شافت عيوننا.

كان لهذه الكلمات تأثير قوي ولم يقتصر على الأمير والرجال الذين حوله، إذ امتد إلى ابن هذال نفسه، فشعر أنه قوي إلى درجة لا يخاف شيئاً أو أحداً، وأنه مستعد لقول كل ما يريد، مهما كلفه ذلك، وهذه الطريقة في الحديث تنقل عدواها بسرعة، وتترك نتائجها دون ما خطأ، إذ ما لبث أن تابع:

ـ . . . وديرتنا يا أبو رضوان صغيرة ونعرف بعضنا، الكريم حنّا مثله كرام واللئيم ما له عندنا إلا العصا؛ والكفار من يوم ما حلّوا بديرتنا، وقبلهم الثلاثة اللي جاءوا في الشتاء،ما شفنا إلا المصايب. . .

وتغيرت نبرة الصوت مرة أخرى:

ـ حنّا اليوم بآخر الربيع، العربان تركت البادية وطلايعها وصلت لوادي العيون، وما أظن أن في البيار ما يكفي البشر، فكيف تريدنا أن نترك الكفار يرفعون من البيار كل مطلع شمس ماية حمل وحمل يرمونهافي الأرض ونسكت عليهم؟

ضحك الأمير في محاولة لأن يسيطر على الجو من جديد، وقال وهو يمسح أنفه:

ـ اسمع يا ابن هذال. . إذا كان ما يشغلك الماء فابشر، بدل البيار الثلاثة الموجودة نحفر لك ماية بير، وإذا ما كان بهذا المكان بمكان غيره، وفيك حيل وشيل، هذه مسألة بسيطة، لا تخف، وبعد اليوم ما أحد يعطش. وحنّا ما نريد أن يبقى وادي العيون مربط الإبل والدواب، الخويا يريدون أن يحفروا في الوادي، وعندها يأتيكم الخير.

قال ابن الراشد

ـ والله، يا طويل العمر، اللي يهمنا هو الماء.

قال متعب الهذال بحدة ليقطع الطريق على هذه الروح المستسلمة:

ـ اسمع يا ابن الراشد، ما يهمنا الماء وغير الماء، وأنت تعرف: أنا بالظهرة، وحريمي ما ينزلن للعين، وكل ما عندي بسيتين صغيّر، يمكن أن أتركه وأمشي، الناس في الوادي يهمها الماء وغير الماء، يهمها العرض، الناموس، وما نريد أحد فوقنا، وما نريد هالكفار الخنازير صبح وعشية، واليوم بهذا الشكل، بعد كم يوم ما نعرف ويش يصير.

قال الأمير وقد أدرك نقاط القوة والضعف:

ـ يا جماعة الخير، الحكومة أعلم وأقدر منكم، ومثل ما قلت لكم: الأخلاق والدين حنّا أحرص منكم على الأخلاق والدين... والماء ابشروا.

قال متعب الهذال بيأس:

ـ القضية، يا طويل العمر، من أولها إلى تاليها، إننا ما نقدر نعيش معهم. لو كانت القضية يوم أو اثنين تهون، لكن أن نعيش جميع، ما نحتمل. وإذا كنا، حتى اليوم، ما حملنا سلاح في وجوه بعض لا أحد يدري باكر ويش يحصل.

قال الأمير بلهجة هجوم جديد:

ـ تركناك تقول كل اللي ببطنك يا ابن هذال، خلنا نسمع رأي الرجال.

قال ابن الراشد، وكأنه يستعيد درساً حفظه من قبل:

ـ حنا مع الحكومة، يا طويل العمر. اللي تختاره الحكومة فيه خيرة الله، ونوافق عليه.. فإذا كنتم ناويين تأمين الماء وحفر بيار جديدة وتوفرون للبدو والمسافرين والبساتين الماء، نسد عيوننا عن النصارى وما لنا شغل بهم ولا بينا شي.

قال سالم المكتوم:

ـ المسألة بسيطة يا طويل العمر، لما شفنا إنك بطيت علينا وما تريد القنص قلنا من كل بد نصل الأمير نسلم ونطمئن، وانت يا طويل العمر قلت ما يكفي وزود.

قال عبيّد السويلمي:

ـ إذا كان الذهب تحت وادي العيون فباطن الأرض خير من ظاهرها، وما علينا إلا أن ندعو لصاحب الجلالة بطول العمر.

رد متعب الهذال بسخرية:

ـ أي والله باطن الأرض أخير من ظاهرها، أهل الوادي لازم يختارون: الماء أو الذهب.

صمت لحظة ثم أضاف:

ـ والظاهر أن أهل الوادي يعرفون.. واختاروا الذهب.

ونتيجة كلمات السويلمي وابن هذال، وبهذه التورية الطريفة وقع ما يشبه الاتفاق الضمني! إن ما أراد الرجال أن ينقلوه للأمير قد قالوه، وإن كان بهذا الشكل الذي ترك مرارة لا تمحى من قلب متعب الهذال، وظل يتذكر هذه الحادثة ويسخر من الرجال والأمير حتى وقت متأخر، لأن ما اتفق عليه الرجال خالفوه تماماً.

قبل أن ينقضي ذلك اللقاء، وباستغلال الجو المرح الذي ولدته الكلمات الأخيرة، قال الأمير:

ـ الليلة عشاكم عندنا.

كانت هذه الكلمات إيذاناً بانتهاء المقابلة، ودعوة العشاء تعبيراً عن الرضى الذي أحس به الأمير، ولكي يزيل أية مرارة من نفس ابن هذال قال له بدعابة:

ـ وإذا كان عندك شيء جديد، يا ابن هذال، عن الخويا، فأجله إلى العشاء.

رد متعب بسخرية:

ـ اللي عندي، يا طويل العمر، ما يرضيك، لكن ما عندك وما عندهم يرضي ويزيد.. وهذا يكفي!

ـ عدت يا ابن هذال؟

ـ انت اللي طلبت مني العود، وإذا كنت ما تريدني أعود أريّحك فأرضى وترضى.

ـ أنا راضٍ، أريدك أنت أن ترضى.

ـ الرضا نسيناه، يا طويل العمر، كل ما نريده الستر والسلامة، وأظن أن الستر ضيعناه من يوم ما جاء الخويا، وما بقيت إلا السلامة، وانت تعرف إن الإنسان لا يدري متى يموت وفي أية أرض يموت.

ـ وكل الله يا رجل.

ـ وعليه توكلت وإليه أنيب.

كان من الممكن لهذه المناقشة أن تستمر وتطول ثم تتشعب، لكن والأمير يقف، ثم هذه العبارات التي تتردد دون معنى أو ضرورة، أغلب الأحيان، وضعت حداً، إذا استأذن الرجال وخرجوا.

كانت مشاعر الحرج والدهشة والفرح والانتظار تسيطر على الرجال إلا متعب الهذال، فقد أحس أن الدنيا تضيق حتى تكاد تطبق عليه، ورغم الضجة التي حوله كان الصمت يملؤه والفراغ يحيط به من كل جانب. ولأول مرة في حياته يشعر أنه وحيد، أنه ذرة من الرمل لا تعني شيئاً، ولا يعني أحداً. أما الكلمات التي قالها فهي بمقدارما أغضبت الآخرين، خاصة الأمير، فإنها تغضبه وتجعله يحس بالتفاهة واللاجدوى. كان يود أن يتكلم مثلما تعود دائماً. أن يصرخ، أن يقول كل ما يدور في عقله. فجأة أصابه الخوف ثم الخرس. ما قاله لا يعني شيئاً مهماً، مجرد أصوات عمياء. لو لم يكن كذلك لما اندفع المكتوم والسويلمي والآخرون لأن يتكلموا مع الأمير بتلك الطريقة. لماذا جاء معهم؟ وماذا يربطه بهم الآن؟ الذهب؟ إنه لا يريد مثقالاً واحداً من الذهب. وهؤلاء الكفرة هل يمكن أن يعطوا الذهب دون مقابل؟ وإذا كان لا بد من دفع المقابل. . . فماذا يكون؟

عبرت في رأسه هذه الأفكار والتساؤلات والمشاعر، وعبرت أخرى غيرها، وإذا كان الرجال الذين معه قد شعروا بالحرج وفضلوا الصمت أو الأحاديث الجانبية العابرة، فإنه لم يكن يرى أياً منهم أو يسمع كلمة من كلماتهم. كان بعيداً مشغولاً، وكان ضائعاً متعباً، أما حين اقترح ابن الراشد أن يذهبوا إلى السوق، أن يزوروا بعض الأصدقاء، فقد رد متعب بعصبية، وكأنه يواصل حديثاً:

ـ . . . لا أريدكم ولا أروح معكم. . . وهالحين اركب ناقتي وامشي لوادي العيون.

ولم يأبه لنظرات الرجال وإلحاحهم عليه أن يبقى، لأن سفره المفاجئ وعدم تلبية دعوة العشاء سيتركان مرارة وغيظاً في نفس الأمير. وإذا كانت الأمور قد سارت بسلام حتى الآن، وانتهى اللقاء بأن خرج الجميع راضين أو متظاهرين بالرضا، فإن غياب متعب الهذال بهذا الشكل، دون اعتذار أو تفسير، سيعقّد الموقف من جديد، لكن متعب الهذال لم يكن مستعداً للمناقشة، إذ ركب ناقته العمانية البيضاء، وانطلق دون أن يلتفت، دون أن يسمع نداءات الرجال. . . أو كلماتهم.

أية أحزان استبدت بمتعب الهذال في الصحراء الملعونة خلال يومين وليلتين حين كان عائداً إلى وادي العيون؟ أية لحظات أسى سيطرت عليه وربما دفعته إلى الغناء أو البكاء؟ لا أحد يدري، لأن متعب الهذال حمل سره معه ورحل. لم يتكلم عن ذلك لإنسان، ولم يطلع أحداً على أفكاره، حتى بعد أن عاد إلى وادي العيون. لقد استبدت به حالة من الصمت أقرب إلى الذهول. وبمقدار البراعة التي كان يتميز بها حين كان يتكلم من قبل، فإنه أصبح أكثر قدرة وبراعة على الصمت! كان الرجال حوله يتكلمون ويسألونه أو يتساءلون، لكنه في غياب كامل عن الأصوات والحركات، لا يسمع ولا يجيب. حتى التعابير التي يمكن أن يلمسها الإنسان في وجوه الآخرين، مهما حاولوا إخفاءها، أو كانوا لا يفهمون ما يقال لهم، غابت تماماً عن وجه متعب الهذال. كان حجراً أو أقرب إلى الحجر: وجه شاحب، متخشب، جامد الملامح، ولولا رفة العينين، تظهر بين فترة وأخرى، لظن من ينظر إلى وجه ابن هذال أن وجه ميت يرى. أما محاولات الناس، بمن فيهم وضحة، في حمله على الكلام، فقد كانت تنتهي إلى الفشل الكامل. وكان إذا ضاق بكلام الذين حوله، وهذا ما تكرر كثيراً بعد عودته، بعد لقاء الأمير، ينسحب بهدوء، ويتصرف كما لو كان وحيداً، إذ يذهب إلى مكان منعزل أو يذهب لكي ينام.

كان وادي العيون ينتظر عودة الرجال ليعرف ماذا جرى، أما الآن، وبعد أن عاد متعب الهذال وحيداً، ثم موقف الصمت التام الذي اتخذه، فقد ترسب في أعماق كل إنسان في الوادي شعور حاد بالمرارة ثم الخوف. وإذا كان الناس تجاه المصائب التي يتوقعون، ينتظرون بارقة

أمل، ويتشبثون بها، حتى لو كانت كاذبة واهية، ولا تقوى على منع وقوع تلك المصائب، فإن وجه ابن هذال بدّد كل أمل، وقضى على كل بارقة. حتى فكرة انتظار الرجال الآخرين التي راودت أذهان بعض الناس، ما لبثت أن انهارت وتلاشت، وسيطرت بدلاً عنها حالة من الحزن أقرب إلى اليأس: «ماذا يمكن أن تضيف كلمات ابن هذال لو تكلم؟ إن وجهه وعينيه أقوى من الكلمات وأقسى منها» «إذا تكلم سوف تكون كلماته قاتلة، لقد رأى أشياء كثيرة في هذه الحياة، ولا بد أن تقتله علته». «ولو تكلم الرجال بغير ما تكلمت عينا ابن هذال فلا بد أن يكونوا كاذبين، ومتعب الهذال لا يكذب، لأنه لا يعرف الخوف... وهم يخافون».

بعد أن عاد متعب الهذال، وبعد ذلك الغرق المهول في الصمت، شعر كل من في الوادي أن نهاية ملعونة مدمرة تتربص بالجميع، وتنتظرهم كل لحظة. ومثل هذه النهاية يقف الإنسان تجاهها عاجزاً منتظراً، حتى الحزن الذي يبدو متدفقاً كثيفاً في بعض اللحظات، يعجز عنه الإنسان في لحظات أخرى، بل ويتمناه، لأن يأساً مروعاً متشبثاً يربض على الحواس فيشلها، ويجعل الحركة ميتة والزمن عذاباً.

قالت وضحة، وهي ترمي الدثار السميك فوقه، رغم الحر الذي أخذ يملأ ذرات الهواء:

ـ إذا مرت هذه الحمى دون أن تقتله يمكن أن يعيش ويبلغ المائة.

وهزت رأسها دلالة الشك والخوف.

وحين سألها هديب، وحين سألها أولادها، عما جرى، هزت كتفيها دلالة أنها لا تعرف شيئاً، وإنها لا تهتم بما يجري، وبعد فترة صمت قالت كأنها تخاطب نفسها:

ـ من يوم ما جاء أولاد الحرام الثلاثة دخله عفريت، وبدل أن يخرج العفريت من رأسه حضنه كما تحضن الدجاجة البيض، والآن الحمى تقتله، وهذي هي حمى العفاريت.

لم يفهم أحد بوضوح ما قالته وضحة ولم يجرؤ أحد على معاودة السؤال. كانت عصبية شديدة الهم، تركض من مكان لآخر، وعلامات

الخوف ظاهرة على حركاتها وتصرفاتها. أما الإجابة التي كانت ترددها لكل من يسألها عن حال أبو ثويني، فقد بدت لفرط ما كررتها تثير الفزع، كانت تردد:

ـ الرجل خلص... راح، إلا إذا كان رب العالمين يريد يسويه مثل أيوب.

حين عاد الرجال، بعد خمسة أيام، كان اللغط يعمّ وادي العيون، وكانت الحمى تفتك بمتعب الهذال، ولم يكن أحد من الناس الذين اجتمعوا في مضافة ابن الراشد مستعداً لتصديق أية كلمة من الكلمات الكثيرة التي قيلت. تبددت كلمات الغنى والذهب كما يتبدد الدخان في الهواء، وارتفعت راية سوداء مثل سؤال كبير: «إذن.. جاء هؤلاء ليبقوا؟!» وتحولت حركات ابن المكتوم والسويلمي وابن الراشد إلى حركات عمياء وكلمات كاذبة «الذهب؟ من أين لهذه الأرض الذهب إذا لم يشتغل الناس ولم يركضوا من مكان لآخر؟ النفط؟ ما يأتينا يكفينا لنوقد هذه الفوانيس التي تخنق برائحتها أكثر مما تضيء».

تذوي التفاصيل، تتراجع ثم تغيب. وحتى تلك التي لا تزال عالقة بالذاكرة، ربما ولدتها الرغبة أو ولدها الخيال الجامح، لأن أية محاولة لاستعادة صور الأشياء، والأماكن والملامح تصطدم بالنسيان الذي يتمدد كالهواء الساخن، يجعل كل ما جرى أقرب إلى الحلم.

إنها مأساة من نوع خاص، تشبه حالة فقدان الذاكرة ثم استعادتها في وقت متأخر، فتظهر فوضى الأشياء وتداخلها ولعنتها أيضاً. ومع ذلك، وإذا كانت حياة متعب الهذال تهم أحداً، وإذا كان وادي العيون قد وجد في وقت من الأوقات ثم تلاشى تحت وطأة الزمن الآخر، فإن اللحظات الأخيرة هي وحدها الباقية، وقد تكون وحدها التي وقعت فعلاً.

ففي أواخر تلك الليلة، من ليالي الصيف المتأخر أو بداية الخريف، وعلى غير انتظار، سمع دوي مجنون يملأ الوادي، كان دوياً يشبه الرعد البعيد، أو يشبه سقوط أعداد كبيرة وهائلة من قرب الماء الممتلئة على أرض سبخة، فيرتج الهواء وتصطخب الآذان حتى يصعب تمييز الصوت أو مكانه. وإذا كان متعب الهذال قد قرر أن يبقى في الظهرة طوال الفترة التي امتدت بين عودته وأواخر الصيف، رافضاً بإصرار لا يقاوم كل المحاولات التي جرت لحمله على النزول إلى الوادي، بعد هذا الرفض والعزلة، ونتيجة مرضٍ لم يفارقه يوماً واحداً، حصل ما يشبه الاتفاق الضمني: أن يُنسى الرجلُ، أن يعتبر ميتاً أو كأنه لم يعد موجوداً، ولذلك عاد الوادي إلى حياته السابقة. صحيح أن بعض الصعوبات قد نشأت في ذلك الصيف، لكن أمكن التغلب عليها، وبدا أن هذه المجموعة التي جاءت

تبحث عن النفط، وبعد أن انتهت من إعداد متطلبات المرحلة الأولى، قررت البدء.

ليس مهماً كيف كانت البداية، لأن الدوي الذي ملأ تلك الليلة، أواخرالصيف، يعتبر البداية الأكثر رسوخاً في الذاكرة، هي وحدها التي حملت متعب الهذال على أن يكسر أطواق العزلة وينزل إلى الوادي.

قد تكون هناك تفاصيل كثيرة من نوع أو آخر سبقت هذه البداية، وقد تعتبر ذات أهمية خاصة، لكن لم تكن كذلك لمتعب الهذال. فالمحاولات العديدة، والتي تدخّل فيها أقرباء ومعارف كثيرون، في أن يبيع البستان الصغير الذي يملكه في وادي العيون، وبمبلغ بدا كبيراً في ذلك الوقت، هذه المحاولات باءت بالفشل.

كل ما كان يقوى عليه متعب الهذال هو أن يهز رأسه دلالة الرفض، وفي الحالات التي لجأ فيها بعض الأقرباء إلى الضغط عليه كان يضحك بسخرية ويغادر المجلس. أما ما نقل عن لسان الأمير أن ابن هذال يبيع رضي أم لم يرض، فقد قابلها بهزات رأس دلالة أن ننتظر ونرى. ولذلك فإن الدويّ الذي سمعه في تلك الليلة ولد في نفسه انفعالات كثيرة، إذ لا بد أن يكون قد فكر وحلم بحدوث انفجار في المعسكر قضى على كل شيء، وقد يكون تصور أن أمراً خطيراً قد حدث في تلك الساعة، ونتيجة لذلك كان الدوي ولا بد أن يراه بنفسه، وقد تكون هناك تصورات أخرى خطرت في باله، وإلا كيف يفسر ذلك الحماس الذي دفعه لأن ينسى عزلته وينزل إلى الوادي؟

مع أضواء الفجر الأولى كانت كائنات حديدية ضخمة تتحرك. كان دويها يصم الآذان ويملأ الصحراء كلها. كانت هذه الكائنات غريبة الشكل كبيرة الحجم إلى درجة أن أحداً لم يتصور وجود مثل هذه الأشياء. أما الأضواء التي كانت تنبعث منها فإنها تشبه النيازك. كانت تتحرك في رتل سالكة نفس الطريق التي كانت تسلكها القوافل، وخلال وقت قصير، والدوي يزداد ويقترب، وصلت هذه الكائنات إلى الوادي.

لا يمكن لأحد أن يصف اللحظات التي وصلت فيها هذه الآلات، كما

لا يُعرف أبداً الشعور الذي سيطر عل الناس وهم يراقبون هذه الكتل الصفراء الضخمة تتحرك وتدويّ ثم تتوقف عند حدود المعسكر. ليس بمقدور أحد أن يصف أو يحدد. ومتعب الهذال الذي وصل الوادي بخفة قط، والذي راقب كل شيء بانتباه، وظل على مسافة من هذه المخلوقات العجيبة، لا يقترب منها خوف أن تفعل شيئاً لا يمكن مقاومته أو التغلب على شروره، أحس في أعماقه، حين توقف الدوي، إن الدنيا انتهت.

إذ ما كادت الآلات تتوقف وتنفتح منها كوى ومصاريع، ويخرج رجال معفرون، وينظرون إلى ما حولهم، حتى خيم الذهول والصمت: أين كان هؤلاء الرجال؟ كيف استطاعوا الدخول إلى هذه الآلات والخروج منها؟ وهل هم رجال حقيقيون أو عفاريت؟ ولماذا كانوا هناك وماذا سيفعلون؟ وهذه الكتل الحديدية الصفراء هل يمكن لإنسان أن يقترب منها ويظل سالماً؟ وماذا تفعل وكيف تتصرف وهل تأكل مثل الحيوانات أم لا تأكل أبداً؟

كان الصبية أسرع من غيرهم في الاقتراب من الآلات، ثم لم يترددوا في أن يضعوا أصابعهم فأيديهم كلها عليها. مدوا، أول الأمر، أصابع خائفة، بهدف لمسها، وحين أحسوا بقسوة الحديد مدوا أيديهم، ثم لم يترددوا في أن يدقوا دقاً خفيفاً، وكأنهم يدقون أبواباً لا بد أن تنفتح، حتى إذا اطمأنوا قليلاً بدأوا يدورون حولها ويتحسسونها في أماكن عديدة بالأيدي أو بعصيّ صغيرة، وتجرأ أحد الصبية وقذفها بحجر، والرجال الذين كانوا يراقبون الأطفال بعصبية في البداية، خوف أن يقع لهم مكروه نتيجة هذا العبث، لم يلبثوا أن أصبحوا راغبين في أن يفعل الصبية ما يفعلون، لأن ذلك قد يمكنهم من معرفة الغاية التي جاءت من أجلها هذه الآلات وماذا ستفعل.

إنها لحظات من المراقبة الدقيقة الحادة، تخللتها المخاوف والدهشة. أما حين خرج بعض العاملين في المعسكر، مع أولئك الذين كانوا داخل هذه الآلات، ليلقوا نظرة، فقد تراجع رجال وادي العيون والصبية بضع خطوات، ووقفوا منتظرين خائفين، وبطريقة مليئة بالزهو والثقة كان الرجال

الجدد يدورون حول الآلات، ويفتحون مصاريعها ويرفعون أغطيتها، والآخرون ينظرون باهتمام.

في إحدى اللحظات قفز واحد من الرجال ودخل في الآلة، وخلال لحظة خاطفة انطلق الهدير، ثم بدأت الحركة. كانت تلك الآلة تدور بطريقة شيطانية، كانت ترتفع وتنخفض وتهدر وتئز، وأهل وادي العيون الذين ابتعدوا مسافة كبيرة، كانوا ينظرون بعيون خائفة مدهوشة، وقد عقد الصمت ألسنتهم، ولا يعرفون متى تنفتح أبواب الجحيم وتبتلع كل ما هو فوق الأرض.

ولأول مرة، منذ شهور طويلة، يسمع أهل الوادي من جديد صوت متعب الهذال:

ـ وصلت العفاريت ولازم نضربها، وإذا بقينا مثل الخشب راح تاكلنا وما تخلي منا أثر.

ربما كان يريد أن يتكلم أكثر من ذلك أو غير ذلك، لكن الصمت الذي خيم، بعد أن توقفت الآلات، والنظرات المتسائلة الخائفة التي انصبت عليه من الذين حوله، جعلته يشعر باللاجدوى. لا أحد يفهمه، لا أحد يقف إلى جانبه، ولن تجدي أية كلمات يمكن أن يقولها. وبطريقة عصبية، عبرت عنها هزات رأسه اليائسة المعذبة، تراجع إلى الوراء، وكأنه شعر بالندم، لأن هذه الكلمات أفلتت منه دون إرادة، وحين أمسك به بعض من كان حوله، وطلب منه أن يفسر طبيعة هذه المخلوقات العجيبة، وماذا ستفعل، نحّى الأيدي بخشونة، وكأنه لا يطيق أن تمسه يد أو أن يسمع كلمة. والرجال الذين تعوّدوا أن يكون متعب الهذال على هذه الصورة، لم يستغربوا تصرفاته، ولم يتوقعوا شيئاً هاماً يمكن أن يقوله لهم، لذلك انصرفوا عنه، وانطلق هو إلى رابية قريبة وجلس. كان في موقعه القريب البعيد، وبجلسته المتوترة، يرقب كل شيء ويفكر، وكأنه يشهد نهاية حقبة طويلة من الحياة والزمن.

إنها نهاية عالم، أو ربما نهاية مرحلة من المراحل الطويلة التي سيطرت على الحياة في هذه الصحراء البعيدة المنسية. لم يقل هذا أحد

بصراحة سوى متعب الهذال، أما الآخرون، في وادي العيون وما حوله، فقد أحسوا بذلك وإن لم يعبروا بكلمات أو أفكار. كانت تتملكهم مشاعر الضغينة والنزق والخوف، وكانوا ينظرون حولهم بتساؤل، لكنهم لم يدركوا ولم يقدروا بوضوح أي شيء يمكن أن يحدث، أو ربما كانوا يأملون أن يقع في اللحظة الأخيرة أمر قد يغيّر كل ما يدبّر ويخطط فتعود الأمور إلى ما كانت عليه في الوادي وينتهي هذا الحلم القاسي الطويل.

رغم مرور الساعات الطويلة، والناس ينتظرون، فإن الأميركيين ظلوا قابعين داخل المعسكر في حالة من الصمت والتحفز. كان يتخلل هذه الساعات خروج مجموعة من خيمة لأخرى، أن ترتفع النداءات وبعض الأحيان ترتفع أغانٍ أو أصوات مترنحة، لكن هذا لا يدوم طويلاً، ويغرق المعسكر مرة أخرى في الصمت. والناس حول المعسكر اقتعدوا الأرض في جماعات صغيرة، تحت ظلال النخيل والتين، وكأنهم ينتظرون شيئاً ما. كان كل واحد على يقين راسخ أن أمراً ما لا بد أن يقع، وهذا التيقن دفع بالكثيرين لأن يرسلوا أولادهم لإحضار بعض الأكل، وتحمس بعضهم لأن يعد القهوة في الهواء، بعيداً عن المضارب والبيوت، لأن الرغبة بالمتابعة وعدم ترك أي أمر يحدث دون أن يكون الإنسان موجوداً، سيفوّت فرصة لا يمكن أن تتكرر.

ومتعب الهذال الذي ظل على الرابية البعيدة المطلة، يراقب ويفكر، لم يستجب للنداءات في أن ينزل ويأكل، أو ليشارك في قهوة الصباح ثم قهوة قبل الظهر، فقد ظل صامتاً مهموماً، وظلت حواسه مستفزة مليئة بالانتظار، وكان أكثر الجميع توقعاً. أما حين أرسلت إليه بضع حبات من التين والتمر ورغيف من الخبز، فقد وضعها جانباً، إذ لم يكن جائعاً أو راغباً في الأكل، لكن هاجساً ما دفعه لعدم رفضها، لأن الانتظار قد يطول، ولا يريد أن يترك المكان.

إنها إحدى المرات النادرة التي تسيطر فيها تلك الحالة على جميع الناس في الوادي وما حوله، لأن هؤلاء العفاريت، منذ أن وصلوا، قبل بضعة شهور، يزدادون غموضاً، وتصبح معرفة نواياهم أكثر صعوبة. إنهم

طوال ساعات النهار داخل الخيام، خاصة الخيمة الكبيرة في الوسط، ثم في البيوت الخشبية التي بنيت بإتقان، يكتبون ويرسمون، في جو من الخفاء يغلف حياتهم كلها. وأهل الوادي الذين تميزوا منذ وقت طويل بالفراسة ومعرفة الحاجات والبشر، خاصة وأنهم تعودوا على ذلك من المراهنات الكثيرة التي كانوا يجرونها فيما بينهم لمعرفة ما يحمله المسافرون، وما تحمله القوافل، فإنهم تجاه هؤلاء الشياطين كانوا حائرين، وخافوا من أية تحديات أو مراهنات فيما بينهم، كل ما عرفوه أن الأميركيين سوف يخرجون النفط والذهب من الأرض، أما كيف سيفعلون ذلك، فلم يكن أحد قادراًعلى معرفة أو تحديد أي شيء. وفي المرات التي حاول ابن الراشد، مستغلاً علاقاته مع «الغراب» ثم مع المترجم، لم يظفر بأكثر من إجابات عامة. وحين حاول أن يزيد الأمور وضوحاً بمعلومات من عنده، لم يستطع اختراع سوى كلمات أضافت غموضاً على الغموض الذي كان يغرق فيه.

والآن، وبعد أن وصلت مجموعة من هذه الآلات الجهنمية الصفراء، فقد توقع الجميع أن نهاية ما أصبحت وشيكة، وكل واحد يريد رؤية هذه النهاية بنفسه، وأن يعرف كل التفاصيل، حتى أصغرها وأكثرها خفاء.

الساعات تمر طويلة ثقيلة، وساعات بعد ظهر هذا اليوم تبدو أطول وأثقل ساعات تمر على الوادي، منذ أن وجد الوادي، ومنذ أن وجدت تلك الأعمال الصغيرة التي تشغل الناس. وحتى العادات التي تعودها بعض الرجال، كأن يشرفوا على عقل الجمال، أو أن يعدوا القهوة بأنفسهم، لكي تطيب وتكون بالمذاق الذي يشتهون، حتى هذه العادات ما لبثت أن تراجعت وتأجلت، دون شعور بالضيق، وكُلف الشبان الصغار بالأعمال التي لم يتعودوا القيام بها، فأقبل عليها هؤلاء بحماس كبير.

كان الرجال ينتظرون حدوث شيء ما خلال النهار، لكن معظم الساعات انقضت والحياة عادية رتيبة، وكأن هذا اليوم سينقضي كغيره دون مفاجآت، أما والشمس تنزلق نحو المغيب، فقد أقبلت الدواب وملأت الوادي بأصواتها وضجيجها، وجاء الرعاة والبدو الذي يرِدُون الماء في هذا

الوقت، وبالحركات المليئة بالمبالغة والصخب، خلقوا دوياً إضافياً ملأ الوادي كله، ثم جاء الأميركيون وأضافوا إلى ذلك الضجيج دوي الآلات التي جلبوها معهم منذ البداية، والتي تولّد النور والصخب والخوف في نفوس الكثيرين، فأصبح الوادي عند ذاك أقرب ما يكون إلى عواء ذئاب ضالة أو إلى صرخات بنات آوى الجائعة الخارجة في أول المساء باحثة عن شيء تأكله أو عن إلف تستأنس به.

هكذا كان الوادي في تلك الساعة أول المساء. ورغم أن شيئاً من الملل أو ما يشبه الحزن قد سيطر على معظم الرجال، وظنوا ليلة أخرى قاسية ملولة سوف تنقضي كما انقضت الليالي منذ ثلاثة شهور أو أكثر، فقد خرج فجأة، وعلى شكل موكب أو تجمع كبير معظم الذين كانوا في المعسكر. كان «الغراب» يقود هذا الجمع، وبد أن حديثاً طويلاً قد جرى من قبل، إذ ما كادوا يتركون باب المعسكر حتى أشار «الغراب» بيده أول الأمر ناحية اليسار، ثم ناحية اليمين، مع كلمات كثيرة والتفات نحو هذه الناحية ثم نحو تلك، وحين بدا الأميركيون بالحركة ثم بالمسير انخضّ الوادي كله، وتولدت ضجة تشبه الصخب، لأن الأطفال والصبية الذين كانوا يراقبون، والذين كانوا يوردون الدواب ويساعدون في السقاية، ما لبثوا أن صرخوا وتحركوا بشكل أقرب إلى الفوضى. أما الرجال الذين بدوا أكثر اتزاناً واستقراراً فقد التفتوا، ثم تحركوا مبتعدين قليلاً عن طريق الأميركيين، فلما شق هؤلاء طريقهم، متوقفين أول الأمر عند العين والآبار، ثم سائرين في الوادي، تابعهم الرجال بأعينهم، ثم تحركوا ببطء وراءهم. أما متعب الهذال فقد انتفض منذ اللحظة التي غادر فيها الأميركيون المعسكر. وقف على الرابية مثل ذئب متحفز، حتى إذا تحركوا تحرك بموازاتهم، محتفظاً بنفس المسافة والسرعة، لكن كانت عيناه ترقبان كل حركة، وأذناه تلتقطان كل صوت، وبدا شديد الاهتمام دقيق الملاحظة، وراغباً في معرفة كل شيء. أخذ يفسر كل حركة وكل إشارة، أما حين تكلم «الغراب» مشيراً إلى كثبان الرمل والساقية والأشجار، فكان شعور الحقد يتزايد ويقوى في قلب ابن هذال، إلى درجة أن حركته بدت

عصبية، واعترى وجهه الشحوب. أما الكلمات التي كان يرددها فقد فهم بعض الصبية القليل منها، ونقلوا أنهم سمعوه يقول «يا أولاد الزواني يا أحجار القراني، سأنتقم منكم قبل أن ينتقم الواحد القهّار» وقالوا أيضاً أنه شتم الحكومة والسلطان والأمير وكل الذين يساعدون الكفار.

لم يترك متعب الهذال حركة دون أن يراقبها باهتمام، إذ ظل يمشي ويقف ويشتم وينظر إلى كل شيء، كما لو أنه لن يرى المكان مرة أخرى، ورغم أن أحداً من الأميركيين لم يلتفت إليه، إلا أنه جفل أكثر من مرة حين كان يشار باتجاهه، إذ ظن في البداية أنهم يقصدونه، لكن تأكد في وقت لاحق أنهم يقصدون الأرض التي يمشي عليها، وأنه لا يعدو أن يكون علامة من العلامات في هذا المدى الفسيح!

ولولا أن «الغراب» تقدم باتجاهه، لكن دون أن يلتفت إليه أو يهتم بوجوده، ويضع برجله علامة على التراب، ثم يبدأ يقيس المسافة حتى منتصف الوادي، لولا هذه الحركة لظن متعب الهذال أنهم يعنونه بالإشارة، وكاد أن يتصرف بحمق، إذ ماذا يريدون منه ما دام يسير بعيداً عنهم بعشر خطوات أو تزيد قليلاً؟ أليس من حقه أن يذهب إلى بستانه في النصف الأخير في الوادي ويجلس هناك ويغني ويفكر ويشتم كما يريد؟ إن من حقه أن يفعل ما دام لا يؤذي أحداً، أو لم يفعل ذلك طوال السنين الماضية؟

هكذا فكر ابن هذال وهو يرى «الغراب» يتحرك بحماس ويشير بيديه ويعلو صوته، والآخرون الذين كانوا يرافقونه أبدوا من الأسئلة والملاحظات الكثير، وقد ولّد هذا خوفاً حقيقياً لديه، وظن أن ليلته تلك لن تمر على خير، ولا يعرف لماذا قرر أن يرجع قبل الأميركيين إلى عين الماء. هبط إلى العين مسرعاً، شمر عن ساعديه، وغرف بيديه الاثنتين غمراً كبيراً وسفحه على وجهه، تنشق الماء وتركه يسقط على لحيته، ثم أخذ غمراً ثانياً وشرب، وبعصبية انتزع سترته ودلّى رأسه في الماء، هزه عدة مرات وظلت عيناه مفتوحتين. شعر بالبرودة واللذة والخوف، ظل كذلك وقتاً، حتى إذا أحس أن أنفاسه تتكاثف في صدره وتثقل عليه رفع رأسه، ترك قطرات الماء تتساقط بغزارة ثم تتراجع شيئاً فشيئاً بعد ذلك،

وأخيراً وبجماع كفه ملأ راحته وشرب، وبهدوء، وكأنه وحده في هذا العالم، اتجه إلى الرابية، اتخذ مكاناً عالياً مطلاً على الماء مباشرة. ربما اعتبر أن الوادي لا يعني شيئاً لو أن الماء توقف، وربما اعتبر أن بستانه والأرض التي قبله ثم التي تليه إلى آخر الوادي لا تعني شيئاً خاصاً إذا أراد الأميركيون أن يوقفوا الماء، بل وفكر أيضاً أن الأرض في الوادي كله متساوية إلى درجة لا يمكن أن يعتبر أرضه ذات قيمة أو أهمية مختلفة عن الأراضي الأخرى في الوادي. لو أنه فكر بشكل مختلف لظل في البستان، ولنام تحت شجرة من أشجار النخيل. ولو أنه أراد أن يدافع عن بستانه وأشجاره وحدها لما اختار هذا المكان المكشوف حيث يراه الجميع. أن شيئاً ما دفعه لاختيار هذا المكان، وحين رجع الأميركيون، وظهرت وجوههم وظلالهم تحت الأنوار القوية، كان قد سهل الأرض عند تلك الرابية، وقرر أن يبقى ساهراً منتظراً حدوث تلك المعجزة التي طالما انتظرها!

بعد الفجر بقليل، حين كانت أضواء النهار تتمدد وتنفصل عن الظلمة ثم تنفرد بهدوء فوق الأشياء، كان الوادي لا يزال يلتف بغلالة خفيفة تركها الليل والرطوبة المتسربة من الهواء والأشجار ومياه العين، ومن أنفاس الناس الذين كانوا ينتفضون بهدوء تلك الساعة ليبدأوا يوماً آخر. كان متعب الهذال، بعينيه الواسعتين الحزينتين، واللتين لم تغمضا لحظة واحدة، يرقب وينصت ويفكر ويتابع حركة الحياة في ولادتها الجديدة، في ذلك اليوم الخريفي البعيد. كانت الأشياء والأماكن والحياة، حتى تلك اللحظة، تتململ في الصمت الحزين الهادئ، وكأنها ستبقى هكذا إلى الأبد، لكن صرخة قوية انفجرت في المعسكر، وبانفجارها غير المتوقع، والذي ولّد تحفزاً لدى متعب الهذال، بدأت الحياة تتغير، وما هي إلا لحظات قليلة حتى هب الأميركان، وبعد وقت لم يطل خرجوا.

كان خروجهم خروج الشياطين، ففي لمح البصر توجهوا إلى الآلات بتلك العصبية وذلك الاندفاع إنذاراً أخيراً أن كل شيء قد انتهى. لم يقل أحد ذلك لمتعب الهذال، لكن إحساساً قوياً طغى عليه وملأه تماماً. إذ رغم أنه لم يعرف ماذا سيحصل، إلا أن تلك الحركة الموزونة الحافلة جعلته يحس ذلك، نهض على مهله، تنشق هواء الوادي برئتيه وجسده كله. نظر إلى كل ما حوله وكأنه يودع الأماكن والأشياء. رأى سرباً من طيور القطا يحوم. نظر إلى الرجال في المعسكر، امتلأ إحساساً قوياً بالنهاية، وما كادت تلك الآلات المجنونة تبدأ حتى صرخ صرخة حادة موجعة:

ـ حسافا.. حسافا... يا وادي العيون!

كانت تلك الحركة إيذاناً حقيقياً ملعوناً حافلاً بالنهاية، وإذا كان هناك أحد يتذكر تلك الأيام البعيدة، الأيام التي كان يوجد خلالها مكان يسمى وادي العيون، ورجل يدعى متعب الهذال، وعين من الماء وأشجار، وبشر من طبيعة معينة. . . إذا كان لا يزال هناك من يتذكر، فإن أقوى ثلاث ذكريات لا تزال تخبط القلب كلما عاد الإنسان إلى تلك الأيام وتذكر: التراكتورات وهي تهجم مثل ذئاب جائعة على الأشجار وتبدأ تمزقها وترميها أرضاً الواحدة بعد الأخرى، ثم بعد ذلك تسوي بين شجرة وثانية، بين الساقية والأرض التي حولها، حتى إذا انتهت من مجموعة من الأشجار هجمت بنفس الضراوة والوحشية على مجموعة جديدة وبدأت تقتلعها. كانت الأشجار وهي تميل وتترنح، قبل أن تسقط، تصرخ، تستغيث، تولول، تجن، تنادي نداءً أخيراً موجعاً، حتى إذا اقتربت من الأرض هوت بتضرع، وكأنها تحتج أو تريد أن تلتحم بالتراب من جديد، في محاولة لأن تنبثق، لأن تتفجر مرة أخرى.

هكذا بدأت مجزرة وادي العيون، وهكذا استمرت حتى أتت على كل شيء؛ ومتعب الهذال الذي شهد بداية المجزرة لم يشهد نهايتها، لأن الرجال الذين وصلوا على صوت الآلات المجنونة، ووقفوا يرقبون ما يجري أمامهم، وبعد أن أفاقوا من الذهول الذي سيطر عليهم خلال الفترة الأولى، والتفتوا ورأوا ابن هذال، قال هؤلاء الرجال أشياء كثيرة شديدة الحزن. قالوا إنهم لأول مرة في حياتهم يشهدون رجلاً مثل متعب الهذال يبكي. كانت دموعه تتساقط بغزارة، لكن بصمت أيضاً. كان صامتاً تماماً. لم يفه بكلمة واحدة. لم يشتم. لم تخرج من حنجرته أية آه أو نأمة، فقط كانت دموعه تنهمر، ولم يكن خجولاً أو خائفاً، ولم يكن فخوراً أيضاً. كان ينظر من خلال الدموع إلى الوادي كله، كان ينظر بصمت ويهز رأسه.

في وقت ما، ولم يعرف ذلك الوقت أبداً، والرجال يتابعون ويتحركون، والآباء ينادون على أبنائهم لكي يجمعوا الحطب معهم، لكي يساعدوهم، انسحب، بهدوء، متعب الهذال، ترك الرابية باتجاه الظهرة. وخلال فترة قصيرة، رغم توسلات وضحة التي هوت على قدميه تقبلهما،

ورغم محاولات الأقرباء، كان قد اتخذ قراراً. أخذ يعمل بهدوء، حضر كل ما يحتاجه، دون أن يلتفت إلى أحد، دون أن يسمع كلمة واحدة من الكلمات الكثيرة التي كانت تقال. كانت في عينيه بقايا دموع، لكنه لم يبك، أما حين انتهى من تهيئة كل شيء فلم ينس التقاط بندقيته وقربة الماء، وحين اعتلى ظهر ناقته العمانية، نظر إلى الجميع، نقّل نظراته من وجه لآخر، وبدا أنه يتمعن، كأنه لا يريد أن ينسى، حتى إذا نظر إلى كل الوجوه لكز ناقته فاهتزت اهتزازاً قوياً وهي تنهض، وبدا متعب الهذال وهو يرتفع مثل خيمة كبيرة، ثم بدا مثل غيمة، أما حين بدأ حركته السريعة فقد أصبح مثل طير أبيض... وبدأ يبتعد ويبتعد حتى تلاشى... واختفى!

لم يره إلا القليلون وهو يرحل. كان الناس في الوادي مشغولين خائفين وهم يراقبون تلك الآلات المجنونة تقتلع الأشجار وتدك الأرض وتقلب كل ما فوقها، ولما تعبوا من المراقبة، ورأوا كل شيء بعيونهم يتهدم وينتهي، تلفتوا، نظر بعضهم في وجوه بعض مستغربين، أما عندما سألوا عن متعب الهذال فقد وُجد من قال إنه رحل. بدت الكلمة غريبة، غير مألوفة، بل ومعادية أيضاً: «متعب الهذال يرحل؟ كيف يرحل ويترك الوادي... وإلى أين يمكن أن يرحل؟».

بدا كل شيء غير قابل للتصديق. قال أحد الرجال:

- متعب لا يترك الوادي، متعب يموت ولا يرحل.

- رحل منذ زمن طويل. رحل حين قطعوا أول شجرة.

- متعب لا يرحل... أراهن.

- الظهرة قريبة، والوادي الآن مثل ما تراه، لا يخفي إبرة.

- من ناقة إلى ناقة.

- ولكنه رحل منذ ثلاثة أيام. شعلان قال إنه رحل. وأنا رأيته بعيني على ناقته مشرّقاً.

- أريد أن أخسر راسي وأخسر الناقة. متعب لا يرحل.

- وكّل الله يا ابن الحلال، خلي راسك بين أكتافك وخلي ناقتك عندك، واسمع كلامي: متعب رحل!

قال الكثيرون: متعب الهذال مثل عادته دائماً: إذا جاءته «السوداء» يغيب يوماً أو يومين ثم يعود، ولذلك فإذا شرّق أو غرّب لا بد أن يرجع.

كان أهل الوادي جميعاً على يقين راسخ أن متعب لا يتخلى عن

الوادي، وأنه ليس مثل الآخرين يمكن أن يحمل أمتعته ويمشي. أما إذا كان قد دخل الصحراء غاضباً مهدداً كما فعل أبوه وجده، فلا بد عندئذٍ أن يفعل مثلما فعلوا. كانوا أشرس أهل الوادي في محاربة الأتراك، كانوا لا ينامون في مكان واحد مرتين، وقد حولوا الطريق السلطاني كله إلى جحيم، حتى أن الأتراك وضعوا جائزة «مائة ليرة رشادية» لمن يقتل الهذال أو يأتي به حياً. وقبل جازي كان أبوه، متعب. قبض الأتراك عليه مرة، لكن قبل أن يصبح الصباح هرب. رُوي أنه وضع في القهوة مادة دوخت الحراس. وقيل أنه رشاهم فتركوه يهرب، وقد عوقب رجال حامية وادي العيون كلهم، ونقلوا لأنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بمتعب الهذال وأن يرسلوه إلى حامية الكرك.

تذكر الناس هذه القصص وتوقعوا أن متعب الهذال سيعود مرة أخرى. الذين شعروا بالخوف قالوا إن هذا الزمان يختلف عن زمن الأتراك، ولذلك لا يمكن لمتعب أن يرفع بندقية أو أن يقتل أحداً. أما الذين كانوا أكثر شجاعة وتفاؤلاً فقد وافقوا على أن متعب سيعود، لكن أضافوا أنه إذا عاد سيشعل الدنيا، قد يقتل وقد يخرب ويمكن أن يحرق أيضاً. أما أن يترك الأميركان، خاصة بعد أن فعلوا ما فعلوا في وادي العيون، فأمر مستحيل.
قال نزال المعاني، وهو يتطلع إلى مكان بعيد:

ـ العتوم مثل حيات الشتا، يختفون، ينامون، لكن إذا دفت.. الله يستر.

رد محمد المدور وهو يهز رأسه ويبتسم:

ـ كيف تخلص وين تروح يا ابن الراشد؟

وينزق قال عبد الله المسعود الذي كان يسمع ولا يرغب في المشاركة:

ـ والله يا أهل العيون ما عندكم غير السوالف، والزلمة حتى يكفّ شره، حتى يخلّص روحه ترك الوادي وهجّ، ما ظل بنفسه شيء. وأنتم تقولون فلاني وتركاني، وكأنه ما عندكم سالفة غير ابن هذال.

وتطلع الرجال من جديد أحدهم في وجه الآخر. وهزوا رؤوسهم أسفاً وحزناً وانتظاراً.

وبدا بالنسبة لكل واحد أن سفر ابن هذال مهما طال، وغيابه مهما امتد فلا بد أن ينتهي ولا بد أن يعود.

ورغم أن الكثيرين تصوروا، أثناء ما كانوا يرقبون المشهد الغريب، أن ما يشهدونه حلماً أو ما يشبه الحلم، إلا أن توقف التراكتورات واحداً بعد آخر، وذلك الصمت القاسي الذي خيم على هذه الأرض «الجديدة»، فبدا الوادي وكأنه جزء من الصحراء التي تليه، عدا بعض التلال، ثم تلك الأكوام من بقايا الشجر، عند ذاك تأكد الجميع أن ما يرونه شيء حقيقي، شيء قاس لئيم معادٍ، وأقرب ما يكون إلى الموت.

إلى جانب هذه البقايا في السهل الفسيح، ظلّ أولئك الذين أصروا على البقاء وتفاءلوا وتوقعوا وانتظروا. كانت حركاتهم بطيئة حزينة وأقرب ما تكون إلى اهتزاز الفزّاعات المصنوعة من الخرق وسعف النخيل إذا ضربتها الريح، كانت تتحرك ثم تسكن تدريجياً حتى تصبح جزءاً من المدى الصلب المغبر اللامتناهي، وتعود مرة أخرى إلى الحركة ثم إلى السكون.

وابن الراشد الذي بذل جهوداً خارقة في الأيام الأخيرة، بالتعاون مع قوات البادية، على ترحيل أهل الوادي، واختار الرجال العشرين الذين سيعلمون في المعسكر، كان مرتبكاً خائفاً من تشبث بعض الناس أو تأخرهم في الرحيل، أما عند عصر اليوم الثالث، ومع سقوط الأشجار الأخيرة، فقد صرخ في الرجال المتجمعين، وأخذ وجهه سمات الحدة والحزم:

ـ يا جماعة الخير.. ارحلوا برضاكم مثل ما رحل الجماعة قبلكم أحسن ما ترحلكم العصا. كل واحد أخذ حقه المقسوم، والأمير يقول اللي يريد ديرته وعشيرته فألف سلامة، واللي يريد مكان، الحكومة حضّرت المكان.

بعد ذلك لم ير الناس ابن الراشد، ولم يعد إليهم. ظل مرابطاً في المعسكر، وبدلاً منه جاء رجال البادية.

أبلغ رجال البادية من تبقى من أهل الوادي بضرورة الرحيل. رفضوا

أية مناقشة. وبعد أن نادوا على الذين سيبقون، ووضعوهم قريباً من المعسكر، قال أحد الجنود، وكان ينظر إلى الأرض:

ـ معكم هذه الليلة، وباكر قبل الغروب أنتم بديرة ثانية... ونتلاقى.

في جو من الغيظ والتحدي والحزن والغضب وعشرات المشاعر الأخرى التي سيطرت على الناس في الوادي، كانت أم الخوش الإنسان الوحيد الذي لا يخضع لأية أوامر، ولا يوافق على كل ما يجري. إذ بعد إن جمعت حاجاتها في كومة صغيرة، ووضعت إلى جانب الذي سيرحلون، تبرع بعض الناس فحزم هذه الحاجات. كانت أشياء لقلتها وتنافرها، تثير الضحك والحزن في نفس الوقت: ثياب قديمة، تنكات فارغة متفاوتة الأشكال والأحجام، قطع خشبية، مجموعة من الحبال وعصا خيزران معقوفة الرأس. وأم الخوش التي كانت، ذلك الوقت، قريباً من الظهرة، تنتظر، مثل عادتها كل يوم، قافلة جديدة، لعلها تسمع خبراً أو ترى أحداً. حين جاءت ووجدت كومتها، وقيل لها أنها سترحل مع الراحلين، نظرت بسخرية، ابتسمت أكثر مما تفعل في العادة، وبهدوء جرت أشياءها وفصلتها عن الكوم الكبير الذي كان على شكل دائرة. جرتها إلى مسافة اعتبرتها كافية وانفصلت عن الراحلين وأشيائهم. فكت الحزمة، فكتها بعناية. أخرجت بعض ملابس الخوش، نفضتها في الهواء، تشممتها، أبعدتها عن عينيها قليلاً ونظرت إليها من هذه المسافة، كما لو أنها تتأكد من مظهرها وجمالها، ثم قرّبتها إلى وجهها مرة أخرى، نظرت إليها بعناية لتطمئن إلى سلامة القماش وحسن صنعه. تشممتها مرة ثانية، حتى إذا ملأت روحها منها جمعتها، وضعتها بعضها فوق بعض. ربتت عليها، تكلمت معها، قالت أشياء أحزنتها وأفرحتها، أضحكتها ثم أبكتها. قامت بكل هذه الأعمال الصغيرة، كما لو أنها وحدها في الفلاة، والناس الذين كانوا يتابعون، وكأنهم يرونها لأول مرة، رأوا في وجهها وجوههم، وأحسوا أن حياتهم مليئة بالحزن والانكسار. كانوا يتابعون تلك الحركات بصمت، ولم يفطن الكثيرون إلى الدموع تسيل من عيونهم. تذوقوا ملوحتها وأحسوا بها كاوية فنظروا إلى الأرض ولم يجرؤوا على أن ينظر

الواحد في وجه الآخر. أما عندما ناموا، وقد فعلوا ذلك في وقت مبكر، وكانوا مثل القطط في ليالي الشتاء فوق أمتعتهم وأشيائهم، وبعد أن بدأ الخدر ثم النوم، سمع صوت أم الخوش. ظن من كان مستيقظاً، أو من أفاق على صوتها، أنه في حلم، أو في عالم آخر، فقد كان الصوت مرتجفاً وفيه لوعة. سألت بصوتٍ عالٍ وهي في مكانها:

ـ يا جماعة الخير. يا أهل الوادي، نسيت اسألكم عن متعب، أبو ثويني، وين متعب؟

لم يجرؤ أحد على أن يجيب. ارتد الصمت ثقيلاً كثيفاً، سألت من جديد:

ـ يا جماعة.. اللي يعرف علوم أبو ثويني يعلمني.

واستمر الصمت، وقد رافقه ذلك التوتر الذي ينبئ بالخوف، لأن اللحظة التالية يمكن أن تفجّر كل شيء. قال صوت خشن، لا يعرف إن كان صوت رجل أم صوت امرأة عجوز:

ـ نامي يا بنت الحلال، نامي والصباح رباح.

علت ضحكة مختنقة جافة ثم صوت.

ـ لا تخافوا يا جماعة الخير، اللي يعرف علوم أبو ثويني يعلمني.

أما عندما استمر الصمت شديداً قاسياً، وأكثر حزناً من قبل، فقد سألت بلهجة تعريض هازئة:

ـ الصباح رباح؟ باكر تعلموني بأخبار أبو ثويني؟

وظل الصمت مثلما كان قاسياً مرتاباً، وأقرب ما يكون إلى الخوف. تابعت بنفس السخرية:

ـ يا جماعة الخير، البارحة.. لا قبل يومين أو ثلاثة أيام... أنا شفته، سولفنا وقال لي: لا تخافي، الخوش يرجع. وأنتم تعرفون. أنا صار لي سنين اتني الخوش وأنشد، وأنتم، أنشدكم عن أبو ثويني ولا أحد يجيب ولا أحد يسمع...

توقفت قليلاً ثم أضافت بمرارة:

ـ الله منكم يا أهل الوادي.

وانكفأت أم الخوش على نفسها.

الذين ظلوا ساهرين كانوا يسمعونها تحدث نفسها. لم يفهموا شيئاً مما كانت تقوله، ولم تعد إلى توجيه الأسئلة أو انتظار إجابة أحد. والذين دخلوا في ملكوت النوم واقتربوا منه، كانت تصلهم أصوات رتيبة تتكرر باستمرار، في لحظات تعلو الأصوات قليلاً، وفي لحظات أخرى تتوارى لكن لا تغيب ولا تتلاشى. انها تشبه ولولة ريح مقبلة أو استغاثة بعيدة، أما عندما بدأ الصوت يتداخل ويتثنى ويغيب حتى التلاشي ثم يهب مذعوراً، فكان الذين غادرهم النوم، والذين لم يقووا عليه منذ البداية، يحسون في ذلك الصوت ندباً موصولاً بالقلب أو كأنه الشوكة في باطن العين. كانوا يغمضون أعينهم في رحلة طويلة مع الذكريات الحزينة، وكأن تلك الرتابة الموجعة تجعل للأشياء نكهة مختلفة وطعماً كاوياً كالجرح المفتوح.

في وقت لا يدرى متى، في صراع النور والظلمة، هدأ صوت العجوز. لم يهدأ دفعة واحدة أو بشكل مفاجئ، وإنما تباطأ وارتخى، ثم اشتبك باللهاة تماماً، فأصبح مجرد نبرة تشبه قطعة من الدهن تذوب شيئاً بعد شيء، فلما غاب نهائياً، قال الذين لا يزالون يساهرون النجوم «النوم راحة.. وقد نامت العجوز».



مع غياب نجمة الصبح بدأت الحياة تدب في هذه الكومة من البشر مرة أخرى. بدأت رخوة مترددة، لكن مع اتساع رقعة السماء وانفصال الأرض عن الفضاء، في هذا المدى المترامي إلى ما لا نهاية، أخذت الأجساد حركة أكثر وضوحاً ثم أكثر قوة. الذي انتفضوا مع ذرات النور المتقدمة، وكأن يداً خفية هزتهم وأيقظتهم، انفتحت عيونهم فذعروا أو لم يصدقوا، لأن النوم إذا كان قد سرقهم وأنساهم في أي مكان هم، وفي أي وضع كانوا، فإن اليقظة الأولى لم تساعدهم على أن يعرفوا أو على أن يستوعبوا، لذلك هزوا رؤوسهم مرة بعد أخرى، لكي يطردوا النوم،

ونظروا من جديد ليتأكدوا، فلما تذكروا من جديد أغمضوا أعينهم في محاولة للغرق أو النسيان، لكن ذلك كان متأخراً أو ربما مستحيلاً.

قبل شروق الشمس استيقظ الجميع، عدا أم الخوش. كانت تنام واضعة جبهتها على كومة الملابس، في جلسة أشبه ما تكون بالصلاة، كانت راكعة نصف ركوع، وكأنها مترددة أو لم تصلِّ بعد، وكان شكلها مثل نصف الكرة. نظر إليها الكثيرون بحذر وكأنهم يخشون إيقاظها أو يريدون لها أن تنام وقتاً أطول لتعوض ما فاتها من نوم الليل. ظلت حركتهم محاذرة وأصواتهم بطيئة خافتة، وظلت في نومها المتحفز أو في صلاتها غير المنتهية، حتى بعد أن عوت الكلاب على اثنين من رجال البادية كانا يتجهان نحو المعسكر، أما حين بدأ الصبية يتراكضون، واقترب أحدهم من أم الخوش، فقد نقفه عبد الله المسعود بحصاة، وأشار عليه بإصبعه مهدداً، طالباً منه أن يبتعد. وقد سمع أقرب الناس إليه يقول بصوتٍ منخفض:

ـ للفجر.. العجوز ما نامت...

وأضاف بعد قليل وهو يهز رأسه لوعة:

ـ الله يساعدها... ويساعدنا.

حين ارتفعت الشمس مقدار ذراع لم يبق شيء في مكانه. أعيد حزم الأمتعة، أشعلت النار، تحرك الرجال من مكان إلى آخر ليلقوا نظرة. أما النسوة فقد كانت حركتهن بطيئة مترددة، خلافاً للأيام السابقة، وكأنهن لا يعرفن ماذا يجب أن يفعلن أو كيف. أما الصبية الذين زادت حركتهم وعلت أصواتهم فلم يعودوا مبالين أن تحركوا في هذا المكان أو في أي مكان آخر. حتى عبد الله المسعود الذي كان لا يبعد نظراته عن أم الخوش، فقد اعتبر أن الوقت الذي مر، منذ أن نقف الصبي بحصاة، وطلب منه أن يبتعد، كافياً، فلم يعاود زجر الصبية أو التكلم بصوت منخفض.

وظلت أم الخوش في جلستها تلك، غير مبالية بكل ما يجري حولها، لا تسمع ولا تتململ. كانت هادئة مستقرة في صلاتها أو في غفوتها. ولئن

كان رجلا البادية قد عادا من معسكر الأميركان، فقد اقتربا كثيراً من هذه الكتلة البشرية. قال أحد الرجلين بصوت حمّله مقداراً كبيراً من الود:

ـ يا جماعة الخير.. مشي السرى أحسن لكم، وإلا الشمس ذبحتكم.

رد عبد الله المسعود بسخرية:

ـ لا تخف، نمشي، نمشي، بس وكل الله يا ابن الحلال.

ـ لو مشيتم مع الفجر كان صرتم هالحين بالخبرة الشرقية أو بعدها.

ابتعد الرجلان. نظر الصبية إلى آبائهم متسائلين ما إذا حان وقت الرحيل. قال محمد المدور يخاطب نفسه بصوتٍ عالٍ:

ـ إذا مشينا هالحين نمرح بالخبرة، وبعدما تكسر الشمس نعاود ونشيل.

سأل عبد الله المسعود، وهو يشير إلى أم الخوش:

ـ والعجوز؟

ـ تمشي معنا.

هكذا رد أكثر من واحد. فسأل من جديد:

ـ وإذا ما رضيت؟

قال محمد المدور:

ـ رضيت أم لم ترض، نشيلها ونمشي.

ـ طيب.. شوفوها. اسألوها.

تقدم محمد المدور بخطوات قوية، لكن حذرة أيضاً، وضع يده على كتفها:

ـ أم الخوش... يا أم الخوش.

لم تجب ولم تتحرك.

ـ الدنيا صارت الظهر... يا أم الخوش.

لم تجب.

أمسك محمد المدور برمانة الكتف وهزها.

ـ يا أم الخوش....

تحركت قليلاً، لكن لم تجب. هزها أكثر من قبل. مالت بعض الشيء نحو الجانب الأيسر، لكن لم تغير من إصرارها على أن تبقى كما هي: غافية، معاندة... أو ربما تواصل صلاتها. رفع كتفها قليلاً، كانت حركته بين الشدة والحزم، ارتفع الوجه بمقدار شبر وتغير وضع الجسد؛ أما حين ارتخت يده فقد عادت أم الخوش إلى وضعها السابق: هوت على كومة الملابس وكأنها تقبلها ولا تقوى على مفارقتها.

قال رجل من بعيد:

ـ خلصونا يا جماعة الخير.

تقدم عبد الله المسعود، جثا على ركبتيه، إلى جانب أم الخوش، وضع يده على كتفها، تطلع إلى محمد المدور، وتطلع إلى الذين حوله، وبكثير من الحنان الخائف همس:

ـ يا أم الخوش... يا أم الخوش.

ولم تجب، ظلت على حالها، قال محمد المدور بنفاد صبر.

ـ نشيلها ونمشي، وافقت، ما وافقت.. هذا هو.

رد عبد الله المسعود.

ـ خف ربك، يا ابن الحلال، شلون نشيلها؟ نعجة؟ ما هي بنعجة!

قال رجل من بعيد، وربما كان هو نفسه الذي صرخ من قبل:

ـ خلصونا يا جماعة.

تقدم محمد المدور أكثر من قبل، صار فوقها تماماً، وضع يديه تحت إبطيها ورفعها، ارتفعت مثل كومة الثياب، بدت بين يديه كطفلة كبيرة. هزها هزاً قوياً موصولاً لعله يخرجها من هذا السبات القوي. كان الصبية يتابعون هذه الحركة بفضول وهم يصرخون ويضحكون، أما الرجال والنسوة فقد ابتسموا. عبد الله المسعود الذي ظل جاثياً رفع رأسه. ليتابع هذه اللعبة التي تصرّ عليها أم الخوش في لحظات الرحيل الأخيرة. حين وقعت عيناه على وجهها انتفض كمن يفيق من نوم بشكل مفاجئ، وأحس بقلبه ينتفض خارج صدره. صرخ بألم:

ـ حرام عليكم يا جماعة.

وانتفض واقفاً، أمسك بأم الخوش وأنزلها بهدوء. كبت على وجهها بنفس الوضعية السابقة، جثا إلى جانبها، وقد بدا مرتجفاً خائفاً. أمسك وجهها، تطلع إليه بإمعان، ثم أداره قليلاً نحو الآخرين الذين اقتربوا. كان الوجه مصفراً جافاً بارداً، وقد فارق الحياة، لما تأكد من ذلك أعاده ببطء فوق كومة الثياب.

قام بهدوء، أقرب إلى الاستسلام. مشى بخطوات قصيرة متعبة حتى آخر حلقة الرجال:

ـ الله، سبحانه وتعالى، أراحها وخلصت.

لم يصدق أحد، أما حين اقتربت منها وضحة وقلبتها فذعرت وتراجعت ثم صرخت بصوتٍ حاد يشبه صوت طفل:

ـ وينك يا أبو ثويني، وين عينك تشوف.

وفي أقل من ساعة حفر القبر ودفنت. أما الأشياء التي بقيت فلم يرض إنسان أن يمد إليها يده، فبعثرتها الريح، ثم جاءت الرمال ودفنت ما تبقى منها.

وإذا كان قد تقرر أن تغادر القافلة وادي العيون قبل الظهر، فقد أصبح موت العجوز سبباً كافياً لأن تبقى، وببقاء القافلة يوماً إضافياً، كان امل يراود الجميع أن يحصل في ذلك اليوم ما يغير هذا القرار، ويجعل كل شيء قابلاً لإعادة النظر. أما جنود البادية فقد ظلوا بعيدين، ورفضوا الدخول في أية مناقشة، أو الإجابة عن أية أسئلة تطرح. تظاهروا أنهم لم يروا شيئاً، لكن كانوا مصممين أيضاً أن لا يسمحوا بالبقاء سوى ذلك اليوم.

في الظلمة الزرقاء الناصلة، ومع هبات ريح خفيفة منعشة، كانوا، بصمت، قد انتهوا من استعدادهم للرحيل. أما حين تركوا وادي العيون، أو بكلمات أدق، حين أجبروا على تركه، بعد شروق الشمس بقليل، فقد كانت بين الراحلين عائلة متعب الهذال، وكان فواز الكبير بين إخوته. شعلان وحده بقي في الوادي، لكي يتابع تحصيل ما يستحق للعائلة من تعويض، ثمناً للبستان الصغير الذي كان لهم، وللأرض التي كانت عليها دراهم.

كان هديب قد سبقهم إلى عجرة، المحطة الأساسية على الطريق السلطاني، وكان يفترض بفواز أن يتحمل مسؤولية الرحلة، وأن يتولى أموراً كثيرة، إذ بعد أن ترك متعب الهذال وادي العيون بتلك الطريقة الغاضبة، وخلف وراءه غباراً كثيراً وكلاماً أكثر، بدأ رجال الأمير ينظرون إلى «بقايا» متعب الهذال نظرة مليئة بالحقد والغضب، وبدأت الإشاعات تسري أن العائلة لن تنال تعويضاً من أي نوع، وأنها سوف ترحّل بالقوة إذا لم ترحل باختيارها، فإذا وصلت إلى عجرة لتتدبر أمرها بنفسها، وهذا، مع أمور أخرى، ما اضطر هديب إلى صرف النظر عن التعويض الذي تشبث به الكثيرون، وانتظروا حول وادي العيون، تاركاً الأمر لشعلان يتابعه. وسافر بسرعة إلى عجرة لكي ينتظرهم هناك، لينطلقوا بعد ذلك في رحلة إلى الداخل، إلى حيث لهم علاقات وقرابات، سواء من ناحية الأب أو من ناحية الأم، يمكن أن تحميهم وتؤمن لهم حياة فيها بعض الاستقرار، إلى حين عودة متعب الهذال.

فواز كان «الكبير» بين الأخوة. يمكن لهذا الوصف أن يثير الضحك

والسخرية حين يذكر، لأن عمره آنذاك لم يكن يزيد على أربع عشرة سنة. كان ضامراً شديداً مثل خيزرانة، وقوياً كحبل مبلول، أو هكذا كان يتظاهر وهكذا يريد أن يكون. كان يتعلق بذيل الناقة وهي مسرعة كالبرق، ويزحف مثل قرادة حتى يعتليها، لكي يثبت لكل إنسان أنه بلغ مبلغ الرجال، هذه الصورة تبدو بعيدة الآن، متداخلة إلى درجة لا يمكن للإنسان أن يكون متأكداً، فالأشياء والأشكال بعد وادي العيون اختلطت إلى درجة كبيرة، ومع ذلك فما تزال في الذاكرة طرية حاضرة بملامحها وروائحها، حتى الكلمات التي ترددت همساً بين اثنين، وتلك الأسئلة العارضة التي يتبادلها الذي يستعدون للرحيل، عن الحبال والماء والطحين، لا تزال ترنّ قوية حادة في آذان الباقيين والراحلين.

قال هديب، حين وصلت القافلة إلى عجرة:

ـ خفت كثيراً أن تجدوا صعوبة. . . أو أن تتعطلوا في الطريق. . .

قال هذه الكلمات وفي عينيه ذلك الإعجاب الذي لا يستطيع أن يخفيه، وحين بدأ فواز بفك الأحمال تابع هديب يحدث أخته:

ـ فكرت أكثر من مرة أن أرجع إلى وادي العيون، أو ألاقيكم على الطريق.

قالت رضية:

ـ لقينا أكثر من ذيب على الطريق.

رد هديب وهو يضحك:

ـ الذياب ما تخوف. . .

توقف لحظة ثم أضاف:

ـ ومعكم رجال.

هل كان شجاعاً كما تصوره خاله أو إلى الدرجة التي افترضتها أخته؟ هل كان خائفاً أو ظهر عليه الخوف خلال الرحلة، والتي استمرت ثلاثة أيام؟ كان شديد الحذر، رغم أنهم كانوا في قافلة من خمسة بيوت، بعد أن توقف الكثيرون في الخبرة وبعدها، أو ذهبوا في طرق أخرى، لكن وضحة

الحمد كانت قوية إلى درجة أن أية شجاعة ظهرت عليه أو حكمة ميزت تصرفاته تعود إليها. كان في عينيها ذلك الحزن النبيل بعد رحيل متعب. لم تدرك سبباً معقولاً لثورته وهياجه ثم رحيله. أطبقت شفتيها بحزم ورفضت أن تقدم سبباً أو تفسيراً لما فعله. كانت تدرك في أعماقها أن روحاً خطرة حلت في قلبه وعقله وحملته على اتخاذ ذلك القرار. وإذا كانت قد شهدت في أوقات سابقة ثوراته التي تصل حدود العزلة ثم السفر المفاجئ والغياب الطويل، ففي هذه المرة لم تكن متأكدة أنه سيعود مثلما فعل في المرات السابقة، وإن ظلت على يقين أن أمراً ما لا بد أن يقع في اللحظة الأخيرة ويغير كل شيء، إذ لا يمكن لمتعب الهذال أن يتخلى دفعة واحدة، خاصة في هذا الوقت بالذات الذي يغيب فيه وادي العيون إلى الأبد. لا يمكن أن يرحل دون أن يفعل شيئاً، دون أن يحرق أو يقتل ويدمر. لكن لما رأت قراره الحازم القاسي، وبذلك الشكل المفاجئ أيضاً، ثم رحيله، ظلت تنتظر لحظة بعد أخرى، أن يظهر من جديد، أن يدور مرة أو مرتين حول الوادي، حتى إذا تعب، حمل معه الحزن والحمى وعاد. أما أن تنقضي الأيام ولا يظهر أو يبعث بإشارة، ثم يمضون ويرحلون فعلاً فقد أحست بحالة من الحزن بلغت حد اللوعة. هل يمكن أن يمضوا ويخلفوا كل شيء وراءهم؟ هل يحتملون الذهاب إلى مكان آخر وقد خسروا الدار والأرض والنخيل... وقبل ذلك كله خسروا الذي كان أهم ما في حياتهم: متعب الهذال؟

لم يجرؤ أحد على أن يسأل مثل هذه الأسئلة، لكن ذلك الحزم القاسي الذي ظهر في تصرفات وضحة، ثم صمتها، أغلب وقت الرحلة، وذلك الحزن الذي ظهر جلياً قوياً في عينيها، والذي ما لبث أن أعدى الآخرين، جعل كل شيء نهائياً ولا يمكن الوقوف في وجهه.

ومع ذلك فإن تلك المرأة الرائعة الكبيرة، وضحة الحمد، هي التي قادت القافلة، هي التي ساهمت بشد الأحمال على الركائب، وهي التي فكتها. وإذا كان فواز قد امتلأ بالحذر طوال الرحلة، وكان، في كل لحظة، يتوقع أمراً خطيراً، وهذا ما جعله عصبياً، لا ينام إلا قليلاً، ولا

يأكل إلا كما يأكل الطير الخائف، فلم تشأ وضحة أن ترى ذلك. ظلت بصمتها وجبروتها تعدي وتؤثر عليه حتى وصلوا إلى عجرة. أما حين التقوا بهديب، وأراد أن يخفف عنهم، أن يخلق جواً من المرح، فقد اصطدم بصمتها، وما لبث أن شاركها الصمت ثم الحزن.

الأيام الأربعة التي قضوها في عجرة، عند إحدى القريبات، لا يمكن أن تغيب من الذاكرة أبداً. لم يحصل خلالها شيء غير عادي، ولم تصل أخبار جديدة من متعب الهذال أو عنه، رغم أن قوافل الحج في تلك الفترة لم تكن لتنقطع يوماً واحداً.

في هذه الأيام الأربعة أحس الجميع أن رحيلهم عن وادي العيون كان قاسياً عنيفاً، مثل لطمة مفاجئة. وقد ملأهم هذا الرحيل بشعور قاهر منذ الليلة الأولى في عجرة، إنهم وحيدون، وإنهم لا يستطيعون احتمال الحياة الجديدة. إذ بعد أن آوى الجميع إلى الفراش، وكان الصمت، في تلك الليلة، ثقيلاً مسيطراً، عدا نباح الكلاب، وبعض النداءات البعيدة المتفرقة، في ظل ذلك الصمت، سمع، لأول مرة، وربما منذ سنوات طويلة، بكاء أمه، وضحة الحمد. كان بكاء مكتوماً متقطعاً، لا تريد لأحد أن يسمعه، أو أن ينتبه إليه. بكت مثل طفلة صغيرة، لكن خفية عن الآخرين. كانت تعض على اللحاف، تدفن وجهها في الوسادة... وتبكي.

في تلك الليلة أدرك فواز، بشكل خاص، إن ما حصل لهم ليس مجرد الرحيل عن مكان اسمه وادي العيون، وليس خسارة من النوع الذي يستطيع الإنسان أن يألفه أو أن يتعود عليه. أدرك أن ما وقع فراق، يشبه الموت، وأن لا شيء، لا أحد، يمكن أن يعيدهم إلى ما كانوا عليه. ورغم الغضب الذي يملأ صدورهم على أبيهم، لأنه تركهم يواجهون هذه المصيبة وحدهم، فقد اختلطت كلماته الغاضبة مع بكاء وضحة تلك الليلة، وبدا مفهوماً أكثر من الأيام السابقة، وربما بدا أقل قسوة.

بعد تلك الليلة وحتى وقت متأخر، لم ينم هذا الذي ترك الصبا مبكراً، ودخل الرجولة قبل الأوان. ظلت الأشباح تطارده، وامتلأت تلك الليلة، كما امتلأت الليالي التالية، بذلك الانتظار الموجع.

في عجرة، النقطة التي كانت تمر فيها القوافل عبر آلاف السنين، حيث يلتقي الطريق السلطاني بطرق أخرى، ثم يفترق عنها، اختلطت قافلتهم بغيرها من القوافل، وخلال الايام الأربعة التي قضوها في عجرة، اشتروا ما يحتاجون إليه من مواد تكفي للطريق وللفترة الأولى من إقامتهم في منازلهم الجديدة، في الحدرة. دفعوا، ثمناً لذلك، كل ما حملوه معهم من دراهم. ولأول مرة يكتشفون أن الأماكن الأخرى، والناس أيضاً، يختلفون كثيراً عن وادي العيون. كانت كلمات الباعة قصيرة، سريعة، باترة. وكانت نظراتهم مليئة بالارتياب. أما محاولات هديب الحمد في تخفيض أسعار الطحين والسكر، ومروره على عدد كبير من الباعة للمساومة والتأكد، فقد انتهت إلى نوع من التسليم الأقرب إلى اليأس. قال لوضحة وأكياس الطحين ملقاة في ظل الجدار:

ـ لو كنا في غير هذا الوقت من السنة لحصلنا على أسعار أرخص وكميات أكبر من الطحين.

هزت وضحة رأسها بنوع من الموافقة، تابع بصوت مليء بالمرارة:

ـ يقولون إن الدين معاملة... لكن التجار لا يعرفون إلا المال، هذا هو دينهم.

وبصمت أقرب إلى الحزن ربطت الأحمال في فجر اليوم الخامس ومشوا.

صغرت القافلة عندما تركوا الطريق السلطاني واتجهوا شمالاً. كانوا قد هيأوا أنفسهم لرحلة طويلة، وكان يفترض أن يصلوا بسرعة إلى روضة المشتى، لكي يلتحقوا بقافلة ذكر أنه وصلت قبلهم إلى هناك ببضعة أيام،

وقيل إنها ستمكث أياماً أخرى بانتظار رعيتين أو ثلاث من الإبل، ثم تواصل رحيلها بعد ذلك إلى الحدرة وما وراءها.

إنها المرة الأولى التي تبدو لهم الأماكن معادية، وفيها ذلك المقدار الهائل من القسوة. وإذا كانوا قد شعروا بثقة كبيرة حين التقوا بالخال في عجرة، وتولى عنهم الأمور كلها، بما في ذلك قيادة القافلة، فقد بدت لهم وجوه البشر في الأماكن التي مروا بها، قاسية صمّاء، وأحسوا أن طعم الماء الذي شربوه مالحاً وأقرب إلى المرارة، أما الأماكن التي توقفوا فيها فقد بدت لهم غير مألوفة ولا يمكن للإنسان أن يتعود عليها. ووضحة، التي كانت قوية متماسكة طوال الطريق من وادي العيون إلى عجرة، أصبحت الآن كالناقة المسنة، كانت تنظر إلى كل شيء نظرة بطيئة، لكن خالية من التأمل، ولم تتكلم طوال الطريق أبداً، حتى عندما كان يتعمد الخال سؤالها عن أمر من الأمور كانت تكتفي بأن تهزّ رأسها دلالة الموافقة أو عدم المعرفة. وحين يجلسون إلى الأكل تمتد يدها المعروقة في رحلة طويلة بين فمها وصحن الطعام، وتظل تلوك اللقمة كأنها تتلهى ولا تريد أن تبتلعها، أو ربما لا تجد في نفسها القدرة على ذلك. كانوا، أغلب الأحيان، يقومون عن الطعام قبلها، تاركين لها شيئاً تأكله، وكانوا يتحاشون النظر إليها أو أن يطلبوا منها أن تأكل المزيد، لأن المرة الوحيدة التي فعلت رضية ذلك، وكانت منفعلة، أقرب إلى الغضب، وهي تشهد أمها تغرق في هذه الحالة من الكآبة والصمت القاسي، ثم في حالة من المرض الغامض، حين طلبت منها رضية أن تأكل، لكي تكون أقوى، نظرت إليها بطريقة جعلتها تكف تماماً، وجعلت الجميع لا يحاولون الضغط عليها بعد ذلك.

كانت رحلة مليئة بالحزن الصامت. الإبل تخبّ في مشيها الرتيب، والشمس بعد شروقها بوقت قصير، تصبح عذاباً لا يمكن أن يحتمل، أما محاولات الحديث والصخب، حين يتوقفون لجمع الحطب، لإيقاد النار، لإعداد الطعام، فقد كانت تعويضاً أخرق عن الكلام الذي يجب أن يدور بينهم. كان كل واحد، بطريقته الخاصة، يحاول احترام صمت الأم ومشاركتها في الحزن الذي تغرق فيه. وفي المرات القليلة التي حاولوا أن

يتكلموا، أن يقولوا شيئاً، كان كلامهم قصيراً مبهماً، وفي أحيان أخرى لا يعني شيئاً، ولكن كان دوماً خافتاً لا يكاد يسمع ثم يبتر فجأة، مخلفاً لدى كل واحد منهم شعوراً قوياً بالذنب. ورغم أن عادة الخال منذ عرفوه المزاح والغناء وبعض الأحيان المبالغة في إظهار الفرح أو الغضب، وكان هكذا إلى فترة قريبة في وادي العيون، ثم في عجرة، أما الآن فقد بدا إنساناً مختلفاً. ومحاولات إبراهيم معه في أن يحمله على الغناء أو الحدو، أو أن يقص عليهم بعض القصص من رحلاته، انتهت هذه المحاولات إلى الفشل، رغم أن وضحة، في حالات كثيرة، كانت بعيدة أو لا تسمع.

وصلوا إلى روضة المشتى، كانت القافلة التي يفترض أن ينضموا إليها ويسافروا معها قد غادرت، ومعنى ذلك أن ينتظروا أياماً، وقد تمتد هذه الأيام لتصبح أسابيع، خاصة وأن الطريق التي تقود إلى الداخل لا تمر فيها القوافل إلا بأوقات متباعدة، وتنقطع أو تكاد في فترة الصيف.

لا يمكن تذكر تلك الرحلة وتلك الأيام بتفاصيلها الكاملة، لأن وضحة الحمد الصامتة، المملوءة بكبرياء من نوع نادر، بدت، خاصة في روضة المشتى، أكثر جنوناً وتطرفاً من متعب الهذال.

هل الحمى التي أصابتها هي التي أنقذت متعب الهذال، أعادت تكوينه بنظر أولاده وجسّدت فيه براءة مطلقة؟ هل هي الحمى التي تكلمت وأسرفت في الكلام؟ لا تزال الكلمات أو بعضها قوية مشرئبة وأقوى من أية كلمات غيرها، إذ بعد أن وقعت وضحة الحمد فريسة للمرض، وتملكتها حمى قوية كثيفة جعلت تهذي في إحدى الأمسيات، قالت أشياء كثيرة، لكن أوضح ما قالت: «يا أبو ثويني أنت السالم والدايم وين ما كنت وين ما طيّبت. أنت أحسن الرجال وزينة وادي العيون اللي قلته صار أنت الصادق وهم ما صدقوا وادي العيون راح يا أبو ثويني بعدما رحت ما ظل فيه شي صار تواريخ وأمثال لا ترجع ولا تقول المربى قتّال إلى حين ما يكبر العيال وبرجعتكم تكونون الغانمين ويكونون مكسورين وتأكلهم الندامة وأولادك هم النشامة يا أبو ثويني وتجيك العلوم!»

بـعـد أسبوعين مليئين بالعذاب والانتظار والمرض بدأوا رحلتهم، ، مرة ثانية، من روضة المشتى إلى الحدرة. كانت رحلة قاسية، أقسى ما فيها الصمت الذي ملأها.

كانوا في القسم الأخير من القافلة، هكذا أرادت وضحة. لم تقل كلمة واحدة منذ أن غادرتها الحمى وحتى وصولهم إلى الحدرة، لكن كل نظرة منها، كل حركة كانت طوفاناً من الأوامر الحازمة القصيرة، الشديدة الوضوح. وكان الخال، مثل طفل كبير، يركض في كل الاتجاهات عله يستطيع في النهاية أن يصل إلى ما تريده أخته، أو لعله يدخل الرضا إلى قلبها.

فبعد عدة أيام من المرض الحاد في روضة المشتى قدّر الجميع أن في هذا المكان ستكون النهاية، فقد عافت الأم الأكل والشراب، وغابت في عالم من الحمى والهذيان، وبدأت نظرات هديب وحيرته تفضحه، بل وكاد يصرف النظر عن مواصلة الرحلة، خاصة وأن أخبار القوافل انقطعت، مما جعله يفكر ويقترح العودة إلى عجرة مرة أخرى، وهناك يمكن أن يفكر بهدوء وتتخذ القرارات المناسبة، إلا أن الصحوة المفاجئة لوضحة وبداية استعادتها لوعيها ولقواها، ثم وصول قافلة صغيرة متجهة إلى الحدرة، غيّر كل شيء، جعل وضحة تتغلب على المرض، ربما بدافع أنها لا تريد الموت في هذا المكان. ودون كلمات كثيرة أو مناقشة من أي نوع، هزت رأسها، دلالة الموافقة، حين عرض عليها هديب مواصلة السفر، اتُخذت كل الترتيبات ليكونوا جزءاً من هذه القافلة، الصغيرة البائسة، وساروا.

كانت القافلة صغيرة، عبارة عن ثلاثة من رعاة الإبل، مع إبلهم،

وعائلة سليّم الهزاع وعائلة متعب الهذال، وكان على هذه القافلة أن تقطع المسافة بين روضة المشتى والحدرة في خمسة أيام.

ما كادوا يصلون مشارف الحدرة حتى أرسل فواز مع أحد الرعاة ليبلغ الأهل بوصولهم، وحين جاء ثلاثة من العتوم، أقرباء متعب الهذال ليلتقوا بالقافلة وليساعدوا، وكان اثنان منهم يعرفان عائلة متعب الهذال معرفة قريبة مباشرة، وقد مرّا قبل سنة أو اثنتين في وادي لعيون، ومكثا هناك فترة من الزمن، ما كاد الرجال الثلاثة يصلون ويسلمون حتى فوجئوا أن متعب الهذال لم يكن موجوداً. أما حين سألوا عنه، وهل سيلحق بهم وأين تركوه، ما إن طرحت هذه الأسئلة، وكان الجميع يستريحون عند البئر شرقي الحدرة، حتى اكتشف الجميع أن وضحة دخلت في مرحلة جديدة، فالصمت الذي بدأ في وادي العيون، وكان نتيجة الحزن أو ربما الإرادة، أصبح الآن شيئاً مختلفاً، إنه الآن أكبر من الحزن وأقوى من الرغبة أو الإرادة.

فما كاد سليمان الهديب، وهو من أخوال متعب المباشرين، يسأل، وعيناه تدوران في هذه القافلة الصغيرة الحزينة، عن سفرهم ومتى تركوا وادي العيون ولماذا وأين تركوا متعب حتى طفرت الدموع من عيني وضحة. لم يكن السؤال بذاته يستوجب البكاء، خاصة بالنسبة لامرأة بقوة وضحة وجبروتها. وسليمان الهديب الذي بدا خائفاً عصبياً، وإذا نظر مرة أخرى في الوجوه باهتمام، ثم ركز نظراته على هديب يريده أن يتكلم، أن يقول شيئاً، وهديب بنظراته الحائرة، وكلماته المرتبكة زاد الأمر غموضاً. صرخ سليمان بحدة: :

ـ يا جماعة الخير، ندري أن الدنيا حياة وموت، إذا كان متعب حياً قولوا، وإذا كان قد مات قولوا.

رد هديب بارتباك، وقد خرج صوته من حنجرته:

ـ وكّل الله يا رجل، متعب حيّ وما عليه خلاف.

نظر سليمان الهديب إلى وضحة وقال بقسوة:

ـ ما قولك يا أم ثويني؟

هزت رأسها دلالة الموافقة، مؤكدة ما قاله أخوها، لكن سليمان الهديب لم يقتنع، وجد أن في الأمر ما يفوق طاقته على الاستيعاب، صرخ:

ـ إذا كان الرجل حياً فالبكاء ما له حاجة.

هزت ام ثويني رأسها، مرة أخرى، دلالة الموافقة، قال سليمان الهديب بنزق:

ـ وأنتِ، يا أم ثويني، أخت الرجال.

ومرة أخرى هزت رأسها، ونتيجة هذا الغموض قال بنفاد صبر:

ـ يرحم والديك علمينا.

ومن جديد طفرت الدموع من عينيها.

ذلك الضحى، ولا يُعرف إن كان أواخر الصيف أو أوائل الخريف، عند بئر المسبلة، قبل الوصول إلى الحدرة بمسافة قصيرة، ذلك اليوم البعيد الذي لا يشبه أي يوم سواه، والرجال جاءوا بفرح من الحدرة لكي يستقبلوا عائلة متعب الهذال، وكانوا ينظرون في وجوه هذه القبيلة التي جاءت من مكان بعيد، وبشكل مفاجئ، ومتعب الهذال نفسه، رب العائلة، لا يُعرف ما إذا كان حياً أو قد مات، وحين يُسأل عنه يكون الرد هذه الكلمات غير الواضحة والدموع. . . فأي حزن يتولد في القلب وأي حيرة تملأ النفس نتيجة ذلك كله؟ ولماذا يكون المشهد ساخراً ومعقداً بهذا المقدار؟

هكذا سأل كل واحد نفسه. وفي ظل هذا الحزن الأسود حاولت وضحة الحمد مرة أخرى، حاولت أن تتكلم، أن توضح، أن تقول شيئاً، ولكن تلك الأصوات التي خرجت من فمها كانت أقرب إلى أصوات الحيوانات، أو إلى الصراخ الساخر الحزين، وتشبه تماماً ارتطام الأواني أو رجع الصدى في وادٍ ضيق.

حاولت مثل قطة مخنوقة أن تتكلم. حاولت مثل طفل صغير أن تتكلم. صمتت فترة ليست قصيرة. استجمعت إرادتها كلها. جمعت

الكلمات في حلقها تريد أن تقذفها إلى الخارج. غيّرت جلستها أكثر من مرة. وسليمان الهديب الذي كان ينقل نظراته في هذه القبيلة التائهة، ويبتسم ابتسامات صغيرة، دلالة الترحيب واكتشاف شبه من نوع ما بين أفراد القبيلة ومتعب الهذال ووضحة الحمد وتلك السلالة العريقة الموغلة في القدم، والتي تمثل امتداداً ما لهذه العشيرة التي ضربت في كل الأنحاء، والتي تاهت في كل الأماكن، وإحساس يراوده أن الدماء لا يمكن أن تتغير، وأن الذين شربوا من وادي العيون ومن مياه الحدرة، ومن عيون أخرى، أياً كان مكانها، فإن هناك مياهاً خفية. مياه العتوم، هي التي أمدّت كل تلك العيون بهذه المقدرة الفائقة على التجوال والضياع ثم العودة، وأن الحياة في هذه الصحراء، مهما تنوعت وتغيرت وامتدت، فإنها، كالموت، لا بد أن تنتهي إلى مكان بعينه، إلى نتيجة بعينها.

في هذا الجو العابق بالحزن والحرارة وانتظار اللحظة التالية، وبعد الدموع التي انهمرت فجأة، ثم اقتراب رضية ودعجة من أمهما ومحاولتهما معرفة سبب هذه الدموع وهذا الحزن، شدت وضحة الحمد وجهها فبدا قاسياً أقرب إلى العداء. وحين حاولت أن تهمس مرة أخرى، أن تقول شيئاً، تبين لها، للجميع، إنها لم تعد قادرة على أن تقول كلمة واحدة، وأن تلك الأصوات التي تعلمتها خلال فترة تزيد على الخمسين سنة قد غادرتها إلى الأبد! لقد فقدت قدرة الكلام، فقدت الكلمات والأصوات التي يعرفها الآخرون وغرقت في الصمت.



في الأيام الأولى قالت عجائز الحدرة اللواتي تحلقن حول وضحة الحمد أن الحمى ربطت لسانها، وهذه الحالة مؤقتة لا تلبث أن تنتهي. بعد ذلك بشهور قالت العجائز أن جنياً أسود دخل إلى جسد وضحة، بين المعدة وأعلى الصدر، دخل مع ماء روضة المشتى، فإذا جاء الشتاء وانقضى فلا بد أن يخرج، لأن عليه أن يعود ويظل مرابطاً قرب ماء الروضة بانتظار القوافل التي ستأتي! أما بعد أن انقضت السنة، وانقضى معها الشتاء، ثم بعده الربيع ووضحة كما هي، فقد قالت زوجة سليمان

الهديب إن حزن وضحة امتزج بالخوف، ولا يمكن أن تعود إلى حالتها الأولى، إلا إذا رجع متعب الهذال، أو إذا وقعت مصيبة أكبر من غيابه... ولم تقل زوجة سليمان الهديب أكثر من ذلك.

كان كل من حول وضحة يسمع بعض ما يقال. أما هي فكانت تسمع كل ما يقال. الذين حولها يسمعون ويمتلئون خوفاً وتساؤلاً، وهي تسمع وتمتلئ سخرية ومرارة في وقت واحد. كانت تنظر في وجوه النساء، تسمع كلماتهن، تتابع ما يجري، حتى إذا اقترحت إحدى العجائز نوعاً من العلاج هزت وضحة رأسها دلالة الرفض، ولم تتردد في أن تقوم بخشونة وتخرج إلى الفلاة تاركة النساء اللواتي جئن من أجلها.

نجمة المثقال، عرافة حدرة وما جاورها، قالت لما سئلت عن متعب الهذال إنه لا بد عائد وقالت إنه يتجول في الصحراء، ينتقل من مكان إلى آخر، لكنه ينام في مكان بعيد، وهذا المكان قريب من البحر، وسيبقى هكذا سنين لكنه سيعود، وحين يعود ستكون عودته كريح السموم، قوية كاسحة، لا يمكن لأحد أن يردها أو يقف في وجهها.

هكذا قالت نجمة المثقال، رغم أن الجميع قد يئسوا من عودة متعب الهذال وانقطعت أخباره تماماً، وكف الناس في الحدرة وغيرها عن السؤال، فأي شيء كانت تنتظر هذه العائلة أو ماذا تفعل؟ هديب الذي بقي فترة ثم سافر في الصيف الكبير، رغم أن الكثيرين ألحوا عليه بالبقاء، عدا وضحة، التي هزت رأسها بموافقة كبيرة حين سألها أن يسافر، هل يعود هديب بعد فترة قريبة أم راح كما فعل متعب ولن يعود قبل سنوات مثل عادة الكثيرين من أهل هذه المنطقة؟ وشعلان ألا يزال في وادي العيون أم ذهب يبحث عن أبيه؟ وابن الراشد هل اكتفى بالسخرية مثلما كان يفعل من قبل أم جاءت فرصته الآن لكي ينتقم من متعب الهذال وذريته كلها؟

كان على فواز، باعتباره أكبر أولاد متعب الهذال الذكور، أن يسمع ويفكر وأخيراً أن يتدبر أمر العائلة. كان يترجم نظرات أمه وتصرفاتها، وكان يحس بالعذاب الذي يفيض من هاتين العينين ولا يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل.

أما الأقرباء الذين رحبوا بعائلة متعب الهذال، وأصبح ترحيبهم شفقة بعد أن عرفوا ما حلّ بوادي العيون، فكانوا ينظرون إلى هذه العائلة نظرة يمتزج فيها العطف بالتساؤل والحزن، وكانوا يعتبرون أن أولاد متعب لا يزالون صغاراً، وما عليهم في هذه الفترة إلا أن يأكلوا ويشربوا وينتظروا، لعل شيئاً ما بعد ذلك يقع، ولم يقبلوا حزن وضحة بعد أن اضطروا لقبول صمتها، أما الحذر الذي كان يبديه الأولاد، خاصة فواز، فلم يفهموا له سبباً أبداً، كانوا ينظرون إليه باستغراب ويتساءلون.

شعلان ظل في وادي العيون. لا أحد يستطيع أن يجزم هل ظل من أجل التعويض أم من أجل العمل في الشركة، حسب وعد ابن الراشد، في محاولة لاسترضاء عائلة متعب الهذال وكسبها، لأن الأمرين اختلطا إلى درجة أن شعلان، لما سئل بعد ذلك بسنوات، لا يتذكر أيهما حدث قبل الآخر: التعويض أم العمل في الشركة. ولأنه ظل في وادي العيون، الوادي الجديد الذي لا يمتُّ بأية صلة إلى ذاك الذي كان في يوم من الأيام، عدا الإسم، فقد افترض، بعد غياب أبيه، أنه يؤسس قبيلة جديدة بدل تلك التي كانت، ولأن كل واحد من الاثنين عمل بطريقة تختلف عن الآخر، فإن القبيلة الجديدة التي أسّسها شعلان، والتي امتدت وانتشرت، ولا تزال لها بقايا حتى الآن، بدأت من وادي العيون أيضاً، لكن لم تترك مكاناً إلا ووصلت إليه، وإن يكن ضمن نسق مختلف، وظلت تدور في ذلك الفلك الذي يجعل كل الأشياء، مهما ابتعدت عن المركز متصلة به ومحكومة بقواعد قاسية لا فكاك منها. . هذه القبيلة الجديدة تمثل امتداداً ملعوناً لمتعب الهذال، للعتوم! للحياة التي كانت.

انزرع شعلان في وادي العيون ليس كالنخيل الذي كان يملأ الوادي فيما مضى من الأيام، وإنما مثل الأعمدة الحديدية التي تنغرس في كل مكان، وخلال فترة قصيرة تغير شعلان، تغير كثيراً، حتى اسمه في المرحلة الجديدة تغير، أصبح «شعلان الشركة». وفي أحيان أخرى «شعلان الأميركاني» بدل شعلان بن متعب الهذال، لتمييزه عن شعلان أبو الطبيخ، متعهد التموين في وادي العيون وشعلان الأعور حارس البوابة الخلفية في

المعسكر، إضافة إلى شعلان بن متعب تعلّم اللغة الإنكليزية أسرع من الآخرين وقبلهم! ظل الكثيرون، لفترة طويلة، يضحكون من التسمية الجديدة، ويعتبرونها مزاحا لا بد أن ينتهي كما بدأ، لكن والأيام تمر وشعلان يستمر في عمله في الشركة وينتقل من مكان إلى آخر، من قسم إلى آخر، فقد زال تقريباً اسم متعب الهذال، عدا المعاملات الرسمية، واحتل مكانه الإسم الجديد. وإذا ظلت هذه التسمية تثير التساؤل والاستغراب لمن يسمعها لأول مرة، وبعض الأحيان تثير شعلان نفسه، أو أي واحد من أبناء متعب الهذال وأقربائهم، فما لبث أن تعوّد عليها، وتعود عليها الآخرون أيضاً... إلاّ إذا استعملت للتعريض أو السخرية.

كيف يمكن للأشخاص والأماكن أن يتغيروا إلى الدرجة التي يفقدون صلتهم بما كانوا عليه، وهل يستطيع الإنسان أن يتكيف مع الأشياء الجديدة والأماكن الجديدة دون أن يفقد جزءاً من ذاته؟

ما كادت الرسالة الشفوية التي بعث بها شعلان إلى الحدرة، طالباً فيها مجيء فواز، وأيّ من الأقارب الآخرين، إلى وادي العيون «لأن العمل في الشركة مضمون» حتى انفجرت زوبعة في رؤوس اثنين من العتوم، وملأتهما بإلحاح لم يستطيعا مقاومته أو التغلب عليه.

ففواز الذي قضى في الحدرة سنة وبضعة شهور، ما كادت تصله رسالة شعلان حتى دوت في رأسه تلك الأغنية القديمة: السفر. أما عندما تمثل له وادي العيون فلم يعد قادراً على الاحتمال أو الانتظار. تدبر الأمر بسرعة، وقرر أن يسافر مع أول قافلة، وصويلح، الابن الأوسط لسليمان الهديب، لم يتردد ولم يطل استعداده ليكون جاهزاً. أما وضحة التي وافقت أسرع مما كان يتوقع الكثيرون، فقد جعلت سليمان الهديب يشفق على هذا الصغير الذي «يضيع كما ضاع أبوه» وإذ حاول معه ليؤخر سفره، في أن يذهب صويلح قبله، حتى إذا وجد له عملاً بعث وراءه، لكن إزاء إصرار فواز، الذي بلغ حدود العناد، وفي محاولة غامضة لإقامة رمز من نوع ما لهذه العائلة التي بدأت تتآكل وتضيع، لم يطل الأمر... وهكذا تأهب هذان الشابان للسفر على أن «يعودا في أقرب وقت، وإلا يتجاوزا

وادي العيون» كما أكّد عليهما سليمان الهديب وكرر مرات كثيرة.

لما وصلا إلى وادي العيون بدا المكان لفواز وكأنه لم يره من قبل. لم تعد له صلة بالوادي الذي تركه، لم يبق فيه شيء من الأشياء القديمة، حتى الريح التي كانت تهب في مثل هذا الوقت من السنة طرية منعشة، أصبحت الآن لفحاً قاسياً خلال ساعات النهار كلها، وبرداً ينفذ إلى العظم في ساعات الليل المتأخرة. أما الرجال الذين تجمعوا، لا يعرف من أين، في البيوت الخشبية والخيام، فقد كانوا خليطاً عجيباً من البشر، ولا يشبهون أياً من الذين يمكن أن يلتقي بهم الإنسان. حتى القوافل التي التقى بها فواز في عجرة خلال رحلته الأولى، أو في رحلته الثانية، وأثارت استغرابه وحيرته، تبدو له الآن مخلوقات متجانسة لها ملامحها ونكهتها. هنا في وادي العيون، هذه المرة، يشهد مخلوقات غريبة متنافرة مملوءة بالصمت والحزن، وبدا له كل واحد من العمال أشبه بطير من الطيور ضل سربه وطريقه فلا يستطيع البقاء ولا يقوى على متابعة الرحيل.

كاد فواز أن يرجع خلال الساعات الأولى لوصوله، فبعد أن بقي مثل كلب إلى جانب الأسلاك الشائكة، بانتظار عودة شعلان، لا يعرف من أين، طلب منه ومن الآخرين الذين وصلوا معه أو بعده أن يبقوا بعيدين عن بوابة المعسكر، دون أي توضيح، ودون أية نظرة تحمل معنى من معاني الفهم أو التعاطف، وقد نُحوا أكثر من مرة لما اقتربوا، وفي مكانهم ذاك سفّت عليهم الرمال وغطاهم الغبار، حين بدأت تلك الآلات الكبيرة المجنونة تدخل أو تخرج من المعسكر.

ساعات من العذاب والمعاناة تفوق عذاب الرحلة كلها. لا لم تكن الرحلة، هذه المرة، تشبه رحلتهم الأولى، حتى مياه روضة المشتى كانت أطيب مذاقاً، وكان الناس أكثر رغبة في الحديث. أما هنا، خلال الساعات الواقعة بين الظهر والغروب، فقد شعر أن وادي العيون الذي كان، والذي عاش فيه سنين عديدة واستقبل القوافل والرعايا والطيور، لم يعد مثلما كان. وشعلان الذي وصل ساعة الغروب، بدا غريباً بشكله وملابسه: الخط الأسود الذي كان على شكل زغب خفيف فوق شفته، طفح بقوة

إعلاناً عن شارب تكوّن واكتمل، إضافة إلى لحية أقرب ما تكون إلى شعرات متفرقة نبتت بشكل غير منتظم وكانت شديدة الإثارة، خاصة وأن الغبار وبقع الزيت ملأ وجهه فبدا مضحكاً، تحت ظلال تلك الطاسة الحديدية البيضاء، التي وضعها على رأسه.

بعد أن تعانقوا وتحدثوا وصمتوا عند بوابة المعسكر، لم يستطع شعلان أن يدخلهما إلى الخيمة التي كان يعيش فيها إلا بصعوبة. استغل علاقات كانت له بحارس البوابة، ولجأ إلى الاحتيال والمزاح، إضافة إلى أساليب شيطانية. فوضع الطاسة الحديدية على رأس صويلح، فوق الغترة، وفي مهرجان من الصخب والضحك دخلوا جميعاً الخيمة الكبيرة.

في الخيمة كان عدد من الرجال، كان بعضهم نائماً، وآخرون يهيئون الطعام، وكان غيرهم يلعبون الورق ويتصايحون. تطلع إليهم فواز بعجب يصل حدود الدهشة، أما الخيمة الكبيرة فقد بدت أكبر من أية خيمة رآها، أكبر من مضافة ابن الراشد، وأكبر من مضافة ابن هديب، لكن بدت صغيرة أيضاً إلى درجة لا يمكن أن تستقبل زائراً جديداً. أما الرجال فقد ظلوا بنفس الوضعية، حين دخل هؤلاء الغرباء، بعد أن ألقوا عليهم نظرات عابرة لا تعني شيئاً. ورغم أن شعلان، بدخوله الصاخب، حاول أن يخلق جواً جديداً، ثم حين همس في أذن فواز أن أحد الثلاثة الذين كانوا يلعبون الورق قريب لهم إلا إن كل شيء بقي على حاله.

في كل المرات، في كل الأماكن، لم يحس فواز بالخوف كما أحس في هذه المرة وفي هذا المكان. كيف ينام هؤلاء الناس وأين؟ كيف يأكلون؟ لماذا يختلفون عن الناس في وادي العيون أيام كانوا فيه، وعن الناس في عجرة والمشتى وحدرة؟ بدا له أن كل واحد من هؤلاء يعيش بمفرده، وليس له صلة، من أي نوع، بالآخرين.

كان يريد أن يتحدث إلى شعلان عن كل شيء، لكن الكلمات التي حضرها طوال الرحلة، والتي تضمنت تفاصيل كثيرة منذ أن غادروا وادي العيون، وحتى الآن، غابت من رأسه تماماً. لم يجد عنده القدرة أو الرغبة في الحديث. ابتسم أكثر من مرة حين التقت نظراته بنظرات شعلان، أما

حين سأله عن أمه وأخوته، عن الحدرة، وما إذا كانت تشبه وادي العيون، فقد كانت إجابات فواز مضطربة غير واضحة، وحين التمعت صورة متعب الهذال قال فواز إنهم لم يسمعوا شيئاً عنه منذ إن تركوا الوادي، وكان يريد أن يسأل شعلان، تمنى لو كانا وحيدين. لو كانا في مكان آخر. قال شعلان ليتغلب على هذا الجو:

ـ تعالوا نغسل أيدينا ونحضّر عشانا.

بصمت مشوا. اقتربوا من براميل المياه. كانت الأرض هناك زلقة، مليئة بالمياه الراكدة.. وكانت رائحة المكان كريهة، أما حين لامست المياه وجوههم فقد أحسوا أن لها طعماً غير مستساغ، ربما نتيجة الصدأ، أو نتيجة إضافة مواد غريبة، سأل صويلح ما إذا كانوا يشربون من هذه المياه أم لا. وحين هز شعلان رإسه بالإيجاب تطلع إلى فواز وقال بحزم:

ـ كانت مياه وادي العيون أطيب.

قال فواز، وكأنه تذكر شيئاً زاهياً، أو يريد أن يخلق مشكلة:

ـ لو كان أبي هنا الآن لما شرب من هذا الماء.

نظر إليه شعلان نظرة مليئة بالتساؤل والمرارة، وربما كان يقاوم شيئاً في داخله، بعد لحظات من الصمت الحزين، قال كأنه يكلم نفسه:

ـ احمد ربك إن الماء موجود.

ـ ما هي علوم أبوي يا شعلان؟

وبطريقة بارعة، وكأن أسبابها ولدت في تلك اللحظة، صرخ شعلان على أحد الرجال، كان يمر قريباً من البراميل باتجاه خيمة بعيدة، وحين التفت سأله عن أشياء لم يفهم صويلح وفواز منها شيئاً أو ماذا تعني، ولما فرغ من ذلك قال، وقد بدا على وجهه الحماس:

ـ نلحق على السوالف، هالحين لازم نحضر عشانا.

وانصرفوا إلى تحضير العشاء.

في الفضاء الخارجي، بعيداً عن الخيام، وسط الصحراء، جلس الثلاثة. كان القمر صغيراً، وقد ظهر مبكراً هذه الليلة، لكن دون أن يحس به أحد. كانوا كالخائفين أو كالمتآمرين ينظرون حواليهم إذا سمعوا صوتاً، إذا رأوا شبحاً. لم يرفعوا رؤوسهم نحو السماء ولا أحسوا بالبرودة التي بدأت تملأ الجو، فقد طغت عليهم أحاديث من نمط غريب: كيف كان وادي العيون، وكيف هو الآن. وهؤلاء الأميركان الشياطين الذين جاءوا من أجل الماء، لماذا يحفرون الأرض دون هوادة، دون توقف ولا يخرج منها شيء؟ ومياه وادي العيون ومياه الصبحة ومياه الآبار الكثيرة التي حفرت لماذا كلها تصب في ثقب داخل الأرض، ولا تعطى للناس؟ هل إن في باطن الأرض أعداداً هائلة من الجن تحس بالعطش وتصرخ ليل نهار ولا يسمعها إلا هؤلاء فجاءوا لكي يسقوها؟ هل احترق الجن في باطن الأرض ويريد الأميركيون أن يطفئوا هذا الحريق، ولذلك يصبون الماء؟ هل توجد حياة ثانية تحت الأرض، وفيها بساتين وأشجار وبشر كلهم يحتاجون الماء ويطلبونه؟

كان الشبان الثلاثة يفكرون بهذه الطريقة، ويطرحون على أنفسهم، على بعضهم بعضاً، أسئلة يعرفون أن لا أحد يستطيع أن يجيب عنها، وكانت هذه الأسئلة تتوالد بسرعة ومعها الخوف والحيرة. وإذا كان شعلان يعتبر نفسه أكثر خبرة وأكثر صلة، فقد كان أيضاً أكثرهم خوفاً. لقد نشأ هذا الخوف فجأة قبل عدة أسابيع، حين بدأ يظهر له أبوه. وكان يظهر فجأة في أطراف المعسكر خلال الليل. لم يقل له أحد ذلك وإنما رآه بنفسه. لم يستطع أن يبوح بهذا السر لأحد، كتمه في نفسه وظل يترقب

وينتظر منذ تلك الليلة وحتى الآن.

رآه أول مرة قريباً من بوابة المعسكر، لكن ما إن تأكد منه وركض نحوه حتى ركب ناقته وسار. صرخ يناديه، لكنه أسرع ثم اختفى. ورآه بعد ذلك مرات عديدة، لكن في كل هذه المرات لم يستطع أن يدركه، كان يسرع راكضاً ثم يختفي، ونتيجة لذلك ولد الخوف في قلبه، لم يعد قادراً على كتمان هذا الخوف أو تحمله. كان متأكداً أن أباه هو الذي يتجول حول المعسكر، وبعض الأحيان يدخل إلى داخله، لم يشكّ في ذلك مرة واحدة. القامة هي قامة متعب الهذال والمشية هي مشيته، خاصة حين نيحني أو حين يركض. أما الناقة فهي ناقته العمانية البيضاء ذاتها. ولا يمكن أن يخطئ في ذلك أبداً.

تعمد شعلان بعد أن رآه مرة قريباً من البوابة، أن يذهب في نفس الوقت إلى نفس المكان، لكن لم يأت. بعد عدة أيام رآه قريباً من براميل المياه، في الليل المتأخر، كان تحت الضوء مباشرة، وبدا وجهه مضيئاً وحركاته خصبة، وكانت تصدر منه أصوات فرحة، أشبه ما تكون بالصهيل، لكن ما كاد يتقدم نحوه بضع خطوات، وكانت المسافة بينه وبين البراميل لا تزال كبيرة، حتى التفت قليلاً ثم نهض بسرعة واختفى، تلاشى تماماً... أما في المرات التالية فقد رآه في أماكن أخرى، قرب نقطة الحراسة الخلفية، في ظل الخيمة الكبيرة، وقد تأكد من ذلك حين وجد آثار الناقة أيضاً.

ومنذ الليلة الأولى أصاب شعلان شيء يشبه المرض. إنه يتعدى الخوف ويتعدى الوهم، لأنه متأكد من وجود أبيه، ولأنه يراه. صحيح أنه لم يستطع أن يتحدث معه، أن يوقفه أو أن يسأله، ربما لأن أباه لا يزال غاضباً منه، لكنه مع ذلك لا يشك ولا يتوهم، وإذا كان أبوه لا يزال يهيم في المناطق القريبة من وادي العيون، رافضاً العودة ورافضاً أن يتكلم مع أحد، فسوف يستطيع أن يقنعه، بطريقة ما، في وقت ما، أن يعود..

الآن، حين اختار شعلان هذا المكان، وبوجود اثنين من أقربائه المباشرين، يمكن أن يفصح عما يعذبه، عما يدور في رأسه، ويمكن أن

يسألهما دون خوف ما إذا كان هذا الذي يراه متعب الهذال ذاته، أباه ذاته أم شخصاً آخر. ما إذا كان طيفاً أم حقيقة. وهو حين بعث يريد أخاه فواز أن يوافيه مرة أخرى، وفي وادي العيون بالذات، كان يحترق رغبة لكي يتأكد، كي يشاركه الأقربون، ولكي يعرف أيضاً ما إذا كان أبوه قد رجع، إذا جاءت منه أخبار أو رآه أحد.

في الظلمة التي كانت تتكاثف لتصبح مثل سياج سميك، كانت أصوات العمال في الخيام وضحكاتهم تتناهى إلى الثلاثة، وإن بدت بعيدة متقطعة، وكان المصباح اليدوي الذي يستعمله الحارس بين فترة وأخرى يخط شبحاً طويلاً باهتاً، وهو يمر برخاوة على الرمال قريباً من الأسلاك الشائكة، دون أن ينير شيئاً. كان الحارس يفعل ذلك، أحياناً، لكي يتغلب على ضجره ووحدته أكثر مما يستعين به على الرؤية.

وشعلان الذي اختار هذا المكان بالذات، وبدأ هذه البداية عن وادي العيون والجن، وكان يهيّئ الاثنين إلى اللحظة المناسبة، فإذا جاء أبوه، إذا رأى أباه، مهما كان بعيداً أو رافضاً.. أو حتى لو كان طيفاً، فلا يمكن أن يتركه يفلت منه هذه المرة، لا بد أن يصرخ عليه، أن يركض وراءه، أن يقول له إن فواز معه. المهم أن يصل إلى نتيجة، أن يقتنع بشيء وأن يقتنع معه الآخرون.

كانت عينا شعلان تدوران بنظرة تتجاوز نصف الدائرة. بدأ الأمر غريباً لصويلح، سأل وهو يتلفت:

ـ أتنتظر أحداً؟

هز شعلان رأسه بطريقة لا يمكن أن تفهم ما إذا كانت نفياً أو تأكيداً، وترافقت هزة الرأس مع حركة خائفة، وبعد صمت طويل قال كأنه يهذي:

ـ الله يلعن هذي الأيام.. كل شيء يحيّر في وادي العيون.

قال فواز بانفعال:

ـ كان وادي العيون أفضل ألف مرة.

ـ لو سمع الناس كلام الشايب كان وادي العيون مثل ما تركته، لكن ما أدري ويش دهى الناس.

هكذا رد شعلان، وكان لا يزال يتلفت.

بدأ القمر يميل نحو الغرب. كان لدى الثلاثة أشياء كثيرة يمكن أن يقولوها، لكن الخوف الذي كان يسيطر على شعلان جعلهم جميعاً خائفين أيضاً. إنهم في هذا المكان، ضمن الأسلاك الشائكة، غرباء إلى درجة لا يستطيعون أن يتصوروا أنهم كانوا هكذا في وقت من الأوقات، أو في مكان من الأمكنة، وكانت تدور في صدورهم وعقولهم رغبات وأفكار ومخاوف لا نهاية لها. قال شعلان بنوع من اليأس:

- الله يلعن الشيطان اللي يفرّق الناس...

سكت قليلاً ثم زفر وسأل من جديد

- ما سمعتم أخبار أبوي.. يا فواز؟

نظر إليه فواز نظرة متسائلة حزينة. كان قد أخبره، منذ اللحظات الأولى لوصوله، وبسرعة، أن أخبار أبيه انقطعت قبل أن يتركوا وادي العيون، وأن لا أحد سمع شيئاً أو جاء بخبر منذ ذلك الوقت. قال شعلان بحزم:

- وين يروح؟ يغيب سنة، سنتين، لكن لازم يرجع.

قال صويلح وقد أحس بالحزن الذي استبد بالأخوين:

- وكّلوا الله، يا جماعة الخير، الغايب علومه معه، ولازم يرجع.

قال شعلان بشكل مفاجئ:

- أول أمس شفت أبوي!

نظر إليه الاثنان نظرة فرحة ومتسائلة، دهش فواز، كان يريده أن يتكلم، أن يتابع، لكن حين سحب وجهه إلى الناحية الثانية، وكأنه لا يريدهما أن يتطلعا إليه، حين غرق في الصمت، دون أن يوضح أو يضيف كلمة واحدة، سأل فواز، وخرجت كلماته خائفة سريعة:

- متى رجع؟ وين هو؟

رد شعلان وهو يستدير تماماً، وينظر في عيني فواز:

- هذه الساعة ساعته، وكّد، وكّد زين وتشوفه!

تلفتوا جميعهم إلى أكثر من جهة لعلهم يرونه آتياً، لكن حين لم يروا شيئاً سأل فواز بلهفة:

ـ وينه؟ متى تركته؟

وبدأ شعلان يقصّ عليهما كيف رآه، أين رآه، أما حين حاول أن يكلمه، أن يناديه، فكان يختفي فوراً. كان كالبرق يظهر ثم يغيب، لا يريد من أحد أن يقترب منه، أو أن يزعجه. كان يدور في المعسكر طوال الليل، مرة راكباً ومرة راجلاً، وكان يشرب ويغسل يديه من مياه البراميل.

روى ذلك بانفعال ممزوج بالخوف، وكان بين كلمة وأخرى يتلفت لعله يراه آتياً، وما كاد يصل إلى هذا الحد حتى قال بما يشبه الرجاء:

ـ انتبهوا يا جماعة.. هذه الليلة إذا جاء عزّتنا به وما كنا تركناه لو انقلبت السماء على الأرض!

أيــام .... طويلة من الانتظار القاسي القلق. لم ينم الثلاثة خلالها إلا كما تنام الذئاب. لم يعرفوا طعم الراحة ولم يهدأوا في الليل والنهار. انتظروا إلى جانب براميل المياه، عند بوابة المعسكر، عند الأسلاك الشائكة، قرب نقطة الحراسة الخلفية. انتظروا في ساعات الليل الأولى، وفي ساعات الليل المتأخرة. انتظروا عندما اكتمل القمر وصار بدراً ثم بعد أن أخذ يتأخر في الظهور أو لم يعد يظهر...

ولم يأت متعب الهذال!

حتى في ساعات النهار، حين يذهب شعلان إلى العمل، لا يعرف أين أو ماذا يعمل، ويبقى فواز وصويلح وبعض العمال الآخرين الذين عملوا في الليل، كان فواز يتعمد الخروج وإلقاء نظرة طويلة متأنية على المعسكر كله. كان يتفرس في الوجوه، يتطلع باهتمام إلى الزوايا الظليلة قرب الخيام أو قرب البيوت الخشبية لعله يراه، لكنه لم يظهر.

في إحدى المرات، وكانوا قد فرغوا لتوهم من تناول عشائهم، وقد تمددوا على الرمل، زعق شعلان برعب:

ـ هذا هو... هذا هو، ناظروا، بحّروا زين.

التفتا إلى حيث أشار، انقطعت أنفاسهما وانعقدت ألسنتهما من الخوف. نظرا بإمعان، نظرا في أكثر من جهة. كانت الظلمة الخفيفة، ظلمة أول المساء، قد هبطت، والرؤية لا تزال ممكنة، وإن تكن غائمة، مظللة، تحدد الخطوط لكن لا تبرز الملامح. نظرا بإمعان! تطلعا إلى حيث كانت يد شعلان ممدودة، تطلعا إليه، كانت الدهشة الممزوجة تملأ وجهه. هز رأسه مرتين أو ثلاث مرات، وكأنه يزيل عن عينيه غشاوة. أمسك بيد فواز فوق الساعد وضغط بقوة وخرجت كلماته من بين أسنانه:

ـ مرّ من هناك، كان على ناقته ومسرعاً كأنه الطير.

وعبق وجه شعلان حتى بدا أقرب إلى السواد. تطلع إليهما بغيظ وألم. كان يريدهما أن يلتفتا بسرعة أكبر، أن يكونا أكثر انتباهاً.

ومن جديد حين تطلعا إلى حيث أشار شعلان، كان على البعد اثنان يسيران. خرجا لتوهما من خيمة تقابلهم. كان الاثنان واضحين مرئيين حين خرجا، ولما سارا، وهما الآن يتوجهان إلى بوابة المعسكر. هل يحتمل أن يكون ما رآه شعلان طيفاً أو مجرد وهم؟ وهل يمكن أن يمر الإنسان بهذه السرعة وبهذه الخفية دون أن يراه أحد؟

لم يتكلموا خلال فترة بدت طويلة وثقيلة. كان الصمت مثل خيمة حديدية فوق رؤوسهم، وكانت النسمات اللينة الصغيرة وهي تعبر تحمل رائحة الرطوبة وربما المطر. قال شعلان موضحاً:

ـ هذه المرة كان أبعد المرات وأسرعها.

قال صويلح متسائلاً:

ـ يا ولد عمّي.. خاف شفت غيره!

نظر إليه شعلان بعذاب. كان في عينيه رجاء أقرب إلى التوسل، كان يريد أن يوافقه، أن يصدقه. اقترب من فواز، صبّ نظرات حزينة في عينيه. كانت نظرات متسائلة: «وأنت.. شفته مثل ما أنا شفته؟» ظل فواز صامتاً وقد اجتاحته حالة من الخوف، وبكثير من اليأس قام شعلان واتجه إلى الخيمة.

بقي فواز وصويلح فترة طويلة في مكانهما. كانا صامتين كالحجارة، وكانا مسلوبي الإرادة كمياه تهبط منحدراً، لا يعرفان ماذا يفعلان، وليس لديهما أية رغبة لأن يتحدثا، لأن يتحركا. وإذا كان فواز مقتنعاً أن شعلان قد رأى شيئاً، طيفاً أو شبحاً، أو ربما يكون قد رأى أباهما، فقد كان صويلح في شك مما قاله شعلان، أكثر من ذلك بدا مستغرباً!

في إحدى اللحظات قال صويلح وكأنه يحدث نفسه:

ـ أخاف يكون شعلان مسبوع.

توقف لحظة ثم أضاف بتساؤل:

ـ وعسى ما يكون مريض؟
ـ رد فواز بحدة:
ـ ما به شي أبداً.
وبنوع من اليأس قال وهو يمشي:
ـ ولازم نشوفه.

هذه الليلة، الليالي التي قبلها ثم الليالي التي تليها، وطوال أسبوعين وبضعة أيام لم يناموا ولم يعرفوا طعم الراحة. صحيح أن صويلح شاركهما هذه الليالي، كان قريباً منهما، كان معهما، لكنهما، هما، ولدا متعب الهذال، كانا شيئاً مختلفاً، وعاشا حالة مختلفة.

هل قال صويلح لأحد شيئاً؟ هل تحدث عن الموضوع بطريقة أو أخرى؟

إن شيئاً من هذا قد حصل، إذ ما مر يومان إلا وجاء ابن الراشد. لما رآهم في زاوية الخيمة عند الغروب أبدى دهشة لفتت نظر الموجودين كلهم. سأل بطريقة ساخرة:

ـ ها... ما خلصنا من متعب الهذال وبلاياه؟

وحين أبدى شعلان استغرابه، نظر إليه بطريقة قاسية، سأل من جديد وهو يشير إلى فواز:

ـ أنت.. ولد من؟

رد شعلان بحزم واختصار:

ـ تراك نسيت الناس يا أبو محمد...

ومن جديد نظر إلى فواز يتأمله ويهز رأسه، تابع شعلان:

ـ أولاد متعب الهذال، يا أبو محمد، ما وراءهم بلاء!

ضحك ابن الراشد ليتغلب على الحرج، إذ أحس أن الهجوم الذي بدأه لا مبرر له، قال شعلان مواصلاً تعريضه:

ـ وطويل العمر، متعب الهذال، له ردّة

التفت ابن الراشد إلى الناحية الثانية، وقال مخاطباً رجلاً كان يتابع الحديث باهتمام:

ـ إذا بغيت صاحبك يدوم فحاسبه كل يوم.
رد شعلان وقد بدا منفعلاً:
ـ إذا كان بيننا حساب، يا أبو محمد، فهذا شليلنا، ويا مائة مرحباً، حنا جاهزين!
ضحك ابن الراشد ضحكة صاخبة وتقدم من شعلان، وبعد أن هدأت ضحكته قال بطريقة مختلفة عن السابق:
ـ يا ابن أخي، أنتم العتوم بكم خصلة ما تخلصوا منها...
قال هذا وهو ينقل نظراته من وجه لآخر، وقد خيّم الصمت، حتى إذا خلق رغبة لدى الجميع سكت. سأل شعلان بغضب وحدة:
ـ وما هي الخصلة اللي تقول عليها يا أبو محمد؟
رد ابن الراشد وهو يقهقه:
ـ هذه هي: الحمق، تغضبون وتثورون من كلمة!
وجلس ابن الراشد على الأرض قريباً منهم وبدأ يتحدث بلهجة أبويّة:
ـ الله يذكره بالخير، أبوك، يا شعلان، قلنا له اصبر، قال لا، قلنا له الذلول الطيبة تردف اثنين يا متعب، قال لا؛ قلنا له الدنيا اليوم بحال وباكر تصير بحال ثانية، قال لا... وراح...
توقف لحظة، بدا كلامه غير واضح، أضاف:
ـ العتوم كلهم لا يعرفون إلا طريقاً واحداً، ولا يميزون بين اللي ينفعهم واللي يضرهم، لا يميزون بين الصديق والعدو.
رد شعلان بنفاد صبر:
ـ إذا كان بينك وبينه سالفة يرجع بالسلامة وتسولفه بها.
ـ يا وليدي ما بيننا شيء، وإذا رجع نسولف.. لا تخف.
وانتظروا أياماً، أياماً طويلة قاسية. كانوا ينتظرون متعب الهذال وينتظرون العمل. لم يظهر متعب مرة أخرى. لم يره شعلان بعد تلك الليلة، وقد ظل صامتاً أقرب إلى المرض في اليوم التالي لتلك الليلة، ثم في الأيام التي بعده، لكنه بدأ يتحسّن تدريجياً بعد ذلك، وإن لم يزايله السهوم ولم ينم نوماً طبيعياً عميقاً. أما فواز فقد ظل خائفاً شديد التنبه لأية

حركة، لأي صوت، وكذلك لم يستطع أن ينام نوماً متصلاً. وإذا كان شعلان قد تعود أن يخرج إلى الفلاة في بعض الليالي، ربما لانتظار أبيه، أو للبحث عنه، فقد كان فواز يتقلب على فراشه ليشعر أخاه، بطريقة ما، أنه لا يزال بين النوم واليقظة وإنه مستعد لمرافقته في رحلته الغامضة، ومع ذلك ظل متردداً في أن يقول له، في أن يشعره، ولم يعد أيضاً إلى طرح الموضوع بشكل مباشر، ربما تجنباً لأي سوء فهم.

بعد أسبوعين من الانتظار جاء ابن الراشد، وبعد جولة قصيرة، وقبل أن يترك المعسكر قال لفواز وصويلح أن الشركة لم توافق على استخدامهما، ويجب أن يتركا. كان مسرعاً وكأن وراءه أشياء كثيرة تنتظره. قال إن فواز لا يزال صغيراً، وعليه أن ينتظر سنة أو سنتين قبل أن يتقدم بطلب العمل مرة أخرى، وقال إن صويلح عينه كريمة ولا يصلح للعمل في الشركة، قال ذلك بسرعة وأدار ظهره ومشى.

حين رجع شعلان من العمل ونقلا إليه ما أبلغهما ابن الراشد هز رأسه، وخرجت الكلمات بطيئة نازفة من بين شفتيه:

ـ كنت أعرف...

بصق على الأرض وتابع:

ـ منة الله ولا منة ابن الراشد.

تطلع إليهما بحزن، كأنه يعتذر. هز رأسه عدة مرات ثم أضاف يخاطب نفسه:

ـ لما قلت له قال: «أهل العيون أولى من غيرهم».

وأشاح بوجهه إلى الناحية الثانية، وقال بسخرية:

ـ قبل كم يوم قال لي واحد من جماعته: «ابن الراشد يقول: واحد من العتوم عتم علينا، وشعلان بن متعب تعب الدنيا... وهذا يكفينا!»

وخيّم الصمت.

في نفس الليلة، وبإلحاح خفي، غير جارح، غادرا وادي العيون إلى عجرة في طريقهما مرة أخرى إلى الحدرة.

هل هو ماء روضة المشتى يصيب بلعنته واحداً آخر من عائلة هذال أم أن هناك قوة خفية غامضة، قاسية وشديدة العتو، هي التي تلاحقهم واحداً بعد آخر حتى تمحقهم، فلا تترك أحداً أو أثراً منهم؟

في طريقهما إلى الحدرة من وادي العيون، بعد أن مكثا أسابيع عند شعلان، واضطرا إلى قضاء عشرة أيام في روضة المشتى، بانتظار أن يواصلا الرحلة، وفي اليوم الثالث لوصولهما إلى الروضة، جنّت الدنيا: خلال ساعات قليلة لم تبق قطرة ماء واحدة في السماء، أو في الأمكنة الأخرى، من وادي الجناح حتى الضالع، إلا ووصلت إلى روضة المشتى. امتلأت الأودية بماء لا يعرف من أين أتى. وروضة المشتى المتربصة، المطلة، امتلأت بالخوف والفرح معاً. كان الناس ينظرون باستغراب إلى السماء، إلى المطر ينهمر بجنون كما لم يفعل هكذا من قبل، لكن سرعان ما يركزون أنظارهم على الوادي الذي تهدر فيه المياه، وتزداد لحظة بعد أخرى. كان الأطفال إلى جانب الشيوخ، والنسوة على بعد خطوات، وقد أصابت الجميع حالة من الذهول. كان الشيوخ هم الأكثر فرحاً. كانت وجوههم التي عذّبها الزمن الطويل وملأها بالغضون والذكريات ترى شيئاً لم تره من قبل، وكانت الأصوات تترافق مع حركة الأيدي، مع حركة الأجساد، وكأن حياة جديدة تتسرب إليهم مع كل قطرة مطر، مع كل دفقة تهدر في الوادي.

هل يمكن أن تُنسى تلك الساعات والأيام الحافلة البراقة؟ وهل تمحي تلك الأصوات التي تشبه الأدعية الغريبة المفاجئة، أو ربما تشبه الأناشيد، وهي تخرج صاخبة قوية من فم الوادي، من أفواه القرب التي انفتحت من

السماء؟ وهل الأصوات التي تسمع، خاصة أصوات الشيوخ والأطفال، بنغم يشبه صوت الريح، هي أصوات بشر أم أصوات تهبط من السماء أو ترتفع من أعماق المياه؟ كان صوت «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله» الذي يتفجر من كل مكان يولّد الرهبة، ويخلق حالة من الخوف والقشعريرة. الصغار أخذوا وانفعلوا فامتلأت حركتهم بالرهبة والحرص، وكانت تساؤلاتهم تجد إجاباتها السريعة الواضحة في تصرفات الرجال وأدعيتهم. وحتى النسوة اللواتي كن بعيدات أول الأمر، ما لبثن أن اقتربن واقتربن، وتداخلت أجسادهن بأجساد الرجال، لكي يلقين نظرات مباشرة وأكثر قرباً من الوادي على المياه القوية الهادرة، وكن أكثر فرحاً وأقرب إلى النشوة، وهن يرددن أصواتاً تشبه الأغاني والأناشيد، وكانت تصدر عنهن دون خوف ودون تحفظ.

كان يمكن لهذه الذكرى أن تغيب، أن تتراجع، لو أن متعب الهذال لم يظهر.

كان المطر يملأ الأرض والسماء. كان الوادي الضيق عند بداية روضة المشتى يدفق بجنون، وكان الناس يقفون مذهولين يتطلعون.

في اللحظة الكبيرة، حين وقف الرجال بخوف وقد جاءت الأمواج القوية العاتية، فتراجعوا إلى الخلف خطوات، وطلبوا بانفعال غريزي أن يبتعد الجميع، أن يتراجعوا، في تلك اللحظة وصوت واحد ردده الكبار والصغار، الرجال والنساء، ربما دون وعي «لا إله إلا الله، لا إله إلا الله»، في تلك اللحظة بالذات، ومع التماعة البرق التي شقّت السماء، وخلقت خوفاً فوق الخوف، ظهر متعب الهذال. بدا كبيراً شامخاً، وأقرب إلى البياض. كان يحمل عصاه بيمناه ويشير إلى الناس من الضفة الثانية للوادي. كانت هيئته شديدة القوة والوضوح، حتى لبدا أقرب من الضفة الثانية، أو كأنه في وسط الماء. كان صوته ناصعاً وأقوى من صوت الرعد وتدفق المياه وصراخ الأطفال والنسوة.

قال لكل الذين اجتمعوا في روضة المشتى: «لا تخافوا... لا تخافوا من اللي تشوفوه هالحين».

وحين خيّم الصمت، وقد امتلأ الناس كلهم بالخوف والانتظار جاء صوته مرة أخرى: «هذا هو آخر الخير».

تراجع قليلاً إلى الوراء. بدا تماماً على الضفة الثانية للوادي. دق الأرض بعصاه، نظر إلى الجميع نظرة قاسية، وهز رأسه ثلاث مرات، وقبل أن يلتفت إلى الوراء هدر صوته من جديد: «الخوف من الجايات».

وحين تراجع الناس مرة أخرى إلى الوراء خوفاً من مداهمة السيل، وحين هدرت موجة كبيرة داخلة فم الوادي بقوة جمل هائج، تقدم فواز، اندفع كما يندفع السهم، كما تندفع الطلقة يريد أن يصل أباه.

أثناء حديثه إلى الناس؛ حين تراجع إلى الوراء؛ لما دق عصاه بالأرض، نظر إلى فواز. نظر ولم يبتسم مرة واحدة، كان أقرب إلى الغضب، وكان فواز خائفاً من غضبه. تمنى في تلك اللحظة لو يرضى عنه، لو يمتلئ في عباءته. كان يريد أن يمسك عصاه، أن يهزها، أن يقول له: «بعد غيابك يا أبي تركنا وادي العيون، هم الذين أجبرونا على أن نتركه. شعلان وحده الذي بقي. ذهبنا يا أبي إلى الحدرة. أنت تعرف الحدرة وتعرف الناس هناك. وأمي، يا أبي، لم تعد تتكلم. منذ رحلت يا أبي لم تتكلم، ونحن، كلنا، مرضنا، وانتظرنا أن تعود، كل يوم نقول اليوم. لم ننم ليلة واحدة كما ينام الناس في الأماكن الأخرى. وأنت يا أبي لماذا لا تأتي، لماذا لا تزورنا؟ ألا تحبنا يا أبي؟ ألا تريد أن ترانا؟ من أغضبك يا أبي؟ وإذا كان الكبار قد أذنبوا فنحن الصغار ما ذنبنا؟ أنا كبرت يا أبي، أكبر مما كنت تعرفني. كنت عند شعلان يا أبي. انتظرناك في وادي العيون. انتظرنا عند البراميل، وعند الأسلاك».

وكان يريد أن يقول أيضاً أشياء أخرى كثيرة غيرها، لكن كلمات متعب الهذال القوية، ووجهه القاسي الملامح، ثم خوف الناس وتراجعهم، وتلك الأصوات التي هدرت في لحظة غطت الظلمة فيها كل شيء، جعلت فواز حائراً عاجزاً ومملوءاً بالخوف. أما حين تراجع متعب الهذال إلى الضفة الثانية من الوادي، حين ابتعد قليلاً، فقد أحس فواز أن قوة تدفعه، ولولا أن صويلح، لولا أن ثلاثة كانوا يقفون بجانبه لاستطاع أن يعبر الوادي، أن

يصل إلى أبيه، لكن ما كاد يندفع، ما كاد يصيح بأعلى صوته «يوبه يا يوبه» وينتبه صويلح حتى أمسك به، عقله تماماً كما تُعقل الإبل، حدّده كما تحدد الخيل. أراد أن يفلت منه، صاح بأعلى صوته، رفس، شتم، حاول من جديد أن يفلت، أن يتحرر من القبضات القوية، لكن فجأة وجد صويلح يبطحه أرضاً وينام فوق صدره.

كان متعب الهذال هناك. كان أولاً وسط الماء، وسط الوادي، وبعد أن قال ما قاله، بصوت منادٍ، وأقوى من صوت مؤذن، تراجع إلى الخلف، تراجع بضع خطوات، لكن كانت ملامحه واضحة قوية، وكانت نظراته تدور في الوجوه. دق عصاه ثلاث مرات، كانت الأرض قوية تحت العصا، سمع فواز الدقات رنانة حادة، أحس العصا تنغرز في جنبه. أما حين أمسك به صويلح، كما يمسك السخل، وأدار رأسه كما يدار رأس الخروف وقت الذبح، فقد التقت عيناه بعيني أبيه. إنه متأكد من ذلك. كانت نظراته هذه المرة أكثر رأفة، وقد ابتسم له ابتسامة صغيرة. أما عندما حاول أن ينهض ويندفع بقوة مرة أخرى، ليلحق به، فقد أمسك به صويلح، أمسك به من قدمه وأوقعه، لامس وجهه الأرض، لما وقع، لم يعد يستطيع الرؤية، ولم يسمع الأصوات، ولم ير إلا الأرض الموحلة المالحة الأقرب إلى المرارة. عندما نهض مرة ثانية رأى أهل روضة المشتى جميعهم ينظرون إليه. كانوا كلهم فوقه أو قربه مثل كتلة النار، كانوا يطوقونه وقد بدوا شديدي الخوف. حتى وهم يفسحون له طريقاً واسعاً، تلفت حوله، نظر إلى الضفة الثانية من الوادي، قبل أن ينظر إليهم، بدت له الضفة خالية تماماً، لقد غادر أبوه مكانه. تطلع إلى الوادي كله، من بدايته حتى النهاية، لكن لم يره. تطلع إلى الوجوه حوله لعله يكون قد جاء لنجدته، لمساعدته، ليدفع عنه هؤلاء الذين يريدون منعه من الوصول إليه، تطلع إلى الوجوه بإمعان، تطلع إلى كل وجه، لكنه لم يره.

تطلع إلى صويلح. كانت نظرات صويلح غاضبة وخائفة. كره تلك النظرات. أحس أنه وحيد، وحيد تماماً. جثا على الأرض، ورفع وجهاً حزيناً إلى صويلح:

ـ ألم تره؟ أين هو؟ كان هناك. . . كان هناك.

تطلع إليه صويلح، وتطلع إلى الرجال والأطفال والنسوة، وحين رأى الجميع ينظرون إليه هكذا نهض بسرعة وركض.

بعد أن ابتعد فواز، وصويلح وراءه يتبعه راكضاً، شق برق غاضب لماع السماء كلها، واختلطت أصوات الناس بأصوات الرعد، نظر فواز إلى السماء ومع الأمطار التي كانت تتساقط كانت دموعه تتساقط، وكان يصل إليه صوت كثيف متداخل «لا إله إلا الله. . لا إله إلا الله».

وبعد ذلك هطلت الأمطار بقوة أكبر.

ما كاد السيل ينتهي وتشرق الشمس، حتى ظهرت البادية كأنها طير من طيور القطا: لامعة، طرية، نزقة، وكأنها لم تستقبل بشراهة لا تعرف الانتهاء هذا المطر كله. والفرح الزاهي الذي بدا في وجوه الناس وتصرفاتهم، انتقل إلى الحيوانات فبدت أكثر حدة، ربما تعبيراً عما تحس به في داخلها من قوة جديدة، لكن مقابل هذا الفرح فإن حزناً ممزوجاً بالخوف سرى في جسدي هذين الشابين اللذين كانا في تلك القافلة الصغيرة التي تقطع البادية من روضة المشتى إلى الحدرة. الرعاة وبعض المسافرين اندفعوا دون مبالاة، وبخفة أيضاً، يبحثون عن النباتات المبكرة بعد مطر الأيام السابقة، أما هذان الشابان فكانا يغرقان في الحزن والتأمل. صحيح أن هموماً مشتركة تجمعهما، لكن لكل واحد منهما أيضاً همومه الخاصة. أن يكون فواز بن متعب الهذال فيجب أن يدفع ضريبة ذلك، لأن ابن الراشد لا ينسى، والثأر هو الثأر، سواء أكان هو صغيراً أم لا. حين يطلب العمل يمكن أن يكون صغيراً، أما حين يأتي وقت الثأر فإن لديه من السنوات ما يكفي لكي يُقتل، لكي يدفع الثمن. ابن الراشد يرى ما يلائمه، إنه الآن السيد، يرفض ويقبل، لا أحد يستطيع أن يجبره. وإذا كان متعب الهذال قد أسمع ابن الراشد وغيره ما يجب أن يسمعوا، وكان قوياً كالحصان، لا يخاف ولا يتردد، فمتعب الهذال الآن في جوف الظلمة يظهر ويغيب، لكن دون أن يحس به أحد، وكأنه غير موجود، أو لم يعد حياً، بكلمة أخرى واضحة: لم يعد يخيف أحداً.

أما حزن صويلح الهديب فكان مختلفاً، حتى الصمت الذي يثقل عليه إنه من نوع آخر. حين ترك الحدرة كان متأكداً أنه سيجد عملاً، هكذا أكد

شعلان في رسالته الشفوية القصيرة. قال صويلح لأبيه، لنجمة المثقال، ولآخرين كانوا موجودين، إنه سيغيب فترة في وادي العيون، سنة أو سنتين. حتى إذا عاد تزوج فوراً. أما إذا شرّق، كما فعل الكثيرون من أهل الحدرة والضالع، فقد تمر سنوات قبل أن يعود. لا يستطيع أن يحتمل سنوات أو أن ينتظر، لأن خلال هذي السنين قد تتزوج وطفة؛ بالإضافة إلى ذلك وادي العيون قريب، رمية حجر، كما يقولون. سيعود سريعاً وقد جمع مبلغاً من المال. هكذا فعل عدد من معارفه وأقاربه، وهكذا يتكلم الجميع. إنه مثلهم، أقوى منهم، حتى العين التي قال عنها ابن الراشد إنها كريمة يرى فيها أكثر من الآخرين، يرى كل شيء، أما هذه النقطة البيضاء في وسطها فكانت نجمة المثقال ذاتها تؤكد أنها «نقطة حسد ولا بد أن تغيب مع الأيام» ثم ماذا يفيد ابن الراشد أو غيره أن تكون هذه النقطة أو لا تكون؟ إنه يعمل بيديه، بجسده كله، لا بعينه. وإذا كان بعض أطفال الحدرة قد ذهبوا إلى الجامع وقضوا سنوات يتعلمون القرآن عند عبد العزيز الحوقلي، فإنه لم يفعل مثلهم، يرفض منذ كان صغيراً أن يتعلم، وأبوه لم يلح عليه كثيراً، ولذلك لم يفكر كما فكر غيره أن يشغل نفسه بقراءة رسائل المسافرين أو أن يكتب لأهل الحدرة!

ابن الراشد يقول له أن لا عمل له في الشركة لأنه كريم العين، ذبحه تماماً بهذه الكلمة، لو قال أي شيء آخر لفهمه وتقبله. كان يجب أن يرد عليه، أن يناقشه، لكن المفاجأة، ثم سرعة ابن الراشد في مغادرة الخيمة، لم تمكناه من أن يقول كلمة واحدة. قال في نفسه بنوع من الأسى: «شعلان لا يفوّت كلمة لابن الراشد، لو كنت مثله لما تجرأ على أن يقول ما قاله».

في هذا الجو الشتائي الرائع، والقافلة تخبّ مسرعة حيناً، ورخية متمهلة حيناً آخر، كانت الهواجس والأفكار ومشاعر الانكسار تملأ هذين الشابين، ورغم الاضطراب الذي يحسان به، ورغبة الكلام، وحتى العراك، فإن قوة أخرى كانت تشدهما إلى الخلف، كانا يشعران أنهما مثقلان بذنوب لا يقويان على حملها، وإنهما، بالتجربة، لم يكونا بمستوى

الثقة التي وضعها الآخرون فيهما، وها هما يعودان إلى الحدرة، ليس كما خرجا منها، وإنما ذليلين خائبين. كيف سيواجهان أسئلة الناس وعيونهم؟ وإذا كانت هناك أشياء يمكن أن تقال وتفهم، فإن أشياء أخرى لا يمكن أن تقال، حتى لو رآها الآخرون أو عرفوا بها. ماذا يستطيع فواز أن يقول إذا سئل؟ أليس هو كبير العائلة بعد شعلان، أو هكذا أصبح منذ أن غاب متعب الهذال؟ ألا ينظر إليه الآخرون هكذا؟ هل يجرؤ على القول أنه رفض لصغر سنه؟ وابن الراشد إذا عرفه بعض الناس وفهموا لماذا يمكن أن يرفض فهل يفهم الآخرون؟

وصويلح... أقوى شباب الحدرة، أكثرهم صخباً في المناسبات وليالي القمر، وأجرؤهم على التحدي، هل يتصور أحد أن يرفض لهذا السبب بالذات؟ وماذا تظن وماذا تقول وطفة؟ وفي الأماكن الأخرى ألا يفرّقون بين الحسد والعين المطفأة؟ وهل يمكن أن يرفض الإنسان في العمل نتيجة سبب تافه كهذا؟

طوال خمسة أيام لم يتبادلا إلا كلمات قليلة. لا لم تكن كلمات واضحة إنما أصوات أقرب إلى الريح أو هدير المياه، حتى أن فواز نفسه خاف أن تكون مياه روضة المشتى قد ضربته فأصيب بالخرس كما فعلت بأمه. تراءى له أن عفريتاً سكن جسده، وهذا العفريت هو الذي يمنعه من الكلام، وفي محاولة لأن يحارب هذه الهواجس، لأن يتغلب عليها كان يحرّك لسانه، يتكلم مع نفسه، وبعض الأحيان يصرخ على ذلوله دون حاجة أو ضرورة. فعل ذلك عدة مرات، وفي كل المرات كان صويلح يلتفت إليه مستغرباً متسائلاً، أما إذا تكلم فإن صوته يبدو غريباً وكأنه يصدر عن إنسان آخر، ولذلك ما لبث إن وجد نفسه يغرق في الصمت.

حتى الفلاة التي امتلأت بغناء صويلح وصخبه حين كانا ذاهبين إلى وادي العيون، غرقت في سكون رصاصي ثقيل، وبدت السماء في الليل بعيدة والنجوم مطفأة؛ أما صويلح الذي كان مملوءاً بالحيوية والنشاط في الذهاب فقد أصبح شخصاً آخر في العودة. كان أغلب الوقت في نهاية القافلة، بعيداً، متوحداً، وبدا هزيلاً أقرب إلى المرض. وفي اليوم

الأخير، في روضة المشتى، كاد يرجع إلى عجرة ويشرق، لكن عدل في اللحظة الأخيرة.

قبل أن تنتهي الرحلة بيوم واحد، قبل أن يصلا إلى الحدرة، وحين نظر أحدهم في وجه الآخر بطريقة معينة، بدا أنهما متفقان على المؤامرة. قال صويلح بيأس كامل:

ـ اسمع يا فواز.. إذا وصلنا إلى الحدرة نقول لأهلنا أننا بعد شهر نرجع إلى وادي العيون.. ابن الراشد قال لنا غيبوا شهراً وارجعوا.

ويتذكر فواز أن صوتاً قوياً مفاجئاً يشبه التماع البرق وبداية الرعد ملأ الفلاة عندما بدت الحدرة. أما عندما واصل صويلح الغناء فقد استغرب كل الذين كانوا في القافلة، ونظروا إلى هذين الشابين من العتوم نظرة فيها تساؤل وإعجاب.

مثلما كان يحدث في وادي لعيون حين وصول القوافل حصل هذه المرة أيضاً وهما يصلان إلى الحدرة: تجمع الناس، خاصة الرجال والأطفال، حتى الذين يسكنون في أماكن بعيدة، في الساحة، قرب الآبار، وسيطر ذلك الهرج والانفعال على المقيمين والقادمين. الأسئلة نفسها يوجهها كل واحد لكل قادم من القادمين. أسئلة عن المطر والعشب والغدران والقوافل، حتى إذا تأكدوا تماماً، ودققوا في الإجابات مرة بعد أخرى، سألوا عن أسعار الطحين والسكر والخام في روضة المشتى وفي عجرة، وما إذا كان الناس يتوقعون هناك استمرار هذه الأسعار أم ارتفاعها. فلما فرغوا من ذلك بدأت الأسئلة تأخذ منحى آخر: أسئلة عن الأقرباء والمعارف، عن الناس في الأماكن البعيدة، خاصة في وادي العيون وما حولها.

في الليل، في مضافة ابن هديب، قال صويلح لأبيه، للجميع، بكلمات حازمة إنهما سيعودان إلى وادي العيون مرة أخرى بعد فترة قصيرة، وإنهما سيعملان كما يعمل شعلان، وحين سئل عن عمل شعلان لم يستطع أن يقول شيئاً واضحاً، قال إنه يحفر الأرض ولا شيء غير ذلك! لم يشأ أن يقول لهم إن هؤلاء العفاريت يصبون ماء وادي العيون وماء الصبحة ومياهاً أخرى يجلبونها ببيوت حديدية، يصبّونها كلها في ثقوب يحفرونها في الأرض، لا يعرف لماذا أو إلى متى. وبدأت تلك الدوامة عن الجن وباطن الأرض تدور في رأسه.

كان صويلح يود لو يتحدث عن كل ما رأى وكل ما سمع، إلا أن الآلام التي كانت تسيطر عليه، منذ إن سمع ابن الراشد يقول ما قاله،

ويرجع هكذا خائباً مهزوماً، ثم حين وجد نجمة المثقال قد دخلت في حالة من المرض والهلوسة، وإن أمه وأخته وبعض النسوة القريبات انشغلن بها، وبالتالي فإن وطفة أصبحت الآن في وضع لا يمكن معه التفكير أو البحث في الحلم الذي يقذفه من مكان إلى آخر من أجل أن يظفر بها، فقد بدا شديد التشاؤم وغير راغب في أن يقول أي شيء، ولذلك اكتفى بتلك الإجابات القصيرة الغامضة ولاذ بالصمت يدفن نفسه فيه.

ولما كان الناس في هذه الفلاة الكبيرة القاسية يولدون ويعيشون ثم يموتون في دورة طبيعية صارمة، كما هو حال توالي الليل والنهار، أو تعاقب الفصول، فإن موت بعض الناس، خاصة الذين يبعدون الموت عن الآخرين، أولئك الذين يكشفون خبايا المستقبل، يرتبط موتهم بالذاكرة بطريقة غير عادية، وكأنه خروج على الدورة لكن لتأكيدها أيضاً. فإذا ارتبط هذا الموت بمرض حافل بالآلام والصحو المشرق والنبوءات الخارقة فعندئذٍ يتذكره الناس لفترات طويلة، أو ربما لا ينسونه أبداً، وقد يتناقلونه جيلاً بعد جيل.

لو تركوا وضحة الحمد تتصرف وحدها في المعالجة لعاشت نجمة المثقال سنوات وسنوات. لو تركوا نجمة المثقال دون أن يقترب منها أي إنسان لما ماتت بهذه السرعة. ولو أنهم منعوا صبحة، أم الحميدي، زوجة عبد العزيز الحوقلي، من الاقتراب منها لظلت نجمة المثقال إلى فترة طويلة تدبّ على الأرض وتضرب بعصاها الدجاج والكلاب، حتى إذا فرغت من ذلك رفعت تلك العصا في وجوه الصبية والشباب بتوعد مرغوب تحذّر من الأيام القادمة! لكن أم الحميدي، تلك المرأة القوية المتجبرة، لم تترك لأحد غيرها أن يقترب. كانت وحدها التي تقرر، ووحدها تولت علاج نجمة المثقال، ورفضت أية مساعدة عرضت عليها.

لقد جرى العلاج على مرحلتين؛ في المرحلة الأولى اكتفت أم الحميدي بأن أعطت المريضة أنواعاً من الأعشاب المرة، قالت إنها حضرتها بنفسها، ولم توضح ما هي هذه الأعشاب، لكنها أكدت أنها مجربة ومفعولها سريع. ونجمة المثقال التي وافقت، تحت تأثير الآلام التي

مزقت أحشاءها، على أن تلتهم السفوف الذي حضرته أم الحميدي، ثم على أن تتجرع السوائل المرة التي أرغمتها على شربها، كانت في وضع تريد أن تخلص من الآلام ليس إلا. أما المرحلة الثانية من العلاج، والتي بدأت بعد الصحوة الأخيرة بيومين، فقد أدت إلى القضاء على نجمة المثقال تماماً.

ووضحة الحمد التي كانت تدور في أنحاء بيت شتيوي العازم، وهي تبحث عن بعض الأعشاب التي خبأتها بنفسها ولا تجدها، كانت تغمغم بأصوات مبهمة، أقرب ما تكون إلى الشتائم، وترفض أيضاً مساعدة أحد، بدت في لحظات معينة شديدة الانفعال وأقرب إلى الغضب. أما لما رأت فواز عائداً، وبدل أن تفرح امتلأ وجهها وعيناها بتساؤل يشبه التأنيب «لما عدت!» وحين أكد لها أن ابن الراشد طلب إليه أن يغيب شهراً أو شهرين ثم يعود ليعمل، هزت رأسها بنوع من المرارة، وربما تذكرت كل ما يعنيه ابن الراشد. تذكرت الأيام الماضية في وادي العيون، خاصة الأيام الأخيرة. وما كاد فواز ينتهي من توضيح كل هذه الأمور حتى هبّت واقفة وأشارت إلى رضية أن ترافقها لتفعل شيئاً من أجل نجمة المثقال.

لما وصلت وضحة الحمد كانت أم الحميدي قد فرغت لتوها من تدليك بطن نجمة المثقال وظهرها بالزيت الساخن. كان العرق يتصبب من المرأتين معاً، وقد استبد بهما تعب شديد، وبدا أن المريضة قد استراحت بعض الشيء أو تخدرت، لأنها أغمضت عينيها وكادت تنزلق إلى النوم، لولا أن شيئاً أفزعها أو ألماً مزق أحشاءها فهبت مثل قطة.

قالت رضية أن نجمة المثقال في الأيام الأخيرة قالت أشياء لا يقولها إنسان، لم تكتف بما قالته عما جرى من وقائع وأحداث، قالت أشياء كثيرة عن الأيام الآتية. طلبت من بعض النسوة أن يقتربن منها، ضحكت في الوجوه، ثم غنت وبكت، لكن في لحظة معينة استبدت بها حالة من الضحك، ضحكت مثل طفلة صغيرة في البداية، وكأن إنساناً يداعبها أو يدغدغها، ثم سيطرت عليها موجة من القهقهة، لم تستطع أن توقفها أو أن تتحكم بها. ظلت كذلك فترة طويلة من الزمن، والنسوة اللواتي كن حولها

استغربن ضحكها ثم قهقهتها، لكن ما لبثن، شيئاً فشيئاً، أن شاركنها الابتسام ثم انخرطن معها في الضحك فالقهقهة، فعلن ذلك لا شعورياً ودون إرادة أو رغبة. كن أول الأمر ينظرن إليها برثاء، لكن ما كادت تغرق بهذه الحالة حتى جارينها ثم أصبحن مثلها. ووضحة الحمد التي نظرت باستغراب وصل حد الاستنكار لم تستطع أن تمنع ذلك أو أن توقفه. كانت حازمة قاسية، أشاحت بوجهها في البداية، ثم نظرت إلى نجمة بخشونة أقرب إلى التأنيب، وهزت بعض النسوة وصرخت في وجوههن، وأخيراً وجدت نفسها تبتسم ثم انخرطت في موجة من الضحك والبكاء معاً. كانت دموعها أسرع من صوتها، ربما أقوى، وما لبثت أن خرجت إلى الحوش، ولما طاردتها الأصوات خرجت إلى الفلاة، وتبعتها رضية. كانت تجهش وتضحك في وقت واحد، وكانت تحمل حفنات من الرمل وتعفر رأسها.

لا يمكن لأحد في الحدرة وما جاورها أن ينسى ذلك، لأن نسوة كثيرات أكدن أن الذي قتل نجمة المثقال لم يكن دواء أم الحميدي الذي أخذته سفوفاً أو سائلاً، كما تحاول وطفة تأكيد ذلك بحزم، ولم يقتلها الزيت الساخن الذي دعكت به أم الحميدي بطن نجمة وظهرها، وفركت كما لا يمكن أن تفعل خبّازة أو غاسلة صوف، وإنما الذي قتلها تلك الموجة من القهقهة، لأن كل امرأة من النسوة اللواتي ضحكن ذلك اليوم، أكّدت أن حالة المرض التي أصابتها لم تقتصر على وجع الأحناك وبداية الرقبة، وإنما امتد هذا الوجع إلى الظهر والكتفين ثم الأحشاء، ولا بد أن تكون هذه الآلام مميتة، خاصة لامرأة مريضة، وفي مثل السن المتقدمة التي كانت عليها نجمة المثقال.

فبعد وصول صويلح وفواز إلى الحدرة ماتت نجمة المثقال، كان الأمل خلال هذه الأيام يعقبه اليأس، وكانت السخرية تترافق مع الحزم القاهر، أما اليوم الذي ماتت فيه فقد بدأ بالضحك الهستيري ثم أعقبته الدموع الساخنة وأخيراً. . جاء الموت.

سيطرت على الناس حالة من الحزن والتشاؤم، ومما زاد في هذه المشاعر الكلمات التي قالتها نجمة قبل أن تموت بأيام قليلة، وقبل أن

توافيها تلك الآلام الحادة، والتي بعدها لجأت أم الحميدي إلى ذلك العلاج.

يتذكر الكثيرون أن من جملة ما قالته نجمة، وتناقله الناس، وإن داخله التحريف، يتذكر الكثيرون أنها قالت:

«من وادي الجناح حتى الضالع، ومن السارحة حتى المطالق، النار تلهم النار، والصغير يموت قبل الكبير. أولها عدّ وآخرها مد، الولد لا يعرف أبوه والأخ لا يعرف أخوه».

«من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطالق كل يوم من الأيام التالية بسنة من هذي الأيام. أولها خير يعم البلاد وآخرها العباد تلهم الجراد. أولها أمطار وسيول وآخرها حاكم جهول. أولها قمح وديباج وآخرها زوان وعجاج. الناس رايحة دايحة ربها الفضة والذهب وحجها للفرج والذنب. الغني يأكل الفقير، والكبير يظلم الصغير وكل يصيح يا نفسي».

«من وادي الجناح حتى الضالع ومن السارحة حتى المطالق تصير الدنيا غير الدنيا، الناس في الفلاة يدوّرون النجم والنجم ما يطلع، ينتظرون القافلة والقافلة ما ترجع، ينشدون وما أحد يجيب ولا أحد يسمع، وهذه علامة الساعة، والساعة ما هي بعيدة، ما دام عاليها انقلب سافلها، وأنذالها تتحكم بإشرافها، وما دامت الدروب صامّة مثل القلوب ما بها حس ولا خبر».

«من وادي الجناح حتى الضالع، ومن السارحة حتى المطالق وأبعد وأبعد، الناس على وجوهها هايمة، ما يندري قايمة أو نايمة، أولها سلاطين بعدّ التراب وآخرها يوم يبشر بالخراب، أولها السوط وآخرها اللوط، أولها النبي المختار وآخرها الأعور الدجال، والناس بطبول وزمور، برايات وبيارق، لكن ما تعرف وين رايحة ومنين جايه. الغريب يتحكم بابن الديرة، والأجنبي يتحكم بابن العشيرة».

«من وادي الجناح حتى الضالع، ومن السارحة حتى المطالق وأبعد منها بكثير، الشريف من الناس ضعيف وحقه ضايع، وابن الحرام يأكل ماله

ومال غيره وما هو جايع. اللي يقول الصدق مهبول ومن الكثيرين مرذول، والكذوب صوته يملأ الدروب وأخباره من ديرة لديرة تجوب، ويقول: جيت يا زماني. وبذاك الزمان عنتر بن شداد يسرح بالغنم ويأكل أصابعه ندم، لأنه قال اعرف ضرب السيف وقلبي ما يعرف الخوف».

«وبآخر ذاك الزمان لا بد وأن الناس تقوم والظلم ما يدوم وتحصل سوالف وسوالف يحكيها الناس لولد الولد».

في الحدرة، هذا المكان النائي، وكأنه نهاية العالم، لا ينتظر الناس المطر، لفرط ما خابت آمالهم، لقد أصبحوا أقرب إلى التسليم، فإذا جاء المطر في سنة من السنين فإنه لا يطول ولا يترك في الحدرة إلا آثاراً قليلة، إنه يتابع انحداره إلى وادي الباشق فالأرض التي وراءه ثم البادية، ومع ذلك فإن المطر، رائحة المطر، تغير حياة الناس وتصرفاتهم.

كانت تلك هي الحال في الأيام الأولى لعودتهما إلى الحدرة، بعد تلك الرحلة الخائبة، فالناس لا ينفكون يتحدثون عن المطر، ولا يكتفون أن تحدثهم مرة أو اثنتين عن السيل في روضة المشتى، ثم العشب على مسيرة يومين من الحدرة، والغدران التي امتلأت بالماء، إذ يريدون أكثر من ذلك، لأن حزناً مفاجئاً بعد كل ما يقال يهجم كعدو، فلا تطول الأحاديث ولا تتنوع، وإنما تمتلئ بمقدار كبير من الترقب، وكأن مصيبة تترصد الحدرة، ولا بد أن تأتي في اللحظة التالية.

الشتاء في وادي العيون كان شيئاً مختلفاً، فالمطر، أو انتظار المطر، يحمل فرحاً من نوع نادر. حتى لو تأخر في سنة من السنين فإن الناس لا يكفون يوماً واحداً عن الانتظار. يسألون القوافل، يسألون الرعيان، يتطلعون إلى السماء، يملأون صدورهم بالهواء يتشممون فيه رائحة المطر، حتى إذا جاء تهللت الوجوه ونظرت العيون إلى العيون بطريقة تحمل معنى صدق الوعد. ومع المطر تخضرّ الأرض لمسافة كبيرة حول وادي العيون، وتمتلئ الغدران القريبة، أما العيون فإنها تفيض وينسرح الماء لمسافات ومسافات، ومع المطر أيضاً تتغير الحياة ويتغير الناس.

والليالي، خاصة ليالي الشتاء، في وادي العيون غيرها في الحدرة.

تهبط الظلمة في الحدرة مبكرة، ومع تلك الظلمة برودة قاسية تولد حالة من الانقباض. ولأن الحطب قليل في هذه المنطقة، فإن الناس يقتصدون في استعماله، تحسباً للأيام التالية أو لحاجة قد تجد دون توقع أو دون انتظار، كمجيء قافلة أو موت أحد. ولأن ليالي الحدرة هكذا فإن الناس تعوّدوا أن يأووا إلى فراشهم مبكرين، وأن تكون أحاديثهم قصيرة ولا تأخذ ذلك التألق الذي يلهب الخيال ويفجّر العواطف، كما كان يحصل في وادي العيون.

إنه شتاء آخر في الحدرة. شتاء السنة الماضية انقضى وحالة من الخوف والتشاؤم تسيطر على الكثيرين، خاصة عائلة متعب الهذال. أما هذه السنة فإنه يحمل إلى جانب الخوف حزناً قاتماً، نتيجة موت نجمة المثقال بهذه الطريقة، وما نقلته النسوة من كلمات ونبوءات قالتها المرأة في أيامها الأخيرة. لقد ولّدت تلك النبوءات خشية أقرب إلى الحذر، واختلفت النسوة في نقلها، إذ كانت تتغير من امرأة لأخرى، وقد فُسّرت بأشكال لا حصر لها، فلما وصلت إلى آذان الرجال ضحكوا بسخرية، واعتبروا أن ما قيل أقرب إلى الهذيان، ولا يمكن أن يحمل على محمل الجد أو حتى مجرد الاهتمام. ولئن استمرت النسوة يرددن ما قالته نجمة المثقال مع إضافات تزداد يوماً بعد يوم، ولأن نجمة المثقال قالت سابقاً أشياء وتحققت، فقد أعمل الرجال عقولهم ليستخرجوا احتمالات وتقديرات تكون أكثر إقناعاً وأكثر إمكانية من غيرها، ولأنهم لم يتوصلوا إلى شيء فقد تناسوا الأمر بعض الوقت، لكن حالة من الترقب دخلت إلى قلوبهم وبدأت تقلقهم.

الحدرة وما تلاها، وما قبلها أيضاً، ولمسيرة أيام من كل ناحية، موجودة هكذا منذ أن خلق الله الأرض. ولأن حياة الناس تتسم بمقدار كبير من الصعوبة والخشونة، نتيجة انقطاع المطر، أو عدم وصول القوافل، وبالتالي ارتفاع أسعار الطحين والسكر والخام، فقد تعوّد الناس على هذه الحياة إلى درجة أنهم لا يتوقعون أفضل منها. فإذا ضاقت الأرض بالذين فوقها فلا بد أن يقع شيء ما. كان الموت يتكفل، أغلب الأحيان، بحل

هذه المشكلة. الموت اما على شكل غزوات ونزاعات، وكانت كثيراً ما تقع، نتيجة الاختلاف على المراعي والمياه، أو على شكل مرض يفتك بالناس والحيوانات. كان الموت هو الذي يخلق توازناً يجعل الناس قادرين على العيش والاستمرار، فإذا ضاق بعض الرجال بالموت، ولم يعودوا قادرين أو راغبين أن يقتل بعضهم بعضاً، ومع وصول القوافل، فإن نداء قوياً ملحاً إلى السفر يدفعهم دون استعداد كبير ودون تفكير سابق، وبرحيلهم تتسع الأرض بعض الشيء للذين بقوا فيواصلون الحياة.

أما ما تقوله نجمة المثقال، وما نقلته النسوة بأشكال عديدة، فإنه يثير التساؤل أكثر مما يثير الخوف أيضاً، ولهذا فإن القتام الذي ينبعث من بعض الكلمات والنبوءات التي بشرت بها هذا المرأة المتجبرة العارفة، والتي ترى ما لا يراه الآخرون، أثار صخباً ازداد واتسع بموتها على تلك الطريقة.

قال سليمان الهديب حين رأى ابنه يلح في أن تفعل أمه شيئاً، لكي يكون ارتباطه بوطفة أكيداً. قال بنفاد صبر:

ـ يا وليدي بعد اللي قالته العجّيزة، نجمة المثقال، يلزم أن الواحد يحضر زهابه ليوم القيامة.

أحس أنه تورط بهذه الكلمات، فقد كان إلى وقت يسخر إذا ذكرت أمامه كلماتها، أما أن يرددها بنفسه، وأن تكون قد ترسبت في وجدانه كقناعة خفية فقد أحس أنه أخطأ. تابع في محاولة لتدارك الخطأ:

ـ اصبر يا وليدي.. أمس ماتت العجوز.

توقف قليلاً ثم تابع بلهجة جديدة:

ـ وكل شيء بوقته زين.

طوي الموضوع مؤقتاً، واشتعلت رغبة السفر من جديد. قال صويلح لأمه:

ـ مع أول قافلة أمشي، وما يحيل الحول إلا وتشوفوني عندكم واعرّس.

قالت العجوز وهي تبتسم:

ـ ابشر يا وليدي.. ووكل الله.

وبدآ من جديد يغزلان فكرة السفر ويستعدان. كان صويلح يلتهب حركة وحماسة من أجل أن يسافر بسرعة، لكي يؤمن مبلغاً من المال يكفي السياق، وكان أكثر حرصاً وخوفاً بعد وفاة نجمة المثقال، إذ قد تجدّ أمور في الحدرة أو غيرها تمنع زواجه أو تؤخره، وقد يأتي أحد أقارب وطفة ويخطفها منه، لكن بعد أن انتقلت إلى بيت خالتها، قالت لأمه «يا عمتي مالي أحد بهذه الدنيا إلا الله وأنتم!» وفهمت هذه العبارة على أنها موافقة كاملة، فقط إذا مرت مدة كافية وعاد صويلح من سفرته.. عند ذاك لا بد أن تحتفل الحدرة بهذا الزواج الذي طال انتظاره.

ولأن الشابين بدآ الكذبة معاً فلا بد أن يواصلاها معاً. بذل صويلح جهوداً كبيرة لإقناع فواز بالسفر معه. صحيح أن فواز كان شديد الضيق بالحدرة، ويريد الخلاص منها بأسرع وقت، لكنه شعر بعد الخيبة التي واجهها في وادي العيون أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً في مواجهة هذا العالم القاسي، ولا بد أن ينتظر سنة أو اثنتين قبل أن يحزم أمتعته مرة أخرى ويذهب إلى وادي العيون، عند شعلان، لكي يعمل هناك، كما وعده ابن الراشد. لكن إلحاح صويلح، وتلك الصور الزاهية التي رسمها للعالم بعد وادي العيون، الأماكن الجديدة والمدن الكبيرة، إضافة إلى الأموال التي يمكن أن يحصلا عليها، أضعفت مقاومة فواز وجعلته حائراً.

كان صويلح لا يتردد في أن يعيد على مسامعه كل يوم القصة إياها. وفواز يسمع ولا يجيب، ينظر إليه ويسافر بعيداً. وإذا كان مقتنعاً في أعماقه بالسفر والرحيل، فإن أحد الأسباب الحقيقية وراء ذلك هو متعب الهذال نفسه. فالمرض الذي رآه في عيني شعلان، ثم ذلك الخوف الذي لاحقه منذ الليلة الأولى في وادي العيون، إلى إن رآه متجسداً قوياً في روضة المشتى، والذي جعله لا ينام ولا يهدأ ليل نهار، ولّد عنده رغبة جامحة لأن يتبعه، لأن يصلَ إليه. لم يستطع أن يتحدث عن ذلك لأحد، حتى أمه أو رضية لم تسمعا منه كلمة واحدة عن أبيه.

هل يمكن أن يخطئ هو وشعلان معاً؟ قال لنفسه «يجوز أخطأ، ويجوز أخطيت، أما أن نخطي أنا وهو فلا!» أصبح متعب الهذال بالنسبة

لهما أكثر من مجرد أب، ولا يمكن أن يغيب هكذا إلى الأبد. لو أن الأمر اقتصر على الغياب لوجد الإنسان تفسيراً واستراح، لكنه كان أكبر من ذلك وأقوى. . .

كل محاولات صويلح لم تكن لتجدي لو أنه لم يره في روضة المشتى، ومع ذلك كان خائفاً لا يعرف أين يذهب أو ماذا يفعل.

ظل متردداً صامتاً في معظم المرات التي طلب منه صويلح أن يوافق، وكان من الممكن أن يظل متردداً ولا يسافر لو أن الخوش لم يأت.

عندما يستعيد فواز الآن تلك اللحظات يحس أن قوة خفية هي التي تصنع أقدار البشر وتدفعهم من مكان إلى مكان، وهي التي تحدد حياتهم وموتهم.

فهذا الذي غاب سنين طويلة، دون رسالة أو خبر، والذي أدى إلى جنون تلك العجوز ثم موتها في اليوم الأخير بوادي العيون، واعتبر أنه انتهى في مكان ما، ولم يبق أحد إلا وطوى صفحة هذا الذي كان اسمه الخوش، وأصبح مجرد ذكرى، وملامح قديمة تتآكل وتتلاشى يوماً بعد آخر. . هذا الإنسان الذي غاب كل هذه السنين، ومع قافلة ابن الأعسر التي تأتي في مثل هذا الوقت من كل سنة، لكي تبقى شهراً أو أكثر بقليل في الحدرة، تبيع لأهلها ومن جاورهم ما تحمله من الأماكن البعيدة، من الطحين والشاي والمنسوجات، إضافة إلى أشياء أخرى لا تخطر ببال، ثم تحمل من هذه المناطق، في طريق العودة، السمن والصوف وبعض رؤوس الخيل؛ في قافلة ابن الأعسر، وعلى غير توقع من أحد جاء الخوش.

لقد بدّلته الأيام كثيراً، الشاب الصغير، ابن السبعة عشر عاماً، الذي راح في قافلة السالمي، يرجع الآن مكتمل الرجولة، بل أقرب إلى الكهول، أو هكذا بدا في نظر الذين رأوه.

التجاعيد الصغيرة تظهر بوضوح حين يبتسم، وحين يغرق في التفكير والذكرى. السمرة القاسية تغطي الأماكن المكشوفة من جسده، فإذا شمّر ثيابه أو نزع غترته، برزت الألوان متناقضة ومثيرة للتساؤل والعجب، أما الملامح فقد ظلت هي نفسها أو ربما تغيرت تغيراً طفيفاً.

كان مجيء الخوش مفاجئاً حافلاً وأقرب إلى عدم التصديق، وبمقدار الفرح الذي رافق مجيئه فقد ولد ذكريات وأحزاناً وتساؤلات لا نهاية لها. انفجرت الحياة الماضية كلها دون رغبة من أحد، وبدأت تتوالى القصص والذكريات. كيف كان إلحاحه قوياً إلى درجة أنها أقنعت الكثير من الرجال، بمن فيهم متعب الهذال بأن يوافقوا على سفره. كيف كان يتفوق على جميع شبان وادي العيون... ثم ليلة سفره، كيف صنعت له أمه زوادة تكفيه، كما قال متعب الهذال، لأن يصل إلى مصر ويرجع منها!

أما حين جاء ذكر وادي العيون، وقال أنه مرّ هناك فلم يعرف أحداً، ولولا وجود شعلان وابن الراشد لأنكر كل شيء، وحين ذكر العجوز أطرق وصمت تماماً، وكأنه لا يريد أن يتذكر أو أن يقول كلمة واحدة. بدا حزيناً ومقتولاً، حتى لكأنه شخص آخر. كان يتمنى لو أنه جاء قبل هذا الوقت، لو أنه رأى أمه قبل أن تموت. وشعلان الذي ألحّ عليه أن يبقى في وادي العيون، وأن يعمل معه في الشركة، لم يستطع أن يقنعه أو يستبقيه، بعد أن أبلغه بوفاة أمه في الأيام الأخيرة، قبل الرحيل عن الوادي، ثم كيف هجّ متعب الهذال لا أحد يعرف إلى أين أو إلى متى.

مع كل يوم كان الفرح بالخوش يزداد، حتى وضحة التي غرقت في الصمت منذ أن تركوا روضة المشتى، بدت امرأة أخرى، أخذت تصدر عنها أصوات تشبه أصوات الأطفال في بداية تعلمهم الكلام، وأضاءت عيناها بفرح أقرب إلى الرضا، كما أصبحت أكثر حركة ونشاطاً. أما حين استخرج الخوش من تحت ثيابه المغبّرة القديمة تلك المحفظة الجلدية التي كان يعلقها برقبته، وكانت مربوطة بخيط قوي أحسن اختياره وتثبيته، وحين استخرج الخوش المحفظة، وكانت تلتصق على اللحم، قريباً من القلب، ووضحة مقابله تنظر إليه، تتابعه ولا تدري ماذا سيفعل، ثم يفك المحفظة بهدوء ويمد كل ما فيها، بيديه الاثنتين، ويضعه كله في حضنها، عند ذاك تتساقط دموع غزيرة من عينيها. إنها المرة الوحيدة التي تبكي فرحاً وحزناً وألماً في وقت واحد وبطريقة تختلف عن بكائها في عجرة في الليلة الأولى لوصولهم قادمين من وادي العيون.

لقد فعل الخوش ذلك بهدوء مبالغ فيه، وحين رأى الدموع أطرق، لكن دون حزن، وظل كذلك بعض الوقت، ولما رفع رأسه مرة أخرى كانت ابتسامة صغيرة تظهر على زاويتي الفم، وفي العينين، ودون كلمات من أي نوع فهم الاثنان.

كان فواز يتابع هذا المشهد صامتاً مذهولاً، أما رضية التي دخلت وخرجت أكثر من مرة، وبدت شديدة الانفعال، مرتبكة، فقد أدركت بحس الأنثى أن شيئاً خطيراً يجري في تلك اللحظات، وأن الأمر الذي انتظرته سنين طويلة، وحلمت به أكثر مما حلمت بأي شيء آخر، قد تحقق دون كلمة.

بعد ذلك بأسبوعين تزوج الخوش من رضية.

وبعد أسبوع من الزواج قال فواز لصويلح، وكان شديد الثقة:

ـ إذا تهيأت لنا قافلة قبل سفر قافلة ابن الأعسر نسافر معها، وإلا يجب أن نبقى إلى حين سفرها.

أما حين بلغ أمه أنه انتوى السفر، عائداً إلى وادي العيون، عند شعلان، للعمل في الشركة، وأنه لن يكف يوماً واحداً عن البحث عن أبيه، ولا بد أن يجده، وأن يرجعا معاً، فقد بدت الأم فرحة حزينة في وقت واحد، اشتعلت في قلبها الآمال والمخاوف دفعة واحدة، فبان وجهها أقرب إلى القسوة، لكنها نهضت مسرعة وبدأت تهيّئ ما يحتاجه إلى السفر. وحين تساءلت عيناها، وخرجت من فمها تمتمات غير مفهومة تستفسر عن موعد سفره، وما إذا كان عليها أن تهيّئ له زوادة للطريق ابتسم وقال:

ـ إلى حين ما يسافر ابن الأعسر.

ولما استعدت قافلة ابن الأعسر للرحيل كانت وضحة قد هيأت له كمية كبيرة من الأكل، وحين رآها الخوش ضحك وقال نفس الكلمة التي قالها متعب الهذال قبل سنين طويلة:

ـ هذه تكفيه لأن يصل إلى مصر ويرجع منها!

بدت الحدرة وهما يغادرانها أكثر حزناً وأكثر شيخوخة، حتى الأطفال وهم يتجمعون حول القافلة بدوا حزينين متسائلين. كانوا أقل حركة مما تعودوا في مثل هذه الحالات. أما الرجال فقد أظهروا حكمة زائدة، وبالغوا في إحكام ربط الأحمال، وبدا بعضهم غير مكترث. والنسوة، كما هي العادة دائماً، ظللن بعيدات، لكن لم تفتهن أية حركة، ولم تغب عنهن أية كلمة أو إشارة. أما وضحة الحمد، التي أظهرت مقداراً هائلاً من الصلابة، وحضّرت كل شيء بعناية بالغت فيها إلى درجة لفتت نظر الكثيرين، فقد كانت في أعماقها تدرك أن رحلة ابنها، هذه المرة، ستطول. كانت تفعل أشياء لم تفعلها في رحلته السابقة، وكانت تراقب حركاته وتنظر إليه بطريقة لم يرتح إليها، وقد شعر نتيجة ذلك بالاضطراب وما يشبه الحرج، حتى إذا ودع أخوته وأخواته، وتقدم إليها، أمسكت بكتفيه الاثنين وهزته بطريقة معينة، كأنها تختبر قواه، توصيه، تضع ما تبقى من قوة جسدها في جسده، فلما وجدته شديداً قاسي ملامح الوجه، هزت رأسها بصلابة الفرس ثم غمرت وجهها في صدره. فعلت ذلك بقوة وظلت كذلك بعض الوقت، فلما رفعت إليه وجهها كانت دمعتان تجولان في العينين دون أن تقويا على السقوط. كانت الدمعتان تتحركان بطريقة متحدية وحزينة، وفي اللحظة الأخيرة ربتت على صدره وكتفيه وتراجعت خطوة إلى الخلف لتقول له دون كلمات: «يمكن أن تذهب الآن».

أما الخوش الذي كان فرحاً منفعلاً كثير الحركة، فقد رافق فواز وصويلح وظل معهما إلى أن تحركت القافلة، وقد قال أشياء كثيرة، وإن بدت غير مترابطة وليست في سياق واحد، وكأنه يودعهما تجربته في الحياة

كلها، ويريدهما أن يفهما ويستوعبا أكثر مما تدل عليه حركاتهما وهزات رأسيهما.

في الطريق إلى روضة المشتى، والتي استغرقت سبعة أيام، لأن ريحاً قوية عطلت مسيرتهم، واضطرتهم لأن يأخذوا الطريق الشمالي للوصول إلى الروضة، بدأت تعود الصور والذكريات، وعادت معها الساعات واللحظات الأخيرة؛ وفواز الذي تمالك نفسه، وأصرّ على أن يكون أقوى من الصخر، خاصة في مواجهة تلك العجوز التي تركها في الحدرة، كان يحس بحزن ثقيل، الأمر الذي أربك صويلح، فتساءلت عيناه مرات كثيرة ما إذا كان خائفاً أو عادت إليه تلك الهواجس التي ملأته في رحلة العودة من وادي العيون إلى الحدرة، ورغم أنه بذل جهوداً كبيرة من أجل أن يخفف عنه، أن يشغله بأمور كثيرة، فقد ظل بادي الحزن. أما حين أخذ يغني، وفعل ذلك عدة مرات، وأبدى رجال القافلة سرورهم بغنائه، فقد شعر أن غناءه في هذه المرة حزين وأقرب إلى اللوعة.

هل كان يغني فراقه لأماكن لن يراها ولأشخاص لن تتاح له الفرصة، مرة أخرى، لأن يلتقي بهم؟ هل كان يغني فراقه لوطفة وهذه الرحلة المجهولة التي لا يعرف إلى أين يمكن أن تحمله.. ثم هل يعود منها ومتى؟ هل كان يغني حياة وذكريات بدأت تغيب وتتلاشى ما ابتعدت القافلة عن الحدرة؟

إن فراقاً من نوع ما كان يرفرف فوق الرؤوس، كان يصرخ في الظلمة، في ساعات الليل الأخيرة أو في ساعات الفجر. إن هذا المجهول الذي بدآ يغرقان فيه، خطوة بعد أخرى ما ابتعدا عن الحدرة، لن يستطيعا النجاة منه ولن يفارقهما حتى النهاية.

ومع هبات الريح القوية التي تعفّر وجوه الرجال، وتجعل الجمال عصبية سريعة الإثارة، والتي تمنع الرؤية وتحد من السير، مع هبات الريح كانت وجوه تنبعث وتضيء، وهذه الوجوه بمقدار ما تظهر تفجُّر قوى داخلية عاتية في داخلهم، وتدفعهم أكثر وأكثر على السير ونسيان التعب.

قال صويلح، وقد بدت روضة المشتى تظهر:

ـ نمرح في الروضة يوماً واحداً ثم نتابع سفرنا إلى عجرة.

قال هذه الكلمات وهو يتطلع إلى عيني فواز تماماً، وكأنه يمتحن تلك النوايا العاتية التي ملأته في رحلتهما السابقة. ولما ظل فواز صامتاً تابع:

ـ أنت تعرف أنه من عجرة يمكن أن نسافر إلى الأماكن التي نقصدها، يمكن أن نسافر إلى بغداد أو الشام، ويمكن أن نسافر إلى عمان. . وإذا أردنا نقدر أن نصل إلى مصر.

❀ ❀ ❀

الخطأ الآخر الذي ارتكبه فواز أنه وافق صويلح على البقاء فترة قصيرة في روضة المشتى، ثم تابعا سفرهما إلى عجرة.

كان صويلح شديد الخوف من أن يتشبث فواز بروضة المشتى، أن يهيم على وجهه بحثاً عن أبيه، خاصة وهما يعبران الوادي، وبعد ذلك الصوت القاسي المفاجئ الذي انطلق من فمه دون إرادة: «هنا. . هنا يا صويلح» ومثل قط قفز عن ذلوله وهي تخب به وأشار بخيزرانته إلى مكان بذاته.

وبصبر كبير هزّ صويلح رأسه دلالة الفهم والموافقة، أو ربما بيّت في نفسه أمراً آخر، إذ ما كاد يراه هكذا حتى نزل. أمسك بناقته وأناخها، ثم أناخ ناقة فواز أيضاً، وسأل بطريقة قاسية، وربما مؤذية:

ـ ما تقول، يا فواز، لو أمرحنا نهارنا كله هنا؟

هل كان يريد أن يتحداه؟ أن يقول له، بطريقة غير مباشرة، أن ما رآه في رحلتهم السابقة مجرد وهم من الأوهام؟ هل يريد أن يثبت له أن أباه الذي رآه في هذا المكان، على فرض أنه كان هنا فعلاً، قد رحل إلى مكان آخر، ولذلك لا جدوى من البقاء أو البحث عنه في هذا المكان؟

لا بد أن يكون قد توصل إلى قرار نهائي، ويريد الآن أن يجبره على السير معه، بالطريقة التي يشاء. كان فواز متهيجاً خائفاً، وربما كان بحاجة إلى من يفكر ويتخذ القرار نيابة عنه، إذ ما كاد صويلح يقترح ذلك

الاقتراح، بأن ينفصلا عن القافلة ويقضيا اليوم في هذا المكان، حتى شعر فواز أنه يسخر منه، رد عليه بحدة:

ـ قلت لك بهذا المكان شفته، وإنه بهذا المكان كان، ما قلت لك نمرح هنا.

ـ هذا المكان زين وقريّب، وما به شي لو امرحنا.

ـ لا . . نمرح مع الجماعة عند البيار.

ـ القول قولك، يا ابن عمتي، واللي تشوفه.

هذا هو الخطأ الأول في الرحلة. لو أن صويلح لم يقل ما قاله بتلك الطريقة لقضيا يومهما في هذا المكان، المكان الذي أطل منه متعب الهذال وتحدث إلى أهل روضة المشتى، وسمعه الرجال والنساء والأطفال، وطغى صوته على الرعد وهدير السيل، فإذا لم يأت إلى هذا المكان في النهار فلا بد أن يأتي في الليل. وإذا لم يأت فلا بد أن يكون في مكان قريب. أما أن يوافق صويلح ويتابعا الرحلة فيقطعا الوادي ويصلا إلى نهاية روضة المشتى، من ناحية الشرق، على طريق عجرة، قرب الآبار، أن يوافق معه على ذلك، أن يطلبه بنفسه، فقد ارتكب الخطأ.

في روضة المشتى أصبح إنساناآخر. إنها المياه الملعونة التي إن دخلت إلى الجسد تشله، تجعله عاجزاً. إذ ما كادا يقضيان يومهما الأول، وكان من المقرر أن تبقى قافلة ابن الأعسر ثلاثة أو أربعة أيام، حتى قال له صويلح:

ـ الجماعة يبغون البيع والشراء، وحنا ما عندنا ما نشري وما نبيع، ما قولك لو مشينا؟

وبنفس الطريقة السحرية الفتاكة، وربما نتيجة الخوف من المياه الملعونة، وافق فواز على أن يواصلا سفرهما إلى عجرة في اليوم التالي.

وبمقدار الفرح الذي كان يحرك صويلح ويدفعه لأن يواصلا السير بسرعة في قافلة صغيرة إلى عجرة، كانت الهواجس وحالة من الخوف تسيطر على فواز وتشل تفكيره وتجعله يغرق في الصمت.

ظن صويلح أن المرض أو حالة مشابهة لا بد وأن تمنع فواز من مواصلة الرحلة، ولا بد أن تولد مشاكل لم يكن مستعداً لها، لذلك بذل أقصى ما يستطيع من أجل أن يخفف عنه. بدأ يحدثه عن العالم الذي يقودهما إليه الطريق السلطاني، بعيداً عن البادية الميتة القاسية، وهناك سيجدان كل ما يشتهي الإنسان. لن تطول سفرتهما وسوف يرجعان أغنياء. لم يكتف بذلك، أعاد كل القصص التي سمعها عن رجال فقراء ركبوا الطريق السلطاني وسافروا إلى أمكنة بعيدة، وخلال فترات قصيرة أصبحوا مضرب المثل لغناهم وأهميتهم،منهم من عاد ومنهم من بقي إلى الآن. تزوجوا وخلفوا، وبدل المرأة تزوج الواحد منهم زوجتين أو ثلاثاً، ويبعثون إلى أهلهم في الحدرة، في الرحبة، أو عجرة، يبعثون إليهم بالمال والثياب، وهم لا بد عائدون في يوم من الأيام.

لم يترك صويلح قصة سمعها عن الرجال الذين سافروا إلى الأماكن البعيدة إلا وأعادها عليه، وحين وجده صامتاً بعيداً بدأ يغني.

وصويلح حين يغني ينتزع الأحشاء. لقد سمعه مرات كثيرة، لكن هذه المرة، وهما في طريقهما من روضة المشتى إلى عجرة، غنى بطريقة لم يعهدها فيه. كان يصعد وينزل كما لو أن حمامة وصقراً يتحاوران. كان صوته يغيب حتى يتلاشى، ثم فجأة يصرخ ويعلو حتى يصل السماء.

ما كادا يصلان إلى الطريق السلطاني، وعلى مسافة ساعة أو ساعتين من عجرة، حتى شاهدا خيمة، وما كادا يقتربان أكثر حتى شاهدا جمعاً من الرجال، ووسطهم كان ابن الراشد.

لما رآهما ابن الراشد تشبث بهما، لم يتركهما يصلان إلى عجرة إلا في اليوم الثالث، فقط لكي يشتريا ما يحتاجان إليه، لأن «العمل يبدأ من اليوم.. والمعاش يبدأ من اليوم.. ولا يمكن أن ننتظر».

وبهذه الطريقة، ومن حيث لم يقدر أحد، ولم ينتظر، اصطادهما ابن الراشد وذهبا معه إلى: حران.

ما كاد ابن الراشد يلتقي بهما في عجرة، أو قبلها بقليل، حتى قبض عليهما: «جيتوا والله جابكم. أنتم قرابتنا، والواحد ما له إلا قرابته وجماعته، فإذا ما شغّل جماعته ما يصير براسه خير. لازم تروحوا معي إلى حران، رجلي على رجلكم». نسي كل الكلمات التي قالها قبل شهرين في وادي العيون. أما حين حاول فواز أن يذكّره، أن يقول شيئاً، فقد رد لكي ينهي الموضوع:

ـ الله يلعن الشيطان، والبني آدم دائماً عجول.

ثم راح يؤكد لهما أن العمل في وادي العيون شاق ولا يلائمهما، أما في حران، وخلال سنة أو سنتين «الواحد يصير عنده كوم من ذهب». اتبع أساليب شيطانية من أجل إقناعهما، ورغم الكراهية العميقة والمرارة التي تولدت من رفضه السابق، وميل فواز إلى عدم الموافقة، إلا أن صويلح كان رخواً في امتناعه، ثم بدا متردداً، وأخيراً وافق إذا ذهب معه فواز، ولذلك لجأ ابن الراشد إلى الإغراء والضغط، مع الكثير من الوعود، حتى اضطره للموافقة.

بعد بضعة أيام في عجرة، وبعد أن جمّع ابن الراشد العدد الذي يحتاج إليه، بدأوا رحلتهم إلى حران، إلى ذلك المكان المجهول الذي لم يسمع به إلا القليلون، ولم يصله أي واحد منهم من قبل. توقفوا في الطريق عدة مرات، سألوا بعض رعاة الإبل وشيخاً وجدوه قرب أحد الغدران، ليتأكدوا أنهم يسيرون في الاتجاه الصحيح. وبعد مسيرة خمسة أيام أشرفوا على البحر.

حيث توقفوا ونظروا، فوجئوا إلى درجة عدم التصديق: مياه... مياه

لا نهاية لها، مياه على مدى البصر، إنه البحر! البحر كالصحراء بامتداده واتساعه، ومجرد النظر إلى هذه الكمية الهائلة من المياه يُصاب الإنسان بالفرح والخوف معاً.

لم يكن أحد ليفكر أو ليحلم أن في أي مكان من العالم هذا المقدار الهائل المخيف من المياه. من أين أتت؟ هل جاء بها السيل أو نبعت من باطن الأرض؟ وأهل الحدرة والروضة وعشرات الأماكن الأخرى، وراء هذه التلال، هل يعرفون بوجود هذه الكميات من المياه؟ وإلى متى تبقى وإلى أين تذهب أو تصل؟

لم يكن أي من الرجال العشرين قد رأى البحر من قبل. لقد ظهرت الدهشة والاستغراب على وجوههم وهم ينظرون، وفاتهم أن يروا، من هذا المكان، قرية صغيرة لا يمكن للعين أن تميزها من هذا البعد. أما حين قال ابن الراشد «حسب وصف الشايب اللي لقيناه أمس لازم تكون هذه هي حران»، وأشار بإصبعه، التفت الجميع إلى حيث أشار، كانت كتلة من البيوت الطينية الواطئة تبدو من بعيد، وكانت هناك مجموعة من التلال على يمين البيوت وعلى يسارها، وإلى مسافات كبيرة، كما ظهرت بضع أشجار، لم يستطع أحد أن يميز نوعها من هذا البعد.

بصمت أقرب إلى الخفاء أو التآمر بدأوا يهبطون التل متجهين إلى حيث أشار ابن الراشد.

لأول مرة سمع الرجال باسم حران في عجرة، والآن، بعد أن وصلوا، يرون حران ويعرفون ماذا تكون.

سأل فواز صويلح بتهكم وهما ينيخان ناقتيهما:

ـ هذه هي الشام اللي قلت لي عليها يا ابن خالي؟

قهقه صويلح وأجاب بسرعة:

ـ أسكت.. الأماكن كلها مثل بعضها..

وبعد قليل أضاف كأنه يخاطب نفسه:

ـ وهذا المكان أقرب من الشام بكثير.

لم يستغرب أهل حران وصول القافلة، وكأنهم كانوا على علم سابق بقدومها، خاصة وأن اثنين من رجال ابن الراشد كانا قد سبقا الجميع إلى هناك، وربما زيارات سابقة لآخرين قد تمت قبل وصول هذه القافلة. كان أهل حران مثل أهل وادي العيون، كرماء، يحبون المساعدة، وكانوا يفعلون كل ما يطلب منهم، الفرق الوحيد أن أهل حران كانوا شديدي الصمت لا يتكلمون إلا القليل... وحين يسألون فقط.

ومثلما فعل ابن الراشد في وادي العيون فإنه جمع رجال حران وبدأ:

- ابشروا يا جماعة الخير، الخير جاءكم، والله سبحانه وتعالى فتح عليكم أبواب السماء وإن شاء الله بعد تعبكم وشقاكم ترتاحون. طويل العمر وصى بكم وقال أهل حران ما مثلهم رجال، نشامة وأجاويد، وهذه الشركة شركتكم، جاءت لمصلحتكم ولخدمتكم وهي تريد مساعدتكم ولازم تساعدوها، أما بخصوص التعويض المستحق لكل منكم فابشروا إن شاء الله ما تكونون إلا راضين، الواحد يأخذ حقه وزود...

استراح قليلاً، نظر في الوجوه بإمعان ثم أضاف بصوتٍ خفيض:

- الخويا يصلون بعد كم يوم ونريدكم تبيضّون الوجه وتكونون بالشغل مثل النار وبالطاعة مثل المحبس باليد.

بعد ذلك تشعبت الأحاديث والأسئلة، وابن الراشد الذي كان في وادي العيون يجد ويسخر، ويتصرف كأب، ولا يتردد في مناقشة أي إنسان بصبر، أصبح في حران إنساناً آخر: كان شديد الثقة بنفسه، وقد خلت أحاديثه من المزاح، وبدا جاداً وبعض الأحيان قاسياً. كان يوجه أوامر قصيرة حازمة، ويتحدث بطريقة يحار الإنسان في تفسيرها، هل هي نتيجة عداء تجاه الآخرين أم نتيجة عدم ثقة. أما حين قال أحد المسنين أن الحياة التي يعيشونها ترضيهم ولا يريدون أن تتغير كما لا يريدون شيئاً آخر، فقد تطلع ابن الراشد إلى الوجوه باهتمام وكأنه يبحث عن ابن متعب الهذال، وبعد أن التقت أعينهم للحظة خاطفة قال للرجل المسن:

- يا عم بعد كم سنة تقول لنفسك: علواه لو كنت أصغر وأقوى، لأن الخير الجاي يغرق الدنيا، وكل واحد لازم يغرف منه نصيبه.

قال الشيخ بيأس وعيناه تطرفان:

ـ أخذنا نصيبنا من هذه الدنيا، يا ابن أخي، وإنشاء الله حسن الختام!

وبطريقة حازمة لا تتيح أية إمكانية لمزيد من النقاش أكد ابن الراشد على ضرورة التعاون مع الشركة ومساعدتها، وأفهمهم أن البيوت التي يسكنون فيها ستهدم، لأن المنطقة ستتغير خلال فترة قصيرة، ثم غرق في أسئلة تفصيلية حول الأماكن المجاورة، أسمائها والمسافات بينها والطرق إليها، وما إذا كان يوجد فيها ماء كثير أو قليل.

بعد بضعة أيام وصلت مجموعة من الأميركيين عن طريق البحر، وبدا أنهم كانوا في هذا المكان عدة مرات من قبل، لأن معرفتهم بالرجل المسن وببعض الآخرين من أهل حران كانت واضحة، إذ أخذوا يمازحون الرجال، ويربتون على الأكتاف، ثم انصرفوا إلى أوراق استخرجوها من صناديق كانت معهم، وبدأوا يكتبون ويخططون، وقالوا لابن الراشد، عن طريق المترجم، أن باخرة ستصل بعد أيام، وطلبوا إليه أن يستعد العمال للمساعدة في نقل أشياء كثيرة ستصل على الباخرة.

بعد أن وصلت تلك الآلات الجهنمية عن طريق البحر، ولم تكد بضعة أيام تمر، حتى بدأ هدم البيوت في حران. وإذا كان أهل وادي العيون قد أبدوا استغراباً وصل حدود الدهشة ثم الذهول، وهم يراقبون وصول تلك الآلات، ثم عملها، فإن أهل حران كانوا أقل انفعالاً. صحيح أن الباخرة التي وقفت بعيداً عن الشاطئ أفزعت الجميع، حتى ابن الراشد نفسه بدا عليه القلق الشديد، وكان واضح الارتباك عندما سئل عن هذه «البلية» التي تقترب من حران، وقال لجماعته أو للذين سألوه، كلمات غير واضحة ولم يكن متأكداً منها. أما الحديث الهامس الذي جرى بينه وبين المترجم، والذي تخلله الكثير من الإشارات والحركات، فقد جعله في النهاية موافقاً، لكن لم تزايله أبداً الدهشة، وكذلك الرجال الآخرون كانوا شديدي القلق والخوف، إذ ابتعدوا مسافات كبيرة عن الشاطئ وتركوا المساعدة في إنزال الآلات من المراكب الصغيرة التي أنزلت بدورها من الباخرة لأهل حران. وحين أراد ابن الراشد أن يحثهم، أن يقنعهم بضرورة الاقتراب والمساعدة، وقد حاول شرح كل ذلك بطريقته، لم يستجب إليه الرجال، قالوا: «كل شي نفعله إلا الاقتراب من الماء.. الماء غدار» وقد فهم ما قصدوا إليه، فلم يلحّ عليهم بعد ذلك، إذا انشغل بمراقبة كل شيء باهتمام المستطلع الخائف.

شعر أكثر الرجال بألم وحزن وهم يهدمون البيوت الصغيرة الفقيرة، أما أهل حران الذين رحلوا إلى التلال الغربية، فقد وزعت عليهم الخيام وأعطوا مبالغ من المال، لكي يتدبروا أمرهم، على أن يجري التعويض عليهم في وقت لاحق.

قال صويلح في ذلك المساء، بعد أن سويت حران مع الأرض:

ـ لو لم نأت نحن لوجد ابن الراشد غيرنا وقاموا بنفس العمل.

وبكثير من البراعة، وبهدف أن يقنع نفسه قبل أن يقنع أحداً، أكد أن العمل هو العمل، سواء في هدم البيوت أو باستخراج الملح أو في أي مجال آخر، لا فرق، أما ما ذكره فواز عن رطوبة الجو في حران، وعدم قدرته على التحمل، فقد رد عليه برجاء حزين:

ـ الإنسان يتعود يا ابن عمتي. إصبر شهر شهرين وبعدها تتعود.

خلال الأيام الأولى فكر عدد من العمال أن يتركوا حران، أن يعودوا من حيث أتوا، حالما يتسلمون أجورهم، لكن الراتب الأول الذي دفعه ابن الراشد غيّر قناعاتهم ومواقفهم، إذ لم يحلم أحد باستلام مثل هذا الراتب، ولم يدخل جيب أي منهم مبلغ مثله، وقد جرى ذلك بطقوس من الصمت والاهتمام كانت أقرب إلى الجلال.

ففي عصر الخميس الثالث، وبشكل مفاجىء، طلب ابن الراشد من الجميع أن يقفوا صفاً. كان يقف مزهواً وإلى جانبه دحام المزعل، وما كاد الرجال يتنظمون حتى بدأ ينادي عليهم واحداً بعد آخر، ومن كيس خيش صغير، كان ينتزع كمية من النقود الفضية، وبعد أن يتركها تكرج كالسيل من يد إلى أخرى، مع ذلك النغم المنتظم الرنان، يعدها بمهارة وسرعة، لفرط ما تعود على ذلك، ويناولها طالباً من كل واحد أن يعدها مرة أخرى، بعد أن ينتحي جانباً، ويشير إليه أين يذهب، ثم يلتفت إلى دحام ويطلب إليه أن يتأكد من شطب الإسم، حتى إذا هز دحام رأسه أكثر من مرة، دلالة أنه فعل ذلك، يطلب إليه المناداة على الإسم الذي يليه، وهكذا إلى أن انتهى.

لما أتم ابن الراشد توزيع الرواتب، وتأكد أن الجميع قاموا بعدّها، قال إن الراتب سوف يرتفع في الشهور القادمة، لأن الحسومات التي تقتطع الآن ثمناً للأكل، سيعاد فيها النظر، ويترك الخيار لكل واحد ما إذا كان يفضل أكل الشركة أو أن يحضّر أكله بنفسه، بعد أن يشتري ما يشاء من الدكاكين التي ستقام خلال فترة قريبة.

أوضح ابن الراشد هذه الأمور بأساليب عديدة، ثم قال وهو يتطلع في الوجوه:

ـ عندنا سالفة معكم يا جماعة الخير. . .

تطلع إليه الجميع باهتمام:

ـ الأباعر. . من اليوم ما لها فائدة هنا.

وخيّرهم بين أن يبيعوها إليه مباشرة أو أن يكلّف واحد منهم فيأخذها إلى عجرة، وهناك، في السوق، يمكن أن تباع، مع تأكيده أن السعر الذي سيدفعه لن يحصل عليه أحد في عجرة أو في غيرها.

إنها المرة الأولى التي يشعر فيها الرجال أنهم يواجهون موقفاً صعباً وخياراً حاسماً، إذ يطلب منهم أن يتخلوا عن أعز شيء يملكونه! وإذا كان كل واحد منهم قد تعب وركض كثيراً من أجل أن يشتري ناقة أو جملاً، فإنه يعرف أنه إذا باع اليوم فقد لا تتاح له فرصة قريبة لأن يشتري بديلاً، ومعنى ذلك أن يرتبط هنا، أن يظل وقتاً طويلاً، وربما إلى الأبد.

وفواز الذي حارب وتعب حتى حصل من أبيه على تلك الناقة التي رافقته خلال السنتين الماضيتين، وكانت شديدة الطاعة والفهم والاستجابة، وقد بنى عليها آمالاً كباراً، لا يمكن أن يتركها تذهب لا يعرف لمن أو إلى أين. كان مستعداً لترك العمل والعودة من حيث أتى على أن يستغني عن ناقته. أدرك صويلح ذلك دون أن يقول له أحد، ودون أن يشير إليه فواز، فبدا حزيناً ضائعاً، وفي الليل المتأخر، بعد أن نام أغلب العمال، طلب من فواز أن يخرجا إلى الفلاة، لأن النوم لا يأتيه، ولأنه يريد أن يتحدث معه.

في هدوء الليل، في هذا المكان الذي لم يعد له اسم، بعد أن هدمت البيوت وزالت كل المعالم، كان صويلح يريد أن يقول أشياء كثيرة، أن يتكلم دون توقف، لكن بدا مرتبكاً متردداً، وفجأة استعاض عن الكلمات التي كانت تملأ صدره بالغناء.

غنى غناءً حزيناً أقرب إلى النجوى، كان يغني وطفة، يريد أن يطير إليها، أن يراها ولو لثانية واحدة، أن يسمع منها كلمة، ومن أجل ذلك يمكن أن يتحمل كل شيء، يمكن أن يتعذب ويسافر، ويعمل في أي مكان، حتى إذا جمع المبلغ اللازم فلن يبقيه شيء أو أحد، ولا بد أن يعود إلى الحدرة.

بعد أن غنى قال كأنه يحدث نفسه:

ـ كبدي محروق، والله بلاني، يا ابن عمتي، ولازم تساعدني!

كانت كلماته أقرب إلى التوسل، كان يريد من فواز أن يبقى، أن يتحمل كل شيء، حتى إذا كانا قادرين على العودة عادا فوراً، ولذلك، لا يمكن أن يربط الإنسان مصيره بناقة، عليهما أن يوافقا على عرض ابن الراشد. أن يبيعا الناقتين دون تردد، فإذا حان وقت عودتهما إلى الحدرة يمكن أن يشتريا مطايا جديدة من أي مكان.

لما تكلم صويلح بهذه الطريقة أحس فواز أنه ذهب بعيداً، وأنه من أجل وطفة، ومن أجل تأمين مبلغ معين، مستعد أن يفعل أي شيء، أن يتخلى عن كل شيء. رد في لحظة من لحظات الغضب والانفعال:

ـ هذا المكان ما يفيدني ولازم أمشي.

هل نظر إليه صويلح في الظلمة؟ هل أطلق زفرة أو اثنتين؟ هل تصرف بطريقة أوحت إليه أن يتخلى عن إنسان أو أن يقتل إنساناً؟ لا بد أنه فعل شيئاً من ذلك، لأنه وجد نفسه فجأة أكثر استعداداً لكي يقف معه. صحيح أنه لم يقل ذلك مباشرة، ولم يصدر عنه أي تصرف يوحي بهذه الموافقة، لكن شعر بانقباض وقهر، وشعر أكثر من ذلك أنه وحيد في هذا المكان الغريب النائي. حتى صويلح، أقرب الناس إليه، أكثر الناس فهماً له لا يهمه سوى تأمين مبلغ من المال لكي يعود ويتزوج. فإذا كان كذلك فيمكن لابن الراشد أن يفعل أي شيء.

في اليوم التالي، ودون نقاش أو مساومات، سلما، مع الآخرين، جمليهما لابن الراشد، فدفع لهما أثمانها، وقال وهو يتطلع في وجوههم:

ـ . . . وهالحين ما عاد عندكم همّ، خلصناكم من المطايا وهمها.

ولم يتكلم أحد، إذ انصرفوا إلى التفكير في كيفية حفظ النقود الفضية في أمكنة أمينة لكي لا تسرق ولا تضيع، وبعد تفكير طويل وتردد رأى الكثيرون أن أفضل الأمكنة وأكثرها أمناً أن يودعوها مرة أخرى عند ابن الراشد!

وادي

العيون، عجرة، الرحبة، روضة المشتى، الحدرة، وغيرها الكثير من القرى والبلدات والدساكر تأتي منها القوافل والأخبار. الناس يعرفون هذه الطرق، يراقبونها، ينتظرون أن يأتي القادمون منها؛ حتى أم الخوش حين كانت تنتظر، وبعد أن تتعب من السؤال والبحث، كانت تنتظر في الظهرة، على كثيب لا تغيره أبداً، لأنه يشرف على الطريق ويكشفها لمسافات بعيدة. وفي الروضة كانت الآبار في محل مرتفع قليلاً، وهناك كانت القوافل تصل، وكان الناس ينتظرون. حتى عجرة التي تصب فيها الطرق من أنحاء متعددة كان الطريق السلطاني هو «الطريق» بنظر الناس إذا سئلوا، إذا انتظروا، وما عداه ليس إلا مسالك تقود إليه بالضرورة.

هكذا هو الحال بالنسبة لمعظم الأماكن في الدنيا، أما أن تتعلق العيون بهذه المياه الرجراجة، أن لا تتوقف عن النظر باتجاه البحر، إذ من هناك سيأتي الرجال والقوافل والأخبار، فأمر لم يألفه الكثيرون، لكن هكذا كان الحال في حران.

البادية من الجهة الثانية أصبحت أغلب الأحيان صماء مقفرة، لا يأتي منها شيء أو أحد إلا نادراً، حتى الطعام الذي يقدمه ابن الراشد للعمال، بدل أن يبعث من يأتي به من عجرة، أوصى عليه وبدأت تأتي به المراكب من أماكن عديدة. أما البدو الذين رفضوا في الأيام الأولى الاقتراب من البحر أو المشاركة في إنزال الأشياء من المراكب الصغيرة، فما لبثوا أن أخذوا باللعبة، بدت لهم طريقة مثيرة وفيها مقدار من المجازفة، ولذلك لم يترددوا طويلاً حتى اقتربوا من البحر. فعلوا ذلك على مراحل متعددة وبنوع من الاختبار الأقرب إلى السرية. كان الواحد منهم يقترب اقتراباً حذراً

طيئاً. يمشي بموازاة الماء مدة طويلة، محافظاً على مسافة لا يغيرها، حتى ذا اطمأن بعض الشيء خطا بسرعة وبخفة قط راسماً خطاً منكسراً مقترباً ن الماء إلى أقصى حد ثم مبتعداً مرة أخرى وبنفس السرعة. فعل لكثيرون ذلك مرات لا حصر لها. جلسوا على الشاطئ، تأملوا المياه إمعان وغرقوا في التفكير، وحين رأوا أهل حران، الصغار منهم والكبار، هم يخوضون في الماء، يركبونه بتلك السهولة كما لو أنهم يمشون على لأرض، عجبوا أشد العجب، حسدوهم لأنهم قادرون على ذلك، تمنوا ي أعماقهم لو كانوا يستطيعون مثلهم، لكن الخوف لم يزايلهم أبداً لأن الماء غدار يبلع ولا يشبع».

في وقت متأخر بدأوا يخوضون في المياه الضحلة. بدت شديدة الإغراء وهي تداعب أرجلهم ببرودتها وكثافتها، وأصبحوا، مع مرور الوقت، لا يترددون في أن يستحموا في البحر؛ كانوا يقرفصون على الشاطئ تماماً، المياه تغمر أرجلهم وترتفع حتى منتصف الساق، وبأيديهم أو بطاسات معدنية يغرفون ويسفحون الماء على رؤوسهم وأجسادهم، فإذا جاءت موجة صغيرة فزعوا، نهضوا بخوف وتراكضوا متطلعين حولهم خشية أن تفترسهم هذه الوحوش الماكرة.

بين هذه المجموعة من البدو أخوان: مزبان وهاجم، وحدهما كانا يعرفان السباحة، تعلما في بئر في قريتهما. كانا أكثر الجميع فرحاً بالماء، ولم يترددا في أن يساعدا أهل حران، وينزلا إلى البحر بمجرد أن طلب منهما ابن الراشد، بل وكانا يقضيان وقتاً طويلاً في مرح طفولي وهما يتسابقان، وهذان الأخوان أبديا استعداداً وحماسة لأن يعلما الآخرين السباحة، وكانا يؤكدان أن السباحة عملية سهلة يمكن للإنسان أن يتعلمها في يوم واحد. . إذا أراد، لكن لم يستطيعا إقناع أحد.

والآخرون يسمعون، يراقبون، يبدون إعجابهم، وبعض الأحيان يتظاهرون بالتصديق، لكنهم لم يكونوا مستعدين لأن يدخلوا في هذه التجربة الخطيرة، لأن البحر الذي يرونه أمامهم بلا نهاية، والذي يحمل هذه «البلايا» ويحركها رغم ضخامتها، ثم القصص التي بدأت تروى عن

مراكب كبيرة، وعلى ظهرها مئات الناس، كيف ابتلعها البحر في لمح البصر ولم يبق منها أي أثر، خلق في نفوسهم نوعاً من التهيب يصل حدود الفزع.

وإذا كانت الأشياء الجديدة، من ظواهر أو أماكن، تثير في الإنسان الرغبة في الاكتشاف، وتخلق لديه تحريضاً لا يمكن أن يقاومه طويلاً، فإن البحر، خاصة لمن لم يره من قبل، يثير تساؤلاً مستمراً ويولد مخاوف لا يمكن التغلب عليها، فإذا ترافق ذلك مع القصص التي تروى وتلك التي يخترعها الخيال، فإن التساؤل عندئذٍ يصبح دون إجابة. إذ رغم الساعات الطويلة التي يقضيها كل واحد متأملاً غارقاً في أفكار لا نهاية لها، فإن الغموض يزداد يوماً بعد يوم آخر: من أين أتت هذه المياه كلها؟ ولماذا تكون في هذا المكان ولا تكون في الأماكن الأخرى حيث يحتاجها الناس؟ وإذا كانت مياه المطر والغدران والآبار حلوة مستساغة، أو حتى لو كانت مالحة بعض الشيء يمكن أن تشرب، فكيف أصبحت مياه البحر شديدة الملوحة والمرارة ولا يمكن لأحد أن يشربها؟

الذين جاءوا من الداخل، من أعماق الصحراء، تاهوا في دوامة التفكير والحيرة. بدوا شديدي القلق والخوف، وزاد الخوف وتعاظم حين اشترى ابن الراشد الجمال كلها. شعروا أنهم يواجهون حالة من العجز الكامل، وأنهم في هذا المكان المعزول عن العالم، والذي فقد حتى اسمه، مجموعة من الرجال المحاصرين لا يعرفون ماذا يجب أن يعملوا وماذا ستكون عليه الحياة في الأيام التالية، ولذلك استبدّ بهم القلق وانتابتهم الوساوس، حتى الرغبة في الأكل لم يعودوا يشعرون بها. عزوا ذلك إلى نوعية الطعام الذي يقدمه ابن الراشد، وأكد آخرون أن رائحة البحر، والتي تملأ الإنسان بالضيق، تجعله غير قادر على الأكل. وفسر غيرهم الأمر بأن الأميركان ورائحتهم ورائحة البلايا التي جاءوا بها تقطع نفس الكلب، ولذلك لا يجدون في أنفسهم حتى مجرد الرغبة في الاقتراب من الطعام.

حين بلغت الحالة بالرجال هذا الحد لم يستطع ابن الراشد أن يتهرب أو أن يؤجل، فقد مرض بعض الرجال، وجاءه آخرون طالبين استعادة

جمالهم، لأنهم ينوون الرحيل والعودة من حيث أتوا، فبدا غاضباً عصبياً أول الأمر، ثم ما لبث أن طلب من الجميع التحمل والصبر، وأن يمهلوه بعض الوقت، فقط ليصل إلى عجرة ويعود، فإذا عاد فسوف يستجيب لكل ما يطلبون: أن يطبخوا بأنفسهم، أن يطبخ واحد منهم ويأكل الجميع. . فقط ليمهلوه ريثما يذهب ويعود، أو مسافة الطريق كما قال، وحتى ذلك الوقت أمر أن تزاد كمية اللحم والرز.

المراكب لا تهدأ ولا تنقطع، مراكب صغيرة وأخرى بحجم الجبال، ومن هذه المراكب تنزل أشياء وأشياء، لا يدري أحد ما هي أو لماذا! ومع الأحمال التي تتراكم وتزداد كل يوم يأتي رجال لا يعرف أحد من أين أتوا أو ماذا سيفعلون. كانوا ينشغلون ساعات في إنزال الأحمال الثقيلة، كانوا يشدونها بحبال قوية ثم يرفعونها حتى تصبح أعلى من المراكب. من يرفعها؟ كيف ترفع؟ كانت الدهشة تستبدّ بكل الناس وهم يراقبون بخوف هذه الصناديق الضخمة ترتفع في الهواء، دون أن يروا أحداً يرفعها، وحتى الرجل الذي كان على ظهر المركب، وبيد واحدة يدفع هذه الصناديق الهائلة ويحركها من جهة إلى أخرى، بدا للواقفين على الشاطئ، إنساناً أقرب إلى العفاريت. أما حين سماه دحام المزعل بالعفريت فقد وجد الجميع أن هذه التسمية تلائمه تماماً! كانت العيون تتابعه باهتمام، تراقب كل حركة من حركاته وكل تصرف من تصرفاته، فلما نزل إلى الشاطئ كانت العيون لا تتركه لحظة واحدة، كيف وقف، كيف حرك يديه، وكيف نظر إلى الذين كانوا حوله. أما حين نزع ثيابه ولم يبق إلا قطعة صغيرة تستر عورته، ثم رمى نفسه في الماء، فقد تراجع الكثيرون. خافوا أن يكون لنزوله قوة خارقة تشابه قوته حين كان على ظهر الباخرة، بل وتأكدوا، وهو يرفع يداً ويضرب الماء، أن الماء لا بد وأن يرتفع ويرتفع حتى يغطي اليابسة وإلى مسافة كبيرة، وقد حمدوا الله كثيراً لما اتجه من الشاطئ إلى داخل البحر، إذ لو فعل العكس فلا بد أن تقع المصيبة، ولما اقترب من الباخرة التي كان عليها قال دحام المزعل:

ـ ابن الحرام حرك البابور كله ويمكن يقلبه.

ظل بجانب الباخرة وقتاً ليس قصيراً، ولما بدأ من جديد يتجه نحو الشاطئ طلب دحام من الجميع أن يبتعدوا وأن يظلوا شديدي الانتباه والحذر «لأن من يقدر على تحريك بلية مثل الجبل لا يمكن لأحد أن يقف في وجهه». وحين وصل إلى الشاطئ وتمدد على الرمل راقبه الجميع بانتباه وظلوا بعيدين أيضاً، إذ يمكن أن ينهض هذا الوحش في أية لحظة، وقد يتصرف كالوحوش أيضاً، إذا لم تعجبه النظرات أو حتى أشكال البشر؛ أما حين اقترب منه نعيم، المترجم، وبدآ يتحدثان ويضحكان، ثم كيف نزل نعيم إلى البحر وبدأ يغرف الماء بيديه الاثنتين ويلقي به على هذا العفريت، وهو في مكانه يتقي ويصرخ، إلى أن بلغ احتماله حداً معيناً فقام راكضاً نحو نعيم، وما كاد يخوض في الماء مسافة أربعة أو خمسة أمتار حتى سقط، قام من جديد، وبغضب حاول اللحاق بنعيم، لكن الأخير كان قد ابتعد، وظلت المحاولة مستمرة والجمع يراقب مقطوع الأنفاس منتظراً، إلى أن اختفى الاثنان وراء الباخرة من الناحية الثانية.

كان كل شيء عجيباً في هذا المكان النائي، وإذا كان وصول البواخر وعليها عشرات الأشياء يشغل الناس ويدفعهم إلى العمل، فإن دحام، وهو يحث الرجال، لم يكن يكتفي بالصراخ والإلحاح، كان فمه يمتلئ بالشتائم، يوجهها إلى أولئك الذين يبدون أكثر فقراً أو أصغر سناً، أو أولئك الغرباء الذين جاءوا من أمكنة بعيدة، في محاولة لأن يجبر الجميع على العمل بهمة لا تعرف التوقف أو التردد.

رغم وصول البواخر وما يخلقه من اهتمام ورغبة في الاستطلاع، ثم ما يتبع ذلك من تعب يهد الرجال، ويجعلهم غير قادرين على الحركة أو حتى مجرد الحديث النشيط، فإن حالة من الحزن كانت تطغى على الجميع عند هبوط الليل، وكانت هذه الحالة تزداد وتتكاثف مع تناقص حركة البشر ثم انقطاعها، ومع ارتفاع صوت البحر وتلك الرياح التي تهب فجأة. كان الرجال يغرقون في الصمت وشعور المرارة يخيم عليهم تماماً، خاصة وأن كثيراً من الأسئلة التي يستطيع الإنسان الإجابة عنها في أماكن أخرى، لا تجد هنا جواباً، إذ لا يعرفون إلى متى سيبقون وكيف ستكون حياتهم في

الأيام القادمة، في هذا المكان النائي الذي وجدوا أنفسهم فيه.

ففي هذا المنخفض من الأرض، حيث كانت مجموعة بيوت طينية فقيرة، قريباً من البحر، تتشكل الطبيعة على نحو لا تماثله أمكنة أخرى، ففي جانب يمتد رأس صخري طويل داخل البحر، وفي جانب آخر يتكون خليج ضحل المياه شديد التعرج، حتى إذا امتد مسافة معينة انفتح البحر واتسع، وبدل الصخور الكبيرة القاسية يصبح الشاطئ رملياً، وخلف هذا مجموعة من التلال، متفاوتة الارتفاع، وبعد ذلك تبدأ الصحراء.

في هذا المنخفض، والذي يشبه حضن الأم، وفي نقطة التقاء المياه باليابسة، وعلى مسافة كافية من البحر، لتجنب المد والجزر أو غضب الطبيعة الذي يهب فجأة ودون توقع، تكونت في يوم من الأيام تلك القرية الصغيرة، والتي سمّت نفسها، أو سماها أحد الغرباء العابرين: «حران». كانت أكثر حرارة وأكثر رطوبة من الأمكنة الأخرى، ربما لأن الرياح الشرقية، التي كثيراً ما تصل إلى الأماكن الأخرى، لا تصلها بنفس القوة أو بنفس المقدار، إذ تتكسر هذه الرياح حين تصطدم بالرأس الناتئ أو حين تلتف حوله. ورياح الصحراء، التي تكون طرية ناعمة في أوقات معينة من السنة، تجتاز حران مارة فوقها دون أن تتوقف. أما حين تهب العواصف وتحمل الغبار فإن نصيب حران من هذا الغبار الكثير، إذ تسفّ التلال التي حولها كميات هائلة من الرمال، وقبل أن تصل البحر وتصطدم بالمياه يتساقط القسم الأكبر على أطراف الخليج.

حران في الصيف هي الجحيم بذاته: يسكن الهواء تماماً، وتبدو السماء قريبة ثقيلة وكأنها قبة من رصاص، كما يتشبع الجو برطوبة كثيفة، فيصبح التنفس صعباً وتصبح الأجسام ثقيلة لزجة، فتنزّ عرقاً دون توقف. أما الملابس فإنها تتحول إلى عبء لفرط البلل وتلك الرائحة التي تولدها الأجسام. وفي مثل هذا الجو يصاب الإنسان بالعجز والتعب، حتى الجسد يصبح الإحساس بكل عضو منه إحساساً منفصلاً، كما لو أنه رُكّب من مجموعة أعضاء دون تناسق ودون لحمة تشدها بعضها إلى بعض.

وإذا كانت الأماكن الأخرى المشابهة تصبح مقبولة في الليل، فإن ليل حران لا يختلف عن نهارها؛ فما تكاد الشمس تغيب حتى تنعقد في الجو كتلة هائلة من غيوم خفيفة، وهذه الغيوم تجعل الرؤية محدودة والتنفس عسيراً، أما تلك البرودة التي تأتي من غياب الشمس فإنها هنا تصبح مثل الألحفة الرطبة الثقيلة، لا يعرف الإنسان هل الأفضل أن يحتمي بها أو أن ينزعها، وتظل الحرارة الممزوجة بالملوحة هكذا إلى ما قبل شروق الشمس بساعة أو ساعتين، وفي هذه الفترة القصيرة فقط يمكن للإنسان أن يتنفس ملء رئتيه ويشعر ببعض الراحة.انتظاراً ليوم قاس آخر.

هكذا تكون الطبيعة وهكذا يكون الطقس معظم أيام السنة، عدا فصل الشتاء، ففي هذا الفصل، والذي يمتد ثلاثة شهور تقريباً، ترقّ الطبيعة حتى لتصبح خفيّة متوارية وأشبه ما تكون بالطيف، فلا يحس الإنسان بالحرارة أو البرودة، وتنعدم الرطوبة أو تكاد، ويصفو الجو عدا أيام قليلة حين يتساقط المطر غزيراً قوياً، لكن هذا لا يدوم إلا ساعات قليلة، وبعد ذلك تهب على حران من الصحراء رياح مفعمة بالطيب ورائحة الأرض، والأعشاب النادرة، فتخلق في الأجسام قوة وتذكراً حاداً.

من أجل هذه الأيام أو لانتظارها عاشت مجموعة منسية من البشر، عاشت من الصيد ومن المساعدات التي تأتيها من المسافرين، معتمدة على مراكب صغيرة لا تذهب مسافات بعيدة داخل البحر. كانت صلة حران بالعالم محدودة، لكنها غريبة ومتفجرة أيضاً، إذ رغم أنها لا تعرف إلا طريقين أو ثلاثاً في رحلاتها القصيرة المتباعدة من أجل تأمين حاجاتها القليلة، فكثيراً ما يستبد الهوس ببعض الرجال وتغريهم نداءات البحر الغامضة المثيرة، وعندئذٍ يبحرون بمراكبهم الصغيرة إلى أن يصلوا ذلك الميناء الذي لا يبعد سوى يومين، يصلون إلى «منال»، فإذا عاكستهم الريح أو ضربتهم الأمواج القوية فإنهم قد يتأخرون يوماً أو يومين في الوصول، أما إذا كانت الريح أقوى من احتمالهم فلا بد عندئذٍ من أن يعودوا، انتظاراً لوقت آخر. حين تواتي الريح ويصلون إلى منال يتصرفون كالمجانين. أكثرهم يبيعون مراكبهم ويواصلون سفراً طويلاً مجهولاً على واحدة من

تلك السفن التي تكون عادة في الميناء. وفي هذه الأسفار يعملون ويعيشون ويغنون ويتذكرون، وقد تمر سنوات قبل أن يعود الكثيرون، فإذا عادوا إلى حران كانوا يحملون معهم من الأماكن الأخرى القصص والذكريات أكثر مما يحملون الأموال والأشياء، ويعيشون على ما حملوا سنة أو اثنتين، ويرجعون إلى الصيد وحياة حران، وحين يملون أو لم يعودوا قادرين على التحمل عاودوا الرحلة مرة أخرى. لقد فعل ذلك عدد من الرجال، وهذا التصرف الذي يحزن النسوة والصغار، لم يكن موضع احتجاج المسنين، لأن في حران شيئاً يجعل الإنسان يتصرف بهذه الطريقة. حتى المسنون الذين استقروا، ولم تعد نداءات البحر تغريهم أو تحملهم على اتخاذ قرارات مجنونة، فإنهم عاشوا في أيام سابقة حالة أرغمتهم على السفر والإبحار باتجاه منال ثم ما بعدها.

ومثلما كانت نداءات البحر قوية مثيرة تحمل عدداً من الرجال باتجاه منال، كانت نداءات الأرض وراء حران لا تقل إغراء وجاذبية بالنسبة لآخرين، فالرجال الذين دخلوا الصحراء، فوصلوا عجرة، ثم أخذوا الطريق السلطاني وسافروا بعيداً، انقطعت أخبار بعضهم فترات طويلة، لكن ما لبثت الأخبار أن جاءت ورجع بعض الذين سافروا. وإذا كان مسافرو البحر يعودون بالقصص أغلب الأحيان، فإن الذين أخذوا الطريق السلطاني كانوا يعودون بقصص أقل، وتشبه تلك التي يصادفها المسافرون في كل مكان، ويستعيضون عنها بأشياء كثيرة حملوها معهم، وبدا أن الطريق السلطاني أكثر خيراً وخصباً بالنسبة لأغلب الذين سافروا. والذين لم يعودوا، أو طالت أسفارهم أكثر مما قدروا لم ينسوا حران، كانوا يبعثون لمن فيها كل ما يستطيعون، كانت تصل الأرزاق والدراهم والرسائل، مع تأكيدات لا تنقطع أنهم سيعودون في فترة قادمة.

لهذه الأسباب كانت تعيش حران وتنتظر. كانت تحتمل كل هذه القسوة انتظاراً لأيام الشتاء، حتى الناس فيها إذا تذاكروا أيام الشتاء بدوا أكثر قوة وأكثر تفاؤلاً، ولا يتردد بعض المسنين في التأكيد أن جو حران أفضل من أماكن أخرى كثيرة!

فإن زادت الرطوبة عن حد معين وأثقلت الحرارة المصحوبة برياح غربية الجو بطبقة من الغبار الكثيف، وأصبح الناس غير قادرين على الاحتمال، فلا بد أن تكون صور أبنائهم المسافرين هي التي تثبتهم في هذا المكان النائي من العالم وتجعلهم يصبرون ويحتملون. . . وينتظرون.

هـذه هي حران منذ أن قامت في هذه البقعة من الأرض، وهكذا كانت حين وصلها ابن الراشد ورجاله. أما رجال الشركة، الذين زاروا أماكن كثيرة قبل حران، فقد استقر رأيهم على اختيارها لتكون مدينة وميناء ومقراً للشركة، ولتكون مدينة اللعنة والنهاية.. أيضاً!

إذ ما كادت البواخر تصل واحدة بعد أخرى، وما كادت تتكدس الصناديق الكبير بأعداد تتزايد مع وصول كل باخرة جديدة، حتى سيّجت رقعة كبيرة من الأرض بأسلاك شائكة، وكانت هذه الأرض تبدأ من وسط الخليج وتمتد باتجاه الشرق والشمال حتى تصل التلال البعيدة. وطُلب من ابن الراشد ورجاله أن يكونوا في الجهة الأخرى من حران، وعلى مسافة لا تقل عن ألف متر من الأسلاك. وخلال فترة قصيرة، وبعد وصول عدد من الرجال الغرباء، في مركب مختلف عن المراكب التي وصلت إلى حران من قبل، بدأت حركة لا تعرف التوقف أو البطء، حركة أقرب إلى الجنون أو السحر، حيث يتراكض الرجال من مكان إلى آخر، وتتراكض معهم تلك الآلات الصفراء العاتية التي ترفع التلال وتردم البحر، وتدك الأرض، تفعل ذلك دون توقف ودون رحمة. ورجال ابن الراشد الذين جُمعوا بعد أيام من وصولهم وقسموا إلى مجموعات صغيرة، كل مجموعة من ثلاثة إلى أربعة رجال، فإنهم وسط الركض المجنون والآلات التي تهدر وتتحرك كالجمال الهائجة، كانوا شديدي الحيرة والارتباك، لا يعرفون على أي وجه يمكن أن يساعدوا وأن يكونوا مفيدين. كانوا يحملون الألواح الخشبية، قضبان الحديد، العوارض الإسمنتية، كانوا يفعلون ذلك لكن بخوف وارتياب كثيراً ما أديا إلى وقوعهم، إلى اصطدامهم بالصناديق، أو إلى وقوع الأشياء.

كان الأميركيون ينظرون إلى وجوه الرجال بتساؤل محايد، حين كان نعيم يحدد لهم ما يجب أن يعملوا، لكن هذا الحياد ما لبث أن تحول إلى نوع من الدهشة حين بدأ هؤلاء الرجال يتحركون وينتقلون من مكان إلى آخر حاملين الألواح والقضبان، تحولت الدهشة إلى قهقهة وإشارات لما اصطدم بعض العمال بالصناديق، وحين وقع واحد منهم؛ وهذه الضحكات العالية المصحوبة بالإشارات ولّدت خوفاً ومرارة في نفس الوقت، وزادت في وقوع الأخطاء، الأمر الذي أدى بأحد الأميركيين، وكان ينتقل بين المجموعات ويراقب الجميع، إلى الطلب من نعيم أن يصرف العمال العرب في وقت مبكر.

كان العمال وهم يعودون إلى المكان الذي خصص لهم في الجهة الغربية، يمشون مثل قطيع، ورغم الشمس التي كانت تنصبّ كشلال غزير من السماء، إلا أن حالة من السواد غشيت عيونهم وقلوبهم. كانت حلوقهم جافة وفيها تلك المرارة التي تجعل لكل شيء طعم العلقم، كما انتابتهم حالة من التعب جعلت الخطوات قصيرة والصمت كاملاً. كانوا يريدون أن يصلوا بأسرع وقت إلى خيامهم، أن يلقوا بأجسادهم على الأرض، أن يغيبوا في نوم عميق لكي لا يعودوا إلى تذكر أو استعادة تلك الحركات البلهاء والابتسامات الساخرة والنظرات التي كانت تلاحقهم وتراقبهم في كل خطوة من خطواتهم.

ودحام الذي كان في الصباح الباكر مثل ديك، وهو يمشي بين العمال، إذ كان يتحرك حركة نشيطة زائدة، لم يستطع أن يفهم لماذا طلب إليه أن يأخذ العمال ويعود في هذا الوقت بالذات؟

إنه الآن يسير باتجاه الخيام في الجهة الغربية مثل الآخرين: صامتاً حائراً، بل وبدا مليئاً بالقهر. قال في نفسه «لو كان ابن الراشد موجوداً لما دخل لسانه إلى حلقه، ولخلق لنا ألف مشكلة!».

ولما كانت عادة دحام أن يتدخل في كل الأمور، إن يتكلم كثيراً، ولا يتردد في أن يشتم، فقد كان يريد أن يصل قبل الرجال، أن يتوارى، لأن الخطأ، إذا كان هناك خطأ من نوع ما، لا بد أن يكون مسؤولاً عنه. لو

استطاع أن ينقل إلى الرجال التعليمات بدقة، أن يفهمهم ما يجب أن يعملوا لسارت الأمور بشكل أفضل، «ونعيم لماذا صوته منخفض هكذا ويشبه صوت النساء؟ لماذا لا يتكلم بطريقة أخرى؟» وشعر بحقد تجاهه. إنه المسؤول الوحيد عن الأخطاء، إنه يقول الأشياء في اللحظة الأخيرة وبتلك الطريقة الرخوة غير المفهومة.

حين دخل صويلح وفواز إلى الخيمة كان هاجم ومزبان قد سبقاهما، لم يستطيعا أن يميزا شيئاً خلال اللحظات الأولى، خاصة وأن الصمت كان مخيماً. أما حين ألفت عيونهم الظلمة الخفيفة، بالمقارنة مع الوهج خارجها، فقد قال مزبان كأنه يخاطب نفسه:

ـ الله كتب لي عمراً جديداً.. اليوم.

سكت قليلاً ثم أضاف:

ـ ولولا الأسود اللي لجم البلية لطاحت بعظامي.

كان معظم العمال قد رأى كيف كادت تلك الآلة الجهنمية الصفراء تسحق مزبان، خاصة بعد تلك الصرخة التي ندّت عن الأسود الذي كان يسوقها، ولفتت نظر الموجودين كلهم، فقد كان يروق لكل واحد منهم أن يسمع من جديد، أن يستعيد تلك التجربة المريرة ويفهم لماذا حصلت وكيف.

ومزبان الذي روى من جديد «القصة» بصوت خافت ومتعب، وبدا حزيناً وسعيداً في وقت واحد، لم يستطع أن يفسر ما حدث. كان بعيداً عن تلك «البلية». كان يحمل لوحاً من الخشب، وفجأة وجد نفسه وجهاً لوجه أمامها. لماذا لم يسمع صوتها الذي كان يصم الآذان؟ لماذا لم يرها تقترب وهي بهذا الحجم الذي لم ير مثله من قبل؟

وبكثير من الحنق، الذي تخللته الشتائم، بدأ صوت صويلح يهدر:

ـ أولاد الحرام يتراكضون مثل العفاريت. الواحد منهم ظرف ويتدعبل من هنا من هنا ما تعرف وين رايح ومنين جاي. وهذه البلايا تتراكض، تتناطح، تشبّ فوق بعضها، فوق الناس، وصوتها يهدر ويصمّ.

زفر بحرقة وأضاف بصوت حزين:

ـ منين جاءت هذه البلايا وكيف نقدر عليها؟

قال هاجم بحدة:

ـ الله يلعن اليوم اللي رافقنا ابن الراشد ووصلنا إلى حران.

وضحك بسخرية. تطلع إلى الوجوه وقال بلهجة مختلفة:

ـ هذه البلايا إذا ما قتلتنا اليوم تقتلنا باكر.

وغرقوا في الصمت من جديد، أحسوا أن حالة من القهر تفتك بهم، وأن الأيام الصعبة، الأيام السوداء، ليست تلك التي مرت، وإنما هي التي ستأتي. وأحسوا أيضاً أن ابن الراشد لم يخدعهم فقط وإنما وضعهم في حالة لا يستطيعون معها أن يتحركوا، أن يتصرفوا بحرية، وها هو قد سافر وتركهم في هذا المكان الملعون، ومع هؤلاء البشر الذين لا يفهمون شيئاً منهم، ولا يعرفون كيف يتصرفون أو ماذا يفعلون.

أما حين نادى حميدي داعياً الجميع إلى الغداء فقد قال صويلح بسخرية:

ـ من له خبزة في هذي الدنيا لا بد ياكلها.

ولما ظل فواز في مكانه لا يتحرك ولا يجد في نفسه رغبة للأكل، فقد قال صويلح مخاطباً الجميع:

ـ الله يلعن الأميركان وأبو الأميركان... جاءوا وجاء معهم كل البلاء.



بين العصر والغروب من ذلك اليوم جاء نعيم، جاء على غير توقع، رغم أن إحساساً غامضاً راود الجميع بأن شيئاً ما لا بد أن يحصل.

الرجال في ظلال الخيام أو إلى جانبها يجلسون في تلك العصرية. كانوا يفكرون ويسافرون، ينظرون إلى البحر وإلى التلال القريبة، يحتسون الشاي، بعد أن برد، على غير عادتهم.

بدا من بعيد مثل شبح أسود لكنه لم يلفت نظر أحد. إنه واحد من المعسكر الآخر. وبشر المعسكر الآخر، كعادتهم كل يوم، يفعلون أشياء غريبة: يهرولون، يسبحون، يتلاحقون كالكلاب، يتهارشون كالأطفال.

بكلمة إنهم يفعلون كل شيء لا يخطر ببال. أما وهو يتحرك، وظله يمتد خلفه، ويقترب خطوة بعد أخرى من معسكر العمال، ومثلما كانوا يفعلون دائماً، فقد تراهنوا: من يكون؟ ودون تردد كبير خرج أكثر من صوت: الشعيرة. . . الترجمان.

حتى لما وصل إلى مسافة قريبة لم يرفع نعيم رأسه، كان يمشي ونظره إلى الأرض، وكأنه يفكر، أو لا يريد أن يتطلع إلى وجوه الرجال، أو لا يريد أن يكتشف أنهم يراقبونه ويتابعون خطواته.

ودون تردد، بعد أن رفع وجهه مرة واحدة فقط، وتأكد من خيمة دحام، توجه مباشرة نحوها.

كان دحام قد خصص لنفسه الخيمة الأولى، لأنه يريد أن يكون الأول، الأقرب في مواجهة معسكرهم، وأقرب ما يكون إلى الطريق التي تنزل من جهة التلال الغربية، طريق عجرة. قال الرجال في نفوسهم: «لدى الرجل سالفة، وهي التي حملته إلى هنا!» كان كل واحد يفكر ويقدّر الأسباب التي حملت نعيم على المجيء في هذا الغروب، وإنه لا بد أن يكون لها علاقة بعمل اليوم، خاصة وإنه لم يصل إلى هذا المعسكر إلا مرتين أو ثلاثاً، وبعدما ألحّ ابن الراشد عليه كثيراً، وبعث إليه بأكثر من رسول مؤكداً له أن لديه أشياء هامة يريد أن يبلغه بها.

الآن وهو يقطع المسافة مطرقاً مفكراً، وبعد يوم عصيب، لا بدّ أن يكون حاملاً رسالة. إذ ما كاد أحد الرجال يراه آتياً ويبلغ دحام بالأمر، حتى خرج هذا الأخير لملاقاته، خرج مرحباً بصوتٍ عالٍ وبشكل استعراضي مبالغ فيه، ولذلك ازدادت مخاوف الرجال وتساؤلاتهم. أما حين دخل الخيمة بسرعة، دون أن يلتفت، دون أن يتوقف، فقد تأكد الجميع أن في الأمر خطورة غير عادية.

لما وقف بباب الخيمة ونادى: «فواز. . يا فواز» شعر فواز، للحظة خاطفة بالاضطراب، لكن شعور التحدي كان أقوى وكان هو المسيطر، بدا ذلك شديد الوضوح، حتى أن صويلح، الذي كان يجلس مقابله ووجهه نحو البحر، التفت بانفعال لما سمع النداء، وحين لاحظ علامات الغضب

على وجه فواز قال بطريقة أبوية:

ـ احرص.. إذا غلطوا عليك لا تغلط عليهم.

كان فواز في تلك اللحظة مستعداً لكل شي، رغم صغر سنة، وإذا كان قد استطاع أن يفرض نفسه، وأن يتعامل مع الآخرين بطريقة تفرض الاحترام، فإن دحام يتعامل معه بطريقة لا يحظى الكثيرون بمثلها، ربما قال له ابن الراشد أن يتجنبه، وربما بسبب تلك المسافة التي حرص هو عليها منذ إن كانوا في عجرة وحتى الآن. أما الكلمات التي تبادلها مع دحام خلال الأسابيع الماضية فلم تزد عن تحية أو سؤال.. الآن في ظل هذا الغروب، أي شيء يريد منه دحام بعد أن جاءه الترجمان؟ ولماذا اختاره بالذات؟ هل الأمر متعلق بخطأ ارتكبه أم بالخطأ الذي وقع فيه مزبان؟

إن في الأمر شيئاً لا يريح، لكنه رغم ذلك كان مستعداً لمعركة، لمجابهة أي إنسان. لم يلتفت لكلمات صويلح ولم يتطلع إلى وجوه الرجال الذين كانوا يجلسون بالقرب من الخيام. وما كاد يصل الخيمة ويحيي دحام حتى قال هذا الأخير بصوت خافت كأنه لا يريد أن يسمعه نعيم:

ـ الترجمان يريدنا نقرأ على رؤوس الجماعة، نفهّمهم كيف يشتغلون.

ظال نعيم جالساً حين دخل فواز، وحتى التحية لم يكلف نفسه بالرد عليها. هز رأسه قليلاً، ونظر إلى فواز نظرة أقرب إلى العداء، وكأنه لا يثق به، وبعد فترة صمت سأل:

ـ أتعرف القراءة والكتابة؟

هز فواز رأسه دلالة الإيجاب. لم يكن حتى هذه اللحظة متأكداً، ومن جديد سأل:

ـ أين تعلمت؟

ـ في وادي العيون؟

ـ أتوجد مدرسة في وادي العيون؟

ـ تعلمت عند الشيخ.

كانت عينا نعيم تتفرسان في وجه هذا الفتى، تراقبان حركاته، تكتشفان أي إنسان يكون. وإذا كان فواز قد تعلم الكثير من أبيه، فإن أحد الدروس التي أتقنها، وكثيراً ما كان يُختبر فيها حين كان في وادي العيون، أن يتطلع إلى وجوه الذين يتحدث إليهم، لأن الإنسان إذا عجز لسانه تتكلم عيونه، وربما لم ترق لنعيم هذه النظرات المحددة الصلبة، والتي تحمل عداء مقابلاً، أو على الأقل عدم التقدير الذي كان يتوقعه، سأل بسخرية:

ـ ما هو الشيخ؟ وماذا تعلمت؟

ـ الشيخ مناور إمام مسجد وادي العيون هو الذي علم الأولاد القراءة والكتابة والحساب!

لا يعرف فواز لماذا شعر نحوه بعداء أكبر، فالأسئلة لا تحمل أي مقدار من البراءة، بل هي أقرب إلى عدم الثقة والسخرية. أما طريقته ثم نظراته الرخوة، وهذا الشكل من الرجال، الأقرب إلى صغر الحجم، والذي تخرج كلماته من بين أسنانه، وكأنها تخرج من جسد آخر، فقد جعله يحس بالكراهية. قال دحام لينقذ الموقف وينهي هذا النقاش العقيم:

ـ فواز يكتب الرسائل للجميع.

رفع نعيم يده في الهواء دلالة عدم الاهتمام أو عدم الثقة، وقال بتعالٍ:

ـ المهم، أنتم، الاثنين، تقع عليكم المسؤولية. نحن كتبنا التعليمات التي يجب أن يتقيد بها العمال، ويجب أن تفهموا هؤلاء البشر.

ومد إلى دحام ورقة كبيرة مطبوعة فاستلمها منه بلهفة واحترام. تطلع إليها، هز رأسه دلالة على الاهتمام الكبير، تابع نعيم بنفس الطريقة الرخوة:

ـ أولها شرط آخرها سلامة.

قال هذه الكلمات غير الواضحة، تطلع إليهما متسائلاً، فظلا صامتين، أضاف وهو يضحك بسخرية:

ـ غداً لا يأتون إلى العمل. غداً تقرأون عليهم هذه التعليمات. تقرأونها مرة.. مائة مرة، حتى إذا فهموا نبدأ العمل بعد غدٍ بدون مشاكل...

وبعد قليل أردف بلهجة حازمة:

ـ غداً قبل الظهر ترسل لنا ثلاثة لاستلام الملابس الجديدة ليلبسها العمال بدل هذه الخرق والبهدلة.

وضرب الفراش إيذاناً أن مهمته أوشكت على الانتهاء، وسأل:

ـ مفهوم؟

وبكل الخنوع الذي تعرفه الحيوانات الذليلة الجائعة عبّر دحام عن فهمه المطلق، وعن استعداده غير المعهود لكي ينفذ التعليمات بدقة. عبر عن ذلك بالكلمات والحركات وهذا الانفعال المبالغ فيه، وهو ينقّل نظراته بين الورقة التي ظلت مفتوحة وبين وجه الترجمان.

أما فواز فقد شعر بالانقباض وما يشبه الكراهية لهذا الرجل القصير، لدحام، وهو يتذلل بهذه الطريقة، ثم لهذه المهمة التي لا يعرف كيف وجد أنها مفروضة عليه. أما محاولات دحام في أن يستبقي نعيم على العشاء، فقد قابلها الرجل بابتسامة تحمل معني الرفض أكثر مما تحمل معنى الاعتذار. قال وهو يهز فنجان القهوة دلالة أنه اكتفى، وكان يقف في باب الخيمة ويتطلع بنظرة واسعة وكأنه يختبر نفسه ويختبر الآخرين. قال كلماته الأخيرة وهو يمشي:

ـ بعد غدٍ سنرى!

خلال أقل من شهر بدأت تنشأ مدينتان: حران العرب وحران الأميركان.

العمال الخائفون المرتبكون، الذين أثاروا سخرية الأميركان ثم قهقهاتهم في البداية، هم الذين بنوا المدينتين. هم الذين ثبتوا الألواح الخشبية البيضاء ببراغي قوية، وهم الذي حملوا العوارض الحديدية الثقيلة ووضعوها فوق الألواح ثم شدّوا بعضها إلى بعض، وهم الذين ثبتوا الزجاج وعاكسات الشمس، ثم قاموا بالطلاء. كانوا بعد كل بضع ساعات ينفضون أيديهم ويتراجعون قليلاً إلى الخلف لكي يلقوا نظرة على بيت آخر فرغوا منه. والمهندس الأميركي الذي يشرف ويراقب، ما إن يفرغ العمال حتى يلقي نظرة، ثم يختبر الجدران والسقوف باليدين، بالآلات، فإذا تأكد من كل شيء تطلع إلى الوجوه السمراء بإعجاب يمازجه الدهشة، وذات الكلمات تتردد: o.k.

لقد حصل هذا مرة بعد أخرى في حران الأميركان، وخلال أقل من شهر كانت نواة مدينة كبيرة ومنظمة قد بدأت تتوضح وتتكامل: شوارع متصالبة عريضة وأخرى ضيقة، لكن باستقامة حادة، وكلها دكتها الآلات الملعونة الثقيلة، ثم فرشت بمواد سوداء لزجة. بيوت تشبه الأوز الذي يمر فوق وادي العيون أيام الشتاء، بيوت صغيرة وأخرى لا يدري أحد من سيسكنها لفرط كبرها واتساعها. عدد من برك السباحة في أمكنة متعددة ومتباعدة، وإلى جانبها تماماً بيوت من القش وسعف النخيل، وطريق طويل يربط التل الشمالي الشرقي بالبحر، وقد وضعت مئات الأنابيب على الطريق وظلت مثل سر لا أحد يعرف ماذا ستكون..

وخلال هذه الفترة لم تتوقف البواخر عن الوصول. كانت تحمل مواد

لا يمكن لأحد أن يحزر لأي أمر ستُسعمل: حتى بعد أن تفك عنها الصناديق الخشبية وتخرج من الأوراق الخشنة أو من العلب، وينكب عليها واحد أو اثنان من الأميركيين، وتبدو مثل تلال حديدية متألقة، لا يمكن لأحد أن يقول كلمة واحدة عن هذه «البلايا» الجديدة.

كان العمال العرب، والذين بدوا مثل الدمى في الأيام الأولى، بعد أن دكوا أجسادهم الناحلة في الأوفرهولات ووضعوا على رؤوسهم تلك القبعات البيضاء الصلبة، كان هؤلاء قد قسموا إلى مجموعات ووزعوا في أنحاء متعددة ومتباعدة من المعسكر، ولم تمضِ أسابيع قليلة حتى أصبحوا مخلوقات أخرى. كلمات الإطراء تترافق مع ضربات خفيفة على الأكتاف دلالة الإعجاب والتقدير. كانوا لا يترددون عن القيام بأي عمل أو تقديم أية مساعدة إذا طلب منهم ذلك. إنهم الآن مستفزون إلى درجة يمكن معها أن يفعلوا أي شيء، إذ بعد الذي وصل حدود الخوف، خاصة بعد أن قرئت عليهم تلك التعليمات الميتة، شعروا بتحدٍ وصل درجة القهر، وبطريقة مكابرة، ودون اتفاق، بدأت الأمور تأخذ شكلاً جديداً، إذ أصبحت الأيدي تتحرك بطريقة مختلفة عن السابق، ومعها بعض الأسماء والكلمات. ولفرط ما تكررت ترسخت في الذاكرة دون أن يعرف أحد كيف، وبدأت معها تتكون العلاقات، وتترافق مع ابتسامات وإشارات أكثر، فزال الخوف أو تراجع.

وعلى نفس البواخر التي حملت «البلايا» كان يأتي رجال يتزايد عددهم مع كل باخرة جديدة. رجال لا يُعرف من أين أتوا أو ماذا سيعملون. كانوا يتدفقون كالجراد، ينتشرون في جميع أنحاء المعسكر. وخلال يوم واحد ترتب إقامتهم وسكنهم، حتى الطعام الذي يقدم في تلك الغرفة الطويلة، والتي لم يعرف أحد لماذا أعدت حين اكتمل بناؤها، كان جاهزاً لكل واحد منهم.

ومع كل بناء يكتمل يندفع العرب خطوة إلى الوراء، إذ بعد أن تبنى الجدران تركب السقوف، وبعد أن يوضع الزجاج والعاكسات يبدأ الأميركان بأعمال غامضة، إذ يمدون حبالاً سوداء قوية داخل الجدران، ويضعون في

الشبابيك كتلاً حديدية وأشياء تنفث ريحاً باردة، حتى إذا جاء البشر على ظهور البواخر أُعطيت لكل واحد منهم تجهيزات كاملة من الملابس والأغطية والأدوات، وخصص له مكان بذاته ينام فيه، وبعد يوم أو اثنين يختلط هؤلاء بعضهم ببعض، وكأنهم على معرفة سابقة، ويندفعون في أعمال لا نهاية لها. كانت مهمة بعضهم في البحر، ومهمة آخرين أن يمدوا تلك الأنابيب من مكان إلى آخر، وكانت مجموعة تنصب الآلات التي فكت من الصناديق. كان الجميع يتراكضون مثل القطط المذعورة من مكان إلى آخر، وهم عراة تقريباً، إذ عدا السراويل القصيرة والقبعات البيضاء، كانوا لا يضعون شيئاً على أجسامهم أغلب الوقت. كانت البقع السوداء تغطي الأجسام والوجوه، وكانت بعض الجروح الصغيرة تظهر في الأصابع وعلى أماكن أخرى من الجسم، والعرق يسحّ كأنه المطر من الصدور والوجوه، فإذا اختلطت هذه الأشياء معاً يبدو الإنسان مضحكاً، لكن لفرط ما تكرر مثل هذا المشهد لم يعد يثير أحداً أو يلفت نظر أحد.



وخلال أقل من شهر عاد ابن الراشد محاطاً بعدد من الرجال. لا أحد يعرف من أين، ما عدا سبعة من أبناء المنطقة، من عجرة والروضة، فإن الآخرين جاءوا من أماكن بعيدة ومختلفة.

ولما كان ابن الراشد قد ترك حران أرضاً عراء، لا بيت فيها ولا علامة تدل عليها، عدا مجموعة من الخيام في الجهة الغربية، ومجموعة من الصناديق الخشبية الكبيرة التي جاءت بها «البلية»، فقد أبدى دهشة بلغت حدود الإعجاب الشديد حين رأى من بُعد تلك الأشياء الخارقة الي قامت في فترة غيابه. عبّر عن ذلك بصوت عالٍ وأمام المجموعة التي كانت معه. أما حين وصل ورأى الرجال، وقد عادوا من حران الأميركان، وهم يلبسون الأوفرهولات ويضعون على رؤوسهم تلك القبعات، فقد رفع يديه الاثنتين بدهشة أقرب إلى الخوف وصرخ:

ـ يا سبحان الله.. ويش سويتم بأرواحكم يا اولاد الحلال؟

أغلب الرجال لم يفطن لحقيقة استغراب ابن الراشد في الوهلة

الأولى، نظر بعضهم إلى بعض، ثم نظروا إلى ابن الراشد متسائلين، أما هو فقد تابع وكان يقهقه:

ـ قلت لنفسي: الأميركان ما يُغيّرون اولاد العرب ولو طلعت بروسهم نخلة.

واقترب من دحام الذي بدا مضحكاً بملابسه الضيقة، بكرشه الكبير قليلاً، ومؤخرته الناتئة، وقال وهو يربت على كتفه:

ـ ابن آدم كل يوم يطلع له قلب.

ورغم أن الدهشة لم تزايل ابن الراشد، فقد أثنى، بصوت عالٍ، وبمبالغة كبيرة، على كل شيء رآه أو سمع به. أثنى على دحام وعلى الرجال الآخرين؛ أثنى على البيوت الجميلة التي أقامها الأميركان، وقال إن العرب يجب أن يفعلوا مثلهم؛ ثم بدأ يستفسر عن كل شيء بلهفة، عن المنشآت متى أقيمت، ومن أقامها، وكم احتملت من الوقت، وعن الملابس متى حصلوا عليها، ثم امتدت يده إلى إحدى القبعات فلتمسها باهتمام دلالة الإعجاب، ولم ينس أن يسأل ما إذا كان الرجال كلهم قد حصلوا على هذه الملابس والقبعات، وما إذا كان توجد منها أعداد أخرى. كان شديد الانفعال، حتى أن الأسئلة كانت تتلاحق، ولم يكن ينتظر ليستمع إلى كل التفاصيل، لأن لهفته وانفعاله، ثم رغبته في أن يعرف كل شيء فوّتت أكثر التفاصيل التي حرص دحام على ذكرها.

في غمرة الدهشة والانفعال فات ابن الراشد تقديم الرجال الذين جاءوا معه، وهؤلاء الذين أخذوا أيضاً بهذا الجو، ظلوا في جهة، قريباً من الجمال، صامتين، ثم لما غرق ابن الراشد بالأسئلة قام بعضهم بإناخة الجمال والبدء بفك أحمالها، حتى إذا التفت واكتشف إنهم لا يزالون بعيدين، وفي محاولة لأن يقدّم ادهاشاً موازياً لما رآه تحرك بسرعة وصخب طالباً من الجميع أن يعاونوا في إنزال الأحمال وإدخالها إلى خيمته.

وبجو من الحماسة والمشاركة تمت العملية في فترة قصيرة، وقد تخللتها أسئلة وكلمات مازحة، ونظرات تبادلها الذين كانوا من قبل مع الذين جاءوا، وفي لحظة من الحزم، وكأنه تذكر شيئاً، قال ابن الراشد مع الأحمال الأخيرة التي أنزلت:

ـ ابشروا يا جماعة الخير. . كل شيء راح يصير مثل ما تريدون.

أما حين تجمع أغلب الرجال وجلسوا في تلك الفسحة بين الخيام، في مواجهة البحر، بعد أن انتزع أكثرهم الملابس الضيقة التي كانوا يلبسونها، أو فكوا أزرارها التي كانت تجعلهم مثل القوالب، وانتزعوا أيضاً القبعات وتركوها في الخيام أو وضعوها جانباً على الأرض، في لحظة من لحظات الصمت التي تعمدها وخلقها ابن الراشد، أبلغ الرجال أن أحد الذين جاءوا معه سيتولى القصابة، وقال عنه أنه قصاب أباً عن جد، وسوف يبيع اللحم للذين يشاؤون. وقال إن آخر، وأشار إلى رجل مربوع أو أميل إلى القصر، وشديد السمرة، سيتولى بيع الحاجات لجميع أهل حران، وستكون هذه الحاجات كثيرة ومتنوعة، مثلما هو الحال في عجرة أو أمكنة أخرى. ثم التفت إلى أكثر من جهة حتى التقت عيناه بعيني ذلك الرجل الصغير الضامر، قال وهو يضحك فتبين أسنانه الفارغة:

ـ أنا أعرف البدوان. . تعودوا على خبز ما يغيرونه، والخويا يعرف كيف كيف يسويه. .

وضحك بصوت عالٍ وهو يضيف:

ـ وكُلوا يا عربان وادعوا لطويل العمر!

ولم يفهم من يقصد بطويل العمر، هل هو الخباز أم ابن الراشد ذاته أم أحد غيرهما! أما ذلك الشاب الخجول الذي كان يلبس بنطالاً وسترة، وقد ظل بعيداً وصامتاً، وكأنه في حلم أو يشهد مسرحية غريبة، فقد قال ابن الراشد أنه «المهندز» الذي سيبني للعرب بيوتاً يغار منها الأميركان.

هكذا أبلغ ابن الراشد الرجال. وإذا كان قد بدا عليه التعب من الرحلة الطويلة، فقد كان شديد التوقد والحركة، يريد أن يرى كل شيء، أن يسمع عما حدث أثناء غيابه: عدد البوابير التي جاءت والأشياء التي حملتها، والأشخاص الذين وصلوا خلال هذه الفترة. ودحام الذي تولى الإجابة، وبعض الأحيان باستفاضة، لاحظ أن الرجل تشغله أمور أخرى، وكان يفكر بأشياء مختلفة، إذ ما لبث إن رآه يقوم ويطلب منه أن يرافقه إلى حران العرب.

مع أهل حران كان ابن الراشد إنساناً مختلفاً. أبدى الكثير من اللطف

والتبسط في الحديث. سأل كل واحد منهم. سأل ما إذا كانوا بصحة جيدة، وسأل عن مساكنهم الجديدة وهل هم مرتاحون فيها أم بحاجة إلى شيء آخر، وقد أبدى اهتماماً خاصاً «بالشايب»، كما كان يسمي ابن نفاع تعبيراً عن الاحترام، حتى إذا فرغ من هذه الأسئلة، بدأ يسأل عن أراضي حران، هل هي أرض مشاع أم مقسمة، وإذا كانت مقسمة من هم الذين يملكونها، والأراضي التي بجوارها هل هي مراعٍ أم أراضٍ مملوكة، وقد كان شديد الاهتمام والدقة بكل ما قالوه، وطلبَ من دحام أن يسجل كل شيء، ثم عاد وأكد عليه مرة أخرى، أثناء عودتهما أن «يضبط هذه الأمور لأنها مهمة» ولم يقل شيئاً آخر.

ابن الراشد وحده الذي يفكر ويقرر، لا يعطي سره لأحد ولا يستشير أحداً. لقد حرص على أن يذهب إلى عجرة بشكل مفاجئ، وكأنه يدبر مؤامرة، إذ لم يعرف بسفره إلا الذين رأوه يركب ويمشي. طلب من الرجال أن يمهلوه «مسافة الطريق» كما قال وأكد أكثر من مرة، وبعد أن غاب شهراً ها هو يعود، وبدل أن يحل مشكلة السابقين جاء برجال جدد، وبمشاكل أخرى.

كل هذه أسراره الخاصة، حتى عندما وصل سأل عن نعيم قبل أن يسأل عن أي إنسان آخر، ولما قال له دحام المزعل «الخويا وصل عدد كبير منهم، ونعيم مشغول معهم» طلب ابن الراشد من أحد رجاله أن يذهب إلى معسكر الأميركان، وأن يبلغ نعيم بوصوله، وأنه يريد أن يراه لأمور هامة. فلما ذهب الرجل وعاد، دون أن يرى نعيم أو يعرف عنه أي شيء، قال ابن الراشد يخاطب دحام:

ـ يلزم تشوفه باكر من كل لزوم وبد. . .

وابتسم وهو يضيف، لكن بصوت خافت:

ـ هو المفتاح. . . ولازم ندبره.

ولم يفهم دحام شيئاً مما قاله ابن الراشد، لكن هز رأسه دلالة الموافقة!

حران الأميركان تنمو وتتسع كل يوم، ومع نموها واتساعها تزداد غرابة وتغيراً، أما في عصر ذلك اليوم الذي صُرف فيه العمال باكراً، ولم يسمح لهم أن يقتربوا من بعض الأماكن، رغم أنهم لم ينجزوا العمل فيها، خاصة البركة الكبيرة.. عصر ذلك اليوم بدت حران الأميركان غير عادية، وكأنها تستعد لشيء ما، وإذا كان ابن الراشد قد قرر أن يخصص عصر اليوم نفسه، واليوم الذي يليه، وكان يوم عطلة، من أجل الانتهاء من بناء الدكاكين الثلاثة التي ستخصص للمخبز والقصابة وبيع الحاجات، إلا أن السفينة الكبيرة التي بدأت تظهر في الأفق غيّرت كل شيء في حران العرب وحران الأميركان معاً، وغيرت كل ما كان فيه الكثيرون.

لما وصلت السفينة الكبيرة عند الغروب أدهشت الجميع. فشكلها يختلف كثيراً عن السفن التي وصلت من قبل، إذ كانت تتلألأ بأنوار ملونة، وقد حوّلت البحر إلى كتلة من اللهب، أما حجمها الهائل وهي تتقدم فقد جعل الناس في ذهول شديد. لم ير أهل حران ولا العمال الذين جاءوا من الداخل شيئاً مثلها من قبل، عجبوا وتساءلوا كيف يمكن لشيء مثل هذا الحجم أن يطفو فوق الماء.. وكيف يسير.

ما كادت الباخرة تقترب حتى بدأت الأغاني والطبول والأصوات تنبعث من كل مكان، من على ظهر الباخرة ومن اليابسة، حيث اصطف كل الأميركيين الذين كانوا في المعسكر. وباحتفال صاخب بدأت المراكب الصغيرة، بعد أن توقفت الباخرة: تنقل الذين كانوا على ظهرها. نقلت المراكب عشرات الناس، مئات الناس. وكانت مع الرجال أعداد كبيرة من النسوة. كانت النسوة: طريات، لامعات، باسمات، أو كالخيول بعد شوط

طويل من الركض. كل واحدة مغسولة، قوية، مستعدة وكأنها خارجة لتوها من حمام ساخن. كانت الأجساد لا تسترها إلا قطع صغيرة من أقمشة ملونة. السيقان شامخة ظاهرة وأقوى من الصخر. الوجوه والأيدي والصدور والبطون.. كل شيء، نعم كل شيء، كان يشتعل، يرقص، يطير. وكان الرجال يشتبكون مع النسوة على ظهر الباخرة، ثم في المراكب الصغيرة، أما على ظهر اليابسة فقد حصل شيء لا يمكن لأحد أن يصدقه.

إنه منظر لا ينسى، ولا يمكن أن يتكرر أيضاً. أصبح الناس كلهم كتلة واحدة، وأقرب ما يكونون إلى جسم جمل عملاق، لم يبق أحد إلا واشتبك بالآخرين، التحم بهم.

وأهل حران وهم يقتربون خطوة بعد خطوة، دون شعور منهم، وكأنهم منومون، يزدادون دهشة وعجباً. كانوا لا يصدقون ما ترى أعينهم، وما تسمع آذانهم. هل يوجد شيء مثل هذا، سفينة مثل هذه، بهذا الحجم، بهذه الروعة؟ هل يوجد في العالم هذا النوع من النسوة اللواتي يشبهن الحليب والتمر معاً ببياضهن المحروق؟ وهل يتصور أحد أن يقمط الرجال النساء دون خجل، دون خوف من الآخرين؟ والنسوة.. هل هن زوجات أم عشيقات أم شيء آخر؟

كان رجال حران يتطلعون، يتابعون بأنفاس لاهثة، وكانوا إذا رأوا شيئاً لا يصدقونه، ينظر بعضهم في وجوه بعض متسائلين، ومع النظرات ابتسامات وشهوة، وبعض الأحيان صرير حاد بالأسنان أو ضربات قوية على الأرض. والأطفال سبقوا الجميع ووصلوا في وقت مبكر. جلسوا قريباً من الماء، ولم يتردد عدد منهم في النزول إلى البحر والاقتراب من الباخرة. أما الكثيرون فقد فضلوا البقاء على اليابسة لكي يتحركوا بسرعة وسهولة، ولئلا يفوتهم أي شيء.. حتى النسوة تابعن كل شيء من بعيد ولم تجرؤ أية واحدة منهن على الاقتراب.

إنه اليوم الذي يؤرخ لحران: متى قامت وكيف قامت، لأن الكثيرين لا يتذكرون حران قبل هذا اليوم. حتى أبناء حران ذاتها الذين كانوا في هذا

المكان منذ وقت بعيد، والذين خافوا حين وصلت المجموعة الأولى من الأميركيين، وخافوا أكثر حين رأوها تزرع الشاطئ والتلال؛ أهل حران الذين ولدوا وعاشوا هنا، والذين حزنوا كثيراً حين أبلغوا أن بيوتهم سوف تهدم، فاستعادوا أحزاناً قديمة، كما تذكروا الموتى والمسافرين، إن هؤلاء أنفسهم يتذكرون يوم وصول تلك الباخرة أكثر من أية أيام أخرى، بمزيج من العجب والدهشة، حتى ليكاد يصبح التاريخ الوحيد الباقي في ذاكرتهم.

أما العمال الذين زحفوا مجموعة بعد أخرى، والذين رأوا كل شيء بأعينهم، فقد كانوا في حالة من العصبية والقهر واللوعة أكثر مما كانوا فرحين. لأول مرة يتملكهم شعور ساحق موجع بأنهم جاءوا إلى هذا المكان بطريق الخطأ، ويجب أن لا يبقوا طويلاً. وابن الراشد الذي تظاهر بعدم الاهتمام أول الأمر، وطلب من واحد أو اثنين أن يستطلعوا «البلية الآتية»، وكان يهيّئ العمال لكي يبدأ حملة ببناء حران الجديدة، حتى ابن الراشد لم يستطع أن يصبر طويلاً أو أن يظل بعيداً، إذا ما كادت الباخرة تتقدم وتطلق دوي صفارتها مرتين، ثم وقوف الرجال والنساء على شرفاتها، وكانوا يلوّحون بأيديهم ويتحركون، ومع الأضواء والموسيقى، حتى هبّ ابن الراشد وهو يقول لدحام وآخر ظلاً معه:

ـ إذا جن قومك عقلك ما ينفعك.

وضحك بصوت عالٍ ثم تابع:

ـ كل طارش بعثناه لا رجع ولا رجّع خبر، ولازم نشوف اللي صار بهذه الدنيا!

مشى مشياً بطيئاً هادئاً، لكن كلما اقترب نحو البحر، وكلما أخذت المعالم تبين والصورة تتكامل، كان يحس إن قوة في داخله تدفعه لكي يسرع. أما حين جلس وسط العمال، قريباً من الماء تماماً، وبدأت تظهر النسوة وتسمع الضحكات، وفي اللحظة التي أعقبت زفرة قوية كاوية من أحد العمال، وقد خيم الصمت، فقد قال بنزق أقرب إلى الانفعال:

ـ يا خويا.. هذا هو بلاط نبيّ الله سليمان.. اللي قالوا عليه.

علت الضحكات وترافقت مع تعليقات كثيرة صدرت عن أشخاص عديدين، حتى بعض الصبية صدرت منهم تعليقات أو أصوات معينة، ولم يعترض عليها الكبار.

مقابل الصمت الذي كان يملأ حران العرب، والمتابعة الدقيقة الملهوفة التي كانت تحكم كل واحد من الرجال الذين جلسوا على الشاطئ، بلغت الضجة على الباخرة وعلى اليابسة، في حران الأميركان، حداً لا مثيل له. وإذا كان العمال لم يروا ولم ينتبهوا، حين وصول الأميركان السابقين لوجود آلات موسيقية من أي نوع، فقد أبدوا دهشة كبيرة لما رأوا الطبول والمزامير وآلات أخرى، وقد تجمعت على الشاطئ. وحالما وقفت الباخرة، وهدأت أصوات الموسيقى التي تنبعث منها، بدأت موسيقى الشاطئ أقوى وأوضح، خاصة وقع الطبل الكبير، والذي كان يقود حركات المحتفلين وأصواتهم، ويجعل لكل شيء لوناً وطعماً مميزاً.

قال أحد العمال بحرقة:

ـ اولاد الحرام الأميركان.. إذ دخنوا عمونا وإذا حنّنوا ما أطعمونا.

رد هاجم:

ـ أكلهم أكل الشيوخ يا مبارك، والمستريح اللي من «ذاك» خالي.

كان لدى الكثيرين كلمات أو تعليقات يمكن أن يقولوها، لكن الحركة النشيطة والموسيقى الصاخبة القوية، وهذه المشاهد التي تتوالى بسرعة لم تترك لأحد أن يتكلم، حتى لو أراد. فالآخرون كانوا غارقين في متابعة هذا الحلم المستحيل. كانوا، أول الأمر، يشيرون بخوف أو بخجل إلى بعض المشاهد التي يرونها تجري. يلفت بعضهم نظر بعض بكلمات قصيرة، بوخزة كوع، لكن مع تزايد المشاهد، ومع تواليها السريع، ووقوف رجال ونساء، عراة أو أشبه بالعراة، على ظهر الباخرة، أو في تلك المراكب الصغيرة، وقيامهم بتلك الأدوار المسرحية: أيدٍ ممدودة على طولها متباعدة، ثم هجوم سريع وعناق وقبل، أو يحمل أحد الرجال امرأة أو اثنتين على ظهره وصدره، أو أن تجلس امرأة في حضن أحد الرجال.. حين بلغت الأمور هذا الحد لم يعد يخشى أو يتردد في أن يشير بيدٍ

ممدودة، في أن يصدر أصواتاً أو كلمات واضحة الدلالة. أما التعليقات فقد بلغت الذروة مع وصول المركب الأخير قادماً من الباخرة. كان في المركب رجل واحد وسبع نساء. كان الرجل في وسط المركب بلحيته الكثيفة وصدره المليء بالشعر، والنساء السبع حوله نصف مضطجعات، وهو يدور دورة كاملة، يداعب هذه، يداعب تلك، ينحني فوق واحدة، ينحني فوق أخرى، يمسك امرأة بيد ويمسك أخرى باليد الثانية، يدور، يضحك بصخب، يقفز، يهز المركب، ترتفع أصوات الطبل، يدور مرة أخرى، ينحني، ويرفع واحدة حتى تقف أمامه، يدور معها ثلاث أو أربع دورات، يتوالى صوت الطبل قوياً منتظماً، حتى إذا اقترب المركب من الشاطئ، قفز الرجل قفزة قوية فأصبح في الماء، وأخذ بيده يدفع المركب حتى وصل، مع وصوله ارتفعت أصوات البشر في غناء سريع مرح. قال عبد الله الزامل:

ـ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، الجواري والغلمان فيها مخلدون.

رد حماد الزين:

ـ والله مثل ما قال أبو محمد: نبي الله سليمان وألف بلقيس.. وموتوا بغيظكم يا اولاد الكلب.. يا عربان.

لم يصدق أحد شيئاً مما جرى أمامه أو رآه رأي العين، لأن ما جرى يفوق الوصف ولا تكفيه أية كلمات، ولا يمكن أن يحدث أيضاً. حتى الصبية والأطفال الصغار الذين كانوا كثيري الحركة ولا يتوقفون عن التعليق والضحك بصوتٍ عالٍ، بدأوا في لحظات معينة مأخوذين تماماً بما يشاهدون فصمتوا. والرجال الذين داروا نصف دورة، والذين تحركوا قليلاً وأخذوا مواقع وأمكنة جديدة لكي يتابعوا هذا الموكب في رحلته الجديدة إلى داخل حران الأميركان، كانوا مأخوذين أكثر من الصبية والأطفال. صحيح أنهم كانوا أميل إلى الصمت ولم تصدر عنهم تعليقات كثيرة، إلا أنهم شعروا بنوع من الدوار، وأحس أكثرهم بآلام حادة تمزق أجزاء معينة من أجسامهم، بل ووصل الأمر ببعضهم إن صدرت منهم أصوات حادة

تعبيراً عن هذا الألم، وتمنى آخرون لو أنهم لم يأتوا ولم يشاهدوا هذا الذي يجري أمامهم.

❀ ❀ ❀

أغلقت البوابة بعد دخول ركاب الباخرة إلى حران الأميركان، ووقف جمعة الأسود، مثل ملك الموت، إلى جانب البوابة، وبيده كرباج صنع من ذنب الفيل. وأخذت الضجة والأصوات تبتعد وتتداخل إلا أنها لم تتلاش أبداً. وحتى وقت متأخر من الليل ظلت أصوات الموسيقى تُسمع من أماكن بعيدة، وفي اللحظات التي تنقطع كان الرجال المرابطون على الشاطئ يتوقعون شيئاً ما في اللحظة التالية، لأن كل مرة يخيم الصمت فيها ويمتد لدقائق قليلة، كان ينفجر بعده الصخب والضحك عنيفاً قوياً، ثم تتبعه موسيقى أقوى من المرات السابقة، ولأن هذه اللعبة تكررت فقد أصبح انتظارها ومراقبتها لذيذاً وقاسياً معاً.

لم يحس أي من الرجال الجالسين على الشاطئ بالبرودة التي أخذت تملأ الجو، ولم يجد أحد منهم الرغبة في أن يقول شيئاً محدداً أو جدياً، ورغم أن وقتاً طويلاً قد مضى على وصول الباخرة ودخول الأميركيين إلى المعسكر، إلا أن الزمن في هذه الليلة كان مختلفاً عن الليالي السابقة. وأهل حران الذين تعودوا النوم مبكراً، ولا يشذ عنهم إلا بعض العمال الذين يلعبون الورق، فإن أحداً لم يحس بالزمن الذي مر، أو الرغبة بمغادرة المكان. حتى الأطفال والصبية الذي أُخذوا بما رأوا فإن الأمر لم يستمر طويلاً، إذ ما لبثوا أن تحركوا، تراكضوا وتفوهوا، بهمس مسموع، بكلمات لم يتصور الكبار أن الصغار يعرفونها! ووصل بعضهم إلى الخيام، وربما نقلوا للنسوة ما شاهدوه بتفاصيل دقيقة، لأن النسوة اللواتي ظللن بعيدات طوال الفترة التي وصلت فيها الباخرة والتي أعقبتها، عرفن أشياء كثيرة، وكأنهن شاهدن كل شيء بأنفسهن. حتى التيس، كما أطلقن على الملتحي الذي وصل بالمركب الأخير، روين بالتفصيل كيف كان يدور وينحني، وكم امرأة كانت معه في المركب، ثم لما قفز في البحر؛ روين كل شيء بخجل أول الأمر، ثم بوضوح بعد ذلك. وإذا كانت النسوة قد

طلبن من الصغار أن يذكّروا آباءهم لكي يأتوا لتناول العشاء، فقد فعلن ذلك دون وضوح كافٍ ودون إلحاح، كما أن الأطفال والصبية في غمرة الانفعال والركض والانتظار نسوا أو أهملوا نقل هذه الرسائل.

لو أنها ليلة من ليالي الصيف، لو أن القمر كان يملأ السماء، أو لو أنها ليلة من ليالي عودة المسافرين الذين طالت غيبتهم، لأمكن تفسير هذا السهر الذي ملأ هذه الليلة في حران، ولرافقت السهر أحاديث لا تنتهي، عن الأيام والأماكن البعيدة، ولتخللت ذلك ضحكات صاخبة تعبيراً عن الفرح والشوق، ثم ما يعقبها من الأسئلة عن المسافرين الآخرين والأماكن الأخرى، وعن المطر والعشب. أما أن يمتد السهر والرجال أقرب إلى الصمت، عدا أسئلة عجولة ولا تنتظر إجابات، فقد تفجرت في الصدور أحزان وأسئلة لا نهاية لها.

كان يمكن لكل واحد أن يقول الكثير، حتى الرجال الذين تعودوا الصمت فإن لديهم أشياء يمكن أن يقولوها. ولربما غنى بعضهم، لو أن قلوبهم لم تكن مثقلة بهذا الحزن كله. لكن حين هجم الحزن هكذا وسيطر على الحواس، فقد أصبح العجز يربط الألسنة، والألم يهد الأجساد، وانتشرت حالة من المرارة مع جفاف الحلوق وتوتر الأعضاء، فساد الصمت، حتى ابن الزامل الذي كان سريع الحركة وصدرت منه تعليقات كثيرة، وذهب عدة مرات إلى البوابة، ووقف إلى جانب الأسلاك الشائكة لعله يدخل أو يقترب، وكان إذا سمع شيئاً ينقله بسرعة إلى الآخرين، حتى أن ابن الزامل ما لبث أن خمد شيئاً فشيئاً بعد أن تعذر عليه الوصول إلى أية نتيجة، فنهض بعصبية وقال وهو يمشي:

ـ اذكروا الله يا جماعة.

توقف قليلاً، حتى إذا انتبه إليه بعض الرجال تابع:

ـ الأميركان اولاد الحرام ما من وراهم إلا التعب ووجع الراس، هم باللحم وجماعتنا على العظام ما تحصل.

وبعد أن مشى بضع خطوات التفت وقال:

ـ اتركوهم، يا جماعة، الله يخزيهم ويخزي اليوم اللي وصلوا فيه.

كان يجب أن يفعل أحد ذلك لأن حالة الخدر التي عمّت الجميع، والتي بدت من الصمت والانتظار، ثم ذلك الرحيل إلى أماكن مظلمة، قريبة وبعيدة، وهذا الخيال الذي اشتعل دفعة واحدة، لم يترك لأحد أن يفكر أو يتصرف. وابن الزامل الذي حاول مثل ذئب جائع، والذي انتقل من مكان إلى آخر، ثم حرّض الصبية على أن يذهبوا إلى أقصى الناحية الشرقية ويقفزوا فوق الأسلاك، لكي يروا وينقلوا إلى الآخرين، رغم محاولاته التي فشلت كلها، أدرك بغريزته أن الاستمرار في هذا المكان، وبهذا الوضع، سيولد المزيد من التعب والعذاب لكل واحد، ولذلك حين قرر أن يذهب وقال للرجال هذه الكلمات بدأت حركة غير عادية، ترافقت مع مجموعة من الشتائم والزفرات والتحدي.

قال ابن الراشد وهو ينهض ويتنحنح:

ـ القول قولك يا ابن الزامل. الجماعة سالفتهم طويلة وهمهم أطول.

رد أحد أبناء حران:

ـ أيام السرور قصار!

قال ابن الزامل الذي ابتعد قليلاً:

ـ ولياليه أقصر.

قال أحد الرجال ولم يبنْ وجهه في الظلمة كما لم يتميز من صوته:

ـ قولوا اللي تقولوه، لكن أخاف أننا ضيعنا الدنيا والدين، لا نحن مع الأميركان باللحم ولا مع غيرهم بالمرق!

وضج الجميع بالضحك، لأنهم أدركوا ما يرمي إليه الرجل، أما ابن حران الذي اشتعلت مخيلته بكل هذه الرؤى، والذي سافر من قبل إلى أمكنة بعيدة، وربما رأى وعاش أياماً تختلف عن أيام الناس في هذا المكان المجهول من العالم، فقد كان لا يرضى أن يعود هكذا. قال بعد أن هدأت ضحكات الرجال:

ـ آخر الليل تأتيك العلوم.

ربما لم ينم أحد في حران كلها تلك الليلة. الأميركان ظلوا يصخبون

ويغنون طوال الليل، وقد أكد عدد من الرجال، في وقت لاحق، أن الشمس أشرقت وكان صوت الغناء أقوى من بداية الليل، كما أكد آخرون أن الباخرة صفرت صفيراً عالياً مع شروق الشمس، وقد حرّض هذا الصفير الناس فبدأوا من جديد.

والناس في حران العرب لم يناموا أيضاً؛ حتى الصبية، بعد أن عاد الرجال، ظلوا يحوّمون على الشاطئ مقابل السفينة، وقريباً من الأسلاك الشائكة، فلما تعبوا أو ملّوا اقتربوا من الخيام وبدأوا يغنون ويمزحون ويتبادلون النكات البذيئة. وقد صاح حماد الزين أكثر من مرة على الكلاب والصبية طالباً السكوت «لإن الناس تريد أن تنام!» ولكن أحداً لم يسمع ولم يستجب.

أما الرجال الذين عادوا متأخرين فقد شعروا بالجوع لكن لم يبدوا رغبة بالأكل، وحين قال عبد الله الزامل أن أباه كان دائماً يروي حديثاً للنبي يؤكد أن الطريقة الوحيدة لتجنب الفتنة والغواية هي الصيام، ولذلك يقترح على الرجال أن يناموا دون عشاء، فقد لاقى هذا الاقتراح هوى في نفوس الكثيرين، أو أن الكثيرين لم يجدوا في أنفسهم القوة، في هذا الوقت المتأخر، لإعداد الطعام، فاكتفوا بالشاي، إذ جلسوا في الفسحة بين الخيام وأخذوا يرشفون من الأقداح وهم صامتون.

ومثلما كان الحال على الشاطئ فإن حالة المرارة استمرت وزادت، حتى الأحاديث التي تبدأ لا تلبث أن تخبو وتتراجع، في الوقت الذي كانت الفلاة كلها تضج بأصوات الموسيقى والضحكات العالية، لقد حصل هذا عدة مرات، وحتى النكات البذيئة التي رواها هاجم وحماد، وكان من الممكن أن تثير ضحكاً صاخباً لو رويت في وقت آخر، أو في ظروف أخرى، فإنها قوبلت بابتسامات شاحبة صغيرة متكلفة.

وكانت الحال نفسها أيضاً في منازل أهل حران، إذ اكتفى الرجال بأكل خفيف، وذهبوا إلى النوم مباشرة، لكنهم لم يناموا حتى وقت متأخر!

لقد انفجرت في هذه الليلة الأحزان والرغبات والأشباح والمخاوف. لم يبق أحد إلا ومرت في رأسه زوبعة من الرؤى، وشعر الناس كلهم أن

عصراً جديداً قد بدأ هذه الليلة. فحران التي كانت بعيدة منسية، والتي لم تكن تستقبل الغرباء إلا في أوقات متباعدة، خاصة أولئك الذين يأتون حاملين معهم بعض البضائع والمواد لكي يبيعوها أو يبادلوها ثم يقفلون راجعين، ما عدا هؤلاء الغرباء، لم يكن يأتي إلا رسول بعث به أحد أبناء حران المسافرين وتكلف بمصارفه كلها من عجرة أو أبعد منها لينقل بعض الأرزاق والرسائل والدراهم للعديدين.

أما أن تتحول حران إلى هذا الشكل وبهذه السرعة، وأن تصلها البواخر وهذه الأعداد المتزايدة من البشر، وأن تبنى فيها تلك الأبنية في الجهة الشرقية، فأمر لم يقدره أحد، ولم يخطر ببال. ومع أن الناس بدأوا يألفون الأبنية الجديدة، وتعودوا يوماً بعد آخر على الوجوه التي وصلت، فإن أقصى درجة من درجات الخيال لا تبلغ بإنسان أن يتصور وصول مثل هذه الباخرة. وإذا كان ابن الراشد قد سماها باخرة سليمان، لأن النساء اللواتي جئن عليها يشبهن بلقيس أو أجمل منها، فلا يمكن لأحد من أهل حران أن يصف لآخرين ما وقعت عليه عيناه وما رآه.

أي عصر يبدأ الآن وماذا ينتظر حران في الأيام القادمة؟ وماذا يستطيع الرجال أن يتحملوا وإلى متى يمكن أن يصبروا؟ وهذه الليلة إذا مرت، فكيف ستكون الليالي القادمة؟

الأسئلة التي لم يطرحها أحد، والتي مرت في كل الرؤوس، حملتها الأشباح في الغفوات القصيرة القلقة حين ذهب الرجال إلى النوم، وحتى الرغبات المكتومة التي لا يصرح بها الإنسان لنفسه انبعثت مرة أخرى في الليل المتأخر وعند الفجر. فالذين ذهبوا إلى الفراش، دون أن يشعروا بالنعاس، والذي أخذتهم تلك الغفوات القصيرة، ما لبثوا أن هبوا فزعين بعد أن طاردتهم الأطياف وملأتهم بالرغبة واللذة والخوف والانتظار!

لم يكن وصول باخرة نبي الله سليمان، أو باخرة الشيطان، كما أطلق عليها ابن نفاع، ثم مغادرتها بعد غروب اليوم التالي، السبب الوحيد في أن يمتنع الرجال عن البدء بإنشاء المدينة الجديدة. فابن الراشد الذي فكر أكثر من مرة في أن يعرض على الرجال البدء بالعمل، تردد ثم أجّل الأمر، لأن الحالة التي كانوا عليها لم تتح إمكانية من أي نوع لبحث الموضوع. فمن لا يشكو من سهر الليلة الفائتة، لا بد أن يدعي مرضاً أو تعباً، ومن كان أكثر جرأة أو صراحة لا يتردد في أن يقول إنه يريد البقاء على الشاطئ، مقابل «البلية» لكي يرى كيف يتنا (. . .) الأميركان! أما أهل حران الذين يعرفون من أين تقطع الحجارة وعندهم الأدوات التي تساعدهم في ذلك، فلا بد أن يعتبروا صلاة الجمعة سبباً كافياً لعدم تلبية أي طلب. ولذلك فضل ابن الراشد أن يطوي الموضوع، خاصة بعد أن لاحظ في صباح وظهيرة اليوم التالي أن الرجال في حالة عصبية شديدة الوضوح. كانت وجوههم صفراء، وتصرفاتهم تتسم بذلك المقدار الكبير من الحدة. ورغم أن الصمت لا زال مسيطراً، قال ابن الراشد لنفسه بنوع من التسليم: «الإنسان إنسان، وإذا كان العمال قد تركوا أهلهم منذ وقت طويل وصبروا دون أن يصدر عنهم أي خطأ فإنهم بعدما رأوا هذه العجائب أمس لا بد أن يتحولوا إلى وحوش، ولذلك فالأفضل أن يتركوا إلى أن يبردوا».

كانت عادة أكثر الرجال أن يصلّوا الجمعة في المسجد، المكان الذي تُرك دون أن يطرأ عليه أي تغيير، كما طلب ابن الراشد من الأميركيين عن طريق المترجم، خاصة بعد أن سوّت الآلات الأرض. أما في هذا الصباح فقد بدوا شديدي الحرج، وتنازعتهم الأفكار والآلام والآثام معاً. فالذين

كان يجب أن يذهبوا إلى البحر لكي يغتسلوا وجدوا صعوبة وحرجاً، لأن الناس انتشروا منذ الصباح الباكر على شاطئ البحر. كان بعضهم يراقب الباخرة، وآخرون يمشون بعصبية، قاطعين ـ مسافة كبيرة وهم ساهمون، حتىَ إذا ابتعدوا عادوا مسرعين خوف أن يفوتهم شيء، وغيرهم شغلته أسئلة وهموم لا يفكر بغيرها!

قال ابن الراشد لدحام، حين سأله الأخير، ما إذا كان قد حان وقت دعوة الرجال إلى العمل:

ـ اترك السالفة يا ابن مزعل، العربان بالها ما هو معها...

وحين تظاهر دحام بعدم الموافقة ضحك ابن الراشد وخرجت الكلمات مبعثرة من فمه:

ـ يا ابن مزعل.. أنت تعرف أن من جامع المصلين صلى ومن جامع المغنين غنى.

توقف لحظة وهو ينظر في وجه دحام، دون أن يراه:

ـ والخويا أمس ما خلوا غناء في رؤوسهم، طلعوا الزايدة والناقصة.

وفهم دحام ولم يلح بعد ذلك.

وحران التي لم تنم في الليلة الفائتة، لم ترف لها عين لحظة واحدة منذ أن أشرقت الشمس. انتشر الناس في كل مكان. حتى النسوة اللواتي ظللن بعيدات في اليوم السابق، أصابتهن جرأة مفاجئة، كانت تراودهن الرغبة في أن يتقدمن نحو البحر، في أن يراقبن كل شيء بأنفسهن. والصبية الذي أطالوا النوم في هذا الصباح، أفاقوا مذعورين حين لاحظوا شروق الشمس وتقدم النهار، ودون أن ينتظروا، ودون أن يسألوا، انطلقوا مثل الطيور الخائفة نحو البحر لكي يروا أي شيء حصل خلال هذه الساعات. أما الرجال الذي أرقتهم الليلة الفائتة وملأت رؤوسهم بالأسئلة والمخاوف والرهبة، إضافة إلى عشرات الرغبات الخفية، فأبدوا نوعاً من التردد في أن يذهبوا إلى البحر مباشرة، لكن ما لبثوا أو وجدوا أسباباً كثيرة تدعوهم إلى ذلك، وخلال فترة قصيرة انطلقوا.

كان أهل حران كلهم على الشاطئ، عدا بعض المسنين أو المتدينين،

إذ رابطوا في المسجد أو ظلوا بعيدين. صحيح أن الذين كانوا على الشاطئ لم يتجمعوا في مكان واحد كالليلة السابقة، لكنهم كانوا جميعاً هناك، وكان من السهل أن يكونوا في أي مكان دون دعوة ودون تحريض، لكي يشهدوا كل شيء بأنفسهم. حتى ابن الراشد ودحام اللذان ظلا يتحدثان بطريقة مليئة بالحكمة والتعقل كانا مشغولين تماماً، كانت آذانهم تتابع الأصوات البعيدة، أما حين صفرت الباخرة فقد تظاهر ابن الراشد بالانتباه قال لدحام وهو ينهض:

ـ ترى الجماعة رحلوا.

وبنفس طريقة اليوم السابق سارا باتزان وبطء، إلا أن قوة داخلية كانت تدفعهما إلى السرعة، وحين وصلا إلى الشاطئ كانت السفينة لا تزال في مكانها مثل جبل أبيض، ومجموعة من البحارة يلمعون الحديد وينتقلون من مكان إلى آخر. قال ابن الراشد موجهاً الحديث إلى أكثر من ابن الزامل:

ـ ها... اشوف الجماعة بمكانهم.. ما قولك عرسهم خلص أو بعده؟

ـ اولاد الحرام عرسهم ما يخلص، يعرسون في كل وقت، في الليل والنهار، وجماعتنا وصلت أرواحها لحلوقها.

ـ مثل ما قال الخويا أمس: أيام السرور قصار.

ـ أيامنا القصيرة، يا أبو محمد، وانت الصادق.

ـ اشوفك حنّيت واشتهيت.

ـ من هو اللي ما يحن ويشتهي بعد شوفات البارحة؟

توقف ابن الزامل لحظة، زفر بحرقة وابتسم بحزن ثم تابع كأنه يحدث نفسه:

ـ طقّت خصاوي الرجال من شوفات الأمس، يا أبو محمد؛ كل نثية ولا حورية جنة، كل فخذ كأنه تنور، وهات صبارك واصبر، وهات حبالك واعقل الرجال، يا أبو محمد، بعد هذا اليوم.

ضحك ابن الراشد ودحام، ضحكا بصخب، وكأنهما بحاجة إلى هذه

الكلمات ولم يجرؤ واحد منهما على أن يقولها بصوتٍ عالٍ، وفي محاولة من ابن الراشد لكي يجعله يتابع باستفزاز:

ـ الحريمات ما هن بمزيونات، الواحدة مثل النعجة: بياض ورخاوة وما بيها شي خلافه.

ـ يا أبو محمد، يا طويل العمر، عطني النعجة واعطاك الله الجنة. :

ـ النعجة ما هي واقعة بأيدينا يا ابن الزامل، لو وقعت لهانت مصيبتنا كلنا.

قال دحام وهو يصرّ على أسنانه:

ـ لو وقعت واحدة بين يدي... والله لأخليها تتشاهد، تقول: أشهد أن لا إله إلا الله!

لما حانت صلاة الظهر لم يذهب إلى المسجد إلا عدد قليل من الرجال، أقل من أية مرة سابقة، وكان لدى الذين لم يذهبوا أسبابهم! أما حين غادرت الباخرة عند الغروب، وقد جرت أثناء المغادرة أشياء لا يمكن لأحد أن يذكرها، ولا يمكن لأحد أن ينساها، فقد ذهب الرجال تلك الليلة إلى النوم مبكرين. لكن قبل أن يناموا سافروا بعيداً، سافروا إلى آفاق لم يروها من قبل. وحين ناموا التقوا في تلك الأماكن بنساء كثيرات. نساء بيضاوات مكتنزات، مشدودات الأجساد، والتقوا بأخريات لا يعرفن للشبع معنى وقد فرح الرجال في نومهم وكانوا أقوياء وكانت النسوة أكثر فرحاً وأكثر رغبة، وظل هذا الفرح يتكرر مرة بعد أخرى، إلى أن طلع النهار، وحين فتح الرجال أعينهم شعروا أن حلوقهم جافة وأعضاءهم متوترة، وأن تعباً غير عادي يهدهم. أما حين تذكروا الأشياء التي مرت في الليلة الفائتة وفي اليوم الفائت، وحين تذكروا الأحلام التي ملأت ليلتهم ثم تطلعوا حولهم فقد شعروا فجأة بالخيبة والحزن الشديد.

في صباح اليوم التالي، وعلى غير عادة، سمعت ضجة عالية وحركة مضطربة بين الخيام، ترافقت مع نداءات وأسئلة، وما كاد العمال يخرجون لاستطلاع الخبر حتى أحسوا أن شيئاً غير عادي قد حصل. ومن الأسئلة، من الإجابات القصيرة والسريعة، ثم من ركض دحام المضطرب ونظراته التي لا تستقر، عرف أن ثلاثة من العمال قد غادروا المعسكر، وقد كان اثنان منهم أخوين، والثالث يمت لهما بصلة القرابة. ومما جعل الأمر خطيراً بنظر ابن الراشد أنهم سرقوا أربعة رؤوس من الجمال، ولم يكتشف ذلك إلا بعد ساعات طويلة من مغادرتهم، ومما يؤيد أنهم غادروا في أول الليل، وبمجرد أن ذهب الرجال إلى خيامهم، العثور على ملابس العمل ممزقة وقد تركوها في بداية طريق عجرة، لكن الريح نثرتها، كما تعمدوا إرسال «تحية» مباشرة إلى الشركة وإلى ابن الراشد بالذات، إذ خروا في القبعات الثلاث، ويبدو أن واحداً منهم لم تساعده أمعاؤه فملأ القبعة الخاصة به بالبعر!

ومن خلال المناقشة وبعد اختبار الأثر تبيّن أنهم غادروا حران مبكرين، وقد اختاروا أطيب الإبل وأقدرها على المشي السريع، ولذلك فإن مسألة اللحاق بهم أو إدراكهم بدت غير ممكنة، ومع ذلك فإن ابن الراشد لم يسلّم، إذ اصطحب معه دحام وثلاثة آخرين من العمال ولحقوا بهم.

وإذا كان العمال قد استغربوا وتساءلوا فإن صور الرجال الثلاثة، وهي تتراءى أمامهم مرة أخرى، تثير الإعجاب، كان الثلاثة، خاصة الأخوين، يتمتعون بهمة عالية لا يترددون في تقديم المساعدة للجميع، وجوههم

أنيسة وتصرفاتهم تتسم بذلك الحد الكبير من الاحترام للآخرين. وكان واحد منهم محدثاً بارعاً يحفظ قصصاً كثيرة يرويها بأسلوب ساحر، وكان الرجال، أغلب الأحيان، يبحثون عنه، ويذهبون إلى حيث يكون لكي يستمعوا إلى أحاديثه وقصصه.

الآن بعد أن تركوا بهذا الشكل، بدا كل واحد من الرجال يستعيد تصرفات الثلاثة في اليومين الأخيرين. وإذا كانت الوقائع قد غابت أو لم يتذكرها الكثيرون، لكن لم ينس الجميع أن محيسن هو الذي رتب بعض المقالب أثناء وصول الباخرة، ثم عند مغادرتها، ورغم أن بعض المقالب نفذها الأطفال فإنه كان هو وراءها أيضاً! فهزاع المجول، الطفل اليتيم في حران، والذي كان عمره تسع سنين، هو الذي رمى قطة في المركب حين كان الأميركيون يغادرون، وقد سببت ذعراً، خاصة بالنسبة للنساء، وكاد أحد الرجال أن يرمي القطة في البحر للتخلص منها، لكن اختباءها تحت المقاعد، ثم الهرج الذي وقع بعد ذلك، نتيجة ارتفاع دقات الطبل، شغلت الجميع، وقد عاد المركب بالقطة، بعد أن وصل الركاب إلى الباخرة، وما كادت تقترب من الشاطئ حتى قفزت وسقطت في البحر، لكنها استطاعت النجاة، وكانت موضع قهقهات صاخبة من الذين كانوا يرقبون.

وهزاع المجول، الذي بعص امرأة من الأميركيات، حين كانت تهمّ بالصعود إلى المركب، فعل ذلك بتحريض من محيسن، أما حين أمسك جمعة حارس الباب، بإذن الصغير وشدها فقد أحس هزاع أن أذنه طارت فصرخ ثم شتم الأميركيين كلهم، وما كاد يفلت حتى بدأ يشتم بأعلى صوته ثم بدأ يقذف الحجارة.

وهزاع المجول هو نفسه الذي جمع الحصى وبدأ مع أطفال آخرين يرجمون البشر والمراكب، وقد صرخ به حماد الزين، فلما لم يتوقف ركض وراءه، وكاد يمسك به، لولا أن حماد تعثر في اللحظة الأخيرة وسقط، وقد سبب سقوطه ضحك الجميع، وظل الكثيرون يتذكرون هذه الحادثة بعد وقوعها بفترة طويلة، أما حماد فلم يأت على ذكرها أبداً، رغم أن خنصر يده اليسرى قد انكسر وظل مربوطاً لمدة ثلاثة أسابيع.

هذه الوقائع التي جرت كان محيسن وراءها. وإذا كانت قد فهمت على أنها مداعبات، وربما دون تدبير من أحد، فإنها تبدو الآن شيئاً مختلفاً، خاصة تلك التحية التي تركها للشركة ولابن الراشد. أما هروبه وهروب الأخوين، دون أن يحس أحد، ودون أن ينبئ أي تصرف من تصرفاتهم عن ذلك، فإنه يكتسب معنى إضافياً ويدل على تدبير سابق، وكأنهم كانوا يستعدون منذ وقت طويل. تمنى الرجال أن تضيع آثارهم، أن لا يستطيع ابن الراشد اللحاق بهم، إذ لو أدركهم فلا بد أن تقع معركة، وابن الراشد الذي يعتز بالبارودة الإنكليزية، والتي كانت تنتقل ما بين كتفه وظهر الناقة بشكل مبالغ فيه، وللتظاهر أغلب الأحيان، أثناء الرحلة من عجرة إلى حران، واستعملها مرتين، الأولى بعد أن طلب إلى أحد الرجال وضع نيشان في بداية الرحلة وبعد مغادرة عجرة مباشرة. والمرة الثانية حين جرها بانفعال وصوّبها نحو حصيني لكنه أخطأه، واختفى الحصيني تماماً، في هاتين المرتين كان يريد أن يعطي الرجال درساً، وأن يدخل الخوف إلى قلوبهم. الآن، إذا أدرك الثلاثة فلا بد أن يستعمل بندقيته لكي يخلق الهيبة التي يريدها لنفسه، خاصة وأن الثلاثة لن يسلموا ولن يرجعوا.

كان الرجال يستعيدون الوجوه والوقائع بانفعال ظاهر، ويحسون في أعماقهم أن مجموعة من المصائب تنتظر الجميع. ويحسون أيضاً أن وصول باخرة الشيطان، بما تحمله من غواية، بداية لفترة من الشدة، وإلا لماذا هرب الثلاثة في هذا الوقت بالذات؟ وهل كانوا مضطرين لسرقة الجمال وتعريض أنفسهم إلى مخاطر لا أحد يعرف إلى أين ستصل؟ قال ابن الراشد وهو يتسلم الجمال، بعد أن اشتراها، إنه مستعد لإعادة أي جمل لصاحبه إذا أراد، فلماذا يعرض الرجال الثلاثة أنفسهم وحياتهم للخطر؟ والهروب.. لماذا هربوا؟ كان يكفي أن يحزم الواحد منهم أمتعته ويقول لابن الراشد إنه لم يعد راغباً أو مستعداً للاستمرار، وابن الراشد مهما حاول لن يستطيع أن يرغم أحداً على البقاء أو العمل. لقد كان شديد اللين حين سافر إلى عجرة، طلب من الرجال أن يمهلوه ريثما يذهب ويعود، وبعد عودته سوف تتغير الأمور. صحيح إنه لم يف بوعده، وقد

مضى على وصوله فترة، لكن الأمور ستتغير بالتأكيد.

هكذا كانت الأفكار والتساؤلات تملأ الرؤوس، أما القناعة الحقيقية التي سيطرت على الجميع، وجعلتهم متأكدين، فهي أن الباخرة، النساء اللواتي في الباخرة، كنَّ السبب الوحيد في هروب الرجال. . لم يحتملوا فاختاروا هذا الطريق الذي لن يجدوا غيره.

أما عندما وصل الرجال إلى المعسكر الآخر، إلى حران الأميركان، فقد بدأوا ينظرون إلى كل شيء نظرة جديدة. كانوا يريدون أن يكتشفوا آثار تلك الليلة واليوم الذي تلاها. ماذا صنع الأميركيون وكيف هم الآن بعد أن أفرغوا هذا العذاب الذي يملأ أجسادهم؟ وتلك الباخرة اللعينة، والنساء اللواتي وصلن عليها. . .

هل رحلن جميعاً أم لا تزال مجموعات منهن باقيات؟

بدا الأميركيون في هذا الصباح أكثر مرحاً وأكثر نشاطاً، وصدرت عن الكثيرين ابتسامات وتصرفات لم تكن مألوفة من قبل، وحين تساءلوا عن العمال الآخرين ولم يجدوهم أبدوا استغرابهم، ولما جاء نعيم لكي يستفسر ويترجم بدا نصف نائم، كانت عيناه حمراوين، وكان التعب ظاهراً عليه، وبشفاه لا تكاد تنفتح سأل عن دحام، ثم عن ابن الراشد، ولما قدم العمال معلومات مشوشة صرخ:

ـ هؤلاء البدو لا تنفع معهم إلا العصا!

ثم مرة أخرى وقال بغضب:

ـ حسبنا أنكم صرتم بشراً، وتعرفون أن العمل هو العمل، لكن الظاهر أن الخطأ ما هو خطأكم، الخطأ على من يضع ثقته ببشر مثلكم!

ولما ظل العمال صامتين سأل بحدة:

ـ الخرا ابن الراشد والأخرا منه دحام. . وين صاروا؟

ولما وجد العمال صامتين لا يجيبون، ربما لأنهم لا يدرون ماذا يجب أن يقولوا، أو احتجاجاً على الكلمات التي قالها وطريقته في التعامل، قال بلهجة مختلفة:

ـ طيب. . طيب إذا جاءوا نتفاهم.

وتمتم بكلمات لم يفهمها أحد. ثم وزع العمال من جديد وبدأوا يعملون، لكن حالة من الغيظ وصلت حدود القهر سيطرت عليهم. وإذا كانوا يعتبرون أنفسهم غير مخطئين فإن مشاعرهم تجاه ابن الراشد، وتجاه النصّيص، الإسم الجديد الذي أطلقوه على نعيم، كانت مزيجاً من الكراهية والاحتقار والحقد، لكن مع هذه المشاعر كان حقدهم على أنفسهم يزداد، لأنهم قبلوا وجاءوا إلى هنا، وكانت تتردد في صدورهم رغبات كثيرة في أن يتركوا، في أن يحطموا، في أن ينقضوا على ابن الراشد بالذات الذي ورطهم في هذه الورطة.

في غروب اليوم التالي عاد ابن الراشد، عاد خائباً، أما محيسن والاثنان الآخران اللذان كانا معه فقد واصلوا سفرهم، ولا أحد يعرف إلى أين.

لما عاد ابن الراشد عاد إنساناً آخر، حتى شكله تغير. المرح الذي كان يتظاهر به انتهى، التبسط في الحديث الذي بدا منه في اليومين الماضيين والاستماع إلى الجميع، حل مكانهما التجهم والصمت، كما أصبح يثور لأقل الأسباب، ولا يتردد في استعمال كلمات قاسية أقرب إلى الشتيمة، وأصبح أيضاً شديد الارتياب بكل من حوله. بدأ يراقب كل شيء بنفسه، ويسأل عن أدق الأمور، أما حين نقل إليه العمال ما قاله نعيم، وقد تعمدوا أن ينقلوا الكلمات التي استعملها، فقد هزّ رأسه ولم يعلّق. كان العمال يتصورون أنه سيثور، وأنه سيهدد ويشتم، لكنه سمع كل شيء وصمت. قال الكثيرون أن الغيظ الذي يملأ صدره، بعد أن فشل في العثور على الهاربين وإعادتهم، أو على الأقل إعادة الجمال، لا بد أن يفرغه في النصّيص. لا بد أن يرد على كل شتيمة بأقسى منها، وسوف يضع حداً لغرور هذا القزم الرخو، ويفرض طريقة جديدة في التعامل.

في اليوم التالي، والرجال يستعدون للذهاب إلى العمل، بدا دحام أكثر ارتباكاً وخوفاً. كانت نظراته زائغة وفكه مرتخياً، وبدا أقرب إلى الحيرة. أما ملابس العمل التي يرتديها فقد بدت غريبة أكثر من أي يوم سابق، أو كأنه يلبسها لأول مرة، وحين حانت لحظة انطلاقهم إلى المعسكر ركض نحو ابن الراشد وتشاور معه، وقد بدا من حديثهما أنهما قلقان وأقرب إلى الخوف.

كان الجميع ينتظر اللحظة التي يلتقي بها دحام بنعيم، سوف يقف الرجلان في مواجهة بعضهما مثل الديوك: كلمة من هذا، كلمة من ذاك ثم يتماسكان، يتضاربان، ولا بد أن يشهد المعسكر أولى معاركه الكبرى؛

سوف يقف الجميع مبهورين حين يلوي دحام رقبة نعيم ويلقي به إلى الأرض، وإذا لم يشترك العمال الآخرون في هذه المعركة فسوف يكوّنون سداً لحماية دحام من الأميركيين، إذا تقدموا لمساعدة نعيم. سوف يصفقون له، يشجعونه. والأميركيون، ماذا سيفعلون! وماذا يظنون؟ آه لو يشترك أحد منهم في المعركة، سوف يكتشفون في هؤلاء الرجال الذين كانوا يسخرون منهم أنهم أقوى وأشد مما توحي به أجسامهم الضامرة. وسوف يقلبون المعسكر رأساً على عقب. إنها الفرصة لكي توضع الأمور في نصابها، لكي يُعرف الرجال. لن تنتهي المعركة بسهولة، وأياً كانت الأسلحة التي توجد لدى الأميركيين فسوف يدفعون ثمناً لتدخلهم. الأفضل أن يبقوا على الحياد، أن لا يتدخلوا، ولا بد أن يدفع النصيص ثمن الكلمات التي قالها بالأمس، فإذا كان شجاعاً وقوياً فقد حانت الساعة التي يتم فيها الحساب.

مرت هذه الخواطر والصور في رؤوس الرجال وهم يمشون نحو المعسكر، وكان يمكن لهذه الخواطر والصور أن تتحول إلى كلمات، إلى قبضات تشدّ على يدي دحام، تدفعه وتحرضه، لكن مشيته في مؤخرة الجماعة، على غير عادته وهذا الوجوم الذي سيطر عليه جعل الرجال يترددون ثم يصمتون.

مع الخطوات الأولى في حران الأميركان، وما كاد دحام يشاهد نعيم من مسافة بعيدة، وكان يقف مع أحد الأميركيين، قريباً من المطعم، حتى اندفع نحوه. ركض بهرولة مضحكة، وكاد يتعثر ويقع. أما حين اقترب وأراد أن يتكلم معه، فقد أشار إليه نعيم بيده أكثر من مرة أن يصمت وأن ينتظر، ومثل طفل صغير وقف على مسافة خطوتين أو ثلاث خطوات. استمر نعيم يتكلم مع الأميركي، حتى إذا ضحكاً بقهقهة عالية وربت الأميركي على كتف نعيم ثم انصرف وهو يشير بيده، التفت نعيم نحو دحام، وتبادلا بعض الكلمات، هز بعدها رأسه واقترب منه، وظلا يتحدثان بعض الوقت ثم انصرف باتجاه الإدارة.

أي شيء قاله دحام ولماذا ظل هادئاً بعد تهديدات الأمس؟ هل نقل

إليه أخبار الرجال الذين هربوا وكيف أنه ذهب وراءهم هو وابن الراشد وأبلغه أنهم فقدوا أثرهم وعادوا خائبين؟ والرجال إذا أخذوا الجمال وسافروا هل يعني ذلك، بنظر نعيم، سرقة كبيرة وخطيرة؟

لا بد أن يكون شيء خطير قد نقل إلى نعيم، استنتج الرجال ذلك من هزات رأسه ثم توجهه إلى الإدارة. كانت العادة أن يأتي كل صباح لكي يشرف على إحصاء الرجال وتوزيعهم، وكانت تترافق هذه العمليات مع نظرات مملوءة بالكراهية وعدم الثقة. أن يتخلى عن هذه العادة، خاصة بعد أن جاء جميع الرجال، عدا الثلاثة الذين تركوا المعسكر، وما يتطلبه ذلك من إعادة توزيع العمال، ثم وجه دحام الذي تغير خلال هذه الدقائق القليلة، إذ زالت منه الحيرة وبدت نظراته أكثر ثباتاً، إن هذه التغيرات تؤكد أن حديثاً خطيراً قد جرى. أما حين جاء نعيم مرة أخرى وأشار من بعيد إلى دحام أن يتبعه فقد تأكد الجميع أن الأمر أكثر جدية وخطورة مما قدروا في البداية.

ابن الراشد جاء إلى المعسكر قبل الظهر بقليل، كان يمكن أن يأتي قبل هذا الوقت، لكن اختياره لفترة الظهيرة معناه أن زمناً طويلاً قد انقضى على بداية العمل، وأن فترة الغداء لا بد أن تكون أحسن الفترات لكي يوضح لنعيم جميع الملابسات، ومعناه أيضاً أن الغيظ الذي يملأ صدر الرجل قد زال أو تراجع كثيراً.

بإشارات أكثر من الكلمات أوضح دحام لابن الراشد كل شيء، ويبدو أن ما نقله إليه كان خطيراً إلى درجة أنه هزّ رأسه عدة مرات دلالة الفهم والاهتمام. أما حين التقى الرجلان، وقد وصل نعيم فجأة، فقد فتح ابن الراشد يديه الاثنتين وبدأ الترحيب بصوت عالٍ وبكلمات حارة وودية للغاية وكأنه لم يره منذ وقت طويل، والرجال الذين رأوا المشهد وسمعوا الكلمات، لم يتمالكوا أنفسهم من الابتسام وتبادلوا فيما بينهم نظرات ماكرة.. وتذكروا أيضاً الكلمات التي قالها نعيم أمس الأول!

في ذلك اليوم، بعد الغداء مباشرة، أُخذت للعمال صور شمسية، وقد كانت هذه الصور موضع اهتمامهم إلى درجة أثارت الدهشة والاستغراب،

وظلت موضوعاً لأحاديثهم حتى بعد انقضاء فترة من الزمن. أما حين أخذت بصمات الأيدي فقد داخلهم الخوف وسيطرت عليهم الشكوك، ورغم أنهم وافقوا بنوع من التسليم، إلا أن أحد لم يستطع أن يفسر الأمر بشكل مرضٍ، وقد تحدثوا في ذلك مع أهل حران، ومع الذين وفدوا في الأسابيع الأخيرة، إلا أن أحداً لم يستطع أن يقدم تفسيراً واضحاً أو مقبولاً، وأظهر اثنان أو أكثر من العمال رغبتهم في ترك العمل والعودة إلى عجرة لأن «أغنية الشيطان بدأت، وهذه الأغنية حين تبتدئ لا تنتهي» إلا أن محاولات دحام، والتي اتسمت باللين والمكر، وببعض التهديد أيضاً، مشيراً إلى أن تركهم العمل في هذا الوقت بالذات من شأنه أن يثير حولهم الشبهات، انتهت هذه المحاولات إلى الموافقة على البقاء مؤقتاً، لكن الخوف لم ينته والشكوك لم تتراجع، واعتبر الجميع أن ابن الراشد هو المسؤول عن كل ذلك. وإنه يرتب أموراً رديئة سوف تؤذي الجميع، خاصة بعد أن أصبح شخصاً مختلفاً وشرساً، وبعد أن وضع حاجزاً بينه وبين الآخرين.

قال هاجم لأخيه تلك الليلة قبل أن يناما:

ـ قلت لك: نبقى في ديرتنا، قلت: لا، نسافر، سافرنا ووصلنا إلى هنا.. وشفت. وإذا كان اليوم مثل ما شفنا.. لا أحد يعرف باكر ويش يصير.

رد مزبان وهو يشدّ الفروة ليغطي رأسه:

ـ نم.. نم يمكن تحلم بواحدة أميركانية!

ـ الأميركانيات سافرن، وهذا الحين دور الأميركان، فإذا ما كنت حصان طاحوا بك وشقوا طيزك!

قال فواز وهو يقهقه:

ـ يا جماعة الخير: ظني اليوم أحسن من باكر، وباكر أحسن من اللي عقبه.

قال هاجم بمرارة:

ـ ابن الراشد مثل ما قال النصّيص: خرا.

توقف لحظة ثم أضاف:

ـ هذا النصّيص لعنة ويعرف الرجال.. وانتم شفتم ابن الراشد اليوم.

قال صويلح:

ـ اصبروا.. يا جماعة الخير.. الصبر طيب.

وظل الرجال فترة طويلة قبل أن يناموا، أما حين غرقوا في النوم فقد رأوا أشياء كثيرة، لكن لم يجرؤ أي واحد منهم أن يحدّث الآخرين في اليوم التالي بما رأى!

في الأسبوع التالي لوصول باخرة الشيطان، ولهرب الثلاثة، بدأ تشييد حران العرب. فبعد ذلك الغيظ الذي استبد بالرجال، والمصحوب بالمخاوف والشكوك، إضافة إلى عدة حوادث متعلقة برفض الأكل الذي قدمه ابن الراشد للعمال، خاصة وأن الرجال الذين جاء بهم من أجل أن يقوموا بتحضير الخبز وبيع اللحم والحاجات الأخرى، خلقوا جواً من التحريض. كما تم الاتفاق على أن يقوم أهل حران بقطع الحجارة، خلال أيام الأسبوع، وأن تنقلها جمال ابن الراشد، على أن يتم البناء عصر الخميس ويوم الجمعة، حتى لو لم يشارك فيه أهل حران. وهذا ما حصل فعلاً.

فمن بقايا الصناديق الخشبية الكبيرة وألواح الزنك، إضافة إلى مجموعة من الحجارة غير المنتظمة، والمتفاوتة الحجم، وقد جمعت على عجل، أقيمت الدكاكين الأولى في حران العرب. أما السقوف فكانت خليطاً من الزنك وأقمشة الشوادر والكرتون وبقايا الأغصان التي تخلفت بعد قطع الأشجار التي كانت تميّز حران عن غيرها. أقيمت هذه الدكاكين على عجل، وقد انشغل العمال كلهم بإقامتها، لأنهم كانوا يريدون أن يروا الفرن، وأن يشتروا اللحم من القصاب مباشرة، كي يعودوا إلى تحضير الأكل الذي يلائمهم، وكانوا يطمحون أيضاً، وإن ظل هذا الشعور غامضاً لم يفصح عنه أحد، في أن يقيموا شيئاً خاصاً بهم، بعد أن أقام الأميركيون مدينتهم على التلال الشرقية وحتى البحر.

عند عصر الجمعة فرغ العمال من البناء، وقد ذبح ابن الراشد بهذه المناسبة خروفين. ذبحهما أبو شايع، وأثناء السلخ التهم قسماً كبيراً من

الكبد، أما الإلية فقد اقتطع بالشبرية أجزاء منها، وبعد أن تذوقها عرض على الآخرين أن يشاركوه في هذه المتعة وأن يتذوقوا، وحالما انتهى من تحضير الخروفين، التفت إلى أبي كامل وقال بلهجة المنتصر «هذا ذبح عربان، وباكر نشوف ذبح أهل المدن!» وابن الراشد الذي كان يدور من مكان إلى آخر بحماس، وقد علق طرف ثوبه بسرواله، كي لا يعيقه عن الحركة، قدم توجيهات كثيرة في كيفية إنجاز البناء وأين يجب أن توضع بعض الأحجار، ثم تأكد بنفسه أن الألواح الخشبية ثبتت بقوة، فلما انتهى كل شيء تراجع إلى الوراء وألقى نظرة أخيرة ليطمئن أن كل شيء في مكانه، حتى إذا بدا راضياً نفض يديه وأنزل ثوبه، وقال للرجال الذي كانوا حوله:

ـ هذا من فضل ربي.

ومع أقداح القهوة والشاي التي قدمت بعد الأكل تحدث الكثيرون عن كيفية بناء البيوت وعن المدن التي رأوها، وكيف أن مفلح وصل إلى مصر وهناك رأى بيوتاً لا يمكن للجن أن تصل إلى أعاليها، وأكد أن أهل مصر هم أحسن البنائين في العالم، وأنه لم ير مثل بنائهم في الأماكن الأخرى التي مرَّ فيها. وابن الراشد الذي كان بادي السرور، على غير عادته، وإن لم يتحدث كثيراً، أعطى توجيهات للذين سيعملون في الدكاكين، كيف يجب أن يحافظوا عليها، وأن يبلغوه بكل شيء، ووعدهم أيضاً أن يلبي جميع ما يحتاجون إليه وقال وهويقوم إيذاناً بأن السهر قد انتهى وعلى الرجال أن يناموا لكي ينهضوا نشيطين:

ـ بعد سنة أهل حران لن تعرف حران!

عبده محمد فرّان حران الماهر، يدندن وهو يدخل الأرغفة إلى بيت النار، ويدندن أكثر وهو يخرجها. بالإضافة إلى صنع الخبز يحضّر أشياء عديدة: اللحوم المشوية، الصواني، المعجنات، وبعض الأكلات التي يخترعها في اللحظة وحسب توافر المواد. يحب الحياة والغناء، ويهمسون أنه يحب «الكيف». بعد أن ينتهي من العمل يصبح إنساناً آخر: الوزرة الزرقاء التي يضعها على وسطه من الفجر وحتى بعد الظهر، لا أحد يتصور أنه كان يلبسها حين يراه بعد العصر في تلك الملابس الباهية، وكأنها ملابس حلاق! الكلمات القصيرة، وبعض الأحيان العصبية، خلال ساعات العمل، تتحول عند الغروب أو في أول الليل إلى عذوبة فياضة، وكثيراً ما يتخللها الغناء والمزاح. لكن هذا لا يدوم طويلاً، لأن حجة عبده دائماً جاهزة: «الفجر لا ينتظر ولا يتأخر!» يقولون إنه يذهب مبكراً لكي يعمّر رأسه، والدليل على ذلك أن عينيه دائمة الحمرة! وهو رغم الطيبة التي تميز سلوكه وعلاقاته سريع الإثارة، عصبي المزاج. كلمة واحدة تكفي لأن تغيّر عالمه وتجعل منه إنساناً آخر، يؤكد عبد الله الأبيض، صاحب الفرن الثاني الذي قام في حران بعد سبعة شهور، أن «في رقبة عبده قتيلين» وهذا الذي جاء به من تهامة أو سومطرة، ولهذا السبب أيضاً لم يرجع إلى أهله منذ سنوات طويلة. وحين يُسأل عبده متى سيرجع إلى وطنه ويزور أهله لا يجيب إجابات واضحة، وقد عزز هذا الشكوك حوله، لكن مع ذلك لم تتغير علاقات الناس به.

لما أقام ابن الراشد الفرن كان عبده مجرد صانع يتقاضى أجراً، وقد استمرت هذه الصيغة طيلة السنة الأولى، لكن حين اتسعت مشاريع ابن

الراشد وتكاثرت جاء من نصحه أن يشارك الذين يعملون معه «لأنه تصبح لهم مصلحة في أن تزداد الأعمال، والأعمال إذا زادت تعطي أرباحاً أكبر» وقد وجد ابن الراشد في هذه النصيحة حكمة، خاصة وأن «دحام غير قادر على ضبط الدفاتر، وابن هذال صغير ويمكن يورطنا، والإنسان إنسان، ينسى، تفوته بعض الأمور، لأن عقلة ما هو دفتر» وهكذا أصبح عبده محمد شريكاً بالثلث.

منذ اليوم الأول زيّن عبده الفرن بمجموعة من الصور انتزعها من المجلات الإفرنجية التي حملها العمال من حران الأميركان، وقد اختارها بعناية، ثم اختار أمكنة مناسبة فعلقها فيها، مستعملاً العجين في لصقها.

حين شاهد الكثيرون هذه الصور دهشوا أشد الدهشة، وظلوا يتأملونها فترة طويلة، وعلقوا على كل صورة. أما أهل حران، خاصة بعض المتدينين، فقد اعترضوا، لأن الأطفال، بمن فيهم البنات الصغيرات، كثيراً ما يترددون على المخبز، ومن شأن هذه الصور أن تفسدهم، فطلب ابن الراشد من عبده أن يقتصر على «صور الخيول والقصور والمناظر المحتشمة» وقد استجاب له عبده في الفترة الأولى، لكن استجابة شكلية ماكرة، إذ علق فوق الصور التي اعترض عليها صوراً أخرى، علقها من أعلى فقط، بحيث يستطيع بنفخة من فمه، أو بحركة من أصابعه الماهرة، أن يجعل الصورة العليا «تطير» قليلاً وتظهر ما تحتها، وقد أوحت له هذه الطريقة بفكرة جهنمية، إذ ما كادت تقع في يده مجلة مليئة بصورة نساء أشبه بالعاريات حتى تفنن في لصقها ثم في ترتيبها وعرضها. كان يرفع ببطء وإثارة الصورة العليا، فما تكاد الأجزاء السفلى من السيقان تظهر حتى يبدأ تدريجياً برفعها، ومع كل حركة صغيرة، بطيئة، تزحف الكلمات والتأوهات، كان يفعل ذلك حين يكون وحيداً، لكن مع الأيام بدأ يتساهل، وسمح لبعض الذين يعرفهم ويثق بهم أن يطلعوا عليها. كان يفعل ذلك بعد أن يغلق باب الفرن بإحكام ويتأكد أن لا أحد يراقب.

في وقت لاحق طوّر عبده هذه الطريقة، بحيث وضع صور نساء ورجال بأوضاع وأشكال يمكن أن تعطي دلالات واضحة، وأصبحت هذه

القضية تشغله، كما أصبح لا يكتفي بذلك، بدأ يضع إضافات هنا وهناك بالفحم، وأعطى النساء أسماء من عنده كما أعطى لوضعيات معينة تسميات خاصة. ثم بدأ يقص ويركب كما يوحي له خياله، وكان في كل مرة يفعل شيئاً يرضى عنه يبدو شديد السرور والانفعال.

العمل يتزايد ويتسع كل يوم، والبشر يتكاثرون. أبناء حران بدأوا ببناء بيوت خاصة بهم في أقصى مكان نحو الغرب، قريباً من التلال. الدكاكين الثلاث التي قامت في الأيام الأول بدأت تتضاعف وتزداد كل شهر، أما الطريق إلى عجرة الذي كان يضيع فيه المرّي فقد أصبح سالكاً بحيث تصل منه قافلة أو أكثر كل أسبوع. أما ابن الراشد الذي لا يُعرف ما إذا كان مقيماً أو مسافراً، لأنه كثير الحركة سريع التنقل، ولا يبوح لأحد بما سيفعل، فكان كل مرة يغيب فيها أسبوعين أو ثلاثة يرجع مصطحباً معه مجموعة من الرجال، مجموعة متنوعة إلى أقصى حد، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يقدر من أين جاءوا أو ماذا سيعملون، إذ إضافة إلى العمال الذين سيعملون في الشركة، كان يأتي آخرون يقضون أياماً في حران وهم يذرعون الأرض من الشاطئ وحتى التلال البعيدة، يقيسون بأرجلهم أو بحبال المسافات بين مكان وآخر، ثم يضعون رجوماً صغيرة من الحجارة هنا وهناك لتعليم الأمكنة وتمييزها، حتى إذا فرغوا من ذلك أخذوا يطيلون التأمل وبعض الأحيان إعادة القياس. لما تنتهي هذه العمليات ويسافر هؤلاء الناس يستريح أهل حران من أولئك الصامتين الغامضين الأقرب إلى السحرة في حركاتهم وتصرفاتهم. لكن ما يكاد يمر شهر أو اثنان حتى يعودوا، وبعودتهم تضجّ حران وتنقلب، وخلال فترة قصيرة تقوم مجموعة من الدكاكين الجديدة، واحدة تصبح مطعماً، وثانية مخزناً للمواد، وثالثة لبيع القماش والحبال وأشياء أخرى، ورابعة تصبح مركزاً لابن الراشد وللذين جاءوا معه لكي يستقبل في هذا المركز المراجعين والذين يريدون أعمالاً، وفيه توزع الرواتب أيضاً.

وعبده الذي يجد وقتاً ليغني ويمزح مع الأصدقاء أثناء العمل، وكان يفرغ من العجين في وقت مبكر، بدأ يواجه أفواهاً تزداد يوماً بعد آخر،

وكان عليه أن يطعم هذه الأفواه، فبدل الشوال الواحد من الطحين كان يكفي حران كلها، بدأت الكمية تزداد أسبوعاً بعد آخر. أما صواني اللحمة التي كان يتفنن فيها أول الأمر، وكذلك المعجنات، فلم يعد مستعداً لأن يمد يده إليها إلا بعد أن تنتهي آخر قرصة عجين، وبعد أن يخرج آخر رغيف من بيت النار، هكذا كان يقول بحدة. أما علاقاته مع أبو كامل اللحام، رغم المودة في البداية، فقد أصبحت أكثر برودة ودائمة التوتر، لأنه وراء الاقتراحات التي يأتي بها الكثيرون من أجل تحضير غداء في الفرن، وهو عبارة عن كمية من الخضر مع قطع اللحم، أو بعض رقائق العجين باللحم، كان عبده يعرف أن اقتراحات من هذا النوع أوصى بها أبو كامل لكي يخلص من لحمته بسرعة ويستريح.

وإذا كان الكثيرون قد تعودوا على رفض عبده الصلب في البداية، إلا أن نقاط الضعف التي يعرفونها فيه، حين يسألونه عن «ولعة» و«راكبة السيف» و«الشقرة». أو حين يبدأون بنفخ الصور فتتطاير السيقان وتتساقط الأرداف.. عندها يحس عبده أن ذهنه تشتت ومقاومته ضعفت، فإذا ذكّره أحد بحادثة أو نكتة فعندئذٍ يصبح أكثر استعداداً لأن يسمع وينتبه. وهكذا يتراجع خطوة بعد أخرى، فبعد الرفض القاطع يصبح الأمر ممكناً «ليس الآن... بعد ساعة أو ساعتين، إلى أن أفرغ من هذه الأقراص» فإذا وجد إلحاحاً أو وجد في نفسه رغبة يتنازل عن كل اعتراضاته ويقول بصوتٍ حادٍ:

ـ أعرف.. أنتم في قلوبكم تقولون أن عبده مثل حمار العرس، ظهره قوي ويحمل... لكن في يوم من الأيام تطلع برأس عبده... وعندها الله يستر.

وبطريقة لا تخلو من المكر يقولون له إنه أعظم رجال حران وأكثرهم كرماً، ولذلك هم يطمعون به، يحبون الأكل الذي يخرج من بين يديه، ثم إن ساعة معه، وفي هذه الجنة: الأنهار والجبال والحور العين، هي التي تجعل الحياة ممكنة في حران. وتبدأ أصابعهم الخشنة تمتد إلى الصور تقلّبها، فما يكاد يرى العبث وقلة الدراية بتقليب الصور حتى يصرخ:

ـ النار. . . النار. . .

وحين يتطلعون نحوه مذعورين يضيف بلهجة ساخرة:

ـ يا جحاش أنت وهو. . هذا الرزق لازم الواحد يتعامل معه مثل ما يتعامل مع الجفن والعين: رقة ونعومة. . . وإلاّ راح. . .

يتوقف لحظة يتطلع إليهم، يهز رأسه ثم يضيف:

ـ الواحد منكم يتصور نفسه يعقل ناقة أو يقطع حجراً. اتقوا الله. قولوا الحمد للّه، ربنا أنت وحدك المعبود لأنك خلقت لنا مثل هذا الحسن. . إنك جميل وتحب الجمال.

وبعض الأحيان، إذا رق مزاجه، يسترسل، يقول شعراً خالصاً، وقد يغني. إن ذلك يتوقف على حالته النفسية، على مدى التعب، وبعض الأحيان يتوقف على ردود الأفعال التي تصدر عن الذين حوله.

هكذا كان عبده محمد. . . وهكذا ظل لفترة طويلة.

وإذا كانت حران قاسية خانقة حتى بالنسبة للذين كانوا فيها من قبل، فإنها بالنسبة للذين يأتون إليها أكثر قسوة، إذ تولد في صدورهم حالة من الانقباض يشعرون بها منذ الساعات الأولى لوصولهم، إلا إذا وصلوا في الشتاء، وتظل هذه الحالة تزداد يوماً بعد آخر، مع ما تجره من الضيق والحدة في الطبع، وبعض الأحيان الهياج الذي يؤدي إلى العراك.

ورغم أن الفرن باللهب الذي ينبعث من بيت النار شديد الحرارة في الصيف والشتاء، في النهار ومعظم ساعات الليل، ولا يقوى أحد على تحمله، خاصة عندما يتوقف الهواء وتصبح السماء ثقيلة فوق حران، فقد كان بالنسبة لعبده مكان العمل ومكان النوم، والمكان الذي يقضي فيه أغلب الوقت، حتى لو لم يكن يعمل أو لم يكن نائماً. فسر بعض الناس الأمر بأن عبده «يكيف» خلال هذه الساعات ولا يريد أحداً أن يراه أو يعرف ذلك. كان يغلق الباب بإحكام ولا يردّ على الطرقات التي قد يطرقها من يبحث عن الخبز، إذا فاته الحصول عليه. وقد يطرقها بعض معارفه، أو من يعتبرون أنفسهم أصدقاء. فإذا توالى الطرق واستمر فترة طويلة فكان يخرج صوته كما لو أنه صادر من بئر عميقة:

ـ يفتح الله . . نفّقنا وأغلقنا .

فإذا استمر الطرق أكثر من ذلك وترافق مع أصوات تطلب منه أن يفتح كان يتقدم حتى يصبح في مواجهة الباب من الداخل ويصرخ :

ـ يا عباد الله . . اتقوا الله ، اتركوا الناس بهمومها ومصائبها . . اتركونا نستريح .

لقد تكررت مثل هذه الحالة مرات ، وتكررت إجابات عبده وتكرر موقفه .

ولذلك تأكد الكثيرون أن الأمر أمر «الكيف» لكن أحداً لم يقل ذلك بصوتٍ عالٍ أو بقصد الإساءة أو الوشاية ، لأنهم يحبون عبده ، ولا يتصورون أنفسهم قادرين على العيش بدونه ، فقد أصبح جزءاً من حياة حران الجديدة .

وقال آخرون «لا كيف ولا حاجة من هذا الكلام الفاضي . . عبده عابد الصور ، يظل يقلبها ويتفرج عليها حتى يغفو فوق صدر واحدة . . . وينام !» .

ولم يعرف أحد على وجه الحسم واليقين لماذا عبده هكذا . وحين يسأل يجيب بأسئلة من نوع آخر :

ـ لازم أعرف من هو إبن الجربة ، إبن الحكاكة الي ما خلاني أنام . . .

ويتطلع بعيون متهمة لعل من يسأله يكون هو ذاته الذي طرق عليه هذا الطرق في الليلة الفائتة ، لكن أحداً لا يعترف ، فيهز عبده رأسه ويتابع :

ـ يمكن أحد دفع له قرشين وقال له عكّر مزاج الناس ، بعبص كيفها !

ويتباطأ كأنه يكلم نفسه :

ـ أولاد الحرام بالدنيا لا بد أن ينكشفوا ، لأن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها .

وفي محاولة أن يطيبوا مزاجه ، يوافقونه على ما قاله ، ثم يغيرون مجرى الحديث ، حتى إذا صار طبيعياً طلبوا منه أن يريهم آخر الصور التي حصل عليها ، وكيف رتبها وما هي الأسماء الجديدة التي أعطاها للحسان

الجديدات. كان يستجيب بعض الأحيان، وكان يرفض أغلب الأحيان. وكطريقة لقطع الطرق على الذين يسألون ولا يريد أن يجيبهم لطلبهم يقول ساخراً:

ـ اتركوا قصص الشيطان يا جماعة...

ويتطلع في وجوههم ويسأل:

ـ ما عندكم شغل؟ ها.. احكوا...

ولا ينتظر إجابة، يضيف وهو يضحك:

ـ مثل ما قالوا: اللي ما عنده شغل يلعب بخصيانه.

وبعد أن يستريح ويتنحنح ويذهب بعيداً في أفكار وذكريات كثيرة متداخلة يقول كأنه يحدّث أشباحاً:

ـ يا جماعة.. خلوا الناس تشتغل.. بعد ساعة كل واحد منكم جوعان وهات خبز يا عبده.

أما إذا راق مزاجه تماماً فكانت دائماً لديه صور جديدة! فما يكاد يرى الجو قد أصبح مناسباً حتى يجرّ من مكان خفي مجموعة من الصور «يا دين النبي.. شوفوا.. شوفوا يا جماعة الخير: الشعر شعر فرس، الجبين يضوّي، العيون ولا عيون غزال والفم لوز، أحلى من اللوز، الخدود حمرا.. تفاحة، يا صلاة النبي، الصدر مرجوحة. سلامي عليك يا سيدنا الخضر، وألف تحية لك يا من كنت في بطن الحوت. والبطن.. البطن يا جماعة.. آخ... آخ!» ويتوقف، يلتفت إلى الذين يسألون، يتطلع إليهم لكن لا يراهم، حتى إذا عاد من رحلته وتطلع إلى الصورة من جديد، قال: «لو واحد شدّ على الخصر ينقطع» ويضرب على الدكة العالية حيث يضع العجين ويجيب نفسه: «ينقطع نفسه، تنقطع رقبته قبل ما يقطعه، يموت قبل ما يفعل فعلة اللئام...».

فإذا سأله أحد أن يتابع وصفه، أن يذهب أبعد وأعمق. ينظر بحزن ويقول «عند الخصر أدركت شهرزاد الصباح وسكتت عن الكلام المباح».

في مرات قليلة، وأمام أصدقاء قليلين جداً تابع، قال أشياء شديدة الجمال والرقة، وكانت مع الكلمات تخرج من الأعماق زفرات حارة، أشد

حرارة من لهب الفرن، وكان الرجال يسافرون، فإذا عادوا من أسفارهم شعروا بآلام حادة في أجزاء عديدة من أجسامهم، ومع الآلام كانوا يشعرون بالتعب أيضاً.

استمرت الحال هكذا شهوراً طويلة. حران تكبر والبشر يتكاثرون. عبد الله الأبيض أقام فرناً جديداً بالتعاون مع الدباسي. التنافس بين الفريقين يزداد، ومع التنافس الإشاعات والخصومة. لكن عبده لا يأبه كثيراً لما يقال، يسمع وينسى. الحرب بين ابن الراشد والدباسي تتسع وتتشعب، والفرن ليس إلا أحد الميادين، وربما أصغر الميادين وأقلها أهمية. حران تغرق في الحرارة والرطوبة والوجوه الجديدة والمفاجآت. وعبده يروق مزاجه يوماً ويعتكر في يوم آخر. الناس تعودوا عليه وبدأوا يعرفون كيف يتعاملون معه بشكل أفضل. وإذا كان عبء الخبز لا يزال يقع القسم الأكبر منه على عاتق عبده، فقد تخلص من عبء الأكل، إذ قامت في حران مطاعم من مختلف الأنواع: صغيرة.. تقدم أنواعاً محدودة من الأكل، تناسب العمال، وأخرى أكبر منها وأعلى سعراً، ثم مجموعة من الدكاكين التي تبيع المعلبات وبعض الخضر والفواكه، إضافة إلى باعة الحلوى.

وعبده الذي شغل الكثيرين في بداية الأمر، وكان الناس يتتبعون أخباره وأخبار الصور التي وصلت إليه، بدأت أمور أخرى تشغلهم، ولم يعد أغلبهم يتذكر عبده وصوره إلا إذا رآه، إذا مر لشراء الخبز، وخلال الدقائق القليلة التي يستغرقها الشراء. - فيما لو كان الجو ملائماً - فإن الأسئلة ذاتها تتكرر: «ما هي أخبار الصور الجديدة؟ متى نراها؟» وعبده الذي لا يجيب، أغلب الأحيان، ويظل منهمكاً في العمل، يعرف متى يظهر صوره ومتى يخفيها، ويعرف أكثر من ذلك أمام من يفعل ذلك.

وفي دوامة الحياة اليومية ومشاغلها التي تزداد وتتعقد يوماً بعد آخر يغرق الناس في همومهم. ورغم كثرة البشر وتزايدهم بلا حدود، ولا توقف، فإن كل إنسان يصبح عالماً مغلقاً. والتعامل بين الناس الذين جاءوا من أماكن كثيرة ومتنوعة وربما متنافرة، يصبح حذراً ومحفوفاً بالمخاوف. وفي خضم هذه الدوامة لا يحس الكثيرون بالتغير الذي يجري حولهم،

لأنهم يرافقونه يوماً بعد يوم، ويصلهم دفعة بعد أخرى، حتى إذا تراكم وتضخم فاجأ الكثيرين.

وعبده الذي ظل يمارس عمله في الفرن، لم يلحظ الكثيرون، وهم يتناولون الخبز من يديه، التغيرات لتي بدأت تنسحب على وجهه. خاصة العينين، وعلى جسده ثم على تصرفاته. فالوجه الساهم، الأقرب إلى الشحوب، ثم العينان اللتان غارتا إلى الداخل كثيراً، واليدان المرتجفتان، واللتان تزدادان ارتجافاً كل يوم، بالإضافة إلى الصمت والغرق في حالة من الذهول، هذه التغيرات التي بدأت تزحف إليه لم تلاحظ فجأة، أو دفعة واحدة، حتى هو نفسه لم يفطن إلى ذلك. صحيح أن رجفة اليد بدأت تضايقه، خاصة عندما يكون مع آخرين، لكن عزا الأمر إلى التعب وكثرة العمل. أما الملابس التي كان يحرص على ارتدائها بعد العصر وفي أول المساء، وكانت دائماً نظيفة، فقد بدأت تصبح أقل نظافة وأقل أناقة.

في وقت متأخر، ربما نتيجة خطأ وقع فيه، أو نتيجة مكر أوقعه فيه الآخرون، بدا اللغز الذي كان أول الأمر شديد الغموض يتضح، إذ بعد تردد طويل اعترف للذين يثق بهم، إعترف بأنه يحب، ولم يضف كلمة أخرى! من هي المرأة؟ كيف تعرف بها وأين؟ لم يعرف أحد شيئاً.

ويوماً بعد آخر يغرق عبده في العشق والعذاب، ويغرق في الصمت والعزلة أكثر.. أيضاً. وإذا كان بعض الذين قالوا في بداية الأمر أن عبده «كيّيف»، وفي وكره لا يفعل شيئاً إلا أن يعمّر رأسه، فقد تأكدوا الآن، أكثر من قبل، من صحة استنتاجهم. أما الخصومات التي نشأت بين ابن الراشد والدباسي، وطول لسان عبد الله الأبيض، فقد ذهبت ببعض الناس إلى تفسير العزلة، أن عبده بدأ يخاف أن يؤخذ بثأر قتلاه، إذ ربما جاء أحد أقربائهم، ولا بد أن يصطاده بشكل أو آخر، ولذلك أخذ كل الحيطة وابتعد لعله.. ينجو.

والذين افترضوا منذ البداية أن عبده عابد للصور ومشغول بها، فقد ذهبوا بعيداً في سوء الظن، خاصة بعد رجفة اليد، التي أصبحت شديدة الوضوح، قالوا إن عبده غارق في العادة السرية، وإنه يمارسها عدة مرات

في اليوم، ولولا ذلك لما تدهورت صحته هكذا.

وعبده الذي تصله بعض الأقاويل، ولا تصله أخرى، في عالم آخر، مشغول بقضية لا يعرفها الناس. وإذا كان قد صمت وتحمل طويلاً وحده، ومثلما وقع في الخطأ، المرة الأولى، أو نتيجة مكر أوقعه فيه الآخرون... واعترف، فإنه يواصل اعترافه مرة أخرى.

فبعد الكثير من الإلحاح، وفي لحظة من الضعف لم يستطع أن يصمد، أخرج صورة من جيبه، أدارها في وجوه الذين كانوا حوله، واعترف بخشوع أقرب إلى الخوف، وقد كان صوته باكياً:

ـ هذه هي...

ولما استغرب الرجال واستنكروا ثم بدأوا يسخرون قال بصوت متهدج:

ـ كانت في الباخرة التي وصلت إلى حران.. ذاك اليوم!

وفهموا أنه يقصد باخرة الشيطان، الباخرة التي وصلت في الأيام الأولى، فلما تأكد أنهم فهموا أية باخرة يعني تابع:

ـ أول ما وصلتْ تطلعتْ إليّ. تركت الجميع وتطلعت إليَّ.. ولم تتركني!

وبعد قليل أضاف وكأنه يحدّث نفسه:

ـ كانت تبتسم بفرح، كانت تضحك. وفي اليوم الذي سافرت الباخرة تركت الجميع وظلت تتطلع إليَّ وتبتسم.. حتى لما ابتعد المركب ظلت تلوح وتبتسم.

سمع الرجال ولم يعلقوا.

وانتابت الجميع مشاعر الشفقة والخوف، خاصة وهم يرونه في حالة من العذاب الشديد، وبعد فترة ليست قصيرة قال:

ـ وجدت صورتها في مجلة، وإذا جاء من يقرأ سوف يقرأ عنوانها ويكتب لي رسالة وأرسلها إليها... وسوف تأتي!

القرابة غير الواضحة التي تربط الدباسي بأهل حران تجعل الجميع ينادونه: يا عم. حتى من كانوا في مثل سنه أو أكبر قليلاً، كانوا ينادونه بهذه الطريقة، دلالة على الاحترام. جاء إلى حران في الشهور الأولى، وربما بعد وصول «باخرة الشيطان» بأسبوعين أو ثلاثة. يقول ابن الراشد إن «أهل حران مهابيل، قالوا اللي ما عنده كبير لازم يدوّر على كبير، لازم يشتري له كبير، بعثوا طارش ليبحث لهم عن عزوة، عن وتد، فجاء لهم بعفريت، جاء لهم بزاوية ومحراث».

ويبدو أن خوفاً دخل إلى قلوب الناس وهم يرون الغرباء يأتون أفواجاً بعد أفواج، ورأوا الأميركيين ثم تلك الباخرة ـ اللعنة التي غيّرت حياة الكثيرين، وكانت قبلها التراكتورات قد بدأت تحرث الأرض وتهدم البيوت وتطمر البحر. ولما بدأ ابن الراشد يلتقط الشباب ليبعث بهم إلى حران الأميركان، فقد وصل الخوف بأهل حران درجة لم يعرفوا معه كيف يتصرفون.. كانوا يريدون لهم إنساناً كبيراً وقوياً، لعله يحميهم ويقف في وجه هذه الموجة التي تتقدم نحوهم يوماً بعد آخر.. وجاء الدباسي.

لا يدرى أي شيء قيل للدباسي، وما الذي حفزه على المجيء بهذه السرعة، فقد كان خلال فترة طويلة مقيماً في عجرة، أو بكلمات أدق كانت له دكان في عجرة، وفيها يقضي وقتاً من السنة، لكنه كان كثير الأسفار على الطريق السلطاني، ولم يصل إلى حران إلا منذ مدة طويلة، وصلها مرتين، الأولى في أول شبابه والمرة الثانية قبل خمس سنين. وإذا كان بحكم أسفاره والدكان التي له في عجرة على صلة بأهل حران، سواء بحمل الرسائل خاصة رسائل المسافرين أو الدراهم التي يرسلونها، فقد

كان أيضاً يرسل قافلتين أو ثلاثاً سنوياً إلى حران لتأمين ما تحتاجه من مواد. وكان بحكم القرابة، أو ربما لأسباب أخرى، كريماً بنظرهم، وإن ظل متشدداً في معظم عمليات البيع والشراء، وقد تعوَّد عليه أهل حران، المقيمون منهم والمسافرون، فكانوا يودعون لديه أموالهم ويستلفون منه، وكان الواحد منهم أول وصوله إلى عجرة يسأل عنه ويزوره.

لم يستغرب أهر حران، إذن، مجيء الدباسي بهذه السرعة، بل فرحوا بذلك فرحاً شديداً، لكن الأمر بدا غريباً لابن الراشد وفألاً سيئاً. فما كادت أيام قليلة تنقضي، والدباسي باقٍ، ويطيل التشاور مع أهل حران، حتى دبّت بين الرجلين خصومة صامتة. وإن ظلا يحافظان على المودّة الظاهرة والاحترام، وبدا واضحاً أيضاً أن كلاً من الرجلين يرتب أموره ويهيّئ نفسه للمرحلة القادمة.

فأهل حران الذين اختاروا الجهة الغربية، وبدأوا يبنون منازلهم هناك، تراجعوا عن أكثر ما قالوه لابن الراشد حول الأراضي، وأخذوا يماطلون ويؤجلون، وإذا كان بعضهم قد تصرف ببيع الأراضي التي كانت عليها بيوتهم، فقد أخذوا يتشددون في أية عروض جديدة تقدم إليهم، حتى الأرض التي قامت عليها حران الأميركان قالوا إنها كانت مراعي لماشيتهم، ولأنهم حرموا من هذه المراعي فلا بد أن يتلقوا مقابل ذلك، وأشاروا بغموض إلى أنهم بعثوا إلى المسؤولين لكي ينصفوهم قبل أن تتطور الأمور.

والدباسي الذي قضى شهراً أو يزيد في حران، وأشرف بنفسه على تأسيس بعض البيوت في الجهة الغربية، قفل عائداً إلى عجرة، على أن يعود مرة أخرى، وفي أقرب فرصة ممكنة. وأكد أنه سيطلب من جميع الحرانيين الذين سيلقاهم، أو يستطيع الاتصال بهم، أن يعودوا إلى حران بأسرع وقت. وهو الذي أشار على أهل خران أن «يمسكوا الأرض بأسنانهم، لأنها رأسمالهم الوحيد». ولذلك ذهبت محاولات ابن الراشد، والاتفاقات الأولية التي أجراها معهم في متاهات جديدة ومعقدة من المفاوضات والانتظار. لكن ابن الراشد لم يتوقف ولم يسلم، إذ بدأ حرباً

من نوع آخر، فقد طلب من البعض أن يبلغوا أهل حران أن «الأرض كلها للحكومة، والحكومة هي التي تعطي وتأخذ، ثم إن الأرض لا تطعم ولا تسقي، والأفضل أن يأخذوا ما يعرض عليهم الآن... لأنه قد يأتي يوم تؤخذ منهم الأرض ولا يحصلون على أي شيء ويصبحون مثل معايد القريتين».

وأهل حران الذين سمعوا من الدباسي وهزوا رؤوسهم، ثم سمعوا ما نقل إليهم عن ابن الراشد، عاشوا في حيرة مريرة. فهم لا يعرفون هل يبيعون أم لا يبيعون. وإذا باعوا هل ما يعرضه عليهم ابن الراشد هو ثمن مجزٍ أم لا؟ وإذا لم يشتر هو فمن سيشتري غيره؟ من يملك المال ويشتري أرضاً لم يفكر أحد من قبل ببيعها أو شرائها؟ وهل الأراضي هي لهم فعلاً يستطيعون أن يتصرفوا بها دون أن تحاسبهم الحكومة؟

ابن الراشد يذهب إلى حران الأميركان، يقضي هناك الساعات الطويلة، وبعض الأحيان يسهر، أو يعود ببعض الأميركيين لكي يسهروا عنده، وهؤلاء الذين يأتون، قبل أن يدخلوا خيمته يتمشون على الشاطئ، يصلون إلى التلال الغربية، يتأملون وجوه الناس، ولا يترددون في أن يتبسطوا مع الكبار والصغار. كان عدد منهم يعرف العربية، لكنهم ينطقون الكلمات بطريقة مضحكة، فإذا انتهت هذه الجولة، مع ما يتخللها من أحداث تبدو بنظر الناس على جانب كبير من الأهمية والدلالة، يدخلون خيمة ابن الراشد فيذبح لهم ويولم وليمة كبيرة، حتى إذا انتهت السهرة، لا ينتظر طويلاً لكي يبعث برسول أو اثنين إلى أهل حران، عارضاً عليهم أن يشتري الأرض منهم، أن يسعدهم إذا اعتمدوا عليه، إذا وثقوا به، ومع الوعود السخية تهديدات غير مباشرة.

وتزداد حيرة أهل حران ويزداد خوفهم. ماذا يفعلون وإلى متى ينتظرون؟ والدباسي الذي سافر وتأخر في عجرة لا يعرف ما إذا كان سيعود أم لا. وحتى لو عاد فهل هو بقوة ابن الراشد أو يستطيع مقاومته؟

كانت الأفكار والشكوك تتكاثر وتزداد بزيادة الحركة وتكاثر البشر، فإذا طال انتظار أهل حران أو استمر ترددهم يبعث ابن الراشد من يقول لهم:

ـ ابن الراشد لم يرسلني. . . جيت وحدي.

وحين يظلون صامتين وعيونهم معلقة بفمه يضيف:

ـ لا بد إنكم سمعتم ما صار بوادي العيون، ما بقي فيها بيت ولا بقي فيها أحد. رحل أهلها كلهم. صار كل واحد منهم تحت نجم: جماعة في الشرق وجماعة في الغرب. . وهنا، في حران، بين العمال، عدد من أهل وادي العيون. . .

يتوقف قليلاً حتى يستوعب الجميع الدرس، حتى يستعيدوه في ذاكرتهم وقلوبهم، ويتذكروا معه أبناءهم المسافرين، فيتابع كأنه يخاطب مجهولاً:

ـ العقل للإنسان زينة، والعاقل اللي يعرف كيف يتصرف، يأخذ ويعطي، يبيع ويشتري، أما إذا عاند يضيّع الأول والتالي.

فإذا استقر هذا النغم في وجدان الناس تركهم هذا الرسول وأتى غيره في اليوم التالي، وبطريقة تراوح بين الإغراء والتهديد يسأل:

ـ ها. . . ما قول النشامة؟

وتتساءل عيونهم فيتابع:

ـ ابن الراشد يقول: الأرض من المقبرة حتى التل الأخير لأهل حران، لهم وحدهم، لا يشاركهم فيها أحد، ومن المقبرة حتى السوق تباع لمن يشتري، والسعر سعر السوق، وابن الراشد، إذا بعتموه يدفع كوماً فوق سعر السوق.

وباع بعض أهل حران واشترى ابن الراشد. اشترى من عدة أشخاص. وأثناء عمليات البيع والشراء تعمد أن يحضر عدداً من الناس، وأن يفتح كيسه بسخاء، كما كتب أوراقاً، كتبها له دحام وابن هذال، وقد أخذ بصمات الذي باعوا وأشهد على ذلك عدداً من الناس الحاضرين. استغرب أهل حران هذه الطريقة في البيع، إذ لم يتعودوا أن يكتبوا أوراقاً، أما البصمات التي أخذت فقد أثارت الكثير من الارتياب والخوف، ورفض أحدهم أن يضع بصمة إبهامه على الورق، وقال إن لديه خاتماً كان قد

صنعه في الشام قبل سنوات، وابن الراشد الذي وافق على الخاتم وبصمات الشهود قال وهو يبتسم:

ـ يا جماعة الخير الرجل باع وأنا اشتريت، وهذا القرطاس ما له قيمة، كلمة الرجال فوق كل ورقة وكل مال، لكن الدنيا حياة وموت، والأرض التي باعها الخويا، هي من شرق المقبرة حتى الجامع.. وأنتم شهود.

وبطريقة بدائية مقصودة حددت الأراضي التي اشتراها ابن الراشد، حددت برجوم من الحجارة في الزوايا، بعد أن استعمل حبلاً في قياسها، وقد أقام في بعضها مخزناً للأخشاب التي حملها من حران الأميركان، ووضع في قطعة كبيرة أخرى أكواماً من الحجارة جلبها على الجمال من المحاجر الواقعة غرب حران، كما نقل مربط الجمال من طريق عجرة إلى مكان قريب من السوق.

كان ابن الراشد يتحرك بسرعة وثقة، وهذه الحركة السريعة بمقدار ما كانت تثير الإعجاب كانت تثير الحسد والمخاوف، خاصة وأن الأميركيين الذين يأتون إلى حران العرب، ويزورون ابن الراشد، بدأوا يقضون وقتاً أطول بين الناس، ووقتاً طويلاً مع ابن الراشد ذاته، دون أن يرافقهم النضّيص، كما كان يحصل من قبل، كما أنهم لا يفعلون شيئاً سوى الحديث مع الناس وسؤالهم عن كل شيء.

قال الكثيرون إن هؤلاء الذين يتكلمون العربية مسنون، ولذلك لا يستطيعون العمل. وقال آخرون إنهم كفرة ويريدون أن يصبح الناس مثلهم. وهم مثل الشياطين يتحركون من مكان إلى آخر، وابن الراشد معرّف الشياطين.

ما كادت ثلاثة شهور وبضعة أيام تنقضي حتى عاد الدباسي. جاء ومعه إثنان من أبنائه وثلاثة من أقاربه. جاء هذه المرة لكي يبقى في حران، ليسكن فيها ويستقر، بعد أن ترك ابنه الأوسط في عجرة. وبمجيئه بدأت مرحلة جديدة في حران.



بالرغم من تأخر الدباسي، فقد كان شديد الثقة وهو يصل. كان ذلك واضحاً منذ الليلة الأولى، ثم جاءت تصرفاته بعدئذٍ لتؤكده. فالأسفار التي حملته إلى أمكنة بعيدة، حتى أنه وصل إلى مصر، وركب البحر ثلاث مرات، مرة من بور الإسكندرية إلى حيفا أثناء الحرب، ومرتين من بيروت إلى غزة وبور سعيد بعد الحرب بسنوات قليلة، ثم أسفاره في الطريق السلطاني، والتي كانت تتكرر مرتين إلى ثلاث مرات كل سنة، فيصل إلى العراق والشام وشرق الأردن وفلسطين، إضافة إلى روح المغامرة التي كانت تميزه في عمليات البيع والشراء، هذه الأسفار وتلك الروح جعلته يقرر، دون تردد، اختيار حران موطناً جديداً، وقد استعد لذلك، وجاء مصحوباً بأولاده وأقربائه.

كان في أعماق نفسه قد قرر أن يعمل دون اعتبار لابن الراشد أو غيره «الأرض كبيرة، تسع الجميع، الشاطر وذراعه. والأيام بيننا!» هكذا قال لمجبل الخرسا، شريكه في عجرة، والذي رفض أن تمتد الشراكة بينهما إلى «هذه المقبرة التي لا تصلها حتى العفاريت» واعتبر الخرسا أن شريكه يغامر أكثر مما ينبغي، وأن هذه المغامرة تصل حدود المخاطرة. فإذا كانت مغامرات سابقة للدباسي قد نجحت، حين اشترى رعية غنم، ذات مرة، دون أن يكون في جيبه ثمن رأس واحد، وكيف أنه باع الرعية في اليوم التالي وربح مبلغاً لم يحلم به؛ وحين اشترى قافلة تموين كبيرة من الطحين والسكر والقماش، ودفع ثمنها كل ما عنده ثم هبوط الأسعار في عجرة، نظراً لوصول قوافل أخرى من أمكنة متعددة، وكيف أصر على أن لا يبيع بخسارة، متحملاً الانتظار، مع ما يجره ذلك من احتمال أن يدوّد الطحين، ثم السيل الذي جاء فجأة فأعاق القوافل وأدى إلى ارتفاع الأسعار مرة ثانية، والأرباح التي حققها الدباسي في تلك السنة؛ هذه الحوادث وغيرها كثير تدلل على الروح التي يتمتع بها، واستعداده لأن يغامر ويبدأ من جديد. لكن تلك المغامرات إذا كانت قد نجحت فليس معنى ذلك أن مغامرة من النوع الذي يقدم عليه الآن يمكن أن تنجح. ومع ذلك، وإبقاء للشراكة، وتعبيراً عن الثقة واستمرار العلاقة بين الشريكين أبقى الدباسي

ابنه، جاسر، في عجرة، وجاء مع ابنيه الآخرين: صالح الكبير وحميدي الصغير.

وصل دون ضجة، ودون مظاهر، ونزل عند أهل حران، مثلما فعل في المرة الماضية. وخلال الليلة الأولى فهم ما حصل منذ غيابه وحتى يوم وصوله. أبدى أسفه لأن بعض أهل حران باع أرضه، لكن لم يلحّ كثيراً ولم يتوقف عند هذه النقطة. اعتبر أن ما حصل قد تم ولا حاجة للحسرة أو الندم، قال في نهاية السهرة:

ـ أهل حران أولى من الغرباء بهذا الرزق، فإذا كان الغرباء فتحوا حلوقهم وبطونهم ووصلوا إلى هنا، مثل ابن الراشد وغيره، فيلزم أن نكون أحرص من النمل وأخبث من أبو الحصيني!

ولم ينتظر. . . بدأ منذ اليوم التالي.

ركز على العقارات أولاً، ثم على التجارة. وقال لابن الراشد في اليوم الثالث، أثناء الدعوة التي أقامها له:

ـ نحن أبناء الطريق السلطاني لا نعرف غير التجارة. نبيع ونشتري. نخسر مرة ونربح مرتين، ومرة تحمل مرة، أما غير ذلك فأنت أولى به.

ارتاح ابن الراشد لهذه الكلمات، لكن لم يفهم القسمة. ماذا يستطيع أن يعمل وماذا يعمل الدباسي؟ وإذا كان الدباسي يبدو متواضعاً ودوداً هكذا فإلى متى يستمر كذلك؟ وحران هل تحتمل اثنين، مثله ومثل الدباسي؟

قال الدباسي لأهل حران:

ـ يا جماعة الخير: أهل حران هم العصب، هم عظم الرقبة. . لا تخافوا. . .

وحين صمت أهل حران، على عادتهم، أضاف بنوع من النزق:

ـ أنتم لا تحتاجون إلى الناس، الناس يحتاجون إليكم. صحيح أنكم فقراء اليوم، لكن كل الناس يقولون الذهب تحت أرجلكم. . . اصبروا. . .

وظل أهل حران صامتين. نظروا إليه نظرات أقرب إلى المسكنة ولم يتكلموا. قال مثل أب:

ـ القضية سهلة وصعبة وما هي مثل قبل. امسكوا الأرض، عضوا عليها بأسنانكم، اعتبروا أن كل شيء مثل ما كان. لا تبيعوا حتى لو انقلبت السماء على الأرض. ظلوا في مكانكم.

وبعد كثير من الجهد فهم أهل حران أن الدباسي يريدهم أن يصبروا، أن ينتظروا، وفهموا أكثر من ذلك أن يتركوا له حرية التصرف، لكن مع ذلك ظلوا صامتين، فقد شعروا أنهم يدخلون معركة لا يعرفون إلى ما ستنتهي. كان أمامهم هذان الرجلان فقط: ابن الراشد والدباسي. وإذا كانوا قد عرفوا الدباسي من قبل، من خلال المعاملات التجارية فقط، من الرسائل والقوافل التي تأتي كل سنة، فإنهم منذ شهور وحتى الآن لا يرون أمامهم سوى ابن الراشد. يعرف كيف يتكلم. كيف يبعث الرسل، ويعرف أكثر من ذلك كيف يرغمهم على أن يقدموا له ما يريد. الآن، والدباسي يتكلم بهذه الطريقة، لا يعرفون ماذا يريد منهم. صحيح أنهم رحلوا من المكان الذي كانوا فيه، وبدأوا مرة أخرى، وأنهم يرون حولهم الحياة كيف تموج وتتغير، وإن الغرباء يزدادون كل يوم، ولم يعد أي شيء مثلما كان من قبل، لكنهم لا يعرفون ماذا يفعلون، وأي شيء يطلبه الدباسي.

قال له أحد الرجال المسنين:

ـ يا عم صبرنا طويل. أولادنا سافروا، رحلوا من سنين، قلنا الحركة بركة ويرجعون. إذا لم يرجعوا هذه السنة يرجعون السنة التالية، نحن، ولله الحمد، اصبر من الجمال، لكن من يوم ما جاءت العفاريت الدنيا تغيرت، ومن يوم ما جاءت البلية حتى أولادنا تغيروا علينا، وأنت تشوف، ما ظل أحد إلا وجاء. ما عسانا نفعل اليوم وباكر والدنيا صارت خراب؟

هكذا قال الرجل المسن، وقال غيره أشياء أخرى. والدباسي يسمع، يهز رأسه، يوافق، حتى إذا انتهوا قال وهو يعبث بلحيته الصغيرة:

ـ حران القديمة، التي تخبروها، راحت، اندرست، ما بقى منها غير الجامع والمقبرة، ويجوز باكر أو عقب باكر يجي ابن الراشد أو غيره وبدل الجامع يعمر تياترو، وبدل المقبرة يسوي كرخانة، لأن من كان من غير هذه الأرض، من غير هذه الديرة، كل أرض بالنسبة له أرض، والبشر مثل

بعضهم، ابن الديرة مثل الغريب، والمسلم مثل اليهودي.

كانوا يتابعون، ينصتون إليه باهتمام، وإن لم يفهموا بعض الكلمات التي استعملها، وبدا له أنه ذهب بعيداً، غيّر جلسته وقال:

ـ هالحين أهم شيء كل واحد من أهل الديرة، يأخذ حقه ونصيبه، وإذا الناس أكلت وشبعت وزاد شيء فأهل حران أكرم منهم ما تلقى، وبعدها أهلاً بابن الراشد. وغير ابن الراشد.

وفهم أهل حران تلك الليلة أن حرباً قاسية ستقع، وإن الخصم سيكون ابن الراشد. لكن لم يفهموا تماماً هل هو خصمهم أم خصم الدباسي، وناموا تلك الليلة حائرين، وانتابتهم المخاوف.

من أوائل الأعمال التي أقدم عليها الدباسي، دون تردد، ولا بد أن يكون قد فكر في الأمر منذ كان في حران المرة السابقة، واتخذ قراراً بذلك: الزواج بحرانية!

إذ ما كاد الأسبوع الأول ينقضي، والحياة تموج وتتغير كل يوم، والدباسي يخلق نوعاً من التماسك والاستقرار بين الحرانيين، وفي إحدى الليالي التي ضمت أكثر الرجال، وبين الجد والمزاح، أو كطريقة لخلق المزيد من الثقة والارتباط بين المقيمين وهذا الوافد لجديد، قال الدباسي في لحظة هيأ لها جيداً:

ـ اسمعوا. . يا جماعة الخير. . .

انتبهوا ونظروا إليه. كان بوجهه المستدير ولحيته الصغيرة في لحظة من لحظات القوة والثقة، عبّر عن ذلك بابتسامة واسعة وهو يشد لحيته، فلما تأكد أنهم يستمعون تابع:

ـ إذا اكنتم تريدونا اربطونا.

ولم يفهم أحد من أهل حران. ضحك بصوتٍ عالٍ، وكانت ضحكته أقرب إلى القهقهة:

ـ من يوم آدم. . الطريقة اللي تربط الرجل هي المرا. إذا تزوج الرجل يرتبط بالأرض والعشيرة، يصير واحداً من الأرض والعشيرة.

تطلع الرجال في وجوه بعضهم بعضاً وتطلعوا إلى الدباسي. بدا الموقف واضحاً أو قريباً من الوضوح، لكن لم يتكلم أحد منهم. فلما وجدهم صامتين سأل:

ـ ما قول الرجال. . . تريدوننا أم نرحل. . نرجع لأهلنا؟

وفهمت ضحكات الرجال ونظرات التساؤل التي تبادلوها فيما بينهم على أنهم موافقون، لكن من سيكون نسيب الدباسي. وكيف سيتم الأمر؟

قال أحد المسنين:

ـ أنت منا. . . يا أبو صالح. . والرجعة شيلها من بالك.

رد وهو يقهقه:

ـ خير البر عاجله. . اليوم قبل باكر.

وعلت ضحكات الرجال وهم يتبادلون نظرات التساؤل، من سيكون المرشح، وأية فتاة هي المناسبة؟

حتى تلك اللحظة، وبعد أن تأكد الرجال مما قصده الدباسي، لم يكن واضحاً ما إذا كانت الفتاة ستكون زوجة لصالح أم لأحد الرجال الثلاثة الآخرين الذين جاءوا مع الدباسي، وهم جميعاً في سن الشباب تقريباً، عدا واحد كان بين الأربعين والخمسين. والدباسي، باعتباره الكبير الذي يقرّر، يقوم بدور لا يمكن للآخرين أن يقوموا به مباشرة. قال أحد الرجال وهو ينظر إلى صالح ويبتسم:

ـ يا عم، يا أبو صالح، وليدك وليدي. وعسى يكون أخوه ابني الثاني.

اعتدل الدباسي، وقد تغير وجهه تماماً. أخذته الدهشة، ولكي يضع حداً للخطأ غيّر جلسته أكثر من مرة، تقدم بجسده كله رافعاً يده، فلما بدا بتلك الهيئة أخذت المفاجأة الجميع، حتى ظن الكثيرون أن الأمر كله لا صلة له بالزواج، أما الرجل الذي قال تلك الكلمات فقد بدا مذعوراً وانكمش تماماً. قال الدباسي: :

ـ اسمع يا ولد العم، صالح يلحق، إذا ما كان اليوم اللي بعده، هالحين أبو صالح هو اللي يريد يعرّس!

وضجّ الرجال في ضحك عالٍ أقرب إلى القهقهة، إذ لم يكن أحد منهم يتوقع أن يكون الدباسي الأب هو الذي يريد الزواج. كانوا يظنون أنه يريد زوجة لابنه صالح، وظن الآخرون إنه جاء ليخطب لأحد الثلاثة الذين جاءوا معه، أما أن يكون هو الذي يريد أن يتزوج، وقد بلغ الخامسة

والخمسين أو يزيد قليلاً، فقد بدا الأمر غريباً بعض الشيء، أو بالأحرى مفاجئاً.

بعد أسبوعين من تلك الليلة، في يوم الخميس، مساءً، تزوج الدباسي. تزوج ابنة محمد الزمال، الرجل الذي ذعر وانكمش في تلك الليلة، وكان يتصور أن ابنته يمكن أن تكون من نصيب صالح، ابن الدباسي.

إنه أول زواج في حران الجديدة. . . ويبدو أن الأمر كان هاماً ومثيراً بالنسبة لأولئك الأميركيين الذين كانوا يترددون على حران العرب، إذ ما كادوا يسمعون أن زواجاً سيتم في يوم الخميس، حتى أرسلوا منذ يوم الاثنين يطلبون أن يحضروا هذا الزواج، وأبدوا رغبتهم في أن يأتوا مبكرين.

كان فرح الدباسي بحضور الأميركيين يوازي فرحه بالزواج، فقد بالغ بالاحتفاء بهم وتكريمهم، وكان شديد الحرص على أن يبقى ابنه صالح إلى جانبهم طوال الوقت، وقد طلب من أهل حران أن يكرموهم ويهتموا بهم، وأن يلبوا جميع طلباتهم. وهؤلاء الأميركيون الذين كانوا كالأطفال الصغار، في حركاتهم وتصرفاتهم، أبدوا دهشة وإعجاباً تجاوز التصور وفاق الحدود. سألوا عن كل شيء، عن الأسماء والملابس والطعام، كما سألوا عن اسم العريس والعروس، وما إذا كان الاثنان يعرفان بعضهما من قبل، وما إذا التقيا أم لا. وسألوا عن العمر وعدد الأولاد، وأبدوا استغراباً بلغ حد الدهشة حين قال لهم أحد المسنين أن الذي يجلس إلى جانبهم طوال الوقت، والذي تحدث إليهم كثيراً هو ابن إبراهيم الدباسي، وقد استأذنوا الدباسي نفسه لالتقاط بعض الصور، وتمنوا لو استطاعوا تصوير الدباسي مع عروسه، وتصوير النساء، لكن مثل هذه الأفكار التي طرحوها، دون أن يتشبثوا بها، كانت بمثابة اختبار ليعرفوا ما إذا كانت أفكار من هذا النوع يمكن أن تقبل أم لا.

كانت ليلة كبيرة في حران تلك الليلة. الخراف التي ذبحت كثيرة حتى أن العديدين اختلفوا وتراهنوا. أمام الأميركيين الخمسة وضعت خمسة

رؤوس، وأمام ابن الراشد وضع رأس، أما في المناسف الأخرى، حيث جلس العمال وأهل حران وعدد من الغرباء، فقد اختلطت الرؤوس مع الأجزاء الأخرى من الذبائح وقد أبدى الكثيرون براعة فائقة أمام الأميركيين في تقطيع اللحم، وفي استخراج الأجزاء الداخلية، خاصة النخاع، ثم في تكوير الرز باليد وقذفه في الفم دون أن تبقى بالكفّ حبة رز واحدة!

كانت دهشة الأميركيين تزداد وتقوى مع كل حركة، وقد التقطوا عدداً كبيراً من الصور أثناء الأكل، وحاولوا أن يتغلبوا على الحرج، وعلى عجزهم في أن يأكلوا مثلما يأكل الآخرون، رغم المساعدات الجمة والمبالغ فيها، أو ربما لعدم استساغتهم هذا النوع من الطعام، حاولوا أن يتغلبوا على ذلك بالأسئلة الكثيرة التي يوجهونها، بالمراقبة، في تبادل الحديث فيما بينهم، وأخيراً بالتقاط الصور.

والدباسي الذي كان يلبس حلّة أنيقة أول الليل، وكانت أثقل من أن تحتمل في مثل هذا الوقت، أو في مثل هذا الجو، ما لبث أن تخفف من الكثير من الملابس؛ فعل ذلك بطريقة مسرحية، وقبل أن يدعو الناس إلى الطعام، ومن أجل مساعدتهم أيضاً. أما ابن الراشد الذي حاول كثيراً أن يبدو طبيعياً، بالابتسام والحديث، فما لبث أن تراجع شيئاً فشيئاً، فمال إلى الصمت أو إلى أحاديث جانبية هامسة مع الذين حوله، وكان واضح الضيق.

حين انتهى العشاء قال مزبان بصوت عالٍ، وربما بشكل مقصود:

ـ بيتك عامر وعزك دايم يا أبو صالح.

فهز الدباسي رأسه دون أن يتطلع في الوجوه، ربما خجلاً أو تواضعاً؛ أما حين قال سليمان الزامل:

ـ أكل الرجال، يا أبو صالح، على الرجال دين.. وعلى اللئام صدقة.

فقد فهم كلامه على أنه نوع من التأييد والتعاطف، وربما ضد ابن الراشد بالذات! هكذا فهم أهل حران الكلمات، أو هكذا فسروها، إذ بدت الابتسامات واضحة على الوجوه، ونظر الكثيرون نحو ابن الراشد، وربما تذكروا الدعوة التي أقامها قبل فترة ليست طويلة، حين انتهى من بناء الدكاكين.

لم يكن الدباسي وحده هو الذي أراد أن تبقى هذه الليلة محفورة في ذاكرة الناس، فقد كان أهل حران كلهم كذلك، وشاركهم العمال أيضاً، فالحلقات الصغيرة المتباعدة، أول الليل، والتي هي مزيج من الأحاديث والنكت وبعض الدندنات القصيرة المتفرقة، ما لبثت أن انتظمت وتقاربت، ثم احتدمت وأصبحت أقرب إلى النزال. بدأت هكذا قبل العشاء، أما بعده، وبعد أن دارت فناجين القهوة وأكواب الشاي، وبدا بعض الناس يريدون الانصراف، أو كما قال ابن الراشد ضاحكاً وهو يتحرك في مجلسه وينظر في وجوه الرجال:

ـ أبو صالح بقلبه يقول: عشاء تعشيتم، وقهوة تقهويتم، ورحم الله من زار وخفف، خاصة في هذه الليلة.

لما سمع أبو صالح هذه الكلمات انتفض مثل ذئب، قال وهو يهدد بمودة:

ـ اللي ببالك، يا أبو محمد، نلحق عليه، وانت تعرف أن في السنة عيدين واليوم هو الثالث!

وبطريقة بارعة فيها من العفوية بمقدار ما فيها من التدبير، جنّت حران تلك الليلة. لم يبق أحد إلا وغنى، حتى المسنون غنوا! كانت الأغاني، رغم محاولات الفرح التي يتعمدها كل واحد، مليئة بالحزن، وكأن حران تغني أياماً ماضية، تغني حياة توشك أن تنتهي. أما حين بدأ صويلح، ولم يكن أحد قد توقع ذلك أو قدره، فقد خيم الصمت وامتلأ بتلك العذوبة الجارحة، ولم تتردد بعض النسوة من الاقتراب. أما الأطفال الذين كانوا كثيري الحركة شديدي الصخب، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر، فقد جلسوا في الوسط وانتابتهم حالة من الدهشة سيطرت عليهم تماماً. وبمقدار ما غنى صويلح للآخرين غنى لنفسه. كان صوته يخفت بعض اللحظات إلى درجة أن كثيرين كانت رؤوسهم تمتد وتتطاول ليتأكدوا أن هذا النغم الخافت، الذي لا يكاد يسمع إلا بصعوبة، صادر عنه، وفجأة يدوي الصوت مرة أخرى، كأنه الهدير أو كأنه أمواج البحر، وبين الأوج والقرار كان الناس يتابعون، يرددون، يشاركون، وكانت النشوة تستبد بهم

إلى درجة أنهم يصرخون دون وعي ودون إرادة. أما تلك الأغاني التي تتطلب الترداد والمشاركة فقد كان انفعال الناس بها ومشاركتهم فيها تبلغ درجة من الحماسة لا تترك أحداً. حتى ابن الراشد، الذي وافق على البقاء مضطراً أو مجاملاً، لم يتصور أن يشهد ليلة مثل هذه في حران، ولم يتصور أبداً أن «كريم العين» الذي طرده من وادي العيون، لأنه لا يصلح للعمل في الشركة، والذي وافق على أن يأتي به إلى حران، لأنه كان محتاجاً لأي عامل؛ لم يتصور ابن الراشد أن صويلح يمتلك مثل هذا الصوت، ويغني مثل هذا الغناء.

أية أشواق تثوي في قلوب الرجال في هذا المكان النائي من العالم، وأية أفراح يمكن أن يفجرها الغناء؟ وهذا الحزن كله من أين يأتي ولماذا هو كثيف طاغٍ هكذا؟

مع كل صرخة كان الليل ينتفض، يتمدد بلا انتهاء ثم يتجمع لكي يصبح جمرة سوداء، ومع ارتفاع النغم أو انحداره، كانت القلوب تهتز حتى تكاد تنخلع، وكانت تسافر أسرع من البرق إلى أمكنة بعيدة وتعود. والرجال الذين أتقنوا الحزن حتى أدمنوه، كانوا يتقنون الصمت بنفس المقدار. كان النَفَس إذا تردد خشناً محزوناً يجرح الصمت، يلونه بذلك اللون الأغبر المغبّش فيبدو نابياً، وكان الذي يصدر عنه يدير عينيه في الآخرين مشفقاً معتذراً، قائلاً، دون كلمات، إن الألم وصل إلى درجة الحرقة، وأن الحزن طغى على كل شيء!

لو أن الرجال كانوا في غير هذا المكان، ولو كانوا أقل عدداً، أو لم يكن معهم هؤلاء الغرباء، لعرفوا كيف يعبرون عن هذا الحزن كله، عن هذه اللوعة كلها، لكن شيئاً ما كان يشدهم، يثقل عليهم ويمنعهم، فكانت عيونهم وحدها تجول في المدى الضيق من العيون المحيطة، تماماً كما يجول أو يدور أسير في زنزانة، أو كما يفعل حيوان مربوط. كانت عيونهم وحدها تتكلم، وفي لحظات معينة تصرخ صراخاً فاجعاً مدوياً. كانت حين تتقلص وتضيق، أو حين ترف رفيفاً مفاجئاً موصولاً تستنجد، تتلوع، تحس الألم كاوياً وتريد من الآخرين أن يقتربوا، أن يمدوا يداً أو حبلاً لكي

ينقذهم. وصويلح الذي يغني لنفسه، للآخرين، يزيد العذاب، يعمقه، يجعله كثيفاً، فيحس الرجال أنهم يغرقون أكثر من قبل، وأنهم الآن أكثر حزناً مما كانوا في بداية الليل!

والدباسي الذي استبدت به النشوة، وحملته إلى أماكن بعيدة، بدا مثل طفل ثقيل الحركة، مرتبك، وشديد الانفعال، يردد بعض المقاطع، يغني، يطلب من الآخرين الغناء والمشاركة! وفي إحدى اللحظات، وصويلح يستعد لصرخة تشق ليل حران، وكان الصمت مسيطراً، ارتفع صوت الدباسي قوياً متحشرجاً، فبدا أقرب ما يكون إلى صوت جمل هائج، فأثار موجة عالية من الضحك وصلت حد الصخب، وقد شارك هو نفسه الآخرين في هذا الصخب.

ومثلما كان صوت صويلح مفاجئاً غنياً كان صوت عبده محمد. إذ ما كاد صويلح يتوقف، وقد استبد به التعب، وبدأت قطرات العرق تتساقط بغزارة ويمسحها بكمه، أول الأمر، ثم براحتي يديه الإثنتين، حتى صرخ عبده محمد. صرخ بطريقته وبأنغام مختلفة فتغير الجو فجأة وأصبح أكثر مرحاً.

المغنون هم الذين سيطروا على الجو وانتزعوا الإعجاب تلك الليلة، لكن الأميركيين لم يقلّوا عنهم أبداً، فقد استبدت بهم الدهشة، دهشة الغناء ودهشة الناس الذين تحولوا فجأة إلى مخلوقات من نوع آخر. وإذا كانوا قد سألوا في بداية السهرة تلك الأسئلة الصغيرة التفصيلية عن الأشياء والأسماء، ودونوا ذلك كله في دفاتر كانوا يحملونها، فقد أخذوا بالجو والانفعال اللذين سيطرا على الناس، فأصبحت أسئلتهم قليلة متباعدة، ولم تتعد الاستفسار عن الموضوع الذي تدور حوله الأغنية، والمنطقة التي تغني هذا اللون من الغناء. كانوا كذلك عدا الفترة التي غنى فيها عبده محمد، فنتيجة المرح الذي غيّر الجو بعد صويلح، ولأن الناس، أخذوا يقهقهون بصوتٍ عالٍ، قدروا أن الرجل لا يقتصر على الغناء في أدائه، إذ يضمّن الأغاني بعض النكات أو التوريات أو أشياء أخرى مشابهة، لكنهم لم يفهموا إلا أقل الكلمات قال سنكلر لأحد رفاقه بصوت هامس:

ـ لا يمكن لأحد أن يفسر الحزن الذي يعيشه هؤلاء إلا إذا عرف الصحراء وعاش فيها. هذه الصحراء الملعونة لا تلد إلا مثل هؤلاء البشر ومثل تلك الحيوانات التي رأيناها ونحن آتون.

وحين هز ذلك الأميركي رأسه دلالة أنه فهم تابع سنكلر:

ـ والبكاء يخفف عنهم، لكنهم قساة، عنيدون، ولذلك يبكون في داخلهم، تنزل دموعهم إلى الداخل، وهذه الدموع الحزينة تطفو مرة أخرى على شكل صرخات وتوجع يسمونه غناء، وهم يفعلون ذلك في أعراسهم.. وهم يفرحون!

وبعد قليل أضاف بسخرية:

ـ هذا هو الغناء الوحيد الذي يتقنونه!

مط الأميركي الآخر شفته وقال وهو ينقّل نظراته في الوجوه التي حوله:

ـ ما أعجب هؤلاء الناس، ولشد ما يبدون غامضين، لا يعرف الإنسان هل هم فرحون أم حزانى. كل شيء فيهم مغلف، طبقات فوق طبقات، تماماً مثل الصحراء التي يعيشون فوقها!

أما حين صرخ صويلح بنغم جديد، وسرت همهمة بين الرجال مع حركة واضحة في الأجساد والوجوه، فقد وخز سنكلر زميله وقال بسرعة:

ـ انتبه.. انتبه، الآن يريدون أن يعبروا عن فرحهم!

وبعد أن استمعا قليلاً علق من جديد:

ـ إنهم مثل الحيوانات يدفع بعضهم بعضاً، ويتحركون بهذه الطريقة البدائية تعبيراً عن الفرح... فتصور!

واستمر الأميركيون مدهوشين مأخوذين.. ولم يتوقفوا عن التقاط الصور!

وحتى وقت متأخر ظل الناس في حران يتذكرون هذه الليلة، ليلة زواج الدباسي!

غافل السويد أمير حران منذ زمن لا يتذكره أحد، أمير وليس كالأمراء، لا يزعج أحداً ولا يحب لأحد أن يزعجه. قليلون هم الذين رأوه، وأقل منهم الذين عرفوه عن قرب. لا يحب السلطة ولا يحب حران، قدر ما يحب القصيد والبادية. يحفظ الكثير من الشعر، يتذوقه وبعض الأحيان يغنيه، ومن أجل قصيدة يذهب إلى أقصى مكان في البادية، ليرى قائلها أو يسمعها من الثقات. يذكر أحد المسنين في حران أنه حينما سُمّي غافل السويد أميراً لحران وما جاورها من البادية، ووصلها في ظهيرة يوم من أيام الصيف، أنه امتنع عن الكلام تماماً، حتى ظن الذين جاءوا للسلام عليه أنه أخرس. أما لما بدأ يتكلم، وقد حدث هذا بعد أيام، فلم يجد شيئاً يقوله «لهؤلاء المهابيل الذين يجلسون مقابل البحر صافنين ولا يفعلون شيئاً آخر!» إذ بعد أن سألهم أسئلة عديدة ولم يجد لديهم شيئاً مهماً، روى لهم بعضاً من القصيد الذي يحب، لكن أحداً لم يتجاوب، فترك خادمه الأسود، ميمون، ليحكم «هؤلاء العجّز المساكين ويتبالش معهم فإما أن يقتلهم أو أن يقتلوه..» وسافر عائداً من حيث أتى، وقد اصطحب معه عدداً من رجاله.

القصص التي تروى عنه قليلة ويناقض بعضها بعضاً. تقول إحدى القصص أنه يتوغل في البادية، وينتقل من مكان إلى آخر يسمع الشعر. وتؤكد أخرى أنه يبحث عن طير أبيض كبير خطف له امرأته الجميلة في الليلة السابقة لزواجه منها، خطفها في الليل، وكان القمر بدراً، وقد رآه غافل السويد بنفسه وهو يضعها تحت جناحه الأيسر! وتروى قصص غير هذه أن الأمير أحب امرأة وأرادها، لكن ابن عمها، عندما أحس برغبة

الأمير ومحاولاته، حملها في ليلة ظلماء ودخل الصحراء، ولم يسمع أحد بعد ذلك عنهما خبراً، وإن الأمير الآن في رحلاته الطويلة المجهولة داخل البادية لا يفعل شيئاً سوى البحث عن هذه المرأة!

هذه بعض القصص التي تروى، ومما يؤيدها ويجعل الناس ميالين إلى تصديقها أن الأمير، رغم تجاوزه الأربعين، لم يتزوج ولم يفكر في الزواج. وفي إحدى المرات، أثناء إحدى زياراته إلى حران، وفي محاولة من ابن نفاع أن يتبسط معه ويقيم صلة سأله ما إذا كان يفكر أو ينوي الزواج، ابتسم الأمير بسخرية حين سمع السؤال ولم يجب وظل وقتاً غير قصير يهز رأسه.

كانت العادة أنه إذا انقضى شهران أو ثلاثة جاء الأمير في زيارة إلى حران، ومن أطراف شفاهه يسأل ميمون ما إذا حصل شيء هام أثناء غيابه. هل وصلت قوافل أو جاء مسافرون. ويسأله عن أهل حران ألا يزالون مثلما تركهم مهابيل أم رجعت إليهم عقولهم، فإذا انتهى من سؤاله طلب القهوة والربابة معاً وبدأ القصيد. حين يروي يهز الرجال رؤوسهم، يبدون إعجابهم، وحين يسمع يستعيد، يطرب، يسافر بعيداً، ويروي الكثيرون أنه في ليالي القمر يكون شديد الحزن وقد يبكي بعض الأحيان.

إذا جاء أهل حران للسلام عليه لا يُسرّ برؤيتهم، ويظل أغلب الأحيان صامتاً، كان يعتبرهم خصومه، وإلا لما جاء إلى هذا المكان «الذي لا يصله حتى الطير». وأهل حران الذين لا يجدون شيئاً يقولونه للأمير، وليست لهم مطالب أو شكاوى، ما إن يشربوا القهوة ويبتسموا مرتين أو ثلاث مرات ويفركوا أيديهم حتى يستأذنوا، ويأذن لهم الأمير بسرعة، ودون تردد، وحالما تبتعد خطواتهم يطلب من جديد أن تبدأ الربابة، وبعض الأحيان يُجلس الذي يعزف عليها مقابله وقريباً منه لكي يكون الأداء رقيقاً وجميلاً.

ظل غافل السويد هكذا سنين عديدة. ولم يقض في حران من هذي السنين سوى بضعة شهور، ولو طالت الفترة أكثر من ذلك لسمى ميمون

أميراً بدلاً عنه ودخل الصحراء دون عودة؛ أما حين وصل الأميركيون فقد كان في سفرة من سفراته، ولما عاد ورأى الدنيا وقد تغيرت فوجئ تماماً، وارتبك بعض الوقت، أما بعد الزيارة التي قام بها اثنان من الأميركيين، وكان نعيم معهم يترجم لهم، فقد قرر في نفسه قراراً خطيراً: أن يسافر ولا يعود.

قال أمام عدد من رجال حران:

ـ كنا بمصيبة واحدة، هالحين وقعت علينا كل المصايب.

والتفت إلى ميمون وتابع وهو يضحك ساخراً:

ـ وكدتهم؟ شفت وجوههم؟ مثل الجرابيع أو مثل الخبز الفطير: مبقعين وعيونهم خرز، وإذا تحملوا الشتاء ما أظنهم يتحملون الصيف.

وبعد قليل، وفي جو من الصمت والحيرة قال يخاطب نفسه ويريد الآخرين أن يسمعوا:

ـ باكر... إذا شدّت عجاجهم يسابق ضراطهم!

وبعد بضعة أيام شُدّت على الرواحل الخيمة الكبيرة والخيام الأخرى التي ظلت منصوبة منذ فترة طويلة ورحل الأمير وجماعته، بمن فيهم ميمون، ولم يعرف ما إذا كانوا سيرجعون أم لا.. لكن ما إن مرت أسابيع حتى جاء أمير جديد، أما غافل السويّد فلم يسمع عنه أحد شيئاً بعد ذلك.

❀ ❀ ❀

بعد غافل السويّد جاء خالد المشاري وأصبح أميراً لحران. كان الأمير خالد متوسط العمر، قوي البنية، شديد السمرة، وربما أقرب إلى السواد. جاء بضجة كبيرة واحتفاء أكبر؛ إذ بعث بعدد من رجاله قبل وصوله، وقد أبلغ هؤلاء الرجال بكثير من الاهتمام أن الأمير خالد، أمير حران الجديد، سيصل بين يوم وآخر، وبطريقة مليئة بالقسوة والتهديد، أثناء الأحاديث التي جرت، ذكر الذين جاءوا أشياء كثيرة عن الأمير. ذكروا كيف أنه يقتل لأبسط الجرائم، وأنه لا يرحم أحداً، حتى لو كان أخاه، وأنه يأتي إلى حران لكي يجعلها ساكنة كمقبرة، بعد أن سمع الكثيرون عما يجري فيها

من تعديات وأخطاء وفوضى، وأكّدوا أنه إذا تُركت حران هكذا فسوف يقتل الناس بعضهم بعضاً.

حين ذُكر كل هذا دخل الخوف في نفوس الكثيرين، أما الذين لم يخافوا فقد شغلهم الترقب والانتظار، فحران التي عاشت سنين طويلة لم تعرف أميراً ولا تحتاج إلى أمير، والتي رأت غافل السويّد نصف النائم خلال الفترة القصيرة التي يقضيها في حران، لا تتصور أنها قادرة على احتمال أمير. ماذا يريد وماذا تصنع به؟ وهل ستتغير حياة حران إذا جاءها الأميركان وأعداد كبيرة من الغرباء، إضافة إلى ابن الراشد والدباسي، ولا يعرف من سيأتي غداً أيضاً؟ وما دامت حران تتغير فهل إذا جاءها أمير ستكون حالها أفضل أم ستزداد مشاكلها ومصائبها؟

الأميركان بعثوا بنعيم لكي يكون في استقبال الأمير، وربما تم هذا التدبير بالاتفاق مع ابن الراشد، إذ ما كاد يُعرف اليوم الذي سيصل فيه حتى تهيأ ابن الراشد ودحام فأخذا معهما عدداً من الرجال وبصحبة نعيم ذهبوا إلى طريق عجرة، ذهبوا منذ الصباح الباكر، وقبل غروب ذلك اليوم وصل الأمير.. ووصلوا معه إلى حران.

كان الأمير بشكله وتصرفاته وعدد الرجال الذين يرافقونه يختلف عن الأمير السابق، وأهل حران الذين وصل تحسبهم حدود الخوف، لأنهم وقعوا في خطأ لم يكن مقصوداً، بتخلفهم عن استقباله كما فعل ابن الراشد، أحسوا أن شراً جديداً لا بد أن يقع، لكن الدباسي قال في تلك الليلة كلمات خلقت نوعاً من الراحة في قلوب الرجال. قال: «الأمير أمير حران، ونحن أهل حران من يوم ما خلق الله الدنيا. والأمير يعرف أن كل واحد من اللي يركضون حوله هذه الساعة يقول: أنا تميمي، لكن باكر إذا استراح يعرف الناس، ولكل حادث حديث».

لم يكتف الدباسي بذلك، اتفق مع الرجال على أن يذهب عدد منهم في اليوم التالي للسلام على الأمير، وسوف يكون معهم، ولأنه لم يكن متأكداً ما إذا كان قد رأى الأمير أو سمع عنه، فقد تريث في أن يقول شيئاً

مؤكداً عن المستقبل، لكنه مع ذلك كان واثقاً أن هذه المعركة الصغيرة التي كسبها ابن الراشد لن تغير في النتائج. . . وسوف يعرف كيف يرد عليه.

حين ذهب أهل حران في اليوم التالي، كان ابن الراشد خارجاً لتوه من عند الأمير، وخلال اللحظات التي استغرقها الوقوف معه، وتبادل بعض كلمات المجاملة، بدا الرجل شديد الثقة وأقرب إلى الزهو، وكأنه صاحب حظوة عند الأمير، أو يريد أن يقول لأهل حران أنه سبقهم لزيارته، وأنه يعني شيئاً لديه. لم يشأ الدباسي أن يفوت الفرصة، قال وهو يضحك:

ـ هذه السروة ما هي لله، يا أبو محمد، تراك بايت عند الأمير؟

وحين ضحك ابن الراشد وهز رأسه، لكي يترك الأمر غامضاً، أضاف الدباسي:

ـ خلي ببالك: سبوع الطفرة عقبة نفرة.

رد ابن الراشد:

ـ سلطان النهار أوله. . يا أبو صالح!

بدا الأمير بعيون أهل حران أقرب إلى النفور، إذ بعد كلمات مجاملة قليلة عن الرحلة والطريق، قال إنه جاء إلى حران لضبط النظام ومنع التعدي والسرقة، وسألهم، فجأة، ما إذا كانوا يعرفون الثلاثة الذين سرقوا الإبل، وما إذا كانت لهم شكاوى أو مطالب.

كان يمكن أن يأخذ الحديث هذا المجرى وحده، وأن تبقى العلاقات أقرب إلى البرود، لكن حين رأى الدباسي من بعيد أحد رجال الأمير حاملاً صقراً ويداعبه، قدّر أن الأمير من هواة الصيد؛ وبطريقة مليئة بالمكر التفت إلى أحد المسنين من أهل حران وسأله عن طيور الحباري هل تصل إلى أماكن قريبة ومتى، وفجأة، وعلى غير توقع، ظهرت على الأمير علامات الاهتمام! وإذا كان رجال حران قد ذكروا بعض الأماكن، فإن المعلومات التي خزنها الدباسي في ذاكرته طوال السنين السابقة حول الصيد: أماكنه ومواسمه، وكيف أنه رأى في مصر طيوراً لا تقدّر بعدد، وإنها كانت تملأ السماء كأنها الغيوم السوداء، وكيف أنه في إحدى سفراته إلى غزة كان

يجمع الطيور قريباً من الشاطئ، ثم تحدث عن القطا والغزلان والحباري. كانت المعلومات التي قدمها تثير الإعجاب والدهشة.

يتذكر أهل حران أن الدباسي كان شيطاناً في ثياب بشر، لأن الأمير منذ اللحظة التي بدأ يتحدث الدباسي فيها عن الصيد، تغير تماماً، أصبح مثل الطفل الصغير وهو يستمع بدهشة إلى الأحاديث التي تروى. فبعد الجفاء والقسوة اللذين ميزا نظراته وكلماته خلال الفترة الأولى رقّ وطلب من الدباسي أن يقترب منه، وفي إحدى اللحظات سأله الدباسي ما إذا كانا قد التقيا من قبل وأين. وفي محاولة لأن يعفي نفسه من مشقة التذكر حول لقاء مثل هذا أكد له أن أسفاره الكثيرة، والوجوه التي التقى بها في هذه الأسفار تجعله غير قادر على أن يتذكر بوضوح، لكنه مع ذلك، «أي وجه أراه لا يمكن أن أنساه أبداً.. غير أنني لا أستطيع أن أتذكر متى وأين!» والأمير الذي سرّ من ملاحظة الدباسي، التفت إليه وتمعن في وجهه جيداً، لعله يتذكر ويساعد في تحديد الزمان والمكان، لكن أياً منهما لم يواصل هذه اللعبة، لأنهما لم يستطيعا ذلك.

بعد هذا تحدث أهل حران كيف أنهم غادروا منازلهم وأقاموا بيوتاً بدلاً عنها في الجهة الغربية، من أجل مساعدة الشركة وبناءً لأوامر الحكومة. وكيف أنهم يخافون المستقبل، خاصة بعدما جاءت تلك البلية وعليها النساء العاريات، وأن الشباب، منذ ذلك اليوم، أصبحوا شرسين حادّي الطبع. والأمير الذي ابتسم أكثر من مرة، واستفسر بدقة عن تلك السفينة التي وصلت إلى حران، وعن عدد النساء وماذا فعلن وكم بقين أكد أن شيئاً مثل هذا لن يتكرر، وأن المحافظة على الدين والأخلاق مهمته الأساسية، ولن يتردد في اتخاذ الإجراءات الضرورية.

ومرة أخرى تسلم الدباسي الحديث، فطلب من الأمير «أن يشمل بعطفه أهل حران، وأن ليس لهم أحد إلا الله وهو» وأشار إلى أن بعض الغرباء الذين جاءوا في الأيام الأخيرة يهددونهم من أجل إجبارهم على بيع أراضيهم. وأن هؤلاء الغرباء استأثروا بكل شيء ولم يحصل أهل حران على شيء، لم يذكر ابن الراشد بكلمة واحدة، ولم يشر إليه بالإسم، لكن

كلامه فُهم من أهل حران تماماً. والأمير الذي أكد مجدداً أنه جاء للمحافظة على الدين والأخلاق أضاف: «الحق حق، وابن الديرة أولى من الغريب»، وقبل أن تنتهي تلك الجلسة طلب الدباسي باسم أهل حران أن يحدد لهم الأمير يوماً لكي يعبروا عن سرورهم بدعوته. والأمير الذي ضحك ولم يحدد يوماً ولم يعط وعداً، قال للدباسي ولاثنين من المسنين اللذين كاناإلى جانبه، وهو يقف في وسط الخيمة الكبيرة ليودعهم:

ـ إذا دخل الشتاء وربّعت نروح للحباري.. وللأماكن اللي ذكرتم.

تبادل الأمير والأميركيون الزيارات خلال الأسابيع الأولى.

أثناء زيارة الأمير إلى حران الأميركان، والتي تمت في طقوس من الأبهة والاهتمام، جرت مسابقة للرماية بين ثلاثة من الأميركيين بحضوره. وقد أبدى إعجابه الكبير بكل ما رأى، وعبّر عن ذلك بكلمات لم يستطع نعيم أن يترجمها بدقة، لأنه لم يفهمها تماماً. أما بعد انتهاء المسابقة فقد طلب أن يطلع على بنادق الصيد، فعرضت أمامه، وفي جو من المرح والألفة طلب منه ابن الراشد أن يجرب واحدة منها. أبدى تردداً، أول الأمر، أما حين وضع دحام إحدى خراطيش الصيد الفارغة نيشاناً، على بعد عشرة أو خمسة عشر متراً، فقد أبعد الأمير بنادق الصيد وطلب من مرافقه مبرد الحويزي أن يناوله بندقيته الموزر. وبكثير من البراعة والدقة أصاب الخرطوشة، فارتفعت صيحات الإعجاب مع التصفيق، ودون أن يأبه انتزع الطلقة الفارغة من بندقيته وناولها لمبرد طالباً منه أن يضعها نيشاناً مكان الأولى، وبنفس البراعة والدقة، مع شيء من التمهل، إذ رفع رأسه أكثر من مرة ليتأكد من مكانها، صوّب وأطلق.. فأصابها، وهنا لم يكتف الأميركيون وغيرهم من الموجودين بالتصفيق أو بترديد صيحات الإعجاب، فقد صفّر عدد منهم، وتقدم إثنان وربتا على كتف الأمير! وبعد ذلك، وفي جو من المرح والإعجاب، دُعي الأمير إلى نادي الأميركيين لتناول الطعام.

إنها المرة الأولى التي يدخل العرب إلى هذا المكان، لم يدخل إلا عدد منهم، فقد أبلغ دحام العمال «أن يظلوا بعيدين ومؤدبين لوجود الأمير والغرباء... وإن الغداء سيصلهم إلى عندهم». اقتصرت الدعوة على

الأمير ومرافقيه ومعهم ابن الراشد ودحام وصالح الدباسي، أما الآخرون فقد هيئت لهم علب وضعت فيها أنواع من الأطعمة لم يستطع أي من العمال أن يعرف ما هي أو أن يعطيها إسماً محدداً، وقد أبدى الأمير إعجابه الكبير بكل ما رآه وما قدّم إليه. وحين تحدث عن اتساع المطعم وحسن ترتيبه ونظافته، قال له ابن الراشد أن العمال الذين شاركوا في بنائه استغربوا هذه السعة ولم يعرفوا لأي أمر سوف يستعمل، حتى هو نفسه، رغم أنه اقترب منه عدة مرات لم يظن أنه بهذه السعة وبهذا الجمال! أما بعد انتهاء الغداء فقد جرت جولة الأمير ومرافقيه في الأماكن القريبة: برك السباحة، نادي الاستراحة، المكاتب، ورغب الأمير أن يرى أحد البيوت السكنية، فأجيب لطلبه. وفي كل هذه الأماكن كان شديد الإعجاب إلى درجة الانفعال، وقد عبّر عن ذلك بطريقته، الأمر الذي اضطر نعيم عدة مرات للاستفسار من ابن الراشد عن كلمات معينة أو تعابير معينة.

أما حين عرض على الأمير أن يقوم بجولة بحرية فقد أبدى تردداً ظاهراً، قال إنه لم يركب البحر من قبل، وإنه يخاف الماء كثيراً، ولا يعرف السباحة، وحين أكد له الأميركيون أن الأمر في غاية البساطة والأمن لأن «المراكب التي يستعملونها مصممة بعناية كبيرة، ويمكن أن تبحر إلى أقصى مكان في العالم دون أن يُخشى وقوع حادث من أي نوع، يضاف إلى ذلك أن كل مركب من هذه المراكب مزود بزوارق للنجاة وبوسائل أخرى» بعد أن قام نعيم بترجمة عبارات رئيس المعسكر، ولكي لا يظهر الأمير بمظهر الخائف أو الجبان وافق، شرط أن «تكون الجولة قصيرة، وأن لا نبتعد عن الشاطئ» وقد وافق الأميركيون على هذه الشروط.

إنها المرة الأولى التي يركب فيها هؤلاء الرجال البحر. كانت قلوبهم تضرب بعنف، وقد اصفر وجه ابن الراشد، وود الأمير في أعماقه لو أنه لا يتعرض لهذه التجربة. وتردد دحام في الصعود إلى ظهر المركب، لكن ابن الراشد جره بشدة وهو يضحك، وقال له بعصبية: «إذا متنا، يا ابن مزعل، فأنت مثلنا» أما حين جلسوا على تلك المقاعد الواسعة والمريحة فقد ظلوا صامتين، ولم ينظروا حولهم، حتى الابتسامات القليلة التي تبادلوها كانت

شاحبة وتبعث في القلوب الخوف أكثر مما تولد الثقة. وحين دوى صوت الموتور وأقلع المركب بقوة سمع الجميع ابن الراشد وهو يقول «بسم الله والحمد لله، قل لا يصيبكم إلا ما كتب الله لكم» ورغم أن الأميركيين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر، دون أن تظهر على أي واحد منهم مظاهر الخوف أو التهيب، فقد ظل الآخرون مضطرين لأن يبقوا مسمرين في أماكنهم، وكأنهم جزء من المقاعد! حتى الحركات الصغيرة، كانوا يقومون بها بكثير من الاقتصاد والحذر؛ ولما التفت الأمير إلى الشاطئ ورآه يبتعد سأل بصوت خافت: «ما قولك يا ابن الراشد لو نرجع ونموت بديرتنا.. ما هو أخير؟» هز ابن الراشد رأسه دون كلمة، أما حين دار المركب متجاوزاً الخليج إلى عرض البحر فقد أصبح الأمر أكثر من أن يحتمله الرجال، قال الأمير، مخاطباً نعيم، بحزم:

- قل لجماعتك.. هذا الكثر يكفينا، والاخيَرَ أن نرجع.

لما أبلغ الأميركيين بطلب الأمير أبدوا استغرابهم، وظنوا أن في الأمر خطأ من نوع ما، وحين استفسر نعيم مرة ثانية أكد الأمير بحزم على ضرورة العودة، فعاد المركب.

وبنفس الأبهة والاهتمام اللذين استقبل بهما الأمير جرى وداعه أيضاً قبل الغروب.

ظل موضوع الزيارة مجالاً للأحاديث والتعليقات في حران كلها فترة من الزمن. ومع مرور الوقت، ومن خلال تناقل الأخبار والتعليقات جرت تحريفات كبيرة. فقد أكد بعض العمال أن الأمير أصاب في النيشان إبرة صغيرة وضعت على مسافة بعيدة، لا تكاد تُرى، في الوقت الذي عجز الأميركيون عن إصابة زجاجة كبيرة! أما في المطعم وحول بركة السباحة، فقد كان هناك عدد من النساء العاريات وقد تطلع الأمير نحوهن أكثر من مرة وابتسم! أما الرحلة البحرية فقد تخللها الكثير من المخاطر، ولولا شجاعة الأمير بالذات لما تمت الأمور بسلام.

هكذا تحدث الكثيرون، وهكذا نقلت بعض الوقائع، أما حين وصلت

إلى الأمير في اليوم التالي لزيارته بندقية صيد، وقد قام بنقلها نعيم وابن الراشد، فقد تشاءم الدباسي وقال أمام الكثيرين:

ـ تالي اللعب أخْير من أوله، وابن الراشد يأتيه الخبر.



لما بدأ الأمير يعدّ من أجل دعوة الأميركيين طلب من ابن الراشد والدباسي أن يعاوناه، طلب من كل منهما أولاً على انفراد، ثم اجتمع بهما معاً. وإذا كان الرجلان قد أبديا استعداداً كبيراً، فقد كانا يتباريان حين اجتمعا معاً، وخلال فترة قصيرة تمت الاستعدادات، وقد ارتأى الجميع أن تكون الدعوة عند الغروب ثم يعقبها العشاء.

اختار الأمير يوم الخميس، وقد بذل ورجاله جهداً غير عادي من أجل أن يكون الاحتفال كبيراً والدعوة حدثاً مهما؛ أما ابن الراشد والدباسي فقد عاونا في التحضير بتفانٍ يفوق الوصف، واستبقى كل منهما شيئاً حتى اللحظة الأخيرة.

جاء الأميركيون كلهم، عدا ثلاثة، قال رئيس المعسكر إنه لا يستطيع أن يأتي بهم لوجود أمور تقتضي بقاءهم هناك. وكان لوصولهم بعد عصر الخميس إلى حران العرب ـ وكان بعضهم يصل إلى هذا المكان لأول مرة ـ رهجة كبيرة، إذ رغم توقع وصولهم قبل الغروب، وكان الجميع بانتظارهم، إلا أن حالة من الصمت القاسي الأقرب إلى الرهبة خيمت على أهل حران وهم يرونهم يتقدمون جماعات جماعات. كانوا يمشون بفوضى، ويشيرون بأيديهم، وحين اقتربوا بدأت تسمع أصواتهم. وعيون أهل حران، وعيون العمال، تتابع كل خطوة، ترقب الضيوف. حتى النسوة خرجن عن المألوف وأردن رؤية هؤلاء الذين يتحدث عنهم الرجال بهذا المقدار. . . وكل يوم، أن يعرفن أي نوع من الرجال هم. أما الصبية والأطفال فقد انتظروا في أمكنة أقرب، ثم ساروا مع الأميركيين، لكن على مسافة منهم، وذهبت محاولات أولئك الذين يتكلمون العربية عبثاً، لأنهم لم يستطيعوا أن يدخلوا في أي حوار مع الصبية، ولم يستطيعوا إغراءهم بالاقتراب.

لما اقترب الأميركيون كثيراً من الخيمة الكبيرة التي نصبت للأمير، وكانت في مكان وسط تقريباً بين أهل حران والسوق، خرج إليهم. تقدم بضع خطوات وحوله رجال كثيرون. وحين تقدموا أكثر، ولم تبق بينه وبينهم إلا خطوات تقدم مرحباً وصافح كل واحد منهم. ونعيم الذي قام بالتعريف والترجمة في بداية الأمر، تعذر عليه الاستمرار في ذلك، نتيجة الهرج ثم التداخل، وبعض الكلمات التي كان يسمعها، ربما لأول مرة، ولم يستطع أن يقدر معناها بدقة.

بعد أن أديرت فناجين القهوة وتبادل الأمير الحديث مع رئيس المعسكر، وتحدث مباشرة إلى بعض الذين يتكلمون العربية من الأميركان، قال إنه حضّر لهم عرضاً لسباق الهجن، وطلب من الجميع الانتقال إلى الفسحة وراء الخيام، وهناك كان ابن الراشد قد حضّر، بالاتفاق مع رجال الأمير، أطيب الجمال، وزيّنها، وكان ينتقل بخفة وحماسة بين المضارب والساحة حتى إذا اطمأن غمز للأمير. . فدعا الضيوف.

كانت مفاجأة كبيرة للأميركيين. كانوا يتصورون أن الجمال خُلقت للأحمال فقط، وأنها إذا ركضت تركض ببطء، ولمسافات قصيرة؛ أما حين رأوا ركضها السريع، وهي تتسابق، فقد تملكهم العجب، فأخذوا يصوّرون ويصفقون ويتطلع بعضهم في وجوه بعض. ولما انتهى السباق أصرّ الكثيرون على أن يقتربوا من الجمال، أن يتصوروا معها. وقد أبدى اثنان رغبة في الركوب عليها. جرى ذلك في جو من الانفعال والحماسة، وقد لبيت مطالبهم جميعاً.

المفاجأة الثانية حضرها الدباسي، وقد حضرها بدهاء وتكتم، وبالاتفاق مع صخر الذي كان يرعى صقور الأمير.

إذ ما كاد ينتهي سباق الهجن، وقد حاول صخر كل جهده من أجل إنهائه، مبكراً، بالاتفاق مع بعض الرجال الذين شاركوا في السباق، حتى تقدم الدباسي وأسرّ في أذن الأمير شيئاً أدى إلى تغيير الجو بسرعة، انفعل الأمير، وقد فاجأه الأمر تماماً، وقال لنعيم أن يطلب من الأميركيين الهدوء

التام، لأن ما سيرونه الآن سيدهشهم، وأكد على الهدوء مرة أخرى. وبخفة ساحر تقدم صخر واثنان من الرجال وعرضوا الصقور في جو من الجلال، حتى ظن الكثيرون أن الأمر سيقتصر على ذلك، لكن حين طُيّرت حمامات، لا يعرف من أين أتى بها الدباسي، وأطلقت وراءها الصقور وجرت تلك المعركة في الجو، استبدت الدهشة الممزوجة بالخوف بالجميع، حتى ابن الراشد، الذي لم يكن يتوقع مفاجأة مثل هذه، ولما عرف أن الدباسي وراءها، شعر أنه خسر أمام هذا الخصم الذي لا يعرف كيف انشقت الأرض وأخرجته! وبنفس القدر الذي دهش ابن الراشد دهش الأميركيون، فصوروا صخراً عشرات الصور، واقتربوا كثيراً من الصقور، ومدّ أحد الأميركيين يده إلى ظهر واحد منها، وكادت تقع أكثر من حادثة، لولا أن صخراً والرجال الذين معه أخذوا الصقور بعيداً وبذلوا جهداً من أجل تهدئتها.

وكانت مفاجأة الأمير خالد المشاري للأميركيين أثناء تقديم العشاء: رأس جمل، وضعه أمام رئيس المعسكر، في منتصف المناسف، ثم رؤوس الخراف، وقد ذبح عدداً منها مساوياً لعدد الضيوف، ولأن ثلاثة لم يحضروا فقد وضعت رؤوس الخراف التي ذبحت لهم أمام الآخرين!

بعد العشاء أعد الأمير للضيوف «رقصة السيف»، وقد قام بها رجاله بشكل جميل للغاية، حتى أن الأمير ذاته، في لحظة انفعال، قام وشارك، وكان لمشاركته تأثير قوي غيّر الجو، الأمر الذي دفع عدداً من الأميركيين إلى طلب المشاركة، وإذا كان رجال الأمير قد استجابوا لهذه الرغبة، وقدموا الكثير من المساعدة، إلا أن الأميركيين أفسدوا كل شيء، إذ كان التقاط الصور بالنسبة لهم أهم من أي أمر آخر، وكانت حركاتهم وتغليقاتهم بدل أن تحفّز وتقوّي الرقص تضعفه وتؤخره، حتى إذا انتهت تلك الرقصة اتضح أن السهرة ذاتها قد انتهت. وابن الراشد الذي اقترح على الأمير، في محاولة لأن يرد على الدباسي ويخلق جواً جديداً، اقترح عليه أن يغني بعض الرجال، كما حصل في عرس الدباسي، إلا أن غضب الأمير وتلك الكلمات التي قالها جعلت كل شيء يطوى. قال الأمير بحدة:

«بعدما صرنا قرباط يا ابن الراشد!» وحين حاول ابن الراشد أن يوضح أو أن يبرر أضاف بنفس اللهجة الغاضبة:

ـ إذا غنينا اليوم باكر يريدونا نرقص لهم مثل السعادين، وهذه ما هي شغلتنا يا ابن الراشد.

وبعد أن دارت فناجين القهوة عدة مرات، وتحدث الأميركيون الذين يعرفون العربية مع أكثر الناس، وسألوا عن أشياء كثيرة، قال رئيس المعسكر أن أمامهم مشواراً طويلاً لكي يصلوا إلى المعسكر، ولذلك يجب أن يتحركوا. وبكثير من الهرج والتحيات المبالغ بها والابتسامات خرج الجميع لوداعهم، وبعد أن غادروا ورافقهم عدد من رجال الأمير، ظلت أصواتهم تسمع، حتى بعد أن ابتعدوا.

وحتى وقت متأخر ظل الناس يتذكرون هذه الليلة في حران.

لم تعد زيارات الأميركيين الذي يتكلمون العربية تقتصر على ابن الراشد، بدأوا يزورون أيضاً الدباسي وابن سرور والسلامي وآخرين، وفي كل مرة يأتون للزيارة يصطحبون معهم آخرين لم يأتوا من قبل، ويتولى القدامى إدارة الحديث وشرح أمور كثيرة لهؤلاء الذين يرافقونهم، ثم يتولون الترجمة بعد ذلك.

هذه الزيارات التي كانت تمتد وتطول في الغالب، وتتخللها أشياء كثيرة وطريفة، تتحدث عنها حران فترة طويلة، ثم يتذكرها الناس بعد ذلك. كانت هذه الزيارات، في بداية الأمر، تحدث بشكل عفوي، إذ ما يكاد يصل هؤلاء الأميركيون بيوت حران، أو بالقرب من المعسكر، ويراهم سكان حران أو العمال حتى يدعو إلى فنجان قهوة أو كأس من الشاي، فيلبوا الدعوة، وخلال الساعة التي يقضونها في مثل هذه الزيارة تجري الأحاديث على رسلها. كان يشترك فيها الجميع، حتى الصبية الذين لا يتكلمون عادة بوجود الكبار، لم يكونوا ليترددوا طويلاً، كانوا يندفعون إلى المشاركة في الحديث، خاصة للإجابة عن الأسئلة. والأميركيون الذين يستمعون وينظرون في وجوه الناس، وينظرون إلى كل ما حولهم، لا يترددون بعض الأحيان من لمس الأشياء، سواء أكانت منسوجات أم جلوداً، ووقفوا مرة ساعة أو تزيد لمراقبة أحد المسنين وهو يدبغ جلداً، وقد أخذوا له صوراً كثيرة. ووقفوا مرة أخرى لمراقبة حذو الحمير وصوروا فلماً كاملاً، وصوروا ضمنه واحداً منهم وهو يرفع رجل الحمار وآخر وهو يحذوه أو يتظاهر بذلك!

هكذا كانت تتم الزيارات في البداية، وكان يرافقها الكثير من الهرج،

حيث يتراكض الأطفال والصبية، ويتجمع عدد كبير من الناس.

في وقت لاحق أصبح الأميركيون يأتون مباشرة من معسكرهم إلى بعض بيوت حران، إلى بيت ابن الراشد أو الدباسي، أو إلى بيوت أخرى. كانوا يأتون ومعهم بعض الكتب، إضافة إلى كميات كبيرة من الورق. كانت الأوراق، أغلب الأحيان، ملونة ومقواة ومتفاوتة المساحة، منها الصغير الصغير، ومنها الكبير ومنها المتوسط، وكانت هذه الأوراق تستهوي الكبار والصغار، فلا يتردد الكبار في لمسها وتقليبها، ويحاول الصغار محاولات لا تنتهي للحصول على عدد منها. وإذا كان الأميركيون قد أعطوا الصغار أوراقاً في بعض الحالات، فقد طلبوا إليهم أن يأخذوها ويذهبوا، وما يكاد يذهب الصغار ويهدأ الجو حتى يفتحوا الكتب التي يحملونها، يقلبون صفحاتها ثم يبدأون الأسئلة.

أهل حران الذين عجبوا أشد العجب لأن في هذه الكتب أشياء كثيرة يعرفونها، من أسماء الأمكنة والعشائر، إضافة إلى مواعيد الأمطار والرياح وهجرة الطيور، شعروا لأنفسهم بأهمية لا توصف حين بدأ الأميركيون يكتبون ما يسمعونه منهم. كانوا يستوقفون الرجال عند بعض الأسماء، يطلبون إليهم أن يكرروها أكثر من مرة، حتى إذا أعادوها بعدهم كتبوا ذلك على تلك الأوراق الملونة.

كانت الكتب التي يحملها الأميركيون تثير الدهشة والخوف معاً. كتب من كل لون، من كل حجم. كان بعضهم يحمل عدة كتب، وكان بعضهم يحمل كتاباً أو اثنين. وأهل حران الذي أدهشتهم هذه الكتب وأخافتهم، راقبوا بعناية ما إذا كان الأميركيون حملوا الكتب ذاتها في المرات اللاحقة أم استبدلوا بها غيرها، فلما وجدوا أن بعض هذه الكتب ذهب وعاد مرات عديدة، وأن بعضها لم يأت مرة أخرى، قال بعض المسنين: «هذه كتب سحر، ولكل إنسان نوع من الجن يختلف عن الباقين، والأميركان يجربون كتاباً بعد كتاب، فإذا تمكنوا قضوا على حران وأهلها!» وفي بعض المرات تجرأ الرجال والتقطوا بعض هذه الكتب، قلّبوها لكن لم يفهموا شيئاً أبداً. قال ابن نفاع ذات مرة، بعد أن اشتدت الحمى على ابنه الصغير، وقد

حصل هذا في اليوم التالي لزيارة الأميركيين لبيت السلامي، وكان جاراً له: «إن الجن دخل بيته» وقد تأكد من ذلك، إذ وجد ورقة صفراء مقواة تحت مخدة الصغير، ولم يشف الولد من الحمى إلا بعد أن أحرقت هذه الورقة!

وقال آخرون أن عبده محمد تعلم السحر من الأميركيين، وفي خلواته الطويلة يمارس السحر، وهذا ما دعا عدداً من أهل حران لأن يتحولوا إلى فرن عبد الله الأبيض، وربما هم الذين دفعوا الدباسي لأن يفتح لهم فرناً جديداً «لأن الخبز المسحور لا يمكن أن يشفى منه الإنسان إلى أن يموت».

الرجال الذين سألوا الأميركيين عن هذه الكتب، لماذا يحملونها معهم دائماً وأية أشياء مكتوبة فيها، تلقوا إجابات مختلفة وغير واضحة، الأمر الذي زاد لديهم الشكوك والمخاوف. كان كل واحد من الأميركيين يجيب إجابة مختلفة عن الآخر، وكان كل واحد يقول شيئاً يختلف عن المرة السابقة.

قال الأميركيون: «كتب تاريخ» لكن تبين أن في كل مرة يقولون «تاريخ» كانوا يحملون كتباً تختلف عن المرة السابقة. كان بعض هذه الكتب الأسود كأنه الليل، وفيها الأحمر القاني، وفيها الأزرق والأخضر، وكلها مغلفة بجلود قوية تشبه جلود الحجب التي كتبها قبل سنوات الشيخ سالم العتيبي حين زار حران وبقي فيها شهرين، وقد صنع خلال إقامته لأكثر أولاد حران نوعاً من الحجب لمقاومة الدود والهرار والخوف، وغلفها كلها بالجلد. هذه الكتب تشبه تلك الحجب، ولا بد أن يكون هؤلاء الأميركيون قد حملوها من سحرة كفار، ولا بد أن يصيب شرها الجميع في يوم من الأيام.

وفي أوقات أخرى، حين سئلوا عن أسماء الكتب التي يحملونها وعما فيها، ذكروا أشياء غير «التاريخ» قالوا: «الجغرافيا» ثم عادوا وذكروا أنها تبحث في تكوين الصحارى والرياح وطرق القوافل. ثم في وقت لاحق قالوا إن هذه الكتب تبحث في الآثار؛ وسألوا باهتمام عن بعض المواقع، وما إذا كان أحد من أهل حران قد زارها ويمكن أن يدلهم عليها.

هذه الكتب وهذه الأسئلة بمقدار ما تثير الاستغراب والتعجب تثير المخاوف أيضاً. ماذا يريد هؤلاء العفاريت ولأي غرض جاءوا؟ وإذا كانوا قد قالوا إنهم جاءوا من أجل مساعدة الناس وتأمين المياه، وأن الذهب تحت هذه الرمال، وسوف يقومون بإخراجه لكي يوزعوه على الناس، فما علاقة هذا كله بالكتب التي يحملونها؟ ما علاقته بالأسئلة التي يسألونها؟ وهل الذهب في حران وحدها أم يوجد في الأمكنة الأخرى أيضاً؟ وفي تلك الأماكن، إذا كان الذهب موجوداً وذهبوا لإخراجه، فما عسى أن يدفع هؤلاء للبحث عن إدلاء والذهاب إلى هناك؟

أسئلة كثيرة من هذا النوع بدأت تتردد بين الناس، وكانت ترافقها أسئلة أخرى يطرحها الذين لم يلتقوا مباشرة بالأميركيين، بل وأخذ أهل حران يسألون الآخرين الذين جاءوا من عجرة، من روضة المشتى، أو من الأماكن، الأخرى ما إذا كان الأميركيون قد وصلوا إلى هناك وأية كتب يحملون وهل هي كتب سحر أو كتب كفر؟

ذات يوم جاء مع الذين تعودوا المجيء أميركي بلحية حمراء كبيرة كأنها محناة، وكان يغلب على هذه اللحية اللمعان والكثافة، بحيث أن أهل حران لم يروا لحية مثلها. كان يحمل كتاباً كبيراً، وما كاد يجلس في مضافة ابن الراشد، وكان ابن نفاع موجوداً، وبعد مجموعة من الأسئلة حول الرياح والرمال والمسافات، بدأ هذا الرجل يطرح أسئلة غريبة، سأل ما إذا كان أهل حران يمارسون أنواعاً من السحر، وهل لديهم معتقدات أخرى غير الإسلام، وهل سمعوا عن جماعات في أماكن قريبة يعبدون الشجر والرياح والشمس أو غير ذلك.. فوجئ الرجال بهذه الأسئلة ونظر بعضهم في وجوه بعض. فتح الرجل كتابه الكبير وبدأ يشير إلى بعض الصور. تقدم بعض الرجال وأمعنوا النظر فوجدوا أشكالاً غريبة، رأوا صور أصنام وحيوانات لم يروا مثلها من قبل ففزعوا، ارتدت أيديهم عن الكتاب وصمتوا.

ومن جديد بدأ الرجل يسأل واحد الأميريكيين يترجم. فلما وجدهم صامتين قال المترجم أن «زميله يبحث في معتقدات الشعوب وتطور الأديان» ويريد أن يعرف أية معتقدات سائدة.

خرج ابن نفاع منفعلاً غاضباً وهو يصرخ:

ـ الآن تأكدنا أنهم كفار، كلهم كفار، وكافر كل من يجلس معهم.

أثناء زيارة أهل حران للأمير كان ابن نفاع هائجاً شديد الغضب. قال إن الأميركان جاءوا ليحولوا الناس عن دين الإسلام، وإنهم يمارسون السحر، فإذا تركوا فلا بد أن يخربوا حران، ولا بد أن تقع مصائب كثيرة. والأمير الذي استمع باهتمام لما قاله ابن نفاع وغيره، هز رأسه عدة مرات، لكن لم تفهم هذه الهزات على وجه محدد، ولم يتكلم إلا كلمات عامة غامضة! وحين استأذن أهل حران أذن لهم الأمير واستبقى الدباسي، ولا يعرف ما دار بين الاثنين، لكن الأميركيين بعد ذلك تغيروا، أصبحت زياراتهم لحران العرب أقل، ولم يعودوا لحمل الكتب، وإن ظلوا يحملون معهم الأوراق الملونة ويكتبون ما يسمعون، أما الأسئلة التي يوجهونها إلى الناس فقد أصبحت أكثر بعداً عن الدين والسحر. وفي وقت لاحق كفوا عن الكتابة، بدأوا يحملون معهم صناديق سوداء، وحالما يبدأون الحديث يضغطون على هذه الصناديق، وقد قال ابن نفاع، لما وصله خبر هذه الصناديق «إن العفاريت داخلها ولا بد أن تخرج منها وتستقر في البيوت على شكل قطط أو حيات وربما بأشكال أخرى» وطلب من الناس أن لا يدخلوا هذه الصناديق إلى بيوتهم، فإذا لم يستطيعوا منع ذلك عليهم أن لا يتكلموا أمامها، لأن العفاريت بمجرد أن تسمع الأصوات تتابع أصحابها حتى لو وصلوا إلى أبعد مكان، ويمكن أن تتبعهم حتى لو عبروا البحر إلى مصر».

وإذا كانت زيارات الأميركيين إلى حران العرب قد قلّت في هذه الفترة فقد بدأت زيارات ابن الراشد وصالح الدباسي والسلامي وغيرهم تزداد إلى معسكر الأميركيين، وقال بعض العمال أنهم شاهدوا ابن الزيان ذات ليلة عائداً من معسكر الأميركيين!

الخيام السبع التي نصبها ابن الراشد في الأيام الأولى، وسكن فيها العمال طيلة ستة شهور، ظلت في مكانها، بعد أن أصبحت محطة لاستقبال العمال الجدد. أما العمال الذين كانوا فيها فقد بنيت لهم قرب معسكر الأميركيين، وراء الأسلاك الشائكة، المدينة الجديدة، بعد أن زاد عددهم وحتمت طبيعة العمل أن يكونوا في مكان أقرب إلى المعسكر، خاصة أثناء تعميق البحر وبناء الميناء.

المدينة الجديدة، الواقعة بين حران العرب وحران الأميركان، قريباً من التلال وفي مواجهة البحر، بدأت بثلاثة بركسات كبيرة بنيت على عجل من الخشب والصفيح، أما الأرض فقد فرشت بالإسمنت، وأكد دحام ونعيم وهما يشرفان على انتقال العمال وتوزيعهم على البركسات «إنها مؤقتة، وبعد فترة سوف تبنى للعرب بيوت مثل بيوت الأميركان».

انتقل العمال إلى البركسات بعواطف متباينة أشد التباين، إذ نتيجة خصومات عديدة وقعت بسبب الخلاف على جلب الماء من الآبار، أو تنظيف الأرض تحت الخيام، إضافة إلى الضجة التي كان يحدثها لاعبو الورق، والتي كانت تمنع الكثيرين من النوم، لقرب الخيام بعضها من بعض، فقد رأى بعض العمال «إن البركسات مكان نظيف والماء على بعد خطوتين والبركس غير الخيمة». أما آخرون فقد رأوا أن مجرد الانتقال من الخيمة، من هذا القبر، وبعدها لو عاش الإنسان في الفلاة، تحت السماء، يمكن أن ينقذهم من حالة الضيق التي بدأت تسيطر عليهم وتجعلهم متوتري الأعصاب سريعي الغضب. كانوا بحاجة إلى تغيير، ولا يهم بعد ذلك إلى أين. ورأى غيرهم أن المكان الذي اختاره الأميركيون وبنوا فيه

البركسات هو أسوأ الأمكنة تماماً، «لأن الإنسان لا يعرف هل هو في الجنة أو في النار، هل هو مع جماعته وبين أهله أم مقطوع في الفلاة». إذ رغم الضيق الذي يعاني منه الجميع فإن العودة كل غروب إلى حران العرب، والمرور بين البيوت والدكاكين، والحديث مع الناس، ورؤية الأطفال والكلاب والحمير والجمال، من شأن ذلك التخفيف من العذاب والصمت اللذين يسيطران طيلة ثماني ساعات في معسكر العفاريت. ليس هذا كل شيء «إن رؤية عبده محمد وهو يتمشى على شاطئ البحر ويدندن بتلك الألحان ويذكر أسماء الحبايب يفك المعدوم من المشنقة!» كما كان يقول عبد الله الزامل. أما إذا جلسوا مع ابن نفاع وسألهم، وهو يتطلع إلى وجوههم بتحديد، أما إذا رأوا ذلك اليوم الأمريكيين يسحرون وأي شيء فعلوا، وهو بعد السؤال وأثناء الإجابة يردد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فإذا قالوا شيئاً لم يعجبه انتفض، اقترب من محدثه، تطلع إليه بإمعان، ثم عاد من جديد بلهجة أكثر انفعالاً وسرعة: أعوذ بالله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

إن رؤية عبده أو الجلوس قليلاً مع ابن نفاع، ثم سماع أخبار الدنيا من هؤلاء الذين قدموا حديثاً من عجرة أو من أمكنة أخرى، إن هذا يعادل، بنظر الكثيرين، ملكوت الأميركيين كله، خاصة وإن هذا المكان المعزول، وحوله الأسلاك، يجعل الإنسان يحس أنه في سجن حقيقي. لماذا يضعون الأسلاك الشائكة حولهم؟ ولماذا يريدونهم أن يدخلوا ويخرجوا من تلك البوابة بالذات، وبعد أن يبرزوا البطاقة الصفراء، وكأنها الشيء الوحيد الذي يدلل على وجود الإنسان؟

هكذا كانت عواطف ومواقف العمال وهم يحملون حاجاتهم القليلة وينتقلون إلى «منازلهم» الجديدة. وابن الراشد الذي لم يظهر خلال الأيام الثلاثة الأولى، وربما كان في إحدى سفراته، جاء في اليوم الرابع، وبعد أن تفقّد البركسات وامتدح نظافتها وحكمة توزيع العمال فيها، قال وهو يقف وسط مجموعة من العمال:

ـ منازل عامرة ودايمة.

هز رأسه وهو يضحك ثم أضاف:

ـ الله يخزيه ابن مزعل.. أكيد ما ذبح...

وبعد قليل تابع بلهجة فيها بقايا الضحكة:

ـ مثل عادته.. لا طبخ ولا نفخ.

وتلمس أحد الجدران بيده، ودق عليه ليختبره، ثم أمسك باب البركس، فتحه وأغلقه أكثر من مرة، فلما تأكد قال يواصل حديثاً:

ـ إذا قصّرنا معكم هذه المرة، يا شباب، إن شاء الله نعوضكم مرات ومرات.

المدينة الجديدة التي بدأت بثلاثة بركسات، وتضم ثلاثة وخمسين عاملاً، وكانت مصدر فرح لبعض العمال، ومصدر ضيق لآخرين، وربما نوعاً من أنواع التغيير بالنسبة للأكثرية، أخذت تتسع وتكبر. فبعد أقل من شهر بني بركس جديد، وما كادت السنة تنقضي حتى أصبح عدد البركسات سبعة عشر واحداً. والبركس الذي كان يضم حوالي خمسة عشر رجلاً في بداية الأمر، أصبح يضم في فترة لاحقة بين العشرين والخمسة والعشرين. أما الذين فرحوا بالانتقال فقد شعروا بالخيبة، لأن الهواء الذي كان يلعب بالخيام، والذي يصبح عذباً رقيقاً في الليل المتأخر، وعند الفجر، لم يعد له وجود في هذه العلب التي تصبح كأنها الأفران الخانقة، حيث تعبق بالحرارة ورائحة العرق والنوم. أما الجدران الخشبية البيضاء فقد تحولت خلال أسابيع قليلة إلى ألوان لا يمكن تمييزها، بعد أن اختلطت وتداخلت بسبب الدخان والأيدي المعروقة والغبار، وأشياء أخرى. وأقسى شيء واجه العمال وسبب لهم ضيقاً لا يمكن مقاومته: سقوف الصفيح. لقد أصبحت هذه السقوف هي العدو الحقيقي، لأنها لم تكن تمطر حرارة فقط، كانت تصب موتاً رمادياً مصهوراً ومستمراً منذ ساعات النهار الأولى وحتى أواخر الليل، وكانت أشد قسوة وأكثر عداء من وجوه الكثيرين من الأميركيين وتصرفاتهم؛ وحتى فترة متأخرة كان العمال لا يكتفون بالنظرات الحاقدة التي يوجهونها إلى هذه السقوف، كانوا يبصقون إلى أعلى لعل بصاقهم يصلها، وكثيرون كانوا يقذفونها بالأحذية أو أية أشياء تصل إلى أيديهم. كانت حفلة الأحذية تقع أكثر من مرة في الأسبوع، وكانت تجري في البركسات كلها، إذ ما تكاد العملية تبدأ في

واحد منها حتى تباريه البركسات الأخرى، وخلال دقائق قليلة تنتشر الأحذية على الأسرة أو بينها، بعد أن تكون قد تعبت في رحلتها بين الأيدي والسقوف، وقد تنتقل بين البركسات عبر النوافذ أو من المشاركين في الخارج.

وكل شيء كان في السابق مصدراً للإزعاج أو الخصومات أخذ شكلاً معاكساً تماماً، فالذين كانوا يشكون من لاعبي الورق، ويتعاركون معهم في أواخر الليل، حين كانوا في الخيام، ولأنهم مصدر صراخ وإزعاج يمنع النوم، أصبحوا في وقت من الأوقات ينامون بين لاعبي الورق وعلى أصواتهم! وحين يخرج هؤلاء اللاعبون إلى الهواء الطلق، كان الآخرون لا يترددون في أن يفرشوا إلى جوارهم، لكي يواصلوا النوم بعد أن تعذر عليهم في الداخل.

أما الذين كانوا يتعاركون من أجل تنظيف الأرض فقد اكتشفوا في البركسات أنهم أكثر استعداداً للمعارك والخصومات، رغم أن ثمة من يقوم بتنظيف البركسات، بعد أن أعفي العمال من هذا الواجب.

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن المياه، وعن ساعات النوم واليقظة، وعمن ينام في هذه الناحية وعمن ينام في تلك.

لكل أمر وكل شيء سبب كافٍ لوقوع خصومات لا نهاية لها، وقد أحس الكثيرون، لكن بشكل غامض، أن الخلافات التي تقع، والشتائم التي تتردد ليست دائماً نتيجة أخطاء أو سوء نية، كما أنّها أبعد من الكلمات التي تقال، خاصة وإن الضيق والحنين «وأشياء» ملعونة أخرى تظل في الصدر وتمزقه قبل الخصومات والشتائم بعدها، ولولا التعب الذي يهدّ الأجساد ويساعد على فض الخصومات ويدفع الرجال إلى الغرق في النوم، لحصلت أمور كثيرة. ومع ذلك فإن يوماً واحداً لم ينقض دون وقوع مشاكل. صحيح أن رغبة خفية كانت أقوى من الإرادة هي التي تحكم تصرفات الرجال وعلاقاتهم فيما بينهم، وكانت هذه الرغبة تتمثل في التحدي وفي عمل شيء غير عادي. ورغم الندم، وتلك الأيمان التي تخرج دون رغبة، والقرارات الحازمة التي تصدر عن الرجال أن لا

يتعاركوا، أن لا يفعلوا، فقد كانت الخصومات تتكرر، والحوادث لا تتوقف يوماً واحداً.

وكان الضيق أقوى ما يكون حين يُنقل العمال نظراتهم من جهة إلى أخرى، فيرون في جهة الشرق حران الأميركان: مضيئة، لامعة، ضاجة، وبدأت تكتسي بالخضرة، ويسمعون عن بعد أصوات الأميركيين وهم يصخبون في البرك، وهم يضجون بالغناء أو المرح، وفي بعض الليالي يطلقون الأسهم النارية الملونة فتملأ السماء، خاصة أثناء استقبال مجموعات جديدة. فإذا نظروا إلى جهة الغرب ورأوا بيوت أهل حران وقد انبعث منها الدخان عند الغروب، وامتلأت بأصوات البشر والحيوانات، وأخيراً إذا نظروا إلى البركسات التي يعيشون فيها، وإلى هذه الحياة الجافة القاسية المعزولة، فعندئذٍ تدفق الذكريات ويزحم قلوبهم الحنين، ويجدون أسباباً لا حصر لها للخصومة والحزن، وبعض الأحيان للبكاء.

أما تلك السهرات التي كان يقيمها العمال، ويتخللها الغناء والنكات وبعض المفاجآت، من أجل أن يخففوا عن أنفسهم، فقد كانت تنتهي، أغلب الأحيان، بجروح جديدة. فالأغاني بدل أن تفرح الرجال تغرقهم في حالة من الكآبة الشديدة. والنكات التي يضحكون لها بصخب حين تروى، لا تلبث أن تصبح عادية جداً بعد ذلك. وكثيراً ما يستغربون إنهم ضحكوا بسببها! أما المفاجآت التي كان يدبرها البعض، وبدل أن تدخل السرور وتغير الجو، فكانت تؤدي إلى معارك جديدة في الغالب، خاصة إذا لم يتم اختيار «الضحايا» بدقة وعناية كبيرتين.

صويلح «مغني الحي» كما أطلق عليه ابن الزامل، ولم يعترض هو على ذلك، والذي فتن الجميع في عرس الدباسي لم يتغير، وصوته لم يضعف، لكن ما عاد يخلق في النفوس الزهو والتألق اللذين خلقهما في الرجال تلك الليلة، رغم أنه في كل مرة يغني يصل انفعاله إلى درجة البكاء والتحطيم.

في إحدى الليالي، أوائل الصيف، قال ابن الزامل بصوت يهدر بالغضب:

ـ يا جماعة. . إذا سكتنا متنا مثل ما يموت فأر السجن، وما دام الموت هو الأول والأخير فالموت عند الأهل أخير من الموت بين العفاريت الزرق. .

توقف قليلاً وسأل:

ـ إذا غرّبت من يغرب معي؟

نظر في الوجوه بتساؤل أقرب إلى التوسل. كان يريد صوتاً، موافقة، فلما وجد الرجال صامتين حائرين، قال كأنه يكلم نفسه:

ـ باكر تندمون، لكن ما تنفع الندامة.

ولم يثنه عن السفر إلا الوعد الذي قطعه ابن الراشد على نفسه بأن يجد طريقة لكي «يدبر السقوف ويمنع الموت النازل منها».

وبوسائل هي بين الإرهاب والإغراء، مع الكثير من الوعود، وُضع عدد من رجال الأمير بين العمال، وسموا «مراقبين» ووضعت ألواح خشبية بين العوارض والسقف، كما وضعت طبقة من التراب فوق الألواح. وفي البركسات الأربعة القديمة، ومن الجهة الجنوبية، فتحت نوافذ إضافية، وقد قال ابن الراشد، لما تقرر فتح هذه النوافذ «إن الهواء سيلعب مثل الخيّال في هذه المنازل الفسيحة»! أما البركسات الجديدة فقد تولت الشركة مباشرة بناءها، ولم تعط لابن الراشد، كما حصل بالنسبة للأربعة الأولى. كانت البركسات الجديدة أصغر، وقد بنيت من مواد عديدة: من الإسمنت والتراب والحجر، فكانت أقل حرارة، وبدأت معارك من نوع آخر: من يسكن في البركسات الجديدة ومن يبقى في القديمة؟

وإذا كان العمال الأوائل قد اكتسبوا قوة نظراً للقدم ثم للقرابات التي تجمع الكثيرين منهم، فقد بدأ الأميركان يضعون مقاييس جديدة في تصنيف العمال؛ فأولئك الذين يظهرون أكثر وعياً من غيرهم، أو أكثر قدرة على فرض إرادتهم، وكانوا يتكلمون ويطالبون، بدأت النظرة إليهم تتسم بالخشونة والعداء. أما الذين يبدون مسالمين وأقرب إلى الرخاوة، فأصبحت توجه إليهم عناية خاصة، فعبد الله الزامل مثلاً، الذي لا يدخل

لسانه إلى حلقه، بالمزاح والتعليقات، ثم تلك المشكلة التي خلقها في السكن، لم يطل انتظاره حتى أرسل إلى المركز رقم ٤. كان العمل في ذلك المركز، بالإضافة إلى بعده، بحيث لا يرجع العمال من هناك إلا مرة كل ثلاثة أيام، يتصف بالخشونة والقسوة. وقد وافق ابن الزامل على العمل في ذلك المركز مضطراً بعد التهديد الذي وصله من الأمير، ومع ذلك لم يكن ليخفي رغبته في الهرب ذات يوم، لكن قبل أن يفعل لا بد أن لا يقتل اثنين أو ثلاثة من الأميركيين، وابن الراشد. . . وكلبهم دحام». ومزبان الذي ضرب دحام ذات يوم لم تُنس له هذه الإساءة، فقد اختير هو وأخوه هاجم واثنا عشر رجلاً من العمال الذين جاءوا في الدفعات الأخيرة، اختيروا بحجة أنهم يعرفون السباحة، لكي يشاركوا في قطع الصخور البحرية من أجل توسيع الميناء. وإذا كان الأخوان والعمال الآخرون الذين كانوا معهم لم يعترضوا على هذه المهمة، بل وبدأوا راغبين في مغامرة جديدة، إلا أن الأحداث التي وقعت بعد ذلك جعلت الجميع ينظرون إلى الأمر نظرة تختلف عن تفسير ابن الراشد وغيره.

فمزبان وهاجم اللذان لم يتوقفا يوماً واحداً عن محاولات تعليم العمال السباحة، وكانا يقضيان وقتاً طويلاً في الماء، حتى أطلق عليهما ابن الزامل اسم «الحيتان» استطاعا بمثابرتهم إقناع الكثيرين الاقتراب من البحر أولاً، ثم في وقت لاحق النزول إلى الماء، وأصبح الكثيرون يخوضون في المياه الضحلة حتى يبلغوا مسافة معينة يكون الماء قد بلغ وسطهم، وبهدوء وحذر ينزلون أجسامهم فلا تبقى إلا رؤوسهم وحدها عائمة. كانوا يفعلون ذلك بحذر شديد، ولم يبالغوا في ذلك، خاصة وأن سلمان الجرف كاد يغرق ذات مرة أثناء محاولته تعلم السباحة. كان الإخوان إلى جانبه، وقد ضحكا كثيراً وهما يشاهدانه يصعد ويهبط ويعب الماء. كانا يضحكان لأن الماء في المكان الذي يسبح فيه لا يصل إلى الصدر، لكن حينما شاهدا الأمر أكثر خطورة مما قدرا أخرجاه. كان بين الحياة والموت. هذه الحادثة جعلت الكثيرين يترددون في النزول إلى الماء فترة طويلة، ثم جعلتهم شديدي الحذر.

كان اختيار الأخوين يرضي رغبتهما، لكن يبدو أن المهمة التي كلفا بها مع الآخرين كانت من الخطورة إلى درجة جعلت الحادث يقع.

فبعد البدء بتوسيع المنطقة البحرية وتعميقها، وكانت مقابل معسكر الأميركان، والرجال يذهبون ويرجعون كل يوم، وقد اكتسبت أجسامهم هذا اللون المحروق، فبدوا مختلفين عن العمال الآخرين، وأخذوا ينقلون أحاديث وقصصاً عن المركب الذي يأخذهم، وعن الأدوات التي يستعملونها، ثم عن التفجيرات التي كانت تهز البحر وتجعل الأمواج الهائلة تتلاطم، ويروون ماذا يأكل الأميركان وكيف يأكلون، كانت الأحاديث التي ينقلها عمال البحر إلى عمال البر تجعل ليالي حران في هذا الصيف المتأخر أقل قسوة.

يتذكر الكثيرون أنه في الليلة التي كان القمر بدراً، وكان صويلح في حالة من الوجد، فغنى غناءً خافتاً أقرب إلى البوح الحزين، ورفض أن يرفع صوته أو أن يغير نبرته، رغم الإلحاح، ورغم المقاطع الأولى التي حاول العمال إغراءه بها، يتذكر الكثيرون أن مزبان كان صامتاً وحزيناً، وأنه لم يتكلم إلا مرة واحدة طوال السهرة التي امتدت ساعات، قال «يا جماعة.. والله هالبحر كله ما أبدله بالبير اللي بديرتنا، والليلة ابن هديب فتح جروح مالها تالي» قال هذه الكلمات في لحظة صمت وفي لحظة لوعة، وما كان الرجال ليتذكروا هذه الكلمات لولا الحادثة التي وقعت.

ففي فجر اليوم التالي، حيث تعوّد عمال البحر أن يذهبوا قبل غيرهم، وبعد أن غادر هؤلاء المعسكر وركبوا البحر، وحين طلب إلى ثلاثة من العمال الغوص لكي يثبتوا حبلاً في إحدى الصخور تمهيداً لقلعها، وكان مزبان واحداً منهم، في هذه النزلة التي أخذت الثلاثة إلى حيث حدد لهم، وبعد فترة قصيرة عاد الاثنان ولم يعد مزبان. عاد إبراهيم الصقار وسعد الراجح ولم يعد مزبان. ولما مرت دقيقتان و ثلاث دقائق ولم يظهر نزل وراءه عدد من العمال، لكنهم عادوا ولم يعد.

بعد بحث طويل وجدوا مزبان: كانت رجلة في فجوة صخرة، كانت

الفجوة كأنها السوار، وقد علق هناك، ويبدو أنه ناضل كثيراً من أجل أن يفلت منها، إذ وجدت جروح في جسده، لكنه لم يستطع.

كان يوماً صعباً مشؤوماً يوم عادوا بمزبان جثة هامدة. انتشر الخبر بسرعة في المعسكر، في حران الأميركان وحران العرب.

وبكثير من الحزن والغضب دفن مزبان في ظهيرة اليوم ذاته. ولم يبق أحد إلا وشارك في الدفن ثم في الحزن، وظل الكثيرون، وحتى وقت متأخر، يتذكرون تلك الضحكة المدوية التي كانت تميّز الحوت الكبير، كما كان يسميه عبد الله الزامل.

لم يتوقف العمل في تعميق البحر وتوسيع الميناء يوماً واحداً، وهاجم الذي لم يُطلب منه الذهاب إلى العمل في اليوم التالي، ثم في الأيام التي بعده، ولم يفعل هو أيضاً، بدا منذ الساعة التي وضع فيها مزبان في القبر وأهيل عليه التراب إنساناً آخر: زاغت نظراته وارتخى فكاه وبدا غائباً. صحيح أنه لم تسقط من عينيه دمعة واحدة، ولم تخرج من فمه كلمة، لكنه كان مذهولاً. كان ينظر في الوجوه وكأنه يبحث عن أحد. حتى إذا تأكد أن الذي يبحث عنه غير موجود أخذ يبتسم ثم يقهقه، ويضرب ساقه براحة يده. كان يفعل ذلك دون وعي ودون إرادة. والعمال الذين أشاحوا بأنظارهم لكي لا ينظروا إليه في البداية، ما لبثوا أن أصيبوا بالحزن الشديد، وشعر بعضهم بالإعياء و ما يشبه الدوار. لم يكن مزبان مجرد واحد من العمال. كان شهماً ومحبوباً، وكان يتصرف مثل أب أو مثل أخ كبير. أطلقوا عليه عدة أسماء. سموه «الجمل»، وسموه «الحصان»، أما عبد الله الزامل.. فقد سماه «الحوت الكبير»، وكان هذا الاسم الأخير أكثرها انتشاراً وتداولاً. كان يلجأ إليه الكثيرون في ساعات الضيق أو عند الحاجة. وهو بمقدار ما يبدو طفلاً كبيراً كان قوياً، وفي لحظات معينة قاسياً. كان يمسك من يسأله من يده عند الساعد ويجره نحو البحر لكي يسمع منه بانتباه، حتى إذا عادا مثل أخوين وبشكل مختلف أيضاً. أما إذا اختلف اثنان فكان مزبان الحكم الذي يفصل ويُقبل بحكمه.

الآن، بعد أن دفنوه، بعد أن وضعوه تحت التراب، صدقوا أنه مات وانتهى. فإذا نظروا إلى وجه هاجم وهو يلتفت، وهو ينظر في الوجوه بذهول ويبتسم تلك الابتسامة البلهاء، عندئذٍ يتأكدون أنهم فقدوا عزيزاً. أما إذا تذكروا كلمات ابن نفاع عند القبر وهو يصرخ «الرجل ما مات، قتلوه

بالسحر قبل ما يقتلوه بالبحر» فإنهم يجدون معنى مختلفاً لهذه الكلمات.

لماذا هم منبوذون ويدفعون إلى الموت في كل لحظة؟ وإذا كانوا قد جاءوا من أجل العمل فإنهم في هذا المكان يعملون ويُقتلون في وقت واحد. أما الدراهم التي حصلوا عليها فإنها لا تعادل يوماً واحداً تحت وطأة هذه السقوف التي تصب فوق رؤوسهم رصاصاً مصهوراً. وكلمات ابن الراشد؟ ودحام؟ ونعيم؟ ووجوه الأميركان القاسية؟ كان الأميركان في البداية يضحكون، يربتون على أكتافهم. في الشهور الأخيرة أصبحوا لا ينظرون إليهم، فإذا نظروا خرجت من أفواههم كلمات لا يمكن أن تكون إلا شتائم. هكذا قدروا وكانوا متأكدين من ذلك، لأن «الشتائم بأية لغة لا تخفى»، كما يقول ابن الزامل. حتى أطفال حران وهم يقتربون من الأميركان ويرفعون أيديهم بتحية مع كلمة مثل «يا ابن الكلب»، كان يعرفها الأميركان، كانوا يرفعون أصابعهم محذرين، ولم يتردد واحد منهم في أن يضرب طفلاً بقدمه ويوقعه. لقد تغير الأميركان؛ ليس هذا كل شيء، أصبحت العلاقة بين الطرفين محدودة وتتم فقط عن طريق «إدارة الأفراد». وإدارة الأفراد أصبحت تعني نعيم والدباسي الصغير ودحام، إضافة إلى اثنين من رجال الأمير.

عصر اليوم الذي مات فيه مزبان جاء ابن الراشد. كان يبدو أكثر وقاراً من أية مرة سابقة. لبس عباءته السوداء الجديدة، التي لا يلبسها عادة إلا إذا زار الأمير أو جاء بزيارة لمعسكر الأميركان. كان يمشي ببطء. رآه الكثيرون وهو يدخل بوابة المعسكر ومعه اثنان من جماعته. ظل العمال في أماكنهم صامتين. كانوا يعرفون أنه جاء ليقول كلمتين لهاجم، ليعزيه، وفي تلك اللحظات شعروا أن ابن الراشد عدو حقيقي. هو الذي جاء بهم إلى هذا المكان وسلمهم كالغنم إلى هؤلاء. كانوا حاقدين عليه ويعتبرونه مسؤولاً ليس عن موت مزبان وإنما عن قتله.

في ظل أحد البركسات، ناحية الشرق، كان هاجم ومجموعة من العمال جالسين، وقبل أن يصل ابن الراشد بمسافة ليست قصيرة تنحنح، لكن أحداً لم يسمع ولم يتطلع نحوه، حتى إذا اقترب تماماً، بخطواته

القوية الواثقة، قال من تلك المسافة.

ـ العوض بسلامة الرجال.

تقدم نحوه بعض العمال، صافحوه ومشوا معه. كان هاجم يتطلع إلى الوجوه، يتلفت في أكثر من ناحية ثم يبتسم. اقترب منه ابن الراشد حتى إذا صار فوقه، تطلع إليه هاجم وابتسم. قال ابن الراشد:

ـ سلامة راسك يا وليدي، وعسى تكون نهاية الأحزان.

وهبط فقبّل كتفي هاجم وجلس بجانبه. تطلع إليه هاجم أكثر من مرة وابتسم. تطلع ابن الراشد في وجوه الرجال الصامتين، هز رأسه وقد أدرك الحالة، قال ليغير الجو:

ـ الموت مكتوب على ابن آدم من يوم ما الله خلقه، ومثل ما يولد الإنسان لا بد أن يموت، هذه سنة الحياة، والإنسان لا يعرف في أي مكان يولد وفي أي مكان يموت. إن الله حق والموت حق، ولا يدوم إلاّ الحيّ القيوم.

كان ابن الراشد يتكلم وحده، يتكلم لنفسه. بدت كلماته جافة لا تعني شيئاً أو أحداً، وحين رأى نظرات الرجال الباردة، وأحس بالصمت يحاصره سأل:

ـ من كان مع المرحوم؟

لما ذكرت بعض الأسماء، وتحرك بعض الرجال بطريقة عفوية، لأنهم كانوا مع مزبان، قال ابن الراشد لأحد الرجال:

ـ تعال... تعال يا وليدي، تقرب، وسولف لي كيف صارت «القصة».

ورغم أن ابن الراشد وجميع الرجال قد سمعوا «القصة» عدة مرات، ورواها عدة أشخاص، فإن الصمت قد خيم والرجل يروي من جديد، بتفصيل وارتباك، كل شيء، منذ لحظة مغادرة المعسكر عند الفجر وحتى وقوع الحادثة.

كان الوحيد الذي يسمع القصة، وكأنها تروى لأول مرة، هو هاجم. كانت عيناه تحملقان في وجه الرجل. كان يقترب منه ويبتسم، حتى إذا

انتهى ضرب ساقه براحة يده، وبانفعال رفع رأسه بسرعة وأداره في عدة اتجاهات كأنه يبحث عن أحد. أمسك به ابن الراشد وأجلسه. قال له بصوت حزين:

- اصبر يا وليدي، لا حول ولا قوة إلا بالله.. وإنا إليه راجعون.

لما خيم الصمت مرة أخرى، وبدا الجو ثقيلاً مشحوناً قال ابن الراشد بارتباك:

- دم الرجل لا بدّ يتعوض.

غيّر جلسته وأضاف بلهجة مختلفة:

- لا بد إنه صار بعلمكم: من مدة العمال كلهم صاروا بذمة الشركة. الشركة هي المسؤولة، هي اللي تدفع المعاشات، وتدفع الأرزاق.. ومسؤولة عن السكن...

قال دحام وقد ظل صامتاً منزوياً:

- لازم إدارة الأفراد تعوض...

كان ابن الراشد بحاجة إلى مساعدة، إلى من يقف معه في تلك اللحظة، وما كاد دحام يقول هذه الكلمات حتى رد ابن الراشد بحزم:

- اسمع يا دحام، انت وابن هذال، هذا اليوم، نعم هذا اليوم، تكتبون معروضاً للشركة وتقولون فيه كل شيء. نعم.. كل شيء: الحادث كيف وقع. متى. وتطلبون التعويض، تسمعني يا دحام؟

وهز دحام رأسه دلالة الفهم والموافقة. وحين رفع رأسه ليبحث عن ابن هذال من أجل أن يعاونه في هذه المهمة، التقى بعيني هاجم، كان هاجم يتلفت، ينظر في الوجوه، وحين التقت عيناه بعيني دحام ابتسم. وابن الراشد الذي مال على هاجم وقبّل كتفيه مرة أخرى قال وهو ينهض:

- العوض بسلامة الرجال. وإنا لله وإنا إليه راجعون..

وحين غادر رافقه بعض الرجال إلى مسافة معينة. أما دحام فقد ذهب معه إلى حران العرب!

وحين هبط الظلام في تلك الليلة شعر الرجال بحزن شديد، ولا يتذكر أحد منهم أنه رأى القمر الذي كان يملأ السماء.

في أواخر أيام الخريف انشغلت حران ببناء دار الإمارة وبيت الأمير. فإلى جانب الخيام، على التل الشمالي الأوسط، الواقع بين حران العرب وحران الأميركان، إلى الغرب من معسكر الأميركان، أخذت تتكدس أكوام الحجارة والرمل، إضافة إلى القضبان الحديدية والعوارض وألواح الخشب، وبدأت حركة غير عادية، بانتظار الشروع بالبناء. وخلال هذه الفترة زار الأمير عدد من الأميركيين، يرافقهم نعيم، وعرضوا عليه المخططات والرسوم، وقد تريث الأمير في إعطاء موافقته لمدة ثلاثة أيام، ويبدو أنه سأل ابن الراشد والدباسي وآخرين حول المكان المقترح للبناء وعدد الغرف، وعرض أمامهم المخططات والرسوم، لكن أياً منه لم يميز شيئاً. اكتفوا بأن أوصوا، وبكلمات عامة «أن يكون البناء قوياً مثل بيوت الأميركيين وأن يكون واسعاً». وحين عاد الأميركيون لزيارة الأمير بعد أيام، ومعهم نعيم، وعرضت المخططات والرسوم مرة أخرى، قال الأمير خالد المشاري وبصوت خافت وحازم:

ـ خلص وافقنا... وعلى بركة الله.

وحين سئل الأمير عن أي المخططات يباشر به، أجاب:

ـ خلص.. أعطينا موافقتنا.. وتوكلوا على الله.

ولما ارتبك نعيم ولم يستطع أن يقول شيئاً، وظل ينقّل نظراته بين الأمير والأميركيين، قال الأمير لينهي كل شيء:

ـ قل لهم أن يكثروا الحديد... والشبابيك جنوبية.

وأفهم نعيم الأميركيين أن الأمير يترك لهم اختيار المخطط المناسب، وأشار أن تكون النوافذ واسعة وباتجاه الجنوب. وحين سئل الأميركيون عن

المدة التي يحتاجها البناء أجابوا أنها تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر.

لما بدأت الحفارات تعمل لم يطق الأمير سماع هديرها، أما حين جاءت القلابات لكي تحمل الأتربة فقد قال للدباسي:

ـ حلّ وعدنا يا أبو صالح.

فلما ابتسم الدباسي وهز رأسه وأجاب وهو يضع أصبعه بالقرب من عينه:

ـ ببطن عيني يا طويل العمر.

ابتسم الأمير ثم بدأ يقهقه، والدباسي يشاركه الابتسام، حتى إذا هدأ قال:

ـ الظاهر أنها فاتتك يا أبو صالح.. أو نسيت.

وبعد جهد، وبكثير من المكر والمداورة، فهم الدباسي أن الوعد الذي يعنيه الأمير: رحلة الصيد، خاصة وأن «هذه البلايا التي جاء بها الأميركان تطوّش الرأس وتعمي العيون!» وإذا كان الدباسي قد أبدى استعداداً لمرافقة الأمير في هذه الرحلة، ووعد أن يصطحب معه بعض الذين يعرفون أماكن الصيد، فقد استأذن ببضعة أيام ريثما ينتهي من بعض الأشغال الطارئة التي لا تحتمل التأجيل، فوافق الأمير على أن يتم اختيار المرافقين بعناية.

أما حين عرض الأمير على ابن الراشد أن يرافقه في هذه الرحلة فقد فرك يديه وبدا غير قادر على الرفض أو الموافقة، وظل صامتاً، فلما استفسر منه قال وهو يضحك:

ـ يا طويل العمر المربى قتال.

وفهم الأمير أنه يريد البقاء في حران، فقال ساخرا:

ـ لا تخف يا ابن الراشد، حران بمكانها، وما نرجع إلا وتكون أزين.

هز ابن الراشد رأسه ورفع يديه الاثنتين ورد:

ـ حران لأهل حران، للدباسي وغيره، وانت، يا طويل العمر، تعرف إن اللي ما يصل أهله ما يجيه ولد، وابن الراشد حنّ للولد.

كان يمكن لابن الراشد أن يذكر الأمير ذاته، وكيف أنه اصطحب معه

أهله، وإنه لا يستطيع أن يعيش بدونهم، لكنه فضّل أن يذكر الدباسي، وأن يشير بصورة أو أخرى إلى زواجه من حرانية، وبعد وصوله ببضعة أيام فقط، قال الأمير خالد مداعباً:

ـ الحق عليك، يا ابن الراشد. . . والفلوس تعمي.

ـ أخطأنا يا طويل العمر. . . والفلوس راحت ببطون الناس.

ـ إذا رجعنا ولقيناك بهذه الديرة، مثل ما أنت، زكرتي، زوجناك أو رحلناك.

ـ القول قولك يا طويل العمر.

وخلال بضعة أيام تهيأت رحلة الأمير، وصحبه في هذه الرحلة عدد من رجاله، بالإضافة إلى الدباسي واثنين من حران، أحدهما رجل مسن لا يكاد يتكلم، والثاني أقرب إلى سن الشباب، لكن يبدو من هيئته أنه كثير الأسفار، وكان سريع الحركة، ذكياً، والابتسامة لا تفارق شفتيه.

كانت وصية الأمير خالد لنائبه أن يراقب بنفسه البناء، وأن يشرف على كل مراحله، وأكد من جديد أن تكون الشبابيك جنوبية وواسعة، كما أشار إلى أنه لن يغيب فترة طويلة، لكنه لا يعرف أيضاً متى سيعود لأن «كل شيء يعتمد على القنص. يجوز نرجع بعد كم يوم، ويجوز نبطي» وأضاف بلهجة أبوية «البركة فيكم، واعتمادنا على الله وعليكم».

وتأخر ابن الراشد في حران، بعد سفر الأمير خالد، ثلاثة أسابيع، كان عليه أن يؤمن جميع كميات الحجارة والرمل لدار الإمارة وبيت الأمير، إضافة إلى تأمين اليد العاملة، وكان عليه أن يتفق مع الأميركيين حول تأمين المواد لمطعم العمال، خاصة وإن التنافس بينه وبين صالح الدباسي قد تطور إلى مايشبه التحدي الأقرب إلى الخصومة المكشوفة. كانت هذه الأعمال، بالإضافة إلى قرار غامض وقلق، ولم يحسم بعد، حول بناء بيت في حران. . . هل يشرع فيه الآن أم يرجئه إلى وقت لاحق.

كانت هذه هي الأسباب الظاهرة في تأخر ابن الراشد، إضافة لسبب آخر لا يعرفه سواه ودحام: كان عليه أن يخلص من هاجم. إذ بعد

المعروض الذي قُدّم في الأسبوع الثالث لوفاة مزبان، وقد وضع ابن الراشد كل «عبقريته» في صياغة هذا المعروض، إذ عدله وأضاف إليه عدة مرات، وقرر أخيراً أن يكتبه فواز الهذال لأن «خطه على السطر، مثل السيف، وكلماته واضح وقوية، عكس دحام اللي يكتب بالميل، كلماته واحدة كبيرة وواحدة صغيرة». ملأ ابن الراشد المعروض بكلمات الاستعطاف التي كان يحفظها ويتذكرها، وقد قضى وقتاً حتى رتبها بشكل يرضى عنه.

قُدم المعروض إلى «إدارة الأفراد»، وعن طريقها رفع إلى المقر العام، ومن المقر العام أحيل إلى اللجنة القانونية، لتقرر ما إذا كان ابن الراشد هو المسؤول عن التعويض، باعتبار أن إجراءات المصادقة على انتقال العمال إلى مسؤولية الشركة لم تتم إلا بعد عشرة أيام من الحادث. وقد زاد في تعقيد الموضوع أيضاً الحالة التي وصل إليها هاجم، إذ لم تفارقه الهواجس وظل غارقاً في حالة من الذهول، الأمر الذي أدى إلى صرفه من العمل، بعد إحالات عديدة على أطباء كان واحد منهم هندياً، ويبدو أن هذا الطبيب كان له رأي يختلف عن الطبيبين الآخرين. وقد أدى الخلاف إلى تأخير صدور التقرير أولاً ثم تأخير قرار الصرف من الخدمة بعد ذلك؛ وترافق هذا مع مداخلات وإشاعات كثيرة ساهم بتغذيتها، كما يؤكد ابن الراشد، صالح الدباسي، بهدف «إضعافه أمام الأميركان وتحريض العمال ضده».

كان ابن الراشد يريد حسم هذه القضية قبل أن يتحرك، خاصة وأن الأمير بدا غير متحمس للتدخل، وحين طلب منه ابن الراشد ذلك رد: «البشر برقبتنا يا ابن الراشد، والأحسن إن تشوف جماعتك، وارضوا الناس بقريشات وخلصونا من الطلايب». ولذلك قدر ابن الراشد أنه إذا لم تنته القضية الآن فلا بد أن تتطور وتجر ذيولاً كثيرة، خاصة وأن الدباسي مع الأمير الآن في هذه الرحلة «وما عنده سالفة إلا ابن الراشد. ابن الراشد فعله، ابن الراشد تركه، وكلمة وراء كلمة، في الليل والنهار، والأمير مثل الحريمة والولد الصغير لا بد يسمع ويصدّق، وعندها نكون بشغلة نصير بشغلة ثانية».

المحاولات التي بذلها ابن الراشد مع الأميركيين، من أجل إنهاء القضية بأسرع وقت، اصطدمت بالإجراءات القانونية والطبية «لأن النظام هو النظام، وهو فوق الأفراد وأقوى من إرادتهم أو رغبتهم!» أما محاولاته غير المباشرة، مع هاجم فقد اصطدمت بالابتسامات الساخرة، واصطدمت أيضاً بالتحريض الذي يمارسه العمال. لذلك اتخذ قراراً بنفسه ونفذه في إحدى الليالي دون أن يحس به أحد.

عند الظهر بعث دحام ليأخذ هاجم إلى اللجنة الطبية، هكذا قال دحام، وهكذا قال دحام للعامل الذي كان مناوباً مع هاجم، بعد أن قرر العمال فيما بينهم أن يبقى واحد منهم معه؛ وبدل أن يؤخذ هاجم إلى اللجنة الطبية جيء به إلى حران العرب، إلى خيمة ابن الراشد، وهناك كان قد هيأ أحد رجاله لكي يسافر بعد الغروب مصطحباً معه هاجم، ليوصله إلى أهله. وهذا ما حصل فعلاً، فقد وضعت بعض «القريشات» في خرج الجمل الذي حمل هاجم، ولم توضع في جيبه لأنه قد «يرميها» أو يعطيها لأي بدوي» هكذا قال ابن الراشد للذي رافق هاجم إلى عجرة، ثم إلى أم السعف «لأن له خالاً هناك، سلمه لخاله وقل له التعويض يصلكم!».

في اليوم الثالث حين سئل عن هاجم قال: «الحكيم الأميركاني كطّه، وإن شاء الله يرجع طيب» أما بعد اليوم الخامس فقد قال دحام، وكان مرتبكاً وخائفاً:

ـ هاجم عند أهله.. وإذا ما وصلهم اليوم يصلهم باكر!

امتلأ العمال حقداً أسود عندما سمعوا كلمات دحام، وقرروا ألا ينسوا أبداً.

بعد سفر الأمير بأيام وصل إلى حران محمد السيف وعبد الله السعد، وهما من أهل حران، وكانا قد تركاها منذ وقت طويل. عبد الله ظل يبعث إلى أهله الرسائل، وبعث لهم أرزاقاً ودراهم عدة مرات، أما محمد فقد انقطعت أخباره في السنين الثلاث الأولى، ثم جاءت منه عدة رسائل ومعها بعض الدراهم، وقال أحد الذين حملوا رسالة من رسائله أن «محمد السيف فوق الريح، ومن الأغنياء المعروفين في البصرة».

الآن، وهما يعودان، وحينما وقفا في المطالع، بداية طريق حران ـ عجرة، ظنا أنهما أخطآ الطريق، وفي لحظة من اللحظات ظن عبد الله أنه في حلم، وحين فرك عينيه جيداً وتطلع بإمعان لم يميز سوى النخلتين اللتين كانتا قرب الجامع منذ وقت طويل، وما عدا ذلك تغير. حران التي كانت هناك، في المنخفض، عند الآبار، لم تبق منها أية علامة من العلامات القديمة. ومكان البيوت التي كانت، تقوم الآن كتل من الأبنية الصغيرة المتناثرة والملونة ثم مجموعة من الخيام، وعلى التلال من الشرق والغرب قامت أشياء عجيبة لم يكن لها وجود في السابق.

ظلا يتأملان بصمت، تلفتا أكثر من مرة، إذ ربما يكون هناك خطأ من نوع ما، وحين تأكدا أنهما وصلا، وإن هذا الشيء العجيب الذي يريانه هو حران ذاتها، وإن تكن حران أخرى، فقد شعرا بالخيبة وما يشبه الكراهية. لماذا دمّرت حران التي كانت في يوم من الأيام؟ وأهلهم، أين صاروا وماذا حلّ بهم؟ وهل يستطيعان أن يعيشا في هذه الحران التي لا يعرفانها ولم يعيشا فيها من قبل؟

كان يمكن للرجلين أن يقولا الكثير، لكن المفاجأة، وتلك الرغبة

بالاكتشاف والتعرف جعلتهما أقرب إلى الصمت والحيرة. فما عدا كلمات التعجب والدهشة، وحتى عدم التصديق التي صدرت عنهما في المطالع، ظلا يخبّان على ناقتيهما ضمن هذه القافلة التي أثارت في نفسيهما العجب منذ اللحظة الأولى في عجرة. كانت القافلة كبيرة وفيها بشر لا يمكن أن يجتمعوا أبداً في قافلة أخرى، وكانت تحمل أشياء كثيرة ومتنوعة أيضاً. وإذا كانا قد تبادلا أحاديث عامة مع عدد من المسافرين فلم يقولا أنهما من أهل حران، أو أنهما غابا عنها فترة طويلة، وهما يعودان إليها الآن. أما حين سألهما أحد البدو في القافلة ما إذا كانا مثله يقصدون حران للعمل، فقد هز محمد رأسه بالإيجاب.

الآن وهما يقطعان المسافة باتجاه الجامع يحسان بخيبة الأمل، ويشعران بالإحراج أيضاً. كيف سيصلان إلى أهليهما؟ هل يسألان الغرباء والذين جاءوا بالأمس لكي يدلوهما ويقولوا لهما أين أصبح أهلهما؟ وأهلهما هل يعرفونهما بعد هذي السنين وبعد هذا التغير الكبير الذي حصل في كل شيء؟

قال عبد الله بطريقة مازحة:

- يا محمد.. ما لنا إلا الجامع، هناك نصلي ركعتين ونلقى الشيّاب اللي بعدهم ما ماتوا، ولا بد يعرفوننا، أو يعرفون علوم أهلنا.

رد محمد وهو يضحك بصوتٍ عالٍ:

- بمصر يقولون: قولوا لي يا جدعان هو بيت أبوي فين.

- وكّل الله نلقاهم.. لا تخف.

- ما أنا بخايف.. لكن...

وهز محمد رأسه وتطلع إلى عبد الله بإمعان، ثم تابع وهو يبتسم:

- قبل عشرين ثلاثين سنة، كنا نركب الحمير ونشد عيوننا من تل الذيب إلى حران ونتسابق ونصل!

قهقه عبد الله وعلق:

ـ «الحمار» دائماً يدل مربطه.

لم تغير حران عاداتها، إذ ما كادت القافلة تصل حتى كان الناس في لقائها. وبأسرع مما قدر الرجلان، ومن النظرات الأولى غرقا في جو الأهل والأصدقاء. كان الناس حولهما وكأنهما لم يغادرا حران هذه السنين كلها. صحيح أن الزمان ترك آثاره وعلاماته على الوجوه، لكن هذه الآثار ما لبثت أن تراجعت بسرعة لتظهر العواطف التي كانت، ولتظهر القوة الداخلية التي تلغي الزمن والمسافات، وتعيد الأشياء إلى لحظة مجدها الأول.

كانت لقاءات الرجلين بالأهل والأصدقاء مؤثرة، وفي بعض اللحظات قاسية، فالمقيمون أظهروا فرحاً جامحاً، وعبروا عن ذلك بصور شتى، لكن ظل في عيونهم أيضاً لوم لا يخفى، وكأن هذه العيون تقول: لماذا تركتمونا هكذا كل هذه السنين؟أو تقول: هل يمكن للإنسان أن ينسى أو يتخلى عن جذوره؟ والعائدان اللذان تلفتا في كل الأنحاء وسألا عشرات الأسئلة، دون انتظار إجابات كاملة أو دقيقة، كانا في قلق: أين أصبحت الأمهات والأخوات والعمّات والخالات، أين هن نساء حران؟ وهل يعيش الناس في رضا بعد هذا التغير الذي لم يبق شيئاً من حران الأولى؟ وأين يسكنون الآن؟

وبطريقة لا تخلو من الارتباك، بين صخب الأطفال وضجيجهم، إضافة إلى هياج الحيوانات بسبب الاضطراب والضجة والنداءات، وصل محمد السيف وعبد الله السعد إلى حران الجديدة. وقد رأى الكثيرون عبد الله السعد يمسح دموعه حين التقى بأمه. كانت امرأة عجوز لا تستطيع المشي إلا بصعوبة،،وقد أصبحت عمياء أيضاً. حين التقت به دفنت وجهها في صدره وظلت هكذا فترة طويلة، وحتى لما تراجعت قليلاً ورفعت رأسها ظلت ممسكة به. أمسكت به بقوة أول الأمر، وكأنها تخاف أن يفلت منها أو أن يهرب مرة أخرى، وتساقطت من عينيها دموع غزيرة، وظلت بين لحظة وأخرى تدفن رأسها في صدره، تشمه وتبكي، وقد رأى الناس عبد الله يبتسم لكن بطريقة أقرب إلى البكاء، ثم بعد فترة ارتخت

إحدى قبضتيها، وظلت الأخرى بنفس القوة، وبدأت تجوس وتتلمس باليد الطليقة وتستقر أكثر ما يكون على وجهه.

لحظات قاسية عاتية ليس بالنسبة لعبد الله وأمه فقط، وإنما لجميع الذين كانوا. والأم إذا ظلت صامتة، ويدها فقط ترحل من مكان إلى آخر، وكأنها بهذه اليد تسأل، تتفحص، تتأكد، حتى اللحية الصغيرة التي تلمسها بكثير من الحنان وما يشبه المتعة، وأخذت تقبل يدها، ثم ترتفع وتقبل اللحية ذاتها، فلما اطمأنت، أو ربما ثملت، ارتخت يداها، أسبلتهما، لكن بين فترة وأخرى تمتد إحداهما أو الاثنتان معاً لتتلمس المخلوق الغريب الذي انفجر فجأة، كانت تفعل ذلك وكأنها تتلمس طفلاً رضيعاً.

فوجئ عبد الله أن أمه فقدت بصرها، لم يقل له أحد ولم يتوقع، لكن وهو يراها هكذا شعر بالتعاسة، أحس أن خطأه كبير إلى درجة لا يمكن أن يغفره لنفسه؛ أما حين أقبلت عليه أخواته فقد أحس بثقل الزمن ومرور الأيام. حتى أخته الصغيرة التي تركها ابنة عشر تزوجت وجاءها ولدان، كانت تحمل الأولى وتجر الثاني! كيف انقضت كل هذه السنين، ولماذا كان قاسياً بهذا المقدار؟

وإذا كان عبد الله فوجئ بهذا الذي يراه أمامه فإن محمد الذي لم يفاجأ بأمّ فقدت بصرها، لأنها غادرت هذه الدنيا منذ كان صغيراً، فقد فاجأه كل شيء آخر، وحتى بعد انقضاء أيام وتعرف الاثنين على الصغار، وسؤالهما عن كل واحد من الكبار، ثم تجولهما بين بيوت حران الجديدة على التل الغربي، ونزولهما إلى السوق ووقوفهما عند الآبار، ثم التجول الطويل على الشاطئ، رغم كل هذا فإن حران التي يريانها الآن لا تجعلهما يشعران براحة من أي نوع، ليس عدم الشعور بالراحة فقط، وإنما الشعور بالخوف أيضاً.

وبطريقة غريزية تختلط فيها المحبة بالخوف طوّق أهل حران هذين العائدين لمحاربة أية فكرة أو رغبة تحملهما على السفر مرة أخرى. فقد أحس أهل حران، وهذا الإحساس ملأ النسوة قبل الرجال، أن الرجلين يمكن أن يفلتا، يمكن أن يتذرعا بأية حجة، وقد يقولان أي شيء من أجل

أن يسافرا مرة أخرى، أحس أهل حران بذلك من النظرات ومن ذلك السهوم الذي كان يسيطر على الرجلين في لحظات معينة، رغم أنهما لم يقولا كلمة واحدة تشي بذلك.

وإذا كان أهل حران جميعهم قد تكفلوا بمحمد السيف، دون أن يتفقوا على ذلك بكلمات واضحة أو نتيجة خطة، فإن تلك العجوز العمياء وحدها تكفلت بابنها عبد الله وساعدت أهل حران أيضاً في أن يحاصروا محمد السيف، ويمنعوهما من السفر. فالشعور الذي سيطر على الناس أنهم متروكون، وبحاجة إلى حماية من نوع ما، وإن هذه الحماية لا يمكن أن تولد من داخلهم، لا من الأمير ولا من غيره، هذا الشعور هو الذي جعلهم يتصرفون ويتكلمون بطريقة معينة مع الرجلين، وهو الذين امتص تلك الرغبات التي تراودهما بين فترة وأخرى. وبمرور الأيام، وما كاد شهر ينقضي حتى أبلغ عبد الله أمه أنه سيبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة ليأتي بأهله وسوف يبعث معه رسالة إلى شريكه هناك يخبره أنه سيتأخر عليه في العودة. وهزت العجوز رأسها وانحدرت من عينيها الدموع ولم تقل شيئاً. وبعد بضعة أيام كان إبراهيم قد هيأ نفسه وسافر. أما محمد السيف فقد قال ليلة سفر إبراهيم: «قريشاتي بعبّي وحران مثل غيرها. إذا ما سافرت هذه السنة أسافر السنة اللي بعدها».

في البركسات بدأ الحقد مثل طير ينتقل من صدر إلى آخر. كان ينتقل كل لحظة ولأي سبب أو حتى دون سبب. ودحام الذي كان قوياً بصوته العالي ومشيته الواثقة، والذي كان لا يتردد في الشتيمة، ويعتبرها أحد الفنون التي يتقنها، أصبح بعد غياب هاجم ثم سفر ابن الراشد، دقيقاً شديد الحذر، بل وكان كثير الغياب عن المعسكر بحجة وجود أعمال وأمور يجب أن يلاحقها في حران العرب أو في معسكر الأميركان. أما نعيم فلم يره العمال منذ وفاة مزبان، إذ بعد أن اشترك في التشييع، ممثلاً للإدارة، كما قال أكثر من مرة، غاب تماماً. قال بعض العمال إنهم رأوه عن بعد، وقال آخرون أنه سافر سفرة طويلة وربما لا يعود. أما «إدارة الأفراد» كما أطلق على هذا الشبح فلا يعرف إن كان موجوداً أو غير موجود، فقد أبلغت العمال بأمور عديدة، عن طريق مراقبي العمل، خاصة رجال الأمير، ثم تمّ التراجع عنها.

في هذه الفترة أيضاً وصلت وجبات جديدة من العمال، وقد تم جلبهم من قبل الدباسي، وليس عن طريق ابن الراشد. وأبدى صالح الدباسي اهتماماً غير عادي أثناء استقبال العمال ثم توزيعهم على البركسات الجديدة التي تم تشييدها في هذه الفترة، كما تم تسليفهم نصف راتب إذ ربما «يحتاجون لشراء بعض المواد من دكاكين حران، أو لشرب كأس من الشاي في المقهى». يضاف إلى ذلك أن الملابس والحاجات الأخرى التي سُلّمت للوجبات الجديدة كانت أفضل من تلك التي سلمت للعمال القدامى. وظل صالح يتردد كل يوم ويسأل ليتأكد.

الوجبات الجديدة التي جاءت من أمكنة عديدة حملت انسام العالم

خارج حران، وذكرت الكثير من القصص والوقائع، والتي كانت مزيجاً من الأحلام والرغبات مع بعض الأكاذيب. ففي عجرة فُتح مكتب للتوظيف، وفي السماعنة، وعلى الطريق السلطاني أيضاً، ورجال ابن الراشد الذين رابطوا في هذه المكاتب أو رحلوا إلى الداخل بحثاً عن عمال، ذكروا الكثير الكثير من المزايا التي يحصل عليها من سيعمل في الشركة. لم يتركوا شيئاً إلا وقالوه: الأكل الجيد، المعاشات الكبيرة، العمل لساعات قليلة ثم يصبح العمال أحراراً ويمكن أن يعملوا أي شيء يريدونه، إضافة إلى السكن المجاني، والسكن في بيوت وحول هذه البيوت الحدائق والمياه...

عيون العمال الجدد تجوس كل الأنحاء وتتطلع برغبة التعرف والاكتشاف، وإذا كانت هناك أكاذيب يمكن أن تدوم فترة طويلة، فإن السكن في البركسات الجديدة رغم أنها أفضل وأقل حرارة، كان يفضح كل شيء ويجعل الحياة صعبة قاسية.

و«إدارة الأفراد» التي ظلت شبحاً خلال الفترة الماضية قامت في هذه الفترة بإبلاغ العمال أن مقابلات سوف يتم إجراؤها خلال أيام من أجل التصنيف. أبلغ أحد رجال الأمير العمال بذلك وطلب منهم أن يستعدوا! أن يستعدوا؟ أي معنى لمثل هذه الكلمة وماذا سيفعلون وماذا يعني تصنيف العمال وإلامَ سيؤدي؟

كان يمكن لبلاغ من هذا النوع أن يمر دون أن يخلف أثراً ويثير قلقاً، لكن في اليوم الثالث أُبلغ العمال أنهم سيقسمون إلى مجموعات، المجموعة الأولى ستتوجه للمقابلة والمجموعات الأخرى تواصل عملها كالمعتاد. ودون انتظار قرأ دحام أسماء مجموعة المقابلة، وطلب من الآخرين أن ينصرفوا إلى عملهم، وخلال فترة قصيرة توجه العمال إلى معسكر الأميركان.

لقد انقضت فترة طويلة، بضعة شهور، منذ أن كانوا هنا آخر مرة، وبعضهم لم يأت من قبل.

بدت حران الأميركان شيئاً جديداً بالنسبة للجميع. حتى الأماكن والأبنية التي عملوا فيها واستراحوا في ظلالها تبدو الآن شيئاً مختلفاً. لقد أضاف إليها الأميركان أشياء كثيرة جديدة: أشجار لا يعرف من أين جيء بها، وقد حُفر لها في الأرض وخلطت التربة بتربة أخرى أو بمواد غريبة، ولقد كبرت هذه الأشجار. نباتات كثيرة مختلفة في أوانٍ كبيرة وصغيرة. حتى البراميل، بعد أن دُهنت بلون أبيض، امتلأت بالخضرة وانتشرت في أمكنة كثيرة. وكذلك الشوارع التي كانت من التراب ثم فرش عليها سائل أسود أثناء العمل في الأيام الأولى، أصبحت الآن شيئاً مختلفاً! كما أضيفت أبنية جديدة للأبنية التي قاموا بإنشائها، وكانت هناك صفوف من البيوت الصغيرة غير بعيدة عن «الإدارة العامة».

الأشياء الجديدة والغريبة التي يراها العمال في حران الأميركان تولّد في نفوسهم التهيب ثم الحذر، خاصة وهم يشاهدون الأميركان ينتقلون من بناء إلى آخر ويتطلعون إليهم بتعجب وتساؤل وكأنهم فوجئوا بوجودهم: ماذا يفعل هؤلاء هنا ومن جاء بهم؟

كان الصمت مثل ظل ثقيل يخيم على هذه المجموعة التي تزيد على العشرين. لم يكن يُسمع إلا وقع الخطى وذلك الصوت الذي يتولد من الاحتكاك أو من الأنفاس والسعال. لم يكن عندهم شيء يمكن أن يقوله بعضهم لبعض بصوت عالٍ. حتى الأسئلة التي تبادلوها في اللحظات الأولى، وهم يغادرون معسكرهم باتجاه معسكر الأميركان، ولّدت في نفوسهم قلقاً ووسواساً تزايدا مع كل خطوة جديدة.

قال لهم أحد الأميركيين، بإشارة من يده، أن يقفوا. وقفوا قبل أن يصلوا مقر الإدارة العامة بثلاثين أو أربعين خطوة. كان المكان عبارة عن أعمدة وفوقها سقف، ولم يكن كافياً لكي يتسع لهم جميعاً، فظل عدد منهم تحت الشمس، لكن رغم ذلك كان المكان يتيح لهم أن يتطلعوا إلى كل الاتجاهات. رأوا ناحية الشرق البركة الكبيرة وصفين من البيوت، وفي الناحية الثانية المطعم، حيث تغدى الأمير، وإلى جانبه طرف من البركة الثانية، ورأوا صفاً من البيوت الصغيرة أيضاً. أما في مواجهتهم تماماً، إلى

جانب المقر، فقد قام بناء كبير يقارب بمساحته المطعم، لكن على شكل مستطيل، وإلى جانبه غرف صغيرة.

كانوا ينظرون بصمت. لم يجرؤ واحد منهم على السؤال، ولو تجرأ وسأل فلن يستطيع أحد أن يجيب. كانوا يتجنبون، أول الأمر، أن ينظروا في وجوه بعضهم بعضاً، لكي لا يكتشفوا صفرة الوجوه والخوف، لكن بعد أن تملّوا المنظر كله، وبعد أن تلتفتوا في كل الاتجاهات وطال انتظارهم، في هذا المكان، بدأوا يتبادلون النظرات، وكانت النظرات مزيجاً من التساؤل والرهبة، وكانت عيونهم تتكلم دون توقف، أما الصمت الذي سيطر في البداية فقد تحول إلى همهمات غامضة متداخلة.

فجأة وهم كذلك، وكما تخرج الأشباح من القبور خرج لهم نعيم. خرج من مقر الإدارة العامة وتوجه نحوهم. لم يكن ينظر إليهم طوال المسافة الواقعة بين المقر والمكان الذي يقفون فيه. كان ينظر إلى الأرض، ورغم القوة التي ميزت ملامحه حين وصل قريباً منهم ورأوه، فقد كانت قوة أقرب إلى الحقد أو الكراهية. كان يلبس ملابس واسعة خلافاً للمرات السابقة، حيث كانت تبدو ملابسه أقل اتساعاً ومختلفة أيضاً. وخلال اللحظة القصيرة التي استغرقتها نظراته الواسعة، وهو يحدد أين تبدأ هذه المجموعة البشرية وأين تنتهي في هذا المكان، قال لدحام بحزم:

ـ يدخلون خمسة خمسة.. وحسب الحروف الأبجدية.

وأخرج من جيبه ورقة عليها الأسماء، وقرأ الأسماء الخمسة الأولى وقال لهم:

ـ اتبعوني.

❀ ❀ ❀

في الدهليز الطويل نصف المعتم هبّت فجأة على العمال الخمسة ريح باردة جعلت أجسامهم تنكمش وتقشعر. أنها تشبه الريح الشتوية، أو هواء أواخر الليل. التفتوا في أكثر من اتجاه ليعرفوا من أين تأتي هذه الريح، لكن لم يشاهدوا شيئاً. كانت الغرف على جانبي الدهليز مغلقة وصامتة،

ولم يكن يسمع سوى وقع أقدامهم وهم يمشون بارتباك وراء نعيم. مشوا مسافة طويلة حتى إذا وصلوا نهاية الممر تقريباً توقف نعيم فجأة، فتوقفوا. نظر إليهم بطرف وجهه ثم فتح باباً كان يقف عنده ودخل. ولم يعرفوا هل عليهم أن يدخلوا أم أن ينتظروا، نظروا في وجوه بعضهم بعضاً، نظروا إلى الباب المفتوح، وكانت بضع خطوات لا تزال تفصله عنهم، أخرج نعيم رأسه مثل ساحر وقال: ادخلوا.

حين دخلوا الغرفة وجدوا أنفسهم أمام رجل شديد السمرة، يجلس وراء طاولة. كانت مجموعة من الكراسي على جانبي الغرفة. نظر إليهم الرجل نظرة محايدة وباردة. تحدث مع نعيم ثم قام الاثنان معاً. فتحا باباً جانبياً ودخلا وأغلقا وراءهما. سُمعت أصوات من الداخل. كان العمال يقفون في منتصف الغرفة، كانت الغرفة أقرب إلى البرودة. لا، كانت باردة، بل باردة جداً. التفتوا، نظروا إلى الجدران والمقاعد ثم نظروا في وجوه بعضهم بعضاً. كانوا صامتين تماماً، وكانت حلوقهم جافة، وقلوبهم تخفق بقوة.

فتح الباب ذاته مرة أخرى وخرج الرجلان معاً؛ قال نعيم لواحد منهم: «تعال معي»، وقال للآخرين: «اجلسوا هنا»، وأشار إلى المقاعد جهة اليمين، مقابل الباب، وفي محاولتهم الجلوس اصطدم اثنان أحدهما بالآخر وهما يحاولان الحركة والتوجه نحو الكراسي، وكاد واحد منهم أن يجلس على نفس الكرسي الذي توجه إليه آخر. أما حين جلسوا فكانت نظراتهم مصوبة إلى الرجل الأسمر الذي جلس من جديد وراء الطاولة وإلى الباب الذي دخل منه نعيم وإبراهيم الفالح.

الرجل الشديد السمرة، والذي لم يروا سمرة قاسية حادة مثلها من قبل، كان نظيفاً براقاً وكأنه مدهون بالزيت. بعد أن استراح وراء طاولته نظر إليهم نظرة طويلة، بدت نظرته أقل قسوة من المرة الأولى، حين التقت نظراته بنظراتهم ابتسم. ظهرت أسنانه شديدة البياض، أو ربما بدت هكذا لأنه كان شديد السمرة، سحبوا نظراتهم بسرعة، غرقوا في الصمت، حركوا أرجلهم وأيديهم دون إرادة، تحرك واحد منهم، وحين التقت

نظراتهم بنظراته مرة أخرى ابتسم أكثر من المرة السابقة، وبسبابة يده اليسرى دق مرتين على صدره وقال وهو يبتسم:

ـ مسلمان. . . مسلمان. . علي إقبال.

ابتسموا له ابتسامة مرتبكة خائفة ولم يتكلموا. لم يفهموا شيئاً مما قاله. نظر بعضهم إلى بعض بتساؤل. ماذا تعني كلمات الرجل وماذا يريد منهم؟ هل سألهم وينتظر إجابة من نوع ما؟ تطلع إليهم وهز رأسه ثم براحة يده كلها دقّ على صدره مرة وقال:

ـ الهمد للّه رب العالمين. الرهمان الرهيم.

وكانت ابتسامته هذه المرة كبيرة، ومن جديد نظر بعضهم في وجه بعض، وصمتوا. قرب الرجل سبابتي يديه الاثنتين من بعضهما وحركهما بشكل متوازٍ، ثم دق على صدره، إشارة إليهم وقال:

ـ مسلمان.

كانوا خائفين ومرتبكين. فهموا ولم يفهموا في وقت واحد. صمتوا.



حين دخل إبراهيم الفالح وجد الغرفة كبيرة جداً وباردة. أكبر من الغرفة الأولى بثلاث مرات أو ربما أكثر. والبرودة فيها كما في الغرفة السابقة. رأى في صدر الغرفة طاولة كبيرة بيضوية لا يجلس أحد وراءها، ورأى ثلاثة من الأميركيين. عرفهم من النظرة الأولى: اثنان كانا يترددان باستمرار على حران لعرب ويعرفان العربية، أما الثالث فكان صاحب اللحية الكبيرة الحمراء. كانوا يجلسون في وسط الغرفة تقريباً، على شكل دائرة غير كاملة، وكانت مقاعد عديدة فارغة. لم يجد شيئاً يقوله لهم، كان يريد أن يسلّم، أن يقول شيئاً، لكن وجد نفسه مرتبكاً، حرك يده بتحية ولم يتكلم، نظروا إليه من رأسه حتى قدميه وهو يتقدم نحوهم. ابتسم له أحد اللذين يتكلمان العربية وطلب منه الجلوس، وأشار إلى مقعد. جلس، وجلس نعيم قريباً منهم، وإن ترك كرسياً أقرب إليهم فارغاً.

تطلع بعضهم في وجوه بعض، قالوا فيما بينهم كلمات لم يفهم منها شيئاً، قال نعيم موجهاً إليه الكلام:

ـ سنقوم بتوجه مجموعة من الأسئلة ونريد أن تجيب عنها بدقة . .

وحين رأى الخوف في عينيه، قال بلهجة ودية:

ـ الأسئلة بسيطة، عادية، ويمكن لأي إنسان أن يجيب عنها.

كانوا يتكلمون بالإنكليزية ونعيم يترجم، لكن قبل أن يوجه إليه أي سؤال انتقل واحد من اللذين يعرفان العربية إلى الطاولة البيضوية، جلس وراءها استعداداً للكتابة، وبعد فترة صمت قصيرة بدأت الأسئلة:

ـ الإسم . . الإسم الكامل، اسم الأب والجد؟

ـ إبراهيم الفالح الإبراهيم

ـ الإسم بعد الجد؟

ـ إبراهيم الفالح الإبراهيم المحمد

ـ جد الجد؟

ـ إبراهيم الفالح الإبراهيم المحمد الإبراهيم

ـ من أية قبيلة؟

ـ العتوم

ـ الفخذ؟

ـ حرب

ـ اسم الأم؟

ـ نظر إبراهيم الفالح إلى نعيم بدهشة وصلت حد الاستغراب ثم تطلع إلى الأميركيين الثلاثة، فلما وجدهم بانتظار إجابته سأل:

ـ ما عليكم من الأم؟

نظر إليه نعيم بتحديد أقرب إلى التأنيب. ثم التفت إلى الأميركيين وترجم ما قاله. ضحك الأميركيون الثلاثة بصوت أقرب إلى القهقهة، وقال أحد اللذين يعرفان العربية:

ـ المعلومات المطلوبة بسيطة وضرورية . . .

توقف لحظة، ابتسم له. وقام، اقترب منه حتى حاذاه، سأله وهو يربت على كتفه:

ـ عندك أم؟

هز إبراهيم رأسه بالإيجاب

ـ الأم عنده إسم؟

ومن جديد هز رأسه بالإيجاب

ـ ما هو اسم الأم؟

زفر إبراهيم مثل ذئب جريح، هز رأسه بلوعة ونظر إلى الأميركي الذي يقف فوقه، ثم نظر إلى نعيم وقال بنفاد صبر:

ـ اسم الأم مزنة

ـ تعيش أم ماتت؟

رد وهو يبتسم:

ـ ماتت

ـ والأب؟

ـ الأب حي

ـ هل تزوج عدة زوجات؟

قال بنفاد صبر:

ـ ما بال القوم ما عندهم سالفة إلا أبوي وأمي؟

ومن جديد ضحك الأميركيون الثلاثة وشاركهم نعيم، بعد أن ترجم ما قاله له. رجع الأميركي الذي كان يقف بالقرب منه. تكلم مع الاثنين الآخرين، ثم توجه إلى نعيم بالكلام فقال له بعض الأشياء أثارت ابتسامات الآخرين. هز نعيم رأسه عدة مرات دلالة الفهم أو الموافقة ثم تكلم:

ـ مثل ما قلت لك في البداية: المعلومات المطلوبة بسيطة وضرورية، وهي أيضاً سرية، لا يمكن لاحد أن يطلع عليها، ولذلك يمكن أن تجيب بحرية ودون خوف.

توقف لحظة ثم أضاف بلهجة مختلفة:

ـ كل هذه المعلومات ضرورية من أجل زيادة الراتب، من أجل الترقية، ويمكن أن تساعدك في السفر إلى أميركا من أجل التدريب.

قلب إبراهيم الفالح شفته دلالة على عدم الاهتمام.
ومن جديد بدأت الأسئلة:
- هل تزوج أبوك غير أمك؟
- نعم تزوج اثنتين غيرها
- ما ترتيب أمك بين الزوجات؟
- ما ترتيب أمي؟
- هل هي الأولى؟ الأخيرة؟
- الأولى.
- والزوجات بعدها، أثناء حياتها أم بعد وفاتها؟
- واحدة قبل والأخيرة قبل ثلاث أربع سنوات
- أي بعد وفاتها؟
- أي نعم؟
- كم أخ لك؟
- ثلاثة وأنا الرابع.
- هل هم أكبر منك أم أصغر؟
- أنا الكبير، كلهم أصغر.
- كم عدد الأخوات؟
- أعوذ بالله من الشيطان، اتركونا يا جماعة الخير!
قال نعيم بحزم:
- قلنا لك: هذه المعلومات ستبقى سرية ولن يطلع عليها أحد، وهي ضرورية بالنسبة للشركة!
همهم إبراهيم الفالح فخرجت من فمه أصوات غير واضحة
- عدد الأخوات؟
- خمس
- هل أنت متزوج؟
- لا

ـ وأخواتك وإخوانك هل فيهم متزوج؟

ـ الأخوات ثلاث متزوجات

ـ هل تزوجن غرباء أم أقرباء؟

ـ أقرباء.

قال أحد الأميركيين وهو يبتسم:

ـ الآن انتهينا من الأسئلة عن الأهل، طبيعي هناك عشرات الأسئلة الأخرى التي كان يفترض أن تُسأل، لكن هذه المرة يكفي هذا القدر.

توقف قليلاً، نظر إليه ليعرف ردّ فعله، فلما وجد صامتاً وعلامات الضيق تظهر على وجهه، التفت إلى ذي اللحية الحمراء، تكلم معه قليلاً ثم عاود الأسئلة من جديد:

ـ أنت مسلم أليس كذلك؟

هز إبراهيم الفالح رأسه دلالة الإيجاب ولم يتكلم.

ـ هل تصلي؟

ـ بعض الأوقات.

ـ لماذا بعض الأوقات؟

ـ نلحق على الصلاة!

ـ نريدك أن تجيب بدقة، لماذا لا تصلي كل الأوقات؟

ـ يا جماعة الخير الصلاة لله. الصلاة ما هي للعبد.

ـ ماذا تقصد؟

ـ إذا كنا مع المصلين صلينا.

ابتسموا وأدار بعضهم النظرات في وجوه بعض. سأل ذو اللحية الحمراء:

ـ ماذا تقوم به غير الصلاة من الواجبات الدينية؟

ـ أصوم.

ـ هل تصوم لأن أهلك طلبوا منك الصيام أم لأسباب أخرى؟

ـ لأن رب العالمين قال: صوموا.

ـ هل تصوم في غير شهر الصيام؟

ـ لا

ـ هل زرت الكعبة؟

ـ لا

ـ ألا تريد زيارتها؟

ـ إن شاء الله أزورها.

ـ وغير ذلك من الواجبات الدينية؟

ـ قال بانفعال موجهاً الكلام إلى نعيم:

ـ علّم جماعتك، هذه السوالف ما منها فائدة، والأحسن يتركوها!

لما ترجم نعيم ما قاله إبراهيم الفالح هزّ ذو اللحية الحمراء رأسه دلالة التعجب والاستغراب، ثم تبادل مع الاثنين الآخرين بعض الكلمات، فتولى واحد غيره توجيه الأسئلة:

ـ ما عدد أفراد عشيرتك؟

ـ إذا ما بها حسد.. عدّ التراب.. وازود!

ـ هل تحب الشيخ؟

إذا ظل الشيخ شيخ، يحب الناس ويحارب معهم، ومثله مثلهم أحبه.

ـ هل توجد خصومات بين عشيرتك والعشائر الأخرى؟

ـ هذه السالفة سالفتنا ما هي سالفة غيرنا، وهالحين لا

ـ قال «لا» وضحك وهو يهز رأسه، تظاهروا أنهم لم يروا، تابع نفس الشخص

ـ هل تحب الأمير؟

ـ نعم!

ـ هل تحدثت معه؟ هل زرته؟

ـ لا

ـ هل تحب العمل الذي تعمل فيه الآن أم تريد أن تغيره؟

ـ البحر ما اروح. اروح أهلي وما أروح البحر، وبعده كله مثل بعضه،

حملت الحصو بهذا المكان أو بذاك المكان، حفرت بهذا المكان أو بذاك المكان، ما تغير شيء.

ـ كم عدد أصدقائك من العمال؟

ـ كلهم خويا.

ـ الأصدقاء. . الأصدقاء؟

ـ وكّلوا الله يا جماعة الخير، كل الناس فيهم الخير والبركة.

ـ هل تحب السفر إلى أميركا للتدريب؟

ـ لا

ـ لماذا؟

ضحك ضحكة عالية ولا يدري لماذا قال:

ـ أبو الحصين في بلاده سبع.

ضحكوا كثيراً لما ترجم لهم نعيم هذه العبارة، بعد أن استفسر من إبراهيم الفالح عن معنى كلمة «أبو الحصين»! وما كادت الضحكة تتراجع حتى نظر بعضهم في وجوه بعض وكأنهم يكتفون ضمناً، هذه المرة، بهذه المجموعة من الأسئلة، خاصة حين نظر أحدهم إلى الساعة ورفع رأسه كأنه يحسب كم من الوقت قد مرّ أو كم استغرقت هذه المقابلة. تكلموا فيما بينهم ثم قال أحدهم لنعيم بعض الأشياء، هز نعيم رأسه أكثر من مرة دلالة الفهم والموافقة، وقال له:

ـ كما أوضحنا لك، الأسئلة التي وجهت إليك والإجابات ستبقى سرية ولا يمكن لأحد أن يطلع عليها، لذلك نطلب منك أن لا تذكر أي شيء للعمال الآخرين إذا سألوك.

وبعد أن أوصله إلى الغرفة الثانية طلب منه أن يرجع مباشرة إلى المعسكر، أي لا يتوقف عند العمال الآخرين، وطلب من عامل من العمال الأربعة الآخرين الذين كانوا ينتظرون أن يرافقه.

عند العصر، حين عاد العمال إلى المعسكر، كان عدد الذين جرت مقابلتهم خمسة عشر، أما الآخرون فقد أجلوا إلى وقت آخر لم يحدد. وبرغم أن الكثيرين صمتوا في البداية، فلم يتكلموا ولم يسألوا أو يُسألوا، فإن حالة من الاضطراب الأقرب إلى الهياج، سيطرت على المعسكر كله. كان الدوي الداخلي يدفع الكثيرين لأن يتصرفوا بخشونة، لأن يصرخوا دون سبب واضح، ولم يتردد بعضهم في أن يذهب إلى النوم مباشرة، رغم أنهم لم يتعودوا النوم في مثل هذا الوقت!

عند أول المساء، وبعودة العمال الآخرين، الذين لم يدعوا إلى المقابلة تغير جو المعسكر، بدأت الأسئلة وبدأت التعليقات. الذين سألوا كانوا مدفوعين برغبة المعرفة، ولم تساورهم أية شكوك أو مخاوف، لكن ما كادت تلك الكلمات العمياء تتطاير حتى قال بعض الذين جرت مقابلتهم كلمات معينة أثارت في نفوس الآخرين الحيرة. قال إبراهيم الناصر:

ـ اولاد الحرام يريدون معرفة كل شيء، حتى ليش أبوي طلق وما تزوج نوبة ثانية. ويريدون أن يعرفوا إذا كنت جُنُباً لأني لا أصلي الأوقات كلها. وسألوا هل أستحلم كثيراً وضحكوا... اولاد الحرام يريدون أن يعرفوا القمحة من زرعها والبيضة من باضها.

وبصق باحتقار وغضب.

أما فواز بن متعب الهذال فلم يستطع أن يصبر طويلاً فيبقى صامتاً، إذ ما كاد واحد من العمال يطلب منه أن يكتب له رسالة يبلغ أهله أنه سيعود قريباً ويترك عمل الشركة، حتى قال له بحدة وتكلم بصوت عالٍ سمعه الكثيرون:

ـ يمكن قالوا لك مثلي: انت أحسن العمال ولك مستقبل، ولا بد نرسلك إلى أميركا للتدريب، وهناك تتعلم اللغة الإنكليزية وتدخل المدارس وتصبح في يوم من الأيام رئيساً للعمال. . .

توقف لحظة، تنفس بعمق ثم أضاف:

ـ ولو كان متعب الهذال أبوك لسألوك: نريد منك تعلمنا وتقول ليش تخاصم أبوك مع ابن الراشد، وين هو هالحين!

وصويلح طلبوا منه أن يغني لهم فلما رفض بإصرار قال له ذو اللحية الحمراء إنهم فقط يريدون أن يسجلوا كلمات هذه الأغاني، لأنها أعجبتهم كثيراً حين سمعوها في عرس الدباسي، وحين أبدى تردداً وصل حدود الامتناع، ما لبث أن تراجع نتيجة الإلحاح الذي مارسه نعيم بشكل خاص، قال له «إن الجماعة يحبون غناءنا ويريدون أن يسمعوا الكلمات فقط لكي يفهموا المعنى».

الكلمات القليلة المتناثرة التي قيلت خلقت حالة من الاستغراب، والمحاولات التي جرت من أجل إقناع الآخرين بالكلام، ماذا سئلوا وماذا يريد الأميركان، لم تتواصل ولم تنجح، وقد أحس الكثيرون أنهم أخطأوا حين تكلموا، إذا لم يكن من الضروري أن يتدفقوا بهذه الطريقة وأن يقولوا ما قالوه بعد التنبيهات المشددة التي صدرت عن نعيم.

وإذا كانت عادة العمال أن يذهبوا إلى حران العرب بين يوم وآخر لشراء بعض الحاجات أو للجلوس في المقهى الذي افتتحه أبو أسعد الحلواني، قريباً من الشاطئ، والذي سماه «مقهى الأصدقاء» فإن رغبة مغادرة المعسكر هذه الليلة كانت قوية إلى درجة أن الكثيرين استجابوا بحماس وسرعة.

كانوا بحاجة لأن يمشوا، فالمسافة بين المعسكر وحران العرب طويلة، ويمكن لرحلة من هذا النوع أن تنسيهم، فإذا لم تكف فلا بد أن يكون سيرهم في السوق، التقاؤهم بالناس أو الجلوس في المقهى كافياً، أو ربما يخفف عنهم. لم يكونوا قادرين على البقاء في المعسكر في مواجهة

بعضهم بعضاً، صامتين، ولم يكونوا قادرين على الكلام أيضاً. فالصمت أقسى عليهم من تلك المعارك التي تجري بينهم فترة وأخرى. أما إذا تكلموا فلا بدّ أن تكون آذان المراقبين وأعينهم ترصدهم، تتابعهم، وعند ذاك قد يستدعيهم الأميركان مرة أخرى، وتبدأ كلمات نعيم الرخوة: «قلت لكم ألف مرة: النظام هو النظام. الواحد لو تكلم مع الحجر، مع الحيطان لكان الحجر فهم والحيطان فهمت، وأنتم سمعتم من هنا وخرجت الكلمات من هنا، وإذا سكتنا عنكم في المرات الماضية فهذه المرة لا يمكن السكوت!» وتبدأ الأسئلة من جديد، وقد تجرّ الأسئلة إلى أشياء أخرى هم في غنى عنها.

في حران العرب، في السوق، لاحظوا أن عدداً جديداً من الدكاكين قد قام، حتى أنه لم يبق إلا فراغ واحد أو اثنان بين الدكاكين التي قامت، وقد وضع ابن الراشد كميات كبيرة من الحجارة والرمال في هذه الفراغات وبدأ يستعد للبناء. ولاحظوا أيضاً أن أعداداً كبيرة من العمال والغرباء قد وصلت وانتشرت في أمكنة عديدة، إلى جانب الخيام، قرب الجامع وفي الدكاكين. أما حين أخذوا يصلون إلى مقهى الأصدقاء فقد ابتسم أبو سعيد الحلواني ابتسامات واسعة، وكان ينظر في وجوههم وينظر إلى الأماكن القليلة الفارغة في المقهى، ولا يكف عن ترديد عبارة واحدة: «أهلاً بالشباب، أهلاً وسهلاً، أهلاً وسهلاً» وكان ينتقل بسرعة هنا وهناك لعله يوفر أمكنة جديدة لهؤلاء الذين جاءوا دون انتظار وبأعداد كبيرة.

وفي حران العرب أيضاً التقوا بابن نفاع وعبده محمد، وسمعوا أن بعض رجال حران الذين كانوا في أمكنة أخرى قد عادوا.

ابن نفاع أحس أن مجيء العمال بأعداد كبيرة إلى حران العرب يحمل معه ريحاً شريرة، فهؤلاء الذين يقابلون الأميركان كل يوم، ويعيشون قريباً منهم لا بد أن تكون العفاريت قد لبستهم، وإذا كانت عادته أن يحرص على سماع أي شيء جديد فقد خاف هذه الليلة؛ وبعد أن مدّ يده مرتين أو ثلاثاً ليصافح هؤلاء الذين جاءوا فوجاً وراء آخر، ما لبث أن تشاغل بمسبحته، وتجنب أن تلتقي نظراته بنظراتهم فور دخولهم المقهى، لكن من

خلال الكلمات التي بدأت تتسرب إليه، تصله، على أن الأميركان استدعوا العمال إلى معسكرهم، وسألوهم عن أشياء كثيرة، فقد تحرك بعصبية وانفتحت عيناه وأذناه معاً. ومع دعائه الذي لم يتغير «أعوذ بالله، أعوذ باللهمن الشيطان الرجيم» كانت تتخلل الدعاء كلمات متقطعة «أي. . أي، يا وليدي، ويش قالوا؟ ما عساهم يريدون؟ وأنتم. . قلتم شي، سولفتم معهم؟ اولاد الحرام كل واحد منهم إبليس» وبين الأسئلة والإجابات يرتفع صوته وينخفض، يزداد استغرابه ليصبح أقرب إلى اللوعة. والعمال الذين كان بعضهم يتحدث إلى بعض، كانوا يحبون أن يرفعوا أصواتهم قليلاً، أن يسمع ابن نفاع بعض الذي حصل. أما حين قال إبراهيم الناصر أنهم سألوه إذا كان يستحلم أم لا فقد وقف ابن نفاع وأخذ يصرخ ويهذي:

ـ «اقطعوا زبابكم يا أهل حران وارموها للكلاب؛ الأميركان دخلوا بين الرجّال وحرمته، الأميركان ركبوا ظهورنا وبكرة يسحرونا ويبدلون الرجال والنساء. . يسوّون الجميع قرود؛ أبوهم وأبو اليوم اللي جاءوا فيه. . أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وبهياج وصل حدود الاحتقار وقف، نظر في الوجوه نظرة واسعة حاقدة، ثم بصق أكثر من مرة بصوت عالٍ وخرج.

قال أبو أسعد الحلواني ليخلق جواً من الطمأنينة:

ـ الحاج راح للجامع ليصلي العشاء!

عبده محمد كان يجلس في زاوية بعيدة، وقد أدار ظهره للمقهى كله لكي يمنع أي واحد من الجلوس معه، أو الدخول في حوار أو أسئلة، خاصة عن الصور الجديدة. والعمال إذا كانوا قد تعودوا عليه وبدأوا يحافظون على هذه المسافة التي فرضها وأرادها، خاصة بعد أن عرفوا أنه عاشق، فقد كانوا مشغولين الليلة بهذا الهم الجديد الذي دخل حياتهم فجأة فخضها وخلق فيها اضطراباً لا يعرفون كيف يواجهونه، لذلك لم يقتربوا من عبده محمد. تعمد بعضهم أن يلقي عليه التحية بصوتٍ عالٍ ومن بعيد، لكي يقولوا له أنهم رأوه، وأنهم لا يريدون إزعاجه. وكطريقة لرد

هذا الجميل وللاستمرار في المحافظة على المودة فقد التفت عبده في كل المرات التي سمع تحية موجهة إليه، ولم يتردد من الوقوف للتعبير عن المزيد من المحبة والاحترام أثناء الرد.

رأى بعض العمال، في لحظات معينة، أن عبده كان يلتفت التفاتة الخائف أو المتردد، لكي يرقب الجو ويتأكد، حتى إذا اطمأن أن الآخرين يغرقون في همومهم ومناقشاتهم، وكان صوت ابن نفاع يصل إليه رتيباً منتظماً، رأى البعض عبده أكثر من مرة يخرج من جيبه صورة، ينظر إليها فترة غير قصيرة، كان يفعل ذلك ويهز رأسه هزات بطيئة وكان يكلم نفسه همساً وهو يبتسم. وبعد ذلك يعيد الصورة إلى جيبه ويلتفت إلى هذه الجهة، إلى تلك، كي يتأكد أن أحداً لم يره. لقد فعل ذلك عدة مرات، ولو أن العمال كانوا في ظرف آخر لربما علّقوا أو سألوا، أو ربما لفتوا نظر بعضهم البعض إلى ما يفعله عبده محمد، لكن الذين رأوا هزوا رؤوسهم وصمتوا. أما حين بلغ ابن نفاع الحد من الهياج فقد أدار عبده محمد كرسيه تماماً، فأصبح في مواجهة الآخرين. ومن زاويته بدأ يتابع ويسمع، حتى إذا ذكر ابن نفاع تلك الكلمات التي أثارت ضحكات العمال وصخبهم وضع يده على عضوه التناسلي وكأنه يتأكد أنه لا يزال في مكانه! وبعد أن خرج ابن نفاع بقليل، وعاد الهدوء إلى مقهى الأصدقاء قام، مشى بين الطاولات الصغيرة الحديدية، يريد الخروج والكلمات القليلة التي وجهت إليه رد عليها بسرعة، أما حين طلب منه بعض العمال أن يجلس معهم لأنهم مشتاقون إليه وقد قطعوا مسافة كبيرة من معسكرهم لكي يروه فقد ردد نفس العبارات:

ـ الفجر لا يتأخر ولا ينتظر، وبكره كل واحد منكم جوعان وهات خبز يا عبده!

وصلت أصداء الشتائم والمخاوف إلى «إدارة الأفراد» بسرعة، ومن «إدارة الأفراد» إلى المقر، وكان رد الفعل: الصمت وتوقف المقابلات.

لم يصدر عن الإدارة أي فعل يشي بالغضب، أو حتى عدم الرضا، بل وأصبحت معاملة الأميركيين، خاصة أولئك الذين يتكلمون العربية، أكثر رقة وأكثر مكراً، إذ بدأ هؤلاء يزورون حران العرب، لكن لم يعودوا يلبون الدعوات التي توجه إليهم إلا في حالات نادرة. وحتى في هذه الحالات التي استجابوا فيها وزاروا بعض البيوت، أو بعض الأشخاص، اقتصرت الأحاديث على الطقس وعلى معنى بعض الكلمات والأسماء.

في إحدى المرات، لما قاموا بزيارة عبد الله السعد، صدف أن كان ابن نفاع موجوداً، وبعد أن نظر في وجوههم طويلاً وهو يهز رأسه، سألهم ما إذا كانوا يريدون التفريق بين الرجل وزوجته، بين الأخ وأخيه، ثم سألهم عن المكان الذي يضعون فيه الجن، وهل يريدون أن يجلبوا عدداً من العفاريت يوازي عدد أهل حران وعدد القبائل التي حولها.. حين سألهم بهذا الشكل المفاجئ والقاسي، نظر بعضهم في وجوه بعض، وضحكوا كثيراً، وبدأوا يرددون بعض الآيات القرآنية! وقال واحد منهم «إن اتهام أهل الكتاب بالكفر معصية عند الله» وابن نفاع الذي فتح فمه دهشة وهو يسمع الآيات القرآنية لم يصدق أول الأمر، وحين ردّدوا آيات أخرى قام بانفعال من المجلس وهو يصرخ:

- إبليس له ألف وجه وألف لسان.

ورغم أن عبد الله السعد بدا محرجاً ومتضايقاً من حديث ابن نفاع،

فقد ظل يكظم غيظه، لكنه لم يستطع حين قال ابن نفاع هذه الكلمات، فبدا غاضباً شديد الانفعال، فلما حاول أخوه راشد استرضاء ابن نفاع وإعادته إلى المجلس، وابن نفاع يصرخ، يريد أن يفلت، ويردد بعض الشتائم، فقد قال، مخاطباً أخاه ويريد أن يسمع الآخرون:

ـ خل الباب مفتوح يا راشد وهو يسع البعير، مرحباً بالضيف واللي ما يبغانا أرض الله واسعة!

رجع ابن نفاع حين سمع هذه الكلمات. وقف في بوابة المضافة، حيث يجلس ابن السعد وضيوفه، كان منفعلاً قاسياً:

ـ أي والله الأرض واسعة، والله يرحم ذاك النايم بالوطا، أبوك، كان يقول اللهم ابنِ سداً من نار بيني وبين اولاد الحرام.

توقف قليلاً، تطلّع في وجوه الأميركيين، الذين أصيبوا بالذعر، ابتسم بسخرية ثم تابع:

ـ يا وليدي الديار الغريبة تخرب، والناس الغرباء يخربون. . والفلوس تخرب.

مطّ عبد الله السعد شفته السفلى ساخراً ولم يجب. خيم الصمت. وابن نفاع في الباب ينتظر أية كلمة لكي يرد، فلما وجد أنه غير قادر على الاستفزاز أكثر من ذلك، استدار حتى أصبح يواجه القوم بنصف وجهه وقال:

ـ باكر تعضون أصابعكم. . لكن ما تنفع الندامة.

وزار الأميركيون معسكر العمال، جاءوا أول الأمر بحجة الكشف على موتور الماء، ثم جاءوا من أجل تحديد مواقع البركسات الجديدة، وفي المرتين قضوا فترات أطول مما يتطلب الكشف على الموتور أو تحديد مواقع البركسات. وفي المرتين تبادلوا الإشارات وبعض الكلمات مع العمال.

في المرة الثالثة لما جاءوا كان عددهم أربعة، وكان ضمن الأربعة واحد يتكلم العربية، ورافقهم نعيم أيضاً. جاءوا يوم الجمعة، يوم عطلة العمال، قبل الظهر. قالوا إنهم يريدون بناء مسجد ونادٍ للعمال، وإنهم

يفكرون باختيار لجنة للإشراف، وقد سألوا العمال ما إذا كانوا يفضلون انتخاب هذه اللجنة أم يترك تحديدها «لإدارة الأفراد». وسألوا إذا كان لدى العمال اقتراحات أخرى. والعمال الذين كانوا شديدي الحذر ولم يتكلموا إلا أقل الكلمات، وعندما سئلوا مباشرة، قالوا لنعيم إنهم يفضلون انتخاب اللجنة من قبلهم.

كان الأميركيون، رغم الود الذي عبرت عنه تصرفاتهم والكلمات التي قالوها، يتطلعون إلى وجوه العمال، يدققون بتصرفاتهم وردود أفعالهم تجاه أي اقتراح أو أية فكرة يتقدمون بها. كانوا يرغبون لو أن الحديث معهم يمتد ويطول، أو لو يعبرون عما يريدون بصراحة ودون خوف، لكن إزاء الوجوه المغلقة، والكلمات القصيرة، لم يكن من الممكن أو من السهل مواصلة الحديث.

في إحدى اللحظات قال الأميركي الذي يتكلم العربية، والذي كان في لجنة مقابلة العمال، إنه يريد أن يوضح للجميع أن الشركة جاءت لخدمة العمال ومن أجلهم، وإنها ستكون أقدر على خدمتهم فيما لو توافرت المعلومات التي تساعدها: ماذا يرغبون من الأكل؟ أي عمل يرتاحون فيه؟ أما عندما تسأل الشركة العمال هل يصلّون أم لا فلكي تقدّر إذا كان بناء مسجد ضرورياً أم يكفي مسجد حران، مثلاً.

تحدث الأميركي عن هذه الأمور بطريقة منفعلة ومضحكة في آن واحد، إذ بالإضافة إلى لهجته التي لم تكن مفهومة بالمقدار الكافي، فقد استعان بنعيم مرتين من أجل كلمات معينة! ولما انتهى كان شديد السعادة لأنه رأى العمال يبتسمون ويلفت بعضهم نظر بعض. كان يدرك أن طريقته في الكلام هي السبب، ومع ذلك فقد كان يهدف إلى خلق جو من الألفة وإعادة الثقة.

بعد أكثر من ساعة في أحاديث وأسئلة متنوعة، ابتسم العمال وتغامزوا خلالها عدة مرات، قال الأميركيون أنهم يغادرون الآن بعد أن وقفوا على رأي العمال ومطالبهم، وأنهم سينقلون إلى المقر كل ما سمعوا، وخلال فترة قصيرة سوف تتخذ الإجراءات من أجل البدء بإنشاء المسجد والنادي.

لم يقتصر تحرك الأميركيين على هذه الزيارات فقط، إذ أرسلوا بعض الهدايا إلى حران العرب وإلى المعسكر. كما أبلغوا العمال عن طريق «إدارة الأفراد» أن المقابلات قد توقفت واستعيض عنها باستمارة خضراء دوّنت فيها أسئلة متعلقة باسم العامل وعمره والمنطقة التي جاء منها، أما الخانة الخاصة بالوضعية العائلية، أي هل هو متزوج أم لا، وعدد الأولاد، فقد أوضح نعيم قبل توزيع الاستمارة أن الغاية من هذا السؤال هي إعطاء علاوة للمتزوجين وللذين عندهم أطفال، وهذه العلاوة تتناسب مع عدد الأطفال. أما حين سأله عبد الله الزامل ما إذا كانت العلاوة تقتصر على عدد الأطفال فقط أم على عدد الزوجات أيضاً فقد بدا السؤال مفاجئاً تماماً لنعيم، قال بنوع من الحيرة:

ـ الإدارة لم تفكر بهذه القضية وسوف نسأل القسم القانوني!

بعد أربعة شهور من العمل المتواصل تم تعميق البحر وتوسيع الميناء مقابل معسكر الأميركان، وفتحت عدة شوارع، أحدها يربط الميناء بالمعسكر مباشرة؛ وآخر إلى جانبه ثم يتجه غرباً، قريباً من شاطئ البحر، حتى يصل إلى حران العرب؛ أما الشارع الثالث فكان يبعد قليلاً عن الميناء ويصل بين الشارع الثاني ومعسكر العمال.

وبتوسيع الميناء وبناء هذه الشوارع تغيرت حران مرة أخرى: بدأت تصل، بين يوم وآخر، بواخر صغيرة وكبيرة، وهذه البواخر تحمل الناس والبضائع والمخاوف وأشياء غريبة في صناديق كبيرة الحجم، ومع وصول كل باخرة جديدة تهتز حران، تمتلئ بالمخاوف، ترقب كل شيء وكل حركة من خلال عيون أطفالها ورجالها المسنين. وإذا كان الأطفال قد تعودوا عدّ البشر الذين ينزلون من البواخر، فإن المسنين كانوا يراقبون ويتأملون ويتساءلون ثم تزحمهم المخاوف والهواجس فينكفئون عائدين إلى السوق أو إلى مقهى أبو أسعد الحلواني، فيتبادلون الأحاديث والأخبار في جو من المرارة والخوف، حتى إذا حان وقت صلاة المغرب انتهت إقامتهم في المقهى فذهبوا إلى مسجد حران الذي لم يتغير، وهناك قبل الصلاة، أو بعدها، يغرقون لحظات طويلة في الصمت والتأمل، فإذا استفاقوا مرة أخرى هبوا بأجسام قوية، لكن بأرواح مثقلة بالهمّ، كي يبدأوا رحلتهم باتجاه حران الجديدة على التلال الغربية.

البشر الذين يصلون إلى حران لا نهاية لتنوعهم وأشكالهم، ولتصرفاتهم أيضاً. كان قسم منهم يذهب إلى معسكر الأميركان مباشرة. وهؤلاء تنقطع أخبارهم، فلا يعود الناس إلى رؤيتهم إلا في وقت متأخر.

وكان قسم آخر يتولى الأميركان تأمين الخيام لهم قريباً من الشاطئ، ولقد حصل عدة مرات أن أقيمت وهيئت قبل وصول هؤلاء، فما تكاد البواخر تصل حتى يذهب الذين يأتون عليها إلى هذه الخيام، وخلال فترة تبنى لهم بركسات جديدة أو ينتقل قسم منهم إلى معسكر الأميركان ذاته. وكان آخرون يأتون ولا يدرون إلى أين يذهبون، فلا المعسكر يستقبلهم ولا الخيام جهزت لهم، كما لا يكون أحد بانتظارهم. وهؤلاء الذين يقضون وقتاً غير قصير، إلى أن ترسو سفنهم، يتباطأون في النزول، وتبدو عليهم الحيرة ويملؤهم التردد، إذ ما يكادون ينزلون إلى الشاطئ ويكومون أمتعتهم وأشياءهم حتى يجيلوا النظر فيما حولهم ويفترضوا أنهم أخطأوا بشكل ما في اختيار المكان، فيغيرون مكانهم مرة بعد أخرى، حاملين معهم الأمتعة والأشياء، وتسيطر على تصرفاتهم وحركاتهم الفوضى والضوضاء.

وخلال فترة قصيرة ينتشرون في كل مكان: في السوق، في مقهى أبو أسعد، وفي المسجد وقرب المعسكر.

أغلب الذين يأتون في بواخر من هذا النوع فقراء خائفون، ولا يترددون في قبول أي عمل يعرض عليهم، إذ ما يكاد دحام أو الدباسي، أو أي شخص آخر من حران، يطلب منهم أن يأتوا ليعملوا في المعسكر أو في قطع الحجارة أو في بناء البيوت حتى يوافقوا، وبهمة كبيرة لا تعرف التردد، ومن أجل أن يكسبوا الثقة والبقاء كانوا يوافقون على أي شيء سواء من حيث الأجر أو نوع العمل.

وحران ذاتها تفور، تتغير وتكبر كل يوم.

بيت الإمارة ارتفع، وأصبح كبيراً عالياً على التل الشمالي، وإلى الشرق منه، على مسافة مائتين أو ثلاثمائة متر ارتفع بيت آخر هو بيت الأمير، ويمكن لأي إنسان على الشاطئ، أو في أي مكان آخر من حران أن يشاهد البناءين وهما يرتفعان ويتكاملان يوماً بعد يوم.

عبد الله السعد لم ينتظر ولم يتردد، كما فعل ابن الراشد، ليقرر بناء بيت على التل الغربي. جنّد عدداً من أهل حران ليساعدوا في بناء البيت،

وأهل حران اندفعوا بقوة وهمة كبيرة للمساعدة، وكأنهم مدفوعون بقوة خفية لتحدي بيت الإمارة وبيت الأمير من ناحية، ولكي يثبتوا للأميركان أنهم قادرون على عمل شيء لا يقل عن أعمالهم وبيوتهم من ناحية أخرى. ولهذه الغاية استدعي من عجرة أبو عبده التلي للقيام بهذه المهمة، فجاء ومعه عدد من مساعديه، وبعد أن قضى عدة أيام في حران يتجول ويختبر الأرض والحجارة، وقد اقترب كثيراً من معسكر الأميركان لكي «يناظر» البيوت التي يسكنون فيها، بعد أن منع من دخول المعسكر، ولم تجد المحاولات التي بذلت في هذا المجال... بعد هذه الإختبارات و«المناظرة»، والتي رافقها همس كثير وتردد واضح، اندفع أبو عبده التلي ومساعدوه إلى العمل بثقة عالية، وقبل دخول فصل الشتاء من تلك السنة كانت المداميك الأخيرة، فوق عقود الشبابيك، قد انتصبت بلون حجارتها الرمادية، واستمر العمل متواصلاً بعد ذلك.

حتى ابن الراشد الذي سافر لم يغب طويلاً، إذ عاد قبل عودة الأمير بأسبوع. وقد جاء معه، مثل كل مرة، عدد من الأشخاص. ورغم أن أحداً لم يعرف ماذا سيفعل، إلا أن دحام لم يخف عزم ابن الراشد على إقامة بناء حديث وسط السوق. قال إن البناء سيكون أعظم الأبنية في حران كلها، وربما في الأماكن الأخرى أيضاً. إذ سيكون من ثلاثة طوابق، الأول سيكون سوقاً تجارياً كبيراً، فيه مجموعة من الدكاكين الواسعة، وستكون أوسع هذه الدكاكين مركزاً لابن الراشد. أما الطابقان الثاني والثالث فسوف يسكن فيهما ابن الراشد نفسه، لأن كل زوجة من زوجتيه تحتل طابقاً خاصاً بها. وابن الراشد الذي لم يتكلم في الأمر مباشرةً، أجاب عندما سئل ذات يوم، وكان يجلس في مقهى أبو أسعد الحلواني، أجاب وهو يبتسم ويتجنب النظر في عيون الذين حوله:

ـ الملك لله يا جماعة الخير...

ولما نظروا إليه وابتسموا قال ضاحكاً:

ـ البشر في حران صاروا مثل التراب، والسكن في الفلاة ما عاد يجوز، خاصة إذا كان الواحد معه حريمه...

لم يكتفِ بذلك، قطب وجهه وقال كأنه يكلم نفسه:

ـ ومثل ما تلاحظون. . السوق ما عاد يكفي وحران يلزمها أكثر من سوق.

وفهم الناس أن ابن الراشد سيأتي بأهله بعد أن يشيد البناء، وإنه سيفعل ذلك في وقت قريب.

وخلال الأيام الأولى لوصوله رآه الكثيرون يتجول في السوق، قريباً من المسجد، وكان بصحبة بعض الذين جاءوا برفقته، وقد بدا عليه الانفعال والانشغال معاً. أما في يوم آخر فقد رآه بعض الناس، في الصباح الباكر، يضع طرف ثوبه في وسطه، تحت الحزام العريض الذي يلبسه، ويمسك حبلاً أو ما يشبه الحبل، مقابل رجل كان يقيس الأرض ويسجل على ورقة يحملها أشياء لم يعرف الناس ما هي، لكن تأكد الجميع أن ابن الراشد لن ينتظر طويلاً حتى يبدأ البناء.

وفي هذه الفترة أيضاً قيل إن صالح الدباسي سوف يتزوج أخت محمد السيف، فالعلاقة القوية التي قامت بين الرجلين، والساعات الطويلة التي يقضيانها معاً، ثم بعض ما تسرب من النساء، خاصة زوجة الدباسي ذاتها، من أن القرابة التي تجمع العائلتين، الدباسي والسيف، لا بد أن تؤدي إلى زواج جديد لكي يدعم هذه القرابة ويجددها، لكن كل شيء ترك وأُجل إلى حين عودة الدباسي الأب من السفر.

أما هاجم الذي سافر في ذلك الغروب، أو سُفِّر على وجه أكثر دقة، دون أن يحس به أحد، فقد عاد أيضاً بصحبة رجل مسن، وقبل عودة الأمير بيومين.

كان لوصول هاجم وقع يشبه الصاعقة، خاصة على ابن الراشد، فبعد أن اعتبرت هذه المشكلة قد انتهت، ويمكن أن تُنسى بمرور الأيام، فإن وصول هاجم في ذلك الغروب جعل تلك الليلة من ليالي حران صعبة قاسية.

كان هاجم يبدو شديد النحول، كأنه لم يذق نوماً أو أكلاً من أيام،

وكان ذاهلاً ذهولاً كاملاً، حتى لا يكاد يسمع الأصوات حوله؛ ولا يرى الوجوه والعيون التي تنظر إليه. وفي المرات التي كان الرجل المسن يريد أن يخاطبه، أن يقول له شيئاً، كان يهزه، يمسكه من يده عند الساعد ويهزه هزاً قوياً، فينتفض كأنه يستعيد نفسه من مكان قصي أو يستيقظ من نوم عميق، فيتطلع إلى الرجل بعيون شديدة الحزن، وكأنها عيون حيوان جريح، فترفّ أجفانه عدة مرات مع حركة عصبية من الرأس. حتى إذا تأكد الرجل من انتباهه سأله بصوتٍ عالٍ: هاجم.. تسمعني يا هاجم؟» فإذا هز رأسه بالإيجاب تابع «قل لي، يا وليدي، تأكل؟ تشرب؟ ما جعت؟ وعطش ما عطشت؟» فيحرك هاجم يديه ورأسه دلالة أنه لا يعرف.

ما كاد ابن الراشد يسمع بوصول هاجم، ومعه ذلك الرجل الغاضب، حتى امتلأ بالخوف والحيرة، وخلال اللحظات الأولى اختفى عن الوجود تماماً. لا يدري أحداً أين اختفى أو كيف، إذ ما كاد خبر القافلة يصل، وإنها قرب المسجد، وكان ابن الراشد في مقهى أبو أسعد، حتى جاء من حمل له خبر وصول هاجم، وإن معه رجلاً غاضباً يشتم ويهدد ويسأل عن ابن الراشد. الذين رأوا ابن الراشد يدخل المقهى، الذين رأوه في المقهى عند الغروب، لم يعرفوا متى خرج أو كيف. أما محاولات البحث عنه في الخيام، ثم في السوق أو معسكر العمال، فقد انتهت إلى الفشل تماماً.

ومع كل دقيقة تمر، وبعد البحث في كل الأمكنة التي يحتمل وجوده فيها ولا يعثر عليه، يزداد الرجل المسن الذي يرافق هاجم غضباً وتندفع كلمات الشتيمة والتهديد:

ـ وين يروح ابن الراشد؟ والله.. والله لو كان بآخر تلفات الدنيا لازم أصله، لو كان في السماء أجّره وأنزله، وحتى لو رجع لـ.. أمه اطلعه.

يتوقف الرجل لحظة، يزفر، يتطلع في الوجوه ويتابع:

ـ يظن أولاد الناس مقطوعين من شجر؟ ما لهم أحد؟ لا يا ابن الراشد، الآدمي ما هو كلب، الآدمي آدمي، وإذا بعثت هاجم مع بدوي وقلت خلصت ما تخلص. هاجم وأخو هاجم، مزبان، وين صار مزبان؟ دفنته وقلت خلصنا؟

لا ما تخلص يا ابن الراشد. . . أنا وياك والزمن طويل.

وينظر الرجال إلى هاجم، إنهم لا يعرفونه لفرط ما تغير، حتى الذين مدوا أيديهم لكي يصافحوه، ورأوه يتطلع إليهم ولا يراهم. امسكوا باليد دون أن يمدها. هزوها، سألوا: «عساك طيب، عساك بخير يا هاجم؟» ولم تتغير نظراته، لم يقل كلمة، حتى شفتاه لم تتحركا. شعر الرجال بالحزن يسحق عظامهم، وشعروا أنهم غير قادرين على أن يواصلوا النظر إلى وجهه، خاصة العينين. وزاد حزنهم أنهم تذكروا كيف كان الحوت الصغير، أما عبد الله الزامل الذي جاء راكضاً حين سمع بوصول هاجم، فقد دفن رأسه في صدره، وظل كذلك فترة غير قصيرة، وحين رفع رأسه لم يتطلع إلى الذين حوله، ويقول الكثيرون أنهم رأوا عينيه حمراوين، ويؤكد آخرون أنهم سمعوا صوت بكائه وهو يدفن رأسه في صدر هاجم.

وحران التي شعرت بالحزن إلى درجة التعاسة لم تستطع أن تخفف من غضب الرجل، أما الدعوات التي وجهها إليه أهل حران، أن يذهب معهم، أن يستريح ويتعشى، حتى إذا جاء اليوم التالي لا بد أن يجدوا ابن الراشد، وأن يجدوا حلاً لهذه المشكلة، فإن الرجل رفض الدعوات بحزم أقرب إلى الخشونة، وبعد أن انتظر وتعب، وبعد أن ذهب إلى أكثر من مكان بحثاً عن ابن الراشد وعاد إلى مقهى أبو أسعد، قال لهاجم وهو يمسك به من ذراعه لينهضه:

ـ قم يا وليدي، وابن الراشد يشوف. . .

ولما نهضا يريدان الخروج ابتسم هاجم. لأول مرة، من ساعات، يبتسم. تطلع إليه الرجل المسن، ثم تطلع إلى كل من في المقهى، وقال قبل أن يخرج:

ـ أنا وراه. . وراه والزمان طويل.

ابن الراشد الذي عوّد الناس في حران على أن يظهر ويغيب بشكل مفاجئ، لم يكن أحد يتصور أنه قادر على الاختفاء بهذه السرعة ولا يُعرف أين. إذ بعد أن جرى البحث عنه في كل الأماكن التي يحتمل وجوده فيها، ولم يعثر عليه، قال بعض الناس أنه سافر، وقدّر آخرون أن سفره قد تم قبل وصول القافلة، لأن بعض الذين جاءوا معه إلى حران لم يبقوا فيها أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ثم سافروا، ولا بد أن يكون قد سافر معهم. وذكر غيرهم أنه في حران، لم يغادرها، لكن لا أحد يدري أين.

اثنان من الذين صلوا في مسجد حران صلاة العشاء، وكانا قد شاهدا وسمعا ما قاله الرجل الذي كان مع هاجم، قال هذان الرجلان وهما يجتازان السوق في طريقهما إلى حران الجديدة، أنهما شاهدا دحام ونعيم، وهما يتجهان إلى مضارب الأمير، ولم يكن الرجلان متأكدين، ما إذا كان مع دحام ونعيم ثالث أم لا، فالظلمة كانت كثيفة، ودحام وحده رد السلام، أما الآخر ونعيم فقد عجلا في السير لكي لا يلتقيا بأحد.

وحران التي نامت متسائلة حزينة تلك الليلة، بعد أن تركت هاجم والرجل الذي معه لكي يناما في المسجد، لم تعرف ما حصل بعد ذلك. حتى الرجال الذين تعودوا السهر في مقهى أبو أسعد الحلواني لم يروا ولم يسمعوا، لأنهم غرقوا في لعب الورق أو في تعلّم الألعاب الجديدة التي جاء به أبو أسعد الحلواني من الشام إلى المقهى لكي يشجّع الناس على المجيء وقضاء أوقات طويلة في مقهاه دون ملل.

بعد العشاء بساعة أو أقل وصل ثلاثة رجال أرسلهم نائب الأمير إلى المسجد، والظاهر أنهم جاءوا مباشرة إلى هذا المكان لأنهم عرفوا أو

قدروا أن الذين يطلبون ابن الراشد موجودون فيه. ودون خطأ أو سؤال أحد اقتادوا هاجم والرجل الذي معه، فقد كان أحد رجال الأمير يعرف هاجم. اقتادوا الرجلين بهدوء، بل وبدا على الرجل الذي مع هاجم ما يشبه الفرح، إذا أضاءت عيناه واستراح وجهه حين سأله الرجال إذا كان يبحث عن ابن الراشد. وما كاد يهز رأسه بالإيجاب ويبين على وجهه التحفز، حتى طلبوا منه أن يرافقهم وهاجم، وخلال فترة قصيرة كان الجميع أمام نائب الأمير سأل نائب الأمير الرجلين بحزم أقرب إلى القسوة:

ـ من أنتم وما هو اللي جاء بكم إلى حران؟

أجاب الرجل بهدوء، لكن بحزم أيضاً، إنه جاء إلى حران ليصل إلى حقه، ليعرف كيف قتل ابن أخته ومن قتله، وليعرف أيضاً كيف انهبل الثاني. وأشار إلى هاجم الذي كان يقف إلى جانبه.

ـ وعلام تسبسب على ابن الراشد؟

ـ ابن الراشد غريمي!

ـ وتعرف ابن الراشد؟

ـ شوف ما شفته، لكن سمعت عنه.

ـ ومن قال لك إنه فعل وترك؟

ـ كل الناس تدري.

ـ تدري؟ والحكومة.. وين هي الحكومة؟

ـ أريد من الحكومة أن تأخذ لي حقي.

ـ وعلام ما تروح للحكومة وتطالب وتقول؟

توقف نائب الأمير قليلاً، تطلع إليه بقسوة وهز رأسه ثم تابع:

ـ إذا كنت تظن أنك تأخذ حقك بذراعك، أو إذا سببت الناس تخاف منك، فذاك يوم راح. الحين الحكومة فوق الجميع. الحكومة لا تخاف من أحد، وهي اللي ترجع الحق لأصحابه، لكن أنتم البدو ما تتعلمون إلا بالدبوس.

ودون أن ينتظر جواباً قال للرجال الذين يقفون في مقدمة الخيمة:

ـ خذوهم.

كان الرجل وهو يصعد التل، ممسكاً بهاجم، يتصور أن حقه سيصله فوراً، وأن الأمير لا بد أن يكون قد أمسك بابن الراشد، وربما ربطه، إلى حين وصوله، وحالما يسمع القصة كيف وقعت، ثم كيف أرسل إليه هاجم مع بدوي.. وقريشات، ويخرج الدراهم من جيبه ويضعها أمام الأمير ويقول له «هذه هي القريشات» حتى يأخذ الغضب الأمير، فيشتم ابن الراشد ويؤدبه، ثم يحدد كيف يجب أن تحل المشكلة.

الآن والرجال يقودونه إلى خارج الخيمة، لا يعرف إلى أين، وبعد أن سمع ما قاله الأمير، لا يصدق أذنيه، ولا يتصور أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يقع. هل هناك خطأ لا يفهمه؟ ألم يدرك الأمير ما حصل أولم يسمع به؟ والقصة من حيث الأساس، التي وقعت هنا، في حران، والتي سمعها الكثيرون، حتى في أماكن بعيدة، في عجرة والروضة وأم السعف ووادي العيون، ولم يكف الناس عن السؤال.. هذه القصة التي عرفها الناس في الأماكن البعيدة، ألا يعرفها الأمير؟ وهاجم.. ألا يكفي دليلاً على مدى شناعة ما فعله ابن الراشد؟

وابن الراشد... كيف استطاع أن يصل إلى الأمير بهذه السرعة؟ وأين هو الآن؟ لماذا لا يظهر ويتكلم أمام الأمير إذا كان يعتبر نفسه غير مسؤول أو غير مذنب؟

لم يعرف رجال الأمير إلى أين يجب أن يأخذوا الرجلين، فحران لا تعرف السجون، ولا يوجد فيها سجن، والأمر كله لا يستوجب هذه القسوة في المعاملة، خاصة وإنهم يعرفون كيف مات مزبان، وهم الآن يرون هاجم: بقايا إنسان، زائغ النظرات، في حالة من الذهول عن كل ما حوله. وحتى لو كان في حران سجن هل يمكن أن يحبس رجل مثل هذا؟

كان رجال الإمارة ينظرون إلى وجوه بعض، وإلى وجهي الرجلين، في نصف العتمة داخل الخيمة الصغيرة التي علق في وسطها فانوس ينشر ضوءاً ضعيفاً. كانوا شديدي الحيرة والحزن، فإذا نظروا إلى وجه هاجم تصبح حيرتهم خوفاً: «المهبول يعمل كل شيء، يمكن أن يحرق أو يقتل،

ويمكن أن يبول على الآخرين وهم نيام؟ هكذا فكر بعض الرجال، وهكذا كانوا ينظرون إلى المسلوبين ويتعاملون معهم بدوافع الخوف والشفقة معاً. . الآن. . ماذا يفعلون بهذا المهبول؟

وسط الحيرة والمرارة صرخ نائب الأمير، ركض رجل ليلبي نداءه، وما كاد يرجع بعد دقيقة أو اثنتين حتى قال بحقد أقرب إلى الشتيمة:

ـ الناس مات بقلوبها الله. الواحد منهم صار مثل الصلّ.

ولما استفسر منه الآخرون، قال وهو يعطي ظهره لهاجم والذي معه، لعلهما لا يسمعانه، إن نائب الأمير طلب إليه أن يُربط الرجلان إلى الجمال المعقولة. أبدى رجال الإمارة استغرابهم واستنكارهم، أما الرجل الذي كان مع هاجم، والذي افترض في لحظة وهم أخيرة، حين نادى الأمير مستدعياً أحد رجاله، إن شعور الأمير بالخطأ لا بد أن يدفعه الآن إلى تصحيح هذا الخطأ، وعمل شيء يجعل كلماته أقل قسوة، وربما لها معنى آخر. أما حين سمع ما قاله لأحد رجاله فقد ضحك بسخرية وودّ في تلك اللحظة لو يبكي أو يصرخ. كان يجب أن يفعل شيئاً لئلا يسقط ميتاً، وحين نظر إلى هاجم ورآه ينظر إليه بتينك العينين الضاحكتين المسكينتين ويبتسم، أمسك بذراعه وشد عليه، وقال بصوت يسمعه الجميع، وربما كان يريد أن يسمعه الأمير أيضاً:

ـ الواحد. . . إذا ما أخذ حقه بذراعه، يموت ولا يحصل على شيء. . .

ناموا جميعاً تلك الليلة قريباً من مربط الجمال. كان يفصل بينهم وبين الجمال سور منخفض، بارتفاع نصف القامة، مبني من حجارة صغيرة غير منتظمة. أما الحبال التي كان يفترض أن تستعمل فقد ألقيت بإهمال وغضب، دون أن يكلف أحد من رجال الإمارة نفسه بأن يقوم بهذه المهمة المستحيلة، إذ بعد أن نظر بعضهم إلى بعض، وبعد أن نظروا في وجهي الرجلين، وحين قرروا أن يناموا قالوا للرجلين: «ننام هنا» وأشاروا إلى تلك الفسحة التي توضع في جانب منها أكياس التبن، ولم يضيفوا كلمة واحدة.

بدت حران في تلك الليلة ثقيلة قاسية، رغم أن البرودة التي ملأت الجو آخر الليل اضطرت الرجل المسن أن يسهو قليلاً، لكنه لم ينم نوماً عميقاً متصلاً. أما حين نظر إلى الرجال الخمسة، بمن فيهم هاجم، الذين كانوا ينامون حوله، فقد بدا له على ضوء الفجر أنه يعرف هؤلاء الرجال، وأنه رآهم من قبل. وحين استدار واحد منهم، وأصبح يقابله تماماً، ظن للحظة أنه يرى مزبان ذاته! كان وجه مزبان هكذا حين رآه مرة قبل ثلاث سنوات. أما الجمال التي كانت لا تتوقف عن المضغ، وكان يرى رقابها ورؤوسها، وهي تتحرك وتستدير بين فترة وأخرى، فقد بدت أكثر حزناً من أية جمال أخرى، كانت تدير ألسنتها وحلوقها وكأنها تشتم وتنظر إلى كل ما حولها بحقد. كان الرجل يمتلئ غضباً، لا، ليس الغضب فقط، إنه يمتزج بشيء أسود يشبه القطران، وشديد الكثافة مثل الدم الذي مضى عليه الوقت لكنه لم يجف بعد. قال في نفسه وهو يجلس في فراشه مع أضواء الفجر الأول «هل وصلت النذالة إلى درجة أن يصبح القتيل هو المخطئ؟

وأن يحبس الذي يطالب بحقه؟ وهل يمكن أن يحتمل الإنسان كل هذا ويسكت؟» تلفت حواليه. رأى عدداً من الخيام ورأى بناءين كبيرين شديدي القسوة، قال في نفسه «ابن الراشد ما يفلت مني حتى لو كان طيراً، ولو كان معه كل الناس» وهز رأسه أكثر من مرة وتطلع إلى الرجال الذين ينامون حوله، فبدا له انه يعرفهم أكثر من قبل. أما هاجم الذي كان ينام على ظهره، وجهه نحو السماء ويداه ممدودتان على اتساعهما، وشفته السفلى مرتخية، وكأنه يبتسم، فقد ظهر كطفل. كان مثل الأطفال الآخرين لكن أكبر حجماً، قال في نفسه «لو عرفتْ أمهم لقتلت نفسها».

إذا حصل خطأ في الليلة الفائتة، نتيجة الغضب أو نتيجة كلمات قالها وفهمت على أنها تهديد مباشر لابن الراشد، وإنه جاء لينتقم ويقتل، ولم يجيء من أجل أن يطالب بالحق ويعرف كيف وقعت الأمور، إذا حصل خطأ في الليلة الفائتة فلا بد أن يتصرف الأمير بشكل مختلف في هذا اليوم. هكذا قال الرجل المسن في نفسه، لكن حين جاء الصباح وارتفعت الشمس ثم بدأت الحركة والضجة، خاصة في البناءين، وحين طلب إليهم دخول الخيمة الصغيرة والبقاء فيها، فقد بدأت الشكوك تساوره مرة أخرى. كانت أكثر من شكوك، إذ لو أراد الأمير أن يعرف الحقيقة، أن يسأل الآخرين، لانتهى إلى نتيجة في وقت مبكر، أما أن يترك هكذا، مسجوناً، مربوطاً، دون أن يعرف لماذا أو إلى متى، فقد بدأ الغضب مثل بخار يرتفع شيئاً فشيئاً إلى رأسه. وهاجم الذي طال نومه، ولم يفق إلا حين زحفت الشمس عبر السور ووصلت إلى وجهه، ظل في الخيمة صامتاً؛ كان ينظر باستمرار إلى الفانوس، حتى لما وضع أمامه رغيف الخبز وكأس الشاي لم ينتبه، أما لما أمسك به الرجل المسن وهزه فقد ظهر عليه الخوف أكثر من المرات السابقة، ولم يأكل من الرغيف الذي قدم إليه إلا قطعة صغيرة وشرب الشاي بارداً.

عند العصر، والرجال يتحرّكون هنا وهناك، وهاجم والرجل المسن يجلسان في ظلال الخيمة الصغيرة، مرّ ثلاثة رجال. كان أحد الثلاثة يمشي مسرعاً وباضطراب، والاثنان الآخران يمشيان خلفه ويحاولان أن يلحقا به.

نظر الأول بطرف عينه نحو الرجلين الجالسين، ثم أصلح عباءته السوداء ومشى بانحراف، أما اللذان كانا وراءه فقد تبادلا كلمات وهما يمران. نظر الرجل المسن إلى الثلاثة الذين مروا فلم يعرف أياً منهم ولم يميّز شيئاً، أما حين التفت إلى هاجم، ورآه يبتسم ابتسامة واسعة، ولم يبتسم هكذا منذ أيام، فقد ارتجف قلبه وساورته الشكوك، لكن حركة العمال وهم يغسلون أيديهم ووجوههم من مياه البراميل القريبة، بعد أن انتهوا من العمل، شغلته وجعلته يراقب ويتابع ما يجري حوله.

قبل الغروب، حين طلب إليه أن يمثل أمام الأمير، أحس أنه مضطرب، ولما دخل ورأى الرجال الثلاثة جالسين، أدرك أن ابن الراشد هو الذي يجلس إلى جانب الأمير. لم ينظر إليه ابن الراشد أول الأمر، أما الآخران فقد نظرا إليه بإمعان، لكن بخوف أيضاً، والأمير طلب منه الجلوس هو وهاجم، خلافاً لليلة الفائتة، وبدا أكثر استعداداً للاستماع.

بعد فترة صمت طويلة سأله الأمير:

ـ أتعرف غريمك؟

تطلع في الوجوه وتنفس بعمق، ثم قال بسخرية:

ـ غريمي يعرف نفسه.

ـ تقول ابن الراشد غريمك.. بحّر زين، تشوف ابن الراشد بين الرجال؟

ـ إذا ما كذبني ربي هذا هو!

وأشار إلى الرجل الذي يجلس بجانب الأمير.

انتفض ابن الراشد، ابتسم ابتسامة هي بين السخرية والثقة بالنفس، وقال بصوت عالٍ ومتلجلج:

ـ ابن الراشد الي تقول عليه، ابن الراشد اللي ما خليت شينة إلا وقلتها فيه، واللي ما شفته أبداً وهو اللي يريد يحصّل لك حقك من حلق السبع، لكن لا تعمل خيراً شراً ما تلقى.

تأكد في تلك اللحظة أنه في مواجهة خصمه، قال بتحدٍ:

ـ اسمع يا ابن الراشد، إذا أنت ابن الراشد، الحق حق ومنة الله ولا منتك أنت أو منة غيرك. الرجال ما هي قريشات، ودم الرجال ما يدفن بليل، وأنت ابن عرب وتعرف كيف يحصّل الرجال حقوقهم.

ـ تهددني؟ بعثوك عليّ، ابن هذال وغيره؟

ـ اسمعني وافهمني: الحق حق.. هذا كل شيء.

ـ حقك ما هو عندي.

وبانفعال بدأ ابن الراشد يروي القصة، مرة أخرى، أمام نائب الأمير، ونائب الأمير يهز رأسه دلالة الفهم، وفجأة التفت ابن الراشد إلى الرجل وقال بحدة:

ـ الجماعة شهود، هم كتبوا المعروض، هم ركضوا هنا وهنا حتى يحصّلوا لك على التعويض، والفلوس اللي وصلتك.. ابن الراشد بعثها. الفلوس من كيس ابن الراشد.

أخرج الرجل من صدره خرقة قديمة ملفوفة ورماها وسط المجلس وقال:

ـ القريشات منك، يا ابن الراشد، أو من غيرك، هذه هي، وإذا كان عندك شهود فهذا هو شاهدي.

وأشار إلى هاجم الذي كان جالساً يتطلع إلى ابن الراشد ويبتسم.

ربما لأول مرة يتطلع ابن الراشد إلى هاجم، وإذا كان قد رآه من قبل، فقد بدا مذعوراً وهو يراه الآن. تحرك في جلسته أكثر من مرة، وقال مخاطباً نائب الأمير:

ـ الأميركان قالوا: هذا الرجّال ما له عندنا دواء. شوفوا غيرنا. وتعرف، يا طويل العمر، إن دواء العربان أحسن من دواء الأميركان، إذا انكوى، إذا انفصم، يمكن العلة تطلع منه.

ـ ومزبان.. يا ابن الراشد؟

هكذا سأل الرجل المسن.

ـ مات موت الله.

ـ أخذته للبحر وغرّقته وتقول مات موت الله؟

ـ انطح فالك يا رجال، الحياة والموت من الله.

ـ لو ما أخذته للبحر ما مات. . .

ـ أنا ما أخذت أحداً.

ـ أنا أخذته؟

ـ الشركة، الأميركان هم أخذوه وهم مسؤولون، ويقولون التعويض يصلكم.

انفعل الرجل المسن، قال وهو يرفع أصبعه مهدداً:

ـ اسمع يا ابن الراشد، الرجال دمها ما يروح بالتراب، وأنا لا أعرف غيرك، أنت كنت تركض من مكان لمكان تجمع الناس وتسوقها، واليوم تقول إنك غير مسؤول؟

وبطريقة مرتبكة بدأ دحام يروي كيف أنه وابن هذال، وأشار إلى بعيد، عملا كل شيء من أجل التعويض، وإنهما راجعا «إدارة الأفراد» وتحدث هو شخصياً عدة مرات مع نعيم، أما المعروض الذي قدم إلى الشركة، إلى «إدارة الأفراد» والذي رفع من «إدارة الأفراد» إلى المقر، فقد تعاون هو وابن هذال في كتابته، وإن الشركة وعدت أن يدرس الموضوع «وحتى الآن لم تبلغ إدارة الأفراد بأي جواب».

كان كلام دحام بارداً ومتأخراً، ولم يزد أية إضافات هامة أو جديدة على ما قاله ابن الراشد. والرجل المسن الذي سمع ونظر إلى دحام وإلى الرجل الأسود المتجهم الذي كان معه، قال مخاطباً الأمير:

ـ أولادنا مثل ما تشوف، يا طويل العمر، واحد تحت التراب وهذا الثاني.

وأشار إلى هاجم، كان هاجم يبتسم، ونظراته مشتتة زائغة. هز الرجل المسن ذراعه وصرخ:

ـ هاجم. . . تسمعني يا هاجم؟

رفع هاجم إليه وجهاً مسكيناً حزيناً وخالياً من التساؤل. صرخ من جديد:

ـ ها، يا وليدي... كيف أنت؟

ظل هاجم ينظر إليه ولا يتكلم. قال الرجل المسن مخاطباً ابن الراشد:

ـ هل كان الرجل لما أخذته من عجرة بهذا الشكل؟

ابتسم بسخرية وتابع

ـ وأخوه مزبان.. له قبر أو أكله السمك؟

رد ابن الراشد بحدة:

ـ حقك على الشركة، والشركة ذاك بابها

ـ أنا أعرف باباً واحداً.. وهذا هو الباب.

وأشار إلى ابن الراشد، الذي بدا عليه الغضب. رد ابن الراشد منفعلاً خائفاً:

ـ تسمع يا طويل العمر؟

قال نائب الأمير، وقد بدا عليه التفكير والهم، مخاطباً الرجل المسن:

ـ حقك يصلك.

وأضاف بلهجة حازمة:

ـ كل واحد له حق يصله، وأنتم ضيوفنا ثلاثة أربعة أيام.. ونشوف.

وظل الرجل المسن وهاجم يوماً آخر «ضيوفاً» عند نائب الأمير، أما ابن الراشد فقد تأخر بعض الوقت ثم غادر مع الرجلين اللذين جاءا معه.

كان وصول الأمير، عائداً من رحلة القنص، مفاجئاً، إذ لم يتوقع الكثيرون عودته بمثل هذه السرعة. وأكثر الذين فوجئوا، بل أصيب بالاضطراب، كان ابن الراشد ذاته. فبعد الزيارة التي قام بها نعيم لنائب الأمير، وكان معه دحام، تم «توقيف» أو التحفظ على هاجم وخاله «لئلا يتولد الاضطراب نتيجة الاتهامات والتهديدات، وتتأثر أعمال الشركة» كما توقع وأكد ابن الراشد في حديث للأميركان تلك الليلة، حيث قضى ليلته هناك، وكما قال نعيم لنائب الأمير. أما التعويضات التي يمكن أن تصرف عن الوفاة، فما زال أمرها معلقاً، إذ يعتبر المكتب القانوني في الشركة أن «الشركة غير مسؤولة وغير ملزمة، باعتبار أن المصادقة على نقل العمال إلى مسؤولية الشركة قد تمت بعد الوفاة». أما التعويض المستحق لهاجم فسوف يتم صرفه في «غضون بضعة أيام.. شرط أن يكون الوضع عادياً وهادئاً». لذلك كان استمرار التحفظ على هاجم وخاله من شأنه أن يقطع اللغط والإثارة من ناحية، وأن يمنع تهديد ابن الراشد من ناحية ثانية، فإذا تم دفع التعويضات لهاجم عن طريق الإمارة يعتبر الموضوع منتهياً في الوقت الحاضر.

هكذا خطط للأمر، وهكذا كان يجري تنفيذه. وإذا كانت وفاة مزبان قبل بضعة شهور قد خلقت حالة من الاضطراب الصامت بين العمال، فإن المقابلات التي تمت في الفترة الأخيرة ولدت لدى الجميع مخاوف وشكوكاً كبيرة، ولم يخف الكثيرون هذه المخاوف والشكوك، بل وانتقلت إلى حران ذاتها، لذلك لا يحتمل الوضع، كما أكد نعيم، بأساليب عديدة، أية هزة أو اضطرابات جديدة.

الآن وهاجم يصل إلى حران بهذه الصورة دليل شديد الوضوح والقسوة على نوع المعاملة والنظرة إلى هذه المخلوقات البشرية. فإذا أضيف إلى هذا الدليل الحي المتحرك: تهديدات الخال والغضب الذي أخذ ينتشر ويتسع بين العمال «فلا بد وأن تؤدي الأمور إلى نتائج لا تريدها الشركة».

لما أشرف الأمير على حران أخذ بالبناءين قبل أن يصل، إذ شاهدهما من مسافة بعيدة، وقد تظاهر، أول الأمر، أنه لم يستطع معرفتهما وتساءل ما إذا كانا تابعين للشركة أم لا، رغم أن أبنية الشركة تبدو واضحة وبعيدة. وحينما تأكد أنهما بيت الإمارة وبيت الأمير لم يخف فرحه بذلك. قال مازحاً يخاطب الدباسي الذي كان يسير إلى جانبه:

ـ إذا فاتنا لحم الطير، يا أبو صالح، فالعوض باللي تشوفه!

وأشار إلى البناءين، وكان يبدو شديد الفرح متشوقاً أن يصل في أسرع وقت. أما حين وصل عند العصر، وكان العمال على وشك الانصراف، فقد توجه فوراً لتفقد الأبنية والتأكد من المراحل التي وصلت إليها. ونائب الأمير الذي هبّ لاستقباله، وكان واضح الانفعال، أكد له وهو يسير إلى جانبه، بكلمات متقطعة، أنه أشرف على كل شيء بنفسه، وإن الوصايا التي حرص عليها نفذت بدقة، مشيراً إلى النوافذ الكبيرة، ناحية الجنوب، وضارباً بكفه بين لحظة وأخرى على الجدران السميكة ليؤكد قوتها. والأمير الذي استفسر باهتمام عن استمرار العمل طوال الفترة الماضية سأل عن عدد العمال الذين شاركوا، وعن توافر المواد، وعن أمور أخرى مشابهة. والدباسي الذي رافق الأمير وتجول معه، أبدى إعجابه الكبير وأثنى على جودة المواد والبناء وقال إنه «مشغول بحق ورب» وأكد أن البناء إذا تم بهذا المستوى من الدقة والعناية يمكن أن يعيش مئات السنين، وأضاف أكثر من ذلك «إن الأبنية في مصر تشبه هذا البناء، وبعضها قام منذ أيام سيدنا يوسف عليه السلام ولا يزال!».

كان الأمير فرحاً مثل طفل، وقد أثنى على العمال بكلمات كبيرة،

وقال لهم إنه لولا جهودهم وإخلاصهم لتأخر البناء، أو لما أصبح بهذا الشكل القوي. والعمال الذين سرّوا لكلمات الأمير أبدوا بعض الملاحظات السريعة، بخصوص عقود الشبابيك واتساعها، إضافة إلى أن «الشمينتو سُقي عدة مرات حتى شبع، ولا يمكن أن ينفطر بعد ذلك» وقد تفهم الأمير هذه الملاحظات، وأثنى على الجهود التي بذلت مرة أخرى، ثم سأل عن المدة التي يحتاجها البناء لكي يكتمل، وما إذا كانت الضجة أو الغبار الآن مثل الأيام الأولى، فلما أكد له نائبه أن ما يتذكره مرحلة مبكرة، وأن لا وجود للآلات الكبيرة التي تخلق الضجة وتولد الغبار قال بصوت عالٍ وأمام العمال الواقفين على بعد خطوات:

ـ البلايا التي حفرت الأساس كانت تطوّش الراس وتعمي العيون. . .

توقف لحظة ثم أضاف وهو يضحك:

ـ الحمد لله، خلصنا منها.

والدباسي الذي أصرّ على مرافقة الأمير حتى النهاية قال حين عرض عليه الأمير أن يبقى عنده تلك الليلة، وأن يتعشى ويتعلل ثم يذهب إلى أهله:

ـ الأحسن، يا طويل العمر، إن تشوف غيرنا. .

توقف قليلاً، ابتسم وأضاف:

ـ وغيري، يا طويل العمر، ينتظرك!

رد الأمير وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ ما تترك سوالفك يا أبو صالح، كل كلمة عندك لها ألف معنى.

وضحكا معاً، وبعد أن شربا القهوة غادر الدباسي إلى أهله، أما الأمير فقد سأل نائبه عن الأشياء التي حصلت أثناء غيابه، عن القوافل التي وصلت والناس الذين وصلوا، وبعد أن استمع إلى بعض الإجابات، دون أن يستوعبها، قال وهو ينهض لكي يذهب إلى أهله في خيمة أخرى:

ـ نلحق على هموم الخلق.

وأضاف وهو يمشي بخطوات بطيئة ويضحك:

ـ هموم الخلق، يا أبو رشوان، ما تخلص.

أضاف نائبه وهو يشاركه الضحك:

ـ في حران، يا طويل العمر، هموم الناس ما تخلص، والناس ما تخلص... حتى الموت ما يخلصها!

قال الأمير:

ـ وكّل الله.

كان ابن الراشد أول زوار الأمير في صباح اليوم التالي لوصوله، جاء مبكراً أكثر من العادة. كان الأمير في هذه الساعة يتفقد البناء، كان فرحاً منشرح الصدر، وقد ضرب بكفه الجدران عدة مرات ليختبرها، كما فعل نائبه في اليوم السابق، أما حين رأى ابن الراشد مقبلاً في هذا الوقت المبكر فقد راوده الشك: هل جاء ليكون في استقبال العمال وتوجيههم؟ هل يفعل هذا كل يوم أو عرف بوصوله وجاء هذه المرة فقط لكي يدلل له على مدى إخلاصه وحرصه؟ إذا جاء ليسلم عليه فإن الوقت لا يزال غير ملائم لمثل هذه الزيارة. قال الأمير وابن الراشد على بعد خطوات يخبّ مستعجلاً ليصل:

ـ سروتك ما هي للّه يا ابن الراشد.

ـ صارت الدنيا الظهر، يا طويل العمر!

هكذا رد ابن الراشد وهو يتقدم مرتبكاً ومسرعاً، وكان يحاول الابتسام. ردالأمير:

ـ لا توصي الحريص.

ولم يفهم ابن الراشد ما قصد إليه الأمير، هل يمدحه أم يذمه، وبعد أن سلّم بحرارة وسأله باهتمام إذا كانت رحلة القنص ممتعة والصيد وافراً، رافق الأمير في تفقد البناءين، وقد أبدى ملاحظات كثيرة بخصوص قوة البناء والعناية التي بذلت من أجل أن يكون هكذا. وأكد للأمير أنه لن ينقضي شهر إلا ويكون البناءان قد انتصبا، ولا تبقى إلا الإكمالات الداخلية، وهذه الإكمالات، إذا رأى الأمير أن يحث الأميركيين فلا بد أن تتبع نفس الطريقة التي اتبعوها في بناء المساكن الخاصة بهم، حيث كانت

الأبواب والشبابيك وأشياء أخرى كثيرة جاهزة، فما أن تفك من صناديقها وترفع عنها الأوراق حتى تثبت في أماكنها. أبدى الأمير اهتماماً كبيراً للحصول على هذه الأشياء، وتساءل عما إذا كان الأميركيون سيقومون بذلك دون طلب، وأشار إلى أنه يخجل أن يطلب ذلك بنفسه.

قال ابن الراشد وقد أدرك نقطة الضعف:

ـ أنا لا أقبل أن تطلب منهم يا أبو مسفر...

ابتسم، غير لهجته وهو يتابع:

ـ إذا وافقت، يا طويل العمر، إترك الشغلة عليّ.

توقف قليلاً ثم أضاف وهو يتكلم من منخريه:

ـ أنا أظل وراءهم، ألاحقهم في الليل والنهار، أقول لهم لازم بيت الأمير يكون مثل بيوت الأميركان: الشبابيك، الأبواب، كل حاجة، نعم كل حاجة لازم تكون مثل الأميركان.

وبكثير من الدهاء والبراعة تعهد ابن الراشد للأمير أن يتولى، نيابة عنه، البحث مع الأميركيين من أجل إنجاز دار الإمارة وبيت الأمير بنفس الطريقة التي اتبعوها في إنجاز بيوتهم. وهذه الفكرة التي تقبلها الأمير برضا، وإن ظلت عيناه وملامحه تتساءل بشك؛ وفي محاولة لأن يتغلب على الشكوك ويعطي ابن الراشد الفرصة قال وهو ينظر إلى عينيه بتحديد:

ـ توكل على الله يا ابن الراشد، ألحّ عليهم، نشّف ريقهم، بس لا تذكر أبداً أنني أنا اللي طلبت.

ودون كلمات هز ابن الراشد رأسه عدة مرات، مع ابتسامة صغيرة واثقة، وبعد لحظات ضرب بكفه المفتوح على صدره مرتين، وقال:

ـ ما يصير إلا اللي تريده.. يا طويل العمر.

وواصل جولته برفقة الأمير، أما حين رأى اثنين أو ثلاثة من العمال قادمين فقد صرخ بصوت حازم وساخر:

ـ الله.. الله.. الدنيا صارت الظهر يا اولاد الحلال...

ولما رأى العمال الأمير بدا عليهم الخوف والارتباك وظلوا صامتين. تابع ابن الراشد بطريقة أبوية:

ـ يا الله يا نشامة. . خفّوا رجليكم. . وكل واحد وشغله.

ولكي يزيد حماستهم ويحرضهم على الإسراع نزع عباءته السوداء وألقى بها على كومة من الحجارة، ووضع طرف ثوبه تحت حزامه العريض وقال بانفعال:

ـ يا الله يدي بأيديكم.

وفي جو من الصخب والانفعال والحركة الزائدة بدأ ملء البراميل ونقل أكياس الإسمنت وتحضير الرمل، وكانت مشاركة ابن الراشد وحركته والأوامر التي يصدرها تؤكد الارتباك أكثر مما تفيد في المساعدة، والأمير الذي كان يراقب من بعيد، وترتسم على شفتيه ابتسامة لا يمكن لأحد أن يكون متأكداً هل هي ابتسامة رضا أم إشفاق، قال لابن الراشد بعد فترة من الوقت:

ـ شيل عباتك وروح نتقهوى يا ابن الراشد.

وكأن ابن الراشد كان ينتظر هذه الإشارة إذ ما لبث أن غسل يديه وتناول عباءته وركض وراء الأمير الذي سار قبله، فلما أدركه قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ إذا ما كان الواحد فوق رؤوسهم، يا طويل العمر، ينامون.



كان ابن الراشد شديد القلق والحيرة، فهو بمقدار ما يريد تدعيم ثقة الأمير به، كان يخشى أن تنهار هذه الثقة لو بحث موضوع هاجم وأخيه مزبان دون تحضير دقيق ودون تهيئة الجو المناسب. إذ لا يزال يتذكر كلمات الأمير التي قالها قبل فترة طويلة حين جرى بحث هذا الموضوع. كان قاسياً وأقرب إلى العداء. قال له: «ما نريد طلايب يا ابن الراشد، ارض جماعتك وخلّصنا». فإذا قال للأمير إن هاجم ومعه أحد أقربائه هما الآن في خيمة لا تبعد عن مكانهما أكثر من عشرين أو ثلاثين خطوة،

وإنهما مسجونان، لأن هذا القريب يهدد، وقد رمى الفلوس التي أرسلت إليه، لو قال شيئاً مثل هذا فلا بد أن يثور الأمير ويقلب الدنيا على رأسه، أما إذا قال له إنه اتفق مع الأميركان ونائب الأمير على السجن فلا بد أن يشعر الأمير بالمهانة، وربما تساءل بسخرية: من هو الأمير؟ أنا أم أنت؟ والأميركان ما دخلهم في هذه السالفة؟ أكثر من ذلك إذا رأى الأمير هاجم مسلوباً فاقداً فماذا سيقول؟ ونائب الأمير كيف سيبرر موقفه وماذا سيقول؟

كانت الأفكار والصور تتراكض في رأسه، فيشعر أنه محاصر وأنه مهدد. أما الابتسامات التي يراها الآن على وجه الأمير فإنها ستار خادع، خاصة وأن «ابن الحرام الدباسي طلّع الزايدة والناقصة في رحلة القنص!» ولا بد أن يكون قد أوغر صدر الأمير عليه، فإذا رأى هاجم والرجل الذي معه، ومن هذا كلمة ومن هذا نظرة مجانين فلا بد أن تنقلب الأمور عليه.

قال الأمير وهو يتطلع في وجه ابن الراشد بتحديد:

ـ أشوفك صافن يا ابن الراشد؟

توقف لحظة ثم تابع وهو يضحك بصوت عالٍ.

ـ وكل الله.. نصف الألف خمسمائة.. يا ابن الراشد.

انتفض ابن الراشد وكأنه يستعيد علاقته بما حوله، فلما رأى الأمير يتطلع إليه بهذه الطريقة قال وهو يتصنع الابتسام:

ـ القول قولك يا طويل العمر.

ـ وانت تعرف: الهمّ ياكل القلب، يقتل.

ـ اللي ما يدري يقول قبضة عدس.

ـ أشوف قلبك ورمان يا ابن الراشد.

ـ الناس ورّمته يا طويل العمر.

ـ الناس أو الفلوس؟

ـ الفلوس ما تورم القلوب يا مبارك.

ـ الفلوس هي العلة وهي السبب.

زفر ابن الراشد زفرة قوية حارة وكأنه يريد أن يمهد لما سيقوله، فلما رأى الأمير يبتسم ويهز رأسه قال بلهجة مسكينة:

ـ أريدك، يا طويل العمر، تسمع سالفتي وبعدها تحكم، واللي تحكم به على العين وعلى الراس.

استغرب الأمير هذا الكلام، أما حين بدأ ابن الراشد بانفعال أقرب إلى الحيرة والخوف يعيد قصة هاجم، والأمير الذي انتفض وارتد جسده قليلاً إلى الخلف، ما لبث أن أخذ يهز رأسه وكأنه تذكر ما قاله سابقاً، وكيف أنه أراد أن تحل المشكلة بالتراضي وأن تنتهي. أما كيف جاء هاجم مرة أخرى ومعه أحد أقربائه، والتهديدات التي صدرت عنهما ثم احتجازهما، وأن المشكلة لا تزال تتفاعل يوماً بعد آخر في معسكر العمال ولدى الأميركان، وابن الراشد لا يعرف ماذا يفعل، والأميركان يرفضون دفع التعويض، حين بلغ ابن الراشد في قصته لهذا الحد، قال الأمير وهو يحرك يديه بطريقة غاضبة:

ـ قلت لك، يا ابن الراشد: الفلوس هي السبب...

وبعد عدة هزات من رأسه أضاف بلهجة ساخرة:

ـ بينك وبين الأميركان ضاعت حقوق الناس يا ابن الراشد.

ومن جديد حاول ابن الراشد أن يشرح كيف بذل أقصى الجهود من أجل الحصول على تعويض لمزبان، وإن الأميركان ما زالوا يرفضون، أما بالنسبة لهاجم فإن تعويضاً سيدفع له، لكن الإجراءات لم تنته بعد، وكيف أنه أرسل من كيسه الخاص مبلغاً من المال ترضية له وتعبيراً عن حسن نيته، وأنه لا يزال يحاول إنهاء الموضوع في أسرع وقت ممكن، لكن الأميركان اشترطوا أن لا يدفع التعويض إلا إذا هدأت الأمور تماماً، وكفّ الرجل المرافق لهاجم عن التوعد والتهديد.

كان ابن الراشد وهو يتكلم يحرك يديه وينتظر رد فعل الأمير. كان ينظر بعينين خائفتين، لأن رد الفعل يحدد، ويعني أشياء كثيرة بالنسبة له، إذا استجاب له الأمير ولانَ قلبه يمكن أن تنفتح أمامه الأبواب كلها،

ويمكن أن يبقى قوياً، أما إذا عاند ورفض الاستجابة فسوف يواجه مصاعب لا نهاية لها. قال في محاولة ماكرة:

ـ إذا وافقت، يا أبو مسفر، الآن، بوجهي، من مجلسك إلى الأميركان، وما أتركهم حتى يحلوا المشكلتين: مشكلة الشبابيك والبيبان ومشكلة اولاد جازي.

قال الأمير بصوت يائس:

ـ إخلع شوكك بيدك يا ابن الراشد.. وباكر نشوف.

المحاولات التي جرت من أجل إنهاء المشكلة لم تنته إلى نتيجة. رفضت الشركة بإصرار أن تقدم أي تعويض، حتى لو كان رمزياً، لأن «القانون هو القانون، والنظام هو النظام»، أما الحجة دائماً فهي أن مسؤولية العمال انتقلت إليها بعد الوفاة و«الشركة قبل هذا التاريخ لا تعترف لأحد بأية حقوق أو تعويضات، لأن الاتفاق مع ابن الراشد يلزمه بتقديم العمال المياومين، وهو وحده المسؤول» أما محاولات الأمير في أن «يقسم الكوم قسمين، الشركة النصف وابن الراشد النصف» فقد فشلت أيضاً، لأن هاملتون الذي زار الأمير يرافقه نعيم، أكد بإصرار لا ينفك يتزايد أن «المشكلة الأساسية ليست المبالغ التي يجري الحديث عنها، المشكلة هي المبدأ، الجانب القانوني، وعلى هذا الأساس لا توافق الشركة أن تناقش التفاصيل» وأضاف هاملتون أن أية حوادث لاحقة: فقدان الحياة، العجز الكامل أو الجزئي، فقد أو إصابة أي عضو من الأعضاء، سواء كان العين أو الساق أو الأذن، وحتى الإصابات الأقل شأناً، ستقوم الشركة بالتعويض عنها، وستكون التعويضات كبيرة، كما لو أن العمال العرب مثل غيرهم!

أما ابن الراشد فقد كان مستميتاً من أجل إلقاء عبء التعويض على الشركة «لأن فلوسي، يا طويل العمر، كلها راحت ببطون الناس وبالحديد والحجارة» أما حين ارتأى الأمير تحميل ابن الراشد التعويض كاملاً، بعد أن رفضت الشركة، فقد صرخ كالملسوع:

ـ أجرة العمال ما هي بجيبي يا طويل العمر.. توسطوا مع الشركة، فإذا وافقت على أن تسلفني، وتنتظر عليّ سنة.. أدفع.

رد الأمير بنفاد صبر:

- أنا لا أتدخل، وأنت أعرف منا بالشركة، رح تسلّف منها أو من العفاريت.

والتفت الأمير إلى الناحية الثانية، حيث يجلس نائبه وقال بحدة أقرب إلى التهديد:

- خلصونا من هذه السالفة يا جماعة الخير.

قال ابن الراشد في محاولة واضحة للتأثير على الأمير، مستغلاً وجود نائبه:

- على كل شيء وافق الأميركان، يا طويل العمر. قالوا الأبواب والشبابيك مثل بيوت الشركة، وأحسن من بيوت الشركة...

توقف لحظة سحب خلالها نفساً عميقاً مهموماً وأضاف:

- وثلاثة أو أربعة أبواب كبيرة ما عندهم شيء منها جاهز، لكن باكر، يا طويل العمر يأخذون قياسها، ويفصلونها، وما يمر كم يوم إلا وهي جاهزة.

لانت ملامح الأمير، لكن لم ينظر مباشرة إلى ابن الراشد، وتظاهر أنه لم يسمع أو لا يملك تعليقاً على ما قاله، خاصة وأن ابن الراشد قد قال كلاماً قريباً من هذا بعد زيارته الأولى للأميركان، لكن لم يكن الكلام واضحاً ونهائياً كما هو الآن. فقد هز الأميركيون رؤوسهم وتطلع بعضهم في وجه بعض وقالوا في حينها، كلما ذكر ابن الراشد، أن إمكانية من هذا النوع ستجري دراستها للتأكد من وجود الأبواب والشبابيك المطلوبة. أما الآن، وفي ظل هذا الحصار الذي يتعرض له ابن الراشد فقد حاول أن يضغط على الأمير، أن يحمله على تغيير موقفه، أو أن يتساهل في الشروط في أسوأ الأحوال.

قال نائب الأمير، في محاولة لاقتراح تسوية تكفل تأمين المال المطلوب من مصدر غير الشركة، وأن تبقى العلاقة مع الأميركان هادئة وجيدة:

ـ إترك الشركة، كلّم الدباسي أو السيف، أو كلم ابن السعد، عسى أن واحداً يسلفك.

قال الأمير ساخراً:

ـ إترك هذه السالفة.. يا رجل.

والتفت إلى ابن الراشد بنظرة سريعة وأضاف مخاطباً نائبه:

ـ هذا عظمه ذهب، لا تخف، وهو يعرف كيف يدبر الفلوس.

وكاد ابن الراشد يبكي في محاولة لإثبات عجزه عن تأمين المبلغ. قال إن كل ما يملكه أنفقه، وأنه أخطأ في ذلك خطأ لا يمكن أن يغفره لنفسه الآن «الأرض لا قيمة لها ولا يوجد في حران مجنون مثله يضع ماله كله في الأرض أو في بطون الناس» وأكد أن أموره إذا استمرت بهذا الشكل فترة قصيرة فلا بد أن يهرب من حران، لأنه لا يستطيع أن يواجه الحلوق المفتوحة التي تطالبه بالمال في الليل والنهار.

قال الأمير وقد بدأ يضعف:

ـ من يسمعك، يا ابن الراشد، يقول: يستحق الصدقة.

رد بيأس:

ـ الناس مالها إلا الظاهر، وما لها شغلة إلا السوالف.

ـ مثل ما قال أبو رشوان: كلم الدباسي، شف ابن سيف.

ـ أنت أعرف مني بهم، يا طويل العمر...

هكذا رد ابن الراشد، توقف لحظة ثم تابع بعدها بسخرية:

ـ ابن السيف ما يبول على يد مجروح، والدباسي يتمنى اليوم اللي أبيع فيه عباتي واشحذ!

❀ ❀ ❀

كان الدباسي يتمنى فعلاً اللحظة التي يستطيع أن يوجه فيها ضربة قاضية لابن الراشد، فإن لم تكن قاضية تماماً فلا أقل من أن تتعبه وتذله، لذلك ما كاد يسمع في اليوم الأول لوصوله بقضية هاجم وعودته حتى بدأ.

عند ظهر اليوم التالي كان في زيارة الأمير. كان المجلس عامراً

وضيوف الأمير كثيرين، وقد جاء أغلبهم للسلام. بدا الأمير منشرح الصدر وأقرب إلى المرح، خاصة حين يعاد عليه السؤال ذاته حول رحلة الصيد، ففي كل مرة يحيل السائلين إلى الدباسي مع ابتسامة ذات معنى، وحركة من يده تطلب إليه أن يتولى الرد على الذين يسألون، لكن ما كاد يخلو المجلس قليلاً حتى اقترب الدباسي من الأمير وهمس في أذنه ببضع كلمات، فرد الأمير بصوت عال وهو يتلفت إلى هذه الناحية وإلى تلك قائلاً:

ـ أدري.. أدري يا أبو صالح.

أما عندما خلا المجلس تماماً، ولم يبق إلا الأمير ونائبه، فقد سأل الأمير بنوع من التعريض:

ـ ها... يا أبو صالح. ما هي سوالف الناس؟

ونظر بطرف عينه إلى نائبه وأضاف:

ـ رجعتنا كانت رحمة للناس وللطير يا أبو صالح.

قال نائب الأمير في محاولة لأن يدافع عن نفسه:

ـ للطير.. أي والله يا طويل العمر، أما للناس فما أدري، لأن الناس غارقة بأشغالها وهمومها، ولولا الشامي وديوان إبليس اللي فتحه، كان الناس بألف خير.

قال الأمير بنبرة صلبة:

ـ سولف يا أبو صالح.

ـ السوالف كثيرة يا طويل العمر، لكن السالفة اللي سمعتها البارحة، ساعة وصولي، واللي سمعتها اليوم في السوق، هي سالفة البدوي اللي انهبل، زلمة ابن الراشد.

ولم يكن أي من الثلاثة بحاجة إلى تفاصيل كثيرة حول الموضوع، إذ ما كاد ابن الراشد يترك الأمير ذاهباً إلى معسكر الأميركان من أجل متابعة بناء دار الإمارة وبيت الأمير، وما كاد نائب الأمير يصل مبكراً حتى استدعي هاجم والرجل الذي معه، وبعد أن استمع إليه الاثنان قال له الأمير:

ـ حقك يصلك. . ولسانك إبلعه.

وبعد أن نظر الأمير طويلاً في وجه الرجل وفي وجه هاجم، وبدا عليه للحظات الحزن الممزوج بالألم، أضاف بصوت هادئ لكنه قاسٍ.

ـ تسمعني؟ تفهم ما قلت؟

ولما هز الرجل رأسه دلالة أنه سمع وفهم، واطمأن إلى وجه الأمير، وإلى كلماته، قال له الأمير:

ـ إذا بغيت تكون ضيفنا مرحباً بك، وإذا بغيت تنزل إلى السوق فهذا درب السوق.

قال الرجل المسن كلمات سريعة متداخلة، لكن فهمت على أنه يريد الذهاب، فصاح الأمير على أحد رجاله وقال له:

ـ وصفه طريق السوق. . وعطه شي.

الدباسي في طريقه إلى مضارب الأمير لم ير هاجم وخاله، لكن كثيرين قالوا إنهم رأوهما في السوق، قرب المسجد، ثم في مقهى أبو أسعد، ورغم أن الرجل المسن لم يجب عن الأسئلة التي وجهت إليه، إلا أن عينيه كانت تشتعلان، وصمته كان قاسياً معبراً أكثر من كل الكلمات؛ أما هاجم الذي كان يسير بجانبه، وينظر في الوجوه بتساؤل واستغراب، وبين لحظة وأخرى يبتسم بطريقته، فقد كان يثير الشفقة والسخط في آن واحد، وكانت تصدر عنه أصوات أقرب إلى حمحمة حيوان متألم.

تأثر الدباسي لما سمعه، وجاءت أيضاً الفرصة لكي يوجه ضربته. قال للأمير بطريقة ماكرة:

ـ لو سمع كلامك، يا أبو مسفر، كات السالفة كلها ما صارت.

رد الأمير بنفاد صبر:

ـ المال يفتن والطمع يعمي. . يا أبو صالح.

هز الدباسي ونائب الأمير رأسيهما وصمتا.

في الأيام التالية تولى ابن نفاع المهمة. إذ ما كاد يرى الرجلين قرب المسجد، عصر اليوم التالي لوصول الأمير، حتى بدأ يصرخ بغضب. فعل

ذلك دون تحضير سابق، ودون تحريض من أحد، إذ ما كاد يسلم على الرجل المسن بحرارة، حتى سمعه الجميع يهدر:

ـ هذا الرجل ـ وكان يمد بسبابته حتى تكاد تلامس وجه هاجم، وهاجم يبتسم ويتطلع في وجوه الناس ـ هذا الرجل ما به خلاف، الموت حق ولا يخاف منه أحد، الموت أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وهذا مشكلته ما هي الخوف. لا. الخوف سالفة. هذا الرجل دخله عفريت. الأميركان جاءوا وجاءت معهم العفاريت، وكل من يشرب ماءهم، كل من يأكل زادهم. . يدخله عفريت، إذا ما كان اليوم عقبه، وإذا ما ظهر اليوم يظهر بعده.

ويتطلع ابن نفاع في وجوه الرجال ليرى أثر كلماته فيهم، وحين يجدهم صامتين مطرقين يتابع بصوت أقوى:

ـ ابن الراشد شرّق وغرّب. جمع الناس من كل مكان وساقهم للأميركان. ساق الغنم للذيب، على كل ذبيحة، على كل رأس، يتسلف من الأميركان، والأميركان يعطونه ويقولون: هل من مزيد؟ ويركض ابن الراشد ويجمّع ويقول لهم: خذوا! ومثل جهنم لا يشبع ولا يشبعون.

وزفر زفرة قوية. أمسك بكتف هاجم، هزه بقوة ثم أضاف:

ـ يا وليدي داك ودواك منهم وفيهم.

ويلتفت من جديد إلى من حوله ويضيف وهو يشير إلى هاجم:

ـ هذا اليوم، وبعده حران كلها. ومثل ما قال صاحبنا العتيق: «أرى العفاريت تدخل من أظفاركم لتلبس أجسادكم وتستقر في أمخاخكم».

وتتوالى هزات رأس الخال ويظهر الغيظ قوياً جامحاً في عينيه وفي ملامح وجهه، فإذا سأله أحد إن كان رأى ابن الراشد، أو كيف استقبله الأمير وقبل ذلك نائبه، فكان ينظر في وجوه سائليه فترة طويلة ويهز رأسه، ويغرق في الصمت. ولما ترتد الأسئلة دون إجابات، دون توضيح، كان ابن نفاع يصرخ من جديد:

ـ الأميركان هم العلة وهم السبب.

ولما يرتفع السؤال، ولا يُعرف ما إذا كان موجهاً إلى خال هاجم أو

إلى ابن نفاع، للاستفسار عن ابن الراشد، كان ابن نفاع يرد بسخرية، بعد أن يشير بيديه إشارات بذيئة:

ـ من هو ابن الراشد؟ ابن الراشد زق.

ويتابع وهو يضحك:

ـ تسعين إبرة ما يصيرن مخرز، وابن الراشد أصغر من إبرة، لكن الأميركان هم المخرز، وباكر واللي عقبه يفوّتون بحلوقنا إبر أو يطلعونها من هنا مخارز.

ويشير إلى مؤخرته!

وكلمات ابن نفاع التي تثير الضحك لا تلبث أن ترتد كالزوابع لتخلق التساؤل والخوف، فتتابع التعليقات والهمسات والنظرات، وتبقى الصلابة ذاتها الأقرب إلى الصخر مرسومة على وجه العجوز، وكأنه لا يرى ولا يسمع ما يدور حوله، فإذا استعاد نفسه ونظر من جديد إلى الذين بقربه يركز نظراته في وجه هاجم ويهز رأسه.

الدباسي الذي لم يكن يفوته شيء، فيسمع ويعرف كل ما يجري، بما في ذلك اقتراح الأمير ونائبه أن يستلف ابن الراشد منه، لم يكن في عجلة من أمره. كان يقول كلمة تبدو بسيطة أقرب إلى البراءة، لكن لا تلبث، وهي تنتقل من فم إلى آخر، أن تصبح مثل سيخ النار. فلما سمع ما قاله ابن نفاع قرب المسجد من أن ابن الراشد مجرد إبرة، فقد قال في مقهى أبو أسعد في نفس الليلة:

ـ سبحان الله يا جماعة الخير... من به طبع ما تركه!

قال ذلك وصمت فترة غير قصيرة ثم أضاف، وكان حوله عدد من أهل حران:

ـ اللي ما يخاف من الله خف منه.

وهز رأسه ثم قال لأحد الجالسين إلى جانبه بصوت عالٍ يريد للآخرين أن يسمعوا:

ـ لا تتركوا الجماعة بدون عشاء، ولزّموا عليهم ينامون فوق.

وفهم من كلامه أنه يعني هاجم وخاله.

حين بعث نائب الأمير دحام في اليوم الثالث لكي يطلب من الدباسي تسليف ابن الراشد مبلغاً يعادل ما اتفق عليه كتعويض لهاجم وأخيه، قال الدباسي:

ـ المبلغ كله موجود، والموعد العصر، عند الأمير...

توقف لحظة، ابتسم ثم أضاف:

ـ وقل لابن الراشد يلزم يكون موجود، لأن الدنيا حياة وموت.

ورغم أن الدباسي كان مستعداً لتقديم المبلغ، وابن الراشد يماطل ويؤجل، لعل الشركة تتولى أداءه، لكنه بدا في النهاية مستعداً للموافقة. أما الشيء الذي لم يفطن إليه أحد إلا بعد ظهر ذلك اليوم فهو أن هاجم وخاله كانا قد تركا حران في الليلة السابقة. لم يقولا لأحد أنهما سيسافران، ولم يحس بهما أحد. أما المحاولات التي جرت في غروب ذلك اليوم للبحث عنهما في المسجد، في المقهى، في السوق، وحتى في معسكر العمال فقد انتهت إلى الفشل.

قال الأمير لما بلغه خبر سفرهما:

ـ ورّطنا ابن الراشد... والله يستر.

ونظر إلى نائبه بأسف، كأنه يلومه. أما حين أقبل ابن الراشد يريد أن ينقل إليه الخبر الذي سمعه لتوه حول سفر هاجم وخاله، فقد رد عليه:

ـ الفلوس ترفع وتذل، والناس إما أسياد أو عبيد.

وخيم صمت ثقيل، وتوقع الكثيرون أن تحدث أشياء وأشياء.

بانقضاء الربيع، أو الأيام المعتدلة والليالي التي تتخللها البرودة بعض الأحيان، بدأ الصيف الثقيل القاسي. والناس الذين تعودوا في السنين الماضية على دخول الصيف بتمهل، معلناً عن نفسه بتزايد الحرارة والرطوبة، فوجئوا أن صيف هذه السنة هجم هجوماً سريعاً مبكراً، وتميزت بدايته برياح لافحة وبزوابع رملية، حتى كادت حران تختفي تحت هذه الزوابع التي تهب من الصحراء، وتحت أكوام الأتربة والأوساخ التي تنبع من كل مكان والتي تذروها الريح ليل نهار. حتى الليالي التي كانت في أواخر كل ربيع لينة سخية ببرودتها، بحيث تُنسي الناس حرارة النهار، كانت في هذه السنة خشنة ثقيلة وأقرب ما تكون إلى ليالي أواسط الصيف. قال الكبار: لم نر ربيعاً مثل هذا منذ سنين طويلة. وقال آخرون: إن جفاف هذه السنة لم يمر مثله من قبل، وهذا الجفاف سيرفع الأسعار، خاصة الحنطة والشعير، ويجعل حياة الناس شديدة الصعوبة، أما الدواب فسوف تهلك لا محالة قبل دخول الصيف الكبير. ابن نفاع وحده لم يوافق على ما يقوله الناس، وأكد أن الحرارة التي تملأ الجو ليست من الشمس وإنما هي تنبع من الأرض ومن داخل النفوس معاً «لأن العفاريت التي وصلت تعيش تحت أرجل الناس، ثم لا تلبث أن تنتقل إلى أجسام البشر والحيوانات، ولن يمر وقت حتى تتعشق كل شيء، لأن في داخل كل مخلوق عفريتاً صغيراً أسود، وهذا العفريت يكبر ويمتد ما لم يبادر الإنسان إلى قتله».

والناس في حران الذين تعودوا في مثل هذا الوقت من كل سنة على وصول قافلة أو اثنتين، وكانت هذه القوافل تحمل معها الأخبار والرسائل والدراهم، إضافة إلى الأقمشة والسكر والطحين، كانت هذه القوافل بوصولها تغير حياة حران، تولد فيها فرحاً ملوناً أو هواجس ومخاوف

بسبب وصول الأخبار والرسائل أو انقطاعها. هذه السنة تختلف عن السنين السابقة جميعها، إذ لم يعد أحد ينتظر قافلة بذاتها، لأن القوافل أصبحت من الكثرة لدرجة أنها لم تنقطع أسبوعاً واحداً، ولأن الأشياء الجديدة لم تعد تأتي من جهة عجرة فقط، وإنما أصبحت تأتي من جهات كثيرة، خاصة من جهة البحر. كما أن وصول هذه القوافل يحمل معه مخاوف جديدة وبشراً يزيدون يوماً بعد يوم، ولا يدري أحد كيف سيعيش هؤلاء الناس أو ماذا سيفعلون.

كان انقطاع القوافل في السنين الماضية، أو مجرد تأخرها، يثير هموماً كبيرة، خاصة في نفوس المسنين، أما وصول القوافل الآن، مع ما تحمله من أخبار وهواجس وبشر فقد جعل الجميع يحسون أن حران لم تعد ملكاً لأحد أو مدينة لأحد. أصبح الناس فيها من الكثرة والاضطراب إلى درجة أن كل واحد يسأل وكل واحد يجيب، لكن لا أحد يفهم ولا أحد يسمع. فالرجال الذين يقضون وقتاً طويلاً في السوق، ويذهبون عدة مرات في اليوم إلى مقهى أبو أسعد الحلواني، ويراقبون الأبنية الجديدة بكثير من العناية، وينظرون باهتمام مشوب بالحذر إلى القادمين الجدد، وهؤلاء الرجال يرون ذلك كله ويسمعون ويسألون ويراقبون، لكنهم لا يعرفون كيف يفسرون ما يجري حولهم، ولا يعرفون كيف ستكون الحياة في الأيام القادمة. لذلك كانوا يغرقون في الهموم والصمت، فإذا عادوا إلى بيوتهم، وحاولوا أن ينقلوا للنساء بعض ما رأوا وبعض ما سمعوا، وجدوا أنفسهم يتكلمون وحدهم، فلا النساء يسمعن ولا هن ينظرن، لأن عندهن من المتاعب والمشاغل الكثير، فإذا سمعن أو نظرن لم يفهمن شيئاً مما يقوله الرجال، بل وتظهر على وجوههن مظاهر الاستغراب لهذه الهموم التي يراها غيرهم، ولهذا الخوف الذي يظهره الرجال دون سبب واضح مفهوم. فإذا هبّ ذلك الغضب الخفي المفاجئ، أو صدرت عن الرجال تلك الصرخات القصيرة الحادة منذرة أن كل شيء يمكن أن ينتهي في لحظة خاطفة، فتنقلب الأرض وتزهق الروح، عرفت النساء أن الحياة حولهن لا تسير سيراً محموداً، وأن لدى الرجال من الهموم الكثير، لكنهن لا يدركن

ذلك، وخلال لحظات قصيرة، وبطريقة شديدة الخفاء والدهاء، ولا تتقنه إلا الأمهات والنساء المجربات، يُهرب الأطفال، وتتصرف كل امرأة بشكل من المسالمة والحنان، تعرف استحضاره في اللحظة، ويبلغ من الاتقان درجة أن أقسى الرجال وأكثرهم غلظة لا يلبث أن يبرد ويتراجع ثم يندم، ويحل محل ذلك الغضب حزن هادئ اقرب إلى اليأس، وكأن الإنسان في مواجهة قدر لا يقوى على دفعه أو تغييره.

هكذا بدت الأيام التالية لغياب هاجم وخاله، ذلك الغياب الغامض المفاجئ. وبعض الذين فسروا الضيق الذي شعروا به هذه الحادثة، وذكروا ذلك بصوت عالٍ أمام الكثيرين، ما لبثوا أن نسوا السبب، لكن الضيق لم يفارقهم، بل وأخذ يزداد يوماً بعد يوم. حتى الأمير الذي قسا على ابن الراشد وأغلظ القول له، وبدا شديد الضيق إذا ذكر أمامه شيء له علاقة بما حدث، ما لبثت قسوته أن تحولت إلى سخرية مُرّة، وحل التعريض مكان اللوم والعتاب.

وابن الراشد ذاته الذي لم يصدق شيئاً مما جرى، وكأنه مجرد حلم، ما لبث أن أصبح رجلاً مختلفاً. امتلأ أول الأمر بالاستغراب ثم تحول استغرابه إلى ذهول وصمت، ثم حل مكان ذلك الخوف. أصبح رجلاً شديد الارتياب والخوف من كل شيء ومن كل شخص. أخذ يتلفت كل لحظة، يفزع من أي صوت، ينظر في الوجوه بتساؤل أقرب إلى الاتهام. لقد جرى هذا التحول خلال فترة قصيرة.. صحيح أنه جرى ببطء، ولم يفطن إليه الكثيرون أول الأمر، لكن القلق الذي أخذ يميز تصرفاته وسلوكه، وتلك العلاقات المضطربة بالآخرين، ثم التردد الذي أصبح يطبع كل حركة وكل تصرف، جعل الكثيرين ينظرون ثم يتساءلون.

قال ابن نفاع لما سمع الرجال في مقهى أبو السعد يتحدثون باستغراب عن ذهول ابن الراشد وصمته:

ـ بلّش العفريت ينقب....

وهز راسه وهو يضحك.. ثم أضاف:

ـ إذا عشنا نشوف.

أكثر اثنين لاحظا وعرفا بالحالة الجديدة لابن الراشد هما دحام والدباسي. دحام من خلال علاقته المباشرة واليومية به، والدباسي من خلال الحدس والتقدير، إضافة إلى مجموعة من الملاحظات المتفرقة والأقوال والمعلومات التي تصل إليه من هنا وهناك، حول تصرفات أو كلمات تصرفها أو قالها الرجل. وكل واحد من الاثنين، دون أن يدري بما يفكر الآخر، قرر أن يجهز عليه، وأن يرغمه على دفع ثمن كبير.

فبعد تلك المفاوضات والمساومات الطويلة الشاقة لإرغام ابن الراشد على دفع التعويض، وافق مضطراً، ولأنه لم يكن يملك المبلغ المطلوب فقد وافق الدباسي على إقراضه، أما حين سافر هاجم وخاله ذلك السفر المفاجئ، فقد اعتبر ابن الراشد أن لا حاجة لهذا القرض في الوقت الحاضر، أما الدباسي فقد قال للأمير بنوع من المكر:

ـ الفلوس في جيب راعيها تدفي.. يا طويل العمر...

توقف لحظة، نظر إلى ابن الراشد ثم أضاف:

ـ لكن باكر إذا طلبتم يجوز ما تلقون..

وتغيرت لهجته تماماً وهو يوجه حديثه من جديد للأمير:

ـ يجوز، يا طويل العمر، أن البدوي راح هنا.. هنا، يريد عارفة، يريد فزعة حتى يحصل على قرشين أزود.

وعاد إلى لهجته الأولى مخاطباً ابن الراشد:

ـ باكر إذا جاء لا تقولوا تعال يا دباسي، هات فلوس يا أبو صالح.

بهذه الطريقة المحكمة اتفق على أن تبقى الفلوس لدى الأمير وديعة إلى حين مجيء البدوي أو الوصول إلى حل لهذه المشكلة. ولأن الفلوس

تبقى وديعة ولن يتمكن ابن الراشد من تسديدها في فترة قريبة، هكذا افترض الدباسي، لذلك قال ليخطوا إلى الأمام:

ـ الله يصلحه أبو محمد حطّ قريشاته كلها بالقاع وببطون الناس...

وأضاف بعد أن ملأ صدره بالهواء فجاء صوته مختلفاً:

ـ القاع يا جماعة الخير مثل البير، كل شيء ينحط فيها تبلعه!

لم ينقض أسبوع على هذا الكلام حتى قال الدباسي في المقهى أنه سلّف ابن الراشد، وأنه يريد أن يتبايع وإياه، فيترك له القرض ويأخذ الأرض غرب المسجد «لأن هذه الأرض لا تساوي شيئاً، ولا أحد يفكر بشرائها في يوم من الأيام» وابن الراشد الذي وصله هذا الكلام محرفاً، اكتفى بأن هز رأسه ولم يقل شيئاً. أما حين جاءه رسول من الدباسي مستفسراً ما إذا كان «بحاجة إلى الأرض غرب المسجد، لأن أبو صالح ينوي بناء بيت، والتلال الغربية بعيدة بالنسبة له، وهو مستعد لأن يدفع أي مبلغ تطلبه» حين جاء هذا الرسول وتحدث بهذه الطريقة، تأكد ابن الراشد أن الأرض غرب المسجد لا بد وأن تؤخذ منه بطريقة أو أخرى، لكنه لم يكن قادراً على أن يقول نعم أو أن يقول لا. قال للرسول:

ـ ما يأمر به أبو صالح على العين والراس.

وأضاف وهو يتنهد ويتطلع إلى وجه الرجل:

ـ إذا التقينا يصير خير.

اعتبر الدباسي ما توصل إليه مرضياً وإيجابياً في الوقت الحاضر، فلم يلح ولم يعد إلى ذكر الموضوع، لكن من خلال ما بدأ يظهر على ابن الراشد من قلق وخوف، بدأت الأخبار والإشاعات تتردد في مقهى أبو أسعد وفي السوق أن عدداً من المسافرين شاهد هاجم وخاله في عجرة، ولم يكونا وحدهما هذه المرة، كان معهما متعب الهذال ذاته وبرفقته عدد من البدو المسلحين. وذكر بعضهم أنهم سمعوا أن متعب الهذال سيصل بين يوم وآخر إلى حران؛ بل وانتشرت أخبار أخرى أن بعض الذين وصلوا حران فعلاً خلال الفترة الأخيرة أقرباء مباشرون لهاجم وإنهم جاءوا بقصد الثأر والانتقام.

هل كانت هذه الأخبار تصل لابن الراشد؟ هل نقلها إليه أحد واعترف بذلك؟ لا أحد يستطيع أن يزعم ذلك أو ينفيه، لكن عبده محمد الذي يسمع بعض ما يقال، ويظل أغلب الأحيان بعيداً في زاوية المقهى، يقهقه حين يسمع تساؤلات من هذا النوع ويعلق:

ـ يا جماعة اسألوني أنا عن ابن الراشد. . .

يتوقف قليلاً يهز رأسه يتذكر أو يستعرض في مخيلته القصص الكثيرة التي يعرفها. . ويضيف:

ـ ابن االراشد ألعن من إبليس، يعرف القمحة من زرعها والبيضة من باضها.

وحين يسمع الناس هذا الكلام، يتطلع بعضهم في وجوه بعض بتعجب، كيف يستطيع هذا الإنسان معرفة كل شيء، ومن ينقل إليه ذلك كله؟ وحين لا يجدون جواباً يزدادون قناعة أن ما وصل إليهم لا بد أن يكون قد وصل إلى ابن الراشد، وربما قبل أن يعرفوا. فإذا سمعوا أن ابن الراشد لم يخرج من بيته في الأيام الأخيرة، وإنه لم يسافر، كما لم يزر معسكر الأميركان ولم يزر الأمير، رغم أنه في حران لم يغادرها. . . إذا سمع الناس ذلك أدركوا أن شيئاً جديداً قد حصل، وما قيل عن وجود هاجم وأقربائه في عجرة، وأن متعب الهذال معهم وإنهم سيصلون إلى حران في أول قافلة، أمر مؤكد، وهذا ما دفع ابن الراشد إلى الاختباء، كما فعل في المرة السابقة.

وفي الوقت الذي يظهر ابن الراشد في السوق ـ ولم يعد يرى إلا ومعه اثنان أو ثلاثة من جماعته ـ كان يبدو شديد القلق، وقد تغير شكله كثيراً: حركته سريعة، وعيناه شديدتا التنبه والفزع، وكان دائم الالتفات إلى هذه الناحية وإلى تلك، دون سبب ظاهر وبطريقة عصبية. أما الأصوات المفاجئة، حتى لو كان أحد ينادي على آخر، أو سقوط شيء من الأشياء، كانت هذه الأصوات تفزعه، كما حصل في المقهى، لما جاء بعد انقطاع طويل، إذ ما كاد محماس قهوة يسقط من يد بدوي كان يحمله حتى هب ابن الراشد بشكل مفاجئ، وقد ظهرت على وجهه علامات الخوف وأخذ

يتلفت. ولما اطمأن تهاوى على كرسيه مثل الشوال، وقد انحدرت من جبينه حبات العرق البارد الغزير.

لما رأى الناس ابن الراشد على هذه الصورة أصبحوا متأكدين أن شيئاً جديداً بدأ يتكون ويكبر تحت أبصارهم، ولا بد أن يصبح خطيراً في الأيام القادمة.

ودحام الذي يراقب ذلك كله بعين ذئب، ويسمع كل ما يقال بدأ يحضّر ويستعد أيضاً. فما أن انقضى أسبوعان أو ثلاثة أسابيع، وبدأت هواجس ابن الراشد تظهر واضحة، ودحام يراها أوضح من غيره، حتى أخذ ينوب عنه في جميع الاتصالات مع الأميركان، بما في ذلك متابعة بيت الإمارة ودار الأمير، خاصة وأن نعيم أبدى ضيقه الشديد نتيجة إلحاح ابن الراشد في اعتبار الشركة مسؤولة عن التعويض، وتهديده بالامتناع عن إحضار العمال في المستقبل.

لكي يؤكد دحام دوره الجديد، ونتيجة اضطراره إلى مقابلة الأمير بالذات بين فترة وأخرى، فقد قرر أن يتخلى بصورة نهائية عن الأوفرهول والقبعة، فعاد إلى الملابس العربية يلبسها في كل الأوقات. وإذا كان دحام قد أثار الدهشة ثم السخرية في بداية الأمر، لما تخلى عن الملابس العربية قبل الآخرين، وليكون قدوة لهم، فقد أثارت عودته إلى ملابسه القديمة، ثم تلك العباءة السوداء التي اشتراها على عجل، استغراباً وتساؤلاً. قال لابن الراشد لما اتخذ القرار، ولكي يوضح له الأمر:

ـ حياتك، يا أبو محمد، أغلى عندي من أبوي وأخوي. وملابس الأميركان تبين تحتها النملة، ولا يمكن إخفاء هذا...

وحرك المسدس في راحة يده المفتوحة، وكأنه يختبره أو يداعبه.

وحين أبدى ابن الراشد عجبه من وجود المسدس، ولم يفهم العلاقة بينه وبين الحديث عن ملابس الأميركان، تطلع بارتياب إلى دحام، وللحظات داخله خوف غامض. قال دحام وهو يبتسم لكي ينتزع الشكوك:

ـ لازم واحد، في الليل ولنهار، يكون معك، يا أبو محمد.

حرك ابن الراشد رأسه ولم يجب، لكن تنهد بحرقة، خاصة وقد بلغه ما يتناقله الناس. تابع دحام بثقة:

ـ هذه الملابس ـ وأشار إلى ملابسه العربية ـ تخفي عشرة من هذا.

وبطريقة بارعة وسريعة وضع المسدس تحت الحزام وهمس:

ـ والعباية فوقه.. وإبليس ما يعرف ما انت شايل.

أبدى ابن الراشد تفهماً، وفي محاولة لأن يبث الشجاعة في نفسه ويرد على ما يقال في المقهى وفي السوق، ابتسم وهو يقول من منخريه:

ـ اليد اللي تمتد لابن الراشد ما خلقها الله.. يا رجل.

رد دحام لينهي المناقضة:

ـ تحزم للواوي بحزام الأسد.. وبعدها كل شيء يهون.

وبهذه الطريقة بدأ يظهر دحام في كل وقت وفي كل مكان بملابسه العربية، والتعليقات التي أثيرت حوله في معسكر العمال أولاً ثم في حران الأميركان بعد ذلك، ما لبثت أن تراجعت وانتهت، وأخذ الناس يتعودون عليه بهذا الشكل، ولم يعودوا قادرين على تصوره بشكل آخر.

لم تتغير ملابس دحام وحدها، تغيرت تصرفاته، وأساليبه في التعامل أيضاً، حتى حركاته بدأت تتغير. أصبحت مشيته سريعة تماماً مثل مشية ابن الراشد حين يكون مشغولاً أو لا يريد الدخول في مناقشات طويلة مع الآخرين. وبدأ ينزع عباءته إذا اقتضت ضرورات المساعدة ذلك، لكي يثبت للعمال القدرة التي يتمتع بها. أما إذا رآه أحد يضع طرف ثوبه تحت الحزام فيمكن أن يظن لأول وهلة أنه ابن الراشد ذاته.

كيف تغير بهذه السرعة وبهذا القدر؟

قال الأمير لما جاءه دحام أول مرة يعرض عليه وضع قضبان حديدية على نوافذ الطابق السفلي من بيت الإمارة، وكان لديه نائبه والدباسي واثنان آخران:

ـ ها.. يا وليدي تريد تدفنا وحنا بعد ما متنا؟

فلما ظهر الارتباك على وجه دحام ولم يستطع أن يجيب بكلمة، أضاف الأمير وهو يضحك:

ـ قل لجماعتك الحديد يوفرونه.. لغيرنا...

وأضاف وقد تغيرت لهجته:

ـ وقل لابن الراشد غيباته طالت ولازم نشوفه.

وبعد أن خرج دحام تساءل الأمير باستغراب:

ـ ها.. يا جماعة الخير... ما هو هذا العوج اللي كان معبي روحه بينطرون؟

وحين ضحك الموجودون وهزوا رؤوسهم للتأكيد، رد الأمير وهو يضحك ويحرك يده بسخرية:

ـ سبحان الله.. صار يحكي بالحديد والخشب، اللي يصير واللي ما يصير.

قال الدباسي بمكر:

ـ هذا وكيل ابن الراشد، يا طويل العمر، وهذا العوج اللي ما يعجبك، ابن الراشد ما يشيل حجر إلاّ بشوره، بموافقته.

قلب الأمير شفته وحرك يده، أضاف الدباسي:

ـ خبل.. لكن قلبه طيب.

ودار الحديث مرة أخرى حول ابن الراشد. والدباسي الذي كان يتكلم بطريقة معينة في المقهى، أمام الآخرين، حول ما سمعه من وجود هاجم وخاله في عجرة، ووجود المسلحين، وهذا ما يمنع ابن الراشد من الخروج، فإنه أمام الأمير يؤكد أن امتناع ابن الراشد نتيجة هواجس وليس نتيجة مخاوف، وقد يكون بسبب المرض.

وفي معسكر العمال أيضاً لم يغب طيف ابن الراشد يوماً واحداً. فالأحاديث التي تروى، والأخبار التي تنتشر في حران العرب، في السوق، وفي المقهى، لا تلبث أن تنتقل بسرعة إلى المعسكر. وفي رحلتها القصيرة

من مكان إلى آخر تضاف إليها تفاصيل كثيرة ويدخلها تحريف كبير. فعدد من العمال يؤكد أن ابن الراشد منذ وصول هاجم وخاله أصيب بحالة من الخوف بحيث أصبح يبول على ثيابه، ولهذا السبب امتنع عن مغادرة بيته. ويقسم هؤلاء الذين يروون هذه القصة إنهم لم يستطيعوا الجلوس بقربه في المقهى، لأن رائحته كانت رائحة جثة. كانت تفوح منه روائح البول مختلطة بالعطور والرطوبة فتتولد في رؤوس القريبين حالة من الصداع، وقد سأل أحد الموجودين أبا سعد بصوت عالٍ ما إذا كان عنده بخور أو عطور.

ويؤكد غير هؤلاء أن ابن الراشد أخذ يتنكر بملابس متسولين، وروى اثنان أنهما شاهداه وقد طلى وجهه بالسواد تماماً! وقال آخرون أنهم رأوه مرة في الليل المتأخر يضع قبعة على رأسه فوق الغترة في محاولة للتخفي.

وإذا كان التحريف أو الخيال قد داخل الكثير من هذه الروايات، فإن الشيء المؤكد هو أن الخوف قد دخل قلب ابن الراشد، وأكد ابن نفاع أن «الخوف لا يخرج من الرجل إلا إذا خرج مزبان من القبر» أما الحديث عن الكي والفصام «فإنه يفيد هاجم ولا يفيد ابن الراشد» حسب قول ابن نفاع أيضاً.

وإذا جرى الحديث عن البدو المسلحين الذين سينتقمون لهاجم ويثأرون له ولأخيه مزبان، فإن جميع العمال متأكدون أن هذا سيجري اليوم أو غداً، ويخفضون أصواتهم وهم يضيفون أن ابن هذال والبدو الذين معه إذا جاءوا فسوف تهيأ لهم المنامة، وسوف يتم إخفاؤهم في أمكنة لا يستطيع أحد الوصول إليها، وبالتالي لن يعرف ابن الراشد.

أما دحام الذي كان يختلف حوله العمال، ويميزون بينه وبين ابن الراشد، فما لبث أن أصبح ابن الراشد ذاته، وحين جاء بملابسه العربية إلى معسكر العمال أول مرة قال عبد الله الزامل وهو يضرب كفاً بكف:

ـ الله.. الله.. راح منير وجاءنا مناور!

وضحك بصوت عالٍ وأدار ظهره وقال يخاطب الذين حوله قبل أن يصل دحام:

ـ خذوا بالكم يا جماعة الخير. . مثل حمير ابن غيتار: المطلق أخبث من المربوط!

وحين بدأ دحام يطلب من العمال بعض الطلبات، وأخذ يوجههم، كما كان يفعل في كثير من الحالات، همس عبد الله الزامل بأذن أقرب الناس إليه، وضحك الإثنان عالياً. فبدا الانفعال على وجه دحام، لكنه تحول بسرعة إلى الجهة الثانية وقال بطريقة قاسية، لكن يريد من ابن الزامل أن يسمع:

ـ العاقل. . وابن الحلال ما يغتر ولا يتغير.

توقف لحظة، نظر في وجوه الجميع ثم أضاف:

ـ ولازم تعرفون: البارح ما هو مثل اليوم، واليوم ما هو مثل باكر. . ونشوف.

وبعد أحاديث طويلة ومتشعبة حول ورديات العمل والبركسات والعمال الجدد غادر دحام المعسكر. وحين سأل العمال عبد الله الزامل لماذا ضحك، وماذا قال أجاب:

ـ مثل ما قال الشيخ: البارح ما هو مثل اليوم. . واليوم ما هو مثل اللي وراه. . ونشوف.

وهز رأسه عدة مرات ثم تابع بحقد:

ـ الخبل يظن أنا ما نعرفه. . مثل الأعمى يخرأ فوق السطح ويظن الناس غافلين!

ولما ألح العمال يسألون ابن الزامل، أجاب الذي شاركه الضحك:

ـ سألني: هذا الشيخ اللي نشوف هو دحامنا، صاحبنا اللي نعرفه؟ قلت: من أكل تمرهم يقوم بأمرهم. . وهذا ابن الراشد الثاني.

❀ ❀ ❀

خلال الفترة ذاتها، وأثناء زيارة من زيارات ابن الراشد القليلة للمقهى، بدا أصفر الوجه مضطرب الحركات وكانت نظراته زائغة، وقد ولّد مجيئه مواقف متناقضة إلى أقصى حد، وأثار من العطف بمقدار ما أثار من

التساؤل. أما محاولات بعض الموجودين في فتح حديث معه، فقد قابلها بابتسامة حزينة وإجابات قصيرة مبتورة.

وإذا كان مجيء ابن الراشد إلى المقهى، وجلوسه هناك وقتاً غير قصير، ما كان يثير أية أحاديث أو تعليقات ذات أهمية، فإن ما حصل في إحدى اللحظات قد أثار الاهتمام إلى أقصى حد، وعلق في ذاكرة الناس فترة طويلة. فما أن صرخ أبو أسعد بانفعال على الصبي الذي يساعده في المقهى:

ـ البدوي.. ناد على البدوي.

ما إن سمع ابن الراشد ذلك النداء حتى هب كالمجنون، لم يقف وحده وقف الآخرون الذين كانوا معه، وأخذ ينظر إلى الجهة التي ركض الصبي نحوها، وهو يشير بيده ويصدر أوامر قصيرة، لكن ما إن عاد الصبي ومعه ذلك البدوي، ثم الحديث الذي جرى بينه وبين أبو أسعد، حتى جلس البدوي على الأرض وفتح صرة صغيرة، أخرج منها قطعة نقدية أعطاها لأبو أسعد.. ما كاد هذا يجري ويراه ابن الراشد، كما رآه كل من كان في المقهى، حتى أحس الجميع، وأولهم ابن الراشد، بنوع من الهبوط الأقرب إلى الخجل، الأمر الذي جعله يخرج من المقهى بعصبية، لكن عينيه لم تتحولا عن ذلك البدوي لحظة واحدة.

وهذه القصة ما إن وصلت إلى معسكر العمال وإلى مسامع عبد الله الزامل، بالذات حتى استفسر عدة مرات عن الكلمات التي قالها أبو أسعد، وكيف قالها، ثم هز رأسه عدة مرات وهو يبتسم، ولم يفهم أحد لماذا فعل ذلك!

الصيف مقيم مستمر، ولذلك فهو بنظر الجميع أقسى صيف مر منذ سنين لا يتذكرونها. الأيام تطول والليالي تقصر، مع تزايد لهب الشمس وقسوتها، وتأكد الكثيرون أن هذا الصيف سيهلك البشر والدواب ويقضي على كل شيء قبل أن ينتهي. وابن نفاع لا يتوقف ولا يهدأ يبشّر الناس بنوع من الفرح أقرب إلى الشماتة أن العفاريت سوف تنفر من بين أرجلهم كما تنفر الفئران، وأن جهنم التي تغلي تحت الأرض، سوف تنتفض في يوم قريب إلى خارجها فتحرق كل شيء. والناس الذين تضيق صدورهم من الحرارة والرطوبة، ثم من حديث ابن نفاع، فيعافون الأكل، ويصابون بالارتخاء والشرود والنسيان، فلا يتذكرون إلا الساعة التي يعيشونها، ولا يرون إلا ما يمر أمام أعينهم من أحداث وأشياء.

وحران التي انشغلت وتغيرت منذ الساعة التي وصل إليها الأميركيون، عرفت كيف تشغل الناس، فتجعلهم يركضون كالكلاب، لا يعرفون إلى أين أو لماذا، وأغرقت الجميع في هموم لم يتصوروا أنهم سيتعرضون لها.. ومع ذلك فإن حران لم تكفّ يوماً واحداً عن أن تفاجئ الآخرين، المقيمين والذين جاءوا في الشهور والأيام الأخيرة.

ففي السوق، حيث يتكوم البشر الذين جاءوا مع القوافل، أو الذين قذفتهم البواخر، لا يخلو يوم من الأيام من عشرات الأحداث الصغيرة والكبيرة، من المنازعات إلى المساومات، إلى عمليات البيع والشراء التي لا تنتهي، إضافة إلى الدكاكين الخشبية وبيوت الطين التي لا يُعرف متى شيدت ومن شيدها، ولأي شيء ستخصص. وفي المسجد حيث يخلو الإنسان إلى ربه، لم يتوقف الدعاء ولم تتوقف الشكوى. ومع الدعاء

والشكوى كان الناس يتبادلون الأخبار والإشاعات، ويهزون رؤوسهم وأكتافهم انتظاراً للأيام القادمة.

أما معسكر العمال الذي يعرف أياماً هادئة رضية في الشتاء، والشهور الأولى من الربيع، فإنه يصبح في الصيف جحيماً لا يحتمله أحد. حتى الأميركان الذين يبدون متشددين قساة، وكذلك رجال الأمير ورجال إدارة الأفراد، فما تكاد الأيام الأولى من حزيران تبدأ حتى تقل زياراتهم، ثم تنقطع. ونتيجة ذلك ترتخي قبضة رجال الأمير وإدارة الأفراد، فلا يُعرف ما إذا كانت قائمة ومستمرة أم أنها انتهت إلى الأبد. أما حين يسافر أكثر الأميركيين في إجازة طويلة، وتكون عادة خلال شهري تموز وآب، فإنهم في الأيام الأخيرة قبل السفر يبالغون في التعبير عن مشاعر الرضا والغضب حتى أنهم يتصرفون كالأطفال.

البركسات التي كانت لها ميزة في الصيف الماضي، حيث كانت تمنع أشعة الشمس من الوصول مباشرة، أصبحت هذه السنة خانقة إلى درجة أن لا أحد يستطيع أن يبقى فيها أكثر من دقائق قليلة، الفترة التي تكفي لاستخراج حاجة من الحاجات، بعد أن تحولت إلى مجرد مستودعات، إذ وضعت فيها الملابس والأحذية ومعدات العمل، إضافة إلى كميات من المؤونة، وحين تختلط روائح هذه الأشياء معاً، وفي جو من الحرارة القاسية والرطوبة فعندئذٍ لا يمكن للإنسان أن يبقى فيها. وإذا أصرّ بعض العمال على تنحية الأكياس والمعدات من الممرات الطويلة لتأمين مكان للقيلولة، وهرباً من الشمس الحارقة، ومن الأمكنة الضيقة تحت الخيام أو إلى جانبها، إن الذين يفعلون ذلك، ويرمون أنفسهم على الأرض الإسمنتية داخل البركسات، لا يلبثون أن يخرجوا شاحبي الوجوه، غارقين في العرق، وشديدي الخوف والعصبية، لأن كثيرين منهم لامست أجسادهم الحيات، أو لدغتهم عقارب صغيرة صفراء، زحفت إليهم من تحت الأسرة؛ والذين نجوا من اللدغ فلا بد أن تكون حشرات من أنواع لا يعرفونها قد سببت لهم أوراماً وحكة في أماكن عديدة. أما الفئران السوداء الكبيرة فقد أصبحت البركسات مأواها خلال ساعات النهار كلها، فإذا جاء

الليل زحفت لتنتشر في كل مكان، بين الخيام، وقرب البراميل، وكثيراً ما خرجت من المراحيض أيضاً. كانت تقفز قفزات سريعة ذكية، حتى إذا ابتعدت مسافة كافية توقفت ونظرت إلى الخلف، نظرت إلى الذين أفزعوها، وأغلب العمال يقولون إنها كانت تنظر إليهم وتضحك. . وأكد هؤلاء أنهم كانوا يسمعون ضحكها الذي يشبه ضحك الأطفال!

لقد أدرك الأميركيون بالحدس، أو ربما نتيجة أسباب أخرى، إنه إذا أمكنت السيطرة على العمال وترويضهم في الجو البارد أو المعتدل فإنهم يصبحون وحوشاً كاسرة إذا دخل الصيف، وتزداد وحشيتهم ما ازدادت الحرارة، ولذلك يجب أن يقترب منهم الإنسان بمقدار، وأن يبتعد عنهم بمقدار أكبر، تماماً مثل سمك القرش إذ كلما اقترب لوجود الدم فإنه يصبح من الصعب تماماً أن يهدأ أو يروض أو حتى أن يقضى عليه.

وأبنية البركسات التي تلقت الضربات والإهانة المباشرة في الصيف الفائت، وعرف الأميركان بذلك وضحكوا ونظروا باستغراب، ففي هذا الصيف لم يعترض الأميركيون وكذا رجال الأمير، كما لم تعترض الإدارة حين فرد العمال حاجاتهم وفراشهم في الهواء، خارج البركسات، في بداية الربيع، أما في شهر مايس، حين اشتدت الحرارة، وطالب العمال بالخيام فقد وُعدوا أن تُوفر لهم، دون مناقشات طويلة، وقد حصل ذلك فعلاً، لكن مع بعض التأخير. ولجأ كثير من العمال إلى البحث عن أسباب للتحدي المباشر والاحتكاك من أجل خلق المشاكل والعراك.

الأميركيون الذين سافروا هذا الصيف أكثر من الذين بقوا. سافروا فوجاً بعد آخر. وما كاد الصيف الكبير يبدأ حتى أحس العمال أن الأميركيين الباقين ليسوا مثل الذين رحلوا، بل وليسوا مثلما كانوا في أوقات أخرى. فالرقة التي ميزت تصرفات المسافرين، خاصة في الأيام الأخيرة، والفرح الذي ارتسم على وجوههم وهم يستعدون، وأخيراً وهم يمدون أيديهم بقبضات قوية ويسلمون بحرارة، جعلت الجميع يشعرون أن الذين بقوا أقرب إلى الخشونة والعداء. إذ بعد أن أعيد توزيع العمال،

نتيجة توقف بعض الأعمال، وإغلاق بعض الأقسام، بدا كل شيء مرتبكاً ومؤقتاً، مثلما كان الأمر في الأيام الأولى.

كان العمال يتحركون بحذر، وكل حركة من حركاتهم، مهما بدت دقيقة حذرة، تستوجب التوبيخ والصراخ من هؤلاء الرؤساء الذين يعلو صراخهم وضجيجهم ساعة بعد ساعة، ويتراكضون في بعض الحالات بغضب، مع كلمات كثيرة ينثرونها هنا وهناك، ولا يحتاج الإنسان إلى ذكاء كبير ليعرف معنى هذه الكلمات! والعمال الذين ينظرون بعيون متسائلة عما يجب فعله لإرضاء هؤلاء الرؤساء، يردون على الشتائم بشتائم أقسى منها، مع نظرات التحدي والغضب.. لكن لا شيء يستقيم، ولا شيء ينتهي إلى ما يريده هؤلاء الأميركيون الأجلاف.

وبتقدم ساعات النهار تزداد الحالة سوءاً والعلاقات توتراً وعداء. حتى إذا حان وقت العصر، ساعة انصراف العمال، يكون كل شيء قد بلغ نهايته. فالمراقبون الذين يبدون نشيطين في الصباح، ويركضون أكثر مما يتطلب العمل، يصبحون في نهاية اليوم أكثر ضيقاً من الذين عملوا بأيديهم، فتصبح أصواتهم مبحوحة، خافتة، ونظراتهم خابية، ويصبح أي سؤال أو تصرف يثيرهم إلى أقصى حد. والرؤساء الأميركيون الذين كانوا في ساعات الصباح مثل الديوك، حين ينتقلون من مكان إلى آخر بسرعة ونشاط، لا يلبثون أن يشعروا بالتعب والإحباط فتضعف حركتهم ويتراجع حماسهم، أما ألسنتهم التي كانت لا تكف عن الشتيمة والصراخ، فإنها في نهاية اليوم تندلق إلى الخارج، كالكلاب العطشى، أو تنبلع إلى الداخل وكأنها انزلقت إلى أجوافهم، حتى الأسئلة التي يوجهها العمال أو المراقبون فإنهم يجيبون عنها بعيونهم، أو بحركات رخوة من أيديهم، ويبدو الأميركيون في مثل هذا الوقت وكأنهم يستعجلون نهاية تلك الساعات التي تحدد بداية الدوام ونهايته.

فإذا انتهى الدوام وانشق الجمع إلى جزءين، كما تنشق السيول في المنحدرات، واحد صغير والآخر كبير، فذهب الأميركان إلى

معسكرهم، وعاد العمال العرب إلى معسكرهم، فإن الأميركيين يغرقون في برك السباحة، حيث تصل أصوات ضجتهم إلى البركسات القريبة من الأسلاك، أو يخيم الصمت فيقدر العمال أن الأميركان دخلوا إلى تلك الغرف المبردة وراء الستائر التي تصد كل شيء: ضوء الشمس والغبار والذباب والعرب.

أما حين يصل العمال إلى معسكرهم، فهناك ينتظرهم تعب آخر، وتنتظرهم هموم أخرى: تحضير الأكل، غسل الملابس، تنظيف الخيام، جلب الماء، ويجب أن يصل بعضهم إلى السوق لجلب الخبز والمعلبات وبقايا اللحم، بعد أن يكون اللحم الجيد قد بيع من ساعات الصباح الأولى.

كل أمر، في كل خطوة، يثير متاعب وخلافات لا تنتهي. ورغم أن الكثيرين قد اتفقوا على القيام بهذه الواجبات منذ وقت مبكر، منذ بداية الأسبوع أو قبل ذلك أو بعده، فإن كل شيء يعرض من جديد للنقاش ثم الاختلاف. فإذا تعبوا أو سئموا من هذا الحديث الذي كرروه عشرات المرات، انصرفوا بصمت، دون أن يعترف واحد للآخر، إلى الأعمال يؤدونها بكثير من السأم والكراهية.

لقد تكرر هذا مرات لا نهاية لها. وعلى هذا المنوال كانت تجري الأمور أغلب الأيام. فإذا دخل الليل يبدأ نوع من الارتخاء أقرب إلى الخدر يسري في الأجساد فيمتص التعب شيئاً بعد شيء، ومع السيجارة الأولى التي تعقب العشاء، يحس الرجال بنوع من الراحة، فتتغير طباعهم وتصرفاتهم، حتى أصواتهم تكتسب ذلك الجرس الودود الذي يشعر الآخرين بقرابة من نوع معين. أما إذا دارت الأحاديث فإنها تكون في البداية أقرب إلى المزاح أو الأخبار، حيث تعكس حياة النهار نفسها. فإذا ذكر أحد الرؤساء أو المراقبين، يتلفت المتحدث أكثر من مرة، لئلا يكون أحد من أصدقاء هؤلاء موجوداً، فإذا اطمأن بدأت التعليقات، والتي تتخللها الشتائم، ثم تلك الأوصاف التي تصبح وحدها المتداولة.

لا يعرف العمال اسم هاملتون، إنه أبو لهب، وقد انتقل هذا الإسم إلى حران العرب ذاتها، ويقال أن هاملتون نفسه يعرف ذلك. أما جيمس الذي كان رئيس فريق تعميق البحر فكان يُسمّى أبو جنيب، ورئيس المعسكر أطلق عليه العمال المرّي الأعوج، لأنه كثيراً ما كان يقف عند بوابة المعسكر وينظر إلى الآثار على الأرض وإلى أقدام الداخلين والخارجين، وكأنه يبحث عن أثر ما!

لا تقتصر الأوصاف على الأميركيين، فنائب الأمير إسمه البرميل، وإن كان العمال يتناقلون هذا اللقب بخفاء وحذر، وقد أطلقوه عليه لسمنته، لأنه كان يحرص على أن يملأ العمال البراميل، أثناء بناء بيت الإمارة، قبل أن ينصرفوا. أما صالح الدباسي فقد كان اسمه صالح المطّوط، ربما لارتفاع صوته أثناء الحديث، أو للطريقة الرخوة التي ينطق بها بعض الحروف والكلمات.

كانت أحاديث أول الليل أقرب إلى المزاح والتورية، أما إذا امتدت مع تقدم الليل وظهور القمر أو التماع النجوم فإنها ترحل إلى الأماكن الأخرى وإلى الفترات الماضية. وإذا كان لكل إنسان ماضٍ، فإن الذين يحسنون الحديث عن هذه الأمكنة وتلك الفترات قليلون، وهؤلاء كانوا هم عصب المعسكر وأهم أفراده، إذ حول هؤلاء يتجمع العمال وتبدأ الأحاديث. ومع كل قصة جديدة أو تعليق طريف أو ذكرى ترحل القلوب والعقول، فيحس الكثيرون في هذا المكان أنهم بعيدون وأنهم يتعبون دون جدوى، فيمتلئون بالحزن والندم، ويشعرون أكثر من ذلك أنهم وحيدون ومنسيون. ولما يبلغ الشعور هذا الحد لا بد أن يرتفع صوت بالغناء، فيرحل الرجال مرة أخرى إلى أماكن بعيدة، إلى الذكريات والأحلام معاً، لأن الشجى يجر الشجى، فالغناء الذي يبدأ ناعماً خجولاً لا يلبث أن يتحول شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح ندباً شجياً حزيناً للنفس والحياة ولكل شيء. وهذا الغناء الذي تخصص فيه عدد محدود جداً من الأفراد، لا يأتي دائماً أو كما يريد الآخرون، إذ لا بد أن تشتعل نفس الذي يغني، ولا بد أن ينصهر قبل أن يصل إلى تلك

اللحظة التي يندفع بها بقوة لكي يطغى صوته على جميع الأصوات، ولكي يصرخ في جوف الظلمة، فيقول أشياء ما كان هو نفسه يتصور أنه سيقولها، لكن الألم الذي يحز في القلب كالسكين لا يجعل لأحد خياراً، ولا يجعل الإنسان يقرر بوعي أو إرادة.

هكذا كانت تجري الليالي في حران، لكن حران التي تتغير كل يوم، والتي تحمل جديداً كل يوم، لا تترك لليلة أن تكون مثل ليلة أخرى، ولذلك كان هناك دائماً شيء جديد.

لا شيء في حران ينتظر، ويبقى ثابتاً لا يتغير، البشر والأشياء، حتى الطبيعة، بما فيها من ماء وهواء تتغير وتتبدل. فالناس الذين انشغلوا أياماً بهاجم، فحزنوا وراقبوا وانتظروا، ثم تساءلوا ماذا سيحصل بعد أن سافر بشكل مفاجئ، لم تلبث الحياة، بتدفقها الذي لا يتوقف، إن أنستهم الرجل، وحتى إذا تذكروه في سهرة من السهرات فإن ذكريات أخرى تندفع بقوة فتطغى على هذه الذكرى أو تجعل لأحداث أخرى بريقاً يخطف أبصارهم وقلوبهم.

وقبله عبده محمد الذي شغل الناس وقتاً من الأوقات ما لبث أن انزوى في فرنه، فما عاد أحد ليتذكره أو ليتحدث عنه إلا كذكرى قديمة موغلة في القدم.

حتى ابن الراشد الذي شغل الناس فترة طويلة من الوقت بأخباره وتحركاته، وكان شديد الحضور بإقامته وسفره، يراه الناس يقفز مثل قط من مكان لآخر، يذرع الأرض، يتأمل الأبنية، يقلب الأخشاب والحديد، يجمع أشياء لا أحد يتصور أنها يمكن أن تجمع.. ابن الراشد ذاته، بعد الذي حصل، وتحدث الناس كثيراً وانتظروا، ما لبث أن حمل الجميع على نسيانه، أو على الأقل حملهم على ألا يتذكروه مثلما كانوا يفعلون من قبل. فالعزلة التي فرضها على نفسه، وحالة الاكتئاب التي اضطرته للبقاء أياماً متوالية دون أن يرى أحداً أو يراه أحد، هذه العزلة غيبته تماماً، فإذا عادوا إلى تذكره فلأنه خرج إلى مقهى أبو أسعد في عصرية من العصاري، أو تمشى على شاطئ البحر ومعه اثنان أو ثلاثة من جماعته. لقد تغير كثيراً في هذه الفترة، فالمشية السريعة انتهت لتحل مكانها مشية ثقيلة حذرة،

والجسم القوي المملوء أصبح متعباً أميل إلى النحول، ولولا تلك النظرات القلقة السريعة التي ظلت تميزه مثلما كان من قبل لأنكره أقرب الناس إليه.

البواخر تحمل رجالاً يزيد عددهم كل يوم. الحاجات تتزايد ويتسارع وصولها ويُحمل أكثرها إلى معسكر الأميركان. الأبنية تقوم هنا وهناك وترتفع يوماً بعد آخر. الدكاكين تتراصّ وتتزاحم. الناس يتراكضون ويصرخون وينادون. وذاكرة الناس يعاد ترتيبها بصورة مستمرة. والقلق والهم يتزايدان لأن أحداً لا يعرف ماذا يخبئ الغد.

حران العرب التي انتبذت مكاناً قصياً في محاولة لأن تبتعد وتهرب مما يراد لها، لم تستطع أن تقاوم طويلاً، فالأبنية الطينية التي تتراكم بجانب بعضها، فتسد الطرقات أو تجعلها ملتوية شديدة التعرج، لم تعد قادرة على استيعاب الناس، ولم يعد الناس راغبين أو قانعين أن يبقوا مثلما كانوا، فانتشرت أبنية جديدة في أمكنة عديدة ومتفرقة، وأصبحت مثل الدمامل في اليد أو مثل الرقع في ثوب كبير قديم. والسوق الذي بدأ بثلاث دكاكين، ما لبث أن أصبح شيئاً عجيباً. كانت الدكاكين الجديدة تقوم كل يوم، دكاكين من كل شكل ومن كل حجم: أبنية قوية راسخة وأخرى عبارة عن صناديق خشبية كبيرة تقوم في التو واللحظة، وقد أصبح دحام متعهداً لهذا النوع من الدكاكين، إذ كان يجلب الصناديق الخشبية الكبيرة من معسكر الأميركان، ومن يريد دكاناً من هذا النوع يلتزم بتقديم البضاعة والقيام بالعمل لقاء «أن يجد دكاناً جاهزة بالأرض والبناء.. وبعد ذلك الربح مناصفة» وهذا النوع الذي كان يرضي الكثيرين ويلبي حاجات كثيرة أصبح ينتشر في كل الأمكنة: في السوق الرئيسي، قرب المسجد، بجانب معسكر العمال. وفي حران العرب ذاتها، على التلال الغربية، أقيمت أيضاً دكاكين كثيرة بهذا الشكل.

إلى جانب هذا النوع من الدكاكين بدأت تنشأ بيوت مماثلة، وإن كانت أكثر اتساعاً أغلب الأحيان، وتتناولها تحسينات يجريها كل واحد حسب ما يتخيله أكثر جمالاً وأقدر على تلبية حاجاته. وكانت هذه البيوت تتوزع في كل مكان، إلى جانب البحر، بين الدكاكين، على سفوح التلال. بكلمة

أخرى، في كل بقعة أرض فارغة تتسع لبيت من هذه البيوت ولا يعترض أحد على ذلك اعتراضاً جدياً.

ومثلما كان يقوم هذا النوع من الدكاكين والبيوت، فإن نوعاً آخر من البيوت المبنية من الحجر الرمادي الأقرب إلى السواد، الذي أحسن قطعه وتجهيزه، بدأ يرتفع أيضاً. كان أول هذه البيوت وأكبرها بيت عبد الله السعد، ثم تلاه الدباسي وقد أقام بيته في تلك الفسحة من الأرض غرب المسجد، بعد أن وافق ابن الراشد على التنازل عنها، وجرى إقرار ذلك أمام الأمير. ولم يتردد آخرون مثل السلامي والمرزوق وغيرهم من تشييد بيوت من نفس النوع، وإن ظلت أصغر وأكثر تواضعاً.

دار الإمارة وبيت الأمير انتهى تشييدهما أواخر الصيف وبداية الخريف، لكن الأمير استمر مقيماً في الخيام التي رفعت من أماكنها ونصبت وسط الساحة الكبيرة التي أحيطت بالأسلاك، والتي تحدد دار الإمارة وبيت الأمير معاً. وكانت الحجة التي استند إليها الأمير في تأخير الانتقال «رائحة الأصباغ تدوخ الرأس وتعمي العيون» إضافة إلى «أن النوم تحت السماء أحسن من أن يحبس الإنسان روحه في هذه القبور» كما قال وأكد لأكثر الذين زاروه أو سألوه.

ومثلما جاء عبد الله السعد ومحمد السيف ليستقرا في حران، فإن اثنين آخرين وصلا ورافق مجيئهما الكثير من الاهتمام في هذه الفترة. جاء الأول مع إبراهيم السعد من البصرة، ولم يتوقع عبد الله السعد نفسه أن يجيء، لأن محيي الدين النقيب، شاه بندر التجار، كما كان يطلق عليه في البصرة، لعظم تجارته واتساعها، ولأن له علاقات مع الهند والسند ومانشستر. جاء محيي الدين النقيب مستطلعاً ثم ما لبث أن قرر البقاء وبقي. أما الثاني فكان حسن رضائي، ورافق مجيئه الكثير من الحفاوة والاهتمام أيضاً، وقد جاء على باخرة ليست مثل بواخر الأميركان بحجمها، لكنها ليست مثل تلك البواخر الفقيرة البائسة التي كانت تحمل عشرات المسافرين التائهين. جاء حسن رضائي بأبهة وفخامة، ورغم أن أحداً لم يكن يعرفه في حران، إلا أنه قام بزيارة الأمير فور وصوله، ولقد

جرى الحديث أثناء الزيارة حول أمور كثيرة. أما في تفسير مجيئه فقد قال إنه بدافع التعرف «ولا مانع لديه من تقديم أي نوع من المساعدة تحتاجها حران، اليوم أو في أي يوم آخر». أما الهدية التي قدمها للأمير، وهي عبارة عن منظار مقرب، فقد أبدى الأمير تردداً في قبولها أول الأمر، لكن ما لبث أن سُرّ بها سروراً كبيراً حين وضع المنظار على عينيه وأخذ ينظر في هذا الاتجاه وفي ذاك الاتجاه وبدأ يشير بيده ويضحك فرحاً ودهشة!

لم يبق حسن رضائي خلال هذه الزيارة إلى حران سوى ثلاثة أيام «لأن أشغاله ومواعيده لا تسمح له بأكثر من ذلك، على الرغم من سروره ورغبته في البقاء واعتزازه بالتعرف على سمو الأمير». أما عرض الأمير في أن يكون ضيفه وينزل في دار الإمارة فقد اعتذر عنه حسن رضائي بتهذيب كبير، وقال إنه سيقضي أغلب الوقت «في رحاب صاحب السمو وبين يديه، لكن الفراش الذي تعوّد عليه، نتيجة المرض، يلزمه أن يعود إلى الباخرة». وفي نطاق تبرير هذا الموقف وإقناع الأمير بالموافقة على هذا الاقتراح، قال إن وجوده على ظهر الباخرة وباستعمال كل منهما منظاره المقرّب، سوف يجريان حديثاً طويلاً وشائقاً، كما يفعل عادة البحارة على ظهور السفن، وراهن أن الأمير سيسر من هذه الطريقة في الحوار، وإنه سيتقنها بسهولة!

لقد تحدث الناس كثيراً عن هذا الرجل الذي لا يعرفون من أين أتى، وكيف استطاع بسهولة أن يصل إلى قلب الأمير، وكيف أنه تحدث معه في أمور شتى، وكان الحديث يجري بينهما، في بعض الأحيان، وحين يفترقان، من هذه المسافة الكبيرة!

حين سمع ابن نفاع بهذا الذي يتناقله الناس عن المنظار المقرب، الذي يتيح لمن يقف على شاطئ البحر أن يرى القمحة في أبعد مكان من التلال الغربية، وكيف يمكن النظر إلى النجوم في الليل وكأنها معلقة فوق الرؤوس، حين سمع ابن نفاع بهذا صرخ بغضب:

ـ صارت الدنيا بآخرتها. وما عاد الإنسان يخاف من كتاب وحساب أو من رب العباد.

فلما سأله بعض الناس لماذا يفكر بهذه الطريقة هز رأسه بحزن يبلغ حد الأسى وأجاب:

ـ منذ إن جاء الأميركان جاءت معهم العفاريت والمعاصي والمصائب، ولا أحد يعرف ماذا سيحصل في الأيام الآتية. . .

يصمت قليلاً، ويخرج صوته متهدجاً:

ـ اللهم يا رب، يا مالك الملك، يا قوي، يا رحيم. . أمتني على دين آبائي وأجدادي، على دين نبينا محمد، ولا تجعلني عاصياً كما عصى قومي. أسمعني يا ربي واستجب لدعائي.

وفي غمرة الدعاء والابتهال يقول رجل لآخر:

ـ اترك الشايب هالحين. . الباخرة وصلت.

ـ أية باخرة؟

ـ مثل اللي تذكرها. . .

وما يكاد خبر باخرة الحريم يصل إلى عبده محمد حتى يجنّ، يريد أن يخلص من الأقراص التي بين يديه، أن يخرج من الفرن ومن جلده ومن حران كلها. تبدو الأقراص أمامه أكثر من أية مرة سابقة، كثيرة إلى درجة أنه لم ير بعددها يوماً من الأيام؛ ليست كثيرة فقط، إن النار تعاديه، لا تستجيب له، وإلاّ لماذا تبقى الأرغفة صماء هكذا؟ لماذا لا تنضج وتخرج بسرعة؟ والباخرة، هناك، هل تنتظره؟ لماذا يظل يحترق في هذا الجحيم، والآخرون، هناك، يجلسون برخاوة على الشاطئ، يدلون أرجلهم في الماء وعيونهم تحلق، ترافق ذلك المركب الصغير في رحلته الرائعة، فإذا عاد بسرب من الحسان ظلت العيون تتابع هذه الرحلة الخطرة اللذيذة حتى اللحظات الأخيرة من الماء، فإذا طارت طيور القطا وحطت على الشاطئ، بتلك الضحكات الصاخبة، بذلك الصوت الذي يشبه البلابل، وظهرت تلك الأجساد البيضاء. . البيضاء. . البيضاء الرطبة، القريبة، الشهية، التي تتدافع وكأنها غزلان حطت على غدير، وحاصرتها الأيدي وتابعتها العيون. . يا الله هل يمكن أن يحصل كل هذا وهو بعيد. . بعيد. . بعيد؟

وماذا إذا طال انتظار الناس لكي يحصلوا على الأرغفة التي يحتاجونها من أجل أن يذهب عبده ويكون هناك مثله مثل الآخرين؟ وحتى لو لم يأكل الناس يوماً واحداً. . هل يتغير شيء في هذا الكون؟

الجميع ضد عبده محمد. هذا شيء مؤكد يعرفه أكثر من أي إنسان آخر. إنه يطعم الجميع، يقدم إليهم الأرغفة كل يوم، يحرص إلى أقصى حد على أن يقدم أحسن الأرغفة وأكثرها نضجاً، لكن لا أحد، نعم، لا أحد، ينظر إليه، يتعاطف معه، يعرف أي حريق يشتعل في قلبه، خاصة الآن، وقد علم بوصول الباخرة. لماذا لا يأتون الآن، في هذه اللحظة، من أجل أخذ أرغفتهم؟ أين ذهبوا ولماذا تركوه وحيداً هكذا؟

حين استخرج عبده الأرغفة، رغيفاً ثم آخر ووجدها قد احترقت بالكامل، تطلع إلى الأرغفة الثلاثة أو الأربعة الباقية وقال في نفسه «لقد احترقت قبل أن تحترق» ولم يستطع أن يواصل.

ذهب إلى شاطئ البحر، إلى نفس المكان الذي وقف فيه السنة الماضية.

اقترب أكثر. اقترب إلى أقصى حد. لامس وجهه الأسلاك، لم يستطع أن يرى من هذا المكان إلا باخرة بعيدة بيضاء. حتى العلم الذي كان يخفق عليها لم يستطع أن يميز ألوانه. حاول كثيراً مع جمعة. قال له أن الأميركان في المعسكر أرسلوا وراءه وطلبوا إليه أن يأتي، لكن جمعة لم يسمع ولم يستجب، كأنه لم يأكل مرة واحدة من خبز عبده! ذهب بعيداً عن البوابة، تطلع في كل الاتجاهات لعله يستطيع أن يجتاز هذه الأسلاك، أن يصل إلى مكان قريب، لكن محاولاته انتهت إلى الفشل. رأى حوله بعض الصبية، سألهم ما إذا كانوا قد رأوا أحداً يسأل عنه. تضاحكوا وهم يجيبون إجابات غير واضحة. أما عندما بدأوا يسبحون مجتازين حد الأميركان وهم يتصايحون فقد شعر بالندم الشديد لأنه لا يعرف السباحة.

وتذكر ما سمعه في الأيام الأخيرة عن المنظار المقرب، الهدية التي حصل عليها الأمير. قالوا إن الأمير منذ حصل على هذا المنظار، وهو

مبطوح على بطنه والمنظار منصوب يراقب من خلاله كل شيء. تمنى عبده لو يحصل على هذا المنظار لدقيقة واحدة، سوف يتمكن خلال هذه الدقيقة من رؤيتها. تكفي نظرة واحدة ليعيش عليها سنة أخرى. حين يراها لا بد أن يجدها تبحث عنه، تراقب كل قادم وتنظر إلى كل وجه.

وفي هذا اليوم، عند الغروب أو بعده بقليل، انتشرت شائعة قوية أن عبد محمد غرق في البحر. صحيح أن بعض الناس رآه قرب الشاطئ، لكن أحداً لم يشاهده بعد ذلك. أما الفرن فقد ظل مغلقاً طوال اليوم، ولم تجد كل محاولات الطرق والنداء التي حاولها الكثيرون، حتى أصدقاؤه الذين يعرفون متى يطرقون الباب، وأية كلمات يقولونها، وكيف كانوا يستخرجونه من وكره في أصعب ساعات التجلي والعزلة، حتى هؤلاء لم يتوصلوا إلى نتيجة، وخامرهم شك قوي أن عبده ليس موجوداً في الفرن، وربما يكون قد مات فعلاً، وقد فكر بعضهم بكسر باب الفرن، لكن تركوا كل شيء لليوم التالي «لأن الصباح رباح، والرجل مثل عادته، ركبته السودا، ولا يريد أن يرى أحداً».

وفي هذا اليوم أيضاً باع فرن عبد الله الأبيض كما لم يبع في يوم سابق، ومع الأرغفة التي توضع بين أيدي الناس كانت تنسكب في آذانهم أخبار غرق عبده!

لكن لا شيء في حران ينتظر أو يثبت، فعند ساعات الليل المتأخر، قبل الفجر بساعة، رأى الذين خرجوا من مقهى أبي أسعد، وعلى شاطئ البحر، ليس بعيداً عن المقهى، رأوا عبده. كان يدندن بأغانٍ حزينة، وكان في بعض المقاطع ينشج ويبكي بصوت عالٍ!

في الأيام التالية كان عبده شديد النحول، شاحب الوجه، وكانت يداه ترتجفان ارتجافاً شديداً، حتى أنهما لا تقويان على إدخال الأرغفة إلى بيت النار أو إخراجها منه، وكان لا يكلم أحداً ولا ينظر في وجوه الناس.

لكن ما كادت بضعة أيام أخرى تمر حتى انتشرت معلومات قوية أن عبده الذي لم يعرف السباحة ولا نزل إلى البحر من قبل، لكنه قد نزل في

ذلك اليوم، وظل يضرب بيديه ورجليه والماء يحمله حتى وصل إلى الباخرة الراسية بعيداً، وإنه صعد إلى ظهرها بحبل مدته إليه المرأة ذاتها، وأنه قضى هناك ساعات طويلة حافلة، ولما رجع إلى الشاطئ مرة أخرى كان يسبح على ظهره ويحمل بيدٍ لم تمس الماء صورة امرأة. وأكد بعض الذين خرجوا من المقهى متأخرين تلك الليلة أنهم رأوا مع عبده صورة تلك المرأة. كانت الصورة جافة لامعة، لم يمسها ماء، وكان يقلبها وهو يبكي!

راجت إشاعات قوية، في منتصف الصيف، أن سفر دحام إلى عجرة له علاقة قوية بقضية هاجم، فقد قيل ان الأموال التي كانت مودعة عند الأمير قد سحبت، لأن ابن الراشد قرر أن يبحث في كل الأمكنة عن هاجم وخاله، لكي يدفع لهما التعويض؛ وحتى المبلغ الذي قرره الأمير، إذا لم يكن كافياً أو مرضياً، يمكن أن يزيد عليه مقداراً إضافياً. ومما أكد قوة الإشاعة أو صحتها أن ابن الراشد، على خلاف الفترة الماضية، أخذ يظهر للناس. وهو الذي لم يكن متعبداً تقياً، حتى أنه لم يكن يذهب إلى المسجد إلا مضطراً، شوهد عدة مرات في المسجد، بل وأكد الكثيرون أنه كان يغرق في الصلاة والدعاء والتهدج، فيغمض عينيه نصف إغماضة ويتمتم بأدعية طويلة، وهذه عادة غير مألوفة في حران، كما لا يمارسها البدو، أو سكان المناطق المجاورة، بل وينظر هؤلاء إلى الذين يغرقون في التعبد نظرة شك وتوجس.

ومما زاد في رواج هذه الإشاعات وقوتها أيضاً أن ابن الراشد بدأ يستعيد صحته شيئاً فشيئاً، وبدأ يطيل الجلوس في المقهى أو التمشي على الشاطئ. صحيح أنه لم يعد لأي من الأعمال التي شغل بها نفسه في المدة الماضية، لكن الكثيرين فسروا الأمر باعتلال المزاج، وإنه لن تمر فترة من الوقت إلا ويعود مثلما كان. ومع أنه ظل كعادته كثير الصمت وغير راغب في الحديث مع الآخرين، عدا التحيات السريعة والأسئلة العابرة، فإن رجلين أو ثلاثة من رجاله كانوا يرافقونه باستمرار، ومع هؤلاء كان يجلس ويتحدث.

الدباسي الذي بلغه أول مرة أن ابن الراشد قضى ساعة أو أكثر في

المقهى، وبدا منتعشا، قال وهو يتصنع الحزن:

ـ صحوة موت . . . يا جماعة.

وبعد قليل أضاف كأنه يكلم نفسه:

ـ يتوهم، يظن أنه إذا قرّب من الخوف يأمن.

استراح قليلاً ثم تابع:

ـ ورطته ما هي سهلة ابن الراشد، ومع من؟ مع ابن هذال والبدوان، الواحد منهم يأخذ ثأره بعدأربعين سنة ويقول: والله استعجلت.

ولكي يتأكد الدباسي من الوضعية الجديدة لابن الراشد أرسل ابنه صالح لزيارته وليدعوه أيضاً إلى حضور حفلة زواجه من أخت محمد سيف، لكن ما عاد به صالح من رأي وانطباع كان مشوشاً للغاية، فتارة يقول أن الرجل مثلما كان من قبل، وتارة أخرى يقول إنه رأى في عينيه شيئاً غريباً لم يفهمه، لكن الأمر المؤكد أن «الرجل لا يريد أن يتكلم!» وقد دفع بالدباسي الأب لأن يقوم بزيارته ليتأكد بنفسه، وقد تم الاتفاق أن يلتقيا في المقهى.

قال الدباسي ليبرئ نفسه:

ـ هو اختار المقهى، بعثت أقول له: أريد زيارتك يا أبو محمد. قال: في القهوة عصرية نلتقي، والتقينا، وبعدها صار اللي صار.

ما كاد الرجلان يلتقيان، وقد أوعز ابن الراشد، بخشونة، للرجال الذين كانوا معه أن يبتعدوا، وقال بطريقة احتفالية، وهو يقف بقوة، أثناء ما كان الدباسي يتقدم نحوه:

ـ مثل ما تشوف. . يا أبو صالح: حصان، أقوى من الحصان.

ـ الحصان بدون فرس أو ثنتين. . ما يساوي شيء يا أبو محمد!

هكذا رد الدباسي وهو يضحك بصوت عالٍ. قال ابن الراشد وقد أحس بالتعريض:

ـ نلحق على الفرس يا أبو صالح. . .

توقف لحظة ثم أضاف هامساً وهو يتلفت:

ـ إذا خلصنا يا رجل.

ودون أن يسأله الدباسي اندفع يحدثه عن وجود مجموعة مسلحة تريد قتله ووراء هذه المجموعة متعب الهذال بالذات، وإنها تتربص به في الليل والنهار، لكنه احتاط لكل شيء، وسوف يفوّت عليها هذه الفرصة؛ ودون تردد وبانفعال أخرج من وسطه مسدساً وقال:

ـ قبل ما يجرّون سلاحهم، بهذا أبطحهم واحداً بعد واحد.

كان شديد الانفعال والحدة أثناء الكلام، والدباسي الذي فوجئ بهذا الانفعال ابتسم، تصنع الهدوء وعقّب:

ـ وكّل الله يا أبو محمد، المسألة كلها بسيطة ولا توجب القتل والبارود.

ـ توجب أو لا. . . المسألة صارت، لكن قبل ما أموت أموّت عشرة.

قال الدباسي بخبث:

ـ سمعت أنهم رضوا. أخذوا القريشات وسكتوا.

ـ كانوا موافقين ومستعدين، لكن الناس، الناس يا أبو صالح. . وخاصة ذاك اللي ما ينسى وما يتعب، متعب الهذال. . .

توقف ابن الراشد قليلاً، تنهد بألم ثم أكمل:

ـ وكل واحد، من اولاد الحلال، يرمي كلمة، كل واحد يقول ابن الراشد، والجماعة كل يوم برأي.

توقف مرة أخرى، مسح العرق الذي تساقط من جبينه وأضاف بنبرة جديدة:

ـ القريشات كوم وهذا كوم، واللي ما يرضى بذاك يرضى بهذا.

وهز المسدس بين يديه بثقة والتفت حواليه أكثر من مرة.

في هذه اللحظة دخل صبي إلى المقهى بسرعة وصرخ بشكل مفاجئ وبصوت عالٍ:

ـ البدوي. . البدوي.

وفجأة دوّت بضع رصاصات، وامتلأ جو المقهى بالفوضى والصراخ

ورائحة البارود. وما كادت الضجة تتراجع ويتلاشى دوي الرصاص، حتى تداعى ابن الراشد على كرسيه، وقد أصيب بحالة من الهبوط والانهيار.

لقد تراءى لابن الراشد أن أشخاصاً سيدخلون المقهى وأنهم سيقتلونه، لذلك بدأ قبل أن يبدأوا، هكذا قال بعد أن استراح، لكن حالة الذهول المصحوبة بالفزع، والتي عمت الجميع، أكدت أن ابن الراشد وصل إلى درجة تثير الشفقة.

كان يمكن اعتبار ما حدث مجرد صدفة، وقد يزول من ذاكرة الناس، كما زالت أشياء كثيرة. لكن تلك النداءات التي أصبحت تطارد ابن الراشد في كل مكان، والتي تصله إلى بيته، كما يؤكد هو نفسه، خلال ساعات الليل والنهار، يطلقها الصبية بعض الأحيان، ويطلقها الكبار في أحيان أخرى، جعلت ابن الراشد يعتصم في بيته يوماً بعد آخر، ليلة بعد أخرى. فإذا كان يغفر للصغار، فماذا يقول عن تلك الأصوات الخشنة التي تأتيه فجأة في الليل المتأخر؟ كان يهب من نومه مرعوباً. أو ينتفض في فراشه كما ينتفض ديك مذبوح. كانت الأصوات تطلب منه أن يخرج، إن كان شجاعاً، فإذا صمت أو توارى تعالت الأصوات أكثر من قبل، أما إذا خرج فلا يرى أحداً. وحين يسأل الآخرين يبدون استغرابهم وينفون أنهم سمعوا صوتاً أو رأوا أحداً!

قال بعض الناس في تفسير صرخات الصبية أن الصدفة وحدها هي التي أوقعت ابن الراشد، إذ ما إن عرفوا بما حصل في المقهى حتى تعلقوا بهذه التسلية، أما الكبار الذي يطلقون تلك الصرخات في جوف الليل فلم يؤكدها أحد سوى ابن الراشد.

أما حين عاد دحام من عجرة، ومعه عدد من العمال، وسمع ما حصل أثناء غيابه، ثم لما رأى ذلك الهوس الذي استبد بابن الراشد فقد قال أمام كثيرين:

ـ هذه شغلة أبو صالح. أبو صالح هو أبوها وهو أمها.

سمع الدباسي ما قال دحام، لكنه تظاهر أنه لم يسمع، فالاستعدادات للزواج استمرت، وباشر أكثرها بنفسه. جرى التأكيد مرة بعد أخرى على

الكثيرين بأن يحضروا. والخراف التي ستذبح عُلفت جيداً، وأخذت إلى البحر مرتين فغسلت هناك لتكون بيضاء نظيفة. أما «التريكات» ذات الأضواء القوية فجلبت خصيصاً من عجرة، وقد جرّبت عصر يوم وصولها، ثم في الليلة التالية، فبدت حران العرب في الليل على التلال الغربية مشعة مضيئة، حتى أن الكثيرين من العمال في المعسكر شاهدوا الأضواء وظنوا أن هذه الليلة هي ليلة الزواج، لكن آخرين أكدوا لهم أن الأمر خطأ، فالزواج سيكون ليلة الجمعة، وأما ما يرونه الآن فلا يعدو أن يكون مجرد استعداد لليلة الزواج.

وحران التي استعادت ذكرى زواج الأب في السنة الماضية، توقعت أن يكون زواج الابن الأكثر أهمية «لأن صالح هو الابن الأكبر، ولأن الدباسي الآن أقوى وأهم مما كان في السنة الماضية، ولا بد أن يثبت للجميع ذلك» أما الأمير الذي وجهت إليه الدعوة، وجرى تأكيدها مرة بعد مرة من قبل الدباسي نفسه، فإنه لم يعد وعداً أكيداً قاطعاً بالحضور، لأنه كان تواقاً لمراقبة الزواج بالمنظار، وسوف تكون مناسبة مهمة لأن يرى كل ذلك في الأضواء القوية ومن هذا البعد الكبير! وبدا مشغولاً في النظر إلى أعواد الثقاب أو إلى بعض الصور، كان يضعها له أحد رجاله على مسافات متفاوتة، مرة بعد أخرى، والأمير يأخذ وضعيات مختلفة، فمرة ينبطح على الأرض، بعد أن يثبّت المنظار على وسادة، ومرة يجلس واضعاً ركبته تحته، ومستنداً باليد التي تحمل المنظار على الأخرى، لكي يصل إلى «وضعية الرمي» كما كان يطلق على الحالة المثلى للرؤية. ونتيجة إلحاح الدباسي، والأهمية التي يعلقها على حضوره فقد قال الأمير دون أن يلتفت:

ـ أمرّ عصرية... أتقهوى وأمشي.

واستمر يصدر الأوامر لتثبيت العيدان، لمسكها بالملقط، لوضعها بشكل منتظم، وفي كل مرة ينظر إلى العيدان مباشرة، ثم من خلال المنظار، تتوالى هزات رأسه دلالة التعجب والاهتمام. قال الدباسي وهو يستأذن:

ـ المهم تصلنا يا طويل العمر. . وإذا وصلت ما نتركك.

وواصل الدباسي إرسال الرسل لإبلاغ المدعوين، فلما بعث لابن الراشد كان جواب دحام، بعد صمت طويل «ما أظننا بحاضرين» وبعد قليل أضاف بصوت بطيء منخفض: «إحذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة» لم يكتف بذلك قال وهو ينهض مدعياً أن وراءه أشغالاً يجب أن يقوم بها: «أيام السرور قصار» فلما بلغ الدباسي ما قاله دحام ضحك بغيظ وعلق بكلمة تناقلها الناس، قال:

ـ اركب الحمار ولا يهمك ضراطه، وأنا إذا ما ركبت هذا الجحش وسمّعت أهل حران كلهم ضراطه ما أكون أبو صالح!

يوم الخميس صباحاً طلب الدباسي من الأمير، مجدداً، وهذه المرة على شكل رجاء، أن يشرفه بالحضور، لكن الأمير الذي كان يراقب باخرة وصلت لتوها، انشغل تماماً، حتى أنه لم يفطن لوصول الدباسي ولم يسمع كلامه، ولما بدا الضيق على الدباسي، ولأن وراءه بعض الأشغال يجب أن يقوم بها، فقد قال لنائب الأمير الذي كان يهز رأسه هزات رثاء وحزن:

ـ الاعتماد عليك يا أبو رشوان.

وهز نائب الأمير رأسه، وفهمت على أنها موافقة وأنه سيبذل جهده.

أما في معسكر العمال فقد قام صالح نفسه بزيارة أخيرة، وقال بصوت عالٍ وبتفاخر ظاهراً

ـ الجميع ضيوفنا الليلة، الحاضر يبلغ الغائب، وما نقبل عذراً من أحد.

إلى الظهر ظل الأمير مشغولاً بالباخرة، أحصى عدد الرجال الذين نزلوا منها، لكن ظل متردداً حول الرقم النهائي، لأن خمسة رجال أو ستة من الذين صعدوا إليها مرة أخرى سبق أن نزلوا منها، وربما فعل واحد مرتين أو ثلاث مرات، فالأمير غير متأكد من ذلك، نتيجة اختلاط الناس ببعضهم وتشابه الملابس وحتى الملامح، إضافة إلى اهتزاز المنظار ثم سقوطه أثناء ما كان أحد رجال الأمير يقدّم الشاي! هذه المراقبة الدقيقة الصبورة أوحت للأمير بأفكار كثيرة، وسرح عدة مرات بذكريات أيام

بعيدة، تمنى لو أن المنظار كان معه! ثم علّق على أهمية هذا الاختراع لنائبه، وذكر أن عقل الإنسان لا بد أن يصل في يوم من الأيام إلى تركيب مجموعة من المناظير يمكن أن تساعد في رؤية الناس في أماكن بعيدة، في مصر والشام وربما أبعد. وغرق في تصوراته وأحلامه ولم يفق إلا لما دعي إلى الطعام.

بعد قيلولة قصيرة تخللها نوم متقطع، بسبب الرطوبة الشديدة والحر الشديد، وحين مالت الشمس قليلاً نحو الغرب، تطلع الأمير نحو التلال الغربية، فرأى أناساً كثيرين وحالة غير طبيعية، فخمن وقدر أن اليوم هو يوم زواج صالح الدباسي، فلما سحب المنظار لينظر من خلاله سأل نائبه الذي وصل لتوه، وكان يلبس ملابس جديدة نظيفة تفوح منها رائحة البخور، سأله إذا كان اليوم هو يوم الزواج، فلما ضحك نائبه بصوت عالٍ قبل أن يجيبه، رفع الأمير المنظار عن عينيه وتطلع إليه لكي يفهم سبب الضحك، فقال نائبه بنوع من السخرية المبطنة:

ـ الرجل نشف ريقه يا أبو مسفر، وقال: عمره ما أحد تزوج إذا أبو مسفر ما جاء.

هز الأمير رأسه كأنه يتذكر أنه رأى الدباسي في الصباح. قال يخاطب نفسه:

ـ الواجب واجب.

وقبل أن يصلا إلى الفسحة الكبيرة وسط حران العرب قال الأمير لنائبه:

ـ حدي المغيب وارجع...

وأضاف بعد قليل وقد تغيرت نبرة صوته:

ـ وأنت، يا أبو رشوان، تبقى، لأن أبو صالح به عرق عبيد.. وزعول!

❀ ❀ ❀

رغم جميع الجهود التي بذلت فإن عرس الدباسي الأب كان أكثر

أهمية وروعة، ولو سئل أي إنسان لماذا خرج بهذه النتيجة لما استطاع أن يعطي جواباً واضحاً أو يشبه أجوبة الآخرين. فالخراف التي نُحرت هذه المرة كانت أكثر من المرة السابقة، بل ثلاثة أضعافها على وجه الدقة. وعدد الذين حضروا هذه المرة يفوق عدد الحاضرين في عرس الأب مرات كثيرة. أما التريكات التي عُلقت في أماكن عديدة فحوّلت الليل إلى نهار، فكان يقابلها في المرة السابقة تريك واحد وضع في الوسط، وكان يؤذي العيون أكثر مما ييسر الرؤية الواضحة. وكذلك الغناء والرقص وأشياء أخرى كثيرة، إذا أخذت بقياس الحجم أو العدد، فإن حجمها وعددها الآن أكبر وأكثر، لكن مع ذلك فقد شعر الناس أن عرس الدباسي الأب مختلف. قال بعض العمال أن الأميركان لم يحضروا هذه المرة، لكن رد عليهم آخرون أنهم لو حضروا لحوّلوا العرس إلى مجموعة من الأسئلة والصور ولا شيء غير ذلك. وقال غيرهم: لو كان صويلح موجوداً لشعل الدنيا، لكن صويلح سافر قبل أسابيع، ولا بد أن يكون قد عرّس وأعجبته الحياة هناك فتأخر أو لا يريد العودة. وهز الكثيرون الذين سمعوا الكلام رؤوسهم بنوع من الموافقة، لكن لم يعلقوا.

كان يمكن للعرس أن ينتهي ببعض الوخزات من مسلات يحملها أصدقاء وأعداء صالح الدباسي، وبعد ذلك يتفرق الجميع، لكن الدباسي الأب أصر على أن يبقى الناس أطول فترة، وأن يجعل العرس مناسبة يتذكرها الجميع لوقت طويل. إضافة إلى رغبته في إثبات القوة والنفوذ اللذين يتمتع بهما الآن. لذلك ما كاد واحد يقترح أن يختتم العرس بجولة في حران كلها، مع الأضواء والمشاعل، ما كاد هذا الاقتراح يقدّم حتى ووفق عليه بحماس كبير، ودون اعتراض من أحد تقريباً، عدا بعض المسنين. قال ابن نفاع بنوع من التأنيب غير الشديد:

ـ الليلة ما هي بليلتكم، الليلة ليلة غيركم. . . يا جماعة الخير.

ولما لم يسمعه أحد أضاف يخاطب نفسه:

ـ إذا رنت الطاسة طلعت ألف رقاصة. . . وهذه هي العفاريت طلعت.

كان يمكن للعرس أن ينتهي بالطواف في السوق، والوقوف عند

المسجد، وربما الوصول إلى مقهى أبو أسعد الحلواني، ثم يعود أدراجه إلى التلال الغربية؛ وخلال هذا المشوار تكون جنبات صالح الدباسي قد تلقت وخزات عديدة كافية لإثارته لكي يقوم بمهمته تلك الليلة على أحسن وجه واطمئنان كامل، فيترك بعد أن يصل وينصرف الناس، لكن شيطاناً ملعوناً يقدر ويدبر، أو ربما حصل كل شيء نتيجة الصدفة، دون تقدير ودون تدبير. إذ ما كاد يصل موكب العرس بالقرب من بيت ابن الراشد، حتى دوّت طلقات رصاص. لم يُعرف من أطلق النار أولاً، لكن خلال لحظات اشتعلت حران. أطلقت نيران كثيفة. صحيح أنه تخللها الخوف والتحسب أول الأمر، لكن لم تلبث أن تحولت بعد قليل إلى نوع من الفرح والتحدي والمباهاة، فطال وقوف الناس، وخلال الفترات القصيرة، بين طلقة وأخرى، بين صلية رصاص وأخرى، كانت تسمع أصوات منغّمة حادة «البدوي» «البدوي».

ورغم أن صوتاً لم يسمع من بيت ابن الراشد، وأن ضوءاً لم يظهر، إلا أن الجميع كانوا متأكدين أن ابن الراشد ورجاله داخل البيت، وأنهم سمعوا كل كلمة وراقبوا الموكب، وربما كانوا في حالة الجاهزية الكاملة للرد لو تعرضوا للعدوان، لكن لأن شيئاً مثل هذا لم يفكر فيه أحد ولم يقع، واقتصر الأمر على تلك النداءات التي كانت تخرج من حناجر الصبية، وربما بمشاركة بعض الكبار أو تحريضهم، فقد استمرالموكب وابتعد قليلاً، وفي لحظة من لحظات الصمت، سمع وراء الموكب صوت قوي، وكأنه يأتي من فوق، كان الصوت خشناً ممدوداً قوياً، وكان واضحاً أيضاً

- المطّوط.. المط... وَ... وَط.. صالح المطّوط.

نظر بعض الرجال إلى وجوه بعض ونظروا إلى صالح الدباسي. كانت وجوه الرجال متسائلة: صوت من يكون.. صوت دحام أم صوت ابن الراشد أو أحد ثالث؟ وكان وجه صالح الدباسي الذي تنعكس عليه الأضواء والمشاعل والظلال يتغير، يصفّر، يسودّ، يصبح بين الصفرة والزرقة، وما دام الصمت مخيماً والرجال يتبادلون النظرات كان الصوت

يصلهم طويلاً ممدوداً، كأنه صوت كلب جريح: المطّوط.. صالح المطّوط.

صرخ رجل من وسط الجمع ولم يعرف من يكون:

ـ اتركونا، يا جماعة، من هذا المهبول.

قال رجل آخر:

ـ ترانا بطينا، والعريس ما به صبر.

قال الرجل الأول بنفس الصوت القوي

ـ باكر إذا جاءه البدوي يطلّع مرجلته...

ومن جديد سار الموكب، لكن سيره هذه المرة بدا ثقيلاً مرتبكاً، وخيمت حالة من المرارة. ورغم أن الدباسي الأب بلغه ما حصل، وسمع الرصاص ينطلق وسط السوق، فقد حاول أن يعيد جو المرح، فرقص وطلب من بعض المسنين أن يرقصوا، وأطلق ناراً غزيرة وشاركه عدد في إطلاق الرصاص. وغنى عدد من الرجال، كما اقتربت النسوة كثيراً من مواقع الرقص والرجال وتضاحكن بصوت مسموع. رغم أن هذا كله قد حصل، وعاد الجو إلى طبيعته تقريباً، وبعد أن أصرّ الدباسي على أن يبقى الرجال أطول فترة ممكنة، ورد على الذين اقترحوا الانصراف، مع غمزات وابتسامات ذات معنى، رد عليهم مثلما رد في عرسه:

ـ يلحق يا اولاد الحلال، يلحق، وباكر يزهق.

قال هذا بصوت عالٍ وهو يضحك ويغمز لابنه يريده أن يوافقه على ما قاله.

في وقت متأخر، وقبل أن يغادر الرجال، زفّ صالح الدباسي إلى عروسه، وفي اليوم التالي تناقلت النسوة، بسرية كاملة وبخوف، أخباراً غير سارة، لكن هذه الأخبار دفنت في مهدها، وبدت زوجة الأب شديدة الخشونة والعنف حين قالت بتورية قريبة من الوضوح:

ـ التعب اللي تعبه الرجال، من التلال إلى السوق، ومن السوق إلى التلال يهدّ الجمال!

ولم يعد أحد بعد ذلك إلى ذكر الموضوع.

بعد شهر من عرس صالح الدباسي، مات عبد العزيز الراشد. كان موته مفاجئاً، خاصة أن أحداً لم يره منذ ليلة المقهى، فشعر الجميع بالحزن، وشعروا أنهم مسؤولون بشكل أو آخر عن موته. حتى الدباسي حين بلغه موت عبد العزيز الراشد صرخ بأسف وتوجع:

ـ لـه... لـه... لـه. لا إلـه إلا الله... لا إلـه إلا الله.. وحـده الباقي.. ووحده الدائم.

وشيعت حران ابن الراشد بحزن وصمت، ولم يتخلف إلا القليلون عن المشاركة في التشييع.

موت ابن الراشد في أواخر الصيف، وعلى هذه الشاكلة، أثار مقداراً كبيراً من المرارة والتساؤل. إذ رغم الكراهية التي كان يحس بها الكثيرون تجاهه، لخشونته وطمعه، ورغم الحسد الذي كان يولده في صدور عدد من الرجال الذين يناقسونه، فقد أحس الجميع أنه ظلم أكثر مما ينبغي، وإن هذا الظلم هو الذي أودى به.

ففي معسكر العمال، ما كادت بضعة أيام تنقضي على موته، حتى وجد من قال: «الله يرحمه، لأنه أحسن من غيره وارحم. . والأيام بيننا» وقال آخر «على الميت لا تجوز إلا الرحمة، وابن الراشد تصور أنه سيخلد، وطمعه هو الذي قتله». أما عبد الله الزامل فقد قال بصوت عالٍ وأمام عدد من العمال بعد ثلاثة أيام من وفاة ابن الراشد:

ـ يا جماعة الخير، هالحين ابن الراشد راح، مات، صار تحت التراب، والواحد لازم يكون منصف ويقول اللي في قلبه، يقول الحقيقة. . .

توقف قليلاً، تطلع في الوجوه وأضاف:

ـ أتعرفون من قتل ابن الراشد؟

فلما انشدّت إليه العيون قال وهو يهز رأسه:

ـ الأميركان هم اللي قتلوا ابن الراشد. . .

تطلع إليه العمال باهتمام واستغراب «الأميركان هم الذين قتلوا ابن الراشد؟ كيف؟ لماذا؟» بدا الأمر غير قابل للتصديق، أو على الأقل غير واضح وغير منطقي، تابع ابن الزامل:

ـ نعم الأميركان. الأميركان هم قتلوه. . .

وابتسم بسخرية وهو يتطلع في الوجوه مستمتعاً بالدهشة لتي ظهرت عليها:

ـ أكثر من ثلاث سنين وهو يركض مثل كلب، يمنة ويسرة، هنا وهنا، كل شيء يريده الأميركان «من هذه العين ومن هذه العين» ولا فائدة. لما راح، الله يرحمه، مزبان قالوا: «ابن الراشد!» من غرّق مزبان؟ ابن الراشد ما هو بمسؤول، ابن الراشد ما له علاقة. الأميركان هم أخذوا مزبان وهم غرقوه و«يا ابن الراشد ادفع، يا ابن الراشد دبّر راسك» هم يقولون قوانين؟ طيب اللي يغرقون ما لهم قوانين؟ ما لهم حقوق؟ مزبان ما له عندنا شيء، حتى قشة ما له عندنا، ما شفناه ولا عرفناه» وابن الراشد، الله يرحمه، الطمع عمى عيونه، هبله، وصار اللي صار.

تطلع العمال في وجوه بعض، وتطلعوا إلى عبد الله الزامل، إنهم الآن يفهمون الكلمات التي يقولها، يرونها واضحة، لكنهم لا يعرفون ماذا تعني بالضبط. قال أحد العمال، وكانوا يسمونه الجرادة، لصغر حجمه

ـ الأميركان ما لهم صاحب، مثل الذيب والغنم.

رد عليه آخر وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ لا.. ما هم مثل الذيب والغنم، وانت الصادق.. مثل الزاد والجراد.

ـ لا.. مثل الذيب والغنم. الجراد يأكل إلى حين ما يشبع، وخويك الذيب، يقتل ويجدع.

هكذا رد عليه الأول بعصبية.

قال ابن الزامل مازحاً:

ـ الأميركان الذيب وابن الراشد الجرادة.

وضحك بصوت عالٍ أقرب إلى القهقهة، وأضاف:

ـ وأنتم تعرفون ذيك السالفة: لولا الجرادة ما وقع العصفور.

قال أحد العمال بحدة:

ـ انت، يا ابن الزامل، قتلت ابن الراشد، ظليت وراه حتى دفنته.

ـ أنا؟

وتغيرت لهجته تماماً:

ـ اخزِ الشيطان يا رجل.

ـ لا. انت، نعم انت اللي قتلته.

ضحك عبد الله الزامل بصوت عالٍ، لكن ضحكته كانت جافة باهتة، فلما استمر ذلك العامل ينظر إليه بتحدٍ أقرب إلى الاتهام، قال عبد الله الزامل:

ـ اسمع يا ابن الحلال...

قال ذلك ونظر إلى الوجوه بتحديد، ثم نظر إلى الرجل وتابع:

ـ أنت تعرف، وكل واحد في المعسكر يعرف: أنا وابن الراشد كنا مثل الشحم والنار، يكرهني وأكرهه، لكن الحق حق...

وتغيرت لهجته:

ـ يمكن غلطت بحق ابن الراشد، لا أقول لا، لكن، الله يرحمه، غلط بحق نفسه أكثر مما غلط الناس بحقه. ما ترك أحداً يحبه، وما ترك شينة إلا وسواها. ركّب الأميركان على اكتافنا، وفوق العلة زودة.. هذا هو ابن الراشد.

ـ وتقول الله يرحمه؟

ـ قلتها واقولها.

ـ والله يا ابن الزامل حيرتنا!

ـ إذا كنت تريد الكلام الصحيح: ابن الراشد كلب وابن كلب: طماع، يحب نفسه، لا يحلل ولا يحرّم، لكنه مسلم، ابن عرب، يعرف الصحيح والغلط، وهذا اللي هبله، هذا اللي قتله.

توقف عبد الله الزامل لحظة، تنفس بعمق وبصوت واضح، أقرب إلى الحدة أضاف:

ـ الأميركان ما لهم رب. الأميركان ما لهم صاحب، ما يعرفون إلاّ: «شغل.. شغل، عرب كسلان، عرب كذاب، عرب ما يفهم» وابن الراشد

اللي ما وقف لحظة، ودائماً يقول لهم: نعم.. نعم، على العين والراس، رموه مثل كلب، تركوه يناطح وينهبل ويموت، ولا ابن كلب منهم، حتى الشعيرة، النصّيص، جاء بجنازته، ما أحد قال الله يرحمه.

توقف. أخذ نفساً عميقاً مقهوراً، ثم تابع:

ـ الواحد منا عنده شرف، يعرف حرمة الموت، يعرف...

ولم يستطع أن يتابع، لم تسعفه الكلمة المناسبة. قال أحد العمال، وكان بعيداً صامتاً، كأنه لا يسمع ولا يتابع:

ـ إذا مات الميت طالت عراقيبه...

فلما وجد أن كلمته وصلت إلى الجميع في جو الصمت الذي سيطر، وقف. مشى خطوتين وأضاف متسائلاً:

ـ لما ابن الراشد راح، وصار تراب، صار أحسن منه الله ما خلق؟

نظرت إليه العيون باستغراب متسائلة، تابع:

ـ والله ما لكم ذمة، يا اولاد العرب، كل يوم بوجه وكل ساعة برأي.

وخرج من الخيمة. وبخروج مفلح العرجة انقسم العمال في الرأي مرة أخرى. قال ابن الزامل بصوت أقرب إلى الصياح في نهاية المناقشة التي تحولت إلى الهرج:

ـ المسألة أوضح من الشمس. الأميركان قتلوه وباكر تجيئكم علومه وعلوم غيره.

مثل هذه المناقشة جرت مرات كثيرة في المعسكر، وإذا كان الأميركان قد اعتبروا المسألة ليست من التعقيد إلى الدرجة التي يفترضها ابن الزامل أو ابن نفاع، فإن الأميركان لو «كانوا أعقل وفيهم شرف ونخوة لما تركوا الرجل بعد الخدمات الكثيرة التي قدمها» هذه هي مسؤوليتهم، أما غير ذلك، أما كلام ابن الزامل أو ابن نفاع فكله مبالغة وهذر.

ومثل المناقشات التي جرت في المعسكر جرت مناقشات أيضاً في المقهى وفي السوق، حتى النسوة في حران العرب، اللواتي كن يشعرن بالمرارة والحقد على ابن الراشد، لأنه هو الذي جاء بالمصائب، فهدم

البيوت، وشيّل الناس، ما لبثن أن شعرن بالأسف والندم، ودخل الوسواس إلى قلوب عدد منهن، لأنهن تذكرن أدعية واستغاثات وجهنها للسماء، أن ينتقم من هذا «الجبار».

الآن، وقد رحل ابن الراشد إلى الأبد، وليس مثل رحلاته القصيرة الغامضة، يشعر كل واحد في حران أنه بطريقة ما مسؤول عن موت هذا الإنسان، أو على الأقل مسؤول عن تركه يموت هكذا دون أن يفعل من أجله شيئاً، حتى قطرة الماء لو قدمت إليه في الساعات الأخيرة، أو نظرة فيها العطف والتشجيع، لجعله ذلك يموت مستريحاً، أو أقل حقداً على نفسه، وأقل شعوراً بالذنب. وهذا الشعور الذي راود الناس منذ اللحظة التي سمعوا فيها بموته، فرفضوا أن يصدقوا أول الأمر، ثم تبادلوا فيما بينهم نظرات التساؤل، ولما تأكدوا هبوا مثل رجل واحد، وقد سيطر عليهم شعور حاد بالأسى والقهر، إلى المشاركة بدفنه، وظل طيفه يحوّم فوق الرؤوس، فلا يعرفون هل هو طيف خيّر أم طيف شرير، ولا يعرفون لماذا حصلت هذه الأمور بهذا الشكل.

أما الدباسي الذي أذهلته المفاجأة وظهر عليه الحزن والأسف، فقد شعر بمرور الأيام بالندم يسحقه، فتمنى لو كان أكثر رأفة وأوسع صدراً، وتمنى أكثر من ذلك لو أن الأمور لم تصل بينهما إلى هذا الحد من الكراهية والحقد، وتذكر ما قاله للأمير وما قاله للآخرين، فشعر أنه مسؤول عن نهاية الرجل. أما حين جاءه ابنه صالح بعد أيام من وفاة ابن الراشد وقال «إن باب الرزق انفتح والعلة راحت» مشيراً إلى غياب ابن الراشد نهائياً، فقد رد بمرارة ظهرت شديدة الوضوح على وجهه «يا وليدي الرزق من الله والموت من الله.. وعدوك إذا مات لا تشمت». لكن صالح الدباسي الذي لم يأبه كثيراً للكلمات التي سمعها من أبيه، انصرف بهمة كبيرة ونشاط لا يعرف التردد من أجل ترتيب أموره وأشغاله بعد غياب ابن الراشد.

وظلت عواطف الدباسي الأب مختلطة فترة طويلة، فلم يستطع أن يشارك الآخرين في أي حديث عن ابن الراشد، بل وكان يحاول بذل

جهوده كلها لصرف الذين يتحدثون عن الموضوع، فإذا سمع أحداً يعرّض «بالمرحوم»، هكذا أصبح يطلق على ابن الراشد منذ اللحظة التي سمع بموته، كان يقول:

ـ اذكروا حسنات موتاكم يا أهل حران، وإلا أكلكم الندم.

وظلت هذه القصة في قلب الدباسي، حتى عندما جاءته الوفاة بعد ذلك بسنوات. أما ابن نفاع فلم يكن يحتاج إلى إقناع أو تحريض، كان واثقاً متأكداً أن ابن الراشد مات منذ اللحظة التي وضع يده بيد الأميركيين، وإن الله أمهله ولم يهمله، لكنه لم يتعظ ولم يرعو، فلذلك عندما مات فقد مات على دين الكفر.

وحتى سنوات متأخرة، وعندما حصلت تلك الأحداث المدوية الكبيرة في حران وما حولها، ظل ابن الراشد موجوداً، وظل الكثيرون يتذكرونه، وإن اكتسبت الذكرى ملامح جديدة ومختلفة عما كانت عليه في البداية، بل وأصبحت لا تمتّ إلى الوقائع الكثيرة التي حصلت بأية صلة.

لم يكن الصيف وحده قاسياً هذه السنة، فالخريف كان كذلك أيضاً.

فما كادت تحل الأيام الأخيرة من أيلول، وكانت أشد حرارة من أيام كثيرة مرت خلال هذا الصيف، حتى بدأ الأميركيون يتدفقون من جديد. جاء الذين سافروا، أو معظمهم، وجاء آخرون غيرهم. وكان الجدد أكثر عدداً. وقد اضطربت الحياة في معسكر الأميركان لأول مرة، تماماً كما كانت في الأيام الأولى، فنصبت خيام كثيرة في عدة أمكنة، وظلت بعض البواخر راسية لأيام مقابل المعسكر، وكان عدد من الأميركيين ينامون ويأكلون في هذه البواخر. والأمير الذي بدا شديد الانفعال والحركة، لمواجهة المرحلة الجديدة، بلغت به الدهشة حداً كبيراً عندما شاهد تلك الآلة العجيبة التي كانت محمولة على إحدى البواخر، ثم أنزلت، إذ ما كادت تستقر على الأرض لحظات حتى انطلقت إلى داخل المعسكر بسرعة رصاصة. رأى الأمير ذلك بعينه المجردة أول الأمر، ولما استعمل منظاره المقرب بسرعة ومهارة ليتعرف على ماهية هذه الآلة، بدأ يصرخ ويشير بيده وينادي، خاصة عندما شاهد هاملتون، نائب رئيس المعسكر، يمتطي الآلة ذاتها ويحركها. لقد ظهرت على وجه الأمير علائم الغبطة والاضطراب معاً. صحيح أنه رأى من قبل تلك الآلات الكبيرة التي تتحرك إلى أمام وإلى خلف، وتميل إلى هذه الجهة وإلى تلك، وحدثه نعيم وآخرون من الأميركيين أن هناك آلات صغيرة من نفس النوع، وهي مخصصة للبشر، إذ يركبونها وتنطلق بهم بسرعة كبيرة، رغم أنه سمع ذلك، وأبدى اهتمامه وإعجابه، إلا أنه لم يتصور بدقة كيف يمكن أن تكون هذه الآلات. الآن وهو يشاهدها بالمنظار، وهو يراقب حركتها

السريعة مقطوع النفس خائفاً، وحين تأخذ الطريق الأوسط، كأنها متجهة نحو التلال الشمالية، فإن دهشته وخوفه يصلان إلى درجة أن المنظار يضطرب بين يديه، وتصبح قدرته على المتابعة الدقيقة أقل بكثير مما لو كان يرقب أناساً يهبطون من الباخرة، وأقل مما لو كان يرقب هدفاً ثابتاً.

هذه الآلة السريعة الغريبة شغلت الأمير وجعلته يفكر بقلق، خاصة وأن هذه الأشياء التي جاءت فجأة ودفعة واحدة، بمقدار ما تثير من الإعجاب والتساؤل فإنها تثير الخوف أيضاً.

أما عندما شاهد الأميركيون الذي يضطربون على الباخرة، ويمكن رؤيتهم بوضوح من خلال المنظار، ويكونون أغلب الوقت عراة أو أقرب إلى العري، فقد بلغ الاستغراب بالأمير حدود الخوف والاضطراب الشديد، إذ اكتشف أن معهم عدداً من النسوة، وإن هاته النسوة مثل الرجال عاريات أو أقرب إلى العري. لم يصدق عينيه أول الأمر، وتصور أن ما رآه مجرد وهم أو تغبيش في العيون نتيجة استعمال المنظار فترة طويلة، وقد حصل له مثل هذا من قبل، أما بعد أن فرك عينيه عدة مرات، وتركهما مغمضتين بعض الوقت لتستريح، ثم عاد إلى المنظار ونظر إلى الباخرة، وإلى الناس فوقها، فقد صرخ، وكان حوله، أول الأمر، بعض رجاله، وكانت أكثر كلماته، خاصة عندما ينطقها ببطء، واضحة تماماً:

ـ أواه.. يا اولاد الحرام، يا أميركان.. مصاليخ، كلهم مصاليخ، ربي كما خلقتني.

وحين يتطلع الرجال نحو الباخرة، إلى حيث يتطلع الأمير، لا يستطيعون من هذه المسافة أن يميزوا شيئاً. صحيح أنهم يرون الباخرة، لكن الذين عليها لا يظهرون، وإذا دقق الإنسان طويلاً، وفي ساعات معينة من النهار، يمكن أن يميز من هذا البعد نوعاً من الحركة، يرى أشباحاً، لكن لا يعرف إن كانوا رجالاً أم نساء. الآن، والأمير يقول بتأكيد مملوء بالحرارة والشبق إنهن نساء، ونساء عاريات، ويمكن رؤيتهن بوضوح، فإن الأفكار والشهوات تتفجر، تطير في هذا المدى المتطاول حتى إذا وصلت

الباخرة ولامست أجسادهن ارتدت مثل كرة النار فخضت القلوب والعيون وولدت اضطراباً لا يعرف كيف يمكن أن يدارى!

إن هذا الذي يقوله الأمير شيء لا يصدق، ولا يمكن للإنسان أن يتخيله: نساء حقيقيات عاريات يتجولن بين الرجال على ظهر الباخرة؟ والرجال.. كيف يمكن أن يتحملوا مرورهن أو اقترابهن دون أن يحترقوا؟ دون أن يتحولوا إلى بارود وينزرعوا كالأوتاد في كل ناحية من هذه الأجساد الدافئة الشهية؟

كان الخيال يشتط بعيداً بكل رجل من الرجال، فيتمنى لو يقترب، أن يرى، أن يلامس، فإذا تعذر عليه ذلك فلا أقل من أن ينظر بالمنظار ولو للحظة واحدة. حتى رؤيتهن من هذه المسافة يمكن أن تشفي، أن تبرد القلوب التي اشتعلت، لكن الأمير القابض على المنظار كما تقبض الأم على طفلها الرضيع، وتلك التعليقات المصحوبة بأصوات من نوع معين، لم يكن أحد يتصور أن الأمير يعرفها أو يتقنها بهذا القدر؛ والمرات التي فتنته الأجساد، وفتكت به أوضاع معينة، أعطى المنظار إلى نائبه لكي ينظر إلى الوضيعة أو إلى تلك المرأة التي يحس أنها جعلته ينفجر ويتلاشى في هذا الفضاء. كان يصرخ كالملدوغ ويضرب رأسه بيده اليسرى ضربات ليست قوية وليست خفيفة، وكأنه يندب:

ـ راحت علينا يا أبو رشوان، عيني يا أبو رشوان، تعال وناظر. الله.. الله. مبطوحة مثل المهرة، تلمع، تضوي، تشتعل يا أبو رشوان، وأنا اشتعلت، وما عاد بي صبار. تعال.. بالله عليك تعال وناظر، هالحين انبطحت، مدّت رجلها، قلبت، يا أبو رشوان، مثل البرق تضوي، قتلتني، يا أبو رشوان، تعال وناظر...

وحين يمسك نائب الأمير بالمنظار، ويوجهه نحو الباخرة، فلا يرى بوضوح، حتى الباخرة لا يراها واضحة يقول برخاوة:

ـ ما أشوف شي يا أبو مسفر!

ـ ناحية اليسار، إذا أخذت الباخرة من غرب ومشيت، قبل ما تصل إلى الوسط تشوفها مبطوحة مثل الفرس.. شفتها؟ وكّدتها؟

وحين تتوالى حركات رأس نائب الأمير دلالة النفي، يصرخ بحدة ولهفة:

ـ عطني.. عطني.. يا أبو رشوان وما عليك.

ويتناول الأمير المنظار من نائبه، يتلفت حواليه يريد واحداً من رجاله، فلما لا يجد أحداً، يقول نائبه بنوع من الحزن الممزوج بالخوف:

ـ أنا قلت لهم يتركونا.. يا طويل العمر.

والتفت الأمير يبحث بنفسه عن ركاب قريب، عن مجموعة من الوسائد، فيتابع نائبه بنفس اللهجة:

ـ إذا عرف الناس، إذا عرف الأميركان انفضحنا يا أبو مسفر.

وبحركة متقنة طالما رددها الأمير من قبل، بلسانه ويده اليسرى: يلقف مثل حرباء ويدير يده نصف دورة دلالة أنه لا يخاف ولا يهتم. ثم مثل امرأة مسنة، طالما تعوّدت على الجلوس، ينهض فيبدو قصيراً متعثراً في مشيته، وبعد أن ينتزع ركاباً من صدر الخيمة ويسير به خطوتين أو ثلاث خطوات يرميه عند باب الخيمة ويبركِ مثل جمل. يثبّت الركاب أولاً ثم يثبت المنظار فوقه بعد ذلك، وبعد حركات عديدة وتغيير مستمر لوضعه أو لوضع المنظار يصرخ:

ـ تعال... تعال يا أبو رشوان.

ويتمسك أكثر بالمنظار، ويتغير صوته، يصبح مختلطاً أقرب إلى الهذيان:

ـ هالحين ما هي وحدة، ثنتين، ناقة وفلو، ووحدة أزين من الثانية. الله.. الله مثل البرحي يلمعن ومثل القطا يدرجن، وإذا الأولية ما ذبحتني ما أظن أن الثانية تترك بي روح.. تعال يا أبو رشوان، ناظر زين.

من رأى الأمير ونائبه يتبادلان الانبطاح وهما يصرخان، وهما يفركان أيديهما، وهما يتبادلان التعليقات والمعلومات يظن أن خبلاً أصابهما، فالعيون كانت تقدح شرراً وقد احمرت احمراراً ظاهراً من الشهوة ومن شدة التصاقها بالمنظار، والشفاه ارتخت وبدأت ترتجف ارتجافاً عصبياً، أما

الكلمات والصرخات الحادة التي تخرج دون إرادة بين فترة وأخرى عن واحد منهما، فإنها تضطر الآخر لأن ينحيه، لأن يطلب منه بلهفة ومذلة أن يخلي له المكان بسرعة لئلا تفوته تلك اللحظة الباهرة.

وفي وقت من الأوقات، وبعد محاولات تميزت بالتردد والخوف تنحنح أحد رجال الأمير، قبل أن يتقدم، إنذاراً بوجوده، وإعلاناً عن تحركه، فأصاب القلق الرجلين، إذ ربما جاء غريب ورآهما بهذا الوضع، لكن ما كادا يعتدلان، وينحي نائب الأمير الركاب حتى دخل أحد رجال الأمير وأشعرهما أن الغداء جاهز.

وخلال فترة الغداء، وأثناء القيلولة لم يستطع أي من الرجلين أن يهدأ أو أن يغمض عينيه لحظة واحدة. ظلا صامتين، وكان يبدو أنهما بعيدان.

ورغم أن الأمير، مثل عادته عند كل غروب، يجلس على تلعة مطلة، بعد أن تُحضَر وترش بالماء، ويستمر في مجلسه هذا إلى ما بعد صلاة العشاء، ويتخلل هذه الأمسيات الكثير من الأحاديث والطرائف والمعلومات، يتبادلها مع زواره، فقد كان هذا اليوم مختلفاً تماماً. تأخر في الجلوس، تمشى على طول المنحدر، تطلع من خلال المنظار بتحديد واهتمام جهة البواخر! وفي محاولة للتمويه تطلع جهة حران العرب على التلال الغربية وإلى معسكر الأميركان، لكن أكثر النظرات طولاً وتركيزاً كانت مصوبة نحو البواخر! ورغم أنه رأى أكثر من رجل عاري الصدر، إلا أنه لم ير أية امرأة. أما الأحاديث التي دارت في أول المساء حول الصندوق الحديدي الذي جاء به مدير الشركة. وكيف أن هذا الصندوق الذي كان لونه أصفر ضارباً إلى خضرة. أو بلون الحرباء في أوائل الربيع، كان يمشي بسرعة دون أن يدفعه أحد، دون أن يجرّه أحد، وكيف أن اثنين أو ثلاثة من الأميركان دخلوا إلى جوفه مع المدير واختفوا تماماً. رغم أن هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية، ويثير الاستغراب والتعليقات والتساؤل، وكان من الممكن جداً أن يثير الأمير ذاته فيتصدى إلى شرح وتوضيح طبيعة هذه الآلة للآخرين، وكيف يمكن أن تسير مسافات كبيرة دون أن تتعب، إلا أن حالته النفسية لم تكن رائقة أو مشجعة لكي يتصدى

لهذا الأمر، إضافة إلى أن المعلومات التي سمعها من قبل، حينما جيء بآلات من أجل البدء ببناء دار الإمارة، لا يتذكر الآن شيئاً منها، فقد سمعها على عجل ودون اهتمام، وضاعت من باله تماماً، ومع ذلك كان مضطراً أن يتكلم، أن يقول شيئاً. قال في لحظة من اللحظات، وهو يهز رأسه ويفكر في أمور كثيرة:

ـ الصندوق.. وغير الصندوق، يلزم أن يناظره الواحد، يقلّبه، قبل ما يقول فلاني وتركاني.

قال نائب الأمير وقد أدرك ما يرمي إليه الأمير:

ـ والأحسن ان يركبها يا أبو مسفر!

ـ القول قولك يا أبو رشوان، نعم يركبها، يجربها!

وحين قام الأمير ورجاله إلى العشاء، اقترب منه نائبه، قال وهو يضحك:

ـ الخوف، يا أبو مسفر، أن نصير مثل ذاك السومطري.

رد عليه وهو يشاركه الضحك:

ـ صرنا يا رجّال.. وخلصنا.

وفي تلك الليلة لم يستطع الأمير أن ينام حتى ساعة متأخرة، وكان بادي القلق واضح الهم، أما المحاولات التي جرت لاكتشاف ما وراء ذلك فقد انتهت دون نتيجة. وفي ذلك اليوم، ثم في الأيام التالية، فسرت النسوة هذا الصمت بأنه نتيجة التعب والحرارة وهموم الحياة، خاصة بعد أن جاءت البواخر.

ويتذكر الأمير أنه في الليلة الأولى ثم في الليالي التي بعدها رأى نفسه على ظهر الباخرة الكبيرة البيضاء، وأنه كان يقلب النساء واحدة واحدة، كما يقلب الإنسان خروفاً لكي يتأكد، وكان بمجرد أن يضع يده على الإلية أو الفخذ ويحملها قليلاً في الهواء، يسمع ضحكاً فياضاً مكتوماً، أما حين يرفع يده بسرعة عن الإلية أو تاركاً الفخذ يسقط فكان يحس بكثافة رجراجة تملأ روحه وتحرك كل عضو من أعضائه. لقد فعل ذلك مرات لا حصر لها، وكان شديد الحيرة، يركض من مكان إلى آخر لا يعرف أيهن الأجمل

وأيهن الأكثر سمنة! أما حين سقط على واحدة، وكانت لا تتوقف عن الضحك وكأنها قطة تموء، فقد استيقظ ووجد نفسه غارقاً في العرق وأشياء أخرى، وأحس أنه أقرب إلى التعب والحمى، وكان تنفسه سريعاً ودقات قلبه تملأ أذنيه وصدره.

ومثلما حدث في اليوم الأول حدث في الأيام التالية، وانتشرت إشاعة قوية أن الأمير ونائبه وقعا فريسة مرض غامض، وإنهما يقضيان كل الوقت منفردين، ولا يستطيعان أن يتكلما أو أن يستقبلا أحداً! لكن ما كادت تلك الباخرة البيضاء تغادر حران، حاملة معها المسافرين، وبعد أن نزل منها الآخرون وسكنوا في المعسكر، وبعد أن حصلت أمور أخرى في حران، حتى بدا الأمير ونائبه يعودان إلى وضع طبيعي، لكن الأمر الجديد الذي ميّز الأمير أكثر مما ميز نائبه: الشرود الذي بدأ يغرق فيه.

حين بلغ ابن نفاع أن الأمير مرض مرضاً غامضاً لم تجدِ معه الأدوية التي تجرعها، قال عند باب المسجد، والناس يخرجون بعد صلاة المغرب:

ـ ولّم نفسك يا مفضي، لأن المبارك ما بقى له إلاّ الكيّ.

واختلفت نبرة صوته تماماً وهو يضيف كأنه يكلم نفسه:

ـ وإذا الكي ما أفاده يكون مديوس، جاءته العفاريت من حدر.

ابن نفاع الذي تجرأ وقال هذا الكلام لم يجرؤ غيره أن يقول كلاماً واضحاً، أو بصوت عالٍ، وحتى الذين تساءلوا فيما بينهم، بصوت منخفض، أقرب إلى الهمس، لم يعرفوا كيف يصلون إلى إجابة من أي نوع يمكن أن تقنعهم أو أن تهدئ مخاوفهم. قال الكثيرون بنوع من التسليم أن قسوة الأمير على ابن الراشد، ثم موته، بذلك الشكل، أدى إلى المرض الذي حلّ به.

أما الدباسي الذي بلغه أن الأمير لا يستقبل أحداً ولا يرغب بزيارة أحد، فقد وجد في ذلك مخرجاً له، إذ هو ذاته في حالة نفسية سيئة أقرب إلى التشاؤم، ولا يرغب أن يراه الأمير على هذه الحالة. لكن ما كادت بضعة أيام تنقضي حتى أرسل وراءه نائب الأمير وطلب منه أن يعدّ لرحلة صيد، مثل السنة الماضية، لأن ذلك وحده يمكن أن يشفي الأمير. ورغم أن الوقت ما زال مبكراً لمثل هذه الرحلة إلا أن الفكرة لاقت هوى لدى الدباسي، وأحس أنها إذا تمت فسوف تشفي الاثنين معاً، ففي أعماق الصحراء، حيث يجد الإنسان نفسه في هذا المدى اللامتناهي مع الصمت ومع الطبيعة في حالتها البدائية البكر، لا تتاح الفرصة فقط من أجل أن يعيد

الإنسان تقييم ما جرى، وإنما تتم عملية شاقة تمارس بهدوء وصمت من أجل أن يتشكل الإنسان على نحو جديد.

أما حين استفسر عن مرض الأمير وما إذا كان يستطيع أن يراه فقد قال نائبه وهو يهز رأسه بألم:

ـ العلة في أكثر من مكان. . . يا أبو صالح.

وبعد فترة صمت أضاف:

ـ واليوم قال: ما أريد أحداً، لكن إذا جاء الغد أو عقبه تشوفه!

ولم يلح الدباسي ولم يكرر السؤال. انطلق يعد لرحلة الصيد لكن دون استعجال كبير.

في ذلك اليوم وبذلك الشكل المفاجئ حين غادرت الباخرة استبد بالأمير نوع من النزق ما لبث أن تحول إلى غضب، إذ يمكن لأية كلمة، لأي تصرف، أن يخرجه عن طوره، ويمكن لأي إنسان أن يصبح بنظره خصماً. لقد شعر أنه خدع، وأن رحيل الباخرة وترحيل الذين كانوا عليها مؤامرة ضده. إذ ربما وصل إلى علم الأميركان ما كان يفعله، ولا بد أن يكون هناك من نقل إليهم أن الأمير ليس لديه ما يفعله سوى مراقبة الباخرة، خاصة النساء اللواتي كن عليها؛ وذهبت به الظنون درجة أن الذي أوصل الخبر للأميركان، لا بد أن يكون واحداً من رجاله، ولذلك اتخذوا هذا القرار المفاجئ والعاجل بالرحيل.

بدأ الأمير يشك بمن حوله، وأصبح كل واحد من رجاله متهماً. كان ينظر إلى الوجوه، خاصة العيون، نظرات مليئة بالشك والتساؤل، فإذا ارتبك أحدهم، إذا ظهر عليه الخوف، كان يقول، فتخرج الكلمات من بين أسنانه: «انت. . . ها؟» فإذا حاول أحد أن يسأل أو أن يستفسر كان يصرخ وقد بلغ به الغضب مبلغاً كبيراً:

ـ هالحين رح من وجهي، امش، ما أريد أشوف وجهك، بعدين نتفاهم.

وينقلب الرجل خارجاً لا يعرف ماذا فعل ولماذا يخاطبه الأمير بهذه الطريقة. وهكذا يوماً بعد آخر أصبح لا يريد أن يرى أحداً من هؤلاء الذين

لا يفعلون شيئاً سوى التجسس عليه ونقل أخباره إلى الآخرين. وهذا ما أدى إلى انتشار الإشاعات حول ضيق صدره ثم مرضه.

وإذا كانت القصة كلها قد بدأت أقرب إلى المزاح ولا تتعدى تزجية الوقت، فإن نائب الأمير أدرك في وقت من الأوقات أن الأمر وصل درجة من الخطورة يمكن أن يؤدي إلى نتائج غير مريحة، لذلك أبعد الرجال وتكتم على الأمر. أما عندما أبحرت الباخرة وانتهت تلك اللعبة فقد ظن أن كل شيء عاد إلى طبيعته، لكن ما لاحظه من انفعال الأمير وغضبه، ثم تلك الشتائم والشكوك التي أخذت تميز تصرفاته ومواقفه تجاه الآخرين، جعله يخاف ويتحسب، فاتصل بالدباسي لكي يعدّ لرحلة الصيد الجديدة، وأرسل وراء نعيم يطلب إليه الحضور لكي يتكلم مع الأميركيين من أجل دعوة الأمير لمشاهدة الصندوق الحديدي عن قرب والتعرف على هذه الآلة الجديدة. أما محاولاته لحماية الرجال، ودفع أذى الأمير عنهم فقد أخذت أشكالاً عديدة وماكرة. حين رآه قاسياً يشتم ويهدد جوهر، الذي كان أقرب الناس إليه، قال له بعد أن خرج جوهر متعثراً:

ـ تسمع مني كلمة يا أبو مسفر؟

فلما نظر إليه الأمير متسائلاً دون أن يجيب استمر:

ـ اسمع واترك يا طويل العمر.

توقف قليلاً، رسم على شفتيه ابتسامة وتابع:

ـ الحق حق يا طويل العمر ولازم الواحد يقوله...

ظل الأمير يتطلع إليه دون أن يتكلم، لكن بدأ يظهر الضيق على وجهه. قال نائب الأمير:

ـ رجالنا هم رجالنا يا أبو مسفر، تقطع رأس الواحد وما تخرج منه كلمة...

وجر نفساً ثم أضاف بحزن:

ـ لكن ما عندنا عندهم، ومثل ما شفتهم شافوك... يا طويل العمر.

وأمسك نائب الأمير بالمنظار، هزه عدة مرات وقال بحدة:

ـ هذه هي البليّة!

لأول مرة انتبه الأمير وكأنه فوجئ بهذا الكلام يسمعه. هز رأسه وفتح عينيه على اتساعهما.

تابع نائب الأمير:

ـ ومثل ما سمعت، يا أبو مسفر، الحريم اللي شفناهم كلهن قحاب، سراويلهن محلولة ويفلّتن، والأحمر والأبيض اللي تشوفه ديرم وصبغ وما يساوي التعب والهم.

شعر الأمير أن قوته تلاشت، وأن الطريقة التي يتكلم بها نائبه لا تعجبه بل وشعر أنه ضعيف إلى درجة أن أي إنسان يمكن أن يسحقه. انتفض شيء في داخله، لكنه وجد نفسه عصبياً وغير قادر على أن يقول ما يفكر فيه، أو كأن أفكاره تضيع منه قبل أن تتبلور وتستقر. قال في محاولة أخيرة لأن يفك عن نفسه الحصار الذي يحس به:

ـ يا أبو رشوان.. اللي تقوله صحيح، لكن النفس خضرا.



كانت هذه بداية الشفاء.

خلال يومين أو ثلاثة جاء هاملتون ونعيم في زيارة إلى الأمير، وخلال هذه الزيارة جرى الحديث عن أعمال جديدة وكبيرة ستقوم بها الشركة ما بين وادي العيون وحران، وضرورة أن تُبذل الجهود من أجل تأمين أعداد إضافية من العمال، وأن الشركة ستبدأ في حران أيضاً بإقامة أبنية ومنشآت أخرى.

وفي نهاية الزيارة عرض على الأمير أن يزور حران الأميركان، وأن يطلع بنفسه على المنشآت والأعمال التي قامت. وجرت الإشارة إلى السيارة الخاصة بمدير الشركة، وسوف يكون الجميع سعداء إذا قام الأمير بالزيارة والتعرف على جميع الأشياء مباشرة.

كان الأمير طوال الزيارة صامتاً يسمع ويهز رأسه، وبين فترة وأخرى، وبشكل مفاجئ، يركز نظراته على هاملتون ثم يتطلع فجأة وبسرعة إلى نعيم. كان تواقاً لاكتشاف ما يعرفونه عنه، خاصة في الأيام الأخيرة ورغم أن هذه الطريقة قد أدخلت الخوف إلى قلب نعيم، فبدأ مرتبكاً أكثر من

مرة، إلا أن أفكاره انصرفت إلى أمور أخرى، ربما إلى هاجم ومزبان، وربما فكر بابن الراشد أيضاً. أما عندما وجهت الدعوة للأمير لزيارة المعسكر، فقد وافق، لكن لم يحدد موعداً، وأضاف بنوع من التعريض:

ـ قلت لأبو رشوان، والبوابير تقف مقابلنا، هنا. . .

وأشار بيده وهز رأسه:

ـ لا تتركوا الجماعة، شوفوهم، اسألوا إذا كانوا محتاجين أي شيء. . .

توقف قليلاً ثم أضاف بطريقة تقريرية، وهو يتطلع إلى هاملتون مباشرة:

ـ إذا جاءت البوابير مرة ثانية لازم اشوفها بنفسي!

كان يمكن لفترة النقاهة أن تطول أو أن تأخذ نسقاً آخر لولا مجيء حسن رضائي في هذه الفترة. قال يشرح الأسباب التي دعته إلى المجيء:

ـ إذا شرب الواحد من ماء حران لا بد أن يرجع إليها. . .

بدأ الصوت منخفضاً كأنه يحدث نفسه، فلما وجد الجميع ينصتون إليه استمر:

ـ من يوم ما تركت حران، وكل يوم بمكان، كل يوم بديرة جديدة، لكن حران ظلت هنا. . وهنا.

ودق بجمع يده على صدره، ثم بالسبابة والوسطى دق على صدغه بعد ذلك وهو يبتسم ويتطلع إلى الأمير. رد الأمير ليدفعه إلى مواصلة الحديث:

ـ إذن ما تركت مكاناً إلا وشفته؟

أجاب بسرعة:

ـ العالم، يا صاحب السمو، لا نهاية له، ومهما تجول الإنسان ومهما زار من أماكن، تبقى هناك أمكنة كثيرة يجب أن تشاهد، أن تزار. وإذا كان لكل شيء في هذا الكون نهاية وحدّ، فإن شوق الإنسان إلى التعرف والاكتشاف لا يحده حد وليس له نهاية.

توقف قليلاً وهو يهز رأسه متذكراً أماكن وأشياء كثيرة رآها في أسفاره،

فلما رأى الأمير مصغياً متابعاً أضاف بنبرة جديدة:

ـ لا بد، يا صاحب السمو، أن نسافر معاً، وأن نتجول في هذا العالم لنتعرف عليه.

دوت ضحكة الأمير وتطلع إلى نائبه وسأله:

ـ ما قولك يا أبو رشوان؟

قال حسن رضائي:

ـ ركوب البحر مضجر في البداية، لكن إذا تعود الإنسان عليه لا يجد مكاناً أفضل منه.

رد الأمير:

ـ خلينا بأرضنا أحسن.

ومن جديد تطلع إلى نائبه وأضاف بتورية:

ـ طرف البحر، هنا، مقابلنا، قتلنا، فما بالك لو رحنا أو وصلنا أبعد؟

قال حسن رضائي بحماسة وانفعال:

ـ يبقى يا طويل العمر، البحر العالي غير الجرف، البحر العالي عالم ثاني.

وبضحكة مدوية رد الأمير:

ـ الجرف أحسن، الجرف آمن وقريّب.

في غمرة الحديث والضحكات المدوية دخل ثلاثة من بحارة حسن رضائي، من الذين يعملون معه على الباخرة. كان العرق يتصبب من وجوههم الحمراء المحروقة، والتي تشبه نحاساً قديماً. كان اثنان منهما يتعاونان على حمل كيس متوسط الحجم، ويبدو أن ما في الكيس ثقيل وثمين، لأن طريقتهما في حمله، ثم عندما أنزلاه على الأرض أوحت بذلك، أما الثالث فكان يحمل قطعة مكعبة من حجر أسود يشبه الفحم.

وفي جو من الصمت الذي خيم، وقد رافقه الترقب والانتباه نهض حسن رضائي بثقة، أخرج من جيبه سكيناً صغيرة وفتح الكيس، وطلب من أحد رجاله أن يخرج ما بداخله. جرت العملية بحذر بالغ وانتباه شديد، فلما وضع ذلك الصندوق اللامع، والذي كان في طرف منه مغطى بقماش

يشبه الصوف، أمام الأمير، نظر إليه باهتمام، لكنه ظل صامتاً. إنه يرى لأول مرة شيئاً مثل هذا، فلم يستطع أن يخمّن لأي أمر يمكن أن يستعمل، فلما أُخرجت بعض الحبال، أو ما تشبه الحبال، من الجانب الخلفي للصندوق، ورُبطت إلى القطعة المكعبة السوداء التي كانت إلى جانب، وبعد أن تأكد حسن رضائي بنفسه أن كل شيء وضع في مكانه، فرك يديه وابتسم ابتسامة واسعة، وجلس قرب الصندوق، وقبل أن يبدأ المرحلة الجديدة من عمله، نظر إلى الأمير ونظر إلى الآخرين أيضاً. كانوا صامتين وقد ظهرت على وجوههم علامات الخوف والتساؤل معاً، تنحنح وقال:

ـ هذه الهدية التي حملتها إليك من مكان بعيد، يا صاحب السمو، سوف تنقل إليك العالم، وسوف تنقلك إلى العالم، حتى أبعد نقطة. . . وأنت في مكانك.

انفتحت عيون الأمير دهشة واهتز رأسه اهتزازاً موصولاً دلالة أنه فهم واستوعب تماماً ما قاله حسن رضائي. وظل صامتاً مترقباً الخطوة التالية.

قال حسن رضائي، وقد تغيرت لهجته:

ـ وهذه الآلة، يا صاحب السمو، شديدة الحساسية والدقة، بحيث لا يجوز أن يمدّ أحد يده إليها غيرك.

ازدادت الدهشة على وجه الأمير وخالطها نوع من الخوف، وتبادل الرجال النظرات فيما بينهم. قال حسن رضائي، وهو يفرك يديه ويبتسم بثقة:

ـ الآن نبدأ. . .

وحرك يده على الصندوق، من أحد الجوانب، وانتظر قليلاً، وعيناه مثبتتان على وسطه، ووجهه شديد القرب منه، كأنه يوشوشه. أضاء شيء أخضر وسط الصندوق، فتبادل الأمير نظرات سريعة مع الآخرين. كانت نظرات تساؤل وخوف، لكنه حاول أن يتماسك. أما في اللحظة التالية، وعندما حرك حسن رضائي بعض الأجزاء البارزة من الصندوق، ودوّت أصوات قوية منبعثة من حيث لا يدري أحد، فقد أجفل الحضور جميعاً، تراجع عدد من الرجال، واختبأ واحد وراء اثنين من رفاقه. أما الأمير فقد

غير جلسته والتفت إلى الآخرين وكأنه يطلب إليهم أن يكونوا أقوياء ومستعدين. حرك حسن رضائي الأجزاء البارزة أكثر من قبل، فأضاء اللون الأخضر بقوة ثم تلاشى، مع وشّة قوية صاخبة. حرك من جديد، وفجأة انبعث صوت موسيقى. كانت الموسيقى واضحة، وكأن الصوت يصدر من الخيمة ذاتها. نظر الرجال بعضهم في وجوه بعض باستغراب، أما الأمير فقد تحرك بجسده كله واقترب من الصندوق، وكانت ابتسامته تملأ وجهه. ثبت حسن رضائي الصوت أكثر من قبل ورفعه فامتلأ المكان.

وباستمتاع ممزوج بالرهبة استمع الرجال إلى الموسيقى صامتين. بعد دقائق، وبطريقة خفية شديدة المهارة وبحركة لم يرها الكثيرون، لسرعتها، أوقف حسن رضائي الموسيقى، فبان الصمت عميقاً مديداً، حتى ليستطيع الإنسان أن يلمسه بيديه، وفي هذا الصمت جاء صوت حسن رضائي مرة أخرى:

ـ هذه موسيقى، يا صاحب السمو، هذه مجرد محطة، وهناك أشياء كثيرة غيرها!

وبنفس المهارة والخفة حرك حسن رضائي يديه فانبعث من بعيد صوت، كان الصوت يظهر ويغيب، وكان اللون الأخضر وسط الصندوق يلتمع ويتلاشى، فعندما يظهر الصوت ويلتمع اللون الأخضر يسمع الرجال «وإذا مات الملك في بلاد سرنديب صرّ على عجلة قريبة من الأرض وعلق على مؤخرتها مستلقياً على قفاه، يجر شعر رأسه التراب على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثّ التراب على رأسه وتنادي: أيها الناس هذا ملككم بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذاً فيكم، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا وأخذ روحه ملك الموت، فلا تفتروا بالحياة من بعده. وكلاماً نحو هذا ثلاثة أيام، ثم يهيّئ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به ويرمى رماده في الريح[1]» هكذا سمع الرجال فنظر بعضهم إلى بعض لا

---

(١) ابن السيرافي، أحد جغرافيي القرن الرابع الهجري/ عن كتاب. د. شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي صفحة ٨٨، وهذا النص من كتاب أخبار الهند والصين.

يصدقون ما يسمعون، أما حين اختلط الصوت بالأصوات الأخرى، وغاب اللون الأخضر، فعندئذٍ لم يستطع أحد أن يسمع شيئاً.

كان بعضهم ينظر إلى بعض بدهشة تصل حدود عدم التصديق: كيف يمكن لهذا الصندوق أن يخرج الموسيقى وأن يتكلم؟ من يعزف؟ أين يجلس وكيف يأكل وينام وكيف يسعه هذا المكان؟ وهذا الذي يتكلم، كما يتكلم ابن نفاع او الامام، هل هو نفسه الذي عزف الموسيقى ام احد غيره؟

قال حسن رضائي بفرح:

ـ واحد... اثنان... والآن ثلاثة.

ومن جديد حرك يده على الصندوق فخرج صوته يغني:

أيـهـا الـفـلـك عـلـى وشـك الـرحـيـل
إن لـي فـي ركـبـك الـسـاري خـلـيـل
رقـرقـت عـيـناي لـمـا قـال لـي صـار الـوداع
وبـكـى قـلـبـي مـمـا ذاع فـي الـكـون وشـاع
غـــابـــت الـــشـــمـــس وراء الأفـــق
لـهـف نـفـسـي كـاد يـغـفـو رمـقـي
حـيـن حـيـانـي حـبـيـبـي وتـبـادلـنـاالـوداع
وانـطـوى مـنـه نـصـيـبـي عـنـد تـصـفـيـق الـشـراع

ما أن انتهت الأغنية واعقبها: «هنا محطة الشرق الأدنى» حتى اقترب الأمير كثيراً من حسن رضائي، ومثل طفل لا يستطيع ان يخفي فرحه وعجبه قال بصوت عال.

ـ هالحين انا اسويه.. بس علمني.

ـ الأحسن أن يستريح. لازم يستريح!

ـ مرة واحدة... وبعدهايستريح.

ـ مرة واحدة... ها؟.

ـ أي مرة.. مرة واحدة!

ومثل طفل يقترب من نار سبق ان عرف معناها اقترب الأمير. وبصبر وانتباه وضع يده حيث أشار حسن رضائي، وبدأ يحرك حسب إرشاداته،

فلما وصل إلى موسيقى قوية انبعثت فجأة رفع يده بسرعة وكأنه خاف أو جفل، فلما ملأت الموسيقى بصوتها القوي الخيمة وما حولها تراجع الأمير قليلا إلى الوراء، نظر في وجوه الرجال الصامتين الذين كانوا يرقبون كل حركة بكثير من الانتباه والحذر، وكأنه يقول لهم إنه يعرف أكثر منهم، ويعرف ما لا يعرفون. بعد دقائق والأمير يهز رأسه باهتمام وطرب، وكأنه هو الذي جاء بهذه الموسيقى من حيث لا يعرف أحد ولا يستطيع أحد، وبعد أن خيم، للحظات، جو من الصمت قال حسن رضائي بنوع من القلق:

ـ يا صاحب السمو. . . لازم يستريح.

ومثلما بدأ بانفعال وصمت، وبمهارة أيضاً، أخذ الآن يحرك يديه على الصندوق، من هذه الجهة ومن الجهة الثانية، ثم فك الحبال عن الحجر الأسود وأعادها إلى مكانها، حتى إذا انتهى من كل شيء فرك يديه وتطلع في الوجوه، خاصة وجه الأمير، يسألها دون أن يتكلم، رأيها فيما رأت وما سمعت. كانت الوجوه صماء أقرب إلى الاستغراب وعدم التصديق، أما الأمير فقد قال ورأسه يهتز كما لو أن ريحاً لا ترى هي التي تهزه:

ـ العالم اللي حولنا عالم عجيب وكله أسرار. والله، سبحانه وتعالى، علم الإنسان ما لم يعلم. المهم أن تسلم نيته وينفتح قلبه وعند ذاك ينشرح صدره والله سبحان وتعالى يلهمه ويعلمه.

بدا كلام الأمير غامضاً لا يعني شيئاً، أضاف وهو يتوجه بالكلام إلى نائبه:

ـ الدربيل يشوّف الشعرة من مسافة بعيدة. صندوق الحديد الأصفر يركض مثل الغزال ولا يتعب، وهذا الصندوق ساعة يحكي وساعة يشكي وساعة يصلي على النبي!

وأضاف بعد قليل بنوع من العجب:

ـ سبحان الله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم!

خبر وصول الآلة العجيبة إلى الأمير انتشر أسرع من أي خبر آخر. حتى «الصندوق الحديدي»، الذي وصل إلى حران الأميركان، كما سمّاه الكثيرون، وسماه غيرهم «حصان الجن» وتحدثوا عنه أياماً عديدة، بالرغم من أن الذين رأوه كانوا قلة محدودة، وقد رأوه من مسافة بعيدة؛ حتى حصان الجن لم يثر من الاهتمام والتساؤلات والخوف ما أثارته الآلة الجديدة. لم يستطع أحد أن يصفها أو أن يقول شيئاً محدداً عنها. أما عندما بعث الأمير ببعض رجاله إلى المقهى والسوق ليدعو عدداً من الوجوه، دون أن يوضح سبب الدعوة أو ما سيجري خلالها، فقد كان الناس في كل مكان يتحدثون عن «العجيبة الجديدة»، وأكد ثلاثة أو أربعة من الرجال أنهم سمعوا أصواتاً خلال النهار، وكأنها تهبط من السماء أو تنبع من الأرض. وقال واحد من هؤلاء أنه سمع صوتاً خلال النهار يناديه، فلما التفت حواليه لم يجد أحداً. ورغم أن الكثيرين حاولوا مع رجال الأمير لكي يفهموا منهم شيئاً عن هذه الآلة، وما إذا كانوا قادرين على وصفها لهم، أو أن يعطوهم فكرة عنها، إلا أن هذه المحاولات كلها انتهت إلى الفشل، فلا الذين سألوا في المقهى أو السوق عرفوا كيف يسألون، ولا رجال الأمير أجابوا إلا إجابات زادت الموضوع غموضاً وحيرة. كانت الإجابات شديدة الاختصار تماماً ومبهمة: «شيء لم يسمع الناس بمثله من قبل» «اللي شاف ما هو مثل اللي سمع» وقال أحد رجال الأمير، وكان اسمه شهاب، وقد كُلّف أن يبلغ دعوة الأمير إلى ابن نفاع والسيف والدباسي، قال وهو يهرول لكي يخلص من الناس:

ـ باكر.. إذا شفتم، يا أهل حران، تنهبلون!

أبلغت الدعوة إلى الجميع مبكراً، قبل الغروب بساعتين تقريباً، وبعض الذين لم توجه إليهم الدعوة، لم يستطيعوا أن يقاوموا الفضول الذي أحسوا به، ولم يستطيعوا أن ينتظروا لكي ينقل إليه الآخرون، فصمموا على أن يذهبوا، أن يكونوا قريبين بشكل ما، حتى إذا واتتهم الفرصة بشكل أو آخر اندفعوا متذرعين بحجة ما لكي يشهدوا هذه الآلة العجيبة، ولكي ينقلوا إلى أهل حران، قبل غيرهم، ما شاهدوه.

أما الأمير فقد كان طوال فترة بعد الظهر شديد التهيج والانفعال، فلم ينم ولم يبرح الخيمة. وكانت عيناه لا تفارقان هذا الجهاز العجيب. أما المرات التي وقف وتمشى خلالها فلكي يلقي نظرة متأملة، ومن قريب، أو لكي يرى هذا الجهاز من جميع جوانبه، وقد جسّه أكثر من مرة بأصابع خائفة مختبراً صلابته. وكان يمتلئ تصميماً ساعة بعد أخرى على أن يتولى بنفسه تشغيل الجهاز دون أية مساعدة من حسن رضائي، ولذلك كان يتخير الوقت المناسب لكي يطلب منه أن يعلمه الحركات كلها: كيف يبدأ ومن أين، ثم ما هي الخطوة التالية ثم الخطوة التي بعدها، حتى إذا أصبح متأكداً من جميع الحركات والمراحل يطلب من حسن أن يكون مع الآخرين ومثلهم أثناء قيامه بتشغيل هذه الآلة العجيبة. سوف يدهش أهل حران جميعهم، سوف يجعلهم يشعرون أن هذا اليوم هو بدء حياتهم أو أهم يوم في حياتهم! سوف يصرخون كالأطفال، وسوف يخافون ويفرحون ويعجبون، كيف لا وهو لا يزال شديد العجب والاستغراب من هذه الآلة التي لم يسمع بها أحد ولم يرها أحد؟

في لحظة من اللحظات، وقد أوعز الأمير بأن يهيأ «المجلس» مبكراً، ساوره نوع من الخوف أن يتعذر نقل الجهاز إلى الخارج، فسأل حسن رضائي بارتباك:

ـ نسيت اسألك. . اليوم. . مجلسنا بالفلا، هنا، قريّب، نقدر نشيل الماخوذ ويانا؟

أكد له حسن رضائي أن ذلك أمر ميسور جداً، وإنه يستطيع أن ينقله إلى أي مكان آخر، فقط يحتاج الأمر إلى عناية زائدة أثناء النقل، فلا

يتعرض للاهتزاز، ولا يُرمى بقوة، ولا يوضع عليه أي شيء. حين أكد له ذلك بدا شديد الانفعال والفرح، فتصور أشياء كثيرة وأماكن كثيرة، ولكي لا يفوت الفرصة قال بلهجة صادقة حميمة:

ـ هالحين أريدك تعلمني عليه، وتقول لي كل شيء

ـ رد حسن وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

ـ من حقك، يا صاحب السمو، أن تعرف كل شيء، وأن تجرب كل شيء، لأنني إذا كنت اليوم موجوداً هنا، وأستطيع أن أقدم بعض المساعدة، فغداً لا أكون.

سر الأمير جداً من هذا الكلام. إن الرجل يضع كل أسراره بين يديه، ويقوي مركزه أمام الآخرين، حين يجعله متفوقاً عليهم. قال بلهجة الصداقة الحميمة ذاتها:

ـ الله يبارك فيك ويكثر من أمثالك.

واندفع حسن رضائي يشرح للأمير طبيعة هذا الجهاز وخطورته. تكلم كثيراً وبتدفق. قال إن الدول الأخرى تهتم بالراديو، وتخصص له مبالغ كبيرة وعناصر كثيرة، وهو كالمرآة للوجه، يظهر قوة الدول وأهميتها، وأن هذا الجهاز موجود في بيوت الأغنياء، ومن خلاله يفهمون ماذا حصل في العالم من أحداث وأخبار، فإذا انتهت الأخبار بدأ الطرب: الموسيقى، والغناء، ثم بعد ذلك الأحاديث المفيدة والقصص والأشعار وغير ذلك.

لم يستطع الأمير أن يفهم أو أن يتابع معظم ما قاله حسن رضائي، لكن كلمة «راديو» التي كررها عدة مرات، انحفرت في رأسه. كان الأمير يتحرق شوقاً لأن ينتهي الرجل بأسرع وقت من هذا الحديث، لكي يتفرغا معاً من جديد إلى تشغيل هذه الآلة العجيبة، حتى إذا جاء الرجال لا يكون بحاجة إلى أية مساعدة أو إلى أية إرشادات. قال الأمير مازحاً:

ـ التجربة ما هي مثل السالفة، وهالحين نقول بسم الله.

ودون انتظار اندفع إلى قرب جهاز الراديو وجلس منتظراً أن يتبعه حسن رضائي. مسّد على الجهاز بيد ناعمة حنونة، كما يمسّد الإنسان على وجه طفل صغير، ونقر نقراً خفيفاً بسبابته، وكأنها إشارة البدء.

وبنفس الخفة والبراعة والسرعة بدأ حسن رضائي. ربما كانت البداية أسرع مما توقع الأمير، أو لم يستطع أن يستوعبها بدقة، فقال بما يشبه الرجاء:

ـ يرحم والديك خطوة خطوة وعلى مهلك.

ـ أمرك يا مولاي!

هكذا رد حسن رضائي مع ابتسامة، وهذه الطريقة في الخطاب التي يتقنها حسن رضائي جيداً بمقدار ما تبدو غريبة، غير مألوفة في حران وما حولها، فقد كانت تدخل السرور على قلب الأمير، وتشعره بأهمية إضافية؛ لقد لفتت هذه الطريقة نظره منذ الزيارة الأولى، ووجد نفسه أنه يحبها. الآن وهو يقول له «يا مولاي» قال في نفسه: «الناس في الأماكن الأخرى أكثر أدباً من جماعتنا، ويعرفون كل شيء، بما في ذلك كيف يخاطبون الإنسان على قدر منزلته» أما عندما قال حسن رضائي:

ـ من جديد... وخطوة خطوة.

فقد رد الأمير:

ـ أي نعم، من جديد خطوة خطوة.. وعلى مهل!

وخلال فترة قصيرة دوى صوت الراديو فملأ المكان: الخيمة الكبيرة والفلاة المحيطة بها، ووصل إلى الخيام الخاصة بالحريم، فلما خفف حسن رضائي صوته قال بثقة:

ـ الآن، يا صاحب السمو، تقوم بكل شيء وحدك!

وحاول الأمير، لكن بدا مرتبكاً وخائفاً من الوقوع في الخطأ، وفي محاولة لأن يسهل حسن رضائي المهمة إلى أقصى حد قال:

ـ أحسن طريقة، يا سمو الأمير، هي طريقة العد.

توقف لحظة، هز رأسه عدة مرات وكأنه توصل إلى طريقة مثالية في التعليم، تحرك قليلاً وقال:

ـ واحد، اثنان، ثلاثة.. وهذا أربعة...

وضع يده بسرعة على البطارية، معتبراً إياها الرقم واحد، ثم على

مفتاح التشغيل واعتبره الرقم اثنين، ثم مؤشر المحطات وهذا هو رقم ثلاثة، أما الرقم أربعة فكان مؤشر الصوت. فعل ذلك ببعض السرعة، الأمر الذي دفع الأمير لأن يقول:

ـ العدّ طريقة زينة، لكن ما هو مثل صلاة البدو!

ضحك حسن رضائي، لكن لم يفهم ما يعني الأمير بصلاة البدو، وحين شرح له ذلك ضحك كثيراً، وقال كأنه يعلّم طفلاً:

ـ واحد.. هذا واحد.. زين؟

وحين يهز الأمير رأسه دلالة الفهم والموافقة يتابع وهو يشير إلى مفتاح التشغيل:

ـ بعد الواحد اثنين، وهذا اثنين.

ويهز الأمير رأسه أنه فهم، يسأل حسن من جديد:

ـ مشينا؟

ويرد الأمير بصوت فخم:

ـ توكل على الله

ـ هذا ثلاثة، وثلاثة يا صاحب السمو، أصعبهم.

ويهز الأمير رأسه أنه فهم وإنه يقدر الصعوبة التي يشير إليها حسن رضائي، فيتابع:

ـ وهذا أربعة. هذا سهل: إذا كنت تريده عالياً يسمع حران كلها على اليمين، وإذا كنت تريده لنفسك على اليسار.

بعد عدة محاولات، تخللتها شروح إضافية، خاصة فيما يتعلق بالبطارية ومؤشر المحطات، قال الأمير، وقد ظهر على وجهه السرور:

ـ هذه آخر مرة، وبعدها نتركه يستريح، حتى إذا جاء الجماعة انقلبت الدنيا.

توقف لحظة، ضحك بصوت عالٍ ثم أضاف:

ـ والله لأخلي صوته يلعلع ويصل النجم.. وإلى الصبح...



أعد المجلس أبكر من الأيام الأخرى، أما الراديو فقد نقل من قبل رجال الأمير، لكن بإشرافه مباشرة، وقد أعطى تعليمات حازمة قبل النقل وأثناءه، فلما اطمأن إلى كل شيء، ولكي يضفي على العملية مزيداً من الأهمية والتشويق، ألقى عباءته على الراديو وغطاه تماماً!

حاول الأمير أن يكون بتصرفاته وكلامه طبيعياً بل أقرب إلى البساطة، إذ تكلم مع بعض رجاله بطريقة رقيقة أبوية، خلافاً للأيام السابقة، وبدا ذلك غريباً منه، إلا أن حالة التوتر الداخلية التي كانت تسيطر عليه جعلته كثير الحركة، سريع التنقل، خائفاً أو أقرب إلى الخوف. إنه الآن أمام تجربة جديدة، ورغم أنه كان متأكداً وواثقاً، إلا أن بعضاً من الشك ظل يراوده: «ماذا لو مات الجهاز دفعة واحدة أو أخطأ في تشغيله وإدارته؟ ماذا لو أخطأ في العد أو معرفة المفاتيح، كما سماها حسن رضائي؟ أي خجل سيحس به إذا فشل، ثم جاء بعد ذلك حسن رضائي لكي يبعده ويحل محله، وما فشل فيه، استطاع هو أن ينجزه ببساطة، وبعد أن يفعل ذلك ينظر إليه بطرف عينه، وينظر إلى الآخرين ويبتسم! إذا حصل هذا ألا يعتبر بنظر نفسه، على الأقل، غير كفؤ أو عاجزاً؟» هكذا مرت الأفكار والتساؤلات، وقد زادت في توتره. كان يود في هذه اللحظة، لو يستطيع أن يقوم بتجربة أخيرة: «كان يجب أن نجرب الجهاز في مكانه الجديد» لكن ماذا يقول عنه حسن رضائي لو حاول ذلك؟

قبل الغروب بقليل جاء الرجال، جاء أولاً الدباسي، وقد تعمد أن يأتي مبكراً، وقبل الآخرين، لأنه لم ير الأمير منذ أيام طويلة، ولأنه كان يشعر بنوع من الذنب لا يعرف سببه بشكل واضح ومؤكد. يمكن أن يكون السبب هو موت ابن الراشد، أو ربما انقطاعه عن زيارة الأمير، أو شعوره باللاجدوى. المهم أن شعوراً مثل هذا كان يسيطر عليه، أما ما سمع الناس يتناقلونه في مقهى أبو أسعد عن الآلة العجيبة فلم يكن ليشغله كثيراً. فقد سمعه أكثر من واحد في المقهى يقول «لو سافرتم ورأيتم العالم، يا أهل حران، لكانت الدنيا بالنسبة لكم غير الدنيا»، ولم يضف إلى ذلك شيئاً، ولم يستطع الذين سمعوا كلامه على أي وجه يفسرونه.

وجاء عبد الله السعد ومحمد السيف معاً، وجاء الذاووي وابن نفاع معاً أيضاً، وقد تكلما كثيراً وهما يصعدان التل الشمالي، تكلما عن الفساد الذي انتشر، والشر الذي عمّ، وعن خراب الذمم واقتراب نهاية العالم. أما ما يحاوله الأمير، وما يحصل في حران تحت سمعه وبصره، وسكوته الذي لا يجدان له سبباً أو كيف يفسرانه على المفاسد وتساهله مع الأميركان، فإنها أمور تحيرهما وتثير من الشكوك أكثر مما يتوقع الإنسان أو مما يمكن الموافقة عليه أو احتماله. أما حول ما سمعاه عن الآلة العجيبة، المفاجئة، فقد قال ابن نفاع بصوت تمنى لو يسمعه الآخرون:

ـ اللي شفناه، يا أبو محسن، يكفينا وزود، وإذا كان هذا التكروني اللي شاف شفار أمه وانهبل، يريد يهبل الناس فلا هو ولا يومه.

لما انحدرت الشمس وراء التلال الغربية، ولم يعد يظهر منها إلا شعاع برتقالي يزداد قتاماً لحظة بعد أخرى، وكان الذين دعاهم الأمير قد حضروا جميعاً، بمن فيهم ثلاثة من معسكر العمال، أحدهم ابن الزامل، وكان آخر الحاضرين دحام المزعل، إذ جاء مهرولاً بعرقه وتعثر حين دخل الخيمة. لما تأكد الأمير من حضور المدعوين ورأى أيضاً اثنين أو ثلاثة من أهل حران، لا يعرف كيف حضروا أو ماذا يريدون قال وهو ينهض:

ـ تحت السماء، يا اولاد الحلال، أطيب وأرحم.

وقام الرجال، كان لقيامهم وحركتهم ضجة مسموعة لكن لم يرافقها أي كلام. الأمير الذي مشى متقدماً خطوة أو اثنتين عن الآخرين، وبدا واثقاً، كان في أعماقه مرتبكاً وفي عجلة من أمره. طلب بإشارة من يده إلى حسن رضائي أن يكون قريباً منه، وقد ألحّ عليه أن يتقدم أكثر، فاستجاب الرجل بحركة عفوية متقنة. أما ابن نفاع فلم تفارق عيناه تصرفات حسن رضائي وحركاته لحظة واحدة. لقد ترك الجميع وركز نظراته عليه منذ أن وصل. وحسن رضائي الذي التقت عيناه بعيني ابن نفاع أكثر من مرة، كان يبتسم في كل مرة، لكن ابن نفاع لم يستجب لهذا الإغراء، ولم يسحب نظراته عنه. الآن والأمير يعامله بتلك الطريقة، ويلح عليه ذلك الإلحاح، قال ابن نفاع في نفسه: «ما يندري إذا كان الرجّال ضيف رحمان أم ضيف

شيطان، لكن مثل ما يقولون إذا جاءت العلة من البطن العافية تجي منين؟ ويظهر أن ابن الحرام، هالقرباطي، دخل تحت إبط الأمير وما أظنه إلا لاعن أجداده وأجدادنا».

ما كاد الرجال يجلسون، ونظراتهم مركزة حول العجيبة الراقدة إلى جانب الأمير، ناحية اليسار، ومغطاة بعباءته، وقد أقضّ قلوبهم التساؤل، حتى قال الأمير بصوت بدا مرتجفاً قليلاً:

ـ الدنيا، يا جماعة الخير، ما هي مثل قبل، تغيرت، تغيرت كثيراً، صارت صغيرة، هي تجي لبني آدم، تجي لحضنه، بدل ما هو يروح إليها.

لم يفهم أي من الرجال ما يرمي إليه الأمير، بل إن كلامه هذا زاد الغموض الذي كانوا يحسون به. تململ الأمير في جلسته وتابع، فبدا صوته أكثر ثقة:

ـ والواحد ما يصدق إلا إذا شاف بعينه، إلا إذا جرب بنفسه.

والتفت صوب حسن رضائي وقال وهو يبتسم، كأنه يتبادل معه سراً:

ـ إذا شافوا بعيونهم يصدقون.

ودون انتظار قفز مثل هر. نحّى العباءة وسأل بطريقة استعراضية:

ـ تشوفون هذا الماخوذ؟

وحين هزوا رؤوسهم مؤكدين أنهم يرون الجهاز الذي يشير إليه تابع:

ـ هذا يجوب الدنيا كلها في طرفة عين ويقول لكم كل شيء.

ظل الرجال ينظرون صامتين، قال الأمير، وهو يفرك يديه، تماماً كما فعل حسن رضائي حين استعد لتشغيل الراديو:

ـ هذا اللي تشوفونه: ساعة يحكي وساعة يبكي وساعة يصلي على النبي!

توقف لحظة، نظر إلى الراديو، ثم نظر إلى الرجال، قال وهو يهز رأسه:

ـ وهذه الساعة نتوكل على الله.. ونبدأ.

وبصوت يكاد يكون مسموعاً بدأ الأمير: واحد، ووضع يده على البطارية، انتظر لحظات، وأضاف: اثنين. قعد مقابل الراديو، معطياً ظهره

للآخرين، حتى إذا ظهر اللون الأخضر تنحى جانباً ومال بجسده كله، وبدأ يحرك مؤشر المحطات، فلما استقر ذلك المؤشر على محطة، وتأكد من ذلك، حين سمع بعض الكلمات ورأى اللون الأخضر قوياً زاهياً التفت إلى الرجال وقال بصوت قوي:

ـ اسمعوا. . اسمعوا.

ولما رفع مفتاح الصوت سمعوا: «وجاء في الخبر أن ابن الخطاب بكى لما فتحت عليه كنوز كسرى وقال: إن هذا لم يفتح على قوم قط إلا جعل بأسهم بينهم».

ما كادوا يسمعون هذا الكلام حتى غاب الصوت تقريباً، وحلّت مكانه ونّة قوية موصولة، فنظر الرجال بعضهم إلى بعض ونظروا إلى ذلك الجهاز الذي حركه الأمير باستغراب، وقد ارتخت أفواههم وحملقت عيونهم، وما كادت الونة تغيب قليلاً حتى سمعوا من جديد: «ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» وقال الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

كان الأمير يتطلع إلى الوجوه واحداً واحداً ليرى الأثر، فلما وجدهم صامتين ينظر بعضهم إلى بعض، ثم ينظرون إلى ذلك الجهاز بحيرة، قال وهو يفرك يديه ويضحك:

ـ هذه واحدة.

وخفض الصوت كثيراً حتى لم يعد يُسمع وقال:

ـ بعيونكم شفتم وبآذانكم سمعتم، وهالحين خذوا غيرها.

ومال مرة أخرى بجسده كله، حتى كاد ينبطح، وأخذ يحرك مفتاح المحطات ورأسه ملتصق بالراديو تماماً، فلما سمع صوتاً اطمأن إليه، وضع يده على مفتاح الصوت وقال وهو يضحك:

ـ وهذه الثانية. . .

وهدر صوت موسيقى قوياً صاخباً فملأ المكان، تطلع إليهم، هز رأسه مرات كثيرة وهو يضحك، ومن جديد رفع الصوت أكثر من قبل فضجت

الأصوات أكثر من قبل، دخلت الرعشة إلى الأجساد، وجعلت العيون معلقة والنفوس واجفة، والرجال لا يجرأون أن ينظر بعضهم في وجوه بعض نظراً مباشراً وإنما يسرقون من زوايا العيون نظرة إلى هنا ونظرة إلى هناك. كانوا يخافون أن يخرج من هذا الصندوق فجأة بشر فيقتلوا الناس جميعاً. والأمير الذي كان شديد السعادة، وقد تبادل نظرات طويلة مع حسن رضائي، وغمزات أيضاً مشيراً إلى التأثير القوي الذي حصل، تمنى في تلك اللحظة لو أنه دعا أهل حران جميعاً، ولم يقتصر على مجموعة صغيرة منهم؛ «لو كانوا جميعاً موجودين لرأينا العجب» لكن هذه الفكرة ما لبثت أن تلاشت، «لأن الأسرار يجب أن تبقى بين الكبار، الذين يفهمون ويقدرون!».

بعد هذه الموسيقى الصاخبة سمعت كلمات لم تفهم أبداً، وبخفة، مثلما فعل حسن رضائي ضحى هذا اليوم، أخرس الأمير الصوت تماماً وقال:

ـ هذه الثانية.. وبعد كثير.

ومثلما انبطح في المرة السابقة انبطح من جديد، ظل يحرك وينظر إلى اللون الأخضر فلما استقر على صوت اطمأن إليه اعتدل في جلسته، وقال:

ـ إليكم الثالثة.

«زعموا[1] أن طائراً من طيور البحر يقال له الطيطوى كان وطنه على ساحل البحر ومعه زوجة له، فلما جاء أوان تفريخهما قالت الأنثى للذكر لو التمسنا مكاناً حريزاً نفرخ فيه فإني أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا. فقال لها افرخي في مكانك فإنه موافق لنا والماء والزهر منا قريب، قالت له: يا غافل ليحسن نظرك فإني أخاف وكيل البحر أن يذهب بفراخنا، فقال لها: افرخي مكانك فإنه لا يفعل ذلك، فقالت له: ما أشد ثقتك، أما تذكر وعيده وتهديده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟ فأبى أن يطيعها. فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها قالت له: إن من لم يسمع قول

---

(١) كليلة ودمنة.

الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين، قال الذكر: وكيف كان ذلك؟

قالت الأنثى: زعموا أن غديراً عنده عشب وكان فيه بطتان وكان في الغدير سلحفاة بينها وبين البطتين مودة وصداقة، فاتفق أن غيض ذلك الماء فجاءت البطتان لوداع السلحفاة وقالتا: السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه، فقالت إنما يبين نقصان الماء على مثلي فإني كأني السفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء، فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما فاذهبا بي معكما، قالتا لها: نعم، قالت كيف السبيل إلى حملي؟ قالتا نأخذ بطرفي عود وتقبضين بفيك على وسطه ونطير بك في الجو، وإياك إذا سمعت الناس يتكلمون أن تنطقي، ثم أخذتاها فطارتا بها في الجو، فقال الناس عجب سلحفاة بين بطتين قد حملتاها، فلما سمعت ذلك قالت فقأ الله أعينكم أيها الناس، فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت.

قال الذكر: قد سمعت مقالتك فلا تخافي وكيل البحر... فلما مد الماء ذهب بفراخهما، فقالت الأنثى: قد عرفت في بدء الأمر أن هذا كائن، قال الذكر سوف أنتقم منه، ثم مضى إلى جماعة الطير فقال لهن: إنكن أخواتي وثقاتي فأعنني. قلن: ماذا تريد أن نفعل؟ قال تجتمعن وتذهبن معي إلى سائر الطير فنشكو إليهن ما تعبت من وكيل البحر ونقول لهن إنكن طير مثلنا فأعننا، فقالت له جماعة الطير، إن العنقاء هي سيدتنا وملكتنا فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها، فتظهر لنا فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر ونسألها أن تنتقم لنا منه بقوة ملكها، ثم إنهن ذهبن إليها مع الطيطوى فاستغثن إليها وصحن بها فتراءت لهن فأخبرنها بقصتهن وسألنها أن تصير معهن إلى محاربة وكيل البحر، فأجابتهن إلى ذلك، فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قصدته في جماعة الطير خاف من محاربة ملك لا طاقة له؛ فرد فراخ الطيطوى وصالحه فرجعت العنقاء عنه!».

كان الأمير فرحاً وقلقاً معاً، فالرجال الذين أنشدّوا تماماً يسمعون ويتابعون وقد انعقدت ألسنتهم، وسيطر عليهم العجب، كان منظرهم

الصامت الخائف يولد الفرح، لكن حين طال الحديث وتداخلت قصة بأخرى وفاتته بعض الكلمات وهو يتلفت ويراقب، فقد استبد به القلق أن يكون الجهاز قد تعب، فما كادت الكلمات الأخيرة تصل إلى مسامع الرجال فترتاح وجوههم قليلاً حتى هجم بخفة قط على الجهاز وسمعه كثيرون يقول: أربعة، ثلاثة، اثنين، واحد!

لما أطفأ الجهاز رجع إلى مكانه متعباً فجلس وسحب نفساً عميقاً ونظر إلى السماء، ولما وجد الصمت قوياً مسيطراً جاءت كلماته من جديد:

ـ مثل ما تشوفون، يا جماعة الخير، إن الله علّم الإنسان ما لم يعلم!

كان لدى كل رجل من الرجال أشياء كثيرة يمكن أن يقولها. فالذين سافروا ورأوا العالم كانوا يريدون أن يتكلموا ويسرفوا في الكلام. صحيح أن الدباسي رأى الراديو من قبل، رآه في مصر عند صديق ابن البارح، لكنه لم يثر ولم يعجب «لأن كل شيء في مصر لا يصدقه العقل» هكذا كان يلخص أغلب الأحيان انطباعاته دون قدرة على الدقة أو التفصيل، أما عبد الله السعد فقد مال على محمد السيف وقال بهمس: «ابن النقيب، خوينا بالبصرة، عنده واحد، وأنا شفته!» أما الآخرون الذين لم يسافروا أبعد من عجرة فإنهم كانوا في حيرة وخوف، وتمنى أكثر من واحد لو أن الأمير يغطي هذه البلية أو يبعدها «لأن كل شيء يمكن أن يحصل في هذه الدنيا»وأكثرهم لم يكن مستعداً لأن يسمع أي شرح أو تعليق لأن هذا الجهاز العجيب يمكن أن يتكلم ويغني وينقل القصص وربما يفعل أشياء كثيرة خرى، إنه يفعل ذلك رغم صغره، وقد يكون الناس الذين فيه مخلوقات عجيبة مسحورة أو ممسوخة. الوحيد الذي تجرأ على السؤال هو ابن نفاع، لكن رغم جرأته كان متوجساً وخائفاً، قال موجهاً الكلام إلى حسن رضائي:

ـ هذه البلية مَنْ سوّاها؟

رد حسن رضائي ببعض الارتباك نتيجة النظرات المعادية التي لم يكف ابن نفاع عن توجيهها إليه طوال السهرة، رد بسرعة:

ـ الإنسان اخترعها

ـ قل لي . . قل لي: الألمان أو الأميركان؟

ـ هذا الراديو صنع هولندي

ـ هولاندي؟

ـ نعم . . هذا مصنوع في هولندا.

ـ وهناك يعرفون العربي؟ يصلون ويصومون ويقولون أشهد أن لا إله إلا الله؟

قال الدباسي وقد شعر أن ابن نفاع سيكون قاسياً مع الرجل:

ـ إذا أبو مسفر يوافق، نريد من الخويا، بسفرة من سفراته لحران، أن يشتري لنا واحداً . . وإذا يريد هالحين ندفع فلوسه!

رد ابن نفاع وقد أصابه الرعب:

ـ وتحطه ببيوتنا يا دباسي؟

ـ وكل الله يا رجّال، طوّل بالك!

هكذا رد الدباسي وهو يبتسم، ومن جديد سأل ابن نفاع.

ـ وتحطه ببيوتنا؟ تجيب الذيب لغنمنا؟

قال الأمير:

ـ والله يا ابن نفاع انت ما ترضيك إلا حزوم نجد، كل شيء ما يعجبك، وكل شيء تقول عليه حرام.

وتغيرت لهجة الأمير وقال موجهاً الكلام إلى الجميع:

ـ يا جماعة الخير، أنتم، بآذانكم سمعتم اللي قاله عن النبي ﷺ، واللي قاله عن ابن الخطاب . . وغيرهم وغيرهم؟

قال ابن نفاع وهو ينهض محتجاً:

ـ يا جماعة الخير. إياكم وخضراء الدمن.

توقف قليلاً ثم أضاف بسخرية:

ـ مثل إبليس له عين واحدة، عين خضراء، وهذه هي التي نهى عنها الرسول وسماها خضراء الدّمن.

وأضاف بلهجة تهديد:

ـ وباكر يجركم إلى جهنم.

قال الذين سهروا في مقهى أبو أسعد تلك الليلة، وظلوا منتظرين يترقبون، أنهم سمعوا أصواتاً غير عادية تنبعث من التل الشمالي، وأكد هؤلاء أن هذه الأصوات يمكن أن تسمع، دون وضوح كافٍ، حين يهدأ البحر ويتقدم الليل. وقال عبده محمد، الذي سهر تلك الليلة أكثر مما تعود أن يسهر، أنه سمع ألحان أغان يعرفها، وإن هذه الألحان كانت تهبط إليه مباشرة من التل الشمالي. أما عثمان الأصقى، الذي يشكو من إحدى أذنيه، فقد صمم على الذهاب إلى بيت الأمير دون دعوة، لأنه لم يستطع أن يقاوم الفضول الذي أحس به عندما «سمع الناس يتحدثون عن هذه الآلة العجيبة»، ويؤكد بعض الذين يحبون المداعبة أن عثمان لم يذهب إلا من أجل أن يتعشى.

كان الأصقى أول الذين وصلوا إلى المقهى بعد زيارة الأمير والاطلاع على تلك العجيبة. للحظات طويلة التزم الصمت، كان فقط يهز رأسه ويديه دلالة الإعجاب والدهشة. أما حين سئل عن تلك الآلة وطلب منه أن يصفها فقد حرك يديه بطريقة فهمت أنه لا يمكن أن يفعل، لأن ما رآه لا يقال ولا يوصف. أما حين حاول، وقد حصل هذا بعد إلحاح وانتظار، وبعد تردد طويل أيضاً، فقد قال إن لدى الأمير شيئاً عجيباً: صندوق لكن ليس كأي صندوق. مثل سحارة الشاي، أصغر أو أكبر، فهو ليس متأكداً، وهذا الصندوق إذا ضرب على رأسه صرخ وأخذ يتكلم، ولهذا الصندوق أيضاً عين واحدة فقط، عين لونها أخضر، مثل عشب الربيع، فإذا ضرب مرة أخرى، ويجب أن تكون ضربات غير قوية، تخرج منه دقات طبل ومزمار. فإذا ضرب مرة ثانية، وعلى جنبه بالذات فإنه يخرس ويموت.

حين استفسر أبو أسعد بصوت عالٍ وإشارات كثيرة من يديه ما إذا كان لهذا الصندوق رقائق صغيرة سوداء تشبه الأرغفة التي يخبزها عبده محمد، لكن أرق منها، وما إذا كان له محقان كبير يشبه محقان السمن أو أكبر، ويحتاج الإنسان إلى أن يحرك عموداً في طرف منه، بعد أن شرح أبو أسعد واستعان بأكثر من واحد لكي يصرخ في أذن الأصقى، وعثمان ينفي أن يكون كذلك، أو أنه لم ير ما يقول عنه أبو أسعد، إذ كان بعيداً، سأله أبو أسعد إذا كان لهذا الصندوق مفاتيح صغيرة وفي وسطه لوحة من الزجاج، وعليها شعرة تتحرك، حين أجاب عثمان أن الأمر ليس بعيداً عن ذلك، وإن كان يختلف عن هذا الوصف، فقد جلس أبو أسعد على الكرسي الذي كان يستند إليه وقال بنفاد صبر:

ـ احكِ هذا الكلام من أول مرة.. يا ابن الأوادم!

وهز رأسه وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ هذا راديو.. يا جماعة.

والتفت إلى عثمان يسأله.

ـ راديو... ما هيك؟

وقلب عثمان شفته وهز كتفيه دلالة أنه لا يعرف.

قال واحد، وكان بعيداً بعض الشيء، يرقب المناقشة والإشارات ويتلهف لمعرفة هذه الآلة العجيبة، قال وهو يتوجه إلى عثمان والآخرين:

ـ الأصقى كان يسمع ويشوف ببطنه.

قال أبو أسعد، وقد شعر أنه يعرف أكثر من الآخرين:

ـ لو كان في حران كهرباء لكان الراديو موجود من زمان.

وانصرف بعد ذلك يشرح للجميع كل ما يعرفه عن هذا الجهاز، وكيف أن أعداداً كبيرة منه موجودة في بيروت وحلب والشام، وأماكن كثيرة عاش فيها أو زارها، وأكد أنه لا يخلو بيت من بيوت الوجهاء والأكابر من راديو، وأكد أكثر من ذلك أن مقهى النديم في ساحة البرج يحوي على راديو وعلى كرامافون، ثم شرح للرجال حوله ما هو الكرامافون، وكيف

أن الاسطوانات التي تشبه الأرغفة الرقيقة تنقل الأغاني، ولا تتعب من الدوران ليل نهار. وأن كثيرين من الذين يرتادون مقهى النديم يأتون من أماكن بعيدة فقط لكي يستمعوا إلى الأغاني، وصاحب المقهى، وجيه الحلبي، يضع الأغاني حسب طلبات المستمعين، وردد كلمة «المستمعين» أكثر من مرة. وأكد من جديد أنه حالما تصل الكهرباء إلى حران، فإن أول راديو سيكون في مقهى الأصدقاء. لكن أضاف وهو يرفع يده مهدداً مازحاً:

ـ اسمعوا. . إذا جاءت الآلات لا يمكن لأحد أن يمد يده.

توقف قليلاً وهو يضحك:

ـ والشيء الثاني: ما في كل دقيقة: يا أبو أسعد حط هذي، يا أبو أسعد شيل هذي.

وفي هذه الليلة أكد الكثيرون أن حران لم تنم. فسهرة الأمير طالت أكثر مما قدر وأكثر مما أراد. وصوت الراديو الذي سُمع مثل حداء بعيد في أول الليل ما لبث أن قوي وصفا، فسمعه الكثيرون. أما عندما أعلن حسن رضائي، بأدب جم مبالغ فيه، عن رغبته في أن يغادر، وأنه سيكون بين يدي صاحب السمو في أية ساعة من ساعات الصباح يشاء سموه، عندما أعلن حسن رضائي عن تلك الرغبة استجاب الأمير، وكانت إيذاناً بانتهاء السهرة. ولما خرج الجميع، وقد ودعهم الأمير على مسافة كبيرة من الخيام، أكثر مما يفعل عادة مع ضيوفه، قال الجميع أن صوت الراديو كان يتابعهم وكأنه يمشي وراءهم، حتى بعد أن هبطوا التل واقتربوا من السوق، كان الصوت واضحاً مسموعاً، وقد ضحك الكثيرون حين سقط الذاودي في إحدى الحفر على الطريق. قال الدباسي وهو يساعده على النهوض:

ـ هذه البلية يا أبو محسن فتحت آذاننا وعمت أبصارنا.

والأمير الذي ظل بعض الوقت، بعد انصراف ضيوفه، ورفع صوت الراديو أكثر من مرة، وكانت هزات رأسه تتوالى دلالة الإعجاب والطرب،

ما لبث أن نقل الراديو من مكان إلى آخر. نقله أول الأمر إلى خيمته، ثم نقله إلى القسم الخلفي، حيث ينام، وهناك سُمع يتحدث بصوت عالٍ عن هذه الآلة العجيبة، ثم بعد ذلك سمع صوت الراديو قوياً صاخباً، وقد رافق صوته في البداية صرخات النساء، وكانت مزيجاً من الخوف واللذة والاستغراب، وأكد الذين سهروا في المقهى أنهم سمعوا صوت الراديو. كان صوتاً متقطعاً يغيب ويظهر، حتى أبو أسعد، وهو يجمع الكراسي، قال لآخر اثنين كانا يغادران المقهى:

ـ إن شاء الله ما يمر كم شهر إلا والراديو منصوب، وصوت يا ليل يا عين واصل إلى السماء!

وابن نفاع الذي غادر مبكراً، وتوجه إلى حران العرب مباشرة، رفض أن يقول شيئاً عن هذه العجيبة، وظل صوت دعائه يسمع حتى ساعة متأخرة، ولهذا السبب، أو لبعد المسافة، لم يسمع أحد من أهل حران صوت الراديو. أما حين غادر الآخرون، والذين كانوا يسكنون على التلال الغربية، فقد ذكروا أشياء كثيرة عن هذه العجيبة، لكن أياً من الذين سمعوا لم يستطع أن يحدد صورة هذه الآلة أو طبيعتها.

وفي اليوم التالي، قبل شروق الشمس، شوهد الأمير يطلب من مسعود ورجل آخر أن ينقلا الراديو، وقد رافقهما خطوة خطوة، ورفع بنفسه طرف باب الخيمة ليسهل دخولهما دون أية صعوبة. وفي وقت متأخر ذكر بعض الخبثاء أن الأمير ظل أياماً عديدة لا ينام في نفس المكان الذي كان فيه الراديو، وعلى غير عادته كان يعمر بندقيته الموزر ويضعها بالقرب منه تحسباً لأية مفاجأة قد تأتي من هذه «البلية». وروى ابن السيف أنه في إحدى زياراته للأمير، شاهد اثنين من رجاله يرفعان الراديو إلى أقصى حد، والأمير ينظر بالمنظار إلى أسفله، وحين لا يرى شيئاً يتقدم ويدق براحة يده وكأنه يدق باباً، فإذا لم يسمع صوتاً يستدير لكي ينظر إلى الراديو من النواحي الأخرى، بالمنظار أولاً ثم يدق بأصابعه أو براحة يده.

وفي معسكر العمال، وفي السوق والمسجد ظل الناس يتحدثون عن

هذه العجيبة، وكان الكثيرون يتمنون لو تتاح لهم الفرصة لكي يلقوا عليها نظرة أو يسمعوا صوتها. والأمير الذي انشغل بهذه القضية إلى أقصى حد، ولم يترك لأي من رجاله أن يمد يده إلى الراديو، أو يقترب منه أثناء غيابه، بدأ يعيش مرحلة جديدة، وقد بدأت هذه المرحلة بالصدفة، بعد سماع مجموعة من الأغاني، لكن أثرت عليه كثيراً وظل يتذكرها فترة طويلة وظل الكثيرون يتذكرونها أيضاً.

أثناء زيارة الأمير لمعسكر الأميركان، كان برفقة نائبه وحسن رضائي، وقد تفقد السيارة بكثير من العناية. وسأل ما إذا كان الأميركان مثل العرب يطلقون الأسماء على الآلات التي يستعملونها للركوب، فالعرب مثلاً يطلقون على كل حصان إسماً، وحين أكد له هندرسين أن لهذا السيارة إسماً، وهو «فورد» بدا شديد السرور، فالتفت إلى نائبه وقال بثقة: «قلت لك!» وبعد ذلك حرص على توجيه أسئلة أخرى دقيقة: كم تعيش الفورد؟ وهل يستعمل البارود في دفعها أم لا، وهل يمكن أن تستجيب لغير سائقها، وهل هي مروضة من الأساس أم تحتاج إلى ترويض. بعد أن سأل الأمير هذه الأسئلة وغيرها، وكان لا يتوقف عن هز رأسه، أثناء الإجابة وبعدها، عرض هندرسين أن يركبوا جميعاً السيارة، فأبدى الأمير نوعاً من الامتناع الخفي، إذ سأل نائبه وحسن رضائي بطريقة معينة ما إذا كانا يرغبان في هذه التجربة أم لا، لكن إزاء البساطة التي تصرف بها هندرسين، ثم استجابة حسن السهلة، لم يكن أمام الأمير إلا الموافقة!

كانت رحلة حافلة تخللها الكثير من المفاجآت والصرخات والتعليقات. فحين انطلقت السيارة بسرعة صرخ الأمير: «عوذة.. عوذة» وبدا شاحب الوجه خائفاً، وبعد قليل امتدت يده إلى ساق هندرسين، وكان يجلس بجانبه، يريد أن يتمسك بها لئلا يقع، فلما ضحك هندرسين بصوت عالٍ سحب الأمير يده وقد شعر بالخجل، وتمسك بطرف الكرسي. وفي إحدى اللحظات قال يخاطب نائبه وحسن رضائي دون أن يلتفت:

ـ لو شدينا أرواحنا يا جماعة الخير كان أحسن.

أما حين استدار هندرسين بالسيارة فقد خاف الأمير خوفاً كبيراً فتشبث بالسكان، وكادت أن تقع مشكلة لولا أن هندرسين تصرف بسرعة وأزاح يد الأمير! وكادت تقع مشكلة أخرى حين توقف هندرسين فجأة أثناء مرور أحد الكلاب. أما التعليقات والصرخات فكانت تتوالى وظل الكثيرون يتذكرونها حتى وقت متأخر. وهندرسين حين يتذكر السيارة الأولى التي وصلت إلى المعسكر يتذكر وجه الأمير: «كان شديد الخوف والارتباك، وكان يتمتم بكلمات غير مفهومة، وكأنه يوجه أدعية إلى الله أو يتوسل، وكاد يخلق لنا أكثر من مشكلة، أثناء السير وأثناء الوقوف. وفي إحدى اللحظات كاد يرمي بنفسه، إذ أمسك مفتاح الباب أثناء انطلاق السيارة، ولولا انتباهي وسرعتي لقالوا أن الأميركيين قتلوا الأمير».

أما حين مرت السيارة أمام مجموعة من العمال، ورفع هؤلاء أيديهم وأصواتهم لتحية الأمير ومن معه، فقد ظل الأمير جامداً وظلت يداه تمسكان طرفي الكرسي، وقد استغرب أن هندرسين أخرج يده من الشباك وحيّ الواقفين ببساطة.

قال الأمير وهم يصعدون التل بعد الزيارة:

ـ هذه البلية مثل الجرادة تقمّز تقميز وما يعرف الواحد متى يطيح.

رد نائبه:

ـ مطايانا، يا طويل العمر، أحسن منها وآمن.

ـ هذه أسرع بس مالها أمان.

قال حسن رضائي، بعد أن وقف قليلاً:

ـ الاختراعات التي توصل إليها الإنسان لا نهاية لها، كل يوم آلاف الاختراعات، وكل يوم أشياء جديدة، لكن أصل الاختراعات البارود.

هزّ الأمير رأسه موافقاً، لكن الأفكار كانت مضطربة متداخلة إلى درجة لا يستطيع أن يؤكد شيئاً محدداً، وفجأة وجد نفسه يقول:

ـ لو استعملوا البارود بدفعها كان أحسن وأقوى.

ولم يستطيعوا مواصلة النقاش، ولم يجد الأمير كيفية أوضح للتعبير عن الأفكار التي تخطر بالبال فجأة. أما حسن رضائي فكان يرى أن المسافة التي تفصله عن الجماعة كبيرة إلى درجة لا يستطيع أن يكون جاداً، أو أن يتكلم في موضوع جدي.

ما كاد الأمير يصل حتى تطلع أول الأمر إلى الراديو ثم تطلع إلى رجاله الذين ظلوا في دار الإمارة. كان يريد أن يكتشف ما إذا اقترب أحد منهم أو عبث بالراديو أثناء غيابه، فلما لم يلمس ذلك، إذ كانت ردات فعلهم طبيعية هادئة، قال ليبدأ جواً جديداً:

ـ أحسن ما الواحد يركض هنا وهنا جاء العالم لحضنه.

وبكثير من الثقة توجه إلى الراديو. وقبل أن يبدأ قال لحسن رضائي.

ـ صارت الشغلة بسيطة!

وما إن هدر صوت الموسيقى قوياً حافلاً حتى هز الأمير رأسه وأنشد:

«إن عدت عدنا وإن وافيت وافينا وإن هجرت فإنا قد تكافينا

وبعد قليل أضاف بصوت حزين:

«لما خفيت ضنى ووجدي قد ظهر والنومُ من عيني تبدّل بالسهر
ناديت وجداً قد تزايد بي الفكر يا وجد لا تبقِ عليّ ولا تذر
ها مهجتي بين المشقة والخطر

صفق حسن رضائي طرباً، وبدا على وجهه الاستغراب أن الأمير يحفظ الشعر ويردده، دون أن يعرف ذلك من قبل أو أن يقدر، قال الأمير في محاولة تبرير هذه النشوة:

ـ روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، إن القلوب إذا كلّت عميت!

وفي جو من الفرح والشعور العميق بالراحة. وبعد أن دارت القهوة، قال حسن رضائي، بعد أن خفّض صوت الراديو بنفسه، ولم يعترض الأمير:

ـ أريد أن أستأذن بالسفر، يا صاحب السمو.

رد الأمير محتجاً:

ـ اتق الله يا رجل، بعدنا ما شفناك:

ـ لكن أعمالي، يا صاحب السمو تلزمني بالسفر.

توقف لحظة، ابتسم، ثم تابع:

ـ وفي أي وقت تأمر بعودتي سأعود يا صاحب السمو.

قال الأمير وهو يتطلع إلى نائبه، ولكن الكلام موجه إلى حسن رضائي:

ـ سفر يوك.. يفتح الله.

رد حسن رضائي بانكسار مصطنع:

ـ كما تأمر يا مولاي.

قال الأمير بعد فترة صمت وبلهجة مختلفة أقرب إلى الحزم:

ـ ونحن بحاجة إليك هذه الأيام..

ـ أنا بالخدمة يا صاحب السمو.

وما كاد يغيب صوت الموسيقى حتى مال الأمير قليلاً وطلب من حسن رضائي ومن نائبه أن يقتربا وهمس في آذانهم:

ـ قلت للأميركان يرسلون لنا الترجمان عصرية، نريد نشوف طلباتهم وكيف نساعدهم.

ـ قال رضائي بتواضع ماكر:

ـ الأفضل أن لا أكون موجوداً في الأشغال الخاصة بينكم، يا صاحب السمو!

ـ قلت لهم إنك من جماعتنا ويمكن تساعدهم كثيراً.

وبقي حسن رضائي أياماً امتدت إلى أسابيع، إلى حين توقيع عقد بينه وبين الشركة لمدة ثلاث سنوات، وبموجب هذا العقد يتولى حسن رضائي تأمين الأيدي العاملة من أجل بناء خط أنابيب وادي العيون ـ حران، ويتولى تأمين التموين، إضافة إلى تعهد تعبيد الطريق بين عجرة وحران، وتوفير كافة المواد اللازمة، على أن تتعهد الشركة بتأمين الأسفلت وبعض المعدات والآلات.

بعد توقيع العقد، وفي إحدى السهرات، حين خلا الجو تماماً وأنفض جميع الذين كانوا، قال حسن رضائي كأنه يحدث نفسه، لكن يريد الأمير أن يسمع:

ـ لا بد من سماع إذاعة لندن...

أخرج من جيبه ساعة مربوطة بسلسلة ذهبية، نظر إليها وأضاف:

ـ بقي للأخبار ثلاثة أرباع الساعة.

وتحرك بمكر كأنه يستعد للمغادرة من أجل أن يصل إلى الباخرة، وهناك يسمع نشرة الأخبار.

سأله الأمير:

ـ هذا الراديو يأخذ لندن؟

ـ بكل تأكيد يا صاحب السمو.

ـ إذن نسمعها جميع.

ـ أخشى أن أثقل عليك يا صاحب السمو.

وابتسم ثم تابع:

ـ ويجب أن ترتاح.

رد الأمير وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ الراحة نلحق عليها، والليل بعده بأوله!

قال حسن رضائي وقد تغيرت لهجته تماماً:

ـ أريدك، يا صاحب السمو، أن تسمع أخبار لندن كل ليلة.

وخفت صوته وهو يضيف:

ـ لا شيء في هذا العالم يحصل إلا وتكون هذه المحطة أول من يعرف وأكثر ما يعرف!

صمت قليلاً كأنه يتذكر حادثة.. وبعد قليل أضاف:

ـ أول مرة سمعت بحران، يا صاحب السمو، من راديو لندن. راديو لندن هو الذي جاء بأخبار حران كلها: ميناء بترولي، مصافي، مستودعات

تموين للمنطقة وللسفن وأشياء أخرى. قلت لنفسي: يجب أن تزور هذه المنطقة، أن تتعرف عليها، ويمكن للإنسان أن يخدم، ويساعد.

وباندهاش لم يستطع الأمير أن يخفيه، سأل:

ـ هذا كله بحرّانا راح يصير؟

ـ أي نعم يا صاحب السمو.. كل هذا واكثر.

ـ الملاعين الأميركان ما علموني، ما قالوا لأحد.

ـ خبثاء لا يعطون سرهم.

ـ حتى هذا الطقوع، اللي جاءنا ذاك اليوم، الترجمان اللي شفته، ما قال لي شيء أبداً!

وهز الأمير رأسه دلالة الاستغراب والأسف، وبعد قليل أضاف:

ـ وهذه البلايا متى تصير؟

ـ لقد بدأوا يا صاحب السمو، فإذا تم خط الأنابيب من وادي العيون إلى حران يكون كل شيء قد انتهى.

وقهقه الأمير وقال:

ـ حضّروا روسكم يا قرعان.

وشاركه حسن رضائي الضحك. فلما هدأ قال حسن رضائي بنبرة فيها رجاء:

ـ لدي طلب.. يا صاحب السمو.

ـ سم.

ـ في المرة القادمة، بعد شهر أو شهرين من الآن، إذا عشنا، أريد مساعدتك، يا صاحب السمو، في اختيار قطعة أرض لأقيم عليها منزلاً، وكلما كان المنزل أقرب إليكم أكون أكثر سعادة.

ـ حلت البركة، اختر أية أرض وهي لك.

ـ الأرض التي تختارونها.

ـ حلت البركة.

وبعد قليل وبلهجة مسكينة تماماً قال حسن رضائي:

ـ قبل فترة لم أسمع بحران ولم أفكر بها.. والآن كما ترى، يا صاحب السمو.. فسبحان الله.

وانصرفا إلى الراديو، حتى إذا عثر حسن رضائي على محطة لندن قال بثقة:

ـ في هذا المكان، ليلاً، تكون لندن مسموعة وواضحة، أما في النهار فلها مكان آخر.

وبدآ يسمعان نشرة الأخبار باهتمام.

قبل أن ينتهي تعبيد الطريق بين عجران وحران بسنة وبضعة شهور، بدأت تصل بين فترة وأخرى إلى حران سيارتا شحن كبيرتان. الأولى يسوقها الأرمني آكوب «مدبرها» والثانية راجي «أبو عقلين». لم يكن إسماهما هكذا، لكن الكثيرين لا يعرفونهما إلا بهذين اللقبين. حتى في الأوراق الرسمية التي نظمت في وقت متأخر لراجي، كان يضاف إلى جانب اسمه: راجي سليمان النونو، كلمة الملقب، بأبو عقلين.

لم يكن للسيارتين مواعيد ثابتة أو برامج منتظمة سواء في الوصول أو في المغادرة، وإنما تعتمدان على تقديرات آكوب وراجي للسوق في حران، أو على مزاجهما. أما في عجرة فإنهما تخضعان تماماً لما يفرضه عبود السالك.

كانت السيارة الواحدة، إذا سافرت من عجرة، تحمل بين العشرين والخمسة والعشرين رجلاً مع أحمالهم وأحمال أخرى. أما الرحلة بين البلدتين، والتي لا تزيد المسافة بينهما على المائتين وعشر كيلومترات، فكانت تستغرق أكثر من ثلاثين ساعة في الغالب، لأن السيارة لا بد أن تغرز في الطريق أو قد تتعطل، وفي الحالتين يجب أن تفرغ من حمولتها، ويجب أن يشترك الجميع في تفريغها ودفعها ثم في إعادة تحميلها مرة أخرى، وهذا يستغرق بضع ساعات في العادة، وقد يتكرر مرتين أو ثلاث مرات في كل رحلة. يضاف إلى ذلك أن السيارة لا بد أن تستريح مرة أو اثنتين، في المائة وعشرة على وجه التأكيد، وهي محطة على الطريق بين البلدتين منذ وقت طويل، وكانت تتوقف فيها القوافل أيضاً، لأن فيها بئراً. وفي أحيان كثيرة بدل المحطة الواحدة اثنتان، وكانت الثانية في الكيلو مائة

وستين، وهي محطة نشأت أثناء تعبيد الطريق. وهاتان المحطتان عبارة عن مقاهٍ صغيرة، يقدم فيها الشاي والقهوة وبعض الأحيان الأكل، وقد اكتسبتا هذين الإسمين بالتداول المستمر، لذلك لا يستغرب أحد إذا استغرقت الرحلة يومين متتالين. فإذا لم تتأخر السيارة في الطريق فلا بد أن تتأخر في إحدى المحطتين. أما ما يتكلفه المسافر قبل ذلك من انتظار فلا يمكن أن يقدره أحد. فبعد أن افتتح عبود السالك «مكتب سفريات البادية» في عجرة أصبح الجهة الوحيدة التي تؤمن السفر والنقل بين البلدتين، فالشخص الذي يريد السفر، أو صاحب الحاجة الذي يريد أن يؤمن نقل حاجة من حران أو إليها، ما عليه إلا أن يذهب إلى عبود السالك، إلى مكتب سفريات البادية، وهو عبارة عن دكان عادية في عجرة، وهذه الدكان تقوم بجميع الأعمال والخدمات، لكنها الوحيدة التي تتولى القيام بنقل البضائع والمسافرين.

على باب مكتب سفريات البادية كان عبود يقف مثل ثعلب مسن منتظراً الفريسة، وما يكاد يرى واحداً من أولئك البدو، أو من الباحثين عن عمل، وبفراسة مدربة ملعونة يقدر أنه يريد السفر إلى حران، حتى يطلب إلى الصبي الذي يستخدمه أن يصرخ: «حران، مسافر واحد إلى حران، راكب واحد إلى حران» أما عبود نفسه فإنه ينزلق مثل سمكة إلى داخل الدكان، يجلس وراء طاولة قديمة فوقها ميزان وينكبّ على الدفتر الكبير المفتوح أمامه، متظاهراً أنه شديد الاستغراق في الكتابة أو مراجعة الأرقام والحسابات، والبدوي، أو ذلك الغريب، اما أن يسقط رأساً في أحضان عبود، حيث يأتي مباشرة، مستجيباً لنداء الصبي، أو يتظاهر، بمكر بدائي، إنه لا يريد السفر، فيتجاوز الدكان، لكنه لا يستعجل. فإذا سقط المسافر مباشرة، وأعلن عن رغبته في السفر إلى حران، وإنه جاهز ومستعجل، كان عبود لا يرفع رأسه عن الدفتر إلا بعد فترة، وحين يرفعه يتظاهر بالتعب والضجر، فإذا رأى البدوي متلهفاً يريد أن ينتهي بسرعة قال له بلهجة آسفة: «الله يصلحك.. لو جيت قبل ساعة يا ابن الحلال، قبل ساعة السيارة قامت» وينتظر لحظات ثم يضيف: «لكن ولا يهمك... أنا أدبرك» وبعد مفاوضات فيها الكثير من المشقة بين الطرفين، يشترط عبود

أن يدفع البدوي فوراً لأن «باكر تقوم السيارة بإذن الله» والبدوي الذي يبدي تردداً ظاهراً في دفع الأجرة، متذرعاً أنه أودع فلوسه عند جماعته، يجيبه عبود بأن يهز يده في وجهه بنوع من الاحتقار طالباً منه أن يذهب عنه ويتركه لأعماله، فيوافق البدوي على دفع نصف الأجرة، أما النصف الثاني فسوف يدفعه حالما يركب السيارة، وبحزم، لكن دون قسوة، يرفض عبود هذا الاقتراح. وبعد أن يخيم الصمت ويستغرق عبود مرة أخرى في دفتره الكبير يجد البدوي نفسه مضطراً للموافقة، لكن يطلب من عبود أن يسجله، ريثما يذهب هو ويأتي بالأجرة، فيقول عبود بعدم اهتمام، وهو ينهض لكي يلقي نظرة على الخارج:

ـ التسجيل بعد الدفع.

فلما يمر بالبدوي الجالس على الأرض يقول له:

ـ تدفع تاخذ وصلك بيدك... ورجلك تصير بالسيارة!

ويخرج البدوي، ويكون عبود جالساً على سحارة، مستنداً إلى الجدار، فيقول له بصوت عالٍ:

ـ إذا تأخرت يا ولد تنتظر السيارة التالية، بعد أسبوع، أسبوعين.. الله أعلم.

يغيب البدوي ساعة وحين يعود يمد عبود يده بصمت، يحرك أصابعه دلالة أن يدفع له بسرعة، دون تردد أو تأخير، فإذا حاول البدوي من جديد دفع نصف الأجرة، على أن يدفع النصف الآخر في الغد، يغضب عبود، أو يتظاهر بالغضب إلى درجة أن يصرخ في وجهه، بعد أن يقترب منه:

ـ مالك سفر من عندنا، تسمعني؟ ولا انت من الناس اللي يركبون سياراتنا.

ولا يتأثر البدوي من هذا الكلام، كأنه لم يسمعه، ومع ذلك لا يزال حائراً متردداً، لكنه في النهاية يمد يده إلى صدره فيخرج صرة مربوطة بعناية، وقبل أن يشرع بفكها، وقد جلس على الأرض، يسأل:

ـ باكر نسافر؟

ويهز عبود رأسه مؤكداً، ويحرك يده طالباً منه أن يستعجل في تسليم الأجرة، لكن البدوي ما زال متأنياً هادئاً خائفاً، وهنا يتركه عبود لأن «الدوسة القوية تكسر» كما يقول في وصف شطارته. يتركه ويذهب إلى طاولته، يفتح الدرج، يخرج قطعة حديدية مستديرة تشبه قطعة النقد القديمة الممسوحة، وإن كانت أرق وأكبر، ويخرج قطعة من الورق بمساحة نصف راحة اليد، فيوقع على الورقة توقيعه الطويل المعقد وينتظر، فإذا أخرج البدوي النقود، وعدّها مرتين أو ثلاث مرات وسلّمها، فإن عبود في لحظة خاطفة يعدها، وبعض الأحيان يحزرها لأنه اختلس النظر وراقب عدها. ويدفع إلى البدوي القطعة المعدنية والورقة:

ـ الحديدة ترجعها للمكتب قبل ما تسافر، والورقة تسلمها للسائق.

وبعد أن يأخذ البدوي القطعة المعدنية والورقة، ويلقي عليهما نظرة طويلة، ولا يفهم منهما شيئاً البتة يضيف عبود:

ـ إذا ضيّعتهم ما تركب، ولا لك عندنا شيء.. تسمع؟

ويهز البدوي رأسه، ومن جديد يفك الصرة، التي ربطها قبل قليل، ويضع فيها القطعة المعدنية والورقة. وبعد أن يصرهما بحرص وعناية يسأل بطريقة جديدة:

ـ ومتى نسافر؟

ـ إذا عشنا السفر يكون باكر أو اللي عقبه.

وحين يرى الخوف في عيني البدوي يضيف:

ـ باكر، بعد صلاة العصر. مرّ بنا، والله كريم.

ـ بعد صلاة العصر؟ باكر؟

ـ تعال الظهر.

ـ والسفر متى؟

ـ نريد بعد كم راكب، إذا جاءوا نسافر اليوم.

ويرى الخوف يزداد في عيني البدوي الذي يحس أنه وقع ضحية، بعد أن دفع الفلوس، ولا يعرف متى يسافر، ولكي يبدد مخاوفه يسأله:

- إذا كان عندك خويا يريدون السفر إلى حران هاتهم وتعال.

ولكي ينهي عبود مناقشته يقول وهو خارج من الدكان:

- تعال الصبح ونشوف.

فإذا أبدى البدوي مزيداً من التردد والخوف يأمر له عبود بكأس من الشاي، ويبدأ يسأله عن المكان الذي جاء منه، ومن أية قبيلة هو، ولماذا يريد السفر إلى حران، ولا ينتظر إجاباته كلها، يبدأ يحدثه كيف أصبحت حران منطقة عامرة، والأشغال فيها كثيرة ويختم حديثه:

- وباكر إذا وصلتها، إن شاء الله، تتوفق، وما أظنك تتركها.

هذا هو النمط الغالب من مسافري «مكتب سفريات البادية». فبعد أن يجمعهم عبود واحداً واحداً، ويؤجل سفرهم يوماً بعد آخر، وقد يمتد هذا التأجيل إلى أسبوع أو عشرة أيام، متذرعاً مرة «أن السيارات انكسرت» أو «راحت تحمل» ومرة أخرى أن «الأرمني جاءته السودا وما يريد يتحرك، فإذا سافر بدون رضاه يمكن يذبح الركاب» فإذا تجمع ما يعتبره كافياً من الركاب والحمولة، ورجعت إحدى السيارتين من حران، واستراحت يوماً أو يومين، بدأ الاستعداد للسفر. إنه يوم غير عادي في عجرة، ولا يقل أهمية عن وصول قافلة من قوافل الحج. إذ يبدأ الهرج والمرج في السوق كله، من عمليات بيع سريعة، إلى السؤال عن بعض الركاب، إلى نقل المواد، وغير ذلك. فإذا تجمع المسافرون، وبدأ كل واحد منهم يحاول التقدم على الآخرين، أو أن يحتل مكاناً يعتبره أهم من الأمكنة الأخرى، وترافق ذلك مع صياح عبود وشتائمه، وتهديده أن يوقف السفر، وآكوب الذي كان يدور حول السيارة ويتفقد أجزاءها بعناية وصمت، لا بد أن تخرجه عن طوره تلك الفوضى والأخطاء التي يرتكبها عبود والركاب، فإذا استجاب الجميع لما يطلبه، بوضع الأحمال الثقيلة في أمكنة يحددها، بشكل يضمن توازن السيارة وإمكانية تفريغها في حالة التغريز، فعندئذٍ يواصل إعطاء تعليماته باختصار شديد ويشارك مشاركة فعالة في وضع الأشياء في أماكنها. أما إذا لم يستجب للتعليمات التي يصدرها، أو انشغل عبود بالقطع المعدنية التي وزعها على الركاب يجمعها مرة أخرى، تاركاً

هؤلاء يفعلون ما يشاءون، فلا بد أن يتصرف آكوب بطريقة أخرى، يقول لعبود وقد اشتعل غضباً:

ـ اتعبوا . . اتعبوا حبيبي، لكن الحمل كله لازم ينزل.

ويستدير آكوب ذاهباً إلى المقهى، فإن أدركه عبود قبل أن يصل واسترضاه فعندئذٍ يمكن أن يسافر ذلك اليوم، أما إذا وصل إلى المقهى، وجاءت الأخبار عن الفوضى التي تجري هناك، وأن عبود يرفع وينزل، والدنيا قائمة قاعدة، فعندئذٍ لا يمكن أن يرضى بسهولة، وقد يمتد غضبه يوماً أو اثنين، ولا بد أن ينزل الحمل كله، وأن يرفع من جديد حسب التعليمات التي يعطيها. وفي هذه الحالة يعتصم عبود داخل الدكان، ويكون شديد الانفعال سريع الإثارة، وقد تحصل حوادث كثيرة أيضاً، كأن يرفض تسفير أحد الركاب بحجة أنه أضاع القطعة المعدنية، أو يطلب مبالغ إضافية عن الأحمال التي يعتبرها زائدة. ومن شأن هذه المناقشات أن تطول وأن تتعقد، وقد تأخذ مجرى لا يمكن التحكم به!

إذا انتهى كل شيء وأصبحت «الفورد» القديمة جاهزة للسفر، وعلى ظهرها هذه الأحمال كلها، ولا يعرف كيف أمكن حشدها وتنظيمها، لا بد من أن يلقي آكوب نظرة أخيرة، وحين يطمئن لكل شيء يقوم بحركات غامضة. . ويبدأ. فإذا كان الوفاق بينه وبين عبود كاملاً فعندئذٍ يرافق عبود الرحلة راكباً على الجناح قاطعاً الطريق حتى المفرق، وخلال هذه المسافة يصرخ على الركاب منبهاً محذراً، كما يوزع تحيات كثيرة على كل الذين يمر بهم. وعند المفرق يترك عبود السيارة، لتبدأ رحلتها الطويلة الشاقة إلى حران.

هكذا بدأت السيارات تصل إلى حران، ومعها البضائع والبشر، فإذا وصل آكوب وتجمع حوله الكثيرون قرب المسجد، إلى جانب سوق الدواب، لا يمكن للإنسان أن يميز الرجال الذين يهبطون من السيارة. يكون الغبار الكثيف قد لفهم وغطاهم تماماً، حتى أجفانهم أثناء انفتاحها وانطباقها تبدو كما لو تنفخ في طحين أو رماد، ومع الرجال الذين يهبطون تنزل الأحمال ترافقها الصيحات والتحذيرات والأسئلة، وآكوب الذي

يشرف على كل شيء بصمت، عليه بعد ذلك واجبات أخرى كثيرة: الأشياء التي يحملها إلى دار الإمارة، أو إلى دحام وإلى آخرين كثيرين كانوا قد أوصوه عليها في سفراته الماضية، أو أرسلها أحد من عجرة، بما في ذلك الرسائل وبعض المبالغ، كل ذلك لا بد أن يصل إلى أصحابه.

هذا الكهل المتين، الذي لا يمكن لإنسان أن يحزر عمره، الصامت أغلب الوقت، إلا عندما تنتابه لعنة الغناء، فيخرج صوته من منخريه، ولا يعرف ما إذا كان غناؤه تعبيراً عن فرح أم حزن، ولا يُميز في هذا الغناء سوى كلمة واحدة تتردد باستمرار: آمان آمان.

هذا الإنسان لا أحد يعرف على وجه الدقة لماذا جاء أو من أين. قال مرة إنه من حلب، وقال مرة أن أصله من مكان أبعد بكثير. وقال ذات مرة، في إحدى لحظات النشوة والتحدي، إنه جاء من أجمل مكان في الدنيا، وإنه لا بد أن يعود إليه في يوم من الأيام.

آكوب أصبح جزءاً من حران. إذا لم يكن في حران نفسها فهو في طريقه إليها، ولا بد أن يصل بين يوم وآخر. ومثلما كانت تصل القوافل من قبل ومعها المؤن والأقمشة والرسائل، أصبحت «سفينة نوح» كما أطلق الأمير على سيارة آكوب، تصل مرتين أو ثلاث مرات في الشهر، وعليها كل شيء. الناس ينتظرونها بلهفة واهتمام، إذ إضافة إلى ما تحمله من المؤن والأقمشة والرسائل، كان آكوب يحمل معه أشياء جديدة باستمرار، وهذه الأشياء هي التي لفتت نظر الأمير وجعلت آكوب شخصاً مقرباً إليه. فبعد أن ضعفت بطارية الراديو، ولم يأت حسن رضائي بواحدة جديدة، لأنه كان مسافراً، وأصبح صوت الراديو لا يكاد يسمع إلا في الليل المتأخر، وعلى شكل حشرجة غير مفهومة، كان آكوب هو المنقذ. إذ شحن البطارية وأبدى استعداده أن يفعل ذلك كل مرة، وقال إن البطارية، حتى لو ماتت، يمكن إعادة الحياة إليها، وقد أدهش هذا الأمر الكثيرين، خاصة الأمير، ولم يصدق في البداية، لكن حين سمع صوت الراديو يهدر، أثنى على هذا الأرمني «الإبليس». أما بابور الكاز الذي كان يستعمله آكوب في إعداد طعامه، فقد كان شيئاً عجيباً في بداية الأمر، وعندما أبدى

استعداده أن يحضر إلى حران ثلاثة أو أربعة من هذه البوابير، وأن يبيعها بأسعار معقولة، فقد رغب الكثيرون في اقتنائها. ولكي يكون صادقاً قال إنه لا يستطيع أن يؤمن في سفرته اللاحقة سوى ثلاثة، وما تبقى يمكن جلبه بعد شهرين أو ثلاثة من حلب! في وقت آخر أحضر آكوب مصابيح تعمل بالبطارية الجافة. وكانت صغيرة الحجم تحمل باليد، وقد كانت نافعة جداً، خاصة للذين يسهرون ويعودون متأخرين إلى بيوتهم، بعد أن حُفرت طرقات حران كلها وتكومت الحجارة والرمال في كل مكان. أما حين أحضر آكوب ماكنة يدوية لفرم اللحم، وبدأ أبو كامل استعمالها في حران، فقد أدهشت الجميع وهم يراقبون آكوب يثبتها على دف قوي أولاً، ثم وهم يراقبون أبا كامل يضع قطع اللحم الكبيرة في ناحية، وتخرج قطعاً صغيرة من الناحية الثانية.

و«الترمس» الذي كان آكوب يشرب منه ظل سراً مستعصياً على الكثيرين، لأن أحداً لم يستطع أن يفسر الحرارة التي تنبعث منه، كما لم يشأ هو أن يتكلم عن ذلك، لأن هذا الترمس إذا عرف به الأمير فلا بد أن يطلبه أو يأخذه بشكل ما، ولأن آكوب لا يستطيع أن يستغني عنه أبداً، فقد كان يخفيه عن الجميع! كان يحتفظ به في مكان صعب الوصول إليه، وهذا ما فسر الإشاعات أن آكوب يشرب «بول إبليس»، أي إنه يشرب الخمر.

وعشرات الأشياء المتنوعة المثيرة كانت تصل أيضاً على سيارة آكوب: أمشاط العظم القوية المصقولة، المرايا، المحاقين الصغيرة، الأحذية المصنوعة من مطاط السيارات، ثم المسلات والخيوط القوية، ما تكاد هذه الأشياء تصل ويراها الناس حتى تنهال الطلبات عليها. كل واحد يريد حاجة أو أكثر، وفي حالات كثيرة لم يكن في ظن آكوب أو تخطيطه أن يبيع هذه الحاجات. فالمصباح الذي يعمل على البطارية الجافة كان يستعمله في تفقد محرك السيارة، أو حين ينزل تحتها لمراقبة بعض أجزائها، لكن ما إن يراه الناس، فيبدأوا بإشعاله وإطفائه، حتى يروق لهم، وإذا بكل واحد منهم يرغب بالحصول على مثله. وآكوب الذي يستجيب لهذه الرغبات ويهز رأسه، لم يكن قادراً على رد الكثير من الطلبات، فما

يكاد يوافق حتى يجر من وراء أذنه قلماً، وعلى كرتونة موضوعة في باب السيارة، من الداخل، يخط خطوطاً تثير الدهشة والعجب معاً. والذين كانوا يراقبون بمقدار ما يحرصون على تأكيد طلباتهم، يعجبون لهذه الخطوط الغامضة المتداخلة التي يخطها. إنهم لا يحسون أبداً أن ما يفعله آكوب هو الكتابة، إنها أقرب إلى الرسوم البدائية المضحكة. فإذا سألوه عنها يجيب بعصبية: «العسكر العصملي لا يسأل مثلكم» فإذا صمتوا وهدأ آكوب يقول بلهجة لا تكاد تفهم «حبيبي.. انت بدك حاجة أو بدك شي تاني؟» فإذا هز صاحب الحاجة رأسه أو قال إنه يريد الحاجة يضحك آكوب ويضيف: «خلي آكوب يعمل اللي في راسه!».

هكذا كانت تجري الأمور مرة بعد أخرى، وبات آكوب ضرورة لحران تزيد يوماً بعد يوم، وأصبح أصدقاؤه يتكاثرون باستمرار. فالذين جاءوا على سيارته إلى حران، وبالرغم من كل ما حصل من تأخير وشتائم، ثم التعب الذي حل بهم أثناء الطريق، خاصة وهم يفرغون السيارة من حملها أثناء التغريز، كل هذا يمكن نسيانه. الشيء الوحيد الذي يبقى عالقاً في أذهانهم ولا يمكن أن ينسوه أبداً، إن آكوب هو الذي حملهم إلى حران. لقد أصبحوا مقيمين بمعنى ما، وللمقيم قوة أو ميزة يحسها لنفسه خلافاً لأي مسافر. والذين لم يسافروا مع آكوب لا بد أن يكون قد قدم لهم خدمة من نوع ما، بحمل رسالة، ببيع حاجة من الحاجات، أو تلك المساعدات التي تعود تقديمها. فابن نفاع مثلاً كان يخشى «هذا الكافر» لكن ما كاد البابور الذي اشتراه بشكل غير مباشر يتعطل، وجاء آكوب حتى دفعه إليه بنوع من القسوة لكي يريه الحاجات الرديئة التي يحملها ويبيعها، ما كاد يحصل حتى هب آكوب إلى إصلاح البابور، فوضع له جلدة جديدة من عنده، ونفضه نفضاً جيداً، وبعد أن أشعله وتأكد منه أعاده إلى ابن نفاع، وحين حاول هذا الأخير أن يدفع له أجراً على ذلك رفض آكوب بإصرار.



ومثلما كان آكوب يعمل على «الخط» ـ هكذا أصبح يسمى طريق

عجرة حران ـ كان راجي أبو عقلين. وراجي طويل، ضامر، أصلع، أو بالأحرى يشكل شعره هلالاً حول رأسه. عصبي المزاج كثير الشتائم، وفيه الكثير من الصفات المناقضة لآكوب، لكنه مع ذلك شديد الطيبة سريع النسيان، خاصة نسيان الإساءة. كان إذا وصل إلى حران يتوجه مباشرة إلى المقهى، تاركاً «المعاون» يشرف على تفريغ السيارة «لأن دق طاولة مع أبو أسعد يُنسي الإنسان أنه في هذي الزفت اللي اسمها حران». فإذا وجد أبا أسعد مشغولاً، أو غير راغب في اللعب، فإنه يجلس في المقهى، بعد أن يعمر نفس أركيله، ويشرف على ذلك مباشرة، ليبدأ الشتائم والتعريض، وخلال ساعة يكون قد تعارك مع الجميع، وأسمع الكثيرين كلمات قاسية دون مبرر. يظل هكذا لا يصمت ولا يهدأ إلى أن يوافق أبو أسعد على اللعب معه. وما تكاد «المباراة» التي يتخللها الكثير من التحدي والصراخ وضرب الأحجار بقوة، إضافة إلى رمي الزهر بطريقة تؤدي إلى خروجها من الطاولة، وحرب الأعصاب التي يلجأ إليها راجي لتجعل اللعب ساخناً مستفزاً، ما تكاد المباراة تبدأ وتتطور حتى يتجمع الكثيرون، ومع المراقبة تبدأ التعليقات والهمسات.

راجي عالم خاص، رجل لا يمكن أن يتكرر. فما يكاد يضم الزهر بين أصبعيه، بعد أن يكون قد خضه كثيراً، حتى يتطلع في وجوه الذين حوله، أو يرفع رأسه وكأنه يبحث عن أحد، وحين تلتقي عيناه بعيني ذلك الشخص الذي يفترض أنه صاحب حظ يقول بصوت عالٍ: «العيونك!». فإذا جاء الزهر مواتياً أو كما يريد يلتفت إلى من تطلع إليه ويقول له وهو يهز رأسه: «حظي وحظك يفلقان الصخر.. تعال وابق قريباً مني». فإذا اقتنع من وُجّه إليه الكلام واقترب، أو راقب اللعبة وكأنه أصبح شريكاً فيها، فالربح دائماً لراجي والخسارة لذلك المنكود، فلا بد أن يوجه له راجي بين رمية وأخرى نظرة، وبعض الأحيان كلمة. كان إذا جاء الزهر قوياً يقول: «تسلم إيدك يا راجي، المسألة ما هي حظ. لا. رمية الزهر هي الأساس، وهذه رمية المعلم راجي» أما إذا جاء الزهر ضعيفاً أو على غير ما يشتهي يصمت قليلاً. ثم يلتفت بكليته إلى ذلك الشخص الذي

راهن عليه وبشكل مفاجئ يصرخ: «تفضل، شوف حظك» ويصمت قليلاً ثم يضيف فتخرج الكلمات من بين أسنانه «وجه يقطع الرزق»، ويغير صوته مرة أخرى حتى يتحول إلى همس مسموع مشيراً إلى ذلك الشخص: «لا تُحول عينك فينا يا أخ، لفّ وجهك والأحسن تفرقنا». كان الكثيرون لا يفهمون الكلمات التي يقولها، لكنهم يقدرون معناها. وأبو أسعد الذي يحرص على شيئين معاً، وبنفس المقدار: أن يربح الدق، وأن لا يخسر الزبائن، كان يحاول كل شيء من أجل أن يسيطر على اللعب، أن يبقيه ضمن حدود معقولة، ففي لحظة من اللحظات يتصنع الغضب، ويصرخ في وجه راجي

ـ اسمع. . الناس ما لهم علاقة. . أنا وأنت وهذه.

مشيراً أولاً إلى نفسه، ثم إلى راجي، وأخيراً إلى الطاولة التي بينهما. ويهز راجي رأسه دلالة عدم الاقتناع ويرتفع صوته.

ـ اسمع يا أبو أسعد، لا تحطني وسطاني وتقول لي طاولة.

ويلتفت إلى الناس الذين يتابعون اللعب:

ـ كلهم جماعتك، كلهم مع أبو أسعد، وراجي كلب ابن كلب، خليه ينغلب مائة مرة.

بعد مناقشة عصبية، يؤكد خلالها أبو أسعد أن اللعب نزيه، وأن لا أحد تدخل فيه، وما يعتبره راجي تحيزاً مجرد مزاعم لإخفاء ضعفه وإنهاء اللعب قبل أن يُغلب، بعد هذه المناقشة يوافق راجي على الاستمرار، شريطة أن لا يراقبه الآخرون، أن لا يتابعوا كل لعبة وكل رمية زهر، فيعتبر أبو أسعد أن راجي هو الذي لفت نظر الآخرين وجرهم إلى المراقبة من خلال عربدته وصياحه. لذلك فإن الطريقة العملية لصرف الناس عن المتابعة والمراقبة هي أن يكف الإثنان عن كل تعليق، أن يلعبا بهدوء، وسوف يكتشف بعد فترة قصيرة أن لا أحد يتابعه أو يراقبه. ويوافق أخيراً ويعاودان اللعب، لكن ما يكاد يتحسن مركز راجي قليلاً أو يسوء حتى تبدأ المشكلة من جديد، لأنه لا يستطيع أن يستمتع بالغلب منفرداً، ولا يجد اللعب جميلاً إلى درجة الروعة إذا لم يشاركه الآخرون الاعتراف. أما

الخسارة فلا بد أن تكون نتيجة خطأ أو أن «الزهر ميت، عظم كلب» ويؤكد أن عيناً تتابع كل حركة، وتنفث أنفاسها مع كل رمية زهر.

ـ المرات التي غُلب فيها راجي لا حصر لها. لكنه ينساها بسرعة، يتذكر فقط المرات التي فاز فيها. يتذكر من كان موجوداً وكم كانت النتيجة. ويتذكر أيضاً الوقت والجو وما أعقب اللعب.

ومثلما كان آكوب مهماً لحران كان راجي كذلك، لكن كل بطريقته. فراجي سريع التقلب، كريم، يحب التدخل في كل قضية من أجل تقديم المساعدة أو النصح. حتى لو لم يطلب منه، ولا يتردد عن حمل بعض المسافرين الفقراء مجاناً، فإذا وصل ذلك إلى علم عبود فلا بد أن تقع مشادة بين الاثنين، لكن ينتهي كل شيء حين يوافق راجي على أن يُخصم من أجرة النقلة الجديدة الكومسيون الذي يستحقه عبود عن الراكب. وعبود الذي يوافق بسرعة، لا يريد أن يغضب راجي إلى درجة تخرجه عن طوره، لأن هذا إذا حصل لا يمكن أن ينتهي على خير «راجي أبو عقلين، مجنون، يده والضرب، يضرب بأي شيء، بمناويل السيارة، بالمفك الكبير، بأي شيء يضرب.. ويعوّر!» ولذلك فإن جميع الذين يعرفونه لا يتمادون إلى درجة كبيرة في إثارته أو استفزازه.

لم يكن آكوب وراجي يلتقيان في مكان واحد إلا لفترات قصيرة، على الطريق غالب الأحيان، فواحد منهما في حران والآخر في عجرة. واحد في هذا الاتجاه من الطريق والآخر في الاتجاه المعاكس. فإذا صدف والتقيا في المايه وعشرة أو المايه وستين، أو في غيرهما من الأماكن، وبعد أن يتبادلا أسئلة عادية وأخبار الطريق والسوق لا يجدان الكثير ليقوله الواحد للآخر، فإذا افترقا فإن لدى راجي دائماً ما يقوله عن آكوب: «طوله طول الشبر، طول الفتر، الدركسيون أطول منه. مساكين الركاب، يمكن في كل لحظة يقتلهم، لأنه قصير ولا يرى الطريق. قصير وأعمى، وإذا عتّمت العين.. خطوتين ما يشوف قدامه. مساكين الركاب».

هكذا يبدأ راجي التعريض، فإذا أبدى المعاون اهتماماً بما يقول، أو أصغى بعيون مفتوحة فإن راجي يتابع: «صحيح إن الطول والنظر من الله،

هذا الشيء معروف، الله سبحانه وتعالى خلق واحد طويل وخلق الثاني قصير، لكن المصيبة أنه لا يعرف السواقة. سواقته شيش بيش، وعامل نفسه أبو السواقة ورب المكانيك.. هذه هي المصيبة» وحين ينظر إليه المعاون بطرف عينيه يدرك راجي أن معنى هذه النظرة عدم الثقة أو عدم الموافقة فينفعل ويهدر صوته:

ـ لا تحول عينيك... اسأله هو نفسه كم مرة غرّز السفرة قبل الماضية. اسأل جماعة المية وستين كم مرة سحبه التراكتور؟ لو كان سواق مثل الخلق والأوادم لبان وظهر لكن الأعور بين العميان ملك.

وحين يجد أن كلامه غير مقنع يتحول إلى جانب آخر:

ـ اتركنا من هذا التشوتشوك اللي ما يبول على يد مجروح. للرغيف السخن ما يضحك، يأكل وحده، يشرب وحده، وكلام لا يتكلم، كله شغل.. حتى شغله زعبرة. طول النهار حامل العدة ومبطوح تحت السيارة يفك ويشد، كل هذا زعبرة. بده يضحك على الناس، لكنه مكشوف مثل قفا السعدان.

إذا وصل هذا الكلام أو بعضه إلى آكوب يبتسم ابتسامة صغيرة ولا يتكلم. إنه شديد الثقة بنفسه وبإمكانياته. وحتى الأشياء التي لا يعرفها يقول إنه لا يعرفها، ومع ذلك يحاول، وكثيراً ما انتهت محاولاته إلى النجاح. فالمدحلة التي توقفت عند الكيلو مائة وستين، وفشل حتى المهندس الأميركي في إصلاحها، وقال إنها تحتاج إلى قطعة غيار، وما لم تتأمن هذه القطعة لا يمكن أن تتحرك من أرضها. ظل آكوب يحاول ويعالج إلى أن أصلحها. وكذلك ماتور الماء في الطريق أصلحه بعد أن رفع الجميع أيديهم وأعلنوا عجزهم، ونفس الكلام يقال عن التراكتور.

أما إذا بالغ راجي في الحديث عن آكوب، خاصة ما يتعلق ببخله، وأنه يأكل ويشرب وحده، فكان آكوب يتأثر أشد التأثر، لكنه يخفي ذلك، يكتفي بأن يقول: «بسيطة.. بكرة نشوف» ولم يكن أبداً مستعجلاً. والناس الذين يراقبون هذه الحرب، دون أن يجدوا لها مبرراً معقولاً أو سبباً، كانوا ينظرون إلى آكوب بتعاطف، ويعتبرون راجي متجنياً قاسياً.

ظلت الأمور هكذا فترة طويلة من الزمن. الطريق يتكامل تعبيده شهراً بعد آخر، والركاب الذين انتقلوا عن إحدى السيارتين بدأوا يستقرون في حران بعد أن وجدوا عملاً. الأشياء الجديدة لا تزال تصل مع آكوب، وكذلك الرسائل والخدمات الأخرى. وراجي في لحظات معينة يتذكر آكوب فيثير شجونه ويبدأ. وآكوب يسمع ويصمت.

كان يمكن لهذه الحرب الغامضة أن تنتهي بشكل عنيف ذات يوم، حين تستبد بآكوب ثورة من ثوراته التي تغيب فترة لكي تنفجر على حين فجأة فتدمر وتحرق. وكان يمكن لهذه الحرب أن تتراجع وتهدأ حتى تخمد من تلقاء ذاتها. كان يمكن أن يحدث مثل هذا، لكن الأمور حصلت بشكل آخر تماماً.

فبعد أن طالت غيبة راجي عن عجرة أكثر من أية سفرة سابقة، وكان سوقها ساخناً، بحيث يمكن تحميل سيارة كل يوم، عكس سوق حران الذي كان ميتاً تماماً، وكان الاتفاق مع عبود أن تصل السيارة وترجع بأقصى سرعة ممكنة، في هذه السفرة التقى آكوب راجي عند الكيلو مائة وستين، الأول في طريقه إلى عجرة والثاني ذاهب إلى حران، وبعد أن حمّل آكوب وعاد مرة أخرى، وجد راجي في الكيلو مائة وستين لم يتحرك: السيارة مكسورة.

كان يمكن لآكوب أن يتوقف قليلاً، أن يتظاهر بتقديم المساعدة ثم يمضي، وكان يمكن أن يسخر وهو يرى راجي وقد تحول إلى قطعة من السواد نتيجة الدهون والزيوت التي غرق فيها، بعد أن استمرت محاولاته في إصلاح السيارة بضعة أيام وانتهت إلى الفشل، لكن ما كاد يرى ذلك حتى اندفع مثل ثور، اندفع بتصميم لا يعرف الهدوء أو التردد، وراجي الذي كان يدور مثل نحلة، يعرض على آكوب كل ما فعله، ويضع احتمالات معينة، فيسمع آكوب ولا يسمع، ينظر إلى راجي ولا يراه، وبعد أن يغمض عينيه فلا تبينان إلا كخطين أسودين، يطلب أن يناوله المفتاح رقم ستة، أن يناوله المفتاح خمسة، وبعد أن يحاول ويحاول يطلب مفتاحاً آخر، ثم مفتاحاً غيره، وبعد أن يفك وينفخ وينظف يطلب من راجي أن

يشغّل المحرك، وبعد عدة محاولات، خلال ساعة أو أكثر قليلاً، يقول آكوب بثقة:

ـ خلص. . كل شيء تمام، شغّل وامش وأنا وراءك.

وهكذا بعد أن قضت السيارة عدة أيام في الكيلو مائة وستين سارت بقوة حصان، ورغم التعب الذي حل بالجميع فإن راجي كان أكثر الناس رغبة في مواصلة المسير، وخلال بضع ساعات وصلت السيارتان، لأول مرة، معاً إلى حران.

هذه الواقعة التي جرحت راجي جرحاً بالغاً لم تغيّر في سلوكه تجاه آكوب إلا تغييراً بسيطاً، إذ لم يتوقف عن التعريض به كلما وجد مناسبة لذلك، وآكوب يسمع ويصمت، فلا تحدث عن الكيلو مائة وستين ولا أشار إليه مجرد إشارة، كل ما قاله «إن من وجد صديقاً بحاجة إلى مساعدة ولا يساعده يكون مثل العقرب، فالعقرب يموت عندما يلدغ نفسه».

لكن رغم أن راجي لم يغير موقفه من آكوب، ولم يتوقف عن التعريض والشتم، فإن شيئاً جديداً قد حصل: أصبح يثور إذا سمع أحداً يشتم آكوب أو يتكلم ضده كلمة واحدة. من حقه وحده أن يفعل ذلك، أما إذا أبدى إنسان ملاحظة، مجرد ملاحظة، على آكوب، حتى لو كان يردد ما قاله راجي، فإنه يصبح عدواً «من أنت يا أجرب، إذا حكى راجي، راجي معلم وآكوب معلم. وأنت، من أنت؟» فإذا تجاسر أحد وقال إن آكوب بخيل أو يشرب بول إبليس فكان راجي يصرخ «تفضلوا، حاتم الطائي يتكلم. . . أحمد بن حنبل يفتي. . . تفضلوا» ويلتفت إلى الذي تكلم: «من أنت يا من تأكله البراغيت ويأكل القمل، أنت تساوي قرادة، فإذا لم تترك الناس الأشراف أساوي عظامك بأرض الطريق».

هكذا أصبح راجي، ويوماً بعد يوم لا يعرف الناس كيف يتعاملون معه. هل يصدقون شتائمه عن آكوب؟ هل يوافقونه؟ هل يختلفون معه؟ إن كل شيء يمكن أن «يثير هذا المجنون ويجعله نار الله الكبرى». إذا هزّ أحد رأسه موافقاً على ما يقوله رد هازئاً: «أي والله. . صار البرغوث حصاناً!» أما إذا أبدى أحد دهشته وهو يسمع الشتائم ضد آكوب فإن الصفعة تأتيه

سريعة: «ها . . . فتحت حلقك ورخيت بيضك؟ إنك مثل القط يفرح بعمى أهله!» فإذا خالفه أحد في الشتائم التي يكيلها إلى آكوب يصرخ: «أترك الكبار، لأن الصغار شغلتهم الوحيدة أن يتفرجوا».

ومثلما شغلت الهموم الناس في الفترات السابقة، وصرفتهم عن الكثير من الأحداث حولهم، فإن راجي وآكوب يمران في الذاكرة أو يغيبان بقدر ما تصل إلى الأسماع الشتائم والأصداء التي تصدر عن راجي، أو بقدر ما تحصل من الوقائع والأحداث. ففي أحد الأيام، وقد حصل هذا في يوم ماطر، يرون أن راجي يدخل بسيارته إلى حران، وقد ربطت إلى سيارة آكوب بحبل قوي. لم يكن أحد يتصور أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يحدث. فراجي الذي كان يباهي بسيارته التي «تعادل عشر سيارات مثل سيارة آكوب القرقيعة» والذي كان يزيّنها بالخرز والأضواء، وكانت تبدو قوية لامعة، وأكبر قليلاً من سيارة آكوب، لم يكن يتصور أن تتحول إلى جثة وتجر هكذا. قال ابن نفاع لما رأى السيارتين، الواحدة تقطر الأخرى، قال وهو يضحك

ـ الحجر اللي ما يعجبك يدميك.

وبعد ان هز راسه عدة مرات أضاف ولم تفارق الضحكة فمه:

ـ ومثل ما الحمار يقطر الأباعر ويجرها، وإن كانت أكبر منه، فاليوم شفنا القطاية تشيل دبشاية!

وقد تحدث أهل حران عن ذلك طويلاً، وكادت تقع أكثر من معركة بين راجي والآخرين، لأنهم فقط تجرأوا على أن ينظروا ويضحكوا! أما حين وقفت السيارتان عند المسجد، وبعد أن أنزلت الأحمال وغادر الركاب، ولم يبق إلا عدد محدود من الرجال، فقد قال آكوب وهو ينظر إلى راجي بحيرة:

ـ اسمع اسطة راجي، انت صاحب السيارة، اما ترجع معي الى عجرة وتتفاهم مع سامي او . . .

وتوقف قليلا، ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يخفض وجهه إلى الارض، وأضاف:

ـ أو تحط أيدي بيدك، ويمكن الله. . .

ودون تردد قال راجي:

ـ لا يا أبو الشباب، يا معلم آكوب، إذا انت موجود لا سامي ولا غيره.

ضحك آكوب بصوت مسموع ورفع إصبعه في وجه راجي:

ـ أنا موجود، آكوب مستعد. . بس

ـ بس شو؟

ـ كَلا. . كَلا ما في، گتي گالمدي ما في. . موافق؟

ولكي يتغلب راجي على الحرج قال وهو ينحني على آكوب ويطوق رقبته

ـ ولا يهمك، موافق.

الذين تابعوا الرجلين وهما يشتغلان ذكروا أن الأمور كادت تصل بينهما إلى درجة الخصومة، وكاد آكوب، أكثر من مرة، أن ينفض يده ويترك، لكن في اللحظة التالية يتراجع ويستمر في العمل. وفي إحدى المرات، وبعد أن بدأ الضيق واضحاً على وجهه، وكأنه أسقط بيده وبدا عاجزاً، قال راجي بصوت عالٍ أمام ثلاثة أو أربعة من الرجال كانوا يراقبون:

ـ اعط الخباز خبزك ولو سرق نصفه.

وطبطب على كتف آكوب بنوع من السخرية وتابع:

ـ معلم آكوب. . هذي الشغلة أكبر منك. . .

والتفت مرة أخرى نحو الاخرين وقال:

ـ ظبطت مع الافندي مرة تصور نفسه انه صار أسطه.

وضحك بصوت عال ثم تابع:

ـ كانت صدفة يا أسطة.

وآكوب الذي سمع، والذي لم يفهم أكثر ما قاله راجي، استمر في المحاولة واستمر العمل. رغم أن راجي بعد انقضاء ساعات، وبدا له أن

المحاولة دون جدوى، قرر أن يذهب إلى القهوة، قال لآكوب بسخرية ومرارة:

ـ معلم آكوب.. رجّع كل شيء الى مكانه، وتعال معي لأكسر رأسك بدق طاولة.

قال آكوب:

ـ الله معك حبيبي، روح.. بسيطة.

ظل آكوب واستمرت المحاولة، وظل راجي يتسقط الأخبار بين دق وآخر، ومع كل خبر جديد، مع كل دق جديد، تتوالى التعليقات، فيضحك لها الذين يسمعون لحظة ويحزنون في اللحظة التالية. فما كاد راجي يكسب الدق الأول حتى التفت الى كل الذين كانوا حوله وصرخ:

ـ يا جماعة... قولوا لآكوب أول رأس انكسر، ولازم يحضر راسه.

أما حين وصل مناور الخضيري وقال لراجي أن آكوب طلّع مصارين الحنتور وفسّخ كل شيء فيه فقد رد:

ـ والله لأطلع مصارينه، والله لأشنقه بمصران كلب.

وحين غلب راجي طبق الطاولة بقوة وصاح وهو يضرب على رأسه:

ـ «إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً... وكم أهلكنا قبلهم من القرى!» وآكوب مفسد في حران، وقبله أو بعده الفاسق أبو أسعد الحلواني.

وعلى ضوء اللكس بدأ شوط طاولة ثانٍ ثم ثالث. وعلى ضوء المصباح اليدوي أول الأمر، ثم على ضوء اللمبة الكهربائية التي ثبتها آكوب في مكان مناسب من السيارة، قرب الماكنة، استمر العمل واستمرت المحاولة، وما كادت صلاة العشاء تنتهي حتى انتهى آكوب، فشغّل السيارة وجاء بها إلى مقهى أبو أسعد الحلواني. لقد أحس راجي بقلبه يخفق وهو يسمع هدير سيارة يقترب، وبشكل عصبي أفسد الدق، رغم أنه كان متفوقاً، ثم هبّ يستطلع الصوت. أما حين رأى سيارته تقترب، وقد عرفها من الأضواء الصغيرة الملونة على جنباتها، فقد اندفع لا شعورياً بقوة حصان. قال الذين رأوا الرجلين على ضوء السيارة يلتقيان، قالوا إنهم رأوا

دمعات تنحدر من عيني راجي، ورأوه ينحني كثيراً ويطوق آكوب ويدفن رأسه في صدره. وآكوب الذي جلس في المقهى وشرب كوبين من الشاي وراقب جزءاً من دق جديد بين راجي وأبو أسعد، ظل صامتاً. لم تصدر عنه إلا كلمات قليلة، كانت، في الغالب، رداً على أسئلة تتعلق بالصحة والأحوال. كان يرد باختصار شديد مع ابتسامة، وقبل أن ينتهي الدق قال إنه متعب ويريد أن يذهب لينام.

ومرة أخرى، بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة، غرقت حران في همومها، وتساءل الناس أية أحداث ستأتي مع انتهاء تعبيد الطريق، أية هموم جديدة وأية أفراح، خاصة وأن كل يوم يحمل معه خبراً أو توقعاً جديداً، وإن كانت أكثر الأخبار وأكثر التوقعات غيرت طريقها في السنين الأخيرة، فبدلاً من أن تأتي من جهة عجرة، عن طريق القوافل، أصبحت تأتي عن طريق البحر ومن أماكن ومدن لم يسمع بها أحد من قبل.

الآن والطريق يوشك على الانتهاء بدأت السيارتان تتباريان في سرعة قطع المسافة بين عجرة وحران. إذ بدل الثلاثين ساعة أو اليومين أصبحت السيارة تقوم صباحاً من عجرة وقبل أن يحل العصر تكون قد وصلت حران وأفرغت حمولتها. كما أصبحت السيارتان في هذه المرحلة تحملان المواد أكثر مما تحملان البشر. حتى عبود الذي كان يجد متعة في توزيع تلك القطع المعدنية على الركاب، وفي نقش ذلك التوقيع الذي كان يثير العجب لتعقيده، ويؤكد الكثيرون أن لا توقيع يشبه الآخر، كفّ في هذه الفترة عن توزيع القطع المعدنية، لأن الصبي الذي يعمل عنده جاءه يوماً بعشر قطع معدنية مرمية بالقرب من دكان سامي، الميكانيكي الوحيد في عجرة. وحين قارن عبود تلك القطع بالتي كانت عنده، بعد أن مسحها بالشوالات القريبة منه، تبين إنها متشابهة تماماً، ويمكن أن تختلط على الكثيرين، لذلك قرر أن يتوقف عن توزيعها. أما التوقيع فقد استمر لكن مع بعض التعديلات. فبعد أن أصبح «مكتب سفريات البادية» أكثر اتساعاً، إذ ضمّ إليه عبود الأرض الخلفية وحوّلها إلى مستودع، وكان من السهل على السيارة أن تقف في باب المستودع لكي تحمّل، قرر أن يخطو خطوة كبيرة

للأمام لتناسب المرحلة الجديدة، فكان أن أوصى على دفاتر فواتير وعلى ختم، وقد صنعت له في الشام، وبدأ استعمالها، رغم الخطأ في إسم البلدة، إذ كتب الخطاط بدل «عجرة» «غنجرة»، فكان عبود مضطراً لإصلاح كل فاتورة. كان يفعل ذلك أثناء فراغه ومن أجل التسلية. أصبحت الفاتورة والختم هواية جديدة، إذ لا بد من كتابة اسم المسافر والمبلغ، أما ما يقابل ساعة السفر ورقم المقعد المثبتين على الفاتورة، فكان عبود يضع خطاً مائلاً وهو يضحك ساخراً ويقول لنفسه: «ما بقي إلا أن نكتب اسم الأم ومتى يصل المسافر إلى حران!».

الفواتير لا بد أن تذيل بالتوقيع، ومع التوقيع الختم الدائري. كان عبود يقرّب الختم من حلقه ويزفر زفرتين أو ثلاثاً فإذا تأكد أن الرطوبة أصبحت كافية يطجّ الختم. ورغم أن المسافرين في كل سيارة أصبحوا أقل من قبل، ولا يمكن أن يقع خطأ في عددهم، كما لا يمكن أن يتهرب أحد من دفع الأجرة، إلا أن عبود كان يصرّ في اللحظة الأخيرة على أن يرى الإيصالات. كان يقول بلهجة حازمة: بعد أن يصعد الركاب إلى السيارة

ـ يا إخوان. . . كل واحد فاتورته بيده.

فإذا تأخر أحد أو نسي أين وضع تلك الوريقة كان عبود يصرخ:

ـ لا تؤخرونا وتؤخروا أرواحكم. . كل واحد فاتورته بيده.

خلال الشهر الأول، بعد انتهاء تعبيد الطرق، سارت الأمور سيراً مريحاً بالنسبة لعبود أولاً، وبالنسبة للسيارتين وآكوب وراجي بعد ذلك. فعبود الذي قرر أن يذهب إلى حران لكي يفتتح هناك مكتباً رسمياً، أجّل سفره مرة بعد أخرى، لأن قافلة الحج كانت على وشك العودة، ولاعتقاده أنه يستطيع إقناع سائق أو اثنين من سواق القافلة بالعودة إلى عجرة والعمل على خط عجرة ـ حران، خاصة وإن السيارتين لم تعد تكفيان، وأصبحت سيارة آكوب تتعطل مرة بعد أخرى، رغم الجهود الكبيرة التي يبذلها في الصيانة.

وفي هذه الفترة أيضاً ساد نوع من السلام بين آكوب وراجي، بل وأصبحا صديقين. أصبحا يقضيان وقتاً أطول في مقهى المائة وعشرة، ويتبادلان، بهمس، الكثير من الأخبار والهموم. أما حين يطلب أحد الركاب الإسراع في مواصلة الرحلة فكان يتكفل به راجي، سواء أكان ذلك المسافر على سيارته أو على سيارة آكوب. كان يصرخ ويهدد بإصبعه:

ـ الله يلعن أبو هذا الزمان، زمان عرص وابن ستين كلب.

وحين يفتح المسافر فمه دهشة، فلا يعرف إن كان الكلام موجهاً إليه أم إلى غيره، وأي معنى يعني، كان راجي يضيف:

ـ الواحد منكم كان يقضي أسبوع أو أسبوعين بين عجرة وحران... هذا إذا وصل!

وتتغير لهجته تماماً:

ـ إشرب شاي على حسابي، يا ولد، أو فرّك أصابع رجليك.. وخل الناس تشرب شايها على رواق.

فإذا أبدى المسافر اعتراضاً على الكلام أو على التأخير كان الغضب براجي يبلغ حده الأقصى:

ـ اسمع. . كل كلمة، كل فلسفة تؤخرك ساعة، وإذا أحد زادها والله ما ينام إلا في المابة وعشرة.

ولأن الكثيرين يعرفونه أو سمعوا به، أو جاء من يقول لهم أي نوع من الرجال هو، فقد كانت هذه المناقشات تنتهي عادة بدعابة أو قصة، وغالباً ما يتولى الغانم، صاحب مقهى المائة وعشرة، روايتها.

وفي المائة وعشرة بدأت شخصية آكوب تتضح أكثر من قبل، فأصبح يشاهد في المقهى يغني، وكان يشارك الآخرين طعامهم ويشرب الشاي أيضاً. أما القهوة المرّة التي يفخر الغانم أنه أحسن من يصنعها في المنطقة كلها فلم يكن آكوب يقربها أو يستسيغها. كان يقول له الغانم بأسف حقيقي، حين يمتنع عن شرب القهوة:

ـ لا عيب فيك إلا صوتك، وهذا الصوت لا تداويه إلا غزالة: المرة والمرّة.

وحين يهز آكوب رأسه ساخراً يقول راجي:

ـ الله حارمه وربنا لا يكملها دائماً.

وفي هذه الفترة عرف أن آكوب جاء من حلب، لكنه ولد وراء الجبال، إلى جانب بحيرة لم يخلق الرب أجمل منها، هكذا كان يقول. وفي تلك الفترة القاسية، ومع التبدلات الكبرى التي حصلت في أوائل القرن، إثر المذابح التي حلت بالأرمن، جاءت به جدته بعد أن فقد أباه وأمه وأكثر أفراد عائلته في تلك المذابح. جاءت به إلى حلب وفيها عاش. وأن هذه السيارة حصيلة عمر بأكمله، ورغم أنه تقدم في العمر ـ ولم يعترف بعمره أبداً ـ إلا أنه سيرجع خلال فترة قريبة، سنتين أو ثلاث سنوات إلى حلب، وبعد أن يتزوج سيذهب هو وزوجته إلى تلك البحيرة، وسيعيشان هناك، لأنه يريد لأولاده كلهم أن يولدوا على تلك الأرض. أما إذا تقدم به العمر فسوف يتفرغ لنظم الشعر!

كان آكوب يتوقع أنه خلال سنة واحدة، إذا استمر العمل كما هو

الآن، وبعد أن يبيع «القرقيعة» ويضيف ثمنها إلى ما جمعه، أن يشتري سيارة أخرى، سيارة أحدث. ولن تمر بعد ذلك سنة واحدة، وعلى أبعد تقدير سنتان إلا ويقول لحران وللخط كله: گولا... گولا ويقفل عائداً، أولاً إلى حلب ثم بعد ذلك إلى أرمينيا.

هكذا كان يفكر ويحلم ويخطط، فإذا مرت هذه الأفكار برأسه، ورآها واضحة جلية كاملة تنبسط ملامحه ويشرق وجهه، فيضحك بصوت عالٍ بعض الأحيان. كان وجهه كله يضحك فتبين في مؤخرة فمه أسنان فضية وعندها لا يستطيع الإنسان أن يقدر عمره، إذ يبدو فتياً وقوياً، ويبدو في نفس الوقت وكأنه ينزف آخر ما تبقى فيه من شباب.

ولئلا يفوت الوقت وتأتي الظلمة، ولكي لا يعترف ولا يبوح بأسرار يريد أن يستمر محتفظاً بها لنفسه، كان يقول لراجي:

ـ أنتم عرب، جماعة ألف ليلة وليلة. أنا أرمن، ما عندي إلا ثلاثمائة وخمسة وستين ليلة ولازم أخلص كل الشغل!

وبقوة حصان ينهض. كان إذا مشى يباعد رجليه قليلاً، وربما كانت الساقان مقوستين، أو أن ثقل الجسم القوي المكتنز يضغط على الساقين فيجعل مشيته أشبه بالبطة. كانت هذه المشية بالذات تثير راجي وتضحكه، كما لو أن إنساناً يدغدغه، فما أن يبتعد آكوب بضع خطوات، وتبدو مشيته من هذه المسافة، وقد أخذت هذا النسق، حتى يصرخ:

ـ آكوب... آكوب..

فإذا وقف آكوب يتابع راجي بنغم:

ـ مشية الغزال مشية حبيبي.

فيرفع آكوب أصبعه مهدداً ويتابع محاولاً أن يعدل هذه المشية فلا يستطيع، وحين يقفز بخفة وقوة إلى اليسار يصله صوت راجي:

ـ ونطة الحجل نطة حبيبي.

ولا بد أن يتأخر راجي ساعة أو أكثر لأن الغانم خمّر دلة قهوة جديدة، «وإذا راجي ما ذاقها عمرها ما كانت» هكذا قال راجي مرة في تبرير تأخيره، ثم أصبح الغانم يردد هذا القول من أجل استبقاء راجي ساعة

أخرى «لأنه إذا رحت أنت، وراح آكوب ما أشوف الطير الطاير إلى أن يأتي واحد منكم».

❀ ❀ ❀

بعد شهرين وبضعة أيام من انتهاء طريق عجرة ـ حران، وبالإضافة إلى سيارات الشركة كانت سيارتا آكوب وراجي تطاردان على هذا الطريق. وبعد أن مرت قافلة الحج، وأجرى عبود مفاوضات طويلة وشاقة، لم تتبلور بشكل واضح، إذ ظلت مجرد وعود، قرر عبود أن يسافر إلى حران وأن يغامر بفتح مكتب هناك. ولأنه كان يخشى السفر مع راجي، لأسباب لا حصر لها، فقد جعل سفره يبدو مفاجئاً، وكأن الفكرة انبثقت فجأة أو عفو اللحظة. فما كاد ذلك «الحكيم» الذي كان يرافق قافلة الحج يقرر التوقف في عجرة، تاركاً لمساعده أن يتولى طبابة القافلة ومرافقتها، وبعد أن قضى بضعة أيام، واستكمل المعلومات حول فرص العمل، قرر أن يسافر إلى حران، ولذلك ما كاد يدفع الأجرة ويأخذ الفاتورة من عبود ويتجاذب معه أطراف الحديث، وقد اشترط أن يركب إلى جانب السائق، ما إن حصل هذا حتى قرر عبود أن يسافر. وهكذا وافق الطبيب على تأخير سفره يوماً آخر «لأن الأرمني يخاف الله ويسوق بطريقة رحمانية، عكس هذا المجنون اللي تشوفه يركض ويصرخ وما ينعرف إذا كان يصل حران أو لا يصلها!» وهكذا سافر الحكيم صبحي المحملجي إلى حران يرافقه عبود.

في الكيلو مائة وعشرة التقت السيارتان، أو بالأحرى كانت هناك سيارة راجي قبل أن تصل سيارة آكوب. وما كاد راجي يرى عبود حتى فوجئ تماماً. قال للغانم وهو يشير إلى عبود:

ـ هذا هو عبود أبو الحدايد اللي سولف لك عنه البدوان.

حاول عبود أن يبتسم، أن يتغلب على الحرج، وقد واجه هذه العيون كلها تنظر إليه دفعة واحدة. تابع راجي:

ـ خذ بالك يا عبود، حران ما بها حديد وقرطاس، بها كلمة.

ـ باكر يصير!

هكذا رد عبود وهو يضحك بصوت عالٍ كطريقة للدفاع. قال الغانم موجهاً الكلام إلى عبود ليخلق جوّاً جديداً:

ـ كل من مرّ إلى حران ذكرك بالخير.

ولكي يبدد أية شكوك قد تساور عبود أضاف:

ـ كل واحد يقول: لولا سيارات عبود ما وصلنا إلى حران.

بعد ذلك اختلط الناس واختلطت الأحاديث بعضها ببعض. وبدا الحكيم صبحي المحملجي، ببياض بشرته المشربة بحمرة، ثم بملابسه والنظارات التي يضعها على عينيه، شخصاً من عالم آخر. فطريق حران الذي ظل يستقبل أعداداً تتزايد يوماً بعد يوم من سنين، لم يشهد شخصاً بهذا الشكل. حتى المعلمان اللذان مرا قبل ثلاثة أسابيع، لم يكونا بهذه الأناقة والنظافة والصحة، أما المهندسون الأميركيون وغير الأميركيين الذين مروا من هنا، واستراحوا في هذا المقهى، فقد كانت أشكالهم وتصرفاتهم أقرب إلى العمال، بل إن كثيرين منهم كانوا يأكلون بأيديهم. قال راجي وهو يميل على آكوب لكي يستفسر عن هذا الأفندي المتأنق:

ـ هذا الأفندي.. قولك يصل حران أو يذوب على الطريق؟

ضحك آكوب ولم يجب. تابع راجي:

ـ ابن الحرام عبود... مثل المنشار ياكل على الطالع وعلى النازل، أخذ الأجرة وركبه إلى جانبه!

والتفت إلى عبود، وسأل بطريقة تنم عن البراءة:

ـ ها أبو نجم... إذا كنت قاصد حران لمن تركتنا؟

ـ كلها كم يوم وارجع.

توقف عبود لحظة ثم أضاف:

ـ وفيكم البركة... والصبي هناك وهو يعرف كل شيء.

رد راجي ولم يستطع أن يمنع نفسه من الضحك، وكانت يده تتحرك في الهواء:

ـ والتواقيع والأختام؟

قال عبود وقد بدأ يغضب:

ـ والله يا لئيم أطول ما فيك لسانك.

قال راجي وهو ينهض ويشير إلى أكثر من موضع في جسده:

ـ كل شيء فيّ طويل يا أبو نجم!

❁ ❁ ❁

في اليوم الرابع لوصول عبود إلى حران، وبعد أن فوجئ بهذه البلدة التي رآها قبل أربع سنوات ويراها الآن، فتبدو له مختلفة تماماً عما كانت، أو بالأحرى ليس بينهما أية صلة. ولولا الوجوه الكثيرة التي يصطدم بها في الشارع، في المقهى، في كل مكان يمر فيه، وجوه الذين سافروا إلى حران عن طريقه، لأنكر أنه في حران.

في اليوم الرابع لوصوله، وبعد أن اتفق مع شهاب الدريعي على افتتاح مكتب للسفريات في حران، امتداداً لمكتب عجرة، أطلعه على الفواتير والختم، ثم حدّثه عن الكومسيون الذي يستحقه المكتب عن كل مسافر وعن كل حمل. وتم الاتفاق أيضاً على التفاصيل، بما في ذلك التوصية على أوراق جديدة تطبع باسم المكتبين معاً في الشام وصنع أختام جديدة. أحدها يكتب عليه اسم شهاب الدريعي، باعتبار أنه لا يعرف الكتابة والقراءة، وبالتالي لا يستطيع التوقيع، رغم أن عبود أكد لشهاب، بأكثر من طريقة، أن مسألة التوقيع مختلفة عن مسألة القراءة والكتابة، إذ بمجرد ما يحسن الإنسان طريقة خاصة يخط بها اسمه، بحيث لا يستطيع أحد أن يقلد هذه الطريقة، فإنه يضمن بالتالي التوقيع. بعد أن تحدث عن كافة هذه التفاصيل، تحدث أيضاً عن الاحتمالات الإيجابية الكثيرة التي تنتظر المكتب الجديد، ثم ذهبا ليشربا القهوة في مقهى أبو أسعد الحلواني.

مع رشفات القهوة جاء أكثر من واحد إلى المقهى ليبلغ أن من جملة ما أفرغته الباخرة التي وصلت بالأمس ثماني سيارات جديدة كبيرة، أكبر من أية سيارات شهدتها حران من قبل، وإن السيارات الثماني ما إن أنزلت

إلى الأرض حتى صعد إليها سائقوها، ومعهم أشخاص آخرون، وقد شغلت ويمكن أن تنطلق في أية لحظة.

نظر شهاب إلى عبود نظرة تساؤل أقرب إلى الاتهام، وقال وهو يجره:

ـ جيت، يا أبو نجم، بوقتك، ومكتب السالك ـ الدريعي صار بالسماء.

وبعد العصر وقبل الغروب تجولت السيارات الثماني ـ وكانت خمس منها انترناش والأخرى مالْ بگيرين ـ مرتين في حران من البحر وحتى المسجد، ثم توجهت إلى طريق عجرة فغابت أقل من ساعة، وأخيراً اصطفت كلها في شارع الراشدي، قرب مكاتب رضائي، فملأت الشارع من أوله إلى نهايته تقريباً.

وفي ذلك المساء، في المقهى والسوق والمسجد، وفي حران العرب ومعسكر العمال، قال جميع الناس أن عصراً جديداً بدأ. لم يكن أحد يتصور كيف سيكون وماذا سيجلب من أفراح وأحزان. هل سيكون خيراً على حران وأهلها أم سيكون شقاء جديداً يضاف إلى الشقاء الذي بدأ يعيشه الناس منذ إن جاءت باخرة الشيطان قبل أكثر من أربع سنوات.

ورغم أن الناس كانوا في حيرة كبيرة، فلا يعرفون كيف يفسرون هذا فقد قال ابن الزامل في المعسكر:

ـ مسكين آكوب.

وحين تطلع إليه العمال وتساءلوا بأعينهم لماذا يكون آكوب بالذات مسكيناً، تابع ابن الزامل بصوت حزين:

ـ السيارات الجديدة راح تاكل الأخضر واليابس، وأول ما تاكله آكوب وسيارته.

أما آكوب الذي شهد موكب السيارات مع الكثيرين، وكان قد وصل لتوه من عجرة، فقد ارتسمت علامات الحزن والفرح والخوف معاً على وجهه، ولم يستطع الذين رأوه في تلك الساعة أن يعرفوا هل كان يبتسم أم كان وجهه يعتم ويكفهر. أما حين وقفت السيارات قريباً من المسجد فقد

اقترب منها كثيراً، دار حولها مرة ثم ثانية، وسمع الذين كانوا قريبين منه أنه قال:

ـ البني آدم أهم من المكينة، وآكوب أقوى من الأنترناش والماك، لكن آكوب فقير. . .

❁ ❁ ❁

وظل آكوب وراجي على الخط. كانت تمر بهما السيارات الجديدة كما يمر البرق، لسرعتها وحجمها الكبير. كان آكوب يبذل جهداً واضحاً كي يتقي ضغط الهواء القوي إذا تجاوزته إحدى هذه السيارات أو إذا التقت به. وفي وقت من الأوقات بدأت هذه السيارات تمازحهم في الطريق، إذ كانت تميل الواحدة إلى درجة تضطر أياً منهما للخروج عن الأسفلت، أو تهجم، إذا كانت مقبلة، إلى درجة يظن آكوب أنها ستصطدم به، فينحرف انحرافاً حاداً في محاولة للهرب، حتى إذا اقتربت السيارة، ولم تبق إلا مسافة قليلة، يعدلها سائقها في اللحظة الأخيرة ويتابع سيره بنفس السرعة، وابتسامة واسعة تملأ وجهه، لأنه أدخل إلى قلب العجوز كل هذا الخوف. ولأن السيارات متشابهة بألوانها وأحجامها، لم يكن من السهل تمييز من يقوم بهذه «الأدوار».

بعد أن تكررت هذه «الأدوار»، وفي الكيلو مائة وعشرة، ما كاد راجي يلتقي باثنين من السائقين، حتى جرّ المانويل ونزل راكضاً. كان يريد أن يدخل معركة دامية، أن يضرب إلى درجة القتل. وهذه النية التي عبر عنها أكثر من مرة أمام الغانم، كان من السهل أن تتحقق لولا أن الغانم كان حاضراً متنبهاً، إذ ما كاد يرى راجي راكضاً حتى هجم عليه، اعترضه، وبصعوبة استطاع، بالتعاون مع اثنين أو ثلاثة من الذين كانوا، أن يحجزه. قال راجي للسائقين اللذين فوجئا وظهر عليهما الخوف الشديد:

ـ والله يا أولاد الشرموطة قبل ما أموت لإخوض في دمكم. . .

وحاول أن يهجم من جديد، لكن امسكوا به بقوة. تابع وكان الزبد يخرج من حلقه:

ـ يا أولاد الكلب، يا جبناء، إذا كنتم تقولون لأنفسكم: سياراتنا جديدة، ويمكن أن نقلب سياراتهم ونقتلهم، غلطانين. قبل ما أموت أنا وآكوب، دمكم يسيل من عجرة لحران.

وحاول الكثيرون أن يهدّئوا راجي. قالوا إن هذين السائقين غير مسؤولين، ولم يفعلا شيئاً، وربما كان الآخرون هم الذين فعلوا أو حاولوا، فيصرخ راجي:

ـ ابن الشرموطة الأصلي هو رضائي. وإذا كان ما ذبح لسياراته لازم نبعث له بدم واحد من هالكلاب.

بعد جهد أُخرج السائقان من المقهى، وطلب إليهما أن يواصلا سفرهما توقياً لأي شر، وما كادا يبتعدان ويجلس راجي حتى بدأ صوته يهدر:

ـ يا جماعة... أنا وآكوب، هذا الطريق، قبل ما يتزفت، أكل طيازنا. مشيناه ألف مرة. من سنين ونحن على هذا الطريق. صحيح أن سياراتنا قديمة، لكن إذا كان الواحد سيارته قديمة ما هو مفروض أن يموت على الطريق مثل كلب. رضائي اشترى سيارات جديدة، كل واحد منا شافها. ما حكينا كلمة واحدة، يمكن سرقها، أو الله أنعم عليه، هذه بينه وبين رب العالمين، لكن رضائي فتش عن أخرا سواقين الله خلقهم وقال لهم: راجي وآكوب: يوك، اقتلوهم، اصطدموا بهم على الطريق، واللي ما يروح موت الله يروح موت العبد.

استراح قليلاً، زفر وابتسم ثم تابع:

ـ لكن بسيطة. أنا غلطان. الصغار ما لي شغل معهم، لازم يكون شغلي مع الراس.

انتهت هذه «الأدوار» في المائة وعشرة، وفي نفس اليوم وصلت القصة إلى حران، وصلت عن طريق هذين السائقين، ووصلت عن طريق الآخرين. وكما هي العادة دائماً لم يبق أحد في حران إلا وتحدث في هذه القضية. أما آكوب الذي كان خارجاً لتوه من عجرة، وما كاد يلمح من

بعيد إحدى سيارات رضائي حتى صلّب وخفف السرعة ثم أخذ أقصى اليمين. كان متوقعاً أن تمزح معه هذه السيارة كما تعودت أن تفعل جميع السيارات، لكن أكثر ما استغربه أن السيارة من مسافة كبيرة، وخلال النهار، أضاءت النور لتنبهه، ولاحظ أنها خففت السرعة وأخذت جانب اليمين أكثر مما تعودت أن تفعل دائماً. أحس بالخوف وخفف السرعة أكثر من قبل، وكاد أن يقف، فلما اقتربت السيارة كثيراً خففت السرعة مرة أخرى، فلما تلاقت السيارتان بدا لآكوب أن السائق قد ابتسم له، وحين توازيا رفع السائق يده بالتحية. قال آكوب للذي كان يجلس إلى جانبه وهو يضحك:

ـ يا جماعة. . راجي عملها.

تلك كانت نهاية هذه الطريقة في الحرب لتبدأ طريقة جديدة.

بدأت سيارات رضائي تنقل من حران أو إليها المسافرين والبضائع بدون أجر أو بأجر رمزي. فالسيارة التي تكون في عجرة وتحمل الإسمنت والخشب وبعض المؤن، كانت تحمل معها أي إنسان يريد أن يسافر، كل ما في الأمر أن يرضى السائق ويوافق على حمله. أما من حران فالكثيرون سافروا على سيارات رضائي ليس لأنهم مسافرون حقيقيون، وإنما لأن ليس لديهم شيء يفعلونه، ولأن السيارات تذهب فارغة فيمكن أن يركبوا ليقضوا يوماً أو بعض يوم في عجرة ثم يعودون مع السيارات الأخيرة إلى حران.

قال آكوب لراجي، وهما جالسان في مقهى المائة وعشرة، وكان راجي يحمل من عجرة ثلاثة شوالات من الطحين واثنين من البدو، أما هو فكان راجعاً فارغاً ووحيداً، لأن المعاون ذاته فضل أن يبقى في حران وأن يجد عملاً آخر. قال آكوب وهو يتنهد ويتذكر:

ـ تقول مشية غزال. . مشية ديك. . . اسمع.

وكاد آكوب أن يتوقف، فقد طال به الصمت وذهب بعيداً، لكنه بعد فترة تابع:

ـ قبل ثلاثين سنة، أربعين سنة، في حلب، مرضت. قالت جدتي:

آكوب بدو يموت. كان عندي كلب. تصور الكلب مرض. الكلب لا يأكل، لا يشرب، وعند رجلي ينام. بعد أسبوع أسبوعين آكوب طاب، صار أحسن، لكن الرجل ما طابت. انت تقول مشية غزال؟ شوف. .

ورفع آكوب البنطلون عن ساقه فبدت مستدقة في الأسفل ثم تتقوس عند بطة الرجل، قال بسخرية:

ـ ها. . . شفت؟

وضحك آكوب كأنه يتذكر قصة شخص آخر، وبعد أن هدأ قال:

ـ الكلب صار مثل آكوب. . صارت رجله عورا.

وضحك بصخب مرة أخرى وقال وهو يطبطب على ساق راجي:

ـ لا. . مش عورا. . العين بتصير عورا، صارت عوجا، مثل طارة، مثل عجل.

ومن جديد صمت آكوب. بدا له إنه لا يعرف لماذا قال ما قاله وحين تذكر أنه يعود وحيداً إلى عجرة، تفاعلت أفكار كثيرة في رأسه فأضاف بسرعة:

ـ السيارة مثل الكلب، يمكن تمرض ويمكن تموت.

ولـم يستطع أن يضيف شيئاً واضحاً، بعد أن قضيا ساعة أو أكثر افترقا.

في اليوم التالي، أثناء عودة راجي من حران وجد آكوب، وجده قبل قهوة المائة وعشرة، كان يحاول بجهد وشراسة إصلاح السيارة التي تعطلت، لكن لم يستطع أن يصل إلى نتيجة، لم يقو على إصلاحها. أما حين سحبه راجي إلى المقهى، وكانت المسافة أقل من خمسة كيلومترات، فقد بدا آكوب حزيناً أكثر من أية مرة سابقة. وحين جلسا في المقهى، وقبل أن يتكلما في أي موضوع، أو يسأل أحدهما الآخر إن كان جائعاً أو بحاجة إلى قدح من القهوة أو الشاي، كانت الكلمة التي خرجت من فم آكوب:

ـ السيارة مثل الكلب، أنا مرضت هي مرضت!

وبدأ الاثنان يمرضان. كان المرض يبدو غامضاً وبعض الأحيان مستعصياً، فآكوب الذي يعرف كيف يبدأ مرضه وكيف يتطور، ومتى يحصل ولماذا، بدأ يحس في الفترة الأخيرة بأعراض لم يعرفها من قبل ولا يجد لها تفسيراً. حتى الحكيم الذي نقله إلى حران، والذي استأجر ثلاث دكاكين معاً، وافتتح عيادة كان يستقبل فيها المرضى ويجري العمليات، وخصص فيها أيضاً قسماً للإقامة، له وللمرضى الذين يجري لهم عمليات ضرورية وعاجلة، حتى صبحي المحملجي لم يستطع أن يشخّص مرضه، أو يفسر الأوجاع التي يشكو منها. كان الألم يبدأ من مؤخرة الرأس ثم ينتشر إلى كل مكان، وكان مع الألم الشعور بالإرهاق وفقدان الشهية وارتفاع الحرارة، خاصة في الليل.

كان آكوب يعالج مرضه بالأسبرين، وبعض الأحيان بأعشاب متنوعة يعرف كيف ينتقيها أو يوصي عليها، لكن هذه الأعشاب لم تكن تختلف عن الأسبرين بأثرها أو مدتها.

وكان يعالج السيارة بنفس الطريقة، إذ ما يكاد يحس بتعبها، وبأنها غير قادرة على مواصلة الرحلة، حتى يبدأ: يتفقد كل شيء. يقضي الساعات الطويلة، وبعض الأحيان يصل الليل بالنهار من أجل أن يكشف العلة ويعرف السبب، لكن أغلب الأحيان ينتهي إلى الفشل. وبعد أن يستريح يوماً أو يومين، ويفكر خلال الليل والنهار بهذه العلة الخفية، ولا يجد لها سبباً ممكناً، كان يقول لنفسه: «إذا كانت السيارة قوية آكوب: قوة سز. إذا كانت السيارة خرا وآكوب تمام ما في فايدة. إذا كان آكوب تمام والسيارة تمام سوق سز. . . سوق خرا».

حتى عبود الذي كان يبدو مثل ديك، وكان يتباهى بالتوقيع والقطع الحديدية، ثم بالفواتير والأختام، ما لبث أن شعر بوطأة القوة التي فرضها رضائي، وبالمنافسة التي لا يقوى على احتمالها، فبدأ يشارك الصبي في النداء «حران. راكب واحد لحران». ثم بدأ يتجاوز الدكان والرصيف، ويصل بعض الأحيان إلى المسجد أو بداية الطريق السلطاني، بحثاً عن مسافر إلى حران، وحين يجد أن هؤلاء البدو الفقراء الجاهلين لا يستجيبون

لنداءاته أو محاولاته في أن يركبوا سيارات «مكتب سفريات البادية» كان يقول بنوع من الغضب:

ـ خليهم يسافرون مع ابن رضائي، لكن باكر إذا طلع حليب أمهاتهم من خشومهم، وإذا دوروا بسراج وفتيل عن ابن السالك ما يلقون إلا الخراب.

وهكذا بدأ عبود السالك، يوماً بعد آخر، يتحول إلى دكان عادي مثل دكاكين عجرة. كان يبيع الرز والطحين، ويشتري الملح والتمر، وكان أيضاً ينتظر قوافل الحج، وينتظر أخيراً الصدفة العمياء، هكذا كان يسمي الحالات التي تأتي وحدها ولا ينتظرها أحد.

وفي هذه الفترة أيضاً، ومثلما جاءت سيارات رضائي، جاءت سيارتا باص لمحيي الدين النقيب. كان الباصان الأصفران شيئاً عجيباً في حران، فقد قضى الناس ساعات طويلة يتأملون هذه المخلوقات الغريبة التي جاءت فجأة عن طريق عجرة. لم يبق أحد إلا وقف طويلاً ونظر إلى الداخل، أما الصغار فقد حملوا بعضهم بكثير من الصخب لكي يلقوا نظرة إلى بطنها، كما يقولون، وحاول بعضهم أن يتسلق السلم الخلفي ليصعد إلى الأعلى، لكن صرخات السواق ورجال النقيب منعتهم من ذلك، ثم في وقت لاحق شُدّت أسلاك شائكة حول السلالم لتمنع أحداً من تسلقها، فاكتفى الصبية بأن خطوا أشكالاً ورسوماً على جدران الباصين. كانوا يفعلون ذلك بكثير من اللذة والاستغراق، وهذه الأشكال كانت تبدو جميلة غريبة، خاصة حين يكون الغبار كثيفاً على الجدران.

ومثلما انشغلت حران في المرات السابقة انشغلت الآن. لم يكن بعد واضحاً أي شيء ستفعله هاتان السيارتان العجيبتان، أما حين ربطت قطعة كبيرة من القماش على الدكان الأخيرة من المبنى الذي يشغله محيي الدين النقيب، وكتب عليها بلون أحمر وخط كبير: سفريات النقيب ـ السيف عبر الصحراء» ثم بدأ النداء: عجرة ـ عجرة، وجاء بعد ذلك محمد السيف وقال بصوت قوي والابتسامة تملأ وجهه:

ـ كل من يريد من أهل حران السفر إلى عجرة، ومن عجرة إلى حران

يركب. . سفركم كلكم على حسابنا، ولا واحد منكم يدفع قرش.

نظر الناس بعضهم إلى بعض ونظروا إلى ابن السيف وتساءلت عيونهم ووجوههم: السفر إلى عجرة، ومن عجرة إلى حران. . ولا قرش؟، بدون أجر؟

ولثلاثة أيام متوالية ظلت الباصات تذهب وتجيء، تحمل «المسافرين» في داخلها، أما العفش فكان يربط على السقف. لم يبق أحد إلا وركب الباص أو حاول الركوب. وصدف أن سافر بعض الأشخاص مرتين أو ثلاث مرات، وآخرون كثيرون حاولوا وانتظروا، وجاء بعضهم مبكراً، لكن نظراً للازدحام الشديد والمنافسة القوية بين هؤلاء الراغبين تعذر سفرهم كلهم.

في اليوم الرابع استراح الباصان وقام السواق بتنظيفهما جيداً، وسرى الهمس بين الناس أن السفر منذ اليوم بهذه الباصات المريحة السريعة القوية سيكون بسعرٍ عالٍ، أعلى من السعر الذي كان يُدفع في سيارة آكوب أو سيارة راجي، وربما يصل إلى ضعفين أو ثلاثة أضعاف، لكن المفاجأة كانت كبيرة حين أُبلغ الجميع أن الأجرة التي يدفعها المسافر هي نفس الأجرة التي كان يدفعها من قبل: «سعر القراقيع». وفي محاولة للتوضيح قال عبد الله السيف لبعض الرجال الذين كانوا حوله، في الطابق الثاني، فوق مكتب سفريات النقيب ـ السيف عبر الصحراء:

ـ نريد السيارات تطلّع مصروفها وأجرة سواقها، والله يلعن اللي يدور على ربح.

وهكذا بدأت سيارات الباص بين عجرة وحران. يخرج باص حران صباحاً فيصل إلى عجرة قبل الظهر، وعند العصر يغادر عجرة عائداً إلى حران، وهكذا الباص الآخر، لكن بشكل معاكس، وفي المائة وعشرة يستريح الباصان والركاب قليلاً ثم يواصلون سفرهم.

قال راجي لآكوب، وكانا يجلسان في مقهى المائة وعشرة وقد تدفق ركاب الباص مثل السيل، وكل واحد يريد أن يشرب قبل الآخر، قال راجي:

ـ أنا وأنت، يا آكوب، مثل السمك الصغير، إذا بقينا بعيدين يمكن أن نعيش ويمشي حالنا، لكن السمك الكبير كيف يعيش؟

وحين قلب آكوب شفته لا يعرف الإجابة، تابع راجي:

ـ جاك الموت يا تارك الصلاة، وخازوق النقيب فات برضائي من طيزه إلى عينه، وبكرة تسمع الصوت.

رد آكوب وهو يضحك:

ـ الخازووق فات فينا.. أفندي.

ـ صحّ! أكلنا الخازوق، لكن جاء النقيب ليرد الخازوق عشرة.

ـ عشرة؟ لمن؟

ـ طبعاً لرضائي.. رضائي أكل خرا.

ـ أفندي.. رضائي يأكل اللحم، رضائي ما ياكل خرا.

توقف آكوب لحظة ثم أضاف بسخرية:

ـ أنا وأنت، أفندي، ناكل خرا.

ـ غلطان.

ـ غلطان مش غلطان بكرة تشوف.

ـ يا سيدي أكثر من القرد الله ما مسخ.

وبدل أن ينهض آكوب بسرعة، كما كان يفعل من قبل، كان يفضل أن يطيل البقاء، أما حين يهدأ الغانم ويبدأ بصنع القهوة، ثم يأتي بها فيرفض آكوب تذوقها يقول الغانم وهو يضحك:

ـ اسطه... مائة مرة قلت لك: في هذه الجلهمية، في هذه الفلاة العكرة النكرة لا تحل المشكلة إلا غزالة: مُرّة أو مرة.

ويمدّ إليه فنجان القهوة من جديد ويقول بصيغة الأمر:

ـ اشرب، اسمع من أخوك واشرب.

فيرد عليه آكوب بغضب:

ـ خلينا يا شيخ، اشرب انت.

❀ ❀ ❀

ومثلما سرق رضائي الركاب والحمولة من آكوب وراجي سرق النقيب الركاب من رضائي. أما الحمولة فقد ظلت تنقلها سياراته، وأخذت هذه السيارات تتجاوز حران بمسافات بعيدة. بدأت السيارات الثماني تجلب الإسمنت والخشب ومواد أخرى كثيرة من بيروت مباشرة، وبدل الثماني أصبحت هناك سيارات أخرى كثيرة، وكانت بعض هذه السيارات تجر وراءها مقطورات كبيرة أيضاً. وإذا كان ابن نفاع قد ضحك طويلاً حين رأى آكوب يقطر سيارة راجي ويدخل إلى حران، فإنه قلب شفته استغراباً ودهشة حين رأى السيارات الطويلة ووراءها المقطورات، قال وهو يهز يده بنوع من السخرية والغضب معاً:

ـ إذا عشنا يجي يوم يقطرون حران كلها، يربطونها بحبل مثل ما يربط الحمار ويقولون: حي حي فتمشي.

وهكذا أصبحت الأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ بالنسبة لآكوب وراجي. حزن الكثيرون من أجلهما، وتمنوا شيئاً آخر، شيئاً أفضل، لكن لا أحد يستطيع الوقوف في وجه الحيتان الجديدة القوية. صحيح أن الكثيرين ظلوا يوصون آكوب إذا احتاجوا شيئاً من عجرة، وكان بعض الناس يفضّل السفر معه في تلك السيارة القديمة تحت الشمس، لكن هؤلاء كانوا قلة، ويتناقصون يوماً بعد آخر، كما أنهم لا يسافرون إلا في فترات متباعدة، وقد لا يسافرون مرة واحدة في السنة، كما أنهم بدأوا يجدون ما يحتاجون إليه حولهم في حران، عكس الفترات الماضية.

قبل أن تنقضي السنة الأولى على تعبيد الطريق بشهر أو شهرين قال راجي لآكوب في المقهى إياه، والذي أصبح لهما مثل ملجأ:

ـ اسطه... الشغل خلاص. شغل يوك.

هز آكوب رأسه موافقاً ولم يتكلم. سأله راجي:

ـ ها.. اسطه، رأيك نظل بهذا الشكل؟

حرك آكوب كتفيه ويديه بطريقة يائسة. قال راجي:

ـ اسمع.. قبل كم يوم بعث إليّ رضائي بواحد من جماعته.

فتح آكوب عينيه باهتمام وهز رأسه طالباً من راجي أن يتابع، تابع:
ـ باختصار: تبيعنا السيارة وتشتغل عندنا سائقاً!
ـ وافقت؟
قلت لهم اعطوني فرصة كم يوم، خلوني أفكر.
توقف قليلاً وبدا حائراً ثم أضاف:
ـ سألتهم، وآكوب؟ قالوا: آكوب إذا يبيع سيارته نشتريها منه. ومرة ثانية سألتهم: ويشتغل عندكم سائق؟ قالوا: . . .
وتوقف راجي لا يريد أن يتابع. بدا الحزن في وجهه قوياً جامحاً، أما حين ابتسم آكوب في محاولة لأن يخفف عنه، فقد قال بغضب:
ـ أولاد الكلب.
وتنهد بحسرة ثم ابتسم وقال كأنه يكلم نفسه:
ـ لازم ننجّر لهم خازوق. . يا آكوب.
وبعد فترة صمت وتفكير قال من بين أسنانه:
ـ أولاد الشرموطة، قالوا: آكوب مستوي، خالص.
وتغيرت لهجته وتغيرت ملامح وجهه:
ـ آكوب أقوى من ربهم، آكوب يدفنهم قبل ما يموت.
وعاد من جديد إلى لهجته الهادئة المتآمرة:
ـ إذا ما نجّرت لهم خازوق ما أكون راجي.
واقترب كثيراً من آكوب يريد أن يبوح له بسر:
ـ اسمع. . من رأيي أن نوافق على بيع السيارات، أي نعم نبيعهم سياراتنا، وبس الفلوس تصل أيدينا هم بطريق ونحن بطريق.
ـ أنا لا أبيع.
هكذا رد آكوب بسرعة وشراسة، قال راجي في محاولة للتوضيح:
ـ لو قطعت رأسي لا أشتغل عند رضائي، ممكن أوافق على الشغل في الشركة، عند النقيب، أما عنده. . فلا.

وبعد قليل أضاف آكوب وهو يشير إلى سيارته:

ـ أنا عندي هذه، وانت، الله معك، حبيبي.

ورغم أن راجي كان قد ترك حران قبل ساعات قليلة في طريقه إلى عجرة، إلا أنه كان يحس بحاجة لأن يبقى مع آكوب، أن يتحدث معه، أن يقضيا وقتاً أطول، لعلهما يتفقان على شيء ما، ولذلك قرر أن يرجع مرة أخرى إلى حران. قال في محاولة لأن يبقى الحوار مستمراً:

ـ أنا راجع معك إلى حران.

ـ حران؟

ـ أي، حران.

وأضاف وهو يضحك:

ـ ما دام شغل يوك في حران أو عجرة فكل الأماكن مثل بعضها.

ورجعا إلى حران.

لا أحد في الكون يتصور أن هذين الرجلين كانا خصوماً، أو يمكن أن يتخاصما، في يوم من الأيام. كما لا يوجد أحد يتصور أن هذين الرجلين يمتلئان فرحاً وقوة يمكن أن يخفيا في قلبيهما هذا المقدار من التعاسة وخيبة الأمل والحيرة، فما كادا يصلان إلى حران، وبعد أن نزل البدو الثلاثين وأنزلوا رؤوس الغنم العشرة التي كانت معهم، والأحمال الأخرى من الطحين والشعير، حتى انطلق آكوب وراجي. تجولا في السوق الرئيسي، والذي أصبح اسمه سوق الراشدي، رغم أن معظم الأراضي فيه اشتراها حسن رضائي، وقد أطلق عليه الناس هذا الإسم. توقف أمام مكاتب رضائي، كانت اللوحة الكبيرة مكتوباً عليها: «حسن رضائي وأخوه عباس تجارة عامة ونقل» وتحت اللوحة كانت ثلاث سيارات صغيرة جديدة تقف أمام المكاتب، واحدة منها سوداء وأكبر من السيارتين الأخريين. بعد أن توقف قليلاً انطلقا إلى السوق الشرقي، وهناك كان أبو كامل اللحام، وعلى مسافة قصيرة منه عبده محمد، وفي نهاية السوق باتجاه البحر، كانت قهوة أبو أسعد الحلواني.

كانا يتجولان ويتحدثان كما لو أنهما شابان في مقتبل العمر. كان

الواحد منهما يستوقف الآخر بين فترة وأخرى، لأن الحدث الذي يخوض فيه من الدقة ومن الأهمية بحيث يحتاج إلى أن ينظر في عيني صاحبه، أو أن يضيف إلى الكلمات التي يقولها بعض الإشارات التي تساعد على وضوحها. وكانا يضحكان بصوت عالٍ، ويتوقفان مع الكثيرين الذين عرفوهم من قبل. وكانا يردان على الدعوات الحارة التي توجه إليهما بأنهما سيبقيان وقتاً طويلاً في حران وأنهما سيستجيبان لكل الدعوات.

لقد جرى هذا قبل أن يصلا إلى القهوة، أما حين وصلاها فكانت تعجّ بالعشرات، وقد اضطرا للوقوف بعض الوقت مع أبو أسعد، إلى أن هيأ لهما مكاناً بعيداً، على شاطئ البحر، وشارك راجي بنفسه في تحضير النفس العجمي. أما حين قال أبو أسعد لراجي أنه حالما يفرغ قليلاً فسوف ينازله بالطاولة لكي يسد الغلب، فقد رد عليه راجي:

ـ خل الطاولة ليوم آخر.

وحين أصرّ أبو كامل على أن ينازله، وهذه الليلة بالذات، أجابه:

ـ حالف يمين أن لا ألعب اليوم.

لو أراد راجي، أو أي إنسان آخر ممن جلس معهما أن يستعيدا أحاديث تلك الليلة لما استطاع إلا أن يقول شيئاً باهتاً، شيئاً لا يستحق أن يقال. ولو أراد أحد أن يصور كيف بدأت السهرة وكيف انتهت لما قال إلا كلمات عادية لا تعلق بالذاكرة. لكن، مع ذلك، ظلت هذه الليلة كبيرة، غير عادية. وعبد الله الزامل الذي سهر مع الاثنين أكثر من الآخرين، وحاول أن يقنعهما بالذهاب معه إلى المعسكر، وقضاء الليلة هناك، أكد له آكوب إنه سيمرّ على المعسكر في اليوم لتالي، لأن الحاجات التي أوصاه عليها بعض العمال لا تزال في السيارة، ولا يمكن أن يخرجها في هذا الوقت المتأخر.

قال الكثيرون إنهم لم يشهدوا راجي هادئاً مبتسماً مثلما كان تلك الليلة، وأكد أبو كامل أن لحمة الفطائر التي أكلوها تلك الليلة كانت موضوعة في جانب وكان ينوي أن يأخذها معه ليشويها ويأكلها، «لكن كل شيء في هذه الدنيا قسمة ونصيب» وشاركهم في العشاء. وعبده محمد

الذي لا يمكن أن يمد يده إلى عجين أو طحين في مثل هذه الساعة من الليل، وافق بسرعة حين اقترح عليه أبو أسعد أن يخبز الفطائر، وابن نفاع الذي مر مسرعاً، متجنباً باب المقهى، اصطدم بآكوب وراجي اللذين كانا يجلسان قريباً من البحر، وكاد أن يواصل سيره إلى المسجد لولا أنه لم يستطع مقاومة رغبته في أن يسلم على آكوب.

وغير هؤلاء كثيرون مروا، وغير هذه الأحداث وقعت تلك الليلة، لكن لم يعد أحد يتذكر شيئاً، لأن ما جاء بعد ذلك أنسى الناس، أو جعلهم لا يتذكرون.

فبعد أن ذهب آكوب وراجي إلى السيارتين اللتين وقفتا بالقرب من المسجد، وفرد كل منهما فراشه في أرض سيارته، قال راجي وهو يتمطى ويطل على سيارة آكوب التي كانت إلى جانبها:

ـ بكره، ابن الكلب، رضائي، إذا اشترى السيارة يحوّلها إلى مشخة.

ضحك آكوب بصوت عالٍ في الليل الساكن. كانت ضحكته من القلب وأقرب إلى العربدة، وبعد أن هدأ أمسك بطرف السيارة وقال لراجي الذي فاجأته الضحكة وكان يقف مقابله:

ـ أفندي.. مثل ما النوم يريح البني آدم الشخاخ يريحه.

ـ والله يا آكوب أنا لا أرتاح إلا إذا شخيت على رضائي.

رد راجي بحدة وقد خرجت الكلمات من بين أسنانه؛ قال آكوب:

ـ أفندي.. اتركنا من قصة الشخاخ وخلينا ننام.

ـ أنا لا أقدر على النوم إذا ما شخيت على رضائي.

ـ طيب، أفندي، جرب، وتصبح على خير.

ـ تشوف يا آكوب، وإذا ما شفت تسمع، تصلك الأخبار... تصبح على خير. وناما.

قال راجي في اليوم التالي إنه بعد كلمات تبادلها مع آكوب، خيم الصمت، ولم يعد يسمع إلا عواء كلاب تحوم في السوق وقرب المعسكر. لا يدري كما ساعة نام، لكن حين استيقظ فجأة على صوت

خوار، صوت أقرب ما يكون إلى صوت يقاوم الذبح، ونظر حول السيارة يبحث عن هذا الثور فلا يجده، وجاءه الخوار أقوى من المرة الثانية. كان كثيفاً معتلجاً وفيه صرير، وكان يصدر من سيارة آكوب بالذات، وحيث ينام آكوب تماماً. ظن راجي خلال اللحظات الأولى أن رجال رضائي جاءوا، وإنهم بدأوا بذبح آكوب. تناول المناويل الذي كان يضعها دائماً إلى جانبه وصرخ وهو يهبط من السيارة:

ـ والله لالعن أبو رضائي الأولاني، يا اولاد الكلب.

لما اقترب من آكوب ولم يجد أحداً، وآكوب لا يزال يخور، والعرق يغسله تماماً، والزبد يملأ وجهه كله، صرخ، ناداه، هزه، لكن آكوب كان يفرك مثل ذبيحة، لا يجيب، لا يفتح عينيه، وكأنه في عالم آخر.

قال راجي عصر اليوم التالي «خفت كثيراً. لم أعرف ما أعمل. فتحت قربة الماء وصببتها على وجه آكوب، على صدره، ضربته على خده. رفعت رأسه، صرخت: آكوب آكوب، لكن آكوب لا يجيب ولا يتكلم، وبين لحظة والثانية يفرك كالذبيحة. كان يتألم، كان يصرخ، لكن صوته يخرج من بين أسنانه. كنت أريد أحداً يساعدني، ليكون إلى جانبي، ناديت، لكن لا أحد، تركت آكوب وركضت إلى الحكيم، الأفندي بعد ساعة قام من النوم، كان غاضباً منزعجاً. قال لي: تعال أنت وهو بكرة الصبح. قلت له: الرجل لا يحتمل، يمكن يموت. قال: لا تخف. وكاد أن يغلق الباب ويدخل. قلت له: حكيم... تفضل معي بسرعة، ورفعت المناويل. خاف، صار وجهه مثل الليمون. سألني بعصبية: من هو المريض؟ قلت له: صاحبك آكوب. قال: من آكوب؟ قلت: آكوب اللي حملك من عجرة، السائق. المهم بصعوبة جاء. كان خائفاً وقد اصطحب معه مساعده. لما وصلنا السيارة، ولم يتصور أن آكوب ينام هناك، فقد خاف أكثر من قبل. قال برجاء وكاد يبكي: الله يخليك اتركني، ورائي أولاد. قلت: لا تخف، بس شوف المريض. سأل: المريض... أين المريض؟ وحين جاءه صوت آكوب مخنوقاً مليئاً بالصرير، وكأنه احتكاك أجسام هائلة، استرد أنفاسه. تطلع باهتمام إلى داخل السيارة، أما حين

صعد والمصباح الصغير بيده فقد تعثر. المهم أنه رأى آكوب، ضربه إبرة، لكن بعد آذان الصبح كان آكوب قد انتهى. لا . . مع الأذان تماماً خلص. الحكيم رفع يده وقال: البقية في حياتك».

ذلك اليوم من أواخر الربيع كان يوماً حزيناً مروعاً في حران. لم تشهد مثله من قبل، وقد تمر سنوات لا يخلع قلبها مثل ذلك الحزن. امتلأت البيوت في حران العرب بالصمت، وفي الليل المتأخر بكت النساء. ومقهى أبو أسعد لأول مرة من ثلاث سنوات لا يستقبل أحداً، ولا يجلس فيه أحد، رغم أنه ظل مفتوحاً. وعبده محمد الذي لم يكن في التشييع، وراجت في البداية إشاعة قوية أنه ترك حران، لم يشارك لأنه لم يستطع احتمال ذلك، بل ورفض أن يصدق أن آكوب يمكن أن يموت. أما عبد الله الزامل وعشرات، بل مئات، من العمال فقد تركوا المعسكر دون خوف ودون إجازة أيضاً. فقط اكتفوا بأن أبلغوا إدارة الأفراد أن أحد زملائهم قد توفي ويجب أن يشاركوا في تشييعه، وإدارة الأفراد التي لم توافق ولم ترفض رفعت الأمر إلى الإدارة العامة. ولم يكتف الزامل وابن هذال والعمال الآخرون بهذا القدر من المشاركة فقد فعل كل واحد منهم شيئاً للتعبير عن الاحترام والحب الذي يكنه لآكوب.

لكن رغم هذا فإن موت آكوب ولّد عصبية لدى الجميع في حران. لم يكن مثل أي موت آخر، فبعد أن عرف بموت آكوب بوقت قصير بدأ التفكير كيف يجب أن يدفن وأين ومن سيتولى الأمر. وإذا كان إمام المسجد، إبراهيم الحميدي، قد رفض مجرد مناقشة الموضوع مع أحد، «لأن الميت نصراني وكافر» ولا يمكن أن يمد إليه يده، فإن مبادرة ابن نفاع، ثم الشهادات التي أدلى بها الكثيرون، وتلك الصعوبات التي سقطت الواحدة بعد الأخرى، انتهت إلى ذلك التشييع الذي شارك فيه جميع الناس، عدا عبده الذي غاب تماماً ذلك اليوم فلم يره أحد ولم يسمع به أحد.

قال ابن نفاع لعبد الله الزامل:

ـ غسله. . . وشوف. . وبعدها نشوف.

هكذا قال ابن نفاع دون أن يطلب منه أحد. وحين أكد عبد الله الذي قام بهذه المهمة أن كل شيء طبيعي، ويمكن لأي إنسان أن يتأكد، خاصة إذا نظر إلى سبابة اليد اليمنى، إذا كانت هذه السبابة شاخصة بالشهادة في يد مجروحة في أكثر من موضع. أما راجي الذي أكد أمام الجميع أن روح الرجل فاضت إلى بارئها مع آذان الصباح فقد ردد الجميع: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ورغم أن ابن نفاع أبدى استعداده لأن يصلي عليه ويلقنه فقد ظلت قضية أخيرة تشغله: الرجل يشرب بول إبليس أم لا. قال لراجي بعصبية حزينة:

ـ صحيح أن الحساب عند الله، لكن علّمنا، خويك يشرب بول إبليس؟

وحين أكد راجي بعبارات لا تحتمل الشك أن آكوب لم يمد يده إلى الخمرة ولا يشربها، وقد تقدم منه ابن نفاع خطوة وسأله همساً:

ـ والشراب الي يحطه بالماخوذ؟

ورغم الحزن اندفع راجي، انتزع من تحت مقعد السيارة الترمس وجاء راكضاً، قال بحدة:

ـ هذه قهوة، قهوة حلوة، وما كان يشرب غيرها.

وطلب ابن نفاع من عبد الله الزامل ومناور الخضيري أن يتذوقا القهوة، فلما فعلا وأكدا إنها قهوة، قهوة حقيقية، مثل التي يشربها الجميع، عدا أنها حلوة المذاق، قال ابن نفاع بصوت أراد من الجميع أن يسمعوا:

ـ الله يلعن الشيطان، كلهم قالوا أن المرحوم كان يملأ الماخوذ بول إبليس.

وشيعت الجنازة من مقهى أبو أسعد. كانت الجنازة حزينة، ولم يسمع على خطو الرجال الصامتين السائرين سوى كلمات: الله يرحمه ولا إله إلا الله.

وعند القبر، وبعد أن صلى ابن نفاع على الميت وجاء وقت تلقينه لم

يعرف اسمه كاملاً ولم يعرف اسم أمه، وبعد أن نظر ابن نفاع في الوجوه التي حوله واصل دون أن يسأل أحداً ودون أن يتردد:

ـ «يا يعقوب ابن فاطمة إذا جاءك الملكان الصالحان وسألاك من ربك قل الله ربي والإسلام ديني والكعبة قبلتي والمسلمون أخوتي وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. . .

وبصمت قاسٍ أنزل آكوب إلى القبر، وسوي القبر مع التراب عدا حجر صغير وضع كشاهدة.

ونامت حران تلك الليلة والليالي التالية بحزن لم تعرف مثله من قبل.

بعد بضعة أيام كتب فواز بن متعب الهذال على الشاهدة بمسمار كبير: الفاتحة هنا يرقد المرحوم يعقوب الحراني!

بناء خط الأنابيب من وادي العيون إلى حران كلّف من المشقة والوقت الكثير، فبدل اثنين وعشرين شهراً، المدة التي كان يفترض أن ينجز خلالها، استمر العمل سبعة وعشرين شهراً. ومثلما جُنّ الأميركيون أثناء تعميق البحر، وكانوا يتسمون بذلك المقدار الهائل من العصبية ورغبة العراك، فهم الآن كذلك، مع فارق أساسي: إنهم هذه المرة في الصحراء، وسط الجحيم الحقيقي! فإذا كانوا قد تعودوا الرجوع آنذاك إلى المعسكر كل يوم، والغرق في برك السباحة أو الغرف المبردة، فإنهم الآن، هنا، مثل الحيوانات المحاصرة بالنيران كانوا يتراكضون في كل الاتجاهات ويصرخون ويتعاركون فيما بينهم ومع الآخرين، إضافة إلى الخوف والانتظار اللذين يسيطران عليهم. فإذا انتهت ساعات العمل وعادوا إلى الخيام لم يجدوا ما يفعلونه، حتى النوم أصبح متعذراً بالنسبة لهم. أما الإجازات التي يحصلون عليها، والتي تتلاحق شهراً بعد آخر، إذ بعد شهر من العمل، أو بالأحرى بعد خمسة وعشرين يوماً، كانوا يرجعون إلى حران ليقضوا هناك شهراً كاملاً، وخلال هذا الشهر تحل مجموعة بدل خرى. رغم ذلك فإن الإجازة بدل أن تخفف أو تغير فإن المجموعة التي تكون قد قضت شهراً في الراحة، تعود إلى واجب ثقيل، إلى مهمات لا تعرف كيف تؤديها بأسرع وقت وبضجر يصل حدود الموت.

السنة التي بدأ فيها مد الخطوط كان الطقس خلالها أحسن من سنوات غيرها، فالعمل بدأ أول الشتاء، والحياة، رغم برودتها في الليل، بدت شديدة الجمال والإغراء للعمال خلال النهار، خاصة بعد تلك الشهور الطويلة والسنوات الصعبة في حران وحولها. أما الأمطار التي تتالت مرة

بعد أخرى، فسالت الشعاب وامتلأت الغدران، فما لبثت إن فجّرت الكثير من النباتات، ثم بعد ذلك ساقت الطيور والحيوانات. وهذا سهّل العيش وجعل العمل غير مرهق، كما جعل العمال يقضّون ساعات طويلة في جمع الأعشاب والنباتات، أو يطاردون الأرانب، وبعض الأحيان الظباء. أما الأمسيات المبكرة من هذا الشتاء فكانت حافلة، إذ إضافة إلى الألعاب الكثيرة التي يخترعها العمال لكي يحافظوا على حرارة أجسامهم، بعد أن تبدأ الشمس بالانحدار نحو الغروب، فإن دفقاً من الحنين كان يملأ صدورهم فيندفعون إلى الغناء.

لقد عرف العمال كيف يتكيفون مع المحيط الذي وجدوا أنفسهم فيه، وعرفوا أكثر من ذلك كيف يغيظون الأميركيين وكيف يخرجونهم عن أطوارهم، إذ إضافة إلى الألعاب التي كانوا يكتشفونها في التو واللحظة، أخذوا يضفرون من الصوف مقاليع قوية متقنة، وبدأوا يتصيدون الجرابيع والضباء، أو يتبارون في قذف الحجارة وإصابة الأهداف. كانت الحجارة المصقولة المنتقاة تئز وتصفر صفيراً حاداً وهي تطير في الهواء، وكان الأميركيون يتطيرون إلى أقصى حد من هذه «القذائف» التي يسمعون صوتها ولا يرونها، فيصرخون ويشتمون طالبين أن تتوقف!

وغير هؤلاء كان هناك عدد من العمال هوايتهم الوحيدة انتقاء الحطب وجمعه، وبعد أن يتركوه أياماً في الشمس لكي يجف يوقدونه ليصنعوا الشاي والقهوة، وهذا الحطب ما يكاد يشتعل ويملأ المعسكر والمنطقة المحيطة بالدخان حتى تنفجر مشكلة جديدة، وكأن الغبار الذي تولده آلات الحفر، ثم تلك الرياح التي تهب فجأة فتدفع في طريقها الغبار القريب والزوابع البعيدة، لا يكفي. كان الدخان يسبّب للأميركيين ضيقاً لا يخفونه أبداً. إذ رغم النظارات الشديدة الأحكام التي يضعونها على عيونهم، ثم تلك الأقمشة الرقيقة التي تُشدّ على الأنوف والأفواه، لكي تصدّ الغبار والزوابع، فإن النيران ما إن تشتعل ويبدأ الدخان يتلوى في الهواء ويتطاير بسرعة، حتى يصل الغضب بالأميركيين درجة القهر. كان بعضهم ينزع النظارات والأقنعة ويرمي بها، تماماً كما يفعل الأطفال أو المجانين،

وكانت تستبد بالآخرين موجة من السعال فيركضون نحو خيامهم أو نحو النار ليفعلوا شيئاً و ليهربوا من شيء.

فإذا انتهت هذه المصاعب والإزعاجات، أو لم تعد كافية بنظر بعض العمال، فقد وجد من كان بارعاً وموهوباً في خلق المقالب للآخرين، خاصة للأميركيين. من هؤلاء مجلي السرحان، القصير الضامر، الذي لا يكاد يسمع صوته، كان قادراً على إدخال الفزع إلى القلوب كل يوم، ويفعل ذلك دون أن يحس به أحد.

فالمرات التي أطلق فيها مجلي السرحان عدداً من الجرابيع والضباء في خيام الأميركيين لا حصر لها. كان يلاحق هذه المخلوقات بهمة لا تعرف التعب، وحين يقبض على عدد منها يربطها من أرجلها أو أذيالها ويجرها، فإن لم يكن الوقت مناسباً لإطلاقها تركها في مكان قريب، حتى إذا جاء الليل سحبها نحو الخيام وأطلقها. وهذه الجرابيع والضباء التي ظلت مربوطة لساعات طويلة، والتي تمتلئ بالخوف، ما تكاد تطلق حتى تتراكض لكي تختبئ. كانت تدخل إلى الخيام أو تنزل إلى الحفر التي يعمل فيها العمال، وتتراكض مذعورة بين الأرجل، والعمال حين يسمعون أصوات الأميركيين الحادة مع الركض وطلب المساعدة، يتطلعون حولهم باحثين عن مجلي. كانوا، أغلب الأحيان، يجدونه بينهم أو في مكان قريب، فيدققون متسائلين ما إذا كان، مرة أخرى، وراء هذا الذي يجري. ومجلي صامت، ملامحه شديدة البراءة، بل ولا يتردد، بعض الأحيان في تقديم المساعدة.

وفي أوقات أخرى يجمع مجلي الثعابين ويطلقها بين الخيام. لقد حصل هذا مرتين على الأقل، وفي شتائين متواليين، الأولى في بداية قيام المعسكر حول المحطة H2 في منتصف الطريق، وفسر الأمر آنذاك أن المنطقة مليئة بأوكار الثعابين، وإن الوادي القريب مرتع لها، وقد روج مجلي مع الآخرين هذه القناعة، ولذلك كان الأميركيون يخافون إلى أقصى حد من النزول إلى الوادي، وكانوا يقضون ساعات من الليل وهم يبحثون عن الثعابين، أما المواد التي أرسلوا بطلبها على جناح السرعة لمكافحة هذه الضواري المخيفة، والتي لم تتأخر في الوصول، فإنها أن كانت كافية

للمكافحة فإنها لم تخفف من الفزع الذي يملأ القلوب.

أما المرة الثانية فكانت أثناء زيارة المستر هاملتون، وبعد أن تقدم العمل كثيرا في خط الأنابيب. في هذه الزيارة عمل مجلي شيئين ظل العمال يتحدثون عنهما فترة طويلة. فما أن طلب أحد المهندسين من مجلي مناولته صندوق العدة، وبعد أن حمله وقدمه إليه، وكان المستر هاملتون قريبا يراقب تركيب بعض الأجهزة، وما كاد المهندس يفتح الصندوق حتى صرخ وركض هارباً، لأن ضباً بحجم القط تقريباً يرقد فوق الأدوات، كان الضب يتطلع بعيونه الشهباء وينفخ نفخاً قوياً مسعوراً. والمستر هاملتون الذي اصفر وجهه وبدا شديد الخوف لم يكن قادراً على الاقتراب و التراجع. أما المهندس الذي ركض من الفزع فما لبث أن تعثر وسقط. كان في حالة يرثى لها: العرق يتصبب منه بغزارة، شفتاه ترتجفان، ولون وجهه يتحول من الأزرق إلى الأصفر إلى البياض الشمعي. أما مجلي الذي ظل صامتاً متسائلاً فقد تقدم وسط هذا الخوف وهذا الذهول، التقط الضب، ماسكاً به من رقبته، بعد أن انتزعه من الصندوق بيدٍ تكاد تشبه العصا القاسية، رفعه إلى ما فوق رأسه وبقوة ضربه بالأرض فترنح الضب ثم تراكض في هذا الاتجاه ثم في الاتجاه الآخر، والأميركيون الذين ذهلوا وأصابهم الفزع أول الأمر ما لبثوا أن تراكضوا واقترب بعضهم من بعض لكي يتجنبوا هذا الوحش الخطير الذي لا يعرفون ما هو وكيف انبثق هكذا فجأة.

قال المهندس، في محاولة تفسير وجود الضب أكثر مما أراد تفسير فزعه: إن الخطأ هو في ترك صناديق العدة مفتوحة، فهذه الصناديق لأنها عميقة ورطبة فإن تلك المخلوقات الجهنمية تريد مكاناً، أي مكان، لكي تلجأ إليه!

في ذلك اليوم أمر المستر هاملتون أن تبقى صناديق العدة مغلقة، وعلى الجميع التأكد من ذلك! أما المهندس نفسه فقد وضع أقفالاً للصناديق الثلاثة التي كانت في عهدته.

في اليوم الثالث لزيارة المستر هاملتون قتل العمال ثعباناً كبيراً أسود كالليل، وقد تعمّدوا أن يضعوه في مكان ظاهر، قريباً من الخيام التي يسكن فيها الأميركيون، وأشاع الكثيرون أن هذا الثعبان واحد من ثلاثة كانت معاً، لكن لم يتمكنوا من الاثنين الآخرين! في ذلك اليوم، وفي الليلة التي تلته، خيم الفزع على المعسكر كله، وقد سافر المستر هاملتون في اليوم التالي مباشرة، ولم يُعرف ما إذا كانت هناك علاقة بين سفره السريع ووجود الثعابين!

هكذا كانت الحياة في المحطات الثلاث التي نشأت أثناء مد خط الأنابيب. وهذه المحطات التي أعطاها الأميركيون إسماً موحداً مشتقاً من إسم حران، باعتبارها المصب، مع إضافة رقم مختلف لكل محطة، فسميت H1 وH2 وH3 فإن العمال أبقوا على أسمائها القديمة أو أعطوها أسماء من عندهم، فالأولى هي المطيرة، هكذا كان اسمها من قبل، وهي لا تبعد عن وادي العيون إلا مسيرة يومين. أما المحطتان الأخريان، فأطلق عليهما العمال: عسكر والقصعة، وقد سميت الأولى هكذا لأن بيرسي، المهندس المسؤول عن H2، كان يحرص على أن يعدّ العمال بنفسه يومياً مرتين، مرة حين يبدأون العمل والأخرى عند الانصراف، بعد أن يجعلهم ينتظمون في صف طويل، ولذلك أطلق عليها العمال إسم عسكر. أما القصعة فقد اكتسبت اسمها من الطباخ الهندي الذي كان حين يُسأل عن الأكل ما إذا نضج أم لا يجيب: «قصعة تمام» أو «قصعة مش تمام».

المحطات الثلاث بدأت مجرد إسم، عدا المطيرة التي كان فيها بئر ماء وبعض الخيام، إلا أن آبار المياه التي حُفرت واحدة بعد أخرى، وتراكم الآلات والخيام والبشر، خلق حياة من نمط جديد، فبدأ العمال يألفون هذه الحياة ويحبونها، أما الأميركيون فأخذ يزداد ضيقهم وضجرهم، وبدأت المصاعب ترهقهم. كما أن المحاولات التي لجأوا إليها لكي يدفئوا الخيام في الشتاء أولاً، ثم في أن يبردوها في الصيف بعد ذلك، اصطدمت بصعوبات لا نهاية لها، لأن الأجهزة التي وُضعت في أطراف الخيام، وبدأت تهدر في الليل والنهار، خلقت من المشاكل أكثر مما ساعدت في

حل المشاكل، ولذلك فإن تلك الأجهزة التي لم تختنق وتتوقف بنفسها، نتيجة الرياح والغبار، سرعان ما أوقفت.

أما خيام العمال فكانت تتكيف ضمن جو طبيعي يوماً بعد آخر، وكان العمال يباهون، دون كلمات، حين يمتلئون في ذلك الجو الدافئ حول القهوة والنار في ليالي الشتاء، وحين دخل الصيف وبدأوا يرفعون أطراف الخيام، بعد أن حوّلوا أبوابها مع اتجاه الريح، أخذوا يرقبون الأميركيين وهم يحاولون مع تلك الآلات يعالجونها مرة بعد مرة، أما بعد أن أخذت أجسامهم العارية المحروقة تتصبب بالعرق، وكأنهم قرب مثقوبة، فكان العمال يعجبون ويحزنون ويتساءلون ويفرحون في وقت واحد، لأن لهم ميزة ليست للأميركيين.



لو أن الصعوبات اقتصرت على قسوة الجو أو تلك المشاكل التي تتولد من العمل لأمكن احتمالها أو التغلب عليها، لكن ما كاد الشهر الرابع ينقضي، وفي إحدى الليالي التي امتلأت بالمطر والرعود، وكأنها تريد أن تمزق صمت الصحراء الذي تراكم منذ آلاف السنين، في تلك الليلة النادرة انفجر طيف أقرب إلى الشبح، فبدد السكينة وملأ حياة الأميركيين ولياليهم بفزع أقرب إلى الجنون.

لقد حدث هذا فجأة دون توقع ودون انتظار، ففي هذه الليلة، قبل الفجر بقليل، سمعت ضجة كبيرة في المحطة رقم ٢، كانت الضجة غامضة متداخلة أول الأمر، لكن وهي تقترب اختلطت أصوات الرصاص بالشتائم بغثاء الإبل وصهيل الخيل، وخلال فترة قصيرة، الفترة التي تكفي ولا تكفي لأن يفتح الإنسان عينيه، لأن يتذكر في أي مكان هو، ولأن يميز أصوات البشر من الرعود التي ملأت السماء تلك الليلة، من أصوات الآلات التي تراكمت وتكاثفت في الآذان خلال الأسابيع الماضية، في تلك الفترة القصيرة اشتعلت النيران في عدد من الخيام.

لا أحد يعرف كيف أمكن أن تشتعل في مثل تلك الليلة الماطرة وبهذه

السرعة، فخلال دقائق قليلة، والعمال يخرجون لاستطلاع الأصوت ولمعرفة ما يجري حولهم، ارتفعت السنة اللهب فأتت على ثلاث خيام، كانت ضمنها خيمة المستر بيرسي وخيمة المقر.

والأميركيون الذين شلّ الرعب حركتهم وجعلهم يصرخون ويتراكضون في كل الاتجاهات، ولا يعرفون ماذا يفعلون أو إلى أين يتجهون، ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم متجمعين حول المستر بيرسي، الذي بدا في حالة من الإعياء الشديد إلى درجة أن عدداً من العمال أكد إصابته بطلق ناري، وبين مقاومة النيران أو إسعاف المستر بيرسي كان الأميركيون عاجزين عن تقديم أية مساعدة، أما محاولات ثلاثة منهم استعمال بعض المعدات لإطفاء الحريق فقد كانت متأخرة، لأن العمال لجأوا إلى الرمل، ولم يتركوا للأميركيين إمكانية استعمال غيره، مما اضطر هؤلاء إلى إلقاء المعدات التي جلبوها واستعمال الرمل أيضاً!

مع أضواء الفجر الأولى، وبعد أن مرّ وقت يكفي لأن يتملى الإنسان المشهد كله، بدأت الأسئلة: من فعل هذا؟ لماذا فعله؟ ومع الهمسات والتساؤلات والإجابات المبهمة تأكد شيء واحد: متعب الهذال. إنه الوحيد الذي يمكن ويستطيع أن يفعل ذلك. لم يقل أي من العمال ذلك بوضوح، ولم يُذكر اسم متعب الهذال بصوت عالٍ، لكن طيفه ملأ الفلاة كلها، أما بعد اليوم الثالث، وحين وصلت مجموعة من الإمارة الوسطى، ومعها اثنان من الأميركيين، وبدأ التحقيق، ثم تلك الأسئلة الأقرب إلى العداء التي أخذت توجه إلى العمال، حول من يحتمل أن يكون وراء هذا الذي جرى، ومدى معرفة أي واحد منهم أو قرابته بمتعب الهذال، وما إذا كان قد رآه أو سمع عنه شيئاً، خاصة في الفترة الأخيرة. بعد هذا التحقيق تأكد الجميع أن متعب الهذال الذي غاب سنين لا أحد يعرف أين، قد عاد، وإنه بعودته لا بد أن يحوّل الصحراء إلى جحيم بالنسبة للأميركيين. لقد فرح الكثيرون، لكن داخل هذا الفرح نوع من التحسب الأقرب إلى الانتظار. أما بعد أن جيء بفواز ابن متعب الهذال ومعه صويلح فلم يستطع العمال أن يفهموا أو يفسروا الأمر. قال بعضهم أن متعب إذا عرف أن ابنه

في المعسكر فلن يقدم على مهاجمته مرة أخرى؛ وقال آخرون أن فواز وضع رهينة، ولا بد أن يُنتقم منه إذا حصل شيء، أما مجلي السرحان فقد ذكر حين سئل أن لا أحد ولا شيء يمكن أن يقف في وجه متعب الهذال أو أن يرده.

ومجموعة الحراسة التي تكونت على عجل من ستة رجال جاءوا من عجرة، فقد كبرت وتضاعفت مع مرور الأيام، بل وأصبح عدد جنود الحراسة في وقت من الأوقات مساوياً لعدد الأميركيين، حتى أن العمال أطلقوا، بسرية وخفاء، أسماء أو ألقاباً على الجنود هي نفس أسماء أو ألقاب الأميركيين! ومع أن متعب الهذال غاب مرة أخرى، وقيل إن دوريات عديدة تعقبته وذهبت وراءه تبحث عنه، وراجت في فترة معينة أخبار إن إحدى هذه الدوريات التقت به وبجماعته وقتلت عدداً منهم، كان من بينهم متعب الهذال نفسه، إن هذه الأخبار التي روجها غطاس، مترجم المحطة الثانية، استقبلها العمال بقلق أول الأمر، لكن حين رأوا نمر السهيل، رئيس مفرزة الحرس يوزع على جنوده كميات إضافية من الذخيرة، وينبه عليهم بقسوة، مشيراً إلى أن «متعب الهذال في مثل هذه الليلة المظلمة التي تشبه القبر بعد أن ينهال عليه التراب، يمكن أن يفاجئهم» فقد تأكد الجميع أن أخبار غطاس مجرد تلفيقات، وأن متعب الهذال الذي يحتمي بالظلمة والصحراء لا بد أن يظهر مرة أخرى.

ومن جديد أصبح متعب الهذال هاجساً يملأ حياة المعسكر، وترافق هذا مع عداوة صامتة تزيد وتترسخ بين العمال والأميركان، فالرقابة الشديدة التي فرضت، خاصة أثناء فترات الراحة، وضرورة إبلاغ مفرزة الحراسة عن أي غرباء أو عابرين، قابلها العمال بالصمت والتجاهل، ثم في وقت لاحق بالشتائم والمعارك، حتى أن كثيرين أعربوا عن رغبتهم بترك العمل ومغادرة الشركة. وأصرّ آخرون على أن يعدوا طعامهم بأنفسهم، مما اضطر الأميركيين إلى تخفيف الإجراءات التي فرضت، والاستعاضة عنها بوسائل جديدة، إذ بالإضافة إلى المجيء بأعداد كبيرة من العمال الأجانب، فإنهم بدأوا ينقلون العمال بين فترة وأخرى. كما زادوا عدد المراقبين. وغطاس

الذي كان شديد الحذر والقسوة في آن واحد بعد تلك الليلة، واصطدم بالعمال أكثر من مرة أثناء التحقيقات التي جرت، ما لبثت أن ترك الاتصال بالعمال إلى نمر السهيل، لأنه «وحده الذي يمكن أن يتفاهم معهم» أما نمر السهيل الذي كان شديد الخشونة، وبدا قاسياً في الشهور الأولى، فما لبث إن تغير هو الآخر، وقد قيل إن هذا التغير كان بطلب من دار الإمارة في المنطقة الوسطى، لأن الشدة تخلق ألف متعب الهذال.

وعاد العمل ليأخذ وتيرة أسرع وأكثر راحة، وبدأ الجميع ينسون متعب الهذال أو يتظاهرون بنسيانه، إلا أن الأخبار والإشاعات لا تلبث أن تسري من جديد مرة بعد أخرى، وكان ينقلها الرعاة والعابرون، وكلها تؤكد أن شيئاً لا بد أن يحدث، وأن متعب الهذال سيكون وراء ذلك. ونمر السهيل الذي يستطيع بغريزته، أو ربما نتيجة معلومات مشوشة تصل إليه، ما يلبث أن يخلق جواً من الاستفزاز والرعب، فتقوم عمليات بحث وتفتيش في أوقات متعددة، في الليل المتأخر، بعد أن يأوي العمال إلى فراشهم، أو حين يكونون بعيدين عن الخيام، ورغم أن أحداً لم يذكر السلاح أو يشير إلى أن عمليات التفتيش تجري بحثاً عنه، إلا إن الجميع تأكد من ذلك، خاصة حين صودرت السكاكين الكبيرة وبعض الأدوات التي اعتبرت جارحة.

وتستمر حالة الترقب والانتظار أياماً، يرافقها الكثير من التوتر والارتياب، وخلال هذه الفترة كل تصرف له معنى مختلف عن الأيام الأخرى، وكل همسة وكل حركة ينظر إليها بخوف وحذر واضحين. فحين ربط أحد الرعيان صفيحة بذيل كلب وأطلقه نحو المعسكر، ولّد ذلك الحادث حالة من الخوف والاستفسار استمرت بعد ابتسامات السخرية والشفقة ساعات وساعات، أما الضرب الذي تلقاه ذلك الراعي من نمر السهيل فلم يجد له حتى الأميركيون مبرراً أو تفسيراً.

وفي مرة أخرى حين قبضت مفرزة الحراسة على رجل كان يمرّ بعد الغروب بالقرب من المعسكر، ولما تبين أن اسم الرجل متعب، فقد سيطرت على الجنود والأميركيين حالة من الفرح المشوب بالتوتر الظاهر،

أما حركات عناصر الحراسة فقد كانت محاذرة مترقبة وامتلأت بذلك التوقع الخطر، وظل الأمر كذلك حتى ظهر اليوم التالي! ورغم أن نمر السهيل استدعى في نفس الليلة أربعة من عمال وادي العيون وطلب إليهم التعرف على الرجل وهل هو متعب الهذال أم لا، فلم يصدق نفيهم واعتبر إنكارهم محاولة منهم للتستر على متعب الهذال والتواطؤ معه، إذ ما لبث أن بدا معهم شديد الخشونة والغلظة ورفع إصبعه في وجوههم مهدداً. أما في اليوم التالي وحين استدعى صويلح أولاً، وبوجود أحد الأميركيين، للتعرف على الرجل، فكان يراد بالدرجة الأساسية أن يُعرف رد فعله إذا حاول الإنكار. أما حين جاءوا بفواز فقد بدا الرجل شديد الاستغراب ولم يكن يفهم ما يدور حوله أو ماذا يريد منه هؤلاء الناس. ولم تنته القصة إلا عند العصر، حين وصل اثنان من المطيرة، وكان يعرفهم نمر، وقد جاءا يبحثان عن والدهم الذي غادر قبل أربعة أيام لا يعرفون إلى أين أو ماذا حلّ به، وقد قالا إن أباهما أصبح في الفترة الأخيرة ضائعاً وقد اختلطت عليه الأمور بعد وفاة زوجته!

ظل متعب الهذال شبحاً يغيب ويحضر طوال فترة مد خط الأنابيب. والأميركان الذين لجأوا إلى أساليب لا حدود لها من أجل إنجاز هذا المشروع، كانوا بين الشدة والإغراء، وكانوا شديدي الحذر والاضطراب، أما حين أوشك الخط على الانتهاء، فقد بدوا أكثر حذراً، وأصبحوا بشراً من نوع آخر: كل كلمة تثيرهم وكل تصرف، خاصة من نمر السهيل، تجعلهم في حالة من العصبية الأقرب إلى الانفعال، أما في ذلك الضحى، حين انتهت الفرقة الثالثة، ووصلت إلى المطيرة، ولحم آخر أنبوب، فقد بلغ الفرح حد الجنون، كانوا في حالة من النشوة والصخب لم يظهروا بمثلها من قبل وبدأوا يعدون للاحتفال.

وإذا كان مثل هذا الاحتفال قد جرى مرتين، الأولى في بداية العمل، والثانية حين التقى خط الأنابيب بمحطة القصعة، فإنهم هذه المرة بدوا أكثر اضطراباً وصخباً وهياجاً وكأنهم يريدون أن يفعلوا شيئاً مختلفاً.

العمال الذين بذلوا أقصى الجهد، وانتهى العمل عند الضحى، لم

يكونوا يشعرون بالجوع قدر شعورهم بالتعب. أما الأكل الذي قدم إليهم فلم يؤكل كله. كانوا بحاجة إلى ساعة من الراحة لكي يرتبوا أوضاعهم النفسية ولكي يستعدوا لاحتفال الليلة!

عند العصر، أو بعده بقليل، بدأت موجات صغيرة من العمال تتجه إلى المضرب الكبير المقام إلى جانب المحطة. أحس الكثيرون، أن الأمر أكثر جدية مما قدروا في البداية، وإن شيئاً غير عادي لا بد أن يحصل الليلة.

المشاعر التي سيطرت على الرجال في هذا المكان النائي هي مزيج من مشاعر الظفر والرهبة، فبعد سبعة وعشرين شهراً من العمل المتواصل، ومن معايشة الصحراء شبراً بعد شبر، ومن المعارك اليومية، يصلون إلى النهاية، كل واحد منهم يحس أنه وحده مسؤول عن هذا الإنجاز، ولولا الجهد الذي بذله، دون أن تلاحقه الرقابة، أو تصله كلمات التهديد، لما أمكن الوصول إلى هذه النتيجة.

ومجلي السرحان الذي غاب تماماً في الليلة السابقة، حتى ظن الكثيرون أنه ذهب ولن يأتي، وفي الصباح حين تأكد الجميع من غيابه سرت إشاعات ومخاوف كثيرة، حتى أن نمر السهيل اضطرب ووزع عناصره في أماكن كثيرة، كما منع البدو من الاقتراب. أما الرعاة الذين جاءوا صباحاً من أجل الماء فقد منعهم في البداية، ثم ما لبث أن وافق إذا أبلغوه بكل ما يعرفون عن متعب الهذال، أو عن أية أشياء غريبة رأوها خلال الأيام الأخيرة، وحين صمتوا وانتظروا، دون أن يقووا على عمل أي شيء، فقد تركهم يردون الماء، لكن مع تنبيهات وتحذيرات ما تنفك تتزايد. أما حين وصل مجلي عند الغروب، قابضاً على حصيني صغير، وكانت آثار الجروح ظاهرة على يديه وثيابه، فقد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الاستغراب، وحين طلب منه أن يرأف بهذا الحيوان البائس فيطلقه، وأن يغسل يديه لكي يذهب إلى المطيرة فقد ضحك بسخرية وقال:

ـ يا جماعة.. حتى الأميركان لهم عند الله حوبة.

ولما صمت الرجال ولم يفهموا ما يقصده، أضاف وهو يتطلع إلى أبو الحصيني:

ـ ابن الحرام طلع روحي.

وتغيرت لهجته:

ـ قلت لنفسي ما دام «بيب الشيطان» خلص لازم الأميركان تخلص، نويت عليهم، كنت أريد الواحد منهم يرّجع حليب أمه من الخوف، لكن مثل ما تشوفون، بعد كل التعب ما طلع معي إلا هالحصيصين وذبحني قبل ما أذبح الأميركان!

أما غازي السلطان، المسن العجيب، الذي ملأ عقول الرجال وخيالهم بتلك القصص الغريبة التي كان يحكيها لهم، والذي خلق أكثر من مشكلة في الأسابيع الأخيرة، طالباً من الأميركيين أن يحاسبوه ويطلقوا سراحه، كما كان يقول، والأميركان يقولون إنه لن يقبض قرشاً واحداً إلا إذا استمر في العمل حتى النهاية، وبعدما ينتهي العمل، في اليوم الأخير، يمكن أن يدفعوا له كل ما يستحق ويتركوه. حتى غازي السلطان، أبو عيشة، بدا في الأيام الأخيرة غير مستعجل، أو كأنه لا يريد أن يترك العمل، أما الرجال الذين هنأوه وقالوا له إن حريته أصبحت ملك يديه ويمكن أن ينطلق في الغد، فقد رد بخشونة:

ـ والله يا اولاد الحرام، يا بدوان، ما لكم صاحب وما لكم أمان!

فلما استغربوا كلامه تابع:

ـ كنت أظن إن هذه الشيبة لها عندكم قيمة، وقلت لنفسي: الخويا ما يتركون أبو عيشة، لكن يا حسافا!

في هذا الجو من المشاعر المتناقضة المختلطة بدأت، عند الغروب، تسري همهمة بين الرجال أنهم تأخروا، ويجب أن لا يتأخروا أكثر من ذلك. وما كاد غازي السلطان واثنان أو ثلاثة آخرون يطلبون من الجميع أن يتحركوا، وقد فعلوا ذلك بطريقة أقرب إلى الأمر، حتى بدأ العمال، موجة بعد أخرى، يتحركون. ومجلي الذي وافق على إطلاق سراح الحصيني، بعد أن تفل في وجهه مرتين وشتمه بقسوة، لأنه تسبب في الجروح التي

أصابته، أخذ معه، بما يشبه الاحتفال، الصندوق الذي يحوي الضباء الثلاثة. كان وهو يحمل الصندوق، وتلك المخلوقات البائسة تتحرك وتتصارع وتصدر منها أصوات واضحة، كان يهزج:

ـ «وين تولون، أميركان يا زرق العيون

وين تولون

الشمس من فوق والعقرب من حدرية

والضب ينهش الخصيان

والطيز أكلتها الواوية

وين تولون، أميركان، يا زرق العيون

وين تولون؟».

في هذا الجو من المرح الهش الرجراج الذي تولد في اللحظة الأخيرة، بدأت خطوات الرجال نحو المطيرة التي لم تكن تبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات. وكان يمكن لأي حديث، لأي تصرف، أن يغير الجو، لكن عندما أخذت المسيرة خطواً أوضح، وبدت الخيمة والرجال يتخطرون حولها، وبدا الدخان يتلوى في ذلك الغروب، وكأنه زوبعة من ضباب خفيف، فقد أحس الجميع أنهم أنجزوا كل ما هو مطلوب، وأنهم الآن أكثر راحة وأكثر شقاء أيضاً!

أما بعد أن انتهى المستر مدلتون من إلقاء كلمته، بمناسبة انتهاء بناء خط الأنابيب، وقد ترجمها غطاس بطريقة رديئة لم يفهم العمال الكثير مما قاله، صفق الجميع، وأطال بعضهم التصفيق، حتى أن السخرية ظهرت واضحة تماماً. بعد هذا، ومثل جمل هرم، قام غازي السلطان. مشى نحو مدلتون ببطء، وكانت العيون معلقة به تتابعه؛ أما مدلتون الذي يعرف هذا العجوز. المشاغب، وأهمل الكثير من تصرفاته، لأنه حين يقرر أن يعمل يندفع بقوة يحسده عليها الشباب، فلذلك توقع الجميع مفاجأة من هذا العجوز نظر مدلتون في أكثر من اتجاه، وقد أحس أن شيئاً ما يدبر له، وما كاد غطاس السلطان يصل حتى مد يده إلى صدره وأخرج مجموعة من

النقود، أخرجها وجر يد مدلتون ووضع النقود فيها ثم أغلقها، وقال بطريقته الساخرة:

ـ ما دام اللي عندهم الفلوس ما يعطون، لازم الفقراء يعطون، وهذي مني لكم حلال بلال!

ومدلتون الذي فوجئ تماماً، ولم يفهم لماذا وضع غازي السلطان الفلوس في يده وماذا تعني، ظل مبهوراً مستغرباً بعض الوقت، أما حين ضجّ العمال بضحك صاخب، فقد بدا محرجاً، وبعد أن ترجم له غطاس ما قاله غازي غرق مدلتون في موجة عالية صاخبة من الضحك والإشارات، وبعد أن ربت على كتفي غازي وقال أشياء كثيرة لم يترجمها غازي كلها، أكد أن جميع العمال سيتقاضون علاوة ابتداء من هذا اليوم، وأن الاستحقاقات كلها سوف يتم صرفها خلال أيام العطلة الثلاثة.

في هذا الجو من المرح قام مجلي السرحان حاملاً الصندوق وتقدم نحو مدلتون. انقطعت أنفاس العمال، كانوا متأكدين أن هذه المفاجأة لن تكون سارة بأي حال من الأحوال للأميركان. أما مدلتون الذي توقع مفاجأة مثل المفاجأة السابقة، فقد خامره شك للحظات أن يقدم العمال هدية بمناسبة انتهاء خط الأنابيب، وحاول أن يفترض احتمالات معينة، لكنه لم يستطع أن يصل إلى نتيجة.

حين وضع مجلي الصندوق بين يدي مدلتون وتراجع خطوتين إلى الخلف، وكان السكون شاملاً قوياً، فقد بدا أن هذا البدوي الضامر، والذي لا تعرف الابتسامة طريقاً إلى وجهه، لا بد أن يدبر أمراً خطيراً، وقد زاد في إحساسه ابتعاد مجلي الحذر المخادع.

وضع مدلتون الصندوق على الأرض وسأل ببراءة مصطنعة:

ـ هذه الهدية للخط أم لي شخصياً.

وبعد أن ترجم ما قاله مدلتون، قال غازي السلطان الذي كان لا يزال قريباً:

ـ مثل زكاة الفلوس اللي دفعها العمال للأميركان، هذه زكاة الديرة كلها!

ولم يفهم مدلتون شيئاً مما قاله غازي السلطان، فسأل مجلي من جديد ما إذا كانت الهدية له أم لكل العاملين في الخط، وحين أشار إليه مجلي بإصبعه أن الهدية تعنيه شخصياً فتح الصندوق محاذراً، وبقوة غير مألوفة اندفع أحد الضباء الثلاثة وخرج من الصندوق. تراجع مدلتون وقد بدا عليه الخوف، لكن حين ضجّ العمال مرة خرى بالضحك، ما لبث أن شاركهم، متظاهراً أنه لم يفاجأ، وأن هذه الدعابة، خاصة في مثل هذه المناسبة، يمكن قبولها والتسامح بها، وزيادة في إظهار التساهل تقدم مرة أخرى من الصندوق، الذي أغلق من قبل أحد الأميركيين بإحكام، وقد وضع عليه يديه الاثنتين، تقدم مدلتون مرة أخرى وحمل الصندوق بطريقة بارعة وهزه، فلما اضطربت الضباء داخله، صاح بصوت قوي ومرح في آن واحد طالباً من مجلي أن يسترد هديته!

❀ ❀ ❀

ويكثير من الهرج المصحوب بالمرح دعي الجميع إلى العشاء، وقد أظهر الأميركان تبسطاً ظاهراً، حتى أن الكثيرين من العمال تساءلوا ما إذا كان هؤلاء هم أنفسهم الذين كانوا من قبل، ولماذا هم الآن كذلك.

وبانصراف مدلتون وثلاثة من الضيوف الذين جاءوا بهذه المناسبة اعتبرت الحفلة قد انتهت، أما حين وقف غطاس وقال بصوت حاد:

ـ انتباه. . انتباه.

فقد تطلعت العيون كلها إليه، ولما خيّم الصمت تابع:

ـ على الجميع مراجعة الإدارة صباحاً، ويجب أن تكونوا مستعدين تماماً عند الظهر للرحيل.

وتطلع العمال بعضهم إلى بعض وضمتوا.

خلال الشهور الثلاثة الأولى واجه الدكتور صبحي المحملجي صعوبات لا نهاية لها، وأكثر من مرة فكر أن يترك حران عائداً من حيث أتى، لكن في كل مرة يصل إلى هذه القناعة، كان يتعمد تأجيل اتخاذ القرار إلى اليوم التالي، لأن فلسفته في الحياة أن «لا يتخذ قراراً تحت تأثير الغضب أو الانفعال». ولذلك ما يكاد «العارض» كما يسمي السبب الذي أدى إلى غضبه أو انفعاله يزول حتى يهدأ ويبدأ يفكر «بعقل بارد» لأن الحياة كلها صعوبات، والدليل على ذلك أن الطفل حين يخرج من الرحم يبدأ الحياة بالبكاء والصراخ» ويضحك الحكيم بجذل ويضيف «وتستمر الصعوبات يوماً بعد يوم، منذ لحظة الميلاد وحتى ساعة الموت، ولا يخفف منها إلا النعمة، أما الموت فإنه يضع حداً للصعوبات كلها، والدليل أن الميت يتوقف عن الألم، يتوقف عن الصراخ والاحتجاج، تاركاً هذه المهمة للذين حوله، للذين ما زالوا على قيد الحياة».

العقل البارد إذن هو الذي يقود خطوات الحكيم، ويجعله يفكر بطريقة مختلفة عن الآخرين، ولأنه هكذا لم يكن له أصدقاء بالمعنى الحقيقي «الأصدقاء عبء على الإنسان، والعاقل هو الذي يعتمد على نفسه ولا يحتاج إلى الآخرين» حتى في بلدته لم يكن له أصدقاء. كان له معارف كثيرون «لكن الأصدقاء مثل الغول والعنقاء» ولأنه كذلك لا يحب الثرثرة، ولا يحب أن يخوض الناس في قضاياه الخاصة. أما زوجته التي كانت لها في البداية طباع من نوع مختلف عنه، فما لبث مع الأيام أن تغيرت. كانت تشاركه فيما تتحدث به النسوة، وذكرت عدة مرات ما يحب الحكيم وما يكره، ومتى ينام ومتى يستيقظ، فلما وصل إلى علمه شيء مما قالته عنّفها

بقسوة. لقد حصل هذا في بداية عهد الزواج، مما اضطر المرأة إلى أن تبلع لسانها، فاكتفت يوماً بعد آخر بسماع قصص الآخرين. أما حين جاءها الإبن الثالث فقد توقفت نهائياً عن المشاركة في الاستقبالات، وانصرفت بشكل كامل إلى تربية الأولاد والعناية بالبيت. حصل هذا دون ضجة ودون إعلان، لكن الحكيم بنظره الثاقب أدرك ذلك قبل أن تقول زوجته كلمة واحدة، وقد عقب آنذاك بأن قال: «من حكي الناس لا يأتي إلاّ العمى والطراش».

قبل أن يصل الحكيم إلى حران قضى عدة سنوات في حلب، وقبلها عاش في طرابلس. أما عن عائلته فإن المعلومات قليلة ومتضاربة إلى درجة كبيرة. وحين يسأل لا يجيب إجابات واضحة تماماً. يقول إن جده كان خزنداراً عند الوالي التركي في الأناضول، وقد رافق الوالي عدة مرات في محمل الحج، ثم قضى ما تبقى من حياته مجاوراً في المدينة المنورة، أما أبوه فكان كاتم أسرار والي ولاية بيروت الكبرى. كان الحكيم يقول ذلك بسرعة وبعبارات غامضة، ثم يضيف وهو يبتسم لينهي أية أسئلة أو حوار حول الموضوع: «إن الفتى منْ يقول هاأنذا وليس...».

أما لماذا جاء الدكتور صبحي المحملجي إلى حران ولماذا ترك بعثة الحج فإنه يفسّر الأمر بدوافع الإنسانية والرغبة في مساعدة الناس في هذا المكان المقطوع. أما حين سأله الأمير خالد، بعد أن توثقت العلاقة بينهما، فقد رد وهو يضحك:

ـ الماء لراكد، يا طويل العمر، يفسد، وكذلك الرجل صاحب الهمة، ولا يخفى عليك أن الخيل الطيبة يتعبها أصحابها، لكن إذا جاء وقت السباق كانت أسرع الخيول.

والأمير الذي كان يحب أن تكون العلاقة بينه وبين الحيكم على أحسن وجه، وخاصة جداً، كان يوافق، يهز رأسه ويقول مؤكداً:

ـ لا يعرف الإنسان في أية أرض يولد وفي أية أرض يموت...

أما حقيقة البواعث التي جاءت بالحكيم إلى حران، والتي يذكرها بعض الأحيان بخفاء ومواربة فتتلخص باثنين، الأول أن لديه أوراقاً خلّفها

جده الخزندار حول ملكية أراضٍ وبساتين في عدة أمكنة في الجزيرة وعلى الطريق السلطاني، وقد جاء لكي يستقصي ويبحث لعله يصل إلى نتيجة، والباعث الثاني أن لديه ولعاً شديداً بالأماكن الجديدة، وقد اكتسب هذا الولع من أسفاره الكثيرة ومن تنقلاته، ومن تلك القصص التي قرأها حين كان طالباً في برلين، عن أولئك المكتشفين والرحالة الذين وصلوا إلى العالم الجديد، وكيف استطاعوا أن يجمعوا ثروة في فترة قصيرة، ثم كيف تركوا تأثيرهم في الأماكن التي وصلوا إليها.

هذان الباعثان قلما يشير إليهما الحكيم، بل وكثيراً ما يحاول التمويه حتى على نفسه، لأن إرثاً مثل الذي تتحدث عنه جدته قد ضاع تماماً ولا يمكن استعادته، خاصة وأن أباه قبله قد سبقه إلى هنا، وقضى ثلاث سنوات كاملة يركض من مكانٍ إلى آخر وقد عاد دون جدوى، عاد حاملاً معه مجموعة من الأوراق الممزقة، المهترئة، مع كمية كبيرة من اليأس والمرارة، وقد ترك كل ذلك لابنه، والإبن الذي استلم الأوراق ولم يتخل عنها، قام مرة بعد أخرى بإعادة لصقها وترميمها، لأن الأمل لا يزال يراوده بالوصول إلى نتيجة. كان دائماً يقول لنفسه: «كل شيء ممكن في هذه البلاد. . . إذا جدّ الإنسان وصبر».

كان وصول الحكيم إلى حران حدثاً يفوق الكثير من الأحداث التي وقعت في ذات الفترة. فالملابس النظيفة الأنيقة التي ظهر بها في المقهى، بعد وصوله بساعات، ثم الأسئلة الدقيقة التي وجهها إلى بعض الذين جلسوا معه، حول عدد سكان حران، وما إذا جاء قبله طبيب أم لا، وسأل عن أجور البيوت والدكاكين، وهل تقدم الشركة أية خدمات طبية للعمال والسكان؛ ثم سأل عن الأمير، عن عمره واهتماماته وأي نوع هو من الرجال. هذه الأسئلة لفتت نظر الناس إليه وجعلتهم يتساءلون ويترقبون. أما حين استكمل المعلومات الضرورية فقد تساءل بينه وبين نفسه ما إذا كان الأفضل أن يقوم بزيارة الأمير مباشرة أم يطلب موعداً لهذه الزيارة، وتوصل أن القيام بهذه الزيارة في أسرع وقت، ودون وساطة أحد هو الحل الأفضل، لذلك حمل حقيبته الطبية في المساء إياه وتوجه إلى دارة الإمارة.

والأمير الذي سمع بوصول الحكيم، توقع زيارته، لكن لم يتوقع أن يأتي بهذه السرعة أو أن يأتي ليلاً، وحين أبلغ بوصوله قال بصوت هامس:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

ثم التفت إلى الذين حوله وتساءل:

ـ إذا كان هالشياطين يترزقون من المرض ومن الموت العافية تجي منين؟

وبطريقة احتفالية مبالغ فيها، وكأن صداقة قديمة تربط بين الاثنين، تقدم الطبيب وسلم بحرارة ومودة على الأمير، وقال إنه سعيد لوصوله إلى حران، وإذا أذن له الأمير سوف يقدّم خدماته لمن يحتاجها، وختم كلامه بقوله:

ـ وبإذن الله سوف أبذل كل جهدي من أجل تخفيف آلام المرضى ومعالجتهم بطريقة عصرية.

ظل الأمير صامتاً يستمع وينظر في وجه هذا الرجل المربوع الأبيض ويتساءل بينه وبين نفسه، أي نوع من الرجال هو، ويتساءل هل حران بحاجة إلى طبيب غير مفضي الجدعان؟

سأل الأمير يمتحن الرجل:

ـ ومن يدرينا أنك تعرف تداوي الناس؟

ابتسم الحكيم ابتسامة واثقة وتطلع في الوجوه التي تراقبه، وأجاب:

ـ حياة حجاج بيت الله الحرام وصحتهم، كانت أمانة في رقبتي، يا طويل العمر.

وابتسم أكثر من قبل وتابع:

ـ يمكن لبعض الأشخاص أن يكذبوا، أن يدّعوا... إلا في الطب...

ولم ينتظر ولم يتردد، إذ فتح حقيبته أمام عيني الأمير وقال:

ـ بهذه الأدوات والأدوية أستطيع أن أشفي أي مريض.. ثم إن شهادة الممارسة لا تعطى إلا بعد القسم.

قال الكلمات الأخيرة ببعض الحيرة، فتطلع الأمير باهتمام إلى الحقيبة المفتوحة، وقد راودته الرغبة في أن يقلب محتوياتها، والحكيم الذي أحس بهذه الرغبة دفع الحقيبة قليلاً إلى الأمام، فظهرت بعض الأدوات الطبية وبعض الأدوية. سأل الأمير من جديد:

- وتعرف تداوي كل الأمراض؟

- بمشيئة الله، يا طويل العمر.

- وين اشتغلت قبل ما تجي حران؟

كنت طبيب بعثة الحج يا طويل العمر، ولما سمعت أن حران بحاجة إلى طبيب توكلت على الله وجئت.

هز الأمير رأسه دلالة الفهم، وقال له أن لا مانع من بقائه في حران، وأن يمارس مهنة الطب، ثم بدأت الأحاديث والأسئلة تأخذ منحى آخر.

كانت هذه الطريقة في المعاملة والتحقيق كافية لأن يبقي الحكيم حقيبته مقفلة ويفكر بحملها مغادراً حران، لكن التعب الذي لقيه خلال الرحلة من عجرة إلى حران، ثم تعمده اتخاذ القرار إلى اليوم التالي، جعلاه ينتظر ثم يعدل عن فكرة الرحيل.

أما ما تلا هذه الحادثة، سواء في الليلة ذاتها أو بعد ذلك، فقد جعله أكثر حيرة وأكثر رغبة في العودة. فصعوبات السكن والأكل وغسل الثياب، إضافة إلى أن أهل حران لم يألفوا وجود طبيب بينهم، ولذلك لم يغامر أحد في الأيام الأولى بزيارته، بل وتوقع الكثيرون رحيلاً مبكراً لهذا الرجل الذي جاء قبل الأوان، أو جاء إلى مكان لا يحتاج إلى طبيب غير مفضي الجدعان، إلا أن بعض الأحداث التي أتت مصادفة غيّرت الكثير من المواقف والقناعات. فابن الأمير الذي أصيب بحمى لم تجد معها المحاولات التي بذلت في معالجته، تولى الحكيم المعالجة، وقام بهذه المهمة على أحسن وجه، والأمير نفسه راقب بانتباه شديد كل حركة من حركات الطبيب، وكل تصرف من تصرفاته أثناء العلاج، وكأنه يريد أن يتعلم أو أن يتأكد من كل شيء. والطبيب الذي كان بطرف عينه يتابع حركات الأمير وردود فعله، أظهر كثيراً من البراعة، وبالغ في الحركة، ثم

ما لبث أن قام بشرح الحالة بتفصيل ودقة، وأطلع الأمير على بعض الأدوات الطبية: قدم له السماعة، ثم قدم ميزان الحرارة وآلة قياس الضغط. والأمير الذي أمسك السماعة بحذر، ثم وضعها على أذنيه بمساعدة الحكيم نفسه، أبدى دهشة كبيرة عندما سمع دقات القلب واضحة قوية. أما ميزان الحرارة فلم يستطع أن يرى مؤشره، رغم محاولات الطبيب العديدة. وآلة قياس الضغط اعتبرها معقدة، وربما خطرة، ولم يفهم منها شيئاً البتة.

أما عندما انخفضت حرارة الصغير وتم شفاؤه في اليوم الثالث، فقد بدأ الطبيب يتمتع بحالة من الاحترام المشوب بالتقدير الغامض. كانت هذه الحادثة بداية علاقة وثيقة وبداية صعود نجم الدكتور صبحي المحملجي.

وتأكدت براعة الطبيب ولم يبق أحد إلا وتحدث عن ذلك، حين تعرض جوهر، مرافق الأمير، إلى حادث خطير أدى إلى جرح كبير في ساقه، مع ارتفاع درجة حرارته، فقد كاد مفضي الجدعان، الذي تولى المعلاجة قبل وصول الحكيم، أن يقتل جوهر، كما أكد الدكتور صبحي مراراً، وبإلحاح لا ينفك يتزايد، أو على الأقل أن يتسبب ببتر الساق. إذ لولا تدخل الحكيم في الوقت المناسب، ثم قيامه بإظهار براعته، والأمير يراقب بانتباه، ففتح الجرح بعد تخدير المريض ونظفه ثم أعاد تخييطه، وقد أجرى هذه العملية في الخيمة القريبة من خيمة الأمير، لولا تدخل الحكيم لكانت النتائج مختلفة، ولم يمر أسبوع والطبيب يتابع المعالجة، حتى نهض جوهر، رغم أنه استمر يتوكأ على عصا أثناء المشي، ثم تحولت العصا بمرور الوقت إلى الأبهة ثم لاستعمالات أخرى!

هذان الحادثان اعتبرا تزكية للطبيب، وقد حصلا خلال الفترة الأولى، فساعدا في تثبيت مكانته، رغم الكثير من الإشاعات والأقاويل التي بدأ يثيرها مفضي الجدعان. وخلال فترة قصيرة أصبح المحملجي شخصاً مرموقاً في حران. أما حين استأجر ثلاثة دكاكين معاً من الدباسي، وأجرى فيها تعديلات كبيرة، بحيث يمكن أن تصبح مكاناً ملائماً لاستقبال المرضى وللإقامة أيضاً، فقد تأكد الجميع أن الطبيب جاء ليبقى، وإن إقامته في

حران ستطول. ومفضي الجدعان الذي اختار مكاناً قريباً من العيادة وأخذ يجلس فيه فترات طويلة يحرّض ويشتم، وقد انتزع أكثر من مرة الأدوية التي كانت في أيدي الذين زاروا الطبيب ورمى بها، مؤكداً أنها مليئة بالعفاريت الصغيرة، ولن تلبث أن تُدخل الضيق إلى الصدور، لأن الذين صنعوها لم يتعوذوا من الشيطان ولم يسموا عليها باسم الرحمن! والحكيم الذي كان يصله كل ما يفعله مفضي عن طريق الحارس والمساعد الذي استخدمه، يتظاهر أنه لم يسمع ولا يعرف شيئاً خارج العيادة، لكنه مع ذلك كان ينتظر الوقت المناسب لكي يرد مرة واحدة على «هذا الدجال» كما أطلق على مفضي، وإلى أن يأتي ذلك الوقت انصرف الحكيم إلى بناء علاقات خاصة مع الأمير أولاً، ثم مع أعيان حران وأغنيائها بعد ذلك.

كان الحكيم يشعر أنه وحيد وأعزل، خاصة وأن طبيعته تجعل بينه وبين الآخرين مسافة، كما أنه لا يستطيع، في هذه الفترة، أن يبعث وراء زوجته وأولاده لكي يأتوا إلى حران، فحران لا تزال، رغم تزايد عدد الناس فيها، ورغم توافر الكثير من الأمور والحاجات، بلدة لم تكتمل بعد، أو بعبارات أدق غير قادرة على استقبال الجميع أو توفير ما يحتاجون إليه. فالمدرسة الإبتدائية التي افتتحت منذ بعض الوقت تقتصر على الصفوف الأربعة الأولى، بل إن عدد التلاميذ في الصف الرابع لا يتجاوز الخمسة، وهم أبناء المدير وأحد المعلمين الثلاثة. إضافة إلى اثنين من أبناء الراشد. أما أن يترك الأولاد لكي يتابعوا دراستهم في بيروت، عند جدتهم لأمهم، وتلتحق به زوجته، فقد بدا الأمر مبكراً، خاصة وأنه لم يعثر على سكن ملائم، أو بالأحرى بشكل جدي، لأنه غير مستقر على قرار نهائي.

ومما زاد في شعور الحكيم بالوحدة أن مساعده محمد عيد الذي عمل معه طوال السنوات السبع الماضية، والذي رافقه في بعثة الحج، وعده أن يلتحق به خلال فترة شهر، وعلى أبعد تقدير خلال شهرين. وها قد مضت ثلاثة شهور كاملة ولم يصل ولم يبعث بأي خبر. إن محمد عيد ليس مجرد مساعد يمكن استبداله بغيره، أو يمكن الاستغناء عنه، إذ إضافة إلى إتقانه

للمهمات التي يقوم بها مساعدو الأطباء عادة، فإنه متوقد الذكاء، سريع الفهم والاستجابة، حتى بعض الأمور التي قد ينساها الطبيب نفسه كان يلفت النظر إليها، ويتداركها. هذا عدا عن الألفة التي تولدت من العمل المشترك الطويل بين الاثنين، ونتيجة هذه العلاقة كان محمد عيد يقوم بأعمال ليست من مهمته، كأن يحضر الأكل أو يشرف على نظافة العيادة ومكان المنامة، إضافة إلى أعمال أخرى كثيرة!

لا يمكن لأحد غير محمد عيد أن يقوم بهذه المهمات، ولا يمكن للطبيب أن يدرب شخصاً جديداً، ويتوقع أن يكون مثل ذلك المساعد، خاصة وأنه في هذا العمر، وفي هذا المكان، يجد نفسه أقل قدرة أو أقل استعداداً من قبل لأن يفعل ذلك.

كل هذه الأسباب ترد في بال الطبيب، بل ويذكرها لنفسه أثناء الانتظار الطويل الممض لمحمد عيد، لكن في الحقيقة هناك أسباباً أخرى أكثر أهمية، وهي التي تسبب له تعاسة حقيقية وشعوراً قوياً أنه يواجه الآخرين وحيداً أعزل. من هذه الأسباب أن محمد عيد الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يقيم بينه وبين الآخرين نوعاً من الصلة، وهي وحدها التي يرتاح إليها الطبيب ويجدها المناسبة، إذ يعرف كيف يتكلم عنه أمام الناس وكيف يصوره. إنه يتكلم عن إنسان أسطوري، عن إنسان يمتلك قوى خارقة، خاصة في مجال الطب، فهو يتذكر المرات التي انتزع فيها الطبيب إنساناً من بين يدي عزرائيل وقال له «خسئت! لقد حصل ذلك عندما عجز الأطباء الآخرون وأعلنوا استسلامهم الكامل «وحده الدكتور صبحي الذي قال للموت: أنا أقوى منك. وأعاد لذلك الإنسان الحياة!» ومحمد عيد لا يذكر فقط عدد المرات أو الحالات التي تفوّق فيها الطبيب على الآخرين بل وتفوّق فيها على نفسه «لأنه عاشق لهذه المهنة ولم يخلق إلا لها» وإنما يمتلك مقدرة غير عادية على نقل أبسط الأمور بطريقة ساحرة مؤثرة، وحتى لو كررها مرات عديدة فإنها دائماً تبدو جديدة وكأنها حصلت بالأمس. وهذه القصص التي يرويها يعرف متى يرويها ولأي أشخاص، حتى الطبيب نفسه يعجب حين يُسأل بعض الأحيان عن تلك القصص، بل

إنه لا يتذكر هذه التفاصيل التي رواها مساعده!

ومن الأسباب التي قوت العلاقة بين الاثنين أيضاً أن محمد عيد يعرف الناس معرفة جيدة، ويعرف الطريقة المناسبة للتعامل معهم «فالطبيب مشغول جداً» حين يأتي أحد الأقرباء أو أحد المعارف. و«عنده عملية كبيرة» إذا جاءت الشرطة طالبة منه إجراء الكشف على مصاب في حادثة من الحوادث. و«الطبيب غير موجود» إذا جاء إنسان فقير. صحيح أن محمد عيد أخطأ في بعض الحالات أو تجاه بعض الأشخاص، لكنها أخطاء صغيرة يعرف كيف يبررها في وقت لاحق، حتى لتكاد تختفي من ذاكرة الذين حصلت معهم، أما من ذاكرته هو فإنها تختفي في اليوم نفسه.

والطبيب الذي يصغي إلى مساعده يروي ما قام به من مهمات نيابة عنه، فيقره عليها ويثني على ما فعله، يكرر التنبيه مرة بعد أخرى: «أنا ما شفت ولا سمعت.. فاهم؟» ويهز محمد عيد رأسه مع ابتسامة، ويضيف وهو ينسحب بعد أن قدم التقرير: «ولا يهمك.. حكيم.. خلّيها عليّ... أنا المسؤول».

يضاف إلى الأسباب الحقيقية التي يعرفها الطبيب ولا يذكرها أبداً: «إبرة العافية» فمحمد عيد هو الذي يتولى اللمسات الأولى والأخيرة بالنسبة لأغلب المرضى، إذ بعد أن يسجل اسم المريض بحروف كبيرة غير واضحة، يسجل الحالة، وغالباً ما تكون وصفاً بدائياً للمرض، كل ذلك بخط رديء متداخل الحروف، على عادة الأطباء، فيكتب: «وجع بطن» «حكة» «أوجاع مختلفة في الأعضاء». بعد أن ينتهي من هذه المهمة يبدأ بتهيئة المريض نفسياً، كان يؤكد له أن حالته بسيطة، أو أنه جاء في الوقت المناسب، وإن الله سبحانه وتعالى رحمه وأرسله إلى الدكتور صبحي. وبعد فترة من الصمت، لكي يترك أثر الكلمات التي قالها تترسب في أعماق المريض، يضيف وهو يبتسم ابتسامة الواثق:

- بعدما يفحصك ويصف لك الدواء، الإبرة جاهزة، وهذه الإبرة في خمس دقائق تؤدي مفعولها، وإن شاء الله تكون فيها العافية.

قليلون هم المرضى الذين لم تثقب حقنة محمد عيد جنوبهم، وأقل

منهم هم المرضى الذين لم يسألوا ما إذا وصف لهم الطبيب، ضمن الدواء، إبراً أم لا، وهل الحقن التي سيأخذونها من نفس نوع وقوة الحقن التي سيعطيها لهم محمد عيد. والدكتور صبحي الذي يعطي إجابات مختصرة جداً وسريعة، يترك المرضى في حيرة إلى أن يستلمهم مساعده، إذ بعد أن يطلب، بطريقة أقرب إلى الأمر، من المريض أن يهيّئ نفسه بسرعة «لأن الأبرة جاهزة» يسحب منه الروشيتة فيلقي عليها نظرة مدققة مع هزات من رأسه دلالة أنه فهم الحالة واعتبر الدواء مناسباً جداً. وفي ذلك المربع الصغير، الذي ربما كان في يوم من الأيام مخبأ أو مرحاضاً، وأصبح الآن أصغر غرفة في العالم، حيث لا يتسع إلا لوقوف شخص واحد، وبعد أن يستعد المريض وراء الستارة المسدلة، ويسأله محمد عيد: «أأنت جاهز؟» وما يكاد يسمع الإجابة حتى يرفع الستارة بطريقة متقنة للغاية، لفرط ما تكرّرت، عن الجزء الأسفل من جسد المريض، وبسرعة خاطفة ينتهي من مهمته، مع كلمة يرددها دائماً: «فيها العافية». «إبرة العافية» تعادل قيمتها أجرة الكشفية، لأنها قيمة كلية وغير قابلة للتجزئة، إذ لا يمكن أن يقال مثلاً: قيمة الإبرة كذا وأجرة إعطائها كذا. ولا يمكن الموافقة على طلب أحد المرضى أن يأخذ الإبرة لكي يتولى غير محمد عيد إعطاءها. إن مثل هذا لا يقع، كما أن المرات التي رفع فيها الطبيب أجور المعاينة ارتفعت معها قيمة «إبرة العافية» أيضاً. وإذا كان الدكتور صبحي قد بدأ ممارسة المهنة بأجور أقل من الآخرين، خاصة الكبار المعروفين الذين سبقوه في طرابلس وحلب، فالكثيرون كانوا يسخرون من كفاءته ونزاهته حين يذكر اسمه. يذكرون الإضافات التي يحصل عليها من هنا وهناك، مشيرين إلى «إبرة العافية» كما أصبح يطلق عليها، وإلى قيامه ببيع الأدوية التي يحصل عليها كنماذج.

إذن شعور الدكتور في حران بالوحدة والعزلة كانت له أسبابه، أما وصول محمد عيد في بداية الشهر الرابع، فقد غيّر كثيراً في شكل الحكيم وتصرفاته، أو بالأحرى جعله إنساناً آخر. فالصمت الذي كان يتحصن وراءه في حالات كثيرة، أو تلك الإجابات المضطربة الخشنة، بدأ

تجاوزهما من خلال لسان جديد. . . متمثل بمحمد عيد. فكل ما يريده الحكيم أو يسأل عنه يتولى المساعد القيام به. أما الأكل الذي تسبّب باضطرابات معوية حادة، وقد خاف منها الحكيم في فترة من الفترات «لأن الآخرين لا يفهمون عليه ولا يريدون مساعدته!» فما لبث أن أخذ نسقاً جديداً حين تولى مساعده إعداده وتحضيره. فزالت آلام الحكيم واستعاد قوته. ويمكن أن يقال الكثير عن النظافة والملابس وشراء الحاجات ومساومة الصناع ومراقبتهم. ولذلك أمكن تدارك أمور خلال أيام من وصول محمد عيد، وبدت العيادة التي تكاملت وانتظمت قريبة الشبه بالعيادة التي كانت للطبيب صبحي في طرابلس قبل عشر سنين. وإذا كان مكان سكن الطبيب في الدكان الجانبية قد ولد في نفسه نوعاً من المرارة نتيجة ملاحظات نقلت إليه. فما لبث أن فُتح لهذه الدكان باب جانبي، صبغ بلون أزرق فاتح، ووضعت إلى جانبه لوحة خطها أحد معلمي المدرسة، الذي وفد حديثاً إلى حران. كتب على اللوحة الصغيرة بخط رقعة جميل «الدكتور صبحي المحملجي ـ منزل» أما اللوحة الأصلية التي وضعت في وسط الواجهة الأمامية، على الشارع الرئيسي، وقد صممت بعناية في عجرة، فكان مكتوباً عليها: «الدكتور صبحي المحملجي، طبيب وجراح. إختصاصي في الأمراض الداخلية والتناسلية من جامعات برلين والنمسا».

إن اختصاص «الأمراض التناسلية» الذي كان من جملة اختصاصات الدكتور صبحي المحملجي، والذي أشار إليه، منذ البداية، إشارة سريعة، لكن مؤثرة وذات دلالة، هذا الاختصاص، الذي يعرف الحكيم أهميته وتأثيره، أقام بينه وبين الكثيرين روابط قوية ومتداخلة!

فلم تمر أسابيع قليلة على وصوله إلى حران إلا وبدأت بينه وبين الأمير علاقات وثيقة حتى أن كثيرين تساءلوا من جديد ما إذا كانت معرفة سابقة تجمع بين الرجلين، وقد حملهم على هذا التساؤل طريقة الطبيب في السلام على الأمير في الليلة الأولى، ثم هذه الجلسات الطويلة الخاصة التي تجمعهما الآن. والأمير الذي ظل يحرص، أمام الآخرين، أو في

بداية قيام هذه العلاقة، على أن يسأل ويستمع بانتباه عن الأمراض: أعراضها، أسبابها، وطرق معالجتها، ويبدي اهتماماً وإصغاء أثناء ما كان الطبيب يشرح، رغم أن القسم الأكبر مما كان يسمعه لا يفهمه، وتختلط المعلومات إلى درجة يحار كيف يمكن للطبيب نفسه أن يعرفها، فقد كان دائماً يهز رأسه دلالة الفهم والمتابعة، وفي أغلب الجلسات كان الأمير يبدي رغبته في استعمال السماعة، في أن يضعها على صدر أحد رجاله ليستمع إلى دقات قلبه. كان دائماً شديد الإعجاب بهذه الآلة، ويتمنى من أعماقه لو يستطيع أن يحصل على واحدة. وفي هذه الجلسات، ومن خلال الأسئلة، كان الحديث دائماً يتجه إلى تلك القضية الحساسة والمثيرة معاً «قضية الجنس» والطبيب الذي لا يعطي إلا القليل القليل، كان بإجاباته يثير من الفضول والرغبة أكثر مما يفسر ويوضح للآخرين، تاركاً كل واحد مفكراً مهموماً، وراغباً أيضا في أن يزوره منفرداً.

في فترة معينة، وبعد أن توثقت العلاقات أكثر من قبل بين الطبيب والأمير، أصبحت الأسئلة أقل براءة ومباشرة جداً وصريحة.

الدباسي الذي وافق بحماس على تأجير الدكاكين الثلاث إلى الطبيب، استجاب بكثير من التفهم إلى الاقتراحات والتعديلات المطلوب إجراؤها، لكي يتم تحويلها إلى عيادة ومستشفى ومكانٍ لسكن الطبيب. كان فخوراً أن الطبيب اختار هذه الدكاكين، وكان يحرص على أن يكون صديقاً وقريباً، كما أبدى استعداداً لأن يلبي أية طلبات لاحقة. وحول هذه النقطة الأخيرة جرى بحث غير واضح وغير نهائي في إمكانية بناء طابق ثانٍ، وربما ثالث أيضاً، لكي يصبح هذان الطابقان مستشفى كبيراً ومكاناً لائقاً لسكن الطبيب، خاصة حين تصل عائلته.

كان الدباسي يتعمد أن يقضي وقتاً أطول مما تعود في فترات سابقة للإشراف على التعديلات التي تجري. وقد تعمد أكثر من ذلك أن يكون قريباً من الطبيب، ورغم أنه قرر مرات عديدة، بينه وبين نفسه، مفاتحته لكي يعطيه بعض المقويات والأدوية، لأنه أصبح يشعر بحاجة إليها، خلافاً للفترات السابقة، رغم أنه قرر ذلك إلا أنه لم يجرؤ في البداية. كان يحس

بالخجل والارتباك حين يبلغ في تصميمه حد المكاشفة، كانت تظهر بعض العوائق، مما اضطره إلى تأجيل ذلك لفترة غير قصيرة.

ومثلما توثقت علاقات الحكيم بالأمير والدباسي فإن علاقاته بشاه بندر التجار وحسن رضائي وآخرين أخذت المنحى ذاته، مع اختلاف يسير بين واحد وآخر. حتى ابن نفاع الذي ظل حذراً مراقباً كل الفترة الأولى، وسمع ما قاله مفضي الجدعان وما قاله غيره، ورأى الطبيب عدة مرات في المسجد، ورأى التقى الذي يظهره، ثم عرف أنه كان رئيساً لبعثة الحج، فقد أبدى نوعاً من التسامح والتفهم لمجيئه، أما بعد أن وصل محمد عيد، وما نقله عن الطبيب أثناء مرافقة الحجاج، كيف أنقذ العشرات من موت محقق، وكيف كان يواصل الليل بالنهار لمراقبة المرضى والعناية بهم، ما إن سمع ابن نفاع هذه التفاصيل، واستفسر من محمد عيد حول عدة أمور، حتى تغير بشكل واضح. قال أمام الكثيرين أن ابن جدعان مخطئ ولا يريد خير المسلمين، لأنه يحاول قطع رزق واحد من الرجال الصالحين. وقال أكثر من ذلك، إن حران التي احتملت عدداً من التجار يزيد يوماً بعد آخر، لا يضيرها لو وجد أكثر من طبيب. أما المرضى فيمكن أن يذهبوا إلى ابن جدعان أو إلى الطبيب الجديد، لا فرق في ذلك. وقد أورد ابن نفاع عدة أحاديث وقصصاً عن الرسول قالها أو حصلت له، وكلها تحث على النظافة ومعالجة المرض.

مفضي الجدعان كان آخر من يتصور أن ابن نفاع يمكن أن يقف إلى جانب الطبيب الجديد. فلما تأكد من ذلك، قال أمام عدد من الرجال، وهو يشمر عن يده اليمنى ويحرك أصبعه بطريقة معينة:

ـ يتوهم ابن نفاع. يفكر أن اللي الله هدّه يمكن للطبيب أن يرده. . .

وحرك أصبعه أكثر من مرة دلالة الرخاوة وتابع وهو يضحك:

ـ قولوا له يجدع هذه السالفة من رأسه، وراح يظل ينام كفي على وجهه.

ابن نفاع الذي نقل إليه ما قاله مفضي الجدعان، استشاط غضباً، قال والزبد يتطاير من حلقه:

ـ قولوا له: ابن نفاع يعرّس كل ليلة وكل يوم، وإذا أراد يولّم أمه وينتظر بالباب ليسمع ويشوف.

وطالت المعركة بين الاثنين وتشعبت، لكن الحكيم لم يتدخل مباشرة. كان يسمع ما يقال، كان ينقل إليه حارسه هديب كل ما يجري، وبعد ذلك أخذ ينقل إليه محمد عيد مباشرة تفاصيل أخرى. فكان رده الذي قاله في مجلس الأمير ذات ليلة، وبدا شديد الثقة:

ـ إذا أراد ابن نفاع يمكن أن أرجعه شاباً ابن عشرين، ويمكن أن يعوّض كل ما فاته!

كلمات الحكيم السريعة العابرة، والتي كانت في معرض المزاح، رنت في آذان الرجال رنيناً حاداً موصولاً، والذين لم يفكروا يوماً بسؤاله حول هذا الأمر بالذات، لأنهم لا يشعرون بحاجة إلى ذلك، أحسوا أنهم قد يحتاجون إليه في يوم من الأيام، وأنه يملك قوى وإمكانيات خارقة! أما الذين انحطت قواهم، الذين كانوا بحاجة ماسة إلى المساعدة، فقد شعروا أنهم وصلوا إلى ضالتهم بعد انتظار طويل وبعد عذاب أطول، ولذلك تعلقت به العيون تتابع كل كلمة، كل تصرف، ودون إرادة، ودون شعور، أصبح الدكتور صبحي المحملجي مثالاً وأملاً للكثيرين..

والدكتور صبحي الذي عرف أو قدر أن حران بحاجة إلى طبيب، فإن مشكلة الأدوية أو مشكلة الصيدلية لم يفكر فيها بالمقدار الكافي. إذ بعد أن احتفظ بالقسم الأكبر من الأدوية التي كانت مع بعثة الحج، فقد طلب من مساعده أن يحضر معه عندما يأتي مجموعة أخرى سماها له، لكن ما عنده منها، وما يأتي به محمد عيد إذا كفى شهراً فلا بد أن ينفذ في الشهر التالي، ولذلك فكر، في جملة ما فكر فيه، أن يقيم علاقات طيبة مع الطبيب الباكستاني الذي يعمل في الشركة. قال ذات ليلة لمساعده وهما يرتبان الأدوية:

ـ تأمين الدواء يتطلب وجود اتصال مباشر مع النبع، والنبع في هذه الفترة هو الشركة، حتى يأتي صاحبنا صدقي المفتي أو واحد ابن حلال مثله.

وبكثير من البراعة والمكر بدأت زيارات بين الدكتور صبحي والدكتور محمد جناح. كانت أول الأمر زيارات مجاملة، تخللتها بعض الصعوبات، لأن الدكتور جناح لا يحسن سوى الإنكليزية، ويعرف بعض الكلمات العربية فقط، أما الدكتور صبحي فإن إنكليزيته «إنكليزية قراءة وليست إنكليزية أخذ وعطاء» هكذا قال الحكيم أول مرة، واستعان بوسائل عديدة، بالكتابة، بالقاموس، بالإشارات، وببعض الكلمات العربية أيضاً لكي يتفاهما. أما في المرات التالية فيبدو أن الاثنين استعدا، فحصيلة الدكتور الباكستاني من الكلمات العربية كانت أكبر، وكذلك حصيلة الدكتور صبحي من الكلمات الإنكليزية، وقد نطقها بطريقة بدت غريبة أول الأمر ولم يفهمها الطبيب الباكستاني، لكن بعد أن فهمت تحولت الغرابة إلى متعة مشوبة ببعض المزاح. وهكذا توثقت العلاقة بين الاثنين إلى ما يشبه الصداقة، وأصبح الاثنان يتفاهمان بطريقة خاصة للغاية!

بدت حران، أثناء تدشين خط الأنابيب، مدينة خطيرة، بنظر نفسها على الأقل! فقد سبق التدشين بأسبوع أو عشرة أيام وصول مجموعة كبيرة من رجال الشرطة والموظفين والحراس والخدم، إضافة إلى كميات كبيرة من المواد التموينية والخراف، ووصلت أيضاً إلى الأمير تعليمات متلاحقة وربما متناقضة.

أحس الناس بهذه الأمور إحساساً غامضاً، فاضطربوا بعض الشيء، وترافق ذلك مع حركة غير عادية في دار الإمارة، وفي البريد اليومي بين هذه الدار ومعسكر الأميركان، ثم استدعاء نائب الأمير لبعض أعيان حران، والأحاديث الطويلة التي جرت بينه وبينهم، وما تسرب منها، أو ما عرفه الناس بطرقهم الخاصة. وبعد ذلك الزيارة المفاجئة التي قام بها ثلاثة من الأميركيين الكبار إلى دار الإمارة ولقاؤهم بالأمير. وفي اليوم التالي زيارة الأمير نفسه لمعسكر الأميركان، وتجوله في المنطقة البحرية، والخيام الثلاث التي نصبت في معسكرهم، وسط الحديقة الكبيرة وقرب بركة السباحة، وقيل إنها ستكون للضيوف، لأن نائب السلطان ولي العهد سوف ينزل في بيت الأمير أو في دار الإمارة.

الحركة التي استمرت أياماً، وتميزت بالاضطراب وعدم الدقة، وقد تخللتها حالات غضب من الأمير أو من نائبه، وحتى من المرؤوسين تجاه من هم دونهم، ثم تساؤلات الناس التي لم تهدأ لحظة واحدة ولم تتوقف، والتي لم يكن من السهل الإجابة عنها، سواء عن عدد الضيوف الذين سيأتون إلى حران أو المدة التي سيقضونها، وأخيراً التعليمات والتنبيهات التي أعطيت على عجل لأصحاب الدكاكين، خاصة في الشوارع الثلاثة

الرئيسية، حيث سيمر الموكب، هذه التعليمات التي أشارت إلى ضرورة التزيين ووضع البيارق والإشارات الملونة، وإظهار الفرح والبهجة، كل هذه الأمور لم يستطع الكثيرون تصور كيف يمكن أن تكون، لأنه لم يسبق لهم أن فعلوا شيئاً مثل هذا من قبل. أما حين رأوا محمد عيد أمام عيادة الدكتور صبحي المحملجي، وقد هيأ مجموعة من العوارض الخشبية، وبمساعدة النجار الذي قام بإنجاز أعمال العيادة، وخلال بضع ساعات انتصب قوس غطى العيادة كلها تقريباً، ثم نشرت على هذا القوس سجاجيد كان الطبيب قد اشتراها في الفترة الأخيرة، أثناء وصول إحدى البواخر. نشرت هذه السجاجيد ـ عدا ثلاث فرشها الحكيم في العيادة وغرفة المنامة ـ ثم وضعت فوقها مجموعة من الأوراق الملونة، كانت عادة توضع في علب الأدوية الكبيرة. وعلى قطعة مستطيلة من القماش خط رؤوف السقا، الخطاط الذي كان في عجرة، والذي انتقل مؤخراً إلى حران، خط عبارات اختارها الطبيب بنفسه، وقد قضى الليلة السابقة يفكر فيها ويكتبها على ورقة أمامه، وظل ينقحها حتى استقر نهائياً على صيغة لها ترضيه. حين انتهى رؤوف السقا من كتابة اللافتة بدت جميلة متقنة، وقد أبدى الطبيب رضاه التام عنها. أما حين رفعت على عرض الشارع، أمام السوق مباشرة، فقد أشرف الطبيب بنفسه على ذلك، وطلب أكثر من مرة أن تُشد الحبال لكي ترتفع اللافتة أكثر، فلما انتهى كل شيء ذهب الطبيب إلى نهاية الشارع لكي يلقي نظرة من هناك، وتقدم خطوة بعد أخرى، وعيناه لا تفارقان اللافتة والقوس، فلما وصل تحتهما تماماً كان بادي السرور وقال بصوت مسموع:

ـ العظماء والقضايا العظيمة تستحق هذا وأكثر من هذا.

مبادرة الطبيب فتحت الآفاق أمام الآخرين، حتى الأمير نفسه لم يتردد في النزول إلى حران وزيارة الطبيب في عيادته، عصر اليوم الذي أقيم فيه القوس، وقد فُسرت هذه الزيارة على أنها بادرة رضا. أما محمد عيد حين سئل عن الزيارة فقد رد بثقة:

ـ زيارة الأمير للحكيم تتعلق بأمور أكبر وأخطر. . . .

توقف قليلاً تطلع في وجوه الذين يسألون ثم تابع:

ـ أنتم تعرفون العلاقة بينهما، إنهما أكثر من أصدقاء، إنهما أخوة.

ولم يستطع الكثيرون أن يفهموا معنى الزيارة على وجه مؤكد، لكن لم يبق أحد في حران إلا وتحدث عنها.

وإذا كان أهل حران قد اضطربوا وانتظروا فإن دار الإمارة كانت أكثر اضطراباً وأكثر انتظاراً. إذ لم يتصور أحد من قبل أن يأتي إلى حران مثل هؤلاء الرجال أو بعددهم. أما وقد تقرر مجيئهم فلا يعرف كيف سيكون انطباعهم أو رأيهم فيما سيرون أو يسمعون. لكن رغم شعور الرهبة الذي سيطر على الكثيرين فإن شعور الفخر، الذي يصل حدود الكبر، كان أقوى وأوضح، حتى الذين لم يطلب منهم إقامة الزينة بادروا إلى إقامتها، أو على الأقل رفعوا الأعلام أو وضعوا خرقاً ملونة.

الوحيد الذي أظهر رفضاً وصل حدود الإزدراء هو ابن نفاع، إذ ما كاد يمر في شارع الراشدي ويرى القوس الذي أقامه الدكتور صبحي حتى فوجئ مفاجأة جعلته يصرخ:

ـ آه. . . يا ابن الحرام يا أرناؤوطي. حسبناك ابن أوادم تراك طلعت مثلهم. . .

توقف قليلاً ثم أضاف بسخرية:

ـ لكن مثل ما قالوا: الكلب أخو السلوقي.

ولم يتوقف ابن نفاع عن الشتيمة والتحدي، رغم محاولات محمد عيد استرضائه وتوضيح الأمر له. والرجال الذين اجتمعوا تحت القوس، مقابل العيادة، وكانوا يوزعون نظراتهم بين ابن نفاع وهذه الزينة التي تبدو لهم شديدة التألق، لم يأخذوا كلام ابن نفاع وشتائمه على محمل الجد، وذكروا أنه لا يعني ما قاله كلية، ولكن هذه هي العادة التي لم يستطع هذا الشايب التخلي عنها منذ أن وصل الأميركان وحتى الآن. قال أحد الرجال في لحظة صمت، يريد أن يخلق شقاقاً جديداً:

ـ يا جماعة. . القصة من أولها إلى تاليها أن الإبرة اللي يحلم بها ابن نفاع ما رضي الطبيب يعطيها له!

وتغامز الرجال وانخرطوا في موجة عالية من الضحك والصخب، وما كادت الموجة تتراجع قليلاً حتى قال محمد عيد مازحاً:

ـ إذا كانت هذه كل القصة.. فاتركوا الحاج عليّ.

ـ ومن أنت يا أرناؤوط حتى تتكلم هذا الكلام؟

هكذ رد ابن نفاع غاضباً متسائلاً. كان غضبه شديداً أقرب إلى الهياج، ومحمد عيد الذي فوجئ بهذا الموقف، هز كتفيه ولم يجب. قال أحد الرجال من مكان بعيد متجنباً غضب ابن نفاع أو ربما ضربه:

ـ اسمعوا.. اسمعوا يا جماعة الخير...

فلما التفتت العيون نحو الصوت، قال الرجل وهو يتحرك يريد أن يفلت:

ـ آخر زمان يقصر (...) ويطول اللسان، وهذه حالة الشيبة.

لم يصدق ابن نفاع أن أحداً يمكن أن يكلمه بهذه الطريقة أو أن يقول ما قاله هذا الرجل. ظل مذهولاً بعض الوقت، فلما دوّت ضحكات الرجال عالية صاخبة، وسلقته العيون تتساءل ماذا سيكون رد فعله، نحّى الرجال بعصبية أقرب إلى الغضب، وتقدم إلى عمود القوس القريب، أرخى سرواله وهز عضوه أمام الجميع ثم جلس هناك وبال. خيم الصمت وعلت الوجوه تساؤلات مستغربة غير مصدقة، فلما وقف مرة أخرى قال وهو يضحك من السخرية والغيظ:

ـ قل لراعيك، يا أرناؤوط: ابن نفاع ما يبغي شي أبداً وحيله قوي، وهذا العمود أخذ شراب يلايمه.

وسار ابن نفاع شامخاً غير آبه بالنظرات التي ظلت تتابعه، ولا بالهمهمات التي سرت في الجمع وراءه، وحين ابتعد سمع صوت الطبيب من الداخل ينادي على محمد عيد طالباً منه أن يوافيه بسرعة.

كان ابن نفاع الشخص الوحيد الذي فعل شيئاً للتعبير عن عدم الرضا، لكن حركاته التي أضحكت الرجال، وأخافت محمد عيد، ما لبثت أن ضاعت في حمى الاستعداد والانتظار. حتى جوهر الذي أصبح مسؤولاً

عن الحراسة، ومهمته أن يشرف على الأمن وحماية الضيوف، والذي مر بعد فترة قصيرة ورأى الرجال قرب القوس وسمع منهم ما قاله ابن نفاع، فقد هز العصا التي كان يحملها وقال ضاحكاً:

ـ خلوا هذا الشيبة يعوي وحده، مجنون وهابلته خصيانه!

واستمرت الاستعدادات وتسارعت في الأيام الثلاثة الأخيرة، فلما جاء يوم الأربعاء وصل نائب السلطان ولي العهد الأمير خزعل.

كانت تتقدم الموكب سيارة بيك آب خضراء داكنة، يجلس على المقعدين المتقابلين فيها ثمانية من الحرس بأسلحتهم الكاملة، وهي عبارة عن بنادق طويلة وسيوف، إضافة إلى مجندين من الذخيرة متصالبين على صدر كل واحد منهم، ثم خناجر معقوفة بعض الشيء ومتفاوتة من حيث الطول والشكل. أما جوهر فكان يجلس في صدر السيارة إلى جانب السائق، وكانت يده التي تحمل العصا خارج النافذة أغلب الوقت. بعد البيك آب مجموعة من السيارات، كان عددها ثمانياً لما غادرت عجرة، لكن حين وصلت إلى حران كانت ستاً، لأن اثنتين تعطلتا على الطريق! ولولا أن نائب السلطان، الأمير خزعل، انتبه في الوقت المناسب لظل ركاب هاتين السيارتين على الطريق بين عجرة وحران. أما حين تحول ركاب هاتين السيارتين إلى السيارات الأخرى فقد بدت جميعها، عدا سيارة الأمير خزعل، مليئة ببشر لا يمكن للإنسان أن يميز بوضوح ودقة مراتبهم. سيارة الأمير خزعل حمراء قانية من نوع كاديلاك، أما السيارات الأخرى فرمادية أو بلون الطحين الأسمر، إلا واحدة كانت سوداء، وهذه السيارات من نوعي فورد وشيفرولية.

سيارة الأمير خزعل في الوسط، وهي بحجمها وشكلها وحتى بلونها والعلم يرفرف عليها، كالذبيحة الكبيرة في منتصف منسف متوسط الحجم، وتبدو كالخروف الأبيض وسط قطيع من الماعز!

إلى جانب الأمير خزعل، ومثل قط متربص، جلس الأمير خالد المشاري. وقد ذكر الكثيرون ممن رأوا الموكب يدخل حران، ثم هرولوا إلى جانبه، قريباً من السيارة الحمراء، ذكر هؤلاء أن الأمير خالد كان

صامتاً، وكان العرق يتصبب منه، كما لم يرفع يده بالتحية حين دق بعض الصبية على زجاج النافذة. أما في السيارات الأخرى فقد كان مرافقو الأمير وحاشيته، وكانت البهجة واضحة على وجوه الجميع، بمن فيهم السواق والحرس، وأبدوا الكثير من الطيبة والتسامح أثناء مرور الموكب في شوارع حران. كان الموكب يتوقف بين فترة وأخرى، لأن بعض الرجال أو الصبية كانوا يقفون وسط الشارع، ولأن آخرين كانوا يحملون عصياً ويرقصون بها، ومرة ثالثة توقف أو كاد لأن الأمير خزعل لفت نظره القوس الذي أقامه الدكتور صبحي، إذ طلب من السائق أن يتمهل، وطلب من كاتم السر الذي يجلس مقابله، أن يقرأ العبارات المكتوبة على اللافتة. أما حين وصل الموكب إلى دار الإمارة فكان هناك بانتظاره نائب الأمير ووجوه حران، بمن فيهم الدكتور صبحي المحملجي.

كان كل شيء في دار الإمارة مضطرباً قلقاً. حركة الرجال، خاصة الحرس والموافقين، أكثر مما يجب، بل أعاقت وغيّرت الكثير من الترتيبات التي هيّئ لها بعناية من قبل، ولهذا السبب لم يتح لبعض الرجال مثلاً أن يصلوا إلى الأمير خزعل أو أن يسلّموا عليه. لقد حصل هذا لاثنين من معلمي المدرسة ولدحام وابن جدعان. كما أن محيي الدين النقيب دُفع أثناء تقدمه نحو الأمير، ولولا أنه تدارك نفسه في اللحظة الأخيرة لكبا على وجهه، وقد سلم عليه الأمير خزعل بحرارة وابتسم له، خاصة بعد أن همس في أذنه الأمير خالد معرّفاً بالرجل!

الدكتور صبحي كان متميزاً واضحاً وسط هذا الجمع الكبير. كان واضحاً بملابسه الأنيقة، دون إسراف، وكان واضحاً ببياض البشرة والابتسامة التي لم تفارق شفتيه، كذلك بنظراته المدققة الشفافة. كان لا يسرف في النظر إلى عيون الآخرين، لكي لا يشعروا بالحرج، إذ ما تكاد نظراته تلتقي بنظرات أحد، خاصة الذين يرافقون الأمير خزعل، حتى يبتسم ويسحب نظراته، كأنه يعتذر، أو يلقي بتحية من بعيد. ومع ذلك لم يفت الدكتور أي واحد من الرجال، بل واستطاع وهو يتقلب على فراشه تلك الليلة أن يستعيد الكثير من الوجوه والتفاصيل عندما كان يتذكر وقائع

ذلك اليوم. واستعاد أيضاً الكثير مما قيل وراجعه بعناية وفكر في كل ما حصل تفكيراً متأنياً موزوناً.

أما حين قُدّم الدكتور صبحي للأمير فقد جرى ذلك بشكل متميز. صحيح إنه قدم بعد حسن رضائي والدباسي والنقيب، لكن هذا لم يقلل من أهميته، ويبدو أن الأمير خالد ذكر أنه صاحب القوس الذي لفت نظر الأمير خزعل، وقد جرت الإشارة إلى هذه النقطة في وقت مبكر، وقبل أن يُقدم للأمير. إن هذا مجرد استنتاج توصل إليه الحكيم، رغم أنه لم يسمع ما تبادله الرجلان من كلمات، لكن أحس من طريقة الأمير وهو يشد على يده!

وتأكدت أهمية الحكيم، بل تفوقه الكلي، بعد لحظات من دورة فناجين القهوة. فمدير المدرسة الذي كان يفترض، أو يطمح، أن يلقي كلمة أهل حران أمام الأمير خزعل، والذي حاول بأساليب شتى أن يقنع نائب الأمير بذلك، تقرر بعد مشاورات طويلة في دار الإمارة، أو على التحديد بتوجيه من الأمير خالد نفسه، أن يكون المدير مقدماً ومُعلقاً، ويمكن أن يجيب عن الأسئلة أو يشرح بعض الأمور أثناء الزيارة، أما كلمة أهل حران فإن الحكيم هو الذي سيلقيها. هكذا تقرر دون إيضاحات كثيرة ودون تبرير. ومدير المدرسة الذي امتثل مكرهاً لهذا القرار، ووافق أن يكون مقدماً للآخرين فقط، ما لبث أن تكلم أكثر مما يفعل عريفٌ لحفلٍ، وهذا ولد بعض الانفعال وما يشبه الاضطراب لدى الحكيم، لأن بعض ما أراد أن يقوله في الترحيب بالأمير خزعل قاله المدير، لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً، خاصة بعد ان هدر صوت الحكيم فملأ القاعة الكبيرة في دار الإمارة والخيمة التي نصبت في مدخلها.

إن الدكتور صبحي يختلف عن رجال كثيرين، إذ بالإضافة إلى كونه أعظم طبيب في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، كما يحب محمد عيد أن يؤكد، وهذا التعبير الجغرافي الغامض يعجبه كثيراً، رغم أنه تساءل بينه وبين نفسه، وتعمد أن يسأل الطبيب وآخرين غيره، أية مناطق يعني وأية بلدان يشمل، إلا أنه لم يتوصل إلى تحديد واضح يطمئن إليه، رغم ذلك

كان يصر على استعمال هذا التعبير، خاصة في مجال المباهاة والتحدي.

إن هذه الصفة في الحكيم لا تثير الجدل، أما أن يكون خطيباً مفوهاً، أن يحفظ الشعر ويورد الأمثال، وبعض الأحيان يورد الطرائف والقصص، كل ذلك ضمن نبرة واضحة قوية، إن هذا لم يعرف عنه، ولم يتصوره أحد. حتى مدير المدرسة الذي نطق باسم الدكتور صبحي المحملجي بسرعة أثناء تقديمه، وكأنه يريد أن يطمسه، ما لبث أن دهش، وعبر عن ذلك بهزات من رأسه، وقد رآه الكثيرون يفعل ذلك، حين بدا الحكيم وسط هذا الجمع وكأنه الشخص الوحيد. أما الأمير خزعل الذي لم يتعود على كلمات من هذا النوع، وكان يفضل سماع القصص والقصيد على وعظ الدراويش كما كان يقول لبعض خلصائه، حتى الأمير ما لبث أن مسه السحر، فأخذ بما كان يقوله الحكيم، خاصة وإن اسمه كنائب للسلطان وولي للعهد، حين يتردد، كان الحكيم يشدد بقوة إضافية على مخارج الحروف.

لم تكن الكلمة طويلة حتى يملّ الناس، ولم تكن قصيرة وكأنها واجب ثقيل. لقد اختار لها الحكيم حداً مناسباً، وضمنها ثلاثة أبيات من الشعر ومثلاً واحداً. أما حين أوشكت على النهاية فقد ختمها بما يلي «وسوف تذكر حران بعد عشرات السنين، بل مئات السنين، هذا اليوم الأغر المحجل من أيامها، يوم زارها ابن أعظم السلاطين، مولاي الأمير خزعل، ويوم تكرمت يداه ففتحت أنابيب الخير والبركة على هذا الشعب، فتدفقت المحبة بين الناس، وشملت الخيرات القاصي والداني وبدأت الحياة الهنيئة».

«باسم حران، باسم رجالها ونسائها، شيبها وشبابها، باسم الحاضرة والبادية، باسم الأمير خالد الذي لا يهدأ ليل نهار، باسم جميع الحاضرين، وباسمي شخصياً، تقبل يا صاحب السمو الملكي أسمى آيات التقدير وأعمق مشاعر الحب والولاء؛ ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله﴾ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

أما ما تلا ذلك، خاصة عصر اليوم نفسه، من احتفال في معسكر

الأميركان بافتتاح الخط، ثم الدعوة للعشاء التي أقيمت على شرف الأمير في المعسكر، والتي اقتصرت على عدد محدود من المدعوين، بمن فيهم الدكتور صبحي، ما تلا ذلك اتسم بنفس المقدار الكبير من الارتياح والأهمية والحفاوة. ورغم أن الكثير من التفاصيل الصغيرة، من أحاديث وأسئلة، وبعض القصص والأمثال وأبيات الشعر التي رويت، سواء في دار الإمارة أثناء الغداء، أو بعد ذلك في الخيمة الصغيرة التي اقتصر الحضور فيها على عدد محدود، ثم في الليل، في المعسكر وفي بيت الأمير، رغم أن هذه التفاصيل لا يذكرها أحد، ولا يعرفها إلا عدد قليل من الحاضرين، إلا أنها خلقت جسراً قوياً من المعرفة والثقة وحتى المحبة بين الأمير خزعل والدكتور صبحي المحملجي. أما في اليوم التالي، حين استعد الأمير خزعل للعودة، وبكثير من الارتباك الظاهر والحيرة الواضحة، تقدم الدكتور صبحي من زيد الهريدي، أقرب أعوان الأمير خزعل، وهمس في أذنه كلمات قليلة، ضحك على أثرها زيد وقال بصوت عالٍ يريد الأمير أن يسمعه:

ـ الأمر أمره.. والهدية لا ترد.

وحين التفت الأمير مستطلعاً سحب الدكتور صبحي من بين يدي محمد عيد، الذي كان يقف وراءه، وعلى مسافة غير بعيدة، سجادة صغيرة وقدّمها للأمير بتواضع، فلما أخذها الأمير، وتطلع إلى زيد الهريدي، ثم تطلع إلى الدكتور صبحي، قال الحكيم:

ـ هدية متواضعة، يا صاحب السمو، وقيمتها في أن تقبلها، وهذا شرف عظيم لن أنساه طوال حياتي.

قهقه الأمير خزعل وقلّب السجادة وأبدى إعجابه بها، ولما سأله عن عمرها ومن أين اشتراها رد الحكيم بتواضع:

ـ هدية من جدي لأبي، ومن أبي إليّ يا صاحب السمو، والآن ذهبت إلى أعظم الرجال!

وفي المساء، حين كان الحكيم يتذكر وقائع هذين اليومين مع

مساعده، لكي يرسخ هذه الوقائع فلا تضيع ولا تتوارى، التفت محمد عيد فجأة نحو الزاوية التي تراكمت عليها قطع السجاد التي اشتراها الحكيم قبل فترة، وتساءلت عيناه قبل أن يقول لسانه الجملة كاملة «يمكن يا حكيم اشترينا سجادة تشبه تلك التي...» رد الحكيم بسرعة وهو يشيح ببصره لكي لا تلتقي نظراته بنظرات مساعده:

ـ ولكن هذه غير تلك... صحيح أن بينهما شبهاً، لكن الفرق من الأرض للسماء!

مفضي الجدعان ليس فقط «الحكيم» لحران كلها قبل وصول الدكتور صبحي المحملجي، بل كان أيضاً «ملبي الحاجات» كما يطلق عليه. فحين لا يحتاج أحد إلى طبه وعقاقيره، كان ينقل الماء إلى البيوت، ولما يتعب من هذه المهنة أو يضيق بها يقوم بأعمال كثيرة لا تدخل تحت أسماء معينة أو مهن محددة، كأن يساعد الصيادين، أو يركب البحر في سفرات قصيرة، ولقاء أكله يساعده البحارة في التجديف، أو يقوم بأية أعمال أخرى تطلب منه، فإذا عاد مرة أخرى إلى اليابسة يساعد البناءين والذين يقطعون الحجارة، أو يسرح بالإبل أو يذهب إلى الفلاة ليجمع الأعشاب، فإذا ملَّ من هذه الأعمال كلها، وكثيراً ما كان يقع ذلك، يقتفي أثر الأرانب والوعول، ويرجع، أغلب الأحيان، بحصيلة يعجب الكثيرون كيف تمكن من جمعها، وهذه الحصيلة يوزعها بنفسٍ طيبة، حتى أنه كثيراً ما يبقى صفر اليدين فلا يذوق شيئاً مما جمعه بنفسه.

منذ جاء قبل سنين عديدة وحتى الآن لم يتغير شكله إلا تغيراً قليلاً لا يكاد يلحظ، فذلك الوجه الأقرب إلى الأطفال، بالضحكة الصافية الرنانة، والعينين الجريئتين، ثم تلك الأسنان البيضاء اللامعة، وذلك الجسد الناحل الطويل، وكأنه قدّ من صخر أو من خشب قاسٍ لا يعرف الانثلام، جعله بنظر الكثيرين شيئاًثابتاً أزلياً مثل بئر حران أو مثل تلالها. حتى نساء حران اللواتي عرفن مفضي هكذا منذ أول يوم وصل فيه، وينظرن إليه الآن يقلن من بين فجوات الأسنان:

ـ كأن أمه فطمته البارحة، أو كأن السنين لا تقترب منه.

ورغم أنه قضى سنين طويلة في حران فأصبح واحداً من أبنائها أو أكثر

من ذلك، إلا أنه لم يتزوج، ولم يملك بيتاً، ولا يتعدى ما بحوزته أشياء قليلة توضع جميعها في خرج متوسط الحجم، وهي في الغالب ما يحتاجه في مهنته من أدوات الكي والفصد، إضافة إلى كميات من الأعشاب والعقاقير جعلها في صرر صغيرة محكمة الربط، ويعرفها من ملمسها، دون أن يضطر إلى فكها، فإذا أشكلت عليه بعض الأحيان، لتشابه الصرر بشكلها أو بحجمها، فإن رائحتها تكفي ليقرر دون ما خطأ.

في وقت متأخر وبعد أن تغيرت حران كثيراً، وجاءها خلق كثير، كان الرجال يخرجون من جيوبهم قطعاً نقدية ويقولون لمفضي: «إذا عرفت قيمة هذه القطعة فهي لك» فيقلب مفضي القطعة المعدنية أو الورقة النقدية، ينظر إلى الخطوط والرسوم بإعجاب ثم يعيدها إلى صاحبها ويقول: «أتريد الصدق؟ والله لا أدري!» ويضحك الرجال قليلاً ثم يحاولون مرة أخرى ويحصلون على نفس الجواب.

لم يتعامل مفضي في يوم من الأيام بالنقود، ولا يخفي احتقاره لها. كما لم يتعامل لقاء ما يقدمه من خدمات بمقابل، كان يغضب غضباً جامحاً إذا لوح له أحد أنه سيدفع له أجراً، أياً كان هذا الأجر. كانت الكلمات تخرج من بين أسنانه:

ـ يجي يوم تبيعون فيه الماء يا أهل حران. .

ويهز رأسه بلوعة ويقول وهو ينظر إلى الأرض:

ـ استحوا واتقوا الله يا جماعة الخير.

ولأنه كذلك فإن نظرة الناس إليه تختلف عن نظرتهم إلى غيره، وتعاملهم معه يختلف عن تعاملهم مع الآخرين. كان يدخل أي بيت من بيوت حران كأنه يدخل بيته، ولا يتردد في طلب الأكل أو اللبن. وحين يهترئ ثوبه أو حذاؤه لا يتردد في أن يطلب بديلاً. صحيح إنه لا يفعل ذلك بسرعة، إذ يؤجل مرة بعد أخرى، فيخيط الثوب ويربط النعل، فإذا وصل الحال درجة التلف الذي لا يجدي معه أي إصلاح، كان يقصد الميسورين أكثر من غيرهم، فيطلب الحذاء من واحد والثوب من آخر.

وفي حالات كثيرة كان الناس يجنبونه الطلب، أو بكلمات أدق كانت خزنة تقوم بهذه المهمة، وهي امرأة تشارك في معالجة المرضى، خاصة الأطفال والنساء. كانت خزنة قبل غيرها، رغم عينيها العمشاوين، تعرف أن ثوب مفضي قد تمزق، أو أن حذاءه قد دب إليه التلف، فتتولى تأمين ثوب أو حذاء، كانت تفعل ذلك بكثير من المهارة، ودون أن يحس أحد، حتى إذا قال أحد الميسورين لمفضي أنه يريده لأمر هام، وعليه أن يمر في اليوم ذاته، يكون قد هيأ له ثوباً أو حذاء. هكذا كانت تتم الأمور، رغم تمنع مفضي، إن كان في ثوبه أو حذائه بقية من رمق.

هذا هو مفضي الذي عاش في حران كل هذه السنين، فنسي الناس أنه جاء إليها كما جاء غيره، ونسوا أكثر من ذلك ما يفترضون أنه سبب مجيئه. أما لماذا لم يتزوج ولم يفتح بيتاً فقد ظل سراً يطوي صدره عليه، وفي إحدى المرات، ونتيجة خطأ أو سهو، قالت خزنة أن امرأة تنتظر مفضي، وإنها السبب وراء تركه لموطنه وأهله، ولا بد أن يعود في يوم من الأيام.

قالت خزنة ذلك أمام زوجة ابن نفاع وأم عبد الله السعد، وحين استفسرت المرأتان المزيد من الاستفسار تهربت خزنة من الإجابة، ثم ما لبثت أن غيرت الموضوع. وفي مرة لاحقة أنكرت، قالت ذلك مدعية أنه مجرد احتمال أو تقدير من عندها. أما حين سأل ابن نفاع مفضي ما إذا كانت وراء مجيئه امرأة فقد أصفر وجهه وبدا شديد الاضطراب، وأنكر إنكاراً تاماً أن يكون بشر، رجل أو امرأة وراء مجيئه.. ومثل عادته دائماً غيّر الموضوع!

هل يمكن أن يكون هذا هو السبب وراء العداء الصامت بين الرجلين؟ وهل ما بينهما عداء أم مجرد جفوة، أو عدم تطابق النجوم كما يقول مفضي؟ ابن نفاع يقول إن مفضي لا يعرف الله، لأنه لا يصوم، وحتى الصلاة إذا استطاع أن يهرب منها لا يتردد. ففي شهر رمضان يركب البحر أو يخرج إلى الفلاة. فإذا سئل لماذا لا يصوم يجيب أنه على سفر! أما إذا حان وقت الصلاة فكثيراً ما يشغل مفضي نفسه بأمر من الأمور لكي يهرب من هذا الواجب، فإذا لم يستطع كانت صلاته قصيرة مختصرة، ويكون

أول الخارجين من المسجد، وغالباً ما يلتفت وراءه خوف أن يقبض عليه أحد!

لم يتغير مفضي رغم أن حران لم تتوقف يوماً واحداً عن التغير. فالبدو الذين جاءوا من جهة الصحراء، عن طريق عجرة، لم يترددوا في سؤال مفضي واللجوء إليه إذا ألمّ بهم المرض. كانوا يذهبون إليه أو يبعثون وراءه حالما يحسون بالتوعك أو الألم. كانوا يعرفون الأعراض في بداياتها، فإذا لم يعرفوا علاجها أو لم يملكوا الدواء المطلوب يخفّون إليه مسرعين قبل أن تقعدهم الأوجاع أو ترهقهم. أما الحضر الذين جاءوا على نفس الطريق، ولكن من أماكن بعيدة، ولم يألفوا هذا النوع من العلاج، فكانوا يترددون في اللجوء إلى مفضي أو استشارته، ولم يخف بعضهم سخريته منه، لكن مع تزايد الألم وانحطاط القوى، ونتيجة الإرهاق الذي ما يني يزيد ساعة بعد أخرى، يوماً بعد يوم، لا يجدون مفراً من اللجوء إليه والامتثال لما يطلبه. هذان النوعان من البشر هما اللذان قامت بينهما وبين مفضي علاقة من نوع ما. وإذا كان البدو لم يشكّوا ولم يترددوا، فإن الحضر ظلوا كثيري الشكوك فيما يصفه لهم من العلاجات، بل وكانوا ينسون بسرعة العلاجات التي شفتهم أو المرات التي شفوا فيها، ويتذكرون ما سواها، فيكيلون لمفضي أقذع الشتائم وأقساها، واصفينه بالأهبل والدجال، ومعتبرين أنفسهم أخف عقلاً منه لأنهم صدقوه ووافقوا على تجرع تلك الأدوية المرّة التي وصفها!

أما الذين جاءوا من وراء البحر، أو عن طريق البحر، فلم يعرفوا مفضي في البداية ولم يحفلوا به بعد ذلك، لأنهم جاءوا ومعهم أطباؤهم وأدويتهم. والفقراء منهم الذين لا يعرفون الأطباء كانوا يحملون معهم في زجاجات صغيرة ملونة أو بخرق مربوطة بإحكام الأدوية التي يحتاجون إليها. والمرات القليلة التي رأوا مفضي في السوق، قرب الجامع أو قرب فرن عبده محمد، يكوي بعض المرضى، كانوا يشيحون بوجوههم عنه، ويخافون منه خوفاً حقيقياً، بل وكان بعضهم لوقتٍ غير قصير يلتفت وراءه. وروى عدد منهم أن كوابيس سوداء لاحقتهم في ليال كثيرة بعد أن شهدوا ما

قام به مفضي في السوق، وكانوا دائماً هم الضحايا في هذه الكوابيس.

أما خزنة الحسن، شريكة مفضي في هذه المهنة الشاقة، فقد أتقنتها على كبر، وبعد وصول مفضي بعدة سنوات، ويقال أنها أقل كفاءة منه، وهي تهتم بالنساء والأطفال، وتعالجهم على قدر معرفتها، إضافة إلى المساعدات التي تقدمها للنساء أثناء الوضع، خاصة في الفترة الأخيرة، بعد أن تغيرت الحياة في حران. وكانت أيضاً تجلس إلى جانب المحتضرين من الرجال والنساء، لتذكرهم بالشهادة، ولكي تنقّط الماء في حلوقهم، ولا تتردد أثناء ذلك في قراءة بعض السور القصيرة التي تعرفها من القرآن. كانت تقرأ بصوت خافت مدغوم، وقد قال ابن نفاع أكثر من مرة أن خزنة لا تعرف من القرآن الكريم حتى سورة الحمد، ولذلك تكون قراءتها بهذا الشكل الغامض المتداخل، لكي لا يميز أحد الخطأ من الصواب. لكن رغم ذلك فإن أخطاء من هذا النوع كان يغفرها الجميع ويتناسونها بسرعة، لأن مجرد ذكر الله عند رؤوس الذين يحتضرون يخفف عنهم ويجعلهم ينتقلون إلى الدار الآخرة براحة نفس مطمئنة وربما دون ذنوب أيضاً.

لم تكن خزنة تتردد في طلب الأدوية من مفضي أو استشارته في حالات معينة، بل وكانت ترفع يدها عن المريض إذا قدّرت أنها لا تستطيع إفادته أو شفاءه. وكانت تؤكد بإلحاح أن «أخو الجهرا» تعني مفضي، وحده القادر على معالجة هذه الحالة، وأغلب المرات كان يستجاب لطلبها. أما تلك النسوة اللواتي وفدن في الفترة الأخيرة، ولا يعرف ما إذا كن حضريات أم بدويات، فلم يكن ليستجبن لمثل هذا الطلب، ولذلك كان مفضي يعاون بطريقة غير مباشرة، ببعض الشروح والإيضاحات التي تمكن خزنة من مواصلة مهمتها، وما كانت لتفعل أو لتواصل هذا العمل لولا النذر الذي نذرته بعد أن غاب ابنها، أي بعد أن ركب البحر ومرت الأيام تبعتها الشهور ثم أعقبتها السنوات، ولا يأتي منه أي خبر. فقد نذرت خزنة الحسن أن تعالج المرضى وأن تبذل أقصى ما تستطيع إلى أن يعود ابنها، وما تزال تمارس هذه المهنة بانتظار عودته.



كان من السهل، أو على الأقل من الممكن، أن تحتمل حران الحكيمين: مفضي الجدعان وصبحي المحملجي، فالناس يتزايدون يوماً بعد يوم، وأغلب الذين يتداوون عند مفضي لا يفكرون بزيارة الحكيم الجديد أو التعامل معه. أما أولئك الذين رحبوا بصبحي المحملجي وفرحوا لمجيئه، وكأنهم كانوا ينتظرونه، فإنهم قد بدأوا يملون مفضي قبل وصول الحكيم الجديد بشهور طويلة، بل إن أكثر الذين كانوا لا يترددون في تقديم الثوب أو الحذاء لمفضي، قد توقفوا عن ذلك، لأن مفضي الذي لا يعرف المال ولا يتعامل به، بل ويحتقره أيضاً، لا يميز ما إذا كان المال يعنيه أم يعني الآخرين. فما كاد المال في حران يزيد ويتدفق بين أيدي الكثيرين حتى تغير مفضي تغيراً عجيباً، وهذا التغير يزداد ويكبر ما زاد المال وما كثر. ومفضي الذي تعلّم السكوت خلال السنين الطويلة، لم يستطع ذلك بعد الآن. أما خزنة الحسن التي شعرت قبل الآخرين وأكثر منهم أن مفضي الجدعان بدأ يسلك طريقاً خطراً، فقد كانت على يقين أن هذا الطريق له اتجاه واحد: القضاء على مفضي، لأن الذين يتحداهم ويشتمهم أقوى منه! لم تستطع أبداً أن تفهم لماذا أصبح مفضي مجنوناً هكذا. قدرت بنوع من الغموض أنه لم يعد يحتمل، وأن ذلك الحنين الذي طالما كتمه حتى كاد ينسى، كان أقوى مما تصورت وأقوى مما افترضت، ولا بد أن يكون هو السبب في هذا التغير الذي طرأ عليه.

قالت له ذات يوم، وقد رأت رأسه معصوباً من أثر جرح:

ـ ولد الحرام دحام ما يوفر أبوه، قتل ابن الراشد وقال: مات موت الله، وأنت رايح تناطح دحام وغير دحام. . اترك البشر يا رجال.

وحين هز رأسه، ولم تفهم ما إذا كان يعني الموافقة أم التحضير لجولة جديدة، قالت بمكر:

ـ إذا كانت البل طلبت أهلها والقلب ما يحمل. . . اقصد الله، يا محروس.

ضحك مفضي ساخراً ولم يجب.

لقد حصل هذا بعد أن أرسل دحام رجالاً ضربوا مفضي وأدموه، لأنه

تجرأ وقال إن دحام يسرق الناس، يسرق العرب والأميركان، يسرق الأحياء والأموات. بعد هذه الحادثة ضرب مفضي مرة أخرى في السوق، ولم يُعرف ما إذا كان صالح الدباسي وراء ذلك أم محيي الدين النقيب، لأن مفضي شتم الاثنين، وقال عنهما كلاماً قاسياً. وفي مرة ثالثة سُرق من مفضي الخرج الذي يضع فيه كل شيء، وبعد يومين وجد الخرج مطروحاً قرب الجامع، وكل ما كان فيه من عقاقير وأدوية تالفاً وقد اختلط بالتراب.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد ذكر بعض الرجال الذين وصلوا حديثاً من عجرة، وكانوا يعملون عند دحام، ولم يكونوا قد عرفوا مفضي بعد، ذكر هؤلاء أن مفضي هو الذي تسبب بموت تركي المفلح.

ومفضي الذي يسمع ما يقال فتنفتح عيناه على اتساعهما دهشة واستغراباً وخوفاً لا يتصور أن تصل الدناءة بهؤلاء الأغنياء لترويج هذه الأخبار الملفقة الكاذبة. وبدل أن يتراجع ويحترس فإنه يندفع مثل ثور: «يا أهل حران، الحاضر يبلغ الغايب، ابن جدعان مثل ما كان، لا يغدر ولا يخون، وما له بهذه الدنيا شيء ولا يخاف إلا رب العالمين. يا أهل حران الفلوس خرّبت قبلكم كثيرين، خرّبت دول وممالك. الفلوس إذا انعبدت استعبدت وما أسعدت، وبعيونكم تشوفون. ناظروا دحام وابن دعيج وابن فرحان، ناظروا النقيب وابن سيف والسلامي، الواحد ياكل أبوه، ويقتل أمه وأخوه، لكن لا شيء يدوم ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم، وباكر بعيونكم تشوفون، والله والله لأظل وراهم حتى ألعن والديهم وأنا وهم.. والأيام بيننا» والناس الذين يسمعون ما يقوله مفضي الجدعان لا يفهمون هذا الجنون الذي طرأ عليه فجأة، ولا يجدون له سبباً أو تفسيراً.

هكذا كان مفضي الجدعان حين وصل الدكتور صبحي المحملجي: حانقاً، مستثاراً، وكان حائراً أيضاً. لا يعرف كيف ترتفع البيوت وتُشترى الأراضي وتمتلئ الجيوب بهذه السرعة. يحس، دون دليل واضح، أن الكثيرين لا يعملون شيئاً سوى السرقة، يسرقون حين يشترون، ويسرقون حين يبيعون، فلما رأى الدكتور وحوله هؤلاء الأغنياء السراق، ثم لما عرف أن هذا الرجل جاء ليبقى في حران، ويريد أن يتقاضى أجوراً لقاء

المرض والموت، لم يصدق أبداً. أما حين افتتح الدكتور صبحي عيادته وبدأ يستقبل المرضى ويوزع عليهم تلك العلب الملونة ويتقاضى لقاء ذلك أجوراً لا يمكن للعقل أن يصدقها، فقد تأكد أن سارقاً جديداً يضاف إلى الذين كانوا من قبل، ومن أجل أن يمنع السرقة أخذ ذلك المكان، قريباً من عيادة الدكتور صبحي، لعله يستطيع شيئاً. والدكتور الذي أراد أن يبدأ بداية قوية، كان يفترض أن إزالة العوائق من الطريق، بحذف أولئك الذين يمكن أن يشكلوا تهديداً، أمر أساسي جداً. وحين بدأ مفضي الجدعان لم يتردد الدكتور في أن يصفه بالدجال، وبدأ، خفية، يحرض ضده. كان بطريقة مليئة بالمكر يسخر من أولئك الذين يقتلون الناس بحجة معالجتهم، دون أن يسمى مفضي بالذات. كان يتحدث عن الميكروبات والالتهابات وأشياء أخرى كثيرة، أما الذين يستمعون إليه فكانوا لا يفهمون أغلب ما يقوله، لكن ما دام المعني هو مفضي فإنهم يوافقون، ويضيفون إلى ما قاله الحكيم أشياء أخرى كثيرة.

لم يظهر الدكتور صبحي في هذه الحرب أبداً. كان يكتفي بالتحريض، وغالباً ما يكون تحريضاً خفياً، لأن من المبادئ الأساسية التي يؤمن بها: «الحرب المتكافئة، حرب الأنداد، لأن مثل هذه الحروب وحدها التي تشرّف المتحاربين، حتى الذين يخسرون، أما الحرب غير المتكافئة فإن المنتصر فيها مهزوم أيضاً». كان يقول هذا لنفسه ويضيف وهو يبتسم حين يتمثل له وجه مفضي الجدعان «ومن كان عنده خادم يجب أن لا يوسخ يديه!» وتمر في مخيلته صور أولئك المسعورين الذين يريدون أن يقضوا على مفضي اليوم قبل الغد، فيبتسم ويستمر في التحريض.

لكن بمرور الأيام ينسى الدكتور صبحي، أو يجبر نفسه على نسيان مفضي الجدعان، وحين التقى به أثناء وصول الأمير خزعل لافتتاح خط الأنابيب، تجاهله تماماً، رغم أنهما تقابلا وجهاً لوجه. كانا أول الأمر متقاربين، أما حين قال له عبد الله السيف:

ـ تراك إذا قرّبت خطوة ثانية، يا حكيم، لا بد ابن جدعان فاصدك أو كاويك!

فقد التفت الطبيب بطرف وجهه نحو مفضي وضحك ساخراً وتحرك. أما بعد ذلك حين تعذر على مفضي أن يسلّم على الأمير، حين دفع مع كثيرين غيره، فقد أحس الحكيم بأهمية إضافية، وزادت هذه الأهمية حين وصلته بعد شهرين أو ثلاثة شهور من تدشين الخط، هدية الأمير خزعل، وهي عبارة عن سيارة خضراء. لقد كانت هذه الهدية بمثابة بداية الموت الحقيقي لمفضي الجدعان.

فالدكتور صبحي الذي كان يتحسب، حتى لو لم يعلن، من مفضي الجدعان، وكان يحرّض ضده، نسيه نهائياً في هذه الفترة لانشغاله بأمور أخرى أكثر أهمية. فالأرض الكبيرة التي كانت للسلامي على طريق معسكر الأميركان، ناحية الشمال، بدأت تقوم عليها أبنية غريبة، قيل في البداية إنها للشركة، لكن حين شوهد الدكتور صبحي هناك عدة مرات، إضافة إلى التوجيهات التي كان يعطيها بصوت عالٍ، فقد تأكد الجميع أن البناء يخصه، وتأكد هذا أكثر حين وضع السقا لافتة على مفرق طريق المعسكر ـ دار الإمارة، كتب عليها: «مستشفى الشفاء» ووضع سهماً باتجاه الشمال؛ عند ذاك لم يبق شك عند أحد أن البناء الذي يشاد هناك يخص الدكتور صبحي المحملجي. وفي هذه الفترة سافر الدكتور مرتين أو ثلاث مرات. لم يعرف الناس إلى أين، لكن حين عاد من إحدى السفرات كان معه مجموعة من الأشخاص. وقد استنتج الكثيرون نوعاً من القرابة لشدة الشبه بينهم. وما كادت أسابيع تنقضي حتى افتتحت «صيدلية الشفاء»، وغير بعيد عنها افتتح الدكتور وصفي الآغا عيادة لمعالجة الأسنان. ويؤكد مدير المدرسة أن وصفي كان مجرد مساعد طبيب أسنان في حلب، وقد عرفه هناك، ولا يعقل أن يكون قد درس طب الأسنان بعد أن تجاوز الخمسين! ورغم أن الكثيرين سمعوا ما قاله المدير، إلا أن «الدكتور» وصفي بدأ يستقبل المرضى في مطلع الشتاء، وكان من أوائل الذين زاروه الأمير خالد، إذ صنع له أسناناً ذهبية في مقدمة حلقه، وقد لفتت نظر الناس كثيراً!

وفي هذه الفترة تزوج من جديد عدد من الأغنياء. لقد فعلوا ذلك في

فترة واحدة تقريباً، أو بكلمات أدق خلال الشتاء ذاته، وكأنهم كانوا على اتفاق فيما بينهم، لأن عادة حران أن تتحدث عن مثل هذه الأمور قبل وقت طويل، وأن تمتلئ بالقصص والحكايات، وأن تسري فيها الإشاعات أيضاً، إلا أن الأمور سارت خلافاً لذلك هذه المرة. فما كاد الشتاء يبدأ إلا وبدأ زواج الكبار، كان أكثرهم أصدقاء الدكتور صبحي، وكان ضمنهم أو أولهم الأمير خالد نفسه. وما لفت النظر إن هذه الزيجات تمت دون ضجة ودون احتفالات، خلافاً لما حصل من قبل، لكن ذلك لم يمنع الكثيرين من الحديث عن الأمر في مجالسهم الخاصة، وقد استنتجوا أيضاً علاقة من نوع ما بين الذي يحصل والدكتور صبحي.

وفي هذه الفترة أيضاً لبس جوهر الملابس العسكرية. لقد بدا شديد الغرابة، حتى ظن الكثيرون أن الأمر مجرد مزحة من المزحات، فالرجل القصير الذي جاء بعد شهرين أو ثلاثة شهور من سفر الأمير خزعل في السيارة الخضراء، ترافقه سيارة بيك آب فيها اثنان من العسكريين، والذي سأل باحترام مشوب بالخوف عن دار الإمارة، وتوقع الذين رأوه شيئاً غير عادي، ما لبثوا أن عرفوا في اليوم التالي: فالسيارة الصغيرة كانت هدية ولي العهد للدكتور صبحي. أما البك آب المغطاة فكانت تحوي مجموعة من الملابس العسكرية والبساطير والمستلزمات الأخرى من القياطين والخرق الملونة والإشارات المعدنية وأشياء أخرى كثيرة. وكانت مهمة الرجال الثلاثة إنشاء الوحدة العسكرية؛ مهمة القصير الإشراف الإداري، أما العسكريان فقد قاما بتسليم «اللوازم» إلى دار الإمارة، بموجب إيصالات رسمية، ثم أشرفا على إخراجها مرة أخرى وتوزيعها على «مفرزة الإمارة» كما سمي رجال الأمير. وخلال ثلاثة أيام من الجهد الشاق والمستمر، والذي لم يتوقف إلا في الليل، تكونت مفرزة الإمارة.

كان منظر الرجال وهم يتدربون مقبولاً، أما حين ارتدوا ملابس الاحتفالات والاستعراض فقد أصبح هذا المنظر مثيراً للضحك والاستغراب، فالألوان الكثيرة والشارات المعدنية والقياطين، إضافة إلى الأحذية الثقيلة، كل ذلك جعل حركات هؤلاء الرجال مرتبكة متداخلة،

وأقرب ما تكون إلى اللعب أو إلى حركات أطفال لا يعرفون ماذا يفعلون! وقد تأكد ذلك في اليوم الثالث حين جرى «احتفال استلام المهمات» كما أطلق على الحفل الذي أقيم عصر ذلك اليوم وحضره الأمير.

لقد كان احتفالاً تحدثت عنه حران وقتاً طويلاً، فالجنود استعدوا منذ الصباح ولبسوا ملابس الاحتفال الملونة والمزينة بالشرائط، أما جوهر فبدا في مقدمة المفرزة مثل طاووس بملابسه المزركشة الفضفاضة، وقد علّق على صدره مجموعة من النياشين والخيوط الملونة، ووضع تحت إبطه عصا لم يُعرف ما إذا جاءت مع «اللوازم» واستلمها جوهر «عهدة» كما استلم الأشياء الأخرى، أم عثر عليها في مكان ما. حين بلغ الاحتفال ذروته، وكان الصمت شاملاً والعيون كلها تشخص نحو الأمير الذي وقف على باب الإمارة، منتظراً تقديم المفرزة، في هذه اللحظة سقطت عصا جوهر فارتبك ارتباكاً شديداً، ولم يعرف ما إذا كان عليه أن يلتقطها أم أن يتركها ويستمر في التقدم نحو الأمير. وحين قرر التقاطها انحنى بشكل مفاجئ وسريع فتعثر بثوبه وسقط! كانت لحظة متوترة قاسية أثارت من الضحك بمقدار ما أثارت من الشفقة، فلما وقف مرة أخرى، وقد تعفرت ثيابه وغسله العرق، التفت إلى المفرزة وراءه، وكانت قد ارتبكت تماماً، قال بانفعال وكأنه يتعارك:

ـ مفرزة.. مكانك سر.

وحاول من جديد أن يرمم المفرزة، أن يعطيها نسقاً منظماً يمكّنها من الوصول إلى الأمير على أحسن وجه، فلما بدا له أن هذا قد تحقق بعض الشيء، صرخ كأنه يؤذن:

ـ مفرزة.. قف. استرح، استعد، مفرزة.. إلى الأمام سر.

قامت المفرزة بكل ما طلب منها ثم سارت، حتى إذا لم تبق إلا خطوتان أو ثلاث من الأمير صرخ بصوت أعلى من كل المرات:

ـ سلام خذ.

وارتفعت الأيدي بالتحية للأمير، الذي ابتسم بدوره ابتسامة كبيرة أظهرت أسنانه الذهبية اللامعة. وخلافاً للتعليمات تقدم جوهر نحو الأمير

وصافحه، أما حين انحنى عليه الأمير يقبله فقد دفن جوهر وجهه في صدره، فظهرت العصا وراء ظهر الأمير وبدا كما لو أن جوهر يضربه، وقد سمع عدد من الذين كانوا يقفون قريباً من الاثنين، أن الأمير، بعد أن رفع جوهر رأسه، يقول له «عصاك، يا جوهر، مثل عصا موسى!» وقد ابتسم الجميع بمن فيهم جوهر نفسه، أما وهو يتراجع ووجهه نحو الأمير، فقد وضع العصا من جديد تحت إبطه، لكن شدّ عليها بقوة، ولما أصبحت المسافة، مرة أخرى، أربع أو خمس خطوات صرخ:

ـ مفرزة. . إلى اليمين در.

فلما دارت ودار معها علا في تلك اللحظة التصفيق، وقد شارك فيه الجميع، حتى الأمير نفسه، وكان ذلك اليوم بداية تكوين «جيش البادية».

قال مفضي الجدعان بعد هذا اليوم بسنة أو أكثر قليلاً، قال لنفسه وهو في تلك الغرفة المظلمة، أسفل الدرج: «سبحان الله، دنيا عجب، أعجب مما يتصور البني آدم، كل شيء فيها تغير، لكن أكثر من تغير هم البشر» هز رأسه وهو يتذكر، ثم مد يده إلى صدره يتلمس الجرح، فلما آلمه أكثر من قبل قال لنفسه «وأكثر ما يغيّر الناس البذلة والفلوس. . .» وكاد يضيف كلمة أخرى، لكنه خجل منها!

كان مفضي يتذكر جوهر، يتذكره يوم وصل مع الأمير خالد، ويتذكر يوم مرض وكواه، ولما مرض مرة أخرى وفصده. ويتذكر حين عالج الجرح في ساقه، لكن الأرناؤوطي لم يمهله، جاء يصرخ ويشتم، ونقل الذين كانوا موجودين آنذاك، أن الدكتور صبحي، وهو يكشف على الجرح كان يصرخ: «الدجال الذي داواه لازم تكسر يده، يجب أن يقضي حياته في السجن، لأنه قتل الرجل، وحتى لو عاش يمكن أن تقطع الساق كلها» يتذكر كل هذا ويتذكر بعد ذلك لما أصبح جوهر يلبس الملابس العسكرية ويحمل عصا. كان أول الأمر يتكلم مع الناس، يجلس في المقهى أو في بعض الدكاكين. كان يبتسم للصبية وهم يتطلعون بإعجاب إلى ملابسه العسكرية، ولم يكن يمانع في أن يمد بعض الرجال أيديهم لكي يتلمسوا القياطين الملونة أو الشارات المعدنية. كان يبرز صدره بفخر وتعالٍ لكي

يمكّن الذين يريدون أن يتأكدوا من نوعية القياطين أو من ثقل الشارات المعدنية، كما أعطى عصاه لكثيرين لكي يروزوها ويختبروا ما إذا كانت من خشب أو معدن. هكذا كان جوهر في البداية، لكن جوهر تغير «غيّرته، بنت الكلب، البذلة» هكذا قال مفضي الجدعان لنفسه. أصبح يوماً بعد آخر يقطب وجهه، ولا يتكلم إلا أقل الكلمات. أما حين يجلس في المقهى، بين فترة وأخرى، فكان يدخل بأبهة ويتطلع في الوجوه بطريقة عدائية أو ساخرة. أصبح يجلس مع مجموعة محدودة، خاصة من الأغنياء والوجهاء «البذلة خربته، خربته تماماً، صارت مثل البردعة على روحه» صار إذا مر في السوق لا يتطلع في الوجوه مباشرة، وإذا رد التحية يردها باختصار وسرعة. صار يصرخ، ولا يتردد في أن يضرب. أما عندما خُصّص جناح في دار الإمارة «الجيش البادية» وأصبح مقراً لجوهر، فقد تغيّرت الأمور تماماً: أصغر جندي، الجندي الذي لبس البذلة بالأمس، صار مثل جوهر. صار الجنود يمشون في السوق وبأيديهم العصي، ولا يترددون في ضرب أي إنسان لأقل الأسباب، لأتفه الأسباب. أما جوهر نفسه فلم يعد يراه أحد. أصبح يقضي معظم وقته في «المقر»، هكذا أطلق على جناح جيش البادية، وحين اكتملت البناية التي أقيمت لجيش البادية، قريباً من دار الإمارة، فقد أطلق عليها اسم «القيادة». كانت القيادة مؤلفة من طابقين ومستودع، وهذا المستودع الذي ينزل إليه الإنسان بدرج طويل مظلم، نزل إليه مفضي الجدعان مرتين من قبل، والآن هذه هي المرة الثالثة.

كان مفضي الجدعان أول سجين في حران. صحيح أن نائب الأمير حاول أن يسجن هاجم وخاله قبل بضع سنين، لكن لم يكن هناك أي مكان يصلح لأن يسمى سجناً. الآن، وفي هذا المستودع الذي تراكمت فيه أشياء كثيرة: الأرزاق واللوازم وإطارات السيارات والحطب والبراميل، جُعلت فيه غرفة، وهي الأخيرة ناحية اليمين، سجناً.

كان جوهر محرجاً لما جيء بمفضي أول مرة. صحيح أنه ظل جالساً وراء الطاولة، وكان عاري الرأس، لكنه لم ينظر في وجه مفضي إلا مرة أو

مرتين. قال له وهو يتطلع إلى الأرض، أن لديه أوامر بسجنه، وأنه لا يستطيع إلا أن ينفذ الأوامر. ومفضي الذي ظل يتطلع بإلحاح إلى جوهر، ويتمنى لو يرى عينيه، ابتسم حين سمع الكلمات التي قالها له، ولما أخذه اثنان من الجنود إلى المستودع، إلى السجن، قال جوهر وهو يقف:

ـ إن شاء الله كم يوم وتنتهي القضية على خير!

لم يعلق مفضي وظل يبتسم. أما القضية التي تمنى جوهر أن تنتهي خلال أيام فلم تنته إلا بعد أربعين يوماً، وكانت التمهة: شبهة سرقة، المتهم، مفضي الجدعان. إذ بعد أن سرق محل حسن رضائي، أكد اثنان من الرجال الذين يعملون في هذا المحل أنهما شاهدا مفضي الجدعان يدور حول المحل خلال يومين متواليين، وقد حصل هذا قبل السرقة بيوم واحد.

المرة الثانية التي نزل فيها مفضي إلى السجن، إلى تلك الغرفة إياها، كانت إثر مشادة بينه وبين صالح الدباسي. أوقفوه ولم يوقفوا صالح. قالوا إن مفضي هو المعتدي، رغم الكدمات والجروح التي أصيب بها، والتي ظلت ظاهرة تحت عينه اليسرى لمدى أسابيع. أما صالح فقد وافق أخيراً على أن يفرج عنه، وكفله ابن نفاع، وقد حصل هذا بعد ثلاثة أسابيع. وحين أفرج عنه قال له جوهر، وكان غاضباً حانقاً:

ـ كثرتْ طلايبك يا ابن جدعان. كل يوم والثاني لك مشكلة، وهذه المرة إذا وافقنا على كفالة أبو عثمان وطلعت، المرة الجاية تظل تنكز تحت إلى أن تتكسر عظامك.

لم يصدق مفضي أن الكلام موجه إليه، وحين أراد أن يتكلم، قال جوهر بنزق وهو يدير وجهه ويهز يده:

ـ خلصنا، اسكت، وإذا تكلمت أية كلمة تنزل تحت.

والتفت إلى ابن نفاع الذي كان يتابع كل شيء وقال له:

ـ لولا إنك عزيز علينا، يا أبو عثمان، لكان هذا الخبل ما يطلع.

الآن، المرة الثالثة التي ينزل فيها مفضي إلى السجن، إلى الغرفة الأخيرة، ناحية اليمين، لأنه «مشرد»! هكذا وصفه الدكتور صبحي

المحملجي، أثناء الحديث الذي جرى بينه وبين الأمير، حينما كان هذا الأخير يفتتح جناحاً جديداً في «مستشفى الشفاء». لقد جرى الحديث عرضاً. كان الدكتور يستعرض مع الأمير ذكرياته منذ اللحظة الأولى التي وصل فيها إلى حران «لم يكن في حران، ذلك الوقت إلا ذاك الدجال... لقد نسيت اسمه، كان يقتل الناس بالأدوية التي يعطيها، وكان يصرخ ويشتم عندما بدأنا الطب الحديث... الآن خلصت حران من هؤلاء المشردين، وهذه المستشفى دليل على ذلك». لقد راقت كلمة «مشرد» للأمير، ولم تمر ثلاثة أيام، وحين نقل أحد الناس أن مفضي الجدعان يجلس في مقهى أبو أسعد الحلواني ويقول أن الأرناؤوطي، يقصد الطبيب، جمع فلوسه بالحرام، وأن المال الحرام مصيره الحريق أو الغريق، ما كاد هذا الكلام يصل إلى دار الإمارة حتى جاء الأمر إلى جوهر بأن يقبض على هذا «المشرد» الذي لا عمل له إلا شتم الناس. ورغم أن جوهر لم يفهم معنى كلمة مشرد، ولم يتصورها على نحو واضح، إلا أنه نفذ الأمر في أقل من ساعة، ونفذه بطريقة لائقة، إذ كلف الجنود الذين ذهبوا لإحضار مفضي الجدعان أن «يتوصوا» به قبل أن يصل إلى القيادة. وفهم الجنود هذه التعليمات بدقة، لأن مفضي حين وصل كان بين الحياة والموت. لقد تلقى من الضرب والجر والإهانة ما لا يتحمله شاب في مقتبل العمر. تلقى ذلك صامتاً، فقد كان مستوعباً الأمر بدقة ويعرف الأسباب أكثر مما يعرفها الذين يكيلون له الضرب. وبعد شهر، حين جيء به، وقد ربطت يداه خلف ظهره، لمقابلة جوهر، فقد سمع كلاماً لم يتصور أن جوهر يعرفه، أو يمكن أن يقوله له. وبعد هذا الكلام أعيد، مرة أخرى، إلى السجن. لم يسمح له أن يقول كلمة، لم يُسأل، وحين حاول أن يتكلم جاءته ضربة خيزرانة على كتفه وجزء من ظهره جعلته يصرخ، أما وهو ينزل الدرج، وكان يُدفع دفعاً، مما أدى إلى وقوعه، فكان صوته يهدر مثل حيوان جريح «ديار الظالمين تاليها الخراب، ابشروا يا اولاد الكلب، دياركم تاليها الخراب، والله لالعن أبوكم وأبو جوهر وأبو اللي لبّسه البردعة» وظل يصرخ ويشتم بعد مرور وقت طويل على إغلاق الباب عليه!

ستة شهور وبضعة أيام في السجن، وبعدها أفرج عنه. كفله ابن نفاع مرة أخرى. لم يقابله جوهر، قابله أحد مساعديه، رجل حضري صغير السن ويبدو بوجهه الحليق وكأنه فتاة.. قال له:

ـ خلال أسبوع واحد إما أن تعمل في المحجر أو تترك حران.

قال هذه الجملة القصيرة الواضحة وتوقف. نظر إليه بلؤم وحقد، وكان يريده أن يترك الغرفة في أسرع وقت. ومفضي الذي كانت عيناه تؤلمانه أشد الألم، حتى لا يكاد يرى بهما، لا يعرف ماذا يقول. كانت الأمور مختلطة عليه إلى أقصى حد، وكان يشعر بالتعب إلى درجة الإرهاق. وابن نفاع الذي ظل يقلب نظراته بين هذا الشاب الذي لا يعرفه ولم يره من قبل وبين مفضي الذي بدا عجوزاً فانياً، وقد هدّته الشهور التي قضاها في ذلك المكان المظلم، لا يعرف ماذا يفعل.

بعد صمت بدا طويلاً للثلاثة سأل الشاب من جديد:

ـ ها ما هو قولك: المحجر أو تترك حران؟

ولم يتكلم مفضي، قال ابن نفاع لينهي هذه اللعبة الكئيبة:

ـ خلص.. أنا كفيل، وكّل الله يا وليدي وما يصير إلا الخير.

وخرج مفضي متعثراً بخطواته، فوضع ابن نفاع يده تحت إبطه لكي يساعده على السير وليحميه من السقوط!

لم يذهب مفضي الجدعان إلى المحجر ولم يغادر حران أبداً. لقد كان هو نفسه متأكداً أنه لن يفعل، وكان الجميع متأكدين أيضاً. حتى جوهر الذي أوعز إلى مساعده أن يطلب منه العمل في المحجر أو مغادرة حران كان متأكداً أن مفضي الجدعان لن يمتثل لهذا الأمر. أما أبو عثمان الذي استدعي إلى القيادة في اليوم الثالث ليسأل من قبل الشاب ذاته ما إذا كان مفضي سينفذ الأمر أم لا فقد رد بنوع من الغضب:

ـ يا عباد الله، يا جماعة الخير، قلتم أسبوع، واليوم. . . الثالث ما صار.

قال الشاب الحليق الضامر وهو يبتسم بتحدٍ:

ـ أنت كفيله، إذا مر الأسبوع والأمر ما نفّذ. . انت وإياه ضيوفنا!

ـ يا وليدي. . لا تشيخ، ترانا كلنا ضيوف بهذه الدنيا.

ـ الأوامر هي الأوامر.

ـ وكّل الله، يا ابن الحلال، والأمر لرب العالمين.

ـ بسيطة، خلي الأسبوع ينقضي ونشوف.

وخلال هذا الأسبوع حصلت أشياء كثيرة لا يمكن أن تحصل في أسبوع غيره.

فبعد أن قضى مفضي الجدعان يوماً واحداً في الفراش، نهض في اليوم التالي إنساناً آخر. استحم ولبس الثوب الجديد الذي قدمه إليه أبو عثمان، وجلس في الحوش يستقبل الناس. الذين لم يسمعوا بخروجه أو لم يتمكنوا من زيارته في اليوم الأول فعلوا ذلك في الأيام التالية. والذين لاحظوا خلال الأيام الثلاثة الأولى أن مفضي بدا متعباً، شاحب اللون،

ونور الشمس يؤذي عينيه ما لبثوا أن لاحظوا قوة غير عادية تدب في جسده وعينيه، وأكثر من ذلك بدأ يتكلم بصوت عالٍ، أما الابتسامة، ابتسامة التحدي، فلم تفارق شفتيه أبداً.

بعد الأيام الثلاثة الأولى بدأت زيارات من نوع آخر لمفضي: فابن عجيل الذي باع أراضيه كلها غرب دار الإمارة، لكي يدفع أجور المعالجة في عيادة الدكتور صبحي ثم في المستشفى، وكانت حالته تسوء وتتردى، حمله أولاده إلى بيت ابن نفاع ووضعوه أمام مفضي الجدعان، وخلال ساعات قليلة، وبعد أن كواه مفضي وأعطاه الدواء تحرك وكاد ينهض، أما بعد ذلك بيومين فكان يستطيع أن يمشي مستنداً إلى الحائط.

والدباسي الذي أصابه ألم ربط ساقه اليمنى من الحوض حتى القدم، ولم تجد معه كل الأدوية التي جرّعه إياها الدكتور صبحي، والذي هدّه الخوف إلى درجة أن الثقل أصاب لسانه وبدأت يده اليسرى تؤلمه، ما لبث إن جاء إلى بيت ابن نفاع. جاء بحجة زيارة ابي عثمان، وقد تظاهر أنه فوجئ لما رأى مفضي، لكن لم تمر بضع ساعات حتى كان ممدداً في غرفة داخلية وقد فصده مفضي ودلكه، ثم شد عرقاً في مكان بين الحوض والخصيتين، ورغم الألم وأنين حاد قصير، فقد أكد الدباسي، وهو يتوكأ على عصاه، مغادراً بيت ابن نفاع ذلك المساء، أكد أن الألم الذي يحسه الآن غير الذي كان يحس به من قبل، وفي مكان آخر أيضاً. وبعد بضعة أيام كان يمشي مثلما كان يمشي وهو شاب، لكنه، مع ذلك لم يترك العكاز.

أما حمدان الراعي الذي لم يتوقف يوماً واحداً عن زيارة مفضي، وبدا شديد السرور، ولم يستطع أن يتكلم، ربما من الفرح، أو لأنه نسي عادة الكلام، فقد ظل شيء ما يجعله غير قادر على مواصلة الفرح إلى النهاية، وحين عرف مفضي إن ما يمنعه من ذلك هو كلبه الذي مرض مرضاً شديداً، لم يتردد في أن يطلب منه إحضار الكلب، وأبو عثمان الذي كان يتطير من الكلاب، فلا يتركها تقترب من بيته أو تمس حاجة من حاجاته، وافق على أن يؤتى بالكلب وأن يعالج، وقد قام مفضي بمعالجته، ثم فتح

حلقه وتفل فيه فعطس الكلب ونهض يركض مترنحاً وما لبث أن استعاد قوته.

والعمال الثلاثة الذي رفض صبحي المحملجي استقبالهم في المستشفى، لأن الشركة لن تدفع أجور العلاج في هذه المرحلة، إذ ما زالوا في مرحلة الاختبار والتدريب، وكانوا لا يملكون المبالغ التي يطلبها الطبيب، لم يجدوا سوى مفضي الجدعان، فلما كوى واحداً وأعطى الاثنين الآخرين أدوية جلبتها خزنة الحسن، بدا أن اثنين من العمال الثلاثة أفضل حالاً، أما الثالث فلم يستطع أن يقدّر بدقة ما إذا تحسن أم ظل مثلما كان.

كانت كل حركة، مهما بدت بسيطة، تحصل في حوش ابن نفاع، تنتقل أسرع من البرق. كان أهل حران كلهم يتحدثون عما فعله مفضي الجدعان ذلك اليوم. حتى المرضى الذين كانوا يرقدون في مستشفى الشفاء، وقد مرت على بعضهم أسابيع طويلة، ولم يعد في جنوبهم مكان لا تثقبه حقن محمد عيد، كان هؤلاء يتمنون لو يستطيعون الهرب والوصول إلى مفضي الجدعان، ورغم الألم الذي يمكن أن يسببه الكي، أو ذلك النوع من التدليك الذي يقوم به، إلا أن ألم ساعة خير من هذا الألم الذي يقاسون منه ويزيد يوماً بعد آخر، ما داموا مستلقين على ظهورهم ليل نهار لا يتحركون إلا حين يأتي محمد عيد ويديرهم من ناحية لأخرى لكي يتأكد أياً من الجنبين ما زال قادراً على الاحتمال أكثر!

ومفضي الذي قام بهذه المداواة بفرح يزيد ويكبر بعد كل مريض، كان فرحه يكبر ويزداد مع كل كلمة وشتيمة يكيلها لجوهر ولمن لبّس جوهر البذلة العسكرية، وكانت هذه الكلمات والشتائم تنتقل من لسان إلى آخر، لكن بعد أن تتغير تبعاً للسامع، فالذين كانوا ينقلون لجوهر أو لقصر الإمارة كانوا يسمعون كلاماً لو نقلوه لا يعني شيئاً هاماً أو خطيراً. أما أولئك الذين يبلعون ألسنتهم أمام رجال الأمير فلا يقولون إلا ما يجب أن يقال، كانوا يسمعون كلاماً لا يتمالكون معه أنفسهم من القهقهة العالية، وحتى لو كانوا وحيدين وتذكروا ما قاله مفضي الجدعان، كانوا يبتسمون أو يقهقهون.

خزنة لم تفارق بيت ابن نفاع منذ الساعة التي وصل إليه مفضي، وقد بدت كبيرة هرمة قياساً للفترة الماضية، كما لو كبرت عشرين عاماً، وزاد بكاؤها على ابنها الذي تنتظره، حتى أصبحت عيناها أضعف من قبل. أما بعد أن عاد مفضي فما لبثت أن تغيرت، فبدت أقوى، وأكّد بعض الناس إنهم رأوها تضحك. والمساعدات التي قدمتها لمفضي في العلاج كانت كثيرة ولا تتوقف. جاءت بكل ما عندها من أدوية وأدوات. كانت تمسك بعض المرضى، وتقول كلمات خشنة إن بدا الخوف أو التردد على أحد منهم. وكانت تساعدها في ذلك آمنة بنت ابن نفاع، وهي شابة صغيرة لا يتجاوز عمرها العشر سنوات. كانت الصغيرة تركض حاملة الماء الساخن، أو حاملة قطعاً من الحطب أو القماش. وكانت تنظر إلى مفضي بإعجاب ممزوج بالخوف، خاصة وهو يقوم بعمليات الكي. أمها، صبحة العبد الله ظلت بعيدة وظلت تتحرك مثل قطة مسنّة، غير ملتفتة إلى كل ما يجري ويشغلها شيء واحد: عدد الأفواه التي يجب أن تحضر لها الأكل؛ عدد الأرغفة التي يجب أن تخبزها ذلك اليوم. فإذا سألتها الصغيرة عن أمر يريده مفضي أو تريده خزنة بدت مرتبكة مستغربة وأشارت إلى تلك الغرفة الواطئة حيث توضع كل الأشياء.

التلال الشمالية لا تتوقف عن مراقبة كل ما يجري، خاصة مراقبة التلال الغربية، وعلى التحديد ما يجري في حوش ابن نفاع. وجوهر الذي كان يسمع ويهزّ رأسه كان ينتظر انتهاء مدة الإنذار الذي وجّهه «والله إذا مرّ الأسبوع وابن جدعان بهذه الديرة لاخلي أخباره على كل لسان!» ويبتسم ويقول لنفسه «والله لاجدع أنفه واقصّ لسانه... وهذه العصا تفوت من حدره وتطلع من حلقه، ورب العالمين ما يخلصه...» ويزيد غضب جوهر ويتعاظم ما زادت القصص التي تروى عما فعله ابن جدعان.

حتى الدكتور صبحي الذي نسي مفضي الجدعان نهائياً، ولم يعد يتذكره إلا كما يتذكر الإنسان قصة قديمة، ما كاد يسمع أن مفضي خرج من السجن، وأن من جملة الذين عالجهم الدباسي، حتى قال بنوع من اليأس مخاطباً الدكتور وصفي الذي كان يزوره في المستشفى:

ـ أنا تورطت وورطتكم معي. . .

وحين تطلع إليه «الدكتور» وصفي متسائلاً بوجهه وعينيه ولم يفهم الكلمات التي قالها، تابع وكأنه يخاطب نفسه:

ـ الجماعة، يا أخي، بدو، حمير، إذا قلت لهم: ثور، يقولون: إحلبه!

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ حتى الأغنياء منهم حمير، الدباسي أكبر حمار. انت تعرف الدباسي. . طلعت روحنا ونحن نعالجه. كل يوم: معاينة وإبرة، وهو كما تعرف: خالص، ما منه فائدة. بعد كل التعب والشقاء حمل نفسه وراح عند واحد دجال، بدوي يساوي فرنك وكواه. . ولا أحد يعرف ماذا عمل فيه أيضاً.

والدكتور وصفي الذي ضحك ساخراً وهز رأسه دلالة الأسف والاستغراب تساءل:

ـ والحكومة. . . كيف تسمح الحكومة بهذه الخزعبلات؟

ـ مائة مرة قلنا، حكينا، لكن، يا أخي، كلهم حمير، من فوق إلى تحت.

أما ما دار من حديث بعد ذلك بين الدكتور صبحي والأمير فلم يعرف منه شيء. وحين استدعي ابن نفاع للمرة الثانية، من قبل ذلك الشاب، في اليوم الخامس، فقد كان واضحاً أن ما جرى هو التهديد فقط، وأن الإنذار لا يحتمل الانتظار أو التأجيل.

قال ابن نفاع لمفضي بعد أن عاد من دار الإمارة، وكانت خزنة موجودة:

ـ ما بقي بهذه الدنيا خير. . .

وحين التفت إليه الاثنان أطرق وظل صامتاً فترة غير قصيرة، ثم تابع:

ـ الجماعة وصلوا لأرواحنا، ما ظل إلا أن يطلبوا من الرجل أن يطلق زوجته. . تفُو!

قالت خزنة ببعض النزق:

ـ بلّ قلوبنا، يا أبو عثمان، وسولف لنا عن ما صار وما جرى.

ـ السالفة من أولها إلى تاليها: يريدون من مفضي أن يرحل، يشيل، إما يترك حران أو يروح للمحاجر.. وهناك يشتغل.

ـ والله ما يفرحون...

هكذا رد مفضي وهو يضحك، وبعد قليل أضاف:

ـ اللي ترميه السماء تتلقاه الأرض، وأكثر من القرد الله ما مسخ، وما بعد السجن إلا الموت. شفنا مضافة جوهر وعمه خالد المشاري، ظلّ علينا، هالحين، نشوف مضافة رب العالمين.

قال ابن نفاع بحقد:

ـ اسمع يا ابن أخي... هذا البيت بيتك وانت تعرفني: أنا ما خفت منهم، وهم ما يتقربون مني، لكن أخاف عليك.

قالت خزنة:

ـ سبحان الله.. الأغراب يحكمون ويرسمون، يقولون يصير وما يصير، والله باطن الأرض أخير من ظهرها.

ـ وكّلي الله، يا بنت الحلال، الدنيا بأولها.

هكذا رد مفضي، وقد بدا فرحاً مثل طفل. كان وجهه كله يضحك، وتمنى لو يرقص في تلك اللحظة، أو لو يخرج رأساً إلى دار الإمارة، هناك يمكن أن يشتم، أن يصرخ، ويمكن أن يتفل في وجه جوهر ووجوه الآخرين. قال ابن نفاع بحزن:

ـ قالوا أسبوع، وبقى من الأسبوع باكر واللي بعده.

ـ طويلة عليهم... يا أبو عثمان.

ـ وقصيرة علينا، يا ابن أخي.

ـ لا تخف يا رجل.

ـ اللي تختاره، أنا معك.

ـ ما قولك لو تركت بيتك... يا أبو عثمان؟

تترك بيتي؟ تترك بيتك؟ الله يخزي الشيطان.

قالت خزنة بغضب:

ـ شوفوا الأمير، احكوا مع الرجال، عساها القضية تنتهي على خير.

في هذه الأثناء دخلت آمنة راكضة وراء الغزال الذي وصلهم هدية قبل أقل من شهر. كانت شديدة التعلق بهذا الغزال، تعتني به، تطعمه، وتحاول باستمرار أن تحمله، والغزال ما يكاد يُحمل حتى يحس بالحصار فيلبط ويُخرج صوتاً حزيناً، وغالباً ما يهرب، وهي بمقدار ما تحبه تريده أن يكون قريباً. قال أبوها وهو يراها تلاحقه:

ـ خلّه، يا بنت الحلال، يكفيه سجنه... وإلا مع البلا عوانة؟

نظرت الصغيرة إلى أبيها ونظرت إلى الغزال، كانت تريد أن تقبض عليه، أن تحتضنه، لكنها لم تجرؤ. ظلت واقفة تنتظر، فلما خرج إلى الحوش مرة أخرى ركضت وراءه.

بقي الثلاثة صامتين، وكأنهم لا يجدون شيئاً يقولونه، أو أنهم ذهبوا بعيداً في أفكار وذكريات لا حدود لها. وإذا كان الحزن قد بدا على ابن نفاع وخزنة فإن مفضي تحول إلى طفل بابتسامته الصغيرة الفرحة، وبعينيه اللتين تضجان بالتحدي ورغبة العراك. لما طال الصمت أو رجعوا من ذكرياتهم وأفكارهم، أو رجع مفضي على الأقل، قال بسخرية:

ـ لا تخافوا يا جماعة الخير، مثلهم مثل غيرهم، باكر يصيرون تواريخ وأمثال.

قالت خزنة بنفس اللهجة الساخرة:

ـ المهم اليوم... يا ابن الحلال.

والتفتت إلى الجهة الثانية وقالت كأنها تكلّم نفسها:

ـ وعش يا كديش إلى حين ما يجيك الربيع.

كان من الممكن أن تطول المناقشة أو تأخذ منحى آخر، وكان من الممكن أن يسيطر الصمت الحزين مرة أخرى لولا مجيء نعمة دخل الله. جاءت باكية منتحبة تقود طفلاً صغيراً. ومن خلال دموعها قالت إنها لم

تترك أحداً في عجرة وحواليها وفي حران أيضاً إلا وعرضت عليهم هذا الطفل، حتى الطبيب الشامي، والأرناؤوطي الذي معه أعطياه عدداً من الحقن وسقياه أدوية حمراء وخضراء، لكنه لم يستفد منها. كانت تتحدث دون أن ترى خزنة في البداية أو تنتبه لوجودها، أما حين رأتها فقد سلّمت عليها بأن ضربت على ركبتها وابتسمت ابتسامة مختصرة وقالت:

ـ. . وخزنة تدري بالقصة من أولها إلى تاليها، والله يكثر خيرها عملت كل ما قدرت عليه.

وشرحت خزنة لمفضي أن الطفل أصيب بعين شريرة، ومنذ ذلك الوقت لم يتكلم.

كان الطفل ينظر في الوجوه نظرة مرتاعة وكأنه على وشك الانتحاب أو أنه يريد الهرب، ومفضي الذي هز رأسه عدة مرات، دلالة أنه فهم الحالة، قال بصوت خافت:

ـ إذا ما كان اليوم فباكر.

في ذلك اليوم لم يحصل شيء، أما في اليوم التالي صباحاً، وحين جاء أحد العمال المرضى، وقرر مفضي أن الكي هو الدواء المناسب له، فقد طلب أن يؤتى بالطفل أيضاً. وعلى خلاف المرات السابقة أوقد ناراً كبيرة ووضع أدوات الكي كلها، فلما احمرت، صارت جمراً، جربها على خشب قاسٍ، ثم جربها في الماء، وكان بطرف عينيه يتابع نظرات الطفل وردود أفعاله، حتى إذا قرّر أن يكوي العامل طلب منه أن يصرخ، أن يظهر ألمه وتوجعه، والعامل الذي خاف واستغرب كاد أن ينسحب ويهرب من بين يدي مفضي، لكن حين أوضح له ذلك امتثل، وما كاد المسمار الكبير يطش على ساق الرجل، عند الكاحل، حتى دوّت صرخة ألم. كانت صرخة حقيقية صادرة من القلب، وكانت حادة قوية انتهت بأنين. وما أن فرغ مفضي من الرجل حتى التفت إلى الطفل، ووضع أدوات الكي في النار الملتهبة، ووضع ملقط النار ذاته وبعض قطع الحديد الأخرى ثم فجأة صرخ وعيناه تمتلئان بالشرر:

ـ امسكوه. . . هاتوه.

وأمسك الطفل بقوة، والطفل الذي أصيب برعب شديد أخذ يفرك مثل سمكة قوية بين يدي مفضي. كان يلبط ويدفع بيديه، وحين وجد أن قبضة مفضي أقوى من أن يقاومها وأحس بالنار القوية تلفح وجهه فقد صرخ صرخة قوية. . . عند ذاك رماه مفضي إلى الفراش المجاور وقال وهو يبتعد عن النار:

ـ خلص. . خذيه، وعسى ما يكون به خلاف.

لقد حصل هذا في ضحى اليوم السادس؛ وابن نفاع الذي كان حائراً وأقرب إلى الخوف العصبي، لا يدري ماذا يفعل أو كيف يواجه جوهر إذا انقضت المدة ومفضي الجدعان لم يغادر حران أو لم يذهب إلى المحجر. إنها تجربة قاسية لم يمر عليه مثلها في حياته، ولم يتصور أن يأتي يوم يُجبر الناس على أمور لا يطيقونها أو غير مقتنعين بها. ماذا يريد منه جوهر أو غير جوهر، وماذا يهمهم إذا كان مفضي هنا أو في أي مكان آخر؟ والأمير أيدري ما يحصل للناس؟ وإذا عرف لماذا يسكت؟ قال ابن نفاع وهو يخرج من البيت لا يطيق أن يبقى فترة أطول لكي لا يختنق: «إذا ما ضاقت ما تنفرج».

لا يدري أحد ماذا فعل مفضي بين ضحى ذلك اليوم والظهر، ولا يدري أحد أنى ذهب أو من رأى، إذ ما كاد ابن نفاع يخرج ويبتعد قليلاً حتى خرج مفضي الجدعان أيضاً. قال لآمنة إنه سيرجع قبل المساء، ولم يقل شيئاً آخر. والصغيرة التي هزت رأسها وصمتت ظلت ترقبه عندما أخذ ينحدر نحو السوق وإلى أن غاب.

لماذا نزل مفضي إلى السوق؟ هل كان ينوي الذهاب إلى المقهى أو إلى دار الإمارة، أو ربما يريد مغادرة حران؟ وهل وصل إلى السوق وتوقف أو تحدث مع أحد؟

إن الغموض الشديد يحيط بكل خطوة وبكل تصرف وبكل دقيقة منذ أن غاب عن ناظر الفتاة الصغيرة، وهو ينحدر من التل الغربي. لكن رغم هذا الغموض فإن كل إنسان في حران، حتى من كان بعيداً، يؤكد أنه رأى مفضي أو سمع صوته أو أحس به يمر قريباً منه. إن ذلك شيء مؤكد إلى

أقصى حد. العمال في المحجر، حين سئلوا في تلك الليلة، أكدوا أنهم رأوه. كان يصعد التل نحوهم ببطء شديد، ولقد توقفوا عن العمل وأشاروا إليه بأيديهم وهي ترفع الفؤوس، بل ونادى عليه اثنان أو ثلاثة منهم.

ويؤكد ثلاثة من الصيادين، كانوا عائدين من رحلة الليل الطويلة، إنهم رأوا مفضي في زورق أبيض. كان بعيداً في عرض البحر، وكان وحيداً في الزورق. وحين اقترب منهم رفع المجداف وسلم وابتسم ثم استمر، وحين نادوه التفت لكن لم يتوقف! أما العمال في المعسكر، أو أولئك الذين كانوا عند المصب، وغيرهم الذين كانوا في موقع رقم أربعة، كلهم رأوا مفضي رأي العين. مرّ عليهم، توقف، تحدث ثم ابتسم وتركهم بسرعة. والذين استيقظوا، ولم يكونوا قد اكتفوا نوماً بعد، لم يغضبوا حين أيقظهم، بل وفرحوا حين رأوه، وقد سلّموا عليه وصافحوه، ولما طلب إليهم أن يعودوا إلى النوم وأنه سيلقاهم مرة ثانية حين يستيقظون، أكدوا له أنهم لن يستطيعوا معاودة النوم ثانية!

وفي السوق، في الشوارع الرئيسية والشوارع الصغيرة الضيقة، أكد الكثيرون أن مفضي مر من هناك، توقف عند بعض الدكاكين. ابتسم وتحدث، ومازح بعض الصبية. أما في المقهى فكل الذين كانوا قبل الظهر رأوا بتأكيد حازم مفضي حين مر. توقف فترة ليست طويلة مع أبي أسعد وتحدث معه. وقال كثيرون أن دحام مر في ذات الوقت فسلّم مفضي عليه ومازحه.

والنسوة في البيوت حتى البعيدة منها على التلال الغربية، قلن إنهن رأين مفضي الجدعان، كان يمر مسرعاً ولم يتوقف ولم يتحدث إلى واحدة منهن، لكنه كان يبتسم ويشير بيده.

ومقر القيادة، خلال نفس الفترة، كان في حركة دائبة وقلق ممضّ، أما جوهر فلم يهدأ، ظل يشتم ويصرخ إلى ما قبل العصر بقليل، وكذلك مساعده وأشخاص آخرون. وفي وقت متأخر، أكد اثنان من الجنود لأصدقاء لهما أنهما شاهدا مفضي يمشي ببطء، وأنهما حينما التقيا به عند

خزان المياه ابتسم لهما، رغم أن واحداً منهما كان قد ضربه في المرة الأخيرة، حين كان في السجن!

وابن نفاع الذي لم يقوَ على البقاء في البيت فخرج، لم يستطع أن يتجول في السوق أو أن يجلس في المقهى، ولما كان الوقت ما زال مبكراً فلم يذهب إلى الجامع، وحين قرر أن يعود إلى البت مرّ بقرب خزان المياه. ولا يُدرى ما إذا كان التعب هو الذي استوقفه قرب الخزان أم الأنين الذي سمعه، لكن حين وقف وألقى نظرة إلى الجهة الشمالية شاهد مفضي: كان وجهه نحو الأرض، وأنينه خافتاً، ويده تحفر التراب. كان خيط رفيع من الدماء على الأرض. كان الدم ينزف من مكان قرب الخاصرة. لم يصدق أول الأمر. ظن نفسه حالماً أو أن نظره يخدعه، لما اقترب أكثر عرف مفضي من ظهره، من يده، ثم من الثوب. وحين قلبه على ظهره كانت ابتسامة صغيرة تملأ وجهه.

كان مفضي وهو يُحمل يبذل جهداً كبيراً لكي يكون خفيفاً، بل ظل يحرك رجليه فترة، أما حين أوصل إلى البيت، وقد حمله ابن نفاع وثلاثة آخرون، وذهب اثنان لاستدعاء الدكتور صبحي، فقد تطلع حواليه بنظرة واسعة، وكأنه يريد أن يتأكد من المكان، وبعد ذلك أغمض عينيه.

لم تستطع خزنة أن تعمل شيئاً. كانت يداها ترتجفان، وكانت دموعها تتساقط بغزارة، والفتاة الصغيرة كانت تحتضن غزالها وتقف بعيداً عن الغرفة الواطئة. كانت تبكي دون أن تدري. أما ابن نفاع الذي صعد إلى السطح ثلاث أو أربع مرات لكي يراقب الطريق وليعرف ما إذا كان الحكيم قد وصل أم لا، فكان شديد الانفعال نزقاً، وقد سمعه الكثيرون يشتم شتائم بذيئة لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يعيدوها دون أن يغضب! وكانت صبحة العبد الله تخبز في ركن البيت حين جيء بمفضي، وما كادت تعرف حتى هرولت تاركة العجين في التنور فاحترق.

رجع اللذان أرسلا لاستدعاء الطبيب. قالا: «الطبيب في غرفة العمليات»، وبعد قليل أضاف أحدهما: «محمد الأبري يقول: احضروا المريض إلى المستشفى» لما سمع أبو عثمان ذلك سقطت دموعه دون

إرادة، أما خزنة فقالت: «إتركوه لينام براحة». أحد الرجال قال: «يجب أن نحمله إلى المستشفى قبل فوات الوقت» الطفلة الصغيرة مسحت دموعها عدة مرات بظهر الغزال. صبحة العبد الله في لحظة معينة لم تستطع أن تقاوم فصرخت. كانت صرختها قوية أدت إلى سقوط الفتاة الصغيرة بعد أن أجفل الغزال وهرب. اقترب الغزال كثيراً من مفضي وتشممه. دموع ابن نفاع تساقطت بغزارة أكثر وهو ينحني على مفضي. قال أحد الرجال «إذا لم تأخذوه فوراً راح إلى الأبد». قالت خزنة «اتركوا الرجل ينام».

عند الظهر قال الكثيرون في السوق وفي معسكر العمال، وقال أحد الصيادين أيضاً، أن رجفة قوية أصابتهم. وقال اثنان من عمال المحجر أن الرجفة كانت من القوة إلى درجة أن المهدّات التي كانت بأيديهم وقعت. أما أبو أسعد الحلواني فقد سقطت من بين يديه صينية مليئة بأقداح الشاي وانكسرت الأقداح كلها. لقد حصل هذا عند الظهر تماماً. أما نعمة دخل الله فقد بكت وهي تسمع ابنها يقول لها إنه جائع ويريد طعاماً، بكت من الفرح، لكن كان فرحاً حزيناً. أما كلب حمدان فقد كان نائماً عند الظهر وفجأة استيقظ وأخذ يعوي بتلك الطريقة المقلوبة فصاح به حمدان: عوذة.. عوذة، ولما لم يتوقف ضربه بحجر فأصاب رجله الأمامية اليسرى.

حين قرر الرجال أن يحملوا مفضي ويأخذوه إلى المستشفى، تنحى ابن نفاع قليلاً، لكن لما وجدوه بارداً ترددوا. خزنة صرخت من بين دموعها طالبة من الرجال أن يتركوه نائماً لعل النوم يفيده. أما حين وصل سلمان الزامل واثنان آخران، وقد سمعوا لغطاً في السوق، حين وصلوا ورأوا مفضي، انحنى سلمان ووضع أذنه على صدره، ثم أمسك بيده، فلما وجده بارداً ارتجف فترك اليد تسقط، ووقف دون أن يتكلم كلمة واحدة!

في وقت ما تقدم ابن نفاع، تطلع إلى مفضي فلما رأى عينيه لا تزالان تحملقان انحنى فوقه وأغمض العينين، وظل هكذا إلى أن أنهضه سلمان الزامل وقال بصوت غير واضح لأن الدموع خنقته:

ـ يسلم راسك يا أبو عثمان، وعظّم الله أجرك.

عصر اليوم ذاته شيّع مفضي الجدعان. حران كلها خرجت لوداعه. حتى دار الإمارة أرسلت واحداً من رجالها ممثلاً عن الأمير. وسار موكب الجنازة من دار ابن نفاع حتى المسجد ثم المقبرة، وقد أكد الكثيرون أن الجنازة وهي تجتاز شارع الراشدي، وقرب عيادة الدكتور صبحي المحملجي، وفي لحظة معينة اضطربت وكأن الميت استيقظ، وأكد الذين كانوا يحملون النعش أن الحركة كانت قوية جداً ومفاجئة، حتى أن النعش كاد يقع من أيديهم، وأكد هؤلاء وغيرهم أن ابن نفاع انفصل عن الناس قرب العيادة وبال. أما آخرون فينفون أن ابن نفاع بال ويقولون أنه تقيأ.

ونامت حران تلك الليلة وقد أحست أن أياماً قاسية سوداء تنتظرها.

وفي تلك الليلة ذاتها مات الغزال الذي كان في بيت ابن نفاع، والبنت الصغيرة حزنت حزناً شديداً، وظلت تبكي حتى أن أمها خافت عليها فضربتها لكي تسكت.

أما خزنة فقد زاد بكاؤها. وقال كثيرون أنهم سمعوها تقول إنها ستنتظر إلى أن يعود الإثنان: عواد ومفضي. ولم تمض شهور قليلة حتى انطفأت عيناها تماماً، لكن وُلد في داخلها نور أبيض بلون الحليب، هكذا أكدت دون أن تشعر بأسف، وظلت تدور في البيت كما كانت تفعل قبل عشرين سنة!

وابن نفاع واصل حياته، لكن دخل في حالة من الصمت الخطر.

وظل أهل حران سنين وسنين يتذكرون مفضي الجدعان ويتذكرون هذا اليوم بالذات.

ظهر الخميس مات مفضي، وعصر الخميس دفن. أما عندما هبط الظلام فقد هبط معه الحزن وملأ حران كلها، كان حزناً قوياً مستبداً، اقتحم البيوت ودخل دون انتظار. لم يترك بيتاً إلا ودخل إليه، ولم يترك قلباً إلا وتغلغل فيه. كان ينتشر كما ينتشر الظلام، ويمشي مسرعاً مضطرباً كما تمشي المياه في المنحدرات، وكان يختلف عن أية مرة سابقة ويختلف عن أي حزن غيره. فجأة أحس الناس أنهم أكثر حزناً مما تصوروا، ووجدوا أن عندهم من الأسباب الكثير الكثير. أما عندما اجتمعوا في بيت ابن نفاع، وصلوا صلاة العشاء جماعة هناك، ثم قاموا إلى الأكل، فقد وجدوا أنهم لا يشتهون أكلاً أو شراباً. كانت أيديهم تمتد ثقيلة رخوة إلى الطعام، وذاقوا مع حبات الرز طعم الدموع، وأحسوا الماء مرّاً. ورغم أنهم توقفوا عن الأكل إلا أنهم ظلوا في أماكنهم وظلوا صامتين. ولا يعرف أي وقت مر ولماذا جاءت خزنة الحسن. لما رأت الرجال صامتين قالت بصوت خشن مضطرب:

ـ دم مفضي برقابكم، برقبة كل واحد منكم.

تطلعت إليها العيون وارتدت إلى الأكل الذي لم يؤكل منه إلا القليل. لم يجرؤ الرجال على أن يتطلع بعضهم إلى بعض، ولم يجسروا على الكلام. أما حين قال الدباسي:

ـ يخلف على مَنْ تكلّف والله يرحمك يا مفضي.

فقد تحرك الجميع، قاموا قومة رجل واحد. وما إن رفع الأكل ودارت القهوة حتى بدأت أحاديث جانبية. أخذ كل اثنين أو ثلاثة يتحدثون: كيف قتل مفضي، أين وجد، ومن يحتمل أن يكون القاتل، كانت الأحاديث هامسة، قصيرة، خائفة، ورغم أن القاتل لم يسم، إلا أن شبح جوهر كان

يملأ المكان. صحيح أنه لم يقتل بنفسه أو مباشرة، لكنه وحده القاتل المحتمل. تذكر الكثيرون صورة جوهر، تذكروا كيف كان قبل سنتين أو ثلاث سنوات، وكيف هو الآن، وتذكروا مفضي.

في الليل المتأخر، بعد أن ذهب معظم الرجال، بمن فيهم رجال دار الإمارة، واثنان من القيادة، ولم يبق إلا سلمان الزامل وفواز الهذال وعبده محمد واثنان من أقرباء ابن نفاع، وابن نفاع نفسه، زفر عبده محمد وقال بصوت عصبي:

ـ إذا ما أخذت تارك يا مفضي ما أكون عبده.

قال سلمان بصوت بطيء:

ـ القاتل ما هو واحد...

انتبه ابن نفاع الذي كان يغمض عينيه أغلب الوقت. تطلع إلى ابن الزامل بعيون متسائلة، تابع سلمان:

ـ نعم، القاتل أكثر من واحد... ومفضي مات مرتين.

انشدّت إليه العيون مع حركة الأجساد التي تحفزت، قال ابن نفاع:

ـ القاتل واحد.. وذاك هو، أكبر من الجبل، وكل واحد يعرفه.

ـ والله لو كان أكبر راس ما يفلت من عبده.

هكذا قال عبده بعصبية. أما سلمان الزامل فقد تابع كأنه لم يسمع ما قاله الآخرون:

ـ أول مرة قتله جماعة أبو سنان الذهب، والثانية قتله الأرناؤوطي. جوهر وجماعته خوضوا بدمه، جروه عند الخزان وقالوا: خلص. واللي ما خلصوه هم جاء الأرناؤوطي وكمله ـ ابن الحرام الأرناؤوطي.. ما له شغل بحران إلا يجرّ فلوس الناس ويلعب بخصيان أبو الريح. لما راحوا إليه الجماعة، قال: «عندي عمليات، عندي شغل»، وكأن مفضي ما هو بني آدم، كأنه كلب.

قال أحد أقرباء ابن نفاع:

ـ والله صحيح، لو جاء الطبيب، لو أسعفه يمكن انكتبت له حياة ثانية.

رد ابن نفاع بغضب:

ـ اتركوا هذي السوالف. ما قتل مفضي إلا الأميركان، هم أصل السبب وأصل البلا.

ـ والله الحق ما قلته، يا عمي، يا أبو عثمان.

قال عبده محمد هذا بطريقة يائسة، ثم أضاف بحدة وقد خرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ والله لو كنت وحدي، ما أحد معي، ابن القحبة جوهر ما يفلت.

ـ من يوم ما جاءوا، من يوم ما داسوا حران، ونحن مثل بول البعير، كل يوم لورا، وأشار ابن نفاع إلى معسكر الأميركيين بسبابته ثم أضاف:

ـ قلت لكم، ما تركت واحداً منكم إلا وقلت له: الأميركان هم العلة، هم أصل البلاء، وهذا اللي شفناه ما هو بشي للبلاوي اللي راح تنصبّ فوق رؤوسنا، وبكرة تقولون الله يرحمك يا أبو عثمان، كل ما قلته صار.

هذا الحديث، أو ما يقاربه، جرى في كل بيت، وفي المعسكر. وإذا كان الرجال قد تحدثوا بغضب، وشتموا، فإن النساء أصغين وهن صامتات ثم انحدرت دموعهن. والصبية الذين بدوا خائفين أول الأمر ما لبثوا أن نسوا الخوف، وقالوا أشياء كثيرة عن مفضي، كيف كان يسابق الغزلان ويسبقها. كيف كان يقضي أياماً في الفلاة دون أكل، لا يخاف أحداً ولا يهاب شيئاً. أما إذا شمر عن ساعديه لكي يقوم بالكيّ فكان يحصر أكبر الرجال وأقواهم بين فخذيه بمفرده. وقد ذكر بعض الصبية أن مفضي أعاد الحياة لأشخاص كثيرين بعدما ماتوا. . وقبل الدفن. وقال هؤلاء، إن مفضي يمكن أن يعود، وأن أحداً لا يستطيع أن يقتله أو يميته. وحين ذكرت تلك الأمور التي حدثت في المقهى وفي المحجر ساعة الظهر تماماً، الساعة التي مات فيها مفضي، تذكر الصبية أموراً كثيرة حدثت، فالأولاد الذين كانوا على الشاطئ شاهدوا غزالاً كبيراً يهوي في البحر. أما الذين عادوا من المدرسة إلى التلال الغربية، ورأوا بعض الرجال يتراكضون في بيت ابن نفاع أو حوله، فقد توقفوا لحظة سمعوا صرخة قوية أعقبها خروج طيور بيضاء من نوافذ البيت ومن بابه. كانت طيوراً أكبر من أية

طيور أخرى، وأكبر مما رأوا في أية مرة. أما العصافير التي كانت تقف على سور البيت فقد تهاوت جميعها في لحظة واحدة وأكلتها الكلاب التي كانت تنبح بطريقة غريبة!

لم يبق أحد في حران كلها إلا وتذكر شيئاً عن مفضي تلك الليلة، حتى الدكتور صبحي الذي عرف بموته عند العصر، قال لمحمد عيد يوصيه لأنه سيسافر في اليوم التالي:

ـ الطبيب كان في غرفة العمليات، كانت العملية كبرى، ومع ذلك قال لهم: احضروه فوراً. كان يمكن أن يذهب معهم، لكن العملية... الرجل الذي كان بين يديه لا يحتمل. عند العصر لما انتهت العملية لبس ثيابه وحضر حقيبته ليذهب، لكن...

وحين عقّب محمد عيد بمكر:

ـ لازم نتفق على المريض اللي عملنا له العملية يا حكيم...

ـ حط بالخرج.

رد الحكيم هكذا وهو يضحك بصوت عالٍ، ثم أضاف:

ـ من راح يحاسبنا؟ حط بالخرج وانس هذا الكلب، إنه لا يساوي أن يسمم الإنسان دمه بقصة مثل هذه.

وإذا نامت حران تلك الليلة، فقد كان نوماً ثقيلاً، متقطعاً، مليئاً بالكوابيس، واستغربت الأمهات أن أولادهن استيقظوا ليلاً مرات عديدة، الكبار منهم شعروا بالعطش وقد طلبوا أن يؤتى لهم بالماء، خلافاً لليالي السابقة، إذ كانوا يذهبون بأنفسهم لجلب الماء إذا استيقظوا. أما الأصغر سناً فقد ظلوا في فراشهم لكنهم بكوا بكاءً طويلاً موصولاً، وكأنهم يشكون من ألم أو يخافون من شيء.

في اليوم التالي، الجمعة. خَبَزَ عبده محمد أكثر من أي يوم آخر، ووزع الخبز كله دون مقابل. كانت كلماته، وهو يرفض الفلوس قصيرة حادة:

ـ الخبز اليوم على روح المرحوم.

لم يكن مستعداً أن يضيف اسم مفضي، ولم يكن الآخرون بحاجة إلى

سؤاله، فقد حصل تواطؤ غامض بين الجميع، وكأنهم بهذه الطريقة يعبرون عن عواطفهم ومواقفهم.

ومثلما فعل عبده محمد فعل أبو أسعد الحلواني، دون أن يعرف الواحد بما فعله الآخر!

والرجال الذين لم يتعودوا الذهاب إلى المقهى، وجدوا أن الوقت لا يزال طويلاً، وأن ساعات لا تزال تفصلهم عن الصلاة، فذهبوا. وقد فعل ذلك بعضهم مرة أخرى بين العصر والغروب، فامتلأ المقهى في كل الأوقات. أما عندما حان وقت صلاة الظهر فقد قام الجميع قومة رجل واحد. لم يكونوا ليفعلوا ذلك من قبل، لكن إحساساً غامضاً ورغبة من نوع ما هما اللذان كانا يقودان خطوات الناس ويحددان لهما ما يجب أن يفعلوا. وبعض الذين تعودوا الاختفاء أو التهرب، إذا حان وقت الصلاة، وجدوا أنفسهم ينهضون قبل غيرهم، بل وبلغ الحماس ببعضهم أن سأل الآخرين ما إذا كان من الواجب الذهاب إلى المسجد فوراً أو الانتظار بعض الوقت، مع أنهم كانوا يضيقون في وقت سابق بتلك الأدعية التي تسبق أذان الجمعة.

وإذا لم تكن من عادة أهل حران الذهاب إلى المقابر أبداً، فإن خزنة وجدت نفسها تفعل ذلك دون إرادة. ما كادت تجلس بالقرب من القبر، وقد عرفته دون أن تسأل أحداً، ربما من رطوبة التراب، أو من دليل آخر، ما كادت تجلس حتى وجدت بالقرب منها امرأتين أيضاً. وجدت نعمة دخل الله، وأم عثمان، صبحة، زوجة ابن نفاع. لم تسأل أياً من المرأتين لماذا جاءت، وهكذا لم تفعل أي منهما، إذ لم تكن بحاجة لأي سؤال. خزنة التي أخذت تقرأ بطريقتها الخاصة قالت أشياء لا يمكن أن تكون من القرآن الكريم، رغم أن أياً من المرأتين ليست متأكدة من ذلك. وصبحة التي قالت لزوجها في الليل المتأخر أن خزنة كانت تقرأ القرآن على قبر مفضي، توقفت لحظات وتساءلت ما إذا كانت في القرآن آيات تشتم الملوك والأمراء، وأنه لا يأتي منهم إلا الخراب، فأكد لها أبو عثمان أن آيات مثل هذه موجودة في القرآن الكريم، لكن صبحة ظلت في شك، لأن

القرآن لا يمكن أن يوجد فيه شتائم مثل تلك التي قالتها خزنة، ولم تشأ أن تذكر هذه الشتائم! وأبو عثمان الذي استغرب أول الأمر أن زوجته ذهبت إلى المقابر لم يغضب ولم يثر كما كان يفعل في أمور أقل من هذه بكثير.

ومثلما سهر الناس وتأخروا في الليلة السابقة، فإنهم وجدوا أنفسهم أقل قدرة وأقل رغبة في هذه الليلة على السهر، فما لبثوا أن ناموا بعد العشاء بقليل. وإذا كانوا قد شعروا ببعض الراحة وهم يضطجعون في فراشهم، فقد ندموا وتأسفوا أنهم ذهبوا إلى النوم مبكرين، لأن الكوابيس التي لاحقتهم وهبطت على صدورهم كما تهبط الحجارة، كانت تستمر وتتلاحق ما استمروا في النوم. وقد ذكر بعض الرجال أنهم اضطروا لترك فراشهم والليل كثيف ثقيل، كأنه في أوله. وذكر غيرهم أنهم ذهبوا إلى المسجد فوجدوا كل شيء ساكناً هادئاً، وحين جلسوا بانتظار الأذان وقيام الشيخ قضوا هناك ساعات طويلة! وقد استغرب عبده محمد أن عدداً من أهل حران قد جاء إليه قبل الفجر، وذكر شيئاً مماثلاً أبو أسعد الحلواني.

أما يوم السبت فقد كان يوماً غير عادي. فعند الظهر، أو قبل ذلك بقليل، صدر عن دار الإمارة بلاغ قصير: «بعد التحقيق الذي أجرته دار الإمارة، بخصوص مقتل البدوي المدعو مفضي الجدعان، المهنة مُتَسبِّب، تبين أن للمذكور أعداء كثيرين من خارج حران، وبعد التدقيق والتمحيص لم تثبت التهمة على أحد، وقد أمر صاحب السمو الأمير بغلق القضية واعتبار القاتل مجهولاً».

ويوم السبت ذاته أبلغت الشركة ثلاثة وعشرين عاملاً أنها لم تعد بحاجة إليهم، وطلبت منهم مراجعة «إدارة الأفراد» لتصفية حقوقهم. وذكرت النشرة التي علقت في عدة أماكن أنه في حال توافر فرص عمل جديدة في المستقبل سوف تعطى لهؤلاء الذين سيتركون العمل الأفضلية في الاستخدام.

لقد قرأ ابن هذال النشرة بصوت عالٍ حين طلب إليه العمال ذلك. قرأها مرتين وفي مكانين مختلفين. أما في المرة الثالثة، وقبل أن ينتهي، فقد تقدم أحد العمال ومزق النشرة، رغم أن بعض العمال الذين ذكرت

أسماؤهم لم يصدقوا. وقد رافقوا ابن هذال من مكان إلى مكان، وطلبوا إليه بإلحاح أن يتأكد، ولم يكتفِ بعضهم بذلك، بل وطلب منه أن يشير إلى كل إسم بإصبعه، وأن يكون أكثر تروياً أثناء قراءة الأسماء. لقد حصل هذا ما بين الضحى والظهيرة، خلافاً للمرات السابقة، حيث كانت النشرات تعلق منذ الصباح الباكر، بل وكثيراً ما علقت قبل وصول دورية الصباح. هذه المرة عُلّقت قبل نهاية الاستراحة الأولى، ورغم أن الصافرة أعلنت العاشرة والنصف، وقت انتهاء الاستراحة، فإن الذين ذهبوا إلى العمل كانوا أقلية. وقد تدخل عدد من مسؤولي إدارة الأفراد، إذ دفعوا العمال وهددوهم، وقالوا إن الذين سيتخلفون عن الالتحاق بالعمل فوراً سيكون مصيرهم مصير الذين استغني عنهم، لكن لم يستجب أحد لهذا الطلب. وفي وقت لاحق تدخل خمسة من رجال الإمارة، وقد تكلموا بصوت عالٍ ضد العمال دون تمييز ولم يتركوا طريقة إلا وحاولوا اتباعها من أجل إقناعهم بالعودة إلى العمل.

ولما وصلت الأخبار إلى جوهر، وكان مشغولاً بإملاء بيان على أحد مساعديه يحتم على كل راغب في العمل لدى الشركة مراجعة «القيادة» والحصول على موافقتها. وكان يراد تعليق هذا البيان في المسجد وفي كراج سفريات الصحراء وفي مقهى أبو أسعد الحلواني. لما وصلته الأخبار أصيب بخوف أو ما يشبه صدمة المفاجأة، لكن لم يترك لهذا الشعور أن يسيطر عليه، فما لبث أن ابتسم ابتسامة عريضة وقال لمساعده:

ـ إذا ضحكت بوجه البدوي، إذا قلت للواحد منهم: «مرحباً يا ولد» ظن أنك تخاف منه. أولاد الحرام البدو ما ينعطون وجه، مثل المرا والولد، ولازم تنكسر رؤوسهم.

ودون أن ينتظر أمر بإعداد سيارة مسلحة، وأن يستعد سبعة من العناصر لمرافقته، وخلال فترة قصيرة قال لمساعده:

ـ الظاهر أن الجماعة لا يعرفون جوهر أو ما شافوه.

وابتسم بثقة وهو يعدّل ثيابه، ثم ضرب حافة النافذة بعصاه وقال:

ـ إذا كانوا رجالاً، وإذا كانت فيهم مرجلة خلنا نشوف.

وبكثير من الشراسة والغضب سأل عن العناصر، مع أنهم كانوا يقفون إلى جانب السيارة المسلحة، على أهبة الاستعداد، وإذ مرّ أمامهم نظر إلى كل واحد منهم نظرة قاسية مكتشفة. نظرة سريعة أقرب إلى العداء، فلما تأكد من كل شيء قال بحدة:

ـ أريدكم تعلموهم الموت الأحمر شلون يكون. كسروا عظامهم. العنوا والد والديهم ولا ترحموهم.

بدت الكلمات غامضة مثيرة للجنود. لم يكونوا يعرفون عن أي شيء يتحدث رئيسهم، لكن أحسوا أن مهمتهم كبيرة وخطيرة، وإنه يعتمد عليهم إلى أقصى حد، ويثق بهم كل الثقة، لذلك حين قفزوا إلى السيارتين، حيث ركب ستة منهم في السيارة المسلحة، وركب جوهر ومساعده في السيارة الأخرى، وطلب من أحد العناصر، وكان أسود اللون كبير الحجم، أن يركب معه؛ كانوا مثل الذئاب الجائعة. كانوا يمتلئون حقداً ورغبة في أن يضربوا، في أن يدمروا. أما عندما تحركت السيارتان فقد لوح هؤلاء الجنود للآخرين وشدّوا قبضاتهم دلالة أنهم يبدأون الآن.

أعطى جوهر لحركته صفة البراءة: جولة من الجولات التفقدية التي يقوم بها بين فترة وأخرى. توجه أول الأمر إلى السوق. مرّ في شارع الحارثي ثم قصد الراشدية فمعسكر العمال. لم يتوقف في معسكر العمال، لكن أعطى لسائقه أمراً بتخفيض سرعة سيارته إلى أقصى حد، وحين مر بمجموعات ثلاث من العمال، وكانت عائدة لتوها من معسكر الأميركان، نظر إليهم باحتقار ممزوج بالحقد، لكن لم يتوقف ولم يسأل، وحين وصل إلى معسكر الأميركان رأى تجمعاً عند بوابة العمال، فمر بالقرب من البوابة، لكنه لم يتوقف أيضاً. اتجه إلى بوابة المعسكر الرئيسية ودخل. لم يكن بعد قد اتخذ قراراً أو استقر على قرار. كان يريد اختيار الوقت المناسب والنقطة الضعيفة. لم يكن في عجلة من أمره. ولم يكن مضطراً لأمر. كان متأكداً إنه سيسحق رؤوس هؤلاء الذين يريدون أن يخلقوا شغباً في المعسكر، وكان متأكداً من قوته. إنه يعرف هؤلاء البدو، يعرف متى يأتيهم ومن أية نقطة. قال في نفسه: «الصوت العالي ما هو دائماً دليل

قوة، والرجل الذي يتقدم ليس دائماً أقوى الرجال أو أشجعهم. بدو، اولاد حرام، وما هو سهل أبداً أن تحزر عليهم. يمكن الواحد منهم يكون بطول الشبر لكن إذا ضام الضيم، إذا عنّت براسه يصير مثل الصل، ويصير ألعن من إبليس، والذهين.. الذهين هو اللي يعرف متى يضرب ومن يضرب!». هكذا كان يقول في نفسه وهو يدخل بوابة المعسكر الرئيسية، بعد أن ألقى نظرة على العمال المتجمعين عند البوابة الأخرى. أما حين قال له مساعده:

ـ ما قولك، يا أبو سلطان، إذا نزلوا الجماعة وسنعوّهم؟

فقد رد وهو يبتسم، بعد أن التفت إليه بطرف وجهه:

ـ لا تخف، يأخذون حقهم وزود.. بس إذا ضربت فاوجع.

توقف قليلاً ثم أضاف:

ـ أريد الصّل من بينهم، إذا وصل يدي خليت عنتر بن شداد يتلمس رأسه ويقول: شفاعتك يا رسول الله... يا جد الحسنين.

قال الأميركيون إن الإجراء الذي اتخذ بصرف العمال إجراء روتيني تماماً، وقد سبق أن اتخذت إجراءات مشابهة، ولذلك لا يقتضي الأمر موقفاً استثنائياً، أما عدم التحاق قسم من العمال بأعمالهم فإنه يعود إلى الاضطراب الناشئ عن عدم معرفة القراءة والكتابة، وبالتالي لا يعرف العمال من استغني عنه ومن لم يستغن عنه. وأكد الأميركيون أنه لمعالجة مثل هذه الحالة في المستقبل سوف يتم الإعلان عن الأسماء في وقت مبكر، وسوف تتم قراءتها قبل أن تلصق في لوحات الإعلانات. أما العمال الذين صرفوا من الخدمة فعليهم مراجعة إدارة الأفراد لتسوية أوضاعهم وصرف استحقاقاتهم.

في طريق العودة كان جوهر أكثر حيرة. هل يرجع إلى القيادة دون أن يفعل شيئاً؟ هل يقول للأمير أن الإجراء الذي اتخذه الأميركيون بصرف العمال إجراء لا يعرف ماذا سموه أو كيف وصفوه، وإنه مثل الإجراءات الأخرى؟ وهؤلاء البدو الذين لم يكونوا يجدون كسرة خبز ولا يعرف من أين أتوا، وقد أصبحوا الآن، بعد أن عملوا في الشركة، يلعبون بالفلوس،

وبعد ذلك إذا استراحوا، إذا قالوا لهم استريحوا. . يعربدون؟

مرّ قريباً من بوابة العمال. كان العمال لا يزالون هناك. أوقف سيارته على مسافة غير قصيرة، وأشار بيده طالباً من بعض العمال أن يأتوا إليه. كانت الإشارة واضحة، لكن تردد العمال وعدم استجابتهم كانا واضحين أيضاً. صاح بصوت قاسٍ:

ـ تعال، يا ولد، انت وانت. . .

تطلع بعض العمال إلى أنفسهم وحواليهم، متسائلين ما إذا كان يقصدهم أم يقصد غيرهم، تابع:

ـ أنت، تعال، انت يا ولد.

تقدم سلمان الزامل واثنان آخران. تقدم من الجانب البعيد، من نقطة الحراسة، اثنان من رجال الإمارة. سأل جوهر بغضب:

ـ ها. . ما عندكم شغل؟ ليش واقفين بهذا المكان؟

في هذه الأثناء تقدمت مجموعة كبيرة من العمال، أحاطت بالسيارة، نزل عناصر السيارة المسلحة ودفعوا العمال. تطلع جوهر إلى الوجوه بإمعان، رأى غضباً خطراً، سأل بلهجة جديدة ماكرة:

ـ لا تخف يا وليدي، تكلم، سولف.

ـ طردوا العمال. . .

ـ طردوا العمال؟

ـ قالوا لهم ما لكم شغل عندنا، شوفوا لكم شغل في مكان ثانٍ.

ـ انتَ. . انت طردوك؟

ـ لا. . أنا ما طردوني، لكن طردوا خوياي.

ـ وما عليك انت؟

ـ خوياي يا ابن الحلال.

ـ انت لك لازم بنفسك، ما لك لازم بغيرك.

ـ الله أكبر. . مالي لازم بخوياي؟

واختلطت الأصوات ببعضها، ودفع الجنود العمال الذين تكاثروا وتقدموا من الموكب، قال جوهر وهو يضحك:

ـ يا جماعة الخير حطوا عقولكم بروسكم وابعدوا عن السوالف اللي تضركم.

توقف لحظة ثم أضاف بلهجة أبوية:

ـ يلّله... كل واحد منكم لشغله...

صرخ واحد من الخلف ولم يتبين جوهر شكله أو وجهه:

ـ واللي طردوه من شغله؟ اللي ما عنده شغل؟

ـ الشغل واجد، أكثر من التراب...

ـ طردونا دون حق، دون سبب.

ـ لا ترفع صوتك يا بدوي، واحمد ربك إنك واجد ما تاكله...

وتغيرت لهجة جوهر الذي أخذ يرتجف:

ـ قلنا لكم حطوا عقولكم بروسكم، وخلصونا من السوالف الشينة، واللي ما يفهم هذا الكلام، عندنا طريقة ثانية نفهمه بها.

توقف مرة أخرى، زفر بقوة وهو يتطلع في الوجوه التي تحيط بالسيارة، ثم قال:

ـ من الحين إلى العصر اللي يفهم ويتعلم ما بيننا وبينه خلاف، واللي يعاند ويركب رأسه الله يستره منا!

قبل أن تغيب سيارة جوهر والسيارة المسلحة كان العمال قد كسروا بوابة المعسكر ومزقوا الأوراق وحطموا لوحة الإعلانات. كما جلبوا بعض البراميل الفارغة فسدوا البوابة الرئيسية والبوابة الأخرى، وملأوا هذه البراميل بالرمل. وجمعة الذي كان يحاول منعهم، الذي احتج وصرخ وأراد أن يستعمل كرباجه، ربطوه في عارضة الباب الإسمنتية وتركوه بعد أن أخذوا الكرباج. أما رجال الإمارة فقد ابتعدوا حالما ابتعدت سيارة جوهر، وحين حطم العمال البوابة انسحبوا وهربوا دون أن يحس بهم أحد.

عند الظهر كانت جموع العمال تتوجه من المعسكر إلى حران، لا يعرف من اقترح عليهم ذلك أو لماذا أخذوا هذا الطريق. أما حين اقتربوا من حران فقد انضم إليهم أناس آخرون، جميع الذين كانوا في الخيام قرب

البحر، الذين وصلوا من أسابيع وشهور طويلة، وأولئك الذين وصلوا قبل أيام. كما انضم إليهم جمع كبير من أهل حران. أما الصبية الذين كانوا شديدي الفرح فقد تراكضوا في أنحاء عديدة، ووصل بعضهم إلى حران العرب نفسها، على التلال الغربية، وقالوا إن العمال كلهم جاءوا إلى حران، فما لبث أن نزل أهل حران، وشارك الجميع الناس الذين كانوا في الأسواق. وحين اقتربت الجموع من المقهى لم يبق أحد إلا وخرج، فدوى تصفيق الذين يقفون وانضموا إلى العمال. وخلال فترة قصيرة أصبح الجميع في المسجد.

نعيم شعيرة، النصّيص، الذي كان يترجم لهاملتون، قال للأمير وهو يرتجف:

ـ المهم الآن أن لا يقترب المضربون من منشآت الشركة. . .

وهز الأمير رأسه دلالة أنه فهم، تابع نعيم وقد تغيرت لهجته:

ـ ونحن الذين أوعزنا لبعض العناصر أن يقنعوا العمال بالتوجه إلى حران بدل العودة إلى المعسكر وتحطيم المنشآت أو إشعال الحرائق. . .

توقف هاملتون قليلاً وقد بدا عليه الهم، ثم عاود مرة أخرى:

ـ لدينا قناعة أن المسألة تتعدى فصل ثلاثة وعشرين عاملاً. إن الشركة سبق لها أن طلبت من مجموعات ترك العمل، ولم يحصل أي رد فعل، ليس هذا فقط، لقد أعادت الشركة استخدامهم، أو استخدام بعضهم مرة أخرى. أما هذه المرة فإن تقديراتنا المبدئية تشير إلى وجود أسباب وعوامل تحريض لم تكن موجودة في المرات السابقة، وقد تكون هذه الأسباب والعوامل لا علاقة لها بالشركة.

كان الأمير يستمع بصمت، يهز رأسه، لكنه لم يكن يفهم بوضوح ما يقوله هاملتون. . صحيح أن الترجمان ينقل إليه كلاماً عربياً، وقد سبق أن ترجم بين الاثنين مرات كثيرة، وكان ما يقوله مفهوماً، الآن ما ينقله لا يبدو مفهوماً بالمقدار الكافي. سأل الأمير في لحظة صمت:

ـ قلت إن الجماعة هم اللي قالوا لهم روحوا حران؟

ـ لما بلغ الهياج درجة كبيرة، وحين حطم العمال البوابات والزجاج،

واقترح بعضهم إشعال النار والوصول إلى منشآت الشركة، بدأ رجالنا بتنفيذ خطة الطوارئ، وهذه الخطة سبق إقرارها في حال وقوع أية اضطرابات في الشركة لسبب أو آخر، ولذلك اقترح رجالنا أن يتوجه العمال إلى حران، بدل الذهاب إلى المعسكر.

كان هذا الحديث يجري وأصداء بعيدة تصل من حران. أما عندما استعمل الأمير منظاره المقرب فقد رأى منظراً عجباً: كان العمال في حالة من الهياج لكامل، العرق يتصبب من وجوههم، وقبضاتهم ترتفع في الهواء، وكان بعض العمال يركب على أكتاف آخرين والجميع يحركون أيديهم، وربما كانوا يشتمون أو يصرخون، هكذا قدّر الأمير، لكنه لم يكن متأكداً.

كان من الممكن أن يستمر الأمير في مراقبة الجموع فترة أطول، لكن صوت هاملتون أعاده من جديد:

ـ ماذا تقول يا صاحب السمو. . هل يحتمل أن تكون هناك أسباب غير معروفة للشركة؟

ـ أسباب؟ أية أسباب؟

ـ الشركة تتساءل: هل كان لدى قصر الإمارة معلومات سابقة أو تقديرات تشير إلى احتمال وقوع اضطرابات؟ وهل تعتقدون أن الإضراب نتيجة الاستغناء عن بعض العمال أم أن هناك أسباباً أخرى؟

كان الأمير حائراً لا يعرف كيف يجيب عن هذا السؤال المعقد، هز كتفيه أنه لا يعرف، وقال وهو يتطلع إلى نقطة أبعد من الرجلين:

ـ من يدري؟ الله أعلم.

قال هاملتون وهو يتطلع إلى عيني الأمير:

ـ هل هناك علاقة بين هذه الاضطرابات ومتعب الهذال، وهل هي امتداد لاضطرابات السنة لماضية؟

ـ متعب الهذال؟ لا . . يا جماعة الخير، متعب صار أثر بعد عين!

ـ وهل للرجل الذي قتل قبل يومين علاقة بالاضطرابات؟

ـ ويش علاقة الشركة بمفضي الجدعان؟

ـ الشركة لا علاقة لها بهذا الرجل أبداً، كما أن الرجل لم يكن موظفاً في الشركة في يوم من الأيام.

ـ هذا البدوي صاحب طلايب، وكل يوم له مشكلة، ولا أحد يعرف من قتله!

ـ وهل لمقتله علاقة بالعمال؟

ـ علاقة بالعمال؟

ـ تقصد الشركة هل مقتله أثار العمال؟ هل حرّضهم؟

ـ ما يندرى!

بعد ذلك أخذ الحديث مجرى آخر. طلب هاملتون من الأمير تأمين عناصر حراسة للمنشآت، طلب تأمين عشرين عنصراً، وقال إن الشركة ستتولى إطعام هذه العناصر وتأمين السكن لها، وستكون مهمتها، بالتعاون مع مجموعة الطوارئ الأميركية الموجودة في المعسكر، حماية المنشآت ومنع الاقتراب منها. واقترح هاملتون على الأمير أن لا يلجأ إلى القوة في فضّ الإضراب. مؤكداً له أن هذا اليوم إذا مرّ دون صدام فإن الجو سيبرد تدريجياً، وربما عادت الأمور إلى حالتها الطبيعية. واقترح هاملتون أخيراً أن تُشكل غرفة عمليات لمواجهة الموقف، وغرفة العمليات يجب أن تكون من خمسة أشخاص: اثنين من الأميركيين واثنين من الإمارة والخامس ممثل عن التجار وأصحاب المصالح في حران، وهؤلاء يمكن أن يجتمعوا مرتين يومياً، ويمكن، إذا اقتضت الضرورة، أن يبقوا في حالة اجتماع دائم، خاصة في الفترة الأولى لمعالجة الموقف. وقال هاملتون أخيراً وهو يستعد لأن يغادر:

ـ لقد حدّدنا عناصرنا، يا صاحب السمو، وهم على أهبة الإستعداد في كل لحظة، وسوف يقوم نعيم بزيارتكم بعد ساعتين من الآن ليتلقى توجيهاتكم بخصوص موعد اجتماع غرفة العمليات وأية أمور أخرى!

والأمير الذي أعجبته الفكرة، بل أُخذ بها تماماً، قال لنفسه أن الأميركيين يفكرون بكل شيء، وأنهم مستعدون لكل شيء. أما عندما وقف هاملتون، فقد سأل سؤالاً أخيراً:

ـ نعتبر أننا اتفقنا على كل شيء يا صاحب السمو. . أليس كذلك؟
رد الأمير وهو يفكر تفكيراً مختلطاً مضطرباً:
ـ وكّل الله، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

❀ ❀ ❀

حين سأل الأمير عن جوهر ولم يجده، قيل له أنه نزل إلى السوق مع ثلاثة من العناصر، قبل وصول العمال إلى المسجد، ومن المتوقع أن يعود بين لحظة وأخرى، لذلك قرّر الأمير بالتشاور مع نائبه، تأجيل البتّ في القضايا إلى حين عودة جوهر، وبعد ذلك انشغل بمراقبة السوق والجموع، ولم ينس أن يتطلع عرضاً نحو البحر ونحو معسكر الأميركيين.

أما جوهر الذي نزل مبكراً إلى السوق، بعد أن وصلته المعلومات حول تحرك العمال وتوجههم إلى حران، فقد وجد نفسه مضطراً، لئلا يلتقي بالجموع، للتوجه إلى مكاتب حسن رضائي.

كان في البداية شديد الثقة، بادي الغضب، كان يشتم ويعربد، وأكد أن عملاً مثل هذا لن يمر دون عقاب، عقاب شديد، وتساءل بمرارة:

ـ آخ على من يعلمني. . إذا عرفت من هو اللي وراء هذه الطوشة والله لافرّق لحمه على تلال حران كلها.

أما محاولات حسن رضائي في أن يخفف من غضبه باعتبار ما يحصل الآن شيئاً طارئاً، حالة من حالات الغضب، ولا بد أن تزول وتنتهي كما بدأت، هذه المحاولات لم تجد، بل وأصبح الغضب خوفاً حين بدأت الجموع تقترب. بدأت الأصوات تصل أوضح وأقوى، وجوهر الذي تراءى له أن هذه الجموع يمكن أن تكتشف مكانه، ويمكن أن تهجم عليه وتفتك به، بدا شديد العصبية والخشونة في التعامل مع العناصر التي كانت ترافقه. سألهم أكثر من مرة عن مكان وقوف السيارة، وما إذا رآهم أحد أثناء وقوفهم ثم صعودهم إلى مكاتب رضائي، وحين أطل من النافذة ورأى السيارة تقف مقابل المكاتب مباشرة ولا بد أن يكتشف، تساءل بمكر:

ـ وين نحط السيارة، يا جماعة الخير، أحسن ما يحرقها هالمجانين؟

وأخرجت إحدى سيارات حسن رضائي من الكراج وأدخلت سيارة جوهر، لقد تم هذا بكثير من العجلة والارتباك، وبدا هذا التصرف لجوهر في إحدى اللحظات أنه خطأ بالغ. فالجموع التي كانت تقترب، لا بد أن تكون قد لاحظت هذه الحركة الرعناء، ويمكن أن تُفسّر بشكل خاطئ، قال حين دخل السائق:

ـ أبدا ما تصيرون أوادم، ساعة إلى حين ما تدخلون السيارة؟

ولما ظل السائق صامتاً، أضاف جوهر:

ـ ها.. أحد شافكم؟

ـ لا... سيدي.

ومع أن جوهر راقب كل شيء بنفسه، إلا أنه لم يكن مطمئناً. كانت كل خطوة تقربه من الجموع، أو تقرّب الجموع منه تشعره بمزيد من الخوف. وحسن رضائي الذي عداه الخوف، فبدأ يتحرك في الغرفة كما لو أنه حيوان حبيس، قال في لحظة ضعف:

ـ الأحسن يا أبو سلطان أن ندخل إلى الغرفة الثانية.

ودون أن ينتظر مناقشة أو موافقة جوهر، الذي وقف بلا تردد، دخلا الغرفة الصغيرة.

كانت الغرفة أقرب إلى المستودع، حيث توضع فيها مجموعة من الحقائب وخزانة لحفظ الأوراق وقاصة حديدية، كانت هذه الغرفة ببابها الحديدي وجدرانها القوية، رغم صغرها، توحي لحسن رضائي بالطمأنينة.

دخلا الغرفة وأغلقا الباب من الداخل، ومن الشباك الطويل الضيق، والذي أشبه ما يكون بالشق في الجدار، ومن وراء ستارة خشنة، كان يأتيهما الصوت أول الأمر، ثم بدأت طلائع الجموع. كان الخوف يزيد ويكبر مع كل خطوة، وجوهر الذي حاول أن يبدو متماسكاً قوياً ما لبث أن شعر بقلبه يخفق وأنفاسه تضيق، قال باضطراب:

ـ لو سدّينا الباب أسفل.

ردّ حسن رضائي وهو يبتسم ابتسامة صغيرة:

ـ كل الأبواب أقفلت يا أبو سلطان.

حين كانت الجموع تمر تحت النافذة بدت الوجوه لجوهر متشابهة إلى أقصى حد، أو كأنها وجه واحد يتكرر مئات المرات، وكان وقع الأقدام الثقيلة أشبه ما يكون بضربات أيدٍ ماهرة في عجين لين. أما الأصوات فكانت كثيفة منغمة وهي تردد وراء سلمان الزامل:

جــوهــر خــبــر دولــتــك   الــلــي بــنــوا الــبــيــب ســبــاع
والــرجــال تــحــمــي حــقــوقــهــا   ومــا تــصــيــر لــلأمــيــركــان مــتــاع
وهــذي الــديــرة ديــرتــنــا

بعد الغروب قال جوهر للأمير، وقد بدا شديد الاضطراب:

ـ مجانين، يا أبو مسفر، كل واحد منهم يقتل أبوه، بعران وهاجّه، يركّضون مثل السلوقية، وما تعرف ويش يريدون، لولا أن الله نجّانا ذبحونا.

ضحك الأمير والتفت إلى حسن رضائي الذي أوصل جوهر بسيارته، وقال:

ـ بدوان وفورتهم قصيرة، مثل المزنة تنفض وتمشي، وإذا الواحد تركهم بلشوا ببعضهم.

رد جوهر وكان لا يزال خائفاً:

ـ إذا تركناهم يا طويل العمر أكلوا الأخضر واليابس.

ـ انت تعرف البدوان يا جوهر..

ـ اعرفهم، اولاد حرام، يا طويل العمر، وإذا ما وجعهم خشمهم سووا اللي ما يصير.

ـ الأميركان يقولون اتركوهم..

ـ ويش اللي يفهّم الأميركان؟

وهز جوهر رأسه أسفاً ولوعة ثم أضاف بلهجة حانقة:

ـ حنا أدرى بجماعتنا يا أبو مسفر.

ـ ما تقول يا أبو صادق؟

هكذا سأل الأمير موجهاً الخطاب لحسن رضائي، رد حسن بارتباك:

ـ الجماعة في السوق كانوا مثل الوحوش، . كانوا يريدون حرق حران وتدمير كل شيء، وإذا تُركوا لا يعرف الإنسان ماذا يحصل.

قال الأمير وهو يضحك:

ـ وكّلوا الله يا جماعة الخير. . بدوان وحنا نعرفهم زين، يوم والثاني، وبعدها كل شي ينتهي، وكأنه ما كان.

ـ يا أبو مسفر، يا طويل العمر، ما هم بدوان وبس، بدوان وحضر، وحران كلها معهم وجماعتنا اللي بين العمال يقولون متعب الهذال ما هو بعيد عن هذه السالفة، وإذا تركناهم ما أظن تنتهي على خير.

هكذا رد جوهر، وحين تدخل نائب الأمير في هذا الحوار، واقترح أن يترك الأمر للغد، ليعرف ما إذا كان سيأخذ نفس المجرى ونفس الحدة أم ينتهي كما بدأ، وافق الجميع. أما حين وصل نعيم شعيرة، للمرة الثانية، في هذا المساء، فقد أبلغ أن «الأمير في حالة اجتماع دائم مع المسؤولين» كما اقترح حسن رضائي أن ينقل للأميركيين، ويمكن أن يأتي نعيم غداً في الحادية عشرة لإبلاغه بالخطوات الضرورية والمناسبة.

بعد الغروب بقليل هدأت حران مرة أخرى. أحست بالارتواء فارتخت ثم بدأت تستريح. أما الجموع التي ملأت الشوارع كلها فقد ذابت كما يذوب الملح في الماء، إذ لم يبق بيت في السوق أو على التلال الغربية إلا وفتح أبوابه لاستضافة عدد من العمال، ولم يبق أحد من أهل حران إلا ورجع ومعه اثنان أو ثلاثة من «ضيوف الرحمان» كما أطلق على العمال ذلك اليوم. أما الذين أصروا على البقاء في المسجد أو في المقهى، وقرروا قضاء الليل هناك، فقد حُمل إليهم الأكل والماء. ورغم أن الماء كان موفوراً، وليست ثمة ضرورة لحمله من حران العرب أو أماكن أخرى، فقد أصرّ عدد من الفقراء على جلبه، وكانوا يقدمونه دون طلب مع كلمات حزينة: «لروح مفضي الذي سقى حران كلها».

ومثلما كانت الليلة التي مات فيها مفضي طويلة فقد كانت هذه الليلة طويلة أيضاً. أحس الناس بالشقاء الذي يزحف نحوهم وبالخوف يطوقهم. كان إحساساً غامضاً لكنه كثيف. وربما فكر كل واحد أنه إذا كان مفضي

قد مات الآن وهكذا، فإن أياً منهم يمكن أن يموت مثله دون سبب ودون أن يعرف قاتله. وهؤلاء العمال الذين طردوا اليوم ولا يعرف ماذا سيفعلون أو إلى أين يذهبون، فإن كل عامل معرض أي يوم لنفس المصير. أما ما قاله جوهر أن يحمدوا الله لأنهم ما زالوا أحياء وما زالوا يأكلون، فلا أحد يعرف إلى متى سيبقون أحياء وما إذا سيجدون غداً ما يأكلونه! صحيح أن الشركة تدفع الآن، لكن ما يتلقونه بيد يدفعونه باليد الأخرى في اليوم التالي. أصبحت أسعار الحاجات ترتفع يوماً بعد يوم، وأصبح المال يتجمع في أيدٍ قليلة. أما الوعود التي قدمها ابن الراشد قبل سنين، وهو يسوقهم من عجرة والأماكن الأخرى، سواء بالبيوت التي سيجدونها في حران، أو بالحياة التي سيحيونها، فقد تلاشت قبل أن يغيب ابن الراشد. وما قالته «إدارة الأفراد» من أن الشركة ستبني بيوتاً للعمال، وسيكون بمقدور كل واحد منهم أن يأتي بعائلته، وأن يرجع إلى بيته وأولاده كل مساء، ها قد مضت سنوات، سنة وراء أخرى، ولم يُشد بيت واحد، ولم تزل البركسات الملعونة، والتي تزيد حرارة وقذارة يوماً بعد آخر، المكان الذي يحشرون فيه كل ليلة.

تذكر العمال ذلك وتذكروا أهلهم فشعروا بالحزن يسحقهم. وأهل حران الذين نظروا في وجوه هؤلاء ونظروا في وجوه بعضهم بعضاً، ورأوها حزينة مهمومة، قدروا أن وراء هذا الحزن أسباباً جعلتهم هكذا فحزنوا مرة أخرى، ثم شعروا بالخوف أيضاً، لكنهم مع ذلك تجرأوا وقالوا أشياء ما كانوا ليقولوها لو لم يستبد بهم هذا الحزن كله وهذا الغضب كله. لماذا يعيشون هم هكذا ويعيش الأميركيون بشكل آخر؟ لماذا يحرّم عليهم الاقتراب من بيوت الأميركيين أو مجرد النظر إلى برك السباحة أو الوقوف لحظات في ظل شجرة من الأشجار؟ والأميركيون لماذا يصرخون طالبين إليهم أن يتحركوا، وأن يتركوا المكان فوراً، ويطردونهم كما تطرد الكلاب؟ حتى جمعة لا يتردد في ضرب أي واحد منهم بكرباجه إذا وجده في «الأمكنة الممنوعة». لقد زرعوا تلك الإشارات التي تمنع الوقوف أو الاقتراب في معظم الأمكنة. حتى البحر وضعوا فيه الأسلاك

الشائكة التي تحرّم الاجتياز أبعد من مسافة معينة.

ولماذا يجبرهم الأميركيون على القيام بأعمال لا يفكر أي واحد منهم القيام بها؟ ومع أنهم سكتوا ورضوا بكل شيء، فإن الأميركيين لا يرضون ولا يوافقون على مجرد استمرارهم في العمل.

... والأمير هل هو أمير لهم، يدافع عنهم، يحميهم أم أمير للأميركان؟ لقد كان أول وصوله إلى حران إنساناً آخر. كان لا يتردد في النزول إلى السوق، وكان الكثيرون يشربون القهوة عنده. أما عندما بدأت تلك الآلات التي جلبها له حسن رضائي وغيره تشغله، فقد غرق فيها وترك الأمور كلها لجوهر. وجوهر أي إنسان هو؟ مع الأميركيين كأنه النعجة يصمت، يستمع بأدب، يهز رأسه مع كل كلمة يقولونها له، ومع نعيم شعيرة، النصّيص، يضحك، يتحدث كما لو كانا صديقين أو أخوين، أما إذا التفت ورأى بعض العرب فلا يتردد أبداً في أن يشتمهم وأمام الأميركيين بشكل خاص، بل وبلغ به الأمر أن استعمل عصاه عدة مرات دون سبب. ويتذكر العمال أموراً عجيبة: ففي إحدى المرات، أثناء جولة من جولاته، وقف مع بعض العمال، وأخذ يسألهم عن أسمائهم ومن أين جاءوا وكم مرّ عليهم من الوقت في الشركة. كان في لحظة من لحظات صفائه، وقد حصل هذا بعد أن لبس البذلة العسكرية بشهور قليلة، وإذ تجمع العمال حوله وأخذوا يتحدثون، مرّ أحد الأميركيين، وربما أراد شيئاً من جوهر أو ربما كان مدفوعاً بفضوله، إذ ما كاد يقترب ويراه جوهر حتى بدأ يشتم العمال ويضربهم بعصاه، طالباً منهم الانصراف إلى أعمالهم.. وإلا سوف يسجنهم كلهم!

لقد استغرب العمال هذا التصرف ولم يجدوا له تفسيراً أو سبباً. وفي مرة أخرى طلب من مجموعة من العمال أن يأتوا إلى دار الإمارة في يوم العطلة لكي يساعدوا في بناء السور، وقد كان مرحاً وهادئاً أثناء الحديث معهم، وأكد أن العمل لن يحتاج إلا نصف يوم، والعمال الذين أبدوا استعدادهم للمجيء والقيام بالعمل، ما لبثوا أن دهشوا حين وصل نعيم إلى وسط تلك الحلقة فجأة، وإذ بجوهر يتغير تماماً. أخذ يصرخ، وما لبث أن

طلب من الجنود الذين يرافقونه إلقاء القبض على ثلاثة من العمال وسوقهم إلى السجن مباشرة. وبعد أن قضوا في السجن أسبوعاً لم يخرجهم إلا بعد أن تشفع لهم نعيم نفسه!

القصص التي تروى عن جوهر لا نهاية لها، وتتزايد أسبوعاً بعد آخر، وإذا كان الناس مستعدين للنسيان والتسامح فإنهم لا يستطيعون ذلك دون حدود. فما كاد خبر مقتل مفضي يصل إلى الناس حتى أحسوا بأحقادهم كلها تطفو، وأحسوا أنهم مظلومون أكثر مما ينبغي وأكثر مما يحتملون. وحين وقف سلمان الزامل على سور الجامع وقال إن أهل حران والعمال ليسوا ضد أحد ولا يريدون أكثر من شيئين: إعادة العمال الذين طردوا، والتحقيق لمعرفة قاتل مفضي الجدعان، حين قال سلمان الزامل هذا الكلام صفق الناس وقالوا: الله أكبر.. الله أكبر. أما الأهازيج التي اخترعوها في التو واللحظة فكانت تركز على هذين المطلبين. كانت الأهزوجة تقول:

دمك يا مفضي ما يضيع   حران كلها تطالب
وانت يا أبو التل الشمالي   تسمع ولازم تجاوب
دمك يا مفضي ما يضيع

أما الأهزوجة الثانية فكانت كما يلي:

حجر حجر حنا اللي بنينا   وشبر شبر حنا اللي مدينا
وبعد ما عمّرنا وبنينا   ما تقولي يا شركة يا الله
وفي أمان الله
وما لكم حقوق
حقوقنا قايمة ودايمة
وحنا أصحاب الحقوق
ونحصلها بدمنا وأيدينا

ومثلما اختلطت الوجوه على جوهر فلم يستطع في تلك الغرفة الصغيرة أن يميز وجهاً من آخر، فإن ما قاله الناس كان مشوشاً متداخلاً في أذنيه، وكأنه هدير رعد، فلم يستطع أن يسمع وأن يميز، أما عندما جاءه بعض الرجال في الليل المتأخر، وقالوا أن أهل حران كلهم كانوا في

المظاهرة وإنهم كانوا يهزجون ويطالبون بدم مفضي وعودة العمال الذين طردوا، فقد بلغ جوهر درجة من الغضب إن شتم الذين جاءوا بالأخبار ووصفهم بالجبن وقال إنه سينتقم منهم!

الأمير الذي اعتبر تأجيل اتخاذ القرار إلى الغد حلاً مناسباً، سر لوجود حسن رضائي في تلك الليلة. إن هذا الرجل يوحي له بالطمأنينة وسعة العالم، إذ بالإضافة إلى الاكتشافات العلمية الكبرى التي أطلعه عليها، فإن أسفاره في العالم وتجاربه الكثيرة كانت زاداً لا ينضب. فما كاد الأمير يلقي نظرة متأنية مدققة على حران بعد الغروب، فوجدها هادئة مستقرة حتى فتح الراديو على إذاعة لندن، وبعد أن استمع وحسن رضائي ونائبه إلى الأخبار، بدا في حالة من الثقة أقرب إلى النشوة، إذ لديه هذه الليلة ما يقوله ويبحثه مع حسن رضائي.

عاد مرة أخرى إلى ما حدث، قال بتأكيد حازم أن الأميركان فكروا بكل شيء، وأبلغوه أن الأمور ستنتهي كما بدأت، وهو يتفق معهم تماماً.

قال هذا وابتسم ابتسامة كبيرة واثقة، ثم طلب من حسن رضائي أن يقترب منه لكي يبلغه بسر لم يبح به لأحد، فلما اقترب غمز لنائبه أن يقترب أيضاً، فلما أصبحت رؤوسهم متلاصقة همس:

ـ بعد كم يوم تصلنا عجيبة.. وإذا اشتغلت كل المشاكل تنحل وتنتهي!

بدا حسن رضائي مستغرباً حائراً، إذ لم يفهم ما قاله الأمير، ولم يرد أن يظهر بأنه لم يفهم، وحين هز الأمير رأسه دلالة الثقة، وبدا له أن الاكتشاف الجديد الذي أطلعه عليه الأميركان قبل بضعة أيام أكبر وأخطر من أن يفهمه حسن رضائي بهذه السهولة، سرّ سروراً كبيراً لأنه يعرف أكثر منه، ودون انتظار نهض محاذراً خفيفاً، ومن بين الوسائد التي كانت موضوعة في مكان قريب استخرج تلك الآلة العجيبة. حملها كما يحمل الأب ابنه الأول، وبهدوء وضعها بين يدي حسن رضائي، فلما ضحك حسن وقال:

ـ أي نعم.. أي نعم.. تلفون.

فقد فوجئ الأمير وبانت عليه الدهشة، وبدأ يسأل حسن ما إذا كان قد رأى هذه الآلة وأين، وحين أكد له أنه رآها في أماكن عديدة، فقد أبدى الأمير إعجابه، وطلب منه أن يشرح له كل ما يتعلق بها: كيف تعمل؟ وهل تعمل في الليل والنهار؟ وهل تتعب أو تستريح.. وهل يمكن للإنسان أن يتصل من خلالها بأشخاص غائبين حتى لو كانوا أمواتاً؟

وحسن رضائي الذي حاول أن يشرح، قال أشياء كثيرة معقدة، لكن الأمير فهم منها أهمية هذه الآلة وفائدتها، وكيف يمكن أن تقرب المسافات وتساعد البشر، فما كان منه إلا أن أفشى سره:

ـ قال لي الصاحب، رئيس المعسكر، بأسبوعين، وأقصى حد شهر، يكون بين دار الإمارة والمعسكر اتصال دائم ويمكن أن نتكلم بالليل والنهار عن طريق هذه الآلة.

وبدأ الأمير يجرب الآلة: هالو.. هالو ترانك، هالو.. أجب، هالو حوّل. لقد استعمل كل العبارات التي سمعها أثناء زيارته لمعسكر الأميركان قبل أسبوع، وحين أكد له هاملتون أن الإجراءات قد اتخذت من أجل مد الخطوط بين المعسكر ودار الإمارة كان شديد الانفعال مسروراً إلى أقصى حد. كان يتمنى أن ينهض في إحدى الليالي على صوت الجرس. إن الجرس لا يقل أهمية وغموضاً عن الآلة نفسها، وإن كان فيه شيء نصراني كما قال بنوع من الأسف، لكن شغله كيف يدق وحده،وهل يستطيع المسلمون أن يحوّلوه فيقول الله أكبر بدل هذا الصوت؟

قضى الأمير السهرة كلها يتحدث عن هذه الآلة العجيبة، وتخيل أشياء لا حصر لها يمكن أن تتحقق من هذا الاكتشاف العظيم؛ وأكد لنائبه أنه إذا وصل إلى حران يمكن أن يساعد دار الإمارة مساعدات لا حصر لها، فما لا يستطيعه المنظار المقرب يمكن لهذا الاكتشاف أن يحققه:

ـ الصوت.. نعم الصوت يا أبو رشوان أهم شيء. ويش يقول الناس، ويش يفكرون، لا كيف يظهرون.. هذا هو المهم.

واسترسل الأمير، وتذكر أنه أحب أكثر من امرأة من خلال الراديو. قال وهو يتمدد مستريحاً هادئاً مستقراً:

ـ والأذن تعشق قبل العين أحياناً!

في نفس الوقت الذي انشغل الأمير بالتلفون، انشغل جوهر بأمور أخرى: كيف يستطيع أن يدمر الإضراب؟ كيف يستطيع أن يقبض على الذين خلقوا هذه المشاكل؟ وإذ قيل له أن سلمان الزامل هو الذي وقف على سور الجامع وقال تلك الأشعار، بدأ يحاول استعادة صورة ذلك الرجل. إنه يتذكره، يتذكره بكل تأكيد، لكن صورته الآن تتداخل مع صور الكثيرين وتتلاشى بسرعة. قال للرجال الأربعة الذين استدعاهم:

ـ ها.. ننتظر إلى حين ما اولاد الحرام يشعلوها؟ لا. حنا نشعلها ونلعن والد والديهم! أحسن ما يجونا غَفَل ويقولون يصير وما يصير، حنا نذبي عليهم، نمسكهم بحجورهم، وهذا ابن الزامل أريده، لا تذبحوه، قولوا له تعال معنا وكل شيء يصير، وإذا يدي قبضته خلص..

والرجال الذين يستمعون لا يعرفون ماذا يجب أن يفعلوا أو ما هو الشيء المطلوب منهم. يتطلعون إلى وجه جوهر، وبسرية يتبادلون فيما بينهم نظرات متسائلة، أما حين قال:

ـ من الفجر، قبل الأذان، تكونون بالمسجد، وقبل ما يتكلم أحد، قبل ما يقول كلمة، تقولون: الشركة، أبو الشركة، احرقوها، العنوا أبو اللي سواها، هي السبب، وبعدها ما عليكم.

أعاد جوهر هذه التعليمات عدة مرات، حتى إذا استوعبها الرجال قال لهم بحزم:

ـ الليلة ما تنامون، اسهروا وما عليكم.

وانصرف إلى تهيئة العناصر التي ستأخذ مواقع عند الأسلاك، قريباً من البوابة الرئيسية، ومن بوابة العمال. لقد أعدّ لذلك جميع مفارز البادية، عدا حرس الأمير.

كانت ليلة كبيرة لم ينم خلالها أحد، وجوهر الذي طلب من مرافقه الأسود أن يوقظه قبل الفجر، لم يستطع أن ينام لحظة واحدة. كان يتقلب في فراشه، كان يتصور العمال وأهل حران يتقدمون نحو المعسكر، وتراءى له رجاله الذين أرسلهم في الليل يصطدمون مع المتظاهرين فتسيل الدماء.

وتصور أيضاً كيف أن الأميركان والأمير وكل أهل حران يتوجهون إليه، يناشدونه، يطلبون منه أن يضع حداً لهذا الذي يجري، وهو بمقدار ما يعرف كل شيء، بمقدار الثقة التي انطلق منها، يريد أن يقبض على بعض الأشخاص، أن يجعلهم أمثولة.

إن الأمر أكبر من أن يتركه يفلت من بين يديه. وإذا كان قد وافق أن يبقى في تلك الغرفة الصغيرة، وأن يسمع الشتائم والتحديات، ويرى هؤلاء الذين كان يضربهم، يصرخ في وجوههم فيتفرقون، قد أصبحوا هكذا الآن، فإنه لا يستطيع أن يحتمل وأن يتسامح. الأميركان لا يعرفون هؤلاء البدو قدر معرفته لهم. أما الأمير فإنه مشغول بأمور لا يعرف ما هي، وكل ما يقوله مجرد كلمات لا معنى لها. لا يمكن أن يترك الأمور تفلت من بين يديه. إنه المعني بالأمن، وهو الوحيد القادر على أن يفعل شيئاً. إذا لم يفعل هو بالذات فلن يستطيع أحد غيره. إذا استطاع أن ينجح في القبض على هؤلاء الذين كانوا وراء هذه الفوضى، سوف يشكره الجميع. حران ليست بحاجة إلى مثل هؤلاء ولا يمكن أن يسمح بأكثر من ذلك. وهل بلغ بهم الأمر أن يطالبوا بدم مفضي؟ إذ تركهم دون عقاب يمكن، غداً أو بعد غد، أن يطالبوا بكل شيء. هؤلاء البدو أطمع من الذئاب، لا لن يتركهم يفلتون، إنهم جبناء، إذا ضرب الرؤوس سوف يصمت الآخرون، يصبحون كالنعاج، لا أحد يتكلم، لا أحد يفتح فمه.

العمال وأهل حران ناموا نوماً عميقاً. حتى أولئك الذين يحبون المرح، ويلذ لهم أن يخلقوا المشاكل أو المقالب في اللحظة الأخيرة، لم يفعلوا إلا القليل. نام العمال في البيوت والمسجد، والذين رغبوا بالعودة إلى المعسكر لم يصروا على ذلك، لأن المسافة كانت كبيرة. وكان شيء من التحسب يسيطر على الجميع.



سلمان الزامل الذي كان ضيف ابن نفاع ومعه ابن هذال واثنان آخران، بدا قلقاً متحسباً وهم يشربون القهوة بعد العشاء، عكس ما كان وضعه

خلال النهار، فالثقة التي كان يمتلئ بها وهو يهتف، وهو يهزج، وحين وقف على سور الجامع، حلّ مكانها شك مشوب بالتساؤل: أين جوهر؟ لماذا لم يعترض المتظاهرين؟ واذا مرّ هذا اليوم هكذا فهل ستكون الأيام الأخرى مثله؟ والشركة هل تستجيب وتعيد العمال إلى أشغالهم أم تبقى بعيدة وراء الأسلاك لا تسمع ولا تجيب؟

إن شكاً أقرب إلى الحيرة سيطر عليه، وكان بحاجة إلى الآخرين، أن يسمع منهم، وأن يسألهم، إذ لا بد أن يمتحن قناعاته قبل أن يقدم على الخطوة التالية. قال ابن نفاع وقد قرأ الشكوك التي تساوره:

ـ اسمع، يا وليدي، اسمع وتفطن، ترى إذا طاح جمل أو عثر بدوي من المياسم إلى جويريد، ومن البحر إلى مصر، ترى وُلِد الحرام وراه..

سأل سلمان مازحاً، وقد فهم أنه يعني الأميركان:

ـ وجوهر يا أبو عثمان؟

ـ من هذا الكلب؟ أجير عندهم، لقّام، وما يسوى نواة.

ـ ومن اللي ذبح مفضي؟

ـ سبحان الله... انت تسألني يا ابن أخي؟

ـ ما هو جوهر اللي ذبحه؟

ـ أي نعم جوهر، لكن من جوهر بلّياهم؟

ـ وين صار ثارنا يا أبو عثمان؟

ـ ثارنا عندهم وعند غيرهم.

ـ وما هو شورك لباكر وعقب باكر؟

ـ القول اللي قلته بالمسجد اليوم: يرجع العمال، ويقولون من ذبح مفضي.

ـ وإذا ما سمعوا؟

ـ يسمعون، يا وليدي، نعم يسمعون، الدق يذوّب الصفا، بس انتم كونوا جميع، لا تتفرقوا ولا يدهي بعقولكم اولاد الحرام، ترى الناس كلها معاكم.

يوم الأحد لم يكن يوماً عادياً في حران، فالمسنون الذين تعودوا أن يكونوا وحدهم في المسجد أثناء صلاة الصبح، وجدوا أنفسهم قلة وسط الناس الذين امتلأ بهم المسجد هذا الفجر، ووجدوا أن أعداداً كبيرة سبقتهم. أما الذين ناموا في المسجد فقد اكتفوا بساعات قليلة ثم قضوا ما تبقى من الليل في القصص والمزاح، وصلى بعضهم أيضاً؛ ولم يتردد عدد منهم في إخلاء أمكنتهم للذين جاءوا متأخرين بعض الشيء. وابن نفاع الذي أمَّ المصلين، ـ لأن الإمام كان مريضاً أو ربما تظاهر بالمرض، لم يتردد في أن يقول أشياء وأشياء قبل الصلاة وبعدها. ففي الحلقة التي كبرت وتكاثفت حوله قبل الصلاة، قال إن هذه هي أيام حران، كما كانت للعرب أيام في الجاهلية والإسلام، وأكد أنه إذا كانت الصلاة فرضاً على المسلم، فإن مقاومة الظلم فرض، وحماية المسلم لأخيه المسلم فرض، والدفاع عن الأرض والحق فرض. وقال إن في الاتحاد قوة، وإنه لا تُغلب فئة متآخية متحابة، أما إذا تفرق الناس واختلطت أهواؤهم ونواياهم ذهبت ريحهم. قال ابن نفاع هذا وقال أشياء أخرى أيضاً. أما حين اختار تلك الآيات بالذات ورددها بصوت مُنَغَّم واضح النبرات أثناء الصلاة، فقد استقرت في قلوب الناس وأثرت فيهم كثيراً، حتى لكأنهم أصبحوا طينة أخرى وبشراً من نوع آخر.

قال كثيرون، بعد انتهاء الصلاة، إنهم أحسوا بالملائكة تحوم فوق رؤوسهم. وقال آخرون أن نوراً أبيض حاداً قوياً كأنه البرق ملأ المسجد كله عندما قال ابن نفاع: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم ورحمة ا لله وبركاته» أما حين ذهب الرجال جماعات جماعات إلى

السوق أو إلى مقهى أبو أسعد الحلواني، للتجول أو الاستراحة قليلاً، فقد اتفقوا أن يلتقوا مرة أخرى عند الضحى... وفي المسجد أيضاً.

وما عدا المخابز وبعض الدكاكين ظلت حران صامتة مغلقة. وباص عجرة الذي يغادر في السادسة كل يوم لم يجد راكباً واحداً، حتى الذين دفعوا الأجرة قبل أيام ورتبوا أمورهم على أن يسافروا هذا اليوم بالذات لم يفعلوا. أما حين جاء بعض العمال في الضحى، وهم في طريقهم إلى المسجد، وسألوا السائق الذي كان مشغولاً بإصلاح الباص، ما إذا كان سيغادر إلى عجرة ذلك اليوم، فقد رد دون أن يرفع رأسه:

ـ السيارة مكسورة وتحتاج يومين أو ثلاثة أيام إلى أن تتصلح!

وأبو أسعد الحلواني الذي قرر أن يشارك الآخرين في الإضراب، وقال للعمال وهم يدخلون المقهى أنه سيستقبلهم لكن لن يقدم لهم شيئاً، ما لبث أن تراجع وقال بصوت فرح:

ـ صار لي خمس.. ست سنين أسقي أهل حران، واليوم، إذا أراد أهل حران أن يشربوا فهذه هي العدة: كل شيء موجود: الشاي، السكر، القهوة... المهم أن يشمر كم واحد منكم، لأن أبو أسعد اليوم مُسبت، أي بالعربي: مضرب.

وبكثير من الصخب حلّ بعض العمال محل أبو أسعد، لكن الأخطاء التي ارتكبوها، والهرج الذي ملأ المقهى جعله يقطع الإضراب ويعود إلى خدمة الزبائن!



كل المحاولات التي جرت من أجل استدراج الناس إلى العنف والصدام فشلت، فقد ظل كل شيء في إطار المطالبة بإعادة العمال والتحقيق في مقتل مفضي. أما عندما جرت محاولة إحراق سيارة من سيارات رضائي فقد قاومها الكثيرون، وقالوا: «إحراق سيارة يحرق حران كلها، وجوهر ينتظر الشرارة لكي يبدأ الحريق الكبير! وحين اقترح بعض الناس التوجه إلى الشركة واقتحام الأبواب وتكسير كل شيء رد سلمان

الزامل، وهو يتطلع في عيني ذلك البدوي الذي أخذ يصرخ ويطالب بالتوجه إلى الشركة، رد عليه:

ـ اسمع. . ذاك هو باب الشركة، رح وحدك، وقل لهم العمال بحران ينتظرونكم.

ولما صرخ البدوي مرة أخرى أمسك به فواز الهذال من رقبته، وقال بغضب:

ـ قلنا لك: ذاك باب الشركة، وهالمرة نريد الشركة تجينا، ولازم تجي.

ومثلما حصل في اليوم السابق ظلت الأمور في حران هكذا حتى العصر، إذ انطلقت الجموع من المسجد، فطافت الشوارع الرئيسية الثلاثة ثم عادت مرة أخرى، والأهازيج التي نظهما الناس بالأمس أضيفت إليها بعض الكلمات أو عدّلت بعض الشيء لتكون أوضح وأقوى. أما الدباسي الذي أصبح رسولاً بين أهل حران ودار الإمارة، فنقل عن الأمير قوله أن العمال الذين تركوا أعمالهم لا بد أن يرجعوا في وقت من الأوقات، وإنه يطلب من العمال إنهاء الإضراب والعودة إلى العمل. أما ما يتعلق بمفضي فإن مفضي قد مات وانتهى، ولا أحد يعرف من قتله.

نقل الدباسي ما قاله الأمير أو ما سمعه من الآخرين بألم ومرارة، وقد تأكد بعد زيارتين لدار الإمارة، الأولى عند الضحى والثانية ظهراً، تأكد له أن استمراره بالوساطة لن يجدي، ولا بد أن يغضب منه أحد الطرفين لو قام بمحاولة ثالثة، ولذلك حين نقل للعمال ما قيل له في المرة الثانية أضاف بحزن كأنه يكلم نفسه:

ـ المرا والأمير والولد الصغير يظنون أن كل شيء يصير.

وحين نظر إليه العمال ولم يفهموا شيئاً مما قاله أو قصد إليه، ابتسم بحزن وأضاف:

ـ أولها وتاليها الرأي رأيكم، انتم أعرف، وأنا مثل ما تشوفون: العين بصيرة واليد قصيرة.

كان يريد أن يقول للعمال أن يصمدوا، أن يثابروا، لأن عينيه برقتا بغضب.

حين صاح أحد العمال: «ودم مفضي ـ يا أبو صالح؟» فقد نظر إليه طويلاً لكنه لم يستطع ان يرد لأن كلمة مثل هذه لو قالها لا بد أن تصل إلى دار الإمارة، وبعدها سيطرد من حران، ولن يأمن ولن يستطيع أن يواجه الأمير. كان حائراً موزعاً، إذ بمقدار ما كان يعتز بالعلاقة بالتل الشمالي، وبالصداقة التي تربط بالأمير، بمقدار ما كان إحساسه أن مقتل مفضي ليس له ما يبرره ويجب إلا يمر دون عقاب.

خيم الصمت. كان صمتاً ثقيلاً فظاً، فالدباسي لم يكن عنده شيء يضيفه، بل وأحس أكثر من ذلك بعدم جدوى الكلام. أما الناس الذين تفاءلوا وتوقعوا، والذين انتظر عودة الدباسي من دار الإمارة، فقد تأكدوا أن الوضع أصعب من أن ينتهي بسرعة، أو كما يريدون، ولذلك لم يجدوا ما يقولونه. ولما وقف الدباسي مستنداً إلى عكازه يريد الانصراف، طلب من سلمان وفواز أن يقتربا منه، فلما اقتربا وتحرك هو قليلاً كاد يسقط لاختلال توازنه، لكنه اتكأ على سلمان وتلامس جسداهما تماماً فهمس:

ـ هذا اللي قدرت عليه، يا وليدي، مع الجماعة.

وأشار بأصبعه ثم أضاف بلهجة ورد:

ـ وإذا احتجم أي شيء تعالوا. تسمعوني؟ تعالوا لأبو صالح قبل ما تروحون لأحد وعسى أن الله يقدّرنا.

وأضاف ووجهه إلى الأرض وبدا حزيناً:

ـ الله يلعن الشيطان ويخزيه.

جاء نعيم قبل الحادية عشرة إلى دار الإمارة لكي يستفسر عن الاقتراح الذي تقدم به هاملتون بالأمس حول تكوين غرفة للعمليات. وحين أبلغ الأمير اضطرب قليلاً، وكأنه لم يتوقع مجيئه، تمنى في تلك اللحظة لو أن التلفون، هذه الآلة العجيبة، يعمل بينه وبين المعسكر، إذ لو كان موجوداً لأمكن الاتفاق على كل شيء، يمكن أن يتحدث مطولاً مع هاملتون، أو

مع حسن رضائي وجوهر والآخرين، قبل أن يجيب عن أي سؤال أو أي طلب. مرت هذه الرغبة في نفسه، وحين ظل كاتبه ينظر إليه مستفسراً حول ما يجب أن ينقله إلى نعيم. . . سأل:

ـ وجوهر. . وين جوهر؟

ولما جاء جوهر قال له الأمير وقد تظاهر بالحزم:

ـ تروح انت والترجمان، تاخذ معك نجم وأبو صادق وتروحون يمّ الجماعة. . وشوفوا اللي تقدروا عليه.

قال فيليب:

ـ الشركة لن تلبي مطالب العمال، ولن تعيد تحت الضغط والتهديد الذين تركوا الخدمة، لأن سابقة من هذا النوع تفقد الشركة هيبتها، وتشجع العمال على المطالبة بأشياء أخرى، هذا أولاً. وثانياً، ليس من رأي الشركة، في هذه المرحلة، اللجوء إلى القوة، وأن الأمور لم تصل إلى حد، يُلزم باستعمال القوة. يمكن أن نعطي وعداً بدراسة الأمر، على أن يعود العمال المضربون فوراً إلى العمل، ويمكن أن نؤكد استعداد الشركة لإعطاء الذين تركوا الخدمة الأولوية في حال وجود شواغر. وثالثاً وأخيراً، إن الشركة تنوه أن الإضراب الذي حصل بالأمس له أسباب تتجاوز الاستغناء عن مجموعة من العمال. ونحن نتساءل ولا نجزم.

هكذا بدأ فيليب، أحد ممثلي الشركة في غرفة العمليات، ونعيم الذي ترجم ما قاله فيليب، قرأ الترجمة من نص مكتوب، ورغم أن جوهر تظاهر أنه يصغي إصغاءً تاماً، إلا أن ذهنه شرد أكثر من مرة، ولم يفهم بعض العبارات التي قرأها نعيم. تطلعت العيون إلى جوهر وكأنها تطالبه أن يتكلم، أن يقول شيئاً. اضطرب، أحس أنه محاصر، ضرب الطاولة بعصاه بشكل مفاجئ بحدة:

ـ إذا ما كسّرنا رؤوسهم، إذا ما ضعضعنا عظامهم يركبونا.

ضحك أرنولد لما ترجمت العبارات التي قالها جوهر، بعد أن استفسر منه نعيم عن كلمة «ضعضعنا»، فشعر جوهر بالثقة، واستنتج أن الأميركيين يتفقون معه. تابع:

ـ جماعتنا وحنا نعرفهم زين: أضرب الخشم تدمع العين، نضربهم، ندق عظامهم، وكل شيء يرجع مثل ما كان.

سأل فيليب:

ـ هل هناك علاقة بين مقتل البدوي والإضراب؟

أصيب جوهر بالذهول بعدما تُرجم سؤال فيليب، بدا شاحب الوجه، عصبياً، رد بحدة:

ـ هذه سالفة وهذه سالفة. . .

ولم يُفهم ما قصد إليه بعد أن ترجم كلامه. ظلت العيون تتابعه. أضاف:

ـ يا جماعة الخير. . . مفضي طلايبه قتلته، وهو مات وراح، والبدوان اللي يشتغلون بالشركة سالفتهم غير سالفة.

ـ لماذا لم تحصل إضرابات قبل هذه المرة؟ لماذا لم يضربوا قبل شهرين أو بعد أن انتهى مد الخط واستغني عن عدد كبير من العمال؟

ـ إذا رنت الطاسة طلعت ألف رقاصة. كانوا يريدون حجة وجاءت الحجة!

قال فيليب وهو يقرأ من ورقة:

ـ الظاهرة التي نواجهها اليوم تتطلب الدراسة والمعالجة على مستويين: المستوى الأول، العاجل، إنهاء الإضراب، دون أن ترضخ الشركة، ودون أعمال عنف. أما المستوى الثاني فدراسة وضع العمال بدقة لمعرفة الجوانب العميقة: هل هناك تيارات سياسية؟ هل ثمة تنظيمات ومحرضون؟ وهل ثمة أسباب خارج مجال الشركة والعمل؟

قال حسن رضائي:

ـ أي نعم. . . المسألة غير طبيعية، هذا شيء مؤكد. أي نعم. . المسألة غير طبيعية، ويجب أن ننتبه كثيراً ونحتاط للمستقبل.

رد جوهر بغضب ولم يكن يتابع ما يقال:

ـ أنتم لا تعرفون البدو ولا تعرفون خبثهم، الواحد منهم ألعن من إبليس.

هز حسن رضائي رأسه وعقّب:

ـ الحق معك، خبثاء، أي نعم، خبثاء جداً، الواحد منهم يضحك لك ويحفر تحت رجليك. وإذا ظفر بك يذبحك وما يرفّ له جفن.

نقل جوهر عينيه بين رضائي والأميركيين، يريد أن يؤكد كل كلمة قالها حسن رضائي. عاد فيليب إلى الحديث مجدداً:

ـ أنتم أدرى بهؤلاء الناس، وما يهمنا الآن هو إنهاء الإضراب.

ـ اتركوا المسألة عليّ.

هكذا رد جوهر. قال فيليب:

ـ نوافق، على أن لا يُلجأ إلى العنف، على الأقل في هذه المرحلة.

وانتهى الاجتماع دون الاتفاق على شيء نهائي، إذ اقترح رضائي أن يُراقب الوضع خلال اليوم، وأن تجتمع اللجنة مرة أخرى مساءً، أو في وقت يتفق عليه لاحقاً.

تأكد جوهر أن لا أحد يعرف معالجة القضية كما يعرف هو، فالأميركان يتحدثون عن قضايا معقدة، وليست لها صلة بما يحدث. يقولون نوافق ولا نوافق، وهم لا يعرفون عن أي شيء يتكلمون. إنهم لا يعرفون البدو أبداً يتصورونهم أناساً بسطاء، مسالمين.. إنهم لا يفهمون!

وقرر جوهر أن يتحرك بسرعة، خاصة حين تبين له أن محاولات العناصر التي أرسلت صباحاً إلى المسجد لم تجدِ، وتأكد أكثر من ذلك أن العمال يريدون تجنب الاصطدام به.

الوقت بين العصر والغروب، الرجال في ظلال المسجد وظلال الدكاكين المجاورة، بعد أن جالوا حران، حتى نهاية شارع الحارثي، للمرة الثانية، يقيلون التماساً لبعض الراحة، وانتظاراً لانكسار حدة الشمس قليلاً، لكي يقوموا بالشوط الثالث والأخير لهذا اليوم، لكي يختموا يوماً ثانياً طويلاً وثقيلاً، وكانوا ينتظرون أيضاً عودة الذين ذهبوا إلى المعسكر لإحضار بعض الحاجات. في هذا الوقت بالذات سمعت أصوات الرصاص. كانت الأصوات بعيدة متقطعة، وكانت تأتي من جهة المعسكر. قال سليمان الزامل:

ـ ابن الحرام، جوهر، سوّاها.

رد ابن نفاع الذي كان يحدث عدداً من الرجال:

ـ الله يستر.

خلال ذلك تراكض بعض العمال ليستطلعوا ما حصل، وخيم نوع من الصمت القاسي المتوتر. أما حين بدت من بعيد مجموعة من العمال تركض نحو حران، وسُمع صوت الرصاص مرة ثانية، فقد اتضح الموقف كله: تأكد الجميع أن شيئاً خطيراً قد وقع.

وأهل حران الذين كانوا إلى ذلك الوقت يضحكون ويمزحون، وكانوا أقرب إلى التسامح، شعروا أن في داخلهم شيئاً يتغير. شعروا أن أمعاءهم تؤلمهم، وأنهم غير قادرين على البقاء في نفس المكان. أما كلمات ابن نفاع وغيره من الذين كانوا يتحدثون فقد تلاشت أو لم تعد تسمع. وتلك القوة أو السيطرة التي يمتلكها بعض الناس في الأحوال العادية ما لبثت أن سقطت. خلال دقائق قليلة وصل ثلاثة من العمال. كانت وجوههم شديدة

الصفرة وعيونهم زائغة، وكانوا يلهثون. ومن الكلمات السريعة المتقطعة التي قالوها فهم الرجال أن اثنين من العمال قد جرحا أو ربما قتلا، وأن آخرين حوصروا بين محطة الكهرباء والعنابر الأولى، وهؤلاء المحاصرون يطلبون المساعدة والنجدة، لأنهم إذا تركوا هناك فسوف يفتك بهم الجنود.

كان للكلمات وهي تتساقط في آذان الرجال وقع الطبول. كانت تضجّ وتتحرك كما لو أنها الزوابع، ومع ضجتها وحركتها يرتفع غضب الرجال ويحسون في أصداغهم نبضاً قوياً، أما نظراتهم فقد توزعت بين الرجال الذين يلهثون أمامهم وبين أولئك المحاصرين هناك عند محطة الكهرباء وقرب العنابر.

قال أحد الرجال وهو يتناول قضيباً حديدياً:

ـ اليوم يومكم يا نشامة.

وركض وركض وراءه الكثيرون. تناول كل واحد منهم ما وصلت إليه يداه: قضيباً حديدياً، عصا، قطعة من الحجارة أو جزءاً من لوح خشبي. كانوا يتراكضون كما تتراكض الجمال، ومع الركض انبثق فجأة غناء يعرفونه منذ أيام بعيدة، ويأتي هكذا تلبية لحاجة يحسونها تطفو وترتفع على كل ما عداها من الأصوات والعواطف والأحاسيس.

كيف اجتمعت هذه الأمواج البشرية ومن أين جاءت؟ كيف وصل أهل حران بهذه السرعة وكيف سبقت النسوة الرجال وهم يتجهون نحو المعسكر؟

إن شيئاً أقرب إلى السحر قد حصل في تلك الساعة. فابن الزامل الذي صرخ يريد أن يوقف الناس، والذي شتم وأمسك ببعض الرجال، وجد أن صوته يضيع. أما الرجال الذين أمسك بهم فقد نظروا إليه بطريقة معينة، فتراخت يداه ووقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل، ثم وجد نفسه فجأة يركض مع الراكضين، بل وسبق الكثيرين. وابن نفاع الذي أمسك بعصاه وأخذ يهزها في الهواء وجد أنه يغني مثل الآخرين، ورغم أنه لا يستطيع أن يكون كالشباب، إذ لا يقوى على الركض أو حتى مجرد السير السريع، ما لبث أن انبثقت من داخله قوة خارقة، وهو نفسه يستغرب كيف استطاع أن

يصل إلى المعسكر بهذه السرعة. حتى خزنة التي كانت في طريقها إلى حران العرب، حاملة معها رغيفاً من الخبز، بعد أن قضت نهارها كله قرب المسجد، وتجولت في السوق، وكانت تردد كلمة واحدة كلما رأت مجموعة من الناس «الله يقويكم والله ينصركم» ما كادت خزنة تضع أقدامها على أول المنحدر، وكان خزان الماء يبين أمامها كأنه صخرة كبيرة، وتراءت لها غمامة سوداء تحيط به، حتى سمعت أصوات الرصاص. التفتت للحظة صغيرة ثم تدحرجت وركضت عائدة نحو المسجد. قال الكثيرون إنها كانت تهزج وتحدو، وكانت الدموع تتساقط من عينيها. ولا يُعرف ما إذا كانت دموع فرح أم حزن، لكن كل من رآها تركض هكذا تجاه المعسكر أصابته حالة من الهياج والنشوة، ورغم أن كثيرين قد سبقوها إلى هناك إلا أن غناءها كان شديد الوضوح، وكان مؤثراً وقوياً.

كانت الجموع تتحرك كتلة واحدة، وكان أصواتها ترتفع حتى تصل إلى أبعد الأمكنة، بل وتعلو على أصوات الرصاص، وعلى الصراخ الذي يأتي من الجهة الثانية. . .

أما كيف حصل الأمر منذ البداية، فإن جوهر الذي كان ذاهباً إلى معسكر الأميركان، وما كاد اثنان من الجنود يقولان له إن مجموعة من العمال قد وصلت إلى المعسكر، وأنهم سمحوا لهم بالدخول، بعد أن قاموا بتفتيشهم، ما كاد جوهر يسمع ذلك حتى صرخ مثل ذئب:

ـ وتركتموهم يدخلون. . يا اولاد الحرام؟

ولما صمت الجنود وأرخوا رؤوسهم إلى الأرض صرخ أكثر من قبل:

ـ والله لألعن اللي خلفوكم. والله لأكسّر روسكم قبل ما أكسر روسهم.

وهجم على أحد الجنود القريبين وضربه بعصاه وسأل:

ـ وين صاروا؟ وين راحوا؟

ولم يصل جوهر إلى معسكر الأميركان، فقد أعطى أوامره بإطلاق النار، ولكي لا يترك مجالاً للتردد أو الانتظار أشهر مسدسه وبدأ إطلاق النار بنفسه، وخلال فترة قصيرة انهمر الرصاص، وملأ المكان. العمال

الثلاثة الذين اجتازوا الأسلاك الشائكة ووصلوا إلى المسجد، نقلوا فقط المشاهد الأولى، أما عندما وصل أهل حران ومعهم جموع العمال، فقد خيم على المعسكر خلال الفترة الأولى صوت واحد ملأ الفضاء كله: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أين ذهب جوهر؟ ماذا يهيّئ؟ والعمال المحصورون أين هم الآن؟

قال خالد العيسى، في لحظة صمت، مخاطباً الجنود الذين كانوا وراء البراميل وبنادقهم موجهة إلى الناس:

- اتركوا العمال واعطونا المجاريح.

رد أحد الجنود، وقد خرج صوته مضطرباً:

- إذا تقدمتم خطوة نطلق النار.

- البارود ما يخوّف يا ابن الحلال، البارود عطر الرجال، والأحسن اتركوا الجماعة واعطونا المجاريح.

- خطوة... خطوة واحدة ونطلق النار.

صرخ ابن نفاع وهو يتقدم:

- اسمع يا ولد، اخزوا الشيطان واتركوا الناس اللي عندكم واعطونا المجاريح.

من مكان بعيد، بصوت شرس مكتوم، أقرب ما يكون إلى صوت رجل في كهف، جاء الأمر:

- ارمِ.

أكد كثيرون أن صوت الرصاص امتزج امتزاجاً كلياً بزغاريد خزنة الحسن، وكأنها في عرس. وأكد هؤلاء وغيرهم أن أكثر الرجال التفتوا إلى خزنة ولم يلتفتوا إلى صوت الرصاص، لكن حين رأوا ابن نفاع يميل قليلاً على عصاه، ثم ينزلق ويسقط على الأرض فقد التفتوا، أصابهم الذهول للحظات، وحين رأوا عصا ابن نفاع ترتفع في الهواء، وكأنه يلعب بها، ثم سمعوا صوتاً يقول بحشرجة:

- ذبحني خادم الأميركان...

وبعد قليل أضاف وهو يحاول الابتسام:

ـ لكن لا تخافوا.

حين رأى الناس وسمعوا ما قاله ابن نفاع أدركوا أنه أصيب. كان يتحرك حركة ثقيلة، صعبة، وكان الألم واضحا على وجهه، أما عندما ظهر خيط الدم تحت ظهره، وهو ينقلب، فقد سمعوا خزنة تحدو:

الـمـوت يـمـوت... وانـت مـا تـمـوت
يـــــا أبـــــو عــــشــــمــــان
عـــز الـــرجـــال وفـــوق الـــروس
يـــــا أبـــــو عــــشــــمــــان
الـمـوت يـمـوت وأنـت مـا تـمـوت...
يـــــا أبـــــو عــــشــــمــــان

أي جنون يمكن أن يسيطر على البشر في لحظة مثل هذه وأية قوى يمكن أن تنفجر؟

كما تضرب الريح الشجر، أو كما تلطم الأمواج الصخر، ضربت ريح الغضب كل وجه وكل قلب، ولطمت ذلك التعقل الخائف الذي كان يسيطر قرب الجامع أو في السوق. أصبح الناس في لحظات ناراً أو كالرياح العاصفة. لم يعودوا خائفين من شيء أو يقيمون وزناً لشيء. وجوهر الذي استمر يصرخ: «إرم... إرم» لم يصدق عينيه أن الناس يهجمون كالسيل ويتقدمون كالجراد، ولم يصدق أن جنوده المسلحين يمكن أن يتراجعوا ثم يبدأوا الفرار.

اهتزت العوارض الأسمنتية كما يهتز القصب الفارغ، واقتلعت كما تقتلع الأشجار الميتة، أما الأسلاك فقد دفنت خلال لحظات تحت الرمل، وتدفقت بعد ذلك أمواج البشر. قال كثير من الناس أنهم رأوا فواز الهذال وأخاه مقبل الذي وصل حران قبل أسابيع قليلة، قالوا إنهم رأوهما يطيران فوق الرؤوس. كانا كالعصافير يطيران ويصرخان: «جيناك ولبيك يا يوبه» وإن فواز كان أول من وصل إلى الجرحى. وأكد الكثيرون أنهم رأوه وحده يحمل إبراهيم الدوسري، رغم أن إبراهيم يفوقه وزناً. وكان أول، أو أحد

اثنين، عرف بمكان الجرحى، وأين اختفى العمال الأربعة، وساعد في إنقاذهم. أما جوهر الذي رأى الجموع تهجم وتقتحم، ورأى رجاله يتراجعون ثم يهربون، فلم ينتظر طويلاً لكي يهرب. اتجه إلى معسكر الأميركان، لكن قبل أن يصل البوابة أدركه فواز الهذال، أمسك به من رجله فسقط، ولولا أنه استعمل أسنانه وعض يد فواز عضة قوية تركت علامة استمرت فترة طويلة من الزمن، لولا تلك العضة لما تركه فواز يفلت.

أما الذين وصلوا متأخرين بعض الوقت إلى المعسكر فقد ذكروا أنهم شاهدوا من بُعد رجلاً على ناقة بيضاء يطارد الجنود ويطلق النار عليهم، وأنه اقتحم بوابة المعسكر الرئيسية، وقد تساءل الكثيرون ما إذا كان الرجل متعب الهذال. أما أناس آخرون فقد أكدوا بتصميم لا ينفك يقوى ويزيد أنهم شاهدوا طيفاً أقرب إلى الإنسان يطير فوقهم ويشبه تماماً مفضي الجدعان. وأكد هؤلاء أن الجنود الذين أطلقوا النار كانوا في حالة من الفزع بلغت درجة الرعب والصراخ، وإن أكثر الطلقات وجهت إلى هذا الطيف، إلى مفضي الجدعان. وقد روى الكثيرون فيما بعد أن ملابس الرجل كانت مليئة بالثقوب التي أحدثها الرصاص.

بعد إنقاذ العمال المحتجزين كان يمكن للناس أن يتابعوا هجومهم، لكن خالد العيسى الذي وقف على سطح خزان الماء قال وهو يلهث:

- يكفي يا جماعة الخير، وهالحين إسعاف المجاريح.

بعد تردد لم يطل تحول الناس إلى الجرحى، والذين لم يشاهدوا مفضي الجدعان أثناء اقتحام المعسكر أو حين هرب الجنود ومعهم جوهر، فقد شاهدوه أثناء نقل الجرحى بل وأحسوا به تماماً، لأن الجرحى كانوا يودون أن يفلتوا، كانوا يطيرون من بين الأيدي، إذ أصبحوا بوزن الريش أو أخفّ من ذلك، وكانت هناك أيدٍ لا تحصى ولا ترى تساعد وتحمل مع الذين يحملون.

قال محمد عيد من وراء الباب، عندما ذهب بعض الناس لاستدعاء الطبيب:

ـ الحكيم مسافر، ولن يرجع قبل أسبوع.

أما الدباسي الذي أرسل ابنه صالح إلى معسكر الأميركان لكي يبحث معهم إمكانية استقبال الجرحى، فقد تلقى جواباً واضحاً:

ـ يمكن للشركة أن تقدّم الإسعاف الأولي، في المكان الذي يوجد فيه الجرحى، وهذا لن يتم إلا بموافقة الأمير خالد، وبعد ذلك يمكن أن ينقل الجرحى إلى عجرة، أو إلى أي مكان آخر.

وصالح الدباسي الذي أكد لنعيم ولواحد من الأميركيين، كان يراه لأول مرة، أن حالة اثنين من الجرحى دقيقة، وتتطلب علاجاً سريعاً، تلقى إجابة واضحة ومختصرة:

ـ لا يمكن البت في مثل هذا الطلب قبل عودة المستر هاملتون أو نائبه، والاثنان في رحلة بحرية منذ الصباح الباكر، ولا ينتظر عودتهما قبل منتصف الليل.

لم ينتظر الناس جواب الدكتور صبحي المحملجي أو محمد عيد الأبري، لأنهم لم يفكروا بذلك. أما ذهاب صالح الدباسي إلى المعسكر فقد اعتبره الكثيرون إهانة لا يمكن السكوت عليها.

فابن نفاع الذي أسعف في المسجد، وقد ساعد خزنة في تنظيف الجرح الذي أصيب به في الفخذ اثنان من العمال، ثم حُمل بعد ذلك إلى بيته، قال في الليل، وكان الدباسي يزوره، وقد حدثه بما حصل مع ابنه، وأي جواب تلقى من الأميركيين:

ـ ما أظنك تقبلها لنا يا أبو صالح، وإذا الله كتب لنا الموت نموت ببيوتنا وبين أهلنا، أحسن ما نموت عندهم مثل الكلاب.

الجريحان اللذان سقطا في بداية المعركة، رغم أن إصاباتهما لم تكن خطيرة أو قاتلة، أتعبهما النزيف، ولذلك لم تجرؤ خزنة على أن تمد إليهما يدها. قالت وهي تعض على شفتها فتدميها:

ـ وينك يا أبو الأيتام، يا أخو الجهرا.

قال راجي الذي ربط كتف أحد الجريحين ربطاً قوياً فأوقف النزيف:

ـ أنا آخذهم لعجرة، خلال ساعة أو ساعتين نطبّ عجرة وهناك ندبرهم.

وضُمّد جرح الآخر. أما عندما ذهب سلمان الزامل للدباسي لكي يطلب منه سيارته من أجل نقل الجرحى إلى عجرة، فقد قال الدباسي وهو يزفر بحرقة:

ـ الله يلعن اليوم اللي أنبنى فيه أول حجر بحران، والله يلعن اليوم اللي جيت فيه، لأنه ما جاء منها إلا المصايب.

وأضاف بعد قليل بلهجة يائسة:

ـ حتى فلوسها سودا وما تنراد.

وخلال فترة كانت السيارة على الطريق. لم تتوقف في الكيلومائة وستين ولم تتوقف في المائة وعشرة. والغانم الذي وقف قريباً من الطريق وأشار بيده قبل أن تصل السيارة، بل وتصور، للحظات، أن راجي يمزح معه، ولا بد أن يتوقف ويرجع، رغم تجاوزه المقهى وظل بنفس السرعة، فقد قال بصوت عال واستغراب:

ـ ما أظنه يصير حرامي آخر أيامه.

توقف لحظة وهو يهز رأسه استغراباً وتابع:

ـ مثل ما الغايب عذره معه، المسافر عذره معه.

وخلال أقل من ساعتين كانت السيارة تدخل عجرة. دخلت مع أذان العشاء، وتوجهت رأساً إلى المستشفى الوطني.

قال الاثنان اللذان رافقا راجي والجرحى:

ـ أكثر من مرة متنا. كانت السيارة تطير فوق الأرض، كانت تسبح في الهواء، لكن أبو يعقوب، خيّال الشقرا، وصّلنا.

انتهت خزنة من تضميد الجرحى الثلاثة، وقد ساعدها الكثيرون، حتى آمنة الصغيرة كانت تتحرك في المسجد كما لو أنها عاشت فيه سنواتها كلها. كانت تقدم لخزنة ما تريده: الماء الساخن، الخرق، ولا أحد يعرف من أين جاءت بالأغطية الصوفية التي طلبتها خزنة.

بعد أن انتهى تضميد الجرحى، قالت خزنة، وقد بانت سنها الأمامية، وهذا دليل الفرح:

ـ بعون الله وعون ذاك اللي تعرفونه انكتبت لكم حياة جديدة.

وقد فهم الجميع إنها تعني مفضي. أما خلال الليل فقد تراءى لعدد لا يحصى من الناس مفضي، كان ينتقل بين المسجد وحران العرب، ولم يبق أحد إلا ولمح ثوبه المطرز بالرصاص. وأكد ثلاثة، أحدهم من العمال والآخران من حران، أكد الثلاثة أنهم تلمسوا الثوب الذي اخترقه الرصاص، ووجدوا أن أطراف الثقوب محروقة، ولما رآهم مفضي يتلمسون الثوب، ويبدون استغرابهم ضحك وقال إنه يستحق ثوباً جديداً!

وقال راجي، الذي نام مع العمال الجرحى في عنبر المستشفى، بعد الكثير من الصخب والاختلاف، حيث رُفض طلبه أول مرة، وأودع الاثنان اللذان كانا يرافقانه السجن، إلى حين انتهاء التحقيق ومعرفة كيف جرح الرجلان ومن المسؤول عن ذلك، قال راجي أنه رأى مفضي في تلك الليلة مرتين، الأولى حين ثبت الغطاء على أحد الجريحين، والمرة الثانية بعد الفجر حين جاء بالماء إلى مريض في نهاية العنبر.

أما في الليل المتأخر فلم يبق أحد في حران إلا ورأى مفضي. بدا أول الأمر متعباً، ربما من عمل النهار الطويل، لكن بعد أن شرب الشاي في بيت ابن نفاع، وكان أبو عثمان ممدداً في صدر الغرفة، نهض بعزم وقوة، فك الجرح وقرب الضوء كثيراً لكي يتأكد، فلما اطمأن ربط الجرح مرة ثانية، وقال إن خزنة فعلت أحسن مما يفعل هو، وبعد ذلك استأذن لكي يمر على الجرحى الآخرين الذين نُقلوا إلى بعض البيوت. أما حين سئل عنهم وما إذا كان سيعود في اليوم التالي فقد هزّ رأسه وضحك ولم يجب.. ثم اختفى.

لما سمع الأمير خالد صوت الرصاص، وكان يجرّب التلفون بعد العصر وقبل الغروب، أصيب بشيء ما، وهو يؤكد أن هذا الشيء ليس الخوف بأي حال من الأحوال، لأنه عندما نظر في وجه نائبه الذي كان يداعب القط الأسود، وكان يتفاءل به كثيراً، اختلط صوت الرصاص بمواء

القط. ويؤكد الأمير أنه في نفس اللحظة خرج بريق يشبه لمعان الشمس من عيون الاثنين، وأعقب ذلك البريق دخان أزرق. هكذا شرح الحالة للطبيب الباكستاني الذي استدعي على عجل بين المغرب والعشاء لكي يفحصه.

أما نائب الأمير فقال لحسن رضائي والدباسي، بعدما عرفا بمرض الأمير المفاجىء وجاءا لزيارته، قال هامساً وهو يتلفت في كل لحظة:

ـ خلال اليومين الماضيين أبو مسفر ما يعجب...

قال هذه الكلمات وهو يهز رأسه حزناً، وبدأ يتذكر من جديد:

ـ أول أمس ما كان به خلاف، كان يسولف ويضحك، وأنتم شفتوه. أمس، بعدما راح أبو صادق قال: «الوجع هنا وهنا» وأشار إلى رقبته ومؤخرة الرأس. قلت له تعب يا أبو مسفر» قال: «ما أظنه تعب، شيء يتلوى، لا يطلع ولا ينزل، مثل سيخ النار» قلت له: «وكّل الله. إذا نمت كل شيء يروح، ولازم تستريح» قال: «ما أظن إني مصبّح» قلت «وكل الله يا رجل» وظليت معه إلى أن نام.

اليوم، من الصبح، ما يعجب، أبو صالح شافه. شفته يا أبو صالح. عيونه بالسما وكأنه ضايع، وما أكل ولا شرب.

لما سمع الرصاص قال: «خلصت» وبلّش بالماخوذ «هالو.. علو.. أجب، حول» وقال «الأميركان ما لهم أمان، وما لهم صاحب» وأندار عليّ «الدخان، الدخان يطلع من عيونك ومن خشمك يا أبو رشوان. دخان أسود، دخان أزرق، دخان بكل مكان» ضربته الحرارة. قلت لنفسي: السخونة تخلي البني آدم يهذي، وبعثنا وجاء الحكيم الهندي، ما قال له وين الوجع، ظل يسولف عن الدخان. الدخان من هنا، الدخان من هنا، والطبيب يريد يفحصه وهو ما يوافق، ولا يخليه يمد يده. قال الهندي: «أعطوه هذا الدواء.. إذا أخذ الدواء ينام ويستريح وبعدها يصير أحسن» لكن الله يهديه ما يريد ولا يوافق. بعث على مساعد الطبيب الشامي، قال له تجي وتجيب معك السماعة... وجاء!».

هكذا عرض نائب الأمير على الرجلين ما حصل، وكانت من الغرفة المجاورة تصل أصوات متداخلة صاخبة، وكان يمكن تمييز صوت الأمير

من بين هذه الأصوات، وهو يصدر أوامره أو حين يهذي: «ألو.. أجب... حول!» أو وهو يصرخ: «فوق.. شوي فوق.. لا.. تحت، يمين... بعد يمين».

نظر حسن رضائي إلى الدباسي متسائلاً ما إذا كان من المناسب أو اللائق زيارة الأمير وهو في هذه الحالة، أم يكتفيان بأن يبلغا نائبه أنهما يرجوان له الشفاء العاجل ويغادران. كان نائب الأمير بحاجة إليهما، ويريد مساعدتهما في هذه اللحظات الصعبة، كان يريدهما أن يبقيا إلى جانبه، ولكنه يتحسب أيضاً من ردة فعل الأمير إذا رآهما، أو إذا عرف بوجودهما ولم يزوراه ولم يدخلا عليه.

قال الدباسي بصوت متعب وهو يدق الأرض بعصاه:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله...

توقف قليلاً ثم تابع:

ـ إذا جاءت المصايب تجي غمر وزود، تجي مثل السيل، لا تبقي ولا تذر.

رد حسن رضائي:

ـ إذا مرت هذه الأيام على خير، ورجعت صحة الأمير كل الأمور تهون.

قال الدباسي كأنه يكلم نفسه:

ـ ما أظنها يا أبو صادق.

ودب الصخب أكثر من قبل، ومع الصخب الشتائم، نظر نائب الأمير إلى الرجلين بحيرة وتساؤل.

انفتح الباب فجأة وأطل الأمير. كان ثوبه مفتوحاً فيظهر صدره عارياً، وكانت السماعة معلقة في رقبته وعيناه حمراوين والزبد على زاويتي الفم. حين رأى الرجال جالسين وقد تقاربت رؤوسهم، وكأنهم يتشاورون، تقدم نحوهم بخطوات بطيئة حذرة، كان ينظر إليهم وابتسامة صغيرة حاقدة تظهر على وجهه. قال وهو يقترب أكثر:

ـ الدنيا ما بها أمان. . .

نظر إليه الثلاثة بخوف مشوب بالشفقة. قال نائبه بارتباك:

ـ عساك أحسن. . يا أبو مسفر؟

تابع الأمير دون أن يلتفت إلى ما قاله نائبه:

ـ الأميركان بعثوا الهندي وقالوا له: إذبحه، لا تخليه يصبّح. وهالحين أنتم تقولون إذا الأميركان ما ذبحوه حنا نذبحه. ها؟

قال الدباسي بيأس مرير:

ـ وكّل الله يا أبو مسفر، قلوبنا معك، ونريدك تتعافى اليوم قبل باكر.

ـ ما بي خلاف، ومثل ما تشوف أقوى من الجمل.

واقترب خطوة أخرى، فأصبح يقف فوق رأس نائبه تقريباً. تراجع نائبه مذعوراً. قال الأمير:

ـ انت مريض يا أبو رشوان، قل لي الوجع وين مكانه؟

وانحنى فوقه أكثر. أمسك بالسماعة وتابع:

ـ ها. . وين الوجع؟ لا تخف، قل لي. . وين ما عليك. . . الباقي عليّ.

وبصعوبة أدخل الرجال الثلاثة الأمير إلى الغرفة الأخرى، الغرفة التي جاء منها. وجدوا في الزاوية محمد عيد. كان خائفاً يرتجف وقد اصفر وجهه. أما في الزاوية الثانية فقد رأوا اثنين من رجال الأمير، وما كاد الجميع يدخلون، ويبدأ بعضهم في إقناع الأمير بأن يستريح، بأن ينام، حتى نظر إلى محمد عيد، قال له بلهجة حاقدة وبصوت بطيء:

ـ سافر. . . ها؟ ومتى يرجع؟

وبغمغمة غير واضحة حاول محمد عيد أن يجيب، لكن الأمير لم ينتظر إجابته، تابع وهو يضحك:

ـ ابن الحرام الخبل يتصور أني مخبول. . . اوسفّ الزعوط اللي يعطيني. لا. . لا يحلم، دفنته كله بالرمل وبلت فوقه!

قال حسن رضائي:

ـ يا أبو مسفر لو استرحت ساعة أو ساعتين.

التفت الأمير إلى أحد رجاله وقال:

ـ تعال. . أنت.

تقدم الرجل خائفاً. قال الأمير وهو يشير إلى محمد عيد:

ـ هذا مثل سيده وراعيه ما يقول الصحيح، ولا يعرف شيء أبداً. أريدك أنت تعلمني، تقول لي اللي تقوله هذي.

وانتزع السماعة من رقبته وثبتها في أذني الرجل الذي بدا مرعوباً مرتبكاً وهو ينقّل نظراته بين الرجال الحائرين والأمير.

تمدد الأمير على الفراش وطلب، بإشارة من يده، إلى الرجل أن يتقدم، أن يضع السماعة على الصدر قرب الرقبة، والرجل الذي لا يعرف كيف يتصرف، كيف يتحرك كان في حالة يرثى لها، وكان الرجال الآخرون حائرين لا يعرفون ما ينبغي أن يفعل.

بعد محاولات عديدة، تخللها الرجاء والتوسل، وتخللها نوع من الحزم أيضاً، وبعد أن تم إخراج محمد عيد والرجلين الآخرين، أمكن إقناع الأمير أن يستريح، أن يتمدد في فراشه، وربما وافق نتيجة التعب.

قبل أن ينتصف الليل كان الأمير يغط في نوم عميق، وقد تمكن نائبه وحسن رضائي من سحب السماعة التي أصر على وضعها في أذنيه وعلى صدره، وتركاها إلى جانب الفراش. أما الدباسي فقد انسحب في وقت مبكر، ومرّ على ابن نفاع قبل أن يذهب إلى بيته.

يوم الخميس. بعد شروق الشمس بقليل، ذكر الخارجون من المسجد أنهم شاهدوا ست سيارات تابعة لدار الإمارة، وكانت ضمنها سيارة الأمير. توقفت السيارات قليلاً في شارع الراشدي، مقابل مكاتب حسن رضائي، ثم تحركت وأخذت طريق عجرة، وقد أكد هؤلاء أنهم شاهدوا الأمير في إحدى السيارات. كان يضع في رقبته السماعة الطبية ويحمل بيده قطعة حديد سوداء لم يتبينوا ماهيتها أو لأي أغراض تستعمل، وهي تشبه يد المهباش أو الملعقة الكبيرة، وكان الأمير يقرّب من فمه هذه الحديدة ويصرخ ويشتم، وإلى جانبه في السيارة كان حسن رضائي، الذي حاول أكثر من مرة أن يمسك به وأن يهدئه! أما في السيارة الثانية فكان جوهر ممدداً داخلها، وقد رفع رأسه لحظة اقتربوا من المقبرة، وتأكد الكثيرون من ذلك، لأن مرافقه الأسود كان يجلس إلى جانب السائق وكان يتلفت نحو المقعد الخلفي بين لحظة وأخرى، أما السيارات التي وراءها فكان فيها الحرس والمرافقون وبعض أفراد عائلة الأمير.

ذكر عبده محمد أن إحدى سيارات الإمارة جاءته قبل ثلاث ساعات من الموعد الذي تأتي به عادة، وقد اضطر الجنديان المكلفان بجلب الخبز للانتظار وقتاً ليس قصيراً لكي يؤمن لهما ما طلباه، وفهم من الحديث الذي دار بين الاثنين أن مجموعة من دار الإمارة تستعد للسفر، لكن لم يعرف على وجه مؤكد هوية المسافرين أو عددهم.

وذكر المسافرون الذين وصلوا من عجرة في الصباح الباكر، أنهم التقوا بسيارات الإمارة في الكيلومائة وستين، وقد توقفت سيارات الإمارة للحظات قريباً من المقهى، وربما كان مسافروها يريدون الاستراحة، لكن

في اللحظة الأخيرة عدلوا عن ذلك وواصلوا السفر، وأكثر ركاب الباص رأوا الأمير يضع السماعة الطبية في رقبته، وقد رفع يده بمرح ليرد التحية، وأكد الجميع أنهم رأوا في السيارة الثانية مرافق جوهر الأسود وحده.

أما خزنة التي كانت عند قبر مفضي منذ الفجر فقد روت عصر الخميس أنها رأت مناماً خلال غفوة قصيرة بجانب القبر. رأت مفضي أو أحداً غيره، إذ لم تستطع أن تميز الوجه بوضوح، يدفعها عنه ويحاول الابتعاد والهرب، وقد فزعت وبكت. أما عند العصر فقد قالت أن تفسير المنام هو: «خروج اولاد الحرام وهربهم» كما سمّت الأمير وجوهر والجنود الذين أطلقوا النار.

ورغم أن يوم الخميس كان يوماً ثقيلاً قاسياً، وقد امتلأ بالإشاعات، خلافاً للأيام التي سبقته، فإن ابن نفاع قال للذين زاروه عند الضحى وذكروا له ما رآه المصلون وما ذكره ركاب باص عجرة، قال دون أن ينظر للذين حوله:

ـ يجوز أنهم سافروا، لكن ما يندري يرجعون أو ما يرجعون. . .

وتغيرت نبرة صوته تماماً:

ـ شفنا قبلهم كثيرين راحوا، بس اللي يجون ما هم دائماً أخْيَر، ويمكن نترحم على اللي راحوا اليوم!

قال ابن عساف وهو لا يخفي فرحه:

ـ المهم خلصنا من هذي البلية يا أبو عثمان. كانت على صدورنا، وقلت يموتونا قبل ما يموتون.

ـ البلية، وأنت الصادق، اللي على صدرنا، ذيك. . وأنت تعرفها.

ـ جوهر وعم جوهر كانوا البلايا يا أبو عثمان.

هكذا رد ابن عساف، وبعد قليل أضاف وهو يضحك:

ـ الله. . . يا طريق عجرة كم أخذ وكم ورّد.

تساءل سلمان الزامل:

ـ وطريق البحر؟

تحرك ابن نفاع في فراشه وقال بعد أن تنحنح:

ـ الطريق ما هو طريق عجرة، ولا طريق البحر، الطريق يا جماعة الخير هو اللي يأخذ الجماعة كلهم وبعدها ما يردّون. . .

ولما صمت الرجال تابع كأنه يكلم نفسه:

ـ قلت لكم: الأميركان هم أصل العلة واصل البلية.

عند الظهر صدر عن ديوان الإمارة البلاغ القصير التالي:

. . . غادر صاحب السمو الأمير خالد حران صباح هذا اليوم للعلاج، وقد أمر سموه قبل سفره بعودة جميع العمال إلى الشركة، وقد استجابت الشركة لهذا الأمر، كما أمر سموه بتكليف لجنة للتحقيق وتحديد مسؤولية الحوادث الأخيرة.

«وديوان الإمارة إذ يهيب بالجميع إلى التعاون وبذل أقصى الجهد يأمل أن يسود التعقل والحكمة لمنفعة الوطن وخدمة المواطنين، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

قالت خزنة لابن نفاع وهي تربط جرحه من جديد:

ـ قولك، يا أبو عثمان، إن دم مفضي ما يروح.

رد وهو يضحك:

ـ دم مفضي، يا خزنة، راح. . . راح.

ـ راح!

ـ اسألي، يا بنت الحلال، هالحين دم من!

ـ سالفتنا طويلة يا أبو عثمان؟

ـ طويلة. . . وقصيرة.

ـ وكل الله يا رجال. . . الدنيا صارت بخير.

ـ ما يندري.

وضحك بحزن وأضاف:

ـ تفاءلوا بالخير. . . لكن لا أحد يعلم بالغيب.

انتهت

شتاء ١٩٨٣

مُدُنُ المِلح
التِّيه

* في الرواية نفس ملحمي لا أعرف مثله في أي روائي. إنه يذكّرني بالروايات الكبرى التي كُتبت في الغرب في النصف الأول من هذا القرن.

جبرا إبراهيم جبرا

* مدن الملح وثيقة اجتماعية تاريخية ترصد فترة من أخطر الفترات في التاريخ العربي المعاصر.

فيصل دراج

* يدهشنا منيف بمقدرته على صياغة رقعة النسيج الواسعة بتفاصيلها الدقيقة، وفي تعدد مظاهرها، بحيث تراها العين ـ الذاكرة مشتعلة في زمن واحد.

يمنى العيد

* إن فكرة منع تداول مدن الملح في (. . .) فكرة غريبة إلى درجة تثير السخرية شأن منع تدخين النرجيلة في مينابوليس.

جون ابدايك ـ نيويوركر

* لو طلب إليّ أن أختار خمسة أفضل كتب صدرت (بالإنكليزية) في عام 1988 لاخترت مدن الملح واحداً منها.

ميشيل ابشيرسن ـ روائي أميركي

علي مولا


ISBN 978-9933-407-05-6
9789933407056

المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي

عبد الرحمن مُنيف



مُدُن المِلح
الأخدود



II

عبد الرّحمن مُنيف

مُدُن المِلح

الأخدُود



II

المركز الثقافي العربي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

عبد الرحمن منيف

مدن الملح

الأخدود

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص. ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف: 5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي (الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

بدت موران في تلك الأيام المبكرة من فصل الربيع غارقة في الصمت والتأمل، وكأنها لا تنتظر شيئاً، لكن العين النافذة المدققة ترى في صمتها انتظاراً أو بقية من ترقب، وترى في هذا السكون حذراً مخادعاً، إذ لا بد أن ينتهي فجأة وكأنه لم يكن. لذلك، ودون اتفاق أو تدبير، شارك الجميع في هذا الصمت، وجعلوا لحركتهم البطيئة الموزونة طابعاً من الخفاء المشوب بالتآمر، وبالغوا في ذلك أشد المبالغة، لأن خطأ. أياً كان سببه أو مصدره، لا بد أن يعكر الكثير، وقد يخلق صعوبات ليس من السهل معالجتها.

فوفاة السلطان خربيط التي بدت بنظر الكثيرين مفاجئة مذهلة، أو كأنها كارثة من كوارث الزمن لا يمكن ردها أو احتمالها، كانت في الحقيقة منتظرة، بل ومتوقعة بين يوم وآخر، بعد أن انتشرت أخبار مرض السلطان، ثم العمى الذي أصابه، وتلك الإشاعات التي بدأت تتسرب عن خرفه. لقد استبطأ بعض الناس الوفاة، واستغرب غيرهم أنها لم تقع في وقت سابق، أما بعد أن وصل الدكتور صبحي المحملجي إلى موران، وما رافق وصوله من ضجة وهمس وتساؤل، وتلك الحركة النشيطة بين قصر الروض وصيدلية البكري، فقد تأكد الكثيرون أن الوفاة أصبحت وشيكة تماماً، خاصة بعد أن نُقل إليهم ما قاله حمود الكايد الذي يعمل في الصيدلية، فقد ذكر لإثنين من أقاربه، جاءا للتو من الرحيبة طلباً لعلاج ينقذ ابن الشيخ محيسن الذي «ملأت الديدان جوفه وطلعت من آذانه» وأكدا أن بذور اليقطين التي التهمها الصبي تكفي لإطعام حصان ابن سنتين، لكنها لم تفده. ذكر حمود للرجلين، وهو شبه واجم، ولا يسمع ما يقولانه أن

«العود يقضي لليلة... وأبعد تقدير باكر». وقد تأكد له ذلك من مجيء الدكتور صبحي مرتين إلى الصيدلية، وما رافق مجيئه من اهتمام وحركة، إضافة إلى عدد المرافقين والحرس، وقد لجأ هؤلاء إلى إخراج جميع الذين كانوا في الصيدلية لكي «يصفى بال الدكتور وما يغلط». وصادق البكري، صاحب الصيدلية، الذي لا يسمح عادة لأحد أن يتجاوز مسافة معينة، أو الاقتراب من الواجهات الزجاجية، والذي لم يسمح لحمود نفسه بالدخول إلى غرفة تركيب الأدوية، إلا بعد أن مرت فترة طويلة على استخدامه، وبعد أن راقبه بعين ذئب، وتأكد من كل شي، أفسح صادق البكري المجال لا شعورياً، وامتدت يده تدعو الداخلين أن يتقدموا إلى ما وراء الواجهة الزجاجية. ثم قضى مع الطبيب وقتاً غير قصير في غرفة تركيب الأدوية. وطوال الوقت الذي استغرقه وجود الطبيب في الصيدلية بدا الأستاذ صادق خائفاً مسلوباً، مما أدى إلى وقوع عدة أخطاء، آخرها سقوط زجاجة زرقاء كبيرة وتحطمها، وقد سبب له هذا خجلاً وكدراً فتصبب منه العرق وهو يعتذر. أما بعد أن خرج الدكتور صبحي فقد رافقه الأستاذ صادق، متقدماً المرافقين والحرس، وظل واقفاً عند باب الصيدلية، حتى بعد أن غابت السيارات وانعطفت نحو اليمين.

حمود الكايد وهو يساعد في إعادة ترتيب الأدوية حاول أن يحزر الحالات والأمراض التي تستعمل تلك الأدوية في علاجها، لكنه لم يتوصل إلى تحديد يطمئن إليه، وإن كان قد قدّر خطورة المرض وخطورة وضع المريض. أما حين بدأ معلمه بإعداد فاتورة تختلف عن أية فاتورة سابقة، إذ كتب في وسطها بخط واضح معتنى به: «القصر»، فلم يبق شك أن الدواء يعني السلطان بالذات، فلما مال حمود عليه وسأله بهمس:

- عمي.. من هو المريض؟

فوجئ الأستاذ صادق بالسؤال، وقد أخرجه من تأمله وانشغاله؛ مد شفته السفلى، وقال دون أن ينظر إليه:

- اهتم بشغلك، يا ابني، وما عليك من غيره!

لم يكن حمود بحاجة لأن يسأل، ولم تكن عادة معلمه أن يجيبه بهذه

الطريقة، إذ لو صبر وانتظر دقيقة أخرى لجاءه الجواب، لأن أبا بكري لا يستطيع أن يحتفظ بالسر أكثر مما يحتمل الاحتفاظ بالشهيق أو الزفير في صدره، خاصة وأن جميع من في السوق توقفوا وأطالوا النظر إلى الصيدلية، وراقبوا باهتمام دخول الدكتور صبحي ومعه مرافقو الأمير خزعل وحرسه الخاص، وما تولد نتيجة ذلك من خوف واهتمام. أما حين خرج صوت أبو بكري بطيئاً حزيناً:

ـ الله يشفيه ويطول عمره..

فإن هذا الجواب جعل حمود واثقاً متأكداً من استنتاجه. قال للرجلين اللذين دخلا من جديد من أجل أخذ العلاج:

ـ الحقوا وليدكم، يا جماعة الخير، قبل ما ياكله الدود.

وأضاف بعد قليل بهمس وهو ينحني قليلاً لكي لا يسمعه غيرهما:

ـ ما أظنهم يلحقون العود!

اضطرب الرجلان قليلاً وتلفتا، أما وهو يخرج معهما، فقد قال بوضوح شديد:

ـ الدواء اللي أخذوه ماله فايدة غير كركرة المصارين...

تطلع إلى السماء وهو يضيف كأنه يكلم نفسه:

ـ والعود إذا عاش اليوم يودع عقبه.. وتشوفون!

تأخر الرجلان في موران، ومع كل ساعة تمر تتزايد الأخبار حول الانهيار الكامل في صحة السلطان، ومع تزايد الأخبار تختلف الروايات ويكثر الرواة، حتى أن ما ذكره الرجلان، نقلاً عن حمود الكايد، لم يعد يعني شيئاً في وقت لاحق، لأن الكثيرين افترشوا الأرض، غير بعيد عن قصر الروض، وراقبوا كل داخل وكل خارج، واهتموا بأصغر الحركات وأكثرها خفاء، بل وتحدثوا في بعض الأمور بصوت عالٍ. أما صيدلية البكري التي ظلت موضع اهتمام ومراقبة، لأن أدوية جديدة جيء بها من المستودع، ولأن صادق وحمود تعاونا بهمة كبيرة من أجل تنظيف غرفة تركيب الأدوية، وتم نقل أشياء من هذه الغرفة إلى مكان أمين وبعيد عن

الأنظار! وقد كانت هذه الإجراءات ضرورية للغاية، لأن ما توقعه صادق البكري قد حصل، إذ عاد الدكتور صبحي إلى الصيدلية من جديد، وبعد أن راجع بعناية كبيرة صنوف الأدوية، وتطلع إلى الكتاب الذي استخرجه الأستاذ صادق من درج الطاولة الخلفية التي يجلس وراءها في ساعات الراحة أو أثناء استقبال أحد الأطباء. بعد أن قام الاثنان بهذه المراجعة، ولم يجد الطبيب الدواء الذي يريده اضطر إلى تركيبه؛ وفي مرة ثانية وأخيرة جاء الطبيب في الليل المتأخر، بصحبة صادق، وعلى ضوء مصباح يدوي وأعواد الثقاب تم تناول زجاجة كبيرة زرقاء، نقلت بسرعة إلى القصر. لكن كل شيء كان متأخراً وغير مجدٍ.

ففي صباح اليوم الثالث صدر عن قصر الروض البلاغ التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم: يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» صدق الله العظيم.

وأعلنت وفاة السلطان خريبط.

بهذه الطريقة جاءت نهاية السلطان خريبط، وهكذا أعلن عنها. ومع ذلك فإن الحزن امتزج بالانتظار، وسرعة الدفن ترافقت مع سرعة الاستعداد لتنصيب الأمير خزعل ومبايعته، لأن الخوف كان كبيراً أن يختلف الأخوة بعد وفاة السلطان، خاصة وأن أحاديث كثيرة بدأت تنتشر في الأيام الأخيرة حول الوصية، وما يحتمل أن يكون قد طرأ عليها من تعديل، وهذا ما جعل موران تعيش حالة من الخوف والترقب.

أما الدكتور صبحي الذي زار موران عدة مرات من قبل، ولم يلفت نظر الكثيرين، وكانت تلك الزيارات جميعها بدعوة من الأمير خزعل، فقد ظهر في هذه الزيارة شخصاً مختلفاً، بل وخطيراً، لأن العيون كلها كانت تراقبه وتتابعه، ولأن حياة السلطان كانت بين يديه. حتى محمد عيد الذي ظل في حران خلال هذه الفترة، والذي لم يتبادل مع الدكتور، بعد عودته، إلا كلمات قليلة، ما لبث أن فاض في الحديث عن الساعات الأخيرة للسلطان، فقص كيف أنه تحسن وعادت إليه صحته نتيجة الأدوية وطريقة المعالجة التي اتبعها الدكتور صبحي، لكن الأطباء الذين تناوبوا على معالجته من قبل، والأخطاء التي ارتكبوها لم تترك له الفرصة! ومع ذلك فقد قضى السلطان براحة ودون آلام، وفي الصحوة الأخيرة، والتي سبقت الوفاة بساعة كاملة، طلب من الدكتور إعادة قراءة الوصية، وقد ورد التأكيد فيها ثلاث مرات أن يكون بعده الأمير خزعل سلطاناً، بعد أن قام الدكتور بقراءة الوصية، وقد طغت أثناء قراءتها حالة من الحزن الشديد، وانهمرت دموع الكثيرين دون رغبة منهم أو دون إرادة، ختمها السلطان بخاتمه، ووقّع الدكتور صبحي الوصية بصفته شاهداً ومحرراً!

هكذا روى محمد عيد قصة مرض السلطان وموته، لكن ما لبث أن أخذ يعدل فيها ويضيف إليها مرة بعد أخرى، فانتشرت في حران روايات كثيرة عن كيفية موت السلطان، وما يحتمل أن يكون قد حصل خلال الساعات الأخيرة.

وموران التي كانت تغلف حزنها وانتظارها بالصمت، لم ترتح ولم تفهم لماذا غادر الدكتور صبحي في اليوم الثالث. كان يفترض أن يبقى، أن يقف إلى جانب الأمير خزعل، بحكم الصلات والمودة التي تربطهما، وأن يتصرف بطريقة مختلفة عن الأغراب، وتلك الوفود التي كانت تصل موران فتقضي يوماً وبعض يوم، لتقدم العزاء، ثم تعود من حيث أتت.

حين غادر الدكتور صبحي موران بشكل مفاجئ قال عدد من رجال الأمير خزعل: «الرجل عمته الفلوس، وهذه الفلوس راح تذبحه في يوم من الأيام» ولم تفهم هذه الإشارة ما إذا كانت تعني الأموال التي يحتمل أن يكون قد حصل عليها نتيجة قيامه بمعالجة السلطان خريبط، أو حرصة على العودة المبكرة إلى حران ليتابع أعماله هناك. أما زيد الهريدي الذي ظل واقفاً إلى جانب سيارة الدكتور، وتحدث معه لفترة غير قصيرة، فلم يسمع تماماً ما قاله الرجال، وحين سأله مساعدوه وبطريقة لا تخلو من التعريض، عن سفر الدكتور، فقد ابتسم وهز رأسه، أسفاً، لأن أحداً لا يعرف ولا يقدّر! أما حين عاد الدكتور في صبيحة اليوم السابع، ومعه وفد كبير من حران، فقد بدا إنساناً مختلفاً لكل من رآه: فالملابس الإفرنجية التي كانت تميزه، من قبل، عن الكثيرين حوله، وكان يحرص على اختيارها بألوان زاهية، ويحرص أكثر على نظافتها وأناقتها، تخلى عنها لأول مرة في هذه الزيارة، بل وبدا مثل دمية في الملابس العربية التي غرق فيها، وكانت فضفاضة واسعة، ولا يحسن كيف يألفها أو يتعود عليها، خاصة أثناء السير، وكاد يعثر ويقع أكثر من مرة. أما اللحية التي تركها تنمو وتكبر خلال الأيام الماضية، فلم تصبح، بعد، لحية مطمئنة مستوية مثل اللحى الكثيرة التي للآخرين حوله، وليست مجرد ذقن طالت ولم تجد الوقت لأن تُحلق. كانت تحت الغترة الحمراء والبيضاء تشبه الظلال الحاد القائمة، أو

تشبه لحية رجل هارب، خاصة وأن الشعر في وجهه قد طال على شكل بقع صغيرة غير منتظمة.

كان لوصول الدكتور على رأس وفد كبير من حران وقع غير عادي، والذين قالوا أول الأمر أنه حمل معه كميات كبيرة من الفلوس وسافر بها إلى حران، خوف أن تسرق هنا أو تضيع، رفضوا أن يصدقوا عودته، بل أنكروا أن يكون هو نفسه ذلك المجهول الذي يتعثر في ثيابه كالمطهَّر. أما حين قربه الأمير خزعل، مع اثنين من أهل حران، وهمس في أذنه بضع كلمات، هز الدكتور رأسه عدة مرات دلالة الفهم والموافقة، والتفت أكثر من مرة، كأنه يبحث عن شيء أو أحد، فبدت صفحة وجهه واضحة، قد تأكد الذين شكّوا في الأمر أن الذي يرونه غير بعيد عنهم هو الطبيب نفسه. أما ما تلا ذلك، وخلال الأيام اللاحقة، حين بقي الدكتور في موران، وظل مرتدياً الملابس العربية، والتي أخذت في هذا الطور نسقاً أكثر انتظاماً، وبدت أكثر ملاءمة له، ثم ذلك التشذيب وتلك العناية اللذين أدخلهما على لحيته، فأصبحت قصيرة مقصوصة فاحمة السواد، في وجه شديد البياض والحمرة، فبدا أنيقاً أناقة مفرطة... عندما أخذت الأحوال هذا المنحى تشاءم الكثيرون وقدروا أن أموراً خطيرة ستجري، وأن عهداً جديداً قد بدأ.

قال فرحان المدلول الذي يصب القهوة للأمير، وقد تلّفت عدة مرات قبل أن يتكلم، وكان الحديث يجري عن الدكتور صبحي:

- اصبروا يا جماعة الخير، طولوا بالكم.. قصر الروض شاف قبله كثيرين، لكن ما بقي منهم أحد!

وأضاف بعد قليل، وكأنه يتذكر:

- وحدر رجلينا عظام كثيرين منهم!

أما لماذا نظر الرجال إلى الدكتور هذه النظرة، ولماذا ظنوا به الظنون فإن عدداً منهم يتذكر زيارة الأمير خزعل إلى حران، وكيف أن هذا «العفريت» دخل إلى قلب الأمير خلال ساعات، وليس خلال أيام، كما لم يحسن إلى واحد منهم، رغم أنهم في خدمته منذ سنوات. ويتذكر آخرون

السيارة الخضراء التي كان يفترض أن ترسل إلى أمير المنطقة الوسطى، وقد قيل ذلك همساً، بعد وصول السيارات الثلاث والعشرين، لكن فجأة غيّرت تلك السيارة وجهتها وأرسلت إلى الدكتور صبحي، في الوقت الذي اعتقد الكثيرون أنهم أولى بها منه، أو ظنوا أنها ستكون من نصيبهم. ورغم أن تلك الهدية لم يعد الأمير خزعل يتذكرها، بل وبدت صغيرة إزاء الهدايا التي قدمت للدكتور في وقت لاحق، فإن تلك السيارة بالذات خلقت حسداً في قلوب الكثيرين، وزاد هذا الحسد وتأكد بعد الزيارة الثانية التي قام بها الدكتور إلى موران.

فلم يكد شهر ينقضي على الزيارة الثانية حتى وصل إلى موران شاب لا يمكن تقديره عمره بدقة: مربوع القامة أو أميل قليلاً إلى القصر، له شاربان سوداوان كثيفان، في وجه أبيض مضرب بحمرة، وكان ذلك الشاب كلفاً بشاربيه، لأن الإبهام والسبابة في يده اليمنى أخذ شكلاً لا يغيره، فهما مفتوحان فتحة صغيرة، وكأنها تدل على مقياس ثابت، أو كأنها طريق إلى باطن اليد، وكان لا يكف عن تمرير الإصبعين لينظم الشاربين.

هذا الشاب الذي وصل إلى موران دون أن يتوقعه أحد، والذي أثار اسمه مقداراً من الاستغراب والسخرية، حين قدم نفسه في قصر الروض، وجرت اتصالات عديدة بين الحرس والمشرفين على القصر، وقيل ان اسمه قدم إلى السلطان أيضاً، ولما أنكر الجميع معرفته، ولم يعرف بوضوح من طلبه أو لأي أمر جاء، أرسل إلى دار الإمارة، ومن دار الإمارة، وبعد اتصالات عديدة مرتابة، أرسل مطيع شخاشيرو إلى قصر الأمير خزعل.

بعد انتظار وحيرة، ولما ذكر للأمير أن الشاب وصل بناء لطلب الدكتور صبحي المحملجي، وقد طلب منه أن يصل إلى موران بسرعة، وأن قرابة تجمع الاثنين، بدا الأمير راضياً مرتاحاً، لكن مع ذلك ظلت المهمة التي يمكن أن يقوم بها مطيع غير واضحة أو غير محددة، إذ رغم ما أكده الدكتور من ضرورة أن يكون للأمير سكرتير شخصي، وأن هذا

السكرتير يمكن أن يقوم نيابة عن سموه بأعمال كثيرة، فإن هذه المهمات، التي بدت مغرية وهامة حين عرضها الدكتور، وأكد أن لديه رجلاً خلق من أجلها، إذ يستطيع القيام بها وأخرى غيرها، ولم يوضح ذلك، لكنه ابتسم! تبدو هذه المهمات الآن مختلطة غير واضحة. قال الأمير وهو ينظر إلى الشاب، ولئلا يخطىء في تحديد ما يجب أن يعمله:

ـ استرح هالحين، يا وليدي، وبعدين شوف الخويا واعمل اللي الله يقدرك عليه!

لم يفهم مطيع معنى محدداً لهذه الكلمات، أما الآخرون فقد فهموا، بل وتأكدوا أن هذا الغريب جاء لكي يزاحمهم، ليخلق لهم المشاكل، فلذلك ظلت النظرة إليه مليئة بالتوجس والخوف، وأحس كل واحد أنه يرى أو يواجه خصماً أو يمكن أن يكون كذلك في يوم من الأيام، مما دفع الجميع لأن يراقبوا، ويدققوا، ولأن يغرقوا في الصمت حين يجيء أو حين يسأل، بحجة أنهم «لا يفهمون ما يقول»! ومطيع الذي لم يكن في عجلة من أمره، تحمل الصمت والحرب الخفية دون أن تصدر عند كلمة احتجاج واحدة، بل وبالغ في الأمر، فكان يبدو هادئاً، مرتاحاً، وشاكراً لكل تصرف ولكل نظرة، حتى الأصوات التي كانت تصدر عن بعض الحرس والخدم ـ وبإيعاز من رؤسائهم بكل تأكيد ـ حين يمر بإبهامه والسبابة على شاربيه، وكانت تولّد الضحك والسخرية، ما كان يسمعها، أو لا يعتبرها موجهة إليه!

ظلت الأمور هكذا وقتاً غير قصير، أما حين طلب مطيع شخاشيرو من سمو الأمير أن يسمح له القيام بجولة في أنحاء السلطنة، لكي يتعرف على طبيعتها ومناخها، وليكون أقدر على مواجهة الصحافة والزوار، كما أشار في تبرير هذه الجولة، فقد رأى فيها سموه حكمة كبيرة، وهمة لا تعرف التعب، فوافق على الفور. والحقيقة أن مطيع كان يريد أن يصل إلى حران، أن يلتقي بخاله الدكتور صبحي، لكي يبحث لنفسه عن عمل عنده، أو ليدبر أمره بعد أن جاء به من «الفيّ والميّ إلى هذه الصحراء الملعونة» خاصة وأن طموحه يتجاوز كثيراً «هذه الجلسات الميتة التي تروى فيها

القصة الواحدة مائة مرة، بأصوات عالية وحركات بلهاء، دون أن تعني شيئاً أبداً...».

الزيارة الثالثة التي قام بها الدكتور صبحي إلى موران يتذكرها الكثيرون في قصر الروض، فخلالها تشرف وحظي بمقابلة السلطان وتغدى على مائدته وتبادل معه أطراف الحديث؛ وفي هذه الزيارة تحدد بشكل كامل ونهائي وضع مطيع شخاشيرو، الذي كان برفقة الدكتور، وقد بدا خلال الزيارة، ثم في الفترة اللاحقة، وحتى وقت متأخر، في منتهى الرضا والثقة بالنفس، وقام بدوره على أحسن وجه، كما كان السلطان خزعل يقول ويؤكد، حين يجري الحديث عن كفاءة الأستاذ مطيع والدور الخطير الذي يقوم به والخدمات الكبرى التي قدمها للسلطنة وللسلطان بالذات.

Twitter: @ketab_n

الوقائع التي رافقت المرحلة الأولى من إقامة مطيع في موران غابت وتراجعت في ذاكرة الكثيرين، حتى القرابة التي تجمعه بالحكيم لا تعني شيئاً مهماً، ما دام الحكيم بعيداً في حران، أما بعد أن جاء ليستقر ويبقى فقد بدأت تستيقظ المخاوف والشكوك.

الآن ومطيع مرتبك أمام الضيوف الثلاثة الذين استدعاهم إلى قصر الغدير، لا يعرف كيف يبدأ الحديث، قال لكي يفسر حزنه على وفاة السُلطان:

ـ كان أباً لنا جميعاً. كان يعطف على الصغير والكبير....

توقف قليلاً ثم أضاف بلوعة:

ـ أتذكره قبل وفاته بأسبوع واحد: كان رحمه الله يستمع إلى القرآن والدموع تتساقط من عينيه، كانت تتساقط على خديه وعلى لحيته، ولم يمد يده الكريمة ليمسحها!

وتنفس بعمق وحسرة ثم تابع:

ـ خسارته كبيرة، أكبر من أن تعوض، لكن علينا أن نصبر وننتظر اليوم الذي نلحق به إلى جنات الخلد!

الزوار الثلاثة يصدقون ولا يصدقون الكلام الذي يسمعونه، ومع ذلك كانوا متأكدين أن الكلام الذي يحتفظ به غير ما يقوله الآن، وإن ما يقلقه غير وفاة السلطان، لكنهم ظلوا صامتين.

بعد أن طال الصمت المشبع بالتذكر تابع بارتباك:

ـ ما زالت رغبة الدكتور صبحي البقاء في حران. كلنا حاولنا معه أن ينتقل، أن يجيء إلى هنا، لكنه يقول: تعودت على حران، ارتبطت بالناس

هناك، ومستشفى الشفاء هي الوحيدة في حران، فكيف أترك المرضى ولمن أتركهم؟

وهز رأسه بأسى واضح:

ـ ولولا رغبة السلطان والحاجة لا يمكن لقوة في الأرض أن تقنعه على تغيير رأيه!

بدا الحديث للرجال الثلاثة غريباً، فإذا كانوا قد سمعوا بالدكتور صبحي أو رأوه، وإذا كانوا قد سمعوا بالجهود التي بذلها لمعالجة السلطان أو لقتله، فإنهم الآن لا يفهمون لماذا استدعاهم السكرتير الشخصي للسلطان خزعل ولماذا يحدّثهم عن الدكتور صبحي، قال شمران العتيبي . . .

ـ إذا كان يبغي حران فخلّه بحران.

رد مطيع باستنكار وتساؤل:

ـ ورغبة صاحب الجلالة السلطان؟

ـ هنا الاجزخانات واجدة والدخاترة كثر . . . حران ما بها شيء، خلّه بحران.

ورغبة صاحب الجلالة يا أبو نمر؟

ـ وأهل حران. . ما هم جماعتنا ورعية السلطان؟

ـ ولكن السلطان يريده هنا.

رد شمران بسخرية غير ظاهرة:

ـ على خيرة الله. . . اللي يريده السلطان يصير!

وخيم الصمت من جديد. كان الطرفان يدركان أن هذا الكلام تمهيد لما سيأتي بعده، أو أنه تمرين قبل أن يقال الشيء الجدي أو الشيء المطلوب. قال فهيد العليان ليغيّر الجو أو ليعطيه اتجاهاً جديداً:

ـ إذا ما وقع المطر مرة أو مرتين من هالحين إلى رمضان أظن أن الناس كلها راح تشرّق أو تموت. . .

قال أبو نمر بسخرية مبطنة:

ـ وكل الله يا رجّال. . . بجيّة طويل العمر الخير كله يجي!

قال مطيع، وقد أحس أن الأمور بدأت تفلت منه:

ـ كل شيء بإرادة الله، يا جماعة الخير، وأظن أن الأيام القادمة ستكون أيام خير.

ولم ينتظر جواباً أو تعليقاً، أضاف بلهجة جديدة:

ـ يا جماعة الخير صاحب الجلالة السلطان كلفني أن أقابلكم وله طلب عندكم...

نظروا إليه ونظروا في وجوه بعضهم بعضاً، وظلوا صامتين منتظرين:

ـ جلالته يريد أن يكون الدكتور صبحي قريباً منه، وأن تكون المستشفى الجديدة غير بعيدة... والأرض غرب قصر الغدير للشيخ شمران، هذه الأرض نريدها، وأي مبلغ تريده يا أبو نمر ندفعه!

توقف لحظة، غيّر جلسته، التفت قليلاً ثم أضاف:

ـ والأرض بين الحاووز والسوق، أو ذيك بين السور وعطفة الدليعي نريد نعمر بها مستشفى، أكبر مستشفى في موران، تداوي كل الأمراض ويدخلها كل الناس... فما قول الرجال؟

بعد مفاوضات لم تطل، تخللها الضغط والإغراء، وتدخل في إحدى مراحلها قائد الشرطة وجيء بولدين من أولاد شمران وأفهما أن الأمر لا يحتمل الرفض أو العناد، لأن هذه رغبة السلطان ذاته، وهكذا انتهى الأمر بأن اشترى الدكتور صبحي الأرض غرب قصر الغدير وتلك الواقعة بين الحاووز والسوق، وقد تحددت قيمة هذه الأراضي من قبل لجنة من ثلاثة أشخاص، سمّي أحد أعضائها الدكتور صبحي وسمّي قائد الشرطة الآخر، أما الثالث فقد سماه فهيد العليان بالنسبة لأرضه، أما شمران العتيبي فظل على عناده، مما دفع أحد أصدقائه لأن يكون في اللجنة و«إلا الأرض راحت بدون ثمن ويلزم أبو نمر أن يدفع من كيسه ثمن الكوشان وتحديد الأرض».

وبانتهاء هذه العملية اضطر الدكتور صبحي إلى العودة إلى حران «لأن الحكومة قررت شراء مستشفى الشفاء، ولا بدّ أن أزور المرضى وأطمئن على صحتهم وأوصي الأطباء والذين سيحلون مكاني بهم، وعليّ أن أقوم بواجب وداع الأمير هناك والأصدقاء الكثيرين الذين اعتز بصداقتهم».

لم تطل إقامة الدكتور صبحي في حران، عاد ومعه محمد عيد واثنان من أقربائه، كانا قد وصلا إلى حران قبل بضعة شهور. كما لم يتردد في إحضار عائلته إلى موران خلال الشهور الأولى. أما الأرض التي اشتراها غرب قصر الغدير فقد أحاطها بالأسلاك، تمهيداً لإقامة منزل عليها، وجنح به الخيال، خلال لحظة إشراق، فأطلق على المنزل الذي سيبنيه اسم «قصر الحير» وأصدقاؤه الذين استغربوا التسمية، واعتبروها شططاً أو أمراً مبكراً للغاية، ما لبثوا أن وجدوا الأمر طريفاً، فحرّفوا الاسم قليلاً فأصبح «قصر الحور»، دون أن يدركوا ما سوف يكون عليه في المستقبل. أما شمران العتيبي، حين بلغته التسمية التي أطلقها الحكيم على الأرض التي كانت له، فقد ابتسم بغيظ وسماها اسماً من عنده: قصر الأير، وهذا الاسم الأخير، الذي لا يكتب ولا يتردد أمام الغرباء والنساء، كان الأكثر انتشاراً وتداولاً، حتى قيل إنه بلغ السلطان، فاكتفى بأن نظر في وجوه الذين حوله وابتسم! أما الدكتور الذي لم تكن تخفى عليه خافية، كما يقولون، فإنه لم ينزعج ولم يغضب. قال ذات يوم لمحمد عيد، الذي حاول أن يقنعه، بأساليب ملتوية وبدائية، الاستغناء عن الاسم، بحجة أن البيوت في موران وحران ومدن أخرى كثيرة، لا تطلق عليها أية أسماء.. قال له وهو يكز على أسنانه:

ـ اسمع يا ابني وتعلّم: الحكيم جاء إلى هذا المكان ليغير كل شيء: العقول والناس... وحتى الأسماء، ومن يعش يرا!

هذا التصميم الذي كان يميز مواقف الحكيم، ويجعله شديد الثقة بنفسه، غير مبالٍ بأقوال الناس، اهتز قليلاً وهو يصل إلى موران لكي يستقر فيها. فهذه المدينة التي لا تشبه أية من المدن الأخرى، والتي تغرق في

صحراء بعيدة منسية، وتلك المياه التي تشوبها الملوحة وغير قليل من المرار، ما كان يتصور أنها ستكون البلدة التي يستطيع أن يعيش فيها، فأصابه الاضطراب، وعاوده الأرق وما يشبه المرض، كما حصل له تماماً خلال إقامته الأولى في حران. وبدأ يتذكر من جديد ما قاله لمطيع قبل أكثر من عام، حين جاءه إلى حران متذمراً شاكياً. وتذكر أيضاً الكلمات الكبيرة مع الضحكة، وهو يحاول أن يقنع محمد عيد بمرافقته إلى موران.
قال لمحمد عيد:

ـ اسمع يا محمد... أنت مثل ابني غزوان أو أغلى، والوقت اللي قضيته وإياك أكثر من الوقت اللي قضيته مع أولادي...

وضحك ضحكة صغيرة مشوبة بالذكرى وأكمل:

ـ وأنا أدرى منك يا محمد، والمثل يقول أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، فأريدك أن تكون معي في موران، وما راح تكون إلا راضي ومروّق أربع وعشرين قيراط!

واسترسل الحكيم وهو يحدثه عن موران، أية مدينة كبيرة ومنظمة هي، وأناسها أي بشرهم. أنها لا تشبه حران التي أصبحت مأوى لقطاع الطرق واللصوص والمهربين، ولكل من لا يجد عملاً، وليست مثل رأس بدره أو العوالي أو مدن أخرى كثيرة. ويتذكر الحكيم أنه قال في نهاية حديثه:

ـ وبعدما تصل إلى هناك وتستقر راح تحسد نفسك على السعادة والنعيم وتقول: يا ضيعة حياتنا في حران!

لم يكن محمد عيد بحاجة إلى هذه الأسباب كلها، ولم يكن متردداً بالقدر الذي افترضه الحكيم، ولكي لا يبدو متسرعاً أو تابعاً سأل عن عدد سكان موران وعن مناخها، وتساءل ما إذا كان الحكيم سيفتح مستشفى هناك مثل مستشفى الشفاء أو أكبر منها؛ والحكيم الذي أجاب إجابات سريعة غامضة، كان يحاول ألا يشغل نفسه بهموم وأفكار لم يحن أوانها بعد. قال لمحمد عيد الذي كان مشغولاً بلفّ قطعة سلاح أهديت للحكيم من قبل أمير حران:

المشكلة الوحيدة، يا عيدو، أننا يجب أن نتعود على ملابس هؤلاء البجم!

توقف محمد عيد، نظر إلى الحكيم، الذي تخفف من أكثر ملابسه، وقال له وهو يبتسم:

ـ الحقيقة يا حكيم أن لا أحد يفرقك عنهم...

واتسعت ابتسامته حتى أصبحت أقرب إلى الضحك وهو يضيف:

ـ إلا إذا حكيت!

تذكر الحكيم هذا، وتذكر أشياء أخرى كثيرة وهو يذرع الشرفة: يوم وصل إلى حران، ثم يوم أصبح رجلاً مهماً فيها، وكيف بدأ يثبت أقدامه «ويمد جذوره» كما يحب أن يقول، ثم كيف ساهم في إنشاء المدينة وأقام المستشفى، وتذكر المبلغ الذي تبرع به لبناء المسجد الكبير، ثم كيف أصبح عضواً في غرفة التجارة. أما الأبنية الكبيرة التي قامت في السوق خلال السنوات الأخيرة، فلم يكن مجرد شريك فيها، كان أحد ثلاثة شركاء كبار، وقد كان له رأي حاسم في التعديلات الكثيرة التي جرت على المخططات، ثم التعديلات التي جرت أثناء التنفيذ.

ليس هذا فقط، كان في حران الشخص الذي يتطلع إليه الكثيرون بإعجاب، ويفاخرون بكل شيء يعمله. كانت أفكاره وكلماته تنتقل من مكان إلى آخر. حتى النكات التي رواها للأمير، أو لبعض أصدقائه، أصبحت تروى. صحيح أنها كانت تتغير قليلاً، وكان ينزعج، بعض الأحيان، حين تنقل إليه بشكلها الجديد المحرف، أو لأن الآخرين لا يروونها بنفس الحيوية التي يرويها بها، لكنه، مع ذلك، كان يسر في أعماقه، هكذا كان في حران، وهذه نظرة الناس إليه، وقد تأكدت أهميته حين قرر أن يغادر حران، إذ ما كاد يبلغ الأمير أنه سيكون مضطراً للمغادرة إلى موران، حتى ضرب الأمير على جبينه وصرخ:

ـ ولمن تركتنا يا أبو غزوان؟

ولما أوضح له ـ ويتذكر أنه كان ينظر إلى الأرض وهو يتحدث، لئلا يحزن الأمير أكثر، قال الأمير بلوعة ظاهرة ودون مجاملة من أي نوع:

ـ والله يا أبو غزوان حران وأنت غايب عنها بسفر ظلمة وما تنراد، فكيف وأنت راحل؟

وبعد قليل وقد أصبحت لهجته مستسلمة:

ـ لكن إذا كانت هذه أوامر جلالته فأوامر جلالته على العين والراس.

وزفر الأمير بحرقة وتابع:

ـ وظني أني ما أتأخر وراك. . يا أبو غزوان!

هنا، في موران، يمكن أن يجد المال، ويمكن أن يعيش، لكن الناس هنا نوع آخر، أنهم أقرب ما يكونون إلى حيوانات الصحراء: مملؤون بالحراشف والقسوة والخشونة، جلودهم سميكة، وأعماقهم بعيدة لا تدرك. حتى ضحكاتهم تبدو قصيرة خائفة، أما إذا خلوا لأنفسهم فإنهم لا يوفرون أحداً أو شيئاً. أنهم يقضمون حتى جلودهم. لماذا جاء إليهم؟ ألكي يقدّم لهم لحمه يأكلونه في الليل والنهار؟ حتى يملأ لياليهم الطويلة الفارغة؟

هكذا فكر وهو يستعرض حياته الماضية، وحين شعر بالندم وبالحنين إلى أيام خلت قال لنفسه بنوع من التحدي: «الرجال هم الذين يخلقون الأماكن، وهم الذين يتركون بصماتهم عليها، إذا اشتعلت عقولهم وقلوبهم بهمّ عظيم؛ أما إذا أصبحوا يبحثون عن الماء والظل والحياة السهلة فإنهم سيمضون مثل الحشرات دون أن يخلفوا أثراً».

ويتذكر الحكيم، وهو يذرع الشرفة الواسعة، في الدار التي اتخذها سكناً له قريباً من قصر الروض، وكانت عادته أن يرفع يديه حتى الكتفين حين يتنفس، حسب الطريقة التي تعلمها عندما كان طالباً، وهذه هي الطريقة الصحيحة، وقد علّم الأولاد عليها. . . يتذكر الحكيم أنه قال بصوت عالٍ وهو يبتسم من بين أسنانه:

ـ أنا وموران. . وهذا الزمان!

وضحك بفرح لأن كلامه كان شعراً خالصاً!

موران في تلك السنين التي أعقبت منتصف القرن، لا تزال بعيدة منسية: لم تبلغ المدينة وإن تجاوزت القرية، فهي أقرب إلى البلدات الكثيرة المنتشرة على طرق التجارة أو في الواحات الكبيرة. الناس يعيشون حياة متواضعة، أقرب إلى الخشونة. يتوارثون أباً عن جد نظرة بسيطة إلى الحياة والموت، ولأنهم لا يؤملون الكثير من الحياة، ولا يخافون الموت، فإنهم خلال السنين التي يقضونها على الأرض يكدحون لانتزاع اللقمة، ومع أن اللقمة صعبة أو بعيدة أغلب الأحيان، فقد كانوا، مع ذلك، يجدون وقتاً طويلاً يصرفونه لتأمل ما حولهم، ويلهون أنفسهم بحفظ الشعر وأيات القرآن وقصص الأقدمين. وفي ليالي الصيف الطويلة يجدون أرواحهم ترحل إلى ما وراء الحياة والموت، وعيونهم تجوب السماء تحدد مواقع النجوم ومسارها، أو تقرأ في الرياح علائم الغبار والمصائب والجراد.

ولأن موران في ذلك الموقع النائي المعزول، فلا أحد يصلها إلا إذا كان يقصدها، لذلك ألف الناس بعضهم بعضاً، وعرفوا القرابات والعلاقات، وصارت جزءاً من حياتهم. فإذا جاء الغريب لا يمكنه أن يخترق القشرة الصلبة التي تغلف الناس والحياة هنا، وإذا استطاع فبعد وقت طويل وبكثير من المعاناة القاسية المجهدة. وأهل موران الذين رأوا عدداً من الغرباء، جاءوا أو مروا، كانوا، أغلب الأحيان، لا يبدون قلقاً أو خوفاً، ففي داخل تلك الشرنقة التي تحمي وتدفئ، وفي ظل تلك العلاقات الصلبة الراسخة، يعرفون كيف يحمون أنفسهم، وكيف يجب أن تكون ردود أفعالهم تجاه كل ما يحصل حولهم، لأنهم على ثقة أن هؤلاء الغرباء

لا يمتلكون الصبر، ولا يعرفون الدروب الخفية إلى دواخل البشر والصحراء، ولذلك فإن إقامتهم لن تطول. أما الذين جاءوا بهدف الاستقرار، فما يلبث القلق أن يخامرهم، ثم يبدأ الخوف يفتك بهم، حتى إذا جاءت تلك الأيام اللافحة المثقلة بالغبار والحرارة، تصل أرواحهم إلى حلوقهم عندها إما أن يستسلموا أو أن يرحلوا. فالذين لا يمتلكون غير هذا المكان، ويمتلئون إصراراً على البقاء، يتحولون شيئاً فشيئاً إلى نمط من الناس لا يختلف عن أهل موران، بالنظرة، بالسلوك، بملامح الوجوه، وبتلك الرغبة التي تولّد القوة على التحمل والاستمرار. أما الذين أكل الحنين قلوبهم وعقولهم، ولسعت ملوحة المياه ومرارتها ألسنتهم، وشعروا أنهم محاصرون، وقد اقترب منهم الموت ولا بدّ أن يدركهم، فعندئذٍ، وفي ليلة من ليالي الصيف، ومع قافلة أو رعية جمال، يرحلون، دون أن يقولوا، ودون أن يفطن لهم أحد، وبرحيلهم تنقطع أخبارهم، ويغيبون تماماً، حتى أنه لم يصادف أن عاد غريب إلى موران، بعد أن يكون قد تركها.

هكذا كانت موران عبر مئات السنين. صحيح أنها كبرت واتسعت في بعض الفترات، ثم تراجعت وصغرت في فترات أخرى، بل وكادت تندثر من الطواعين والجوع والحزن، لكنها كانت دائماً تنهض من بين الرمال وتعاود الحياة.

إنها مدينة عجيبة. حتى القصص التي ترويها الجدات للصغار تمتلئ بالجن والعفاريت، وتمتلئ بالأصوات الخفية والبروق، فيحار الصغار والكبار من هذه المدينة، ويتلفتون حولهم، ويغلفون خوفهم وانتظارهم بالصمت.

أما الذين حكموا موران وما حولها فكانوا يخافون هذه المدينة أكثر مما يحبونها، وكانوا دائماً يتوقعون أن تنشق الأرض فجأة وتأتي على كل شيء، وهذا التوقع الذي ملأ الحكام منذ أن وجدت موران، وإن لم يدركوا له سبباً واعياً، ملأهم بحقيقة سيطرت عليهم دائماً: أن يعيشوا ليومهم، أن لا ينتظروا الغد، لأن الغد، أغلب الأحيان، لا يأتي. هذه

الحقيقة التي تسربت بخفاء وعلى مهل جعلت موران دائمة التوقع، تنتظر ولا تمل من الانتظار، وكانت عيون الناس لا تفارق قصر السلطان، أياً كان هذا السلطان.

وإذا كان لكل مدينة مزاجها وطريقتها في التعبير، وتمتلىء في بعض اللحظات بالأشواق أو المخاوف، فإن موت السلطان خريبط جعل موران في حالة أقرب ما تكون إلى الانتظار والتوقع، والناس فيها ينتظرون أو يتوقعون شيئاً، لكنهم لو سئلوا أي شيء ينتظرون أو يتوقعون فإنهم لا يملكون جواباً.

قال شمران العتيبي، حين بلغته وفاة السلطان، وكان حوله ثلاثة من أبنائه وبعض الأقرباء والأصدقاء:

ـ الله ياما شاف قصر الروض قبله؛ لكن كلهم راحوا. وإذا الله أعطانا عمر بعد نشوف، وإذا قضينا ومضينا اللي يجي بعدنا يشوف ويسولف.

وبعض الناس الذين سمعوا منذ وقت طويل ما قاله منجم مغربي التقى بالأمير خزعل في إحدى سفراته، حين كان ولياً للعهد، وقيل إنه نبهه لشيء واحد: أن لا يسكن في قصر أبيه، لأن هذا القصر سيكون قصراً مشؤوماً على من يأتي بعد السلطان الحالي؛ ولما خاف الأمير وسأله عن معنى ذلك، قال له المنجم: «قلت لك ما يكفي وما يجب أن يقال.. فاحذر!».

هذه القصة التي رواها واحد من خدم الأمير بتكتم شديد قبل سنين تذكرها بعض الناس، لكنهم لم يتوقفوا عندها، ولم يكونوا متحمسين لروايتها أو إعادتها. الشخص الوحيد الذي لم ينسَ يوماً واحداً هو الأمير ذاته، ولذلك حين بقي في قصره، وحين بدأت موران تتجه إلى قصر الغدير، بعد أن كانت لا تعرف إلا قصر الروض، فإن بعض الناس تذكر القصة من جديد، ودخل الخوف قلوب الكثيرين، لكنهم تغلبوا على الخوف بالانتظار.

هكذا كانت موران منذ أن وجدت في هذا المكان من الأرض. أما حين وصلها الحكيم أول مرة فقد وجدها مجموعة من البيوت الطينية

المتلاصقة، وما عدا قصر الروض، أي قصر السلطان خريبط ودار الإمارة، لا يمكن تمييز البيوت بعضها من بعض. حتى قصر الغدير، قصر ولي العهد، رغم اتساعه، قياساً للبيوت التي حوله، لم يكن أكثر من بيت من بيوت موران، لبساطته وانخفاضه. كانت في جانب منه المضافة الواسعة، وأمامها فسحة كبيرة، زُرع طرف منها ببعض النباتات والخضرة، وبعد هذه الفسحة، وفي جانب تحت أشجار النخيل، باب يؤدي إلى القصر الداخلي. والقصر الداخلي قُسّم بدوره إلى أجنحة عديدة، كانت تفصل بينها أسوار عالية، وقد نظم بهذا الشكل لاعتبارات متعلقة بزوجات الأمير، ثم لأسباب الحماية، بحيث تتوافر إمكانية الدفاع عنه إذا هوجم.

أحياء موران متعرجة متداخلة. الشوارع ضيقة وتعج بالأتربة والأطفال والذباب. الأسواق التي تبدأ من أطراف الأحياء، ثم تتجه وتمتد نحو الشرق والشمال، تصل إلى قرب قصر الروض من ناحية، وإلى مسافة غير بعيدة عن سوق الحلال من ناحية ثانية، والبيوت تتخلل الدكاكين وتحتل جزءاً كبيراً من السوق.

ولأن سكان موران من البدو، حتى الذين استقروا وتحضروا، فإنهم لم يتخلوا عن بدواتهم: كانت الإبل في ساحات الدور أو عند أبوابها، وكانت الخيام إلى جانب الغرف الطينية، والحطب يتجمع في جانب من الساحات الكبيرة، التي حفرت فيها المواقد، وجُهّزت. وغير بعيد، في الجانب الآخر من الساحات، المطابخ. أما تلك الأطراف المائلة في جوانب البيوت فقد أعدت لذبح الخراف، لذلك تظهر آثار الدماء اليابسة والتي تحولت إلى اللون البني المقشور.

تشاءم الحكيم إلى أقصى حد وهو يرى هذه البلدة، وبدت له حران أجمل منها وأكثر تنظيماً. . وظل رأيه كذلك حتى لما جاء ليسكن ويستقر. وإذا كان يعزي نفسه أو يحاول إقناع الآخرين، فقد ظل يؤكد على شيئين اثنين: إنها العاصمة، ولا بدّ أن تتغير وتتفوق على المدن الأخرى بسرعة، ثم إنها مدينة كبيرة، أكبر من حران، وعدد سكان يعادل ثلاث أو أربع مرات المدن الأخرى.

وما عدا حي السفان الذي كان في أقصى غرب المدينة، والذي يختلف عن الأحياء الأخرى، إذ كانت بيوته جديدة وأكثر نظافة وعناية، فإن موران كانت تقبض النفس وتولد في القلب حزناً مبهماً، لأنها لا تزال تغرق في عتمة القرون، ولأنها متوارية لا تذكر.

حتى بعد أن بدأ النفط يتدفق، وأخذت تصل البواخر إلى حران كل يوم، لتحمل آلاف الأطنان كل ساعة، لم تحس موران بذلك إلا إحساساً غامضاً، إذ ظلت دائماً تنتظر مطراً لا يأتي، وقوافل كثيراً ما ضلت طريقها، كما استمرت تبعث بأبنائها مع كل قافلة ومع كل رعية إبل، علّهم يرجعون في فترة لاحقة مع شيء من قمح وقماش، أو لعلهم يرسلون القمح والقماش أو بعض الدراهم من حيث هم مقيمون. وموران التي كانت تصبر صبر الجمال على العطش والجوع، إلا حين يستبد العطش أو يزيد عن حد معين، وحين ينهكها الجوع فلا تقوى على احتماله أكثر من ذلك، تنتفض انتفاضة الحمى والجنون والموت فتقتل نفسها وتقتل غيرها إلى أن تجد توازناً بينها وبين ما حولها.

أما حين وضع الحكيم يده على الأرض غرب الغدير، وتلك القريبة من الحاووز، فقد قال شمران كلمة استقرت في قلوب الكثيرين وعقولهم:

ـ موران ما كانت أبداً جنة عدن. . وما أظنها تصير، وهذون اللقامين، واللي فاتحين حلوقهم ما يشبعهم إلا التراب، وبينا وبينهم خف وصافر وصنعة كافر. . ونشوف.

ومثلما كان الحكيم مشغولاً في حران، وليس لديه الوقت الكافي ليسمع ما يقوله الناس أو ليرد عليه، فقد كان عنده الشيء الكثير ليفعله هنا. صحيح أن موران ليست حران، والبشر هنا غير البشر هناك، لكن إصراره على أن يبقى، أن يتكيف، جعله لا يقترب من القشرة الصلبة التي تغلف الناس والحياة هنا، وإنما يتجه إلى المسارب التي عرفها واختبرها من قبل. ولذلك ركز كل جهده على الصخرة القوية، كما كان يقول لنفسه. على السلطان بالذات. . .

كل وقته من أجل السلطان، وكل خبرته وذكائه في خدمة صاحب

الجلالة المفدى، فقد كان واثقاً إن كسب قلب السلطان كسب كل شيء.
وكان أقوى الجميع.

قال لجلالته في الأيام الأولى، وفي لحظة تخيرها جيداً:

ـ اسمح لي يا جلالة السلطان أن أقول ما يجب أن يقال: أنت سلطان السلاطين، وأنت هبة الله للعالمين. بمجيئك الخير جاء بعد العذاب والانتظار وبعد ذل السؤال.

موران كانت نسياً منسياً، كانت مكاناً قصياً، لا يأتيها إلا ضال هارب ولا يبقى فيها إلا قوي محارب. أما بعد أن جئت وجاء الخير، وبعد أن أمسكت بالرمل فتحول إلى ذهب، فلا بدّ أن تفعل الكثير، أن تجعل الأرض غير الأرض والبشر غير البشر، ونحن، يا جلالة السلطان، خدم بين يديك تأمر فنطيع، ترغب فنستجيب».

أعجب السلطان بهذه الديباجة، وهزه الانفعال، وضحك كما يصهل حصان فبانت أسنانه الكبيرة، ونظر بتحديد من وراء نظارتيه ليكتشف ما إذا كان الحكيم يعني الكلمات التي قالها أم يسخر منه، فلما رآه جاداً منفعلاً، بل أقرب إلى الحزن، رد عليه:

ـ وكل الله يا حكيم، وانشاء الله ما يصير إلا الخير.

ـ يا سيدي ومولاي: أنت تعرف أكثر من أي إنسان: النفط في هذه الأرض منذ آلاف السنين، في مكانه لم يتحرك، إلى أن جاء المغفور له والدكم، وبعد أن خبر القريب والبعيد، وبعد أن سأل وتأكد واستقصى، قال لهم: ابدأوا على مشيئة الله!

توقف، تنفس بصعوبة؛ وأضاف:

ـ كان يمكن أن يبقى النفط في باطن الأرض، يا صاحب الجلالة، مئات السنين، آلاف السنين، لكن العناية الإلهية، الرضا، وذلك التوفيق من الله سبحانه وتعالى قال كن فكان. والآن، أكثر من أي وقت، وهنا، أكثر من أي مكان، يا صاحب الجلالة، يمكن أن تحولوا موران إلى جنة على الأرض، ويمكن أن تحكموا القريب والبعيد.

كان لوصول عائلة الدكتور صبحي إلى موران ضجة كبيرة واهتمام أكبر، فمحمد عيد الذي حدد أكثر من موعد لاحتمال وصول العائلة، ثم عاد وأكد أن أشغالاً طارئة أخرت وصولها، أفاض كثيراً في الحديث عن كل فرد من أفرادها: ذكر الأسماء والأعمار وحدّد صفات كل فرد وشكله، وأكد أن اثنين من الأولاد الثلاثة، بالذكاء والشبه، أقرب إلى الحكيم. أما الابن الأوسط والبنت الصغيرة فقد جاءا لأخوالهم. وأشار، عرضاً، إلى أن عائلة الحايك كانت ولا تزال مضرب المثل بجمال رجالها ونسائها، وقد فُهم أن زوجة الدكتور هي سليلة هذه العائلة.

انتشرت الأخبار والأحاديث بسرعة وتداولها الناس في حي السفان والمنزه والأحياء المجاورة، ورافق ذلك انشغال محمد عيد وحركته الزائدة، من أجل ترتيب البيت وإعداده على أحسن وجه، ولقد استعان باثنين من خدم القصر، وكلف رضوان، سائق الطبيب، أن يأتي بزوجته أيضاً. ولم يتردد هو والسائق في أن يشاركا، لكن الحركة المنفعلة، الأقرب إلى الاضطراب وعدم المعرفة، والتي رافقتها الضحكات المكتومة التي كانت تصدر عن النسوة، وهن يراقبن محمد عيد، أخّرت العمل كثيراً وجعلت الجميع يتحركون كالعميان. صحيح أن الأخطاء التي وقعت كانت هيّنة ويمكن تجاوزها، لكن محمد عيد كان حانقاً متشدداً. وقد اضطر في وقت من الأوقات، وقبل أن ينتهي العمل، إلى صرف النسوة، وأن يتولى كل شيء بنفسه، لأن ذلك «أبرد للراس» كما قال لرضوان!

في اليوم الأخير قبل وصول العائلة، وحين ألقى الدكتور صبحي نظرة على الشرفة، وقد نثر فيها محمد عيد عدداً من تنكات الزرع، أبدى دهشته

وإعجابه، وحين سأله من أين أتى بالزرع أجاب وهو يبتسم ابتسامة ظافرة:

ـ برسم الإعارة والتأجير.. يا حكيم..

ولما ظل وجه الحكيم متسائلاً تابع محمد عيد بلهجة جديدة:

ـ قلنا لرشدي اللحام: كم يوم ونرجعها لك، وقد كبرت شبراً، فقط لنستقبل أم غزوان، لأن البيت الخالي من عرق أخضر لا تزوره الملائكة.

الإشارة اللاسلكية التي وصلت إلى دار الإمارة، حددت نهائياً موعد وصول العائلة. كانت الإشارة كما يلي: «باب الرجا يخاطبكم. المرجو تبليغ الدكتور صبحي المحملجي بطرفكم أن العائلة الكريمة غادرتنا متوجهة إلى موران الجميع بصحة جيدة. الوصول إلى طرفكم غداً، الاثنين، بين العصر والمغرب بمشيئة الله. اتخذوا ما يلزم وأبلغوا الجواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. قف».

بعد تمنّع خجول وتردد لم يطل وافق الحكيم على أن يستخدم محمد عيد السيارة البيضاء المكشوفة في استقبال العائلة، وهذه السيارة كان الحكيم قد اشتراها في السنة الأخيرة من إقامته في حران، أو بكلمات أدق: استوفاها مقابل دين كان له على السلامي، لقاء علاجه وإقامته في المستشفى. ورغم أن الحكيم استخدم هذه السيارة مرات في حران، إلا أنه بدا متردداً هنا. أما وهو يوافق الآن فقد كانت حجة محمد عيد قوية دامغة: «أولاً السيارة كبيرة، ويمكن أن ينتقل إليها الأولاد؛ ثانياً، رضوان يخربط بين يده اليمنى ويده اليسار، وأنا المفروض أن أدلهم على الطريق». وبعد قليل أضاف بأسى: «وأولها وآخرها، يا حكيم، يجب أن نستعمل هذه السيارة اليوم أو بكرة قبل ما ياكلها الصدأ في الكراج».

كان واضحاً من إشارات عديدة وغير مباشرة أن الحكيم لن يكون في الاستقبال عند وادي الرها، الحدود الشرقية لموران، فقد اعتبر أن إقدامه على مثل هذه الخطوة سيفسر بالخفة ولا يتناسب مع موقعه الجديد ونظرة الناس إليه. ومحمد عيد الذي أدرك بغريزته هذه النقطة أراد أن يمتحنها. سأل بخيث:

ـ أية ساعة تفضلون أن نغادر يا حكيم؟

- وصولهم سيكون بين العصر والمغرب، والأحسن أن تكون هناك حوالي العصر.

- وأنت يا حكيم؟

وضحك ضحكة صغيرة قبل أن يجيب:

- أنا بانتظاركم.. هنا.

- راح يأخذ الأولاد على خاطرهم يا حكيم!

- بسيطة، نرضيهم، لا تخف.

وإذا كانت عادة محمد عيد أن يكون أساسياً في تحضير الأكل، وأن لا يكتفي بمجرد الإشراف، بعد أن استخدم الحكيم طباخاً هندياً، ونقله معه من حران، فإنه هذا اليوم لم يفكر بالأكل ولم يقترب منه، إذ بعد أن اشترك مع رضوان في تنظيف السيارة، طلب منه، وبصيغه الأمر، أن يخرجا بسرعة لتجربتها، وقد فعل هذا أول مرة عند الضحى، وبمجرد أن خرج الحكيم متوجهاً إلى القصر، والمرة الأخرى، قبل الظهر بقليل، ووصل في المرة الثالثة إلى وادي الرها، كي يكون متأكداً من قوة السيارة وليعرف كم يحتمل الطريق على وجه محقق، وقد راودته فكرة أن يبقى هناك وأن ينتظر، لكن نظرة رضوان التي كانت تحمل أكثر من الاستغراب، جعلته يعدل عن الفكرة. ومع ذلك اكتفى من الغداء بلقمات قليلة، وانتهى في الوقت الذي كان رضوان لا يزال يفكر بصحن آخر، وكانت عيناه تطوفان وتنظران إلى الأواني العديدة، والتي بدت أكثر من أي يوم سابق. أما حين سمع صوت محمد عيد يستحثه للإسراع فقد اهتز رأسه أسفاً وحقداً!

اقتراح محمد عيد استخدام السيارة البيضاء المكشوفة كان اقتراحاً مصيباً، وقيامه بتجربتها خلق من الاهتمام أضعاف ما حصل خلال الأيام السابقة. فأطفال حي السفان والمنزه وأطفال أحياء أخرى، ثم الرجال الذين شاهدوا السيارة وأبدوا إعجابهم وتساءلوا، وأخيراً النسوة اللواتي لم يستطعن البقاء بمعزل عما يجري، فخرجت الكثيرات، وفي أوقات عديدة،

بحجة البحث عن الأولاد أو إعادتهم، خلق هؤلاء وغيرهم اهتماماً لم يخف على الحكيم حين عاد من القصر، وإذ أبدى استغرابه أول الأمر، لأن عدداً من الرجال توقفوا حين مرّ، والأطفال ركضوا وراء السيارة، فإنه لأول مرة منذ أن وصل إلى موران يشاهد بعض النسوة عند أبواب البيوت. قال لنفسه دون أن يخفي سروره «الملعون لازم يعمل من كل شغلة جرصة، ولازم يفضحنا بين الناس» أما حين سأل أبا عبد الله عن الساعة التي خرج فيها محمد عيد فقد أجابه:

ـ بعد المؤذن ما خلص من قولة الله أكبر إلا حرّك ومشى.

بعد المغرب وقبل العشاء، ومع نسمات طرية منعشة، وصلت العائلة إلى وادي الرها. كان الاستقبال سريعاً مضطرباً، وفضلت أم غزوان أن يبقى الأولاد معها في نفس السيارة، لكن غزوان في اللحظة الأخيرة قرر أن ينتقل إلى السيارة البيضاء المكشوفة. ولما لم تعترض أمه فقد حاول أخواه أن يفعلا مثله، لكن الصرخة الحادة الآمرة جعلت كل شيء ينتهي بسرعة، مما ولّد في قلب محمد عيد وضعاً نفسياً أفضل، إذ ربما استطاع الوصول إلى موران قبل العشاء. قبل أن تخلو الشوارع، ويغيب الناس. وإذا كان قد لام السائق لتأخره، وأحس أن الفترة الواقعة بين الغروب ووصول سيارتهم هي أطول فترة تمر عليه منذ سنين طويلة، فقد أمل وتوقع أن يكون الاستقبال في حي المنزه لائقاً ومؤثراً بحيث يعوّض ويتدارك ما لم يستطعه هنا!

السيارتان وهما تنهبان الأرض في موران لكي تصلا إلى أقصى مكان في جهة الغرب، إلى حي السفان، كانتا تمران في ظلام لا تشقه إلا أنوار خابية متباعدة، وفي سكون لا يقطعه غير نباح الكلاب. أما بعض المارة الذين ألقت السيارتان أضواءهما عليهم فقد كانوا من الأفواج الأخيرة العائدة، أو أولئك الذين يقصدون أقرباءهم وأصدقاءهم للسهر.

بدت موران، في عيني محمد عيد، كابية، غافية، مملوءة بالبلادة، وهو يقطعها من شرقها إلى غربها، ولم يستطع أن يخفي انفعاله، أثناء الإجابة عن أسئلة غزوان، إذ كان الشاب، يسأل عن نوع السيارة، ومتى

اشتراها أبوه، وكم حصان قوتها. كان محمد يجيب بسرعة ودون اهتمام، لأن الأفكار التي راودته بأن يجتاز شوارع موران الرئيسية ببطء، لكي يراه الناس، خاصة وأنه سأل رضوان بما يشبه البراءة وهم متوجهون إلى وادي الرها ما إذا كان الشارع القبلي أطول أم شارع الروض، وما إذا كان الناس في القبلي بعد العصر وعند الغروب أكثر وأقل، ورضوان الذي أجاب بتبسط ودون أن ينتبه لما أراده محمد عيد، كان يعرف طرقاً لا يغيرها، ولا يدري إن كانت هذه الطرق أطول من غيرها أم أقصر. حتى الحكيم حين يطلب منه أن يلتفت يميناً أو يساراً، في إطار اكتشاف المدينة والتعرف عليها، وكان رضوان يستجيب له استجابات مباشرة فورية، لكن لا يلبث أن ينساها ويعود إلى الشوارع التي يعرفها وتعود عليها.

رغم أن محمد عيد امتلأ بالإحباط وخيبة الأمل، فقد ظل يراوده أمل وحيد: أن يكون الاستقبال أمام البيت، ومن سكان الحي الذين انتظروا وتوقعوا لائقاً وكبيراً.

ما عدا ثلاثة من الصبية، وذلك الأعمى الذي لا يفارق بداية شارع السفان، لم يكن هناك أحد. حتى أبو عبد الله أجهد نفسه، لكي يبدو نشيطاً، وقد تحرك هنا وهناك، وسلم على الأولاد أكثر من مرة، كان يتحرك مثل الشبح. أما الحكيم الذي ظل في الشرفة أول الأمر، وكانت ابتسامته كبيرة، ولا يكف عن ترديد كلمات محدودة وبصوت عالٍ، فلم يستطع الانتظار أو البقاء في مكانه، كما حرّض نفسه، لكي يختبر عواطفه، فقد تدحرج بسرعة عندما سمع صوت غزوان ينادي: بابا... بابا.. وغزوان ذاته ما لبث أن شعر بالهبوط حين رأى أباه بذلك الشكل الغريب، فاللحية التي تظهر وتغيب في تعاقب النور والظلمة، نتيجة الحركة واللهفة، وتلك الملابس الفضفاضة الغريبة، جعلته يتردد. يضاف إلى ذلك الأصوات التي تتزاحم وتختلط. ثم ذلك الانشغال المبالغ به لإنزال الحقائب والأغراض، ومعرفة دروب البيت وكيفية الدخول والخروج، كل هذه الأمور ولّدت اضطراباً زائداً وحركة عمياء. أما حين أصبح الحكيم وسط الجميع واختلطت دموعه بالقبل والضحكات والحركة الزائدة، فقد

بدا مثل طفل كبير، وبدأ أيضاً غير قادر على التصرف. كان محمد عيد على بعد خطوتين أو ثلاث يراقب، يتابع، وقد هزته دموع الحكيم وطريقته في السؤال والحركة. أما رضوان وأبو عبد الله فقد ظلا بعيدين وكانا ينظران ولا ينظران. قال محمد عيد لنفسه وقد امتلأ قلبه بحزن شفيف «الإنسان دون أهله وفي غير بلده مثل السمكة خارج الماء».

ويتذكر الجوار في شارع السفان أن أصوات الضحك وبعض النداءات ظلت تسمع إلى وقت متأخر من الليل، ويتذكر أبو عبد الله ورضوان، اعتماداً على أحاديث محمد عيد المتكررة، أن أولاد الحكيم أربعة، أما حين حسبوا الأولاد فقد كانوا خمسة، فتطلع الواحد في الآخر وتساءلا، أما في صباح اليوم التالي، فنظرا إلى محمد عيد وابتسما!

بدت موران في عيني وداد، وهي تنظر إليها من الشباك في الصباح الباكر، مدينة منفّرة، فالبيوت متلاصقة، واطئة، متتابعة وكأنها سلسلة لا نهاية لها من كتل طينية صماء، وأشجار النخيل القليلة المتباعدة ميتة الخضرة، عارية، أو أقرب إلى العري، حتى أنسام الفجر، رغم طراوتها، كانت جافة ومثقلة برائحة الغبار. نظرت إلى هذه اللوحة وزفرت من أعماقها. أما وهي تشرب القهوة مع زوجها على الشرفة، وقبل أن يستيقظ الأولاد، فقد كان تشعر بالراحة والرضا والقلق والخوف معاً. كانت مشاعرها مختلطة، مضطربة، وأقرب إلى التشوش، وبين رشفة وأخرى كانت تنظر إليه، تريد أن تراه في ضوء النهار.

في الليلة الفائتة، وهي تنام إلى جانبه، كانت لحيته ـ وقد قصها وعطرها أكثر من مرة في ذلك اليوم ـ تضايقها وتنفرها، حتى أنها لم تصدق خلال النظرات الأولى، وهي تراه بهذا الشكل بعد غياب طويل. وفي الليل، قالت له بدلع كادت تنساه لفرط ما ابتعدت أيامه: «صبوحي.. شو سويت بحالك؟ أنا زعلانة منك» ولما شدها إليه في محاولة لأن يترك جسده يجيب، ابتعدت قليلاً، تابعت بنفس الهمس: «هاللحية ما حلوة، كبّرتك وغيرت وجهك»، كادت تقول جعلته بشعاً، لكن اختارت تلك الكلمة لئلا تجرحه، وحين اهتز جسده كله بضحكة، أرادها قوية ولها رنين، رداً على كلامها تابعت: «حتى الأولاد ما عرفوك، وسلمى سألتني: ماما، هذا الحجي مين هو» الآن، في أضواء الصباح الأولى، بعد ليلة لم يناما خلالها إلا نوم الكراكي، تشعر أن لكل شيء طعماً جديداً، خاصة بالنسبة إليها. فبعد هذه الرحلة الطويلة، وهذه الليلة الأطول منها، تحاول اكتشاف الرجل الذي عاشت معه سنيناً عديدة. إنها تعرفه ولا تعرفه، تراه

غريباًومألوفاً في آن واحد. لم تغيره اللحية فقط، فصلعته اتسعت أيضاً وبدا لون البشرة متفاوتاً، لكن ظلت لعينيه تلك النظرة التي هي مزيج من الثقة بالنفس والقلق، الشهوة والخوف. وإذا تجنب، أغلب الوقت، أن تلتقي عيناه بعينيها، وتشاغل، وسألها ما إذا كان الأولاد قد ناموا براحة، وهل لا يزالون نياماً، فقد لاحظ من النظرة الأولى أنها مثلما كانت قبل سنتين: لم تكبر، لم يتعبها السفر، وتلك اللحظات البراقة المجنونة التي تعرف كيف توصله إليها اكتشفها من جديد، حتى وهي بين المزح والجد تشد اللحية، تداعبها، كان راضياً وكان يريدها أن تفعل هكذا.

قال رداً على سؤال لم تسأله، ولكنه قرأه في عينيها اللتين حدّقتا إلى دائرة واسعة، وكأنها تكتشف المدينة مرة أخرى:

ـ انشاء الله ما تنتهي السنة يا وداد إلا ويكون بيتنا كمل.

ـ إنشاء اللّه.

ـ وذاك البيت شكل آخر... ما هو بيت.. قصر.

قالت وهي تضحك من الفرح والخوف معاً:

ـ الظاهر أن العيشة طابت لك في هذي البلاد... وكأنك ما رايد ترجع!

رد بعصبية مكتومة:

ـ هذه البلاد أحسن من غيرها يا بنت الحلال..

وأضاف بعد قليل بلهجة مختلفة:

ـ وبكرة إذا تعرفت تتعودي.

قالت في محاولة هجوم خفية:

ـ كل ما أتمناه، يا أبو غزوان، أن أكون إلى جانبك، أن أساعدك، لكن أنا خائفة على الأولاد.

رد وهو يقهقه:

ـ اتركي الأولاد عليّ يا وداد... أنا مسؤول.

ونهض. تقدم نحو حافة الشرفة. ظلت في مكانها، لكنها تابعته، قال لها دون أن يلتفت:

ـ تعالي يا وداد.

لما وقفت إلى جانبه إشارة بيده:

ـ هذا البناء العالي، مقابلنا، قصر الروض، قصر المرحوم السلطان السابق. إلى يمينه نخلات، بعد النخلات بحوالى أربعمائة متر، خمسمائة متر، بيتنا.

ابتسم، وبعد قليل تابع كأنه يحدث نفسه:

ـ ولو الواحد صعد إلى السطح الثاني يمكن يميز موقعه بشكل أحسن

ولم يتركها تتكلم:

ـ وانشاء الله، بعد كم يوم نمرّ ونشوف الأرض وكل شيء.

قالت بنوع من التسليم:

ـ الله يقسم اللي فيه الخير.

ما كاد لوداد أن تسلّم بهذه السهولة، أو أن تقول مثل هذه الكلمة، لو أنها لم تسمع حركة خلفهما. التفتت، كانت سلمى اللاثغة، ذات الضفائر الذهبية، التي تعرف كيف تدخل إلى القلب، هي التي أتت. لم تتذكر سؤالها لأمها في الليلة الفائتة عن الرجل ذي اللحية، هجمت عليه، تعلقت برقبته، زحفت على صدره، ومدت يدها الصغيرة إلى لحيته ثم سحبتها بسرعة وبقوة رد الفعل. سلمى التي وصلت إلى موران في ذلك اليوم، أوائل الصيف، والتي سألت مئات المرات: «متى نصل» وكانت تريد الوصول أسرع من البرق، وبعد أن نامت وصحت في هذا الطريق الصحراوي الطويل مرات كثيرة، والتي نظرت بلهفة أول الأمر ثم زهقت وبدأت تكلم لعبتها، سلمى ذاتها سألت أباها: بابا.. متى نرجع إلى بيتنا، ولما داعبها وقال لها: هذا بيتنا، وطلب إليها أن تتحمل وتنتظر، تحملت وانتظرت، وكان في ذلك قدر غامض ملعون هو الذي أعطى لحياتها ذلك المعنى الذي لم تدركه، وذلك النغم الحافل الصاخب، حتى بصمته!

بعدها جاء الجميع. جاءت أول الأمر نادية: بين الصبا والشباب: نحيفة، ليست طويلة وليست قصيرة، عيناها عسليتان كبيرتان وتضحكان دائماً، تعرف كيف تتصرف، كيف تجامل. قالت له وداد في الليلة الفائتة،

بعد أن ذهب الأولاد للنوم، أن نادية، بنت أختها، كانت تساعدها، وأنها، «بعد أن تركت المدرسة، الوحيدة التي تلائم غزوان.. ويجب أن نربيها على أيدينا». والحكيم الذي سمع ولم يعلق بدا له الأمر مبكراً، وأن غزوان أصغر من أن يفكر في الزواج. الآن وهي تأتي، وهي تضحك مثل عصفورة صغيرة، وهي تحمل فناجين القهوة الفارغة وتسأل ما إذا كان «عمو» يريد فنجاناً آخر، أو يريد كأساً من الماء، وحين يرد عليها شاكراً ومعتذراً، تضحك بخجل، وتسأله من جديد إن كان يتذكرها لأنها تتذكره جيداً، وجواب الحكيم المتقن الواثق، أنه يتذكرها تماماً، وأنها لم تتغير خلال هاتين السنتين، يحرض الاثنين على مراجعة سريعة، وهذا التحريض ينصبّ كله على الجسد، فقبل سنتين لم تكن واثقة هكذا، ولم تنظر إلى الرجال هكذا، ولم تحس في أعماقها حركة خفية جامحة مثلما تحسها الآن، أما هو فلم يرها قبل سنتين بثديين تكورا وكبرا هكذا، ولم ير أردافاً اكتنزت وبرزت بهذا القدر. حتى الضحكة التي كانت صغيرة خجولة قبل سنتين فإنها الآن شيء آخر!

وجاء كمال وحامد معاً. كانا كبيرين وصغيرين في نفس الوقت. كانت لهما أسرارهما الخاصة، وطريقتهما في الكلام، وكانت لها النغمة ذاتها في الرفض والقبول. وعندما سألهما إن كانت موران جميلة ويريدان أن يعيشا فيها، فقد اختلطت الإجابتان معاً، لكن فهم أن أياً منهما لا يريد أن يبقى. قال في محاولة لأن يلقي درساً يتذكره الأولاد لفترة طويلة، خاصة وقد رأى غزوان قادماً واقترب كثيراً:

- الوطن ليس الأرض أو البشر، الوطن، من خلال التجربة، هو المال، والإنسان محل ما يُرزق يلزق، لأن الواحد عندما يكون غنياً يكون قوياً، وكل مكان هو فيه وطنه... وبكرة الحياة تعلمكم!

انتظر غزوان إلى أن انتهى أبوه من كلامه، ظل واقفاً بأدب ظاهر يستمع، ينظر إلى الوجوه، ينظر إلى أبيه بحب يمازجه الإعجاب، فلما انتهى قال بصوت أراده واضحاً:

- صباح الخير بابا.

والحكيم إذا كان حائراً منذ وقت طويل، لأنه يحب أولاده حباً متساوياً، فإن غزوان، «هذا الملعون يسحره» ولذلك يحبه أكثر من الآخرين. كان يفسر الأمر في البداية أنه الولد البكر، وفي وقت لاحق بدا أقرب إلى رأي أخته خيرية التي كانت تؤكد أن «غزوان مثل أبيه بكل شيء. فولة ومقسومة، بس واحد كبير وواحد صغير» أما خلال زيارة الحكيم الأخيرة فقد بدا له غزوان رجلاً قبل الأوان: كان يحب جلسات الكبار وأحاديثهم، وكان يتصرف مثل أب: يوجه إلى إخوته الأوامر، يخاف منه أخوته، ينظرون إليه نظرة تختلف عن نظرة الأخوة إلى بعضهم؛ حتى الجوار، كما قيل للدكتور، ينظرون إليه «مثل رجل صغير»! وكان لا يتردد في أن يفعل كما يفعل الكبار. الآن والحكيم ينظر إليه في ضوء النهار فوجئ أن شاربيه طرّا وصوته اخشوشن فأصبح كالرجال، حتى نظرته تبدو أكثر جرأة وتحديداً مما كانت عليه من قبل. قال الحكيم لنفسه «الولد سر أبيه» وشعر أنه يحب غزوان وينظر إليه بشكل خاص. قال بصوت استعراضي:

ـ تعال... تعال يا ابني.

ومن نظرة أخلى كمال الكرسي الذي كان يجلس عليه إلى جانب أبيه، ولما جلس غزوان ظل صامتاً ومطرقاً. قال أبوه بمودة ظاهرة:

ـ ها يا غزوان إحكِ لي كيف كانت السفرة.. وكيف تركتم الناس هناك؟

ـ كل شيء كان ممتاز يا بابا، والناس هناك، كلهم.. كلهم قالوا لي: أمانة سلّم على بابا.

واهتزت أعطاف الحكيم وهو يضحك بلذة.

ـ وشو كمان يا غزوان؟

ـ الحكي كثير يا بابا.. بس لا أعرف كيف أبدأ!

وشعر الحكيم بثقة أكبر وهو ينظر إلى ابنه، نقل عينيه في وجوه الآخرين، وبعد قليل سأل:

ـ ودراستكم... كيف كانت الدراسة؟

قالت وداد بحسرة:

ـ أنا خايفة عليهم من ناحية الدراسة. هناك كانت دراستهم ممتازة. يخزي العين...

قال الحكيم بثقة:

ـ يا أم غزوان... أنا ما بعثت وراكم إلا بعد أن درست كل صغيرة وكل كبيرة، وتأكدت بنفسي...

ودون أن يفسح المجال أضاف بلهجة فخمة.

ـ المدرسة الخاصة في موران موجودة، ومستواها ومناهجها مثل بيروت، أحسن من بيروت، وما راح يتغير شيء على الأولاد.

سأل كمال بمكر.

ـ والأولاد والبنات مع بعض؟

نظر إليه غزوان نظرة تأنيب. قالت الأم بتورية:

ـ موران ما هي بيروت، ولا تفتح نفسك كثير.

قال حامد مازحاً وكانت كلماته تتعثر:

ـ كما قال لي ما راح يتجوز من هون!

ردت الأم بخشونة مبالغ فيها، وكانت تريد أن يسمع زوجها:

ـ يلزمكم قطع لسان، لأن الواحد منكم بعده ما فقس من البيضة ويحكي كلام أكبر منه!

وتغيرت نبرة صوتها:

ـ وإذا كنتم هناك فلتوا، وكان أبوكم بعيد، من اليوم، أي خطأ، أي كلمة راح الواحد يتكسر راسه.

قال الحكيم ليصلح الموقف:

ـ طوّلي بالك يا أم غزوان، الشباب صاروا كبار وصاروا يقدروا مسؤولياتهم ويعرفوا اللي بيجوز واللي ما يجوز.. وبعدين لكل حادث حديث!

ما كاد الأسبوع الأول يمر على وصول العائلة، حتى استأذن الحكيم، بكثير من التواضع والخجل، أن يوافق صاحب الجلالة على أن تقوم حرمه بزيارة خاصة للماجدة زوجة السلطان، لتقدم احترامها ولتكون في الخدمة. وإذ أجاب السلطان، بكلمات سريعة مرتبكة، أن الأمر لا يحتاج إلى هذه الموافقة، ولأن نساء القصر، بمن فيهن حرمه، لم يتعودن على مثل هذه المراسيم، فقد خطا الحكيم خطوة إضافية إذ طلب من جلالته أن يتفضل بتخصيص دقيقة واحدة فقط من وقته لكي يقوم غزوان بتقبيل يديه. وغزوان الذي أصرّ منذ اليوم الثاني على أن يرافق أباه «لمرة واحدة. . .» ويزور القصر ويعرف أين يجلس أبوه وكيف يعمل، رافقه مرة ثانية. والآن وصاحب الجلالة السلطان يهز رأسه ويقول إن «ابنك مثل أولادنا يا دكتور وأهلاً وسهلاً ولازم نتعرف عليه» يغمز الحكيم مليحان حاجب السلطان، لكي ينادي على غزوان ويقول موضحاً ومعتذراً:

ـ خير البر عاجله يا صاحب الجلالة، وغزوان جاء معي اليوم ليقوم بهذا الواجب.

ومثل القصص التي تروى عن الأولاد الأذكياء الذين تتاح لهم الفرصة لمقابلة الملوك والرؤساء، كيف يتكلمون وكيف يتصرفون، فقد حفظ غزوان الدرس كله، فما كاد يدخل بثيابه العربية البيضاء الأنيقة، ووجهه الأحمر، من الصحة والخجل، حتى قال بصوت استعراضي عالٍ لا يتحمله المكان ولا العدد القليل من الرجال الموجودين:

ـ السلام عليكم.

وأحنى رأسه أكثر من مرة للسلطان تعبيراً عن الاحترام الشديد، ثم نظر

ناحية اليمين وأحنى رأسه، وكذلك فعل ناحية اليسار، لكن الانحناءتين كانتا أقل وأسرع مما فعل وهو يحيي السلطان. ما كاد يفرغ من هذه الحركات التمثيلية حتى تقدم نحو السلطان وقبّل يده.

أخذ السلطان بحركات الفتى، قال له بكثير من الود:

ـ تعال... تعال يا وليدي، تقرّب مني.

ومثل الفتاة الخجولة نظر غزوان نحو أبيه يستشيره ما إذا المكان الذي أشار إليه السلطان أكبر منه أم لا، فلما جاءت كلمات الحكيم الواثقة:

ـ اجلس حيث أمر صاحب الجلالة.

جلس غزوان، نظره إلى الأرض ويداه متشابكتان عند صدره. أما حين سأله السلطان عن أحواله ودراسته فقد بدا خجولاً وهو يجيب بنفس الكلمات والتعابير التي لقنه إياها أبوه خلال الأيام الماضية. ولما سأله من جديد ما إذا كان يريد أن يصبح طبيباً مثل أبيه أم يفضل عملاً آخر، رفع رأسه لأول مرة، نظر إلى أبيه، ثم نظر إلى السلطان، وقال بصوت واثق مع ابتسامة:

ـ العمل الذي تريدونه سأقوم به يا صاحب الجلالة!

ضحك السلطان ضحكة مجلجلة وهزّ رأسه دلالةِ الإعجاب وقال مخاطباً الحكيم:

ـ نِعم الخلف لنعم السلف.

وظل الحكيم مطرقاً فلم ينظر في وجوه الذين حوله، وبدا أكثر من ذلك محرجاً، وكأنه فوجئ. وبعد أن مر بعض الوقت رفع عينيه إلى غزوان، وقال له بحزم، لكن دون غضب: الزيارة انتهت ويجب أن تنهض وتخرج. والصبي الذي تحرك أكثر من مرة، دون أن يعرف كيف يستأذن، ووقف ثم جلس، تطلع مجدداً إلى أبيه وكأنه يلومه أنه لم يوضح له كيف يجب أن يتصرف، قال الحكيم:

ـ والآن. يا صاحب الجلالة، هل تأذنون لخادمكم بالانصراف؟

والسلطان الذي لم يتعود، بعد، على هذه الطريقة في الخطاب، بدا له أن الحكيم يبالغ، رد بارتباك:

ـ انشاء الله نشوف المحروس مرات ومرات!

بعد بضعة أيام قامت زوجة الحكيم بزيارة لجناح النساء في القصر. وقد اصطحبت معها سلمى. ورغم الجهد الكبير الذي بذلته لاستعادة بعض الكلمات التي حرص الحكيم على أن يرددها أمامها، وطلب إليها أن تحفظها وتستعملها، فقد أحست أنها غير قادرة على أن تلوي لسانها كما يفعل هو، ولذلك، وخلال اللحظات الأولى، لم تتردد في أن تكون كما هي، لأنها إذا أصبحت موضع سخرية، منذ البداية، فلن تستطيع شيئاً في وقت لاحق، ولأنها قالت لنفسها «الأفضل أن يضحكن من لهجتي من أن يضحكن عليّ». وإذ فوجئت بنساء القصر، ولم تستطع أن تحدد أيتها زوجة السلطان، فإن بعض ما قيل فاتها، أو لم تستطع أن تفهمه على وجه مؤكد. ومع ذلك استطاعت أن تميّز الأميرات من الخادمات، ليس فقط من الملابس، وإنما من طريقة التعامل والنظر أيضاً. واستطاعت أن تفهم الكثير مما سألنها عنه. كانت الأسئلة مركّزة حول الحكيم بالدرجة الأولى. سألنها ما إذا تزوجته قبل أن يصبح حكيماً أم بعد ذلك، وهل هو قادر على معالجة كل الأمراض. وسألنها أيضاً، مع ابتسامات غير بريئة، ما إذا كان يعالج النساء وكيف «يكشف» عليهن، وهل يكون عادة معهن بمفرده أم يكون أحد معه. وزوجة الحكيم التي أجابت عن هذه الأسئلة دون تحرج ولم تخف شيئاً، لم تدرِ إن كانت ابتساماتهن والنظرات التي تبادلنها نتيجة المعلومات التي ذكرتها أم بسبب لهجتها. ومع ذلك شعرت بالسرور والرضا وهي تتحدث، وأحست أنها يمكن أن تكون قريبة من هاته النسوة، وأن تصبح محبوبة!

أما سلمى التي بدت كاللعبة، بضفائرها الذهبية وملابسها الأنيقة، فقد لفتت نظر الجميع من الوهلة الأولى بحركاتها وأسئلتها. كانت أول الأمر كالقطة الخائفة، تربض إلى جانب أمها، لكن بمرور الوقت بدأت تنقل نظراتها في وجوه النسوة وتتطلع إلى كل ما حولها، وقد ردت على الابتسامات بخجل في البداية ثم ما لبثت أن تجرأت، أما حين قامت إحدى النساء وغابت فترة قصيرة ثم جاءت بسلسلة ذهبية وطلبت من سلمى أن

تقترب، فلما تمنّعت دفعتها أمها وشجعتها فتقدمت بتهيب أقرب إلى الخوف. وحين وضعت تلك المرأة السلسلة في رقبتها وقبلتها أحست الصغيرة بالفرح والطمأنينة ولم تمانع في أن تجلس لبعض الوقت إلى جانبها وأن تنظر إليها بين فترة وأخرى.

وداد وهي تحدث زوجها عن الزيارة لم تستطيع أن تنقل إليه صورة واضحة، إذ إضافة إلى عدم وجود موضوع يشكّل محوراً للحديث، فقد كانت تعطي للنساء صفات أو وضعيات مبهمة للغاية، كأن تقول المرأة الكبيرة. وتلك الأصغر منها، وهذه التي كان تجلس ناحية اليمين، والثالثة عن يسارها. هذه الطريقة في نقل ما جرى خلقت لدى الحكيم تشويشاً إضافياً. كان يريدها أن تحدّثه عن زوجة السلطان بالذات: عن جمالها وعمرها، ما تحب وما تكره، وأي نوع من النساء هي، لكنها لم تكن متأكدة. وتلك الأوصاف العامة المتداخلة جعلت الصورة تهتزّ وتضطرب. أما الأسئلة التي تناولته بالذات فقد مرت عليها زوجته بشكل عارض، ولم تذكر إلا أقل الأشياء. وحين أطلعته على السلسلة الذهبية التي أعطيت للصغيرة، والتي خلعتها من رقبتها وهما في السيارة «خوف أن تضيع.. وستكون لك عندما تكبرين» هكذا قالت لها، ووضعتها فور عودتها في تلك العلبة التي تضع فيها حليها وأشياءها الثمينة، حين اطلعت الحكيم على الهدية بدا مسروراً للغاية. قلّب السلسلة عدة مرات وارتسمت على وجهه علامات التفكير. قال في لحظة إشراق:

- أنا واثق تماماً أن المرأة التي قدمت الهدية هي بالتأكيد زوجة السلطان!

وحين أبدت زوجته دهشتها واستغرابها، قال وكأنه لم يلاحظ:

- العادة في هذه البلاد أن «الكبير» هو الذي يقدم الهدية، ولا يمكن لأحد أقل منه أو أصغر أن يتجاوزه ويفعل ذلك.

- ولكنها لم تكن تجلس في الوسط!

- إنهم يحبون أن يكونوا قريبين من الضيف.

- وامرأة ثانية، أكبر منها، ويسمونها أمي زهوة، كانت تنظر إلى

الجميع وتراقب الجميع، وكانت أية واحدة لا تتكلم قبل أن تنظر إليها وتستأذنها.

ومن جديد بدأ الحكيم يستوضح ويدقق، لكنه ركز أسئلته حول المرأة الكبيرة بالذات. ماذا قالت وكيف تصرفت، وأصرّ وهو يسألها من جديد أن يعرف كيف نظرت إليها!

في صباح اليوم التالي، وسلمى تدور حوله، تداعبه، تنشد له بعض الأشعار والأغاني التي حفظتها، قال لنفسه وهو ينظر إليها «أنتِ وغزوان ولدتم في نفس البرج: برج الدلو، وبرج أبوكم ما هو بعيد عنكم».

وغرق الحكيم في أفكار وأحلام كثيرة، لكنها كانت مضطربة متداخلة، وحين جاء أبو عبد اللّٰه بقهوته المرة قال له الحكيم وكان يبتسم:

- إذا الشيء اللي ببالي صار، يا أبو عبد الله، راح أعطيك إكرامية أكبر من معاشك!

ومثّل الحكيم دوراً كاملاً وهو يشرب القهوة، وبدا واثقاً متأكداً وهو يهز الفنجان الثالث والأخير، دون أن ينظر إلى أبي عبد الله إلا نظرة صغيرة خاطفة، تماماً كما يفعل السلطان حين ينظر إلى فرحان.

قال الحكيم لنفسه وهو يصعد السيارة «برج الجدي أو الدلو يحوُّل الرمل إلى ذهب وانشاء الله أملي ما يخيب!».

وداد الحايك، أو «أم الأولاد»، كما يحب الحكيم أن يسميها، ليست سليلة عائلة عريقة كما يطلق عليها محمد عيد، فهي البنت الأخيرة لوجدي الحايك، ذلك الرجل الذي تعب من كثرة التنقل بين المهن والأماكن، إلى أن استقرّ في طرابلس. وفي طرابلس، حيث بدأ الدكتور صبحي ممارسة المهنة، وعن طريق أمه، الشديدة التدين، والتي تعتبر أن الزواج ستر، وأن من يريد اختيار فتاة للزواج يجب أن ينظر، قبل الجمال والمال، إلى أمها، كيف تعامل أباها، وهل تخاف الله وتميز بين الحلال والحرام.

عن طريق أمه تزوج الحكيم بنت وجدي الحايك، وكان الأب، في تلك الفترة، قد استقر على مهنة جديدة: قسام شرعي، وهذه المهنة التي استهوته تماماً، وجعلته لا يتحدث إلا عن الموت والموتى: كيف خطف الموت البشر وأبقى الثروة، لكي يختلف عليها الأحياء، ولولاه لأمات الناس بعضهم بعضاً، وأن الموتى ذهبوا إلى الباري بأكفانهم، ولا يمكن تمييز الواحد من الآخر أو التفريق بينهم.

كانت وداد تسمع هذه القصص في الليل والنهار، وتولدت لديها نتيجة ذلك كراهية لهذا البيت الذي لا تدور فيه إلا قصص الموت والموتى. أما حين جاءت أم الحكيم تختبر ثم تخطب، فقد مثّلت معها وداد دوراً كاملاً، واجتازت بنهايته الاختبار، فما كادت تقترب منها أم الحكيم لتتأكد من رائحتها حتى أعطتها نفسها، وقبل أن تطلب منها القهوة اقترحت على أمها أن تصنعها بنفسها. أما حين نظرت أم صبحي، في لحظة غياب وداد وأمها، تحت الفراش فقد تأكدت أن «نظافة الجماعة مثل البلور أو مثل

نظافة الجامع». بعد أن اطمأنت العجوز لكل شيء جرى الحديث عن الخطبة.. ثم الزواج.

والحكيم الذي رأى الفتاة، وقد أعجب بالضفيرة الطويلة والبشرة البيضاء، وكانت وداد تختلف عن الأخريات بطريقتها في التصرف، لم يتردد كثيراً في الموافقة على رأي أمه، وإن كانت مهنة الأب قد سببت له نوعاً من المضايقة. لكن وجدي الحايك الذي ظل بعيداً في المرحلة الأولى، حين كانت تجري المفاوضات وتدبر الأمور، ما لبث أن ظهر، لكن ظهوره الناعم المتقن، وطريقته في الكلام والتصرف، تركا نوعاً من الراحة في نفس الحكيم، حتى أنه لم يحس أنه أمام رجل مهنته تقسيم المواريث. ووجدي الحايك الذي ذكر عرضاً المهنة، أشار بطريقة لا تخلو من الذكاء والمكر، أن هذه المهنة لا تختلف عن غيرها، وأنه يمارسها لأنها أقل إزعاجاً من مهن أخرى، وأنها تماماً مثل مهنة النجار أو مهنة الحلاق، وكاد يقول ومهنة الطبيب أيضاً، لكن الابتسامة الصغيرة والعبارة العامة التي استعملها أوضحت ما يريد دون كلمات!

ولكي لا يواجه الطبيب إحراجاً، وربما أساءة لفهم مهنته بالذات، فقد غيّر مكان سكناه، وتكتم على أمر الزواج فترة من الزمن، بل وأخذ يفكر بترك طرابلس إلى مكان تتوافر فيه فرص أكبر، وهذا ما حمله إلى حلب. وفي حلب كون لنفسه اسماً ومنزلة، وبعدها انتقل إلى دمشق فبيروت، إلى أن صار طبيباً لبعثة الحج، وبعدها طبيباً في حران.

وداد التي كانت أمام شبح الموت الذي تخافه وتهرب منه باستمرار، لأن «رائحة الموتى عالقة بثياب أبي، وجو الآخرة لا يفارق أمي» لم تتردد في أن توافق الحكيم على الانتقال من مكان إلى آخر. أما حين رافق بعثة الحج أول مرة، وعاد وذكر أنه لم يتوصل إلى نتيجة بالنسبة «الأملاك العائلة» لأن الوقت كان قصيراً «وهؤلاء الحجاج المسنون لا يرتاحون ولا يتركون أحداً يرتاح» ويجب أن يعود مرة أخرى لمتابعة بحث الأملاك «ولأن هذه البلاد لها مستقبل، ويمكن للإنسان أن يصبح غنياً بين يوم وليلة، إذا كان فهيماً وشاطراً».

اعتبرت وداد أن فكرة من هذا النوع لا تزال مبكرة، ولا تقتضي خلافاً بشأنها مع زوجها، ولم تظن أن الحكيم قرر السفر والمغادرة.

في السنة التالية، وحين تقرر أن يرافق بعثة الحج أيضاً، وقبل أسابيع من موعد السفر، ولكي لا يترك لنفسه أو لغيره الاعتراض أو المناقشة، قام بتصفية العيادة وتحويل الزبائن، وفي الأيام الأخيرة، حين كانت وداد تعد له ملابسه والأشياء التي يحتاجها، قال لها إن إقامته، هذه المرة، ستكون طويلة، وقد يبعث وراءها لكي تلتحق به، ولذلك ترك لها مبلغاً كبيراً، أكبر من أية مرة سابقة «أما البيت فاتركيه وخيرية تتولى بعدك كل شيء». ووداد التي تعودت على الموافقة، وتعودت أكثر من ذلك على هذا الرجل الذي يفكر وحده ويتخذ القرارات دون أن يقول لماذا، لم تعترض هذه المرة أيضاً، خاصة وأن احتمال أن يراجع الحكيم أفكاره وقراراته احتمال لا يزال قائماً. أما بعد ان استقر في حران، وجاء عدة مرات في زيارات قصيرة، وحدثها عن هذه المدينة التي تعج بالحياة والمال والمستقبل، وقال لها إن عيادته السابقة في حلب لا تتعدى أن تكون غرفة حراسة في المستشفى الكبير الذي بناه في حران، وأنه بدأ الآن بتحقيق الأفكار والأحلام التي ملأت رأسه، فكانت تحاول أن تصدقه، وإن كان يكفيها أن تبقى حيث هي، وأن يأتي الحكيم بين فترة وأخرى، وأن يرسل من المال ما يكفي للانفاق على البيت والأولاد.

قضى الحكيم سنوات في حران، بعيداً عن زوجته وأولاده، لا يأتيهم إلا مرة في السنة، وبعض الأحيان مرتين، لكن لا يبقى إلا أسابيع قليلة، يكون خلالها مشغولاً بتأمين الأدوية والمعدات والممرضين، وبعض الأحيان الأطباء، ويبحث مع الكثيرين في مشاريع وأفكار لا تمتّ إلى مهنته بأية صلة، ثم بعد ذلك وبسرعة يبرم عقوداً وينجز مشاريع لا يعرف أحد طبيعتها وحجمها، أو كيف ستدار ومن سيديرها. فإذا سألته وداد يجيب بكلمات قليلة تزيد عقوده ومشاريعه غموضاً. أما أملاك العائلة التي كانت السبب في رحيله أول الأمر، فلم يعد يتطرق إليها. أما حين سألته ذات مرة، فقد نظر إليها باستغراب كأنه يحاول أن يتذكر، فلما دارت عيناه

وعرف عما تسأله ابتسم ابتسامة كبيرة وأجاب:

ـ المسألة فيها أمل كبير. . . كل ما تحتاجه الملاحقة والوقت!

ولم يضف شيئاً آخر، ولم تسأل هي مرة أخرى.

خلال هذه السنوات لم يتغير الحكيم وحده، تغيرت وداد أيضاً. فالنظرة المسالمة إلى كل ما حولها، وتلك الطاعة التي كانت تميز سلوكها، وتصرفاتها، والفلسفة التي حاول الحكيم أن يزرعها في وجدانها خلال السنوات الأولى من زواجهما، تغيرت كلها، لم يجر التغير سريعاً أو دفعة واحدة، كما لم يجر نتيجة تدبير واع أو لسبب محدد.

كانت تريد أن تهرب من الموت، ووافقت أن تكون بذلك الشكل مع الحكيم، لأنه كان يملأ البيت وكل ما حولها، ولأنها لم تجد شيئاً آخر ولم تكن تعرف أحداً غيره. الآن والحكيم يبتعد ويبتعد، وحين يأتي في تلك السفرات القصيرة ويغرق في مشاريع جديدة، وجدت وداد أن الحياة التي تحياها صورة أخرى من صور الموت الذي هربت منه.

كانت الأيام والأسابيع التي يقضيها إلى جانبها تشعرها بالرضا، لكن تحس أنها بحاجة إلى أكثر من ذلك، فالمال الذي يشير إليه إشارات سريعة وغير مباشرة لا يمكن أن يكون مالاً حقيقياً، إذا لم تتلمسه بيديها، إذا لم يتحول إلى شيء يمكن أن تستمع به في كل لحظة، والأهمية الإضافية التي صارت لزوجها هناك، في حران، تلك المدينة المجهولة والتي لا تعني لها شيئاً محدداً، لا تمثل أهمية بالنسبة لها ما دامت بعيدة منسية لا يتذكرها إلا كما يتذكر الأدوية والأمراض والموت. أما الأولاد الذين كانوا يكبرون كل يوم، وكان يريدهم على شاكلته أو نسخاً أخرى منه، فلم يعودوا يرونه إلا فترات قصيرة، فحين يكون موجوداً لا يكونون، وحين يعودون من مدارسهم يكون قد غرق في مشاريع ومناقشات غامضة مع أناس لا تعرف كيف استخرجهم كالساحر، فجاءوا لزيارته مرة أو مرتين ثم لم تعد تراهم بعد ذلك.

وجسدها كان هماً بالنسبة إليها. فالحكيم الذي اشتعل وكاد يحترق قبل أن يتزوجها، وقد أحست ذلك من نظراته، ومن تلك الرجفة التي

كانت تميّز شفته السفلى، كان هذا الجسد طوفاناً على كل شيء خلال السنوات الأولى من زواجهما، وإذا أحست بعد تلك السنين أن الحكيم جرفته أفكار وهموم لم تستطع أن تفهمها تماماً، فقد فسرت الأمر بالتعب والانشغال، وكانت متأكدة أنه سينتفض مرة أخرى، كما ينتفض الديك في شمس يوم ربيعي بعد رذاذ خفيف، لكي يعوض الأيام التي فاتتها، لكن والحكيم يغرق أكثر فأكثر، ثم يسافر ويغيب فترات طويلة، فإن هذا الجسد الذي حاولت بكل طريقة أن تخضعه، أن تروضه، مرة بالرضا وأخرى بالغضب، كان يتمرد عليها، يصرخ ويطالب، خاصة في أواخر الليل وعند الفجر، ويظل مستيقظاً متحفزاً كأنه ينتظر بعد لحظات دقات يعرفها لكي ينتفض وينقضّ ولكي يعطي أيضاً!

الرجل الأول الذي عرفته بعده جاء به الحكيم نفسه. لم يكن ذلك الفتى الذي يسكن مقابل بيتهم في طرابلس، والذي كان يروق لها أن تراقبه ساعات وساعات من وراء ستارة نصف مسدلة، وهو يدرس، وهو ينزع ثيابه، وهو يقوم بتمارين رياضية. كانت تشتهيه، وكانت زفراتها حارقة حين ترى صدره العاري. وترتبك حين تراه في الشارع. ذهب ذلك الشاب دون أن تقول له كلمة واحدة، رغم أن طيفه لم يفارقها، فقد كانت متأكدة أنها ستلتقي به في يوم من الأيام وستقول له كم كانت تحبه وكيف كانت تراقبه وتشتهيه!

الرجل الذي جاء به زوجها، قبل سفره إلى حران بثلاثة أيام، كان طبيباً مثله، أو بالأحرى كان الطبيب الذي سيحلّ مكانه في العيادة. جاء إلى البيت لكي يتكلم مع الحكيم «كلمتين على رواق» ولكي يتفاهما بصورة نهائية. وداد التي قدمت القهوة وجلست قليلاً، فقد نظرت نظرة عابرة إلى الطبيب الشاب، أحسّت أنه أكثر خجلاً من الرجال الذين في مثل عمره، أو يمارسون مهنة مثل مهنته، ووجدت شبهاً أقرب إلى التطابق بينه وبين ممثل مصري أحبته ذات يوم، كادت تقول له ذلك، لكن الخجل أو ربما التهيب الذي أحست به تجاه رجل تراه لأول مرة، منعها.

أما بعد ذلك، وحين ذهبت إلى العيادة، نتيجة آلام كانت تحسها في جسدها كله، وقد تمّ هذا بعد سفر الحكيم ببضعة شهور، وبعد أن قام الدكتور عماد القباني بفحصها فحصاً دقيقاً، أكد لها أن ما تشكو منه عارض طارئ، وأعطاها دواءً مهدئاً، وجدت أن هذه الآلام تعاودها مرة بعد أخرى، وأنها تحس بالراحة أو ما يقارب الشفاء بمجرد أن تلامس يداه

جسدها، وإذا كانت قد كذبت عليه أكثر من مرة، وزعمت أنها تناولت الدواء، فلم تكن تشعر أنها بحاجة إلى الدواء قدر حاجتها إليه.

في المرة الرابعة، وقبل أن يفحصها، قالت له أنها لا تعرف كيف يأتيها الألم وكيف يغادرها، وأكّدت أن ما تشكو منه لا علاقة له بالمرض، قالت ذلك ونظرت إليه بطريقة معينة، ولم يكن عماد بحاجة إلى كلمات إضافية لكي يفهم. أما حين طلب إليها أن تنتزع ملابسها لكي يقوم بفحصها، فقد أصبحت خلال ثوان، وقبل أن تصل طاولة الفحص، مثل عصفور يرتجف. كانت خائفة ومنتشية، تمتلكها حالة أقرب ما تكون إلى الحمى. كانت تحس أن في داخلها قوة أكبر منها، قوة جامحة، هائجة، وأشبه ما تكون بالريح، وخلال ثوان قليلة، دون أن تدرك ودون أن تخطط، وجدت نفسها تتعلق برقبته، تحتضنه. وإذ لم يستغرب، وسيطر على عواطفه، بأن أعطى لوضعه مظهراً أقرب ما يكون إلى الاستجابة الحذرة، فقد داعبها ونظر إلى أعماق عينيها وكأنه يقرأ فيها موافقة أخيرة، فلما تأكد اتفق معها على الليلة ذاتها.

بعد الليلة الأولى، وبعد كل ليلة تلتها، كانت وداد تحس أن في داخلها إنساناً آخر هو الذي يفعل كل شيء. وإذا كانت قد بكت على صدره في المرة الأولى كما تبكي الطفلة الصغيرة، ولم تستطع أن تنظر إلى عينيه، ولم تستمر في الاستجابة إلى مداعباته، فقد أصبحت بعد تلك الليلة امرأة من نوع مختلف: أصبحت حائرة. كانت تقرر بحزم يصل حدود الغضب أن لا تكرر هذه الخطيئة. وكانت تعاقب نفسها. لكن ما تكاد فترة تمضي ويلتهب جسدها من جديد، وتتلاعب فيه تلك القوى الخفية، تقوده وتسيّره، حتى تنسى كل الكلمات التي قالتها، والوعود التي قطعتها، وتندفع نحوه بقوة أكبر.

استمرت الأمور هكذا شهوراً طويلة، وقد خصصت كل ذكائها وجنونها لكي تصل إليه دون أن يحس ودون أن يدري أحد، وكانت دائماً تجد الوسيلة إلى ذلك. ورغم أن للآخرين، خاصة النساء اللواتي يعرفنها، عيوناً خفية ترى دون أن تنظر، وتعرف من رائحة الأشياء والظلال، فإن

وداد التي تحس في عيون النساء حولها تساؤلات أقرب إلى الاتهام، وتحس أن هذه العيون تجلدها، فقد حرصت أكثر من قبل أن تتوارى، أن تهرب، فإذا توارت أو هربت لفترة أطول من أن يحتملها عماد، كان دائماً يجد الطريقة التي يصل إليها: أجرة العيادة، الضرائب المترتبة على البناء، فواتير الماء والكهرباء القديمة. إضافة إلى ضرورة المرور على البيت لتفقد الأولاد والتأكد من وضعهم الصحي، كما أوصاه الحكيم قبل سفره! كانت هذه أسباباً كافية، فإن لم تكن وجد غيرها، وفي كل مرة تحاول الهرب يلتقطها، ويعيد إليها جسدها أو إحساسها بهذا الجسد، ورغم محاولات المقاومة كانت دائماً تقع، وبعد كل مرة تعاودها الأحزان ومشاعر الضآلة ومعاداة الجسد، لكنها مستمرة، قوية الاستجابة، لا تعرف حداً أو نهاية.

وإذا كان قد عذبها منذ البداية أنها لم تخطط لهذا الذي حصل، فإن ما يعذبها أكثر هو شعورها أن الدكتور عماد ضحية، وأنها هي التي اقتحمت عزلته وأرغمته، وهذا الشعور الذي أخذت تنساه، أو تغيّبه في زوايا الذاكرة، خاصة وهي ترى لهفة ضحيتها وتوسلاته، وذلك التضاؤل الذي يصل حدود التلاشي أمام جبروتها الذي يزيد ويفيض مرة بعد أخرى، شهراً بعد آخر، فقد جاء الوقت لكي تضع بنفسها حداً لكل شيء، إذ ما كاد يشعرها أنه قرر الزواج، وأن الوضع الجديد يفرض عليهما انقطاعاً لفترة من الزمن، وطريقة جديدة في اللقاء والعلاقة، حتى قررت قراراً لم تتراجع عنه أبداً. استمعت إليه بعيون مفتوحة، وكأنها تتابع باهتمام كل كلمة يقولها، ولما انتهى، ولم تعرف متى انتهى، حتى ابتسمت ابتسامة ظافرة وقالت كلمة ظل يتذكرها سنوات طويلة:

ـ أنا التي أردت في الماضي. . وأنت الذي تريد الآن، ودائماً الكلمة الأخيرة للرجال. . .

ولم تودعه، ولم تقل له كلمة بعد ذلك، حتى لما جاء بعد عدة شهور حاملاً حقيبته الطبية ليقوم بفحص الأولاد، طلبت من خيرية، أخت الحكيم، أن تستقبله وأن تقدّم إليه القهوة. ولما جاء مرة أخرى. . أثناء زيارة من زيارات الحكيم، لم تقابله. ادّعت وتظاهرت بالمرض، وقالت

لزوجها إن الصداع يحصد رأسها ولا تستطيع مجرد الوقوف.

وغاب الدكتور عماد القباني من حياتها، رغم أنهما ظلا يعيشان في نفس المدينة لعدة سنوات لاحقة.

بعد أن استوعبت وداد الدرس، واعتبرت أن ما وقع زلة كانت أقوى منها، وحصلت رغم إرادتها، توجهت بكل قوى جسدها وعقلها نحو الأولاد. والحكيم الذي كان يعتبر أن الأولاد امتداده على هذه الأرض، وسوف يحملون، جيلاً بعد جيل اسم العائلة وملامحها وتقاليدها، لم يدرك أن اللحظة الخاطفة التي كوَّنت كل واحد من هؤلاء الأولاد، لا تعني شيئاً إزاء التراكم غير النهائي الذي حصل منذ تلك اللحظة، والذي لايزال يحصل، ويبقى كذلك حتى اللحظات الأخيرة. ولذلك فإن ما يعتبره امتداداً غير قابل للمراجعة، أو حسب تعبيره، سجله الذي لا يمحى ولا يزول، مجرد رغبة أو مجرد وهم لا يصدقه غيره، وأنه سيتلاشى حالما يغيب أو يبتعد، وهذا ما حصل فعلاً. أما ما تفترضه خيرية من الشبه، خاصة بين غزوان وأبيه، وما يتراءى كذلك للحكيم في لحظات نشوته فإنه لا يتعدى الطيف.

وجسدها؟ هذا الذي يعوي، يغضب ويتحدى، ولا يكف عن المطالبة، كيف تحاوره؟ سوف تروضه، ولن تتردد في أن تذله إذا اقتضى الأمر. وهذا ما حصل خلال الفترة الواقعة بين زواج عماد القباني ومجيء راتب الفتال.

إذ بمقدار ما كان يبدو راتب الفتال بنظر الحكيم شاباً ضائعاً أفسده الميراث المبكر، خاصة بعد أن قضى بضع سنوات بين الإسكندرية ومرسيليا، بحجة الدراسة في فترة والتجارة في فترة لاحقة، فقد عاد من هذه الرحلات، بعد أن أنفق قسماً كبيراً من المال الذي ورثه، ولم يحصل على أية شهادة، لكن حصل في المقابل على تجربة في الحياة واتقن أكثر من لغة أجنبية.

أما القرابة التي تجمع بين راتب والحكيم فكانت موضع شك، أو

بالأحرى، غير مؤكدة، لأن الحكيم لم يكن سعيداً بها. وكان يحاول أن ينفيها، أو في أحسن الأحوال لا يعترف بها بوضوح.

ظلت الأمور هكذا فترة من الزمن، وراتب الذي لم يكن مهتماً بإثبات هذه القرابة أو نفيها، وظل يبدل إقامته وعلاقاته مع تبدل الأعمال التي يشرع فيها ثم يصيبه الملل فيتركها، إلى أن جاءه الحكيم ذات يوم، وكان قد استقر في حران، ليعرض عليه صفقة العمر كما سماها. كان الحكيم بحاجة إلى مكتب للاستيراد والتصدير، وبحاجة إلى رجل يتقن اللغات وسافر في العالم وتعرف على البشر، وقبل كل شيء «واحد من عظام الرقبة» كما قال، وأكد أكثر من مرة، في محاولة لأن يثبت بطريقة غير مباشرة القرابة القوية التي تربطه براتب!

ما كان مثل هذا الاقتراح ليخطر ببال الحكيم لو لم يذكّره به مطيع. وراتب الذي رأى في هذا الاقتراح آفاقاً واسعة وهامة، وكان في مرحلة يحاول أن يجد مشترياً لعقار عرضه للبيع، ولا يجد هذا المشتري، ويبدأ يواجه صعوبات مالية.. في هذه الفترة جاء الحكيم وجاء الاقتراح، واتفق الإثنان دون صعوبة، الشرط الوحيد الذي أصرّ عليه راتب «أن لا أقيم في موران أو حران، وأن أبقى «عصفوراً طياراً» والحكيم كان يريد هذه الصيغة بالذات.

بهذه الطريقة تم الاتفاق على تأسيس الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل في بيروت، وأنشئ لها ثلاثة فروع: واحد في حران، والفرعان الآخران في نيويورك ومرسيليا. وفي إطار استكمال بحث التفاصيل والإجراءات تمت عدة زيارات بين الاثنين، ولأن القرابة كانت الأساس في قيام الشركة، فقد كانت وداد موجودة دائماً. ومنذ الزيارة الأولى استعادت بحدة ذكريات المرات القليلة السابقة التي التقت براتب. مرة في حفلة زواج زينة بنت أخت الحكيم، ومرة ثانية أثناء استقبال الحاج وهيب شخاشيرو لما عاد من الحج. ومرة ثالثة عند خيرية أخت الحكيم. في كل المرات كانت وداد تحس أن أول ما تفعله عينا هذا الشاب، العابث الواثق، أن تعريها من ثيابها. كانت نظراته، بعد أن تستقر على عنقها

بطريقة معينة، تزحف فتجتاز جسدها من الرقبة حتى بطتي الساقين. وفي لحظات قليلة تحس أن هذا الزحف الهادئ البطيء يتحول فجأة إلى اكتساح يحرق كل شيء. كانت تخاف من هذه النظرات وتحبها. كانت تهرب منها ولكن تحس أنها تحاصرها تماماً، فلا تلبث أن تستسلم إليها بلذة وكأن عدداً غير محدود من الأيدي يداعب كل خلية في جسدها. كادت في لحظة من اللحظات أن تقول ذلك للحكيم، لكن لم تجد في نفسها الجرأة، ولم تجد ضرورة أيضاً. وحين غاب راتب وقامت تلك القطيعة غير المعلنة، غابت معه نظراته، وتلك الشهوة اللافحة.

الآن وهو يعود، ووداد تسمع ما يقوله الرجلان، وهي تحمل الأطباق والكؤوس، وهي تعد المائدة، وهي تتحرك هنا وهناك، تحس أن ثيابها تتطاير من فوق جسدها. كانت الثياب تتساقط، قطعة بعد أخرى، بهدوء مرة وبعنف مرة أخرى، لتصبح عارية، عارية تماماً، فما تكاد تضع الأطباق على الطاولة وتتحرر يداها حتى تضعهما على خصرها ثم تنزلهما قليلاً قليلاً لكي تثبت الثياب، تشدها إلى جسدها، وحين تلتقي نظراته بنظراتها يتدفق الدم إلى رأسها كأنه الشلال، يعاود الصعود إلى منابعه الأولى، فترتبك، لا تعرف كيف تتحرك، أو إلى أين تذهب أو ماذا تفعل، فالعيون التي تزحم طريقها وتحاصرها وتجعلها عصبية جامحة. وعندما يتكلم معها راتب، وهم جلوس حول المائدة، تجد أن طريقته تختلف عن طريقة الحكيم. يعرف كيف ينتقي الكلمات، كيف يقولها، ويعرف كيف يبتسم، ويعرف أكثر من أي شيء آخر كيف ينظر إليها. إن نظراته، عبر طاولة الطعام، بروق لا تتوقف إلا لكي تبدأ من جديد، ومع لهيبها الكاوي يضيء جسدها كله، يصبح شديد الدفء، شديد النداوة وأبيض كالحليب. وفي الليل المتأخر، بعد أن يتفق الرجلان على جميع التفاصيل وتأوي إلى النوم، تحس أن جسد الحكيم، وهو يستلقي إلى جانبها، رخو مترهل، أشبه ما يكون بجسد الحامل. أما حين تتقلب على الجمر الذي في داخلها، فإنها لا تحتمله ولا تقوى عليه فإذا لفح جسدها نفس الحكيم، اللاهث المنقطع، فلا تعرف هل يبدأ الآن أو أنه قد انتهى!

قبيل أن ينتهي الأسبوع الثالث سافر الحكيم. وأن يتردد راتب على بيت الحكيم لكي يستفسر عن وصول بعض الأوراق، ولكي يبحث بعض التفاصيل فلذلك لا يثير شبهة أو تساؤلاً. إنه واحد من العائلة، وأثناء وجود الحكيم رآهما الكثيرون معاً، وسمع الكثيرون أيضاً أن شركة جديدة قد قامت، وهذه الشركة ليست لهما وحدهما، إنها للعائلة، للمعارف، ولكل من يريد أن يعمل. وراتب الذي تحرك ودار، وسافر سفرات قصيرة لاستكمال بعض الأمور، وبحث مع الكثيرين عن احتمالات للتعاون، كان يتصرف بتلقائية، دون خوف أو عقد، حتى أثناء زياراته لبيت الحكيم وتكون بعض القريبات أو مع الأولاد، ويجد أن الوقت أصبح مناسباً، لا يتردد في أن يخوض في شؤون الشركة، وفيما يجب أن يُعمل. وخلال هذه الزيارات التي تتكرر في أوقات مختلفة من الليل والنهار، تتشابك الخيوط، تضيق الحلقة، حتى إذا جاء في إحدى الليالي، وبعد أن أنهى الأولاد واجباتهم وذهبوا ليناموا، نظر إليها نظرة اخترقتها تماماً، قالت لها كل شيء.

هذه المرة لم تذنب وداد، لم تبحث عن خطيئة، فجأة وجدت نفسها بين فكي الذئب. حاولت بعقلها أن تقول لا، أن ترفض، لكن جسدها كان أقوى منها. كان جسدها متجبراً طاغياً. والحكيم الذي عجز عن فهم هذا الجسد أو عن ترويضه، أفلت منه. وعلى نفس الفراش، وعلى نفس الوسائد، وأن تغيّرت مواضعها، اكتشفت وداد، لا بل وتأكدت أن الموت الذي حاربته طويلاً كان يطوقها من كل ناحية، ولا بد أن يفترسها إن هي أذعنت واستسلمت له. الآن راتب ينفض هذا الجسد، يغير دورته الدموية، يبعث فيه الحياة من جديد؛ قالت له في الليلة ذاتها، وقد بدت متعبة أكثر من أية مرة سابقة:

ـ الآن ولدت من جديد!

واستمرت هذه الولادة وكبرت ما دامت الشركة الشرقية للاستيراد والتصدير والنقل تستمر وتكبر. أما بعد أن انتقل الحكيم إلى موران، وبعد أن أضافت الشركة للمواد التي تتعامل بها مواد البناء والخشب، فقد

أصبحت أكثر الليالي الواقعة بين آذار وبداية الصيف حرائق مجنونة يفتك لهيبها بكل خلية ميتة أو يمكن أن تموت في جسد وداد. ولما اقتربت أيام الرحيل إلى موران كانت تجد أن راتب ليس مفيداً لإنجاز بعض المهام فقط، بل الرجل الوحيد الذي يمكن أن يساعدها في الأعمال التي تحتاج إلى قوة الرجال وعضلاتهم! ولذلك أصبح وجوده في البيت، في أغلب الأوقات، أمراً مألوفاً لا بل ضرورياً، وعندما يتعذر على الاثنين أن يكونا في الفراش، كان الواحد منهما يداعب الآخر، بالكلمات، بالنظرات، وبالأيدي أيضاً، وكثيراً ما يغرقان في الضحك، يضحكان على نفسيهما لأنهما تحولا هكذا إلى طفلين كبيرين شقيين لا يعرفان كيف يتصرفان أو ماذا يريدان.

وفي الليلة الأخيرة بكت وداد مثل طفلة، بكت لأنها فرحت وعاشت بهذا المقدار، وبكت ندماً، وبكت شوقاً، وبكت لأن دبيب الموت بدأ يتسلل إليها مرة أخرى. وحين حاولت أن تفسر، بررت بكاءها أمام الصغار والكبار أنها تغادر المدينة وتغادرهم، ولا تعرف متى تعود ومتى تلقاهم مرة أخرى!

أما راتب الذي رأى الفرح واستمتع به، والذي رأى الدموع ورأى الحزن، فلم يجد سبباً كافياً لتفسير هذه الدموع كلها، وهذا الحزن كله، لكنه تظاهر بالحزن أيضاً، ليجعل لنهاية مرحلة من حياته جلالاً يتذكره فترة طويلة.

منذ وصلت عائلة الحكيم إلى موران وحي السفان والأحياء المجاورة لا تجد حديثاً أمتع من الحديث عن «الشوام»، فهناك الكثير الذي يمكن أن يروى، عن الصغار والكبار، عن الرجال والنساء. كيف يتكلمون، كيف يلبسون، وماذا فعلوا هذا اليوم أو في أيام سابقة. ومحمد عيد الذي ساهم، بطريقته، في خلق هذا الاهتمام، نتيجة القصص التي رواها، ونتيجة الحركة الدائبة والانتقال المستمر من مكان إلى آخر، هو ذاته كان موضوعاً لأحاديث كثيرة يرويها الناس.

والحكيم الذي لبى دعوتين أو ثلاثاً وُجّهت إليه من قبل الجوار، اعتذر عن تلبية أية دعوة بعد ذلك، بحجة انشغاله في القصر، ثم بسبب وضعه الصحّي، كما أشاع محمد عيد. أما حين وصلت العائلة، وأُبديت رغبات بدعوتها، فكان الجواب الذي يرد به أبو عبد الله أو رضوان واحداً لا يتغير: «السيدة مريضة. والأولاد يأكلون في المدرسة». أما عندما شوهدت زوجة الحكيم، في الأسبوع الأول لوصولها إلى موران، برفقته ومعهما الأولاد، وقد ذهبوا جميعاً للتفرج على الأرض التي سيقوم عليها بناء الدار، وكانت المرأة مكشوفة الوجه، تتكلم وتضحك، وقد رآها بعض الصبية، وتحدثت عرضاً إلى اثنين منهم، فقد أثارت من الاهتمام والاستغراب الكثير، لكن ما أثار الاستغراب أكثر تلك الفتاة الشديدة الفتنة بشعرها الذي كان يتطاير حين تركض، أو حين تلاعب الصغار. هذه الفتاة لفتت النظر بسرعة، ولم يبق أحد إلا وتحدث عنها. صحيح أن الصغار الذين كانوا يحومون حول الأسلاك هم أول من نقل الأخبار، لكن من هم أكبر منهم سناً، ثم الرجال بعد ذلك، تحدثوا في الأمر، وقدر الجميع أن الفتاة هي البنت البكر للحكيم.

أما بعد ذلك، وحين بدأ الكثيرون يراقبون العائلة، ويتقصون حركاتها وأخبارها، وعرفوا أن الفتاة ليست بنتاً للحكيم، وإنما هي قريبة له، فقد اختلطت الأفكار بالرغبات بالأحلام، لكنهم ظلوا في شك، وظلوا في شوق، ولم يتوقفوا عن التساؤل والانتظار. وبعض الذين عرفوا محمد عيد وسألوه من أين أتى الحكيم وماذا سيعمل، وتجرأ غيرهم وسأل عن العائلة، عدد أفرادها وأسمائهم، فإن أحداً لم يجرؤ أن يسأل عن هذه الفتاة بالذات، وإن ظل هذا السؤال يتردد في الصدور وعلى الشفاه، لكنه لم يطرح، وكأن طرحه إثم لا يقوى أحد على اقترافه. حتى أن عبد الله ورضوان، اللذان تبادلا الابتسام والتساؤل الصامت، حين عدا أولاد الحكيم، ليلة وصولهم، وتبين لهما أنهم يزيدون واحداً عما ذكره محمد عيد، لم يجرؤ أي منهما، وحتى وقت متأخر، أن يسأل، خاصة وأن الفتاة ملأت البيت بحركتها النشيطة وبحيويتها.

لما بلغ شمران العتيبي خبر وصول عائلة الحكيم، وأن في عداد العائلة فتاة لا يعرف إن كانت بنته أو مجرد قريبته، قال بسخرية:

ـ لا تختلفوا يا جماعة الخير، بنته أو مرته، قولوا بنت مطوط وما أظنكم إلا صايبين.

حتى أبناء الحكيم، خاصة الصغار، الذين كان يفترض أن يصبحوا جزءاً من حيّ السفان، وأن يندمجوا بجو الأطفال وأن يلعبوا معهم، لم يفعلوا. كانوا إذا تخطوا الباب قليلاً، يقفون خائفين أو أقرب إلى الجفلة وهم يتابعون الأولاد يلعبون، أما إذا طلب منهم المشاركة فكانوا ينظرون في وجوه بعضهم ويبتسمون.. ثم يتراجعون. وأطفال حي السفان الذين بالغوا، أول الأمر، في الاهتمام، وتوقفوا وحاولوا، ما لبثوا أن نسوا أو تناسوا «الشوام»، لكن ظلت نادية، التي تطل بين فترة وأخرى، وتطلب من الصغار الدخول، لا تُنسى. إذ ما تكاد تطل برأسها، ما يكاد يراها أحد، حتى يخيّم الصمت. كان الصغار يصمتون قبل الكبار، وكانوا ينقلون أخبارها بسرعة: متى خرجت، كم توقفت، ماذا فعلت. وإذا لم تكن تشعر أن خروجها أو مناداتها على الصغار يثير تساؤلاً من أي نوع، وكانت

تتصرف بعفوية ظاهرة، فقد قال لها الحكيم ذات يوم:

ـ اتركي الأولاد، إذا خرجوا إلى الشارع، يا نادية، لا تخرجي وراءهم.

وحين أبدت استغرابها ولم تفهم ما يعنيه، أضاف:

ـ أبو عبد الله موصّى أن يدبّر أمرهم.

وضحك الحكيم ضحكة صغيرة وتغيرت لهجته:

ـ موران، يا بنتي، ما هي مثل بلادنا، وأخلاق الناس هنا وعاداتهم غير أخلاقنا وعاداتنا!

نظرت إليه، سمعت وهزت رأسها، لكن لم تعرف بماذا أخطأت ولماذا يعاتبها الحكيم. أما حين شرحت لها خالتها أن للناس في موران ألسنة طويلة، وأنهم لا يوفرون أحداً، وأن محمد عيد سمع همساً لم يرتح إليه، وهو الذي نبّه الحكيم، فقد ابتسمت وفهمت!

العلاقات التي قامت بين الحكيم وآخرين في موران محدودة ومدروسة، فقد حرص، منذ البداية، أن تبقى علاقاته العائلية ضيقة إلى أقصى حد، «أبرد للراس» هكذا قال، ولذلك ظلت محصورة بعدد من العائلات الأجنبية، من ضمنها عائلة خبير ألماني للمياه، وكانت هذه العائلات تتبادل الزيارات، وإن تكن زيارات متباعدة، وكان أولاد الحكيم يذهبون إلى بيوت هؤلاء المعارف للقاء أولادهم أو يستقبلونهم في بيتهم.

وأهل موران الذين تعودوا حياة من نوع آخر، وبشراً من نوع مختلف، أبدوا استغرابهم وتساءلوا كيف يمكن أن يعيش هؤلاء الناس هكذا، وإلى متى يتحملون أن يبقوا بعيدين ومعزولين. وإذا كانوا قد سمعوا أن زوجة الحكيم مريضة، فلا تستطيع الاستجابة إلى دعوة أو القيام بزيارة، فقد رأوها مرة بعد أخرى تخرج في السيارة وتذهب إلى القصر. ثم رأوها تقيم ولائم لأناس غرباء، فازداد استغرابهم، فنظر بعضهم إلى بعض وابتسموا!

أكثر من ذلك تعمد الحكيم أن لا يترك أي مجال، أو أية فرصة، لعلاقة من أي نوع، إذ كان يصل إلى البيت في أوقات مختلفة، ولا يتوقف

عند الباب، ولا ينظر حواليه، وتعمد أكثر من ذلك ألا يتلفت لكي لا تلتقي نظراته بأحد من المارة أو بأحد من الجوار. وقد حرص أيضاً أن يصلي الجمعة في جامع بعيد عن حي السفان. وأهل الحي الذين فسروا سلوك الحكيم وتصرفاته بالكبر والعجرفة، رد عليهم محمد عيد بالوقت المناسب، ودون أن يسأله أحد. كان يشير إلى الغرفة الجنوبية في بيت الحكيم:

ـ إلى الفجر، إلى أذان الصبح، لا ينام.

ويضيف بعد قليل وهو يبتسم:

ـ وضوء تلك الغرفة لا ينطفئ لحظة واحدة. . .

ويترك للذين يستمعون أن يتأملوا، أن يستوعبوا ما قاله فيتابع:

ـ رجل لا يعرف الراحة، فإذا أراد أن يستريح يغرق في الكتب والمجلدات، كل مجلد ألف صفحة، ألفين صفحة، ولولا أن أم غزوان تقول له ارحم نفسك لواصل الليل بالنهار.

وبعد أن ينظر الذين يحدثهم إلى بيت الحكيم، أو إلى الجهة التي يفترض أنه فيها، يقول كأنه يحدّث نفسه:

ـ مخّ. . مخ يفلق الصخر!

أما عن العلاقة بين الحكيم والسلطان فإن محمد عيد لا يذكر أية تفاصيل، بناء للتوصيات المشددة التي كررها الحكيم يوماً بعد آخر في الفترة الأولى، ولذلك يكتفي بإشارات، غالباً ما تبدو واضحة بدلالتها ومعناها، بل دائماً أشد وضوحاً من الكلمات:

ـ لولا رغبة صاحب الجلالة، ولولا الصداقة والمودة بينهما التي تبلغ حد الأخوة أو أكثر، لما رأيتم الحكيم في موران.

فإذا حاول أحد أن يستفسر عن هذه العلاقة كيف بدأت ومتى، يضحك محمد عيد ضحكة لا يمكن أن تفسر أبداً، ويعلّق:

ـ كيف بدأت؟ متى بدأت؟ لو تكلمت لما كان للكلام نهاية!

أما متى يفتتح الحكيم عيادة أو مستشفى، وهل سيستقبل، في وقت

قريب، الناس ويعالجهم، فإن الإجابة التي يرد بها محمد عيد، بعد انتظار وشيء من الخوف، تجعل الكثيرين في حيرة:

ـ إذا بقي للحكيم وقت!

والحكيم الذي يغرق أكثر فأكثر في جو من المشاغل الجديدة والهموم، وتطول فترات وجوده في القصر، أو يسافر مع السلطان في جولات ورحلات، أخذت لقاءاته بمحمد عيد تتباعد وتختلف عن السابق، وأخذت اهتماماته تتشتت وتتغير بين فترة وأخرى. ومحمد عيد الذي كان يعرف ما الذي يجب أن يعمله وكيف، يجد نفسه الآن «مثل أم العروس لا فاضي ولا مشغول».

أما الأفكار التي تحدث عنها الحكيم، خلال الفترة الأولى من إقامتهما في موران، وقبل ذلك في حران، فما لبث أن نسيها، أو شغلته أمور أخرى عنها.

سأل الحكيم ذات مرة، وكان قصر الحير على وشك الانتهاء، وقد انشغل به محمد عيد كثيراً، ما إذا كان سيفتتح عيادة أو مستشفى في موران، ولما صمت الحكيم فترة طويلة، وكأنه لم يسمع السؤال، أو ليس لديه جواب عنه، قال محمد عيد بتعريض:

ـ والله يا حكيم كانت أحوالنا في حران، أحسن بألف مرة!

ولما نظر إليه الحكيم واستفسر بعينيه تابع:

ـ ما ترك لك الهمّ لقمة هيِّنة أو نومة رضيّة!

وبعد قليل:

ـ ولا أحد يعرف النتيجة.

وحين اندفع الحكيم يتكلم، وأوضح له أن العمل في موران رغم صعوبته، ستكون له نتائج كبيرة، وأن التعب الذي يعاني منه الآن مؤقت ولا بد أن يخف أو ينتهي خلال فترة قريبة، قال كأنه يحدث نفسه:

ـ الله يسمع منك يا حكيم، لكن محسوبك رأيه غير رأي.

ـ غير رأي؟

ـ قصدي. . . .

وبدا أنه غير قادر على أن يقول كل شيء، وربما نتيجة الخجل أو الحيرة. سأله الحكيم بمكر:

ـ غيّرتك موران يا أبو الشباب. . . ها؟

ـ لا. . . ولكن. شايف حالي لا للخل ولا للخردل. . وطول نهاري اخصّي عجول!

أدرك الحكيم سبب الشكوى. صمت قليلاً، ثم قال وهو يبتسم:

ـ اسمع يا محمد. . . صحيح أن الوضع اختلف علينا: في حران الواحد منا ما كان عنده الوقت حتى يحك رأسه: عمليات، معالجات، إبر. . وغيره وغيره، لكن زمن حران راح وانتهى، وفي موران حالياً أكثر من خمسين طبيب، ولذلك لازم تكون بمستوى الوضع الجديد!

انتهت المناقشة دون أن يتوصلا إلى نتيجة، لكن بدا أنهما تفاهما، أو على الأقل اتفقا على تأجيل المناقشة!

والحكيم الذي يحس، منذ زمن طويل، أنه بحاجة إلى محمد عيد، وهذه الحاجة محددة وواضحة، خلال الفترات السابقة كلها، ولم يكن أحدهما يفكر أو يتصور أنه قادر على أن يترك الآخر، فقد اختلف الوضع الآن، ومن الصعب إعادته إلى ما كان عليه، ومن الصعب أيضاً أن يتخلى محمد عيد عن كونه «مساعد الدكتور المحملجي» وكان يفخر بهذه الصفة ويصر عليها، أما ما تعنيه الآن فلا يستطيع أحد أن يحددها أو يعطيها معنى واضحاً.

قال له الحكيم، بعد شهور من المناقشة التي جرت بينهما، أنه يجد مناسباً له أن يعمل مع فهمي الحجار في توزيع الأدوية، ليشغل نفسه. بدا الاستغراب على وجه محمد عيد، وكأنه تلقى إهانة، سأل الحكيم، وبدت لهجته رخوة أقرب إلى السخرية:

ـ وأنت، يا حكيم، صرفت النظر عن الطب؟

ـ الطب مثل ما كنا نمارسه انتهى يا ابني. الآن، كل شهر، كل شهرين، اكشف على صاحب الجلالة، وإذا كان بحاجة إلى شيء فإلى حبة أسبرين أو حبة مقوى.. هذا كل شيء!

كان يمكن لكلام من هذا النوع أن يحمل محمد عيد على اتخاذ أصعب القرارات، وقد لا يتردد في أن يخلف كل شيء وراءه ويمشي، لكن الذي منعه، الذي جعله ينسى، ويتصرف وكأن لا مشكلة هناك أبداً، شيء لم يستطع أن يبوح به لأحد.

لم يكن الأمير خزعل الابن الأكبر أو الأول للسلطان خريبط، فقد جاء قبله ولدان ماتا في الشهور الأولى، وجاء ثالث، منصور، وعاش حتى بلغ السابعة عشرة من العمر، لكن في معركة الرحيبة الكبيرة قتل، وقد خلّف مقتله حزناً في قلب السلطان لم ينسه أبداً، إذ ظل يحرص على أن يكنى بأبي منصور، بل وكان يستمتع بهذا الاسم. ونتيجة حزن السلطان، أو ربما لأسباب أخرى، سرت عدوى الحزن إلى آخرين كثيرين، ولم يقتصر على أخوان وأخوات منصور من أمه، إذ ظلوا يتذكرونه لسنين طويلة لاحقة، ثم تحول هذا الحزن إلى كراهية، خاصة وأن كل يوم يمرّ يقرّب السلطان خطوة جديدة نحو القبر، ويقرب الأمير خزعل خطوة نحو العرش.

صحيح أن الأمير خزعل لم يفكر ولم يعدّ نفسه في البداية لأن يحل مكان أبيه، أو مكان أخيه منصور، وربما كان في أعماقه يحس أن أخوة آخرين أكثر كفاءة منه أو أكثر استعداداً، لكن فجأة وجد نفسه ولياً للعهد، وبمرور الأيام نسي أنه أصغر من منصور، أو أنه لا يريد أن يكون سلطاناً، خاصة وأن أخواله يحملون في قلوبهم ضغائن لا تخفى على السلطان خريبط، لأنه حرمهم من ملك كانوا يطمحون ويحاولون الوصول إليه. تناسى هؤلاء الأخوال الضغائن فجأة فهجروا عزلتهم وابتعادهم وجاءوا إلى موران مرة أخرى.

في موران، وبهدوء وبصمت، التفوا حول ولي العهد، وظلوا ينتظرون نهاية السلطان. فلما جاءت هذه النهاية، ورافقها اللغط وبعض المخاوف، وقد صدر هذا، في البداية، عن نساء قصر الروض، خاصة أم منصور

وأخواته، فقد تأكد الجميع أن أموراً خطيرة لا بدّ وأن تقع، وفي وقت غير بعيد. لكن السلطان الجديد ورجاله تظاهروا أنهم لم يسمعوا شيئاً مما قالته النسوة، وما تناقله الخدم. أما إصرار السلطان على أن يبقى في قصر الغدير فكان حيطة ونتيجة لما قاله له ذلك المنجم قبل سنوات!

وبدهاء وتكتم شديدين بدأت تتكون حاشية جديدة وصيغة للحكم تختلف عن السابق. والسلطان خزعل الذي خاف وتحسب في بداية الأمر، لأن أخوته الذين بايعوه، وقالوا كلمات كبيرة للتعبير عن فرحتهم وتأييدهم، ما لبثوا أن صمتوا أو ابتعدوا، وبدأ بعضهم ينظر إليه بطريقة مختلفة عن السابق. حين رأى السلطان ذلك لجأ إلى المال يغدقه دون تردد وبلا حساب، خاصة وأن كرمه الذي كانت تحده في السابق نظرات أبيه أو زجره، وبعض الأحيان امتناع أمين الخزانة عن تلبية طلباته، بحجة أن الأموال المودعة لديه قد نفدت، هذا الكرم ما لبث أن فاض بلا حدود ودون موانع أو حجج، بعد أن أخذت أموال كبيرة تتدفق إلى الخزينة، نتيجة زيادة تصدير النفط. ولذلك، فإن الأخوة الذين فكروا أن يكونوا شركاء في السلطة، إذا تعذر عليهم أن يكونوا مكان السلطان، بدأوا يغرقون في المال، ووجدوا فيه لذة وقوة لم يكتشفوها من قبل.

غرق أخوة السلطان في المال، باختلاف متفاوت، عدا ثلاثة: فنر ومشعان وتركي. أما فنر، وكان وحيداً لأمه، وقد نشأ في عزلة أبعدته عن أخوته، وكان ميالاً إلى الصمت والتأمل، فقد بايع وابتعد. لازم أول الأمر، منازل أخواله، في عين فضة، ثم بعد بضعة شهور استأذن أخاه السلطان بالسفر إلى سويسرا وأميركا للعلاج، إذ كان يشكو من الصفراء، وغالباً ما يبدو مريضاً أو متعباً. أما مشعان وتركي. وهما من أم واحدة، وكانت هذه الأم من قبيلة هذيل القوية الكبيرة، فقد كانا، مثل الأمير خزعل، يعدان نفسيهما لأن يكونا شيئاً هاماً، حتى أثناء حياة والدهما، لأن أمهما كانت تتمتع بمنزلة خاصة، وكان السلطان يؤثرها ويعاملها بطريقة مختلفة عن الكثير من زوجاته، ولقد حاولت، وحاول أخوتها أيضاً، أن

تكون السلطة، وأن يكون الملك «بعد عمر طويل» مناصفة بين الأمير خزعل وأخويه مشعان وتركي، «لأن خزعل لا يدبرها، وهذا الملك الذي تجمّع بالدم والذكاء وسهر الليالي لا يمكن أن يترك ليضيع». والسلطان خريبط الذي يسمع ولا يجيب، والذي يبدو مقتنعاً وغير مقتنع، لا يعطي كلمة أو رأياً ما دام قوياً وحاكماً. كان يعتبر أن الوقت ما زال مبكراً، وليس من المناسب أن يخاض في مثل هذه الموضوعات. أما حين جاءته الوفاة، وبحضور عدد من إخوانه وأولاده والمستشارين، ولكي لا يختلف الأخوة فقد قرّر السلطان أن يكون خزعل سلطاناً بعده. وهكذا اعتبر مشعان وتركي، ومعهما أمهما، اعتبر الثلاثة أن السلطان تخلى عنهم، ولذلك انهارت كل الآمال التي تشبثوا بها أو انتظروها. ودون تردد كبير، وبعد أن تمت مبايعة السلطان الجديد، انسحب الأخوان، رابط مشعان في قصره قرب موزان، أما تركي فقد قال أنه ذاهب للقنص وأن سفرته ستطول، وقد لا يعود قبل بضعة شهور.

كان السلطان خزعل يريد مثل هذه القرارات وتلك السفرات، فإذا كان قد خاف أو تحسب في لياليه الطويلة وهو يستعد لأن يحل محل أبيه، فأكثر ثلاثة أخوة تتراءى له وجوههم، وأثاروا في نفسه الحذر الذي وصل حدود الخوف، هم هؤلاء، وخاصة فنر.

كان الأمير فنر يليه عمراً، وكان أبوه يحبه حباً خاصاً، ربما للشبه الذي بينهما، أو تلك المداومة على حضور مجلسه. إضافة إلى ما يتمتع به من زهدٍ ورغبة في التقشف، سواء من حيث الأكل والملابس، أو حتى رغبة الكلام. الآن وفنر يعلن عن رغبته في السفر، للعلاج، وقد يعود أو لا يعود، وإذا عاد فلن يكون ذلك في وقت قريب، فقد شعر السلطان بالراحة، وفي محاولة للتعبير عن حرصه ومحبته بعث إليه بمبلغ كبير، أكبر من أي مبلغ يمنحه لأخ، أو دفعة واحدة، لكن فنر أعاده في اليوم التالي إلى أمين الخزانة، وطلب أن لا يبلّغ السلطان بذلك، ويتذكر الذين كانوا إلى جانب السلطان وهو يودع فنر أنه قال له بنوع من الحزن:

ـ صحتك يا مبارك، يا أخوي، أغلى علينا من عيونّا، وهالحين المهم أن تروح وترجع بالسلامة.

وحين هزّ فنر رأسه، وهو يحاول الابتسام، أضاف السلطان:

ـ وحنا أعطينا التعليمات للجماعة في كل مكان راح تكون به، ولا تبخل على نفسك يا خوي.

وهكذا سافر فنر وغاب غيبة طويلة.

وبغياب الأخوة الثلاثة شعر السلطان بالراحة. لقد خلا له الجو أخيراً، فبدا واثقاً قوياً، بل وأقرب إلى السعادة. فلما تدفقت الأموال، وأخذت تزيد يوماً بعد آخر، أصبح شعوره بالثقة والقوة يزداد، فنشر الأموال بسخاء بين أيدي الكثيرين، وزيدت المخصصات التي تمنح لكل فرد من العائلة، حتى للأطفال منذ لحظة ميلادهم. أما نساء قصر الروض اللواتي تحدثن في البداية بصوت مسموع، وأشركن الخدم والمربيات في حديث وفاة السلطان، والشكوك التي ثارت حول ذلك،فما لبثن أن نسين الأمر، أو لم يعدن إلى تذكره، فإذا تذكرنه أصبح حديثهن عنه همساً أقرب إلى الخفاء.

والسلطان الذي تحسب في البداية، واضطر إلى قضاء الساعات الطويلة كل يوم يستقبل ويتحدث، أو يسمع للذين يتحدثون، واضطر أكثر من ذلك لزيارة المناطق كلها، حتى البعيدة، وأن يتفقد المشاريع التي تنفذ وأن يسأل المهندسين وأمراء المناطق على المراحل التي وصلتها هذه المشاريع، وما إذا كانوا بحاجة إلى اعتمادات إضافية أو إلى مساعدات من أي نوع، فقد أصبح الآن أقل ميلاً للسفر أو لأن يشغل نفسه بهذه الأمور، خاصة وقد تكونت في القصر مجموعة من الإدارات تهتم وتتابع أغنت السلطان عن القيام بهذه الأمور شخصياً.

قال الحكيم للسلطان، ذات يوم، وهما في الشرفة يطلان على الأبنية الجديدة لقصر الغدير:

ـ أتذكر، يا صاحب الجلالة، أن الأمير خالد المشاري، أثناء بناء دار

الإمارة في حران، كان يتفقد البناء كل يوم، ويدق على الجدران ويطلب زيادة الإسمنت، وكان نائبه يملأ البراميل!

وضحك بسخرية وهو يستعيد تلك الصورة، وبعد قليل أضاف:

ـ الكبار للكبيرات، يا صاحب الجلالة، أو كما قال فيلسوف ألماني شغل الدنيا وملأ الأسماع: العظيمات للعظام أما الأشياء الصغيرة فلحثالات البشر.

«أمي زهوة» أو الشيخة، شخصية خطيرة في موران، وهي كذلك بنظر الناس جميعاً، ربما لأنها أقوى من في قصر الروض. يتحدث عنها حتى الصبية ويجاريهم الصغار، نقلاً عن أمهاتهم أو عمن هم أكبر سناً، أو كما يصورها لهم خيالهم.

امرأة لكن ليست مثل أيٍ من النساء: تتحرك مثل شبح، تأتي وتذهب دون أن يحس بها أحد، كثيرة الصمت، لكن إذا تكلمت لاذعة وبعض الأحيان سليطة. لونها بلون الأرض الرطبة، أو مثل عتمة أول المساء. عيناها كعيني بقرة: كبيرتان، جاحظتان وتضيئان في الليل كالقناديل. أنفها حاد معقوف كمنقار صقر. الوجنتان بارزتان مكورتان وكأنهما تلال صغيرة في وجه شديد التيقظ والصرامة. لا تعتبر قصيرة، رغم انحنائها بتقدم العمر، ورغم تقصير عصاها مرتين متواليتين. يداها طويلتان مثل يدي قرد، وقدماها عريضتان كخفي بعير.

لا يحكي عن ماضيها إلا القليل، ولذلك لا يعرف على وجه مؤكد ما إذا كانت متزوجة أو أنها ظلت عزباء طوال حياتها، لأن أحداً لم يتكلم عن هذا الأمر، ولم يسمع أن لها بنتاً أو ولداً، ومع ذلك فهي أم الجميع. هكذا يناديها الصغار والكبار. أما الخدم والغرباء والرجال المسنون فإنهم يسمونها الشيخة.

ومثلما الحقيقة تمتزج بالخيال، والمبالغة تطغى على الدقة في معرفة حياتها الماضية، فإن الخوف يلعب دوراً في الحديث عنها الآن. فأي حديث يجري بين اثنين يجري همساً أو قصيراً، وكثيراً ما ينقطع فجأة، إذ

قد تأتي، وقد يسمع واحد من الذين ينقلون إليها، وعندئذٍ لا يسلم أحد من عقابها.

وكما لا يعرف شيء عن ماضيها، فإن صلة القرابة التي تربطها بالسلطان غير واضحة وأقرب إلى التقدير. يقول بعضهم أنها عمة السلطان خزعل. وذكر غيرهم أنها مجرد قريبة أو مربية. ومع ذلك فإن منزلتها في القصر، وعند السلطان خريبط بالذات، تفوق أية امرأة، بل تفوق أي إنسان. وقيل أيضاً ان تأثيرها عليه لا يوازيه أي تأثير. وقد فُسِّر الأمر في وقت من الأوقات أنها كانت تملك ثروة كبيرة جداً، وقيل كنوزاً ذهبية، وقد أعطتها كلها للسلطان حين كان فقيراً محتاجاً، وحين كان يبحث عمن يسلفه لطعام جنده، الذين كادوا ينقلبون عليه ويتركونه. وقد حفظ لها السلطان هذا الجميل بعد أن تغيّرت الظروف.

ناشد الدبلان الذي كان يصب القهوة للسلطان خريبط، ثم أعفي من هذه المهمة، بعد أن تقدم بالعمر، وأصبحت يداه ترتجفان، لكنه ظل في القصر ينتقل من مكان إلى آخر، يجيب الذين يسألونه عن الشيخة بإصبعه وعينيه، طالباً منهم السكوت، فإذا ألحّوا عليه، وكان مطمئناً لهم وواثقاً، يلتفت أكثر من مرة بحذر ثم يهمس، وكأنه يكلّم نفسه:

ـ والله... والله لو كان عندها لحيمة، بطول الإصبع، ما كان غيرها صار السلطان!

ويشير بإصبعه إلى القدر الذي يعنيه، ثم يلتفت مرة أخرى، ويتابع:

ـ وهي بدون ذاك راكبة مخيّلة!

فإذا حاولوا أن يعرفوا أكثر يرد بخوف:

ـ اتركونا من هذه السالفة يا جماعة الخير، لأن من طاول أطول منه تعب، والشيخة تسمع من سفر سنة، وابن الحرام سرور ما يشبع إلا بمخالبه.

لهذه الأسباب، أو لغيرها، امتلأ قصر الروض بحضورها وجبروتها، وكانت خلالها تملأ غرف القصر وردهاته. وإذا كانت عادة البدو ألا يذكروا النساء إلا ذكراً سريعاً عابراً، فإن الشيخة كسرت هذه العادة واحتلت في

ذاكرة الرجال وأحاديثهم حيّزاً كبيراً: كيف حاربت مع خريبط وأبلت في الحرب أكثر مما يبلي الرجال؛ وكيف تنكرت بملابس فارس في موقعة الرحيبة الكبيرة، ولم يكشف أمرها إلا بعد انتهاء تلك الموقعة. أما الأحاديث التي تتناول ذكاءها والنصائح التي قدمتها في أوقات صعبة، فقد تجاوزت الأساطير وكانت أقرب إلى الخيال.

هكذا كان حضورها بين الرجال، أما بين النساء فإنها تولّد خوفاً لا يستطعن إخفاءه أو التستر عليه. كن يسكتن إذا جاءت، ويتذرعن بأية حجة لمغادرة المكان، وكنّ يستجبن لأي طلب تطلبه، وينظرن بتحسب مشوب بالخوف إلى كل ما تقوله أو تفعله. فإن خرجت أو غفت يتنفسن الصعداء، وكأن أحمالاً ثقيلة رفعت عن أكتافهن، لكن هذه الراحة لا تدوم طويلاً، لأن أمي زهوة لا تنام مثلما ينام الناس أو في الأوقات التي ينامون فيها، إذ كانت تكتفي بتلك الغفوات الصغيرة التي تسترقها خلال النهار، خاصة بعد الظهر، أو أول المساء. أما أن تأوي إلى الفراش وتنام نوماً طويلاً متصلاً، كما يفعل الآخرون، فلم يذكر أحد أنها فعلت ذلك. ويبالغ الخدم فيقولون إن فراشها يظل على حاله أياماً عديدة لأنها لم تنم فيه ولم تمسسه.

ويمكن أن تروى أشياء كثيرة عنها أيضاً، فأكلها غير أكل الآخرين، وثوبها هو ذات الثوب لا تغيّره ولا تخلعه. وحركتها، وهي تدب على عصاها الملبن، ثقيلة وخفيفة في آن واحد، أما الكلمات التي تقولها فإنها أوامر قصيرة قلما تتغير.

لها جناح في القسم الشرقي من القصر، لكن قلما تقيم فيه، لأن كل مكان في القصر هو لها. ولا تتردد، بعض الأحيان، في المرور قريباً من ديوان الرجال، الأمر الذي لا تفعله أية امرأة غيرها. حين تمر تلقي نظرة فاحصة مكتشفة، أكثر من ذلك قد تقول كلمة أو اثنتين، على شكل تحية أو سؤال، والرجال الذين لا يطيلون النظر إليها، خشية أو احتراماً، يواصلون أحاديثهم، لكن يشوبها في تلك اللحظات شيء من حذر، فيلتفتون أكثر من مرة ليتأكدوا أنها ابتعدت ثم يعاودون ما كانوا فيه.

الذين يحبون الشيخة يروون الكثير عن الروح الرحيمة التي تملأ قلبها:

كيف توزع الصدقات على الفقراء، وكيف تدفع الآخرين لأن يفعلوا ذلك أيضاً، أما غيباتها القصيرة عن قصر الروض فلكي تقوم بزيارات الإحسان. كانت لا تترك بيتاً فقيراً إلا وتزوره، وكانت تحمل معها في هذه الزيارات المال أو كميات من القماش والطحين، وتفعل ذلك مرتين أو أكثر في السنة. أما الأيتام الذين رعتهم، النساء اللواتي زوجتهن، والمساجين الذين أطلقت سراحهم، فإن عددهم كبير. تروى هذه الأحاديث بتأكيد جازم، لكن دون أن يستطيع أحد الزعم أنه رآها تدخل بيتاً أو تدق باباً، وكانوا يعللون الأمر «أن الشيخة، تكره الصدقة التي تعلن عن نفسها أو تلك التي تتظاهر وتدّعي». وذلك فإن مثل تلك الزيارات تتم في أوقات لا يقدرها أحد، تتم في الليل المتأخر أو في ساعات الصباح الأولى، ولا تعرف إلا بعد وقوعها بوقت طويل!

أما الذين يرون فيها امرأة من نوع آخر، فإنهم متأكدون أنها شريرة قاتلة، وأنها تمارس السحر، مثلما تشرب الماء، ولا تتردد في أن تفعل أي شيء لشفاء حقدها على كل من حولها. ولإثبات ذلك يروون قصصاً كثيرة عما فعلته: قتلت كثيرين، منهم سلمان، عم السلطان خريبط، بأن دست السم في طعامه، لأنه كان منافساً خطراً يخشى منه. وأوعزت لعبدها سرور أن يقتل ابنه جسّام لأنه امتنع، وقيل تأخر، عن مبايعة خريبط وتأييده. وهي نفسها مارست، ولا تزال، ألواناً من السحر، إذ تستعمل أنواعاً من البخور والماء المسحور، إضافة إلى كميات من الأدوية والعقاقير تصنعها بنفسها بطريقة خفية. وقد لجأت إلى هذا السحر مرات كثيرة لتزوج خريبط امرأة بعد أخرى. ويؤكد الكثيرون أنه في فترة من الزمن كان يتزوج امرأة كل ليلة، «ليكون له ذرية نوح وأسباط يعقوب»، كما كانت تقول. ويؤكد هؤلاء وغيرهم أن عدداً من نساء القصر، خاصة زوجات السلطان، متن في ظروف غامضة للغاية، وكان ذلك بسببها، إذ كانت، في أيام معينة، تدور عليهن ووراءها عبدة سوداء تحمل قدراً فيه ماء مسحور، وتحمل هي كمية من الملح فإذا نظرت إلى واحدة منهن ثلاث مرات ونظرت إلى القدر ورشت قليلاً من الملح، فلا بدّ أن يحصل لهذه المرأة مكروه، وقد تموت.

من ينظر إليها الآن يلمح في وجهها صلابة أقرب إلى العداء، خاصة وهي تدقق بنظرات مرتابة مكتشفة؛ وقد تولدت، نتيجة ذلك، قناعة عند الكثيرين أنها تعرف ما يدور في الرؤوس، وأنها تحزر ما فعله، أو ما يريد أن يفعله، أي إنسان. وفي وقت متأخر، وبعد أن تقدم بها العمر، وثقل سمعها، أصبحت تسمع بعينيها، ولم يكتشف ذلك إلا صدفة.

في الشهور الأخيرة من حياة السلطان خريبط، وقبل أن يمرض مرض الموت، أصبحت الشيخة أكثر من أية فترة سابقة، امرأة لا تطاق، ويبدو أنها أحست بغريزتها قرب الأجل، أحست بذلك بشكل واضح، وإن لم يقل لها أحد ذلك أو لم تقله لأحد، لكن تلك الحركة المرتابة، وذلك الهيجان الذي يبلغ حد الطيش ولدا حالة من التوتر في قصر الروض لم يشهد لها مثيلاً حتى في الأيام الأولى لقيام سلطنة موران، فامتلأ الجميع بإحساس غامض، لكنه قوي، إن شيئاً ما لا بدّ أن يحصل. لأنها في حالات أقل من هذه بكثير، ولم تتعد التنبيه أو التدقيق وكأنها تبحث عن شيء، أو تحاول استحضار الأرواح، وقعت تلك الزعازع التي هزت القصر من أركانه وكادت تقضي على جميع من فيه. الآن وهي لا تكتفي بالحركة الهائجة، ولا بتلك الشتائم توزعها على كل من يعترض طريقها أو يصادفها، ثم ذلك التدقيق المتهم القاسي، ليس في الوجوه فقط، وإنما في زوايا القصر أيضاً، فقد سيطر على الجميع نوع من الترقب أقرب إلى الخوف. حتى السلطان خريبط الذي لاحظ الأمر، امتلأ بإحساس غامض أن نهايته قد قربت. أما ما تلا ذلك من خلوات بينهما، وكانت تتكرر وتطول، وقيل انها حاولت أن تغيّر وأن تفرض أشياء لم تخطر ببال أحد، فقد فسرها الكثيرون أنها مجرد محاولة من السلطان لانتزاع ذلك العفريت الذي دخل فيها، وسبّب لها هذه الحالة من الهياج والتوتر والغضب، وإن تلك الخلوات الطويلة لم تكن أكثر من محاولة لاسترضائها والاستماع إلى هذا الهذر الذي يصدر عنها، وكل ما عدا ذلك توقع لا يستند إلى أي أساس.

بعد أسابيع من ذلك الهياج مرض السلطان بشكل مفاجىء، فأيقن

الجميع أنه لا بدّ راحل. وفُسّرت الخلوات التي جرت بين الاثنين، بأن الشيخة، وقد أدركت قرب نهاية السلطان، تريد سلطاناً غير خزعل، وأنها بذلت جهداً إلى أن أخذت وعداً. أما عندما أخذ المرض وتيرة سريعة متصاعدة، بما في ذلك حالة الهذيان التي سيطرت على السلطان، ثم العمى الذي أصابه، فقد حال ذلك دون الوصول إلى ما كانت تريد. حتى الخلوات القليلة التي تمت، أو التي أصرت أن تتم بينها وبين السلطان، أثناء المرض الشديد، وقد طلبت من الجميع الخروج بصيغة أقرب إلى الأمر، واستغلت أيضاً نوم الآخرين أو انشغالهم، فرقدت إلى جانب فراشه وحدها. في هذه الخلوات لم تستطع أن تصل إلى النتيجة التي كانت تريدها. وهذا ما يفسر الإشاعات التي راجت خلال الأيام الأولى لموت السلطان، من أن موته لم يكن طبيعياً، وربما قتل ولم يمت!

لا أحد في قصر الروض يجرؤ على أن يقول ذلك بصوت عالٍ، أما في قصر الغدير، والذي كان بعيداً بعض الشيء، ولم تصله إلا مرات قليلة خلال السنوات الماضية كلها، فقد وجد من قال إن الخرف أصاب العجوز، وأنها تهذر، ولذلك سكت كل من في القصر على الإشاعات وكأنها لم تكن، وساد تقدير أنها لا بد أن تنتهي كما بدأت. أما إذا وجد من يرد عليها، أو حتى لينفيها، فسوف يجر ذلك إلى نتائج من الصعب التحكم بها، أو معرفة نتائجها. لم يكتف قصر الغدير بذلك، إذ ما كادت مراسم الحزن تنتهي ويرحل آخر المعزين، حتى قام السلطان خزعل بزيارة الشيخة في جناحها، وقبّل يدها ورأسها على مرأى من الكثيرين. ولم تمض أيام على هذه الزيارة، والخلوة التي أعقبتها، حتى رحلت الشيخة وعدد من نساء قصر الروض إلى قصر الغدير.

الذين عرفوا الشيخة فيما مضى من الزمان ويرونها الآن يجدون شبهاً في الملامح، لكن ما عدا ذلك، فإن المرأة تغيرت، تغيرت كثيراً، أي أنها لم تعد تلك التي كانت في يوم من الأيام. صحيح أن الخوف لم يزايل قلوب النسوة، والرجال لم يتخلوا عن حذرهم، وربما خشيتهم، من النظرات المتسائلة المتهمة، من الكلمات القاسية التي لا تتردد في أن

تطلقها، لكن مع ذلك فإن الهيجان الذي اشتدَّ في الشهور الأخيرة أرهقها واستنزفها، فلم تعد قادرة حتى على أن تهش الذباب عن وجهها، وقيل إن الحزن الذي غشيها أثناء مرض السلطان ثم موته غيّرها، كما يحصل دائماً للذين تستبد بهم شؤون الدنيا فينسون الموت، فيسرفون في الشهوة أو في جمع المال، أو يسرفون في إيذاء الآخرين، ثم فجأة يكتشفون أن هذا الذي غرقوا فيه لهو ولا يعني شيئاً إزاء الحقيقة الأخرى: الموت، وإن هذا الموت أكثر حقيقة وأشد قرباً من «الحقائق» الهشة التي كانت تملؤهم وتأسرهم، وهكذا يرتدّون ارتداداً قوياً سريعاً، ويتغيرون بين يوم وآخر إزاء هذا الاكتشاف.

وقال غير هؤلاء أن «العجيزة» مثلما قتلت سلمان وابنه جسام وآخرين في فترة سابقة، خوفاً على السلطان خريبط، فإنها الآن تهيّئ نفسها، وتهيّئ أدوات السحر والسم، وتهيّئ سرور أيضاً، لكي تبدأ من جديد، وهذا ما جعلها توافق، دون تردد ودون تأخير، على الانتقال إلى قصر الغدير. فإذا جاءت الأيام الدافئة، وكما تخرج الحيات بعد سبات الشتاء الطويل، فلا بدّ أن تبدأ، ويختم هؤلاء كلامهم بأن يقولوا «وستمتلئ موران، مرة أخرى، بالأخبار والمصائب».

وفي محاولة لاسترضائها، أو على الأقل لكسب سكوتها، وبنفس الطريقة التي اتبعها السلطان في مواجهة منافسيه، ومن يطلب ودهم، أغدق عليها. فالجناح الجنوبي من قصر الغدير، وكان كبيراً واسعاً، خصص لها. كما كلفت ثلاث من الخادمات أن يكن بين يديها وأن يلازمنها. أحيطت بجو من الحفاوة والاهتمام، لكن بدا لكل من رأى أن الأمر لا يتعدى الإلهاء، تماماً كما يُلهى الطفل بلعبة!

ورث السلطان خزعل عن أبيه صفتين: طول القامة وحب النساء.. وورث السلطنة أيضاً. فقامته الطويلة الضخمة كانت تثير الاستغراب أكثر مما توحي بالمهابة، خاصة إذا عبّرت عنها تلك الضحكة المجلجلة، وذلك الصوت الكثيف المبطّن، والذي يبدو لأول وهلة وكأنه صادر من أعماق الصدر، على شكل طبقات سميكة متتابعة، أو على شكل موجات تدفع بعضها بعضاً. فإذا هدأ وامتدّت يده لتمسد اللحية تبرز أصابع عقداء طويلة ومدببة، وكأنها سواعد طفل. أما الأسنان، وسط الوجه، فأكثر ما تبدو شبهاً بدرج أو بحائط متشقق، لكثرة ما نهشت من اللحم ولفرط ما مرّ عليها المسواك.

ورث السلطان هذا الطول وهذه الضخامة من أبيه وأخواله معاً، لأن أخوته غير الأشقاء، يختلفون عنه، ويختلفون فيما بينهم، تبعاً لما ورثوه عن أخوالهم. كان الأمير خزعل أطول أخوته حتى الأشقاء، وأكثرهم ضخامة. وخلال فترة الصبا والشباب، ولكي لا يصبح جسده عبئاً عليه، استهوته الرياضة الخشنة القاسية، لكن بدل أن تصقله وتجعله أكثر تناسقاً حوّلته إلى قوة عاتية. كان يأكل مثل جمل. كان بمفرده، يأكل خروفاً ابن عام، ويشرب ثلاث طاسات من اللبن. أما إذا وضع قربة الماء على فمه فلا يردها إلا رخوة يخض فيها الماء، ويندفع من جهة إلى أخرى. رهانات الأكل والشراب التي برع فهما خلال رحلاته الصحراوية، كانت تغضب أباه حين تصله أكثر مما تسعده. أما رهانات القوة، إذ كان يستطيع أن يبطح الحصان، وأن يوقع البعير، فكانت تسرّ السلطان، لكن دون أن يظهر هذا السرور.

ظل هكذا خلال فترة الصبا والشباب الأول. أما بعد أن اكتشف متعة المرأة فلم يستبدلها بأية متعة أخرى، ولم يراهن على غيرها! والسلطان خريبط الذي أراد من المرأة أولاداً وأسباطاً ذرية له، وأراد انتساباً وعلاقات مع القبائل، تقوي مركزه وتقيه غوائل الزمان، جاء ابنه خلافاً له، إذ لم يفكر بهذه الأمور، أو لم يفكر بها على هذا النحو. كان يريد المرأة ذاتها، ويريد المتعة نفسها، وكان جسده والقوة في هذا الجسد ما يحركه ويدفعه لأن يبحث وأن يجرب.

لما جرى معه أول حديث عن الزواج، وكان عمره تسعة عشر عاماً، كان خائفاً أو كارهاً لهذه التجربة، وتمنى لو يؤجلها بضع سنين أخرى، لكن كلمات أبيه السلطان كانت من الوضوح والحزم بحيث لم تترك له مجالاً. قال له:

ـ نريد... من أصلابنا.. أولاداً يحكمون ويرسمون إلى قيام الساعة، ويجب أن يكون لك ولد!

ويتذكر خزعل أن أباه أضاف وهو يضحك:

ـ وأنا... يا وليدي، تزوجت وبنيت وجاني أولاد وكنت أصغر منك!

أما حين اقترح عليه أن يتزوج ابنة عمه هذلة، وكانت في مثل عمره، والتزم الصمت، لم يجب بالنفي أو القبول، فقد اعتبر ذلك موافقة، وكادت الأمور تسير في هذا الاتجاه، لكن أمي زهوة، الشيخة، وقفت بشراسة الذئب الجريح ضد هذا الزواج، قالت بوضوح شديد: «لن يكون». والسلطان خريبط الذي اعتكر مزاجه لمعارضتها، وكان يبذل جهداً موصولاً وواضحاً من أجل التقرب من أخيه تركي، ويعتبر أن هذا الزواج مناسبة لتصفية القلوب، كما يقولون، فقد عبر عن استيائه لرفض الشيخة ولمعارضتها. أما خزعل فاعتبر أن من شأن الخلاف أن يطول وأن يتطور، وهذا يجعله في حلٍ لفترة من الزمن على الأقل! ونساء القصر اللواتي سمعن بالخبر، ثم سمعن، بعد ذلك، بمعارضة أمي زهوة، فقد توقعن أشياء كثيرة، أقلها خلافاً بينها وبين السلطان، ولا بدّ أن يؤدي هذا الخلاف إلى تراجع أحد الطرفين، وربما الشيخة بالذات، وبذلك يتخلصن من هذا

الكابوس، أو يستطعن أن ينظرن إليها نظراً مستقيماً محدداً متساوياً، لكن الأمور سارت عكس ذلك تماماً.

فالشيخة التي كانت تحب تركي حباً خاصاً، وتؤثره على الآخرين، لم تُفهم معارضتها، أو بالأحرى فهمت بشكل خاطئ: كيف موّهت واستطاعت إخفاء عواطفها، أو تمويهها بهذا القدر؟ وإذا كان موقفها من تركي، ومن ابنته هذلة، بهذا الشكل، فكيف يمكن أن يكون موقفها، أو كيف تكون عواطفها، تجاه الآخرين؟

والسلطان الذي كان يعتبر الزواج مناسبة، تماماً كالموت، لدفن قضايا كثيرة والبدء من جديد، وأنه يمكن أن يبني جسوراً ويقيم علاقات، وجد في هذه المعارضة أموراً خافية عليه، وربما لأول مرة يشك بالشيخة، ويعتبرها أكثر دهاء وخبثاً مما قدر، أو أن اللعبة التي لعبتها معه بدأت تلعبها مع الآخرين.

بعد أيام من هذا الرفض وهذه المعارضة، وبعد أن زال الغضب، سألها:

- كل شيء بوقته، يا زهوة، زين...

فلما تطلعت إليه مستفسرة تابع:

- تركي يوم الرحيبة كان غير موجود، ويوم الجمرة كان الأول والتالي. وأنتِ نسيت الرحيبة وما عدت تذكرين إلا الجمرة. صحيح؟

فلما هزت رأسها، دلالة الإيجاب، أضاف:

- وبين الرحيبة والجمرة ثلاث سنين أو تزيد... صحيح؟

وهزت رأسها مرة أخرى.

وقلتِ إن الجمرة ما كانت لو أن الرحيبة ما صارت. صحيح؟

وهزت رأسها.

- وأنت قلت إن جماعة الجـ ـرة أولهم خبّر تواليهم: إذا هذا اليوم فاتكم لا تدوّروا غير يوم.. ورحوا ديرة ثانية، وشوفوا قوم غير قوم. صحيح؟

ردت بغضب:

ـ يا أبو منصور. . . ذاك يوم وهذا يوم.

رد وهو يزمجر:

ـ وشنهو اللي صار واللي جرى؟

ـ يا أبو منصور. . .

وضحكت بسخرية ثم أضافت:

ـ أتريد الصدق أو تريد غيره؟

ـ يا زهوة. . يا شيخة. . .

ردت بغضب:

ـ يا مبارك أنت اللي خلّفته ما يتخلّف. .

نظر إليها وصمت، تابعت:

ـ خزعل، يا طويل العمر، ما تحمله مرّية، ما تحمله نثية. وهذلة إذا عاشت اليوم تموت ثاني يوم، يذبحها، ولازم تعرف!

انتفض السلطان، وكأنه كان نائماً فاستيقظ. نظر بتساؤل أقرب إلى الاستغراب.

ـ يا مبارك، البنيّة مثل القصبة ما تحمل هذا الجمل، وتركي أخوي، وبناته بناتي، وهذلة ربيتها على يدي، وإذا كنت تريد موتها أوافق!

فهم السلطان، فهم أخيراً، فضحك، وهو يهز رأسه دلالة الاستغراب إن أمراً مثل هذا يفوته، ولذلك وافق أن تكون امرأة أخرى، غير هذلة، الزوجة الأولى لخزعل.

وبعد أيام قلائل وُجدت الزوجة المناسبة: عدلة، ابنة خاله. قوية، متينة، رغم قصرها، وأشبه ما تكون بالقربة، فبدا أكثر رضا وموافقة. لم يبدِ حماسة كبيرة، لكنه ضحك، وربما قدر بطريقة معينة أن عدلة أكثر ملاءمة من غيرها!

أما بعد الليلة الأولى ثم كل الليالي التي تلتها، فلم يتوقف الأمير خزعل على البحث والتنقيب. كان يبحث لمعرفة سر الحياة والكون،

والمتمثل في هذا الشوق العارم، وفي هذا التجدد الدائم، والذي لا يعرف التوقف أو الانتهاء، للمرأة.

كان الأكل بالنسبة له في وقت من الأوقات متعة لا تعدلها متعة أخرى، لكن ما يكاد يشبع حتى ينفر من منظر الطعام، فيطلب أن يرفع على عجل. وفي وقت لاحق أصبحت الرياضة تأسره وتسرقه فينسى كل ما عداها، لكن ما يكاد يتعب حتى يشتهي النوم ويغرق فيه، فإذا نام لم يوقظه الطوب، كما يقول مرافقوه، خاصة زيد الهريدي. واشتدت به في أوقات أخرى هوايات مختلفة: تربية الخيل، القنص، حب القصيد، لكن أياً من هذه الهوايات لم يستمر طويلاً:

وإذا كانت الشيخة قد تظاهرت، مثل جميع نساء القصر، بالفرح لزواج الأمير خزعل، فقد كانت شديدة الخوف أن تنتهي ليلة العرس على غير ما تريد. ويتذكر الذين كانوا حولها أنها ظلت تدور، مثل قط مربوط، لا لتتأكد من شيء يراود العجائز في مثل هذه الليالي، خاصة اتجاه فتاة كعدلة، تتفجّر قوة وشبقاً، وإنما لتطمئن أنها لا تزال حية، وأنها احتملت. وفي وقت متأخر من الليل، حين جاءت أمها فرحة ضاحكة، فلم يبق أحد إلا وسمع الشيخة تقول: «إذا مرت هذه الليلة ما بعدها ليلة».

إن ذلك جزء من تاريخ لا يتذكره إلا القليلون، لأن بعد عدلة كرت مجموعة كبيرة من النساء. فالأمير الذي كان خجلاً، وربما خائفاً، من علاقته بالمرأة، هذا العالم الذي يستهويه ويخافه، منذ أن كان طفلاً، وجد نفسه يغرق فيه، ولا يستطيع أن يبتعد عنه ليلة واحدة. لاحظ ذلك، أول الأمر القريبون منه، لكنه لم يغب أيضاً عن الشيخة. وإذ كان الخوف قد لازمها في الزواج الثاني ثم في الزواج الذي يليه، وتدخلت بشكل مباشر في اختيار من تصلح زوجة للأمير، فقد اكتشفت بعد ذلك أن القضية مختلفة، لكنها، مع ذلك، أوصت اللواتي بحثن له عن زوجات جديدات أن «تكون المرأة مثل القربة: لينة لكن قوية، بكبر الناقة وبخفة القطة، وإلا إذا برك فوقها ما قامت».

وتتابعت النسوة واحدة بعد الأخرى ضمن هذه المواصفات، مع اختلاف

يسير، لأن الزمن أضاف مواصفات جديدة. فما افترضته الشيخة قوة البدن، شيئاً من السمنة، مع عظم الردفين، ليكون الحوض واسعاً فيتحمل أولاً ثم يحمل بعد ذلك ما لبث أن أخذ بالتغير.

تغير أول مرة حين تخير الأمير بنفسه فتاة سوداء صغيرة. كانت مثل القطة أو مثل نجوم الليل حين تضحك، إذ يضيء كل شيء فيها، وكأن أسنانها تشعّ نوراً أبيض وهاجاً يغسلها من أخمص قدميها حتى قمة رأسها، وربما هذه الضحكة بالذات هي التي لفتت نظر الأمير وأغرته بها، فنسي حجمها الصغير وعمرها الذي لم يكن يزيد على الأربع عشرة سنة. وحين طلب من زوجته الأولى، عدلة، أن تجهزها، لأنه سيبني بها «الليلة وأبعد تقدير الليلة اللي بعدها»، وكانت قد انتقلت إلى عدلة مسألة تزويجه مرة بعد أخرى، فقد أبدت استغرابها، فعضت على شفتها تحذيراً، أما لصغر الفتاة أو لوضاعة نسبها، لكن الضحكة التي هدرت من فم الأمير لم تترك لها مجالاً.

كانت ليلة من ليالي قصر الغدير مشهورة، فقد قدرت عدلة بالذات أن الفتاة لا بد مائتة، فهي أصغر وأضعف من أن تحتمل. وإذا كان من حق نساء أخريات أن يخمّن أو أن يفترضن احتمالات معينة، فإن عدلة كانت على يقين راسخ، وبدا لها أن أية كلمات أو نصائح تسديها للفتاة لن تجدي. وقد بذلت من جديد محاولات عديدة لتحمله على تغيير رأيه، وأن يؤجل الأمر بضعة شهور على الأقل، لكنه لم يسمع.

في وقت متأخر، وعدلة تحاول أن تنفي معرفتها بأسباب موت الفتاة، قالت:

ـ قلت لها: اغسلي زين هناك.. واتركي، وافتحي رجليك وضمّيهم قدر ما تقدرين: مية مرة، ميتين مرة: وقلت لها حطّي زيت هناك، وبعد الغسيل حطيه، وإن جاك اعطيه روحك واهربي، اعطيه واسحبي، وإذا طبّ فوقك فكي وصكّي، وعسى أن الله يساعدك.

وتتغير لهجتها وتتابع:

ـ وبقيت في الحجرة القريبة، ما بيننا إلا الحائط. كانت المسكينة

خايفة. وقلت يقتلها، أو الخوف يقتلها، وأكثر من مرة قلت لروحي: يا عدلة لا تخافي، وكلي الله... وادخلي، ولما مرّ الوقت، وخفت، ولما سمعت الصوت، وكان صوتها مثل صوت البسّ إذا طاحت به رجل. قلت: طلعت روحها، قتلها، لكن رب العالمين ساعدها وخلصها، ولما دخلت كانت ترجف وغارقة بدمها وبدموعها، وكانت تبكي وتضحك. سألتها: ما بك خلاف يا بليّة؟ ردت وقالت ما أدري يا عمتي».

بعد ذلك، وقد تغيرت خيارات الأمير، قالت الشيخة باستغراب «أمنا حواء، طلّعت آدم من الجنة، وحريم اليوم راح يجرن أمة الثقلين إلى الجحيم، وما عاد ينحرز عليهن».

لما أصبح الأمير خزعل سلطاناً كانت المرأة السادسة عشرة قد مرت من تحته، وكان لا يزال يبحث عن هذا السر الإلهي في العلاقة بين الرجل والمرأة! كان يقضي الساعات الطويلة، ليس فقط في التفكير، وإنما أيضاً في النظر لاكتشاف جسد المرأة. أن هذا الجسد يثيره لدرجة الغرابة، والإثارة لم يكن لها شكل واحد، أن كل شيء في المرأة يثيره. فرمانة الكتف ليست فقط مكان التقاء الساعد بالجسد، وليست هذا التكور الذي يستقطب منذ اللحظة الأولى النظر، إنها أكثر من ذلك. فإذا ارتفع الساعد، إذا ارتفع الساعدان، فإن عالماً من اللذة ينفجر دفعة واحدة، ولا يمكن مقاومته. كان يريد أن يتابع رحلة الجسد في كل جزء منه، أن يتوقف، أن يلمس بأصابعه، بيده كلها، أن يشم رائحته، وكان يلذ له أيضاً أن ينهش، لكن ما يكاد يبدأ رحلة الاكتشاف حتى يتكهرب، تصيبه رعشة تخضه تماماً، تخرجه من تأملاته، يضطرب، فتختلط أعضاؤه ببعضها، تصبح أصابعه وشفتاه غير أصابعه وغير شفتيه، وتصبح راحتا يديه زاحلة في هذه السهول والهضاب لكن لا يعرف كيف أو إلى أين.

كان يريد أن يتوقف عند الساعدين، أن يمسك تلك البطات الصغيرة، من الجانب السفلي، أن يتأملهما ليرى كيف تدغدغانه بهذا المقدار.. عندما تلتفان حوله، لكن ما يكاد يمد إصبعه بخوف أول الأمر، ثم يمد راحته ويطبطب على تلك البطات الصغيرة حتى يحس أن دمه التهب،

فيضع رأسه كله تحت الساعد، ينظر إليه من أسفل، يتأمله، يجد أن هناك شيئاً جديداً لم يره ولم يكتشفه من قبل.

فإذا انتقل من رمانة الكتف إلى الصدر فإنه يرتجف، يفقد سيطرته على نفسه، يحس أنه عاد، مرة أخرى، طفلاً صغيراً ويريد أن يرتمي على هذا الصدر، أن يلتحم به، وأن يظل هناك إلى الأبد. إنه يحب الصدر إلى درجة لا يقوى على تركه. يحب الارتفاع، الصلابة، والمنح المستمر. يحب ذلك الشيء الذي لا يعرفه. لطالما حلم أن يعود طفلاً صغيراً، وأن يظل مرتمياً على الصدر، وأن يغفو فوقه. أما عندما ينهش الحلمة بأسنانه الكبيرة، وتموء الأنثى تحته خائفة أن يقضمها، فكثيراً ما قال لنفسه أو قال لها: «الحوير ما تضره رمحة أمه». وينزلق، ينزلق بسرعة، ليستقر هناك. وهناك كان يذوب، يتجدد، يخور، يلهث، يقفز كأرنب، يستقر كحجر، كان لا يصدق أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يقع، وأنه هكذا مثل النبع لا يتوقف ولا ينتهي.

ظلت عدلة الأحب إليه من النساء، ومهما ابتعد عنها كان يعود إليها، وحتى عندما تولت أمر تزويجه امرأة بعد أخرى، كانت تفعل ذلك بلذة، لأنها كانت تعرف أنه سيعود إليها. لقد حصل هذا في كل المرات. قد يغيب فترة أطول مما تتوقع، لكنه دائماً يعود، بشوق واندفاع يعود، مع ذلك الطيش الذي يشبه طيش الأيام الأولى. كان يسميها، دون أن يدري أحد، الشيخة، وحين تعضُّ على شفتها، خوفاً وتحذيراً. ينظر إليها، يرد وهو يقهقه:

ـ والله ما غيرك شيخة!

في فترة معينة، وقد لاحظ السلطان خريبط غيبات طويلة لابنه، وجاء من ينقل إليه أنه سلّم أمره لعدلة تزوّجه وتطلب منه أن يطلق هذه المرأة أو تلك، قال كلمة نقلها عنه بعض أولاده. قال:

ـ أدّب ولدك ولو زعلت أمه.

وبعد قليل أضاف وهو يتنهد:

ـ إذا أخطينا وأخذنا من العجاريم ما نسلّمهم روسنا، وأبد ما نتركهم يحكمون ويرسمون.

وفي تلك الفترة بالذات بدأ فنر يكثر البقاء في ديوان أبيه، بل ولا يكاد يتركه. وبدأ يتردد، همساً، بتكتم شديد، إن السلطان يعتمد كثيراً على فنر وأنه يحبه أكثر من أخوته الآخرين، وقد يجعله سلطاناً بعده. وفنر الذي يتظاهر أنه لم يسمع ولم يلاحظ، يبالغ في الصمت والزهد والانتظار، أما حين جاء من يقترح عليه أن يتزوج امرأة جديدة، فقد رد ببساطة، لكن بخبث أيضاً:

ـ هذه الأيام واحدة ما ينقدر عليها!

ولا يدرى أبداً ماذا فعلت الشيخة في تلك الأيام أو ما الذي قالته للسلطان، لكن بدأت تتردد، همساً، أشياء كثيرة، وظلت موران تترقب وتنتظر، وقال كثيرون: لن تنتظر طويلاً!

بعد أن استقر الحكيم في موران، وسُمّي مستشاراً للسلطان الجديد، أصبح لا يفارق مجلسه. وبعد أن توثقت العلاقات بينه وبين زيد الهريدي أكثر من قبل، بدأ يحس بهمّ ملأ عقله وقلبه، إذ كان يشعر أن عليه إعادة تشييد سلطنة موران من جديد!

وكإلهام مفاجئ، خطر له أن من جملة الأشياء التي يحتاجها السلطان حلاّقاً خاصاً، ربما أحس ذلك من الحركة العصبية التي كان يعاودها السلطان بين فترة وأخرى، حين يتلمس رأسه أو يثبت عقاله؛ وربما من خلال ما لاحظه مرة من أن أحد الشاربين أطول قليلاً من الآخر... وأعرض. ودون تحضير أو تفكير سابق، وفي لحظة «الإشراق»، هكذا يطلق الحكيم على الحالة النفسية المواتية، اقترح ضرورة وأهمية وجود حلاق خاص للسلطان، وأضاف بلهجة أقرب إلى الانفعال:

ـ نعم، يا صاحب الجلالة... ان ذلك ضروري إلى أقصى حد، لأن مظهر صاحب الجلالة السلطان لا يعنيه وحده، إنه يعني كل الناس، باعتباره رمزاً وقدوة، ولذلك يجب أن يكون هذا الحلاق موثوقاً، أميناً، كتوماً، ويجب أن يكون أيضاً معلماً في الحلاقة!

والسلطان الذي داخله الشك فتلمس رأسه وعدل عقاله أكثر من مرة، تطلع إلى الحكيم بطرف عينه ليتأكد من الكلمات التي سمعها، وحين بدت له ملامح الحكيم جادة، وناس رأسه عدة مرات، كما لو أنه يفكر أو يتذكر، قال وكأنه يوجه الكلام إلى رجل آخر:

ـ عبّيد.. يحسّنا ويكفي يا حكيم، والحسان مرة كل شهر... كل شهرين.

ـ هذا ما يجب أن يتغير يا صاحب الجلالة، لأن جلالتكم تستقبلون الرؤساء والأمراء كل يوم، ولأن حلاق السلطان ليس رجلاً عادياً، كما أن الأدوات التي يستعملها يجب أن تكون تحت إشراف طبي مباشر. . . لئلا. . .

والتفت الحكيم أكثر من مرة ليتأكد أنه لا أحد يسمعه:

ـ وما دمت، يا صاحب الجلالة، أخترتني طبيباً وتثق بما أوصي به، أرى أن يكون لكم حلاق خاص بكم.

اعتبر الحكيم صمت السلطان موافقة، وما كاد يغادر القصر، وقد شغلته هذه القضية بالذات، حتى قال لمحمد عيد بلهجة أبوية:

ـ اسمع يا محمد. . . عندي قضية لا يمكن أن أكلف بها أحداً غيرك: أريدك، من هذه اللحظة، أن تجد لي حلاقاً، أحسن حلاق في موران كلها، لأنه سيكون لصاحب الجلالة.

ومحمد عبد الذي فوجئ بالطلب، فاستدرات عيناه وبدا مدهوشاً، وكان يتوقع أن يسمع من الحكيم أي شيء إلا هذا، ما لبث أن شد قبضته وضرب الهواء، وهو لا يفعل هذا عادة إلا إذا تطابقت الفكرة مع الحل تطابقاً كاملاً، ولأن هذه العادة ارتبطت بحدث معين حصل أثناء الفترة الأولى من إقامته في حران، إذ ما كاد يحاول مرة إعادة تركيب باب غرفة سكن الحكيم، بعد أن دهن إطاره، وكان الحكيم يساعده ولا يفلح، حتى قال كلمة أصبحت بينهما رمزاً: قال يشرح له: «تماماً فوق بعض يا حكيم، أنثى وذكر» وقد أعجب الحكيم بهذا التعبير وأصبح يردده!

الآن وهو يخبط الهواء بقبضته ويردد دون حرج. وبما يشبه الظفر:

ـ جبتها. . . والله جابها، يا حكيم. . أنثى. . وذكر.

والحكيم الذي بدا مسروراً وضحك مثل طفل، كان في عجلة لأن يعرف، سأل بلهفة:

ـ أنا أعرفه؟ شفته؟

ـ خلص يا حكيم. . . ما قلت لك: أنثى وذكر!

وبهدوء لم يتعوده أخذ محمد عيد يشرح للحكيم أن أخاه بدري حلاق لم ينجب الشرقان الأدنى والأوسط مثله. كان حلاقاً في اللفيف الأجنبي، وأصبح حلاق الكومندان شفاليه. ثم ذهب إلى الاسكندرية وقبرص، إلى أن أصبحت الحلاقة بالنسبة له أكثر من مهنة: إنها فن وهواية.

أصيب الحكيم بخيبة أمل وهو يستمع إليه، إذ ما كان يتصور أن البلاهة تبلغ بمحمد عيد هذا الحد، فيقترح أن يأتي بحلاق من طرابلس. إلا أن لهفة محمد وتعبيرات وجهه ويديه، ولأن الحلاق الوحيد الذي تعرف عليه الحكيم في موران، يثرثر ويجرح أكثر مما يحلق، أما ذلك اليمني في حران «فإن وجهه ينشّف البحر، ولا يضحك للرغيف السخن» فقد بدا له أن الأمر يستحق التفكير ويتطلب الحذر، كما عنت له فجأة فكرة خطرة: ماذا لو اخترنا حلاقاً لا نعرفه وتصرف هذا الحلاق بطريقة جنونية؟ قال لمحمد عيد وهو ينظر إلى عينيه بتحديد:

ـ الواحد اللي تعرفه أحسن من اللي تتعرف عليه، وأخوك قريبنا، فإذا جاء وعرف كيف يدخل إلى قلب السلطان فحظنا من السماء.

وبهدوء مبالغ فيه طلب من محمد عيد أن يجلس ويعطيه فكرة دقيقة عن أخيه بدري، عن عمره وأي نوع من الرجال هو، وهل يمكن اعتباره الشخص الذي يناسب السلطان.

سمع الحكيم بعض ما قاله محمد عيد، ولم يسمع بعضه الآخر، لأنه سرح في أفكار بعيدة ومتضاربة، أما حين أكد له أن أخاه يمكن أن يكون في موران خلال أسبوع واحد فقد قال الحكيم بانفعال ظاهر:

ـ ابعث وراءه فوراً.. وإذا جاء اليوم أحسن من بكره.

في نهاية الأسبوع الثالث وصل بدري المدلل، أبو مصباح، الأخ غير الشقيق لمحمد عيد، إلى موران.

لا يظن من يراه لأول مرة أنه حلاق. قد يظنه مديراً لمدرسة، أو ضابطاً متقاعداً. ومن يدقق في وجهه ويرى سالفيه الطويلين وشاربيه الرفيعين المقصوصين بعناية يظنه ممثلاً مسرحياً. أما إذا تحدث فيمكن أن يكون أي شيء إلا حلاقاً. والحكيم الذي رآه في اليوم التالي لوصوله،

تفاءل منذ اللحظة الأولى، فأن يكون اسمه أبا مصباح، كما قدمه محمد عيد منذ البداية، وحتى قبل وصوله، نقطة إيجابية لمصلحته. فالشبه بين الاسمين، أو التقارب، أشعر الحكيم بنوع من الاعتزاز. أما حين بدأ يتكلم فقد كبر كثيراً في عيني الحكيم، حتى لظن خلال لحظات أن في الأمر سراً لا يفهمه. ولما بدأ يفيض بثقة وزهو، والحكيم ينقل نظراته بين الوجهين في محاولة لاكتشاف شبه من أي نوع ولا يجده، فقد فهم السر في محبته الكبيرة لمحمد عيد، ومن أين استمد هذه القدرة على الحديث المتقن والكلمة الآسرة. قال له بنوع من المكر:

ـ استرح كم يوم يا أبو مصباح. . . تعرف على موران وعلى الناس وبعدها إنشاء الله ما يصير إلا الخير.

لم يحدثه عن العمل الكبير والخطير الذي هيأه له، ولم يشر من قريب أو من بعيد إلى السلطان. ومحمد عيد الذي قضى الليلة الماضية ساهراً يشرح لأخيه لماذا أراده أن يأتي بهذا السرعة، وأي مستقبل ينتظره، وكيف سيصبح غنياً بين عشية وضحاها، كما أشار إشارة سريعة إلى احتمال أن تنتقل العائلة جميعها إلى موران وتستقر فيها، فوجئ واستغرب أن الحكيم اتخذ هذا الموقف المتحفظ، وكان يتمنى، ليكبر في عيني أخيه، لو أن الحكيم تصرف بشكل آخر. قال لنفسه وقد وقف الحكيم إعلاناً عن انتهاء الزيارة: لو كان غير أخي لأخذني جانباً وقال لي نفس الكلمات: «دبّره. تكفل به وبس يقشّر جيبه وتعال»، وضحك وهو يقول لأخيه:

ـ وصلت متأخراً، يا أبو مصباح. وبعدك ما شفت موران، لازم تشوفها وتشوف كل شيء فيها!

وانتظر بدري المدلل أربعة وثلاثين يوماً، وكاد يحزم حقيبته أكثر من مرة خلال هذه الفترة ويعود من حيث أتى، إلا أن «الرسائل» الايجابية المطمئنة التي كان يأتي بها محمد عيد بين يوم وآخر، وكلها تؤكد «قرب الفرج»، كانت تجعله متردداً، وتحمله على تأجيل السفر مرة بعد أخرى. قال لمحمد عيد في إحدى الليالي، بعد «رسالة» مشجعة جديدة:

ـ صحيح مثل ما قالوا: جدي لعب بعقل تيس، وأنت من شهر تلعب

بعقلي، وأنا مصدق، بس اسمع. . وضحك بصوت عالٍ وأضاف:

- عليّ الطلاق بالثلاثة أنه إذا مرت الأربعين وما صار شي، لا أنت ولا معلمك ولا أحد على وجه الأرض يربطني بهذه الديرة الزفت.

وتغيرت نبرة صوته:

- يا أخي، يا حبيبي، النفسا بعد الأربعين تحبل، والميت بعد الأربعين يصير عظام، وأنا حدي الأربعين!

- طوّل بالك يا أبو مصباح، اليوم، اليوم بالذات، الحكيم قال لي أن كل شيء خلص وانتهى على خير.

- خلص ما خلص هذا هو، خلي سلطانكم يدوّر على حلاق غيري!

- لا ترفس النعمة يا أبو مصباح، ومثل هذه الشغلة ما تحصل كل يوم.

- والله يا سيدي عيشة الفي والمي اللي كنت عايشها، أحسن من كل موررانكم وحرانكم.

- اصبر بعد كم يوم.

- طيب، بسيطة، لكن للصبر حدود.

في ليلتين متتابعتين التقى الحكيم ببدري المدلل ومحمد عيد، ومن حديث إلى آخر أفهم الاثنين معاً أن السلطان ظل متردداً خلال الفترة الماضية، رغم الجهود التي بذلها من أجل إقناعه، وإذ وافق الآن موافقة مبدئية فبناء على إلحاحه، وستكون الفترة الأولى تجريبية، وعلى ضوء نتائجها سوف يتحدد كل شيء، «أما الإشراف والعلاقة فإنهما مرتبطان بي وعلى كفالتي».

ورغم أن بدري لم يرتح لهذا الكلام وكاد يعلن اعتذاره ويعود من حيث أتى، إلا أن لباقة الحكيم وانتقاله من موضوع إلى آخر، ثم ذلك الود الذي فاض فجأة جعل كل شيء ينتهي نهاية إيجابية.

وفي الليلة الثالثة استدعي بدري المدلل إلى القصر لمقابلة الحكيم في مكتبه، فلما دخل عليه وجد عنده شخصاً آخر، ويبدو أن هذا الشخص

كان مكلفاً بأن يقول الكلمة الأخيرة، ورغم أنه لم يوجه إليه سؤالاً ولم يتكلم، إلا أن عينيه لم تفارقا بدري؛ كانت عيناه تحصدانه، وكانتا أقرب إلى العداء، أما عندما نهض الحكيم، إيذاناً بانتهاء الزيارة، فقد قال الكلمة الفصل، بعد أن نظر إلى هذا الرجل:

ـ غداً صباحاً، الساعة ١٢ عربي، تجهّز نفسك، لأن سيارة القصر ستمر عليك. ومن الغد تباشر.

حين يتذكر أبو مصباح الأيام الأربعة والثلاثين التي قضاها في موران متردداً حائراً، بل أميل إلى العودة من حيث أتى، يشعر أن خطأ مثل هذا لو حصل لما أمكن إصلاحه، وأن محمد عيد كان على صواب كامل، إذ لولا إلحاحه وإصراره لأخذت الأمور شكلاً آخر. أما الكلمة التي يرددها محمد عيد في لحظات المداعبة وتذكر ما حصل، ولا تغضب أخاه، فقد كانت الكلمة ذاتها التي قالها أخوه لنفسه «جدي لعب بعقل تيس». لأن ما تلا ذلك اليوم، وحتى سنوات كثيرة لاحقة، كان نتيجة ذلك الموقف.

فالسلطان الذي بدا حذراً مرتاباً خلال الأيام الأولى وهو يسلّم رأسه لشخص لم يره ولم يعرفه من قبل، والذي حرص على وجود الطبيب ومطيع واثنين من رجاله إلى جانبه، وحاول أن يبدو مرتاحاً، بل وتظاهر بالمرح ـ وقد استغل الحكيم لحظات الإشراق، واقترح على السلطان تعديلات طفيفة في قص شعره ولحيته، وقد تقبلها السلطان، بعد أن قام أبو مصباح، بكثير من التهذيب والكياسة، بتأييدها ـ هذا الحذر ما لبث أن تراجع، وأصبح بدري المدلل واحداً من المقربين، بل من الملازمين، للسلطان.

إلى فترة قصيرة سابقة لم يكن السلطان يبدي اهتماماً بمظهره وشكله، بل كان أقرب إلى الفوضى والبساطة، وكان يؤثر أشياء أخرى على الملابس والمظاهر، لكن ما لبث أن تغير وأخذ بالحالة الجديدة.

يتذكر الحكيم أن دعوته إلى موران أول مرة لم تكن «بريئة»، فالحفاوة التي استقبل بها، والعناية التي وجّهت إليه، ثم محاولات الأمير خزعل كسر التهيب بسرعة، جعلته، بداية الأمر، متردداً في تفسير هذا كله، ورغم أن الأمير لم يتطرق، آنذاك، إلى الاحتمال الذي قدّره الحكيم، فإن زيد الهريدي تولى الأمر نيابة عنه، إذ لم تكد تمضي بضعة أيام على وجود الحكيم في موران، حتى تعمد زيد أن يكون معه وحيداً في إحدى الليالي، ومن حديث إلى آخر، وفي لحظة انفعال لم يعرف زيد كيف يسيطر عليها، طلب منه أن يؤمّن له مجموعة من الأدوية «المقوية». ولما حاول الحكيم، بمكر، أن يستفسر حول الأوجاع أو الأمراض التي تتطلب هذه «المقويات»، قال زيد وهو يدير وجهه إلى الناحية الثانية ويشير بيده:

ـ الخوايا بحران علّمونا بكل شيء، وأنت تعرف زين اللي يلزم يا حكيم!

وتعمّد الحكيم أن يكون رده ضحكة مجلجلة، وبعد فترة قال كلمة واحدة:

ـ بسيطة!

هذه الذكرى مجرد بداية بعيدة، لأن ما تلاها كان أوضح منها وأقوى. فزيد الذي جاء إلى حران بعد مرور أقل من شهرين على هذه الزيارة،

وبدا أكثر جرأة ولهفة مما كان في موران، أشار إشارات غير مباشرة، لكنها مفهومة، إن المقويات التي يريدها مرة أخرى، وبكميات أكبر من السابق، لا تخصه فقط وإنما تخص أناساً آخرين، وضحك ضحكة ذات مغزى وفهم الحكيم بشكل جيد!

بعد ذلك سارت الأمور أفضل وأكثر وضوحاً. ففي زيارة الحكيم الثانية إلى موران، والتي امتدت أسبوعين كاملين، وهذه المدة الطويلة كانت نتيجة إصرار الأمير نفسه، والذي بدا محرجاً، بل وأقرب إلى الخجل، من الأيام الأولى، في هذه الزيارة، تعمد الحكيم في لحظة مناسبة أن يسأل زيداً بتورية ناعمة وذكية عن صحته، حين رد عليه أنها جيدة وضحك بلذة وصخب تشجع الحكيم وقال مازحاً:

ـ هذه واحدة من ألف!

ورغم أن الأمير لم يظهر اهتمامه، إذ تطلع إلى أكثر من ناحية، إلا أن أعصابه كلها انشدت وتوترت، وكان يود في أعماقه لو أن الحكيم يسترسل ويقول كل شيء، وفي محاولة لأن يستفزه ويدفعه إلى الكلام توجه إلى زيد:

ـ العمر له أحكامه يا زيد، وظني أن البني آدم إذا كبر تفرغ عظامه.

رد زيد بمكر:

ـ بعدنا شباب، يا طويل العمر، والبني آدم يتصلح مثل السيارة.

ـ لكن السيارة حديد يا ابن الحلال.

ـ والبني آدم.. كل شيء فيه يصير مثل الحديد.. أقوى من الحديد، يا طويل العمر!

ولم يترك زيد الفرصة تفلت، تطلع إلى الحكيم وسأله:

ـ ما قولك يا أبو غزوان؟

ويتذكر الحكيم أنه لجأ إلى أساليب متعددة، وأتى بأمثلة كثيرة ومتنوعة لإثبات مدى التقدم الطبي، خاصة في مجال تعزيز قدرة الإنسان وإطالة عمره، وإن الأطباء في ألمانيا والنمسا، وفي أميركا أيضاً، توصلوا إلى

اكتشاف أدوية يمكن أن تجعل الإنسان في حالة شباب دائم. وأشار بسرعة إلى أنه قرّر زيارة المراكز الطبية الكبرى في أوروبا وأميركا خلال فترة قادمة، لكي يطّلع على المكتشفات الحديثة ويتأكد من نتائجها وفعاليتها.

والأمير الذي كان يتابع باهتمام ويهز رأسه دلالة الإعجاب، كان بحاجة إلى حلول سريعة، قال لزيد، لكنه يريد أن يسمع الحكيم:

ـ خمّس وسدّس يا زيد وعش بالأمل إلى حين ما يرجع الحكيم من أوروبا وأميركا!

ولم ينتظر الحكيم، التفت إلى زيد وطلب إليه أن يأمر بإحضار حقيبته السوداء الصغيرة والحقيبة الطبية. وخلال دقائق قليلة استخرج من الحقيبتين كمية وافرة من الأدوية، نظمها على شكل مجموعات، وبهدوء وصبر بدأ يشرح كيفية الاستعمال والمقادير والمواعيد، كان يشرح للأمير خزعل أكثر مما يتوجه بالحديث إلى زيد، والأمير الذي بدا مسروراً منفعلاً قال لزيد بما يشبه الأمر:

ـ كل شيء اكتبه يا زيد أحسن ما تتيه عليك!

في هذه الزيارة تحددت وترسخت صفة الحكيم، لأن الأمير لم يكتف بأسئلة إضافية عن الأدوية، ومقارنتها بغيرها، إذ طلب من الحكيم أن يفحصه بدقة، وأن يعطيه توجيهات لكي يكون وضعه الصحي على أحسن ما يرام. وقد قام الحكيم بكل ما طلب منه، وأبدى عناية كبيرة أثناء الفحص وبعده، وأكد أن صاحب السمو في حالة صحية جيدة للغاية، «وأن قلبه مثل قلب شاب في العشرين» وأشار أخيراً إلى أن سموه إذ خفف وزنه قليلاً فسوف يجعله ذلك في وضع أفضل من كل الوجوه... وضحك!

هذا الذي يتذكره الحكيم الآن جزء من ماضٍ يغيب ويبتعد، فالأمير الذي بدا خجولاً أو محرجاً ما لبث أن تغيّر، وقد ساعده الحكيم كثيراً على ذلك، جاءه بأمثلة عديدة من التاريخ والسنة، خاصة تاريخ الملوك والعظماء، وأكد له أن قدرة الإنسان هي التي تحدد في النهاية كل شيء، وذكر عرضاً أن الملوك الأقدمين إذ كانوا قد اعتمدوا على الطب الشعبي

والوصفات البسيطة، مثل العسل، واللوز ولحم الحمام ومرقه، فإن التقدم الذي أحرزه الطب قدّم خدمات ووصفات لا حدود لها؛ ويجب أن يستفاد منها. بعد هذه الزيارة، وبشكل منظم، بدأت تصل إلى قصر الغدير كميات تزداد وتتنوع من الأدوية الجديدة، وكانت ترفق بإرشادات واضحة من قبل الدكتور المحملجي، مع تمنياته بقضاء أوقات ممتعة!

الآن، والحكيم يصل إلى موران ويقيم فيها، يشعر أن واجباته ومسؤولياته تزداد وتكبر، فهو ليس مسؤولاً عن صحة السلطان فقط، يجب أن يبذل كل ما يستطيعه من أجل مساعدته وتسهيل مهمته، ويجب أن يشعر الناس جميعاً، القاصي منهم والداني، الكبير والصغير، أن السلطان الجديد ليس مثل أي سلطان قبله، وليس مثل أي سلطان غيره.

هذه المهمة تشغل الحكيم الآن، وتجعله في حركة دائمة وتفكير متصل، فتزيد مخاوفه واضطرابه، خاصة وأنه لم يألف موران بعد، وليس متأكداً من الناس حوله. أما بعد أن وصلت زوجته وأولاده، وبعد أن أصبح مطيع ليس مجرد قريب أو مساعد يمكن الاعتماد عليه فقط، وإنما صديق أيضاً، فقد أصبح في وضع نفسي أفضل. قال لمطيع في إحدى الليالي، وهما في المنطقة الوسطى يرافقان السلطان في إحدى جولاته:

ـ يا خالي ـ هكذا يخاطب الحكيم ابن أخته ـ اليوم غير الأمس، وإذا كنت قد بقيت وحيداً في الفترة الماضية، وكان السلطان أميراً فقط، فالحال اختلف اليوم...

وزفر مهموماً وحاول أن يجمع أفكاره ويركزها:

ـ اسمع يا مطيع، أنت كبير وعقلك راجح، ولا تحتاج إلى من يعلمك، لكن، كما تقول الحكمة: عقلان أكبر من عقل، ورجلان أقوى من رجل، واليوم أنا وأنت وإنشاء الله لا يفرقنا إلا الموت.

استراح قليلاً ثم أضاف بنبرة جديدة:

ـ مهمتنا صعبة، صعبة جداً، يا مطيع، يا خالي، وحسادنا الذين لا وجود لهم، قد يظهرون غداً، وقد يظهر لنا أعداء أيضاً، ولذلك يجب أن نستعد.

وابتسم وسرح مع الذكريات، ثم عاد مرة أخرى:

ـ كانت عادتي، منذ زمن طويل، أن أقرأ التاريخ وأتعلم. اليوم لازم نطبق ما تعلمناه.

وتغيرت لهجته:

ـ أنا لست مغروراً، كما أني لست وحدي. أنا وأنت وكم واحد من جماعتنا، إذ تفاهمنا وصفت قلوبنا، يمكن أن نغيّر وجه المنطقة!

تنحنح وهز رأسه ثم أضاف:

ـ يمكن تتذكر قصة المرأة الإنكليزية اللي أسست مملكة من العدم، وجاءت بملك مهزوم وتوجته على رأس كل الملوك المتنافسين والمنتظرين. كانت أجنبية ووحيدة.

تنفس بعمق وبعد قليل:

ـ نحن وضعنا أسهل بكثير: السلطان أعطانا مفاتيحه كلها، الظاهر منها والباطن، ويجب أن نستعمل هذه المفاتيح. أما إذا ضاعت منا، إذا سرقها أحد، إذا لم نعرف كيف نستعملها، فاللوم يقع علينا وحدنا!

كان مطيع يستمع إلى خاله باهتمام، ويفهم كل كلمة يقولها، لكنه يجد أن الكلمات بمجموعها لا تعني شيئاً محدداً، ولا تشكل نسقاً واحداً. ماذا يريد خاله؟ وما هو المطلوب منه بالذات؟ صحيح أنه اكتسب رضا السلطان خلال الفترة الماضية، وأصبح شخصاً لا يستغنى عنه، فقد سافر عدة سفرات لشراء حاجات كثيرة كان القصر بحاجة إليها، كما حمل رسائل عديدة، إلا أنه الآن لا يعرف ما يجب أن يفعل. كان عليه أن يتشاور مع خاله باستمرار، أن يسأله، أن يستمع إليه. الآن وخاله يصل إلى موران، ويلتقيان كل يوم، ويتحدثان في أمور كثيرة، يجد أن الكلمات التي يسمعها تعني أكثر مما فعل، وتعني شيئاً آخر.

في هذه الجولة، في لقاء الناس، في كلام خاله الخطير والغامض، يحس بثقة أكبر ويشعر أنه ليس وحيداً. قال لخاله في لحظة انفعال:

ـ كان من الواجب أن تكون في موران من زمان يا خالي.

ـ كل شيء بأوانه أحسن.. يا خالي.

ـ ومع ذلك لا أتصور أننا تأخرنا.

ـ بالعكس.. هذا هو الوقت المناسب.

وضحك الحكيم بحزن وأضاف:

ـ إذا عرفنا كيف نشتغل..

... ومن الأمور التي شغلت الحكيم أيضاً، ومنذ وقت مبكر، أن يكون إلى جانب السلطان شخص كفؤ وموثوق يتولى مهمات «الأمن والسلامة»، هكذا يطلق على الجهاز السري الذي يفكر فيه؛ وإذ فكر بأشخاص عديدين، وخطرت له أسماء أخرى، فلم يكن بعد متأكداً من الشخص المناسب، «لأن أهل موران مثل الجوزة لا تعرف ما في داخلها حتى تفتحها» ولأن مهمة هذا الشخص ليست فقط معرفة ما يقوله الناس وما يفكرون فيه، بل تتجاوز ذلك إلى معرفة كل شيء عن الأمراء: ماذا قالوا، أين كانوا، ماذا فعلوا، ومن هم أصدقاؤهم، وماذا يقول لهم هؤلاء الأصدقاء. أي بكلمة أخرى: معرفة ومتابعة أدق الأشياء وأكثرها سرية. والحكيم الذي عرف عدداً من هؤلاء الأمراء، ويتذكر كيف نظروا إليه في البداية، أو كيف تصرفوا معه، يدرك مدى حساسية المهمة التي يفكر فيها، لأن الأمراء، دون أن يتحرش بهم أحد، نزقون وعدائيون ويبحثون عن الشر، كما يقول الحكيم لنفسه، ويمكن للواحد منهم أن يذبح الرجل دون أن يرف له جفن، أو كما يشرب الماء. فإذا عرفوا أن هناك عيوناً تراقبهم، تحصي خطواتهم وتحركاتهم، وتعرف أين ذهبوا أو ماذا فعلوا، فعندئذٍ ستكون لديهم كل المبررات لأن يكونوا في منتهى القسوة والشراسة. ولذلك استبعد الحكيم الأسماء واحداً بعد آخر، واستبعد بشكل خاص كل واحد من غير أهل البلاد.

في حران كان محمد عيد عيناً له وأذناً. كان ينقل له كل ما يسمع وكل ما يقوله الناس. هنا في موران تبدو المسألة مختلفة تماماً، وأكثر تعقيداً، أما حين طلب من محمد عيد أن ينقل إليه ما يدور من أخبار وأحداث،

وأن يبقى على صلة بالناس فقد ضحك ورد عليه مازحاً:

- الواحد منهم، يا حكيم، مثل الأخرس، لا تأخذ منه لاحق ولا باطل، وإذا تكلم لا تفهم ماذا يقول... وفي الأخير إذا فهمت يسألك عن: الحلال والمطر والسوق، «أباعر ابن السعد وصلت» «وطرش ابن عثمان ضاعت وهلكت» وتعال احزر وفسر من ابن السعد ومن ابن عثمان، وماهي الأباعر وما هو الطرش!

والحكيم الذي حاول أن يشرح لمحمد عيد أن ما يطلبه منه شيئاً آخر غير الجمال والغنم، وأن لهجة الناس ليست إلى هذه الدرجة من الغموض والتعقيد، إلا أن محمداً بدا غير متحمس، قال للحكيم لينهي المناقشة:

- وإذا سمعت أي شيء يا حكيم لمن سأقوله إذا لم أقله لك؟

ورغم محاولات الشرح والتوضيح إلا أن الطرفين كانا متأكدين أن ما يفكر فيه الواحد يختلف عما يريده الآخر. ولهذا أخذ تفكير الحكيم نسقاً آخر، وبدأ يبحث عن الرجل الذي يجب أن يتولى هذه المهمة.

قال الحكيم للسلطان في إحدى الليالي:

- ... يا صاحب الجلالة، يقول المثل: الباب الذي يأتيك منه الريح سده واسترح. ونحن الآن في عالم يموج حولنا بالاضطراب والفوضى. صحيح أن الأمن، ولله الحمد، يعم أنحاء السلطنة، والناس في رضى وقناعة، لكن هذه الرياح التي تهب من أركان الأرض الأربعة - وأصرّ متعمداً أن يستعمل هذا التعبير - لا بدّ أن تصل إلينا، ولا بد أن يتلقفها مخدوع أو طامع، خاصة وأن السلطنة، بما أنعم الله عليها، أصبحت هدفاً للأطماع من قبل الفقراء المحيطين بها ولولا حكمة جلالتكم ومحبة الناس لكم لكان الحال غير هذا الحال.

استرح قليلاً، راقب بعناية تأثير ما قاله على السلطان، فلما وجده بعيداً سارحاً أضاف بلهجة مختلفة:

- أنا متأكد، يا صاحب الجلالة أن وجود شخص موثوق، على رأس جهاز تابع لجلالتكم مباشرة ستكون له فائدة كبيرة.. على الأقل في

المستقبل. فقبل أن يتآمر اثنان، وقبل أن تطلق أول رصاصة، تكونون قد عرفتم كل شيء.

وضحك الحكيم قليلاً، عدل جلسته ليتابع، إلا أن السلطان سأله بارتياب:

- تاريك سامع شي... أو تعرف شي يا حكيم؟

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

- ولا أظن أن أحداً في السلطنة كلها يفكر الآن بشيء رديء، لكن يجب أن تكون، يا صاحب الجلالة، على معرفة تامة بما يدور بين أي اثنين، ويجب أن تسمع حتى دبيب النملة، خاصة وأن الأفكار الهدامة والحركات المتطرفة حولنا تنتشر انتشار النار في الهشيم. صحيح أن الفقر وعدم الرضاء وسوء الحكام، هي الأسباب الأساسية في انتشار هذه الحركات، لكن إلى جانب هذه الأسباب هناك دول تتآمر، وأفكار ملحدة تريد الوصول إلى بلادنا المقدسة لكي تقضي علينا وعلى ديننا، فلذلك يجب أن نحتاط لها وأن نمنع وصولها، فإذا وصلت نعرف كيف نقاومها ونقضي عليها في المهد، وهذه هي مهمة الجهاز الذي اقترحه عليكم.

راقت الفكرة للسلطان، بدت له مفيدة وضرورية: قال وهو ينظر إلى البعيد:

- والله اللي تقوله صحيح، يا حكيم، ولازم نسويه.

وبعد قليل:

- وبمن تشور علينا يا أبو غزوان؟

- أعطني فرصة لأفكر، يا صاحب الجلالة، وإذا استنسبتم شخصاً فعلى مشيئة الله.

وفي محاولة لأن يصل إلى نتيجة نهائية:

- لدينا في العلوم الطبية، يا صاحب الجلالة، نوعان: الطب الوقائي والطب العلاجي، مهمة الطب الوقائي أن يمنع المرض قبل وقوعه، أو قبل

انتشاره، وهذا النوع من الطب له بداية وليس له نهاية، يبدأ من الوراثة وينتهي إلى كل عامل يؤثر على الصحة، من حيث التغذية ومنع العدوى والتلقيح وغير ذلك. أما الطب العلاجي فإن الطبيب يواجه حالة المرض القائمة ويبذل أقصى جهد من أجل إشفاء المريض: بالأدوية، بالجراحة، بالعزل. ولا يخفى عليكم، يا صاحب الجلالة، أن الفرق كبير بين منع وقوع المرض وبين التصدي لمعالجته بعد وقوعه.

وتنفس ملء صدره، بعد أن رفع يديه قليلاً، ثم أضاف:

ـ وجهاز الشرطة والتحريات عندنا، يا طويل العمر، جهاز كفؤ قدير، وهذه شهادة لله، لكن هذا الجهاز يشبه تماماً الطب العلاجي، أي أنه لا يتحرك إلاّ بعد وقوع الجريمة، ليعرف من هو المجرم وكيف وقعت الجريمة. المطلوب الآن هو، إضافة إلى الطب العلاجي، وجود الطب الوقائي.

ضحك السلطان وبدا مسروراً جداً، وخرجت كلماته من حنجرته:

ـ مثل ما قلت، يا أبو غزوان، قبل ما تقع المصيبة توقّها، وتحزم للواوي بحزام أسد.

وظل هذا الهاجس ينام ويقوم مع الحكيم. يستعرض الأسماء اسماً بعد آخر، ولم يستبعد حتى بدري المدلل، «لأن هذا الخبيث الذي بدأ برأس السلطان وصل لأكثر الرؤوس، ومع الوشوشة وقص اللحى يمكن أن يصل لما في العقول والخصي» لكن عاد واستبعده أيضاً: «رأسماله كله أنه حلاق، لسانه شبر، ومثل ما يسمع يحكي، وبدل ما ينفعنا يمكن يضرنا ويخرّب بيتنا».

وفكر بالأمير راكان. صحيح أنه يحتاج إلى جهد، لكن إذا تدوزن وضبط ستكون يده طايلة. ومع ذلك فهو صاحب مزاج، فجأة قد يذهب إلى مزرعته. وهناك ما عنده إلاّ قال أبو هريرة وقال ابن عباس، وإذا أراد أن يستريح يبلّش «بألفية ابن مالك والثعالبي» وأضاف بعد قليل وهو يتذكر: «والمشكلة أنه من أم والسلطان من أم ثانية، ويمكن يكون عنده حسابات

واحد مثلي لا يعرفها» «أما الأمير ميزر فكل جماعته من رجال السوق والتجار، ولا تتعدى سوالفهم: كم صار ثمن الأرض الفلانية، ومن اشترى الأرض الفلانية. والرجل بطنه كبيرة وما هو فاضي لشغلة من هذا النوع».

ولم ينسَ الحكيم، وهو يستعرض الأسماء، مطيع وجعفر والحجار، لكنه قال وهو يصرف النظر عن هذه الأسماء: «الله خلق لكل واحد منهم هماً يشغله».

وكاد بعد بضعة أسابيع أن يطوي الموضوع لأنه إذا لم يذكّر السلطان به فإن السلطان لن يتذكره، خاصة وقد وجد صعوبة في اختيار الشخص المناسب. ولا يعرف كيف خطرت له فكرة أن يكون هو نفسه المسؤول عن جهاز من هذا النوع. تصور نفسه في غرفة نصف مظلمة، ملحقة بديوان السلطان مباشرة، ولديه عشرات التلفونات، وهذه التلفونات ترن بين لحظة وأخرى، وتأتيه الأخبار من الجهات الأربع، فيسمع ويوجه وينقل إلى السلطان ما يراه ضرورياً ومهماً، ولديه عشرات المساعدين، ولكل واحد من هؤلاء مهمة محددة، وكل شيء يتم في الليل، في السر. وفكر أن يعطي مساعديه أسماء سرية، أو أن يعطيهم أرقاماً! وحاول أن يتذكر بعض الكتب التي قرأها منذ وقت مبكر حول الأعمال العظيمة والخطيرة التي وقعت أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، وكيف كانت الأجهزة السرية تلعب الدور الرئيسي في توجيه الزعماء، في قيادة الحرب، لكنه لم يتذكر صوراً محددة أو أسماء كبيرة. قال لنفسه بنوع من خيبة الأمل «يا أبو غزوان لو فكرت بهذا العمل قبل عشر أو خمس عشرة سنة وانصرفت إليه لكانت له نتائج.. أما الآن» وفي محاولة لأن يكبح شعور عدم اللياقة أو القدرة الذي أحس به للحظة قال وهو يضحك «وهذه الأجهزة أصبحت بخدمتك يا أبو غزوان... كل المعلومات وكل الجهود ستصب في حضنك، ويجب أن تكون قديراً وقوياً وتعرف كيف تتصرف»!

بعد الكثير من الانتظار والتفكير والسؤال توصل الحكيم إلى قرار: «قبل فترة طويلة قلت لمطيع أن امرأة، نعم امرأة، وأجنبية، لا تحسن العربية، ولا تعرف أحداً، استطاعت أن تقيم مملكة من لا شيء، وأنت يا

صبحي، يا أبو غزوان، تعجز عن اختيار رجل ليكون رئيساً لجهاز الأمن والسلامة الخاصة؟» ودون تردد اقترح على السلطان:

- يا صاحب الجلالة توصلت إلى اقتراح يرضيكم. توصلت إلى الرجل المناسب.

- من؟

- حمّاد المطوع.

- حماد المطوع..؟ ابن إبراهيم أو ابن صالح المطوع؟

- ابن صالح المطوع يا صاحب الجلالة.

- أنا أعرفه؟ شفته؟

- يوم الخميس الماضي كان بالديوان، يا صاحب الجلالة، وهو اللي رد الأعمى وقال له راجع دار الإمارة..

- أي نعم.. أي نعم.. تذكرته.

- ومن اللي أشار عليك؟

وضحك الحكيم قبل أن يجيب:

- والله، يا صاحب الجلالة، قلبي هو اللي أشار عليّ.

قهقهه السلطان وهز رأسه عدة مرات، ثم قال:

- إذا كان شور القلب، يا حكيم، فالقلب ما يكذب وما يخطئ!

قال الحكيم وهو يتنهد:

- يا صاحب الجلالة: العمل الذي سيقوم به صعب وسهل، وهذا العمل بالذات يحتاج، بالدرجة الأولى، إلى الثقة، إلى الأمانة، وحماد كفؤ وصغير السن، وتعرف، يا طويل العمر، إن عائلة المطوع عائلة ميسورة، ولذلك يمكن أن يربى في ظل جلالتكم، ويكون أكثر الناس إخلاصاً.

- وكم عمره.. ابن المطوع؟

- حوالي الثلاثين.. يا صاحب الجلالة.

- ما هو صغير على هذا العمل؟

ـ الصغير الذي يربى في ظلال جلالتكم أحسن من الكبير الذي ربي في أماكن أخرى.

ـ ودارس؟

ـ درس إلى العاشر.. ثم استلم رزق أهله، وهو الآن كل شيء لآل المطوع.

قال السلطان في محاولة لئلا يحسم الأمر:

ـ الله كريم، خلنا نسأل ونفكر، يا أبو غزوان، وانشاء الله ما يصير إلا الخير!

قبل بضعة شهور من مغادرة الحكيم لحران وصلها شخصان: حسني كركر وسعيد الاسطة، أخوان من ناحية الأم. حسني طويل، أبيض البشرة، ضامر، وسعيد مربوع، أميل إلى القصر، أو هكذا يبدو نتيجة السمنة، إضافة إلى قليل من السمرة، بالمقارنة مع أخيه. لا أحد يقدر أنهما أخوان، وإذا قيل ذلك لا يصدّق لأول وهلة، أما إذا كان أحدهما موجوداً، أو كلاهما، وذكر الأمر، وهز أي منهما رأسه دلالة الموافقة والتأكيد، فإن مظاهر الاستغراب والدهشة تظهر واضحة على وجوه الذين يسمعون ذلك أول مرّة.

لا يقتصر الاختلاف على تباين الملامح أو اختلاف الكنية، فإن مزاج الاثنين شديد التباين أيضاً. فحسني يبدو متسامحاً أقرب إلى الطيبة والتدين، أما سعيد فرجل عملي، كما يصف نفسه، ولذلك من السهل التعامل معه رغم سخريته، ورغم النزق الذي يميز تصرفاته في ساعات الغضب، كما أنه لا يتردد في أن يفعل أي شيء. وربما هذه الطبيعة بالذات هي التي أدت إلى أن تلحق بالاثنين الخسارة تلو الخسارة، مما اضطرهما لأن يتركا الشام في وقت مبكر، وأن يفتتحا محلاً تجارياً في عمان. إذ بعد زيارة خاطفة قام بها حسني لهذه المدينة، ودراسة السوق فيها، مستفيداً من علاقات كانت له ببعض معارفه الذين سبقوه إلى هناك، تأكد أن الإمكانية كبيرة لأن يبدآ عملاً، خاصة وأن عملهما في دمشق قد تعثر وواجه صعوبات لم يستطيعا تجاوزها، وهكذا استقرا في عمان.

هذا التاريخ الضارب في القدم والعتمة والاختلاف لا يمكن لأحد أن يتأكد منه أو أن ينفيه، لأن الروايات حول ذلك كثيرة ومختلفة أشد

الاختلاف، حتى أن أياً من الاثنين يروي الواقعة الواحدة بطريقة تختلف مرة عن أخرى، وتختلف عما يرويه الآخر. أما السبب الذي دعا الأخوين لأن يتركا عمان فإنه الإفلاس، إذ بعد أن افتتحا محلاً تجارياً يختلف عن أي محل غيره، بتنوع الحاجات التي يعرضها والخدمات التي يقدمها أو يقوم بها، وبعد أن حققا نجاحاً ملحوظاً خلال فترة قصيرة وقد لفت هذا النجاح نظر الكثيرين وأثار تساؤلاتهم واستغرابهم، تمادى سعيد فبدأ بمضاربات عقارية ترافقت مع عقود على كميات من السكر المهرب، وقيل أيضاً الاتجار بالمخدرات، وقد أدى هذا. . أو ربما غيره، إلى الإفلاس. ويبدو أن حسني احتاط للأمر قبل وقوعه، إذ نقل الجزء الأكبر من الأراضي والعقارات التي كانت باسمهما، أو باسم أحدهما، إلى أسماء أقارب، خاصة من النساء، بحيث أنه عندما حُجز على المحل التجاري، في محاولة لاستيفاء الديون، تنازل بعض الدائنين عن حقوقهم، لأنهم لم يجدوا شيئاً يختلفون عليه، أو أن الشيء الموجود لا يستحق الاختلاف!

الإفلاس. . أو ادعاء الإفلاس هو الذي دفعهما لأن يغادرا عمان، على الأقل لفترة تكفي لأن ينسى الناس. ولما كانت لسعيد علاقات تجارية بأشخاص في حران، خاصة من خلال صفقات السكر المهرب، فقد بدت له هذه المدينة المحطة الأساسية، وربما الهدف أيضاً. وفي محاولة لأن يقنع حسني بمرافقته وموافقته، أكد له أن «قريبنا، الدكتور صبحي المحملجي، شخص يده طايلة، لأنه مع الجماعة هناك طيزين بلباس واحد، ولا بد أن يحملنا بعيونه» ولأن حسني لم يكن يملك الرفض أو القدرة على العناد فقد وافق.

حين جاءا إلى حران، ولثلاثة أيام متوالية، في العيادة والمستشفى، كان جواب محمد عيد واحداً متقارباً: «الطبيب في غرفة العمليات والعملية طويلة» «الطبيب طلب إلى قصر الإمارة لحالة مستعجلة» ولذلك، ونتيجة هذا الموقف وهذه الإجابات، كان يفترض أن يتصرف سعيد. وسعيد إذا بدأ، إذا غضب، من الصعب أن يصمت أو أن يتسامح. فما هو إلا يوم أو يومان حتى أصبحت مهمة محمد عيد أن يبحث بنفسه عن الرجلين وأن

يدبرهما، كما أكد عليه الحكيم أكثر من مرة، وبحزم يقرب حد الأمر، لأن «هذا المجنون، يعني سعيد، لا يعرف الناس ولا يمكن أن ينحزر عليه كيف سيتصرف!» ورغم أن القرابة في الأساس، وإن كانت بعيدة، هي بين الحكيم وحسني، إلا أن الذين سمعوا كلام سعيد وتعليقاته، ظنوا، بل وكانوا متأكيدين، أن القرابة التي يتحدث عنها الرجل هي بينه وبين الحكيم شخصياً.

أما في دعوة الغداء التي أقامها لهما الحكيم في اليوم الخامس لوصولهما إلى حران، وفي محاولة لإصلاح الخطأ الذي تسبب به محمد عيد، فقد وجه كل اهتمامه وعنايته إلى سعيد، وكان حريصاً على ألا يخرج من عنده إلا راضياً. وفي محاولة لئلا يتورط معه أيضاً، ويوافقه على المشروعات التي يعرضها، وكان يطلب تنفيذها على وجه الاستعجال، ولكي لا يبدو رفضه سريعاً قاطعاً، ويؤدي ذلك، من جديد، إلى هيجان هذا المجنون، فقد أثنى الحكيم على الأفكار والاقتراحات التي عرضت، لكن طلب أن تُدرس بعناية وأن «نجد شركاء من أهل البلد» وإلى أن يتم ذلك كلف كلاً منهما بأعمال تتعلق بالمستشفى أو بالعقارات التي يملكها في حران «وبعد ما نخضّهم تعرف الزبدة من الشنينة».

أبدى محمد عيد استغرابه، بل امتعاضه، لأن الحكيم خاف من هذا «الصايع»، يعني سعيد الأسطه، «ولو ترك لي تأديبه لما تجرأ هو أو تجرأ غيره على أن يتطاول على أكبر راس في حران» يعني الحكيم. والحكيم الذي ابتسم، قال كأنه يحدّث نفسه:

ـ داروا سفهاءكم، هكذا جاء في القول الكريم.

تطلع بإمعان إلى محمد عيد ثم تابع:

ـ وأولها وآخرها الجماعة قرايب.

ولأن محمد عيد كان لا يزال تحت تأثير الانفعال، واعتُبر أنه المسؤول عن الخطأ، رد بحدة:

ـ بعض الأقارب عقارب، يا حكيم، ولا تغلط!

ـ غلط ما حصل، وخسارة ما راح نخسر، وأولها وآخرها الرجال وأفعالها.

بعد أربعة شهور وبضعة أيام كانت عودة الحكيم من موران لاصطحاب وفد حران من أجل تقديم العزاء بالفقيد الراحل، وقد تعمد أن يرافقه سعيد الأسطه وحسني كركر، كدليل على الحزن وعلى مدى تأثر العائلة بهذا المصاب، ولكي يتيح لهما الفرصة لأن يطلعا ويعرفا موران بشكل مباشر، وإمكانية أن يستقرا فيها معه. خلال هذه الزيارة أبدى عناية خاصة بهما، وقدّمهما إلى الكثيرين كأقرباء أولاً، وكتجار جملة كبار، ليس في الأردن فقط بل وفي سورية ومصر ولبنان أيضاً. وسعيد الذي بدا مسروراً وأُخذ بجو الحفاوة والاهتمام، ما لبث أن بدأ يتصرف كتاجر كبير فعلاً، إذ بعد أن طلب بإصرار وإلحاح أن يرافقه واحد من رجال القصر ويعرّفه على تجار موران الكبار، أصبح يذهب بمفرده إلى السوق، ويقضي هناك ساعات كل يوم، وخلال ذلك يسأل ويدقق، يساوم ويتعرف، إلى أن بات متأكداً من كل شيء، وأصبح واثقاً أنه إذا بدأ عملاً جديداً في موران فلن يخيب هذه المرة، ولن يكون مصيره مثلما كان الأمر في الشام وعمان. ولقد بلغ به الانفعال درجة أنه فضل البقاء في موران، على أن يعود حسني وحده مع الحكيم إلى حران لتصفية الأعمال هناك، وأنه سينتظرهما في موران. لكن نظرات الحكيم وابتساماته، ثم تلك الإشارات بعدم إمكانية الاستغناء عن خدماته في حران «لأنه يعرف كل شيء وقادر على كل شيء» جعلته يوافق على مرافقتهما، على أن يعود في أقرب فرصة!

الوقت الذي وصل فيه الحكيم إلى موران، ومعه تلك الحاشية الكبيرة، المؤلفة من محمد عيد وسعيد الأسطة وحسني كركر، إضافة إلى طباخ وخادم وحارسين، يعتبر الوقت الذهبي لموران، أو هكذا يحب أن يصفه. يقول ذلك بكثير من المرح، ويضيف وقد تغيرت معالم وجهه تماماً:

ـ الله، جلّت قدرته، فتح أبواب السماء على هذا الشعب الطيب الفقير، فبعد انتظار طويل، أطول من انتظار يعقوب لابنه يوسف، وبعد أن كان الناس يأكلون الجراد والتمر وخبز الشعير، ويموتون من سوء التغذية والطواعين، قال لهم الكريم: كفاكم جوعاً وعذاباً، يا عبادي الصابرين، فقد رأفت بكم، وأنا حين أرأف وأجود أفعل ذلك بلا حدود، وإذا كنت قد بلوتكم فيما مضى من الزمان بالجوع والحكام الظالمين، فإني اليوم أرفع عنكم الكرب وعذاب الدنيا لأحاسبكم في الآخرة، أمنحكم اليوم سلطاناً ليس كالسلاطين، وأفتح له خزائن الأرض أجمعين!

ويتيه الحكيم في أماكن بعيدة، فإذا عاد تتغير نبرة صوته:

ـ لو جاء الإنسان إلى موران قبل سنين لما استطاع أن يعيش، لما وجد فيها ما يعوض التعب والشقاء: لا شغل، لا مال، لا بشر!

ويبتسم بحزن ثم يتابع:

ـ ومن يأتي بعد سنين لن يجد مكاناً أو شيئاً؛ سوف يكون الناس أكثر من التراب، وأشره من الذباب!

وينهي حديثه لنفسه أو لبعض خلصائه بأن يقول: ويشدد على الكلمات:

ـ اليوم هو اليوم المناسب، هذا هو العصر الذهبي لموران!

وفي أقل من ستة شهور قامت في موران، وفي شارع العون بالذات، شركتان: «الشركة العالمية للاستيراد والتصدير» وتتولى بشكل خاص استيراد المواد الغذائية، ويملكها عبد العزيز الغامدي وسعيد الأسطة وشركاؤهما، والثانية «شركة الحصان لمواد البناء» ويملكها محمد الحصان وحسني كركر وشركاؤهما. الأولى في بداية الشارع، مقابل الميدان، وتمتد على مساحة ثلاث أو أربع دكاكين، وقد خصص جزء من المكان لعرض المواد التي تتعامل بها الشركة، إذ صُفَّت أكياس السكر والطحين والعدس وصناديق الشاي، إضافة إلى أعداد كبيرة من المعلبات، وخصص جزء آخر للمكاتب، أما الجزء الأمامي فكان عبارة عن ردهة كبيرة لاستقبال الموزعين وتجار الجملة وكبار التجار.

شريك سعيد الأسطة، عبد العزيز الغامدي، بدأ راعياً للغنم في صباه الأول ثم في بداية شبابه، ولما اشتد عوده أصبح راعياً للجمال، وظل كذلك بضع سنين، سافر خلالها مرات عديدة إلى شرقي الأردن وفلسطين، ووصل مرة إلى مصر، ومرة إلى حوران، وخلال هذه الفترة أصبح راعياً ومالكاً أيضاً، إذ له في الرعية رأسان، ثم بعد عدة سنين أصبح شريكاً بالنصف في رعية يبلغ عدد رؤوسها اثنين وثلاثين.

وعندما قامت العلاقة بينه وبين سعيد الأسطة في الشركة العالمية للاستيراد والتصدير، كان عائداً لتوه من الكويت، وكان يملك ثلاث سيارات حمل، إضافة إلى تجارة في الصوف والجلود، والصدفة المحضة هي التي جمعته بسعيد أولاً ثم بالحكيم بعد ذلك، ويبدو أن الرجل تعب من السفر وأراد أن يستقر، فلما اقترح عليه أن يكون شريكاً في شركة المواد الغذائية لم يتردد طويلاً، باع سيارتين من السيارات الثلاث، وحصلت الشركة على قرض من الدولة، إضافة إلى تسهيلات مصرفية، وبدأ العمل: عبدالعزيز الغامدي له الثلث برأسماله وعمله، وسعيد الأسطة له الثلث بالقرض والتسهيلات، إضافة إلى العمل والخبرة. أما راتب الفتال، «المورد والضامن لدى الشركات الأجنبية في الخارج فله الثلث الأخير.

الثلث الأول لعبدالعزيز وحده، أما الثلثان الآخران فينقسمان إلى أرباع: الحكيم له الربع، لأنه الكفيل لدى المصارف، ولأنه «أمّن» العمل والسمعة، ولراتب الربع لأنه «المورد» والصلة مع الشركات، أما الأخوان، حسني وسعيد، فلكل منهما الربع للعمل والخبرة.

وسعيد الذي وافق بسرور على هذه الشراكة وعلى هذه النسبة، ولم يبد أي تحفظ، قال لحسني، الذي قدّم بعض الملاحظات، وتساءل عن دور الحكيم وراتب، قال له وهو يضربه على كتفه:

ـ اضحك بعبك، لأن الوحيدين الذين دفعوا المال هم عبد العزيز الغامدي والحصان، ونحن كلنا شركاء مضاربين، إذا جاء الربح نتقاسمه، وإذا وقعت الخسارة، تقع براس المسخوطين.

وإذا وافق حسني على هذا التفسير، لم يزايله الشعور بالغبن، لأن «الحكيم يربح على البارد المستريح، لا دفع ولا راح يحمل الحديد والخشب، وربحه يجي إلى حضنه. وراتب الفتال، وهو قاعد على طيزه، بالفي والمي، فقط يكتب إلى الشركات: «وردوا لحسابنا مائة طن من الإسمنت وعشرين متر من الخشب... والشركات تورد وهو يقبض!».

أما عندما سارت الأمور بذاك الشكل، فبدأ البيع والشراء أكثر مما قدر أي واحد من الشركاء، فقد نسي الجميع القسمة، بل وبدوا مسرورين مشغولين بالعمل والنتائج.

وفي دعوة العشاء التي أقامها الحكيم احتفالاً بقيام هذه الشراكة، وانتهاء علاقته المباشرة، مع تأكيدات لا تلبث تتزايد على ضرورة أن يعتمد الإنسان على نفسه، قال بفخامة، موجهاً الحديث إلى كل واحد منهم:

ـ اليوم ما بقي لأحد حجة، وإذا كان الناس، في أماكن أخرى، يحارون فيما يجب أن يعملوا، لعدم وجود الأعمال، فإنهم هنا يحارون أيضاً، لكنهم يحارون في أي عمل يعملون؛ لكثرة الأعمال وتنوعها!

وبعد قليل خرج صوته خاشعاً:

ـ وكما في القول الكريم: لا أخاف على أمتي من الفقر وإنما أخاف عليها من قلة التدبير.

واستعاد نبرته الأولى:

ـ الحكيم، بعد اليوم، يا جماعة، في التجارة، يفتح الله، يوك، لا تسألوه ولا تشغلوه، لأن عنده ألف هم، وباله ما هو فاضي، فتولوا شؤونكم بأنفسكم.

حاول حسني، بأساليب شتى، أن تبقى للحكيم صلة، وأن يستشار ويؤخذ رأيه بكل القضايا، لكن ما لبث أن تراجع وهدأ إزاء امتناع الحكيم، بحجة عدم وجود الوقت لديه، وإزاء صخب أخيه الذي لا ينفك يزداد ويقوى، مؤكداً «أن كل دقيقة من وقت الحكيم تعادل تجارة الأرض كلها، فالرجل مكلف من أكبر راس في البلد، أن يكون مسؤولاً عن كل شيء، وما أعقلنا إذا الواحد منا كل دقيقة وكل ساعة حامل حاله، خري ومري، ورايح عند الحكيم، ويا حكيم: العدس؛ يا حكيم البصل والمعكرونة؛ ويا حكيم السردين، السعر اليوم كذا والبارح كذا... نبيع أم نشتري؟».

وضحك سعيد بصخب ثم أضاف:

ـ خليك يا أبو تيسير أعقل من هيك، واترك الرجل بمشاغله وهمومه.

وهكذا تم الاتفاق على أن تترك أكثر الأمور لحسني وسعيد يتدبرانها. أما راتب فسوف يأتي بين فترة وأخرى بزيارات طويلة، وأثناء وجوده، وإذا اقتضى الأمر، يمكن للحكيم أن يحضر بعض المداولات، ومن المفيد أخذ رأيه في القضايا الكبرى!

قال سعيد لشريكه في تفسير لافتة النيون الكبيرة التي وضعها باسم الشركة في أعلى البناء.

ـ الناس عليها الظاهر، يا أبو الحميدي، ولذلك فالمظهر شيء مهم، خاصة بالنسبة للمواد الغذائية، لأن العين هي التي تأكل، كما يقولون. فإذا صرفنا كم قرش زيادة على تنظيم الشركة، فالربح لنا في النهاية، لأن التجارة هي فن الأخذ والعطاء، فإذا مرّ الواحد وشاف وجوه موران في الشركة تتبايع وتشتري، ما يقدر يروح لمكان ثاني.

يستريح سعيد قليلاً، ينظر إلى عيني عبدالعزيز الغامدي ويقول له بانفعال:

ـ يا شيخ عبدالعزيز، يا أبو الحميدي، من اليوم وطالع التجارة في موران غير تجارة أمس واللي قبله، والشركة العالمية غير الخشش الهايفة اللي حولنا، فإذا بدأنا بقوة أكلنا السوق وفرضنا اللي نريده، أما إذا بدأنا عرجان، نقدم رجل ونؤخر الثانية.. ترى ما لنا خبزة في السوق.

فإذا رأى بعض التردد في عيني شريكه يغير لهجته:

ـ اسألني أنا يا أبو الحميدي. أنا لفيت الدنيا كلها على كعبي، شفت وتعلمت. شفت الناس كيف تشتغل وكيف تتصرف. والمسألة أولها وآخرها: شطارة ومظهر وإعلان. الشطارة تخلي الإنسان يفتح عينه في اللبن، يعرف متى يبيع ومتى يشتري، وهي إلهام من الله سبحانه وتعالى. والمظهر... كل الناس تؤخذ بالمظهر، يسيطر عليها، وياما ناس غنيوا بمظهرهم وشطارتهم. أما الإعلان، يا أبو الحميدي، خاصة في هذه الأيام، فإنه أقوى الأسلحة وأهمها، ولازم ذكر الشركة العالمية ما يقف ولا يهدأ، ولازم تتذكره الناس حتى في الحلم والمنام!

ويتفق الشريكان وتقوم الشركة كما يريدها سعيد الأسطة: كبيرة، في قلب المدينة. أما الردهة التي كان يفترض أن تبقى لعمليات البيع والشراء، على أن يحتل أبو الحميدي مكاناً في صدر المكاتب الداخلية، وأن لا يشغل نفسه بالعمليات المباشرة، فلم تلبث هذه الردهة أن تغيرت عما صممه وأراده سعيد، إذ نقل إليها أبو الحميدي طاولته ووضعها في الصدر، مقابل الباب مباشرة، لأنه يريد أن يرى كل شيء وأن يرى كل الناس، ولأن الغرفة الداخلية التي خصصت له في بداية الأمر، «مثل القبر، تحصر الصدر، ولا بدّ أن يصير البني آدم فيها بعد شهر أو شهرين أخرس أو مجنون».

ورغم الملاحظات التي قدمت في البداية، حول ضخامة التكاليف وعدم ضرورتها، «لأن موران ليست بيروت أو مرسيليا»، كما قال راتب، فإن النتائج التي حققتها الشركة في الشهور الأولى جعلت الجميع يقتنعون بصواب وجهة نظر سعيد، وبالغوا في لوم أنفسهم لعدم معرفتهم في الأمور

التجارية. وسعيد الذي لمس النتائج والتقدير لم تعد موران تسعه: «مثل ما قلت لكم: موران اليوم غير موران الأمس، والتجارة ما هي لعب أولاد، فإذا كان الناس في الماضي تاجروا، ربحوا وخسروا، فاليوم غير شكل، ما يقدر على التجارة، على الربح دون الخسارة، إلا من رضع من صدر لبوة»..

فرح الحكيم كثيراً، كذلك راتب، أما حسني الذي اكتفى بدكان، رغم اتساعها وارتفاع سقفها، وكانت أقرب إلى المستودع أو الخان، فقد تشاءم من النتائج التي حققها أخوه. «اعرفه مثل ما أعرف راحة يدي: خبّاص، وراسه ما يحمل، إذا ربحت معه قضية يظل يعيد ويكرر إلى أن ما يبقى منها شيء، وبعدها لازم يبدأ من الصفر». هذه الأفكار والملاحظات التي تدور في رأس حسني يقولها بكثير من الهدوء واللباقة، لكن سعيد يصمّ أذنيه ولا يلتفت، إذ لا بدّ أن يفعل ما يفكر فيه، وهو وحده الشيء المقنع والصحيح.

محمد عيد ينظر، يسمع، يتابع، لكن لا يفهم كيف يفكر الناس أو كيف ينظرون إلى الأمور، «فالصايع» أو «المنفاخ»، كما كان يطلق على سعيد الأسطة، رجل مظاهر وصوت عالٍ، لا يستطيع أن يعمل شيئاً، وأنه «آخذ الدنيا زعبرة» ومع ذلك لا يسمع في موران إلا الحديث عن الأخوين، أو عن الأسطة والكريكير، كما أصبح يطلق عليهما، وأنهما حرقا السوق ولم يبق لأحد شيء، وأنهما وحدهما اللذان يفهمان بالتجارة والسوق وأسعار الأراضي، ولا بد أن يصبحا أكبر الأغنياء في موران، ولا بد وأن يأكلا الأخضر واليابس. وإذا كان محمد عيد قد لام نفسه أنه لا يعرف البشر، و«أن الناس مخابر وليس مظاهر» فقد قال لنفسه بنوع من التعزية: «المسألة أولها وآخرها: أخلاق، والمال ليس كل شيء في هذه الدنيا».

وسعيد نفسه الذي بدا غير واثق، أو غير متأكد، أول الأمر، «لأن المال هو كل شيء في هذه الدنيا» وهو لا يملك إلا شطارته وعقله، ويجب أن يشق طريقه مهما كلفه ذلك من مشقة وصعوبات، ما لبث أن

أصبح شخصاً آخر: «المال يا جماعة الخير، يروح ويجي، أما الشيء الثابت، الشيء الباقي فهو هذا» ويدق على صدغه، ليقول أنه يعني العقل. ولذلك ما كاد يحقق تلك الأرباح، وما كاد يسمع المديح الذي يكال له حتى يستعيد الثقة ويبلغ حد الزهو «عادة الجماعة في التجارة أن الواحد منهم يتاجر بخروف أو جمل. وأكثر شيء يبيع شوال أو اثنين من الطحين، ولأنهم بدون عمل ولا يشغلهم شيء، فشطارتهم كلها في المساومة، يظل الواحد منهم يفاصل حتى يطّلع روح الثاني، ولأن الإنسان أعصاب، لا يحتمل، فلا بدّ أن يسلّم، وبهذه الطريقة يربح الواحد كم قرش ويخسر الثاني كم قرش... هذه هي التجارة برأيهم». ويهز رأسه دلالة الأسف والإنكار، وبعد أن يستعيد ذكرياته يتابع: «أما أن يغامر الواحد منهم، أن يقطع قلب الطرف المقابل له، أن يربح كل شيء أو أن يخسر كل شيء، فهذا شيء لا يعرفونه ولا يقدرون عليه!».

حتى أبو الحميدي الذي كان في البداية خائفاً مرتاباً، وكان ينظر إلى هذه الحركة الحافلة التي تجري حوله بكثير من الشك، والذي نقل طاولته من الغرفة الداخلية إلى صدر الردهة منذ الأيام الأولى، ليرى بعينه ويسمع ويراقب، دون رغبة في أن يتدخل، تاركاً المفاوضات لسعيد، حتى أبو الحميدي ما لبث أن أخذ بالحركة وسُرّ إلى أقصى حد بالنتائج والأرباح التي بدأت تتحقق، فزال عنه الخوف، وبدأت تراوده نفسه أن يتدخل، أن يشارك، وما لبث أن تخلى تدريجياً عن الصمت، بل وأخذ يتقمص شخصية سعيد ذاتها: «بضاعتنا غير بضاعة السوق يا جماعة الخير، هذه البضاعة توصية، جاءت من آخر الدنيا على اسمنا ولحسابنا، ولكل إنسان عين ونظر وخله يمايز» ويتناول بقبضة يده كمشة من القهوة، يشمها، يقلبها، ثم يتركها تتسرب من بين أصابعه إلى الكيس الذي تناولها منه «دوروا السوق كله ما تلقون حبة واحدة من هذه القهوة، ذهب، أحسن من الذهب، والله يسلم اليد اللي زرعتها واليد اللي قطفتها، والله ييسر لمن باعها ولمن يشتريها» وبعد أن تستقر هذه النغمة في عقول الذين يساومون يضيف بطريقة سعيد ذاتها «يا جماعة الخير هذه البضاعة كلها صنف أول،

صنف ممتاز، والجماعة، وكلاؤنا في الخارج، بعثوها لنا مساطر، ويمكن بعد كم شهر ما ينوجد منها شوال واحد».

ويراقب سعيد من بعيد التحول الذي بدأ يفعل فعله في سلوك عبد العزيز الغامدي وكلامه، وحتى شكله، فيحس بفرح لا يقوى على كتمانه. يحس أنه كان بحاجة إلى هذه التجربة بالذات، ليظهر براعته وكفاءته. «موران غير الشام وعمان. الناس هنا بسطاء وعندهم رغبة لأن يتعلموا، ويمكن للإنسان، هنا، أن يفلح البلد من أولها إلى آخرها. هناك الناس بناديق، ألعن من إبليس، ولا تعرف الواحد منهم يضحك معك أو يضحك عليك». وإذ يرى أبا الحميدي قد تغير هكذا، تشتعل في نفسه الرغبات، وتتوالد الأفكار والمشاريع في رأسه أسرع مما تتوقد النجوم في السماء «الشغل في البلد أكثر من الهم على القلب، بس الواحد يحتاج إلى بشر، بشر مثل الناس والعالم، تعرف كيف تشتغل، وتعرف كيف تتحرك».

أما حسني الذي كان في أقصى السوق، من الناحية الثانية، يجلس وراء طاولة، صنعها بنفسه من دفوف وموررينات، بين أكياس الإسمنت وأكداس البلاط، وغير بعيد عن القضبان الحديدية التي تكومت فوق بعضها حتى قاربت السقف، يسمع ما يفعله سعيد وما يتناقله الناس في السوق، فتختلط أفكاره وعواطفه، فلا يعرف أيفرح من أجله ويطمئن أم تعاوده المخاوف القديمة؟ وإذا كانت البداية هكذا فهل ستجري الأمور بعد ذلك على نفس الوتيرة؟ كان لا يستطيع أن يصل إلى إجابة واضحة مؤكدة، خاصة وهو يتذكر أيامهما في الشام وعمان، وفجأة يرتفع صوته بالدعاء: «ربي يسر ولا تعسّر، ربي يسر ولا تعسّر، ربي أتمم علينا بخير» أما حين يلتقيان، وحين يبدأ سعيد بالحديث عن المشاريع التي يفكر فيها، وأنه لن ينتظر طويلاً حتى يشرع بتنفيذها، فكان يخرج صوت حسني أقرب إلى التأنيب:

ـ أركز شوية يا سعيد، خل الأرض تسخن تحتك. تعرف على الناس والبلد أولاً . . .

وبعد قليل:

ـ أما أن تأخذها عبطة، تركض هون وهناك، وتحط يدك في ألف مشروع ومشروع، فيمكن تطلع منها كلها زلط ملط.. وتخرّب بيتنا كلنا.

ويرد سعيد بثقة:

ـ أنا أخوك يا أبو تيسير، والله لأفلح فلاحة، وحتى النملة لأحلبها، قوِ قلبك ولا تخف... يا رجل.

ـ كل شيء بوقته حلو، يا سعيد.

ـ هذا هو الوقت يا أبو تيسير، فإذا ما بدأنا واشتغلنا راحت علينا، يجي غيرنا ويلهفها منا.

قبل أن تنقضي السنة الثانية كان سعيد قد أسس شركتين جديدتين، ومع شركاء جدد، الأولى لاستيراد السجاد والأثاث، والثانية للأدوات المنزلية. وراتب الذي أبدى شكه في رواج مثل هذه السلع «لأن موران ليست بيروت أو مرسيليا» ولأن الناس لم يتعودوا بعد على هذه الكماليات، فقد وافق على مشاركة رمزية فقط، تاركاً ما تبقى لسعيد وحده أو أن يتقاسمه مع شركائه الجدد. أما حسني فلم يرفض المشاركة فقط، اعتبر أن سعيد سيورط الجميع، وسوف يجر عليهم الخراب والإفلاس حتى بالنسبة «للأعمال اللي طلّعت روحنا إلى أن وقفت على رجليها». أما الحكيم فلم يتدخل. ولما سُئل بإلحاح من قبل حسني، وطلب إليه أن يبدي رأياً، اكتفى بأن قال:

- أهل مكة أدرى بشعابها.. وأنتم أدرى بوضع السوق.

لم يلتفت سعيد للمعارضة والرفض، فقد مضى قدماً في اختيار الأماكن وتجهيزها، ووافق بعد تردد ظاهر، أن يكون عبد العزيز الغامدي شريكاً في «شركة السجاد الشرقية» أما «شركة النيل للأدوات المنزلية» فإنها لا تحتمل شركاء كثيرين، كما أوضح، ولأن اثنين، أحدهما لبناني، سيتوليان أمرها، وأنهما وحدهما يعرفان بهذه الأمور.

أما كيف خطرت هذه الأفكار لسعيد، فإنه نفسه لا يستطيع الإجابة بشكل واضح، بل وتختلط البدايات مع المراحل اللاحقة، فلا يعرف ان كان قد فكر بمثل هذه المشاريع أو عنّت له فجأة. وهل اقترحها عليه أحد أو التقطها من أفواه الناس في السوق. قال لتبرير هذه المشاريع:

- ما دمنا نبيع القهوة والشاي، ونبيع الرز والسكر، وجميع المواد

التموينية، فهذه الأشياء للأكل وليست للفرجة، ولا بد أن يأكلها الناس، ولذلك يجب أن نؤمن لهم الأدوات.

ويضحك بفرح لهذه البداية المنطقية، والتي أقنعته قبل أن تقنع الآخرين، فيتابع:

ـ طبيعي مثل ما يحتاج الناس إلى الأكل يحتاجون إلى الأدوات.

وحين يصرخ حسني:

ـ كبّر عقلك يا سعيد، البني آدم يأكل ثلاث مرات في اليوم، وبعمره كله لا يشتري إلا طنجرة واحدة وسجادة واحدة.

وتتغير نبرة صوته، تصبح حزينة:

ـ هذا إذا اشترى!

ـ وهناك بشر بعمرها ما عمرت بيت.

هكذا يرد ساخراً، وبعد قليل:

ـ وعلى هذا القياس كان أكبر جنون أن يفتح الواحد محلاً لبيع مواد البناء.

ـ ولكن الناس تبني، ونحن لا نلحق في تلبية الطلبات.

ـ والناس يأكلون ويشربون!

ـ لكن لا يشترون الطناجر.

ـ ما دامت الفلوس وصلت لأيديهم راح يشترون.

ولم يتفقا على شركة النيل. أما الاعتراضات على الشركة الشرقية للسجاد فكانت أكبر، خاصة حين لمعت تلك الفكرة في رأس سعيد وهو يؤكد على أهمية تأسيس مثل هذه الشركة، قال ليحسم المناقشة:

ـ يا جماعة... كبروا عقولكم، فكروا للمستقبل.

وأضاف بعد قليل بفرح يخاطب نفسه: «عقولهم مثل عقول العصافير، لا يفكرون إلا في اليوم، ونحن إذا أخذنا فقط تعهد فرش قصر السلطان الجديد فهذا وحده يكفي، يطمرنا بالفلوس إلى آذاننا» ولم يصل معهم إلى نتيجة.

كان تأسيس هاتين الشركتين بداية اضطراب وخلاف بين الأخوين، إذ بالإضافة إلى رفض حسني المشاركة، فسعيد، لم يتوقف يوماً واحداً عن المغامرة والتغير. كان يشعر بلذة فائقة وهو يغامر ويتغير، وينتقل من مكان إلى آخر، من شغل إلى آخر، وقد وجد في موران وفي المال بين يديه فرصاً جديدة لأن يفعل ما عجز عن فعله في أماكن أخرى أو في أوقات أخرى. فالبيت الصغير الذي استأجراه أول وصولهما إلى موران، ليس فقط صغيراً ويجب أن ينتقلا إلى بيت أوسع منه، وإنما يريد أن يستأجر قصراً في حيّ السفان! وحسني حين يتطلع إلى أخيه مستغرباً أو غير مصدق، ويظن أن الأمر لا يعدو أن يكون دعابة من الدعابات الكثيرة التي تستهويه ويتفنن في القيام بها، يرد بسخرية:

ـ نحن بموران اليوم، يا أبو تيسير.. وحالنا فوق الريح!

ـ وإذا ما دامت هذه الحال؟

ـ يا سيدي، لا تخف، تدوم.

ـ إذا جاريناك راح نصفّي على البلاط!

ـ الأصعب من الفقر الخوف من الفقر يا أبو تيسير.

ـ يا سيدي كفانا نجارب!

وأخيراً وجد حلاً، فالبيت الذي بناه بناه محمد الحصان، عرضه عليهما فاستأجراه، وكان غير بعيد عن حي السفان. أما طريقة الحياة الباذخة التي أخذت تستهوي سعيد في هذه المرحلة فقد خلقت عاملاً جديداً للنزاع. فحسني بتلك الملابس الخلقة التي يرتديها طوال النهار، وضرورة أن يحمل أو يساعد في الدكان، وما يترتب على ذلك من الغبار والتعب، وبالتالي ذلك المزاج السوداوي الأقرب إلى الحدة والتوتر، كان يقابله سعيد بملابسه الأنيقة، وذلك المظهر النظيف البراق. يضاف إلى ذلك أن شريك كل منهما له مزايا مناقضة تماماً للآخر، فعبد العزيز الغامدي يعتبر أن الشراكة لا تكتمل ولا تكون حقيقية إلا إذا شارك بكل شيء مشاركة مباشرة، بل وأخذ يبالغ من أجل أن يتولى العمل بنفسه. أما

الحصان فلم يحاول أن يمد يده، وكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته في المقهى المجاور، والمرات التي حاول فيها حسني أن يشركه في العمل، أن يجعله يبقى في المحل، كان يجيبه بصوت رخو مع ابتسامة تظهر أسنانه الكبيرة:

ـ البركة فيك يا أبو تيسير، أنت تكفي وتوفي!

فإذا تطلع بلوم أو عتاب، يضيف:

ـ والغلط بهذه البلايا يكسر الظهر، خاصة بحساب الأثمان والأعشار!

مشيراً إلى الخطأ الذي وقع فيه أول عهدهما بالعمل، وكاد يرتب ضرراً كبيراً لولا أن تداركه حسني في اللحظة الأخيرة، وطلب منه أن يترك له وحده مسألة المحاسبة، لأنه يعرف بالدويبة ويجري أية عملية حسابية، مهما كانت كبيرة ومعقدة، بسرعة البرق.

كان من الممكن لهذه الأمور والخلافات أن تحل وتنتهي، أو أن لا تأخذ هذه الأهمية لولا الطيش الأقرب إلى السفه الذي ركب سعيد في هذه الفترة. فقد توصل إلى معادلة أكيدة: الكرم هو وحده الذي يثبت ويحدد حجمه التجاري، فإذا كان قد بدا متردداً في إظهار كرمه خلال الفترة الماضية، متذرعاً بصغر البيت وعدم وجود من يساعد في إعداد الطعام، فقد حلت هاتان الصعوبتان حين انتقل إلى بيت الحصان ووجد طباخاً.

تحمّل حسني الدعوات الأولى بصعوبة وعلى مضض، اعتبرها رداً لدعوات سابقة أو لضرورات العمل، أما عندما أخذت تتكرر وتتقارب، ويرافقها السهر مع لعب الورق والصخب، فقد أخذت تثيره وتخرجه عن طوره، طلب من سعيد أن يختصر هذه الدعوات، أن يجعلها في أوقات متباعدة، وأن تكون ظهراً «لكي ننام ونستريح بعدما هدّنا عمل النهار». وسعيد الذي يسمع ولا يسمع لا يغيّر عاداته ولا يستجيب لأي طلب غير ما يمليه عليه عقله ورغباته.

اتسمت العلاقة بين الحكيم وسعيد، منذ البداية، بطابع الخشية، وكانت خشية متبادلة، وإن ظل الاثنان يتستران عليها، بل وكانا يتظاهران بعكسها تماماً، خاصة أمام الآخرين. ونتيجة هذا الموقف تولدت لدى الذين يعرفون الاثنين قناعة أن العلاقة التي تربطهما وثيقة جداً، وأنها خاصة. حتى مطيع الذي لا يخفي سراً عن خاله، والذي أشار عليه في قضايا ومشاريع عديدة، وبادر الحكيم إلى الموافقة عليها، لم يجرؤ أن يقول رأيه كاملاً بسعيد. وفي المرات القليلة التي أشار إليه عرضاً، وعلى شكل تساؤل أو ارتياب، وجد أن للحكيم موقفاً مغايراً. ومحمد عيد الذي حاول التعريض به في البداية ما لبث أن تركه، أو بالأحرى نسيه في خضم المشاغل والهموم التي لا تتوقف في موران.

كان الحكيم يرى في سعيد شعلة من الذكاء والنشاط والحركة، «فإذا فهمناه وساعدناه يستفيد ونستفيد» هكذا يقول، وهو يهز رأسه. أما إذا خلا لنفسه فإنه يراه بشكل مختلف: «حربوق، ابن حرام، يسرق الكحل من العين، ولأنه مكار يأخذ الواحد للعين ويرجعه عطشان، ومع ذلك أن يكون معك، وأنت مفتح عينك مثل الفنجان، أحسن من أن يأخذه غيرك».

هكذا يراه الحكيم، فإذا أضيف إلى ذلك ما يقوله حسني عن أخيه، أنه خباص ومغامر، ويمكن أن يورط، فإن الحكيم شديد الحذر دائم اليقظة، ولأنه يريد أن يستفيد من الجوانب التي تعنيه، دون غيرها، فقد كان دائم التنبيه على راتب أن يراقب، أن يحاسب، وأن لا يترك الصغيرة أو الكبيرة؛ وكان يستعين أيضاً، وبأشكال مختلفة، ببعض العيون، ليتقصى أخباره ولمراقبته.

رأي سعيد بالحكيم لا يختلف كثيراً، فإذا كان يتحدث عنه أمام الآخرين فإنه يقول:

ـ الحكيم بالطب علم، وما بحاجة إلى شهادة أحد. والحكيم بالدين صاحب دين وكثير الأفضال. وفي السياسة مفتي وصاحب طريقة ويقدر أن يفك المعدوم من المشنقة.

يصمت لحظة ثم يضيف:

ـ أما القضايا الأخرى فلا يُعلى عليه.

ولا يخفى ما في هذه الكلمات الكبيرة العامة من مبالغة، أو بالأحرى لا تعني شيئاً محدداً، وربما تضمنت معنى السخرية، لكن طريقة سعيد في الكلام، تلك الطريقة الجادة المليئة بالتوقير لا تترك مجالاً للشك أو للتأويل.

أما رأيه الحقيقي، كما يلخصه لنفسه، فإنه بسيط وواضح «ليس هناك قوة على وجه الأرض تقنعني أن الرجل بريء أو نظيف. بالعكس، نصاب ومحتال كبير، له حاسة شم مثل الكلاب، يعرف، حتى بالنسبة للمريض، وين حاط فلوسه، وهو يعاينه، وهو يكتب الوصفة، يتطلع إلى جيب المريض المسكين، يدوخ الفلوس، فإذا تناولها، ودون أن ينظر إليها، يعرف المخمّسة من غيرها.. وبعد كل فضايحه. وبعد ما أكل الأخضر واليابس جاء إلى موران وبلّش يلهط. وهذا ما هو كلام قيل عن قال، أنا شفت بعيني!».

وبعد أن يضحك سعيد، ويخرج صوته، من الغيظ، على شكل صفير، يضيف محدثاً نفسه: «وأنا، لهفته عليّ لسواد عيوني؟ أخي حسني أقرب له مني، لكن لا يطيقه، يصرخ في وجهه. وأنا: «يا أبو شكيب، وأنت أخونا وأنت حبيبنا، وقبل ما تصل إلى حران كنت أصلي بالليل والنهار، وأدعي لربي أن يبعث لي واحداً مثلك». كذب أشر، لا صلاة يصلي، ولا بحاجة إلى واحد مثلي، بحاجة للفلوس، بده المال، وتصورني قط من خشب أصيد وما آكل، أو مثل دجاجة تبيض الذهب،

قال لنفسه نضحك عليه بكلمتين يتزحلق. فشر. أزحلقه وأزحلق أجداد أجداده، شفت أذكى منه بألف مرة، لكن أنا الآن ما لي ريش، بحاجة له ولأمثاله، أما إذ ريّشت، إذا صار عندي كم قرش، لا هو ولا غيره يمكن أن يستغلني أو يضحك عليّ... والزمان بينا».

فإذا أراد سعيد أن يسخر أكثر، أن يقول رأيه بالحكيم، وما يكاد يتذكر العبارات والكلمات التي يكررها لنفسه، حتى تصبح ابتسامته أقرب إلى القهقهة: «معلوف مثل الخنزير، ملمّع مثل البزاقة. صحته عال العال، لا فتاق ولا فقر دم، بالعكس الدم يتفزر من خدوده، لكن عند الفلوس تذبحه ما تنزل منه قطرة دم. أمزح معه بكل شيء إلا بالفلوس. إذ دفع عنك فنجان قهوة يسخن، إذا سلّم عليك عد أصابعك. وكل من يقول غير هذا الكلام لا يعرفه أو منافق. الفلوس دينه ومعبوده. والصلاة والصوم وكل العبادات فخاخ ومصايد ينصبها حتى يصيد بها الفلوس».

ويهز رأسه عدة مرات ويتابع:

«لكن... والله... والله لأعبّده العجل، لأحرق قلبه مثل ما حرق قلوب الناس».

هكذا يرى كل منهما الآخر، وهكذا يتظاهران، خاصة أمام الناس، أما وجهاً بوجه إذا التقيا فيبدأ الحكيم:

ـ أهلاً.. أهلاً أبو شكيب.

وبعد أن يسلّم عليه بحرارة ومودة:

ـ خبّرني: كيف صحتك؟

ولا ينتظر الجواب:

ـ وجهك مورّد وخدودك متفّحة، وشايف همتك عال العال...

ويضحك، وبعد قليل:

ـ لازم ندق على الخشب!

كل هذا قبل أن يجلس سعيد. فإذا حاول أن يختار مكاناً بعيداً، مكاناً مقابلاً للحكيم فيرتفع الصوت:

ـ تعال، يا رجل، قرّب، لأني مشتاق لك وصار لي مدة ما شفتك!

ويستجيب سعيد بكثير من المودة والبساطة، انه يلعب معه اللعبة ذاتها، وبنفس الكفاءة، وقبل أن يبدأ أي حديث جدي يعاود الحكيم:

ـ إنشاء الله مرتاح ومروّق؟ وانشاء الله صحتك وصحة الأهل بخير ومرتاحين؟

هكذا تبدأ الحوارات، أغلب الأحيان، وهكذا دائماً تجري. وسعيد الذي يحس بهذه المعاملة الخاصة، وأن تظاهر بالتواضع، يعرف كيف يرد:

ـ إذا رضيتم عنا، إذا نظركم علينا، يا حكيم، فنحن بألف نعمة من الله.

ويبتسم الحكيم وهو يتفرس في وجهه، ليبين ما إذا كان يعني هذا الكلام، فيبدو وجه سعيد شديد البراءة، وفي محاولة لأن يغير مجرى الحديث قليلاً يضيف:

ـ ولولا مشاغلكم الكثيرة، يا حكيم، كان بين يوم والثاني ثقلنا دمنا ومرينا وشربنا القهوة جميع.

ويستعمل كلمة «جميع» الموارنية ليدلل للحكيم أنه بدأ يتقن اللهجة، فيرد الحكيم بسرعة.

ـ أستغفر الله، أستغفر الله، في أي وقت أهلاً وسهلاً.

ـ إنشاء الله بعد أن نرتب أمورنا ونمشي أشغالنا يصير عندنا وقت ونلتقي أكثر.

ـ الله كريم يا أبو شكيب.

ويزفر الحكيم ويهز رأسه ثم يضيف:

ـ الواحد لا يعرف كيف وقته يطير.

ـ فعلاً!

ـ لكن، مع ذلك، لازم نلتقي أكثر، لأن العمر يخلص والشغل ما يخلص.

ـ والله صحيح يا حكيم، نحن البارحة وصلنا موران، لكن لو حسبنا نلاقي أن صار لنا عمر، صار لنا مدة طويلة!

فإذا أنجزا هذه المقدمات، أو ما يشابهها، بدآ في الحديث الذي اجتمعا من أجله.

لقد تكرر هذا عشرات المرات، بحيث تأكد كل منهما من مشاعر الآخر وفهمه جيداً، لكن لا زال كل منهما بحاجة إلى الآخر. فالحكيم الذي فوجئ بكفاءة سعيد والنتائج التي حققها، من حيث النشاط والأرباح، ودقة الحسابات أيضاً، جعلته أكثر تفاؤلاً وليس أكثر ثقة، أما مشاريع التوسع التي اقترحها، من حيث إضافة مواد جديدة، أو فتح فروع في عدة مدن، فبعد أن عرضت جيداً، ودرست بعناية من قبل راتب والحكيم على انفراد، وافقا عليها، ثم شرعا باتخاذ الخطوات، خطوة بعد أخرى.



كانت اللقاءات تتم، أغلب الأحيان، في بيت الحكيم. وكان الحكيم يحرص على عدم وجود آخرين، خاصة من رجال القصر، وهذا الحرص مبعثه أمران: ألا يعرف القصر شيئاً عن نشاطاته، والثاني ألا تكون لأحد غيره علاقة بالقصر. وقد تأكد سعيد من هذا، فقد صدف أن طلب منه أكثر من مرة أن يمر عليه في المكتب، لأمور عاجلة، رفض الحكيم بإصرار واضح، وهذا ما لفت نظره في بداية الأمر، أما بعد ذلك، وحين طلب منه أن يعرّفه على أحد في القصر، «لمعرفة حاجات القصر وإمكانيات أن نتعهدها» فقد رد الحكيم بسخرية وغموض:

ـ اسمح لنا بهذه يا أبو شكيب!

وحين حاول سعيد أن يستفسر، أن يفهم ما وراء هذا الموقف، رد الحكيم بشيء من التعالي:

ـ الجماعة، في القصر، يعرفون أننا نعمل في القضايا الكبرى، أما إذا بدأنا معهم بالبزر والقضامة، وكيلو سكر وكيلو رز راح ننزل من عيونهم، ونصير لا للخل ولا للخردل.

ولما أصر سعيد أن تعهدات القصر كبيرة، من حيث الحجم والأرباح، وأن السوق كله يتحدث عن هذا الموضوع، فقد رد الحكيم من جديد وهو يطبطب على كفّ سعيد، ويريده أن يطوي الموضوع:

ـ مثل ما قلت لك يا أبو شكيب: اسمح لنا بهذه الشغلة.

ورغم أن سعيد طوى الموضوع، مع الحكيم على الأقل، إلا أنه لم يفهم حقيقة الموقف، لكن حين جاء ذات يوم إلى بيت الحكيم، بناء على موعد سابق، فقد التقى به محمد عيد على بعد خطوات من البيت وأبلغه أن الحكيم اضطر للخروج، مع أن ثلاث سيارات تابعة للقصر، وفيها عدد من الحرس والمرافقين، كانت تقف على الباب. وكانت جميع الدلائل تشير بوضوح إلى أن الحكيم موجود، وأنه يستقبل عدداً من رجالات القصر في بيته!

حتى مطيع، «الأخنب»، كما يسميه سعيد، لأنه يتكلم من أنفه، والذي أبدى عواطف سخية، حين التقوا في حران، وظل وحسني معه أسبوعاً كاملاً أثناء إحدى زياراته، بدا في موران إنساناً آخر، إذ ما عدا لقاءات المجاملة، والتي تمت في بيت الحكيم، فقد غاب تماماً، وكان من الواضح أنه يتهرب، لا يريد أن تكون له بهما علاقة. وعندما حاول سعيد مرة بكثير من المكر، أن يبحث معه حاجات القصر وإمكانية أن يساعدهم أو يعرّفهم على أحد فقد تطلع إليه باستغراب ثم رد:

ـ الله يخليك يا سعيد، قضاياكم ومشاكلكم لا تدخلني فيها.

قال ذلك بحزم. وحين أبدى سعيد استغرابه لهذا الموقف ولهذا الرد، تابع:

ـ أنا بالأساس، لا علاقة لي بأشغالكم، ولا أعرف هذه الأشغال، ولذلك إذا كنت عايز أي شيء من القصر اتصل بالحكيم!

تأكد سعيد، بعد مواقف وملاحظات من هذا النوع، أن الحكيم لا يريد منه أن يقترب من القصر، ألاّ تكون له علاقة، أية علاقة، وتأكد أكثر أن الحكيم يريد أن يشاركهم في أعمالهم، ويصرّ ألا يقتربوا من أعماله، الا

يشاركوه. ولذلك امتلأ إصراراً أن يغزو الحكيم في قلعته، لكن من أبواب خلفية، من أبواب لا يعرفها ولا يستطيع أن يمنع أحداً من دخولها، وهذا ما دعاه لأن يبحث عن آخرين، وهذا ما دعاه لأن يستعين بالغامدي وغيره.

أما حين بدأ الحكيم، بتكتم وخفاء، يشتري الأراضي، وقد عرف سعيد من أصدقاء في السوق، فقد قدّر اهتمامات الحكيم في هذه الفترة، رغم أنه لم يشر إلى الأمر من قريب أو من بعيد. ولئلا يلفت نظر الحكيم، أو يشعره، فقد تولى، ذات ليلة، الرد على أخيه، عندما استشار هذا الأخير الحكيم، ما إذا كان من المناسب أن يفكر الإنسان بشراء قطعة أرض أو اثنتين، كما أشار عليه الحصان، بهدف البيع والشراء أو بهدف البناء، خاصة وأن علاقته بهذا الجو أصبحت وثيقة، وأصبح على دراية.

قال سعيد بسخرية:

ـ اترك السالفة يا رجال، جماعة السوق تقول: حرام إن الواحد يحط فلوسه في الرمل!

قال ذلك بلهجة مورانية فخمة وهو يتطلع إلى الحكيم، الذي احمرت وجنتاه وارتجفتا ارتجافاً عصبياً، وهذه العادة تلازمه. وقد لاحظها سعيد منذ لقائهما الأول. حين يواجه مأزقاً أو حين يشكل عليه أمر من الأمور. فلما التقت نظراتهما خلال تلك اللحظة الخاطفة تابع ليخلق طمأنينة مصطنعة:

ـ ومع ذلك سوالف أهل السوق كثيرة، وما يتعرف صدقها من كذبها.

وكلما حاول الحكيم أن يتثبت من تقدير معين، من قناعة معينة، يتصرف سعيد بطريقة تزعزع هذا التقدير، وتهدم هذه القناعة، فيحار الحكيم أكثر في فهم أو تقدير هذا الإنسان. إذ بمقدار ما يبدو مهذباً ذكياً، وبعض الأحيان بسيطاً، فإنه، في أحيان أخرى، كالثعلب بحركاته وطريقة تفكيره. حتى الأفكار عن العمل التي بلورها الحكيم نتيجة مناقشة الآخرين، أو نتيجة الاطلاع على تقارير ودراسات أعدّت للقصر، يجد أن لدى سعيد أفكاراً مشابهة. صحيح أنه يطرحها بشكل بدائي، وبعض الأحيان يفتقر إلى الوضوح والدقة لكنه «وضع يده على الجرح»، كما يحب

الحكيم أن يقول، ويضيف لنفسه «ملعون، خلاصة للحس الشعبي، والذكاء».

وتزداد الأمور تشابكاً ما ازدادت القضايا والمشاريع، فسعيد الذي كان في بيت صغير، وكان متواضعاً في حياته ومصاريفه. ما لبث أن انتقل إلى بيت أكبر، كما واشترى سيارة فخمة، إضافة إلى سعة في العيش والتصرف، بحيث ينفق ما حصل عليه من أرباح خلال فترة قصيرة. وإذ يبدي الحكيم دهشته ويعاتبه، فكان الرد جاهزاً:

ـ الفلوس، يا حكيم. مثل الماء الجاري، لا يمكن لأحد أن يمسكها، لأنها لا بدّ وأن تفلت، والأحسن أن تفلت برضاي من أن تفلت برضا غيري، وأن يستمتع بها الإنسان أحسن من أن يستمتع بها غيره.

ولما حاول الحكيم أن يشرح أهمية أن يحرص الإنسان، وأن يصرف بمقدار، وأن يقتصد رد سعيد وهو يتحول من الابتسام إلى الضحك:

ـ الله يخليك يا حكيم، الإنسان في هذه الحياة يعيش مرة واحدة، والقرش الأبيض إذا ما فاد وبسط في الحياة، في الدنيا، ما راح يفيد بعدها، لأن الإنسان إذا مات راحت عليه.

ولما نظر إليه حسني بنوع من اللوم رد مازحاً:

ـ يا أبو تيسير. كل واحد بعقله رضي بفلوسه ما رضي، أنا بفلوسي راضي، وبعدين، يا سيدي، الفلوس وسخ الدنيا، وما في أحد مات وأخذ معه أي شيء.

واكتشف الحكيم صفة جديدة في هذا الإنسان: «المال لا يعني له شيئاً هاماً»، ولذلك يجب ألا يخاف منه أو أن يتوجس. أكثر من ذلك يبدو له أن سعيد بحاجة إلى الثقة والفهم أكثر مما هو بحاجة إلى المال، لأن المال بالنسبة له لا يتعدى أن يكون مظهراً للقوة والوجاهة.

لو أن حماد ولد وعاش في مكان غير موران، أو في وقت غير هذا الوقت، لأصبح قائداً عسكرياً أو رساماً، وربما صار رئيساً لعصابة من مائة شخص، أو ربما مات أو قتل وهو في العشرين!

فالتجارة التي كانت لآل المطوع، والتي لا تتوقف قوافلها عبر البادية طوال السنة، حاملة الطحين والرز والأقمشة، لم تكن تغريه أو تشده. أما الأراضي التي كانت للعائلة فإنها تنتشر في أمكنة عديدة، وتغطي مساحات لا يعرفها حتى أصحابها، لكن هذه الأراضي لا قيمة لها، ولا تتعدى أن تكون حظائر للإبل والغنم، أو متروكة هكذا، لأنها لا تزرع، وبعيدة، بعض الشيء، عن المدن. وقد تم شراؤها أو وضع اليد عليها في وقت مبكر، لتكون مراعي أو حظائر. ولأنها كذلك لم تغر أحداً من آل المطوع لأن يهتم بها، خاصة واحد مثل حماد. أما أن يصبح مثل عمه شداد، صاحب خيول ومضافة، فلم تستهوه هذه الهواية طويلاً، بعد أن جاءت السيارات وتنوعت، وأصبحت خيول العصر الجديد. ولهذا فإن الخيول التي جلبها من مصر، وتعب في تربيتها والعناية بها، خلال فترة معينة، ما لبثت أن انتقلت إلى عمه شداد، فقد باعها حماد لعمه دون ربح ودون أسفٍ أيضاً. حتى المدرسة التي أغرت أقرباء له وأصدقاء، وكان من السهل أن تفتح له مجالاً، غادرها بعد معارك انتهت بالضرب والأذى، وكانت مشهورة في موران.

أما لماذا يمكن أن يكون قائداً عسكرياً أو رساماً، فبسبب تلك النزعة الجامحة التي تميزه للسيطرة، أو لإعادة تشكيل العالم وتنظيمه. وهذه النزعة بمقدار ما لفتت إليه النظر، منذ وقت مبكر، فقد أقلقت المسنين في

العائلة، وأدت إلى تباين الاجتهادات بينهم في كيفية التعامل معه. فأبوه اعتبر أن التجارة «واللعب بالمال» لا بدّ أن يُغيّره، لكن لا أحتمل التجارة ولا أغراه المال. أما الأسفار التي قام بها مرافقاً القوافل، فكان يعود منها ليؤكد الصفات الأساسية التي تنام في دمه أكثر مما ساعدته عن إبراز الصفات الجديدة المكتسبة. وكان ينفق في أسابيع ما تعب في تحصيله خلال شهور.

عمه شداد كان له رأي آخر، «إذا المال ما فاده، والخيل، هذه العرايس اللي تربط الملائكة، وفيها بركة الدنيا والآخرة، ما حنّنته، ظل علينا شيء واحد» ويضحك بقهقهة ثم يضيف: «بنت الحلال... وهذه لا بدّ تتعبه وتربطه، وياما قبله كثيرين داخوا بالنسوان وانسدحوا».

ولذلك تزوج حماد وهو في العشرين، واكتفى بواحدة حتى بلغ الثلاثين، لكنه لم يتغير إلا كما تتغير الشجرة: كبر، امتد، جاءه أولاد، لكنه ظل كما كان. وآل المطوع الذين يحرصون على أولادهم بمقدار حرصهم على أموالهم، صبروا وتحملوا. أما مفلح، كبير العائلة، والذي ضعف سمعه، فلم يفهم قصة حماد إلا بعد فترة وبصعوبة، إذ صاح في أذنه حفيده مطلق عدة مرات، وهو الوحيد القادر على إبلاغه الرسائل، فلما سمع قال وهو يبتسم:

ـ اتركوه.. يا جماعة الخير، لأن الحبة تدور وترجع للرحى.

ثم بدأ يهذي وحده:

ـ قبله، آل المطوع، كلهم مثله، إلى أن يتعبوا، وبعد ما يجربون اللي يصير واللي ما يصير ترجع لهم عقولهم؛ وإذا الواحد لاواهم يتعب وتتعب يده، وما يسلمون إلا برضاهم. قبله جده، وقبل جده أبو جده، كلهم زمروا بهذه القصبة إلى أن انتفخت اوداجهم، ركضوا إلى أن تعبوا، وبعدها بركوا وجاء بعدهم غيرهم.

وتطلع إلى الوجوه حوله، هز رأسه وتابع:

ـ وبهذي الأيام كل العباد مثل حماد: بعران وهّاجه، والله يستر!

وهكذا ترك. لم يلح عليه أبوه أكثر مما فعل، ولم يطلب منه ما طلبه من الآخرين، وهو بمقدار قلق أقربائه وحيرتهم كان قلقاً حائراً. فإذا تفاءلت أمه ونقلت لأبيه أنه أصبح راغباً في العمل والتجارة، ولا بدّ أن يصبح مثله، كان لا يتأخر حتى يكذبها. وإذا تفاءل أعمامه ونظر إليه الواحد منهم نظرة جديدة، لأنه يتحدث في أمور تتجاوز التجارة وموران وعمل كل يوم، لا يتأخر حتى يبلغهم أنه لم يجمع مالاً ولم يفكر بعمل، ويتابع بعض الأحيان باستهتار:

ـ الدنيا ما هي بس عمل وتجارة.

وفي إحدى زيارات راتب إلى موران، جرى الحديث عرضاً حول هموم الحكيم، ولا يعرف سعيد كيف لمعت في رأسه. فعبد العزيز الذي حدّث سعيد عن آل المطوع، عن تجارتهم والأراضي التي لهم، وعن القرابة، من ناحية النساء، بالسلطان، وحدثه عن صديقه التائه حماد، فقد بدا له أن بالإمكان أن يلعب اللعبة.

أما بعد أن تمت صفقة الأرض في مدخل موران الجنوبي، وتوثقت العلاقات بين حماد والحكيم، بطريقة أقرب إلى السحر، فقد أخذت الأمور مجرى آخر.

فالحكيم الذي عرف بتحرياته الخاصة أن آل المطوع يملكون قسماً كبيراً من أراضي موران، وأنهم لا يقدرون قيمة هذه الأراضي، لأنهم غارقون في التجارة، وراكضون وراء الإبل والغنم، أدرك، بما يملك من حواس، أن الفرصة مؤاتية لشراء مساحات من هذه الأراضي، خاصة في بعض المناطق البعيدة، وفي منطقة الحصيبية بالذات التي لا تلفت نظر أحد في الوقت الحاضر، وهذه البداية لا تتعدى الاختبار، ولا تتعدى بناء العلاقة مع عنصر من عناصر العائلة.

أما الأمراء ميزر وراكان وملحم، وقد علموا قبل الآخرين، أن الأراضي شرق الرها ستكون خلال سنوات قليلة، بالغة الأهمية، مرتفعة السعر، لأن وزارة الخارجية، اشترت قسماً من هذه الأراضي، وستبني

عليها مقرها، وأن اقتراحاً قدم للسلطان ببناء مراكز السفارات وبيوت السفراء في نفس المنطقة، فقد قدروا أن شراء الأراضي هناك يجعل الإنسان غنياً لولد الولد، كما قال الأمير ميزر للحكيم، والحكيم الذي وافقه، كان ينتظر، ولذلك وافق بحماس كبير.

وحماد الذي «يمون» على عمه سلمان، أقنعه أن هذه الأراضي لا تعادل شيئاً، ويمكن أن تبقى هكذا مئات السنين. فإذا جاء من يشتريها، فإن المال يتحرك في التجارة، في الحلال، ولا بد أن يتضاعف خلال سنة، وأقصى حد خلال سنتين، أما «الأرض فإنها تبقى في مكانها، لا تتحرك ولا تعطي مالاً» خاصة وأن المبلغ الذي اقترحه الحكيم كان مغرياً ويدفع فوراً.

وبهذه الطريقة تمت صفقة الأرض، وتم معها وصول حماد إلى مكتب الدكتور صبحي المحملجي، على أن يتولى وكالة مسؤولية جهاز الأمن والسلامة.

لم تكن الأرض تعني حماد إلا بقدر ما تقربه لما يحلم به، رغم أن هذا الحلم كان غائماً مشوشاً إلى أقصى حد، فقد كان يبحث عن تجربة جديدة أقرب إلى المغامرة، ولا يعرف لماذا تصور أو افترض أنه إذا اقترب من القصر يمكن أن يحقق هذه المغامرة.

الآن، وقد وصل حماد إلى القصر، إلى غرفة لا تبعد كثيراً عن السلطان، في نفس الجناح الذي يحتله الحكيم ومطيع، بدا له أنه يطل على العالم كله من نقطة عالية مشرفة، وأنه يرى ما لا يراه غيره. وإذا كان الحكيم راوده بعض الخوف خلال المرحلة الأولى «أن لا يستطيع حماد تدبير المسألة» وصرف معه، بالتعاون مع بعض الأميركيين المقيمين، وبعض الذين جاءوا لمهمات محددة، وقتاً طويلاً أولاً في اختيار العناصر، ثم في تحديد مهمات الجهاز وطريقة عمله وعلاقاته، فإن السرعة التي أثبت فيها حماد قدرته وكفاءته لفتت نظر الحكيم وجعلته مسروراً أشد السرور، وقد عبّر عن ذلك في أحد لقاءاته مع السلطان، حين جرى الحديث عن جهاز الأمن والسلامة. قال لجلالته وهو يفرك يديه سروراً:

ـ آل المطوع يا صاحب الجلالة ما هم بس بالتجارة أو بالخيل، حماد سبقهم كلهم، واليوم، يا طويل العمر، عندك جهاز يعرف دبيب النملة في الظلمة.

والسلطان الذي بدا فرحاً منشرح الصدر علق ضاحكاً:

ـ وبنات آل المطوع مزيونات يا حكيم!

هز الحكيم رأسه وكأنه فوجئ بهذا الاكتشاف، ثم قال:

ـ مثل ما تقول، يا طويل العمر، مع أني، والشهادة لله، ما شفت أية واحدة منهن، لكن من يتمعن بحماد، من يرى شكله وملامح وجهه، لا بدّ وأن يفترض أن نساء العائلة جميلات!

ولم ينتظر الحكيم طويلاً، لا لكي يفهم معنى هذه الإشارة، وإنما

ليتفق مع حماد على ضرورة أن تزفّ إحدى بنات العائلة إلى السلطان، لتجديد علاقات القرابة القائمة ولتقويتها أيضاً. وهذا ما تمّ فعلاً بعد ثلاثة شهور من استلام حماد لمنصبه الجديد، ولم يكن ذلك بمثابة تجديد العلاقات أو تقويتها فقط، وإنما كان انطلاقاً لآفاق جديدة وكبيرة.

فحماد الذي بدت له فكرة الاقتراب من القصر مغامرة فيها من الطرافة بقدر ما فيها من الإمكانية لارتياد عالم جديد، يتجاوز التجارة وهذه المساومات الكئيبة التي كان يجد أباه غارقاً فيها، بدأ يكشف أنه يسير في الاتجاه الذي يحب. صحيح أنه لا يعرف إلى أين أو متى سيصل، لكن القوة التي بدأ يحس بها، والمعلومات التي تصب بين يديه كل يوم، ومعرفة كل صغيرة وكبيرة في موران، وفي قصر السلطان بالذات، وما يجري في السلطنة كلها، هذا الاكتشاف جعله يوماً بعد آخر يتساءل ويفكر ويحلم، وجعله يتحول شيئاً فشيئاً إلى إنسان مختلف.

صحيح أن الأمور لم تجر بسرعة، أو وفق رؤية محددة، لكن ذلك الاضطراب الأقرب إلى التهيب الذي سيطر عليه في البداية، بدأ يزول تدريجياً، ثم أخذ مساراً جديداً. فبدل أن ينتقل بنفسه إلى العالم والناس ليكتشف ويتعرف، أصبح العالم والناس ينتقلان إليه، من خلال التقارير، أو من الذين يزورونه لينقلوا إليه ما سمعوا وما رأوا. ومن خلال التلفونات التي لا تتوقف حوله عن الرنين. ليس هذا فقط، فالصوت العالي الذي كان يميزه في الماضي، ولكي يخفي خجله بالدرجة الأولى، أصبح الآن همساً أو أقرب إلى الهمس. أما التدخل فيما يجري، ودائماً كان له دور، فأصبح لا يتطلب أكثر من كلمة أو إشارة، لكي تسير الأمور كما يطلب أو كما يشتهي، وغالباً ما تكون هذه الكلمة عبر الهاتف، أو من خلال المرؤوسين.

في بداية العمل، لم يكن حماد يقدم على تصرف أو يخطو أية خطوة إلا إذا استشار الحكيم، وهذه الصيغة في العمل ولدت إلفة كبيرة بين الرجلين، وأشعرت الحكيم بأهمية متزايدة، حتى الفكرة التي راودته في مرحلة معينة أن يتولى بنفسه مسؤولية هذا الجهاز ثم عدل عنها لأنها لا

تلائم عمره وموقعه، تبين له أن الصيغة الجديدة أكثر ملاءمة. يكفي أن يمرّ عليه حماد صباح كل يوم، عند وصوله إلى القصر، ويقضي معه نصف ساعة، ليطلعه على التقارير التي وردته، وليتلقى توجيهاته، وهو، من خلال هذه الصيغة، يستطيع أن يشرف ويوجه، ويستطيع أيضاً أن يبقى مسيطراً على هذا الجهاز الذي بدأت تتضح أهميته يوماً بعد آخر.

أما الاجتماع الدوري بالسلطان صباح كل سبت، والذي جرى في الأسابيع الأولى دون أن يتكلم حماد إلا أقل الكلمات، وتولى الحكيم نفسه نقل المعلومات، ثم قام «بتقدير الموقف» كما سمّي الوضع العام في السلطنة، كان حماد خلال هذه الاجتماعات شديد الجفلة بل أقرب إلى الخوف. تمنى في أعماقه لو يستمر الحكيم القيام بهذه المهمة، وتمنى ألا يُسأل من قبل السلطان عن أي أمر من الأمور. أما في وقت لاحق فقد أصبح أقل تهيباً، وأصبح يشارك في تقديم التقرير الأسبوعي، لكن ظل «تقدير الموقف» من اختصاص الحكيم.

الحكيم باستمرار يأتي بأفكار وعناصر لا تخطر ببال حماد، إذ لا يكتفي بالحديث عن الأمور التي جرت، أو عن المعلومات الواردة في التقارير، لا بدّ أن يتحدث عن الوضع في المنطقة: الأخطار التي تحيط بالسلطنة، العناصر الخطرة التي يمكن أن تتسرب من هنا وهناك. كان حماد يشعر بزهو أن الحكيم يمتلك هذه الرؤية، قادر على أن يتحدث في أصعب الأمور وأخطرها. وكان يشعر بفخر أنه يعمل مع رجل بهذا المستوى. والحكيم الذي يلاحظ الإعجاب، يفيض، يأتي بأمور إضافية، بأمثلة من التاريخ، أما السلطان الذي يبقى، أغلب الأحيان، صامتاً، يستمع، يهز رأسه، فقد لاحظ حماد الشرود على وجهه عدة مرات. أكثر من ذلك كان يراه، يتيه في أمكنة أو أمور بعيدة أثناء حديث الحكيم. وحين يوشك الاجتماع على الانتهاء، يتغير السلطان، يصبح أكثر مرحاً وأكثر رغبة في أحاديث مختلفة، وخلال الدقائق الأخيرة، وإلى أن يغادر، وغالباً ما يبقى الحكيم في حضرة السلطان، يصبح الجو مريحاً منعشاً، ودائماً كان الحكيم يتولى خلق هذا الجو.

وبدأت تتغير أيضاً علاقات حماد بالكثيرين، فبعد أن كانت إحدى هواياته أن يتجول في موران بسيارته المكشوفة، ولا يتردد في الوقوف عدة مرات في السوق، يخرج ويسلّم ويسأل، وكانت له مجموعة من الأصدقاء على شاكلته، بدأ في هذه الفترة شخصاً مختلفاً: استبدل سيارته بأخرى أكبر وأكثر رصانة، سواء من حيث شكلها أو لونها، ولم يعد يشاهد في السوق إلا بين فترة وأخرى، وكانت هذه الفترات متباعدة، حتى ظن الكثيرون أنه سافر. أما الأصدقاء الذين استمروا على علاقة به فلم يعرفوا نوع العمل الذي أسند إليه في القصر، كما لم يبح هو بذلك. فإذا سئل يجيب بكثير من الإيجاز والغموض، أنه يعمل في دائرة مستشار السلطان، ولا يضيف شيئاً آخر. حتى عمه شداد الذي وصله في هذه الفترة حصان أسود، قيل إنه أجمل خيول موران، وكان فخوراً به، عندما سأله أي عمل يعمل في القصر، رد عليه حماد بجدٍ مبالغ فيه:

ـ مع مستشار السلطان.. يا عم!

ـ يشور عليك أم تشور عليه يا ابن أخي؟

هكذا تساءل شداد المطوع بمرح، ثم تابع:

ـ وإذا عندك أو عنده شور بالحمداني اللي جانا فقولوا، وإذا ما عندكم تعالوا شوفوه حتى تشوروا على طويل العمر بخيلنا أو خيله!

وقد فهم الذين سمعوا هذا الكلام أن شداد مستعد لبيع الحصان إلى القصر، إلى السلطان بالذات، إذا دفع ثمناً كبيراً، لأنه أفضل من خيول القصر جميعاً.

أما أبوه الذي لم يعرف أيفرح أم يحزن لأن ابنه انتقل من السوق إلى القصر، فقد قال أمام عدد من أصدقائه المقربين:

ـ سالفة الحكومة يا جماعة الخير ما لها تالي، وإذا كان بالتجارة تسعه يربحون وواحد يخسر، فعند الحكومة تسعة يخسرون وواحد يربح.

وزفر بحرقة وألم ثم أضاف:

ـ وعسى ما يكون حمادنا من الخاسرين.

كبير العائلة، مفلح المطوع، والذي ضعف سمعه أكثر من قبل، بدأ حفيده مطلق يستعمل محقاناً كبيراً لإبلاغه الرسائل المهمة، فهم الرسالة الجديدة خطأ، أو هكذا أراد أن يفهمها، فقد هز رأسه عدة مرات وهو يبتسم، ثم علّق:

ـ قلت لكم: حماد ابن صالح، وصالح ابن راشد، وراشد ابن جيهم، وكل واحد منهم كانت براسه سالفة، صالح لما مات أبوه كان ابن عشر، وكان أفقر من ذيب بفلاة، لكن أنتم اليوم تشوفون. راشد ناطح الكبار، إلى أن أتعبهم، لاواهم وكاد يكسرهم، لكن بين يوم وليلة عشق، عشق العجمية، والله أعلم أنهم أرسلوها، فترك الحرب ولحق العشق، وبعدها صار اللي صار. وسالفة الجد الأول، جيهم كلكم تعرفونها.

قال هذا كله وهو مغمض العينين، يحاول أن يتذكر، فلما فتحهما أضاف:

ـ ومن يوم ما فتحت عيني على الدنيا ووعيت كنت أقول: من آل المطوع لا بدّ ويجي يوم، يجي ولد وينتقم لجيهم، وهذا حماد، اللي قلتم عليه فلاني وتركاني، صار سلطان، وراح يسوي اللي ما يصير!

تطلع إليه الذين يستمعون ونظر بعضهم في وجوه بعض، وبدل أن يقهقهوا، كما كانوا يفعلون دائماً، حين يسألونه عن موضوع، فيجيب عن موضوع آخر، أخذوا ينظرون بخوف وتساؤل، مع لوم ورجاء أن يقوم مطلق فوراً بإبلاغه الرسالة بشكل دقيق، فلما فعل مطلق ذلك، وإن كان بصوت أقوى وعبارات متباعدة وواضحة، تطلع إليه باستغراب، ثم قال كلمات لم تفهم أبداً:

ـ أدري.. أدري يا وليدي.. حماد في القصر!

أما الأقرباء الآخرون والأصدقاء والمعارف فقد فهم كل واحد منهم الأمر كما يشاء، وتصور حماد بشكل مختلف عن الآخر، خاصة وأن الأمور بمجيء السلطان خزعل تغيرت تماماً، أخذت مجرى مختلفاً عما كانت عليه من قبل. وهذا التغير أو الاختلاف لم يقتصر على استبدال

بعض الرجال، أو غياب بعض الأمراء أولاد خريبط، وإنما امتد ليشمل كل شيء في السلطنة، بدءاً من تسمية الأولاد وانتهاء بكيفية مناداة السلطان أو الحديث معه!

ومع ذلك، فإن حماد الذي بدأ يفهم مهمته أكثر من السابق، وبدأ يتكيف معها، شعر أن موران التي كان يعرفها، والحياة التي كان يعيشها، وحتى البشر الذين كان يعرفهم أو سمع بهم، شيئاً آخر، ويجب أن يتصرف ويعمل ضمن هذه المعرفة الجديدة.

خلال السنة الثانية، وفي ذكرى عيد الجلوس، بدت الصورة شديدة الوضوح: السلطان يستقبل الأمراء والشيوخ وكبار التجار، الذين جاءوا للتهنئة، وقد بدا في صحة جيدة للغاية، بعد أن نقص وزنه قليلاً، بل وتراءى لكثيرين أنه أصغر سناً مما كان قبل سنة أو سنتين، وربما ساعد على هذا الانطباع أنه استبدل النظارات القديمة، العريضة الإطار، بأخرى جديدة، أظهرت عينيه الواسعتين الضاحكتين. أما الملابس التي كان يرتديها فقد كانت زاهية. وهي وحدها التي تليق له، بعد أن تخفف من تلك الألوان الرمادية التي كانت تستهويه في السنوات الماضية. واللحية الصغيرة لم يطرأ عليها إلا تعديل بسيط لا يكاد يلحظ، فقد تركها الحلاق الخاص لجلالته تزحف قليلاً إلى الأعلى، بحيث تملأ بعض الفجوات التي كانت تظهر سابقاً في أسفل الحنك، مقابل هذا قصّرها قليلاً، وقد فعل ذلك «لكي لا يبدو وجه جلالته مستطيلاً أكثر مما ينبغي»، كما أشار الحكيم، بعد أن رأى كاريكاتيراً لجلالته في مجلة مصرية، وكان أقرب ما يكون إلى وجه حصان!

كان السلطان، وهو يستقبل المهنئين، واقفاً، مسروراً، بل وبدا منفعلاً في بعض اللحظات، وهو يعانق إخوته واحداً بعد آخر، وهو يستقبل وفود المدن والمناطق. أما عندما وصل وفد حران، وكان وفداً كبيراً، وقد أصرّ مدير المدرسة على أن يلقي قصيدة في حضرة صاحب الجلالة، ولاقت القصيدة استحساناً ظاهراً، فإن المفاجأة الكبيرة التي حملها الوفد كانت عبارة عن حجة حصان حمداني مكتوبة بماء الذهب، أما الحصان ذاته فقد عرض عصر اليوم نفسه أمام السلطان أولاً، ثم أمام عدد كبير من الضيوف

والذين سمعوا عنه من أبناء موران وجاءوا لرؤيته، بعد ذلك.

لم يشك السلطان لحظة واحدة أن مفاجأة من هذا النوع كان الحكيم وراءها، ولذلك، وتعبيراً عن الثقة والمودة، أنعم عليه في الليلة ذاتها بلقب شيخ وسماه المستشار الأول لجلالته.

بدا الحكيم راضياً واثقاً، ومما زاد في تأكيد هذه الحالة أن الأراضي التي اشتراها لم تلفت النظر إلا قليلاً، ولتبرير شرائها قيل ان بعض الأمراء سيقيمون عليها ملاعب رياضية وساحات لسباق الخيل والإبل، وأن بعضها سيقام عليه مساكن للقبائل التي تقصد موران، إضافة إلى المدارس والمستشفيات.

ومما زاد في تأكيد هذه الحالة أيضاً، أن زيارات راتب إلى موران أخذت تتكرر وتتقارب، وأشار، عرضاً، إلى أنه يفكر بالانتقال إلى موران خلال فترة سنة أو سنتين، للاستقرار فيها، خاصة وأن العمل يسير سيراً حثيثاً منتظماً، كما خطط له، رغم اللغط الذي ينقله محمد عيد عن سعيد، وما يتحدث به الناس في السوق. ومما زاد من ترجيح احتمال مثل هذا الأخبار السارة التي زفّها راتب للحكيم حول تأسيس شركة جديدة للمقاولات، مهمتها بناء الطرق وتوريد الأبنية الجاهزة. وأشار إلى أن مستقبل هذه الشركة هام للغاية، ليس في السلطنة وحدها، وإنما في البلدان المجاورة أيضاً. ولذلك يجب أن تنشأ لها فروع محلية بسرعة، وقبل أن يصل المنافسون، خاصة وأن الجميع في بيروت وأماكن عديدة، لا يتحدثون إلا عن الأشغال الكبيرة في موران ومدن السلطنة الأخرى، وأن الكثيرين يبحثون عن «مفاتيح»!

والحكيم الذي يصر على معرفة احتمالات المستقبل، وكيف سيسير العمل، هنا أو في الخارج، ولضرورة مناقشة كافة التفاصيل، يصر على استضافة راتب في بيته، لأن موران تفتقر إلى فندق لائق، «وليكون عندنا الوقت الكافي للعمل». ويحاول بكل الوسائل تزيين فكرة الإقامة إلى جانبه. وراتب الذي يبدو متردداً، بل أقرب إلى التمنع، «لئلا أغيّر نظام البيت أو أضايق أحداً» يجد نفسه مضطراً للموافقة نتيجة إلحاح الحكيم!

ويعزو الحكيم التطور الذي حصل في حياة راتب وسلوكه إلى الجهد الذي بذله شخصياً في ذلك، فالمناقشات التي جرت في بداية تأسيس الشركة، ثم الزيارات التي قام بها إلى موران، والتي تتخللها القصص، وكلها بهدف إعطاء النموذج والمثل، أو تلخيص الحكمة وتكثيفها. هذه الأمور، إضافة إلى النتائج العملية، ساهمت في التحول الكبير. فهذا الشاب الطائش قبل سنوات، أصبح إنساناً آخر. يقول الحكيم في تبرير ذلك: «أكثر الناس مروا في حياة الطيش، والمسألة مسألة عمر» ويضيف بعد قليل وهو يبتسم: «عمر وتربية».

ومما كان يزيد في سرور الحكيم التغيير الذي كان يحدثه راتب في البيت خلال زياراته، فالهدايا الكثيرة التي يحملها، والقصص التي يرويها، ومشاريع الأسفار التي يخطط لها في الفترة القادمة، كلها تولد حيوية وصخباً، وأكثر ما يظهر ذلك على وداد.

أما حين تبدأ وداد، مثل طفلة صغيرة، تقفز وتضحك، وهي تضع معظم الملابس على صدرها، في محاولة لتتأكد من مدى ملاءمة مقاييسها أو ألوانها، أو تختبر رد الفعل عند الآخرين، فلا بدّ أن يعيد راتب نفس القصة:

ـ احترت بالنسبة للقياس، لكن وأنا أشتري رأيت امرأة تشبه أم غزوان، قلت لصاحب المحل: بقياس هذه الست!

وترد وداد بعتب:

ـ المرة الأخيرة، لما نزلنا على الحمرا، كنت معنا وشفتني لما اشتريت.

ـ لكن ما تذكرت النمرة يا أم غزوان!

ـ وانشاء الله راح تنسى... المرة القادمة؟

ويضحكون جميعاً، فإذا هدأت الضحكات يعلق الحكيم:

ـ هذه الأغراض تفتح مخزن أحسن من كل مخازن موران...

وتتغير لهجته:

ـ ولا تنسي الجماعة، يا أم غزوان!

ويشير بإصبعه قاصداً القصر، فترد وهي لا تعرف كيف تخفي فرحها:

ـ طبعاً... طبعاً، شو بدي إلبس... وامتى؟!

ويخيم الرضا على الجميع؛ يصبح الحكيم أكثر تفاؤلاً، ويعاود اتصالاته بالكثيرين، بعد أن انقطع عنهم فترة طويلة، لأنه لم يكن بحالة نفسية تساعده على التبسط، ويستغرب سلوكه ويتساءل لماذا كان قاسياً أو بعيداً بهذا المقدار. وإذ يجد أن ضرورات العمل فرضت عليه هذا الانقطاع، ثم إن حساسية المركز الذي يشغله في القصر اضطرته إلى ذلك، فإنه يلوم نفسه، ويقرر أن يكون إنساناً مختلفاً في الفترات اللاحقة.

وإذا كان الآخرون يلاحظون التغير الذي يطرأ على الحكيم فغالباً ما يعزونه إلى المصاعب والهموم التي يواجهها.

يقول محمد عيد دون أن يسأله أحد:

ـ اليد الواحدة لا تصفق يا جماعة، والمسكين حامل الدنيا على كتفه!

وتتغير نبرة صوته:

ـ لما كنا في حران، كنت آخذ عنه كتف، أما هنا...

كانت كلماته تعني استخفافاً وانتقاصاً من هؤلاء الذين يحيطون بالحكيم، وكانت تعني تحريضاً أيضاً، لكن الحكيم يتظاهر أنه لا يسمع، بل وكثيراً ما حاول تغيير الحديث. يسأله عن أخيه، ويبتسم، ليؤكد له أنه لا ينسى أحداً خاصة بعد أن أصبح بدري مهماً، وانتقل إلى القصر الذي يقيم فيه السلطان ذاته، وما لبث أن أصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه، للخدمات التي يستطيع أن يقدمها، ولتعلق الصغار والكبار به، ولقدرته غير المحدودة على رواية القصص والأحاديث والنكات، فأصبح أولاد السلطان لا يتركونه أبداً، وقد زيد راتبه مرتين خلال سنة، عدا عن الإكراميات، وبدأ يفكر بإحضار زوجته وأولاده إلى موران.

محمد عيد لا يعرف في أية حالة هو، يفرح بعض الأيام إلى درجة الطرب، ويستبد به الحزن في أيام أخرى إلى درجة البكاء. يحار في أي

الأمور أولى من غيرها بالمتابعة، فلا يتابع أياً منها، كما لا يجد فراغاً أو متسعاً لسماع ما يتناقله الناس، كما كان الحكيم يوصيه ويطلب منه. وفي فترة لاحقة أصبح شخصاً مختلفاً. صحيح أن التغير لم يظهر فجأة أو دفعة واحدة، لكن العين الفاحصة المدققة، ومن يعرف محمد عيد قبل سنتين أو ثلاث سنوات، ومن يراه الآن، يكتشف هذا التغير ويفاجأ به.

وداد التي لم تطق موران ولم تتآلف معها، بل ووقعت في المرض عدة مرات أيضاً، وقد بذل الحكيم جهوداً كبيرة لمعالجتها، وحار في أسباب المرض أو كيف يتغلب عليه، وإن كانت، غالباً، ما تستعيد صحتها باعتدال الجو، خاصة بحلول الخريف أو الشتاء، أو خلال زيارة بعض الأقرباء، فقد توصل الحكيم إلى قناعة مؤكدة «إن مرض الحنين إلى الوطن لم يفارقها يوماً واحداً، وإن كانت تحاول أن تتجاهله أو أن تنساه».

وخلال هذه الفترة توثقت علاقات وداد بنساء القصر وشغلت نفسها عن المرض، أو التغلب عليه، كما أكد لها الحكيم، وهو يحاول أن يشرح لها إمكانية الإنسان على التكيف. أما حين اقترحت عليه أن تقوم بزيارة إلى دمشق وبيروت، وقد حصل هذا بعد أيام قليلة من عيد الجلوس، وإشارت إلى أن زوجة السلطان أوصتها على عدد من القطع الذهبية، وعلى بعض الحاجات الأخرى، إضافة إلى ضرورة تأمين ملابس للأولاد، خاصة لغزوان وسلمى، فقد وجد الحكيم أن زيارة من هذا النوع مفيدة من وجوه كثيرة. كما أن فترة الشهر، وهي الفترة التي قد تقضيها في الزيارة، كافية لتجهيز قصر الحير والانتقال إليه، وكان الحكيم يريد أن يفاجئها بهذا الانتقال، ولا بدّ أن تتغير كثيراً، حالما تجد نفسها في وضع أفضل. الخشية الوحيدة التي يخشاها من هذه السفرة «التعب الذي قد يزعجها ويؤثر على صحتها»، أما حين أكّدت له أنها لم تتعب في السفرة الماضية، وأن تغيير الهواء سوف يعيد إليها شبابها وصحتها، وضحكت بصوت عالٍ، فلم يتردد في الموافقة!

وموران تغيرت أيضاً خلال هاتين السنتين. صحيح أن هذا التغير بسيط، أو بالأحرى لم تتوضح معالمه تماماً، لكنه كان بمثابة إشارة شديدة

الدلالة لما ستكونه في المستقبل. فالشوارع العريضة التي شُقّت وسط المدينة وعلى أطرافها، ثم الأراضي التي ألحقت بقصر الغدير، والكميات الهائلة من مواد البناء التي تراكمت في الجهة الجنوبية، وتلك الأعداد الكبيرة من المهندسين والفنيين، إضافة إلى مجموعة كبيرة من الخرائط والمصورات، والتي بدأت تنتقل من مكان إلى آخر، من مكتب الآخر، كل هذه الأمور تدل على التغير الذي حصل، وذلك الذي تنتظره موران.

في بداية الصيف خيم على قصر الحير جو مشحون من التوتر والانتظار، أقرب إلى الحزن، فقد تقرر أن يغادر غزوان إلى الولايات المتحدة لمتابعة دراسته هناك، على أن يقضي أسبوعاً أو اثنين قبل السفر مع العائلة في المصيف. وهذا القرار الذي اتخذه الحكيم بنوع من الحزم الظاهر، وحاول أن يضفي عليه البساطة المبالغ فيها، كان يخفي وراءه مرارة لا حدود لها. فالحكيم يرى في غزوان شبابه وخليفته، ويريده أن يبقى قريباً منه لكي يكتشف كل تجاربه في هذه الحياة ويطلعه عليها، وكان يريده أيضاً أن يبقى قريباً من الأجواء الكبيرة والرجال العظام، لأن ذلك سيفتح له طريق المستقبل، ويساعده على الوصول بسرعة أكبر.

في لحظة صعبة، لكنها ضرورية، وتشبه العملية التي تجري للمريض، اتخذ الحكيم قراره بالموافقة على السفر، رغم ما عاناه من صعوبة ومرارة، وأعلنه. وغزوان الذي كان يحلم بالسفر إلى أميركا ليل نهار، شعر بالرهبة أو ما يشبه الخوف حين أعلن أبوه هذه الموافقة: إنه لأول مرة يترك العائلة وإلى مكان بعيد لدرجة أن أياً من أفراد العائلة، أو الأقارب، لم يصل إليه من قبل.

أيام عديدة من الاستعداد والتوتر، ومع اقتراب يوم السفر يزيد الانفعال. أما عندما رتب الحكيم زيارة لابنه من أجل وداع السلطان، وتمت هذه الزيارة، فقد شعر بمرارة الفقد وصعوبته أكثر من أي وقت سابق. وعندما قرر جلالته أن تكون دراسة غزوان وتكاليف سفره وإقامته هدية منه، فلم يتمالك الحكيم نفسه من إخفاء دمعة سقطت من عينيه دون أرادة.

ومما زاد في مشاعر الفقد والمرارة أن الحكيم لا يستطيع أن يرافق العائلة إلى المصيف هذا العام. لأن الأعباء تتزايد ومهمات كثيرة تنتظره، كما أن العجرمي الذي سافر للحج وطالت سفرته، وكاد الحكيم ينساه، رجع مجنوناً أكثر من السابق، وأصبح تحريضه وهجومه لا يتوقفان يوماً واحداً، الأمر الذي جعل الحكيم متردداً ثم خائفاً. ولم ينتظر طويلاً لكي يصرف النظر عن فكرة السفر نهائياً، قال لنفسه بنوع من التعزية: «من الحماقة أن يترك الإنسان بناءً بناه بعرقه وسهر الليالي، لكي يهدمه الآخرون. أما بعد أن اطمئن فيمكن أن أذهب إلى أقصى مكانٍ في الدنيا دون خوف، وعند ذاك سيكون لدي وقت للاصطياف والاستجمام والكتابة أيضاً».

في اليوم الأخير قبل السفر، ود الحكيم لو يرابطِ في البيت، وأن يكتب مجموعة من الوصايا لكي تكون هادياً ومرشداً لغزوان في غربته. أن يقول له أشياء كثيرة، كيف يجب أن يتصرف ويفكر ويعيش، وأي أصدقاء يجب أن يرتبط بهم، لكنه لم يجد في نفسه القدرة أو الميل في مثل هذه الساعة، ولذلك تظاهر بالانشغال، وكأنه يواصل عملاً يومياً، وبالغ أكثر من ذلك، إذ تأخر ظهراً أكثر مما تعود، أما عند العصر، لحظة انكسار الشمس وبداية الرحلة، فقد انتحى الحكيم بابنه، وبطريقة حزينة، لكنها فخمة، قال له، وخرجت كلماته مضطربة:

ـ لا أريد أن أوصيك يا غزوان، أصبحت رجلاً وتعرف كيف تتصرف، وإذا كان للعائلة أمل فقد وضعته فيك، وصاحب الجلالة الذي تكفل بمصاريف دراستك ونفقاتك كلها لن ينساك، ومع ذلك فهذا المبلغ ـ ودفع إليه مظروفاً مغلقاً ـ قد تحتاج إليه وقد يساعدك على نوائب الزمن!

وقبّله ثلاث قبلات كما قبّل أخوته، ووقف عند الباب فترة أطول مما تعود، ظل واقفاً إلى أن غابت السيارة عن ناظريه.

غزوان الذي ظل متماسكاً، قوياً، وتكلم كرجل، وسلم على أبي عبد الله ومازحه، وكذلك فعل مع محمد عيد، لم يقوَ على أن ينتظر طويلاً ليعرف المبلغ في الظرف المغلق، فما كادت موران تصبح وراءه حتى فض

المغلف، وبمهارة وسرعة عرف أنه ألف دولار، وكانت مع المبلغ رسالة، قرأ فيها:

«فلذة كبدي... غزوان.

هذه أول رسالة أكتبها إليك، سوف تتذكر هذه الرسالة فترة طويلة، وقد تحدّث أولادك عنها. لا أدري لماذا أتصورك وقد أصبحت بعيداً، بعيداً جداً، حتى قبل أن تسافر! أشعر بمرارة فراقك، وأشعر أكثر من ذلك أننا تسرعنا، أنا وأنت، في اتخاذ هذا القرار، لكن مثلما فعلت أشياء كثيرة في حياتي ولم أندم عليها، أحس أن هذا القرار سيكون من جملتها. أنا أثق بك ثقتي بنفسي، وأعتمد عليك كما أعتمد على رجل كبير وواعٍ، فأرجو ألا تخيب ثقتي، وأن تكون عمادي واعتمادي الآن وفي المستقبلِ.

بودي لو أكتب إليك الكثير الكثير في هذه الرسالة، لكن أشعر أن قلبي لا يسعفني ولا يطاوعني الآن. سوف أكتب إليك في المستقبل بكل تأكيد، وسوف تكون أفكاري أكثر صفاء ووضوحاً، ولا بدّ أن تكون رسائلنا من الكثرة والطول بحيث يحدّث الواحد منا الآخر عن كل شيء يفكر فيه أو يتمناه. أما الآن وأنت تسافر فأريد أن أقول لك بضع كلمات:

اهتم، يا ولدي، بصحتك، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، وأنا الذي أفنيت حياتي في معالجة المرضى وتخفيف آلامهم، أعرف، أكثر من أي إنسان آخر، معنى المرض. ولذلك لا تتهاون أبداً في الاهتمام بصحتك. وقد يكون زائداً أن أذكرك بأن الدفء والغذاء الجيد والنوم المبكر والرياضة المعتدلة، كلها من العناصر الأساسية التي تجعل صحة الإنسان جيدة، فاحرص عليها بعقل واعتدل.

واهتم، يا ولدي، بالدراسة، فالأيام التي نعيش فيها تعتمد على التحصيل العلمي، لأن هذا التحصيل سيمكنك من مواجهة أعباء المستقبل وتحصيل المال، فالإنسان دون العلم ودون المال لا يساوي شيئاً، مهما كان أصله وعائلته.

وأوصيك، يا ولدي، أن تختار أصدقاءك بعناية كبيرة، وأن تجرب الإنسان مائة مرة قبل أن تمنحه ثقتك، وحتى الثقة لا تمنحه إياها دفعة

واحدة، ولا حاجة لأن أوصيك أن الأصدقاء، في هذه الحياة، قلة قليلة. يمكن أن يكون لك معارف كثيرون، لكن الأصدقاء، شيء صعب المنال، فانتبه كثيراً لهذه النقطة واعتمد على تجارب الآخرين لئلا تدفع ثمن تجاربك.

وأوصيك. يا ولدي، أن تقتصد في مصاريف الحياة، لأن القرش الأبيض ينقذ في اليوم الأسود. والحياة، بصورة عامة، قاهرة غدارة، لا تطمئن إلى اليوم وتنسى الغد، ولا تضع مالك كله في سلة واحدة، ولا تستدن أبداً، وإذا اضطررت أن تدين فاعطِ القليل واكتب بينك وبين من يستدين منك، ولا تخجل ولا تغضب، وحاول، يا ولدي العزيز، أن تبتعد عن المحرمات من المأكل والمشرب. وابتعد، خصوصاً، عن النساء، واذكر ربك في الصباح والعشية، واذكر والديك، وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً.

حبيبي وقرة عيني غزوان.

أكتب إليك هذه الرسالة وقلبي يعصره الألم، ويتفطر من الحزن واللوعة، وكأني أكتب وصيتي الأخيرة، لكن يجب أن تفهم قلب الوالد، وأن تتذكر كم تحملنا وتعذبنا أنا والوالدة حتى أصبحت رجلاً هكذا، فلا تنسَ، وإلى أن نلتقي مرة أخرى، وأرجو أن يكتب الله لنا ذلك قريباً، أكتب إلينا كثيراً، لأن الكتابة، كما يقولون نصف المشاهدة.

ولك من والدك المحب المشتاق كل الخير والبركة والتحيات.

والدك

وسافر غزوان، وبدأ الحكيم ينتظر.

وقبل أسابيع قليلة من سفر عائلة الحكيم، لتبقى هناك الصيف كله، سافر مطيع أيضاً، لكن قبل أن ينقضي الصيف عاد ومعه عروسه، وقد رافق عودته الكثير من الحفاوة والدعوات. وتفضل السلطان، كتعبير عن المودة، فاهدى إليه سيارة جديدة، واهدى لزوجته عقداً من الماس قُدّر تقديرات مختلفة، لكن اتفق الجميع على أنه هدية ثمينة. وبدا مطيع في هذه الفترة أنيساً ودوداً أكثر من الفترات السابقة، وكان يطفح بالنشاط والمرح.

وخلال نفس الفترة سافر أبو مصباح، لكن سفرته لم تطل، أو كما قال: «مشوار الطريق، لأن صاحب الجلالة لم يأذن لي بأكثر من ذلك». عاد ومعه زوجته وبناته الثلاث وابنه مصباح، وعاد أيضاً بمجموعة من الطيور: ببغاء، وعدد من الجساسين والكناريات، وبعدد كبير من الألعاب، ولم يعرف ما إذا كانت هذه الألعاب لابنه مصباح أم هدايا حملها لأناس آخرين. لكن الشيء المؤكد أن بدري الحلاق، هكذا أصبح اسمه الجديد، بدا في حالة من الإشراق والسرور إلى درجة أن الكثيرين الذين لم يروه من قبل أو لم يعرفوا المزايا التي يتمتع بها اكتشفوا فيه إنساناً خارقاً.

ومحمد عيد الذي رفض السفر، أو مجرد الحديث في الموضوع، بالرغم من إلحاح أخيه واقتراح زوجة الحكيم، لأنه لا يستطيع «أن يترك الحكيم وحده»، والذي حاول أن يشغل نفسه بأمور كثيرة، كان قد فكر فيها من قبل واستعدّ لها، فما لبث أن وقع مريضاً في الأيام التالية، ورغم أن الحكيم بذل جهداً كبيراً في فحصه، وأحاله إلى اثنين من الأطباء، الذين يعتمد عليهم في موران، وأجرى له تحليلات كثيرة ومعقدة، إلا أنه لم يشخّص المرض، ولم يستطع أن يصف له أدوية مهدئة، وما كاد محمد عيد يرى هذه الأدوية حتى قال للحكيم، وهو يضحك من الألم والسخرية معاً:

ـ هذه ما هي كافية يا حكيم.. لازم لي إبرة كمان.

وشاركه الحكيم الضحك، لكنه قال وهو ينظر إلى البعيد:

ـ ما عليك يا رجل... جرب هذه الأدوية وعلى مسؤوليتي!

الببغاء وعصافير الحبِ التي حملها معه بدري المدلل في سفرته الأخيرة، وجاء بها إلى موران، لأنه لم يجد لها حلاً أو مكاناً آخر، شغلت القصر، شغلت الصغار والكبار، وخلقت من الاهتمام والضجة الكثير. وقد فُتِن بها أبناء السلطان، وبشكل خاص الاثنان الصغيران، وطلبا الاحتفاظ بها. وأبومصباح الذي وافق دون تردد، رغم تعلق ابنه بهذه الطيور، كان يتوقع لها نهاية سريعة، «لأن هذه الطيور تعودت على الفي والمي، ولا يمكن أن تتعود على جو آخر، وجو موران إذا وافقها اليوم يقتلها ثاني يوم، وأن تموت عند غيرنا أحسن من أن تموت عندنا» هكذا قال لزوجته في محاولة توضيح سرعة موافقته على إهداء الطيور. الخشية الوحيدة التي جعلته متردداً في إهداء الببغاء تلك الكلمات غير اللائقة التي تعلمتها «الشيبة» كما كان يطلق عليها، ولذلك أخّر إرسالها لعدة أيام، وبذل جهداً خارقاً في أن يعلمها كلمات جديدة بدل تلك التي تعرفها. لكن ما أن يزداد إلحاحه في تلقينها «عاش السلطان.. عاش.. عاش» حتى يصفعه جوابها «يضرب هالكسم» فإذا حاول أكثر ترد عليه: «اخرس». وأخيراً لم يجد مفراً إما أن يبقى «الشبيه» في البيت أو أن يهديها هكذا، ولأن أولاد السلطان لم ينتظروا ولم يصبروا، فقد قال لزيد الهريدي في محاولة لأن يشرح موقفه:

ـ أولاد طويل العمر طلبوا الببغاء...

وبعد قليل:

ـ روحي اعطيها لهم، لكن أخاف من هذا الطير أن يسوي مشكلة.

ـ وكلّ الله يا رجل.

ـ يا أبو عمران. . هذا الطير غير مؤدب!

ـ غير مؤدب.

ـ لسانه فلتان.

وضحك زيد ضحكة صاخبة. تابع أبو مصباح:

ـ وبكرة إذا صار ما صار تقولون أبو مصباح!

ـ ويش يقول؟

ـ يقول الزايدة والناقصة.

ـ لا. . . بالله عليك، ويش يقول.

ـ أنا مالي علاقة، اسأله واسمع جوابه!

ـ هاته وما عليك.

ـ بشرط. . .

ـ ما هو الشرط؟

ـ إن صاحب الجلالة لا يعرف ولا يسمع. .

ـ وكل الله يا رجل. . . وتتصور أن البني آدم يحط عقله بعقل طير؟

ـ إذا أخذت الموضوع على كفالتك ومسؤوليتك أنا موافق.

ـ خلص. . ما عليك!

وانتقلت الطيور إلى القصر، إلى جناح السلطان. وإذ لم تلفت نظر صاحب الجلالة أو ينتبه إليها خلال الأيام الأولى، فقد أصبحت تسلية لذيذة له في وقت لاحق. لكن لم يدرِ بهذه التسلية إلا القليلون. أصبح صاحب الجلالة شديد الشغف بطيور الحب: يراقبها باهتمام، يقضي ساعات وهو ينظر إليها كيف تتعانق، كيف تزق بعضها، كيف تتشابك بمناقيرها وتتلوى. كان يشجّعها ويحرضها، وقد أطلق عليها أسماء من عنده، وكان لا يتردد في أن يظهر بهجته حين يراها تقفز وتغرد. أما الببغاء التي بدت له شديدة الطرافة، وتجنب في البداية أن يوجه إليها أية كلمات، خوف أن ترد عليه كما ترد على الآخرين، فلم ينتظر طويلاً حتى مازحها.

لكنه فعل ذلك حين كان وحيداً، ومرة أو مرتين أمام عدد محدود جداً من الأقارب، وكانت مع الضحكة المجلجلة التي تصدر عن حنجرته الكبيرة الخشنة، تصدر كلمات أقرب إلى الشتيمة:

ـ الله يخزيك يا بومة البين!

وأبو مصباح الذي تجنب في البداية الإشارة إلى هذه الطيور، خاصة الببغاء، ما لبث أن فاض في الحديث حين سأله السلطان ذات مرة، وأبدى استعداده أن يؤمن للقصر مجموعة كبيرة ورائعة من الطيور النادرة، الغريبة والجميلة، وكانت استجابة السلطان سريعة ومتحمسة. فما أن انقضت بضعة شهور حتى أقيم جناح خاص في القصر، وامتلأت الأقفاص الكبيرة بأنواع متعددة من الطيور الصغيرة الملونة، أما الببغاوات الإفريقية الثلاث التي جيء بها فلم يُستطع أن يُفسّر صمتها أو عزوفها عن تكلم أية كلمة. قيل أول الأمر أنها صغيرة السن، ولن تمضي فترة إلا وتتعلم. وقيل بعد ذلك أنها لن تتعلم أبداً إذ كثر المعلمون وتعددت الكلمات وأساليب التعليم. وقيل في وقت متأخر عندما مات واحد من الثلاث أنها طيور مسنة، ولا بدّ مائتة بين يوم وآخر، ولذلك لا فائدة ترجى من محاولة تعليمها. والسلطان الذي سمع ما قيل، وقد فكر في لحظات تجليه لو يصرف بعض الوقت ويهتم بأحد الطيور الثلاثة ويعلمه، لكن لم يلبث أن نسي الموضوع، وإن لم ينسَ الاهتمام المنتشي بعصافير الحب بشكل خاص، وأن يقضي ساعات كل يوم يراقبها، ولم يتردد في إبداء إعجابه بها أمام الآخرين.

تشاءم الحكيم، إلى حد التطير، من دخول هذه المخلوقات إلى القصر، وإلى انشغال الجميع بها. أما الأوصاف التي بدأت تطلق عليها، وسحب هذه الأسماء والأوصاف على البشر والعكس، وما يرافق ذلك من النقاشات الحامية والأسئلة والضحك والغضب، فقد جعلت الحكيم أقرب إلى الحدة والعصبية.

قال لمحمد عيد مازحاً:

ـ الله لا يعطيه العافية أخوك، سوّى لنا عصفورية عن جد، والجماعة

كأن كان ناقصهم عصفور حتى يطيروا. الأفندي جاء وجاب لهم ألف، وتعالى هديّهم وتفاهم معهم.

وأضاف بعد قليل بمرارة ساخرة:

ـ صارت شغلتنا: طار الحمام... هدّا الحمام.. والله يستر.

ومع طيران العصافير وتغريدها التمعت في ذهن الحكيم فكرة، لا بل أفكار، ولا يعرف لماذا سها عنها أو نسيها، ولا يعرف لماذا سبقه هذا الثرثار إليها.

قالت وداد لزوجها، في محاولة لتفسير أصطحابها لنادية بعد سفر غزوان:

- البنت تعوّدت علينا. . .

وبعد قليل، وهي تنظر إلى البعيد:

- ويمكن يكون نصيبها في هذا البلد.

زفر الحكيم قبل أن يعلق.

- من أول يوم قلت لك يا وداد: العمر غير متناسب، والزواج مبكر على غزوان.

- الله يسلمه راح، ولا أحد يعرف ماذا سيحصل معه.

وأضافت بعد قليل:

- والبنات يكبروا قبل الأولاد!

والحكيم الذي نظر إلى نادية في اليوم التالي نظرة جديدة اكتشف أنها كبرت في غفلة عنه، بدت في عينيه امرأة ناضجة، شهية؛ وتلك الطفولة التي قرّبتها منه أول وصولها إلى موران، لا تظهر آثارها الآن، انتهت، حلت مكانها نظرة متفحصة أقرب إلى الجرأة، أما الجسد اللدن الأميل إلى الصغر الذي كان يميزها في السابق، فقد اكتنز واشتد. قال الحكيم لنفسه وأطياف كثيرة تعبر مخيلته: «وهواء موران يلقح وينضج الأشياء قبل أوانها، خاصة الفتيات».

وحاول أن يتذكر نادية من جديد وحاول أن يجد نوعاً من الصلة بين النضوج الذي اكتشفه فجأة وبين جو موران. قال بنوع من الحزن «في الطفولة وبداية الشباب تلعب بعض المراكز دور الاكتناز، عدا مركز واحد

فقط، والذي يلعب دور الاستقطاب، لكن في مرحلة لاحقة يفاجأ الإنسان أن المراكز جميعها كانت نشيطة، وكانت تعدّ نفسها، ولذلك تظهر بقوة، وهذا أحد أسرار الحياة».

العين التي اكتشفت سر الحياة وعبقرية الطبيعة قبل الحكيم بفترة طويلة، لكن دون إعلان، دون ضجة، ودون نظريات أيضاً، هي عين محمد عيد.

فمنذ اللحظة الأولى، عند وادي الرها، أحس أن نادية تعنيه وحده، وأنها جاءت من أجله، أما الكلام الذي سمعه عرضاً من وداد أن نادية يمكن أن تكون ذات يوم زوجة لغزوان، فقد رفض أن يصدقه أو أن يقبله، فنادية «أكبر» من أن تكون زوجة «الشوال اللحم» كما كان يسميه سراً، وغزوان أصغر من أن يكون زوجاً أو رجلاً، هكذا كان محمد عيد يقول لنفسه في ليالي موران الطويلة، وهو يتقلب على فراشه في محاولة لأن يتغلب على هواجسه، لكي ينام.

الآن، وغزوان قد رحل، ونادية، بعد رحلة الصيف، تبدو أكثر نضجاً وفتنة وقد لوحتها تلك السمرة الشفافة الحافلة، يشعر محمد عيد أن المرض الذي أنهكه خلال الصيف، كان سببه غياب نادية. لم يقل ذلك لأحد، ولم يعترف به لنفسه اعترافاً كاملاً أو كلياً. كان يشعر أن موران التي تحمّلها، تحمل حرها وبردها، وتحمل البشر والحياة فيها، رغم الصعوبة، مدينة لا تطاق: قاسية عاتية، ولا يمكن أن يعاش فيها.

بعد أن عادت نادية، وفي هذه الظروف المواتية، يشعر محمد أنه أكثر حيوية وصحة من أية فترة سابقة، وأنه قادر على عمل أي شيء، دون خوف ودون تردد. حتى نظرته إلى الحكيم، في هذه الفترة، تتسم بمقدار أكبر من الثقة ورغبة التفاهم. وإذ شعر أنه أخطأ وكان قاسياً مع أخيه حين قال تلك الكلمات حول الزواج والمرأة، لا يعرف هل يكلّف أخاه بأن يتحدث مع الحكيم أم يتولى الأمر بنفسه. ولا يعرف هل يتحدث مع نادية، أن يشير إليها بشكل ما، قبل أن يحدث الحكيم، أم يطرق الباب فوراً.

إنه يحترق، لكنه ذلك الاحتراق اللذيذ العذب، والذي يحرضه أكثر مما يعذبه، فيجعله يواصل الليل بالنهار فقط ليفكر أكثر بنادية، ليراها ليحسها قريبة منه، ولذلك تذوب أمامه الصعوبات وتسقط الحواجز. يكفي أن يراها كل يوم، أن يسمعها عندما تضحك، يحس أن دماءه تركض في جسده، تخضه تماماً، تجعله سعيداً إلى أقصى حد، ومن أجل أن تبقى نادية ضاحكة لن يتردد في أن يفعل أي شيء. كان يقول لنفسه، في لحظات ضعفه القصوى: «سوف أحملها في عيني، سوف أجعلها تضحك دائماً» ويتيه في أفكار أقرب إلى الحلم: «وإذا لم ترد موران لن نبقى، سوف نرحل. أما إذا أحبت أن تنام حتى ساعة متأخرة، كما تفعل في بعض الأيام الآن، فيمكن أن أمشي على رؤوس أصابعي، كالقطة، ولن أجعلها تنزعج أو تفز. وحتى الحبل وأتعابه، سأحاول أن أجعله خفيفاً». ويضحك بصوت عالٍ ثم يضيف: «طبيعي لن أحمل عنها، لكن سأجعل الطفل خفيفاً كالريشة: سأتولى إعداد الطعام. وغسل الملابس وعمل كل شيء، فقط لتكون مرتاحة».

هكذا كان يفكر وهكذا كان يحلم. ونادية التي ملأت بيت الحكيم بهذه الحيوية الفياضة المعدية، ترى محمد عيد واحداً من الناس الذين لا تعرف كيف تتعامل معهم: نادته منذ البداية: عمو، لكن بطريقة بارعة، وفيها الكثير من المكر. قال لها وقال لأولاد الحكيم جميعاً: إذا أردتم أن نبقى أصدقاء، كلمة عمو لا أحبها، اتركوها. وغزوان الذي رأى، منذ البداية، أن هذه الكلمة ثقيلة ولا يحسن تلفظها، كان الأول والأكثر حرصاً على أن يناديه باسمه. أما سلمى التي لا تعرف غير كلمة عمو، والتي خرجت عن التقليد الذي أراده محمد عيد ولم يغضب، ظلت تفعل ذلك وحتى وقت متأخر.

كان يحس أن لاسمه وقعاً لذيذاً منعشاً على شفاه نادية. كان ينظر إلى عينيها بطريقة معينة، وأكثر من مرة سألته بكثير من البراءة الملعونة:

ـ لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟

وحين يرتبك تضحك ولا تنتظر جواباً.

وداد أحست في وقت مبكر بنظرات محمد عيد وطريقة تعامله مع نادية، لكنها كانت على ثقة أن نادية مجرد طفلة، طفلة صغيرة لا تدرك بعد عالم المرأة. وإذا تصرفت بطريقة أوحت لمحمد عيد بشيء ما، فإن هذا الشيء لا يتعدى إعجاب الرجل بخفة دم طفل أو طريقته في التصرف والكلام. أما غير ذلك فلا يمكن أن يكون. هكذا كانت وداد تقول لنفسها. وزيادة في التأكيد يروق لها بين فترة وأخرى أن تطلب من سلمى الوقوف إلى جانب نادية لكي ترى فرق الطول بينهما، وعندما تكتشف أن هذا الفرق يتقلص ويذوب قياساً لفترة سابقة، وعندما تعيد حساب عمر سلمى تتأكد أكثر أن الأمر لعب أولاد!

ونادية التي أتاحت لها موران فترات طويلة من الفراغ، ثم ذلك اللفح الدافئ الذي لا يتوقف ولا يهدأ إلا خلال شهور الشتاء، والذي ينضج الأشياء والأجساد بهدوء وخفاء، جعلها تحس مبكراً أن جسدها يستجيب لها ويطاوعها، فالثديان اللذان كانت تخجل منهما وتحاول إخفاءهما في البداية، وتبالغ بعض الأحيان في طريقة اختيارها للملابس، خاصة القمصان، وتصرّ على أن تلعب مثلما يفعل الذكور، بدأت تتغير، فالجسد اكتنز قليلاً وبدا أكثر تناسقاً، وأخذت ترقبه باهتمام كل يوم. والثديان كبرا وتكورا، بل بدآ يشرّعان رأسيهما بتحدٍّ أقرب إلى الاستفزاز، وهي بمقدار ما كانت تحاول إخفاءهما سابقاً فإنها تحرص الآن على أن يكونا أول نقطة مضيئة في جسدها، وأن يكونا أول ما يُرى فيه. أما الملابس التي بدأت تختارها بعناية فلكي تُظهر مواضع القوة والتحدي في جسدها. فالتنورة التي تظل تعالجها ساعات وساعات، عند الوركين أو تحتهما قليلاً، كانت تريدها أقدر ما تكون على الانسكاب الفاتن لدوائر الجسد. أما الشعر الذي حرصت على أن يبقى طويلاً مسترسلاً، فقد تفننت كيف تتركه، جموحاً صاهلاً في كل وقت. كانت تعرف كيف تحرك رأسها ومتى. كانت، بعض الأحيان، تربطه بشرائط ملونة فتبدو مثل طفلة كبيرة. وداد التي كانت تراقب بعين يقظة كيف تعبث نادية بشعرها، كيف تربطه يوماً وتحله يوماً، كانت تقول لها بطريقة ناصحة:

- يناسبك أكثر أن تربطيه مثل سلمى.

وتهز نادية رأسها دلالة على الموافقة، لكن تستمر بنفس الاهتمام والحرص على ما تعتبره مناسباً لها أكثر.

هل كانت نادية تعدّ نفسها لتكون زوجة لغزوان؟ هل هي مقتنعة بذلك، وهل كان الأمر جدياً؟

حتى وداد لم تكن متأكدة، وإذا ذكرت الأمر في البداية، حين انتقلت نادية إلى بيت الحكيم، أو حين سافرت مع العائلة إلى موران، فإنها لم تعد إلى ذكره. أكثر من ذلك بدأ غزوان يتصرف بطريقة فيها من العداء أكثر مما فيها من التحدي. ونادية التي شغلتها الفكرة في البداية، لكن تصورتها أيضاً بطريقة غامضة ومؤجلة، ما لبثت أن اعتبرت غزوان ليس الرجل الذي تفكر فيه، أو تتمناه زوجاً، رغم مظاهر الرجولة التي كان يحرص عليها إلى درجة التقديس، ويحاول أن يتصرف ويعمل كل ما من شأنه أن يجعله بنظر الآخرين رجلاً. فالمرات التي حاول استعمال آلة الحلاقة الخاصة بأبيه أدت إلى مجموعة من الجروح في وجهه أكثر مما ساعدت على إثبات شاربيه. أما البدلات الثلاثة التي أوصى له أبوه عليها عند حسان سنجر قبل سفره، فقد أصرّ أن تكون لكل بذلة صدرية. وعندما ابتسم حسان سنجر وشاركه الحكيم الابتسام، وأشار بسرعة إلى أن الصدرية لا تناسب عمره، «وأنها دقة قديمة» لم يقتنع غزوان، قال في محاولة للتبرير:

- والبلد اللي رايح لها، يا بابا، باردة جداً... قريبة من القطب.

وطلب الحكيم من الخياط أن يوافق على الصداري، وفي محاولة لأن يدعم رجولة غزوان المبكرة قال:

- معه حتى غزوان. البلد هناك يحتاج إلى أكثر من صدرية!

بعد شهر من إقامته في سان فرانسيسكو جاءت منه الرسالة التالية:

والدي العزيز

أقبل يديك الكريمتين، راجياً الله عزّ وجلّ أن يجعلك وجميع أفراد العائلة في أتم صحة وأحسن حال، أما بعد، فلا يسعني يا والدي العزيز إلا

أن أبشرك بوصولي إلى الولايات المتحدة الأميركية بصحة جيدة، وقد كانت لمساعدة حسان الجوخدار، صديق عمو راتب، الذي سافر معي على نفس الطائرة فائدة كبيرة، ورغم أنه كان يريد البقاء أياماً في هيوستن، إلا أنه أجّل ذلك إلى حين العودة، وبقي معي في سان فرانسيسكو ثلاثة أيام، وبعد أن اطمأن على أوضاعي ودعني وسافر، له مني كل شكر وتقدير.

والدي العزيز، أمي الحنونة.

الأيام الأولى، بعيداً عنكم، كانت صعبة، ولهذا السبب أجّلت الكتابة إليكم أكثر من مرة، لكي لا تأخذوا فكرة سيئة عن ابنكم غزوان. أما الآن، وقد تعودت على المدينة والحياة، وتعرفت على بعض العرب المقيمين، أجد أن الحياة مريحة، والدراسة، رغم صعوبة اللغة واختلاف المنهاج، أصبحت أسهل بالنسبة لي، وسأبذل جهداً كبيراً لكي أنجز الصف التمهيدي، وعندها سوف أكون حراً في اختيار الفرع.

في سان فرانسيسكو لا يوجد غيري سوى طالب آخر من السلطنة، وقد فهمت أن أباه مقيم منذ سنوات في مصر، وأنه لم يزر موران منذ أكثر من سبع سنوات، وعن طريقه حصلت على العنوان الجديد للسفارة، وقد بعثت فوراً رسالة للسيد السفير، وضمنتها تحياتك الشخصية، يا والدي العزيز، ولم أشر إلى الراتب إلا بشكل عرضي للغاية، فقد ذكرت لهم أني فتحت حساباً في بنك سيتي بنك، وذكرت رقم الحساب، وعلى فكرة، يا والدي، وضعت الألف دولار في حساب غير قابل للسحب إلا بعد سنة، وبهذه الطريقة ستدفع لي فائدة، والجميع يفعلون ذلك هنا، وأمس بالضبط تلقيت من مساعد القنصل رسالة جوابية أبلغني أن السفارة تلقت التعليمات بابتعاثي على حساب جلالة السلطان وستقوم بتحويل راتبي الشهري على حسابي في البنك.

الطقس جيد، رغم الأمطار، والكلية في بداية الفصل الدراسي القادم ستؤمن لي سكناً في الحي الجامعي، وهذا السكن سيكون أرخص وأقرب بحيث أستغني عن المواصلات.

والدتي الحنونة.

كم أنا مشتاق لك وإلى إخوتي، وقد تذكرت كثيراً الأكل اللذيذ الذي تحضرينه وأنا آكل هنا لحماً نصف مشوي، لكن، مع ذلك اطمئني. اكتبي إليّ وقولي للجميع أن يكتبوا إليّ، واعتبروا هذه الرسالة موجهة إلى كل واحد منكم.

في الختام تقبل يا والدي العزيز، ويا والدتي الحنونة قبلاتي الحارة وأشواقي. وسلموا لي على كمال وحامد وسلمى ونادية، وعلى رضوان ومحمد عيد وأبو عبد الله، وكل الأهل والأصحاب بطرفكم واكتبوا إليّ وادعوا لي بالتوفيق.

ولدكم المحب المشتاق

غزوان

ملاحظة:

رغم شوقي إليكم قد لا أستطيع المجيء خلال الصيف القادم، فقد سمعت من بعض العرب المقيمين أن كثيراً من الطلاب يعملون خلال الصيف، وهذا العمل بقصد التعرف واكتساب الخبرة أكثر مما هو لجمع المال. هذا ما أفكر فيه، وسأكتب لكم. تحياتي.

بكت وداد والحكيم يقرأ الرسالة بتأنٍّ وفخامة، بكت بصمت، وقد رآها الأولاد تبكي فخجلت وحاولت أن تضحك. فاختلط ضحكها بدموعها وبدت مضحكة، خاصة عندما قال الحكيم بطريقة استعراضية:

ـ الله يصلحك يا أم غزوان.. الولد راح من أجل العلم، ما راح على الحرب.

ـ يا حبيبي، يا غزوان، كيف تأكل، كيف تغسل ملابسك، كيف تنام؟

ـ وعليه الصلاة والسلام قال: اطلبوا العلم ولو في الصين، وأميركا صارت قريبة، وإذا لم يأتِ في الصيف أنا وأنت نزوره.

ـ هذا وعد، لا تنس، ولا تشغل نفسك بألف شغلة وشغلة في الصيف!

ـ لا خلص، هذا وعد.

وضحك. والأولاد الذين نظر بعضهم في وجوه بعض، ابتسموا وتساءلوا وسافروا، كانوا أقرب إلى الانفعال، لكنهم ظلوا صامتين. أما نادية التي أحست أن غزوان أصبح بعيداً، بعيداً جداً، وأنه لن يأتي في الصيف القادم، فقد شعرت بحرية، لكن شعرت بخوف أيضاً. صحيح أنها لم تكن تميل إليه، وتعتبره خشناً، وقد لا يحبها، لكنها الآن، لا تعرف حقيقة عواطفها!

الوحيد الذي فرح فرحاً لم تشبه المخاوف والظنون هو محمد عيد، فبعد أن أبلغه الحكيم أن غزوان يهديه السلام ويسأل عن أحواله وصحته، حاول أن يعرف المزيد من أخباره، لكن الحكيم أجمل الإجابة بكلمة واحدة: عال.. والحمد لله. ولذلك توجه محمد عيد إلى الصغار، قال لنفسه وهو لا يخفي ابتسامته: «خذوا أسرارهم من صغارهم» وعرف من الصغار كل ما ذكره غزوان في رسالته، وأضافوا إلى ذلك صوراً وأفكاراً زينها لهم خيالهم، فبدا أكثر اطمئناناً وفرحاً، وبدأ يفكر بطريقة مختلفة عن السابق.

ما كان الحكيم ليتذكر رضائي، أو ليخطر بباله لو لم يره أمامه، إذ بعد أن ابتعدت أيام حران غاب الرجل وغابت صورته وأخباره، خاصة وأن مخاوف الحكيم من منافسته أو علاقاته كانت صغيرة وآنية. أما الآن وهو يراه من جديد، وفي موران بالذات، فقد تساءل ثم امتلأ بالهواجس.

أما بعد أن انفض الضيوف من حفلة العشاء التي أقامها الحكيم لرضائي، فقد قال لنفسه «لو سافرت مع السلطان وجاء رضائي في غيابي لخرب الدنيا وأكل الأخضر واليابس».

أثناء الزيارة الأولى، ثم في حفلة العشاء، تبادلا أحاديث طريفة وشائقة لهما وللآخرين عن حران: كيف كانت وكيف هي الآن، وعن الأمير خالد وبيت الإمارة. ورضائي الذي تحدث طويلاً عن مغامراته، منذ أن وصل إلى حران أول مرة، وكيف ظل متردداً في المجيء إليها والإقامة فيها، لأنها ليست مثل المدن الأخرى التي عرفها في أسفاره الكثيرة «حتى الهواء الذي يأتي عذباً منعشاً من ناحية الغرب والجنوب في معظم الأماكن التي عرفتها، وحتى في البحر، فإنه في حران شيء آخر» أما عندما استعرض الاثنان محاولات التشجير التي قام بها الأميركان، وغيرهم، من أجل أن يكون في المدينة عرق أخضر، وكيف ماتت الأشجار الواحدة بعد أخرى، فالشجرة التي لم تمت من الجفاف ماتت بعد ذلك من الرائحة الخانقة، أو من تلك الغازات التي تتسرب من المصافي، فقد اتفقا أن حران مدينة صعبة، وأن لا أحد يستطيع الإقامة فيها إلا إذا كان مضطراً!

أما حين استوضح الحكيم رضائي ما إذا كان يريد الإقامة في موران أم لا، فقد أجابه بشيء من الغموض. قال إنه جاء لدراسة إمكانية تأسيس فرع

لشركته، ولمعرفة الناس والجو، وسوف يقرر بعد ذلك؛ وحين ابتسم الحكيم وهزّ رأسه دلالة الموافقة والتفكير، أضاف رضائي في محاولة لأن يتقدم خطوة إلى الأمام:

ـ يبقى جو موران، رغم حرارته، ارحم من حران!

وافقه الحكيم مجاملاً، لكن مع ذلك ظل خائفاً، إذ رغم أن الاثنين كانا أصدقاء حتى اللحظة الأخيرة في حران، وظل كل منهما يهتم بأمور لا تعني الآخر، فإن موران غير حران، ولذلك بدا الإثنان متحفظين، وكأن الواحد لا يريد أن يشاهد الآخر هنا، أو لا يريد أن يتعاون معه.

بعد زيارات المجاملة غاب رضائي، وبغيابه شعر الحكيم بالراحة، قال لنفسه «مشكلة أقل.. أحسن». أما رضائي الذي يعرف متى يغيب وماذا يفعل، فقد غاب فقط عن نظر الحكيم، لكنه لم يغادر موران خلال الصيف كله. أما كيف وصل إلى الأمير ميزر ومن عرّفه عليه وكيف قامت هذه الصلة الوثيقة بين الاثنين، فقد ظلت سراً مغلقاً بالنسبة للحكيم، أكثر من ذلك فوجئ بها تماماً.

ففي الأيام الأولى من الخريف وصلت إلى قصر الروض سيارة روز رايس بلون اللوز اليابس، كبيرة، جميلة، مجهزة بتلفون سيّار وطاولة مكتب. وكان مقعدها الخلفي متحركاً بحيث يمكن تحويله إلى سرير، إضافة إلى التبريد وبوصلة تحدد اتجاه الكعبة!

كانت السيارة شيئاً أنيقاً فخماً إلى أقصى حد. وزيد الهريدي الذي استلم السيارة نيابة عن السلطان، أبدى دهشة بلغت حد العجب، أثناء ما كان يحرك الأزرار في مسند المقعد الخلفي. كان الزجاج الفاصل بين المقعدين يتحرك، وكان المكتب يمتد مثل اللسان، أما حين فتح جهاز التبريد إلى أقصاه واستراح في المقعد الخلفي فقد سمعه اثنان كانا يجلسان أمامه يقول «لا ألمانيا ولا شتاء جبل سمعان».

مع السيارة رسالة صيغت بعناية تتضمن دعوة رقيقة أن يتفضل القصر بإيفاد أحد موظفيه لافتتاح «معرض الشرق للسيارات»، حيث سيكون الافتتاح يوم اثنين، العاشر من جماد الآخرة، الساعة التاسعة. وأرفقت

بالرسالة أيضاً مجموعة من الكتالوجات الجميلة الملونة تضمنت صوراً للسيارات، وصورتين لرضائي واحدة أمام باب المعرض والثانية وراء مكتبه في الداخل.

ولم ينسَ رضائي أن يدعو عدداً من رجال القصر، كان على رأسهم صديقه الحكيم. تمت الدعوة برسالة قصيرة هذا نصها:

«الصديق العزيز الدكتور صبحي المحملجي المحترم، أدامه الله.

أرجو أن تتقبلوا تحياتي الأخوية الصادقة، المشفوعة باسمي التقدير، وبعد.

فقد توكلنا على اللّه، وبتشجيع الأخوة والأصدقاء، ونتيجة معاضدتكم الأخوية، قررنا الإقامة في موران، وتقديراً منا لمشاغلكم الكثيرة والهامة، لم نحاول أن نثقل عليكم خلال الفترة الماضية. أما وقد استقر رأينا على افتتاح معرض لتجارة السيارات، فإنه لمن دواعي الشرف والسرور أن تشرفونا يوم الافتتاح، العاشر من جماد الآخرة، الساعة التاسعة. وبحضوركم يتم سرورنا.

وتقبلوا أيها الصديق العزيز كل المودة والتقدير».

أخوكم

محمد علي رضائي

حين استلم الحكيم الرسالة، وسمع باللغط الذي يدور في القصر حول السيارة الجديدة التي وصلت، قال بغيظ لم يخفه:

ـ ابن الحرام ماسوني... لا يعطي سره لأحد!

هل ما قام به رضائي سر إلى الدرجة التي جعلت الحكيم يتصور ذلك؟ هل تخفى وابتعد إلى درجة أن أحداً لم يره ولم يعرف ماذا يفعل؟

صحيح أن العمل لم يتوقف خلال الصيف كله من أجل إعداد المعرض، لكن الشكوك والتفسيرات حول المحل كانت كثيرة. إذ بعد أن أصبح رضائي وابن الدخيل شركاء، وانتشر خبر الشراكة والشركة في

السوق، لم يعرف أحد أي نوع من التجارة سيمارسه الاثنان، فابن الدخيل الذي كان يتاجر بالسكر والطحين، وأحياناً بالتمر، لم يقدر أحد أن يتحول إلى تجارة السيارات! أما رضائي، فقد قيل عنه في البداية أنه صائغ، وقيل إنه تاجر حرير وسجاد، وعندما بدأت تصل السيارات ملفوفة بقماش سميك وتدخل مباشرة إلى المستودع، فقد تأكد الكثيرون أن الرجل يتاجر بالأثاث والأخشاب.

التفاوت الكبير والاختلاف البيّن اللذان جعلا الناس يجتهدون ويختلفون حول التجارة التي سيمارسها الشريكان الجديدان، كانا نتيجة النصيحة، بل نتيجة الطلب الحازم الذي صدر عن الأمير ميزر، قال لرضائي، وابن الدخيل يسمع:

- جماعتنا وحنا أدرى بهم، مثل السعادين، ويش يسوي كبيرها كلها تسوي مثله، ولذلك لا تقولوا شي أبداً، وبعد ما يفتح المعرض وتصل السيارات ويشوفونها بعيونهم، كل واحد يقول يا ليتني سويت قبلهم، مثلهم.

رد ابن الدخيل وهو يهز رأسه مؤيداً:

- الصواب ما تقوله يا طويل العمر، وجماعتنا قالوا من قبل: إذا نويت لا تعلّم بطاريك.

أما عندما وصل ثلاثة من المهندسين الإنكليز، وانكبوا في الأيام الأخيرة، قبل افتتاح المعرض، على العمل، وبدأت السيارات تخرج الواحدة بعد الأخرى، وبعد دورة سريعة في موران، تعود لتأخذ أماكنها في المعرض الكبير، وراء الواجهات الزجاجية، فقد أبدى الناس إعجابهم الشديد، ونظر بعضهم إلى بعض ونظروا إلى تخميناتهم أو إلى ما سمعوه حول الشركة الجديدة وابتسموا!

في يوم الافتتاح انتدب زيد الهريدي ممثلاً عن القصر، وجاء هو والحكيم في سيارة واحدة، مما خلق التباساً لدى الكثيرين أيهما ممثل السلطان، أما بعد أن قُصّ الشريط الحريري إيذاناً بافتتاح المعرض، فقد بدا المشهد رائعاً، ليس في شارع الروض، أو في السوق كله فقط وإنما

عمّ موران كلها. خاصة وأن ابن الدخيل اقترح خروج السيارات كلها في جولة بموران، وقد استجاب له رضائي بشيء من التردد، لعدم وجود السواق، لكن ابن الدخيل كان قد أعدّ للأمر عدته، مستعيناً بعدد من أولاده وأقاربه. ويتذكر الكثيرون ذلك اليوم في موران عندما سارت خمس وعشرون سيارة انكليزية الصنع في الشوارع وقد فتحت أبواقها، وامتلأت بأعداد كبيرة من الرجال والصبية.

قال شمران العتيبي، وقد سمع هذه الضجة من بعيد، ثم جاء من يخبره:

ـ تذكروا هذا اليوم زين يا أهل السوق، لأن له ما بعده، تذكروه ولا تنسوه، لأن بعد هذا اليوم ما لكم خبز بخيلكم وأباعركم!

وهذا ما وقع بالفعل، وخلال فترة أقصر بكثير مما قدر شمران! فبعد أن كانت الصقلاوية أو الحمدانية عنواناً للثراء والوجاهة، وتُشترى الواحدة بمبالغ كبيرة، وكذلك الإبل الطيبة، فقد تحوّل الناس بين عشية وضحاها. أصبحت السيارة شعار المرحلة، وأصبحت أهمية الشخص وموقعه يتحددان بالسيارة التي يركبها أو بعدد السيارات التي يملكها.

قبل هذا التاريخ كان القصر وحده، وعدد محدود جداً من الأغنياء، هم الذين يوصون على السيارات من بيروت، وحين تصل هذه السيارات، وقد قطعت الصحراء كلها، لا تكون مغبرة فقط، ومليئة بالأتربة والغبار، بل وتكون قد تعبت وأصبحت، بمظهرها، أقرب إلى القدم. الآن، والناس يرون السيارات ملفوفة بصناديق خشبية أو مجللة بقماش سميك، وتأتي محمولة، لتفك عنها صناديقها أو شوادرها، وتخرج وكأنها الأسماك التي غادرت المياه لتوها، بلمعانها ونظافتها، وتلك الرائحة الخاصة التي تميزها، سواء من الداخل أو الخارج، عند ذلك لا يبقى أحد في موران إلا وتراوده نفسه بشكل ما أن يحصل على سيارة وبأسرع وقت.

ورضائي الذي رفض أن يبيع من السيارات سوى تسع، «لأن السيارات الباقية للعرض فقط، ويمكن لأي مشترٍ أن يحدد النوع أو العدد الذي يريد ويسجل ويدفع نصف المبلغ، وبعد شهرين إلى ثلاثة شهور يتم التسليم»

وهذه الطريقة التي لم يألفها أهل موران أثارت من الاستياء والاستغراب الكثير، حتى بالنسبة لابن الدخيل نفسه. فقد جاء عدد من المشترين وأبدوا استعدادهم أن يدفعوا مبالغ تفوق بكثير ما يطلبه رضائي ثمناً للسيارة، على أن يتم التسليم فوراً. وإزاء الرفض، أو عدم الرغبة بالمفاوضة حول أسعار أعلى، تعرضت الشركة في أيامها الأولى لهزة كبيرة، وكادت تنتهي «لأن المعرض لا يمكن أن يبقى فارغاً.. والناس لا تشتري سمكاً في البحر» هكذا قال رضائي؛ أما ابن الدخيل فكان يصرخ «يا ابن الحلال، الناس كلها شافت السيارات، اللي ما شافها في المعرض يشوفها تدب في السوق، ويدفعون فوق ما نطلب مرة ومرتين، وبعدها نقولّهم: يا عباد الله هذه السيارات ما هي للبيع؟» ولم يحسم هذا الخلاف إلا الأمير ميزر، فقد أفتى بأن تبقى في المعرض سيارة واحدة من كل نوع، بغض النظر عن حجمها ومزاياها، وأن تباع الباقي. وهذا ما حصل بالفعل، وهذا ما دعا رضائي لأن يسافر على عجل، للتعاقد على كميات كبيرة وأنواع أخرى.

لم يستطع الحكيم أن يقدم ملاحظة حول السيارة، والذي بلغ إعجاب السلطان بها حداً كبيراً، سوى «أن لونها لا يناسب هذه البلاد، إذ لو خرج جلالته للقنص، أو لو ذهب في رحلة صحراوية لا يمكن تمييز لونها عن لون الرمال» أما في قرارة نفسه فكان شديد الغيرة والغيظ معاً، فهذه السيارة القوية، المتقنة الصنع، والمجهزة بهذه الإضافات التي لا تخطر ببال، لم يرَ مثلها من قبل. قال في نفسه «إذا كانت المسألة مسألة تجارة فموران كبيرة، أما إذا قرّب من القصر واعتبر السيارة سنارة فوالله لا سر§نه إلى آخر ما عمّر الله». أكثر من ذلك لام الحكيم نفسه أنه لم يفكر بتجارة السيارات بما هو كاف، كما لم يلفت نظره إلى ذلك أحد.

الآن ورضائي يسافر ويعرف بسفره، قال لمحمد عيد بما يشبه اللوم:

ـ ألف مرة وصيتك، يا محمد، خل عيونك مفتوحة، والشيء الذي يصير رأساً بلغني به.

ولما تساءلت عينا محمد عيد، ثم جاءت كلماته:

ـ خير... إنشاء الله؟

رد الحكيم بنزق:

ـ موران كلها انطبلت بمعرض سيارات رضائي. . وأنا يا غافل لك اللّه، وأنت لا من تمك ولا من كمك، لا كلمة ولا خبر!

رفع محمد عيد يديه في الهواء بيأس وقال ساخراً:

ـ يا أبو غزوان، بموران كل يوم ألف مشكلة، وما أحلاني موجع راسك بالصغيرة وبالكبيرة.

وبعد قليل أضاف بلهجة جادة:

ـ وعندك يا حكيم من المشاكل ما يكفيك ويزيد!

قال الحكيم وقد شعر بالرضا:

ـ قبل كم يوم رضائي سافر. . وأريد منك أن تخبرني أول ما يرجع.

ـ تؤمر يا حكيم.

وإذا كان الحكيم متشوقاً لأن يراقب كل خطوة يخطوها رضائي ويعرف ما فعله أو ما ينوي فعله، فقد كان يخاف من سفراته وغيابه أكثر مما يخاف من وجوده، «لأن هذا الإبليس لا أحد يحزر عليه».

وجاءت أشغال طارئة صرفت الحكيم عن التفكير برضائي، لكنه لم ينسه تماماً، إذ كان يخطر بباله بين يوم وآخر، ويتذكره لسبب أو لآخر، وكان يستعد لاختيار طريقة مناسبة لكي يحاربه أو على الأقل لكي يطوقه.

يفكر محمد عيد، في لحظات معينة، خاصة وهو يتقلب على فراشه، أن يعترف ويبوح، أو على الأقل أن يلمّح، لكن ما كاد يصل إلى هذه الدرجة من القناعة والقرار، وحين يلتقي بنادية في اليوم التالي، وهي تحوم كالفراشة، حتى يرتبك، يتغير، وكثيراً ما أخذ وجهه شكلاً حازماً أقرب إلى التجهم، فيتنازل عن قراره، تضيع منه الكلمات، أو لا يراها تليق بها، وفي أحيان أخرى لا يقوى على أن يقولها، فيتجاوزها، أو يستبدلها بغيرها، يستبدلها بكلمات عادية لا تعني شيئاً!

الأيام تتعاقب، فالأسابيع وتليها الشهور، ولا يعرف ماذا يفعل أو كيف يتصرف. الآن والصيف يقترب، ومع أولى النسمات الدافئة، الأقرب إلى اللفح، ومع التفتح المتفجر الذي يسيطر على الكائنات كلها، ويجعلها تتحرك بخصوبة أقرب إلى العنف، فقد تحركت فيه دفعة واحدة: الأحلام والرغبات والمخاوف.. وقرر أن يحسم أمره نهائياً.

لقد انتظر ثلاث سنين كاملة، بأيامها ولياليها، يتقلب على نار لا تهدأ، احتمل العذاب والسهر، واحتمل الانتظار. الآن يريد أن يضع حداً، أن يتصرف. لم يعد قادراً على الانتظار أكثر مما فعل. ولم تعد نادية مجرد حلم يمكن أن يبدده بالخوف أو التردد. إنها الآن طوفان تطوقه وتغرقه، ولا بدَّ أن يلتحم بهذا الطوفان وأن يغرق فيه.

ولأنه لم يسافر طوال هذه السنين، فهو الآن، ولأول مرة، يحس أن الأرض ذاتها تتحرك، ولا بدّ أن يتحرك معها، أن يسبقها. لقد أكلته حران، جعلته أقرب إلى الحجر. ولأنها كانت مليئة بهذا القدر الهائل من الحركة، وكان البشر فيها يتغيرون ويتكاثرون ويتحركون مثلما يتغير الهواء

ويتحرك، فقد كان يشعر أن قوته بأن يبقى ثابتاً، أن ينزرع كالنخلة في هذه الأرض المتحركة الخطرة. وموران التي كانت هادئة غارقة في الصحراء والسكون، خلال السنة الأولى، ما لبثت عدوى حران أن أصابتها وأدركتها، فأخذت تركض وتجدّ في الركض، لكنه هذا الركض الأبله، والذي يشبه ركض المعوقين أو سباق السكارى.

يريد أن يتحرك الآن، أن يسافر، يريد أن يبقى سائراً حتى نهاية الدنيا. فإذا كان الحظ قد عاكسه في الماضي وأنشد إلى هذه الصحراء، فلم يغادرها ولم يسافر، فقد سافر في أحلامه إلى أقاصي الأرض، ورأى عدداً لا حصر له من المدن، وقد حان الوقت لأن يراها بعينه. لن يسافر سائحاً وحيداً ضائعاً، وإنما سيضع نادية وراءه على فرس ويطير، أو سيركب وإياها سفينة ويجوب البحار كلها. سيدهشان للأمكنة والمدن، وقد لا يصدقان أنهما موجودان فيها، وربما لن يعود إلى هذه الصحراء الملعونة مرة أخرى، وسيلومها، وربما ستلومه، وهما في ظل شجرة، في مكان بعيد، لأنهما لم يصلا إلى هنا من قبل!

وأية أفكار وأحلام أخرى ملأت لياليه في تلك الفترة الواقعة بين نهاية الربيع وبداية الصيف؟ أية أغاني غناها لنفسه، وأية أحلام حلم بها في ظهيرات موران وتحت شمسها؟ وأية بدايات وأية نهايات بدأها واستعادها مرات ومرات، لكي ينتقي أدق الكلمات وأروعها وأسرعها من أجل أن يبدأ مع الحكيم؟

إن استعادة أي من هذه اللحظات يبدو مستحيلاً، فتدفق الحياة وخصبها، وذلك الحنان الذي بدأ يغزل خيوطه مع زيادة الحرارة، ثم ذلك الركض المجنون لتغيير ترتيب البيت من أجل استقبال الصيف، جعله يؤجل يوماً بعد آخر مكاشفة الحكيم. كان ينتظر اللحظة الأكبر والأكثر خصوبة، وهذه اللحظة ما تكاد تتهيأ حتى يقطعها شهاب أو غيمة. فهموم الحكيم تزيد يوماً بعد آخر، وتأخر رسائل غزوان، ثم ذلك الصراع الذي بدأ يملأ البيت نتيجة توعك وداد، وهرب الطباخ الهندي، والبحث عن طباخ جديد، كلها أسباب كافية لتأجيل النطق بهذه الكلمات الرائعة!

حتى نادية التي بدت أكثر فتنة بدخول الصيف، بدت أكثر رقة وحناناً أيضاً معه، ولذلك إن لم يقل تلك الكلمة الرائعة اليوم، فإن اليوم التالي سيكون أكثر ملاءمة. وداد مع التوعك أصبحت أكثر حدة وانعزالاً، فإن كانت مفيدة، ويمكن أن تختصر الكثير من الوقت سابقاً، فإنها الآن أقل الأشخاص ملاءمة لهذا الأمر.

مرات أيام، تبعتها أسابيع. الزمن يتمدد بلا نهاية ليصبح تماماً كالصحراء. شعور محمد عيد بالأيام والأسابيع متفاوت أشد التفاوت. إنها طويلة لدرجة لا يتصور لها نهاية، وقصيرة وكأنها البرق حين تكون نادية قريبة. كل يوم، بل كل ساعة، وهو ينتظر نادية، تعادل أيامه الماضية كلها، ليس في حران وموران فقط، بل وتلك الأيام التي يتذكرها منذ أن انفتحت عيناه على هذه الحياة.

وموران التي كانت محتملة مقبولة خلال الفترة الماضية، وأمكن له أن يتقبل كل ما حصل فيها، فإنها الآن، مع بداية الصيف، وتغير النوء، تحاصره وتخنقه، فيشعر أن روحه زحفت من أصابع قدميه، في رحلة مدمرة مجنونة، إلى أن وصلت إلى رقبته، ولا بد أن يختنق في لحظة ما، إذا لم يبادر الجميع إلى إنقاذه، إذا لم تبادر نادية بالذات.

الهواء الذي ثقل وكاد يقف، يثقل على صدره. الحرارة الكاوية التي ملأت ذرات الغبار جعلت كل شيء خشناً معادياً. أما الاستعداد الخفي والبطيء للسفر فقد أصبح بمثابة تحدٍّ مباشر له. ويقسم أن لا يؤجل الأمر أكثر من ذلك: «غداً، مهما كانت الظروف لا بدّ أن أقول للحكيم الكلمة وأسمع جوابها». فإذا جاء الغد وتأجلت هذه الكلمة، كان يقول لنفسه باحتقار وهو يضع رأسه على الوسادة «بق الحصوة، يا منظوم، وخلصنا» وتجول الحصوة في روحه، تعذبه، تجلده، لكنه ينسى كل شيء عندما يسمع صوتها، عندما يراها تتخطر أمامه. أما حين تبتسم، حين تزقزق بالضحكة، فإن روحه تضيء وتشتعل، فينسى. ينسى كل شيء. تكفيه هذه اللحظة بالذات. إنها لا تتحدث ولا تضحك إلا من أجله، لكي يسمع. وحين تنتقل من مكان إلى آخر، فإنها لا تفعل ذلك إلا لكي يراها.

الاستعداد يتزايد من أجل السفر، وروحه تلوب، يستبد به الضيق وما يشبه الخوف، وإذا كان قد احتمل المرض خلال الصيف الماضي، فلا بد أن يقتله المرض في هذا الصيف لو سافروا دون أن يفعل شيئاً. أما إذا قال له الحكيم أن نادية لا تزال صغيرة، ويمكن أن يخطبها الآن، على أن يتزوج حين تبلغ الثامنة عشرة، فقد يوافق، لكنه سيؤكد للحكيم أن نادية أصبحت كبيرة تماماً، وأن البنات في موران يتزوجن قبل هذا السن «ماذا تظن يا حكيم؟ البشر هنا مثل الثمر. أنت تذكر أن التين والعنب عندنا ينضجان في أواخر الصيف. في موران قبل أن ينتهي الصيف لا تجد تينة على أمها؛ وكذلك البنات، في الخامسة عشرة، في السادسة عشرة تكون الواحدة جاهزة، وفي الثامنة عشرة يكون عندها ولدان أو ثلاثة». فإذا أصر الحكيم على رأيه، إذا عاند... «وأنت يا حكيم.. عندما تزوجت أم غزوان كم كان عمرها؟ لا يمكن أن ينكر، لقد اطلعت بنفسي، حين أعدوا جواز السفر، على أعمارهم جميعاً، وبحسبة بسيطة: كان عمر وداد عند الزواج ستة عشر عاماً» أما إذا قال: لا بدّ من سؤال أمها وأبيها فالجواب جاهز: «أنت أبوها، وأمها أم غزوان، ولا أحد غيركم، وإذا لا بدّ من سؤال أحد فاسألوها هي».

ويتيه في أفكاره وأحلامه: «يمكن أن تصمت، وقد تهز رأسها دلالة الموافقة، أما إذا نظرت وابتسمت فإنها لا تقول نعم فقط، تقول: خذني، خذني بسرعة.. واهرب».

وما يغزله في الليل يبدده النهار، تماماً كما تفعل الساحرات! حتى الكلمة الموجزة الواضحة التي قرّر أن يقولها للحكيم في أية فرصة، مهما كانت قصيرة، كانت تضيع من ذاكرته، حين ينظر إليه الحكيم، في بعض الأمسيات ويسأله:

- ها، يا محمد، شو أخبار الدنيا؟

يتلفت أكثر من مرة قبل أن يجيب:

- عال العال، يا حكيم، وأحسن من هيك ما راح يصير!

- والأخبار، ما هي الأخبار؟

- الجماعة الآن بطلوا السؤال عن المطر والطرش، صاروا غارقين في أسعار الأراضي والعقارات والذهب والسيارات!

- هذا شي معروف.. ومفهوم.

- والله بالي ما هو فاضي.. يا حكيم!

- خير، شو اللي شاغل بالك؟

- خليها على الله يا حكيم!

- لا... صحيح، شو اللي شاغلك؟

ويهم أن يتكلم، أن يَبق الحصوة، لكن يجد نفسه خائفاً، متردداً، وبعد أن يمتد الصمت يسأل الحكيم من جديد:

- نصف الألف خمسمائة يا أبو الشباب، وكلّ الله... وكل شي يهون.

قبل السفر بثلاثة أيام، وقد تم الاتفاق أن تسافر وداد والأولاد إلى لبنان، «وأن تقضي هناك أسبوعاً، وأقصى حد أسبوعين» وبعده يلتحق بهم الحكيم، لكي يذهبا معاً إلى أميركا، لزيارة غزوان.

في لحظة تخيرها محمد عيد جيداً، وقد استعد لها وأخذ دواء مهدئاً من ذلك الذي كان يصفه الحكيم في حالات التعب والأرق والشعور بالكآبة، وكانا في الحديقة وحدهما، بعد أن أوى الأطفال إلى النوم، واستأذنت وداد، وأخذت معها نادية، لكي تعدا الحقائب، «لأننا في يوم السفر عندنا ألف شغلة».

في تلك الليلة، تحت دالية العنب، وإلى جانب البحيرة الصغيرة التي يروق للحكيم أن يكون مجلسه هناك كل ليلة، وبعد أحاديث متعددة، قصيرة، وبصوت أراده محمد عيد ثابتاً وقوياً، قال للحكيم:

- عندي قضية، يا حكيم، ولازم إحكيها معك...

تطلع إليه الحكيم باهتمام أقرب إلى الدهشة، وأجاب:

- تفضل... يا محمد.

- قضية خاصة، شخصية، يا حكيم.

ـ تفضل يا ابني.

ـ وأريدك.. تساعدني..

وتلعثم صوته، شعر بالخوف وبدأ يعرق، ولم يستطع أن يتابع. والحكيم الذي قدّر دقة الموقف، وفي محاولة لأن يساعده على الكلام ضحك بصوت أقرب إلى القهقهة، وسأله:

ـ الله يصلحك، يا محمد، إذا كان في قضية، وشخصية، كان لازم تخبرني من زمان.

ـ القضية كلها بيدك، يا حكيم.

ـ طيب، نورني، إحكِ.

ـ نادية، يا حكيم.

ـ نادية؟ ما لها نادية؟

ـ بدي أطلب يدها منك، يا حكيم.

وأصيب الحكيم بالجفلة. لم يتوقع هذا الأمر، ولا يمكن أن يستجيب له. ربما فكر بذلك منذ وقت بعيد وحسمه، أو لم يتصور أن محمد عيد يجرؤ على أن يطلب مثل هذا الطلب، وبعد فترة قاسية من الصمت، جاء صوت الحكيم رخواً محايداً:

ـ وهل تكلمت في الموضوع مع غيري؟

ـ أبداً، يا حكيم، أقسم بشرفي.

ـ ونادية.. حكيت معها؟

ـ ولا كلمة يا حكيم.

وعاد الصمت أثقل وأقوى من قبل. تعلّقت روح محمد عيد بالكلمة التي سينطقها الحكيم، هذه الكلمة يمكن أن تحييه أو تقتله. إذا قال له نعم سيشعر أنه أقوى وأسعد إنسان على هذه الأرض، سيحب الحكيم أكثر من نفسه، ولن يتردد في أن يقبّل يده. أما إذا قال لا.. ودارت الأرض بمحمد عيد. لم يتصور أن تصدر مثل هذه الكلمة عن رجل عاش وإياه عمراً بأكمله. كان يقول له إنه مثل غزوان، ولا بدّ أن يعبر الآن عن كل الحب

والعشرة التي تكوّنت خلال السنين. سمع صوتاً من داخل البيت، كان صوت وداد تنادي على نادية. أجفل للحظة. تطلع حواليه أكثر من مرة. لكن عينيه لم تفارقا فم الحكيم. إنه ينتظر حكم الحياة والموت، ولأنهما متقاربان إلى هذه الدرجة، ومتطابقان أيضاً، فإنهما وجهان لشيء واحد.

وجاء صوت الحكيم مرة أخرى، وكأنه صوت إنسان آخر:

ـ نادية مخطوبة.. يا محمد!

ـ مخطوبة؟ لمن؟

ـ لابن الحلال!

ـ لغزوان؟

ـ لا.. غزوان بعده صغير، وما راح يتزوج قبل ما ينهي دراسته.

ـ من خطيبها.. إذن؟

ـ مثل ما قلت لك.. ابن حلال!

ـ وليش أنا لا أعرف؟

ـ الحق عليك!

وضحك الحكيم بسخرية ثم أضاف:

ـ خطبها قبل فترة واحد، وانشاء الله تتزوج قبل نهاية الصيف!

وزفر الحكيم زفرة طويلة، وتغيرت لهجته حتى بدا إنساناً آخر:

ـ واحدة مثل نادية لا تناسبك يا محمد...

وبعد قليل وبصيغة أبوية:

ـ وإذا كنت رايد، يا ابني، أم غزوان بعد كم يوم راح تسافر، ويمكن تلاقي لك بنت درويشة وتتزوجها.

ـ شكراً يا حكيم، أنا أدبر نفسي.

ـ على كيفيك يا ابني، والله يقسم اللي فيه النصيب!

ولم ينم محمد عيد تلك الليلة. بكى على وسادته مثل طفل، وكان متأكداً أنه سيموت.



قبل أن تطلع شمس اليوم التالي كانت أفكار كثيرة قد مرت برأس محمد عيد، أفكار كثيرة وخطرة، لكن لم يجرؤ أن ينفذ أياً منها. وعندما سمع أذان الفجر نهض. ظل جالساً في الزاوية يفكر ويحلم ويسافر، ولم يفطن أن الشمس ارتفعت ذراعاً وأن الحياة بدأت تدب من حوله. أما عندما ناداه الحكيم، وطلب منه أن يذهب إلى مستودع عزمي الحجار، وأن يحضر بعض الأدوية، خاصة دواء الدوخة، فلم يقوَ على أن ينظر إلى وجه الحكيم. كان يشعر أنه لو فعل فلا بدّ أن يرتكب جريمة أو حماقة، وحين قال له الحكيم بحياد وصلابة:

ـ ومرّ عليّ لأني عايزك بشغلة ثانية.

رد محمد عيد دون أن يرفع إليه عينيه:

ـ أنا مشغول، ودوّر على غيري، يا حكيم!

ـ وراءك شيء؟

ـ أي نعم.

ـ شو عندك؟

ـ مسافر.. يا حكيم.

ـ مسافر؟

ـ أي نعم..

ـ كبّر عقلك يا ابني.

ـ قررت وخلص.. يا حكيم.

ـ طيب.. أجّل كل شيء الآن، وعندما أرجع من القصر نشوف.

ـ لا تتعب نفسك يا حكيم... والفلوس اللي عندك سلمها لأبو مصباح.

ـ كبّر عقلك، ولا تغلط، يا محمد.

ـ بسيطة، بنشوف.

ـ لا بسيطة ولا شيء.. انتظرني للظهر.

ـ ما أظن يا حكيم، لأن الوقت اتأخر، اتأخر كثيراً.

في وقت من الأوقات كانت حران مدينة الصيادين والمسافرين العائدين، أما الآن فلم تعد مدينة لأحد، أصبح الناس فيها بلا ملامح، إنهم كل الأجناس ولا جنس لهم. إنهم كل البشر ولا إنسان. اللغات إلى جانب اللهجات والألوان والديانات. الأموال فيها وتحتها لا تشبه أية أموال أخرى، ومع ذلك لا أحد غنياً أو يمكن أن يكون كذلك. كل من فيها يركض، لكن لا أحد يعرف إلى أين أو إلى متى. تشبه خلية النحل وتشبه المقبرة. حتى التحية فيها لا تشبه التحية في أي مكان آخر، إذ ما يكاد الرجل يلقي السلام حتى يتفرس في الوجوه التي تتطلع إليه، وقد امتلأ خوفاً من أن يقع شيء ما بين السلام ورد السلام!

هكذا رآها محمد عيد وهو ينظر إليها من جديد. لقد عاش هنا سنوات عديدة. عاش البداية كلها. رأى الأحجا وهي تركب بعضها وترتفع لتصبح بنايات عالية. ورأى الشوارع وهي تُشقّ لتصبح مسالك للبشر والدواب والسيارات. ثم رأى الدكاكين والمطاعم وهي تتوالد مثل الفطر. ورأى دار الإمارة والقيادة ومستشفى الشفاء. أما الآن وهو يصلها لكي يستقر فيها مرة أخرى، وعندما ينزل في فندق «زهرة الصحراء»، ثم يتجول في الأسواق والأحياء، فإنه ينكر تماماً أنه كان هنا. لا يعرف شيئاً، لا يعرف أحداً، ولا شيء مثلما كان من قبل. حتى دار الإمارة، على التل الشمالي، أصبحت الآن سجن حران المركزي. أما القيادة العامة التي كانت مقراً لجوهر فقد تحولت إلى مخفر للشرطة.

مستشفى الشفاء، المكان الذي قضى فيه معظم وقته حين كان في حران، تحول الآن إلى مستشفى الغرباء. أما عيادة الدكتور المحملجي فقد

أصبحت مصبغة الشرق للتنظيف على البخار. ومكان مقهى الأصدقاء قامت عمارة البهلوان. أما شارع الراشدي فقد هدم القسم الأكبر منه ثم أعيد بناؤه من جديد. صحيح أنه احتفظ بنفس الاسم، لكن الكثيرين أطلقوا عليه اسماً آخر: السوق العتيق.

دار الإمارة عند المطالع، على طريق عجرة، أما دار الأمير فقد أصبحت في الناحية الثانية من المدينة. فمنذ أن لم تعد حران سوى المصافي وميناء التحميل والدخان، بنى الأميركيون مدينة جديدة إلى الشرق، على مسافة اثني عشر ميلاً وحملت هذه المدينة اسم المكان الذي شيدت عليه: راس الطواشي. وفي المدينة الجديدة قامت أحياء التجار والأغنياء وكبار الموظفين، غير بعيد عن الأحياء التي يسكنها الأميركيون، وهناك أقيمت الدار الجديدة للأمير.

أما الأحياء التي كانت على التلال الغربية، وقد أطلق عليها في البداية «حران العرب»، فقد تحولت شيئاً فشيئاً إلى أسواق تجارية، بعد أن هدمت وأعيد بناؤها أكثر من مرة. وتفرق أهل حران والناس الذين سكنوا هذه الأحياء في أنحاء متعددة، وراء التلال وقريباً من المحاجر. ومعسكر العمال الذي كان في ذاك المكان المتوسط بين حران الأميركان وحران العرب، أصبح الآن مستودعاً كبيراً للآلات والمعدات، وفي جنب منه تراكمت بقايا السيارات والإطارات القديمة والبراميل، وقد حصل هذا نتيجة موت عدد من العمال اختناقاً، بعد أن أخذت تتساقط فوق المعسكر الغازات المتولدة من المصافي... نقل العمال إلى مكان بعيد، بين حران ورأس الطواشي.

وما يقال عن هذه الأماكن يقال أيضاً عن كل الأماكن. حتى الجامع الذي يفخر الحكيم أنه تبرع بمبلغ كبير من أجل تشييده، والذي ما زال في مكانه، دب إليه الهرم، وأصبح قبيحاً أميل إلى السواد، وأحاطت به مجموعة من الأبنية العالية، وغطته طبقات من الدخان والغبار. ولما سأل محمد عيد عن فرن عبده محمد، وعن أبي كامل اللحام، حاول الذين

سألهم أن يتذكروا متى هدم الفرن والمجزرة، لكنهم لم يكونوا متأكدين من إجاباتهم، وبعضهم لم يتذكر أبداً!

حتى المقبرة لم تبق في مكانها، فبعد أن أعطى الأمير الجديد، عبد الله الشبلي، أهل حران ومن لهم موتى في هذا المكان، فرصة خمسة عشر يوماً ليرفعوا عظام موتاهم من هذه القبور، جاءت الآلات ودرست ما بقي ومن تبقى. ورغم أن ابن نفاع صرخ وشتم وبصق في وجوه سواق الآلات، لم يجد حلاً في النهاية سوى أن يركض مع عدد من الفقراء ليرفعوا عظام بعض الموتى قبل أن تدوسها وتمزقها الآلات. أما ابن نفاع ذاته فقد مات بعد أيام قليلة من «افتتاح» المقبرة الجديدة على طريق عجرة وتسويرها بسور عالٍ.

قال محمد عيد لنفسه وهو يتجول في الأسواق: «رائحتها لا تطاق، تشبه رائحة الموتى». وبدأ يتذكر من جديد: «لا تشبه أية مدينة أخرى، ولا تشبه نفسها، والناس فيها اجتمعوا بالصدفة، ولن يستمروا طويلاً، تماماً مثل ركاب سيارات عبود السالك».

وحران بمقدار ضجة نهارها، فإنها في الليل، في ظل اللهب الذي تبعثه المصفاة، مدينة الأشباح والصمت، إذ ما عدا صافرات البواخر وهدير المحركات، التي تصل من ميناء التحميل، والذي لا يبعد أكثر من ميلين، يظن الإنسان أنها جزء من الصحراء التي تليها. حتى الأنوار المنبعثة من أعمدة الشوارع تبدو كابية لا ترى، تحت وهج الكتلة البرتقالية المسودة التي تشكل سقفاً هائلاً للمدينة ولما حولها.

وإذا كان محمد عيد قد احتمل أصياف حران سنيناً عديدة، فإنه الآن، وهو يصلها، يشعر بالاختناق، ليس من الحرارة وحدها، وليس من الرطوبة وحدها، وإنما من ذلك الجو الثقيل المنتن، الذي هو مزيج من كل الأشياء معاً: البترول والبهارات والكبريت والصحراء والغبار وبقايا الأكل والأسماك الميتة وإطارات السيارات المحروقة، إضافة إلى رائحة البشر، فيصبح الجو عندئذٍ كريهاً لا يطاق. كانت حران في وقت سابق أكثر رحمة، وكان بإمكان الإنسان أن يتعود عليها أو يحتملها. الآن، وفي

ظل الحالة النفسية التي تسيطر عليه، تصبح مدينة معادية، قاهرة، وأشبه ما تكون بالقبر.

تذكره صالح الدباسي بصعوبة، بعد أن زمّ عينيه فأصبحتا مغمضتين أو مثل خيطين أسودين ثقيلين، فسأله عن الحكيم وعن الأغوات الذين كانوا معه، وهل ما زالوا يعملون في التجارة أم في شؤون أخرى. وبعد أن استمع إلى الجواب، سأله إذا كان الحكيم راغباً في بيع الأراضي غرب مستشفى الغرباء، لأنه مستعد لشرائها ودفع أي مبلغ يطلبه ثمناً لها.

أما حين طلب من صالح الدباسي أن يؤمن له عملاً في المستشفى، باعتباره مسؤولاً عن التموين، وأصبح واحداً من النافذين والأغنياء في حران، كما ذكر له الكثيرون، فقد رد ببطء:

ـ واللي يشتغل عند الحضر، عند الحكيم والأغوات، ويش تفيده الشغيلات الزغيّرة اللي عندنا؟

وضحك بصخب كوسيلة إضافية للتعريض، ولما ظل محمد عيد صامتاً ومنتظراً تابع صالح:

ـ راجعنا بعد أسبوعين أو ثلاثة.. وعسى أن الله يقدرنا!

ترك مكتب صالح الدباسي وقد قرر ألا يراه مرة أخرى.

وفي الشوارع رأى أعداداً كبيرة من الفقراء والغرباء أو الذين لا يعرف ماذا يمكن أن يعملوا، ثم فوجئ بالشرطة تستوقف الناس، وتدقق في أوراق الكثيرين، لماذا جاءوا ومن أين جاءوا، وكان على الكثيرين أن يزوروا مخفر الشرطة، قرب دار الإمارة؛ ومن هناك كانت تجري عمليات التسفير كل يوم، وكانت تجري عمليات السجن والضرب والسخرة، ولا يعرف أية أشياء أخرى. وسمع محمد عيد أن صالح الدباسي ذاته هو متعهد السجن، إذ يورّد إليه المؤن وعلى سياراته أو سيارات السيف كان يتم تسفير الذين لا كفلاء لهم أو الذين لا يملكون أوراقاً أو ضاعت منهم تلك الأوراق!

كل شيء يبدو جديداً وغريباً في نظره الآن. واستغرب أشد الاستغراب أن مثل هذه الأمور جرت خلال فترة قصيرة من غيابه عن حران. وإذا كان

النفور قد دخل إلى قلبه، وشعر أن المدينة تطبق عليه، فلم يكن يرى مفراً من البقاء والإقامة. سيجد عملاً، وسيتعرف عليه الكثيرون بمجرد أن يستقر، وسوف يعيد صلاته بالذين يعرفهم. وإذا كان صالح الدباسي قد بدا ساخراً، بل أقرب إلى العداء، فإن الآخرين لن يكونوا مثله «يبقى في الدنيا خير كثير، وصالح من يومه مكروه ولا أحد يحبه.. وهو لا يحب أحداً».

وفكر محمد عيد أن يبدأ عملاً جديداً، فكر أول الأمر بأطباء حران. إنه ليس مجرد باحث عن عمل، أو شخص بلا مواهب. لقد عمل في الطب فترة أطول من جميع هؤلاء الأطباء، ولولا أنه لم يولد فقيراً، ولم يستطع أن يواصل دراسته، لأصبح طبيباً قبل الكثيرين، ومع ذلك فإنه يفهم في الطب أكثر مما يفهم معظم الأطباء. يعرف الأعراض والحالات، يعرف المراحل والعلاجات، أما الإبرة فلا أحد على وجه الكرة الأرضية يحسن إعطاءها مثله؛ ومع ذلك فهو الآن، بنظر الكثيرين، مجرد طالب عمل. الآخرون هم الذين يقررون كفاءته ومدى الحاجة إليه. يجب أن يكون بارعاً في عرض إمكانياته، وعليه أن يدق الأبواب، وأن يرجو، ولذلك لا داعي للسرعة أو الندم.

لو كان في ظروف نفسية أخرى، لو أن وضعه الآن مثلما كان سابقاً لما تردد في زيارة دار الإمارة ورؤية الأمير ذاته. لا يزال يتذكر تلك الساعات الصعبة حين طلب إليه أن يفحص الأمير خالد المشاري، يتذكر هيجانه وهذيانه وجنونه، ويتذكر تلك النظرات المعادية التي كانت تفتك به. خلّصه مساعد الأمير ورضائي. الآن، لو زار دار الإمارة لعرف الكثيرين ولعرفه الكثيرون. أن ثلاث سنوات لا تلغي ذاكرة البشر ولا تغيرهم، كما أن هذه المدة لا يمكن أن تجعلهم يتنكرون. لكنه لا يجد في نفسه الاستعداد أو تلك القناعة. إنه يختلف عن الآخرين، ومع ذلك سيجد طريقه.

قالوا له إن الأمير خالد المشاري ذهب وذهبت أخباره، إذ بعد أن غادر حران لم يسمع أحد عنه شيئاً، وكذلك جوهر. وقد حل مكانه في الإمارة نائبه، الأمير مشعل، ولا يعرف محمد عيد لماذا لا يتذكر هذا

الاسم لنائب الأمير، يتذكر أنه أبو رشوان، ويتذكر أن بعضهم كان يطلق عليه اسم البرميل. بقي الأمير مشعل أميراً لحران فترة من الزمن ثم جاء بعده الأمير ضاري السهل، وظل أميراً سنة وبضعة شهور، وخلفه عبد الله المشهور، لكن هذا لم يستمر طويلاً.

إذ بعد الإضراب الذي قام في المصافي وميناء التحميل، وبعد عمليات التخريب التي جرت عدة مرات في خط الأنابيب والمحطات، اعتبر أن المشهور مقصراً أو متهاوناً، وجاء عبد الله الشبلي.

وحران التي تغيرت مرات كثيرة خلال السنوات القليلة التي مرت عليها، يبدو أن الأمير الجديد جاء لكي يخلق لها ملامح لا تتغير. فالضرائب التي فرضت على التجار والباعة، وتبليط الأرصفة، إضافة إلى نقل المقبرة، ليست كل شيء، فهناك أسباب أخرى كانت وراء هذه الإجراءات ووراء مجيئه بالذات. وإذا كان الكثيرون قد تحسبوا وخافوا، فإن محمد عيد لم يشعر بمثل هذه المشاعر، وكان من الممكن أن يزوره لو أنه كان في ظروف نفسية مختلفة.



ثلاثة أسابيع من التجول والتأمل والسؤال، لعله يستطيع أن يمد جذوره من جديد في هذه الأرض الصحراوية ويبدأ مرة أخرى.

زار مستشفى الغرباء، مدعياً المرض، لعله يجد أحداً أو إمكانية للعودة إليه من جديد، لكن بعد دقائق من الانتظار، في الردهة الخارجية، أحس أنه مريض فعلاً، فانسحب دون أن يلفت نظر أحد.

أما الدكتور الآغا، صديق الحكيم وشريكه، فقد استغرب عودة محمد عيد إلى حران، قال له بعد أحاديث طويلة متشعبة:

ـ الناس في حران يداوون بطونهم وذكورهم، وأنت تعرف السبب، أما أسنان الذهب والبدلات التي شغلتهم في البداية فقد اكتفوا وزهقوا.

قال هذا الكلام وهو يبتسم ويتذكر.. ثم أضاف:

ـ ومن يوم سفركم، أو بعده بشهرين، ثلاثة، طلقت العيادة وتفرغت لتجارة الأراضي. والله سبحانه وتعالى يسر وفتحها عليّ. ربح أرض يوفر عليّ شغل سنة بالعيادة، دون وجع راس من ريحة البدو المنتين.

وضحك بسخرية وتابع:

ـ لا.. هذه الشغلة بطلناها من زمان!

وتغيرت لهجته، أصبحت جادة وحزينة:

ـ والحكيم.. بنظره البعيد، حطّ يده على كم أرض مثل الذهب، أحسن من الذهب، ورأيي أن يظل نايم على هذي الأراضي.

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ لك احك يا محمد، كيف حال الحكيم بموران؟ زنقل؟ ريّش؟ صار فوق الريح؟

ولم ينتظره ليسمع الجواب، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ سمعت أنه مليّن، صار تحت طيزه ملايين!

وحاول محمد أن يجيب، أن يشارك، لكن الآغا لم يسمع ولم يترك له فرصة، ختم حديثه بحزن:

ـ . . . والله يصلحك جيت متأخر، لأني، أنا نفسي، أفكر بعد كم شهر أن أنقل شغلي إلى موران، موران تظل العاصمة، والشغل هناك أحسن من حران ألف مرة، خاصة في شراء الأراضي وبيعها!

وزار محمد عيد الكثيرين أيضاً. سألهم واستمع إليهم. وإذا كان هؤلاء قد سألوا عن الحكيم وعن الأراضي والأبنية التي له في حران، وما إذا كان يريد بيعها، فقد قدروا أن عودة محمد عيد مرتبطة بهذا الأمر بالذات. أما وهو يداور ويحاول التهرب من الإجابة الواضحة الدقيقة، وبعد أن يسأل عن فرص العمل وماذا ينصح الأصدقاء والمعارف، فإن الكثيرين يبدو استغرابهم الذي يصل إلى حدود الدهشة في أن يترك الإنسان موران ويأتي إلى حران أو غيرها من المدن الأقل أهمية وشأناً!

كان كل واحد من الذين يسألهم يبذل جهده لكي يبعده عن مجال عمله: «جميع الأعمال أفضل من هذا العمل. هذا العمل كله تعب وما منه ربح»، ويسمع ويفكر وينتظر!

فكر أن يفتح مقهى، وبدا له أن مشروعاً مثل هذا لا بدّ أن يدر أرباحاً كبيرة، فحران التي امتلأت بالدكاكين والمطاعم والبنوك لا تجد مكاناً يستريح فيه الناس من الركض والتعب، بعد عمليات والمساومة والبيع والشراء. وحين سأل عن أبي أسعد الحلواني ومقهى الأصدقاء، تذكر الكثيرون المكان ولم يتذكروا الرجل. وما أن واصل البحث والتفكير في مقهى جديد يقيمه في حران، حتى اصطدم بالأرقام الكبيرة التي يطلبها أصحاب الأراضي القريبة من البحر، أو أصحاب الأبنية الفسيحة القائمة وسط السوق، ولم يتأخر كثيراً حتى صرف النظر عن المقهى. قال لنفسه: «حران اسطبل، ويجب أن تبقى بهذا الشكل حتى آخر قطرة من النفط، وعندها يتركها البشر والدواب، ولا يبقى فيها سوى الرياح والقبور».

وفكر بمصبغة وهو يتمعن بعيادة الحكيم القديمة، لكن الفكرة لم تستهوه كثيراً. وفكر بتجارة الأراضي والبناء، أو أن يفتتح دكاناً صغيرة لممارسة مهنته الأولى والأصلية، لكنه لم يلبث أن قال لنفسه وهو يبتسم: «في كل عيادة، في كل مستشفى أكثر من حكيم، وأكثر من محمد عيد، وإذا فلت زبون من الأول لا يمكن أن يفلت من الثاني!».

في بحثه وتأمله وانتظاره التقى بالشرطة. تأملوه ومروا أول مرة، لأنه بمنظره وهندامه يختلف عن هؤلاء الذين يطاردونهم ليقبضوا عليهم. وفي المرة الثانية نظروا إليه طويلاً وتكلموا فيما بينهم ومروا. وفي المرة الثالثة استوقفوه. بدا غير خائف، وغير مستعد أيضاً للدخول معهم في مناقشات طويلة، فطلب منه رئيس الدورية، بأدب، لكن بحزم، أن يرافقهم إلى مخفر الشرطة.

كانت وجوههم غريبة، منفرة، وكانوا يسألون باتهام: من أين جئت ولماذا جئت؟ أين الإقامة والترخيص بالعمل ومن هو الكفيل؟ وإذا بدت هذه الأسئلة كريهة، ولم يتوقع أن يتعرض لمثلها، فقد كان مثل الآخرين: مجرد متهم، وعليه أن يجيب عن كل سؤال، وأن يبرز كل الأوراق، وأن يقول كل ما يعرف. كان يريد أن يقول لهم إنه يعرف حران أكثر منهم وقبلهم، وأنه بذل من أجل حران ما لم يبذله أي واحد منهم، وأنه حراني أكثر من أي واحد آخر، لكنه لم يفعل، بل لم يستغرب أنهم لم يعرفوه، لأنه لا يعرف أياً منهم، وبدا، أكثر من ذلك، أنهم غير مستعدين لسماع هذا التاريخ أو للتأكد منه.

وهو خارج من مخفر الشرطة تذكر جوهر وتذكر مفضي. قال لنفسه وهو يهز رأسه حزناً وأسفاً: «الله من هذه الدنيا: أنها دائماً مع الواقف، مع القوي» وأضاف بعد قليل بصوت حادٍّ: «تفو».

وكاد يستقر رأيه على أن يصبح تاجراً للخضرة والفواكه: «لا يكف الناس عن الأكل يوماً واحداً، والخضرة الطازجة لا تنتظر، يتخاطفها الناس ليبلّوا قلوبهم وليخلصوا من هذه العلب الكريهة».

وبغية الوصول إلى صيغة عملية سريعة زار عدة أبنية كانت في مرحلة

الإنجاز، وتخير محلاً مناسباً. «المحل واسع وعلى شارعين، وإلى جانبه قبو كبير يمكن أن يكون مستودعاً». ووافق بعد تفكير طويل أن يدفع مبلغاً، وإن بدا كبيراً، كخلو «صحيح أن الخلو كبير، لكنه رأسمال مجمد، وبعد كم سنة، إذا أراد الواحد أن يترك المحل يستعيد الخلو وفوقه كم قرش».

لم يتوقف عند هذا الحد، شط به الخيال وفكر أن يتعاقد مع سيارتين أو ثلاث سيارات براد كبيرة، ويرتب لها برنامجاً دقيقاً من أجل أن تصل الخضرة نضرة، وعلى دفعات تتناسب مع حاجة السوق. وقدر أن مشروعاً مثل هذا يتطلب أن يبرم عقداً سنوياً: «لئلا أكون تحت رحمة أصحاب السيارات أو مزاج السواق، لأن الخضرة والفاكهة روحها ضيقة، لا تتحمل، ويمكن بين يوم والثاني إما أن يصبح الواحد صاحب ملايين أو يصفي على البلاط». وفكر أيضاً أن يذهب إلى دمشق وصيدا وعمان ويبرم عقوداً للتوريد: «البضاعة صنف أول. الصندقة نظامية. الكميات تتحدد بشكل إجمالي، على أن يجري تحديد الدفعات لكل سفرة بموجب منافستو يسلمه السائق إلى المورد ويسلم البضاعة بموجبه». وقرر أن يطور العمل مرحلة بعد أخرى، إذ سيكون في فترة لاحقة شريكاً في برادات النقل، وسيكون مضطراً لإقامة برادات أرضية خاصة به في حران: «لأن حران تأكل نفسها إذا لم تجد شيئاً تأكله، والخضرة والفواكه مثل الجفن والعين أقل مزحة تقتلها أو تخربها».

ولكي لا يؤجل ولا يتردد مرّ على باعة الخضرة والفاكهة في حران، تأمل الحاجات المعروضة بإمعان، سأل عن أسعار المفرد والجملة. سأل عن مصدر هذه الحاجات ومواعيد استلامها وكيف، ولم يتردد أحد الباعة في أن يتبسط معه، قال له أن الخضرة التي تصل من استراليا ونيوزيلندا وكالفورنيا أرخص من تلك التي تصل من عجرة، وأن تلك التي تصل عن طريق البحر أفضل من تلك التي تقطع الصحراء لتصل إلى حران. أما عن الكميات التي تحتاجها حران، قياساً للكميات التي تصلها فعلياً، فقد أعطى ذلك البائع أرقاماً مضطربة للغاية، ثم قال انه لا يعرف. وحين سأله محمد

عيد عن رأيه لو أن مكاناً جديداً وكبيراً يقوم في حران لاستيراد الخضرة والفواكه وتوزيعها، رد الرجل وهو يتطلع في عيني محمد عيد بتحديد:

ـ أخي... بهذا البلد كل شغلة تمشي.. وكل شغلة لا تمشي، هذا يعتمد...

ولم يكمل جملته، وبعد قليل أضاف، وهو يبتسم، وكأنه يكلم نفسه:

ـ المهم أن تعطي السهم باريها!

كانت آخر جولة قام بها محمد عيد يوم الخميس؛ ورغم بعض الخوف والتردد، قرر أن يبدأ يوم السبت. سيدفع الخلو والأجرة، وسوف يبدأ «لأني إذا دفعت رجلي تصير بالفلقة... ولازم أكون قدر الحمل... ولازم إنجح!».



الجمعة، منتصف الصيف.

يوم استيقظ محمد عيد متأخراً هذا الصباح، لأنه تأخر في نومه، ولأن أحلاماً أقرب إلى الكوابيس ملأت ليلته الفائتة.

يتذكر وهو يتقلب على فراشه، يحاول النوم، شعر أنه وحيد وحزين، وشعر أكثر من ذلك أنه مخدوع. وإذ حاول أن يبعد صورة الحكيم عن مخيلته، وقد صمم على ذلك بطريقة أقرب إلى الحقد والاحتقار، كانت هذه الصورة تطوقه من كل ناحية. تذكر أول مرة رأى فيها الحكيم، وتذكر كلماته الأخيرة: «إذا أردت، يا محمد، أم غزوان ستلقى لك امرأة درويشة وتتزوج!». وتذكر رحيله معه من مكان إلى آخر. ورغم أنه في كل مرة يقبض على نفسه متلبساً بالتفكير بالحكيم، كان يحاول أن يتوقف، أن يمتنع عن ذلك، أن يبعده بالقوة، وكان، في محاولة للنسيان، يعد من الواحد إلى المائة، لكن ما يكاد يبدأ حتى يجد نفسه وقد سها عن الأرقام وعاد إلى الحكيم... أو عاد إليه الحكيم.

ونادية، «آه من هذه الغزالة الفاتنة التي ربيتها بيدي» أنه يشعر نحوها بعواطف متناقضة أشد التناقض، فهو يحبها ويكرهها، يريدها ولا يريدها، ومع ذلك فإنها غير مسؤولة، وربما لا تدري حتى هذه الساعة. خصمه الوحيد الحكيم. هو الذي يقرر كل شيء، لنفسه ونيابة عن الآخرين. حتى ما ادعاه من أن أحداً خطبها قبل فترة طويلة مجرد أكذوبة. لو أن شيئاً أبسط من هذا وأقل شأناً لعرفه. كانت لديه وسائل لا تحصى لأن يعرف كل شيء. إنها كذبة جديدة تضاف إلى عشرات الأكاذيب التي سبقتها. ليس هذا فقط، إنه يعرف متى يكذب الحكيم وكيف. كان شريكه في أكثر

أكاذيبه. قال لنفسه وهو يتقلب للمرة المائة في محاولة لأن ينام: «ابن الكلب عملها معي، ونسي أننا دفناه سوا».

أما عندما غرق في النوم فقد هجمت عليه الكوابيس، لاحقته مرة بعد أخرى. كان يرى نفسه محاصراً بأعداد من الأفاعي، وحين يحاول الهرب منها تتلقفه هاوية سحيقة، فيمسك بأطراف الحجارة، لكنها تتساقط، وتسقط، ومن هاوية إلى أخرى، فيصرخ، يحاول التشبث بأي شيء، لكن لا شيء. وحين يسقط على الأرض الصخرية ويتحطم، يسمع قهقهات بعض العجائز، ومن بين دموعه ودمائه ينظر إليهن، لكن لا تتحرك أية واحدة منهن لمساعدته، فيصرخ للمرة الأخيرة قبل أن يموت، وفجأة ينهض.

حين نهض وجد أن العرق قد غسله تماماً، وأن العطش يفتك بحلقه وجوفه. كان يحس بالتعب والإعياء، ولا يستطيع الوصول إلى كأس الماء، وفي محاولة لأن يبقي نفسه في ملكوت النوم، أبقى عينيه مغمضتين، واتجه إلى حيث وضع الماء قبل أن ينام. اصطدم بطرف السرير. آلمته قصبة رجله اليسرى. هدر صوته مثل حيوان جريح:

ـ والله لألعن أبو المحملجي الأولاني!

يجلس على الأرض، يفرك القصبة في محاولة لأن يمتص الألم، تتفتح عيناه في الظلمة، يرى أشباحاً، يراها تتحرك، يفرك رجله بيد وعينيه باليد الأخرى، لعله ينقذ روحه التي يحسها تتبدد. الأشباح تغدو وتروح، تقترب منه، تطوقه، يصرخ بصوت عال وحاد:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.

ينهض فزعاً. يشعل الضوء. تغرق الغرفة في نور أصفر بهي. يتلفت في كل الأنحاء، يرى على الطاولة القريبة دروق الماء وكأساً نصف مليئة. يلتفت أكثر من مرة ليتأكد. غابت الأشباح وامتلأت الغرفة بالسكون. يهز رأسه مرة أخرى. يقف. ما زالت ساقه تؤلمه. يتجه إلى الطاولة، يتناول كأس الماء، يشرب. الماء ساخن أقرب إلى البول، وفيه طعم المرارة. يمسح حلقه ووجهه. يتجه إلى النافذة المفتوحة، يطل منها، تمتلئ رئتاه

برائحة حران العابقة، يتذكر الحكيم: «ابن القحبة. . لبس لحية، صار مثل أي تيس، لكن كذبته مصلعة مثل طيز السعدان، وإذا ضحك على أهل موران وخدعهم لا بد وأن يصيدوه في يوم من الأيام. . . وعندها: جاءك الموت يا تارك الصلاة!».

وضرب حافة النافذة وقال بحقد:

ـ إذا ما نسيته أكون أخرا منه!

وبسرعة هجم على الضوء، أطفأه بعصبية وارتمى على السرير في محاولة لأن ينام. الغرفة تغرق في الظلام. لكن النوم لا يأتيه. يتقلب، يتقلب، وطيف الحكيم يذهب ويعود. يبتسم بحزن ويحاول أن يتذكر نادية: «آه منها بنت الكلب، مثل الزهرة، رائحتها أطيب من الفل والياسمين، خيارة صغيرة، أطيب من الخيار. ريانة، ناعمة، وسمارها مثل القهوة بحليب. لأ. . أحلى بألف مرة، وإذا ضحكت الدنيا كلها تضحك، مثل العصافير تزقزق، لكن ابن الكلب، الحاخام، حرمني منها، لا يحب إلا نفسه». ولا يدري بأية أشياء فكر وهو يحاول النوم.

لا يدري متى نام. آخر شيء فكر فيه بحزم أقرب إلى الإهانة «أكون ألعن منه إذا فكرت فيه. . اللي فات مات ونحن رجال اليوم».

قضى عند بائع الفول وقتاً أطول مما تعود. وبدل كأس واحد من الشاي شرب اثنين، وأعطى الصغير الذي جلب له الشاي قطعة نقد كبيرة. تجول على شاطئ البحر. تمعن بالمياه طويلاً. تطلع باهتمام إلى الوجوه التي مرت به. وفجأة عنَّ له أن يلقي نظرة أخيرة على «المحل»، قرب ساحة السلطان خزعل.

لما وصل إلى هناك كان المؤذن يذكّر. ترك الساحة ومشى نحو الدكان التي سيستأجرها. وجد هناك صاحب البناء ومعه ثلاثة من الرجال. حياهم وابتسم. بعد لحظات واصل صاحب البناء حديثه مع الرجال، وتبين أنهم يجرون حسابات بخصوص العمل ومواد البناء. تركهم وانزلق إلى الدكان، قاسها من جديد، كان يفتح ساقيه بخطوات كبيرة على مسافة يعتبرها مساوية للمتر. وقف في أكثر من زاوية وتمعّن. خرج من الباب الآخر،

وألقى نظرة واسعة. تراجع قليلاً ووقف على الرصيف المقابل. في لحظة بدت له الدكان وقد امتلأت بالفاكهة والخضار. كانت الصناديق ترتاح بشكل مائل، وتشع منها الفاكهة: تفاح غولدن، ستاركن، تفاح بلدي، تفاح زبداني حلو... ومز، وإلى جانبه أنواع من العنب: بزاز العنز، حلواني، زيني، أبيض، أسود، أما التين فإنه مثل عيون الأطفال، لا أحد يمسه، لا أحد يضع يده عليه. وتصور أنواعاً كثيرة من الخضار. لن يستطيع أن يلبي جميع الطلبات وحده، يجب أن يكون إلى جانبه من يساعده. لا يكفي أن يكون عنده ولد صغير؛ الصغير يمكن أن يناول، أن يحمل، أما الميزان، أما الحساب فيجب أن يراقبه بنفسه، ولذلك يجب أن يستعين برجل يعرف كيف يتصرف وكيف يساعد... «ويجب أن يكون أميناً!».

بدا راضياً، لأول مرة يحس أن الحزن الذي ملأه منذ أن غادر موران يقل ويتراجع. وحين التفت وعبر الرصيف رأى صاحب البناء يقترب منه. سأله بحياد:

- عسى أن المحل عجبك... ونويت؟

- انشاء الله... وغداً نوقع العقد.

- على خيرة الله.

وأضاف بعد قليل:

- إذا ما وراك شي تفضل تقهوى عندنا... والبيت قريب!

لم يتردد محمد عيد في القبول. كان يريد أن يخلص من الصلاة، وبدا له أن الرجل يريد ذلك. قال في محاولة لتأكيد تهذيبه:

- أستطيع أن أبقى ساعة، لأني مدعو على الغداء.

- بسيطة!

وإذا كان محمد عيد يعتبر أن الحكيم مثله، وقد تأثر به كثيراً، فإن الفارق الوحيد، أو ربما الفروق القليلة التي ظلت تميزه عن الحكيم منذ فترة طويلة: الصلاة. كان يعتبر أن الدين هو المعاملة، ولذلك لا يمكن أن يتظاهر ليقنع الآخرين فقط. إذا لم يقنع الله فلا فائدة. والحكيم الذي كان

يحرص على المظاهر، أكثر مما يحرص على أي شيء آخر، جعله يحس بنوع من الرفض والمقاومة. ولهذا، ومنذ أن كان في حران، ثم بعد ذلك في موران، كان يهرب من الاستجابة لطلبات الآخرين، أو أن يتظاهر مثلهم.

الآن، وهو يتلقى دعوة القهوة... يوافق. وخلال الساعة التي سيقضيها تكون الصلاة قد انتهت، وربما استطاع أيضاً أن يبحث مع صاحب البناء في أمور تتعلق بمستقبل العمل وما يتطلبه من مستلزمات إضافية.

خلال هذه الساعة، وربما نتيجة رائحة البيت، أو لسبب آخر، غامض، كان محمد عيد يريد أن يخرج، أن يهرب، لا يعرف إلى أين أو لماذا. أما حين نظر إلى ساعته، وأدرك صاحب البناء تعجله، فقد قال في محاولة للتعبير عن المودة:

ـ وما عساك مسمّى البقالية؟

نظر إليه محمد عيد باستغراب، وكأنه لم يتوقع هذا السؤال، تابع الرجل:

ـ الخويا في السوق ما تركوا لك أي اسم!

رد محمد عيد ضاحكاً:

ـ لا تخف... راح أسمي البقالية: خذ غرضك وامشِ!

وضحكا معاً.... وغادر محمد عيد.



حران في هذه الظهيرة ثقيلة مستبدة. الهواء ساكن لكنه خطر، أما الصمت الذي زحم الأبنية والشوارع فقد كان فاضحاً. لم تكن حران في يوم من الأيام بهذا القدر من الارتياب وخداع النفس، ولم تكن عارية وسوداء هكذا. قال محمد عيد لنفسه وهو يحاول أن يسحب نفساً لكي لا يموت: «اللهم قوّني واعطني الشجاعة على تحمل المكاره».

في طريقه إلى الساحة أحب أن يمر بالقرب من دكانه. تذكر الاسم

الذي أطلقه «خذ غرضك. . وامش». حاول أن يبتسم، لكنه وجد أنه لا يستطيع. كانت في روحه بقايا حيرة، وكان فمه شديد المرارة.

ألقى نظرة أخيرة، لكن استمر حائراً. تطلع إلى الأرض والسماء فوجدهما قاسيتين، وبعصبية اتجه مسرعاً إلى ساحة السلطان خزعل، حيث يطل الجامع الكبير.

فجأة أحس بالخطر، فالجموع التي كانت تخرج من الجامع، والأعداد الكبيرة من الأطفال والصبية، وغير بعيد عنهم النساء، أوحت له بالخطورة ثم بالخوف. ماذا يمكن أن يكون؟ لماذا لم يعرف من قبل ولماذا لم يسمع؟

بصعوبة شق طريقه وسط الجموع والصمت، وبصعوبة أيضاً رأى. رأى اثنين من البدو ينزلان من سيارة جيب، الأول كبير السن والآخر بين الصبا والشباب. الكبير بعباءة ممزقة ومغبرة. قاسي الملامح، أقرب إلى الخشب الجاف، عاري الرأس، حتى ليبدو مثل حيوان صحراوي ضعيف. كان يتلفت بعيون حائرة، وبدا مذهولاً، وقد ربطت يداه إلى خلفه. أما الشاب فكان في ثوب ربما كان أبيض في يوم من الأيام، لكنه بلي ونصل وتمزق عند الكم والصدر فظهرت يد الشاب عارية، وظهر صدره مسمراً ضامراً وكأنه قفص لطيور خطرة. أنزل الرجلان بخشونة وقسوة، وكان حولهما عدد من رجال الأمير والشرطة.

تجمع الناس في حلقة تشبه السوار. رجال الأمير في حالة من الهياج أقرب إلى التوحش. الكلام الذي يسمع همهمة غامضة ولا يفهم. لا أحد يعرف أو يدري ماذا سيكون. الجو يزداد حرارة وخطراً. الرجلان اللذان كانت أيديهما مربوطة إلى الخلف تحل ويجبران على الجلوس. قال رجل من الجمع: «سرقوا. . ولا بدّ أن تقطع يد السارق». رد آخر: «ليقولوا أي شيء سرقوا». قال ثالث: «العين بالعين والسن بالسن». قال آخر: «لم أر في حياتي ابن آدم تقلع عينه». قال آخر: «مساكين لا ذنب لهم». قال آخر: «لا حول ولا قوة إلا بالله. . وكل ابن آدم مسيّر لا مخيّر». رد عليه رجل قصير: «إلا ابن آدم له عقل وعنده وجدان». رد الرجل الأول: «لا

حول ولا قوة إلا بالله». . قال آخر: «آخر ابن آدم خرقة، ولا يفيده ذهب الأرض». قال رجل آخر: «اسكتوا يا جماعة الخير، خلنا نشوف تالي هالمصيبة». صرخ طفل في وسط الحلقة: «يوبه. . يا يوبه. . العلقمي». وأشار إلى أحد رجال الأمير. التفت العلقمي غاضباً وضرب عصاه في الهواء فأزت. قال رجل لم يتبين وجهه أحد: «أبرياء براءة الذيب من دم يوسف». صرخ أحد رجال الأمير: «الكلام ممنوع». سأل محمد عيد، بلسان مرتجف، الرجل الذي بجانبه عن ذنب الرجلين وماذا سيفعل لهما. هز الرجل كتفيه، إنه لا يعرف، ونظر إلى محمد عيد باستغراب.

الشمس تنصب عمودية من السماء وكأنها أسلاك من نار. رجال الأمير والشرطة يتحركون حركة عصبية عمياء. الرجلان يلتفتان إلى الجموع بعيون مذهولة، وبنظرات سريعة وكأنهما يبحثان عن أحد. ينظران، أحدهما إلى الآخر، نظرة فيها معنى الصبر والتأسي، لعل شيئاً ما يقع في اللحظة الأخيرة. الشفاه يابسة. والحلوق مليئة بالمرارة والغبار. حركة الجموع ثقيلة آلية، والصمت يملأ الهواء.

تقدم رجل قصير ممتلئ، تخطى سن الشباب، يبدو قوياً واثقاً، بل معادياً، أسمر أو أقرب إلى السواد. تقدم بخطوات ثقيلة، لكنها صلبة. كان بثوبه الأبيض، وحزام الرصاص الذي يطوقه من الكتف حتى أسفل الخصر، أشبه بالدجاجة السمينة. كان لا ينظر إلى شيء أو إلى أحد، وما عدا هزات يده بالسيف، فقد كان خائفاً.

أجلس الرجلان على الأرض بشكل جديد. أجلسا كما لو أنهما يركعان وينويان السجود. اجلسا بصعوبة أول الأمر، أما حين شدت أيديهم إلى أمام ثم ربطت بالأرجل، فقد كانا في حالة تشبه من يستغفر ربه. قال الرجل المسن:

ـ اللي قالوا لكم يكذبون. . . وأولاد حرام.

لم يجبه أحد. تابع:

ـ خلوني أشوف الأمير يا جماعة.

لم يجبه أحد، تابع بغضب:

ـ ودمي وخطيتي برقبتكم كل يوم. . . وإلى يوم القيامة.

قال الشاب بنزق:

ـ إذا كان أميركم فيه خير، وإذا كان سلطانكم فيه خير خله يعرف اللي سواها.

قال الرجل المسن:

ـ حنا مظلومين، أولاد الحرام ظلمونا، ودمنا برقاب القريب والبعيد.

قال الشاب:

ـ والله لألعن أبو الأميركان واللي حط أول حجر بحران.

قال الرجل المسن بغضب حزين:

ـ لا تخف يا حمد، دمنا ما يضيع، والدّية راس الكبير، دمّنا برقاب اللي يشوفون واللي يسمعون. . وتشوف.

وبطريقة فيها من المكر أكثر مما فيها من البراعة غمز رئيس المفرزة الجلاد، وطلب من رجال الأمير، بحركات يده أكثر من الكلمات، أن يبتعدوا، وأن ينتبهوا، والجلاد، الذي كان ينتظر الإشارة، تحرك.

في ظل الصمت الذي رافق الإشارات، وتلك الحركات المضطربة، وفي لحظة انزلقت السماء بلهيبها وغضبها على الأرض فخيم سكون ثقيل لزج، حتى النفس الخافت المكتوم يمكن أن تلتقطه الأذن وتسمعه العين، في لحظة الجنون والخوف هذه، تقدم الجلاد. نظر بسرعة خارقة إلى الجهتين، لكنه لم يرَ أحداً أو شيئاً في تلك اللحظة، لا قبلها ولا بعدها، أصبح وراء الرجلين. هز سيفه كما يهز عصا. تقدم خطوة بقدمه اليسرى. أصبح فوق الرجل المسن. نخزه بسيفه في مؤخرة الظهر عند العجز. كانت النخزة قوية موجعة، ارتفع جذع الرجل، بدا منتصباً قوياً، وامتدّت رقبته أكثر مما كانت، وفي لحظة، هي لحظة الجنون والخوف ذاتها، ومع ارتفاع العنق، وبطريقة ماكرة خالية من الاتقان هوت ضربة السيف. كانت الرقبة صلبة، قوية، فقيرة، مليئة بالعروق. وإذا كان السيف قد حزّها فإنه لم يقطعها. بدت شامخة ثقيلة قوية، وبدا الجلاد مستشاراً، وبدون أن ينتظر هوى بالضربة الثانية على الرقبة. . فطار الرأس. تدحرج. ابتعد ثلاثة أمتار

عن الجسد، وبتدحرجه انقلب. كانت العينان واللحية نحو السماء، نحو الآخرين. كانت ترتجف، تتحرك، تتحرك، وكان الجسد يتلوى، يستطيل، يتقلص، يعلو، يهبط، يتحرك، يتلوى مرة أخرى. أما الدماء التي نفرت كينبوع، كنافورة، فقد خضبت العباءة وثياب الجلاد ووصلت إلى الشاب.

صرخ الشاب وهو يحاول القيام، ولم يعد يحسب أي حساب:

ـ خزعل والشبلي بمداسي يا اولاد الكلب.

كانت الكلمات تخرج مضطربة مسعورة، وأقرب إلى أصوات حيوان، ودون أن ينتظر الجلاد، أخرج من وسطه خرقة لم يرها أحد من قبل، وبطريقة بارعة، مسح السيف، مسحة بسرعة، والتفت إلى هذه الجهة، إلى الجهة الأخرى، وقد تطلع إلى الوجوه هذه المرة، وبدا شديد الخوف والاضطراب، فلما لم يجد أحداً يقترب منه، نخز بنفس الطريقة أسفل الظهر، فلما انتصب قوام الشاب، وكان أشبه بانتصاب الراقص في لحظة العنفوان والنشوة، أو مثل فارس يهمّ بالانطلاق، وبدت الرقبة طويلة ضامرة، وكأنها رقبة طائر، هوى بسيفه، وبضربة واحدة انفصل الرأس عن الجسد. تدحرج الرأس بعيداً بعيداً حتى أصبح قريباً من الناس، وقد لامس أرجل اثنين أو ثلاثة. كانت العينان حمراوين قانيتين، وكان اللسان ممدوداً طويلاً، فتراجع الكثيرون وذعروا. أما الجسد الذي كان ينوي أن ينهض فقد نهض إلى قامة رجل قصير، أو إلى قامة طفل.. ثم هوى مرة أخرى وبدأ يرتعش.

الصمت... الصمت.. ثم الغضب.

دفع رجال الأمير الناس. جمعوا بقايا الرجلين، وخلال دقائق قليلة انتهى المشهد. لأول مرة، في حياته، شعر محمد عيد بالغضب، وشعر بالخوف والخزي أيضاً.

قال رئيس المفرزة وهو يرتجف ويسرع بركوب السيارة:

ـ وابن هذال يجي دوره.

ومن الكلمات القليلة عرف الناس أن الرجلين اللذين قبض عليهما في اليوم الفائت، أبلغ عنهما أحد الرعاة، وقال انهما كانا مسؤولين، مع

آخرين، عن نسف خط الأنابيب؛ وخلال ساعات قليلة قرر ابن الشبلي أن الرجلين يجب أن يقتلا، اعترفا أو لم يعترفا، لأن ابن هذال نفسه سوف يخاف، وأن رجاله سيخافون، ومن أجل الأمة والرعية، كما قال وأكد، وكما طلب منه السلطان خزعل، لا فرق بين مذنب أو من يريد أن يكون مذنباً!

❀ ❀ ❀

عند العصر كانت سيارة هودسن خضراء تقطع الطريق بين حران وعجرة. استأجر محمد عيد السيارة بمفرده. ورغم أن ابن السيف استغرب هذا السفر، فقد استغرب أكثر أن محمد عيد لا يوافق على الانتظار أو التأجيل لليوم التالي، ولذلك كان متأكداً أن وراءه صفقة كبيرة. قال له وهو يودعه:

ـ الحكيم أخونا. سلّم عليه وقل له: الجماعة بحران يذكرونه بالخير.

هز محمد رأسه ولم يقل كلمة واحدة. كانت عيناه تجيبان أو تحاولان الإجابة. أما قلبه فكان يمتلئ بمرارة لا حدود لها، وكان يشعر أنه مريض وعلى وشك الموت. حين تجاوزت السيارة المطالع، وبدأ الطريق الصحراوي رأى المقبرة بسورها الرمادي المغبر، ورأى رجالاً يستظلون بالسور. حاول أن يلتفت لينظر إلى حران للمرة الأخيرة، لكنه لم يستطع. نظر بسرعة، وبطرف وجهه إلى السائق، رآه ساهماً أقرب إلى الحزن. أراد أن يتكلم، أن يسمع صوتاً غير الريح، لكن لم يجد في نفسه القوة، ولم يجد الرغبة. قال في نفسه: «نهاية حران وراء هذا السور، والعاقل من يفلت».

في السهل المنبسط غير النهائي كانت السيارة تسابق الريح والرمال، وكان الهواء الساكن يلفح الوجوه ليصل إلى أصابع الأقدام، ثم يندفع مرة أخرى لينثر ذرات الغبار التي تشكل حاجزاً بين الأشياء كلها، وهذا الحاجز يجعل الرؤية والرغبة والفكر مختلطة إلى درجة أن أي شيء يشبه أي شيء آخر. قال محمد عيد بطريقة فجة:

ـ حارة!

رد السائق بنفس الفجاجة:

ـ أي نعم حارة.

ـ أنت من حران؟

ـ لا.

ـ من أين؟

ـ من أرض الله الواسعة!

ـ صحيح من أين؟

ـ احزر.

ـ الشكل يقول أنك من السلطنة.. أما اللهجة..

ـ لو كنت من السلطنة لكان واحد غيري يسوق بك هالحين..

وبعد قليل وبحزن:

ـ لو كنت من السلطنة لخرّبت الدنيا.

وبعد فترة صمت سأله السائق من جديد:

ـ كنت بحران اليوم الظهر؟

ـ أي نعم.

ـ وشفت اللي صار؟

ـ أي نعم.

ـ ولا أي ابن كلب قال كلمة، ولا أي ابن كلب رفع رجل عن رجل، والمساكين راحوا بكيسهم. الله يرحم المساكين.

وبعد أن زفر أضاف:

ـ لو كان بحران رجال، لو هذا اللي صار بمكان ثاني لانقلبت الدنيا، لكن الناس مثل الغنم، يركضون ويصرخون وآخرتها يجي كم ابن حرام ويغفّون الأول والتالي.

وعاد الصمت. الرمال والغبار وأشعة الشمس. قال السائق ليقطع الصمت:

ـ تروح عجرة أو أبعد منها؟

ـ أبعد.

ـ وين.. انشاء الله؟

ـ لا أعرف!

التفت إليه باستغرابب، تطلع إليه ثم هز رأسه وقلب شفتيه، وعاد ليسأل من جديد:

ـ وليش ما تعرف؟

ـ لأن الأرض كلها بعد اليوم خرا.. ومثل بعضها.

ـ تراك أنت مثلي!

كلنا مثل بعض يا ابن العم.. وإذا كانت اليوم حران عقبه كلها راح تصير مثل حران. إلا...

وداس السائق أكثر على دواسة البنزين.. وخيَّم الصمت!

قبل أن تنقضي السنة الثالثة على وجود حماد في القصر حصلت تطورات كثيرة: من رئاسة جهاز الأمن والسلامة وكالة إلى رئيس فعلي؛ ومن جناح في القصر إلى بناء مستقل؛ ومن الإقامة في موران إلى التجول في العالم والاتصال بالمؤسسات المماثلة والصديقة.

فبعد زواج السلطان من عنود بنت راشد المطوع بسنتين وثلاثة شهور جاءه منها غلام، واثر ذلك مباشرة سُمّي حماد رئيساً للجهاز، وقد أبلغه الحكيم بالأمر قبل صدور الإرادة السلطانية. قال له في لحظة تخيرها جيداً:

ـ بينك وبين السلطان، يا حماد، عشق، يحبك مثل ابنه..

وضحك ثم أضاف:

ـ ولا بدّ أن حظك من السماء.. أو أنك ساحره.

ولما ظل حماد صامتاً لا يعرف كيف يجيب تابع الحكيم.

ـ يا سيدي ألف مبروك... من اليوم أنت رئيس جهاز الأمن والسلامة، أصالة لا وكالة، وهذه إرادة السلطان، ولا بدّ أن تبيّض الوجه وتكون أحسن من الأول.

ولم ينقض شهر على هذه التسمية حتى احتل حماد مبنى دار الإمارة، بعد إن تم تجديده وإعداده، لأن دار الإمارة انتقلت إلى مبناها الجديد. وقد تمّ هذا الإجراء نتيجة توسع الجهاز، والتحاق عدد من «الخبراء»، جاؤوا خصيصاً من الولايات المتحدة وألمانيا، وقيل إنهم لن يبقوا إلاّ فترات محدودة، عدا خمسة تم التعاقد معهم لمدة ثلاث سنوات. ومما عجّل في اتخاذ هذا الإجراء أيضاً وصول معدات خاصة بجهاز الأمن

والسلامة، وكانت هذه المعدات الكبيرة تتطلب أمكنة فسيحة، وقيل إن المهندسين اقترحوا أن تكون بعيدة عن القصر، لئلا «تشوش» على الأجهزة الخاصة الموجودة فيه.

رغم هذا الإجراء بقيت غرفة حماد في القصر بناء لرغبة الحكيم، وقد عبر عن هذه الرغبة مازحاً:

- أولاً ما لنا قلب أن تترك، تعودنا عليك، وإذا مرَّ يوم ما شفناك يحس الواحد منا أن شيئاً ينقصه، وأقدّر أن شعورك نحونا نفس الشعور...

وضحك ثم تابع:

- وثانياً: هذه الغرفة لها بركة، لأنها كانت الأساس والخميرة، وأنا شخصياً أشعر لوجودها بنوع من الأمان، وأخيراً، يا سيدي، أضمن وأستر لك وللعمل أن تكون في القصر.

وحماد الذي اعتبر الفكرة صائبة، ولا بدّ أن يكون الحكيم قد فكر بها من قبل وليست وليدة اللحظة، فقد قرر، بينه وبين نفسه، أن لا يتخلى عن الصفة السرية التي احتمى بها خلال الفترة الماضية. أكثر من ذلك بدت هذه الصفة تغريه، أما لو انتقل كلياً وبصورة علنية فلا بدّ أن يواجه مصاعب أو إحراجات من نوع أو آخر.

قال للحكيم وقد عبرت هذه الأفكار رأسه:

- اللي تقوله يا أبو غزوان هو الصحيح، ولولا المكاين والبلايا التي جاءت وإلا هذا المكان ما مثله مكان.

أما مطيع الذي توثقت علاقاته بحماد إلى أقصى حد، وأصبحا لا يفترقان إلا نادراً، وكان يسمع الحوار الذي يجري بين الإثنين. فقد تدخل:

- الغرفة في القصر أكثر من ضرورية: للاتصال، لحفظ الأوراق الهامة، للاجتماعات الطارئة...

ولأنه لم يكن هناك أي خلاف حول استمرار علاقة حماد بالقصر، بما في ذلك الاجتماع الدوري، فقد قال الحكيم بلهجة مرحة:

ـ غرفة حماد هي المصفاة، لأن كل المعلومات تصب فيها، وفيها يتم تقدير الموقف، ولذلك يمكن أن نسميها من الآن فصاعداً «غرفة تقدير الموقف». . .

والتمعت عيناه فجأة، وتابع:

ـ لا. . الأحسن: غرفة العمليات. نعم أحسن تسمية: غرفة العمليات، كما يطلق على الغرف الهامة في الجيوش أو في المستشفيات!

وضحك الثلاثة بمرح ووافقوا على هذه التسمية.

وقبل نهاية العام الثالث أيضاً اشترى الحكيم قسماً كبيراً من أرض الحصيبة. وكان حماد، كما في المرة الأولى، وسيطاً جيداً لإقناع عمه شداد، الذي بدا مستغرباً أن يشتري عاقل أو يفكر بشراء مثل تلك الأرض. قال لحماد بلهجة بين المزاح والجد:

ـ ياوّل، يا حماد، الحصيبة حفرة نفرة، وظني أن ما أحد يشتريها إلا إذا بيها ذهب، فإذا كان الذهب موجود خله لآل المطوع، لعمك شداد، أحسن ما يجي واحد غريب ويأخذها ويأخذه.

ـ لو كان بيها ذهب، يا عم، ما سموها حصيبة!

ـ وهذا. . . مشاور السلطان ليش يبيها؟

ـ يريد يبني فيها مستشفى.

ـ حتى يداوي أباعر ابن دهيش أو حصينيات المعافير؟

وضحك بصخب لأنه لا يوجد من يفكر ببناء مستشفى في ذلك المكان النائي، وعاد إلى لهجته الأولى بين الجد والمزاح:

ـ يا ول، يا حماد. . . بيع أبيع، للمشاور أو لغيره، اذا كان هناك من يشتري، بس علّمني العلوم الزينة، العلوم الصحيحة، خويك عاقل أو مجنون؟

ولم ينتظر جواب حماد، ضحك وقال كأنه يحدث نفسه:

ـ وإذا كانت كل سوالفه مثل هذه السالفة، وإذا كان كل ما يشاور به

السلطان مثل هذا الشور حنا بألف خير وحالنا بأحسن حال، والله يلعن أبو اللي ما يصدق!

وانتهى النقاش بأن وافق شداد على بيع قسم من الأرض، لكن لم يبعها كلها «لأني أريد أبخّر بهذا المجنون واللي يسوّيه اسويه، إذا خسر اخسر معه، وإذا ربح يقولون، ولو بعد ألف سنة، أن شداد ما أخذت عقله الخيل، ويعرف متى يبيع ومتى يشتري»!

وفي إطار هذه الفكرة، وقبل أن تتم الموافقة النهائية على بيع الأرض، اشترط شداد «أن الأرض تباع وفوقها حصان» وهكذا اشترى الحكيم.. حصاناً أهداه إلى السلطان بمناسبة الذكرى الثالثة بعيد الجلوس على العرش.

وبعد أن أصبح حماد رئيساً للجهاز بشهور تقرر أن يسافر إلى الولايات المتحدة، لدورة تدريب مدتها ثلاثة شهور، وأن يصطحب معه ثلاثة عناصر للغاية ذاتها.

وفكرة السفر، وإلى هذا المكان البعيد، أقلقت حماد أكثر مما أفرحته. يمكن أن يسافر إلى مصر، ويمكن أن يسافر إلى سورية أو العراق، أما أن يركب الطائرة ويعبر البحار، ويواجه بشراً لم يرهم من قبل ولا يفهم لغتهم، ثم إن يتحول، مرة أخرى، إلى طالب، وأن يتلقى دروساً، هو الذي لم يستطع أن يبقى ويواصل دراسته، هذه الفكرة جعلته عصبياً وجعلت نومه قلقاً مليئاً بالأحلام المفزعة، وكاد أكثر من مرة أن يطلب من الحكيم إعفاءه من هذا السفر. يمكن أن يختار العناصر التي ستسافر، وقد يسافر في دورة لاحقة، أما الآن، وبحجة ضرورة وجوده على رأس الجهاز، فإنه يفضل أن يصرف النظر عن السفر، لكن في الاجتماع الدوري التالي لإبلاغه بالدورة، فقد ذكر الحكيم للسلطان أن السفارة تلح على ضرورة الإسراع بإيفاد رئيس جهاز الأمن والسلامة «للأهمية»، ولم يوضح الحكيم هذه الأهمية أو ماذا تعني، ولم يستطع حماد أن يعترض أو أن يتذرع بأية حجة.

ولمحاربة هواجسه، وحتى الخوف الذي أحس به، بالغ في

الاستعجال والاستعداد معاً، لكي لا يترك لنفسه خياراً، واختار العناصر الثلاثة التي سترافقه في الرحلة، بعد أن استشار الحكيم، كما تم اختيار عنصر رابع للترجمة، لكن لم «يوافق» على إرساله قبل أن ينضم للجهاز.

وقبل سفره ببضعة أيام وفّى بأول وعوده لعبد العزيز الغامدي (وشريكه سعيد الأسطة، دون أن يذكر اسمه) فتعهدات القصر التي حارت بين عثمان الأصقى، الذي كان خادماً عند السلطان خريبط، وبين الأسطة عبد المجيد الذي كان كبير طباخي القصر، هذه التعهدات التي ارتبكت وأثارت من الاستياء أكثر مما أثارت من الشبهات، تحولت بين يوم وليلة إلى عبد العزيز الغامدي، «لأنه وحده الذي قدم تعهداً وكفيلاً بأن تكون المواد التي سيقوم بتقديمها إلى القصر جيدة وحسب المواصفات».

هذه الهدية التي انتظرها سعيد بكثر من القلق واللهفة، ولأنها تأخرت أكثر مما قدر، فقد اعتبر «أن حماد مثله مثل الآخرين، لما وضع رجله بالقصر نسي أصحابه» أما عندما جاءه عبد العزيز حاملاً العقد موقعاً فقد ضحك بقهقهة عالية وقال:

ـ أول الغيث.

وبعد أن هدأ وقرأ العقد علّق:

ـ ظلمنا الرجل، تصورته أنه نسينا، لكن أشهد باللّه أنه وفيّ

رد عبد العزيز بفرح:

ـ الخير بالجايات يا أبو شكيب.

ـ الله كريم يا أبو الحميدي!

شداد المطوع الذي علم بسفر حماد قبل ثلاثة أيام من هذا السفر، قال كلمة ظل الكثيرون يتذكرونها، حتى بعد فترة طويلة، قال:

ـ من الأجنبي والغريب ما يجي خير أبداً. وما دام ابن اخوي متحزم بذاك اللي ما يفرق بين الفرس والحصان، ما ظني أنه يفلح!

أما أبوه فقد حزن حزناً شديداً، والكلمة الوحيدة الذي ظل يرددها دون تعب: «إنا للّه وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون».

انتقال حماد من القصر ولّد فراغاً لدى الحكيم يشبه الفراغ الذي يتولد من زواج الابنة ومغادرتها لبيت أبيها. ورغم أن غرفة حماد بقيت، وأطلقت عليها أسماء عديدة، وكانت هذه الأسماء أو التسميات بين الجد والهزل، ومجالاً للمزاح، إلا أن حماد بقي في القصر خلال الأسابيع الأولى اللاحقة لانتقال الجهاز، ثم أخذ يمرّ، بعد ذلك، كل يوم، لكي «يشرب القهوة مع الحكيم ومطيع». ومع ذلك فإن الشعور بالفراق، أو على الأقل البعد، بدا كبيراً وفادحاً. فالحكيم تعود أن يستدعي مطيع أو حماد مرات عديدة كل يوم، لسبب أو لآخر، بحجة القهوة الجاهزة، أو للسؤال عن بيت من الشعر، أو للتأكد من واقعة تاريخية، وبعض الأحيان للسؤال عن اسم مكان أو شخص معين. وفي أحيان أخرى لا يتردد في أن يمر على أي منهما، بحجة أنه تعب ويريد أن يستريح، أو لأي سبب آخر. وفي تلك الجلسات التي تطول ويتشعب فيها الحديث ويتناول كل شيء، كان الحكيم يعتبرها رياضة عقلية، بالإضافة إلى أهميتها، لأنها عرّفته على موران أكثر مما تعرّف عليها من خلال الكتب.

هذه العلاقة بدأت تأخذ منحى جديداً بانتقال حماد. صحيح أن الحكيم تصوّر أن غيابه مجرد إجازة أو ما يشبه الإجازة، لأن الرجل لا يستطيع أن يغيب. هكذا قال لنفسه وأضاف وهو يضحك: «حماد مثل الشرطي... إذا أخذ إجازة يجلس على باب المخفر». ومما أكد هذه القناعة أن حماد لم يغب عن القصر. ويبدو أنه لا يستطيع الغياب، فإذا لم يأتِ لقهوة الصباح، وهي التي يبدأ بها اليوم، قبل أن يتوجه أي واحد منهم إلى مكتبه، وتتخللها أحاديث عامة ونكت، إضافة إلى الحديث عن أحلام

الليلة السابقة، وأسعار الأراضي والأصدقاء الذين غابوا منذ فترة، ثم ما جدّ في موران خلال الأيام الأخيرة، إذ لم يجئ لقهوة الصباح، فلا بد أن يأتي في وقت لاحق. وإذا كان الحكيم قد راهن نفسه مرات كثيرة «أن لا بدّ أن يأتي في الصباح، وقبل صلاة الظهر»، فقد حصل عدة مرات وجاء بعد هذا الوقت، بعده بقليل.

هكذا كانت العلاقة، ولأنها أخذت هذا النمط الصلب الذي بدا للحكيم أنه غير قابل للتغيير، إلا أن الأمور بدأت تقلقه في المرحلة الجديدة، بعد الانتقال. أصبح حماد يقضي وقتاً في مقره الجديد، ثم لم تعد له مواعيد ثابتة للقهوة أو للزيارة. صحيح أنه يأتي، وبعض الأمسيات يقضي وقتاً طويلاً في القصر، لكن أصبح مجيئه أو انتظار مجيئه هاجساً يقلق الحكيم.

ومع ذلك، ومثل أي شيء في هذه الحياة، بدأ الحكيم يعوّد نفسه ثم ما لبث أن تعود، وأصبح يستعيض في حالات كثيرة عن اللقاء المباشر بالهاتف. كانا يتحدثان طويلاً، وبعض الأحيان عدة مرات في اليوم. والأحاديث الهاتفية التي أخذت نمطاً لا يتغير، إذ تبدأ بكثير من الرصانة، وتتناول صلب مواضيع العمل، فإنها لا تلبث أن تميل شيئاً فشيئاً إلى أحاديث أخرى، تماماً كما كان يحصل أثناء اللقاءات حول فنجان القهوة. وهكذا وجد الحكيم نفسه يخوض، عبر الهاتف، في أسعار الأراضي ومواد البناء. ولا يتردد، بعض الأحيان، في سؤال حماد عن ابن فلان الذي تزوج ابنة فلان، وهل يعني هذا اجتماع ثروتين أو تحالف عصبتين وماذا سيترتب على ذلك، مالياً... ويضيف وهو يضحك: وسياسياً!

وحماد الذي وجد في هذه الطريقة من الاتصال راحة، واعتبرها تخفيفاً من أعباء كان يفترض أن يؤديها كل يوم، لم يتأخر في أن يلجأ إلى الهاتف ليعفي نفسه من هذا الواجب. ومما ساعد على ذلك أن السلطان نفسه طلب مرات عديدة، خلال الشهور الأخيرة، إلغاء الاجتماع الأسبوعي المخصص للجهاز ولتقدير الموقف. ورغم أن الحكيم أصرّ على أن يعقد الاجتماع، كما لو أن السلطان موجود، وتبادل مع حماد ومطيع

المعلومات، ثم قام بتقدير الموقف، فقد كان يعتبر «أن عادات مثل هذه تخلق التقاليد وأن التقاليد هي التي تقيم الدولة في النهاية، وهي التي ترسخها» لا يكتفي بذلك، كان خلال هذا الاجتماع يبدو إنساناً مختلفاً تماماً، إذ إضافة إلى الأوراق التي يحملها، كان يدون الملاحظات عندما يتكلم أي من الإثنين الآخرين، ويأخذ وجهه سمات جدية قاسية، الأمر الذي لا يفعله في أية لقاءات أخرى. وبعض الأحيان، وخاصة في غياب السلطان، لا يتردد في استدعاء بعض الموظفين الكبار لسؤالهم عن بعض الأمور أو لأخذ رأيهم في القضايا المطروحة. «كل حسب اختصاصه، أو حسب مسؤولياته» كما يحاول أن يؤكد.

هذه الطريقة في العمل والتعامل لم تكن تثير أية ملاحظة في بداية الأمر، لكن عندما توثقت العلاقات كثيراً بين حماد ومطيع، وأصبحت القضايا التي لا يخوضان فيها قليلة جداً، وتتراجع يوماً بعد يوم، قال مطيع في نهاية أحد الاجتماعات الأسبوعية المخصصة لتقدير الموقف، وبدا كلامه موارباً أقرب إلى المزاح:

ـ من ينظر إليك، يا أبو غزوان، يظن أن صاحب الجلالة موجود بيننا!

ولما التفت إليه الحكيم مستغرباً، تابع مطيع ضاحكاً:

ـ الله يخليك يا حكيم... القضية ما تتحمل كل هذا الجد!

وضحك أكثر من قبل ثم أضاف:

ـ وأنت نفسك بعد كم دقيقة تسأل عن زواج فلان وطلاق فلان!

ابتسم الحكيم ابتسامة مرحة وخرج صوته من صدره:

ـ يا ابني يا مطيع: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً. وأنا منذ أيام الشباب، أيام الدراسة، ثم بعد ذلك، كنت أعطي لكي شيء حقه. وهذا الدرس تعلمته منذ وقت طويل، تعلمته من الألمان، هم كانوا نموذجي. كانوا يشتغلون مثل الحمير، ويأكلون مثل الوحوش، ويمرحون كالأطفال، أما الشعوب الأخرى فإنها تخلط الجد بالهزل.

توقف، هزَّ رأسه عدة مرات، عبَّ الهواء بصوت مسموع، ثم أضاف:

ـ ومهمتنا نحن أن نبني دولة جديدة، أن نخلق تقاليد وأن نكون القدوة!

فإذا خلا مطيع بحماد فلا يتردد في أن يقول كلمة سريعة ظاهرها البراءة:

ـ يا أخي، بعض الأحيان، الحكيم يزيدها، حنبلي أكثر من اللازم، ولا تعرف مزحه من جده.

وحماد الذي يسمع، يراقب، يتعرف، ويحاول أخيراً أن يكتشف وأن يربط الأحداث بعضها ببعض لكي يستنتج وليكون له، في النهاية، موقفه.

أما بعد أن سافر إلى الولايات المتحدة، وغاب تلك الغيبة الطويلة، ثم بدأ يرسل الرسائل له ولمطيع، وقد قرأها الحكيم جميعها، فقد تأكد أن رأيه كان مصيباً، وأن زيارة من هذا النوع كانت ضرورية للغاية.

أرسل حماد للحكيم ثلاث رسائل، ولمطيع أربعاً، وهذه الرسائل يختلف بعضها عن بعض وتختلف حسب المرسل إليه.

بعث إلى الحكيم أولى رسائله بعد سفره بعشرة أيام:

أتلانتاستي ـ ٢٤ نيسان الموافق ٧ صفر.

العم الكريم الدكتور صبحي المحملجي المحترم، أدامه الله وأعزه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد.

فنرجو الله سبحانه وتعالى أن تكونوا في أتم صحة وأهدأ بال، وأن يمنّ عليكم بموفور الصحة والسلامة. فإذا سألتم عنا فنحن ولله الحمد في أحسن حال ولا ينقصنا إلا رؤية وجوهكم الكريمة، وعسى أن يحقق الله أمنيتنا في وقت قريب. الإخوان بطرفنا يبعثون إليكم بتحياتهم الكثيرة المشتاقة ويسألون عن كل واحد بطرفكم، وهم، ولله الحمد، جميعاً بتمام الصحة والعافية.

الجماعة، هنا، أولونا اهتمامهم الكبير منذ ساعة وصولنا، وقد كلفوا جماعة بمرافقتنا، وأمنوا كل ما يلزم لراحتنا، من حيث الأكل والمنامة

والمترجمين، وعملوا لنا برامج لزيارة الديار الأميركية، وانشاء الله بحال عودتنا نخبركم بالتفصيل.

فكرت، أيها العم الكريم، أن أبعث برسالة شكر لصاحب الجلالة السلطان، وقد كتبت الرسالة فعلاً لكن خجلت من إرسالها، ولذلك اعتمد عليكم في أن تقدموا شكري وعرفاني، على أن أقوم بواجب الشكر فور عودتي لأرض الوطن العزيز.

وفي الختام تقبلوا فائق إخلاصي وتقديري لشخصكم الكريم ولكل الإخوان معكم، خاصة الأستاذ مطيع.

المخلص

خادمكم

حماد المطوع

أما رسالة مطيع فقد جاءت بعد رسالة الحكيم بثلاثة أيام، وكانت كما يلي:

عزيزنا وأخونا الأستاذ مطيع

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد

فنرجو الله العلي القدير أن يجعلكم في أتم الصحة وأحسن حال، وأن يجعل لقاءنا قريباً، إنه سميع مجيب.

أكتب إليك هذه الرسالة من المستشفى، لأني دخلته بعد وصولي بأربعة أيام، والأطباء أكدوا لي أن المرض بسيط، فقد احتاج إلى الراحة وبعض الأدوية، ويبدو أن هواء هذه البلاد أثر عليّ، إضافة إلى مرض قالوا إنه وراثي، وقد أجروا لي فحوصاً كاملة من قبيل زيادة الاعتناء والاهتمام. إذا سارت الأمور بسلام أخرج من المستشفى بعد يومين أو ثلاثة أيام.

أكتب إليك بهذا الأمر، والذي لم أخبر به الحكيم أو العائلة، لكي أطمئنك، إذ يجوز أن تسمع الخبر من غيري فتقلق، أما إذا سألت عن عناية الجماعة بنا واهتمامهم بأحوالنا فإنك تتعجب من هذه العناية وهذا الاهتمام. لكن كما يقولون، الصديق عند الضيق، فتصور أن الأطباء

والممرضات يمرون علي مرات كثيرة كل يوم، ويمازحوني ويسألون وكأنهم يعرفوني منذ وقت طويل.

ما عدا ذلك أحوالنا، والله الحمد، جيدة والإخوان جميعاً بخير ويهدونكم تحياتهم القلبية المشتاقة. ودم لأخيك المخلص المشتاق.

حماد المطوع

الرسالة الثانية للحكيم لا تختلف كثيراً عن الأولى، عدا أن زيارات نظّمت للمجموعة إلى هيوستن وتكساس ثم إلى سان فرانسيسكو، وهذه الزيارات كانت هامة جداً، هكذا يصفها حماد، ويضيف «إن الجماعة في سان فرانسيسكو سألوا عنك باهتمام وباحترام كبير، وقالوا إنهم سمعوا بك، ويتمنون أن تزورهم».

أما الرسالة الثالثة والأخيرة للحكيم فكانت قبل مغادرة حماد للولايات المتحدة بخمسة عشر يوماً، وقد كتبها من واشنطن. وتضمنت تحيات حارة للسلطان وللحكيم، وجاء في إحدى الفقرات منها: «أغلب الاجتماعات كانت مع أشخاص يتكلمون العربية، ويعرفون تاريخ سلطنة موران ويكنون احتراماً كبيراً لصاحب الجلالة السلطان. وقد سألوا عن التفاصيل المتعلقة بجلالته، من حيث العمر وعدد الأولاد والأخوة وغير ذلك. وقد اجبناهم عن جميع أسئلتهم بمنتهى الصراحة، فسروا وأعجبتهم كثيراً صراحتنا.

وكذلك سألوا عن أصحاب السمو الأمراء. ويعرفون أكثرهم بالاسم ـ وأكدوا لنا أن دعوات ستوجه لهم من أجل زيارة الديار الأميركية. أما الأجهزة التي أرسلت إلى السلطنة فقد شاهدنا أجهزة شبيهة بها، ولكن معقدة أكثر، وأجرى الإخوان الذين رافقوني دورة على هذه الأجهزة واستفادوا كثيراً وحال عودتي سأنقل لكم التفاصيل».

الرسالة الثانية لمطيع من أتلانتاستي، وبتاريخ ١٤ مايس

بعد التحيات والأشواق يكتب إليه ما يلي:

«لم أذكر لك عن الخوف الذي لازمني خلال إقامتي في المستشفى، ليس من المرض أو حتى الموت، وإنما الخوف من الموت في ديار غريبة،

وزيادة في الاحتياط طلبت، وعلى شكل أمر، من الإخوان الذين رافقوني في الزيارة، أن تنقل جثتي إذا مت إلى أرض الوطن، وعندما ضحكوا وقالوا إن القضية لم تصل إلى هذا الحد، اضطررت في إحدى الليالي إلى كتابة وصيتي، وذكرت فيها هذا الأمر بالذات!

الآن وقد تعافيت، وأصبح هذا المرض مجرد ذكرى، وبدأت أتجول مع الجماعة والمرافقين في مدينة أتلانتاستي، ثم في المناطق المجاورة، ورأيت المدينة الكبيرة بأبنيتها الهائلة والطرقات والحدائق والسيارات فقد شعرت بخوف من نوع آخر، أو شعرت أننا صغار مثل النمل مقابل العظمة الأميركية والقوة الأميركية.

كل شيء هنا منظم إلى أقصى حد، وكل شيء يمشي على الساعة: القطارات، الطائرات، النوم، اليقظة، العمل، وحتى الراحة والنزهة. وقد صدف عليّ مرات أن حُدّدت لنا مواعيد لاجتماعات وبعض الأحيان في أمكنة بعيدة، لكن مع ذلك كنا نصل في الوقت المحدد ودائماً دون تأخير!

الأمير كان يحبوننا كثيراً، وقد لمسنا ذلك في لقاءاتنا جميعها، أما الاحتفاء والاهتمام والعناية فحدِّث ولا حرج، ولولا البرودة في الجو لتمنى الإنسان لو يعيش هنا، أو على الأقل لو يقضي وقتاً طويلاً. أما الأشياء الأخرى، والتي لا يمكن أن تكتب، فسوف أحدثك عنها في حال عودتي!».

الرسالة الثالثة من سان فرانسيسكو وبتاريخ ١٨ حزيران. وجاء في بعض فقراتها: «لولا الشوق إليكم وإلى الأهل والوطن لقال الإنسان هذا مكاني، صحيح أنه يحتاج إلى الوقت لكي يتعود، لكن في هذه المدينة العملاقة، والمتنوعة الأصول والأعراق، مع اتقان اللغة الإنكليزية، يمكن للإنسان أن يعيش لفترة غير قصيرة، في المدينة وحواليها. إنها تشبه الجنة التي وعد الله بها عبادة المتقين. البنايات التي لا يستطيع الإنسان أن يرى نهاياتها، والشوارع التي لا يمكن لغريب أن يسير فيها دون خوف، والجسور المعلقة والبحر الهائج. وأجمل شيء في سان فرانسيسكو هو ليلها. المدينة لا تنام ولا تدع أحداً ينام، حتى في ساعات الصباح الأولى

ترى الرجال والنساء في المقاهي، في المطاعم، في الشوارع، في كل مكان. سألت المرافقين: متى ينام هؤلاء الناس؟ فضحكوا ولم يجيبوا عن سؤالي.

أتصور أن كاليفورنيا من أغنى وأجمل بقاع الأرض، وهذا ما أكده لنا بعض الطلبة العرب. (وبالمناسبة فقد التقيت بغزوان وقضينا معاً وقتاً ممتعاً. وبدا لي أنه جيد بدراسته ومعلوماته، وقد اتفقنا أن نبقى على صلة في المستقبل، وحال عودتي سأخبرك بالتفاصيل، ولم أنسَ أن أبلغه تحيات الجميع).

كل شيء أخضر في هذه البلاد: الغابات، الحقول، الشوارع، خضرة لا يصدقها الإنسان إلا إذا رآها.

وفي هذه المنطقة مجموعة من المصايف والبحيرات، وقد سألت كبير المرافقين ما إذا بالإمكان أن يأتي الإنسان مع عائلته أو مجموعة من الأصدقاء لقضاء فترة شهر أو شهرين، فأكد لي أن ذلك ممكن جداً، فقط يجب أن أخبرهم قبل مجيئي بمدة كافية، لكي يهيئوا لي ما يلزم. أفكر أن أرجع إلى هذه الديار أكثر من مرة، وأن أمشي وأتجول دون رقيب ودون حسيب، وأنت تعرف ماذا أقصد!

وحالما نلتقي سوف أحدثك الكثير الكثير عن هذه المدينة، عن ليلها ونهارها ويمكن أن ترتب لنا زيارات إلى هنا في المستقبل».

أما الرسالة الأخيرة التي بعث بها حماد إلى مطيع فكانت من واشنطن وبتاريخ ٩ تموز.

«لا بدّ أن تزور أميركا، هذا رأيي ورأي الإخوان الذين يرافقونني، خاصة بعد الاحتفالات التي شاهدناها في الأيام الأخيرة، وفي العاصمة الأميركية. لا يتصور الإنسان ولا يتخيل العقل أن احتفالات مثل هذه يمكن أن يشاهدها في مكان آخر أو في زمان آخر: الخيول والطبول وحملة المشاعل، الرجال والنساء، الأطفال الصغار والشيوخ الكبار، في الشوارع، في الساحات، في كل مكان. جماعتنا، يا أخ مطيع، انهبلوا، بس فاتحين حلوقهم ويناظرون. حتى المرافقون الذين كانوا معنا بدوا بشكل مختلف

عن الأيام السابقة، أنهم يرقصون مع الراقصين، يضحكون ويهزجون، ولولا الخجل، ولولا أننا وفد رسمي رفيع المستوى لكان من الممكن أن نشترك.

أميركا، يا أخ مطيع عظمة لا توازيها أية عظمة أخرى. ومثلما ذكرت في رسائلي السابقة: الأبنية، الشوارع، المطارات، حتى المطاعم والفنادق، وحتى البشر، والآن، ولم يبقَ على إقامتنا إلا أيام قليلة، أشعر أن هذه الزيارة كانت ضرورية بالنسبة لي، لأنها كانت مفيدة، وهامة، ولا بدّ أن أكررها مرات ومرات، وأرجو من اللّه أن يمكننا من زيارتها معاً، وأتمنى أن ألقاك قريباً وسوف نتحدث طويلاً».

رافقت عودة حماد موجة كبيرة من الاحتفالات والاهتمام والحركة، وقد تخللتها الأحاديث والأسئلة، وأبدى الجميع رغبة في أن يسمعوا منه مباشرة، وأن يعرفوا كل شيء عن «هذه الأميركا». وحماد بانفعاله وإجاباته كان يكرر الإجابات ذاتها مرات ومرات، لأن الأسئلة التي كان تطرح متشابهة ولاتكاد تتغير. والحكيم الذي عاتب حماد لأنه لم يخبره بمرضه، حاول أن يكتشف، قبل الآخرين، نتائج هذه الرحلة وتأثيرها، ولذلك تمت بين الإثنين عدة زيارات، وقد تخلل تلك الزيارات الكثير من الأسئلة المفاجئة والمتباعدة، لأن الحكيم، عندما كان طالباً في النمسا، قرأ دراسات حول الطريقة المثلى والمؤكدة للاختبار أو لقياس الذكاء، وتتلخص هذه الطريقة بأن يُسأل الإنسان بسرعة، وفي موضوعات متعددة لا صلة بينها، وعلى ضوء رد الفعل، وسرعة الإجابة ووضوحها، يكشف مدى قدرة العقل، ومدى التنظيم الذي يربط بين أجزائه! لجأ الحكيم إلى هذه الطريقة من خلال أسئلة أعدها سلفاً، وقد خرج نتيجة هذا الاختبار أن «حماد برنجي، لهذا العمل ولأي عمل آخر» وهذا ما دعاه لأن يرتب له موعداً مبكراً مع السلطان.

أثناء اللقاء مع السلطان، حاول حماد بكثير من الجهد والتركيز أن يلخص انطباعاته عن الزيارة، أن يصف ويقول كل ما شاهده، وما أحسَّ به، لكنه، ومنذ البداية، اكتشف أنه مرتبك، وأن أفكاره تضيع وتتداخل، ولذلك لم يقل الأشياء التي كان يريد أن يقولها، أو قالها بشكل مختلف. ورغم المساعدات العديدة التي قدمها الحكيم، سواء بالإشارة إلى الرسالة التي كتبها حماد إلى السلطان، عندما كان في اتلانتا، أو إلى الوصية أثناء

المرض، فإن هذه الإشارات شغلت السلطان أكثر مما شغلته الأمور الأخرى، فطلب من حماد أن يطلع على الرسالة وعلى الوصية معاً. وحماد الذي بدا محرجاً وخجلاً اعتبر نفسه أنه وقع ضحية مؤامرات صغيرة ومكشوفة، سواء من الحكيم أو من مطيع، لكنه، مع ذلك، قال أشياء كثيرة، وإن ظل في شك حول أهميتها ومدى تأثيرها. ولما توقف عند زيارته إلى واشنطن، والأسئلة التي وجهت إليه، والخاصة بالسلطان، فقد تغير الجو، أصبح دقيقاً وربما حرجاً، لأن السلطان الذي كان شديد المرح وراغباً بأن يستمر الحديث هكذا، من موضوع إلى آخر، فتح عينيه بما يشبه الاستغراب ثم مسّد على لحيته وسأل:

ـ قلت لي سألوك عن أولاد السلطان وإخوانه؟

وتغيرت لهجته قليلاً، أصبحت أميل إلى السخرية:

ـ وانشاء الله سألوك عن حريمه؟

ونفى حماد بسرعة وحدّة أن يكون سؤال مثل هذا وجه إليه، أجاب بحزم:

ـ ولو سألوني، يا طويل العمر، أقص لساني قبل ما أتركه يقول كلمة.

ـ وسألوك عن الأمراء؟

ـ قالوا إنهم يريدونهم بزيارة وراح يرسلون الدعوات.

ـ وفنر... سألوك عن فنر؟

ـ لا يا طويل العمر.

وبعد قليل استدرك مرتبكاً:

ـ سألوني، يا طويل العمر، عن الأعمار، وسألوا عن ترتيب الأمراء.

وبدا واضحاً أن السلطان لم يكن مسروراً من أسئلة الأميركيين عنه أو من رغبتهم بتوجيه الدعوة للأمراء لزيارة الولايات المتحدة، قال بعد فترة من الصمت:

ـ ما حدا تذكرنا، ما حدا زارنا أو قال لنا تعالوا، قبل ما يطلع النفط من تحت رجلينا.

وزفر بحرقة وأضاف:

ـ الله يرحمك يا خريبط: قلت لهم هذا هو الذهب.. وكلهم ركضوا.

والحكيم الذي لم يعرف كيف يقود المناقشة من جديد، أو كيف يجعل الجو أكثر مرحاً، بدا له في لحظة معينة أن كلمات السلطان تحمل معاني كثيرة، وربما كان يقصده أيضاً. ولذلك بذل جهداً ليغير مجرى الحديث، فلما بدا له أن اللحظة مناسبة، قال بفخامة وهو مطرق:

ـ أرى، يا صاحب الجلالة، أن دعوةً توجَّه إليكم لزيارة أميركا ضرورية جداً، ودعوة من الرئيس الأميركي نفسه، لأن هناك أموراً كثيرة يجب أن تبحث مع جلالتكم!

رد السلطان بنوع من السخرية:

ـ تقبلها يا حكيم؟ تبينا نقول لهم: اعزمونا يا جماعة الخير، نريد نجيكم بزيارة؟

وضحك فبدا صوته خشناً وقد تخللته الحشرجة:

ـ لو كانوا جماعتنا، بينا وبينهم خبز وملح، كان قلنا لهم: ولمّوا أنفسكم يا جماعة الخير، باكر حنا ضيوفكم.

ـ الحق ما تقول، يا صاحب الجلالة.

هكذا رد الحكيم بتواضع، ثم أضاف وقد أصبحت لهجته جادة أكثر مما ينبغي:

ـ هم لازم يركّضون ورانا، ونقول لهم: اليوم لا، واللي بعده لا، وبعد ما ينشف ريقهم وهم يركضون نقول: ما يخالف، على خيرة الله، ونحدد لهم متى نجي وكم نجلس واللي يعجبنا واللي ما يعجبنا.

رد السلطان وقد انفرجت أساريره:

ـ هذا الكلام اللي ينقال يا حكيم!

وهز الحكيم رأسه وقد بيت أمراً. ثم أخذ الحديث وجهة أخرى: سأل السلطان عن المناخ والطعام، وسأل عن صحة الرئيس الأميركي وما

إذا كان الناس يحبونه أم لا، وكاد يسأل عن أمور محددة لكن وجد نفسه أقرب إلى الحرج، التفت إلى الحكيم وقال له:

ـ وقالوا لي، يا حكيم، إن الجماعة هناك، بالزواج، ما يفرّقون بين الحلال والحرام.. اللي يطيح بأيديهم.

قهقهه الحكيم في محاولة لأن يخلق جواً مرحاً يساعد حماد على المشاركة، فلما ظل حماد صامتاً، وقد أطرق إلى الأرض، سأله:

ـ نسينا نسألك، يا حماد، النساء هناك جميلات؟

تطلع إليه حماد بنظرة هي مزيج من اللوم والعتاب والخجل، وقد أدرك أن الإشارات الخفية التي وردت في رسائله إلى مطيع عرف بها الحكيم، وربما حدّث السلطان أيضاً، رد ينهي الموضوع:

ـ مثل كل مكان يا حكيم، فيهن المزيونات وفيهن المعظّمات اللي ما ينشرن بشلّك.

وانتهت الزيارة ببعض التعليقات المرحة، مع كلمة قالها السلطان وهو ينهض ليودع حماد:

ـ فتّح قلبك وعينك زين، يا وليدي، والقلب قبل العين، وعسى أن الله يوفقك.

ومن الذين سروا أعظم السرور بعودة حماد أبوه. كان مثل طفل لا يقوى على إخفاء فرحه، وكاد يجر البعير الذي نذره أن عاد حماد سالماً، كاد يجره إلى المطار ليذبحه هناك. لولا أن أبناءه وإخوته رأوا في ذلك خفة لا تناسب العائلة، وقد يغضب هذا التصرف حماد أيضاً. وهكذا ذبح البعير في السوق، على مرأى الكثيرين، ولم يحمل من لحمه إلى البيت حتى قطعة صغيرة، إذ وزع بكامله على فقراء موران. وظل صالح المطوع خلال يومين أو ثلاثة يستقبل الضيوف. ويستمع باهتمام إلى ما يقوله ابنه. خلافاً لكل السفرات السابقة. وخلافاً لكل المسافرين الآخرين، والذين كانوا يغيبون في أسفارهم فترات طويلة. كان صالح على قناعة أن ابنه عاد من مكان بعيد، بعيد وخطر، وأن قلة من الذين يصلون إلى هناك يعودون.

لا يدري من أين جاءته هذه الأفكار أو كيف امتلأ بهذه القناعة، لكنه كان على يقين راسخ، أما عندما علم أن ابنه مرض هناك وأدخل المستشفى وعولج، فقد تأكدت شكوكه ونبوءته. قال لابنه في نهاية الليلة الثالثة لوصوله، وبعد أن انفض الضيوف:

ـ ديرتنا، يا وليدي، ارحم، وإذا الواحد منه خير لأهله ولخوياه، وإذا مات، يموت بأرضه، بين أهله وخوياه.

عمه شداد كان يخفي عواطفه، عكس أبيه، فما كاد يهدأ الجو قليلاً، وبعد أن سلّم حماد على الجميع، حتى قال له:

ـ اسمع يا حماد.. هالحين حنا اللي نشور، وحنا اللي نقول، أما ذاك العظريط، اللي ما يفرق بين الناقة والبعير فخله يشور على من يتساهل شوره.

وفهم كلام شداد على أكثر من وجه، وفهم أنه يقصد أكثر من واحد. أما حين اختلى بحماد فقد سأله:

ـ يا ولّ، يا حماد، شنهو اللي دهاك؟ الواحد منا بديرته، بين أهله وعشيرته دايخ، وأنت رايح تهفي من ديرة لديرة، ومن عشيرة لعشيرة، وكأن آل المطوع أولادهم كثرت وثاراتهم خلصت!

فلما قهقه حماد لكلام عمه، أضاف العم:

ـ وهذه الديرة يا ابن أخي أحسن من غيرها وجماعتك أحسن من غير جماعة.

أما الجد مفلح الذي لم يعرف بسفر حماد إلا يوم عودته، حين اكتشف الحركة الزائدة والاستعداد، فقد تطلع إلى مطلق وسأله:

ـ ها.. يا جدّي مات أحد؟ من مات؟

وحين هز مطلق رأسه عدة مرات دلالة النفي، مع ابتسامة كبيرة ملأت وجهه، سأل من جديد:

ـ ها.. من راح يعرس؟

فلما استعمل مطلق المحقان، بعد أن حسّنه قياساً لفترة سابقة، وأبلغه

أن حماد سيصل اليوم، تطلع الجد بكثير من الاستغراب وسأل:

ـ ويرجع منين؟ ومتى راح؟

ـ راح لأميركا من شهور!

ـ أمريكا!

ـ وهذه.. مشرّق أو مغرّب؟

ـ مغرب.

ـ الناس تروح مشرق يا وليدي، ومن مشرق تجي الحنطة ويجي الخام، ومن هناك يجي الخير، وشنهو اللي أخذ حمادنا مغرب؟ أما أحد شار عليه؟ ما سأل أحد؟

وظل الشايب في حيرة من أمره، فلم يسمع بهذا المكان، وكان يعرف أن الناس، أغلب الأحيان، يسافرون إلى الشرق، أما أن يسافر حفيده باتجاه آخر، ولا يعرف أيضاً، ويعود، ويرى الناس في حركة حوله، خلافاً للأسفار الأخرى، وخلافاً للمسافرين الآخرين، فقد قدّر أن حماد أصبح شيئاً مهماً. قال بحزم:

ـ إذا جاء قل له يمر بي ويسولفني.

وبدا حماد شخصاً جديداً بالنسبة للجميع، بالنسبة لمرؤوسيه وأصدقائه، وحتى بالنسبة للنساء، فقد ظلت زوجته تنظر إليه صامتة، وكأنها تكتشف آثار السفر على وجهه، في عينيه، وتريد أن تعرف ما إذاً تغير أم لا، وهل عاد إليها مثلما سافر؟ أما أمه فكانت مثل أبيه، تركض من مكان إلى آخر، ولا تعرف أتضحك أم تبكي، كانت دموعها تنحدر، تتساقط، ولم تكن تفعل شيئاً لمنعها أو لحجب وجهها عن الأطفال والصبية!

أما عندما زار حماد جده، وكان ذلك بإلحاح من الجد نفسه، وبعد أن جلس إلى جانبه، فقد تطلع إليه وكأنه يتعرف عليه لأول مرة، وبعد أن ابتسم الجد ولاطفه بأن ربت على فخذه سأله:

ـ ها يا وليدي. تمر هذه الديرة أحسن أم ديرة مغرّب؟

ولما ابتسم حماد ولم يجب. مع أن الجد انتظر، وبعدما تطلع طويلاً إلى حماد ثم إلى مطلق تابع:

ـ من يوم ما الله خلق الدنيا، يا وليدي، وجماعتنا تروح مشرّق؛ أشوفك أنت رايح مغرّب؛ عسى أنك لقيت شيء بمغرب؟

ولما ضحك حماد بصوت عالٍ ولم يفهم الجد، ولم يترجم مطلق مع أنه كان يحمل محقانه وفي حالة استعداد كامل لأن يترجم، قال الجد:

ـ إذا عشنا نشوف. وعسى أن يكون خير!

كيف يمكن لثلاثة شهور أن تغير إنساناً بهذا القدر؟ أو كيف يمكن للإنسان أن يتغير، أن يصبح إنساناً آخر، خلال فترة قصيرة كهذه؟

فبعد أن هدأت الضجة، وأراد حماد أن يستريح يومين أو ثلاثة أيام، قبل أن يعود إلى العمل، وفيما يحاول أن يقنع نفسه بالاسترخاء، وجد أن حواسه كلها تتوتر ساعة بعد أخرى، تصبح مستفزة، وأن عقله ينتقل من مكان إلى آخر بسرعة البرق، بحيث لم يعد قادراً على البقاء في مكان بعينه، أو أن يفعل شيئاً محدداً. وفجأة في مساء اليوم الأول، وفيما الحوانيت المتأخرة في موران تغلق أبوابها، وجد نفسه يتوجه إلى مكتبه.

لأول مرة، منذ أن بدأ العمل، يتوجه إلى مكتبه في مثل هذه الساعة. أثار وصوله، لدى موظفي الخفر القلائل، الاهتمام الكثير، بل أثار التساؤل والقلق أيضاً، وقد عزز لديهم هذه المشاعر حين طلب استدعاء بعض مسؤولي الأقسام واثنين من قارئي الشيفرة. ماذا يريد رئيسهم في هذه الساعة من الليل؟ ألا يمكن تأجيل ما يراد عمله إلى الغد؟

وخلال أقل من ساعة كان معظم مسؤولي جهاز الأمن والسلامة في حالة اجتماع، وقد استمر هذا الاجتماع مدة ثلاث ساعات، تم خلاله استعراض أحداث الشهور الماضية، وأهم الأحداث التي وقعت، وكيف تم التصرف إزاءها، وانتهى بتوجيهات عامة. أما حماد نفسه فقد بقي بعد الاجتماع عدة ساعات أخرى، ونتيجة بقائه اضطر عدد من مرؤوسيه للبقاء أيضاً، رغم أن لا عمل لديهم. وقد استعرض في هذه الساعات بعض الأوراق والملفات، كما استخرج من العلبة الساعة الأنيقة التي أهديت إليه في واشنطن. كانت ساعة مكتب بحجم قبضة اليد، لها إطار أصفر يليه

إطار مخملي أخضر اللون، وكانت هذه الساعة، بالإضافة إلى التوقيت والتاريخ، تنبه، بجرسها الناعم، لكن الواضح أيضاً، إلى انتهاء توقيت معين، فإذا حدد حماد لاجتماع وقتاً معيناً، نصف ساعة مثلاً، فكان الجرس يتولى تنبيهه وزائره إلى ذلك، ثم يفعل، مرة أخرى بعد خمس دقائق، وهكذا. . إلا إذا أعيد توقيته من جديد.

يضاف إلى مزايا هذه الساعة مزية أخرى لا يعرفها سوى حماد، ولم يبح بها لأحد في موران. كانت الساعة عبارة عن آلة تسجيل، يمكن أن تسجل أي حديث يدور في غرفته، مهما كانت المسافة بعيدة.

لقد أهديت الساعة إلى حماد في الاجتماع الأخير الذي ضمه على انفراد ورئيس قسم السلامة في واشنطن، ولم يكن معهما سوى المترجم، وليس المترجم الذي جاء به حماد معه، وإنما آخر كان يعمل في الإدارة المضيفة!

في هذا الاجتماع وفي اجتماعات أخرى عديدة، وأغلبها كان يتم مع حماد على انفراد، قيلت أشياء كثيرة، صحيح أنها اختلطت وتداخلت إلى درجة كبيرة، لكن مع ذلك ظلت واضحة أو قريبة من الوضوح في ذهنه، وإن كان لا يستطيع أن ينقلها، سواء للحكيم أو لغيره، لأن التنبيهات، والتي أخذت أكثر من شكل، جعلته يقتنع أن من الأفضل بقاءها له، له وحده.

الآن وهو يضع الساعة على مكتبه، ويوقتها على الثالثة صباحاً، ثم يتيه في ذكريات وأحلام بعيدة، فتتداخل الصور والروائح والأمكنة، ويلقي نظرة من النافذة على موران، فيراها نائمة هادئة وكأنها تنام إلى الأبد، ويرى الأضواء تشع فقط في هذا البناء الذي يتولى رئاسته، يمتلئ بمشاعر هي مزيج من الفخر والقوة والخوف.

لم يكن هكذا في يوم من الأيام، وإن كان شعور القوة هو الذي يطغى على باقي المشاعر، وهذه القوة التي يحس بها ليست بعدد الرجال الذين يعملون معه، ولا بالأجهزة التي تملأ الجزء الخلفي من مبنى الأمن والسلامة، والتي لا تتوقف عن العمل ليل نهار، إنها أكثر من ذلك، إنها

«المعرفة»، فهو الآن يعرف أكثر من الجميع وأفضل منهم، وقد تأكد أن الذين يعرفون أكثر والذين يعرفون أفضل هم الأقوى.

قالوا له في واشنطن أنهم يعرفونه جيداً، يعرفون كل شيء عنه، من يكون، عمره، ترتيبه بين الأخوة والأخوات، تجارة أبيه وأعمامه وأخواله، وذكروا له لون السيارة المكشوفة التي كان يستعملها ونوعها وسنة صنعها، ومع هذا فإن الذي كان يتحدث معه جاء على ذكر الموضوع عرضاً، واكتفى بقراءة هذا القدر من المعلومات، ثم طوى الملف وهو يضحك، مشيراً إلى أن لديهم من المعلومات الكثير الكثير، عنه وعن الآخرين في موران. وهذا الأمر الذي أفزعه في البداية ما لبث أن تطلع إليه بنوع من التقدير.

الآن، في موران، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وبعد الاجتماع الذي عقده مع رؤساء الأقسام، يحس أن المهمة المنوطة به من الضخامة والأهمية بحيث لا يستطيع غيره أن ينهض بها. صحيح أنه لا يعرف كيف أو ماذا يريد، لكن مع ذلك عليه أن يكون إنساناً جديداً، حتى بالنسبة إلى نفسه. وإذا كان قد اختار هذا الوقت بالذات لزيارة المكتب، دون إنذار سابق، وأن يبقى حتى هذه الساعة، ولا يعرف لماذا فعل ذلك، يحس أن هذه البداية وهذه الطريقة يمكن أن تخط طريقاً جديداً وخاصاً به.

ظل سارحاً في أفكاره وأحلامه فترة طويلة، لكن ما كادت الساعة تدق معلنة الثالثة حتى استعاد نفسه من الخدر أولاً، ثم من الذكريات والأحلام بعد ذلك. أما وهو يركب سيارته فقد تطلع إلى الحرس بنوع من القسوة، وكأنه يؤنبهم أنهم ليسوا بالهيئة أو اليقظة الكافية. وحين كان يعبر شوارع موران كان يلتقي بالذين يحملون الخضار وبالذاهبين إلى المسجد، ويلتقي بعدد من الرعاة وببعض المسافرين. لأول مرة كان يتطلع إليهم بطريقة مختلفة عن السابق: أحصى عددهم باهتمام، تمعن بملابسهم وهيآتهم، وراهن نفسه أن لا بدَّ من معرفة عدد منهم. أما عندما انعطفت السيارة ومرت أمام قصر الروض فقد تطلع إلى القصر بإمعان وكأنه يراه لأول مرة، ولم يسهُ عن مراقبة الحرس وإحصاء عددهم أيضاً.

وأكثر من أية مرة سابقة ينام حماد حتى الضحى العالي، وأبوه الذي ذهب إلى السوق مبكراً، وعاد إلى البيت لقهوة الضحى، وسأل عنه، ثم لما رآه يتمطى وفي عينيه وعلى وجهه بقايا النوم، قال وهو يضحك:

ـ خل ببالك، يا وليدي: حرار الطير ما تشبع إلا بمخالبها، ونومها نوم الكراكي، أما إذا جاء الفجر فتسري.

هز حماد رأسه وشارك أباه الابتسام، ثم أوضح له بعد ذلك أن الإنسان يحتاج إلى أيام لكي يتعود التوقيت الجديد، لأن فرق التوقيت بين موران وواشنطن سبع ساعات!

وهزّ أبوه رأسه دلالة أنه سمع لكنه لم يفهم ماذا يعني بفرق التوقيت، وكيف يمكن أن يكون. أما بعد أن سأل آخرين فقد ازداد تشوشه، لأنهم تكلموا في أمور لم يفكر فيها ولم يسمع بها من قبل.

في فترة لاحقة، وحين وصل حماد عند الفجر أو بعده بقليل، وكان يرى الجد يحاول بصعوبة تلمس طريقه من أجل أن يشرع بإعداد قهوة الصباح، وقف إلى جانبه يساعده، يقدم إليه ما يطلبه أو ما يحتاج إليه، وكان الجد يقبل هذه المساعدة بفرح. فلما انتهى قال له وهو يطلب منه أن يقترب لأنه يريد أن يفضي إليه بسر:

ـ قلت لهم: اتركوا حماد، حماد يدل دربه ولا بد يصل، إذ مو اليوم اللي عقبه!

وضحك بصوت عالٍ ثم أضاف متسائلاً:

ـ وصار لي كم يوم أشوفك تدبي الفجر، يا وليدي، أو قبل الفجر، وكأنك صرت أمام مسجد أو تصلي جماعة!

ويتطلع إلى حماد بعينيه الخابيتين في ظلمة الصباح الأخيرة فلا يرى إلا أشباحاً، ولا يعرف ماذا حصل في هذه الدنيا!

هل قال الأميركيون لحماد أن يقلب نهاره ليلاً وليله نهاراً أم توصل إلى هذه الفكرة بحدسه الملعون ورغبته الجامحة المجنونة؟

لو أن الأمر اقتصر على ذلك لهان ووجد جواباً له، لكن حماد لا يتوقف عن التغير، ويتفتق ذهنه كل يوم عن فكرة جديدة وأسلوب جديد.

ولأن هذه الأفكار والأساليب لا تقتصر عليه وإنما تطال الآخرين أيضاً، فقد لفتت نظر الحكيم، إذ بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وبعد أن تأخر حماد عن زيارته في الصباح، أو حتى قبل صلاة الظهر، ثم محاولاته للاتصال به مرات عديدة أثناء النهار ولا يجده، فقد جعلت هذه الأمر الحكيم يستغرب. أما حين جاء من أبلغه أن حماد، نهاراً، في البيت، وفي المساء، وحتى ساعة متأخرة، في المكتب، فقد سأله حين التقيا في الاجتماع الأسبوعي:

ـ الظاهر يا أبو راشد أن توقيت أميركا آخذ عليك!

ولما تطلع إليه حماد بشيء من الاستغراب والتساؤل، ولم يفهم مغزى الكلمات التي قالها، ضحك الحكيم وتابع:

ـ نبحث عنك نهاراً في المكتب يقولون غير موجود، نبحث عنك في البيت ليلاً يقولون غير موجود!

وبعد مناقشات طويلة متشعبة، حاول حماد خلالها أن يوضح لماذا يداوم ليلاً، وكيف أن التجربة، رغم غرابتها وصعوبتها، أعطت نتائج أفضل، من حيث انصراف جميع العاملين في الجهاز إلى إنجاز أعمالهم بسرعة ودقة، إضافة إلى إمكانية استقبال بعض الأصدقاء، دون أن يلفتوا نظر أحد، والاستفادة من أخبارهم ومعلوماتهم. بعد أن سمع الحكيم ما قاله حماد علق مازحاً:

ـ أنا معك، جهازكم جهاز خاص، وله وضعية مختلفة عن الدوائر الأخرى، وحتى إذا داومت في بعض الحالات ليلاً، فإن من الضروري ألا توجد لهذا الجهاز تقاليد ثابتة أو يعرفها الناس.

وضحك الحكيم وكأن أفكاراً كثيرة تصطرع في رأسه، ثم أضاف:

ـ فكرة أن تزور المكتب ليلاً رائعة. وفكرة أن يكون في المكتب من يسهر ويتابع ضرورية، لكن لا تلزم نفسك أو تلزم الآخرين بالدوام الليلي.

وحماد الذي هز رأسه دلالة الموافقة والاقتناع قرر أن يستفيد من كل شيء... ومن كل وقت أيضاً.

اتسمت العلاقة بين مطيع وحماد، منذ الأيام الأولى لتعارفهما، بطبيعة خاصة، حتى ليظن من يراهما بعد شهر من هذا التعارف، وكأنهما أصدقاء منذ مدة طويلة، ولقد سُرّ الحكيم إلى أقصى حد من الإلفة التي قامت بين الرجلين، وفي محاولة لتفسير هذه الظاهرة التي تشبه ظواهر أخرى مماثلة في الطبيعة وبين البشر، وحتى بين الحيوانات، قال الحكيم لنفسه وهو يتذكر أشياء كثيرة: «من الصعب أن نعزو ظواهر معينة كالإلفة أو الصداقة مثلاً إلى أسباب مباشرة أو محددة، كما أنها ليست نتيجة الرغبة. المسألة أكثر تعقيداً من ذلك، إنها ترتبط بالعقل غير الواعي، أو بمنطقة الظل، كما يسميها العلماء.. فعن طريق اللاوعي، وفي منطقة الظل بالذات، تعمل قوى لا ندركها، تماماً كما يعمل القلب دون إرادة الإنسان ودون رغبته، وهذه القوى هي التي تكوّن عواطف البشر ونوازعهم.. وحتى عقولهم».

هذه الظواهر في الحياة والكون، أو ما شابههما، كانت تشغل الحكيم، فيفكر فيها تفكيراً طويلاً متواصلاً، لأنه يعتبر أن مجرد التفكير رياضة هامة وله تأثير يطال الجسد أيضاً. لماذا يحب الإنسان ولماذا يكره؟ والحب والكراهية هل هما أمران نفسيان وغير عقليين أم أنهما أكثر تعقيداً وتشابكاً من ذلك؟ وما يقال عن اللحظة الأولى والنظرة الأولى هل هما حقيقة ثابتة وكلية؟ هكذا يتساءل، وفي محاولة لتأكيد قناعته يأتي بالأمثلة الحسية: علاقته بالسلطان خزعل مثلاً، لقد بدأت منذ الساعة الأولى، وما تلا ذلك تأكيد وتفاصيل. ومطيع وحماد: كيف تعارفا وارتبطا وكأنهما خلقا ليكونا هكذا منذ الأزل؟ وبالمقابل مطيع وسعيد، إذ رغم القرابة

النسبية التي تربطهما، فقد خلقا لكي يكره أحدهما الآخر، «حتى أن الواحد لا يطيق الأرض التي يمشي عليها الثاني» هكذا يقول الحكيم لنفسه.

بعد أن توطدت العلاقة بين حماد ومطيع، وأصبحا يتبادلان الأفكار ويصلان، أغلب الأحيان، إلى قناعات واحدة أو متشابهة، بأقل الكلمات، وبأقل الجهد، قال الحكيم ذات يوم، وهو يتحدث عن هذا الموضوع بالذات، لكن دون أن يشير إلى مثل عملي:

ـ القلوب يا جماعة الخير سواقي، ومهمة الإنسان، مهمة العقل، أن يفتح بين السواقي لكي تصب في النهر الكبير.

هذه الفكرة المركزية في عقل الحكيم لها ترجماتها العملية المتعددة أيضاً، فأن يكون هذان الركنان منسجمين متفاهمين، دون قسر أو إرغام، ودون تدخل مباشر منه، معناه أن نصف المهمة التي يفكر فيها قد أنجز. وهذا ما يفسر التأخير الذي حصل في البداية من أجل اختيار رئيس لجهاز الأمن والسلامة والتردد الذي رافقه، أما بعد أن ساقت الصدفة الموفّقة حماد، وذلك التعاطف الذي حصل، ثم العلاقة التي قامت مع مطيع، فقد اعتبر الحكيم أن «منطقة الظل»، أو القوة الخفية، لا تزال تحالفه وتقف إلى جانبه، وهذا مما شجعه على تقديم اقتراح للسلطان لاختصار مدة اختبار حماد، وبالتالي تسميته رئيساً لجهاز الأمن.

في فترة سفر حماد كانت فرصة للحكيم لأن يعيد التفكير بكل شيء. قضى ليالي بكاملها مفكراً مهموماً، وهذا التفكير وهذا الهم ليس مبعثهما أنه لا يعرف ما يريد، وإنما كيف يجمع أطراف الشبكة، كما كان يقول لنفسه، ثم كيف يواصل الإبحار في بحر الظلمات، لأن موران والناس فيها بقدر ما يبدون له بصورة من البساطة والطيبة، وأقرب إلى المسالمة، فإن المظاهر، في أحيان كثيرة، خداعة مضللة، تماماً كالمياه العميقة. فهي غالباً ما تكون ساكنة هادئة، لكنها فجأة تتغير، ولذلك فإنه يخشى الناس أكثر مما يفهمهم. حتى المدينة بمقدار ما تبدو له هشّة وبدائية فإنها صلبة، قاسية، وعلى شكل طبقات بعضها فوق بعض، فما يكاد يقشر طبقة

ويعرف ما تحتها، حتى يفاجأ بطبقات أخرى تحتها. كما تتصف موران أيضاً بالمزاج الحاد العنيف الذي يتولد في اللحظة، ولا يشي بنفسه قبل وقوعه. عكس ما كان عليه الوضع في حران.

هكذا كان يفكر وهكذا كانت تبدو له الأمور، لكن مما ساعده في التغلب على هواجسه أو على الوسواس (هكذا يطلق على لحظات الحيرة) الرسائل التي بعث بها حماد من هناك، ثم الأحاديث التي جرت بعد عودته. صحيح أنه لم يتحدث إليه مباشرة، ربما احتراماً أو خجلاً، لكن مع مطيع تحدث عن كل شيء وبالتفصيل: عن ليالي سان فرانسيسكو، والتي لم تقتصر فقط على التجول في الشوارع أو الوقوف على ذلك الجسر العظيم في فم الخليج والنظر إلى شعلة الضياء التي تشكل المدينة وتحدد ملامحها. وتحدث أيضاً عن النساء الصغيرات اللواتي تعرف عليهن: شقراوات، جمالهن يسلب العقل ولا يمكن للإنسان أن ينساه، أما في الفراش، الفراش المعطر الدافئ، فإن الواحدة منهن قادرة على أن تجعل أكبر رجل في أحضانها كالطفل الصغير، كلهن مدربات، مليئات بالقوة والحيوية، ولكن لا يشبعن ولا ينمن. كما لا يتركن أحداً يشبع أو ينام. ليس فقط في سان فرانسيسكو وإنما في أغلب المدن التي زارها أيضاً.

ومطيع الذي ذكر للحكيم عرضاً، وبشكل مازح، عن «الدلال الذي لاقاه الأخوان» وكيف أن حماد رجع مذهولاً مأخوذاً، و«أن صورة أميركا انطبعت في ذاكرته إلى الأبد»، بعد أن سمع الحكيم بهذه التفاصيل، ثم قام بإجراء ذلك الاختبار، كان واثقاً أنه يمسك بيده أوراقاً قوية، يمسك «الجواكر»، هكذا قال لنفسه: الإعلام والأمن، وأضاف وهو يبتسم و«اللاعب المرّ. الحاذق، هو اللاعب الذي لا يظهر على وجهه أي انفعال، يكون وجهه كالمطاط لا تقرأ فيه ربحاً أو خسارة».

وفي هذه الفترة تقرر أيضاً إصدار صحف من نمط جديد في موران، فمطيع الذي قضى شهوراً من الاستعداد، وسافر مرتين إلى القاهرة وثلاث مرات إلى بيروت، للاتفاق مع عدد من المحررين الصحفيين والفنيين، رجع بحصيلة بدت للحكيم، أول الأمر، لا تتناسب مع هذا الجهد

والانتظار، لكن بعد أن صدرت الجريدة اليومية، «البادية»، ثم تلتها، بعد خمسة شهور المجلة الأسبوعية «الواحة»، وما رافق صدورها من احتفاء، ثم ذلك التأثير الذي أخذ يظهر ويتسع مع صدور كل عدد جديد، تأكد الحكيم أن سلاح الإعلام لا يقل أهمية وتأثيراً عن الأسلحة الفعلية التي تقتل وتدمر وتحقق أخيراً النصر!

كان الحكيم يريد من الصحافة الشيء الكثير؛ صحيح أنه لا يعرف ذلك بالتحديد، أو كيف يمكن الوصول إليه، لكنه يحسه، يتراءى له في لحظات معينة ثم يتوارى. ومع ذلك يعتبر أن دور الصحافة يتجاوز كثيراً مجرد نقل ما حصل من أحداث وأخبار هنا وهناك، أو مجرد تزجية للوقت والتسلية؛ يريد أن يكون دور الصحافة كاملاً، كلياً، ودائم التجدد، أن يعيد تشكيل عقل البشر وعواطفهم ونظراتهم، وأخيراً مواقفهم، بحيث لا يفكر الإنسان ولا يتصرف إلا على ضوء هذه النظرة، تماماً كما كانت الأديان تفعل. ويهز رأسه بنوع من الحيرة والتساؤل معاً، ويضيف مخاطباً نفسه «الأديان، أية أديان، السماوية أو غير السماوية، كانت من التأثير والقوة إلى درجة أنها طبعت اتباعها بطابع واحد، حتى لكأنهم من صلب رجل واحد: الأخلاق، الأفكار، طريقة التصرف، النظرة... بكلمة واحدة: كل شيء».

ويتذكر الحكيم كتاباً قرأه عن الغجر: قوم توارثوا العادات والأفكار، إضافة إلى الصفات، دون أن يعلمهم معلم، ودون أن يقول لهم أحد. لقد حصل هذا نتيجة المناخ النفسي الذي عاش فيه هؤلاء، وبالتالي تسربت إليهم كل صفات وأفكار الذين سبقوهم، أصبحت جزءاً منهم، وهكذا، ودون وعي في الغالب، يُسرب جيل إلى جيل، يشرب جيل من جيل، بحيث يصبح الجد الأول والحفيد الأخير وكأنهم «أخذوا نفس الطريقة وتعلموا عند نفس المعلم» هكذا قال لنفسه، ثم استمر بأفكاره: «المطلوب من الصحافة أن تعيد تشكيل أي عقل، حتى عقل السلطان».

هكذا كان يحلم بدور للصحافة، أما كيف ينفّذ، ما يجب أن يقال ومن يقوله، فإنه كان في حالة أقرب إلى الحيرة، لكن مع ذلك قرر أن يخوض

يوماً، هذه التجربة، لا بدّ أن يبلور أفكاره أكثر، أن يعرف ماذا يقول، وكيف يقوله.

ومع ذلك، ولأنه الآن غير متفرغ لهذه المهمة بالذات، فإن الفترات التي يقضيها مع مطيع، والأحاديث التي تجري بينهما، لا يعتبرها زائدة أو ترفاً، وليست أيضاً قتلاً للوقت، كما يفعل الآخرون، «إنها ثقافة غجرية» هكذا يقول لنفسه، ويضحك بعض الأحيان بصوت عالٍ.

ولأن موران ليست جزيرة معزولة أو محصنة، فالعواصف حولها لا تتوقف، ففي كل يوم تصل الأخبار حاملة قصص الملوك المخلوعين والذين أعدموا، والممالك التي كانت «مزدهرة وقوية» ثم سقطت وذابت كما يذوب الملح في الماء. كانت هذه الأخبار تفزع الحكيم، تجعله مضطرباً، لأن أكثر ما يخشاه: الزمن. كان يقول لنفسه بنوع من الغيظ: «الرهان بيننا وبين الآخرين ليس أننا قادرون أو غير قادرين، الرهان هو الزمن». كان يخشى أن تتبدد أحلامه وتضيع قبل أن يستطيع بلورتها. قبل أن يفرضها. وهذا التحدي بقدر ما كان يشوقه ويحرضه كان يفزعه أيضاً. «لسنا وحدنا. ولا نستطيع أن نهرب مما حولنا، كل ما نريده فسحة من الوقت تكفي لأن تكتمل خلالها أدواتنا، وعند ذاك: مرحباً بالمعارك!».

... وإلى أن تستكمل هذه الأدوات لا بدّ «أن نتحصن، أن نتلقح، لأن التلقيح الذي سبق المرض أو يرافقه، يوجد مناعة ضد الطاعون الذي يعم ويجتاح المنطقة والعالم». خاصة وأنه يعرف أي مجانين يفرخون في المنطقة وماذا يمكن أن يفعلوا في ظل الجوع والقهر الذي ينزل بهم كل يوم. يقول لنفسه بنوع من الحزن: «إذا اقترن الفقر بالحلم تولد الثورة» وحين يتذكر نشاط مطيع وصخبه يقول لنفسه: «إذا ضمنا أن يقرأ الناس ما نكتب ومنعناهم من قراءة ما يكتبه الآخرون، وإذا راقبنا كل شيء وعرفنا كيف نسد الثغرات، نكون قد كسبنا نصف المعركة.. أما النصف الآخر...».

وباتفاق كامل بينه وبين مطيع أولاً، ثم مع حماد بعد ذلك، «لا بدّ أن نبدأ اللعبة على أصولها، أن نخلق صحافة وأن نكسب صحفيين»، لذلك

وافق على الكثير من الاقتراحات التي قدمها مطيع، وطلب إليه أن يشرع دون تأخير ودون تردد.

اختار مطيع مجموعة من الصحفيين المحترفين، وكانت لعدد منهم أسماء لامعة، ودفع لهم الكثير الكثير، إذ بالإضافة إلى الرواتب الكبيرة، أعطيت لهم امتيازات في السكن والسفر «لأننا نحن الرابحون في النهاية» كما قال لنفسه وكما قال للحكيم، بعد ذلك، رغم بعض الملاحظات والأقاويل التي ترددت وقالها أكثر من واحد.

منذ وقت مبكر، أو على التحديد منذ أن التقى الحكيم بالأمير خزعل في حران ثم بعد تلك الزيارات التي قام بها إلى موران، والعلاقات بين الإثنين تقوى وتتوثق، وإن رافقها بعض الهواجس والهموم بالنسبة للحكيم. أكثر من ذلك، بدأت هذه الهواجس تنغّص عليه عيشه، فقد أصبح على يقين يترسخ ويتزايد يوماً بعد آخر إنه ليس مجرد مستشار للسلطان، وإنما هو منذور لأمر عظيم: بناء دولة!

وبناء دولة ليس بالأمر الهين، يجب أن يمتلك الإنسان قوة خارقة وذكاء غير محدود، وأن يكون تحت امرأته منفذون جيدون: أكفاء ومخلصون، ويجب، أخيراً، أن تكون الظروف مواتية. هذا هو الجانب العملي. وحين يستعرض الحكيم ما أنجزه، ويستعرض وجوه مساعديه، يشعر بالغبطة. فاختيار حماد موفق للغاية، فقد استفاد هذا الرجل من كل الوسائل والأشكال القديمة والحديثة، في المدن وبين البدو، عن طريق المال وعن طريق الصداقات.. وعن طريق التخويف أيضاً.

وحين يتذكر الحكيم طريقته في التصرف مع حماد يحس أن تعبه لم يذهب هدراً، حتى ثقافة الغجر، كما يسمي الدردشات التي تجري على رسلها، والتي تأخذ مسارات متعددة، يعتبر أنها ضرورية، فقد وسعت عقل الرجل وأعادت خلقه، أما السفرات والعلاقات التي أقامها، خاصة مع المسؤولين في الأجهزة المماثلة، فقد فتّحت مداركه وأفاد منها كثيراً. قال الحكيم لنفسه بنوع من الرضا: «البدو، بصورة عامة، أذكياء. يجب الاعتراف لهم بهذه الميزة، وقد تكون الصحراء المترامية، وقسوة الحياة، ثم تلك الليالي الطويلة، ضمن الأسباب التي ساعدت وشحذت لديهم

ملكة التأمل، فأصبحوا بهذا الاستعداد الذي لا يخفى».

لذلك لم يعد الحكيم يخاف الوضع الداخلي، لأن الناس، بد أن تدفقت الثروة، أصبحوا أقل ميلاً لأن يهدروا قواهم في القيل والقال، أو حول مواقد القهوة. حتى الأمراء الذين بدرت عن بعضهم دلالات خشي منها السلطان أول اعتلائه العرش، ما لبثوا هم أنفسهم أن غرقوا في جمع الثروة ومراكمة المال، واندفعوا، كما تندفع السهام، إلى التجارة ووضع اليد على الأراضي، ثم إلى المقاولات والمضاربة، بحيث تفوقوا على الجميع، وأخذوا يتنافسون فيما بينهم: من الذي يملك أكثر من الآخرين، ومن يستطيع أن يبني قصوراً تثير غيرة الآخرين، وتتفوق على قصورهم، وأية فتاة جميلة كبرت في موران في غفلة عنهم ومن يسبق غيره إلى الزواج منها، حتى إذا تحدد موعد الزواج امتلأت موران بالحديث عنها وعنه، وفي يوم الزواج تنقلب الدنيا، إذ يتحول الليل إلى نهار، ويسير الذهب أنهاراً وتمدّ الموائد التي لم يسمع بمثلها من قبل، وتُقدّم الهدايا التي تفوق التصور وتتجاوز الخيال!

ولما كان الحكيم قد لخص لنفسه، ومنذ البداية، أن بناء الدولة يتطلب بالإضافة إلى الأدوات ضرورة وجود الفلسفة، وإذا كان قد اضطر، لاعتبارات عملية بحتة، أن يعطي الأدوات أولوية، من حيث التوقيت فقط، فإنه لم يغفل ليلة واحدة عن التفكير بالفلسفة التي يجب أن تنهض عليها الدولة «لأن الفلسفة أساس الفكر والعلوم»، كما يقول لنفسه، كما أنه الوحيد المؤهل للقيام بهذه المهمة، ولأن «دولة من غير فلسفة مثل سفينة دون ربان».

الآن وقد استكمل أدواته، ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب، واطمأن إلى الأوضاع، لا يمكن أن يؤجل أكثر مما فعل مسألة التفرغ من أجل القيام بالمهمة الأساسية، وهذه المهمة لا تبدأ من الصفر، كما كان الأمر في حران، أو حين وصل إلى موران، فالفلسفة التي يريد أن يرسي قوعدها، ويثبت معالمها، واضحة في رأسه، بل في أحيان كثيرة شديدة الوضوح. ولا تتطلب أكثر من بضعة شهور، وعلى أكثر تقدير سنة،

من أجل إنجازها. فبعد أن قضى أوقاتاً طويلة في التأمل والتفكير والمقارنة، امتلك القناعة الكاملة أنه قادر على إنجاز هذا العمل، ولا بدّ أن ينجزه.

طبيعي أن لا يستطيع مناقشة أفكاره الآن، وقد لا يستطيع حتى وقت متأخر، لأن تدوين هذه الأفكار أولاً، ثم استيعاب هذه الأفكار بعد ذلك، من قبل الآخرين، يتطلب الكثير من الجهد والوقت.

أما كيف حصل هذا التطابق، والذي لا يحصل إلا نادراً، وأصبح الحكيم على هذه الدرجة من القناعة، فإنه يعزو ذلك إلى القوة الخفية، أو «منطقة الظل» كما يحب أن يسميها، وقد يستعمل هذا التعبير أثناء التدوين أيضاً. القوة الخفية هي التي تحدد وتمهد وتقود، وهي التي تيسر للبشر كل شيء. فإذا كانوا جديرين بهذه الصفة، واستطاعوا أن ينظروا أبعد من اليوم والغد، وأن يفعلوا ما يجب أن يُفعل في وقته، وبشكله الصحيح، فلا بد أن تتغير الحياة، وأن تقوم حياة قادرة على البقاء والاستمرار.

وأن تجتمع فيه الصفات كلها، وبهذه الجدارة، وأن يكون في قمة الهرم، خاصة بعد أن تنازل له السلطان عن جزء من صلاحياته، وانشغل الأمراء بالمال والنساء والقصور، فإن شيئاً أكثر من الدهاء، وأكبر من الحظ، ويتجاوز الكفاءة، ما يعطي للأمور أبعاداً وآفاقاً لم يكن يحلم بها من قبل.

فبعد جهد متواصل، وبمثابرة لا تعرف التعب أو التوقف، توصل إلى فلسفة المراكز الأربعة، أو نظرية المربع، وهذه النظرية الفلسفية ليست نزوة من نزوات الخيال، كما أنها لا تشبه ما قرأه الحكيم في كتب التاريخ التي انكب عليها خلال السنتين الماضيتين. إنها نظريته هو. وإذا كان لا يريد أن يبشر بهذه النظرية في الوقت الحاضر، لأنها لا تحتاج إلى أنصار ومؤيدين، فقد امتُحنت وجربت بحيث أصبحت مثل الطلقة المصوبة بأحكام: لا تخيب.

نظرية المربع، التي يفكر فيها بالليل والنهار، والتي بدأت تستهويه إلى أقصى حد، تتلخص باعتماد القوى الأساسية المهيمنة على الإنسان، وهذه

القوى ليست الخير والشر، بالمعنى البسيط الذي يتداوله الناس، كما أنها تتجاوز العقل المجرد، أو الحواس المجردة، ولذلك فإنها شيء خاص. إنها مزيج من القوى كلها بنسب وأشكال شديدة التعقيد. وإذا أراد الحكيم أن يسترسل لكي يشعر بالمتعة والتفوق، فإنه يعتبر الإنسان قوة مُسيّرة، وأن ما يسيرها، بوعي، أو بدون وعي، المراكز. والمراكز هي أربعة، تبدأ من الأعلى لتصل إلى ما دون الوسط قليلاً. فالعقل يعتبر أساس المعرفة وطريق الوصول، ويمكن أن يطلق عليه، مجازاً، المركز الأول، أو المركز الأعلى، وهو الذي يُحدّد ويُوجه، لكن أيضاً بالاتفاق ومشاركة المراكز الأخرى. أما المركز الثاني فهو القلب. والقلب هو وجدان الإنسان ونقطة الاستقطاب، حيث تصب فيه المراكز الأخرى بعد ذلك، ومنه تنتقل أيضاً. وفي هذا المركز يولد الإيمان والاقتناع، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى نتيجة دون أن يكون هذا المركز في أقصى حالات القوة والنشاط. أما المركز الثالث فهو المعدة، لأن الإنسان إذا كان جائعاً وغير قادر على تحصيل قوته تضعف عنده المراكز الأخرى، وقد يتحول إلى إنسان خطر، ولذلك يجب أن يرتبط هذا المركز بمركز القلب أولاً، أي أن لا تترك له حرية الحركة إلا بمقدار ما يخضع إلى المركز الثاني، وبالمراكز الأخرى بعد ذلك. أما المركز الرابع فهو الطاقة الجنسية، وهذا المركز الذي يهمله الكثيرون من العلماء، يعتبر الحكيم نفسه محظوظاً لأنه يعرف أهميته وقوته، وقد تسنى له أن يواكب، هكذا يقول لنفسه، دراسة أهمية هذا العامل وتأثيره، حينما كان طالباً في النمسا، وهذا أحد الأسباب الذي جعله يولي عناية خاصة للعامل الجنسي، ودفعه لأن يدرس الأمراض التناسلية ويتخصص فيها!

أما كيف توصل الحكيم إلى نظرية المربع فإنه يبتسم حين يتذكر، إذ يقول لنفسه: «مثلما اكتشف نيوتن قانون الجاذبية من سقوط التفاحة، وقبله أرخميدس وهو يستحم، كذلك وجدت نفسي أكتشف نظرية المربع» ويقطب جبينه ويغمض عينيه قليلاً ثم يضيف: «الأشياء كلها تقوم في جوهرها، على هذه النظرية: أولاً وأخيراً الأركان هي أربعة، الكرسي،

مثلاً، لكي يكون راسخاً وعلى أتم انسجام، يقوم على أربع أرجل، وكذلك الطاولة والسرير، وكل شيء آخر. ليس هذا فقط، إذا تأملنا نجد أن الطبيعة تقوم على نظرية المربع: الفصول الأربعة؛ الاتجاهات الأربعة؛ حتى عناصر الطبيعة هي أربعة: الهواء، والنار، والماء... والتراب. وتركيب المخلوقات يقوم على نظرية المربع أيضاً: الحيوان يمشي على أربع، الإنسان يمشي على أربع» ويضحك لأن الفكرة لا تبدو واضحة منذ الوهلة الأولى، لكنه يشير إلى أن رجل الإنسان تحتوي على مفصلين: الساق والقدم، ولذلك فإن الساق لا تستطيع شيئاً دون القدم، ولهذا فإن الاثنين هنا في واحد. والنتيجة أربعة، هذا إذا تركنا جانباً اليدين، وهما تخلقان التوازن، والذي بدونه لا يستطيع الإنسان المشي».

ويسترسل الحكيم أكثر من ذلك وهو يفكر في نظرية المربع: «وجه الإنسان وجسده يعتمدان مبدأ الأربعة: إذا أخذنا الإنسان طولياً نجد أنه يعتمد نفس المبدأ: العين اليمني، الإذن اليمني، نصف الأنف ونصف الفم، وهما مقسومان فعلاً، ثم نصف الإست ونصف الذكر، وهذه أربع».

ويمكن للحكيم أن يستمر إلى ما لا نهاية اعتماداً على نظرية المربع، ويتذكر بكثير من العجب أنه وصل إلى موران يوم الأربعاء، في الربيع، وفي شهر ربيع الأول. ويعتبر ذلك من جملة مظاهر السعد القيمة، والتي ساعدته على كشف هذه النظرية بهذه السرعة وبهذا العمق.

نظرية المربع ليست من التاريخ، وإن كانت شواهد التاريخ تؤيدها. ولا يمكن اعتبارها تطبيقاً لأفكار وتجارب علمية، مع أن النظريات العلمية، خاصة ما يتعلق بالطب، تقدم، كل يوم، دليلاً جديداً تدعمه هذه النظرية. أما بالنسبة لإنجازات الإنسان في مجال علوم الغيب والتنجيم، وكذلك في علوم اللاهوت والفلك، فتجعل الحكيم غير قادر على إهمالها أو تجاوزها. ومع ذلك فإن نظرية المربع، ليست أياً من النظريات أو العلوم الأخرى. إنها نتيجة الإلهام من ناحية، وحصيلة العلوم والأفكار والتأمل الطويل من ناحية أخرى. وهي بمقدار ما تهتم بالأمور النظرية البحتة، فإن الجانب العملي فيها لا يقل أهمية وتأثيراً، وربما كان الجانب العملي الدافع

الأول والأساسي الذي أدى إلى بلورتها وإنجازها بهذه السرعة وبهذه المتانة أيضاً.

في إطار بلورة أفكاره والوصول إلى النظرية طرح الحكيم على نفسه سؤالاً بسيطاً: ما هو الإنسان؟ وإذ لم يجد ضرورة لتركيز أفكاره في مجال الإجابة عن هذا السؤال بالذات، تابع فسأل نفسه: كيف يجب أن نتعامل مع الإنسان؟ وللوصول إلى جواب، خطوة بعد خطوة، مرحلة بعد أخرى، استطاع بلورة الأفكار وإنجازها.

صحيح أنه واجه في بحثه بعض الاستثناءات والشواذ لكنه كان مقتنعاً، كما أكد لنفسه، أن الاستثناء يؤكد القاعدة، كما يقولون، وأن عدداً من المسائل يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي.. ثم التأمل. ولا بدّ أن يفعل ذلك في الفترة القريبة القادمة.

«البدء من الصفر أصعب البدايات، لكن بالتأكيد أهمها وأرسخها».

هكذا قال الحكيم لنفسه وهو يستعرض ما أنجزه حتى الآن. كان فرحاً مثل طفل ومنتشياً كثمل، لأن «هماً» جديداً أضيف إلى الهموم التي كانت تثقل كاهله. فالسلطان الذي واظب خلال الفترة الأولى على حضور اجتماعات الأمن والسلامة، بدأ يظهر تذمره «لأن السوالف ذاتها تتكرر دائماً» ولذلك ما لبث أن جعل هذه الاجتماعات شهرية أولاً، ثم أخذ يكتفي بالتقارير التي ترفع إليه، ودون أن يقرأها يؤشر عليها بالقلم الأخضر: «نظر» ويعيدها. أما في السنة الثالثة لاعتلائه العرش، وكان يبدو متألقاً وبصحة جيدة، فقد طلب من الحكيم أن يتولى نيابة عنه الإشراف الكامل على هذا الجهاز.. أيضاً.

لم يكن هذا القرار إلا استكمالاً لشكليات متعلقة بالناحية المالية، لأن بعض الإجراءات التي كانت تقتضي موافقة السلطان وتوقيعه، كثيراً ما تأخرت بسبب غيابه أو عدم رغبته «النظر بالأوراق»، أو بسبب الحرص الذي يظهره مالك الفريح، أمين المال، حيث كان يصرّ على التواقيع والأختام أكثر من إصراره أو حرصه على الأموال، وقد أدى هذا، ومنذ وقت مبكر، إلى نوع من الجفوة بينه وبين الحكيم. أما الآن، وبعد هذا القرار، فقد أصبح الحكيم مطلق اليد حراً في اتخاذ ما يراه ضرورياً بخصوص بعض الأجهزة، وأصبح «هذا المرابي اليهودي، ابن الحلابة، يدفع والرجل على رقبته» هكذا قال الحكيم لنفسه بنوع من الزهو، وقد شعر أنه حقق ضربة قوية، وإن لم تكن قاضية، ضد مالك الفريح.

العلاقة بين الإثنين، ومنذ البداية، تميزت بالمنافسة الصامتة، وإن

حافظت على طابع الود الظاهري، وبعض الأحيان المبالغ فيه، خاصة وأن الرجلين يتمتعان بحدٍّ عال من التهذيب والنعومة، إضافة إلى تقاسمهما مودة السلطان وأسراره. صحيح أن مالك الفريح سبق الحكيم إلى موران بعدة سنوات، ويعتبر نفسه من أهل موران الأصليين، لأن أباه أوجده ـ إذ يترك الأمر غامضاً، حيث يستعمل كلمات عامة، ويمكن أن تفسر بأشكال مختلفة ـ اضطر إلى السفر، مثل الآلاف من أهل موران، في تجارة ـ والغالب في رعية جمال ـ وكان يفترض أن يعود، لكنه تأخر في العودة، فتزوج وأقام، وجاءه أولاد، ومرت الأيام، فلما مات لم يستطع أبناؤه السفر أو العودة، فبقوا حيث هم، «أما عندما حان الوقت ودعا داعي الوطن فلم نتأخر» هكذا يفسر الشيخ مالك عودته إلى موران. وفي موران استفاد من علاقة بعيدة وغامضة بعائلة السلطان من ناحية النساء، إضافة إلى معرفة القراءة والحساب، وإتقانه بشكل خاص لحساب الدوبية، حيث أثار دهشة السلطان خريبط منذ الأيام الأولى لوصوله. أما بعد ذلك، فقد توثقت علاقته بولي العهد، وأصبح أحد المقربين إليه، فلما اعتلى العرش عينه مساعداً لأمين المال، ثم بعد بضعة شهور أميناً أصيلاً.

مالك الفريح، أو الشيخ مالك، كما أصبح اسمه فيما بعد، وهو يعود إلى موران، ثم وهو ينضم إلى القصر، وإلى حاشية الأمير، بعد ذلك، يصحح خطأ تسبب فيه الآخرون، وانعكست نتائجه عليه خلال فترة من الزمن، لكن ما كاد يعي هذا الخطأ حتى قام بإصلاحه فوراً: عاد إلى أهله وإلى موطنه، وبذل أقصى الجهد لأن يستعيد ارتباطه بما حوله: اللهجة، الملابس، النظرة، التعرف على الأقرباء، وعلى تاريخ العائلة، وقد سجل، في دفتر أنيق، القرابات حتى الجد السابع، ثم أخذ يطلق أسماء الأجداد والأقرباء على أبنائه، الواحد بعد الآخر، وكانت زوجته في كل مرة تخلف ولداً تدخل معه في خلافات تطول إلى شهر أو اثنين حول اسم المولود الجديد، والذي لا تعرف من أين نبشه أو كيف جاء به.

لقد بالغ الشيخ مالك بهذه التصرفات إلى أقصى حد، حتى أن الكثيرين الذين لا يعرفون تاريخه يقدرون أنه لم يغادر موران في حياته يوماً

واحداً. أما في أوقات أخرى، خاصة حين يتحدث إلى الحكيم أو إلى مطيع فلا يمكن تمييزه عن أي «ميداني» عريق. كان يتعمد استعمال لهجة بلدية، بمفرداتها الضيقة وبمخارجها الرخوة، ليدلل على مدى معرفته، ولكي يقول لأي إنسان يسمعه أنه يتحدث إلى غرباء، وأن هؤلاء الغرباء لا يفهمون إلا بهذه الطريقة!

والحكيم الذي بذل جهداً واضحاً لكي يتحدث باللهجة المورانية، لم يتقنها أبداً، بل وبدت للكثيرين مضحكة وأقرب إلى السخرية، فلم يطل به الأمر حتى انصرف عنها مضطراً، وأن تسبب له ذلك بمرارة لا تخفى. وفي محاولة غير مباشرة للرد على الشيخ مالك، هجر لهجته الأولى، ولجأ إلى العربية الفصحى، بمخارجها وقلقلاتها، وبالغ في ذلك كثيراً، حتى ليظن من يسمعه لأول مرة أنه واعظ، أو أنه يتعمد المزاح، لكن بمرور الأيام تهذبت هذه اللغة، وتعود الناس عليها، فلم يعد يلفت إلاّ نظر الغرباء أو الذين يقابلونه لأول مرة.

كان من السهل أن تحتمل موران الرجلين، كما احتملت الآلاف الذين جاؤوا من قبل، لأن فيها من الفرص والإمكانيات ما يرضي الكثيرين ويشغلهم، وكان من الممكن أن يُسوّى الخلاف بين الاثنين لو وقع هذا الخلاف أو لو ظهر، لكن شيئاً مثل هذا لم يقع، بل وظهر ما يخالفه تماماً. ومع ذلك، فإن معركة صامتة، وفي الظلام، لم تتوقف يوماً واحداً، وكانت تأخذ أشكالاً غير مباشرة، وإن كان ظاهرها شديد البراءة. فالشيخ مالك لم يكن يشير إلى الحكيم مجرد إشارة، في محاولة لتجاهله، أو للتقليل من أهميته. أما إذا تعلق الأمر بقضايا مالية فإنه يتشدد ويدقق قبل أن يصرف، كما يتأخر كثيراً، لكي يثبت للحكيم مدى السلطة والقوة اللتين يتمتع بهما.

ظل الحكيم يظهر ترفعاً واضحاً عن المال، فلا يريد أن تكون معركته مع «ابن الحلابة» ـ كما يسميه سراً ـ في هذا المجال، «فهذا المرابي سيدفع أولاً وأخيراً، فقط يريدني أن أترجاه، أن أبوس لحيته، لكن فشر» لأن الحكيم كان على يقين أنه لو جرّ إلى حيث يريد الشيخ مالك، فلا بد أن

يخسر، «لأنه فقط يريدني أن أستجيب له، أن أتنازل، وبعد أول تنازل ليس هناك إلا طريق واحد: الانحدار إلى ما لا نهاية، تنازلات تجر تنازلات، وهذا ما يريده وهذا ما يخطط له، لكن أنا وإياه والزمان بيننا ونشوف». لذلك امتلأ الحكيم إصراراً، أقرب إلى التحدي، على الصمود والتجاهل، وأن لا يتنازل تحت أية قوة وأية اعتبارات. كان يقول في لحظات التذكر، وحين يمرّ طيف «ابن الحلابة» في مخيلته:

«وهل هناك مجنون على وجه الأرض يذهب إلى كلب جائع، ومصاب بفقر الدم والسفلس ويحاول أن ينتزع من حلقه عظمة؟» ويضحك ويهز رأسه متوعداً. ولأن مال موران هو مال السلطان، لم يحاول الحكيم أن يسترضي الشيخ مالك أو أن يتملقه. «الواحد يدور رأس النبع ويقصده» ولهذا لجأ إلى السلطان مباشرة. وعن طريقه كان يحصل على كل ما يريد. ليس ذلك فقط يحس الحكيم أنه أكبر من هذه القضايا، وأن مهمته أخطر من أن ينشغل بهذا الناطور أو أن يلجأ إليه، «فالناطور، مهما كبر، تقول له: هات.. يعطيك. تقول له: خذ يأخذ منك، أما أن يصغّر الإنسان عقله ويسأل: هل عندك يا شيخ كذا وكذا لأننا نريد أن نبني دولة. فالجواب الجاهز: ما عندي».

بهذه الطريقة. ومن خلال أوامر السلطان، حصل الحكيم على ما يريد من الأموال، وقد حصل عليها دفعة واحدة، سواء من أجل الصحافة أو جهاز الأمن، أو من أجل «الهدايا والإكراميات ومصاريف خاصة». وهكذا تجاوز الكثير من المعارك والإحراجات التي يمكن أن تحصل لو امتثل إلى ما كان يريده ويفترضه الشيخ مالك.

أما الآن، وبعد أن فوّضه السلطان بصلاحيات جديدة، فقد بدا في منتهى القوة والرضا، وبدأ يفكر ويخطط لأمور جديدة.

موران التي كانت تغرق في الرخاوة والتأمل والانتظار، بدأت تنتفض وتتغير: أبنية من أنماط وأشكال لا حصر لها تقوم وتنتشر في كل مكان، شوارع تُشقّ وسط المدينة وعلى أطرافها، وقريباً من منطقة القصور، كما سميت منطقة الغدير، فتبدو بقايا البيوت والجدران والأشجار وكأنها آثار عصور قديمة خلّفتها هزة مفاجئة. الأجانب يصلون ويتكاثرون كل يوم، ولا يطول بهم الوقت حتى يستقروا. الأعمال تتزايد وتتداخل بحيث لا يعرف الإنسان هل يواصل في الغد ما بدأه اليوم أم ينتقل إلى عمل آخر. والحياة، بكلمة موجزة، تنقطع جذورها، تضطرب، تتغير، لكن لا أحد يعرف ماذا سيصير.

صحيح أن الأمر اختلف كثيراً عما حصل في حران أو رأس الطواشي، وعما حصل في بدرة وأم العوالي وعجرة، لأن كل بناء يشاد هنا، أو كل شارع يشق، يضيف إلى الركام الموجود قروحاً جديدة وركاماً جديداً، حتى لتبدو موران كالأحشاء المتناثرة، أو كأكوام القمامة في هذا المدى الصحراوي اللامتناهي. وهذا المنظر الذي يمرض أي إنسان مقيم، ويجعله في حالة من التوتر والحزن، فلا يعرف هل يمكن بعد الذي حصل في هذه المدينة التي تعوّد عليها وألفها منذ أن فتح عينه على الحياة، أن تعود إلى حالتها السابقة، أو إلى شيء من الانسجام؟ والغريب الذي يصل موران لأول مرة لا يعرف هل جُنّ الناس فحمل كل واحد معوله وأخذ ينتقم من المدينة ويقوّضها دون رحمة وبأسرع وقت؟ حتى المهندسون، أو من يفترض أنهم كذلك، والذين يقودون مجموعات من البشر والآلات هنا وهناك، ويبدأون بشراسة في تمزيق أحياء المدينة وبيوتها، كانوا يفعلون شيئاً ثم يتراجعون، ثم لا يلبثون أن يعودوا إليه مرة أخرى، وقد بدت على

وجوههم وتصرفاتهم علائم الحيرة والنزق، حتى إذا غرقوا في الأنقاض وتاهوا في المنعطفات والتقاطعات جاء غيرهم ليواصلوا العمل ذاته أو ليبدأوا عملاً غيره.

مدينة لا ترحم نفسها ولا ترحم ساكنيها: مجموعة من الأنقاض تتزايد كل يوم. والناس يتطلعون حولهم بحيرة أو بتشفٍّ، لكن برغبة وحيدة أيضاً: أن يخلصوا من هذا الذي يجري. ولأن الحكيم يرى موران على مصورات المهندسين المليئة بالعذوبة والشفافية، والمليئة بالأشجار أيضاً، فإنه لا يرى الشقاء ومدى العذاب الذي ينزل بالناس حوله، ولذلك وجه اهتماماً متزايداً إلى شيئين اثنين: الأراضي، والفكر، ففي النهار لا يتوقف لحظة واحدة عن «دراسة المخططات». كان يفعل ذلك بكثير من الحماسة والاهتمام، ولا يتردد في استدعاء مهندسي البلدية ودار الإمارة لمناقشتهم في جميع التفاصيل المتعلقة بمستقبل موران، حتى إذا «حفظ المخططات» يوماً بعد يوم، شهراً بعد آخر، أرسل رجاله «لمساعدة المعوزين في أطراف المدينة، عارضاً عليهم أن يشتري الأراضي البور التي يملكونها. وإنه مستعد أن يدفع لهم فوراً مبالغ يمكن أن تساعدهم في أن يبدأوا حياة جديدة!».

بعد أن ينتهي عمل النهار الشاق الطويل، ويعود الحكيم إلى قصر الحير، يخصص جزءاً طويلاً من ليله للتأمل والتفكير بنظرية المربع.

الذين عرفوا وسمعوا بما يفعله الحكيم، وكيف أنه يبحث عن الفقراء في الليل والنهار لكي ينقذهم من فقرهم، ولكي يؤمن لهم أعمالاً في البلدية ودار الإمارة، قلبوا شفاههم بشك وتساؤل.

مالك الفريح عرف قبل الآخرين أن الحكيم لم يترك أرضاً في موران إلا واشتراها أو ساوم على شرائها، منفرداً أو مع آخرين، فكان يهز رأسه ويخرج صوته من أنفه:

ـ والله... والله إذا لقي شبر أرض واحد في موران كلها يندفن فيه ما أكون أبو صفوق!

أما عندما جاءه مساعده بناء لطلبه، وظل واقفاً أمامه صامتاً دون حراك، فقد تطلع إليه طويلاً وكان يهز رأسه باستمرار، إلى أن سأله أخيراً:

ـ وشنهو قولك باللي يكرم من كيس غيره؟

وحين قلب المساعد شفتيه دون أن يعرف كيف يجيب، تابع الشيخ مترغماً:

جوعان يأكل من زادي ويمسكني   حتى يقال كريم النفس مقصود

لكن يخسا!

ولما انتفض المساعد، وبدا مرتبكاً، ختم الشيخ مالك حديثه:

ـ احرص يا وليدي: لا تصرف قرش واحد قبل ما تنشف ريق اللي يريد القرش!

أما شمران العتيبي الذي سمع ما يتناقله الناس في السوق وفي مقهى زيدان فقد قال بسخرية:

ـ لا تصدقوا يا جماعة الخير، وأنا به أدرى، مثله مثل الظبرطع، من مال غيره ينهش ويرضع!

وبصق، وأضاف بعد قليل:

ـ إذا كان كل الأجاويد مثله لا كان ولا كان الجود.

وتغيرت لهجته، أصبحت ساخرة:

ـ وذاك هو قصر البعير.. لو تكلمت قاعه لقالت اللي يكفي وزود.

قال زيدان الذي كان يتابع الحديث:

ـ القرش اللي يندفن بقيعان مثل القرعة والحصيبة يموت يا أبو نمر، وإذا اشتغل يصير قرشين.

ـ وكل الله يا ابن الحلال، ترى قرش الحرام يحترق ويحرق اللي يشيله، وإذا عشنا نشوف!

العجرمي وآخرون من أهل موران، والذين استغربوا ثم غضبوا لأنهم بدأوا يرون مدينتهم تنهدم فوق رؤوسهم، لم ينتظروا طويلاً لكي يصلوا إلى القصر ويقابلوا السلطان:

ـ الفلا، يا طويل العمر، ما أوسع منها، وهذه هي قريّبة، اتركوا موران مثل ما تركها آباؤنا وأجدادنا. إذا ما كانت تعجب الغُرب واللقامين اللي جاءوا أمس واليوم يتركونها ويتركونا، حنا عاجبتنا وما نريد غيرها.

ويصمت العجرمي قليلاً، وتتغير لهجته:

- المسألة ما هي موران بس، يا طويل العمر، المسألة أن الأخباث يريدون يحولون الناس عن دين الإسلام، ويريدون نشر الفساد، ولا بدّ أنكم سمعتم عن القراطيس اللي يطبعونها ويخلونها ببيوتنا!

وبعد قليل:

- وأنت، يا طويل العمر، حامي الدين والرعية، أنت حامي المسلمين، نريدك بسيفك تقطعهم وتقطع دابرهم.

والسلطان الذي ابتسم وقال كلمات قليلة، لم تفهم كلماته، أو على أي وجه تفسر:

- وكلوا الله، يا جماعة الخير، وانشاء الله ما يصير إلا الخير.

انشغل الحكيم أكثر من قبل بالنظرية، وصادف أيضاً أن سفرات مطيع أخذت تطول وغيبات بدري الحلاق تمتد وتتزايد، ولذلك عرف الحكيم شيئاً وغابت عنه أشياء، كما يقولون، ويبدو أن العجرمي الذي لا يعرف التسليم أو التراجع، والذي ينقض على خصمه كما ينقض الثور، لم يترك فرصة إلا واستغلها، ولم يترك أحداً إلا وصل إليه.

ففي رحلة الصحراء التي تعوّدها السلطان في منتصف فصل الربيع، والتي يحرص أن تكون خاصة إلى أقصى حد، بحيث تقتصر على الحد الأدنى من الحرس والحاشية، إضافة إلى أفراد العائلة السلطانية، وبعيدة عن أعين المستشارين والرسميين، في هذه الرحلة، ونتيجة ضغط الأخوة، والمخاوف الكبيرة التي أشاروا إليها، والتي يمكن أن تهدد السلطنة كلها، وليس السلطان وحده، وافق السلطان أن يفتح عينيه أكثر من السابق، وأن لا يمنح ثقته لأحد خارج أفراد الأسرة، وأن يحد من صلاحية المستشارين، هؤلاء «الذين لا يفتون إلا بالسوء» كما قال الأمير محجم.

نقل أبو مصباح للحكيم، بكثير من الخفاء والسرية، بعض ما جرى، وأضاف «إن الحياة عاهرة وغدارة» والحكيم الذي وافقه بهزات من رأسه ولم يتكلم، شعر أن الأرض تميد تحت قدميه، فلام نفسه أنه أهمل كثيراً من الأمور أو نسيها.

أما عندما جاءه مطيع، وبدا خائفاً مضطرباً، وأبلغه أن السلطان سمّى إلى جانبه سكرتيراً آخر، وأن الرجل لا يمكن التفاهم معه، فقد هزّ الحكيم رأسه، وبدا مهموماً وغرق في الصمت فترة طويلة، أما حين حاول مطيع أن يخرجه من صمته، وكان أقرب إلى العصبية والحدة، فقد رد عليه وهو ينظر إلى البعيد:

ـ السلطان سلطان، يا خالي، لا يسأل عما يفعل، وهو الذي يحيي ويميت، هذا أولاً: وثانياً نحن، أولها وآخرها، ضيوف عندهم، وإذا كانوا قد أحسنوا ضيافتنا حتى الآن، فإن الحساد لا يتركون لأحد أن يأكل لقمة هنيّة.

ـ ويريد أن يتم كل شيء عن طريقه. قلت له لا بدّ أن نحدد المسؤوليات وأن نتقاسم العمل، قال: حتى كأس الماء التي تدخل غرفة السلطان لا بدّ أن أعرف بها.. ولم نتفق على شيء.

ـ أتركه الآن.

ـ ولكن لن يبقي لي شيئاً.

ـ يكفي أن تبقى حياً!

ـ أمن أجل هذا جئنا إلى موران يا خالي؟ من أجل أن تبقى أحياء لنأكل ونشرب؟

ـ لا يا خالي، جئنا من أجل قضايا أكبر بكثير.

ـ لماذا نسكت إذن؟ لماذا نقبل؟

وضحك الحكيم ضحكة خشنة، ومرت في رأسه أفكار وخواطر كثيرة، وفي إحدى اللحظات كاد يعترف لمطيع بنظرية المربع، لكن وجد أن الجو غير ملائم، كما أنه ليس في وضع نفسي يمكنه من شرح كل شيء. قال وهو ينظر إلى نقطة بعيدة، أبعد مما يحيط به:

ـ اسمع، يا مطيع، يا خالي..

وكاد يتوقف، أو كاد ينسى ما أراد أن يقوله، فالصمت امتدّ فوقهما مثل غطاء القبر، لكنه تابع:

ـ أشياء كثيرة يتعلمها الإنسان في وقت مبكر، ويتصورها يقيناً لا يقبل الشك، لكن الحياة تعلمه أن ذلك اليقين مجرد وهم.

قلب مطيع شفتيه دلالة عدم الاهتمام، لأنه لم يفهم كلمة واحدة مما سمع، لكن الحكيم تابع:

ـ الخط المستقيم مثلاً: لا يختلف اثنان أنه أقصر خط بين نقطتين، ولو سألتك الآن لأجبتني الجواب ذاته الذي يردده كل الناس..

للحظات ظن مطيع أن خاله يهذي، وأن ما يقوله الآن لا صلة له بالهجوم الذي بدأ يحاصرهما. لم يأبه الحكيم:

ـ أنا الوحيد، أو من القلائل، الذي يقول أن الخط المستقيم ليس أقصر خط بين نقطتين، لا بل أبالغ وأقول أنه أطول الخطوط.

ـ وما علاقة ذلك بمشاكلنا، بحديثنا، يا خالي؟

ـ كل العلاقة.

ـ لا أفهم.

ـ على مهلك وستفهم كل شيء!

رفع مطيع يده بنوع من العصبية، معتبراً أن خاله يسخر منه. تابع الحكيم:

ـ هذا هو الأمر الأول الذي أريدك أن تحفظه عن ظهر قلب، والأمر الثاني: تعلّم أن لا تغضب.

ـ والله يا خالي أنا قررت أن أترك وأمشي.

ـ هذا ما يريدونه، وهذا ما يدفعوننا لأن نفعله، لكن نخطئ كثيراً إذا فعلنا كما يريدون أو كما يتوقعون. يجب أن نفعل ما نريد وما لا يتوقعون.

ـ بصراحة، يا خالي، أنا غير مقتنع، وهذا العمل قبلته من أجلك، ولولا معزتك لا أبقى يوماً واحداً.

ـ أعطني فرصة جديدة، يا خالي، وأظنك لن تندم.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أن تقتنع بأن الخط المستقيم ليس أقصر الخطوط، وأن الغضب، أو إعلان الغضب، يعني خسارة نصف المعركة سلفاً.

وصمت الحكيم ثم استرسل بلهجة جديدة وكأنه حضّر نفسه لذلك منذ وقت طويل:

ـ كانت المرحلة الماضية كلها اكتشافاً واستعداداً للأيام القادمة، وإذا كان هناك غباء لدى خصومنا، فإن غباءهم الأساسي ليس أنهم يكرهوننا، فهذا مفهوم ومتوقع، ولم يغب عن ذهني لحظة واحدة، لكن غباءهم الحقيقي هو أنهم بدأوا علناً وبالمعارك الصغيرة، أي بدأوا بخوض الحرب قبل وقوع الحرب، ونحن، من هذه اللحظة، لا نعتبر أن الحرب معلنة، مع أنها لم تتوقف بالنسبة إلينا يوماً واحداً. وإذا أردنا أن نحارب يجب أن نفعل ذلك في وقتٍ وبشكلٍ لا يتوقعونه أبداً.

وهذا، يا خالي، نصف البرهان على نظرية الخط المستقيم، أما النصف الثاني من البرهان فهو أن الحروب غير المباشرة، الحروب التي تقع بينهم، دون أن نظهر، دون أن نعلن عن انحيازنا، يمكن أن تعفينا من حروب كثيرة كان يفترض أن نخوضها. لتقع ألف حرب، أما حربنا فهي الأخيرة، أو مع المنتصر الأخير!

وغرق الحكيم في الصمت اللذيذ، وبدا معجباً بالكلام الذي قاله. أمّا مطيع الذي فهم ولم يفهم فكانت حيرته تزداد، ولا يعرف هل يواصل حواراً عابثاً مع خاله أم يتركه يتكلم كما يشاء، قال بتعريض:

ـ الفرق كبير بين الكلام الذي تقوله والأمور التي تحصل في الواقع.

ـ ومع الغضب، مع الانفعال، يبدو الإنسان عارياً، تظهر نقاط ضعفه، وتظهر الأسلحة التي يريد أن يستعملها، وعندها يكون خصومه قد اضطروه للوقوف أمام بنادقهم في الأرض العراء. ولذلك، منذ هذه اللحظة يجب أن نتعلم كيف لا نغضب، أو على الأقل أن لا نظهر غضبنا، لئلا يعرفوا كيف ستتصرف.

وضحك الحكيم لأنه تذكر:

ـ قبل أكثر من عشرين سنة، في ألمانيا، تعلمت هذا الدرس جيداً: كنت أسكن مع اثنين آخرين عند امرأة عجوز، وكانت لديها قطة رمادية، تحبها وتعتز بها، وكانت المرأة تعاملنا حسب الكيفية التي نعامل بها القطة،

الذي يحب القطة ويدللها تحبه وتلبي طلباته، والي ينظر إليها بحياد تعتبره العجوز غير موجود، أما من يزعج القطة أو ينظر إليها بعداء فإنه إذا بقي في هذا المسكن شهراً فلن يبقى الشهر الذي يليه. ومن سوء حظي أنني منذ وقت طويل لم أتعاطف مع القطط، لكن لم أناصبها العداء أيضاً، كنت لا أحس بوجودها. ولم أكتشف أبداً الفتنة التي تتحدث عنها العجوز، ولذلك كفّت المرأة عن الحديث معي، وابتعدت القطة عني، أما هانس الذي كان يسكن معنا، ويتظاهر أنه مفتون بالقطة إلى أقصى حد، فكان يحظى بأحسن معاملة، ويتمتع بامتيازات لا يتمتع بها أحد غيره.

تعاركت عدة مرات مع هانس بسبب القطة، إذ كان يتعمد أن يرمي بها عليّ أو ينيمها في فراشي.

ذات يوم اختفت القطة، كنا أنا وهانس في البيت حين غادرته العجوز لبعض الوقت، فلما عادت ولم تجد قطتها، هجمت عليّ وسألتني بعداء أين وضعتها، أو ماذا فعلت بها. ولما أنكرت معرفتي، وأنني لم أرها، دخل هانس في تلك اللحظة، ونظر إليّ وابتسم، أكدت ابتسامته ونظرته أنني لا بدّ أن أكون وحدي المجرم، وهكذا ستطاع أن يصل إلى غايته.

فبعد ثلاثة أيام، ونتيجة تحقيقات البوليس وتأكيد الشهود، وهما العجوز وهانس، وجدت نفسي على الحدود النمساوية، وهناك أكملت دراستي، ولقد علمني هذا الدرس كيف يجب أن لا أغضب، أو على الأقل ألا أظهر غضبي إلا في الوقت المناسب.

هذا الحديث كله كان يحكيه الحكيم لنفسه، ليقنع به، ليصل إلى حالة نفسية تمكنه من مواجهة المرحلة القادمة. ومطيع الذي بدا مقتنعاً، أو تظاهر بذلك، قرر بينه وبين نفسه أن ينتظر فترة قصيرة، فإذا صلحت الأمور واستقامت كما يتمنى أو كما يريد بقي وإلا فلن يكلف نفسه خوض معارك يرى أنها لا تعني شيئاً بالنسبة له، أكثر من ذلك يعتبر أن خاله يغامر أكثر مما ينبغي ويذهب بعيداً في هذه المعارك الخاسرة بكل تأكيد.

لم يتأخر الحكيم ليوقف عمله في النظرية. صحيح أنه بدا، خلال فترة من الزمن، مقتنعاً وراضياً، إذ استطاع الوصول إلى القوانين الأساسية، إلا أنه بعدم تطبيقه لهذه القوانين شعر بالهبوط، أو ربما بما يشبه خيبة الأمل، لأن النظرية، أية نظرية، لا تعني شيئاً إذا لم تأخذ أبعادها في التطبيق والممارسة.

أما بعد تسمية سكرتير جديد للسلطان دون استشارته، ودون إشعاره، فقد اعتبر أن الأمر أكثر خطورة مما قدر في البداية، لأن همساً بدأ يدور أيضاً حول احتمال إقامة مستشفى خاص بالقصر، وأن الدكتور مؤيد الدقاق قد استدعي لمقابلة السلطان مرتين في يومين متوالين، دون أن يذكر شيء عن الأمر، لذا تحسب الحكيم وأصبح أميل إلى الخوف.

أما حين سُمّي مؤيد الدقاق طبيباً للقصر فعلاً، فقد قرر الحكيم أن لا يعتبره خصماً أو منافساً «لأنه مجرد طبيب. أما أنا فشيء آخر: أنا صديق السلطان وصفيّه، وبيضاته بين يدي.. يضاف إلى ذلك أني المستشار الذي يفكر نيابة عنه.. والنديم وكاتم الأسرار. وقبل كل هذا وذاك أفهم كيف يفكر، وماذا يريد.. وهذه هي بيضة القبان».

أول ما فعله الحكيم، وقد صمم على ذلك بعناد الأطفال، أن يكون صديقاً للطبيب الجديد. «إذا أرادوا أن يأتوا لي بخصم، أن يضعوا سكيناً في خاصرتي، كما قال لي أبو مصباح، فسوف أثبت لهم أنهم لم يحسنوا الاختيار، وأني قادر على انتزاع السكين من الخاصرة كما يفعل الدراويش».

الشيء الآخر الذي فكر فيه، وما لبث أن نفذه بهمة وكثير من المكر،

أن يكون صديقاً لمن يعتبرهم أصدقاء العجرمي، لأن صداقته للسلطان لا تعني العداء أو نسيان الآخرين. وإذا شعر بالندم لأنه لم يلتفت إلى إقامة الصلات الوثيقة معهم خلال السنين الماضية، ما عدا الأمير ميزر والأمير راكان، فقد قال لنفسه بنوع من العزاء «الوقت لم يتأخر». وتذكر ما سمعه من بدري المدلل، أن لا يضع بيضه كله في سلة واحدة، قال وهو يضحك «هذا الأمي، الثرثار، يعرف أكثر مما يعرف العلماء. ولا بدَّ أن تكون التجارب علمته والأسفار فتحت عينيه» أما الخصوم الذين بدأوا حربهم ضده فيجب ألا يشعرهم أنه تلقى الإنذار أو أنه يعرف شيئاً أو يستعد لشيء!

العجرمي يحتاج إلى عجرمي آخر، هكذا قال له مطيع قبل فترة طويلة، وهذا ما يجب أن يكون. وابن شاهين الذي زاره مرتين، وأشار إشارات قريبة من الوضوح أنه بحاجة إلى أنواع من المقويات تساعده وتقويه، والحكيم الذي تظاهر أنه لم يفهم بوضوح، قال في محاولة لاسترضائه أنه سيوصي به طبيباً من أصدقائه، اختصاصياً بأمراض الشيخوخة، لكي يتولى «تظبيطه». ابن شاهين أصبح الآن ضرورياً، والمقويات التي يجب أن تعطى إليه ليست لتمكينه من مواجهة الزوجة السادسة فقط، وإنما لمواجهة العجرمي أيضاً وقبل كل شيء.

لم يبعث وراءه، ولم يسأل أحداً عنه مباشرة. انتظر إلى أن جاء يوماً إلى القصر. وفي حضرة السلطان، وبطريقة فيها من البراعة أكثر مما فيها من المكر، سأله عن بعض أمور الدين، وابن شاهين لم يكن يحتاج إلا لمثل هذه الأسئلة لكي يفيض ويجود، إذ ما كاد يسأله حتى تحدث كما لو أنه يخطب الجمعة، وأتي بالآيات والأسانيد. والحكيم الذي كان يهز رأسه مؤيداً وخاشعاً، قال في لحظة تخيرها تماماً:

ـ السلطنة بحاجة إلى كلية للشريعة، وبحاجة إلى علماء أفاضل، من أمثالك يا أبو محمد.

كانت هذه البداية، وكان هذا هو الطعم، ولذلك بدل أن يركض الحكيم وراء ابن شاهين حصل العكس. فلم تمضِ إلا أيام قليلة على هذا

اللقاء، حتى جاء ابن شاهين لزيارة الحكيم في القصر، وبعد بعض الأحاديث الجانبية استفسر منه عن «الفكرة السامية» التي اقترحها، ما هي تماماً، وكيف يجب أن تكون، والحكيم الذي أفاض كثيراً في شرح وتوضيح اقتراحه، أكد أنه لو نفذ فسوف يخلق أجيالاً مؤمنة، ويقيم صروحاً للدين على أسس قوية وثابتة، وليس كما هو الحال الآن «حيث يبشر الجهلة بالدين ويحمل لواءه الذين لا يفهمون أصوله». أما في الزيارة الثانية، والتي تمت بعد أسبوعين، فلم يقتصر الحكيم في حديثه على كلية الشريعة فقط، بل وسأل ابن شاهين عن صحته، بطريقة معينة وابتسم، ولم يتردد في لحظة مناسبة من أن يفتح الدرج ويسحب زجاجة دواء، ناولها لابن شاهين وهو يضحك:

ـ المقوي اللي طلبته مني قبل مدة. يا أبو محمد، ما نسيته، لكن ما كان تحت يدي. الآن.. هذا هو، جربه وخبرني.. وادع لي لأن دعواتك مستجابة.

وعاد ابن شاهين شاباً في حربه وقناعاته، وفي لياليه أيضاً. لم يكن بحاجة إلى من يحرضه، إلى من يقول له ماذا يجب أن يفعل، والحكيم بعيد، يراقب، يسمع. أما موران التي كانت تحب المطر والحرب فقد استعاضت عن تأخر الأمطار هذه السنة بمشاهدة صراع الديكة. كان الصراع يجري في كل وقت وفي كل مكان: «العجرمي لا يعرف الألف من العصا. وإذا ناقصه شيء جلال على ظهره وتقول له حي» «ابن شاهين خبلته خصيانه، وبعد ما لهف الدنيا يريد يلهف الآخرة. لكن يخسا» «قولوا للعور: أخاف يصير الدرب فوقاني. ارموا له حذيانه وما عليكم، الحمار يدل مربطه» «وقولوا للشويهين: الحية ما تنحط بالحثل، وإذا دفت يشوف ونشوف» «العجرمي يقول عني حية؟ قولوا له الحية التي ترعى وتفري أحسن من حيات التبن».

وتطول المعركة وتتشعب. الحكيم يتظاهر أنه لا يدري، فإذا سمع أبدى استغرابه ودهشته، وإذا هدأت المعركة يوماً يرمي كلمة لكي ينبري مائة من أجل إضرامها. فالقصص التي تنتقل بين حي القلعة وحي سبيع،

والتي تنتقل بين سوق الحلال والعوالي تصل بسرعة إلى المقاهي والبيوت، وبانتقالها تتزايد وتكبر مثل زوابع الصحراء، خاصة وأن للرجلين من المزايا والصفات ما يغنيهما عن التحريض. ومع ذلك فإن أهل موران يضيفون الكثير وهم ينقلون القصص، ويجعلون كل واحد من الاثنين يلتهب ويتألق إلى درجة الاشتعال الكامل، ثم الاحتراق.

أما تلك النكت البذيئة التي يحفظها ابن شاهين، وقد رواها في مناسبات كثيرة، فقد حُوّرت تماماً وأصبحت تعني العجرمي وحده، فكان الناس حين يسمعونها يضحكون من قلوبهم، وكأنهم يسمعونها لأول مرة. والعجرمي يرد على النكت والقصص التي تروى بالشتائم والغضب. ويبالغ إلى درجة أنه يضع الجميع في سلة واحدة، الذي ينقل القصص والنكت مثل من يسمعها، مثل من يضحك لها، وتتوالى خسارته للمعركة يوماً بعد آخر!

ذات ليلة، وقد سمع السلطان بعضاً مما يقال، فضحك كثيراً، سأل الحكيم أي رأي يرى في هذا الذي يجري، فرد بكثير من الهدوء والحرص:

ـ الاثنان من الأفاضل، يا صاحب الجلالة، مثل أصابع اليد، لا يمكن أن تميز بين واحد وآخر!

وبعد قليل:

ـ وموران تحتاج إلى كلية للشريعة، فإذا كان رئيسها ابن شاهين اليوم فغداً يموت ويتركها للعجرمي وتنتهي المشكلة.

وقامت في موران كلية للشريعة، وكان أول رئيس لها ابن شاهين، لكن ابن شاهين عاش وعمر طويلاً، والعجرمي لم يتوقف ولم يسلم.

قال الحكيم لمطيع في وقت مبكر، وبطريقة أقرب إلى النشوة، وهو يشهد الصراع بين الديكة:

ـ ما قلته صار، يا خالي، لا يفل الحديد إلا الحديد!

ولما نظر إليه مطيع باستغراب وتساءل، أضاف:

ـ قلت لي في يوم من الأيام: لا يحل مشكلة العجرمي إلا عجرمي مثله، وأنت شايف وسامع بما هو حاصل بين العجرمي وابن شاهين!

فوجئ مطيع تماماً ولم يقدر أن خاله وراء هذا الذي يجري بين الرجلين، رد بانفعال:

ـ فخار يكسر بعضه. واحد أخرا من الثاني.

ـ هذا ما يجب أن تفهمه...

وبدأ الحكيم يشرح وجهة نظره من جديد وبأسلوب آخر:

ـ إذا كان العيساوي يطالبك أن لا يدخل كأس ماء عند السلطان إلا بمعرفته فاترك له الماء كله. وإذا كان يريد أن يحدّث السلطان عن أنساب أهل الفلا فلا تتدخل أبداً. وإذا كان يتصور أن قضاء أطول وقت مع السلطان هو كل ما يريد فلا تتنافس معه. المهم أن تعمل أشياء لا يستطيع العيساوي أو غير العيساوي أن يعملها.. لا تنافسه في المكان والزمان الذي يريد وحيث هو قوي. دعه يركض وراءك وينافسك في القضية التي لا يعرفها ولا يقدر عليها. اتركه يركض حتى يتعب، وعندما يتأكد أنه أضعف منك يخضع لك، وعليك أن لا تذلّه إلى درجة تخرجه عن طوره.

بدت الفكرة مغرية لمطيع، لكن لم يتصور كيف يمكن أن تطبّق، أو لم يتصور لها شكلاً عملياً، وفي محاولة لأن يحمل خاله على أن يجعل الفسفور في عقله يشع، كما يحب الحكيم أن يقول في لحظات التجلي، قال له باستفزاز:

ـ يا خالي، يا أبو غزوان، العيساوي ما هو مثل العجرمي.

ـ اتركك من الكلام الفاضي، العيساوي أصغر من رجل قملة، وأنت في شبر ماء تغرق!

ـ أنا؟

ـ أي نعم.. أنت.

ـ والله غلطان يا خالي.

ـ لا يا سيدي..

ـ إذن لا تعرفني!

ـ حافظك عن ظهر قلب!

وضحك الحكيم بعصبية، ثم أضاف:

ـ اسمع يا خالي: المثل يقول كل واحد بعقله راضي، برزقه ما راضي. العيساوي مثل العجرمي وأصغر منه. مستعجل، طاير. بعدما سمع هو وعائلته أن الدنيا تغيرت، وأن باب الرزق عن هذا الطريق ركضوا. اتركهم، لا تقف في وجوههم، انتظر في الزاوية، انتظر الوقت المناسب. حتى إذا أخطأوا، إذا وقعوا أضرب، لا . . الأفضل والأحكم أن يكون غيرك من يضرب، ويجب أن تكون الضربة قاتلة.

بدا مطيع فرحاً مثل طفل، وكأنه وصل إلى ما يريد، قال وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ والله لأفرج الناس عليك يا ابن العيساوي!

ـ لأ . . لأ يا خالي، إذا بدأت بهذه الطريقة ما راح تصل.

هكذا رد الحكيم وهو يبتسم، وبعد قليل:

ـ ازرع، يا خالي، في كل زاوية لغم، وفي كل كلمة لغم، ولا بدّ أن يصطدم الخروف بلغم في يوم من الأيام ويتفجر، وأنت لا من شاف ولا من دري، وهذا ما قلته لك قبل فترة عن الخط المستقيم!

ولم يته الخال وابن أخته في مناقشات عقيمة أو في خلافات كلامية. انصرفا إلى تخطيط صبور، واعتمدا خطة متشعبة كأنها شبكة العنكبوت، فإذا أفلت العيساوي من خيط فلا بد أن يشتبك بخيط آخر، ولا بد أن يقع.

أدرك الحكيم منذ وقت مبكر، أن موران تنتظر مستقبلاً كبيراً، وهذا الذي دعاه إلى المجيء، لكن ما جعله مرتبكاً بعض الشيء، وأحياناً نادماً، أنه لا يفهم الناس هنا بالمقدار الكافي. فبشر هذه المدينة يختلفون كثيراً عن البشر في حران أو في أماكن أخرى. ورغم اطمئنانه إلى نظريته، والتي يمكن أن تفسر أي شيء، فقد لام نفسه أنه لم يجسدهما بالممارسة الحية وبالتطبيق اليومي، الذي يمكن أن يغنيها، على ناس هذه المدينة. ومثلما تفتح ذهنه من كلمات أو تصرفات، قد تبدو صغيرة أو ثانوية، سمعها أو صدرت عن الآخرين، وانطلق منها، فقد وجد نفسه الآن يهتم بأمور عديدة في آن واحد: فكلية الشريعة التي قامت بهذا الاسم، ما لبثت أن تغيرت بناء لاقتراح الحكيم. أصبح اسمها: كلية السلطان خزعل للشريعة. والشارع الرئيسي الذي يربط المدينة بالمطار أصبح اسمه شارع السلطان خزعل، بناء لاقتراح الحكيم أيضاً. أما المدينة الجديدة التي بدأ تشييدها قريباً من وادي الرها فقد سميت بشكل عفوي مدينة السلطان خزعل، لأن السلطان الذي وضع حجر الأساس قال للمشرف على المشروع وهو يضحك، أنه يترك له وللعاملين معه أن يطلقوا عليها الاسم المناسب! وهكذا، وقبل أن تنقضي السنة الثالثة من ولاية السلطان، كان اسمه قد أطلق على أماكن لا حصر لها، في موران والمدن الأخرى، فالمدارس التي باسمه توجد في كل مدينة وقرية، وكذلك الشوارع والساحات.

وتتويجا لهذا النشاط الذي بدأه الحكيم، بالتنسيق مع مطيع، أعطيت أهمية إضافية للإعلام «هذا باب، يا خالي، ما حدا له قدرة أن ينافسنا فيه»

ولذلك تم اختيار مكان جديد للجريدة والمجلة، في ساحة الروض. وبدل المطابع القديمة أخرى جديدة ومتطورة إلى أقصى حد، وقد تولى راتب تأمين هذه المطابع بعد زيارة لألمانيا. ولم يقتصر نشاط هذه المطابع على إصدار الصحف، فقد تجاوزتها إلى مجالات تجارية عديدة وهامة.

الأمراء، إخوان السلطان وأقرباؤه، الذين تخوفوا في البداية من الحكيم والمستشارين الآخرين، ما لبثوا في هذه الفترة أن نسوهم، إذ شغلتهم أمور أخرى أكثر أهمية. فالأراضي حول وادي الرها، والتي كان قسم منها مزابل لموران، والأقسام الأخرى مراعي وأسواق للإبل، أصبحت هدفاً مباشراً للتنافس بينهم: من يضع يده على القسم الأكبر منها، ومن يضع يده قبل الآخرين؟ وكذلك حصل أيضاً بالنسبة لعدد من الشركات.

ومطيع الذي بدأ بذكاء في إبراز صورة السلطان كل يوم في الجريدة اليومية، وكان يوعز ويرتب هذا الموضوع بكثير من الاهتمام والحرص، بدأ أيضاً في إظهار الأعمال الخيرية والزيارات الرياضية التي يقوم بها عدد من الأمراء. كان يفعل ذلك بالتنسيق الكامل مع الحكيم، الذي استهوته هذه اللعبة، وبدأ يفكر في الأمر كثيراً، وجمح به خياله، ففكر أن يكتب مقالاً أسبوعياً، أو كل بضعة أسابيع، يتناول بالشرح والتحليل نظرية المربع. وفكر أيضاً أن يكتب مذكراته. لكن لم يتوقف عند هذه الأمور طويلاً، «لأن المسألة الآن أن نمكّن أوضاعنا، أن نخلق روابط «أبدية» ويسرح في الخيال حين يردد كلمة «أبدية» أكثر من مرة، أنه لا يعرف ولا يحدد لها معنى، لكنه يحسها قوية في قلبه ونفسه. ويحس أن الطريق لتحقيق هذه «الأبدية» الآن، لا تعني الحديث عن النفس بقدر ما هو الحديث عن الآخرين: السلطان والسلطة. وما دام أخوة السلطان يشكّلون جزءاً من السلطة، ولا يستطيع أن يغفل أو يهمل هؤلاء، فلا بدّ إذن من أن يتحدث عنهم. أن يضعهم في الصورة، رغم معرفته بالكثير من التفاصيل، سواء تلك المتعلقة بموقف أو رأي السلطان بهم، أو رأيهم بالسلطان، لكن مع ذلك فالسلطة في النتيجة لعبة معقدة، ويجب أن يلعبها ضمن شروطها. وإذا كان قد أخطأ خلال الفترة الماضية، وترك للآخرين أن يتقولوا عليه

وأن يفتروا، أمثال العجرمي وابن فريح وأن يحرضوا، فقد كان ذلك خطأه بالذات، لأن الإنسان، أي إنسان، من لحم ودم، أي أنه تطبيق لنظرية المربع، وليس السلطان وحده تطبيقاً لهذه النظرية، ولذلك فقد ترك، سهواً، بعض الأمور تفوته، ولا بدّ أن يصلحها الآن.

أما نظريته فلا يمكن أن يبددها من خلال مقالات صحفية، أو أن تظهر مشوهة ومجزأة. يجب أن يعتني بالأمر إلى أقصى حد، أن يبذل جهداً متواصلاً ومتقناً من أجل إخراجها إلى الناس في أحسن حلة، لكي يكون لها وقع القنبلة. أما أن يتحدث عنها السوقة، والذين يتعلمون القراءة والكتابة، وأن تصبح مدار أسئلة واستفسارات، مثل أية قضية أخرى، فإنه لا يحتمل ذلك ولا يطيقه. قال لنفسه بنوع من الجد الأقرب إلى الحزن «من الجلال واللائق أكثر أن تظهر النظرية بين دفتي مجلد، أو مجموعة من المجلدات لئلا تصبح أشلاء، أو تصبح مضغة في أفواه الصعاليك وانصاف المتعلمين».

وهكذا بدأت تنشأ علاقات جديدة بين الحكيم والأمراء، وكذلك الحال مع مطيع أيضاً. صحيح أن هذه العلاقات نشأت عرضاً، أو هكذا أريد لها أن تظهر، لكن الحرص الذي أبداه الطرفان على قيامها واستمرارها لا يخفى، فمباراة الفروسية التي جرت في السنة الثالثة في موران، بعد أن كانت تجري في الصحراء، بعيداً عن أعين الناس، ودون رغبة بمشاركتهم، لم تلبث حتى انتقلت إلى موران، وكان الأمير ملحم هو الذي يرعى هذه المباراة. أما الحكيم ومطيع فقد كانا من أوائل المدعوين. والأمير الذي بدا مضيفاً عذباً، وبذل جهداً واضحاً في تعريف كبار الزوار بعضهم إلى بعض، وعلى الخيول، قدر، بصوت عال، احتمالات معينة للمباراة، وأشار بشكل سريع إلى عدد من الخيول التي يملكها، وكيف أنها «ركضت في مصر والاسكندرية وبيروت. وقد فازت في كل المرات».

دَوّن مطيع بعض الملاحظات، واستفسر من الأمير حول عدد الخيول والسباقات التي فازت فيها، ثم شارك مشاركة متحمسة أثناء السباق. أما في اليوم التالي فقد عبر عن ارتياحه وتقديره من خلال تقرير نشره في الجريدة

اليومية بتوقيع «مراقب»، وأرفقه بعدد من الصور التي ظهر فيها جميعها الأمير ملحم.

ومن الأمير ملحم إلى الأمير فواز، إلى الأمير راكان، إلى الأمير مناور إلى الأمراء الآخرين الأقل أهمية والأصغر سناً. فإذا كان الأمير ملحم قد اهتم بالخيول وشغلته عن كل شيء، فإن هواية الأمير فواز الرياضة. كان الأب الروحي للرياضة في السلطنة كلها، ولأنه قضى سنة وبضعة شهور بين القاهرة والاسكندرية، وشهد هناك المباريات ورأى مدى الاهتمام بها، ولأنه حاول عدة مرات في القاهرة ممارسة كرة القدم، لكن بدا له أنه لن يحسنها، ربما لتقدمه في السن، أو لأنه لا يقوى على العدو، كما كان يصرّ المدرب، فقد صعّد هذا الاهتمام ليكون مؤسساً لعدد من النوادي الرياضية، وليكون الأب الروحي والراعي للرياضة والرياضيين في موران.

وكانت للأمراء الآخرين أيضاً هوايات مختلفة، استطاع الحكيم بكثير من الصبر والمثابرة أن يعرفها أو أن يحزرها. فالأمير راكان معجب بشيئين اثنين: المسابح والعباءات. ولأن الحكيم عزيز على الأمير راكان، وقد دعاه عدة مرات إلى مزرعته خارج موران، وأبدى رغبته في محاورته حول قضايا اللغة والفقه، فقد توثقت العلاقة بين الاثنين، واقترح الأمير راكان، لكن دون إصرار، أن تتولى الجريدة اليومية إعادة نشر «الفية ابن مالك» لتعم الفائدة!

أما حين كانت وداد تعد نفسها لزيارة دمشق وبيروت خلال الشتاء ذاته، فقد أوصاها الحكيم على مجموعة من السبحات، كتب لها على ورقة أسماءها ولون خرزاتها وعدد هذه الخرزات، لئلا تنسى، وأوصاها أن تعطي الورقة لراتب «الذي يجب أن يخلقها من تحت الأرض، لأني موصي عليها من أعلى المراجع» وطلب منها أيضاً أن تحضر معها عباءتين «وبر أصلي، واحدة فاتحة بلون البلح أول نزوله والثانية غامقة بلون التمر، ولا تبخلي أبداً، يا أم غزوان، لأن كل شيء سعره معه» وضحك الحكيم وضحكت زوجته، وعندما استفسرت لمن سيهدي السبحات والعباءات رد وهو يقهقه:

ـ لصاحب النصيب!

وحين نظرت إليه مستغربة وضحكت، تابع:

ـ حتى هذه الساعة النية أن تكون الهدية للأمير راكان، لكن إذا رجعتِ بالسلامة، وكانت معكِ الوصية، نبيّت خيرة ونشوف من هو اللي يستاهلها!

وفي إطار إكمال الطوق، والوصول إلى أبعد نقطة، قال الحكيم ليقنع نفسه وزوجته أيضاً، وقد خرجت كلماته عميقة، وكأنها صادرة من القلب:

ـ أتذكر حديثاً للرسول عليه السلام، لا أتذكر كلماته بألفاظها لكن أتذكر معناها، قال: تهادوا فإن الهدايا تؤلف بين القلوب، أو ربما قال: تقرّب بدل تؤلف. نعم إن الهدية لا تخلق المحبة فقط ولا تولد الإلفة فقط، إنها تفتح القلوب وتجعلها مستعدة لفهم وتقبّل أصعب الأشياء وأبعدها.

وتوالت هزات رأس الحكيم، وبعد قليل أضاف بطريقة تقريرية صلبة:

ـ وبسفرتك، يا وداد، لا تنسي أن تحضري معك ما تستطعين حمله، ومن كل شيء إثنان، كما فعل نوح عليه السلام، حتى إذا احتاج الإنسان أن يقدم هدية وجدها تحت يده، فلا يخجل ولا يحتار.

وداد التي قامت خلال سفرتها السابقة بإحضار ما أوصتها نساء القصر عليه، وأشياء أخرى فكرت حين شرائها أن تقدمها لهذه الأميرة أو لتلك، لكنها ما لبثت أن تناست الموضوع بعد وصولها إلى موران، ثم نسيته فعلاً. فإذا عادت إلى تذكره مرة أخرى، أو إذا اصطدمت بحاجة من الحاجات التي جلبتها معها كهدايا، كانت تقول لنفسها: «ما عندهم يكفيهم ويزيد» وتبتسم وهي تنظر إلى الهدية، ثم تطويها وتعيدها إلى مكانها.

هذه المرة والحكيم يشجعها أن تجلب معها أكبر كمية من الهدايا، ويأتي بأحاديث عن الأنبياء والرسل يبدو لها الأمر غريباً. سألت في محاولة للتأكيد:

ـ قولك، يا أبو غزوان.. في تقدير لهذي الهدايا عند الجماعة؟

ـ الهدية أقصر طريق للقلب... يا وداد!

وابتسم، وبعد قليل:

ـ واللي بده يكسب لازم يفتُّ، لازم يعطي ويهدي.

هذا الدرس الذي حفظه الحكيم جيداً من بدري المدلل نفذه بكثير من الذكاء والكياسة، فلم يسرف في تقديم الهدايا، ولم يتعمد ارتفاع أسعارها دائماً، ولم يشر إليها بعد أن قام بتقديمها. كان يعتمد خطة محكمة وشديدة الدهاء. وكان أغلب الأحيان، ينظر بعيني صقر ويسمع بأذني حمار ويشم كالقطة. فالأمير الذي ينظر إلى السبحات في أيدي الآخرين، ويسأل عن أنواعها ومزاياها، لا بد أن يتلقى من الحكيم ذات يوم سبحة تفوق كل ما عنده أو ما رأى. والأمير الذي تهمه العطور والبخور ويبدو حريصاً على مظهره ومنظره، ستصله فجأة حقيبة صغيرة، متقنة الصنع، وفيها عدد من زجاجات العطر، وقد قام الحكيم بترجمة الكلمات الأجنبية. كان يكتب بخط أنيق، خلافاً لطريقته في كتابة الوصفات الطبية: «بعد الحلاقة» «عطر خفيف للنهار» «عطر لليل، للنوم...» «مقوي للجلد» وهكذا.

أما أولاد الأمراء الذين لم تتكون لهم هوايات بعد، فقد تذكر الحكيم عدداً منهم، ولذلك جلب أحذية رياضية وأقلام حبر فابر وآلات تصوير كوداك، وجلب مرة أو مرتين مسدسات حربية مفضضة المقابض وصغيرة الحجم، وقد تعمد عرضها أمام السلطان، لأنه لم يكن بعد متأكداً ما إذا كان راغباً بواحد منها، فلما ظهرت أسنان السلطان الأمامية الكبيرة من الفرح، ورازها مرتين أو ثلاث مرات بيده اليمنى وصوّب، ثم رازها باليسار، حين تأكد الحكيم أن هدية من هذا النوع تناسب جلالته، أحنى رأسه قليلاً إلى الأرض وقال بصوت حمّله مقداراً كبيراً من التواضع:

ـ ترددت، يا صاحب الجلالة، في تقديمه لجلالتكم، لأن مقامكم أسمى من ذلك، أما إذا قبلتموه فإنني لن أنسى ذلك مدى العمر.

لكن كلما برع الحكيم في اختيار الهدايا، سواء من ناحية نوعها أو توقيت تقديمها، كان يصطدم بالتحدي الذي يمثله بدري المدلل. فقد تخصص الحكيم بالأمراء، وبالأمراء المهمين بشكل خاص، في الوقت الذي لم يقدم بدري الملل هدية لأمير، وربما لم يفكر بذلك، لكن مع

ذلك فإن الهدايا التي تخرج من صندوق بدري، بخفاء ودهاء، كما يفعل الساحر، لا تلبث أن تصبح الموضوع الوحيد للحديث، حديث الصغار والكبار.

فالمسدسات الزائفة، مسدسات الفلين التي حملها معه خلال سفرة قصيرة قام بها إلى بيروت، من أجل شراء أنواع من العطور والمقصات لصاحب الجلالة، وبعد أن قام بتوزيع الهدايا على أبناء السلطان، خلقت من الضجة والخوف والأهمية أضعاف ما خلقته المسدسات الحربية ذات المقابض القصيرة المفضضة التي حملها الحكيم. أما تلك اللعب التي كان بدري يحرص على شرائها من صديق له في بحمدون كل صيف، والذي يوصيه أن يجمع له منها أكبر عدد، وبأنواع مختلفة، فكان لا يخرجها دفعة واحدة، وإنما يتخير وقت إخراجها، ويتخير أيضاً لمن يعطيها. كانت هذه اللعب تشغل القصر كله، ثم تنتقل إلى قصور الأمراء فتشغلها، ولا تلبث أن تشغل موران كلها. فالحيات المصنوعة من المطاط، والعقارب التي تتحرك بالنابض الآلي، ثم أنواع الكبريت التي تحرق وتفرقع وتخرج منها ألوان أو روائح من نوع أو آخر، استهوت الكبار قبل الصغار، بل وأصبحت تملأ ليالي السهر الطويلة في قصر الغدير وفي القصور الأخرى، وكثيراً ما تولدت منها قصص وأحاديث للأيام التالية: كيف جلس ابن شاهين على حية.. ثم قام فزعاً وهرب من المجلس! وكيف أوقدت لابن خميس سيكارة بثقاب يخرج رائحة غير زكية، وكيف اشتعلت لحية ابن المشاط وهو يوقد غليونه الحجري.

أما عندما جاء بدري بالفتاش والأسهم النارية، ووزعها قبل ثلاثة أيام من عيد الجلوس، فقد جعلت تلك الليلة من ليالي موران لا تنسى، فبعد أن بدأت أصواتها ترتفع، وبعد أن ملأت سماء موران بتلك الألوان، ولم يبق أحد إلا وشاهدها أو انتظرها، حتى تبعتها أصوات الرصاص، وقد حصل هذا دون تدبير ودون انتظار، بحيث تحولت الليلة إلى مهرجان استمر حتى ساعات الصباح الأولى، وقد قدر الكثيرون احتمالات وآمالاً بعيد الجلوس الجديد.

وإذا كانت الأسهم النارية قد خلقت هذا التحريض الذي استتبع استعمال كل سلاح في موران، فقد فكر بعض العسكريين أن يستعملوا أسلحة أكبر تعبيراً عن الفرح والمشاركة، إلا أن توصية الحكيم، والتي لم تتأخر كثيراً، في أن يكون الجيش والشرطة في حالة طوارئ، هكذا جاءته الفكرة، فوتت على هؤلاء أن يستعملوا أسلحتهم!

وهكذا يبدو التحريض قوياً لا يقاوم للحكيم، رغم أن بدري المدلل لم يفكر بذلك، ولم تخطر بباله لحظة واحدة أن يستفزه أو يتحداه، إلا أن واقع الأمر كان على هذه الصورة. والحكيم الذي كان يثني على بدري، ويعتبره ضرورياً بالنسبة له، كان يغتاظ «من هذه القوة الشيطانية التي تجعله يتصرف وكأنه إبليس».

أما عندما قام بدري المدلل بتزويج اثنتين من بناته الثلاث، واحدة إلى رئيس حرس السلطان، والثانية إلى نائب قائد شرطة موران، فقد أحس الحكيم بتحدٍ مباشر، قال لنفسه وخرج صوته عالياً نزقاً:

ـ ابن الحرام علمناه على الشحادة سبقنا على الأبواب.

في اليوم التالي لحفلة الزواج، وكان الحكيم من أبرز حضورها، بناء على إلحاح مدير الشرطة، والذي قال له أنه لا يقبل أن يكون نائبه أقل من رئيس الحرس، قال الحكيم لنفسه، وبصوت عالٍ وبنوع من السخرية:

ـ الظاهر، ابن الحرام بدري ربطها وحزّم عليها، صار عم البدو والحضر سوا، عن يمينه مدير الشرطة وعن يساره رئيس الحرس.

وضحك بغيظ ثم أضاف:

ـ والله يسترنا من الثالثة.

وفي تلك الليلة بالذات قرر الحكيم أن لا يتفوق عليه أحد!

سمير قيصر، أو الأستاذ قياصر، كما يطلق عليه الحكيم بعض الأحيان مداعباً، وصل إلى موران ضمن مجموعة من الصحفيين الذين تعاقد معهم مطيع أثناء زيارته إلى القاهرة، أما الذي رشحه فهو راتب، لأن علاقة، أساسها الصدفة، نشأت بين الاثنين قبل بضع سنوات، حين كان راتب يقضي جزءاً من وقته في الاسكندرية.

ما كان وصول سمير قيصر موران ليثير أي اهتمام أولاً، أو أي تساؤل أو خلاف بعد ذلك، لولا المذكرة التي قدمت من السفارة الأميركية بعد بضعة شهور من صدور جريدة البادية، فقد تضمنت تلك المذكرة إشارة إلى ثلاثة مقالات، نشرت في أعداد متفرقة من الجريدة، وكان اثنان منها موقعين باسم سمير الصريح، والثالث بالأحرف الأولى من اسمه، وقد أشير بخطوط حمراء إلى الفقرات التي اعتبرت خطرة. لم تكتف السفارة بذلك، قدمت معلومات مستندة إلى مصادر مؤكدة، كما قال مستشار السفارة باول أندروس، تشير إلى «أن المدعو سمير قيصر سبق أن قضى عدة سنوات في أحد السجون المصرية لأسباب سياسية».

هذه المعلومات والملاحظات ولّدت قلقاً أقرب إلى الخوف، وكانت تكفي لترحيل أي شخص من السلطنة، لكنها، مع ذلك، لم تكن كافية لترحيل سمير، لأنه جاء عن طريق راتب أولاً، ولأن علاقات وثيقة نشأت بينه وبين مطيع والحكيم بعد ذلك. كما أن جريدة البادية ما كانت لتصدر أو لتصبح بهذه القوة والأهمية لولا المساهمة الكبيرة التي يقدمها. ولذلك ما كادت ملاحظات السفارة تقدم، وما كاد الحكيم يفاتح مطيع بالأمر ويتساءل عن الموقف الذي يجب اتخاذه، بما في ذلك احتمال ترحيل

سمير والاستغناء عنه، حتى صرخ مطيع بما يشبه الاستنكار.

ـ قبل ما يرحل أرحل قبله، هذه القضية حطها ببالك... يا خالي.

وحين تساءلت عينا الحكيم بدهشة تابع مطيع:

ـ يا خالي صار أكثر من ثلاثة شهور ونحن نحضّر لإصدار مجلة «الواحة»، وكل شيء قائم على أكتاف سمير، «والبادية» لا يمكن أن تستمر إذا رفع يده منها.

هز الحكيم رأسه بموافقة وحزن، وهذا شجع مطيع لأن يقول:

ـ والمعلومات التي قالوها لك، يا حكيم، قديمة وفيها مبالغة...

وتغيرت لهجته:

ـ والرجل حكى لي عن هذه الأمور، وقال إنها جزء من تاريخ مضى وانقضى، وأنه نادم على إضاعة سنوات من حياته في أعمال سياسية صبيانية!

وبكثير من الدهاء والحيلة، إضافة إلى التلويح بالمخاطر التي تترتب على نشر مقالات مثل تلك التي أشارت إليها السفارة، مع إغراءات تتزايد فترة بعد أخرى، بدأ سمير يكتسب صفات جديدة، وبدأ يصبح شخصاً لا صلة له بالذي كانه. صحيح أن هذا نتيجة قناعة داخلية عميقة، ونتيجة استعداد كامل، وربما كان يموه نفسه في الماضي، أكثر مما هو نتيجة النقاشات التي تعمد الحكيم إثارتها معه، خاصة وأن الاثنين كان يروق لهما أن يناقشا الأمور الفلسفية، خلافاً لمطيع «العملي»، كما يصفه الحكيم، «لأننا نصدر عن نفس النبع الذي هو أصل الينابيع كلها: الفلسفة».

أما حين زار راتب موران وسأله الحكيم بما يشبه العتب كيف أنه لم ينبّهه ولم يذكر له شيئاً عن هوية سمير السياسية وعن سجنه، فقد رد راتب وهو يضحك:

ـ الله يخليك يا حكيم، الرجل طلق ماضيه كله وحرام أن نذكّره، أو أن نخرج هذه الجثة، من القبر ونحطها في وجهه!

ولما استخرج الحكيم قصاصات الجريدة وأشار إلى الخطوط

الحمراء، وقال إنها أثارت السفارة الأميركية، فقد رد راتب بضيق:

ـ يا سيدي حط بالخرج.

وبعد قليل:

ـ الأميركان يخافون من خيالهم، يخافون من كل شيء لونه أحمر، ولا يحبون أي إنسان له ماض.

وزفر فخرج صوته مختلفاً:

ـ وأنت يا حكيم لا تحتاج لمن يقول لك أن واحداً له ماضٍ وتنكر لهذا الماضي أفضل ألف مرة من واحد يريد أن يبني أمجاداً على ظَهورنا.

وغمز راتب بعينيه وقال وهو يبتسم:

ـ وأنا ما عدت ولد يا حكيم، وغير مستعد أن أورطك أو أورط نفسي، والأيام بيننا.

وبعد بضعة أيام من هذا الحوار، وحين كانوا على مائدة الطعام والحكيم ينبه ابنه الصغير إلى ضرورة أن يمسك السكين بيده اليمنى «لأن اليمنى هي الأقوى، وهي المباركة». علق راتب ضاحكاً:

ـ الآن فهمت...

فلما تطلع إليه الحكيم متسائلاً تابع والضحكة تملأ وجهه:

ـ لأن سمير يستعمل يده اليسرى ظننت أن كل شيء فيه يساري، وأنه سيبقى كذلك.

رد الحكيم ضاحكاً:

ـ يا أخي درهم وقاية خير من قنطار علاج.

ـ لا تخف يا حكيم، اطمّنك وأنا مسؤول: الرجل مستعد أن يكتب بأكثر من يده اليمين!

وضحكوا جميعاً بنوع من المتعة!

ولم تكذب نبوءات راتب ومراهنة مطيع، فالسفارة ذاتها، وأثناء إحدى المناقشات حول الصحافة ودورها في المرحلة الراهنة، أشارت بكثير من الارتياح إلى «النهج الواضح» الذي يطبع صحافة موران ويجعلها رصينة،

قوية، ومؤثرة تأثيراً واضحاً في تعبئة الرأي العام حول العرش، وتأييد الأفكار المعتدلة والتمسك بالقيم الدينية والأخلاق» ولم يفت المستر باول اندروس، مستشار السفارة، أن يشير إلى مقالات عبد الهادي البكري والشيخ عثمان إسماعيل وأيضاً «مقالات سمير قيصر الأخيرة»، قال هذه العبارة وهو يبتسم بغبطة!

مطيع الذي وجد نفسه يغرق في هذا الجو، كان يقرأ نتائج عمله في وجوه الآخرين، خاصة القصر وما حوله. إنه يريد صحافة مدوية، تخطف الأبصار، ولذلك لا بدّ من حدث جديد ومثير كل يوم، لأن من شأن هذه الأحداث أن تستقطب. أما ما يقوله الحكيم عن الأسس الفلسفية، وعن المثل، فإنها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له إلا بمقدار ما يمكن ترجمتها إلى صيغ خفيفة مسلية تلفت الأنظار وتثير الاهتمام، وهذا ما جعله يركز كثيراً على القسم الفني، وبشكل خاص التصوير «لأن موران اليوم تغرق في الأمية، وحتى المتعلمون، الذين يقرأون ويكتبون، ليس لديهم الوقت لأن يغرقوا في التحليلات الطويلة، أو في الكلام النظري الذي لا يؤدي إلى نتيجة، ولهذا يجب أن تعتمد الصحافة الحديثة على الصورة، على الشيء غير المألوف، وهذا وحده مقياس النجاح».

ما يتصوره مطيع أو يفترضه، وما يحاول الوصول إليه أيضاً، ليس نتيجة اجتهاد، فهو لم تكن له صلة بالصحافة في يوم من الأيام، ولكن من خلال الأفكار التي سمعها أثناء التحضير لإصدار الصحف، والمناقشات التي جرت أمامه في أماكن عديدة حول الصحافة التي يجب إنشاؤها أو الصحافة المطلوبة، إضافة إلى ما يلاقي هوى في نفسه، توصل إلى تكوين هذه الأفكار العامة، لكن دون أن يكون قادراً على تنفيذها شخصياً. ولذلك كان يكتفي بالتوجيه، ويقتصر دوره على الإشراف.

وهكذا نشأت تلك العلاقة الخاصة والحميمة بين مطيع وسمير، إذ شعر كل منهما أنه يكمل الآخر.

أما كيف قامت العلاقة بين راتب وسمير فإن الصدفة وحدها لعبت الدور الأساسي، فقبل بضع سنين، في الإسكندرية، وخلال موسم

الاصطياف، وكان راتب أحد نزلاء بنسيون روجينا تم التعارف، وكانت صلة قرابة تربط سمير بصاحبة البنسيون.

والصدفة أيضاً قادته مرة أخرى لأن يلتقي به في القاهرة، أثناء ما كان يجري البحث عن صحفيين للعمل في موران.

قال لهما، بعد أن استشاراه في إمكانية مساعدتهما للاتصال ببعض الصحفيين:

ـ تأسيس صحافة غير أن يعمل الإنسان في صحافة قائمة. التأسيس يحتاج إلى إمكانيات استثنائية؛ والأشخاص الذين يعرفون كيف يُنشئون دوراً صحفية كبرى قلائل جداً. طبيعي القضية ليست مستحيلة، لكن المهم أن تبدأ الصحيفة قوية، وأن تمتلك أسماء كبيرة، وهذا يجعلها في مركز القوة والتأثير.

وبعد أن يهز رأسه دلالة الأسف، ويكون كلامه قد استوعب، يضيف بلهجة حزينة:

ـ لدي تجربة في تأسيس الصحف، وقد سبق أن ساهمت بإنشاء عدة صحف، وكان بودي لو أستطيع مساعدتكم، لكن...

وحين تتطلع إليه بعيون يتابع:

ـ لدي التزامات كبيرة وعاجلة في الفترة الحالية.

ويسأله مطيع بقلق ورجاء:

ـ إلى متى؟ أقصد...

ـ ثم إن الحياة في موران، وفي البلدان النفطية الأخرى، شاقة، ومن الصعب أن يتحملها الإنسان.

ويهز رأسه بنوع من الأسف:

ـ والصحفيون الذين قد يرغبون في العمل هناك قليلون، قليلون جداً..

ويعود إلى لهجته الأولى:

ـ لكن يمكن إقناع عدد منهم، خاصة إذا كانت المزايا التي سيحصلون عليها مشجعة!

وبعد الكثير من الكر والفر، من الاختبار والتأثير النفسي، وبعد أن عرف كيف يقدّم نفسه ويظهر مزاياه طلب مهلة شهرين.

ـ خلال هذين الشهرين أستطيع أن أنجز القسم الأكبر من التزاماتي وأعتذر عن القسم الآخر، وأستطيع أيضاً أن أتصل ببعض الزملاء، وأن أقنعهم، بشكل أو بآخر، بالعمل معنا. طبيعي المسألة ليست سهلة، خاصة وأننا نريد صحفيين من الدرجة الأولى، صحفيين كباراً، لكن إزاء المزايا والإغراءات التي يمكن أن تمنح، قد يوافق بعضهم على العمل معنا.

لام نفسه كثيراً بعد هذا اللقاء. اعتبر أن مهلة الشهرين التي طلبها تمثل ذروة الحماقة في حياته كلها. ماذا لو بحثوا عن آخرين ووجدوا من يلائمهم، ولم يكلفوا أنفسهم مجرد الاتصال به أو الاعتذار؟ وخلال هذين الشهرين ماذا يمكن أن يحصل وإلى متى يبقى ضائعاً حائراً وجائعاً أيضاً؟ وهل تنطلي حيلة مثل هذه أو تؤدي إلى النتائج التي افترضها؟

لم ينم تلك الليلة، تاه في حالة من التخبط يولدها الشعور بالخيبة، وتمنى في أعماقه لو أنه كان أقل ذكاء، إذن لما كان مضطراً لأن يدفع ضريبة هذا الذكاء التافه، ولما ضاعت منه هذه الفرصة التي انتظرها. وفي الغفوات القصيرة حلم أنه عاد مرة أخرى إلى السجن، وأنه يتعرض للتعذيب، كما حصل له في الأيام الأولى من التوقيف، وحين صحا في إحدى اللحظات، واستعاد أحداث اليوم، قرر أن يصحح خطأه، أن يختصر المدة، على الأقل لمدة شهر واحد، وقد يوافق على فترة أقل!

وهذا ما حصل في اليوم التالي. وإذا كان قد سيطر على عواطفه وأخفى فرحته، فإن مطيع لم يستطع ذلك. اعتبر أن اختصار المدة من شهرين إلى شهر واحد تضحية لا يمكن أن ينساها لسمير. أما موافقته على أن يتعاقد، بعد أن اعتذر، «فقط أريد فرصة للتفكير، نعم أريد أن أفكر وأدرس الموضوع»، مع الوعد بأن يبذل جهده من أجل الاتصال بصحفيين آخرين: أما حين وافق على التعاقد فقد اعتبر مطيع أنه أنجز نصف المهمة،

ولكي لا يترك الموضوع قابلاً لإعادة النظر أو للتردد، فقد دفع إليه مبلغاً سخياً، دون أن يطلبه، وهذا المبلغ الذي رفض سمير تسلمه، في البداية، بكثير من الآباء «لأن الأمر سابق لأوانه، والعلاقة بيننا قائمة على أساس الثقة» فما لبث أن وافق، نتيجة الضغط والإلحاح!

هذه «اللمسات الفنية» كما يسميها سمير كانت ضرورية. ويضحك وهو يفرك بيديه «وراتب الذي عرف في وقت سابق أني سجنت يجب أن يقف إلى جانبي دون تردد» ولذلك ما كاد يقترح عليهما أن يسافروا معاً إلى الإسكندرية «لأننا أنجزنا المهمة» وموافقة راتب المتحمسة، لأن ذكريات الإسكندرية ضجت في رأسه، وحين أبدى مطيع بعض التردد، تعهد سمير أن يختصر مدة الشهر إلى فترة أقصر!

وفي الإسكندرية، وفي لقاء منفرد، ونتيجة الدور الذي قامت به روجينا، فهم راتب الموقف كاملاً. قال وهو يضج بالضحك:

ـ يا سيدي كل إنسان له أخطاء في ماضيه، وأكثر الذين سجنوا لأسباب سياسة كانت الأسباب، أغلب الأحيان، واهية أو ملفقة.

وبعد قليل وبلهجة أبوية:

ـ وعفا الله عما مضى!

أما بعد أن وصل سمير إلى موران، ونتيجة الجهود التي بذلها بالتعاون مع الكثيرين، ولأنه كان وثيق الصلة بمطيع أولاً، ثم بعد ذلك بالحكيم، وكان يفهم ما يريده أي منهما، ويستجيب له بكثير من الذكاء والطيبة.. والسرعة أيضاً، ويعرف كيف يعبر عن أفكاره بتلك الروح المرحة، فقد بدأت تلك اللعبة الجديدة التي تركت آثارها في موران وما حولها.

قبل نهاية هذا الصيف وصلت إلى موران أم حسني ومعها كنتاها وخمسة أطفال. كان وصولها مفاجئاً للكثيرين، واكتشف الكثيرون، واستغربوا، أن حسني وسعيد متزوجان، وأن لكل منهما عائلة، ولكل منهما أولاداً أيضاً! واستغرب هؤلاء وغيرهم أنهم لم يسألوا أنفسهم من قبل، ولم يسألوا الرجلين، بالمقدار الكافي، عن هذه الأمور، وكأنهم ألفوا وجودهما هكذا، رغم أن كل واحد من الاثنين كان يسافر مرة أو أكثر سنوياً، يقضي شهراً أو اثنين عند الأهل.

الآن، بعد الحفاوة والدعوات، وحين بدأت أم حسني تدقق وتعطي أذنيها للكنتين لتسمع من خلالهما ما لم يقله ابناها بشكل مباشر، عرفت أن شيئاً جديداً قد حصل بين الأخوين، وأن حسني يفكر بالاستقلال في بيت خاص، لأنه لم يعد يحتمل. قالت لنفسها بحزن: «قلبي، من زمان، قال لي».

وتذكرت كيف كانت في عمان كل شيء: تحضن الكنتين والأولاد وترعى الرجلين، كما تحضن الدجاجة فراخها، وكان لا يتم أي أمر إلا برأيها وبناء على مشورتها. الآن تشعر بالخطأ، لأنها تركت ابنيها يسافران وحدهما، وتشعر بخطأ أكبر أنها تركتهما هذه الفترة الطويلة كلها. لهذا، وبكثير من الصبر والدأب، أخذت تحاول إصلاح ما أفسده الزمان، مستخدمة المكر البريء والحيل الصغيرة، ومستعينة بالأطفال بشكل خاص. كانت تدفع الأطفال لكي يتعلق كل واحد بعمه، وتدفع كل كنة لأن تهتم بسلفها أكثر مما تهتم بزوجها. أما فكرة أن يستقل كل واحد من الأخوين بيت خاص، فلم تتصورها ولم تكن مستعدة لأن تحتملها.

قالت ذات ليلة، وهي تنهض لتأوي إلى فراشها، وبدا كلامها غريباً:

ـ قبل أن تنفصلوا بعضكم عن بعض أكون أنا تحت التراب.

وإذا كانت قد اطمأنت بعض الشيء حين أبدى ابناها، دون كلمات، نوعاً من التسامح، وبدا لها أن الأمور قد عادت إلى طبيعتها، فإن تلك الروح الدؤوبة التي ولدتها الصعوبات، وصقلتها التجربة، منذ أن فتحت عينيها على هذه الدنيا، وكانت مجرد فتاة يتيمة، تنتقل من بيت إلى آخر، ثم زُوِّجت، وهي لا تزال فتاة صغيرة، من رجل يتجاوز عمره عمرها ثلاث مرات أو أربعاً، وعاشت معه سنتين فقط أنجبت خلالها حسني، وهي التي تولت تسميته، لأن الزوج مات قبل ولادته ببضعة شهور، تلك الروح هي التي قادت خطواتها فيما بعد. وهي التي حددت لها كيف تسير، كيف تعيش. وحسني الذي كان عبئاً جديداً كان فأل خير أيضاً، ولذلك تعلقت به وأحبته كثيراً. أما حين تزوجت مرة ثانية وجاءها سعيد، وبعد سنة زكية، فقد ظلت تحس أن الولد الأول له وضع متميز مختلف، أما فيما بعد فإن هذا التمييز، أو هذا الاختلاف ظل غامضاً وخفياً، لأن عبء الثلاثة، من حيث الأكل والهموم، كان واحداً.

لذلك ما إن وصلت مع هذه القبيلة الصغيرة، بعد الرسالة التي جاءتها من حسني تطلب وتلحّ في الطلب أن تأتي، وأن الصحة والأحوال جيدة للغاية، وقد أكد على ذلك أكثر من مرة، لئلا تخاف وتظن الظنون، فقد حملت معها كمية كبيرة من «التجارة» التي كانت تتعاطاها في عمان، حملت معها اللبان والحنة والقمر الدين، وحملت أيضاً البامياء اليابسة المشكوكة بخيوط، والملوخية المجففة، إضافة إلى عدد كبير من المكانس الناعمة والخشنة، وكانت هذه المواد وأخرى مشابهة لها تشكل تجارتها التي تدر عليها «أرباحاً» تكفي لمصروف البيت، كما تقول.

كما أن هذه التجارة وكانت تتغير وتتنوع حسب الأماكن والفصول، وتبعاً لرغبات المشترين وحسب إمكانياتهم المادية أيضاً. ففي الصيف، حين تكثر الخضار، ولا يفكر أحد باستعمال الخضار المجففة، تجلب

الأمشاط وليف الغسيل، ولا تتردد في أن تحمل نماذج من الأقمشة الحريرية أو الصوفية، إضافة إلى السبحات وأنواع من الحلويات الشامية. وفي أوقات أخرى كانت تحمل المناخل والعقل والبخور، ولا تتردد في جلب العباءات والفروات، إذا وُصّيت عليها في وقت مناسب.

كانت رحلات أم حسني بين دمشق وعمان، في تلك الفترة، وكانت تتكرر بمعدل رحلة كل ثلاثة أسابيع أو أربعة. ولا بدّ أن تحمل معها أيضاً مفاجآت عديدة. وبكثير من الدهاء تتصرف مع زبائنها، والذين صنفتهم ضمن سلم وحسب أولويات معينة، فهي، أولاً، لا تعلن عن وصولها إلا بعد وقت يكفي لأن ترتب جميع الحاجات، وبعد ذلك تبعث بأخبارها لعائلات قبل غيرها، وتستقبل عائلات قبل غيرها. أما المواد التي جلبتها فتعرف متى تعرضها ولمن.

هكذا كانت أم حسني طوال السنوات التي قضتها في عمان. الآن، وهي تصل إلى موران، ورغم طول المسافة وصعوبة الطريق، ورغم الرسالة المطمئنة التي وصلتها من حسني، والتي لم تترك أحداً إلا وقرأها لها، فقد حملت معها أيضاً كميات من المواد والحاجات التي افترضت إمكانية الحاجة إليها، وبالتالي رواجها. اختارتها بعناية وغلفتها لتبقى أطول فترة وفي أحسن حال. أما بعد أن استقرت واطمأنت إلى وضع ابنيها، وأن كل شيء يسير سيراً حسناً، فقد فكرت، من جديد، أن تفتح بيتها لاستقبال المشتريات من الجوار، لكن ما كادت تلمّح إلى ذلك، وبإشارة بعيدة غير مباشرة، حتى صرخ سعيد محذراً:

ـ أبوس رجلك يا حجة!

ولما بدا عليها الخوف تابع موضحاً:

ـ خبر من هذا النوع إذا طش وانتشر في موران، معناه أن نرحل يا أمي، أن نحزم أغراضنا ونمشي!

وحين فتحت عينيها بدهشة وتساؤل قال بصوت هامس:

ـ الناس في موران يتعاملون معنا كتجار جملة كبار، وبضائعنا تأتي من الهند والسند، أما الشغلات الصغيرة فلا نمد إليها أيدينا، فإذا بدأنا بيع

العلكة والملبس، وإذا بدأت تقدّرين لكل جربانة سودا قبقاب أو بابوج، ترى راح ننزل بعيون الناس، وتخرب بيوتنا!

لم تفهم أمه بوضوح ما أراد أن يقوله، وبكثير من الهدوء والصبر، مع التأكيد الذي لا ينفك يتزايد على الغنى والوجاهة، وأنها يجب أن تكون امرأة مقدّرة،أكبر من كل نساء موران، شرح لها أن تجارة من النوع الذي تفكر فيه سوف تؤدي إلى أضرار كبيرة، وأكد لها أن الناس في موران يختلفون كثيراً عن عمان والشام، ويجب أن يتم التصرف معهم بشكل مختلف تماماً. أما حين تساءلت:

ـ والحنة والبودرة واللبان اللي تعبت في حملها؟

ـ خذي عشر طوق ربحاً فيها، بس خلصينا منها!

هكذا رد سعيد، في محاولة لأن يدفن الفضيحة في مهدها، فتساءلت من جديد:

ـ برأيك أن النسوان في هذي البلد ما بحنوا شعرهم؟ ما يتبوردوا؟ وعلكة ما يعلكوا؟

ـ كل شيء بسوّوا.

ـ طيب، احنا ليش خايفين؟

ـ احنا خوف ما خايفين، لكن هذه الشغلة ما هي شغلتنا.

ـ شغلة من؟

ـ يا أمي، يا حجة، بعد ما تقضي هنا كم شهر تعرفين كل شيء، تعرفين أخلاق الناس وطبائعهم!

ـ ولازم أنتظر على هذي الأشياء التي حملتها كم شهر؟

ـ هذه انسيها، ادفنيها بالتراب وكأنها ما كانت!

ـ والنعمة تندفن يا ابني؟

ـ بهدي البلد كل شي يمكن أن يندفن: البشر، النعمة، وحتى الشرف يمكن أن يندفن، لأن المهم هو المظهر، ولازم ما نغلط يا حجة!

فهمت أم حسني ما قاله ابنها، لكنها لم تقتنع؛ أكثر من ذلك اعتبرت

أن حسني على حق، لم يتغير، لم تفسده النعمة، فملابسه، عدا يوم الجمعة، هي نفس الملابس التي تتذكر أنه كان يلبسها قبل بضع سنوات في عمان، أما تقواه فبدل أن تنقص زادت، وكذلك عاداته كلها في الأكل والمنام. أما سعيد فإنه الآن شخص مختلف، أنها تنكره، لكن تطمئن نفسها أنها نزوة من نزوات الشباب، ولا بدّ أن يرجع إلى عقله أو يرجع إليه عقله، كما يحصل له دائماً بعد كل خسارة، بعد كل مصيبة.

وإذا كانت العجوز قد وافقت على مضض فإنها لم تستسلم؛ انفجرت داخلها كل تلك العبقرية البدائية، تماماً مثل الحيوانات، التي تعرف كيف تشق طريقها، كيف تفك الحصار من حولها، ولذلك، ولم تكد تمضي عليها بضعة أسابيع، حتى انطلقت كما تنطلق دودة الأرض، ففي وسط ظلام موران الذي يحيط بأية امرأة، استطاعت أن تعرف طريقها.

وصفت أم حسني لسعيد أن روحها طقّت ووصلت إلى حلقها، شعرت أنها ستموت. و«أن الروح يا ابني صارت مثل عصفور يرفرف في صدري» وتشير إلى القلب، ولذلك لبست ملاءتها وخرجت.

مشت، مشت لا تعرف في أي اتجاه، أو إلى أين. كانت تتطلع إلى البنايات والناس من وراء منديلها السميك. كانت ترى كل شيء عجيباً غريباً لا يشبه أي مكان آخر رأته من قبل. الناس يشترون، يبيعون، ينادون، يصرخون، يضحكون، يضحكون، وفجأة، وبعد ساعات من المشي، وصلت لا تعرف إلى أي مكان، عطشت، كانت تريد دمعة ماء، أن تستريح في ظل شجرة أو حائط، وفجأة وجدت نفسها في مكان غير كل الأماكن، وجدت نفسها في القصر!

هكذا روت القصة أول مرة، حين ذهبت بمفردها إلى القصر. أما في مرة لاحقة فقد أكدت أنها تطلعت بإمعان، لكن لا تنسى، كيف سارت بهما السيارة، هي وزوجة الحكيم، في أول زيارة للقصر. وأنها تتذكر معالم أساسية هي التي قادتها في المرة الثانية. أما مسألة العطش ودمعة الماء، أو مسألة التعب والرغبة في الراحة والجلوس بظل جدار أو تحت شجرة، فقد تخلت عنها. إذ ما كادت تصل إلى القصر، وما كاد ذلك العبد الأسود يعترضها، طالباً منها أن تبتعد، ثم يسألها عمن تريد، حتى ذكرت أنها تريد أن ترى الشيخة، أما حين سألها من جديد ان كانت الشيخة أو أحد آخر في القصر طلب مجيئها، فقد أكدت أن الشيخة بالذات تنتظرها.

زوجة الحكيم تروي القصة بطريقة مختلفة: «زهقتني المخلوقة، طلّعت روحي. كل يوم والثاني وهي مزروعة بخلقتي: دخلك يا أم

غزوان، أنت وزوجك ناس أكابر، أحسن من جميع الناس، وأنا بنفسي زيارة القصر والتعرف على الحريم، ولا أحد يمكن أن يأخذني غيرك. وأسكت، لكن هل تسكت؟ أبداً. علقتني مثل العلق: نحن أقارب، نحن حبايب، وما لنا إلا الله وأنتم، ولولاكم ما جينا إلى موران ولا شفناها، والواحد إذا سوّى المعروف لازم يكلمه. وأسألها: لماذا القصر يا خالتي؟ من تريدين في القصر وماذا ستعملين هناك؟ وترد: لا أريد أي شيء، بس سلام وكلام، بنفسي أشوف القصور وناس القصور».

وتتنهد زوجة الحكيم ثم تتابع: «إذا غابت يوم تجي ثاني يوم: يا أم غزوان: أبوس ايدك، أبوس رجلك لازم تأخذيني للقصر. قلت لنفسي، مثل ما لزق ابنها الحكيم وظل وراءه حتى وافق، الظاهر أن هذه العجوز ما في نيتها أن تحل عني، ستبقى لازقة.

«المهم اتفقنا. قلت لها بكرة. ثاني يوم شرّفت: مطقومة، محنية شعرها، محفحفة، وتطق بتمها، اللي ما فيه سنين، العلكة: يا الله يا أم غزوان، تأخرنا يا أم غزوان. خاف الجماعة يزعلوا إذا تأخرنا عليهم يا أم غزوان. رحنا. ونحن في السيارة مدت لي يدها بقطعة لبان ومسكة وقالت: حلّي سنك يا أم غزوان، وضحكت. وبعد شوي التفتت ووشوشتني: حتى الأنفاس تكون طيبة إذا الواحد سلّم وباس. ومن باب القصر الداخلي، وما أن تصل امرأة لتسلم علينا حتى تهجم أم حسني عليها: وبوس ومجق.. بوس ومجق. استغربوا، فتحوا عيونهم: خير إن شاء الله. منين لين؟ وبلشوا يتضاحكوا ويتطلعوا فيها ويتطلعوا ببعضهم. أنا صرت مثل القملة المفروكة، خجلت، غسلني العرق وما عرفت كيف اتصرف وكيف احكي. قلت لهم: أم حسني قريبتنا ومشتاقة وجاءت للسلام. قالوا: أهلاً وسهلاً، وسكتوا وهي مثل العفريتة تتطلع في الوجوه وتضحك. لما جاءت الشيخة، أمي زهوة، قلبها حسها. تركت كل الناس وهجمت عليها. ومثل القطة اندحشت فيها، والشيخة عقلها جوزتين بخرج، انعبطت داخت، وبعدها صار اللي صار».

لم تسمع أم حسني كيف تروي زوجة الحكيم قصة البداية، ولم يجرؤ

أحد على إعادة روايتها أمامها. أما هي فقد روتها بطريقة مختلفة للغاية:
«وبعد ما كمّلت الأسبوع في موران حتى جاءت زوجة الحكيم، نسيت اسمها، البنت الطرابلسية. وإذا الله ما كذبني يمكن اسمها وداد، جاءت حتى تسلم علينا وتدعونا للعزيمة اللي ناوي الحكيم يعملها لنا. بعد السلام والكلام قلت لها: يا ابنتي أنا العزايم ما متعودة عليها، وإذا كان لا بدّ ولازم كنايني والأولاد يحضروا. قالت أبداً. هذا الكلام شيليه تماماً من راسك، لأنك إذا لم تحضري أنا أزعل والحكيم يزعل، والعزيمة من أجلك، بالأساس، لام حسني، أم الكل. الخلاصة ـ قدر ما شدّت وقدر ما اعتزرت ما في فايدة. رحت. أكلوا الجماعة. الأكل كله حاضر، هي ما لها علاقة، ما مدّت يدها لطبخة. أنا ما أكلت، لكن ما خليت أحد يشوف أو يحس. المهم، بعد الأكل، قالت: يا أم حسني صار لك أسبوع أو أكثر في البلد، والظاهر أن الجماعة في القصر آخذين على خاطرهم، زعلانين، وأنا من رأي أن نزورهم اليوم قبل بكرة، والحكيم وصاني أن أقول لك هذا الكلام. قلت لها: يا بنتي أنا عجوز اختياره ومالي همة وما عندي مروّة، ولا أعرف كيف احكي معهم. قالت: زيارة ساعة، وأنا أمرّ بالسيارة ونروح مع بعض، وهناك، وبعد السلام، لا تحكي ولا مطلوب منك شي، خلي كل شيء عليّ.

ظليت محتارة وركبني الهم، حتى النوم ما قدرت أنام. وأنا أتقلب على فراشي، والدنيا حولي نايمة، قلت لنفسي: كبّري عقلك يا أم حسني، ظلي ببيتك، لا تروحي ولا تجي، اللي يحبك ويسأل عنك هو اللي بسأل وهو اللي يجي، أما وأنت حاملة نفسك ورايحة تلقلقي من بيت لبيت، بكرة الناس تقول شايبة وشرشوحة، وكل النهار دايرة وكأن ما لها بيت. ولو كانوا أناس عاديين مثل باقي الناس، كان فيها وما فيها، لكنهم أمراء وملوك، والواحد، حتى ولو ما كان له معهم حاجة أو شغلة، ينظروا إليه من فوق، يتصوروا أنه شحاذ وجاء للشحاذة والسؤال.

المهم. . . للصبح ما نمت. كنت محتارة وركبني الهم. في الأخير قلت لنفسي: الله يكتب اللي فيه النصيب. قمت وصليت ودعيت،

ورجعت للنوم. نمت. شفت أحلام كثيرة، أحلام مثل الكوابيس: شفت حالي وسط جماعة كبيرة وكل واحد يجرني ويضربني، وكل واحد يقول: هذه هي. قمت مفزوعة، توضيت وصليت، قلت لنفسي إذا مرّ هذا اليوم على خير نذراً عليّ أصوم ثلاثة أيام. قعدت في البلكون أقشر الفول، بعدما كسرت الصفرة وشربت فنجان قهوة. ولا أعرف كيف جاء على بالي أن أقلب الفنجان وأشوف حظي. قبل ما ينشف الفنجان، وقبل ما يخلص تقشير الفول جاءت زوجة الحكيم: يا الله.. يا الله يا خالتي. بعثت خبر للقصر وقالوا انهم بانتظارنا. قلت لها اقعدي يا بنتي، اشربي قهوة، استريحي، وعلى رواق، مع فنجان القهوة، نحكي كلمتين، لأن البارح، وسط الصياح والجماعة ما قدرنا نحكي. قالت: نحكي بالسيارة وقهوة شربت، ولازم نمشي بسرعة لأن الجماعة بانتظارنا. قلت: يا بنتي ما لي نفس بهذي الروحة. قالت: أبداً. أنا أزعل وهم يزعلوا. المهم ألحت وألحت حتى طاوعتها. دكيت ملايتي الزّم وتدحرجت وراءها. ركبنا السيارة وطارت فينا، لا أعرف من أين راحت وكيف راحت، غمضة عين، وأنا دايخة وقلبي يرجف ولساني صار مثل الحطبة، حتى صرنا بالقصر.

هذا هو القصر؟ هذا هو اللي طوشونا فيه؟ سألت نفسي، وقلت: بيت المفتي بالشام أحسن منه بألف مرة. بيت الحايك أو بيت الطباع بعمان أحسن منه بألف مرة. ما فيه إلا الحيطان العالية، حيطان من طين، ولا عرق أخضر، ولا شقفة زرع. والغرف معتمة تقمط القلب، وريحة الزفر مالية الدنيا. قلت لروحي: يا حسرة على القصور وعلى الساكنين في القصور. تطلعت هون تطلعت هونيك: كل شيء وسخ، مزفّت وبألعط، والله وأعلم أنه بعمره ما انغسل. قلبي انعصّ وتمنيت لو أني ما طاوعت هذي المقصوفة وما داست رجلي.. لكن. قالت لي امرأة سوداء مثل الفحمة: «اجلسي». قالت هذه الكلمة بأمر وكأني قاتلة أبوها، وأشارت إلى كومة من الفرشات. قعدت. كنت خايفة وقرفانة، وكأني قاعدة على أسياخ من نار. تركتنا السودا أنا وأم غزوان وراحت. تطلعت لام غزوان، تطلعت حولي، اسودّت الدنيا بعيني. قلت لنفسي اللي بدو يصاحب

الأمراء لازم يتحمل غلاظاتهم وثقل دمهم: وأنا بهذي الأفكار، فكرة تأخذني وفكرة تردني انفتح الباب ودخل منه أربع خمس نسوان، وقفت وسلمت، لكن، الله الوكيل، الواحد لا يعرف الأميرة من الخدامة، مثل بعضهن: صفر، ممصوصات ولا كأن فيهن دم. كنت أرجف، مبهوتة وخايفة، سألتني واحدة لكن ما فهمت عليها. قالت لها أم غزوان: أم حسني قريبتنا والحكيم يحبها مثل أمه، وفرحتنا بوصولها إلى موران لا تعادلها إلا فرحتنا بالتعرف عليكم، وقلت لنفسي لازم يتم التعارف ولازم الطيبين يعرفوا بعضهم».

وتستريح أم حسني قليلاً، تستعيد في ذاكرتها هذا الحشد المتداخل من الأشياء والوقائع، ثم تتابع بصوت صقلته جرعة الماء التي تناولتها: «كان يمكن لهذه الزيارة أن تكون الأولى والأخيرة لو أن الشيخة ما وصلت. لما دخلتْ الكل سكت، وكان يمكن أن تسمع الإبرة لو وقعت على الأرض. قلت لنفسي هيك لازم تكون الأمهات وهيك لازم تكون الأميرات: في عينيها بريق يذوب الحجر، والجبين يضوي مثل الفجر، مهيوبة، راكزة، وكأنها غير عن البشر. سلمت وقعدت، لكن لم ترفع نظرها عني، وأنا، سبحان الله، قلبي لها لهف. منها سؤال ومني سؤال وأنبتت بيننا للمحبة جسور، وكأنا نعرف بعضنا من أزمان ودهور».

لما تأكذ سعيد أن أمه «دخلت» القصر، وأن العلاقة بينها وبين الشيخة تزداد رسوخاً وقوة يوماً بعد آخر، أصبح على يقين أنها لا بدّ وأن تمارس «تجارتها» بشكل من الأشكال، لأن هذه العادة لم تفارقها منذ أن كان صغيراً، فاضطرب قليلاً، بل أكثر من ذلك عاودته المخاوف، وخشي هذه المرة أن تحمل تجارتها وتدور بها بعد أن كان يأتي إليها المشترون في السابق. وفي محاولة لأن يعرف ما إذا بدأت أم لا، سألها بشكل مفاجئ:

ـ أنا غلطان، يا حجة، في الكلام اللي حكيناه قبل كم أسبوع!

ـ أي كلام يا بنيّ؟

ـ قلت لك انسي وادفني الأشياء اللي حملتيها معك من الشام.

وبعد قليل وبأسف:

ـ وانشاء الله تصرفت بها كلها؟

نظرت إليه بارتياب قبل أن تجيب:

ـ خير انشاء الله؟

ـ ما لهم شغلة في السوق اليوم إلا السؤال عن شوية حنة وشوية بخور.

وبعد قليل:

ـ ومستعدين أن يدفعوا وزنها ذهب، لأن هذه الأشياء مطلوبة للقصر.

فتحت عينيها على اتساعهما، فلمح فيهما الاهتمام أكثر مما لمح الندم، فتأكد أنه يسير في الطريق الصحيح. تابع:

ـ وقلت للجماعة اللي سألوا: اعطوني فرصة هذه الليلة وبكرة أرد عليكم الجواب.

سألت بلهفة:

ـ وهذي الأشياء.. كثير غالية؟

ـ غلاء ما هي غالية.. إلا إذا صار عليها طلب.

ـ ومطلوبة كثير؟

ـ إذا القصر طلبها، اللي يبيعها يصير فوق الريح.

عضت على شفتها بنوع من الندم. أحس أن شيئاً قد حصل. لم يلاحقها. صمت ليفسح لها المجال وتتكلم. تطلعت في أكثر من ناحية، وهي لا تفعل ذلك إلا حين تخسر في التجارة. يتذكر المرات القليلة التي خسرت. خسرت حين أخذت منها واحدة من «الأكابر» ولم تسدّد، وخسرت مرة أخرى لما أنكرت أخرى، وخسرت حين أعاد لها مرة الزوج ما أخذته زوجته، بعد أن كان الأطفال قد أتوا على الجزء الأكبر من القمر الدين واللوز. كانت تعترف لا لتؤكد خسارتها وإنما لتعلّم درساً. اليوم رأى في عينيها ذات النظرة.

بعد فترة صمت طويلة قالت بحقد:

ـ بنت الكلب تقول لي اجلسي، اجلسي، ويروح يوم ويجي يوم وتقول لي: عمتي أريد حنة، وأعطيها. تقول: هذا لا يكفي يا عمتي لأن شعري مكزبر، واعطيها مرة ثانية، اعطيها حنة تكفيها لأجداد أجدادها.

ـ من هي يا أمي؟

تنهدت بحسرة ثم قالت بما يشبه الاعتراف:

ـ العبدة السودا اللي تشتغل في القصر.

ـ وغيرها يا حجة؟

ـ فكرت أن أبيع الحنة والبخور، لكن خفت من كلامك، قلت لنفسي: أغراب ولا أعرف طبايعهم.

ـ وانشاء الله أعطيتها كل الحنة؟

ـ لا يا ابني، الشاطر اللي يعطي قطرة قطرة، والمهبول اللي يدلق حاله فرد مرة.

ـ يعني... عندك حنة؟

ـ أنا أمك، من كل شي اخلي خميرة.

ـ وانشاء الله الخميرة كبيرة؟

ـ لا تخف. يا ابني!

وضحكت، فبانت سناها الأماميتان، كانتا كبيرتين بارزتين. اطمأن، ضحك بصخب، لكي يحاول أن يبدأ من جديد، لكي يجرها إلى حيث يريد. بعد أن هدأ وترك فترة كافية للصمت قال ليبدأ معركته:

ـ يا أمي:

تطلعت إليه بتساؤل تريد أن تتابع معركتها وقد اتضحت لها، تابع:

ـ ما دام القصر بحاجة إلى الحنة والبخور، وما دام أنت وصلت، فنحن الآن في بداية طريقنا إلى الجنة...

وبعد قليل أضاف بلهجة مختلفة تماماً:

ـ إذا أنت ساعدتيني!

سألت باهتمام:

ـ أنا؟ كيف يا ابني؟

ـ أي نعم، أنت!

تطلعت إليه متسائلة، لكن بارتياب أيضاً، تابع:

ـ المسألة أولها وآخرها: أن الواحد ينصب الفخ، يرمي الشبكة، وبعدها كل إنسان وشطارته!

ـ شطارته؟

ـ أي نعم! وبعد قليل: والشطارة ما هي دائماً البيع والشراء!

تطلعت إليه دون أن تتكلم، إنها تسمع شيئاً جديداً. لقد تعودت أن تعرف الشطارة في البيع والشراء. في هذين المجالين وحدهما تظهر براعة الإنسان وقدرته، ولا تتصور أن هناك مجالاً آخر. تابع وكأنه لم يلاحظ شيئاً:

ـ المهم ان يحصل الإنسان على المال، أن يعرف كيف يصل إليه!

مدت شفتها السفلى فبانت طويلة رخوة، التفت إليها بسرعة وقال:

ـ مثل ما يحط الصياد الشاطر الطعم في الفخ لازم نحن نحط الطعم في الهدايا التي تقدم للقصر!

سألت بحذر:

ـ شو قصدك يا ابني؟

رد بسرعة:

ـ ما دام المال عند القصر، وما دام القصر يحتاج إلى الحنة والبخور.. وألف شغلة ثانية، فالواحد بدل أن يبيع الحنة والبخور يقول لهم: خذوا، وإذا أخذوا.. تورطوا، يدفعون بدل الواحد ألف، هذه هي الشطارة!

ـ بدون بيع وشراء؟

ـ هذا هو البيع والشراء الجد.. يا حجة.

ـ ونعطي هذي الحاجات للأغنياء، للأمراء، بدون ما نأخذ حقها؟

رد في محاولة لأن يحكم السيطرة على الموقف من جديد:

ـ اسمعي، يا حجة، هات لي كل «البضاعة» اللي حملتها معك من الشام.

وبعد كثير من التردد، والتأجيل والرجاء، في محاولة منها أن تبقى حرة التصرف، وأن تبيع بالطريقة التي تروق لها، وفي محاولة منه أن يسيطر كلية، جلبت الصرر وأكياس الخام الصغيرة، وقد ساعدها في ذلك، فلما وُضعت جميعها في منتصف الغرفة، على شكل كومة صغيرة مضحكة، سألها وهو يفرك يديه فرحاً:

ـ أيوه.. يا حجة (وهو يستعمل نفس التعبير الذي كانت تطلقه عليها النسوة في عمان، رغم أنها لم تذهب إلى الحج، وخلافاً لحسني الذي يصرُّ على مناداتها: يا امي، مؤكداً على الهمزة المكسورة).

تطلعت إليه بنصف ابتسامته، وبدت فخورة ببضاعتها، سألها من جديد:

ـ هذه هي كلها؟

هزت رأسها علامة الإيجاب دون أن تتكلم. تابع:

ـ طيب... كم دفعت ثمن هذه البضاعة كلها؟

بانت عليها الدهشة وشيء من الخوف، إذ ظنت أنه سيتلفها، قالت في محاولة لاستعادتها من جديد وقد سيطر عليها هذا الخاطر:

ـ يا ابني قيمتها ما هي كبيرة، وبكرة نعطيها للمستحقين فطرة أو زكاة، لا توجع رأسك بهذي الشغلة.

ـ الحق معك...

وبعد قليل:

ـ بس بدي أعرف كم دفعت!

واستدرك بسرعة وهو يقهقه:

ـ لا.. ما مهم كم اندفع ثمن البضاعة... المهم كم هو طلبك اليوم، في موران؟

ـ يا ابني...

ولما رأى التوسل في وجهها ونوعاً من الحزن قال بلهجة جديدة، وبعد أن عبّ نفساً عميقاً:

ـ اسمعي يا حجة.. راح ادفع لك المصاري اللي دفعتيها وفوقها قدها ربح.. راضية؟

ردت بمكر:

ـ البضاعة، يا ابني، ما هي للبيع!

ـ ايوه.. يا حجة.. هذه واحدة، والثانية، ما رايح آخذ البضاعة، رايح أتركها عندك، بس بشرط.

ـ بشرط؟

ـ أي نعم.. بشرط.

ـ ما هو الشرط؟

ـ أن تقدّم هدايا للشيخة والأميرات. بالمختصر، تقدم للقصر!

رفعت يديها الاثنتين دلالة أنها لا تستطيع، وبعد قليل:

ـ قلبي لا يطاوعني يا ابني.

وانخفض صوتها تماماً وكأنها تخاطب نفسها:

ـ اللي ما عنده شي يعطي، يقول خذوا، واللي عنده أموال قارون يأخذ وما يعطي؟

ـ مثل المصيدة والجبنة.. يا حجة!

ـ السم الهاري.

ـ طولي بالك يا حجة، يا ست الكل، ومثل ما قلت لك: ادفع لك ثمن البضاعة كلها وفوقها الربح، واتركها عندك، بس مسألة البيع والشراء اتركيها.

ردّت بنوع من الغضب.

ـ خلص يا ابني، ويقطع اللي بدو يبيع واللي بدو يشتري.

وتغير صوتها، أصبح حزيناً:

ـ سألوا: شو اللي ودّاك على المر؟ قال: الأمرّ منه. وأنا يا ابني، لولا الحاجة، لولا الفقر، وحتى لا تضيعوا وتمدوا أيديكم للناس، حملت عنكم هذا الحمل، تعبت وشقيت حتى لا تجوعوا، حتى لا تخدموا في بيوت الناس. وأنا يا ابني لا بنفسي تجارة ولا بنفسي ربح وخسارة.

وساد صمت من جديد، كان صمتاً حزيناً مذكّراً، فتح ابواب الماضي، فتدفق هذا الماضي مشحوناً قاسياً، وكأنه عدو. تذكر سعيد أياماً بعيدة، تذكر كيف كانت أمه تركض من مكان إلى آخر، في الليل والنهار، من أجل أن تؤمن أعمالاً تكفي لشراء الخبز، وكيف كانت تسهر الليالي، ليلة بعد ليلة، خاصة في رمضان، أو قبل العيد الكبير، من أجل أن تشتري لكل واحد منهم حذاء أو قميصاً. كان تعبها يذوب ويتلاشى في الضحكة التي تتلقاها مقابلاً. وكانت في فجر العيد تبدو قوية وكأنها لم تسهر الليالي السابقة كلها، لكي تتلقى فرحهم وابتساماتهم. وبعد ذلك، حين وصلوا إلى عمان، وواجهوا صعوبات في البداية، تولت فتح البيت، هي التي صرفت عليه من التجارة الصغيرة التي اكتشفتها فجأة.. وحتى وقت متأخر، وربما إلى الآن، لا تعرف عمليات الحساب الصغيرة، كانت تتعامل بكل سلعة على انفراد، ولكي لا تخطئ أو لا يخدعها أحد، كانت

تصرّ على أن تأخذ ثمن كل سلعة بشكل مستقل، وكثيراً ما كانت تفرد المواد التي تبيعها على مساحة كبيرة، وفوق كل مادة ما يقابلها من النقود، وكانت تحرص على أن تتوافر لديها مبالغ من القطع النقدية الصغيرة، وأول ما تفعله أن تصرّف للنساء اللواتي لا يحملن مثل هذه القطع. أما إذا زادت المبالغ عن حد معين، وإذا اقتضى الأمر إجراء عمليات حسابية، فكانت تستعين بكنتها أو بالاثنتين معاً، مع شرط لا تملّ أبداً من تكراره: «الترجيع غير مسموح، المسموح غلط الحساب والسهو» وبعد قليل تضحك وتضيف: «للطرفين» وكثيراً ما راجعت الحساب مرة أو اثنتين، وكثيراً ما أعادت صف ما يماثل المواد التي باعتها، ووضعت فوقها النقود، أما المواد التي نفدت فكانت تضع، عوضاً عنها، مواد أخرى، وتظل تقول وتكرر لنفسها اسم المادة المفقودة لكي لا تسهو ولا تخطئ!

حياة مثل هذه تركت آثارها وقوانينها في نفس هذه العجوز، ولا يمكن أن تستبدل بين يوم وليلة أياً كان الوضع الذي تعيش فيه الآن. أما ما يقوله لها سعيد فإنه لا يتعدى نزوة من تلك النزوات التي تملأ رأسه، كما ملأت رأس أبيه من قبله، تركهما معاً للفقر والمصاعب، بعد أن تخلى عن الكثير، وبعد أن وضع ثقته في كثيرين، دون أوراق، دون شهود، فذهبت هذه الأشياء عندما ذهب.

ولكي لا يستسلم لجو الحزن ويجاري أمه فيفقد ما توصل إليه، قال بانفعال:

ـ والله يا حجة كل ركضي وكل تعبي حتى أعوض عليك التعب، لأني أعرف كيف شقيت من أجلي ومن أجل إخوتي.

وهز رأسه بأسف وحزن ثم أضاف:

ـ واليوم.. ولآخر يوم في العمر، أريدك فوق رؤوسنا، وما أريد تتعبي، وحتى شربة الماء لازم تصل عندك.

وانتقل إلى موضوع آخر وبدأ يتحدث ويفكر كما لو أنه وحده.

واجهت أم حسني في علاقتها مع الشيخة، خلال المرحلة الأولى، بعض الصعوبات: عدم معرفة اللهجة، وبالتالي صعوبة التفاهم؛ وكذلك الحال بالنسبة للتسمية المناسبة التي يمكن أن تطلقها عليها أثناء النداء أو التخاطب. فزوجة الحكيم كانت بمثابة المترجمة أثناء الزيارة الأولى، وكانت لا تتردد أيضاً في أن تنادي الشيخة بنفس اللقب الذي سمعت الجميع ينادونها به، أي «أمي زهوة».

الآن وقد أصبحت أم حسني تزور القصر بمفردها، وجدت نفسها مضطرة لاختراع لغة خاصة جديدة للتفاهم، ومن أجل ذلك بذلت جهداً في تعلم بعض الكلمات، وبذلت جهداً أكبر من أجل تحريض ذاكرتها لاستعادة ما حفظته من كلمات غريبة وشعر وأمثال منذ أن كانت طفلة.

كانت تقضي الساعات أمام النسوة في القصر، وكأنها خرساء، منصتة، صامتة، متوترة، وأقرب إلى الذهول، تتابع الحديث بحواسها كلها، لعلها تلتقط بعض الكلمات. أما وهي عائدة إلى البيت فكانت لا تتردد في استعادة الكلمات التي سمعتها، تفعل ذلك في الطريق، ثم وهي تنزع ملاءتها، وأثناء ما تخاطب الصغار. الكنتان اللتان رأتا وسمعتا، تظاهرتا أنهما لم تسمعا، أو نظرت الواحدة في وجه الأخرى وابتسمت. أما حسني، وهو يسمع أمه تتكلم بطريقة محمومة، ولا تكف تردد لنفسها بصوت خافت كلمات غامضة، وكأنها تردد الأدعية، وبعض الأحيان تسأله عن معاني كلمات معينة، فقد أصبح على يقين أن «هواء موران لم يناسبها، ويجوز أنها ضيّعت».

سعيد كان الوحيد الذي أدرك قبل الجميع أن «الحجة في الطريق

الصحيح» ولكي يشجعها ويحرضها بدأ يلعب اللعبة معها، ولذلك، وخلال فترة قصيرة، حوّل البيت إلى سيرك، وأراد أن يشرك الجميع فيه. كان يحمل معه، كل يوم، مجموعة من الكلمات الجديدة، ولا يزال يرددها، ويطلب من الأطفال أن يرددوا وراءه، ثم يطلب من أمه أن تفعل ذلك أيضاً، في جو من المرح والمزاح، مع الضحكات الصاخبة والجوائز، بحيث تحولت تلك الكلمات إلى مجرد أصوات دون أي معنى، ولأنها تتكرر بهذا المقدار وبهذه السرعة فقد تداخلت وأصبحت مضحكة أو أقرب إلى الأحاجي.

وبكثير من الجهد الدؤوب والمثابرة، إضافة إلى استفزاز الجسد كله ليلعب دوراً مساعداً، أخذت أم حسني تلجأ للإشارات، وإلى وجهها وعينيها لكي يساعداها في التعبير، إلى أن توصلت إلى خلق لغة خاصة، لغة مضحكة، لكنها كافية للتفاهم والتعبير. والشيخة التي أعجبت، لا تعرف لماذا، بهذه المرأة بالذات، فمنذ اللحظات الأولى، وجدت في لغتها من الصراحة ما يساعدها على النسيان والتغلب على الحزن. وإذا أدركت أم حسني هذه العاطفة، ولكي تقوي مركزها، فقد واصلت اللعبة.

ومثلما كان فنجان القهوة محراثاً فتح لها دروباً في أماكن أخرى فقد دلّتها غريزتها إلى أن هذا المحراث لا يخيب. كانت تودّ أن تدعو نساء القصر إلى بيتها، فهناك، مع الحديث عن حظوظ المستقبل، من خلال ما يقوله الفنجان، يمكن أن تفرد حاجاتها. سوف تفعل ذلك بكثير من التؤدة، وكأنها تعرض أمامهم أشياء ليست للبيع. ستعرض حاجة بعد أخرى، ولا بدّ أن يشتروا. إنها متأكدة من ذلك، ومتأكدة أكثر أن لديهم من المال الكثير الكثير. لن يتعبوها في المساومة، ولن يعيدوا الأشياء بعد شرائها. لكن دعوة مثل هذه سابقة لأوانها، انها لا تعرف البشر هنا، لا تعرف كيف يفكرون وكيف يتصرفون، ولذلك فإن الخطأ المبكر يكلف صاحبه ثمناً غالياً. ليس هذا فقط، «إنهم أمراء وسلاطين» هكذا قالت لنفسها، وهذا نوع جديد من الناس لم يسبق لها أن تعاملت معه؛ صحيح أن الأغنياء أيضاً نوع خاص من البشر، لكنها تعرفهم، بل وتعرف كيف تخاطبهم وكيف

تؤثر فيهم. كانوا في أعماقهم بخلاء، أنانيين، كانوا يريدون كل شيء، ويتمنون ويحاولون لو أنهم لا يدفعون. لكن لم تترك واحداً منهم يفلت. حتى ترددهم كانت تعرف كيف تعالجه، وتتغلب عليه. وهؤلاء، هل هم مثل الأغنياء الآخرين؟ هل يعتبر المال كل شيء بالنسبة لهم؟

كانت مترددة في دعوتهن إلى فنجان القهوة. لن تعرض عليهن شيئاً في المرة الأولى، ولن تعرض في المرة الثانية، لكن هل يرفضن دعوتها؟ إنهن أميرات، دم خاص، لا تعرف كيف يتصرفن، أو كيف تتصرف معهن، لكنها، مع ذلك، تحسّ أن فنجان القهوة طريق لا يخيب، ولا بدّ أن تلجأ إليه.

وهذه القهوة التي تقدم إليها الآن.. حاولت أن تكتشف فيها طعماً من نوع معين، وجدت طعم البهارات كلها ولم تجد طعم القهوة. كانت تعرف أن القهوة يجب أن تُعدّ بكثير من العناية والمهارة، يجب أن تُغلى وتعقد، حتى إذا شُربت فتحت مسام البدن كلها، وولدت لذة أقرب إلى النشوة. وبعد أن تشرب ويُطبّ الفنجان، تبدأ البقايا تنحدر وتنزل برخاوة لتخط معالم وإشارات ودروباً تحدد وتكشف طريق المستقبل. أما هذه المياه العكرة، المرة، المليئة بطعوم لم تتذوقها من قبل فيمكن أن تكون أي شيء إلا قهوة. ولذلك كانت رغبتها أن تصنعها بنفسها، أن تدعوهن إلى بيتها لتعلمهن درساً!

لكنها، مع ذلك، ظلت حائرة طوال الفترة الأولى، وظلت تجبر نفسها على هذا «الصبر» تتجرعه، وفي لحظة معينة استيقظت فيها روح الذئبة، رغبة مواجهة العالم كله دون خوف، من أجل أن تعمل وتعيش. لن تستمع إلى كلمات حسني. «وسعيد فسقان، لا يهمه إلا يومه، وكل شيء على طيزه. أنا اللي تعبت وشقيت، وأنا اللي أعرف البشر». وكادت أن تحمل معها إلى القصر بعض الحاجات لتعرضها هناك وتغريهن بالشراء، لكن فجأة توقفت «لا ترخصي حالك يا أم حسني، طول عمرك والناس تجي لبيتك. كل الأكابر كانوا مزروعين عندك، يسألون، يترجون.. ويبوصون.. وهذا الكلام متى؟ قبل سنين، لما كنت محتاجة. اليوم غير

شكل، والحجر بأرضه ينفع» وترفض الفكرة، تؤجلها، ثم تعود إليها مرة ثانية «اللي ما يجي معك تعال معه، والقضية أولها وآخرها بيع وشراء، عجبهم اشتروا ما عجبهم على كيفهم. ألف واحد غيرهم يشتري». وتستيقظ فيها كرامتها «اثقلي شوية يا مرة، الثقل للمرة زينة، وبكرة هم يلحقوك» وتقرر أخيراًأن تقدم تنازلاً جزئياً «القهوة.. الركوة والفناجين، خفاف، حملهم سهل. أقول لهم: اشتهيت أن تشربوا قهوتي، أن تجربوها، بعدما شربت أنا قهوتكم. اشربوا وبعدين احكموا»، وبعد أن يشربن أقول لهن «طبّوا الفناجين لأني راح أشوف لكم بختكم».

وحملت، في صرة، إلى القصر أدواتها. أبقتها تحت ملاءتها انتظاراً للوقت المناسب، فلما جاء هذا الوقت قالت للشيخة بما يشبه التوسل، وكانت مرتبكة:

- يا أمي زهوة...

ولما نظرت إليها المرأة بتساؤل واستغراب، تابعت:

- عندي طلب، وأريدك ما تردي طلبي.

- خير انشاء الله يا أم حسني؟

- راح أعمل قهوة وأريدك تشربي منها.

والشيخة التي فهمت ولم تفهم ظلت تنظر إليها بتساؤل، فلما فكت صرتها واستخرجت أدواتها، بما في ذلك السكر والقهوة، وعرضتها أمامها، للتدليل على النظافة وحسن النية، نهضت مهرولة مثل قطة إلى الحوش، حيث كانت النار ودلال القهوة، وبكثير من البراعة، وكأنها هيأت نفسها منذ وقت طويل، بدأت.

خلال الفترة التي استغرقها احتساء القهوة لم ترفع عنهن عينيها. كانت تراقب بعناية ردود أفعالهن، مدى تذوقهن، وهل يمكن لهذه القهوة أن تكون جسراً مثلما كانت في أماكن وأوقات أخرى؟

الخيبة التي لمستها في الوجوه، والنظرات التي تبادلتها النسوة فيما بينهن كانت تكفي لأن تهزم امرأة غيرها، أما هي فقد حشدت نفسها

لمواصلة الهجوم. وإذا كانت «التجارة» قد اكسبتها أشياء كثيرة فيما مضى من الأيام، فإن معرفة الناس كانت أبرزها: كيف تفهم البشر، وكيف تنظر إلى ما وراء الأقنعة، نقاط القوة والضعف لدى كل واحد منهم. كيف تفهم وتتعامل، وهذه المعرفة التي لا تكشف عن نفسها، هي التي مكنتها أن تعيش وأن تقاوم، وقد تأكدت هذه المعرفة أكثر من خلال فنجان القهوة. وهذا الفنجان الصغير كان كافياً لاصطياد أية امرأة، مهما بدت قوية أو بعيدة، وكان بمقدار ما يفتح القلوب.. يفتح الجيوب أيضاً!

الآن تبدأ باستعمال هذا السلاح، خاصة وأن الفترة التي مرت مكنتها من أن ترى الكثير، وأن تسمع الكثير. ولأنها لا «تفهم» اللهجة، كما قدّرت النسوة، فقد بالغت كل واحدة منهن بالحديث أمامها.

كان أول الفناجين فنجان الشيخة:

قـل لـمـن يـحـمـل هـمـاً أن هـمـاً لا يـدوم

قالت هذا البيت من الشعر، الذي حفظته منذ وقت مبكر، ولطالما رددته، وكان سبباً في علاقات وصداقات بينها وبين عدة نساء، قالته ونظرت إلى الشيخة بطرف عينها فلما وجدتها تصغي باهتمام أضافت:

لا يكتم السر إلا كل ذي ثقة والسر عند خيار الناس مكتوم
السر عندي في بيت له غلق ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

ظهر التحفز في عيني الشيخة، وبدا أنها تريد أن تسمع المزيد، لكن أم حسني تعودت أن تعطي بمقدار، أن تعطي قطرة قطرة. لقد علمتها «التجارة» ذلك، ثم علمتها الحياة، لأن من يعطي كثيراً وبسرعة لا يبقى لديه ما يعطيه، والناس دائماً ينتظرون المزيد.

ولما صمتت لا تريد أن تتابع، سألتها الشيخة:

ـ وبعد؟

هزت أم حسني رأسها عدة مرات، وكانت الهزات بين الرفض الخفي والتستر على قضايا لا تريد أن تبوح بها، على الأقل الآن.. أو أمام الآخرين. فلما استمرت الشيخة تنظر إليها بتحفز أضافت بلهجة مختلفة:

وما أحسن الصبر الجميل مع التقي وما قدّر المولى على خلقه يجري

كانت هذه مجرد البداية، وإذ أدركت الشيخة ما رمت إليه أم حسني، فقد اكتفت، لم تلحّ، بل وبدا عليها للحظات الارتباك. ماذا لو تابعت؟ وماذا لو قال الفنجان كل شيء؟ قالت الشيخة بطريقة أقرب إلى التورية:

ـ الناس خشب لين يتعارفون، يا أم حسني، والصدور صناديق!

والتفتت أم حسني إلى الفناجين الأخرى، إلى النساء الأخريات. وللحظات بدت وكأنها تعود عشرين سنة إلى الوراء. ارتسمت على شفتيها ابتسامة كبيرة، تعبيراً عن المرح ورغبة الإثارة، تماماً كما كانت تفعل مع تلك الصبايا في الشام وعمان، حين يلجأن إليها لمعرفة فرص الزواج والحب والوصال، طالبات أن تقرأ وتقول ما يخبئه الفنجان. الآن تعود إلى نفس الطريقة: قالت كلمات عامة يمكن أن تؤول على أكثر من وجه، قالتها مع ابتسامات وغمزات بالعين لكي لا يضطررنها لأن تقول كل شيء، وإذ فرحت كل واحدة بهذا المقدار، وتمنت ألا تواصل أم حسني هذه اللعبة الخطرة، لكي لا تنكشف الأمور أكثر مما ينبغي، فقد بدأت كل منهن تفكر، وتعمل لكي تلتقي بها على انفراد، أن تسمع منها عن الماضي أولاً، فإذا تأكدت طلبت أن تحدثها عن المستقبل، وحتى لو لم تكن هناك إلا ظلال من هذا الماضي، فالأهم هو المستقبل!

فوجئت بالنتائج، لم تتوقع أن تكون للكلمات التي قالتها هذا الأثر، ولم تتوقع أن يتغير الموقف تجاهها بهذا القدر، حتى هي شعرت أنها تغيرت. بدت أكثر ثقة وأكثر جرأة، أصبحت قادرة على سؤال النسوة عن معاني الكلمات، وتطلب منهن أن يتكلمن معها ببطء لكي تتعلم، ولم تتردد أيضاً في استعمال بعض الكلمات الشامية، رغم تأكدها أنهن لن يفهمن معناها.

ومثلما تجر الهزيمة إلى هزيمة أخرى فإن الظفر يؤدي إلى ظفر أكبر، فما كادت تصل القصر في زيارة لاحقة حتى وجدت العيون معلقة بها، تحتضنها، تتابعها للتعبير عن المودة والاكتشاف معاً، وبطريقة هي مزيج من الرغبة والمداعبة سألنها إن كانت تفضّل قهوتها أم قهوتهن، لما ردت، مع ابتسامة كبيرة، إنها تفضل القهوة التي تصنعها «لأنها تشفي وتحكي،

تسلي وتخلي» فقد تعالت الأصوات طالبة منها أن تصنع قهوتها. وبنفس الطريقة السابقة، بدأت مع الشيخة أيضاً:

قـل لـمـن يـحـمـل هـمـاً أن هـــمـــاً لا يـــدوم

وبعد أن ابتسمت أضافت:

ـ وأنت، يا طويلة العمر، يا محروسة السلامة، الشيء اللي مرّ عليك، الشي اللي شفتيه، لو مرّ على غيرك، أو غيرك شافه، كان اليوم أثر بعد عين، كان راح وانتهى، لكن المصايب تخلق أو كما قالوا في القديم:

ولـرب نـازلـة يـضـيـق بـهـا الـفـتـى ذرعاً وعـنـد الـلـه مـنـهـا الـمـخـرج

ضاقت كلما استحكمت حلقاتها فُـرجـت وكـنـت أظـنـهـا لا تـفـرج

وفي الفنجان، يا شيخة، رسوم وعلوم، فيه سلام وكلام، وفيه اللي ما ينحكي اليوم ينحكي ثاني يوم، وألف صلاة وسلام على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد!

وتكتفي الشيخة، تتحصن وراء صمتها، تغيب في الذكريات والماضي، تعاودها أحداث هزتها وأقلقتها وأفرحتها، وأخرى أحزنتها، لكنها الآن لا تريد أن تسمع، أو على الأقل لا تريد أن تسمع أمام الآخرين.

وكما فعلت أم حسني في المرة السابقة مع النساء، فعلت هذه المرة، مع إضافة بعض الأمثال وأبيات من الشعر يمكن أن تفهم وتفسر على وجوه كثيرة. والنسوة اللواتي تضاحكن بخجل، وفهمن بعض ما قالت وغابت عنهن أشياء، كن يردن ذلك وكان ذلك يكفيهن.

سعيد الذي أدرك أيضاً المنزلة التي بلغتها أمه في القصر، ولدى الشيخة بشكل خاص، فإنه بمقدار ما كان فرحاً، وكان يظهر عليه هذا الفرح كالأطفال، فقد راودته الوساوس والشكوك مرة أخرى أن تخطو أمه الخطوة التي يخاف منها، قال لها ليوقع اتفاقاً:

ـ لا مانع عندي من التجارة، لكن لأنّا شركاء فكل ما يباع، وقبل أن يباع، يتم باتفاق الشركاء!

ضحكت أمه وهزت رأسها دلالة الموافقة، ولكن كان متأكداً أنها لا

تعني هذه الموافقة، أو أن الموافقة لا تعني شيئاً لها، أضاف:

- أنت قلت لنا إن الفطرة فرض، وأن الفقراء يردها الواحد منهم على الثاني، أما الأخير فلازم يطلعها ولو صاع ملح. صحيح أم لا؟

- صحيح يا ابني.

- ونحن، الله فتح علينا ورزقنا، وما عادت الفطرة تكفي، لازم الواحد يزكي.

- أي نعم، لازم يا ابني.

- وأنا برأيي أن الأشياء اللي عندك نطلعها فطرة أو زكاة!

- يا ابني...

وضحكت بحزن ثم تابعت:

- عينك ما ضاقت إلا على هذي الأشياء؟

ضحك بصخب ليخفي حرجه وليواصل تطويقها:

- كل همّي، يا حجة، أن أنام مستريح البال؛ أن أشتغل على رواق لأني إذا سمعت، بكرة، كلمة في السوق، إذا انتزع مزاجي الله ما يدبرها.

- ... شو قصدك يا ابني؟

- مثل ما قلت لك المرة الماضية: خلي التجارة عليّ وعلى حسني.

- أنت يا ابني تعجن وتعيد، وكأن ما لك شغلة إلا الأغراض اللي عندي!

رد بحزن وبلهجة جديدة:

- رأيي.. يا حجة أن الشغلات التي عندك تعطيها للشيخة، تهديها للقصر.

- أي والله يا ابني..

وابتسمت ابتسامة واسعة وساخرة، وبعد قليل:

- لأن الجماعة وحدهم اللي يستحقوا الفطرة!

- لا يا حجة، أنا عندي قصد ثاني، وأريدك تساعديني في القصر. هذا قصدي بالعربي الفصيح، والباقي سلامة فهمك!

وبصعوبة فهمت، أو بصعوبة اقتنعت، لأنها لم تجد في نفسها القوة على أن تتغير بهذا المقدار، وأن تتخلى عن قيم وأساليب تعلمتها خلال حياتها كلها، لكن، مع ذلك، ونتيجة الحب الخاص، القوة الخفية التي يملكها هذا «الشيطان» وجدت نفسها تستجيب له، تطاوعه، ووجدت لذة في أن تكتشف هذا العالم، وأن تعرف نقاط ضعفه بشكل خاص. كيف لا يشبع هؤلاء الأغنياء من الهدايا، كيف يأخذون ولا يعطون، وكيف يفهمون الأخذ والعطاء.

في وقت متأخر، ومع فناجين القهوة بدأت أم حسني تحمل إلى القصر البخور وماء الزهر والحناء، وحملت عدداً من الأطواق والسبحات، وثلاث قطع من الحرير الأسود، وخمس زجاجات من الكولونيا وثلاثين حطة بوال أصلي.

أما القلوبات والكنافة المبرومة التي جلبتها معها فقد طحنها الأطفال خلال الأسابيع الأولى. إذ لم تستطع أن تحميها ولم تستطع أن تمنع الأطفال «لأن قلبي لم يطاوعني» كما قالت. أما آخر قطع الكنافة، وبعد أن فتحت العلب التي كانت تضعها فيها، فقد كانت مجالاً لتندر سعيد وغبطته معاً. قال وهو يجمع بقايا الفستق من العلبة ويلتهمها، وكان هذا آخر ما تبقى:

ـ دائماً أولاد الأكابر كانوا أحسن منا. كنت تصرخين إذا مدّ الواحد منا يده. الآن، أولاد الطفرانين أكلوا كل شيء، لكن مع ذلك تركوا لنا الفتافيت. المهم أنه لم يبق للأكابر شيء!

قال هذا وضحك. وبعد قليل أضاف بنفس اللهجة:

ـ الحمد لله اللي صار لنا دور.

ردت أمه بانكسار:

ـ يا ابني طعمينا أولاد الأكابر الكنافة حتى تأكلوا الخبز.

وبعد قليل:

ـ حرمتكم، يا ابني، حنّية عليكم، وما هو بخل. كان لازم ندبر الخبز، ولا تتصور أنه كان عندي أحد أغلى منكم.

ـ قصة وانتهت يا حجة، بس جاء من ينتقم!

هكذا رد بمرح، وأضاف بعد قليل، وهو يوجه السؤال للأولاد.

ـ أكلتم يا شباب؟ شبعتم؟

ولم يتركهم لكي يجيبوا، تابع:

ـ ولازم من الآن وحتى الساعة اللي تموتوا فيها تدعو لهذي العجوز، لأنها هي اللي ربتكم، وإذا راح تصيروا رجال هي اللي سوتكم، وهي اليوم وبكرة تعبانة فيكم وما لازم تنسوا أفضالها عليكم في يوم من الأيام.

تأثرت العجوز، بدا وكأنها تتلقى الآن مكافأة سخية: الاعتراف. هذا يكفيها. لقد تعبت لا من أجل أن تكسب، أو أن تجمع مالاً، تعبت لكي تحمي الصغار، ولا تضطرهم للمذلة والسؤال. تشعر الآن أنها وصلت. لم يتبقَ لها شيء، ولم يعد هناك ما يغريها أو يخيفها. وإذا كانت فيها بقايا حرص، وتفكر بالتجارة، أو بأشياء مشابهة، فلكي لا تقع مرة أخرى. تحملت الكثير، عرفت معنى الجوع والحاجة، وعرفت أكثر نظرة الناس إلى امرأة وحيدة والى أيتام، ولا تريد أن تجرب مرة أخرى.

كانت أولى الهدايا التي حملتها أم حسني إلى القصر، إلى الشيخة بالذات، سجادة صلاة في مقدمتها بوصلة تحدد اتجاه الكعبة، وقد وصل إلى سعيد عدد منها كنماذج، بعد فترة من تأسيس وافتتاح شركة السجاد الشرقية. أعطى أمه واحدة، وطلب منها أن تحمل الثانية إلى الشيخة، فلما وصلت إلى القصر أثارت من الاهتمام الشيء الكثير، وانتقلت في نفس اليوم إلى ديوان الرجال، وكانت موضع تعليقات عديدة وتفسيرات مختلفة.

قامت أم حسني بنقلها وتقديمها، وقد فعلت ذلك على اعتبار أنها مجرد رسول، أما عندما حان الوقت لتبدأ بتقديم الهدايا من الأشياء التي حملتها، بناء على إلحاح سعيد الذي لم يتوقف يوماً واحداً، فقد أحست بالتعاسة والقهر، وأحست أنها ترغم على أشياء سيئة، لا تناسب طبيعتها. وليوم وليلة، عندما وافقت مضطرة على حمل عدد من أعواد البخور إلى الشيخة، بدت لها هذه المرأة كريهة إلى درجة تستغرب كيف فكرت أن تقيم معها مجرد علاقة.

ماذا يبقى بينهما إذا انتفى موضوع البيع والشراء؟ هل هما متساويتان؟

هل يمكن أو تتصور أن تكون صديقة لها كما كانت أم وجدي وصفية ونعمات؟ هل يؤتمن هذا النوع من الناس ويكون وفياً؟ فكرت بذلك طوال اليوم وقد اعتراها الحزن وشعرت باللاجدوى، وخلال الليل لم تستطع أن تنام. بدت لها الشيخة خبيثة، قاسية ومليئة بالحقد، بل وتأكدت أن هذا الجبروت الذي يميز حركاتها وسكناتها، وما تولده في القصر أن جاءت وإن ذهبت، شيء غير انساني. فأحست بالخوف، بل وفكرت لو تقطع علاقاتها بالقصر تماماً. ولا تدري كيف خطر لها هذان البيتان، واللذان سمعتهما مرات عديدة أثناء الحديث عن العجوز الشمطاء في القصص القديمة:

عجوز النحس إبليس يراها   تعلمه الخديعة من سكوت

تقود من السياسة ألف بغل   إذا انفردوا بخيط العنكبوت

في اليوم التالي، وهي تنتقي مجموعة من أعواد البخور، انتقت أضعفها وأصغرها، وتمنت في أعماقها لو تكون آخر الأعواد التي تنشقتها «عجوز البين» كما أصبحت تسمي الشيخة بينها وبين نفسها. وكانت تستعيد في ذاكرتها الكلمات التي يمكن أن تقولها لها «لأنك تقية نقية صائمة مصلّية، والنور يشع من جبينك، جئتك يا بنت الأولياء، يا بنت الأجداد، يا أم الأيتام والفقراء، جئتك بالنذر فاقبلي نذري واشفعي لي يا شفيعة، يا مباركة» وابتسمت بسخرية، لأن الشيخة بدت لها في تلك اللحظات نقيضاً لهذه الصفات كلها.

ومثلما كانت فناجين القهوة محراثاً فتح لها طريقاً عريضة، أصبح دخان البخور، وهو يتلوى في الهواء، على طرف النافذة، شبكة طوقت الشيخة من كل ناحية، فبدت مخدرة فرحة، بل وبدت امرأة مختلفة تماماً عما كانت. أخذت تعب الهواء وتنظر في وجوه النسوة حولها وتبتسم. قالت عدلة لنفسها «جاء من يسحرها أو يبطل سحرها»!

ولأن أم حسني لا تعرف غير البيع والشراء، ولكي تجعل هديتها حلالاً، طلبت من الشيخة أن تعطيها بدلاً من البخور ذرة ملح. طلبت هذا الطلب، وهي تبتسم، ولا تريد أن تفسر أو أن تخوض في الأمر أكثر من

ذلك. والشيخة التي استغربت هذا الطلب، ولم تجد له تفسيراً مقنعاً ردت:

ـ سبحان من أودع في كل قلب ما يشغله.

وهزت رأسها ثم قالت لنفسها في تفسير الطلب الذي طلبته أم حسني، «ديّانك سيدك إلى أن توفيه».

أما بعد أن بدأت أم حسني تدرك أن الحياة ليست فقط تجارة، أو أن التجارة يمكن أن تأخذ أكثر من شكل، وليس مجرد تلك العمليات الصغيرة التي شغلت بها نفسها طوال الفترات الماضية، إذ بدأت تنهال عليها عطايا القصر، فقد فكرت في نفسها «الأغنياء غير الفقراء، الأغنياء لا يعطون إلا إذا توقعوا مقابلاً، حتى وهم يعطون للفقراء، للشحاذين، يريدون من هؤلاء أن يشكروهم بصوت عالٍ أمام الآخرين. أما الفقراء فإنهم يعطون دون أن ينتظروا مقابلاً من أي نوع، صحيح أنهم يعطون القليل، ولكنهم بحاجة إلى هذا القليل ولا يملكون غيره».

في المرات اللاحقة لم تقتصر هداياها على الشيخة، إذ قدّرت أن الأشياء الأخرى التي حملتها معها تلائم الصبايا، فالسليماني والترابة الحلبية، وبعض الأعشاب «الحارة» يمكن أن تفيد المتزوجات حديثاً! أما النسوة اللواتي كنا في القصر ينتظرن أبناء الأعمام، بشكل خاص، أو أولاد الأخوال، واللواتي طال انتظارهن، فقد وجدن في أم حسني إنقاذاً. أولاً لأنها تستقرئ لهن فناجين القهوة عما يخبئه المستقبل، وبعد ذلك لكي تعطيهن شيئاً من السليماني والترابة الحلبية ليجلون وجوههن أو لتبدو شعورهن لامعة زاهية. والنساء اللواتي عذبهن انتظار الولد أو الخوف أن يتطلع الأزواج إلى زيجات جديدة، خاصة بعد أن كثر المال، تشبثن بأم حسني، فهي وحدها التي تستطيع أن تساعدهن.

وهكذا أصبحت محور اهتمام قصر الغدير. إذا تأخرت قبل الظهر تتلفت العيون بتساؤل لكن يظل التوقع أن تأتي، أما إذا مر اليوم دون أن تظهر، فلا بدّ أن يساور القلق الكثيرات، حتى «أمي زهوة» بدا عليها التساؤل والتغير شيئاً فشيئاً، فلم يعرف ماذا كان ذلك نتيجة عدم القدرة

على التكيف مع الوضع الجديد، أم نتيجة التقدم بالعمر، أم بسبب الحزن الذي سيطر على الكثيرين في هذه الفترة. والنسوة اللواتي خفن وتوقعن أن تكون الشيخة في وضع أقوى، وفي حالة نفسية مختلفة، وبالتالي لا بدّ أن تنتقم وتغيّر كل شيء، كما حصل في قصر الروض، واعتبر أن سحرها وحده يكفي لأن يغيّر ويدمّر، فقد أضيف إليه الآن سحر «الشامية» كما أطلقن على أم حسني، ولذلك لا بدّ أن يتحوّل كل ما في القصر إلى ملح. وقد تأكدن من ذلك حين أصبحت أم حسني تطلب مقابل ما أعطته أو ما تعطيه ذرات من الملح «إذا كان الملح يذل كل شيء ويذيبه، فإن البني آدم أضعف من أن يقاوم الملح».

وبدأت تتكون لأم حسني صورة جديدة هي مزيج من كل شيء: العواطف والأحقاد والخوف، إضافة إلى الرغبة في تجنب «الأبالسة الذين هبوا على قصر الغدير كما تهب الرياح».

الزيارة التي قامت بها الشيخة لأم حسني في بيتها كانت حدثاً بالغ الأهمية، فخلال الأيام الثلاثة التي سبقت الزيارة، مع لياليها، لم يتوقف الاستعداد، ولم يبقَ أحد في الحي إلا وأصبح على علم بالأمر. ومع ذلك لم يفارق القلق أم حسني لحظة واحدة، وقد أخذ هذا القلق يتزايد حتى أصبح هلعاً كلما اقترب الموعد. تمنت أم حسني لو أنها لم تلح هذا الإلحاح كله على الشيخة، أو لو أنها أجّلت الزيارة إلى وقت آخر، لكنها لم تترك لهذه الهواجس أن تستبد بها. ولئلا يفوتها الوقت أو تقع فريسة للمرض، انصرفت بهمة كبيرة للعمل: أعادت تنجيد المخدات والفراش، وأعادت ترتيب البيت مرة أو اثنتين. حتى الملابس في الخزانة أشرفت بعناية على ترتيبها «لا يعرف البني آدم، يمكن جاء على بالها أن تفتح الخزانة، أن تتفرج، فإذا ما كان كل شيء بمحله، نظيف ومرتب تقول: ما أوسخهم، من برّا رخام ومن جوا سخام. ويمكن يجي على بال المخلوقة أن تتفرج على المطبخ على غرفة المونة، وما أحلانا ونحن نركض حواليها وندحش زبايلنا هون وهون».

وتمّ أيضاً ترتيب المقاعد والخزائن، في غرفة الضيوف والغرف الداخلية. وقامت أم حسني بتعسيف السقف والجدران، ونفض السجاد، والشطف. قامت بذلك بنفسها، لأنها لم تطمئن «صغار ويمكن أن يستعجلوا أو ينسوا» ورشت زوايا البيت بماء الزهر وأشعلت البخور يومين متواليين. قامت بكل هذه الأعمال بكثير من الحرص والعناية، لكن، مع ذلك، ظل القلق أو عدم الاطمئنان، يسيطر عليها «ماذا لو رفعت طرف السجادة وشافت الغبار؟ وإذا شمت ريحة التوم أو البصل المحروق؟ وإذا

انزركت المخلوقة أو أرادت أن تتوضأ، وما انتبهنا أن الصغار وسخوا وجأجأوا.. شو رايح تقول علينا؟».

وكنّتا أم حسني، اللتان كانتا كخادمتين بين يديها، وكانت توجه إليهما أوامر صارمة دقيقة، ولا تكف عن مراقبتهما، بدا أنهما غير راغبتين بهذه الزيارة، أكثر من ذلك بدا عليها بعض التهاون، وهذا ما دعا أم حسني إلى مزيد من القلق، وكانت المرأتان مستغربتين هذا الاهتمام وهذا الحرص كله. لم تكن حماتهما هكذا في يوم من الأيام فماذا تعني الشيخة، وماذا سيترتب على هذه الزيارة؟ هكذا قالت كل واحدة في نفسها، وهكذا قالت كل واحدة لزوجها. أما حسني الذي بدا متطيراً إلى أقصى حد من هذه الزيارة، واعتبرها دليل شؤم، فلم يتدخل ولم يقل كلمة خلال اليومين الأولين، أما في اليوم الثالث، يوم الزيارة، وحين جاء للغداء، وطلبت منه امه أن يتغدى في المطبخ، على غير العادة، ونظر إليها باستغراب مشوب بالغضب، فقد ردت عليه:

- رضاي عليك يا ابني.. لأن غرفة الأكل مسحتها قبل شوي وأرضها مبلولة.

قال وهو يزفر مثل ثور:

- الحق عليّ أنا اللي صغّرت عقلي وجيت..

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

- نحن مع الناس العاديين ما ماشي حالنا، وكأنه كان ناقصنا أميرات وشيخات.

- يا ابني لازم الواحد يماشي زمانه، وكل بلد ولها عاداتها، وكل إنسان وله مقام.

هزت رأسها وابتسمت بتوسل ثم أضافت:

- وهي مرة في العمر، يا ابني، وتمضي.

- يا ريت يا أمي، لكن هذا الدرب طويل، درب ما له آخر!

- لا، يا ابني، مرة وتمضي.

ـ طيب، بسيطة، بنشوف!

واكتفى بأن أكل قطعة صغيرة من الخبز وشرب كوباً من اللبن، فعل ذلك وهو واقف. وخلال دقائق ترك البيت دون كلمة.

أما سعيد الذي انشغل بهذه الزيارة أكثر من أي إنسان آخر، وربما أكثر من أمه، فقد جلب، لا يُعرف من أين، عدداً من قطع الزرع، واشترى خروفاً لهذه المناسبة، وقد انتقاه كبيراً بقرنين معقوفين، وأحضر كمية كبيرة من اللوز والبندق، وتمنى لو كان في مكان آخر، إذن لاختار أشياء وأشياء، «لكن موران مثل الضيعة» هكذا قال لنفسه. كما أبدى آراء بشأن نظافة البيت وترتيبه. وفي اليوم الثالث، يوم الزيارة، أخذ الأولاد الثلاثة، ابنيه وابن أخيه، إلى الحلاق، واشترى للبنتين الصغيرتين فساتين جديدة، أما ملاحظات زوجته التي سمعها في الليلة الأولى تعليقاً على الزيارة، فقد رد عليها بحزن أقرب إلى الإهانة «أمي، وضيوف أمي، على العين والراس. وما بدي كلمة زايدة أو كلمة ناقصة» وزوجته التي صمتت، وكان يمكن أن تكتفي بذلك، لكن بعصبية سألها من جديد: «فاهمة؟» فلما ردت: «ما حكينا شي» تابع: «الواحد يدفع حياته وماله كله من أجل زيارة من هذا النوع، وفيه ناس تحكي كلام طالع نازل؟».

وواصل سعيد تقديم المساعدة والمشورة في كل مرحلة، وقضى وقتاً طويلاً مع أمه على انفراد. كما أوصى زوجته أن تلبس أجمل ما عندها من ثياب وكيف يجب أن تتصرف وكيف يجب أن تبتسم، «لأن التيسة، زوجة حسني، يمكن تتحيون وتكون مثل البومة، لا من تمها ولا من كمها، ويجوز تحسبها الشيخة خرسا أو هبلة، أنت كوني حِزكة، خفيفة، حتى تبيضي الوجه».

لما اطمأن سعيد لكل الترتيبات، بما فيها تغسيل الأولاد، وإحضار القصاب الذي سيتولى ذبح الخروف على عتبة البيت حين وصول الشيخة، أوصى على قالب ثلج يكفي لمقهى كبير ولليلة كاملة، بعدها غادر البيت مع توصية واضحة قالها بصوت عال ليسمع الجميع:

ـ إذا احتجتم إليّ فأنا في القهوة، قهوة عبد الرزاق، سمعتم؟

اختار مقهى عبد الرزاق ليكون قريباً من البيت، ليرقب موكب الشيخة، وليعرف أيضاً رد الفعل من الآخرين، ولكي يلبي أي حاجة أو طلب قد يجدّ في اللحظة الأخيرة.

عند العصر، حين اقترب وصول الشيخة، كثر الهرج وزادت الضجة، من أولاد الحي الذين رأوا أولاد الأسطة وكركر بتلك الملابس الجديدة البيضاء، وقد قصوا شعورهم وتعطروا، وظلوا مرابطين عند الباب، لكي ينقلوا بسرعة أخبار وصول الشيخة، بمجرد أن يروا سيارتها. خلق هؤلاء الأولاد وأولاد الحي ضجة كبيرة، وقد تزايد الهرج وتزايدت الضجة بمرور الوقت، مما أدى إلى خشية أم حسني أن يفسد الأطفال نظافة الأدراج والرصيف، وقد غسلتهما بنفسها عند الفجر. فأوصتهم أكثر من مرة. وظلت تراقبهم وظلت تراقب أحفادها وعدم انشغالهم مع الأطفال الآخرين. كل هذه خلقت حالة من التوتر والهرج لم تكن متوقعة.

بعد العصر بقليل وصلت الشيخة ومعها عبدتها تهاني واثنتان من النساء تراهما أم حسني لأول مرة، في سيارتين من سيارات القصر، وبوصولها ارتفعت الأصوات والضجة، ورافقها تدافع الأطفال، وكادت الشيخة تنزلق وتسقط على الأرض، قريباً من الأدراج، لكن عيني تهاني انتبهتا في الوقت المناسب، فأسندتها من إبطها، وقد خلق هذا، للحظة، ارتباكاً لأم حسني، التي كانت في ملابس بيضاء واسعة أشبه ما تكون بالأجنحة، خاصة وهي ترفع إحدى يديها إلى حلقها تغطيه لكي تزغرد، وترفع الثانية بقارورة ماء الزهر ترشه على الضيوف...

كانت لحظات متوترة حافلة، الأمر الذي فوّت على أم حسني أن تقدم كنّتيها بالطريقة التي استعدت لها كثيراً خلال الأيام الماضية. أما ما تلا ذلك من وصول الأطفال، وهجومهم السريع الآلي على الشيخة لكي يقبلوا يدها، وكذلك ليقبلوا أيدي النساء الأخريات، وقد سبب هذا مرارة واضحة للجدة، لم تخفها، لكن لم تستطع أن تفعل إزاءها شيئاً، فقد أدى كل ذلك إلى التعجيل بتقديم الحلويات، وحصل هذا بشكل سريع متلاحق، مما أعطى للزيارة طابعاً غير ما قدّرته وخططت له أم حسني، وترافق أيضاً مع

أسئلة واستشارات عديدة من القصاب، ما إذا كان عليه تقطيع الذبيحة إلى أجزاء صغيرة أم كبيرة، وأنه يفضل أن يكون إلى جانبه أحد لكي يرشده. كل ذلك ولّد ارتباكاً وحركة زائدة، إضافة إلى دخول الصبية وخروجهم، وكانوا يتقربون من جدتهم لكي يسروا لها بأسئلة وطلبات لا تعرف كيف تجيب عنها أو كيف تتصرف إزاءها.

كانت الشيخة تتوقع جواً هادئاً وحركة أقل، أما وقد رأت هذا فقد بدت منزعجة قليلاً، ومما أكد هذا الانطباع لدى أم حسني أنها رأتها تتلفت عدة مرات، وطلبت مرة من تهاني أن تقترب منها، وأسرّت لها شيئاً في أذنها، وقد سبب هذا كدراً حقيقياً لأم حسني، وسبب لها الخجل أيضاً، لأنها في دارها لا تستطيع أن تتصرف كما كانت تريد أو كما تتمنى. حتى الأحاديث التي تبادلتها معها كانت قصيرة، سريعة، وكثيراً ما انقطعت.

أما الشيخة فلم تأتِ في هذه الزيارة لكي تأكل، جاءت لتختلي بأم حسني، لكي تتحدث معها على انفراد دون رقابة، حتى لو من بعيد، ولكي تسمع منها بوضوح ما يقوله الفنجان. هذا ما قدرته وما هدفت إليه. أما في هذا الجو، حيث تتراكض النسوة، ويعم الصخب، وحيث لا تعرف الصحون التي وضعت من تلك التي يجب أن ترفع، فلن تستطيع أن تتكلم، أن تقول شيئاً، ولن يكون حالها هنا أفضل من حالها في قصر الغدير.

محاولات أم حسني أن تخلق جواً طبيعياً هادئاً، وأن تتصرف ببساطة وتلقائية اصطدمت بذلك الانفعال الذي تولد من الحركة الزائدة والإرتباك، ثم الضجة التي كانت تصل من الخارج، الأمر الذي أدى إلى المزيد من الارتباك والحيرة، ثم بعد ذلك إلى اختصار الزيارة.

كانت أم حسني قد خططت أن تستبقي الشيخة على العشاء، أو على الأقل أن تتذوق بعض قطع من المعلاق، خاصة وأنها جهّزت بعض المشهيات والأكلات الخفيفة المناسبة. لكن هذا الوضع أدى إلى أن تفقد السيطرة، وشعرت في لحظة قيام الشيخة تريد الانصراف. أن أية محاولة جديدة، لن تجدي ولن تغير شيئاً. قالت بطريقة استعراضية:

ـ هذه الزيارة غير محسوبة، يا شيخة، لأنها قصيرة، ولأن الاولاد وكتايني كانوا راغبين يشوفوك وأن يسلموا عليك، وكانت هذه الزيارة لهم.

ولما ابتسمت الشيخة موافقة، تابعت:

ـ أما زيارة أم حسني فمن بد ولازم أن تكون غير شكل!

ـ المهم أن نشوفك، يا أم حسني، هنا، هناك، لا فرق، وعسى أن يكون بيتكم عامر واستروا ما شفتم منا!

وبنفس الصخب والضجة، إضافة إلى المراسيم، خرجت الشيخة بعد الغروب وانتهت الزيارة. لكن الحديث عنها لم ينته، والضجة التي رافقتها لم تتوقف. والذين لم يعرفوا بالزيارة قبل حدوثها عرفوا بعد ذلك. أما الأطفال الذين كانوا في الأيام الماضية شديدي الانفعال والترقب، انتظاراً لهذه الزيارة، وانتظاراً للشيخة بالذات، فقد أصيبوا بخيبة أمل شديدة. حتى عندما أقبلوا على هذه المرأة العجوز، وقبلوا يدها، كانوا يتوقعون امرأة أخرى، أو على الأقل ليست هذه المرأة بالذات.

والكنتان أيضاً شاركتا الأطفال هذه المشاعر، وإن كانت مشاعرهما أوضح. ففي محاولة منهما للتعبير عن عدم الاهتمام، سألتا عن النساء اللواتي كن مع الشيخة، سألتا ما إذا أكلن أم لا، وسألتا ما إذا قرابة من نوع أو آخر تربطهن بالشيخة. أما عندما تساءلن عنها فقد كانت الأسئلة أقرب إلى الهزء «عيونها واحدة نازلة وواحدة طالعة.. أو أنا غلطانة؟» «لا... وأنا لاحظت» «وحلقها رخو كأن عندها فالج أو بتمها لقمة» «ونظراتها.. مثل نظرات الحرامية، تتطلع على الداخل وعلى الخارج وكأنها خايفة» «مو بس هيك، كل دقيقة تمرر أيدها على تمها، تمسحه، وهي تثاوب، وكأنها بالعة حسكة وعطشانة» «وعيونها تدمع، لاحظت؟» «ظني أن عينها اليمين حولة، لأنها كل لحظة تدير وجهها كله، وكأنها ملقوطة» «وعرجا» «وشفت عكازتها؟ طولها مرة ونص» «وسودا مثل الفحمة ولي» «كل شيء فيها بقرّف» «بتعرفي؟ حبيت ازكزكها، جاء على بالي اسألها: قولي يا خالتي مين اكبر أنتِ أو ستنا حواء» «تضرب، وجهها ما بيضحك للرغيف السخن».

لأول مرة تسمع أم حسني من الكنتين مثل هذا الكلام، ومع ذلك تظاهرت أنها لم تسمع. ولو لم تكن مذهولة وتحاول أن تستعيد كل التفاصيل، حتى الصغيرة منها، منذ أن سمعت الأطفال يدقون الباب بصخب ثم يصرخون معلنين عن وصول الشيخة، وحتى لحظة مغادرتها، لولا انشغالها الكامل لما تركت الكنتين تتكلمان بهذه الطريقة، كانت في لحظات كثيرة تسمع النهايات، وترى ابتسامات السخرية والضحك، أكثر مما تسمع الكلمات.

أما عندما جاء سعيد، وقد جاء قبل أن تُجمع فناجين القهوة، وقبل أن تجمع بقايا الحفلة، فقد كان في شوق ولهفة لأن يسمع من أمه، أن تحدثه بكل التفاصيل منذ أن وصلت الشيخة وحتى لحظة مغادرتها، وإذا كان قد بدأ بنوع من اللوم، في أن أمه لم تسبق الشيخة على العشاء، فقد ردت بطريقة أقرب إلى اتهام الآخرين، إلى اعتبارهم مسؤولين بشكل أو بآخر، قالت بنزق:

ـ يلعن هالزيارة ويلعن يومها!

تنفست بحقد أقرب إلى الغضب وتابعت:

ـ ويلي اتطلع عليها واسمعها. وويلي اتطلع واسمع غيرها!

وتطلعت إلى الكنتين اللتين اهتمتا بجمع البقايا. كانت تعتبرهما مسؤولتين بشكل ما، وكانت تريد أن تشتكي، لكن في اللحظة الأخيرة عدلت، إذ لو فعلت يمكن أن تجرئ المرأتين عليها، فما دام سعيد معها، لا بدّ أن يتولى زوجته، ولا بدّ أن تتراجع، أما إذا بدأت بالشكوى منذ الآن، واتخذت موقفاً حاداً عصبياً، فإن الزيارة تعتبر فاشلة تماماً، وعكس ما أرادت.

تحدثت مع ابنها بطريقة رخوة وغامضة. قالت إن النساء يتزاورون، وأن هذه الزيارة مثل غيرها، ولذلك لا تفاصيل كثيرة يمكن أن تقال أو يمكن أن تنقل!

التي أعقبت الزيارة اتسمت بمقدار كبير من التوتر الخفي والكدر، واتسمت أيضاً بذلك الصمت المدوي الذي ينذر كل لحظة بالانفجار. وكأن التعب والأحقاد والرغبات الكامنة، والتي تموّه نفسها غالباً، وجدت نقاط الضعف فنشطت واحتقنت، لكن انتظرت بعض الوقت لكي تطل برأسها، ثم لكي تنفجر بعد ذلك.

فأم حسني التي توقعت الكثير من هذه الزيارة، أصيبت بخيبة أمل كبيرة، فلامت نفسها، لكن احتملت وصبرت، وبدل أن تفرغ غضبها على الكنتين أو على الصغار امتلأت به، فاعتزلت الجميع أول الأمر، ثم ما لبثت أن سقطت مريضة. حصل هذا على التحديد في اليوم الخامس الذي أعقب الزيارة، واستمر مدة أسبوعين. وقد حمدت الله «لأن العلة وقعت فيّ ولم تصب الصغار أو آباءهم» ولم تذكر شيئاً عن الكنتين. ونتيجة الحمية القاسية، وتلك الأدوية التي تعوّدت على تناولها في حالات مشابهة، بدأت تستعيد صحتها شيئاً فشيئاً، لكن آثار المرض والضعف لازمتها فترة غير قصيرة.

أما حسني الذي حاول أن يبقى طبيعياً، أو أن يتظاهر بذلك، خلال الأيام الأولى، مع تصميم لا يلبث يتزايد على الصمت، لكي يعبر عن احتجاجه بشكل ما، فقد نقل العدوى إلى زكية، زوجته، فبعد أن كانت طبيعية في وقت الزيارة، عكس ما توقع سعيد، إذ ركضت وضحكت ولبست أحسن ثيابها، واستمرت كذلك في الليلة ذاتها، ثم في اليوم الذي يليه، وتبادلت مع أديبة، سلفتها، التعليقات الساخرة حول الزيارة وحول الشيخة بالذات، تغيرت فجأة في اليوم الثاني، أصبحت امرأة أخرى: فبعد

أن غادر حسني البيت إلى دكانه، حجزت نفسها والأطفال في غرفتها، فلم تغادرها، ولم تسمح للأطفال أن يغادروها أيضاً. أما عندما احتج الأطفال وبدأوا بالصراخ فقد عاقبتهم بقسوة، ولم تتركهم يغادرون الغرفة، إلا مرة واحدة وإلى الحمام بالذات، وطلبت من الابنة الكبيرة أن تحضر قليلاً من الأكل والماء. استمر الحال كذلك إلى المساء. إلى أن جاء حسني، فخرج الأطفال مرة أخرى، لكن لفترة قصيرة، ثم أعادتهم بقسوة. وتكرر الشيء ذاته في اليوم اللاحق ثم في الأيام التالية، مع شيء من التراخي. وحين مرضت أم حسني واعتزلت في غرفتها زارها حسني عدة مرات، أما هي فقد أطلت من باب الغرفة مرتين، وسألت ما إذا كانت حماتها بحاجة إليها أو بحاجة لشيء. فلما صمتت أم حسني وأشاحت بوجهها اعتبرت أنها أدّت واجبها فلم تحاول بعد ذلك!

سعيد لم يفهم سبباً لهذا الذي يجري حوله. كان يتوقع أن تأخذ الأمور مجرى آخر، ممّا دفعه لأن يسأل نفسه ثم يسأل زوجته. وسأل أمه، لكن دون أن يصل إلى جواب مقنع، فافترض أن أخطاء من نوع أو آخر وقعت أثناء الزيارة أو بعدها، وأن أمه وزوجته تتكتمان عليه ولا تريدان أن يعرف. وبدا له هذا الافتراض صحيحاً أو ممكناً، وما عزز لديه ذلك سلوك أخيه وزوجته، فرغم أنهما حاولا التظاهر أن كل شيء طبيعي، لكن البرودة والجفاف كانا واضحين، سواء من الصمت أو من النظرات، فلما استفسر وألح ضحك حسني بسخرية وكأنه يقول له دون كلمات «تقتل القتيل وتمشي بجنازته».

كان سعيد يريد من هذه الزيارة بداية صاعقة، إذا صحّ التعبير، هكذا كان يفكر وهكذا كان يتمنى. حتى وهو يجلس على الرصيف في مقهى عبد الرزاق، التفت بجلبة واضحة حين مرت السيارتان، وقال بصوت واضح سمعه الذين كانوا حوله «سيارات القصر، سيارات القصر يا جماعة» أما في اليوم التالي، ثم في الأيام اللاحقة، فلم يترك أحداً إلا وأسرّ له بشكل ما أن الشيخة كانت بزيارتهم أمس، وأنها «قضت اليوم بكامله، وكادت أن تنام عندنا، لكن القصر بعث يطلبها «وأن الشيخة أكلت

وشربت، وكان معها العشرات من الأميرات والخدم والعبيد، وقد امتدحوا جميعاً أكل أم حسني» «كادت أن تصرف الخدم وتبقى زائرة لعدة أيام».

وبأشكال أخرى كثيرة كان ينقل خبر الزيارة وما رافقها وما أعقبها، وأخذ يصور له خياله أموراً لا تلبث أن تتغير مرة بعد أخرى، دون أن يحس بذلك، ودون أن يعتبر نفسه مخطئاً أو مبالغاً. أما بعد أن وقعت أمه مريضة، ثم ذلك الجو الذي خيم على البيت، فقد لام نفسه لأنه لم يستفسر بالمقدار الكافي حول التفاصيل الدقيقة التي رافقت الزيارة منذ لحظة الوصول وإلى أن غادرت الشيخة. ولما حاول ذلك مع زوجته، وبعد أسبوع تقريباً، فقد ردت بما يشبه اللوم والسخرية:

ـ والله، يا رجال، ما جاءنا من هذه الزيارة غير التعب ووجع الرأس!

أما حين بعث القصر، أو بعثت الشيخة، بسيارة لتسأل عن أم حسني، وقد حصل ذلك في الأسبوع الثالث، وقال السائق «القصر طالبها» فقد ردت أم حسني بنفسها من وراء الباب الموارب، قالت للسائق:

ـ سلّم لي على الشيخة وقل لها إنشاء الله كم يوم وأم حسني تبيّن عليكم!

ولم يفت الحكيم خبر الزيارة. فقد نقله إليه رضوان، الذي بلغه سعيد، ثم سمعه من حسني بعد عشرة أيام. وإذا كان قد توقف عند الخبر قليلاً، واعتبره هاماً، إلا أنه أقنع نفسه أن زيارات مثل هذه يمكن أن تتم «بين العجائز حتى يقطّعوا الوقت» وكاد أن يلوم زوجته لأنها لم تستطع أن تدعو بعض نساء القصر، خاصة زوجة السلطان أو الأميرات المهمات. لكن قال لنفسه بنوع من التعزية «اللي يعتمد على مرا مثل اللي يحصد هوا».

أما زوجة الحكيم التي سمعت بخبر الزيارة في وقت متأخر، وأرادت أن تفاجئ زوجها بإبلاغه بأمر الزيارة، فقد اكتشفت أن الخبر وصله قبلها، وبدل أن تصب جام غضبها على «الكرنبية» كما أصبحت تسمي أم حسني، اكتفت بأن قالت:

ـ إذا كانت شاطرة، وبدها تلعب من وراء ظهري والله لأخليها تفتل لي خيطان!

في نهاية الأسبوع الثالث، وقد بدأت أم حسني تبلّ من مرضها، بدأت نذر العاصفة تتجمع في البيت. فالرسالة العاجلة، التي جاءت من القصر، أو هكذا اعتبرها وسماها سعيد، بدعوة أمه، لا يمكن أن تؤجل أو أن تهمل، لأن الأمر قد يُفسر تفسيراً سيئاً وضاراً. كان يريدها أن تقوم بالزيارة بسرعة. وأم حسني ذاتها التي ملت المرض والبقاء في الفراش أحست أن روحها ترفرف في صدرها، ولا يمكن التغلب على هذا الضيق إلا إذا غادرت البيت. لا يهم إلى أين، المهم إن تغادره، أن تبتعد عنه قليلاً، خاصة وأن الكنتين آلمتاها، وإن تكن زوجة حسني أكثر، لكنهما اشتركتا معاً بالسخرية منها ومن ضيوفها، وأبديتا عدم اكتراث واضح أثناء مرضها. تمنت لو تعود، من جديد، مثلما كانت من قبل: قوية، قادرة على تقديم مصروف البيت، أو على المشاركة فيه، وأن تسافر وتتاجر كما كانت تفعل.

حسني ذاته اعتبر صمته عقاباً كافياً، ولا بد أن يراجع كل واحد موقفه، كما فعل هو، فيتوقف الطيش وتنتهي المظاهر، واعتبر أن زكية قد أوصلت الرسالة نيابة عنه، إذا لم تصل رسالته، فقد كان مستعداً في هذه الفترة أن يبدأ من جديد، كما فعل في كل المرات السابقة إزاء أخطاء سعيد وحماقاته.

كان يمكن للأمور أن تأخذ شكلاً هادئاً وطبيعياً، حتى الزيارة التي ولدت هذا المقدار من التوتر يمكن أن تنزلق إلى الظلمة فتتوارى وتضيع من ذاكرة الجميع، لكن سعيد لا يمكن أن يترك لأمر أن يجري في مجراه الطبيعي. فما كادت رسالة جديدة تصل من القصر مع هدية حتى قال لأمه بصوت قوي مع شيء من اللوم وأراد من الجميع أن يسمع:

ـ يا حجة زعل الأمراء والسلاطين غير زعل الناس العاديين.

ـ اللي يزعل يرضى يا ابني.

ـ إلا . . هم، لأنهم ما تعودوا على الزعل.

كان حسني يسمع. كان يسمع وهو صامت، ولم يكن ينوي التدخل، لكنه فهم كلمات أخيه وأمه تعريضاً به، زفر وهز رأسه. قال سعيد:

ـ واليوم أحسن من بكرة، يا حجة.

قال حسني، وخرج صوته غاضباً مهدداً:

ـ اسمعي يا أمي: قبل ما تحطي رجلك بالقصر أحمل حالي وأولادي وأمشي.

ـ خير.. إنشاء الله؟

هكذا سأل سعيد باستغراب، وكأنه فوجئ بهذا الموقف. رد حسني، وقد حاول أن يتماسك ويجعل صوته واضحاً وبطيئاً، لكنه بدأ يرتجف:

ـ الله يجعلك بخير...

وبعد قليل:

ـ أنا من يوم ما الله خلقني مع الحكومة ما لي خلطة، لا أحبها ولا أريد أشاكلها.

ـ ومن طلب منك أن تخالطها وتشاكلها؟

ـ اسمع يا سعيد: أول درس تعلمناه من الحجة، أول كلمة قالتها: العب وحدك ترجع راضي. وكانت دائماً تقول: ابعد عن الشر وغنّ له، وأنت من يوم ما وصلنا موران ما لك شغلة إلا تدور على الشر دوارة.

ـ ادور على الشر؟

ـ أي نعم يا سيدي، بصراحة، بدون لف أو دوران، كل شغلك تتحكحك بالحكومة وتدفش الحجة على القصر.

ـ أنا، يا سيدي، ما فهمت قصدك ولا فهمت كلامك.

ـ قصدي أن نبعد عن الحكومة، ما نخالطها.

ـ يعني إذا زارت الحجة القصر، أو إذا جاءت الشيخة لبيتنا بزيارة معناها أنّا خالطنا الحكومة؟

ـ أي نعم.. يا سيدي.

ـ غلطان.

ـ غلطان مو غلطان هذا رأي.

ـ رأيك غلط.

ـ اسمع يا سعيد.

وزفر حسني ثم ضحك بمرارة وتابع:

ـ القصر هو الحكومة، هو الدولة، وأنت تعرف هذا أحسن مني.

وهز رأسه عدة مرات بلوعة وتابع من جديد:

ـ وأنت تعرف، يا سيدي، أن الحكومة، مثل الشرموطة، كل يوم مع صاحب وما لها صاحب، لا تحلل ولا تحرّم، ما لها قلب ولا لها رب، ولا يهمها إلا مصلحتها، فإذا حطيت حالك بين المطرقة والسندان صرت عجينة، وخسرت الأول والأخير!

ـ طيب.. ما علاقتنا بهذا الكلام؟

ـ يا سعيد، يا حبيبي: إلعب وحدك ترجع راضي، ونحن ما جئنا لموران إلا لنشتغل، لنحصل على رزقنا، وما لنا غير شغلة!

ـ طيب من قال أن لنا شغلة ثانية؟

ـ كل يوم والثاني: يا الله يا حجة. تأخرت على القصر يا حجة. لازم تروحي القصر يا حجة. لو كانت زيارة وانتهينا كان سدينا بوزنا وسكتنا. لكن شايف، زيارة جرت الثانية، وبعد ما كنا نروح عندهم صاروا يجوا لعندنا، ومثل ما قال ذاك الرجال: السلام جرّ الكلام والكلام جر المشنقة!

ـ اف اف.. اف، صار فيها مشانق!

ـ أي نعم يا سيدي، وأنت بتعرف رأي لما فاتحنا الحكيم أن نعمل معه في موران. قلت له: والله يا حكيم خبزة وبصلة والواحد رأسه مرتاح أحسن من الوظيفة، أحسن من ابن الحكومة، لأن الحكومة غدارة، ما لها أمان وما لها صاحب، هذا إذا حكيت عن الحكومات اللي مثل الخلق والعالم، أما حكومة شوربة، مثل حكومة موران، فيمكن الواحد اليوم يكون سلطان تاني يوم ملح وذاب، وكأنه ما كان في يوم من الأيام، ميّت وشبعان موت، وأنا ما جاي على بالي أموت.

ـ ولا أنا... يا سيدي!

هكذا رد سعيد وهو يضحك!

ـ طيب، إذا كنا متفقين، خلينا نبعد عن القبور، لأن اللي ينام بين القبور ما يشوف إلا المنامات الوحشة.

والتفت إلى أمه وسألها:

- احكي يا أمي، ليش مرضتي؟

ردت وهي تضحك بسخرية:

- المرض من الله، يا ابني، والعافية من الله!

والشيخة؟ وزيارة الشيخة.. ما هي سبب المرض؟

قال سعيد في محاولة هجوم جديدة:

- يا حسني.. كبر عقلك، فكر مثل الخلق والعالم.. علاقتنا مع القصر تفتح لنا ألف باب وباب، ونحن لا جماعة مناصب ولا جماعة وظائف، وأنا رأي بالحكومة انها أخرا مما تتصور، لكن إذا صارت لنا علاقة بالقصر نمشي مصالحنا.. لا حتى نصير وزراء!

- يا سيدي الحكومة تعطي التسعة حتى تأكل العشرة، الحكومة بنت ستين كلب، ما لها أمان ولا لها صاحب، كل يوم لون وكل يوم شكل!

- هذا لواحد يريد أن يكون وزيراً، لواحد يعمل في السياسة. أما إذا كان مثلك ومثلي، كل همه الشغل والفلوس، فالعلاقة مع الحكومة حتى تنفتح أمامنا الأبواب المسدودة، حتى نصل، لأنه إذا صارت لنا علاقة، وإذا دفعنا كم قرش، سيطرنا، نعم سيطرنا، ومثل ما قالوا من قبل: طعمي الفم تستحي العين.

وظل الخلاف قائماً واستمر. حسني يرفض بشكل قاطع أن تكون له علاقة، أية علاقة، بالقصر، وسعيد يرى العكس تماماً، ويرى أن الابتعاد عن هذا المجال، خاصة في هذا الوقت وهذا المكان، نوع من الجنون لا يمكن أن يغفره أو أن يتسامح فيه. والعجوز التي احتارت بين الاثنين قالت في محاولة لأن تؤجل الموضوع، لا أن تحسمه:

- من يوم الله خلقنا ونحن نركض ونشقى، فلما وصلت اللقمة للتم كفرنا واختلفنا.

وزفرت، ثم قالت بحزن:

- طولوا بالكم!

دون

تردد ودون انتظار طويل قررت أم حسني أن تهجر موران. يجب أن تفعل، لا يهم إلى أين، أو إلى متى، المهم أن تغادر. ستبقى بعيدة إلى أن تشفى، وعندما تعود مرة أخرى سوف تعرف كيف تكون مختلفة عن السابق. لن تقبل أن تتحول إلى كرة، يقذفها واحد إلى آخر، يكفيها ذلك. وإذا نجت من الموت هذه المرة، فقد لا تنجو في المرة التالية. أما الشيخة، أمي زهوة، فلن تعني لها شيئاً بعد الآن. هذه المرأة لا تعرف الحب أبداً، ولم تعرفه في حياتها كلها، تعرف شيئاً واحداً: كيف تكره، وكيف يزداد كرهها لكل من حولها يوماً بعد آخر. ونساء القصر الأخريات.. أي نوع من النساء هن، وأية أفكار وأحلام تملأ رؤوسهن؟ لقد عرفتهن جميعاً، لا تحركهن سوى الأحقاء والرغبات الصغيرة. صحيح أنها لا تفهم بعض الكلمات التي يوشوشنها بها، لكنها مع ذلك تستطيع أن تقدر. إذ لا تفعل أي منهن شيئاً سوى الحديث عن الأخرى، وكل واحدة تريدها فقط لنفسها، أن تحدثها، وأن لا تحدث غيرها عما يقوله الفنجان. كفاها ذلك، لم تعد تطيق.

حتى حسني وسعيد أصبحا مختلفين كثيراً عن السابق، لا بد أن تعود إلى معاقبتهما، كما كانت تفعل من قبل. كانت في السابق تكتفي بالتهديد، بالصمت، وبعض الأحيان بمجرد أن تلبس ملاءتها وتتظاهر بأنها ستتركهم. كانوا يمتلئون بالخوف، ولا يلبثون أن يتغيروا، أن يصبحوا شكلاً آخر. الآن يجب أن تعود إلى نفس الطريقة، ولا بد أن يتأثروا. ما زالوا صغاراً، وعقوبة من هذا النوع، وليس مجرد التهديد، سوف تعيدهم إلى العقل.

أما بالنسبة للكنتين فلن تتسامح أبداً. لقد تغيرت المرأتان خلال بضعة

شهور، كما لم تتغيرا طوال سنوات. كيف تسمح بذلك؟ وكيف كانت مسيطرة وقادرة خلال الفترة الماضية كلها، ثم فجأة، وبمجرد أن تغاضت قليلاً، بمجرد أن تهاونت في التنبيه والمراقبة، أو بلفت نظر الأزواج، اختل كل شيء؟ لا بد أن تعود مرة أخرى المرأة التي كانتها. سوف تعرف كيف تتصرف، فقط تحتاج الآن إلى بعض الراحة.

لكن أين تسافر؟ وإلى متى ستبقى؟ وهل تقوى أن تعيش وحيدة مرة أخرى؟

لم تجد أن عودتها إلى دمشق تليق بها، إذ لم تترك جارة من الجارات إلا وحدثتها أن ابنيها لا يصبران على بقائها يوماً إضافياً بعيدة. يريدانها أن تكون اليوم قبل الغد في موران. ماذا تقول الآن إذا عادت؟ هل تقول أنها في زيارة مثلما كانت تفعل من قبل، أو أنها جاءت لتبقى؟ وهل تقوى أن ترجع وتخلف ابنيها وأحفادها دون أن تراهم؟ ستموت حزناً وكمداً أن تصورت انها لن تراهم مرة أخرى.

يجب أن تفكر بمكان آخر، مكان ينقذها، ولا يعرضها لإحراجات دمشق وأسئلة الجارات والأقرباء.

كان يمكن أن تفكر بالذهاب إلى مكة، هناك تستطيع أن تنقذ روحها، أن تتوازن من جديد، لكن الوقت لم يكن وقت حج. وفجأة عنّ لها أن المكان الوحيد الذي يلائمها هو المدينة، إلى جانب قبر الرسول. هناك يمكن أن تستعيد نفسها، أن تتوازن وترتاح وتبتعد، حتى إذا امتلأت بذلك الجو، وتشبعت بالرائحة الزكية والراحة العميقة يمكن أن تعود امرأة أخرى.

حاول سعيد أن يثنيها عن الفكرة: «المدينة بعيدة، والوقت غير مناسب، أما إذا جاء وقت الحج فسوف أحملك على كتفي إلى هناك» ولم تقتنع ولم تتراجع. وحسني الذي كان مثلها مملوءاً بهذا التعب وبهذه الهموم لم يطل به الأمر حتى اقتنع:

ـ أوصلك وأؤمن عليك وأرجع يا أمي.

ومثلما خاف سعيد، حين رآها تحمل صررها وتأتي إلى موران، فقد خاف من تلك الصرة الكبيرة التي لم تترك لأحد غيرها أن يحملها، وعندما وضع أصبعه عليها يدسها، قال وهو يبتسم:

ـ يا حجة... هناك ما لك غير الزيارة، أما التجارة فاتركيها لغيرك.

ردت بمزيج من الغضب والحزن:

ـ زيارة قبر الرسول، يا ابني، أكبر تجارة للبني آدم في الدنيا والآخرة، فلا تخف.

ـ وهذه البقج يا حجة؟

ـ بقجة خير وبركة، يا ابني، وتنفع!

وهكذا رحلت إلى المدينة.

في المدينة بدا لها الناس نوعاً مختلفاً: أقرب إلى الضوء وأشبه ما يكونون بالأشباح: يمشون على رؤوس أصابعهم، يتحدثون بهمس أو تعب، وكأنهم لا يقوون على الحديث أو لا يريدون. ينظرون ولا ينظرون. أما تلك الملابس الخفيفة فأشبه ما تكون بالأكفان: بسيطة، ناعمة، تنزلق على الأجساد كما تنزلق الريح. وأحست أم حسني أن حياتها الماضية كلها لا تعني شيئاً. تحولت مرة أخرى إلى ذرة من رمل، إلى لحظة من ضياء. حتى الأكل أصبح النسبة لها هنا شيئاً مختلفاً، أنها تأكل فقط لتبقى. لتكون قادرة على زيارة قبر النبي، وأن تصل هناك. وعاودها الأسف انها أتعبت نفسها وأتعبت الآخرين من أجل أن تستقبل الشيخة وأن تهيّئ لها كل ما هيأته. أكثر من ذلك تمر أمام ناظريها حياتها من جديد، تراها مختلفة، لا تعني شيئاً ولم تحقق أي شيء.

قبل أن تصل إلى هنا كانت تظن أنها بحاجة إلى شهور من العلاج لتشفى. كانت تريد أن تنام نوماً طويلاً متصلاً، لكن فجأة أحست بالقوة، وبعدم الرغبة في النوم. لم يبق لها إلا القليل على هذه الأرض، ثم تنقلب لتصبح تحتها. لقد تعبت كثيراً! تجولت، باعت، رأت أناساً بأشكال لا حصر لها. والآن تريد أن تستريح. أن تفكر بحياتها كلها، وأن تحاسب نفسها.

انها حائرة إلى أقصى حد. لا تعرف كيف تكون هي نفسها وإنساناً جديداً في نفس الوقت. أكثر من ذلك لا تعرف كيف تقترب من البشر ومن الرسول في آن واحد. لامت نفسها كثيراً أنها تقاضت أرباحاً أكثر مما ينبغي على الأشياء التي باعتها. ولامت نفسها أكثر لأنها ساوت بين الأغنياء والفقراء في الأسعار. كان يجب أن تفرق، أن تميز البشر. صحيح أن الفقراء دفعوا، لكنهم كانوا يأتون بالقطع النقدية الصغيرة. كانت تفرحها هذه القطع وتساعدها، لكنها لم تتسامح مرة واحدة في أن تأخذ ما تفترضه سعراً للبضائع التي كانت تبيعها.

وهنا.. انها لا تعرف ماذا تفعل بالمال الذي تركه لها حسني. دائماً تشتري حاجات، وتكتشف بعد فوات الأوان أنها أكثر من طاقتها، أو مما تقدر على أن تأكله. قالت في نفسها وهي تبتسم وتتذكر: «الأولاد يأكلون الأخضر واليابس، وكان يجب أن يكون كل شيء كثيراً، تمتلئ عيونهم، فلا يشتهون، ولا يمدون أيديهم بعد ذلك» الآن لا تعرف ماذا تفعل بالرغيف الثاني. كان يكفيها واحد. لكن تجد نفسها تشتري اثنين. وإذا كانت قد حملت معها إلى غرفتها، القريبة من المسجد، الرغيفين في الأيام الأولى، فإنها استمرت بعد ذلك على شراء الرغيفين، لكن قبل أن تصل إلى الغرفة كانت تعطي رغيفاً إلى واحد من الذين يقفون عند باب المسجد، وترجع بالآخر.

لم يقتصر الأمر على رغيف الخبز أو الأكل البسيط الذي تعودته هنا، أصبح الوقت بالنسبة لها فائضاً أيضاً: كانت تكتفي بساعة نوم أو اثنتين، ولأن الليل أطول من أن يُقضى في الصلاة، أخذت تفكر بكل شيء. تذكرت أيام كانت صغيرة، وحين تزوجت أول مرة، ثم حين تزوجت في المرة الثانية، وتذكرت كيف جاءها الأولاد وكيف ربتهم. وتستغرب أنها تتذكر أشياء للمرة الأولى، لم تخطر ببالها من قبل ولم تفكر فيها، فجأة تراها أمامها، وكأنها تحصل من جديد. إنها تتذكر الأيام البعيدة أكثر مما تتذكر غيرها، حتى تلك التي حصلت في الأيام الأولى لوصولها إلى موران لا تبدو لها بوضوح الأيام البعيدة. كانت الأشياء، في ذلك الزمن البعيد لها

رائحة خاصة، نعم رائحة تتنشقها الآن، تعاودها مرة أخرى. لماذا نسيت هذه الأشياء كل تلك الفترة ولماذا تعاودها الآن؟

وبدأت تعيش من جديد في أيام قديمة، أيام كانت طفلة. كان يروقها كثيراً أن ترجع إلى تلك الأيام، ثم فجأة تتذكر حسني وسعيد وزكية، ثم تتذكر أحفادها، تجد أن الوجوه ذاتها تتكرر، انها نفس الوجوه وان اختلفت الملامح قليلاً، وتجد أنها لا تستطيع أن تبقى بعيدة أو معزولة. غفرت للجميع أخطاءهم، لا تحس أن لها ثأراً عند أحد، حتى الكنتان تحبهما، رغم الكلمات التي سمعتها؛ ورغم أن زكية تصرفت بتلك الطريقة، يمكن أن تسامحها، وسوف تصلي ركعتين عند قبر الرسول وتهبهما لها. «طفلة يمكن أن تخطئ، كل إنسان يخطئ» ويجب أن لا تتوقف عند هذه الأخطاء الصغيرة.

تفكر بذلك كله والليل لا ينتهي: أمي زهوة، الشيخة، تحيرها. ماذا تريد هذه العجوز أو كيف تفكر؟ ولماذا هي حازمة قاسية مع الآخرين في الوقت الذي تكون معها هادئة مقبلة وكأنها طفلة؟ ولماذا تتحول إلى أذن كبيرة شديدة التحفز لالتقاط كل كلمة تقولها لها؟ قالت أم حسني لنفسها «بالتأكيد تنتظر شيئاً، وإلا لما كانت بهذا الشكل». وبدأت تستعيد همسات نساء القصر ان غابت الشيخة، وبدأت تتذكر أيضاً أشكالهن وتصرفاتهن. هل يمكن أن تقتل أو تكون بهذا السوء ومن أجل أي شيء؟

وتغرق في الصلاة والعبادة لتنسى. ترقب الناس والأشياء حولها لكي لا تفكر. لكن، مع ذلك، يبقى لديها من الوقت الكثير، ودون أن تحس أو أن تقرر تجد نفسها غارقة في التفكير والهموم.

وتتغلب، من جديد، على حيرتها وهمومها بالصلاة. تقضي يومها كله في صحن المسجد. لكن الليل، هذا البحر الذي لا يهدأ ولا ينتهي، يحاصرها، يخيفها، وهي هنا وحيدة. لو أن أحداً معها لشعرت أنها أقوى. حتى القطة، ياسمين، التي كانت عندها في دمشق منذ أيام بعيدة، كانت تؤنسها، بعد أن ينام الأطفال. كان يكفيها أن تتلفت حواليها فترى الجميع نياماً، تشعر بالقوة والثقة. قرقرة القطة، في تلك الليالي، كانت تسليها،

تساعدها على أن تقضي عدة ساعات أخرى من أجل إنجاز بعض الحطات الإضافية. الآن تمتلئ بالوحدة والخوف. قد تموت هنا دون أن يحس أحد، دون أن تقول كلمة أخيرة وصية لأولادها، لا تريد أن تنتهي هكذا؛ أن تموت وحيدة، بعيدة، منسية. لا أحد يعرف قبرها، أو يزوره. صحيح أن الفقراء يزورون قبور الذين لا أحد لهم، ويضعون فوقها أغصاناً خضراء، لكن القبور هنا بلا عدد. بلا أهمية ولا تزار أيضاً. انها متأكدة أن أبناءها سيحزنون حين تموت. وسوف يكفّرون عن أخطائهم تجاهها حين تمضي، وقد يبنون لها قبراً جميلاً وقوياً، لتبقى بينهم حتى بعد أن يفنى جسدها. إذا ماتت هنا ستموت مجهولة تماماً. حتى اسمها لن يتذكره أحد، ولا يعني شيئاً لأحد. وبعد شهور، أو ربما بعد سنوات، إذا جاء أحد ابنيها، أو جاءا معاً، وسألا عنها فلن يتلقيا جواباً من أي نوع، الحركة الوحيدة أن يقلب كل من يسألانه شفته وكتفيه دلالة أنه لا يعرف.

لا، لا تريد ذلك. صحيح أن هذه الأرض شريفة، مقدسة، والكثيرون يفضلون أن يموتوا هنا، لكن ما يريحها أكثر أن تموت بين أبنائها، بين أناس يعرفونها ويحبونها، ستموت راضية عند ذاك، ستموت دون شعور بالندم أو الغربة.

وتمضي الأيام تتلوها الشهور. تغرق في النهار بين الناس، وتغرق في الليل بالوحدة. تشغلها في النهار هموم الناس وأحاديثهم، وتنشغل في الليل بهمومها وأفكارها. كل ما تصمم عليه في ليلة تنساه في اليوم التالي. أما حين يغيب بعض الذين عرفتهم في أسابيع أو شهور سابقة، فتعرف أنهم ماتوا، فتحزن لموتهم ثم لا تلبث أن تنسى، فإذا تذكرتهم مرة أخرى حزنت من أجلهم أقل مما حزنت في المرة الأولى، أما ملامحهم فتبدأ تغيب إلى أن تتلاشى، وكذلك أسماؤهم.

بعد ثمانية شهور حين جاء سعيد واصطحبها إلى الحج ثم عاد بها إلى موران لم تمانع. كانت تحس أنها شفيت وأنها راغبة ومستعدة للعودة. أكثر من ذلك كانت تحس بشوق كبير إلى الصغار.

صحيح أنها لم تطمئن لإجاباته حين سألته عن أخيه: كيف تركه،

وكيف هي علاقتهما الآن، لكن أياً كان الجواب كانت سترافقه في العودة. يكفيهما هذا الدرس الآن. والصغار، ما ذنب الصغار الذين تركتهم رغم شدة تعلقها بهم؟ وإذا كان الكبار قد أذنبوا فلم تعاقب الصغار أو تتخلى عنهم؟

قال لها سعيد في إحدى إجاباته عن أخيه:

- أبو تيسير بعده عايش بعقل عمان أو الشام.

وزفر بحسرة وتابع:

- وموران تحتاج إلى عقل ثاني!

أما حين استفسرت ما إذا سألت عنها الشيخة أو أحد آخر من القصر، فقد رد وهو يقهقه:

- القصر لا يتذكر إلا الناس اللي بوجهه.. يا حجة.

وبعد قليل، وهو يهز رأسه:

- بعد سفرك بأسبوع، أسبوعين، سألوا، لكن بعدها نسوا كل شيء!

بـــدا لها، منذ الأيام الأولى لرجوعها، أن ابنيها ما زالا موجودين معاً في البيت، لأنهما لا يستطيعان، ولا يستطيع أي منهما، اتخاذ قرار الانفصال. لكنهما، عملياً، منفصلان، لأن بدل المائدة الواحدة، والتي كان يتخللها الكثير من الاحتفاء والصخب، أصبحت مائدتين، وأغلب الأحيان تبدأ الواحدة وتنتهي دون أن يحس بها الذين في الجانب الآخر من البيت. وبعد تلك العلاقات الحميمة بين الكنتين، لم تعد الواحدة تكلم الأخرى إلا مضطرة. وتتعمد إحداهما أن تدخل المطبخ حين تغادره الثانية. أما الأطفال الذين كانوا رسل المحبة والوفاق، فقد منعوا، وبقسوة، من الاختلاط أو اللعب معاً، فإذا صدق أن أكل الواحد منهم في بيت عمه أو جلب حاجة كان ذلك سبباً لخلاف قد يمتد إلى أيام أو إلى أسابيع، وما يرافق ذلك من عقوبات وصراخ.

وحسني وسعيد تغيرا أيضاً، سواء في العلاقة، أو في العمل، وحتى في وقت الوصول إلى البيت. أما الكلمات التي يتبادلانها فكانت أقرب إلى المجاملة، أو لكي لا يبقيا صامتين إذا التقيا.

ندمت أم حسني ولامت نفسها لأنها تأخرت بوصولها إلى موران أول مرة، لكنها تكتشف الآن أن كل شيء متأخر وفات أوانه. أكثر من ذلك بدا أن وجودها أصبح عنصر خلاف جديد. كل واحد من الابنين يريدها أن تأكل على مائدته، أن تكون في القسم الذي يحتله من البيت، وأن تكون معه ومع زوجته في الموقف. وإذا كانت تملك بقية قوة في فترة سابقة، وقادرة أن تمنع خصام الزوجتين، فقد أصبحت أضعف من أن تفصل بينهما في المرحلة الجديدة، وأصبحت كلماتها الحازمة المؤنبة تثير السخرية أكثر مما تولد الخوف أو المهابة.

قالت لحسني بيأس مرير، حين ألحّ عليها أن تأكل معه بصورة دائمة:

ـ لا تهتم بمسألة أكلي يا ابني، أنا أدبر نفسي.

ولما ألحّ أكثر من قبل ردت:

ـ . . . والأكل آخر شي بالنسبة لي، يا ابني.

أما حين تطلعت عيناه بتساؤل واستغراب فقد تابعت:

ـ وأكلي بعد الحج والزيارة صار مثل أكل العصافير.

وابتسمت وأضافت بحزن:

ـ ويمكن أن أعيش على الهواء إذا كنت راضية ومرتاحة!

أما محاولاته في أن تأكل على مائدته يوماً وعلى مائدة سعيد يوماً، فقد أغضبتها، قالت بحدة، وبدا صوتها أقرب إلى قطة تموء:

ـ يقطع الأكل ويومه، اتركني، يا ابني، بحريتي، ولا تخف عليّ!

سعيد تظاهر أنه لم ير ولا يعرف، ولذلك لم يتدخل ولم يطلب شيئاً، كان متأكداً أن كل شيء مُؤقت. ومع ذلك لا يريد أن يكون السبب في أي إجراء يقدم عليه حسني. حتى مسألة القصر، أو أن تكون لأمه علاقة قد تساعده في العمل، فما لبث أن صرف عنها النظر، لأنه وجد منافذ أخرى، واستطاع أن يصل إلى أكثر مما كان يريد.

أي حزن يستبد بالإنسان حين يكتشف أن كل جهده وعمره ذهب عبثاً، دون جدوى وبلا أية نتيجة، سوى هذه الأجواء المعتمة القاسية، وهذه الآلام التي يعاني منها كل واحد على طريقته؟ ما فائدة الثروة إن كانت نتائجها كما ترى عيناها؟ وأي معنى للسفر والانتقال من مكان إلى آخر إذا كان المكان الجديد سيولّد هذا المقدار الهائل من التعاسة والألم؟ وهي. . ألم تكن مسؤولة عن كل ذلك؟ أليس ما تراه الآن نتيجة تربيتها وطريقتها في التعامل والتصرف؟

بدت لها موران ضيقة ومعادية، وبدا لها البيت مثل سجن، وامتلأت أيامها ولياليها بالوحدة، أكثر مما كانت تحس بليالي المدينة. هل أخطأت

مرة أخرى حين وافقت على المجيء؟ وهل تستطيع شيئاً تجاه الصغار الذين حملوها من مكان إلى آخر؟

بذلت محاولات لأن تجمعهم، أو لأن تجمع الصغار على الأقل. كانت تقطع رغيفاً من الخبز قطعاً صغيرة، وتضع فوق كل قطعة كعباً من السكر، ومع القصص التي ترويها كانت تزقهم كالعصافير، لكن صرخات زكية أو أديبة، وزكية بشكل خاص، منادية على الأولاد، تقطع عليها اللذة الوحيدة المتبقية لها. كان الصغير وهو يرتجف، ثم ينهض مسرعاً، بعد أن يمسح طرفي حلقه بظاهر يده، لئلا تظهر عليه علامات الأكل، تغرقها في تعاسة لا حدود لها، وتجعلها عاجزة عن التصرف أو المقاومة. ماذا تفعل وكيف ترد؟ كان النداء على الصغار، أن يتركوها، وأن يلتحقوا بأمهاتهن يشعرها أنه لم يبق لها شيء أبداً.

وفكرت من جديد أن تربي قطة أو عصفوراً «هذه الحيوانات لا تتخلى عن الإنسان ولا تتركه، حتى عندما يتركه أبناؤه» لكن من أين لها قطة مثل ياسمين؟ وهل تبقّى لها من العمر ما يجعلها تبدأ من جديد؟ وإذا ماتت لمن تترك هذا الحيوان المسكين؟ هكذا فكرت وهي تتخلى عن الفكرة أيضاً.

حتى الصلاة لم تعد تكفي. يمكن أن تصلي ساعات، ويمكن أن تسبّح، لكن أكثر من مرة وجدت نفسها تفكر بأشياء أخرى أثناء الصلاة. كانت تستغفر وتستدرك، وكانت تبدأ من جديد، لكن كثيراً ما تكرر الأمر ذاته.

لم يبق أمامها إلا أن تسافر مرة أخرى، أن تعود إلى الشام، وإلى الطيبة بشكل خاص، هناك يمكن أن تقضي ما تبقى لها من أيام، ويمكن أن تبرر عودتها بحجة أن المناخ لم يناسبها، وأن الماء أثر عليها فلم تحتمل وجاءت. هناك صديقاتها، ولا بد أن يفهمنها وأن يساعدنها.

هكذا بدأت تفكر وتمتلئ بهذه الرغبة، لكنها لم تجرؤ أن تفاتح ابنيها أو أن تتخذ قراراً. وإلى أن تتخذ ذلك القرار بدأت بين يوم وآخر تخرج. تزور جارة من الجارات، أو تمشي في الشوارع على غير هدى. يكفي أن تقضي ساعة أو ساعتين خارج البيت لتبقى حية ولئلا تمرض أو تموت.

زكية كانت تنتظر ذلك، تنتظره بلهفة، لأنها على يقين أن حماتها لا تعرف سوى القصر ولا تزور إلا الشيخة. فما أن تغادر البيت حتى تتحرى غرفتها لتعرف ما إذا أخذت بخوراً أو لباناً، وكانت تعرف ذلك، أغلب الأحيان، دون أن تضطر إلى فتح الصرر، فرائحة الغرفة، أو الترتيب الزائد الذي تحرص عليه أم حسني، لا بد وأن يشعرها بما فعلت حماتها. أما إذا عادت من مشوارها، فكانت زكية تدفع إليها الصغار لتتأكد، فينهال عليها هؤلاء بالأسئلة، أو يطلبون أن تعطيهم مما أعطتها الشيخة. هكذا كانوا يطلبون ويتصرفون نتيجة توصيات أمهم والدروس التي لا تتعب من ترديدها على رؤوسهم!

ولم يتأخر حسني لكي يتدخل:

ـ أنا، يا أمي، من هذيك الليلة، حالف يمين: إذا دخلت القصر عينك ما عاد تشوفني!

فترد بغضب:

ـ يقطع القصر واللي ساكن فيه.

ـ ما علينا، بس لازم تأخذي بالك!

ـ بسيطة يا ابني!

لم تكن زكية تكتفي بهذه القناعة، كانت، أيضاً، تريد دليلاً، لكي لا تبقى لحسني أية حجة. فبعد الوصايا التي رددها عشرات المرات، وكانت أغلب إلى التهديد «أن تبلغ لسانها، وتغمض عينها. مهما سمعت أو رأت من أمه» فإنها الآن لا ترغب بدخول معركة خاسرة، ولا تريد مجرد نصر عادي أو صغير، يجب أن تحقق نصراً مؤكداً وكاملاً، ولذلك فإن أي خطأ، مهما كان صغيراً، يمكن أن يؤدي إلى نتائج معاكسة، إذ بعد أن احتملت الكثير من حماتها في فترات سابقة، وتحملت أيضاً سعيد وسخريته، فقد حان الوقت لكي تفتح بيتاً خاصاً بها، ولأن يكون لها وحدها زوج، لا أن تكون مجرد شريك، كما كانت تقول.

ولذلك لا تتعب من البحث والتنقيب، ولا تتوقف عن دفع الصغار

ليأتوا بالدليل من عند جدتهم، حتى إذا ملكت هذا الدليل، وفي لحظة مناسبة تضعه أمام حسني: «حلفت أكثر من يمين أنك لن تبقى يوماً واحداً في هذا البيت إذا دخلت أمك القصر، وأمك لم تدخل القصر مرة، دخلته عشرات المرات، واليوم كانت هناك وإليك الدليل» وتقدم إليه دليلاً لا يمكن دحضه، ولا يختلف حوله إثنان.

هكذا كانت زكية تهيّئ نفسها، رغم قناعتها أن حماتها ذهبت مرات عديدة إلى القصر. وإن تكن في زيارات قصيرة، خلافاً لعاداتها السابقة. إذ كانت تقضي هناك ساعات طويلة كل يوم. الآن تتعمد أن تذهب أثناء غياب ابنيها، ولا تقضي إلا وقتاً قصيراً، لكي لا ينكشف أمرها. ومع ذلك فزكية ليست في عجلة من أمرها، لقد انتظرت وقتاً طويلاً، ويمكن أن تنتظر، فإذا قبضت على حماتها بالجرم المشهود فلن تستطيع الإنكار أو التمويه إذا ووجهت بذلك.

الآن لا تريد أن تعرّض نفسها إلى موقف ضعيف، فالضعف يجر إلى ضعف أكبر منه، والخصومة الآن ليست بينها وبين حماتها، إنها بين حسني وأمه، وعليها أن تدفعه لمواصلة الحرب، ومن الأفضل ألا تظهر.

ما كانت أم حسني لتزور القصر لولا الحصار الذي يطوقها، والذي تراه في عيون الصغار والكبار. وما كانت لتفعل أيضاً لو لم تأتها سيارة القصر على غير انتظار أو توقع. ومما حرضها أكثر أنها هي التي فتحت الباب وتلقت الدعوة، دون أن يحس أحد. صحيح أنها في أعماقها تشعر بالمرارة لأن القصر نسيها تماماً، لكن مثلما قال لها سعيد حين سألته، أن ناس القصور لا يسألون عن الآخرين إلا إذا احتاجوا إليهم، أو إذا التقت بهم عيونهم. ومع ذلك فإن الفضول الممزوج بالشوق، وتلك الرغبة في تحدي الحصار، وأن تشعر بأنها حرة وقادرة على أن تفعل ما تريد، كل هذه الأسباب معاً دفعتها لأن تفكر بزيارة الشيخة. طبيعي لن تلبي الدعوة فوراً، لكنها لن تتأخر كثيراً.

الشيخة كانت بحاجة ماسة لأن ترى أم حسني، لأن تستقرئ لها ما يقوله الفنجان، إذ بعد أن مرت على قصر الغدير تلك الأيام الصعبة، حيث مرضت تهاني، وخلال ثلاثة أيام ماتت، دون أن يعرف سبب مرضها أو موتها، ثم بعد ذلك، وخلال أسابيع قليلة مات سرور. والشيخة التي حزنت لموت تهاني، أقنعت نفسها أن موتها نتيجة العمر أو لسبب غامض، أما سرور فإن موته لا يترك شكاً أن في الأمر سراً لا تفهمه.

إذ بعد أن مرض سرور، أو بالأحرى بعد أن أصيب بالحمى، وبدأ يهذي، وربما قال أشياء أخافت الذين سمعوه، وقد يكون وصل ذلك إلى علم السلطان، فما أن مضت ساعات حتى زاره، على غير توقع، ودون طلب، الدكتور المحملجي.

بعد أن فحصه أعطاه ابرة، وأرغمه على أن يشرب دواء، وخلال فترة

الظهر زاره السلطان بنفسه، وكان الحكيم برفقته؛ أما عند العصر، أو بعده بقليل فقد مات سرور، ودفن قبل أن تغيب شمس ذلك اليوم!

موت سرور أخاف الشيخة إلى أقصى حد. كانت بحاجة إلى سند، إلى معرفة الأيام القادمة، وفجأة تذكرت أم حسني، وحدها يمكن أن تنقذها، أن تقول لها ما يخبئه القدر، خاصة وأن النساء حولها بدأن ينظرن إليها بطريقة مختلفة عن السابق. صحيح أن الأمر لم يتعد نظرات التساؤل لكن هذه النظرات بدأت تقلقها.

بعد ثلاثة أيام قامت أم حسني بالزيارة.

بدا لها القصر يختلف عن أية فترة سابقة، إذ ما عدا البوابة التي ظلت مثلما كانت من قبل، فإن كل شيء تغير. هدمت أجزاء كثيرة من الأسوار الداخلية، وقامت أجنحة جديدة وواسعة، إضافة إلى بنايات لا تعرف كيف بنيت بهذه السرعة. حتى جناح الشيخة، فما عدا الغرفة التي تشكل مدخلاً للجناح، لم يبق شيء.

والشيخة بدت لها امرأة أخرى خلال هذه الفترة: أكثر احديداباً، بحيث أصبحت عصاها أطول من أي فترة سابقة، وشعرها طال عن السابق وابيضّ أيضاً. أما لونها فأصبح على سواد وزرقة، الشيء الوحيد الذي لم يتغير عيناها. ما زالتا مشعتين صارمتين، وأقرب إلى العناد أو الحذر.

استقبلتها الشيخة كما لم تستقبلها من قبل. إذ رغم الحزن، فقد احتضنتها بقوة وقبلتها خلافاً لكل المرات السابقة. وأم حسني التي كانت تنوي أن تعاتب، وأن لا تطيل زيارتها، ما لبثت أن شعرت بالضعف أزاء هذه الحفاوة، فنسيت الكلمات التي حضّرتها واستعدت لها، وتسامحت تجاه نسيان الشيخة وعدم سؤالها، خاصة بعد أن حدثتها أولاً عن تهاني ثم بعد ذلك عن موت سرور الغامض.

رغم الحزن كانت الشيحة تريد أن تعرف ما يخبئه لها المستقبل، وأم حسني التي اعتذرت أنها لن تستطيع، على الأقل هذا اليوم، أشارت، بشكل غير مباشر، انها تفضل أن يؤجل الموضوع؛ والشيخة التي التقطت

هذه الإشارة، فهمتها جيداً، رغم أنها كانت تتحرق داخلياً لأن تعرف كل شيء وبأسرع وقت.

أم حسني لم تطل زيارتها، إذ انسحبت رغم الإلحاح عليها أن تبقى، انسحبت سريعاً بحجة أن أحد أحفادها مريض ولا بد أن تكون إلى جانبه، لأنها الوحيدة التي تستطيع أن تمرّضه وتعتني به.

لم تكد تصل البيت، بعد العصر بقليل، حتى وصلت بعدها عباءتان. كان من السهل أن تخفي العباءتين، لكن قبل أن تمر ساعة على هذه الهدية، وصلت هدية أخرى، بعثت إليها الشيخة بغزال وبكمية من البلح. فتحت زكية الباب وتسلمت الهدية، في الوقت الذي كانت أم حسني «تخفي» العباءتين، لكي لا تخلق شراً. هكذا قالت لنفسها. لم يقتصر الأمر على ذلك أبلغ السائق الذي جلب الغزال والبلح أنه سيمر غداً صباحاً ليأخذ الأولاد، حسب الاتفاق بين الشيخة وأم حسني إلى القصر. ثم يصطحبهم مع أولاد آخرين في نزهة.

في ذلك المساء أصبحت زكية متأكدة وتملك الدليل. أما الوقت الذي فصل بين وصول السيارة ووصول حسني فكان قصيراً إلى درجة لم يمكّن أمه من تدارك الموقف، أو اختراع حجة مقبولة.

لما دخل حسني ووجد الأولاد يتراكضون حول الغزال، والبلح في منتصف الباحة، ورأى أمه تصرخ وتطلب من الأولاد أن يهدأوا وأن يتركوا الغزال لتتمكن من ربطه، ورأى زوجته تجلس على الدرجة الأولى، وقد بدا عليها السرور والشماتة في آن واحد، فقد صرخ بغضب:

ـ بس. . . أنت وهو، كافي صياح.

فلما توقف الأطفال وهدأ الغزال قليلاً، لكن لم يزايله التعب والخوف، التفت إلى أمه وزوجته وسأل باتهام وهو يشير إلى الغزال:

ـ من أين جاءتنا هذه المصيبة؟

قالت زوجته باندفاع:

ـ اسأل مرة عمي. . .

التفت إلى أمه التي كانت تمسك بحبل، وبدت مرتبكة، أقرب إلى الخوف، وسألها:

ـ ها حجة (وكان يستعمل هذا التعبير لأول مرة) شو المسألة؟

ردت بسخرية وقد آذاها أن يخاطبها بهذه الطريقة:

ـ اللي تشوفه عينك. . .

وبعد قليل:

ـ غزال!

ـ أي نعم غزال. على عيني وعلى رأسي، غزال، لكن من أين شرّف الغزال؟ كيف ترك الدنيا ووصل إلى بيتنا؟ نزل من السماء؟ طلع من الأرض؟ وليش ترك كل الناس وشرّف لعندنا؟

كان يتكلم بسخرية وببطء. بنفس طريقة أمه، قالت زوجته في محاولة للوصول إلى أقصى النتائج:

ـ بعثوا الغزال وبعثوا البلح. . كله من القصر، من الشيخة.

ـ والبلح كمان؟

هكذا تساءل بسخرية وهو يلتفت صوب البلح، تابعت زوجته:

ـ وقالوا أن نحضر الأولاد، لأنهم راح يمروا الصبح حتى يأخذوهم إلى القصر.

ـ يا سلام. . . شي عال، شي حلو، وشو كمان؟

والتفت إلى أمه وسأل بنفس السخرية:

ـ وشو كمان يا حجة؟ شو مطلوب منا كمان؟

أية أحزان يمكن أن تتجمع في القلب وتثوي هناك، وكأنها انتهت وانقضت، لكنها لم تنته ولم تنقض؟ وأية ذكريات يمكن أن تغيب في الصدر، في ذلك الكهف المظلم، فلا تتحرك ولا تنوي الظهور أو العودة، لكن فجأة تظهر؟ وأية قدرة للإنسان على التسامح والطيبة ونسيان الإساءة تجعله ينسى ويرضى، لكي يبدأ من جديد. . . وفجأة ينكشف الغطاء،

ينقذف بفعل التعب وعدم الرضا وعدم القدرة على الاحتمال، فيظهر كل شيء لأنه لا يقوى على البقاء في الداخل لحظة واحدة؟

في تلك الدقائق القليلة التي استغرقتها اسئلة حسني، وبتلك الطريقة الساخرة في مخاطبتها، وكأنها ليست أمه، أو كأنها طفلة صغيرة مذنبة، تجمعت في صدرها وقلبها عشرات المشاعر والأفكار والرغبات. تذكرت حياتها منذ أن كانت طفلة صغيرة، تذكرت لعبة القماش الزرقاء التي صنعتها ولم تصنع غيرها. ثم انتزعت هي ولعبتها ورميت في حضن ذلك الرجل المسن، أبو حسني، ليلعب بها كما كانت هي تلعب بلعبتها، فيوقظها في الليل المتأخر، لتبقى ساهرة، لأنه لا يستطيع أن ينام، أو لتفرك له رجليه وظهره، أو لتصنع له الزهورات قبل أن يبدأ بقراءة القرآن. وفي ليال أخرى، عندما تكون شديدة النعاس ولا تشتهي سوى النوم، كان هو يشتهي ويريد أشياء أخرى، فلا تعرف كيف تستجيب له، كيف تساعده، أو كيف تغافله وتعود إلى النوم من جديد، وقد امتلأت خوفاً واشمئزازاً. أما عندما مات، وقد فعل ذلك فجأة، فلم تميز ما إذا كان نائماً أو استبدت به نشوة من نوع ما فحملته بعيداً، أو أنه مات ولن يعود إليها مرة أخرى.

أما بعد ذلك، وحين تزوجت مرة أخرى، وظنت أن الآلام التي تحملتها في يتمها وزواجها الأول تكفيها، ويمكن أن تعيش الآن مثلما يعيش الناس الآخرون، ففرحت وأقبلت وحملت المرة الأولى ثم المرة الثانية، وجاءت لشكيب الأسطه بولد وبنت، كما تفعل جميع النسوة، وكانت مستعدة أيضاً أن تفعل كل شيء من أجل أن تأتي له بأولاد ذكور آخرين، تركها ومشى، طلقها.... وغاب.

ولما اشتغلت بعشرات الأعمال الصغيرة، من التطريز إلى الصوف، إلى تربيد الحطات، ثم بدأت بتجاراتها الصغيرة، وأخيراً حين انتقلت إلى عمان، وعلى مدى سنوات عديدة، وهي تتاجر وتربح وتسافر، وتقسم ما تحصل عليه إلى ثلاثة أقسام متساوية: الأول لمصروف البيت، والثاني لكسوة الصغار، أما الثالث فتبقيه رأس مال لتشتري به وتبيع، ولا تترك إلا قروشاً قليلة، جمعتها قرشاً فوق آخر، من أجل شيء خاص عزيز عليها،

ولم تبح به لأحد أبداً، إلى أن تجمّع لديها من أجل شراء هذا الشيء ما يكفي، واشترته، وأبقته بعيداً ملفوفاً، وكانت تضيف إليه بين فترة وأخرى بعض المستلزمات التي تعتبرها ضرورية، هذا الشيء الوحيد الذي تملكه، أو تعتبره حقاً خاصاً بها، وما عدا ذلك، وطوال حياتها، ولم يبق من هذه الحياة إلا القليل، هكذا قالت لنفسها، تركض من أجلهم، جاعت من أجلهم، تعبت من أجل أن لا يتعبوا أو يذلوا، وبعد أن كبروا زوّجتهم، ثم جاء أولادهم، وهي تواصل الآن التعب والسهر والشقاء، من أجلهم أيضاً. لا تريد مقابلاً أبداً، وإذا طلبت شيئاً الآن فكلمة، وحتى الكلمة إذا لم تصدر من القلب، من أعماق القلب، لا تريدها، يكفي أن يتركوها، أن تعيش كما تشتهي وكما تريد، أما أن تحاسب، أن تمنع، أن تراقب، وأن يقال لها أخيراً افعلي ولا تفعلي، فلم تعد تحتمل.

وحتى القصر والشيخة وموران وكل شيء في هذا الكون لم يعد أي منها يعني لها أهمية أو غبطة، فقط تريد أن تفعل ما يجعلها تحس أنها لا تزال موجودة وحرة، وأنها قادرة. أكثر من ذلك تريد أن تقول لا أو نعم حسب قناعتها ورغبتها دون فرض أو إرغام.

هكذا أحست وفكرت وسافرت.. ثم عادت، فلما وجدته لا يزال ينظر إليها، وكذلك العيون الأخرى ترقبها وتتابعها، وكادت أن تنسى كل شيء مرة أخرى، فما أن التفتت إلى الغزال، ومدت إليه يدها تريده أن يقترب حتى جاءها صوت حسني:

ـ ما قلت لنا، يا حجة قصة هذا الغزال!

ـ قصة هذا الغزال؟

هكذا تساءلت بحزم أقرب إلى الاحتقار ثم تابعت:

ـ ما له قصة يا ابني. غزال مثل كل الغزلان.

ـ نزل من السماء؟

ـ يا يا ابني، الغزلان لا تنزل من السماء، من السماء تنزل الملائكة ورضا الأمهات.

ـ طيب.. من أين جاءنا؟

ـ من الشيخة. . يا ابني.

ـ يعني رحتِ. كسرت يميني؟

ـ حتى لا أتعبك ولا تتعبني يا ابني رحت، وبكرة أنا رايحة، وكل يوم يمكنن أروح!

ـ يعني يميني فالصو بالنسبة لك؟

ـ يمينك على رأسي، يا ابني، لكن لازم تعرف: كل حياتي، من يوم كنت بنت صغيرة، وحتى اليوم وأنا ملجومة، محلوف عليّ، مربوطة وقاعدة: لا أرحمك ولا اخلي الله يرحمك ولا اخلي رحمة الله تنزل عليك. لما كنتم صغاراً كنت ملجومة، لما كبرتم ظلّيت ملجومة، واليوم وبكرة أنت رايد أظل ملجومة، لا يا ابني، أنا وحدي اللي أقرر وما رايدة أحداً يقرر عني ويقول لي وين أروح وامتى أروح وامتى أرجع.

ـ يعني أنا لا شيء باعتبارك!

ـ افهم على كيفك.

لما جاء سعيد ووجد الجو مشحوناً متوتراً هكذا: أمه تقف في جانب وبيدها حبل، وقد أصبح وجهها بين الصفرة والزرقة من الانفعال واليأس، وحسني يحوم مثل حيوان محبوس، يتطلع إلى الغزال وإلى عثوق البلح، ويتطلع إلى أمه، والصغار وقفوا في الزوايا أو قريباً من الأدراج، وكان الغزال وحده يتحرك حركة صغيرة خائفة. لما رأى المنظر هكذا أدرك أن عاصفة قد هبت على البيت، قال بمرح ليخلق جواً جديداً:

ـ الغزال فأل خير. . والبلح أشرف الثمر.

ضحك حسني بسخرية وأضاف:

ـ والشيخة أشرف البشر.

ـ كل الناس خير وبركة، يا أبو الشباب.

هكذا رد سعيد في محاولة لأن يمتص غضبه، وبعد قليل:

ـ وأولها وآخرها نصف الألف خمساية، وما في شي يستوجب أن الواحد يحرق دمه، يحرق أعصابه.

والتفت إلى زوجته:

ـ شو يا أديبة. الدنيا مولعة، الدنيا خربانة. شو صاير؟

ـ ما في شي يا ابن عمي...

وبعد قليل أضافت:

ـ ولو طوّلوا بالهم المسألة بسيطة، وما تستاهل.

وطلب منها أن تحدثه، أن تفهمه ما حصل، فلما أشارت، بكلمات قليلة، أن القصر بعث لهم بالغزال والبلح، وان هذا سبب الخلاف والغضب، قال لينهي الخلاف:

ـ المسألة من أولها لآخرها بسيطة: نذبح الغزال أو نرجعه لأصحابه، والبلح ألف واحد يبوس أيدينا إذا أعطيناه شوية.

لكن لم تنته المشكلة، ففي صباح اليوم التالي، جمع حسني وزوجته حاجاتهم بسرعة وغادروا البيت مع الأولاد، ورغم أن سعيد بذل جهداً كبيراً لكي يحمله على تغيير قراره، على تأجيله، إلا أنه امتلأ إصراراً، وفي محاولة لأن يقنع سعيد أن هذا الحل هو أفضل الحلول قال وهو يدفع الأولاد أمامه.

ـ أحسن لك وأحسن لي، ويمكن أحسن للحجة (هكذا أصبح يسميها)، وحتى نظل اخوان ونحب بعضنا أن نفترق، وإذا ما افترقنا اليوم لا بد أن نفترق بكرة. ويمكن نفترق بكرة على زعل.

وحاول أن يضحك أو أن يبتسم، وهو يهز رأسه، للتعبير على أن هذا الحل هو أحسن الحلول.

لـم تمض أيام على مغادرة حسني الدار حتى مرضت أمه من جديد. بدا المرض وكأنه استمرار للمرض السابق، وأديبة التي شعرت بتأنيب الضمير، لأنها كانت إحدى المتسببات في ذاك المرض، وفيما أدى إليه من نتائج، اندفعت هذه المرة، وقد أصبحت ربة البيت الوحيدة، إلى معالجتها والعناية بها. وإذا كانت قد رأتها كيف حضّرت أدويتها في المرة السابقة، وأية أعشاب غلتها وأية أعشاب سحقتها، وكانت تريد أن تفعل مثلها، فقد قالت لها حماتها، وخرج صوتها متحشرجاً:

ـ لا تغلّبي حالك، يا بنتي، لأن مرضي هذي المرة غير مرض هذيك المرة.

وحين تطلعت إليها مستغربة ومتسائلة في نفس الوقت، تابعت العجوز، بعد أن تنحنحت:

ـ وما تشفيني إلا عشبة بوادي الطيب!

ـ شو يا مرت عمي عشبة بوادي الطيب؟

ـ اي نعم، يا بنتي، عشبة بوادي الطيب وميّة بلادي!

وحين حاولت أديبة أن تقنعها، أن تلحّ عليها، وأن تجرب أيضاً، لعلها تصبح أفضل، ردت عليها العجوز بابتسامة حزينة، وبكلمات متعبة:

ـ البني آدم طبيب نفسه، يا بنتي، وأنا أعرف حالتي!

وفي الظهيرة والمساء حاول سعيد أن يخفف عنها، أن يقنعها أن حالتها بسيطة، ولا بد أن تشفى خلال أيام، وبعد أن تشفى يمكن أن يستجيب لها وتسافر، ومن أجل أن تشفى لا بد أن يأتيها بطبيب، وهي ترفض، تزداد إصراراً أن دواءها هناك، وأنها حالما تصل سوف تستعيد

صحتها، أما إذا استلمها الأطباء هنا، كالمحملجي وأمثاله، وبدأت أبرهم تثقب جنبيها، فإن ذلك سيعجّل بموتها، ولا تريد أن تموت هنا.

ولكي تقنعه أنها ليست بحاجة إلى أطباء أو إلى أدويتهم، توافق على أن تصنع لها أديبة مشروباً من زهورات متنوعة تصفها لها، وبعد أن تشربه تتظاهر بالنشاط، بأنها استعادت قوتها، وتنظر إلى عيني سعيد:

ـ يا ابني، برضاي عليك، سفّرني، خليني ارجع لبلدي وأهلي . .

ـ يا حجة . . نحن أهلك، ونحن بلدك.

ـ كنتم أهلي، يا ابني، اليوم ما عاد لي أهل.

وتسقط على خدها دمعة، لا تخجل منها، وتريد الكل أن يراها، وتتابع كأنها تخاطب نفسها:

ـ واللي ما عنده بلد ما له بلد.

ـ وكلي الله يا حجة، وبلا هذا الكلام.

وتزفر بحرقة وتهز رأسها:

ـ ما عاد في فائدة من الحكي، يا ابني، لأني بزماني حكيت كثير وما أحد سمعني!

ـ إذا كان قصدك حسني وزعله وتركه للبيت فهذه المسألة بسيطة، رغم أن الحق عليه، لك عليّ أن أبوس راسه وارضيه، ونظل، بوجودك، اخوان وحبايب، المهم أن تخلي المرض وراء ظهرك.

وتهز العجوز رأسها دلالة أن هذا ليس كل شيء. وحين تغرق الغرفة في الصمت، يعجز سعيد عن خلق المرح الذي تعود أن يخلقه دائماً، يأتي صوتها ضعيفاً منهكاً:

ـ وصلوني لبلدي وما عليكم مني . . .

ـ على العين والراس، يا حجة، يا أمي.

ـ نسافر بكرة؟

ـ نسافر بس تكوني قادرة على السفر!

وتنقضي الليلة، وتمتلئ أم حسني بروائح المسك وهي تستعيد رائحة

وادي الطيب، وترتوي حين تتراءى لها تلك المياه الباردة العذبة، أما سعيد الذي يتقاسم مع أديبة سهر تلك الليلة، لأنه يمتلئ خوفاً أن تكون الليلة الأخيرة للعجوز، فتتراءى له حياته الماضية وهو يستعيدها، يجدها قاسية، مليئة بالصعوبات، لكنها مع ذلك أكثر لذة وإنسانية من الحياة التي يعيشها الآن. هنا في موران لا يفعل شيئاً سوى الركض، يركض في كل الاتجاهات، ويركض معه الآخرون، يقنع الكثيرين من أجل أن يقنع نفسه، يضحك، لكن ضحكه سخرية، وكأنه يضحك على نفسه، ومع ذلك لا يجد شيئاً أفضل ليفعله.

في الصباح، مع أول خيوط النهار، كانت أم حسني قد استعدت تماماً؛ ارتدت ملابس الخروج وضعت بقجتها أمامها، وجلست في أعلى الدرج، مقابل غرفة سعيد، تنتظر.

لقد فعلت ذلك بعد أن وضعت للغزال أكله وقليلاً من الماء، وبعد أن صلت الفرض ورددت بعض الأدعية، وفكرت أن تأكل شيئاً لكي تقوى على تحمل السفر ومصاعب الطريق، لكن لم تجد نفسها قادرة على تذوق أي شيء، أو راغبة بأي شيء.

وبنفس طريقة الليلة الفائتة حاول أن يرجئ السفر، مع تأكيد لا يلبث يتزايد أنه حالما تبلّ من المرض وتستعيد قوتها لا بد وأن يسافرا معاً، وهناك، يمكن أن يبقى معها ان أرادت، ويمكن أن يؤمّن لها كل شيء. ويمكن أن يعود مرة أخرى إلى الشام أو عمان تاركاً موران لأهلها، وهي تسمع ولا تسمع، لكنها بعيدة ومليئة بالحزن، وإذ تتحصن بالصمت، لا تعلق ولا تجيب، تزداد إصراراً على مغادرة هذه المدينة الملعونة، مدينة الفجيعة والسحرة والمنافقين.

أيام بلياليها، والصحة والمرض يتناوبان، وأم حسني مثل شمعة تذوب وتتلاشى، أو تصبح مثل مسمار يستعصي على اللّيّ أو الانكسار، وسعيد الذي يرقب الضوء، ضوء كل نهار جديد، لأنه كان يمتلئ يقيناً أن الموت لا يأتي إلا في الليل وخفية، كان موزعاً وحائراً بين أن يتركها تغيب كما يغيب الدخان، يتركها تموت وتتلاشى دون أن يحضر طبيباً، لأنه وحده

القادر على أن يفهم مرضها وأن يعالجها، وبين أن يراعي حالتها النفسية، ويعتبر أن مرضها نتيجة الحزن، فإذا زال هذا الحزن تستعيد نشاطها وقوتها. وهو بين هذه المشاعر المتناقضة يحاول أن يعيد للبيت المرح والضجة، ولا يتردد في تقديم الوعود.

أما حسني الذي جاء في اليوم الخامس لزيارتها، فقد كان محرجاً ومتضايقاً، وظل أغلب الوقت ينقل عينيه في أنحاء البيت، وكأنه يراه لأول مرة، أو كأنه يراقب أية تعديلات جرت بعد غيابه. وحين سأل أمه ما إذا كانت أحسن من قبل وما إذا كانت أوجاعها مثل المرة السابقة، فقد ردّت وهي تنظر إلى السقف، وكانت ممددة في فراشها:

ـ لا تخاف عليّ يا ابني.

واستردت نظرتها، وقالت:

ـ والله ما يقطع أحد.. يا ابني!

وانتهت الزيارة بعد أن انقضى الوقت بالصمت أو بالأنفاس العميقة والزفرات التي كان يصعدها حسني بين لحظة وأخرى، وكان يريدها حديثاً أقوى من الكلمات وأمضى، أما هي فقد استرقت إليه نظرات كثيرة، وكأنها تستعيد في ذاكرتها صوراً قديمة وتقارنها بالصورة التي أمامها؛ كانت تشعر نحوه بالمحبة الشديدة والمرارة معاً. وتريد أن تفرغ ما في قلبها قبل أن تستعيده كما كان من قبل، لكن وجدت أنها غير قادرة على ذلك.

قال لها وهو يقبل يدها:

ـ سامحيني يا أمي ولا تبخلي عليّ برضاك!

ـ رضاي عليك يا ابني.

ـ وإذا بكرة انشغلت وماجيت اللي بعده أكون عندك.

ـ بيتك، يا ابني، وأهلاً وسهلاً بأي وقت!

وهو يلتفت، وقد أصبح قريباً من الباب، قالت، وخرج صوتها متعباً:

ـ ولا تنسَ تسلم لي على الأولاد... وعلى زكية!

وهو يهبط على الأدراج كانت دموعها تهبط على خديها، وكأنها تودعه

لآخر مرة. شعرت أن الدنيا تضيق وتطبق عليها، وشعرت أنها لم تعد بحاجة إلى شيء أو أحد. شعرت أنها وحيدة تماماً. دائماً كانت وحيدة، لم يفهمها أحد، ولم يقف إلى جانبها أحد.

حين عادت أديبة، بعد أن ودعت سلفها، وجلست على طرف الفراش، وبدت محرجة، إذ لا تستطيع أن تسألها، في هذه اللحظات، عن حسني، لئلا تثير أحزانها من جديد، ولا تجد أيضاً كلمات تقولها، سألتها ما إذا كانت بحاجة إلى شيء أو أن تفعل شيئاً من أجلها. فقد ردت عليها:

ـ لو كانت زكية، بنتي، موجودة...

وبعد قليل وبحزن:

ـ كان لازم تكون موجودة.

ـ أنا مثل بنتك يا مرت عمي.

ـ صحيح يا بنتي.

وتطلعت أم حسني حواليها، بدت مترددة حائرة، أحست أديبة أن لديها ما تقوله، سألتها بلهفة:

ـ إذا كنت بحاجة لشيء بعيوني أخدمك يا مرت عمي، قولي.

ـ كل اللي عندي قلته، يا بنتي...

ـ صحيح يا مرت عمي، أي شيء أطلبيه، وأنا جاهزة.

استدارت أم حسني على جنبها وأشارت بأصبعها إلى ما تحت السرير. تطلعت أديبة بتساؤل، تابعت أم حسني بتعب:

ـ البقجة.

ـ البقجة؟

ـ فيها، يا بنتي، ما حضّرته لآخرتي.

وظلت عينا أديبة تنظران بحزن وتساؤل، تابعت أم حسني:

ـ فيها، يا بنتي كفني!

وفي فجر اليوم التالي، لحظة انقشاع الظلمة وبداية أول النهار، وبعد ساعة من وصول طبيب من المستشفى الأهلي، وقد انتدبه الدكتور صبحي

المحملجي، لكي يقوم بمعالجة أم حسني بعد أن اعتذر هو عن القيام بهذه المهمة بنفسه، لأنه «اعتزل المعالجة العامة» كما قال لسعيد، الذي وصله بعد منتصف الليل بقليل! في تلك اللحظة، بين آخر الظلمة وأول النهار، وحينما كان سعيد يجوب موران من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن صيدلية لشراء الدواء، فاضت روح أم حسني!

قالت أديبة لسائق القصر الذي جاء بعد ثلاثة أيام، مبعوثاً من الشيخة، يسأل عن أم حسني، قالت له من وراء الباب الموارب أنها غير موجودة. وحين سألها متى تعود أو متى يعود هو، لأن الشيخة تريدها لأمر مستعجل، ردت أديبة:

ـ قل للشيخة أنها راحت.

ـ ومتى ترجع؟

ـ لن ترجع!

سافرت؟

ـ أعطتك عمرها!

ـ شنهو؟

ـ ماتت

ـ ماتت؟

ـ أي نعم، ماتت.

ـ الله يرحمها ويرحمنا.

قال سعيد لزوجته بعد أسبوعين على الوفاة:

ـ دائماً . . عيني كانت على البقجة، كنت خايف من كبرها، كنت متصورها من جملة التجارة. . . وأبداً ما تصورت أنها كفن!

ظلت موران، مثل كل البلدان والقرى في هذه الصحراء العصية الجامحة، وادعة ساكنة سنين لا حصر لها، لا تنشغل ولا تنفعل بالأمور الطارئة إلا فترة قصيرة، ثم تعاود حياتها الطبيعية، التي تميّزها أبداً: الانتظار. انها تنتظر المطر والقوافل وسوق الخميس، وتنتظر أيضاً شيئاً ما تحسه ولا تعرفه!

كان المطر، أو مجرد تلبد السماء بالغيوم، سواء أمطرت في هذا المكان، أو في أي مكان آخر، يولد في القلوب رضا لذيذاً أقرب إلى الفرح، فالمطر يعني أياماً أقل عسراً سوف تأتي، وان حياة الناس ستكون أقل تعاسة، وقد يؤدي، وغالباً ما يؤدي، إلى بقاء الآباء والأبناء فلا يرحلون.

أما وصول القوافل فإنه يعني وصول عدد من الغائبين الذين طال انتظارهم، إضافة إلى ما تحمله القوافل من الأرزاق والأخبار وروائح الأمكنة البعيدة، فيشتري الناس في هذه الأيام أكثر مما يفعلون في الأيام الأخرى، ويعرفون أو يقدّرون الصعوبات الجديدة التي قد تواجههم نتيجة ثبات الأسعار أو تغيرها. وما بين استقبال الغائبين، والسؤال عن الذين لم يرجعوا، ومعرفة أخبار الأماكن الأخرى، إذا جاءتها الأمطار أو تأخرت، تعيش موران أياماً حافلة غير عادية، فتتغير حياة الناس وتصرفاتهم، ويبدون أكثر نشاطاً وأقل حذراً، لكنهم في كل الأحوال لا يكفون عن الحديث فيما بينهم، ولا يكفون عن توجيه الأسئلة للقادمين.

وفي غير فصل الشتاء، أو حين تتأخر القوافل أو لا تصل، فإن موران التي تعيش حياة رتيبة هادئة، لا تكف عن انتظار يوم الخميس، انه يوم

السوق والأعراس، وغالباً ما يكون يوم الولائم أيضاً. ففي هذا اليوم يتحرك الناس أكثر مما يفعلون في غيره من الأيام. وفي هذا اليوم أيضاً تصل الماشية التي غابت في البادية فترة ليست قصيرة، ومعها يصل البشر من الأمكنة المحيطة بموران للبيع أو للشراء، مع ما يرافق ذلك من الأحاديث والمساومات، وما يتخللها من صعوبات ومكر، وبعض الأحيان خلافات تنتهي بالغضب والقطيعة، أو تنتهي بالرضا، لكن كل طرف يخفي مشاعره الحقيقية، لكي لا يشعر الطرف الآخر أنه غُلب أو غلب.

هذا الانتظار الذي تظل موران تعيشه يوماً بعد آخر، شهراً بعد آخر، يتركز، أكثر ما يتركز، في سوق الحلال. إنه بمثابة الرئة التي تتنفس من خلالها موران، أو البؤرة التي تتجمع فيها الأشياء ثم تتفرق؛ ففيه يلتقي أهم الرجال وتجري أكبر الصفقات وأخطرها؛ وإليه تصل الماشية والأرزاق، وإليه يصل الغرباء والقادمون. صحيح أن هذا السوق ليس في وسط المدينة، وليس مكاناً نظيفاً أو جميلاً، لكنه بكل تأكيد أهم الأمكنة على الإطلاق.

ففي أقصى الشرق، مع ميل قليل نحو الجنوب، وغير بعيد عن وادي الرها، حيث الطريق الذي تسلكه القوافل، أغلب الأحيان، من أجل الوصول إلى موران، يقع سوق الحلال: بسطة واسعة من الأرض، مستوية، قاسية، في جانب منها آبار المياه، وفي جانب آخر حظائر للماشية والدواب، وهي حظائر بسيطة، أو بالأحرى لا تتعدى المربعات أو المستطيلات من الأرض المسوّرة بسلاسل من الحجارة الصغيرة بارتفاع نصف القامة، وغالباً ما تؤجر لقاء مبالغ زهيدة، والغرباء عادة هم الذين يستأجرونها، ليأمنوا عدم اختلاط ماشيتهم ودوابهم بمواشي الآخرين أو دوابهم.

على أطراف هذه الأرض، أو على أطراف السوق، كما يسمى عادة، قامت بضع دكاكين، وقد بنيت بشكل بدائي وسرعة متناهية، وهي عبارة عن غرف صغيرة دون نوافذ، يباع فيها كل ما تحتاجه القوافل، وتتعاطى بأمور كثيرة في آن واحد. وتكون هذه الدكاكين عادة مليئة بالبشر والأشياء

ويختلط فيها الباعة بالمشترين، خاصة في أيام معينة، أو على التحديد منذ عصر الأربعاء وحتى ظهر الجمعة. وتبلغ ذروة نشاطها يوم السوق، يوم الخميس. وفي غير هذه الأيام تخلو الدكاكين من البشر أو تكاد، كما لا يتردد أصحابها في إغلاقها لساعات طويلة.

غير بعيد عن السوق، أو على التحديد في الطرف الغربي منه، يقع المسجد، وهو عبارة عن أرض مربعة محاطة بسور من الحجارة التي انتقيت بعناية وصُفّ بعضها فوق بعض بطريقة محكمة، خلافاً لحجارة أسوار الحظائر، كما فرشت أرضه بحصائر بسيطة متفاوتة المساحات والألوان، وقد دبّ إلى أغلبها التلف.

وفي الجهة الأخرى المقابلة من السوق كانت مقبرة موران، وإذا كان من الصعب أن يميزها الغرباء، إلا إذا دققوا النظر ورأوها في ضوء النهار، فإن أهل موران يعرفون قبورها قبراً قبراً، رغم أن أكثر القبور سوّيت مع الأرض ومالت شاهداتها أو رفعت من أماكنها، لأن كل قبر وكل حجر يعني شيئاً حياً لكل إنسان في هذه المدينة.

حين يتجمع المشهد كله، وينظر إليه من مسافة معينة، يبدو على شكل مثلث: الجامع رأس هذا المثلث، أما ضلعاه فهما السوق والمقبرة.

في هذا المثلث من الأرض كانت تتشكل موران مرة بعد أخرى، وكانت فيه تبدأ الأفراح والأحزان والمخاوف، ومن هنا أيضاً كانت تولد الأفكار والأخبار، وإلى هنا كان يصل المسافرون والغرباء، بحيث لا تخلو ذاكرة أحد من أهل المدينة، أو الذين عاشوا فيها، من ذكرى حادة مرتبطة بهذا المكان، ذكرى أب عاد بعد سفر طويل، أو ذكرى الذين سافروا وغابوا، وما رافق الساعة الأخيرة من ركض وحزن ووصايا، وأخيراً كيف نهضت القافلة وسارت، ثم كيف ابتعدت إلى أن غابت، وما يتولد عن ذلك من مشاعر الحزن والرغبة واللوعة.

وفي هذا المثلث من الأرض تروى قصص بعض الأفراد الذين كانوا فقراء في السوق، لا يملكون إلا كيساً أو كيسين من التبن، أو سطلاً فيه قطران لمداواة الإبل، لكنهم تشبثوا واستمروا إلى أن حانت الفرصة التي

طالما انتظروها، فلما جاءت جاء معها الخير كله، فتحولوا إلى أغنياء. وغيرهم من الذين كان يضرب بغناهم المثل، ويُعدّون من أصحاب الرعايا والرزق الوفير، ما لبثوا، بين عشية وضحاها، أن أصبحوا فقراء، لأن مواشيهم هلكت في سنة من سنوات المحل، أو لأنها دخلت البادية طلباً للمرعى فغابت وغابت أخبارها معها.

الأطفال الذين فتحوا أعينهم على الحياة، وبدأوا باكتشاف العالم المحيط بهم، متجاوزين أولاً بيوتهم ثم الحي الذي ولدوا فيه، كان أول ما عرفوه واكتشفوه: سوق الحلال. فمن هذا السوق ساقوا ضحايا العيد؛ ومن هذا السوق اشتروا حماراً أو بغلاً لنقل الماء، قبل أن تمد الأنابيب إلى البيوت. ومن هذا السوق تمّت زيجات كثيرة حين اتفق الآباء؛ ومنه بدأت الأسفار الكبيرة والبعيدة والتي غيرت حياة الكثيرين.

وفي هذا السوق كانت تجري الأمازيح وتروى النكات، ومنه تنتقل إلى موران، وخلال رحلتها القصيرة تتغير ويضاف إليها الكثير، فيضحك الناس ويطربون؛ ومن السوق كانت تطلق الألقاب والأوصاف فثبتت على الأشخاص أكثر مما ثبت عليهم أسماؤهم؛ وفي السوق كان يستغيب الناس بعضهم بعضاً، وكانوا يراقبون كل شيء بعيون مدققة، فيعرفون الأسرار والأخبار حتى أكثرها خفاء.

هكذا كان السوق منذ أن وجدت موران. وإذا كان لكل سوق معالمه ورجاله والعارفون بخفاياه وأسراره، دون أن يظهر ذلك من الملابس أو التصرفات، ودون أن يظهر ذلك أيضاً من أول وهلة، فإن اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرجال ترتسم ملامحهم في مخيلات الناس وتترسخ، ليس لأنهم فعلوا أشياء خارقة، أو لأنهم أقوى من غيرهم أو أغنى، وإنما لأن وجودهم ارتبط بحياة الناس على نحو غير مألوف، ولأن تصرفاتهم لا تخضع للمنطق الذي يحكم تصرفات الآخرين. وإذا كان لكل دولة أو لكل مدينة، حاكمها وأغنياؤها، ولها رجالها الأقوياء، فإن لكل مدينة أيضاً أناسها الذين يلخصون حياة هذه المدينة، فتبدو مختلفة عن غيرها من المدن، أو مختلفة عن أزمان أخرى.

من هؤلاء شمران العتيبي، ليس لأنه صاحب مال وماشية، وليس لأنه ممثل السلطان، الذي يتسلم الباج عن كل دابة تدخل السوق أو تباع فيه، وإنما لأنه «العارفة» الذي يستشار ويؤخذ رأيه في القضايا الكبيرة والخطيرة حين تحزب الأمور، وحين يقع الخلاف.

إذا وقع الخلاف في السوق، وكثيراً ما يقع، يرجعون إلى شمران ويحكمونه، فهو الذي يعرف الخيول، يعرف أنسابها وأعمارها، وبكم بيعت مثيلاتها هنا وفي أماكن أخرى، من باعها ومن اشتراها. ويعرف الإبل القوية، يعرف صحتها ومرضها، وكيف يجب أن تعالج ومتى. فإذا وقع الخلاف حول الماشية التي سافرت أو جاءت، ونصيب كل واحد من الذين شاركوا فيها، فإن الذي يفصل في هذا الخلاف ويقبل حكمه دون مناقشة طويلة ودون اعتراض، هو شمران. أما تلك الشرائع الضمنية التي تحكم علاقات الناس، وتحدد ما لهم وما عليهم دون أن يعرفوا كيف جاءت هذه الشرائع أو لماذا، فإن شمران، الذي لا يحسن القراءة والكتابة، واحد من القلائل الذين تسمع كلمتهم ويؤخذ برأيهم.

وما يقال أيضاً عن أنساب القبائل والقرابات أو الخصومات التي تقرّب أو تباعد إذا نسيها الكثيرون، أو اختلطت وقائعها في ذاكرتهم، فعند شمران الخبر اليقين والمعرفة الأكيدة.

لم يكن شمران غنياً، ولم يكن فقيراً، انه من الآلاف الذين يعبرون هذه الحياة دون أن يسألوا، ودون أن يتساءل غيرهم، كيف يتوافر لهم الرزق، لأنه غالباً ما يتوافر، نتيجة الصدفة أو الحظ، أو نتيجة تواضع المطالب والاكتفاء بما هو موجود، أو ربما بهذه التنظيم الخفي والحرص الذي لا يصل حدود اللجاجة. فلو لم يكن لشمران هذا العدد من الأولاد، ولكل واحد منهم، منذ وقت مبكر، عمل يعرفه ويثابر على القيام به، دون إيعاز، لما استطاع هو أن يقضي هذه الساعات الطويلة في السوق، في مكان لا يغيره: كان يجلس في ظل سور المسجد، وإلى هذا المكان يأتيه الذين يريدون مشورته، والذين يريدون سؤاله، أو أولئك الذين لا عمل وراءهم لكي يتحدثوا، لكي يستمعوا إلى الأحاديث التي تدور.

ومن خلال الأسئلة أو بسماع الأحاديث، تُعرف أخبار القوافل وحالة السوق، فيقرر الواحد ما إذا كان عليه أن يبيع أو أن يشتري، أو أن ينتظر. وما يجب أن يفعله هذا اليوم أو في يوم آخر.

فإذا لم يكن اليوم يوم السوق أو يوم وصول إحدى القوافل، وإذا لم يكن الفصل شتاء، فإن شمران الذي يصلي المغرب في المسجد، يكون نهوضه للصلاة إيذاناً بانتهاء يومه. ولا بد أن يتحرك لكي يقضي هذا الواجب بسرعة، ثم يشق طريقه وسط المقبرة، في مسلك لا يغيره، ولسانه لا يتوقف عن ترديد تمتمات الرحمة، فإذا اقترب من السور الغربي يرتفع صوته بشكل واضح، لأن هناك قبر أبيه، حتى إذا تجاوز المقبرة اتجه إلى بيته، قاطعاً موران من شرقها إلى غربها.

الأيام التي غاب فيها شمران عن السوق قليلة، والأيام التي لم تنقل عنه قصة أو خبر أقل. وإذا كان بحضوره لا يثير تساؤلاً أو لا يلفت النظر، فإن غيابه يثير تساؤل الصغار والكبار، ويشكل هذا الغياب فجوة في سور المسجد وفي السوق كله. ويؤكد الكثيرون أن الصمت كان يرين مثل ظل ثقيل وحزين على السوق حين يغيب.

بمقدار الثبات الذي يخلقه شمران في سوق الحلال، ويعطيه ملامح شديدة الظهور، فإن صالح الرشدان، أو كما يُلقب بصالح النذير، يشاركه في ذلك، بل ويزيد عليه، لأنه وحده الذي يخلق في السوق من الصخب والهرج ما لا يخلقه الآخرون مجتمعين.

مهنة صالح الأساسية: «حذو الخيل»، هكذا يجيب حين يسأل عن عمله، يجيب بإصرار وسخرية معاً. علماً بأنه لم يشاهد، ولو مرة واحدة، يحذو حصاناً. أكثر من ذلك لا يقترب منه أصحاب الخيول، سواء أكانت معهم خيولهم أم لم تكن، خشية أن يدعي يوماً أنه حذا خيولهم أو أعطى رأياً فيها!

إذا قلّت الحمير، أو حين يؤجل أصحابها حذوها أسبوعاً بعد آخر، لفقرهم، أو لأنهم لا يعتبرون الأمر هاماً، فلا بد أن يجد صالح ما يفعله.

خلال شهر رمضان، من كل عام، وأيام الأعياد، يهجر صالح سوق

الحلال، لا يعترف بوجوده، بل ولا يقترب منه، لأن لديه عملاً خطيراً يشغله، إذ يحمل طبلاً ويدور في شوارع موران، وحوله عدد يتزايد كل لحظة من الصبية يصخبون ويتضاحكون، وهو بانفعال ولذة، وبتوقيع خاص يدق على الطبل دقاً موصولاً، مع كلمات هي بين الأدعية والشتائم يوجهها إلى الكثيرين بأسمائهم. وفي الليل المتأخر، يرتفع صوته أكثر مما يرتفع في النهار، وقد شابه الغضب أو جدية مبالغ فيها، خاصة حين لا يجد الاستجابة كافية لطلبه أو لصراخه، طالباً من النيام أن ينهضوا «لأن الحياة قصيرة. وعلى الناس أن يقضوها في الصلاة والعبادة، لأن الموت ينتظر الجميع والحساب على الأبواب».

فإذا انتهى رمضان وانتهى العيدان، ويكون صالح عادة خلال الأيام الثلاثة الأخيرة من رمضان، إضافة إلى أيام الأعياد، حاملاً علماً أخضر، وقد ثبته في وسطه بطريقة ماهرة، خلال هذه الأيام يكون قد جمع كميات من الحنطة والشعير، زكاة أو فطرة، ولذلك ينصرف إلى توزيعها بخفاء ودهاء على المحتاجين. كان هذا العمل يرهقه إلى أقصى حد. إذ بعد أن يصرّ كميات الحنطة والشعير على شكل صرر، تتناسب مع عدد أفراد العائلة المحتاجة، ويصفها بانتظام، وقد علّمها بخطوط وحده يعرف معناها ومن تعني، وبعد أن يحسبها عشرات المرات، ويستعيد في ذاكرته أسماء الذين ستوزع عليهم، يقوم بتوزيعها دون أن يحس به أحد. ويستغرق هذا الأمر أياماً، يعود بعدها إلى السوق، وقد هيأ نفسه لعمل طويل مرهق، بعد أن غاب عن السوق طوال هذه الفترة.

أما لماذا ينظر الناس إلى صالح على أنه مجذوب موران أو أحد مجاذيبها، فلأن التصرفات والقيم التي يتصرفها أو تملأ رأسه، وتلك الكلمات والأحكام التي يطلقها، خاصة على الكبار والأغنياء، وما يرافق ذلك من مزاح في العمل والعلاقات، إضافة إلى كمية كبيرة من الاختلاقات والأكاذيب والمتاعب، جعلته في نظر الكثيرين هكذا.

يروون عنه أنه يحدّث الحيوانات والحجارة، ويرفض أن يتحدث مع البشر إلا في الأمور الضرورية. فحين يأتي صاحب حمار بحماره، لكي

يحذوه، كان يتحدث إلى الحمار ويسأله أكثر مما يتحدث مع صاحبه. يسأله: «هذول الظّلاّم مو بس تاعبيك، لاعنين والد والديك، مدبّر ومشيلين عليك أحمال ربنا، وبهذي الدنيا الواحد يظلم الثاني، وأنت الوحيد المظلوم وما تظلم» ويهز رأسه أسفاً ويتلفت إلى أدواته، وبعد أن يهيئها يبدأ العمل والحديث معاً: «لا تظل حمار طول عمرك، يبّس رأسك، عاند، والبط، وإذا رفست عوّر ولا تخف» فإذا ضحك صاحب الحمار يلتفت إليه صالح بنصف وجه غاضب ويخاطبه، وتخرج الكلمات من بين أسنانه:

ـ خلو بقلوبكم رحمة، قولوا هذا الله خلقه ولازم يستريح.

فإذا رد صاحب الحمار أو ظل يبتسم، يترك صالح رجل الحمار ويلتفت إليه:

ـ تقول حمار.. وما يفهم؟ تقول حمار ولازم يحمل؟

وحين لا يسمع رداً يتابع:

ـ لولا الدواب اللي الله خلقها، لولا الحلال، ما كنتم تساوون شي يا بني آدم!

المرات التي غضب فيها صالح الرشدان، نتيجة كلمة أو تصرف، لا عدد لها، فهي من الكثرة بحيث تحصل كل يوم. وعندما يغضب يتوقف عن العمل، لا يواصله في تلكَ الساعة أياً كانت المرحلة التي وصل إليها، وبعض الأحيان لا يواصله ما دام الرجل الذي أمامه هو صاحب الحمار، مما يضطر صاحبه أن يسحب حماره لمسافة معينة فيسلمه إلى آخر، متظاهراً أنه باعه، وأن هذا الآخر قد اشتراه، لكي يعاود صالح العمل!

أما المبلغ الذي يتقاضاه أجراً فإنه يتفاوت من واحد إلى آخر، ومن فترة لأخرى، «مَنْ صاحب الحمار.. لأن الأجرة مثل الزكاة، كل واحد وما ملكت يمينه» فيتقاضى من الميسورين أكثر مما يتقاضى من الفقراء، وبعض الأحيان يتعامل بالجملة، حيث يدخل حمار أحد الفقراء ضمن حمير الآخرين، ويتقاضى عنه أجراً من القادرين!

انه يفعل ذلك عن قناعة. . وعن دهاء، فإذا سئل لماذا يفعل ذلك ولماذا يميز بين الناس بهذه الطريقة يجيب بصوت رخو ساخر:

ـ اللي ما يعجبه. . موران وسيعة وخله يلهم الرمل إلى أن يشبع!

تعود عليه الناس وألفوا طريقته، ولذلك كانوا يتخذون من هذه المناقشات أو المساومات وسيلة للثرثرة وقتل الوقت، أو ليخرجوا صالح عن طوره، وعندها يبدأ بالشتيمة ويملأ الزبد شدقيه، يرمي حطته على الأرض، مهدداً متوعداً أن يتوقف عن هذه المهنة «ويقطع أهل موران» عند ذاك يتراجعون، أو يتظاهرون بالتراجع. كانوا يقولون له كلمات كبيرة مليئة بالمبالغة في محاولة لاسترضائه، يشيدون بكفاءته وبالمهنة التي لا يحسنها غيره، ومدى الأهمية والفائدة التي تعود على موران من قيامه بها! وبعد وقت مليء بالاستغفار ومناجاة الله يوافق ويعود إلى مواصلة العمل. . .

ولأن صالح الرشدان هذا النمط من البشر فقد أصبح جزءاً حياً قوياً من موران، يسأل الناس عنه ويمازحونه، بل ويأخذون رأيه بالقضايا الكبيرة التي تجري حولهم: «الدوسري اشترى موران كلها ويريد يرحل أهلها، ويش تقول يا صالح؟» «موران لأهلها، لا للدوسري ولا لغيره. والناس ما ترحل» «لكنه اشتراها» «اشتراها ما اشتراها اتركونا من سوالف المجانين. . موران بمكانها لا تروح ولا تتغير والدوسري هو اللي يروح ويرحل».

فإذا وصلت خيول إلى السلطان وانتشر خبر وصولها فلا بدّ أن يبحث الكثيرون عن صالح: «القصر يسأل عنك يا صالح، وطويل العمر قال: خلي ابن الرشدان يصلنا ويكون قريباً منا، لأن الخيول ما أحد يدبرها غيره» كان ينظر إلى الذين يتحدثون إليه غير مصدق، فإذا أكّدوا له بالإيمان كان يرد: «طويل العمر يعرف مكاني، اما يجي أو يبعث لي طارش بقرطاس وختم. . وبعدها نشوف» «هذا الكلام ما يصير يا صالح، وطويل العمر زعول» «الغضب رأس الحماقة، والكبير هو الصغير ولازم يسأل» «لكنك تعرفه يا صالح» «وهو يعرف ابن الرشدان!»

إلى جانب شمران وصالح في السوق عبيد الطويل: قصير، سمين بعينين صغيرتين مليئتين بالمكر والسفاهة، من يراه أول مرة يظنه شيخ

السوق وأغنى من فيه، فحركته الدائمة السريعة بين المشترين والبائعين، وتلك الكلمات التي يوجهها إلى هذه المجموعة أو المجموعة الأخرى، وبصيغة الأمر، طالباً سرعة البت في العرض الذي يقدمه أو يوافق عليه، تجعل الناس في حيرة من أمره: «علينا.. الرأس بثلاثين، إذا بعتم اشترينا» وحين يصمت من يوجه إليه الكلام يصرخ «ثلاثين ونص» فإذا أشاح الآخر بوجهه يصرخ مرة أخرى «واحد وثلاثين» فإذا ردّ عليه مرة بهزة رأس وابتسامة يصرخ عبيد من جديد «بع أحسن لك، يا ابن الحلال.. وهذا هو سعر السوق» ويتظاهر أنه نفض يده من هذه الصفقة، فيتحرك إلى الجهة الأخرى، ويخاطب المجموعة الثانية «يا جماعة.. الغنم طيبة، شبعانة، والراس منها يسوى أربعين» «أنت تريد تبيع أو تشتري يا عبيد؟ الغنم جلد وعظم وما تسوي شي أبداً.. إذا باعها بثلاث وثلاثين اشتر» «يا جماعة الناس حوله ويمكن يشرون منه بأكثر» «سمه من جديد.. ونشوف».

ويدور عبيد في السوق، لا يذهب لمساومة جديدة مباشرة، يجب أن يتأكد من المنافسين الموجودين، وما هي احتمالات الأسعار، فإذا مر بعض الوقت وتأكد يعود بهجوم جديد: «إذا بعت، يا ولد، بسومنا أحسن لك» «يفتح الله» «السوق ميت واللي دفعناه ما تحصل عليه من غيرنا» «رح من وجهنا يا رجال وخلنا نترزق» «اسمع.. السعر اللي ادفعه هالحين هو آخر سعر: اثنين وثلاثين» «بعدك بعيد... بعيد، وهذا سوم واحد ما يريد يشري».

ويعود عبيد إلى جماعته مرة ثانية: «يا جماعة: شمري ابن حرام، يعرف غنمه ويعرف السوق، وأنا رأي أن تقووا قلوبكم وتوافقوا على سعر الأربعين» «يا ابن الزمار.. أنت معنا أو مع الشمري؟ «معكم أو مع الشمري؟ الله منكم يا أهل موران.. لا تحللون ولا تحرمون!».

وتظل المساومة قائمة وعبيد يدور مثل المكوك بين الطرفين، ويزحف السعر قليلاً والشمري لا يتكلم، يهز رأسه بعد كل سعر جديد يقدمه عبيد دلالة الرفض، فإذا ألحّ عليه عبيد أكثر تفتر شفتاه عن ابتسامة ساخرة، مع كلمة لا يتعب من تردادها: «بعيد.. بعيد» فلما وصل السعر إلى الخمسة

والثلاثين، وكان هذا أقصى سعر يمكن أن يوافق عليه اثنان من أهل موران كلفا عبيد أن يتم الصفقة لحسابهما ونيابة عنهما، قال عبيد للشمري بيأس مرير: «تظلون بدو. . لا تعرفون تبيعون ولا تعرفون تشرون، والسعر اللي دفعته ما أحد يدفعه، لكن الظاهر ما لك نصيب ولازم تنتظر الخميس اللي يجي وتبيع بعشرين» وزفر عبيد وسأل: «ها. . بعت بأربع وثلاثين ونص؟» «بعيد. . بعيد» «بخمس وثلاثين؟» «الله يبارك لك».

هكذا بشكل مفاجئ، داهم، وكأنه مزنة من مزن الربيع، حيث لا يتوقع من يراقب هذه المساومة الطويلة الشاقة أن يتنازل ذلك البدوي قيد أنملة يجده يوافق وتتم الصفقة. وهنا تبدو قدرة عبيد في التسلط والسيطرة، حيث يوجه أوامر حازمة إلى الفريقين أن ينتحوا جانباً مع الغنم، وأن يسرع المشترون بتسليمه المبلغ، فإذا استلمه وضعه في جيبه وطلب أن تعدّ الغنم أكثر من مرة، أما البدويّ الذي لا يُعْتَد بالرقم الذي ذكره، وظل يعيده ويراقب بانتباه غنمه وهي تسحب منه، فيصبح خائفاً متحسباً، ويظن أنه وقع ضحية مؤامرة محكمة، خاصة وأن عبيد الذي وضع الفلوس في جيبه بدأ يتحرك هنا وهناك ويسأل ويستفسر! وانشغل المشترون بالغنم يتأكدون من جودتها وسمنتها. خلال هذه الفترة الصعبة من الانتظار والخوف يصرخ عبيد على البدوي طالباً منه أن يتبعه. وفي ظل جدال المسجد يجلس ويطلب منه الجلوس، وبعد أن يستفسر منه عن عدد الغنم وبكم باعها وكم يصبح ثمنها، تبدأ عملية العد الطويلة الشاقة، لأن لكل منها طريقته في الحساب. فإذا انتهت هذه العملية، مستبقياً عبيد قسماً من المبلغ معه، تبدأ المفاوضات حول ما يستحق له عند هذا البدوي، وأغلب الأحيان، ضمن جو الخوف والارتباك، يحصل عبيد على أكثر مما توقع، ولا يعرف البدوي هل أعطاه كثيراً أو قليلاً، لأن الأمور اختلطت عليه!

ومثلما انتقل عبيد مرات كثيرة من أجل إتمام الصفقة، وبعد أن ينتهي من البدوي، الذي يشبه القمري كما يصفه، لأنه لا يعرف متى يأتي ومتى يذهب، ينتقل إلى الذين كلفوه بالشراء، ومع هؤلاء يلجأ إلى السفاهة أكثر مما يلجأ إلى التخويف:

ـ لولا أن عبيد قطع قلب هذا المسكين اللي يريد يرجع لأهله ما باع بأقل من أربعين!

وبعد أن يترك هذه الكلمات، التي يكررها بأكثر من طريقة، أثناء ما يتحسس ظهور الغنم والياتها، تستقر في عقول الذين اشتروا، يتابع بسخرية:

ـ وهالحين لعّبوا أصابعكم ورضّوا عبيد!

فإذا تأخروا أو بدا عليهم التردد والانشغال يغيّر لهجته:

ـ وهذا شمران، أبو نمر، قرّيب ويعرف.

ولكي لا يتركوا عبيد يستعمل كل مهارته أو كل سفاهته، يصرخ أحدهما في وجهه:

ـ اسكت هالحين، يا ابن الحلال، وخلنا نشوف دربنا.

وحين يتطلع عبيد باستغراب يضيف الآخر:

ـ لا تخف، يا رجّال، ما تكون إلا راضي.

يرد عبيد بسخرية:

ـ هذا الكلام ما يفيد، ما يوكل خبز، يا الله لعبوا أصابعكم وطلّعوا فلوسكم.

ـ اصبر يا ابن الحلال، وكّل الله!

وبدهاء ومماطلة يسحب أحد الشريكين الغنم ويتأخر الثاني لمفاوضة عبيد، وبكثير من الجهد والصراخ والغضب، وبعد أن يتجمع الناس غالباً، تنتهي الأمور بأن يحصل عبيد على ما يريد.

المبالغ التي وصلت إلى يدي عبيد كبيرة، وإن كانت متفرقة، وربما كانت تكفي لأن يبدأ عملاً أكثر راحة، ويمكن أن يجنّبه هذا الركض في السوق، لكن هذا العمل يستهويه، يجعله، بنظر نفسه، سيداً.

يقول عنه شمران: خباص. ويصفه الذين يسخرونه، ويحتاجون إلى خدماته بأنه أبو السوق. أما الذين يكرهونه فإنهم لا يترددون في أن يقولوا عنه حيّال وزمار.

وفي سوق الحلال بموران عدد كبير من الأشخاص أيضاً، لكن ملامحهم تغيب وتظهر، إمّا لأنهم لم يمارسوا أعمالاً ثابتة وإما لأنهم تحولوا عنها، وبعضهم لم يتردد في السفر. مرّ في السوق جمعة، الطبيب الأسود الذي كان يداوي الجمال. ومرّ اخوان اثنان كانت مهنتهما القصابة لأنه كثيراً ما كانت تجري عمليات الذبح في السوق، لكن ما كادت موران تتغير قليلاً حتى تحول الأخوان، فأصبح أحدهما صاحب مطعم والثاني سائق سيارة. ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن أبي غريفة، الذي كان يصنع القهوة ويدور بها في السوق أو يقف على باب المسجد، لكن لم تمض فترة حتى التحق بحاشية السلطان خزعل وأصبح شخصاً مختلفاً تماماً.

كل ذلك جزء من تاريخ موران الذي بدأ يغيب ويختفي من ذاكرة الناس، إذ ما كادت بضع سنين تمر على تولي السلطان خزعل حتى جاء أبو غريفة ذاته، وعن طريق جويبر الضويحي، منادي حران، يبلغ المصلين الذين يخرجون من المسجد أن السوق بدءا من الخميس اللاحق سيكون في العوالي، وأن على الحاضر إبلاغ الغائب. أما أصحاب الدكاكين فقد أبلغوا عن طريق الشرطة وطلب إليهم أن يرحلوا.

قبل أن يقف جويبر الضويحي، منادي موران، تلك الجمعة، عند باب المسجد، ويبلغ الخارجين من الصلاة، أن سوق الحلال سينتقل إلى العوالي، وعلى الحاضر أن يبلغ الغائب. . قبل هذا وقعت أمور عديدة: فالحكيم الذي غاب من ذاكرة الكثيرين، وكاد يُنسى، حتى شمران كاد ينساه، أو بالأحرى لا يتذكره إلا كما يتذكر مرضاً قديماً، جاء الحكيم بزيارة إلى سوق الحلال، جاء قبل ثلاثة أسابيع من قرار نقل السوق.

الوقت بين العصر والغروب، شمران في ظل سور المسجد، يستمع أكثر مما يتحدث، واليوم من الأيام العادية، فلا هو الخميس، ولا يوم وصول قافلة من القوافل. ترك الحكيم سيارته بعيداً، ونزل مع ثلاثة من رجال القصر، وأعطى لزيارته طابعاً من البساطة، إذ توجه أول ما توجه إلى المسجد. صلى هناك ركعتين تحية للمسجد، وبقي بعد الصلاة فترة غير قصيرة في حالة أقرب ما تكون إلى الابتهال والخشوع؛ فما أن نهض واتجه غرباً، قاطعاً السوق من أوله إلى نهايته حتى قال شمران، الذي ظل يراقبه بصمت أقرب إلى الذهول، وكأنه لا يصدق ما يرى:

ـ ما هي كل صلاة صلاة يا جماعة الخير. . .

ولما نقّلوا نظراتهم بينه وبين الحكيم الذي كان يبتعد قليلاً قليلاً، لكن لا يكف عن النظر في الوجوه ويبتسم، حتى تابع شمران:

ـ وهذه الصلاة ما هي لله!

وإذا كانت قد انقضت زيارة الحكيم دون أن تترك أثراً أو تخلف هماً في قلوب الكثيرين، لأنه لم يتخللها حديث أو سؤال، واتسمت بتلك البراءة والتقوى، فإن الهم دخل إلى قلب شمران، وبعد أيام أصبح خوفاً.

إذ لم تنقص بضعة أيام على هذه الزيارة حتى جاء الأمير ميزر بزيارة

مماثلة، لكنها اتسمت هذه المرة بالكثير من المظاهر والاهتمام والضجة، وطالت أكثر من زيارة الحكيم، كما تخللتها الأحاديث والأسئلة والأمازيح أيضاً.

دخل الفرح إلى قلوب الكثيرين بعد زيارة الأمير ميزر، لأنهم تذكروا أياماً قديمة، أيام كان السلطان ذاته يأتي بزيارات إلى سوق الحلال. تذكروا كيف كانت تجري الأحاديث، وكيف كان الناس آنذاك، خاصة وهم يسمعون الأمير ميزر يقول، ان مياه المواسير سوف تصل السوق، وأن السوق سيتحول إلى مرج أخضر، بحيث من يصله أو يراه بعد سنة أو سنتين لن يعرفه. قال كل ذلك بلهجة مرحة تخللتها الضحكات الصاخبة، الأمر الذي جعل العديدين يشاركون ويتحدثون. أما شمران الذي ظل في مكانه، قرب المسجد، وكانت تصل إليه، من بعيد، ضحكات الأمير والصخب الذي يتولد من أحاديث الرجال وأسئلتهم حوله، فقد أصبح همه خوفاً في هذا اليوم. قال لنفسه «صار سنين ما شفناهم ولا سمعنا سوالفهم وما أظنهم اليوم أحسن من الأمس».

وفي اليوم التالي لهذه الزيارة تماماً، وكان يوم أربعاء، وسوق الحلال بين العصر والمغرب يعج بالرعايا والبشر، ويختلط فيه الذين يريدون البيع مع الذين يذرعون السوق من بدايته حتى نهايته ليعرفوا حالة الأغنام وليتأكدوا منها قبل أن يقرروا الشراء في اليوم التالي، في هذا اليوم وصل الأمير ميزر ومعه الأميران فواز وملحم، ورغم الضجة التي رافقت مجيئهم، إذ دخلوا بسياراتهم إلى وسط السوق، إلا أن ضجة البشر والنداءات، إضافة إلى حالة الهياج التي ميزت الإبل، نتيجة الصراخ والزحام، جعلت الزيارة تمر دون أن ينتبه إليها الكثيرون.

الزيارة لم تفت شمران، صحيح أنه عرف بها قبل أن تنتهي بوقت قصير، لكنه ما كاد يعرف حتى ترك ما كان فيه من حديث ولجّ في البحث عن صالح. كان صالح منهمكاً إلى أقصى حد بحذو حمار، فلم يفطن إلى أن شيئاً غير عادي يجري في السوق، ولم يفطن إلى أن شمران فوق رأسه يناديه..

لما رفع رأسه ورأى شمران تساءلت عيناه، قال له شمران بلهجة هي بين الحزن والسخرية:

- أبشر يا صالح وولّم نفسك.

ولما ظل صالح صامتاً وعيناه تتساءلان، تابع شمران:

- قبل كم يوم جانا الشيوخ، وأنت تخبرهم، واليوم جاء اخوان طويل العمر، وباكر أو اللي عقبه يجينا العود الكبير، وأنت بعد اليوم ما لك شغل إلا بالصقلاوية والحمدانية، وبك حيل وقصّ فلوس!

- هذي بعيدة عن حلوقنا يا أبو نمر.

- ناظر وشف: الجماعة بالدشاديش البيض مثل العرسان، وما تركوا أحد بالسوق إلا وسألوه ونشدوه: كيف أنت وشلونك، وبعدها ما يندرى!

تلفت صالح أكثر من مرة وفي أكثر من اتجاه، لم ير شيئاً غير عادي، لأن الزحام في تلك الساعة كان يحد من الرؤية ويجعل الأشياء والأشخاص في حالة من التداخل لا تمكّن من التمييز. وحين ارتدت عينا صالح إلى شمران، قال له:

- الله يسترنا من الثالثة!

لما تأكد صالح أن شمران جادّ في كلامه، رمى المطرقة التي كانت في يده، وفرك كفيه وقال:

- تذكر، يا أبو نمر، أمس، ذاك اليوم، كان خريبط يجينا للسوق، تذكر، وكان صوته يهدر: «يا جماعة الخير، يا ولاد الحلال، أشهد بالله أنكم تحملتم الكثير وما بقي إلا القليل، فإذا خلصنا أبشروا، ما ننسى لواحد منكم أفعاله وأفضاله، بس اليوم نريد معونتكم، يا نشامة، يا أجاويد». وراح يوم وجاء يوم، اللي انقتل انقتل، واللي ترك وراه أيتام ترك، وخريبط لما صار سلطان ملح وذاب، نسي كل شيء. ولما جاء نوبة أو نوبتين للسوق: «الله يعطيكم العافية، شلونكم، وفي أمان الله». أما إذا سأله أحد فيرفع صوته فوق كل الأصوات: «حنا بحد السيف أخذنا. وحنا اللي عفينا وسامحنا.. وحنا وحنا». والناس اللي حاربوا، اللي تحملوا وماتوا ما عاد يذكرهم. كان يضحك على الجميع بالكلمة الزينة، يقول:

«أشهد بالله أنكم نشامة وأهل مروة». لكن بعد هذا الكلام ما يلقي الواحد شيء أبد.

وتغيرت نبرة صوته:

ـ الله كم موران شافت!

رد شمران بحدة:

ـ يلزمها تشوف أكثر!

ضحك صالح وتابع:

ـ لا تخف، يا أبو نمر، تشوف. . . . وإذا ما خربت ما تعمر. .

وبعد قليل:

فمن ظن أن الدهر باق سروره   فذاك محال لا يدوم سرور

استراح صالح أكثر مما يفعل عادة. ونتيجة إلحاح صاحب الحمار قام إلى عمله من جديد، لكن ظل يردد: «. . لا يدوم سرور. . . أي نعم لا يدوم سرور» وحاول أن ينتهي بسرعة ليعرف أي شيء حصل؛ إذ أدرك أن اليوم يختلف عن أيام غيره، وأحس أيضاً أن شمران بحاجة إليه لأن «أبو نمر وتد السوق، وهو السراج والمطر» هكذا يصفه صالح إن كان راضياً عنه، أما إذا لم يكن فإنه يصمت، لا يجيب، عكس موقفه من أشخاص آخرين.

العلاقة بين الاثنين خاصة وغريبة، كما أنها تختلف عن أية علاقة بين اثنين. وإذا كانت لشمران ذاكرة تشبه الأرض والمطر، فإن صالح لا يقل عنه، يعزف الناس من أصواتهم، إذ يميزهم دون أن يرفع رأسه، كما يشم رائحة المطر قبل قدومه بساعات، يحرك أنفه بطريقة عصبية، كما يفعل الأرنب، ثم يأتي صوته: «يا جماعة الخير: المطر علينا أو حوالينا» أمّا إذا توقع الغبار «أحذروا وتوقوا يا جماعة الخير: غبار ونفار وقلة رزق» يعرف ذلك من حركة الريح، ومن ذلك الحدس الباطني الذي لا يخطئ.

هكذا كان صالح بالنسبة لسوق الحلال، ولأنه لا يخاف ولا يتردد، يلجأ الآخرون إلى تحريضه، فما أن يسمعوا خبراً حتى ينقلوه إليه، وعند ذاك يبدأ ولا يهدأ.

في وقتٍ من الأوقات لم يكن الأمر يتعدى المزاح، وأقصى ما يصله

التعريض؛ فحين جاء من قال أن السلطان بدأ يلبس الحرير والقصب، قال صالح كلمة انحفرت في ذاكرة الناس، قال:

ـ خذوا بالكم يا أهل السوق.. ترى أول الرقص حنجلة!

أما عندما شاع خبر زواج السلطان بامرأة نصفها شركسي ونصفها عربي فقد رفض صالح أن يعمل ذلك اليوم، قال للذين سألوه:

ـ اتركوا البيع والشراء يا أهل السوق، لأن اليوم يوم التعريس!

وحين استغربوا وتجاهلوا أجابهم بغضب:

ـ أبوي هو اللي عرّس، أخذ واحدة بدوية وببطنها تانية حضرية!

ويفهم الناس من يعني وماذا يعني، وحين يأتيه الصوت:

ـ يا ابن الرشدان قل الله يعطينا، ولا تحسد الناس.

يرد وهو يضحك:

ـ تطلع براس الواحد منكم نخلة وما يحصل!

ويقهقه الذين يسمعون، وبعد أن تتراجع القهقهات والابتسامات، يغرقون في التفكير أو يسأل بعضهم بعضاً أو يتساءلون.

هكذا كان صالح، وموران التي احتملته ووجدت فيه تغييراً من الرتابة التي كانت تلّفها، وكانت تقول من خلاله ما لا تستطيع أن تقوله مباشرة أو علناً، فإن بعض العقلاء كان يلح على صالح أن يهدأ وأن يكف، أو «أن يضع في جيبه حجراً يثقله»، لأن القصر إذا صبر واحتمل، أو تظاهر أنه لم يسمع، فلا بد أن ينتهي صبره ذات يوم.

أما صالح فلم يفترض أن القصر يمكن أن يخاصمه أو أن يكون خصماً «القصر قصرنا، والدولة دولتنا يا جماعة الخير، ولولانا.. خريبط وابن خريبط من هم؟ حنا ما نريد القصر لابن الخايبة أو ابن العايبة، نريد القصر للرحمان» والعجرمي يسمع ما يقوله صالح فيرتفع صوته: «مثل ما قلت لكم: هذه ديرة إيمان وأبد ما تصير ديرة كفر، وذاك الأبيض المرقّش، إذا تحملناه اليوم باكر يطيح وتنكسر رقبته.. وروحوا للشيخ صالح الرشدان واسمعوا ويش يقول!».

وبين سوق الحلال وموران تنتقل القصص والنكات والإشاعات، لكن هذه الأمور كانت تضحك الناس أكثر مما تثيرهم، وتجعل الحياة أقل قسوة وأكثر مرحاً. فإذا قصّ السلطان لحيته أو بدل هيئته، إذا تزوج أو جاءه غلام جديد، وإذا مرّ موكبه متوجهاً إلى هذه الناحية أو إلى تلك، كان صالح لسان السوق «يا جماعة الخير. . من يوم ما جاء ذاك وصار كل يوم يلبسه ويعطره ويدندشه ترى صرنا مثل بول البعير. . كل يوم لورا».

ويعرف الناس أن السلطان قصّ لحيته، أو أنه بدا بملابس جديدة، مختلفة عن السابق، فإذا سمع العجرمي يرتفع صوته: «هذا الدرويش، يعني صالح، يده مربوطة بالسماء، ودعاه مستجاب».

وينظر الناس إلى صالح وينظرون حولهم، وصالح يتزوبع يوماً بعد آخر، تصبح كلماته نذيراً بعد أن كانت تحذيراً: «الحقوا حالكم يا أهل موران، الدنيا مصبحة مَسية، إذا ما قامت القيامة اليوم تقوم ثاني يوم، وإذا ما متم موت الله تموتون موت العبد، المال ما ينفع، والدنيا فانية والبني آدم ذرة بهذا الكون وما يلزم أن يأخذه الغرور، وكل نفس ذائقة الموت، وعندها لا ينفع لا مال ولا بنون!».

في ذلك المساء، بعد أن غادر الأمراء، وهدأت ضجة السوق، وإذ تأخر شمران، خلافاً لعادته، وبعد أن وصل صالح وعرف ما حصل قال يخاطب شمران والذين حوله:

ـ من يوم ما وصلنا الأغراب، وصاروا له مثل الجفن للعين. .

وأشار إلى قصر الغدير لتأكيد من يعني، ثم تابع:

ـ تراها خاست، وباكر، إذا عشتم، تشوف عيونكم!

أما بعد أن تقرر نقل سوق الحلال من مكانه ذاك إلى العوالي، فإن الصدمة التي حلّت بشمران كانت أكبر من أن يتحملها. وصالح الذي رفض الامتثال للأمر، وظل لأسابيع لاحقة يصرّ على المجيء كل يوم إلى السوق، فيفرد أدواته ويشعل ناره، فما لبث أن اضطر إلى هجره في وقت لاحق، بعد أن هجره قبله كل من كان فيه، وبعد أن وصلت الآلات وبدأت عملها.

محبة شمران للخيل تفوق أية محبة، وتعلقه بها يفوق تعلقه بأي شيء، «لأن بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» يقول شمران أن الرسول هكذا قال، ويضيف «وإذا ضاق صدر الإنسان أو ظلمه سلطان فعلى ظهورها يغيّر أهلاً واحباباً وأوطاناً» وبعد قليل يهمس، كأنه يتآمر: «ويجي بها واحد من الأحمرين: الدم أو الذهب» ويبتسم وهو يختم كلامه: «وما يندرى يمكن يجي بها الاثنين جميع».

أما السلطان فإنه بنظر شمران ظالم حتى لو عدل «يحب الملك أكثر مما يحب الرعية، ويحب نفسه أكثر مما يحب ربه».

لم يورث شمران أبناءه الخيل، لأن ما كان عنده منها أكلته نيران العصر الجديد، ولكنه ورثهم معاداة السلطان، وقد تأكد هذا العداء وأصبح نهائياً حين أجبر على أن تشترك خيله، وكان عنده اثنان من أطيب خيول موران، في سباق الرحبة، إذ بعد أن حُمّل الحمداني والصقلاوي بسيارة ابن مهيد، شبّت النار بالسيارة وقضت على الحصانين. يقول شمران أن السلطان طلب من ابن مهيد أن يفعل ذلك، لكي لا تظهر خيل شمران ولا تفوز، وابن مهيد قال أمام الشيخ: «قضاء وقدر، يا مبارك، وأنا خسرت أكثر من العتيبي: احترقت سيارتي» لكن لم تمض شهور حتى كان لدى ابن مهيد ثلاث سيارات ولم يبق لدى شمران أي حصان، لأن الخيول الأخرى لم ينتظر أياماً لكي يبيعها لشداد المطوع «إذ بعد ما راح الغالي ما عاد شيء بالعين».

أما الإبل التي كانت لديه فالتي لم تضع خسرت بعد أن ملأت اللوريات والقلابات موران، وقلبت عاليها سافلها وليلها نهاراً، ولذلك اضطر أن يبيع الإبل لأنه لم يعد يملك ثمن طعامها، ولم يعد أحد «يسومها

مجرد سوم». باعها بسعر التراب، ونام تلك الليلة وشتيمة السلطان لا تنزل من فمه.

أمّا ما ورّثه لأبنائه الأربعة، أو ما ورثوه من أجدادهم دون أن يرغب أو يدري، فكان شيئاً عجباً: ورث نمر العلم، فهو الوحيد بين أخوته الذي تعلم القراءة والكتابة. حتى إذا اتقن كتابة رسائل المسافرين وحسابات سوق الحلال ترك المكتب، ومثلما كانت لابيه زاوية في سوق الحلال كانت له زاوية، ومثلما كان أبوه يتحدث عن أحساب الخيول وأنسابها كان نمر يتحدث عن قضايا الناس ومشاكلهم، ومثلما تغير أبوه تغير هو. أصبح لا يتحدث إلا في السياسة. كان يقرأ ويسمع ويستقصي ويتتبع، بحيث تتجمع لديه أخبار موران كلها. ويوماً بعد آخر لم يعد نمر يكتب الرسائل والعرائض فقط، أصبح يحدّث أهل موران عن كل شيء، وبين يوم وآخر أصبح الاسم الذي يعرف به: نمر الجريدة!

أما بدر فلم يمسك في حياته قلماً ولم يخط حرفاً، استعاض عن القلم بالمفك، ولا أحد يعرف كيف تعلم إصلاح الأدوات الكهربائية أو متى، خاصة الراديو. قال أبوه، ذات يوم، لما سئل عن عمل بدر:

ـ لا تتوهموا يا جماعة الخير: بدر ما تعلم إلا شيء واحد: تعلم يفسخ، وحتى السيارة يفسّخها!

فلما سألوا شمران من جديد، معتبرين كلامه مزحاً أو سخرية، تابع:

ـ واللي ما يصدق يلزمه يناظر المقبرة حدر درانا، وبعدها يصدق!

وبدر الذي بدأ هكذا، حيث «قتل» في رحلته الصعبة عشرات الأدوات الكهربائية، خاصة الراديوات، ما لبث أن تعلّم. فأية أداة كهربائية، مهما كانت جديدة ومعقدة، قادر على إصلاحها، ويجب أن لا يسأل ما هو العطل أو كيف سيصلحه «اترك الماخوذ وارجع بعد ثلاثة أو أربعة أيام» وخلال هذه الفترة، وبمعالجة صبورة، لا بد أن يصل إلى إحدى نتيجتين: «هذا ميت قبل ما يصلني وما منه فائدة» أو «دوك شوفه أحسن من قبل أم لا؟».

هكذا بدأ، أما بعد ذلك فقد أصبح اختصاصياً في أشياء نادرة: كيف

يتغلب على التشويش الذي يوجه ضد بعض الإذاعات، وكيف «يسرق» التيار الكهربائي لبيوت الفقراء. كان يفعل ذلك بلذة، ودون السؤال عن المقابل أو النتيجة.

ومثلما سُمّي نمر: نمر الجريدة، فقد أطلقت أسماء عديدة على بدر: بدر راديو: بدر موجة قصيرة، موجة طويلة، لكن ظل الاسم الذي لا يفارقه، خاصة حين يذكر شيء له علاقة بالكهرباء: ابن شمران، ولا شيء غير ذلك.

الابن الثالث لشمران: نجم.

تربى نجم بين أخواله بني مرة، ومن بني مرّة اكتسب قصّ الأثر والحذر ومعرفة الآخرين، ولأنه جاء إلى موران وعمره عشر سنين، فقد جاء كبيراً ومتكوناً. كان شديد الحذر، حتى تجاه اخوته، وأفراد أسرته. كان صامتاً مثل حجر، وعنيداً مثل جبل. حاول أبوه وحاول أخوته أن يعرفوا أي بشر هو. أو ماذا يمكن أن يكون، لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة. أما متى تعلم القراءة والكتابة، وهل تعلمها في موران أم عند أخواله، فلم يعرف أحد. فجأة اكتشفوا أنه يكتب ويقرأ، وليس مثل أخيه نمر يبحث عن الآخرين ليكتب لهم الرسائل والعرائض، كان يكتب لنفسه ويقرأ دون أن يعرف الآخرون ودون أن يحسوا. وإذا كان شمران قد فسر «جفلة» الولد أنه لم يألف جوهم لأنه عاش عند أخواله. «واتركوه على طبيعته ولازم يصير»، فقد صار وتكوّن على مزاجه، دون أن يتدخل أحد.

وفي وقت لاحق، حين جاء نجم يطلب من أبيه مالاً لأنه يريد أن يتاجر، فلما سأله أي نوع من التجارة يستهويه: الخيل أو الغنم، أو البيع والشراء في السوق، فقد فوجئ برده أيضاً:

ـ لهذي السوالف أصحابها، يوبه...

ولما نظر إليه أبوه وهو يبتسم، وكانت ابتسامته أقرب إلى الاستغراب والتساؤل، تابع:

ـ بموران كلها، يا يوبه، ما يبيع الكتب إلا البخاري وابن حزيم، ويلزم بدل مكتبة أن تكون عشر.

ـ وتبيع القراطيس يا وليدي؟

ـ أبيع الكتب.. يا يوبه!

ـ وظنك من يشري؟

ولم ينتظر جوابه:

ـ إذا ما كذبني ربي يا وليدي يجوز الوحيد اللي يشري منك أخوك، نمر، حتى يسولف الناس ويحوس موران!.

وضحك شمران بصخب حزين. فقد تعلم أن الناس يمكن أن يتاجروا بالأغنام والأرزاق، ثم تعلّم أيضاً أن هناك من يتاجر بالأرض والبناء، أما إن يتاجر الإنسان بالقراطيس فلم يتصور ذلك ولم يتوقعه. ماذا يمكن أن يكون هناك من الكتب غير القرآن وسيرة عنترة والزير؟ وحتى القرآن يوهب ولا يشترى، ويحصل ذلك مرة في العمر، وربما لا يفتح، إذ يكتفي الناس به بركة، ومن المفيد أن يكون موجوداً في البيت، أما غير ذلك فلم يتصور شيئاً أبداً.

الآن وهذا الشاب الذي لا يُعرف كيف يفكر أو ماذا يريد يطلب مساعدته، فهل يستجيب له أم يتخلى عنه؟ هل يصم أذنيه ويفقده مرة أخرى كما فقده خلال سنواته العشر الأولى؟

حاول معه، قال له أن موران بحاجة إلى الحلال والأرزاق أكثر مما هي بحاجة إلى القراطيس، وأن البخاري وابن حزيم يكفيان موران، ولا يريدان معهما أحداً. وقال له أن المصيبة بنمر وبدر تكفي، ويمكن أن يساعده في رعية أغنام أو جمال، فإذا لم يشأ فالقماش يشبه القرطاس. وموران كلها تلبس، ولا أحد في موران يقرأ. لكن نجم لم يجب، صمت. وشمران الذي كان يخاف صمت ابنه أكثر مما يخاف كلامه وافق في النهاية. باع واشترى وأمن له ما طلبه، وقد ساعده بدر أيضاً، وقامت في موران مكتبة ثالثة: مكتبة أبو ذر.

أما صالح، أصغر الأخوة، فقد تربى مع أبيه، في سوق الحلال أولاً، ثم عند شداد المطوع؛ بعد ذلك. فحين احترقت خيول أبيه، وحين هجر ما تبقى له من حلال، لم يجد غير شداد. بدأ صالح فارساً وسائساً أول

الأمر، ثم ملك ربع حصان ثم نصفه، ولأنه ليس له عالم غير هذا العالم، إذ كان يعرف كيف يركب الخيول وكيف يروضها ويسوسها، فقد اعتبره شداد مثل ابنه، حتى ظن الكثيرون، في وقت متأخر، أن صالح من آل المطوع.

قامت المكتبة قبل انتقال سوق الحلال إلى العوالي بسنة أو أكثر قليلاً، وشمران الذي أمّن لنجم ما يحتاجه من مال لكي يبدأ «تجارته» لم يسأل عن هذه التجارة، فقد كانت عادته إلا يتدخل في شؤون أولاده، لأنه يثق بهم، ولأن أحداث سوق الحلال وأخباره تشغله تماماً. أما بعد أن انتقل سوق الحلال وضاع شمرن في موران، فإن من جملة الأماكن التي زارها وقضى فيها وقتاً، كانت مكتبة أبي ذر.

لم يتصور شمران في لحظة من اللحظات أن ابنه يحسن اختيار العمل الذي يناسبه، لكنه وافق على إعطاء المال مختاراً، ومع ذلك لم يوافق على العمل. أما الآن، وهو يجلس في المكتبة، ويري ابنه في حركة دائبة، ويرى الناس يدخلون ويخرجون، يشترون أو يسألون، فقد لام نفسه أنه لم يعرف سوى الخيل، ولم يتعد سوق الحلال. قال لنفسه بنوع من الحزن «موران اللي نخبرها راحت، ماتت، وهالحين بدل موران ذيك ماية موران، وعسى أن الله يجعل خاتمتها زينة!».

ومع ذلك لم تستهوه المكتبة، ولم تستهوه الأدوات الكهربائية، حتى نمر الذي عاش معه في سوق الحلال، ويعرفه أكثر من أولاده الآخرين، يجده الآن شخصاً مختلفاً، ويجد أن همومه وعقله شيء آخر. حاول أن يتذكر كيف كان بالنسبة لأبيه وجده، وللناس الذين كانوا حوله، وجد أن كل شيء الآن يختلف عما كان من قبل. السيارات بدل الخيل والإبل، البيوت العالية الأسوار والمغلقة الأبواب بدل الخيام أو تلك البيوت الطينية التي تعتبر جزءاً مما حولها، والتي كانت أبوابها مفتوحة باستمرار. والتجارة؟ والشوارع؟ وأخلاق الناس؟ وعلاقاتهم؟ كل شيء تغير، كل ما كان يعرفه أنهار وانتهى، ولذلك فضّل أن يبقى في المقهى. هناك يمكن أن يجد بعض الذين يعرفهم، يمكن أن يتحدث معهم أو أن يستمع إليهم.

انهم يعرفونه جيداً، يعرفون كيف يتحدثون وكيف يسألون، وحتى الذين خرّبتهم موران وأفسدتهم السيارات تبقى لديهم أشياء كثيرة يمكن أن تقال، أو على الأقل يعرفون كيف يسمعون!

ومثلما حاول أن ينسى خيوله التي احترقت وأرضه التي سرقت، ثم حاول أن ينسى سوق الحلال أو ينشغل عنه، فإنه يوماً بعد آخر يحس بانفصال عن كل ما حوله، أكثر من ذلك يحس بالعداء. هذا، أو ربما غيره، جعله يظل بعيداً عن المكتبة، أو على الأقل، أن لا يقترب منها أكثر مما ينبغي، كما فعل أيضاً تجاه «المشغل الفني لكهربة السيارات والأدوات المنزلية».

في الماضي، في سوق الحلال، كان يحس أنه جزء من كل ما يحيط به، حتى الحيوانات حين كانت تمرض أو تتوجع يعرف مرضها ووجعها، يعرف ذلك من عيونها، من بخار حلوقها، كان يتحدث إليها، يسألها، وكانت تجيبه. أما الآن فإنه يستغرب كيف يستطيع بدر استلام هذه الآلات الجامدة، الميتة، وكيف يتعامل معها. كيف يمكن أن تحدثه عن أمراضها وأوجاعها وكيف يستطيع أن يعيد إليها الحياة؟ والكتب التي يبيعها نجم من يقرؤها من الناس ولماذا؟ وهل هناك بشر يحتاجون إلى مزيد من التعلم ما دامت الحياة حولهم تضج وتغلي وتتغير كل يوم، وما دام الناس لا يتوقفون لحظة واحدة حتى للحديث أو السؤال؟ قال لنفسه بنوع من الأسى: «سوق الحلال عالم، والرجال هناك تتعلم. أما من يوم ما طار السوق فكل شيء صار مثل الطحين المذرور في الريح».

لو كان في وضع نفسي أفضل، مثلما كان أيام السوق، لما تردد في السخرية من ابنه نجم «والتجارة» التي اختارها. ولقال عنه ما قاله عن بدر أو أكثر، لكنه الآن يحس بالضياع، أكثر من ذلك يرى أن كل شيء دون جدوى. صحيح أن المال أصبح أكثر من قبل، لكن دون بركة ودون معنى، قليلون هم الذين يصبحون أغنياء، يأكلون نصيبهم ونصيب غيرهم، أما الآخرون فإنهم الآن يركضون كالكلاب المطرودة، لكي تصل إلى أيديهم النقود، فما تكاد تصل حتى تتبدد وتضيع، ليس هذا فقط، أخلاق

الناس وأشكالهم تغيرت، وكأنهم ليسوا الذين يعرفهم. حتى أولاده تغيروا. قال في نفسه بلوعة «سبحان الدايم الذي لا يتحول ولا يتغير».

افتتح نجم مكتبة أبي ذر، بعد زيارة إلى القاهرة وبيروت، استغرقت ثلاثة شهور، اشترى خلالها كميات كبيرة من الكتب، جلب معه قسماً منها وجاءت الأقسام الأخرى على دفعات. توقع الكثيرون وتراهنوا أن تنتهي «تجارته» خلال السنة الأولى، وبخسارة محققة، لأن موران التي تعرف الأكل والبناء والذهب لم تتعلم القراءة بعد، فإذا كان البخاري يعيش على المصاحف الكبيرة والصغيرة، وعلى ألف ليلة وليلة والزير سالم وعنترة، فإن ابن حزيم لا يقترب من المصاحف، عدا جزئي عم وتبارك، إضافة إلى القرطاسية وما تحتاجه المدارس، أما أن تكون في موران مكتبة أبي ذر، فإن أي مجنون، غير ابن شمران، لا يفكر بذلك.

ولأن موران لا تتوقف لكي تفكر، ولأن الناس لا يعرفون شيئاً أكثر من أن يقلد الواحد الآخر، فلم تشغل المكتبة أحداً ولم تغره، ولذلك ما لبثت أن نسيت، ونسي الناس أيضاً الخسارة التي توقعوها لها.

لكن موران أخرى كانت تتكوّن دون أن يحس بها أحد، وهذه الموران هي التي جعلت المكتبة تستمر وتتسع، وجعلت نجم يستعين بشريك آخر، ثم يسافر مرة أو مرتين كل سنة لشراء كميات كبيرة وجديدة من الكتب.

ومثلما استقبلت موران عشرات الآلاف من البشر من أماكن وأشكال مختلفة، وقدرت على استيعابهم وتوفير الحياة لهم، كذلك كانت قادرة على أن تستقبل وتستوعب آلاف الكتب كل سنة، تولت مكتبة أبي ذر بيعها وتوزيعها.

أكثر من ذلك فتح اثنان من أهل موران مكتبة جديدة قرب مسجد السلطان خزعل، كانت أكبر من المكتبات الأخرى، وأكثرها تنويعاً، سمياها مكتبة الأنصاف. وإذا كان البخاري وابن حزيم قد شتما وارتفعت أصواتهما في السوق، فإن نجم وجد في مكتبة الأنصاف سنداً.

كان نجم يقرأ قدر ما يبيع أو ربما أكثر؛ كان يقرأ معظم ساعات الليل، وفي النهار يقرأ خلال الفترة التي تفصل بين الانتهاء من زبون

واستقبال زبون جديد، وهذه العادة التي بدأت منذ وقت مبكر، هي التي دفعته لاختيار هذا العمل دون غيره. ومن خلال الكتب والأسفار أصبح شخصاً مختلفاً عما كان أو عما عرفه الآخرون. لقد حصل هذا ببطء وصمت معاً بحيث لم يلفت نظر أحد، حتى هو لم يفطن للشخص الذي أصبحه. وإذا كان نفوراً جفولاً منذ صغره، حتى من اخوته، فقد بدأ يتغير، أخذ يتحدث عن الكتب التي يبيعها، كما لو أنه يتحدث عن أصدقاء: من كتبها، في أية فترة، ماذا قالت وماذا قال عنها الآخرون. وهذه الطريقة في التعامل، في البيع، حببته إلى الكثيرين وكونت له صلات واسعة. حتى أخوه نمر الذي كان يعتبر نفسه عالماً بكل شيء، ويواظب على قراءة الجريدة كل يوم، ولا ينام إلا بعد أن يستمع إلى عدة نشرات أخبار، استغرب أن أخاه يعرف بهذا المقدار، وأن عالم الكتب يفوق كثيراً ما افترضه وما تصوره، ولذلك أصبح يقضي جزءاً من وقته في المكتبة، وكان لا يتردد في أن يساعد بعض الأحيان.

ولولا الثأر الذي يملأ عقل نمر ضد مطيع، وإحساسه أن قوة خفية تشده إلى ذلك الكرسي قرب دائرة الجوازات، يرقب من هناك القصر وبشر القصر، ويكتب العرائض بشكل معين، لولا الثأر والقوة الخفية لما تردد في أن ينتقل إلى المكتبة، وأن يقضي وقته يقرأ، حتى إذا دخل التحدي مع «اللقامين» يعني مطيع وأمثاله، استطاع أن يسحقهم، أن يتفوق عليهم، لكنه صرف النظر عن فكرة تغيير عمله. علماً بأن هذا كثيراً ما كان يجري في موران ـ وإن ظل على علاقة تقوى وتتعمق مع نجم ـ ومع الكتب التي يقترحها عليه.

لما بلغ شمران أن نمر يقضي جزءاً من وقته في المكتبة، ولاحظ في البيت كيف أصبح الأخوان متلازمين، يقرآن أو يتناقشان، قال بسخرية وهو يهز رأسه:

ـ مقرود على مفرود.. والله يستر!

لـو تركوا لشمران خيوله، لرأوه يوماً ولم يروه في اليوم التالي. ولو تركوا له أرضه لعرفوا كيف يتفاهمون معه، أو على الأقل أن يتجنبوا كلامه. أما عندما «رفعوا» سوق الحلال إلى العوالي، بحيث«لا يمكن أن يصله إلا مجنون أو واحد باله من الهم خالي»، كما يقول شمران، فقد دفعوه بالقوة لأن يشتم وأن يقول ما لا يقال. كان في أحيان كثيرة لا يتردد في أن يقول أي شيء، لم يكن يكتفي بالكلمات، إذ إضافة لها يستعمل يديه، وكثيراً ما كانت تلك الإشارات أبلغ دلالة وتعبيراً من الكلمات.

حماد الذي يعرف شمران، وكانا في يوم من الأيام أصدقاء، حين تصله التقارير أو يأتي من يقول له أن شمران لا يفعل شيئاً سوى شتم الحكومة، وأنه يقول عنها «فلاني وتركاني»، ولا يوفر حتى السلطان، كان يهز رأسه بحزن، ثم يطوي التقارير، أو يقول للذين يحملون الشتائم:

ـ يجوز لشمران ما لا يجوز لأحد: حرقوا خيله، أخذوا أرضه. ومن عند قبر أبوه رحلوه، فخلوه يقول كلمة والثانية، وباكر أو اللي عقبه يتعب ويسكت.

لم يتعب شمران، لكنه غرق في موران الجديدة التي لم يعرفها من قبل. أخذته الحركة السريعة والتغير الكبير. كان ينبهر ويتساءل، ثم يصمت بانتظار شيء ما، أو تبلغ به الحدة درجة لا يقوى معها على السكوت. وهو بين الانتظار والصخب، أو بين المراقبة والانبهار لا يعرف كيف تمر الحياة أو كيف تسير. وإذا كان همه في وقت من الأوقات أن يفكر بالمعيشة، فقد تكفل الأولاد عنه بهذا الواجب، خاصة بدر، الذي أصبح بين يوم وآخر، وكما يقول أبوه «يلعب بالفلوس لعب».

كانت موران في الأيام السابقة بحاجة إلى شمران. كان الناس يلتفون حوله التفاف السوار على المعصم، وكانت المشاكل في موران تتطلب رأيه ومشاركته. الآن، وقد رحلوا سوق الحلال إلى العوالي، ولم يعد الناس يهتمون بالخيل والإبل، ولم تعد الرعايا تعبر هذه الصحراء كلها لتصل إلى موران، وإنما يأتيها اللحم المذبوح من أقاصي الدنيا، وحلّت السيارات محل الأباعر، فقد أحس بالهرم والتعب قبل أن يهرم وقبل أن يتعب، ولذلك اكتفى بقهوة زيدان في شارع القاضي. كان يقضي نهاره هناك، يستمع إلى الناس أكثر مما يستمع إليه الناس. كان يرى وجوهاً لم يرها من قبل، ويسمع كلاماً لم يسمعه من قبل. السيارات: أنواعها، أسعارها، كم تحمل وكم هي سرعتها. ويسمع أيضاً عن قطع الغيار والكفرات، ولا يعرف هل يسأل، هل يشارك أم يبقى مستمعاً؟ حتى هؤلاء البدو الذين كان يعرف بعضهم في سوق الحلال تغيروا الآن. أين إبلهم وأغنامهم ولماذا أصبحوا هكذا؟ وإذا كانوا بهذا الشكل الآن فكيف سيكونون غداً؟

بعد تفكير طويل وهمّ وانتظار أراد شمران أن يمتحن نفسه: السيارات التي تقف قرب كراج السبيعي، هل يستطيع، بعد أن سمع الكثير وراقب وحفظ الأسماء التي يرددها الناس حوله، هل يستطيع أن يميز أنواعها وأن يعرفها؟

هكذا سأل نفسه، ليس من أجل أن يختبر معلوماته، وإنما ليرد على كلام ابنه بدر الذي قال له قبل ليالٍ أنه مستعد أن يشتري سيارة إذا كان هناك من يرافقها في أسفارها «لأننا إذا اعتمدنا على السائق يأكلنا ويأكلها». وكان يقصده هو. ذهب شمران إلى كراج السبيعي. دار حول السيارات، نظر إليها بإمعان، نظر إلى مقدماتها بشكل خاص، كما كانوا دائماً يفعلون. نظر إلى إطاراتها، وإلى صناديقها أيضاً في محاولة لأن يقدر نوعها وحمولتها، ورجع إلى مقهى زيدان وهو يؤنب نفسه: «حسافا. . . يا أبو نمر، أنت اللي كنت تميز الناقة اللي جابت بطن من اللي جابت بطنين من نظرة، وتعرف الفلو من هي أمه، والفرس من هو حصانها، وتعرف وين شبّرت وين ربّعت ومتى تشبت، تضّم عليك هذي الحدايد كأنها الصخر؟»

ولم يبذل جهداً أو محاولة بعد ذلك لأن يلعب هذه اللعبة.

أما الحسرة التي أكلت قلبه حين استولى الحكيم على أرضه، وكادت تقتله، فقد حاول أن ينساها بعد أن سمع الكثير عن الأراضي التي تم «شراؤها» لحساب الأمراء أو لحساب الحكيم، لم تبق قطعة أرض في موران أو حواليها إلا بيعت واشتريت عدة مرات، وفي كل مرة يتضاعف سعرها قياساً للمرة التي سبقتها، بحيث أصبح مجرد ذكر الأرقام يولد الدوار في رأس شمران، ومع ذلك كان يسمع من يقول في مقهى زيدان: «تجارة.. ودائماً التجارة فيها ربح وفيها خسارة» أما لماذا لم يكن الأمر هكذا من قبل، وهو الذي تربى وعاش في السوق، ويعرف كيف يتم البيع والشراء، ويعرف الحيل التي يلجأ إليها عادة الذين يبيعون والذين يشترون، فإن ما يراه الآن أقرب إلى السر، وما يسمعه ليس له علاقة بالبيع أو التجارة، أنه شيء آخر تماماً، لا يجد له اسماً أو تفسيراً.

ومثلما كان سوق الحلال ملجأ وحصناً لشمران، فيه يلتقي مع الذين يريد ولا يريد، ولم تكن من عادته أن يزور أحداً في بيته، عدا شداد المطوع، حيث يلذ له أن يقضي وإياه معاً، وحولهما الخيول، ساعات طويلة ممتعة، أقرب إلى النشوة، يتحدثان ويستعرضان هذه المخلوقات الرائعة التي «ظهورها حرز وبطونها كنز» كما يحب شمران أن يقول، وهو يربت على كفل فرس أو حصان، كانت هذه الزيارات قبل الرحيبة، أما بعد ذلك، إذا أراد شداد أن يراه، أو أن يسمع رأيه، فكان يأتيه إلى السوق، مثل كل الآخرين، رغم أن شداد كان كثير الخوف على خيوله، يخاف أن تجفل أو أن تؤذى، ويخاف أكثر من ذلك من عيون الآخرين!

بعد أن رفع السوق من مكانه، وهجر شمران سوق العوالي، فلم يزره إلا كما يزور قبراً، واستقر في مقهى زيدان، كان كل من يريده يأتيه إلى هناك، وقد فعل شداد ذلك عدة مرات. أما محاولاته في أن يحمله على أن يعاود زيارته إلى بيته، مرة أخرى، «لأن الزرقا خلّفت»، أو «لأنه جاءتني خيول ما تثمن وما مثلها في العالمين» أو «الحمداني المحجل اللي تخبره يا أبو نمر يريده القصر، ولازم تثمنه» رغم هذه المحاولات فقد كان

شمران في رفضه صلباً عنيداً، بحيث اضطر شداد إلى الرضوخ والموافقة!

وبقدر ما كان مقهى زيدان قريباً من المكان الذي كان فيه سوق الحلال، كان بعيداً عن قصر الروض ثم عن قصر الغدير، لأن شمران يعتبر أن «العوج من الثور الكبير» ولذلك لا يريد أن يرى السلطان أو أن يسمع أخباره، وكأنه بهذه الطريقة من التجاهل يعبّر عن احتقاره، أو يريد أن يعاقبه، فهو السبب في هذا البلاء الذي حل بموران!

في الطرف الآخر، غير بعيد عن قصر الغدير، قرب دائرة الجوازات، اتخذ نمر مكاناً له: يكتب العرائض والرسائل ويتابع معاملات السفر، ويرقب أيضاً القصر: من جاء إليه ومن خرج منه، وماذا فعل هناك، بعد أن يكون قد قرأ الجريدة «من ألفها إلى يائها»، وبعد أن يكون قد استمع إلى عدة نشرات أخبار في الليلة الفائتة وصباح ذلك اليوم.

كان نمر يسمع عن موران من الإذاعات أكثر مما يقرأ عنها في الجرائد، «والإذاعات هناك والجرائد هنا.. يا عباد الله» ومع ذلك لم يكن يصعب عليه استنتاج السبب، أما إذا مرت سيارة مطيع متجهة إلى القصر، وهو فيها «لأَبِذ مثل الأرنب»، في المقعد الخلفي، لا تبين منه سوى نظارتيه، فكان يقول بصوت مسموع، وهو يضرب الجريدة على الطاولة التي أمامه:

ـ الله... الله من هالزمان، صارت العنز الجربا تسرح بالغنم!

فإذا نظر إليه من يسمعه بتساؤل يتابع بلهجة جديدة متآمرة:

ـ هذا اللي فات هالحين شيخ الكذابين، ما له شغلة إلا يكذب وينفخ بذاك!

وبعصبية يشير إلى الجريدة وإلى سيارة مطيع قبل أن تنعطف ناحية اليمين لتدخل إلى القصر من باب جانبي، ولا بد عندئذٍ أن تكون العريضة التي يكتبها، والموجهة غالباً إلى القصر، عن طريق مكتب الشكاوى، شديدة اللهجة والجفاف، ليعبر عن احتجاجه واحتقاره.

فإذا انتهى الدوام الرسمي، واستراح نمر وانكسرت حدة الشمس، بدأ جولته في موران: يذرعها من أقصاها إلى أقصاها، يقول للناس أي شيء

حصل: من رأى وماذا رأى وماذا سمع. كان يعرف كيف يقول الأشياء ولمن يقولها. ولا بد أن تنتهي جولته في مقهى زيدان، حيث يكون أبوه صافناً متأملاً، أو غارقاً في الاستماع للذين حوله يتحدثون عن السيارات التي وصلت إلى موران ذلك اليوم، ماذا تحمل ولمن. وخلال دقائق ينثر نمر أخباره في المقهى، ويترك على وجوه سامعيه وفي قلوبهم خوفاً وتساؤلات، حتى إذا انتهت مهمته اصطحب أباه وعادا.

من أكثر الأمور مدعاة للحيرة والعجب أن نمر يملك من الأخبار كمية هائلة، أكثر مما يملكه أي إنسان آخر. حتى الأخبار التي تبدو غير قابلة للتصديق لأول وهلة، لما توحي به من مبالغة وتضخيم، كانت تأتي الوقائع، في وقت من الأوقات، لتؤكد صحة ما قاله. فإذا جاء ذكر الحكيم أو مطيع فعندئذٍ لا يملك شمران نفسه من التعليق، وغالباً ما يكون تعليقاً ساخراً أقرب إلى الشتيمة. أما إذا وجد الأربعة، بمن فيهم ابن الرشدان وعبيد الطويل، فلا بد أن تكون ليلة من الليالي التي تنتقل أخبارها بسرعة، وتصل في أحيان كثيرة إلى حماد. فنمر الذي يبدأ صامتاً، وكأنه غير راغب في الحديث، ويتطلع حواليه بنظرات حذرة ليختبر المكان والبشر، وليقدّر كيف يبدأ أو ماذا يقول، ما يلبث أن يقع تحت وطأة الأسئلة والاستفزاز: «موران اليوم مثل مقبرة، لا من باع ولا من شرى» «السلطان عرّس» «السلطان خلف» «المالطي شرى مقبرة حران وباكر يشري مقبرة موران». عند هذا لا بد أن يتصدى نمر أو أبوه لهذا الهدر الذي يجري حولهما، فإذا تكلم شمران أخذ الحديث نسقاً معيّناً لا يلبث أن يصبح ساخراً، لأن ابن الرشدان يجب أن يشارك، وعادة ما يشارك بتعليق أو بشتيمة، أما إذا تكلم نمر فقد تعود أن يفعل كما تفعل الإذاعات:

ـ إليكم أولاً، يا جماعة الخير، الأخبار. أخبار موران اليوم أن طويل العمر يفكر بعرس جديد، وربما في غضون أيام. المالطي باع القاع غرب المسجد للأمير ميزر، وتشارك معه بقاع جديدة غرب وادي الرها.

ويزفر ويهز رأسه بأسى ثم يقول:

ـ أما التعليق، يا جماعة الخير، فكل واحد منكم عنده عقل وعنده

فكر؛ من يوم ما سرح الذيب بالغنم طاحت الدنيا وخربت!

ويخرج من جيبه الداخلي الجريدة، لا يهم أن تكون جريدة اليوم، أو أي يوم آخر، المهم أن يُري الذين حوله صورة مطيع، هذا هو عدوه الأساسي، وهي صورة لفرط ما تكررت تبدو وكأنها الصورة ذاتها: مطيع يقف إلى جانب السلطان في أحد الاحتفالات أو الاستقبالات ودائماً يداه مكتفتان إلى صدره بذل، وعيناه تتطلعان إلى السلطان بإعجاب. يشير نمر إلى الصورة ويقول:

ـ هذا هو مسيلمة الكذاب، يكذب مثل ما يشرب الماء، مثل ما يتنفس، لكن الحقيقة كالشمس، والشمس ما يحجبها غربال.

هذا النوع من الأخبار والتعليقات لا يروق لشمران، فقد علمته التجارب أن لا يثق بكلام الجرائد، «لأن هذي القراطيس، وكل ما مكتوب فيها، ما تهز شعرة ولا تشيل بعرة» ولا بدّ أن يدفع الحديث باتجاه آخر، على الأقل نحو الحكيم:

ـ يا جماعة.. تذكرون موران قبل ما يصلها ذاك المبقع وأمثاله، كانت بألف خير، لكن من يوم ما وصلها سفت وانحدرت، والله يستر من الجايات.

ولأن كلام شمران لا يزال غامضاً ولا يعرف الذين حوله عمن يتحدث، فلا بد أن يتدخل صالح:

ـ لا مبقع ولا سالح على روحه، يا أبو نمر، قولها وخلصنا.

ـ وتحسبني أخاف؟

ـ ما يندرى!

ويغمز صالح الرشدان بعينه لمن حوله أنه استفزّ شمران، ولا ينتظر شمران:

ـ اسمع يا ابن الرشدان، وخلِ غيرك يسمع، ذاك، اللي بالك فيه، أنت تعرفه وأنا أعرفه، مسكين، على باب الله، إذا أمست يطيح بحريمة وبعدها يشخر، أما ذاك اللي عالق فانوسه وللصبح ما ينام وفكره كله منين يجيبها ومنين يحوفها فذاك غريمي.. اليوم.

ـ المسيكين اللي تقول عليه يا أبو نمر..

يقول أحد الذين يستمعون ذلك، ليزيد النار اشتعالاً، فيتدخل صالح:

- والله ما أحد مسكين إلا جِنّا. . أما الجماعة هناك فأكلوا التمرة والنواة، وما خلوا لغيرهم شي.

- إذا تحكي على الفلوس يا ابن الحلال فاللي تقوله صدق، لكن المسألة أكبر وأكبر. . .

ويسحب شمران نفساً عميقاً حزيناً، وهو يقول هذه الكلمات، ثم يتابع:

- أبوه كسر رقاب العباد. سوّى اللي ما يتسوى. قلنا ثار؛ أما هو، إلّي قال: يجي يوم يا أبو نمر ما يصير إلا ما يرضى الناس. . وخدها من هالشارب. قلت له خير يا مبارك، لكن اللي صار، ما تشوفه عيونكم!

ويزفر مرة أخرى:

- مثل ما قلت لكم: المبقّع راس الحية، ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: حط الحصان بين الحمير يتعلم النهيق.

- ما ظل خيل يا أبو نمر!

هكذا يرد صالح الرشدان، فيضحك شمران من أعماقه ويرد:

- والله هذا هو الصحيح يا ابن الرشدان: الخيل كلها صارت كدشْ.

ويتدخل نمر ويتدخل آخرون، في محاولة لأن يوجهوا الحديث وجهة أخرى، لكن شمران مصر على أن الحكيم هو رأس البلاء، وأن السلطان أداة بيده، وهو الذي يسيّره، فإذا ضرب، أو أبعد، لا بد أن يخاف السلطان ويتراجع، ولا بد أن تصبح الأمور أفضل من قبل.

هكذا كانت تجري الأحاديث والمناقشات في مقهى زيدان، لكن تعرض صالح الرشدان للضرب أكثر من مرة، وزرع بعض المخبرين في المقهى، وبشكل ظاهر تماماً، جعل شمران يأتي يوماً ويغيب أياماً. ولم يعد نمر يهتم إذا مرّ ذلك اليوم أو لم يمر، كان يقول إذا سئل:

- موران كلها قهوة، والواحد يشرب بفلوسه، في هذا المكان أو ذاك، وزيدان ما هو عايش عليّ!

هل يمكن لمدينة أن تعادي إنساناً مثلما فعلت موران مع صالح الرشدان؟ وهل يوجد إنسان، غير صالح الرشدان، قادر على أن يوزع هذا المقدار الهائل من الشتائم.. على مدينة بأسرها في محاولة للانتقام؟

إذ ما كاد سوق الحلال ينتقل إلى العوالي حتى ضاع صالح الرشدان، لم ينتقل إلى هناك «لأن ولا أي ابن كلب صاحب حمار يصله» ولم تستطع موران أن تستوعبه أو أن تؤمن له العمل، رغم أنها كانت تستقبل كل عام عشرات الآلاف يأتون إليها من كل مكان.

ولأنه «تورط» فتزوج متأخراً، فقد كان عمر أكبر أولاده اثنتي عشرة سنة، وكان هذا الصغير يرافقه في تجواله، حاملاً جزءاً من معدات العمل، أما الخمسة الآخرون، من أولاد وبنات، فكان يتركهم في البيت.

صالح يذرع موران كلها، بحثاً «عن ابن حرام يريد يحذي جحشه» فيعثر على واحد أو لا يعثر، لأن أصحاب الحمير أصبحوا أقل من السابق، أو لأنهم لم يعودوا يحفلون حذيت حميرهم أو لم تحذ، لأنها «لم تعد تجيب فلوس أكلها» بعد أن كثرت السيارات والقلابات، وحلت محل الدواب في النقل. أما أصحاب الخيول الذين لم يعترفوا بصالح الرشدان، من قبل، فقد أصبحوا أشد إنكاراً له في المرحلة الجديدة، إذ ما يكادون يرونه يحوم حول اسطبلاتهم حتى يبعثوا من يطرده، وكأنه مرض يخافون على خيولهم منه. لقد حصل هذا مرات عديدة، وكأنهم اتفقوا فيما بينهم على ذلك.

ظل هكذا شهوراً طويلة، وشهراً بعد آخر يزداد الحصار حوله وتزداد

صعوبة الحياة بالنسبة له. انه منذ أربعين سنة لا يمارس إلا هذه المهنة ولا يعرف غيرها. لقد حذا حمير موران من المهد إلى اللحد، وحذا عدداً من الخيول والبغال أيضاً. كانوا في السابق يتزاحمون حوله، ينتظرون ساعات وساعات، وكانوا يكيلون له المديح ويستعملون الكلمات الكبيرة لاسترضائه. الآن، لا أحد ينظر إليه، لا أحد يطلب منه شيئاً. أما إذا تحدثوا فلكي يسخروا: «هالقلاب، يا صالح يبي حذوة.. فاضي اليوم أو نجيك غير يوم؟» «هالفرس ينراد لها قص أظفر وحذو يا صالح، لكن بشرط: الصغيرة اللي وراها على البيعة ويش قولك». ويشيرون إلى سيارة كبيرة وخلفها سيارة صغيرة. وصالح لا يوفرهم، لا يوفر أحداً منهم: «والله يا أهل موران حميركم أحسن منكم؛ ويوم ما كان عندكم غير الحمير كنتم بشر وأوادم، أما هالحين فأنتم زق». ويقول «حذي الحمير من رجليها، أما الحمير اللي أشوفها هالحين فينراد لها حذي من روسها». ويضحكون بصخب لكلمات صالح ثم لا يلبثون أن يشغلوا سياراتهم ويمشون تاركينه وحده.

حين كانوا يقولون له فيما مضى أن القصر يطلبه لكي يحذي الخيول هناك كان يرد أن «القصر ما هو أحسن من الناس الواقفين، فإذا كان عنده أي شيء يطرّشه ونشوف» أما الآن فقد اقتنع أن يقدّم معروضاً إلى القصر لكي يتولى هذه المهمة، ويمكن أن يوافق على راتب مقطوع، وأكد له الكثيرون أن ذلك حل معقول. ونمر الذي وافق مضطراً على كتابة هذا المعروض، وكان متأكداً أيضاً أن لا أحد سيقرؤه أو يجيب عنه، كتبه بروح ساخرة تقطر احتقاراً: «عظمة السلطان وولي أمر العباد. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أنا صالح الرشدان، من موران أباً عن جد، بعدما صدر أمر جلالتكم بنقل سوق الحلال من مكانه تدردبت المصايب فوق رؤوس الخلق وأنا واحد منهم، قلّت الأشغال وانسدت الأبواب، ومعلوم لكم أني أقوم بحذو الخيل منذ أربعين عاماً، لكن وصول السيارات قلّلت الأرزاق، فأطلب منك التعيين في القصر، وبمسؤولية الخيل، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُه. مراجعتي في قهوة زيدان».

وقضى أياماً وأسابيع في مقهى زيدان لا يفارقه، على أمل أن يبعث القصر بطلبه، لكن شيئاً مثل هذا لم يحدث. وخلال هذه الفترة، ولما عرف بعض الخبثاء أن صالح ينتظر استدعاء من القصر، وأن لديه هناك مهمات خطيرة، أصبح سخرية أكثر من أية فترة سابقة: أي داخل للمقهى، خاصة إذا كان شخصاً جديداً، يترافق مع الكثير من الهمس والتعليقات، «أبشر يا صالح: الخير جاء» «الرجال اللي جاء هالحين يسأل عن صالح، قلنا له خير، قال خير، بس الكلام من راسي لراسه، قلنا له هالحين ما هو بموجود، لكن يجي، تبي نعلّمه أو قبلها نروزه، خاف يكون عند سالفة ثانية» وصالح يراقب، يتابع، ينتظر، لكن دون جدوى.

قال لشمران ذات يوم، وكان لا ينظر إليه، لأن عينيه مركزتان على باب المقهى:

ـ وشنهو شورك، يا أبو نمر ما دام القصر مثل المقبرة: لا علم ولا خبر؟

ـ هيل عليه التراب واسلح فوقه.

ـ يعني ما منه نتيجة؟

ـ لا حياة لمن تنادي، والأحسن دوّر لك سالفة ثانية.

ـ وطويل العمر ينسى صالح الرشدان؟

ـ نسى الجميع يا شيخ.

وضحك شمران بحزن وتابع:

ـ ومن هو صالح الرشدان لطويل العمر؟

ـ ومن هو طويل العمر بليّانا؟ ويش يسوى إذا حنا رحلنا أو كنا غير موجودين؟

ـ يا صالح، يا ابن الحلال، مثل ما قلت لك سالفة القصر شيلها من راسك، هذه السالفة ما توكل خبز.

ـ لكن مثل ما تشوف عينك يا أبو نمر: الجماعة اللي حول القصر واقعين بالرز واللحم، يأكلون ويتسوّكون!

ونفض صالح الرشدان يده من السلطان، مؤقتاً، على الأقل، وبدأ جولاته في موران من جديد، ولم يتردد في الذهاب إلى العوالي أو إلى القرى المحيطة بموران، لكن لم تكن النتيجة أفضل «حتى البدو المساخيط تركوا البل والخيل، وصار دينهم ومعبودهم البك آب والوانيت.. لكن بسيطة، يجي يوم ونشوف».

ولم يقتصر حقده على البشر بل امتد إلى السيارات أيضاً، فما يكاد يمر بسيارة متوقفة، وليس عندها أحد، حتى يفعل شيئاً للتعبير عن احتقاره، إذا لم يستطع أن يبول، يطلب من ابنه أن يفعل «حيل يا وليدي، اللي تقدر عليه»، فإذا لم يستطع أي منهما، فلا بد أن يجمع في حلقه بصقة كبيرة: «تفو عليك وعلى يومك» ولم يتردد أيضاً في أن «يزرع» أعداداً كبيرة من المسامير والزجاج المكسور في شوارع معينة. كان يختار الأماكن التي يعتبرها أكثر ملاءمة من غيرها، خاصة الطريق المؤدي إلى قصر الغدير! لكن هذه المهمة كلفته الكثير: ضربه أصحاب السيارات، بدأوا «يمازحونه» بسياراتهم، ولم يترددوا في إبلاغ الشرطة، والشرطة تولت تأديبه.

ويزداد الحصار حوله، ويحاول شمران أن يساعده، ليس فقط في أن يمده بالمال بين فترة وأخرى، وإنما في أن يؤمن له عملاً بعد آخر. طلب من بدر أن «يدبره» أول الأمر، وبدر الذي وافق لم يعرف كيف يستخدمه أو كيف يستفيد منه، قال له «اجلس يا عم صالح، اشرب قهوة وسولف، فإذا احتجت إلى شيء من السوق، بدل ما أروح أنا أنت تروح» وصالح الذي وافق لم يلبث أن خلق مجموعة من المشاكل، خاصة لأصحاب السيارات الذين يأتون من أجل إصلاح كهرباء سياراتهم، مما اضطر بدر إلى صرفه، بعد أن تحمله بضعة شهور.

ووجد له شمران عملاً في كراج السبيعي، صديقه القديم، لكن لم تمض بضعة أيام على عمله، كحارس في الكراج، حتى تسبّب بعدد من الخلافات بين أصحاب السيارات والكراج، فصرف من العمل بعد أن ضرب.

وتكرر العمل والبطالة. وصالح الرشدان حائر ضائع، ينتقل من عمل إلى آخر، لكن لم تكن نهاية أي عمل أفضل من نهاية الذي سبقه، بحيث لم يستطع شمران أن يستمر أو أن يفعل أكثر من ذلك، قال له بعد أن تعب من مشاكله:

- والنعم، يا صالح، أهلك سموك صالح وما هم غلطانين، وهالحين إذا ما تنصلح وتصير مثل الأوادم دوّر على غيري وخليه يتعب بك.

- ما أظن أحد تعبان مثلي يا أبو نمر.

- تعبان وما تخلي أحد يستريح.

- وهم تاركيني استريح؟

- صرت تدور على الشر يا صالح والناس صدورها ضيقة، إذا حملت يوم ما تحمل الثاني.

- صرت مثلهم يا أبو نمر؟

- الله يهديك يا صالح، لأن صدري ضاق وروحي رفرفت.

وهكذا انقطعت العلاقة بين شمران وصالح، بعد أن استمرت سنين وسنين، لكن رغم القطيعة بين الرجلين فإن كل واحد منهما لا ينسى الآخر، ولا يغفل عنه. فشمران الذي لم يستطع أن يفعل أكثر مما فعله من أجل صالح كلف ابنه نمر وكلّف عبيد الطويل أن يتفقداه بين فترة وأخرى وأن يساعداه.

وكلما ظن الناس أن نوعاً من السلام خيم أخيراً، وأن صالح توقف عن شتائمه، أو وجد ما يشغل به نفسه، يرتد نحوهم كالزوبعة، إلى مقهى زيدان، إلى المسجد، أو يقف في منتصف السوق: «قولوا اللي تقولوه عليّ يا أهل موران، قولوا عاقل، قولوا مجنون، ما اشتري كلامكم بنواة، لكن أريدكم تعلّموني، بأي دين وبأي شرع ناس تبني العلالي والقصور وتلعب بالفلوس لعب، وما يندرى منين جات هذه الفلوس، وناس ما تلقي كسرة خبز؟ وذاك راعي الملة والدين، ليش صاكّ بابه، لا يسمع ولا يجيب، وكأنه من أهل الكهف؟» يتوقف قليلاً يتطلع بامعان إلى الوجوه التي تتابعه، يهز رأسه بحزن ويقلب يديه بحيرة «قبل كم سنة كنا بألف

خير، لكن من يوم ما جاءت هذي البلايا، وعنطز كل واحد منكم بقلاّب أو بيك آب، وبعد ما كنتم تحبون الأكتاف واللحى وتقولون نضحك على صالح، وصالح يفك ويدق، وما راح يوم وجاء الثاني حتى صرتم مثل ذاك الصاك بابه» فإذا سمع كلمات المديح تكال إليه من جديد، أو من يقول له أبشر، ولا بد أن ينال المساعدة، يصرخ مثل جريح «تخسُون أنتم وفلوسكم، ما أبيها، أبي اشتغل، أبي ادقدق»، ويجد عملاً، أو يجدون له عملاً، لكن مثل كل المرات السابقة، ما تكاد أيام تمر أو على الأكثر بضعة أسابيع حتى يقع الخلاف وتدب المنازعات.

قال له عبيد الطويل بنفاد صبر.

ـ يا صالح، يا ابن الأوادم، السالفة اللي براسك شيلها، وموران اللي تخبرها راحت، ماتت، هالحين حنا بموران ثانية، فاترك الخيل وحذو الخيل ودوّر على شغلة ثانية، وإلا مت من الجوع.

وأوضح له أن أمامه أحد خيارين: أن يفعل مثله، حيث انتقل من دلالة الغنم والأباعر إلى التوسط في عمليات بيع وشراء البيوت والأراضي، وأن الشغلة الجديدة، بالإضافة إلى أرباحها الكبيرة، فإنها سهلة ويمكن أن يتعلّمها في بضعة أيام. أما الخيار الثاني فان يفعل مثل شمران، أن يجلس في مقهى زيدان أو أي مقهى آخر، ويصمت أو يتعلم الصمت، «لأن الناس كلها صارت عينها عليه حمرا، وإذا سكتوا اليوم ما ينعرف ويش يصير عقبه» وفي محاولة إقناعه بأحد هذين الحلين أبدى استعداده أن يساعده في تأمين عمل «وهذه المرة آخر مرة يا صالح» فإذا أحب أن يفعل مثل شمران، فإن بدر أبدى استعداده أن يستخدم ابنه، وأن المبلغ الذي سيتقاضاه «مع قرش من هنا وقرش من هنا يكفي، المهم أن تخلصنا من الطلايب يا صالح، وهذا ما هو رأي بس، رأي أبو نمر، ورأي الناس كلهم، وإلا هذا حدنا وياك».

وإذا كان لكل قرية ولكل مكان ذاكرة وقلب، فإن المدن الكبيرة، خاصة التي تتكون وتتغير بسرعة، تفقد ذاكرتها وتتعلم القسوة باتقان، ولذلك فإذا كانت موران قد عرفت صالح فيما مضى من أيام، وأحبت

شتائمه وطريقته في التعامل، فإنها ما لبثت أن تجاهلته ثم نسيته. حتى عندما مات له طفل ابن عامين لم يجد أحداً يساعده أو يمشي معه. كان وهو يحمل الصغير ملفوفاً بثيابه، في طريقه إلى المقبرة، يثير السخرية أكثر مما يثير الشفقة «يا جماعة.. صالح سارق له سرقة، ومثل الحرامي يهرول ولا بد ينكفي على وجهه وتبين سرقته» «هالركضة ما هي لله يا صالح لازم وراك سالفة» ولا يرفع وجهه، لا يسمع، ويمسك بجثة الصغير بحقد أكبر، وكأنه يريد أن يستمد منها مزيداً من الصلابة والقوة.

ويحاول أن يتعلم الصمت لكن الصمت لا يواتيه ولا يأتيه، ولأن أحداً لا يسمع إليه ولا يلتفت لما يقوله، فقد بدأ يكلم نفسه. بدأ أول الأمر يفكر بما يجب أن يقوله إذا رأى السلطان في يوم من الأيام، كيف يبدأ وكيف يدفع الحديث بالاتجاه الذي يريد، ولكي لا يخطئ ولا يتردد أخذ يطلق على الأشياء التي أمامه أسماء بشر يعرفهم أو يريد أن يتحدث إليهم، ينظر إلى الباب أو إلى الجدار ويبدأ «يا طويل العمر، والأعمار بيد الله، هذه الدنيا فانية ولو دامت لأحد ما وصلت لكم؛ أنا يا طويل العمر تعرفني، أو على الأقل سمعت سالفتي، أنا صالح الرشدان، موران كلها تعرفني، وإذا سألت تلقى الجواب. بسوق الحلال عشت عمري كله، ما وصلت دابة من ثلاثين.. أربعين سنة، إلا ومرت تحت يد صالح، ومثل ما شمران كان وتد بالسوق صالح كان مثله، لكن ما يندري من هو اللي شار عليكم أن ينشال السوق من مكانه، لا بد يكون لئيم أو ابن حرام، لأن من ذاك اليوم والناس هاجّه، كلها تقول الله لا يبارك، وهذا الله، يا طويل العمر، هو المنتقم الجبار، وما أحد يفلت من عقابه، ولو كنت بمكانك يا طويل العمر لا بد أن أفتح تحقيق وأعرف اللي شار واللي قال وأنزل به أشد العقاب، ومع ذلك هالحين يلزم تأمرون ويرجع السوق مثل ما كان» ويفرح صالح بهذه النتيجة، ويتخيل من جديد السوق وقد عاد إلى مكانه: حركة حافلة: البشر والدواب، وكل إنسان لديه ما يفعله أو ما يقوله، وهو لا يلتفت إلى الكثير مما يجري حوله، لأن العمل أكثر من أن يطيقه أو يقدر عليه. كان يعمل أكثر من الآخرين، ولا يفرغ من العمل إلا بعد أن يفرغ الجميع.

وفي أحيان كثيرة كان يطيب له أن يتوقف عن العمل يوماً أو يومين، ويجلس ليستمع إلى شمران أو الآخرين وهم يتحدثون، لكن «لا أحد يرحم ولا أحد ينتظر وصاحب الحاجة لجوج»!

وانتقل من السلطان إلى الآخرين «صالح لا يمكن أن يفوت قضية، يمكن أن يسامح، أن يسكت، لكن لا تخفى عليه خافية» استحضرهم واحداً بعد آخر، ماذا يجب أن يقول لهم وأمام من: «الشهود أحياء والناس ما تنسى يا فلان» ولأن الذين يريد أن يتحدث معهم كثيرون فقد أعطى للأشياء حوله أسماء وصفات وبدأ، لم يترك أحداً ولم ينسَ شيئاً.

كان كل ذلك يجري وصالح يجوب الشوارع وحيداً، بعد أن عمل ابنه عند بدر، باحثاً عن صاحب حمار ليحذوه له. كان يريد أن يمارس المهنة ليس من أجل أن يحصل على مقابل، وإنما لكي يثبت لنفسه أنه ما زال قادراً على العمل، وأنه لا زال نافعاً للآخرين. لكن لا أحد يستجيب له، لا أحد يسأله أو يطلب منه شيئاً. حتى الشتائم التي كانت تستهوي الكثيرين في وقت سابق لم تعد تعني لهم شيئاً الآن. ولأنه لا يعرف التوقف أو الراحة، ولا يجد أحداً لكي يتحدث معه، فقد أخذ يتحدث لنفسه، وبصوت عالٍ، دون أن يأبه أو يخاف!

قال شمران لما بلغه ما وصلت إليه حالة صالح:

- اللهم حسن الختام!

بعد أن اتسعت الأعمال وتشعبت، لم يعد الحكيم قادراً على أن ينصرف إلى كل عمل بنفسه، ولم يعد الأشخاص الذين حوله قادرين أيضاً، وهذا مما اضطره إلى إقناع راتب بالانتقال إلى موران والإقامة فيها، كما بذل جهداً كبيراً إلى أن تمكّن من استدعاء الآغا للتباحث معه بشأن التعاون، خاصة وأن هناك آفاقاً جديدة تكشفت أمامه من خلال نشاط رضائي بالذات. ولم يطل الأمر حتى حقق هذين الهدفين معاً، فبدا الحكيم خلال هذه الفترة في منتهى القوة والرضا عن النفس، وشاركته العائلة هذا الجو من الحيوية والفرح، خاصة وأن غزوان أوشك على التخرج وجاء بزيارة خلال العطلة الربيعية. كان يبدو أقرب إلى الرجال بمظهره الذي ازداد سمنة، وبطريقة تصرفه وحديثه. وقد ولّد هذا تفاؤلاً كبيراً لدى الحكيم، وكان يود في أعماقه لو أن غزوان بقربه. إذن لاكتسب خبرة كبيرة، ولصرف معه وقتاً وجهداً من أجل أن يختصر الزمن، وأن ينطلق إلى الحياة العملية، لأن الحكيم، رغم محبته للعلم، يعتبر أن الحياة هي التي تصقل الإنسان وتحدد بالنتيجة إمكانياته ووضعه في المجتمع.

ولم ينس الحكيم «الواجبات» أيضاً، فراتب الذي تعوّد النزول في بيت الحكيم، وجد أن من الضروري الانتقال إلى بيت مستقل، ووجد أيضاً أن حياة العزوبة، خاصة في مدينة مثل موران، غير ممكنة، أو على الأقل أن نظرة الناس لرجل مثله، بسنه وإمكانياته المالية، لا تستقيم إذا ظل أعزباً، وهذا ما دعا وداد أن تأخذ على عاتقها البحث له عن زوجة. صحيح أن الأمر طرح في البداية على شكل تساؤل مرح، ثم أصبح تساؤلاً جاداً،

وأخيراً أصبح سؤالاً يتكرر في كل جلسة بأشكال عديدة، وكان الحكيم في الغالب وراء هذا التساؤل أو السؤال. ووداد التي وجدت أن صحتها تتحسن، وأنها تنتعش وتتغير تماماً خلال زيارات راتب، اعتبرت أن انتقاله إلى موران سعادة لا توازيها أية سعادة، وإذ خافت لأول وهلة من فكرة زواجه، ولا تطيق أن تراه متزوجاً، فإنها ما لبثت أن اقتنعت وأقنعت نفسها أن الطريقة الوحيدة لكي تحتفظ به، لكي يبقى فلا يسافر، وأن يكون قريباً بهذا المقدار، هي أن يتزوج؛ وأن يتزوج بمعرفتها، عن طريقها، لكي تضمن بقاءه وقربه أولاً، وتضمن أيضاً أن تختار له المرأة المناسبة!

بعد الكثير من البحث والتأمل والانتظار، سافرت وداد إلى بيروت، واستمرت شهرين وعشرة أيام في هذه السفرة. لكن لم يمض على سفرها إلا أسبوع واحد، حتى أرسلت برقية إلى الحكيم: «رجاء إبلاغ راتب أن العروس بانتظاره، يلزم توجهه لاتخاذ القرار المناسب». طار الحكيم من الفرح، واعتبر أن زوجته تمتلك من الامكانيات الشيء الكثير، وإن كانت لا تظهرها، أو لم يكتشفها هو سابقاً. وبكثير من الحفاوة والمودة هنأ راتب وشدد على ضرورة سفره في أقرب فرصة «اليوم قبل بكرة، لأن المسألة لا تحتمل التأجيل» ويضحك الحكيم بقهقهة ثم يضيف «مسألة مستقبل، يا راتب، مسألة مصير» ويهز رأسه بمرح لذيذ: «ومثل ما دخلنا نحن القفص الذهبي، ولأنك عزيز علينا، نريدك أن تدخله مثلنا!».

وراتب الذي يتذرع ببعض الأشغال والواجبات، وأنه لا يستطيع السفر قبل أن يفرغ منها، وأن «بنت الحلال ستنتظر، لأن ليس عندها خيار آخر، سوى الانتظار، خاصة وأن أم غزوان حضّرتها وقالت لها أية سعادة تنتظرها، وأي زوج سترتبحه وتدخله إلى العش!».

بعد مناقشات عديدة تخللها المرح والجدية، سافر راتب، وانتظر هناك شهرين إلى أن تم العثور على الفتاة المناسبة. وقد أوضحت وداد لزوجها، بعد أن عادت، «أن الأمور تعرقلت أكثر من مرة، لأن البنت الأولى اللي ربطناها، لم تعجب راتب. وحتى الثانية لم تعجبه. وفكر أن يلغي الزواج كله، لكن في النهاية أقنعناه أنا وعمتي أم احسان، ولقينا البنت المناسبة..

وتزوج وسافر» وتنهدت وابتسمت لأن هذا الحمل الثقيل سقط عن عاتقها، والحكيم الذي قدر المصاعب والمتاعب التي ترافق الزواج رد عليها بمرح:

ـ مثل هذه الشغلة لا تحصل إلا مرة في العمر، فاحمدي ربك واضحكي بعبك.

وضحك بقهقهة، ثم قال بعد أن هدأ:

ـ ونحن مو مثل غير جماعة!

ردت بنوع من الغيظ المصطنع:

ـ أي والله... هذا الشيء اللي ناقصكم!

ـ ليش يا ستي.. غيرنا أحسن منا؟

ـ لأ ما قضية أحسن، لكن كل ناس ولهم عاداتهم.

ـ وعادات موران وأهلها ألا تعجبك؟

ـ لأ.. يا سيدي!

ـ أنا، يا ستي، صرت موراني: عاداتهم عاداتي، وأخلاقهم أخلاقي، وناوي أعمل مثلهم!

ـ شو قصدك؟

ـ أن أتزوج مثلهم!

ـ تطلع عينك وما راح تشوف غيري!

وهجمت عليه تقبّله، تحضنه، تتطلع إلى عينيه بتحديد. شعر الحكيم بغبطة كبيرة. شعر أن وداد تحبه أكثر مما يقدر وأكثر مما تظهر، لكنها تكابر، تخفي عواطفها. أما الآن، وبعد هذه الفترة من البعد والشوق فإنها تكشف أوراقها، تفضح ما يعتلج في قلبها من عواطف وأشواق، قال وقد امتلأ رقة:

ـ أنت كل شيء لي في هذه الدنيا، وأغلى من عيوني!

وانشغل الحكيم أيضاً بغزوان. فبعد أن زاره في الولايات المتحدة في صيف السنة الماضية، اكتشف أن ابنه كبر وتغير كثيراً، فبالاضافة إلى

النباهة التي ميزته منذ أن التقى بهم في المطار، فإن كل حركة وكل تصرف أقدم عليه بعد ذلك، وخلال الزيارة كلها، أكدت له «أن هذا الشاب. ويجب أن أقول ذلك بحياد. مثال حي للذكاء وحسن التصرف.. والطموح». فقد حدثه غزوان عن سان فرانسيسكو بافاضة، وأخذه بنزهات طويلة ومتعددة، وكان يضع لكل زيارة برنامجاً مناسباً، وكثيراً ما فاجأ أباه وأمه. فزيارة الحيّ الصيني في المدينة، والتجول بين مجموعة كبيرة من الصينيين، أثارا أفكاراً لدى الحكيم تصور أنه نسيها لفرط ما ابتعد الزمن! وزيارة الغابات المعمّرة التي لا تبعد عن المدينة كثيراً أثارت لديه مفاجأتين اثنتين في آن واحد: فحتى ذلك الوقت لم يكن يظن أن ابنه تعلم سواقة السيارة بعد، أما عندما استأجر غزوان سيارة منذ الليلة السابقة، وقد انتقاها بمواصفات تلائم مستوى العائلة، وجاء بها إلى الدار دون أن يحس به أحد، ثم في الصباح وأبوه يسأله ماذا رتب لهم لهذا اليوم، يقول له رداً على السؤال:

ـ أن ترى بعينك أحسن من أن تسمع بإذنك!

وبكثير من البطء والثقة يستخرج مفاتيح السيارة الواقفة، يفتح الباب الأيمن، ويطلب من أمه أن تركب، والأم التي نظرت إليه ثم نظرت إلى زوجها لا تعرف هل تستجيب له أم لا، أما عينا الحكيم اللتان دارتا دورة كاملة، وكأنه يفيق من نومه، فقد فوجئ تماماً، لكن كلمات غزوان الواثقة، الواضحة، تطلب منهما أن يركبا، وأن يركبا في الكرسي الأمامي، وأمه في الوسط، لم تترك لهما الخيار. أما تلك البراعة التي أظهرها غزوان في السواقة، في معرفة الاتجاه والطرق، ثم تلك الأغاني التي أحضرها خصيصاً، ووضعها في المسجلة، فقد أضفت على الرحلة متعة كبيرة، أنست الحكيم، خلال جزء طويل من الطريق، الخوف.

المفاجأة الثانية التي أذهلت الحكيم إلى أقصى حد أن تكون في الدنيا أشجار بهذه الضخامة وبهذا العمر المديد، فما كاد ينزلق إلى غابة (Red Wood) ويشهد تلك الأشجار التي لا تثير الإعجاب فقط، وإنما تثير الذهول والتساؤل، حتى بدأ الحكيم يحلق في عوالم بعيدة وغامضة.

استعاد بتشويش كبير أكثر الوقائع التاريخية التي قرأها، وبدا له أن كل شيء ممكن في هذه الحياة، وأن الخلود أمر يتعلق بالدرجة الأولى برغبة الإنسان ثم بمدى قدرته!

كان مذهولاً لا يجد الكلمات المناسبة التي يقولها لنفسه أو لغيره. كان يضرب على الأشجار، يتطلع إلى أغصانها، يتابع سيقانها في هذه الرحلة التي لا يصل إلى نهايتها، وتظهر على وجهه علامات العجب، وظل يردد، دون تعب، كلمة واحدة: «سبحان الله، سبحان الله». أما غزوان الذي استعد لهذه الرحلة بكثير من المعلومات والطرائف، فقد فاجأ أباه وأمه بمقدار ما يعرف. أما تلك الصور التي التقطها، وكان حريصاً أن تكون جامعة، وقد استعان بعدد من الزوار لالتقاطها، فقد ظلت مدار حديث طويل وطريف للحكيم بعد أن عاد إلى موران، وصدف أن الكثيرين رأوا وداد في هذه الصور لأول مرة!

السلطان الذي استمع بكثير من الانتباه للحكيم يحدثه حول رحلته، وحول عظمة الولايات المتحدة ومدى اتساعها وتنوع خيراتها، دقق، بكثير من العناية، بالصور التي قدّمها إليه الحكيم، معتذراً أن «أم غزوان اضطرت أن تكشف عن وجهها لأن عادة أهل البلاد لا تسمح بغير ذلك». أبدى السلطان شكوكه حول ما يقوله الأميركيون عن عمر الأشجار، ولا يمكن أن يصدقه الإنسان، إذ «كيف يعرفون أكثر من سابع أو ثامن جد؟» «وكيف يعرفون أن عمر هذه الشجرة ألف سنة وهذي ألفان ولا هم زرعوها ولا عرفوا من زرعها؟» والحكيم الذي حاول أن يقرّب الموضوع إلى منطق يمكن فهمه واستيعابه، وتحدث عن «أمور علمية»، لم يستطع أن يستمر أزاء ابتسامات السلطان، والتي كانت أقرب إلى السخرية أو عدم التصديق.

كان السلطان بعد كل عبارة جديدة يقولها الحكيم عن «غابة نوح». كما أطلق عليها، تثير اهتمامه، أو هكذا يتظاهر، فيلتقط الصور مجدداً ويتمعن بها، وكأنه يعاود دراسة أعمار الأشجار، لكنه في الحقيقة كان ينظر إلى وداد، ينظر إلى شعرها، إلى رقبتها، إلى طولها، كان يدرس أية امرأة تكون، قياساً للنساء اللواتي عرفهن! في لحظة مناسبة، وقد سأل السلطان

عن دراسة غزوان ومدى «تقدمه بالعلم» قال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة تظهر أسنانه كلها:

ـ والله العليم، يا حكيم، أن غزوان آخذ منك ومن أمه!

بعد فترة من الأحاديث المختلفة، والتي كانت تدور حول الولايات المتحدة، سأل السلطان ما إذا كان أحد من الأولاد رافقهم بهذه السفرة، ودون أن ينتظر الإجابة، سأل عن أعمار الأولاد، والحكيم الذي سر كثيراً لهذا السؤال، والذي يدل على اهتمام السلطان ومحبته، أجاب بكثير من التفصيل عن أسماء الأولاد والتاريخ الدقيق لميلاد كل منهم!

الآن، وغزوان يعود إلى موران، ويرى أبوه أن من «الواجبات» الأساسية أن يقوم بزيارة القصر والسلام على السلطان وتقديم الشكر له، فقد كانت مناسبة إضافية، لا لأن يتأكد السلطان من عمر «غابة نوح» وإنما ليتمعن بالصور، لأن ينظر دون تحفظ، أولاً، لكي يدقق ويقارن بين الصور ووجه غزوان ثم بينها وبين.. وجه الحكيم وأخذ يردد نفس الكلمات التي قالها قبل شهور:

ـ أثاري، يا حكيم، غزوان آخذ منك ومن أمه!

وغزوان الذي بدا شخصاً مختلفاً في هذه الزيارة، أقنع أباه أن من المناسب أن يزور السلطان بنفس الملابس التي يلبسها في ستايت State، وأن يتصرف على هواه، وهذا ما حصل وقد تركت الزيارة أثراً مريحاً لدى الحكيم، إذ أثنى السلطان على مظهر غزوان وعلى دراسته، وقال في نهاية الزيارة:

ـ ولا بد نزور غابة نوح يا حكيم، ما دام غزوان هناك ليكون دليلنا ويراوينا كل شيء.

وانتهت زيارة غزوان «أقصر من البرق» كما قال أبوه، وهو يودعه، وشعر أنه لم يتكلم معه، لم يره بما فيه الكفاية. قال له عند باب الطائرة:

ـ ما شبعنا منك، يا حبيبي، لكن تبقى دراستك هي الأهم، وإنشاء الله ترجع إلينا في أقرب فرصة، والله يحرسك ويوفقك!

انتظر الحكيم بفارغ الصبر عودة راتب من شهر العسل، وقد امتد هذا الانتظار وطال، بحيث شمل الصيف كله، وقد سبّب له هذا قلقاً وارتباكاً، إذ كان يريد أن يبدأ «الرحلة الكبرى»؛ رحلة البحث و «التقصي» ثم بداية «التدوين»، وهذه الألفاظ والصفات من اختياره هو. أما أن يكون مثل الذئب: عيناً مغمضة وأخرى كالفنجان لا تعرف الراحة أو المنام، ليرقب ذلك الخبيث سعيد، أو ليعرف ماذا يصنع رضائي، خاصة في هذا الصيف اللافح، والذي بدا للحكيم أقسى وأطول من أصياف أخرى، فقد شعر أنه يضحي أكثر مما يجب، ويتحمل أكثر مما يطيق، وأنه يؤجل أموراً لا تحتمل التأجيل.

أما بعد أن عاد راتب من رحلته، وكان في منتهى الرضا والثقة، وبعد الحفلات التي أقيمت له، وكانت حدثاً مشهوراً في موران، فقد ظهر الحكيم في حالة من الزهو، أقرب إلى الغطرسة، قال لراتب بتورية لا تخفى:

ـ تحملتُ كثيراً خلال هذا الصيف، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والآن جاد دوركم!

وراتب الذي يعرف مداعبات الحكيم ويتحملها بصدر واسع ابتسم ولم يعلّق.

تابع الحكيم وهو يبتسم، ويغمز بعينه:

ـ ولازم تعرف، يا راتب، أن اللي ما يحضر ولادة عنزته تجيب له تيس..

ـ التيس أحسن من الجدي، يا أبو غزوان!

هكذا رد راتب بمرح، فأجابه الحكيم:

ـ لكن التيس يظل تيس.

ـ مظلوم هذا الحيوان، يا حكيم، لأنه أذكى وأجرأ من حيوانات كثيرة!

ـ يا سيدي.. المهم أن يكون الإنسان فوق شغله، لأن أولاد الحلال حولنا أكثر من الهم على القلب!

وفهم الذين سمعوا الكلام، أنه يعني أكثر من واحد، لكن مع ذلك انصرفت الأذهان إلى رضائي بالدرجة الأولى.

أصبح الحكيم بعودة راتب قادراً على أن يتحرك، أن يعطي وقتاً أطول لهذا الهمّ الذي يشغله، خاصة وأن فترة الصيف، رغم صعوبتها، كانت من أغنى الفترات وأهمها، لأن سمير الذي بقي إلى جانب الحكيم، كموقف تضامني، هكذا فسّر تأجيله لإجازته السنوية، بدا كريماً أكثر من أية فترة سابقة، إذ كانت المناقشات بينه وبين الحكيم تطول في أكثر الليالي وتمتد إلى السحور، وقد صادف أن جاء رمضان خلال الصيف ذاك العام. والحكيم الذي كان محافظاً وأقرب إلى التزمت بطبيعته، وجد أن جو موران يفرض عليه أن يكون أكثر محافظة، ولذلك لم تظهر وداد بعد أن عادت أمام الضيوف، ولم يرها إلا عدد محدود من الرجال.

أما تجاه سمير، خاصة في نهاية هذا الصيف، فكان الأمر مختلفاً. فاللقاءات والمناقشات التي تجري في قصر الحير، أغلب الليالي، وعلى الشرفة الغربية، وكانت في البداية تقتصر على الاثنين فقط، فما لبثت أن انضمت وداد إليها. انضمت أول الأمر قياماً بواجب الضيافة، ثم برغبة أن تسمع وتتابع. كان يروق لها أن تعرف ما يشغل زوجها وما يفكر فيه، وأن تعرف، أن تسمع وأن ترى هذا الرجل، الذي لا يتوقف الحكيم عن ذكر فضائله وقوة عقله... وخفة دمه أيضاً!

بدأت اللقاءات أواخر الصيف، أما بعد أن غاب راتب فترة طويلة، أطول مما قدرت وداد، وعاد أكثر سعادة مما قدرت أيضاً، فقد خلق لها هذا تحدياً دون أن تعرف له سبباً. وإذا كانت بوادر هذه الحالة قد بدأت

قبل عودته، وقد أدرك الحكيم ذلك، نتيجة العصبية والحدة التي ميزت تصرفاتها وعلاقاتها مع الخدم، فقد قدّر أن الأمر يعود، بالدرجة الأولى، إلى جو موران، وربما أيضاً إلى شهر رمضان، رغم أن وداد لا تصوم إلا حسب مزاجها، متخطية كل الاعتبارات الدينية، إذ كانت تصوم، بعض الأحيان، كالأطفال، والحكيم الذي يعرف ذلك ويوافق عليه يقول لها بنوع من التعاطف الواضح:

ـ الثواب على قدر المشقة، والأطفال والنساء لهم أعذار كثيرة..

ويبتسم ثم يضيف:

ـ وساعة موران، في مثل هذا الحر تعادل أياماً بكاملها، ولذلك يكفي هنا أن يصوم الإنسان بالنيّة أو حسب درجات المادنة!

أما بعد الحفلات التي جرت لراتب، وكانت وداد بمثابة أم العريس والعروس معاً، وأظهرت اهتماماً وفرحاً بالغين، واشتركت في التحضير وتقديم العروس للضيوف وللقصر بعد ذلك، ثم تلك الاقتراحات التي قدمتها للزوجين الجديدين، سواء من حيث الناس الذين من المناسب أن تقام معهم العلاقات، أو من حيث ترتيب البيت؛ بعد تلك الأجواء التي شغلتها وأدخلت تغييراً كبيراً على حياتها، فقد بدأت تحس يوماً بعد آخر أنها خسرت الكثير، وأنها أخطأت خطأ لا يمكن أن تغفره لنفسها، حين جارت زوجها ووافقت على فكرة زواج راتب، ثم أصبحت كل شيء في اللعبة. وتأكد هذا الشعور وتعمق بعودة راتب، فقد بدا لها إنساناً مختلفاً. كانت إذا نظرت إليه بتلك الطريقة التي تعرفها جيداً، وتعرف كيف تؤثر عليه وكيف يستجيب لها، يهرب منها، يتظاهر أنه يستمع إلى الآخرين، أو أنه يقوم بعمل ما، وإذ تلح أكثر من قبل ويتهرب أكثر من قبل تعرف كيف ترد عليه، وكيف تخضعه مرة أخرى!

لو كانت في بيروت، لو كانت معه وحده، لعرفت كيف تعيده إلى أحضانها طفلاً صغيراً. لقد حاول في أوقات سابقة أن يتمرد، أن يكون كما يريد أو كما كان، لكن جبروتها سحقه، لا ليس الجبروت، انه شيء آخر يحار في وصفه أو تسميته، وإن كان دائماً شيئاً قوياً كاسحاً، لا يقوى على

مقاومته. مرة ترفع صوتها، مرة تبكي، مرة ترفض، ومرة لا تتركه يهدأ أو ينام لحظة واحدة. تقبل عليه كسحابة الربيع، أو تمتنع كأنها فتاة عذراء. تركع عند قدميه كجارية، تفرك ساقه وتداعب باطن القدم، أو تفترسه كأية لبوة دون أن تنتظر موافقته أو حتى سماع صوت رغباته. وهو في جميع الحالات، رغم الاستعداد والتهيؤ.. يسقط، يتراجع، ويجد نفسه في أحضانها طفلاً مستجيباً يبحث عن الدفء والحنان، أو يبحث عن شيء ما يفتقده!

الآن تشعر أنها فقدته، تشعر أن هذه الفتاة الصغيرة، ابنة التسعة عشر عاماً، سرقته منها وتحاول أن تفلت. هل يمكن أن توافق أو أن تسلّم في مواجهة هذه الفتاة الغريرة؟ هل تنسحب وترضى بذلك الدور الكئيب: دور الحماة؟ وراتب، ذاك الذي يفخر بتجاربه، وماضيه، هل يقنع بهذه الدجاجة الخائفة المرتبكة وينساها؟ لا تتصور لحظة واحدة أن ذلك شيء ممكن. لتتركه الآن، لتتركه بعض الوقت، ريثما يمل ذلك الجسد الباهت، والذي يشبه الوجبة الخالية من الطعم، ولا يختلف مذاقه عن مذاق الماء، بالتأكيد سيمل، وربما في وقت أبكر مما تتوقع، وسوف يعود إليها. لكن إذا عاد هل ترضى وتستجيب إليه بمجرد أن يرغب؟ لا أن هذا جزء من ماضٍ انتهى وانقضى. الآن تريد أن تعذبه إلى درجة القهر، إلى درجة التوسل. يجب أن يبكي لكي يعوّض عن بكائها في الأيام السابقة، يجب أن يدق بابها مئات المرات، وسترد على هذه الدقات بأن تؤكد وجودها لكن غير راغبة فيه أيضاً! ليست مستعدة لأن تستجيب له، حتى إذا هلك، إذا قبّل قدميها، وبعد أن ينتظر ويتلف ستنقذه مرة أخرى، سوف تستعيده لكن لكي يبقى لها هذه المرة.

هكذا افترضت أن الأمور ستجري، لكن مع ذلك لم تكن متأكدة، ولم تكن مستعدة للانتظار. لن تبقى مثل امرأة مهجورة لا تملك شيئاً سوى الانتظار. ولن تقبل أن يتذكرها الآخرون عندما لا يجدون غيرها، أو لا يجدون شيئاً يفعلونه. لا.. لن ترضى، يجب أن تؤرق حياته، أن تجعله مجنوناً، ومتى؟ في ذروة شعوره بالانتصار، في اللحظة التي يحس فيها أنه

لم يعد يحبها أو بحاجة إليها، وعندما تظن تلك الصغيرة المفتونة بصدرها وبردفيها، أنها ملكت وسيطرت، تكتشف فجأة أنها لم تملك سوى الريح، ولم تسيطر إلا على الوهم، فتخضع عندئذٍ، لكن بذل أكبر وبتسليم كامل ونهائي.

الغيرة، إذن، هي الوسيلة التي يجب أن تلجأ إليها لتثيره. أن يكون في حياتها رجل آخر. ليس مجرد رجل تلتقي به في الظلام، حين ينام الآخرون، كما كانت تفعل معه، فلا يحس ولا يعرف، وإنما أن يكون شديد الحضور، قوياً، وأن يراه راتب بعينيه وبحواسه كلها، ليتأكد كم هي مرغوبة ومشتهاة، وليعرف أيضاً كم أصبحت مستحيلة بالنسبة له. لن يكون الحكيم بطل هذه اللعبة الخطرة، ولن يكون أحد الذين يفترضهم، سوف تتجاوز كل ظنونه وتوقعاته: سوف تحب سمير!

تتذكر.. في إحدى الليالي سألها وهو يضمها، بعد أن نام الحكيم ونزلت إليه مثل قطة، عن سمير، فاكتفت بأن قالت بهمس:

ـ مثل كل عفاريت هاروش وماروش!

وراتب يعرف معنى هذه السخرية، حين تلجأ إليها. لذلك لم يسألها مرة أخرى. أما في المرات اللاحقة، وكان سمير يتحدث إلى الموجودين، لكن كان ينظر إلى الحكيم بالذات، وكأنه الشخص الوحيد، فقد اكتشف راتب فيه مكراً أقرب إلى السخرية، وفي نهاية السهرة، وبعد أن غادر الضيوف، قال الحكيم لراتب دون أن يسأله:

ـ لو كان في موران كم واحد مثله لحرثتُ المنطقة كلها وخليت الكل يركع.

وراتب الذي كان يفكر في قضايا أخرى لم يجب ولم يعلق، أما عند الفجر، وحين كانت وداد تتسلل إلى فراشه، وقد طال انتظاره لها، فقد سألها بنوع من الاتهام:

ـ تأخرت، تأخرت كثيراً، ما أخرك؟

قرصته من خده واحتضنته بقوة. كانت دافئة شهية، وكانت نسمات

الفجر قد أيقظتها، ولما سألها من جديد ان كان الحكيم قد نام أم لا، ردت بسخرية:

ـ ألهذه الدرجة خايف أم صرت تغار؟

ولا تعرف لماذا أرادت أن تداعبه، أن تثير غيرته. بدا سمير أقرب الاشباح إليها، سألت بمكر:

ـ أعجبتك السهرة؟ أعجبك سمير؟

وتذكرت النكت التي رواها سمير على مائدة الطعام، كانت محتشمة في الظاهر، لكن تحت هذا الغلاف الرقيق من الحشمة كانت التورية الماكرة الفاجرة، وقد ضحكوا لها طويلاً، حتى أن راتب تطلع إليها أكثر من مرة بنظرات لا تخفى دلالتها. الآن وهي تسأله، وهي تستعيد تلك النكت التي لم تقل كل شيء بوضوح، تحس غيرته. فلما ظل صامتاً مستمتعاً بهذا الدفء قالت لتستفزه:

ـ ما رأيك لو حبيت سمير ونمت معه؟

وردّ على سؤالها بجسده كله: ارتمى عليها بقوة كما لو أنه يعاقبها، يلطمها، ثم لوى ساعدها ببعض القسوة، لكنه لم يؤذها، وحين حاولت أن تفرّ منه، أن تبتعد قليلاً لتنظر إلى وجهه وإلى عينيه لتقرأ الجواب، كانت الظلمة الشاحبة تحد من الرؤية أو تمنعها، قالت لتواصل لعبتها:

ـ ما جاوبت على سؤالي؟

ومن بين أسنان مصطكة قال كلمة واحدة:

ـ اخرسي!

قالها بمزيج من الحقد والشتيمة والمداعبة وعدم التصديق. وناما تلك الليلة كما لم يفعلا من قبل، شعرا بالغبطة والارتواء أكثر من أية مرة سابقة، وشعرا أنهما أقرب إلى بعضهما بعضا من أية فترة، أما عندما سمعت نحنحات أبي عبد الله في الحديقة فقد أجفلت، ومثل قطة انسلت هاربة تاركة الباب نصف مفتوح، لئلا يحدث إغلاقه صوتاً يوقظ الحكيم!

بغريزتها أحست أن سمير الشخص الوحيد الذي يجعلها تستعيد

راتب، ولذلك، ودون أن تتردد، ودون أن تنتظر بدأت لعبتها. فبعد أن انتهت الحفلات الرسمية التي أقيمت لراتب، وخلال شتاء ذلك العام، اقترحت نظاماً للتزاور بين مجموعة من العائلات، كان راتب أساسياً فيها، وكان سمير أيضاً. وهذا النظام في تبادل الزيارات ما كان ليروق للحكيم لولا المقدمات التي سبقته. فسمير الذي أبدى تلك الشهامة، وبقي في موران ذلك الصيف، وأعطى للحكيم جل وقته وخلاصة أفكاره، لم يرتفع بنظر الحكيم فحسب، وإنما أصبح شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه، وما كان هذا ليتم دون موافقة وداد ومشاركتها. وإذا كان الحكيم قد خشي شيئاً فهو أن تعاودها الآلام الغامضة والكآبة فتنعزل ثم تدخل في تلك الحلقة من الأمراض والحزن، وربما المشاكسة، فتفسد عليه ما حضّره وما استعد له، لكن حين وجد أن سمير يغير الجو بمرحه وشبابه، وليس مثل غيره من الضيوف، وأن وداد لم تعد تنزعج من المناقشات التي تجري بينهما، فقد اعتبر نفسه محظوظاً إلى أقصى حد، واعتبر «أن قوة عليا، غامضة وكلية، هي التي تقود خطواته وتيسر له أداء رسالته». ولذلك قدر لوداد هذا «النبل» واعتبر أن تضحياتها ونكرانها لذاتها لا يمكن أن ينسى، وهذا ما جعله يوافق باندفاع على اقتراحها.

كان شتاء حافلاً مليئاً بالصواعق والرعود، فالفتاة الصغيرة التي فرحت بالفستان الأبيض الذي لبسته لأول مرة، كعروس، في موران، وبدت مثل دمية وسط الاحتفالات والحفاوة، والتي كانت تبدو مرتبكة خجولة لا تعرف كيف ترد على الأسئلة أو كيف تتصرف، ما انقضت على إقامتها بضعة شهور حتى سقطت فريسة للمرض. قال الحكيم: «عدم التكيف نتيجة الكآبة وضعف الشهية». أما جارتها، أم جميل، فقد كانت متأكدة أنه «وهم الحبل لكن دون حبل» وقد أعطتها نوعين من الأدوية لمعالجة انتفاخ البطن والدوّار. وداد وحدها كانت تعرف العلة، لكن لم تقل ذلك، إذ بعد عدة سهرات صاخبة أكدت للصغيرة أنها لا تملك أن تقرر بمفردها، وأنها هي التي تقرر نيابة عن الجميع، خاصة نيابة عنها، ولذلك فقدت الصغيرة القدرة على التصرف أو التكيف، ووقعت مريضة.

أما راتب الذي ظن أن وداد التي كانت ملك يديه أمس، ستبقى كذلك اليوم وغداً، لذلك كان يتصرف بكثير من الثقة والاطمئنان، وسيعود إليها حالما يشبع من هذه القطة الصغيرة، وأنه في وقت قريب سيرتد إلى أوزّته المتعالية ويردها كما يرد دجاجة ضالة أو هاربة، وسيعاودها مرة بعد أخرى ما وجد أن نفسه تشتهيها، بدأ يكتشف أن الأوزة تبتعد، وأنها من هذه المسافة تنقره، تسخر منه، ولا تتردد في أن تقول، بكلمات واضحة، أنها توشك على الطيران بعيداً لتنضم إلى سرب آخر، ولتكتشف عالماً جديداً. لا تكتفي بذلك تعرف كيف تعامل سمير أمامه بالذات، كيف تدلله، وتضحك للنكت التي يرويها، وأخيراً كيف أن الكلمات التي قالتها قبل فترة طويلة تعنيها، وتعني شيئاً جدياً!

وراتب يتظاهر أن اللعبة لا تعنيه، أو أنها نوع من الاستفزاز والإثارة، ولا بد أن تنتهي كما بدأت، بمجرد أن يغمز بعينيه أو يأتي بإشارة، لكن يكتشف يوماً بعد آخر أن اللعبة أكثر جدية مما قدر أو مما يحتمل. يقول في نفسه «الرجل يستطيع أن يرضي الله ويرضي الشيطان معاً، أما أن يرضي امرأتين فأمر مستحيل» وينتظر ويتابع، ويصرّ أن لا ينسى.

الوحيد الذي دخل اللعبة نتيجة حسابات، وكان متأكداً من حساباته، هو سمير! فموران وسلطانها وحكيمها، وكل ما حملت أرضها أو أظلت سماؤها، لم تكن تعني له أكثر من: الإقامة الجبرية في منفى. صحيح أنه هو الذي اختار هذا المنفى، وأنه سيبقى فيه بضع سنين، لكن سيرجع ثرياً كبيراً ليبدأ حياته من جديد. ونتيجة هذه القناعة، غابت المرأة من مخيلته أو كادت. وإذا كان قد أرغم نفسه على أن ينساها خلال سني السجن، لئلا يتعذب أو يضيع، فلم يكن يملك الإمكانية لأن يجعل أحلامه حقيقة واقعة، خاصة هنا، في موران، ولذلك واصل اللعبة ذاتها، ليس عن عفة أو عدم رغبة، وإنما «لأن موران كلها تمارس العادة السرية ولا تمارس الجنس، لأن الجنس الآخر غير موجود» هكذا كان يقول ليقنع نفسه قبل أن يقنع أحداً، وليدلل على أن المرأة غير موجودة، أو على الأقل لا يمكن الوصول إليها، ولئلا يغرق في الأوهام والأحلام!

ولأن المال هو الهدف الأساسي وربما الوحيد فقد صعّد ميوله كلها نحو هذا الهدف السامي! أما بعد أن جاءت وداد لتحضر مناقشاته مع الحكيم، ولتكون ربة بيت مضيافة، فقد اعتبرها ديكوراً «في هذا الخراب الجميل»: يعني موران ومن فيها، ولذلك فهذا الديكور يرطب الجو قليلاً يكسر وهج الشمس. وقد يمنع أيضاً سفّ الرمال.

لم تكن وداد صورة المرأة التي يتمناها أو يشتهيها، بكلِ تأكيد، هكذا قال لنفسه، ولذلك لم تثر فيه، حين رآها أول مرة، انفعالاً، ثم في المرة الثانية لم تثر فيه شهوة، خاصة وأنها تحصنت وراء صمتها، وكانت عيناها تتوهان في المدى دون أن تستقرا على شيء أو على أحد.

في المرات اللاحقة، خاصة في الحفلات التي أقيمت لراتب، أو في تلك السهرات التي أصبحت تنعقد في قصر الحير أو في بيت راتب، وفي بيوت الأصدقاء الآخرين، بدت له وداد امرأة مختلفة: أكثر شباباً وأكثر فتنة. وأنه يعني شيئاً بالنسبة لها. استغرب أنه لم ير هذا الشباب وهذه الفتنة من قبل، أو لماذا كان غافلاً عن هذه النظرات المليئة بالشهوة والنداء. أما حين تحرشت به أول مرة، بأن وضعت يدها فوق يده وضغطت، فقد ارتبك، بل وبدا شاكاً من معنى تلك الحركات أو أنها تقصدها، وراتب الذي التقط هذه الإشارات فوراً، وفهم معناها وابتسم، زاد في ارتباكه.

انقضت بضعة أيام على هذه السهرة، كانت أطول أيام يعيشها سمير في موران، وكان متأكداً خلالها أن الحكيم سيعرف، وعندئذٍ لا بد أن يلقنه درساً لن ينساه في حياته كلها. لن يكتفي بأن يلقي به في جب عمقه مائة ذراع من جباب موران، وهناك، وبعد أن يقضي سنين عديدة لا يرى خلالها نوراً أو بشراً، وبعد أن ينهكه المرض، سوف يمسك به كما يُمسك بفأر، ويُلقى خارج الحدود: فقيراً، منبوذاً، بعد أن يكون قد خسر صحته وشبابه . . . وأمواله.

بعد بضعة أيام بعث الحكيم يطلبه، ويلح أن يأتي وأن يلقاه في تلك الليلة بالذات. أكد السائق على ذلك بلهجة جازمة وبأساليب عديدة. تأكد

سمير أن منيته قد حانت، وأن العقاب الذي ينتظره سيكون شديداً ورادعاً، لكي يؤدب «هؤلاء الوافدين». أما عندما وصل إلى قصر الحير بعد الغروب بقليل، وكان خائفاً منهكاً، وتمنى في أعماقه لو أنه لم يصل موران ولم يرها، فقد وجد الحكيم على الشرفة بانتظاره، وما كاد يراه، وكان متحسباً قلقاً، وعلى وجهه حالة من التجهم والاستغراب، وقد زادت هذه الحالة في شعوره بالانهاك، وبكلمات مرتبكة أقرب إلى التوسل ألقى سمير التحية، لكن الحكيم لم يرد عليها وإنما تقدم نحوه وقد زاد تجهمه، وهو ينظر إلى عينيه بتحديد. كاد سمير يتكلم، أن يصرخ أن لا علاقة له بهذا الذي حصل، وأنه لم يفكر ولم يحاول أبداً، لكن كلمات الحكيم الوجلة الخائفة جاءته في اللحظة الأخيرة:

ـ قلت لنفسي أن غيبتك ما هي طبيعية..

ـ عيّان.. يا سعادة البيه، عيان خالص.

خرجت الكلمات حزينة متوسلة، وكأنها تطلب غفراناً، أو على الأقل تأجيل العقاب. امتدت يد الحكيم إلى جبينه تجسه ما إذا كان حاراً أم لا. أما عندما ظهرت وداد من باب الشرفة بضحكة تملأ وجهها وبفستان سماوي ضيق قليلاً، يبرز صدرها الفخور الشامخ، وقالت وهي تتقدم نحوه:

ـ طوّلت علينا يا أستاذ سمير...

فقد تأكد عندئذٍ أن الظنون التي ملأته خلال الأيام الماضية مجرد أوهام. وعندما هرع الحكيم إلى الداخل ليأتي بحقيبته الطبية، فقد قالت له وداد بما يشبه الهمس:

ـ ما لك حق تغيب هذي الغيبة الطويلة، أو زعلان منا؟

وعلى المرجوحة في صدر الشرفة مُدّد سمير، وقام الحكيم بفحصه بكثير من العناية، لكن لم يتوصل إلى نتيجة، وقد زادت في حيرته الأعراض التي ذكرها سمير، فاكتفى بأن أعطاه قرصاً مهدئاً، على أن يجري له فحوصاً إضافية إذا لم تتحسن حالته في الأيام القادمة. لكن قبل أن تنتهي تلك الليلة، ومن خلال الأحاديث المرحة التي أسعفت الحكيم،

ثم من خلال العشاء الشهي الذي حضرته وداد، استعاد سمير قوته وحيويته، وبدا إنساناً آخر. أما عندما قام مستأذناً بالانصراف، فقد اقترح عليه الحكيم، كوسيلة في الحيطة ولزيادة الاطمئنان، أن يقضي الليلة ضيفاً عندهم، لكنه اعتذر، وأيدت وداد الاقتراح بكثير من الحماس، وقالت أنها ستعدّ له السرير خلال ثوان قليلة، وفي محاولة لإقناعه أشارت أن الحكيم سيكون قريباً.. إذا اقتضى الأمر وضحكت، لكنه أصر على أن يغادر، وازاء هذا الإصرار أصرا، من جانبهما، أن يوصلاه بالسيارة، «لأن المشوار في هذه الليلة، وموران نائمة، سيكون جميلاً».

في السيارة، أكثر من مرة، لامست يداها يده، وقالت الأيدي، في تلك الليلة ما لم تقله الكلمات أو العيون، وبدا لسمير أنه يسير في شارع له اتجاه واحد، ولا بد أن يسير في هذا الشارع إلى نهايته.

واحكِ واكره واحكِ!

ـ حب

هكذا قال الحكيم لراتب، وكان يهز رأسه بنوع من الأسف والحزن، بعد أن استمع إليه طويلاً يحدّثه عن تغير موقف سمير، وعن بخله «وأن الرجال لا يمكن أن يعرفوا إلا بعد أن يجربوا».

ولما خيم الصمت بين الاثنين أضاف وكأنه يحدث نفسه:

ـ بعد أن اختبرت الرجل، بعد أن عرفته عن قرب، فقد تغير موقفي منه، أصبحت أقرب إلى الشك وعدم الثقة.

ولما حاول الحكيم أن يذكره برأيه فيه أول وصوله إلى موران رد راتب بنزق:

ـ الله يخليك يا حكيم، وأنت سيد العارفين: سبحان الذي لا يتغير.

وزفر بحرقة ثم أضاف:

ـ المال، يا حكيم، يفتل الراس، والمنصب يغيّر. وشايف لك أن سمير تغير. أما شو اللي غيّره فعلمي علمك!

رد الحكيم وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

ـ يا ابن الحلال.. إذا الرجال صمّد له كم قرش فقل لي من في موران ما انطمر بالفلوس؟ وإذا المسألة مسألة مناصب فالرجال ما بنفسه لا منصب ولا ما يحزنون.

ـ أنا اللي عليّ قلته يا حكيم، ولولا معزتك عندي لا حكيت ولا طلع مني كلمة.

وبعد قليل وبحزن:

ـ ومع ذلك خلِ المسألة ببالك والأيام بينا يا حكيم!

تطلع إليه الحكيم بتوجس، لأن وثوقه هذه المرة تجاوز الحد المألوف. سأله بارتياب:

ـ لك يا راتب خاف تكون سامع أشياء لا أعرفها؟

وبعد قليل:

ـ ها سامع شيء؟

ـ أبداً أبداً، المسألة من أولها إلى آخرها أنه أصبح إنساناً من نوع آخر، غير ما عرفته!

سأله الحكيم بنوع من التحدي:

ـ طيب.. شو رأيك لو حكّمنا مطيع أو حماد؟

ـ يا سيدي، الله يخليك، المسألة من أولها إلى آخرها لا تستاهل!

كان راتب يريد أن يبذر الشك، أن يبعد سمير، أكثر مما يريد أن يشير إلى علاقته بوداد، لأنه ما زال واثقاً بقدرته على أن يستردها، كما أنه لم يصبح غريباً إلى الدرجة التي يحتاج فيها إلى مساعدة الآخرين لطرد هذا المنافس. تكفي هذه الإشارة الآن، أما لو حاول أكثر من ذلك فربما استطاعت وداد أن تقنع زوجها أنه وحده الذي حاول أن يتحرش بها، وقد تتولد من ذلك إشكالات ومنغصات هو في غنى عنها الآن، خاصة في هذه الفترة المبكرة من زواجه.

ووداد.. هذه اللبوة التي اكتشفت جسدها في وقت متأخر، والتي عرفت الحكيم حتى حرف الياء، تريد الآن أن تعوض كل ما فاتها. فالذي يتحدث بهذا المقدار عن الجنس، والذي يملأ سهراته مع الأصدقاء بتفاصيل لا تنتهي حول أهمية هذا العامل وتأثيره، ليس فقط على سلوك الإنسان الفرد وإنما على الدول وعلى المجتمعات البشرية أيضاً، لا يجد الوقت أو القوة لكي يكتشفه بنفسه وعندها بالذات، أو لكي يمارسه كما يقول. ولا تعرف وداد كيف حفظت من سمير، هذا الخلد، كما يسميه زوجها مداعباً، كلمة لم تفهمها جيداً لكن تحس بأعماقها معناها. قال لها ذات ليلة، بعد محاضرة كان يلقيها الحكيم عن الأخلاق، وقد قام الحكيم، مثل عادته كل ليلة، وطال بقاؤه في الحمام، قال لها: «من يتكلم

بهذا المقدار عن العفة ليس لديه الوقت لممارستها أو ليكون عفيفاً!».

الآن تريد أن تكتشف عبقرية الجسد، أن تمتحنه لتستقرئ فيه كل ما يستطيع أن يقوله، وبجموح يتجاوز كل حد.

راتب ما زال يؤرقها، يخض دمها. بمجرد أن تراه تستفز، يملؤها التحدي، فتصبح كالقطة التي يلوح لها بقطعة من اللحم أو الجبن، فلا يمكن بعدها أن تهدأ أو أن تستسلم. تشعر أنها محتاجة إليه، تريده كل ليلة، وبنفس الوقت تشعر تجاهه بالكراهية والنفور، إذ ما تكاد تراه حتى تتبدد وتضيع، تجد نفسها غير قادرة على النسيان أو الغفران، أكثر من ذلك تجد نفسها غير قادرة على أن تستسلم. يجب أن يأتي، أن يركع ويتوسل، وبعد ذلك ليذهب مرة أخرى. انها توافق على أن يفترقا، أما إن يبقى هكذا: واثقاً، مكتفياً، متعجرفاً، وأن لا يحس بوجودها إلا كما يحس بوجود الآخرين، فلن تغفر له ذلك أبداً!

ليست هي التي تفكر وتقرر، جسدها وحده هو الذي يفيض الآن، يطغى عليها، يتجاوزها. والحكيم الذي يسف تلك الأدوية، ويبدو شاباً متألقاً في بعض الليالي، لا يلبث أن يخبو ويتلاشى. لشدّ ما كانت تكره شخيره. كان يستفزها هذا الشخير إلى درجة التحطيم. كانت تقضي، في أحيان كثيرة، الليل بطوله، في محاولة لأن تنام وتغفو، لكن ذلك الصوت الرتيب المتواصل المشحون بكل الثقة والطمأنينة يبددها، يهدها ويولد لديها عصبية جامحة فلا تقوى على المقاومة أو الانسحاب.

أكثر من ذلك لا تعرف حقيقة شعورها نحوه: تحبه وتكرهه في آن واحد. تريده ولا تريده، إذ بمقدار ما يمثل لها جواً من الطمأنينة والرضا، تحسه بارداً بعيداً، بل ومعادياً. حتى جسده لا يشبه الأجساد المتحابة المتلهفة. وجوّه ليس مثل جو الآباء أو العاجزين والمرضى، أنه حالة خاصة، متفردة، لا تعرف طبيعتها وجوهرها. أية هموم وأفكار تملأ رأسه وتؤثر على جسده؟ أية أحلام ورغبات يريد الوصول إليها؟ فكرت في ذلك طويلاً، لكنها لم تصل إلى أية نتيجة. المال؟ لقد جمع من المال ما يكفي لأن يحيا مرتين أو أكثر، لو كان يعرف كيف يحيا. السلطة؟ انه الآن أكبر

من الآخرين وأقوى: «ظل السلطان»، هو الذي يقرر نيابة عنه، وهو الذي يفكر ويتصرف في كثير من الأمور. هكذا قال لها في لحظات تجليه. كان يشير إلى ذلك بكثير من الفخر، والتباهي. ثم فجأة ينسحب إلى داخله، تماماً كما تفعل السلحفاة، فيصمت وينغلق وكأنه هاجر إلى مكان قصيّ. تريد أن تعرف كيف يفكر وماذا يريد، لكنها، رغم السنين التي قضتها معه، لم تستطع. وهذا الجو من الغموض يجعلها تضيع في متاهات لا تعرف كيف أو إلى أين يمكن أن تنتهي. في أماكن أخرى، في أوقات أخرى، كانت تعرف أن الدخل لا يكفيه، أو أن طرابلس ضاقت عليه، أو أنه يريد أن يغير العيادة وأثاث البيت. هكذا كان يقول. أما بعد أن وصل إلى السلطنة فإنها لم تعد تعرف كم يملك، أو كيف يفكر أو ماذا يريد.

الحكيم في عالم آخر: «كيف يبدأ الأقلاع؟» هكذا يقول لنفسه، ويؤجل القرار أو البداية يوماً بعد آخر. إذ بعد أن جمع عدداً من الدفاتر الجلدية الأنيقة، ولم يترك أحداً من معارفه الذين سافروا خلال تلك الفترة إلا وردد أمامه نفس الكلمات:

- لا تتعبوا أنفسكم بحمل الهدايا، كل ما أريده: مجموعة من الدفاتر الراقية، دفاتر كتابة، والأحسن أن تكون مجلدة وكبيرة، والأحسن أن يكون لكل واحد منها لون يختلف عن لون الآخر.

ويضحك بقهقهة عالية ويضيف:

- وإذا طبشتوها: قلم باركر أو شفرز!

وتستبد به النشوة فيضيف موضحاً:

- وكل ما كثرتم، وكل ما غليتم أنتم كرام ونحن مستاهلين!

لا يمكن أن يبدأ «الاقلاع» كما يتصوره وكما يتمناه إلا حين يكون في منتهى الصفاء النفسي والعقلي، وأن لا يشغله العمل اليومي، أو أن يقطعه عما هو فيه. وكان يخطط أيضاً أن يكون الإقلاع قوياً صاعقاً لكي يرتفع ويحلق، حتى إذا أخذ ارتفاعاً ووتيرة فعندئذٍ لا يخاف ولا يتوقف.

كل يوم يلقي نظرة حانية على مجموعة الدفاتر التي رتبت بعناية ظاهرة

على الطاولة الكبيرة قرب النافذة الغربية في الغرفة العليا. وفي محاولة لأن «يشحن» نفسه لبدء العمل سمّى تلك الغرفة «المحراب» وسمى الطاولة التي دهنت من جديد: «الصخرة». أما الدفاتر السبعة الأولى فقد أطلق عليها أسماء، بعد أن رقّمها: الأول: الاستهلال، وكتب بخط ثلث اعتنى به كثيراً: «بين يدي القارئ». وكان الثاني: «تذكرة الأذكياء لمعرفة سر البقاء». وأطلق على الثالث: «سر الأسرار في معرفة تقلبات الليل والنهار». وأطلق على الرابع: «المختار من أخبار العصور الخوالي في معرفة الأوائل والتوالي». أما الدفاتر الثلاثة الأخيرة فقد فتح فيها أقواساً ليدون الأسماء التي سوف يستقر عليها، وظل متردداً بين عدة أسماء. ولم ينس أن يكتب بخط فيه تواضع: تأليف الدكتور صبحي المحملجي، وكاد يكتب النطاسي، لكنه عدل. وفكر أن يستبدل لفظة الدكتور، باعتبارها أجنبية، بلفظ الحكيم، وقد وجد في الكلمة الأخيرة وقعاً مؤثراً، لأنها تتجاوز كثيراً المعنى اللفظي إلى معانٍ أخرى. أما الكتاب بمجموعه فكان يريد له اسماً مدوياً. ورغم أنه فكر بعناوين عديدة فقد ظل متردداً، وان كان أقربها إلى نفسه: «الدستور عبر الدهور»، ومع ذلك ظل حائراً، لأنه يريد أن يكون «المربع» ظاهراً أو موجوداً في العنوان.

المشكلة الأساسية التي كانت تؤرقه: كيف يستطيع أن يتصرف لكي يخيم السلام على قصر الحير. ان إرضاء وداد وقناعتها، ثم مشاركتها، وأخيراً السلام مع الآخرين هي الأركان الأربعة التي تقوم عليها النظرية، ولذلك حرص أشد الحرص أن لا تمرض، ألا تنعزل، أما إذا بدأت مشاكستها أو إذا أثقل عليه الآخرون بالواجبات والهموم فعندئذٍ سوف يؤجل مشروعه إلى وقت آخر.

ويستغرب الحكيم أن سميراً لم يكن عنصر مثاقفة فقط وإنما عنصر طمأنينة أيضاً، ووداد تحس بالرضا لوجوده ولعلاقته به، وقد فسر الأمر «أن كل امرأة لديها شكوك حول علاقة زوجها بنساء أخريات، ولا يمكن أن تطمئن أو أن تتخلى عن شكوكها إلا إذا وثقت بصديق زوجها» ولذلك فإن من جملة المزايا التي يتمتع بها سمير هذه الصفة أيضاً، وقد تأكدت تماماً

من خلال المناقشات التي تجري بين الاثنين، وكانت تستمع إليها بكثير من الانتباه والمتابعة!

أما سمير الذي لم يلتفت، أول الأمر، إلى نظرات وداد أو لم يستطع تفسيرها، ثم وقع في ذلك الارتباك الذي جعله مريضاً وخائفاً لبضعة أيام، بعد أن غازلته بوضوح وعلى مرأى من راتب، إذ قرصته من يده وضحكت، ثم وضعت يدها فوق يده أكثر من مرة، فقد تأكد تماماً من موقفها ودعوتها بعد أن أوصلته بالسيارة تلك الليلة هي والحكيم.

لم يكن بحاجة إلى أكثر من هذه الإشارات ليبدأ. صحيح أن وداد قد تجاوزت التاسعة والثلاثين، وبدا جسدها ممتلئاً أو أقرب إلى السمنة، لكن تلك العناية التي توليها لنفسها، تجعلها تبدو أصغر سناً. ولأن موران مدينة الأشباح، بحيث لا يمكن لإنسان أن يرى المرأة أو أن يصلها، فقد لجأ سمير إلى تصعيد ميوله أو إلى إجازات طويلة، بحجة العمل، في أماكن عديدة، وخلال تلك الإجازات إلى بيروت والقاهرة، وسافر أكثر من مرة إلى أثينا وروما، كان «ينتقم ويتزود» كما كان يقول لنفسه!

الآن ووداد تقتحم عالمه، وبعد أن تأكد من جبروتها ومدى تعلق الحكيم بها، فقد امتلأ رغبة في أن يدخل هذه التجربة. قال لنفسه: «المرأة الثرية لا تكبر مثل المرأة الفقيرة، ولا بد أن تكون شهية وممتعة، خاصة في موران الزفت». ويتوه في أفكار وأحلام غنية ولذيذة: «إذا أراد الإنسان أن يسيطر على رجل فيجب أن يعرف مفاتيحه، والمرأة التي يحب لا تعتبر مجرد مفتاح عادي، وإنما هي مفتاح عام (Master key) تفتح أبوابه كلها وتختصر المسافات. ووداد التي يخاف الحكيم من صمتها ويرتعب من غضبها وعزلتها يمكن أن تجعلني غنياً خلال فترة أقصر، وسوف تساعدني على أن أغادر هذه المدينة القاتلة»!.. وإذ مرّ طيف راتب في مخيلته قال بنزق: «ابن الايه والايه ما يسيب الناس في حالها؟ ما يسيبها عايشة ما دام هو نايم على أحلى بطن في موران؟».

رغم زحمة المشاكل التي تشغل الحكيم، فإن قضايا الفكر وفلسفة الكون لا ينساها، لأنه: «منذور لشأن أكبر في موران، وأبعد من الأيام التي يقضيها الإنسان على وجه البسيطة». وهذه القضايا كثيراً ما شغلته، بل وجعلته يشعر بالتعاسة، لأنه لا يوليها ما تستحق من وقت واهتمام. لذلك قرر، بعد أن رتب الكثير من الأمور، أن يصرف جزءاً من لياليه مفكراً متأملاً بالقضايا الكبرى. كان يقضي الساعات في حالة من التأمل العميق، تصل حدود الذهول، وفي محاولة للوصول إلى البؤرة، كما يُسمي النقطة التي يركز عليها تفكيره، كان يغلق عينيه ويقطب حاجبيه، ثم يتخيل هذه النقطة بالذات، وما يكاد يصل إلى نتيجة أو إلى فكرة، حتى يدونها بسرعة وبطريقته الخاصة، كأن يكتب: «مراقبة الرياح، عبر الفصول، ضرورة كبرى، لأنها تؤكد صحة النظرية» أو يكتب: «الكثبان الرملية، في صحراء موران، تأخذ الشكل الهلالي، لأن الرياح تجري من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وهذا برهان على صحة النظرية» أو يكتب: «تقاطع ضوئين من مكانين مختلفين يؤدي إلى أربعة»، ويكتب أخيراً وهو يضحك، ويشعر باللذة: «الجماع يتم وفق نظرية المربع»!

كان مثل هذه التأملات أو الكتابات بمقدار ما تريحه وتخلق لديه الغبطة، تخلق توتراً وحزناً لدى وداد، إذ إضافة إلى أنها لا تفهم معنى الكلمات التي يدونها، فإنها تعتبرها مضيعة للوقت، ولا تليق بإنسان مثله. أما لحظات الصمت الطويلة التي يغرق فيها خلال السهرات، فقد كانت تثيرها، وكثيراً ما اضطرتها إلى مغادرة الغرفة لتأوي إلى فراشها، تاركة إياه إلى «صفنات الشياطين ومخاطبة الأرواح».

والحكيم الذي حرص منذ وقت مبكر أن يكون «مثل الجوزة المغلقة»، هكذا يصف نفسه، لا يريد أن يبوح بأسراره إلى أقرب الناس إليه، لقناعته أن «السرّ إذا تجاوز اثنين ذاع». ونتيجة لهذه القناعة كان يفكر ويحلم وأخيراً يقرر بشكل منفرد. أما إذا أراد أن يمتحن صحة موقف من المواقف، أو أن يحسم في قضية أشكلت عليه، فكثيراً ما لجأ إلى إحدى طريقتين أو إلى الطريقتين معاً: كان يفتعل مناقشة أو يثير مجموعة من التساؤلات، وغالباً ما يكون لها علاقة بالقضية التي تشغله. وخطوة بعد أخرى يدفع المناقشة إلى أسئلة يمكن من خلال الإجابة عنها أن يقيس وأن يقرر. أما الطريقة الثانية فهي أن يقيس «الهوى» في نفسه، وهو مولع بهذه الكلمة ويصر على استعمالها، فإذا وجد أنه يميل إلى شيء بذاته فلا بد أن يجتنبه. لقد اقتنع بهذه الطريقة منذ سن الشباب، ولا يعرف كيف أو لماذا، وكثيراً ما ردد أمام مطيع أو أمام أصدقاء آخرين، عبارة بذاتها، خاصة إذا التبست الأمور: «إذا أشكل عليك أمران فانظر أيهما أقرب إلى نفسك واجتنبه!».

هكذا كان الحكيم في أموره كلها، أما في قضايا الفكر وفلسفة الكون، بشكل خاص، فكان الأمر أكثر دقة وتعقيداً، لأنه إذا أمكن للذين حوله أن يفهموا ويشاركوا في القضايا اليومية والعملية، فإنهم في أمور الفلسفة لا يستطيعون مجرد إدراك مقاصده، ولا ينتظر منهم بالتالي أية مشاركة، فهم أضعف من أن يقدروا مدى الحرقة الداخلية التي تلتهب في أعماقه، وأقل إحساساً بأهمية هذه الموضوعات وخطورتها. لذلك كان يفضل أن يبلور أفكاره بمعزل عنهم، فإذا التمعت فكرة في رأسه ورآها تقربه من الوصول إلى «النظرية» سجلها بكثير من السعادة، لكن في حالات أخرى، وبعد أن يقضي الساعات الطويلة مفكراً متأملاً ويستعصي عليه الوصول إلى أية نتيجة، فكان يعزو ذلك إلى جو موران «الخبيث» والذي «يبخّر الأفكار ويبددها لحرارته أو للغبار الكثيف الذي يهبّ في معظم أوقات السنة». أو يتذرع بكثرة المشاغل وتزايد المسؤوليات، والتي «تسرقه» عن التفكير في الأمور التي يحبها.

والآن، بعد أن رتب أموره وشعر بالثقة والاستقرار، يجد نفسه أكثر ميلاً لبلورة أفكاره، خاصة وأنه اكتشف في سمير ليس مجرد صحفي كفؤ، وإنما «خدن له وللقضايا الكبرى»، فبعد المناقشات التي جرت بين الاثنين، ولأن الفلسفة كانت دراسة سمير في الجامعة، ثم موضوع اهتمامه، فقد تبين للحكيم أن القضايا المعلقة أو المؤجلة يمكن أن تجد حلولها. طبيعي لن يكاشف سمير صراحة، ولن يطلب منه، على الأقل في هذه المرحلة، أن يشارك مشاركة مباشرة، لكن يمكن للمناقشات أن تحرّض فكره أولاً، ويمكن أن تحفزه بعد ذلك على أن يدون أفكاره بوضوح أكثر من السابق.

أدرك سمير، منذ الأسابيع الأولى، الميل الفلسفي لدى الحكيم، لكن اعتبره ضرباً من اللغو الفارغ، لأنه لا يستند إلى أساس، ولا يدل على ألمعية من أي نوع، بل هو أقرب إلى الاستعراض من أي شيء آخر، تماماً كما تحفظ سيدات المجتمع مجموعة من التعابير لكي تسلّي الواحدة منهن ضيوفها، أو كما يفعل بعض الثقلاء حين يحفظون عدداً من النكات ليقنعوا الآخرين بخفة دمهم!

هكذا كانت حقيقة تقديرات سمير، لكنه لم يبح بها، فما دام مرتبطاً بالحكيم، ولأن الحكيم «عقل» موران، وأحد رجالاتها النافذين، فهو بحاجة إليه، ليس مجرد الحاجة فقط، بل يعتبره طريقه إلى القوة والثروة، ولذلك عليه أن يجاريه في هذا الهذر الذي يروق له، وأن يستمع ويظهر اقتناعه بكل ما يقوله، فهو بهذه الطريقة يستطيع أن يثبت أقدامه، ويقترب أكثر مما يريد.

لعبة مثيرة حافلة في جانب، ومملة وغبية في جانب آخر، لكن الاثنين يقبلان عليها بكثير من الحماس والرغبة الظاهرة. ومثلما خصص الحكيم صباح كل سبت لاجتماع لجنة الأمن والسلامة من أجل تقدير الموقف، فقد خصص ليلتين، الاثنين والخميس، من كل أسبوع، لقضايا الفكر والاعلام. هكذا أطلق على هذين الاجتماعين، وكانا يضمان الحكيم ومطيع بالاضافة إلى سمير وبعض العاملين في أجهزة الأعلام، وقد انضم إلى هذه الاجتماعات في وقت لاحق ممثل عن جهاز الأمن والسلامة.

كان يروق للحكيم أن يتكلم في هذه الاجتماعات عن «فلسفة الاعلام» لا عن الاعلام كعمل يومي. ماذا تريد موران من الاعلام، وكيف تحققه؟ «كيف يكون الاعلام في خدمة القضايا الكبرى؟» «كيف يمكن للاعلام أن يعيد خلق البشر؟» وسمير الذي كان يظهر تجاوباً واضحاً في هذه المناقشات، إذ يقدم أفكاراً «لتعميق الحوار وبلورته»، كان يقابله مطيع الذي يريد أن يبحث الهموم اليومية وكيفية التغلب عليها. وكثيراً ما حاول أن يضع حداً «للقضايا الكبرى والبحث في القضايا الصغرى» كما كان يقول مازحاً، ويطرح ما يتطلبه العمل. كان من شأن ذلك أن يزعج الحكيم «لأنه يقطع عليه سلسلة أفكاره ويسقطه من أعلى علّيين إلى الدرك الأسفل نتيجة إدخاله في اليومي».

ولأن هذه الحالة تكررت مرات كثيرة، وقد سماها سمير ذات يوم «تمرينات عقلية» قبل الشروع في مناقشة القضايا الأخرى المطروحة، والوصول إلى حلول لها، فقد تفتق ذهن الحكيم عن حل مثالي: «يوم للرب، ويوم للقلب؛ يوم للقضايا العملية ويوم لقضايا الفكر». وهكذا تحول اجتماع ليلة الخمس إلى مناقشة «القضايا الكبرى»، حسب تعبير الحكيم، وهذا الاجتماع الذي كان يدخل الملل على المشاركين فيه، ولم يكونوا متحمسين للمناقشة أو إبداء الرأي، ما لبث أن أخذ نسقاً جديداً، إذ أصبح مقصوراً على اثنين فقط: الحكيم وسمير، وبدل أن يتم في القصر أو في مقر جريدة البادية انتقل إلى قصر الحير.

بدت هذه الصيغة للحكيم مريحة ومثالية، فأن يكون في بيته يشعر بطمأنينة أكبر، وأن يكون وحيداً مع سمير يكتشف أن عقله يتوقد وأنه أكثر ذكاء من أماكن أخرى. أما عندما تبدأ تلك المناقشات الخصبة حول «الدوافع» أو حول «القوى الخفية» في الإنسان، ويتذكر الحكيم بعض المقالات التي قرأها في شبابه، ثم ما أضافت له دراسة الطب، خاصة حين كان في النمسا، ويستعرض أفكاره والنتائج التي توصل إليها، فإنه كان يحس بالزهو والتألق، أكثر من ذلك يحس أنه اقترب كثيراً من «إلقاء القبض على النظرية وليس على أفكار فقط».

ومن أجل إضفاء الحميمية الكاملة على هذه اللقاءات كان الحكيم يتبسط كثيراً في الحديث عن نفسه، حين كان طفلاً ثم حين أصبح شاباً. أما دراسته في ألمانيا والنمسا فقد تحدث عنها مرات عديدة وبإفاضة، ولفرط ما كرر قصصاً بذاتها فقد حفظها سمير تماماً، لكنه دائماً كان يبدي دهشته وإعجابه وكأنه يسمعها لأول مرة، وهذه الطريقة في الإصغاء والاستجابة كانت تدخل السرور إلى قلب الحكيم وتجعله في أحيان كثيرة مرحاً.

ذات مرة، عندما تحدث عن أيام قديمة، أيام الشباب وأول سنين ممارسته الطب، وكان يتحدث، ربما للمرة الثالثة أو الرابعة، كيف ترك طرابلس إلى حلب، فقد قال سمير بلهجة جادة، لكن مرحة أيضاً:

- اسمح لي أن أقول لك يا سعادة البيه أن حياة سيادتك من الغنى إلى درجة يجب أن تكتب، لتكون قدوة للأجيال القادمة.

والحكيم الذي سر من هذه الملاحظة لم يعلق، لكن الفكرة راقت له جداً، إذ لم يفكر في الأمر تفكيراً واضحاً متكاملاً. صحيح أنها خطرت له في أوقات سابقة، وفي محاولة لرفع مستوى الجرائد والمجلات في السلطنة، أن يساهم فيها، وأن يكتب حول نظريته أو حول تجاربه وحياته، إلا أن هذه الخواطر لم تدم طويلاً ولم تتبلور، لأن «النظرية يجب أن تظهر كاملة، وبمستوى النخبة، لا أن تمرمط على صفحات الجرائد والمجلات أمام الصعاليك والسوقة»، أما الكتابة عن حياته وتجاربه فقد وجدها مبكرة. الآن وسمير يطرح الفكرة تضج حياته في ذاكرته، وتنتصب بأيامها ولياليها كما لو أنه يراها تتكون أمام ناظريه. لكن في لحظة قال ليقنع نفسه «كل شيء في وقته حلو!».

هذه اللقاءات كانت بداية لعلاقة من نمط جديد بين سمير والحكيم، علاقة حميمة ومتكافئة، لأن الحكيم الذي يشعر تجاه الآخرين بمشاعر متباينة، وبعض الأحيان غامضة أو متناقضة، يجد تعويضه مع هذا الإنسان «مثلما البطون تحتاج إلى الغذاء فإن العقول تحتاج إلى الغذاء أيضاً، وقد تكون حاجة العقول أكثر من حاجة البطون، لكن أكثر الناس لا يدرك

ذلك، خاصة في موران» فالعلاقة بحماد تشعره بنوع من الرضا، لأن تعليمه أجدى وفراسته صائبة، «لكنن حماد بطيء الفهم وعقله محدود» ويضيف لنفسه وهو يضحك: «المراكز الدنيا والوسطى هي الأقوى». أما سعيد فلا يمكن اعتباره صديقاً أو موثوقاً، بل هو عدوّ محتمل، «لأن المراكز مختلة، غير منضبطة، وغير متساوية من حيث التأثير». أما مطيع «فإنه قريب، والقرابة ترتب ضرائب، وهذه الضرائب يجب أن تُؤدّى» ويهز رأسه ثم يتابع بثقة: «ومع ذلك فإنه لا يخرج عن شوري ولا يتصرف دون الرجوع اليّ».

ويستعرض الحكيم في ذاكرته شخصيات أخرى وأشخاصاً آخرين عرفهم أو مروا في حياته، ويتوقف من جديد عند سمير، يقول لنفسه: «مثل هذا الخلد لا يجد الإنسان: قطٌ من خشب: يصيد ولا يأكل، يسلي ويحلي ويأكل ويخلي» ومع ذلك يجب أن لا يبالغ في إظهار حبه أو إعجابه به، لأن «الحب الهادئ هو الحب الدائم. وهو الحب الأقوى».

وسمير، بعد تجارب وخيبات قديمة، يعرف لماذا جاء إلى موران وماذا يريد: «الصدفة خلقت هذه الثروة، والصدفة هي التي دفعتني إلى هنا، ولولا ذلك لظللت بعيداً، ولظلت موران، بالنسبة إليّ، نسياً منسياً. قبيلة تائهة في هذه الصحراء غير المحدودة، لكن ما دمت قد جئت، وما دام لي دور، وقادراً، فيجب أن أستفيد من كل شيء وإلى أقصى حد، لأنها فترة محدودة، قصيرة، عابرة، ولا يمكن أن تتكرر أيضاً. ليس لدي وهم من أي نوع، ولا يمكن أن أثق أو أتوقع».

وحين ينظر حواليه يقول لنفسه بحزن «لا يمكن للإنسان أن يتفاهم مع هؤلاء البدو مهما قدم من تنازلات، انهم حيوانات صحراوية، ويتصفون بخصائص لا يمكن أن يتنازلوا عنها أبداً، ومن الجنون أن أفكر بالتكيف معهم. يمكن أن أضحك عليهم، أن أمازحهم، لكن نبقى عالمين» وحين يتذكر حماد ومالك وآخرين يزفر ويحدث نفسه: «وأصبحوا معقدين بعد أن جاءتهم الثروة بشكل مفاجئ ودون استحقاق. كل واحد منهم يتصور نفسه رباً من الأرباب، ويفهم كل شيء، لذلك من العبث مناقشتهم أو التفاهم

معهم حول أية قضية، إنهم أعند من الصخر» وحين تمر صورة الحكيم في مخيلته يبتسم «مغرور وتافه، يتصور نفسه أنه قادر وقوي، لكن في الحقيقة «مهنته» أوصلته إلى موران وأدخلته إلى قلب السلطان، فتوهم القوة، مثل البالون، ويمكن أن ينتهي في لحظة، خاصة من الناحية السياسية، لكن مع ذلك يجب التفاهم معه أو على الأقل مجاملته. أما أوهام الفلسفة والقضايا الكبرى فإنها أكاذيب، يحلو له أن يلعب بها كما يحلو لأغلب الرجال أن يلعبوا مع النساء، متوهمين، في لحظات معينة، أنهم أصبحوا محبوبين ومرغوبين، وبالتالي قادرين على السيطرة، لكن عندما تنتهي الليلة، عندما تنتهي اللذة، يكتشفون كم كانوا واهمين ومخدوعين، ويحزنون أنهم خدعوا بهذا المقدار».

ويتذكر حياته الماضية، فيهز رأسه دلالة التصميم «أنا لست مستعداً أن أكرر تجاربي وأخطائي. أعرف الآن من أكون، وماذا أستطيع.. وكيف. هذه الأسئلة التي تعلمتها في الجامعة، وكانت تبدو لي في ذلك الوقت بسيطة إلى أقصى حد، هي الآن الأسئلة الصعبة والمشوّقة، وأجدها اليوم في منتهى الحكمة».

على هامش المناقشات «المعمقة» التي أجراها الحكيم مع سمير، أشار بشكل عرضي إلى أن لديه نظرية يريد أن «ينصرف إلى تدوينها ونشرها بين الناس لتعم الفائدة» وأشار أيضاً إلى أنه بهذا الدافع اضطر إلى مراجعة أعداد كبيرة من الكتب القديمة، وتعمّد إجراء الحوارات الذكية مع ذوي الاختصاص، وأنه دوّن في دفتر خاص، سماه «الخرطوش» الكثير من الأفكار التي توصل إليها والاستشهادات والتضمينات التي توضح أفكاره.

ولا يعرف الحكيم كيف خطرت له أيضاً فكرة أن يوصي على عباءة سوداء ليلبسها أثناء العمل، خاصة وأنه سيبدأ التدوين في مطلع العام، فترة البرد في موران. أكثر من ذلك تراءت له فكرة العباءة السوداء ضرورية للغاية، لأنها تشبه ملابس القضاة أو الرهبان، وهو في عمله سيكون قاضياً ويصدر أحكامه الكلية والحاسمة، وسيكون راهباً أيضاً في محراب الفكر، وفاء للنذر الذي قطعه على نفسه بإخراج نظرية المربع إلى الناس.

تبدت الصورة واضحة لسمير، رغم حذر الحكيم وعدم كشفه لأوراقه كلها، فوجد الأمر من الطرافة والتغيير بحيث يجعله يتغلب على صعوبة الحياة في موران، فبدأ يلعب اللعبة: أتى للحكيم بعدد من الكتب، ووضع الإشارات على الكثير من النصوص، ودخل معه في مناقشات فرعية كثيرة، وفي لحظة توهج ومزاج مرح لم يتردد في أن يطلق على الحكيم تسمية: المعلم الرئيس، تشبيهاً له بابن سينا. أما عندما أطلعه الحكيم على العنوان المقترح للكتاب، وبعد فترة صمت وتأمل، فقد ارتأى سمير إضافة عنوان فرعي، واقترح عنواناً مؤقتاً: «الناموس الأساسي في الفكر السياسي لأبي غزوان الحكيم النطاسي: صبحي المحملجي الطرابلسي».

هذه الأمور جعلت الحكيم في حيرة، فما يقوله الرجل يتسم بمقدار كبير من الجدية، والمعونة التي يقدمها مخلصة، لا يتطرق إليها الشك أبداً؛ حتى الاقتراح بأن يستمرا في المناقشة، رغم تقدم الليل في كثير من الأحيان، وموافقة سمير أن ينام في قصر الحير، كل ذلك جعل الحكيم ميالاً إلى اعتباره جاداً ويعني كل كلمة يقولها وكل موقف يتخذه. أما أن يقارنه بابا سينا، في هذا الوقت المبكر، وقبل أن ينشر نظريته بين الناس، ففيه شيء من المبالغة، لكنها نتيجة المحبة وليس نتيجة سوء النية. قال الحكيم ليقنع نفسه: «قل لي بماذا تفكر أقول لك من أنت، والرجل لا بد أدرك ما أفكر فيه وما أنوي عمله!».

بهذه الطريقة اكتملت الحلقة أو كادت. فخيم على قصر الحير نوع من الرضا، لأن الحكيم يوشك على الانتهاء من استعداداته وينتظر مطلع العام لكي يبدأ. ومع ذلك ظل مشوشاً قليلاً، خاصة حين راودته فكرة إهداء الكتاب إلى السلطان. فقد بدت له أهمية الكتاب، في لحظات معينة، تفوق كثيراً الشخص أو الفترة التي يعيش فيها والناس الذين حوله، أياً كان مستواهم. ولا يعرف كيف عنّ له «مالئ الدنيا وشاغل الناس، المتنبي»، لا بل سيطر عليه، قال لنفسه في لحظة انفعال: «من هو هذا القزم الأعرج، كافور ومن سيتذكر هذا الأسود الذي كان مشفره نصفه لولا أبو الطيب؟» وبدا أكثر ميلاً أن لا يكون الإهداء إلى السلطان، «إنه مجرد إنسان عادي، ولولا المشورة التي تقدّم إليه لما استطاع شيئاً».

لكنه لا يستطيع أيضاً أن يتجاهله، أن يمر على الموضوع هكذا دون الإشارة إليه أو دون ذكره. فكر أن تكون في نهاية المقدمة إشارة إلى السلطان، لكن تخوف من هذه الفكرة، إذ «قد يأتي إخوان السوء، وبعد قراءة الكتاب، بما فيه المقدمة، لا بد وأن يقولوا للسلطان أن لا ذكر له في كتاب من مئات الصفحات إلا في ذيل صفحة من صفحاته، عندها تبدأ المشاكل! وفكر أن يكتب قبل الاستهلاك كلمة يشير فيها إلى أنه أنجز تدوين الكتاب وهو «نزيل موران» وفي عهد السلطان خزعل، لكن لم يتوقف عند هذه الفكرة طويلاً، لأنه لم يحب في حياته كلمة نزيل، فهي

تذكره بنزلاء السجون والمصحات العقلية؛ ولأنه لا يريد أن «ينشر نفسه على حبل، ويقول للقاصي والداني أنه ليس مورانياً، أو أنه مجرد ضيف في موران».

قرر أخيراً، حسماً لهذا القلق، ولكي ينصرف إلى «المتون لا إلى الحواشي» أن يوافق على إهدائه إلى السلطان. «أعرف أنه لا يستحق هذه الدّرة، لكنه مثل كل الملوك والرؤساء يحب أن يكون مركز الاستقطاب والاهتمام، لكي ينظر إليه الجميع ويتصوره الجميع عبقري زمانه، مع أنه لا يساوي نكلة. وعلى الإنسان أن يضحك على هؤلاء الملوك والرؤساء وأن يدغدغ سخافاتهم بكلمة، وهذه الكلمة ستكون جواز المرور، فإذا ملك الإنسان الجواز وصل إلى النجوم» وتراءى له الاهداء مكتوباً بماء الذهب، على الصفحة الأولى، والسلطان ينظر إلى تلك الكلمات المذهبة ويرى اسمه كالقمر يلمع وسط النجوم، عندها لا بد أن يغدق عليه أكثر مما أغدق على أي إنسان، ويأمر بتوزيع الكتاب في كل مكان، وبين عشية وضحاها يصبح الكتاب بين أيدي الناس يقرأونه ويحفظون نصوصاً منه، والذين لا يعرفون القراءة يمسكون بأولادهم أو أقربائهم المتعلمين ويطلبون أن يقرأوا لهم بضع صفحات من هذا السفر، لكي يحفظوا منه مقاطع يرددونها كما يرددون القرآن أو كما يحفظون أبيات الشعر التي يحبونها. أكثر من ذلك تراءى له الكتاب يترجم إلى عدد كبير من اللغات الأجنبية، ويصدر في عواصم عديدة في وقت واحد، ويكون موضع اهتمام الصحافة والاذاعات والجامعات، ويُدرس بعناية من قبل الدوائر المسؤولة، ليس باعتباره كتاباً هاماً فحسب وإنما لأنه من إعداد شخصية مرموقة، ولأنه يمثل سياسة وفكر سلطنة موران في الحاضر والمستقبل، ولذلك يجب أن يُعنى بكل كلمة، وأن يتم التوقف عند كل جملة، إذ بدون ذلك لا يمكن فهم سياسة موران أو الفكر الذي يوجه كل خطوة من خطواتها وكل موقف من مواقفها.

وفكر أن تكون اللغة الألمانية أولى اللغات التي يجب أن يترجم إليها الكتاب، لأنها أولاً لغة الفلسفة، وثانياً لأن الألمان أكثر من غيرهم

استعداداً لفهم الأفكار العميقة والذكية. ويعد أن يترجم لا بد أن يبعث بنسخة إلى تلك العجوز التي سكن عندها وتصرفت معه بتلك الطريقة الفظة، دون أن تظن لحظة واحدة «أن الرجل الذي طردته من بيتها سيكون بهذه الأهمية وبهذه القوة». ربما لا تزال تلك العجوز حية إلى الآن، وقد تشتري بنفسها الكتاب، لكن مع ذلك يجب أن يرسل إليها نسخة، مع كلمة وتحية، سيكون لها درساً، وقد تندم؛ «لكن هيهات أن تنفع الندامة». أما إذا ماتت فإن ورثتها سوف يستلمون الكتاب وسوف يتداولونه، وبعدما يقرأونه ويعجبون به، سيكون «ضيف كل سهرة»، وسوف يقدمونه لأصدقائهم ويذكرون لهم أن الكاتب عاش في هذه الغرفة، وفي هذا البيت بالذات، ولا بد أن يشيروا أين كان ينام وأين كان يدرس».

وفكر لو أنه يتجاوز النظام القاسي الذي فرضه على نفسه، أو الوقت الذي حدده لبدء «التدوين» وأن يشرع فوراً. «إذ ما الفرق أن أبدأ الآن أو في أي وقت آخر؟ من سيحاسبني ومن سيكلف نفسه دراسة هذه القضية بالذات؟» لكنه عاد وقرر «أن يكون العمل ضمن نسق واضح، وأن يخضع لنظام لا يحيد عنه» لأن النظام في رأيه جزء من النظرية، ولا بد أن يتقيد بكل التفاصيل لكي يصل إلى النتيجة التي يريد.

هكذا راودته الأفكار والمخاوف، وهكذا اعتراه التردد والقلق، لكنه مع ذلك استطاع أن يتوصل إلى حلول اعتبرها مناسبة، وأرجأ قضايا معينة لكي يفكر فيها أكثر من قبل.

وداد كانت ملكة الخريف كله، بأيامه ولياليه، ثم الشتاء الذي تلاه. فما كادت تدخل التحدي حتى بدت أكثر فتوة وأكثر إشراقاً. أضفت على الحكيم جواً من العناية، وسألته باهتمام عن المدة اللازمة من أجل إنجاز كتابه، وما إذا كان ذلك الكتاب قصة أم شيئاً آخر، وسألته أيضاً إذا كانت قادرة على أن تقرأه وأن تفهمه، والحكيم الذي اغتبط لهذا الجو واعتبره فألاً حسناً، شرح لها بكثير من التبسط أن الكتاب يمكن اعتباره كل شيء «سيكون كتاباً جامعاً، فيه قصص التاريخ وقصص الأقدمين، وفيه الحكمة والشعر. ويمكن لكل إنسان أن يقرأه ويخرج بنتيجة». ووداد التي فهمت

ولم تفهم، لم يكن سؤالها يتجاوز إبداء الاهتمام وإشعاره أنها معه، وكان هذا يكفيه!

وفي غمرة الاستعداد للإقلاع كُثّفت المناقشات وأُعطي لها نسق عملي. ففي كل ليلة من خريف ذلك العام، كان الحكيم يحدد موضوعاً للمناقشة، وكثيراً ما يكون بيتاً من الشعر أو حكمة، ويسميه الاستهلال، حتى إذا أشبعاه بحثاً وشرحاً، وتوصل منه إلى نتيجة يعتبرها مرضية قام بتسجيلها، ولا يتردد في أن يعيد تلاوة ما سجله على مسامع سمير، وكان يسمي هذه النتيجة «القفلة».

وداد تحضر جزءاً من هذه المناقشات. كانت تتسمع بصمت وتنقل نظراتها بين الرجلين، لكن أغلب الأحيان لا تسمع ما يقولانه. فإذا ملّت من هذه الأحاديث فلا تلبث أن تنسحب لتوجه الخدم أو لتساعدهم في إعداد العشاء، فإذا انتهت دعتهما إلى المائدة. وعلى مائدة العشاء يأخذ الحديث نسقاً آخر: يصبح خفيفاً، ناعماً، طريفاً، والعادة أن يشارك فيه الجميع، وكان هذا يسعد الحكيم ويجعله في حالة من النشوة، فإذا تساءلت وداد في نهاية العشاء ما إذا كانا سيواصلان، يرد سمير بمرح:

ـ على مزاج الحكيم وحسب أوامره.

ويقهقه الحكيم فرحاً كطفل، إذ لا يتصور أن كرماً مثل هذا لا يزال موجوداً بين الناس، فيعلن بحماسة كبيرة رغبته في أن يواصلا العمل ساعة أو ساعتين «من أجل الوصول إلى قفلة أو اثنتين». أما وداد التي تستعد لتركهما، بعد أن تكون قد امتلأت نشوة، فإنها تكرر الرجاء ذاته.

ـ لا أريد أن أوصيكم: الانسان يحتاج إلى الراحة والنوم.. أيضاً!

وتضحك بغنج ثم تضيف:

ـ ولا تظلموا أرواحكم!

يطمئنها الحكيم، مؤكداً لها «أن الأفكار جاهزة ولن أتعب سمير أو أطيل عليه» فترجوه بهمس أقرب إلى الحياء «أن لا يشعل النور لكي لا يوقظها» ويبتسم ويهز رأسه دلالة الموافقة!

وفي رطوبة الساعات الأخيرة من الليل، ومع النسمات الرخية، وبعد أن تطمئن وداد أن الحكيم انزلق إلى فراشه كالقط، وغرق في ملكوته الأبدي، تنسل. كانت وهي تنحدر إلى الطابق السفلي، تبدو كالشبح في هذا السكون الذي لا يقطعه سوى شخير الحكيم. ومثل الأحلام الجميلة المعطرة، أو كالحيوانات الأليفة التي تعرف كيف تداعب أصحابها، وكيف تدخل إلى أعماق قلوبهم، ودون أن يحس سمير متى دخلت أو كيف.. تنزلق في الفراش إلى جانبه.

ساعات حافلة من المتعة والخوف معاً، وهذا الخوف بالذات يحول كل حركة وكل لمسة إلى كهرباء صاعقة، فلا يتذكر أي منهما أنه عاش لذة كهذه من قبل، أو أن لذة مثل هذه يمكن للإنسان أن يصلها أو أن يدركها، حتى إذا تبددت الظلمة أو كادت، وبدأت الأشكال والأشياء في غبش الفجر تبين، لكن دون وضوح، وسمعت أصوات العصافير، تتحرك وداد، لكن دون رغبة، إيذاناً أن ليلة أخرى على وشك أن تنتهي. كانت في حالات كثيرة، بعد هذه الحركة المؤذنة بالرحيل، تلقي بنفسها عليه مرة أخرى، تحتضنه، تقبله وكأنها لا تنوي ترك الفراش أبداً. وهو الذي يشعر بالارتواء يمتلئ بالرهبة، فتصبح استجابته أضعف ورغبته أقل، حتى إذا تسللت تاركة الباب نصف مفتوح قام فأغلقه وغرق في النوم.

في الصباح، والحكيم يتناول إفطاره على الشرفة الخارجية، إن كان النهار مشمساً، يوصي الخدم بكثير من الحرص أن لا ترتفع أصواتهم وأن لا يحدثوا أية ضجة، «لأن الأستاذ نائم، ولا بد أن يكون قد تعب من سهر الليلة الفائتة». أما وداد التي تتأخر، مثل عادتها، فإنها تبقى في الفراش، أو تشغل نفسها بأشيائها الخاصة، وتظل هكذا إلى الظهر تقريباً، إلى حين عودة سلمى من المدرسة.

تكررت مثل هذه الليالي كثيراً. ووداد التي كانت مندفعة بتأثير الغيرة ورغبة في التحدي أول الأمر، ما لبثت أن شعرت بسخف راتب وتفاهته: «جبان. لا يعرف سوى المال، ولا يختلف عن الحكيم بشيء، حتى الشكل، بعد أن تزوج، أصبح أقرب إلى السمنة، ويبدو راضياً عن نفسه

وكأنه ملك كل شيء». أكثر من ذلك وجدت أن سمير، بشكله وسنه وطريقته في التصرف «يختلف كثيراً عن هؤلاء التجار».

ودون خوف أو تردد، وبعض الأحيان بتحدٍ ظاهر، أقرب إلى السخرية، أصبح سمير واحداً من الناس الذين لا يفارقون قصر الحير. وهذه الصيغة في العلاقة جعلت الحكيم يفترض أن بإمكانه أن يكاشفه بنظرية المربع، أكثر من ذلك فكر لو أنهما يشتركان معاً في صياغتها. لكن اعتبر الأمر سابقاً لأوانه، وربما فيه بعض الخفة «ليأت الاقتراح منه. إذا اقترح سوف يعفيني من أمور كثيرة، يمكن أن أملي عليه ويكتب، أو أودعه أفكاري فيتولى صياغتها» لكن فجأة امتلأ بالقلق «غداً. عندما تصدر النظرية، لا بد أن يقول الحساد: أن سمير قيصر أبوها وأمها، هو صاحب الفكرة وهو الذي كتبها، ولا يعدو دور الحكيم الزخرفة، وربما وضع اسمه ليستفيد أو ليروج الكتاب» ولذلك صرف النظر، بكثير من الحزن، عن هذا الاقتراح.

راتب الذي كانت عيناه كعيني الذئب لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة، قال للحكيم ذات يوم:

ـ يا حكيم.. لا أحد يحضر الدب إلى كرمه!

ويتطلع إليه الحكيم باستغراب ودهشة، ويسأل:

ـ شو قصة الدب والكرم.. يا راتب؟

ـ سمير.. يا أبو غزوان.

ـ شو قصة سمير؟ وليش أنت تارك كل الناس وما عندك إلا سمير؟

ـ يا حكيم، ما ظل حدا إلا وحكى، يقولون: لبخله ترك بيته وعايش براس الحكيم!

ـ يا راتب كلام الناس كثير، واللي يسمع كلام الناس يدوخ.

ـ بس يا حكيم الأخ زادها كثير.

ـ يا سيدي، بصراحة، أنا اللي ماسكه، أنا اللي يستفيد منه.

وبكثير من الارتباك والتداخل شرح الحكيم لراتب أن لديه مشروعاً

كتاباً كبيراً، وذكّره بالكتب التي أوصاه عليها خلال زياراته السابقة إلى موران، وكيف أن هذا المشروع لا يقتصر بأهميته وتأثيره على موران وحدها، ولا يقتصر على الفترة الحالية، وإنما يتجاوزهما إلى المنطقة كلها، وإلى فترة زمنية طويلة. كما أشار الحكيم بكثير من المرارة إلى الاضطرابات التي تعصف بالعالم، وأن السبب فيها عدم وجود «علماء أكفاء يتصدون لصياغة الأفكار من أجل حماية الأخلاق والدين والوطن» وبطريقة غامضة، وفيها شيء من التواضع، أشار إلى أنه يتصدى لهذه المهمة، وأن سمير الوحيد الذي يمكن أن يساعده.

ومثل المرة الأولى أجل راتب معركته انتظاراً لظروف أفضل!

بعد أن أصبح حماد شخصاً مهماً في موران، ويتردد اسمه همساً بين الكثيرين، بدا الأمر غريباً لعمه شداد. لما التقى به بعد شهور طويلة، سأله بسخرية:

- يا وَل، يا حماد، قبل سنتين، لما سألتك وين تشتغل قلت لي بالقصر، مشاور للسلطان، وهالحين أشوفك تهفي، كل يوم بديرة، وكأن السلطان ما يريد شورك!

وضحك بصوت عالٍ، ثم تابع:

- علّم عمك الصحيح، يا حماد، أنت مشاور سلطانا أم مشاور غيره؟

ابتسم حماد ولم يجب. التفت شداد إلى الذين يسمعون:

- خلوا ببالكم يا جماعة: حماد مثل ما قالوا جماعتنا: إذا نوى ما يعلّم بطاريه، ويظن أن الناس ما تعرف، لكن يروح يوم ويجي يوم وكل شي يظهر.. وبعدها ويش يقول؟

- يا عم اللي تشوفه عينك: يقول السلطان: سافر، أسافر. يقول السلطان: سوِ، اسوي. يقول السلطان: اجلس، اجلس. وأنت تظن أن ورا كل سفرة فرس، لكن هذا ما هو بصحيح!

هكذا رد حماد مداعباً، وفهمت كلماته بأكثر من شكل. وعمه الذي هزّ رأسه موافقاً قرر أن يعرف بطريقته الخاصة.

لم يتغير حماد على أهله وأصدقائه فقط، تغير على نفسه أيضاً. فبعد أن كانت موران المدينة، وليس موران السلطنة، عالمه الذي يدور فيه، وإذا تجاوزه فإنه لا يفعل ذلك إلا إلى البادية القريبة، عدا سفرات قليلة رافق خلالها القوافل، لكنه لم يواصل سفره إلى المحطات الأخيرة، حيث

وصلت تلك القوافل، فإنه الآن، ويوماً بعد آخر، تستبدّ به هواية اكتشاف العالم، فيقبل عليها بكثير من الرغبة والشوق، ويمارسها بطريقته الخاصة أيضاً. والأميركيون الذين أشاروا عليه بأن يقلل من ظهوره في الأماكن العامة، وأن ينتحل اسماً مستعاراً في بعض أسفاره، من قبيل الحيطة، وأن يُبقي تحت تصرفه مبالغ من المال جاهزة، لكي يتصرف بها عند الضرورة بشكل مباشر، ودون الرجوع إلى أحد، أو دون المرور بأشخاص آخرين، هذه الأفكار والاقتراحات راقت له إلى أقصى حد، وبدأ عقله يتفنن في اختراع الأسماء والألقاب، كما جهّز لنفسه مجموعة من جوازات السفر بأسماء وهيئات مختلفة، حتى أنه لا يتمالك نفسه من القهقهة بصوت عالٍ إذا نظر إلى الصور الملصقة على الجوازات، خاصة حين يتذكر متى وكيف التقطت له هذه الصور! أما المبالغ المالية التي كانت تحت تصرفه، فقد اقتطع قسماً منها ووضعه في الخزانة الحديدية، التي يحتفظ فيها أيضاً بعدد من المسدسات وجوازات سفر جاهزة للاستعمال في أية لحظة، بعد أن توضع عليها الصور وتدون الأسماء.

الشخص الوحيد، أو من الأشخاص القلائل، الذي لم يلاحظ على حماد تغيراً مهماً هو الحكيم، وإذا لاحظ فذلك التحسن المستمر والذي كانت نتيجة الاندماج بالعمل إلى حد الهوس، والذي رافقه اكتساب خبرات تزيد بمرور الأيام، مع مرونة عزاها الحكيم إلى الجهد الذي بذله في تدريبه وصقله، ثم جاءت السفرات لتوسع مداركه وتزيد وعيه.

ومثلما تفاءل الحكيم باختيار حماد، تفاءل أيضاً بالتقدم الذي حققه، وهذا سهّل وعجل في أن يترك له معالجة الكثير من الأمور دون تدخل، ثم في استقلال الجهاز بعد ذلك.

لقد حصل هذا دون إعلان ودون قرارات، وحصل، عملياً، قبل أن يقرر الحكيم التنازل عن بعض الصلاحيات. وحماد الذي فعل ذلك بالحدس، أول الأمر، ما لبث أن بدأ يعي نتائج كل موقف وكل خطوة، خاصة وأن زياراته العديدة إلى الولايات المتحدة أفادته كثيراً، ثم جاءت نصائح مركز الأبحاث والتقارير التي قدمها لتحدد له عملياً ما يجب أن

يعمل، وأخيراً المناقشات الخصبة التي كانت تجري بينه وبين مساعديه، خاصة من الأميركيين، وبعض الأحيان بوجود مستشار السفارة، باول اندورز، وقد أدت كلها إلى نتائج حاسمة ومفيدة.

الآن والحكيم يبدي هذا الخوف كله من «الرياح الحمراء»، كما يسمي الأفكار والحركات التي تسري في المنطقة، ويصبح عصبياً نزقاً وهو يطلب من حماد أن «يتخذ الإجراءات المشددة من أجل اجتثاث هذا الميكروب قبل أن يصبح مرضاً مستوطناً، مثل الكوليرا والبلهارسيا والتراخوما» ويرفض أيضاً أن تسرف موران في اعتماد أسلوب الهدايا والعطايا، هذا الموقف الذي تقبله حماد بنوع من «التفهم» والرضا، أثار في نفسه تساؤلات وأفكاراً كان يحاول أن يبعدها أو أن يموهها خلال الفترات السابقة، لكنها تنبثق الآن من جديد: لماذا يبدو الحكيم متشدداً قاسياً تجاه «الوافدين» كما يسميهم، ويجعلهم كلهم في سلة واحدة؟ ولماذا يبدي هذا الحرص كله لموران والسلطنة أكثر من أهل موران وأكثر من السلطان ذاته! والمال. . . هل إذا دفعت موران هنا وهناك، وكما تريد وليس كما يطلب الآخرون، يعتبر أمراً زائداً؟

رغم النصائح التي تكررت كثيراً أن لا ينفعل، أن لا يقول «نعم» نهائية، أو «لا» نهائية، وأن لا يقرأ على وجهه أي موقف، فإنه يجد نفسه غير قادر على السكوت أو الاحتمال. قال للحكيم بسخرية مبطنة:

- تذكر يا أبو غزوان: نشف ريقنا إلى أن خلصنا من مالك أبو كزلك. وقد أطلق عليه الحكيم هذه التسمية لأنه كان يحار باستعمال نظارتيه. كنا نقول له ادفع يقول ما عندي فلوس؛ واليوم بعد ما خلصنا منه، وبعدما أنعم الله على السلطنة بهذا الخير، وإذا أعطينا هنا وهنا فنحنا اللي نكسب، ومن زمان جماعتنا قالوا: اللي يأكل من خبز السلطان يحارب بسيفه.

توقف قليلاً، تنفس بعمق ثم أضاف:

- وظني يا أبو غزوان أنه إذا صرفنا كم قرش هنا وهناك نخلص من الشتائم اللي تسمعها صبح وعشية. ونخلص من الفتن ومن السلاح اللي

يحطوه تحت الحمل ويعبرون به الحدود لحين ما يجي وقت ويرفعونه بوجوهنا.

وانخفض صوته حتى كاد لا يسمع:

ـ ومثل ما قالوا: شبّع البطن تستحي العين.

ولم يقتنع الحكيم، ظل مصراً على رأيه، ولم ينتظر حماد موافقته لكي يتحرك، أو لينفذ ما يدور في رأسه، لكن دون أن يطلعه على شيء أيضاً. وفي جو الحركة والانفعال، ومن المنافسة المكتومة، ولأن أموراً كثيرة جدت خلال هذه الفترة، ان مثل هذه المناقشات لم يتكرر، كما لم تظهر أية خلافات بوجهات النظر، خاصة وأن الحكيم استغرقته أفكار وهموم جديدة.

«زوجتي قريبته ويريد وحده يكون عمي. . لكنه متوهم وغلطان» هكذا قال حماد لنفسه، وهو يتذكر ابتسامة الحكيم الساخرة، بعد أن سأله عن رضائي والآخرين، وكيف لم يقل له عن الأعمال الجديدة والمشاريع التي سينفذها.

ليس هذا أول سوء تفاهم يقع بين الاثنين، فقد سبق ذلك أيضاً الاختلاف حول السياسة التي يجب اتباعها في المنطقة، وحول علاقات جهاز الأمن والسلامة بالأجهزة الأخرى. وإذا كان حماد قد تعلم دروساً خلال السنوات الماضية، فلعل أول وأهم هذه الدروس: الصمت، وحسن الاستماع. لا يتكلم إذا لم يُسأل، وإذا سئل يجيب باختصار شديد، ولولا تلك الابتسامة التي تسبق الإجابة، أو ترافقها، وغالباً ما تملأ وجهه، أو تشكل قناعاً لهذا الوجه، لأسيء فهم موقفه وإجاباته.

تعلم الصمت واتقنه، بعد أن رأى الكثير وسمع الكثير: كل واحد من الذين حوله لا يلذ له شيء أكثر من أن يتحدث عن الآخرين. كان حماد يعتبر أن المعلومات التي تقال هامة وطريفة في آن واحد، وكان يعتبر أيضاً أنها ستكون مفيدة ذات يوم، ولذلك أخذ يحتفظ بها!

الحكيم، من جانبه، افترض أن الخدمة التي قدّمها لحماد بتعيينه في هذا الجهاز، ستجعله تابعاً وخاضعاً له تماماً، ولذلك تعامل معه، منذ الأيام الأولى، بطريقة متعالية، وأخذ يستعرض أمامه كل ما يعرفه، لا من أجل أن يعلمه، وإنما ليثبت له جهلة وقلة درايته. وحماد الذي «انعبط» خلال الفترة الأولى، وهو يستمع إلى الحكيم يتجول في أنحاء العالم، ويتحدث عن أمور كثيرة ومعقدة، ما لبث أن اكتشف عدم جدوى أكثر

الأمور التي يتحدث عنها، لأن «الحكيم لا يعرف أقرب الأشياء وأقرب الناس إليه»، وقد تأكد من ذلك نتيجة وقائع كثيرة.

لم يقتصر الأمر على ذلك، كان يلذ للحكيم، حتى وقت متأخر، الحديث عن بداية تكوين جهاز الأمن، فقط ليذكر حماد بأفضاله عليه وأهميته بالنسبة له. حتى اللهجة الأبوية التي كان يستعملها السلطان، حين يطلب شيئاً أو ينبه إلى شيء، وكان حماد يستمع بكثير من الرضا والموافقة، أغرت الحكيم، وكان شديد الكلف بها، بل وأخذ يستعملها أيضاً، الأمر الذي يثير حماد إلى أقصى حد، بل ويجعله نزقاً، لكن كان يداري الإثارة والنزق بالتحمل والصمت، إلى أن أصبح عادة.

بالمقابل لم يذكر حماد، ولم يشر مجرد الإشارة إلى المنافع الكبيرة التي حققها للحكيم أول مرة ثم في المرة الثانية، حين كان وسيطاً بينه وبين عمه راشد، ثم عمه شداد، والحكيم نفسه لم يعد إلى تذكر هذه الأمور أبداً. أكثر من ذلك حين طلب راشد المطوع أن يلتقي بالحكيم ليتفاوض معه على ما له من أرض الحصيبة، أو بالأحرى ما تبقى لآل المطوع منها، فقد أبدى الحكيم استغرابه لطلب راشد المطوع ورغبته في لقائه. قال لحماد بتساؤل أقرب إلى السخرية:

ـ الأرض اللي يحكي عنها عمك، يا حماد، ما لها قيمة، وأنا بعت الأرض اللي اشتريتها منه بخسارة. لكن، من أجلك، يمكن أن أساعده، يمكن أن أجد له مشترياً!

ولما هز حماد كتفيه بعدم اهتمام لأن الأمر لا يعنيه تابع:

ـ وإذا كان يريد يبيع الأرض جنوب المسايل يمكن أن نحكي وأن نتفاهم!

لم يكن حماد بحاجة إلى من يقول له ما إذا كانت تلك الأرض، أو غيرها، بيعت أم لا، وبكم بيعت ومن اشتراها، فقد كانت له في دائرة «الكوشان» التسجيل مجموعة من العناصر تبلّغه بحركة الأراضي وعمليات البيع والشراء التي تتم في موران وخارجها، وكان لديه أيضاً بعض العاملين في مجال التوسط، وعدد من التجار. أما ما قاله لعمه أن الأرض مثل أية

تجارة أخرى، عرضة للربح أو الخسارة، فكان يهدف إلى أن يهدئه ويسترضيه أكثر مما يريد إقناعه.

ويتذكر حماد تلك القصة التي حدثه عنها سعيد منذ وقت مبكر، وكيف تصرف الحكيم بخصوص بعض عقاراته، خاصة مستشفى الشفاء التي كانت له في حران، فبعد أن سخر الكثيرون، حين بنيت في ذلك المكان النائي، وظنوها في البداية أبنية تابعة للشركة، أما بعد أن تجاوزها البناء، وأصبحت أقرب إلى وسط المدينة، وكان يفترض بالأراضي المحيطة بها أن تصبح حدائق، كما قال الحكيم، إلا أنه لم يتردد، بعد أقل من سنتين، وبعد أن زرع قسماً منها، في أن يفصلها عن المستشفى. فصلها بسور نصفه الأسفل من الاسمنت والنصف الأعلى من الأسلاك، على أن يشرع ببناء مجموعة من الدكاكين، إلا أن ضرورة انتقاله إلى موران حملته على الابطاء في مواصلة البناء ثم إيقافه، فلم ينجز بناء سوى الأساسات. أما عندما اشترت الدولة المستشفى، وتقرر شق طريق إلى الغرب، وكان من المفترض لهذا الشارع أن يمر في أرض الحكيم، واضطرت الدولة لشراء الأراضي والتعويض على أصحابها، فقد قال الحكيم كلمة بين المزاح والجد، لكنها وحدها التي نفّذت.

سأل رئيس لجنة الاستملاك:

ـ هل تريدون الأرض غرب المستشفى؟

ـ القسم الأكبر ضمن مخطط شارع السلطان، ولا بد من استملاكها.

ـ وأبنية السوق المركزي؟

ـ السوق المركزي؟

ـ كل شيء انتهى: المخططات، الخرائط، الأساسات... وبين يوم والثاني يكون السوق قايم.

ـ الشارع لازم يمشي يا حكيم.

ـ والتعويض؟

ـ نعوض عن الأرض.

ـ والبناء؟

- البناء، مثل ما تشوف عينك، شبر عن الأرض!

ضحك الحكيم ونظر بتحديد إلى عيني رئيس اللجنة وسأله:

- لو فرضنا أن الاستملاك تأخر شهراً أو شهرين وقام البناء، ماذا تفعلون؟

- نشتري ونهدم ونفتح الشارع.

- وتدفعون عن البناء والهدم وترحيل المواد؟

- أي نعم!

- وإذا خلصناكم من الهدم والترحيل، أما تقولون لنا الله يعطيكم العافية ويكثر خيركم؟

- نقول.

- ادفعوا عن هذا وذاك والله يبارك لكم!

رئيس اللجنة الذي بدت له الفكرة مشوقة، طلب من الحكيم أن يؤجل اتخاذ القرار، أما بعد أن تشاور مع آخرين، واستأذن الأمير، والذي اتصل بدوره بموران، فقد تمت الموافقة على دفع التعويض عن الأرض والهدم وترحيل المواد!

كان يكفي حماد أن تكون له صلة بسعيد فقط ليعرف أدق الأسرار وأكثرها خفاء. أما حين قامت صلة بجميع الذين يحيطون بالحكيم، بمن فيهم رضوان وأبو عبد الله، وبخادمة تساعد زوجته، فإنه يعرف عنه أكثر مما ينبغي، ولذلك اكتشف منذ وقت مبكر نقاط ضعفه «وهواياته» وماذا يملك واين، وان تظاهر أنه لا يعرف عنه أي شيء. أكثر من ذلك بدأ يلعب بمكر مع الحكيم، إذ يستجيب، ظاهرياً، لكل ما يقوله، لكن لا يفعل إلا ما يريده.

عندما أخذت العلاقات بين الرجلين منحى دقيقاً، خاصة اثر التفاوت أو الاختلاف حول علاقات سلطنة موران مع الدول المحيطة، برزت فكرة زواج نادية. تذكرها الحكيم حين تذكر بدري، ودون انتظار طويل ودون تردد، وبعد أن هيأ لها جيداً، كلف مطيع أن يفاتح حماد. وحماد الذي

فوجئ بالفكرة راقت له وبدت طريفة أيضاً، وربما كانت طرافتها، في جانب منها على الأقل، مستمدة من وداد ذاتها، إذ كانت تبدو له جذابة مليئة بالأنوثة والحيوية، وما كادت تتدخل بطريقتها الخاصة حتى تمت الموافقة وبعدها الزواج، وقد استغرق ذلك كله فترة قصيرة جداً. أما بعد أن انقضى شهر العسل، وقد قضاه العروسان في الولايات المتحدة، فقد امتلأ حماد شكاً أن يكون الزواج فخاً يريد الحكيم أن يصطاده به من جديد. لذلك، وبعد أن انتهت الحفلات التي أقيمت على شرف العروسين، اتخذ موقفاً فيه الكثير من المهارة: أغدق الهدايا على نادية، وادعى كثرة العمل من ناحية ثانية، الأمر الذي يجعله غير قادر على تلبية الكثير من الدعوات أو حضور السهرات، ولذلك بدأت تتباعد لقاءاته بالحكيم، بدأت بالتدريج، لكن بإصرار، ثم أخذت تتباعد أكثر.

وبكثير من الصبر والدأب استطاع أن يكسب نادية، واستطاع أن يقنع الحكيم بعلاقات من نوع جديد.

وشيئاً فشيئاً أصبح الحكيم لا يعني لحماد سوى شيء ثانوي، حتى أفكاره وتحليلاته تبدو له سخيفة، أقرب إلى الهذر، ومليئة بالأحلام، فهي لا تعتمد على أية معلومات، أكثر من ذلك أنها مليئة بالنفاق والتلفيق. يختبر بمكر بدائي هوى السلطان، ما يحب وما يكره، وما يرغب أن يقال له، ويغزل على هذا النول، دون أن يكلف نفسه عناء التدقيق بين ما قاله أمس وما يقوله اليوم، ولذلك لم يعد حماد يعبأ بتحليلاته أو اقتراحاته، كان يتركه يتكلم كما يشاء. يهزّ رأسه لما يقوله دلالة الاقتناع والموافقة، لكن يمتلئ تصميماً أيضاً على مخالفة كل كلمة. حتى الاجتماعات الأسبوعية ثم الشهرية التي كانت تشغل القصر في المرحلة الأولى لتكوين جهاز الأمن والسلامة ما لبثت أن فقدت أهميتها بتغيب السلطان مرة بعد أخرى، ثم بذلك الاستعراض الأقرب إلى الزهو الذي يمارسه الحكيم على مجموعة من المساعدين والموظفين الذين يستدعيهم لا لكي يسمع منهم وإنما ليلقنهم دروساً خائبة في سياسة ليس لها وجود في أي وقت أو في أي مكان!

في وقت لاحق، ولم يطل هذا الوقت كثيراً، اثر اكتشاف محاولة لاغتيال السلطان، وقد تابع حماد المحاولة بنفسه، وعرف تفاصيلها كاملة، قدّمها هدية للسلطان، دون أن يدري أحد، خاصة الحكيم، ونتيجة ذلك قامت علاقة خاصة بالسلطان، وخصصت للجهاز أموال طائلة يتصرف بها بالشكل الذي يراه مناسباً، ودون الرجوع إلى أية جهة.

كان حماد بحاجة إلى هذه الثقة بالذات، وبحاجة إلى هذه الأموال لكي يتحرك، فما كادت تمر بضعة شهور، ويبدي السلطان عدم رغبته بحضور الاجتماعات الشهرية لجهاز الأمن والسلامة، حتى بدأ حماد يفعل مثله. بدأ يختار، أول الأمر، أسفاره في فترة انعقاد هذه الاجتماعات، ثم لم يتردد بعد ذلك عن الاعتذار، بحجة وجود أشغال طارئة وهامة، مكتفياً بإيفاد نائبه أو أحد المسؤولين لديه في الجهاز. والحكيم الذي اعتبر السفر حجة مقبولة، أو كما كان يسميها: «القوة القاهرة»، ما لبث أن تعود على أسفار حماد أو على غيابه.

قال له حماد، ذات مرة، رداً على استفساراته:

ـ المهم، يا أبو غزوان، أن يكون أحد مسؤولي الجهاز.

وابتسم ابتسامة عريضة وأضاف:

ـ إلا إذا أردت تأجيل الاجتماعات مرة بعد مرة، أو أن ألغي السفر!

ـ المهم أن نكون في الصورة، على صلة بالمعلومات..

ـ أبشر يا أبو غزوان. ما يحضر أحد من الجهاز إلا وعنده كل المعلومات، وراح أشرف بنفسي.

وهكذا انتهت، أو كادت، علاقة العمل المباشرة بين حماد والحكيم، خاصة بعد الزيارتين اللتين قام بهما حماد إلى الولايات المتحدة. قالوا لحماد أثناء إحدى زياراته، وحين جرى الحديث عن الحكيم «رجل ثرثار» وضحكوا، ثم أضافوا «وهو، في كل الأحوال، غير مؤذٍ، ويمكن أن يكون مفيداً في المستقبل».

الآن، بعد أن ملك الحكيم مساحات في موران وحولها، إضافة إلى ما يملكه في حران، وقد سجّل هذه الأراضي بأسماء أولاده وزوجته، ولم

يسجل باسمه سوى قصر الحير، والأرض التي اشتراها أول وصوله إلى موران، وبدأت تلك المضاربات، وارتفعت نتيجة لها الأسعار، ثم دخل مع بعض الأمراء، يشتري ويبيع، إضافة إلى ذلك البيوت العديدة في بيروت والجبل وطرابلس ودمشق، وبين فترة استراحة وأخرى يهذي بأفكار ومشاريع كتب يريد أن يتفرغ لكتابتها، فقد تأكد حماد «أن الرجل يفهم بالسياسة مثل ما أنا أفهم بالطب» وأن كل ما يقوله أو يفعله ستار لأشياء أخرى، خاصة بعد اختلافه مع سعيد، ثم بداية اختلافه مع راتب، «أما ذلك المنحوت من قصب»، يقصد سمير، «فما عنده حلال أو حرام، يفتي بالطالعة وبالنازلة وما يرف له جفن».

كان يمكن لحماد أن لا يرى الكثير من الأمور، أو أن ينساها حتى لو رآها، لكن «أصدقاء الحكيم وأقرباءه لا يسهون ولا ينسون»، فما يكاد يمر يوم إلا وواحد منهم في وجه حماد: «يا سعادة البيه، دا راجل مجنون، مجنون خالص، يفكّر باختراع نظرية جديدة للعالم، نظرية المربع، سمعت حاجة زي كدا يا بيه؟» ويصمت سمير قليلاً ثم يضيف: «وعايزني اكتبها له، دا راجل عبيط لأن اللي عنده نظرية لازم يكتبها بنفسه، وإلا ايه يا بيه؟» ويأتي مطيع «أنا وياك أصحاب، يا أبو راشد، وإلا لا حكيت ولا شكيت: الحكيم صاير رجل لا يطاق، لا يهمه إلا نفسه، خرّب علاقاته مع الناس كلهم، وآخر شيء راح تخرب بينه وبين راتب، لأن ابن قيصر صار الحاكم الناهي في قصر الحير، والحكيم لا يعمل أي شيء بدون شوره» وراتب يتكلم ولا يتكلم: «والله يا أخ حماد كان وضعي في مرسليا عال العال، وكانت حياتي في بيروت ماشية تمام، لكن الحاح الحكيم، رسائله وبرقياته، وكلها تؤكد على ضرورة مجيئي اليوم قبل بكرة، فلما وصلت نسيني، لا علم ولا خبر، حاط عقله بعقل هذا اللي اسمه سمير وطول الليل والنهار: لتّ وعجن، قال راح يطلّع كتاب، كتاب بعشر مجلدات، بعشرين مجلد» ويصمت قليلاً ثم يضيف: «عصفورية يا أبو راشد، مستشفى مجانين تماماً!».

وحماد يستمع، يستغرب، بصمت، لكنه في النهاية يريد هذه

المعلومات، لا بد أن تفيده في وقت من الأوقات، لأنها تثبت له أي رجل هو الحكيم، وأي مساعدين وأقرباء له. ومتى يجد الوقت ليفكر بالكتابة؟ وهذه النظرية التي يتحدث عنها سمير، أي نوع من النظريات؟ ماذا تعني ولمن ستوجه، وماذا ستكون نتائجها في النهاية؟

ولكي يواصل حماد لعبته، وضع مبلغاً في ظرف، ووضع الظرف في جيب سمير، وقال له وهو يبتسم ابتسامة كبيرة:

ـ رجاء المعذرة، يا أستاذ سمير، هدية صغيرة!

وحين أبدى سمير «اعتراضه» تابع حماد:

ـ موران، يا أستاذ سمير، صارت غالية، ولا بد أن تكون للإنسان موارد إضافية!

وبعد قليل:

ـ وبين الأصدقاء ما في هذه الشكليات أو الاعتبارات!

وقبل سمير المبلغ «بصعوبة»، واستمر على زيارة حماد أسبوعياً؛ أما مطيع فقد رفض استلام أي مبلغ في المرة الأولى وفي المرة الثانية، أما حين أبدى حماد غضبه «لأن الفلوس ما هي لجيبك وما هي من جيبي، وإنما هي مساعدة يمكن أن تصرف بمعرفتك، ولمن يستحقها من الذين يتعاملون مع الجريدة» فقد قبل مطيع هذا التفسير، قال في محاولة لتبرير هذا القبول:

ـ سأقدم إيصالاً بكل مبلغ يصرف. . مهما كان صغيراً!

ـ الله يخليك يا أبو رشدي، بسيطة، والموضوع كله ما يستاهل.

أما على راتب فلم يعرض أي مبلغ، قال له بعد أن استمع إليه طويلاً:

ـ صحيح أن الأشغال صارت في الوقت الحاضر أصعب من قبل، لكن تحت أيدينا ألف شغلة وشغلة.

وقبل أن يخرج راتب من مكتبه، اتصل حماد بمدير تموين القوات المسلحة، وطلب إليه «أن يقدم كل مساعدة للسيد راتب الفتال، أخونا وصديقنا، لأنه يستأهل».

ولم تمض ثلاثة أيام حتى أصبحت الشركة الشرقية للمواد الغذائية مسؤولة عن تأمين الاعاشة لحامية موران! مع رجاء قاله حماد لراتب وأصر عليه:

- هذا الموضوع بيني وبينك يا أخ راتب، ورجاء أن لا يعرف أبو غزوان، لأنه لا يرتاح لتدخل الأجهزة بالقضايا التجارية، ولا يحب أن تسمّى الأشياء عليه!

وراتب الذي غمز بعينه رد وهو يسلم على حماد بحرارة:

- ولا يهمك، يا أبو راشد، وهذه المساعدة لن أنساها، ولا بد أن تنقذنا.

- بسيطة. . إذا ظلينا على صلة، كل شيء ينحل وتصير الأمور أحسن.

لم يعد حماد مديناً لأحد، ولم يظهر أنه دائن لأحد أيضاً. ظل بنفس الابتسامة التي تميزه دائماً، وظل بنفس الود، لكن الشيء الوحيد الذي تغيّر أنه غالباً لم يعد موجوداً في المكتب إذا أراده أحد منهم؛ كان سكرتيره عبد المولى شديد المودة والتهذيب «أبو راشد سافر قبل يومين ولم يبلغنا بموعد رجوعه» «أبو راشد طُلب إلى القصر» «أبو راشد في اجتماع طارئ. . ولا يُعرف موعد انتهاء الاجتماع!».

ويتصل حماد بمن اتصل به مرة وينسى مرة أخرى، ولأن الكثيرين لا يحتملون التأجيل أو الانتظار، ولأن لدى حماد الكثير من المساعدين فقد كلف بعضهم أن يستقبل «الأصدقاء» وأن يتحدث معهم، «أما القضايا الخاصة، القضايا التي تحتمل التأجيل، فأنا بمجرد ما أفرغ سوف نلتقي ونتحدث» وهكذا قيلت أشياء كثيرة لبعض المساعدين، وأُجّلت أخرى، لكن بدا يتضح أن حماد أصبح هاماً وصديقاً يمكن الوثوق به، ويمكن الاعتماد عليه عند الحاجة، هكذا قال كل واحد من أصدقاء الحكيم لنفسه، ولم يقله للحكيم أو لأحد آخر!

أمـا كيف أصبح حماد قوياً وموجوداً بهذا القدر فهو نفسه لا يعرف، أو بالأحرى لا يستطيع أن يفسر الأمر تفسيراً واضحاً، إذ ما كانت تمر فترة على وجوده في الجهاز حتى وجد حوله عدداً يتزايد من الناس يحيطون به وكل منهم يريد أن يتحدث إليه، أو أن يكسب رضاه، ولأنه تعلم الاصغاء والابتسام، ثم تعلم إصدار الأوامر، فقد أصبح محبوباً ومرهوباً في آن واحد. أما عندما تعلم أن يعطي أو أن يسهّل للآخرين الأخذ، فقد أصبح محبوباً أكثر من قبل. ويوماً بعد يوم امتلأ ثقة بنفسه وتأكد أنه يعني الكثير للآخرين. وقد تأكد له ذلك من خلال زياراته للولايات المتحدة ثم ألمانيا ودول أخرى، اذ أصبح رجلاً مختلفاً: أصبح يعرف ماذا يريد وكيف يصل.

ولأنه اقتنع منذ وقت مبكر أن «الجهاز» لموران كلها، وليس لجهة أو لأحد، ولأنه رئيس هذا الجهاز، فهو الوحيد الذي يتخذ القرار، وهو الذي يعرف كل شيء، لذلك لا يجوز لأحد أن يتدخل أو يقترب، حتى السلطان لا يحق له ذلك «فالجهاز أنقذ حياته عدة مرات، حتى من اخوته أنقذه» ثم أن السلطان لديه من المشاغل الكثير الكثير، فإذا لم يستقبل الوفود لا بد أن يزور المناطق، وإذا انتهت هذه المشاغل والمهمات يتفرغ للمهمة التي لا يتعب ولا يمل منها أبداً: النساء. وحماد الذي زرع عيونه في كل مكان لم ينس القصر، بل كان القصر أحد أبرز وأهم الأهداف. فعل ذلك بكثير من العناية والاتقان «حياة صاحب الجلالة عندنا أغلى من كل شيء» ولذلك اختار عناصر القصر بنفسه، بعد أن امتحنها في مهمات وحالات سابقة، وبعث عناصر معينة منتقاة للتدريب في الولايات المتحدة، ثم ربط الجميع

برئاسة الجهاز مباشرة. كانت له عيون بين الخدم والحرس وبين النساء أيضاً، بحيث يعرف كل شيء، حتى مع أي من النساء قضى السلطان ليلته، وهل انتقل تلك الليلة إلى امرأة أخرى أم لا. كان يصل إليه، ويعرف متى نام ومتى استيقظ، وما إذا زاره أحد أو حصل أي شيء في القصر..

أما الأمراء الذين لم يفهموا مهمة جهاز الأمن والسلامة، في البداية، ولم يقيموا له وزناً، فقد أخذوا يكتشفون شيئاً فشيئاً أن حماد يمكن أن يساعدهم في أمور كثيرة: في تأمين المعلومات أو الحاجات، من داخل السلطنة أو خارجها. وكان يعرف أكثر من ذلك كيف يخدم الآخرين، وكيف يكون مفيداً وضرورياً في الوقت المناسب. فما يكاد أحد الأمراء يتحدث عن بندقية صيد بمنظار، كتلك التي عند صاحب الجلالة، حتى تصله واحدة مثلها بعد أيام أو أسابيع في أقصى الحالات. ويمكن أن يقاس على هذا أمور كثيرة. وإذا احتاج أمير آخر إلى معرفة مالك الأرض جنوب قصور الخالدية فلا يتطلب الأمر أكثر من ساعات قليلة ليقدم له حماد المعلومات المطلوبة أو أكثر منها. أما في حال سفر أمير أو أميرة إلى الخارج فلا بد أن يقدّم حماد مجموعة من العناصر للحماية والخدمة، عدا عن اشعار السفارة لتأمين الإقامة والسيارات والمرافقين.

كان يفعل هذه الأشياء، وغيرها بتواضع جم وكأنها جزء من واجباته، فلما زاد المال بين يديه اكتشف أن الناس يحبون المال أكثر من أي شيء آخر، ومن أجل الحصول عليه مستعدون لتقديم أية خدمة.

والقصر الذي كان يقدم الهدايا والعطايا، ما لبثت هذه المهمة أن انتقلت إلى الجهاز، بعد الأخطاء الكثيرة التي وقعت والشكاوي التي قدمت ضد الشيخ مالك، خاصة وأن ثلاثة من الذين اشتركوا في محاولة اغتيال السلطان كانوا من قبيلة لم يتلق رئيسها العطايا المخصصة له تلك السنة؛ قال السلطان لحماد وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى، بعد أن كلفه بهذه المهمة:

ـ جماعتنا وحنا أدرى بهم، إذا سديت حلوقهم أمنت شرهم.

ـ الصدق اللي تقوله يا طويل العمر.

ـ عصفورين بحجر واحد: ترضيهم وتربطهم.

لم يكن حماد بحاجة إلى مثل هذه التوصية، فقد سبق له أن قدم بعض الهدايا إلى عدد من الشيوخ لأنهم ساعدوه في كشف عمليات تهريب سلاح كانت قد جرت، ومرة أخرى لأنهم ساعدوا في تقديم اليد العاملة من أجل بناء مخازن لقوات الحدود. أما الآن وقد أصبح جميع الشيوخ يتلقون العطايا المخصصة لهم من جهاز الأمن، فقد قامت علاقات حميمة بين هؤلاء والجهاز، كانوا يتقاطرون على موران، وكانوا يقضون أياماً في ضيافة حماد، وبكثير من العناية والصبر، وبعد أن أُفرد بناء خاص سُمّي دائرة البادية، أصبح هؤلاء الشيوخ يراجعون الدائرة ليس فقط لاستلام العطايا وإنما للتوسط لحل الكثير من المشاكل، أو من أجل تأمين ما يحتاجونه من دقيق وسكر أو حاجات أخرى.

حتى شيوخ القبائل من البلدان المجاورة الذين تعودوا على زيارة السلطنة بين فترة وأخرى، ومنذ أيام السلطان خريبط، غالباً ما يرجعون برعايا وهدايا، فقد واصلوا القيام بهذه الزيارات وأكثروا منها في السنوات الأخيرة، وكان السلطان لا يبخل عليهم، إذ بالإضافة إلى الحفاوة والاستقبال، كانوا يعودون بأموال لم يحصلوا عليها، أو يحلموا بها من قبل، وقد تولى جهاز الأمن القيام بمهمة الاتصال أو تقديم الهدايا.

قال شداد لأخيه بعد أن رأى الحصان الذي قدمه له ملحم بن المهيد هدية:

ـ يا أبو فوزان.. هذا الحصان ما يعجب، وما هو لله!

ـ ما مثله، يا أبو غانم، وأنت تعرف الخيل!

ـ أصله من أصل صاحبه، وأنت تخبر يوم الزرقا!

ـ الله منك يا رجل ما تنسى شيء أبداً.

ـ الرجال ما تنسى يا أبو فوزان، تسامح لكن ما تنسى.

وصمت الاخوان وكأنهما لا يريدان أن يتذكرا يوم الزرقاء، حين وشى بهما ملحم إلى قوات الحدود، وأدى ذلك إلى مصادرة البضائع التي كانت

تحملها الجمال، واستلم ملحم ثلث قيمة البضائع المصادرة، كما اعترف بذلك أمام عدد من الناس، وكان بينهم شمران.

قال شداد يواصل هجومه:

ـ وجاء نوبات بحياة خريبط، وجاء مرة أو اثنتين قبل سنين، تذكر يا أبو فوزان، وما قال مرحبا، هالمرة جاي مشنشل، بدل المرحبا ماية، وبدل قبضة تمر خيل وموزر، ويمكن يطلب منا، بعد، بنّية!

ـ لا بد يكون ندم يا أبو غانم، والندم ملح الرجال!

ـ ندم أو قريشات طويل العمر؟

قال أبو فوزان في محاولة هجوم:

ـ وهذا الحصان مني لك، يا أبو غانم، اقبل!

ـ خيل اللئيم تكدّش يا صالح، وتخرب الخيل الطيبة.

قال شداد لأخيه بمرارة:

ـ يا رجل...

ـ اسمع يا أبو فوزان، ولا بد أنك سمعت من غيري، موران ما عندها سالفة إلاّ حماد، فبعد ما قال له طويل العمر اعط، فتح حماد كيسه وأعطى، لكن ما ترك شين إلا وأعطاه، ما ترك واحد بينا وبينه ثار إلا وأعطاه، واليوم جاء ملحم حتى يرد لك يوم الزرقا، فإذا نسيت تذكر، وإذ عجزت حنا أقدر.

وبضحكة أنهى صالح الموضوع، على الأقل مؤقتاً، أما شداد، فقد قال كأنه يحدث نفسه:

ـ راح يجي يوم ندفع ثمن خيلنا وكدش غيرنا، ويجوز أنه اللي ما استلم هو اللي يدفع!

وبمقدار البراعة التي لجأ إليها حماد في كسب بعض الناس، فقد كان بارعاً أيضاً في استعمال القوة، أو التهديد بها. قال له اندورز ذات يوم «السياسة التي تجعل الوضع في موران مستقراً سياسة بسيطة، لكن تحتاج إلى ذكاء في التنفيذ». تطلع إليه بمودة وتابع: «سياسة الجزرة والعصا» ولما

نظر إليه حماد باستغراب وتساؤل، قال له:

ـ القوة والمال. . وضحك وهو يصحح: لا المال والقوة.

وبكثير من الصبر والهدوء، وخلافاً لطريقة الحكيم في الحديث، شرح له أن الظروف الجديدة في موران تساعد على قيام حالة من الاستقرار والرضا، فقط يحتاج الأمر إلى استعمال وسيلتين اثنتين، أو واحدة منهما على الأقل: الإغراء والشدة. الإغراء تجاه الأشخاص والقطاعات التي تعتبر أن الوضع القائم وحده هو الذي يناسبها، لأنها من خلاله تكسب وتقوى وتؤمن مصالحها؛ والقوة تجاه الأشخاص والقطاعات الأخرى، القطاعات المتمردة، التي لا ترضى بشيء ولا تقنع بشيء.

كان حماد، بحدس غامض، يدرك أن الكثيرين في موران يحتاجون إلى المال أو الخوف، الذين لا يأتون بالمال يمكن أن يخافوا العصا، حتى لو لم تستعمل العصا، خاصة وأنه من خلال التجربة اكتشف أن لا أحد يشبع من المال، وكان هذا يضايقه إلى أقصى حد، فهو، رغم الأموال التي بين يديه، يشعر أنه بحاجة إلى شيء آخر، أو كان يرى أن المال لا يعني كل شيء في هذه الحياة، وربما كان هذا هو السبب، أو على الأقل، أحد الأسباب، التي جعلته ينظر إلى الحكيم هذه النظرة.

وتمر الأيام وينشغل الناس في موران بالحياة التي تموج وتتغير حولهم، فيركضون من أجل الكسب أو تدبير الرزق: فينسون قلقهم أو ينشغلون عنه، لكن موران جزء من أرض كبيرة تمتلىء بالجوع والقهر وتتفجر بالغضب، وتتحرق إلى شيء آخر غير ما يقال لها وما تسمعه، ومثل المؤذن الذي يشق صوته ظلمة الفجر، إعلاناً عن بدء يوم جديد، كذلك تهدر أصوات الغاضبين والجائعين حول موران، وتنتقل من مكان إلى مكان في هذه الأرض العربية الحزينة، فتصل أصداؤها إلى موران أيضاً، فيتوقف الناس عن الركض المجنون ويستعيدون ذاكرتهم، ومن جديد يستبد بهم القلق فيتساءلون وينتظرون! الأغنياء، والذين يزيد غناهم يوماً بعد يوم، يخافون ويزداد خوفهم بمقدار تزايد ثرواتهم، والفقراء الذين كانوا يعرفون كيف يحتالون على الحياة في الأيام القديمة لتأمين رزقهم،

يجدون أن هذه الحياة أصبحت أقوى منهم وأكثر مكراً، وهي ترميهم من مكان إلى آخر ولا يعرفون أين ستدفعهم أو أين ستكون قبورهم. فيرهفون آذانهم لسماع الأصوات الآتية من بعيد.

كان السلطان لا يحب هذا الغضب، بل ويخاف منه، وكثيراً ما تمنى في أعماقه لو أن الكهرباء لم تصل إلى موران، أو لو أن الطائرات لم تعرف طريقها إليها، إذن لعاش الناس في قناعة ورضا، كما عاش آباؤهم وأجدادهم، لكن ما دام هذا قد حصل، وما دامت موران غنية الآن فلتعط، ويصدر أوامره إلى حماد أن يتحرك، أن يعطي. وحماد الذي يعرف أكثر من الآخرين لا ينتظر الحريق يصل إلى موران لكي يتولى إطفاءه، انه يذهب إليه، يذهب تسبقه عطاياه، وبوصول العطايا والاختلاف حول اقتسامها، يؤمل الغاضبون والجائعون، ويتنفس الذين يحكمون الصعداء، ويثري الوسطاء، فيتراجع الغضب وتنكسر حدته.

الحكيم الذي اعترض على هذه الطريقة، وكان يُسمع اعتراضه في وقت سابق، لم يعد حماد يعبأ بما يقوله الآن، رغم أنه يستمع إليه بكثير من الانتباه والأدب، لكنه لا يفعل أكثر من ذلك. أما ما يقوله عن الدعوة والدعاة، وما يسرّبه عن نظرية المربع، فإنه يثير سخريته وأسفه، وفي أحيان أخرى يجعله نزقاً. حتى الهاتف الذي يأتيه من الحكيم مستفسراً عن الأحداث التي تتردد أصداؤها في الاذاعات، يعتبره تدخلاً في أمور لا تعنيه، فيجيبه مرة ويطلب من سكرتيره أن يجيب مرة أخرى، أما حجم الأموال التي أرسلت أو لمن أعطيت فإنه لا يعرف ويجب ألا يعرف عنها أي شيء.

ومثلما ذهب حماد هناك لإطفاء الحريق، أو ذهبت أمواله ورسله، فإنه هنا يشدد قبضته ليُحْكم السيطرة. يريد أن يجعل موران ساكنة مثل مقبرة، لا يحب أن يسمع شيئاً أو أحداً. نشر عيونه في كل مكان يحصي على الناس أنفاسها ويرقب أية حركة أو أي سكون، حتى القصر، وبدافع الحرص أكثر من السابق على السلطان، طلب إحاطته بمزيد من الحراسة والمراقبة.. والاهتمام أيضاً.

بعث إلى نمر من يبلغه «ابلع لسانك، لأن كلمة والثانية وكأن أمك ما جابتك، والأحسن القم حجر واسكت» ونمر الذي ضحك بسخرية، اعتبر هذا التهديد دليلاً على الخوف أكثر مما هو مظهر قوة. قال للرسول:

ـ سلّم على أبو راشد وقل له: الدم ما يصير ماي، وأهل موران قرايب ويعرفون اللي يصير واللي ما يصير، بس خله يتوقّى من اللقامين ومن اللي حاطين على خشومهم مناظر!

كان يقصد أحد اثنين: مطيع أو سمير، أو ربما، يقصدهما معاً. أما شمران عندما بلغه التهديد الذي وجّه إلى ابنه فقد قال أمام كثيرين في مقهى زيدان:

ـ ظني أن حماد ما يقول اللي قاله لأنه رضع حليب أمه وربي بين الخيل...

وبعد قليل أضاف بنوع من النزق:

ـ وبكل الأحوال يلزم يعرف هو وغيره، الغريب والبعيد، أن الحرب أولها الكلام.

وحماد الذي بلغه ما قاله شمران وابنه ضحك بغيظ وقال دون رغبة:

ـ يا عباد الله اعرف أكثر منهم وأحسن منهم، بس خليهم يكفونا شرهم حتى نشوف دربنا!

غاب الأمير فنر عن السلطنة بضع سنين، متنقلاً بين سويسرا والنمسا والولايات المتحدة، التماساً للراحة والاستجمام أو طلباً للعلاج. لم يرجع إلى موران خلال هذه السنين إلا لفترات قصيرة، لا تتعدى الأسابيع. وكان في كل زيارة يحزم أمتعته فجأة ويرحل من جديد، بعد أن يكون قد امتلأ تشاؤماً وعاوده المرض مرة أخرى.

في هذه المرة، وقبل انتهاء العام بثلاثة أسابيع، عاد. قال الكثيرون «زيارة مثل زياراته السابقة، والبرد هو اللي حمله وجابه، فإذا ربّعت في المكان اللي جاء منه يشيل ويرحل مثل الطيور» وقال آخرون، وظهرت على وجوههم علامات الحزن «الداه ما لقيوا دوا وقالوا له تموت ببلادك أخير لك ولنا.. وجاء». أما السلطان خزعل الذي اعتبر مجيء أخيه حدثاً عادياً، لا يثير تساؤلاً أو خوفاً، وبالغ في الاهتمام به، فما لبث أن أحس بالقلق، لأن فنر الذي كان قليل الكلام، غامضاً، أصبح الآن مغلقاً تماماً، ولا يجيد شيئاً كإجادته الصمت. ومما زاد في قلق السلطان ثم تخوفه أن الأمير اعتذر عن قبول قصر السعد الذي بني أخيراً، وكان واحداً من أجمل القصور في موران. كان اعتذاره أقرب إلى الرفض، وفضّل أن يعود إلى بيته السابق، والذي أصبح متداعياً أقرب إلى البيوت المهجورة، لأن أحداً لم يعتن به خلال فترة غيابه.

قال السلطان لما بلغه اعتذار أخيه عن قبول قصر السعد:

ـ من به طبع ما تركه..

وفهمت عبارة السلطان على وجوه شتى. أما عندما جرى الحديث في

أمور أخرى، فقد ردد السلطان عبارة بذاتها مرتين، رددها دون مناسبة ظاهرة وابتسم، قال:

ـ على البني آدم أن يمشي ممشى زمانه.

وقد ربط الكثيرون بين الجملتين، وتراءى لهم أنه يعني أخاه فنر، لكنهم، مع ذلك، لم يكونوا متأكدين تماماً. فالأمير إذا كان يفترض أن موران لا تزال كما تركها، أو مثل أيام أبيه، فإنه يخطئ كثيراً، لأن موران تلك لم يبق منها شيء، لم تتسع وتكبر ثلاث أو أربع مرات فقط، وإنما تغيرت. وما عاد لها صلة بالمدينة التي كانت قبل بضع سنين. والأمير إذ يتصور أن تناوله للتمر و اللبن، كما كان يفعل من قبل، أو كما كان يفعل أبوه، ليقنع الرعية ويجعلها تتمسك به، لأنها تراه يشبهها وقريباً منها، فإن موران قد كفّت عن أكل التمر أو شرب اللبن منذ سنين عديدة، أما أهمية السلطان الآن، ومدى تأثيره وتعلق الناس به، فإن ذلك بقدر ما يبدو قوياً وكريماً، بقدر ما يبدو بعيداً وغامضاً.

موران الآن لا تحتاج إلى سلاطين مثل خريبط: متقشفين أو يتظاهرون بالتقشف، ولا تحتمل أن تعود كما كانت. أما أن يأتي الأمير فنر حاملاً علله وصمته، ومفترضاً أن السكن في ذلك البيت القديم يمنحه ميزة من أي نوع فإنه يخطئ كثيراً، لأن موران التي فتنتها السيارات الأولى حين وصلت إليها قبل سنين، والتي لم تزد على عشرين أو ثلاثين سيارة في عهد السلطان خريبط، وكان معظمها خاصاً بالقصر، فإن هذه الفتنة تبدو صغيرة الآن، ولا تتعدى اللعبة التي يملّها الطفل بسرعة، فيستبدلها بغيرها، ليغيرها مرة أخرى بعد فترة قصيرة، فتتراكم السيارات كما تتراكم اللعب، وتتغير كما تتغير الجوارب. هذه اللعبة تجاوزتها موران منذ سنين لتفتن بلعبة جديدة: القصور. فجأة اكتشف الناس أن الخيام التي كانت تظلّهم، أو تلك البيوت الطينية التي كانت تؤويهم، أصبحت كريهة ولا تليق بهم.

ومثلما كان الحكيم من أوائل الذين بنوا القصور، وأطلق على قصره اسم «قصر الحير»، وقد اختار له طرازاً المانياً، فإن أكثر الذين سخروا أو استغربوا، ما لبثوا أن شاركوا في اللعبة: بدل القصر اثنان أو ثلاثة! وبدل

الطابق الواحد عدد من الطوابق؛ وبدل الشبابيك العريضة واجهات زجاجية تمتد من الجدار إلى الجدار، لأن هذا، كما يقولون، يعطيهم شعوراً أنهم لا يزالون على صلة بالطبيعة وبكل ما حولهم! ومثلما كانت تسمى الخيول أخذوا يطلقون على قصورهم أسماء وألقاباً غريبة، وبعض الأحيان مضحكة. كما أخذوا يربون الحيوانات، خاصة الغنم، داخل هذه القصور، حتى إذا سرحت الغنم إلى جانب الشبابيك أو الأبواب الزجاجية، وبدأت تمسح أبوازها بالزجاج أو تنطحه أثارت الفكاهة والضحك أكثر مما تثير الاستغراب!

لم تمض سنوات حتى أصبحت موران مدينة عجيبة. فمن الأسفار التي قام بها الكثيرون إلى بلدان عديدة، ومن المجلات التي حملوها معهم، أو من الرسوم البدائية التي خططوها لبيوت رأوها في هذه الأسفار، إضافة إلى وجود شركة الغزال لبناء الفيلات والقصور، بدأت تنبت القصور كما ينبت المداد، أو كما تتشكل الحدائق اليابانية: مجموعة من الألوان والأشكال والحجوم لا تحتملها عين: بيوت فسيحة إلى درجة لا يُعرف لأي شيء ستستعمل، أو من سيسكن فيها. عشرات الغرف توازيها الدهاليز والممرات المعتمة كأنها الأنفاق، لتكون فاصلاً بين جناح وآخر، إضافة إلى الأبواب بمصاريع أو تلك التي تدور أو التي تختفي؛ أما الجدران فقد كُسي أغلبها بالخشب أو القطيفة الملونة، وفرشت الأرضية بالموكيت الغامق اللون، حتى الممرات والأدراج فرشت، وبالغ الكثيرون ففرشوا المطابخ ودورات المياه! أما المدافئ الانكليزية فقد كانت نمطاً سائداً ومرغوباً في البداية، خاصة حين شيد الأمير ميزر قصره على طريق الرها، لكن ما لبث الكثيرون أن فضلوا عليها أنواعاً أخرى من المواقد الفرنسية والألمانية!

حمى المنافسة في بناء القصور لا تهدأ ولا تتوقف، ولا يبقى أحد إلا ويشارك فيها. أما السلطان فقد سبق الجميع، إذ أضاف إلى هواياته القديمة هواية جديدة: أن يعيش مع كل زوجة في قصر، وأن يبني لكل عروس قصراً جديداً! لكن لم تمض فترة حتى جاء من ينبه السلطان، وقيل انه الدميري الذي عقد له على زوجاته، هو الذي نبهه، أن الناس بدأوا يعرفون

عدد الزوجات من عدد القصور، الأمر الذي دعا إلى شراء كافة الأراضي المحيطة وتسويرها.

قال شمران أن الراجل يحتاج، لكي يدور حول قصور الغدير والخالدية، يوماً كاملاً، أما الخيّال فإنه يحتاج إلى ثلاث أو أربع ساعات إذا سارت الفرس خبباً.

ومثلما وصلت إلى موران السيارات ومكيفات الهواء والجواهر، ومثلما وصلها أعداد تزيد كل يوم من الغرباء، فقد وصلها أيضاً أمين الورداني، صاحب شركة الغزال للمقاولات والتعهدات: رجل مربوع أو أقرب إلى القصر، سمين، مرح وعملي بكل ما تعنيه هذه الكلمة. وصل فجأة بطائرته الخاصة الصغيرة إلى موران، وبرفقته مجموعة من المساعدين. ولثلاثة أيام متوالية، وبموكب من السيارات، لم يهدأ ولم يتوقف. ذرع موران من أقصاها إلى أقصاها، وقيل انه وصل إلى الرحبة والرحيبة، وقيل ان الحكيم أقام له وليمة في المليحة، وما كاد غبار الركض والانتقال يهدأ حتى انتشرت الأخبار أن موران ستهدم ويعاد بناؤها من جديد، وانتشرت أخبار أخرى أن العاصمة ستنتقل إلى المليحة، لأن مياهها أكثر وهواءها أطيب!

لما سمع شمران بهذه الأخبار قال كلمة رددها الكثيرون بعده. قال:

ـ هذي الديرة ما عاد يفيدها حجام وكي.. صار دواها برداها.

وقبل أن ينتهي أسبوع على صول أمين الورداني وافق السلطان أن يُبنى له قصر جديد في منطقة الخالدية، وأن تبنيه شركة الغزال. واشترط أن يكون شبيها بالقصور العباسية، وأن يبنى إلى جانبه مسجد يشبه مسجد أيا صوفيا، كما اقترح الحكيم! وأمين الورداني طلب بإلحاح أن يُوافق على أن يكون هذا القصر هدية من شركة الغزال «لكي تتعرف السلطنة على نوعية الأعمال وجودتها»، إلا أن رفض السلطان، واحتمال أن لا تسير الأعمال كما قدر أمين الورداني تم الاتفاق أن تقدم الشركة كشوفاً في نهاية العمل بالتكاليف الفعلية، «ولا تطلب قرشاً إضافياً».

كان وصول شركة الغزال بداية الجنون في موران، والحكيم الذي بدا

أول الأمر شديد القلق لوصول أمين الورداني وشركته، ما لبث أن اكتشف خطأه، لأن أثمان الأراضي التي اشتراها من قبل تضاعفت عشرات المرات، ثم مئات المرات بعد ذلك، وهذا أنساه، أو جعله يتغاضى، عن كل شيء عداه. أما العلاقة التي قامت بين الرجلين خلال الفترة القصيرة التي قضاها أمين الورداني في موران، فقد جعلت الحكيم يتأكد «أنهما يكملان بعضهما بعضاً، ولا يمكن أن يتنافسا أو يختصما» لأن أمين الورداني يحتاج إلى الكثير من المواد، وأن «الحكيم، بحكم معرفته وعلاقته يمكن أن يساعد في تأمينها» أما التموين وإقامة العمال، فإن «الشركة بحاجة إلى متعهدين ثانويين، وهؤلاء لا يمكن أن يتم اختيارهم أو الاتفاق معهم إلا بناء على ترشيح الدولة أو على الأقل موافقتها».

هكذا بدأت موجة الجنون، وهذه الموجة التي استمرت واتسعت لم تترك أحداً أو شيئاً. حتى شداد، الذي كان غارقاً في جنونه الخاص، وكان بعيداً لا يسمع إلا الأصداء البعيدة، ولا يهتم بها كما يفعل أكثر الذين حوله، فقد جاء من يقول له أن «أرض الحصيبة أصبحت أرض الذهب» وأن الحكيم الذي اشترى تلك الأرض ليقيم عليها مستشفى، قد باعها للقصر، «لأن السلطان سيقيم ثلاثة قصور للضيافة»، لما سمع شداد ذلك لم يستطع أن ينام تلك الليلة، جاء إلى أخيه عند الفجر، فلما التقى بمفلح، شيبة آل المطوع، قال له، وكان متأكداً أنه لا يسمعه:

ـ يا مبارك، يا أبو دهام. أنت اللي قلت لنا يوم الرحيبة وقبلها: اتركوا خريبط، قلنا: يا أبو دهام تراه يحفر قبورنا، قلت هالحين هو اللي يحفر قبره، واليوم أحسن من اللي عقبه. وما راح يوم وجاء الثاني إلا خيّل وركب؛ قلت: إذا مشى البيرق مشينا. سكتنا.. وبعدين مشينا.

ومفلح المطوع الذي كان يتطلع ولا يسمع ولا يعرف ماذا يقال، كان يهز رأسه، لكنه لا يتوقف عن انشغاله بتقليب النار من أجل إعداد القهوة.
تابع شداد:

ـ وقلت يا أبو دهام اتركوه، ما منها رجا، لأن الأحدب يعرف كيف ينام، ترى الأحدب نام على قلوبنا!

على مسافة أمتار كان صالح، أبو فوزان. كان يسمع ولا يعرف عن أي شيء يتكلم أخوه، لما التفت ورآه قال له:

ـ قلت لك يا أبو فوزان: حماد.. من يوم ما حط يده بيد ذلك المالطي، وصار مشاور السلطان ما عاد حمادنا، نفضنا يدنا منه، وما عاد منه فايدة ورجا. قلت وكّل الله. سكتنا، قلنا الصبر زين. قرينا عليه. قلنا له كل شيء، قلنا له هذي موران وهذول ناسها، وهذا اللي يصير وهذا اللي ما يصير، لكن كل ما قضبناه الجادة ينحر الجبل، يغّب ويبعد وما ينعرف ليوين ولمتى!

كان شداد منفعلاً أقرب إلى الغضب، وصالح الذي ما زال حائراً لا يفهم بوضوح ما يعنيه أخوه أو ماذا يجب أن يفعل، رد وهو يبتسم:

ـ يا أبو غانم وكّل الله، أصبر، وكل شيء بوقته زين...

ـ وقتنا فات يا أبو فوزان.

وبعد قليل وبسخرية:

ـ واللي ما أخذته السارحات أخذه المالطي.

ـ أخذه المالطي؟ من هو هذا البلية وشنهو اللي أخذه؟

ـ لكن غريمي حماد.

ـ حماد؟

ـ ما هو بحمادنا، يا ابو فوزان، لأنه باعنا ونسينا.

ـ وكّل الله يا رجال.

قال مفلح، بعد أن شرب أول فنجان، وقدم الفنجان الثاني لأبي غانم:

ـ القهوة، مثل الماء، تغسل السم!

قال هذه الكلمات دون أن يعرف عن أي شيء يتحاور الاخوان، لكن أدرك أنهما يتخاصمان. تناول منه شداد الفنجان، شربه بهدوء، وقال كأنه يدبر أمراً:

ـ والله. يا ابن الحرام، يا مالطي، ما تخلص!

وبعد قليل وقد توصل إلى قرار:

ـ ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: أغر على الحضري ومردّك السلامة.

وبكثير من الانفعال شرح شداد لأخيه أن أرض الحصيبة ما كان ليبيعها لولا تدخل حماد، وأنه باعها، «لأن المالطي يريد أن يبني عليها أجزخانة» أما بعد أن باعها للقصر وقبض ثمناً لها ذهب الأرض كله، فلن يفوت الأمر ولن يسكت. أما أخوه فقد رد بكثير من المرارة:

ـ يا أبو غانم شورنا صار ينفع الصغار والحريم، أما اللي كبروا، اللي راحوا ورجعوا فصار شورهم من رأسهم، والأيام وحدها تعلمهم!

كـان يمكن للحياة أن تستمر وتتتابع دون أن يغيرها شيء، حتى إذا دخل فصل الربيع وهاجرت الأطيار، عرف ما إذا كان الأمير فنر سيبقى أم سيرحل، وما إذا كان سيستقرّ في بيته ذاك أم سيتركه إلى بيت آخر، لكن جاء من أبلغ السلطان أن أخاه جاء ليبقى، وأنه لن يترك البيت الذي هو فيه إلى بيت آخر، وقد أكد الخبر عدد من نساء القصر، إذ عرفن من أخريات على صلة بنساء الأمير.

والسلطان الذي بدا قوياً واثقاً خلال السنين الماضية، والذي عرف كيف يكسب اخوته كلهم، وكيف يدخلهم جميعاً في جوه، عدا مجحم المشغول بصقوره، والذي لم يصل موران، خلال السنوات الثلاث الأخيرة إلا مرة واحدة، وقيل انه مرض وكاد يموت، لأنه نام تحت سقف، فنقل إلى البادية على محفة، ولم يسمع أحد أخباره بعد ذلك، عدا مجحم وراكان، فإن الآخرين غرقوا في جو موران وفي لعبتها الجديدة، وبدأوا يتنافسون فيما بينهم في القصور والنساء والجواهر، ثم بالأسفار إلى بقاع العالم و «أركان الأرض الأربعة» كما يقول الحكيم.

الآن والأمير فنر يصل، وما رافق وصوله من أخبار وتفسيرات أدخل القلق إلى قلب السلطان، ثم الخوف. ولأن السلطان قلق ثم خاف فإن القصر تغير، وأكثر ما تغير وأول من تغير الحكيم. فبعد أن انتظر الشهور الأخيرة واستكمل استعداده للإقلاع، بما في ذلك ارتداء العباءة السوداء في أكثر الليالي، وقد رد على نظرات سمير حين رآه أول مرة لابساً تلك العباءة، رد عليه بعبارة لم يفهمها بسهولة، قال له:

ـ مثل ما يقول أهل موران: برد الشتا توقّه وبرد الربيع تلقه.

وبمرح أوضح لسمير أن برد الصحراء خبيث، وهو يتسرب إلى الجسد

كما تتسرب المياه في الرمال، انه يتسلل بخفاء، حتى أن الإنسان لا يحس به إلا في وقت متأخر، ولذلك يجب تجنبه واتقاءه، أما إذا دخل الربيع أو اقترب، فإن الهواء، رغم برودته، لا يضرّ الإنسان، لا بل ينفعه.

كان هذا الشرح ضرورياً ليفسر ارتداءه للعباءة السوداء، والتي بدت رافهة، أنيقة، وقد ظهر فيها كشيخ وقور مليء بالحكمة والمعرفة.

لم يبق على بداية العام الجديد سوى أسابيع قليلة، وكان الحكيم ينتظر انقضاءها بفراغ صبر وقلق معاً، حتى وصل الأمير فنر. لما بلغ الحكيم خبر وصوله ضرب على ساقه وقال دون إرادة:

ـ الله يسترنا من الأعظم!

وبعد قليل، وهو يهزّ رأسه بحزن أقرب إلى الأسى، قال بتسليم:

ـ اللهم اجعله خيراً!

وروى لمطيع ولآخر تم استخدامه في الفترة الأخيرة، وكانت مهمته تنظيم مواعيد الحكيم، روى لهما أن حلماً روعه في الليلة الفائتة، فقد رأى نفسه محاصراً بالنيران وكلما حاول الهروب والنجاة كان رجال ملثمون، لا تبين سوى عيونهم الحمراء الغاضبة، يدفعونه ويعيدونه إلى وسط النار، وكانت أصواتهم أقرب إلى هزيم الرعد.

روى هذا المنام وربط بين هذه الرؤية وبين وصول الأمير فنر. أما بعد ذلك بأيام فقد تأكد الحكيم أن الأمر أكثر جدية مما تصور أو قدر، حين رأى السلطان مهموماً، ثم حين أمر بأن تدعى لجنة الأمن والسلامة إلى اجتماع عاجل لتقدير الموقف، وكان قد انقضى على عدم مشاركته في مثل هذه الاجتماعات فترة تزيد على السنتين.

تطرق السلطان في الاجتماع، وفي محاولة للتمويه، إلى الأوضاع في المنطقة، وقال: «ان الدنيا حولنا ما هي بخير، والناس مثل الأباعر الهاجّة، أو كأنه وُضع في أذنابهم فلفل يحركهم ويدفعهم من مكان إلى آخر بجنون».

بعد ذلك تساءل السلطان ببراءة عن أوضاع الأمن والحدود، ولما تلقى تطمينات مؤكدة من حماد أن «الأمور ممسوكة بيد من حديد، وأن الناس

منصرفة إلى العمل، ولا يشغلها أي أمر آخر» أبدى الحكيم تخوفه «ليس من الداخل، فالداخل، ولله الحمد، يرفل، في ظل صاحب الجلالة السلطان، بالخير والنعيم، والناس في رضا وقناعة. أما الخوف، الخوف الحقيقي، فهو الذي يأتي من وراء الحدود، من الدول المجاورة، ولا يمكن مقاومة هذا الخطر إلا بالفكر والدعوة، ولذلك من ألزم الأمور بالنسبة للسلطنة أن تكون لها وجهة نظرها الفلسفية الكاملة والقوية».

استراح الحكيم قليلاً ثم قال وهو ينظر إلى السلطان:

ـ ومثلما كانت الدعوات التاريخية، يا صاحب الجلالة، تستند إلى الفكر والإقناع، فيجدر بسلطنة موران أن يكون لها مفكروها ودعاتها، وأن تكون لها دعوتها، وأن تحارب الكفر والإلحاد والفساد ليس داخل حدودها وإنما خارج الحدود.

والسلطان الذي التقت نظراته أكثر من مرة بنظرات حماد، قال ليحسم المناقشة:

ـ حنا، اللي علينا، حدودنا وبلادنا، وما علينا بغيرها، فأريد منك يا حماد أن تفتح عينك وأذنك، وأن لا تترك كبيرة أو صغيرة إلا وتقول لي عليها، حتى لو كانت من ابني أو أخوي.

وفُهم تماماً أن السلطان يعني أخاه فنر ولا يعني إنساناً سواه، أما بالنسبة لملاحظات الحكيم فلم يرد عليها في الاجتماع ذاته. أما في لقاء لاحق، وقد تم خلال الأسبوع نفسه، فقد قال السلطان، وهو يطلب من الحكيم أن يقترب:

ـ يا أبو غزوان الجماعة بره، هنا وهنا، شريناهم، عطيناهم من عطايا الله، قلنا لهم خذوا واسكتوا، وما يغرك الكلام اللي تسمعه بالإذاعة أو الجرايد، كله ضراط، وما يساوي نواة...

والتفت السلطان أكثر من مرة ثم أضاف بهمس:

ـ وإذا راح يجينا بلاء، يا أبو غزوان، من حدر رجلينا، من جماعتنا وأقرب الناس إلينا!

وحاول الحكيم أن يطمئن نفسه. وكادت أن تنقضي السنة فينسى هذا

الهم الطارئ، ويعود إلى المهمة التي نذر نفسه لها، لولا الخلاف الذي وقع بين راتب وسعيد.

فالشركة التي قامت قبل بضع سنين، والتي ازدهرت وأعطت نتائج هامة وكبيرة خلال السنين الأولى، ما لبثت أن تعرضت إلى التصدع، ثم سوء التفاهم، فالخلاف.

بدأ الخلاف، أول الأمر، حول تجارة المواد الأولية. لكن تم تلافيه وتجاوزه، أما حين اتسعت أعمال وعلاقات سعيد، فإنه لم يعد متحمساً لاستمرار العلاقة، لكن لا يريد أن يكون البادئ بإنهائها.

بدا الافتراق أولاً من خلال رفض الحكيم وراتب المشاركة في شركتي السجاد والأدوات المنزلية، فقد اعتبرا أن موران لم تصل بعد إلى الدرجة التي تحتاج إلى شركات من هذا النوع. أما بعد ذلك، ونتيجة للآفاق التي فتحها حماد، بأن سلّم تموين القصر إلى الغامدي، ثم تعهدات تأثيث القصور، وقد فعل ذلك دون التشاور مع الحكيم، فقد تغير الحال.

أما الهدية التي قدمتها الشركة الشرقية للسجاد، بأن قامت بفرش جامع السلطان خزعل بأثمن أنواع السجاد، فقد اعتبرها الحكيم نوعاً من المزاودة أقرب إلى الجنون، ولا يمكن أن يتسامح تجاه خطأ من هذا النوع، رغم أنه لا يخسر قرشاً واحداً. كانت وجهة نظره واضحة. قال لسعيد وهو يعاتبه:

ـ الواحد، يا سعيد، يا أبو شكيب، يقدم عباية أو مسبحة، وإذا تخنها يقدم عباية ومسبحة، أما أن تفتح علينا هالباب، وتقدم سجاد بعشرات الألوف، وكل سجادة أحسن من أختها، وكل سجادة تنطح الثانية، فبكرة أهل البلد ما بتخلي علينا ستراً مغطى: جاءوا وأكلوا البيضة وقشرتها، ما تركوا لنا أي شيء، ملكوا كل شيء، مو بس هيك، الواحد منهم ما عاد يفرش غرفة أو بيت صاروا يفرشوا الجوامع!

وسعيد الذي سمع وابتسم، حاول بأساليب شتى أن يوضح للحكيم أن الهدية لبيت الله، وأنه نذر قبل سنين عديدة بأن أول أرباح يجنيها ويحققها، لا بد أن يقدمها زكاة عن أرواح الموتى والأحياء، وأنه غير نادم

ولا يشعر بأسف، كما أنه لا يعتبر نفسه مخطئاً. بعد هذا التوضيح أشار إلى أن الهدية ليست من ماله فقط، وإنما شاركه أيضاً الغامدي، وأن الرجل وافق بطيبة نفس ولم يعترض، لكن الحكيم لم يكن مستعداً للمناقشة أو للتفاهم، قال في نهاية ذلك اللقاء:

ـ أنت يا سعيد، بعد هذه الهدية سويتنا أشهر من نار على علم، وتعال بكرة وأخلص من كلام الناس.

وفي محاولة لأن يرضي سعيد الحكيم وعد أن لا يتكرر خطأ من هذا النوع، وطوي الموضوع. ثم أشيع في وقت لاحق أن تأثيث جامع السلطان خزعل كان تبرعاً من أشخاص كثيرين، من بينهم أو على رأسهم، الحكيم! وأشيع أيضاً أن عدداً من المتبرعين ـ ولأن التبرع لبيت الله ـ رفض أن يعلن عن نفسه، «وتكلف بعض الأخوان أن يعلنوا أسماءهم نيابة عن الآخرين!».

أما بعد هذا الدرس، بعد هذه التجربة المرة، فقرر سعيد أن يطوي أوراقه ولا يفتحها أبداً: «بدنا العنب.. ما بدنا نحارب الناطور؟» هكذا قال لنفسه، مقرراً أن يهمل وأن ينسى الحكيم، حتى الوقت المناسب، «فإذا بشّمت له الخازوق اطلّعه من عيونه». ولذلك لم يهتم بشركة المواد الغذائية إلا بقدر ما تبقى، صارفاً كل جهوده إلى الأعمال الأخرى.

بعد أن وصل راتب إلى موران واستقر فيها، وبعد أن اكتشف آفاق العمل وإمكانياته، بدأت المشاحنات والتحديات: أراد أن يفرض صيغة جديدة: لمن تعطى التسهيلات، ولمن لا تعطى، وكيف يجب أن تسعّر المواد، إلى غير ذلك من التفاصيل. وسعيد الذي تصور نفسه بارعاً، ويمكن أن يتفاهم مع العفاريت، وجد نفسه أن لا يستطيع أن يتفاهم مع هذا الإنسان الذي هبط من المريخ، فترك الأمر لأبي الحميدي، لكن ما انقضت فترة حتى أعلن الآخر عجزه.

في الأيام الأخيرة من العام، قال راتب للحكيم في اجتماع ضم جميع الشركاء، وكانت محاولة تسوية:

ـ أنت يا أبو غزوان أبو الجميع، ولولاك ما كان صار شي..

رد الحكيم، بكثير من التواضع:

ـ أستغفر الله، أستغفر الله، يا راتب.

نظر سعيد إلى راتب بطرف عينيه، تابع راتب:

ـ عفا الله عما مضى، نحن أولاد اليوم!

والتفت أكثر من مرة، حتى إذا التقت نظراته بنظرات الحكيم، وبدا أنهما متفقان، قال:

ـ الشيء الذي يقرره الحكيم نوافق عليه.

وبعد قليل:

ـ وأنت، يا أبو غزوان، فضّل ونحن نلبس.

قال سعيد:

ـ أبو غزوان على العين والراس، لكن هذه الشغلة ما هي شغلته!

وضحك بسخرية ثم أضاف:

ـ وقبل كم سنة، طلع على لساننا شعر، ونحن نريده أن يتدخل. كنا نبوس ايده، لكن يفتح الله. قال ان هذه الشغلة ما هي شغلته.

ـ كان شغلي لفوق راسي، لفوق شوشتي، يا أبو شكيب!

هكذا رد الحكيم بانفعال، وبعد قليل:

ـ وبعدين.. أولها وآخرها أنتم أخوة، وكل خلاف بين الأخوة سحابة صيف.

ولم يتمكنوا من الوصول إلى نتيجة. قال سعيد في نهاية ذلك اللقاء:

ـ مثلما بدأنا أصحاب نتفاكك ونحن أصحاب، وأكثر من الشغل في موران ما في!

ورغم محاولات الحكيم فإن الأمور انتهت، وقد سببت له هذه النهاية تعاسة كبيرة «عندما وصلت اللقمة للتم، وبعد ما جاء راتب ليحمل عني كتف... كل المشاكل جاءت دفعة واحدة» وتذكر بحزن وصول الأمير فنر أيضاً. وكيف أنه سيكون، مضطراً، إلى تأجيل العمل، مرة أخرى.

قال لراتب، وكان بين الحقد والحزن:

ـ قل ما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم.

ونام الحكيم تلك الليلة مهموماً حزيناً. قال لنفسه وهو يحاول أن يغفو: «وتنتهي سنة أخرى من هذا العمر، ولا يعرف الإنسان هل تقدم أم تأخر، وإذا تقدم أو تأخر نحو ماذا؟» وغفا وهو يفكر بهذا السؤال الصعب القاسي، والذي يشبه الصخرة على الصدر.

السلطان الذي اطمأن بعد التأكيدات التي قدمها حماد، والتي قدمت من الأخوة ومن جهات أخرى، اعتبر «أن المال يفتت الصخر، وفنر مثل غيره، بعد ما يشوف ويتأكد، وين ما راح يرجع» ولذلك تراجع الخوف ليصبح مجرد قلق، وحتى القلق أصبح هاجساً يأتي ويذهب بين فترة وأخرى.

أما الذي ركبته الوساوس، واستبدت به الظنون فهو الحكيم. «لأن راتب رجل مكاتب، رجل شركات أجنبية ما هو رجل سوق» وإمكانية البحث الآن عن شركاء، أو إحضار شركاء من الخارج عملية صعبة، أو على الأقل أصعب من قبل. ليس ذلك فقط أن راتب نفسه يبدو هذه الأيام شخصاً مختلفاً «وكأنه ركبه عفريت»: كثير الصمت، قلقاً، وبعض الأحيان ظاهر النزق. لفت الأمر نظر الحكيم وحار فيه «يمكن الرجل مقصر وخجلان أن يتكلم أو يقول؟» واستعاد الحكيم معلوماته الطبية، خاصة في المجال الجنسي، فتذكر حالات من هذا النوع، ومدى التعاسة التي تولدها. لكن تذكر أيضاً الحكايات القديمة التي كانت تقال عن راتب، وكيف بدّد جزءاً من ميراثه على النساء والسفر. وفكر أن يفاتحه في الأمر، أو على الأقل أن يضعه في جو يحمله على أن يبوح، «لكي أساعده وأحل له مشكلته»، لكنه عاد وتردد «المهم الآن أن تُعالج المصاعب المادية، لا

أن نحل العقد النفسية» هكذا قال الحكيم لنفسه. وأضاف وقد تذكر سعيد: «ابن الحرام تركنا في عزّ الشغل» ورنت في أذنه من جديد كلمات محمد عيد التي قالها قبل سنوات، في بداية الفترة التي وصل خلالها سعيد وحسني إلى حران، قال كأنه يخاطبه:

ـ أينما كنت.. الله ييسر لك يا عيدو (هكذا كان يناديه في لحظات التحبب القصوى).

وبعد قليل وهو يزفر من أعماقه:

ـ والإنسان.. لا يُعرف خيره حتى يجرّب غيره.

وبكثير من الجهد والمشقة عُثر على شريك جديد، فقد تم الاتفاق مع فليحان الزوبعي أن يتولى إدارة شركة المواد التموينية، بعد أن انسحب منها سعيد الاسطه وعبد العزيز الغامدي، وقد وافق الحكيم وراتب أن يتخليا للزوبعي عن خمسين في المائة، مقابل اسمه ومقابل العمل، لأن من جملة الشروط الجديدة التي أقرّت أخيراً في موران، أن يكون في أي عمل شريك موراني، ويجب ألا تقل حصته عن النصف.

سأل الحكيم وداد في إحدى الليالي، مستوضحاً عن زوجة راتب:

ـ ما قلت لي يا وداد... كيف العلاقة بين راتب وزوجته؟

ـ راتب وزوجته؟

سألت بصوت عصبي مرتجف، وكأنها استفزت أو ظنته يقصد شيئاً بعينه!

ـ قصدي.. كيف متفاهمين؟ حابين بعضهم؟

ـ فولة ومقسومة.

ـ يعني متفاهمين؟

ـ كثير.. يا سيدي!

قالت ذلك بسخرية، فهم الحكيم عكس ما أرادت. تطلع إليها بتحديد، وهو يهز رأسه، لأن ما قدّره وجد الآن جذره في هذه الكلمات القليلة، قال بحزن:

ـ العمى ما حلّهم يختلفوا. ما عرفوا بعضهم.

ـ لأ... يا أبو غزوان، ما فهمت قصدي، قصدي أنهم غارقين ببعضهم وكأن الله غيرهم ما خلق!

ـ هيك ازن؟

ـ وأكثر من هيك يا سيدي، شايفها وما هو مصدق، وهي بتعرف كيف تغنج وتتكسّر وهو كان فيه عقل وضيعه!

وتابعت بعد قليل وهي تضحك بسخرية:

ـ قلنا لحالنا إذا تزوج يركز، بصير بني آدم، أتاريه ولد، كلمة تأخذه وكلمة تجيبه. وهي فهمته وبدأت تلعّبه جدياني: يوم وحام، ويوم وجع ظهر. ويوم دخيلك زهقت خذني لعند أهلي. وهو ما له شغلة إلا يرضيها ويدلعها: أساور وحلق، مباريم وأطواق، ويا حبيبتي ويا عيني، وهي تزيد!

هز الحكيم رأسه دهشة واستغرب أنه لم يلاحظ ذلك، ولم يقدره، مع أنه دقيق الملاحظة تماماً وكثيراً ما «يلقطها على الطاير» كما يصف نفسه باستمرار. أضاف بنوع من الحزن «الانشغال بالنظرية ينسي الإنسان صلاته». لما رأته وداد بعيداً أعادته من جديد:

ـ ما قلت لي شو قصدك من السؤال؟

ـ الحقيقة، يا وداد، أن الرّجال اختلف عليّ، وصار التفاهم معه صعب!

ـ الحق عليك، يا أبو غزوان، أنت أعطيته عين، طمّعته، فكر وتصور حاله صار بني آدم ومهم، وكأنه نسي.

وبعد قليل وبحقد:

ـ لازم له فركة أذن، حتى يعرف شو بيسوي، ومن هو!

ـ طولي بالك يا وداد، الأمور ما وصلت لهذه الدرجة.

ـ وصلت وأكثر. وإذا ما لاحظت أنا شايفه كل شيء!

ـ روقي.. يا بنت الحلال.

ـ من يوم وصوله. أو بعد ما وصل بأسبوع، أسبوعين، صار يسمّع،

صار يحكي كلمات بمعنى. وأنت، يا أبو غزوان قلبك طيب، لا تسمع. أنا سمعت كل شيء وفاهمة عليه تماماً.

تطلع إليها باستغراب أكثر من قبل. تابعت:

ـ كان يخاف منك خوفة حية، ما كان يتجرأ يقول كلمة، الآن صار بمزح، يتطاول، فإذا تركته بدون فركة أذن يمكن بكرة يتمادى ويزيدها.. يمكن يحكي عليك أو عليّ!

ـ فشر، اقص لسانه.

هكذا رد الحكيم بغضب، وكأنه أحسن بالإهانة أو تخوف من احتمالات المستقبل، وأضاف بعد قليل بحزن:

ـ غريب.. يا وداد، كل واحد أحسنا إليه، ساعدناه، قابلنا بالإساءة. الناس صارت بدون أخلاق، ما عندها دين أو قيم، لكن بسيطة.. بنشوف!

ـ لازم الواحد يكون قدّ حاله يا أبو غزوان!

ـ ومع ذلك. يا وداد، الدنيا أخذ وعطا. والإنسان لا يمكن أن ينعزل، أن يعيش وحده، لازم يتحمل جزء من خرينات البشر.

كان الحكيم بحاجة ماسة لراتب، خاصة في هذه الفترة، ولذلك لا يمكن أن يسرف في إساءة الظن به، أو إظهار عواطفه نحوه، لكن صمم أيضاً أن يتعامل معه بحزم وانتباه، لئلا يتمادى أو يفعل كما فعل الآخرون!

الصدمة الثانية التي لم تتأخر كثيراً: الاتفاق الذي تم بين شركة الغزال من ناحية وبين رضائي ومعه بعض الأمراء وسعيد والغامدي من الناحية الثانية، من أجل بناء ثلاثة مطارات في سلطنة موران، واحد في موران العاصمة، والثاني في حران، والثالث في الحدود الشمالية، قريباً من مدينة البقعة، إضافة إلى بناء شبكة من الطرق الدولية تربط عدداً من مدن السلطنة بالدول المجاورة.

لا يعرف الحكيم كيف يمكن لاتفاق مثل هذا أن يتم بمعزل عنه أولاً، ودون معرفته ثانياً. إذ بالإضافة إلى الأرقام الخيالية التي لم يستطع أن يتصورها تصوراً دقيقاً واضحاً، سواء من حيث نفقات هذه الإنشاءات أو

من حيث الأرباح التي سيجنيها كل فرد له علاقة، فإن الإهانة الحقيقية التي أحسن بها أن يتم كل هذا دون أن يعرف، دون أن يُسأل. أين هو؟ ماذا أصبح؟ والأصدقاء الذين لهم معرفة أو صلة كيف يمكن أن يتكتموا عليه ولماذا؟

سأل راتب ما إذا عرف أو سمع عن هذه الأمور، ولماذا لم يقل له، رد راتب ببعض النزق:

ـ الله يخليك يا حكيم.. إذا دبرنا شركة المواد الغذائية فنحن بألف خير!

وإذ لم يعجبه هذا الجواب، وأبدى استغرابه، فقد تابع راتب بسخرية مبطنة:

ـ الزوبعي صار مثل الزئبق، يا أبو غزوان، محتال ونصاب وما تعرف كذبه من صدقه، وأنا امبارح وصلت موران، منين بدك أعرف؟

أما عندما سأل حماد، وكيف لم ينبهه للموضوع، فقد رد عليه بكثير من البرود:

ـ أنت تعرف يا حكيم: الجهاز براسه ألف شغلة، وكل واحدة أخطر وأهم من الثانية، فما عنده الوقت ليعرف من باع ومن شرى!

وابتسم حماد بأدب ثم أضاف:

ـ وأنت، يا طويل العمر، قلت لنا اهتموا بالقضايا السياسية، بقضايا الأمن، وما عليكم بغيرها!

هز الحكيم رأسه موافقاً، لكن بدا بوضوح أنه لا يعني هذه الموافقة، قال حماد:

ـ ولو سألتنا يا حكيم كان علّمناك بكل شيء.

واضطر الحكيم أن يوافق على هذه التفسيرات أو التبريرات، وأن يطوي الموضوع مع هؤلاء.

أما حين التقى بالسلطان، فقد تعمد أن يذكره أمامه، قال له ببعض المرارة:

ـ أخشى، يا صاحب الجلالة، أن لجنة الاستشارة الاقتصادية في القصر، وبعد ما منّ الله سبحانه وتعالى بالمال، لا تقدّر أهمية المال، ولا تعرف كيف يجب أن ينفق، لأن كثيراً من المشاريع التي تمت الموافقة عليها أخيراً بدأ الناس يتكلمون حولها: من تعهدها؟ بكم؟ وهل هي ضرورية أم لا!

قال السلطان وهو يبتسم ابتسامته الحصانية الكبيرة:

ـ يا أبو غزوان.. إذا الناس اشتغلت، ولعبت بالفلوس، تنسى كل شيء، وهذا اللي حنا نريده. خل الناس تركض وتتعب، حتى إذا جاء الليل مثل الحجارة انسدحت وغفت!

رد الحكيم بغيظ، وكان يعني ما يقوله:

ـ يا طويل العمر. الرجال ما هي بس بالفلوس تنسدح. بالفلوس وبالنهود.

ضحك السلطان بقهقهة عالية وبدأ يتلمّظ، وبعد أن تطلع إلى الحكيم تابع وهو يهز رأسه:

ـ الحق ما تقوله يا أبو غزوان!

ـ والفلوس لمن يستاهلها، لمن يستحقها ألف هناء، لكن بعض الأحيان تروح بغير دربها وتضرّ، أو كما قال الشاعر:

وأحفظ درهمي عن كل شخص لئيم الطبع لا يصفو لانسي

وبعد قليل وبحزن:

ـ لأن الفلوس. يا صاحب الجلالة، تصبح رماحاً وسيوفاً بيد اللئام، أو كما قال الشاعر:

لا تركبوه على النهود فإنه ليرى ظهور الخيل أوطأ مركبا
أو تفطموه عن الرضاع فإنه ليرى دم الأعداء أحلى مشربا

ـ والله صحيح اللي تقوله يا أبو غزوان.

وفهم الحكيم شيئاً، وفهم السلطان شيئاً آخر، لكن الموضوع الأساسي طوي، مع تصميم لا ينفك يتزايد لدى الحكيم أن لا يترك قضية تفوته أو

أن يسهو عنها. لما وصل إلى هذه القناعة اعتبر أن أرجاءه لكتابة النظرية ليس خطأ، فالنظرية يمكن أن تحتمل، ويمكن أن تؤجل، خاصة وأنها لا تعني هذه الفترة وحدها، ولا تعني هذا الجيل وحده، وإنما هي تمتد وتستمر عبر الأجيال. ومما زاد في قناعته وتأكده أن أموراً بهذا الحجم سها عنها أو فاتته خلال فترة التفكير والتحضير فقط، أما لو تابع فإن أموراً أكثر خطورة وأهمية يمكن أن تفوته. هكذا قال لنفسه من أجل أن «يوافق» بصعوبة على أرجاء الإقلاع!

لو أن الأمور لم تتعد ذلك لعرف الحكيم كيف يواجهها أولاً ثم كيف يعالجها، لكن ما كان يقلق الحكيم اكثر هو عدم مجيء غزوان خلال الخريف الفائت، ثم الرسائل العديدة التي بعث بها، وكلها تشير، بشكل أو بآخر، إلى احتمال تأخير مجيئه، وربما عدم مجيئه خلال هذا الربيع أيضاً. كان يريد «واحداً من الصلب، من اللحم والدم، قريباً ليكون عوناً، بعد أن تخلى عنه الآخرون» ولذلك بعث برسائل عديدة إلى غزوان يطلب إليه فيها أن يأتي.

لما مرت الأسابيع الأولى من الربيع وغزوان لم يأت ولم يكتب، فقد أصبح قلق الحكيم خوفاً «بعد أن أنهى دراسته في الصيف الفائت. لم تبق له حجة. يجب أن يأتي، أما فكرة الدراسة العليا فإنها دلع. لا يمكن أن أوافق على بقائه، أما إذا أراد البقاء لأن امرأة أمسكت به فهذه هي المصيبة الكبرى. معنى ذلك أن يرى الإنسان نهايته بأم عينه: كيف يذوب ويتلاشى مثل الشمعة، دون أن يخلّف أثراً أو أحداً».

هكذا تضاعفت وتجسمت مخاوف الحكيم، وكانت هذه المخاوف تعاوده في ساعات وأوقات كثيرة، حين يكون مع الآخرين، وحين يكون وحيداً. وعاودته أيضاً في الأحلام وقد فزع منها كثيراً. ولولا المعلومات الواسعة التي يملكها في تفسير الأحلام لوقع فريسة للأوهام أو ربما المرض.

الآن، في نهاية الربيع، وقد عاد غزوان، بعد أن طال انتظاره، فقد بدا بنظر أبيه، وبنظر الكثيرين الذين رأوه وعرفوه من قبل رجلاً بكل معنى

الكلمة: سمن كثيراً قياساً للسابق وبدت له صلعة خفيفة في مقدمة الرأس، إضافة إلى مظهر الرجال وطريقة تصرفهم. تذكر الحكيم شبابه، لكنه لم يكن أصلع هكذا. قال لنفسه بنوع من الفخر «الملعون على أخواله، خاصة من ناحية الصلع». أما معرفة غزوان بأناس كثيرين فقد فاجأت أباه. يعرف عدداً من الأمراء، وعلاقته بهم علاقة حميمة، ويعرف أيضاً عدداً من كبار الضباط، والحكيم الذي دهش وأبدى استغرابه أول الأمر، ما لبث أن أصبح فخوراً «الولد على سر أبيه، والدروس التي تعلّمها منذ الصغر تظهر نتائجها الآن».

كان وصول غزوان مناسبة لأن يجدد الحكيم حيويته ويسترد اعتباره، فالعزلة التي عاشها خلال الشهور الأخيرة، ثم الصدمات التي تلقاها واحدة بعد أخرى، والتي تجاوز كلام الناس عنها الهمس إلى الحديث الصريح ثم السخرية، جعلته يشعر بالإهانة والانكسار، أكثر من ذلك جعلته يفقد ثقته بنفسه وبالآخرين. أما بعد أن وصل غزوان، وتلك الحفاوة التي أظهرها نحوه أصدقاؤه ومعارفه، فقد بدأ الحكيم أكثر مرحاً وتفاؤلاً بالمستقبل. حتى آلام الظهر التي لازمته خلال الشتاء، والتي اضطرته إلى الاستمرار بارتداء العباءة السوداء، رغم قراره بتأجيل التدوين، بدأت تتراجع ثم زالت تماماً.

أخذ الحكيم يعيد ترتيب أوراقه، كما يقولون. قال لنفسه بأسى: «الإنسان يتعلم من كيسه، لا بد أن يجرب ويجرب حتى يصل إلى نتيجة، إلى حالة التوازن الكلية. أما الأشخاص الذين يسمون أنفسهم أقرباء أو أصدقاء، أو هكذا يدّعون، فغالباً ما يكون الطمع هو دافعهم. الآن لا يمكن الاعتماد إلا على الدم، على الأقرباء الحقيقيين، الأقرباء الذين هم من دم الإنسان ولحمه، على الأولاد بالذات» وتذكر أيضاً ولديه اللذين يدرسان في مدرسة داخلية ببرمانا، وكيف يحس نحوهما بالرابطة الحقيقية، بالمحبة التي تفيض من قلبه، وتجعله بعض الأحيان حزينا. كان يفكر متى ينضم إليه أولاده جميعاً، كيف يكونون حوله مثلما يكون الأشبال حول أبيهم الأسد. عند ذاك سوف يتكلم معهم كما يتكلم مع نفسه. حتى أدق

أفكاره وأكثرها خفاء يمكن أن يطلعهم عليها، عكس ما يفعل الآن، إذ لا يستطيع أن يظهر عواطفه وقناعاته لأقرب الناس إليه. «ليس من السهل الثقة بالناس أو حتى معرفتهم، والإنسان لا يمكن أن يُكتشف ويُعرف إلا في حالات قليلة: عند الخوف، أو عند اقتسام الأموال والنساء!» ومرت في ذهنه صور الذين عرفهم أو ساعدهم، لكن أقوى صورة، والتي طغت على كل ما عداها، كانت صورة سعيد. «ابن الكلب لما وصل إلى حران كان مثل الشحاذ، أطعمته، سقيته، وخذ يا ابني، بس اشتغل. لما صار براسه خير دار ظهره ومشى. ولا حتى كلمة يكثر خيرك يا أبو غزوان.. وراح يشتغل مع من؟ مع الناس اللي رايدين رأسي، اللي رايدين يشوفوا جنازتي اليوم قبل بكره. طلع لئيم وخسيس ولا كأني أحسنت إليه، لكن هذه هي حال الدنيا: الشاطر وذراعه، لا أخلاق ولا شرف» ولما تراءت له صورة غزوان، وقد أصبح رجلاً وواثقاً قال يعزّي نفسه: «كفانا تجارب، نحن أولاد اليوم».

تحدث الحكيم كثيراً مع زوجته، قال لها «أن المؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين» ولا بد أن يبدأ من جديد اعتماداً على غزوان. وتحدث معها أيضاً حول أفكار كثيرة، لكن دائماً كان مشوشاً، وغالباً ما انقطع الحديث فجأة. فبعض الأحيان لا يعرف ماذا يقول، أو كيف يعبر عن الأفكار التي تملأ رأسه. وفي أحيان أخرى يرى وداد شاردة، وربما تفكر في أمور أخرى. قال لنفسه ذات مرة، وكان يحدّثها ووجدها بعيدة «لا بد أنها تفكر بزوجة لغزوان. تستعرض الوجوه والقرابات، وتفاضل بينها، وغزوان إذا تزوج واستقر تأخذ الأمور شكلاً آخر!» وفجأة تراءى له أن غزوان تزوج وجاءه أولاد: وأنه يجد، بالإضافة إلى مشاغله الكثيرة، الوقت الكافي لكي يداعب الصغار، لكي يقضي معهم وقتاً ممتعاً. قال في نفسه «أول شيء يجب أن يعرفوه، وأول كلمات يجب أن يحفظوها: العائلة.. واسم العائلة» وبدا له اسم المحملجي جميلاً وقوياً، لكنه اعترف أنه صعب أيضاً. كاد يبوح ويثرثر بهذه الأفكار لوداد، لكن وجد أن الوقت ما زال مبكراً!

ثلاثة أسابيع من الأفكار والأحلام، وقد تعمد أن لا يبحث مع غزوان أية مشاريع محددة، وأن لا يتحدث عن المستقبل حديثاً دقيقاً أو كاملاً. فإذا كان البدو لا يسألون ضيفهم عن حقيقة زيارته لهم خلال الثلاثة أيام الأولى للزيارة، وإذا كانت موران لا تزال تغرق في عقلية البداوة والانحطاط رغم المال، والمظاهر، فيجب أن أتفوق عليهم، نعم أن أتفوق عليهم. وفي كل شيء.. سأتركه هو لكي يفاتحني في الموضوع، علماً بأنه ليس ضيفاً وإنما هو من عظام الرقبة، أو هو عماد آل المحملجي.. عمادها للمستقبل» وضحك بزهو.

في نهاية الأسبوع الثالث لم يقل له غزوان. قالت له وداد. وبدت غير منفعلة:

ـ يا أبو غزوان.. عند غزوان موضوع خجلان يحكي فيه معك..

ومثل طفل صغير سأل بانفعال:

ـ خير يا وداد.. بشّري، أحكي..

وتراءى له أن الكلمة الوحيدة التي ستنطق بها هي: الزواج. شعر بالفرح وبما يشبه الارتخاء النشوان. كان يتطلع إليها بلهفة: وعيناه وحدهما تلحّان عليها أن تتكلم.

سألت بانكسار قريب من الخوف:

ـ وما في زعل؟

ـ زعل؟ أعوذ بالله، الواحد يزعل من ابنه؟

قالت وعيناها إلى الأرض:

ـ غزوان ناوي يسافر، يرجع لأميركا.

ـ يسافر؟ يرجع لأميركا؟

هكذا تساءل بإعياء كأنه لا يصدق أذنيه، فلما استوعب معنى الكلمات التي قالتها زوجته تهالك على كرسي قريب. اسودت الدنيا في عينيه ودارت، شعر أنه منبوذ، منبوذ ووحيد، وأن الجميع يتخلون عنه. لم يبق أحد إلى جانبه، حتى وداد تبدو له الآن بعيدة بعيدة، وإلا كيف نقلت إليه

الكلمات بهذا الحياد البارد وكأنها لا تعني لها شيئاً خطيراً، شيئاً أقرب ما يكون إلى القتل؟ كان بإمكانها أن تنقلها بشكل آخر، أن تمهد لها، وقبل ذلك أن تحاول منع غزوان من السفر. لو كانت أماً بالمعنى الحقيقي لفعلت ذلك، ولأمكنها الوصول إلى نتائج حقيقية. معه، هو الإنسان المجرب، والذي بلغ هذا العمر، لا تهدأ ولا تتوقف عن المحاولة إذا أرادت شيئاً. كانت دائماً تصل، فكيف مع هذا الشاب الصغير؟

ظل هكذا وقتاً. غاب عن كل ما حوله، أو لم يعد يحس بكل ما حوله. حتى وداد التي ظلت إلى جانبه بعض الوقت، استغربت رد فعله، ثم ملّت فانسحبت، ولم ينتبه لانسحابها أو حين جاءت إلى الغرفة مرة أو مرتين!

ولا يعرف كيف خرج، وكيف ركب السيارة؛ وحين سأله رضوان إلى أين يتوجه أشار بيده اليسار أن يتحرك، ولم يقل كلمة واحدة.

وكلما قطعت السيارة مسافة والتفت رضوان قليلاً إلى الوراء متسائلاً، كان الحكيم يشير إليه بالحركة ذاتها أن يستمر. اجتاز موران من أقصاها إلى أقصاها، بدت له مدينة منفرة قاسية. نفس الشعور الذي لازمه منذ اللحظة الأولى لوصوله إليها. صحيح أنها تغيرت كثيراً خلال هذه السنوات، امتلأت بالفيلات والبيوت المبنية على الطراز الياباني والطراز الانكليزي، وبيوت أخرى كثيرة أخذت من كل طراز طرفاً، وظلت في أمكنة عديدة منها، خلف الشوارع الواسعة وخلف الأبنية الجديدة العالية، تلك البيوت الطينية الواطئة. كما شقتها الشوارع العريضة والشوارع الدوارة. رغم أن كل هذا حدث في بضع سنين، وتغيرت أحوال الناس وحتى أشكالهم، إذ أصبحوا أكثر سمنة، ولا يبالغ الحكيم إذا شبههم بالبراميل، كما كان يسمي نائب أمير حران، ومع ذلك لم يحب هذه المدينة ولم يألفها.

الآن وهو يذرع المدينة، لا يرى في وهج الشمس إلا كتلاً سوداء صماء عاتية، وهذه الكتل تناصبه العداء أيضاً. تَمَنَّى لو أنه لم يأت، وتمنى لو أنه لم يعرف هذه المدينة.

قال لرضوان، ولا يعرف لماذا:

ـ خذني إلى ولي من أولياء الله.. يا ابني!

التفت إليه رضوان برأسه وبجزء من جذعه ليتأكد من الكلمات التي سمعها. قال له من جديد:

ـ ولي.. ولي يا ابني..

وحين ظل وجه رضوان جامداً مستغرباً، زفر الحكيم وسأل:

ـ ما عندكم في موران أولياء؟ رجال صالحين؟

ـ كل الناس خير وبركة يا حكيم.

ـ يا ابني ناس ماتوا وما بقي منهم إلا قبورهم وبركاتهم.

ـ مثل هذون بموران ما تلقى.. يا حكيم.

وتأكد رضوان أن الحكيم بوضع غير طبيعي، انه يهذي، أو أنه لا يفهم ما يقوله. ظل ينظر إليه في المرآة، يراقبه، رآه يتغير، يغمض عينيه، يفتحهما على اتساعهما، يهزّ رأسه بلوعة. خاف من هذه الحركات، لكنه ظل صامتاً. في لحظة مفاجئة قال له الحكيم بنزق:

ـ خذني يا ابني إلى مقابر موران.

انزلقت السيارة برخاوة كالحية، وكأنها كانت وحدها تسير، لأن الذهول امتد إلى رضوان أيضاً، فإذا كان قد استغرب منذ البداية طلب الحكيم في أن يسير هكذا دون وجهة محددة، فقد عزا الأمر إلى رغبة في الترويح عن النفس أو الاستمتاع بالشمس في هذا اليوم الربيعي، أما بعد أن طلب منه أن يأخذه إلى الأولياء والصالحين، والموتى بشكل خاص، مع أنه يعرف أن موران تنسى موتاها بسرعة، لا تنساهم فقط، بل وتدرس آثارهم بمجرد أن تهيل فوقهم التراب، فيصبحوا جزءاً من التراب الذي حولهم، وأخيراً يطلب منه أن يأخذه إلى المقابر، فلا بد أن يكون في الأمر شيء يفوق قدرته على الفهم أو الاستيعاب، ومع ذلك لا يجد مفراً من الاستجابة، لكن صمم أيضاً أن يكون حذراً، وإذا تطلب الأمر قاسياً.

ألقى الحكيم نظرة واسعة على الأرض الفسيحة، ولم يجد إلا أحجاراً

قليلة متناثرة هنا وهناك، أحجاراً بحجم الجماجم، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً، ولم ير القبور. التفت إلى الوراء، رأى علي بعد خطوتين منه رضوان صامتاً، لكن وجهه مليء بالقسوة. سأله برخاوة:

ـ هذه هي قبور موران؟

هز رضوان رأسه ولم يتكلم. قرأ الحكيم الفاتحة ومسح وجهه. ثم استدار وركب السيارة من جديد وقال:

ـ إلى البيت.

قال الحكيم لنفسه والسيارة تقطع موران مرة أخرى من الشرق إلى الغرب «لا قيمة لشيء أبداً، لا للأحياء ولا للموتى، في هذه المدينة، فإذا كانت قبورهم هكذا، فإن موتهم أشد تعاسة من حياتهم».



في الليل المتأخر، لأول مرة ترى وداد زوجها يبكي، بكى بصمت ثم نشج، وحاول أن يكتم صوته لكنه لم يستطع. وحين استوضحت بطريقة حزينة أقرب إلى الشفقة رد دون أن ينظر إليها:

ـ كان أملنا بغزوان، قلنا انفرجت، لكن يبدو أنه لا يطيق موران... ولا يطيقنا!

وحاولت أن تشرح وتوضح، لكنه لم يسمع ولم يناقش، بدا له أكثر من قبل أنها لم تحاول ثنيه عن فكرة السفر، وربما كانت راغبة بهذا السفر، وتأكد أنه لن يستطيع شيئاً.

أما بعد ذلك، وحين تكلم غزوان، فقد شرح لأبيه أنه التزم مع شركة في سان فرانسيسكو، وسيبدأ العمل معها في ١٥ تموز، ولا يستطيع أن يتأخر يوماً واحداً عن هذا التاريخ، لأنه وقع عقداً، وقال أيضاً أن للشركة أعمالاً هامةً في الشرق الأوسط، بما في ذلك سلطنة موران، وقد نصحه بعض أصدقائه من العسكريين والأمراء أن يبقى على صلة بهذه الشركة، خاصة وأنه سيكون في قسم المبيعات، وسوف يكون العربي الأول الذي يستخدم في الشركة، وفي هذا القسم. أما فكرة الزواج فإنها غير واردة

الآن، وحالما يأتي الوقت المناسب.. فلن يخطو أية خطوة قبل أن يستشيره!

راتب وسمير كانا مع غزوان، وساهما، ليس في إقناع الحكيم، وإنما في التخفيف عنه، ذكرا أن العمل ومستقبل العمل يتطلب وجود شخص، مثل غزوان، على صلة بالشركات الأجنبية، وأن كل عاقل يخطط للمستقبل يجب أن يفكر هذا التفكير، «لأن موران. كما قال سمير. وصلت من حيث العمالة، إلى السقف، ولأن أي توسع وأية آفاق محتملة تتطلب علاقات مع المنابع، والمنابع في الخارج، مع الشركات الأجنبية» والحكيم الذي سمع ولم يسمع، لم يكن يملك الاعتراض، لأن الأمور، كما بدت له، أخذت مساراً لن يستطيع تغييره.

الشيء الوحيد الذي استطاع الحكيم أن ينتزعه من ابنه كوعد: أن لا ينقطع أبداً عن الكتابة، وأن يزورهم في موران، مرتين في السنة، وأن يبقى مع العائلة فترة لا تقل عن الشهر في كل مرة. وسافر غزوان وبدأ الحكيم ينتظر، ثم غرق في جو موران والعمل من جديد.

الإنسان الوحيد الذي بكى بحرقة يوم سفر غزوان: اخته سلمى. بكت كما لم تفعل من قبل. تعلقت برقبته، أمام الجميع، وطلبت منه أن لا يسافر، ولما ابتسم ولم يجب، سقطت دموعها، ثم بكت بحرقة، وأخيراً اخذت تنشج وتضرب بقدميها الأرض. صحيح أن أمه بكت، أو بالأحرى سقطت دموعها، لكن مع ذلك لم تكن حزينة. أبوه بدا متماسكاً وأقرب إلى عدم الاهتمام، وقد حاول أن يضحك، لكن فكيه لم يساعداه.

الصغيرة التي لا يمكن تقدير عمرها بدقة، لكنه بكل تأكيد لا يزيد على أربع عشرة سنة جعلت الجميع في حالة من الحزن أقرب إلى اللوعة. قال الحكيم لنفسه «لو أن وداد فعلت بعض ما فعلته هذه الطفلة الصغيرة لما سافر» وقالت وداد «صغيرة ووحيدة ولا تعرف ماذا يفرحها وماذا يبكيها.. لكن بكرة تنسى» أما نادية التي احتضنت سلمى ومسّدت على شعرها فقد اعتبرت أن سفر أخوتها الواحد بعد الآخر هو السبب، أما بعد أن جاء غزوان فإنها تريد أن تتمسك بأحد. وهكذا فكر راتب وحماد.. وسمير أيضاً. لكن سمير رأى إلى جانب الدموع شيئاً لا يعرف ما هو. صحيح أنه رأى الصغيرة مرات كثيرة من قبل، لكن لا يعرف لماذا لفت نظره نهداها. كانت في السابق أصغر من أن ينظر إليها، وكان لا يرى فيها إلا مجرد طفلة صغيرة، يمكن أن تستحق منه ابتسامة أو كلمة على أبعد تقدير. أما الآن وهو يراها، هكذا فقد استغرب بكاءها أولاً، ثم استغرب أكثر من ذلك تلك الدقات العصبية القاسية المؤثرة وكأنها دقات طبل.

والأشياء مهما بدت صعبة أو قاسية في هذه الحياة فلا بد أن تنتهي

أيضاً، وهكذا انتهت هذه اللحظات، إذ حين بدأ غزوان أميل إلى العصبية وكاد يفقد سيطرته وتتساقط دموعه، فقد سحبت أمه سلمى من يدها. قالت لها أن سفرته قصيرة وسيعود، وقالت انها ستأخذها معها بعد شهرين في زيارة لغزوان. أما الحكيم الذي ظل متماسكاً ومَزَح أكثر من مرة ليخلق جواً يمكنه، قبل أن يمكّن أحداً غيره، من تحمل هذه اللحظات، فلم يحتمل، إذ غرق في صمته وظل يرقب المشهد بانفعال أقرب إلى الانبهار والحزن، لكن في لحظة انتهى كل شيء. قبّل غزوان الرجال جميعاً وسلم على النساء، وعندما جاء دور سلمى، قال لها بطريقة استعراضية:

ـ إذا لم تضحكي ما راح أودعك.

ولم تضحك، لكنه قبلها أكثر من مرة، غمر وجهه في شعرها وقرص خدها، ثم لوح بيده وهو يتقدم نحو الطائرة، بعد أن فُتحت له خصيصاً قاعة الشرف، وخلال لحظات انتهى المشهد كله.

احتاج الحكيم إلى بضعة أسابيع لكي يعود إلى حالة من الصفاء، وكاد يفكر أو يشرع بمعاودة العمل في النظرية من جديد، إذ راجع «مسوَّداته» أكثر من مرة، ووضع خطوطاً حمراء وخضراء تحت عبارات بذاتها، وقد بدا سعيداً وهو يقرأها لنفسه بصوت عالٍ، لكن هجوم الصيف مبكراً تلك السنة أفسد مزاجه، بل وجعله عصبياً، خاصة وأن وداد اقترحت منتصف حزيران تاريخاً لبداية الإجازة، واقترحت أن تقضي العائلة الصيف كله أو الجزء الأكبر منه في الاسكندرية، «لأننا زهقنا من بيروت والجبل، ولازم الأولاد يغيروا جو» أما الحكيم فكان يطمح أن يقضي الصيف في الفيلا التي اشتراها قبل ثلاث سنين في ضهور الشوير، «لأن الهواء البارد يفتح خلايا الذهن.. ولأن الفيلا إذا لم تُسكن سنتين متواليتين فلا بد أن يفكر أهل الضيعة أن أصحابها ماتوا أو تخلوا عنها... وأولاد الحرام كتار» وإذ لم تقتنع وداد فقد فكر الحكيم أن يقضي جزءاً من الصيف في الاسكندرية، والجزء الآخر في ضهور الشوير، «لكن المشكلة أني والسباحة عداوة، ما لنا صبحة، مثل الشحم والنار، والشمس طالعة من نافوخنا».

كان تدخل سمير ذا نتائج حاسمة، فقد استطاع بكثير من البراعة أن

يقنع الحكيم: «لأن الاسكندرية ليست فقط البحر، الاسكندرية مقاهي الشاطئ، الاستراحات، الهواء البحري المنعش.. وهناك يمكن أن نتابع البحث ولا بد أن نصل إلى نتائج مهمة».

وسافر سمير مبكراً. وكان يفترض أن تسافر وداد بعده بأيام لتصطحب معها الأولاد من لبنان، على أن يسافر الحكيم وسلمى مباشرة بحيث يلتقي الجميع في الاسكندرية في الخامس من تموز، وقد وافقت وداد على هذا التاريخ «كرمال عيون الحكيم»، إضافة إلى شراء بعض الحاجات الضرورية من بيروت.

وفي بداية هذا الصيف وافق الأمير فنر أن ينتقل إلى قصر السعد، كانت موافقته مفاجئة وغير متوقعة، وقد سرّ السلطان من هذه الخطوة واعتبرها دليلاً على بعد نظره، فقد توقع منذ البداية هذه النتيجة «لأن الدم ما يصير ماي، يا أبو غزوان» هكذا قال للحكيم وهو يزف إليه هذه البشرة السارة. ولأن السلطان كان في حالة من الانشراح وصلت حد الفرح فقد تخلى، لأول مرة، عن بعض العادات التي تعودها، فبعد أن كان يرفض الدعوات، ولم يدخل أياً من بيوت الذين يعملون في القصر، فقد أبدى رغبته في أن يزور الحكيم في قصره.

هذه الرغبة التي سرت الحكيم إلى أقصى حد أفزعته أيضاً، إذ لم يبق على سفر وداد سوى أيام قلائل، ودعوة مثل هذه تتطلب استعداداً قد يتجاوز الأسابيع، لكن حالة الانفعال التي سيطرت على قصر الحير، والتي انتقلت كالكهرباء من الحكيم إلى وداد ذاتها جعلت الأمر سهلاً وصعباً في آن واحد. اعتبر الحكيم أن زيارة السلطان له في بيته ليس رداً للاعتبار فقط وإنما تعزيز للنفوذ وتأكيد له. وأن هذه الزيارة يمكن أن تفتح له آفاقاً جديدة، خاصة وقد بدأ يتذكر بعض ما قاله غزوان عن إمكانية قيام علاقات خاصة بين سلطنة موران والشركة التي يعمل لديها من أجل إعادة تسليح الجيش، ولإقامة شبكة من المنشآت العسكرية. تذكر الحكيم ذلك وود في أعماقه لو أن غزوان أخر سفره شهراً أو اثنين. إذن لاستطاع بنفسه أن يشرح للسلطان وأن ينال موافقته مباشرة. ومع ذلك، قرر الحكيم أن يمهد

للأمر، على أن يأتي غزوان في فترة مبكرة لمتابعته، ونتيجة لذلك راودت الحكيم فكرة إعادة النظر بالإجازة من حيث موعدها أو مدتها. أما وداد التي وصل انفعالها درجة الاضطراب، فكانت لا تعرف أتفرح أم تغضب أم تبدأ الاستعداد دون تأخير. فالسلطان الذي ملأ حياتها خلال السنوات الماضية لفرط ما تحدث عنه الحكيم وغير الحكيم، والذي كان يبدو خطيراً وكبيراً. . وفتياً أيضاً، نظراً لكرمه ولكثرة ما تزوج من النساء خلال الفترة التي قضتها في موران، ثم ما ذكره لها الحكيم، وأكثر من مرة، حول تمعنه بالصور التي التقطت لهم في أميركا، وكيف أنه اكتشف الشبه بينها وبين غزوان. وتلك النشوة التي عاودتها مرة بعد أخرى أن السلطان تطلع إلى صورتها بكثير من العناية والانتباه، كل ذلك ملأها رغبة في أن ترى هذا الرجل، أن تراه عن قرب لتعرف أي نوع من الرجال هو.

ثلاثة أيام من الاستعداد الكامل، ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. لم يستطع خلالها أحد من أهل قصر الحير أن يستريح أو أن ينام، إلا كما تنام الكراكي، فالعمال الذين جندوا لطلاء أجزاء من الأدراج والشرفتين الأمامية والخلفية، إضافة للمدخل، أمضوا يومين وليلتين قبل أن يفرغوا. والذين جاءوا لتقليم الحديقة والعناية بدوالي العنب والخضار استمروا في العمل طيلة يومين كاملين، وثلاثة منهم واصلوا العمل أيضاً حتى في يوم زيارة السلطان. أما الطباخون والخدم والذين ساعدوا في إعادة ترتيب البيت فقد سببوا من الازعاج والارهاق لوداد ما دفعها إلى الصراخ عدة مرات، وقد بكت أمام عدد منهم مرتين على الأقل. والحكيم الذي كان يدور كالنحلة ولا يعرف ماذا يفعل أو كيف يكون مفيداً ويساعد في هذا العمل الحافل السريع الذي يجري حوله، فقد تأكد في حالات عديدة أن عدم تدخله يمكن أن يؤدي إلى التقليل من وقوع الأخطاء، أو على الأقل يمكن للبشر الذين يعملون أن يقوموا بعملهم دون اضطراب ودون أن يحسوا بالمراقبة.

في الصباح المبكر جداً ليوم الزيارة وصل الاضطراب والفوضى حداً أيقنت معه وداد أنها لن تستطيع أن تستقبل السلطان ما دامت الأمور بهذا الشكل، «ولا بد أن تعتذر منه، وإلا سأجنّ أو أقتل نفسي» هكذا قالت

للحكيم بعد ليلة لم تذق خلالها النوم؛ وقد استعانت بثلاث من النساء من أجل ترتيب غرف القصر. والحكيم الذي لم يذق النوم أيضاً، بعد أن كفّ عن تقديم المساعدة، وانصرف إلى إعداد كلمة ترحيب بالسلطان. وقد قضى الليل بطوله يكتب ويمزق. واستعمل أكثر من قلم «لأن بعض الأقلام استعصت وحرنت، ولأن بعض الدفاتر عاقر فلا تحبل ولا تلد» فقد قرر أن يرتجل الكلمة ارتجالاً. ولكي لا يخطئ أو يسهو عن أمر من الأمور سجل رؤوس أقلام الأفكار التي سيتطرق إليها، واستعاد بعض أبيات من الشعر. كان على ذلك المستوى من التشوش والانفعال حينما سمع صراخ وداد ثم بكاءها، وأخيراً طلبت منه إلغاء الزيارة أو أن يفعل أي شيء من أجل إنقاذ الموقف، وإلا فإنها لا محالة ستجن أو تقتل نفسها.

وبكثير من المداراة واصطناع الصبر أوضح لها أن السلطان رجل بسيط، لا يلاحظ ولا يدقق، ثم أنه سيكون وحده، أو مع عدد محدود من الرجال، واقترح عليها أخيراً أن تنام ساعة أو ساعتين، وسيتولى بنفسه الإشراف. وفي محاولة لإقناعها قدّم لها حبة مهدئة وكاساً من الماء، وفجأة تطلعت إليه بنظرات متفرسة خاف منها وارتجف قلبه، أما حين ابتسمت وهي تستلم منه حبة الدواء، فقد قالت وكأنها توشوشه:

ـ بشرط واحد..

ـ بشرط؟

ـ إذا كان السلطان وحده لازم اسلّم عليه!

ـ لكن يا وداد..

ـ ما فيها.

ونامت وداد حتى الظهر. نامت نوماً عميقاً متصلاً كما لم تفعل منذ ثلاثة أيام؛ وخلال نومها حلمت أن السلطان جاء، وأنها تقف بين يديه. كانت خائفة أول الأمر، أما عندما ضحك كالحصان، فقد ابتسمت. ولما ضحك أكثر من قبل ضحكت معه، وحين مد يده إلى ذراعها عند الكتف، وكأنه يجس اللحم، فقد شعرت بنشوة، وبخوف أيضاً. ولما قرصها من خدها صرخت بلذة ولم تتألم، وفجأة طلب السلطان من الجميع أن

يخرجوا فخرجوا، وبقيت معه. كان قوياً مثل ثور، وكان بسيطاً مثل طفل. كان يضع نظاراته على عينيه بين لحظة وأخرى وينظر إلى كل جزء من أجزاء جسمها، وهي بمقدار ما تفرح تشعر بالخجل، لكن كانت دائماً تحس بالنشوة. أما حين كان يتقلب فوقها فقد أحست بنار متوهجة، بنار دافئة تملأ خلاياها كلها، وظلت هكذا وقتاً طويلاً، كانت تضحك وتحاول الهرب، لكن النار تطوقها من كل ناحية. لما أفاقت وجدت أن الحكيم قد أسدل الستائر المزدوجة ولم تكن تعرف هل هي في الليل أم في النهار. وحين تذكرت قامت فزعة، وتطلعت إلى السرير بخوف وكأنها تحاول اكتشاف ما إذا كان فيه أحد معها!

والحكيم الذي اضطرب لحالة وداد، وخاف أن تتفاقم وربما تؤدي إلى نتائج لا يريدها، فقد اضطرب أكثر للشرط الذي وضعته: أن ترى السلطان! ماذا لو أصرّت؟ وماذا لو كان مع السلطان آخرون؟ والسلطان نفسه ماذا سيقول وكيف سيفسر الأمر؟ هذه الحالة شتتت أفكاره أكثر من قبل، وكاد يصرف النظر نهائياً عن فكرة الخطاب، خاصة وأنه حاول تذكر بيتين من الشعر، لكنه لم يستطع. وقضى صباح ذلك اليوم، وحتى الظهر، يتحرك في كل الأماكن دون أن يفعل شيئاً. أما بعد أن استيقظت وداد، وكانت في حالة من الإشراق، بعد نوم عدة ساعات، فقد عاوده التفاؤل، أكثر من ذلك بدا مستعداً أن يستجيب لطلبها فيما إذا كان السلطان وحده.. أو مع رجال قلائل.

وجاء السلطان كالمتسلل، جاء وحيداً، ما عدا سبعة من الحرس. حتى السيارة الكاديلاك السوداء التي يسميها «الخف»، والتي يفضلها على عشرات السيارات غيرها، لما تتمتع به من مزايا تشعره وكأنه في غرفة نومه، تخلى عنها هذه المرة. ولم يستعمل الروز رويس الرمادية، «النعامة» إذ كانت مرتفعة قياساً للسيارات الأخرى. ولم يستعمل «الحصان» أيضاً، جاء بسيارة شفر مثل تلك التي تستعملها عادة نساء القصر. أما سيارتا الحرس فقد وقفت واحدة عند الباب الداخلي للقصر، أمام سيارة السلطان، والأخرى أدخلت الكراج الأيسر.

خلال الفترة الأولى ظل التهيب، الأقرب إلى الارتباك، مسيطراً، فقد أجال السلطان نظره في الغرفة أكثر من مرة. وتطلع بإلحاح نحو الأبواب الداخلية. وحين قال أن القصر جميل ومريح، رد الحكيم بالقصة المشهورة التي حصلت لهارون الرشيد، وقد رواها لأبنائه أكثر من مرة، إذ توقع أن يتعرضوا لسؤال من السلطان مثل سؤال الخليفة للصبي الذكي، وكيف عليهم أن يجيبوا!

لأول مرة يلتقي الرجلان خارج القصور السلطانية أو الاستراحات. الآن في قصر الحكيم. أي شرف تفضل السلطان فمنحه إياه، وأي شعور بالامتنان يغمره في هذه اللحظات؟ كان بوده أن يقول ذلك، أن يعبر عنه. وخطرت له فكرة أن يقف ويلقي الكلمة، لكن وجد أن الوقت ما زال مبكراً، وربما كلمة من هذا النوع، وأمام السلطان وحده تعتبر غير لائقة أو نوعاً من النفاق، فصرف النظر عنها. وخطرت له فكرة أن يستعيد بعض النكات، لكن تعلم منذ وقت مبكر أن النكتة إذا لم تأت في السياق، وبالمناسبة، أو كما كان يقول لنفسه «حفر وتنزيل» فلا بد أن تعتبر خفة لا تليق به. وفكر أن يسأل السلطان عن أخيه الأمير فنر وما إذا جدّت أمور حول سلوكه وعلاقتهما، لكن تردد «قد يعتبر ذلك تدخلاً، ثم لا يليق سؤال السلطان حول الأمور المزعجة».

هكذا مرت الأفكار في عقل الحكيم، وإذ خاف من الصمت، فقد حاول أن يبتسم أكثر مما ينبغي، وأن يفرك يديه أكثر مما يفعل عادة. قال لنفسه: «ما كنت قط عيياً أو مرتبكاً كما أنا الآن» وأحسّ أن للزمن في مثل هذه اللحظات، قياساً مختلفاً. وتذكر أنه سجل ملاحظات ذكية للغاية حول مفهوم الزمن، ووضعها تحت عنوان كبير: «مفهوم الزمن عند المحملجي». وتذكر أيضاً أنه احتار بين كلمتي «زمن» و «زمان». وكان مصمماً أن يبحث الفرق بينهما، لكن لا يعرف كيف سها عن ذلك.

قال السلطان في محاولة لأن يخلق جواً أليفاً:

ـ الكانديشن رحمة من الله يا أبو غزوان، خاصة بالنهار، أما بالليل فهواء ربنا أطيب!

لقطها الحكيم بسرعة، وبارتباك ظاهر سأل:

ـ إذا كنتم تفضلون، يا صاحب الجلالة، هواء ربنا فيمكن أن نجلس في الشرفة.

ـ أخير لنا يا حكيم.

ومثل الجمل نهض. كان الحكيم قد كلف ثلاثة من الخدم أن يأتوا بأوقات حددها لهم، وأن يدخل كل واحد من باب حدده له أيضاً بدقة، وفي وقت محدد، لكي تقدّم لجلالته الأركيلة، ثم يقدم البخور وماء الزهر، وحدد أين يوضع الجمر، ومتى تأتي القهوة وكيف تقدّم. الآن، بخروج السلطان إلى الشرفة، يختل البرنامج، وربما ولّد هذا نوعاً من الاضطراب، الذي قد يؤدي إلى نتائج غير محمودة. قال السلطان يواصل تبسطه:

ـ كأن البنائين توهّم مخلصين القصر.. يا أبو غزوان.

والتفت السلطان في أكثر من ناحية يختبر القصر ويتعرف عليه. رد الحكيم بمرح:

ـ البناء الجيد... والسلاح الجيد، يا صاحب الجلالة ثمنه فيه!

ـ عسى أن يكون منزل مبارك وعامر.. يا أبو غزوان.

ـ اقبل، يا صاحب الجلالة.

ـ أبد.. حلالكم وإنشاء الله دايمين فيه.

ـ بوجودكم يا صاحب الجلالة، وإنشاء الله دائمين فوق رؤوسنا.

في الشرفة، وقد جلس الحكيم على نفس الكرسي الذي تعود الجلوس عليه، ومع نسمات الليل الرطبة الرخية تفتحت خلاياه وشعر بالثقة. تحدث عن موران حين وصلها، كيف كانت مدينة بسيطة: «لا ماء ولا كهرباء؛ أما الشوارع، أما الأبنية، أما الحياة»، وهز رأسه وهو يستعيد ويتذكر ويبتسم. «أما الآن!». وتحدث عن المدن الأخرى في السلطنة والتقدم الذي حصل والرفاه الذي يعيش فيه الناس، وكيف أن ذلك كله نتيجة السياسة الرشيدة والحكيمة التي يتبعها جلالته. وأن المستقبل سيكون

أفضل من الحاضر أيضاً «فقط يتطلب الأمر أن يكون لموران جيش قوي وسلاح حديث. . وهذا ليس صعباً أو بالأمر المستحيل».

السلطان منتعش، يهز رأسه موافقاً ومؤيداً، ويضحك بفرح بين لحظة وأخرى، لكنه كان أيضاً بحاجة إلى أحاديث مرحة طليّة، وجو من نوع آخر، وعندما اقترح السلطان أن يبقوا على الشرفة وأن يتناولوا عشاءهم في نفس المكان، لأنه لاحظ الطاولة الكبيرة التي أعدها الحكيم في الصالة الداخلية، فقد حبكت الأمور فجأة. قال الحكيم بلهجة اعتذار:

ـ إذا كنتم تفضلون الشرفة، يا صاحب الجلالة، فيمكن أن تخدمنا إذن أم غزوان.

لم يجد السلطان كلمة مناسبة يرد بها، ضحك بصوت عالٍ، فكانت ضحكته أقرب إلى الصهيل، وكانت تعبيراً عن الفرح واللذة والموافقة. ولم ينتظر الحكيم، نهض مثل قط، وخلال دقيقة أو اثنتين بدأ الموكب: الحكيم يتدحرج بثوبه الأبيض، وحبات دقيقة من العرق تتجمع على مهل فوق جبينه؛ ووراءه، على بعد خطوتين، وداد، بفستانها الأسود الضيق، والذي يبرز بياض بشرتها المتألقة، خاصة الرقبة وبداية الصدر، وخلفها بخطوة واحدة سلمى، وقد لبست ثوباً سماوياً موشى بوردات بيض، أما شعرها الأصفر الكستنائي فقد عقصته وربطته بشريط أسود، كانت تبدو صغيرة كأنها طفلة، وكانت تبدو كبيرة كأنها امرأة، خاصة وأن أمها رطّبت وجنتيها بحمرة خفيفة لا تكاد تبين، ولأول مرة وضعت لها كحلاً أبرز العينين الواسعتين الخائفتين.

كان الحكيم يقرأ في وجه السلطان انطباعه ورد فعله، وكان يرقب بعناية كبيرة كل حركة مهما كانت صغيرة أو خفية.

ولأول مرة يبدو السلطان مرتبكاً كطفل، وهو يسلّم على المرأتين، وربما ارتجفت عضلات وجهه، إذ ركّز نظارتيه أكثر من مرة، وظل واقفاً أكثر مما يفعل عادة مع ضيوفه الآخرين. والحكيم الذي أحرجه وقوف السلطان أكثر مما ينبغي، قال بانفعال:

ـ أستغفر الله. . أستغفر الله، تفضلوا. . تفضلوا يا صاحب الجلالة.

ولما دارت عينا السلطان بتساؤل ما إذا كان من اللائق، أن يطلب من المرأتين الجلوس، فقد تولى الحكيم إنقاذ الموقف:

ـ تفضلي يا أم غزوان، اقعدي معنا شوية، وبعدين شوفي كيف ترتبي قعدتنا.

وضحك لكي يكتسب شجاعة إضافية، ثم تابع:

ـ لأن جلالته رغب أن نسهر ونتعشى تحت السماء، أفضل من أن نخنق حالنا في الغرف وتحت المكيفات.

جلست وداد مقابل السلطان، أما سلمى فقد ظلت واقفة، وبدا أن الجميع نسوها أو انشغلوا عنها، والحكيم الذي التفت أكثر من مرة، وفي محاولة لاختبار الجو، ومدى الحميمية التي تولدت، اكتشف نسيانه لسلمى، قال لها باعتذار:

ـ تعالي.. تعالي، يا حبيبتي.. تعالي إلى جانبي!

«ثلاث ساعات وثمانيا وثلاثين دقيقة استغرقت زيارة جلالته» هكذا قال الحكيم بكثير من الغبطة، وهو يستعيد مع وداد وقائع الزيارة «وكان من الممكن أن يبقى فترة أطول لو الحّينا عليه أكثر» هكذا ردت وداد. وهي تتمطى وتستعيد في ذاكرتها صورة الرجل: كيف ضحك وكيف أكل وكيف نظر إليها بطريقة لذيذة.

أما عندما يستعرض الحكيم وقائع الزيارة، واقعة بعد واقعة، دقيقة بعد أخرى، فيعتبر أن الحظ يمكن أن يلعب دوراً. «لكن الذكاء والالهام يلعبان الدور الأساسي» ففكرة الزيارة ليست لحظة عابرة، وليست وليدة المصادفة. فقد أشار الحكيم إلى أنه يتطلع إلى شرف مثل هذا، وعبر عن هذه الرغبة بمناسبات عديدة. والزيارة، زيارة أي كان، حتى لو كان السلطان، لغيره، لا يمكن أن تكون بهذه الحيوية والأهمية والأنس لولا اللمسات الحضارية التي أضفاها على الزيارة، منذ اللحظة التي ترجل جلالته من السيارة وحتى لحظة المغادرة. فالجلوس في الشرفة، مقابل الخضرة وتحت أقفاص الكناري، وأعواد الريحان التي قدمها للسلطان في

لحظة مناسبة، ثم كيف ساق الأحاديث والنكات، وكيف أفاض بتألق لم يصل إليه في يوم من الأيام. أما جلوس وداد وسلمى معهما، فقد أضفى على الجو عطراً رقيقاً، وجعل السلطان في حالة من الود لم يره في مثلها من قبل. صحيح أن المرأتين لم تجلسا كل الوقت، فقد تحركتا كثيراً، وحتى في لحظات غيابهما استطاع الحكيم أن يروي بعض النكات، .ما كان ليرويها لو أنهما موجودتان!

يمر هذا الشريط في ذاكرة الحكيم، أما كيف خطرت له تلك الفكرة العبقرية، وكيف لمعت كما تلمع النيازك، فإنه هو نفسه لا يعرف كيف يفسرها، ولذلك يعزوها للإلهام؛ فقبل أن يحدّثه عن موضوع التسليح، «وأن الحظ، والحظ وحده، مكّن غزوان من التعرف على أهم وأكبر شركة في العالم لبيع السلاح، ويمكن أن نستفيد من معرفته وعلاقاته، وقد وافق أن يقوم بهذه الخدمة للسلطنة من أجل الحصول على كل ما نريد من السلاح وبأية كميات نريد».

ما كان لهذا الحديث أن يجدي أو أن يكون عملياً لو لم تلمع الفكرة الأم:

ـ الرجال العظام، يا صاحب الجلالة، يجب أن يبقوا في ذاكرة الأجيال، وأن يكون ذكرهم على كل لسان، وهذه المهمة ليست مهمة للتاريخ القادم، وإنما يجب أن تكون مهمة الحاضر قبل أن تكون واجب المستقبل، ولذلك أرجو أن تسمح لي، يا صاحب الجلالة، وساعدني بأن أنال موافقتكم على اقتراح محدد: أن نكتب تاريخ جلالتكم، منذ أيام الطفولة وحتى اللحظة الحالية...

السلطان الذي بدا له الأمر طريفاً وجذاباً لم يعرف كيف يجيب عن هذا الطلب، فقد اكتفى بالابتسام فبانت أسنانه الكبيرة. تابع الحكيم:

ـ سوف نسمّي الكتاب يا صاحب الجلالة: «نسر موران».

وأفاض الحكيم طويلاً في شرح أهمية هذا الاقتراح وضرورة تنفيذه، وأنه سيتولى بنفسه الإشراف المباشر على جميع مراحل العمل. وأشار إلى أن لديه الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة على أحسن وجه. والسلطان

الذي كان يختبر مدى جدية الكلمات، ومقدار ما يعنيه الحكيم، سأل في لحظة صمت:

ـ لو كتبتم عن أبوي وعن تاريخ السلطنة ما هو أخير؟

ـ سوف يتم التطرق إلى الموضوعين، كبداية، يا صاحب الجلالة. سوف تخصص بعض الفصول الأولى للمغفور له والدكم، وتأسيسه للسلطنة، وسوف يشار أيضاً إلى تاريخ وجغرافية موران.

وابتسم الحكيم وتطلع إلى السلطان ثم تطلع إلى وداد، وقال:

ـ وهذا الكتاب، يا صاحب الجلالة، ليس مجرد تاريخ، انه سيرة حياة رجل عظيم، ويجب أن يتضمن مجموعة من الصور: صور الطفولة وصور الصبا والشباب، وحتى الوقت الحاضر، ويجب أن يوزع على نطاق واسع جداً، على الأفراد والمؤسسات، وأن يترجم إلى عدة لغات.

وهكذا اقتنع السلطان، وظل الحكيم محتفظاً بالمفاجأة الأخيرة:

ـ سمير قيصر، يا صاحب الجلالة، سيتولى صياغة الكتاب، فقط نحتاج منكم، يا صاحب الجلالة، أن تخصصوا لنا وقتاً كافياً لكي تحدثونا عن طفولتكم وعن أيام الشباب، أما ما تبقى فسوف نتولى أمره أنا وسمير، ولا بد أن يرضيكم ويرضي كل من سيطلع عليه!

لا يعرف الحكيم كيف هبطت عليه الفكرة، فجأة وجد نفسه يفكر هكذا ثم يتجرأ ويقترح، ولعلّه ما كان ليواصل لولا الجو الودي الحميم الذي كان فيه السلطان، ومما شجعه أيضاً أنه حين التقت نظراته بنظرات وداد وجد منها تشجيعاً واضحاً، فقد غمزته مرتين، وكأنها تطلب منه أن يصرّ وأن يتابع. أما في الليل المتأخر، وقد اقترح الحكيم عليها أن يتابعا السهر في الشرفة، وبعد أن تحدثا كثيراً، وصمتا كثيراً، وبدا أن كلا منهما يود أن يشرب لحظات اللذة حتى الثمالة وبطريقته الخاصة، فقد قال لها بكثير من الود:

ـ تعرفي.. يا وداد..

وضحك وهز رأسه بغبطة:

ـ كثير من الأمور: توفيق.

لم يرد أن يقول لها ذكاء، إذ خشي أن تسيء فهمها، أما كلمة «حظ» فإنه لا يحبها، كان يسميها دائماً: عكاز الكسالى. فلما وافقته تابع:

ـ حتى اختيارك أن نقضي الصيف في الإسكندرية، وأن يكون سمير قريباً منا، أشياء أساسية من أجل إنجاز «نسر موران».

ضحكت بغنج. وقالت:

ـ لازم تعرف دائماً كيف تصدقني وتاخذ بشوري!

ـ مثلك ما في.. يا أميرة.

قال سمير للحكيم في اليوم الثالث للقائهما:

ـ أنا موافق على القيام بهذه المهمة، لكن الأمر يتطلب شرطين: الأول: مجموعة من المراجع عن جلالته. والثاني: أن يخصص لنا جلسات عمل عديدة، بعد أن نهيّئ مجموعة من الأسئلة.

ـ ولا يهمك، اتركها عليّ، أنا مسؤول، وأنا الذي سأؤمن لك كل شيء.

ابتسم سمير بمرح، وسأله:

ـ وبيدفع كام؟

ولم يفكر الحكيم بهذا السؤال، أو بالأحرى لم يخطر بباله، فقد افترض أن كتاباً بمثل هذه الأهمية، ويمكن إنجازه خلال بضعة شهور، لا يجوز الحديث فيه عن الأتعاب، وبطريقة لا شعورية ردد وراء سمير وبنفس الطريقة:

ـ وبيدفع كام؟

ـ أنت عارف، يا بيه، أن كتاباً عن السلطان ليس مثل أي كتاب آخر، أنه يتطلب جهداً استثنائياً، ولا يحتمل خطأ من أي نوع، ولذلك يجب أن يعامل الموضوع كله بصورة استثنائية.

وابتسم ابتسامة واسعة. ونظر بتحديد إلى عيني الحكيم، ثم تابع:

ـ لو كان أي كتاب آخر فالمسألة بسيطة...

ولم تطل المناقشة، قال الحكيم ليحسم الأمر:

ـ لا تخف، إذا خرج الكتاب مثلما أتصوره، وأرضى جلالته، فمسألة

المكافأة لا تسأل عنها، راح تنطمر بالفلوس، مني ومن جلالته.. ومن المصروفات الخاصة أيضاً!

قال سمير لنفسه «صفقة العمر. شهادة تأمين مدى الحياة، ويمكن أن تفتح آفاقاً غير محدودة لمستقبل لا أتوقعه الآن، ولذلك يجب أن ألعب بمهارة» وبدأ يفترض أرقاماً محتملة: عشرة آلاف، مائة ألف، خمسمائة ألف.. مليون. قال مليون وهو يضحك بغبطة: مليون ايه؟ جنيه؟ فرنك؟ دولار؟ وبدأ يتصور ماذا سيفعل حينما يستلم المبلغ: «أضعه في البنك وأعيش على الفائدة. أوظفه في مشروع، ويجب أن أدرس الأمر بشكل جيد للغاية، ويمكن أن يتضاعف المبلغ خلال سنتين أو ثلاث سنوات». وفكر أن ينشئ مؤسسة صحفية جديدة تتفوق على الأهرام وأخبار اليوم «كفانا أن نبقى أُجراء.. الآن يجب أن يعمل الإنسان لحسابه مباشرة» أن يقيم شيئاً باسمه ليبقى العمر كله، ويبقى أيضاً بعد أن يموت. وتجرأ أكثر وبدأ يتصور المؤسسة الصحفية، وأسماء الصحف والمجلات التي ستصدرها، وأين يجب أن يكون مركزها ومطابعها.. «ولا بد أن نقيم شركة للتوزيع ليصل المطبوع إلى أقصى مكان في الكرة الأرضية، لا أن نبقى تحت رحمة شركات التوزيع».

وفكر أيضاً أن يكون لديه دفتر «خرطوش» مثل ذلك الذي عند الحكيم، وفي هذا الخرطوش يمكن أن «يدون» كل ما تسمعه أذناه أو تقع عليه عيناه. ومن هذه المادة الأولية يصنع أولاً «نسر موران» وقد وافق على هذه التسمية واعتبرها ذكية، ويحتفظ بالباقي، بما في ذلك صور نادرة لجلالته، للوقت المناسب. لا بد أن يستفيد منها بأشكال وأوقات مختلفة: إذ قد يموت السلطان فجأة، قد يعزل، وقد يقتل أيضاً «فما دامت المادة الأولية موجودة يمكن استخراج أشياء كثيرة منها».

وفي الأيام التالية، وخلال أسبوعين، وهي المدة التي استطاع الحكيم أن يبقى خلالها في الاسكندرية، ولم يستطيع أن يبقى فترة أطول، لأنه، كما قال لوداد «لست ملكاً لنفسي، فلا أستطيع أن أمدد رجليّ وأترك السلطان والدولة؛ ثم أني أنتظر غزوان، ولا بد أن يأتي في فترة قريبة، ولا

يمكن أن أتركه وحده». خلال هذه الفترة خاض مع سمير في مناقشات عميقة؛ كيف يكون الكتاب: عدد الفصول، عنوان كل فصل، وأين يجب أن توضع الصور في مقدمة الكتاب أم في نهايته. ولم ينس أن يتطرق إلى عدد النسخ التي يجب أن تطبع، إلى غير ذلك من الأمور الفنية. وعندما وصل إلى المقدمة التي سيضعها للكتاب تردد واحتار، هل من الملائم أن يضع اسمه على الغلاف باعتباره كاتب المقدمة أم لا؛ والمقدمة ذاتها هل هي مجرد كلمة عادية مثل الكثير من المقدمات التي توضع أم هي دراسة معمقة للفلسفة السياسية والاجتماعية التي تنهض عليها السلطنة كلها؟

حتى اليوم الأخير قبل سفره ظل حائراً ومتردداً، قال لسمير وهو يبلغه بسفره:

ـ لا بد أن أعود بسرعة، لأني لا أستطيع أن أتأخر، ويجب أن أهيّئ لك المراجع الضرورية عن تاريخ السلطنة وأرتب المواعيد مع جلالته.

وسمير الذي «حاول» أن يقنعه بتأجيل سفره، «وأنه لا يمكن عمل شيء خلال الصيف» اقتنع أخيراً أنه يمكن على الأقل «توفير المصادر» حتى إذا وصل شرع بالعمل فوراً، فطلب منه الحكيم، بما يشبه الرجاء، أن لا يتأخر!

شهرا الصيف كانا أخطر شهرين في حياة كثيرين، فالحكيم الذي أحس بخيبة أمل كبيرة، نتيجة انهيار بعض أحلامه، وجد في الظروف الجديدة إمكانية لاستعادة كل ما خسره، أكثر من ذلك يريد أن يعمل وحده ولحسابه الخاص، بعدما تعب من علاقاته مع الآخرين، وكيف انهارت هذه العلاقات، أو على الأقل تعرضت للمصاعب. قال لنفسه في محاولة لحسم هذا الاختيار الذي يعتبره أساسياً: «العب وحدك ترجع راضي».

أما وداد التي اضطربت بعد تلك الليلة، بعد زيارة السلطان، فإنها لا تعرف الآن حقيقة مشاعرها. أصبحت في الاسكندرية امرأة متعبة لنفسها وللآخرين، وكأنها لا تستطيع أن تألف هذا الصخب كله، أو وجود هذا العدد من أفراد الأسرة حولها في كل لحظة. كانت حائرة ماذا تفعل أو كيف، فالحكيم الذي لم يعترض على ارتدائها المايو، وأن تقضي جزءاً من

نهارها على الشاطئ، رفض أن يتعرى أو أن ينزل إلى الماء رغم إلحاحها. فكان هذا سبباً في جزء من النكد، ولأنها لا تعرف السباحة، ولا تستطيع أكثر من أن تبلّ جسدها بالماء، رغم المحاولات التي بذلها الأولاد لتعليمها، كانت تقضي ما تبقى من وقت على الشاطئ بيدها كتاب لا يكاد ورقه يُقلب، إذ لم تألف الكتب، أو عادة القراءة، وتستغرب كيف يقرأ الناس أو كيف يضيعون أوقاتهم في هذه السخافات غير المجدية. هذه التسلية لم تقنعها ولم ترضها. أما بينها وبين سمير فإن أشياء كثيرة حصلت. لم تكن المرأة الوحيدة التي يعرفها، فقد اكتشفت أن له علاقات واسعة، وأنه يعرف عدة نساء، وكان يقضي معهن وقتاً غير قصير. حتى اللحظات أو الأوقات التي كان يقضيها إلى جانبها وإلى جانب الأولاد، لا يتردد في أن يقيس أية امرأة تمر، ويتابعها بكثير من الاهتمام وهي مقبلة ثم وهي تدبر، وكانت تظهر على وجهه علامات الاعجاب والشهوة واضحة تماماً. . ولم يكن ليخفيها، أكثر من ذلك كان يتلذذ بإظهارها لتراها هي بشكل خاص.

حتى في الأوقات التي كانت معه في الفراش، وقد تعمد أن يسكن بعيداً عنهم، وتعمدت وداد النزول إلى المدينة لشراء بعض الحاجات، وكانت تلتقي معه خلال هذه الأوقات، كان يبدو شخصاً مختلفاً عما كان في موران: أصبح واضح الملل، ولا يتردد في أن يقول بعض الكلمات الخشنة، كان يقولها بين المزاح والجد، لكنه يعنيها. أما خفة الدم التي ميزته في موران فقد انتهت هنا تماماً، بل وبدا أقرب إلى القسوة والجفاء.

كان يمكن أن تفهم هذه التصرفات، أو أن تبقى بحجمها الطبيعي، وقد تلتمس له الأعذار أيضاً، لكن أشد ما فاجأها محاولاته الماكرة والخفية لأن يصطاد سلمى. لقد رأت ذلك ليس بعين الأم وإنما بعين المرأة. رأت طريقته في تعليمها السباحة. ورأت نظراته لها وهم على الشاطئ، أو وهم جلوس في الشرفة. كان باستمرار يسألها، يوجه إليها الحديث، ولا يتردد بعض الأحيان أن يربت على كتفها أو على ساقها. وسلمى التي كانت كالزهرة أول تفتحها، هنا، مع أخوتها وآلاف الناس حولها، في جو من

الحرية، بعد سجن موران الذي امتد شهوراً طويلة، وجدت نفسها مستعدة للاستجابة، لتشرب الحياة الجديدة، كما تشرب المياه المالحة في كل مرة يغمرها ماء البحر. لم تكن تعرف ماذا يريد سمير منها أو لماذا ينظر إليها بهذه الطريقة، لكنها كانت مأخوذة بكل شيء هنا، بما في ذلك نظراته وطريقته في التعامل معها.

وداد وهي ترى ذلك، تتابعه، وبالمقابل ترى كيف يحاول أن يبتعد عنها، تتوتر، تمتلىء غيظاً، لا تتصور أنها يمكن أن تعامل هكذا، أو أن شيئاً مثل هذا يمكن أن يقع، لكن لا تريد أيضاً أن تعترف أو أن تسلّم: مايوه القطعة الواحدة التي كانت ترتديه أثناء وجود الحكيم استبدلته بمايوه قطعتين، وقد تعمدت أن تشتري ثلاثة منها بألوان صارخة حادة، انتقتها بحيث تتناسب مع لون جسدها. الخوف من الماء الذي ملأها في الأيام الأولى تخلت عنه، وبذلت جهداً لتتعلم السباحة، حاولت ذلك مع الأولاد ومع سمير. وخلال هذه المحاولات شربت كمية من المياه المالحة أمرضتها، فاكتفت بأن «تسبح» في المياه الضحلة. أما الدعوات التي أخذت تتكرر يوماً بعد آخر، وكل دعوة باسم واحد من الأولاد، ودائماً سمير المدعو والضيف، فكانت بهدف أن تقبض عليه، أن لا يغيب عن عينيها. وعشرات التصرفات الأخرى، وكلها من أجل أن تستعيده وأن تقنعه أو أن تقنع نفسها أنه لا يزال الذي تعرفه وتريده. وسمير حاضر غائب، أو كالماء لا يمكن مسكه أو معرفة لونه، ماذا يريد وبماذا يفكر.

شهر كامل من المحاولات والصراع الأعمى. بعد سفر الحكيم. وكلما بدا أي منهم أنه اقترب أو وصل يكتشف أنه كان يسير بالاتجاه الآخر، بالاتجاه الخطأ. فسمير الذي كان يريد أن يبقى على صلاته مع وداد كان يريد في الحقيقة، في المرحلة اللاحقة، سلمى. ووداد التي تبذل جهداً لاستعادته تقرب وتبعد سلمى، أو تجعل لعلاقته بها تلك الطفولة والبراءة التي لا يمكن أن تتحول إلى شيء آخر. أما سلمى المفتونة بالجو الجديد، وبالاهتمام من أخوتها والشباب الكثيرين حولها وحولهم، وبسمير أيضاً، تحس أن جسدها نما وتكور في مواضع كثيرة. وأنه يفتن الآخرين

بمقدار ما يفتنها ويحرجها، لكن لا تحس أكثر من ذلك. والاخوان اللذان فوجئا بأختهما الصغيرة وقد نمت وكبرت في غفلة عنهما لا يعرفان حقيقة عواطفهما نحوها، إذ ما زالت الصغيرة، وما زالت الطفلة، ولكن أصبحت أيضاً تمتلك جسداً يخافان عليه من الآخرين، ولذلك اضطربت مواقفهم وتصرفاتهم وطريقتهم في التعبير عن الحب أو في الدفاع.

وعنّت موران في بال وداد من جديد: هناك يمكن أن تكون ملكة: الكل يريدها ويطاردها، حتى صاحب الجلالة. وهو ينظر إليها بتلك الطريقة، كانت تحس بالنشوة، لأنها تعرف معنى تلك النظرات وإلى ما يمكن أن تؤدي. هنا، في هذا المزاد الهائل من الأجساد العارية، من النساء اللواتي لا يعرف الرجل كيف يتجنب ويحيد، لا يمكن أن تظهر وتملك، انها مجرد رقم «والرجال في الأرقام يخطئون كثيراً، دائماً يخطئون، وإلا كيف نفسر أن للرجل علاقات كثيرة قبل أن يتزوج، مع نساء جميلات، لكن حين يتزوج يتزوج امرأة بالذات، قد لا تكون الأجمل بين اللواتي مررن في حياته، لكنها وحدها التي يريد؟» وقررت أن تحارب من مكان قوي، وفي الساعة التي تريد. ليس هذا كل شيء، عليها أن تحمي سلمى، أن تبعدها عن الذئاب التي تحوم حولها. وأخيراً عليها أن تصل إلى بيروت لكي تؤمن الأولاد في المدرسة، وتشتري لهما ما يحتاجان إليه.

وهكذا، في لحظة مفاجئة، عصبية، وقد وعدها سمير وأخلف، قررت أن تسافر. خلال ساعات، استعدوا. ولما جاء سمير عصر ذلك اليوم، لم يكن باق على سفرهم بالقطار إلى القاهرة سوى ساعة، ورغم أنه بذل جهداً استثنائياً لكي يحملهم على تأجيل السفر، وادعى أنه كان مريضاً فلم يحضر إلى مقهى عرابي، إلا أن وداد كانت قد حسمت وقررت.

قالت له وهي تبتسم وتمد إليه يداً طويلة مستقيمة، لكي لا تفسح له مجال الاقتراب:

ـ شكراً أستاذ سمير، وإنشاء الله نلتقي قريباً في موران!

ـ شكراً على إيه يا أفندم؟ أنا زعلان قوي.

ـ زعلان؟

ـ أيوه يا أفندم. . وإلا إيه معنى ده السفر المفاجئ؟

ـ بقي لمدارس الأولاد أسبوع، يا أستاذ سمير، ولازم أوصلهم وأؤمن حاجاتهم!

ـ كده. . إذن؟

وضحك ضحكة صغيرة، ثم التفت إلى سلمى:

ـ وأنت مسافرة يا سلمى؟

ولما هزت رأسها وضحكت، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ خسارة. . والنبي.

بعد بضعة شهور، وبقبول الأمير فنر لقصر السعد وانتقاله إليه، وما رافق ذلك من زيارات ودعوات، ظهر بوضوح أن السلطنة تعيش، من جديد، فترة من الازدهار والاستقرار، لم ير مثلها من قبل، خاصة وأن الأخوة الأمراء عبروا، تجاه بعضهم، عن الكثير من المودة والتفاني، وقد ذكّرت تلك الحالة السلطان بالأيام التي أعقبت الرحيبة، حيث كان أولاد السلطان خريبط وأخوته يتراكضون من مكان إلى آخر بتفانٍ وإنكار للذات، من أجل ترسيخ الدولة وتعزيز هيمنتها لمواجهة الخصوم جميعاً، وتجاه الأخطار التي قد تتولد بسبب الإهمال أو التراخي.

الآن تعيش السلطنة فترة مثل تلك. ومما زاد في هذه المشاعر وقواها، خلال المرحلة الجديدة، وخلافاً لكل الفترات السابقة، حالة القوة والغنى التي فاضت وسيطرت، فبدت السلطنة مرهوبة ومرغوبة في آن واحد. وإذا كان السلطان خريبط قد استعان بالكثيرين لتثبيت حكمه وتصفية خصومه، ولم يكن يملك من المال إلا القليل، وكان في كثير من الأحيان مضطراً للتقتير والتأجيل وشد الأحزمة على البطون، فإن المال فاض وتجاوز كل حد، وتدفق أكثر مما يتصور أي إنسان. ومثلما كان خريبط دقيقاً شديداً، بل ومقتراً في المال، فلا ينفقه إلا بمقدار، ولا يعطيه إلا بعد تمحيص وانتظار، وعلى دفعات أيضاً، فإن السلطان خزعل لم يبخل ولم يتردد في البذل والعطاء، بحيث لم يبق أحد ممن يحيطون بالقصر أو له علاقة أو صلة بالعائلة إلا وحصل على نصيب، فظهرت البحبوحة بالتصرفات وعلى الوجوه، وفي الملابس، والمآكل، وبدا الجميع في حالة من الرضى والزهو.. إلا مالك الفريح.

فالشيخ مالك الذي كان مستعداً لأن يغضّ النظر وأن يتساهل، لم يعد يحتمل إزاء الإسراف الذي يزيد يوماً بعد آخر. ففي الاجتماعات التي كان يجري فيها بحث تمويل المشاريع، وكان يتطلب وجوده، وبعد أن يتكلم الكثيرون ويسرفوا في الكلام حول أهمية المشاريع وضرورة الإسراع بإقامتها وتأمين التمويل اللازم لها، كان في كثير من الأحيان يصرخ كالملدوغ:

ـ حنا ما علينا: مشاريع زينة مو زينة، هذي عليكم ويم ضمائركم، لكن يا عباد الله.. ما تقولون فلوس منين؟

ويلتفت إلى مساعده الذي يحمل دفاتر الحسابات:

ـ عطني يا ابن الحلال..

ودون أن يتقدم مساعده لإعطائه الدفاتر، ودون أن يحاول هو، يتابع:

ـ يا جماعة الخير...

يضحك بغيظ، يتطلع خلسة إلى السلطان ليقرأ مدى اهتمامه، فإذا وجده مهتماً يجيب:

ـ ما باقي إلا قريشات، يا طويل العمر، فإذا كنتم تريدونها لهذا المشروع أو لغيره فالأمر أمركم، لكن بعدها لازم نوقف.

أما إذا رآه بعيداً وغير مهتم، وربما يفكر بأمور أخرى فكان يصرخ:

ـ هالحين نفرد بساطنا ونقول كل شيء!

وبأمر أقرب إلى الغضب يطلب من مساعده أن يعطيه الدفاتر هذه المرة وأن يقترب، أن يجلس إلى جانبه وأن ينتبه.

ـ صاحب الجلالة موجود والبساط أحمدي، وكل واحد يقدّر ويقول...

وقبل أن يفتح دفاتره، وقبل أن يتكلم أحد، يصرخ بمساعده:

ـ خذ قرطاس واكتب...

ويلتفت إلى هذه الجهة، ثم إلى الجهة الأولى وكأنه يخشى من شيء، أو يخاف من غريب، ويتابع بلهجة سرية متآمرة:

ـ يا جماعة الخير.. الفلوس بأمر جلالته، وهو صاحب الأمر والنهي، لكن مثل ما قالوا من قبل: من أمّنك لا تخونه ولو كنت خاين، فحرام نرمي الفلوس في التراب.

وبعد الكثير من المناقشات والضغط والمكر، وغالباً ما يكون وحده في طرف والآخرون في طرف آخر، والسلطان أبداً لا يتكلم، ينظر بفرح إلى خصام الديكة، إلى هذا الذي يجري أمامه، حتى إذا انتهى، إذا قرر شيئاً، يكون الشيخ مالك راضياً مقتنعاً وأول الموافقين:

ـ هذا اللي يصير، وكل واحد عنده ضمير، ويريد الخير لهذي البلاد... يوافق!

الحكيم يفهم التعريض أكثر مما يفهمه أي إنسان آخر، لأن الرهان الأساسي بين الاثنين من هو ابن البلاد ومن هو الغريب، من يريد مصلحة دولة موران ومن جاء من أجل الكسب!

هذه الموافقة لا تعني للشيخ مالك إلا اجتياز نصف الطريق، وربما نصفه الأسهل. فإذا جاء من خُصص له المال يطلبه، كان الشيخ مالك، الذي لا يحمل ورقة ولا قلماً، ينظر إليه بكثير من الاستغراب والتساؤل:

ـ يا عباد الله ما تطلبون شيء غير الفلوس؟ ما تعرفون إلا قولة هات؟

فإذا ضحك من يطلب المال أو غضب، نتيجة تجاهل الشيخ مالك، يسأله بجد وغضب:

ـ وشن هي الفلوس اللي تريدها؟

ـ اللي قررها جلالته.

ـ اللي قررها جلالته؟

وبعد قليل:

ـ اتركوا طويل العمر يا عباد الله، خلّوه يستريح، دوختوه بقولة: نريد ونريد.

فإذا انتهى من هذا الدرس وهدأ قليلاً يتطلع إلى وجه سائله بمنتهى البراءة:

ـ الله العليم أنه ما عندك سالفة غير الفلوس؟

فإذا هز رأسه دلالة الإيجاب، يعاود الشيخ مالك:

ـ يا ابن أخي ترى الفلوس لمالك الملك، وحنا بهذي الدنيا ندرج دزج مثل سيل الحدور، والعاقل العاقل، ابن الحلال، اللي عرف أن بعد هذي الدنيا موت، وبعدها حساب وكتاب.

وأغلب الأحيان لا يعقب هذا الكلام أي تعليق، فإذا ساد الصمت فإن ذلك لا يضايق الشيخ أبداً، ينصرف إلى سبحته الصفراء ينقّل حباتها ثلاثاً ثلاثاً ببراعة ظاهرة، فإذا تنحنح ضيفه ينبهه إلى وجوده أو الغاية التي جاء من أجلها فعندئذٍ يرفع الشيخ نظرة فيها من الغيظ بمقدار ما فيها من الحقد، ويهدر صوته:

ـ إذا كان كلام الله ما أحد يسمعه خلنا نسمع كلام العبد. . .

ويلتفت إليه بابتسامة سخرية:

ـ سولف يا وليدي.

ولأن ليس عند من يحدثه حديث آخر، «سالفة» أو شيء إضافي يقوله، فإنه يذكره فقط بالمبلغ الذي خصصه جلالة السلطان، وأنه يعرف جميع التفاصيل، ولا حاجة لتكرارها الآن. والشيخ الذي يحاول أن يتذكر، وأغلب الأحيان لا تسعفه ذاكرته بما يكفي، يطلب مزيداً من الإيضاح، ويتوقف عند بعض النقاط ليسأل متى حصل هذا ومن كان موجوداً، وماذا قال جلالته، حتى إذا تأكد من جميع هذه التفاصيل بهزات من رأسه تطلع بإمعان في وجه محدثه وتخرج كلماته بطيئة:

ـ زين. . زين، هالحين فهمنا السالفة. . .

يتوقف لحظة، يبتسم، ثم يضيف:

ـ باقي عليك يا وليدي شي واحد. . .

ـ شي واحد؟

ـ وريقة من يد السلطان!

ويبتسم الشيخ مالك حتى تبدو أسنانه، فلا يعرف إن كانت ابتسامة تشفٍّ أو ابتسامة فرح، ويضيف:

ـ ولا تنس، يا وليدي، على الوريقة توقيع طويل العمر.. والختم، وبعدها الله كريم.

وفي الجولة الثانية، وبعدما يأتي كتاب السلطان وعليه التوقيع والأختام، يحاول الشيخ مالك أن يفاوض ما إذا كان المطلوب الآن المال جميعه أو قسماً منه، وما إذا كان من الممكن اختصار المبالغ أم لا، مع الكثير من الحدة في المناقشة والسخرية، والتذكير بالجنة والنار، فإذا انتهى من ذلك كله، وبدا الطرف الآخر مصراً وغير مستعد لإعادة النظر أو المساومة، يرد عليه الشيخ برخامة:

ـ كل اللي قلته، يا وليدي. على العين والراس، وأمر جلالته ما ينرد، لكن ما هو قولك إذا قلت لك: الفلوس اللي تبيها ما هي بواجدة، ما هي عندنا.

ويصرخ الشيخ مالك على حامل دفاتره أن يأتي ويحضر معه الدفاتر، فإذا جاء وجاءت يبقيها مغلقة، ويبقى المساعد واقفاً، ويقول بحزن:

ـ أريد واحداً منكم يصير بمكاني... ولو يوم واحد!

في مرات كثيرة كان يصل الشيخ مالك إلى ما يريده أو إلى بعض ما يريد: أن يخفّض المبلغ، أن يجزّئه، أو أن يؤجله. وعندما يحصل شيء مثل هذا يفرح إلى أقصى حد، يتغير، يصبح إنساناً مختلفاً، فلا يلبث أن يفيض بالأحاديث ويطلب الشاي والقهوة، لنفسه ولضيفه، مرات عديدة، ولا بد أن يتذكر كيف أن موران تتعرض إلى مؤامرة، خاصة من الغرباء الذين هجموا هجوم الجراد، ولذلك يجب «أن نفتح عيوننا، أن نحرص على كل قرش، لأنه إذا خلص مالنا طفيت نارنا وما أحد يتذكرنا» ولا بد أن يسوق الحديث بشكل أو آخر إلى تلك القصة التي سمعها منه الكثيرون: «حضر هجان من مكة في مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران وأنهم يحاصرون مدينة سواكن، وأن الشريف أمير مكة خرج

إلى جدة هو وباش المجاورين، وجماعة من المماليك المجاورين الذين هناك بمكة، وأقاموا بجدة خوفاً على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه، وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك، فلما جاء الخبر تنكد له السلطان إلى الغاية، ولا سيما كان منقطعاً في الدهيشة بسبب عينه، فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد، فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان وصلى الجمعة، فلما خرج قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل، ورقي المنبر خطب خطبة بليغة في معنى النازلة التي وقعت بسبب الفرنج. وأخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن، فلما أقيمت الصلاة قال المؤذنون: القنوط عقيب الصلاة، فلما صلى قاضي القضاة الجمعة قنط في الركعة الأخيرة فقنط السلطان والأمراء ومن في الجامع قاطبة»[1].

بعد أن ينتهي من هذه القصة يسأل نفسه ويسأل ضيفه:

ـ بعدما وصل الخبر لسلطان مصر شنهو اللي صار وشنهو اللي جرى؟

ولا ينتظر الإجابة، فقط تتغير لهجته تصبح أقرب إلى السخرية:

ـ تنكد، أي نعم تنكد، وانتظر إلى أن صارت الجمعة، وقنط، وبعد ما قنط ما تذكر أحد ولا أحد تذكره!

ولا يزال الشيخ يحكي ويهذي ويوحي، لكن بهدف واحد، أن يبلغ رسالة محددة: «الحكيم صبحي المحملجي عدو موران، وإذا كان هناك أذى ينتظرها، أو عدو يتربص بها، فإنه هو، أو عن طريقه. لكن لم يذكر اسمه مرة واحدة، ولم يشر إليه!

والحكيم الذي احتمل الكثير، والذي لم تعد له علاقة مباشرة بالشيخ مالك، لا يمكن أن يغفل عن التعريض، ولا يمكن أن ينسى الانتقام. الآن، في ظل الظروف الجديدة، يجد أن الوقت قد حان.

بعد الاجتماع الذي اتخذ فيه قرار إقامة البرج ومدينة خزعل الرياضية، ونتيجة ضحكات الشيخ مالك وسخريته من هذه المشاريع، وأنها لن تجدي، وأشار أن من يقترحها هم أعداء موران، وصل الغضب بالحكيم

---

(١) ابن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، الجزء الرابع، ص ٣٠٨.

درجة فاقت كل حد. قال للسلطان الذي حضر جزءاً من الاجتماع الذي بحثت فيه هذه المشاريع:

ـ بعد مغادرتكم الاجتماع يا صاحب الجلالة جن جنون هذا الإبليس، ابن الفريح: لا تحلموا.. الفلوس ما تشوفها عينكم، والبرج ما ينبنى. الأخوان كلهم: «هذا أمر صاحب الجلالة يا شيخ مالك، وهذا المشروع تقرر وتوافق عليه»، وأبداً يا صاحب الجلالة. يضحك ويمد لسانه، ولذلك أرى أنه تجاوز حدوده، يا صاحب الجلالة، وتطاول على الجلالة، ولازم يتأدب ويكون عبرة لغيره.

ولم يتأخر السلطان في إعفائه، لكن أبقاه تحت تصرفه، دون أن يخصص له عملاً جديداً!

شعر الحكيم بالزهو والقوة عندما تخلص من هذا الخصم، لقد انتظر طويلاً إلى أن جاء الوقت المناسب، وحين جاء لم يرحم ولم يتسامح «سيكون أمثولة للآخرين، ويجب أن يعرف الجميع من هو الدكتور المحملجي» هكذا قال لنفسه بنوع من الفخر. وإذ وجد أن السلطان في حالة نفسية متألقة، أقرب إلى الحبور، فقد اعتبر أن كثيراً من الأفكار التي شغلته في أوقات سابقة، وأن كثيراً من الأحلام التي يريد الوصول إليها، أصبحت قريبة ولا بد أن يصلها ويحققها خلال فترة قصيرة.

لم يخطئ في فراسته، فالقصر، وكل من له علاقة أيضاً، يبدو بشكل مختلف عن السابق: الحركة والنشاط البِشر، وكل شيء آخر يوحي بهذا الجو ويشجع عليه، وكأن عودة الأمير فنر، ثم الوفاق الذي حصل، بموافقته على البقاء والمشاركة في السلطة، والتي لم يتحدث عنها أحد بصوت عالٍ أو بوضوح، كان الجميع يتمناها وينتظرها. وإذا كان قد لام نفسه لأنه لم يقدر أهمية هذا الأمر، ولم يتوقع ما يترتب عليه، ما لبث أن أخذ أيضاً. إذ لم يتأخر عن زيارة الأمير فنر، وقد قصد أن يتحدث معه في أمور عديدة، لكي يكتشف ذكاءه ومدى معرفته. وإذا كان قد خرج بنتيجة هذه الزيارة: «الرجل عادي، وأقرب إلى الأمية، لأنه لا يحسن أية لغة أجنبية، ولا يحسّ بالنكتة الذكية اللماحة، كما أنه أقرب إلى المحافظة من ملابسه وطريقته في التصرف». رغم ذلك وجد الأمير إنساناً بسيطاً. فقد سأله عن عدة أمور متعلقة بأمراض المناطق الحارة، وكيف يمكن اتخاذ إجراءات مناسبة لمكافحتها أو الحد من أضرارها، كما سأله عن مناطق أخرى من العالم مشابهة وكيف تقاوم هذه الأمراض، والحكيم الذي

تحدث باستفاضة عن المناطق الحارة في العالم، وكيف أن الوفيات بين الأطفال تبلغ أرقاماً قياسية، أشار إلى أن النسبة في موران أقل بكثير، وأن السنوات القادمة ستكون أقل مما هي الآن بكل تأكيد. وقد انتهت المقابلة بنوع من الرضا المتبادل، مع تأكد الحكيم بصحة أحكامه السابقة.

لم يقتصر موقف الأمير فنر على مجرد الانتقال إلى القصر الجديد، أو تلبيته الدعوات التي وُجهت إليه، بعد أن كان يرفض في السابق بطريقة خشنة، أقرب إلى القسوة، وإنما عبر أيضاً خلال هذه الدعوات بأحاديثه وتعليقاته عن تبسط واضح وأخوة حقيقية. صحيح أن أحاديثه خلت من الطلاوة، لكنها لم تخل من المودة. حتى وهو يستمع إلى أخوته أبدى الكثير من الكياسة وهو يستفسر، وهو يسأل، ثم حين كان يعبر عن رضاه وتفهمه. أما الأمراء الذين كانوا شديدي القلق بعد عودة الأمير فنر، وذلك الموقف الذي اتخذه، والذين تمنى أكثرهم لو أنه لم يعد، فقد ندموا أنهم أساءوا الظن إلى هذه الدرجة، لذلك فقد أصبح فرحهم الآن مضاعفاً. وهذا الفرح ذاته انتقل إلى السلطان وعّم القصور كلها. ولقد فكر السلطان في إحدى لحظات الإشراق، وكطريقة للتعبير عن المودة القصوى، ولترسيخ تقليد جديد في الأسرة، لو يقترح أن يتزوج جميع الأخوة، أولاد المغفور له السلطان خريبط، في ليلة واحدة، ان هذا لو تم سيخلق فرحاً في جميع أنحاء السلطنة. وسوف يستمر هذا الفرح أياماً بلياليها، وربما كان فألاً حسناً، وقد يصبح تقليداً جيلاً بعد جيل! كما سيخلق في ذاكرة الأجيال القادمة نوعاً من الاعتزاز، خاصة إذا ترافق ذلك مع زيجات ترتب منذ الأيام الأولى للولادات الجديدة التي ستكون في وقت واحد، أو في أوقات متقاربة. تماماً كما يحصل بين الكثير من المخلوقات! هذه الفكرة التي ألهبت خيال السلطان لبضع ليال، ما لبث أن تخلى عنها في الدعوة التي أقامها الأمير ميزر لأخيه فنر. إذ بعد أحاديث عديدة تخللتها الأمازيح، أشار الأمير زعل، مخاطباً أخاه الأمير فنر، إلى أنه يراه الآن أكثر قوة وأكثر شباباً مما كان قبل سنين. فرد فنر ببعض الجفاء:

ـ اللي يدري يدري يا زعل واللي ما يدري يقول كف عدس!

وفهم من هذه الإشارة أن الأمير لا يزال يعاني من بعض المتاعب الصحية، لكنه يتحمل ويقاوم بنوع من المكابرة، ولولا رغبته أن يكون بينهم، وحتى أن يموت على أرضه وبين أخوته، لفضل البقاء هناك. وللحظات عبرت في ذاكرة كل واحد ممن كانوا يتابعون الحديث أحزان وأشواق، لكن ازداد إكبارهم وتقديرهم لهذا المسافر الذي عاد أخيراً. وهذا ما جعل السلطان يصرف النظر عن الاقتراح.

أما عندما بدأت تعقد تلك الاجتماعات الخاصة، والتي غالباً ما تمتد وتطول، ولا يحضرها مع السلطان والأمير فنر سوى عدد قليل من الأخوة، وعقد الاثنان منفردين ثلاثة اجتماعات في أسبوع واحد، انعقد منها اثنان في قصر الغدير، والثالث في قصر السعد، فقد تأكد الجميع أن الأمير جاء برغبة التعاون والمساعدة، وأنه يضع نفسه تحت تصرف أخيه السلطان. ومما زاد في هذه القناعة ما قيل أن الأمير قد يتخذ له مقراً في القصر السلطاني الجديد، في الخالدية.

هذه الفورة العارمة من الحماس والتغير التي امتدت أسابيع، ولم يبق أحد في موران إلا وتحدث عنها وشغلته بشكل أو بآخر ما انفكت أن تراخت ثم تراجعت. وقد ساهم الأمير فنر ذاته في كسر حدتها من خلال الحديث الصحفي الذي أجراه معه سمير قيصر وحضره مطيع أيضاً. فقد أوضح بشكل غير مباشر أن وضعه لم يتغير عندما كان في الخارج أو وهو يعود إلى أرض الوطن، وأنه يضع نفسه في خدمة السلطنة والسلطان، لكنه يفضل الراحة في الوقت الحاضر.

أما الأحاديث التي سبقت المقابلة الصحفية أو أعقبتها، فقد كانت أكثر وضوحاً ودلالة. فقد أصر الأمير فنر أن لا تعطى للحديث أية أهمية استثنائية. ورفض أن تنشر له أكثر من صورة واحدة لأنه يفضل أن يكون بعيداً، لكي لا يزعجه الناس، وتتأثر بالتالي صحته.

الحكيم كان شديد اللهفة لمعرفة أدق المعلومات وأصغر التفاصيل. سأل مطيع وسأل سمير، سألهما معاً واستمع باهتمام إلى كل ما قالاه، ثم سأل كلاً منهما على انفراد. وراقب عن كثب وبكثير من الحرص الدعوات

التي أقيمت، وكانت مقصورة على الأمراء وأولادهم، ولم يحضرها أحد من الغرباء. أما عندما سئل الحكيم عما يتوقعه من مستقبل للأمير فنر، فقد رد، وبدا على وجهه الحزن الشديد:

ـ الله يساعدنا ويساعده.

وبدا أنه غير مستعجل لإعطاء رأي واضح، أما بعد المقابلة الصحفية بعدة أسابيع فقد قال كلاماً أوضح:

ـ يجب أن لا ييأس الإنسان من شيئين اثنين: رحمة الله وتقدم العلم. وأنا الآن أتكلم كطبيب، صحيح أن هناك حالات مستعصية لا يجدي معها العلاج المعروف، لكن الأمل موجود دائماً في اكتشافات طبية جديدة. وهذه الاكتشافات قد تغير الكثير، شرط أن يكون الأطباء المعالجون على صلة مع مراكز الأبحاث والجامعات الهامة في العالم.

وفهم الذين تحدث إليهم الحكيم بهذه الطريقة أن الحالة الصحية للأمير فنر تدعو إلى القلق، وربما إلى القلق الشديد، خاصة وأن كثيرين تذكروا الإشاعات التي رافقت بداية وصوله، وأن الأطباء الذين عالجوه قالوا له: «داك ماله عندنا دوا والأخير أن تموت بديرتك، بين أهلك وعشيرتك». ومما زاد في رسوخ هذه القناعة أن الحكيم الذي زار الأمير فنر خلال الأسابيع الأولى، ثم زاره مرة أخرى في قصر السعد، وكانت الزيارة الأخيرة، إضافة إلى المقابلة الصحفية، بإيعاز من السلطان ذاته، فقد بدا واضحاً أنه يكتفي بهذا القدر من العلاقة، ولا يحرص على علاقة أقوى.

أما حماد فقد رد بمرح عندما سأله الحكيم عن تقديره للوضع الجديد:

ـ مورانا بمكانها، يا أبو غزوان، ما تتحرك وما تتغير!

فلما طلب الحكيم مزيداً من الوضوح رد حماد:

ـ ظني، يا حكيم، أن الأمور مثل قبل، والأحسن أن الواحد منا ما يتدخل بينهم. لا شاف ولا سمع وإلا راح طعام للنسور!

وتذكر الحكيم، من جديد، الكتاب الذي سيضعه، بالتعاون مع سمير، عن «نسر موران»، فشعر بالاعتزاز لاختياره هذا العنوان بالذات، إذ

بالإضافة إلى دلالته، فإنه شديد القوة والجمال معاً. أما ما يقوله حماد الآن فإنه يدل على بعد النظر، لكنه مع ذلك لا يحس أن موقفه واضح أو أن عواطفه ثابتة ومؤكدة تجاه ما يجري.

لقد حصل ذلك كله قبل سفرة الصيف، أما الآن، بعد أن عاد الحكيم من السفر فقد كان متأكداً من قناعاته السابقة، إذ لم يسمع شيئاً عن الأمير فنر، وربما اختفى من جديد. وقد فسر الحكيم أن مرض الصفراء يولد الكآبة أيضاً، وهذه قد تغيب، أو لا تظهر بوضوح، لكنها تلازم المريض إلى آخر أيام حياته، ولذلك فإن ما ظهر من نشاط في مطلع الصيف، لا يعدو أن يكون حالة طارئة أو مؤقتة، قد تتكرر مرة أو اثنتين لكنها لا تعني شيئاً في النهاية. الأمر الآخر لفت نظر الحكيم بعد عودته: المودة الظاهرة والفياضة التي بدرت من السلطان. قال له أن غيبته طالت أكثر مما ينبغي. وقال ان جو موران خلال هذا الصيف كان أرحم من سنوات سابقة، وعلى التحديد من السنة الماضية أو التي قبلها. وقد حفزت هذه المودة الحكيم وحرضته على أن يخطو إلى الأمام خطوات كبيرة، لكن حز في نفسه أيضاً أنه يحارب وحيداً، وأن الآخرين، حتى الأبناء، رغم التضحيات التي يبذلها من أجلهم، فإنهم لا يتجاوبون بالمقدار الكافي، وإلا كيف يفسر تأخر غزوان، وكيف يفسر تأخر سمير؟ لقد اختصر رحلته، لم يبق، بعد الاسكندرية، إلا ثلاثة أيام في ضهور الشوير، حتى أنه لم يستطع أن ينام في الفيلا، لأنها كانت بحاجة إلى جهد كبير من أجل تنظيفها وإعادة ترتيبها، وان كان قد قضى نهاراته الثلاثة يتنقل بين الشرفة الأمامية الصغيرة والمدخل، لكي يشعر الجميع بوجوده. واتفق مع بستاني جديد، لأن القديم مات قبل وصوله ببضعة شهور، وان قال قريبه الذي جاء يطالب بما يستحق له من أجور أنه مات قبل وصول الحكيم بخمسة عشر يوماً فقط! والحكيم الذي تظاهر بالتصديق تلفت أكثر من مرة إلى الحديقة لكي يقول له، دون كلمات، ان الرجل مات قبل سنة أو أكثر، وإلا لما كان وضع الحديقة كما يراه الآن!

لقد بعث إلى غزوان ببرقيتين وثلاث رسائل، البرقيتان تطلبان المجيء

وتؤكدان أن يكون في أقرب وقت، أما الرسائل فقد كانت واضحة لا تحتمل تأويلاً أو خطأ. ومع ذلك لم يصل حتى الآن. رد عليه غزوان برسالة قصيرة يشعره أن شركته أوفدته مع فريق إلى البرازيل، وحالما يعود سيرتب أموره ويأتي. لم يقل له كم سيبقى في البرازيل ومتى يعود منها، ولم يحدد أي موعد لاحتمال وصوله إلى موران. قال الحكيم ليصبّر نفسه وليجد المبررات لغزوان «الغائب عذره معه.. لكن إذا جاء سأعاتبه وألومه».

خلال هذا الوقت هيّأ لسمير أكثر المراجع التي تساعده في عمله. أما المواعيد مع السلطان فقد ألمح إليها بسرعة دون أن يطلب تحديداً، فالأمر سابق لأوانه، ثم ان هذه المواعيد تتحدد على ضوء الكثير من الاعتبارات، ويجب أن يكون مسؤولاً عنها، «لأن الأمر لا يحتمل أي خطأ. ويجب أن تكون على ضوء تقديري وبوجودي».

ألمح السلطان، أكثر من مرة، إلى تلك السهرة، وأطرى، وهو يتلمّظ، أكل أم غزوان، وسأل، بغموض، عن «العائلة»، وقال ان سهرات مثل هذا لا بد أن تتكرر في المستقبل. والحكيم الذي استمع إلى الإطراء، وكان مطرقاً إلى الأرض، ابتسم أكثر من مرة، واستعاد وقائع السهرة بكثير من اللذة والاستمتاع. وتذكر الظروف التي رافقتها أيضاً، وكيف كانت وداد مرتبكة خائفة، وكيف بكت وطلبت منه أن يعتذر للسلطان. قال لنفسه وهو يواصل ابتسامته ويتذكر: «النساء ناقصات عقل ودين»، إذ لولا إصراره والمحاولات التي بذلها، من أجل تهدئة وداد أولاً، ثم كيف تصرف وكيف تحدث أثناء السهرة، فلربما أخذت الأمور، ثم العلاقة مع السلطان، مساراً آخر.

حتى راتب الذي بدرت منه بعض «الأخطاء» أو كما سماها الحكيم «جهل» بدا الآن أكثر توازناً ورقة، وحين سأل الحكيم عن الطبيب الذي يرشحه لكي يشرف على نبيلة «لأنها حامل، يا أبو غزوان، وتشعر بآلام في الظهر» فقد سأل بنوع من الارتباك أقرب إلى الخجل، الأمر الذي جعل الحكيم يعيد النظر بافتراضاته السابقة، لكن لم يتأخر في الوصول إلى

تسمية طبيب مناسب أولاً وإلى تفسير يعتبره الأقرب إلى الصحة في تحديد وضع راتب بعد ذلك «في سن معينة، وللرجل المجرب والمتقدم بالعمر، يصبح الطفل أعز وأهم شيء، ولا بد أن يكون صاحبنا، عندما تأخرت زوجته، خاف، لعب الفار بعبه.. أما الآن فأصبح يشعر بالتوازن والثقة» ومما أكد صحة استنتاجاته، أو تفسيراته الجديدة، أن العمل في شركة المواد الغذائية تحسن كثيراً عن السابق، وتم التعاقد بين الشركة والجيش على كميات كبيرة من «مواد الاعاشة»، وأن العلاقة بين راتب والزوبعي أفضل من قبل أيضاً..

أما مطيع الذي استهوته الصحافة كثيراً، خلال الفترة الماضية، وانشغل عن الأمور الأخرى، فقد أقلق هذا الحكيم، فاضطر لأن يلفت نظره، ولأن يتدخل في بعض الأمور «لأن العمود في الجريدة، يا خالي، لا يساوي الحبر المكتوب فيه. وأنت في الأول والأخير، أب للصحابة ولست ابناً لها، فإذا أردت أن تسكّر الباب ساعات وساعات، والضوء الأحمر شاعل، لا ترى أحداً ولا يراك أحد، لا تراقب ولا توجه، وكل همك أن تكتب كم كلمة، ويجوز أن لا يقرأها أحد، راح يكون حالنا تيتي تيتي مثل ما رحتِ جيت، لا صرنا صحفيين ولا أشرفنا على صحافة» هذا الكلام الذي قاله الحكيم لمطيع قبل سفره بشهرين أو ثلاثة، والذي أغضب مطيع، بعض الشيء، لكنه رد عليه بضحكة غيظ، يبدو أنه أثّر وأعطى نتائج إيجابية، لأن مطيع استعاض عن العمود اليومي، والذي كان يساعده سمير «بمراجعته»، بمقال رئيسي أسبوعي في مجلة الواحة. لم يكن مجرد مقال في الصفحات الأولى فقط، وإنما مقال مع صورة، وقد اختار لنفسه صورة جانبية قديمة بعض الشيء، لكي يظهر في حالة تفكير عميق!

هذا التطور الذي لمسه الحكيم، والذي أثنى عليه كثيراً، دون أن يشير إلى المناقشة التي جرت بينهما قبل شهور، ترافق مع «حدث سعيد» كان ينتظره مطيع بين يوم وآخر، وهذا الحدث ما كان ليعني شيئاً هاماً أو استثنائياً بالنسبة للحكيم لولا الظروف التي رافقته، فقد كان مطيع مصمماً أن يسمي الوليد الجديد، إذا كان غلاماً، واحداً من اسمين: صبحي أو

غزوان، أما لو كان بنتاً فظل متردداً بين اسمين أيضاً: سلمى أو نعمى، وما دامت هذه الأسماء جميعاً تعني الحكيم فلا بد أن يسأله أو أن يأخذ رأيه.

كان مطيع محرجاً لا يعرف كيف يبدأ الحديث، فالابن الأول الذي سماه رشدي، على اسم أبيه، دون سؤال أحد، لم يرق كثيراً للحكيم، لم يقل ذلك بشكل مباشر، لكن ألمح إليه. الآن يريد أن يتابع الوزن نفسه، وأقرب الأسماء إليه، أو ربما الاسم الوحيد الذي طغى على غيره من الأسماء: صبحي، فإذا أحرج الحكيم اختيار هذا الاسم فإن البديل: غزوان. ولذلك لا بد أن يسمع رأيه.

ما كان هذا الموضوع ليشغل مطيع أو ليقلقه لولا المناقشات السابقة، والتي كان يلذ للحكيم أن يخوض فيها مع ضيوفه، وكانت تبدو له طريفة وهامة في آن واحد، إذ كان يسخر كثيراً من بعض الأسماء، خاصة في موران، أو من الأشخاص الذين لا يحسنون اختيار أسماء ملائمة لأولادهم. ويتذكر مرة أن الحكيم قال وهو يستعرض الأسماء السائدة في موران «العمى يضربهم، حمير، ما في بالدنيا أرخص من الأسماء، وما في أكثر منها، والواحد منهم تارك كل الأسماء اللي ترفع الرأس ورايح على: كلب، جحش، على فليحان وخريان، وكأن ما في الدنيا اسم غزوان أو حامد.. أو كمال أو سلمى» كان الحكيم يترنم وهو يردد الأسماء الأخيرة. وقال ان الطريقة الوحيدة لخلق جيل متوازن صحي في المستقبل أن تعطى للأبناء أسماء مناسبة، وأن تفرض ضريبة قاسية على الآباء الذين لا يسمون أبناءهم أسماء كبيرة وهامة..

الآن ومطيع يستعيد صدى تلك المناقشات، ويروق له أن يبحث هذا الموضوع بالذات مع الحكيم، ولكي لا يقع تحت طائلة السخرية أو الضريبة ابتسم أكثر من قبل ثم قال للحكيم في لحظة صفاء:

ـ مثل ما يقول أهل موران يا خالي: أنت عمّه وسمّه، ولا بد أنه بعلمك، يا خالي: بين يوم والثاني، الله راح يرزقني بولد، والأسماء اللي فكرت فيها واحد من اثنين: صبحي وغزوان، فلازم تختار لي!

ضحك الحكيم من أعماق قلبه. كان أقرب إلى النشوة، فهذه اللفتة

من مطيع، بالاضافة إلى أشياء أخرى، تدلل بوضوح على أن الرجل ليس متأثراً به فقط، وإنما يعتبره قدوة ومثلاً، «وإلا لما حصرني في هذه الزاوية»، وهذا الموقف لا يدل على الوفاء فقط، أنه أكبر من ذلك، ولا بد أن يقابل الإنسان الوفاء بالوفاء، وأن يقابل الثقة بثقة مثلها. قال الحكيم وبقايا الضحكة تملأ حلقه:

ـ ما أكثر من الأسماء يا خالي، لكن إذا نويت على واحد من هذه الأسماء، فتوكل على الله ولا تتردد.

ـ أنت عمه وسمه!

ـ لا تحرجني أكثر من اللازم يا خالي!

وفي جو من المرح والمودة ترك الحكيم لمطيع أن يسمي المولود الجديد الاسم الذي يشاء، ولا مانع أن يكون صبحي، أما إذا كان المولود بنتاً فقد اقترح، بما يقرب الحسم، أن يكون الاسم: لبنى، بدل سلمى أو نعمى. ومطيع الذي وافق بغبطة قرر دون تردد: الولد: صبحي، والبنت لبنى.

وشعر الحكيم بالنشوة، رغم الأخطاء التي حصلت في الفترة الماضية، أكثر من ذلك اعتبرها أخطاء صغيرة، يمكن أن تحدث مع أي إنسان، لا بل ان أخطاء الآخرين أكبر مما وقع له. ان ما يعزيه أن مساعديه، والذين يعملون معه، يثقون به، يحبونه، ويعتبرونه مثلاً لهم، ولذلك يلتفون حوله، يسألونه، يأخذون رأيه في الصغيرة والكبيرة، «أكثر من ذلك لا يسمون أولادهم إلا بناء لمشورتي ورأيي.. وهذا هو العزاء». ولم يشأ أن يتذكر حسني أو سعيد، ولم يخطر بباله أن يتذكر محمد عيد أو مفضي. ونام تلك الليلة مطمئناً، ولم يقلقه إلا تأخر المسافرين: غزوان أولاً، ثم وداد.. وأخيراً سمير!

«الانتخابات» الأولى التي جرت في بداية الخريف، لاختيار أعضاء غرفة تجارة موران، كانت بمثابة صدمة جديدة للحكيم. كان يمكن أن يوافق على سقوط قائمته ونجاح أية قائمة أخرى، لكن الذي لا يمكن أن يوافق عليه أو يتصوره نجاح القائمة المعادية: قائمة سعيد ورضائي. صحيح أن الغامدي هو الذي أصبح رئيساً للغرفة التجارية، ورضائي نائباً للرئيس، «لكن تبقى القائمة، بعناصرها، بطريقة تشكيلها، وحتى بالمغزى الذي رمت إليه، من صنع هذا الخبيث، سعيد». ولذلك فهي تشكل تحدياً للحكيم أقرب إلى الإهانة.

وإذا كان الحكيم قد احتمل بصعوبة التعهدات التي حصلت عليها شركة الغزال قبل بضعة شهور، فقد صرف وقته وجهده، منذ ذلك الوقت، للرد من خلال غزوان وشركته. لكن غزوان الذي جاء لمدة ثلاثة أيام فقط في أواخر الصيف، وقدم «أفكاراً» كما ذكر أثناء استقبال السلطان له، حمل معه من موران اقتراحات ووعد أن تدرس هذه الاقتراحات وأن «يرد عليها في أقرب فرصة».

انقضى شهران، شهران طويلان بالنسبة للحكيم، ولم يتلقَّ رداً ولم يصل الرد، كل ما تلقى رسالتين، الأولى، شخصية، من غزوان، ولم يشر فيها، إلا عرضاً، إلى الاقتراحات التي حملها؛ مع تأكيد أن «النتائج ستكون إيجابية»؛ والثانية من الإدارة العامة للشركة تذكر أنها تلقت اقتراحات السلطنة، وأنها موضع دراستها واهتمامها، وحالما تستكمل الدراسة المطلوبة سوف تتخذ الاجراءات المناسبة! وتختم الشركة رسالتها بالشكر والتقدير العميقين «للدكتور صبحي المحملجي، ولابنه، السيد

غزوان، الذي أثبت خلال الفترة القصيرة على عمله في الشركة جدارة وكفاءة استحق بموجبهما تقدير رؤسائه».

الآن، بنجاح القائمة «المعادية»، يتزعزع وضع الحكيم ويضطرب، «كل ما دبرناها من جهة تنفخت من الجهة الثانية» وقد زاد من اضطرابه أن التقليد الذي كان سائداً أيام السلطان خريبط، بأن يذهب الأمراء وأبناؤهم بمعية السلطان إلى البادية، وأن يقضوا هناك فترة من الزمن، دون أن يرافقهم أحد من المستشارين أو الغرباء. هذا التقليد الذي لم يحرص السلطان خزعل على اتباعه بدقة، إذ كان يقع سنة ولا يقع في السنة التي تليها، وغالباً ما يختصر ليومين أو ثلاثة، بدل أسابيع، وأحياناً يتخلف عنه بعض الأمراء، بدا هذه السنة، وبمشاركة الأمير فنر، أو ربما بمبادرته، شيئاً مختلفاً عن السنوات السابقة. ومما زاد في غيظ الحكيم أو تشاؤمه أن أُرسل بطلب حماد، وقد عرف ذلك من مطيع، في اليوم التالي للسفر، ثم نائبه بعد ثلاثة أيام، ولم يسأل عن الحكيم. وقد بقي الاثنان إلى نهاية الفترة، أما بعد أن عاد حماد وسأله الحكيم فكان جوابه أقرب إلى السخرية:

ـ ما عدا السوالف والقنص ما حصل شي يا أبو غزوان!

وحين نظر إليه الحكيم وكأنه لا يصدقه تابع:

ـ . . . وكان فيه سباق خيل!

وهز الحكيم رأسه بموافقة يائسة، لكن تأكد أن حماد لا يريد أن يتكلم، وتأكد أكثر أنهم يستبعدونه ولا يريدون أن يعرف!

لو أن وضع الحكيم في البيت، مع وداد، كان أفضل لعرف كيف يواجه الآخرين، أو على الأقل أن يخلق توازناً من نوع ما يحتمي به، لكن بعد أن تأخرت كثيراً بين الاسكندرية وبيروت، بسبب الأولاد وإعادة تأثيث البيت في بيروت، عادت إلى موران امرأة مختلفة: نزقة، صامتة، وأقرب إلى المرض. والحكيم الذي بذل جهداً كبيراً لإخراجها من هذا الجو، كان يشعر في أعماقه أن التعب الذي حل بوداد هو سببه، فلام نفسه أنه حمّلها مسؤوليات أكثر مما تحتمل، خاصة وأنها كانت وحيدة في بيروت. ولذلك وبكثير من التفهم والتضحية احتمل الجو الصعب الكئيب الذي سيطر على

قصر الحير، لكن شعر، أكثر من قبل، انه وحيد، وحيد تماماً، وأن أقرب الناس إليه لا يفهمه.

لم يقتصر الأمر على ذلك «سمير أفندي عنفص» «مش ممكن، يا سعادة البيه، أحط أسود على أبيض قبل الاتفاق على شيئين: المكافأة التي استحقها لهذا العمل، والشيء الثاني: عشر جلسات عمل مع السلطان، لأني عايز أعرف كل حاجة عن جلالته، ولازم أتناقش معه في التفاصيل الصغيرة». والحكيم الذي بذل جهداً استثنائياً ليحمل سمير على أن يتخلى عن الشرطين أو أن لا يصر عليهما «لأن المكافأة إذا تحددت الآن ما هي من مصلحتك يا أستاذ سمير، لأن صاحب الجلالة قد يأمر لك بأضعافها، ثم ان الجلسات مع جلالته لا يمكن تحديد عددها سلفاً، يمكن أن تكون أقل أو أكثر، ولكي تكون مفيدة يجب أن تطلع على تاريخ السلطنة، وبعد ذلك نتفق على الأسئلة والتفاصيل الأخرى» ويدفع إلى سمير بعدد من الكتب التاريخية والجغرافية لقراءتها، تمهيداً لوضع مخطط الكتاب، وبعد ثلاثة أسابيع أو أربعة، وحين يسأل سمير ما إذا أنجز قراءة هذه الكتب، يكتشف أنه لم يمدّ يده إليها «لأن الأستاذ مطيع كلفني بشغلانة عاجلة يا سعادة البيه، والظاهر أن الشغلانة دي تهم القصر».

وظل وضع الحكيم عرضة للصعود والهبوط تبعاً للأجواء التي تحيط به، ولطريقة الآخرين في التعامل معه، فأن يزوره مطيع بين يوم وآخر، وأن يستشيره في تسميته الغلام الذي سيأتيه، ولا يقدم على عمل دون التشاور معه، ثم يسمع من الآخرين أن مطيع اتخذ مجموعة من المواقف أو أقام عدداً من العلاقات دون أن يشير إليها مجرد إشارة؛ وأن يكون راتب في حالة من الرضا والثقة بالنفس، بعد أن كان في حالة أخرى أول الصيف، وهكذا حالات الآخرين المتقلبة أو المتغيرة، فإن ذلك ينعكس بوضوح وبسرعة على الحكيم، فيقع فريسة الأوهام والوساوس، فلا يعرف هل الخطأ خطأه أم خطأ الآخرين.

يقول لنفسه بكثير من الحزن، «أصعب شيء في هذه الحياة أن يكون الإنسان وحيداً، أو أن يمتلئ بهذا الشعور، رغم وجود الآخرين حوله،

ورغم الضجة التي تحيط به، ويغرق في حالة من الحزن يحس معها أن حياته تبددت، وأن العمر كله انقضى في الركض الأحمق، حتى إذا وصل، أو توهم الوصول، يكتشف أنه كان يركض في الاتجاه الخاطئ، أو نحو هدف لا يريده. حتى الزوجة والأولاد أصبحوا في المرحلة الجديدة مختلفين عن السابق. لا يعرف ماذا يريدون أو كيف يفكرون، ولذلك فإن مشاعره نحوهم تبدو مهتزة، قلقة. لقد تعب من أجلهم، قضى عمره ليجمع ثروة، وبعد أن وصل، وحين أراد أن يسلمهم هذه الأمانة، يجدهم بعيدين أو غير آبهين، وكأن الثروة لا تعني شيئاً بالنسبة لهم. كان يريد غزوان بقربه، معه، لكن غزوان فضّل البقاء هناك، ولا يعرف إلى متى سيبقى وهل يحتمل أن تكون حياته في أميركا أفضل مما لو جاء وسلمه كل شيء؟ ووداد.. كانت في الماضي تحبه أكثر، أو على الأقل هكذا كان إحساسه، أما الآن فإنها تشغل نفسها بأمور تافهة: بالملابس، بالمكياج، بالزيارات، فإذا تبقى لديها بعض الوقت فإنها تنصرف إلى البيت والأثاث. لم تعد تحس بوجوده وأهميته كما كانت تفعل، وحين تسأله عن صحته فإن سؤالها أقرب إلى المجاملة أو الشفقة، بحيث لا تعني لها الإجابة أي شيء، فما أن تتظاهر بسماعها حتى تغرق من جديد في صمتها. أما الملابس والهدايا، أما تلك العطور والمجوهرات التي لا يبخل أن يحمل منها كميات كبيرة بين فترة وأخرى، وكلما يفرغ حقيبته، ويكون القسم الأكبر لوداد، وتظن أنه لا يحمل غيرها، فكان يفاجئها بما خبأه في الحقيبة الأخرى. ومع ذلك، ورغم الضحكات الفرحة، القصيرة، فإن كل شيء ينتهي فجأة، وتعود بسرعة إلى عالمها. وهذا العالم لماذا يبدو حزيناً مليئاً بالتوتر والصمت؟ ماذا تريد أكثر مما يعطيها أو يوفره لها؟ هل هناك امرأة تعيش أفضل منها؟

هذه الأمور شغلت الحكيم إلى أقصى حد، وهو بمقدار الثقة التي تملأه بأنه قادر على أن يفسر أصعب القضايا، يجد أن القضايا التي تواجهه شديدة التعقيد، تموه نفسها، أو سريعة التحول، بحيث لا يطمئن إلى أي تفسير.

وسمير.. لماذا يبدو هكذا بعد أن عاد من السفر؟ حتى زياراته أصبحت قصيرة متحفظة، ولا يخفي رغبته في أن يغادر بعد وصوله بفترة قصيرة، وكأنه يقوم بزيارة مجاملة. قال الحكيم لنفسه: «ربما وقعت أخطاء خلال زيارة الصيف، أخطاء مني أو من الأولاد!» ويحاول أن يتذكر، يستعرض الأحداث والأيام خلال زيارته فلا يجد شيئاً، يسأل وداد ما إذا أحست بتغير سمير واختلاف سلوكه. فتجيب إجابات غامضة قصيرة، بحيث لا يستطيع أن يفهم شيئاً. ويسألها ما إذا ارتكب الأولاد أخطاء ولم تلاحظ، فتنفي بشدة، لكن دون رغبة في أن تخوض بالموضوع أكثر من ذلك.

كيف يمكن إعادة جمع الحياة وتنظيمها بعد أن تفرقت وتبددت هكذا؟ والصداقات والعلاقات أي جنون أصابها بحيث أصبحت غير مفهومة، غير مستقرة، وعرضة لاحتمالات لا حدود لها؟

ظلت الحال هكذا الخريف كله وبداية الشتاء. السلطان عاد من رحلة البادية لكنه عاد إنساناً آخر: بدا عليه الهرم أو ما يشبه الابلال من مرض طويل، وأصبح أقرب إلى الصمت، محباً للعزلة، وأخذ يقضي وقتاً أطول مما تعود في أحد القصور البعيدة عن قصر الغدير، وهذا الوضع زاد في قلق الحكيم، بل ووصل حد الخوف، خاصة وأن ذلك ترافق مع ظهور متزايد للأمير فنر. فقد قام بأداء صلاة الجمعة ثلاث مرات متوالية في جامع السلطان خزعل، وقام بجولة في أنحاء السلطنة استمرت شهراً كاملاً، وقد رافقه في هذه الجولة عدد من أخوته إلى جانب الحرس والمرافقين والصحفيين. وما قيل سابقاً عن احتمال تخصيص مقر ومكاتب للأمير في قصور الخالدية فقد أصبح حقيقة مؤكدة، لأن الأثاث الانكليزي الذي يفضله الأمير وصل قبل الانتهاء من القصور، فوضع في قصر السعد بصورة مؤقتة. أما محاولات الحكيم لاستدراج حماد لكي يحدثه عن رحلة البادية، ويفهم منه التطورات الجديدة أو التي يمكن أن تقع، فقد انتهت إلى الفشل أو إلى خلق المزيد من التشويش بالنسبة له. قال له حماد في محاولة للهروب من الإجابة:

ـ . . . وتعرف يا أبو غزوان السلطان يحب اخوته مثلما يحب أولاده، وهذه الصفة موروثة أباً عن جد، وأهل موران كلهم يعرفون، والأمير فنر كان منحرف الصحة، أما بعد أن منّ الله عليه واستعاد صحته فمثله مثل غيره من الأمراء!

أما زيد الهريدي الذي زار الحكيم مرتين خلال أسبوع واحد، فقد جاء من أجل هدف محدد لم يخفه ولم يموهه كما فعل في مرات سابقة:

ـ طويل العمر يسلم عليك يا أبو غزوان، ويريد من ذاك الدواء الأزرق اللي أعطيته منه قبل سنة!

والحكيم الذي حاول أن يستفسر أكثر، متجاهلاً الدواء الذي يعنيه زيد، رغم أنه يعرفه، وقد سماه بنفسه هكذا، لم يستطع أن يتوصل إلى معرفة الجو معرفة دقيقة، أو إلى نتيجة واضحة، قال له زيد في الزيارة الثانية لكي يطمئنه:

ـ لو كان فيه شيء، يا أبو غزوان، أنت أول من يعرف، لأن مودتك عند طويل العمر ما يصلها أحد!

وأعطاه الحكيم الدواء الذي طلبه، مع توصية واضحة:

ـ بلغ صاحب الجلالة تحياتي واحتراماتي، وقل له يجب ألا يجهد نفسه!

زايل القلق الحكيم بعض الوقت، لكنه لم يطمئن، لأنه لم ير السلطان خلال الشهرين الأخيرين سوى مرتين، وفي المرتين كان هناك آخرون بحيث لم تتح الفرصة لحديث راسخ أو شخصي، ومع ذلك قرر بحزن، يقرب حدود التهور، أن يتجاوز هذا الوضع، لكنه أحس بغصة لأنه يحارب وحده، ولأن الآخرين لا يتعاونون معه بالمقدار الكافي.

«كلما ضاقت تنفرج»، هكذا قال الحكيم لنفسه، بعد أن قرأ رسالة ابنه غزوان التي جاءت في بداية الشهر الثاني عشر، كانت رسالة طويلة، ومما جاء فيها: « . . . وسيكون معي في الوفد نائب رئيس قسم المبيعات وثلاثة من مساعديه، إضافة إلى المستشارين الفني والقانوني للشركة. المطلوب يا

بابا، أن تظهر للوفد أقصى درجات الاهتمام والترحيب، ويجب أن يكون ضمن البرنامج استقبال من قبل صاحب الجلالة، خاصة وأن أحد مساعدي نائب رئيس المبيعات يتقن العربية (وسوف أحدثك عنه) ولكن بلهجة مغربية، وقد ارتأت الشركة أن يلقي كلمة أمام صاحب الجلالة السلطان يوضح عمق الروابط بين الولايات المتحدة وسلطنة موران والفوائد التي تعود على البلدين من التعاون المتبادل. كما أرجو أن تحدد للوفد مواعيد مع وزير الدفاع ووزير الداخلية وقائد الجيش ومدير المخابرات، لأن هناك أشياء كثيرة يمكن أن تبحث وتقال، ويمكن أن يتم التعاون بشأنها، (وقد اقترح رئيس الشركة بالذات، أن يتم معك لقاء خاص يا بابا.. عدا عن اللقاءات الأخرى في الدعوات). وبالمناسبة يجب أن تبذل جهداً استثنائياً في ترتيب الدعوات، لكي نثبت لهم أن ما قرأوه في كتب التاريخ عن الكرم العربي ليس شيئاً يخص الماضي وإنما هو مستمر حتى الآن. لدي أشياء كثيرة سوف نتحدث عنها يا بابا. لكن الآن أريد منك أن تبذل أقصى جهد من أجل تنظيم هذا الموضوع، وإذا أخذت الأمر على عاتقك فسوف تكون النتائج مشجعة للغاية. خاصة وأن الجماعة أبدوا استعداداً كبيراً للتعاون، وفي مجالات كثيرة».

وفي ختام الرسالة، التي كانت من ثلاث صفحات، لم ينس غزوان الإشارة إلى ضرورة حجز الطابقين الخامس والسادس في فندق موران الكبير، باعتبار أن هذين الطابقين يحتويان على شقق وليس فقط على غرف منفردة، وأشار أيضاً إلى السيارات التي يجب أن تخصص للوفد والمرافقين.. «وأخيراً يا بابا الهدايا، ان الهدايا، وأنت تعرف ذلك جيداً، تلعب دوراً طيباً» وقد وضع خطًا تحت كلمة «طيباً»، ثم أشار إلى أن الوفد لا يستطيع التأخر أكثر من أسبوع، ويجب أن يستعد الوفد المفاوض.. «للمفاوضات.. ولتوقيع العقود» أما موعد وصول الوفد فسوف يكون في ٩/ ١٢/ .

نظر الحكيم إلى التاريخ مجدداً ونظر إلى الروزنامة المعلقة على الحائط. قال بما يشبه الاضطراب: «ما بقي لنا إلا ستة أيام». وخلال هذه

الأيام الستة لم يهدأ لحظة واحدة. طلب موعداً عاجلاً من السلطان «للأهمية القصوى» كما أبلغ زيد الهريدي:

ـ يا طويل العمر... أبشر.

ولما نظر إليه السلطان، الذي كان بملابس بسيطة أقرب ما تكون إلى الثوب الذي ينام فيه، بدهشة وصهل مثل عادته عندما يكون فرحاً، تابع:

ـ اللي كنا ننتظره، يا طويل العمر، صار باليد.

وصهل السلطان مرة أخرى، ثم مسد على لحيته، وقال للحكيم بكثير من المودة والهدوء:

ـ استرح.. يا أبو غزوان، وخلْنا نسألك أول شيء عن صحتك وأحوالك، وبعدين نسولف بالسوالف الثانية.

خجل الحكيم من كلمات السلطان، وكأنه يعرّض به لأنه لم يسأله عن صحته، حاول أن يتدارك:

ـ الله يلعن الشيطان لأنه ينسي الإنسان.. يا طويل العمر.

ـ وكّل الله.. يا أبو غزوان.

ـ وصحة جلالتكم يا طويل العمر؟

ـ الحمد لله. مثل ما تشوف..

وصهل من جديد، وتابع:

ـ ما دامت أنت طبيبنا يا أبو غزوان، وتدز لنا من القواطي الزرق والحمر، وما دام الله رايد كل شيء بخير.

وشاركه الحكيم الابتسام، وكان بوده لو يضحك مثله. بدا له السلطان في صحة جيدة خلافاً للمرة الأخيرة، حين رآه قبل ثلاثة أسابيع. قال مداعباً:

ـ كنت بحاجة إلى الراحة، يا طويل العمر، ويبدو أن جو البادية لم يناسبك، وربما أتعبك!

ـ الواحد يروح للبادية يوم أو اثنين. هدي المرة طالت: عشرين يوم، تعبت شوي، لكن من أسبوع أسبوعين.. لله الحمد!

ولم ينس السلطان أن يسأل عن عائلة الحكيم. وتذكر من جديد طعام أم غزوان، قال في محاولة استرجاع لذيذة:

ـ إنشاء الله ما يمر كم يوم إلا وتشوفونا ببيتكم.. يا أبو غزوان!

ـ ألف أهلاً وسهلاً، يا طويل العمر، شرف عظيم، يا صاحب الجلالة.

وضحك الحكيم بطريقة معينة، ثم تابع:

ـ وخاصة أنه في مناسبة، يا طويل العمر..

سأل السلطان باهتمام:

ـ خير إنشاء الله؟

ـ مخدومكم.. غزوان، يا طويل العمر، بعدما كلفتوه بموضوع تسليح الجيش، سافر وهذا الموضوع هو الموضوع الوحيد اللي في راسه؛ ظل يبحث ويدوّر إلى أن توصل إلى نتائج مهمة جداً.

توقف قليلاً، ابتسم، نظر إلى السلطان بتذلل وأضاف:

ـ أمس، يا طويل العمر، استلمت منه رسالة، أكبر شركة سلاح في أميركا مستعدة أن تسلح جيش موران بأحدث الأسلحة وأهمها، وبأسعار رخيصة، بأسعار مثل الكذب..

ـ ما تهمنا الأسعار، يا أبو غزوان، اللي يهمنا أن يكون لموران جيش، أقوى وأهم من كل الجيوش، وبعدها كل شيء سهل!

ـ تماماً، يا صاحب الجلالة، هذا هو الأمر المهم. ومن توفيق الله، سبحانه وتعالى، أن غزوان وصل إلى أهم شركة، وبعد كم يوم تتأكدون بأنفسكم.

هز السلطان رأسه أكثر من مرة دلالة الرضا. تابع الحكيم بلهجة جديدة:

ـ عندي طلب.. يا صاحب الجلالة..

ـ سم.

ـ مدراء الشركة طلبوا مقابلة جلالتكم أثناء زيارة موران، لأن عندهم أشياء كثيرة لازم تطلعوا عليها شخصياً.

وبعد قليل وهو يحاول أن يضحك بصوت بدا مشروخاً متكسراً:

ـ بعثت، يا صاحب الجلالة، عدة رسائل إلى غزوان أذكّره بالاقتراحات التي قدمت من سلطنة موران وضرورة متابعتها والبت بها، إلى أن جاءتني أمس، أمس فقط، رسالة الموافقة، والجماعة سوف يحضرون إلى موران يوم ٩ الشهر، وسيبقون أسبوعاً..

وتغيرت لهجته:

ـ ورأيي يا صاحب الجلالة، أن تستقبلهم قبل اليوم الأخير من زيارتهم، استقبال مجاملة، لتعبر لهم عن العلاقات ومدى قوتها بين سلطنة موران والولايات المتحدة. أن استقبالاً مثل هذا يقوي الشركة ويدعمها فيما إذ كانت هناك بعض الجهات داخل الحكومة الأميركية تريد أن تعاكس تقديم صفقة سلاح كبيرة وهامة للسلطنة.

ـ وتريدني أخطب وأتكلم!

ـ أبداً.. يا صاحب الجلالة.. يمكن أن تسأل المدراء عن صحتهم، عن رأيهم بزيارتهم، عما رأوه في موران. هذا كل شيء..

وبكثير من المداورة والمكر توصل الحكيم إلى إقناع السلطان بالموافقة على استقبال الوفد، كان بودّه لو أن الظروف أفضل، إذن لأقنعه بدعوة الوفد إلى حفلة غداء أو عشاء في القصر، أو أن يرافق بعض الأمراء الوفد إلى حفلة صيد وقضاء يوم وليلة في الصحراء. أن هذا شيء يحبه الأميركيون كثيراً، لقد عرف ذلك واختبره أثناء إقامته في حران، لكنه لم يجرؤ على أن يطلب مثل هذا الطلب.

ظلت الورقة الأخيرة لو استعملها لا بد أن يكسب السلطان إلى جانبه، أن يقنعه بتقديم تنازل إضافي: «السيرة». يجب أن يحدد له وقتاً لاستقبال سمير أولاً، ثم البدء بكتابة السيرة، بعد ذلك.

قال في لحظة متألقة، وقد عاد السلطان إلى ذكر الدواء الأزرق:

ـ يا طويل العمر، هناك قضايا كثيرة يمكن أن تقوّي الإنسان. . .

وضحك قليلاً ثم تابع:

ـ القوة. يا طويل العمر، ليست بالعمر أو بالأدوية، القوة بالثقة. . .

هز السلطان رأسه، لكن لم تفهم هزة الرأس، أهي دلالة موافقة أم استغراب، تابع:

ـ أتذكر، يا صاحب الجلالة، أني قلت لجلالتكم قبل سنوات أنكم رمز وقدوة لهذه الأمة، والناس يتطلعون إلى هذا الرمز بكثير من الاحترام والتقدير، لكن الكثيرين لا يعرفون ما يجب أن يُعرف عن جلالتكم.

لم يعلق السلطان، لكنه ابتسم. تابع الحكيم:

ـ والآن، وبعد أن توافرت الظروف المناسبة، كل ما أطلبه منكم، يا صاحب الجلالة، أن تحددوا لنا موعداً أو اثنين من أجل استكمال المعلومات التي يجب أن ينتظمها الكتاب الذي سيصدر عن جلالتكم، وأن تذكروا لنا فيما إذا كانت لديكم أفكار أو رغبات يجب أن ترد في الكتاب.

لم يقدر السلطان فيما إذا كان الحكيم يسأله، يطلب منه طلباً معيناً، أو أنه يحدّثه عن المشروع الذي حدّثه عنه قبل شهور. قال في محاولة لعدم الإجابة:

ـ كل شيء بوقته زين، يا أبو غزوان.

ـ خير البر عاجله، يا طويل العمر.

ـ سم. . يا أبو غزوان.

ـ هل أطمح بأن تحدد موعداً أو اثنين من أجل استكمال المعلومات؟

ـ اللي تشوفه يا أبو غزوان.

ـ بعد شهر من الآن نبدأ، يا صاحب الجلالة.

ـ على خيرة الله.

بدا استقبال السلطان للوفد مليئاً بالجلال والمودة، لأنه كان تتويجاً لاتفاق كبير وطويل الأمد بين الولايات المتحدة وسلطنة موران، وقد لعب غزوان، لتوقيع هذا الاتفاق، دوراً بارزاً، أثار إعجاب الكثيرين. ولم يتردد السلطان في الإشارة إلى هذا الدور أثناء حفل الاستقبال. وما لفت النظر أيضاً أن السلطان خص ثلاثة في الوفد بمعاملة خاصة: رئيس الوفد، ومساعده الذي يتقن العربية وغزوان، إذ بالإضافة إلى التبسط بالحديث، وقد قام غزوان بالترجمة بين جلالته ورئيس الوفد، فقد كانت السيوف التي أهديت إلى هؤلاء أجمل من غيرها وأعلى سعراً. أما إعجاب السلطان الواضح بغزوان فقد جعل زيد الهريدي يردد، وعلى مسمع من الذين حوله، وكان يوجه الكلام إلى الحكيم:

ـ هالحين تأكدت، يا أبو غزوان، أن لا أحد أغلى عنده منك.. وتشوف عينك!

والحكيم الذي انفعل واضطرب كاد يشرق وهو يرد عليه:

ـ الله يطول عمره، الله يخليه، لأننا بدونه لا نسوي شيئاً.

أما كيف سارت الأمور منذ وصول الوفد، وكيف انتهت هذه النهاية السعيدة، فإن الحكيم لعب دوراً هاماً في التحضير، ثم جاءت براعة غزوان وذكاؤه ليلعبا دوراً حاسماً في كل المراحل اللاحقة. وكان لاتصالاته ولاستخدام معارفه ومعارف أبيه أهمية فائقة في الوصول إلى هذه النتائج. ولم ينس التنبيه على شركته، ومنذ وقت مبكر، بضرورة حمل مجموعة من الهدايا. أما بعد وصوله فقد قضى مع أبيه حوالي ساعتين لتحديد كيف توزع الهدايا، بحيث لا يقع خطأ. حتى الأمير فنر كانت له هدية بين

الهدايا، وهي عبارة عن صفحات من القرآن مخطوطة على رق غزال من القرن التاسع الهجري، وقد اشتريت من لندن لهذا الغرض. أما هدية السلطان فكانت كبيرة ومتنوعة: عدة قطع من السلاح رُسم عليها شعار السلطنة وخط عليها اسم السلطان، إضافة إلى مجموعة من المناظير الحربية، ويمكن أن تفيد في الصيد أيضاً. وكانت بقية الهدايا مجموعات من الأسلحة الفردية أو أسلحة الصيد، ولم ينس الوفد أن يحمل أربعة صقور اسكتلندية رمادية اللون.

هدية الحكيم كانت عبارة عن مجموعة من أقلام الحبر الذهبية الثمينة، وقد خبأ غزوان هذه المفاجأة عن أبيه حتى اللحظة الأخيرة، أما عندما تسلمها وفتحها فقد نظر إلى ابنه بكثير من الانفعال، ولم يتمالك نفسه، أثناء معانقته، من حبس دمعتين انحدرتا على خده. وهذه الالتفاتة من غزوان نحو أبيه كانت نتيجة الأحاديث التي جرت خلال الزيارة القصيرة في نهاية الصيف، حيث ذكر الحكيم أن أمنيته، بعد بضع سنين، أن يتفرغ لكتابة مذكراته، وأشار، عرضاً، أن من جملة الشروط التي تحرضه على الكتابة، بالاضافة إلى الجو والوضع النفسي: الأدوات، وأوضح أنه يقصد بالأدوات الأقلام والورق.

توقع الحكيم وأمل كثيراً أن يبقى غزوان بضعة أيام أخرى بعد سفر الوفد، لكنه لم يجرؤ أن يبحث معه هذا الأمر، لأنه لا يحتمل الرفض، فكلّف زوجته أن تتولى هذه المهمة. ووداد التي بدت في وضع نفسي أفضل، لم تدّخر وسيلة من أجل إقناعه. لكن غزوان كان واضحاً وحازماً في عدم استجابته إلى الضغط، قال لها في محاولة توضيح أخيرة:

ـ يا ماما أنت ما لازم تقبلي، لأني إذا تأخرت عن الوفد يوماً واحداً راح يلعب الفار بعبهم، ويمكن يقولوا اشتغل من ورا ظهرنا. وعندها بتبوظ الشغلة كلها.

وكتعبير عن التضحية وفي محاولة لاسترضاء أمه وأبيه وافق أن يقضي معظم الليالي في البيت، وأن ينام أيضاً، رغم «أن الشقة محجوزة في الفندق».

في الليالي التي قضاها غزوان في البيت، والتي غالباً ما تطول وتمتد، وكانت تقتصر عليه وأبيه، بعد أن تنسحب أمه «لأني نعسانة، ولأن كلامهم ما يخلص» في هذه الليالي جرت أحاديث كثيرة، اكتشف الحكيم من خلالها «أن الدراسة في أميركا أفادت غزوان وغيّرته كثيراً» فقد حدّثه أن المرحلة الجديدة، خاصة في السنوات الأخيرة، غيّرت كثيراً في المفاهيم السياسية والعلاقات الدولية، وموران الآن تعني شيئاً هاماً للولايات المتحدة وللغرب بصورة عامة، لموقعها ولامكانياتها البترولية، وللدور الذي تلعبه في المنطقة، ولذلك انتقل مركز القرار من الداخل إلى الخارج، «أما مسألة غرفة تجارة، يا بابا، أو مسألة العلاقة بين فلان وعلان، فإنها لا تعني شيئاً». وأوضح له أيضاً أن أهمية المنطقة، باعتبارها تمثل مستقبل العالم، لا يمكن أن تترك بأيدي مجموعة من الشيوخ والأمراء البدو، «لأن القضية أكبر وأخطر من ذلك، تماماً كما لا يمكن أن تترك مسألة الحرب، أية حرب، يقررها مجموعة من الجنرالات، كما قال أحد الفلاسفة».

والحكيم الذي انتفض أكثر من مرة، وكأنه يطرد النوم عن أجفانه، وهو يستمع إلى ابنه، فوجئ بما يسمعه. كان يريد أن يحدثه عن نظرية المربع، عن التأملات والنتائج التي توصل لها، لكنه يجد أن عقل غزوان نمط آخر، «وربما لا يدرك البواعث العميقة والكامنة في الإنسان» وحاول أن يتذكر بعض النظريات وكيف أنها عجزت عن تفسير السلوك الإنساني، ولذلك فشلت. «أما هذه الأميركا فإنها معجزة. وإلا كيف استطاعت أن تسيطر على العالم؟».

كان الحكيم مشوشاً مضطرباً، فما يسمعه من كلام لا يقنعه بالمقدار الكافي، لكن ما يراه من نتائج لا يترك لديه أي شك. أما ذلك القول الذي نسبه غزوان إلى أحد الفلاسفة، حول أن الحرب أكبر وأخطر من أن يقررها العسكريون، فقد جعله في شك كبير، أن ما يقوله ابنه مجرد كلمات تعلمها على مقاعد الدراسة، وربما رددها أحد المجانين الذي يدعي الفلسفة، وإلا من يقرر الحرب إذن ومن يخوضها ويقرر نتائجها؟

ومثلما كانت أكثر المناقشات تبدأ بنقطة ثم تتشعب وتتداخل، وغالباً ما

يُنسى كيف بدأت أو ماذا كان يراد منها، فإن الحكيم نسي قول ذلك الفيلسوف المجهول، لكنه لم ينس ما يحيط به من هموم ومتاعب يومية.
كان يريد أن يعرف مستقبل موران، إذ على ضوء ذلك يعرف كيف يسير وكيف يتصرف، وغزوان الذي لا ينفك يؤكد، وبشكل متزايد، ان اتخاذ القرار يتناسب تناسباً عكسياً مع الأهمية في العلاقة بين الداخل والخارج، فكلما تزايدت أهمية بلد ما أصبح أقل قدرة على التقرير، ولذلك يجب أن لا يشغل أبوه نفسه بما يعتبره هموماً. والحكيم الذي سلّم، ظاهرياً، بما يقوله ابنه حاول أن يتذكر كيف كان يفكر عندما كان بعمره، أية أفكار سيطرت عليه، وكيف كان ينظر إلى الحياة والناس، ثم كيف تغير سنة بعد أخرى، وما أضافته إليه الحياة من تجارب ومعارف، وكيف أن هذه التجارب والمعارف لا تختلف عما تعلمه في الجامعة فقط وإنما تناقضها. قال لنفسه في محاولة الوصول إلى نقطة توازن «عقله، الملعون، برّاق، برنجي، ولا بد أن يكون سياسياً بارعاً، لكن بعد أن تصقله الحياة وتدربه».

وإذ أدرك غزوان أن أباه لا يثق كفاية بما يقوله، فقد قال مداعباً:

- المهم يا بابا أن تتم هذه الصفقة، لأنها ستكون خميرة جيدة، وسوف تفتح لنا آفاقاً لا نهاية لها، لأن السلاح في هذه المرحلة ولهذه المنطقة أهم شيء!

وشارك الحكيم ابنه الابتسام، وكان متأكداً أن الجهد الذي بذله في تربيته أخذ يثمر، ولا بد أن تكون النتائج عظيمة للغاية.

لقد جرى هذا الحديث في إحدى الليالي، أما في الليلة التالية، وقد شارك سمير في جزء منها، وبدا الجميع في حالة من التألق والرضا عن النفس، فقد أخذ الحديث منحى آخر، إذ تكلم الحكيم عن ذكرياته، وأشار عرضاً أنه منذ وقت مبكر يسجل يومياته، «طبيعي الأحداث الكبيرة والهامة وليس أحداث كل يوم» وان هذه اليوميات سوف تساعده في كتابة مذكراته «التي ستكون سجلاً لتاريخ المنطقة خلال الخمسين سنة الأخيرة» وسمير الذي أطرى بحماس طريقة الحكيم في تسجيل اليوميات، توقع أن تكون

المذكرات على جانب كبير من الأهمية. أما غزوان فقد كان نمطاً آخر من الأفكار والسلوك، قال ضاحكاً:

- تتذكر الألف دولار يا بابا؟

- الألف دولار؟

- اللي أعطيتني ياها يوم السفر..

- أي نعم.. كيف لا أتذكر؟

- صارت خمسة وعشرين ألف دولار خلال الكم سنة اللي مرت!

زقزقت وداد كعصفورة من كلمات ابنها وكانت مغتبطة بالجو العام، قالت كطفلة صغيرة:

- صارت عندك فلوس كثيرة يا ماما!

أما الحكيم فقد أبدى دهشة فاقت كل حد، تساءل باستغراب:

- يعني الواحد بخمس وعشرين؟

وأفاض غزوان في شرح كيفية توظيف هذا المبلغ، وكيف أن البنوك في State تساعد المستثمرين وتجد لهم فرصاً جديدة من أجل إعادة الاستثمار، وأنه نقل المبلغ، مرة بعد أخرى، من استثمار إلى آخر، بحيث أصبح بهذا الحجم، وختم شرحه وهو يبتسم:

- إذا عرف الإنسان كيف يوظف أمواله، كيف يشتغل، يمكن أن يصير مليونيراً!

قال سمير وهو يهز رأسه:

- حاجة عظيمة خالص!

- أنتم ضيعتم جهودكم وأوقاتكم بين كتابة المذكرات والسياسة وألف قضية أخرى!

هكذا رد غزوان بمرح مخاطباً سمير، لكنه يعني أباه، وكأنه يلومه؛ عند ذاك تأكد الحكيم أن ابنه سوف يتفوق عليه بذكائه وحسن تصرفه، وأن الأشياء التي عجز عنها سوف يتولاها هو: قال في محاولة دفاع عن النفس:

- ظروفنا غير ظروفكم يا ابني. . . والدنيا تغيرت!

وفي اليوم قبل الأخير أقام الحكيم للوفد دعوة كبيرة في فندق الرابية، وقد ارتأى غزوان ذلك «لأن الجماعة ما ناسبهم أكل المناسف واللحم كل يوم، هذا أولاً، وثانياً: لازم تظهر بنظرهم، يا بابا، شخصاً مختلفاً عن أهل موران، والنقطة الأخيرة أن الحفلة إذا أقيمت في الفندق، في مكان عام، لا تخفى على أحد». أعجب الحكيم بالفكرة، رغم أنها ليست مألوفة في موران بالمقدار الكافي، وشط به الخيال، إذ فكر في إحدى اللحظات لو يعود إلى الملابس التي كان يلبسها قبل استقراره في موران، وفكر لو يلقي كلمة الترحيب باللغة الانكليزية، لكن لغته من الضعف والارتباك إلى درجة يمكن أن تثير السخرية، وقد يصل ذلك إلى حساده، أما لو ألقى كلمته بالألمانية فيمكن أن يساء فهمه! وفكر طويلاً بالمدعوين، أراد من هذه المناسبة رداً موجعاً لخصومه، لحاسديه، ولذلك استبعد دون تردد، ومنذ البداية، اسمين: الغامدي لأنه لا يعترف بصفته كرئيس لغرفة التجارة، والثاني، سعيد لأنه يريد أن يقول للقاصي والداني أن العلاقة بينهما انتهت تماماً. أما رضائي فقد دعاه من قبل، وسوف يدعوه الآن أيضاً، ويمكن لهذه الدعوة أن تشكل محاولة لشق غرفة التجارة أو خلق قوى متعارضة داخلها! وفكر الحكيم بآخرين كثيرين أيضاً، لكنه استبعد وأضاف، ثم أعاد النظر مرة وأخرى، إلى أن استقر على قائمة يعتبرها لائقة، «لأن الكرم ليس بالضخامة أو الكثرة، وليس بالإسراف، وإنما بالبشاشة، بحسن التصرف، وبتلك اللمسة الحضارية، خاصة مع مجموعة من هذا النوع».

كان الحكيم وغزوان مثل عريسين وهما يستقبلان المدعوين عند باب قاعة الطعام الرئيسية، وخلال الخمس والأربعين دقيقة التي سبقت العشاء، والتي كانت عبارة عن حفلة كوكتيل، تبادل خلالها المدعوون الأحاديث وتم التعارف بين أكثرهم، وقد لعب غزوان ونائب رئيس الوفد، الذي يتقن العربية، دوراً بارزاً في التعريف والترجمة، أما الحكيم فقد كان مثل والد العريس، حيث وزع بشاشته واهتمامه على الجميع بقدر متساوٍ تقريباً، وإن وقف مع رئيس الوفد ونائبه فترة أطول، وتبادل معهما أحاديث متعددة،

وقد أشار، ولا يعرف كيف عنّ له ذلك، أنه بصدد وضع كتاب عن تاريخ موران، وهذه الإشارة بالذات استوقفت نائب رئيس الوفد، وأبدى اهتماماً ملحوظاً. أما الكلمة القصيرة التي ألقاها الحكيم على مائدة العشاء، وقد ألقاها ارتجالاً، وضمنها نكتة، فقد أدخلت السرور على نفوس المدعوين، حتى الأميركيين، عندما ترجمها غزوان، والذي تكلم بنفس نبرة أبيه، مما لفت نظر أغلب الضيوف وأثار إعجابهم!

تحدثت موران عن حفلة الحكيم فترة طويلة، ووصلت أصداؤها إلى قصر الغدير، خاصة وأن عدداً من الأمراء ورجالات القصر حضرها، ومما جعل الحديث عنها يستمر ويطول، ويأخذ مناحي شتى، أنه وقعت خلالها أو عقبها أمور عديدة: فخلال فترة الكوكتيل، ولا يعرف كيف، وضعت تحت أطباق المدعوين، في قاعة الطعام الرئيسية، منشورات ضد اتفاقية السلاح وضد الأميركيين. كان تحت كل طبق منشور طوي بعناية ووضع باتقان، حتى أنه لم يلفت نظر الكثيرين أول الأمر. أما عندما فتح أحد المدعوين المنشور وقرأ بعض ما ورد في سطوره الأولى، فقد خاف وتلفت، خاصة وقد رأى تحت الأطباق، أمامه، وإلى جانبه، منشورات مماثلة. وكانت المحاولة الأخيرة في جمع المنشورات، بعد أن اكتشفت، غير ذات جدوى، فالذين لم يعرفوا عرفوا، والذين لم يريدوا أن يحتفظوا بها فعلوا ذلك، وقد سبب هذا إحراجاً مؤقتاً للحكيم، لكنه تداركه بنكتة رواها في ظل التساؤل والذهول، مما أدى إلى تجاوز الموضوع. الأمر الثاني الذي سبّب إحراجاً متأخراً، أي بعد انتهاء حفلة العشاء، صالح الرشدان وطبله، فدوي الطبل الذي كان يصل المدعوين، أثناء العشاء، بوقع منتظم، وعندما سأل أحد الأميركيين عما يعني ولماذا بهذه القوة، فقد ارتبك غزوان للحظات ولم يعرف كيف يجيب، أما بعد أن ترجم السؤال لأبيه، فقد دارت عيناه دورة سريعة، وكأنه يبحث عن سبب، ثم قال وهو يبتسم:

ـ عرس من أعراس موران!

وما كاد غزوان يترجم حتى أضاف الحكيم وقد تحولت ابتسامته إلى ضحكة:

ـ والطبل في الأعراس هو القائد، هو السيد.

قال الزوبعي باستنكار ودهشة:

ـ لكن اليوم ما هو يوم الخميس، يا حكيم!

ـ بموران صارت كل الأيام خميس، يا أبو عمران، بوجود صاحب الجلالة المفدى!

هكذا رد الحكيم، وقد بدا متألقاً مثل ديك بعد مطر خفيف، وعندما ترجم هذا الحوار للأميركيين بدوا مسرورين للغاية، وقد شاركهم الآخرون هذا السرور. أما عندما كان الحكيم يودع ضيوفه عند الباب الخارجي للفندق، فقد كان صوت صالح، بين دقة طبل وأخرى، يأتيه واضحاً، كان يقول:

ـ بشّر القاتل بالقتل والسارق بالفقر.

كان يقول ذلك بنغم مع دقات الطبل، ثم يدقّ بقوة ويغير النغم وهو يدور:

. اليوم الأسود يوم جيتنا وشفناك   واليوم الأبيض يوم تعطينا قفاك

ويشير إلى الحكيم وهو يترنم ويضحك، وبعد أن يردد المقطع الثاني بسخرية ينتقل إلى نغم جديد:

. ويا من تعب ويا من شقى   ويا من على الحاضر لقى

عندما يردد هذا النغم يصبح ساخراً وحزيناً في آن واحد، وفجأة تتغير نبرة صوته، تصبح سريعة حادة وهو يردد:

ـ ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

والحكيم الذي بدا محرجاً للكلمات التي يسمعها، أو للشتائم التي توجه إليه، حاول بجهد أن يبعد عن وجهه، عن سمعه، عن أنظاره وأنظار الآخرين، هذا الذي جاء ليفسد كل شيء. وأهل موران من المدعوين الذين يعرفون صالح الرشدان، أو الذين رأوه في شهر من شهور رمضان السابقة أو في أحد العيدين، يدق طبله ويجمع الفطرة أو العيدية، لم يتصوروا أنه يعرف الشتائم التي يقولها الآن، أو السخرية المرة التي تنزف من كلماته، واستغربوا أكثر أنه يستعمل طبله في هذا الوقت من السنة، أو

في هذا الوقت من اليوم، وعندما وقف قربه بعض المدعوين يسألونه أو يداعبونه. . لماذا اختار هذا المكان أو هذا الوقت فقد كانت كلماته جاهزة:

ـ لازم الواحد يقول للأعور أعور بعينه، حتى يعرف ويعرف الناس، ويشير إلى الحكيم:

ـ وهذا الظالم ما يشوف حدبته، يشوف حدبة غيره، ولازم هالحين نقول له ويشنُهو.

تمنى الحكيم لو أن هذه الأمور لم تحصل، وتمنى لو أن حماد لم يغب، لو كان حاضراً لعرف كيف يتصرف ويمنع هذا الشغب، هذه الإساءات الصغيرة، والتي ربما كان وراءها سعيد بالذات، لكي يفسد عليه حفلته، ولكي يؤكد له أنه موجود وقادر على الانتقام! وتمنى أيضاً لو أنه أقام هذه الحفلة في بيته. قال لنفسه وهو غارق في المقعد الخلفي لسيارته، بعد أن ذهب غزوان ليوصل الوفد، على أن يلتحق به «الحسد رأس مال اللئيم، ولا بد أن ننتقم من هذا الجاحد سعيد، لأن هذه الأشياء كلها من فعله» وحاول أن يستعيد، بأشكال مختلفة وقائع الحفلة: كيف بدأت، ماذا قال وكيف قال، والآخرون، كيف كان رد فعلهم، لكن فكره تركز حول أمر واحد: رد فعل الأميركان.

قال حماد لما بلغه ما حصل في حفلة الحكيم:

ـ صالح ما يغني من راسه.. يا جماعة!

وهز رأسه وهو يستعرض الوجوه والاحتمالات، وأضاف كأنه يكلّم نفسه:

ـ هذا الطبل ما هو طبل رمضان والعيدين، وما هو طبل لله!

وحين أشار مساعده إلى ضرورة اعتقال صالح وتأديبه رد عليه بسخرية:

ـ لا.. أتركوه، ما يخالف، خلّه يطبّل، لأن الصوت يدلنا من أي بير طالع، وذاك اللي نريد.

ظل رد فعل حماد أزاء ما جرى هادئاً بل أقرب إلى البرود وعدم الاهتمام، والكثيرون الذي توقعوا عقاباً قاسياً لصالح، استغربوا أنهم رأوه في الأيام التالية يتجول في الشوارع مزهواً، ولا يتردد في أن يعيد على مسامع الذين يسألونه الكلمات التي قالها عند فندق الرابية، وفي وجه الحكيم بالذات.

قال الحكيم لحماد يعاتبه:

ـ كان لازم تحضر يا أبو راشد، أولاً: الجماعة سألوا عنك؛ وثانياً كان ممكن أن تمنع الهيصة اللي صارت!

ابتسم حماد، وحاول أن يكتفي بالابتسامة جواباً، لكن نظرات الحكيم المحددة المتسائلة اضطرته أن يتكلم:

ـ تعرف أشغالنا، يا أبو غزوان، وبعدين أنا أغلب الحفلات لا أحضرها، وهذا ما هو من اليوم، من زمان!

ـ وهذه الهيصة. . من برأيك وراءها؟

ـ الله أعلم. . يا أبو غزوان!

ـ تقديرك؟

ـ لا أعرف.

ـ يمكن تكون غرفة التجارة؟

كان يريد أن يقول سعيد، لكنه آثر هذا التعميم، ردد حماد باستغراب وسخرية:

ـ غرفة التجارة؟

ـ هيك قلت لنفسي، لأني تعمدت أن لا أدعو جماعة الغرفة بعد اللي صار في الانتخابات الأخيرة.

ـ وكّل الله يا رجل، الجماعة كلهم طيبين وأجاويد، وظني أن لا أحد منهم يفكر، مجرد تفكير، بقضايا من هذا النوع.

ـ وهذا الشحاذ اللي كان يطبل ويزمر عند الباب. . من وزّه؟ من حط بجيبه كم قرش وقال له: طبل وسب وأشعل أمواتهم؟

ـ هذا خبل، يا أبو غزوان، وما ينأخذ بكلامه!

ـ لازم تمسكوه، تقرروه، لأنه أول الخيط، وبعده المسبحة كلها تكر.

ـ ما أريد أسوي من هذا الخبل بطل وشهيد، أريد أكظّ الناس اللي هم وراه.

ـ لكن إذا قبضتم عليه يوصلكم.

ـ لا تخف يا أبو غزوان. . نصل.

وانتهى الحوار بين الاثنين حول الموضوع. لكن الموضوع لم ينته. فالحكيم الذي تأثر أشد التأثر في تلك الليلة، ثم في الليالي التي تلتها، وكان على يقين راسخ أن سعيد وراء الذي جرى، ما لبث أن أصبح أقل ميلاً لاعتباره وحده المسؤول. لأن الأفكار التي بدأت تملأ رأسه والشكوك التي تراوده، جعلته يحس أن القضية أكبر وأخطر من ذلك، فسعيد يمكن

أن يعاكسه شخصياً، يمكن أن يتحدث ضده، أما هذا الذي جرى فإنه يتجاوز كل حدود، وأخطر من مجرد خصومة أو تنافس بين اثنين. وحماد الذي كان مستعداً للحوار مع الحكيم في فترات سابقة، أو على الأقل لأن يصغي إليه، استغرقته الأعباء والهموم الجديدة، ولذلك انقضت فترة دون أن يرى أحدهما الآخر. حتى الرقم الجديد لتلفون حماد الخاص، لم يحصل عليه إلا بضعة أشخاص، ولم يكن الحكيم واحداً منهم! ولذلك لم يتحدث أحدهما للآخر إلا مرات قليلة. كان عبد المولى، المهذب، يزداد تهذيباً حين يعرف أن الحكيم على الخط، فيبلغه أن أبا راشد غير موجود، أو أنه سافر قبل ساعات قليلة. ويزداد غيظ الحكيم وخوفه معاً، فلا يعرف كيف يتصرف، أو بأية طريقة يرد على هذا التجاهل والإهمال. أكثر من ذلك، أصبح يعيش تحت هاجس أن قوى شريرة وغامضة تلاحقه وتستهدفه، وقد تقضي عليه، دون أن يعرف طبيعة هذه القوى أو من وراءها. ومع ذلك لم يكن مستعداً لأن يبوح بهذه المخاوف لأحد، لأنه لا يجرؤ ولا يملك الدليل. وأسف أنه لم يخص نفسه، أثناء تقسيم الهدايا، بقطعة سلاح «السلاح يونّس ويشجع الإنسان»، لكن عاد واعتبر القضية أكبر من أن تواجه بسلاح فردي، فالمؤامرة كبيرة، والقوى التي تترصد به من المكر والذكاء بحيث انها تموه نفسها باستمرار وتأخذ أشكالاً ووجوهاً لا حصر لها، حتى سعيد لا يعدو أن يكون أداة من الأدوات.

هموم حماد كانت من نوع مختلف، فمنذ أن وقف صالح عند فندق الرابية، تبدو له موران، التي أرادها ساكنة مثل مقبرة، وكأنه لا يعرفها أو لم يعش فيها، مخادعة ماكرة، بل أكثر من ذلك تبدو له خطرة، لكنه كتم غيظه، لأن صالح أقل من أن يكون خصماً، ليس هذا فقط، يريد أن يعرف ماذا ومن وراء المنشورات، من وزعها وكيف، ولهذا فإن صالح مجرد طعم وسوف يصيد به الآخرين. سوف يتركه يسرح كما يشاء. لن يعترضه ولن يدع أحداً يعترضه، لكن سيراقبه من بعيد، حتى إذا وضع يده على خصمه سيضربه بلا شفقة وبلا رحمة، لكي يؤدب موران لسنوات وسنوات.

ولأنه خطط بهذا الشكل فلم يكن في عجلة من أمره «فالطريدة إذا اطمأنت وشعرت بابتعاد الخطر يكون صيدها أسهل، أما الغشيم فلا يصيد ولا يخلي غيره يصيد» هكذا قال لنفسه، أما الآخرون فقالوا أن صالح لا يزال يجول في الأسواق يشتم ويتكلم وكأن ليلة الرابية قتلت الخوف في قلبه، فيضحك حماد ويقول برخاوة:

ـ يا عباد الله اتركوا ابن الرشدان، يكفيه أن الله طارده من نعمته!

وحين يقولون أنه لا يوفر شيئاً ولا يترك أحداً يرد:

ـ خله ينفث اللي بصدره، لأنه إذا ما نفث راح علينا الخيط والعصفور!

وينقضي شهر وشهر آخر، وحماد لا يتحرك، لا يُسمع صوته. أما الحكيم الذي امتلأ بالخوف من المؤامرة التي تستهدفه، ولا بد أن تقضي عليه بين يوم وآخر، فقد أصبح الآن أقل شعوراً بالخطر، فيطمئن قليلاً، تعاوده الثقة، خاصة وأن سمير أنجز قراءة الكتب التاريخية والجغرافية حول موران، والتي أجّل قراءتها مرة بعد أخرى، بحجة أعمال طارئة كلفه بها مطيع، كما صدف أيضاً أن تقرر قيام السلطان بجولة تشمل أنحاء السلطنة، مثلما فعل أول اعتلائه العرش، على أن يكون الحكيم ومطيع ضمن المرافقين، وتدارك الحكيم الأمر فأضاف سمير أيضاً.

كانت الجولة، بمعنى ما، رداً على جولة الأمير فنر، وللتدليل أيضاً على مدى الاهتمام الذي يوليه السلطان لرعاياه. وقد اعتبر الحكيم الجولة مناسبة لإنجاز عدة أمور في آن واحد: يمكن من ناحية أن تتم لقاءات عفوية تساعد سمير على صياغة مناسبة للسيرة «لأن الفنانين يحتاجون إلى أجواء موحية، وهذا العمل، في الجانب الأساسي منه، عمل فني» هكذا قال الحكيم لنفسه؛ ويمكن أن يفهم الظروف الجديدة بعد وصول الأمير فنر، ثم بعد جولة البادية، لأن هذه الجولة أقلقته ولا تزال، خاصة وأن مؤامرة الرابية، هكذا أصبح يطلق على تلك الليلة، تبدو له غير عادية، وربما بعيدة الغور، فإذا كانت أمور معينة فاتته، لسبب أو لآخر، فلا بد أن

تكون قد وصلت إلى السلطان، «لا يمكن أن يخفوا عنه صغيرة أو كبيرة، ومن حديث إلى آخر، لا بد أن أصل إلى نتيجة، أما بالنسبة إليّ فربما يتحفظون أو ربما لا يريدون إخافتي أكثر مما ينبغي». أما الأمر الأخير الذي يريد الوصول إليه فهو التأكيد على التوصية التي رددها غزوان عشرات المرات، حول ضرورة أن تبعث السلطنة، بين فترة وأخرى، برسائل استفسار حول صفقات السلاح والمطالبة بتقديم مواعيد التسليم، بغض النظر عن النفقة الإضافية، لأن من شأن هذا الإلحاح أن يقوي مركز غزوان في الشركة، ويمكن أن يساعده على إبرام صفقات إضافية، سواء مع السلطنة أو مع دول أخرى. وقد اعتبر الحكيم أن الظروف التي ستتوافر في جولة مثل هذه لا بد وأن تساعده على تأكيد الطلبات التي أشار إليها غزوان.

ما كان الحكيم ليصل إلى هذه القناعات والمشاعر لولا وداد، فبعد الكآبة والعزلة التي سيطرت عليها منذ عودتها، بدت، في نهاية الشتاء، في حالة من المرح والعنفوان ذكرته بشبابه أو ببداية أيام الزواج، لأنها بمقدار ما حاولت الابتعاد عنه، أو التهرب من «الواجبات» خلال الفترة الماضية، وقد عزاها إلى التعب أو المرض، فقد بدت في هذه الفترة امرأة مختلفة: كانت تقبل عليه بلهفة ودلال، وكانت تبدي من الصبا ما خفي عنه طوال شهور، لا بل سنوات. هذا عدا عن المرح ورغبة المشاكسة، وإذا كان قد تقبل هذه الأمور بتحفظ، إذ ظنها نوبة أو حالة من الحالات الطارئة، فإن استمرارها وتزايدها، أعادا إليه الثقة بنفسه وبكل ما حوله. حتى فكرة المؤامرة التي سيطرت عليه اعتبرها هاجساً من الهواجس التي تستبد بالإنسان نتيجة العزلة والوحدة، أو نتيجة عدم فهم الآخرين له. أما حين انتبه الحكيم للجو، فقد اعتبر أن الطبيعة، حسب نظرية المربع، تنشط وتتغير في هذه الفترة من السنة، وهي بمقدار ما تفجر الحياة في النبات والحيوان، فإنها لا تغفل عن الإنسان أيضاً!

وبكثير من الرغبة والانفعال بدأ يتكيف مع حالة وداد الجديدة، وشعر أن جسده وروحه يستجيبان له، وقد ساعده على ذلك أيضاً أن سمير تعهد

له أن ينجز «السيرة» خلال فترة قصيرة: «أنا، يا سعادة البيه، إذا كنت في حالة انسجام، وإذا توفرت لي المواد الأولية، وكنت عايز، يمكن أن أكتبها في فترة قياسية».

كانت وداد تريده أن يسافر، أن يغيب عن وجهها، لأن التحدي الذي وضعته لنفسها جعلها لا تنام في أكثر الليالي. الآن تريد أن تختبر قواها، أن تكتشف ما إذا كانت لا تزال قوية وقادرة على أن تفرض وتقرر، وأنها لا تزال قادرة على الانتقام أيضاً، كما كان الحال في كل الأوقات السابقة. يجب أن تدخل هذا التحدي، وأن تظفر، لن تخاف ولن تتردد.

وسمير؟ أنه الآن شخص مختلف، فبعد أن عاد إلى موران، عاد، من جديد، الشخص الذي كان قبل السفر، لكن صدود وداد، أو بالأحرى قسوتها، جعله لا يعرف كيف يتصرف. انقطع عن الحكيم فترة من الزمن، انشغل بأمور عديدة تراكمت خلال الصيف. كلف بمهمات عاجلة من أجل إصدار صحيفة جديدة. لكن شعر أيضاً أنه لا يستطيع أن يبتعد أكثر من ذلك. ودون ذكاء كبير، ولأنه يدرك نقاط ضعف الحكيم، فقد استطاع العودة من جديد إلى السيرة، أو إلى «نسر موران».

وسلمى؟

عادت من رحلة الصيف مليئة بالأحلام والرغبات، لكن موران خذلتها مرة أخرى، حاصرتها بالمخاوف نتيجة قصص أمها، والتي لا تنفك تحذرها وتنبهها من هؤلاء الرجال، وكيف أنهم مثل الذئاب لا يوفّرون شيئاً أو احداً، خاصة البنات الصغيرات! كانت وداد، وهي تتحدث إلى سلمى، ترى شبح سمير، تراه متربصاً، منتظراً، ولا بد أن ينقض عليها ويفترسها، وكانت تقصده بالذات، فبعد أن شبع منها أخذ يتلفت حواليه، ولم ير إلا سلمى، فهل تسمح له أن يفترسها؟ هل تقدمها إليه؟ كانت مستعدة لأن تفعل أي شيء فقط لتبعده عنها.

أما عندما تقررت جولة السلطان، والحكيم بمعيته، وكذلك سمير، فقد اعتبرت وداد أن الفرصة أصبحت مهيأة أكثر من السابق لأن تستعيد «هذا الخائن الجبان» الذي حاول أن يهرب منها، ولا تعرف لماذا برقت في

مخيلتها أيضاً صورة السلطان: بضخامته، بضحكته التي تشبه الصهيل، وبتلك النظرات التي لم تستطع أن تفهمها أو أن تفسرها، قالت لنفسها «لا أحد يستطيع أن يفهم شيئين في موران: السياسة والرجال» وتذكرت الحالة النفسية التي ألمت بالحكيم خلال الفترة الماضية، كان يتحدث بغموض عن المؤامرة، وعزلة السلطان، وعن الكتاب الذي سيضعه بالتعاون مع سمير، لكن لم تفهم شيئاً أبداً!

شمران الذي انقطعت علاقته بصالح الرشدان منذ فترة طويلة، لم يتردد، بعد أن سمع بما حصل ليلة الرابية، وأمام الكثيرين، في أن يعانق صالح بحرارة عندما جاء إلى مقهى زيدان. فعل ذلك بكثير من الود، وكأنه يعتذر عن الفترة السابقة ويلوم نفسه أنه كان قاسياً تجاهه بهذا المقدار. أما صالح الذي انفعل أيضاً، ولم يستطع أن ينظر إلى وجوه الرجال حوله، فقد كان أقرب إلى الخجل أو الإحراج، رغم أنه منذ تلك الليلة ظل يمشي مزهواً فخوراً في شوارع موران، وكأنه انتقم للجميع.

تذكر الرجلان، وتذكر معهم آخرون، موران قبل سنين: كانت وادعة، راضية، وكان الناس، رغم صعوبة الحياة، يدبرون رزقهم، ثم يجدون وقتاً لأن يتحدثوا، لأن يسمعوا القصيد، وفي بعض الليالي لأن يغنوا ويرقصوا. هكذا كانت الحياة وكانوا راضين. أما منذ أن جاء الأميركان، ومنذ أن وجد النفط، فقد تغيرت الحياة والبشر، انقلبت رأساً على عقب. حتى المال لم يعد له ذلك المعنى الذي كان له أيام السوق. أما الغرباء، والذين أصبحوا أكثر من أهل موران، فإنهم أخلاط من البشر، بعضهم يأتي ويذهب دون أن يحس به أحد، وآخرون جاءوا ليبقوا. وحتى هؤلاء كان من الممكن احتمالهم لو أنهم بشر حقيقيون، لكنهم ليسوا كذلك. أنهم جاءوا ليسرقوا، ليستبدّوا بالآخرين، ليسخّروهم، ولا يشبعون أيضاً.

كان الحديث يجري هكذا، وصورة الحكيم لا تفارق مخيلة أي منهم. أما بعد الذي فعله صالح، والذي انتقل في موران مثل انتقال الضوء، فقد أحس أكثر الناس أن هذا ما كان يجب أن يُعمل، رضي القصر أو لم يرض، وذهب الخيال بأناس كثيرين أن هذه الرسالة التي بلّغها صالح،

وعرفت بها موران كلها، إذا لم تصل أو لم تجدِ، فلا بد أن يفعلوا مثلما فعل. وآخرون قالوا أن ما فعله ابن الرشدان لن يغيّر شيئاً، ولن يثني الحكيم وأمثاله عن شراء الأراضي وتشييد العمارات، رضي الناس أم غضبوا، وبالغ هؤلاء فقالوا ان الحياة التي نعيشها اليوم أفضل من التي ستأتي، «لأن الخير بالجايات».

شمران يسمع، يتذكر، يذكّر الآخرين، وبين لحظة وأخرى ينظر إلى الرجل الذي أمامه: كم غيّره الزمن، كم أتعبه، لكنه لم يستطع أن يذلّه. فتلك النظرة العنيدة، الأقرب إلى الشر، لم تفارق صالح أبداً، لا.. انها الآن أشد وضوحاً وقوة، كان في سوق الحلال يتظاهر بالغضب أكثر مما يغضب، وكان يعرف كيف يغفر للكثيرين أو ينسى إساءاتهم، أما الآن فقد زايله الخوف نهائياً، بل وأصبح مستعداً أن يفعل أي شيء.

ويتراءى لشمران وجه حماد، يميل على صالح ويهمس بإذنه:

ـ عدوك، بعد اليوم، يا صالح، ما هو الأملط، ذاك أخذ منك حقه وزود، هالحين بحّر زين بابن المطوع، تراه إذا نسيت ما ينسى!

ـ يخسا!؛

ـ تحزم للواوي بحزام أسد.. يا صالح.

ـ أكثر من«النعمة» اللي عايشين فيها، يا أبو نمر، ما نلقى!

ـ برد الشتا... وغدر اللئيم توقه.

ـ والله ما عندي غير حياتي وعباتي، يا أخوي، يا أبو نمر.

وتغرق موران في همومها فتنسى هموم الأمس، وتبتعد صورة ليلة الرابية، ويعود الحكيم بعد جولته مع السلطان قوياً، أقوى مما كان من قبل، وتظهر صورته في الجرائد والمجلات: إلى جانب السلطان، يتحدث إليه، يهمس بأذنه، ولأن نمر من القلائل الذين يقرؤون الصحف والمجلات فهو الوحيد الذي ينقل إلى الآخرين في مقهى زيدان وفي السوق ما جرى، فيسمع الناس ويهزون رؤوسهم، وينتهي كل شيء بالصمت، أو بشتيمة من صالح، إن كان موجوداً، أو بكلمة مع حركة ذات معنى من شمران.

قال شمران لنمر ذات يوم:

- تراها بعد ما أمطرت، اللي شفناه البرق.. وبعده يجي الرعد والمطر!

لم يفهم نمر ما قصد إليه أبوه، ظل منتظراً، تابع شمران:

- ليلة الرابية أبرقت، أما الرعد، أما المطر فأما علينا أو حوالينا واليوم أو عقبه ولازم تتوقى!

- وليش توصيني يا بويه؟

- عين الذيب ما تنام يا وليدي!

وشرح شمران لابنه أن حماد لن يسكت ولن يغفر ما حصل ليلة الرابية، ولذلك يجب أن يتوقى وأن يحترس، وأنه يمكن أن يعمل أي شيء متذرعاً بأسباب واهية أو بوشايات كاذبة لينتقم، ونمر الذي سمع وفهم قال كلمة سريعة:

- يا بويه.. ما قتلنا ولا سرقنا وما أظنك بخايف؟

- الخوف، يا وليدي، مات بقلبي من زمان، بس هالحين اتنشق رايحة المطر.. ولا بد تمطر!

قال حماد لنفسه «هذه الشغلة ما هي شغلة شمران. شمران وصالح قوم والسوق كله يعرف».

ولم يتوقف عن التفكير والافتراض. حتى عمه شداد مرّ بباله، لكن شداد مشغول بخيوله، ولو أراد أن يخاصم الحكيم لفعل ذلك مباشرة ومنذ وقت طويل، ثم ليس المهم ما فعله صالح «صالح عقله جوزتين بخرج، كل من يقول خذ هذي القريشات وطبّل يقول له هات وحلّت البركة» المهم المنشورات: من طبعها؟ أين؟ وهل الأمر يقتصر على المنشورات فقط؟ قد يكون اليوم هكذا لكن غداً لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحصل. وهو.. أين هو من كل ما يجري؟ لماذا لم يعرف من قبل؟ ورجاله هؤلاء الكسالى الثرثارون يقولون له أن موران في عرس، وأن الناس لا يعرفون كيف ينفقون الأموال التي حصلوا عليها، وأنهم لا يفعلون شيئاً أكثر من الدعاء لطويل العمر. وهؤلاء الذين يشتمون، الذين لم يتركوا شيئاً إلا وقالوه في

المنشور الذي وزعوه: من هم وأين هم؟ حتى الأميركان عرفوا بالأمر، وهو، ابن موران، الذي ينفق الأموال بالملايين هنا وفي كل مكان... كيف لا يعرف؟

ومر في خاطره طيف نمر الجريدة، قال لنفسه: «ابن شمران ما بيه إلا لسانه الطويل، وظني أن هذي السالفة ما هي بسالفته» ومع ذلك زرع قرب دائرة الجوازات واحداً آخر يكتب العرائض، لعل «عداوة الكار تخلي نمر يطلّع اللي ببطنه». لكن انقضت أسابيع وبدل أن يصبح الاثنان عدوين صارا صديقين. أكثر من ذلك حين يأتي بعض الأشخاص طالبين من نمر أن يكتب لهم أو أن يتابع لهم معاملاتهم يرسلهم إلى القحطاني «حتى يترزق ويظل». وتصل حماد التقارير:

«نمر ما عنده إلا قالت الجرايد.. كتبت الجرايد».

أما حين سأل سعيد ما إذا سمع أو عرف بما وقع في فندق الرابية، ومن يحتمل أن يكون «وراء هذا الخبل، صالح الرشدان» فقد رد سعيد بعد أن ضحك من أعماق قلبه:

ـ سمعت.. وعرفت يا أبو راشد.

وضحك من جديد، وتابع بلهجة مختلفة:

ـ إذا كنت تريد رأي، فرأي أن الحكيم نفسه وراء العملية كلها، هو اللي أعطى للطبال كم قرش وقال له: تعال، سلِّ الجماعة!

ـ خف ربك يا ابن الحلال.

ـ الحكيم.. وأنا أعرفه مثل ما أعرف نفسي: يحب العلية ولو على خازوق!

ـ اترك هذي السوالف.. يا رجل.

ـ طيب، يا أبو راشد، الأيام بيننا وتشوف.

ـ والمناشير؟

ـ ها..؟ هذي سالفة ثانية!

ولم يترك حماد أحداً أو مكاناً، حتى ما قاله سعيد، واعتبره أقرب إلى

المزاح والسخرية، فكر فيه من جديد، لكنه لم يتوصل إلى نتيجة أو إلى بصيص نور. ولم يبق أمامه إلا صالح، ومع ذلك تركه «الأحسن نمدّ له الحبل، لعل وعسى، وهو تحت يدنا بكل وقت» ومثلما زرع عيونه في مقهى زيدان وقرب دائرة الجوازات، كذلك كلف اثنين لكي يتابعا صالح كظله، لكن دون أن يعرف ودون أن يحس أيضاً. لم يكتفِ بذلك، زرع متسولاً قرب بيت صالح، ولم يتردد أولاد صالح الصغار في إعطائه رغيف خبز كاملاً بين يوم وآخر.

في مرحلة من المراحل اعتبر حماد أن كل ما حصل مجرد لعبة دبّرها أحد نزلاء فندق الرابية، ولا بد أن يكون هذا النزيل الغريب منافساً أو طامحاً، وربما أراد أن يشوش على غزوان أمام الأميركيين بشكل خاص ولذلك فعل ما فعل. هذا التفسير الذي توصل إليه أراحه بعض الوقت، لكنه لم يزل الخوف من قلبه، فهو الذي يعتبر نفسه ليس مسؤولاً فقط عن أمن موران وإنما يهيّئ نفسه منذ فترة لأن يكون أحد رجال قلائل مسؤولاً عن أمن المنطقة كلها من الماء إلى الماء، خاصة بعد أن أغدقت السلطنة بعطاياها على الكثيرين وربطت الكثيرين بأجهزتها أو بمصالح تجارية ومالية كبيرة، ولأن حماد بالذات تزايدت روابط الصداقة والعلاقة التي تربطه بمسؤولي أجهزة الأمن في المنطقة.

أنه يشعر بالتحدي أو بالإهانة، فإذا كانت أقرب الأشياء إليه تفوته ثم لا يعرف من وراءها، فإن عناصره تخدعه، أو على الأقل ليست بالكفاءة التي افترضها. فينصرف مثل ثور إلى إعادة تنظيم الجهاز وتوسيعه، ويجري تنقلات واسعة، كما يستحدث عدة دوائر جديدة. وبالاتفاق مع المستر اندورز تصل إلى موران مجموعة من الأميركيين، ويغرق حماد معها في دراسة أوضاع واحتمالات معينة. وخلال هذه الفترة لا يريد أن يرى أحداً أو أن يتصل به أحد. فيغير أرقام هواتفه في الدائرة، في البيت، ولا يُعرف ما إذا كان في موران أو خارجها. والحكيم الذي يلاحقه في الليل والنهار، متسائلاً ما «إذا قبضتم على المجرمين، لأن المسألة أكبر مما تتصور يا أبو راشد، وما هي مسألة الدكتور المحملجي أو غيره، كأشخاص، هذه

مؤامرة تستهدف الإطاحة بالنظام، وبالقضاء عليه من جذوره.. ومثل ما قلت لك: أمسكوا هذا الأزعر كل شيء ينكشف» وحماد الذي يسمع على الهاتف ما يقوله الحكيم، يهز رأسه ويحار كيف يرد عليه، كيف يجيبه، وينتهي الحديث بينهما بأن يعد حماد باتخاذ الاجراءات المناسبة وبسرعة، ويعد أيضاً أن يتصل به في وقت لاحق، لكنه لا يتخذ أية إجراءات ولا يتصل.

في جولة السلطان، والتي افترض الحكيم أنه سيتوصل خلالها إلى حل جميع المشاكل التي تقلقه، أو تلاحقه، بما فيها معرفة «أبعاد المؤامرة» كان من المقرر أن يشارك حماد في الجولة، لكنه اعتذر في اليوم الأخير قبل السفر، «لأسباب طارئة»، وكلّف نائبه بمرافقة السلطان، على أن يحاول هو الالتحاق في أقرب فرصة ممكنة. والحكيم الذي شعر بخيبة أمل لتخلف حماد، كان لديه الكثير لكي ينجزه خلال الجولة، ولذلك ما لبث أن تجاوز هذه النقطة ثم نسيها، ولم يعد إلى تذكرها إلا في حران، عندما اقترح على السلطان أن يصلي عصر أحد أيام الزيارة في مسجد السلطان خزعل، وبدا فخوراً وهو في معيته في المسجد الذي ساهم بتشييده، وكان يريد أن يقول ذلك لكل إنسان، وخطر بباله بشكل خاص حماد، الذي لا يعترف بكرمه بالمقدار الكافي!

وبعودة السلطان إلى العاصمة والاحتفالات الكبيرة التي رافقتها، بدا أن موران تعيش في عرس حقيقي، وقد فاجأ ذلك السلطان ذاته والحكيم وجميع الذين رافقوه. أما من أقام هذه الاحتفالات وكيف، فإن حماد كان وراءها، لأن إحدى توصيات المجموعة الأميركية التي وصلت أخيراً، وضمن توصيات أخرى، أن يشعر الناس، وبكثافة، بوجود الدولة، خاصة السلطان، لتتولد في قلوب الجميع القناعة.. والخوف معاً!

على مسافة أربعة أميال من وادي الرها، وبموكب من مئات السيارات، كان معظمها بلون واحد، دخل السلطان إلى موران، بعد الاستقبال الحافل الذي جرى له على أطراف العاصمة، وقد شارك فيه الأخوة الأمراء، وكبار رجال الدولة، ونحرت خلاله عشرات بل مئات من رؤوس الغنم

والجمال؛ الوحيد الذي لم يشارك في هذا الاحتفال هو حماد، فقد ظل قابعاً في غرفته الواسعة في الطابق الثالث من البناء الجديد الذي انتقلت إليه رئاسة جهاز الأمن والسلامة، قبل بضعة شهور، ظل هناك ليرقب كل شيء وليحمي الجميع، وعندما مرّ الموكب، أطل من وراء الزجاج، دون أن يفتح النافذة، وهز رأسه عدة مرات وابتسم ابتسامة صغيرة، لم تفهم أبداً!

شمران العتيبي الذي لمح طرف الموكب عندما كان يخرج من مقهى زيدان، وقف. نظر إلى السيارات تمر بطيئة وكأنها تزحف. حاول أن يميز أحداً بداخلها ليعرفه لكنه لم يستطع. قال في نفسه: «أكفان الموتى من أيام نوح بيض، أما أولاد الحرام، هالغبر، فحتى أكفانهم سودا مثل وجوههم». وحين اقترب منه رجل كان يقف عند تقاطع الطريقين، وأشار إليه برأسه، ودون كلمة، أن يمشي، فقد تحرك ببطء، وقال كلمة لا يعرف ان سمعها الرجل أو لم يسمعها، قال:

ـ لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم!

بعودة

السلطان بدا أن الحكيم حقق ما يريد.. أو أكثر: فالمودة التي أظهرها السلطان تجاهه، ومنذ بداية الجولة، لفتت نظر الجميع، وأشعرت الحكيم ذاته بأهمية إضافية وثقة لا حدود لها. وهذه الثقة سهّلت له الوصول إلى الأشياء الأخرى. فكتاب «السيرة» «أصبح بالجيب» كما عبر عن ذلك سمير. إذ بعد عدة جلسات، قاد الحكيم خلالها المناقشات والحديث، دوّن سمير الكثير من الأفكار والملاحظات، كانت بمثابة «الكروكي» كما قال، أو بمثابة العمود الفقري للبناء الذي سيشرع فيه فور عودته إلى موران. هذا الانجاز، بالإضافة إلى الجو الذي رافق الجولة في جميع مراحلها شجعا الحكيم على أن يبحث في القضايا الأخرى: الوضع السياسي في السلطنة بشكل عام، خاصة وأن السلطان الذي بدا مهموماً في وقت سابق، وكان شديد القلق، فقد أشار أن عودة أخيه بمثابة إنقاذ له، لأن فنر يتمتع بكفاءة كبيرة، والشيء الذي كان يقلقه في السابق هو امتناعه وعدم رغبته في المشاركة، أما الآن، وقد أصبح مرناً وراغباً، كما تخلى عن عناده، فإن التعاون سيجعل وضع السلطنة في منتهى القوة، وأشار السلطان، عرضاً، إلى اعتلال صحة فنر، وبالتالي احتمال سفره لاستئناف العلاج في وقت لاحق؛ وهذا سيفسح المجال في ترتيب ولاية العهد بشكل معين. ولم يشأ السلطان أن يتوسع في هذه النقطة بالذات، خاصة وأن ولاية العهد ظلت قضية معلقة ومؤجلة في آن واحد.

الأمر الآخر الذي كان الحكيم يريد الوصول فيه إلى نتيجة حاسمة: السلاح. «لا يمكن أن تبقى السلطنة تحت رحمة الآخرين أو تهديدهم، يجب أن تعتمد على مصدر واحد وموثوق، وأن ترتبط بعقود طويلة الأمد: عشر سنين، عشرين سنة. أما أن يبقى سلاحنا من مصادر عديدة، ويتحكم

بنا المورِدون، وهؤلاء لا يمكن الاعتماد عليهم، لأن لهم كل يوم قولاً يختلف عن اليوم السابق. ليس هذا فقط، يجب أن تؤكد السلطنة طلبياتها السابقة، أو حتى أن تطلب تقديم مواعيد التسليم، لأن الأوضاع في المنطقة تقتضي ذلك». والسلطان الذي لم يكن يحتاج إلى هذه الأسباب أو الديباجة لكي يقتنع، كان مستعداً للاستجابة، قال لينهي المناقشة حول هذه النقطة:

ـ . . . وإذا رجعنا موران، يا أبو غزوان، بالخير والسلامة، وفي أول اجتماع يجمعنا مع وزير الدفاع، ما عليك إلا أن تذكرني، وإنشاء الله ما يصير إلا اللي تقوله.

وانطلق السلطان يتحدث عن انطباعاته عن غزوان: كيف كان قبل سنوات وكيف هو الآن، وما يتوسم فيه من مظاهر الذكاء والفطنة، أما «اتقان اللغة الأميركية فكأنه واحد من أبنائها» وأشار أيضاً، أن السلطنة بحاجة ماسة إلى شباب من هذا النوع وبهذه الخبرة «ولا بد أن يرجع إلى موران في فترة قريبة، لأنه أخير لنا أن يكون بجانبنا، يشور علينا ويساعدنا من أن يكون بعيداً».

والحكيم الذي لا يعرف كيف يشكر السلطان، أو كيف يعبر عن امتنانه وتقديره، يحس بالفخر والكبرياء: لقد أجدى تعبه. حتى التضحيات التي قدّمها بصمت، ولم يكن يتوقع مقابلاً لها، يجني الآن ثمارها، وربما في وقت أبكر مما توقع.

ولم ينس السلطان السؤال عن العائلة أيضاً. لم يُسمِّ أحداً بالذات، لكنه بدا شديد الاهتمام أن يعرف وأن يتأكد. الحكيم الذي أجاب باختصار وخوف، على عادة أهل موران، أحس، أكثر من قبل، أن المودة التي يكنها له السلطان كبيرة غامرة وتفوق ما يكنه للآخرين.

نتيجة هذا الجو لم ير الحكيم ضرورة لأن يسأل السلطان عن «مؤامرة الرابية»، إذ لا يريد أن يشغله أو أن يقلقه بهذه التفاصيل، إذ ربما لم تصله، «لأنها في النتيجة تدبير حاسدين ومجانين» أما عندما سأل نائب حماد، وقد مهّد لذلك، بشكل غير مباشر، فقد تلقى جواباً مختصراً للغاية:

ـ كنت يا طويل العمر في الولايات المتحدة، وما سمعت عن الموضوع أي شيء!

وطوى الحكيم الموضوع «لأن الرجال العظام لا تشغلهم سفاسف الأمور».

في اليوم الأخير لزيارة حران تحدث الحكيم أمام السلطان وأمام آخرين في الموضوع الذي يروق له كثيراً: حران، كيف كانت يوم وصلها بسيارة شحن، ولم يكن فيها سوى فندق صغيرة، وبضعة دكاكين؛ وكيف هي الآن. وتحدث عن مساهمته ليس في تأسيسها أو إعمارها فقط، تحدث عن «تاريخها» أيضاً. وقال انه يفكر بوضع كتاب كامل عن هذه المدينة العظيمة «بأبنيتها العالية الحديثة، بشوارعها المصممة على أحدث طراز، مستشفياتها التي تشابه مستشفيات هيوستن» وقال ان مما سيساعده في إنجاز هذا العمل على أحسن وجه: الصور، فهواية التصوير التي رافقت الحكيم منذ أن كان طالباً في ألمانيا، وما تزال إلى الآن، والصور التي التقطها خلال الفترة السابقة، سوف تتكلم، وفجأة خطر له أن أنسب عنوان يمكن أن يعطيه لمؤلفه هو: مدينة تتكلم.

قال وهو ينهي حديثه:

ـ وسوف اسمي هذا الكتاب مدينة تتكلم، أو مدينة تتكلم عن نفسها!

بدا السلطان مسروراً وفخوراً وهو يستعيد بذهنه أيضاً زيارته لحران قبل سنوات عديدة، حين التقى الحكيم أول مرة، وكيف يراها الآن، سأل بمداعبة:

ـ وأتذكر هديتك.. يا أبو غزوان.

ـ أستغفر الله.. أستغفر الله يا طويل العمر!

وخفض الحكيم رأسه خجلاً وتواضعاً، وقال وهو لا يزال بهذا الوضع:

ـ هداياكم وأفضالكم، يا طويل العمر، غمرتنا وغمرت الناس كلهم.

وصهل السلطان مثل حصان وهو يضحك لكلمات الحكيم؛ فلما هدأ سأل من جديد:

ـ وهالحين.. يا أبو غزوان، وما دمنا بحران، أريد أقدم لك هدية، فأطلب.

تطلع إليه الحكيم بنظرة خاطفة، وخفض رأسه من جديد، فلما خيم الصمت، وأحس أن السلطان لا يزال ينتظر رده قال وهو يبتسم:

ـ كل ما أريده، يا صاحب الجلالة، سلامتكم ورضاكم!

وبعد قليل وهو يرفع للسلطان وجهاً متضرعاً:

ـ أكبر هدية، يا صاحب الجلالة، أن ترضوا عنا وأن تشملونا بنظركم.. هذا كل ما نريده!

التفت السلطان إلى زيد الهريدي، وغمز له بعينه، ومعنى ذلك أن يذكّره، فهز زيد رأسه دلالة الفهم والصدوع للأمر، ثم التفت إلى الحكيم وابتسم!

وقبل أن ينقضي أسبوع على عودة الحكيم كانت سيارة كاديلاك سوداء قد وصلت إلى قصر الحير، وانضمت إلى السيارات الثلاث التي كانت في القصر، وصلت تلك السيارة مع رسالة موقعة من قبل جلالته، أما الكلمات الأخيرة فكانت «.. وهذه الهدية للدكتور صبحي المحملجي وعائلته تعبيراً عن تقديرنا وشمولكم بعطفنا». والحكيم الذي لم يستطع أن يخفي فرحه، إذ نزل، مع العائلة، خلال أقل من ساعة مرتين، لتفقد السيارة، وللتأكد من بعض الأمور، فقد كان الجزء الأكبر من فرحه نتيجة فرح وداد الذي وصل حدوداً صبيانية، فقد أصرّت أن تجلس في موقع القيادة، رغم أنها لا تعرف السياقة، وغازلت الحكيم بالرغم من وجود سلمى، وضحكت من قلبها، وقالت انها لن تستخدم غير هذه السيارة في تنقلاتها ومشاويرها، حتى لو سافرت إلى الخارج. والحكيم الذي أصابته عدوى الفرح لاحظ أن وداد منذ وصل أصبحت امرأة أخرى: أصبحت مرحة، ناعمة، وشديدة التعلق به. وإذ تذكر الحكيم الفترة التي سبقت سفره أيضاً، فقد أصبح على يقين أن «نظرية المربع» لا تفسر هذه الحالة فحسب وإنما تثبتها أيضاً بشكل مؤكد! وللحظات عنَّ له لو أن الوقت يسعفه والظروف تؤاتيه لكي يتفرغ لمهمة كتابة النظرية، لكن وجد أن أعباء كثيرة بانتظاره، ووجد أن النظرية

يمكن «أن تتخمر وتنضج أكثر من قبل فيما لو تركت وقتاً إضافياً»!

ولم ينقضِ شهر واحد على جولة السلطان حتى أرسلت عدة رسائل من قبل وزارة الدفاع تطلب تقديم موعد تسليم الأسلحة، وتطلب أيضاً مجيء وفد لعقد طويل الأجل، وقد حصل هذا بناء لأمر السلطان، ولعب حماد دوراً في ذلك، وقد بدا في هذه الفترة شخصاً مختلفاً. صحيح أنه لم يشارك في الاستقبال، لكن لم تمض أيام قليلة حتى زار الحكيم أولاً، ثم بادر إلى الاتصال به عدة مرات، وطلب منه رقم تلفون غزوان لكي يتصل به. والحكيم الذي اعتبر أن تقصير بعض الأشخاص في أوقات معينة نتيجة الانشغال أو الهموم، أو ربما نتيجة النسيان، ليس دليلاً على الحب والكراهية، وإنما لأسباب تخرج عن طاقة الإنسان، لم يستطع أن يفسر موقف حماد بأكثر من «الأعمال اليومية.. والرجل أولاً وأخيراً يغرق بشبر ماء، لأنه لا يفكر بالقضايا الاستراتيجية. ولم يدرس في معهد أو جامعة. لكن مع ذلك عقله جيد» ولذلك قابل موقفه الودي بمواقف مشابهة، وفي محاولة لأن يثبت له أن «الفلوس لا تعني له شيئاً» قرر أن يدعوه وأن يدعو عدداً من الأصدقاء إلى وليمة فاخرة في البادية، وكاد أن يفكر بدعوة صاحب الجلالة السلطان، لكنه ظل متردداً حتى اللحظة الأخيرة.

«المرأة.. نعم المرأة، هي أصل الحياة والخصب والاستمرار» هكذا قال الحكيم لنفسه، وهو يلاحظ مدى استجابة وداد وحماستها أثناء تحديد قائمة المدعوين، وعندما ذكر، عرضاً، أنه يفكر بدعوة السلطان اشتعلت، وبذلت كل جهدها لكي يُسقط كل الموانع التي تجعله متردداً، لأن الرجل «إذا كان حبّ بيتنا وحبّ أكلي فلا بد أن يوافق». وظلت وراءه في الليل والنهار، أثناء شرب القهوة في الشرفة الغربية صباحاً، أو وهي معه في الفراش، لكي يتخلى عن جنبه وتحفظاته ويدعو السلطان. «حتى لو اعتذر نكون عملنا واجبنا».. ظلت وراءه إلى أن وافق. قال لنفسه بمرح وهو يتذكر حماس وداد وإلحاحها «والمرأة مثل النوم مهما حاول الإنسان أن يقاومها، أن يهرب منها، فلا بد أن يستسلم لها في النهاية».

ذلك اليوم الربيعي، أواخر آذار، في بادية المليحة، على طريق حران، وغير بعيد عن نبع الصفا، نصبت ثلاث خيام، رفع على الوسطى، الكبيرة، علم موران، وفرشت بسجاد كاشان أحمر على زرقة، مدت فوقه، على الأطراف، حواشٍ موردة زهرية اللون، نثرت عليها وسائد بفوضى لذيذة، وفي زاوية الخيمة ناحية اليمين مجموعة من بنادق الصيد وثلاث بنادق حربية مزخرفة عليها شعار سلطنة موران.

الشمس وهي تداعب حبات الرمل وتغسلها من ندى الليل ورطوبته، تفعل ذلك بحياء أقرب إلى الكسل، لكن بتقدم النهار، وارتفاع الشمس تتحول الدعابة إلى عناق دافئ بين عشيقين ولدا معاً منذ الأزل، فتنفعل حبات الرمل، تتغير، يميل لونها تدريجياً من الصفرة المقتولة إلى البياض الشمعي، ثم تلتحم بالزرقة الكلية والهواء الأغبش فيصبح اللون كله أقرب إلى لون الملح لحظة استخراجه، أو إلى لون الصمغ السائل، فإذا هبت نسمة ريح تهتز الصورة ويرى اهتزازها على شكل رجات مائية تبدأ من أقصى الأفق وتنتهي في بؤرة العين.

الصمت في البادية هو الملك الوحيد: قوي، شامل، كلي، حتى الأصوات التي تنفجر سرعان ما تمتصها الرمال وتحولها إلى رملٍ جديد. فإذا التحم الصمت بالشمس والرمال فعندئذٍ يتولد دوي مكتوم أشبه ما يكون بصوت الاختناق أو الغرق، حتى طلقات الرصاص التي تعبر الفضاء للحظة فإنها هنا لا تقهر الصمت، تخدشه لثانية صغيرة، ثم تنزلق في الريح برخاوة وكأنها نيازك مقلوبة، أو طيور تحاول التحليق.

هكذا كانت الصحراء منذ أن وجدت، ومنذ أن رأتها أول عين، أما في

ذلك اليوم الربيعي فقد بدت في عيني كل من رآها شيئاً مختلفاً وغير مألوف: مئات السيارات، ومئات أكثر من الخراف، وعدد محدود من المدعوين، وسلطان واحد يصل بعد وصول المدعوين بساعة وسبع دقائق، وقد تأكد الحكيم من ذلك حين نظر إلى ساعته.

لأول مرة في حياتها ترى وداد الصحراء في كل الأوقات: منذ أن أشرقت الشمس وإلى أن غابت، لأن القلق ساورها أن يقع خطأ من نوع ما فيفسد الدعوة، أو يخل بالنظام الذي أرادته لها، جعلها لا تنام تلك الليلة إلا كما ينام عصفور في عش جديد. استيقظت في الليل عدة مرات، ونظرت إلى الساعة بجانب سريرها عدة مرات، وأكدت على الحكيم عدة مرات أيضاً أن تكون هناك، وأن يكون، قبل ساعات، «لأن أمامنا أشياء كثيرة، ويجب أن ننجزها». أكثر من ذلك تمنت لو تقضي ليلة، ليلة واحدة، في الصحراء، وأن تنام تحت السماء مباشرة، لكن الخوف ما لبث أن خنق هذه الرغبة وطواها. أما عندما سمعت أذان الفجر فقد نهضت وأيقظت الحكيم، وعندما أشرقت الشمس كانت السيارة الكاديلاك الجديدة تقترب من نبع الصفا، ولما نزلت من السيارة، التي وقفت قرب الخيام، لامس هواء الصباح البارد وجهها ورقبتها فاقشعرت، وحين ارتفعت الشمس قليلاً ودفأت الهواء، خرجت من خيمة «المراقبة»، كما أطلق الحكيم على الخيمة الجانبية، والتي خصصت للحريم. دخلت الخيمة الوسطى لتلقي عليها نظرة في ضوء النهار، بعد أن رأتها في الليلة الفائتة، عدّلت بعض الحواشي، خاصة الحشية التي سيجلس عليها السلطان، وأضافت وسادتين، ثم عطّرت المكان والخيمة كلها بعطر خفيف ناعم. وهيأت مجموعة من أعواد البخور، لكي تشعل في الوقت المناسب.

قامت بهذه الأعمال الصغيرة وأخرى غيرها، لكن القلق لم يزايلها، لأنها لا تعرف كيف ستسير الأمور. في قصر الحير تستطيع أن تتحكم، أن تسيطر، مهما بدا الموقف معقداً. هنا، في هذا الفضاء غير المتناهي تشعر بالضآلة والخوف: يمكن أن تهب الريح فتفسد ما رتبته؛ يمكن للرمال أن تغطي السجاد والحواشي؛ ويمكن للشمس أن تشتد فتمنع الحركة. انها

الآن تواجه خصماً مجهولاً، خفياً وماكراً، ومفاجئاً، لا تعرف متى يأتي ومن أين.

لم تحس حولها بالحركة تتسع وتنشط، أما عندما أخذت طلائع الحرس بالوصول فقد انسحبت مع سلمى وخمس من النساء جئن من القصر ليساعدنها، إلى خيمة «المراقبة»، بناء لرغبة الحكيم، والذي لم يجد حرجاً في حركتها وانتقالها أمام الرجال الذين رابطوا في المكان خلال الأيام الثلاثة الأخيرة «الآن... صار لازم تنسحبي يا أم غزوان، لأن الضيوف واصلين بين لحظة والثانية».

خلال الساعة التي قضتها في تبديل ملابسها والاهتمام بزينتها بدأ الضيوف يتوافدون. أطلت من نافذة الخيمة فرأت زوجها يقف وسط مجموعة من الرجال ووجهه نحو الشرق، عرفت بين الرجال سمير وراتب، ولم تعرف ثلاثة آخرين. اهتمت بسلمى، عدّلت لها ياقة فستانها أكثر من مرة وسرحت خصلة الشعر المتدلية إلى الخلف على شكل ذيل حصان، فلما انتهت نظرت من النافذة مرة أخرى، لاحظت أن عدداً آخر من الضيوف قد وصل. عرفت منهم مطيع. وخلال دقائق بعد ذلك امتلأ المكان، أمام الخيمة الوسطى، بالرجال. أحست بالقلق وبقليل من الخوف، تريد أن ترى السلطان لحظة وصوله. رأته مرة واحدة، رأته وحده. الآن تريد أن تراه وسط هذا الجمع. تصورته قوياً إلى درجة يثير الفزع، وتصورت الرجال يتراكضون حوله. تمنت لو تستطيع أن تسلّم عليه أمام الجميع. لو فعلت لاكتشف الرجال أنه يعرفها، وأنها تعرفه، وسوف يتساءلون. ضحكت للفكرة واستبعدتها.

من هذه المسافة التي تزيد على المائة متر، تلمح الحكيم بين لحظة وأخرى، وهو يتحرك بين الضيوف، تحس بقلقه دون أن ترى ملامحه بوضوح. قال لها ان السلطان سيصل بين العاشرة والعاشرة والنصف. تنظر إلى ساعتها فتجدها تعدّت الحادية عشرة ببضع دقائق. تحاول أن تنظر إلى أبعد من الخيمة، لعلها ترى الطريق، لكن السيارات ملأت الفضاء كله وحجبت الرؤية تقريباً. تخرج من الخيمة للحظة قصيرة وتتطلع باتجاه

الشرق: «موكبه الكبير سيثير الغبار ويُرى من بعيد» لكن لا ترى شيئاً ولا تسمع دوياً، تدخل وترابط إلى جانب النافذة. تطلب من سلمى أن تقترب وتتقاسما النافذة.

في الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، هبطت طائرتا هليوكوبتر على مسافة غير بعيدة من الخيام، فاندفع الرجال مثل اندفاع الجمال لاستقبال السلطان، الذي فاجأ الجميع أنه جاء بالطائرة. ركض الكثيرون للوصول في الوقت المناسب، فتولدت من الركض، إضافة إلى الريح التي خلفتها الطائرتان، سحابة عالية من الغبار وصلت الخيام بسرعة. أسفت وداد وتمنت في أعماقها لو لم يثر هذا الغبار.

أبو عبد الله الذي ظل يتردد، بكثير من الانفعال، بين الخيام، ينقل بعض التعليمات، إضافة إلى الأخبار القصيرة والتعليقات، وقد وصل هذه المرة بعد وصول السلطان ودخوله الخيمة، ليطلب تجهيز الأراكيل، قال دون أن يسأله أحد: أنه لم يشهد في حياته عدداً من السيارات بهذا القدر، وقال انه لأول مرة يشهد طائرة من هذه المسافة.

وقال رضوان أن الخراف بدأ ذبحها منذ الفجر، واستمر الذبح إلى الضحى، وقال أن اللحم يكفي لجيش مؤلف من سبعين فصيل هجانة! أبو عبد الله رفض ذلك، كان له رأي آخر، قال أن الخراف تكفي موران كلها ليومين متواليين، أما عدد السيارات فلم يستطع أحد أن يحدده على وجه من الوجوه، قال أبو عبد الله لحسم الموقف: «بالمئات أو بالآلاف»، وهز يديه دلالة الحيرة أو عدم الاهتمام. أما الحرس فكانوا يشكلون سوراً لمسافة لا يستطيع معها الذي في طرف أن يرى الآخرين في الطرف المقابل!

الحكيم فكر وحاول أن يتجاوز عاداته في الخطابة، قضى ليلة كاملة، وحتى أذان الفجر، في محاولة لأن ينظم قصيدة بهذه المناسبة، لكن المحاولة انتهت إلى الفشل، فاكتفى بثلاثة أبيات نظمها وضمنها الكلمة التي ارتجلها، وعندما تلا الأبيات، قال وهو يبتسم نصف ابتسامة «وكما قال

الشاعر» ولو سأله أحد عن الشاعر لقال أي اسم، لأنه لم يكن مستعداً للاعتراف أنه صاحبها!

طلقات الرصاص التي أطلقت تزيد على معركة الرحيبة في أيامها السبعة، كما قال أبو عبد الله، أمّا رضوان فقال انه، وحده، جمع مائة وسبع طلقات فارغة. والسلطان الذي رقص العرضة عصر ذلك اليوم استبدل السيف، في لحظة انفعال، ببندقية، وأسند البندقة إلى خصره ورمى.

الأشياء التي يمكن أن تقال عن يوم المليحة كثيرة إلى درجة لا يستطيع أن يحصرها أو أن يلخصها أحد. فالمساجلات التي جرت، والشعر البدوي الذي قيل، وغني قسم منه، ثم أبيات الشعر حول أجمل ما قالته العرب في الشجاعة والكرم والوفاء، وفي التغزل بالنساء أيضاً، كانت من الكثرة بحيث تغيب عن الذاكرة. أما النكت التي رويت، وقد تولى الحكيم رواية عدد منها، لأنه استعد لذلك، فقد ظلت تتردد لفترة من الزمن. الأمراء الصغار، وهم اثنان من أصغر أبناء السلطان، ومنصور أحد أبناء الجيل المتوسط، كانوا زينة ذلك اليوم، سواء بالخطبة التي تلاها ملحم، وهو الأصغر، أو بالشعر الذي أنشده متعب، وكان أكبر من أخيه بستة شهور، أما منصور فلفت النظر حين رقص مع أبيه وأبدى براعة ظاهرة.

وداد التي خافت خلال وقت معين نسيت خوفها بعد وصول السلطان، فبعد أن وقف في باب الخيمة وتملى المنظر كله، سأل الحكيم، الذي كان يقف إلى جانبه، عن الخيمة الأخرى، ثم الثالثة، ويبدو أن الحكيم أشار، بطريقة ما إلى وجود أم غزوان في خيمة «المراقبة»، فهز السلطان رأسه وضحك. قدرت وداد ذلك دون تأكد. أما بعد ذلك وحتى الغروب، فقد أصبح أكثر وثوقاً، خاصة حين جاء أبو عبد الله، وبدا خائفاً، يطلب منها، كما أبلغه الحكيم، أن تستعد لركوب الطائرة في العودة.

إن هذا اليوم في ذهن وداد حلم لا يمكن أن يتكرر. رأت السلطان وهو يتمشى بالقرب من خيمة المراقبة. رأته يضحك كحصان. رأته يرقص. رأت ضخامته واحتفاء الناس به. ورأت كيف يطلق النار. أما لماذا

اقترح عليها الحكيم أن تستعد للعودة بطائرة السلطان، على أن تصعد إلى الطائرة هي وسلمى قبل الآخرين، فقد أرهبتها المفاجأة. لماذا يحصل هذا؟ وكيف ستتصرف وماذا ستقول لو سئلت أو تحدث إليها أحد؟

قالت سلمى أنها تفضل العودة بالسيارة، فنظرت إليها أمها بطريقة تأنيب لكي لا تكرر فكرة مثل هذه، والتفتت تسأل أبا عبد الله متى يجب أن تتحرك وكيف، فلم يعرف كيف يجيب. ترددت هل تأخذ معها الحقيبة التي جاءت بها من موران أم تتركها. تطلعت إلى كل شيء بارتباك وحيرة، وكأنها تراه لأول مرة. تطلعت إلى الخيمة الوسطى، تمنت لو يأتي أبو غزوان لدقيقة واحدة، لتسأله ما إذا كان سيرجع معها ومع سلمى، أم سيتأخر، ولتعرف تفاصيل أخرى تستطيع في ضوئها أن تتصرف. لكن الحكيم كان بعيداً، كان غارقاً في تلك الخيمة التي بدت لها مظلمة، غامضة، لكنها لا تتوقف لحظة واحدة عن إثارتها وخلق آلاف الصور في ذهنها.

عند الغروب، والشمس تميل نحو الأفق، وبدأت ظلال الأشياء تستطيل، بل وتصير مضحكة، جاءها أبو عبد الله مهرولاً، طلب إليها أن تذهب فوراً إلى الطائرة، لأن السلطان سوف يغادر، ولا تعرف كيف لفّت نفسها بالعباءة التي جاءت بها، وطلبت من سلمى أن تفعل ذلك، وخلال دقيقة واحدة كانت السيارة الكاديلاك تقف إلى جانب الخيمة لتقلهما.

في الطائرة لم يحصل أكثر من تحية، هز السلطان رأسه بكبرياء، وكان الحكيم وحماد وراءه ومرّ. نظر إلى الخلف مرة أو مرتين، لكن لم تلتق نظراتها بنظراته، ولم تستطع أن تسجل ملامح أكثر من التفات متسائل، أما لماذا ضحك، ولماذا تطلع إلى الأسفل، فلم تستطع أن تقدر.

جاءها الحكيم مرة واحدة قبل تحليق الطائرة، أسر بإذنها أن السلطان فكر أن تهبط الطائرة في قصر الحير، لكن نظراً لتقارب الأشجار، وعدم وجود مكان كافٍ، فإن الطائرة ستهبط في قصر الغدير. قال لها ذلك وهو لا يعرف كيف يخفي فرحه. أما عندما هبطت الطائرة ونزل السلطان، ورافق نزوله الكثير من الصخب، فقد بقيت وسلمى في الطائرة. ظلتا

كذلك وقتاً غير قصير، حتى ظنت أنها نُسيت، لكن بعد أن ابتعد الصخب قليلاً، وسار موكب السلطان، فقد جاءت مجموعة من رجال القصر، بسيارة حتى باب الطائرة، مع كلمة قصيرة: «سوف يلتحق بكم الحكيم بعد قليل»!

كانت تشعر بفرح أقرب إلى اللذة، وهذا الفرح يفيض من خلاياها كلها، حتى وهي تضع يدها فوق يد سلمى وتضغط تحس أن هذه الحركة تدغدغها، تولد رعشة في جسدها. لم تعرف مثل هذه المشاعر منذ وقت طويل. كانت تريد أن تكون وحيدة في غرفتها، أن تنظر إلى جسدها، أن تنظر إلى أعماق عينيها، لتكتشف تلك الغبطة التي تكبر وتزيد كل لحظة، لماذا هي هكذا وكيف تفكر أو ماذا تريد؟ أنها عاجزة عن الإجابة، تجد نفسها مضطربة، لكن ذلك الاضطراب اللذيذ الناعم الذي يتحول شيئاً فشيئاً إلى ما يشبه الخدر، وهي بمقدار رغبتها أن تكون وحيدة، تريد أن ترى الحكيم لكي تسأله عن التفاصيل كلها، ولتعرف كل شيء منذ لحظة وصول السلطان وحتى اللحظة الأخيرة. تتملكها الرغبة أن ترقص، أن ترفع صوتها بصخب طفولي، لكي تعبر عن الفرح الذي يملأ صدرها، تتطلع في الظلمة الخفيفة إلى سلمى التي تجلس إلى جانبها في السيارة، تراها ترقب الجانب الثاني، لا تجد في نفسها الرغبة في الكلام لئلا تفسد هذه النشوة أو تضيع.

حاولت أن تستعيد المشاهد مرة أخرى، لكن وجدتها متداخلة إلى درجة لا تستطيع أن تتوقف عند مشهد بذاته. تبدو لها الوجوه والأشياء كتلة واحدة، حتى ضحكة السلطان وهو يمر بالقرب من «خيمة المراقبة» ترن في أذنها مرة أخرى، وكأنها لا تزال إلى الآن تسمعها. التفت أكثر من مرة، وتوقف حين كان يمر متظاهراً أنه يستمع إلى الأحاديث التي تدور. كان توقفه من أجلها، وإلا لماذا رغب أن تعود بطائرته؟ وفي الطائرة، لما مرّ وحياها انفتحت خياشم أنفه وهو يتنشق عطرها. لاحظت ذلك من حركة الأنف والتي تشبه حركة الأرنب. ان هذا واحد من أسرارها الخبيثة، حتى الحكيم وهو يدفن رأسه في عنقها يحس بالدوار نتيجة العطر الذي تستعمله، تعرف أين تضعه وكيف تمنحه.

ظلت مهتاجة حائرة تنتقل من غرفة إلى غرفة طوال المدة التي غابها الحكيم. سألت سلمى عشرات المرات، سألتها عن أمور تعرف الإجابة عنها، أو لا يمكن لأحد أن يجيب. ابتسمت دون إرادة، وقفت أمام المرآة في محاولة لأن تجمع الصور كلها، تناثرت الصور واختلطت. استلقت على السرير، أغمضت عينيها، أحست النار تنبع من جسدها، حتى أصابعها كانت تحترق. وضعت يدها على جبينها، نادت بصوت عالٍ، لكن أحداً لم يجب. قامت، تمشت، وقفت على الشرفة، نظرت باتجاه قصر الغدير، قالت في نفسها: تأخر، تأخر كثيراً!

لم يتأخر الحكيم، جاء يتدحرج مثل كتلة من النار: الضحكة تملأ وجهه، والانفعال يسيطر عليه، لا يعرف من أين يبدأ أو ماذا يقول. يريد أن يتحدث عن كل الأشياء في نفس اللحظة. يريد أن ينقل التفاصيل الصغيرة، وبين الأسئلة والتذكر روى لها الكثير. كيف ضحك السلطان حتى استلقى على ظهره للنكتة الأولى التي رواها. وكيف ضحك أكثر في المرة الثانية، بعد أن استعاده إياها. وكيف أن الصغيرين ضحكا لضحك الكبار، لكن بعد ذلك تساءلا عن معنى النكتة أو لماذا ضحك الرجال لها بهذا القدر! حدثها أن السلطان سأله باهتمام عن خيمة المراقبة، وفرح وبان على وجهه الفرح أنك وراء الدعوة كلها. أما لماذا أصرّ على أن نعود بالطائرة فلكي نرى موران في الليل ومن الأعلى. وروى لها كيف أنه جعل السلطان في قمة إشراقه، وأنه لم يره هكذا طوال السنوات السابقة، ولام نفسه أنه لم يفكر بدعوات مثل هذه من قبل، وأثنى على موقفها لأنها أصرّت وألحّت إلى أن دعا السلطان.

الخطيئة الوحيدة التي شعر الحكيم أنه وقع فيها ولم يغفرها لنفسه:

ـ الصور.. يا وداد، كان من الضروري أن تُلتقط عشرات الصور، وكان من الضروري أن تسجل على فيلم، وربما استفدنا منها في «نسر موران».

كانت وداد تسمع وتطير، وكانت تعود في كل لحظة إلى المليحة، كانت تراها باتساعها اللامتناهي، وترى شخصاً واحداً يملأها: السلطان.

تمنت لو أنها كانت على ذكاء أكبر واختصرت الدعوة إلى أقصى حد. بضعة أشخاص وعدد محدود جداً من الزوجات. لو فعلت لتألقت أكثر، لعرفت كيف تتكلم وكيف تتحرك وكيف تحفر في ذاكرة الجميع ذكرى لا يمكن أن تغيب أو تنسى!

ورغم تقدم الليل، ورغم سهر الليلة الفائتة وتعب النهار، كان الاثنان يرغبان أن يواصلا استعادة الدقائق اللذيذة التي شكّلت هذا اليوم، وأن يتذكرا جميع التفاصيل. أما عندما ذهبا إلى الفراش فقد كانت وداد تحس بجسدها يتفجر، يغادر اهابه، وأنه يريد أن يمتزج بحبات الرمل، بالهواء، بكل شيء. فلما مال الحكيم عليها وتنشق عطرها أصابه الدوار للحظة، فارتمى عليها، يحتضنها، يشدّها إليه بقوة، وكانت تستجيب بلهفة وإقبال، أكثر من أية مرة، وأقوى من كل ليلة، لكن كانت تتصوره شخصاً آخر، كانت تتصوره، هذه المرة، السلطان. أما عندما شهقت وشدّت فقد أفزعت الحكيم، وكاد ينهض، لكنها شدته مرة أخرى وبقوة أكبر من السابق.. وناما وهما على هذه الحال!

السحر الذي خيم على قصر الحير، وكان يستعاد كل ليلة بإضافات جديدة وتحويرات لا تنفك تتزايد، وشارك فيه الضيوف الذين ترددوا أكثر من السابق على القصر خلال هذه الفترة، انتقل إلى موران، فتحدث الناس عن الدعوة، ما وقع خلالها ثم ما تلاها، تحدثوا بكثير من الاستغراب والعجب، وتطلعوا حواليهم ليسمعوا ما يمكن أن يقوله شمران أو صالح. هذا السحر بدل أن يتلاشى ويغيب دخل طوراً جديداً في اليوم العاشر الذي أعقب الدعوة.

فحماد الذي زار الحكيم في قصر الغدير مرة، واتصل به مرتين، أبلغه في اليوم العاشر أنه سيزوره في المساء ذاته، في قصره «لأمر هام» ولم يضف أي توضيح. هذا الاتصال، وبهذه الصيغة، أقلق الحكيم، وجعله طوال الفترة قبل الظهر يتساءل ويقدر ماذا يحتمل أن يكون الأمر الهام، ولماذا كان حماد متكتماً متحفظاً هكذا، لكنه لم يتوصل إلى نتيجة. أما عندما عاد إلى بيته فلم يشأ أن يسأل وداد، خاصة وأنه لم يعود أحداً على زيارات عمل في الأماسي أو في البيت. ولأنه أصبح على دراية كيف يفكر حماد وكيف يتصرف، فقد تراءى له أن ما سيبحثه معه له صلة «بمؤامرة الرابية»، ربما قبضوا على العناصر التي كانت وراء المؤامرة، وربما تكشفت لها أبعاد جديدة تقتضي الحذر. ولأن وداد لا تزال في حالة «الإشراق»، وهذا تعبير الحكيم ذاته، فقد جعله ينسى، أو على الأقل ألا يشغل نفسه، خاصة في الأمور التي تجلب الكدر.

منذ اللحظة الأولى بدا حماد إنساناً جديداً: الابتسامة تملأ وجهه، ولم يبق من تحفظه أي ظل، أما طلاقته ودعاباته للحكيم ووداد.. ثم لسلمى

التي دخلت متأخرة بعض الشيء، فقد جعلت الحكيم في حالة من المرح قلما وجد نفسه في مستواها، خاصة مع حماد. حتى أن فكرة مؤامرة الرابية تلاشت خلال الدقائق الأولى. قال الحكيم لنفسه «من الأخطاء التي حصلت أن حماد ترك قصر الغدير في وقت مبكر بحيث لم تتوثق العلاقات بما فيه الكفاية» ولام نفسه أن قصّر تجاه هذا الانسان الذي يبدو له مختلفاً عن السابق، وقرر أن يسلك معه في المستقبل سلوكاً جديداً.

انقضت ساعة أو أكثر ولم تجر الإشارة إلى «الأمر الهام» لا بل نسي الحكيم هذا الأمر، أما حين عرض على حماد أن يبقى ويتعشى فقد اعتذر لضرورة أن يعود إلى مكتبه، لأنه بانتظار تلفونات مهمة.

وداد شاركت في الجزء الأكبر من الحديث. وكان يروق لها أن تعود بين لحظة وأخرى إلى دعوة المليحة، وأية انطباعات تركت لدى الذين حضروا، ماذا قالوا وكيف كانت مشاعرهم. أما سلمى التي ظلت صامتة فما لبثت أن انسحبت دون أن يحس بها أحد.

في إحدى اللحظات التي غابت وداد خلالها قال حماد للحكيم وهو يبتسم:

ـ عندي كلمة.. بيني وبينك، يا أبو غزوان!

والحكيم الذي تنبهت حواسه كلها عاوده الخوف والشعور بالخطر مجدداً: «الذين يعملون عمل حماد ليس لهم قلوب، يقتلون القتيل ويمشون في جنازته» ثم أنه لا يظهر على وجوههم أي تعبير. ومن جديد بدأت تتوارد إلى ذهنه الأسئلة والاحتمالات. نظر إلى حماد: لا تزال نفس التعابير ونفس المرح. لما جاءت وداد قال لها الحكيم بنوع من الرجاء:

ـ الله يخليك، يا أم غزوان، اتركينا وحدنا دقيقة.

تطلعت، وهي تبتسم، إلى عيني الحكيم بتساؤل يحمل معنى الاستغراب واللوم، ثم تطلعت إلى حماد. رأت ابتسامته الودية تكبر وتتسع، وكأنه يرجوها أيضاً أن توافق على ما قاله الحكيم. قالت بمرح، ولتخفي إحراجها:

ـ أنتم الرجال.. دائماً عندكم أسرار!

أما كيف ساق حماد الحديث، كيف قال ما قاله للحكيم، فإن الحكيم نفسه لا يستطيع أن يستعيده، لأن المفاجأة، في اللحظات الأولى، كانت أكبر من أن يستوعبها أو يقدرها. كان للحديث بعض المقدمات، وكان فيه فيض من كلمات المحبة والتقدير التي حمّلها السلطان لحماد لكي ينقلها للحكيم، لأنه لا يستطيع أن يقولها له بشكل مباشر. وأخيراً جاءت المفاجأة، كانت مختصرة وواضحة: «طويل العمر يريد سلمى».

ظنت وداد، التي كانت إلى لحظات تسمع صخب الرجلين، أنهما يتوشوشان، بعد أن خيم الصمت. وحماد الذي أبلغ الرسالة لم يكن ينتظر جواباً فورياً لها، والحكيم لا يملك أن يقرر بهذه السرعة، ولذلك غرق الإثنان في الصمت.

بعد فترة ليست قصيرة قال حماد:

ـ أمر بك عقب باكر، يا أبو غزوان، ونسولف.

نظر إليه الحكيم، ابتلع ريقه، هز رأسه دلالة الموافقة، أما وهو يقوم لكي يودعه فقد قال:

ـ بسيطة.. الله كريم!

توقف حماد لحظات، تنحنح أكثر من مرة في محاولة لأن ينبه، لأن يرى وداد، أن يقول لها كلمة، فلما ظلت في غرفتها، قال بصوت عالٍ:

ـ تصبحوا على خير يا جماعة.

سار معه الحكيم، كان صامتاً، ودعه حتى الباب الخارجي. وقف إلى أن غادر، وقد تعمد أن يتأخر وهو يصعد الدرج. كان يريد فترة لكي يهيّئ نفسه. كيف ينقل إلى وداد الموضوع ـ المفاجأة، هل يقول لها مباشرة؟ هل يؤجل الأمر إلى الغد لكي يفكر ملياً؟ وسلمى.. هل يجب أن تعرف؟ ماذا ستقول وكيف ستتصرف؟ لقد أخطأ أنه لم يسألها عن انطباعاتها بعد زيارة السلطان، وأخطأ أيضاً أنه لم يسألها في الأيام الماضية، انها أصغر من أن يسألها حول هذه القضايا الكبيرة. وهي صغيرة فعلاً، قبل أسابيع قليلة كان عيد ميلادها الخامس عشر. تذكر يوم جاءت. لقد كان هذا قبل فترة قصيرة، لكنها، مع ذلك أصبحت امرأة. شكلها، صمتها، وهذه

الطريقة في التصرف. عندما تزوج وداد كانت بهذا العمر أو أكبر قليلاً، لماذا يستغرب إذن؟ وهل يستطيع أن يرفض؟

تظاهرت وداد بالغضب. وجدها في الصالة، قالت قبل أن يحضّر نفسه بشكل كافٍ:

ـ بعد ما حطينا له رجلين من قصب وسويناه مثل الناس والعالم.. صار عنده أسرار، وصار يحكي وما يحكي!

ولما ظل الحكيم صامتاً أضافت بسخرية:

ـ سبحان الله!

وبكثير من الجدية، الأقرب إلى العداء، قال لها:

ـ طولي بالك يا وداد، لأن المسألة جد!

تطلعت إليه بتساؤل مشوب بالخوف، فلما وجدته مهموماً صامتاً، أضافت:

ـ خير إنشاء الله؟

ـ تعالي، يا حبيبتي، حتى نتفاهم!

بطريقة بطيئة، متخاذلة، مليئة بالحزن أجابها. خافت، أحست أن لومها يتحول إلى حالة عصبية أقرب إلى الغضب. فحماد الذي لا تعرف ماذا يعمل بشكل دقيق، تحس أن عمله مليء بالمرارة والقسوة، وتحس، أكثر من ذلك، أنها لا تحبه. نصف الساعة التي قضاها مع الحكيم كانت حافلة، لا بد أنه حدّثه عن راتب، وربما عن سمير. لا عن راتب بشكل خاص، إذ بعد أن سافر الحكيم بالجولة، وطالت سفرته، تردد راتب على قصر الحير عدة مرات، ولا بد أن يكون هناك من نقل إلى حماد، «لكن راتب قريبنا، راتب كان ينزل في بيتنا؛ هذه ليست حالة جديدة»، ثم ماذا يهمه أن يكون أو لا يكون، هي التي تقرر، وإذا كان لإنسان لا يحتج فزوجها وحده، هكذا فكرت، هكذا قالت لنفسها، أما أن يتدخل إنسان غريب، مثل حماد، فإنها لا تستطيع أن تفهم أو أن تقبل!

لما رآها الحكيم متجهمة صامتة هكذا قال بطريقة مختلفة:

ـ لازم نتفاهم، يا حبيبتي ونقرر!

كان يحضّر نفسه وهو يجلس في الشرفة الغربية. دخلت وخرجت عدة مرات من أجل أشياء صغيرة. كانت تحاول أن تستعد، أن تشحن نفسها، وكان هو يحاول أن يفعل الشيء نفسه. لما جلسا متقابلين، وكانا أقرب إلى الصمت، قال بصوت رخوٍ.

ـ . . . في موضوع هام. . يا وداد.

تطلعت إليه دون أن تتكلم. تابع:

ـ والموضوع. . لا يحتمل التأجيل.

وبصعوبة أقرب إلى الارتباك شرح لها أن السلطان يكن للعائلة حباً استثنائياً، وأنه طلب من حماد أن ينقل ذلك، لأن السلطان لا يستطيع أن يعبر عن حبه وتقديره مباشرة، وهذا الحب زاد وتضاعف بعد الدعوتين. ارتاحت وداد، ابتسمت، شعرت أنها معنيّة بهذا الحب، فسرت في أوصالها رعشة خفيفة أقرب إلى النشوة. كانت تود أن تسمع هذه الكلمات من حماد، أن تعرف كيف قالها السلطان لتتشربها. لماذا حرمها من هذه المتعة؟ لماذا يظل بدائياً جباناً فيخاف أن يتكلم أمام النساء عن مشاعر القلب؟ قالت ولم يزايلها الغضب بعد:

ـ يضرب. . إذا كان حامل هيك رسالة ليش خجلان فيها؟ ليش ما حكى؟ ليش ما نطق؟

ولما وجدت الحكيم صامتاً، والتفت أكثر من مرة تابعت:

ـ وإلا مستحي يحكي قدامي؟

قام الحكيم وأغلق باب الشرفة. استغربت هذه الحركة واستغربت توتره وصمته، قالت بلهجة من نفد صبره:

ـ لازم حكى لك أشياء ثانية شوشت فكرك. . يا أبو غزوان!

هز رأسه دلالة الموافقة والتأييد، ثم جمّع نفسه وقال كلمات حماد ذاتها:

ـ طويل العمر، يا وداد طلب يد سلمى!

ومثل زوبعة الصحراء دارت الدنيا بوداد، ارتفعت إلى مكان شاهق، يقرب النجوم، ثم هوت. تملكها الوجوم، شعرت بالحزن الشديد الذي يقرب حد الألم، وشعرت بنشوة تنفجر من كل أجزاء جسدها. شعرت بالتخلي الكامل والالتحام الكلي معاً. انها في حالة من الاضطراب أقرب إلى اللوعة أو إلى النشوة، لا تعرف.

لا أحد يعرف كم دام هذا الصمت. أما عندما تنهد الحكيم واقترب منها ووضع يده على كتفها فقد ارتجفت، ثم ما لبثت أن وجدت نفسها تتعلق برقبته وتبكي. بكت بصمت، انحدرت دموعها على طرف خده، لم يستطع أن يفهم سبب بكائها أو ماذا تعني. ولم يستطع أن يقدر هل هي فرحة أو حزينة. أنه لم يرها هكذا من قبل. بدت له خلال لحظات امرأة مختلفة، وكأنه يراها لأول مرة.

وقف، وضع يده تحت ابطها ورفعها. كانت ثقيلة مثل حجر. كانت خفيفة مثل نسمة. كانت بعيدة وقريبة في آن واحد. كانت فرحة وحزينة معاً. قال بهمس:

ـ خلينا ندخل ونفكر على رواق.. يا وداد.

وباستسلام مأخوذ مشت معه. لما جلسا على المقعدين المتقابلين والمتقاربين في غرفة النوم، سألها بهمس متآمر:

ـ وين سلمى؟

ـ نامت!

لم تعش موران فترة حافلة مليئة بالحركة مثل الفترة الواقعة بين منتصف نيسان ومنتصف أيار من ذلك العام. الحركة بين قصر الغدير وقصور الخالدية، التي اكتملت خلال هذه الفترة من ناحية، وبين قصر الحير من ناحية ثانية لا تتوقف ولا تهدأ. الرسل الذين ينقلون الرسائل والهدايا لا يتعبون ولا يهدؤون طوال ساعات النهار وجزءاً من ساعات الليل. الأشياء التي نقلت إلى قصر الحير لفتت نظر الكثيرين، لأن السيارات الكبيرة التي حملتها لم تتمكن من دخول باحة قصر الحير، نظراً لأن الباب الكبير لم يسمح أو لم يتسع لدخولها. أما الطائرات التي غادرت موران أو وصلت إليها خلال نفس الفترة فكانت أكثر من المعتاد. حتى الأشجار التي نمت وكبرت في الحديقة الخلفية لقصر الحكيم جرى التفكير بقطعها، لكي تصبح هذه الفسحة مهبطاً لطائرات الهيلوكبتر، لكن الحكيم أرجأ هذا الأمر في آخر لحظة، على أن يفعل ذلك في الخريف القادم.

والصيف، في هذه السنة، أيضاً، جاء قبل أوانه وأكثر حرارة من المعتاد. فما كاد ينتصف نيسان حتى عبق الجو بحرارة لزجة مخدرة، تولد الرخاوة أكثر مما تشيع الدفء، الأمر الذي دفع السلطان لأن يفكر بتقديم موعد سفره أسبوعاً أو عشرة أيام عن الموعد الذي حدده سابقاً، لكن إشارة الحكيم أن جو أوروبا، خاصة ألمانيا، وبالذات بادن بادن، أبرد من جو موران بكثير، وأن الانتقال من جو دافئ إلى جو بارد، أو بالأحرى شديد البرودة، لا بد أن يؤدي إلى مضاعفات صحية غير مستحبة. والسلطان الذي فهم ملاحظة الحكيم واستجاب لها، قرر أن يتم الزواج في موران، على أن يسافر بعد ذلك. وهذا القرار يعني أن يأخذ الاستعداد

وتيرة أسرع، الأمر الذي اضطر وداد أن لا تعتمد على الخياطات اللواتي جئن من لبنان لأعداد فساتين العرس، «يمكن أن يستمر عملهن مع بعض التعديلات.. أما فساتين العرس فسوف يتم اختيارها جاهزة من باريس».

وافق السلطان على هذا الاقتراح بحماس كبير، وكتعبير عن هذه الموافقة وضع طائرته الخاصة تحت تصرف أم غزوان والعروس، وهذه الالتفاتة التي قدّرها الحكيم، ولم يحظ أحد بمثلها من قبل، حتى الأمير فنر، جعلته يتحمل أعباء إضافية، فقط من أجل أن ينتهي الاستعداد قبل انتهاء الأيام العشرة الأولى من أيار.

وإذ انشغل القصر بهذا الزواج أكثر من الزيجات السابقة، والتي اختلف عددها اختلافاً كبيراً، فبينما يؤكد الكثيرون أنها بلغت سبعاً وعشرين، فإن بعض نساء موران اللواتي لهن علاقة بالقصر يؤكدن أن الزواج الجديد سيكون الرابع والثلاثين، لأن أربعاً أو خمساً من البنات اللواتي ربين وعشن في القصر بنى بهن السلطان. أما عثمان الدميري الذي عقد للسلطان على معظم زوجاته أو كلهن، فقد أكد لإثنين من معارفه، أنه وحده عقد له على اثنتين وأربعين امرأة، قال لهما ذلك وطلب أن لا يذكر شيء عن الأمر «لأن فيها موت. فيها قص راس».

وإذ استمر انشغال القصر، فإن السلطان ذاته كان شديد الاحتفاء بهذا الزواج، ويريد إتمامه بسرعة كبيرة، كما يريده أيضاً حدثاً استثنائياً في موران، خاصة وأنه سيكون الزواج الأول الذي سيتم في قصور الخالدية، بعد الوئام والانسجام اللذين ميّزا وضع العائلة السلطانية، وانتقال فنر إلى مكاتبه الجديدة في هذه القصور..

عدلة التي استغربت الحركة الزائدة، حاولت أن تستعيد في ذاكرتها صورة سلمى. تتذكر أنها رأتها، كانت صغيرة مثل لعبة، بعيونها الزرقاء وجديلتها الطويلة، أما عندما طلبت منها أن تقترب فقد أجفلت الصغيرة واختبأت وراء أمها. تتذكر هذه الصورة ولا تتذكر غيرها، لأن وداد التي ترددت على القصر مرات عديدة بعد ذلك، لم تصطحبها سوى تلك المرة. أما متى كبرت هذه الصغيرة، وكيف فتن السلطان بها، فإنها لا تجد سبباً أو

تفسيراً. تعرف أن السلطان زار الحكيم في بيته، لكن لا تعرف أكثر من ذلك، وسمعت عن دعوة المليحة، وأن زوجة الحكيم وابنتها كانتا هناك، وقالت لها النسوة اللواتي ساعدن في تحضير الأراكيل أن المرأتين لم تخرجا من الخيمة ولم يرهن أحد من الرجال، حتى أثناء عودتهما مع السلطان بالطائرة لم يجر حديث ولم يحصل أي شيء، فمتى تعلق بها السلطان ومن قال له؟

كانت عدلة على يقين أنها ستلتقي بزوجة الحكيم قبل ليلة الزفاف، ولا بد أن توصيها، خاصة بالنسبة لليلة الأولى، «لأن أكثر من امرأة تعورت» وهي إذ تفعل ذلك فمن قبيل الشفقة لا المحبة، لأنها لم تعد تقيم وزناً للنساء اللواتي يجئن بعدها. كانت متأكدة أنها وحدها الباقية، والتي لا يمكن أن ينساها أو أن يستغني عنها! ومع ذلك اعتبرت أن في الأمر سراً لا تفهمه، وانصرف ذهنها إلى الحكيم: «ساحره ابن الحرام. . من يوم ما عرفه سحره».

ولأن العرس تقرر أن يكون في موران، ومثلما انشغل قصر الغدير وقصور الخالدية والحير، فإن كثيرين وكثيرات انشغلوا أيضاً: في شراء الهدايا، في إحضار الفساتين والمجوهرات من باريس ولندن وأميركا، وكان دافع هؤلاء، أو أغلبهم، أن يقولوا، بشكل ما، للحكيم ولزوجته، أنهم أيضاً متحضرون وقادرون على شراء أي شيء، وأن الحكيم وعائلته لا يملكون أية ميزة، وبالتالي ليس من مبرر أبداً لهذا الاستعلاء. صحيح أن بنت الحكيم تزف الآن للسلطان، لكن هذا لا يعني الكثير، ولن يدوم طويلاً، فقد سبق للسلطان أن تزوج مرات ومرات، ومثلما يتزوج بنت الحكيم الآن، فقد يتزوج أية فتاة أخرى غداً، ولذلك بدأت حالة من الاستعداد وموجة من التحضير، كل حسب إمكانياته، وكل بطريقته.

وأمي زهوة التي بدت امرأة ذاهلة، شديدة الحزن، بعد موت سرور، والتي أخذت تقضي أوقاتاً طويلة في جناحها ولا يكاد أحد يراها أو يحس بوجودها، فقد انفجرت فجأة كما تنفجر الزوبعة. وإذا كان السلطان قد انتقل إلى قصور الخالدية، وأصبحت زياراته لقصر الغدير متباعدة وقصيرة،

فقد نسي الشيخة، أو لم يعد يتذكرها مثل قبل. حتى الذين كانوا قريبين منها ورأوها تنتفض مثل قطة، فتصرخ وتهدد، وتدق الأرض بعصاها دقات متواصلة مع كلمات الشتيمة، ولا توفر أحداً أو شيئاً، الذين رأوها بهذا الشكل، وبهذه الوضعية الجديدة لم يهتموا كثيراً ولم ينشغلوا بها. قال ناشد الدبلان الذي يرقب كل شيء بصمت، قال لنفسه بصوت عالٍ:

ـ صحوة موت، وما أظنها تقدر على شيء.

أما عدلة التي لم يتغير موقفها من الشيخة، إذ ظلت أقرب النساء إليها وتسمعها، ولاحظت قبل الأخريات ما حلّ بها بموت سرور، ثم الحزن الذي أعقبه، فغيّرها، فقد بقيت على موقفها. الآن وهي تراها هائجة هكذا، قالت لها أمام اثنتين من الأميرات الصغيرات:

ـ يا أمي زهوة: عجّة وتقضي مثل ما قضت غيرها!

والشيخة التي هزت رأسها بإنكار، إعلاناً عن التصميم ومتابعة المعركة، وأن هذا الزواج لن يتم، كما لم يتم زواجه بهذلة، قبل سنين طويلة. وفهمت عدلة هذه الإشارة، فتابعت تقول:

ـ ذاك زمان، يا أمي زهوة، وهذا زمان غيره!

وإذ لم تجد الشيخة فهماً من الذين حولها أو تضامناً، فقد انطلقت إلى الآخرين، حتى قيل انها لم تترك أميراً، صغيراً أو كبيراً إلا وشتمت أمامهم الحكيم، القاتل، هكذا أصبحت تسميه، طالبة أن يتدخلوا لمنع زواج السلطان بابنته.

والأمراء الذين سمعوها ضحكوا وهزوا رؤوسهم، ولم يفعلوا شيئاً.

وإذ استمرت الاستعدادات واستمر معها الصخب والهياج، لم يعد أحد يسمع أحداً، وغاب صوت الشيخة في هذا الضجيج. أما السلطان الذي سمع بعض ما قالته الشيخة فقد اعتبر الأمر غضباً أو خرفاً، قال لزيد الذي نقل له بعض ما سمع، قال له:

ـ إذا رجعنا من السفر بالخير والسلامة نمّر بها ونرضيها!

❀ ❀ ❀

وموران الأخرى انشغلت أيضاً، لكن على طريقتها الخاصة، فشمران العتبي الذي وصلته أخبار المليحة: الخراف الذي ذبحت، والقصيد والغناء، ثم كيف رقص السلطان ببندقية وليس بسيف، فقد تلفت أكثر من مرة وتساءل بسخرية:

ـ وينك يا ابن الرشدان.. لأن هذا اليوم يومك!

وخفت صوته، لكن الكثيرين سمعوه:

ـ لكن ظني أن الطبل ما يكفي والكلام ما يفيد!

أما عندما انتشرت شائعة قرب زواج السلطان بابنة الحكيم، فقد قال شمران في مقهى زيدان وأمام كثيرين:

ـ من كبّر لقمته غصّ.. يا جماعة الخير.

وحين تطلعت إليه بعض العيون متسائلة. أضاف وهو يقهقه:

ـ بنت المطوط من يأخذها؟

وفهم الذين يسمعون أنه يعرّض بالحكيم ويسخر منه. فغمز له أحد الجالسين لكي ينتبه للذي يجلس وراءه.

فرد وبقايا الضحكة على وجهه:

ـ يا أبو ابراهيم ما عاد بالعمر زودة، وشفنا كل شيء!

والتفت شمران بكليته للذي نبهه إليه أبو إبراهيم وسأله:

ـ وايش قولك.. يا ابن الحلال؟

ـ القول قولك يا أبو نمر!

ـ جماعتنا في السوق كانوا يقولون: خف من الغني إذا جاع ومن الفقير إذا شبع.

ارتبك الرجل فلم يعرف كيف يجيب أو كيف ينفي عن نفسه تهمة أنه من «البلابل»، وهي التسمية التي أطلقها نمر على العاملين في جهاز الأمن، والذين يتظاهرون بالمسكنة والغفلة، ويحشرون أنفسهم في كل مكان، «لكنهم دائماً يغردون، ودائماً يعلّمون عن أرواحهم، مثل ما تعلّم نفسها العنز السودا بين الغنم» فلما رأى الرجل أن العيون تنظر إليه قام وهو يقول:

ـ الله منكم يا أهل موران لا تستريحون ولا تخلون أحداً يستريح!

نمر تشوشت معلوماته واضطربت خلال هذه الفترة، إذ بعد أن تم الانتقال إلى قصور الخالدية، لم تعد مراقبته أو متابعته لقصر الغدير تجدي إلا قليلاً «حتى هذا الأكتع، يقصد مطيع، صار بالخالدية» ولذلك صدّق من قال له أول الأمر أن الزواج الذي سيتم سيكون بين ابن السلطان، مزيد، وبنت الحكيم، وأكد للذين جادلوا «أن معلوماته من داخل القصر» لكن لم تمر ثلاثة أيام حتى اعترف أن معلوماته خاطئة «وأن الذي سيتزوج هو العود الكبير».

ومع مرور كل يوم جديد تتزايد الحركة وترافقها الأخبار. كثيرون توقعوا أن تعطل الدوائر والمدارس يوم الزواج، وهؤلاء وغيرهم كانوا متأكدين أن راتباً إضافياً سوف يمنح لموظفي الدولة. أما الاحتفالات التي ستجري بهذه المناسبة فسوف تكون من الروعة والضخامة إلى درجة أن موران لن تشهد مثلها. خاصة وأن أخباراً كثيرة أخذت تنتشر بسرعة عن الملابس الجديدة التي خصصت لحرس القصور، وقد عزز هذه الأخبار أيضاً تشكيل فرقة موسيقية جديدة تابعة للقصر مباشرة.

صالح الرشدان كان مريضاً خلال هذه الفترة، لكن الأخبار التي تصله وتتزايد كل يوم، تصل مضطربة مشوشة، وهذا مما جعله يتحامل على نفسه ويأتي إلى مقهى زيدان. لما رآه شمران متعباً منهوكاً هكذا أجفل ولام نفسه أنه نسيه مرة أخرى، وفي محاولة لأن يرفع من معنوياته ويشجعه، ولأن يداري خجله على تقصيره، لجأ إلى المداعبة:

ـ جيت.. والله جابك يا صالح...

ولما تطلعت إليه العينان اللتان تبرزان كبيرتين في وجه معروق مريض، أضاف:

ـ طويل العمر يسأل عنك..

ـ خير..؟

وضحك بسخرية، وأضاف:

ـ لازم عنده سالفة.

ـ سالفته كبيرة هذه المرة يا صالح!

ـ سولف، يا أبو نمر..

ـ راح يعرس على بنت غريمك، ويريدك تطبل وتبشر أهل موران: «يا أهل موران الحاضر يبلغ الغايب».. والباقي عليك!

ـ اقعد عوج واحكِ عدل.. يا أبو نمر.

ـ هذا هو القول، يا صالح، ودونك الجماعة أسألهم.

ابتلع صالح ريقه بصعوبة والتفت يتطلع إلى الوجوه التي تحيط به وتنتظر إجابته:

ـ ها، يا جماعة الخير؟

ـ اللي يقوله أبو نمر هو الصدق.

ـ سبحان الله.. المقرود دائماً تلحقه القرادة، قلنا طويل العمر زين وما مثله، وغريمنا هو المطوط، هالحين الواحد ما يعرف وين يروح وين يجي، وشدوا روسكم يا قرعان!

وانفجر الجالسون بالضحك. أما صالح فظل منكراً لا يريد أن يصدق، لا يريد أن يعتبر ما قيل له صحيحاً. فإذا لم ينتقم منه الحكيم في الماضي فلا بد أن يفعل الآن. صحيح أنه لا يخاف الانتقام، لكنه لا يحس في جسده القوة الكافية للمقاومة على مواصلة الحرب إلى النهاية. عندما هدأ الرجال التفت إلى شمران وقال له:

ـ اسمع يا أبو نمر.. إذا كان طويل العمر وجد أمس من يحذي له خيله ونسي صالح.. اليوم لو طرّش أمة الثقلين ومعها القراطيس والأختام، صالح لا يسمع ولا يجيب!

ـ وكل الله يا صالح، والدنيا ما تخلص بيوم.

ـ خلصت ولاّ بكيفها، والحدب يعرف كيف ينام.

واستمرت موران تنشغل وتتغير. فالذين لم يسمعوا في الأيام الأولى سمعوا في الأيام التي تلتها، والذين لم يبدوا اهتماماً، واعتبروا الأمر عادياً، ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم مهتمين بشكل أو بآخر، لأن الزوجات

في البيوت أبدين اهتماماً زائداً وتساءلن بصوت عالٍ، وكذلك أولاد المدارس وموظفو الحكومة. أما التجار في السوق فقد انتشرت شائعات بينهم وكلها تؤكد أن الزينات يجب أن ترفع، والوفود يجب أن تسمى لتقوم بتهنئة صاحب الجلالة. وكذلك الحال بالنسبة للباعة الصغار والمتسببين، إذ ظلوا في قلق وظلوا يتساءلون ما إذا كانت موران ستجن وتنقلب، كما حصل عندما عاد السلطان من جولته فيتوقف البيع والشراء.

ولا تتوقف الحركة ولا تهدأ في قصر الحير أو حوله، حتى سمير الذي أنجز ثلاثة فصول من «نسر موران»، بدا إنساناً آخر عندما بلغه أن السلطان سيتزوج سلمى، إذ بالإضافة إلى توقفه عن مواصلة العمل في كتاب السيرة» فإنه استعاض عنه بمجموعة مقالات نشرها في مجلة الواحة: «الإنسان والقدر» وقد استعرض في هذه المقالات مجموعة من الأساطير الفرعونية والاغريقية، وكلها تدور حول قوة المال ونفوذ الأقوياء أو الآلهة، وهذه القوى تلاحق البشر، تختبرهم، فالأقوياء الأذكياء وحدهم الذين يتحملون ويستطيعون أن يتجاوزوا المحن، أما الضعفاء فيسقطون» وهذا ما حصل، إذ ما أن فرغ من المقال الخامس حتى أصبح إنساناً آخر: عاد إلى كتابة «السيرة»، واعتبر «أن الأزمة التي لا تقتلني تقويني، ولا بد أن أحتمل، لأن الإنسان حيوان اجتماعي أولاً، وحيوان معاصر ذو ذكاء غير محدود ثانياً». أما عندما اقترح عليه الحكيم أن يرافق السلطان في رحلته إلى ألمانيا، أثناء شهر العسل، فقد كان موافقاً، بل متحمساً.

حماد الذي لم يتأخر في أن ينقل إلى السلطان موافقة الحكيم، وكان يتوقعها، دون أدنى شك، أصبح منذ تلك الليلة إنساناً آخر باهتمامه ولطفه. حتى عبد المولى أخذ يبادر إلى الاتصال بالحكيم، وأصبح أكثر نعومة وأكثر ارتباكاً أيضاً. كانت إجاباته في السابق واضحة جلية، رغم المجاملة والود. الآن تبدو بشكل مختلف. الحكيم لم يحس بذلك، لكن وجد أنه يحب هذا الإنسان، أو ربما يقدره، إذ كان شديد الاهتمام وهو يسأل الحكيم عن صحته، وما إذا كان لا يزعجه بهذا الاتصال، حتى إذا اطمأن أبلغه أن رئيسه يريد أن يتحدث إليه.

حتى بدري المدلل الذي فترت علاقاته بالحكيم إلى حد كبير، بعد سفر محمد عيد بذلك الشكل المفاجىء، خاصة بعد أن عرف أسباب السفر، فلم يلتق به إلا مرات محدودة، وان استمر على القيام «بالواجب» كما كان يقول في تبرير قيامه بزيارة الحكيم كل عيد، لكن ظل يتابع أخباره «الطيبة» وينشرها. فعل ذلك حين وقع الخلاف مع سعيد، وفعل ذلك أيضاً حين جرت حادثة فندق الرابية. أما الأخبار الأخرى فلم يكن بدري ليحفل بها. أكثر من ذلك كان يبدي تذمره حين سماعها. الآن، في مواجهة الأخبار الجديدة لا يستطيع أن يستمر في التجاهل أو عدم الاهتمام، فبادر إلى الاتصال بالحكيم، متذرعاً بأسباب واهية، لا لكي يهنئه، كما قال في بداية اللقاء، وإنما ليرد، بشكل غير مباشر، على ما قاله له الحكيم قبل سنين، حين زوّج اثنتين من بناته واحدة لمعاون مدير شرطة موران، والثانية لقائد حرس البادية. وبطريقة لا تخلو من مكر أشار إشارة سريعة، لكنها واضحة، أنه فرح للأخبار التي سمعها. وأن السلطان سأله عن سلمى فأطرى له جمالها وأخلاقها واجتهادها، وحاول أن يُفهم الحكيم أن دوره في هذا الزواج كان أساسياً. والحكيم الذي تقبل تهانيه حاول أن يصرفه عن الموضوع بسرعة. سأله عن محمد عيد «إنشاء الله ربنا وفّقه؟» ثم سأله عن حياته في موران وعن أهله. وبدري الذي أجاب بسرعة كان يريد أن ينقل للحكيم الرسالة الأخيرة:

ـ وأنا، يا أبو غزوان، من ناحيتي عملت اللازم: ما تركت في لحيته شعرة بيضة واحدة، موبس هيك وصبغت له شعره صبغة.. العفاريت لا تلاحظها ولا تعرفها!

تقبل الحكيم هذه الملاحظة بغيظ، قال برخاوة، وكأنه ينتقم:

ـ الله يعطيك العافية، يا أبو مصباح، وتسلم إيدك!

سعيد رفض أن يصدق المصاهرة التي يتحدث عنها الكثيرون في السوق. قال أن الحكيم يروّج مثل هذه الشائعات ليجعل الناس ينسون حادثة الفندق، وفي محاولة لأن يستعيد اعتباره. أما عندما التقى بحماد وتأكد من صحة هذه الأخبار فقد قال:

ـ ابن الحرام مثل القط. . كيف ما رميته ينزل على رجليه!

وأضاف بعد قليل وهو يغمز لحماد بعينه:

ـ وأحسن شيء أن الواحد يفركها، يغيب عن العين كم شهر حتى الله يفرجها!

سارت الأمور، رغم بعض الصعوبات، سيراً معقولاً. وداد التي سافرت إلى باريس، وقضت هناك عشرة أيام، رجعت بحصيلة مرضية. كان هذا تقديرها، وقد وافق الحكيم على هذا التقدير. أما سلمى التي كانت في حالة ارتباك، ولا تعرف كيف تتصرف، فقد أحست وكأنها في حلم، إذ رغم أنها كانت تبدل عشرات الفساتين كل يوم، وتلبس الأحذية وتحمل الحقائب، فلم تكن مصدقة كل ما يجري حولها: أن تتزوج، وأن تتزوج السلطان بالذات! لكنها، مع ذلك، كانت أقرب إلى الاستسلام، وكأنها مأخوذة، خاصة حين ترى أمها تأمرها، تطلب إليها بطريقة أقرب إلى الحزم، أن تري أباها الفساتين التي جلبتها. كانت تطلب منها أن تلبس التايور السكلاما مع الحذاء الأبيض والحقيبة البيضاء، حتى إذا لبسته ودارت مرة أو اثنتين أمامهما، تطلب إليها أن تلبس الفستان التراكواز المفتوح من أمام ومن خلف فتحة كبيرة، وحين تتردد سلمى، لأنه فستان فاضح، ولا تحتمل أن يراها أبوها هكذا، تتطلع إليها بشكل معين أقرب إلى الأمر، فتستجيب مستسلمة وكأنها قطة مروضة.

وبعد كثير من الاستعداد والتأجيل تحدد اليوم العاشر من أيار موعداً لزفاف سلمى!

الذين توقعوا وانتظروا وتراهنوا حول العطلة والراتب الإضافي والاحتفالات تحقق توقعهم، واعتبروا انتظارهم مليئاً بالذكاء والتقدير الصائب، أما الذين تراهنوا فقد خسروا قليلاً وكسبوا كثيراً، لأن ما أعطي لموظفي الدولة والشرطة والحرس تجاوز راتب الشهرين، ولأن ذلك ترافق أيضاً مع زيادة الرواتب.

ولكي لا يبدو الأمر كله مرتبطاً بالزواج فقد أشير، عرضاً، إلى مناسبتين أخريين: «معركة الرحيبة، والتي تصادف ذكراها في هذا الشهر، وذكرى مرور ثلاثين سنة على قيام السلطنة» وهذا الاجتهاد بناء لطلب الحكيم وإصراره، «لأن الحساد قاعدين لنا ركبة ونص، ولا بد أن يغيظهم فرح أو احتفالات بهذا الحجم» لكنه في الحقيقة امتلأ تحسباً أن يحصل في هذا اليوم ما حصل في دعوة فندق الرابية «لأن لكل شيء إذا ما تم نقصان» هذا ما قاله لنفسه، وهو لا يعرف كيف يخفي انفعاله وخوفه. أما ما قاله لحماد عن ضرورة إحكام المراقبة حول القصور، وكان يعني قصره بالذات، وجمع الصيّاع والمشردين، فلأن صورة رجلين سيطرت عليه تماماً: مفضي الجدعان وصالح الرشدان، ولذلك وجد أن أنسب صفة يمكن أن يوصف بها أمثال هؤلاء الناس هي أنهم مشردون. وحماد الذي هزّ رأسه وضحك أكد له أن قصر الحير محروس حراسة جيدة منذ وقت طويل، وأنه اتخذ كافة الاجراءات لتسير الاحتفالات دون أن يعكرها شيء!

ومثلما حصل أثناء اعتلاء السلطان للعرش، فقد جاءت وفود من أنحاء كثيرة، فنصبت خيامها في أماكن عديدة من موران وبدأت الاحتفالات منذ اليوم السابق للزفاف، كما طافت الشوارع فرقتا موسيقى، الأولى تابعة

للقصور والثانية للجيش، وقد ظن الكثيرون أن السلطان قدّم يوم الدخلة، لكن الأكثر دراية ومعرفة صححوا هذا الخطأ، وقالوا: ان ما يرونه لا شيء قياساً للاحتفالات التي ستجري غداً. أما مكبرات الصوت التي نصبت في أماكن عديدة، وكذلك أقواس الزينة والمشاعل فقد حولت ليل موران إلى نهار. وذكر بعض الذين كانوا في مقهى زيدان، أو في مقاهٍ أخرى، أنهم رأوا ثلاث سيارات تابعة للقصر مرت في عدة شوارع، وربما كان السلطان في واحدة منها، لكنهم لم يكونوا متأكدين لسرعة السيارات، ولأن الذي يجلس في المقعد الخلفي في السيارة الوسطى كان يلف شماغة على وجهه بحيث لا تظهر ملامحه.

الخيول التي وصلت إلى موران، وكذلك الإبل الطيبة، جعلت الكثيرين يتذكرون أياماً سابقة ويحزنون، ثم ما لبثوا أن نسوا الأمر أو انشغلوا عنه حين قامت عدة طائرات بإلقاء هدايا من الجو، وقد تسببت ببعض الأذى، لأن ما رافقها من ركض وصراخ، ثم النزاع والخلاف، بين الصبية والأطفال أو من هم أكبر سناً بلغ الأوج، وقد لستعيض عن الهدايا في يوم العرس بأوراق ملونة.

قصور الخالدية بدت شعلة نار، وكان من السهل تمييزها من مسافة بعيدة، وقد سار نحوها الكثيرون في الليلة السابقة للزفاف، لأنهم توقعوا أن يشهدوا ألعاباً واحتفالات كبيرة. لكن الأمر اقتصر في هذه الليلة على فرقة موسيقى القصر، وعلى القهوة تقدّم لمن يستريح في الخيمة الهائلة القريبة من الأبواب الجانبية للقصر. وقد لاحظ الذين وصلوا إلى هناك أو اقتربوا أكثر من غيرهم حركة نشيطة وأحمالاً كثيرة تنقل إلى داخل القصور، لكنهم، مع ذلك، لم يميزا شيئاً.

حماد مثل عادته في هذه المناسبات: رابط في رئاسة الجهاز، وعن طريق التلفون كان يتابع، يسأل، ليتأكد. وهذه المرة، أكثر من مرات سابقة، لم يغادر الرئاسة سوى مرة واحدة، حين استدعي إلى القصر لمقابلة السلطان، ولم يبق هناك سوى نصف ساعة، كان خلالها قلقاً، ثم عاد.

الحكيم كان متحسباً خائفاً، لا يعرف، وهو يسمع ويرى كل هذا، هل يفرح ويعبر عن فرحه؟ هل يظهر أمام الناس أم يتوارى؟ انه شديد الارتباك والحيرة، لا يستطيع أن يكون في قصر الحير، الذي تحول إلى خلية من البشر، لكثرة من فيه، ولا يعرف لماذا هم موجودون أو ماذا يعملون، كما لا يستطيع أن يبقى كل الوقت في الخالدية حابساً نفسه في جناحه، لأن مطيع، الأقرب إليه، كان شديد الانشغال بالأعداد الخاصة التي سيصدرها بهذه المناسبات المجتمعة معاً، ولذلك ظل يتنقل من مكان إلى آخر، يشرف، يتابع، يحاول التأكد أن كل شيء يسير سيراً حسناً، وفي نفس الوقت يمتلئ قلقاً أن يكون مقاله ليس في المستوى الذي يريد أو يتمنى! الاتصالان اللذان تمّا بينه وبين الحكيم كان قصيرين من ناحية ومربكين من ناحية ثانية. ود الحكيم لو أنه في حالة نفسية أفضل، أو لو كان حوله بعض الناس الذين يرتاح لوجودهم معه. حتى السلطان الذي طلب أن يراه لم يدم لقاؤهما أكثر من عشرين دقيقة، وبدا خلال هذه الدقائق مشغولاً أو منتظراً، واعتبر الحكيم أسئلة السلطان واستفساراته أقرب إلى المجاملة.

وداد التي بدت مسيطرة على أعصابها خلال الأيام السابقة، عاودها من جديد الأرق ثم الصداع، وخشي الحكيم أن تقع فريسة المرض، فبذل جهداً خارقاً لتهدئتها والتخفيف عنها. لكنها، في أغلب الأحيان، لا تسمع ما يقوله لها، بل وكثيراً ما نهضت أثناء حديثه لتتأكد من أمر من الأمور أو تتفقد حاجة من الحاجات. وكان هذا يترافق مع الحدة والأوامر.

أما في اليوم السابق للزفاف، وحينما عادت من القصر، بعد أن التقت بزوجة السلطان، الأميرة عدلة، والتي اتصلت بها عدة مرات، وأصرت على أن تراها لأمر هام، وقد أرجأت وداد موعد اللقاء أكثر من مرة، متذرعة بالأشغال الكثيرة التي عليها القيام بها إلى أن رأتها أخيراً، ودون مواربة وبكلمات مباشرة وقليلة قالت لها الأميرة عدلة ما يجب أن تقوله!

وداد وهي تروي لزوجها، بعد أن اصطحبته إلى غرفة بعيدة عن الضجة، كانت موزعة المشاعر مضطربة، كانت موزعة بين مشاعر الخوف واللذة. واستفسرت منه، باعتباره اختصاصياً، وصاحب تجربة أيضاً، ما إذا

كانت المرأة جادة وتعني ما تقول، أم أن الأمر كله لا يتعدى الحسد ومحاولة أخيرة لتخريب العرس. والحكيم الذي سمع باهتمام ما قالته زوجته طمأنها في النهاية، ووعد أيضاً أن يهيئ لسلمى دواء مناسباً. أكثر من ذلك فكر لو «يخرّب» السلطان في ليلة الزفاف. أو على الأقل يجعله في أضعف حالاته. لكنه اعتبر هذه المخاوف مجرد هلوسات نساء «ولا تمت إلى العلم بأية صلة».

وعشرات الأشياء الأخرى حصلت في موران خلال الأيام التي سبقت الزواج والتي تلته. فالهدايا التي جيء بها من أماكن عديدة، والتي احتفظ بها، كمفاجآت، إلى الوقت المناسب، والوفود التي أمت قصور الخالدية للتهنئة، والولائم التي أقيمت، ثم مهرجانات الفروسية التي جرت لثلاثة أيام متوالية، اليوم الذي سبق الزفاف ثم اليومين التاليين، والمشاعل التي حملها تلاميذ المدارس في ليلتين متواليتين، والمباريات الرياضية التي أشرف عليها الأمير فواز ووزعت خلالها هدايا ثمينة وكثيرة، كل هذه غيّرت موران، لا بل قلبتها.

شمران، الذي صمم وأقسم أن لا تدوس رجله السوق لأسبوع كامل: «وإلى أن ترفع الزبايل التي ملأت موران ويصمت آخر غراب ناعق» قال لاثنين كانا يزورانه في بيته في الليلة التي سبقت ليلة الزفاف:

ـ الزواج سنّة يا جماعة الخير، لكن اللي تشوفونه ما هو بزواج، هذا فسق وقلة دين، وظني أنه ما يمر على خير وسلامة.

أما صالح الرشدان الذي ملأ الدوي رأسه، وأحس أن الدماء تغلي في عروقه، لما يسمعه ولما يتحدث فيه الناس حوله، فقد راودته فكرة أن يحمل طبله ويخرج إلى الشوارع، وأن لا يترك شارعاً إلا ويمر فيه، حتى إذا وصل أمام قصر السلطان قال الذي لا يقال. لكنه ما لبث أن صرف النظر عن هذه الفكرة «إذا كان الناس كلهم مطبلين بالدنيا مزمرين بالآخرة شيفيدك طبلك يا مقرود؟».

لقد عنت لصالح فكرة المقاطعة، فقرّر أن يبقى في بيته، حتى زوجته وأولاده خرجوا إلى طرف الشارع أو وسطه، وظل وحيداً، تذكر أيامه

كلها، تذكر حياته عندما كان شاباً وقوياً، كيف كان يخافه كل من في السوق. كانوا يخافونه لقوته، ولأنه لا يوفر أحداً أو شيئاً. الآن يحس أنه استنفد قواه، لم يبق له إلا القليل، وحتى هذا القليل يغادره، يفلت منه يوماً بعد يوم. قال لنفسه وقد رأى في السماء بعض الشهب النارية: «عندما كانت المرجلة، وعندما كان الرجال ما شفنا أحداً منهم، هالحين، لما انهد الحيل وراحت الخيل، شدوا على الكلاب سروج وقالوا لها اسبحي وطيري.. لكن تخسا».

حتى شداد الذي جاء من يقول له أن موران امتلأت بالخيل، ولا بد أن تنزل خيوله إلى السباق، فقد رد ساخراً:

ـ الأصايل ما تلعب مع المضرّبات!

وفهم كلامه على أكثر من وجه، لكن تعريضه بالحكيم لم يكن ليخفى.

أما مفلح المطوّع الذي ثقل سمعه أكثر من قبل وخفّ بصره فقد رأى الحركة الزائدة، وأحس أن هناك شيئاً غير عادي فسأل بخوف:

ـ ها يا جماعة من مات؟

ولما كان مطلق ذلك المساء غائباً، فقد حاول أكثر من واحد أن يصرخ بإذنه أن السلطان سيتزوج في الغد، لكنه ظل يسأل:

ـ ها.. من مات؟

ـ ...

ـ من؟

نمر شغلته الاعلانات التي نشرت في الجرائد عن «الأعداد الخاصة»: إذا كانت الجرائد في الأيام العادية تكذب مرة، فإنها في المناسبات تكذب مائة مرة: مجموعة من المنافقين واللقامين، وكل واحد منهم يريد أن ينافق أكثر من الآخر، وهات يا كذب. وبأية مناسبة؟ مناسبة زفاف الآنسة المصونة بنت المحملجي لصاحب الجلالة المفدى خزعل بن خريبط. وكأنه أول زواج على الأرض، زواج آدم وحواء»!

يصمت قليلاً ثم يتابع: «وطبيعي على رأس الكذابين والمنافقين شيخهم، العوج، مطيع. لكن والله.. والله لا بد ويجي يوم وتطلع هذه المقالات كلها. ها يا جماعة الخير: من كتب هذا؟ لماذا قلتم هذا؟ وتشوف دموعهم ويطلبون الشفاعة أولاد الزواني وكأنهم لا يحملون كتابهم بشمالهم أو كأنه ما هو معلق برقابهم مثل الرسن. يتصورون أن الناس تنسى، تسامح، ويتصورون أن لا أحد يعرف كم لهطوا وكم سرقوا.. لكن بسيطة.. يجي يوم ونشوف» وظل يسمع ويتابع غير حافل بالحركة حوله أو بالجنون الذي غرقت فيه موران!

بدر نوع آخر، إذ ما كان يرى أباه حزيناً مهموماً، وهو يتابع الأسهم النارية التي تملأ السماء، ويرى موران تغرق في شعلة الضياء، حتى قال بجدية أقرب إلى النرفزة:

ـ إذا ردت مني يا بويه أخلي ظلمة موران تدوّخ الحرامية.. بس قول.

وبدأ يشرح لأبيه كيف أنه يستطيع، بسهولة كبيرة، قطع التيار الكهربائي عن موران كلها، وأن ما سيعمله لا يمكن اكتشافه أو إصلاحه بأيام، وشمران الذي هز رأسه دلالة الفهم، لا الموافقة، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ تظل ظلمة القبور أخير لهم.. وما مثلها يا وليدي.

ولم يفهم كلامه على نحو واضح. أما عندما جاء نجم، مثل عادته كل يوم، ووجدهما يتحدثان عن أيام قديمة، وكانا غارقين في ظلمة لا تنيرها إلا بين فترة وأخرى الأسهم النارية، وبعد أن حيّا وجلس وسمع طرفاً من الحديث. قال بما يشبه السخرية:

ـ هذا ما هو أول عرس ولا آخر عرس، وهذا السلطان ابن سلطان، وباكر ابنه أو أخوه يجي مكانه سلطان.. إلا إذا تغيرت موران.

صرخ أبوه بحدة وكأنه شعر بالتعريض:

ـ موران اللي كانت، مورانا، ما بقي منها حجر.. يا وليدي، تغيرت. وهذا اللي جاب البلا، وبعد تريد أكثر..؟

ـ اللي أريده يا بويه موران ثانية، موران جديدة، وما هي مثل ما تشوفها اليوم!

ـ خلنا نمشي يا وليدي، خل كم واحد يقول الله يرحم شمران ويمشي بجنازته قبل ما تصير موران اللي تسولف عنها.

ـ تصير.. يا بويه!

ـ والله، يا وليدي، بعد ما راحت الغالية، اللي كانت، ما عاد بالنفس شيء!

واستمر الثلاثة يتابعون الأسهم النارية، ويتذكرون.. ويحلمون.

ومثلما لم تنم موران في هذه الليلة لم تنم في الليلة التي تلتها، كانت، ليلة العرس جنوناً لم يتصوره أحد ولم يتوقعه.

في صباح يوم السابع عشر من أيار أقلعت من مطار موران ثلاث طائرات تابعة للقصر، الأولى، في الصباح الباكر، وهي طائرة الحراسة. وبعد ثلاث ساعات أقلعت طائرة المؤن والمرافقين والمرضى والخدم والطباخين والذين يصنعون القهوة. وبعد خمس وأربعين دقيقة، أي في تمام الحادية عشرة، أقلعت طائرة السلطان خزعل، كان على متنها جلالته وعروسه وأم العروس وثلاثة وأربعون من الحرس الخاص والمرافقين الشخصيين، واثنان من أبناء السلطان، إضافة إلى أختين أيضاً.

الحكيم تخلّف في موران لأن لديه الكثير من الأعمال يجب أن ينجزها، لكنه وعد وداد، بتأكيد جازم، أن يلتحق بها في أوائل حزيران، على أن يمر على الأولاد في لبنان لكي يطمئن عليهم «ولكي أبشرهم أيضاً».

سمير سافر على طائرة السلطان، وقد حيّا جلالته مرتين: مرة أثناء ما كان السلطان ذاهباً إلى دورة المياه، والثانية عند أسفل السلم، بعد الوصول. حاول أن يتفق مع جلالته في المرة الثانية على مواعيد لمتابعة كتاب السيرة. نظر إليه السلطان وصهل، وبعد قليل رد عليه بمداعبة وضيق: «خلنا نستريح يا وليدي، هالحين، وبعدها الله كريم!».

موران التي استراحت بعد الاحتفالات «والأيام الكبيرة» كما وصفها مطيع في المقال الذي نشره، حاولت أن تعود إلى حالتها الطبيعية، لكن الأمر احتاج إلى عدة أيام لكي ترفع الزينات وتنظف الشوارع والميادين وتُنزل مكبرات الصوت والخيام، وبدا أن الناس، بعد أن امتلأت أعينهم وآذانهم بما رأوا وبما سمعوا، أصبحوا في حالة من التعب والتساؤل لا

يمكن أن يتغلبوا عليها إلا بالعودة إلى حياتهم الطبيعية المعتادة، وكان يفترض أن يبدأوا بعد يوم أو اثنين أسبوعاً جديداً مثل كل أسابيعهم الكثيرة التي مرت.

عندما مالت شمس يوم الخميس نحو الغروب وانكسرت حدتها، بدأ شمران يعدّ فراشه على السطح، كما يفعل عادة مع بداية كل صيف. رشّ سطح الدار إلى أن ترطب، هيأ قهوته، تخفف من أكثر ملابسه، ولم ينس أن يحمل معه الراديو لأن برنامج «البادية» الذي يسمعه كل خميس يذكّره ويشده.

كان وحيداً على السطح، لأن «العجيزة» كما يسمي أم نمر، لديها ما تفعله في الدار. تحرك شمران أكثر مما يفعل عادة. أزاح البساط، أعاد ترتيب الوسائد، قلّب النار، غسل فناجين القهوة مرة أخرى. كان يفعل ذلك دون وعي، ودون تصميم، فقط لكي يشغل نفسه. حين انتهى من هذه الأعمال الصغيرة ارتمى على الفراش. ود لو يغني أو أن يصرخ. وعنّ له لو يقف على رجل واحدة. ابتسم، لأنه لا يعرف لماذا تخطر في رأسه مثل هذه الأفكار. قال في نفسه «يبقى الإنسان حياته كلها طفلاً بشكل ما» وتذكر صالح الرشدان، قال: «إلى أن يموت يظل مثل ما هو، ما يتغير». وتذكر الحكيم وتذكر ما قيل في مقهى زيدان «البنت، من أول ليلة، تعورت» وأن سفرة السلطان اليوم لها علاقة بالمعالجة أكثر من أي شيء آخر، قال في نفسه «إذا الواحد تاجر بلحمه ويش يبقي لنفسه ولربه؟».

مع أول نسمات رخيه استعاد نفسه. امتدت يده إلى الراديو. انه لا يريد إلا برنامج البادية، «الأشياء الثانية لها أصحابها» لا يحب أخبار موران ولا يصدقها. «الواحد منهم يبحّر بك ويكذب، لا خجل ولا حياء» ولا يحب الدراويش «ما عندهم إلا قال الله وقال الرسول، وهم لا يعرفون لا الله ولا رسوله».

فتح الراديو. «إذا كان غير برنامج البادية أخرسه، أموّت صوته». موسيقى. «هذي ما يخالف» ويعدل جلسته، يسحب من تحت الوسادة ساعة الجيب، ينظر إليها بعد أن يميلها بزاوية حادة، لكي يرى عقاربها

على الضوء الذي يصل إليه خافتاً من أسفل الدار ومن عمود الكهرباء في الشارع. «ثلاث دقائق وتصير سبع». يقرّب الساعة من أذنه لكي يتأكد أنها تعمل، يغلق غطاءها ويملأها. يضعها مجدداً تحت الوسادة. يصب لنفسه فنجاناً من القهوة، يشربه بلذة وتمهّل. الراديو لا يزال يبث الموسيقى. يتذكر أنه سمع مثل هذه الموسيقى في أوقات معينة. يحرك يده دون اهتمام، يحس أن أكثر من ثلاث دقائق مرت. يتطلع إلى السماء، يتطلع حواليه. يسحب الساعة من جديد «سبع وخمس دقائق» يقلب شفته استغراباً «أولاد الحرام ما عندهم إلا طن.. طن، استكثروا علينا برنامج البادية!» حول مؤشر الراديو في أكثر من اتجاه ليتأكد أنه لم يخطئ. كانت المحطات الأخرى أضعف ومشوشة. قال لنفسه «هذي الطن.. طن هي موران» أعاد المؤشر، انبعثت الموسيقى مرة أخرى. هز رأسه بحقد. قال: «خلنا نشوف تاليها».

فجأة توقفت الموسيقى. قال شمران «نايمين أولاد الحرام ونسوا برنامج البادية» قال المذيع بصوت صلب مرتجف:

ـ أيها الشعب الكريم انتظروا أخباراً هامة.

قال شمران لنفسه: «ويرعص، ملعون الوالدين» ودارت عيناه في الظلمة الخفيفة «أخبار هامة؟» وبعد أن هز رأسه عدة مرات: «عرس وعرّسوا، وهالحين وشنهو وراهم بعد؟ عرس ثاني؟».

وعاودت الموسيقى أزيزها في أذني شمران، قال في نفسه «لعن الله والديكم يا أولاد الحرام ما عندكم غير الطن.. طن؟».

وسرح في أفكاره، استعاد وقائع الأيام الماضية، وفجأة تذكر خريبط، قال في نفسه: «كل العوج من الثور الكبير، وذاك الغيم جاب هذا المطر». ومرت صور موران في ذهنه مثل شريط من النار، كيف كانت وكيف هي الآن. كان الناس يتعبون من أجل انتزاع القرش، كانوا يركضون، يسافرون من مكان إلى آخر، وكانوا لا يملون من المساومة. «الآن، كل شي تغير، الفلوس تجي على البارد المستريح، بس الواحد يكون منافق ويبّوس الأكتاف واللحى، وبه حيل ويشيل» لم تعد الفلوس تعني شيئاً لذيذاً أو

هاماً، ولم تعد تعني منزلة أو إمكانية، انها مجرد تراكم لا يعرف إلى ماذا سيؤدي وإلى أين سيقود.

وفجأة يخرج من ذكرياته:

ـ أيها الشعب الكريم.. انتظروا أخباراً هامة!

ـ اه منكم يا أولاد الحرام مثلكم مثل حفّار القبور، وهو يسري يقول: يا فتاح يا كريم؛ أبوكم وأبو أخباركم.

هكذا قال لنفسه بصوت عالٍ ثم أضاف: «ورّوحتوا علينا أحسن ما عندكم، برنامج البادية، لكن عسى كيدكم يرتد عليكم».

وبدأ من جديد، مع هدير الموسيقى الحاد، يردد في نفسه: «أخبار هامة، أخبار هامة» وهو يستعرض في ذهنه ما يمكن أن يعتبر أخباراً هامة، لم يتصور شيئاً محدداً أو ممكناً، قال وهو يبتسم «الذي يجيني بخبرهم أذبح له خروف وأحبّه من عينه».

كان أول الواصلين ابنه نجم:

ـ سمعت يا وليدي؟ يقولون بالراديو انتظروا أخباراً هامة..

ـ الدبابات يا بويه تملا السوق.

ـ دبابات؟

ـ دبابات وجيش وكل بلايا الله.

ـ وعسى أنها فرجت، يا وليدي؟

ـ ما أظنها، يا بويه، وقلت أصل البيت قبل ما تنحاس وتتلاص.

ووصل بدر. كان بادي الخوف، أقرب إلى الارتباك، وقال ان الراديو الكبير الـ RCA الذي عنده، ومن إذاعات كثيرة، من لندن وصوت أميركا، سمع أن أحداثاً خطيرة وقعت في موران؛ وأنه كان يريد أن يواصل سماعه، لكن الجنود طلبوا منه أن يغلق دكانه فوراً وأن يغادر.

ما كاد شمران يسمع هذه الأخبار حتى صرخ:

ـ أم نمر.. يا أم نمر.. ترى أن طاح شيخ القوم طفيت نارهم!

والتفت إلى ابنه نجم وسأله:

ـ ها يا وليدي علينا أو حوالينا؟

ـ ما يندرى يا بويه!

والتفت بدر إلى الراديو، من محطة إلى أخرى، لعله يكون أول من يسمع لينقل إلى الآخرين، وأبوه الذي بدا مهتماً يتابع ويصغي، كان مهتماً ببرنامج البادية، لعلهم يذيعونه، رغم التأخر. أما نجم فقد غرق في غرفته، يجمع كتباً ويحرق أوراقاً، ويتنقل من مكان إلى آخر في البيت، دون أن يلتفت إلى صوت بدر الذي كان مشغولاً بمد الأسلاك الكهربائية لينقل الراديو الكبير إلى السطح، وكان يصرخ ويطلب من أبيه المساعدة.

كان نمر آخر القادمين، جاء بعد أن أُغلق مقهى زيدان، وما كان ليفعل ذلك لولا تلك السيارات التي دارت في السوق تعلن منع التجول، وتطلب من الناس أن يلتزموا بيوتهم فوراً، وتهدد كل مخالف بتعرضه لإطلاق النار. كان نمر منفعلاً غاضباً كما لم يكن هكذا في حياته، لأنه لا يريد أن يسمع الأخبار مثل أي إنسان آخر، يريد أن يراها، أن يشهدها لحظة وقوعها، خاصة وأنه انتقل إلى عدة أماكن ليرى الدبابات، كما أحصاها بنفسه حول قصر الغدير وقصور الخالدية، أما قصر السعد فلم يسمح لأحد الاقتراب منه. كان قلقاً مشوشاً، ومما زاد قلقه أن الضابط غنيم السهيل، الذي رابط بدباباته الثلاث في ميدان السلطان خزعل، أبلغه وهو يبتسم «أن كل شي انتهى، وأننا سيطرنا على جميع المرافق والنقاط الحساسة» وحين أراد أن يستوضح منه، أن يعرف أكثر، رد عليه: «الصبح والصباح رباح» وانشغل مع جنوده، ورفض أن يتكلم أكثر من ذلك.

كان نمر لا يعرف كيف يهدأ أو ينتظر، كما لا يستطيع أن يترك الآخرين يهدأون. «يا جماعة خلوا ببالكم: كل إنسان وأفعاله. . واليوم يوم الحساب» وتمر في ذهنه الصور والأطياف «لا شفاعة لأحد، ولا لحية مشطة، وتعالوا نتحاسب: هذي. . ما هي صوركم؟ وهذا الكلام ما هو كلامكم؟ كنتم تسبّحون وتمجّدون، وكنتم تتصورون الناس مثل الغنم، وأن الدنيا باقية لكم للأبد» ويضحك بتشفٍ، وحين يسأله أبوه عما رأى وما سمع يهتاج وتختلط الصور مع الأحلام:

ـ غنيم قال لي: كل شي خلص، وأنا بعيني شفت، ما تركت مكان إلا وشفته. . .

يصمت قليلاً، تتغير لهجته:

ـ وباكر الدم للركب.

ـ دم من يا وليدي؟

ـ دم الخونة والجواسيس واللقامين والمنافقين وأولاد الزواني، وكل عدو للشعب. .

ـ يكفي موران، يا وليدي، اللي صار فيها.

ـ بعد ما صار شيء يا بويه، وباكر تشوف!

ـ اللي صار يا ابن الحلال يكفينا وزود.

ـ غداً تطلع السجلات، تطلع الجرايد والمجلات وتتعلق المشانق.

ـ فأل الشيطان ولا فالك، يا وليدي.

ـ لا تخف يا بويه، لقد جاء وقت الحساب.

ـ خلك من هذه السواف، والحساب عند رب العالمين.

كان شمران حزيناً أقرب إلى اليأس، لا يريد دماء أو حساباً، لأنه لا يثق بكل ما يراه حوله، أما هذا الذي يحدثه عن المشانق والجرائد فإنه يضيف إلى حزنه حزناً، ويجعل يأسه مرضاً لا شفاء منه. ونمر الذي يتحرك مثل بندول، ويتطلع حواليه فتتراءى له الوجوه والمشاهد فيضحك ويهز قبضته ورأسه ويتوعد، وتتخرج من فمه همهمات أقرب إلى التهديد، هذه الحركات كانت تثير شمران أكثر ما تطمئنه، وتستفزه أكثر مما تريحه، قال لنمر غاضباً:

ـ يا ابن الحلال أمسك الأرض لحين ما نشوف دربنا، ونشوف اللي لنا واللي علينا.

ـ كل شيء خلص يا بويه، ومن حلق غنيم لاذني، وما هي قيل عن قال.

ـ والسلطان وأولاد خريبط؟

ـ صاروا أثراً بعد عين!

عصر الخميس ذاته اتصل حماد بالحكيم. كان اتصالاً مرتبكاً قصيراً، وقد اقتصر على أمر محدد: «أكلمك من القصر، يا أبو غزوان، ولي العهد الأمير فنر يطلب منك أن تبقى في البيت وراح نتصل بك مرة ثانية».

والحكيم الذي كان في حالة نفسية متوترة، أقرب إلى الحزن، وقد توقع وتمنى أن يكون أصدقاؤه قريبين منه، أحس لأول وهلة بالراحة وهو يسمع صوت حماد، لكنه بعد قليل أحس بالقلق. كان يود لو طالت المكالمة، أو لو تخللتها إشارات أخرى أكثر وضوحاً. ثم ان حماد لم يتعود أن يحدثه بهذه الطريقة، قال الحكيم في نفسه: «لا بد أن يكون الأمير فنر إلى جانبه، ولذلك خجل، لم يكن مرتاحاً أو على سجيته لكي يتحدث ويطيل» ولاحظ أيضاً أن الصيغة لا تعجبه، ماذا يعني «أن ولي العهد يطلب؟ هل يقصد أن سموه سيقوم بزيارة للتهنئة؟ كان من السهل أن يُقال هذا الشيء بصيغة أفضل، بصيغة حضارية، لكنهم بدو، لا يقدرون ولا يعرفون أصول التصرف».

بعد قليل فكر الحكيم أن يتصل بحماد، لكي يستفسر منه «لأن هذه هي المرة الأولى، يا أبو راشد، التي يزورني الأمير فنر، ولازم نبيض الوجه بهذه الزيارة»، لكن أين حماد الآن؟ أنه يضيع، بعد لحظات من وصوله إلى أي مكان، يختفي تماماً. يتذكره حين كان يصل إلى قصر الغدير أو قصور الخالدية، ما يكاد يغادر غرفته حتى تختفي آثاره. الآن لا يعرف من أي القصور اتصل به.

كان عبد المولى مضطرباً ومتحفظاً أكثر من حماد، أكد للحكيم أن

رئيسه غير موجود، ولا يعرف أين، أو متى يعود، وحين أكد له الحكيم أنه اتصل به قبل ساعة من القصر، نفى عبد المولى معرفته، وصمت. ولما سأله من جديد كيف يمكن العثور عليه أو الاتصال به أكد له أن ذلك مستحيل تماماً، وصمت. أما حين صرخ الحكيم بحدة طالباً البحث عنه، فقد رد عبد المولى:

ـ إذا اتصل بي يا أبو غزوان سأبلغه ضرورة الاتصال بك!

الحكيم حائر مضطرب: يذرع الشرفة الداخلية، في محاولة لتأكيد أهميته أو عدم اهتمامه. ينتقل من مقعد إلى آخر، أو ينظر إلى الأشجار أو إلى السماء، ثم فوراً، وخلال دقائق، إلى الشرفة الأمامية، يرقب المدخل والكراج وغرفة الحراسة، ويتنصت إلى الشارع، ثم عودة أخرى إلى داخل البيت، ينظر إلى التلفون بحقد. يريده أن يرن لكن سكون البيت يزيد هذه الآلة جموداً أقرب إلى الموت.

ويحار الحكيم أكثر. ماذا يفعل؟ هل يبقى جامداً هكذا؟ لو أن وداد إلى جانبه لكان أكثر ذكاء وأكثر شجاعة، ولساعدته أيضاً في أن يفعل شيئاً بدل هذا الانتقال الأبله بين شرفة وشرفة، بين مقعد وآخر!

قال لنفسه بنوع من الغيظ «طول عمرهم هكذا: مثل السلاحف، يختبئون وراء الصمت والفوضى لكي يخفوا عجزهم ولؤمهم» وتراءت له صورة الأمير فنر «المثال الحي والقوي للسلحفاة الصحراوية: ساكن، غامض، ودائم الصمت. لا تعرف كيف يفكر أو ماذا يريد، حتى السلطان لا يفهمه». وفكر أن يخرج من البيت، أن يغادره إلى أي مكان «إذا كان لهم مزاجهم فأنا لي مزاجي أيضاً، ثم لم أعد ولداً».

وخلال أقل من ساعة اتصل مجدداً بعبد المولى:

ـ ها، يا ابني، وصل معلمك؟ اتصل؟

ـ أبداً يا أبو غزوان.

ـ وأنت اتصلت؟ فتشت عنه؟

ـ بحثت عنه في كل مكان لكن ما وجدته.

ـ والحل؟

ـ الرأي رأيك يا حكيم!

ـ طيب، حاول يا ابني وبلغني بالنتائج.

ـ أمرك يا أبو غزوان!

«هذا الحماد كان لازم يبقى مثل القملة المفروكة. كان لازم يبقى تحت الجزمة، بمجرد أن تركته، مديت له الحبل، أفلت؛ ما عاد راسه يحمله، صار مثل الثور، وهذه المرة على من؟ عليّ، لكن بسيطة!».

وفكر الحكيم أن ينسى ذلك كله: «أنا بالأساس مرهق ولازم أبقى في البيت، واللي يجي أهلاً وسهلاً». وحاول أن يتمدد ويستريح، لكن فجأة تذكر مطيع: «الواحد ما له إلا أقرباؤه» واتصل بمطيع. في البيت غير موجود. «خرج بعد اتصال تلفوني» في المكتب «غير موجود طلب إلى القصر» وحاول بكل الوسائل أن يعرف أين هو أو من طلبه فلم يظفر إلا بمعلومات زادته تشويشاً. قال له سكرتير مطيع «بدأ بكتابة الافتتاحية، وحوالي السادسة اتصلوا به من القصر فذهب، ولا نعرف أي شيء آخر يا حكيم».

واتصل بنادية:

ـ أنا عايز حماد يا نادية ولازم اتصل به، وين ممكن يكون؟

ـ علمي علمك، يا عمو.

ـ ما قال ما حكى وين هو؟

ـ أبداً يا عمو، مثل عادته دائماً!

ـ طيب يا نادية إذا اتصل خليه يتصل بي فوراً.

ـ حاضر، يا عمو!

«لن أسمح لأحد، في المستقبل، أن يتعامل معي بهذه الطريقة، أو أن يتكلم بصيغة البرقيات. يجب أن تكون المسائل واضحة، واضحة تماماً».

وانتقل مرات ومرات بين الشرفة الداخلية والشرفة الخارجية، وفي كل مرة يقترب من التلفون يتطلع إليه بحقد، أما إذا ابتعد فكانت حواسه كلها تتركز بأذنيه، لعله يسمع رنينه.

تنكسر الشمس، تميل نحو الغروب. تهب نسمة طرية، يحس الحكيم أنه الآن أكثر رغبة لأن ينسى، لأن يبتعد عن هذا الهاجس «. . . وكنا في أيام سابقة نخط كم كلمة في الخرطوش، طلقنا هذه العادة، ولله الحمد؛ أما النظرية فقد نامت نومة أهل الكهف» وفكر أن يكتب شيئاً عن الأيام الماضية «كانت أياماً كبيرة» وهذا تعبيره بالذات الذي ردده عدة مرات أمام مطيع، ولم يتأخر مطيع لكي يستعمله عنواناً لإحدى الافتتاحيات. واستبعد فكرة الكتابة، وجد أنه في وضع نفسي متوتر «الكتابة والانفعال عدوان، على الإنسان أن يكتب بعقل وأعصاب باردة، وإلا أصبح أقرب إلى الشعراء» وأجّل هذه الفكرة «كل شيء بوقته حلو».

البيت فارغ وموحش. «لماذا تركتهم يذهبون». يتنقل بين غرفة وأخرى. يتطلع إلى الأثاث والجدران، كل شيء يذكر بالذين رحلوا. يحس أنهم بعيدون، بعيدون جداً. لماذا تأخر؟ لماذا لم يسافر معهم؟ هكذا سأل نفسه بنوع من المرارة. وفكر أن يكتب رسالة إلى غزوان. المشاعر التي يعيشها الآن موحية وغنية، ولذلك يمكن أن يكتب له رسالة مؤثرة!

تطلع من الشرفة الأمامية، رأى أبا عبد الله يحمل أبريق الشاي ويتجه إلى طرف الحديقة. «دائماً إلى نفس المحراب» فقرب أشجار النخيل تعود أبو عبد الله أن يقضي ساعات كل يوم. كان يتمدد هناك ولا يفعل شيئاً سوى سماع الراديو. . «من يوم ما وصلت هذه العفاريت، الترانسزستورات، وهم عابدينها بدل الله. دائماً على آذانهم، ولو قدروا كان وضعوها تحت جلودهم». كاد أن ينادي عليه، أن يتحدث معه، انه بحاجة لإنسان، لكنه استبعد الفكرة «الواحد منهم عقله أفرغ من قلب أم موسى». وإذا كان الحكيم قد اعتمد في ثقافته على المصادر والأمهات، أو كما يقول لنفسه «ذهبت إليها في مظانها» فإنه يعتبر الراديو وسيلة مبتذلة للثقافة، وتذكر القصص التي انتشرت في حران قبل سنين حول الأمير خالد المشاري والراديو، فابتسم وهو يتابع خطوات أبي عبد الله المحاذرة.

بين السابعة والثامنة بدأت تتناهى إلى سمعه أصوات بعيدة. قال لنفسه

«موران.. ويوم الخميس» وابتسم ابتسامة كبيرة وهو يضيف: «وربيع».

وهو يتنصت، وكان يقف على الشرفة الأمامية، رأى أبا عبد الله مهرولاً، والراديو على أذنه. كانت نظراته والتفاتاته متسائلة. تطلع إلى الحكيم بطريقة غريبة، قال الحكيم في نفسه «مهبول وأخذته سحبة عتابا» انحنى قليلاً على الشرفة وسأل مداعباً:

ـ ها، يا أبو عبد الله، موال أو عتابا؟

تطلع إليه من تحت وهز رأسه نفياً. سأله من جديد برخاوة:

ـ لازم يكون شروقي؟

ـ لا هذا ولا ذاك يا أبو غزوان!

ـ احك لنا شو سامع؟

ـ يقولون أخبار هامة.

ورفع أبو عبد الله صوت الراديو إلى أقصى ما يستطيع عندما انقطعت الموسيقى وتوقع أن تعاد إذاعة البلاغ الذي ما انفك يذاع بين فترة وأخرى. لما سمع الحكيم انتفضت حواسه كلها واعتراه الارتباك. «أخبار هامة؟ ماذا يمكن أن تكون؟ وهو.. أيسمع الأخبار من الراديو؟ أيكون آخر من يعرف؟».

ومن جديد بدأ بالتلفون: حماد لم يتصل ولا يعرف أين هو، كما أبلغه عبد المولى. أما مطيع فلا يزال في القصر ولا يعرف متى يعود. واتصل بالأمير ميزر، لكن لا أحد يرد على التلفون. أما حين اتصل بقصر الغدير فقد انتظر طويلاً قبل أن يتلقى جواباً. كان الجواب قبل أن يسأل: «اتصلوا يوم السبت».

واتصل بنادية من جديد. قالت ان حماد لم يتصل ولا تعرف أين هو أو متى يعود. قال لها، وبدا مرتبكاً:

ـ ما قال لك شيء يا عمو؟

ـ أبداً!

ـ وأنتِ ما سمعت شي يا نادية؟

ـ مثل شو يا عمو؟

ـ يعني هيك.. هيك.

ـ ما فهمت يا عمو.

ـ طيب، طيب يا نادية، أنا موجود في البيت، فإذا اتصل أو رجع خليه يتصل بي.

ـ حاضر يا عمو، تصبح على خير!

ودارت الدنيا بالحكيم: «هل يحتمل أن تكون الطائرة سقطت بالسلطان ولم يسمع بذلك؟ هل تعمدوا أن يخفوا عنه الخبر لكي ينقلوه إليه على مراحل، وإلى أن يهيأ نفسياً؟ ولكن هل يتم ذلك عن طريق الراديو وأن يكون هو مثل جميع الناس؟» وتراءى له أن وداد وسلمى والسلطان وجميع الذين كانوا على الطائرة أصبحوا رماداً وتناثرت جثثهم على مساحات كبيرة من الأرض أو ربما سقطوا في البحر. ضرب طرف الطاولة فاهتزت واهتز الراديو فوقها. قال لنفسه بنوع من التحدي «ماذا لو ذهبت إلى القصر؟» وأحس بالإهانة، كيف يمكن أن ينسوه أو أن يؤجلوا دعوته؟ حماد من هناك اتصل به، ووعد أن يتصل مرة أخرى، لكن شيئاً ما شغله. حتى مطيع دُعي للقصر، وهو هناك منذ ساعات فهل يعقل أن ينسوه أو أن يتعمدوا عدم دعوته؟ والأمير فنر، هل هناك علاقة بين زيارته المتوقعة بين لحظة وأخرى والأخبار الهامة؟ والسلطان.. هل تم الاتفاق معه على كل شيء؟

وحاول أن يتصور كل أنواع الأخبار المهمة الممكنة: تصور زيادة رواتب الموظفين، وتصور زيادة القروض التي تعطى لبناء المساكن، وسلف الزواج. وشطّ به الخيال وتصور احتمال إعلان زواج الأمير فنر، خاصة وأن اليوم هو الخميس! وتصور أن تكون هناك مفاجأة هيئت له، وقد تم الاتفاق عليها مع السلطان، على أن تعلن بعد سفره، كأن يُسمّى وزيراً أو أن يعهد إليه بمهام جديدة. ولا يعرف لماذا فكر أن تمنح مجموعة من الأوسمة إلى عدد من الشخصيات المهمة، و «أن الجماعة الآن في القصر يتباحثون حول الوسام الذي يجب أن يعطى للدكتور صبحي

المحملجي، تقديراً لخدماته لسلطنة موران.. وطبيعي ليس من المناسب بحث هذا الأمر بحضوري».

كل خاطر يمرّ كالشهاب في ذهنه، لا يتوقف ولا يتكرر، كما أنه لا يملك أي دليل لنفيه أو لتأييده. انه حائر إلى أقصى حد، حائر وموزع، ولا يعرف كيف يتصرف. ومما يزيد في حيرته أيضاً أنه لا يستطيع أن يتحرك «قد يأتون كلهم دفعة واحدة، وعلى رأسهم الأمير، وقد تجري حفلة تقليد الأوسمة هنا، في قصر الحير، زيادة في التقدير، وقد يطلب مني الأمير أن أقوم نيابة عنه بتقليد بعض الأوسمة» ولام نفسه أنه سمح لرضوان بمغادرة موران بعد ظهر ذلك اليوم لحضور زفاف أحد أقربائه قرب الرحبة. لو كان رضوان إلى جانبه لكلفه ببعض المهمات، أما سواق القصر فإنه لا يرتاح إليهم. كان من السهل على رضوان أن ينبش حماد أو مطيع وأن يأتي بهما أينما كانوا. يعرف كيف يصلهم، والجميع يعرفونه. «أما هذا الأهبل (يعني أبو عبد الله) فلا يمكن أن يكلف بشربة ماء، ولولا أنه بهذا الشكل لما أمنت أن يبقى داخل البيت!».

وفي كل مرة تعاد إذاعة البلاغ حول الأخبار الهامة تزداد حيرة الحكيم وتتضاعف، كما يزداد تردده في الاتصال بأحد للاستفسار منه.

حماد لم يتصل وكذلك مطيع. نادية لم تتصل. وفكر أن يتصل بسعيد أو رضائي، ومرّ بذهنه طيف بدري المدلل، ويتذكر اللحظة الأخيرة عند الطائرة، قال له أبو مصباح وهو يبتسم:

ـ لا يكون لك فكر، يا أبو غزوان. أنا مع الجماعة في النهار.. وفي الليل!

الكلمة الأخيرة لم تعجب الحكيم، لكن لم يكن مستعداً للرد عليها، خاصة في ذاك الوقت. وفكر أن يركب الكاديلاك السوداء ويسوقها بنفسه، وأن يذهب بجولة في موران، وأن يمر على رئاسة جهاز الأمن والسلامة. سيجد حماد أو أحد معاونيه، وهناك لا بد أن يعرف كل شيء، لكن هذا الخاطر لم يغره كثيراً «سواقتي من فترة، وفي الليل شيش بيش».

بعد انتظار وتردد قرر أن يتصل مرة أخرى بحماد. عبد المولى لم يكن

موجوداً، كان مكانه شخص آخر، وحين سأله الحكيم عن اسمه وعن صفته، رد عليه بخشونة: «صديق» ولم يضف كلمة واحدة. وحين طلب منه الحكيم أن يبلغ عبد المولى أو حماد أنه اتصل اكتفى بكلمة واحدة أيضاً: «زين».

أما حين اتصل بمكتب مطيع فكان الجواب أنه لا يزال في القصر، وحين سأل عن أخبار العالم اكتفى مدير المكتب بأن قال:

ـ الأخبار عندكم يا أبو غزوان!

وضحك.

لا يدري الحكيم متى انقطع خطه التلفوني، فبين التاسعة والتاسعة والنصف، وبعد تفكير عميق وتردد وانتظار قرر الاتصال بقصر السعد، وأن يتحدث مع ولي العهد مباشرة، خاصة وأن أبا عبد الله الذي تشبه عيناه عيني قط، بدا خائفاً مرعوباً حين دخل على الحكيم وأبلغه أن دبابة تقف بالقرب من القصر، وأن الجنود نهروه عندما حاول أن يستوضح منهم، وأمروه أن يدخل بيته فوراً وإلا فسوف تطلق عليه النار.

❀ ❀ ❀

بعد الكثير من الحركة والانتظار والقلق، صدر في العاشرة البلاغ التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

«أيها الشعب الكريم

«بعدما آلت أوضاع البلاد إلى الحالة المؤسفة الراهنة، والتي تمثلت بالإسراف والإهمال والعجز والابتعاد عن الطريق السوي، وبعدما استعرض أصحاب السمو أبناء المغفور له السلطان خريبط هذه الأوضاع، فقد قرروا بالإجماع تنحية السلطان خزعل وتسمية الأمير فنر سلطاناً لموران».

لدقائق بدا نمر عاجزاً عن فهم الكلمات التي سمعها، كان مرتبكاً مذهولاً، وقد زادت في ارتباكه تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجه أبيه. وبعد ما كرّر المذيع قراءة البيان عدة مرات قال شمران:

ـ دائماً . . العجلة من الشيطان!

قال نمر وكأنه يحدث نفسه:

ـ لا بد وأن يكون هناك خطأ ما!

وقبل أن تنتصف تلك الليلة كان قد ألقي القبض على أولاد شمران الثلاثة، أما صالح، الذي تعود أن ينام مع الخيل، فلم يسألوا عنه ولم يهتموا بأمره، أو ربما قبضوا عليه دون أن يعرف أحد. ورغم أن شمران ثار وشتم، وحاول أن يلجأ إلى العنف ليمنع اعتقالهم، فإن الأولاد الثلاثة كانوا من رباطة الجأش، وحتى تفهم الأسباب، ما جعلهم يمنعون أي شيء أسوأ.

صحيح أن شمران لم يستطع أن ينام لحظة واحدة، وظل يتنقل بين السطح وباب الدار، إلا أن فكره مع تقدم الليل ثم اقتراب الفجر، أصبح أكثر صفاء، إذ زايله الانفعال وبدأ ينظر إلى الأمور نظرة مختلفة، قال لنفسه: «كلها كم يوم ويردون» أما زوجته التي نامت، أو تظاهرت بالنوم، فقد نهضت، مثل عادتها، عند الفجر، لتعد الخبز، ولتبدأ يوماً جديداً. وحين سألته إن كان الأولاد قد عادوا أم لا فقد رد وهو يحاول الابتسام:

ـ لا تخافي، يا أم نمر، يردون، إذا ما هو اليوم اللي عقبه!

أما تلك الليلة، والصباح الذي تلاها، وحتى الساعة الثانية عشرة من يوم الجمعة، فلا يتذكر الحكيم كيف احتملها وظل حياً، فقد تناوب عليه الخوف والبكاء والمرض، وسمع أصواتاً ورأى أشباحاً، أو هكذا خيل إليه، بحيث كان متأكداً أنه سيموت قبل أن تشرق الشمس. أما ساطور اللحم الذي وضعه إلى جانبه فلم يدر أبو عبد الله أكان سلاحاً للدفاع عن النفس أو أداة ليقتل بها نفسه، وعندما نحّى الساطور، وحاول إبعاده صرخ فيه الحكيم صرخة أفزعته، بحيث وقع منه كأس النعنع الذي صنعه للحكيم لكي يخفف من حرارته ولكي يهدئه.

عند ظهر الجمعة جاءه معاون حماد، أبلغه بكثير من الهدوء أن يستعد للسفر، بناء لأوامر من القصر، وأن أمامه ساعة واحدة لكي يكون في المطار.

لا يستطيع الحكيم أن يتذكر جميع التفاصيل. سمع ما قاله معاون حماد بكثير من الرزانة، لكن دون انتباه، ولم يفهم سوى كلمة واحدة: المغادرة. قال له أشياء أخرى لكنه نسيها كلها. ربما قال له ساحل العاج أو جزر القمر، أو ربما قال له كوريا أو موريا، ويتذكر أنه سمع مالطا، أيضاً، المهم يجب أن يكون في المطار خلال ساعة واحدة، وقبل منع التجول.

وضع الحكيم في حقيبة صغيرة الأقلام كلها واختار الدفاتر السبعة، وفكر لو يأخذ القفطان الأسود، لكنه تردد ثم صرف النظر.

ثلاثة من رجال الأمن رافقوا الحكيم إلى المطار. حين مروا قرب جامع السلطان خزعل قال أحدهم:

ـ بعد اليوم موران مابها لا حرامية ولا طبول، واللي ما انقص رأسه هالحين انقص لسانه.

ارتجف الحكيم، نظر إلى الجهة الثانية لكي لا يرى الحشد، ولا ماذا يجري. أما بعد أن ركب الطائرة، وبعد أن جلب له المضيف كأس الماء الذي طلبه فقد تناوله بيد مرتجفة ولأول مرة يشعر أن الماء له طعم لذيذ، ألذ من أية مرة سابقة.

بالتجول أربع ساعات يوم الجمعة، من العاشرة حتى الثانية.

سمح

لبس شمران ثيابه وأراد أن ينزل إلى مقهى زيدان، لكن أحد رجال حماد، وكان مرابطاً عند الباب، أبلغه أن حده المسجد، وأسلم له أن لا يتعداه. وإذا كان شمران قد نسي شتيمة في الليلة الفائتة فلم ينس ظهيرة الجمعة. لم يكتف بالشتائم، استعمل يديه الاثنتين وساقه اليمنى في التعبير أيضاً، وطلب من الرجل أن يبلغ حماد كل كلمة سمعها، وأن يضيف إليها أيضاً ما يشاء من الشتائم؛ والرجل الذي بدا خائفاً أو محرجاً قال كلمة أقنعت شمران وجعلته يهدأ قليلاً، قال له في لحظة صمت، بعد الانفعال الجامح:

ـ يا أبو نمر، افهم كل اللي تقوله، بس أنا عبد مأمورا

هز شمران رأسه بلوعة وكتم غيظة. بدا له أن معركته ستكون صغيرة وتافهة أن اقتصرت على الرجل الذي أمامه، يريد رأساً ليحاربه، يريد حماد أو من هو أكبر منه؛ وإذا لم يكن اليوم ففي يوم آخر. تطلع في أكثر من ناحية وكأنه بهذه النظرات يصرّف غضبه، يدفعه بعيداً. فجأة، وبلهجة أبوية، وإن لم تخل من السخرية، سأل الرجل:

ـ وإذا شمران راد ينزل للسوق ينزل أو يبقى حريمة في البيت؟

رد الرجل بارتباك:

ـ يا عمي شمران، يا أبو نمر، الدنيا اليوم تغيرت، والأحسن أن الواحد ما يعرض نفسه للتهلكة!

ـ وكل الله، يا وليدي، ولا تخف.

زيدان الذي فتح مقهاه ولم يفتحه، خلال ساعات التجول، إذ ترك

الباب موارباً ونصف مفتوح، كان يريد أن يرى الناس، أن يسمع أخبارهم، وكان شديد الخوف أن يكون بعض أصدقائه، خاصة صالح ونمر، وربما شمران، قد تعرض للأذى، أما وهو يرى شمران داخلاً المقهى فقد هجم عليه وعانقه بحرارة وكأنه لم يره منذ وقت طويل، سأله عن صالح وسأله عن نمر، رد شمران وهو يبتسم:

ـ أولاد شمران الثلاثة ضيوف ابن المطوع، قال لهم أنتم ضيوفنا فضافوه!

وهز رأسه عدة مرات ثم أضاف:

ـ كم يوم ويردون!

وبعد قليل، لكن بحزم:

ـ شباب ويحملون، يأكلون الصخر..

وتغيرت لهجته تماماً:

ـ خوفي، يا أبو جاسر، على صالح، شيبة، وما يحمل...

وتغيرت لهجته مرة أخرى، بدت أقرب إلى التآمر:

ـ وإذا ابن المطوع ما ظفر به ليلة أمس لازم ندبره، ولازم يغيب عن العين كم يوم، لأنه مثل ما قالوا جماعتنا: احفظ راسك إذا تغيرت الدول!

ـ الحق اللي تقوله يا أبو نمر...

وبعد قليل:

ـ وعندي مخزن، يا أبو نمر، مثل جب يوسف، العفاريت تضيع فيه، فإذا دخله ابن الرشدان موران كلها تدوره وما تلقاه.

في هذا الجو، وأثناء دخول بعض الناس ليسألوا أو ليعرفوا، جاء من قال أن صالح الرشدان أُخذ من بيته قبل أن يؤخذ أي إنسان آخر. قال شمران بألم:

ـ راح يطّلعوا فيه الأول والتالي، يا أبو جاسر.

وزفر ثم أضاف:

ـ لكن الموت مع الناس رحمة!

ـ وكل الله، يا أبو نمر، لأن موران ما تتغير، والنفس تظل نفس، وينأخذ بثارها ولو بعد أربعين سنة.

ـ كل شي تغير بموران يا ابن الحلال، وحماد أكثر واحد تغير.

ـ بس موران ما تتغير.

ـ نشوف!

ورغم أن شمران قد سمع الأذان فإنه لم يتحرك. كانت تشغله أمور أخرى، كان يفكر أن يمر على بيت صالح، أن يأخذ بعض الأشياء وأن يترك لهم بعض المال، وكاد ينهض حين رأى زيدان مشغولاً، لكنه أجّل ذلك إلى أن تنتهي الصلاة، وفكر أن يكون زيدان معه لكي يشعر أولاد صالح أن لهم أعماماً كثيرين. قال لزيدان الذي كان يستفسر من أحد «البلابل» عما حصل:

ـ ورانا يا زيدان زيارة اللي ما ماتوا!

وحين تطلع إليه زيدان مستغرباً عبارته ومتسائلاً، تابع شمران:

ـ أولاد صالح برقابنا يا مبارك، ولازم نمرّ بهم.

وبكثير من الحرص صرف زيدان «البلبل»، وطلب منه أن يمر في اليوم التالي، لأن لديه الآن أشغالاً هامة.. «وتعرف.. بعد ساعة يبدأ منع التجول».

فجأة، مثل انطلاق رصاصة بطريق الخطأ، انفجر الأطفال والصبية أمام مقهى زيدان، وكأنهم بشكل غريزي عرفوا الصلة، وبكلمات متداخلة متلعثمة قالوا ان شيئاً هاماً وخطيراً، يعني المقهى وناس المقهى، يجري قرب المسجد.

أحس شمران من الكلمات المبعثرة، من النظرات الخائفة، أن الأمر يعنيه قبل أن يعني أي إنسان آخر، ودون انتظار أو سؤال، اندفع. وزيدان الذي اندفع وراءه، تاركاً باب المقهى مفتوحاً، تداخلت أفكاره واختلطت: «نمر بن شمران؟ أخوته؟ أحد آخر؟».

كانت الصلاة قد انتهت في جامع السلطان فنر، هكذا سمّاه أمام المسجد، بدلاً من مسجد السلطان خزعل. وكانت حلقة الناس التي تحيط بالساحة من كل الجوانب، تتراجع وتتسرب بعد أن شهد الكثيرون تنفيذ الحد «باللصوص» الذين قطعت أيديهم. وشمران الذي كان يتراكض ويتطلع بالوجوه لم يكن يعرف هل يبحث عن أحد أم أنه مجرد حب الاستطلاع، ومع ذلك كان يمتلئ غيظاً وحقداً.

قال كل من كان في ساحة السلطان خزعل، ورأى شمران هائجاً مثل جمل، أن يَمَامَ المسجد لم يكن يقل عن شمران هياجاً، كان اليمام يطير فوق الرؤوس تماماً، كما لم يفعل من قبل، ويصفق بأجنحته وتصدر منه أصوات وحدها كانت، وصوت شمران، تملأ الساحة. وفي لحظة معينة؛ عندما انتزع شمران غترته وعقاله، وأخذ يلوح بهما، وكأنه يهزج أو يهد، كان اليمام فوق رأسه يشاركه، كان يسفّ ويحلّق، أما حين اخترق شمران الناس مثل سهم، وأفسح له الكثيرون الطريق لا شعورياً، ووصل إلى وسط الساحة، والتقى بصالح، فقد صرخ صرخة ملأت الأسماع:

- ديار الظالمين تاليها الخراب . .   وحنا واياهم والزمان طويل.

كان صالح يلبس عباءة شتوية تغمره كله وتزيد عليه، ولم يكن يظهر منه سوى وجه مقدود مثل خشب النخيل؛ كانت عيناه تملآن هذا الوجه، أما عندما هجم عليه شمران وغمر وجهه في صدره، في عباءته، وتطلع إليه، فقد التمعت العينان المشرقتان الكبيرتان الحازمتان، وترافقت التماعة العينين بهزات عديدة من الرأس، وقالت كل شيء، وحين سأله شمران، بكلمات متلعثمة، هل حدث شيء، هز صالح رأسه نفياً. ولما تطلع إليه من جديد ليتأكد، بدا في عباءته، قوياً معافى أكثر من أية فترة سابقة.

في الليل، وزيدان يحاول أن يتغلب على الصمت الثقيل الذي ران على الرجال المحيطين بصالح، والذين أصروا أن يكونوا إلى جانبه في ذلك اليوم، إذ تحدث زيدان في أمور كثيرة، فقد أكد أنه سيكون فخوراً وسعيداً إذا عاونه صالح في عمل المقهى، رد صالح، وكأنه يخاطب شمران بالذات:

ـ ومثل جعفر الطيار، يا أبو نمر، إذا راحت اليمنى الثانية متينة وتدق زين!

رد شمران بيأس:

ـ إذا عمّت المصيبة هانت، يا صالح.

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ أول الغضب جنون وآخره ندم، ونعيش ونشوف وبعدها نسولف، أو اللي يجون عقبنا يسولفون!

قبل أن ينقضي الصيف أعيد تشكيل الحكومة، أصبح حماد وزيراً للداخلية ومالك الفريح وزيراً للمال، أما مطيع فقد أصبح مستشاراً للاعلام في القصر. وفي بداية الخريف أقيمت غرفة للصناعة، وانتخب رضائي رئيساً لها، أما الغامدي فقد استمر في غرفة التجارة، وجاء راتب الفتال نائباً للرئيس. وغزوان جاء إلى موران ثلاث مرات خلال هذه الفترة، وبدا لكل من رآه إنساناً مختلفاً عن المرة السابقة، وقد التقى السلطان في كل المرات التي جاء فيها لكن لم يشر في الصحف إلى ذلك، كما أنه ألغى عدداً من مواعيده، أو الزيارات التي كان ينوي أن يقوم بها في آخر لحظة، لضيق الوقت!

وقبل أن ينقضي الخريف أطلق سراح بعض الذين اعتقلوا، وكان بين هؤلاء بدر. أما نمر ونجم فقد بدا أن إقامتهما ستطول، وهذا ما أكده بدر لأبيه أيضاً، ولذلك وطّن شمران نفسه ألا ينتظر وألا يتوقع. عاد إلى مقهى زيدان، وعاد إلى نفس الوضع الذي كان فيه من قبل. وصالح الذي وافق على أن يعمل في المقهى، بعد عدة أسابيع من الإلحاح والرجاء، عاد إنساناً مختلفاً: الشتيمة جزء من العمل، ومن يعترض يمد إليه يده: دليلاً قوياً حاسماً على أنه يجوز له ما لا يجوز لغيره. والذين عرفوا صالح وتعودوا عليه من قبل، لا يتساءلون ولا يترددون في تأييد ما يقول، أما الذين جاءوا حديثاً إلى مقهى زيدان، أو «البلابل» فقد كانوا ينظرون بدهشة وتساؤل عن «هذا الذي لا يخاف وما عنده لحية مشطة». وزيدان الذي يشعر بالحرج، ويحاول أن يحمي صالح في نفس الوقت، كان ينوع إجاباته حين يُسأل عن هذا الذي يقال أو يسمع في المقهى، والذي تناقله الآخرون

أيضاً: «صالح من ذاك اليوم صار مثل ميزان الجزر، اختل، بايع ومخلّص وما يلزم أن الواحد يسمع كلامه» أما الذين يرفضون أن يصدقوا مثل هذا الادعاء، وكانت لهم صلة بالجهاز أيضاً، فكان يقول لهم محذراً «خذوا بالكم، يا جماعة الخير، ترى صالح واصل، واصل لفوق فوق، ويريد يختبركم ويورطكم، والأحسن لكم: لا شفنا ولا سمعنا، وهذه نصيحة أخ لأخ!».

وصالح الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة، لا يقوى على البقاء في المقهى، أن يظل مربوطاً أو محبوساً، خاصة إذا لم يجئ شمران. كان يترك المقهى إلى الدكاكين المجاورة، وبعض الأحيان لا يتردد في أن يذهب بعيداً. وزيدان الذي يحس أن ابتعاده أفضل من وجوده لا يعترف ولا يريد تبريراً للبعد أو الغياب، فقط يريده ألا يتورط أكثر وألا يحصل له أكثر مما حصل. وصالح الذي يسمع ما يقوله زيدان لشمران حول سلوكه، يعلق ساخراً:

ـ يا جماعة الخير. مثل أيام السوق، اتركوا صالح يقول اللي ما تقدرون عليه.

ويوافق شمران بهزات رأسه، بل ويعتبر أن موقف صالح في منتهى الصواب. يلتفت إلى زيدان ويعلو صوته:

ـ يا أبو جاسر: سألوا فرعون من هو اللي فرعنك؟ قال: ما لقيت أحداً يردني؛ فإذا ظلينا مثل الغنم ترى ياكلونا وما يوفرونا.

وبعد قليل وهو يزفر:

ـ وإذا خفنا كلنا خل واحد ينفّس عن اللي في قلوبنا، خله يحكي، خله يقول.

وظلت موران تدور. فإذا سئل شمران عن أبنائه، ان خرجوا من السجن أم لا كان يجيب حسب الجو، ان كان الجو حاراً يجيب:

ـ بجبل سمعان، وسلطان ذيك الديرة يقول لهم أنتم ضيوفنا ويلزم تظلون؛ وأنتم تعرفون الضيف أسير المعزّب.

أما حين بدأ الخريف ثم جاء بعده الشتاء فكان يجيب:

ـ تراهم بالغور الصافي، وهناك دفا وعفا!

وبعد قليل وبحزن قاس:

ـ ويرجعون!



كان يمكن لشمران أن يواصل انتظاره وترفعه، إذ بعد أن امتنع عن زيارة ابنيه، خلافاً لما فعل الكثيرون، بعد ظهر كل جمعة، ومنع زوجته، معتبراً ذلك لا يليق بأي منهما، وكلف بدر بزيارتهما وتأمين ما يحتاجان إليه، إلا أن تلك الجمعة، في نهاية الشتاء، وبعد زيارة قصيرة للسجن، لم يسمح لبدر خلالها بإدخال الملابس والأكل، وقد رأى كيف تورم وجه نجم وأزرق في عدة مواضع نتيجة الضرب والتعذيب، ونقل بدر لأبيه ما رأى، كتم شمران غيظه ولم يتكلم، أما في اليوم التالي، في المقهى، وحين رأى شداد داخلاً، فقد قال بغيظ أقرب إلى السخرية:

ـ الملك لله يا أبو غانم، ولو دامت لغيرهم ما وصلت لهم!

كان يريد أن يبلغ حماد رسالة عن طريق عمه، وحين هز شداد رأسه وابتسم، وبعد أن تبادل التحيات مع شمران والآخرين، قال كأنه يرد على الكلام الذي سمعه:

ـ زيارة فاتحة يا أبو نمر، قصيّرة وتنقضي!

ـ تراها طالت يا أبو غانم.

ـ تقضي، ولا تخف يا أبو نمر.

ـ الخوف مات بقلوبنا يا ابن الحلال، لكن ما عاد بنا صبار!

وهز شمران رأسه عدة مرات، وكأنه يفكر أو يتذكر، ثم هدر صوته:

ـ تذكر جماعتنا، يا أبو غانم، بالسوق، شلون قالوا وشلون سولفوا.

تنحنح وتابع:

ـ قالوا أنه في نهاية الزمان ما تلقى إلا أولاد الحرام، والسفلة،

والأوباش، والنهابين، وحفاري القبور. وما تشوف إلا السفاحين والقوادين والسماسرة، وينبع من جوا القاع اللئام وأصحاب القراطيس السودا والخصيان والمدندشين بالنياشين وحاملي الأختام وأصحاب الشفاعة وكتاب السلاطين. وقبلهم تشوف المنجمين وفتاحي الفال واللي يرقّصون الحيايا ويحلبون العصافير، وهذون وغيرهم ما لهم شغل إلا يطيبون ويطبطبون على الاكتفاف ويبوسون اللحى.. ويقولون: عنز ولو طارت.

وهز رأسه دلالة المرارة وتابع بنبرة جديدة:

ـ أي نعم.. وفي نهاية الزمان يملا الأرض الأيتام والأرامل والمجانين والحشاشين والدراويش والهاربين من الظلم، وتمتلئ الشوارع بالجوعانين والمظلومين، وتصير البلاد من أولها لتاليها سجن كبير فيصبح الداخل مفقود والخارج مولود، لكنها ما تدوم.

... رفع صالح يده المقطوعة بفخر وقرّبها من وجه شداد، وقال بسخرية:

ـ تشوف عينك، يا أبو غانم، هذا من كرم الأجاويد اللي يسولفك عنهم أبو نمر.

تنحنح شمران وخرج صوته حاداً أقرب إلى النزق:

ـ وتعرف يا أبو غانم.. في نهاية الزمان ما يتميز بين الأبيض والأسود، بين الحلال والحرام، ويكثر في ذاك الزمان الأنبياء الكذابين واللي يحملون الخرق والاعلام.. ويظهر الأعور الدجال.

... واللي يتولون الأمر، اللي يحكمون ويرسمون، في نهاية الزمان، يا أبو غانم، يصيرون تنابل وما يعود بقلوبهم شفقة أو رحمة، ويظنون أنهم معمرين مثل نوح عليه السلام، ويطلقون أزلامهم يقتلون وينهبون، لكن إذا جاءت النازلة أنكر الابن أباه والعبد مولاه، وسلحوا على أرواحهم وبكوا فزعاً ولعنوا الأقربين والأبعدين وقالوا ليتنا كنا نسياً منسياً!

قال شداد المطوع ليطيب خاطره:

ـ وكل الله يا أبو نمر، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير.

تابع شمران وكأنه لم يسمع:

ـ وهذا اللي تشوفه عيونك يا أبو غانم نهاية الزمان، وأن غداً لناظره قريب!

قال زيدان من مكان بعيد:

ـ وبين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

وبعد الكثير من الالحاح استطاع شداد أن يقنع شمران بمرافقته لكي يقوما معاً بزيارة إلى حماد، وهذه الزيارة كفيلة بالإفراج عن نمر ونجم. وشمران الذي بدا رافضاً ثم متردداً لم يستطع أن يقاوم طويلاً، خاصة حين تدخل زيدان وأصدقاء آخرون، قال شداد ليؤكد هذه الموافقة:

ـ نتقهوى ونأخذ أولادنا ونمشي.

❀ ❀ ❀

فوجئ شمران بالصمت الذي يخيم على الوزارة، ظنها أول الأمر خالية، أشبه بمقبرة، لكن وهو يرى بعض الرجال في الممرات، يخرجون ويدخلون، فقد تراءى له أنهم مجموعة من الخرسان أو السائرين في نومهم. تطلع إليهم وتطلع إلى شداد، أما حين وصلوا إلى غرفة عبد المولى، بعد أن مروا عبر عدة غرف، فقد رحب بهما الرجل كما يرحب اللصوص بعضهم ببعض ان التقوا ليلاً قبل بدء العمل: كان يتكلم بصوت لا يكاد يسمع، وكان يرد باستمرار على تلفونات لا يُعرف متى رنت أو كيف، فإذا انتهى لا يكف عن إعادة ترتيب الأوراق. لام شمران نفسه كثيراً أنه جاء، وشعر بالاشمئزاز وما يشبه الرهبة، لكن صخب شداد وطريقته في التصرف جعلته ينسى ولا يقيم وزناً لكل ما يرى.

بدا حماد ودوداً ومتحفظاً حين دخلا عليه، وظل وراء مكتبه وانشغل أكثر من مرة بالرد على التلفون. حين أصبح مستعداً لسماعهما قال له عمه بمداعبة خشنة:

ـ يا وّل يا حماد هذي موران وهذول ناسها؛ وأشار إلى شمران وتابع: والدم ما يصير ماي.

ابتسم حماد ولم يجب، تابع شداد:

ـ قم حب راس عمك شمران وقل له سامحني.

رد شمران:

ـ إذا ردت تضحك على الرجال بوس لحاها!

وتغيرت لهجته وهو يضيف:

ـ اللي صار بينا يا أبو غانم ما ينّسى.

والتفت إلى حماد وتابع:

ـ ما دمنا جينا أنا وعمك شداد نريد نذبحها على قبلة، إذا كان الأولاد مذنبين فذنبهم على جنبهم، شباب ويتحملون، وإذا كانوا أبرياء فكل شيء له نهاية.

ضحك حماد بصخب في محاولة لأن يتغلب على الحرج، وبعد أن هدأ وخيم الصمت تنحنح ثم قال دون أن يرفع عينيه:

ـ القضية بالنسبة لنمر سهلة، إذا أعطانا تعهد أن يبلع لسانه، أن لا يقول كلمة واحدة، ويترك الحكومة وسوالفها.. يطلع...

وصمت فترة لكي يختبر رد فعل شمران أو ليعرف جوابه، فلما لم يجب، تابع بلهجة مختلفة:

ـ أما سالفة نجم فسالفة ثانية.

ولم ينتظر، سحب من درج مكتبه ملفاً كبيراً وبدأ يقلبه وهو يهز رأسه، وبعد أن خيم الصمت فترة غير قصيرة، قال شداد:

ـ اتركنا من القراطيس وبحّر بي زين يا حماد.

رفع حماد إليه وجهاً صلباً ومنتظراً، تابع:

ـ اللي قالوا لك يكذبون يا حماد، ونجم ما مثله.

رد حماد بحدة:

ـ يا عم.. نجم وجماعته يريدون دمنا، وهذا الكلام ما هو قي ل عن قال، أنا بأذني سامعه، وإذا كنا مستعدين أن نتسامح مع نمر، نقول عفا الله عما مضى، إذا سكت وتأدب، فسالفة نجم شيء ثاني!

تطلع إلى شمران وابتسامة متسائلة تملأ وجهه. ثم التفت إلى عمه وسأل:

ـ شنهو قولك يا عم؟

قال شمران وهو يقف:

ـ مشينا يا أبو غانم.

وخطا. أما شداد فقد قال وهو ينهض:

ـ يا وّل يا حماد ترى الدنيا ما هي يوم ولا اثنين، وخاف تندم.

قال شمران وقد اقترب من الباب:

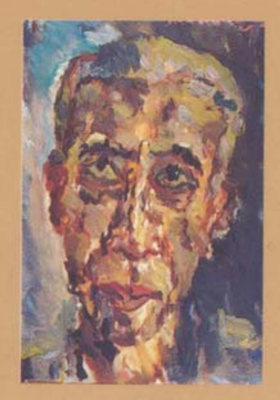
ـ كل واحد له حق يصله، وخلي نمر يونّس أخوه يا حماد.. ونشوف!

واستمرت موران تسمع وتتوقع وتنتظر!

كانون الثاني ١٩٨٥

الصراع الذي بدأت بوادره في «التيه» يتصاعد ويتسع في الأخدود، بعد أن تم تشييد مدن الحديد والاسمنت، وبعد أن أخذت السلطة تعتمد على القوة والقمع من أجل الإخضاع ثم الترويض.

وفي عالم التجاذب والاستقطاب، ولأن الناس غُيّبوا، تصبح الحكومات امتداداً لإرادة الأجنبي ورغباته، وتصبح الثروة وسيلة للضعف لا للقوة، من خلال الإنفاق والتبديد على المظاهر والاستهلاك، لا من أجل الاستقلال والإعداد للمستقبل، وهكذا يزداد الشرخ، ويتسع الأخدود، ويصبح المستقبل رهاناً على المجهول.



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

أرض السواد (3 أجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

عالم بلا خرائط
(بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

أم النذور

سيرة مدينة
(عمان في الأربعينات)

النهايات

لوعة الغياب

الكاتب والمنفى

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة

بين الثقافة والسياسة

عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي
الإخراج:
آنيا مورينغ
صورة الكاتب:
رسم لمروان قصاب باشي

مُـدُن المِـلح
الأخـدُود

* باهر... العمل القصصي الجاد الوحيد الذي يتناول أثر النفط والأميركيين والحكام المحليين في أحد بلدان الخليج.

ادوار سعيد

* إن الرواية، بجانب الرعشات الشعرية، الضمنية والجهيرة، يتحرك في داخلها حس شعري شفاف عميق عام، صادر من تلك المودة الحارة الرقيقة الصادقة التي تشع من تعبيرها وتصويرها للأحزان والمباهج والقيم والصداقات والأشواق والتساؤلات والمحن الإنسانية.

محمود أمين العالم

* ولأن مدن الملح متميزة بالحجم وبالتقنية وبالموضوع، فإنها، في اعتقادي على الأقل، حدث بارز في الإبداع الروائي المعاصر.

حسين الواد

* مدن الملح، إن هذه الرواية واحدة من أهم وأخطر الروايات العربية. إن لم تكن أهمها وأخطرها على الإطلاق.

فاروق عبد القادر

* مدن الملح هي بالتأكيد أهم لوحة إنسانية اجتماعية عن أثر الآلة النفطية في بلاد النفط العربية، لكنها بالتأكيد أيضاً إحدى أروع اللوحات الإنسانية والاجتماعية عن صدمة الحداثة في مجتمعات العالم الثالث.

عصام محفوظ

ISBN 9953-68-103-1



المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي

عبد الرحمن منيف



مدن الملح

تقاسيم الليل والنهار



III

عبد الرّحمن مُنيف

مُدُن المِلح

تقاسيم الليل والنهار



III

المركز الثقافي العربي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

عبد الرحمن منيف

مُدُن المِلح

تقاسيم الليل والنهار

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص. ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901

التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف: 5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي (الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726

لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

ذاك الغيم جاب هذا المطر

مثل بدوي

يقول أحد أبطال مسرحية تشيخوف: الأخوات الثلاث:

«لقد آن الأوان! ثمة شيء هائل يتقدم نحونا، ثمة عاصفة قوية نقية تتهيأ، عاصفة سوف تكنس من مجتمعنا، عما قريب، الكسل واللامبالاة والأوهام والضجر الفاسد...

«إننا لن نشارك في تلك الحياة، ولكننا نحيا من أجلها اليوم. إننا نعمل ونتألم ونخلقها، وفي هذا وحده يقوم هدف وجودنا، وتقوم، إذا أردتم، سعادتنا».

«إن ما نخاله وهماً قد يكون، في بعض الأحيان، حدساً بالممكن، وإنه في رؤية المُمكن تكمن احتمالات وقوة المستقبل».

أنا يسيس نن

يقول الرياضيون:

بما أن...

لذلك...

إذن...

وقت الهزائم، وفي المنافي،

يطيب الحديث عن التاريخ أو وهم التاريخ

مطالع القرن، العقود الأولى.

العالم، كل العالم، في ذلك الزمن الرجراج، المليء بالتوقع والاحتمالات، البطيء كسلحفاة، السريع المتغير كبرق السماء، يتلفت، يتساءل، يرهف السمع إلى الدوي القادم، ويترقب بخوف الغد الذي سيأتي.

في ذلك الزمن كل شيء مطروح لإعادة النظر، لإعادة القسمة: الأفكار، المناطق، الدول، حتى الملوك والسلاطين والأمراء الصغار.

دول تنهض فجأة، وأخرى تغيب.

القارات تقسم حسب خطوط الطول، وخطوط العرض.

المناطق والشعوب تجزئ أو تلحق، تبعاً لرغبات الأقوياء، الذين يتخذون القرارات، وتبعاً لمصالحهم وقدرتهم على المساومة ونقض الوعود والعهود.

الملوك والسلاطين، . ومعهم الجواكر، يُخترعون في التو واللحظة ليتولوا الأمور، أو يحكم عليهم بالنفي إلى الجزر البعيدة لكي يموتوا هناك منسيين، وبصمت.

هكذا كان العالم في مطالع هذا القرن. أما موران، هذه الصحراء الغارقة في الرمال والنسيان، فكان أمراؤها المائة يتنازعون أجزاءها كما تتنازع النسور. كانت «دولهم» تكبر وتصغر، وبعض الأحيان تنتهي، تبعاً للأمطار والجراد، وتبعاً للغزوات أو الهواء الأصفر الذي يصل إلى هذا المكان النائي مع المسافرين. فإذا نجت موران من هذه الويلات، وبدأ أبناؤها ينظمون القصيد ويغنونه، وتكررت سباقات الخيل، وخرجت

الصبايا إلى العيون دون خوف، وأصبح الناس يشبعون، فعندئذٍ لا بد أن يتكفل أمراؤها المائة بتحويلها إلى جحيم. إنهم يصابون بنوع خاص من الجنون، وهذا الجنون، والذي يتكرر كل بضع سنين، يأتي فجأة، وينتهي فجأة أيضاً، لكن خلال الفترة القصيرة التي يكون، يخلّف من الضحايا والأحقاد والثارات ما يجعل الحياة خوفاً مستمراً وثارات لا تنتهي.

مرخان بن هديب الذي كان أميراً لموران وما جاورها، ولمسيرة يومين في كل اتجاه، هزم في غزوة من غزوات الجراد. طمع به جيرانه الأمراء، استغلوا ضعفه وعيون الماء التي كانت في إمارته، خلال سنة وصول الجراد الطيّار، فبعثوا حلالهم للماء، ثم جاء جندهم بعد الحلال، ولأنه لا يمكن لأميرين أن يجتمعا على عين واحدة للماء، فقد اضطر مرخان بن هديب، مرغماً وصاغراً، لأن يجلو، بعد أن هزم.

قالت نجمة المثقال، عرافة الحدرة وما جاورها، حين بلغها خبر هرب مرخان:

ـ العين ما تحمل اثنين خاصة بمثل هذي السنين...

وبعد قليل وبسخرية:

ـ أما لو السيل جاز ومشى فكان فيها ما ينقال. وظني أن مرخان ما له ردة، راح وما يرجع.

وحين بعث مرخان من منفاه إلى نجمة يسألها أخبار الأيام الآتية. أجابت:

ـ السيل إذا به حيل يمشي ويسقي، وإذا فاض وزاد عن حده اما يرغي ويطمي أو يدوّر الحدور.

وحين طلب منها أن توضح أكثر قالت:

ـ السيل إذا وشّل يغور، ولكنه لا بد في يوم من الأيام يفور.

ولأقربائها قالت نجمة المثقال لما سألوها عن احتمال عودة مرخان:

ـ هذا راح وراحت عليه، لكن يجوز الله يبعث واحد من عقبه يسوي اللي هو ما قدر عليه، فخل الثريا تطلع... ونشوف.

أما كيف نجا مرخان بن الهذيب، وكيف استطاع الهرب، فأقوى الروايات تؤكد أن مفلح بن مياح هو الذي حماه، ويسّر له الخروج، إذ حينما جاءه رسول من بني سحيم يطلب منه أن يكون معهم ضد مرخان، قال كلمة انتقلت فيما بعد، ويتذكرها الكثيرون. قال ابن مياح:

ـ اللي يشرب من بير ما يرمي بها حجر، وأنا ومرخان، والشهادة لله، كنا جميع واختلفنا، لكن لا أرفع عليه سيف، ولا أرضى يلحق به حيف، فاتركوه على باب الله، أما إذا صار غير شي فأنا وأنتم قوم إلى قيام الساعة.

وبنو سحيم، في تلك الفترة، كانوا بحاجة ماسة إلى سكوت ابن مياح، أكثر مما كانوا يأملون كسبه، لذلك غضوا النظر ومرخان يقطع الصحراء، تركوه. وهكذا نجا.

ولأن الأمراء المهزومين يظلون أسرى الماضي، ويصبح مستقبلهم وراءهم، كما قال حكيم قديم، فإن مرخان بن هديب، بعد أن شتم وهدد، وبعد أن أقسم الإيمان الغليظة، بالانتقام من بني سحيم، لم يحاول أن يفعل شيئاً، كما أنه لم يسمح لأحد بالمحاولة، خاصة من رجاله وأقربائه، وهكذا غرق في خيبته أولاً، ثم في الصلاة بعد ذلك!

كان يصلي مئات الركع كل يوم، وكان بين تسليم وصلاة جديدة، يدير وجهه نحو موران ويبكي. كان يرفع إلى السماء وجهاً متضرعاً مبللاً بالدموع، طالباً من الله أن ينزل ببني سحيم العذاب، أن يفني جمعهم، ويهلك ضرعهم ويقطع نسلهم. ولأن خيبته كانت ثقيلة، وصلاته بطيئة الوصول إلى المكان الذي يريد، فقد هدّه اليأس وقيل إنه أصيب بالخبل!

خريبط كان الابن الثاني لمرخان. كان يصلي وراء أبيه، لكن موران، والعودة إلى موران، تشغله أكثر من الصلاة. وهذا الحنين ولدته أحاديث الليل، والأغاني الآتية من هناك، إضافة إلى أحلام الشباب، وتلك الخصوبة التي تتولد من لقاء البحر والصحراء. أما في النهار فإن مجلس أمير الفراهيد. وما يجري في هذا المجلس، خلال تلك الفترة الحافلة بالدوي وإعادة النظر، جعله يحلم أكثر، خاصة وأن النصائح الوقورة الميتة التي تتردد في مجلس أبيه مساء كل خميس، وتشلّه، كان يقابلها تحريض

لا يهدأ ولا يتوقف ـ وكل يوم، في مجلس أمير الفراهيد، ثامر الفرهود ـ لأن يتحرك.

قال خريبط، ذات يوم، لعمه دحيم:

ـ رأس مزهر بن سحيم ما ينراد له فيالق وبيارق، ينراد له ظلمة حرامية وطلقة بندقية، وبعدها إذا أمسى جمر يصبح رماد، ونرجع ولا كأنه كان.

هز العم دحيم رأسه موافقاً، وخرج صوته هامساً:

ـ اللي تقوله، يا ابن أخي، ما عليه خلاف، لكن هذه الطلقة ما تصحّ كل يوم، تصير بالعمر نوبة، وما لها أخت، فإذا ما صِبْت بها انصبت، وراحت عليك.

والتفت العم بطرف وجهه نحو المكان الذي يصلي فيه مرخان، فلما تأكد أنه غارق في صلاته، قال:

ـ والأخْير، يا بان أخي، أن نتحضر، وحين ننوي ما نعلّم أحد بطارينا، وإذا تأكدنا ندس بليلة ما بها ضو قمر، وهناك اللّي يموت منا يلقى قبر بديرتنا، وإذا ظفرنا. . .

ولم يستطع دحيم أن يتصور النصر، اعتكر وجهه قليلاً، قال بحسرة:

ـ بس بعد بينا وبين ذاك مشوار، أيام وسنين!

ما أن مرت شهور، حتى لم يعد خريبط يطيق الانتظار. ظل أبوه وأخوه الكبير يصليان، وفي مساء الخميس يشتمان مزهر، ويتذكران. أما هو وأخوه الأصغر، عايد، وعمه دحيم، ونتيجة الأحلام، وكلمات قالها ثامر الفرهود: «الوقت كالسيف أن لم تقطعه يقطعك»، إضافة إلى ذلك الدوي الذي أخذ يضرب الشطآن، وتمتد أصداؤه إلى الأمراء المائة المتنازعين، فقد انزلق، وعدد من الرجال، في ليلة ظلماء، ووجهته موران، عبر الصحراء، فوصل بعد شهر. وفي مثل ظلام الليلة التي سرى فيها رمى ورجاله الحبال وتسلقوا أسوار قصر مزهر بن سحيم، واختبأوا إلى الفجر. وحين كان مزهر، مع أضواء النهار الأولى، يتفقد خيله، وقبل أن يصلي صلاة الصبح، خرج الرجال المختبئون وقتلوا مزهر، وبمقتله هزم بنو سحيم، وعاد آل هديب من جديد.

هكذا تقول الروايات الرسمية التي دوّنها، فيما بعد، مؤرخو خريبط، رغم أن معظم الشهود قد غادروا هذه الحياة إلى الحياة الأخرى، ورغم أنه لم يبق من معالم تلك المرحلة شيء يدّل عليها.

وتقول رواية لم يسجلها المؤرخون، لكن تناقلها الناس في وقتها، أن امرأة سهّلت لخريبط ورجاله الدخول والاختباء! قيل نتيجة عشق أو نتيجة مال، أو ربما بسببهما معاً. وقيل إن ثامر الفرهود، قبل وصول خريبط بشهور، اشترى عدداً من رجال مزهر، وكان هؤلاء وسيلة خريبط في الدخول والاختباء، ثم في النتائج التي حصلت بعد ذلك!

بمقتل مزهر بن سحيم سقطت «دولته» لأن الدول، في تلك الفترة، مرتبطة بأمرائها، فما دام الأمراء أحياء وأقوياء، فإن «الدول» موجودة ومستمرة، وقد تمتد وتتسع، تبعاً لقوة الأمراء وتحالفاتهم. أما إذا هزم الأمراء، أو قتلوا، فالدول تندثر، ولو إلى حين، إذ يحاول أبناء الأمراء المهزومين، مرة أخرى، «استعادة» مُلك الآباء والأجداد، لتبدأ دورة لا تنتهي من الكر والفر، وأخيراً من الثأر.

خريبط وهو يعود هذه المرة، كان العالم يجتاز هذه الفترة من الزعازع والتقلبات الكبرى، وأن يكون في هذا الجانب، أو في ذاك، معناه الربح الكامل أو الخسارة الكلية. أن يكون مع الذين سيربحون، لا بد أن يحصل على شيء ما. وأن يكون في الجانب الآخر، لا بد أن يخسر كل شيء، وبالتالي ينضم إلى قافلة المغادرين إلى النسيان والصمت فالموت، إذا لم يكن قد قتل منذ البداية، كما حصل للمئات، للآلاف، من الذين كانوا يبحثون عن ملك الآباء والأجداد!

هل هو الذكاء؟ الحظ؟ القدر؟

إن أياً من هذه الكلمات لا تعني شيئاً، إذ تختلف بمعناها، بدلالاتها، بين أن تكون كلمات المنتصرين أو كلمات المهزومين. وما دام خريبط قد انتصر، وفي تلك الفترة بالذات، فإن موران، البلدة الصغيرة المنسية، في هذه الصحراء الشاسعة، امتدت واتسعت، إلى درجة لم تعد تُعرف حدودها!

قالت نجمة المثقال، عرافة الحدرة وما جاورها، حين جاءها رسول من بني سحيم يسألها كيف ترى الأيام الآتية:

ـ الدنيا دالوب، يوم فوق والثاني تحت!

وحين ألّح عليها يريد أن يعرف أكثر، ردت:

ـ لو دامت لغيرهم ما وصلت لهم.

وحين أصّر على أن يعرف أكثر، تلفتت وردت بحدة:

ـ هالحين ما عادت الثريا تكفي، يلزم ندوّر نجم ثاني وننشده، ونشوف، فترجعون، بالسلامة، ما هو بهذي السنة، ولا اللي بعدها، ترجعون لما يتلاقى العقرب بسهيل ومعهم بنات نعش!

كان من السهل أن يبقى رأس مزهر بن سحيم بين كتفيه فترة أطول، وكان من الممكن أن يبدو رأساً جليلاً حين يشتعل بالمجد والشيب، لو أنه لم يلعب تلك اللعبة الخطرة: التحرش بأصدقاء بريطانيا، والذهاب إلى أعدائها، طلباً للمساعدة والعون. إذ ما كاد مزهر يبعث بجماعات من رجاله لمطاردة مرخان بن الهديب، حتى اصطدم بثامر الفرهود، فوقعت بين الرجلين. بدأت بالقطيعة بينهما حين رفض ثامر تسليم مرخان، ووصلت إلى التهديدات فالتحدي، أما حين طلب مزهر معونة الأتراك ودعمهم في مواجهة الفراهيد والإنكليز، فقد حكم على نفسه أن يسير في طريق ليس لها إلا أحد خيارين: اما النصر أو الموت.

لماذا فعل مزهر ذلك وارتكب تلك الغلطة القاتلة؟ وهل الذكاء ما دفع خريبط لأن يختار الآخرين؟

الكلمات العاهرة ذاتها تقفز كالجنادب. فالذكاء والشجاعة، قراءة الرياح والنجوم، استشارة المسنين من الآباء والأجداد والجدات، وحتى قراءة التاريخ ومعرفة أيام العرب، إن أياً من هذه الكلمات لا تفسر اختيارات الرجلين، حتى لو أضيف إليها المكان الذي «اختاره» مرخان، وبالتالي فرض على خريبط أن يكون فيه، وليس في أي مكان آخر.

الدول الكبيرة التي كانت، في أوقات سابقة، تتسامح، وتتظاهر أنها لا تعرف ولا ترى، حين يتنازع الصغار على المياه والمراعي، وكانت تتركهم يقتل بعضهم بعضاً، وتحتمل أيذ ا ضجيجهم، وأحياناً طيشهم، لم تعد هذه الدول قادرة على الاحتمال والتسامح في هذه الفترة.

فما كاد مزهر يذهب إلى أعداء بريطانيا، وفي ذلك الوقت بالذات،

حتى اعتبر عدواً، ولا بد أن ينتهي. أما حين قتله خريبط، فقد أعطى الدليل أنه يمكن أن يكون الصديق الذي يعتمد عليه، خاصة وأن ثامر الفرهود لم ينسه لحظة واحدة، إذ ظل يبعث إليه بهداياه، وبعث أيضاً عدداً من رجاله، ومعهم بعض الأصدقاء، لكي يساعدوا خريبط ويكونوا قريبين منه.

ولأن الكبار، في هذه المرحلة، ليس لديهم الوقت لأن يتعاملوا مع هذا العدد الهائل من الأمراء الصغار والشيوخ، ولكي يمنعوا انتقال هؤلاء الأمراء من ضفة إلى أخرى، كما كانوا يفعلون في السابق، فقد قامت بريطانيا، ربما نتيجة القرعة، أو تنفيذاً لتوصية من أحد رجالها الحالمين والمحبين للصحراء وضوء القمر وصنع الملوك، باختيار خريبط. لزّمته الأمراء الصغار وحماية طرق القوافل، وطلبت منه مراقبة الجيران والأتراك وشواطئ البحر، من ناحية الشرق.

وخريبط الذي لم يكن يتصور أو يطمح أكثر من العودة إلى موران، وأن يكون أميراً على هذه البلدة وما حولها من الواحات والعيون، فإذا وصلت حدودها لمسيرة يومين من كل ناحية يكون قد استعاد ملك الآباء والأجداد، فينام هادئ البال قرير العين، لكن ما أن تم اختياره عميداً للأمراء الصغار، وممثلاً عنهم، حتى تحرك فيه شيء مجنون: لا بد من كل الصحراء، لأنها وحدها التي تحمي من الأعداء والزمن وغدر الأيام.

وهكذا بدأت موران تمتد وتتسع، ولأن لخريبط قامة مديدة، وجسداً خشناً قوياً، وكان فتياً أيضاً، فقد رأى ما لا يراه الذين حوله، وسمع ما لم يسمعه غيره، ووصلت إليه أموال لم تصل لأحد، ومع الأموال الأسلحة والمستشارون. ولأنه حافظ على ملابسه الخشنة، وظل مع الجند، وكان لا يتردد، في أحيان كثيرة، أن يعطي بسخاء، فقد أصبح بنظر الكثيرين مختلفاً عن غيره من الأمراء. أما حين تذكر صلوات أبيه وأدعيته، كيف كان الناس يهزون رؤوسهم امتثالاً وخشية وخشوعاً، فقد قال لعمه ذات يوم:

- ما تقدر على البدوان، أولاد الحرام، إلا بواحد من ثلاثة: الذهب أو السيف، أو جنة الخلد التي تجري من تحتها الأنهار.

والعم دحيم الذي هز رأسه اقتناعاً، كان شديد الغبطة أن ابن أخيه كبر خلال هذه الفترة القصيرة، قال له بحزم:

- اللي تقوله يا ابن أخي صحيح وما عليه خلاف، وهذا ينطبق ما هو بس على البدوان، وعلى أهل الحضر...

وأضاف دحيم بعد قليل بنبرة مختلفة:

- وهذي موران غدارة تأكل زادك وتنبش حدرك، فيلزم الواحد يتوقى ويحرص، وما ينام إلا نومة الذيب.

لم تمضِ سنوات حتى أصبحت موران تدين بالطاعة والولاء لخريبط، تدفع له الزكاة وتقدم الجنود، وتصلي وراء الأئمة الذين بعث بهم إلى كل مكان، وأصبحت موران أيضاً «دولة كبرى» في هذا الخضم الصحراوي الذي لم يعرف من قبل كيف يصل إلى صيغة يمكن أن يرضي نفسه أو يرضي أصدقاءه.

نجمة المثقال التي تصلها الأخبار إلى الحدرة مشوشة متناقضة، وبعد فترة ليست قصيرة، لما عرفت أن خريبط بن مرخان استولى على القصر وقتل مزهر بن سحيم، فوجئت، وقالت باستغراب:

- اللي يمشي بالليل يدبي ما يرمح، وهذّة ابن مرخان هذّة ملحوق، فناظروا اللي وراه: هم أولاد مزهر أم أولاد العماليق وأولاد الفراهيد؟

وأضافت تخاطب نفسها:

- صحيح أن الملدوغ من الحبل يخاف، لكن سوايته ما يسويها إلا ملحوق أو مجنون، أو واحد قلبه من الهم خالي.

تطلعت إلى السماء ملياً وقالت بصوت صلب:

- النجوم في السما رجوم، العابرة تشير ما تقول، والسايرة لها أول وبها ذيول، والثريا تدور بين العرش وبنات نعش، فإذا وصل مرخان وحكم أقص يدي وأعطيها للكلاب!

ليس المهم ما قالته نجمة المثقال، لأن الناس لا يتذكرون إلا ما يريدون، ولا يسمعون إلا ما يحبون سماعه، وهكذا ملأ خريبط حياة الناس، أيامهم ولياليهم، بالضجيج واستعدادات الحرب وانتظار الجنة!

وإذا كان ثامر الفرهود البداية، فإن خريبط، وهو يتقدم في العمر، وفي غزو المناطق المحيطة به، والتي تتسع سنة بعد أخرى، تجاوز الفراهيد كلهم، خاصة حين جاء بتلر، القائد العسكري الإنكليزي للمنطقة كلها، في زيارة إلى موران. قال له خريبط:

ـ حنا والفراهيد أولاد عم. أخذوا منا وأخذنا منهم، وفضلهم أبد ما ننساه، لكن تعرف، الله يسلمك، هذول البدوان ـ روسهم أيبس من الصفاة، وما يرضون إلا واحد منهم، فنشوف أن تبعثوا لنا خوياً لكم يجلس هنا ونتفاهم وياه.

ولم تتأخر بريطانيا في إرسال مجموعة من المستشارين والرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم، ليس فقط في رماية المدفعية والرشاشات، وإنما أيضاً في أمور أخرى كثيرة، ولم تنس أن ترسل معهم الأموال والهدايا.

وبدا واضحاً، من خلال الحركة والضجة، ومن وصول الشيوخ إلى موران أن شيئاً ما يُعَد، ولا بد أن تظهر نتائجه في وقت غير بعيد.

وخريبط الذي بدأ أميراً لموران، ولا يختلف عن غيره من الأمراء، ما لبث أن تغير نتيجة اتساع الإمارة وتزايد قوة الأمير، أكثر من ذلك لم يتردد في أن يعلن نفسه سلطاناً لموران، كما أقترح بتلر. وبهذه الطريقة لم يعد يختلف عن الأمراء الآخرين فقط، وإنما يختلف عن السلاطين أيضاً، فهو يريد أن يصبح قبيلة وحده، «وليس قردين وحارس» كما كتب أحد المؤرخين عن أبيه مرخان، واصفاً هروبه مع عائلته الصغيرة ولجوءه إلى ثامر الفرهود.

يذكر رجال خريبط المقربون أنه تزوج في اليوم التالي لمقتل مزهر بن سحيم، وكان هذا زواجه الثاني، بعد الزوجة التي تركها عند أبيه، أما بعد

ذلك، من أجل أن يعزز علاقاته بالقبائل، بالمناطق، ومن أجل أن تكون له قبيلة خاصة به، فقد تزوج خلال خمس سنين قدر سنوات عمره، كما تقول الشيخة زهوة بفخر، أما بعد أن أغتنى واستقر فلم يعرف أبداً عدد زوجاته أو عدد ذريته، خاصة من الإِناث!

وسنة بعد أخرى يزداد خريبط قوة ونفوذاً، ويزداد عدد أولاده وعدد زوجاته. كما أن البلدان الأخرى المحيطة به تثير شهيته، وتحرضه على أن يضمها، فإذا استطاع، خلال فترة طويلة، أن يؤجل تحريك قواته من أجل الوصول إليها وإخضاعها، فإنه لم يتوقف عن أمرين: الحديث عن ضرورة ضم هذه البلدان، لأنه وحده القادر على قيادتها؛ وإرسال مجموعات من المسلحين في غارات هنا وهناك، لقطع الطريق، لسلب القوافل، لاعتداءات على الحدود، لكن هذه المجموعات دائماً تابعة أو مرسلة من الطرف الآخر، وبالتالي تسبب له الضرر وتشكل خطراً عليه، ولا بد أن يفعل شيئاً لمنعها، لوضع حد لها!

وحين تبلغ الأمور حداً معيناً، حداً مناسباً، يتغاضى الذين كانوا يمنعونه من غزو إحدى هذه البلدان، فيغيب المستشارون، أو يسافرون، ويعود قسم منهم إلى الهوايات التي شغلتهم خلال فترة معينة، وجاءوا إلى موران من أجلها! يعود هؤلاء إلى التنقيب عن الآثار، أو دراسة طبقات الأرض، أو إلى القنص والتعرف على طبيعة الصحراء. ويبدأ خريبط حملة جديدة من حملاته، تكون نتيجتها توسيع السلطنة وجباية الزكاة، وإرسال أئمة جدد لكي يقيموا شعائر الدين القويم في البلدان التي أصبحت خاضعة له.

هكذا كانت معظم الحملات التي قام بها خريبط، ولأنه يريد أن ينشئ قبيلة جديدة، وسلطنة تختلف عن كل ما قام في هذه الصحراء، فكان يريد من أبنائه أن يكبروا بسرعة، وأن يساهموا في إقامة هذا الملك، لكي يكونوا مثله حريصين عليه، وقادرين على استعادته إذا غدر الدهر ودارت الأيام. ولذلك بذل جهداً خاصاً في تربيتهم، وتكليف مجموعة من الرجال

الذي يثق بهم ملازمتهم وإعدادهم للأيام الصعبة القادمة، وباعتبار أن منصور وخزعل وفنر هم الأكبر بين الأخوة، فقد وجه إليهم معظم الاهتمام، لكن منصور قتل في إحدى الحملات، وقد سبب مقتله حزناً لأبيه لا يمكن أن ينساه، ومع ذلك التفت إلى خزعل وإلى فنرلعل أحدهما أو كليهما يكون امتداده الحقيقي على هذه الأرض.

إحدى الهوايات التي كانت تروق للسلطان خريبط، ولم يتوقف عن ممارستها: أن «يقرأ» على رؤوس الأولاد. كان، في أحيان كثيرة، يقضي ساعات الصباح من كل يوم اثنين، اليوم الذي حدده لأبنائه، لكي يكونوا في حضرته، ليتأكد من أحوالهم، ويسألهم عن طلباتهم، ولكي يحل مشاكل أمهاتهم أيضاً! وبعد أن يصدر أوامره بمايجب أن يُفعل، وعرفان الهجرس يكتب هذه الأوامر، لتبلغ إلى من يلزم، لا بد أن يبدأ حديثاً من خلال سؤال أو تعليق، من أجل أن يلقي على الأولاد دروساً في التاريخ والحروب والأخلاق والحكمة. كانت الأحاديث تبدأ عامة، بعيدة، ثم لا تلبث أن تصبح خاصة تماماً: كيف فعل عندما بدأ بإقامة السلطنة، من كان معه ومن كان ضده، وماذا فعل كل واحد من هؤلاء. أي نوع من الخصوم واجه، وكيف تصرفوا وكيف تصرف ليتغلب عليهم!

كان يفيض في الحديث، يسترسل، ولا يتردد، بعض الأحيان، في أن يؤدي الدور كما لو أنه يقع مرة أخرى. والأولاد حسب الأعمار والمدارك، إذ يتابعون مدهوشين، معجبين، كان يستهويهم أن يتوقفوا عند العجائب والخوارق. وكان السلطان يستجيب، يعيد ذكر الأحداث مع تفاصيل إضافية، وينظر إلى الأثر الذي تخلفه كلماته في عيون الأطفال والحرس وبعض المرافقين. وكلما كان الإعجاب أكبر، والأثر أوضح يزداد رغبة في أن يروي المزيد.

كان يقول لطالع العريفان، أحد المشرفين على القصر، والمسؤول عن الأولاد بشكل خاص، أثناء غياب السلطان:

ـ الأولاد، يا طالع، مثل الخيل، ما تتروض إلا إذا صحت بآذانها،

وما تشرب إلا بالصفير. ومرة بعد مرة تصير تفهم وتجاوب، أما إذا تركتها، ما قريت عليها، تراها تتعبك أو تضيع منك!

وأبناء السلطان الذين يستعدون لهذا اليوم، إذ يلبسون أحسن ثيابهم، ويتعطرون، كان عليهم أن يحملوا من أمهاتهم عبارات معينة أقرب إلى التورية، هي بمثابة رسائل موجهة إلى جلالته. والسلطان الذي يعرف سلفاً معنى هذه الرسائل، وأغلبها تتضمن الشوق والرغبة في الوصال، لا يجيب إجابات واضحة، الأمر الذي يربك الصغار والأمهات معاً. فحين تستعاد الرسائل، كيف نقلت، ماذا أجيب عنها، تتغير تماماً، وكثيراً ما سبّبت مشاكل لحامليها ومرسليها، الأمر الذي يضطر الأمهات لتوجيه رسائل أدق وأكثر وضوحاً في الأسابيع اللاحقة! والأولاد بين تأكيد الأمهات الذي لا ينفك يتزايد بضرورة نقل الرسائل بدقة، ثم نقل الإجابات بدقة أكبر وبحرفيتها، وحرص السلطان على أن تفهم تلك الدروس، لا يعرفون كيف يتصرفون أو ماذا يقولون!

قال طالع لنائبه ناهي الفرحان في صباح اثنين من هذه الأثنينات:

ـ لولا أنه جمل ما حمل هالمحامل، يا ناهي!

ولما ظل ناهي صامتاً، أضاف:

ـ ما يشبعن ولا يرتحن، ولا يخلن أحد يرتاح!

ورغم أن ناهي يعرف عمن يتحدث، وعن أي شيء يجري الحديث، فقد تساءل ببلاهة:

ـ كلامك مثل صلاة البدو يا أبو جازي: ركوع وتسليم، وما يندري ويش تريد تقول!

وبعد ذلك وهو يضحك:

ـ وإذا ببطنك سالفة سولفها يا أبو جازي.

قال طالع العريفان بنزق:

ـ ابن الهجرس يخط وريقات يقول فيها: إلى من يلزم للتنفيذ. ودغيم السرهود بقلمه الأخضر يحولها بعد ما يكتب: نُظر. وحنا بين الهجرس

والسرهود، وبين وليدات طويل العمر وحريماته، ضعنا يا ناهي. وهالحين ينراد لنا علام الغيوب حتى يكشف لنا الدروب.

يرد ناهي بسخرية:

ـ يا أبو جازي: مقرود على مفرود، لكن إذا ما أحد سأل، وإذا ما أحد قال، تظل بأرضها.

ـ لكن الحريمات لا يتعبن ولا يسكتن يا ابن الحلال.

ـ خلهن يدوخن صاحب الأمر والنهي.

ـ وهو ما يعرف غيرنا: ها يا طالع؟ شنهو سويت بالقضية الفلانية والقضية الفلانية؟ وما نخلص إلا إذا سكتن أو إذا سافر.

ـ طول البال ما مثله يا أبو جازي.

ـ منين نجيب طول البال مع العجيان والحريمات؟

ـ الصبر زين ومعه كل شيء يهون.

وتتكرر القصص ذاتها، وطلبات الأمهات والصغار تزداد فترة بعد أخرى، تبعاً لزيادة عدد الأطفال الذين ينضمون للقاء يوم الاثنين. وعرفان الهجرس يدون قدر ما تسعفه يده البطيئة على الكتابة، بعد أن يبلل القلم بشفتيه، ثم يبيّض الطلبات بثلاث نسخ. يضع واحدة في ملف جلالته للحفظ، والثانية في ملفه للعلم، ويرفع الثالثة لدغيم السرهود، الذي يمهرها بالختم والتوقيع، مع عبارة لا تتغير: «نُظر، للتنفيذ» وتحال مرة أخرى إلى عرفان، الذي يحتفظ بها بين أوراقه، بحيث تتجمع النسخ الثلاث لديه مرة أخرى، ولا يحولها إلى طالع للتنفيذ إلا إذا كانت الطلبات ضرورية، أو جرى التأكيد عليها مرة بعد مرة!

ولأن لكل ساكن من سكان القصر طلبات تتناسب مع أهميته ودرجة قرابته من السلطان، ولأن الكثيرين متساوون من حيث الأهمية أو القرابة، أو هكذا يتظاهرون، أو يتظاهر الذين يتابعون طلباتهم، ويريدون تنفيذها على الفور، وقبل غيرها، فإن ما يتولد من الصخب والإلحاح يفوق طاقة المشرفين والمكلفين بالتنفيذ، مما يؤدي إلى التأخير والتغيير، وبعض

الأحيان إلى الخلاف. وما إن تصل الشكاوى إلى المراجع العليا، وقد تبلغ مسامع السلطان، حتى يتغير كل شيء: يوقف تنفيذ جميع الطلبات، وقد يُستبدل المنفذون بغيرهم، مع ما يترتب على ذلك من التحديات والضغائن.

وبقدر ما يكون أصحاب الطلبات الكثيرة والإلحاح المبالغ فيه مثيرين ومزعجين للمشرفين على القصر، بحيث يتساءلون كيف لا يشبع هؤلاء وكيف لا يتعبون، فإن الذين لا يطلبون ولا يحملون الرسائل، أو الذين تكون طلباتهم متباعدة ومتواضعة، يثيرون الاستغراب والتساؤل أيضاً!

فنر الوحيد، أو بالأحرى من القلائل جداً، ليس له مطالب ولا يحمل رسائل. كان يجلس مقابل أبيه يسمع ويتابع، وإذا نظر فإلى تلك الوجوه الصغيرة التي تنقل بتلعثم رسائل غالباً ما تكون أبياتاً من الشعر، أو أمثالاً، لا تعرف كيف تنقلها. أو تقدم قصاصات من الورق، مرت على أيدٍ كثيرة قبل أن تستقر في يد السلطان، وتتضمن في معظم الأحيان طلبات الأمهات وحاجاتهن. كان فنر يتابع هذه المشاهد باستغراب أول الأمر، ثم بدافع حب الاستطلاع، وحب المعرفة بعد ذلك!

قال طالع العريفان، ذات يوم، يحدث عمير خال فنر:

ـ . . . وتلقاه، يا مبارك، كله عيون وآذان. يسمع ويخزن، ولا تسمع منه لا حس ولا نفس، وما له، مثل غيره، طلبات وشرهات. وإذا سأله طويل العمر إن كان له طلب أو حاجة جفل، وقال: ما أريد إلا سلامتك يا طويل العمر.

وحين وجد عمير فرحاً، وقد استثاره الإطراء، تابع بمكر:

ـ وعين فضة ما علّمته الدين وحده، علمته، فوقه، الأخلاق والأدب!

وأضاف بعد قليل، وخرج صوته همساً:

ـ والمرجلة. . . بعد.

والسلطان الذي ظل مفتوناً بإظهار قوته، وإشعار الآخرين بضرورة وأهمية كل موقف اتخذه، وبالتالي رجاحة العقل الذي كان وراء ذلك

الموقف، كان يستعيد قصصاً ربما يعرفها الآخرون مثله أو أفضل منه، لكنه يريد أن يستخلص منها الدروس، ويريد لأولاده أن يستوعبوا جيداً ما يقول.

بعد شهور، ولما تأكد أن فنر أكثر الأولاد رغبة في سماع هذه القصص، وقدرة على استيعابها، قال ذات ليلة لعمه دحيم:

ـ . . . وتعرف، يا طول العمر، الدلال يفسد الأولاد، وكل حرمة من الحريم ما عندها سالفة إلا وليدها، ترطّل به، تدلله، فإذا الأولاد ما تعبوا، إذا ما عرفوا الحر والبرد، وإذا ما خاطروا، تراهم أبد ما يصيرون رجال يعتمد عليهم.

ابتسم دحيم وعلق:

ـ ظني أن اللي شفناه ما أحد يشوفه يا أبو منصور، والتعب اللي تعبناه ما راح يمر مثله، لكن أيامنا اختلفت عن أيامهم، وزماننا غير زمانهم.

ـ لكن يلزم ندربهم ونعلمهم، يا عم؛ ويلزم نقرا على روسهم.

ـ بس ما نخوطر بهم يا أبو منصور.

ـ الشدايد راحت، يا عم، وهالحين كلها سوالف ودق قهوة وطراد وقنص. وإذا حزّت ولزّت تمشيط لحى وهزة عصا، وإذا سلم العود الحال تعود.

ـ الحق اللي تقوله، يا أبو منصور.

ـ ما هو بس كذا، يا عم. يلزم تأديب الولد حتى لو زعلت أمه، لأن الولد بدون أدب، بدون حرب وضرب يضيع منك ويضيع عليك.

ـ الحق اللي تقوله، يا أبو منصور، بس مثل ما يقول الشوام: مرة على الحافر ومرة على النافر، لأن هذول أولاد، بعد ما طلع لهم ريش.

ـ كبروا يا عم، صاروا رجال، وإذا كبر ولدك خاوه.

وصمت الرجلان طويلاً. تذكرا أشياء كثيرة، تذكرا لما كانا صغيرين، في أية ظروف عاشا، وأية صعوبات واجها، وكيف كانت الأيام السابقة وكيف هي الآن. قال دحيم، وخرج صوته عميقاً من صدره:

ـ اللي راح راح يا أبو منصور، والخوف، هالحين، من اللي يجي. واشوف نفسي خايف، وأخاف أموت وأنا خايف، لأن لا أحد من اللّي نشوفهم حولنا يعرف شلون تعبنا. . .

هز رأسه عدة مرات ثم أضاف:

ـ هالحين كل شي يجيهم على البارد المستريح.

قال خريبط، وهو يترنم بحزن:

ـ «لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها»

وبعد قليل:

ـ صحيح أنا حضرنا لكل شيء اللي يلزمه، بس يلزم نشد عليهم، وعساهم يقدرون على هذا الحمل.

ـ إن شاء الله ما نقابل وجه ربنا إلاّ ووفينا اللي علينا يا أبو منصور.

رد السلطان وهو يضحك:

ـ لا تخف يا عم، وحنا بعدنا شباب وحيلنا قوي.

ترافق هذا الكلام مع إشاعات متكتمة سرت في قصر الروض، ولأنها تتعلق بالسلطان، فقد ظلت تنقل بحذر، وتروى وراء أبواب مغلقة. قيل إن فضة غضبت وتركت القصر. وقيل إن السلطان غضب عليها وطردها. أما المحاولات التي جرت للشفاعة لها واسترضائه عليها فقد فشلت، ومما أكد ذلك أن إقامتها عند أهلها طالت، كما أن السلطان يبدو هذه الأيام ضيق الصدرد، نزقاً، خلافاً لفترات سابقة.

أما أسباب غضب فضة، وهجرها للقصر، أو طردها منه، فكل إنسان يراها بشكل مختلف عن الآخرين. اثنتان من زوجات السلطان أكدتا أن الشيخة، أمي زهوة، أغلظت القول لفضة، وقالت إحدى الزوجتين إنها ضربتها، وطلبت منها مغادرة القصر. وقالت كبرى بنات السلطان إن أباها هو الذي طلب منها أن لا تريه وجهها بعد اليوم. أما وطفة التي استعادت اعتبارها بعد أن جاءها ولد ذِكر، فإنها حين تُسأل عن السبب تبتسم ابتسامة كبيرة، ولا تجيب. لكن طريقتها في التصرف توحي أنها أصبحت المفضلة

لدى السلطان، وأن فضة لم تعد شيئاً بالنسبة له، وهذا ما حملها على الغضب، ثم مغادرة القصر!

موزة التي رافقت سيدتها فضة ترددت عدة مرات على القصر، ونامت في إحدى الليالي، ولم يُستطع فهم الدوافع لمجيئها أو لنومها، كما لم يستطع أحد أن ينتزع منها كلمة واحدة. الذين يكرهون فضة قالوا إن موزة جاءت لتحمل ذهب سيدتها. وإن هجر السلطان لها أصبح مؤكداً. أما الذين يتعاطفون مع السيدة والوصيفة فقد أكدوا أن عودة موزة لها علاقة بترتيب القصر، خاصة غرفة نوم فضة، لأنها ستعود خلال أيام. وقال غير هؤلاء أن السلطان ذاته طلب من موزة البقاء، وقد اختلى بها وقتاً غير قصير، وحمّلها رسالة وهدايا إلى فضة، وكلفها أن تسترضيها، كي تعود!

قالت إحدى صديقات موزة أن موزة كانت طوال الشهرين الأخيرين في حالة حزن شديد. كانت تبكي باستمرار، ولم تعد تطيق الجلوس مع أحد، كما عافت نفسها الأكل، حتى أن من يراها لا يصدق أنها هي ذاتها، إذ فقدت لونها وجحظت عيناها، وتبدو أكبر من عمرها. وتضيف هذه الصديقة أنها حين حاصرت موزة، طالبة منها أن تبوح لها عما في صدرها، تلقت إجابة من كلمتين «ستي وسيدي»، وكانت تهز رأسها بلوعة ولا تضيف شيئاً آخر! وهذا ما يفسر مغادرة فضة لقصر الروض وغيابها الطويل، وأيضاً الوضع النفسي الذي ميز تصرفات السلطان وعلاقاته.

لولوة، خادمة وطفة، أسرت لبعض من تثق بهم، أن قابلة القصر، وريدة، اعترفت لسيدتها، في اليوم الثالث لولادة الأمير الجديد، مفرح، أن فضة طلبت منها بإلحاح، وعرضت عليها مبلغاً كبيراً من المال، إن هي قامت بخنق الطفل بعد معرفتها أنه ذكر، ولكن القابلة رفضت القيام بهذا العمل، فهددتها بالطرد من القصر ومعاقبتها، وقالت لولوة إن سيدتها أبلغت السلطان، وحين شك بالأمر استدعيت القابلة واعترفت له. ولا بد أن يكون هذا هو السبب فيما جرى من تطورات لاحقة!

تهاني، وصيفة الشيخة، أكدت أن الرهان الذي تم بين السلطان وفضة حول الحمل الثالث هو السبب الحقيقي وراء كل ما حصل. فالسلطان

الذي نسي الرهان، أو تجاوزه، بعد ولادة الولد الثالث، بفترة قصيرة، ولم يعد إلى ذكره، ولا يحب أن يذكره به أحد، عكس فضة لم تنس الرهان يوماً واحداً، بل وقيل إنها أبلغت أهلها بالأمر، فأشاع الأهل موافقة السلطان، وأنه سيعلن ذلك في وقت قريب، الأمر الذي ولد هذا الغضب، ثم ما تلاه. وزيادة في تأكيد هذه القصة أن السلطان تزوج خلال فترة قصيرة من مغادرة فضة لقصر الروض، واصطحب الزوجة الجديدة في رحلة قنص، خلافاً لمرات سابقة، حيث كان يصطحب فضة.

تقول تهاني ذلك، وهي تبتسم، وتنظر في الوجوه، لتشعر كل من يسمعها أن أمي زهوة وراء ما جرى، وإنها وحدها التي تقرر كل شيء في القصر.

طالع العريفان، وعادته أنه لا يحب القيل والقال، ولا يتكلم إلا مضطراً، وإلى أقرب الناس، قال لناهي الفرحان، وقد بلغته الأخبار والشائعات:

ـ أهل فضة، يا ناهي، ما ينعطون وجه، وسالفتهم مثل سالفة اللي تردفه وراك، ما أن يركب حتى يمد يده بالخرج. فهذول، بعدهم ما سمعوا كلمة إلا وراحوا يقسّمون: هذا لنا وهذا لنا، وعيون طويل العمر تشوف، وتصله الأخبار. فإذا طويل العمر ما ضرب الخشم ما تدمع العين، والصواب إنه سيّر بنتهم عليهم، وقال لهم: افطنوا زين والزموا حدودكم، يا جماعة الخير!

ـ أخاف تكون سالفة مثل سوالف كثيرة قبلها، يا أبو جازي، وباكر أو اللي عقبه، إذا جتّه بالصبّي الرابع ترجع مثل ما كانت، وأهلها يركبون نوبة ثانية.

ـ ما علينا يا ناهي. ومن قبل قالوا: اللي يتجوز أمنا عمنا!

ـ خلنا، يا أبو جازي نناظر ونشوف توالي السالفة.

ولم تمض بضعة أسابيع حتى حصل أمر لم يخطر ببال، فقد تزوج السلطان بفتاة أخرى من آل المدلجي أيضاً.

وخلال الأيام التي استغرقها التحضير للزواج امتلأ القصر بالهمس والإشاعات، وهذه المرة بوضوح وبصوت مسموع: «اختارها طويل العمر من آل المدلجي حتى يثبت لفضة أن المدالجة معه ما هم معها، وإنه يقدر على كل شيء». وقال أحد خدم فضة، وكانت تحوم حوله الشكوك أنه ينقل لسيدته كل ما يدور في قصر الروض «عمتي هي اللي اختارتها، وباكر تشوف عيونكم». أما تهاني فقالت كلمات غير واضحة: «غير السلطان بقصر الروض ما أحد كبير» وقال غير هؤلاء أشياء أخرى.

وطفة ظلت تنفي أخبار الزواج الجديد، وأكدت خادمتها لولوة أن السلطان بعث يطلب عودة أولاده الصغار الذين اصطحبتهم فضة معها، وسوف يعودون بين يوم وآخر دون أمهم!

عودة موزة، المفاجئة وما رافقها من ضجة، غيّرت الكثير مما كان يقال: دخلت جناح سيدتها ورابطت فيه، وتظاهرت أنها لم تسمع الأسئلة التي وجهت إليها، لكن بدت في عينيها أشياء كثيرة واضحة، دون كلمات. ومما زاد في القلق والإشاعات أن السلطان استدعاها، ومكثت في جناحه ساعة كاملة، وأكدت اثنتان من الخدم أنهما شاهدتاها تضحك في حضرته، وأمر لها بالشاي أيضاً. وبعد ذلك بساعتين، أو ثلاث ساعات، وقبل الغروب بقليل، غادرت القصر ورافقتها ثلاث سيارات.

ناهي الفرحان جاء راكضاً لطالع بعد أن سمع الأخبار، ورأى بنفسه أشياء كثيرة، قال وهو لا يخفي قلقه:

- الله ستر، يا أبو جازي، حنا ما حطينا أرواحنا بهذي الطلايب، ترى كثيرين إذا خلصوا من طويل العمر، ما راح يخلصون من بنت المدلجي، لأنهم ما تركوا شيء بحقها إلا وقالوه، وأولاد الحلال كثر، وعلم الله أنهم وصلوا كل شيء.

- حنا ما علينا، ما قلنا ولا سمعنا!

وبعد قليل وكأنه شعر بميزة الحذر الذي لا يفارقه:

- الحق اللي تقوله يا ناهي، ومن قبل قالوا: إن تكلمت بالليل

فاخفت، وإن تكلمت بالنهار فالتفت، لكن البني آدم ما يتعلم إلا من كيسه.

وسارت الأمور بعد ذلك وفق شكل لم يتوقعه أحد: وصلت العنود بنت سالم المدلجي إلى قصر الروض، ترافقها نسوة كثيرات، معهن موزة، وأُفرد لها جناح خاص في المبنى الرئيسي، بجانب جناح فضة، وجرت احتفالات الزواج بشكل سريع. وبعد ثلاثة أيام عادت فضة إلى القصر، ورغم أنها بدت أكثر سمنة، إلا أنها لم تتغير. أكثر من ذلك لم يتغير موقعها في القصر. فنظر الكثيرون بعضهم إلى بعض... وتساءلوا!

حليمة التي أنجبت لخريبط موضي وفنر ومضت بسرعة، خلّفت في نفسية الطفلين آثاراً لا تزول. فالطفلان، من حيث الأم، يحسان أنهما من سلالة تتميز عن سلالات الأمهات الأخريات، ومن حيث الأب بعيدان منسيان، لا يكاد خريبط يتذكرهما إلا كما يتذكر صديقاً قديماً أو شيئاً مفقوداً. فإذا استدعاهما من عين فضة، لكي يقضيا أياماً في موران، لا يتردد، بعض الأحيان، في أن يسألهما عن الدريويش جدهم، كما يروق له أن يسميه، مع أن الشيخ عوض ملء الأسماع والأبصار، كما يبدو للطفلين، رغم الطيبة التي يتميز بها، والبساطة التي تجعله يصل إلى حدود التواضع أو الغياب، ورغم الزيارات التي لا تنقطع لعين فضة من أجل استشارته في أمور الدين.

لم يتكلم الشيخ عوض عن عراقة السلالة أو أهميتها، كما كان يجري الكلام في جلسات خريبط ومضافاته؛ ومع ذلك فإن النسوة في عين فضة، خاصة المسنات، والشبان في مرحلة الانتقال إلى سن الرجولة، كانوا لا يتوقفون عن الحديث عن سلالة الشيخ عوض وأهميتها، والدور الذي لعبته في مساعدة ومساندة خريبط وتثبيت حكمه. وكان هذا الحديث يصل حدود الصخب حين يبلغ أسماعهم أن خريبط يتزوج بامرأة جديدة، أو يعرفون أن زوجة من زوجاته أنجبت ولداً جديداً! كانوا يتكلمون وينظرون إلى فنر، ويتذكرون حليمة التي لم تنجب غيره وموضي. فإذا سمع الشيخ عوض الحديث، أو جاء من يقطع عليه أدعيته، وينقل إليه تفاصيل زيجات خريبط الجديدة، والأبناء الذين ولدوا له، كان يقول، وابتسامة حزينة تطوف على شفتيه: ﴿كل مَنْ عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال

والإكرام﴾. فإذا تابعوا الحديث أو ألحوا فيه، كان يقول بعد صمت طويل وكأنه يحدث نفسه:

ـ كان محمد يتيماً وكان وحيداً لكن الله مكّنه وأعطاه.

فإذا ألحوا أكثر من ذلك يرد:

ـ وجدّنا كان يتيماً ووحيداً وأنتم تعرفون ما حصل بعد ذلك.

ولأن الشيخ عوض كان يحب النمل والقطط والخراف الصغيرة ويحنو عليها، كان يمنع عنها الأرجل والحجارة. وعن الخراف سكاكين الشرهين، خاصة من الشبان. كما أحب الأطفال وأحبه الأطفال.

إذا تذكر فنر شخصاً في عين فضة فصورة الجد. وأول حزن أحس به حين حملته إحدى النساء وظلت تتشممه وتقبله وتردد: «وين عينك يا حليمة»، أما أول مرة شعر بالزهو فحين ألبسه الشبان في عين فضة ملابس الكبار والتفوا حوله ينظرون إليه بإعجاب ويتحدثون فيما بينهم، أكثر مما يتحدثون إليه: أنه يشبه الملوك، وقد طلبوا إليه أكثر من مرة أن يرفع رأسه وأن يشد ظهره ليبدو كبيراً وقوياً!

موضي التي سمعت أحاديث النساء، وأعجبت بألعاب الشبان أُخذت. لم يعد لها في هذه الحياة سوى فنر. تركت طفولتها بسرعة، أصبحت الأخت التي تكبر عمرها: تعتني به، تهيّئ له أكله وفراشه، ولا تتوقف عن رواية القصص التي سمعتها من الكبار والصغار عن فنر الأمير. وفنر الأمير يغرق في تلك الملابس الفضفاضة، ويتصرف تصرف الكبار، ويردد بعض الكلمات التي سمعها من جده.

في عين فضة يحس أنه أمير حقيقي، وأنه كبير: المدى وأشجار النخيل والعيون التي تتابع حركاته وتصرفاته.

في موران، وأثناء الزيارات التي يضطر إلى القيام بها تلبية لطلب والده، وضمن ذلك الحشد الهائل من الأمراء الصغار والخدم والحراس والزوار، يحس أنه أصغر من النمل الذي يدب في عين فضة، لأن للنمل هناك من يحميه، أما هنا فإنه يضيع في الزحام والصخب والركض المجنون

لتلبية طلبات السلطان الوحيد: خريبط. فإذا انتبه إليه أحد فلكي يسأله من يكون ولماذا يلبس هذه الملابس المضحكة، ولا يعرف هل يجيب عن الأسئلة أم على العيون المليئة بالأفكار والسخرية.

كان يضيق بموران، لا يحبها، ولا يعرف كيف يستطيع الناس أن يعيشوا فيها. فإذا نسيه أبوه، لا يتردد أن يطلب من نصار العودة إلى عين فضة. ويكون جده، قبله، قد أوصى نصار أن ينتهز أول فرصة، وبعد أن يستأذن السلطان، لكي يعود. وكذلك توصيه مزنة. أما موضي فإنها تقبّل يدي نصار وترجوه ألا يتأخر.

تقول خالته مزنة: «موضي من ساعة ما يترك فنر عين فضة تتسودن، يكون برأسها عقل ويطير. لا تأكل، لا تشرب، لا تنام... إلى أن يعود، فإذا طالت سفرته تسقم وتريد تموت، وبالليل والنهار تصرخ وتعيد: وين أخذوه؟ وشنهو اللي صار بيه. وحنا بالنا عند من ولاّ من. نقول لها: يا بنت الحلال: فنر عند أبوه، فنر ضيفهم وبعيونهم يشيلوه، لا تخافي، ولا تصيحي، وتصيح وما تستريح: مالي صبار إلى أن يعود، وتظل موضي مسودنة البيت وعين فضة إلى أن يعود».

إذا عاد، بعد أسابيع، وبعد ذلك الاضطراب والصخب، تستقبل عين فضة ضيفاً كبيراً وعزيزاً. فخاله عمير لا بد أن يجعل عودته مناسبة لاحتفالات تستمر أياماً، ولا بد أن ينتزع عدداً من رؤوس الغنم، رغم احتجاج الشيخ عوض، لكي تذبح، ويجب أن تتذكر عين فضة عودة فنر أكثر مما تتذكر سفره.

وبين عين فضة وموران تتوالى القصص والأخبار والأسئلة، ويتبعها الهمس والتعليقات والقصص الجديدة؛ ثم تعود الحياة بطيئة راضية، كما لو أنها في بداية الخليقة. ترتفع أدعية الشيخ عوض في ليالي الصيف، وتسمع أغاني الشبان في أطراف القرية، وتظل القصص ذاتها تروى مرة بعد أخرى، ويظل الناس يضحكون ويطربون، كما لو أنهم يسمعونها لأول مرة.

لما بلغ فنر الثانية عشرة، وفي إحدى زيارات أبيه لعين فضة، نظر إليه

نظرة مختلفة عن أية مرة سابقة. قال له وقال لجده الذي كان غارقاً في أدعيته، وقال لخاله عمير وللذين يقفون وللجالسين:

ـ من اليوم فنر مكانه بموران، يلزمه يكون قريب منا ويعاونّا، واللي يريد فنر مكانه معروف وأهلاً بكم بموران وألف مرحبا!!

ولأن السلطان بقي في عين فضة، وما جاورها، ثلاثة أيام، فإن الشيخ عوض لم ينم خلال هذه الأيام الثلاثة، يريد أن ينفرد بالسلطان، ويطلب منه بل يرجوه، أن يبقى فنر، لكن السلطان، خلال هذه الأيام، لم يكن وحيداً ولم يكن مستعداً لأن يختلي بالشيخ عوض، لقناعته أنه ليس لديه شيء يقوله، فاستعاض الشيخ عن الحديث بالدعاء.

جدته كانت أكثر فهماً، ربما لأنها أكثر حباً. بعد أن كلمّت نفسها بصوت عالٍ، وقالت ما لا يقال، تريد من الجميع أن يسمعوا، صرخت بالجد ومزنة وموضي وكل الذين حولها:

ـ هذا ابنهم يا جماعة الخير، وإذا ما أخذوه اليوم يأخذونه باكر أو اللي عقبه، كبّروا عقولكم، وإذا تريدون مصلحة فنر مكانه هناك!

خاله عمير كان عملياً، رغم الخيالات والأوهام التي تعبر رأسه في بعض الليالي. كان يريد لعين فضة أن تبقى وأن تكبر، وأن تصبح شيئاً. ويتذكر أن موران لم تكن تقاس بعين فضة، كانت صغيرة مهجورة لولا أن خريبط سكنها وجعلها عاصمة. ومع أن عمير ذبح عدداً كبيراً من الغنم من أجل أن تكبر عين فضة، ورغم الاحتفالات التي أقامها في استقبال فنر وغيره من شيوخ العائلة، ومع أن أباه لم يتوقف يوماً واحداً عن الدعاء، فقد ظلت عين فضة تصغر وتتضاءل، لأن الشبان الذين ملّوا الغناء، وتعبوا من الانتظار، لم يجدوا أمامهم سوى الرحيل باباً يدخلون منه إلى حياة أفضل.

لما رأى عمير السلطان يريد أن يجمع أبناءه، كما يفعل حين يجمع جيشه، قال في نفسه: «من موران يمكن أن نحارب» ولذلك كان مقتنعاً وموافقاً على سفر فنر. وانصرف تفكيره تماماً إلى ما يجب أن يكونه فنر هناك. كيف يعيش، أين يقيم، ومن هم الأشخاص الذين سيكونون حوله.

قال للسلطان في اليوم الثالث، وهو يستعد للسفر:

ـ . . . وحسب أوامركم، يا طويل العمر، يلزم أن تكون موضي مع الأمير.

رد السلطان وهو يلتفت:

ـ أي نعم. . . أي نعم.

ـ وحتى ما يتعب بهم أحد، يا طويل العمر، أصل معهم، وبمشورتكم نرتب الأمور.

وهكذا انتقل فنر وموضي إلى موران، ومعهم الخال عمير.

كانت الجدة صارمة، أقرب إلى القسوة، وهي تودعهم. قالت إنها ستأتي إلى موران لزيارتهم، وقالت إن موران مثل عين فضة. وقد أعطت لكل منهما ليرة رشادية، ولما أطبقت على يد موضي، وهي تعطيها الليرة وشوشتها: «ما أريد أوصيك يا موضي، أنت أخته وأنت أمه، وعليك الاعتماد». أما الجد الذي غاب ساعة الوداع، وقد بحثوا عنه طويلاً، فكان، أغلب الوقت، في الغرفة الصغيرة على السطح يدعو الله أن ينسّي خريبط أخذ الأولاد! أما حين سمع قهقهات خريبط، ولما رأى الجميع يخرجون من المضافة، وكان فنر في المقدمة، بملابسه الفضفاضة، وبدا له أن الله لن يستجيب بهذه السرعة، فقد غادر العليّة، وركض إلى الموكب الذي تحرك. قال عليوي الذي كان يرقب كل شيء بعناية، إن الدموع انحدرت على خدي الجد وهو يلوح لفنر وموضي.

الخالة مزنة كانت بقرب أمها، وقد تحركت كثيراً لتشغل نفسها، وإن ظلت صامتة، ومتأكدة أيضاً أنها ستلتحق بهم حالما يستقرون في موران، قالت بصوت عالٍ:

ـ إذا نصبتم خيامكم وعمّرتم دلالكم، وبعثتم وراي تري أجيكم إذا مو أول يوم، اليوم اللي بعده!

وتحرك الموكب مغادراً عين فضة إلى موران، وكانت سيارة فنر وموضي الثانية في موكب السلطان!

في قصر الروض، وضمن ذلك الحشد الهائل من الصغار والكبار، ووسط مهرجان من اللغات والألوان لا تجتمع في أي مكان آخر، ضاع فنر وموضي، ولولا بعض عجائز القصر، لما وجدا مكاناً للنوم أو لوضع الأشياء القليلة التي حملاها معهما من عين فضة.

كان القصر شيئاً عجيباً: عشرات الأجنحة والغرف التصق بعضها ببعض في آخر لحظة. على الجوانب غرف الحرس والخدم. في الوسط: البناء الرئيسي، وكان يشغله السلطان وثلاث من نسائه المقربات، وهذا البناء، وهو من طابقين، له شرفات تطل من جانب على الديوان الكبير، ومن جانبين آخرين على الأبنية الملحقة، وأغلبها مستحدثة، وقد أملت وجودها الحاجة والضرورة، أما الجانب الأخير، القبلي، فكان يطل على إسطبل الخيول.

لا أحد يعرف من يتحكم بالقصر أو كيف تدار شؤونه، إذ رغم وجود عدد كبير من المشرفين والمراقبين، فإن الفوضى والاضطراب والصخب أبرز ما يتميز به. القدامى من المقيمين لهم الأولوية في السكن والأثاث وحتى الطعام، وهذا لم يحصل نتيجة قرار أو اتفاق، وإنما فرض نفسه بحكم العادة والتكرار. ونفس الميزة تتاح للضيوف الطارئين في الأجنحة الشرقية، والتي يفصلها عن الداخل سور عالٍ. أما الذين جاءوا حديثاً للإقامة في القصر فإنهم يصطدمون بالصعوبات في كل خطوة من خطواتهم، إذ رغم أوامر السلطان، وغالباً ما تكون غير مباشرة، وعن طريق دغيم السرهود بالتحديد، وفي حالات قليلة عن طريق خدم السلطان أو حراسه، فإن القادم الجديد لا يعرف كيف يتصرف أو إلى من يتوجه،

فإذا توافر له المكان، والعادة ألا يحصل، وغالباً ما ينتزع من آخرين كانوا يشغلونه أو لا يشغلونه، وما يترافق مع ذلك من رفض أو امتناع، وفي حالات كثيرة إلى إغلاق الغرف ومغادرة القصر، أو إضاعة المفاتيح، فإن توفير الأثاث والحاجات الضرورية أمر في غاية الصعوبة. فالمستودعات رغم أنها تزدحم بالحاجات القديمة أو غير العملية، فأن وصول أية كمية من الأثاث الجديد معناه الاستغناء مباشرة، وخلال الأيام الأولى، عن الأثاث السابق واستبداله، وتجري هذه العمليات بأوامر متلاحقة من الأمراء والأميرات، ومن الخدم والحراس، بحيث يختلط القديم بالجديد، ولا يعرف من أخذ ومن أعاد. وبهذه الطريقة تتراكم الحاجات لكن يتعذر تماماً التأكد من وجودها أو عدم وجودها.

إذا أمكن تجاوز هذه المشكلة والتغلب على هذه الصعوبات، وهي في العادة تستغرق أياماً، وتخلف الكثير من المشاحنات والمراجعات وتدخل الكبار، تبدأ مسألة العلاقات بين المقيمين والوافدين: أي قادم، مهما كان كبير المنزلة أو السن، لا يزيد عن أن يكون طريدة أو هدفاً لعشرات الصيادين المنتظرين والمستعدين. فما عدا أعمام السلطان وأخوته، وقد انتقل بعضهم للإقامة فترات طويلة في قصر الروض، وأخبارهم سبقت وصولهم، فإن كل قادم جديد يتعرض إلى مجموعة من الاختبارات ثم الهجمات: تبدأ بأن ينظر الحرس بعضهم إلى بعض، أن يسألوا ويستفسروا عن عددٍ من الأمور أو الأشخاص، فإذا توافرت المعلومات بحيث يكوّن كل فريق صورة عن الفريق الآخر: مدى علاقته بالسلطان، مدى أهميته، وتقاس هذه الأمور بالخيول أو السيارات، بعدد المرافقين والحراس، بنوع الألبسة والأسلحة، ثم طريقة هؤلاء في التصرف. فإذا اكتملت هذه المرحلة، ولم تعد هناك حاجة إلى مزيد من المعلومات، لا بد أن تجري اختبارات من نوع أو آخر للتأكد من بعض النقاط، ومدى استعداد الطرف الآخر. وهذه الاختبارات يتخللها الكثير من المراوغة والمكر، وتتطرق إلى معرفة أدق التفاصيل المرتبطة بالقادم الجديد: لماذا جاء إلى هنا، وإلى متى سيبقى، وعشرات الأسئلة الأخرى، وكلها تطرح بعفوية، وكأنها جزء من

حديث عام يتسم بالبراءة الكاملة، لكن الطرفين يعرفان كيف يمكران وكيف يجيبان، بحيث يضلل أحدهما الآخر، أو يخلق لديه أوهاماً، تحمله من جديد على إعادة النظر والحساب.

هذه المعلومات والتقديرات لا بد أن تنقل على عجل إلى المراكز الخلفية، وهي على درجات. والعادة أن تنقل بطريق غير مباشر، كأن يتظاهر أحد الجالسين، وغالباً لا يشارك في الأسئلة والاختبارات، بضرورة مغادرة المكان، أو أن يأتي أحد الخدم، وبطريقة لا تفتقر إلى البراعة، يطلب مجيء فلان. عن طريق هؤلاء تقدّم معلومات أولية ويعطى تقدير لما قيل ولما جرى، يتحدد على ضوئها ما إذا كان الأمر يتطلب مستوى أعلى من الاستشارة، لمعرفة درجة القرابة أو الأهمية، وهل من الواجب مواصلة هذه الطريقة أم استبدالها. كل ذلك يترافق مع الأمازيح وتقديم الخدمات وإعطاء الرأي بالآخرين.

هدف الاختبارات والخدمات والمعارك أن يتحدد وضع القادم الجديد: موقعه ضمن المواقع الكثيرة المتنازعة في القصر. إذ لا بد أن يكون جزءاً من إحدى القوى المتصارعة، من معسكر، وأن يكون امتداداً لقوة من القوى الكثيرة الموجودة. صحيح أن الأمر لا يتم بتلك السرعة أو البساطة، لكن الساعات الأولى، الأيام الأولى، لوصول القادم الجديد، تحدّد معظم الاحتمالات، وتترك تأثيرها لفترة طويلة.

ومع أن الهدف الرئيسي تحديد موقع القادم، أو محاولة كسبه، فإن النتائج الجانبية التي تتحقق كثيرة ومتنوعة، وغالباً ما تثير الضحك. فالأخطاء التي وقعت، والأكاذيب، ثم تلك الخدع التي يُستدرج بها الكبار والصغار، تصبح موضع حديث وتندر، وتنقل من مكان إلى آخر، بأشكال مختلفة، وبعض الأحيان تصل إلى السلطان، مع ما يرافق ذلك من مبالغات وتحريض ووقيعة، وغالباً ما تؤدي إلى معارك تبدأ في مخادع النساء، إلى أن تعم القصر كله. وقد يتدخل السلطان، أو من ينيبه، من أجل إعادة النظام، وقد يستدعي الأمر تغيير المشرفين، أو نقل عدد من المقيمين أو الضيوف إلى أماكن بعيدة، وربما تقضي الحاجة بناء أجنحة جديدة في

القصر، كل ذلك لوضع حد للخصومات، أو لإيجاد حواجز ومسافات بين المتخاصمين.

لا يمكن لأحد، في قصر الروض، أن يكون محايداً أو غير مهتم؛ فالأحداث التي تقع كل يوم، والأحاديث التي تنتقل، تجعل كل واحد مشاركاً. حتى الزوار والمراجعين والذين يحملون المؤن، يصبحون، بشكل أو بآخر، جزءاً من موضوعات القصر أو همومه.

وإذا كانت اختبارات الرجال ومناوشاتهم تجري في الهواء الطلق، في ظلال الجدران أو تحت أشجار النخيل، ويتخللها الكثير من المرح ومظاهر الود، فإن معارك النساء تجري وراء الأبواب المغلقة، وبتكتم وسرية، كما تأخذ أشكالاً ضارية وشديدة المكر، لأن كل امرأة جديدة تدخل القصر قد تقلبه، وتغير نظامه، وقد تغير مواقع الناس فيه. ويتذكر الجميع ما رافق وصول فضة، الزوجة المفضلة لدى السلطان، إذ ما كادت تصل وتستقر في البناء الأوسط، حتى تغير كل شيء في القصر: فالسلطان الذي كان يقضي شهوراً كل عام، متنقلاً من مكان لآخر، محارباً وغازياً، أو في فض الخصومات بين القبائل التي تؤيده، ما لبث أن تخلى عن أسفاره، أو اختصرها إلى أقصى حد، مكلفاً بعض أبنائه، يساعدهم أعمامه وأعمامهم، لكي يقوموا بهذه المهمات نيابة عنه. أخذ يفعل ذلك، لكي يبقى إلى جانب فضة. لم يقل أحد ذلك صراحة في بداية الأمر، لكن ما إن بدئ بتوسيع البناء الأوسط، وإخلاء قسم من شاغليه، أو على التحديد إخلاء اثنتين من نساء السلطان، حتى تحول الهمس إلى حديث صريح، وأصبحت الوشوشات اتهامات ينقلها الخدم وتصل إلى مسامع الرجال، لكن وجود السلطان في القصر، ولأن الأمر مرتبط به شخصياً، لا يترك مجالاً للتمادي، إذ بالإضافة إلى الخوف الذي يتولد من وجوده، خاصة وأنه لجأ مرات عديدة إلى إنزال عقوبات بعدد من الخدم والعاملين في المخازن، وصلت في إحدى المرات إلى إعدام ثلاثة من هؤلاء، نتيجة أخطاء صغيرة، ووشايات نقلوها أو نقلت عن لسانه. لكن ليس دائماً الخوف وحده الذي يردع، فغالباً ما يرافقه مبادرات من السلطان على شكل

هدايا، أو ترضيات، بالإضافة إلى الزيادات، وهي تأخذ شكل الاعتذار، وفي حالات خاصة فإن نساءه الغاضبات يقبلن بنوع من التسوية، أو هكذا تشيع الزوجة الغاضبة عن طريق الخدم والقريبات، مع تأكيد متزايد على الهدايا الثمينة التي رافقت زيارة السلطان، وكثيراً ما تصبح المبالغات سبباً لعدم التصديق!

إذا لم يكن الأمر متعلقاً بالسلطان، أو بإحدى نسائه القريبات، وغالباً ما تتحدد درجة القرابة إما نتيجة القدم، أو الدم، أو تبعاً لعدد الأبناء الذين تنجبهم تلك الزوجة، وبعض الأحيان لأسباب لا يدركها أحد، وتظل سراً بين السلطان وتلك المرأة! إذا لم يكن الأمر بهذا الشكل، أو على هذه الصورة، فإن الحرب التي تقع، خاصة بين النساء القويات، لا يمكن السيطرة عليها، كما لا يعرف أحد كيف تتطور. تبدأ بالهمس، ينتقل من مخدع لآخر، ومن جناح لثانٍ، ثم تأخذ شكل حدة في العلاقات تتلوها المقاطعة، وأخيراً تصل إلى تبادل الاتهامات، وبعض الأحيان إلى التصفيات.

المرات التي قتل فيها عدد من الخدم في قصر الروض كثيرة، بل ويكاد الأمر يتكرر بين فترة وأخرى، لكن غالباً ما يقع، أو بالأحرى دائماً ما يقع، أثناء غياب السلطان. وأن يقتل الخدم فلأنهم الأداة المباشرة للحرب الدائرة، فهم الذين ينقلون الرسائل والإشاعات والاتهامات، وهم الذين يركضون في هذا الاتجاه أو ذاك للتحريض والاستنفار، بل يكاد يصل الأمر ببعضهم أن يصبح معنياً بالمعركة أكثر من ذوي العلاقة؛ وفي حالات أخرى يصبح الخدم أكثر معرفة مما ينبغي، ويعتبر ذلك سبباً كافياً للقتل!

وإذا كانت العادة أن يلجأ الرجال إلى السلاح، اما نتيجة سورة من سورات الغضب، أو نتيجة القصص الدقيقة المحرجة خاصة في «المنطقة الحرام» لتصفية واحد من الذين يحملون الرسائل، فإن عبيد الطرف الآخر أو حراسه لا يتأخرون في اللجوء إلى تصفيات مماثلة في الليل، إما بحجة الخطأ أو أثناء تنظيف الأسلحة!

هكذا يجري قتل الرجال، أما النساء فغالباً ما يكون قتلهن بواسطة

السم أو أثناء الولادة. وقد صدف ـ وإن لم يتكرر كثيراً ـ عدة مرات بأن ألقت بعض النسوة أنفسهن في آبار القصر، أو متن في الحمام الشمالي مختنقات أواخر الليل، وهذا الحمام غير بعيد عن المبنى الرئيسي! كما أن ثلاثاً من نساء السلطان متن حسرة، كما قالت وطفة زوجة السلطان الرابعة! وأكثر منهن وجدن مشنوقات في غرفهن، وأكد الخدم أن الغرف كانت مقفلة من الداخل!

صحيح أن عمليات القتل قليلة إذا قيست بما دونها، كالإِشاعات أو الاعتداء بالضرب، أو ربما الطرد من القصر، أو بعمليات الملاحقة وإطلاق الرصاص والهرب والاختفاء. أما النكت التي تنتشر وتنتقل، والنوادر، ثم الإشاعات، وما يتخللها من حركات تمثل الطرف الآخر، فإنها كانت تسلية النساء بشكل ظاهر، وكانت حلقات بعض الرجال لا ترفضها. أما الأشعار التي تحرّف أو تنظم في مديح فلان من الناس أو في هجائه، فقد كانت على كل شفة ولسان، وكان الخدم يتفننون في إلقائها، وكأنهم يتشفون أو ينتقمون! ويؤكد عدد من الحرس الخاص، والذين قضوا فترة في القصر، أن هذه الأشعار كانت تصل إلى مسامع السلطان، فيبتسم مرة ويغضب أخرى، وكثيراً ما استعاد واستفسر واستقصى، وغالباً ما تمر الأمور دون نتائج تذكر، خاصة إذا مضى عليها الوقت، أو لم يعرف قائلها، أو كان القصر في حالة من حالات الهدوء والسكينة.

إذا لم يكن القصر في معركة، فلا بد أن يكون قد انتهى من واحدة أو يستعد لأخرى. وفي بعض الحالات تتوقف المعارك، أو تخفت حدّتها نتيجة عودة السلطان المفاجئة، أو نتيجة حدث استثنائي، كأن يتزوج امرأة جديدة من إحدى القبائل الكبيرة أو المخاصمة. ويحرص، عند ذاك، على أن تقام احتفالات خاصة، ويجري توزيع الهدايا، وإطلاق الرصاص. ولا ينسى السلطان أن يقيم احتفالاً لخيوله وللخيول الجديدة التي جاء بها. هذا الاهتمام من قبله، أو بإيعاز منه، ليس تعبيراً عن فرح فقط وإنما تعبير عن قوة أيضاً، وهو بمثابة رسائل إلى الذين يعنيهم الأمر في الداخل والخارج.

والحدث الجديد لا بد أن يحدث هزّة لكل ما هو قائم، وقد يغيّر في

العلاقات والخصومات. فخصوم الأمس قد يصبحون أصدقاء، ومعارك الأمس قد تتحول إلى تحالفات وعلاقات جديدة. أما الإشاعات والاتهامات والنوادر فسرعان ما تنسى وكأنها لم تكن! طبيعي أن يتم الانتقال بهدوء وبشكل غير مباشر، لكنه عادة يتم بسرعة، مع ما يرافقه من اعتذار واعتراف ودعوات، وأيضاً ضرورة إبعاد عدد من الخدم والمرافقين والحراس من كل جانب، والذين تسببوا في الوقيعة والإساءة، وغالباً ما يتم إبعاد هؤلاء بصورة مؤقتة، بسبب عدم الثقة، أو لأن الحاجة تستدعي الاستفادة منهم مجدداً. وقد حصل عدة مرات أن بعض الذين أبعدوا لاقوا حتفهم في ظروف قيل إنها غيرَ واضحة! كما أن عدداً من هؤلاء، وبعد مرور فترة اعتبروها كافية، بعثوا عن طريق معارف أو أقرباء، إلى الطرف الذي خاصموه يعلنون استعدادهم لإبلاغه بأمور خطيرة يعرفونها، وكانوا شهوداً عليها أو مشاركين فيها، ومن شأن هذه الاتهامات والمعلومات أن تولد الخصومات من جديد.

حتى الأطفال والصبية في قصر الروض، لا يترددون في أن يفعلوا ما يفعله الكبار من النساء والرجال. صحيح أنهم يفعلون ذلك في البداية بتحريض من الخدم، أو بتأثير الجو والكلام الذي يسمعونه، لكنهم سرعان ما يتجاوزون ذلك، إذ تصبح لهم أحلافهم وخصوماتهم، ويبرز بينهم القادة والموجهون والمحرضون، ويتفننون بالمكر والقسوة والوقيعة، لا يفرقون بين من يحبهم أهلهم ومن يكرهونهم، المهم أن يبرعوا، وأن يظهروا براعتهم، وأن يعترف لهم بذلك الكبار!

ليس في قصر الروض طفل لم يحصل على مسدس أو بندقية، فلكثرة وجود السلاح، واستمرار الحديث عن المعارك والبطولات، ولأن السلاح أولى هدايا الأب لأبنائه، فقد كان أمراً مألوفاً أن يوجد بأيدي الأطفال. صحيح أن الكبار يوصون الصغار، أو لا يعطونهم الذخيرة، كما يطلبون من الخدم الانتباه، إلا أن تجاوز ذلك كان من أيسر الأمور.

بعد الأهداف الثابتة تصبح الحيوانات هدفاً لرصاص الصغار، إذ يطاردون الكلاب والقطط ويتبارون بقتلها، أو التمثيل بها، وغالباً ما يسببون

لها عاهات دائمة. فما تكاد تصل إلى أيديهم حتى يربطوها لتصبح بعد ذلك أهدافاً صعبة! وقد وجدت بعض الخيول مقتولة أيضاً، وصدف أن قتل أحد خيول السلطان، واسمه الأدعج، ولم يجد المشرفون على الإسطبلات بدّاً من اختلاق الأعذار لتبرير ذلك أمام السلطان. قالوا أصيب بالمرض، وقالوا إن عقرباً لدغه، وقالوا أخيراً إنهم تركوه يرعى في عشب قريب، فأكل فيما أكل نبات الزقنبوت، ولما بحثوا عنه وجدوه في طرف المرعى وقد انتفخ ومات.

ليست الحيوانات وحدها أهدافاً للرماية، إذ يشاركها في ذلك العبيد والخدم، خاصة في أوقات الشدة، وغالباً لا يعرف من الذي قتلهم. والرد في هذه الحالات لا يكون في البحث عن القاتل ومعاقبته، وإنما في الثأر والانتقام من حيوانات وعبيد وخدم القتلة المحتملين، ويجري ذلك في جو من الحذر والتخفي، كأن يصبح الصباح ويُعثر على حصان ميت، أو تشب النار فجأة في أحد الأجنحة. وصدف عدة مرات أن وجد بعض العبيد في أطراف القصر، عند بستان النخيل أو قرب الإسطبل مقتولاً. لا تتوقف هذه الموجة، مؤقتاً، إلا حين يُظهر المشرفون على القصر الحزم والغلظة، ويعلنون بصوت عالٍ أنهم بعثوا إلى السلطان بالأخبار، ولا بد أن يصل بين يوم وآخر، عندها يتدخل الكبار والعقلاء لوضع حد لهذا العبث، ويقولون بصوت عالٍ: «حنا نعرف الفاعلين، وإذا جاء طويل العمر نعلّمه بكل صغيرة وكبيرة، وبعدها كلّ ذنبه على جنبه!».

عند ذاك تهدأ الأمور، وتجري، سراً، مفاوضات يشوبها الكثير من المساومة والضغط، وغالباً ما تقوم بها النساء في البداية، إذا كانت الخصومة بين الرجال، حتى إذا وصلت الأمور حداً من القبول يتابعها بعض المسنين من الرجال إلى أن تنتهي إلى المصالحة، ويكون إعلان انتهاء هذه الخصومات على شكل زيارات ودعوات، وغالباً ما يقوم بها بعض الأقارب وأصدقاء الطرفين.

في فترات السكينة والرضا، خاصة حين يكون السلطان في قصر الروض، وإذا تم تجاوز المبنى الرئيسي وديوان الرجال، فإن القصر يتحول

إلى خلية من الحركة في الليل والنهار، هذه الحركة يباشرها الأطفال والخدم والنساء والخصيان. فالزيارات التي يجري تبادلها، والهدايا التي تنقل من مكان إلى آخر، ولإطلاع الآخرين عليها فقط، والقصص التي تروى، والطلبات الموجهة إلى الخدم بضرورة القيام ببعض الأعمال، هذه الأمور، وغيرها كثير، تجعل القصر مثل خلية النحل. فإذا دخل الليل تبدأ الأمازيح الماجنة، والحركة الخائفة والمرتابة لتأمين مواعيد الليل، ولا تكون بريئة في أغلب الأحيان.

أما ما يشغل القصر أكثر من غيره، وما يبدد الرتابة والسأم المسيطرين عليه، خاصة في أجنحة النساء من الزوجات المهجورات والعمات والخالات، إضافة إلى الزائرات، وعددهن أغلب الأيام بالمئات، فتلك المقالب والمكائد البريئة التي تدبر في معظم الليالي، وقد أصبح لها أربابها والبارعون فيها. فالمرات التي طليت فيها وجوه النائمات بالأصباغ لا تعد ولا تحصى، وتكاد تجرّب مع معظم الزائرات؛ وإخافة النساء، بالأصوات المرعبة، أو بإطفاء الأنوار، وعادة يقوم بها الأطفال والصبية، تتكرر كل ليلة. أما أن تلبس إحدى الخادمات ملابس الرجال وتدخل فجأة، فإن هذه التسلية تقوم بها ربة الجناح للترويح عن زائراتها! وهناك عشرات المكائد المشابهة التي تدخل في الطعام والشراب، وتكون مدعاة للتندر والضحك والصخب المتواصل، وينتقل قسم منها إلى ديوان الرجال.

والمكائد إذا كان ضحاياها من الخدم والعبيد، فتكون عندئذٍ أقسى، وتدبر ببراعة أكبر، ويشترك في هذه ديوان الرجال أيضاً، وكثيراً ما تخللها المراهنات والتحديات؛ والخدم، أو بعضهم، يساهمون فيها عن مكر أو عن بساطة تصل حدود الغباء!

حين وصل فنر وموضي إلى قصر الروض، لكي يبقوا فيه، كان قد مضى على زواج السلطان من فضة أكثر قليلاً من أربع سنين، أنجبت له خلالها ولدين ذكرين، وكانت في مرحلة متقدمة من حملها الثالث، وهذا ما دعا السلطان إلى اختصار عدد من زياراته والعودة المبكرة إلى موران، ليس لأنه في شوق إلى فضة ويحبها أكثر من نسائه الأخريات فقط، وإنما للرهان الذي قام بينهما. فموزة، وصيفة سيدة القصر، التي أكدت في المرتين السابقتين، وراهنت، وقالت للسلطان ذاته وهي تبتسم: «اقطع رأسي يا طويل العمر، إذ ولدت ستي غير ولد»، فإنها هذه المرة أكثر ثقة، ومستعدة لرهان أكبر. والسلطان الذي كان مترقباً ومتشوقاً لولدِ الثالث تنجبه فضة، فلكي يقدّم لنفسه الدليل، قبل أن يقدمه لزوجاته الأخريات، أن فضة تختلف عن غيرها من النساء: لا تتأخر، ولا تنجب سوى الذكور!

موزة وهي تؤكد أن الطفل سيكون ذكراً، مدت فضة يدها، وهي تبتسم، إلى السلطان وقالت بحزم:

ـ أنا مع موزة، وهذي يدي والرهان بيننا!

والسلطان كان راغباً في هذا الرهان، حتى لو خسر، قال وهو يتنحنح:

ـ هذي يدي، وأنا أقول: بنيّة.

وتراهنا. وفي كل ليلة كان الرهان يرتفع وتقسو شروطه، وإن تخللته المداعبات والشكوك، لكن السلطان ظل مشغولاً بهذا الأمر، منذ أن عرف بحمل فضة. حتى في أسفاره ظل يفكر ويأمل وينتظر!

الآن وهو يعود، وما يرافق العودة من اهتمام ونشاط وخوف أيضاً، فقد كان وحده موضع اهتمام الجميع، وكانت فضة والمولود القادم موضع اهتمامه هو، مما أدى إلى نسيان فنر، أو على الأقل لم يحظ بما حظي به في سفراته السابقة. فالسلطان الذي آوى إلى جناحه مبكراً للراحة، ترك لدغيم أن يرتب أمر القادمين، وقد خلق هذا حرجاً وتساؤلات، فلا يُعرف إذا كان الأمر يتطلب إجراء مؤقتاً أو حلاً دائماً. فأن يأتي فنر ليبقى يجعل التفكير متجهاً إلى ما وراء ديوان الرجال وخلف السور، وبالتالي يحتاج إلى إجراءات وقرارات تتناسب مع أهمية الزائر الجديد، لأنه يختلف عن الآخرين، كما لا يعرف ما إذا كان من اللائق والمحتوم أن تكون موضي معه أو أن يفرد لها مكان خاص.

ظل الأمر هكذا بضعة أيام، وخلال هذه الأيام لم يستطع دغيم السرهود أن يكلم السلطان على انفراد ليتلقى منه توجيهات محددة وواضحة، وقد أدى ذلك إلى انتقال فنر وموضي من جناح إلى آخر، بين ليلة وأخرى. وفي إحدى المرات تدخلت اثنتان من عجائز القصر لكي ترتبا مكاناً لائقاً للوافدين الجديدين!

ومثلما وقعت مكائد لمعظم الذين سكنوا قصر الروض، فقد أصابت الأمير أيضاً. صحيح أنه لم يتعرض لمكيدة مباشرة، لأنه كان يقضي معظم وقته في ديوان الرجال، كما طلب منه أبوه وأكد على ذلك، ولكن حارسه، نصار، لم يفلت، فقد سرقت بندقيته في اليوم الثالث، وذهبت كل المحاولات للبحث عنها أو لمعرفة الذي سرقها عبثاً. أما قطمة، خادمة موضي، فقد تعرضت في ليلتين متواليتين إلى المكائد: ففي الليلة الرابعة، وأثناء نومها في الغرفة المجاورة لغرفة موضي، دخل عليها من صبغ وجهها بالسخام، وكانت موضع تندر ونظرات ارتياب في اليوم التالي. وتجرأت إحدى الخادمات وقالت بصوت عالٍ، وكأنها تخاطب نفسها: «إذا الواحد ما حسّ وهم يسخّمون وجهه، ما يندري إذا كان يحسّ وهم يسوون به شيء ثاني» وقطمة التي كانت غاضبة وخائفة ومحرجة، وكانت في وقت

سابق تتباهى أنها تلتقط صوت مشي القطة، حتى لو كانت في سابع نوم كما كانت تقول، ردت على النظرات والابتسامات بأنها كانت شديدة التعب من السفر والركض طوال الأيام السابقة!

وفي الليلة التالية ألقي في غرفة موضي فأر ميت، وقد تسبّب بالكثير من الفزع والصراخ، ووصل الأمر إلى علم دغيم، مما حمله على الإسراع بترتيب سكن القادمين، بعد أن رابط ساعات من أجل مقابلة السلطان ومباحثته في الأمر!

سيدة القصر، الأميرة فضة، كانت مشغولة بالسلطان وانتظار المولود، ولذلك لم تستطع أن تلتقي بالقادمين الجديدين إلا لفترة قصيرة، وأثناء الغداء الخاص الذي أقامه السلطان على المائدة الداخلية، بعد أن أقام في اليوم الذي سبقه غداء دعا إليه الكثيرين، وأشار أثناء الحديث الذي سبق الغداء، أن فنر جاء ليبقى في موران، وقال أيضاً، وهو يبتسم ويتطلع إليه.

ـ وما تمر كم سنة إلا ونزوجه ونفرح بيه!

وفنر الذي غرق في ملابسه الفضفاضة، وغرق أكثر من ذلك في الخجل والعرق، لم يعرف كيف يتصرف حين كان في الديوان ثم أثناء الأكل.

أما الاهتمام الذي أبداه السلطان في استقبال الذكر الثالث الذي ولد له من فضة، فقد فاق كل حد، فالأفراح التي أقيمت في القصر، والخراف التي ذبحت، ثم الهدايا والأعطيات تجاوزت المألوف، وجعلت عدداً من مسني العائلة يفاتح السلطان بعد أن هدأت الضجة. قالوا له في إحدى الليالي:

ـ . . . وتعرف، يا طويل العمر، أن الله، سبحانه وتعالى، هو من يعطي، ومن يجعل النطفة ذكراً أو انثى، وهو على كل شيء قدير . . .

ولما بدا له أنهم يريدون أن يتكلموا في أمر آخر، ولكي يشجعهم على ذلك، قال وهو يضحك بصوت عالٍ:

ـ اللي تقولونه ما عليه خلاف، يا طويلي الأعمار بس أشوف بوجوهكم سالفة ثانية!

قال دحيم، العم الكبير للسلطان:

ـ يا أبو منصور، حنا معك أن يكون لك ذرية بعدد حبات التراب، وأن تفرح بكل مولود جديد، بس لازم تعرف أن الولد من صلب أبوه، وما دام الأب واحد، وما دمت أنت أب الأولاد، يلزم تعدل بينهم، وما يلزم تقول هذا ابن فلانة وهذا ابن فلانة، هذول كلهم أولادك، الكبير قبل الصغير، والموجود قبل اللي عند علام الغيوب، ورأينا أنك ما تميز بين واحد والثاني.

قيل هذا الكلام نتيجة إشاعات سرت في القصر، وانتقلت، همساً، من مخادع النساء إلى ديوان الرجال، حول ما ذكرته موزة عن رهان بين السلطان وفضة، إذا كان المولود الثالث ذكراً. فقد قيل إن السلطان أبدى استعداده، إذا خسر الرهان، أن يجعل واحداً من أبناء فضة سلطاناً بعده. وقد ترافق ذلك أيضاً مع أخبار متزايدة تؤكد غضب السلطان على خزعل. نقل اثنان من الحرس الخاص لدحيم أنهما سمعا السلطان يقول لخزعل بغضب «انحش عن دربي ولا تخلني أشوف وجهك». وقد سافر خزعل بالفعل مع عدد قليل من المرافقين والحرس، لا يعرف إلى أين أو كم سيبقى. وقال كلمات أخرى لم يسمعاها.

هذا ما دعا مسني العائلة لأن يقولوا ما قالوه، والسلطان الذي سمع بانتباه، وكانت الابتسامة تملأ وجهه، ردّ عليهم.

ـ اللي قالوا لكم، يا جماعة الخير، ما صدقوا وياكم، وأنتم تعرفون، البني آدام كل يوم يطلع له قلب، وما فيه طرف، فإذا أعطينا آذاناً لكلام يأخذنا ولكلام يردنا، ولواحد يقول فلاني، والثاني تركاني تراها وقعت بينا، وأنتم تعرفون مثلي وأحسن مني: إذا اختلف الرعيان، أو إذا تصادقوا، ضاعت الغنم!

هز رأسه عدة مرات ثم فجأة التمعت صورة خزعل وسفره، قال موضحاً:

ـ وخزعل حنا طرّشناه، كلّفناه بعمل، قلنا له تسوّيه وترجع من يومك، وإذا سمعتم غير هذا الكلام فهو غير صحيح!

وتغيرت النبرة:

ـ وبسفرتنا لعين فضة قلنا لفنر: هذا حدّك مع أخوالك يا فنر ويلزم تكون معانا، وجبناه وجينا، وقبل أيام شافوه الخويا وقالوا ذهين وما مثله، وأنتم تعرفونه، يلزم يكون قريب منا ويتعلم، وإن شاء الله يشيل هو وإخوانه الحمل عنا. فلا تخافوا يا جماعة الخير ووكلوا الله، وأنتم تعرفون المثل اللي يقول: لا توص حريص، وإن شاء الله بوجودكم وشوركم وحرصكم ما يصير إلا كل خير!

تأثروا لكلام السلطان، وتأثروا أكثر أن السلطان لم ينس فنر، خاصة بعد أن مرض، وقال الأطباء الذين أشرفوا على علاجه أن الأمر لا يتعدى الحصر وتغير المناخ، ولا بد أن يستعيد صحته إذا أحيط بجو من الرعاية والاهتمام، كما كان حاله في عين فضة. قال دحيم بصوت عميق، وصورة فنر، المختلف عن بقية الأخوة، تسيطر عليه:

ـ ترى يا جماعة الخير دمعة اليتيم تخرق الصفا.

وتذكر الجميع أم فنر وصمتوا بحزن.

ولأن السلطان يعرف الكثير مما يصل إلى الآخرين، عن طريق النساء والخدم الذين كلفهم أن ينقلوا إليه كل ما يسمعون، خشي أن تتطور الأمور ويصبح من الصعب السيطرة عليها، ولكي يبدد الشكوك، والتي قيل إنها وصلت إلى البادية، ووصلت تحديداً إلى أخوال خزعل، وإلى قبائل بعض زوجاته بشكل خاص، فقد أبدى تسامحاً تجاه عدد من الزوجات والأقرباء بدل القطيعة والنفور. ولم يتردد في أن يعقد على زوجة جديدة خلال الشتاء ذاته، وأن يصطحب إحداهن معه في رحلة القنص التي استمرت أكثر

من عشرين يوماً. أما حين بلغه أن وطفة، الزوجة التي تزوجها قبل فضة، والتي خلّفت ابنتين، وأجهضت بالثالثة، وقالوا إنه ذكر، حين بلغه أنها أنجبت ولداً ذكراً وقد سماه مفرّح فقد أقام احتفالات بالمناسبة لا تقل عن الاحتفالات بمجيء الابن الثالث من فضة. قالت أمي زهوة التي كانت تصلها أصداء ما يقال في مخادع النساء: «أبو منصور أولاده عنده مثل أسنان المشط، أو مثل حب الرمان، ما يفرق بين واحد والثاني.. إلا باللون، بس الأمهات ما يشبعن لا بالليل ولا بالنهار!».

لم يكتفِ السلطان بذلك، فقد قام بزيارات لإِثنتين من نسائه أنجبتا إناثاً، وقيل إنه لم يتردد في حمل البنتين، ومداعبتهما، كما أجزل للأمهات العطايا، خلافاً لما عرف عنه في السابق. وقد تبرع الكثيرون في نقل هذه الأخبار. حتى سيدة القصر، فضة، لم تخْفِ امتعاضها، لكنها غلفته بالسخرية. وحين كانت في مجلس ضم عدداً كبيراً من النساء، بمناسبة طهور ابنها الثالث، والذي تأخر طهوره خلافاً لأخوته، لأنه ظل مريضاً فترة طويلة، قالت وهي تبتسم:

- حين طهّروه خفت، صرخت وقلت لروحي يا ليته كان بنيّة، كان ما عذبوه هذا العذاب كله.

ولما سمعت كلمات الاستغراب والإِنكار، أضافت وهي تتلفت، وكانت ابتسامتها تتركز على بعض الوجوه:

- وبهذي الأيام ما عاد في فرق بين الولد والبنيّة، إلا إذا كانت الأم بغيضة وجابت بنيّة!

قالت موزة، وكانت تملك دالة على الجميع:

- لا يا ستي، في فرق، وهذا طوله!

وأشارت بالسبابة والأبهام إلى المقدار الذي تعني!

قالت إحدى الزائرات وكانت لا تخفي ضحكتها:

- كبّرتيه أكثر من اللازم.. يا موزة!

ردت وهي تقهقه:

لا تخافي يا بنت الحلال بس يكبر يكبر.. والله يستر بنات العالم!

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فالسلطان الذي كان يقوم بنفسه، أو يكون حاضراً حين تتأكد هزيمة الخصوم، لكي يقبل الاستسلام، ولكي يصدر أوامر القتل أو العفو، والذي كان يروق له أن يقدم دروساً في فنون القتال والشجاعة، والأخلاق والشهامة، ليسمعها خصومه بوضوح، ولكي تنقل عنه بعد ذلك، يتخلى لأول مرة عن القيادة لخزعل. قال له يوصيه، وكان في المجلس عدد من كبار العائلة:

ـ ... والخويا اللي معاك يا خزعل الواحد منهم بميّة، مجربين وأنت تخبرهم، والقواد صيتهم سبقهم، وما مثلهم بموران وبغير موران، فأريدك يا خزعل تبيّض الوجه وترجع لنا سالم وغانم، ورأس ابن الحرام على سن ورمح ولشتة بحثل ما به ملح.

تنفس ملء صدره وأضاف يخاطب المسنين وينظر إلى خزعل:

ـ أملنا بك كبير يا خزعل، وهذا ما هو بس راي ورأي الجماعة؛ ولا تبطي علينا بالأخبار الزينة، ومثل ما قالوا جماعتنا: ما خاب اللي يعطي الصنعة سيدها، ومن الله النصر والتوفيق.

ورغم أن العملية التي أنيطت بخزعل لا تتعدى تأديب قبيلة صغيرة، كانت منازلها قريبة من الحدود، وكانت عرضة لمؤثرات عديدة، وقد اختلف ولاؤها أكثر من مرة، تبعاً للضغط الذي يقع عليها، فقد سرت في قصر الروض همسات تؤكد أن السلطان أرسل خزعل لكي يتخلص منه، لكن هذه الهمسات تراجعت وانتهت بتوالي الأخبار، ثم بتأكيد الكثيرين أن خزعل ذهب إلى القنص ولم يذهب إلى الحرب!

وقيل أيضاً أن السلطان أرسل عمه قبل أن ينقضي أسبوع على تحرك خزعل، وأوصاه بإلحاح أن يتولى كل شيء بنفسه، لخشيته أن تقع أخطاء تصعب معالجتها في وقت لاحق، خاصة بالنسبة لرئيس القبيلة، والذي كان

يريده حياً لأسباب كثيرة: ليكون قوة له على الحدود بدل أن يكون أداة بأيدي الخصوم، ولكي يبرهن للذين يقولون أن خريبط لا يعرف سوى القتل، إنه يعرف كيف يعفو ويسامح، وقد أكدت النتائج أن ما حدس به خريبط كان في مكانه، وأن العم تدارك الكثير، الكثير، لكن، مع ذلك، عاد خزعل منتصراً، واعتُرف له أنه بلغ مبلغ الرجال!

وقبل أن تنقضي السنة أرسل السلطان خريبط ابنه فنر بزيارة رسمية للتهنئة إلى بريطانيا، بناء لاقتراح مستشاره، والذي أكد للسلطان أن العائلة الملكية البريطانية تربي أولادها على تحمل المسؤولية وتكلفهم مهمات إلى البلدان الأجنبية، ليتعرفوا على هذه البلدان ويتعلموا منها، ولكي يتعرف عليهم الملوك والرؤساء.

طوال السنوات التي قضاها فنر في قصر الروض ظل غريباً. لم يستطع أن يكون جزءاً من القصر، أو جزءاً من القوى الخفية التي تتجاذبه وتؤثر فيه. صحيح أن أباه قرّبه، وأخذ إعجابه به يزداد شهراً بعد آخر، إلا أنه كان يخشى عليه من تأثير خاله عمير، خاصة وأن عميراً منذ أن وصل إلى موران لم يدخل لسانه في حلقه، كما يقول السلطان.

ليس ذلك فقط، فقد نقل للسلطان أن عميراً ما إن يترك قصر الروض حتى يغشى المجالس واحداً بعد آخر «هذا يصير وهذا ما يصير. هذا حلال وهذا حرام». والسلطان الذي تبلغه الأخبار يهز رأسه بغيظ ويقول لنفسه: «ناسبناهم حتى يرضوا ويسكتوا، لكن بعد ما خلصنا من منير جانا مناور، بعد ما خلصنا من الدريويش جانا هالحين عمير، لكن يخسا». فإذا التقى به السلطان، يسأله عن أبيه وعن المطر في عين فضة، وفي ذلك تلميح لا يخفى أنه حان الوقت لعودته، فيجيبه عمير إجابات عامة، بعيدة، مع ابتسامة كبيرة للتدليل على أنه راضٍ ومرتاح لإِقامته في موران! أما حين اعتل فنر، فقد أصبح لدى عمير المبرر القوي للبقاء. قال ذات يوم للسلطان يشعره بضرورة وجوده واستمراره:

ـ ومثل ما تشوف عينيك، يا طويل العمر، الصغيّر تعبان ومرروض، وأخاف إذا تركناه يحصر.

ـ وكّل الله يا ابن الحلال، فنر الجميع حاطينه ببطن عيونهم ويدارونه.

ـ لكن مداراة الخال شكل ثاني، يا طويل العمر.

ـ المداراة الزايدة تفسد يا عمير.

ـ الحق اللي تقوله، طال عمرك، بس إلى أن يتعافى، ويصير على كتفه لحيمات.

ـ العافية من الله، يا رجال، ويلزمك تعرف: حرار الطيور ما تسمن.

جرى مثل هذا الحوار مرتين أو ثلاث مرات، وعمير يتظاهر أنه لا يفهم، فقد جاء بقصد الإقامة، وليكون قريباً من فنر، وليشرف أيضاً على تربيته وتوجيهه. والسلطان الذي أسف لأنه ترك ابنه كل تلك السنين في عين فضة، وعرف مدى تعلق فنر بأخواله، كان يريد أن يمتحن مدى قدرته على انتزاع الصبي من ذلك العالم وتلك الأفكار، دون أن يلجأ إلى العنف أو القسوة، خاصة وأن الأطباء الذين أشرفوا على علاجه، أكدوا عدم وجود علة يمكن أن يعزى إليها سبب مرض فنر، فقالوا: تغير المناخ. وقالوا، الحصر. ولذلك يجب أن يعتنى بحالته النفسية، وأن يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتكيف مع الجو الجديد.

وفنر مثل النبتة الغضة، تمرض إذا عطشت، وتمرض إذا زاد عليها الماء. يمرض دون سبب، ويتعافى فجأة. والسلطان الذي تطالعه العينان الواسعتان أينما ذهب، أينما تلفت، وتتابع الأذنان كل كلمة يقولها، كان حائراً. قال لعمه دحيم ذات ليلة:

ـ . . . وإذا طالعته، يا مبارك، أشوف بس عيون تناظر، يسمع بعيونه وقلبه وآذانه، ويلزم هذا الخبل، عمير، أن ما يملأ رأسه بسوالف الآخرة وحدها.

ـ بس يتعافى بالخير والسلامة يلزمه يتعلم القنص.

ـ الحق اللي تقوله ياعم، وظني أنه مع القنص يلزمه بارودة حربية، ويبلش بهذول اللي مدوّخينا هنا وهنا.

ولم يتأخر السلطان لكي يصطحبه في واحدة من غزواته. قال لخاله عمير قبل أن يتحرك:

ـ ترى عين فضة تعجب إذا دفت، وإن شاء الله برجعتنا نشوفك هناك، يا عمير.

قال مهيوب، رئيس الحرس الخاص للسلطان، بعد سنين يتذكر تلك الغزوة:

«كانت سنة خير، أمطارها كثيرة والناس راضية، وما عندها إلا تدور رزقها. وطويل العمر أوامره واضحة: يلزمنا نحارب يا مهيوب، إذا ما هو هنا، بمكان ثاني. وحنا نتلفت، نتفطن، وما نلقى أحد. العشيرة الفلانية بمشتاها. الثانية بالمكان الفلاني. وما أحد بباله الحرب. يوم من الأيام، وحنا بخبرة سنيدة جانا بدوان وقالوا: التجار تسلّبوا. ركضنا ندور اللي سلبوهم، لكن الله وقع بأيدينا جماعة غيرهم، كان بينهم واحد مطلوب. وما إن شافهم طويل العمر إلا وأصدر أوامره: ارموهم. كانوا سبعة. والله صفيناهم وكان أولنا فنر، وما إن قال السلطان ارموا حتى رمينا. ذبحناهم. دفناهم ومشينا».

يهز مهيوب رأسه، وتبدو على وجهه ابتسامة حزينة، تتغير نبرة الصوت، وهو يتابع: «قال طويل العمر: هذي ما هي بشي، يلزمنا نخليه يحارب بأسنانه، ولا بد يحس بالخطر. بعد ثلاثة أيام، أو أربعة، بالليل، آخر الليل، قلنا لعشرين من جماعتنا تروحون للمكان الفلاني، ومن هناك ترمون حوالينا، ما هو علينا. عطيناهم فشك يكفي أمة الثقلين، وقلنا لهم ترمون، بس لفوق، فوق روسنا، وتتحذرون زين. وحنا نقابلهم ونرمي، وقلنا ساعة زمان وتغيبون. وهذا اللي صار. بس الحذر ما يرد القدر. حنا مئات، وكل واحد بيده سلاحه، وما قلنا لجماعتنا وين يرمون، خوف ما تنكشف سالفتنا، حتى لو انذبح كم واحد من اللي يقابلونا، لكن، ومثل ما يقولون: بآخر الليل تجي الدواهي. الفشك حيّد عنا كلنا، وفشكة ميتة، نازلة من السما، أصابت فنر. إصابته بيده عند الكتف. خاف طويل العمر، لكن لما شاف الجرح قال وهو يضحك: هذي لك شهادة يا وليدي، ولا تخف. مات من الجماعة قبالنا سبعة أو ثمانية، ومنا ثلاثة مجاريح وواحد انقتل، وما عرفنا وين جته الفشكة.

قال السلطان لعمه دحيم في الشتاء اللاحق، وكان معه في رحلة قنص، ومعهما عدد من أبناء جلالته:

ـ وبعد ذيك الليلة، يا عم، صار قلبه مثل الصوان.

وضحك السلطان وهو يتابع فنر، وكان يهيّئ طيوره للقنص:

ـ لما ذبحنا البدوان خاف. ناظرته وشفته. قلت لروحي: أخطينا، لكن تعرف، يا عم، هذا الدرب ما منه ردة، قلت: نتوكل على الله، ومشينا. وبعد كم يوم حضّر الجماعة اللي قلنا لهم عليه، وهالمرة شفته: لا والله: تنشط، وصار براس الجماعة، وبإذني سمعته يصيح: هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها.

قال دحيم وهو يبتسم:

ـ الصعبة هي النوبة الأولى، يا أبو منصور، بهذي الشغلة وبكل شغلة، فإذا مرت كل اللي بعدها أخف منها!

قال الذين استيقظوا على أصوات البكاء والنحيب في قصر الروض، «إنه قبل أن يصبح الصباح، والناس نيام بسابع نوم، وإلا ذاك الصوت اللي يفزّع اللي ما يفزع. وكل واحد بين مصدق ومكذب، وكل واحد يسأل روحه: ها احترقنا؟ مات أحد؟ دهمتنا السيل، وإلا منام من المنامات؟ لكن بعد الصوت الأول صوت ثاني، وهذي المرة قريّب. ركض الناس ها هنا إلى أن وصلوا إلى جناح الأمير فنر: ها يا جماعة الخير، علمونا شنهو اللي صار واللي جرى، قطمة تناظر الناس وتشوبر وتصيح، وموضي، من داخل، تصيح وما تستريح. علمونا يا جماعة الخير ويش هي البلية؟ ولا أحد يتكلم أو يجيب. دخلن النسا على موضي، لقنها بين الحياة والموت، يدها على كتفها وتصيح: تعوّر فنر، انذبح فنر. قالن لها: وكلي الله يا بنت الحلال، فنر مع السلطان، فنر ما أحد يصله، فنر بالقنص وما هو بالحرب. وأبد: تعوّر فنر انذبح فنر. وإلى الصباح ما استراحت ولا خلت أحد يستريح. وقبل ما تطلع الشمس طرش ابن السرهود أكثر من طارش، وقال لكل واحد منهم: بوجهك تصل طويل العمر تأخذ العلوم وترد. وما هديت إلا بالويلاة. تعبت وارتمت، لكن ما رفعت يدها عن كتفها ودمعتها ثلاثة أيام ما نشفت. في اليوم الثالث، وبرجعة الطارش، وبعد ما حلف ألف يمين ويمين، والشيخة هي اللي حلّفته، قال إن جرح فنر مثل

الدوحاس، أو مثل لطة الجمر، وما عليه خلاف، يمشي ويسولف. وقال الطارش، وهو يقسم من جديد، أن السلطان حرق له عطابة وداواه بنفسه، وانتهى كل شيء على خير».

خلال الأسبوع الأول مرضت موضي. لم تقرب الطعام، رغم إلحاح الكبار والصغار. فما عدا بعض السوائل، أرغمت على شربها، فقد رفضت كل شيء، حتى أن الكثيرين خافوا عليها أكثر مما خافوا على فنر، خاصة بعد أن انفردوا بالطارش الأول، ثم بالذي يليه، وتأكدوا من المعلومات، وعرفوا أن جرح فنر بسيط، وأنه عوفي تماماً.

في الأسبوع الثاني وافقت موضي على تناول وجبات خفيفة، لكن الحزن والبكاء لم يفارقاها، وظلت مرابطة في غرفتها، وكانت قطمة تطمئن الزوار، وتؤكد لهم أن سيدتها تتماثل للشفاء، وترجوهم ألا يثقلوا عليها لأنها بحاجة إلى الراحة والنوم والدواء كما قالت الحكيمة الإنكليزية. والزوار بين رغبتهم في أن يتأكدوا من تحسن صحة موضي، وبين أن يتفرسوا في وجهها وفي عينها ليكتشفوا هذه القوة الخارقة التي جعلتها تحدس، بل وتتأكد أن فنر أصيب.

في الأسبوع الثالث استعادت موضي صحتها. غادرت غرفتها عدة مرات إلى الشرفة، وإلى لقاء عدد محدود من الزوار، لكن القلق لم يزايلها، وظهر الشحوب على وجهها واضحاً، وكان يدعو إلى الحزن والشفقة. وظلت كذلك إلى أن عاد السلطان.

لما عاد فنر إلى موران، إلى قصر الروض، ثم إلى الجناح الذي يسكنه مع موضي، ورأى وسمع ما حصل لأخته، وموضي تتابع كل حركة وكل كلمة تصدر عنه، ثم لما استفسرت كيف أصيب، وفي أي مكان، وفي أي وقت، وكانت تهز رأسها دلالة المعرفة والتأكد، فإن الدهشة التي ارتسمت على الوجوه، والنظرات التي تبادلها الذين يسمعون، جعلت الجميع يتساءلون ويحارون فيما حصل. وفنر لم يكن أقل منهم دهشة وحيرة وتساؤلاً.

تهاني التي لازمت موضي خلال فترة مرضها، لم تكن خائفة أو قلقة،

بل وأكدت أنها في صغرها كانت مثل موضي، وصدف أن توقعت أموراً بعينها، وقد وقعت! أما بعد أن تقدم بها العمر، فقد «تشوش فكرها» كما تقول بحزن «ولم أعد أعرف الجمعة من الخميس». ومع ذلك طمأنت كل من سألها عن موضي؛ كما أرغمت موضي على تناول بعض السوائل التي أعدتها لها بنفسها، وهذا ما ساعد وعجل بالشفاء!

أما الجدة التي جاءت إلى موران خلال هذه الفترة لزيارة «حبات القلب: فنر وموضي وعمير» خاصة وأن أخبار عمير انقطعت تماماً عن عين فضة، فلم تكن تعرف شيئاً مما حصل، وحين وصلت القصر، وأبلغت أولاً بسفر فنر، ثم بمرض موضي، فقد قالت لقطمة، التي حاولت أن تطمئنها وأن تبسط الأمور:

ـ لو ما جيت لكان أخير وأسلم، وهالحين أحمل يا قلب إن كان بك تحمل.

وبعد قليل، وبعد أن ألقت نظرة على موضي التي كانت نائمة.

ـ فال الشيطان ولا فالك، يا مقرودة، على هذي الأخبار.

هزت رأسها بحقد وتساءلت:

ـ ومتى يرجعون؟

ـ علمي علمكي، يا محروسة السلامة.

ـ الله لا يسلّم بك عظم، وهالحين نداري من ولاً من، نلتفت هنا ولاً هنا؟ وتابعت تخاطب نفسها:

ـ بعد عين فضة راحت أيام السرور، وهالحين نشوف أولادنا يموتون وينذبحون وما نقدر نسوي شي.

خفضت صوتها وبحقد:

ـ الله يجازي الظلاّم واللي ما بي بقلوبهم رحمة.

وبتحسن صحة موضي، ثم بعودة فنر، استعادت الجدة صحتها وقوتها، مع أن الكثيرين توقعوا لها موتاً سريعاً! أما عمير الذي بقي أياماً في موران، بعد سفر السلطان، فقد غادر فجأة، ولم يذكر لأحد وجهته،

أو المدة التي سيغيبها، ولا يعرف ما إذا كان سيعود إلى موران أم يذهب إلى عين فضة.

هذه النبوءة التي شغلت الكثيرين في قصر الروض، ونقلت بأشكال لا حصر لها، إذ ذكرت النسوة أن الموضع الذي كانت موضي تشد عليه، عند الكتف، لم يكن مماثلاً للموضع الذي أصيب فيه فنر فقط، وإنما أكدت ثلاث أو أربع منهن، واكتفت الأخريات بالصمت، أن بالموضع علامة زرقاء تشبه الجرح المندمل. وزادت لولوة على ذلك، ونقلت الأمر إلى سيدتها، أنها رأت بعينها، في الأيام الأولى، دماً يسيل من الكتف!

كان يمكن لهذه النبوءة أن تظل حديث الكثيرين، إلا أن الأحداث اللاحقة التي مرت على قصر الروض جعلتها تتراجع ثم تُنسى، أو بالأحرى لا تعاد إلا إذا جاء بما يذكّر بها!

فأثناء عودة السلطان إلى موران، وفي العجيرة، حيث راق للسلطان أن يتوقف للراحة، ولكي يتيح لعبيدة محاصرة منطقة مشهورة بوفُرة الغزلان فيها، أثناء هذه الاستراحة، وصل فجأة، وعلى غير توقع أو انتظار: الصاحب، أو هاملتون.

وصل هاملتون، والذي أطلق عليه السلطان اسم الصاحب، وقيل إن هاملتون اقترح الاسم ووافقه عليه السلطان، كان عائداً من رحلة، وبرفقته عدد من عبيد السلطان وحرسه، بعد أن قام بتحديد المواقع المناسبة لحفر مجموعة من آبار المياه، وأعد خارطة لحدود المنطقة الشمالية. وذكر الذين رافقوه أن الصاحب قضى وقتاً طويلاً في نبش تلة الذيب، القريبة من المخيم الذي أقامه، واستخرج منها أصناماً، وأشاروا إلى ثلاثة جمال كانت تحمل هذه الأصنام.

كان اللقاء ودياً إلى أقصى حد، وتخللته احتفالات كبيرة أعدت على عجل. فالسلطان الذي لم يتوقع اللقاء بالصاحب، في هذا المكان، أو في هذا الوقت، فوجئ تماماً. ولكي يعبر عن المودة والقوة، فقد أوعز إلى عدد من رجاله «أن لا يتركوا فناً، وأن لا يتركوا مرجلة إلا ويلزم الصاحب يشوفها» ولذلك جرت سباقات الخيل، والنيشان، ومطاردة الغزلان، إضافة

إلى الغناء والعرضات، وصدف أن كان الطقس مؤاتياً، لذلك أعدت الاحتفالات جميعها في الهواء الطلق، في النهار، وليس عند الفجر أو الغروب، مما أضفى عليها طابعاً مشرقاً، الأمر الذي ولد مزيداً من الفرح والمتعة، ولم يخف الصاحب انفعاله، إذ قال للسلطان، وكان حوله عدد محدود من رجاله:

ـ اللقاء بجلالتكم، وفي مثل هذا المكان، يُنسي الإنسان التعب، بل ويجعله يتمنى البقاء هنا إلى الأبد.

استخف المديح السلطان، وكان تواقاً لأن يقنع الصاحب، وأن يستميله لكي يبقى، رد وهو لا يخفي فرحه:

ـ حنا، الله يسلمك، نحتاج إلى معونتك، ومعونة الخيّرين أمثالك. وعسى أن الله يقدرنا على مجازاتكم.

وجرت أحاديث أخرى كثيرة، لكن هاملتون الذي يلتقي بفنر لأول مرة، وبعد أن راقب باهتمام ودقة، وبعد أن سمع من معارفه وأصدقائه حول غزوة السلطان، راقه كثيراً أن يتحدث مع الأمير. ومثلما فعل قبل سنوات، حين وصل إلى موران أول مرة، إذ قضى مع خزعل أياماً في القنص، وقيل إنه تبارى وإياه في النيشان، فقد نظر طويلاً إلى فنر، وراقب تصرفاته وحركاته، كما سأل الذين يعرفهم كيف جرح فنر وأين، لأنه لم يشأ أن يزعج الأمير بهذه الأسئلة، ولم يشأ أن يثقل على السلطان.

قال هامتلون للسلطان، في الليلة الأخيرة، قبل السفر، وكان القمر بدراً، والريح الربيعية تهب منعشة:

ـ . . . وهذا الشرق، يا طويل العمر، مهبط الوحي وموطن الرسالات، ولا يمكن لأحد أن يفهمه إذا لم يعش فيه.

والسلطان الذي كان يهز رأسه مثل حرذون، في ضوء القمر، رد بصوت عميق:

ـ الحق الي تقوله، يا الصاحب، وأظنك قررت تعيش معنا، وتعاونّا.

ـ لقد فكرت طويلاً بهذا الأمر، يا صاحب الجلالة، وكنت أنوي، بعد

أن انتهت مهمتي بوضع الخرائط لحدود بلادكم الشمالية، أن استأذن جلالتكم وأسافر. . .

وابتسم وهو ينظر إلى عيني السلطان، وتابع:

ـ لكن رغبات جلالتكم لا يمكن أن ترد، خاصة وأن لهذه الأرض سحراً لا يقاوم!

بدا السلطان فرحاً مثل طفل، وتأكد في تلك اللحظة أنه حقق في هذه الرحلة أهدافاً عديدة وهامة، وتذكر، وهو يمسد لحيته، الجهد الذي بذله مع الصاحب لإِقناعه بالبقاء. قال لنفسه: «رب صدفة خير من ميعاد».

هاملتون ليس واحداً، إنه الكثير في شخص، ومجموع الأشخاص في واحد، والكثير والواحد يجمع بينهم الجوار، وبقدر التفاهم الذي يوحدهم فأن العداء كثيراً ما أدى إلى الخصومة والافتراق. فهو محب لا يستطيع أن يخفي حبه، ومبغض إلى درجة الحقد. هادئ أغلب الأحيان، لكن في لحظة يتحول إلى حيوان ذئبي كاسر لا يشبع من الدماء ولا يمل النظر إليها. رغبة الاكتشاف والمعرفة لديه قوية ومستمرة. فإذا حاصرته الأسئلة امتلأ شعوراً بالحيرة واللاجدوى. مسيحي وزنديق، ولا يتردد في أن يجرب أدياناً أخرى أيضاً! مخلص للأمبراطورية وشديد الكره لها. المال بالنسبة له وسيلة تعامل، وقدرة على التأثير، كما أنه قوة مستقلة لذاتها. يتمنى أن يكون ملكاً لا يمل الناس من النظر إليه، وأن يكون إنساناً مجهولاً لا يعرفه أحد. يقول لنفسه في لحظات الصفاء: «كلما ازداد الإنسان قوة ومعرفة كلما ازداد ضعفاً وضياعاً وجهلاً».

يقول للذين يسألونه لماذا لا يتوقف عن الركض، ولماذا يتعب نفسه هكذا:

ـ قيمة الإنسان بالمعرفة وبخدمة الآخرين. وعلى الفرد ألا يتوقف لحظة واحدة عن التعلم وعن مساعدة الناس، لأنهما المصدر الأساسي للمتعة، والمبرر الوحيد لاستمرار الإنسان على الأرض.

حين يكون على ظهر ناقته، تحت وهج الشمس الحارقة، والصحراء تنطوي تحته كما تنطوي صفحات كتاب، يشعر أنه الوحيد القادر على القيام بهذا العمل، وأن قوة خارقة انتدبته له. فإذا وصل إلى المكان الذي يقصده أحس بالضآلة وبالظلمة الكثيفة، ولا يعرف لماذا كان على هذا القدر من

الغباء لكي يجيء إلى موران، ويمارس مثل هذا العبث الأخرق.

يعتبر نفسه من كبار الحمقى، لأنه جاء إلى هذه الصحراء الملعونة، وفي اللحظة التالية يتصور نفسه نبياً لموران ولما حولها، لأنه يبشر بدين الغرب، ويريد لهذا الدين أن يعم ويسود، ولا يمكن لأحد غيره أن يفعل وأن يصل. في الليل يمتلئ قناعة أن قومه أرسلوه إلى هنا لكي يتخلصوا منه. وفي النهار يتأكد أن القوة الخارقة التي انتدبته للمجيء إلى هنا، هي ذاتها التي تملي عليه أن ينقل، ليس للأمبراطورية وحدها، وإنما للغرب كله، الأديان القديمة، والتي بدونها لا يمكنهم أن يملكوا أي دين. العرب، بالنسبة له، شاهد حي على أصل الإنسان القديم، ومثل لإِمكانية استمرار الإنسان بحالته الأولى. أما قومه فإنهم مجموعة من المخلوقات الحديثة الصنع ليس لها مستقبل إلا بقدر ما تستطيع أن تمد جذورها إلى الماضي. وبين العرب، ومعهم وحدهم فقط، رغم كونهم خبثاء ومكروهين، يمكن أن يكون هناك دين جديد: الدين القديم بأيدٍ جديدة.

كيف خلق هاملتون هكذا، أو لماذا هو هكذا؟ لا يستطيع أن يجيب إجابة ترضيه، رغم إنه فكّر بهذا طويلاً. يعزو الأمر، في لحظات معينة، إلى الطبيعة. فأن يولد في إحدى مستعمرات الأمبراطورية، وأن يتعرف على شمس الشرق وروائحه، وأن يرى تلك الوجوه الداكنة أو السمراء تطوقه من كل جانب، يجعل بريطانيا بنظره، والقارة كلها، ثم بعد ذلك العالم الجديد، شيئاً مصطنعاً أقرب إلى ألعاب الأطفال.

لا يطيق أن يكون مجرد موظف في جهاز ليس له مهمة سوى تطبيق القوانين وجباية الأموال والضرائب. كما لا يتصور نفسه مجرد جندي، ليس له سوى الرقم والسلسلة، ويحارب من أجل قضية لا يدركها.

إنه يمتلئ حنيناً إلى النور والظلمة اللذين يتداخلان ويتصارعان ويتصادمان لكي يولد منهما ويتكون شيء أكثر صلابة وقوة، وإنسان أكثر ذكاء ونبالة، وجنوناً أيضاً. أما المدرسة التي انتزعته من أقصى الشرق، لكي يصبح في لندن طالباً مجداً بنظر أولئك المدرسين الذين يضعون نظاراتهم على أطراف أنوفهم، ويحشون الذاكرة بكل ما هو جدير بالنسيان،

فقد زادته رغبة أن يكتشف ثقافة بدون مدرسين ولا بلبس النظارات، وخارج أسوار الجامعة، ثقافة تكوّنها الحواس، وتكون أكثر عمقاً وأقل تهذيباً.

قال لأبيه، حين قرر اختيار اللغات الشرقية:

- لا يمكن معرفة الغرب دون معرفة الشرق، ولا يمكن معرفة اللغات الحديثة دون معرفة اللغات القديمة.

وأبوه الذي لا يزال يحن إلى الشرق، ويتمنى من أعماقه أن يكون ابنه امتداداً له، ليس بحاجة إلى هذه المبررات للاقتناع. قال له، ولا يزال هاملتون يتذكر ذلك بوضوح:

- خلق الشرق ليكون ملعباً لخيولنا وفرساننا!

يقول هاملتون: قال أبي الكلمة الأخيرة بطريقة لذيذة، حملت معها كل إرث الأجداد. وكنت فخوراً، لأني من خلال اللغات التي اخترتها، اخترت الشرق. وعرفت أني خُلقت لمهمة عظيمة، ولا بد أن أؤديها بنجاح.

«والشرق»، كما أصبح يردد «ليس مكاناً جغرافياً فقط، أو مجرد ديانات وطقوس، إنه كتلة من العناصر مزجت بطريقة فذة، وربما تدخلت، أو غلبت فيها الصدفة، لكي يكون عصياً على الفهم الأول أو السهل. الشرق بدء الحياة، وربما نهايتها، إذ بمقدار الفرح الذي يفيض أيام الخصب، فإنه مستودع لجميع عذابات الإنسان وهمومه وأحزانه، لأنه ذاكرة البشرية، وهو بؤرة تناقضات الحياة أيضاً. والشرق بقدر ما يبدو هادئاً راضياً يحمل في أعماقه قوة البراكين وجنونها. طفولة البشرية وشيخوختها بتآخ يذكّر بالجد الذي يمسك بيده الحفيد يريد أن يطلعه ويعلمه سر الحياة».

هكذا يقول لنفسه في لحظات معينة. لكنه ليس متأكداً، «لأن اللغة المعاصرة» كما يقول بحيرة «تبدو لينة، رخوة، وبالتالي عاجزة عن إعطاء الفكرة دقتها وشمولها، ومع ذلك، تبقى هذه اللغة وحدها الوسيلة

الوحيدة، أو ربما الممكنة، لوضع الأشياء في سياق من أجل أن تُحدّد لكي تُفهم. ومع ذلك يجب أن نظل في حالة من الانتباه الشديد، لئلا نقع في المصائد التي تنصبها لنا عقولنا الضعيفة، والتي تعودت على الرخاوة والكسل، وأصبحت تميل إلى السهولة والبساطة، لكي تتجنب المعتم والخشن والقاسي. ذلك هو الامتحان الأصعب الذي واجه الإنسان في هذه الحياة، وقلّما استطاع اجتيازه إلا الأقوياء المنذورون لإعادة صناعة التاريخ، ولا بد أن يدفعوا ثمناً، وثمناً كبيراً، من أجل أداء هذه المهمة، وربماعدم الوصول أيضاً!».

لا يتوقف هاملتون عند هذا الحد من المقارنة، يقول لنفسه: «إذا ولد الإنسان في الشرق فإنه يولد للحياة، أي للتجربة وللموت. في الغرب يولد ولديه الحنين دوماً إلى النسيان، ولذلك يلجأ إلى الغضب لكي يمتلك قوة إضافية تساعده على التذكر أو أن ينتهي. فإذا هدأ الغضب أو نام فلا بد أن يلجأ إلى الطبول والمظاهر لكي يخلق في دمائه فرحاً، لكن في مواجهة نسيان جديد.

«في الشرق لا يكابرون. يعتبرون أنفسهم شيئاً من الطبيعة، امتداداً لها، أو شكلاً آخر من أشكالها، ولذلك ينظرون إلى الحياة والموت نظرة تختلف عن نظرة الغربيين. يعتبرون الموت الوجه الآخر للحياة. ومثلما لا يستطيع الإنسان أن يرد المطر أو أن يحجب الشمس، فإنهم غير مبالين، أو لا يتصورون أنهم بحاجة إلى مقاومة الطبيعة أو تحديها. إنهم ينسجمون معها، وأول خطوة هي في أن يفهموها، ثم بعد ذلك، أن يتآلفوا معها، حتى تصبح جزءاً منهم ويصبحوا جزءاً منها. وأكبر خطيئة يرتكبها غير الشرقيين، وبرعونة، هي تلك المحاولات البلهاء من أجل مقاومة الطبيعة، لا من أجل فهمها والتكيف معها. الشرقيون، ولا أقصد الذين يعيشون الآن فقط، أكثر واقعية وأبعد فكراً وإحساساً لأنهم ينظرون إليها بإكبار، يتعاملون معها بمحبة، وحتى إذا أرادوا رشوتها، فإنهم يفعلون ذلك بكثير من الخضوع والتوسل، تماماً كما يفعل الطفل مع أمه حين تغضب عليه، إذ رغم فارق السن، واختلاف النظرة، فإن قدراً كبيراً من الفهم والحنان

يقوم بين الطرفين من خلال طريقة التعامل، وهذا نتيجة الإحساس العميق بالامتداد والتواصل بين الطرفين».

لا يقول هاملتون ذلك بصوت عالٍ، أو أمام الآخرين، لأنه ليس متأكداً من سلامة أو قوة الأفكار التي تدور في رأسه وتعبر خياله. إنها تراوده بمكر، وتتجاذبه بغموض، خاصة وهو يقطع تلك المسافات على راحلته، أو حين يتمدد على الرمل، ويتطلع إلى السماء، والنجوم تتدلى منها كالفوانيس: لامعة، قريبة، ودافئة أيضاً.

لكن فجأة تنطوي صفحة الحلم لتبدأ أخرى ليس لها علاقة بما قبلها. فحين وافق، وبصعوبة، أو هكذا تظاهر، على البقاء في موران، إلى جانب السلطان، فقد نحّى جانباً تلك الأسئلة الحارقة التي تقلقه، وأصبح متأكداً أنه بعمله الجديد لا ينصّب ملكاً وإنما يقيم مملكة من طراز جديد، لأن هذا الشرق الذى يتعبه ويستهويه في آن واحد، يعج بالملوك الصغار، ولا يعني له كثيراً أن يستبدل ملكاً بآخر. ما يريده شيء مختلف، وقد عثر على بداياته، أو توهم، في خريبط، ثم في فنر من بعده.

مرت في ذهنه صور من التاريخ، وأخرى من الواقع، ولم يتأخر، لكي يبدأ. قال في نفسه: «الملوك الذين تقدموا بالسن يحتاجون إلى من يقول لهم كيف يجب أن يعملوا، ليواصلوا الحكم، أما الصغار فيجب أن يقول لهم: ماذا يجب أن يعملوا».

أصبح لخريبط مثل ظله، لا يفارقه ولا يفترق عنه، إلا حين يبلغ البوابة الصغيرة، في ذلك السور الطيني، المؤدي إلى جناح الحريم. وخريبط لا يصدق أن الصاحب وافق على البقاء، ووافق أن يكون قريباً منه هكذا. في رحلاته السابقة، ومع الآخرين، كان يقضي أياماً ثم يغادر. وخريبط يعرف أنه غادره إلى منافسيه، وبعض الأحيان إلى خصومه، لكنه لا يقوى على السؤال أو الكلام. الآن يضع هاملتون بين يدي السلطان كل وقته وذكائه وعلاقاته، بل أكثر من ذلك يتبدى له وحده الصديق الذي يمكن ائتمانه والاستعانة به على كل شيء، وفي كل وقت.

ولأن هاملتون قرأ كثيراً عن الصحراء وبشر الصحراء، يريد الآن أن

يصنع شيئاً عجز عنه الآخرون، ولذلك فإن من جملة ما فعله أن قطع الصحراء العاتية المجهولة من الشرق إلى الغرب، ويخطط لقطعها من الشمال إلى الجنوب، وكان فخوراً أنه فعل ذلك. قضى شهوراً طويلة في مضارب البدو يسمع منهم، ويأكل معهم، ولم يتردد أيضاً في أن يرتدي ملابسهم.

بدت له الملابس العربية، حين ارتداها أول الأمر، مثل الخرق البالية، ثم اكتشف أنها وحدها التي تلائمه وتلائم الصحراء. وتذكر، بحزن، زميلاً سبقه إلى موران، وكيف ظل مكروهاً ويخشى منه لأنه رفض أن يتخلى عن ملابسه، ثم كيف قتل هذا الزميل في معركة حربية خاضها بعصبية، فقط ليثبت لهؤلاء البدو أنه شجاع.

لقد بلغ الأمر بهاملتون أن أدمن الملابس العربية، فلا يستطيع التخلي عنها. أما حين يضطر إلى ارتداء زيه القديم، لكي يمتطي الطائرة ويسافر، فكان يشعر أنه يتنكر. كان يتطلع إلى نفسه في المرآة ويبتسم ثم يقهقه، ويفعل الشيء ذاته أصدقاؤه حين ينظرون إليه بالملابس الإفرنجية.. ويبتسمون!

«الصحراء كالمرأة، بمقدار ما تبدو هادئة، بسيطة، لينة وجميلة، فإنها بحاجة إلى الفهم والتعاطف، لأن لها وجوهاً لا حصر لها. حين تغضب أو تجن تبدو وكأن ليس لها علاقة بما كانته من قبل. وهي في الليل غيرها في النهار. وفي الشتاء تختلف عن الصيف، وعن باقي الفصول. إنها أكثر من ذلك، إنها هي ذاتها ولا تشبه نفسها أبداً. تتغير كل لحظة، تتكون في كل لحظة، عالم في مرحلة التكوين المستمر».

هكذا كان يردد هاملتون لنفسه، لكي يبقى باستمرار شديد التنبه والحذر، ولئلا يطمئن إلى قناعات خادعة ونهائية. صحيح أن الصور والمفاهيم التي ملأت رأسه من قبل اهتزت وتغيرت، بل وأخذ يسخر منها، ويعتبرها تصورات وأوهاماً اخترعها عدد من الأفاقين الأدعياء، وهم من الرخاوة التي كانت تسيطر على أجسادهم وعقولهم بحيث لم يستطيعوا التقدم إلى الأمام، أو أن يقدموا أنفسهم بجدارة إلى الصحراء الحقيقية،

فاكتفوا بتدوين ملاحظات، أقرب ما تكون إلى الأكاذيب، أملتها عليهم خيالاتهم المدوّمة والمليئة بالأفيون، أو طرائف التقطوها من أزقة المدن القديمة، ومن أفواه المخنثين والخصيان، ومن أفواه البغايا، خاصة في مباغي المدن الساحلية، حيث قضوا معظم وقتهم وهم يكتشفون الصحراء!

وبشر الصحراء هم النبات الحقيقي لهذه البيئة، واحد مظاهرها وتجلياتها، إذ رغم البساطة والانكشاف الكامل، فإنهم طبقات من الحراشف القاسية المتينة تراكم بعضها فوق بعض بحيث يصعب معرفتها من النظرة العابرة، أو إقامة صلة معها من خلال التملق. صحيح أنهم يسمعون، لكنهم، في الغالب، يفكرون فيما سمعوه، ويفهمونه بطريقتهم الخاصة. وهم كثيرو الشك، لا يثقون بسهولة، أما حين يقطعون، فإنهم يفعلون ذلك بقسوة وحسم. وإذا أعطوا فإنهم يعطون بسخاء. صحيح أنهم يعطون قليلاً أول الأمر، لكنهم إن فعلوا، فإنهم لا يتوقفون بعد ذلك عن العطاء.

الآن، وبعد أن جال موران من أقصاها إلى أقصاها، وعرف الأماكن والبشر والأشياء، واختبر الذئاب المتنافسة، كتب إلى رؤسائه ما يلي: «... وخريبط يعتبر أصلح المتنافسين، لأنه يعترف بالجميل الذي أسديناه له، وأكثرهم ذكاء واستعداداً، ثم إن القوى التي تسانده، ويمكن أن يحركها، تشتعل بحماسة دينية منقطعة النظير، وهذه الميزة الأخيرة لا تتوافر لمنافسيه، وهي ذات تأثير كبير في موران إذا أحسن استخدامها والاستفادة منها». ولم يتأخر رؤساؤه في تأييد وجهة نظره.

في النهار، في المجلس، يربض هاملتون، كقط، غير بعيد عن السلطان. يستمع، يهز رأسه دلالة الفهم والموافقة، والسلطان يفيض بالأحاديث، لكي يقوي عزائم الرجال ويعبئهم لمعارك قادمة، ولكي يؤكد لهاملتون أنه يملك من القوة والقدرة ما يجعل كل شيء سهلاً، فقط يجب أن يقتنع «الصاحب والخويا»، كما لا يمل السلطان من ترديده.

إذا تكلم هاملتون فإنه لا يتجاوز، في الغالب، سؤالاً أو تعليقاً. ورغم أن الكثيرين لا يتكلمون بحضرة السلطان، إلا إذا سئلوا، أو كان لديهم

شيء هام يقولونه، إلا أن صمتهم يختلف عن صمته. كانوا يعتبرون أنفسهم كتلة واحدة، وبالتالي فإن لسان أي منهم يعبر عنهم، ولذلك لا يضير أي واحد إذا تكلم هو أو تكلم غيره. أما هذا الغريب، الطارئ، فإن صمته يثير الارتياب أكثر من كلامه، ونظراته تجول في الوجوه فتترك في القلوب تساؤلاً مراً: لماذا جاء وماذا يريد؟ لكن هذا التساؤل لا يتجاوز الصدور إلى الألسنة، لأن ثقة السلطان تجعلهم يحارون ويصمتون.

في الليل، وكان السهر يمتد ويطول، فإن هاملتون شخص آخر:

ـ . . . وتعرفون، يا طويل العمر، إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية مضطرة لأن تأخذ بعين الاعتبار ظروف المنطقة وردود الفعل. ورغم أنها تؤيد جلالتكم تأييداً كاملاً، وهذا واضح من خلال المساعدة، ومن وجودي معكم أيضاً، لكن لا تستطيع أن تستفز الآخرين، أو أن تجعلهم في صف أعدائها، لذلك فهي توافق ضمناً، ودون إعلان، أن تتخذوا الإجراءات المناسبة لتصفية المنافسين، كل ما علينا أن نخرج الموضوع بصورة مقنعة ومقبولة.

لقد قال هاملتون هذا الكلام في وقت متأخر، وبعد أن تأكد من أمور عديدة، والسلطان الذي كان ينتظر هذه الموافقة لم يتأخر.

ومع كل خطوة لا بد أن يكون السلطان أكثر إدراكاً لما يقوله هاملتون:

ـ وإذا أمكن ضم هذه المنطقة سلماً، من خلال استمالة القبائل والشيوخ، أفضل من ضمها بالقوة وحرباً. وإذا استطعنا أن نفعل ذلك سراً، أو دون ضجة، أفضل من أن نفعله علناً، أو من خلال إثارة الآخرين.

وشهراً بعد آخر، سنة بعد أخرى، لم يعودا طرفين. أصبحا توأماً سيامياً، جسداً برأسين. فإذا افترقا أواخر الليل، فإن ساعات الليل الأولى، ثم ساعات النهار كلها، تكفي لأن يتحدثا في كل شيء. كيف تفكر بريطانيا، وكيف يفكر أهل الصحراء. ماذا تريد بريطانيا، الآن وفي المستقبل، وماذا يريد السلطان. أما ما تبقى من الوقت فللحديث عن الخيل والتاريخ وأنساب القبائل ومعارك الماضي، فإذا تعبا من الكلام، فإن

المنتظرين، والذين لديهم الكثير ليقولوه لا حصر لهم، عديدون وجاهزون. وحين يتكلمون تبدو الدهشة على وجه هاملتون، ثم يتملكه السرور، ويصبح شديد العجب: «هؤلاء البسطاء المنسيون، الذين لم يتعلموا، كيف يمتلكون هذا الذهن الخصب والذكاء النادر؟».

حين يفكر هاملتون بالأمر يعزو السبب إلى التأمل وصعوبة الحياة، ثم إلى ذلك التراث الخفي، الذي ينتقل من الآباء إلى الأبناء، من الجدات إلى الأحفاد. أما ملكة الحفظ التي تميزهم فإنها نتيجة البيئة والمناخ، لأنه دون حفظ الأماكن ومعرفة الأشياء فإن الإنسان في هذه الصحراء القاسية معرض للهلاك والفناء.

ويهز هاملتون رأسه بإعجاب، وهو يضيف محدثاً نفسه: «والليل في الصحراء، بقمره ونجومه، ثم انتظار المواسم والأمطار، وحتى القوافل، يجعلهم شديدي الاستعداد لأن يفتحوا عيونهم وآذانهم، وحتى أنوفهم، لكي يتلقفوا أي جديد، ويتعلموه بسرعة، لكن على طريقتهم الخاصة».

ويتذكر كيف أصبح نجم «يعرف» الإنكليزية من خلال ملازمة ادورد هيرست، الذي جاء من بريطانيا لإقامة مراكز للتلغراف، إذ لم تمض بضعة شهور، إلا وأصبح نجم قادراً على التفاهم. صحيح أن إنكليزيته متواضعة، وتتخللها الإشارات، لكنها تكفي، لأن هيرست، وبعد ثلاث سنين قضاها في موران، لم يستطع أن يتعلم إلا عدداً من الكلمات العربية لا تتجاوز العشر. وكان ينطقها كالأطفال، وتثير الضحك، أكثر مما تساعد على أن يُفهم!

أما حين استولى السلطان، بعد سنين، على الحويزة، فقد قال له هاملتون:

ـ قرأت في بعض الكتب، يا صاحب الجلالة، أن من يريد أن يضع يده على ممتلكات جديدة، ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها.

والسلطان الذي هز رأسه، وكان منتشياً بنصره، كان يطبق، غريزياً، ما

قاله هاملتون، دون أن يقرأ ذلك في كتاب، ودون أن يسمعه من أحد. وقد عرف هاملتون، في وقت متأخر، أن الأوامر التي أعطاها السلطان بالتخلص من حاكم الحويزة ومعظم أفراد عائلته، قد أعطيت في وقت مبكر!

وفنر لا يكاد يترك مجلس أبيه. ويوماً بعد آخر أصبح موضع اهتمام هاملتون ورعايته. والسلطان الذي يرقب الأمور بعناية بدا مسروراً من هذه العلاقة، لكن حين تذكر عمير، قال في نفسه: «يجي يوم ونصفي حسابنا ويشوف».

«. . . **تربية** مخلوق بشري، خاصة إذا كان قد تكوّن ونما، أصعب من ترويض وحش غير قابل للترويض» هكذا قال هاملتون، عندما طلب منه السلطان أن يعتني بفنر، وأن يبعده عن عمير، وأن يبعد أفكار عمير عنه.

وقال هاملتون: «مهما كانت الخبرة أو القراءة، فإن إنساناً لا يشبه الآخر، يضاف إلى ذلك مدى استعداد الطرف الآخر ورغبته» أما حين فكر بملازمة فنر، وأن يكون قريباً منه، فقال لنفسه: «لا يمكن ملاحظة التغير الذي قد يطرأ إذا كان قريباً جداً، فالمسافة القريبة تجعل الرؤية ملتبسة، لا تميز بين الأمس واليوم».

أما وهو يحاول التفكير بأحسن الوسائل التي يمكن أن يعتمدها، فقد قال وهو يضحك: «إذا كانت التربية تعتمد على الكتب والمعرفة النظرية، فإن احتمالات الفشل أكثر من احتمالات النجاح! خاصة إذا بدأنا الكتب من الصفحة الأولى!».

هكذا بدت اللعبة محيرة لهاملتون. وهكذا استمرت خلال فترة غير قصيرة من علاقته بفنر. فهذا الصبي ليس عادياً، بأي مقياس. كما أن التأهيل الذي يحتاج إليه يجب أن لا يكون عادياً، لأنه مشروع ملك أو سلطان. وإذا كانت تربية الملوك أو أولادهم عملية متعبة ومملة، حتى في البلاطات العريقة، والتي تنوء بالتقاليد الصارمة، فإن تربية الملوك في الصحراء المكشوفة، والمعرضة للرياح من الجهات الأربع، تصبح مغامرة محفوفة بمخاطر لا نهاية لها. فإذا أضيف إليها أن ذلك الصبي مملوء بالحذر الأقرب إلى الخوف والتوجس، كأي بدوي مسن يقابل عالماً جديداً

وغريباً، مع هذا الكم الهائل من الابتهالات والبخور والسحر، وتلك الرؤى التي تتخفى بأشكال لا حصر لها، نتيجة الوحدة والتأمل والحزن، وأخيراً المرض، وما يخلفه من مشاعر الألم والكراهية، فإن هاملتون يراهن على قضية خاسرة بكل تأكيد، وهو بموافقته على أن يقوم بهذه المهمة، وكأنه يريد معاقبة نفسه، ربما كتكفير عن شيء دفين، لكنه لا يريد أن يعترف بالخسارة في وقت مبكر.

خلال فترة طويلة، وبأساليب لا حصر لها، حاول مع فنر، لكي يحمله على الكلام، كما يوصي علماء النفس: كيف كانت حياته في عين فضة. ماذا يحب وماذا يكره. هل يحب أباه أم يكرهه. وعشرات الأسئلة التي كان يلقيها، وتبدو بريئة، وكأن اللحظة أملتها، فكان يتلقى الصمت جواباً، أو ابتسامة صبي ماكر، وفي حالات قليلة كلمات محدودة تزيد حيرته وارتباكه.

ولم يعترف هاملتون بالهزيمة ولم يسلم.

أما أن يفصله عن خاله عمير، كما اتفق مع أبيه، فقد حقق خطوة قد تقربه من النجاح. فالسلطان الذي أرسل لعمير من يبلغه أن بقاءه في موران ليس ضرورياً، والأفضل لمصلحته أن يسافر إلى عين فضة، فقد قابل عمير هذا الطلب، أول الأمر، بعدم الفهم، ثم بعد ذلك بالنسيان. ولما توالت رسائل السلطان، وكانت أكثر وضوحاً، هز عمير رأسه بالموافقة، وقال لطالع العريفان، وكان آخر رسل السلطان إليه:

ـ أمر طويل العمر على العين والراس يا طالع، بس الولد ما ينترك للكفار والخصيان.

طالع نقل للسلطان، حين سأله متى يسافر عمير، إجابة مختلفة، قال له وعيناه إلى الأرض:

ـ قال، يا طويل العمر: أمر جلالته على العين والراس، بس لو أحد يدير باله على فنر.

وبعد قليل، وهو ينظر إلى السلطان:

ـ وظني، يا طويل العمر، أن عمير آخذ على خاطره.

ـ الولد ما يربى بالدعا وبرفع اليد للسما يا طالع. الولد يلزمه يعرف الدنيا ويعرف الناس. يلزمه يحارب بيده وأسنانه، وفنر ابن سلطان، ما هو ابن شيخ مسجد.

ولم تتأخر جدته في المجيء إلى موران. وبدا أنها جاءت لتبقى، وكان يروق لفنر أن يقضي معها وقتاً طويلاً. وحين اضطرت، بعد عدة شهور، للعودة، لأن الجد مريض، جاءت بعد أسابيع خالته مزنة.

وحتى عمير الذي غاب فترة طويلة، وكاد ينساه الكثيرون، فقد أصبح يتجر بالإبل في هذه الفترة، وهذا يضطره لزيارة موران بين فترة وأخرى، كما يقول، وأن يقضي فيها شهوراً لمعرفة السوق!

إذا غاب خاله وأقاربه لأمه، فموضي لا تغيب. والذي نسيت الجدة أو مزنة أن تقوله، أو أن تعيده على مسامع فنر، فإن موضي لا تنسى. تقول لها خالتها بمداعبة:

ـ ما أحد يصدق أنك تعرفين هذي السوالف كلها!

ـ وأعرف غيرها وغيرها، يا خالة.

هكذا كانت ترد موضي، وتعني أنها تحارب في أرض تعرفها، وأنها تواجه أعداء غير مموهين!

قال هاملتون للسلطان ذات ليلة:

ـ الطريقة الأفضل، يا صاحب الجلالة، أن يسافر، لأنه إذا تغير المكان يتغير الإنسان. وفنر في هذه السن بحاجة لأن يتعرف على البلدان الأخرى، وأن يرى العالم.

أبدى السلطان تخوفه من الفكرة، واعتبر أن الأمر لم يصل إلى هذا الحد من الضرورة، قال، وهو يهز رأسه:

ـ نسفّره هنا أو هنا، يا الصاحب. يروح للقنص، أو يسيّر على جماعة من جماعتنا، أو يروح يحارب.

ـ الأفضل أن يسافر إلى بلدان أخرى، لتتغير نظرته ويكتشف العالم، لأن هذه الطريقة تغيره.

ـ ويسافر مع من؟

ـ أنا أسافر معه، يا طويل العمر.

ـ وتتركنا؟

ـ لا بد أن نتشاور مع لندن في أمور كثيرة تهم جلالتكم، وأن نصل إلى حلول مناسبة، وهذه لا تتم بالمراسلة، يا طويل العمر، يجب أن تبحث مباشرة، وأن نصل إلى قرارات.

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ومن الأفضل أن يكون إلى جانبي ممثل عن جلالتكم، وسيكون هذه المرة فنر.

قال السلطان بانفعال:

ـ فيك البركة يا الصاحب. أنت صرت واحد منا، وتمون، وتعرف كل المشاكل والهموم.

ـ فرصة لفنر لكي يتعلم ويرى.

وبعد تردد لم يطل وافق السلطان، خاصة وأن هناك مشاكل عديدة معلقة، وقد طال انتظار حسمها.

قال عمير عندما عرف بسفر فنر:

ـ كنا خايفين عليه من كافر، هالحين أخذوه لديار الكفر.

موضي مرضت لأن فنر سافر، لكن والدها السلطان قال لها بحزم أقرب إلى التأنيب:

ـ ويلزمك تعرفين: فنر رجال، ما هو حريمة، وإذا راح اليوم يرجع ثاني يوم، وما أريد أسمع كلمة.

أما لفنر، وهو يودعه، فقد قال:

ـ وتسلّم لي على ملك الإنكليز، وتقول له: أبوي يسلم عليك كثير كثير السلام!

بعد سنوات طويلة قال هاملتون:

ـ تعمدت أن يكون السفر بالباخرة، لأنه يتيح لنا وقتاً طويلاً يمكن خلاله أن نتحدث، ويزول خوفه أو تحفظه، ونصبح بالتالي أصدقاء. كنت أريد لهذه النقلة الكبيرة أن لا تصدمه. فأن يتشربها على مهل، أن يتملى بها، تترك في قلبه وعقله أثراً لا يزول. فالتوقف في الموانئ، والنزول فيها، ثم ركوب القطار إلى لندن، يجعله أقدر على تحمل جرعات الدواء المر. لكن ما كاد يركب البحر حتى مرض. التوى عنقه وبرزت عيناه. تصورت خلال مرحلة من السفر أن الصبي سيفارقنا. لمت نفسي كثيراً، وتشاءمت. فهؤلاء البدو الذين يظهرون مقداراً كبيراً من الطيبة والتسامح لا يتساهلون إزاء موت يعتبرونه غير طبيعي، وهم كثيرو الشك بكل ما ما تقوله لهم، بل ويصابون بالجنون، ولا يستردون وعيهم مرة أخرى إلا برائحة الدم، ولا بد أن يثأروا. بذلت جهداً استثنائياً، وقضيت أسبوعاً في الإسكندرية، إلى أن استعاد الأمير صحته. ولا أعرف كيف ركبني الشيطان مرة أخرى، قررت أن نواصل السفر بالبحر. ربما كانت هذه الحماقة ضرورية! فما كدنا نعبر جزر بحر إيجه، ونتجه غرباً، حتى أصبح الأمير مثل قط أليف. هل هو الشعور بالغربة؟ اختلاف اللغة؟ الريح الشمالية التي تهب من أقصى بقاع الأرض، والتي تختلف عن رياح الصحراء؟ إن شيئاً ما قد حصل، فبعد ذلك الهرب، الأقرب إلى النفور، وبعد المرض الغامض، والذي لم يجد له طبيب الباخرة، ولا أطباء الإسكندرية، سبباً، أصبح يقبل عليّ وفي عينيه ذلك الرجاء: ألا أتركه.

كنت أنتظر هذه اللحظة، وقد جاءت، ومنذ ذلك الوقت لم أتخل عنه!

فنر لا يحب أن يتحدث عن رحلته الأولى إلى لندن، أنها تجرحه، أو تسبب له ضيقاً، حتى بعد مرور السنين. إذ رغم كلمات هاملتون المشجعة، وابتسامات الذين زارهم، فقد ظل خائفاً. كانوا ينظرون إليه بطريقة لم يرتح لها أبداً. وكانوا يتبادلون فيما بينهم النظرات والكلمات ويبتسمون. وهو لا يعرف: هل يرد على ابتساماتهم بمثلها، أو يرد على الأسئلة، خاصة من النساء المسنات، والتي كانت تسبب له حرجاً لم يكن قادراً على إخفائه.

خاله عمير الذي خاف، أول الأمر، من تلك الزيارة، لم تعد له شيئاً يذكر، نظراً لما جاء بعدها. ففي فترة لاحقة أصبح يرد على الذين يسألونه في عين فضة عن فنر وأخباره، مع ابتسامة حزينة وهزة رأس:

ـ يا جماعة الخير: ابن الناس، أو غرض الناس، موكل عليه إبليس، وخريبط من يوم ما حط يده بيد الكفار، وسلمهم أولاده وعياله، ترى ما عاد بالدنيا خير.

وحين يعاودون السؤال عن فنر يرد بنزق:

ـ وفنر، إذا الله سلمه، يرد لأخواله، لأن ثلثين الولد خاله، مثل ما يقولون، وظني أن فنر ما ينسى مية عين فضة، والرحمان إذا دخل قلب البني آدم ما أحد يقدر يطلعه منه.

كان عمير يقول هذا الكلام، وبهذه الطريقة، لأن السلطان طلب منه، وبكلمات واضحة، وتخللها لحظة غضب، أن يترك فنر. قال له، بعد أن عاد فنر من زيارته، وجاء عمير هذه المرة للإقامة بموران من جديد:

ـ اسمع يا عمير، اسمع وتفطن زين، فنر ابنّا، ويربى بشورنا وبمعرفتنا. إذا طلع زين يطلع لنا، وإذا طلع شين حنا مسؤولين. والرجال إذا عنده سالفة، ويريد يعلمها لغيره، يعلمها لأولاده.

وبعد قليل، وقد أصبح السلطان ضيق الصدر:

ـ ودوخة راس يا عمير ما نريد، عندنا منها واجد، وكل واحد يدوّر اللي يفيده.

تهاني لا تتذكر من سفرة فنر إلى ديرة الكفر سوى شيء واحد: السبحة الزرقاء التي جلبها معه، ولا يعرف ما إذا كانت هدية لها أم للشيخة، فقد قيل، في البداية، انها لأمي زهوة، وقيل، بعد ذلك، أن الشيخة رفضت أن تمد إليها يدها، لأنها غير طاهرة. أما تهاني فتؤكد أن فنر قدمها إليها في اليوم التالي لوصوله، وقال إنها فيروز أصلي. أما للشيخة فقد جلب لها شالاً رمادي اللون ظلت تلبسه سنوات وسنوات. ولم تنس تهاني أبداً ذلك. أما حين فقدت السبحة، فقد شعرت بحزن شديد، وتفسر لولوة

حزنها بسبب ما ذكر عن قيمة السبحة، وقيل إنها عرضتها خلال فترة للبيع!

خزعل تأخر أياماً عن رؤية فنر بعد عودته. تعمد أن يبقى يومين إضافيين في وادي الرها، القريب من موران، بحجة أن مصالحة بين اثنين من الشيوخ المتخاصمين لم تنته، رغم أن المصالحة، كما يؤكد العارفون، تمت قبل وصول فنر بيوم واحد. علق خزعل على الكلام الكثير الذي نقل إليه حول سفرة فنر، وما رآه من عجائب، وما اكتسبه من خبرات، بحركتين وكلمة. فالحركات كانت طرقعة متقنة بلسانه، والثانية هزة من يده الكبيرة، إذ دارت في الهواء لتعطي معنى عدم الأهمية، أما الكلمة الوحيدة التي قالها فكانت:

- خرطي.

وموضي أيضاً لم تكن مهتمة أن تعرف أية تفاصيل حول سفرة فنر، كانت تريد عودته، وها قد عاد. ظلت ترقبه غير مصدقة، ورغم محاولته أن يهرب من نظراتها، وشروعه في الحديث عن ركوبه البحر، ورؤيته أشياء كثيرة، لكن حيث همت الدموع من عينيها، وكانت دموعاً هي خليط من الفرح والحزن، فقد احتضنها، ثم بدأ يسألها عن أخبارها وصحتها، وأخبار قصر الروض وعين فضة.

السلطان وحده لم يستطع أن يخفي فرحه وإعجابه. كانت لديه أسباب كثيرة لهذا الفرح، وكان إعجابه يزداد بالصاحب وفنر. أما حين تأكد من التفاصيل، وقد سأل هاملتون أولاً، ثم عرف كيف تم استقبال ابنه في البلاط الإنكليزي، وحفلات التكريم التي أقيمت له في كل مكان زاره، ثم الهدايا التي حملت إليه، والأسئلة التي وجهت للاثنين، وكلها تدور حول صحة جلالته، والصداقة التي تكنها حكومة صاحب الجلالة البريطانية لسلطان موران، والآمال المتوقعة من خلال التعاون بين البلاطين، بعد أن تأكد من ذلك، بدا شديد الفرح، واضح الانفعال. وفي الليلة ذاتها، وبعد أن ودعه هاملتون عند بوابة السور، طلب من فنر أن يرافقه، وأن يعيد على مسامعه تفاصيل الرحلة «من يوم ما تركتم موران، إلى أن رجعتم، يوم بيومه». وفنر الذي أعاد ذكر ما سمعه من هاملتون، في تلك الليلة بالذات،

لكن بطريقته الخاصة، وبمقدار ما فهم، أضاف تفاصيل أخرى حول الباخرة الكبيرة، وأمطار لندن، وعظمة القصور، وسفور النساء، وكان السلطان مسروراً بالغ السرور، ويردد كلمات بذاتها: «تعبنا ما راح، والجماعة يصدقون» وبعد قليل: «أي نعم التعب ما راح، والجماعة يصدقون».

ولم يسترسل السلطان في الفرح، فقد كان عقله يعمل على الأرض: ماذا يجب عليه أن يفعل غداً، وكيف يتعامل مع الآخرين، ومن هم أصدقاء اليوم، ومن هم الأعداء. لقد جاءه هاملتون ببشائر كثيرة، وعليه أن يعرف كيف يصل إليها وكيف يحافظ عليها.

قال السلطان لمهيوب:

ـ . . . ويلزم تعرف، يا مهيوب: ترى الخيل إذا طال قعادها تبغّل!

وحين هز مهيوب رأسه موافقاً ومنتظراً، تابع:

ـ وهالحين راح نطلّع حيفنا وحيفها. الضامرة، بنت الأصايل، ما ينخاف عليها، والمضربة، أما تشيلنا أو نتركها طعام للنسور. ويلزم تحضر نفسك وتخبر أهلك، لأن سفرتنا هذي المرة راح تطول، يا مهيوب، وعسى أن الله يرجعنا غانمين.

قال طالع العريفان:

ـ يا ناهي، يا ابن الفرحان، طويل العمر تحزم وتلزم، وشدوا روسكم يا قرعان. هالحين بلشتنا مع الحريمات والعجيان.

وبعد قليل، وهو يضحك:

ـ وإذا سفرته طالت، يا مبارك، هنا الواحد منا اصقى، ما يسمع إلا اللي يريده، تسمعني زين يا ناهي؟

رد ناهي وهو يقهقه:

ـ شنهو اللي تقوله؟

وبعد قليل، وقد تغيرت نبرة الصوت:

ـ مهما طالت، يا أبو جازي، ترى الحريمات ما ينسن، وما يغفرن،

فاحرص وتوق، وعسى يعود غانم، لأن إذا غنم ما يتذكر إلا غنمه، وإذا خسر يبلش بأقرب الناس إليه.

وما كاد الشتاء يقترب من نهايته وتبدأ أولى بشائر الربيع، حتى بدأ السلطان واحدة من غزواته الكبيرة، وكان يؤمل منها الكثير.

كان مع السلطان، في تلك الغزوة، عمه دحيم وابناه: خزعل وفنر. أما الصاحب فقد تأخر أسبوعين في موران، لأشغال طارئة، على أن يلتحق بالحملة، بعد ذلك.

واضطربت موران من أقصاها إلى أقصاها، ولم يبق أحد إلا وشارك فيما يجري. النسوة تملكهن الخوف، الخوف من الجوع ومن فقد الرجال، وقد عبرن عن ذلك بصوت عالٍ، لكن بمرور الأيام، وتزايد الإِصرار على الحرب ثم اقترابها، فقد غرقن في الصمت. والصبية الذين اقتربوا من سن الشباب ـ وقد اضطر آباؤهم لإبقائهم عند الأمهات والأخوات، لخوفهم عليهم، ولأنهم لم يكونوا واثقين من الوعود التي أعطيت لهم ـ شارك هؤلاء الصبية أكثر من غيرهم في تنظيف وتزييت البنادق الجديدة، وإعداد مجاند الفشك، أما الأسلحة القديمة التي استبقيت في البيوت فقد أعادوا فكّها وتركيبها مرات لا عد لها، ثم جربوها، وبرع عدد منهم بالتصويب. جرى كل ذلك دون أن يعرف الآباء، ودون أن تحس الأمهات، وبلغ الحماس بالكثيرين حداً جعلهم يطالبون أن يسمح لهم بالمشاركة في الحرب!

خدم القصر الذين يعرفون أكثر من غيرهم، وكانوا يرقبون ما يجري، قالوا بثقة: الشيخة فتحت خزاينها وطلّعت ذهبها، وقالت لخريبط: «هذا يومك يا أبو منصور... إذا تريد الذهب فهذا هو الذهب، وإذا تريد السلاح السلاح يجي بالذهب، ما عليك إلا أن تؤمر وتغرف، والناس تنتظر كلمتك، حتى تمشي تحت رايتك» والسلطان لم ينتظر: غرف من الأموال كل ما يستطيع حمله، واشترى من السلاح حمل ألف بعير!

بعض الذين يعرفون مزاج السلطان ورغباته، كانوا على ثقة أن للشيخة علاقة بالأمر، لكن لا يعرفون إلى أي حد. فأن يصطحب وطفة معه في هذه الحملة، وأن تصبح وطفة أحب النساء إليه، فلا بد أن تكون الشيخة

هي التي فرضت ذلك، ومما ساعد على انتشار هذه الأخبار أن ثلاثة من خصيان القصر، وكانوا من خدم فضة، أكدوا أن سيدتهم كانت تستعد لمرافقة السلطان، وقد هيأت كل شيء لتكون معه، إذ أمرت بحزم الخيام، وجهزت أنواعاً من الحنة والبخور، وأوصت على خمسين زوجاً من صغار الحمام، إضافة إلى كل ما كان عندها في الأقفاص، كما جمعت ما استطاعت جمعه من العسل، وبدت في نظر زوارها وكأنها تستعد لولد جديد أو لسفر. ونقل عن الخصيان الثلاثة، وقد قالوا ذلك وهم لا يخفون ابتساماتهم، أن السيدة كانت تصحب زائراتها لكي تريهن الحمام، أكثر من رغبتها في أن تريهن ما عندها من الجواهر والملابس، كما كانت تفعل من قبل. وأكد واحد من هؤلاء أنه رآها أكثر من مرة تتوقف عند أقفاص الحمام وتضحك بصوت عالٍ، تماماً مثل أية فرس حائل. وكانت تبدو سعيدة إلى أقصى حد!

لكن فجأة يتغير كل شيء، ويترافق ذلك مع الصمت، وكأن شيئاً مفاجئاً حدث، لأن السلطان بدا مختلفاً بسلوكه وملابسه وعلاقاته مع الناس، الابتسامات يوزعها أينما سار. الأموال تدفع بسخاء، الأسلحة الجديدة ومعها الذخيرة تعطى دون سؤال عن الأسلحة القديمة، أما الوعود فلا حدود لها ولا تتوقف!

سوق الحلال امتلأ بالإشاعات وكلها تؤكد، أن أسعار الجمال سترتفع إلى عشرة أمثالها.

وبالغ عدد من سماسرة السوق وقالوا إنها سترتفع إلى عشرين أو ثلاثين مثلاً. أما من يملك حصاناً ويريد بيعه فسوف يصبح غنياً بكل تأكيد.

وعشرات الأمور الأخرى حصلت أو تغيرت. فحملة وادي الغيض مليئة بالأخبار المتناقضة، والتي تصل أغلب الأحيان إلى حد التعارض الكامل، إذ رغم الأسلحة والإعداد، فقد قيل إن السلطان فكر بإلغائها أو تأجيلها، لكن فجأة دُقّت طبول الحرب وسار الجند إلى الجبهة. وفي وقت لاحق قيل إن السلطان كاد يقتل، إذ اكتشف في الليلة السابقة لمعركة

الحويزة مؤامرة لاغتياله، فتولى بنفسه إعدام خمسة من المتآمرين. وقيل إن الهزيمة كادت تقع في معركة القلعة، وهي واحدة من المعارك المهمة، وكان من الممكن أن تقرر مصير الحرب، أو ربما مصير السلطنة، لولا وصول إمدادات كبيرة من الأسلحة، ومن المقاتلين الأشداء. أكد الذين رأوا أو عرفوا بوصول المقاتلين، أن هؤلاء تولوا، وحدهم، مشاغلة العدو، أول الأمر، ثم إلحاق الهزيمة به، إلى أن استطاع السلطان أن يعيد تنظيم قواته. وقيل إن هذه القوات انسحبت بعد المعركة، دون أن يعرف الكثيرون من أين جاءت أو إلى أن ذهبت.

عدد من الذين كانوا يعملون في النقل والتموين، رأوا الشيخة زهوة ضمن قافلة كبيرة، وصلت على عجل، وكان معها الصاحب أيضاً، وقد اتجهت شمالاً، وخيمت على مسافة تبعد نصف يوم عن القوات الأساسية للسلطان. وأكد الذين رووا الأخبار أن القوة بوصولها قلبت الأمور وغيرت النتائج، وقد رجعت القوات بعد ثلاثة أسابيع، واتجهت غرباً، لكن لم يعرف ما إذا رجعت الشيخة مع القافلة أم لا. ولم يستطع أحد أن يحدد أو يؤكد دور الشيخة في هذه المعركة!

الأمير خزعل وقع في كمين، وقد أخذ أسيراً إلى قلعة الرفيعة، وحجز هناك، وبدأت مفاوضات بين عويد المشعان والخاطفين استمرت ثلاثة أيام من أجل إطلاق سراح الأمير خزعل. السلطان، حين بلغه الأمر، أبدى تساهلاً كبيراً، طلب أن تستمر المفاوضات مع الخاطفين، وأن يطيلوا أمدها، مع استعداد للاستجابة للمطالب، إلى أن تمكن من الانقضاض عليهم وتحرير خزعل.

وحول هذا الأمر تضاربت الأخبار والروايات. كثيرون على قناعة أن همّ السلطان كان الانتصار في المعركة أكثر من تحرير الأسرى، بمن فيهم خزعل. وغيرهم قالوا إن عدداً من جنود العدو تواطأوا مع السلطان، وقيل مع خزعل. بعد أن أعطاهم مبلغاً من المال. وهذا مما سهّل احتلال القلعة وتحرير الأسرى. أما الذين لا يحبون خزعل، فقد كانوا على قناعة أن الحظ والحظ وحده، هو الذين لعب دوراً في إنقاذه، لأن أوامر السلطان

بهذا الخصوص كانت واضحة: «دمروا القلعة»، وحين سألوه عن الأسرى، ردد نفس العبارة: «دمروا القلعة».

فنر كان ضمن المجموعة التي يقودها العم دحيم، وكانت مهمة هذه المجموعة مشاغلة العدو، إضافة إلى كونها الاحتياطي الرئيسي للقوات. طلب السلطان من هذه القوات أن تستعد انتظاراً لأوامر جديدة، إذ كان يريد أن يستعين بها عند الضرورة، من أجل الضربة القاضية والأخيرة، لكي لا يعزى لغيره تحقيق النصر!

لم يكتف السلطان باستنفار هذه القوات، فقد نقل قيادته إلى مواقع متقدمة، وتولى بنفسه إصدار الأوامر، وقيل أنه طلب من ابن مشعان أن لا يرحم أحداً في طريقه من رجال العدو، وقد سمعه بعض رجاله وهو يخاطب ابن مشعان، إذ قال له بالحرف الواحد:

ـ اذبح وامش يا عويد، ما نريد أسرى.

وحين أوعز لقوات الاحتياط أن تتقدم، كلفها وحدها، وكانت على رأسها عمه دحيم، أن تقبل مفاوضة سكان الحويزة، على أن يتم الاستسلام للسلطان ذاته. أما أثناء زحفه من الجهة الجنوبية تجاه الحويزة، فقد دفع عدداً من عيونه لكي ينشروا أخبار عويد وفظائعه، وأنه لا يضمن سلامتهم إلاّ الاستسلام للسلطان. وقد قبل فعلاً استسلام حاميات عدة وبلدات وهجرات كانت في طريقه.

الصاحب الذي ظل طوال الفترة الماضية في الخطوط الخلفية، وقد تنقل عدة مرات بين السلطان وعمه دحيم، وقائد الجند ابن مشعان، حاملاً رسائل وأوامر وذخائر، رغب في هذه الفترة أن يشارك في المعركة، رغم الاتفاق السابق الذي جرى بينه وبين السلطان على البقاء في المؤخرة، وهذا ما جرى تأكيده حين انتقلت القيادة إلى مواقع متقدمة. لم يكتف هاملتون بأن يرسل للسلطان من يعلمه برغبته في الانتقال، إذ انتقل فعلاً. ولما بلغ السلطان وصول الصاحب إلى هذه النقطة المتقدمة، وكان في ذلك الوقت يحكم حصاره على بعض المواقع المؤدية إلى الحويزة، استشاط غضباً، وبعث بمهيوب ومجموعة من رجاله لمنع الصاحب من

التقدم أكثر مما فعل، إذ كان يخشى من هجوم معاكس، ويريد من الصاحب أن يبقى قادراً على الحركة، وأن يلعب دوراً يتجاوز دور الجندي غير الحاذق، والذي يمكن أن يقوم به، وبكفاءة أكبر، أي من جنود جلالته، كما أنه تذكر كيف قتل فولر قبل بضع سنين، حين أصر على المشاركة شخصياً في معركة الرحيبة. كانت خسارة فولر فادحة، وقد سبّبت للسلطان آنذاك ألماً وحزناً، جعله لا يفارق خيمته لبضعة أيام. لا يريد الآن أن يخسر الصاحب أيضاً، ولا يريد أن يلخص دوره إلى مجرد فرد يحمل بندقية.

هاملتون الذي استجاب بضيق لرغبة السلطان بأن لا يتقدم أكثر مما فعل، كان بشوق عارم للمشاركة في المعركة الأخيرة، والمتوقعة بين يوم وآخر، لأنه يريد أن يعيش لحظات الخطر، كما كان يقول لنفسه، ويريد أن يشهد أيضاً سقوط الحويزة، ومثل هذه اللحظات لا تتكرر كثيراً في حياة الإنسان. كما أنه ملّ تلك الأدوار المبهمة بنظر الآخرين، والتي يقوم بها في الخطوط الخلفية. يريد الآن أن يدلل على شجاعته وبراعته، ويريد أن يقول لكل إنسان، الآن وفي المستقبل، أنه شارك فعلياً في الحرب. وفي لحظة انفعال تمنى لو يجرح، ليكون الجرح علامة لا تفارقه مدى الحياة، وشهادة أمام عيون الذين قد يتطاولون عليه!

في حالات كثيرة كان يحس أن المسافة التي تفصله عن هؤلاء البدو لا يمكنه اجتيازها أبداً. لم يكونوا يعتبرونه غريباً فقط، كانوا ينظرون إليه بارتياب، وكان يرافق ابتساماتهم شيء ظل بالنسبة إليه عصياً على الفهم أو التفسير، وهذا ما يعذبه صحيح أنهم يظهرون الود، ويستمعون إليه، والكثيرون لا يترددون في أن يتناولوا الطعام معه، لكنه بنظرهم هش، وربما أقرب إلى النساء، أو الأطفال، وكان بعضهم لا يخفي نفوره منه، سواء بالابتعاد عنه، أو بالصمت، رغم الود الذي كان يبديه نحوهم والخدمات الكثيرة التي يقدمها لهم.

هذه المشاعر والمواقف كانت تعذب هاملتون، تجعله دائم الإحساس أنه غريب وزائد، وأن لا أحد يحبه أو يريده. ومع تفتح الطبيعة وتغير النوء

يحس أن جسده لا يطاوعه، إنه يتمرد عليه ولا يمكن التحكم به من جديد، خاصة بعد مرور فترة طويلة لم يلتق خلالها امرأة، إلا من خلال عمل عنيف، وليس أكثر من الحرب عنفاً يمكن أن تعيد له قدرته على ترويض جسده.

أحس السلطان، رغم انشغالاته الكثيرة، أن الصاحب لا بد أن يصيبه الجنون، تماماً كما حصل لفولر، ولذلك لم ينس أن يوجه إليه عمه بعد عودة مهيوب بيوم أو يومين. قال السلطان لعمه:

ـ . . . ومثل الكباش، يا طويل العمر أو مثل الكلاب، إذا ما صبّيت عليها الماء تظل هايجة وما أحد يحلّها. أتذكر خويه قبل كم سنة، هاش وعنفص، وحنا نهدّيه: يا ابن الحلال، يا صاحب، وابد، اندفع مثل الثور، وبعدها صار اللي صار.

استراح، تذكر، ثم تابع:

ـ ويلزم أن تقول له، أن توصيه، يا عم، لأنّا نريده لسوالف ثانية أكبر من هذي.

ـ وكل الله يا ابن آخي، وما يصير إلا كل خير.

مع دحيم كان هاملتون واضحاً:

ـ . . . ومثل هذه المعركة لا تحصل إلا مرة واحدة، ولا يمكن الكتابة عنها وتسجيلها إلا إذا أتيحت لي فرصة مشاهدتها، والمشاركة فيها.

ـ يا صاحب. . الجماعة طرشوا لنا مراسيل وقالوا: إذا أمنتم حياتنا وكرامتنا رمينا سلاحنا، والأمر أمر طويل العمر.

ـ ولماذا لا يريدني السلطان أن أكون إلى جانبه، وأن أشهد استسلام الأعداء وسقوط الحويزة؟

ـ طويل العمر يقول الجماعة غدارين، ويعرفون أنك أنت عدوهم، ويخاف طويل العمر من حماوة الدم، يمكن واحد تطقّ برأسه ويسوي اللي ما يتسوى.

لم يفطن هاملتون إلى هذه النقطة بالذات. قال لنفسه «إذا تبارى البدو

والثعالب في المكر فإن الثعالب لا تجد ما تفعله بوجودهم».

أخيراً تم الاتفاق، وبعد جهد، وقد تخللته لحظات غضب وصمت، أن يتقدم هاملتون، لكن شرط ألا يشترك في معركة.

كتب هامتلون بعد ذلك بسنوات طويلة:

«قضى السلطان مساء الثاني من أيار في الاستعداد للهجوم على المدينة والاستيلاء على حصنها العظيم، مصدراً تعليماته الموجزة بصدد كيفية تنفيذ الخطة، وكانت فصائل من جيشه قد قامت بقطع أشجار النخيل، في واحة صغيرة قريبة، وأخذوا يصنعون منها ما يشبه السلالم للتسلق. بينما وزعت حبال الآبار التي كان يحملها الجميع على أفراد فرقة المتسلقين، كي يدلوها من أعلى الأسوار، حين يبلغون أول هدف من أهدافهم.

وبدأ الزحف مشياً على الأقدام في منتصف الليل، فلم يبزغ الفجر حتى كانت الحبال على الأسوار، فقد تمكن المتسللون من اخراس بعض الحرس النيام إلى الأبد. وقبل أن تفيق الحامية نفسها من الذهول الذي أصابها في الظلام كانت القلعة في أيدي جنود السلطان، فانسحب المدافعون إلى الجامع، وتحصنوا هناك في انتظار ما يجد من التطورات.

وفي هذه الأثناء استولى جنود السلطان على إحدى بوابات المدينة فتدفقت قوات خريبط للداخل، يطلقون الرصاص ويرددون هتافاتهم الحربية، لتزيد من قدر الذعر الذي تملك السكان، وتحمل العدو على الاعتقاد بأنه لا أمل لهم بالنجاة.

ثم إن جنود خريبط أسروا عدداً من الأعداء، فأرسلوهم إلى القائد ليطلبوا منه الاستسلام، ولكي يبلغوه أن السلطان يضمن سلامة أرواح الحامية، ووجهوا للمحاصرين تحذيراً بتفجير القلعة وهدم أسوارها إذا تأخر استسلامهم..

وحينئذٍ لم يجدوا بداً من الاستسلام، وهكذا سقطت الحويزة».

بعد سنوات طويلة والسلطان يتذكر:

ـ الشهادة لله، يا جماعة الخير.. في الحويزة ما تركت أحد إلا دزيته للصاحب. نشف ريقي إلى أن وافق.

وضحك بصوت عال وتغيرت نبرة الصوت:

ـ وهذول، يا جماعة الخير، لهم طبايع غير طبايعنا، إذا الواحد منهم عاند، إذا قال لا، ما أحد يقدر عليه، وبعد التي واللتيا، والله يرحمه عمي دحيم، تولى أمره، ظل يأخذ ويعطي معه إلى أن وافق يكون بالوجه، وقلت له أطرّش لك كل ساعة طارش وأخبرك بالعلوم كلها، ومن الوجه ظل يتابع بالدربيل، ومن عندنا طارش رايح وطارش جاي، ولما استسلموا بعثت وراه، قلت له تعال، جاء وحوطته بجماعة وحرّصتهم، خوف أن ابن حرام دمه فاير ويسوي لنا سواية، لكن الله سلّم وانتهى كل شيء على خير.. وظل الصاحب بعدها زعلان شهر أو شهرين.. وبعدها بكم شهر سافر وغاب شهرين ولما ردّ تغيرت أمور كثيرة!

لـم تكد تمضي على معركة الحويزة سوى بضعة شهور حتى سافر هاملتون إلى بريطانيا بإجازة طويلة. كان بحاجة ماسة إلى تلك الإجازة، لأنه أحس بالإرهاق نتيجة الجهد الكبير والمتواصل الذي بذله خلال السنين الثلاث الأخيرة، ولأنه وقع فريسة لحالة سوداوية، بسبب الإحباط الذي جعله غير مفهوم. وبالتالي غير مرغوب فيه، من أغلب الذين يحيطون به، مما دفعه لأن يعتبر العمل الذي نذر نفسه له عديم الجدوى. أما زوجته، دورثي، فقد كانت لديها أسبابها الواضحة للسفر «لا أريد لابننا أن يولد في هذا المكان الموحش، والذي يسبّب للإنسان مرضاً لا يفارقه طوال حياته. أريد للطفل أن يولد في مكان طبيعي، وبظروف لا تجعله معقّداً أو حاقداً على أبويه». وهاملتون الذي وافق على رأي زوجته، وبدأ يعد نفسه للسفر، تذكر طفولته في ذلك المكان النائي. صحيح أن الذكريات تبدو غائمة مشوشة، وبعيدة أيضاً، لكنها تركت آثارها على حياته، وها هو الآن يواصل دفع ضريبة الميلاد، كما يقول لنفسه، خاصة في لحظات الندم.

لم يعترض السلطان على سفر هاملتون، ولم يتردد في الموافقة على أن يصطحب معه فنر. كانت لدى السلطان أسباب لا حصر لها: فبعد أن انتصر، وخضعت له الحويزة، داهمته مجموعة كبيرة من الأعباء والمشاكل لا بد أن يتفرغ لها. وكان بحاجة أيضاً إلى الأموال، خاصة المعونات التي وُعد بها، إذ بعد أن دفع له قسم منها توقف دفع الباقي، وليس مثل هاملتون من يستطيع إقناع الجماعة هناك بدفع تلك المعونات، أو ربما زيادتها. الأمر يتوقف على البحث والمتابعة في لندن، لأن المراسلات

طالت، والموفدين الذين جاءوا ووعدوا لم يفوا بوعودهم. يضاف إلى ذلك أنه لا بد من معرفة الموقف الجديد نتيجة معركة الحويزة. هل يتقدم أكثر في المرحلة الحالية؟ هل يوافقون على التخلي عن بعض أصدقائهم السابقين، والذين لم يعودوا نافعين أو قادرين في المرحلة الجديدة؟ هاملتون الذي كان واضحاً وحاسماً خلال الفترة الماضية يبدو الآن متردداً وأقرب إلى الحيرة، أو ربما لا يستطيع أن يقرر، لذلك لا بد أن يتشاور مع رؤسائه.

أما موافقة السلطان على سفر فنر فكانت لها ملابساتها الخاصة، ففي اليوم الثالث من عودة السلطان ظافراً، وما رافق تلك العودة من أفراح وأعطيات لم تشهد لها موران مثيلاً منذ وقت طويل، وصل رسول من عين فضة يحمل خبر وفاة الشيخ عوض. والسلطان الذي استاء للخبر أن يأتيه في هذا الوقت بالذات، أكثر مما حزن له، اضطر إلى اختصار بعض الاحتفالات، وإلى تأجيل زواجه من شما زوجة أمير الحويزة الذي قتل في المعركة!

خلّفت وفاة الجد لفنر وموضي حزناً أقرب إلى الفاجعة، وكأنهما فوجئا، أو لم يتوقعا موته أبداً. وإذا كانت موضي قد فجرت دموعها، أو تركتها تنفجر دون خشية، ودون اعتبار لرأي مَنْ حولها، فإن فنر الذي عاد من حملة وادي الفيض منتعشاً ومتفائلاً، ما لبث أن غرق في الصمت والحزن. وحين أوفد السلطان عمه دحيم لتقديم العزاء في عين فضة، فقد رافقه فنر دون استئذان، لقناعته أنه يقوم بعمل واجب الأداء، ولا يحتمل التردد أو التأجيل.

ولأن تلك الزيارة لعين فضة تأتي بعد بضع سنين من مغادرته لها، وضمن هذه الظروف، فقد جدد عمير أحزانه، وبعث من يبلّغ «أن الأمير فنر جاء لكي يتقبل العزاء ويستقبل المعزين» مما جعل فنر يمدد إقامته مرة بعد أخرى، ، وكأن الحنين إلى هذا المكان عاوده من جديد، أو على الأقل لكي يستقبل الذين جاءوا من أجل تقديم العزاء.

عمير اعتبرها مناسبة ليعلن نفسه رأساً للعائلة، ولكي يعلن معارضته،

أو على الأقل رأيه، في كل ما يجري، وكان نصيب «الصاحب» من الأخبار والملاحظات، وحتى السخرية وافراً! وقد وجد من نقل للسلطان ما يدور في عين فضة، وما يقوله عمير بالذات، وأضاف واحد من الأقرباء الذين شهدوا لقاء ضم وجوه المنطقة وما حولها، أن ثلاثة من معارضي خريبط حضروا هذا اللقاء أو أرسلوا من ينوب عنهم. لما سمع السلطان تلك الأخبار التفت إلى عمه دحيم وقال له:

ـ لما راح عمير لعين فضة قلنا استرحنا. ولما جاء ولدنا فنر لهنا قلنا خلصنا. لكن اللي به عادة أبد ما يتركها يا عم. وهالحين يلزم نفتّح عيونا زين، لأن عمير يريد يشيخ، وناوي على شر، ويلزم فنر يرجع اليوم قبل باكر، لأنه أبد ما يتأمن للذيب أن يسرح مع الغنم!

حين يتذكر فنر زيارته الثانية لبريطانيا، ويستعيد وقائعها، يشعر أنها وحدها التي غيرته، وكانت ضرورية إلى أقصى حد. فالملاحظة التي سمعها من أبيه عن الأحاديث التي دارت في عين فضة، كانت أقرب إلى العتاب، وجعلته يشعر بتأنيب الضمير، إذ قال له أبوه، وهو يبتسم بحزن:

ـ أنت، يا فنر، أملنا بعد الله، ونريدك سيفنا اللي نحارب به، وظني أنك أبد ما ترضى تكون بمكان أو مع ناس يقولون علينا فلاني وتركاني.

وتغيرت لهجة السلطان، صارت أبوية تماماً:

ـ وخالك، يا وليدي، متوهم وراعي تمني، يظن إذا صارت القسمة أنك أنت من نصيبه، وكأن ما يعرف أن فنر ابن أبوه، وأن الدم أبد ما يصير ماي. وهذي الأحلام يلزم يشيلها من راسه خالك، يا وليدي، وإلا صار مثل اللي يزرع طاية!

ولم يترك السلطان الندم يستبد بفنر، خاصة في هذا الظرف، ولذلك فإن اقتراح هاملتون جاء في الوقت المناسب. فأن يسافر فنر لفترة طويلة في هذه الرحلة، لا بد أن ينسى، وخلال غيابه يمكن أن ترتب الأمور من جديد. قال له أبوه بمودة:

ـ الصاحب، يا وليدي، طلب وترجى، أن تروح وياه بالسفر، قلنا له: على خيرة الله. شنهو قولك أنت؟

وخلال بضعة أيام بدأت الرحلة.

الزيارة السابقة كانت ثقيلة، أقرب إلى الواجب. يتذكر فنر ذلك بوضوح. أما الآن، وبعد الأحاديث التي سمعها من هاملتون، فقد أصبح مستعداً. وزادت رغبته حين سمع تلك الأخبار، والتي راجت همساً، عن أسر خزعل. قيل إن العملية دبرها خزعل بنفسه، وقد أثارت من السخرية قدراً يفوق ما أثارته من استغراب، مما حمل السلطان على الغضب والتهديد بأوخم النتائج بسبب هذه الخدعة التي انطلت عليه. ونقل عن عدد محدود من نساء القصر أن الشيخة أخذت في هذه الفترة تتحدث عن فنر بكثير من الحمية والاهتمام، الأمر الذي فسر أنها تريده سلطاناً بعد أبيه. وقد أكدت موضي أنها سمعت ذلك من تهاني، وأضافت أن الشيخة حين سألها بعض النسوة، ممازحات، ردت وهي تبتسم: «كل شي بوقته زين».

العم دحيم لما علم بنية فنر على السفر قال له وهو يربت على كتفه:

ـ الخير فيما اختاره الله...

وبعد قليل، وقد تغير صوته:

ـ وبأيامنا، يا وليدي، وكنا بعمركم، أكلنا قلوب أهلنا إلى أن سمحوا لنا نسافر، والسفر ذيك الأيام شلعان قلب، ما هو مثل هذه الأيام...

هز رأسه عدة مرات، ثم التفت إلى أكثر من جهة ليتأكد أن لا أحد يسمعه سوى فنر:

ـ والأحسن أن تغيب عن الوجه كم شهر بعد سوالف عين فضة!

في اليوم الثالث لوصوله إلى لندن تخلى فنر عن ملابس البادية، بناء لطلب هاملتون، وكان سعيداً أن يفعل ذلك، لكي لا يبدو بنظر الآخرين مجرد لعبة لا يملون من النظر إليها والابتسام. وشعر بحرية أكبر حين اقترح هاملتون أن يقضوا أطول فترة ممكنة في الريف: «الريف الإنكليزي هادئ وجميل. هناك لا أحد يزعجنا، والناس، بعد بضعة أيام، يألفون الزائر ويصبح مثلهم أو واحداً منهم. عكس لندن التي تسلّي نفسها وتتغلب

على ضجرها بالنظر إلى الوجوه، خاصة وجوه الأجانب، وتبتسم بسخرية». فهم فنر جزءاً مما قاله هاملتون، أو بالأحرى فهمه بطريقته الخاصة. فتلك الضجة التي كانت تحيط به في كل خطوة يخطوها، في الشارع، في المطعم، في بهو الفندق، كانت تسبب له الخوف، أو على الأقل الحرج، فهو لم يتعود على مثل هذه الأجواء، ويبدو أنه لن يتعود عليها أبداً.

لم يقتصر هاملتون على ذلك، قال له وهو يبتسم:

ـ ويجب أن تتعلم الإنكليزية. إذا تعلمت الإنكليزية سوف تتفوق على جميع إخوتك، وسوف تفاجئ السلطان وتفرحه إلى أقصى حد، خاصة إذا توليت الترجمة بينه وبين زواره الأجانب!

وفنر الذي فتح عينيه بفضول ودهشة، رد بخجل:

ـ اللغة الإنكليزية صعبة، ولا يمكن أن يتعلمها الواحد إلا في المدرسة. قهقه هاملتون وهز رأسه عدة مرات، وبعد أن هدأ قال:

ـ كل شيء يبدو صعباً في البداية. تذكر زيارتك السابقة إلى لندن، كنت خائفاً، وكنت تسألني كل يوم عدة مرات متى نعود إلى موران. الآن أراك في وضع أفضل، خاصة بعد أن لبست الملابس الأوروبية.

التمعت عينا فنر، وهز رأسه موافقاً. تابع هاملتون:

ـ واللغة الإنكليزية تبدو صعبة في المرحلة الأولى، لكن حين تخصص لها بضع ساعات كل يوم سوف تجدها أسهل مما تتصور.

ـ بدون مدرسة؟

ـ سوف ننشئ أنا وأنت مدرسة خاصة بنا...

ضحك، نظر إلى فنر، ثم تابع:

ـ مدرسة ليس فيها سوى طالب واحد، وعدد محدود من المعلمين. وهؤلاء المعلمون يمكن أن يكونوا رجالاً مسنين، أو أفراد عائلة، أو...

وشرح هاملتون، بكثير من الإغراء، سهولة تعلم اللغة وضرورتها، وأن ذلك سيكون في الريف، ومن خلال الاحتكاك والعيش مع عائلة، وأنه

سيتولى الأمر بنفسه، ولذلك لن تكون هناك صعوبات من أي نوع، خصوصاً وأن الحاجة اليومية تتطلب أن يبذل جهداً لكي يتفاهم مع الناس اعتماداً على نفسه بشكل مباشر.

يتذكر فنر أن السببين اللذين جعلاه يوافق: رغبته أن يتفوق على إخوته، وبالتحديد على خزعل، وأن يفاجئ أباه.

فترة طويلة ومضنية مرت على فنر. وقد تخلل تلك الفترة الارتباك، والرغبة في العودة، والتوقف عن «الدراسة»، إضافة إلى المرض. لكن الطرفين أصرا، والجهد الاستثنائي الذي بذله هاملتون، واستقرارهما خلال الشهرين الأخيرين وحدهما، بعد أن سافرت دورثي والطفل إلى ولز، وسافر المرافقون والحرس إلى موران، بناء لاقتراح هاملتون وموافقة فنر والسلطان. كما أن اختيار مكان أقل رطوبة من الأمكنة الأخرى، كل ذلك جعل الأمور تسير سيراً أفضل. أصبح فنر قادراً على أن يتكلم مع الآخرين، وأن يعبر عن بعض ما يدور في ذهنه. صحيح أن الجمل التي كان يستعملها بسيطة جداً وقصيرة للغاية، لكنها كافية لكي ينقل ما يريد قوله.

ومما ساعد كثيراً في الوصول إلى هذه النتيجة المس ماركو، عمة هاملتون، فعندها كانت المحطة الأخيرة من الرحلة، وأطولها. كانت المس ماركو أروع النساء، والإقامة عندها ومعها أجمل وأمتع أيام الرحلة، لأن هذه الكهلة لم تكن تجيد الطعام الشرقي فقط، وإنما تعرف أيضاً كيف تتحدث، وكيف تحمل الآخرين على الحديث، خاصة وأن فنر كان يبقى معها أياماً طويلة متواصلة، أثناء غياب هاملتون، من أجل ملاحقة بعض الأمور الهامة المتعلقة بالسفر والعمل، كما كان يقول موضحاً ومعتذراً، لكي يقضي أياماً عديدة في لندن.

كانت المس ماركو بالنسبة لفنر خليطاً من المعلمة والأم والصديقة. والأيام التي قضاها معها في أكسفورد ظل يتذكرها، ولا يمل من استعادتها، حتى بعد مرور سنين طويلة. أما غياب هاملتون، والذي تكرر عدة مرات خلال هذين الشهرين، فلم يكن يسبب له إزعاجاً، أو فراغاً

كانت المس ماركو تعرف كيف تنظم برنامجاً حافلاً لكل يوم، حتى الأيام الماطرة، وتلك الأيام الأخيرة، حين بدأ يسقط الثلج، كانت تجد ما يفعلانه بكثير من المتعة والرغبة!

والمس ماركو التي قضت عشرين سنة في سيلان كممرضة أولاً، ثم كرئيسة ممرضات، والتي تنقلت في تلك البلاد من مكان لآخر، وعرفت دقائق وتفاصيل حياة الناس وطبيعة الأرض، اكتسبت خبرات ومعلومات لم تتح للكثيرات غيرها، وقد سجلت كل ذلك في كتابين، وكانت فخورة جداً بهذا الإنجاز، لأن الكتابين يمثلان خلاصة تجربة ومعلومات وفيرة.

بعد أن تركت سيلان مختارة، ذهبت إلى جنوب إفريقيا، وقضت هناك سبع سنين، وكانت حصيلة تلك السنين كتاباً ثالثاً. صحيح أن الكتاب الأخير أقل أهمية من حيث المعلومات، لكنه أكثر نضجاً بالنسبة لتجربة الإنسان، هكذا كانت تشير باعتزاز. أما الصفحات التي قرأتها لفنر فقد اختارتها بكثير من الحرص. كانت تضطر أثناء القراءة لأن تتوقف، لتشرح، لتعلق، لتشير إلى ما وراء المعاني المباشرة، وفنر الذي كان يستمع بانتباه لم يكن قادراً على إدراك المعاني الكبيرة التي تلفت النظر إليها وتريد إيصالها، ولم تمل أبداً من إعادة القراءة والشرح. كانت تنزع نظاراتها، وتضعها في طرف الفم، وتبدأ. وكثيراً ما لجأت إلى الوقوف، إلى التمثيل، إلى تحريك يديها وتحريك قطع الأثاث أيضاً!

قبل نهاية الرحلة بأسبوع، وأثناء غياب هاملتون، حرصت المس ماركو أن تهدي كتبها لفنر. فعلت ذلك بكثير من الجلال والاهتمام، ولم تنس أن تشير إلى فلسفتها في الكتابة، إذ ذكرت أن الكتابة إذا لم تكن من القلب، وإنما هي نتيجة القراءة وحدها، أو التأمل وحده، فعندئذٍ لا تكتسب أية أهمية ولا تشكل إضافة حقيقية، وأن هذه الكتابة إذا لم تكتب اليوم فيمكن أن تكتب في وقت آخر، أما التجربة، أما حياة الإنسان، أي إنسان، فإنها لا تتكرر، رغم ملايين البشر، وهي وحدها الجديرة بالتسجيل، لكي ندرك بعمق ودقة من خلالها معنى الحياة.

كانت فنر مفتوناً بكل ما يراه وما يسمعه، فلأول مرة في حياته يكون

قريباً من امرأة بهذا المقدار. جدته، رغم حبها وحنانها، كانت كتلة من السواد والاختلاط، وبعض الأحيان من الغياب. فالملابس السوداء الفضفاضة، وذلك الانشغال بالذين حولها، ثم تلك الليالي المليئة بالصمت أو بأصوات الرياح، كانت تجعلها موجودة وغير موجودة في آن واحد. حتى في ليالي السهر أو ليالي الفرح، حين يتحدث الإنسان مع الآخرين أو يغنّي، أو حين يستمع إلى أحاديثهم وأغانيهم، كانت تشغلها أصوات الأطفال وأمراضهم، وكانت تشغلها طلبات الشيوخ أو نظراتهم، فإن لم تنشغل بهؤلاء فالقطط والكلاب والحيوانات الأخرى لا بد أن تسترعي اهتمامها. ولا يتذكر فنر جدته إلا وهي راكضة، وكثيراً ما كانت تنام وهي جالسة قرب الموقد، وتتظاهر أنها تتابع الأحاديث التي تدور!

المس ماركو امرأة من نوع آخر، إذ رغم تقدمها في السن، كانت تبدو مثل طائر ملون. صحيح أنه لم يجرؤ على النظر إليها طويلاً، أو التدقيق بملابسها وزينتها، لكن كانت تملأ جو الغرفة بوجودها ورائحتها، وتجعل من يجلس في مواجهتها يحس بكثافة هذا الوجود وطغيانه، ويشعر أكثر من ذلك أنها له وحده. أما إذا تحدثت فإنها تستحضر الأشياء وتعطيها ملمساً خشناً، حتى لتبدو في كثير من الأحيان وكأنها تنبثق من جديد. تتكلم بهدوء، تنظر إلى العينين مباشرة، تحرك يديها بطريقة من يصنع شيئاً؛ وحين تبدأ باستعادة ذكرياتها فإنها تفعل ذلك بلذة، وكأنها تعيشها مرة أخرى.

كانت تفوت فنر، في حالات كثيرة، كلمات ترد في أحاديث المس ماركو، لكن يقدّر معناها من الإشارات، من الانفعال الذي يملأها، وكان مستعداً لأن يكتفي بذلك، لكن المس ماركو امرأة حازمة ودقيقة، ليس بالنسبة لنفسها فقط، وإنما بالنسبة للآخرين، وبنفس القدر، إذا أحست أن بعض الكلمات فاتت من يستمع إليها فلا بد أن تتوقف، أن تسأل، أن تشرح، وكانت تلك أيضاً طريقتها في التعليم.

قال هاملتون لسمو الأمير، بعد عدة سنين، وهما يستعيدان ذكريات تلك الرحلة:

ـ المرأة التي أثّرت في حياتي كان عمتي ماركو. أثرت فيّ أكثر من أمي ومن جميع معلماتي. لأن أمي كانت تعتبر أن إقامتنا في ذلك المكان النائي عقوبة حكمت بها علينا الأمبراطورية، وكانت تحسب الأيام والشهور بنفاد صبر لكي تنتهي العقوبة ونعود إلى الحرية، كما تقول، أي نرجع إلى بريطانيا. عمتي ماركو كانت نمطاً آخر: جاءت إلى سيلان بمحض إرادتها ورغبتها، وكانت تجد متعة في أن تكون هناك. أكثر من ذلك كانت تواقة لأن تعرف كل شيء، ولم تتردد في أن تتعلم عدة لغات محلية. وإليها الفضل في أن أتوجه إلى اللغات الشرقية. كانت تقول باستمرار، وربما لنفسها بالدرجة الأولى، وتحب أن يسمع الآخرون: «يجب ألا نخدع بما نراه على السطح، فالشرق أعمق مّما يبدو، وأخطر مما يفترض الكثيرون، لأن ما يحتمل فيه من التاريخ والتقاليد والأساطير بمقدار ما يعيقه ويثقل عليه، فإنه يمده أيضاً بطاقة على المقاومة والاستمرار... وربما التجدد. وبداية فهم الشرق أن نعيش فيه، أن لا نتعامل معه برفض أو كراهية، وأن نتعلم لغاته، لكي نفهم كيف يفكر وكيف يعبر. فاللغة أساس فهم الآخر، وبداية حوار حقيقي...».

يصمت هامتلون قليلاً، نتيجة الأفكار التي انبعثت فجأة وعبقت في ذاكرته، لكنه لا يريد أن ينساق معها، يتابع بنفس النبرة:

ـ ولأنها عاشت خارج بريطانيا سنين طويلة، واحتكت بأعداد كبيرة من الأجانب، فقد أصبحت أحسن معلم للغة. تعرف كيف تعلّم، وأي شيء أسهل لأن تبدأ به.

ابتسم فنر وكأنه اكتشف أنه كان ضحية مؤامرة بين هاملتون وعمته، سأل مداعباً:

ـ ألهذا السبب اخترتها لي لكي تعلمني اللغة؟

ـ اخترتها بشكل خاص لأنها تعرف كيف تتعامل مع شعوب أخرى، ولأنها تعرف ما ينبغي للملوك أن يتعلموه قبل غيره.

قهقه فنر طرباً، وبعد أن هدأ نظر في عيني هاملتون بإمعان. وهو لا يفعل ذلك إلا نادراً. وهامتلون إذا كان يخاف أحداً أو من شيء، فتلك

النظرات المكتشفة الكاسحة، التي تنفجر، كما يقول لنفسه، فجأة من تلك الوجوه المغبرة القاسية، وجوه البدو. إنها نظرات ليس هدفها الرؤية، وإنما تقشير الشخص المقابل، وتمزيق أي رداء يرتديه، وبهدف أن تمنعه كلية من أية إمكانية للكذب. سحب هاملتون عينيه بعيداً وعاود الحديث:

ـ والعمة ماركو تعرف ما ينبغي للأجنبي أن يتعلمه من اللغة الإنكليزية، ولذلك تجعل هذه اللغة مرنة، حية، وملبية لحاجات حقيقية. أي بكلمة أخرى: لغة محبوبة. إنها تعتبر أن حب أي شعب يتطلب، بالدرجة الأولى، حب لغته، تماماً كما أحبت هي لغات الشرق، وكما جعلتني أحبها أيضاً، وكما تريدك أن تحب اللغة الإنكليزية... وهذا هو الأساس الحقيقي لتعلم اللغة.

وفنر الذي يشعر بالاعتزاز والتفوق إزاء إخوته، لأنه سافر وتعرف على العالم، ولأنه تعلم اللغة الإنكليزية، إلا أنه ظل حتى النهاية خجولاً أو نفوراً من استعمالها. وحين يستعملها مضطراً فإن الكلمات البسيطة والعبارات القصيرة تشكل عماد هذه اللغة. أكثر من ذلك يتجنب استعمالها قدر ما يستطيع أثناء وجوده في موران، نتيجة ما سمعه من تعريض، حتى من خاله عمير، والذي كان يردد مع المسنين: «إذا كانت العربية لغة أهل الجنة، فإن الإنكريزية لغة أهل النار» وقد تجنب عمير سؤاله ما إذا تعلم اللغة الإنكليزية أم لا، لئلا يتغير موقفه منه، ولكي لا يشعر بخيبة أمل فيما لو عرف أنه يعرفها!

لم يكتفِ فنر بتجنب استعمال اللغة الإنكليزية، كان يريد أن يتفوق على الآخرين بلهجة البداوة ذاتها، خاصة وأن خزعل لا يخفي اعتزازه بأنه يتقن هذه اللهجة أفضل من أي بدوي! وإذا كانت إحدى الهوايات المحببة للسلطان أن يقيم المباريات في شعر البادية وأمثالها، وكان يروق له أن تجري تلك المباريات بحضور أولاده وبمشاركتهم، وكان خزعل لا يخفي براعته، فإن ما لدى فنر من رصيد اختزنه في عين فضة، من لياليها الطويلة، ومن أحاديثها التي لا تنتهي، ثم ما جهد لأن يتعلمه في وقت لاحق، لفتا نظر الكثيرين.

قال العم دحيم ذات ليلة للسلطان:

ـ . . . وظني، يا أبو منصور، أن البني آدم إذا ما تعلم وهو صغيّر ما يتعلم إذا كبر.

لم يعترض السلطان، لكن فضّل الصمت، ليفسح لعمه توضيح ما يريد قوله. تابع العم:

ـ وإذ ما رضعه مع حليب الأم ينفطم عنه وعن الحليب جميع!

ـ وأكثر من هذا يا طويل العمر؟

ـ ذيك الليلة، وحنا نسمع كلام فنر عن أمثال عين فضة، ترى قال كلام يعجب، كلام زين، والولد فطن وذهين!

ضحك السلطان بنشوة، ولم يعلق، تابع العم:

ـ وعيشته مع البدوان فادته واجد، يا أبو منصور، تعلم منهم العلوم الزينة!

أما هاملتون الذي كان يحضر هذه المباريات، وكان بعض الأحيان يستعين بمن يشرح له معنى أو مغزى كلمات معينة، وكان دوره الصمت والمراقبة، فقد قال لفنر في إحدى الليالي، وهما في أكسفورد:

ـ . . . ومن الأفضل أن لا يظهر الإنسان كل ما يعرفه، خاصة أمام المنافسين، بل أكثر من ذلك يجب أن يترك لهم بعض الأشياء التي تميزهم، أو التي يفاخرون بها، لأن تركها لا يشكل خسارة بالنسبة له، وربما يشكل بالنسبة لهم وَهْمَ الربح، وفي اللحظة المناسبة، عندما تبدأ اللعبة الحقيقية نكتشف الرابح والخاسر دون خطأ!

وفنر الذي تعود الصمت والإِصغاء بعلاقته مع هاملتون، كما تعود مع كبار العائلة، خاصة أبيه، لم يعلق. أما هاملتون فكان متأكداً أنه يكلم نفسه، حتى تلك اللحظة، أكثر مما يكلم فنر. تنحنح وخرج صوته مصقولاً:

ـ أن يعرف خزعل شعر البادية وأمثالها أحسن منك لا يعني شيئاً مهماً، هناك أمور أكثر أهمية، وهذا ما يجب أن تعرفه جيداً!

صمت فنر، لكن عرف، أو بالأحرى أحس، معنى كلمات هاملتون. لأول مرة، بوجود شخص آخر، يحس بالخوف وبشيء من الخطر. وإذا كان قد تعلم شيئاً مهماً في عين فضة، فالكتمان. قالت له جدته ذات ليلة، وقد سمعت كلاماً لم يرضها. قالت وهي تزفر مثل جريح عطشان:

ـ . . . وأخذ حليمة، أمك، الله يرحمها، حتى يلقم جماعتنا حجر، حتى يقول للقريب والبعيد: وهذول أخذنا منهم وصاروا رجالنا، ويلزم يسكتون. لكن أملنا فيك، يا وليدي، ويمكن على يد الله وعلى يدك تتعدل الأمور.

صمتت قليلاً ثم خفضت صوتها وكأنها تتآمر:

ـ هذا الكلام بينّا، يا وليدي؛ حجر ببير، لا أحد شاف ولا أحد سمع، وإذا عرفوا ذبحونا جميع!

بلمح البصر تذكر فنر كلام جدته، وقارن بما يسمعه من هاملتون الآن. بدا له العالم مجموعة كبيرة من الصخور تتلاطم، لكن بصوت مكتوم، ولا بد أن تحطم صخرة باقي الصخور، أو مجموعة كبيرة من السكاكين الهائلة تنغرز في اللحوم، دون صوت وفي الظلمة، ولا بد أن تقضي سكين على باقي السكاكين.

وجاء صوت هاملتون، من جديد، حاداً واضحاً:

ـ وأنت تعرف شيئاً مهماً، لا أدري أين تعلمته، لكن يجب أن تحافظ عليه: الصمت.

تنفس بعمق، وبعد قليل تابع، وكأنه يحدث نفسه:

ـ الصمت سلاح الأقوياء أكثر مما هو سلاح الضعفاء أو الجبناء، لا تنس ذلك!

في لحظات معينة، وبعض الأحيان بشكل مفاجئ، وخلال زمن أسرع من البرق، يتعلم الإنسان ويكتشف ويرى ما لا يتاح له عبر أزمان طويلة. فجأة يتبين ويتأكد أنه كان نائماً أو ساهياً، أو ربما كان طيباً إلى درجة الغفلة. الآن، من الكلمات القليلة، واستبدت في ذهنه صورة جدته، قال

لنفسه بحزن: «إذا نويت لا تعلّم بطاريك. . . وإلا رحت طعام للنسور، والأيام بينا».

ولما كانت معركة وادي الفيض، ثم معركة الحويزة، قد غيرتا الكثير في موران، فإن عودة هاملتون وفنر، بعد هذه الرحلة الطويلة، وما رافقها من حفاوة السلطان واهتمامه، جعلت الأمور تأخذ مسارات لم تكن بالبال.

خلال شهور الرحلة انتظرت موضي كثيراً، وبكت كثيراً، وكان لديها الكثير لتقوله لفنر بعد عودته، لكن حين رأته يعود، اختلطت دموعها بضحكتها، ولم تستطع أن تتكلم. نظرت إليه طويلاً، ثم هجمت عليه، ولم تجد إلا قبضتها وسيلة وحيدة للتعبير، إذ جمعتها وضربت كتف فنر، ضربته بقوة. فلما ضحك بصخب قالت قطمة بعتاب:

ـ عوّرتيه يا بنت الحلال. . ضربتيه على كتفه ذاك!

فتحت موضي عينيها بخوف، إذ تذكرت جرحه القديم. سألت بتوسل:

ـ صحيح تعورت؟

رد بضحكة قوية، أقوى من الضحكة الأولى. قالت قطمة:

ـ وأنت يا سيدي. . ما لك حق، طولت أكثر من اللازم!

قالت له موضي من بين دموعها الصغيرة:

ـ بعد اليوم ما راح تسافر!

قالت تهاني التي وصلت في تلك اللحظة لتسأل عن الهدية قبل أي شيء آخر:

ـ اللي يطوّل الغيبات يرجع بالغنايم.

وبعد قليل:

ـ وهالحين حنا فكينا شليلنا ويلزم ترمي به شي. . حتى لو حجر!

وانصرفت موضي وقطمة إلى فتح الحقائب وترتيب الثياب، واستخراج الهدايا، وبدأت تهاني تقصّ على فنر ما حدث في غيابه:

ـ . . . وبسفرتك، يا طويل العمر، جاك ثلاثة أخوة، وخمس خوات. وبعد ما أبوك عرسّ على شما أخذ بنت ملاهد. وأبوك تلاسن مع خالك عمير. والشيخة تطريك دايماً بالخير. وأخوك خزعل عرّس نوبة ثانية. وفضة حامل ومولّدة بين يوم والثاني، ووطفة. . .

صرخت موضي من الغرفة المجاورة.

ـ يا معوّدة. . يرحم والديك، يا تهاني، يكفي، دوختي راسه!

ظلت شخصية عويّد المشعان محيرة، وتثير عواطف متناقضة في عقول وقلوب الذين يعرفونه أو يسمعون به. فهذا الرجل الذي يشبه الظل بملامحه وحجمه، والذي يختبئ في عباءته كما تختبئ قطرة الماء في الغيمة، ولا يكاد يلتفت إليه من لا يعرفه، هو ذاته الذي تخيف باسمه الأمهات أولادهن لحملهم على النوم أو الصمت، أما في مجالس الرجال فقلما تخلو ليلة من حديث أو خبر يحكى عن غزواته وشجاعته وقسوته أيضاً، إلى جانب الأحاديث التي تتطرق إلى عدله وعزوفه عن الغنائم، بحيث يوزعها على رجاله، ولا يمدّ يده إلى قشة منها. أما عن إقدامه وذكائه فإن الوقائع تختلط بالخيال أو الوهم، إذ كثيراً ما ينسب إليه ما وقع لغيره، ويتبارى الرجال في رواية أدق التفاصيل عن حياته، لإظهار معرفتهم الكاملة بكل شأن من شؤونه. حتى الذين لم يكونوا من جنده، أو لم يروه في حياتهم، فإنهم لا يترددون في الحديث عنه بثقة تصل درجة المبالغة.

ليس ذلك وحده مبعث الحيرة والتناقض في شخصية عويّد المشعان، فإن تواضعه، وانعدام الفروق بينه وبين من هم في أمرته، في الملبس والمأكل، ثم ذلك الحرص الذي يبديه نحو كل رجل من رجاله، يجعله مختلفاً عن شيوخ العشائر الآخرين، وعن أمراء الجند، ويجعله مختلفاً بشكل خاص عن رجال خريبط المقربين.

يتعامل معه السلطان بطريقة مختلفة عن تعامله مع الآخرين، إذ بمقدار الإعجاب الذي لا يخفيه نحوه، ولا يتردد في أن يبديه علناً، فإنه شديد الحذر منه، خاصة وأن إحدى الصفات التي لم يتخل عنها عويّد هي الصمت. فوراء صمته كان يختبئ، ولذلك لا يعرف أصدقاؤه وأعداؤه

كيف يفكر، أو ماذا سيفعل. المرات القيلة التي تحدث خلالها عما يجب أن يفعل في حملة وادي الفيض، أو في معركة الحويزة، أو غيرهما، اقتصر حديثه على أفكار واقتراحات قالها بأقل الكلمات.

بعد معركة الحويزة بسنة وبضعة شهور، جرى الحديث بين السلطان وهاملتون لأول مرة عن عويد المشعان. إذ لم يسبق لهما من قبل أن تحدثا عنه حديثاً دقيقاً أو بطريقة واضحة وكاملة. صحيح أن ذكره كان يرد كثيراً، خاصة أثناء التحضير لحملة من الحملات، لكن ما دام غائباً في البقعا، فإن الحديث عنه يرد بشكل غير مباشر، ويغيب بسرعة، ربما لأن الحيرة التي تميز شكله وشخصه تجعل الموقف منه ملتبساً، ومؤجلاً أيضاً.

ورغم الفترات التي قضاها مع السلطان، والرسل بينهما إذا كانا بعيدين، فإن ما كان يحس به السلطان، وما يرشح إليه من أخبار وأحاديث، ثم ما ينقله الرسل، يجعله في حالة من التوجس أقرب إلى الشك أو الخوف.

إذا جاء عويد إلى موران، وكانت له في السنة زيارة أو اثنتان، تتبدد الشكوك، ويسيطر جو من المودة، لأن ما يلقاه من الاهتمام والحفاوة يفوق ما يلقاه غيره من الشيوخ وقادة الجند. لقد كان جزء من الاهتمام الذي يوليه له السلطان، بالإضافة إلى ضخامة ما يحشده من القوات، نوعية رجال عويد المشعان، فهم يختلفون عن الآخرين، لأنهم يعرفون من أجل أية قضية يقاتلون. هكذا كانوا يقولون، وهكذا كان يردد عويد. كان يقول، ويخرج صوته مرتجفاً من الانفعال:

ـ نحارب في سبيل الله. ومن أجل إعلاء كلمة الحق...

ويقول لرجاله بثقة:

ـ أنتم مثل المسلمين الأوائل تحاربون من أجل أن ينتصر الإسلام، لا من أجل أرض ومغنم، ولا من أجل إرضاء فلان أو فلان، فإذا انتصرتم سدتم في الأرض، ومن يُقتل منكم فمثواه الجنة.

ولأن الحرب كانت من أجل هذا الهدف، فإن لرجال عويد قدرة غير محدودة على الاستمرار والصبر والتحمل بنظر الجميع.

في فترة مبكرة حاول السلطان أن يسمي إلى جانب عويد عدداً من المساعدين يختارهم بنفسه، لكن المحاولة فشلت لأن الجند لم يطيعوا هؤلاء، مما اضطر السلطان أن يترك له اختيار معاونيه. أما الذين حاولوا منافسته، وأن يرفعوا قاماتهم إلى مستوى قامته، بدافع الطموح أو بدفع من السلطان، فقد انتهى بهم الأمر إلى التسليم الكامل له، وقد أدى ذلكَ إلى أن يكف السلطان عن التدخل بشؤونه.

أما هاملتون الذي تعذر عليه أن يقيم صلة مع عويد، ورغم محاولاته التي تنوعت، ولم تتوقف، إذ كان يصطدم بذلك الطبع البدوي الذي يتسم بالحذر، ويتحصن دائماً بالصمت أو التهذيب الزائد، وبعض الأحيان بادعاء عدم المعرفة، فإنه لم يسلم، ولم يتخذ مواقف العداء أو التجاهل. أكثر من ذلك فإن اتفاقاً ضمنياً قام بين الرجلين: أن يتجنب الواحد منهما الآخر. ولذلك كان عويد بنظر هاملتون ضرورياً وهاماً، ولا يمكن الاستغناء عنه، أياً كان الموقف منه.

عويد كان له رأي مختلف، فهو لا يخاف هاملتون، لأن هذا الأخير مكشوف، لكنه كان يخاف من تأثيره على السلطان. قال، مرة، لعدد من رجاله المقربين:

- احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة. السالفة ما هي سالفة هذا الإنكريزي، هذا مصلّع ومكشوف، لكن الخوف من اللي يلبسون عمايم.

قال السلطان في إحدى الليالي لعمه دحيم وهاملتون، دون أن يسألاه، وكان عويد المشعان قد غادر موران ذلك اليوم، وقد رافقه السلطان حتى وادي الرها، بحجة أنه يريد مشاهدة الخيول الجديدة التي وصلت تواً. قال لهما السلطان، وكأنه يحدث نفسه:

- ابن مشعان يلزمه ما يروح إلا راضي، لأنه يمون على مغرّب كله.

وحين بدا أن كلامه غير مفهوم بالمقدار الكافي، أوضح:

- ولو أراد يكون مع غيرنا لكان حالنا هالحين بين صفاقين، لكن الرجال دينه قوي، وحنا، والشهادة لله، ما قصرنا معه.

قال دحيم:

ـ يا أبو منصور: عويد دينه أقوى من الصفا، فإذا كان معنا حنا بألف خير ومنصورين.

تنفس بعمق، وبعد قليل أضاف:

ـ بس يلزمك تعرف: عويد أعند من التيس، وهذا العناد يفيد ويضّر، يا أبو منصور، فاحرص وتوقّ.

هاملتون كان بحاجة إلى مزيد من المعلومات والتقدير، قال ليحرضهما:

ـ عويد المشعان رجل متعب وكثير الشكوك.

قال السلطان بألم:

ـ يا الصاحب، عويد مثل الحريمة والولد الصغير، ما يرضى إلا إذا كان كل شيء على كيفه، ويلزم أن الواحد يرضيه... ويلزم أن يتوقى منه.

وفي تلك الليلة اتفق الثلاثة أن عويد ضروري لهذه المرحلة، ويجب أن يكون موجوداً وقوياً، وأن يعطي ما يريد، لكن يجب الحذر منه ومراقبته، أو كما قال هاملتون: العدو العاقل خير من الصديق الجاهل.

عويد وهو يعود إلى البقعا، وكانت معه خمسة رؤوس من الخيل التي وصلت إلى السلطان، وقد اختارها له السلطان بنفسه، وكان يغريه ويلح عليه بقبولها، أو أن يأخذ غيرها، إذا كانت تروقه، وهو يحاول الاعتذار ويحاول الاختصار، رغم الهدايا والحفاوة التي قوبل بها في موران، كانت تؤرقه طبيعة العلاقة بين السلطان وهاملتون، وكان يخاف من نتائجها. وتذكر قبل سنين، حين رأى هاملتون أول مرة. قال له السلطان:

ـ يا أبو مجحم.. الرجال جانا بنيّة صافية وعاونّا بالماء. هو اللي قال: احفروا هنا وتلقون الماء، ومثل ما شار علينا، حفرنا ولقينا، وظني أنه ابن حلال ويريد لنا الخير.

هز عويد رأسه، لكنه لم يقتنع.

العم دحيم تربطه بعويد علاقات مودة قديمة، ويستطيع أن يتحدث معه

بطريقة تختلف عن السلطان، ولذلك تولى إقناعه بأن الصاحب جاء إلى موران ليس من أجل الماء فقط، وإنما لكي يساعد الناس بالطب، إذ حمل معه كميات كبيرة من الأدوية، ويريد أن يدخل دين الإِسلام، لأن الله هداه. وختم دحيم حديثه بأن قال:

ـ ولا بد نساعده يا عويد، فإذا انشرح صدره وأعلن إسلامه تجينا، عند الله، حسنة!

ظلت الأمور كذلك فترة طويلة، وفي كل فترة تتوازى الاحتمالات الإِيجابية مع الشكوك والمخاوف.

بعد حملة الحويزة أصبحت الأمور أكثر وضوحاً، قال عويد للسلطان، بعد أن انتهت المعركة:

ـ هالحين، يا أبو منصور، بساطنا أحمدي ويلزم نقول كل شيء.

ضحك السلطان بصوت مجلجل ورد:

ـ هذا بساطنا، يا أبو مجحم، فهات اللي عندك.

ـ هذا الرجال، الصاحب، يعجب وما يعجب، يا أبو منصور. تشوفه يركض بالليل والنهار، من مكان لمكان، لا يتعب ولا يهدأ، وما ندري إذا كان يشتغل لله أو لأحد غيره.

ـ لا تخف، وكل الله، يا أبو مجحم.

عاود السلطان الضحك ليداري حرجه، وبعد أن استعرض في ذاكرته ما يمكن أن يفكر به عويد قال بحزم:

ـ مثل ما قال الله في محكم كتابه، يا ابن مشعان: إن بعض الظن إثم.

وحنا يا البدوان ما نصدق إلا إذا شفنا بعيونا، ويلزم أقول لك إني شفت وتأكدت، وأعرفه زين، ويكفي.

تنفس بعمق ثم تابع:

ـ والله وبالله وتالله، يا أبو مجحم، إني ما شفت من هذا الرجال إلا كل خير، وما شار علينا إلا بكل شيء فادنا.

وبعد قليل، وقد تغير صوته:

ـ وأنا كنت مثلك يا عويد، كنت أقول لروحي: هذا الرجال، شنهو اللي يريده منا؟ لكن بعد ما شفناه، تأكدنا. وإذا أنت تثق بخويك، أبو منصور، وتعرف معرفته بالرجال، فلا يكون لك بال.

وطوي الموضوع أيضاً.

هاملتون الذي عاد من رحلته مملوءاً بالأفكار والأحلام، وقد استعاد نشاطه وحيويته، وغادرته تلك الرؤى السوداء، كان يستعد لنقلة كبيرة: يجب أن يبدأ في موران عصر جديد.

لم يكن، بعد، متأكداً مما يجب علمه، بل وكان أقرب إلى الخوف، خاصة وإن دوي الفشل كان يملأ لندن أثناء إقامته هناك، وكان الحديث يجري معه متردداً متشككاً لأن القوى التي تتعامل مع قضية الشرق دخلت، فيما بينها، في صراع مكشوف وعنيف، وأصبح كل طرف من هذه القوى يلقي مسؤولية الفشل على الأطراف الأخرى، وكل طرف يشكك بجدوى أية خطة أو بمدى تحقيقها، مما اضطر هاملتون إلى تمديد إقامته أكثر من مرة في لندن، وإلى دراسة ملفات وخطط عديدة لاختيار الأفضل منها. ورغم الدراسة والموافقات المبدئية التي حصلت، فإن التريّث وإعادة النظر، وتعديل بعض الخطط، إضافة إلى التشدد بصرف الأموال اللازمة، كان المناخ السائد. ولم يستطع الوصول إلى نتائج اعتبرها مرضية إلا خلال الأسبوع الأخير.

قالوا له هناك بوضوح: «هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: أن تدفع لهم باستمرار، دون أن يكلفوا أنفسهم تقديم أي مقابل. ليس هذا كل شيء، إنهم يتشبثون فقط بما يعتبرونه لمصلحتهم، ويستندون إلى كلمات قيلت أو وعود أعطيت في أوقات سابقة واستثنائية، ولا يدركون، كما لا يقدرون، التغيرات التي حصلت في هذا العالم. إنهم يستخرجون من محافظهم القماشية أوراقاً مهترئة، لا يفهمون مما ورد فيها سوى بضع كلمات ترجمها لهم بعض البحارة أو الخدم ويهزونها في وجه الأمبراطورية، مطالبين أن تفي بالوعود! لقد أصبح هؤلاء البدو متعبين إلى درجة لا تطاق، وجاء بعض رجالنا، ولا يعرف إلا الشيطان لماذا، لكي

يملأوا رؤوسهم بأحلام ودعاوى فارغة، ويجب علينا في النهاية أن نواجه هذا الكم الهائل من المشاكل والمتاعب، وكأن مشاكل ومتاعب الأمبراطورية قليلة أو غير كافية!».

كان هذا جزءاً من حديث طويل سمعه في وزارة الخارجية بلندن.

في الأسبوع الأخير، وبعد إلحاح من هاملتون وصل درجة الإِحراج، وافقوا أن يعود إلى موران، وأن يدفعوا المبالغ التي وُعد بها السلطان. وتمّت الموافقة أيضاً على أن يعطى هاملتون فترة ستة شهور، وأقصى حد سنة، من أجل تقديم خطة متكاملة لإِصلاح هذا الوضع المتردي، ولمحاولة بناء صيغة تناسب المرحلة الجديدة.

إنه الامتحان قبل الأخير لهاملتون من أجل إشادة مملكته على الأرض. فلندن تسلّم بفشل الآخرين، ولديها اقتناع أن المتاعب تتطلب عقلاً جديداً لمعالجتها، وأخيراً تطلب منه أن يتحمل المسؤولية كاملة.

في وقت سابق كان مجرد وسيط، يتصل بلندن عن طريق الآخرين، وكانت الدائرة التي يتحرك فيها لا تتجاوز السلطان وحاشيته. الآن تفرد لندن أمامه الخرائط كلها، وتطلب منه أن يتصرف.

من هنا كان مستعداً أن يتعامل مع كل شيء، ومع كل فرد، دون تحريم ودون أفكار مسبقة. يمكن أن يعيد النظر بكل الأفكار والخطط، وأن يلتقي بالمجموعات كلها دون التزام، حتى لو كان مجرد وعد. وتذكر الفترة الأولى التي وصل فيها إلى موران. إنها الآن تتكرر، لكن هذه المرة لحسابه، وضمن ما يراه مناسباً أو ضرورياً. في المرة السابقة، وبعد أن يبعث تقاريره، كان يشغل نفسه بالبحث عن الآثار أو برسم خرائط الحدود، بانتظار أن تصل الإِجابة، وغالباً ما تكون الإجابات: عبارات عامة غامضة، أملتها لحظة نزق أو نزوة الخمر في ليلة من ليالي الشرق الحارة.

الآن يستطيع أن يتصرف بطريقة مختلفة، ويثبت للندن أنه يستطيع النجاح حيث فشل الآخرون. لذلك لم يتردد في الموافقة على أن تبقى دورثي في بريطانيا، وأن ينسى كثيراً من قناعاته، أو نزواته كما يسميها،

لأنه قرر، كما قال لنفسه: «لقد حكمتُ على نفسي بالنجاح، وبالنجاح وحده».

الأموال التي حملها معه من لندن لم يعطها للسلطان دفعة وواحدة، أعطاه نصفها واستبقى النصف الآخر، وأكد له أن البقية سوف تأتي تباعاً. والسلطان الذي كان يهمه اليوم الذي يعيش فيه، وما بين يديه من الأموال، لم يعترض. قال له في محاولة تبرير موقفه إزاء تصرف الآخرين الذين وعدوا ولم يفوا:

ـ . . . وظني، يا محروس السلامة، أن الجماعة اللي وصلوا إلى هنا ما نقلوا كلامنا زين للجماعة هناك، لأن الجماعة أبد ما ينسون.

وبعد قليل وهو يهز رأسه:

ـ وروحتك كانت ضرورية، وجا من وراها الخير.

كان هدف السلطان، وهو يتكلم بهذه الصيغة، أن يعرف ما إذا كانت لندن قد تخلت عن أصدقائها السابقين، وهل بإمكانه أن يتحرك من جديد. إن هذا ما يشغله أكثر من أي شيء آخر. أما الأموال التي كان ينتظرها فقد وجد مخرجاً بالغنائم التي ربحها من الحملة، إذ ساعدته كثيراً وحلت له ولجنده مشاكل كان من الصعب أن تحل. يضاف إلى ذلك أن أمطار السنة الجديدة كانت وفيرة، وقد خلفت لديه ولدى الآخرين اطمئناناً لم يشعروا بمثله في السنوات السابقة.

قال هاملتون بطريقة لا تخلو من مكر:

ـ الرحلة كانت متعبة، لكنها ضرورية، لأن تجديد العلاقة مع المسؤولين، ومناقشة كافة القضايا، يختلف كثيراً عن كتابة الرسائل وانتظار الإجابات، هذا عدا عن التأخر، وقد تتعرض إلى الإِهمال أو النسيان.

ـ الحق اللي تقوله، لأن المواجهة، العين بالعين، أحسن من ألف رسالة.

والرسائل تذهب، في الغالب، إلى أشخاص لا يعرفون المنطقة إلا على الأطالس، وهؤلاء مهما كانوا حريصين وجادين فإنهم لا يدركون

أهمية القرارات وكيفية اتخاذها، فهم مجرد موظفين يقدمون توصيات على الورق.

تنفس بعمق ثم تابع:

ـ أما الذين لهم علاقة، الذين يعرفون الأشخاص والأماكن والعلاقات، فإنهم وحدهم القادرون على أن يوضحوا، أن يقولوا ما يجب أن يُفعل، وفي الوقت المناسب أيضاً.

لما وجد السلطان أن الصاحب يبتعد حاول أن يعيده:

ـ وإن شاء الله الجماعة راضين علينا؟

ـ بكل تأكيد يا صاحب الجلالة، ولولا ذلك لأخذت الأمور مجرى آخر.

ـ لكنهم ـ ويلزم ما تزعل يا الصاحب ـ هم والجماعة هناك خوش بوش، ولو شدوا لهم الرسن ما كان الأمر صار بهذا الشكل. كانوا قالوا لهم: هذا يصير يا جماعة وهذا ما يصير.

قال هاملتون لنفسه «هؤلاء البدو لا ينسون أبداً ما يريدون، إنهم يبتعدون، لكن من أجل أن يقفزوا ويقتربوا، تماماً مثل اللاعب فإنه لا يتراجع إلى الخلف إلا لكي يعطي لجسده قوة اندفاع ضرورية».

رد وهو يبتسم:

ـ الجماعة هناك، يا طويل العمر، يكنون لكم تقديراً خاصاً، ويختلفون عن الآخرين كثيراً، وسوف تتأكدون بأنفسكم.

وانتهى الموضوع أيضاً عند هذا الحد.

لم تكد أسابيع تنقضي على زيارة عويد المشعان إلى موران حتى جاء من قال إن عويد غاضب أشد الغضب، وأنه طلب من عمير البقاء عنده في البقعا بعد أن اكتشف أن السلطان استدعى اثنين من أولاد أعمامه، وبحث معهما محاصرة المنطقة.

وكما تتعكر المياه إذا دهمها السيل تعكرت العلاقات وتوترت. والسلطان الذي لم يكن يحفل كثيراً لزيارات عمير لشيوخ آخرين، تحسب

وخاف من هذه الزيارة، خاصة بعد أن نقل إليه ما يقوله عمير عن الصاحب.

قال السلطان لعمه، وفنر موجود ويسمع:

ـ عمير العوض يلعب بدمه يا عم، وأول الرقص حنجلة.

ـ طولة البال ما مثلها، يا أبو منصور.

ـ بالنا طويل يا عم، بس أخاف غيرنا يحسبنا خايفين أو عاجزين.

ـ لا تخف يا أبو منصور، وأنت معروف ومجرب.

ـ قالوا جماعتنا من قبل وصدقوا: اقرأ سورة ياسين وبيدك حجر.

وهز رأسه بحزن ثم تابع:

ـ حنا ما نريد من عمير أي شيء، بس يكفينا شره، وإذا النصيحة ما فادته، وإذا الكلام الزين ما فاد، فيلزم يعرف أن آخر الدواء الكي، فإذا سكتنا كل هذي الأيام، ما نقدر بعد اليوم.

ـ فورة وتنقضي يا أبو منصور.

ـ لكنها طالت وزادت يا عم.

ـ اللهم لا توصلنا إلى الندم.

قال هاملتون لنفسه: «هؤلاء البدو لا يعرفون سوى شيء واحد: المال. المال يدير رؤوسهم، يجعلهم أطوع وأسرع من الماء على منحدر، ويحولهم إلى فم لا يعرف غير كلمة واحدة: نعم، فإذا امتلكوا المال أصبحوا كالكلاب على العظام، لا أحد يستطيع أن يقترب منهم، لا يتركونها، ولا يعرفون كيف يتصرفون بها، وأخيراً، بعد أن يقلّبوا الأموال في أيديهم مئات المرات، بعد أن يضعوها تحت الوسائد، وقريباً من الصدور، فإنهم يتركونها تتسرب تماماً كما تتسرب المياه من اليد، لا يفعلون أكثر من شراء بندقية جديدة، أو يتزوجون امرأة ثانية، أو يولمون لمن يعرفونهم ولمن لا يعرفونهم، لكي يأكلوا أكثر مما يطيقون، فقط ليثبتوا لهم أنهم قادرون على أن يفعلوا ذلك. ولذلك فإن الأموال لا تحل مشاكلهم، إنها تفسدهم، تجعلهم أُناساً غير نافعين لا للعمل ولا للحرب،

وليس لديهم مانع أيضاً من أن يحاربوا من أعطاهم المال، حتى لو كان السلطان، لأنهم يتوهمون أنهم أصبحوا أقوى منه!».

جر نفساً عميقاً، وقد مرت في ذاكرته صور كثيرة، ثم أضاف: «ومع ذلك لا بد من إرضائهم والاستجابة لمطالبهم، مهما كان رأينا بتصرفاتهم...».

فنر الذي كان يسمع ويتابع كان يزداد تعباً وحيرة. قالت له موضي إنها مشتاقة لعين فضة، وتتمنى أن يذهبا معاً. رد في محاولة للتهرب:

ـ آخر مرة، بعين فضة، تعبت، والأحسن أن نؤجل الزيارة.

وحين نظرت إليه بطريقة مليئة بالعتاب، رد وهو يضحك:

ـ عين فضة تجينا لهنا، وما يمر يوم والثاني إلا والجماعة يكونون عندنا!

وهكذا لم يستجب فنر لعواطفه أو لطلب موضي في الذهاب إلى عين فضة، خاصة وإن هاملتون قال له والطائرة تهبط في مطار القاهرة:

ـ السنوات القادمة هي أهم السنوات في تاريخ المنطقة، وربما في تاريخ كل شخص، شرط أن يكون الإنسان ذكياً، ويعرف كيف يختار مواقفه وأصدقاءه وعلاقاته، وأن يكون أيضاً في المكان المناسب، في الوقت المناسب!

طوال السنوات الأربع التي أعقبت حملة وادي الفيض لم تهدأ موران ولا عرفت الراحة. حركة دائمة في الاتجاهات الأربعة. زيارات يقوم بها السلطان ورجاله إل كل الأماكن وكل القبائل. الوعود تعطى بسخاء، وكذلك الأموال. الآمال تتزايد وتتراكم نتيجة التوقعات والأحاديث. أمراء الجند وشيوخ القبائل يتوافدون على موران العاصمة، ويقضون فترات طويلة انتظاراً للأموال والأسلحة. السلطان يسمي أمراء للمناطق ويبعث بهم مع الأموال والوعود لكي يجندوا الناس. أعمام السلطان وأخوته وأبناؤه على سفر دائم. وبين فترة وأخرى لا ينسى السلطان أن يتزوج من إحدى القبائل ليكسب ولاءها وسواعد أبنائها. بكلمة واحدة: لم يبق شيء أو أحد في موران إلا وأصابته العدوى وبدأ يتحرك.

خزعل بعد أسر قلعة الرفيعة، أحس بالذنب وامتلأ بالمرارة، خاصة وأن ما يدور همساً في قصر الروض يصله، فيندفع إلى البادية يؤدب العصاة ويفرض هيبة الدولة، هكذا اقترح العم دحيم ووافق أبوه، لكن الشرط أن يكون رحيماً، كما أكد عليه العم وهو يوصيه. قال له عندما تجهزت حملة السمرة:

ـ أعرف، يا وليدي، أنك، والشهادة لله، سبع وعزمك يفلّ الصخر، بس أريدك تفهم وتتوعى: بهذي الأيام نريد نرضي الناس حتى يصيروا ويّانا، ما نريدهم قوم علينا. ويلزم بعد أوصيك: خد وعين. نوبة تمرة ونوبة حجرة والثالثة عين حمرا، وعسى أن الله يوفقك وترجع سالم وغانم.

ويضحك العم دحيم ضحكة صغيرة ثم يضيف:

ـ والباقي، يا وليدي، أتركه علينا.

وبين حملة وأخرى، وبعض الأحيان أثناء الحملة، يبعث خزعل لأبيه، أو يبعث له أبوه، لكي يتزوج من قبيلة يسميها، من بيت يرى ضرورة كسبه. والسلطان الذي تأتيه الأخبار أن خزعل تعلم الكثير، وأن الناس راضية عنه، والخير يسير في ركابه، كان يوافق بعض الأحيان على ما يقترح ابنه، وفي أحيان أخرى يبعث إليه ببيت من الشعر يفهم منه ضرورة إرجاء الأمر، لأن ما ينتظره في مكان آخر أفضل! ولا يتردد خزعل في الامتثال لرأي أبيه، خاصة وأنه يعرف أن الرسل، والعيون في معسكره، ينقلون للسلطان كل شيء، وكان يسر لذلك، إذ يثبت من خلال ما ينقل أنه الممثل اللائق لأبيه!

وبموازة حملة السمرا يبعث السلطان بالرسل والرسائل إلى الحكام المجاورين يطمئنهم، يتفاوض معهم، يبحث شؤون الحدود والمراعي والمياه. يبعث إلى الأصدقاء طالباً القروض والأسلحة، وطالباً أيضاً الاستعداد للمعركة، ويوافق على سفر هاملتون هنا وهناك لكي يستطلع، ويتفاوض، ثم لكي يتفق.

عويد المشعان أصبح يقضي في موران وقتاً يوازي الوقت الذي يقضيه في البقعا، فبعد ما وصلت الأخبار عن غضب عويد، لأن السلطان امتثل لأوامر الكفار، ولا يريد للإسلام أن يمتد ويسود، بعث السلطان عمه دحيم إليه يزوره ويعود وإياه إلى موران.

وفي هذه الزيارة، ثم بإقامته في موران، وفي جو من الإنفعال الديني والحماس، والذي يصل بعض الأحيان إلى درجة الهوس والقسم على القرآن، مع الخشوع، والدموع، وكان السلطان يؤكد أن راية الإسلام سوف ترتفع في كل مكان، ويوضح لعويد أن ما يؤخره فقط، وليس هناك ما يمنعه أبداً، هو المال والسلاح، ثم انتظار الوقت المناسب.

وإذ لاحظ السلطان أن عويد ينفر من هاملتون ويتجنبه، فقد كلف بأمره الكثيرين، واستعان باثنين من رجاله المقربين: عنان بسيوني ورأفت شيخ الصاغة، إذ طلب أن يلازماه، وأن يكونا موضع سره وثقته، والشيء

الذي لم يستطع أن يتوصل إليه هو أو عمه دحيم حققه هذان الإِثنان، كل بطريقته. فعنان الذي كان مملوءاً بروح مثالية، ويريد أن يعيد تشكيل العالم على نسق جديد، والذي يكره الكفرة والملحدين، ويذوب مرارة لأنه هزم في معاركه السابقة، جاء إلى موران ووضع نفسه في خدمة السلطان لكي يحقق هنا ما عجز عن تحقيقه هناك، ولكي يبدأ من الصحراء مرة أخرى كما كانت البداية الأولى.

أما رأفت شيخ الصاغة، فهو على قناعة راسخة أنه إنسان نادر، ولذلك لا بد أن يكون عظيماً، وطريق العظمة، كما زين له رفاق السوء، هكذا يقول، وهو يتذكر تلك الحماقات التي اندفع إليها في مواجهة المحتلين الفرنسيين، لأن شهادة الطب التي عاد بها من فرنسا، لا تكفي وحدها لكي توصله إلى ما يريد، فكانت النتيجة أن سقط في المعركة، ولأنه لم يتعود على السجن، أو على همجية المحتلين، والذين يختلفون عن أولئك الذين عرفهم أثناء دراسته، فقد آثر الهجرة، وحين وضع أمامه الأطلس ليختار ديار الاغتراب احتار ما بين العودة إلى فرنسا أو الذهاب إلى موران، ولم يتأخر في اختيار موران وأن يصبح من رجال خريبط. فهو يستطيع أن يقوم بمهمات عديدة، إذ بالإِضافة إلى مهارته بالطب، فإنه محدث بارع وصاحب نكتة وبديهة، وملم بآداب القصور، خاصة وأن تقاليد العائلة التي نشأ فيها من الرسوخ والقوة بحيث جعلت جده الأكبر شيخاً للصاغة، ومن هنا اكتسب كنيته، واكتسب معها عراقة لم يتنازل عنها في يوم من الأيام!

السلطان حين كلف الرجلين بملازمة عويد المشعان، كان فكره، رغم اضطرابه، يملي عليه «أن نأخذ الناس على قدر عقولهم، فما دام ابن مشعان لا يثق ولا يرتاح لهاملتون، إذن لا حاجة لصداقة مباشرة بين الإِثنين. المهم أن نكسب الاثنين، والمهم أيضاً أن لا يكونا معاً، لأنهما إذا أصبحا سوية ربما تسول لابن مشعان نفسه ويطمع، أو قد يرى فيه هاملتون بديلاً أو منافساً فيستغله. لذلك فإن هذه الصيغة أفضل من أية صيغة غيرها! والمهم أيضاً أن نحشد كل القوى، لكي نحارب معركتنا الأخيرة. فتصبح موران أكبر بلد في المنطقة وأقوى دولة فيها. ومن أجل

الوصول إلى هذا الهدف يجب أن نرضي الكثيرين، وأن نستفيد من كل قوة لكي ننتصر، وبعد ذلك لكل حادث حديث! الذين يكرهون ابن مشعان يقولون إنه دخل، ومنذ فترة طويلة بالإبريق، لفرط ما أصبح متديناً، فيرد السلطان أن هذا شأنه وحسابه عند ربه. ما يهم السلطان الدنيا والانتصار على الأعداء، ومن أجل ذلك لا بد من وجود المال والرجال والسلاح.

عويد طفل في الخمسين من عمره. إذا أحب جرفه حبه، وإذا كره أعمته الكراهية. عنيد إلى درجة اللجاجة وسهل مثل الثمر الناضج. إذا اقتنع لا يتبدل، وإذا وثق ليس من السهل أن يحتمل الوشاة أو الذين يوغرون الصدور. علاقته بدحيم وخريبط وبقصر الروض عموماً أن هؤلاء الرجال يطمحون إلى الشهادة أكثر مما يتطلعون إلى الملك، وأنهم وحدهم الذين يمكن أن يقيموا العدل في الأرض بعد أن امتلأت جوراً. لقد حارب معهم في الرحيبة والقويعة وروضة المشتى ووادي الفيض وأخيراً في الحويزة، وتأكد من ذلك. كانت عينا دحيم تمتلئان بالدموع وهو يصلي على الشهداء، وكان صوت خريبط، وسط الجند، وهو يلعلع: هبت هبوب الجنة أين أنت يا باغيها. ولذلك كان متأكداً من صدق إيمانهم. أما هذا الكافر الذي لا يعرف كيف جاء أو ماذا يريد، فإنه بقدر ما يخشاه، فلم تبدر منه بادرة، حتى الآن، تجعله يتأكد من ظنونه، ثم جاءت تأكيدات دحيم بأن الرجل على وشك الدخول في دين الإسلام، ويجب أن نساعده؛ قال عويد لنفسه بنوع من السخرية المرة «جماعتنا، أهل دنيا نحُوشهم هذي الأيام للدين بالعصا، وينهزمون، وهذا جاي من تلفات الدنيا ويريد يصير مسلم؟ ما ندري نصدق من ولاّ من لكن بتوالي الليل تجينا العلوم... وبعدها نشوف».

هاملتون يرقب المشهد كله، متحرراً من أي التزام. يريد أن يمزج التاريخ بالجغرافيا على نحو فريد؛ فما قرأه في الجامعة عن تاريخ شعوب هذه المنطقة، وما تركه هذا التاريخ من علامات وآثار في الناس والأفكار والأشياء، ثم تلك التقارير التي أتيح له أن يطلع عليها في فترات متعددة، خاصة في سفرته الأخيرة إلى لندن، والمقارنة بين التقارير الأولى والتقارير

الأخيرة، وحجم الفرق بين الرغبات والأوهام، وبين ما تحقق فعلاً على الأرض، ثم هذه الصحراء التي عرفها جيداً، وغامر في أن يقطعها من حدها الأول إلى حدها الأخير، ولم يجرؤ أحد قبله أن يفعل مثلما فعل، يضاف إلى ذلك أنه عرف معظم الذين يملكون القوة، وأولئك الذين يملكون الطموح، وعرف أيضاً الذين يريدون أن يعبروا من ضفة إلى أخرى، أي الذين يريدون أن يعبروا الحياة سريعاً إلى الموت، بعد أن عرف كل ذلك تجمعت لديه صورة لما يجب أن يفعل.

صحيح أن المشهد، رغم كثافته وثقله، يبدو له مهتزاً، مليئاً بالنتوءات والخطر، لكنه، أصبح على يقين أيضاً، أنه الوحيد القادر على أن يفعل شيئاً، وأن يصل إلى نتائج لا يمكن للآخرين أن يصلوا إليها.

أصبح، في هذه الفترة، أقل خيالاً، وأكثر واقعية، كما دفع إلى الخلف الهوايات التي استولت عليه خلال إقامته الطويلة في الصحراء، بأن يمعن النظر في السماء، ويحاول أن يتحرى مواقع النجوم، وأن يعرف مواعيد بزوغ القمر، والزاوية، ويراهن، وبشجاعة كبيرة، على رؤية الهلال، اعتماداً على حساباته وعلى عينيه اللتين لم تصابا بالتراخوما!

إن كل ذلك جزء من تاريخ مضى وانقضى. لم يعد يرى النجوم تتدلى فوقه كالفوانيس، أو توحي له بالكثير. وأصبح لا يتذكر القمر إلا حين يراه، وهو ابن أيام، كما يقول البدو.

ليس القمر والنجوم وحدهما ما غاب من ذاكرته، فقد غاب أيضاً ذلك الوهم البدوي الذي كان يجعله يصدق الكثير مما كان يروى له. ففي الفترة الأولى من إقامته في موران، كان يروق له أن يستمع بشغف إلى تلك الأحاديث التي تعدّد الخوارق والمعجزات، وتسمي الذين شاهدوها بأم العين، وكيف أن الكثيرين ليس لديهم ما يفعلونه سوى انتظار تكرارها! ولكي يقنع نفسه وينتظر معهم كان يردد في داخله: «لم يتوصل العلم بعد إلى تفسير الكثير من الظواهر الكونية». فإذا بدا له أن هذا التفسير لا يناسب ثقافته وعقله العلمي، يقول لنفسه بتأكيد لا يقبل الرفض أو الشك: «لا يمكن فهم شعب من الشعوب دون فهم أساطيره وبنيته العقلية: ما هي

معتقداته؟ كيف يفكر؟ ما هي منظومة الأفكار والمعتقدات والطقوس التي تجعله هكذا».

ورغم أن أكثر الأسئلة ظل أسئلة، فإنه لم يتوقف عن الاندماج في هذا المناخ «تمهيداً للوصول» كما يقول، حين يعجز عن الوصول إلى نتيجة!

لم يعد معنياً بهذا الفيض الهائل، والذي يزيد كل يوم، من الأوهام والخوارق والأكاذيب التي تشغل ليالي الشرق. أصبح أكثر ميلاً وحرصاً على أن يفكر بالأشياء الواقعية الصلبة.

حتى أفكار خريبط، صداقاته وعداواته، ما يقوله وما يطمح إليه، لا تعني له الآن الكثير؛ لا بد أن يراجعها، أن يضعها في نسق يتناسب مع الخطة الأساسية التي يجب أن تنفذ. بريطانيا نفسها فردت أمامه الخرائط وقالت له: يمكن أن تعيد رسمها. هذه هي مهمته الأساسية. وهذه المهمة التي يفرضها الواقع لا بد أن تتأثر بأفكاره، بثقافته، بإدراكه العميق لما يجب أن تكون عليه المنطقة. أما أن يصبح أسيراً «لسوالف» الشرق، كما يقول لنفسه، فلا يجد غير تلك الكلمة التي يرددها البدو أنفسهم وهم يصفون كلاماً غير مجدٍ أو لا معنى له. كانوا يقولون، مع حركة من اليد: خرطي!

«أكثر من ذلك عويد المشعان ليس عدواً، أو يجب ألا يكون. عواطفه لا تعني شيئاً بالنسبة لي. أن يشتمني؟ أن يتعامل معي بهذه الطريقة؟ يجب ألا أقيم وزناً لذلك، إذا كان لا يؤثر على خطتي، على ما اعتبره أساسياً ومهمّاً من أجل الوصول إلى الهدف».

كان هاملتون يقول لنفسه، وقد بدت له الصورة مغرية:

«في الشرق ينسون، أو لا يدركون، الجوهري. أنهم أبناء اللحظة والشيء الظاهر، وربما كانت الخيمة مثالاً لتكوينهم العقلي، فهي تجسد رد فعلهم الحقيقي. فالخيمة تتأثر بالآني، ولا تملك ثباتاً أو استمراراً. الريح التي تعصف الآن هي وحدها التي تعنيها وتؤثر عليها، ولذلك فهم لا يتذكرون الرياح التي مرت أو الرياح التي ستأتي. وكذلك أفكارهم أو عواطفهم، أنها عرضة للتقلب والتغير بتغير المناخ».

ما يكاد يطمئن إلى هذه القناعة، حتى تهاجمه صور أخرى: «ما يثير عجبي وتساؤلي أيضاً، أن هؤلاء البدو البسطاء، ورغم ما يملأ رؤوسهم من الخرافات والأوهام، فإنهم في أحيان كثيرة، لا ينسون ما يعتبرونه أساسياً بالنسبة لهم. خريبط، مثلاً يثير استغرابي. مهما ابتعدنا، وأينما ذهبت بنا الأحاديث وشعر النبط وأمثال البادية، فحين أودعه ليذهب إلى محرابه، حيث لا يمل من «التعبّد» جزءاً هاماً من الليل، وقيل لي إنه ينتقل من محراب إلى آخر! فأنه لا ينسى ولا يتردد في توجيه الأسئلة ـ الأم. يسألني عن الأمور التي تعنيه، ولو بطريقة عابرة، لكنها مقصودة تماماً، ورغم تصميمي على عدم الإجابة الواضحة، من أجل أن أعطي نفسي الوقت للوصول إلى الحل، فإنه لا يكتفي بتوجيه الأسئلة، ينظر إلى عيني تماماً، ليقرأ فيهما ما إذا كنت أكذب عليه أم لا. هذه النظرات تربكني، تجعلني ضعيفاً، بل وغالباً ما كنت أضطر، نتيجة تلك النظرات بالذات، إلى الإجابة بما أفكر فيه فعلاً، أو ما أريد تنفيذه. كيف يتوارثون هذه الطريقة في النظر إلى الآخرين؟ كيف يتعلمونها؟ حتى الأطفال الصغار، الذين لم يتدربوا بعد على تلك البذاءة ـ البريئة، ينظرون إليك بتلك الطريقة، وحين تكذب، تقول لك عيونهم، بشكل جارح: إنك تكذب.

لا بد من تنحية الكثير من الهواجس والأحمال التي أرهقتني خلال الفترة الماضية، والتعامل مع كل شيء بروح واقعية. هذه هي الطريقة الضرورية، وربما الوحيدة، لإِقامة مملكة من طراز جديد!».

لم يكتف هاملتون بذلك، فقد ذهب إلى آخر الشوط: إلى خصوم خريبط، هؤلاء الذين رآهم، وهو يعبر ذلك المحيط الصحراوي الشاسع، إذ لا بد أن يختبرهم مرة أخرى. ذهب إليهم يتفاوض من أجل المراعي والمياه والحدود. مرة يفاوضهم باسم خريبط، وأخرى يفاوض خريبط بأسمائهم، كل ذلك ليختبر قناعات واحتمالات معينة، تمهيداً، لاتخاذ القرارات المناسبة، والنهائية.

خريبط الذي ظل شديد الحذر من زيارات هاملتون، وبارعاً إلى أقصى حد في إظهار اللامبالاة، لم يكن قادراً على منع تلك الزيارات أو معرفة

حقيقة ما يجري خلالها، بل وكان يتظاهر أنه يكتفي بما ينقله إليه الصاحب. وما لا يستطيع أن يعرفه منه مباشرة، يعرفه عن طريق العيون وردود الفعل. وعلى طريقة البدو لم يكن متعجلاً أو منفعلاً. فما لا يقوله هاملتون اليوم قد يقوله غداً، أو قد يقوله غيره من الذين رافقوه. فإذا لم يتوافر من ينقل الأخبار فلا بد تفضحها تصرفات الأعداء وعطاياهم، ومهما برعوا وتفننوا في إخفاء الأموال التي قد يحصلون عليها، أو تسريبها إلى أتباعهم دون أن يحس أحد، فإنهم لا يستطيعون إخفاء الخيول. فحين تظهر الخيول الغريبة فجأة، وترفع رؤوسها وتصهل، كان خريبط يقول لعمه:

- صاحت مثل الواويات يا عم، ولا بد أن نصلها قبل أن تصلنا.

وبكثير من التكتم والمكر، ولكي يخلق السلطان واقعاً جديداً، يختار مجموعات خاصة من الرجال الذين يثق بهم، والمملوئين شراسة وحماسة وهوساً، وفي النصف الثاني من الشهر القمري، يرسلهم في تلك المهمات الصغيرة، لكن المتعبة، والتي لا تجدي معها الأسلحة أو القوات المنظمة، إلى الحدود، إلى طرق القوافل، إلى مصادر المياه، لكي يفعلوا ما يرونه مناسباً، يقول العم دحيم لقادة هذه المجموعات موصياً: «اللي تغنمونه لكم وحدكم، وحلال عليكم، بس نريدكم تخوفون اللي ما يخاف، وتخلونهم ما يعرفون حلاوة نوم».

ولأن خريبط برع بهذا النوع من الغارات، ومارسه لفترات طويلة، فإنه يعرف ما يترتب عليه من نتائج: ما يكاد يقع عدد من هذه الغارات، مع ما يرافقها من صخب ومخاوف، حتى يلجأوا إليه «لتأديب العصاة وقطع دابر الأشقياء وقطاع الطرق» ويبدي تمنعاً متذرعاً بصعوبة هذه المهمة، أو عدم قدرته على القيام بها، ويعد الكثير من الإلحاح والضغط، ولقاء مقابل كبير، يتم الوصول إلى أكثر من اتفاق!

يقول هاملتون لنفسه: «هؤلاء البدو لا يعملون شيئاً دون مقابل، وغالباً ما يضطرونك لأن تدفع ما كنت ترفضه في السابق. أنهم يحتكرون معرفتهم أو مهارتهم إلى أن تصبح بحاجة ماسة إلى تلك المعرفة أو المهارة...

وعند ذاك فقط يفرضون شروطهم، ولا بد أن توافق على تلك الشروط، وأن تكون شاكراً لهم في نفس الوقت!

«خريبط ليس بعيداً عن ذاك الذي يجري على الحدود، هذه قناعتي، لكن لا أملك دليلاً واحداً على ذلك. وها نحن نلجأ إليه وحده لكي يساعدنا».

لا يكتفي السلطان بذلك، إذ لا بد أن ترتفع أصوات المهووسين والمتطرفين، ولا بد أن يظهر أيضاً بعض الخصوم. وإذا كان هاملتون، في كثير من الأحيان، غير قادر على مفاوضة المعتدلين، أو الوصول معهم إلى لغة حوار مفهومة، فإن حالته النفسية تسوء وجسده ينهار حين تحاصره تلك النظرات الغاضبة، وتملأ أذنيه ضجة أولئك الذين جاءوا فجأة إلى حيث يكون موجوداً، وقد جللهم الغبار، ولا يعرف هل هم خصوم للسلطان أم رجاله، لأن كلمات التعريض والتهديد لا توفر أحداً أو شيئاً. ومرة أخرى يلجأ إلى السلطان، فيبعث السلطان عمه أو أحد أولاده مع رجاله لكي يهدّئوا هؤلاء الذين لا يُعرف ماذا يريدون.

مقابل ذلك التشدد الذي يعم موران، ويتركز بشكل خاص في بعض مناطق الحدود الحساسة، فإن السلطان يكون في أصفى حالاته، إذ يفيض دماثة ورقة، ويظهر خضوعاً ما كان ليعرف عنه سابقاً، كما أنه يميل في مجالسه وأحاديثه إلى الابتعاد عن هذه الذي يشغل الكثيرين، بمن فيهم هاملتون، ويلجأ أيضاً إلى الغياب، بعض الأحيان، في رحلات قنص، أو إلى إقامة مباريات في الفروسية أو القصيد.

ولكي تكتمل الحلقة لا ينسى السلطان خلال هذه الفترة أن يستعين بفنر لكي يكون رسولاً ووسيطاً في أمور عديدة مع هاملتون. ويقوم فنر بما يطلب منه بكثير من الإتقان والبراعة، الأمر الذي يثير إعجاب السلطان والعم دحيم. وفي هذه الفترة بالذات، وبعد أن قام فنر بالمهمة، وكأن الأمر مفاجئ، أو حصل عفو الخاطر واللحظة اكتشف السلطان أنه تأخر في تزويج فنر!

السنوات العشرون التي مرت من حياة فنر، مرت دون أن يحس بها

الكثيرون. حتى نساء قصر الروض، اللواتي يرتبن الزيجات منذ الميلاد، ويقترحن، بأصوات عالية، أن تكون فلانة لفلان، وغالباً ما يحصل ذلك، فاتهن أن يقترحن له عروساً مناسبة. امي زهوةً، حين استقبلته قادماً من عين فضة، ليقيم في موران، سألت أكثر من واحدة عن عمره، حسبت على أصابع يديها، ثم أغمضت عينها، ولما فتحتهما من جديد نظرت إليه بإمعان لتتأكد وتقارن. وانتهى الأمر بأن نسيت. ولا تتذكر مرة أخرى إلا أثناء زواج السلطان أو خزعل، أو أثناء زواج الأعمام والأخوال. تتذكر وجهه لكنها تنسى السنوات، ويطوي الموضوع!.

تهاني أكثر من الشيخة قناعة أن فنر لا يزال صغيراً. حين تزوج السلطان بفرحة سألتها الشيخة أن تعدّد على مسامعها أسماء زوجات السلطان وسألتها أيضاً أن تذكرهن بأسماء الأولاد وأعمارهم. بدأت تهاني بحماس، عدّدت أسماء أكثر الزوجات، نسيت ثلاثاً أو أربعاً، ولم تفطن الشيخة لذلك. أما حين بدأت تعدد أسماء الأولاد، ووصلت إلى الثاني عشر، فقد قالت بنفاد صبر:

ـ هذا حدي، يا ستي، لأن عين الشيطان حمرا!

وكأن تهاني، التي تذكرت موت اثنين مؤخراً من الأطفال في قصر الروض، تذكّر الشيخة، وتريدها أن تتوقف. قالت الشيخة بطريقة فخمة، وخرج صوتها صلباً:

ـ لا تصدقي اللي ينقال. الحياة من الله والموت من الله!

موضي مع الشيخة وتهاني، لا تزال تعتبر فنر صغيراً، ويجب أن لا يفكر بأمر الزواج، رغم أن جسدها طوال السنوات الماضية كان عبئاً عليها، وقد اقتضى الأمر أن تبقى مريضة دائمة لدى الطبيبة الإنكليزية! أكثر من ذلك اقترح فنر أن ترافقه، في أول زيارة لبريطانيا، لكي تجري فحوصاً هناك.

لولوة أسّرت لعدد من نساء القصر أن لسيدتها أختاً، وأن هذه الأخت ستكون زوجة لفنر، لكن باعتبار أن فنر لا يزال صغير السن، فكل الأمور مؤجلة!

الخالة مزنة أكثر الناس حديثاً عن الزواج، تتحدث عن المبدأ، ولا تتحدث عن التفاصيل أو الأسماء. «المهم أن يتزوج، ولا يهم من» لأنها تعرف أن ابنتها، شيخة، هي الوحيدة في سن الزواج، والفتاة المحتملة لأن تكون زوجة له. فبنات عمير الثلاث لا يزلن صغيرات. أما عمير، حين يجري الحديث عن الموضوع، فإنه يقول بعصبية:

ـ يا جماعة.. اتركوا هذه السالفة. فنر صغيّر، وكل شيء بوقته زين!

فإذا ردت عليه مزنة تذكّره متى تزوجت ومتى تزوج هو يجيب بنزق:

ـ زماننا غير زمانهم، يا بنت الحلال!

وحين تصمت حزينة يتابع:

ـ والمسألة، أولها وتاليها، أنه هو اللي يقرر!

كل هذه الأحاديث كانت تجري وفنر لا يدري. المرة الوحيدة التي ذكرته خالته مزنة أنه يجب عليه أن يتزوج، نظر إليها بطريقة أخافتها، قال وكأنه يهدد بانتهاء العلاقة:

ـ ما أريد هذا الموضوع مرة ثانية!

السلطان الذي كان من السهل أن يقرر لنفسه، أو للكثيرين حوله، وجد نفسه حائراً. فنر لا يزال صغيراً. عدد السنين التي يحملها على كتفيه لا يكفي لتحديد عمره. المرض إذا تركه في الصيف لا بد أن يأتي في الشتاء. جسده هش، أقرب إلى القصب. أكثر من ذلك: هذا الحزن الذي يطل من عينه، وعمير الذي ينتظر مثل الذئب، لا بد أن ينقض إذا سها الراعي ولو لحظة واحدة. أمي زهوة التي تتحمس لأي زواج، وكأنه زواجها، حين سألها السلطان عن فتاة تلائم فنر، ردت بتحذير:

ـ البنيّة، يا أبو منصور، تنغصب، إذا ما كان هذا الرّجال ذاك، لكن الوليد، إذا ما راد، إذا ظهره ما حمي، يخرب... وظني أنك ما تريد لولد من أولادك أن ما يقدر ينام مع مرّية!

بعد الكثير من التفكير والتساؤل، وقد تولّت فضة جزءاً من البحث، وتولى الجزء الآخر العم دحيم، وافق فنر على الزواج. قال للعم دحيم:

ـ إذا ما منه بدّ بنت خالي سند.

وسند الذي كان يسكن في المريجة، والذي يهتم بنخيله أكثر مما يهتم بأي شيء آخر، والذي ترك عين فضة في وقت مبكر، «لأن الناس في عين فضة يفكرون بالآخرة أكثر مما يفكرون بالدنيا» وقد قال ذلك الكلام، وبغضب، حين وجد نخيل عين فضة يتراجع ويموت سنة بعد أخرى، نتيجة الإِهمال، لأن أكثر الناس، وخاصة أبوه، يتحدث عن أشجار الجنة أكثر مما يتحدث عن أشجار الأرض، والناس يستمعون إليه، ويهزون رؤوسهم موافقين.

قال سند لأبيه، لأخوته الثلاثة، لمجموعة من الناس، وبعد أن حزم أمتعته وقرر السفر:

ـ أنا رايح.. وأقولها واسمعوها: ما أريد من هذي الديرة نواة. وحقي وميراثي وصلني.

تطلع في الوجوه بحزن، وبعد فترة ليست قصيرة أضاف:

ـ لكن راح تندمون.

وتغيرت النبرة، أصبحت غاضبة:

ـ وإذا كانت عين فضة بها خير، والناس بعدها عايشة، فالفضل لهذا النخل، ما هو لشي تاني. فإذا تركتم النخل يموت، وبس تسولفون عن الجنة والنار، فظني أن بعد كم سنة ما يبقى أحد منكم، اما تموتون أو تهاجرون.

الشيخ عوض الذي كان يسمع بطرف أذنه، لكنه كان غائباً، قام بعصبية وغضب حين وجد النقاش حامياً، قال وكأنه يبرئ نفسه:

ـ عجبي لمن دنياه بآخرته!

أما عمير الذي اعتبر تصرفات سند أقرب إلى النزوة، وربما نتيجة خصومات النساء، فقد قال بحزم مشوب بالغضب:

ـ عين فضة، من يوم ما الله خلق الأرض وهي بهذا المكان وبهذا

الشكل، اللي يريد يزرع ما أحد يمنعه أو يرده، واللي يريد يعبد ربه، ربه يرزقه.

رد سند بعصبية:

ـ ويلزم تعرفون: الله في كل مكان، ما هو بس بعين فضة.

وبعد قليل وهو يضحك بسخرية:

ـ وعين فضة مثلها مثل أي مكان غيره، ما هي مكة، ولا هي أولى القبلتين وثاني الحرمين.

في تلك اللحظة رد الشيخ عوض بغضب ومن بعيد:

ـ كثيرين قبلك، يا سند، راحوا! وعين فضة ما خسرت شي.

وظلت العلاقات مقطوعة بين المريجة وعين فضة. أو بين أولاد الشيخ عوض، لكن البنات لم ينقطعن، ومن ذلك المسرب الصغير الذي ظل قائماً ومفتوحاً، زارت سارة أخاها في المريجة مرات عديدة، وفي كل مرة كانت تصطحب فنر، ومنذ ذلك الوقت رأى فنر زينة وظلت في ذاكرته.

الآن، وقد حاصره العم دحيم، قال:

ـ بنت خالي سند

فوجئ العم دحيم وارتبك، سأل بعد أن تلفت:

ـ وخالك سند له بنت أو أكثر؟

ـ أريد زينة!

ـ زينة؟

ـ أي نعم زينة!

ولأن السلطان في تلك الفترة يريد أن يحتفل، أن يعبر عن قوته، وأن يخلق جواً خاصاً في موران، فقد جاءت هذه المناسبة لكي تتيح له ذلك.

الذي شهدوا الاحتفالات التي أقامها السلطان بمناسبة زواج ابنه فنر، امتلأوا يقيناً أن السلطان سيسمي فنر سلطاناً بعده. والذين لم يشهدوا تلك الاحتفالات، وإنما سمعوا بها، كانوا متأكدين من ذلك، بل وقالوا إنه

الاحتفالات أقيمت بهذه المناسبة أكثر مما هي بمناسبة الزواج. ومما زاد في تأكيد هذه الأخبار أن خزعل لم يحضر وقيل أن فنر ذهب بنفسه إلى الصفرا، حيث كان معسكر خزعل، ودعاه، وألحّ في دعوته، لكن لم يستجب.

السلطان بدا أكثر شباباً من أي فترة سابقة وأكثر قوة، والصاحب كان أحد المدعوين المرموقين، وقيل إنه أهدى بندقية مفضضة للعريس، لكنه أشار بتواضع إلى أنها هدية ملك الإنكليز وليست منه.

أما الشيخة، أمي زهوة، فقد أكدت لولوة أنها أهدت العروسين حملاً كاملاً من الذهب، وقيل إن العم دحيم شوهد لأول مرة يرقص. أما وطفة التي كانت تنتظر أن يتزوج فنر أختها فقد أكدت، بلسان لولوة، أن أختها، تزوجت قبل زواج فنر بثلاثة شهور!

السلطان أهدى فنر حصاناً صقلاوياً عمره سبع سنين، وأكد مهيوب أن لا أحد ركبه غير السلطان.

موضي قبل الخطبة، وأثناء الزواج، كانت مريضة، لكن قابلة القصر التي كانت تحجمها جاءت قبل الزفاف بدقائق حاملة عقداً ماسياً هدية للعروس من موضي.

الرصاص الذي أطلق، العطور التي صُبت على أيدي الرجال والنساء، الحلويات والدراهم التي وزعت على الأطفال والفقراء، الخراف التي ذبحت... وغير هذا كثير، ظل حديث موران أياماً وأياماً.

في نهاية الشتاء وبداية الربيع، بلغت الاستعدادات في موران ذروتها. جمع السلطان كبار العائلة وزعماء القبائل وشيوخ الدين وعدداً من التجار والوجهاء، إضافة إلى المستشارين، وبجو مفعم بالحماس والانفعال أبلغهم أن الإساءات والجرائم التي صدرت من سلطان العوالي، ومن القبائل الموالية له، وصلت إلى درجة لم يعد من الممكن احتمالها أو السكوت عليها، وأنه إذا لم يوضع حد لها، وبأسرع وقت، فإن موران، بسكانها وأرزاقها، بحواضرها وبواديها، بصغارها وكبارها، معرضة إلى أكبر الأخطار وأفدح المصائب. وأبلغهم أنه، شخصياً، صبر وتحمل الكثير من ابن ماضي، سلطان العوالي، لعله يعود إلى رشده، وأنه لا يفضل أكثر من السلم، ولا يريد أكثر من الأمن لموران وجيرانها. وأكد أنه لم يترك شيئاً أو أحداً إلا وحاول معه، أو عن طريقه لكي تحقن دماء المسلمين، لكن الغرور الذي ملأ عقل ابن ماضي، واستهتاره بالدين، وتعديه على حقوق الإسلام والمسلمين، وسماحه بأن تتعرض المقدسات والحرمات للعبث والخطر، يدفعه الآن لأن يعلن، أمام الخاص والعام، وأمام صفوة أهل موران، أنه لم يعد قادراً، ولا يطيق الصبر أو السكوت.

والسلطان الذي كان مثل اللجام خلال السنوات السابقة، إذ كان يمنع رجاله من التقدم، ويتذرع لذلك بعشرات الأسباب، لم يكن بحاجة إلى هذا التحريض، أو إلى ذلك الجو الانفعالي. فقد تسابق زعماء القبائل مع شيوخ الدين، وشاركهم قادة الجند والمستشارون إلى التأكيد أن الأمور وصلت حدها الأقصى، ولا يمكن السكوت بعد ذلك. وبالغ بعض الزعماء بأن قالوا، وبكلمات خشنة، أن سكوت السلطان خلال الفترات

الماضية، ومنعهم من تأديب الأعداء، أو منعهم من الشهادة، لا يمكن أن يفهموه أو يغفروه. فقد تحملت موران أكثر من اللازم، وتطاول عليها أعداؤها أكثر مما تطيق، ولولا أن السلطان جمعهم الآن لاتخاذ القرار لاتخذوه دون الرجوع إليه، ولتصرفوا بما يرضي الله ورسوله!

وأفتى رجال الدين، وأيد التجار، وحدد المستشارون ما يجب قوله للقريب وللبعيد، وأبدى قادة الجند استعدادهم بكثير من الرضا والفخار، وبارك الوجهاء كل ما قيل وزكوه، وتركوا للسلطان، بعد أن جددوا تأييدهم وأثنوا على حكمته، أن يتصرف بالطريقة التي يراها مناسبة. ولم يبق أحد من الذين ضمهم السرادق الكبير، بمن فيهم الخدم والحرس وصانعو القهوة والسواس والرواة والخصيان، والصبية الذين رافقوا آباءهم، وبعض المتسولين الذين كانوا في أطراف الخيمة، إضافة إلى خمسة من العميان كانوا يقودون بعضهم، ويجب أن يحضروا كل حفل وكل مأتم، ولا بد أن يقرروا أو يشتركوا في تقرير أمور الحرب والسلم، لم يبق أحد من هؤلاء إلا انفعل واهتز، وطلب أن يكون ضمن الجيش وأول من ينتقم من سلطان العوالي!

عويد المشعان الذي رفض المجيء إلى موران خلال الشهور الثمانية الأخيرة، وكان أكثر غضباً وشتيمة من أية فترة سابقة، وقال علناً، ولرسل السلطان بالذات، أنه لم يعد يثق بأحد، ولا بد أن يفعل ما يأمره به الله، أياً كان رأي السلطان... عويد لم يأت إلى موران، هذه المرة، إلا بعد أن زاره دحيم، عم السلطان، وأكد له في هذه الزيارة: «أن كل شيء انتهى، وهذا اليوم يومك يا أبو مجحم». وبعد أن استوثق وتأكد، جاء، الآن، وهو يرى هذا الحشد، ويسمع هذا الكلام، ويحس الانفعال الحار يسري من جسد إلى جسد، من روح إلى أخرى، يلوم نفسه أنه كان سيّئ الظن، ولم يثق بالآخرين. كان يريد أن يهاجم السلطان، أن يعتبره متخاذلاً أو متواطئاً، لكن بعد أن رأى وسمع سكت. حاول السلطان أن يستشير حميته، نظر إليه عدة مرات وهو يتكلم. أشار إليه، حين تحدث عن منع رجاله من مهاجمة حدود العوالي، ولما تطلعت إليه العيون لترى

وتعرف، قال عويد، دون أن يرفع رأسه:

- اللي نبغيه رفع راية الإِسلام أو الشهادة، وما دام طويل العمر أمر حنّا لها!

ابن مياح كان أوضح وأكثر صراحة، قال:

- يا خريبط، أني أقول كلمة وإن كانت تغيظك: كنا نتحدث فيما بيننا ونقول: قد بدل خريبط الشجاعة بالجبانة، وكنا، قبل قدومه، نتمنى قدومه، أما اليوم فصرنا نقول: ليته ظل في بلده بعيداً عنا، فإن كان هناك دليل شرعي يؤخرنا عن القدوم فيبينه لنا حتى نتبعه، وما نحن إلا خدام الشرع، وإذا كان لا قصد لك غير الشح بأنفسنا عن الموت فما أحد يموت قبل يومه. وما نتمنى والله إلا أن نموت شهداء، فأي قتال أفضل من هذا القتال، وأي عمل جاء فيه الضرر للإِسلام والمسلمين أكثر من عمل سلطان العوالي وأولاده».

وكان آخرون يريدون أن يتكلموا، فالانفعال كان يزداد، والجو يمتلئ بالتوتر، لكن دحيم، الذي كان يجلس إلى جانب السلطان، وقف. دق الأرض بعصاه وقال:

- يا جماعة الخير...

تطلع ملياً في الوجوه وهو يبتسم بحزن، ثم تابع:

- ترى ما هو كل اللي ينعرف ينقال...

التفت إلى السلطان، تطلع إليه وهو يهز رأسه، ثم عاد إلى الجمع:

- هذا الرجال، والشهادة لله، تحمل الكثير. حمل اللي ما تحمله الجبال، وكان بين نار قلبه ونار الآخرين.

دق الأرض مرتين، وكان بين دقة وأخرى فترة، وأضاف:

- تحمل منكم وتحمل من غيركم، وهو ما يريد إلا رفع راية الله ورسوله، وما يريد إلا مصلحتكم. وهالحين ما يلزم إلا شيء واحد: أن نكون كلنا قلب واحد، ويد واحدة، نمشي وراه، وهذي هي الساعة،

وهذا هو اليوم اللي تبين فيه المرجلة، ويثبت الواحد نفسه. فإما ننتصر أو نستشهد، وما بعد هذا الكلام كلام!

سيطر التأثر والصمت على الجميع.

قال ابن مياح:

- ما عندنا وقت، يا جماعة، ونمشي هالحين أحسن ما نمشي باكر أو اللي عقبه.

قال عويد المشعان:

- ما لأحد حجة، ويلزم نتوكل على الله ونمشي.

قال السلطان، وهو يجيل النظر بالوجوه:

- بارك الله فيكم وكثّر من أمثالكم، وأقول لكم أني أشوف الجنة بوجه كل واحد منكم!

وهز رأسه عدة مرات وتابع:

- وبزنودكم وقوة قلوبكم إن شاء الله حنا منصورين.

في لحظة صمت قال أحد العميان الخمسة:

- الحرب خطاها قصار، وتاليها ندم يا خريبط. وأنتم يا أهل موران إذا كان عدوكم ما يشوف يلزم تحذروه، لأن دم المسلمين يتحاسب عليه في الدنيا والآخرة.

التفتت الرؤوس إلى مصدر الصوت، وقد خيم الوجوم، قال السلطان لعمه بصوت سمعه من كان منه قريباً:

- البصير: حمد الشايع نوبة ثانية؟

وأضاف وهو يبتسم بأسف:

- أولاد الشايع ما تخلص سوالفهم إذا ما لوصوا بأعراض الناس يلوصون بخراهم!

والتفت إلى الخلف ليرى حرسه وخدمه، ولكي يلومهم بنظراته أنهم تركوه، وبعد قليل:

ـ الحق ما هو عليه، الحق على اللي تركوه يصل إلى هنا!

وانفض المجلس بعد أن قال السلطان بصوت حازم، أقرب إلى الحدة:

ـ عشاكم عندنا يا جماعة الخير، ويلزم أن ندبر الأمور كلها وما نضيع ساعة واحدة.

هاملتون الذي لم تكن تعني له هذه الأحاديث أو التفاصيل شيئاً، كان قد اتفق مع السلطان، وبعد الكثير من التأجيل والتسويف والتدقيق، أن الأمور لم تعد تحتمل أو تقبل السكوت. فابن ماضي، سلطان العوالي، لم يعد إنساناً متعباً فقط، بل أصبح مرفوضاً أيضاً. فالمحاولات التي جرت معه طوال الفترة السابقة لكي يكون حاكماً معقولاً، كالآخرين، لم تؤد إلى نتيجة.

كانت هناك كمية هائلة من المشاكل والمسائل المعلقة، وبقدر ما كان خريبط يلح لكي يسمح له بمهاجمة العوالي والاستيلاء عليها أو على قسم منها، فإن هاملتون يريده أن يتفهم الظروف، وأن يؤجل وينتظر، إلى أن تحين الساعة المناسبة. فابن ماضي ليس مجرد خصم أو واحداً مثل الحكام الكثيرين حوله، إنه العدو الحقيقي، وإذا كان يلوم هاملتون، والإنكليز الآخرين الذين زاروه، أو الذين التقى بهم في أكثر من مكان، على حمايتهم له، أو التعامل معه، فلم يستطع أن يقنعهم بالتخلي عنه، أو حتى الوقوف على الحياد. لقد حاول كثيراً، لم يترك فرصة واحدة تفوته. أكد لهم أنه الوحيد القادر، وأن لديه من الوسائل والقوى، ما يمكنه أن يصل معهم إلى نتائج ترضيهم، لكنهم، مثل البغال، لا يفهمون ولا يتحركون إلا حسب مشيئتهم وحسب أهوائهم.

قال له عمه، ذات ليلة، وهما يتساءلان لماذا يرفض الإِنكليز الموافقة على التقدم نحو العوالي:

ـ يا ابن أخي... الإنكريز مثلهم مثل ذيك المرية...

هز رأسه وابتسم. والسلطان الذي ابتسم مجاملة لم يفهم كلامه، تابع دحيم:

ـ ذيك المرّية يا أبو منصور أما تكون لها وحدها، أو هي تصير لكل الناس.

هز رأسه عدة مرات، وتغيرت لهجته:

ـ الإنكريز، يا ابن أخي، إما تكون معهم، وأنت لهم وحدهم، أو يخلون بوجهك ألف نباح ويسدون بابك بألف عدو وعدو. الأنكريز يا أبو منصور، وحنا نعرفهم، ومن زمان، إذا ما كان كل شيء لهم ما يرتاحون ولا يخلون أحد يرتاح. وهذا صاحبك، الصاحب، لوّعنا. كل يوم بديرة، وكل يوم عند عشيرة. كل يوم يجيك بسالفة، وما تعرف على أي جنب تنام.

السلطان الذي يشارك عمه ظنونه ومخاوفه، يعرف أكثر منه أن الأمور لم تعد مجرد رغبات أو بضع مئات من الجنود، لكي يقرروا ما يجب أن يكون. لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار القوى الأساسية، والتي يجب التفاهم معها، لأنها هي التي تقرر. وهذا الكلام لم يقله المستشارون وحدهم، ولا تمليه الرغبة، وإنما الواقع، فالإنكليز موجودون على الحدود الشمالية، وعلى الحدود الشرقية، والآن الغربية أيضاً، وهم الذين أعطوا، وهم القادرون على وقف العطاء، ويمكن أن يغيروا الملوك والدول.

هاملتون، وغيره من الإِنكليز الذين جاءوا إلى موران قالوا كلاماً واضحاً. صحيح أن الإِنسان لا يتفق معهم في أكثر ما قالوه، لكنه لا يستطيع أن يخاصمهم، أن يكون قاسياً معهم. إنهم يقولون ما يريدون بصراحة ووضوح. وهذه الصفة التي كانت تزعج السلطان إلى أقصى حد، وتجعله عصبياً ومستعداً للقسوة، لم تلبث أن أصبحت بالنسبة له صفة محببة. يريد أن يعرف ماذا يريدون بالضبط، لكي يقرر بعد ذلك ما إذا كان قادراً على الاستجابة أم لا. كثيرون غيره لا يفهمون هذه الصفة، ولا يحبونها، وبعض الأحيان يرتكبون الحماقات، لأنهم يسمعون كلاماً لا يعجبهم.

العم دحيم من جيل آخر، عاش وتكوّن في ظل قيم أخرى. لكنه الآن يلمس النتائج، وهذا ما دعاه لأن يكون هكذا مع السلطان.

قبل سنوات كان يعتبر خريبط مجرد شاب نزق، يملك فقط جسداً قوياً وشجاعة أقرب إلى التهور. لكن بعد أن اختبره، بعد أن رآه في أوضاع وحالات عديدة ومختلفة، وبعد أن امتحنه تأكد. قال له في إحدى الليالي:

ـ جماعتنا، يا أبو منصور، كانوا مساكين، اللي بقلوبهم على لساناتهم، وهذا اللي سوّى بينا كل هذي السوايات.

وبعد قليل وهو يتطلع إليه بإعجاب:

ـ واللي جرى لنا، يا ابن أخي، إنّا ضيّعنا المشيتين، لا حنا بدو ولا حنا حضر، لا أحد يخاف سلاحنا وغاراتنا، ولا أحد يطمع بفليساتنا ويحسب لنا حساب.

فنر الذي نما بغفلة، ولا يعرف أحد كيف، حين استشاره السلطان، وسأله عن رأيه بهاملتون، أجاب:

ـ العالم، يا يوبه، ما عاد بس موران واللي حول موران، العالم كبير. وهذا العالم تحكمه القوة، وأنت تعرف: الإنكليز والأتراك والروس والألمان، كل واحدة من هذه الدول روضت العالم، وسوّت اللي ما يصير. كانت تركيا أول وأقوى كل الدول، لكن زمانها فات. وكان الألمان، أصحاب الصناعة: الدرابيل والسيارات وسكك الحديد وغيرها وغيرها. أهل العلم والقوة. والروس نفس الشيء. هالحين الإنكليز. عندهم الأساطيل، وعندهم المدافع، وهم أهل السيارات والطيارات، والبلاد اللي تتبعهم ما تغرب عنها الشمس، والواحد لازم يتفاهم معهم، لأنهم الأقوى والقادرين.

لما أحس بالتعب، وبالخجل، لأنه يتكلم وأبوه يسمع، تابع بنبرة جديدة:

ـ أنا شفت وقرأت، يا طويل العمر. بريطانيا أهم وأكبر وأقوى دولة في العالم، ولا يمكن لأحد أن يعاديها، أن يقف في وجهها، وأنت تعرف أن أسطولها، مئات السفن، آلاف السفن، وما يصدق الواحد إلا إذا شاف.

يصمت السلطان، يهز رأسه، يغيب، يفكر بأشياء كثيرة، يعرف أن ما

يقوله ابنه وما رآه بعينه، من القوة والأسلحة والأموال، لا يمكن أن يستهين به، صحيح أن فنر يتكلم مثلما يتكلم الشباب، وأن عمه دحيم لم ير شيئاً، ويفكر أن بضع مئات من السيوف ومثلها من البنادق يمكن أن تغيّر الكثير، لكن يجب عليه أن يفكر بطريقته، أن يأخذ الأمور من كل الوجوه، وأن يقرر ما يراه مناسباً، خاصة في هذه الظروف.

لما التقى خريبط في الأسابيع الأخيرة بهاملتون، بعد أن غاب عنه ثلاثة شهور متوالية، سأله، وعيناه في عيني هاملتون تماماً:

- يلزم تقول لي، يا الصاحب، جماعتكم هناك، وصاروا يعرفون كل شيء، يريدونّا أم يريدون غيرنا؟

ابتسم هاملتون بحزن، وأجاب:

- إن بريطانيا، يا صاحب الجلالة، تضع كل ثقلها وثقتها إلى جانب جلالتكم، ويجب أن تتأكدوا من ذلك.

- حنا ما عاد بنا صبار، ويلزم نتحرك.

رد هاملتون بصخب:

- هذا ما جئت لكي نتفق عليه ونقرره يا صاحب الجلالة.

وبعد عدة جلسات بين السلطان وهاملتون، وأغلبها كانا وحدهما، وبكثير من الاهتمام والصبر والدقة، وبعد مراجعة الخرائط ومعرفة مستلزمات الحملة، وتسمية قادة الجند وأي الطرق يسلكون، تمّ الاتفاق على مهاجمة العوالي وانتزاعها من يد ابن ماضي. ومن نتائج هذا الاتفاق كان الاجتماع الذي دعا إليه السلطان، إضافة إلى مجموعة من الرسل الذين بعث بهم إلى عدد من الدول المجاورة والأصدقاء، مع رسائل تعدد، ولا تترك صغيرة أو كبيرة، الجرائم والإساءات التي ارتكبها ابن ماضي، وبالتالي تؤكد أنه لم يعد من الممكن السكوت عليه.

قال العم دحيم للسلطان، بعد أن تم الاتفاق على كل شيء:

- الحمد لله.. كل شيء انتهى بخير وسلامة!

رد السلطان وهو يبتسم:

ـ هالحين يلزم، يا عم، أن نتحزم للواوي بحزام أسد، ويلزم نتحذر واجد، لأن ابن ماضي إذا شاف أن المصائب كثرت وتدردبت فوق رأسه يمكن يلوصها، ويسوي اللي ما يتسوى!

وهز رأسه عدة مرات، وأضاف كأنه يكلم نفسه:

ـ وهالحين جاء دورنا يا عم، إذا هزمنا ابن ماضي ملكنا الأول والتالي، وإذا صار غير شيء ترى الإنكريز يتركونا ويدورون على غيرنا، لأنهم ما هم مثلنا ولا مثل جمالنا يصبرون وينتظرون!

وبدأت في منتصف الربيع حملة العوالي!

من جملة الأمور التي تم الاتفاق عليها: أن يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي، بحجة الوساطة والتفاوض؛ وأن يكون تقدم جيوش السلطان بطيئاً، بحيث يحكم الحصار على العوالي تدريجياً، ويضطر ابن ماضي إلى التسليم في النهاية. ولكي تحقق هذه الخطة النتائج المطلوبة لا بد من ضربات موجعة، في أماكن مختارة وفي أوقات مناسبة، وتكون موجعة أكثر حين يمارسها أناس قساة، أقرب إلى الجنون، بحيث تذهب مثلاً، ويتناقلها الناس من مكان إلى مكان، ومن جيل إلى آخر. «ولا مانع أن يعفو السلطان عن القرى التي تخضع سلماً لا حرباً، وأن يجزل لأهلها العطاء».

خريبط الذي يعرف رجاله ويعرف أعداءه لم يكن بحاجة إلى خطط وإلى اقتراحات، ولم يكن بحاجة إلى من يوصيه. فقد قضى سنين طويلة ينتظر هذه المعركة ويفكر فيها، كما أن المناوشات بين موران والعوالي، خلال السنين السابقة، علمته الكثير، إضافة إلى ما كان ينقله له عيونه والمسافرون عن تردي وضع ابن ماضي، وكيف أنه أصبح متعباً لنفسه ولمن حوله، ولأصدقائه الإنكليز بشكل خاص. ثم كيف ضاق به الناس وضجوا بالشكوى نتيجة الضرائب والرشاوى، وأنه لم يعد قادراً على التفاهم حتى مع أبنائه وأقرب الناس إليه.

أما أن يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي بالذات، فإن الحذر البدوي استيقظ دفعة واحدا، وقد ظهر ذلك واضحاً على خريبط. قال له هاملتون يطمئنه:

ـ أن أكون عند ابن ماضي، يا طويل العمر، أفضل، لأن ذلك

يساعدني على أن أفهم كيف يفكر وماذا يريد وكيف يجب أن يعالج الموقف، لكي أتصرف بالطريقة المناسبة.

رد السلطان وهو يهز رأسه:

ـ الحق اللي تقول يا الصاحب.

ـ ويمكن أن أعرف خططه العسكرية، وانبهكم إلى ما يجب أن تفعلوه للتغلب عليه.

ـ هذا، الله يسلمك، اللي نريده!

ـ ولا بد أن تكون النتائج كما تتمنى يا صاحب الجلالة.

ـ إن شاء الله، وبنظركم وجهودكم نلقى كل خير.

لم يكن السلطان قادراً على منع هاملتون أن يكون هناك، ومع ذلك يجب ألا يظهر عواطفه، أن لا يبدي ملاحظة، ألاّ يعترض؛ وعليه أيضاً أن ينتظر ليعرف كيف تسير الأمور. قال لنفسه وهو يستمع إليه: «الجماعة، مثل ما قال فنر، ما يقدّرون إلا القوي، وما يعطون سرهم لأحد، ويلزم حنا نمدّ معهم، حتى نشوف صدقهم من كذبهم، وهذي بلادنا وناسنا وحنا ادرى».

أما خطة التقدم البطيء والحصار، فإنها تثير الشك ولا تبعث على الراحة أو الطمأنينة، هكذا كان يفكر السلطان. «فالبدو روحهم ضيقة، وتعودوا على الغارة، أما تعقلهم، بدون أهلهم، وتقول لهم اصبروا، فإذا كانوا ما تحملونا وهم بديرتهم، بين أهلهم وعشيرتهم، فظني أنهم ما يفهمونا ولا يتحملون. ما هو بس كذا: فوق البلا عوانة؟ تقول لهم: اتركوا البرودة والهوا الزين، واقعدوا ناظروا البحر والجبل؟ لا بالله، هذه السالفة ما تمشي مع جماعتنا».

فإذا وافق السلطان أن يكون هاملتون هناك، عند ابن ماضي، ولا يستطيع أن يعترض، فإن إدارة المعركة، وتحديد سيرها، يعود إليه، وللذين يقاتلون. هذا ما سوف يتحقق فعلاً على أرض المعركة، دون حاجة إلى الإعلان سلفاً، أو الاختلاف بسببه مع هاملتون.

قال لعمه قبل أن تتحرك قوات عويد وابن مياح بثلاثة أيام:

ـ . . . وتعرف، يا عم، ما أخذنا موافقة الجماعة إلا بشلعان القلب ونشفان الروح، وهالحين يلزم نحكم جماعتنا، وما يصح أن الواحد يلعب بذيله. . .

تنفس بعمق وحزن ثم تابع بصوت عميق:

ـ عويد وابن مياح يحسبونها ركضة عرب، ويريدونها بيوم والثاني، هذا ما يصير يا عم، لأن ابن ماضي ما هو أمير القويعة ولا أمير الرحيبة، ولا هو مثل أمير الحويزة، هذا رابطها من الهند للسند، والغلطة معه كفر، فإذا ما كظيّناه كظة فار يلوصها علينا، يصيح وما يستريح: يا غيرة الدنيا والدين، شوفوا خريبط وجماعة خريبط. والإنكريز وافقوا بشرط: خذوا العوالي، بس لا أحد سمع ولا أحد دري، أما إذا سويناها طبل وزمر، فالله أعلم تنقلب علينا!

والعم دحيم الذي فهم ولم يفهم، لم يكن يعرف ما يجب عليه أو ما هو المطلوب منه، فقبل أربعة أيام، وبعد الاجتماع الذي شهده الجميع، وبعد دعوة العشاء التي أقامها السلطان، عقد اجتماعان، وقد حضرهما ابن مشعان وابن مياح، إضافة إلى أقرباء السلطان وأولاده. وفي هذين الاجتماعين تم الاتفاق على كل شيء، وجيء بالقرآن وتم القسم أن لا تنتهي الحرب، وأن لا تتوقف الجيوش حتى تعاد العوالي إلى ديرة الإسلام، وأن يقضى على ابن ماضي وذريته إلى أبد الآبدين.

قال العم بمسكنة:

ـ بعد يومين، ثلاثة، الجماعة ماشيين، يا ابن أخي، وكل شيء صار معلوم وتفاهمنا عليه.

ـ صحيح يا عم، بس أريدك تحرّصهم، أن تقول لهم اللي يصير واللي ما يصير؛ وأريدك تفهّمهم أن السالفة طويلة، ويمكن ما تخلص بشهر واثنين.

وبكثير من الصبر افهم السلطان عمه أن الجيوش سوف تتحرك، لكن المعركة الحاسمة يمكن أن تتأخر، وقد تتغير أو يطرأ عليها تعديل، لأن

الظروف التي تمر بها موران والمنطقة، بصورة عامة، دقيقة وتختلف عن أي من المعارك السابقة. ويجب ألا يحرجنا الجماعة، أو أن يرتبوا علينا التزامات أو مواقف يصعب الدفاع عنها أو تبنيها.

ليس هذا فقط، طلب السلطان من عمه أن يفهم ابن مياح وعويد أن المعركة مع ابن ماضي وهي تختلف كثيراً عن المعارك السابقة، لذلك يجب ألا يتخذوا أي موقف إلا بعد الرجوع إليه والتشاور معه.

ودحيم الذي فهم على طريقته، وأحس أن الأمر أكثر جدية مما افترض سابقاً، وعد أن يقضي الأيام الثلاثة القادمة مع عويد وابن مياح، وأن يتحدث معهما كثيراً، وبعد لحظة تفكير اقترح أن يكون ضمن هذه الحملة، لكي «نظل نقرأ على روسهم وما يسودون وجوهنا». ووافق السلطان على الفكرة بحماس ثم على الاقتراح، وأكد له أنه سيلحقه بالحملة خلال فترة، وسوف تكون معه قوات كبيرة.

فضة، خلافاً لمرات سابقة، لم تُشعر أحداً أنها سترافق السلطان، رغم أن الحركة وراء السور، وفي الجناح الكبير من القصر، أخذت تتزايد يوماً بعد آخر. النسوة، في القصر والأجنحة الملحقة به، تناقلن أخباراً كثيرة ومتضاربة حول أي النساء سترافق السلطان، لكن عندما سرت أخبار قوية أن الشيخة سترافق الحملة، فقد تأكد الجميع أن لا العنود، ولا فضة، وإن كان بنسبة أقل، ستكون أي منهما مع السلطان. وسرت إشاعات، ولا يعرف من أشاعها، أن السلطان سيتزوج قبل بداية الحملة، لكي ينهي الخلاف الذي وقع بين نسائه، ولكي يرضي ابن مياح أيضاً. وطفة التي سمعت ولم تسمع الإشاعات والأخبار استمرت في الاستعداد، وكانت متأكدة أنها وحدها التي ستسافر مع السلطان، ومما عزز هذا التوقع أنها أرسلت ابنها، مفرّح، إلى الرمكة، خوفاً عليه أثناء غيابها. أرسلته إلى أمها مع توصيات وهدايا كثيرة، وكلفت لولوة بالبقاء إلى جانب البنات الثلاث. ورغم أن لولوة أشاعت في وقت سابق أنها سترافق سيدتها، لكن فجأة، وبسبب الخصومة والتنافس في القصر، عدلت عن السفر، فقط لتثبت أن السلطان لا يفضل امرأة على وطفة!

لم يقتصر الأمر على ذلك، تهاني أكدت لكل من سألها أن الشيخة تقرر في الأمور الخطيرة في اللحظة الأخيرة، وبعد أن تبيّت خيرة لمدة ثلاثة أيام متوالية. وأضافت تهاني، وهي تبتسم، أن الذي سيبقى في موران هو فنر، لأن زينة في شهرها الثالث، وتبدو خائفة، وكان هذا أول إشعار بحملها وفنر إلى جانبها، وبعد أن بحث الأمر مع السلطان تم الاتفاق على ذلك. قالت تهاني هذا الكلام اعتماداً على ما فهمته من خادمة زينة. صحيح أن الخادمة لم تقل ذلك بشكل واضح، أو بهذه الدقة، لكن قدّرت مما سمعته أن هذا ما سوف يجري.

خزعل تردد كثيراً على قصر الروض في هذه الفترة، وكان يجزل العطاء ويقدم الهدايا لأغلب الذين يزورهم مودعاً. وقد اتضح لكل من يلتقيه أو يسمع ما ينقل عن لسانه، أنه سيكون في مقدمة الحملة، أي في الكواكب السيارة. وأشار الذين يحبونه، وبأسف، أن مقدمة أية حملة، خصوصاً حملة كالتي تتوجه إلى العوالي، ستواجه أخطاراً كبيرة، وكانوا يضيفون بنوع من الفخر والمباهاة «وفي المقدمة يكون عادة أهم القادة وأشجع الجنود وأقوى الفرسان».

موضي، مثل أغلب المرات، كانت بين الصحة والمرض، ومستعدة أن تصدق كل شيء. حين تنقل لها إحدى الخادمات أنها سمعت من نساء القصر أن فنر باق تفرح وتبشّر كل من حولها؛ وحين تؤكد أخرى أن فنر ليس أقل من خزعل، ولا بد أن يسافر في طليعة الجيش، تلازم غرفتها وتنخرط بالبكاء. أما فنر حين يسأل فإنه يكتفي بأن يبتسم ويهز رأسه، دون أن يجيب. وإذا اضطر إلى الإجابة فغالباً ما تكون سريعة، مبهمة، ولا يمكن أن تفهم بدقة أو على وجه واضح.

والأمراء الأصغر سناً، وحتى أولئك الذين بدأوا في السنين الأخيرة أو في الشهور الأخيرة، يقتربون من مجلس السلطان، بدأوا أيضاً يستعدون للحرب. ومجلس الاثنين الذي لم يتوقف عنه السلطان ولم يوقفه، امتلأ خلال هذه الأسابيع بأسئلة ورسائل وأشعار وكلها تتعلق بالحرب. والسلطان الذي كان مشغولاً ومثقلاً بالوفود والزوار والرسائل التي يجب أن

يبعث بها، كان فخوراً أيضاً أن تكوّنت كتائب دون معرفته، ودون أن يحس بها، وبدأت، بأصوات عالية، وبإلحاح، تطالب أن تكون ضمن الطلائع التي تسافر قبل غيرها!

جو من التفاؤل لم تشهده موران من قبل، لكن إلى جانب التفاؤل مخاوف وتساؤلات وبعض الأحيان تحسب وانتظار.

طالع العريفان الذي تحسب كثيراً، وقلق لسفر السلطان، قال لناهي:

ـ صار لنا كم سنة يا ناهي راسنا بارد، فما دام طويل العمر موجود فهو البلشان معهن، وحنا ما علينا إلا: خذوا وهاتوا. هالحين، أذا طالت سفرة طويل العمر، الله يستر، وإذا النسا صارن ازكرتّيات، ترى بلشتانا ما هي قليلة، ما تعرف تداري من ولاّ من.

ـ عرفناهم وتعلمنا يا أبو جازي، لا تخف!

ـ ما ينحرز عليهن يا ابن الحلال، صارن جيش، ما هن واحدة ولا اثنتين.

ـ قولك كذا؟

ـ ما هو بس كذا، صارت الواحدة فصيل، كل واحدة تجر أربعة أو خمسة، وصارت تؤمر وتنهي.

ـ كان على طويل العمر أن يجندهن، فإذا صارن عماريات لا بد وينتصر، لأن جيش الحريم ينتصر بأول يوم، لأنهن بدون نخوة ينتخن!

قال طالع بحزن:

ـ ترى، يا ابن الحلال، الحرب هنا أكبر وأخطر، ويجوز أنها الزم من هناك، فما دام طويل العمر موجود كل شيء بخير وسلامة، لكن إذا راح...

وضحك بسخرية ثم أضاف يهمس:

ـ وهالحين بعدهم صغار، بعدهم تحت خيمة العود، باكر، إذا راح، الله يستر.

ـ لا تخف، ولا تحزن، تدبر يا أبو جازي، ومع ذلك جماعتنا قالوا: الخيل بلا أعنة مثل الرجال بلا أسنة.

ولم يستطع الرجلان أن يتوصلا إلى أية نتيجة.

وكل شيء آخر في موران يحتدم ويتغير. التجار الذين باعوا كثيراً خلال هذه الفترة، توقفوا عن البيع، لأنهم طمعوا بأسعار أعلى، وخافوا انقطاع التموين. فما دامت الحملة قد بدأت لا بد أن تنقطع طريق العوالي. ولا بد أن ترتفع الأسعار من جديد. أصحاب الخيل والجمال، الذين تفاءلوا بسنة الخصب، وقالوا إن السنوات القادمة ستجعلهم في حال أفضل امتلؤوا بالقلق ثم بالخوف، لأن ما اشتري من الدواب، ولا بد أن ترحل مع الحملة لن يمكّنهم من الشراء مجدداً، وعليهم انتظار المواليد الجديدة أو وصول دواب من أماكن أخرى. أما أصحاب الحوانيت والذين ينتظرون المواسم، فقد باعوا في الحملة كل ما عندهم، ولم يكونوا متأكدين أن أشياء ستأتي، أو سيكونون قادرين على تأمينها في المستقبل.

ومثلما حدث في حملات سابقة، بل وأكثر من أية حملة، انشغلت موران بالرواتب التي وزعت، وبالأسلحة الجديدة والثياب، وانشغلت النسوة بالحزن والانتظار. أمّا المسنون الذين كانوا يتابعون فقد استغرقوا في الصمت والتأمل، وكانوا أشد حيرة من أية مرة سابقة: «الإنكريز ما يعطون لله، وإذا كان ابن ماضي، زلمتهم، واللي ما قال لهم في يوم من الأيام: لا، تركوه وقالوا لخريبط: دونك الرجال اذبحه واللي تريد تسويه به سوّه، فالله العليم أن صاحبنا، خريبط، اما صار نصراني مثلهم، أو باكر يتلفت ما يلقي أحد وياه.. ويلزم نْبَحِّرْ زين ونسمع زين، لأنا، هذي الأيام، نشوف أشياء ما شفناه من قبل».

حمد الشايع، أو حمد البصير، كما يطلق عليه في موران، تلقى وهو لا يزال في خيمة السلطان، عشرات الضربات والوخزات من الحرس وبالجنود ورجال الشيوخ، وأكدّ الذين تخلفوا عن متابعة موكب السلطان أنهم رأوه مدمى ومشقوق الثياب، وقد ضاعت عترته أو سرقت، وقيل إن جماعته العميان كانوا أول من تصدى له وضربوه، بل وأكد واحد كان قريباً منهم أنه ما كاد السلطان ينهض، إيذاناً بانتهاء الاجتماع، حتى انهال العميان على صاحبهم. كانوا ينادون عليه، وما أن يجيب، ويتحدد مكانه،

حتى ترتفع الأيدي مع الأصوات: خذ يا ابن الحرام، مع ابن ماضي وما تعلمنا؟ مع ابن ماضي وساكت؟ مع ابن ماضي وما نعرف؟ وذهبت صيحاته في الصخب والضجة. وقيل إنه ظل في الساحة القريبة من السرادق وحيداً، كان يحاول العثور على غترته وأن يصلح ملابسه، إلى أن جاء ثلاثة من حرس السلطان وأخذوه لا يُعرف إلى أين!

ولم تهدأ موران ولم تنم طوال الفترة التي استغرقها الاستعداد، وقد شوهد السلطان أكثر من مرة يذهب إلى وادي الرها، وشوهد أيضاً أخوة السلطان وأقرباؤه، وقد ظهر البشر والتحفز على وجوههم. وسمعت عدة مرات، وفي أوقات مختلفة من الليل والنهار، طلقات رصاص، وتبرع الذين يعرفون أكثر من غيرهم في تعليل الأمر بأنه لوداع الأفواج التي تحركت. وقيل إن الرصاص الغزير الذي سمع ليلة الاثنين من جهة وادي الرها، كان لوداع الأمير خزعل الذي تحرك على رأس الكواكب السيارة. وأكد بعض الشباب أن السلطان أول من أطلق الرصاص، إذ أخذ بندقية خزعل، عمّرها بنفسه، رفعها على كتفه وأطلق. وقال آخرون إن الرصاص الذي سمع في الليل المتأخر، من ليلة الإِثنين ذاتها، ومن جهة وادي الرها، هو الرصاص الذي أطلق على ثمانية من جماعة ابن ماضي، وقد قبض عليهم في اليوم السابق، وتفاوتت الروايات كثيراً بخصوص هؤلاء، قيل إنه قبض عليهم يوزعون المال الذي أرسله ابن ماضي، وقيل إنهم جاءوا ليرصدوا حركة الجيش وليعرفوا معلومات عن عدده وأسلحته. وقيل أيضاً إنهم متسببون فقراء جاءوا لشراء بعض الدواب؛ ومما أكد ذلك أن صرر الدراهم التي كانت معهم أثارت السخرية لقلة ما فيها، ولأن بعض الدراهم كان قديماً وغير متداول. أما حمد الشايع الذي ظل غائباً ولم يسمع عنه أي خبر، فقد جاء من أكد أنه أعدم مع الذين أعدموا!.

ما كاد الأسبوع الأخير من آذار يقترب حتى خرج ضارب الطبل ليبلغ الناس. كان يدق طبله بقوة ويصرخ:

ـ لبيك اللهم لبيك ـ لا شريك لك، لبيك.

يستريح قليلاً ثم يتغير صوته:

ـ الحاضر يبلغ الغايب يا أهل موران، السلطان يقول هذا اليوم يومكم يا نشامة. هذا اليوم اللي يمشي به يغنم، وأبد ما يندم، ويلزم الحاضر يبلغ الغايب يا أهل موران.

ويدق الطبل دقات قوية، حتى إذا تطامن الصوت وانزلق إلى الصمت، خرج صوت مبدر الذي يسير إلى جانب قارع الطبل:

ـ يا راكب اللي هجيجها زين

ما ضيقتْ صدر راعيها

ممشى العشر تأخذ بيومين

تجيك ما ملّ راعيها.

وتتابعت قوافل الجند باتجاه العوالي. كان عويد المشعّان على رأس قافلة، وابن مياح على رأس قافلة أخرى. وكان خزعل في قافلة ثالثة، تبعتهما بعد عشرة أيام. أما قافلة السلطان، وكان ضمنها فنر، فقد تأخرت في التحرك ثلاثة أسابيع، وتأخرت في الطريق كثيراً، إذ أخذ السلطان الطريق الشمالي، وهو الأطول، وكان يتوقف في القرى والدساكر ليتلقى تأييد ومبايعة الذي يسكنون على جانبي الطريق، أو الذين يقدمون من أماكن أبعد حين يسمعون باقتراب قوات السلطان.

حرب العوالي، في معاركها الثلاث، من التعقيد والتشابك وتداخل المصالح ثم تضاربها وتناقض المعلومات، إلى درجة تجعل من الصعب روايتها أو الكتابة عنها. فاختلاف الرواة وتناقضهم، وتغير مواقع القوى، وبالتالي تغير مواقفها، ثم غياب الكثير من الشهود، ولا حاجة للوقوف طويلاً عند أسباب غياب هؤلاء! يحوّل التاريخ إلى مجوعة هائلة من الأكاذيب والتلفيقات، وإذا كان التاريخ، بصورة عامة، هو تاريخ المنتصرين، ووجهة نظرهم، فغالباً ما يميل المنتصرون، زيادة في النكاية والسخرية، إلى رواية الحدث الواحد بأشكال مختلفة للغاية، ولا يتم ذلك دائماً بسبب سوء النية أو النسيان، وإنما أيضاً نتيجة الظروف الآنية، وما تمليه من اعتبارات، ونتيجة لتراكم الأكاذيب الصغيرة، والأوهام لتصبح

وحدها في النهاية وهم الصدق المطلق، أو الرواية الحقيقية الوحيدة للتاريخ الموهوم!

فخريبط الذي تأخر في موران، لم يكتف بأن يأخذ الطريق الشمالي للوصول إلى العوالي، وإنما أطال وقوفه في الكثير من محطات الطريق، ليتلقى البيعة، ويطمئن إلى أوضاع الرعية، ولكي يستكمل استعداداته أيضاً. أما النجاب الذي أرسله العم دحيم، قبل موقعة السمحة بثلاثة أسابيع، إلى السلطان، حاملاً معلومات دقيقة حول نوايا ابن مياح، فقد وصل والسلطان على ماء عين دامة، وكان يفترض أن يحمل جواباً ويعود سريعاً، لكنه استبقي، ولم يرسل غيره. أما لماذا حصل ذلك، فحول هذه النقطة الثانوية جداً، مثلاً، إحدى عشرة رواية، كما دونها أحد الباحثين، وقد قتل هذا الباحث بعد سنة من كتابة البحث وقبل نشره، في ظروف غامضة! طبيعي لا يمكن إعادة ما كتبه الباحث لأن أوراق البحث ذاتها اختفت أيضاً، وحول هذه النقطة الأخيرة وجهات نظر متعددة. قيل إن البوليس أثناء التحقيق جمع الأدوات الجريمة والثياب والأغطية الملطخة بالدماء وبصمات الأصابع، وكانت الأوراق ضمن ما جمع. وقيل إن البوليس حين سئل عن الأوراق كانت الإجابة أنه لا يهتم أبداً بالأوراق والكتب ولا بأفكار القاتل أو القتيل، لإنها لا تعني له شيئاً، كما أنها ليست من اختصاصه. وقيل: الكتب والأوراق بيعت، مع أشياء أخرى، باعتبار أن لا أحد طالب بالتركة، ولم يعرف للقتيل أقرباء يرثونه! وجاء من همس أن الباحث، قبل أسبوعين من وقوع الجريمة، سلم المخطوطة لأحد أصدقائه لقراءتها وإبداء الرأي فيها. وهذا الصديق، عندما سئل أجاب أنه أعادها بعد ثلاثة أيام لأنه لم يستطع أن يقرأ الخط. وأكد صديق آخر يعرف الاثنين، أن المخطوطة سلمت بعد يوم واحد فقط، ومن قبل من تسلمها للقراءة، إلى أحد مستشاري السلطان، وحين تم الاطلاع عليها جاء من أشار بضرورة التصرف بسرعة وحزم، لأن المرحلة تقتضي رص الصفوف وشد عزم الأمة، لا إثارة البلبلة وإقلاق الراحة. أما المخطوطة ذاتها فقد اختفت، ولا يعرف ما إذا اتلفت أم حفظت!

أما كيف عرف أن هذا الباحث جمع إحدى عشرة رواية حول وصول النجاب إلى عين دامة، فهذا ما قاله أحد أقرباء ابن مشعان، الذي يعرف النجاب، وقد التقى به في نهاية الحرب وكان هذا القريب ضمن من قابلهم الباحث ليسمع منهم، وبعد أن روى له ما سمع، ابتسم الباحث وقال: هذه هي الرواية الحادية عشرة!

وكما تبدو هذه الرواية مشوشة، وربما مدخولة، فإن الروايات الأخرى لا تقل عن ذلك. مهيوب، رئيس حرس السلطان أشار أن رسالة النجاب، وكانت شفوية، أثارت الريبة لدى السلطان، ولذلك حجز النجاب، دون أن يُشعره بذلك، إذ كلف به ثلاثة يرافقونه ولم يسمح له بمغادرة المعسكر. عنان بسيوني الذي رافق السلطان في هذه الحملة، يؤكد أن السهو هو الذي أدى إلى عدم الإِجابة، لأن مشاغل السلطان كانت هامة وكبيرة، ولا يشير بعد ذلك إلى هذه المشاغل أو إبراز أهميتها. شيخ الصاغة، يتذكر أنه سمع بوصول رسالة ورسول من العم دحيم، لكن لا يتذكر ما بعد ذلك. أما السلطان فيعتبر أن كاتبه عرفان الهجرس، هو المسؤول عن نسيانه. فرغم أنه أوصاه، منذ وقت طويل، بضرورة أن يذكّره بالأمور المهمة أو التي تستحق التذكير، «لأن عقل البني آدم ما هو دفتر» إلا أن ابن الهجرس لم يذكّر السلطان في عين دامة. عرفان أسر لبعض الذين يثق بهم من الأقرباء، وقد نقلت إحدى قريباته، وكانت قد سمعت منه أن السلطان تعمد النسيان، وقد ذكّره عرفان بالأمر ثلاث مرات في ثلاثة أيام متوالية، وكان في كل مرة يهز رأسه ويبتسم؛ وعرفان يفهم معنى الحركة والابتسامة، أو ما يعني باختصار: الأمر لا يستحق الاهتمام!.

أقوى الروايات وأكثرها تداولاً، على الأقل خلال الفترة الأولى، تلك التي رويت عن لسان دحيم، عم السلطان. إذ بعد أن وصلت طلائع الجند إلى الصفا، وكان يفترض أن تخيم وتبقى هناك إلى حين وصول جند الأمير خزعل، أو أوامر من السلطان لمتابعة المسير، بدأ ابن مياح يعد العدة، وبسرعة، للوصول إلى السمحة. أكثر من ذلك بدا غير مستعد لسماع أية وجهة نظر أخرى، وكان، بين خاصته، يهدد ويتوعد أن يجعل السمحة أثراً

بعد عين، وقد أدى هذا الموقف إلى خلاف مع دحيم، وإلى حدة في العلاقة بين الإِثنين، مما دفع دحيم إلى البقاء في الصفا. ولم يتردد ابن مياح، في إحدى المرات، وأثناء مناقشة مواصلة الزحف والخطة التي يجب أتباعها أن قال لدحيم:

- اترك، يا ابن الحلال، أنا والسلطان، من حلقه لأذني، قال: ما هو كل يوم نقدر على ابن ماضي، وما دام صار لنا فلا تترك حجراً على حجر، ولا تترك أحد يعتب عليك، ولا تسمع أي شيء من أحد ثاني!

أما ما كان يجب أن يُفعل، ولماذا لم يُفعل، ومن المسؤول، فإن اختلاط الوقائع وتشابكها لا تترك مجالاً لحسم الكثير من النقاط.

لكن قبل إصدار الأحكام أو تقييم النتائج، لا بد من السؤال الأساسي: ماذا حدث؟

حتى هذا السؤال الذي يفترض أن لا يكون موضع خلاف كبير، فإن الإِجابة عنه تتفاوت أشد التفاوت.

أحد الذين كتبوا سيرة السلطان، وقد جرى ذلك، بعد حملة العوالي بسبع سنين، كتب ما يلي: «وابن مياح، ذلك المتعصب، الضيق الأفق، والذي كان يمتلئ غروراً وطموحاً، لم يمتثل لأوامر السلطان، إذ اندفع، كما تندفع الحيوانات الهائجة، واستغل عنصر المفاجأة، ليهاجم السمحة، وكانت جنود حاميتها في غفلة عما يجري، إضافة إلى أنها حامية قليلة العدد. وبعد معركة لم تدم سوى بضع ساعات اندحرت الحامية، وأعلن من فيها التسليم، لكن ابن مياح طلب من جنده أن يلاحقوا رجال الأعداء ويفنوهم عن بكرة أبيهم. وقد امتثل الجنود للأوامر، وقاموا بأعمال قاسية، وحين وصلت الأخبار إلى صاحب الجلالة السلطان استشاط غضباً، ثم غرق في الحزن، وقد شاهده الكثيرون يبكي والدموع تتساقط على لحيته. وبعث ابنه فنر على عجل لكي يضع حداً للمجازر والإساءات التي ارتكبها ابن مياح».

أحد «المؤرخين» الذين سجلوا تاريخ موران، كتب عن موقعة السمحة الآتي: «ثم اندفع جند موران دون أن يدري بهم أحد، واشتبك الطرفان

بمعركة دامت عدة ساعات، أسفرت عن هزيمة جنود ابن ماضي، وقد رابط عدد من هؤلاء الجنود في الهضاب القريبة، وشرعوا يطلقون مدافعهم على المجاهدين الزاحفين، ودامت الحال ثلاثة أيام دون فائدة، تدفقت بعدها قوات موران على المدينة. وفي هذه الأثناء أخذ بعض الأهلين يطلقون الرصاص على جيش موران، مما أدى إلى مذبحة رهيبة لم تقف إلا بتدخل ابن مياح ذاته، ولما درى السلطان بذلك أصدر أوامره المشددة بعدم التعرض للسكان الآمنين المسالمين، وأمر بدفع التعويض لجميع الذين سلبت أموالهم أو أصيبوا بفقد عزيز، وأمر بتأليف لجنة خاصة لهذا الغرض النبيل».

وكتب باحث جاء إلى موران متأخراً ليقوم بمهمات كثيرة، بما فيها كتابة التاريخ، كتب عن تلك الموقعة: «دخل جند موران السمحة كالسيل الجارف، وهم يكبرون ويهزجون ويطلقون بنادقهم في الفضاء، ثم طفقوا يطلقونها في الأسواق، وهم يطوفون المدينة، فقتلوا عدداً من الأبرياء. . .

«وكان قد تخلف في المدينة جماعات من البدو، ناهيك بمن دخل مع الجيش، فاختلطت هذه الجموع في ظلمات الليل، وكانت ساعة الهول والفزع. راحوا يطرقون الأبواب ويكسرونها فيدخلون البيوت إما قهراً وإما بعد أن يؤمنوا أصحابها، ثم يعملون فيها أيدي السلب، وكانوا يقتلون في سبيل السلب».

أما هاملتون، فكتب عن موقعة السمحة، بعد سنوات ما يلي وقد اعتمد على اليوميات: «فلم يلق جيش موران مقاومة تذكر، وحين اندحر جيش العوالي، فرّ مع الجيش الآلاف من السكان والمصطافين. وطارد جنود موران القوات المتقهقرة واللاجئين، فقتلوا جميع الشاردين منهم، واشتبكوا مع قوات العوالي ففر جند ابن ماضي في حالة من الاضطراب عبر المنحدر الجبلي العميق. أما ابن مياح مع بقية جيشه فقد أعمل السيف في سكان السمحة وأخضعهم لحكم إرهابي، قاتلاً المشركين. ونهب جيشه كل بيت وكل إنسان».

ويضيف هاملتون «كان هذا كافياً لبث الرعب والذعر».

وفي وقت متأخر كتب مؤرخ محايد حول تلك الوقعة «وقد استولى جند موران على خزين الذخائر العسكرية في السمحة، واستبيحت لمدة ثلاثة أيام، وفر الكثير من أبنائها، وسقط المتبقون صرعى بأيدي جند ابن مياح».

والباحث الذي جاء إلى موران والعوالي ليدرس ويدون تاريخ المنطقة وجغرافيتها كتب عن الأيام الثلاثة التي أعقبت دخول المدينة ما يلي: «وبدخول ابن مياح أمر بجمع السلاح وبتفتيش البيوت، فاضطر لذلك أن يخرج الأهالي منها، فسيقوا نساءً ورجالاً وحبسوا في حديقة عامة ثلاثة أيام، ثم أطلق سراحهم وأذن لمن شاء منهم بالخروج من المدينة».

لم تكن معركة السمحة، إذن، واحدة من معارك عديدة يمكن على ضوء نتائجها أن يتقرر مصير الحرب، ومصير ابن ماضي. كانت البداية، وكانت النهاية معاً.

فالذين شكّوا بقوة خريبط، أو الذين كانوا يشكّون بإمكانية أن يغزو العوالي، رأوا بأم أعينهم جنده يندفعون فلا يقف في وجوههم أحد، وحتى المقاومة الضعيفة هنا أو هناك كانت بهدف المشاغلة والتأجيل، من أجل ترتيب صيغة ما لابن ماضي. والذين أكدوا أن الإنكليز لن يسمحوا بتقدم قوات خريبط، اكتشفوا أنهم كانوا مخطئين، فالإنكليز هم الذين طلبوا من خريبط أن يغزو العوالي، ومما عزز هذه القناعة وأكدها أن الأموال التي صرفت، والأسلحة التي ظهرت، إضافة إلى العدد من المستشارين الذين كانوا يأتون بين فترة وأخرى، وكانوا يدربون الجنود على المدافع الجديدة، لم يكن ليتم لولا موافقة الإنكليز، وتشجيعهم! ولم يكن الأمر بحاجة إلى براعة أو ذكاء لمعرفة هذا التحول الذي حصل. وأن يقع هذا التحول تتحول عواطف الكثيرين ومواقفهم.

أما بعد معركة السمحة، وما جرى خلالها، فقد قال الكثيرون: «أفضل طريقة أن يراقب الإنسان نطاح التيوس والأسلم أن لا يقترب منها».

فابن مياح الذي اندفع بتلك الطريقة، كأنه يريد أن تنتهي الحرب منذ

أيامها الأولى، هدفه أن يكون وحده المنتصر والسلطان كان يرغب للحرب أن تنتهي في أيامها الأولى أيضاً، لكنه يريد أن يكون المنتصر الوحيد، ولذلك نسي الرد على رسالة، عمه، وترك الحرب تمتد شهوراً طويلة لأنه خلال ذلك سيكون أقدر على ترتيب الوضع لما بعد الحرب.

قناصل الدول كتبوا إلى دولهم أن خريبط يتقدم، وأنه وحده الذي يزداد قوة، في الوقت الذي يتراجع فيه الآخرون، خاصة ابن ماضي، ويضعفون. وكتبت الدول إلى القناصل أن يحرصوا على شيئين اثنين: أن يقيموا علاقات، لكن حذرة، بالسلطان خريبط، وأن يكسبوا وده، ويجب أن يبذلوا أقصى جهدهم للمحافظة على أرواح مواطنيهم والمواطنين الأجانب. أما فيما يتعلق بالمذابح التي جرت، والفظائع التي ارتكبت، والتي إقشعرت لها جلود القناصل، وأبدوا تأثراً زائداً، وبالغوا بالوصف والأرقام وإيراد الوقائع، فقد أشارت الدول إلى قناصلها أن الأمر شأن داخلي، ويحسن عدم التدخل فيه، لكن يجب، مع ذلك، مراقبة كل شيء وتقصي أدق المعلومات، لأن الوقائع والمعلومات ستكون ذات فائدة في المستقبل!

ورغم أن رسائل القناصل كانت تفيض بالعاطفة وتمتلئ بالتفاصيل، ولم يتورع قنصل هولندا عن تسجيل أسماء عدد من العائلات التي أبيدت، وتعداد الأموال التي سلبت، وقد أورد القنصل جميع ذلك اعتماداً على مشاهدة رجل عيان، فإنه لم يذكر اسم الشاهد، وكان جواب هولندا إلى قنصلها: «في الشرق غالباً ما تكون الحروب بهذا الشكل، ولذلك نرى أن تتحرى بدقة، وأن تكون شديد الحذر في علاقاتك مع الذين يزودونك بالأخبار!»

الأمهات اللواتي كن يعرفن اسم عويد المشعان، وكن يخوفن أولادهن باسم هذا الوحش، فجأة تراجع هذا الاسم، وأصبح اسم ابن مياح على كل شفة ولسان. وبالغت النساء في رواية الروايات عما حصل في السمحة، وقد أدى ذلك إلى غضب الرجال، لأن الحديث، حين كان يجري كان يولّد ظلالاً من الشهوة، هذا، على الأقل، ما يستشعره الرجال

في أحاديث النساء، وكان غضبهم يتغلف بشجاعة خائفة، أو بذلك المزيج من التقدير مع الكراهية!

ابن ماضي لا يريد أن يصدق ما حصل، فغضبه يزداد يوماً بعد آخر، ومع الغضب الشتائم وتحريك القطع العسكرية، والتدخل بكل صغيرة وكبيرة. حتى ما يكتب في جريدة «الزمان» من مقالات كان يقضي ساعات في مراجعتها و «تعزيز همتها» كما يقول، حين يستبدل كلمات بأخرى، أو حين يضيف بعض الكلمات والعبارات أو أبياتاً من الشعر. ومع زيادة التدخل، وفقدان الثقة بالآخرين، أو الشعور بفتور حماستهم، تزداد الأخطاء، وتتراكم الهزائم، ويزداد معها الشعور بالإِحباط وخيبة الأمل.

لماذا وقع كل هذا وكيف حصل التحول بهذا الشكل وبهذه السرعة؟ ولماذا يصبح حتى الأبناء والأقرباء وأكثر الناس صلة، وخاصة الكبار، خصوماً؟ لماذا يتحولون؟ لماذا يتكلمون في الوقت الذي يجب أن يصمتوا، ويقدمون أفكاراً واقتراحات مليئة بالجبن وإن كان ظاهرها الشجاعة؟ حتى الشجعان الذين يريدون أن يموتوا، فإنهم يفتقرون إلى الأسباب الوجيهة التي تجعل موتهم مبرراً أو ذا معنى!

وإذا كان ابن ماضي يجد نفسه في هذه الدوامة من الهزائم وخيبة الأمل وتراكم الأخطاء وعدم الفهم، وحتى التنكر، فأكثر ما يعز عليه، وأكثر ما يؤلمه، إن لا أحد يفهمه، حتى زوجته التي يحبها، ويسمع منها الكثير، يجدها مع الآخرين أكثر مما هي معه. فالأبناء والمستشارون حين يجدون صعوبة في التفاهم معه، فإنهم يلجأون إلى الأميرة، كما يسمونها، ويبالغ بعضهم فيسميها الملكة؛ وبطرق بدائية، وبحيل مكشوفة، وبتلك القصص التي يتناقلها السقاة والخدم يملأون رأسها، فإذا امتلأ لا بد أن تفرغه، ولا تجد غير زوجها والأولاد الصغار. كان ابن ماضي يعاني أشد المعاناة. كان يصرخ، يعربد، يرفض أن يستقبل هؤلاء المجانين الذين وفدوا عليه دفعة واحدة، ولا يعرف كيف أو من دفعهم. فإذا استطاع لهم رداً، أو استطاع بما تبقى لديه من قوة ودهاء أن يتكلم معهم بطريقة توضح لهم أكثر مما ترضيهم، كان يجدها في القسم الخلفي من القصر، أو في الليل المتأخر،

تنتظره لكي تقص عليه، ما يعرفه الصغير والكبير، وبالتالي لكي تطلب منه طلبات لا يعرف كيف أمكن للآخرين أن يقنعوها بها، أو كيف استطاعت هي أن تقتنع بها. عندئذٍ يثور، يحطم، يصرخ، وأخيراً لا يجد سوى الوحدة ملجأ ومهرباً!

قال بعض خدمه، إنه لا يفعل شيئاً سوى أن يدير رأسه من ناحية إلى أخرى. أصبح رأسه، كما يقول مفرّح، خادمه الذي لا يكاد يفارقه: مثل بندول الساعة، لا يتوقف ولا يهدأ. فإذا أراد أن يستريح فإنه يغير اتجاه حركة الرأس من الحركة الأفقية إلى الحركة العمودية.

الرسائل التي تأتيه من أولاده، ومن قادة الجند، وحكام المناطق، وحتى من شيوخ القبائل أو الأحياء، لا بد أن يعرف مرسليها قبل أن يفضها، وكثيراً ما أعاد الرسائل أو مزقها دون أن يقرأها. كان يعرف لماذا أرسلوها، وماذا يريدون أن يبلغوه بها. ولأنه يخاف قوّته مثلما يخاف ضعفهم، فقد ظل حريصاً على أن يبقى في تلك المنطقة العازلة. إذا لم يمتثل له الآخرون، إذا لم يفهموا، بعد كل ما حدث، ويقفوا عن قناعة إلى جانبه، فإنه من ناحيته لا يريد أن يسمع كلمات الخوف والضعف، ولا يريد للذين عرفهم في أوقات سابقة وأوضاع أخرى، أن يراهم الآن، ومن خلال الرسائل، وقد ضعفوا أو تراجعوا، ليس ذلك فقط، وإنما امتلؤوا فجأة بهذا الكمّ من العقل والحكمة! كان يتساءل، في أحيان كثيرة، كيف يمتلك الجبناء والضعفاء والمهزومون هذا القدر الكبير من الحكمة، يخرجونه كما لو أنهم يَسْلَخُون على أنفسهم؟ ويباعد ما بين ساقيه، يحك هناك، ويقول: «الأصدقاء الجبناء هم الذين يسببون الهزيمة، أكثر مما يفعل الأعداء».

خريبط، في الضفة الأخرى، يلعب اللعبة ببراعة وإحكام: اضرب، اضرب بقسوة، حيث لا يتوقع، ولا تتركه يرتاح يوماً واحد. تقدم دائماً، والتقدم ليس فقط إلى الأمام، إنه في بعض الأحيان بالتراجع، بإخلاء بعض المواقع، حتى لو كان الأمر مجرد عبث، فقط لتجعل الآخر يحار فيما تفعله. والعبث، أو عدم المنطق، أثناء الحرب، يمكن أن يكون منطقاً،

طريقة مناسبة. لإنهاك الخصم، خاصة إذا كان شيخاً، ويفترض أنه امتلك الحكمة كلها! اعمل الشيء الذي لا يتوقعه أبداً. وحارب بأساليب وبقوى لم يألفها ولم يتصور إنك تملكها. ويمكن أن تجند عليه أقرب الناس إليه. لوّح لهم، اقنعهم، إبعث بالرسل والهدايا والوعود، ابعث كل ذلك مع أشخاص يثقون بهم، أو على الأقل يعرفونهم، وليس المهم أن تكون صادقاً في الوعود أو غير صادق، المهم الآن أن تخرّب جبهة العدو، أن تنفذ إليه من كل المسارب، وعند ذاك، وبعد أن تصل إلى المواقع التي تريدها، تبدأ بمفاوضته من حيث وصلت لا من حيث بدأت. أما الشيوخ، فإن أقسى حرب يمكن أن تشنها عليهم هي أن تدمر أعصابهم، إذ لم يبق لهؤلاء سواها، بعد أن غادرتهم قواهم وآمالهم، وعليك أن تضرب في موضع الألم، يجب أن تضرب الرأس والخصيتين، وكلما كانت ضرباتك شابة، كانت مؤثرة. الضربات الشابة هي الضربات المختلفة عما يتوقعون وينتظرون، وهي التي تؤثر فيهم ويمكن أن تدمرهم.

شهور طويلة في حرب لم تتوقف يوماً واحداً، ولا يشبه فيها يوم يوماً غيره، ولا يشبه مكان المكان الآخر.

قال ابن مياح لعويد ذات ليلة، وبعد انقضاء شهور على سقوط السمحة:

ـ يا أبو مجحم.. ترى سالفتنا طالت، وهذا خريبط حاط يد على الرحمان ويد على الشيطان!

رد عويد وهو يبتسم بحزن:

ـ اللي به عادة ما يتركها يا ابن الحلال، ومن قبل قالوا: يظل ذنب الكلب بالقصبة أربعين يوما ويخرج أعوج!

ـ لكن حنا ما عاد بن صبار. أهلنا وديرتنا وأولادنا، فإذا ما مشى، وحدنا مشينا، وإذا ما تحركنا راحت علينا!

ـ حسابات الشيوخ، يا أبو جازي، طويلة وما تخلص، فإما تصبر عليهم أو يصبرون عليك، لكن أبد ما تعرف شلون يفكرون وشنهو اللي يريدونه.

رد ابن مياح بعصبية:

- يا ابن الحلال قلنا لربعنا إنها يوم والثاني، وتذكر يوم السمحة، كنا متفقين إننا إذا صيّفنا هنا نرّبع بآخر العوالي، لكن، مثل ما تشوف عينك: الصيف انقضى، وعقبه الشتاء، وهذا أول ربيع، وما ينعرف بعده كم ربيع يجي. وإذا قلنا وحكينا يقول: طولة البال ما مثلها، وهذا ابن ماضي العود فارق، هالحين أبو الزغب إذا تحمل الصيف ما يتحمل الشتاء، وكل شيء بوقته زين.

العم دحيم الذي غضب خلال فترة معينة، لأن السلطان لم يجب عن رسائله، ما لبث أن أصبح شخصاً آخر. قال له السلطان بعد معركة السمحة بشهرين، وكان هذا أول لقاء:

- . . . وتعرف، يا طويل العمر، هذي حرب، وبالحرب كل شيء يصير. حنّا بحاجة إلى ابن مياح وإلى عويد. وأنت تعرف الجماعة: بين الصلاة والصلاة صلاة ثالثة، وبين الركعة والركعة ركعة ثالثة. وكأن الواحد منهم يسلّف رب العالمين، أو أنه يتصور دينه على الله، هالحين، أكبر من الجبال، ومثل ما قلنا بموران: يلزم نأخذ الناس على قدر عقولهم، فتركنا السمحة لابن مياح، وهذا دين، ويلزم نرد دينه، إذا ما اليوم اللي عقبه، والسمحة، والشهادة لله، ما تركت لابن حرة قلب، كل واحد يتلمس على رأسه ويقول: الله يستر. وصل خريبط وجماعة خريبط، ومثل ما قالوا جماعتنا: صيت الغنى ولا صيت الفقر!

رد رحيم، وكان صوته رخيماً:

- اللهم قدّم اللي به الخير.

وتغير صوته قليلاً:

- وحنا نريد، يا أبو منصور، رضا الله ورضا الوالدين!

وحين بدأ العم دحيم يتساءل، ولا يسأل كيف ستكون المعارك القادمة ومتى، رد السلطان إن الأمر يتطلب مدة، انتظار وصول قنابل المدفعية، وإصلاح المدافع المعطوبة. وأشار إلى أنه بعث بطلب الذخيرة والمهندسين الذين يصلحون الأسلحة.

فضة لم تكن فقط مع السلطان، وإنما كانت في أحسن حالاتها، لأنها أنجبت الولد الرابع، في هذه الحملة، ورغم أن السلطان تزوج في محطة من محطات الطريق، فقد كانت شديدة السرور بعد معركة السمحة، وطلبت، وألحّت كثيراً، أن يسمى السلطان الابن الذي سيولد منصور، لكنه تردد، وانتابه الحزن وعاودته الذكرى، مما اضطر فضة إلى صرف النظر، واختارت، وبمساعدة اثنين من أقربائها. تسميته: فواز، وهذا ما حصل.

هاملتون الذي قضى شهوراً طويلة في بلاد ابن ماضي، وأبدى حرصاً واضحاً لكي يصل مع خريبط إلى نتائج ترضي الطرفين وتنهي النزاع، ما لبث أن صمت ثم غاب، عندما بدأت الوساطة بين الطرفين. أما الآن، وبعد أن سافر ابن ماضي، وجاء مكان ابنه المعز، فقد جاء هاملتون أيضاً في زيارة خريبط:

ـ . . . الجماعة، يا طويل العمر، مستعدون للموافقة على أية مطالب: ترسيم الحدود، بما في ذلك المناطق التي تم الاستيلاء عليها؛ إقامة علاقات حسن جوار وصداقة؛ إنهاء منازعات المياه وإسقاط المطالب . . .

ويبتسم هاملتون ويضيف كأنه يكلّم نفسه:

ـ كل هذه المطالب مرفوضة، ولا بد الآن أن ترحل عائلة ابن ماضي نهائياً وتترك الأمانة للأمة لكي تقرر ما تراه مناسباً لمستقبل العوالي.

وبدون صعوبة يفهم السلطان تماماً.

ولم تمض شهور حتى قال السلطان لابن مياح ولعويد، وبجفاء:

ـ إذا كنتم تريدون تشاركون فنر المعركة فأهلاً ومرحباً، حنا حضرنا كل شيء، والمعركة بين يوم والثاني، ولا بدّ نخلص من آل ماضي ونرفع راية الإِسلام.

صمت قليلاً، تطلع إلى الرجلين بنوع من التشفي وتابع:

ـ وحنا، إذا قلنا كلام، إذا أعطينا قول، أبد ما يصير اثنين ولا نتراجع

عنه، لكن يلزم للبني آدم أن يتحضر، والحرب هذي الأيام ما هي مثل قبل، تحتاج، هالحين: المدافع والذخيرة... وحتى الطيارات، مثل ما شفتو قبل كم شهر، لما رمونا من السما.

تنفس ملء صدره، صمت، ثم أضاف، وكان صوته حاداً ومزهوا:

- وهالحين، وبتوفيق من الله، وبعدما حضرنا كل شيء، ترانا إذا ما مشينا اليوم نمشي اللي عقبه، فاللي يريد يمشي معنا فأهلاً ومية مرحباً، واللي ما يريد بكيفه!

ولم يكن أمام الرجلين سوى أن يظهرا استعداداً وصل حد المبالغة، فقط يحتاجان إلى فترة قصيرة من أجل أن يستعدا. قال دحيم:

- ترى قوات طويل العمر كافية وزود، بس أبو منصور ما ينسى أحد، وقال: جماعتنا، وأبد ما ننساهم، ويريدكم تكونون معنا.

قال السلطان بنوع من الغضب:

- اللي قلته، يا طويل العمر، هو الصحيح، بس يرحم والديك لا تلح ولا تحرج أحد، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها!

قال عويد:

- حنا حاضرين وجاهزين يا طويل العمر وإن شاء الله نبيّض الوجه.

قال ابن مباح:

- لا أحد يقدر يمنع مؤمناً من الجهاد في سبيل الله.

وبهذه الطريقة تم الاتفاق على معركة الطريفة، وهي آخر معارك العوالي.

أثناء الاستعداد لمعركة الطريفة، والتي يفترض أن تكون آخر المعارك في العوالي، وعلى ضوء نتائجها يتقرر مصير الحرب، وقعت اضطرابات على الحدود، من جهة الحويزة، وقد تضاربت الأخبار حولها كثيراً، الأمر الذي اضطر السلطان لإرسال ابنه خزعل على رأس حملة لقمع الفتنة وتأديب العصاة، وأوفد معه أيضاً ابن مباح والعم دحيم.

وقد أوصى الجميع، وبلهجة قوية، وقيل غاضبة وقد شابها الخوف، أن يكونوا في منتهى الحزم، «لأن الأمور لا تحتمل، وما عندنا لحية مشطة، خاصة بهذا الوقت».

ورغم أن السلطان كان على ثقة أن تلك الاضطرابات ليست بعيدة عن تأثير ابن ماضي، وهي للمشاغلة وتشتيت القوات، أكثر مما هي خطرة، وتشكل تهديداً للسلطنة، فقد حرص أن يكون ابن مياح مع القوات المتجهة إلى هناك، لأنه يريد أن يتفرغ للمعركة الرئيسية هنا، وأن لا يشاركه أحد في جني ثمارالنصر. قال لخزعل يوصيه:

ـ أنت في الحويزة السلطان، أنت اللي تؤمر وتحكم، ويلزم الكل يطيعك؛ حتى عمي دحيم أنت فوقه.

يصمت قليلاً، يفكر، ويخرج صوته صلباً:

ـ وابن مياح إذا شاخ، إذا قال يصير وما يصير، تكسر رقبته، وما عندنا كبير إلا البعير. .

أما مع عمه دحيم فتكلم بطريقة ثانية:

ـ . . . وتعرف يا عم، الجماعة هنا يلزم لهم كم عصا، ويلزم لابن

مياح أن ينفث، فاتركوه يتناطح وياهم إلى حين ما يتعبهم ويتعب، وإن شاء الله شهر والثاني موعدنا، من جديد، بموران!

وتغير صوته:

ـ وخزعل يلزمه يتعلم شلون يحكم، لأن البني آدم مهما عاش آخرته الممات، وإذا كنا هالحين عايشين وفوق راسه، وتقول له سوِ ولا تسوِ، باكر أو عقبه يكون شورة من راسه، ويلزم أنه يكون شاف وتدرب.

وبعد قليل وبلهجة ودودة:

ـ وأنتم فوق رأسه تشورون عليه، وأنا وصيته أنه ما يسوي أي شي إلا بشوركم وبمعرفتكم، وظني أن الأمور هناك سهلة، وهو كان معنا أيام الحويزة ويعرف الديرة والناس، والناس تعرفة وتحبه.

مع ابن مياح كان شخصاً مختلفاً:

ـ . . . بالشدايد ما لنا غيرك يا أبو جازي، وأنا ما اخترتك إلا لثقتي بك ولاعتمادي، بعد الله، عليك.

تنفس بعمق ثم أضاف:

ـ أنا خايف يا أبو جازي أن الجماعة هناك ما تحركوا إلا ومن قال لهم السلطان والجيش كله بالعوالي، وإذا براسكم شي هذا اليوم يومكم، والجماعة ما يقدرون يردونكم، بعيدين ومشغولين بابن ماضي. . .

وتغيرت اللهجة:

ـ وأريد منك، الله يسلمك، أن تثبت لهم أن يدنا طويلة، وأن إيمانّا بالله ورفع راية الإِسلام ما يؤخرنا عنه شي، ويلزم يتأدبون ويعرفون حدهم، وهذول شيوخهم واللي قالوا لهم ثوروا، أريدك ما ترحم منهم أحد.

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ وخزعل مثل ولدكم تشورون عليه وتوصونه. . .

وضحك السلطان وهز رأسه، وبعد قليل:

ـ والأولاد، يا أبو جازي، راسهم حار ومستعجلين، والواحد يلزم يأخذهم على قدر عقولهم!

هاملتون الذي أشار على السلطان أن يبعث إلى الحويزة خزعل وابن مياح كان أكثر خشية من السلطان، أو هذا، على الأقل، ما أشعره به:

ـ في أحيان كثيرة، يا صاحب الجلالة، تتغير الأمور في اللحظات الأخيرة، وهذا تاريخ الحروب يشهد على ذلك، فكم من خدعة انطلت على أكبر القادة، وغيّرت مصائر الحروب والدول. قرطاجنة على سبيل المثال...

وكاد يسترسل في حديث تاريخي، لكن السلطان ابتسم وتطلع إليه باستغراب، ابتلع هاملتون ريقه وتابع:

ـ التاريخ يعلم الإنسان الدروس ويجعله أكثر وعياً وأقدر على اتخاذ الخطوات المناسبة.

ولما وجد السلطان بعيداً ويفكر بأمور أخرى، أضاف بلهجة جديدة:

ـ صحيح أن الأمور في العصر الحاضر اختلفت كثيراً عن العصور السابقة، لكن مع ذلك اعتبر أن حوادث الحويزة خطيرة خاصة في هذه المرحلة، ولا بد من معالجتها بحزم وبسرعة.

قال له السلطان وهو يبتسم:

ـ أنتم، الله يسلمك، تعرفون بالتاريخ أحسن منا حنا يا البدو، بس حنا البدوان، ولا تزعل من هذي الكلمة، نعرف جماعتنا وديرتنا أحسن من غيرنا!

ـ بكل تأكيد يا طويل العمر.

ـ وهذول أهل الحويزة، وحنا بهم أدرى، قالوا لأرواحهم ما دام السلطان بعيد، نضرب بهذي الظلمة، فإذ ما حصّلنا اللحم ما يفوتنا المرق.

وتغيرت ملامح السلطان تماماً، أصبحت أقرب إلى الحزم:

ـ لكن، وبمشيئة الله، وبقدرته، سبحانه وتعالى، لا بد ينكسون وترتد رماحهم لصدورهم، ويلزمنا نكسرهم ونؤدبهم زين، حتى نعلمهم ونعلّم غيرهم.

وهكذا بدأت حملة الحويزة الثانية، وبدأت الاستعدادات الأخيرة لمعركة الطريفة.

السلطان الذي بدا واثقاً لم يشغل نفسه بالحملة التي تحركت إلى هناك، وإنما انصرف كلية إلى ما يجب أن يعملهُ هنا.

قال لفنر، وهاملتون موجود ويريده أن يسمع:

ـ إذا خلصنا هنا، بالخير والسلامة، كل الباقي نوافل. هنا راس الحية، ويلزمنا نضرب، وبعدها ما تلقى أحد يرفع راسه!

ما كتب عن معركة الطريفة متشابه، ويكاد يكون من كتبه واحد! فهذه المعركة كانت بمثابة تتويج لمرحلة طويلة من الصراع والعناد والمساومة، وفي جانب أساسي منها انتهت قبل أن تبدأ. قال بعض المتابعين أنها انتهت يوم السمحة. وقال من هم أخبر منهم إنها انتهت قبل ذلك بعدة سنين. فما تراكم خلال فترة طويلة، وما حاول الإنكليز أن يخلقوه أو يؤدوه عن طريق أشخاص عديدين، أداه خريبط وحده. وهذا، وإذا كان يشكل استثناءً للطريقة التي اتبعوها في المنطقة فإنه يؤكدها. فما دام بعض الأصدقاء أصبح متعباً وشديد الإلحاح على ضرورة تنفيذ وعود سابقة، أو الوقوف في وجه مشاريع أخرى، باعتبار أن هناك من هم مستعدون للقيام بأدوارهم وأدوار غيرهم، فإن المهم هو النتيجة، وهذا ما حصل بالضبط!

صحيح أن هناك تفاصيل كثيرة، وقد تختلف بين واحد آخر، لكنها لا تختلف عن وصف عرس أو سباق خيل: أن تكون العروس، أو الفرس، وضعت رجلها اليمنى قبل اليسرى وهي تدخل أو وهي تركض؛ أن تكون بدت واثقة مهيبة أو خائفة؛ أن تكون قد تعرقت أو لم تتعرق أبداً.. كل هذه تفاصيل ثانوية. المهم أن العروس قد زُفّت، وأن الفرس ربحت!

فخريبط دخل الطريفة في اليوم التالي لرحيل المعز، آخر أمراء آل ماضي في العوالي، بعد أن عقد له النصر، وكان معه فنر، وقد أدى الصلاة في جامعها الكبير. وأولم لوجهاء المدينة. وأول المساء طمأن أهلها والقناصل، وقال إنه يترك لأهل العوالي أن يقرروا ما يرونه مناسباً لهم، وهو مستعد لأن يمتثل وينفذ ما يتفق عليه المسلمون.

خريبط ذاته لم يصدق ما تراه عيناه. كان، وحوله جنده، يبدو، رغم حزمه والتماع عينيه، في منتهى العذوبة وهو يرد تحيات الذين اصطفوا على الجانبين، وكان في حالة من النشوة أقرب إلى الخدر. فهذا اليوم الذي لم يتوقعه ولم يحلم به، أصبح واقعاً مجسداً ووحيداً. ورغم أنه كان مستعداً للموافقة على ما هو أقل من هذا بكثير، وقد حاول دون كلل مع ابن ماضي، لكي يعترف به فقط، وأن يوافق على أن يكون في موران وحدها، ورغم الهدايا والعطايا والخضوع، فإن ابن ماضي ركب رأسه ورفض أن يبعث إليه مجرد كلمة ليشعره برضاه وبركاته!

الآن وخريبط يدخل المدينة الأخيرة في العوالي، وقبلها بعام يضطر ابن ماضي نفسه لركوب البحر والهجرة، ويضطر ابنه المعز ـ والذي جاء كحل لمشكلة بدت مستعصية ـ على ركوب البحر بالأمس ويترك العوالي إلى الأبد، فإنه يشعر بغبطة لا يحتملها، تسقط من عينيه الدموع، يتطلع إلى الذين حوله بامتنان، ويخرج صوته متحشرجاً: «إن الله، سبحانه وتعالى، يعطي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء!».

فنر وهاملتون اللذان سبقا السلطان إلى القصر، للتأكد من الحراسة والاطمئنان لمكان إقامته، لم يكونا يريدان أن يناما هذه الليلة أبداً. كانا في حالة من الانفعال أقرب إلى الذهول أو الهوس، وزاد انفعالهما وهما يطلان من شرفة قصر الهازعي على الساحة الكبيرة الذي جرى فيها الاحتفال، قال هاملتون:

ـ ليلة من ليالي التحام التاريخ بالأفكار، بالأماني، ومجنون من ينام في مثل هذه الليلة، لأن مثلها لا يتكرر في حياة الإنسان.

فنر لم يكن أقل تأثراً وانفعالاً من هاملتون، رد:

ـ هذي، يا مستر هاملتون، يسمونها عندنا: ليلة القدر!

في الليل المتأخر، حين عاد السلطان إلى قصر الهازعي، بعد أن شارك في العرضات وإطلاق الرصاص، ولم يترك أحداً إلا وحياه، وأوعز لعرفان الهجرس ألا ينسى تسجيل أي شيء، بما في ذلك أسماء الذين يسلّمون عليه، بغية تقديم الهدايا لهم، وطلب بتأكيد أن يسجل اسم سويلم

الذيب، قارع الطبل، ثلاث مرات، للشعر الذي تلاه، والطرائف التي قالها وتناولت ابن ماضي، ولدقات الطبل التي لم تهدأ ولم تتوقف طوال الليل!

حين عاد السلطان لقصر الهازعي وجد فنر وهاملتون ساهرين وبانتظاره. بعد أحاديث سريعة، أقرب إلى الغزل والنشوة، وفي لحظة انفعال، طلب إلى الجميع أن يخرجوا إلى الشرفة، وهناك بدأ بإطلاق النار، أطلق ناراً غزيرة، وكان مع كل صلية يردد: ظلينا بصدورهم ونحورهم إلى أن مكّنا الله منهم.

ابنه راكان، الذي جاءه ثلاث مرات، يبلغه أن أمه تريده، ولا بد أن يكلمها، لم يتلفت إلى كلماته. صحيح أنه رآه، احتضنه، لكن لم يسمع ما قاله. وحين ألحّ الصغير في المرة الأخيرة، نتيجة إلحاح فضة، وكان السلطان في حالة انفعال يستمع، ربما للمرة العاشرة، إلى خادمه الزين، وكان اسمه من قبل المعتوق، والسلطان ذاته هو الذي أعطاه الاسم الجديد، يروي كيف ركب المعز الباخرة في الليلة السابقة، وأصرّ أن لا يترك الطريفة إلا إذا أطلقت له المدفعية إحدى وعشرين طلقة، فكان السلطان، حين يسمع إحدى وعشرين طلقة يسأل، والضحك يملأ وجه كله: واحد وعشرين شنهو؟ فيرد عليه معتوق: طلقة؛ ومن جديد يسأل: قلت طقعة؟ فإذا أجابه طلقة، يرد السلطان: أي والله يستاهل، وما هو واحد وعشرين طقعة يستاهل ازود. أما حين ألحّ عليه راكان، وفي لحظة صمت، فقد سمعه الذين حوله يقول بمرح:

ـ يكفي يا وليدي، واليوم ما هو دورها، اليوم دور غيرها!

قال الذين شهدوا الليلة الأولى للسلطان في الطريفة، أنه لم ينم ولم يترك قصر الهازعي، أو بالأحرى شرفاته. فقد تنقل من شرفة لأخرى، وعند الفجر، حين سمع الأذان، وقد خيمت لحظة صمت، قال، وخرج الصوت من أعماق صدره:

ـ أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

وتغير فجأة، إذ طلب، وبصوت أقرب إلى الأمر:

ـ الصلاة.. الصلاة يا عباد الله.

وخرج وخرج من معه. هاملتون الذي تخلف، وكان معه عدد من خدم السلطان، قال لنفسه: «من الرائع والمفيد أن يعتقد هؤلاء السلاطين أنهم كبار وعظام، وأن يكونوا واثقين هكذا، وأن ينظروا إلى الآخرين دون أن يرف لهم جفن. أنهم شجعان حين يتحدثون، ولا بد أن يجيء وقت يتوهمون أنهم فعلاً يصنعون التاريخ، لكن من حسن حظ التاريخ، خاصة الآن، أنه يُصنع في أماكن أخرى، وأنه رغم العلامات التي تميزه، ولا يخطئ في قراءتها الكثيرون، فإنه لا يصر على أن يُستهلك في مكان محدد، خاصة مكان صناعته، فهو ملك مشاع، ويمكن لأي قوي أن يدعيه، كما يمكن لأي واهم أن يدعيه أيضاً، مستغلاً ضعف الآخرين أو جهلهم».

ورغم أن هاملتون سجل في يومياته، خلال هذه الفترة، أشياء كثيرة، لكنه لم يعتبرها الأكثر أهمية، خاصة في هذه المرحلة. كان يريد أن يساهم في صناعة تاريخ منطقة في مرحلة معينة، أو على الأقل يسهل لصانعي هذا التاريخ مهمتهم، ولذلك أجل الكتابة بعض الوقت، وانصرف إلى أمور أخرى.

بسقوط الطريفة انتهت مشاكل الحرب لتبدأ مشاكل السلام. صحيح أن عدة جيوب للمقاومة ظلت هنا وهناك، وأخذت وقتاً واهتماماً كبيرين من السلطان، إلا أنه كان واثقاً، فقد وصفها، ذات ليلة لهاملتون، وهما يتحدثان عن شؤون المستقبل، بأنها تشبه بقايا اللحم بين الأسنان، وأضاف وهو يضحك:

ـ وحنا يا البدوان عندنا بدل المسواك عشرة، فإذا ما فاد الأول يفيد الثاني، وبعدها الحلق مثل المسك!

أرسل عويد المشعان في حملة إلى الشمال، وأرسل فنر في حملة أخرى إلى الجنوب، وكان هدف الحملتين أن تجتث ما تبقى لابن ماضي من آثار، وأن تشعر القاصي والداني إن دولة جديدة قد قامت، وأن لهذه الدولة من القوة ما يمكنها أن تصل إلى أبعد المناطق، وأقوى الأشخاص. ولم ينسَ السلطان أن يوصي قادة الحملتين بضرورة الحزم، وبعض الأحيان القسوة.

قال لابنه فنر الليلة الأخيرة، قبل أن تتحرك الحملة:

ـ أنت، يا وليدي، غير الباقين، دارس وتفهم، سافرت وشفت، بس أريد اعلّمك بجماعتنا: ترى إذا رخيت مدوا، وإذا شديت خافوا وارتدوا. العين الحمرا تخوف اللي ما يخاف، وأريد منك ما تعطي وجه لأحد، لأن هذول البدوان إذا انعطوا وجه يطمعون، وما يشبعون. اسمع من الكبار قبل الصغار، واسمع من الشيوخ ولا تسمع من غيرهم. لا تقول لا أبد ولا تقول نعم، خل سرك بصدرك ولا أحد غيرك يعرفك أو يحزر عليك. قبل أن تقبل على قوم خلي خوياك يجوسون ويتأكدون، لأن الطريق ما هي

آمنة، فإذا ما وصلت خلي الأرض ترجف تحت رجلك، وما أحد كبير غيرك، ولا تخجل ولا تخف يا وليدي.

كان بوده أن يضيف، أن يتكلم أكثر، أن يلخص تجربته ومعارفه لفنر وهو يقود أولى حملاته، لكنه كان على ثقة أن فنر استوعب أغلب الدروس. لقد اختبره في أوقات سابقة، تحدث معه طويلاً، وسأل، دون أن يشعره، الذين رافقوه، وقد خرج نتيجة ذلك كله «أن فنر رجال وذهين وما ينخاف عليه». ومع ذلك فقد اختار له أحسن رجاله، من حيث القوة والشجاعة، وقال لهم، بطريقة غير مباشرة، إن فنر ربما احتاج إلى خبرتهم ومعرفتهم بالأرض والناس، وإنهم لن يبخلوا عليه، وختم حديثه مع أخلص الرجال الذين رافقوا الحملة:

ـ . . . وتعرفون أن العمر يعلّم والإنسان ما يتعلم إلا من كيسه، بس دايماً الكبير يعلّم الصغيّر، واللي يعرف يعلم اللي ما يعرف، وما يلزم ابين لكم منزلتكم عندي وكم تعزون عليّ، وإن شاء الله برجعتكم غانمين، الله يقدرنا على مجازاتكم!

مع عويد المشعان كان السلطان مرحاً ومزهواً:

ـ . . . الواحد، يا أبو مجحم، يوصي اللي ما يعرفه، اللي ما جرّبه، وهذا الشمال لك كله، بحماده ودياره، وما أظن أن الواحد يخرب رزقه بيده!

وحي تطلع ابن مشعان إلى السلطان بتساؤل، تابع:

ـ العوالي صارت لنا يا أبو مجحم، ما هي لابن ماضي أو لغيره، والناس بذمتنا ما هم قوم علينا، فارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. العاصي، اللي يحمل سلاح، اللي يريد يحارب الحكومة ما له بقلبنا شفقة أو رحمة، نضربه حتى نؤدبه ونؤدب غيره، أما اللي هم على باب الله، اللي ما بي بينّا وبينهم شي، فمرحبا يا أولاد، ويا هلا بالنشامة، وكل ما نريده منكم، يا جماعة الخير، أن تطيعوا الله ورسوله وتدعوا لطويل العمر بالخير والسلامة.

توقف السلطان قليلاً ثم أضاف بنبرة مرحة:

ـ هذا الكلام يا عويد أقوله لنفسي قبل ما أقول لأحد غيري، وأبد ما تفهم منه شي ثاني، وهالحين حنا نريد نسألك. . .

تطلع عويد المشعان بحذر وترقب، وخرجت الكلمة من فمه بعداء:

ـ سم. . يا طويل العمر.

ـ نسألك، يا أبو مجحم، قبل ما تمشي: توصينا بشيء؟ تريد شيء؟ هل من طلبات سهينا عنها؟ طلبات لك، لأهلك، لجماعتك ورجالك؟

ـ أريد سلامتك، يا طويل العمر، وأنت دايماً مفضّل.

ـ وبرجعتك، الله يسلمك، غانم وسالم، راح تصير حملة العوالي أخبار وأمثال يرويها الكبير للصغير، لولد الولد، ويقولون عويد المشعان، أبو مجحم، سوّى وسوّى. . . وهذا اللي يريده البني آدم بهذي الدنيا، وكل ما عداه ما يسوى شي!

وهكذا خرج عويد المشعان راضياً، وندم أنه أخطأ، في فترة معينة، بل أكثر من ذلك لام نفسه أنه ظن الظنون بالسلطان!

نشوة النصر التي أدارت رأس السلطان، وملأته ثقة وزهواً، واستيلاؤه على العوالي بمساحاتها الكبيرة ومدنها العامرة، وبسكانها الأكثر وعياً وتطوراً من موران، لم ينسه أن يتلفت حواليه أيضاً. ففي هذه الفترة التي تقام خلالها الممالك أو تزول، وأثناء رسم الخرائط الجديدة للمنطقة، فإنه وحده الحصان الذي يمكن أن يصول ويجول، خاصة بعد غياب ابن ماضي، والقادر على أن يقنع الآخرين، وأن يقتنع به الآخرون.

هاملتون الذي ظل سنوات في موران والعوالي، لا يغادرهما إلا في سفرات قصيرة ويعود، قال للسلطان، بعد شهر من انتهاء حرب العوالي، وكان يستأذنه بالسفر:

ـ في الأماكن الأخرى من العالم، يا طويل العمر، يعتبرون الإجازة، الراحة السنوية، حتى بالنسبة للعسكريين، ضرورية ومقدسة مثلما العمل ضروري ومقدس، وهناك لا يؤخرون إجازاتهم ولا يؤجلونها، لذلك يحق لي أن استأذن جلالتكم في إجازة. . . بعد هذه السنين.

والسلطان الذي لم يعترض، كان تواقاً لأن يعرف: إلى أين يمكن أن يصل في المرحلة القادمة؟

قال ليواصل الحديث، وبجو من المرح والألفة:

ـ الحق اللي تقوله يا الصاحب، وجماعتنا، هنا، يقولون: اللي ما يصل أهله ما يجيه ولد، فيلزم تصل أهلك وترجع لنا أنت والعيال والأخبار الزينة!

رد هاملتون بمرح أيضاً:

ـ انقضت سنوات، يا طويل العمر، لم أر ولدي إلا بالصور، فإذا لم أذهب الآن، وأقدم نفسي، وأقول له: أنا أبوك يا مايكل، فسوف ينساني ولن يتعرف عليّ في المستقبل.

ـ لا.. لا هذا أبد ما يجوز:

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ولو الله هداك، وصرت مسلم، كان زوجناك وخليناك هنا، بس ما هي باليد، قال عز وجل: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾.

قال هاملتون، بعد أن انتهى هذا الحديث المرح وخيم الصمت:

ـ كنت اود، يا صاحب الجلالة، لو أن سمو الأمير فنر رافقني في هذه السفرة، لأن الأصدقاء الكثيرين له في بريطانيا سوف يفتقدونه، كما أن زيارته الآن ستكون مفيدة بعد هذه السنين من الغياب.

رد السلطان، وجو المرح لم يزايله:

ـ الخير بالجايّات يا محروس السلامة، وأنت تكفي وتوفي، ولا بد تسلّم على الجميع، وخاصة طويل العمر ملك الإنكريز كثير السلام، وتقول له أن الجماعة هناك يذكرونك بالخير، ودوم دوم يسألون عن صحتك وراحتك، ويتمنون لك السعادة والسلامة.

شكره هاملتون وأكد له أن الجماعة هناك يتابعون الأخبار باهتمام وعناية وسوف يرجع أيضاً بالأخبار الطيبة!

بعد أن تحركت الحملات، وهدأت ضجة الاحتفالات، وبدخول فصل الشتاء، أخذت العوالي تبدو بنظر السلطان ورجاله غير مفهومة بالمقدار الكافي. فالناس الذين كانوا شديدي الضيق بابن ماضي، وضجوا بالشكوى، ولم يخفوا المرارة، بل وكانوا لا يريدون لتلك الحال أن تدوم، وعبروا عن فرح مشوب بالحذر، لأن الحرب انتهت أو كادت، بدأوا يظهرون ضيقاً، وفي أحيان كثيرة يصل حدود الاستياء من تصرفات جنود السلطان ومن رجاله. فالجنود الذين كانوا خائفين في بداية الأمر، وينظرون إلى كل الوجوه بارتياب، ما لبثوا أن شعروا بالطمأنينة والثقة، وهذا دفعهم لأن يواجهوا أي رفض أو اختلاف بالقوة، ولم يترددوا في شهر السلاح، أو ضرب الذين لا يمتثلون لرغباتهم أو أوامرهم، فالاختلاف على البيع والشراء، والمزاح، وتلك التوريات بالحديث، وبعض الأحيان المناداة على السلع بالغناء والتطريب، وغير هذه من الأمور الصغيرة التي كانت تميز العوالي، وتطبع ناسها في المدن الكبيرة وفي أصغر القرى، وتخلق لهم ملامح وعادات يأخذها الصغار عن الكبار، ويتوارثها جيل عن جيل، كانت هذه الأمور تثير رجال السلطان وتدفعهم إلى التحدي. وكثيراً ما وقعت في الأسواق الداخلية، أو في الأحياء البعيدة، عمليات تعدٍ من هذه الطرف أو ذاك. كانت في بداية الأمر عابرة، قليلة ومتباعدة، ولا يذكرها أحد، لكن عندما ترافقت بذلك العناد، وذلك الإصرار الذي يبديه رجال بالسلطان، على ضرورة أن يتغير كل شيء، سواء في عمليات البيع والشراء، أو بطريقة التعامل، وحتى بنظرة العيون، فإن عناداً أقوى وإصراراً أشد بدأ يظهر من الناس. صحيح أن الأمر حصل

بشكل عفوي، ونتيجة رد الفعل، وظل في نطاق الأفراد، لكنه بدأ يتسع ويزداد.

وبدأ يتسع أكثر وازداد أكثر حين ترافق ذلك مع التعليمات التي أخذت تصدر تباعاً حول ما يجب على الناس من التزامات دينية: الصلاة في المساجد، وفي أوقاتها، ومن يتخلف يتعرض للعقوبة. التدخين ممنوع ومن يقبض عليه وهو يدخن لا بد أن يجلد أمام الناس. أما الغناء، أما اللهو فيجب أن يُنسى أمرهما لأن عصر ابن ماضي مضى وانقضى وبدأت الآن دولة الإِيمان.

ظن الكثيرون أن ما نقل إليهم لا يزيد على كونه إشاعات يروجها رجال ابن ماضي؛ وفسر الذين سمعوا الأخبار من أناس ثقات أن الأمر لا يعدو أن يكون نزوة، مثل نزوات كثيرة تظهر في بدايات العهود، أو مع القادمين الجدد، ثم لا تلبث أن تسقط أو تنتهي. وقال بعض الذين يعرفون رجال خريبط أكثر من غيرهم: «يظنون أن كل الدنيا موران، وهم بكل تأكيد لا يعرفون العوالي، ولا يعرفون غيرها، ولا بد يخطون، وبعدها يندمون».

حين قابل الوجهاء والتجار السلطان، وأشاروا، بطريقة بعيدة، إلى بعض ما يجري، ابتسم ثم رد عليهم بطريقة لم يستطيعوا أن يفسروها تفسيراً دقيقاً، أو أن يتفقوا على معناها، لكنهم لاحظوا أن وجهه اعتكر وبدا عليه شيء من الضيق، فلم يتابعوا، وتركوا الأمر إلى وقت آخر، أو ظرف مناسب.

وحين أشاروا إلى ما يجب أن يكون في العوالي من العلاقة بين الحاكم والمحكوم، واستشهدوا بما قاله السلطان ذاته، فقد أكد لهم أنه سيفي بكل كلمة قالها وبكل وعد أعطاه، فقط يطلب تعاونهم والتفافهم، وإن الأمور مرهونة بأوقاتها. فلما التمسوا منه، وكان ذلك أقرب إلى الرجاء والتوسل، أن يفرج عن بعض موظفي ابن ماضي، وجنود الحامية الذين استسلموا، صاح بصوت عالٍ على ابن هجرس، والذي يقف دائماً غير بعيد، وبيده دفتر وقلم:

ـ اسمع يا عرفان.. حتّا اليوم بيوم الاثنين، تبلغ الجماعة، وتقول لهم، السلطان يأمركم أن آخر حد معكم يوم الخميس، كل بريء، كل واحد ما حمل بوجهنا السلاح، وما سرق ولا نهب، يلزم يفرجون عنه. تسمع يا ابن هجرس؟

ويتطلع إلى تأثير كلماته في الوجوه والعيون التي تتابعه، حتى إذا رأى رضى أقرب إلى الفرح أضاف:

ـ ويوم الخميس بنفسي أتأكد، وما يلوم المقصّر إلا نفسه، تسمع يا عرفان، بلغهم هذا على لساني.

والتفت إلى الوجهاء والتجار وقال بلهجة أبوية:

ـ وإن شاء الله يصلّون ويانا الجماعة جماعة.

وتغير الحديث وأخذ مجرى آخر.

ويوماً بعد آخر يغرق السلطان في دوامة المشاكل والهموم، والتي لا تنتهي. فابن ماضي الذي ركب البحر بعد أن خسر معركته العسكرية، بدأ حروبه الأخرى. بدأ بحرب التحريض وتأليب القوى والرأي العام ضد ما يجري في العوالي من فظائع: القتل، التهجير، هدم الأحياء والقرى، نهب البيوت والبشر، وكان يستغل اللاجئين والفارين من مذابح البدو، لكي يتحدثوا عما يجري هنا. أما ما يفعله رجال خريبط في أمور الدين فإنه حديث القريبين والبعيدين، ومن شأنه أن يستفز ويثير ويعبّئ. والسلطان خريبط الذي بدا غير خائف، أو بالأحرى كان واثقاً من المعركة العسكرية ونتائجها، اكتشف الآن أن هذه المعركة لم تحسم إلا القليل من المشاكل، وخلقت، بالمقابل، مشاكل من نوع آخر. وإذا كان مطمئناً أن أغلب ما يدور في الخارج لا تصل أصداؤه إلى العوالي وإلى موران إلا بعد مرور فترة طويلة، وبعد أن تنكسر حدته، ويصبح جزءاً من الماضي، لعدم وجود وسائل اتصال مع الخارج، حيث تدور الأحاديث، وتنشر الفظائع والفضائح، ولأن في العوالي صحيفة وحيدة تنشر الأخبار تصدر مرتين في الأسبوع، وما تغيّر فيها سوى المحرر الرئيسي، فبعد أن كان ابن ماضي نفسه في فترة معينة، جاء بعد سفره غالب الدباغ، أحد رجال الأمير معز،

فلما سافر الأمير سافر غالب معه، وبعد أن جاء خريبط أصبح يونس شاهين مسؤولاً عن الجريدة التي تنشر البلاغات والقصائد.

لكن بمرور الوقت أصبح الخارج يؤرق السلطان أكثر من الداخل، فقد اعتبر معركته الأساسية، والتي كانت تثير مخاوفه، قد انتهت، لكنه اكتشف أنها انتقلت من الداخل إلى الخارج. ومثلما بعث بالحملات إلى معظم المناطق شمالي العوالي وجنوبيها، لكي تجتث ما تبقى لابن ماضي، وتبشر بالحكم الجديد، ولكي تفرض هيبة الدولة، فلم ينسَ أن يبعث بعدد من رجاله إلى حيث يكون ابن ماضي. وفي هذ الفترة من الاضطرابات والتداخل وتغير الولاءات، وكان من السهل أن يكون لكل واحد من المتنازعين عيون عند الآخر، وأن تنتقل الأخبار والمعلومات، حتى تلك التي تجري في غرف النوم ووراء الأبواب المغلقة، فلما وصلت للسلطان الأخبار أن ابن ماضي لم يترك أحداً، ولم يترك قولا أو عاصمة إلا وبعث إليها رجاله، وأن الصحافة والناس في الخارج لا تتكلم إلا عما يجري في العوالي، فقد تحسب كثيراً، ولام نفسه أنه ترك هاملتون يسافر، بل وخاف من هذه السفرة.

لم تقتصر الحرب الجديدة على ما يكتب أو ما يقال، فقد ترافقت أيضاً بالأموال ترسل إلى الكثيرين في الداخل، إلى زعماء العشائر وقادة الجند السابقين، وإلى التجار وأئمة المساجد. وترافقت أيضاً مع الصعوبات التي تواجه الناس في تأمين ما يحتاجون إليه، بعد أن اشتريت من الأسواق المواد لحاجة الجنود وحملات السلطان. ومع الصعوبات رجال خريبط وطريقتهم في التصرف والتعامل. صرخ سعيد السقاف وسط السوق، حين لطمه أحد رجال خريبط، وكان في باب دكانه يدندن.

ـ أيش ذا يا أبويه احنا عبيد ولاّ صنف ثاني؟

وهز رأسه عدة مرات بلوعة وأضاف:

ـ أعوذ بالله جماعة ما يمكن التفاهم معهم، تقول لهم ثور يقولوا احلبوه، نقول لهم احنا إسلام مثلكم يقولون: تخسون. جماعة ما يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب، لكن يومهم قريب!

ومع الصعوبات وتزايد نقمة الناس حرب الحدود. فالمعزّ الذي وُجد في ظروف صعبة، واضطر، من أجل الحفاظ على أرواح الناس، كما يقول، ومن أجل أن ينسوا أخطاء الماضي، ولكي يفرض المعركة، لا أن تفرض عليه، بدأ. وكان متأكداً أن الظروف الجديدة، رغم صعوبتها، سوف تتيح له أن يعمل ويتصرف بطريقة مختلفة. ماذا يريد الإنكليز؟ ماذا يريد الفرنسيون؟ ماذا تريد القبائل والناس وكل أهل العوالي؟ إنه مستعد لذلك. وندم أنه ترك الطريفة سلماً. كان يمكن أن يبقى، ويقاوم، لكن المستشارين، هؤلاء الذين قال عنهم أبوه: إنهم يخصون الثيران، ويقتلون خيل السلطان، وكانوا حوله، لا يتعبون من الاختلاف والتنافس، وكان الإنكليز يملأون جيوبهم بالمال، وعند ذاك يسمعون ويسمّعون ما يجب أن يكون!

الآن، يمكنه أن يفكر دون ضغط البدو ودون صراخ اللاجئين والهاربين، ويستطيع أن يخطط بدقة للمستقبل. ماذا يملك خريبط أفضل منه؟ وهل يثقون به أكثر مما يثقون بأولاد الملوك والذين توارثوا الحكم أباً عن جد؟ والبدو... إنهم لا يريدون أكثر من الذي يؤمن لهم قوت يومهم. وإذا كانت مدن العوالي وتجارها قد أنستنا البادية فيجب أن يُصحح الخطأ وأن يُحارب خريبط بالقوى التي حارب بها.

حرب الحدود لها بداية، لكن ليس لها نهاية. ومثلما بدأ خريبط يمكن أن يبدأ هو.

وهكذا، وبانسجام مع الحرب النفسية وحرب الإعلام، ومع الأموال أيضاً، بدأت حرب الحدود. وخريبط الذي كان يخاف من الأماكن البعيدة، والتي تبدو له مجهولة، لم يكن يخاف كثيراً من هؤلاء البدو أن يأخذوا ألف طلقة لكي يطلقوا عشراً، ثم يعودون، ليأخذوا بدلها آلافاً. إنه يخاف من الطلقات البعيدة التي لم تسمع بعد، ويخاف أكثر من الذين لا يحملون البنادق الآن، أو الذين يحملونها ولا يطلقون!

لو أن الأمر اقتصر على ذلك لهان ووجد حلاً، لكن رجال موران ذاتهم الذين كانوا يحاربون بحماس ودون تردد، أصبحوا الآن نمطاً آخر من

البشر: يضغطون، يتكلمون بأصوات عالية، يلومون السلطان أكثر مما يلومون غيره، لأنه يمنعهم من تصحيح الأخطاء، من قمع هؤلاء الذين لا يفعلون شيئاً سوى أن يجعلوا منهم مسخرة، رغم كفرهم، ولا يترددون في أن يمتنعوا عن بيعهم أو التعامل معهم.

فأهل العوالي الذين أبدوا تساهلاً كبيراً حين وصلت قوات السلطان، وكانوا مستعدين للترحيب بالذين جاءوا والتعاون معهم، وكانوا كذلك خلال الأيام الأولى، ما لبثوا أن تحولوا وتغيروا. فالماء البارد الذي يخرج من البيوت، والخضر النديّة التي يقدمونها، وتلك الابتسامات التي تترافق مع الأحاديث، كل ذلك انتهى ليحل محله نوع من الجفاء أقرب إلى العداوة، وسخرية سوداء بدل الابتسامات والترحيب، إضافة إلى أجوبة تتكرر لدى الباعة والمخابز وفي الأحياء البعيدة، عند أطراف البحر أو قريباً من الصحراء: «ما عندنا يا أخوي، ما فيش، نفقنا وما تتعب روحك». وهؤلاء البدو، رجال السلطان، والذين جاءوا من أبعد الأماكن، من أجل الغنائم، أو من أجل المال والحرب، أو من أجل رفع راية الله، يجدون أنفسهم في وسط أقرب إلى العداء، في وسط مليء بالصمت والريبة والاختلاف.

ولأن رجال السلطان يواجهونه كل يوم، وهم حوله وأقرب الناس إليه، لذلك لا يتركون أية حادثة، مهما كانت صغيرة، إلا ويرددونها المرة بعد الأخرى، حتى إذا وصلت إلى مسامع السلطان، صاح بغضب:

ـ يا عباد الله، هذي غير موران. وهذول غير جماعتنا، ويلزم تفهمون وتصبرون!

وتنقضي أيام الشتاء، وتأتي بعدها أيام الربيع، لكن شتاء هذه السنة كان أشد برودة من سنوات سابقة، وكان أقل مطراً. فإذا احتمل الناس، من أهل العوالي، أو من أهل موران، الشتاء إنتظاراً لأيام الربيع، وانتظاراً للخصب وانفراج الأحوال، فقد جاء الربيع بطيئاً ضعيفاً، وانتهى بسرعة ليبدأ معه الصيف. والصيف إذا جاء مبكراً وكثيفاً هكذا فإن مزاج الناس وتصرفاتهم، وحتى عقولهم تتغير. قال أهل الحواضر في نهاية الشتاء:

«انتظروا الربيع فإنه يحل المشاكل ويفرّج الهموم» فلما جاء الربيع هكذا، قالوا: «اللهم اجعلها سنة يمكن احتمالها، فإذا انقضت تنقضي الهموم» ولما حل الصيف قاسياً ثقيلاً تشاءموا، وقالوا من وراء أبواب مغلقة: «اللهم نجنا من الأعظم». وضاقت خطوات الناس أصبحوا لا يخرجون إلا إلى الأماكن القريبة، ولا يلتقون إلا بالأقرباء أو الذين يعرفونهم. أما أهل البادية، وهم أقدر على تحمل سنوات المحل، فكانوا يجدون حلاً لما يعانون بأن ينزلوا إلى أطراف المدن، أو أن يرابطوا على طرق التجارة، وهناك، وبمحاولات ووسائل لا تخلو من المكر والقسوة، أو المسكنة، كانوا يجدون قوت يومهم، ويواصلون الحياة، رغم صعوبتها.

الآن، وقد هجمت هذه السنة العكرة القاسية، وبعد أن توقف الذين يحسنون عن تقدم الإحسان، وتوقف الذين يدعون البدو لأعمال البساتين، أو لحفر القنوات أو لنقل الحجارة، ليس لأنهم بحاجة إلى كل هذه الأعمال، وإنما لأنهم يريدون أن يساعدوهم وأن يجعلوهم يعملون شيئاً مقابل ما يقدمونه لهم من الطعام والمال، فإن هؤلاء لم يعودوا مستعدين أو قادرين، لأن البدو ارتبطت صورتهم بصورة رجال السلطان، ولأن ليس لديهم من المال فائض يقدمونه لهم.

سنة وليست مثل أي من السنين.

قال خريبط ليونس شاهين:

ـ اكتب يا يونس: «إن الله يرزق الناس من حيث لا يحتسبون». كتب يونس ذلك، لكن الرزق لم يأت.

قال خريبط لرجاله: «لقد صبرنا من قبل؛ أكلنا الجراد، وتحملنا، فيجب أن تتحملوا. وقال أيضاً إن الله يمتحن عباده، وأنتم الممتحنون». سمعوا منه، لكنهم تلفتوا ونظروا لا يعرفون هل يوافقون على ما يقوله أم يفعلون شيئاً آخر!

قبل أن ينقضي الصيف لاحت في الأفق علامات جعلت السلطان يستعيد ثقته ويصبح أميل إلى التفاؤل: حملة الجنوب قامت بدورها

وعادت، أو عاد أغلب الذين شاركوا فيها. فنر بدا لكل من رآه إنساناً آخر: لوحته الشمس وغيرته تماماً، ومع تغير الملامح تغيرت التصرفات، وحتى النظرة والعقل تغير. أبوه السلطان، بعد أن سمع منه، خلال يوم وليلتين، تفاصيل كثيرة ودقيقة حول الحملة وما واجهها، منذ أن تحركت إلى أن عادت، وكان في أحيان كثيرة يستوقفه، يستفسر ويتساءل بدهشة عن الأماكن والأشخاص، قال لنفسه: «يوم حرب ولا سنة تنجيم، لأن الواحد في الحرب شايل روحه على كفه، وما يدري شنهو اللي يصير بعد ساعة، ولهذا السبب ينشّد عصبه وكل يوم يطلع له قلب». أكثر من ذلك بدا له أن وجود فنر إلى جانبه، وقد كبر وتغير هكذا، سوف يساعده كثيراً.

أخبار حملة الشمال مشجعة، لكن لا تزال أمامها مهمات. وابن مشعان، منذ أن تحركت قواته، أصبح أكثر وداً، وأكثر حرصاً على أن يظهر للسلطان التزامه. فالرسل الذين بعث بهم، ليطلعه على تحركات الحملة وأخبارها، أو ليبعث له عدداً من كرام الخيل وأطايب الفاكهة، ثم ليشعره أنه تزوج في الطريق مرتين، مع إشارة، لا تخفى، إن هذين الزواجين كانا ضرورين لاستمالة بعض القبائل والتقرب منها. كانت الرسائل والإِشارات واضحة الدلالة: إنه ينفذ تعليمات السلطان، وإنه يكسب ود الناس أكثر مما يقسو عليهم!

أما حملة الحويزة، فرغم أنها انتهت خلال الشهور الثلاثة الأولى، لكن لا تزال هناك جيوب كثيرة، خاصة قرب الحدود. وهذه الجيوب وإن كانت لا تشكّل خطراً إلا أنها شديدة الإِزعاج، إذ بالإِضافة إلى أنها تتحرك بسرعة من مكان إلى آخر، وفي هذا دليل لا يخفى على أن لها مؤيدين في قبائل وأماكن عديدة، فإن قربها من الحدود، وخطورتها أيضاً، يمكن أن تؤدي إلى مضاعفات أو نتائج غير محمودة العواقب.

خزعل، بعد مشاورات طويلة مع العم دحيم، وبعد رسالة إلى أبيه، قرر أن يترك ابن مياح يتابع أمر هذه الحملة، ورجع إلى موران. كان يريد أن يتابع سفره إلى العوالي، لكن السلطان طلب منه البقاء إذ لا حاجة لمجيئه.

وقبل نهاية الصيف أيضاً، وهذا ما جعل السلطان يتفاءل، عاد هاملتون.

عاد هاملتون هذه المرة عن طريق الحويزة. بقي هناك ثلاثة أيام، تابع بعدها السفر إلى موران. ومن موران بعث إلى السلطان رسالة رقيقة يشعره بوصوله، وأن لديه أموراً كثيرة يريد أن يبحثها معه، ولا يعرف ما إذا كانت لدى السلطان الرغبة في البقاء في العوالي أم العودة إلى موران، لكي يتصرف على ضوء ذلك، خاصة وأن معلومات موران، خزعل والعم دحيم، وجميع الذين سألهم، أكدوا قرب عودة السلطان وإنها متوقعة بين يوم وآخر!

ما كاد السلطان يتسلم هذه الرسالة، حتى قال لفنر، وكان رأفت شيخ الصاغة ويونس شاهين وعنان بسيوني، موجودين، وكان يريدهم أن يسمعوا:

ـ من يوم ما الله خلق الدنيا: السلاطين ما يسافرون حتى يتسلموا الرسائل، لكن هذا أخوك يا فنر، خزعل، الله يصلحه، قلنا له أمسك الأرض، اثبت بمكانك، لكن أبد!

وزفر السلطان وكأن لهيباً خرج من صدره، ثم تابع:

ـ ترك الحويزة، قلنا على بركة الله. وصل إلى موران، قال أجيك، قلنا له ظل بمكانك. واليوم جاء الصاحب، وبدل ما يدزه، حتى لو أني جاي وتحركت، قال له إسأل أبوي: «ها يا بويه: أنت جاي أو متأخر. . .» إلى متى الواحد يظل يعلم البني آدم، وهذا البني آدم ما يتعلم؟

قال رأفت شيخ الصاغة:

ـ الغايب عذره معه، يا طويل العمر، ويجوز تكون هناك أشياء لا نعرفها.

قال عنان بحدة:

ـ لكن، يا رأفت بك، في حاجات لا يمكن التساهل فيها، ومثل ما قال جلالته: أي واحد يريد مقابلة السلطان، أو يحمل له رسالة، يجب أن يأتي إلى مقام جلالته؛ ومن الخطأ، حسب ما أرى، أن يكون العكس.

تساءل السلطان بألم:

ـ لكن، يا عباد الله، حنا نواجه العدى أو نعلّم جماعتنا شلون يتصرفون؟

قال عنان بسيوني:

ـ أرى، يا صاحب الجلالة، ولأسباب كثيرة وهامة، أن تطلب مجيء هاملتون إلى هنا، حتى لو كنتم تعتزمون العودة إلى موران.

هز السلطان رأسه بحزن، وقال موجهاً الكلام إلى فنر:

ـ ابعث، هالحين، كتاب، وقل لهم فيه: خلي الصاحب يتوجه نحونا.

وابتسم بحزن، وأضاف:

ـ وحنا يلزم أن نتحرك نحو موران، لأن غيبتنا طالت، وظني أن الغيبات الطويلة تغيّر كثير من الناس.

بعث فنر الرسالة، وبدأ السلطان يستعد للعودة إلى موران، وكان مقرراً أن يتوقف فترة في عين بنات، وتوقع أن يلتقي هناك بهاملتون.

سمى أمراء للمدن وكلفهم أن يراجعوه بكل صغيرة وكبيرة، وأبلغهم أنه سيعود مرة أخرى قريباً إلى العوالي.

بقي السلطان في عين بنات، ثلاثة أيام إلى أن وصل هاملتون.

وخلال الأيام الثلاثة، «والهوا يلعب» كما قال السلطان، نظراً لارتفاع عين بنات، وبعدها عن البحر، ولأنها أول المرتفعات التي تطل على موران، فقد شعر بالانتعاش والحيوية، خاصة وإنه أزاح عن كتفيه الهموم اليومية، فلم ينظر في الأوراق ولم يسمع الشكاوى التي لا تتوقف ولا تنتهي، وبدأ يعد نفسه لمرحلة جديدة. كان يريد أن يصل مع هاملتون إلى اتفاق على ما تبقى في الأطراف، لأن هذه الأطراف تشكّل سكيناً في خاصرته إذا ظلت هكذا، ويمكن أن تكون نافذته وطريقه إلى آفاق كبيرة ومهمة إذا ضمها إليه. ورغم أنه في مرات عديدة سابقة، حاول إقناع هاملتون والآخرين، لأن يفعل ذلك، حتى قبل التفكير بالعوالي، لكن الإِجابة كانت دائماً الرفض، ولم يكن الرفض مهذباً في كل الحالات!

الآن، وبعد أن أصبح سيد العوالي أيضاً، لا بد أن يتقدم خطوة جديدة إلى الأمام. لقد تأكدوا بأنفسهم من قوته، وتأكد هو أن ما كانوا يقولونه في السابق عن ابن ماضي، وتمسكهم به، وبالمقابل منعهم له من التقدم أو التفكير بالعوالي، أو على الأقل ببعض أطرافها، لم يلبث أن سقط. لقد تخلوا عن ابن ماضي بسهولة بالغة. بل أكثر من ذلك يتذكر السلطان كلمات هاملتون في الأيام الأخيرة قبل سقوط الطريفة: قاله له بوضوح: «لا يمكن التنازل.. ويجب أن يرحلوا». الآن.. يمكن الاتفاق، نعم الاتفاق، على أشياء كثيرة، خاصة وأن هاملتون أصبح صديقاً موثوقاً، ويعرف المنطقة، والناس، كما أنه يختلف عن الكثيرين الذين جاءوا من قبل. إنهم يريدون الحاكم صديقاً، وكلما كان هذا الصديق أقوى ويحكم

بلداً أكبر أمكن الوصول معه إلى نتائج أفضل. ماذا يفعلون بهؤلاء الشيوخ الصغار الذين لا يستطيعون أن يعملوا خيراً أو أن يردوا شراً؟ هكذا كان يفكر السلطان، وهذا ما كان يود أن يصل إليه، خاصة وأن زعماء العشائر الذين ارتبطوا به، وما يتبعهم من الجند، أخذوا في الآونة الأخيرة يتساءلون ثم يسألون: أين نتوجه وماذا نفعل الآن؟ ليس ذلك فقط، أصبحوا متعبين وزادت مطالبهم بعد أن توقفت المعارك أو تباعدت. وإذا أمكنه أن يسيطر عليهم، أو أن يبعث بهم هنا وهناك، ويطلب منهم الصبر والانتظار، فقد لا يستطيع ذلك في المستقبل. قال ذات ليلة لفنر، بعد أن انتهت حملته وعاد:

ـ . . . ويلزم تعرف يا وليدي: الجنود بدون حرب مثل الهم على القلب، وإذا حكمتهم أول يوم يفلتون أكيد في اليوم التالي، ومن كل بد ولازم نلقي لهم درب، لأنهم إذا ظلوا بوجوهنا ما نخلص من طلابيهم!

الآن وقد عاد هاملتون، وخلال الساعات الأولى من اللقاء، وعلى طريقة البدو لم يشأ السلطان أن يثقل أو أن يستبق، فقد ظلت الأحاديث تدور عامة، شخصية، طريفة، وتخللها الكثير من الأسئلة عن الصحة والعائلة والأولاد، ولم يتردد أي من الطرفين في أن يترك لعواطفه أن تفيض، ويتذكر أموراً قديمة، وأحاديث سابقة، وذكريات. كما أبلغ هاملتون السلطان بالتحيات التي حُمّل بها، وأشار إلى الاهتمام الذي لمسه في الخارج، والمتابعة التي تلقاها أخبار موران والعوالي، كما نقل إلى جلالته وإلى فنر تحيات ملك بريطانيا والحكومة البريطانية.

بعد بضع ساعات من وصول هاملتون إلى عين بنات، وصل القنصل الإنكليزي أيضاً من جهة الطريفة، وبدا وكأنهما على موعد. وهذا القنصل، الذي لم تمض شهور قليلة على التحاقه بعمله الجديد، لم يرق للسلطان منذ المرة الأولى التي التقى به. كان إنساناً صعباً، قليل التهذيب، كما أشار بسيوني، حيث كان يضع رجلاً فوق الأخرى، ويبدلهما بالتناوب كلما تعب، في حضرة السلطان، كما أنه لم يستأذن جلالته، منذ اللقاء الأول، بأن يسمح له بالتدخين، إذا أشار أنه لا يستطيع الاحتمال، كما لا

يقوى على التركيز دون أن يدخن، خاصة، «وأن لقاءاتنا ستطول، وسوف نناقش قضايا حساسة» كما قال وهو يبتسم، في محاولة للتوضيح، أكثر مما كانت لطلب الموافقة. والسلطان الذي اعتبر الأمر ثانوياً، وطلب منه أن يفعل ويتصرف بحرية، ما لبث أن تبين له أن الأمر أكثر دقة وخطورة مما افترض في البداية، خاصة حين رآه رجال السلطان من الحرس والخدم والمرافقين وهو لا يكاد يتوقف عن التدخين!

أمر آخر خلق فجوة إضافية في العلاقة بين الاثنين، إن أحدهما لا يفهم على الآخر، تقريباً. فدنيس ايجلتون يعرف العربية الفصحى المطعمة باللهجة المصرية، ولا يفهم لهجة البداوة فهماً جيداً. والسلطان الذي يتكلم العربية بطريقته الخاصة، وهي أقرب إلى البداوة، لا يتصور أن هناك عربية أخرى، ولقد فوجئ كثيراً حين سمع عنان بسيوني يتكلم ذات مرة مع وفد مصري زائر. استغرب الأمر وفكر فيه طويلاً، إذ تصوره إنساناً آخر، وكأنه ليس الذي يعرفه. لكن عجب السلطان أخذ يتراجع سنة بعد أخرى، وكلما ازداد عدد الوافدين إلى موران من الأقطار المجاورة.

كان من السهل لهذه المشكلة أن تحل، أو أن لا تنشأ بالأساس، لو أن دنيس تكلم بالإنكليزية. فعن طريق المترجمين يمكن أن يجري الحديث، ولا يتكلف أي من الاثنين مشقة إزعاج الطرف الآخر. فدنيس الذي يصرّ على استعمال العربية، عربيته، كان يضطر السلطان، بعض الأحيان، إلى النظر في وجوه مستشارية، خاصة عنان، لكي يساعده على فهم ما يقال. وحين يتكلم السلطان، يستوقفه دنيس لكي يستفسر عن معنى بعض الكلمات، أو يعيد على مسامع جلالته بعض الكلمات لكي يتأكد من دقته.

لو أن الأمور اقتصرت على ذلك لوجدت حلاً، لكنها تجاوزتها إلى ما يشبه التفاوت أو الاختلاف، ووصلت في عدة حالات إلى درجة المجابهة. فالأموال التي تم الاتفاق على دفعها، والأسلحة التي كان يفترض أن تصل، والرسائل التي كانت ينتظر الإِجابة عنها، إضافة إلى أمور أخرى كثيرة جرت خلال الشهور الأخيرة، جعلت السلطان أقرب إلى الشك والسلبية، حين يجد القنصل غير مهتم أو ليس معنياً بها بالمقدار الكافي.

ومما زاد في تعقيد العلاقة أيضاً أن أهمية الموضوعات بين الإثنين تتفاوت كثيراً. فما يعتبره السلطان أساسياً ولا يمكن إرجاؤه أو التهاون فيه، ينظر إليه دنيس بتساهل يصل أحياناً إلى عدم الاكتراث. وبالمقابل، إن الإجابة عن سؤل أو الاستفسار حول زيارة لأحد ضباط البحرية البريطانية، أو العلاقة بين موران وإحدى المشيخات، أهم من أي أمر آخر. ولا يكتفي بأن يجعل مثل هذه الموضوعات أساسيةً، وإنما في حالات عديدة كان يعتبرها الوحيدة، أو وحدها التي تستحق الاهتمام والمناقشة. أما الموضوعات الأخرى التي يريد السلطان بحثها أو الاستفسار بشأنها «فيمكن أن نتحدث حولها في الزيارة القادمة!»

رغم كل شيء فقد احتمل السلطان، بل وكان يبدو مقتنعاً وراضياً، فالقنصل نافذته وطريقه الوحيدة في الاتصال، خاصة بعد سفر هاملتون. صحيح أنه لم يخف عواطفه أو رأيه في لحظات معينة، أمام بعض المقربين، لكن تلك العواطف أو ذلك الرأي لا يعني شيئاً إزاء الحاجة أو الضرورة. يجب أن يبقى هادئاً ومتماسكاً، لكي يصل إلى ما يريد، ويحصل على ما يطلب.

مجيء دنيس ايجلتون عصر ذلك اليوم غيّر الجو تماماً. فالسلطان الذي تصرف بهذه الطريقة، ليخلق جواً مؤاتياً لأحاديث حميمة مع هاملتون، وكان يعتبر الليل وقتاً مناسباً للبوح والشكوى، وأيضاً للوصول إلى نتائج حاسمة، كما حصل في عدة مرات، سواء أكان مع هاملتون أو مع غيره، فقد اعتبر مجيء القنصل شؤماً. قال لنفسه: «أبد لهذول ما تأمن، وهم بينهم ياكل قلوبهم الشك والحسد. وما يرضي واحدهم أن يكون قوي والكل بالكل، وهذا الأخنب، اللي يحكي من خشمه، ما ترك لنا الصاحب ليلة، حتى نعرف منه ونفهم».

ومع ذلك ظل السلطان مضيفاً عذباً، لم تبدر منه أية إشارة أو ملاحظة يفهم منها الاستياء، بل وبالغ في المودة واللطف، لكي يُشعر هاملتون بالذات، وإلى حد أقل دنيس، بمدى ما يكنه من العواطف والاهتمام، ولأن الليل في عين بنات يميل إلى البرودة، قياساً إلى الطريفة إذ تصله

نسائم الصحراء فتجعله رقيقاً، وبعض الأحيان لاسعاً، ونتيجة لتعب الرحلة، فقد كانت الليلة قصيرة، على غير ما توقع السلطان، أو ما أراد، خاصة حين استقبل هاملتون. أما بعد أن جاء دنيس، فقد بدا مسروراً أن الرجلين يفضلان تناول العشاء مبكراً، وأن يأويا إلى الفراش.

ورغم أنه أعدت لكل منهما خيمة خاصة، وبعد أن انتهى العشاء وغادر الضيوف، فقد مكثا معاً حوالى الساعة. هذه الساعة أقلقت السلطان كثيراً. قال في نفسه: «الصاحب صاحبنا، لكن هذا الاشيقر أبو رِجل ونص، لا بد يكون يهودي أو عدو، وإلا ما جاء بهذه الساعة وبهذا اليوم».

والسلطان الذي بدا موزعاً بين أن يواصل سهره وأحاديثه «مع الخويا» كما فعل في الليالي السابقة، بقصد أن يستريح وينسى، ولكي يكون في أحسن حالاته، وبين أن ينعزل لكي يفكر ويرتب الأمور بطريقة يستطيع معها أن يقنع دنيس أكثر مما يود إقناع هاملتون. فهذا «الخرندعي» كما يسمي القنصل، «مثل أولاد المكتب، ورقته والقصبة، حتى ما ينسى» يبدو مهماً ومؤثراً، لأن أغلب ما أراده أو قرره حصل، سواء بالنسبة للسلاح أو بالنسبة لدفعات المال التي سلمها، ومجيئه الآن يدل على تلك الأهمية «فقبل ما يغلط صاحبنا» ويقول كذا وكيت جاء حتى يلقنه».

قال لمهيوب، والقمر دائرة سمينة كالكرة:

ـ ما دام الإنكريز دجاج وناموا، خلنا، حنا العربان، ننعزل ونطلّع اللي بروسنا واللي بقلوبنا.

ـ اللي تؤمر به يا طويل العمر.

ـ قل للخويا: طويل العمر صدره ضاق، فخلهم يجون؛ وخلي سلمان والعنيزي وابن برقوق يولمون حالهم، لعلهم يروّحون على اللي صدورهم ضاقت وقلوبهم عافت، ويمكن الرب الرحيم يفرجها وتصير أحسن مما كانت.

وخلال فترة قصيرة، وكان الرجال ينتظرون إشارة من السلطان، انتظمت حلقة الرقص والغناء. صحيح أنهم انتحوا مكاناً قصياً، أقرب إلى

نهاية المعسكر تقريباً، لكي يتركوا الضيوف ينامون، كما أشار السلطان، لكن صوت الغناء والصخب، إضافة إلى طلقات الرصاص، وذلك الحنين الذي اشتعل فجأة، وربما ساعد على تفجيره ضوء القمر الذي ملأ السماء، وتلك النسمة العذبة التي كانت تهب من ناحية الشرق، والمحمّلة برائحة الصحراء والذكريات وأيام الطفولة، كل ذلك تكاثف وطغى. والسلطان الذي كان ميالاً إلى الوحدة، أو أن يكون مع أقرب الرجال، ما لبث أن نسي أو رغب أن لا يبقى أحد إلا ويشارك، وأن يشهد ليلة لا ينساها طوال حياته، خاصة بعد أن ارتفعت تلك الأصوات من أعماق القلوب، وأخذت الأودية تردد صداها. ولأن القصص التي تروى والمشاهد التي تقدم لا تحكي حكايا قديمة، أو ترجع صدى أحداث وقعت في يوم من الأيام، وإنما كانت تبتدع وتتكون في تلك الليلة بالذات.

حتى هاملتون الذي آوى إلى فراشه منذ ثلاث ساعات أو أكثر، لم يستطع النوم. ففي ساعة متأخرة من الليل رآه الكثيرون يحوم، من بعيد، حول المكان، وبدا متردداً في أن يقتحمه دون دعوة، فلما أبلغ السلطان، وفي لحظة خلقت بشكل متعمد صاح جلالته:

ـ قولوا للصاحب يلحق ما هي كل ليلة مثل هذه الليلة!

والتفت إلى مهيوب وهمس بإذنه وهو يضحك:

ـ ومن قبل قالوا: كل يا مجوّع ما هو كل يوم عيد!

في تلك الليلة والأيام الثلاثة التالية حاول السلطان تجنب أية موضوعات قد تثير خلافاً أو تظهر تبايناً في وجهات النظر. أكثر من ذلك تعمد ألا يسأل هاملتون عن الأخبار والأمور المهمة التي أشار إليها في رسالته، وأوعز، بالمقابل، لرجاله أن يرتبوا للضيوف برنامجاً حافلاً. وقد حضر بنفسه احتفال اليوم الأول، وكان مجموعة من سباقات الخيل والهجن، إضافة إلى النيشان. أما رحلة القنص في اليوم التالي فقد رافق فنر الضيوف، واكتفى السلطان باستقبال عدد من زعماء القبائل وأولم لهم ذلك اليوم، وربما تعمد ألا يكون هاملتون ودنيس إيجلتون ضمن الضيوف، لئلا يساء فهم وجودهما أو الغاية التي جاءا من أجلها. أما اليوم الثالث،

والمخصص للراحة، استعداداً لتحرك موكب السلطان في اليوم التالي، فقد اقترح هاملتون زيارة منطقة قريبة من عين بنات، وهي منطقة أثرية مهمة كما وصفها، لأنها كانت محطة رئيسية على طريق التجارة منذ أقدم العصور. ودنيس الذي وافق على مضض، كان يريد قبل ذلك عرض صيغة اتفاق مع السلطان، ودراسة هذه الصيغة والبت بها، مستفيداً من وجود هاملتون. والسلطان الذي طلب إرجاء الموضوع، حين كان في الطريفة يرى أن الوقت لا زال مبكراً، وبالتالي فهو ليس مستعداً قبل العودة إلى موران، ومعرفة كثير من الأمور، خاصة بعد زيارة هاملتون الطويلة.

حين قال عنان إن القنصل باحثه في الموضوع أجاب السلطان بنزق:

ـ تبلغه وتقول له: القراطيس بين الأصحاب ما لها قيمة، الأهم منها الثقة...

تنفس بعمق وتابع:

ـ وإذا ألحّ تقول له: سلمونا الأوراق نطالعها وندرسها ونرد لكم الخبر.

هاملتون بدا مهتماً بزيارة المنطقة الأثرية أكثر من إجراء مباحثات، وقد أوضح وجهة نظره لدنيس منذ الليلة الأولى. كان متأكداً أن السلطان لن يستجيب، أو أنه ليس في وضع يمكن الوصول معه إلى نتائج حاسمة، فحول أمور أقل أهمية من توقيع معاهدة، كان يبدي تردداً ويفكر وينتظر، بل وكان كثير الشكوك.

قال دنيس لعنان الذي كلفه السلطان أن يرافق الضيوف لزيارة المنطقة الأثرية، وقد تعمد دنيس أن يكون جلفاً، وأن يُسمع الآخرين، خاصة هاملتون:

ـ ماذا كان جواب عظمة السلطان حول الاتفاقية والاقتراح الذي تقدمت به؟

ـ كان موضع اهتمام جلالته.

ـ ومتى سنبت به؟

ـ عندما يأمر جلالة السلطان.

ـ ولكن متى؟

ـ هو الذي يقرر.

ـ أفهم من هذا الجواب أن الموضوع لن يدرس الآن، وهنا.

ـ إذا كان لا بد من اتخاذ إجراء فإن جلالته يرى أن تسلمُونا الصيغة لكي ندرسها، وبعد أن تدرس في موران سوف نبلغكم الجواب.

ـ إذن كل شيء مؤجل؟

قال فنر الذي كان قريباً ويتحدث مع هاملتون:

ـ مستر دنيس... الوقت غير ملائم لبحث مثل هذه الموضوعات...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وبكل تأكيد سنجد الوقت المناسب لبحثها والبت بها.

نظر دنيس إلى هاملتون بعتب أقرب إلى الحقد، إذ كان على ثقة أن تصلب السلطان، أو بالأحرى رفضه، لا يمكن أن يكون بعيداً عنه.

قال هاملتون بدعابة:

ـ أرى أن ندرس تاريخ الماضي لكي نفهم الحاضر، فإذا تأخرنا فلا بد أن تفسد الشمس رحلتنا، ولذلك يجب أن نتحرك!

دنيس الذي جاء من الطريفة، ويلتقي بهاملتون لأول مرة، كان يفترض أن الظرف ملائم جداً، ليس لإجراء مباحثات ناجحة فحسب، وإنما للتوصل إلى نتائج نهائية، وهذا ما دعاه للاتصال بهاملتون، والاتفاق معه على أن يلتقيا هنا، إذ يعرف طبيعة العلاقة التي تربطه بالسلطان، ويعرف أيضاً أنه عاد من لندن بهدايا كثيرة، ولذلك لا بد للأمرين معاً أن يؤثرا على السلطان ويدفعاه للموافقة على ما كان يرفضه أو يؤجله.

الآن، وقد اكتشف أن هاملتون لا يشاركه الرأي، بل أكثر من ذلك يتواطأ مع الآخرين، ربما لإفشاله أو لإظهاره بمظهر الضعيف العاجز، فإنه لا يجد في نفسه الرغبة لأن يواصل هذه اللعبة العابثة.

قال لعنان:

ـ أرجو أن تبلغ صاحب الجلالة رغبتي في أن أعود إلى الطريفة.

سأله هاملتون بسخرية خفية:

ـ ألا تود أن تشاهد هذه الآثار المهمة يا مستر دنيس؟

ـ أشكرك يا مستر هاملتون، ثم أن لدي الكثير لأفعله في الطريفة!

قال هاملتون لفنر بعد أن غادر دنيس عائداً إلى الطريفة:

ـ أسوأ موظفي صاحب الجلالة ملك بريطانيا أولئك الذين أفسدتهم الكتب، إنهم يرون الحياة من خلال ما قرأوه بشكل رديء أو خاطئ، وبدل أن تصحّح لهم الحياة ما تعلموه، يريدون أن يصححوا الحياة بتطبيق الكتب التي قرأوها عليها.

قال فنر بدعابة:

ـ القنصل بينه وبين هذه الديرة عداوة، ما أحبها ولا يريد يفهمها...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ الله العليم إن هواء الطريفة ما والمه!

السلطان الذي أُشعر بموقف القنصل ورغبته في المغادرة، طلب من عنان ومهيوب أن يرافقاه إلى الحلوة، وأن يبذلا جهدهما من أجل امتصاص غضبه وترضيته، وإشعاره أن الأمور سوف تأخذ مجرى إيجابياً وسريعاً.

ولأن هاملتون كان في هذه المنطقة من قبل، فقد ذهب مع عدد محدود من الرجال ليلقي نظرة، وقد كتب في يومياته ما يلي: «عندما هبطنا في النقطة التي كنا فيها، بدأت جولة في المنطقة، فرحت أجوس خلال تلك الناحية وأجمع النقوش من هنا وهناك. وكان معظمها يعود إلى عهد ثمود. وقد تحولت من صخور «المذبح» إلى الوادي كي أفحص الناحية الشرقية من الصخور، حتى وصلنا إلى نقطة يلتقي فيها واديان عند أقدام صخور المذبح. وخلف الطرف الغربي لتلك النقطة، وبعد أن اتجهنا شرقاً عبر طريق ضيق صغير ينحاس قليلاً عن خط امتداد صخور المذبح، وجدنا صخرة منعزلة يبدو أن الطبيعة قد نحتتها على شكل أبي الهول. ومما

يستثير الإِعجاب والدهشة رأسها المنبسط الذي يشبه رأس أبي الهول في مصر، وكذلك الرقبة والجسم، الأمر الذي جعلني أتصور أن «المذبح» قد أقيم هنا حيث توجد الصخرة، كي يقدم الناس عليه قرابينهم لأحد الآلهة. وقد اكتشفت أن فخد (أبي الهول) قد كشط حتى غدا أملس ناعماً، ومن ثم نقشت عليه عبارة بلغ طولها سبعة أنشات إلى ثمانية. غير أن هذه النقوش كانت ـ بكل أسف ـ قد تآكلت بشكل بشع بحيث كان من المستحيل أن ينسخها أحد أو يجزم بأنها نبطية أو ثمودية. وكانت هذه الحقيقة مؤلمة فعلاً، غير أنني كنت على شبه اليقين من أننا قد اكتشفنا المذبح الذي وهب المنطقة اسمها. ولما كان الوقت، آنذاك متأخراً، فقد عدنا إلى المخيم مؤجلين فحص بقية المنطقة.

«رأينا أثناء جولتنا عدداً من الطيور الغريبة الشكل، لكنه لم يكن معنا ما نصيدها به... كما أنني عجزت عن التعرف على أنواع هذه الطيور، أو أين تعيش. وربما كانت من الطيور المعروفة باسم سيسي، إذ أنها لا تشبه الطيور المعروفة بالحبارى».

حين عاد هاملتون إلى معسكر السلطان، عند الغروب، بدا له أن جزءاً من المعسكر قد تحرك، فما عدا خيام الحراسة في المقدمة، وخيمة السلطان في الوسط، إضافة إلى خيمة الأمير فنر، وعدد من الحرس والمرافقين، فقد بدت الأرض خلاء، وأقرب ما تكون سوقاً للحلال أو ملعباً.

زيارة دنيس إيجلتون غير المتوقعة، ثم رحيله الغاضب، تركا في نفس السلطان مرارة، فهؤلاء الأصدقاء، حين يبعثون مثل هذا الشخص، وربما يوصونه كيف يتصرف، فهم يخطئون كثيراً، لأن الكبير لا يمكن أن يصبح صغيراً، إذا عرف كيف يتصرف، ويحافظ على منزلته. ثم إن سلطان موران والعوالي أيضاً ليس مثل أي من الشيوخ الذين يدللونهم ويتعاملون معهم بهذه الطريقة.

كان السلطان يتوق لأن يسمع الكثير من هاملتون، ورغبته أيضاً في أن

يحدثه عن «خويه الأشيقر أبو رجل ونص»، لكنه شعر بالحرج أن يبدأ، إذ لا يريد أن يظهر لهفته أو تعجله، ويريد أن يترك هاملتون نفسه يبدأ.

كان يفترض أن يقضي السلطان في عين بنات يوماً وليلتين، لكي يلتقي هناك بابن مشعان، إذا بعث إليه لأن يوافيه، ثم بعد ذلك يأخذ السيارة ليعود إلى موران، فقد طال بعده عنها وزاد شوقه إليها، وليس ما يدعوه للإِبطاء، كما كان الحال أثناء مجيئه للعوالي.

هاملتون أحس أن الظرف في الليلة الأخيرة لإقامتهم في عين بنات ليس مناسباً للخوض في مواضيع جدية أو دقيقة، ولذلك أخذ يحدث السلطان عن الآثار القريبة وأهميتها، وأية حضارات تكونت في هذه المواضع، وكيف أنه ينوي تخصيص بضع سنوات من حياته لدراسة هذه الآثار والكتابة عنها. والسلطان الذي كان مفتوناً بما يسمع، ويبدي دهشته لوجود هذه الآثار، وقربها من معسكره، وإنه لم يزرها أيضاً، فقد قال تعليقاً على الرغبة التي أبداها هاملتون بقضاء بضع سنوات لدراسة هذه الآثار:

ـ إذا خلصنا من الهموم الكبيرة، ياالصاحب، وصفي بالنا، اطلب وتمنى، وحتى هذه الحجارة والأصنام، إذا ردت، نخلي الخويا يحملونها وينقلونها للمكان اللي يعجبك!

ضحك هاملتون بصخب، وقال بعد أن هدأ:

ـ التاريخ لا يمكن أن ينتقل، يا طويل العمر، وكل من يريد أن يدرسه وأن يكتب عنه يجب أن يأتي إليه طائعاً مختاراً، ومن أكبر الأخطاء التي وقع فيها كثير من المؤرخين، أنهم جردوا التاريخ من روحه، من المكان الذي وقعت فيه أحداثه، ومن البشر الذين كانوا جزءاً من هذا التاريخ.

رد بالسلطان مازحاً:

ـ ما دام هذا رأيك، الله يسلمك، فالحجارة بمكانها، وجماعتنا قالوا: الحجر بمكانه ينفع، فإذا خلصنا شغيلانا ابشر.

ولأن المسير سيكون في السرى فقد آوى الجميع إلى فراشهم مبكرين.

في اليوم التالي، وأثناء الاستعداد لتحرك موكب السلطان، قال هاملتون بدعابة:

ـ الأصلح، يا طويل العمر، أن أتأخر عنكم أو آخذ طريق ثاني، لأن نجمي ونجم ضيفكم ما توالموا، ويكفي اللي حصل من القنصل!

ضحك السلطان، وتذكر أشياء كثيرة، قال لهاملتون وهو ينظر إلى البعيد:

ـ إذا كان هذا رأيك ما يخالف، وبموران نسولف وما يصير إلا كل خير!

بعد عودة السلطان إلى موران، وما رافق تلك العودة من فرح واحتفالات، وما تخللها أيضاً من مفاجآت، خاصة في قصر الروض، إضافة إلى الوفود التي جاءت من أنحاء متعددة، من السلطنة وخارجها، جعلت السلطان، رغم توقه لأن يبحث مع هاملتون القضايا الأساسية، أو التي يعتبرها أكثر أهمية من غيرها، مأخوذاً بما يراه وبما أحسه من اهتمام الوفود الأجنبية الزائرة بشكل خاص، الأمر الذي اضطره لتأجيل بعض الموضوعات، وأن يركز أحاديثه وأسئلته مع هاملتون على ما يجب أن يقال لهذه الوفود، وكيف يكون التصرف معها.

ليس هذا فقط، كل شيء حول السلطان يبدو جديداً، رغم أنه رأى كل ذلك ولم يمضِ على ذلك بعد وقت طويل.

نساؤه في القصر. . . كل واحدة جديدة، وكأنه لم يرها، أو لم يعرفها من قبل: الشكل، نظرة العيون، الشعر، وحتى العطر والحناء، إضافة إلى ألوان الملابس، وطريقة المشي ورنة الصوت، هذا عدا عن رسائل التأثير الأخرى، بما فيها الأولاد.

أما الحفاوة، أما طريقة التصرف، فإن أموراً كثيرة جدّت أو تكونت خلال غيابه. صحيح أن الصور اختلطت، وبدت غير واضحة في لحظات معينة، لكنه يعرفها ولا يعرفها. ورغم القناعات التي ترسخت لديه من قبل، وكانت أقرب إلى العناد، تبين له أن لا بد من إعادة النظر. قال في نفسه «تغير الأماكن والوجوه تجعل الإنسان غير متأكد» وبدأ يستعيد في ذاكرته: الزوجات، الأولاد، الحرس، وحتى الخدم. تصور، إزاء بعض

الوجوه، وكأنه يراها لأول مرة. قال لنفسه: «الغريب أن الإِنسان لا يرى الأشياء القريبة. لا بد أن يبتعد عنها مسافة كافية، أو وقتاً غير قصير، لكي يراها بوضوح».

ورغم أنه لا يريد أن يشغل نفسه بهذه الأمور إلا أنه انشغل، وأصبح يفكر فيها.

فنسوة القصر، سواء أكنّ الأمهات أم القريبات، أم حتى الخادمات، وبعض الأحيان بتحريض من الزائرات، أخذن يدفعن إليه، وبأوقات يتخيرنها بشكل مناسب، «رسل الوداد والمحبة». ولأن الأطفال كبروا أثناء غيابه، وتغيروا أيضاً، كان ينظر إليهم بكثير من الاهتمام، يريد اكتشاف الشبه أو العلاقة، وكان في غالب الأحيان يحار، لا يعرف، بل وبلغ به الأمر أن يحزّر نفسه: «من ناقة لناقة». فبعد أن يمعن النظر بالوجه الصغير الذي يقابله، وبتينك العينين اللتين تضحكان، يقول في نفسه: هذا ابن فضة، أو هذا ابن حفصة، أو ابن العنود، وبعد أن يحزم أمره على أنه ابن فلانة يسأله: شنهو اسم أمك.. يا وليدي؟

في مرات كثيرة كان يخطئ.. أما المرات التي حزر فيها فكان يضم الطفل إلى صدره، وبعض الأحيان يغطيه بعباءته، خوفاً من الحسد، وحسد عينيه بالدرجة الأولى، ويعتبر أن هذا الطفل محبوب ومقرب إليه أكثر من الآخرين!

بنات السلطان، اللواتي لا يستطعن الوصول إلى مجلسه، أو حتى الاقتراب منه، ولا يغادرن السور إلاّ من الجهة الغربية ومع المربيات، كن بالنسبة إليه شيئاً عجيباً. فالذكور، رغم أحاديث الأمهات وتعليم المربيات والدم، كانوا أقرب إلى القسوة والتكبر، أو هكذا كان يتبادر في أحيان كثيرة للسلطان. يتصرفون بطريقة مسرحية، وبأكبر من أعمارهم. حتى الأشعار التي يرددونها، كانت أقرب إلى حفلة مدرسية مملة. البنات كن شيئاً آخر: تضحك الواحدة بطريقة ترغم أباها على أن يشاركها الضحك ثم المرح. أما إذا مشت، أو أجابت عن سؤال، إذا نظرت إليه وأصبعها

بفمها، فكان لا يقوى على أن يتمالك نفسه: «لماذا لم أعرف هذه المخلوقات؟ لماذا لم أكن قريباً منها؟».

واكتشف السلطان أن العالم الكبير لا يغني عن العالم الصغير. ودون تردد، وفي محاولة للتعويض، ومن أجل أن يكون أقرب إلى أبنائه، قرر أن يعيد مجلس الإِثنين، بل وفكر أيضاً أن يخصص يوماً آخر، لكن بعض الأمور الطارئة جعله يرجئ قراراً من هذا النوع.

وفي مجلس الإِثنين اختلط الصغار بالكبار، الأحاديث بالطلبات، الأشعار بالنكات؛ وإذا كان السلطان قد توخى منذ البداية أن يكون هذا المجلس مدرسة يتعلم فيها أبناؤه، فقد اكتشف في هذه المرحلة أن الأبناء تعلموا الكثير قبل هذه المدرسة وبدونها! أصبحوا، أو أغلبهم على الأقل، كباراً. ورغم أنه بذل جهداً واضحاً من أجل أن يعطي المجلس نسقاً ثابتاً، كما كان الحال من قبل، إلا أن الأشغال الكثيرة، والوفود الزائرة، إضافة إلى الطلبات التي لا تنتهي، والمرسلة مع الأبناء، والتي أخذت تطغى على ما عداها، جعلته يفكر بإنشاء مدرسة داخل القصر، يختار لها أفضل المعلمين، من الرجال الذين يعرفهم واختبرهم من قبل، تتولى المهمة نيابة عنه. سوف يداوم على مجلس الإِثنين، وإن كان مضطراً، بعض الأحيان، لاختصاره، لكن المدرسة تبقى ضرورية. يمكن أن يوعز للمعلمين أن يتبعوا طريقته ذاتها في التعليم، بل ويمكن أن يعاونهم في المرحلة الأولى، وقد يحضر بعض الدروس، حتى إذا أخذت الأمور مجرى ثابتاً، سوف يكون أكثر اطمئناناً!

خزعل الذي اختص بالقسم الشمالي من القصر، وقد بنى في هذا القسم عدة أجنحة، ووسعها المرة بعد الأخرى، تبعاً لعدد الزوجات وتزايد الأولاد، وما يتبع ذلك من زيادة عدد الخدم والمرافقين والحرس؛ تخير وقتاً مناسباً لكي يستأذن أباه في أن ينتقل إلى القصر الجديد الذي بناه، متذرعاً أن المكان أصبح ضيقاً؛ وأشار إلى أن الكثيرين بحاجة إلى هذا القسم من القصر إذا أخلاه. فوجئ السلطان بالطلب، لكنه لم يعط جواباً.

ثم تبين له أن أموراً كثيرة يجب أن يعاد فيها النظر. أكثر من ذلك يجب أن يرسخ تقاليد جديدة في القصر، وفي التعامل مع الأولاد. قال لنفسه «كل ولد يصل إلى سن البلوغ يجب أن نفكر بزواجه وتحضيره من أجل الزواج، يلزم له هدية: «حصان ومرافق وقريشات، وبعد أن يتزوج، ويجيئه الولد الأول، يقام له احتفال ويسمح له، إذا أراد، أن ينتقل لكي يؤسس عائلة ويعتمد أكثر على نفسه».

وافق السلطان على انتقال خزعل فانتقل خلال شهور قليلة إلى قصر الغدير. أما أول من حظي بالتكريم نتيجة التقاليد الجديدة، وقد نقلت عن لسان السلطان بأشكال مختلفة، وفسرت تفسيرات متناقضة، ولم يتردد بعض الخبثاء من الخدم والحرس من إشاعة أن هذا لا ينطبق على الذكور فقط، بل والإناث. أول من كُرِّمَ كان فنر. ففي يوم من أيام جمادى الآخرة، في بداية الربيع، وبعد انتقال خزعل بأسبوع واحد، دعا السلطان كبار العائلة وعدداً من وجوه موران، وبطريقة مليئة بالأبهة والمهابة، قدم لفنر واحداً من أحسن خيوله، وأبلغ المجتمعين أن حفيداً آخر ولد له. وفنر الذي بدا محرجاً، وكان يريد أن يبقي الأمر دون إعلان ودون ضجة، وجد نفسه وسط العيون والاهتمام.

نساء القصر اللواتي راقبن الاحتفال من أماكن متعددة، وبوسائل متعددة أيضاً، من الأسطحة أو من النوافذ، وقد احتطن كثيراً لئلا يراهن الرجال. وبعضهن، اللواتي كن يسكّن في أماكن أبعد نسبياً، راقبن بالمناظير المقربة، أو عن طريق الخدم والخصيان. لاحظت النسوة أكثر، وقبل الرجال، غياب خزعل. وقبل أن يسألن أو يتأكدن تذكرن غيابه أكثر من مرة، عن المناسبات التي تعني فنر: يوم أن عاد من سفرته الطويلة، يوم معركة الحويزة. وأضفن أنه تعمد الانتقال من قصر الروض. أيضاً قبل مجيء الوليد الجديد بأيام.

ومثلما تنتقل الرائحة الكريهة، وقبل أن ينتهي الاحتفال، ودون معلومات من أي نوع، ملأت قصر الروض الإِشاعات على أن هذا

الاحتفال ليس لتهنئة السلطان بالحفيد الجديد، أو لتهنئة فنر بالمولود الأول، وإنما هو احتفال لتسمية فنر ولياً للعهد. ومما أكد هذه الإشاعات وأعطاها رسوخاً لا يقبل الشك أو الاحتمال، أن فنر وقف إلى يمين أبيه، أثناء استقبال الوفود وأثناء توديعها، وأن العم دحيم وقف إلى يساره!

ومما زاد في قوة هذه الإشاعات أيضاً أن اثنين من أولاد فضة كانا مشاركين في الاحتفال، ومعنى ذلك أن فضة بالذات كانت على علم بما انتواه السلطان، وقد وافقت عليه، ودليل الموافقة أنها بعثت بأولادها الكبار أولاً، وإنها كانت وراء «طرد» خزعل من قصر الروض! ومما يؤكد ذلك، ويجعله أكثر أهمية ودلالة أن عدداً من أولاد السلطان، من هم بمثل أعمار أولاد فضة ومن هم أكبر سناً تغيبوا عن الاحتفال، وهذا معناه أن أمهاتهم لا يعرفن بما قرره السلطان، أو كان لهن رأي آخر.

تهاني التي انتقلت من مكان إلى آخر، لمراقبة الاحتفال، كانت ترد على الأسئلة، أو نظرات التساؤل، بابتسامة كبيرة وواثقة، وكأنها تريد أن تجيب كل من يسألها، دون كلمات، أن هذا الذي يرونه من تدبير الشيخة وبموافقتها. لم تقل هذا أبداً، لكن طريقتها في التصرف أكدت مثل هذه القناعة. ومما أكدها أيضاً أن تهاني قضت أطول فترة من فترات المراقبة في قصر السلطان ذاته، مع فضة، ونقلت ثلاث من الخادمات، أن المرأتين تشاورتا همساً عدة مرات، رغم وجود عدد من النسوة، وفي إحدى المرات خرجتا معاً إلى غرفة جانبية!

سرور، خادم أمي زهوة، ترك الاحتفال مرتين، وجاء إلى القسم الغربي من القصر، وقيل إن الشيخة اختلت به خمس دقائق. وطلبت منه في المرة الثانية أن يسرع بالعودة، وأكد من رآه أنه بعد أن أسر بشيء لمهيوب، غادر ولم يعرف إلى أين!

وأمي زهوة، التي كان يروق لها في حالات مماثلة، أن تمر قريباً من مجلس الرجال، وأن تحييهم، تجنبت هذا اليوم المرور، ظلت ملازمة لجناحها لم تغادره. وقيل أنها تعمدت ذلك، لكي لا يُعرف إنها وراء كل

ما يجري، وقيل أنها طلبت من تهاني أن تذهب إلى فضة، وأن تزور عدداً من زوجات السلطان، لتعرف وتسمع، ثم لتبلغها بما سمعت.

الرجال الذين حضروا الاحتفال كانوا خالي البال مما يدور في الأقسام الأخرى من القصر. لم يلاحظ بعضهم غياب خزعل. والذين لاحظوا، وقد حصل ذلك في وقت متأخر جداً، لم يعتبروا الأمر مهماً، ولا يستوجب التوقف، لأن الاحتفال يعني فنر ويعني الجد، وكل من حضر من العائلة غير هذين نافلة.

الذين يعرفون أكثر من غيرهم، كانوا مطمئنين، لأنهم على علم أن السلطان أوفد خزعل لكي يلتقي بابن مياح بالقرب من الزعفرانة، وقيل إن السلطان دعا ابن مياح للمجيء إلى موران لكنه ادعى أنه لا يستطيع ترك الحويزة، وأقصى ما يستطيعه أن يلتقي برسول عند أطرافها، وهكذا تم الاتفاق على الزعفرانة، وعلى أن يكون خزعل هو الرسول، وهذا ما حمله على السفر، وبالتالي لأن يغيب عن الاحتفال!

عمير الذي غاب عن قصر الروض، وارتاح منه السلطان، لم يغب عن ابن مياح، فقد جاء من نقل للسلطان أنه جنّد كتيبة كاملة من عين فضة وما جاورها، والتحق بالحويزة في الفترة الأخيرة. لقد فعل ذلك بعد عودة خزعل إلى موران بأسابيع قليلة. وأكد عدد من الذين كانوا هناك في الفترة ذاتها، أن ابن مياح لا يفعل شيئاً دون مشورة عمير وموافقته. ومما عزز هذه الأخبار أن دنيس إيجلتون سأل السلطان عدة مرات ما إذا كان يثق برجاله، وبالقادة خصوصاً، الموجودين في الحويزة ومنطقة الحدود، وحين استغرب السلطان السؤال، ثم تكرار السؤال، أبلغه دنيس أن لديه معلومات مؤكدة تشير إلى وجود قوات مناوئة لبريطانيا هناك، وأنها تعبئ القبائل وتحرضها لعمليات واسعة، بهدف محاربة الإنكليز وراء حدود الحويزة.

أما لماذا اختار عمير الحويزة، ولم يختر العوالي، ولماذا بدأ خلال هذه الفترة بالذات ومع ابن مياح بالتحديد، فقد أثار الأمر مخاوف السلطان، وهذا ما دعاه لإرسال خزعل، ليسترضي ابن مياح ويطمئنه ولكي

ينبهه من عمير أيضاً. وهذه المخاوف تزايدت مع تزايد العمليات على الحدود، وما أدت إليه من تهديدات وتوتر. وقد استغل ابن ماضي هذه الأجواء ليحرك بعض القبائل في العوالي، وليرسل عدداً من السفن المحمّلة بالمتطوعين. وتواردت الأخبار من العوالي، وكلها تشير إلى أن الفترة القادمة ستكون صعبة، إذا لم يبعث السلطان بنجدات كبيرة وسريعة، خاصة إلى جبهة الطريفة.

إيجلتون الذي اعتبر نفسه مخذولاً ومحارَباً من القصر، لا يمكن أن يسلم أو أن يسكت. والأخبار التي وصلت إلى موران أكدت أنه زار عدداً من رجالات ابن ماضي وراء الحدود، وأنه قدم لهم أموالاً ووعوداً، وقيل إنه طلب منهم تأليب أنصارهم والرأي العام في العوالي على الحكم الجديد. ومما يحمل على تصديق هذه الأخبار، أن الناس في العوالي أصبحوا يجاهرون بعدائهم ورفضهم، ويطالبون أن تتمتع العوالي بالحرية وأن تحكم نفسها دون أن يشيروا إلى ابن ماضي. أما المشاكل التي يعاني منها الناس، والمصاعب التي أخذت تتزايد فإن كان بعضها طبيعياً، فلا شك أن القسم الآخر من تدبير أناس معادين.

مع هذه التحركات والرسائل غير المباشرة، يبعث إيجلتون أيضاً، وبعد أسابيع من عودة السلطان إلى موران، بمسودة المعاهدة التي يفترض أن توقع بين بريطانيا العظمى ودولة موران. ويربط تقديم المعونة المخصصة بالموافقة وبإبرام هذه المعاهدة.

قال السلطان لهاملتون، بعد أن هدأت ضجة الاحتفالات وانتهت زيارات الوفود:

ـ وبغيبتك، الله يسلمك، حصلت أمور كثيرة، هنا وهناك، وقلنا لأرواحنا ما نسوي شيء إلى أن يرجع الصاحب، وهالحين رجعت بالخير والسلامة فيلزم نسولف.

قال هاملتون وهو يبتسم:

ـ أنا رهن إشارتك، يا طويل العمر، وكلي آذان صاغية.

ـ حنا نريد نشوف. . . أنتم شنهو شوركم؟

ـ حول أي القضايا، يا طويل العمر؟

ـ القضايا كلها!.

وضحك السلطان وتطلع بتحديد إلى عيني هاملتون، وهو حين يفعل ذلك، يقول، دون كلمات: لنترك، جانباً، كل المجاملات، ونتكلم بصراحة. وهاملتون الذي فهم معنى هذه النظرة، ابتسم وقال:

ـ تعرفون، يا طويل العمر، منذ أن وصلت إلى بلادكم ونزلت بضيافتكم، كان هدفي أن أقوم بدور إيجابي، وأن أكون واسطة خير، بينكم وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية. وتعرفون أنه ليس لي صفة رسمية يمكن من خلالها أن أطلب أو افرض، فلبريطانيا ممثلوها. وأياً كان الرأي بالسيد دنيس إيجلتون، فهو الوحيد المفوض أن يتكلم باسم الحكومة، وقد تبين لي أن بعض المشاكل قامت بينكم وبين ممثل بريطانيا، والآن لا أدري ماذا أستطيع أن أقدمه من خدمات وكيف أكون نافعاً لجلالتكم.

ورغم نبرة الإِخلاص الذي اتسم بها كلام هاملتون، إلا أنه لم يكن مقنعاً، قال السلطان:

ـ اسمع، يا الصاحب، وهذا الكلام أقوله لك وما أقوله لغيرك: حنا عرفنا كثيرين بس ما نعرف غيرك، وأنت واحد منا قبل ما تكون واحد منهم، وأنت غير هذا الخرندعي، الأشقر، أبو رجل ونص، ولولا معرفتنا وثقتنا بك كانت السالفة كلها تغيرت.

ضحك هاملتون لهذا الإطراء ولهذه الصراحة، وبعد قليل سأل بانفعال:

ـ ما هو المطلوب مني يا صاحب الجلالة؟

وحين تطلع إليه السلطان باستغراب، تغيرت لهجته وهو يضيف:

ـ إذا حددتم لي مطالبكم بدقة: ماذا تتصورون، وماذا تريدون، يمكن أن أساعد في الوصول إلى نتائج مرضية.

وهذا السؤال رغم بداهته، بدا للسلطان شديد الصعوبة، وأقرب إلى التحدي. صحيح أنه لم تمر عليه ليلة من الليالي دون أن يفكر بما يريد، أو بما يحلم به، لكنه الآن لا يعرف كيف يصوغ أفكاره وأحلامه بمطالب واضحة ومحددة. أكثر من ذلك، يكتشف، فجأة، أن ما اعتبره محلولاً ومنتهياً، ليس محلولاً وليس منتهياً. فالحويزة التي كانت هادئة إلى وقت قريب، بدأت تتململ، أو بالأحرى تتداخل فيها القوى وتتشابك، بحيث لا يعرف كيف ستتطور الأمور. العوالي التي أصبحت ملك يديه، وقد وافقوا على ذلك، يراهم الآن يحرضونها وكأنهم يريدون أن يقلبوها على رأسه. الأطراف التي يفترض أن تكون امتداداً له، ونافذته على الخارج، يحولونها إلى قلاع محصنة ومسلحة، وليس لها هدف إلا إمداد المتمردين بالأسلحة والأموال من أجل خلق المتاعب.

أما عن المعونة التي لم تُدفع، والأسلحة التي كان يفترض أن تصل، فلم يكتفوا بتأخيرها، بل وضعوا شروطاً قاسية لاستعمالها، وبالتالي لا يفكر بالموافقة عليها. يضاف إلى ذلك، أنهم بعثوا إليه بهذا القنصل الأرعن، والذي يعرف اختراع الأعداء أكثر مما يقوى على كسب الأصدقاء، وزرعوه في وجهه.

وماذا أيضاً؟

لا شيء أبداً يسير كما قُدّر له، أو كما اتفق والصاحب عليه. وهذا هو ما يحيره بشكل خاص ويقلقه ويجعله أقرب إلى التشاؤم.

مرت هذه الأفكار والصور برأسه، وسؤال هاملتون يقف مثل شوكة في حلقه. قال بأسى:

ـ . . . وأنتم تعرفون أنكم ورطّونا، قلتم سيروا وحنا معاكم، وقلتم حنا نأمن لكم كل شيء: السلاح، المال، الرجال، بس نريد نخلص من ابن ماضي، لأن ابن ماضي ما عاد ينحمل. وحنا، والشهادة لله، نريد العوالي، هذه من أملاكنا وأملاك أجدادنا، ويلزم ترجع لنا، بس البني آدم يمد رجليه على قدر بساطه، وأنتم مديتم لنا بساط له أول وما له تالي،

وبعد ما تورطنا صرتم تفرضون شروطكم: يصير وما يصير، ما هو بس كذا، بدأ جماعتكم يحركون علينا، باسم الدين: بالفلوس، بالسلاح، وهالحين ما يندري أنتم معنا أو قوم علينا؟

ومثلما كان السلطان صريحاً، كان هاملتون صريحاً أيضاً:

ـ . . . لا أخفي عليك، يا صاحب الجلالة، أن من مصلحة بريطانيا أن تقوم في هذه المنطقة من العالم دولة كبيرة وصديقة، لأن الدول الوحيدة التي يمكن التفاهم معها هي الدول الكبيرة، وما دام من الممكن التفاهم مع الدول المنافسة والمعادية، فإن الدول الصديقة من السهل أن يتم التفاهم معها، كل ما هو مطلوب: تنظيم العلاقة، وإذا كان دنيس إيجلتون لم يستطع أن يقيم العلاقة المطلوبة فيمكن استبداله. أماالمال، أما السلاح، فيمكن التفاهم حولهما بسهولة.

كان هاملتون يريد أن يتابع، لكن وجد أن هذه الطريقة في الكلام يمكن أن تورطه. ابتسم وهز رأسه عدة مرات. خلق فاصلاً وحالة من الصمت، ، وحين نظر إليه السلطان تابع:

ـ ولا أخفي عليك، يا صاحب الجلالة، أن المعلومات حول هذه المنطقة من التضارب والاختلاف إلى درجة كبيرة، ولذلك لم أستطع أن أتوصل أو أن أقنع الجماعة هناك بأشياء نهائية. كل ما توصلت إليه: أن أجيء إلى هنا، أن أفهم التطورات وأفهم وجهات النظر، ثم أعود مرة أخرى، من أجل اتخاذ القرارات المناسبة.

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته تماماً:

ـ لقد استطعت، خلال هذه الشهور، يا صاحب الجلالة، أن أكوّن فكرة كاملة عما يجري هنا، وإذا سئلت الآن يمكن أن أقدم وجهة نظر متكاملة، قد تكون مفيدة لصانعي القرار.

سأل السلطان:

ـ بعد أن عرفت كل شي، شنهو رأيك هالحين؟

ـ السؤال كبير وعام جداً يا صاحب الجلالة، ولا يمكن أن أجيب عنه بكلمات!

وقبل أن تنتهي هذه الليلة، اتفق السلطان وهاملتون أن الطريقة المفيدة والضرورية، أن يسافر هاملتون ويسافر معه فنر، وأن يدرسا هناك كل القضايا الأساسية، تمهيداً للوصول إلى صيغة ملائمة للمستقبل.

ولم تمض أيام حتى استعد الاثنان، مع مجموعة من المرافقين والحرس. وقد أوصى السلطان الاثنين، وهو ينقّل نظراته من الواحد إلى الآخر، أن لا يتأخرا.

أما مع فنر، فقد قضى السلطان عدة ليالٍ، وفي هذه الليالي تحدث معه كثيراً، وحول أمور لا حصر لها، وكان يريده أن يكبر، أن يختزن تجارب وذكاء يمكنانه من الوصول إلى نتائج مناسبة!

مس مارگو انتقلت من أكسفورد إلى لندن، وكان أحد أهم الأسباب لانتقالها أن تكون قريبة من مكتبة المتحف البريطاني، لأن الكتاب الجديد الذي تعده يتناول: مدى مساهمة بريطانيا في التغلب على الأمراض المستوطنة في شبه القارة الهندية، وكانت بحاجة ماسة إلى الاطلاع على الوثائق! أما الكتاب الذي أنجزته خلال السنوات الماضية، وهو مزيج من الذكريات والانطباعات، إضافة إلى القراءة، فكان يتناول جانباً من التأثيرات المتبادلة بين الثقافتين الإنكليزية والهندية، وانعكاس ذلك على قصص الأطفال، تحديداً.

فنر حمل معه لمس مارگو مجموعة من الهدايا: ثلاث قطع حريرية، عقداً من الذهب يتوسطه حجر كريم بلون الزبرجد، إضافة إلى شالين من الصوف الكشمير، الأول رمادي، والآخر بلون جلد الغزال؛ ولم ينس أيضاً أن يطلب من مرافقيه شراء بساط محلي متعدد الألوان، مثل ذاك الذي رآه عندها، وقد جلبته من كولومبو، وكانت شديدة الاعتزاز به؛ وثلاثة جلود لوعول كبيرة؛ ومجموعة من الحلي الفضية والخرز.

كان بوده أن يحمل لها هدايا أخرى، لكن سفره العاجل، والذي تقرر خلال بضعة أيام، لم يمكنه. ليس ذلك فقط كان ينوي أن يزورها في أكسفورد، «مهما كان الوقت ضيقاً» كما قال «وأن أبقى عندها بضعة أيام». وقد كانت مفاجأته كبيرة حين عرف أنها في لندن. هاملتون الذي أبلغه عدة مرات أن العمة مارگو تبعث إليه بتحياتها، نسي أن يخبره بانتقالها. الآن، وقد عرف، كان شديد اللهفة لأن يزورها في أقرب فرصة.

لم تتغير المس مارگو وكأن السنين التي مرت أخطأتها أو لم تصل

إليها، هكذا كان انطباعه في اللقاء الأول. بالمقابل أنكرت تماماً أن يكون ذلك الصبي الذي قضى عندها شهرين قبل بضع سنين، هو ذاته الذي تراه أمامها الآن. وفنر الذي لم يجرؤ طوال فترة إقامته الأولى عندها على النظر إليها بتحديد وإمعان، وجد نفسه يفعل ذلك هذه المرة. بل وطلب منها أن تضع على صدرها الشالين، وأن تقف ليتأكد من مدى ملاءمتهما! العقد استبقته بين يديها فترة طويلة وهي تتمعن به، وحين رفعت إليه وجهها، لكي تشكره، قالت بتلعثم:

ـ كان يفترض أن أمتلك مثل هذا العقد قبل ثلاثين أو أربعين سنة..

وتنهدت بحرقة ثم أضافت:

ـ الكثير من الأشياء الجميلة، أو الأشياء التي يتمناها الإنسان، تأتي متأخرة!

وابتسمت بحزن، لكن لم تترك نفسها تستسلم للكآبة. قالت وهي تفرد البساط:

ـ البسط تعكس نفسيات الشعوب أكثر مما تعكسها خطب الزعماء والسياسيين! وضحكت مثل قطة تموء، وأضافت:

ـ أرجو المعذرة، فأنا لا أريد أن أعرّض بأحد.

وبعد قليل وهي تهز رأسها:

ـ يمكن اكتشاف الشعوب، ومعرفتها بدقة، من خلال الأغاني، والمصنوعات النسيجية، وقصص الأطفال...

كانت تريد أن تسترسل، لكن هاملتون تدخل:

ـ نسيت أن أبلغك، يا عمتي، أن سمو الأمير رزق بولد جميل خلال الأسابيع الماضية...

ـ لا أصدق أبداً يا هاملتون!

وبعد أن ضحكوا، أضافت بنبرة مختلفة:

ـ لا أغفر لك إنك لم تخبرني من قبل عن زواج الأمير!

وقطبت ما بين حاجبيها وهي تضيف:

لكنهم في الشرق ينظرون إلى الزمن ويتعاملون معه بطريقة مختلفة عنا.

ولكي لا يساء فهمها غيّرت نبرة صوتها:

ـ اقصد أنهم يتزوجون في وقت مبكر، وليس كما في بريطانيا. ومن الطبيعي أن الذين يتزوجون مبكراً أن ينجبوا مبكراً، أيضاً!

وانصرفت إلى فنر تسأله عن حياته الجديدة، وعن الطفل الذي جاءه، وتساءلت لماذا لم يصطحب معه زوجته، ولم تتركه يجيب، أجابت نيابة عنه أن الأم لا تستطيع أن تترك طفلها في الشهور الأولى، كما أنها تعتبر من غير المناسب وغير الصحي أن تصطحب، في سفر طويل، طفلاً رضيعاً.

ورغم أنها لم تتعود أن تهدي كتبها إلا لمن يستحقها كما تقول لنفسها، وبعد فترة من الاختبار، وأحياناً بعد فترة من الانتظار، فقد نهضت إلى المكتبة، في صدر الغرفة، واستخرجت كتابها الأخير. نظرت إلى غلافه، وهي لا تزال تعطيهما ظهرها، وقالت وهي في ذلك الوضع:

ـ إذا استطاع الكبار أن يفعلوا شيئاً مهمّاً للصغار، للمستقبل، فإن يحافظوا على ما تسلموه من الآباء لكي يسلموه للأبناء.

قالت هذه الكلمات، وتريد أن يُفهم منها أكثر من معنى ودلالة، وحين استدارت نحوهما، تابعت وهي تسير:

ـ لقد اكتشفت من خلال هذا لكتاب أن العالم الذي نعيش فيه صغير، وبعض الأحيان صغير جداً. فالقصص التي ترددها الجدات في ماتال أو كمبولولا هي ذاتها التي تتردد في أصغر قرى إنكلترا، مع فارق وحيد، إذ تتغير أسماء الأشخاص والأماكن فقط. وهي ذاتها التي تتكرر في أحمد أباد، وربما تتكرر عندكم أيضاً في الناصرة وبيت لحم.

جلست، نظرت إلى فنر ثم نظرت إلى هاملتون، وكان لديها ما تضيفه:

ـ صحيح أن هناك فروقاً بين مكان وآخر، وبسبب هذه الفروق بالذات، تكتسب الأماكن نكهتها وتميزها، وهذا ما يجب أن نحافظ عليه،

وأن نجعله ينتقل من جيل إلى آخر. أما إذا تشابهت بلدان العالم تماماً، أي إذا انعدمت الفروق، فعندئذٍ تكون البشرية قد وصلت إلى نهاية مرحلة كبيرة، ولا بد أن تنتهي، تماماً كما حصل في حضارات قديمة، عندما كانت الحضارة الأقوى تدمر ما عداها من الحضارات.

كان لدى هاملتون ما يقوله تصويباً لوجهة النظر هذه، بل وشعر أن ما جمعته عمته من معلومات في إعداد الكتاب جعلها تفكر بهذه الطريقة، تحت تأثير الجزئيات، لكن لم يجد أن الأمر يستحق الاختلاف، كما أن الوقت ليس مناسباً. قال ليغير اتجاه الحديث قليلاً:

ـ لو أتيح لك، يا عمتي، أن تزوري آثار العوالي وموران، لوجدت أشياء كثيرة تستحق الاهتمام!.

ـ بكل تأكيد، ولا بد لي من أن أعترف بذلك.

ولما ساد الصمت قليلاً، مدت بيديها الاثنتين الكتاب إلى فنر، وقالت وهي تنظر إليه:

ـ حينما يكبر ابنك ويقرأ هذا الكتاب، سوف يجد حوله من القصص والأساطير الكثير مما يشبهه، وسوف يتذكر الأجيال التي سبقته في هذه الحياة.

قال فنر، ولا يعرف كيف عنّت له هذه الفكرة:

ـ وحين يكبر ويقرؤه ربما يكتب شيئاً مشابهاً، لكن عن بلادنا بطبيعة الحال!

ردت وكانت لهجتها حازمة:

ـ يجب أن يفعل، أرجو ذلك، وإذا لم يفعل هو فسوف يفعل غيره، المهم إلاّ تضيع ممتلكات البشرية وتنتهي إلى النسيان، مما يضطر الأجيال القادمة إلى البدء من الصفر مرة أخرى!

في نهاية الزيارة الأولى، قال هاملتون لعمته، وكان ينظر إلى فنر:

ـ يجب أن تكون ضمن اهتماماتك المبكرة زيارة موران والعوالي، لكي تعدّي كتاباً جديداً!

ـ بكل تأكيد ستفعلين، مس ماركو، وإنه لشرف عظيم أن تقبلي دعوتنا، وسوف تسرّين من هذه الزيارة.

ضحكت بغبطة قبل أن ترد:

ـ يسعدني أن أفعل ذلك، لكن لن أستطيع قبل أن أنجز كتابي...

وبعد قليل وكأنها تستدرك:

ـ أو على الأقل قبل أن أهيّئ المواد الأساسية.

وفي معظم أيام الأسبوع كان لدى هاملتون وفنر ما يفعلانه، فالاجتماعات لا تكاد تنقطع، والأشخاص الذين يشاركون في هذه الاجتماعات من التنوع واختلاف الاختصاصات إلى درجة أثارت دهشة فنر، بل وأخافته: موظفون من الخارجية، ضباط عاملون، وآخرون متقاعدون، أساتذة، بحارة، علماء لغة وتاريخ، رسامو خرائط، وأشخاص بدون صفات، أو لا يقدمونهم بصفات محددة. وفي هذه الاجتماعات التي كانت تطول وتمتد لم يترك شيء إلا وجرى الحديث فيه أو عنه. وفنر الذي كان يتابع المناقشات بعناية، اكتشف أنه بحاجة ماسة إلى معونة هاملتون، في الترجمة، في فهم بعض التعابير والمصطلحات، في السؤال عن بعض الأماكن أو الوقائع التاريخية. وهاملتون، لم يكن مفيداً فقط كان ضرورياً إلى أقصى حد، لأن هذا العالم من الاتساع والخطورة بحيث أن فنر كان بحاجة إلى أكثر من المساعدة، كان بحاجة لأن يشعر بوقوف أحد إلى جانبه.

«إنهم يعرفون الكثير عن موران» هكذا قال فنر، في نهاية أحد الاجتماعات، لهاملتون، وهما يخرجان إلى الهواء بعد ساعات طويلة، فردت خلالها عدة خرائط، وكانت من الاتساع إلى درجة ملأت جداراً كبيراً، وتناوب على هذه الخرائط أشخاص عديدون. كانوا يشرحون، ويشيرون بعصا طويلة: كيف يجب أن تكون الدول في هذه المنطقة!

وفنر الذي استفاد الكثير من المعلومات خلال الشهور الستة التي قضاها هنا قبل بضع سنين، يجد أن كل يوم من الأيام الحالية يعادل

شهوراً، إذا لم يقل أكثر. عزا ذلك إلى أنه أصبح الآن أكبر سناً، ويفهم كل أو معظم ما يقال. عزاه أيضاً إلى أن الفرصة أتاحت له هذه المرة أن يلتقي بالعديدين من الذين، خدموا، أو على الأقل زاروا المنطقة، ولذلك فإنهم يعرفون الكثير! لكن ما آثار دهشته واستغرابه أن الموظف المسؤول عن الخرائط، والذي كان يُسأل باستمرار ويستخرج بين فترة وأخرى خارطة تختلف عن التي سبقتها، أو التي تليها، من حيث الألوان والتضاريس، لم يزر المنطقة؛ ولم يخرج من إنكلترا! وحين أبدى فنر استغرابه، تطلع إليه هذا الموظف وقال له كلمة ظلت ترن سنوات طويلة لاحقة:

ـ لا يكفي المرء أن يسافر هنا وهناك، في البواخر والقطارات، ليتعرف، المهم يسافر في عالم يريد، وبتصميم، أن يكتشفه، وأن يتعرف عليه بشكل جدي، وأن يكون جزءاً منه.

ولما هز فنر رأسه إعجاباً، تابع الموظف، وكان ذا دعابة:

ـ كثيرون يسافرون ولا يرون شيئاً، يا سيدي، وغيرهم يديرون العالم بين أيديهم، كما يدير الله الكرة الأرضية، لكي يروا كل شيء!

المناقشات السياسية كانت تختلف، جوهرياً، عن مناقشات الجغرافيا والتاريخ واللغات. فالرجال الذين كانوا يقودونها بدوا أكثر قسوة ومباشرة، بل وكانوا، بعض الأحيان، أقرب إلى الجلافة: «ماذا يريد سلطان موران؟» «كيف يستطيع أن يؤمن الموارد المالية؟» «ماذا يعود علينا إذا سمحنا لسلطته أن تمتد وتشمل كذا وكذا؟».

هكذا كانت أسئلتهم. كانوا يسألون وهم ينظرون إلى العينين تماماً، يريدون أن يعرفوا كل شيء. بل أكثر من ذلك لم يترددوا في السؤال عن عمير وابن مياح وعويد المشعان. كانوا يريدون أن يعرفوا أدق التفاصيل. لم يخفوا أوراقهم ولم يخجلوا. قال مستر ادموند ريكسون في إحدى المناقشات: «لو افترضنا أننا سمحنا لموران أن تضم بعض المناطق المجاورة، ولا حاجة لأن اسميّ أو احدّد، ماذا يعود علينا من وراء ذلك؟» وفنر الذي لم يكن متأكداً ما إذا كان مطلوب منه الإجابة عن هذا السؤال أم لا، لا يعرف بماذا يجيب. لقد علّمه أبوه أن يكون صلباً، أن لا يقبل بما

يطرحون عليه، أن يساوم، لكن ماذا يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال، علماً بأنه ليس السؤال الوحيد؟ كانت هناك عشرات الأسئلة، وكان هناك عشرات الرجال الذين يقولون الأشياء ذاتها، وأن بصيغ مختلفة، ولا يعرف ماذا يجيبهم أو كيف يتصرف معهم.

حتى مشروع المعاهدة الذي أرسله دنيس إيجلتون إلى موران، كان لديهم نسخة عنه. استخرجوا هذا المشروع، وكان مؤشراً عليه بالأحمر والأخضر، وقالوا، أو بالأحرى سألوا: هل توافق موران على هذه المعاهدة؟

بعد أن تنتهي هذه المناقشات الطويلة المتعبة، وهاملتون، أغلب الأحيان، لا يقوم بأكثر من دور الترجمة أو شرح بعض الفقرات أو المصطلحات، كان فنر بحاجة إلى جو آخر مختلف. وهاملتون دائماً العون والسند معاً. يكون قد فكر بما يجب عمله لكي تنسى المناقشات التي جرت، الوجوه التي سدت الذاكرة، استعداداً ليوم جديد.

ففيما تبقى من النهار أو الليل: جولات حرة، اطلاع على معالم لندن، زيارات لحدائق أو معارف. وفي هذه الجولات والزيارات كان يستعيد فنر نفسه. كان يكتشف أن العالم ليس مجرد خرائط أو ضباطاً متقاعدين. كما أنه لا يُلخص بكلمات صلبة تشبه أدراج كنيسة سان بول. إن العالم أكثر اتساعاً وغني من تلك الوجوه والكلمات القاسية.

ستة أيام متوالية من الاجتمعات واللقاءات والخرائط، انتهت ببضع صفحات.

قال أمرسون لفنر في اللقاء الأخير، قبل السفر بيومين، في وزارة الخارجية.

ـ سمو الأمير...

توقف طويلاً بعد العبارة، ورغم أن الصمت ظل مخيماً، فقد اعتقد الذين يسمعون أن المستر أمرسون عدل عن المتابعة، أو عنّت له أفكار جديدة، أو مختلفة. انتظروا، وكان فنر أشدهم لهفة لأن يسمع، قال أمرسون من جديد:

ـ سمو الأمير . . .

تنحنح ثم تابع:

ـ أخذنا بالاعتبار الكثير من الملاحظات التي ذكرها المستر هاملتون، والتي جاءت من المستر دنيس إيجلتون، كما حصل لنا الشرف أن نسمع وجهة نظركم، وتوصلنا، نتيجة ذلك، وبعد الدراسة الدقيقة، إلى مشروع المعاهدة الذي نرجو أن تحملوه معكم، وأن تعرضوه على صاحب العظمة السلطان، من أجل دراسته وإقراره.

ولما وجد الصمت مسيطراً، وليست هناك أية نية للتعليق أو السؤال، تابع بنفس النبرة:

ـ لقد راعينا وجهات نظر عظمة السلطان، ودرسنا الأمر من كل جوانبه، ونرجو أن نلقى إجابتكم خلال شهرين من الآن.

وإذ استغرب فنر هذه الطريقة في عرض المشروع، أو المبررات التي سيقت من أجل القبول به، وقد عبر عن ذلك لهاملتون، في الليل المتأخر، وبعد انتهاء الاجتماع بعدة ساعات، فقد كان جواب هاملتون:

ـ لا داعي لأن أشرح لك، يا سمو الأمير، طبيعة بعض موظفي صاحب الجلالة، خاصة الذين خدموا في مصر أو الهند، أنهم لا يعرفون إلا توجيه الأوامر، ولا يفترضون الناس إلا فقراء أو متسولين؛ وهذا الموظف وأمثاله، هم مشاكل الأمبراطورية!

وهز هاملتون رأسه عدة مرات بأسى وتابع:

ـ وإذا كان هناك خطر قد يلحق بالأمبراطورية، أو قد يلحق بأصدقائها، فعن طريق هؤلاء، أو أمثالهم.

وبعد فترة صمت قصيرة:

ـ لكن ليس لنا الخيار الآن. يجب أن نسمع وقد نضطر للموافقة، لأنهم وحدهم الذين يملكون القرار!

وإذا كان فنر قد تعلم من هذه السفرة الكثير، فقد تعلم قبل كل شيء أن لا يرد بلا أو نعم. وتذكر كلمات أبيه يوصيه أثناء الحملة الأخيرة. قال

في نفسه: «يجب أن نسمع جيداً، أن نفهم جيداً، وأن نتصرف على قدر ما نملك من القوة».

عندما قال هذه الكلمات وجدها حكيمة وقوية، ووجد أنها وحدها التي يمكن أن تساعده في الوصول إلى النتائج المناسبة.

هاملتون استأذن خلال الأسبوع الأخير لزيارة زوجته. كان يجب عليه أن يذهب إلى ويلز.

سافر وعاد لوداع فنر، فقد كان مضطراً للبقاء أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى، من أجل متابعة بعض الأمور: الخرائط، دفعات المال، الأسلحة الجديدة التي وعدت بها السلطنة، بما في ذلك أربع أو خمس طائرات، وأيضاً لقضاء أسبوعين من الراحة، كإجازة، مع زوجته وابنه.

الليلة قبل الأخيرة، وكانت مع المس مارگو أيضاً.

ومس مارگو حين تبدأ بالكلام يروق لها أن يكون بسيطاً ومباشراً، ويروق لها أكثر من ذلك أنْ يكون حكيماً. وهذه عادة إنكليزية، كما كانت تحب أن تردد وهي تبتسم.

قالت المس مارگو حين أكد فنر دعوتها لزيارة موران:

- إذا امتد بي العمر، إذا استطعت، حتى لو لم توجه إليّ الدعوة فربما بعت ما لدي من العقود والأحجار الكريمة...

وضحكت وغمزت بعينها، ثم تابعت:

- يروق لي أن أزور الشرق، والشرق هذه المرة غير الذي كنت فيه.

هزت رأسها عدة مرات، ثم أضافت:

- شرقكم يحيرني: إنه مزيج غريب، إنه، وربما هذه الكلمة متداولة أو مبتذلة، لقاء الطرق والحضارات والديانات، ولذلك أصبح مزعجاً لنفسه ولغيره، أنه مثل الامرأة الحامل، وقد تجاوزت شهرها، فلا يعرف هل تلد نبياً أو مسخاً، هل تتابع مسيرها ضمن منطق التاريخ والجغرافيا أم تحاول أن تكون شيئاً آخر؟

تنهدت بأسى وبعد قليل، وجاء صوتها خشناً:

ـ نعم، لشد ما يحيرني هذا الشرق، إنه كتلة من الغموض والتناقض، ليس لنفسه فقط وإنما بالنسبة للآخرين أيضاً. إذ بمقدار ما هو مؤهل، وبمقدار ما تساعده الظروف، فإنه يبدو ثقيلاً بطيئاً تائهاً حتى لتظنه أصبح جثة لا تحتاج إلا إلى الدفن، لكنه أيضاً، وفي كثير من الحالات يفاجئك. ومثلما كنت أقول لهاملتون: هذا الشرق بمقدار ما يحتويه من حضارات وأساطير، وما تتوافر فيه من رغبات وجنون، فإنه مؤهل للأمرين معاً: أما أن ينقذ العالم، أو أن يكون نهاية العالم.

وتنهدت مرة أخرى وبأسى:

ـ سمو الأمير: لا أريدك أن تقع تحت تأثير عجوز فانية، امرأة من عصر مضى، لكن لا أزال أجد في نفسي القوة لأن أقول بضع كلمات: الكتب التي ألفتها، الخدمات التي قدمتها، الأحلام التي لا تزال تملأ رأسي، كل هذه تجعلني على قناعة أن في الشرق شيئاً كثيراً، ولا يزال هذا الشيء، قابلاً للحركة والبقاء، وهذا سر وجوده واستمراره، ولولا ذلك لانتهى منذ وقت طويل، بسبب الأوبئة، بسبب الحروب، وتلك المصائب التي لو مرت على شعب آخر لما بقي منه أي أثر.

قال فنر بدعابة:

ـ كل هذا الحديث عن الشرق، عن بلادنا، قبل أن تزورينا؟

ردت بنزق:

ـ سمو الأمير. . .

وبعد فترة صمت، واهتز رأسها وجسدها مرات عديدة:

ـ ربما كانت الصورة عن الشرق أفضل من الشرق الآن، لكنه مع ذلك يبقى مخزناً لكل الاحتمالات المتناقضة. وكما قلت: قد يكون مرة أخرى بداية لعالم جديد، أو نهاية لهذا العالم.

ـ إنك شديدة التفاؤل أو التشاؤم يا مس ماركو.

ـ سمو الأمير. . . الأمر لا يتعلق بالتشاؤم والتفاؤل، إنه يتعلق، بالدرجة الأولى، بالتاريخ والإرادة. لا زلتم تملكون الكثير من التاريخ،

وهذا إرثكم وربما ليس لكم فضل فيه، وإن كان ملك أجدادكم، ولكنكم لا تملكون شيئاً من الإِرادة أو رغبة الإِرادة.

ومس مارگو التي لا تدخن إلا نادراً، وعندما تكون في حالة قصوى من حالات الفرح أو الحزن، سحبت من درج طاولة صغيرة إلى جانبها علبه سجائر. عرضت على الأمير، الذي رد بابتسامة اعتذار، أشعلت لنفسها سيجارة، جرت نفسين متواليين وواصلت الكلام:

ـ لا أعرف ماذا تريدون، أو كيف تصلون إلى ما تريدون، وليس من حقي أن أتدخل في أمور لا تعنيني، كما لا أحب السياسة، بمعناها اليومي والمتداول، ولكن ما أفترضه: يجب أن تكون لكل شعب من الشعوب مثل عليا يعتز بها، ويحارب من أجلها عند الضرورة، وهذه المثل تكون أكبر وأخطر لشعوب التاريخ، الشعوب التي كانت لها أدوار في العصور السابقة، ولذلك أحس، دون أن أعرف بدقة، أن أمام بلادكم مهمات كبيرة يجب أن تؤديها.

لما وجد هاملتون أن الجو امتلأ بهذا القدر الكبير من الجدية، قال ليكسر حدته:

ـ ولهذا السبب نحن هنا، يا عمتي!

ـ هنا؟

هكذا سألت بسخرية، وبعد قليل تساءلت:

ـ ماذا يمكن أن يُفعل هنا؟

ولأنها تعرف أشياء كثيرة، ورأت في حياتها الكثير، خاصة في الأماكن التي عاشت فيها، فقد قالت كأنها تخاطب نفسها:

ـ لا أحب أن أتدخل في شؤون الآخرين، ولا أحب، وبنفس القدر، أن يتدخل الآخرون في شؤوني، ولذلك إذا كان يمكن عمل شيء، فيجب أن يعمل هناك.

أطفأت السيجارة بعصبية، نظرت بطرف عينها إلى فنر، ابتسمت وهي ترفع رأسها، وتغير لهجتها تماماً:

ـ مثلما قلت لك من قبل: لا أريدك أن تقع تحت تأثير امرأة عجوز، وبالتأكيد فإنك لن تفعل، لكن تجربة الإنسان في هذه الحياة يجب ألا تذهب سدى، وهذا ما أحاول أن أقوله من خلال الكتب.

ـ يجب أن تأتي إلى شرقنا لكي تكتبي واحداً من الكتب المهمة عن الشرق!

هكذا قال الأمير فنر بدعابة.

ردت بمرارة:

ـ إذا عشت ما يكفي لأن أصل إلى الشرق، وكانت لدي القوة، وكان لدي ما أقوله، فسوف أفعل؛ ليس ذلك فقط ثم إن هناك الكثيرين، ممن يمتلكون الخبرة والعمر، ولديهم ما يقولونه، سوف يفعلون!

نظرت إلى هاملتون وابتسمت، وكأنها تعنيه. قال هاملتون:

ـ أنت التي قلت لي ذات يوم: لا يمكن لإنسان أن يكون بديلاً عن آخر، وليس هناك شعب مثل شعب آخر، ولذلك فإن ما قد تفعلينه لا يستطيع غيرك أن يفعله.

ـ لا زلت قادراً تماماً على أن تدير حديثاً ناجحاً مع امرأة عجوز...

وضحكت فخرج صوتها مثل المواء.

قال فنر:

ـ نحن بانتظارك، مس مارگو، هناك. وأكون شاكراً إذا حددت الوقت الذي يناسبك لكي نرتب الأمر بشكل جيد، وأعتقد أنك لن تندمي أبداً.

وافترقوا على وعد أن يبقوا على اتصال خلال الفترة القادمة، وليس كما كان الحال من قبل. ولم تقل المس مارگو لا ولم تقل نعم، شيعتهم إلى الباب، ولما أصبحوا في الشارع لوحت لهم من النافذة، وبعد أن خيم الصمت، سحبت من درج الطاولة علبة السجائر، أشعلت السيجارة سحبت نفساً ثم آخر، وغرقت في التفكير!

توقع السلطان أن يعود فنر من لندن حاملاً معه الكثير. انتظره شهراً طويلاً مضنياً، ولما عاد كان يحمل معه فقط الأخبار والوعود والانتظار... ولا شيء غيرها. أما الأموال، والأسلحة، أما الموافقة على وقف تدخل الجوار، خاصة ابن ماضي، أما الموافقة على ضم بعض مناطق الحدود، فقد علقت كلها إلى حين إقرار وتوقيع المعاهدة. معنى ذلك أن كل شيء مؤجل ومهدد. وزاد في تعقيد الموقف أن دنيس إيجلتون سافر بإجازة، وهاملتون تأخر، ثم أجل عودته. «هؤلاء الإنكليز يعبّرون جيداً حين يصمتون أو يغيبون» هكذا قال عنان بسيوني للسلطان، «وإلا ما معنى أن يسافر الواحد ولا يرجع الثاني؟».

والمعاهدة التي عاد بها فنر لا تختلف عن تلك التي قدمها دنيس إلا بتفاصيل قليلة، إذ لا تزال تعتبر السلطان مجرد حاكم صغير مثل عشرات من الشيوخ والأمراء الذين حوله، وتفرض عليه من الشروط والقيود ما يضطره للعودة إليهم في الكبيرة والصغيرة، مقابل المعونة التي يدفعونها، والحماية التي يوفرونها. صحيح أنه اضطر قبل خمس عشرة سنة إلى الموافقة على معاهدة تجعله مثل الشيوخ الآخرين، لكنه في ذلك الوقت لم يكن مسيطراً على موران ذاتها. الآن وقد سيطر، بالإضافة إلى موران، على الحويزة والعوالي، وأصبح الوحيد الذي يتكلم باسم هذه المنطقة الواسعة، فلماذا يريدونه أن يبقى صغيراً؟ ولأي سبب يتعاملون معه بهذه الطريقة؟

ليس ذلك فقط، موران ذاتها أصبحت ترتج. إنه يستطيع أن يلتقط الأصوات الخفية، ويشعر بذلك المزاج الذي لا تعبر عنه الكلمات أو التصرفات، ولكنه يملأ الجو وذرات الهواء.

ورجاله، الذين يعتمد عليهم في كل شيء، أخذوا يتغيرون. فما بين الصمت والغياب، هناك من بدأوا يكبرون ويتمردون. وإذا كان تمردهم ما زال موجهاً ضد بعضهم، أو ضد الآخرين، فإن من السهل فهم الرسائل التي يبعثون بها بين فترة وأخرى. فابن مياح والذين معه على الحدود، يريدون إفساد علاقاته مع الجوار جميعهم، وتخريبها مع الأصدقاء، خاصة الإنكليز، لكي يقطعوا عليه خطوط الرجعة، ولكي يضطروه في الأخير إلى الموافقة على ما يريدون.

وابن مشعان، في العوالي، أصبح يجمع النساء كما يجمع الخيول، ويريد أن يخضع البلد سلماً لا حرباً! فإذا تبقى لديه وقت يخطب في الناس ليعلمهم مناسك الحج ونواقض الوضوء والدخول الصحيح! وبين فقرة وأخرى لا ينسى أن يردد على مسامع من حوله أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها. فإذا سئل من يعني، هل يعني ابن ماضي أم خريبط، يدير رأسه إلى هذه الناحية ثم إلى تلك ويقول: الملوك عند الله سواسية كأسنان المشط!

الحويزة التي سكنت مثل حجر، بدأت تتململ وتتحرك. والحدود التي ظلت هادئة طوال سنوات، إلا إذا أراد هو أن يحركها، خرجت عن طاعته، ولا يعرف ما إذا كانت لا تزال له ومعه أم ذهبت إلى الآخرين.

أما ابن ماضي الذي اضطر لأن يحزم أمتعته ويأخذ معه الذهب كله، ويركب البحر ذاهباً بلا عودة فقد عاد أو يكاد، إذ ارتفعت أصوات مؤيديه، وامتلأت عيونهم بالحمرة والشر، وأصبح تحديهم علناً في كل مكان، وتختلط مع أصواتهم وتحدياتهم واحتجاجهم أصوات الآخرين، الذين أخذوا يعلنون أنهم ينتظرون الفرج اليوم فإذا تأخر . . . فلا بد أن يأتي غداً.

ولا يكفي أن يكون البشر وحدهم ضده، فالله ذاته بدأ أيضاً. بعث السنة الأولى القحط. سنة طويلة سوداء، طغت على الزرع والضرع، فجاع الناس وصرخوا، ونفقت الماشية، وانتقلت البادية إلى المدن أو أطرافها، ومعها جوعها وتحديها، وبدا أن كل شيء على وشك الانهيار والنهاية. فالأرض تهتز، وتوشك أن تنقلب. وابن ماضي يبعث بالأموال

والمتطوعين، مستغلاً الجوع والحاجة والضيق، ليحرك من لم يتحرك بعد، ولكي يحرض القريبين والبعيدين. وتأتي بعد ذلك جرائد العالم كله لتقول «أي مجرم ولدته صحراء موران، وإلى متى يبقى، ولماذا لا يذهب اليوم قبل الغد؟».

وإذا كان قد بذل كل ما يستطيع من أجل أن يقنع رجاله وأهل موران لأن يصبروا وينتظروا، فكيف يستطيع إقناع الآخرين؟ ولماذا ينتظر الآخرون، أو ماذا ينتظرون؟

لو أن الأمر توقف عند هذا الحد لصبر وصبر معه الناس واحتملوا، لكن ما كادت سنة الجوع تتراجع حتى جاء الهواء الأصفر. وفي طريقه حصد الكثيرين، من الصغار والكبار، ولم يتوقف عند أبواب قصر الروض، بل تجاوزها ودخل.

فزينة التي اعتّلت منذ أيام النفاس، طمأنتها قابلة القصر أنها أعراض تصيب جميع البكاري، فإذا أكلت من كبد الجمل وشربت من زيت السمك، فلن تمضي فترة حتى تسترد صحتها. ولما ظلت صحتها تتراجع جاءت الحكيمة الإنكليزية، وقالت، بتأكيد جازم، أن الأمر يسير، وظل يسيراً هكذا بضعة شهور، فلما وصل الهواء الأصفر حصد الأصحاء والمرضى، فتدهورت صحة زينة، ولم يجد معها أي علاج، وهكذا غادرت هذا العالم وتركت طفلاً رضيعاً، ورجلاً يتيتم للمرة الثانية.

والسلطان الذي كان يهيّئ فنر لكي يكون ساعده ويده، رآه يغرق في ذلك الحزن الذي لا يمكن لأحد أن ينتشله منه، فبوفاة زينة عادت أيضاً أحزان عين فضة، وعاد معها الماضي بكل ذكرياته وجراحه، وأخيراً مرضت موضي، أصبحت بين الحياة والموت، ولا يعرف ما إذا كانت ستبقى أم ستلحق بالذين ذهبوا. وفنر لم يكن بحاجة إلى هذه الأحزان كلها ليصبح إنساناً آخر، كان يكفيه قسم منها!

وظل السلطان واقعاً في تلك المساحة الفاصلة بين الغضب والشفقة. فيوماً يغضب إلى أقصى الدرجات، وفي اليوم التالي يتذكر ما عاناه فنر نتيجة فقده لأمه، وبعده الطويل في عين فضة، وكم جر عليه ذلك من

الأحزان والآثار. . . وحين يراه هكذا الآن يتابع السيرة ذاتها، يمتلئ قلبه شفقة وحسرة عليه، ويتساءل لماذا يصبح الأبناء الذين يفقدون أمهاتهم بهذا الضعف؟ ومن أين لهم هذا الحزن كله؟

وقبل أن يمضي شهر على حزن فنر وانقطاعه، يغيب العم دحيم أيضاً.

ذلك ليلة، بعد سهر طويل، وبعد حديث أطول، حول ما يجب عمله لمواجهة الجوع وتنكر الأصدقاء وشماته الغرباء وحصاد الموت، يتفق الاثنان أن يسافر العم دحيم إلى الحويزة مرة أخرى، لكي يرتب أمورها، بعد أن عجز خزعل عن ذلك، وأن يتفاهم مع ابن مياح على إبعاد عمير وأمثاله، وأن تُعطى للسلطان فرصة أخرى من أجل التغلب على المصاعب وإعادة ترتيب الأمور. ويتفق الاثنان أيضاً أن يسافر السلطان إلى العوالي، وأن يبقى هناك فترة تكفي لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه.

في تلك الليلة، في نهايتها، جاءوا ليبلغوا السلطان أن العم دحيم قد فارق الحياة. التفاصيل ليست مهمة. فإن يكون قد تقيأ. أو شعر بأسياخ من نار تشق صدره، أو أن يكون قد صرخ طالباً المساعدة، ثم هدأ وطمأن الجميع أن حالته تحسنت، ولا يحتاج إلا إلى النوم، وأن ينام، ويبقى نائماً إلى الأبد. . . كل هذه تفاصيل لا تغير شيئاً ولا تدفع حزناً: فقد أصبح السلطان وحيداً، فامتلأ بشعور الوحدة وسيطر عليه هذا الشعور.

خزعل بين الحويزة وموران يركض مثل البعير الضائع، ولا يُعرف إن كان هنا أو هناك، فإذا استراح قليلاً، فعند واحدة من نسائه الكثر، وأغلب الأحيان لا تُعرف من تكون، لأنه لا يبقى في مكان، أو عند واحدة، أكثر من وصول الخبر ورد الجواب!

حتى زوجات السلطان في قصر الروض، امتلأن بالنكد الذي يولده الخوف والمرارة، وأصبحن يتعاركن مع الخدم والأطفال والمربيات، لأنهن لا يجرؤن على أن يتعاركن فيما بينهن. وقصص الأطفال والنساء، التي كانت محصورة بطالع وناهي الفرحان، أو من هم دونهما من المساعدين، أصبحت تتجاوزهم كثيراً. أخذت تنتقل على شكل شكاوى أو

احتجاجات، بسبب الأخطاء والتعديات التي تزايدت كثيراً، ولا أحد يستطيع منعها. فإذا زادت الأمور عن حد معين، فلا بد عند ذاك أن تصل إلى السلطان، وأن تسمى الأمور بأسمائها.

والأولاد الذين كانوا ينتظرون بشوق ولهفة يوم الاثنين، ليحضروا مجلس السلطان، وقد لبسوا أحسن ثيابهم وتعطروا، وكانوا يتسابقون لرواية الأشعار والأناشيد التي تعلموها من المربيات والمعلمين، وكل واحد منهم يحاول أن يتميز عن أخوته، وأن يروي شيئاً جديداً أو طريفاً، وقبل الآخرين، لأنه يكون قد قضى أسبوعاً من أجل أن يتعلمه... تحول الأولاد إلى الشكوى والمشاحنات. فما لم يستطيعوا حله فيما بينهم، وبتحريض الأمهات والمربيات، انتقل كل ذلك إلى مجلس الاثنين. والسلطان الذي كان يبدي تسامحاً، وبعض الأحيان يوافق أن يكون قاضياً بين المتخاصمين، ما لبث أن ضاق صدره، فبدأ يؤجل مجلس الاثنين مرة بعد أخرى، وكان مطمئناً أن ما فات أولاده كيما يتعلموه منه، فإن المدرسة التي افتتحها في القصر لا بد أن تغني عنه، لأن أولاده الطلبة يواظبون على مدرستهم ودروسهم! لكنه اكتشف في وقت متأخر أن المدرسة انتهت إلى يوم أو اثنين في الأسبوع، ثم تحولت إلى مدرسة لأولاد الخدم والحرس، الأمر الذي دفع القائمين عليها إلى تعليق الدروس فيها، ريثما يتسنى للسلطان الوقت من أجل استقبال القيمين على المدرسة، لكي يشرحوا له أين وصلت الأمور!

حتى من بقي من الحرس والخدم، ورغم أنهم يعيشون في القصر، وفي القصر يأكلون وينامون، فإنهم ضجوا بالشكوى، نتيجة عدم دفع الرواتب وغياب الاعطيات. أما الذين يعتمدون على الرواتب لكي يؤمنوا أكلهم وثيابهم ومعاشهم، فقد سبقوا الخدم والحرس إلى الشكوى والاحتجاج، والكثيرون طلبوا أن يُلحقوا بالجند في الحويزة أو العوالي. والذين اضطروا للبقاء أخذوا يسرقون ويبيعون ما يصل إلى أيديهم من أجل تأمين ما يحتاجون إليه.

والسلطان الذي كان قادراً على تأمين المال، في أصعب الظروف،

يستخرجه من باطن الأرض، أو يستنزله من أعالي السماء، كما يقول الذين يقدرون مواهبه، أصبح الآن حائراً، ولا يفعل إلا أن يبعث بالرسل إلى هنا وهناك: «دين، قرضة حسنة، يا جماعة الخير، وكم يوم ونرد دينكم وحبة مسك» فيعود الرسل بصرر صغيرة لا تكاد تفي بحاجات القصر، أو يعودن بصمت ولا يريدون أن يقابلوا السلطان، لئلا يحملهم مسؤولية الفشل. «كلها منكم وجوهكم تقطع الرزق وتنشف الغدران».

قال طالع العريفان لناهي بسخرية مرة:

ـ الحق روحك يا ابن الفرحان، دوّر لك على شغيلة هنا.. هنا، قبل ما تتسلب بهذا المكان... وتندم.

ـ وتذكر يا أبو جازي سوالفه قبل ما يروح للعوالي؟ «يا النشامة، يا قرابتنا وجماعتنا، يا اللي يريد دنياه وآخرته جميع، هذا اليوم يومكم، اللي يسير معنا يطلب ويتمنى: الخيل، الأباعر، الغنائم.. كل شيء له» وراح يوم وجاء الثاني، وهالحين تشوف عينك: «اصبروا يا أولاد الحلال، وكل واحد له حق يصله، بس يلزم تصبروا وتطولوا بالكم» وشهر بعد شهر الناس فاتحين حلوقهم وينتظرون!

ـ مثل ما قلت لك يا ناهي، واليوم أحسن من اللي عقبه، يجوز تلقى اليوم شغيلة بسوق الحلال، تسرح بغنم، يطرّشونك بأباعر... خاف باكر تدور ما تلقى.

ومثلما كانت موران تحتال على المصاعب، أو تقاومها، بأن تبعث بأبنائها إلى الأماكن البعيدة بحثاً عن الرزق، أو بأن تشجعهم على استعمال القوة لدفع الذين يريدون مزاحمتها على رزقها، وقد فعلت ذلك خلال معظم العصور، فإن أغلب الأبناء الذين كانوا يذهبون بعيداً، يجدون أنفسهم مضطرين للعودة في يوم من الأيام. كانوا يعودون بدوافع غامضة. فرغم الخضرة والمياه والرزق الوفير في الأماكن التي كانوا يعيشون فيها، يحسّون، فجأة، وقد امتلأوا بأحزان لا يعرفون كيف تسربت إليهم وطغت على البيع والشراء، وعلى كل ما هم فيه من ثراء أو راحة بال، واضطرتهم لأن يفكروا بموران مرة أخرى. تعربد في رؤوسهم أفكار غريبة أقرب إلى

الجنون. ومثلما كانوا مجانين حين تركوا موران، وأقسموا، كاذبين، ألا يعودوا إليها مرة أخرى، بسبب ما لاقوا فيها من العنت وصعوبة الحياة، فإن موران الغافية في أعماقهم، المتظاهرة بالغياب، لا تلبث أن تنفجر مرة أخرى، وبنفس قوة الجنون التي دفعتهم ذات يوم إلى مغادرتها، وهذه القوة ذاتها هي التي تدفعهم إلى العودة مرة ثانية.

الذين تركوا موران إلى أقصى الأرض، فوصلوا جاوة وسومطرة، وصلوا إلى زنجبار وممباسا، ولم يكونوا يتصورون أرضاً بعد موران، أو أبعد منها، وغامر بعضهم فوصل إلى الأرض الجديدة، بحثاً عن موران أخرى هناك، ولأنهم لم يجدوا، أو لم يقتنعوا بغير مورانهم، فقد بقوا فترة ثم تركوا جزءاً كبيراً من أرزاقهم، أو تركوا وكلاءهم يصفّون ما بقي لهم من الرزق، وعادوا.

إن شيئاً في أهل موران يستعصي على الفهم أو المنطق. فهم نمط من الناس مشدود دوماً إلى حبل السرة. أنهم يذهبون بعيداً، يتصرفون، بعض الأحيان، كما يتصرف الآخرون. يتعلمون ويعيشون، لكنهم يظلون دوماً مختلفين. وهذه الصفة تحددهم أكثر مما تميزهم. حتى الذين تعلموا، وأصبحوا جزءاً من الأماكن الأخرى، فإن في أعماقهم ما يدعوهم إلى الاعتزاز، أنهم من موران، ولو لم يكونوا منها لما أصبحوا هكذا.

وفي سنوات الجوع والمصاعب، أكثر من سنوات الرخاء، فإن أهل موران المسافرين يحسون بحاجة لأن يكونوا مع أهلهم، أو أن يبعثوا إلى أهلهم ما يستطيعون.

لقد حصل ذلك مرات لا حصر لها. الجدات في أيام الرخاء، حين لا يعض الجوع، ولا يحصد الموت أو تقسو الحياة، لا يمللن من ذكر القصص التي تذكّر الصغار بالأقرباء الذين عادوا فجأة، لكي ينقذوا ويساعدوا، في الوقت الذي لم يتوقع أحد ولم ينتظر عودتهم. بل إن هؤلاء قد نسوا وغابوا من الذاكرة، لأن غيرهم، من هم أقرب منهم، لم يسمعوا أو لم يستجيبوا.

في هذه السنة الصعبة رجع إلى موران عثمان العليان.

قضى عثمان سنيناً في جاوة. قال الذين يعرفون طرفاً من حياته، إنه قضى هناك اثنتي عشرة سنة. كان طفلاً أو صبياً حين وصل إلى هناك مع عمه. ومثل القصص التي تروى أيام الشتاء، فتح الله على عثمان ورزقه. فبعد أن كوّن ثروة، وتاجر بكل التجارات، وسافر إلى كل الأقطار، استقر به المقام في مصر. ولا يعرف كم من السنين قضى هناك. الذين يحبون مصر يقولون إن رزقه كله جمعه منها، والذين يخافون مصر أو لا يحبونها يقولون إنه جاء بأمواله من الأماكن الأخرى، وفي مصر لم يفعل أكثر من أن يتزوج امرأة ثم ثانية، وأن يستعين ببعض المصريين لكي يعتنوا بخيوله. أما أمواله فكانت على ظهور المراكب، أو موزعة في أماكن عديدة في البصرة وغزة والشام، وقيل إنها وصلت إلى مانشستر البريطانية.

المهم أن عثمان العليان وجد نفسه في يوم من أيام الربيع، وكان في بلبيس، يبكي حنيناً إلى موران. الذين يعرفونه يقولون إنه ترك موران وعمره أربع عشرة سنة، وغيرهم يقولون ابن سبع سنين. وفي لحظة هي بين الغضب والوجد وضيق النفس، قرر أن يعود إلى موران. لقد غاب اثنتين وثلاثين سنة، وبعض الذين يكرهونه يقولون إنه غاب أربعين. لكن مثلما يخفي ما عنده من أموال فإنه يخفي عمره، خاصة أمام النساء!

هكذا فجأة قرر أن يعود. وخلال أسابيع قليلة صفى ما له من أرزاق في مصر وغيرها، وقيل إنه لم يصف شيئاً أبداً، إذ جمع ما له من الديون، واستبقى غيرها، وكلف وكلاء عليها، وعاد.

عاد إلى موران يبحث عن أهل وأقارب، ولا أحد يعرف ما له أو ما عنده. ولأن موران لا تنسى أبناءها، ولأن في مجلس السلطان يلتقي الغرباء والمغامرون الذين يبحثون عن الأقارب والأصدقاء فسرعان ما وجد عثمان أقاربه.

وبعد أن رأى وسمع قرر أن يكون في خدمة السلطان.

علاقة السلطان بابن العليان غامضة، غريبة إلى أقصى حد. فكأن الاثنين كان أحدهما ينتظر الآخر منذ زمن طويل، وما أن التقيا حتى أصبحا أكثر من صديقين. قال بعض الناس أن عائلة العليان ترتبط مع عائلة السلطان بصلة

قرابة. وجاء من صحح هذا الخطأ، وقال إن العلاقة هي علاقة نسب. وقال غير هؤلاء إن العلاقة بين الإثنين ليس لها صلة بالقرابة أو النسب، وإنما بالمصلحة، وقيل لها صلة بالمزاج وتقارب السن. وقال غير هؤلاء، إن الواحد منهما يكمل الآخر، وأنهما بحاجة بعضهما إلى بعض.

لم تكد تمر بضعة شهور وباعتبار أن عثمان العليان، يعرف التجارة والمحاسبة، «ولديه أموال يريد أن يشغلها»، حتى اتضح كل شيء، كما قال يونس شاهين، فقد «وضع شحمته على فطيرة السلطان» وهذا تعبير يونس ذاته، لكنه لم يقله علناً أو في حينه، وإنما قاله بعد بضع سنين حين أصبح عثمان العليان أمير المال ومدبر شؤون السلطان.

القصص والأخبار، وحتى الإشاعات، التي تتناول موضوع العلاقة، ثم موضوع الأموال، وأموراً أخرى أيضاً، من التشعب والتناقض نتيجة اختلاف الرواة والدوافع، إلى درجة لا يمكن معها الوصول إلى الحقيقة أو إلى جزء منها.

بعد أن انتهت سنة القحط، وبعد أن انتهى الهواء الأصفر، بدا وكأن السلطان قد اجتاز أصعب الأيام وأقسى التجارب والظروف.

في الفترة التي عاد خلالها عثمان العليان، أو على التحديد بعد شهرين من ذلك، عاد أيضاً، وبعد غياب دام ستة شهور، هاملتون، أما دنيس إيجلتون فقد بقي في بريطانيا. وحول بقائه تتناقض الروايات، لكن أكثرها ترجيحاً أنه اختلف مع زوجته. فالزوجة لا تريد أن تعود، وقد هددت بالطلاق إذا أجبرها على العودة. ولأنه يحبها فقد طلب أن تسمح له الوزارة بالبقاء فترة إضافية، ريثما يسوي هذه المشكلة. وافقت الوزارة على أن يبقى، ولم تصغ إلى ما عداه، ولم تكتف بذلك، فقد اتخذت بسرعة قراراً وعينت في الوقت نفسه بديلاً عنه. ولأن هذا البديل من طبيعة مختلفة، سواء بالتصرف أو باللغة، فقد جاء إلى موران ليقدم احترامه إلى السلطان، ويطلب تأجيل مناقشة أي موضوع «إلى حين استكمال دراسة الملفات» وأبدى رغبة كبيرة «للتعاون وتذليل الصعاب».

أما كيف استطاع عثمان العليان أن يدبر المال للسلطان، فإن الإجابات

تتعدد وتتنوع وتتناقض بقدر عدد الذين يجيبون، خاصة وأنه لم يبق أحد في موران إلا واجتهد وأفتى! فالتجار في موران والعوالي، الذين وجدوا أنفسهم مضطرين لدفع مبالغ حددت حسب إمكانيات كل واحد منهم، لا يعرفون هل ما يدفعونه ضريبة أم دين، أم زكاة، لأن الإجابة، حين سألوا، كانت تتراوح بين الزكاة والدين، مع تأكيدات لا تنفك تتزايد، أن كل ما أُخذ منهم سوف يرد إليهم، وإذ أضاف بعض رسل السلطان «... وفوق الدين زودة» فإن المتشددين خافوا، وقالوا: لا نأخذ على أموالنا الربا، والمتساهلين سموا ذلك ربحاً ولم يجدوا غضاضة في الموافقة، لكن تساءلوا: متى يعاد الدين والربح؟ أما غيرهم، والذين تأخروا في إخراج الزكاة، فقد اعتبروا أن الله عاقب عباده بالقحط والوباء لأنهم لم يصرفوا حقوق الله، ولذلك دفعوا برضا وسماحة! وغيرهم دفعوا خائفين، لأن مع كل موظف، أو مع كل رجل من الذين أرسلهم ابن عليان، كان عدد من حرس السلطان، وكان هؤلاء يقلّبون نظراتهم فيما حولهم، وكأنهم يقدرون ممتلكات كل واحد، أو يحددون ما يجب أن يأخذوه إذا امتنع أو تردد عن أداء ما يُطلب منه.

هكذا فسرت أو فهمت الأموال التي أخذت من التجار، ومع ذلك، لم تكن كبيرة، ولا تكفي لكي يواجه السلطان أعباء الحملات وحاجات الجند، ولتأمين المواد الضرورية، خاصة بعد أن تزايدت المصاريف، فقال الكثيرون: «هذا غطاء لما يفعله ابن عليان».

خدم القصر، الذين يدققون بعيون الصقور ويرون الصغيرة والكبيرة، ويظلون، أغلب الوقت، صامتين، لاحظوا في هذه الفترة، أن الشيخة التي اعتزلت الناس فترة طويلة ما لبثت أن خرجت، وقيل إنها خافت خلال الفترة السابقة من الهواء الأصفر، ولم تكن تفعل طوال شهور، خاصة بعد وفاة عدد من سكان القصر، سوى أن تحرق الملح، وتكثر من استعمال ماء الورد، وتمنع أي واحد من الخدم الاقتراب من جناحها. وقيل إنها لم تأكل يوماً واحداً مما كانت تعده مطابخ القصر، كانت تهاني تعد لها الطعام، وتشرف هي بنفسها عليه.

خروجها الآن لا يفسره انحسار الوباء فقط، إذ قيل إن عدة خلوات جرت بينها وبين السلطان، وقد حضر عثمان العليان معظم هذه الخلوات، ممّا جعلها تقتنع بإخراج ما تحت يدها من مال!

حين سئلت تهاني عن الأمر لم تجب بكلمة، لكنها ابتسمت وبرقت عيناها، وحار الذين سألوها في تفسير ذلك.

ومما يشجع على الاعتقاد أن شيئاً ما له علاقة بالشيخة قد حصل، طريقتها في التصرف. فقد بدت أكثر فتوة، واستبدلت بملابسها السوداء أخرى رمادية. وقيل حول الموضوع الكثير، فهناك من قال إن السلطان طلب منها ذلك لكي تساعد فنر على أن يخرج من حزنه، وهناك من قال، مع ابتسامات ماكرة، إن القرابة التي تحدث عنها الكثيرون، بين السلطان وآل عليان، يراد تجديدها، ولا يستبعد أن حديثاً جرى في إحدى الخلوات حول الموضوع! وغير هؤلاء قالوا إن ابن العليان تعهد أن يعيد، وسريعاً، للشيخة، مع الربح، ما يستدان منها قبل أن يحول الحول، وقد ضمن السلطان ذلك.

الذين سافروا وعرفوا البلدان الأخرى، خاصة الذين عرفوا مصر وعاشوا أو مروا فيها ـ ومن عادة مسافري موران أن يسألوا ويتقصوا ـ قالوا: إن أموال ابن عليان لا تأكلها النيران، وما أعطاه للسلطان، وهو بالتأكيد دين بأجلٍ، وعليه شهود وكتب بأوراق، اعتبره تجارة؛ ومثلما كان يمول الكثيرين، ويبعثهم بتجارات إلى الشام والعراق والبحرين، وغيرها من البلدان، وهو متأكد أنه سيسترد ما أعطاه، وربما رهن له السلطان قصوره وخيوله إلى حين استيفاء الدين.

وقال بعض الذين سافروا، وكانوا لا يخفون سخريتهم، أن ابن عليان لا يبول على يد مجروح، ولذلك لا يمكن أن يخرج شيئاً من ماله، ولكنه أشار على السلطان أن يتصل بأهل موران المسافرين في الأماكن الذين يقيمون فيها، وقد سمى له عدداً منهم، وكتب رسائل وبعثها مع أقرباء، مع تحيات ووعود كثيرة، وقد مهر السلطان الرسائل بخاتمه، وحمّل الرسل، مع الرسائل، تمراً جيداً وطيباً وحنة، وقيل أيضاً حمّلهم مجموعة من

البسط والحذيانات والعباءات، وقد تم اختيارها بعناية، وأرسلت إلى هؤلاء، وسلمت إليهم بكثير من الاهتمام والحفاوة وهذا ما دفعهم لأن يقدموا القروض بسخاء.

ولأن السرقات بدأت تتزايد في قصر الروض، وكانت في الغالب تستهدف الأشياء الثمينة من الذهب والأحجار الكريمة، فقد اقترح عثمان العليان على السلطان تخصيص غرفة كبيرة في القصر، وأن تجهز بالأقفال الألمانية القوية، ويتولى رجاله حراستها ليل نهار، وهذا ما وافق عليه وفعله السلطان. أما مفتاح هذه الغرفة، وهو المفتاح الوحيد، فقد استبقاه معه. وطُلب من نساء السلطان أن تضع كل واحدة ما عندها من الذهب والمجوهرات والنقود في صندوق صغير، وأن تقفله بنفسها، لكي توضع الصناديق جميعها في الغرفة. وهذا ما فعلته النسوة، بعد تردد، وبعد أن اقتنعن نتيجة السرقات العديدة التي جرت.

أما ماذا حصل بعد أن أودع الذهب والمجوهرات، فقد اختلفت الروايات كثيراً: رواية تؤكد أن السلطان باع الذهب كله في أسواق حيفا ويافا. ورواية أخرى أن ابن عليان حمله كله وسافر إلى الهند وهناك باعه. وأكد من يعرفون أكثر من غيرهم أن بيعاً نهائياً لم يجر، وإنما تم إيداع الذهب أو رهنه في بغداد لدى عدد من الصاغة والصيارفة اليهود، مقابل مبالغ دفعت لأجلٍ وبفائدة.

المهم أن الضائقة التي كادت تفتك بالسلطان توقفت ثم أخذت بالتراجع. صحيح أن الأمر تم ببطء وترافق مع الخوف والشكوك، وترافق أيضاً مع الإشاعات التي لم تتوقف يوماً واحداً، لكن حين وصل تجار الإبل يحملون كميات كبيرة من الطحين والشاي والخام والسكر، وقالوا إنهم يفضلون أن يبيعوا هنا أكثر من أي مكان آخر، لأن الأرباح هنا كبيرة ومضمونة، ولأن الدفع يجري دون تأخر ودون تحويل... عند ذاك بدأ الأمن يدخل إلى قلوب الناس.

ولأن هؤلاء التجار وصلوا في نهاية الخريف وبداية الشتاء، ثم جاء المطر الوسمي مبكراً ووفيراً في هذه السنة، فلم يبق أحد إلا وتفاءل. قال

الناس بصوت عالٍ: الأيام الصعبة انتهت، ونرجو الله أن تكون خاتمة الأحزان والمصائب.

ومع أخبار المطر في موران، تواردت الأخبار عن سقوط أمطار في العوالي لم تشهد مثلها منذ سنين عديدة، فبدأ المسنون يتذكرون متى جاءتهم أمطار مثل هذه. أما الذين تأخروا في الزرع، لأنهم كانوا خائفين أن تكون هذه السنة مثل باقي السنين، فقد تراكضوا بسرعة ليتداركوا هذا التأخير، ومع الزرع والبيع والشراء بدأ الغناء وبدأ المزاح، فكان يسمع رجال السلطان الغناء والمزاح لكن يتظاهرون أنهم لا يسمعون!

قال السلطان لعثمان:

ـ إذا مرت هذه السنة على خير، يا عثمان، ترى السنين اللي تعقبها تنسّي الناس مصايبها، وعسى أن تفرج.

رد عثمان العليان وهو يجر من صدره نفساً عميقاً:

ـ انتهت، يا طويل العمر، السبع العجاف وبدأت السبع السمان، وإذا عشنا نشوف!

ـ حنا نريد سنة سمينة واحدة، وبعدها الله كريم.

ـ لا تخف يا طويل العمر، وهذا الله يمكن يفتح عليك خزائن الأرض كلها!

قال عنان بسيوني الذي كان يسمع هذا الحوار المتفائل:

ـ ربنا... كفافنا، خبز يومنا.

وضحك بقهقهة ثم أضاف:

ـ هذا ما نتمناه ونرجوه.

قال السلطان وهو ينظر إلى البعيد:

ـ كل عقدة ولها حلال.

وتطلع إلى فوق، إلى السماء، وقال، وخرج صوته هادراً:

ـ أن الله على كل شيء قدير!

اللقاءات بين السلطان وهاملتون كانت مزيجاً من الاستطلاع والاستفسار والعتب. فبعد هذه الفترة الطويلة من الغياب، والتي بدت غير مفهومة وغير مبررة، يريد السلطان أن يعرف أين موقعه وكيف يتصرف. وهاملتون الذي كان محرجاً، ويبدا حزيناً في بعض اللحظات، خلال الأيام الأولى، ما لبث أن استجمع نفسه، قال للسلطان، وهما على عين المليحة، وقد خرجا في رحلة، خلال يوم من أيام الشتاء الدافئة.

ـ وتعرفون، يا صاحب الجلالة، أن الرجال الذين بيدهم القرار هناك، يكونون أغلب الأحيان مضطرين إلى أخذ الكثير من الاعتبارات قبل أن يقرروا شيئاً نهائياً. كانوا في اليوم الأول يستمعون إلينا، وفي اليوم نفسه، أو في اليوم التالي، يستقبلون وفداً أرسله ابن ماضي، ويستمعون إليه ويناقشونه، ثم يبعثون وراء ممثلي صاحب الجلالة في المنطقة ليستمعوا منهم أيضاً، وبعد ذلك يفاوضون الفرنسيين والأميركيين وغيرهم من القوى حتى إذا توصلّوا إلى بعض الصيغ الأولية، تبقى كلها خاضعة لإِعادة النظر والمراجعة والضغط، ثم مفاوضة الأطراف جميعاً مرة واثنتين، وفي النهاية، وغالباً ما يحدث ذلك، تعلّق مرة أخرى المفاوضات، ريثما تدرس من جديد، أو يتهيأ الوقت المناسب، أو تتوافر بعض الشروط.

كانا يسيران على أرض بدأ نباتها يخضر نتيجة المطر المبكر، وكانت تعد بربيع خصب، خلافاً لسنوات سابقة، خاصة بعد أن تتابعت الأمطار، ورافقتها ريح جنوبية مشبعة برائحة أمطار جديدة. والسلطان الذي اختار هذا المكان، وهذا الوقت من النهار، كان يشعر أنه هنا أقدر على الوصول

إلى موقف يطمئن إليه، خلافاً لفترة سابقة، حين كان يفضل الليل. لقد تذكر كلمات عنان بسيوني وهما يتناقشان ويتساءلان حول احتمالات المستقبل، وكيف أن غياب هاملتون ثم دنيس لا يبعث على الطمأنينة. قال له عنان بسيوني: «كل ما كانوا يقولونه، يا طويل العمر، مجرد وعود، وكانوا ينسون في اليوم التالي ما قالوه في الليلة الفائتة، تماماً كما يقال: كلام الليل يمحوه النهار»!

وهاملتون الذي أحس أن السلطان، حين اختار هذا المكان، كان يهدف إلى أن يكونا بعيدين عن أعين الكثيرين، لذلك قرر أن يكون معه صريحاً، وأن يبوح له بأفكاره وهواجسه.

ورغم وجود الكثير من المشاهد التي تستدعي السؤال أو التعليق في المليحة، وفي هذا الوقت بالذات، إلا أن الإثنين كانا مشدودين إلى عالم داخلي يبعدهما عما حولهما. قال هاملتون بعد فترة صمت غير قصيرة:

ـ لا أريد أن أذكر لك، يا صاحب الجلالة، المصاعب والمشاكل التي واجهتنا خلال الشهور الماضية، ربما يكون سمو الأمير فنر قد شهد بعضها، وحدثك عنها، لكن بعد سفره، وبعد كثير من المؤتمرات والاتصالات، ومع جهات متعددة، بدا لي أنه من المستحيل الوصول إلى نتائج.. بل وأكثر من ذلك، كنت أفكر أن أطوي أوراقي وأقرر واحداً من أمرين: أما البقاء هناك دون التفكير نهائياً بالعودة إلى هنا، أو أن اتخذ قراراً معاكساً...

ولما بدت الجملة الأخيرة غير واضحة تماماً، خاصة وأن رافقتها ابتسامة من هاملتون، فقد تطلع إليه السلطان وانتظر بقلق. تابع هاملتون بلهجة مرحة:

ـ طبيعي إذا كنتم تقبلون أن أكون ضيفكم، وإذا كان وجودي هنا مفيداً لكم.

ضحك السلطان وتطلع إلى البعيد، تابع هاملتون بلهجته الأولى:

ـ لا أنكر، يا صاحب الجلالة، أننا توصلنا إلى بعض النتائج المهمة،

لكنها دون ما كنا نريد أو نتمنى. ورغم الجهود، والانتظار، فقد تأكدت أن هذا هو أقصى ما نستطيع الوصول إليه.

وتغيرت النبرة، أصبحت محايدة:

ـ هذا ما استطعت الوصول إليه شخصياً وتبقى الأمور مرتبطة بالمفاوضات التي ستجري هنا، وأرى أن تتشددوا، وأن تحاولوا بكل ما تستطيعون من الجهد والقوة لكي تقنعوهم لتقديم تنازلات إضافية.

وخلال بضع ساعات، وهما يسيران، وهما يجلسان قريباً من العين، أو يتوسدان الرمل، شرح هاملتون للسلطان، أن الظروف في المرحلة الحالية، اختلفت كثيراً عن السابق، قبل سنتين أو ثلاث سنوات. فالمرحلة الجديدة أخذت صيغتها شبه النهائية، ولم يبق إلا أن ترتب الأمور هنا وهناك، وأن توقع الاتفاقات.

ورغم وضوح الكلمات ودقتها، وفهم معانيها، إلا أن الصورة، مع ذلك، لم تكن واضحة. فالمشاكل التي تعاني منها السلطنة كثيرة ومتداخلة. والإنكليز ليسوا بعيدين عن معظم هذه المشاكل، بل أكثر من ذلك، كان يحس السلطان أنهم وراءها. والآن لا يعرف كيف يفاوضهم، أو كيف يتفق معهم.

قال السلطان بعد أحاديث متنوعة:

ـ اللي قلته، يا الصاحب، مفهوم، وعلى الراس والعين، بس أريدك تعلمني: جماعتك، هناك، بعدهم يريدّونا أو تغيروا صار هواهم صوب ثاني؟

ـ بكل تأكيد يريدونكم، يا صاحب الجلالة.

ـ بس أشوفهم حاطين رجل بالسهل ورجل بالوعر... يا الصاحب.

ولم يفهم هاملتون ما عناه السلطان، سأل بلهجة بدوية:

ـ سم يا طويل العمر؟

ـ أقول: كل ما وصلنا تقولون: على مهلكم، يواش يواش، وكل ما تسالمنا وقلنا اتفقنا يقولون: خلنا نفكر، وكأنهم مراهنين على غيرنا...

لم يعلق هاملتون. كان يريد من السلطان أن يتابع، أن يقول كل ما عنده. تنحنح السلطان، جلا صوته، وأضاف، فجاء صوته من الصدر:

- حنا من سنين كنا طالبين رأس ابن ماضي، يا الصاحب، وكنا قادرين عليه بس كل ما شدينا تحوشونا عنه، تقولون ما يصير، وحنا نعض على جروحنا ونسكت. وراح يوم وجا الثاني، وشفتم شلون صار، وما وافقتم معنا إلا بعد شلعان القلب...

واستدار السلطان لكي ينظر إلى عيني هاملتون:

- ما هو بس كذا.. هالحين، ابن ماضي، بلياكم، وحده، وبدون معونتكم، ما يقدر يسوي شيء. وما ندري نغير عليه، ونطارده، أو نخليه يحرّ الديرة ويسوي اللي ما يتسوى!

قال هاملتون باستعجال ورد فعل:

- أظن أن مسألة ابن ماضي منتهية، يا صاحب الجلالة، ويمكن أن تطوى، فقط تحتاج إلى أمرين: الأول أن لا تقترب السلطنة من أصدقاء بريطانيا، ألا تطمع ببلدانهم، وأن لا تهددهم أو تزعجهم، والثاني، أن يتم الاتفاق بين السلطنة وبريطانيا، وأن يتحدد هذا الاتفاق على شكل معاهدة...

وتغيرت لهجته، سأل وكأنه تذكر الأمر عرضاً:

- لم أسمع من جلالتكم وجهة نظركم بخصوص المعاهدة التي حملها سمو الأمير فنر؟

وخلال أسابيع من التفكير والاستعداد، وبعد أن بعث السلطان إلى الحويزة والعوالي عدداً من رجاله المباشرين، لكي يطلعوا على الأوضاع هناك، ويتقصوا الأخبار بدقة، وبعد أن قلّب الأمور وسأل الكثيرين رأيهم بالمعاهدة، والموقف الذي يجب أن يتخذه، والمطالب التي يجب أن يطالب بها، وصل إلى الطريفة وليم بتلر.

لقد سبق للسلطان أن التقى بتلر عدة مرات، وكانت تربطهما علاقة أقرب إلى المودة والصداقة، أو بالأحرى هذه هي عواطف السلطان. فهذا

العسكري الذي خاض حروباً عديدة، وعاش في أماكن كثيرة، اكتسب، بالإضافة إلى اللون البرونزي، طباع البلدان التي عاش فيها، وقدرة على التفاهم مع الآخرين. يتذكر السلطان أن المفاوضات التي جرت بينهما، أكثر من مرة، جرت في الهواء الطلق، وفي جو من الحفاوة والمودة والتفاعل، وقد ساهم بتلر ذاته في خلق هذا الجو، ثم في الوصول إلى النتائج.

الآن وقد وصل بتلر إلى الطريفة، كان يفكر أن يواصل سفره إلى موران، وأن يلتقي بالسلطان هناك، لكن السلطان، بمجرد أن عرف بوصوله، بعث إليه يخبره أنه متوجه إلى العوالي، ويقترح عليه أن يلتقيا في عين دامة أو عين بنات، وأبلغ عنان بسيوني، الذي حمل الرسالة والاقتراح، أن يؤكد على أن يكون اللقاء في أحد هذين المكانين.

الذين شهروا لقاء الإثنين في عين بنات، وقد وصل السلطان قبل ضيفه بيوم، يقولون إن مشهداً مثل هذا لا يقع إلا في الصحراء، وبين فرسان حقيقيين.

فبتلر الذي وصل إلى عين دامة بالسيارة عند العصر، هيأ نفسه لأن ينتقل من هناك إلى عين بنات على ظهر جواد، والمسافة بين المكانين لا تتجاوز العشرين كيلومتراً، لكنه يريد أن يقطعها بموكب يليق بالفرسان، وأن يستمتع بالطبيعة أيضاً. ولذلك هيأ نفسه للانتقال في الصباح الباكر من اليوم التالي. ولأن الأمر أعد سلفاً، فقد جُهزت الخيول في عين دامة قبل أيام، وهيئ الموكب، بمن فيه نافخ البوق وضارب الطبل، إضافة إلى المرافقين والحرس، والحاشية، وكان ضمن الموكب أيضاً القنصل وعدد من العاملين معه.

ولأن عنان بسيوني وآخرين انتقلوا بين عين دامة وعين بنات عدة مرات، وقد استعملوا السيارات في انتقالهم، فقد تم الاتفاق على الكثير من التفاصيل، بما فيها مكان التقاء الفارسين، وتوقيت وصولهما، وما يتطلب لذلك من الاحتفال والتعبير عن الاهتمام والحفاوة.

على مسافة مائة متر من الظهرة، حيث تتفرع التلال هناك، لتشكل فيما

وراءها مجموعة من الأودية، وحيث تنبسط الأرض انبساطاً طلقاً، حتى تبدو مثل منصة، تشرف على التلال من ناحية، وعلى الأودية وتشعباتها من ناحية ثانية، التقى بتلر والسلطان.

وصل السلطان إلى الظهرة قبل بتلر بنصف ساعة، باعتبار أن عين بنات لا تبعد إلا مئات الأمتار، ومع أن المسافة قريبة، فقد ركب إليها واحداً من أهم جياده، ولأنه المضيف، فقد تعمد أن يكون هناك قبل وصول ضيفه.

بتلر وصل بالموعد المحدد. ترجل عن جواده قبل مسافة مناسبة. توقف للحظات، عدل ملابسه وقبعته الفلينية المقاومة للشمس، ثم سار بخطوات واثقة قوية باتجاه السلطان، وسار السلطان باتجاهه. التقيا في منتصف المسافة، تعانقا طويلاً وشد الواحد على يد الآخر، وكانت يد كل منهما تطوق كتف الآخر، وقد ترافق ذلك مع صيحات البوق، وصهيل الجياد، وضربات الطبل، وبعض طلقات في الهواء.

كان لقاء مؤثراً حافلاً إلى أقصى حد، وكأنه مشهد تمثيلي يجري في هذا المدى الرحب اللامتناهي. ورغم أن أغلب التفاصيل قد تم الاتفاق عليها، وحضرت بعناية، فإن المشهد، مع ذلك، تجاوز التمثيل أو المظاهر. الذين شهدوا تلك اللحظة قالوا إن الرجلين أكبر من تحضير الآخرين وأقدر. فالسلطان الذي أراد أن يقود ضيفه إلى نهاية الظهرة، لكي تكون البداية، المرور فوق أنهار الدماء، حيث حُضرّت عشرات الخراف، وكان في الوسط كبش كبير، وقد اقترح يونس شاهين أن يذبح في نفس الوقت، وأن يمر السلطان وضيفه في الوسط... أن هذه اللحظة التي تهيأت بعناية كبيرة، واستعد لها الكثيرون تم تأخيرها، لأن بتلر أحب أن يلقي نظرة على الأودية، وقد استجاب السلطان بمودة وتلقائية، ولأنهما توقفا هناك فترة أطول مما كان متوقعاً، فإن أخطاء كثيرة وقعت في المراحل اللاحقة. فقد أشعلت أعواد البخور مبكراً، وضرب حاملو الطبول الخلفيون طبولهم، وتهيأ الذين يصبون القهوة، في الوقت الذي كان السلطان وضيفه بعيدين عند الظهرة!

أما كيف تقدم السلطان وبتلر بعد ذلك، وكيف أفلت رأس أو اثنان من الغنم المعدة للذبح، بعد أن حصل التأخر، وتراخى الذابحون، وكيف تم تدارك حصان أفلت فجأة، وربما جفل من منظر الذبح أو لون الدم، ثم كيف تجنب بتلر الدماء فدار حول الذبائح، وشاركه السلطان، وقد تشاءم من ذلك مهيوب، وأبلغ السلطان في اليوم التالي، وغير هذه من الأمور. . . أن كل تلك التفاصيل التي راقبها الحرس والخدم، وتناقلوها فيما بينهم أول الأمر، ثم انتقلت إلى المرافقين، وقيل إنها وصلت إلى مستويات أعلى، لا تغيّر ولا تقلل من جو الاحتفال والاهتمام في ظهيرة ذلك اليوم من أيام الشتاء الدافئة، في عين بنات، ذلك المكان الذي كان يشكل ملتقى التلال بالأودية، وكان أيضاً نقطة فاصلة، أو بالأحرى علامة من العلامات، بين موران والعوالي. ومن هناك كانت تفترق الطرق أو تلتقي.

لماذا اختار السلطان هذا المكان بالذات؟ وهل كان يعني شيئاً أو موقفاً؟

لقد احتار المؤرخون، فيما بعد، كثيراً، بهذه التفاصيل، وفسروها تفسيرات لا نهاية لها! طبيعي لا يمكن الوقوف عند كل ما قيل عن الأسباب، لكن ما لفت النظر أن المكان يقع بين العوالي وموران، ويطل على الجبال والأودية أيضاً، وقد فهم من ذلك أن السلطان مستعد للاحتمالين، معاً، وأنه قادر عليهما أيضاً!

أما الذي دعا السلطان لأن يأتي بحصانه الأدهم، وهل كان إنذاراً لبتلر أو شوقاً يتوقعه نتيجة هذا اللقاء، فلم يستطع أحد أن يكون متأكداً. علماً بأن السلطان في الكثير من المعارك التي خاضها، وفي اللحظات الحاسمة، أثناء دخول مدينة، أو تقبل استسلام قائد من القادة المعادين، كان يركب فرسه المحببة إلى قلبه، كان يركب الصبحة لأنه يتفاءل بها.

وبعد ذلك. . . ما الذي دعا بتلر إلى تجنب المرور فوق دماء الخراف التي نحرت؟ هل لنفور بضع الخيول، أو لإيقاد أعواد البخور في وقت مبكر، دلالات أو تفسير؟

وأن يتم اللقاء بين السلطان وبتلر يوم الاثنين، هل هو أمر عرضي أو مقصود؟ بعض حرس السلطان يؤكد، اعتماداً على حالات مشابهة، أن السلطان تعمد أن يكون اللقاء في ذلك اليوم بالذات. طبيعي يبقى هذا مجرد تقدير لما يحتمل أن يكون السلطان قد أضمره، مع إشارة أنه حين بعث يخبر بتلر أنه سيكون في عين بنات، قال لعنان بسيوني، ثم لرسول آخر تبعه في اليوم التالي، وبتأكيد لفت النظر، ولكي لا يترك التباساً من أي نوع، أن اللقاء سيكون يوم الإِثنين. ربما لأن هذا اليوم يرتبط بذاكرته بما سمعه من جدته حول بركة هذا اليوم.

ومما عزز هذه التفسيرات أن السلطان يتفاءل برؤية الهلال، وحين يكتمل القمر، إذ يعتبر ذلك من حسن الطالع. وأن يصادف لقاؤه الآن: القمر يوشك أن يكتمل بعد يوم أو اثنين، فقد جعل ذلك بعض المرافقين والمستشارين في حالة من الغبطة أقرب إلى الخفة. أما السلطان ذاته فقد مازح عدداً من الحرس، ووقف معهم أكثر مما يقف عادة، ونبههم أن يكونوا أكثر حرصاً «لأن الضيف غالٍ علينا، وحنا بالعوالي ما هو بموران».

اللقاءات الأولى كانت احتفالية، فقد تبادل السلطان وضيفه الزيارات، وتخلل هذه الزيارات أحاديث وذكريات، وقد شارك فيها الكثيرون. أما يوم الثلاثاء، فقد كان اللقاء في الخيمة الكبيرة، ولم يحضره سوى عدد محدود من المستشارين، وكان هاملتون يترجم.

في هذا اليوم ذكر أكثر من واحد أن الدنيا اسودت، والمطر انهمر قوياً مدراراً، كما لم يروه من قبل. كان يسقط على الخيمة الكبيرة مثل الحجارة، والرجال داخل الخيمة يتناقشون بحدة، كأنهم القطط في شباط. وقد روى يونس شاهين فيما بعد، أن بتلر في مرحلة معينة قال: لا، فرد عليه السلطان: قتلتني، ولا يمكن أن أقبل. قال بتلر: هذا كل شيء، ولا أستطيع أن أتقدم معك خطوة واحدة. قال السلطان: أخذت نصف مملكتي وجعلتني الآن عارياً أمام رعيتي، ولا أعرف كيف أقابل الناس أو كيف أنظر إلى وجوههم. وكاد بتلر أن يرد على السلطان، لكنه فجأة توقف. فدموع السلطان كانت تتساقط على وجنيته بغزارة، وكانت تنصب على

لحيته، ولا يعرف كيف يوقف دموعه أو كيف يتصرف. وبتلر الذي كان صلباً مثل صخرة، وكان يريد أن يصل إلى النتائج التي حددها سلفاً، وكانت خارطة قد فردت على طاولة كبيرة، وقد تبادل الاثنان، وتبادل الآخرون النظر إلى هذا الجسد الميت، غير المفهوم، وغير الواضح، لكن فجأة، وحين رأى بتلر دموع السلطان وانفعاله، وتأكد في لحظة من اللحظات أن السلطان سوف يغادر الخيمة، وسوف يركب حصانه ويأمر حاشيته أن تتبعه. في تلك اللحظة، «وهي لحظة ضعف مجنونة» كما وصفها بتلر في وقت لاحق، اضطر، أو وجد نفسه مضطراً، لكي يستجيب لبعض مطالب السلطان، أو أن يرضيه.

ومثل ما يحصل في لحظات الضعف، أو في لحظات القوة، ورغم أن بتلر قال كلمة اعتبرها واضحة وكاملة ونهائية، فإن القلم الأحمر الذي كان يحمله في يده، وكان يشير به أغلب الأحيان ليوضح أكثر مما يكتب أو يؤشر، في تلك اللحظة صدرت عن بتلر كلمة حادة، وقد ترجمها هاملتون. قال مخاطباً السلطان بنزق أقرب إلى الضعف، وأكد ثلاثة من المستشارين وخمسة من الخدم أنهم رأوا دموعاً على خده، وقد مسحها بسرعة وغضب:

ـ إسمع.. ويجب أن تسمع ذلك جيداً يا صاحب الجلالة: إنني إذا أخذت منك في هذا المكان فإنما أعطيك هنا.

وأشّر بالقلم الأحمر. كانت الإشارة كبيرة أقرب إلى الدائرة، أو إلى البالون، وكانت في الجهة المقابلة، مما كان يعتبره السلطان حدوده ونهاية سلطنته. تطلع السلطان إلى الدائرة، إلى البالون الأحمر الكبير. مسد لحيته، التفت إلى أكثر من ناحية. وقال بطريقة مسرحية:

ـ إسمع يا الصاحب..

ابتسم بحزن، وكانت بقايا الدموع في عينيه وعلى لحيته:

ـ والله وبالله وتالله، لولا معرفتكم، لولا أن الواحد يريد يخلص، ما كنت أقبل، لكن ما يخالف...

وابتسم أكثر، ثم أضاف:

ـ ويلزم تعرف يا الصاحب: إنكم إذا غبنتونا هذه المرة لكن لا بد تعوضون علينا، وهذا دوم يحصل بين الأخوان والشركا!

هذه الليلة، وكان البدر قد اكتمل، تحولت في أعين، ثم في ذاكرة، كل من شهدها، كل من كان موجوداً، إلى شيء خارق، ولم ينسها أي من الذين كانوا في عين بنات...

بعض المؤرخين الذين زاروا المنطقة في وقت متأخر، قالوا إن الريح حين تهب في هذه الفترة من السنة، تكون مفعمة بروائح زكية نفاذة، تسلب الإنسان وعيه، وتجعله أقرب إلى الخدر، وهي تؤثر على المخلوقات كلها، خاصة إذا كان القمر بدراً. أما الحيوانات فإنها تصبح عصبية وأقرب إلى الهياج.

وقالت بعثة أميركية زارت عين بنات، بعد سنوات عديدة، أن الكواكب، في هذا المكان، وخاصة حين يكون القمر بدراً، تولد طاقة كهرومغناطيسية قوية ومؤثرة، وقد قاسوا المسافة بين التلال وفتحة الوادي، وقاسوا المسافات بين الفتحات ذاتها، ووضعوا علامات لقياس ارتفاع المياه، وقذفوا حبلاً برأسه كرة معدنية في العين ليعرفوا أين تصل، وأخيراً قالوا إن كل ما حصلوا عليه من معلومات لا بد أن يبعثوا به إلى المختبر لكي يحللوه، لأنهم لا يستطيعون أن يفسروا بعض الظواهر، ولم يُحك بعد ذلك عن هذه الأمور!

عرف هاملتون بوفاة زوجة الأمير فنر خلال الفترة الأخيرة من إقامته بلندن. شعر بأسى لدى سماعه الخبر. قال في نفسه: «الموت هو الحارس الأمين والدائم، الذي لا يفارق الإنسان، وهو الوحيد الذي لا يتخلى عن مهمته، ولا يتعب منها، لكن من حسن حظ هؤلاء البدو، أنهم يختلفون عنا. نحن نعيش الحياة كلها وهذا الهاجس لا يفارقنا، حتى في أمتع لحظات حياتنا، أما هم فإنهم لا يتذكرونه، مهما اقترب منهم. أكثر من ذلك يريدون أن يتجاوزوه بسرعة، لكي يستقبلوا الحياة الأبدية، التي لا تعرف الموت أبداً».

ورغم أنه حاول تخفيف أثر الصدمة، من خلال هذا التفسير، إلا أنه وجد نفسه يحزن على فنر، وفي لحظات معينة اعتبر أن الأمر غير منطقي أبداً، خاصة بالنسبة لامرأة في عمر الزهور، كما يقولون، وبالنسبة لشاب يريد أن يبدأ الحياة بقوة وعنفوان.

حين ذهب ليودع المس ماركو أبلغها الخبر. قالت وهي تشهق:

ـ عجيب أمر هؤلاء الناس، أنهم يولدون، ويتزوجون.. وأخيراً يموتون، قبل الأوان وبصمت، لماذا يفعلون ذلك؟

لم يكن سؤالها يستدعي الإجابة، ولم يجب. تابعت كأنها تحدث نفسها:

ـ في أحيان كثيرة لا يعرف الإنسان أين هو الخطأ، وربما يكون هذا هو أقسى العذاب!

رد هاملتون بانفعال:

ـ وإذا ترافق عدم المعرفة مع الصمت، فعندئذٍ لا يستطيع الإنسان أن يساعدهم، أن يكون مفيداً لهم.

ـ عزيزي هاملتون، دعني أقل شيئاً محدداً: صحيح أن الحديث عن المشاكل يمكن أن ينسي الإنسان، وقد يخفف عنه جزئياً ومؤقتاً، لكن حين يعود إلى نفسه، فإن هذه المشاكل، خاصة الموت، تتضاعف، حتى لتغدو بالنسبة له الحقيقة الوحيدة.

رد هاملتون يريد أن يغير الموضوع:

ـ إننا، يا عمتي، نتحدث عما نعيشه، عما نعرفه، وهو شيء خاص بنا نحن، أما بالنسبة للآخرين، فإن لهم أيضاً أفكارهم وطريقتهم في النظر والتفسير.

ـ لكن مع ذلك يبقى الموت هو الموت، ولقد رأيته بنفسي عشرات مرات، مئات المرات، وكان دائماً واحداً.

ـ ولكن هناك نظرات مختلفة، بل ومتعارضة، للشيء الواحد، بما في ذلك الموت.

تنفس بعمق وتابع بنبرة مختلفة:

ـ الموت بالنسبة لنا هو نهاية كل شيء، لا أريد أن أمس معتقداتك، أو أتكلم عما تعتقدينه ما بعد الموت، لكن بالنسبة لهم فإن الحياة هي مجرد محطة، نقطة عبور من حالة إلى أخرى، وهذا ما يعطيهم، بالإضافة إلى القوة والشجاعة، القدرة على مواجهة الطبيعة والفقر والأحزان وعشرات المصائب الأخرى. إنهم، في بعض الحالات، يتلذذون بما يعانونه، تماماً كما يعاني عندنا بعض الرهبان، يحسون بمتعة نتيجة هذه المعاناة لأنهم يؤملون الكثير بعد أن يجتازوا هذه التجربة القاسية. وكما هو الحال بالنسبة لرجال البحر أو الذين خاضوا الحروب، إذ بعد أن تكتمل التجربة، بعد أن يجتازوها، يمتلؤون بالفخر والكبرياء، لأنها أصبحت تاريخاً ورصيداً معاً، وبعد ذلك يواصلون الحياة ويشعرون بمتعتها، ربما أكثر من قبل.

قالت وهي تقف إلى جانب النافذة، وتنظر إلى الشارع، وربما كانت تتذكر فنر حين رفع إليها يده مودعاً:

ـ يمكن أن نقول أي شيء، لكن، مع ذلك، أعتبر أن العدو والصديق معاً هو الموت، إنه يضع حداً، كما ينبغي الأمر، بالنسبة لأي شيء، وهو، في حالات كثيرة، يخفف الآلام، وأخيراً فإنه النقطة الأخيرة، التي تنهي الانتظار والترقب والتوقع.

في نهاية الزيارة، وبعد أن تحدثا حول أمور أخرى، في محاولة للنسيان، سألته وهو يلبس معطفه ويتهيأ لمغادرتها:

ـ لا أدري فيما إذا كان يتطلب الأمر أن أكتب إليه بضع كلمات، أم تتولى أنت نقل حزني وأسفي، لحزنه وأسفه؟

ـ سأنقل عواطفك يا عمتي، وسوف أشعره بحزننا جميعاً.

ـ أرجو أن تفعل ذلك.

في موران، وبعد أن وصل بساعات، سأل عن فنر، فقيل له إنه في البادية، وقد لا يعود قبل أسابيع. وحين سأل عنه السلطان، أجابه وهو يهز رأسه بأسى:

ـ واللي صار بغيبتك، يا الصاحب، ما تحمله جبال، بس يلزم أن البني آدم يتحمل...

وظل هاملتون صامتاً ينتظر، زفر السلطان وتابع:

ـ والبني آدم، يا الصاحب، إذا شاف مصيبة غيره تهون عليه مصيبته، والحمد لله، فنر، هالحين أحسن من قبل، شدّ وتماسك، قال لي: يا يوبه أريد القنص، قلت له توكل على الله. وتعرف هالحين الصيد واجد: إذا ضرب له حبريتين ثلاث، وإذا طارد الغزلان، وإذا استراح على عين ماي وانتظر القطا تراه ينسى، وإن شاء الله ما تمر أيام إلا ويرجع لنا فنر اللي نعرفه واللي نريده.

ولأن رحلة فنرة طالت. ولأن المشاكل التي يفترض معالجتها كثيرة، ولا تحتمل التأجيل، فقد انصرف إليها السلطان ومعه هاملتون. كما أجلت موضوعات كثيرة لأن السلطان كان يريد فنر معه في هذه الفترة وهو في

عين بنات، وحين سأل بتلر عن أولاد صاحب الجلالة، وكان يقصد فنر بالدرجة الأولى، لأنه التقى به خلال زيارته الأخيرة إلى لندن، فقد رد عليه السلطان، وهو يتطلع إلى هاملتون:

ـ وتعرف، يا الصاحب، أن البلاد إذا ما كان رجالها يحامون عنها هنا وهنا تراها تضيع، فقلنا لخزعل أنت بهذا المكان، وقلنا لفنر وأنت بهذا المكان، وتراهم هالحين مع رجالهم يدافعون ويحاربون!

بعد أن عاد فنر من رحلة الصيد، تبين لهاملتون أن الأمر تجاوز حده كثيراً، لأن فنر وهو يتحدث عن الحبارى والقطا كان يتحدث بطريقة مهووسة، وكأن ليس في الكون غير هذا الموضوع، قال للسلطان، وقد تخير وقتاً مناسباً لكي يحدثه على انفراد:

ـ . . . وأرى، في الظروف الحالية، ولمصلحة فنر بالذات، أن نسافر. . .

وحين تطلع إليه السلطان بتساؤل، أقرب إلى الاستغراب، تابع:

ـ فنر لم يكن بهذا الشكل من قبل، يا طويل العمر، وكأنه بهذه الطريقة يريد أن ينسى، أن يهرب من المشاكل الأساسية. . . هز رأسه، وكأنه يؤكد ما قاله، وتابع:

ـ إذا أخذ هذا الطريق يمكن أن يصل إلى درجة يقضي عمره كله وراء الحيوانات والطيور، ولذلك من الأفضل أن نجد له طريقاً آخر. عليه مهمات كبيرة يجب أن يقوم بها، ولا بد أن يتحمل مسؤوليتها.

بدا للسلطان كلام هاملتون حكيماً، رد بانفعال:

ـ وبدل اللي راحت نقدر نزوجه ألف، بس أريده يكون معنا، يناظرنا زين، ويقول: ها يا جماعة الخير: تريدون مساعدة تريدون عون؟ أما إذا ظل وحده فتراه راح علينا وراح منا، وما يندري بعدها شنهو اللي يصير!

رد هاملتون بانفعال:

ـ في الكثير من الحالات، يا صاحب الجلالة، الصدمات تعيد خلق الرجال وتصقلهم، شرط أن تواجه هذه الصدمات بعقل وحكمة.

ـ الحق اللي تقوله، يا محروس السلامة.

ـ وأرى، في هذه الفترة بالذات، وبعد أن تم الاتفاق مع حكومة جلالة الملك، أن تبذل الجهود من أجل انتزاع اعتراف الدول لأن اعترافها قوة للسلطنة وجزء من المعركة، ويمكن لفنر أن يلعب دوراً أساسياً في الوصول إلى هذه النتائج.

قبل أن يسافر فنر في رحلته الجديدة، تعمد السلطان أن يقيم مجموعة من الاحتفالات، لكي يعبر عن القوة والنصر، ولكي يواجه دعايات وتحريض ابن ماضي، والذي نشط كثيراً، ولم يترك أحداً إلا وأعلمه أن خريبط باع الديرة كلها، وليس العوالي وحدها، إلى الإنكليز. ولأن الظروف تحسنت، سواء بوصول المعونات المادية، أو باستمرار سقوط الأمطار، فقد كانت الاحتفالات التي أقيمت، والولائم التي رافقتها، من الفخامة والضخامة إلى درجة لم تترك أحداً إلا واضطرته لأن يتحدث عنها بشكل أو بآخر. وهذا الذي يفعله السلطان لم يكن نابعاً من الرغبة أو الكرم الذي عرف عنه فقط، إذ إن هاملتون قال له وأكد ذلك أكثر من مرة، «أن أهمية الدولة وقوتها لا تدرك ولا تعرف إلا إذا رآها الناس رأي العين، وفي مرحلتها الجديدة والمختلفة عن السابق».

وتذكر السلطان كيف اضطر خلال المرحلة الماضية لأن يتوسّل إلى الناس، ويستدين من الكثيرين، لتأمين حاجاته الضرورية. الآن يريد أن يثبت للقريب والبعيد، للصديق والعدو، أنه تجاوز المصاعب كلها، وأصبح قادراً على أن يفعل كل شيء. ويريد بشكل خاص أن يصفي ما تبقى لابن ماضي من قوة، استعداداً للالتفات إلى الداخل وترتيب وضعه تماماً.

ولكي يصل إلى هذا الهدف وجّه عناية خاصة إلى رجال الدين وشيوخ المساجد، وإلى أولئك الذين يتحدثون كثيراً عن الآخرة، لأن لهؤلاء علاقة وثيقة بالكثيرين، بمن فيهم البدو، ولكي يثبت لهم أنه قادر أن يفعل الكثير من أجلهم.

قال لفنر الذي استعاد شيئاً من نشاطه وبدأ يستعد للسفر:

ـ . . . جماعتنا وحنا نعرفهم: أكثر منهم سوالف عن الآخرة ما تلقى، وأكثر منهم حب للدنيا ما تلقى. يريدون الدنيا والآخرة جميع، لكن ظني أنهم ما يعرفون إلا الدنيا. ناظرهم شلون يأكلون، وناظر عيونهم شلون تُوِجّ إذا جا طاري الحريم. أما إذا جاءت سوالف الطعام فيتلمظون وريقهم يشط.

وضحك السلطان وهو يضيف:

ـ وعندنا، يا وليدي، دواهم: قريشات بالجيب، وتفضلوا يا جماعة الخير، وبالليل عندهم ما ملكت أيمانهم!

وهز رأسه أكثر من مرة وهو يضيف ساخراً:

ـ وإذا رادوا زود يا حلّت البركة: هذا نومي البصرة، وهذا الليمون، وبهم حيل يمصون ريقهم ويتلمظون!

بعد الكثير من الاحتفالات والولائم، في موران والعوالي والحويزة، وأكثر منها هدايا وأعطيات هنا وهناك، سافر فنر وهاملتون، وبدأ السلطان يستعد لمرحلة جديدة.

تعمد السلطان أن يكون عبدالله البخيت ضمن الوفد الذي يسافر مع فنر.

لأول مرة، منذ سنين، يجرؤ السلطان على اتخاذ قرار مثل هذا، فابن البخيت ليس شخصاً ضرورياً أو مهّماً فحسب، وإنما لا يمكن الاستغناء عنه، أو استبداله، لأن لا أحد يستطيع أن يكون، بل لا يمكن لعشرة أن يعوضوا عنه. ولأنه كذلك لا يسمح له بأن يمرض، أو أن يغيب أو أن يسافر. حتى عندما أراد الحج، لكي يثبت للذين يشككون بإيمانه وتقواه، أنه مؤمن ويؤدي الواجبات كلها، رفض السلطان. قال له وهو يضحك:

ـ حجك وحدك ما هو مقبول، يا ابن البخيت، يحتاج لك محرم!

وحين تحرك عبدالله البخيت بطريقة معينة، وباعد قليلاً ما بين ساقيه، تابع السلطان وهو يضحك:

ـ هذا كله ما يفيدك، ويلزم تنتظر إلى أن نحج جميع!

أسباب تعلق السلطان بعبدالله البخيت من الكثرة والتنوع إلى درجة أن كل ما يمكن أن يقال أو يفترض صحيح.

الذين سمعوه يحدث السلطان، ومن معه حول غزوات العرب، وما يتعلق بهذه الغزوات من التفاصيل والشعر، وما قيل فيها وعنها، يؤكدون أن ابن البخيت راوية الغزوات، وأن السلطان يحبه ويقدمه لهذا السبب.

والذين سمعوا ابن البخيت يتلو عن ظهر قلب، ما قاله أبو علي القالي في الأمالي، يقولون إن السنوات السبع التي قضاها في الأزهر، والعصي التي تلقاها على رجليه، جعلته يحفظ درسه جيداً!

والذين وافاهم الحظ لكي يكونوا من الربع، أي مجلس السلطان الخاص، وسمعوا ما يرويه ابن البخيت من النكات، يقولون إنه لم يتعلم في مصر سوى البذاءة والنكات الفاضحة. ويؤكدون أكثر من ذلك أن شيخه الأعمى، والذي علمه الصرف والنحو، علمه أكثر من ذلك دروس النساء. بل ويبالغون فيقولون أن وصل به الأمر إلى الاختلاف مع شيخه، لأن الشيخ اكتشف أن تلميذه الفتى تجاوزه كثيراً في هذا الفن، بل أكثر من ذلك راود قطر الندى خدينة الشيخ، وراودته عن نفسها، وظلت هذه المراودة، وما يستتبعها قائمة إلى أن اختلفت قطر الندى مع ابن البخيت فشكته إلى شيخه فطرده الشيخ!

أما الذين يقدرون معرفة ابن البخيت باللغة، بقواعدها، وبصرفها ونحوها، فإنهم مستعدون للشهادة أن الرجل في مصر لم يغادر الأزهر إلى سيدنا الحسين أو إلى الست زينب، وقضى السنوات الطوال في ظلال المسجد، كما هو حال العلماء الأجلاء الأفاضل، إلى أن أتقن اللغة هذا الاتقان.

رجال الدين لا ينظرون إلى عبدالله البخيت بارتياح أو مودة، ليس لأنه لا يعرف، أو لأنه زنديق أو هرطوق، وإنما لأنه يعرف أكثر مما ينبغي، ويعرف أكثر من ذلك كيف يكشف أكاذيبهم وتلفيقاتهم، حين يريد. ليس ذلك فقط، فإنه يحفظ من الآيات والأحاديث والقصص التي تقول أي بشرٍ هم: كيف يأكلون، وكيف يسرقون وكيف يراودون النساء. طبيعي لا يتحدث في هذه الموضوعات إلا في جو آمن وأمام الناس موثوقين. فقبل أن يبدأ، يتلفت مثل ثعلب، ينظر نحو البعيد أول الأمر، إلى المداخل والأبواب، فإذا اطمأن تماماً، يبتسم ثم ينظر إلى الوجوه القريبة، وغالباً نظرة متفحصة ويتساءل:

ـ ها، يا جماعة الخير، حنّا كم واحد ونعرف بعضنا زين، ومثل ما قالوا: الأرض مخبورة والخطئ مشبورة، فإذا أحد غيرنا يسمع الكلام لا بالله ما عندنا شيء نقوله، أما إذا كان بينّا...

ويتبارى الذين يسمعون في التأكيد أن ما سيقوله لن يبرح المكان. عند

ذاك يبدأ، وهو متأكد أن الذي يقال سينقل؛ وقبل نهاية السهرة، وبعد أن يتعب الرجال من الضحك، يقول:

ـ اللسان ما به عظم، فاستروا، يا جماعة الخير لأنه عليه الصلاة والسلام وصّى بالستر.

وتنتقل إلى رجال الدين أغلب القصص التي تروى، لكن بعد أن تموه أو تحرف، في محاولة للتستر على عبدالله البخيت. ولأن أحداً لا يستطيع أن يروي كما يروي هو، إذ يتعمد الإِطالة والتداخل في أغلب الأحيان، فإنه يلجأ إلى إدخال أسماء من الصعب حفظها، أو يطعمها بأبيات من الشعر، فكان ينفي علاقته بالرواية التي تنقل، المنسوبة إليه، فإذا أصروا يقول بما يشبه الغضب:

ـ . . . وإذا تريدون خلنا نذبحها على قبلة. . .

يتطلعون إليه بعيون متسائلة، يتابع دون أن يفارقه الغضب:

ـ أنا أعرف مثل هذه السالفة. . . بس غير سالفتكم، وإذا تريدون. . أقولها وأنتم أحكموا!

في بعض الأحيان يوافقون على أن يسمعوا، وأغلب الأحيان لا يريدون، لأنهم يخافون من قصة جديدة تضاف إلى ما يُروى!

الذين يعرفون ابن البخيت في حالات خاصة، حميمة، يقولون إن أبرز مزاياه صوته. فحين يغني لا أحد يتمالك نفسه أو يبقى عاقلاً. وأكد واحد من خدم السلطان، وقد قال هذا الكلام في لحظة انفعال، أن «ابن البخيت إذا غنى تسقط الحوامل وتحمل العواقر ويرمي السلطان عقاله». ويبدو أن هذا الخادم سمع جزءاً من هذا التعليق في إحدى السهرات الخاصة، ورأى مرة السلطان مأخوذاً منفعلاً، وربما رمى عقاله أيضاً!

الذين لا يحبون الغناء، ولا يطربون إلا لتجويد القرآن، يحبون قراءة ابن البخيت، رغم اللكنة المصرية والإِطالة، ويبررون محبتهم «أن مخارج الحروف عند ابن البخيت واضحة وليس كما عند المصريين بغنُّة وإدغام».

أما لماذا سافر عبدالله البخيت إلى مصر، وكم من السنين قضى هناك، ولماذا رجع، فحول ذلك من القصص الكثير الكثير.

في كل مرة يسأله السلطان لماذا سافر إلى مصر يرد بضيق:

ـ دائماً لقمة اليتيم كبيرة يا طويل العمر!

وحين يلح السلطان بالسؤال يلتفت إلى الآخرين ويقول:

ـ ما ينراد لها سؤال. يا جماعة الخير، قال عليه الصلاة والسلام: أطلبوا العلم ولو في الصين، فإذا راح العبد الفقير لمصر كبيرة عليه؟

فإذا لم تعجب الإِجابة السلطان، وظهر على وجهه عدم التصديق، يتابع وهو يتطلع إليه من جديد:

ـ الحقيقة، يا طويل العمر، وهذا الكلام بينّا، رحت بنيّة أرجع مع رعية غنم من طريق قنطرة شرق وغزة. رحت متسبب، لكن اللي يصل مصر ما هو مثل اللي يطلع منها. سنة بعد سنة أسوّف بالرجعة، وكل يوم أقول: باكر أو اللي عقبه، ومرت السنين، والله، سبحانه وتعالى، سادّها بوجهي. والجماعة هناك يقولون: أدرس، تعلم صنعة يا ابن الحلال تأمن الفقر، لكن ما سمعت كلامهم، ومثل ما تشوف عيونكم: لا رجعت بغنم ولا رجعت بصنعة، رجعت أهفي: ثوبي وعباتي...

ويضحك، وحين يضحك تتغير ملامحه، يصبح كتلة من المرح والنغم، فإذا هدأ أضاف:

ـ وإذا كانت اليد قصيرة وما بها حيلة، قلنا نشوف غير اليد، دوّرنا هنا... هنا، ما طلع إلا...

يتوقف فجأة، يتلفت أكثر من مرة، متظاهراً، بالتردد والخوف، ثم يضيف بنبرة جديدة:

ـ أي نعم ما طلع معنا إلا هاللسان، وهذا اللي رجعنا به.

وظلت الروايات حول سفره كثيرة ومتناقضة، فالذين يحبونه يميلون إلى اعتبار سفره إلى مصر خيراً وبركة «لإنه تعلم العلوم كلها، واللي ما يصدق، هذا الميدان يا حديدان». أمّا الذين يكرهونه أو يخافون منه أو من لسانه، فإنهم يؤكدون أن مصر علمته البذاءة والسفاهة وسلاطة اللسان وشرب الحشيش، ويستشهدون على ذلك بأنه ينام إلى الضحى، وأن

عينيه، خاصة حين يفيق، مثل عرف الديك، كما أنه لم يتزوج رغم تقدمه في العمر!

أما من أي القبائل، أو أي الأماكن عبدالله البخيت، فإن موران التي لا تتسامح بأنسابها، فقد تسامحت معه، لأنه حين سئل أول مرة، أو بأكثر دقة، في بداية علاقته بحاشية السلطان، أجاب: تميمي. وهذا الجواب، رغم وضوحه، يعني أحد أمرين: أنه فعلاً من تميم، وهذا مقبول؛ أو كما يقول البدو عادة: من ضيع نسبه قال: أنا تميمي؛ وهكذا ووفق على أنه من تميم، ولم يتقصَّ أحد نسبه، كما أنه لم يكن ميالاً لأن يتحدث في الأمر. وانتهى إلى أنه من هناك.

العجرمي الذي يناطح الغمام حين لا يجد أحداً يناطحه، لما سمع ما يقوله عبدالله البخيت أو ما ينقل عنه في أمور الدين، سأل باستنكار: «قلتم لي ابن البخيت؟ وقلتم إنه تميمي؟ شوفوا.. هذي مورانا، وانقلوا هذا الكلام عن لساني: إذا راح للهند أو للسند، إذا راح لمصر أو ردّ من مصر، هذا دين محمد، ما أحد يقدر يقول فلاني وتركاني، وحنا أهل الدين وأدرى بأموره، مثل ما هم أهل مكة أدرى بشعابها فلا يتدخل ولا يقترب.

وابن البخيت، قال وكذلك السلطان. «العجرمي أب للجميع وأبد لا يُفتى ومالك في المدينة» فلما سمع العجرمي ما قاله ابن البخيت وما نقل عن السلطان، قال وهو يبتسم: «ومثل ما قلت لكم، يا جماعة الخير، الناس اللي يفهمون، المتعلمين، اللي راحوا وشافوا، أبد ما يتعدون». واعتبرت هذه الجوانب مصالحة ورضا. وقد أرسل السلطان للعجرمي هدايا عديدة للتكريم، أما عبدالله البخيت فقد زاره ثلاث مرات خلال أسبوعين، وخلال الزيارات الثلاث ظل مستمعاً وسائلاً أكثر من أي شيء آخر. وهذا أدى إلى علاقة ودية بين الاثنين، خلافاً لعلاقته مع رجال الدين الآخرين.

هذا كله بعض عبدالله البخيت، ولذلك أصبح يعرفه القريب والبعيد، وتأكدت المعرفة وتكرست، بعد القصة التي حصلت في حملة وادي

الفيض، فأثناء معركة الحويزة، وحين اكتشف السلطان محاولة لاغتياله، بدّل حرسه الخاص، وشدد عليهم في التدقيق والانتباه. وصدف في اليوم الأول أن جاء ابن البخيت يريد الدخول على السلطان فمنعه الحرس. قال لهم بصوت أبوي:

ـ يا أولاد الحلال، أنا ابن البخيت، ويسموني أبو بادي، ويلزم تعرفوني، إذا موكلكم واحد منكم، أما اذا ما عرفتم ابن البخيت، أبو بادي، فلا كنتم ولا كان سلطانكم!

وحين احمرت عيونهم ونحّوه بقوة. وقالوا له:

ـ دونك مهيوب شوفه واطلب الأمر منه.

رد وهو يضحك:

ـ أنا أطلب السماح من مهيوب؟ مجانين أنتم؟ ضحك وتغيرت نبرة الصوت:

ـ يا أولاد الحلال، أخير لكم تعرفون عمكم، أنا عبدالله البخيت، وخاف، إذا ما عرفتوني، باكر تندمون!

صرخ أصغر الحرس وأكثرهم حركة وعصبية:

ـ الزم حدك ورح شف مهيوب، وخله يعطيك كلمة السر أو وريقة عليها ختمه، وإلا سنعناك إذا طلبت بهذا المكان!

رد عبدالله البخيت بهدوء وبغيظ معاً:

ـ اسمع يا وليدي، أنا شيبة مثل أبوك، أنت جديد، وطويل العمر يريد ناس يحمونه ما يريد ناس يتحامون به، فقل لمهيوب: عمي عبدالله، أبو بادي، وصل.

قال كبير الحرس:

ـ الظاهر أن جلدك يحكك يا ولد، والأحسن أن تتركنا وإلا...

صرخ عبدالله البخيت:

ـ يا أبو منصور، يا غيرة الدنيا والدين إذا ما ردتنا فأرض الله واسعة وهذا حدنا وياك.

تناقل كل الذين كانوا، أو وصلوا على سماع الصوت، أن السلطان ذاته خرج إليه، وحين عرف ما حصل بينه وبين الحرس قال كلمة ترددت كثيراً فيما بعد:

ـ اللي ما يعرف ابن البخيت ما يعرف السلطان، وأريد من كل واحد منكم يعرفه مثل ما يعرف وجهه، وأبو بادي ما يقف بينه وبيني حارس أو بواب.

قال مهيوب في اليوم التالي:

ـ . . . وهذا الصغير، اللي بعده يرضع حليب أمه، واللي ما عرف شيخنا عبدالله البخيت، قلنا له: اتوكل على الله يا ولد، اسرح بالغنم أو دوّر لك ديرة ثانية، لأنا نريد ناس يعرفون العدو من الصديق.

ومن الهوايات الأخرى التي يمارسها عبدالله البخيت خفية، ولا يعرفها إلا أقرب الأصدقاء، وأكثرهم به التصاقاً: الفراسة وقصّ الأثر. ولأنه لا يزال يتعلم، وغير واثق من فراسته تماماً، خاصة بالقادة العسكريين وشيوخ القبائل الذين يحيطون بالسلطان، فإنه ينفي أية معرفة بالفراسة، بل ويسخر ممن يفترض فيه مثل هذه المعرفة!

أما قص الأثر فقد عرف عنه لأنه اكتشف ذات يوم بطل قصة حدثت في قصر الروض، وخيّرت القصر كله. فأثناء حملة وادي الفيض، ولأن السلطان غاب سنة أو تزيد في هذه الحملة، فقد وجد، عندما عاد، أن واحدة من أحب محظياته إلى نفسه، يمامة، حاملاً في شهرها الخامس. غضب السلطان وهدد وتوعد، ولما حاول أن يعرف من يكون أب الجنين، أقسمت يمامة وبكت أنها لم تلتق برجل. ورغم المحاولات التي بذلت معها لكي تعترف، فأقصى ما قالته وما تتذكره أن عفريتاً اسود دخل فيها، وكانت نائمة. إذ فجأة وجدت بطنها تمتلئ، وعندما هبت خائفة من نومها، أحست بثعبان أسود يخرج من بين رجليها وينساب. تطلع إليها لحظة واحدة، وضحك، ثم ترك الغرفة. هكذا روت القصة لقابلة القصر، وهكذا روتها القابلة. أما حين روتها بنفسها للسلطان، فقد روتها بتفاصيل أكثر، قالت، وكان ابن البخيت يسمع:

ـ كنت نايمة، يا سيدي. كنت بسابع نومة، ما شفت وما حسيت إلا وبطني امتلأ، وأن شيء دخل، وظل يزحف حتى وصل من هنا إلى هنا، وأشارت إلى ما بين ساقيها وحتى الرقبة. خفت أصرخ أو أتحرك، ظليت بمكاني. وبعد سويعة حسيت أن هذا الشيء يريد يطلع، قلت لروحي: خليه يا بنت يطلع، تركته يطلع، ما تحركت إلى أن طلع كله، شوي وعلقت النور.. وأشوف ذاك العربيد الأسود عند الباب، الله لا يراويك مثله يا سيدي، وعند ذاك عرفت أن العفريت ركبني.

ظلت يمامة مصرة على هذه الرواية، لا تغير فيها إلا أجزاء صغيرة.

قال عبدالله البخيت للسلطان، وغمز بعينه:

ـ أي نعم، يا طويل العمر، العفاريت في الظلمة تسرح تمرح إذا ما انقرأ في البيت سورة ياسين.

بعد بضعة أيام اكتشف عبدالله البخيت العفريت: كان جدوع التكروني، سياف السلطان.

أما كيف عرف ابن البخيت فهناك ثلاث روايات على الأقل:

الأولى تقول إنه جلب ثعباناً وطلب من يمامة أن تريه كيف دخل وكيف خرج؛ والثانية تقول إن لولوة، خادمة الأميرة وطفة، وكانت صديقة يمامة، لكنهما اختصمتا، أبلغت ابن البخيت أو السلطان. أما الرواية الأخيرة فتقول، إن عبدالله البخيت سكت على الموضوع أسبوعاً كاملاً، إلى أن نسي أو كاد. وتخيّر ليلة ليس فيها قمر، ورش كمية من الطحين من باب غرفة يمامة حتى مهاجع الحرس، ويبالغ بعض الخدم فيقول إنه رش شوالاً كاملاً، وهذا ما هداه إلى جدوع التكروني، لأن الآثار بين غرفة يمامة والمكان الذي خرج منه جدوع كانت واضحة!

خلال اليومين اللاحقين، وإلى أن اختير سياف جديد، واستكمل التحقيق مع يمامة، قبل قتلها وجدوع، انتشرت إشاعة بين الخدم، وقد أخافتهم كثيراً، أن عبدالله البخيت مرّي وليس تميمياً، لأن لا أحد يقصّ الأثر بهذه القدرة أو الكفاءة إلا بنو مُرّة، وكل التمويه الذي لجأ إليه كان باتفاق وتدبير بينه وبين السلطان، ليعرف ما يدور في القصر! ولذلك

خرجت في هذه الفترة مسروقات كثيرة، كان قد مضى عليها شهور. وقد رميت في أماكن واضحة، وأثارت الاستغراب والتساؤل!

بعد هذه الحادثة بعدة شهور سرت شائعة، لم يعرف مصدرها ومن أشاعها، وكان البخيت والسلطان في رحلة قنص، تقول إن ابن البخيت كان في مصر نشالاً معروفاً، وقد قضى في السجن هناك خمس سنين أو ستاً، وبعد أن انتهى سجنه طرد ومنع من العودة، وتفصّل الإشاعة، فتقول، إن النشالين من الذكاء والبراعة، بحيث يختارون ضحاياهم من المغفلين والغرباء بعناية واتقان. وهذا لا يكون إلا نتيجة التعليم والتدريب، تماماً مثل العلوم الأخرى! ويختمون القصة: أن ابن البخيت قضى في مصر سبع سنين، تعلم خلال الشهور الأولى النشل، ومارسه في الشهور التالية، إلى أن قبض عليه وسجن، وبعد انتهاء مدة سجنه طردوه فجاء إلى موران وأصبح من خدم السلطان!

القصص التي تروى عن عبدالله البخيت، غريبة ومضحكة، وهي من الكثرة والتناقض إلى درجة أن شيخ الصاغة قال يوماً:

ـ إذا كتبت مذكراتي، ذات يوم، وهذا شيء غير مستبعد، فأخشى أن يحتل عبدالله البخيت في هذه المذكرات مساحة تفوق ما يحتله السلطان!

وبعد فترة صمت أضاف:

ـ . . . وهؤلاء البدو، إذا فلت منهم واحد، فمن الصعب أن يلحق به أحد!

أما عنان بسيوني، والذي يعتبر أن له جذوراً بدوية، فيجد في عبدالله البخيت لقاء بين الذكاء الفطري، المتمثل في صفوة البدو، وبين القدرة على التعلم واكتساب الخبرات، وإمكانية تجاوز أبناء المدن، المترهلين، الكسالى، والذين لا يرون القمر إلا حين يصبح بدراً، والذين لا يميزون بين الحية والحبل!.

تلك العلاقة الخاصة والحميمة التي نشأت بين ابن البخيت وبسيوني، تشبه لقاء اثنين في مكان غريب، أو بين ناس غرباء، ولذلك فإن ما يتولد من هذا اللقاء يكتسب خصوصية ووداً يفوق ما ينشأ في وسط آخر.

قال عنان بسيوني ذات ليلة للسلطان:

ـ لا أريد أن أجاملك، يا صاحب الجلالة، ولا أريد أن امتدح الرجال الذين تعتمد عليهم، ان لهم من الكفاءة، وفيهم من الثقة، ما يجعل الإنسان فخوراً أنه واحد منهم.

والسلطان الذي بدا عليه السرور لسماع هذا الكلام، قال وخرج الكلام عميقاً من صدره:

ـ وقل على نياتكم ترزقون!

رد عنان بمرح:

ـ لقد عرفت في حياتي أشخاصاً كثيرين، أما مثل ابن البخيت فلا يوجد إلا نادراً، إذ بالإِضافة إلى المعرفة، فإن يفيض ذكاء وإنسانية...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ونحن المصريين، إذا كنا نفاخر بالدم الخفيف، فقد تفوق علينا ابن البخيت!

أما لماذا اتخذ السلطان هذا القرار الصعب، بأن يستغني عن عبدالله البخيت، وأن يبعثه بهذه الرحلة، والتي قد تطول، فكان لديه هدفان، الأول، أن يسرّي عن فنر، أن يجعله يعود إلى ما كان عليه، خاصة وأن العلاقة التي تربط الإِثنين يغلب عليها الود، ويمكن لابن البخيت أن يؤثر عليه ويعيده مثلما كان، أو كما قال بنفسه للسلطان:

ـ ... وتستغرب، يا طويل العمر، إذا قلت لك: حتى الحجر يتحرك ويحس، لما يكون مع ابن البخيت!

وحين ابتسم السلطان ونظر إليه، وبعد أن أمال رأسه ونظر بشكل جانبي، ليشعره بالمبالغة، تابع. وكأنه لم يسمع:

ـ ويلزم تسأل الخويا، قبل كم شهر، حين كنا بعين بنات: أنا، بإذني سمعت، وكلهم قالوا، إن الحجر اهتز، والخيل هاجت، والنبع ارتفع لما صحت: أوف.

ولما ضحك السلطان أضاف ابن البخيت:

ـ وما هو بس كذا يا طويل العمر، أنا بزماني سمّعت الأصقى، وحكّيت الموتى، وبمصر سويت اللي ما يتسوى!

قطب السلطان جبينه وقال بجد مصطنع:

ـ وشنهو عندك بعد يا عيسى ابن مريم ويا موسى ابن...

وضحك بقهقهة، وبعد قليل:

ـ صحيح يا ابن بخيت: شنهو اسم أبو موسى؟

ودارت عينا عبدالله البخيت مثل هرّ محاصر. وتساءل:

ـ صحيح.. موسى ابن من؟

وبعد أن ضحك وضحك السلطان، قال عبدالله البخيت بصوت متآمر:

ـ أحسن شيء، يا طويل العمر، أن الواحد ما يقترب من الأنبياء، لأن هذولي يشوّرون. ولا يحتملون كلمة زايدة أو كلمة ناقصة!

ـ القول قولك، يا أبو بادي!

أما السبب الثاني الذي دعا السلطان لأن يكون عبدالله البخيت مع فنر، فهو عمير، إذ يريده أن يخرج عمير من رأس فنر نهائياً.

قال له يوصيه:

ـ هذا ابني، يا عبدالله، أريده يكون سلطان، ما أريده ينتهي: قال الله وقال رسوله. يلزم يعرف شنهو اللي قاله الله والرسول لكن عنده ألف قضية وقضية غير هذي.

وتنفس وصمت، وبعد فترة:

ـ ترى عمير وأمثاله يخرّبون ديرة، ويحوسون عشيرة، وحجتهم: قال الله وقال رسوله، وحنا بهذا الزمان نعرف دربنا، ما نريد عمير وأمثاله يحكمونا، ولا نريدهم يسوونا مثل الكدش: البراقع حول عيونا ويقولون: امشوا.

ولم يكن البخيت بحاجة إلى كل هذا التحريض. كان يعرف عمير وأمثاله، وكان يريد جواً مناسباً ليقول رأيه فيه. والسلطان الذي يعرف رأي ابن البخيت، قال له وهو يبتسم:

- . . . بس تدير بالك: أبد لا تجيب طاري عمير. احك عليهم كلهم، بس لا تذكره، لأنك تعرف: ثلثين الولد خاله، خاف يجفل وتنقلب عليك وعلينا.

- لا توصِ حريص، يا طويل العمر. خلي الأمور عليّ ونام وأنت مرتاح، أو مثل ما قال سحيم:

توسدني كفاً وتثني بمعصم علي وتحوي رجلها من ورائيا
واشهد عند الله أن قد رأيتها وعشرين منها أصبعاً من ورائيا

ضحك السلطان بصخب، وبعد أن هدأ سأل، وبرقت عيناه:

- يا وذ، يا أبو بادي، أشوف ما عندك إلا «ورائيا»، خاف هذي وراها شي؟

رد عبدالله بنغم:

فيا ليتني والعامرية نلتقي نرود لأهلينا الرياض الخواليا

قال السلطان وهو يمسح لحيته ويفكر:

- برجعتك، من بد ولازم، نزوجك، رضيت ما رضيت ما هو بكيفك، يلزم نزوجك، حتى تعرف الحياة وتخلص من حسراتك وأوجاعك.

رد ابن البخيت، وكأنه يخاطب نفسه:

- يعدن مريضاً هن هيجن داءه ألا إنما بعض العوائد دائيا

وبعد أيام قليلة سافر الوفد، لكي يتصل بالدول وينتزع منها اعترافاً بدولة جديدة قامت!

وانشغل قصر الروض، أكثر من فترات سابقة، باستقبال الوفود وبأخبار المناطق، وأيضاً بمشاكله الداخلية.

أوفد السلطان ثلاثة من أكبر أبنائه مع عدد من الرجال الذين يعتمد عليهم، إلى رؤساء العشائر، خاصة في مناطق الحدود، ومعهم الهدايا والدعوات لزيارة موران. ولم تمض أسابيع قليلة على هذه الدعوات حتى تقاطر الشيوخ ومعهم الأقرباء والمرافقون. وعاشت موران في جو من الاحتفال والحركة لم تشهده منذ حملة وادي الفيض. فالعرضات التي جرت، والسباقات التي أقيمت، رافقها الكثير من النشاط والحركة في الأسواق، إذ صرفت الأموال التي وزعت، أو معظمها، في شراء الحاجات، مما جعل الكثيرين يشعرون أن مصاعب السنين السابقة قد مضت وانقضت، بل وأخذت تصبح ذكرى من ذكريات الماضي.

وفي هذه الزيارات والدعوات، وقد حضرها الكثيرون، بدا السلطان في أحسن حالاته، إذ رغم غياب ابن البخيت، والفراغ الذي تركه، فقد تمت الاستعانة بالعديدين لإضفاء جو من المرح والود على الدعوات، كما أوعز السلطان لرجاله أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون من أجل راحة الضيوف وتلبية حاجاتهم وطلباتهم. أما أسطبل الخيول الذي كان يعتبره السلطان موازياً للجناح الغربي من قصره، ولا يقل عنه أهمية وسرية، حيث لا يصله إلا أقرب الأصدقاء، فقد فتحه أيضاً. صحيح أن ذلك تم على مضض وبالتدريج، لكنه فتح. وقد حمل ذلك ابن حنيحن، مسؤول الإسطبل، على تهريب عدد من الخيول المهمة والنادرة. أما مهيوب، فحين علم بالأمر، علق بنوع من الغضب أمام عدد من الحرس، ولم يأبه بأن يصل كلامه للسلطان:

ـ جنون يا جماعة. الخيول اللي جمعناها بدم قلوبنا، من هنا وهنا، ولنا سنين وسنين نسوس بها ونربي، بين يوم والثاني صارت لها جناحات وطارت!

أما عثمان العليان الذي تفاءل كثيراً واعتبر أن المشاكل المالية قد تراجعت أو زالت، نتيجة توالي الأمطار، والمعونات التي وصلت، إضافة إلى التدابير التي اتخذها في جمع الأموال، فقد أحس في مرحلة معينة أن الأمور إذا تركت إلى مزاج السلطان وأوامره، فلا بد أن تخلق المشاكل من جديد، وقد تصبح أكثر صعوبة، لأن «التجار شغلتهم» الوحيدة هي الحساب، حساب الربح والخسارة. صحيح أنهم يعطون، بعض الأيام، بسبب الخوف أو الطمع، لكن يريدون مقابل قيّاتهم، تماماً مثل اللي يطشّ الحب يريد بدل الكيس عشرة. أما إذا انقضت السنة، وراح الحب بالقاع، أو أكلته الطيور فمن كل بد ولازم إنهم يصيحون ويلطمون وتلعلع أصواتهم: صرنا يا جماعة الخير نأكل من رأس مالنا. خسرنا الأول والتالي، وكل شيء راح، وباكر تشوفونا نشحد!».

قال عثمان للسلطان ذات ليلة بعد أن سافر شيوخ الحويزة:

ـ . . . وتعرف، يا طويل العمر، هذول البدو قاتلهم الطمع، وابد ما يشبعون. أما إذا تعودوا عادة فالله يستر، ما نخلص من حلوقهم ابد. قبل ما يحول الحول نلقاهم بوجوهنا، وهات أكل وقهوة وسوالف إلى أن نعطيهم من جديد، وإذا ما عطيناهم، ويعتبرون أنه صار لهم حق، نصير مثل اللي قاتلين أهلهم. . .

وكاد يسترسل، لكن السلطان ضحك وقال:

ـ هالحين حنا بحاجتهم يا عثمان، وتشوف عينك: ابن ماضي وغير ابن ماضي، كل واحد يلوح ويدز عطاياه ويطرّش خوياه، ويقول لهم: تعالوا، خذوا اللي تريدونه، بس تصيرون من جماعتنا.

وبعد قليل:

ـ ويلزم بهذي الأيام نحرص عليهم، لأنهم صاروا ألعن من

الحصينيات، يديرون عيونهم هنا. . وهنا، ويسمعون، وينشدون، فإذا ما كنا معهم خد وعين، إذا ما عطيناهم وشيمناهم، ترى يصير فينا مثل ما صار باللي قبلنا: قلوبهم معنا وسيوفهم مع غيرنا.

تنهد السلطان وتابع:

- والخيل، يا عثمان، إذا ما أنشد عليها، تبغّل، وخويك، أبو منصور، ما يريد، بهذي الأيام، خيول، يريد حدود وطاعة ويريد الناس تصير ويّانا.

رد عثمان بسرعة:

- أنا معك يا طويل العمر، بس يلزم تعرف: العين بصيرة واليد قصيرة، وأخاف، إذا كان بيدنا شيء اليوم نصبّح ما نلقى.

- وكّل الله يا رجال.

- توكلت عليه.

وضحك عثمان وبعد قليل أضاف بمرح:

- بس أريد غيري يتوكل عليه!

لقد أصبح السلطان متأكداً أن الشوط يكاد يقترب من نهايته، إد بعد المناقشات الطويلة، والتي تخللتها التحديات ومحاولات إثبات القوة، مع هاملتون أولاً، ثم مع بتلر، لا بد الآن من بذل كل الجهود من أجل تحسين الشروط والتمدد دون إعلان أو موافقة، ومحاولة فرض أمر واقع جديد، مع عدم الوصول إلى المجابهة أو الاختلاف.

وإذا كانت لابن ماضي بقية من رمق في العوالي، ويمكن أن يبعث بعدد من المتطوعين على ظهور المراكب، أو أن يحرض بعض الأئمة وشيوخ القبائل في الداخل، فقد أصبح بعد توقيع المعاهدة مثل قط محاصر، يضرب هنا وهناك، ليس من أجل أن يفرض الشروط، أو أن يحصل على المكاسب، وإنما لكي يهرب، قبل أن تطبق عليه القبضة الأخيرة وتخنقه.

وابن العليان الذين يفهم دوافع السلطان، والضرورات التي تملي اتخاذ

مثل هذه المواقف، لم يكن قادراً على تلبية كل مطالبه أو إقناعه. قال له في نهاية المناقشة:

ـ يلزم على قدر بساطنا نمد رجلينا، يا طويل العمر.

ـ اسمع مني زين، يا عثمان: أنت سافرت وشفت بس يلزم تعرف: بهذي الأيام البساط مثل السيل: يمد ويجزر، فإذا جزرنا بمد أخذنا، وإذا مدينا بجزره ترانا ما نلقي شي، وأنت أدرى!

بدت الكلمات والفكرة التي قالها السلطان ذات دلالة، لكن عثمان لا يعرف كيف يترجمها. قال بعد فترة صمت طويلة:

ـ اللي تقوله، يا طويل العمر، صحيح، بس هذه الدنيا غدارة، وخاف يصير بينا مثل ما يصير بين الصياد والسمكة: يمدّون لنا حتى يصيدونا!

ـ وكل الله يا رجّال، وكل مشكلة ولها حلال!

وبنفس القدر من الاهتمام الذي أولاه السلطان لشيوخ الحويزة، اهتم بالعجرمي «وأهل الآخرة» كما يسميهم.

كان يود لو أن ابن البخيت إلى جانبه في هذه الفترة، خاصة أثناء لقاءاته مع العجرمي، فهو قادر على أن يلعب دوراً، وليس دوراً واحداً، مع الشيخ، ومع أمثاله. إذ يسعف ذاكرته ببعض الأحاديث، ويقدم له الأدلة والبراهين التي تؤيد وجهة نظره، وقادر أيضاً أن يضحكه، وأن يثير عجبه، وبعض الأحيان يطرح عليه أسئلة، تبدو بريئة، لكنها مقلقة، من شأن هذا كله أن يجعل العجرمي يبحث عن البخيت ابن البخيت، كما كان يسميه، تحبباً.

رغم هذا الفقد الذي أحسه السلطان لغياب ابن البخيت فإنه لم يندم، لأن الشيوخ الآخرين يتطيرون من «هامان» كما يسمونه، إذ يقعد لهم بالمرصاد ويأكل ما يأفكون! ولذلك فهم لا يريدون أن يكونوا أعداء له، ولا يمكن، أيضاً، أن يكونوا أصدقاء. والحل أن لا تشوفه عيونّا ولا تسمعه أذانّا، وبعدها كل واحد ذنبه على جنبه».

قال السلطان لهؤلاء الشيوخ ذات ليلة:

ـ . . . وتعرفون، يا أولاد الحلال، أن الجهاد ما هو بالسيف وحده. الجهاد باللسان، بالفعل، ويجوز بالقلب.

توقف لحظة، تنفس بعمق ثم تابع:

ـ السيف إذا كان وحده، وإذا كان هدفه الغنايم ما هو بسيف إيمان، وما يختلف عن سيوف غيرنا من الحكام.

وعاد إلى النبرة الأولى:

ـ وأنتم، أهل العلم والدين، تفهمون وتعرفون، وهمّ بعد تقدّرون، ولهذا السبب، الجهاد في النفس، مع الأهل، أهم من الجهاد ضد الأعداء.

اكتفى السلطان بهذا القدر من الكلام، وطلب من مهيوب في اليوم التالي، أن يرسل للحاضرين هدايا تتناسب مع أهميتهم. فخرجت من القصر أعداد كبيرة من أكياس الرز والسكر، ومعها صفائح السمن، إضافة إلى الخراف، وبعض الخيول. وقد وزعت بعناية، وشارك في الإشراف على التوزيع، بناء لتوجيهات السلطان: رأفت شيخ الصاغة، وعثمان العليان. وكتب رأفت مع كل هدية رسالة رقيقة، وقد ختمها السلطان بخاتمه. وبعد أن اطلع عثمان العليان على اللائحة الأخيرة للتوزيعات، كتب «موافق». ومهرها بتوقيعه! فلما وصلت هذه الهدايا إلى رجال الدين وأئمة المساجد، وتأكدوا من قيمتها، وقرأوا الرسائل المرفقة بها، كانوا في أحسن حالات الرضا والسرور!

كل هذه الأمور كانت تجري، والجناح الغربي من القصر في حالة أقرب إلى الصخب والاضطراب. إذ رغم هموم السلطان وانشغالاته. فقد تزايدت المطالبة من قبل الأمهات والأبناء معاً، أن تجري احتفالات تماثل تلك التي جرت لفنر، خاصة بعد أن اعتبر عدد من الأولاد أنفهسم، قد بلغوا مبلغ الرجال، ومما يؤكد ذلك أن السلطان نفسه أوفدهم إلى شيوخ القبائل، وشاركوا في الدعوات ورقصوا العرضة مع الكبار، وترافق ذلك الإلحاح مع حالة الرخاء التي عمت القصور، فبدا أن إمكانية من هذا النوع

سهلة، وربما مرغوبة، لأن الوضع الجديد أصبح مهيأً ومساعداً، فالأسباب للمطالبة والإلحاح قائمة.

ومما دفع فضة بشكل خاص لأن تطالب ولأن تلحّ: غياب خزعل في الحويزة، وقد طال غيابه، وترافق مع إشاعات كثيرة؛ ثم سفر فنر بعد ذلك.

وهي حين ألحت على ضرورة أن يقيم السلطان الاحتفال. هيأت، بالاتفاق مع ابن حنيحن مسؤول السواس في القصر، عدداً من الخيول بعدد أبنائها الذكور، ورغم أنها تعرف استحالة الموافقة على ما تريد، فقد كانت تؤمل أن يوافق السلطان على الاحتفال باثنين أو ثلاثة من أبنائها، رغم أن راكان كان الوحيد من هؤلاء الأبناء الذي أوفده السلطان لدعوة عدد من الشيوخ.

ومثلما حرصت وجاهدت فضة، وإن كانت بحذر وسرية، فإن كل زوجة من زوجات السلطان بذلت جهداً من أجل الوصول إلى هدف مماثل، أو حاولت أن تمنع تكريماً من هذا النوع. وإذا كانت تقاليد القصر، وحزم السلطان، قد حالا دون أن تتقابل النسوة أو أن يتخاصمن، فإن الخدم، رجالاً ونساءً، قاموا بذلك نيابة عنهن!.

المعارك التي حدثت خلال هذه الفترة، في القسم الغربي من القصر، من الكثرة والتنوع إلى درجة أنها لم تترك أحداً إلا ووصلت إليه، ولم يبق أحد إلا وصار طرفاً فيها بشكل أو آخر. حتى السلطان الذي وصلت إليه قال كلمة ظلت تتردد في القصر. فبعد أن جاءه مهيوب يبلغه أن ابن العريفان وابن الفرحان يطلبان مقابلته لكي يلتمسا إعفاءهما من الاستمرار في العمل، لأنهما فقدا إمكانية السيطرة، نتيجة المكائد والخصومات، قال السلطان:

ـ الله أكبر.. الله أكبر، إنما أولادكم وأموالكم أعداء لكم...

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ قدرنا على البعيدين والغُرب، وقدرنا على العدى، وأقرب الناس ما

قدرنا عليهم؟ وما ندري هم معانا أو علينا؟ وإذا هالحين بهذا الشكل يلزم للبني آدم يتوقى ويفتّح عينيه زين!

ولم يتأخر السلطان في إيقاع عقوبات صارمة بعدد كبير من الخدم، إذ قيل إن الجلد بدأ من الفجر واستمر إلى ما بعد منتصف النهار، كما أبعد عدداً من الخصيان، رغم الاحتجاج الذي نقل إليه. أما بالنسبة للنساء فقد أرسل إليهن مهيوب مع تهديدات لا تنفك تتزايد وتعنف. وقد أدى ذلك إلى هدوء القصر بعد ثورة السلطان. وتراجع العريفان وناهي عن الاستقالة بعد أن تم إرضاؤهما، ووعد السلطان أن يكون موجوداً، وإن يتدخل ليضع حداً لهذه الفوضى. وبدا أن هذا الدرس قد علّم الجميع. لكن أياً من النساء لم تتوقف ولم تسلّم. صحيح أن واحدة بدأت قبل الأخرى، أو أن واحدة تأخرت، خوفاً أو انتظاراً، لكن لم تكد عدة أسابيع تنقضي حتى هاج القصر من جديد.

قال طالع العريفان لناهي الذي رفض أن يعود للعمل مرة أخرى:

ـ اسمع يا ناهي. . .

صمت، حتى كاد ينسى أنه قال كلمة لينبهه، وبعد فترة طويلة بدأ يحدث نفسه:

ـ صحيح أنه سلطان، يأمر وينهى، يقول يصير وما يصير، لكن كل هذا بس علينا. أما الحريمات، فكل واحدة منهن الله أكبر: إذا ما جاء معها بالدادا يجي بالمرحبا، وإذا ما فاد بالإِثنين، عندها. . .

وضحك بصخب، وبعد أن هدأ سأل:

ـ أقول أو ما أقول يا ناهي؟

ـ يلزم تقول يا أبو جازي، فرّج وقول اللي بقلبك!

ـ أي نعم، كل واحدة عندها سلاحها: الشركسية تبرق، والعجمية تغنج، والسودا توج، والعُربية تعج، والكرجية تناظر وتقول: وين تروح من هذا الفج!

ضحك ناهي الفرحان، حتى كاد ينقلب على ظهره، وبعد أن هدأ:

ـ صرت شويعر يا أبو جازي!

ـ والله. وبالله وتالله، اللي يعيش مع هالحريمات يلزم يصير شاعر، وإذا ما صار يصير سلطان أو مجنون!

تراجع ناهي قليلاً إلى الوراء، نظر إلى طالع العريفان بجدية وسأل:

ـ وأنت، يا أبو جازي، لو كنت بمكانه، شنهو اللي تسويه؟

ـ أنا؟

ـ أي نعم، أنت. . .

ضحك، وبعد قليل:

ـ خلنا نحلم، يا ابن الحلال.

ـ لو كنت مكانه، أي نعم، لو كنت بمكانه: ليلة كرجية وليلة عجمية، وليلة اجمع سودا على بيضا ومعهن واحدة شركسية أو تركية، وبعد ما أشبع وارتوي أنام وأنا سلطان!

وبعد قليل وهو يقهقه:

ـ أو كان صرت مثله: أناظر يمين واضرب يسار، اغمز وحدة وأنام مع الثانية، وأقول لنفسي ولمن حولي: كافر اللي يرد عطايا الله، وكافر اللي ما يرضى عبيد الله!

ـ وبآخر الليل تكون رضيّت واحدة وزعّلت مية!

ـ يا ناهي، يا ابن الأوادم، وهذا الكلام يقص راس، لكن البني آدم يلزم بقوله: لو كنت مكانه كانت تلحفت واحدة، ورضيت بولدين أو ثلاثة، ويا رب الستر والسلامة، لكن إذا البني آدم جن ما أحد يحميه وينفعه، وآخرته يرعص ويخمص، أو يهزّ ويرجف، والله يستر من البلواي اللي جايّات.

وإذا كانت القصص القصر واضطراباته قد زادت عن حد معين، فلا يمكن أن تعالج إلا من داخل القصر، ومن امرأة من نساء القصر، ما دام السلطان مثقلاً ومشغولاً.

فأمي زهوة التي غابت شهوراً، وقيل حول غيابها الكثير، وبعد أن

لبست الرمادي، عادت إلى الأسود من جديد، قالت تهاني: «حبها لفنر خلاها تغير ثيابها». وقالت لولوة: «ابن عليان عنده جيش من النسوان» وقالت قابلة القصر «المرأة تتزوج حتى تلد ولو سخل، وهذه ما بها ماء» وقال السلطان: «الشيخة شيخة ويلزم تظل شيخة».

قالت أمي زهوة يوم طهور تركي ابن وطفة، وقد جمعت معظم نساء السلطان، رغم أن وطفة لم توجه الدعوة إلا لبعضهن. قالت وهي تدق الأرض بعصاها:

ـ عندي كلِمات. . . يا بنات.

ولما وجدت أن الصخب والهرج لا زالا مستمرين، صرخت تهاني، وكان صوتها حاداً كأنه بوق:

ـ يا جماعة: اسكتن واسمعن.

لما استمر الصخب، دقت الشيخة الأرض بقوة أكبر وصرخت:

ـ هي. . هي. . ترى اللي تسمع أخير لها وأحسن.

ساد الصمت تماماً، وكأن لا أحد في المكان، قالت بحدة:

ـ ترى أبو منصور ترك الحبل على غاربه، وأنتن، كل واحدة منكن مثل العنز، ما إن راح عنها الراعي حتى فلتت، ويلزم تعرفن هذا القصر قصر الرحمان، وإذا كانت كل واحدة توهمت أنها كبرت وصارت، وقالت لروحها: ماأحد يردني ترى أنتن غالطين، ما هو بس كذا، إذ الواحدة منكن تريد تجرب حظها، تريد تقول: صار ما صار، تراها تمسك الباب، وهذا اللي أقوله هالحين ما هو كلام ليل أو كلام نسوان، أنا هالحين شفت أبو منصور، ومن راسي لراسه، قال لي: ما نريد طلايب ولا دوخة راس، والأحسن أن كل واحدة تحافظ على عرضها وتربي أولادها. وبعد هذا الكلام، ما عندنا كلام واللي ما يصدق يشوف بعينه أحسن.

وقع هذا الكلام على النسوة مثل الحجارة أو مثل البرَد. قالت فضة في محاولة لأن تسيطر على الجو فتستعيد المبادرة:

ـ أنت تعبانة يا عمتي، ويلزم أنك تستريحي.

ردت أمي زهوة بخشونة:

ـ اسمعي يا فضة، وخلي غيرك يسمع: أبو منصور قال: الطلايب زادت، والحريم فجمن، وأنا براسي ألف قضية وقضية، فإذا كل واحدة قاعدة لي ركبة ونص، وتقول: ليلتي وأولادي، ترى ما عندي ليل من نهار، وما عندي ولد أخير من ولد، الكل عندي مثل حبات الرمل ومثل قطرات الماء. . . واللي ما تفهم هذا الكلام وتلزم حدها، نعرف كيف نخليها تفهم. . وتفهم زين.

وتلتفت أكثر من مرة ثم صرخت.

ـ يا تهاني. . .

وحين اخترقت تهاني الجمع وتقدمت منها، قالت لها بصوت حاد:

ـ أبو منصور عشاه الليلة عندنا، وأنت هالحين قاعدة هنا تقسمين سوالف؟ يا الله، السودا بوجهك. يا الله، أمشي قدامي.

كان يمكن لهذه الفوضى أن تغيب فترة لتعاود الظهور من جديد، لولا أن وقعت عدة حوادث في القصر.

فلولوة، خادمة الأميرة وطفة وجدت مقتولة بالقرب من الإسطبل، وقد ظهرت على جثتها علامات زرقاء. قيل إنها تعرضت إلى التعذيب قبل القتل، ربما لإنها قاومت، أو لأسباب أخرى. وقيل إن هذه العلامات من تأثير السم، وقد همست عدة نسوة أن السم كان لوطفة، لكن بالصدفة، ولأسباب لم تعرف أبداً تناولته لولوة فماتت.

كان من الممكن أن تمر هذه الحادثة دون نتائج، أو نتائج محدودة، لولا أن عدة أمور ذات علاقة حصلت: فالسلطان الذي اعتبر أن فضة وراء الاضطرابات التي حصلت في القصر، أراد أن يعاقبها، فهجر جناحها لأسابيع، وقد استقر خلال هذه الفترة في جناح وطفة. صحيح أنه كان ينتقل ويغيب لعدة ليالٍ هنا وهناك، لكن في يوم مقتل لولوة كان السلطان عند وطفة، وقيل إنه لاطف لولوة وسألها إن كان لها مطالب، وقد أكدت ثلاث من الخادمات ذلك. وقيل إن السم أعدّ للسلطان وليس لوطفة أو لولوة. ومما زاد في تعقيد الموقف أيضاً إن اثنين من الخصيان: الغريفي

وتمام، وكانت تربطهما بلولوة علاقة، قتلا بعد ثلاثة أيام، قتلا في غابة النخيل، في أقصى الشمال الغربي، وقد سمع في الليل المتأخر إطلاق رصاص، واختلفت التفسيرات حول ما حصل. ومن الطبيعي أن يتردد اسم ابن ماضي وأسماء أخرى وقد حمل ذلك السلطان على أن يتوجه إلى الرحيبة، وأن يقضي هناك أياماً امتدت إلى أسابيع، وخلال ذلك عاد ابن البخيت.

لم يبق أحد في القصر إلا وتذكر يمامة وقصتها بعودة ابن البخيت، وترافق ذلك مع الكثير من الحذر والمخاوف والهمس، خاصة وأن السلطان عاد إلى قصر الروض، وعاد إلى القصر النشاط والحركة، لاستقبال المسافرين ومعرفة ما حصل معهم في سفرتهم التي امتدت زهاء شهرين ونصف، وقد شملت بلداناً عديدة.

أكد عدد من الحرس الخاص للسلطان أنه أعدت لجلالته الجهة الشرقية من المضافة، لتكون ديواناً ومكاناً للإقامة والمنامة، وقد فسر الأمر لأسباب أمنية، وفسر أن غضب السلطان لم يبارحه، ولذلك يريد أن يعاقب القصر كله. وفسر أيضاً أن الأشغال الكثيرة التي تراكمت خلال هذه الفترة جعلته يبقى مع رجاله.

أمي زهوة زارت السلطان في مجلسه، وأسرّت تهاني لعدد محدود من صديقاتها، وبشكل مضطرب، أن الشيخة نقلت إليه أخباراً خطيرة، وحين حاولت الصديقات أن يستوضحنها، قالت بهمس لا يكد يسمع: الواحد يشوف بعينه أحسن من أن يسمع. أما مهيوب فقد عقد خلال يومين متواليين اجتماعات طويلة مع ابن العريفان وناهي. وأكد الخدم الذين صبوا القهوة، أو رأوا الرجال حين خرجوا، أن الابتسامات كانت تملأ وجوههم.

أما فنر الذي خاف عليه الكثيرون، وظلت بذاكرتهم صورته عندما توفيت زينة، وإلى حين سفره، فقد فوجئوا أنه عاد قوياً معافى. صحيح أن الحزن لم يبارحه بشكل كامل، لكنه بدا، في لحظات معينة، مرحاً وأقرب إلى التبسط. وقد قضى اليوم الأول مع أبيه على انفراد. حتى عبدالله البخيث لم يكن معهما. وأكد اثنان من حرس السلطان أنه في الليل

المتأخر، وبدل أن ينتقل السلطان وفنر إلى الجناح الغربي من القصر، أكد هذان الحارسان أنه أرسل وراء موضي فجاءت إلى مجلس السلطان، في الجهة الشرقية، وقد قضت معهما ساعة أو تزيد قليلاً ثم غادرت.

في الأيام التالية عاد فنر إلى الجناح الغربي، وقد استقبل الكثيرين، وبدا طبيعياً، مع شيء من التحفظ، إذ كانت إجاباته عن الأسئلة الكثيرة التي كانت تطرح، أن السفرة كانت نافعة، وأنه رأى الكثير. قطمة قالت إن الأمير، وخلال فترة قصيرة سوف يغادر قصر الروض إلى سكن خاص. وقد فسر كلامها كل من سمعه بشكل مختلف عن الآخر.

هاملتون لم يعد، وحين استفسر السلطان عن تأخره، أوضح له فنر أن السفرة كانت مرهقة، وقد رغب أن يقضي أسبوعين في نهايتها مع عائلته في ولز، وأكد أنه لن يتأخر عن ذلك.

الوحيد الذي ظل غائباً، وطال غيابه خزعل.

قال السلطان في إحدى المرات، عندما سئل عن أخبار الحويزة:

ـ طمنوا بالكم، كل شي بخير، وأبو مشعل هناك.

وبدا للكثيرين أن الأمور أخذت تستقر، وأن الفترة الجديدة، إذا لم تحصل خلالها مفاجآت، تختلف عن السابق.

وغرق القصر في الصخب والهمس والانتظار.

رغم فرح السلطان بعودة فنر، والاهتمام الذي خصه به، فقد ظل قلقاً: «الصاحب ما يخلي فرحة تتم، يلزم يشوف الجماعة وحده، يسولف معهم، يقول لهم فلاني وتركاني، وبعد ما يتفاهم وياهم، يرجع ويقول: يصير وما يصير». ومع ذلك لم يعتبر السلطان أن تأخر هاملتون مثل مرات سابقة، أو يوجب الغضب. قال لابن البخيت الذي كان يحدثه عن الأسفار بطريقة عجائبية، وكيف أن «الصاحب» كان نعم الصاحب:

ـ . . . وصاحبنا، يا أبو بادي، ما هو شلون ما كان، هذا صاحب ويعتمد عليه!

وحاول ابن البخيت أن يلفت النظر إلى أهمية «الصاحب»، خاصة في إنكلترا، وكيف كان يتصرف، ونظرة الآخرين إليه. قال له السلطان بمرح:

ـ هذا، يا ابن الحلال، عند جماعته شيخ، ولولا أن الجماعة يريدون خاطرنا، ويعرفون قيمتنا، كانوا دزوا جماعة ما تشريهم بفلس وفلسين.

ـ والشهادة لله، يا طويل العمر، إنه شهم وباله طويل. . .

وضحك ابن البخيت وتلمظ ثم تابع.

ـ وبعد الاحتفالات والعزايم، وبعد ما يركض هنا وهنا، يقول لنا أنا وطويل العمر، فنر: ها يا جماعة إذا ما أنتم تعبانين خلنا نروح هنا أو هنا، لأن البني آدم يلزم له يشوف، يتونس ويبلّ قلبه.

يستريح قليلاً، يتذكر، ثم يضيف:

ـ وما خلينا شي إلا وشفناه. وظني أن فنر، هالحين، أحسن من قبل، ويمكن تعتمد عليه، وهذا ما هو بس رأيي، هذا رأي «الصاحب».

ولم يتأخر هاملتون، عاد. وبدا أن أموراً كثيرة لا بد أن تحسم بعودته، قال السلطان لفنر يوصيه:

ـ أريدك، يا وليدي، ما تفارقه. يحبك، وتفهم عليه زين، وأريد منك تعرف سره، لأن هذول الإنكريز ما يعطون سرهم لأحد، إلا إذا تأكدوا...

وضحك ثم تابع:

ـ خلنا نحاول، وما يندري بعدها نصل أو ما نصل.

ـ رد فنر بإنفعال:

ـ صحيح، يا يوبه، إنه منهم، لكنه يحب موران ما هو شلون ما كان...

وتلفت أكثر من مرة، ورغم أنه بدا متردداً، إلا أنه همس:

ـ وقال لي كل شيء. قال: يمكن موران تصير أكبر وأهم دولة، بس يلزم تعرف كيف تتصرف، كيف تكون.

ـ هذا الكلام، يا وليدي، له ألف معنى ومعنى، ويلزمنا ننتظر ونشوف حتى نتأكد.

قال هاملتون للسلطان، وكانا وحدهما:

ـ... أريد، يا صاحب الجلالة، أن أعطي نفسي حرية التحدث وأن أقول لك قناعاتي وتصوري لبعض الأمور، وأرجو أن أجد لدى جلالتكم الوقت والرغبة...

تطلع إليه السلطان يريد أن يعرف ما وراء هذه المقدمة. وهاملتون الذي يتحسب من هذه النظرة، تحمل وانتظر: قال السلطان:

ـ يا ابن الحلال، حنا ندوّر على النصيحة دوارة، ونتمنى اللي يجينا ويقول لنا اللي يلزم نسويه.

بعد فترة صمت، وكأن هاملتون لا يعرف من أين أو كيف يبدأ، قال بانفعال:

ـ لا أريد أن أتحدث كإنكليزي وإنما كصديق، وليس الأمر متعلقاً

بتبرير الصيغة التي كانت قائمة. أريد أن أتحدث عن أفكار وتصورات المستقبل، إضافة إلى توضيح بعض الأمور. . .

قاطعه السلطان:

ـ وحنا نريد نسمع منك، يا ابن الحلال.

ـ الفترة الماضية كانت في منتهى الصعوبة والارتباك. كانت صعبة بالنسبة لكم، كما كانت بالنسبة لإنكلترا، وكانت صعبة بالنسبة لي شخصياً. لقد جئت إلى هنا، يا صاحب الجلالة، لكي أكون مفيداً ولأني أتصور أن هذه المنطقة يمكن أن تلعب دوراً تاريخياً. لقد اختلفت مع الكثيرين، وخاصمت الكثيرين، لأنه كانت لنا تصورات مختلفة لدور موران ومستقبلها. وربما تذكر، يا صاحب الجلالة، إني ابتعدت فترة، بل فكرت أن أعتزل، أن أبقى في إنكلترا نهائياً. وقررت في لحظة من اللحظات أن أهجر السياسة إلى مجال عمل آخر، لكني قاومت، ضغطت على أعصابي، ولم أترك لقناعاتي الشخصية أن تقرر مواقفي، كل ذلك بهدف أن نصل إلى معادلة، إلى صيغة، يمكن أن توفق بين ما نطمح إليه، ما نريده، وبين ما هو ممكن.

والسلطان الذي يعرف كيف يرفع صوته فوق أصوات الآخرين، ويكون، بعض الأحيان، المتكلم الوحيد، خاصة حين يخشى «المجانين»، كما يقول لنفسه، والذين يعرفون كيف يهيجون الناس ويدفعونهم إلى العنف والغضب، فإنه في أحيان أخرى، يعرف كيف يستمع، وكيف يدفع الآخرين لأن يتكلموا.

قال لهاملتون:

ـ والله. . . يا ابن الحلال، وما لك يمين عليّ، كنت أريد من زمان تفتح قلبك وتتكلم وتقول. . .

توقف لحظة، ثم أضاف بنبرة مختلفة.

ـ ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: صديقك من صدقك.

تابع هاملتون، وكأنه لم يسمع:

ـ السياسة ليست الرغبات، وليست الأفكار التي يتعلمها الطلاب في

الجامعة. السياسة شيء آخر تماماً: إنها صراع القوى والمصالح والإرادات والممكنات، وهذا الصراع من التعقيد والتشابك إلى درجة يبدو بعض الأحيان مستحيلاً، أو دون حل، خاصة بالنسبة لأفراد وقوى، وحتى لشعوب، معزولين وبعيدين... تنهد وهز رأسه عدة مرات ثم تابع:

- هناك، في لندن، تلتقي الطرق، يا صاحب الجلالة، وحيث تلتقي الطرق تصل المعلومات والتقديرات والاحتمالات، وهناك أيضاً الرجال الذين يناقشون ويقررون، ولا يملك الإنسان البعيد مثلي إلا أن يسمع الصدى، أن يتلقى النتائج، وأيضاً أن يتحمل الصدمات...

ضحك بمرارة وأضاف:

- لقد كنت، بالنسبة لكم، غير مفهوم، وكنت شخصياً أريد الابتعاد، وكانت الأمور ذاتها في مرحلة التكوين، ومن خلال شبكة العلاقات المتداخلة والمعقدة كنتم تطالبونني بالإجابة عن أسئلة لا أستطيع الإجابة عنها، وكنتم تطالبونني بمواقف وأمور لا أستطيع اتخاذها أو البت بها، وهذا ما كان يحرجني، يجعلني غير قادر على الإجابة أو على التصرف. ولذلك كنت اصمت، وكنت أهرب...

وضحك مرة أخرى، لكن بطريقة مختلفة، وأضاف وجاء صوته منتصراً:

- الآن، بعد هذي السنين، يمكن أن أعطي رأي لجلالتكم حول بعض الأمور وأكون أكثر ثقة وأكثر اقتناعاً، لأن ما أقوله ممكن، وقد ينفذ!

تقدم السلطان نحوه قليلاً وبدا عليه الاهتمام، قال وقد اشتعل كله:

- أي بالله، يا الصاحب، اتركنا من الشي اللي صار، هذا فات ومات، هالحين أريد أفهم منك عن هذي الأيام واللي بعدها.

قال هاملتون وهو يتطلع إلى السلطان بطريقة استفزازية، وكأنه يرد على نظراته:

- المشكلة في الماضي، يا صاحب الجلالة، لم تكن موران، ولم تكن ابن ماضي أو غيره. المشكلة، بالنسبة لبريطانيا، كانت أكبر من ذلك وأكثر تعقيداً...

هز رأسه عدة مرات ثم تابع:

ـ الدول الكبرى، يا صاحب الجلالة، لديها علاقات وعليها التزامات، بحيث تتعامل مع الآخرين ضمن منطق مختلف تماماً عمن يكون عنده مشكلة واحدة وفي ومكان محدد، ويتعامل بهذه المشكلة وحدها.

تنحنح، فجاء صوته مصقولاً:

ـ طبيعي لا يمكن، الآن، أن نخوض في كل الموضوعات، لكن لا بد من التأكيد أن بريطانيا كانت محرجة وحائرة تجاه أصدقائها وأعدائها معاً. لأنها لا تعرف كيف تتصرف، من ترضي ومن تغضب. أما الآن، وبعد أن تحددت الأمور جميعاً، فيمكن أن نتحدث، وأن نتفق، وأن نصل إلى النتائج المطلوبة.

وفي هذا اللقاء، وبكثير من المهارة والتواطؤ وسوء النية من الطرفين، فهم السلطان أن عليه أن يطوي أعلام الفتح والغزو والضم، لأن الأمور تم الاتفاق عليها بين اللاعبين الأساسيين، وليس أمام اللاعبين الصغار إلا أن يلعبوا في الوقت الضائع، أو دون أن يشعر اللاعبون الكبار، فقط من أجل تسجيل بعض النقاط أو تحسين المواقع، وقد فهم السلطان أيضاً أن لدى بريطانيا من أبنائها، من يلعبون في الملاعب الأخرى، وهؤلاء يتناقشون ويختلفون، ويمكن أن يورطوا بريطانيا أو أصدقاءها.

ورغم أن أجزاء كثيرة من المناقشة والحوار كانت واضحة إلا أنها لم تكن محددة، وكانت تقتضي الكثير من الجهد والمهارة من أجل تحديدها. قال السلطان في نهاية ليلة طويلة من المناقشات والأسئلة وتبادل الأفكار والأدوار:

ـ لا أحد يعتب، يا الصاحب، وما أحد يقدر يسوي كل اللي يتمناه، أو ينفذ اللي يريده، بس يلزم تعرف أن جماعتك ما حلبوا معنا صافي...

هز رأسه وابتسم بحزن، وربما مرت في ذاكرته صور كثيرة، وأضاف:

ـ كل اللي رادوه منا قلنا لهم: ما يخالف حلت البركة، وعلى العين والراس. وراحت سنة وراحت اللي بعدها، ولما التقينا من جديد: يا الله يا جماعة الخير، هالحين يلزم نسوي اللي اتفقنا عليه، لكن يخلف الله، لا

أحد يتذكر. واللي حكوا معنا، اللي كانوا، ملح وذابوا، ما أحد يعرف وين صاروا، وليس ما شفناهم من بعد. وبدينا من جديد، وأنت تذكر السوالف كلها.

وخلال بضعة أيام وبضع ليالٍ من المناقشات والخلوات والأسئلة، وقد شارك فنر في أغلب هذه اللقاءات، وشارك ابن العليان ويونس وبسيوني وشيخ الصاغة في بعضها، بدا واضحاً للسلطان أن عليه الكف عن التحرش بأصدقاء بريطانيا، خاصة من جهة حدود الحويزة، وأن يلتفت إلى ترتيب وضعه الداخلي، وتضمن له بريطانيا، بالمقابل، الدعم والمساندة، مالياً وسياسياً، وسوف يصبح ابن ماضي جزءاً من التاريخ الماضي.

والسلطان الذي يدرك هذه الحقيقة، بل ووافق عليها، ضمناً، مع بتلر، تظاهر بالغضب أول الأمر، واعتبر أن بريطانيا خدعته وتخلت عنه، كما خدعت وتخلت عن ابن ماضي. حاول أن يذكّر هاملتون بحملة وادي الفيض، وكيف أن قواته لم تقف عند حد، وكان يمكن أن تواصل زحفها، وترفع راية الإسلام، لولا أن بريطانيا تدخلت ووقفت في وجهه، ومع الغضب تظاهر بالحرج أيضاً، إذ لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يقول لقواته، لقادته العسكريين، الذين تحملوا الكثير وانتظروا إلى أن تحين الساعة المناسبة، لكي يواصلوا زحفهم. وهاملتون الذي يدرك، مثل السلطان تماماً، عدم جدوى بحث الموضوع مجدداً، قال له وفنر يسمع ويتابع:

- . . . وكما ذكرت لجلالتكم قبل أيام: المسألة تقررت في لندن، ولا نملك الحق أو القدرة على تغيير النتائج.

رد السلطان بحدة:

- الحق ما هو عليكم، يا الصاحب، وما أقصدك أنت، أقصد الجماعة هناك، لأن جماعتنا، تجار موران، وهم يتبايعون: يتشارطون. وحين يقسمون يقولون: أوله شرط آخرته سلامة. .

وبعد قليل وبلهجة حزينة:

- الحق علينا، كان يلزم من يوم ما تسالمنا، من يوم ما حطينا أيدينا

بأيدين بعض، نقول هذه شروطنا، ونريد كذا وكذا، بس طيبتنا، ثقتنا بأصدقائنا، أوصلتنا إلى هذي المواصيل، وهالجين تعال يا خريبط: فهّم الناس، رضيّها، وقل لهم: جماعتنا، الإنكريز، سووا بنا اللي تشوفه عيونكم، وما نقدر نقول أي شي!

قال هاملتون، وخرج صوته عميقاً.

ـ لا أريد، يا صاحب الجلالة، أن أكرر على مسامعكم ما قلته وما فعلته في لندن من أجل أن أخدم هذا البلد الذي أحببته وأشعر أني مرتبط به. إني لو فعلت ذلك أكون مخادعاً، ولا يهمني ألا إرضاؤكم.

رد السلطان بحزن:

ـ الذنب ما هو ذنبك ابد، يا الصاحب، وحنا نقدر خدماتك وافضالك...

ولم يدع هاملتون السلطان يتابع، رد بلهجة واثقة:

ـ المهم، يا صاحب الجلالة، في هذه المرحلة الدقيقة من التوازن الدولي أن تكون السلطنة دولة قوية ومؤثرة، وهذا أهم بكثير من أن تكون كبيرة وضعيفة.

هز رأسه عدة مرات، وكلّم نفسه:

ـ نعم، أن تكون دولة قوية وجاهزة للاستفادة من التطورات العالمية...

وتغيرت النبرة:

ـ ومثلما تغيرت أوضاع موران خلال السنين السابقة، مستفيدة مما جرى في المنطقة، قد تتهيأ الفرصة مرة أخرى، وعند ذاك يمكن أن يعاد النظر بأمور كثيرة، يا صاحب الجلالة...

وعاد إلى النبرة الأولى:

ـ المهم الآن أن نعمل كلنا من أجل أن تبني دولة قوية، أقوى من كل من حولها في المنطقة. والدولة القوية تستطيع أن تفرض شروطها، كما تعرفون، يا صاحب الجلالة.

السلطان الذي بدا عليه الحزن والتفكير معاً، لم يشأ أن يسلّم بسهولة،

أو أن يعلن موافقته، قال كأنه يحدّث نفسه:

ـ اللي قلته صحيح يا الصاحب، وكل كربة إلا ولها ألف حلال.

ابتسم السلطان، تطلع إلى فنر أكثر مما تطلع إلى هاملتون وأضاف:

ـ وجماعتنا قالوا:

فلو قولة يا ليت تطفي عن الحشى سعير الضمايد قلت ليته تهيا لي

فكل ما قضى وما فات عنا وما انقضى غدا طرق ريح واسمر الليل جلجال

بقي لي عوض ما فات تذكار ما مضى وحزني عليهم وين ما رحت يبرى لي

فلا شدة إلا ويرجى لها فرج ولا كربة إلا ولها ألف حلال

أي نعم، ويلزمك تسمع يا فنر: كل شدة إلا ويرجى لها فرج، والله كريم.

ولأن السلطان طرب للأبيات التي رددها، وابتسم، وتطلع إلى فنر بإمعان ليدرك أين وصلت، فإن هاملتون شاركه الابتسام، وهز رأسه عدة مرات، دلالة أنه فهم وتذوق ما يعنيه ذلك الشعر. وبعد أن طال الصمت قال هاملتون:

ـ وما أراه، يا صاحب الجلال، أن الأهم، في هذه المرحلة، هو كيف يمكن السيطرة فعلياً على العوالي، كيف يمكن أن تكون جزءاً عضوياً من موران، لأن القضاء نهائياً على ابن ماضي مرتبط بإمكانية السيطرة الداخلية.

وبعد قليل وقد تغيرت النبرة:

ـ اسمح لنفسي أن أقول، يا صاحب الجلالة، باعتبار أني عرفت بلادكم جيداً، عرفت الحويزة والعوالي، أن المشكلة الأساسية: كيف يمكن أن نكسب الناس في العوالي، فأهل هذه البلاد يعتبرون أنفسهم متقدمين، قياساً لموران والحويزة، كما يُعتبرون أهل مدن، وتقدرون أن السيطرة على المدن أصعب بكثير من السيطرة على البوادي...

رد السلطان:

ـ إذا علاقة الجماعة هناك انتهت بابن ماضي، فتدبيره وتدبير العوالي علينا، يا الصاحب، وأبد ما يكون لك فكر.

- لا أخفي عليك، يا صاحب الجلالة، أن العالم الخارجي كله لا يتحدث في هذه الأيام إلا عن العوالي. صحيح أن ابن ماضي تحرك واتصل، وصحيح أن بريطانيا غضت النظر عن بعض تحركاته واتصالاته، لكن تبقى هناك ثلاث مشاكل أساسية: كيف يمكن أن نكسب الناس هناك، وثانياً: بريطانيا كفيلة بحل مشكلة ابن ماضي: سوف تتخلى عنه نهائياً أو تجد له تدبيراً مناسباً. أما النقطة الأخيرة فهي كيف تستطيع السلطنة أن تعيد إلى الأقفاص القوى التي أطلقتها من أجل القضاء على خصومها، خاصة وأن هذه القوى إذا لم تجد أحداً تحاربه ترتد إلى الداخل، ولا بد أن تحارب وتدمر قبل أن تتدمر أو أن تنتحر!

هز رأسه عدة مرات، تطلع إلى فنر بإمعان، ثم أضاف:

- أرجو أن يفهمني صاحب السمو الأمير فنر بهذه الملاحظة، كيف يمكن معالجة وضع ابن عمير ومشعان وابن مياح والآخرين الذين يشبهونهم؟ لا أقصد التحريض، ولا أقصد الإساءة، لكن أمثال هؤلاء يشكلون هماً وتحدياً كبيراً للسلطنة في المرحلة الجديدة.

رد السلطان وقد شعر بالتحدي:

- هذول، يا الصاحب، جماعتنا، وحنا أدرى بهم، بس شنهو قولك بجماعة غيرنا؟

للحظة ارتبك هاملتون، تطلع إلى فنر قبل أن يجيب السلطان:

- كما ذكرت لجلالتكم: إذا التزمت سلطنة موران بالمعاهدة، وإذا لم تتحرش بأصدقاء صاحب الجلالة البريطانية، فإن كل الامور الأخرى سوف تجد هنا التفهم الكامل والتأييد...

وبعد فترات صمت وتفكير، وبعد أن بدا السلطان أقرب إلى الاقتناع، لكن دون أن يظهر عليه التسليم أو الموافقة، وفي لحظة تخيرها هاملتون جيداً، قال:

- لدينا مفكر نعتز به، يا صاحب الجلالة، قد قال عن بناء الدولة والسيطرة على الشعب كلاماً حكيماً، ولديه رأي لمعالجة وضع مثل وضع العوالي، وأرى أن تسمعه...

ضحك السلطان مثل طفل، وبعد أن هدأ، قال:

ـ مثل ما قلت لك، يا الصاحب، قبل كم يوم، حنا ندور على النصيحة، ونعطي عليها جمل، فهات، شنهو اللي قاله صاحبكم؟

ابتسم هاملتون قبل أن يبدأ:

ـ يقول، يا صاحب الجلالة: «على كل من يضع يده على الممتلكات، ويود الاحتفاظ بها، إن يجعل نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما: إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما: عدم إحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقت قصير، وأن يؤلفا دولة واحدة».

مط السلطان شفته وهز رأسه موافقاً، وبدا كأنه يستعيد، في ذاكرته، ما قاله هاملتون. أضاف هاملتون:

ـ وحول نفس الموضوع، يا صاحب الجلالة، يضيف أيضاً: «في سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة، فإن خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد إقامة مقره في الممتلكات الجديدة، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً».

وفي ذلك اللقاء استعاد السلطان ما قاله هاملتون مرة ثانية ومرة ثالثة، وبدا له أنه يعرف هذا الكلام، لكن ليس بهذا الوضوح، وأنه طبق جزءاً من هذه الأفكار، لكنه لم يطبقها كلها. قال لهاملتون: وبدا كأنه يخاطب نفسه:

ـ هذا اللي قاله صاحبكم حنا سويناه: جلسنا بالعوالي شهور وشهور، وقلنا للناس: خلكم، يا أولاد الحلال بأشغالكم وأعمالكم، وكل ما نريده منكم أن تعرفوا أن دولة جديدة قامت، وأن ابن ماضي صار أثر بعد عين.

وبعد قليل وبإنفعال:

ـ ولا بد صار لك علم: أبو مشعل، ولدنا خزعل، له شهور، ويجوز مضت عليه سنة، وهو بالحويزة، يداري الناس ويعيش معهم، وما قلنا له تعال، وهو ما جاء!

ولم يتأخر السلطان ليدرك ما هو ممكن في هذه المرحلة، لذلك فإن أول ما فعله: بعث إلى العجرمي هدايا عديدة: مصحفاً مذهباً وصله خلال هذه الفترة من الهند، وكمية وافرة من الطيب النادر، وفرساً مشهورة كثر عنها الحديث في الأشهر الأخيرة، إضافة إلى مجموعة فاخرة من الثياب. ولم ينس أن يبعث أيضاً مبلغاً من المال.

استغرب العجرمي وصول كل هذه الهدايا. كاد يرتاب بدوافع السلطان. تذكر ما حصل لسلفه، محمد العلقاوي، قبل سنوات. فما كادت تنهمر عليه الهدايا من السلطان، حتى قتل بعد فترة قصيرة، وكان في طريقه لصلاة الفجر. ورغم حزن السلطان عليه، فقد سرت إشاعات قوية أنه كان وراء مقتله! إلا أن الزيارتين اللتين قام بهما عبدالله البخيت، وخلال أسبوع واحد، بددت الكثير من الشكوك. الزيارة الأولى كانت بهدف أن يطلعه على ما شهده ولمسه أثناء سفرته، خاصة عن أحوال المسلمين في البلدان التي زارها: الجوامع التي رآها في تركيا، والأذان الذي يرتفع خمس مرات، والناس وهم يندفعون إلى المساجد، وكيف يصلون ويطيلون الصلاة، وعن الحنين الذي يملأ صدورهم لزيارة الأماكن المقدسة.

وابن البخيت حين يتحدث يعرف كيف يثير دهشة الشيخ وإعجابه، ولا ينسى أن يورد الطرائف التي صادفته هنا وهناك، وأن يتوقف عند عجائب الطبيعة: البرودة، أمطار الصيف، الخضرة على مدى البصر، الأنهار الكبيرة، والتي لا تتوقف عن الجريان طوال السنة. وكاد يحدثه عن النساء في الشوارع والمطاعم، وفي كل مكان زراه، كاد يقول له أن الجمال الذي

شهده: شقرة الشعر، وبياض البشرة وعري الزنود والسيقان، إضافة إلى زرقة العيون، لا يمكن للإنسان أن يصادفه إلا في الجنة. كاد يحدثه عن ذلك، لكنه تردد. ثم تذكر المهمة التي كلفه بها السلطان، فانعطف مرة أخرى إلى جو التقوى!

في نهاية الزيارة الأولى، قال ابن البخيت بدعابة.

ـ . . . ويلزم يا شيخنا في يوم الأيام، تزور هذي البلاد، لأن الشوف ما هو مثل السوالف!

ـ عوذة، عوذة، وتريدني أروح، بآخر أيامي، يا ابن البخيت، إلى ديرة الكفر؟

ـ حتى يزداد إيمانك، يا شيخنا، وتشوف بأي نعيم حنا عايشين!

ـ خلني بأرضي، يا ابن البخيت، لأن العين إذا زاغت القلب يزيغ.

وبعد قليل وكأنه يحدّث نفسه:

ـ اللهم ثبت العقل والدين.

الزيارة الثانية التي قام بها عبدالله البخيت للشيخ العجرمي كانت بعد يوم واحد من زيارة أخرى قام بها عدد من رجال السلطان، وكان معهم ابن العليان ومهيوب. وبدا من زيارة هؤلاء، ما سبقها وما رافقها، أن وراءها غرضاً مباشراً. هكذا أحس العجرمي، بل أكثر من ذلك بدأ يهجس بهذا الهاجس منذ الساعات الأولى لما قبل الظهر، فالخبر الذي أبلغ به في ضحى ذلك اليوم، أن وفداً من القصر سيزوره، جعله في حالة من التساؤل أقرب إلى القلق. «ماذا يريد خريبط؟ وما معنى الهدايا والاهتمام؟ وهذه الزيارة، من سيأتي وماذا سيدور؟».

ومثلما يحصل في حالات كثيرة مماثلة، ورغم أن عثمان العليان همس بإذن مهيوب وغمزه أن لا يجري الحديث في الموضوع بسرعة أو مباشرة، إذ لا بد أن يخوضوا في أمور عامة وعديدة، إلى أن تأتي اللحظة المناسبة، عندها تتم مفاتحته بالأمر. رغم هذا الاتفاق، ولم تكد فناجين الشاي تأتي، بعد القهوة حتى ضحك ابن العليان، خاصة حين خيم الصمت، وقال:

ـ . . . إذا الواحد بفمه حصوة، يا شيخنا، ما يقدر يحكي أو يقول قبل ما يرميها.

رد العجرمي بمودة وحزم معاً:

ـ سم يا ابن الحلال، والرسول، مثل ما قالوا، مبلغ ما هو ملوم.

كان العجرمي مستعداً لكل الاحتمالات، وكان طبعه الحاد، وعناده يجعلانه بنظر الكثيرين شخصاً صعباً. إما إذا بدأ الحديث، خاصة مع الخصوم، فإنه، إضافة إلى القسوة، يعرف كيف يسخر، وكيف يحرض الآخرين. الآن، وقد استقبل وفد السلطان، كان على ثقة أن لديه ما يقوله، أو أن لديه طلباً، وكان رده بهذه الطريقة لكي يخلق طمأنينة، ولكي يهيّئ لنفسه موقعاً قوياً إذا أراد أن يحارب.

سأل عثمان العليان مهيوب:

ـ تتكلم أو أتكلم؟

رد مهيوب وهو يبتسم:

ـ سم، طال عمرك. . .

ولكي يهيّئ العجرمي نفسياً تابع مهيوب:

ـ ويا ليت كل التكليفات والطلبات مثل طلبنا هالحين من أبو مشعل!

قال العجرمي بحزم، هذه المرة، ودون مودة:

ـ سموا. . . يا جماعة الخير.

فرك عثمان العليان يديه وقال:

ـ طلب منا طويل العمر نصلك، نبلغك تحياته، ونسأل عن خاطرك وصحتكم وطلب منا نبلغك أنه يريد يناسبك، يريد بنتك!

فوجئ العجرمي بالطلب، تطلع حواليه أكثر من مرة، تطلع إلى الوجوه التي تترقب منه كلمة، وغرق في الصمت. لديه ابنتان لم تتزوجا بعد، الكبيرة، وقد بلغت الأربعين، أو تجاوزتها قليلاً، من زوجته الأولى، وهي بالإضافة إلى يأسها من الزواج، فقد أصبحت المسؤولة عن البيت والأولاد، ولم يعد أحد يفكر أو يطرح مسألة زواجها، حتى هي، أصبحت

تتأذى وتحتد إذا جرى الحديث ليس عن احتمال زواجها بالذات، وإنما عن أي زواج. أما الثانية، من زوجته قبل الأخيرة، فإنها لم تبلغ الرابعة عشرة بعد، ولا يزال ينظر إليها كطفلة، خاصة وأنها جاءت لأمها: جميلة الملامح، وإن تكن صغيرة الحجم. هل يريد السلطان الكبيرة أم الصغيرة؟ وهل تصلح أي منهما للزواج.

كاد في لحظة من اللحظات أن يقول كلمة واحدة لينهي الموضوع، «ما عندي بنات للزواج». لكنه فكر في نتائج هذا الجواب، وتذكر الهدايا التي وصلته خلال الفترة الأخيرة، خاصة تلك الفرس التي أصبحت حديث موران، بعد أن ركبها مشهور، الابن الأوسط للشيخ العجرمي، وأخذ يختال بها في أسواق المدينة، وبدا يهيّئ ويقسّم مواليدها، لمن سيكون أول بطن، والبطن الذي يليه، ولام الشيخ نفسه أن تصرف بسرعة، خاصة بالمال الذي أرسله السلطان، إذ دفعه بكامله لابنه الكبير، مشعل؛ ومشعل الذي بدا غاضباً، أول الأمر، لأن مشهور استولى على الفرس، لم يتأخر لكي يبعث بالمال، مع اثنين من التجار، وقد سافرا إلى مصر، من أجل شراء رعية غنم، «ومعها كم راس خيل» وأوفد معهما راعياً لكي يعود بالغنم عن طريق غزة هاشم.

مرت هذه الصور والأفكار برأس الشيخ، ولا يعرف كم مضى عليه وهو صامت. حين رفع عينيه إلى الذين ينتظرون، قال، وخرج صوته مسكيناً:

ـ سلّموا على أبو منصور، وقولوا له أبو مشعل يمر بك بعد يومين، وإن شاء الله يصير خير!

كاد مهيوب يستوضح ويتأكد، لأنه يريد أن يحمل جواباً محدداً للسلطان، إلا أن ابن العليان غمزه أن لا يفعل، إذ من اللائق، ومن الأفضل، أن يترك للأب فرصة، لا ليرفض، وإنما لكي يبرر قبوله، وليشعر أيضاً أنه قادر على أن يقول لا أو نعم.

قال عثمان العليان، وهم يستأذنون للانصراف:

ـ قال الأقدمون، يا أبو مشعل: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان» وحنا، والله يشهد، إن كلمتنا كانت من القلب...

ابتسم، نظر إلى مهيوب، ثم أضاف:

ـ ما هي كلمتنا حنا، يا أبو مشعل، كلمة طويل العمر، ومثل ما قلت: حنا رسل، واللي علينا سويناه!

قال العجرمي، وكانت نظراته لا تستقر في مكان:

ـ وكلوا الله يا جماعة الخير.

بين زيارة الوفد للعجرمي وعودته، جاء من أبلغ السلطان أن للعجرمي بنتين وليس بنتاً واحدة، كما ذكرت قابلة القصر، حين سئلت. وقال هؤلاء أن البنت الكبيرة كبيرة، ولا يتذكرون هل ولدت قبل السيل الذي أخذ العارض كله أو بعده بسنة، لكنهم يتذكرون أن العجرمي تزوج قبل السيل بسنتين أو ثلاث سنين، ويتذكرون أيضاً أن الولد الأول مات، وقد حزن عليه العجرمي كثيراً، وجاءت بعده بنت، ولا بد أن تكون هي هذه.

ولم ينتظر السلطان. بعث يستفسر من جديد، بعث لسؤال القابلة، وأمي زهوة، ونساء أخريات، وحين تأكد أن للعجرمي بنتين في بيته، شعر بالخطأ أنه لم يسم ولم يحدد. قال أمام عدد من خاصته:

ـ بنت الحرام وريدة، تحسب أن الدنيا والناس هم بس اللي ولدوا على يدها، وما تدري أن قبل إبراهيم نوح وقبل نوح آدم...

وهز رأسه بأسف، وبعد قليل صاح:

ـ هاتوا ابن البخيت، يمكن يلقى لنا فتوى.

حين وصل عبدالله البخيت، كانت عيناه حمراوين، ويمشي متعثراً. دخل وسلم، وكان أقرب إلى الخمول والصمت. سأله السلطان، بعد أن طلب إليه القهوة، بمداعبة.

ـ اشوف، يا عبدالله، وكأنه عندك قصور نوم!

رد بنزق:

ـ تسهّرونا للفجر، وبعدها تروحون تنامون، وحنا نعدّ النجوم، فإذا أخذنا غفوة تصيحون: وين فلان وين فلان، وحنا، الواحد منا، مثل الذيب، عين مفتحة والثانية ما تعرف تجاري أختها أو تنام.

ـ هاتوا قهوة لأبو بادي!

وبعد أن دارت القهوة عدة مرات، وبعد أن صحا عبدالله البخيت، وطلب السلطان من الذين كانوا في المجلس، أن يتركوه وابن البخيت، سأله، وكان صوته مليئاً بالقلق:

ـ وقعنا بمشكلة، يا عبدالله، وما لنا غيرك!

استيقظت حواس ابن البخيت تماماً:

ـ خير، يا طويل العمر؟

وأبلغه كيف بعث بابن العليان ومهيوب وعدد من رجاله إلى العجرمي ليخطب ابنته، وربما تكون فرصة العمر بالنسبة للعجرمي أن يزوج ابنته الكبيرة، والتي لا يعرف عمرها هل ولدت قبل سيل العارض الكبير أو بعده بسنة أو سنتين. وأضاف السلطان أنه حين فكر بأن يناسب العجرمي كان يريد الابنة التي وصفتها له وريدة، وهي صغيرة وجميلة.

وإذا كان ابن البخيت يتظاهر بأنه هزم، في أغلب المعارك التي يكون فيها السلطان الطرف الآخر، فقد وجد فرصته الآن لأن يداعب السلطان، أن يثيره. قال وهو يترنم:

ـ لا تنكحن عجوزاً إن دعوك لها وأن حبوك على تزويجها الذهبا
وأن أقول وقالوا إنها نصف فإن أطيب نصفيها الذي ذهبا

أي نعم، الذي ذهبا، هذا الذي قاله ابن قتيبة، في كتاب النساء، أما إذا أردت رأيي، يا طويل العمر، فإن المرأة الكبيرة، المجربة، أفضل من الصغيرة، لأن الصغيرة لا تترك الرجل ينام، وأنت تعرف أن اللي ما ينام تحمر عيونه، فإذا وعّوه قبل ما يشبع نوم يصير نقمة على نفسه وعلى غيره!

ـ الله يخزيك، دعيناك تصير لنا عون تراك طلعت علينا فرعون!

رد ابن البخيت بجد:

ـ أشهد بالله أن العجرمي، أبو مشعل، غالِ عليّ، وإذا كان الواحد غالي، فأهله غالين، وبنته الكبيرة يلزم تتزوج، يلزم تفرح. الله خلقها، مثلها مثل غيرها، وحرام أن تجي للدنيا وتروح دون ما تعرف رجّال، والله سبحانه وتعالى، راح يحاسب رجال موران كلهم إذا تركوها تموت بلا زواج، دون ما تفرح.

ـ اسمع يا ابن البخيت: همومنا كثيرة وما نريد زود، وهالحين، ما بعثنا وراك، وما ردناك إلا حتى تعاونا، فاترك كلام الهزل واحك جد لي.

بعد أن ضحك ابن البخيت بقهقهة، قال بمرح:

ـ فإن تسألوني بالنساء فإنني خبير بادواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس له في ودهن نصيب
يرون ثراء المال حيث علمنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

قال له السلطان وهو يبتسم:

ـ اتركنا من هذه السوالف يا عبدالله، وهالحين نريدك تدوّر لنا حل.

ـ تريد حل أبو موسى أو عمرو بن العاص يا طويل العمر؟

ـ أريد يظل العجرمي من جماعتنا، فإذا قال: الكبيرة، وقلنا: لا، وقعت بيننا إلى قيام الساعة، وهذا أبد ما نريده.

ـ يعني أبو منصور يريد الصغيّرة؟

ـ أي نعم، يا ابن الحلال، وهذا ما ينراد له سؤال!

ـ قال الشاعر:

يكاد حباب الماء يخدش جلدها إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد
ولو لبست ثوباً من الورد خالصاً لخدّش منها جلدها ورق الورد
يثقلها لبس الحرير للينها وتشكو إلى جاراتها ثقل العقد
وأرحم خديها إذا ما لحظتها حذاراً للحظي أن يؤثر في الخد

ـ اسمع، يا عبدالله، اخطينا وفزعناك من نومك، لكن، والله، إذا ظليت تقص عليّ شعر فلان وفلان، وتقول فلاني وتركاني، لاخليك تتزوج الكبيرة...

وضحك السلطان، ثم تابع:

ـ تذكر... قبل سفرك، قلت من بد ولازم نزوجك، رضيت ما رضيت ما يهم، وهالحين أقول للعجرمي: يا أبو مشعل: الجماعة جوا يبغون يخطبون لابن البخيت، سمعوا عندك بنت بعمره، وخجل يقول لك، وأريدك ما تردني يا أبو مشعل، ويلزم نقرأ الفاتحة.

حاول عبدالله البخيت أن يضحك، لكن وجد أن فكيه لا يطاوعانه، وبدا له أن السلاطين يستطيعون أن يفعلوا كل شيء، بما في ذلك إجبار الإنسان على أن يتزوج. قال وهو يعتدل في جلسته:

ـ اللي يريده أبو منصور هو اللي يصير.

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وقال عليه الصلاة والسلام: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، إن القلوب إذا كلّت عميت»، وأنا وأقول الصدق، يا طويل العمر، بعدني ما غفيت، بعدما قال المؤذن: الله وأكبر، وقلت لروحي: نم لك ساعة زمان يا ابن الحلال حتى تستريح، إلا والجماعة فوق راسي: «قم، قم ولا تتأخر، طويل العمر يريدك». وقمت وجيت على نيتي، ما أعرف كبيرة أو صغيّرة، وأنت، طال عمرك، بلا سلام وبلا دستور: الكبيرة ما نريدها، الصغيرة نريدها، وأنا بين النايم والصاحي، ما طلع معي إلا شعر وسوالف.

وأمر السلطان بالقهوة من جديد.

في نهاية اللقاء قال عبدالله البخيت:

ـ وكل الله، يا طويل العمر، وما يصير ألا تريده!

في اليوم التالي، قبل أن يزور عبدالله البخيت العجرمي، استفسر من وريدة، وغيرها من نساء القصر، عن اسم البنت وعمرها، وفيما إذا كانت لها أخوات أخريات، ووريدة التي كانت خائفة مرتكبة، قالت إنها تعرف فقط نجمة، في سن الزواج. وعادت وذكرت حفيظة، وأكدت أن حفيظة عمرها سبع سنوات، أو ربما أقل. أمي زهوة، حين بعث يسألها، قالت،

عن طريق سرور: «العجرمي من زوجته موزة ما عنده بنات إلا نجمة، وهي وحدها بسن الزواج».

أثناء الزيارة، وقد حاول ابن البخيت أن يجعلها زيارة طبيعية، وامتداداً للزيارة السابقة، تطرق إلى موضوعات بعيدة، ولكي يوحي للعجرمي بالأمان، قال، وقد تخير لحظة صمت مناسبة:

ـ ربما تذكر يا شيخنا ما قاله قيس بن ذريح.

هز رأسه عدة مرات وتابع:

ـ قال:

لو أن امرأً أخفى الهوى من ضميره لمتّ ولم يعلم بذاك ضمير

ولكن سألقى الله والنفس لم تبح بسرك والمستخبرون كثير

وقال مسلم ابن قتيبة: «لا تطلبن حاجتك إلى واحد من ثلاثة، لا تطلبها إلى الكذاب فإنه يقربها وهي بعيدة، ويبعدها وهي قريبة، ولا تطلبها إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفعك وهو يضرك. ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأكلة فإنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته!».

والعجرمي الذي ابتسم لأنه أعجب بما سمع، أو بما تخيره ابن البخيت، كان واثقاً أيضاً أن هذه الزيارة لها علاقة بزيارة الأمس، ولذلك بدا مبتسماً، مستعلماً، منتظراً، بل وأكثر من ذلك كان يريد أن يعرف ما وراء رغبة السلطان. قال بعد أن تهيأ:

ـ يا عبدالله، أدري إنك عالم قبل ما تكون من جماعة السلطان، ويلزم أن أقول لك شي ما قلته لغيرك، من قبل، قالوا: «لا تقرب السلطان إلا كما تقرب الأسد، فإن طاوعته اتعبك وإن خالفته أتعبك»، وهالحين أريد أن أسمع منك.

ـ أنا وأنت شي واحد، يا أبو مشعل... سم.

ولما ظل العجرمي صامتاً، ابتسم ابن البخيت، وزفر ثم قال:

ـ حنا، يا أبو مشعل راس مالنا نشيله ويانا وين ما رحنا وين ما جينا، وما عندنا غيره...

وأشار إلى رأسه وإلى صدره، وتابع:

ـ بس هذا ما يكفي، يلزم نداري زمانّا، صحيح إنّا ما نريد نصير سلاطين، لكن ما نقدر نعادي السلاطين، وإذا السلطان راد. . .

رد العجرمي بنزق:

ـ يا أبو بادي. . المسألة ما هي مسألة نجمة، نجمة له، بس أخاف باكر يصل الكفار إلى هنا ويقول لي: تعال يا أبو مشعل أفتي، وهذي ما أقدر عليها!

وابن البخيت الذي ردد اسم نجمة عدة مرات، لكي يميزها عن أختها الكبيرة نعيمة وعن أختها الصغرى حفيظة، بدا متشككاً من سرعة الموافقة، فاختلطت عليه الأسماء من جديد، قال لكي يعيد النقاش إلى مجراه:

ـ ويلزم أقول لك، يا أبو مشعل: طويل العمر قال: راح نناسب الشيخ العجرمي، راح نطلب منه بنته نجمة، بنت المرحومة موزة. قلت له على الخير والبركة يا طويل العمر، وبالرفاه والبنين، لأن الطيبات للطيببين والطيبين للطيبات.

ـ وبعدها، ما بي غير شي، يا عبدالله؟

ـ علمي، يا أبو مشعل، يريد يناسبكم، وهذا كل شي.

ـ إذا كانت بس هذه فعلى خيرة الله، له نجمة والدنيا قسمة.

الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة زواج السلطان كانت كبيرة وباذخة لدرجة لم تترك أحداً إلا وجعلته يتكلم أو يتساءل. والسلطان الذي أراد من هذه المناسبة أن تعبّر عما وصلت إليه السلطنة من حيث القوة والرخاء، كان يريد أيضاً أن يعطي درساً لنساء قصر الروض، فالمرأة قريبة وعزيزة بمقدار طاعتها وامتثالها. وكان يريد السلطان أيضاً: أن يحاول بشكل غير مباشر، إغراء فنر، أن يجعله يغار أو يقتنع أن زواجاً جديداً أمر سهل للغاية، يجب أن يفكر فيه، وأن يقدم عليه بأسرع وقت ممكن. أما أن يعذب نفسه، أن يتأرمل في هذه السن، وأن يعتبر زينة بداية الخليقة ونهايتها، فعندئذٍ لا بد أن تكون حياته السابقة في عين فضة قد أفسدته،

ولذلك لا بد من أجل إصلاحه ان يبذل جهداً، وأن ينتظر الوقت المناسب.

ابن العليان وعبدالله البخيت اللذان حضرا بداية احتفالات الزواج انسحبا في وقت مبكر، دون أن يحس بهما أحد، وقد تعودا أن يفعلا ذلك حين يشعران أنهما بحاجة إلى «بنزين» خاص تعودا عليه في الأماكن الأخرى، حيث عاشا.

قال ابن العليان يسأل عبدالله البخيت:

ـ ما هو قولك ببنت العجرمي؟

وحين ضحك ابن البخيت بقهقهة، وهو يهز رأسه، تابع عثمان:

حنا، يا أبو بادي، اللي بعنا وشرينا بالسوق وما نعرف اللي بعناه أو اللي شربناه، وهذا ما يجوز من الله!

وبعد قليل وهو يدق كأسه بكأس ابن البخيت:

ـ وتأكد، باكر، إذا الله حاسبنا، إذا سأل شنهو اللي بعتوه وشنهو اللي شريتوه، راح يجلدنا ألف جلدة، لأنّا ما نعرف! يجلد ويقول: تستاهلون يا أولاد الحرام، لأن اللي ما يحضر ولادة عنزته تجيب له تيس! وما كان يلزم تبيعون سمك بماي!

هز ابن البخيت رأسه حزناً، وبعد قليل، وهو يرفع إلى عثمان رأسه بميل واضح:

ـ لكن خويك ما تركها على غاربها. صحت على وريدة: تعالي يا ولية: هذه البنية اللي تعبنا حتى حصّلناها لطويل العمر شلونها؟ طويلة، قصيّرة، حلوة، قولي. . .

ـ وأخذت منها حق أو باطل؟

ـ قالت كثير، يا أبو عزيّز، وفهمت من كلامها مثل ما حدّث المدائني، والأحسن أقول لك ما قاله هذا الشيخ نقلاً عن امرئ القيس، وقد بعث امرأة لترى امرأة وتصفها له، فقالت: «أبيت اللعن لها فرع كأذناب الخيل المظفورة، فإذا أرسلته قلت عناقيد ممطورة، أسفل منه جبهة

كالمرآة المصقولة، أسفل منها عينين عبهرة، لم يرعها قانص ولا قسورة، بياضها كبياض المحض العقيق، وسوادها كسواد دامس الغسق، بينهما أنف كحد السيف المصقول، لم يكن فيه قصر ولا به طول، حفّت به وجنات كالأرجوان، في محض بياض كالجمان، وفم كرأس رمانة، شبهت بالدر النظيم أسنانه، يتقلب فيه لسان ذو حلاوة، وبيان يحركه عقل وافر، وجواب حاضر، تلتقي فيه شفتان كالزبد يحلجلان ريقاً كالشهد، ركب في عنق لمن يراه، يتصل به عضدان مدملجان كأنهما في نقائهما اللؤلؤ أو المرجان، فيهما ساعدان لا يرى فيهما زندان، شرعت فيهما كفان، فيهما بنان كالفضة قمعت بالعقيان المدمجة، يحيط بها كالقراطيس المدرجة، تنتهي ذلك منها إلى خصر يكاد منها، لولا رحمة الله، تبين في كفل يقعدها إذا ما قامت، ويوقظها إذا هي نامت، يحملها فخذان مدملجان كأنهما قلبان، وساقان أجردان، يحمل ذلك كله قدمان لطيفان محدودتان كحّد السنان فتبارك الله كيف صغرهما ولطفهما، يطيقان حمل ما فوقهما، أما ما وراء ذلك، أيها الملك فإني تركت ذكره...».

يعد هذا التدفق الذي بدر من عبدالله البخيت، ويبدو أنه حفظه منذ زمن طويل، ورواه مرات كثيرة، ونتيجة للسرعة، فإن عثمان العليان لم يستطع أن يرسم صورة واضحة عن هذا الكلام كله.

قال وهو يزفر:

ـ أنت، يا ابن البخيت، الله خلقك حتى تدوّخ الناس، وحتى ما تقول لا حق ولا باطل!

ـ كل هذا الكلام وما عجبك شي؟

ـ حنا سألناك، يا ابن الحلال، البنت مزيونة؟ تسوى التعب وشلعان القلب أو شي ثاني؟

ـ شي ثاني!

وضحك ابن البخيت بصخب، وبعد قليل أضاف:

ـ ناظر العجرمي: أسود مزنجر، طوله شبر وحلقه فتر، أنفه قبة،

وعينه ميلة شارع اليهود، ومثل قطاة ما لاقت ماي، والأم، الله يرحمها، ما شفناها، لكن خلّفت وقالت: في أمان الله، وأنت، يا الشيخ، رضع وفض، والباقي عندك يا أبو عزيز!

ـ يعني الأوصاف اللي قلتها ما تلقى منها شي؟

ـ إنما الشعراء يتبعهم الغاوون. لأنهم دائماً، يا أبو عزيز، بدل ما يفرحون بما خلقه الله، يخلقون أوصاف وأوهام ويضيعون فيها، ويفرّحون نفسهم عليها ويريدونا نفرح معهم، لكن النتيجة أنهم لا يفرحون ولا يفرّحون!

ـ يعني طويل العمر الليلة تزوج سخلة؟

ـ لا بالله تزوج تيس!

وسار ركب السلطان إلى العوالي وكان ضمن الموكب الخاص: هاملتون والعجرمي وفنر، إضافة إلى عبدالله البخيت وعدد من المستشارين، وكانت نجمة مع السلطان في هذه السفرة.

لأول مرة، منذ سنوات، يمتلئ قصر الروض بالغيظ، أكثر من الغيرة أو الحقد. ولأول مرة تجمع نساء السلطان رابطة التضامن أزاء الوافدة الجديدة. وإذا كانت العادة، في زيجات سابقة، أن ترصد العروس، بكثير من العناية، لاكتشاف عيوبها، وكانت في الغالب عيوباً خفية أو هينة، سواء من ناحية الشكل، أو التصرف، أو ربما أكثر خفاء من ذلك! فقد كان دائماً يوجد من يتصدى للدفاع عن التي تدخل القصر لأول مرة، وإذا لم يكن ذلك نتيجة الاقتناع في الغالب، فلا أقل من محاولة ضم الطير الجديد إلى سرب من الأسراب المتنازعة. كان يشار إلى الجمال، إذا كانت جميلة، وإلى العراقة إذا لم يسعفها الجمال. وكان يشار أيضاً إلى مواضع خاصة لا تلحظها العين بسهولة، كصغر السن، أو دماثة الخلق، وبعض الأحيان إلى الملابس التي ترتديها، أو حتى إلى العطر الذي تستعمله ويفوح ليملأ المكان، كل ذلك، في محاولة لتسجيل بعض النقاط.

كانت نجمة العجرمي موضع إجماع القصر في الرفض والإنكار. فقبل أن تصل، ورغم استمرار تكذيب أخبار هذا الزواج، حتى قبل الزفاف بليلتين، فقد رسمت لها صورة تبعث على الإضحاك والشفقة في آن واحد. وإذا كانت أية من زوجات السلطان لم تكلف نفسها عناء التحدث في الأمر، لأن كل واحدة منهن تعتبر نفسها أكبر وأهم من الخوض في زواج مثل هذا، والذي ظلت أسبابه أو دوافعه غير واضحة، فإن الخادمات قمن

نيابة عن السيدات بإشاعة الأخبار: «من يوم موت لولوة والعجرمي له مثل ظله، يكتب له حجب ويشمّمه الزعوط، وبين الاثنين يبخّره ويدهنه، وما عاد يأمن لأحد؛ قبل ما يمد يده إلى طعام يلزم اللي طبخة يأكل منه؛ وما يشرب قهوة إلا من يد فرحان المدلول. ما هو بس كذا ما عاد أحد يعرف وين ينام ومتى. وبعد ما تعّبه العجرمي ودوّخه قال له: دواك عندي. وشنهو الدوا؟ هذي المسخوطة، المعظّمة، اللي ما أحد يشربها بنواة، وهذه اللي طردتها زوجته الأخيرة، هي اللي صارت الدوا» وتضحك التي تتكلم لتضيف الأخرى: «والله العليم أن الصناديق اللي جت معها كلها بلاوي: سفوف ودهون وسخام البين، لأنها ما تركت أحد يقرب منها، وكانت أحرص عليها من الذهب والحرير، ما هو بس كذا، سفّرتها كلها معها، وكانت عمتها احرص منها وهم يحمّلون الصناديق: ديروا بالكم، على مهلكم، خاف تقع، خاف تنفتح، وعلى روسهم وهم يشيلون ويحزّمون» وتضيف الأولى «على قولك، وإلا اللي تريد ترجع، اللي تريد تلقى لها مكان بقصر الروض، تطرح به شي، تطرح ولو حجر. هذي ابد، أخذت كل شي معها».

وقد تأكدت الإشاعات وترسخت حين سافر العجرمي مع السلطان. لأول مرة، يسافر. ولأول مرة يحرص السلطان على أن يكون معه. وهذا يفسر أيضاً كيف تم انتزاع الفرس التي هرّبتها فضة، ثم هيأتها لتكون هدية لابنها راكان، حين يتم الاحتفال به على أنه بلغ مبلغ الرجال. انتزعها السلطان دون تردد وبعث بها إلى العجرمي قبل الزواج بأسابيع.

مرافقة العجرمي للسلطان إذن لم تكن بسبب صلة النسب التي قامت خلال الفترة الأخيرة، كما أشيع، وإنما بسبب الدور السحري الذي بدأ يمارسه على السلطان منذ أن داهمته تلك الكوابيس حول احتمال قتله أو تسميمه، وأن ذلك يتم، كما أكد بعض الذين سمعوا العجرمي، من داخل القصر، ومن أقرب الناس إليه.

فضة كانت أول وأكثر نساء السلطان التي شعرت بالإهانة، وأوعزت لخدمها وعبيدها أن لا يتركوا شيئاً يمكن أن يُروى عن العجرمي ألا ويجب

أن ينقلوه لكي يعم ويشيع، وجارتها النساء الأخريات بعد بضعة أيام. حتى وطفة التي خافت، أول الأمر، نتيجة مقتل لولوة ثم حزنت بعد انقطاع السلطان، لم تتأخر في الإيعاز إلى الخصيان والخدم لأن يتحركوا. ومثل عادة الخدم دائماً، فقد بالغوا كثيراً، وأكدوا أن العجرمي وراء مقتل لولوة، ودليلهم على ذلك أنه وحده المستفيد مما حصل. يضاف إلى ذلك أنه رفض الصلاة على جثمان القتيلة، حين طلب منه، وكان تبريره: «المغدورة قتلت نفسها ولم يقتلها أحد».

طالع العريفان، مثل عادته، انشغل بتأمين مستلزمات الزوجة الجديدة، بعد أن خصّها السلطان بواحد من الأجنحة الثلاثة الفخمة التي بنيت بعد أن ترك خزعل قصر الروض، وقد استغرب الوضع الجديد في القصر، إذ كانت العادة أن تكثر الطلبات في مثل هذه الحالات، وأن تتعارض إلى أقصى حد، بقصد خلق جو من الإرباك والتحدي أكثر مما هي لإزعاج الوافد الجديد. هذه المرة بدت الأمور مختلفة. قال طالع لعرفان الهجرس الذي جلب له «فرمان» السلطان، المختوم والموقع عليه.

ـ ما تقول لي يا عرفان: اشوف بنت العجرمي تختلف عن غيرها من نساء طويل العمر «كل شي يلزم يكون منتاز منتاز» وبدل الواحد اثنين، ويلزم اليوم قبل باكر، ما تقول لي شن هي السالفة؟

ـ أنت أدرى، يا أبو جازي، صار لك سنين بالقصر، وتعرف الصغيرة والكبيرة.

رد بتورية:

ـ كل كبيرة عرفناها يا عرفان، بس هذي، لأنها صغيرة، ضاعت علينا.

ـ لأنها شيخة وبنت شيوخ يا أبو جازي!

تطلع إليه ابن العريفان، ابتسم ابتسامة كبيرة هز رأسه عدة مرات وقال:

ـ هالحين عرفنا السبب، وإذا عرف السبب بطل العجب!

كان الاثنان يشيران إلى أن العجرمي لا يُعدّ ولا يذكر حين تسمى القبائل ويسمى الشيوخ!

ومثلما كانت طلائع موكب السلطان في مرات سابقة قواته العسكرية، فقد كانت طلائعه هذه المرة أمواله ورسله. صحيح أنه تمهل في عدة محطات على الطريق، إذ استقبل عدداً كبيراً من الشيوخ، وأطال إقامته في عين بنات. لقد فعل كل ذلك لكي يتيح لرجاله تهيئة استقبال لائق، وتأمين وصول الأموال والهدايا إلى الذين وُجّهت إليهم.

عبدالله البخيت التزم بتوصية السلطان «أريدك تلازمه مثل ظله يا أبو بادي، وإذا سها عن الصلاة، أو تاهت عليه القبلة، تذكره وتدلّه»، وبعد أن يبتسم السلطان، يقرب فمه من أذن عبدالله ويهمس:

«وصلاتي وتسليمي على سيد البشر عدد ما زها بالنبت نوار الأرياف».

وحين يدير ابن البخيت رأسه عجباً لأن السلطان أخذ يردد القصيد، يضيف السلطان وهو يطبطب على كتفه:

ـ وأريدك يا عبدالله تفهّمه أنه إذا كان يعرف الله ويسبحه مرة حنا نعرفه مثله ونسبحه ميّة مرة!

وابن البخيت الذي يمكن أن يقوم بهذا الدور ليوم أو ليومين، لا يستطيع أن يمثل طوال أسابيع. ليس ذلك فقط، فإن السلطان ذاته، وفي أحيان كثيرة، ومهما أبدى من الجد، أو مهما وصل به الورع، كان يروق له في حالات التعب، ومع رجاله المباشرين، أن يسمع النكات، أن يقهقه، ولا يتردد في أن يخوض في أحاديث النساء أيضاً.

الآن، في هذه الرحلة الطويلة والبطيئة، ونتيجة وجود العجرمي، فقد سادت تقاليد جديدة، أقرب إلى الصرامة، فلم يبق أحد إلا واستغرب وتساءل. ومما زاد في الإرباك أيضاً أن نجمة كانت المرأة التي ترافق السلطان، إذ لو كانت امرأة غيرها، أو لم يكن العجرمي أباها، لاستطاع ابن البخيت أن يخترق هذا الحاجز الصلب من الجدية، وأن يجد طريقة لإشاعة جو جديد من المرح يساعد على تحمل أعباء الرحلة.

قال لابن العليان وهما في عين بنات:

ـ تعرف يا أبو عزيّز؟

نظر إليه عثمان بتساؤل دون أن يجيب. تابع:

ـ والله، لو أن الجماعة اللي سموا هذي العين عين بنات يعرفون أن شيخنا راح يمرح هنا لكان سموها عين هباب أو عين غراب!

السلطان الذي كان يتمشى غير بعيد مع هاملتون وفنر، وكانوا يستعيدون ذكريات أيام ماضية. طرقت سمعه ضحكة عثمان العليان الصاخبة، ابتسم، وبدأ يتوجه نحو الاثنين، وحين أصبحت المسافة كافية لأن يتبادل معهما الحديث سأل:

ـ ها، يا جماعة الخير، أشوفكم تركتم الخويا وانفردتم، وكأن ابن البخيت يريد يطلع قصور السوالف، ويريد يضحك عن أجداد أجداده.

قال ابن بخيت، وقد اتخذ مسلكاً جاداً وهو يرى العجرمي مقبلاً:

ـ «قيل لعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: أتقول الشعر مع النسك والفضل والفقه؟

فقال: لا بد للمصدور من أن ينفث».

لما وصل العجرمي سلم ونقّل نظراته في الوجوه، لكي يكتشف ما إذا كان الذي سمعه هو الحديث الوحيد أم تم اختياره لأنه جاء. قال لابن البخيت:

ـ شنهو اللي قلته يا عبدالله؟

ـ قلت، طال عمرك، كلام لعبيد الله بن عبدالله. . .

ـ قله مرة ثانية.

ـ قيل لعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود: أتقول الشعر مع النسك والفضل والفقه؟ فقال: لا بد للمصدور من أن ينفث.

ـ وغيره قال، يا ابن البخيت: «إياكم والغناء فإنه مفتاح الزنا».

ـ لكن ما أحد غنى يا شيخنا.

ـ سمعت الطرقيعة من بعيد، قلت لروحي: قم وشوف شن هي السالفة، وصلت وأنت تروي الحديث.

ـ وتعرف يا شيخنا أن عمر بن عبد العزيز قال: «والله إني لاشتري المحادثة من عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعدو بألف دينار من بيت مال المسلمين. فقيل له، يا أمير المؤمنين، أتقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك وتنزهك؟ فقال: أين يذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف الدنانير، أن في المحادثة تلقيناً للعقول، وترويحاً للقلب، وتسرحاً للهم وتنقيحاً للأدب».

قال العجرمي يخاطب السلطان مداعباً، أو ربما ساخراً:

ـ ابن البخيت شويخ، ما هو شيخ، يا طويل العمر، يعرف الأحاديث زين، لكن، ظني، إذا ماني مخطي، دايماً يدير النار نحو قرصه!

ـ والله يا شيخنا كنت أظن أن رأيك بي أحسن!

ـ رأي بك يا عبدالله زين، بس أريدك أحسن وأحسن.

ـ ما دام ترافقنا بهذي السفرة الطويلة، وشفنا، وتعلمنا، يلزم أن البني آدم يتعلم أكثر ويصير أحسن...

وضحك ابن البخيت وأضاف:

ـ وإذا كنت سمعت عني شي، من قبل، طال عمرك، فهالحين عرفتني وخبرتني!

هز العجرمي رأسه عدة مرات وقال:

ـ اللي سمعته كثير، يا ابن البخيت، بس كنت أقول لهم دايماً: يا جماعة هذا ابن البخيت ما مثله، عالم وصاحب أدب، وبسفرتنا، والشهادة لله، تأكدت.

قال عثمان العليان ليخلق جواً مرحاً:

ـ إذا اعتمدنا، يا طويل العمر، على ابن البخيت، مثل ما اعتمد عمر بن عبد العزيز على ابن مسعود، أن المحادثة بألف دينار، ترى فلوسنا كلها ما تكفيه، لأن سوالفه كثيرة!

رد ابن البخيت بمرح:

ـ إذا ما حصّلنا حقنا بالدنيا نحصله بالآخرة، لا تخف يا أبو عزّيز، وعلى نياتكم ترزقون!

كان عبدالله البخيت يريد، قبل أن يغادر عين بنات، أن يصيح أوف، وكانت الرغبة ذاتها عند ابن العليان، وربما عند السلطان أيضاً، لكن ذلك الجو الثقيل، اضطر هاملتون لأن يغادره خلال ثلاثة أو أربعة أيام متوالية، واصطحب معه فنر أيضاً، لزيارة الآثار القريبة، مرة أخرى، ولكي يشغل نفسه جزءاً من أول المساء في تدوين ما وصل إليه من نتائج، أما ما تبقى من السهرة فكان يقضيه في الاستماع إلى أحاديث الدين والفقه، أو في معرفة أسماء أولاد فلان وفلان من المعارف!

عنان بسيوني الذي ذهب أكثر من مرة إلى الطريفة وعاد، من أجل أن يساهم، مع الآخرين، في إيصال الأموال التي بعث بها السلطان، ومن أجل تهيئة استقبال يليق بهذه الزيارة، وبعد أن حضر أكثر من أمسية، وكان أبرز المتحدثين العجرمي، قال لابن البخيت وهما يذهبان إلى النوم:

ـ حتى في الأزهر، الجماعة يعرفوا يبتسموا، يقولوا نكتة، دا راجل حقنة، فالله يساعدك، يا أبو بادي، انك تحملته كل الفترة دي.

ـ بالنسبة لي، يا بك، كلها كم يوم، وبعدها في أمان الله، لكن السؤال: شلون أهله تحملوه؟

ـ وشلون راح يتحمله أبو منصور؟

ـ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها!

ـ الله يساعد الأرض وهو فوقها والله يساعدها عندما يصير ببطنها!

الاحتفالات التي أقيمت في العوالي كانت من الفخامة والأهمية بحيث جعلت العجرمي ذاته، يشعر بالقوة والفخر، فهو ليس شيخ موران وحدها، وليس قريب السلطان فقط، أنه الذي يُفتي، والذي يعطي. وعلماء العوالي، الذين اجتمعوا إليه عدة مرات، وتبادل معهم الأفكار والآراء، خرجوا بانطباع أن «الشيخ العجرمي يمكن التفاهم معه، لأنه، بالإضافة إلى سعة علمه، صبور جلود، ويعرف أن لكل مقام مقال». أما السلطان الذي بدا فخوراً بهذه النتائج، فقد طلب من العجرمي ومن فضيلة العلماء أن

يواصلوا النقاش، وأن يتوصلوا إلى النتائج المحمودة. وانصرف إلى الأمور الأخرى.

العوالي التي ظلت، خلال الفترة الماضية كلها، قلقة منتظرة، وعرضة للكثير من التقلبات، ما لبثت أن شعرت بالرحة، نتيجة الأمطار التي سقطت، والأموال التي صرفت. وبدأت أصداء ابن ماضي وتأثيراته تتراجع، فقد مل الناس الحرب، بعد أن أنهكهم الجوع والموت، وشعروا أن الذين يتحاربون لا يعنون لهم شيئاً خاصاً أو هاماً.

الفقراء في العوالي استمروا كذلك، أو ربما ازداد فقرهم، لأن الحرب سدت أمامهم أكثر السبل. أما الأغنياء فقد خافوا أول الأمر، أخفوا أموالهم وتظاهروا أنهم فقدوا كل شيء، بل وتظاهروا بالفقر أيضاً. لكن، والأمور تعود إلى ما كانت عليه، فيرجع البيع والشراء، وتمتلئ الأسواق، أظهر الأغنياء أموالهم من جديد، وبدأوا يشترون ويبيعون، وأصبحوا أكثر غنى من قبل، خاصة نتيجة الأموال التي تأتي من هنا ومن هناك!.

أما الذين كانوا من رجال ابن ماضي، ويحاربون معه أو باسمه، وبعد أن انهارت الدفاعات التي بناها، وانسحب القادة، وتقدمت قوات خريبط، فقد تواروا خلال الأسابيع الأولى، حتى إذا هدأت المعركة عادوا من جديد، وهذه المرة على أنهم رجال خريبط والمتحمسون له. ثم ما لبثوا أن أصبحوا كذلك فعلاً. وهكذا استمر السوق نفس السوق، وزعماء الأحياء نفس الزعماء، وكذلك شيوخ القبائل، والذين كانوا أغنياء.

قال بعض الفقراء وهم يشهدون الدول تذهب وتأتي غيرها:

ـ في هذه الدنيا كل شيء يتغير إلا الفقر والفقراء، الفقر يبقى والفقراء يزدادون!

ولم يعرفوا لماذا يحصل هذا كله، ولماذا يبقون هكذا!

ابن مشعان الذي أراد أن يصل إلى عين بنات لكي يصطحب السلطان، أو ليكون في ركابه، لم يسعفه الوقت، فقد تأخر في ترتيب أموره واستدعاء القوات اللازمة، فتم الاتفاق أن يكون الاستقبال بالطريفة، وبشكل يناسب أهميةِ الزيارة.

قال هاملتون للسلطان:

ـ المهم الآن أن نكسب الناس، أن نرضيهم، لأن الرضا الداخلي ينعكس على الخارج، خاصة في هذه الفترة الحرجة. والناس ليسوا مرتبطين بابن ماضي، وإنما مرتبطون بمصالحهم وأمنهم، فإذا تأمنت المصالح، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم، فإن الفرص المتاحة للوضع الجديد أكبر بكثير مما كانت متاحة من قبل، خاصة وأن ابن ماضي قد استبد بالناس وكلفهم ما لا يطيقون، إضافة إلى ويلات الحرب والدمار.

لم يكن السلطان بحاجة إلى دروس نظرية، كان يريد رجالاً، وكان يريد تنفيذ شيء يمكن أن يلمسه الناس. وإذا كان قد بعث عدة رسل لابن مشعان كي يتصرف بحكمة وتعقل، وأن يكسب رضا الناس، أكثر مما يحملهم على الإذعان، فإن ابن مشعان فهم الرسائل جيداً، خاصة بعد أن اختبر الأمر بنفسه، فلم تمضِ فترة حتى أصبح إنساناً آخر.

قال عبدالله البخيت، حين كان يستعرض السلطان التغير الذي حصل لابن مشعان:

ـ وحنا بمصر، يا طويل العمر، تعلمنا من الجماعة الكثير، تعلمنا منهم المذهب الشافعي والنكت.

رد السلطان بمرح:

ـ وما قولك باللي ما يتعلم، يا عبدالله؟

ـ هذا أبد ما يصير، يا طويل العمر.

ـ صار، يا ابن الحلال!

ـ إذا صار يلزم أنت تذبحه قبل ما يذبحه عدوك!

قال السلطان لابن مشعان في أول لقاء في الطريفة:

ـ العوالي ما مثلها: هواها وماها وناسها...

رد ابن مشعان بانفعال:

ـ العوالي، يا طويل العمر، تقدر تقول إنها غير موران، هنا...

وتلفت إلى أكثر من ناحية؛ ثم أضاف:

ـ الناس هنا يقدّرون، يفهمون، ويمكن تصل معهم للي تريده.
ـ تراك نسيت ماء موران يا ابن مشعان.
ـ ابد ما ينّسى، يا طويل العمر، بس يلزم الإنسان يعرف اللي حوله ويفهمه.

تابع السلطان بمداعبة:
ـ وما تركت ديرة أو عشيرة، يا ابن مشعان، إلا وزرعت فيها، وعسى أن زرعك طاب.

رد ابن مشعان، وقد شعر بالحرج:
ـ الناس، يا طويل العمر، للناس، فإذا الواحد ما مالحهم يحسبونه غريب!

رد ابن البخيت بمرح:
ـ يمالحهم، ما يخالف، بس ما يلهم ملحهم كله!
ـ الملح، يا ابن البخيت، ذرة وينشبع منه، ما هو مثل غير شي.

ومثلما انصرف السلطان إلى استقبال الوجوه والتجار والمشايخ وزعماء العشائر، كما فعل في زيارته السابقة، فعل هذه المرة، وزاد على ذلك بأن زار الكثيرين، وصلى في أكثر المساجد، وكان العجرمي وأغلب رجاله معه دائماً. ولم تقتصر زياراته على الطريفة وما حولها، فقد بدأت تتسع وتمتد، فلم يترك مكاناً في العوالي إلا وزاره. وحين يضطر للبقاء في مكان معين أياماً يبعث بفنر وعدد من رجاله لكي يقوموا نيابة عنه بالزيارة، والتي يرافقها التبسط في الحديث والهدايا والسؤال عن الزرع والمطر. وكان عرفان الهجرس دائماً واقفاً إلى جانب السلطان، ومستعداً دائماً لأن يكتب ما يمليه عليه.

ـ اكتب يا عرفان، وأبد لا تنس شيء، ومن رجعتنا تذكرني، لأن الجماعة طلباتهم مستقيمة ويستاهلون!

قال للعجرمي ذات ليلة، وكانا وحدهما:
ـ أنت، يا أبو مشعل، ما عدت شيخ موران وحدها، فالعوالي تبعتك، والحويزة، وكل أرض وكل ناس تبع السلطان تبع لك يا أبو مشعل!

والعجرمي الذي بدا مهموماً لثقل هذه المسؤوليات واتساعها، كان في داخله يرقص طرباً. فإلى فترة قريبة كان يرتاب بالسلطان، ويود لو أن العلاقة بينهما بعيدة، لكن حين لمس الحب والتقدير، فقد انتعش وتغير. قال رداً على هذا الكلام:

ـ الله يقدرنا يا أبو منصور، لأن هذه المسؤوليات عليها حساب في الدنيا والآخرة.

ـ ولا بد أنك لاحظت، طال عمرك، أن جماعة العوالي غير جماعتنا، فيلزم أن الواحد يطّول باله ويأخذهم على قدر عقولهم.

وضحك السلطان ثم أضاف:

ـ ولا بد أنك تخبر ابن مشعان شلون كان وشلون صار بهذي الأيام؛ وأهل العوالي إذا داريناهم وشيمناهم، إذا عطيناهم، وقلنا لهم حلت البركة، فهم معنا ما هم مع غيرنا، لا مع ابن ماضي ولا غير ابن ماضي!

ـ الصدق اللي تقوله يا أبو منصور، وكثيرين منهم قالوا لي هذا الكلام.

ـ وما يخفاك، طال عمرك، أن المشايخ هم عماد الدولة والدين، فإذا ارضيناهم، وإذا اقتنعوا، ترانا بألف خير.

رد العجرمي بانفعال:

ـ اترك هذه المسألة عليّ يا أبو منصور، وإن شاء الله ما تكون إلا راضي!

وبانفعال مماثل رد السلطان:

ـ بارك الله فيك يا أبو مشعل، وحنا لولاكم ما نسوي شي.

وبعد قليل وبهمس:

ـ وإذا احتجت قريشات، يا أبو مشعل، حتى تعطي هذا وذاك، ترى الفلوس واجدة، بس أنت تؤمر.

هز العجرمي رأسه ولم يجب.

أربعة شهور متوالية لم يهدأ خلالها السلطان أو أحد من رجاله. ورغم التعب والسفر المتواصل، بدا له أن النتائج التي تم التوصل إليها مرضية. لم يكن هذا رأيه وحده، كان رأي أغلب المستشارين، وبدا كل واحد من هؤلاء متفائلاً. حتى العجرمي الذي يفضل أن يبقى قريباً من السلطان وملازماً له، ما لبث أن انفرد، وأخذ يقوم بزيارات خاصة، وترافقت هذه الزيارات مع وعود كثيرة ببناء المساجد وتحسين أحوال المشايخ. ورغم أنه اعتبر المال، في بداية الأمر، مفسدة، ويجب ألا تلجأ إليه الحكومة، فقد وجد أن حالات معينة لا يمكن أن تعالج إلا عن طريق المال، مما اضطره لإشعار السلطان. قال لجلالته ذات ليلة:

ـ . . . والجماعة هنا، يا أبو منصور، تعودوا عادات ما هو من السهل يتركونها، وهم دراويش ومساكين، فإذا حنا ما تصدقنا عليهم ما من أحد يتصدق، ومن رأيي نخصص لهم شي.

ـ حلت البركة، يا أبو مشعل، بس أنت قول.

ـ أنا بيدي، يا طويل العمر، ما أمسك قرش واحد، أنا أقول اصرفوا والوكيل هو اللي يصرف.

ـ ما يخالف، طال عمرك، وحنا دايماً نريدك كبير، وهذي الأمور الصغيرة لها ناسها، بس أنتم اللي تناظرون وتأمرون، وهم اللي ينفذون!

ـ على خيرة الله!

في إحدى الليالي، وعلى حين فجأة وصل القنصل البريطاني، كان السلطان بين دارة ودريم، على مسافة من الطريفة، وقد وصلها وبنى معسكره، وقرر أن يستريح بعد هذه الرحلة الطويلة.

القنصل، رايان سميث، رغم دمائته، ورغبته في تقديم المساعدة، واستعداده لتسهيل المعاملات إلى أقصى حد، عكس إيجلتون الذي كان قبله، بدا في تلك الليلة إنساناً آخر:

ـ إن حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى تبلغ جلالتكم، بمزيد الأسف، أنها مضطرة لإعادة النظر بعلاقاتها مع حكومتكم، وقد تكون مضطرة لاتخاذ تدابير عاجلة في مناطق الحدود بعد الاعتداءات الخطيرة والمتكررة التي قامت بها قوات جلالتكم.

فوجئ السلطان بالزيارة، وفوجئ أكثر بلهجة القنصل الجافة والحازمة، ولم يكن يدري بوقوع الاعتداءات. قال للقنصل بتبسط، لكي يزيل الغضب:

ـ أول مرة تفهمنا، الله يسلمك، شنهو اللي صار، وبعدها تقول لنا يصير وما يصير!

ـ إن حكومة صاحب الجلالة تعتبركم مسؤولين مباشرة عن الاعتداءات.

والسلطان الذي يمكن أن يغضب ويحتد لأمور أقل من هذه بكثير، احتمل غضب القنصل، وقدر أن حوادث معينة وقعت، ولم تصل إلى علمه. قال للقنصل:

ـ كل مشكلة، يا ابن الحلال، ولها حل، بس علّمنا شنهو اللي صار.

ازداد القنصل غضباً، فقد أحس أنه موضع سخرية نتيجة التجاهل الذي يبديه السلطان، إذ لا يعقل أن أخبار الحويزة لم تصله، لكن مثل عادة البدو دائماً: يعرفون كل شيء، لكنهم يتظاهرون أنهم لا يعرفون أي شيء، بهدف أن يختبروا الخصم، أن يجدوا ثغرة في كلامه أو مواقعه لكي يبدأوا الهجوم. القنصل يعرف هذه المعلومة، وقد اختبرها بنفسه، ولذلك اعتبر أن السلطان يلعب معه هذه اللعبة.

وصول هاملتون وفنر، وقد تخلل اللقاء في الدقائق الأولى، الحديث باللغة الإنكليزية، أزال الالتباس وغيّر الجو.

اعتذر القنصل، بشكل عابر، لأن جلالة السلطان لم تصله بعد أخبار

الاعتداءات الخطيرة التي وقعت من قبل قوات ابن مياح على مناطق الحدود وعلى القوافل، وأن هذه القوات توغلت إلى مسافات كبيرة، والعالم كله لا يتحدث إلا في هذا الموضوع، وأن بريطانيا وأصدقاءها، إذا كانوا قد تحملوا في الماضي، فلم يعودوا قادرين على السكوت.

بدا الذهول على السلطان لسماعه هذه الأخبار. ظل فترة طويلة صامتاً، يهز رأسه وقد ارتسمت أمامه ثلاثة وجوه: وجه خزعل والذي يشبه وجه الحصان، ووجه ابن مياح بنتوئه وأنفه الحاد والذي يشبه الذئب، أما وجه عمير، والذي كان يتداخل مع الوجهين السابقين، فكان يتغبر كل لحظة، ولم يستطع أن يتصوره بدقة.

ظل السلطان مطرقاً مفكراً مهموماً، والعادة أن لا أحد يستطيع أن يكسر الصمت، إلا إذا سمح. والقنصل الذي تضايق من هذا الصمت، اعتبر أن اللعبة البدوية الماكرة لا تزال هي المسيطرة، وان أخذت في الطور الجديد شكلاً مختلفاً.

قال لهاملتون شيئاً باللغة الإنكليزية، رد عليه هاملتون بكلمة أو اثنين. تنحنح وخاطب السلطان:

ـ جئت إلى هنا، يا صاحب الجلالة، لكي أقدم احتجاجاً باسم حكومتي على هذه الاعتداءات، ولكي أبلغكم أيضاً أن حكومة صاحب الجلالة تحتفظ لنفسها باتخاذ الإجراءات التي تراها مناسبة، بما في ذلك الرد العسكري.

فتح السلطان عينيه، وعبّرت نظرته، وقد تطلع إلى الذين حوله، عن الغضب والتوسل معاً، وبدا أنه غير قادر على الرد. تابع رايان سميث:

ـ وقد طلبت مني حكومتي أن أبلغها بالإجراءات التي سوف يتخذها صاحب الجلالة.

قال هاملتون:

ـ هل تسمح لي يا صاحب الجلالة؟

رد السلطان بانفعال وحزن:

ـ أنت يا الصاحب معنا من يوم ما تركنا موران، وتعرف كل شي،

وحنا، الله الوكيل، لا علم ولا خبر، بس هذا الكلب ابن الكلب، ابن مياح يريد يخربها بينّا وبينكم، ولازم هو اللي شعلها.

قال هاملتون:

ـ أستطيع أن أشهد وأؤكد أن حكومة صاحب الجلالة السلطان ليست على معرفة أو صلة بالحوادث التي يشير إليها سعادة القنصل، وإذا وقعت بعض الحوادث فلا بد أن تكون بفعل عناصر محلية موجودة هناك، وربما تكون نتيجة استفزاز الطرفين. هذا أولاً؛ وثانياً أن العلاقة التي تربط الحكومتين من القوة والمتانة إلى درجة تؤهلهما لأن يعالجا حوادث مثل التي تشير إليها، ولا تقتضي بالتالي أن تتعرض العلاقات بين الحكومتين إلى التوتر أو سوء التفاهم.

بدا السلطان مرتاحاً إلى أقصى حد. تحرك في مجلسه أكثر من مرة، وكأنه يريد أن يقترب من هاملتون، أما نظراته فقد كانت مليئة بالامتنان. كان يفكر أن يقول شيئاً مثل الذي قاله هاملتون قد لا يكون بهذا الوضوح أو بهذا الترتيب، لكن هذا ما يعنيه.

تابع هاملتون:

ـ أما بالنسبة للإجراءات اللاحقة، فأعتقد أن إحدى القضايا التي ستكون لها الأولوية في المعالجة هي هذه القضية، وسوف يتخذ جلالته الإجراءات الحازمة لمعاقبة المسؤولين أولاً، ولعدم تكرار مثل هذه الحوادث في المستقبل.

ـ تمام، يا الصاحب، هذا اللي ببالنا وهذا اللي راح نسوّيه، ولو قدرنا اليوم قبل باكر.

هكذا رد السلطان بانفعال، ثم أضاف بعد أن تلفت:

ـ وحنا، إن شاء الله، متحركين بين يوم والثاني، ولا بد أصل الحويزة بنفسي، وأنت طمّن الجماعة هناك، وسلم لنا عليهم كثير السلام، وقل لهم: طويل العمر تأثر واجد، وهذا اللي صار ما يهون عليه، ولا يسمح به. أما المستقبل، فمثل ما قال الصاحب.

وهذه المحطة بين دارة ودريم المعروفة بمياهها الدافئة، والموصوفة

لأمراض كثيرة، كانت رغبة العجرمي منذ بداية الرحلة، فالأوجاع التي تعاوده، بين فترة وأخرى، خاصة في الركبتين والورك الأيسر، تقعده أياماً وأسابيع، وقد ذكر له الكثيرون، وبعضهم جربها بنفسه، «أن غطستين بهذي الماي، والثالثة يطلع البني آدم سليم معافى، ما هو بس كذا يحس بالنشاط والقوة». وأكد له اثنان من المسنين زارا هذه المياه معاً، أنهما كانا مقعدين، وكانا يشكوان من آلام مبرحة بالظهر والسيقان، إضافة إلى المفاصل كلها، وما كادا يقضيان أسبوعاً واحداً حتى عادا شابين، وأسر له أحدهما أنه لم يصبر أكثر من شهر حتى تزوج من جديد!

والسلطان حين اختار هذا المكان، كان يريد إدخال السرور على قلب العجرمي، كما أنه كان بحاجة ماسة للراحة والتفكير بما يجب أن يفعله في المرحلة القادمة. الآن، بعد هذه الزيارة، لم يستبد به القلق فقط، وإنما أصبح إنساناً آخر: امتلأ بالغضب والحدة، واعتكف في خيمته لا يريد أن يرى أحداً. أما الشتائم التي كالها لرجاله في الحويزة، فقد سمعها الكثيرون.

العجرمي نتيجة الأخبار والجو الذي رافقها لا يعرف هل يبدأ العلاج أو يرجئه، خاصة وأن سخونة الماء أزعجته بعد أن ذهب في اليوم الأول، فاكتفى بأن شمّر عن ساقيه، حتى الركبتين، ودلاهما في الماء، لكن وهو يحاول النهوض، بعد دقائق، انزلق ووقع على جانبه الأيمن، فأصبح الألم الذي يعاني منه ليس مقصوراً على جانب واحد، وإنما امتد وشمل الجانبين!

قال هاملتون لفنر بعد أن انقضت الليلة الأولى، وانقضى اليوم الذي يليها والسلطان معتكف:

ـ السياسة، يا صاحب السمو، لا تكون بالهروب منها أو بالغضب، يجب أن تواجه المشاكل مهما كانت قاسية وصعبة، وأن نتخذ قرارات مهما كانت مؤلمة.

وفنر الذي هز رأسه موافقاً، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ جماعتنا بالسياسة مثل ما يتصرفون بالزواج والسفر: يلزم يبيتون

استخارة وينتظرون الخميس، يوم السعد!

بدت الفكرة طريفة لهاملتون، واستغرب أنه لم ينتبه لتصرفات مثل هذه، وبعد أن استفسر من فنر عن أيام السعد بالنسبة للزواج والسفر والحرب والبيع والشراء، قال في محاولة لئلا يجرح:

ـ معظم الشعوب العريقة لها معتقداتها وطقوسها وأساطيرها، ولا يعرف الإنسان كيف نشأت، أو دلالاتها الحقيقية الدقيقة!

ولم يتأخر الاثنان في الاستئذان للدخول على السلطان وبحث الأمور معه.

قال هاملتون بعد مقدمات ومجاملات طويلة:

ـ كنت أتمنى، يا صاحب الجلالة أن تبقى فترة في العوالي، لكن يبدو أن الظروف ستضطرك للسفر، ولا بد أن أشير هنا أن الأوضاع خلال الشهور الأربعة، أثناء وجودكم هنا، قد تحسنت كثيراً، وربما لو أتيح لكم أن تبقوا فترة أطول لاستطاع جلالتكم أن يصفى ما تبقى لابن ماضي من رجال ونفوذ. . .

زفر السلطان مثل خنزير، وتطلع إلى فنر، وكأنه يقول له دون كلمات: «شفت أخوك خزعل؟».

قال هاملتون بنفس النبرة:

ـ أرى، يا صاحب الجلالة، أن نستفيد مما تحقق، من خلال وجودكم، وأن يتابع صاحب السمو الأمير فنر المهمة نيابة عنكم، إلى أن تفرغوا من أمر الحويزة.

قال فنر بانفعال:

ـ أنا رجلي على رجل أبوي، وما يصير يروح يحارب، يروح للحويزة. وأنا هنا بالفي والمي!

ضحك السلطان بحزن وهز رأسه عدة مرات، وقال بعد فترة صمت:

ـ الحرب يا وليدي بكل مكان، وماهي بس بالتفك، واللي يقوله الصاحب عين الصواب.

ـ وأنت تروح وحدك للحويزة؟

ـ لا يا وليدي، اللي يروحون كثر، ويجوز ما أروح، يجوز أطرّش جماعة اعتمد عليهم، ويجوز أخوك خزعل كفانا شر هالأخباث.

وضحك السلطان ضحكة صغيرة وسأل:

ـ وخالك يا وليدي، شلون نعامله؟ شلون نتعامل معه؟ هذا حيّرنا وما لقينا طريقة نتفاهم معه، يركص من هنا لهنا يسبسب ويصيح...

رد فنر بانفعال:

ـ الدولة، يا يوبه، أكبر مني ومن خالي، ويلزم عمير يمسك حده وما يتعداه، وإذا زاد عن الحد: لا والله، هذا ما يصير، وما نسكت، لا عليه ولا على غيره!

وفي هذه الليلة تم الاتفاق على أن يكون فنر نائباً للسلطان في العوالي، وأن يبقى معه هاملتون وعدد من المستشارين، وأن يسافر السلطان خلال يومين، وأقصى حد ثلاثة أيام، من أجل معالجة أمور الحويزة.

قال هاملتون في نهاية اللقاء:

ـ وإذا اقتضى الأمر أن أسافر لبريطانيا لمعالجة بعض القضايا، فأنا جاهز، يا صاحب الجلالة، أرجو فقط إشعاري، مع رسالة من جلالتكم توضحون لي التفاصيل، وسوف نتوصل إلى نتائج مناسبة.

الشيخ العجرمي، رغم الآلام، لا زال يحن إلى غطستين أو ثلاث في المياه المعدنية، أما حين أبلغه السلطان أنه سيعود إلى موران بالسيارة، فقد قلب شفته السفلى، فبانت كأنها ملصوقة في وجهه، وكان معنى ذلك أكثر من الرفض، كان معناه الاستنكار.

وتأخر السلطان يوماً آخر، لكي يصادف سفره يوم الأربعاء! وسافرت معه نجمة، وعدد كبير من الحرس والمرافقين. أما الشيخ العجرمي، فقد اختار الأشخاص الذين سيبقون معه، واختار الركائب التي يفضلها، ونقل خيمته من المكان الذي كانت فيه إلى مكان أقرب من نبع المياه المعدنية في عين دامة.

لقد ما تغير قصر الروض خلال الفترة التي قضاها السلطان في العوالي: الانسجام، أو الاتفاق الضمني، الذي قام بين نسائه، في الموقف تجاه نجمة، انهار قبل أن ينقضي الأسبوع الأول على السفر؛ بل أكثر من ذلك، علاقات التعايش التي كانت سائدة في فترات سابقة تحولت إلى عداء مكشوف، وإلى إشاعات واتهامات لا تهدأ ولا تنتهي؛ الرضا أو الصمت الذي كان يميز بعض النساء أو بعض العلاقات، أصبح تحدياً مباشراً، مع استعداد لا يخفى للعراك والتصادم.

فضة، أم راكان، التي شعرت بالمذلة والانكسار لأنها فشلت في إقناع السلطان بإقامة احتفالات البلوغ، وقد هيأت من أجل ذلك الخيول والمغنين، وأشاعت في القصر كله أن الاحتفال الذي سيقام لراكان في القصر سوف تتحدث عنه موران لسنين وسنين، وفشلت أيضاً في أن تكون الزوجة التي ترافقه في سفرة العوالي، ما لبثت أن حوّلت هذا الانكسار والفشل إلى عنف وتحديات، إذ لم تتوقف يوماً واحداً عن تحريض العبيد والخصيان والخدم من أجل فرض السيطرة، باعتبارها تحتل الجناح الأوسط في القصر، ولأنها لا تزال أهم، وربما أحب، الزوجات للسلطان، وهي أم الابن الأكبر الموجود حالياً في القصر، وكانت تريد بكل الوسائل أن تفرض إرادتها وتخضع الجميع.

وراكان نفسه، الذي كان أقرب إلى الرهبة، وقد ظل لأسابيع قليلة سابقة يتخوف من الظهور أو المشاركة في مجلس الرجال، بسبب صغر سنه، أو لأنه لا يعرف ما يجب أن يقول، تحول إلى النقيض بين يوم وليلة: الصوت الخافت الخجول أصبح عالياً، والخوف أصبح تحدياً، وقد

أثار ذلك استغراب الكثيرين وتساؤلهم. وإذا كان هذا الخوف قد عزاه خدم فضة إلى الاحترام وحسن التربية، ويعزوه غيرهم إلى الخجل، فإن الأكثر معرفة يؤكدون أن راكان لم يبدأ الكلام إلا في سن متأخرة، ربما بعد الرابعة أو الخامسة. والسبب موضع اختلاف أيضاً. فالذين يحبونه يقولون إن مربيته الصومالية هي السبب، نتيجة تعلقه بها، وعدم انسجامه مع غيرها، لذا تأخر في تعلم العربية. ويؤكد هؤلاء أنه كان يعرف الصومالية كأحد أبنائها، ولكن حين فصل عنها نسي هذه اللغة! أما الذين يكرهون فضة، أو يعادونها، فإن لهم رأياً آخر: حين تأخر راكان في الكلام، أو على الأقل في ترديد بعض الأصوات، أخذت فضة تضربه ضرباً مبرحاً، وكرد فعل لهذه المعاملة فقد صام، وكادت تيأس منه، وهذا ما دفعها لأن تنجب ولداً ثانياً، ثم ثالثاً بسرعة، وأن تبذل معهم جهداً خاصاً من أجل أن يتكلموا، لكي تثبت للسلطان أن أولادها لا يشبهون خالهم، دخل الله، الأخرس، رداً على إشارة السلطان في تفسير وضع راكان، وقد جرحتها هذه الإشارة!

لسبب من الأسباب إذن ظل راكان بين أخوته الأكبر والأصغر، الصامت الأعظم، إلى أن حلت عقدة لسانه. قيل أن زنجياً أعور هو الذي حلّها، إذ بعد أن تفل في حلقه سبع مرات، تكلم. أخواله يقولون إن صمت الصغر إفادة في الكبر، فقد تعلم الكثير، وصرف طاقته كلها لكي يسمع. أما الذين يكرهونه فيقولون إن لسانه لا يزال مربوطاً، ويؤكدون أن الجني المكلف بهذه المهمة ما زال في داخله، ورغم الدوخة التي أصيب بها هذا الجني، نتيجة رقية الساحر الأسود، إلا أنه يعاود الصحو والظهور بين فترة وأخرى، ويستدلون على ذلك أن راكان يحمل معه باستمرار نفاخة، وكثيراً ما كان ينفث منها في حلقه، إذا ضاق نفسه، أو أصابه السعال، لكي ينوّم الجني ويحل لسانه!

الآن، بعد غياب السلطان، وباعتبار أن راكان أكبر الأخوة، فقد أصبح سيد قصر الروض.

ما كادت بضعة أسابيع تنقضي على سفر أبيه، حتى امتلأ القصر فجأة

بالأخبار والإشاعات أن أمراً خطيراً وقع. لذلك عم الخوف ورافقه التحسب والانتظار، وفرضت حراسات مشددة، كما جرت علميات تفتيش لعدد من أجنحة القصر، وبدأت تسري الهمسات أن الرجال الثلاثة الذين جاءوا قبل شهور، بحجة أنهم هاربون من ابن ماضي، وقد وافق السلطان على رعايتهم وتقديم المساعدة لهم، قد قبض عليهم لأنهم حاولوا اغتيال راكان. وأكدت الإشاعات أن السلطان ذاته كان هدفاً للاغتيال، لكن تغيبه عن القصر، ثم سفره بعد ذلك، حالا دون تنفيذ هذه المهمة، فاستعاضوا عن السلطان براكان، وسرت إشاعات أيضاً أن للرجال الثلاثة شركاء عديدين بين خدم القصر.

قصة الاغتيال إذن، والتي ظلت مجهولة التفاصيل، غيرت قصر الروض، وغيرت راكان بالذات.

كان يقف في باحة المجلس، وحوله حرسه الخاص وعدد كبير من العبيد والخصيان، والرجال الثلاثة مطروحين على الأرض، وقد ربطت أيديهم إلى خلف ظهورهم، ويصرخ:

ـ ها... تعترفون أم لا؟

ولأن الرجال لا يريدون أن يعترفوا، أو ليس لديهم ما يعترفون به، وحين يتطلعون إليه، إلى الذين حوله، ويصمتون، يصيح بقوة:

ـ إذا ما تريدون تعترفون هالحين نشوف.

ويلتفت إلى رجاله وبحزم يصدر أوامره:

ـ طقوهم وكسروا عظامهم.

ثلاثة أيام والعمليات ذاتها تتكرر. في اليوم الرابع، وبعد أن توقف التعذيب، قيل إنهم اعترفوا. وقيل إنهم أصبحوا بين الحياة والموت، ولم يعودوا قادرين على احتمال الضرب أكثر من ذلك وقيل إنهم اعترفوا بشيء واحد: «بعودة طويل العمر، السلطان، نقول كل شيء» ولذلك وضعوا في سجن القصر، وشددت الحراسة عليهم!

قبل أن ينقضي أسبوعان أو ثلاثة على ذلك وصل عدد من أقرباء

فضة: وصل اثنان من أخوتها، وأولادهم، ووصل أيضاً الكثيرون من أقرباء أقل درجة، مع رجالهم وحرسهم، مما اقتضى إجراء تبديلات في إشغال القصر، سواء الأجنحة الفارغة، أو تلك التي كانت الضرورات الأمنية تقتضي ذلك، ورغم أن دغيم السرهود احتج بشدة، نتيجة احتجاج الآخرين، فإن حالة الإرهاب التي فرضت، وما رافقها من تعديات وكلمات كبيرة، خاصة من الوافدين الجدد، والذين أصبحوا حول راكان مثل السوامو، اضطرت الكثيرين إلى الإذعان أو السكوت.

ابن العريفان الذي تخوف كثيراً، أو بالأحرى توجس، من حالة الهدوء والانسجام التي رافقت زواج السلطان من بنت العجرمي، قال لناهي بعد القبض على الثلاثة:

ـ اسمع يا ناهي: من قبل قالوا: إذا ردت تذل رجال سلّط عليه حريمة، وإذا ردت تذل حريمة سلط عليها العجيان، وإذا ردت تخلص من العجيان خليك بعيد عنهم!

وناهي الذي كان ضجراً نزقاً لا يعرف لمن يوجه لومه، فبعد أن قرر مغادرة القصر، اضطرته علاقته مع ابن العريفان، إضافة إلى وعود السلطان، أن يبقى. الآن لا يعرف هل يبقى هل يراقب ويضحك أم يحزم أمتعته ويرحل..

قال لابن العريفان:

ـ يا أبو جازي سالفتنا طويلة، وظني ما نقدر نكون بعيدين، واللي اشوفه: بليلة ما بها ضو قمر، نشيل ونرحل، لأن الجماعة إذا بلشوا ببعضهم هالحين، باكر يدورون هنا هنا حتى يلقوا من يتعاركون معه، وحنا بوجه الطوف، وخاف تقع بروسنا!

ـ لو كانوا، يا ناهي، ثلاثة أو أربعة، ويمكن يتفاهمون، لقلت لك: يا الله بينا، خلنا نرحل، بس هذول سوالفهم كثيرة وما تنتهي، وظني أن الدور ما يلحقنا، إلا إذا تحرشنا، وقلنا يصير وما يصير، عندها يصيرون علينا مثل الذياب، فخلنا بعيدين نشوف ونضحك!

ـ يا ابن الحلال، يا أبو جازي، والله لولا أنك معرّت بي لكنت أنا هالحين بمصر، لكن قلبي ما يطاوعني اترك خوي وامشي...

وبعد قليل وبحزن.

ـ وإذا تسمع شوري نترك الحمل على ابن السرهود ونسرحب ونرحل، نمشي دون ما يحس أحد!

ـ لكن هذا شيبة، وما عنده غير ختمه، يا ناهي، فإذا تركناه، مثل الجراد يأكلونه...

ضحك بصخب، وبعد قليل:

ـ لكن أنا وأنت، يا ناهي، ماخذين الناس على قدر عقولهم: يقولون كلمة وبعد ساعة ينسونها، وحنا ما نسوّي إلا اللي بروسنا، نقول لهم: حلت البركة، وما يخالف، وإذا ما هو اليوم اللي عقبه، وإذا غابوا عنا، إذا مر يوم والثاني تتغير الأمور.

ـ قلت لك نوبة، يا أبو جازي: حنا وحدنا نطلع بسواد الوجه، هذول يعرفون كيف يتفاهمون، وباكر يقولون: «أولاد الحرام الغرب هم السبب، وحنا ولا شي بينّا»، ويصيرون مثل السمن والعسل!

ـ أبد، يا ناهي، هذول مثل العقارب، إذا ما تقربت منهم أنت بألف خير، وأنت تعرف: العقرب يلدغ نفسه إذا ما لقى أحد يلدغه!

ـ ما يخالف، بس الأيام بينا وتشوف.

ـ وكل الله، يا رجال!

لو أن الأمور اقتصرت على الرجال لأخذت شكلاً عنيفاً وسريعاً. ولو أن نساء السلطان الأخريات ظللن بعيدات أو متفرجات، لاستطاعت فضة أن تفرض ما تريد، لكن كل امرأة لديها القدرة على المقاومة حتى اللحظة الأخيرة، وبأساليبها الخاصة والمبتكرة.

أول النساء التي وقفت في وجه فضة قريبتها: العنود.

فهذه المرأة التي ملأت قصر الروض خلال فترة معينة، ما لبثت أن اختفت. حملت من السلطان، وفي شهرها الثالث أو الرابع غادرت

القصر، لتقيم عند أهلها، فلما عادت بعد سبعة شهور، كانت تحمل على صدرها طفلاً، وقد اختارت له بنفسها الاسم، سمته جاسر. ورغم فرح السلطان بوصول خبر الولد أولاً. ثم وهو يراه بعد ذلك، فقد ظلت العنود في القصر أقل من سنة، حملت خلالها وارتحلت من جديد إلى أهلها. وفي هذه الرحلة التي طالت، أنجبت بنتاً، وأيضاً سمتها الشماء، لكنها ظلت بعيدة فترة كافية، وحين جاءت من جديد مع ولديها، كانت تريد أن تحمل وترجع، لكن السلطان كان في الحويزة، وقد طالت إقامته. وطالت إقامة العنود في القصر. وفضة إذا كانت تريدها أن تبقى بعيدة، فقد حرصت أن تبقى على ودٍ معها، لكن الخدم، رجالاً ونساءً، لا يتركون شيئاً يسير كما يرغب السادة، فمن خلال الثرثرة والإشاعات، والأخبار التي تنتقل، وكثيراً ما يطلب من يرويها لمن يسمعها أن يبقيها سراً، فقد قال الخدم أن العنود التي تزوجت السلطان مضطرة، كانت تحب أحد أقربائها، وهذا ما كان يحملها على أن ترتحل إلى هناك، وأن تبقى فترة طويلة!

كان الكثير مما يشاع يصل. صحيح أنه يصل بعد فترة، ومحرفاً، لكنه يصل. والعنود التي كانت تنتظر الوقت المناسب لكي ترد اللطمة، وجاءت مرات ما بين حملة الفيض، وسفرات السلطان إلى أماكن عديدة، واستطاعت أن تحمل، لكن لأن هذه الفترة اختلطت فيها الأمور، وتضاربت الأوقات، متى كانت العنود، ومتى كان السلطان، ولأنها رجعت بولد بعد شهور، فقد أصبحت أقوال الخدم على السنة بعض النسوة، خاصة حين جئن لكي يهنئن ويباركن بالمولود الجديد. كانت نظرات النساء تحمل تساؤلاً: هل هو من السلطان أم من غيره؟ والعنود التي تعرف كيف تفهم النظرات، وكيف تفسرها، كانت تريد الوقت المناسب لكي ترد.

قصر الروض، رغم أنه امتد واتسع، فقد ظل من يسكن القسم الأوسط منه، أكثر أهمية، وبالتالي تحدد درجة العلاقة بينه وبين السلطان. ولأن العنود احتلت الجزء الجنوبي من هذا القسم ويعتبر من أفضلها، ولم يطلب منها السلطان أن تتخلى عنه، ولم تتخل هي، رغم غيابها، فقد ظلت بنظر نفسها وبنظر الآخرين، إحدى النساء المفضلات عند السلطان.

خلال فترة «الاغتيال» احتل راكان هذا الجناح، بناء لطلب أمه. لم يكتف بذلك، طرد سكانه إلى أقصى الأبنية الغربية في القصر. وكانت الحجة أن خطة القتلة اقتحام القصر، خاصة المكان الذي كان فيه، ولذلك لا بد من تشديد الحراسة.

العنود عادت في هذه الفترة بالذات، كانت خالية البال أن الجناح المخصص لها قد تم إخلاؤه، ما كادت تعرف حتى انفجر الخلاف الكبير.

ذهبت بنفسها إلى القسم الشرقي من القصر، ورغم أنها ظلت قريبة من السور، تحت أشجار النخيل، إلا أنها بعثت عبدها عريمان مع ابنها جاسر، لكي يستدعيا راكان. ظلت واقفة وهي ترتجف حتى جاء، قالت له بحزم أقرب إلى الإهانة:

- اسمع يا راكان، من هالحين إلى ساعة، إذا ما لقيت بيتي مثل ما كان أقلب الدنيا على راسك وعلى راس أمك.

فوجئ راكان واضطرب حاول أن يستوضح، أو أن يتظاهر بعدم معرفة ما حصل، قالت له وهي تتحرك:

ـ قلت لك كلام تفهمه زين، وإذا صارت الفضائح، فأنت اللي تبغيها، وتحمّل!

قال الذين حضروا هذا المشهد، والذي لم يستمر إلا دقائق قليلة، أن الاثنين كان يرتجفان حين انتهت المقابلة، وانتهى الكلام. وقالوا أيضاً أن الاثنين كانا يشتمان، رغم أن أحداً لم يسمع الآخر، وأن كل واحد اتجه باتجاه مخالف للآخر. لكن لم تمض ساعة، أو أكثر قليلاً، حتى أعيد الجناح إلى ما كان عليه قبل شهور. غادر حرس راكان، وأعيدت الأشياء التي حملت من الجناح. ورغم أن فضة تدخلت وحاولت أن تمنع، لكن الأمور انتهت كما أرادت العنود.

قالت موزة، خادمة فضة:

ـ سيدي راكان ما يجب الشر، وما أحب يزعل عمته، قال لها اللي تؤمرين به يصير، وما قدر يتراجع عن كلمته.

وبعد أن تتنهد تضيف:

ـ وعمتي فضة كانت نايمة، ما عرفت باللي صار، ولما شافت العنود قالت لها: «وتعرفين، يا بعد عيني: ابن ماضي دز رجاله للقصر يريد يقتلنا، لكن ربك سلم، وراكان الله يسلّمه قال: يلزمنا رجال حولنا يحمونا، لكنه خاف وقال: ما نقدر نتعدى على عمتي، قلت له: عمتك العنود لو كانت هنا أول من يوافق، وهالحين، وبعد ما تأكدنا واطمنينا، وبعد ما جت عمتك، يلزم أنك ترجع الأمور مثل ما كانت».

قالت العنود وتريد الآخرين أن يسمعوا:

ـ هذا بيتي، وبيت أولادي، والسلطان يدري، وما أحد يقدر يشيل حجر، وإذا كان الخصيان تصرفوا هالمرة، المرة الثانية نشيل روسهم، ويلزم كل واحد يسمع!

هذه الإهانة انتقلت بسرعة في قصر الروض، وكانت بمثابة تعريض واضح، لأن فضة لديها من الخصيان أكثر مما لديها من الخدم، وكان هؤلاء أغلب الأحيان في جناح النساء، فقد جاء من نقل أن الخصيان لا

يقومون بنقل الرسائل بين فضة والسلطان فقط، وإنما لهم أعمال أخرى، ولم يضيفوا إلى ما قالوه شيئاً آخر!

كانت هذه الحادثة بداية لكسر هيبة فضة وتحديها.

وطفة التي كانت غارقة في الحزن، بسبب مقتل لولوة وهجر السلطان، ما لبثت أن قالت أشياء كثيرة، وتبعتها نسوة أخريات. صحيح أن الكثير لم يقل مباشرة، لكنه قيل عن طريق الخدم «فضة هي اللي قتلت لولوة، فبعدما جت هذي المنجمة احترقت الدنيا» هكذا قالت إحدى خادمات وطفة، وما حصل أن منجمة غجرية جاءت واستقرت في جناح قريب من فضة، وبدأت تستعمل كل براعاتها في السحر: حضرت للسلطان دواء القوة، فلم يفد؛ حضرت دواء المحبة فلم يقربه، حضرت دواء العين فلم يجدِ، وأخيراً قالت لفضة: ما لنا إلا دواء كسر العظم، وحضرت هذا الدواء لكي تتناوله وطفة، لكن موزة أخطأت حين أكدت أن هذا الدواء للمحبة، فشربته لولوة وقضت». هكذا رويت قصة نهاية لولوة، ومما يجعل هذه الرواية مقبولة أن المنجمة غادرت القصر في اليوم التالي ولم يرها أو يسمع بها أحد بعد ذلك.

أما القصص التي تتطرق إلى المغامرات التي تجري بين القسم الأوسط من القصر وأجنحة عديدة، بما فيها أجنحة الخدم والحرس، وكان الخصيان أبطال هذه القصص، فإنها من الكثرة والتنوع والطرافة إلى درجة أن الكثيرين لا يصدقونها، أو تظهر على وجوههم علامات التساؤل والاستغراب حين يسمعونها!

فضة لا ترد على القصص، ولا تكلف نفسها الظهور، سواء في الدعوات أو الحفلات، إذ تبقى أغلب الوقت معتصمة بجناحها، ويستغرب الكثيرون كيف تستطيع أن تلازم الجناح أسابيع متتالية دون أن يراها أحد، ومع ذلك قادرة على الرد هنا وهناك، وأغلب الأحيان، باحكام، وبالوقت المناسب. فالمرات التي تعرض خدم وطفة إلى الضرب كثيرة لدرجة تكاد تتكرر بين يوم وآخر. ودائماً هناك أسباب وجيهة، بدءاً من النظرات المعادية، وانتهاء بالسرقة أو التحرش بالنساء.

الأيام التي خلت من الوقائع المثيرة لم تخل من الإشاعات، أو من الأصوات في الليل المتأخر، وبعض الأحيان إطلاق الرصاص. وحول مثل هذه الحوادث تتعدد التفسيرات والتأويلات إلى درجة أن لا أحد يعرف حقيقة ما حصل.

ما كادت ثلاث شهور تنقضي على هذا الجحيم، وبعد أن بعثت موضي رسولاً لفنر، حتى حزمت أمتعتها واستعدت للرحيل. فعلت ذلك بكثير من الخفاء، ومع ذلك لم يبق الخبر سراً، وحين تدافعت النسوة لوداعها، كانت فضة إحدى الزائرات، لكنها جاءت بمفردها، وتعمدت أن تختار وقتاً لا يكون فيه أحد غيرها. لقد فعلت ذلك استثناء، لخشيتها أن تنقل موضي للسلطان صورة عن القصر تمسها.

بدت فضة ودودة إلى أقصى حد. عبرت عن أسفها، وبحزن ظاهر، لمغادرة موضي، وقالت إنها ستبلغ السلطان بكل ما رأته وما سمعته، ولديها الشهود، وأشارت، بشكل غير مباشر، أن من الأفضل ألاّ يتشوش باله في المرحلة الحالية، لأن الأعباء التي تثقله الآن تكفيه. ولم تنس أن تقدم هدية ثمينة لموضي، وقبلتها بحرارة، كما لم تنس قطمة أيضاً!

موضي قبل أن ترحل بساعات قليلة قالت للعنود وإحدى قريباتها:

ـ الله يساعد اللي يعيش بهذا القصر، لأن اللي ما يموت يجنّ...

وبعد ذلك، وكأنها تخاطب نفسها:

ـ وإن شاء الله ما اشوفه بعد هاليوم.

ابتسمت العنود بحزن وردت.

ـ وكلي الله يا بنت الحلال، هذا قصر أبو منصور، وإن شاء الله بعودته ترد الأمور مثل ما كانت وأحسن.

ـ الواحد يتمنى، يا خالة، بس ظني أن هذا أبد ما يصير، لأن النخر وصل فوق فوق وعسى أن الله يسلم!

قالت العنود برجاء:

ـ وإذا لي طلب عندك يا موضي، أنك تقولي لطويل العمر: غيبتك

طالت، والقصر دون أصحابه ما يسوى، والدنيا بعدك غير دنيا. . .

وبعد قليل وكأنها تخاطب نفسها: وكل ما جا يوم قبل أحسن وآمن!

بين عودة أمي زهوة من الرحيبة، حيث بقيت هناك خمسة شهور، وقد اضطرت لقضاء الفترة بسبب الكسر الذي أصاب رجلها، وبين عودة السلطان إلى موران، لم تتجاوز الأيام.

فالشيخة التي وصلت قبل أيام وكانت تستند إلى عكاز وكتف تهاني، وبدت مترهلة متعبة، وما كادت تستقر في قصر الروض، حتى بدأت تصلها الوفود والأخبار، للسلام، ولإعلامها بما حصل خلال غيابها. وإذا كانت فضّلت أن تبقى مستمعة، لكي تعرف بالدقة الكاملة ما حصل، فقد بدت متأثرة وأقرب إلى الغضب. ورغم أن فضة كانت أول النساء التي زارتها، فقد أحست أن هذه السرعة في الزيارة، ليست من عادتها، ثم ما تخللها من المجاملات والمحبة الفياضة، جعلتها تشك بالدوافع، وتميل إلى تصديق ما قيل لها بعد ذلك من النساء الأخريات، ثم من الخدم، وعن طريق تهاني أيضاً!

قالت الشيخة للسلطان:

ـ . . . وأنت تعرف، يا أبو منصور: الله يمتحن عباده، وأنا كنت ناوية أرجع بعد جمعة أو ثنتين، لكن رب العالمين قرّمني، انكسرت رجلي وبركت، وظني أنك أنت هنا، بموران، ما ظني أنك سافرت. بالي مرتاح، وقلت: إلى أن يفرجها رب العالمين واتعافى. . .

تتوقف، تجر نفساً عميقاً، ثم تتابع:

ـ أنت غايب، يا طويل العمر، وأنا غايبة، وأتاري هذولا الحريمات ينراد لهن رسن وفرك إذن، لأن ما سمعته ما يرفع الراس.

ضحكت بحزن، ثم تابعت:

ـ عندك هموم تهدّ جبال يا أبو منصور، وما أريد ازيد همومك، لكن، مثل ما قالوا: البني آدم ما يترك، ولا يروح بعيد، إلا إذا كان بيته وحريمه بأمان. . .

توقفت قليلاً، هزت رأسها عدة مرات ثم أضافت:

ـ ما أريدك تصدق كل شي، وأنا نفسي ما صدقت، لكن اللي صار بغيبتنا ما لازم نسكت عليه...

غيرت جلستها، اقتربت قليلاً، وجاء صوتها أقرب إلى الهمس:

ـ وأنت تعرف، يا أبو منصور، هذولا النساوين إذا انتركن الله وأكبر، ما بنقدر عليهن، وكل ما كان الواحد آدمي، وما يريد الشر، يركبن ظهره ويطوطحن، وهذا اللي صار. وأريد منك تسمع السوالف اللي صارت بغيبتنا...

زفر السلطان، وبعد قليل، وبصوت حزين:

ـ والله البني آدم احتار: هنا أو هنا، مع أعدائه أو مع أصحابه وأهل بيته.

ولم ينتظر السلطان ليسمع كل شيء، أو ليجمع الوقائع والشهود. فقد بدأ:

جمع ثمانية من الخصيان، وخمسة من الخدم وتسعة من العبيد، وفي يوم واحد أمر بقتلهم. أخذوا إلى نهاية الجهة الغربية، غير بعيد عن إسطبل الخيول، شدوا إلى أشجار النخيل، وإلى أوتاد كانت في وقت سابق مرابط للجمال، وأطلق عليهم الرصاص. لقد تم ذلك عند الضحى، في اليوم الخامس من عودة السلطان، ودفنوا جميعاً في حفرة واحدة.

وكان قد أمر قبل ذلك أن يحضر جميع نسائه، حضرن، كن لأول مرة يشاهدنه منذ عودته من السفر، جئن بعواطف متباينة أشد التباين: الشوق والخوف ورغبة الحديث. قال عرفان الهجرس بعد سنين عديدة:

ـ قبل صلاة الصبح بساعة أو أكثر، كنت غرقان بالنوم، ما اشوف إلا وهو فوق رأسي: قم يا عرفان. والله فزيت، قمت. قال: تعال، مشى ومشيت وراه. كنا وحدنا بالمجلس، لا أحد إلا الحرس، والحرس بعيدين. قال لي: معك ساعة واحدة يا عرفان، ما تترك أحد نايم، والقصر تفرغه من الجماعة اللي هم فيه، كل واحدة تلقى لها خشة وتقول لها هذا مكانك، وهذا أمر أبو منصور. وما أريد حتى كلمة، حتى قولة نعم.

تخلص وترجع، واللي يقول لا تضربه، تدقه دقة زينة، وتكفيه على وجهه، وتقول: هذا أمر أبو منصور. وبعدها تجيني بهذا المكان. والله ما كذبت خبر: وصلت قصره، صحت بأعلى صوتي: يا أهل الدار، معكم ساعة، وهذا أمر السلطان، وما أحد يبقى بمكانه. الناس قاموا خايفين، بين مصدقين ومكذيبن، ويدون طول سالفة: واحدة تصرخ لا بد أشوف طويل العمر. الثانية: هذا بيتي وبيت أولادي. الثالثة رح وخل طويل العمر يجي بنفسه. والأولاد بين يفركون بعيونهم أو يبكون، المهم، بعد أن تأكدوا، وقلت لهم: اللي ما يشيل برضاه يشيل غصب، والعصا حاضرة. وأنا نفسي أقول هذا الكلام وماني مصدق، وكأن ببطني واحد ثاني اللي يحكي ويقول، لكن عيون أبو منصور وهي تقدح شرار خلتني اسوي اللي ما يتسوى. ما مضت ساعة زمان إلا وكان القصر خالي. لما رجعت كانت الشمس توها طالعه. كان طويل العمر ومعه ابن عباد وعبدالله البخيت. أعطاني وريقة بكبر راحة اليد، وعليها أسماء، قال لي: تأخذ عشرة من الحرس تجيبهم وتجي. والله سقتهم مثل الغنم. تطلع إليهم أبو منصور، رازهم من فوق لتحت وقال: خذهم عند الإسطبل وانتظر.

بعد ساعة زمان بعث واحد: اربطهم وانتظر. ربطناهم. وما مضت ساعة إلا واشوف يوم القيامة: أبو منصور ومعه كل حريمه، ومعه عشرة أو أكثر من حرسه الخاص. وبعد ما وصل قال: هذا اليوم ما أحد ينساه بعمره. وبعد ما اسرّ بشي لمهيوب، التفت إلى النساء، وكان قد طلب منه الوقوف عند نقطة الحراسة الغربية. قال، وخرج صوته حاداً: هالحين يلزم تبحرن زين. وخلال دقائق انتهى كل شيء: اطلق الرصاص على ثمانية من الخصيان وخمسة من الخدم وتسعة من العبيد».

لقد جرى كل ذلك بسرعة، وبصمت، لم يكن يسمع خلاله صوت أنفاس الذين كانوا يراقبون المشهد ولا يصدقون عيونهم. وفي مكان غير بعيد، في حفرة كانت تذبح على أطرافها الجمال، ألقيت الجثث ثم أهيل عليها التراب، وانتهى هذا المشهد كله.

وفي القصر، في القسم الذي أُخلي من فضة والعنود وسهيلة، وفي

القاعة الكبيرة السفلى، حيث كان السلطان يقيم بعض الولائم الخاصة، طلب من نسائه جميعاً أن يحضرن.

بعد شهور طويلة، كتب رأفت شيخ الصاغة في مذكراته: «يوم الثلاثاء، السابع من شهر ربيع ثاني، من السنة الماضية، يوم مشهود في موران، يوم الدم والخوف، لأنه كان يوم الموت في قصر الروض. فقد ذكر لي من أثق بهم أن السلطان أمر بإعدام اثنين وعشرين رجلاً من خدمه وعبيده، بسبب ما نقل إليه عن الأخطاء التي ارتكبوها أثناء غيابه في العوالي. طبيعي لا يمكن التحقق من صحة الاتهامات التي وجهت إليهم، لأنه لم تجر أية محاكمات أو حتى تحقيقات، فخلال فترة قصيرة جمع هؤلاء الرجال وأطلق عليهم النار. وقيل إن نساء السلطان حضرن تنفيذ هذا الحكم، بناء لطلب السلطان نفسه! أما بعد ذلك فقد قيل لي أن السلطان أرغم نسائه على أن يلتهمن مقادير كبيرة من الملح والفلفل، وقد دعاهن للغداء على مائدته، وحين رفضت إحدى النساء طلب من حرسه الخاص ضربها، وقد تسببت هذه القضية في حالات مرضية اطلعت شخصياً على قسم منها، علماً بأن الطبيبة الإنكليزية المكلفة بالإشراف الصحي على نساء القصر ذكرت لي أن الأمراض التي عالجتها، وإن كان معظمها متعلقاً بالمعدة، إلا أنها تشك أن تكون كميات الملح أو الفلفل التي قيل إن السلطان أرغم نساءه على تناولها، كانت السبب. لأن ذلك ترافق مع أعراض أخرى. وهذه الحالة إذا كانت تتسم بالقسوة والغرابة، فإنها تدل على إحدى طرق السلطان في التصرف».

أما حقيقة ما حصل في ذلك الثلاثاء، فلم يعرف على وجه اليقين، لأن الأخبار التي لم تغادر القصر خلال اليوم الأول والثاني، ما لبثت أن أخذت أشكالاً وأسباباً لا حصر لها. فمحاولة الاغتيال التي ذكر أن راكان تعرض لها، قيل إنها السبب فيما جرى. والذين يؤكدون هذه الرواية يستندون إلى اعترافات الرجال الثلاثة، وقيل إنهم لم يدلوا بها إلا بعد أن أعطاهم السلطان الأمان، فاعترفوا على الخدم والعبيد الذين كانت لهم علاقة بابن ماضي، وهؤلاء الذين تم إعدامهم. وقيل إن الأمر متعلق بقضية

أسبق من ذلك، وهي قضية مقتل لولوة، وقيل إن وطفة أو ربما السلطان كان الهدف، ولهذا انتقم السلطان ليعطي درساً للذين يعملون معه، خاصة في القصر. ومما زاد في تصديق هذه الرواية أن أغلب الخصيان الذين أعدموا كانوا من خصيان فضة، ومما يؤكد هذه الرواية أيضاً الأمر الذي أصدره السلطان بإخلاء القسم الذي كانت تشغله في القصر.

وغير هاتين الروايتين روايات كثيرة حول أخطاء بالغة الحساسية بالنسبة لعدد من نساء السلطان أو الخادمات والمربيات! وهذه الروايات ظلت تروى بتكتم شديد، وتختلف من واحد لآخر، ومما ساعد على قبولها، أو على الأقل قبول عدد منها، أن زيجات سريعة تم ترتيبها بين بعض الخادمات والمربيات وعدد من العاملين في القصر، خاصة وأن ولادات عديدة قد تمت على يد وريدة، وقد أثار استغرابها أن أطفالاً سوداً ولدوا لآباء وأمهات بيض أو العكس. وقد دعا هذا إلى إعادة تذكر الكثير من القصص التي كادت تغيب وتنسى في خضم الأحداث التي لم تتوقف يوماً واحداً في قصر الروض!

وإذا كان الخدم والعبيد هم الذين عادة ينقلون الأخبار، فقد أصيبوا بالخرس هذه المرة، وظلوا كذلك أسابيع وبعضهم ظل شهوراً لا يصدق ما حصل. أمي زهوة التي غابت فترة طويلة، وكادت تنسى، رجعت بعد هذه الشهور، وبعدما حصل في يوم الثلاثاء، قوية متجبرة إلى درجة تثير الرعب. فقد تأكد الجميع أنها وراء كل ما حصل. وأصبحت في هذه الفترة، إذا مشت في القصر، أو إذا تطلعت لإنسان، تجعله يرتجف، بمن فيهم نساء السلطان بالذات. أما العكاز الذي كانت تستعين به في فترة النقاهة فقد أصبح ملازماً لها بصورة دائمة، وأخذت تستعمله استعمالات شتى، حتى تحول بمرور الأيام إلى جزء من شخصيتها. بل ويبالغ بعض الخدم أن العكاز إذا شوهد أو سمع صوته، يثير الفزع ويجعل الناس صامتين.

نجمة احتلت القسم الأوسط من القصر وحدها. فضة، بعد أسابيع انتقلت إلى الجناح الذي شغله خزعل من قبل، أما العنود فقد حلّت في

الجناح الذي خصص من قبل لنجمة. وسهيلة، والتي لم تخلف، ماتت بعد بضعة أسابيع من يوم الثلاثاء ذاك، وقد اختلفت الروايات حول أسباب موتها!

أولاد السلطان تعرضوا لعقوبات كثيرة: قطع المخصصات، سحب الخيول، تجريدهم من السلاح، إضافة إلى إعادتهم جميعاً إلى المدرسة الخاصة، مع تنبيهات السلطان القاسية التي قالها للأدريسي، المعلم الجديد الذي اختاره لأولاده:

ـ اللحم لك والعظم لنا، يا شيخ، وإذا واحد قال لا علمني باسمه وما عليك.

ولف الصمت قصر الروض، وعاش فترة طويلة في ظلام دامس. وظل هكذا إلى أن تفجرت أحداث جديدة، وجرت أمور لم تخطر ببال!

ابن العليان، بوصول الأموال، أصبح طفلاً لا يعرف كيف يخفي فرحه، أو كيف يهدأ. في اليوم الواحد يحاول عدة مرات أن يختلي بالسلطان، من أجل أن يعرض عليه الأفكار والمشاريع في كيفية توظيف الأموال، والسلطان في عالم آخر: إذا لم يكن مشغولاً باستقبال رؤساء القبائل، فلا بد أن يكون مشغولاً مع شيوخ الدين، أو مع الرسل والعيون الذين بعث بهم هنا وهناك يحملون الرسائل أو يتقصون الأخبار. وحين يبقى لديه وقت، أو بالأحرى حين يقتطع ذلك الوقت، فمن أجل أن يقضيه مع الصاحب بشكل خاص. أما ابن العليان، الذي تحوّم عيناه كالصقر، ويريد أن يعرف كل قادم جديد، فلكي يقدّر كم من الأموال سيتم اقتطاعها قبل الوصول إلى اتفاق مع السلطان، كان يحس أنه في سباق لا يرحم مع الزمن. قال له السلطان حين وجده ملحاً هكذا:

ـ أنا وأنت، يا عثمان، باقين بالهديرة، فإذا ما سولفنا اليوم نسولف اللي عقبه، خلنا هالحين نشوف اللي يسافرون اليوم أو باكر.

ـ أنا وأنت باقين، يا طويل العمر، بس الفلوس ما هي بباقية..

قالها عثمان بحزن، وحين تطلع إليه السلطان باستغراب تابع:

ـ إذا ظلينا نعطي فلان وفلان، على هالمنوال، وبدون حساب، ترى حسبتنا راح توقف.

ـ وكلّ الله يا ابن الحلال، وهالحين عندنا فلوس تكفي وزود!

العجرمي الذي تأخر أربعة شهور، وبعد أن وصله الرسول الثالث من السلطان، يطلب منه العودة للضرورة عاد. عاد ومعه ممرض عجمي، هو

واحد من الثلاثة الذي جاءوا إلى عين دامة للاستشفاء، وقد تولى هذا تمريضه والعناية به طوال إقامته هناك.

بدا العجرمي، بعيون كل الذين رأوه، قوياً وأصغر سناً وأكثر سُمنة. حتى العكاز الذي كان يستعين به بدا زائداً، لكنه لم يتخل عنه، لأنه أصبح جزءاً منه. والسلطان الذي كان عاتباً لغيابه الطويل، لم يتمالك نفسه أن تساءل حين رآه:

ـ هذا اللي تشوفه عيني مشعل أو أبو مشعل؟

وحين ضحك العجرمي بصخب وزهو، قال السلطان:

ـ ما يصدق الواحد إلا إذا شاف بعينه!

وبعد قليل:

ـ وبس نخلّص شغيلاتنا، يا أبو مشعل، يلزم نمرح أنا وأنت شهر أو اثنين هناك، حتى نصير مثل ما صرت!

قال عبدالله البخيت لابن العليان:

ـ من قبل قالوا: جبة العجمي فيها سبع وسبعين رقعة، وهذا العجمي اللي جاي أتاري عنده سبعة وسبعين دوا وما تدري شلون طبخ العجرمي من جديد. وهالحين بين آغاتي وعيني سلبه عقله، وما تدري شنهو عنده سوالف بعد.

رد ابن العليان بصخب:

ـ ما يغرك، يا ابن البخيت، وأنت تعرف شلون يعلفون الضحية قبل ذبحها، والدجاج قبل ما يبيعونه!

لم تمض أسابيع قليلة إلا ورتب السلطان كل شيء، قال لابن البخيت وهو يبتسم.

ـ . . . تذكر سالفتنا القديمة يا عبدالله؟

ولم يمهله لكي يتذكر، قال وهو يقهقه:

ـ اللي تهرب منه، واللي تخافه، لا بد تلقاه، تماماً مثل الموت والحياة، وأنا من عندي نبت عنك وخلّصت السالفة.

وابن البخيت الذي توجس ثم خاف، بدا له السلطان يعني الكلمات التي يقولها، تساءل، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ تمون ياطويل العمر، بس علمني شنوهي السالفة؟

ـ ما علمك عمك؟

ـ عمي؟

ـ اسمع، يا عبدالله، وبدون ما نطوّل الكلام. ذاك اليوم أنا وابن العليان نسولف، قلنا يلزم أن عبدالله يكمّل دينه، قال لي ابن العليان: إبشر يا طويل العمر، وبنتي جاهزة، قلت له توكلنا على الله، قرينا الفاتحة واتفقنا، وأنا أمرت ابن الهجرس والعريفان يحضرون كل شي.

لدقائق بدا عبدالله البخيت مدهوشاً، لا يصدق ما تسمع أذناه، أما الكلمات التي ظل يرددها دون وعي فكانت: «بالله عليك يا طويل العمر؟» والسلطان الذي أخذه الفرح، وتأكد أنه أوقع بابن البخيت ضربة قاضية، قال ليحسم الأمر تماماً:

ـ وحنا أمرنا لك بشوية قريشات حتى تتزهب وتحضّر روحك!

ولم ينتظر صاح بأعلى صوته:

ـ يا عرفان. . . يا ابن هجرس. . .

وجاء عرفان يركض. سأله السلطان:

ـ حضرتم كل شي لعمك عبدالله؟

ـ كل شي حاضر، يا طويل العمر!

ـ هات القريشات.

وبخفة قط خرج عرفان الهجرس. حتى تلك اللحظة كان عبدالله البخيت يظن أن في الأمر مزاحاً، أو لا يتعدى مؤامرة بريئة من مؤامرات السلطان، وكان هو ذاته يشارك في مثل هذه المؤامرات ويبرع فيها إلى أقصى حد. أما أن يكون هو ذاته الضحية، وبهذا الاتقان، فقد ظل يؤمل أن ينتهي هذا الكابوس ويخرج سالماً. لكن حين عاد ابن الهجرس وبيده صرة كبيرة، وبعد أن ناولها السلطان ورماها لابن البخيت، فقد تأكد أن

الأمور تجاوزت المزاح، وأصبحت شديدة الخطورة. تساءل بمسكنه:

ـ أريد استأنف يا طويل العمر!

رد السلطان بنفاد صبر:

ـ يا ابن الحلال خلصنا، تزوج، افرح كم يوم بهذي الدنيا...

وبعد قليل وقد تغيرت اللهجة:

ـ وإذا قلت فلاني وتركاني، يا عبدالله، وبعد ما أعطينا كلمتنا وقلنا موافقين، ترى هذا حدنا وياك!

قال عبدالله بيأس:

ـ اللي تشوفه يا طويل العمر!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ كل شيء بهذي الدنيا يصير إلا أن الواحد يتزوج غصب عليه، أو بدون ما يدري!

ـ خلصنا يا عبدالله!

في وقت لاحق، وبعد أن تأكد ابن البخيت، سلّم تماماً، بل وفي لحظات معينة بدا مقتنعاً، قال للسلطان في يوم تالٍ:

أقول بأعلى الصوت ما بي جِنّة　　وما بي إلا حب من ليس ينصف

ضحك السلطان وهز رأسه عدة مرات، وقد امتلأ بشعور الظفر، وبعد أن هدأ قال:

ـ وأريدك يا عبدالله تزور العجرمي، إذا نفسه اشتهت خلنا نلقى له بنت الحلال اللي تسنّعه زين!

ضحك ابن البخيت بصخب وتساءل:

ـ اشوف زكاتك كلها، يا طويل العمر، طالعة بالجيزات!

ـ خلي الناس تفرح وتدعي لنا بطول العمر!

ـ والعجرمي... أخاف، يا طويل العمر، الزيجة تلهيه عن ذكر ربه، أو تنسّيه الشغيلات اللي تريدها منه!

ـ ما عليك، هالحين أنت روزه، وبعدها الله كريم.

بعد الزيارة الأولى، والحديث عن عين دامة وعين دارة، أشار ابن البخيت، بطريقة لا تخلو من مكر، أن الرجل إذا تقدم بالعمر، يحتاج إلى صبية تعتني به، لتقوي عظامه وتمنحه القوة والثقة، وذكّر بالرسول والصحابة والتابعين. والعجرمي الذي صمت وابتسم، كان يصغي إلى ابن البخيت بكثير من الاهتمام، ولم يقل لا ولم يقل نعم.

في الزيارة الثانية، وكانت بعد بضعة أيام، ودون مقدمات، وقد استعد ابن البخيت، قال وهو يترنم:

إذا قبل الإنسان ممن يحبه ثناياه لم يأثم وكان له أجرا
فإن زاد زاد الله في حسناته مثاقيل يمحو الله عنه بها وزرا

رد العجرمي بدعابة:

ـ أشوفك اليوم تشعر، يا ابن البخيت؟

ولم ينتظر ابن البخيت، ترنم:

بيضاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جثل اسحم
فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم

قال العجرمي وهو يلوي رأسه قليلاً ويحدّق بعبدالله البخيت:

ـ عندك سالفة يا عبدالله؟

ـ أي بالله، طال عمرك، وما هو بس كذا:

اصلي فلا أدري إذا ما ذكرتها اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
أراني إذا صليت أقبلت نحوها بوجهي وإن كان المصلى ورائيا
وما بي إشراك ولكن حبها وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا

رد العجرمي وهو يرفع اصبعاً مهدداً، لكن بدعابة:

لئن عدت لما أنت ذاكره لأصلبنك في جذع من الشجر

ابتسم ابن البخيت وتابع:

أمست تهددني بالقتل واحزني والقتل لي راحة والموت مقدور

رفع العجرمي يديه الاثنتين وقال، وكان صوته متواطئاً:

ـ كفى، يا ابن البخيت، كفى...

وبعد قليل:

ـ هالحين تأكدنا: لا بد أنك عاشق أو تحمل رسالة!

ـ وأنت الصادق، يا أبو مشعل: عاشق واحمل رسالة.

ـ ممن؟

ـ من طويل العمر.

ـ هات، علمنا، خلنا نسمع.

ـ مالي صبار، طال عمرك، ويلزم اعلمك...

ضحك، هز رأسه، تلفت في أكثر من اتجاه، ليتأكد أن لاأحد غيرهما يسمع، والعجرمي الذي تلفت بدوره، تأكد أن في الأمر ما يستدعي الانتباه والاهتمام، وحين استبطأ ابن البخيت، صرك بأسنانه، وجاء صوته حاداً:

ـ هات، لا تنطّف روحنا.

ـ اسمع يا أبو مشعل...

وتلفت من جديد، ثم تابع:

ـ قبل كم يوم، وبعد ما شافك طويل العمر، والإفادة التي حصّلتها من عين دامة، قال لابن العليان: «اسمع يا عثمان: اثنين عزيزين علينا، أبو مشعل وابن البخيت، وخاصة أبو مشعل، أخذنا منه، ونريد، بعد ما صار شاب، وبقوة الحصان، نعطيه» قال ابن العليان «بنات موران ولا أكثر» قال له طويل العمر: «أريد منك، أريد بنتين من بناتك، واحدة لأبو مشعل والثانية لابن البخيت، رد عليه ابن العليان: «ما لقيت لي يا طويل العمر غير هذول الشيبان، القاضين، واللي ما بيهم حيل؟» قال له طويل العمر: «هذول أقوى من الشباب، يا عثمان، هذول مجربين، والواحد منهم بعد خيره بظهره، وما تغرك السنين أو المظاهر» وسكت ابن العليان، ما قال ولا كلمة، وطويل العمر، بدون سؤال أو دستور. ما خلى الأمور تمشي كذا، ناب عني، يا أبو مشعل، واتفق على أن أتزوج واحدة من بنات

العليان، وهالحين قال لي شف أبو مشعل، إن كان بنفسه خلنا نمشي ونكمّل الأمور، وإذا لا عفا الله.

استراح قليلاً، ثم أضاف:

ـ هالحين علمتك كل ما عندي، يا أبو مشعل، وما أدري أنا غلطان أم لا، لأني قلت اللي قلته؟

قال العجرمي، وهو يبتسم:

ـ اللي يريده أبو منصور يصير!

قصر الروض الذي خيم على جناحه الغربي الصمت خلال الشهور الأخيرة، حيث أصبح مثل سجن، إذ هدأت فيه الحركة، ولم تعد له مطالب، وقل زواره، بعد أن أعفي دغيم بن السرهود، وحلّ مكانه ابن العريفان، وبعد أن تغيرات مواقع بعض نساء السلطان، وبنيت أجنحة جديدة ناحية الغرب، ما لبث القصر أن تغير: بدأت فيه الحركة مع وصول الأموال. أعاد السلطان المخصصات، أمر بأن توزع كميات من القماش والحلويات، إضافة إلى تجديد بعض الأجزاء القديمة من الأجنحة.

هذه الحركة غيّرت الكثير.

الشيخة التي بدت قوية متجبرة، وقد عُزي إليها الكثير مما جرى في القصر، وخلقت جواً من الرعب، أصبحت هي ذاتها أسيرة هذا الرعب. كانت تنوي أن تحرض السلطان، أن تدفعه إلى القسوة، لكن لم تتصور أن تبلغ به القسوة إلى إعدام هذه الأعداد الكبيرة. بل أكثر من ذلك شعرت بالندم، وشعرت بتعاطف مع أغلب النساء. صحيح أنها لم تقم بزيارة أي منهن، لكن كانت تبعث بعواطفها مع تهاني، وكانت أكثر حرصاً أن تعرف أخبار كل واحدة من نساء السلطان. قالت لنفسها، ثم قالت لتهاني بعد ذلك، وكانت تريد من تهاني أن تنقل عن لسانها، «الرجال من يومهم مجانين، أو خوافين، وأولاد الساعة. يظنون حالهم أقوياء حيل، لكن مثل الأطفال ما يعرفون شلون يتصرفون. إذا مدوا أيديهم، الله يستر، يخربون كل شي، وما يدرون شنهو اللي يصير واللي ما يصير!

وهكذا بعد أن ظلت أمي زهوة خلال فصل الشتاء بطوله حبيسة جناحها، وإذا خرجت قليلاً فلكي تلتقي بالشمس والهواء النقي، ولم تقرب

مجلس الرجال إلا مرتين أو ثلاث مرات، وفي هذه المرات لم تتكلم ولم تسلّم. . . الآن، بعد أن شعرت بالانفراج، أو لأنها لم تعد قادرة على الاحتمال أكثر من ذلك، فقد خرجت من جناحها، كما تخرج الحيات: تململت، ثم مرت على الأجنحة، وكأنها تتفقدها، سألت أكثر مما تكلمت، ثم عادت بسرعة، وكانت خائفة، أو لم تستطع التكيف.

العنود التي تعوّدت أن تقضي أطول فترة عند أهلها، لم تفعل خلال هذه الفترة كلها، ورغم أن القصص القديمة عاودتها وكذلك الإشاعات التي كانت تتنقل في قصر الروض سابقاً، لم تفكر أن ترد عليها أو أن تنتقم، خاصة بعد أن أصبح خصومها ضحايا مثلها، فاكتفت بأن أرسلت على أمها واثنتين من أخواتها، فجئن لزيارتها وقضين معها شهوراً. أم العنود قامت بزيارة فضة عدة مرات. وكادت فضة أن تزور العنود، لكنها، بعد أن قررت، عادت وأجلت الزيارة، ثم نسيتها.

قالت العنود لأمها، لكي تنقل الكلام لفضة ولأمي زهوة:

ـ بقصر الروض، يلزم كل واحد يكون له ظفر وناب أو أكثر، وإلا راح مأكول مذموم، وإذا الواحد ما كان أقوى منهم سلخوه وأكلوه، وما يلقي من يقول الله يرحمه!

الشيخة التي فهمت ولم تفهم، هزت رأسها موافقة، لكن الرسالة وصلت إلى فضة، إذ بعثت مع أم العنود تقول:

ـ اللي خرّب بيوتنا: أولاد الحرام، اللي ما يعرفون إلا نقل الكلام، وكانوا يفرحون ويرقصون إذا تعاركنا. . . .

تبتسم بحزن ثم تضيف:

ـ بس الحق ما هو عليهم، الحق على اللي كان يتعارك بدون سبب، على اللي كان يقول لهم فلاني وتركاني. . .

وتهز رأسها:

ـ حنا المجانين، وحنا اللي قلنا لهم تعالوا: كلوا لحومنا. . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ وظني أن العنود تفهمني زين!

بهذه الحركة الداخلية المتحفظة البطيئة بدأت تسري روح جديدة في القصر، روح ماكرة أكثر مما هي شجاعة، لكن فيها إصراراً وقدرة على المقاومة. حتى الصبية والأطفال الذين تضاربت مواقفهم وعواطفهم تجاه ما جرى، أصبحوا أكثر استعداداً للتحدي، أو لتقليد ما رأوه، في الحيوانات على أقل تعديل، ثم ما لبثوا أن اتخذوا مواقف أكثر عدوانية، خاصة وقد تأثروا بأجواء البيوت والأمهات والأخوات.

نجمة التي احتلت القسم الأوسط من القصر، لم يسمع لها صوت، ولم يزرها أحد، سوى عمتها، زوجة أبيها. زارتها مرات عديدة، لكن لم يرافق هذه الزيارات أي تغير في السلوك أو الحركة. بل أكثر من ذلك، حين سرت إشاعات أنها ماتت أثناء الولادة، لم يستطع أحد أن يكذب الخبر، رغم أن العيون ظلت شاخصة تتابع وترسم صوراً لما يمكن أن يحدث فيما لو تحقق هذا الخبر. حتى وريدة التي أشرفت على الولادة، تحركت بنشاط خلال الساعات، وحتى الأيام الأولى، لم تقل كلمات يمكن أن تفهم أو تفسر بشكل واضح.

الشيخ العجرمي الذي زار ابنته. بعد أن عاد من السفر، ثم بعد أن أنجبت ابنها الأول، بد بنظر الكثيرين شخصاً مختلفاً، فسرت إشاعات شديدة التكتم، وتباينت كثيراً، فيما إذا كان هو أم لا، خاصة بعد أن نقل الخدم استغرابهم، وظنوا، بعد التغير الذي لاحظوه، وكانوا لا يعرفونه معرفة دقيقة، أنه قد يكون شخصاً آخر، لكن ما لبثت الأمور، ثم الأخبار، أن أخذت مساراً لم يعرفه قصر الروض.

سأل ابن العريفان ناهي:

ـ قولك، يا ابن الفرحان، أن القصر هو القصر، وأن الناس هم ناسه؟

ـ ما تغير شي يا أبو جازي.

ـ تغير كل شي يا ابن الفرحان.

وضحك وهو يضيف:

ـ أثاري الدم، يا ناهي، يغير الدم، يغير البني آدم!

هز رأسه عجباً:

ـ والغريب، أن أمور كثيرة بالدنيا ما تصير إلا إذا الواحد خاف، أو...

ابتسم، هز رأسه عدة مرات، وتغير صوته:

ـ أو إذا كان عنده عقل أو ضمير، لكن، الظاهر أن العقل والضمير، بهذا القصر...

ـ أنت تسولف وحدك، يا أبو جازي، الضماير والعقول بهذي القصور ما لها مكان!

وخلال أقل من شهر تمت خطبة ابنتي العليان للعجرمي والبخيت. صحيح أنه تخلل الخطبة الكثير من الخلاف والبكاء والتهديد بالانتحار، إلا أنها تمت في النهاية، وإن جرى عليها بعض التعديل. فابنة العليان الوسطى التي كانت هي المرشحة للزواج بالعجرمي، وكان عمرها عشرين عاماً. استبدلت بالتي أصغر منها، بعدما حصلت تلك الاضطرابات. قالت الصغيرة لأمها بنوع من الاستسلام الحزين:

ـ اتركوا مديحة لابن البخيت، وأنا راح أتزوج هذا الشيبة!

والأم التي صدمت، ولم تصدّق أذنيها، أول الأمر، ما لبثت أن تطلعت إلى نهلة نظرة مختلفة: رازتها من قدميها إلى قمة رأسها، نظرت إليها بإمعان، ونظرت إلى عينيها بشكل خاص لتتأكد ما إذا الكلمات التي قالتها تعنيها أم لا، وحين رأت في عينيها موافقة أقرب إلى الحزم والتحدي، ردت باستسلام:

ـ إذا كان كلامك صحيح تخلصينا من الفضيحة...

وبعد قليل وهي تزفر بحقد:

ـ كلها بلاوي أبوك: أعطى كلمة للسلطان وما يقدر يتراجع، وكأنه السلطان رب العالمين، وما أحد يقدر يخالفه!

في قصر الروض، وبتكتم شديد، سرت إشاعات أن العجرمي،

الساحر، الذي يدير كل شيء، جاء من يسحره، فالعجمي، الذي جاء كممرض، تبين أنه ساحر أكبر وأخطر من العجرمي بما لا يقاس.

قالت فضة لأم العنود، بعد أن عرفت تفاصيل ما حصل:

ـ وتعرفين، يا بعد عيني، أن اللي يحفر لأخوه المسلم حفرة هو اللي يوقع بيها!

وابتسمت وهي تضيف:

ـ هو اللي سحر لطويل العمر، هو اللي خلّاه يتزوج بنته، وظنه أن السلطان إذا تزوج بنته يملك الأول والتالي، لكن جاء من هو أقوى منه، وإذا كان اليوم صار هذا الشي باكر ما أحد يعرف شنهو اللي يصير.

ورغم أن العجرمي تكتم على هذا الزواج، واحتج أن الرسول والصحابة كانوا يتزوجون دون أن يدري أحد، إذ يكفي لعقد الزواج موافقة الزوج ووكيل الزوجة وشاهدين، فقد تحدث الكثيرون في موران عن هذا الزواج، خاصة وأن الاثنين، ابن العليان والعجرمي، لم يكونا من رجال السلطان المباشرين، ولم يكن لأي منها علاقة بكل ما حصل، قال ابن الفرحان لعرفان:

ـ . . . اكتب يا عرفان، وإذا ما كتبت خذها على لساني: من يوم ما الله خلق هذي الدنيا: ديكين على مزبلة ما يجتمعون. وهالجين ناظر وشوف: ابن العليان والعجرمي، من هو اللي يريد يكون أقرب لطويل العمر؟ وإذا كان أبو منصور باله طويل ويتحمل، لكن هم، الواحد منهم ما يحمل الثاني، وناظر وتشوف عينك.

قال ابن هجرس وهو يبل قلمه بشفتيه، ويتظاهر بالكتابة:

ـ ما تقول لي يا ناهي: إذا الديوك تخاصموا، شنهو اللي راح يصير بالدجاج؟

ضحك ناهي الفرحان، حتى كاد ينقلب على ظهره، وبعد أن هدأ، أجاب:

ـ لا تخف، يا ابن الحلال، الدجاجات، يعرفن كيف يدبرن أمورهن، أي نعم يعرفن. . .

وبعد قليل، وهو يبتسم:

ـ ما هو مهم الديوك اللي فوق، الديوك اللي يتحاربون. . . المهم الديوك اللي يصلون!

وكاد العجرمي يفكر بالسفر إلى عين دامة، أو إلى عين دارة، لكي يقضي شهر العسل، فقد أحس أنه بحاجة لكي يهرب من نظرات الذين حوله، ومن كلام الناس، إضافة إلى الاستفادة من النتائج التي حصل عليها هناك، لكن مستشاره الصحي الذي ظل مرافقاً له مثل ظله لم يتركه يفعل. فقد هيأ له، كما قالت عدة نساء لهن علاقة مع نجمة، كل شيء: هيأ له الأطعمة التي يحتاجها، والأشربة المقوية، وهيأ له أيضاً بعض العطور التي كانت مخبأة ولا تخرج إلا بهذه المناسبة!

بعد أيام من الزواج سأل السلطان العجرمي. بطريقة مواربة، عن أحواله، فكان رده سريعاً وحاسماً:

ـ بوجودكم ونظركم يا طويل العمر، حنا بألف خير، وما يمكن تكون أحسن من كذا!

وحين أبدى السلطان استغرابه واستحسانه، وحاول أن يعبر عن ذلك قال العجرمي بفخامة:

ـ وما أريد أقول لك، يا طويل العمر، عن عين دامة. . . عين دامة تلزم للواحد كل سنة، لكن صاحبنا، بمعرفته ومودته، حضّر كل شي.

وضحك، ثم أضاف:

ـ وهذول العجم، يا طويل العمر، عجب. . .

وحين تطلع إليه السلطان باهتمام، أضاف:

ـ أي نعم؛ يا طويل العمر، هذول من الراس إلى الأساس، وأبد ما ينسون شي!

ضحك بصخب وبعد أن تطلع إلى جسده كله، قال:

ـ بس يلزم أن الواحد يطيعهم، يا طويل العمر، فإذا طاعهم سنعوه زين!

بعد هذه اللحظات المرحة بدا السلطان مهتماً أن يعرف كل شيء: ماذا يفعلون؟ كيف؟ وإذا كانت هذه الأمور قد قيلت بفخر، أو بتحفظ، فقد قيلت، وبدا للسلطان أن العجرمي يعني كل كلمة. قال له ببعض الحزم:

ـ هذه سالفة يلزم نوقف عندها يا أبو مشعل.

ـ أنا جاهز يا أبو منصور...

وبعد قليل:

ـ وخوينا حاضر، ويتمنى شغلة مثل هذه الشغلة لطويل العمر!

بعد أيام سُمّي حسين معتمدي مستشاراً في قصر الروض، وحين سأل عرفان الهجرس السلطان، وكان العجرمي موجوداً، ما إذا كان من الضروري إضافة صفة للمستشار، مثل المستشارين الآخرين، نظر السلطان إلى العجرمي، وتلفت أكثر من مرة، وقال بنفاد صبر:

ـ سمّه مستشار خاص، وهذا يكفي!

رأفت شيخ الصاغة الذي عرف قبل الآخرين بتسمية معتمدي مستشاراً للسلطان لشؤون «الصحة» قال وهو يزفر مثل ثور:

ـ اللهم يجيبك يا طولة الروح...

وبعد قليل:

ـ واللهم نجنا من الأعظم!

لم تكد بضعة شهور تنقضي، حتى وصلت رسالة من السلطان إلى هاملتون. حمل الرسالة عنان بسيوني، ويطلب فيها أن يتوجه هاملتون، ومعه عنان، إلى لندن، لكي يتفقا مع الحكومة البريطانية على مجموعة من الأمور بخصوص الدول المجاورة، المرتبطة مع بريطانيا بمعاهدات وعلاقات خاصة. ولكي يعرفا بالضبط، وكان هذا ما طلبه السلطان من عنان، موقف بريطانيا من مياح. فقد وصلت السلطان معلومات مؤكدة أن مياح اتصل بالإنكليز، أو الإنكليز اتصلوا به، وعرض عليهم أحد حلين: باعتباره مسيطراً على منطقة الحويزة، ويحظى بتأييد قبائلها، فإنه سيبقى خصماً، وسوف يشعل المنطقة كلها، ولن يترك بريطانيا وأصدقاءها يرتاحون أبداً، أو، وهذا هو الحل الثاني، أن تؤيده للاستقلال بالحويزة، وعند ذاك سوف يكون نعم الصديق، وسوف يستجيب لكل ما تطلبه وما تريده.

السلطان الذي اعتبر أن المعركة مع ابن مياح ستكون حاسمة، لم يكن مضطراً للاستعجال، خاصة بعد أن عرف عن العلاقة التي قامت بين ابن مياح وابن ماضي، وتأكد أن أموالاً طائلة صرفت في مناطق الحدود، وأن زعماء قبائل عديدة زاروا ابن مياح، وعادوا ومعهم الغضب والكلمات الكبيرة التي وصلت أصداؤها إلى موران، وكلها تتحدث «أن خريبط حاط يده بيد الإنكليز وباع البلاد، وأنه لا يعترف بالشرع والدين، وكل مستشاريه كفار».

خزعل الذي افترض أنه أمير للمنطقة كلها وقائد للقوات، أصبح أداة بيد ابن مياح. كان خزعل شجاعاً في معارك عديدة، لكن ليس مع

الخصوم الحقيقيين، إذ اندفع نحو قبائل الحدود، وبدل أن يستميلها، لجأ إلى تأديب حتى الذين لم يشاركوا في قطع الطرق أو نهب القوافل. وكان ابن مياح بمقدار ما يظهر خضوعاً ظاهرياً، يريد أن يحمّل خزعل كامل الأخطاء والمشاكل. السلطان الذي عرف تفاصيل كل ما حصل، وهو في موران، قرر أن يرجئ معركته، خاصة بعد أن بعث بعدة رسل لابن مياح يطلب منه المجيء إلى موران، وكان باستمرار يعتذر، مرة بحجة المرض، وأخرى بحجة أن هجوماً يوشك أن يقع، وبالمقابل كان يبعث للآخرين دون تردد بأقربائه المباشرين، مرة بعث ابنه، ومرة بعث أخاه لابن مشعان في العوالي، عدا عن الرسل الكثيرين الذين يبعثهم إلى شيوخ القبائل مع الهدايا.

لقد أصبح السلطان متأكداً أن شيئاً كبيراً يهيأ له. وأحس في لحظات كثيرة أن بريطانيا ليست بعيدة عن هذا الذي يجري. فإذا هدأت العوالي، تتحرك الحويزة، وإذا صمت ابن ماضي في هذه الجبهة تأتي المعلومات أنه تحرك أو يستعد للتحرك في الجبهة الأخرى. إضافة إلى ابن مياح وابن مشعان، «وثالثة الأثافي... عمير» كما يردد السلطان، لا يؤتمنون، ولا يهدأون.

أما العجرمي الذي شعر بالقوة والحيوية خلال فترة، فما لبث أن انتكس، ولذلك سافر فجأة إلى عين دامة، وقرر أن يطيل إقامته هناك، خاصة بعد أن أبلغه مستشاره، معتمدي، بعد أن التقى ساحراً هندياً زار موران بحثاً عن أعشاب تطيل العمر، وقد أكد له هذا الساحر أن العين لا تعطي كل قوتها إلا إذا كان القمر بدراً، كما هو مكتوب في كتب الهند القديمة، ويمكن أن تقوي الباه وتعيد الشباب. وإذا قضى الرجل بين ستة بدور وسبعة، واستعمل عطوراً من روح القرنفل الممزوج بالمسك، مع قليل من زيت الحوت، فإنه قادر على الزواج والإنجاب حتى سن المائة.

لذلك لم يتردد العجرمي في ترك موران والتوجه إلى عين دامة، وحين طالت إقامته بعث إليه السلطان برسالتين، الأولى للاستفسار عن صحته وراحته وفيها إشارة أن الشوق إليه زاد، وأن الكثيرين في موران يسألون

عنه، وقد استبطأوا عودته. رد العجرمي مع النجاب بجواب أنه بصحة جيدة، وطلب أن يُبلّغ السلام لكل من يسأل عنه، وأنه، حالما ينتهي من العلاج، سيعود إلى موران! أما الرسالة الثانية، فقد كانت أكثر وضوحاً، إذ أبلغه السلطان «أن بعض الأمور الجديدة تقتضي التشاور» لكن والقمر على وشك أن يصبح بدراً بعث مع النجاب الذي حمل الرسالة الثانية، «أننا نتوجه إلى طرفكم في فرصة قريبة، وحالما تكون صحتنا قادرة على تحمل أعباء السفر».

قال السلطان لابن البخيت، حين وصل النجاب الذي يحمل الرسالة الثانية:

ـ بردان طاح على متلحف ردونه...

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ كنا نريده عون، هالحين حنا يلزم نسنده ونعاونه.

رد ابن البخيت بمرح:

ـ يا مسترخص اللحم عند المرق تندم!

قال السلطان بسخرية:

ـ والله، يا عبدالله، ضاعت علينا الأمور، وما نعرف من معنا ومن علينا.

ـ وقال أحدهم لأبي بكر: «إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه، ضاعت الأمور».

وابستم ابن البخيت ثم أضاف:

ـ أنا لا أفهم بالسياسة، يا طويل العمر، وما أقدر أقول رأي بالرجال وأنا متأكد، بس أشوف أكثر اللي يحوّمون حولنا لقامة وخرندعية، ويلزم طويل العمر يعرف رجاله...

وبعد قليل وهو يترنم:

يا باري القوس برياً ليس يصلحها   لا تظلم القوس، اعط القوس باريها

قال عنان بسيوني للأمير فنر، قبل يوم من السفر:

ـ . . . ويقول طويل العمر: يلزم سمو الأمير فنر يطوّل باله، ومهما شاف أو سمع من ابن مشعان يحفظ ويسكت، لأن كل شيء بأوانه زين.

قال هاملتون، ويونس شاهين موجود:

ـ . . . سنركب البحر غداً، يا طويل العمر، وبعد أن نصل إلى السويس، نتوجه إلى القاهرة، ومنها نأخذ الطائرة إلى لندن.

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ولولا البواخر كانت الأسفار صعبة. . .

رد يونس بتورية:

ـ وقبل البواخر كان يمكن للإنسان أن يسافر وأن ينتقل من مكان إلى مكان!

ـ ويصل إلى إنكلترا؟ إلى أميركا؟

قال الأمير فنر وهو يبتسم:

ـ المهم أن يسافر الإنسان ويرجع بالأخبار الزينة، وما يهم إذا سافر على جمل أو بالباخرة.

قال عنان بسيوني:

ـ وعلم الإنسان ما لم يعلم!

ابـن مياح في الحويزة وما ورائها الحاكم الفعلي، حاكم الأمر الواقع، لا يستطيع السلطان أن يعزله أو أن يتدخل في شؤونه. وهو بمقدار ما يتبع السلطان فإنه مستقل عنه. يطالب بالرواتب والمؤن والذخيرة إذا تأخرت، ولا يرسل من الغنائم أو الضرائب شيئاً، «لأن الحرب هي الحرب، يا طويل العمر» مملوء بالأحلام والرغبات والجموح، يريد أن يصل إلى آخر الدنيا، لكن لا يقوى على تجاوز مسافات معينة، لأن هناك مدافع الإنكليز والكفرة الذين يتبعونهم، وهناك خريبط الذي لا يختلف عن الذئب: لا ينام ولا يسهو، ومستعد للانقضاض في كل لحظة.

العلاقات بين الطرفين شديدة الحساسية: بين الحرب والسلام، ليست الصداقة ولا تصل إلى حد العداء. إذا احتدمت الأمور، وإذا جاء لوم السلطان، يصرخ ابن مياح مثل جريح: «هذا كتاب الله حكم بينا» أما إذا هدأت أو استقرت، فإن عمير عند ذاك هو الذي يفتي: «. . . وما حملنا السلاح إلا حتى نرفع راية الإسلام، ولمحاربة البدع، وللقضاء على الكفار. وراح يوم وجاء الثاني، حنا ما تغيرنا، وسلاحنا بأيدينا، خريبط هو اللي تغير، لوح له الإنكريز بعظمة لحقهم وترك خوياه، ويريدنا نصير مثله. لا بالله، حنا نريد نظل نجاهد، حاملين أرواحنا على أيدينا، واما النصر واما الشهادة، هذا كل ما نريده، وهذا خلافنا مع خريبط، وأنتم، يا ناس، يا أهل العقل والدين، تعالوا واحكموا من هو المخطي ومن هو المصيب؟».

بعد الكثير من المحاولات تأكد خريبط أن الحرب واقعة، ولكن يجب أن يهيّئ لها، وأن يحدد ساعتها، لا أن تفرض عليه.

ابن مشعان، وبعد الرسل والهدايا، وبعد أن عاش فترة في العوالي، «أصبح مستعداً للأخذ والرد»، كما يقول ابن البخيت، ولذلك لم يتركه السلطان.

قال ابن البخيت ذات ليلة للسلطان، وكانا وحدهما يستعرضان صفات الخصوم، وكيف يجب أن تكون المواقف منهم:

ـ . . . وابن مياح، يا طويل العمر، دوغري، تشيذي يقول أهل مصر، يعني عدل، بس عقله صغيّر مثل عصفور. أعند من حمار الشيخ عند العقبة. إذا كان معك أتعبك وإن كان ضدك أتعبك، وكان يلزم أقول لك رأي من سنين، لكن، طال عمرك، كنت حاضنه مثل ما الدجاجة تحضن بيضها، وأبد ما يصير أحد يحكي على ابن مياح. وراح يوم وجا التاني، ولما فقست البيضات ودرجات الفريخات، وصار كل الحويزة تعال هالحين دبره. . . هذه هي سالفته!

ـ وشنهو رأيك بابن مشعان يا عبدالله؟

ـ ابن مشعان، طال عمرك، بعد ما سمع طرب أهل العوالي، وشم وذاق طيب نِساهم، وبعدما عرف الحرير والظلال، صار ينظر لفوق، وظني أنه حاير، ما يعرف يكون مع السلطان أو ابن مياح، يريد الدين والدنيا، ويريد يكون هنا وهناك. . .

توقف قليلاً، تنفس بعمق، وأضاف بمكر:

ـ وأنا، يا طويل العمر، أميز الناس ما هو من كلامهم، وإنما من الكلام اللي ما يقولونه، أعرف الناس متى يحكون ومتى يسكتون، وشلون الواحد يتسوك، وشنهو اللي يقول للي يصب له القهوة أو يصب على يده الماء. وأعرفهم على أي سوالف يضحكون. . . وعلى أي جنب ينامون!

وضحك، وبعد قليل:

ـ ويلزم، يا طول العمر، تأخذني على قدر عقلي، وإن شاء الله ما تزعل مني!

ـ وبعد. . . يا عبدالله؟

ـ ما بعد هذا إلا الخير والسلامة، طال عمرك.

ـ وظنك. . . شنهو اللي يريده ابن مشعان؟

ـ ظني، إذا ماني مخطي، يا طويل العمر، يريد فيّ العوالي، ورمان الطريفة، ونساء وطفان!

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وقالوا لي أن الوطفانية اللي عنده، يا طويل العمر، ما يبدلها بنساء الأرض، وهي اللي تشور وهي اللي تقول.

ـ وبنات وطفان مزيونات؟

ـ علمي علمك، يا طويل العمر، بس أهل العوالي يقولون كذا.

ـ وشلون نصل لهذي الوطفانية، يا عبدالله؟ شلون نخلّيها تسنّعه؟

ـ هذا. . . يا طويل العمر، اللي ما أعرفه، يلزمك تدور مفتاح: ساحر أو فتّاح فال، أو لا بد من ولاّدة أو مشاطة؛ فإذا لقيت مفتاحها ترى ابن مشعان بالحضن، وسالفته غير سالفة ابن مياح!

ضحك السلطان مثل طفل، وبعد أن هدأ سأل ابن البخيت:

ـ هذي السوالف منين لك يا عبدالله؟

ـ من الأجاويد!

ـ لا. . . يلزم تقول لي.

ـ أهل موران، طال عمرك، تعلموا من الغنم والأباعر، وما عندهم إلا لساناتهم وأبد يلوكون، ولا تحسبهم ما يعرفون، لا، يعرفون كل شي.

ـ وعني يعرفون ويسولفون؟

ـ هذي ما أعرفها، يا طويل العمر، والمجالس بالأمانات!

والسلطان رغم أنه يريد أن يعرف ماذا يعرف الناس، إلا أن الموضوع يحتمل التأجيل، سأل بنبرة مختلفة:

ـ زين وعمير. . . يا عبدالله؟

ـ عمير؟

هكذا سأل باستغراب أقرب إلى الاستنكار. أكد السلطان:

ـ أي نعم. . . عمير؟

ـ هذا، طال عمر، تسأل عنه فهمي الزوني!

ـ فهمي الزوني؟ بيطري الخيل؟

ـ ولو كان عندك، يا طويل العمر، بيطري، تكرم، الحمير والكلاب، يمكن يعرفه أحسن!

قال السلطان وهو يضحك:

ـ الله يخزيك، والله لؤمك لو يتوزع على موران كلها، يخربها!

ـ الله يسامحك يا طويل العمر..

ـ وبعد قليل:

ـ وباكر أو اللي عقبه، إذا انكشفت الروس تبين القرعات!

لما عاد هاملتون، بعد شهر وبضعة أيام، عاد إنساناً آخر: فقد جزءاً من وزنه، وبدا شاحباً وحزيناً. والسلطان الذي فوجئ بمنظره، تحسب بعد ذلك، خاصة وأنه لا يشكو من مرض.

وبكثير من الحيرة والارتباك، وهذا يحصل لأول مرة مع هاملتون، لخص للسلطان أن بريطانيا يهمها بالدرجة الأولى أمن الدول المجاورة، ولا يعنيها أمر ابن مياح أو غيره، إلا بمقدار ما تتأثر هذه الدول. أما بالنسبة للمعونة المالية، فإن بريطانيا تعاني الآن من أزمة مالية خانقة، ومع ذلك سوف تحاول أن تفي بوعودها، وتقدم المعونة. ربما تضطر للتأخر، أو لتقسيط بعض المبالغ، لكنها في النهاية ستفي بالتزاماتها بكل تأكيد.

لم يستطع السلطان أن يفهم أكثر من ذلك، ليس لأن هاملتون لا يريد أن يتكلم، كما كان يفعل في مرات سابقة، وإنما لأنه لا يملك معلومات أخرى، أو ليس متأكداً منها، إضافة إلى حالة من القلق أو التعب.

بعد يومين أو ثلاثة أيام في موران، وفي لحظة مناسبة، اختلى هاملتون بالسلطان:

ـ . . . وبعد تفكير، وبعد ما اطلعت وتأكدت، يا صاحب الجلالة، فأنا أريد أن أعلن إسلامي، أريد أن أصبح مسلماً، وأن أبقى في مملكتكم،

وأن أعيش هنا حياتي كلها، وسوف أبقى إلى جانبكم، أو في أي مكان تختارونه لي، فأرجو أن أسمع منكم كلاماً بالموافقة!

السلطان الذي دهش إلى أقصى حد، ولم يصدق أذنيه، تطلع إلى هاملتون بإمعان، ليتأكد أنه لم يتناول دواء الحصر، وليس هناك أسباب أخرى طارئة. بعد أن تبين له صحو الرجل، وقلقه أيضاً، سأله:

ـ أنت متأكد يا الصاحب؟

ـ متأكد وبكامل الوعي والقناعة والرغبة، يا صاحب الجلالة.

ولا يعرف السلطان كيف وافق على ذلك القرار بسرعة، إذ صرخ من فوره طالباً دعوة العجرمي. وخلال فترة قصيرة، وبوجود ابن العليان وابن البخيت وثلاثة من الحرس، أعلن هاملتون إسلامه، وردد وراء العجرمي الشهادتين، وبارك له السلطان إسلامه بكثير من الحميا والانفعال، كذلك فعل العجرمي والعليان والحرس، حتى ابن البخيت بارك له إسلامه، لكن في الليل المتأخر، وكان عائداً هو وعثمان العليان، وكانا، بصمت، يستعيدان وقائع هذه الليلة، سأل ابن البخيت ببراءة ملعونة:

ـ شنهو قولك، يا عمي، ما دام الصاحب أسلم، يلزم يتطهر أم لا؟

رد عثمان العليان، وقد فاجأه السؤال:

ـ المهم، يا عبدالله، الشهادة. قول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وما عداها سنة.

ـ كذا رأيك؟

ـ ما دام شيخ الإسلام قبل إسلامه، يا عبدالله، فلا تدخل نفسك!

رد عبدالله البخيت بمكر:

ـ ودين الإسلام ما هو مثل غير أديان: متسامح، ويحمل وكريم.

وبعد قليل:

ـ اللهم انصر الإسلام!

هاملتون بعد أن عاد إلى العوالي، عاد باسم جديد: عبد الصمد، ولم يعد يعرف إلا بهذا الاسم. وكان يحبه، ويصر عليه، ويريد من الآخرين أن ينادوه به، وكان العجرمي من اقترح هذا الاسم، وقد وافق عليه هاملتون، وقبل أن يأوي إلى فراشه تلك الليلة فتح القاموس على كلمة صمد وقرأ كل ما يقابلها من معاني!

حين وصل إلى العوالي، كتب في مذكراته ما يلي:

«. . . الفرد، حتى في دولة صغيرة، يجب أن ينسجم مع منطق الدولة ومصالحها، وهو قادر ومهم بمقدار إمكانياته واستعداده لأن يكون جزءاً من هذه الدولة، أما إذا حاول العكس فلا بد أن يهزم، إذا لم يكن اليوم فغداً.

أما الأمبراطورية، كالأمبراطورية البريطانية، فإن منطقها ومصالحها من الضخامة والتشعب والتغير بحيث يجب على من يريد أن يكون من موظفيها الدائمين، وليس من موظفيها المؤثرين ـ لأن لا فرد يمكن أن يؤثر على أمبراطورية ـ أن يغير جلده مثلما تغير الحية جلدها، لكي يبقى مقبولاً ويُعطى الحق في أن يبدي رأياً، لا أن يفرض هذا الرأي.

في «مؤتمر الشرق» قالت الأمبراطورية كلاماً مخالفاً لكل ما قالته من قبل، ومخالفاً لعهودها والتزاماتها السابقة، لأن مصالح الأمبراطورية الجديدة، والظروف، تقتضي ذلك. صحيح أنني حاولت، وحاول غيري أيضاً، أن نذكّر بعهود بريطانيا ووعودها، وأن نلفت النظر إلى جملة ملاحظات، لكن كلامنا كان غريباً على أسماع السادة، وكان، في لحظات معينة، مزعجاً، ويريدون أن ننتهي بسرعة من هذه الثرثرة، لكي ندخل في صلب الموضوع.

طبيعي أفهم الدوافع التي أملت تغيير السياسة، وما جدّ من عوامل واعتبارات، لكن افترض أن شيئاً ما يجب أن يظل ثابتاً، وأن يكون مرشداً، وهذا ما افتقدته في هذا المؤتمر، الأمر الذي ولد في نفسي الكثير من المرارة وخيبة الأمل.

لا أستطيع في هذه السن أن أبدأ من جديد، أو أن أغيّر أفكاري وعلاقاتي، لقد أصبح الوقت متأخراً. ومع ذلك يمكن أن أعيد ترتيب الأولويات بالنسبة لما يجب أن أفعله، ويمكن أن أجد هامشاً للتوفيق بين ما تريده الأمبراطورية، وبين ما أستطيع أن أفعله، ضمن قناعاتي وعلاقاتي القائمة. سوف استغل الهامش المتاح لكي أحقق عدة أمور في آن واحد: سوف استمر في موران، وسوف أساعد هؤلاء الناس، الذين يبدون لي أنهم يستحقون المساعدة، ولديهم الاستعداد لكي يفعلوا شيئاً، على الأقل في هذه المنطقة. وسوف أواصل اكتشافاتي الأثرية والتاريخية، ليس بهدف إرضاء طموحي الشخصي، وإنما من أجل إلقاء الأضواء على منطقة مجهولة ومهمة في الوقت نفسه، وأنا متأكد، من هذه الناحية، أن الأبحاث التي سأكتبها عن المنطقة ستكون هامة وربما تصبح مرجعاً للباحثين في المستقبل.

الآن، أكثر من أوقات سابقة، أحس أن عمتي ماركو على حق، أولاً: تقول: يجب أن تذهب عميقاً في مجتمع معين، لمعرفته واكتشافه، وثانياً، يجب أن يقترب الإنسان من هذا المجتمع بروح من التعاطف والرغبة، لكي يصل إلى حقيقته. وهذا ما دعاني لأن أصبح مسلماً. إن الدخول في هذا الدين، رغم مشقته، يمكن أن يفسح لي مجالات وآفاقاً لم تتح لرحالة أو مكتشفين غربيين في السابق. أن الناس هنا يخافون من الآخر، والآخر، هو، بالدرجة الأولى، الدين الآخر، قبل أن يكون الشخص الآخر. هكذا أفترض، وهذا ما سأحاول التأكد منه.

لفتُّ النظر مراراً في «مؤتمر الشرق» إلى ضرورة أن تكون بريطانيا حاضرة للمساعدة في اكتشاف ثروات موران، لكن بدا لي أن هذا الأمر لا

يتمتع بأولوية تجعله هاماً أو عاجلاً، وهذا ما دعاني للموافقة على أن تكون هناك خيارات أخرى.

صحيح أن بعض الأمور تحصل بالصدفة، لكن يمكن أن تؤثر، وأن تخلق آفاقاً لم تكن بالبال. فبعد دعوة العشاء التي جمعتني بمستر ستيفن سنكلر، وكان مهتماً أن يعرف الكثير عن صحراء موران، لأن له تجربة في صحراء أستراليا، كما ذكر لي، فقد تطرق الحديث لاحتمال وجود بعض الثروات، فبدا سنكلر فضولياً، ثم أصبح بعد ذلك مهتماً، وأعلن عن استعداده لإرسال فريق من أجل البحث، وطلب مني المساعدة.

لن أتردد في تقديم المساعدة، فالأميركيون يبدون لي أكثر جرأة وأبعد نظراً، وليس هناك تناقض في المصالح أيضاً بينهم وبين بريطانيا، فالمهم أن يكون الغرب موجوداً.

ذكرت للسلطان عن مستر سنكلر، وأنه يمكن أن يساعد في أمور عديدة، في الكشف عن المياه والذهب والنفط. كان سعيداً، وسألني رأساً: كم يدفعون؟ ذكرت له أن الأمر سابق لأوانه، وأن المبالغ التي يمكن المطالبة بها تتوقف على نتائج البحث. هز رأسه، وسأل: وكم يحتاجون حتى يتأكدوا، لما قلت له أن الأمر يتطلب بضع سنين، شعر بالخيبة، هؤلاء الناس، في أمور المال، قليلو الصبر، يريدون كل شيء وبسرعة.

ابن مياح اصبح خطراً، لأن بريطانيا تأخذ بعين الاعتبار الأمر الواقع، ولا تهتم بما يدعيه الآخرون، مهما كان «تاريخياً» أو منطقياً. أكدت على السلطان ضرورة أن يتخذ إجراءات، ربما لا تتطلب الوصول إلى الحرب، لأن استقرار الوضع بهذا الشكل يمكن أن يؤدي إلى ما يعتبر أمراً واقعاً. هز رأسه ولم يجب إجابة حاسمة.

لا أستطيع التكيف بمرونة مع متطلبات الدين الجديد، بل أكثر من ذلك أبدو، حتى لنفسي، مختلفاً عن السابق. لا أريد أن أتسرع في إصدار الأحكام، أو توهم النتائج، لكن هذا ما أشعر به على الأقل، خاصة حين

أصلي مع الآخرين. إن نظراتهم تخترقني. وتجعلني مرتبكاً، وأغلب الظن أن الكثيرين غير متأكدين أو غير واثقين من إسلامي.

تبقى العوالي أفضل بكثير من موران، فالناس هنا أكثر فهماً وأكثر استعداداً للتعامل مع الأجنبي.

يدهشني فنر إلى أقصى حد، أنه يتطور بسرعة لافتة للنظر، ولديه استعداد للعمل، وقدرة على الفهم والاستجابة. ولولا المستشارون الذين لا يكفّون عن الثرثرة، وعن تقديم اقتراحات تتناقض يوماً بعد يوم لكانت الأمور أفضل بكثير. مع ذلك يجب أن لا اصطدم بالآخرين وأن أبذل جهداً، دون أن أشعره، بضرورة إعطاء الأولوية لبعض المشاريع، ولبعض العلاقات الأكثر أهمية من غيرها.

احضرت كمية وفيرة من الكتب، وأوصيت على كتب أخرى، أن الكتب من الأمور القليلة في هذه الدنيا التي تربط الإنسان، وتجعله بفكر بطريقة أفضل.

لن أستطيع أن أخطط لمشاريع طويلة الأمد، لأني التزمت مع سنكلر، ورجاله سيأتون خلال أسابيع قليلة، ويجب أن أهيّئ لهم الأمور، وأن أرافقهم إلى موران، وقد أضطر أيضاً إلى مرافقتهم إلى بعض مواقع العمل. ولذلك سوف أمنح نفسي إجازة قصيرة لإعادة ترتيب الأمور».

عنان بسيوني الذي لاحظ أن هاملتون تغير كثيراً، بعد عودته من السفر، وسمع من قنصل بريطانيا «أن هاملتون لا يمثل السياسة الرسمية لصاحب الجلالة ملك بريطانيا، وأن له اجتهادات خاصة، وقد تكون غير مقبولة» وابتسم القنصل دلالة السخرية والاستخفاف، فقد قرّر أن طموحات الرجل تصطدم بالمصاعب، ولا بد أن تتكسر وتتراجع، خاصة عندما تتوضح الأمور لصاحب الجلالة السلطان، أو عندما يلمس بنفسه النتائج. عنان بسيوني الذي بدا متفائلاً، أصيب بصدمة قوية عندما جاءت الأخبار بأن هاملتون أعلن إسلامه، ثم حين جاء باسم عبد الصمد، وقد ترك لحيته تنمو، وبدا تقياً مؤمناً كما لم ير أحداً مثله من قبل. قال لنفسه «خيركم في

الجاهلية خيركم في الإسلام وأصبح هاملتون واحداً من الصحابة؟» وتذكر أبا سفيان.

سأل القنصل البريطاني ذات يوم عن إسلام هاملتون، رد عليه بعدم اهتمام:

ـ نحن لا نتدخل في مثل هذه الأمور الشخصية.

قال شمران العتيبي في سوق الحلال:

ـ ابشروا يا أهل السوق، الإنكريز صاروا مسلمين، وباكر واللي عقبه راح عيون أولادكم تصير زرق، واللي ما يصدق هذا هو العجرمي يروح وينشده.

وظل الموضوع يدور ويثير الكثير من السخرية والتساؤلات والاستغراب، لكن الأحداث التي أعقبته جعلت الكثيرين ينسونه!

مـرة أخرى... حان الوقت لكي تبدأ مرحلة جديدة.

ومثلما فعل خريبط في حملة وادي الفيض، وبعدها الحويزة، ومثلما فعل في حملة العوالي، بعث على أقربائه وأخوال أولاده، وبعث وراء رجاله المباشرين. كان قسم من هؤلاء قد ابتعد، نتيجة الأخطاء أو سوء المعاملة، أو نتيجة تقديم الآخرين عليهم.

ما أن وصلوا وضمهم اجتماع واحد، حتى بدأ السلطان:

ـ ... وتعرفون يا جماعة الخير، من ثلاثين سنة وأكثر وحنا نركض من مكان لمكان، وطول هذي المدة ما عرفنا الراحة ولا غمضت لنا عين، وبتأييد من الله ومنكم، أنشأنا هذا الملك، وقلنا لأرواحنا يلزم أن الناس اللي تعبوا واللي شقيوا أن يستريحوا لأن، حتى الله عز وجل، خلق الدنيا في ستة أيام واستراح في اليوم السابع. لكن بينّا جماعة ما تبي ترتاح ولا تبي تريّح، وحنا ناخذ الناس على قدر عقولهم، نقول لهم: سبحانه وتعالى أعطى وتفضل، ويلزم نقنع ونحمده ونشكره، ونقول لهم يكثر خيركم يا جماعة، وطالت أعماركم، لكن أبد ما يسمعون ولا يفهمون. وهالحين، اللي بنيناه بثلاثين أربعين سنة، واللي ما صار إلا بعد ما نشف ريق الناس ولاقوا الأمرين، يريدون يهدمونه ويضيعونه.

وتتبدى على وجهه علامات الغضب والحزن. يتطلع إلى الذين يتابعونه لكي يختبر وقع الكلمات التي قالها، فلما يجدهم صامتين، وقد امتلأوا حذراً أقرب إلى الخوف، يتابع:

ـ وأنا، يا جماعة، صبرت وتحملت، وكنت أقول لنفسي: تحمل يا

خريبط، باكر الجماعة يقدّرون. لكن يوم بعد يوم، وكل ما سكتنا وطوّلنا بالنا يزيدون. وأنتم تعرفون، يا جماعة الخير، كل إنسان، حتى لو كان كبره كبر جمل، يصل إلى حد ويقول: هذا حدي. وما أقدر أشيل أو أتحمل أكثر من اللي تحملته...

وزفر بحزن، وتغيرت لهجته تماماً:

ـ وجماعتنا قالوا من قبل: من شاورك دخل ذمتك، وأنا، والشهادة لله، صار لي ليالي ما تعرف عيني النوم، وما بعثت وراكم إلا لأشاوركم، وأقول لكم اللي ببالي...

وخفض صوته تماماً، صار أقرب إلى الهمس، وخرج حزيناً جداً:

ـ هجس ببالي يا جماعة، وأقولها صراحة، أن أترك وامشي، ويلزمكم تدورون من بينكم واحد غيري...

وغصّ في الكلمة الأخيرة، وسقطت دمعة لم يستطيع أن يحبسها. خيم على الجلسة جو قاسٍ من التوتر والحزن. وخلال لحظات، ورغم تعدد العواطف وتباينها، بتعدد الرجال الموجودين، إلا أن تياراً واحداً خفياً سرى في الجمع، فجعل هذا العدد الكبير من البشر كتلة واحدة لا يُعرف أين بدايتها وأين تنتهي.

ومع أن الصمت لم يدم إلا فترة قصيرة، إلا أن هذه الفترة بدت بنظر الكثيرين طويلة شاقة. لم يتركها السلطان تمضي هكذا، قال دون أن يرفع رأسه:

ـ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وأنا، وأقولها بفخر، وأشهد عليها رب العالمين، قمت بواجبي وسويت اللي أقدر عليه، وما فكرت ولا بغيت في يوم من الأيام حمداً أو شكوراً، فإذا وافقتم على أن أستقيل، وأن أقضي ما بقي لي من أيام على هذه الأرض أتعبد ربي وما أبغي إلا مرضاته، فأكون لكم ممنون، وأولها وتاليها، ودوم، أنتم متفضلين، وبارك الله فيكم... هذا اللي عندي، وهذا اللي ردت أقوله لكم.

تبادل بعض المسنين النظرات، وكانت نظرات محرضة مليئة بالحزم ورغبة المواجهة. وحين لم يبادر أحد للكلام قال العجرمي:

ـ اسمع يا أبو منصور، وأريد من كل واحد أن يسمع. . .

وجال بنظراته في الوجوه، وكان أقرب إلى الغضب:

ـ حنا اللي بايعناك، وحنا اللي سلمناك هذي الأمانة. وأرواح الناس وأعراضها وأموالها دين برقبتك في الدنيا والآخرة، وأبد ما يجوز أن الراعي يتخلى عن الرعية، وأن صاحب الأمانة يترك أمانته. . .

وتغيرت نبرة الصوت:

ـ وحنا، يا أبو منصور، والشهادة لله، نعرف ما تلقاه من تعب وحسد ومغثة، وأنا، أكثر من غيري، أعرف أنك شايل على أكتافك هموم ما تشيلها جبال، وأعرف أن الناس ما يعرفون ولا يقدرون، بس يجي يوم يعرفون ويعترفون. . .

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ لهذا السبب أريد منك، يا طويل العمر، ما تجي على لسانك كلمة أستقيل، أو كلمة أترك وامشي. ما هو بس كذا، أنا أقول نيابة عن الحاضرين جميعهم: حنا ما نسمح لك، لأن البيعة اللي بايعناك، وأشهدنا الله ورسوله، متمسكين بيها، وأبد ما نقبل غير شيء!

وإذا كان العجرمي قد استطاع أن يعبر عما يدور في رأسه بكلمات واضحة، وأن يعكس أفكار الكثيرين، إن لم يكن أفكار الجميع، فإن الذين تناوبوا الكلام بعده كانوا خليطاً من الرجال المنفعلين الغاضبين، أو الذين فوجئوا وذهلوا، فلجأوا إلى الصراخ أو البكاء، وتجرأ بعضهم فأشهر سلاحه، وسمعت أيضاً بعض النخوات والأهازيج، وكانت كلها أقرب إلى الصرير الهستيري الذي يتولد فجأة، ولا يمكن تمييز الكلمات أو لا يُعرف ماذا تعني أو ماذا يجب أن يُفعل.

قال وقيان الضاري، أحد أعمام السلطان، والذي لا يأتي إلى موران إلا نادراً، إذ يفضل أن يبقى مع صقوره بعيداً، وقد فوجئ بما سمع:

ـ اسمع يا خريبط إذا كان ملك آبائنا وأجدادنا تريد تضيعه بساعة غضب، أو لأن فلان قال كلمة، فترى السيوف هي اللي تحكم بينّا. . .

وتلفت بانفعال، كأنه يريد ممن حوله أن يشهروا سلاحهم، تابع وخرج صوته من بين أسنانه:

ـ ويلزمك تسمع كلامي زين: قبل ما نتوجه لابن مياح، وقبل ما نرفع سلاحنا عليه، نرفعه بوجهك. إذا ظليت تسولف هذي السوالف الجايفة.

ضحك السلطان بعصبية، رفع عينيه إلى الوجوه، وقال بمرارة:

ـ يا عباد الله . . .

ـ هز رأسه عدة مرات وتغيرت نبرة صوته:

ـ والله وبالله وتالله صار لي سنين، يا جماعة الخير، أعض على جرحي وأنا ساكت، أقول تتعدل، أقول جماعتنا ويلزم نتحملهم، لكنها زادت . . .

قال العجرمي ليخلق جواً جديداً:

ـ اسمع يا أبو منصور، ويلزم أن الواحد يقول ضميره: حنا مقصرين، الواحد منا قاعد بالظلال يسولف، أو يقنض، وإذا حصّل قرشين يتزوج، وتاركين كل الحمل عليك . . .

رد السلطان بعصبية:

ـ ما يهمّ التعب، يا أبو مشعل، لو كانت المسألة مسألة تعب ما قلنا ولا كلام، بس المسألة ما هي كذا . . .

ضحك، تطلع إلى اثنين أو ثلاثة الأقرب إليه وأضاف:

ـ الخويا، أقرب الناس، اللي يشوفون ويعرفون، حتى هذول تلقاهم يقولون: خريبط ترك الدين ونسي الجهاد. يقولون خريبط باع البلاد. وما تخلص سالفة إلا ويطلعون بالثانية، وضعنا بين نار الخويا ونار العدى، وبعدها: هات يا خريبط، نريد يا خريبط، سو يا خريبط، لا تسوِ يا خريبط، فضاعت علينا الحسبة وما نعرف من هو اللي معنا ومن هو اللي علينا.

قال وقيان بحدة:

ـ اسمع يا خريبط: الحق كله عليك، حنا ما سويناك أمير إلا حتى

تحكم وترسم، وهذول اللي يقولون يصير وما يصير، اللي يقولون فلاني وتركاني، وتلقاهم أبد من الشمس للظلال، يلزم تسنّعهم زين، إذا طقيت كم واحد الكل يتعلمون ويصيرون.

- حنا يا عم ما نريد نقتل ونضرب، نريد الناس تفهمنا وتعاوّنا.

هكذا رد السلطان. قال طراد المجول أحد أصهار السلطان، وقريب فضة:

- أنا يا جماعة الخير عندي كلمة وأريدكم تسمعون: قبل كم يوم جانا جماعة، دزهم ابن مياح، وبعد السلام والكلام، طلّعوا ذهبهم وقالوا: الديرة كلها معانا، وخريبط مصبّح مسّي، وحنا جيناكم لأنكم عزيزين علينا، ونريدكم تعاهدونا: إذا ثرنا بوجه خريبط تكونون ويانا، وإذا خفتم أو لكم رأي ثاني فلا تكونوا مع خريبط، أبقوا على الحياد، لا معه ولا معنا... وهذا الذهب لكم.

مدّ وقيان الضاري رقبته مثل اللقلق وسأل:

- أي نعم... وشنهو كان جوابكم؟

ضحك طراد المجول، تطلع إلى الوجوه التي تتابع كلامه، وتطلع إلى وقيان الضاري وسأل:

- حنا... شنهو كان جوابنا؟

والتفت إلى أكثر من اتجاه، يبحث، وخرج صوته حاداً:

وين أنت يا عايد؟ وحين رفع عائد رأسه، خاطبه بحدة: علمهم شنهو كان جوابنا.

قال عائد، وبدا مرتبكاً:

- قال لهم عمي طراد: والله.. والله، لو ما كنتم ضيوفنا، ولو ما أكلتم من خبزنا وملحنا ما يطلع واحد منكم سالم.

سأل وقيان:

- وبعد... يا طراد؟

- ما أقدر أسولف لك بكل اللي صار واللي جرى يا عم، قالوا:

الإنكريز، قالوا: الدين، قالوا: خريبط ظالم وغاشم. بالمختصر، قلت لهم: يا جماعة، الأمور زادت عن حدها، وإذا أنا شيخ وقادر أن أحميكم إلى هالحين ترى ما أقدر أضمن بعد ساعة، والأحسن تشيلون، ما هو بس كذا، قلتم لهم تبلغوا ابن مياح: حنا، يا ابن مياح، مع خريبط، وأول من يرفع السلاح بوجهك، إذا ما رجعت للطاعة ولزمت حدك؛ وقلت لجماعته، اتركونا هالحين من هذي السوالف، والأحسن ترجعوا لعقولكم، لأن جماعتنا قالوا من قبل: سلطان غشوم ولا فتنة تدوم، وأنتم هالحين أهل الفتنة، والناس مع خريبط!

قال وقيان الضاري:

ـ من زمان يسولفون لي عنك يا طراد، والكل يذكرك بالخير، ويقولون شهم وما مثله!

تدخل السلطان من جديد ليعيد الأمور إلى سياقها الأول:

ـ مثل هذي السالفة ميّات، يا جماعة الخير، وغيرها أكبر منها، ولهذا السبب ما أريد أن أقف أمام الله يوم القيامة وحيداً، ومثل ما قال طراد: سلطان غشوم ولا فتنة تدوم...

ضحك وهز رأسه عدة مرات ثم تابع:

ـ إذا كان ابن مياح يسميني سلطان غشوم، وإني بعت البلاد، فأنتم، كل واحد منكم، تعرفوني زين، إذا كان فيّ عيب فعيبي أني متساهل، أني أسامح، ودايماً أقول: حنا أولاد اليوم وعفا الله عما مضى، لكن اللي براسه سالفة، الطمعان، والخاين، لا بد يلقى له خيمة أو عباة حتى يتظلل بيها...

وتغيرت نبرته تماماً:

ـ يرجع مرجوعنا، يا جماعة الخير، لأول الكلام: أنا أشوف روحي وحدي وتعبت، حملت عنكم سنين وسنين، وما أقول هذا الكلام حتى أمنّ عليكم، لا بالله، بس البني آدم لحم ودم، وإذا حمل يوم ما يقدر ثاني يوم...

ولما رأى الصمت مخيماً تابع بحزن:

ـ وأريد منكم، طالت أعماركم، تشوفون، وتلقون واحد غيري. . .

وابتسم وأضاف بسرعة:

ـ وأي واحد تختارونه وتبايعونه، أنا أول من يعاونه ويكون معاه. . .

كاد يتابع، لكن وقيان الضاري وقف، وبدا وجهه محتقناً أقرب إلى الحقد والاشمئزاز.

ـ بليا طول سالفة يا خريبط، تسمعني زين؟

وضرب الأرض بقائم سيفه وأضاف:

ـ حنا هالحين هنا حتى نشوف شلون نقدر نساعدك، نحمل كتف عنك، وغير سالفة اتركها، وأبد لا تجيب طاريها على لسانك، ومثل ما صار أولها يصير تاليها.

قال العجرمي:

ـ حنا أهل الدين وأهل الشرع، ونعرف اللي يجوز واللي ما يجوز، وأقول لكم كلمة وأنا مسؤول عنها. . .

قاطعه السلطان:

ـ قبل ما تقول، يا أبو مشعل، ولا مقطوع لكلامك، أريد أسمع الجماعة اللي ما تكلموا من قبل.

وأولئك الذين لم يتكلموا، لم يبدوا رأياً ولم يشاركوا، تبادلوا النظرات فيما بينهم، ومع الآخرين أيضاً، أصيبوا بالارتباك، إذ رغم أن أي واحد منهم يمكن أن يتحدث، ولفترة طويلة، ويمكن أن يقول شيئاً هاماً وجميلاً، إلا أنهم وقعوا في حالة من الحيرة. ولم يتردد بعضهم في أن يكز غيره، أو أن يتطلع إلى جهة أو أخرى، وكأنه ليس معنياً، ويريد من غيره أن يتكلم، أن يعبر عما يجول في خاطره. وهؤلاء الناس ليسوا جبناء أو لا يعرفون ما ينبغي أن يقال أو يفعل، لكن ضمن هذا الحشد، وفي مثل هذا الجو المنفعل، فإنهم يصبحون بشراً من نوع نادر: يفقدون ذكاءهم وقدرتهم على التعبير، بل ويصبحون، في بعض الأحيان، إذا اضطروا للكلام، أغبياء ومثيرين للسخرية.

كلمات السلطان التي ظلت طائرة في الهواء، والتي مسّت كل واحد من هؤلاء، ولم تشجع أحداً منهم على أن يبدأ الكلام، جعلت العجرمي يتقدم مرة أخرى. قال للسلطان وقال للآخرين:

ـ الجماعة جماعتنا، واقدر أنوب عنهم وأقول كلمتين...

قاطعه السلطان وسأل:

ـ توافقون يا جماعة الخير؟

وتراكمت الأصوات كما تتراكم حجارة الأطفال، جاءت سريعة، متتابعة، مختلطة، وكلها تعلن التأييد والموافقة. ضحك السلطان، تطلع إلى العجرمي، وقال:

ـ سم.. يا أبو مشعل.

ـ أقدر أقول، يا أبو منصور: عفا الله عما مضى، ما أريد أقول من هو المقصر ومن هو غير المقصّر، حنا أولاد اليوم...

تنفس بعمق وتطلع إلى الوجوه... ثم تابع:

ـ أي نعم... حنا أولاد اليوم، وأول شي نسويه: نجدد البيعة، وما نقبل كلام ثاني. أنت السلطان رضيت أو ما رضيت، وهذي أمانة برقبتك، يحاسبك عليها الله في الدنيا والآخرة، ويلزم تقول أمام الجميع: موافق!

والسلطان الذي هز رأسه عدة مرات وابتسم، ثم تطلع إلى الوجوه، قال بتردد:

ـ أقول نعم... بس بشروط...

رد العجرمي بعصبية:

ـ خلنا نقول يا أبو منصور، وبعدها إذا كان لك قول على العين والرأس.

قهقه السلطان ورد:

ـ سم... يا أبو مشعل.

ـ بعد تجديد البيعة، يا طويل العمر، يلزم كل واحد من الموجودين أن يتحمل ما يقع عليه، يلزم كل واحد يشمر عن زنوده، ويقول: أنا حاضر يا

طويل العمر، ما هو بس كذا، يلزم يعوّض قصوره، والشي اللي صار من قبل ما يلزم يصير.

ضحك وتطلع إلى الوجوه، وأضاف بلهجة حزينة:

ـ وحنا، يا أولاد الحلال، يلزم ننصف الرّجال، تحمل عنا الكثير، ركض من مكان لمكان، وهالحين، إذا ردنا نعاونه يلزم نشيل عنه كتف، وبدون ما يقول، لا بد أن نعرف شنهو المطلوب منا. أما إذا تركناه، إذا قلنا له: اذهب أنت وربك فحاربا، إنّا ها هنا قاعدون، فإذا تحملنا مرة، وثنتين، وثلاث، فالبني آدم له حدود، ما هو صخر، ولا هو حديد، فمن بد ولازم أن نعاونه.

ومثلما خرجت الأصوات جريئة حارة في الموافقة على أن يبقى، فقد أكدت مرة أخرى استعدادها للمعاونة. قال وقيان:

ـ ومثل ما قال شيخنا. ومثل ما قال السلطان...

وهزّ أصبعه في الوجوه متوعداً:

ـ وإذا أي واحد منكم عنفص، وقال فلاني وتركاني، ما يلوم إلا نفسه!

قال السلطان بلهجة مأساوية:

ـ ما أريد أقول لكم، يا جماعة الخير، كم تعبنا، وشنهو اللي صار معنا، يجوز لو تكلمت أخجل، ودائماً أقول لنفسي: هذا واجب يا خريبط، واللي يريد يصير جمّال يلزمه يعلي باب داره، لكن، والشهاد لله، تعبنا، وما بينا حيل أكثر من كذا، ونريد كل واحد منكم يعاونّا!

في هذا اللقاء، والذي امتد ساعات طويلة، وقصد أن لا يحضره أي من المستشارين، بمن فيهم هاملتون وعنان بسيوني ورأفت شيخ الصاغة وآخرون، والذي حضر جزءاً يسيراً منه عبدالله البخيت، ثم خرج بناء لاستدعاء عاجل، وقد رتب هذا الأمر مبكراً؛ في هذا اللقاء قيلت كل الأشياء التي كان يجب أن تقال ومثلما خرج السلطان من لقاءات مشابهة ظافراً، خرج هذه المرة.

وبعد أيام وهو يستعرض نتائج هذا الاجتماع مع مستشاريه وعدد من رجاله، سأله ابن البخيت:

ـ وإذا قلنا كلام ما تزعل يا طويل العمر؟

رد السلطان بيأس:

ـ مشكلتنا، يا عبدالله، أن الناس ما عادت تقول، وهذا اللي يخوّف....

وبعد أن زفر وتنهد، تابع:

ـ لو تكلموا تعرف كيف يفكرون، شنهو اللي يريدون، وهالحين يمكن تقول اللي ببطنك.

قال عبدالله البخيت وهو يترنم:

وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل

قال رأفت شيخ الصاغة:

ـ الأستاذ عبدالله متفائل، إذ يعتبر أن الروم خلف الظهر، فماذا لو قلت له أن الروم في الظهر نفسه؟

رد ابن البخيت بنوع من التورية:

ـ وكل الله يا أبو حبيب، لأن الظهر ظَهَر!

قال هاملتون:

ـ المهم في هذا الاجتماع أن أفسح المجال لكل إنسان لأن يتكلم، لأن يعبر عن وجهة نظره، ولذلك يمكن اعتباره استفتاء على سياسة السلطان، وعلى مواقف المتمردين...

وبعد قليل وهو يتساءل:

ـ لكن هل يتابع وينفذ الذين كانوا هنا التزاماتهم؟

قال السلطان وهو يضحك:

ـ ... يا الصاحب: جماعتنا كلمتهم مهمة، والمهم أكثر أن تناظر عيونهم، لأن العيون تفضح، تقول كل شيء.

وقهقه ثم أضاف:

ـ وما تركت أحد إلا وناظرته، ناظرتهم جميع، كنت أريد أعرف: الكلام اللي يقولونه صحيح أو ما هو بصحيح، لكن، والشهادة لله، كانوا يقولون من قلوبهم.

كتب هاملتون في مذكراته: «... وضمن أمور أخرى، لا يمكن أن يحكم الإنسان بسهولة على تفكير هؤلاء الناس أو طريقة تعاملهم. المهم الآن أن أجمع الوقائع، أن أرقب التصرفات والحركات، وأن انتبه، بشكل خاص، إلى ردود الفعل، لأن البدو، بمقدار ما يبدون ودودين، فإنهم يحسنون إلى حد كبير إخفاء عواطفهم وردود أفعالهم. أنهم مثل القرب، فهم يمتلئون بخفاء، لكن إلى حد معين، إلى الحد الذي يستطيعون احتماله، وبعد ذاك ينفجرون ويعبرون عما في داخلهم.

«الاجتماع الذي عقده السلطان في الأيام الأخيرة، والذي سبقه ورافقه الكثير من الهدايا والدعوات، وتخلله أيضاً الكثير من التمثيل، كما نقلت إليّ الوقائع، يدل على أن هؤلاء الناس يمتلكون أكثر من طريقة للتفاهم. لا تكفي الكلمات، مهما كانت مقنعة، ولا يكفي الود مهما بالغ الإنسان في إظهاره. إن لديهم وسائل سبر مختلفة عن أماكن أخرى. أو بالأحرى أنهم يفهمون بعضهم بعضاً بطرق سرية للغاية. لا أريد أن أحوّل الأمر إلى مجموعة رموز سحرية، لكنهم، مع ذلك، يمتلكون وسائل إضافية، وإذا افترض الإنسان أن ما تراه عيناه فقط هو حقيقة ما يجري، فلا بد أن يقع في أخطاء فادحة.

«وفي إطار الوقائع العملية، استطاع السلطان، بقدرة فائقة، أن يكسب المعركة الأولى. لا أدري كيف ستسير الأمور فيما بعد، لكن المهم، أن لا أحد خرج من الاجتماع إلا وكان شاعراً أنه ظافر. والغريب أن الكثيرين، كما أعرف، لم يعودوا إلا بالكلمات والهدايا الشخصية، لكنهم مع ذلك كانوا مكتفين وراضين، ولم يطلبوا، أو لم يطمحوا بأكثر من ذلك. أن في الحياة الصحراوية أموراً كثيرة تستدعي التوقف والانتباه.

«ومن الأمور المهمة أيضاً، أن رجال الدين، أياً كان الموقف منهم، رجال مهمون إلى أقصى حد، ليس باعتبارهم يملكون جنوداً وقوى، وليس

لأنهم قادرون على التأثير على الآخرين مباشرة، ولكن لأنهم يمتلكون قدرة غير عادية على الكلام وتبرير المواقف، إضافة إلى السفاهة التي يتصفون بها، وهذه السفاهة بالذات تجعلهم قادرين على التحكم بالآخرين.

«أما العصبية القبلية، والقرابة، ثم المصاهرة، فإنها في هذه الصحراء، عبارة عن جداول الحياة الحقيقية. إنهم هنا يشعرون بروابط القرابة، كما لو أنها نوابض داخلية تتحكم وتحرك كل شيء. وكم استغرب أن رجالاً كثيرين التقيت بهم في موران والعوالي، وبمجرد أن يكتشفوا نوعاً من القرابة فيما بينهم، حتى لو كانت بعيدة، يتحولون إلى أصدقاء إلى درجة العشق والذوبان، وكأن أمراً خارقاً قد اكتشف.

«ماذا تعني الدماء في هذه الصحراء؟ وماذا تعني القرابة؟

«لا بد أن أخصص جزءاً من وقتي في المستقبل إلى دراسة هذه الظاهرة التي تستحق المتابعة والاهتمام، ليس باعتبارها شيء خارق، ولكن باعتبارها ظاهرة مميزة في هذا المجتمع البدائي. هل مثل هذه الظواهر موجودة في مجتمعات أخرى؟».

لم يدع السلطان هذا النصر دون أن يستثمره، فقد كلف كل واحد من الرجال بمهمات التعبئة والتحريض والاستعداد للمعركة الفاصلة، وأوفد عدداً من أولاده والأقرباء، مع الهدايا، إلى شيوخ القبائل، كما استبدل عدداً من أمراء المناطق. وبعث العجرمي أيضاً مجموعة من رجال الدين لكي تقيم في البادية. وقبل أن تمضي ثلاثة شهور على الاجتماع الأول دعا السلطان إلى اجتماع ثانٍ في موران، وهذه المرة لم يقتصر الاجتماع على الأقارب والرجال المباشرين، وإنما دعا عدداً كبيراً من زعماء العشائر ووجوه البلاد والتجار ودعا ايضاً ابن مشعان وابن مياح وعمير وآخرين كانوا تابعين لهم.

الذين حضروا الاجتماع الثاني، أو كانوا قريبين منه، قالوا إن موران عاشت أياماً لا تشبه أياماً غيرها؛ والذي يعرفون قصر الروض قالوا إن القصر، منذ بني، وأقام فيه السلطان، لم يشهد حشداً بهذه الضخامة وبهذه الأهمية.

ابن مياح الوحيد الذي لم يحضر الاجتماع، فقد اعتذر بسبب المرض، وأوفد اثنين من أقاربه. أما ابن مشعان فقد حضر، وحضرت معه مجموعة كبيرة من حرسه ورجاله، وجاء عمير قبل الاجتماع بأسبوع كامل، وبدا واضحاً من خلال اتصالاته وكلامه، ومن خلال جرأته بشكل خاص، أن الأمور لن تمر بسلام. فنر الذي كان في موران، ونقل إليه ما يقوله خاله عمير، بدا محرجاً أول الأمر، ثم غاضباً بعد ذلك، وقد طلب من أبيه أن يتولى بنفسه «تأديب» عمير، لكن السلطان ابتسم وقال أمام عدد محدود من رجاله:

ـ لا يا وليدي، عمير يظل، بالأول وبالتالي، خالك...

وطلب من فنر أن يقترب منه أكثر وهمس بأذنه:

ـ حنا نريده يطلّع اللي ببطنه، وكل ما تكلم أكثر، كل ما انحمق، عرفنا زين شنهو اللي ببالهم، ومن رأي تزوره وتشوفه.

بعد تردد لم يطل امتثل فنر. ورغم الغضب والفتور الذي تخلل بداية اللقاء، إلا أنه في مراحله اللاحقة أخذ شكل محاولة مستميتة من عمير في إقناع فنر لكي يتخلى عن أبيه، وكانت حجته مرة أن خريبط باع نفسه وباع البلاد للإنكليز، ومرة أخرى أن خريبط بعد أن تخلى عن الجهاد وصالح الكفار أصبح كافراً. وفنر لم يفكر جدياً بإقناع خاله، قدر ما كان يريد أن يعرف ما ينتوي عمله هو والآخرون. فقد جاء بهذا الهدف، وتذكر إحدى وصايا هاملتون «أن على الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، إذا كان الشعب راضياً، أما إذا كان مكروهاً، ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل إنسان ومن كل شيء».

ورغم أن الاجتماع انتهى دون نتائج، إلا أن فنر استطاع، بعد عتاب طويل، أن يمتص جزءاً من حنق عمير، واستطاع أيضاً أن يشككه بنوايا ابن مياح؛ صحيح أنه لم يستطع أن يفصله عنه، لكن ترك في نفسه ريبة أقرب إلى الخوف، عندما أشار إلى وجود مراسلات بين ابن مياح والإنكليز، وقد تم ضبطها، وهي موجودة في حوزة السلطان! كما أشار فنر إلى أنه يفهم دوافع الخال، خاصة من الناحية الدينية، وتذكر الاثنان، وبحزن، الشيخ

عوض، وعين فضة، وتمنى كل منهما لو أن الأمور أخذت مساراً آخر!

أما ما تلا ذلك من دعوات الوفود، والاتصالات التي جرت مع الشيوخ والوجوه، قبل الاجتماعات العامة، والهدايا التي قدّمت، والوعود التي تزيد وتكبر مع اقتراب يوم الاجتماع. إضافة إلى الحفاوة والاهتمام والمرافقين، فإن كل ذلك خلق دوياً ملأ موران من أقصاها إلى أقصاها. وإذا كان الكثيرون قد ساهموا في هذا الجهد الكبير، خاصة أقارب السلطان وأصهاره، فإن خزعل بدا الأكثر نشاطاً والأكثر دراية بمعاملة هؤلاء الشيوخ؛ حتى الذين كانوا يبدون تأييداً متحفظاً، أو يتحصنون بالصمت والكلمات العامة التي لا تعني موقفاً، ما يكادون يصلون إلى قصر الغدير، وبعد الغداء أو العشاء أو قبلهما، وخلال خلوات لا تطول، كان يخرج هؤلاء أكثر قناعة وأكثر استعداداً للوقوف في وجه «المتمردين وأهل الفتنة».

قال السلطان لخزعل بعد أيام من انتهاء هذه الاجتماعات، وكانا في حالة من التألق:

ـ . . . ويلزم أقول لك يا وليدي، أن الشغل اللي اشتغلته ما تقدر عليه حمولة. . .

وقهقة وتغيرت نبرة صوته وهو يتابع:

ـ وبك طبايع، ومع أنك ابني، واعرفك من يومك ذاك، إلا أنه ما ينحزر عليك؛ تنام نومة حيات الشتا، وما يفززك من نومك طوب، وبعدها: الشغل اللي يحتاج شهر تسويه بيوم!

وبعد قليل:

ـ ما تعلمني شنو هي السالفة؟

وخزعل الذي ضحك، وخرج صوته كالصهيل، رد بتواضع:

ـ كلهم جماعتنا، طال عمرك، ونعرفهم معرفة زينة، وأفضالنا عليهم كثيرة!

ـ لكنهم يسمعون منك ويأخذون برأيك. . .

ـ القريشات، طال عمرك، تخليهم يرتخون، فإذا ارتخوا كل شي يصير

سهل: القلوب تنفتح، والآذان تسمع، واللي تريده تصله!

كيف جرت الاجتماعات، وماذا قال ابن مشعان وعمير والآخرون، وكيف رد عليهم السلطان، وكيف رد العجرمي، وكيف أشهر وقيان الضاري سيفه وهدد وتوعد، ثم كيف روى طراد المجول وآخرون عن محاولات ابن مياح خلق الفتنة، وعندما لوح السلطان بمجموعة من الأوراق، قال إنها رسائل أرسلها ابن مياح للإنكليز... ان كل ذلك يروى بكثير من الإعجاب بما قاله السلطان، وبكثير من السخرية بما قاله ابن مشعان وواحد من أقرباء ابن مياح.

باختصار: ما جرى في الاجتماعات كان تنفيذاً لما اتفق عليه قبلها، ورغم الكلمات الغاضبة والاتهامات. فقد كان كل شيء معروفاً سلفاً. وانتهى الاجتماع الأخير بكلمة مؤثرة للسلطان، قال في نهايتها:

ـ ... وبقلوبنا ما تلقون بغض لأحد أبد، وبنظرنا كل الناس طيبين وأجاويد، وحنا أهل الدين واللي ندافع عنه، ومثل ما قال الله عز وجل في محكم كتابه الفتنة أشد من القتل، فنريد من كل واحد يناظر زين ويروز خطوته قبل ما يدوس، وقدام الجميع أقول: عفا الله عما مضى، أما إذا واحد خرج على الجماعة فلا يلوم إلا نفسه، وما أحد كبير، وما أحد بعيد، إذا خرج على الطاعة، وأنتم يا جماعة الخير شهود.

رأفت شيخ الصاغة الذي حضر هذه الاجتماعات سجل عدداً من الملاحظات، لكن أكثر ما لفت نظره الحالة الصحية لمعظم الذين حضروا، فكتب في مذكراته الصحية ما يلي: «... وسوء التغذية علامة بارزة ويظهر في الهزال وصفرة العيون، فما عدا عدد محدود من الذين شاركوا في الاجتماعات، فإن الأغلبية الساحقة تظهر عليها مظاهر سوء التغذية، إضافة إلى الأمراض المزمنة، وهذه ظاهرة تكاد تكون عامة. عدد العوران كبير جداً، ولافت للنظر، وكذلك الذين لا يسمعون. الذين يبدو عليهم الهرم المبكر عدد كبير أيضاً. أما المصابون بالأمراض الصدرية والفتوق، والذين يعانون من اختلال الغدد، فإنهم الأغلبية، أو هذا ما افترض، فتلك الطريقة في المشي أو الحديث، إضافة إلى التنفس، ولون البشرة، تدل على أنهم

مصابون لا محالة، وربما يكون ذلك نتيجة الفقر إضافة إلى نقص بعض المواد والأملاح الضرورية، وليس نتيجة التربية، كما قيل لي عندما سألت عدداً من الناس. أما المصابون بأمراض السكري فإنه يعلنون عن أنفسهم، ودون أدنى صعوبة يمكن تمييزهم.

«وهناك أيضاً أمراض عديدة، وسوف أتابع بعض الظواهر والحالات للإفادة منها في الدراسة التي...».

هاملتون الذي ظل يتابع اجتماعات موران عن بعد، فلم يظهر، ولم يعرف الكثيرون بوجوده، وبعد أن عرف أغلب التفاصيل، قال لفنر ذات ليلة:

- دعني اعترف بشيء أساسي، يا صاحب السمو...

وفتح فنر عينيه ليسمع الاعتراف، تابع وهو ينظر إلى مكان بعيد:

- أنا متأكد أن صاحب الجلالة السلطان لا يعرف ولم يطلع على ما جاء في «الأمير»، لكنه استطاع أن يصل إلى الكثير من القوانين الجوهرية التي وصل إليها صاحب «الأمير» وأملت عليه كتابة ذلك الكتاب...

وبعد قليل وهو يتطلع إلى فنر مواجهة:

- أمّا الذي أتيح له أن يطلع على تجارب الآخرين، وأن يستوعبها، وأن يمنحها من روحه وروح المكان الذي يعيش فيه، فعندئذٍ لا بد أن يحقق نتائج خارقة!

رد فنر بانفعال:

- صار لنا أيام طويلة بموران، الله يسلمك، وما نعرف شنهو اللي صار بغيبتنا بالعوالي، فيلزم أن نستأذن ونشيل، لأن ورانا ألف شغلة وشغلة.

قال هاملتون بدعابة:

- إذا وافق السلطان.

رد فنر بسخرية:

- أو إذا وافق ابن مشعان!

«لم تبق إلا ضربة واحدة، ولا بد أن تكون الأخيرة، وعندها تكتمل الدائرة، وينتهي كل شيء». هكذا قال هاملتون لنفسه بعد أن انتهى السلطان من ترتيب الأمور.

أما السلطان نفسه، فرغم القوة والثقة، لا يبدو متعجلاً. بل أكثر من ذلك تعاوده بين فترة وأخرى التساؤلات المرة: «هذول الإنكليز... ما يتأمنون، ويجوز مثل ما هم مادّين معنا، مادّين مع ابن مياح، وإلا منين الفلوس اللي يطرّشها هنا وهنا ومنين هذا الحيل» ليس ذلك فقط، إنهم في الفترة الأخيرة توقفوا عن تقديم المبالغ المتفق عليها، أو أخروها، يريدون أن يحرجوه، أن يضيقوا عليه. يشترطون أن تتوقف حوادث الحدود، ويشيرون، دون أن يقولوا ذلك صراحة، إلى عجزه وتردده في وضع حد لها، وهم الذين يمولونها. لقد أصبح أكثر ميلاً لترجيح مثل هذا الاحتمال!

خزعل لا يتوقف يوماً واحداً عن التساؤل: «متى نمشي طال عمرك؟» يريد أن ينتقم من ابن مياح الذي خدعه أكثر من مرة. السلطان يسمع، يهز رأسه، يصمت مرات ويجيب مرة:

ـ كل شيء بوقته زين يا وليدي. وأصعب الأمور بهذي الدنيا أربعة: الحرب والغدر والفراق والموت. الحرب إذا بدت ما تعرف متى تنتهي وشلون. أما إذا ما حضّرت روحك زين وما خليت عدوك دايخ وما يعرف تجيه الضربة منين فأغلب الظن أنها تأكلك قبل ما تأكل عدوك. ومن قبل قالوا: الحرب خطاها قصار، تبدأ بواحد لكن ما تخلص بعشرة، ولهذا السبب يلزم تتهيأ لها زين، يا وليدي، وإلا صرت أثر بعد عين.

والغدر، يا وليدي، يجيك من اللي ما تنتظر انه يجي منه، أو من اللي

امنته وخانك، وهذه ما هي صعبة وبس، تهدّ الحيل، فيلزم تظل عيونك مفتحة وتنام نومة الذيب.

أما الفراق فهو الموت الصغير، والموت الكبير إذا جاء ما احد يقدر يرده، يا خزعل، يا وليدي.

العجرمي الذي لم يتحدث في أمور الحرب يوماً من الأيام، أصبح معنياً بها أكثر من المحاربين. فبعد أن تزعم حملة التعبئة والتحريض، جاء من ذكّره بنهاية سلفه، وكيف قتل في ظروف غامضة، ولم يعرف القاتل أبداً. أما ما حصل معه، فقد أرسل إليه ابن مياح رسالة قصيرة «أنا وراك والزمان طويل وخلي خريبط يحميك». وإذا كان قد تكتم على هذه الرسالة فترة من الوقت، فإن المخاوف التي بدأت تطارده، في الليل والنهار، جعلته في وضع نفسي متدهور، الأمر الذي لم يخف على المحيطين به، بمن فيهم السلطان.

سأله السلطان ذات يوم، وقد بدا عليه الحذر الزائد من الذين يدخلون ويخرجون.

ـ اشوفك، يا أبو مشعل، ما أنت ولا بد. . .

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ عسى ما وراك خلاف، وصحتك زينة؟

ـ الصحة زينة، يا طويل العمر، بس البال مشغول.

ـ ما لك حق ما تعلّمنا يا أبو مشعل.

ـ تهون يا طويل العمر!

قال ابن البخيت بمكر:

ـ البال ما يهدا ولا يستريح إلا بالصلاة والدعاء والتسبيح!

سأل السلطان بمكر مماثل:

ـ أخاف الخويا، معتمدي، شغلناه عنك، يا أبو مشعل؟

ـ يا جماعة الخير. . .

رد العجرمي بحنق، ولم يتوقف إلا لحظة قصيرة تابع بعدها:

ـ حنا وين والدنيا وين.

قال ابن البخيت بمرح:

ـ أهل العراق يقولون: عرب وين طنبورة وين!

فتح السلطان عينيه، وقد داخله الشك أن الاثنين يعرفان ما لا يعرفه، سأل بقلق:

ـ خير، يا أبو مشعل؟ سم.

وروى العجرمي كيف أرسل إليه ابن مياح عدة رسل ورسائل، وان كل رسالة جديدة تحمل تهديداً إضافياً، وما كان ينوي أن يزعج نفسه أو يزعج الآخرين بمثل هذه التهديدات، لولا أنها أصبحت جدية تماماً خلال الفترة الأخيرة.

السلطان الذي استغرب، أبدى استياءه لأن العجرمي لم يبلغه هذه الرسائل في حينها، لأن حامل الرسالة يمكن أن يكون مفتاحاً مناسباً لمعرفة الكثير من الأمور. ومع ذلك، ولكي يخفف السلطان من حذر أو خوف العجرمي قال بدعابة:

ـ وأنت تعرف، يا أبو مشعل، اللي يريد يسوي شي ما يشيل ويّاه طبل، ولا يصيح من فوق منارة!

بعد ذلك أصبح العجرمي، أينما سار، وأينما حلّ، يسير معه، ويكون حوله، مجموعة من الحرس المدججين، الأمر الذي أثار الكثير من السخرية والتعليقات.

قال شمران العتيبي، عارفة موران، وشيخ سوق الحلال:

ـ ابشروا يا أهل السوق لأن أرواحكم بأيدي أمينة ورزقكم مضمون، ما دام العجرمي هو اللي يقود جنود طويل العمر!

ابن البخيت الذي كان لديه الكثير ليقوله، وكان مملوءاً بالسخرية في هذه الفترة بالذات، خاصة وأن عدة خلافات ثارت في بيت العجرمي، وربما هي التي سبّبت له الضعف والاضطراب، وقد عرف ابن البخيت

أغلب تفاصيلها، إلا أنه لم يجد أحداً لكي يبوح له أو لأن يحدثه. قال للسلطان بعد أسابيع من مرافقة الجند للعجرمي، وكان في لحظة انفعال وتألق:

ـ ابن مياح عن العجرمي أبعد من الأرض عن السما، يا طويل العمر بس الخوف من القريبين، الخوف من اللي ينامون على الوسادة الثانية. هذا هو اللي قاطع ظهره!

وفهم السلطان وضحك.

لم يكن العجرمي الوحيد الذي تغير وبدا مختلفاً، ابن العليان تغير أيضاً واختلف. فإذا كان قد تدبر مصاريف الاجتماع الأول، ووجد المبررات للهدايا والعطايا، وظل ودوداً قريباً من السلطان، فإن الاجتماع الثاني سبّب له هموماً كبيرة وإحراجات ليس لها نهاية. فحتى إلى أيام قبل الاجتماع الأخير كان السلطان وحده الآمر بالصرف، وكان وحده الذي يُعطى وتصرف عطاياه، أما عندما اشترك خزعل بالصرف أيضاً، فقد خرج ابن العليان عن طوره.

قال له السلطان بود حازم:

ـ . . . ما عليك يا عثمان، المهم أنت اصرف، وبعدين إذا طلعوا الجماعة زينين أو شينين فهذي علينا، أنا مسؤول.

ـ والفلوس منين، يا طويل العمر؟

ـ ما عندك فلوس هالحين؟

ـ عندي، طال عمرك، بس وريقة من يدك وريقة من يد خزعل، تخلص، وأبوك الله يرحمه!

ـ حنا، يا عثمان، نعرف شنهو القدر اللي عندك، وما راح نصرف إلا اللي نقدر عليه، فوكل الله ولا تخف.

ـ خوف ماني بخايف يا طويل العمر، بس إذا خلصت الفلوس أتوقف، وبعدها تركضون هنا وهنا، وما تلقون، وعندها أنتم اللي تفشلون، تسود وجوهكم وما تقدرون تناظرون الناس!

بدت الكلمات الأخيرة قاسية، ولم يكن عثمان يعنيها، لكنها وردت على لسانه هكذا، قال السلطان بحزم ودون مودة:

ـ أنت ما عليك، اصرف وهذا هو!

والسلطان الذي توقع مصاعب مالية في وقت مبكر، لم يترك الأمر إلى حين وقوع هذه المصاعب، فقد احتاط لها، إذ أرسل العديدين، مع الهدايا، لكي يطلب القروض، وقد جاءته بعضها، وكانت أكثر مما قدر، فاحتفظ بها لكي يفاجئ ابن العليان، ولكي يواجه الاحتمالات الصعبة في معركته الأخيرة مع ابن مياح.

مـرة أخرى، قيل أن الشيخة، مثلما أخرجت صفائح الذهب في معركة وادي الفيض، فعلت هذه المرة. وقيل إن العجرمي قدم أموالاً طائلة للسلطان. أما القروض التي تلقاها من دول مجاورة، ومن تجار موران والعوالي فكانت كبيرة. وقد ساهم فنر أكثر من الآخرين في تأمين هذه القروض. وسرت إشاعة قوية أن الصاحب هو الذي استطاع الحصول على مبالغ كبيرة من الذهب، على شكل قروض وهبات، من شركات كانت تريد أن تستخرج الذهب من موران والعوالي.

كل هذه الجهود والاحتياطات، لم تقنع ابن العليان ولم يشارك فيها. وعندما اقترب موعد الاجتماع الثاني، وبدأت الأموال التي كانت تحت يديه تتسرب مثلما تتسرب مياه الأمطار في الرمال، فقد امتنع عن زيارة القصر، وبدا نزقاً عصبياً، وكثيراً ما بعث برسائل غير مباشرة إلى السلطان. فبعد أن ظل ملازماً للقصر، ليرقب القادمين، وليعرف مدى علاقتهم بالسلطان، وليحاول، قدر ما يستطيع، أن يحد من العطايا ويمنع الإسراف، فإن الأمر عندما بلغ حداً معيناً، وعندما تجاوز خزعل الحدود التي كان يتصورها أو يفترضها، فقد قرر وبحزم أن يمتنع أولاً عن الذهاب إلى القصر، وبعث مع عرفان الهجرس برسالة شفوية إلى السلطان، بعد ذلك، وأصرّ عليه أن يبلغها، أو أن يبلغ قسماً منها على الأقل. قال لعرفان بحدة:

ـ تبلغ طويل العمر: الفلوس قليلة، وإذا كفت اليوم باكر ما تكفي...

وزفر مثل ثور وهو يضيف:

ـ وتقول له: ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء!

ابتسم بحزن، تطلع حواليه ونبر بعداء:

ـ . . . وإذا ظلت الوريقات تصلني مع الأختام: «ادفع لحامله»، ترى باكر راح اكشف عن قرعتي وأقول لكل واحد يجي ومعه وريقة: انقعها يا وليدي واشرب ماها، لأن طويل العمر مفلس، ويضرط من طيز وسيعة . . .

ولما اكتشف أنه قال في لحظة انفعال كلاماً غير لائق، هز رأسه بأسف وأضاف:

ـ هذا الكلام اللي قلته، يا عرفان، بينا، وما يلزم تقوله لطويل العمر . . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ يلزم تقول له: الفلوس وشّلت، مصبحة مسية، وعليه أن يشد يده.

يصمت قليلاً ثم يضيف بحنق:

ـ وما أدرى من أي فج طلع لنا هذا الغضب، اللي ياكل وما يشبع: خزعل . . .

وتتغير اللهجة:

ـ وتقول لطويل العمر: اصرف اللي تريده، بس خلصنا من هذا الغول، خزعل!

وإذا كان السلطان قد تدخل أولاً لكي يحد من إسراف خزعل ومبالغاته، وبعد ذلك لكي يقدم دعماً لمالية ابن العليان، لم يتوقعه، فإن الأمور لم تعد إلى مجاريها، ولم تتعدل العلاقات بين السلطان وابن العليان إلا في وقت متأخر. وقد كان هناك سبب لم يشر إليه أحد بشكل مباشر، فالشركة الإنكليزية التي جاءته بتوصية من صديق لابن العليان، وهو تاجر في الهند، لكي تبحث عن الذهب في موران، ولكي تحدد ما إذا كانت هناك ثروات أخرى يمكن استثمارها، وقد وعدت أن تقدم الكثير من القروض، إذا وجدت ما يمكن أن تستثمره، والتي جابت موران من أقصاها إلى أقصاها، وتوقع عثمان العليان الكثير، هذه الشركة، بعد عمليات البحث والتحري، انتهت إلى نتيجة سلبية، إذ أعلنت أنها ستتحمل هذه الخسائر، وتغادر موران غير آسفة، لكنها، مع ذلك استبقت شركة صغيرة،

ويعدد محدود من الرجال، لكي تواصل البحث عن النفط.

حين أقام السلطان احتفالاً كبيراً في قصر الروض بمناسبة بلوغ ثلاثة من أولاده مبلغ الرجال، وكان راكان قد فرض نفسه، واعتبر أنه قد أصبح رجلاً بكل معنى الكلمة حتى دون احتفال، وكان الولدان الآخران: جازي ابن جوهرة وضاري ابن وطفة، وبدا لعثمان العليان أن هذه الاحتفالات سوف تكلفه الكثير، فقد استأذن أن يسافر إلى العوالي، «لأن سمو الأمير فنر طلب قدومي من أجل ترتيب الأمور المالية»، وكان لديه سبب آخر، أكثر أهمية، أن يبحث مع هاملتون «أمر هؤلاء الإنكليز الذين لا يعرفون كيف يشتغلون».

السلطان الذي وافق على سفره، قال لابن البخيت مازحاً:

- اتاري عمك، يا عبدالله، ما يريد ينعزم حتى ما يفك كيسه ويعزم الناس!

رد ابن البخيت بدعابة:

- خلي عمي، يا طويل العمر، بهمه، لأنه طول الليل ما ينام...

فتح السلطان عينيه باستغراب وتساؤل. تابع ابن البخيت بمكر:

- إنما على نياتكم ترزقون...

وضحك وبعد قليل، وقد تغيرت لهجته:

- عمي، يا طويل العمر، الطمع ذابحه، يخاف إذا نام يسها عن فلوسه، أما إذا عدّها وتفرّج عليها فيغشى من الضحك؛ وعمي الثاني ما ينام لأن الخوف ذابحه، يتصور إذا غفا جا ابن مياح وجره من فراشه!

قهقة، وهز رأسه ثم أضاف:

- وكلفوني، يا طويل العمر، أن أنام عنهم الاثنين...

وبعد قليل وبدعابة:

- وابد، يا طويل العمر، ما تلقى أحسن من المطبل بالدنيا المزمر بالآخرة، لا فلوس يخاف عليها ولا أشباح تطارده.

هز رأسه وهو يضحك، وتابع بعد قليل:

ـ وكان يلزم أظل وحدي، ولكن أنت، طال عمرك، حطيت العلاّقة برقبتي، وزوّجتني...

ولم ينتظر:

ـ لكن، والشهادة لله، بنت العليان ما مثلها بين البنات، وهي تقول: ناظر مالك، حارس جهنم، لا يرتاح ولا يريح وما تعرف تقصد هذا أو ذاك!

أقيمت الاحتفالات بقصر الروض، وكانت بمثابة رد اعتبار ومظهراً من مظاهر القوة والثقة. ورغم أن فضة ووطفة بالذات كانتا تريدان من هذه الاحتفالات تحدياً للنساء الأخريات، ولخلق صيغة جديدة للتعامل في القصر، فإن حزم السلطان، وتلك الطريقة التي تعامل بها، جعلت الأمور تأخذ مجرى آخر. قال ابن العريفان للمغنين الذين أحضرتهم فضة:

ـ بوجوهكم تروحون لسوق الحلال، هناك يمكن تلقون واحد يريد يطهر ابنه، أو واحد يريد يزوج أمه أو عمه، وإذا ما اتفقتم معهم على الطبل والزمر، تطبلون وتزمرون على أرواح موتى المسلمين، وهاكم القريشات اللي وعدتكم بيها أم راكان!

أفراد الفرقة الموسيقية استغربوا، ظنوا الأمر دعابة، أو سوء فهم، نتيجة اختلاف اللهجة. ولما أصرّ عليهم ابن العريفان أن يغادروا، لأن الحفلة ألغيت، وكانوا يرون الحركة حولهم، فقد اكتفوا بأن تبادلوا النظرات وابتسموا. أما عندما سمعوا بسوق الحلال، وبالطهور والزواج، فقد ظنوا، لأول وهلة، أن الاحتفالات انتقلت إلى هناك، وحينما اكتشفوا عدم وجود شيء سخروا ثم جمعوا أدواتهم لكي يعودوا إلى العوالي، «لأن موران التي لا تعرف الطرب ولا ترقص على النغم لا تستحق أن يبقى فيها الإنسان».

قال شمران العتيبي، الذي عرف ببعض تفاصيل ما جرى:

ـ يا أهل السوق:

إذا كان رب البيت بالدف ناقراً   فشيمة أهل البيت كلّهم الرقص

ابن البخيت الذي يعرف الكثير، ولا يستطيع أن يتكلم، خاصة في مثل هذا الظرف، حيث تطبق عليه القيود من كل جانب، وكان السلطان ذاته،

في حالة من الأنشغال والهم والذهول، فقد انشغل بجمع أشعار البادية فلما جاءه الابن الأول، وقد سماه باسم أبيه «بادي»، انشغل بهذا الولد. السلطان بعث إليه بهدية وأبيات من الشعر نظمها بنفسه، لقد فعل ذلك لكي يفاجئه، كما اعتبرها التفاتة خاصة لأم المولود، لأنه يرى عبدالله كل يوم، ولم يكن بحاجة إلى المراسلة أو اتباع هذه الطريقة غير المباشرة!

مرت شهور من التعبئة والحركة، والانتظار، كان السلطان خلالها يريد التأكد أن الإنكليز لن يدافعوا عن ابن مياح، ولن يستخدموه ورقة للضغط عليه. وكان يحاول أيضاً أن يجزئ معركته، فبعث إلى ابن مشعان بالهدايا والعيون، وبعث إليه بأكثر من رسول مع وعود أن يجعله حاكماً لأية منطقة إذا تخلى عن ابن مياح. أما عمير، «فإنه الثور الهائج واللي ما يحمله حتى رب العالمين». إذ رغم الرسال والفتاوى، ورغم الوعود الكثيرة، فلا يعرف غير: «الإنكريز الكفار، وكافر كل من يتعاون معهم».

أما ابن العليان الذي بقي أكثر من ثلاثة شهور في العوالي، ورغم النتائج الإيجابية التي حصلت، من حيث تنظيم الأمور المالية، فقد عاد متشائماً. وإذا كان قد اتخذ موقف الحزم والتقتير، منذ أن كلفه السلطان بالأمور المالية، فقد أراد، مجدداً، أن يبرز المصاعب التي تواجه السلطنة. وقد أشار بشكل خاص إلى انحباس الأمطار، وبالتالي احتمال أن تكون هذه السنة من السنوات الصعبة. مع العلم أن جزءاً من التشاؤم الذي لازمه هو نتيجة إخفاق شركة الذهب، وكان يوليها اهتماماً كبيراً، وفكر أن يكون شريكاً فيها، عكس ما اقترحته الشركة، عن طريق صديقه التاجر في الهند، أن يكتفي بنسبة معينة كأتعاب.

قال له السلطان، وقد اجتمعوا في بيت العجرمي، وكانوا مجموعة قليلة، وبعد أن أعاد عثمان العليان ما كان ذكره:

ـ . . . ومرت علينا سنين أصعب، يا عثمان، وصارت سوالف وأخبار، وجماعتنا، كل واحد منهم، حوصلته حوصلة بعير، فلا تخف.

ابتسم وهز رأسه، ثم أضاف:

ـ ومثل ما قال عليه الصلاة والسلام: تفاءلوا بالخير تجدوه، وهذا

شيخنا، أبو مشعل، يعرف شلون كانت أحوالنا، وهذا ابن البخيت ما يعرف إلا سوالف التاريخ: صارت بالسنة الفلانية، ووقعت بالسنة الفلانية، وبعدها ظلت الدنيا بخير، وعاش الناس وخلفوا، فيلزم نطول بالنا، ويلزم نوكل الله، ونتفاءل.

رد ابن العليان بسخرية ونزق:

ـ وقال المولى: اسعَ يا عبدي وأنا معك، وقال عليه الصلاة والسلام: لا أخاف على أمتي من الفقر، أخاف عليها من قلة التدبير.

قال ابن البخيت، وكأنه يحدّث نفسه:

ـ آخ من المال، هو اللي يوقع بين الأخوان، وهو اللي يخرب البيوت ويجر الحروب.

وبعد قليل وهو يقهقه:

ـ وأنا مرتاح: لا خيل عندي أهديها ولا مال. . .

قاطعه خزعل بمرح:

ـ خيل موران كلها على حسابك وتحت أمرك، يا أبو بادي!

رد بتورية:

ـ تكفيني الكحلة اللي عندي!

قال العجرمي كمضيف:

ـ وكلوا الله يا جماعة الخير، وهالحين نقول لكم، وبدون أمر عليكم، تفضلوا، العشاء جاهز!

سنوات الخير إذا أقبلت على الصحراء، فإنها تصل متمهلة، هادئة، ورغم أن الناس يستقبلونها بكثير من الرضا والفرح، إلا أنهم لا يحبون أن يتحدثوا عن ذلك بزهوٍ أو بصوت عالٍ، فهم يخافون أنفسهم قبل أن يخافوا الآخرين، «لأن العيون الشريرة لا تتوقف يوماً واحداً عن المراقبة والحسد، وتنتظر الوقت المناسب لتقضي على كل شيء». لقد حصل ذلك، في موران والحويزة، مرات لا حصر لها. إذ ما تكاد تأتي الأمطار المبكرة، ويتوقع الناس سنة لا يجوعون فيها، حتى تدبّ الحركة في الأسواق، فيزيد البيع والشراء، توقعاً أن الذين يشترون سيكونون قادرين على أن يدفعوا إذا باعوا محاصيلهم من التمر أو الشعير، أو حين تعود القطعان من البادية، بعد أن تكون قد شبعت وسمنت، ويوافق البائعون على الانتظار. ما يكاد مثل هذا يحصل حتى تزحف أرتال الجراد وتأتي على كل شيء. أو يقبل الوباء فيقضي على الكثير من البشر والحيوانات، وعند ذاك يتطلع الناس إلى بعضهم بحزن، ويتطلع الذين باعوا إلى المشترين بتساؤل، فيرد هؤلاء على النظرات بأسف، وغالباً ما يتم الاتفاق، وبشكل غامض، على صيغة ما، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لأن المصيبة لا تترك مجالاً للمساومة أو الضغط!

أما إذا جاءت سنوات المحل فإنها لا تعرف التمهل أو الهدوء، تأتي قوية عاصفة، وترافقها، منذ وقت مبكر، نذر لا تخفى على الكثيرين. فالرياح الزرقاء، وهي الرياح الشديدة البرودة والجفاف، لا تقتل المواشي وحدها، ولا تطرد الغيوم، أو تذروها كما تذرو الرمال فقط، وإنما تأتي قبل أوانها من السنة، فتتلف أواخر المحاصيل، وتجفف ما بقي من

الغدران، وتجعل الناس في حيرة، هل يزرعون أم يسافرون أم يغزون ويقتل بعضهم بعضاً؟ ورغم أن الناس يعرفون غريزياً نذر الجفاف، إلا أنهم مولعون بأن يخدعوا أنفسهم، فيتظاهرون، أزاء بعضهم، بنوع من التفاؤل والتوقع. حتى إذا انتصف الشتاء ولم يبق أمل من أي نوع، فإن الغضب حين ذاك يصبح هو الأقوى، ويتغلب على ما عداه من العواطف والتصرفات. والغضب إذا بدأ لا يتوقف ولا يهدأ إلا في وقت متأخر، إذ يتحول إلى حزن أقرب إلى الأسى، بعد أن يكون الشيء الكثير قد حصل ما بين بداية الغضب ومجيء الأسى ثم حلول الأحزان.

والشيوخ والأقوياء والكبار إذا كانوا قادرين على أن يعطوا الحياة، في هذه الصحراء، مسارات واضحة، ويمكن التحكم بها، في سنوات الخير، ويكون الأصغر سناً، أو الأدنى مرتبة، أقدر على فهم هذه المسارات والاستجابة لها، فإن سنوات الجفاف تغير كل شيء، إذ يفقد الشيوخ والأقوياء والكبار سيطرتهم وذكاءهم، أو يصبحون أقل قدرة على الإقناع أو التحكم، كما يصبح الأصغر سناً والأدنى مرتبة، من الشراسة والعنف، بحيث لا يفهمون ولا يستجيبون، بل ويبدون أكثر رغبة واستعداداً لأن يخالفوا ما أصبح ثابتاً وقوياً من الصيغ والأفكار والعلاقات. والكبار الذين يدركون هذا الجموح في وقت مبكر، ويفهمون كيف يمكن أن يتجاوز كل حد، فإنهم في الأغلب يصبحون أكثر ليناً وأكثر استعداداً للمسايرة والتسامح.

والمدن والبلدات، وحتى القرى، وبطرق لا تخلو من المكر الغريزي، إضافة إلى الإرث الذي انتقل من جيل إلى جيل، أقدر على احتمال القحط ومواجهته من البادية. فالناس في الأماكن المستقرة، وبطرق غامضة، يتعلمون وضع بعض الأشياء في الزوايا، أو بعيداً عن الاستعمال، لعدم حاجتهم أليها، ثم ينسونها لتصبح هذه الأشياء هامة وذات قيمة كبيرة في سنوات القحط، إذ فجأة يتذكرونها أو يستخرجونها لتساعدهم على مواجهة الأيام الصعبة. كما أن الناس في المدن، ومنذ وقت لا يدركه أحد، تعودوا عادات أصبحت جزءاً من حياتهم، حيث

أصبحوا أكثر قدرة على التكيف، وعلى التعامل، وحتى على الاحتيال.

في البادية الأمر يختلف، إذ ما تكاد الأرض تقسو، حتى تهزل الماشية، ثم تبدأ تتساقط. صحيح أن أصحابها يتراكضون ليذبحوا، أو ليبيعوا قدر ما يستطيعون، لكن ذلك لا يدوم إلا أياماً، وعلى أبعد حد، أسابيع قليلة، لتبدأ الحياة بعدها عارية مكشوفة، تماماً كما هو حال الصحراء ذاتها، أو حال الشجرة التي تنفض أوراقها مع أوائل موجات البرد.

ولما كان سكان المدن أكثر قدرة واستعداداً على مواجهة مثل هذي السنين، فإن البدو، رغم مكرهم، وذلك الغموض الذي يغلف حياتهم، سرعان ما يصبحون مثل الأشجار التي تنفض أوراقها، بل أكثر من ذلك، يصبحون مثل أشجار الحور تماماً: قامات طويلة، هزيلة، عارية، وشديدة الحركة والارتجاف.

وعندما يبدأ الالتفات، ثم التحفز فالغضب، فإن الكثيرين يتحسبون ويخافون. وهذا ما حصل في ذلك العام. إذ ما كادت سنة «التحليل والتحريم»، كما سمى الكثيرون الاجتماع الذي عقده خريبط، ثم أخذت السنة ذلك الاسم، تبدأ حتى توقع الكثيرون أياماً صعبة.

قال عثمان العليان لابن البخيت بنزق أقرب إلى الغضب:

ـ . . . وقلنا له: اتركوا الخرابيط، اتركوا الإسراف ومرد الفلوس، لأن القرش الأبيض يفيد في اليوم الأسود، لكن لا حياة لمن تنادي. . .

توقف ريثما يجر نفساً عميقاً:

ـ وهالحين: تعال يا عثمان؛ دبر الأمور يا عثمان؛ نريد فلوس يا عثمان؛ لو كان عثمان نبي الله يوسف ما قدر يسوي شي!

قال عبدالله البخيت بسخرية:

ـ لا تخف، يا رجال، طويل العمر يدبر كل شي!

ـ أي بالله، عرفان الهجرس ينقش له الوريقات وهو يطجّ عليها أختامه، وحوّلوها لابن العليان: وتعال يا عثمان اصرف. . .

وفجأة صار نزقاً:

ـ ما تقول لي يا عبدالله منين نصرف؟ منين نجيب فلوس؟

ـ علمي علمك، الله يسلمك...

ـ لا... أنت كل ساعة وكل يوم راسك لراسه، تسولفون وتتسامرون، ويلزم تقول له: ما يصير يا طويل العمر، هذا إسراف وقلة دين...

ضحك عبدالله البخيت، وقال:

ـ لو كنت مكانك، أمين صندوق: اضيّع المفتاح، أو أغيب، وإذا ما فاد لا هذا ولا ذاك أتماوت!

صرخ عثمان العليان، وكأنه يؤذّن:

ـ سويت كل هذا، يا عبدالله، وأكثر، بس أبد ما يفيد!

ـ إذن ما عليك إلا تصبر لأن الله مع الصابرين.

وبعد قليل وبحزن:

ـ وأنا، لك عليّ، أقول له كل شي، لكن لا رأي لمن لا يطاع، خاصة إذا كان مثلي: مفلس، وما هو عنتر ولا عنده عسكر.

ـ أنت اقرأ على رأسه، قل له، وعسى أن الله ييسرها، وبعدها إذا ما فاد الحجام يفيد الكي، وإذا ما فاد لا هذا ولا ذاك نشيل ونمشي، وللكعبة رب يحميها!

ابـن مشعان بعد أن عاد من العوالي، كان لديه من المال والحلال ما يجعله مكتفياً، وينتظر الوقت المناسب لكي يتحرك وليعلن الموقف الذي يلائمه، وليس كما يريد عمير أو ابن مياح، وليس كما يريد خريبط أيضاً. لكنه اضطرب وتغير في هذه السنة السوداء. إذ ما كادت نذر المحل تطل برأسها، وبدأ رجال عشيرته يتلفتون ثم يتساءلون، حتى أدرك أنه إذا كان قادراً على السيطرة في السنين السابقة، لأنها كانت سنين أقل قسوة، وإن لم تبلغ سنين الخير، خاصة وأن أغلب رجاله عادوا من العوالي بأشياء كثيرة، فقد بدأ يتحسب ويتلفت. فلما جاءته رسالة من ابن مياح، يطلب منه أن يلتقوا في الجمرة «لأن الأمور وصلت إلى حد لا يمكن لأحد أن يصير ويتحمل»، فقد وافق.

في الجمرة تم استعراض كل شيء: الانتصارات التي تحققت، وقد كانت نتيجة التضحيات والإقدام. وراية الإسلام لم ترتفع إلا من خلال الجهود التي بذلوها، وكانوا أساسيين فيها، ثم جاء بعد ذلك عمير. حتى سنوات المحل التي مرت لم تكن قاسية وصعبة مثل هذه السنة، لأن «المجاهدين» كانوا قادرين على انتزاع الغنائم من الكفرة. الآن يجب أن يبدأوا من جديد. قال عمير الذي وصل إلى الجمرة متأخراً بضعة أيام:

ـ لا يصلح آخر هذه الأمة إلا كما صلح أولها، وليس أمامنا إلا الجهاد، ولا يمكن أن نصبر أو نسكت، لأن الناس معنا بقدر ما نكون معهم.

قال ابن مياح:

ـ وتذكر يا عويد: كنا نقول للواحد مت يموت، هالحين إذا قلنا

لواحد من جماعتنا: دونك الفرس وردّها للماء، يأخذها وكأنك قاتل أبوه.

تنفس بعمق وأضاف:

ـ الناس ضاقت أرواحها ـ يا عويد ـ ضاقت من الجوع ومن الكفر، وإذا طاعنا الناس اليوم ما تدري شنهو اللي يصير باكر، إذا ظلينا شادّين عليهم.

في الجمرة تم الاتفاق أن تتحرك البادية كلها. وفي منتصف الربيع تحركت.

قال الكثيرون: «لو دامت لغير خريبط ما وصلت له، ومثلما جاء في سنة المحل يذهب في سنة المحل». وقال غيرهم: «هذه السنة لا تشبه غيرها من السنين، فإذا مرت على خريبط فإنه يعيش مائة سنة، لكن الظن أنه يمشي».

رجال ابن ماضي الذين انتقلوا من العوالي إلى جهة الحويزة، قالوا، وبصوت عالٍ، ووصل كلامهم إلى رجال ابن مياح «خريبط اللي ساعده وقوّاه الإنكريز، ولولاهم ما وصل العوالي ولا ظل هناك يوم، لكن بعد ما تركوه يلزمه هالحين يدفع الثمن، ويوفي ديونه وديون غيره، واللي يبلع إبرة يزق مخراز.. وتشوفون».

ورجال البادية الذين سمعوا لم يكونوا بحاجة إلى فتاوٍ كثيرة أو إلى إقناع، خاصة في مثل هذه السنة، فالطبيعة هي التي تفرض وتقرر ما يمكن أو ما يجب أن يكون. ولذلك ما إن بدأت الحركة وأعقبها الدوي، حتى بدأ التوقع يعمّ أن خريبط لن يصمد ولن يبقى، وبلغ الأمر أن تراهن الكثيرون، وقالوا بصوت عالٍ: «الإنكريز ما لهم صاحب، ومثل ما تركوا غيره أمس يتركونه اليوم!».

كتب مؤرخ خريبط بعد سنين «لقد أفلحت الخطة البريطانية في جعل موقف خريبط أدق من الشعرة وأحد من السيف... ذلك أن روح النقمة عليه شملت أنحاء بلاده، وكان ابن مياح في مقدمة الثائرين، وسرت روح الحماسة في نفوس العشائر والقبائل، على صعيد غرض واحد: المطالبة بإعلان الجهاد، ولقيت هذه الدعوة الصدى المستجاب في أرجاء البلاد،

وانتشرت إشاعات السوء أكثر من ذي قبل: خريبط باع نفسه للإنكليز، فلا بد من تنحيته عن القيادة».

وكتب مؤرخ محايد ما يلي: «أن وضع خريبط أصبح مهزوزاً. ومع ذلك ظلت الدبلوماسية البريطانية ترى فيه القوة الفعلية الوحيدة التي تعتزم التعاون معها». ولذلك فإن محاولات الاتفاق ظلت ممكنة شريطة أن تحدد بدقة الصيغة ويتفق على الشروط.

ولم يترك خريبط الثورة تصل إليه، جنّد رجال المدن ورجال الدين، واستغل العلاقات والفجوات التي يعرفها، وساهم بتكوينها، خلال فترات سابقة، وانطلق إلى البادية قبل أن تصله البادية.

قال ابن البخيت الذي كان يتابع أدق التفاصيل، ويعرف أكثر الأسرار خفاء:

ـ يا طويل العمر، اسمع مني واترك، لكن يلزم أقول.

وحين ابتسم السلطان، تابع عبدالله البخيت بجرأة أكبر:

هذول الإنكريز ما لهم رب، هذول مع الواقف، وهم معك وما هم معك، فإذا ظليت مع القناصل، وكتابنا وكتابكم، ترى راحت عليك، أما إذا لاقيتهم بعد نص الطريق، وقلت لهم يصير وما يصير، تراهم يفهمون عليك أحسن.

وهز رأسه عدة مرات وأضاف بحزن:

ـ قلنا لك، يا طويل العمر: ابن مشعان: الوطفانية، وخد وعين، لكن اللي يشورون عليك ما يعرفون إلا كلمة واحدة: السيف.

استراح قليلاً، بدا مضطرباً لا يعرف هل يتابع بنفس اللهجة أم بغيرها. رد عليه السلطان:

ـ ما تركنا شي إلا وسوينانه، يا عبدالله، وأنت تدري.

ـ أدري، يا طويل العمر، بس ابن مشعان غير عمير وابن مياح.

ـ لا تغتر: الكلب أخو السلوقي، وهالحين تشوفهم شلون صاروا جميع.

قال العجرمي بفخامة وأن بدا خائفا:

ـ أرى، يا طويل العمر، أن نوافق على أن يكون حاكماً للحويزة حقناً لدماء المسلمين، لأن ابن مياح شايف الموت قدامه وراكض عليه، وأخاف عليكم منه!

رد السلطان بغضب وسخرية:

ـ لا تخف، يا أبو مشعل، إذا جا الموت ما أحد يقدر يرده!

ـ المهم أحقن دماء المسلمين.

ـ دماء المسلمين، يا شيخنا، ما عليها خلاف، لكن ابن مياح ما هو مصلي على النبي ويريد أكثر من الحويزة!

وقرر السلطان أن لا يسمع، ومثلما اندفع إلى البادية، لملاقاة خصومه قبل أن يصلوه، فقد واصل المعركة. كان متأكداً أن الإنكليز، كما قال له ابن البخيت، مع الواقف، ولذلك فإن أي تنازل سوف يقود إلى تنازل أكبر، وأي محاولة للصلح أو الموافقة سوف تؤدي إلى الهزيمة.

ركز هجماته، في بداية المعركة، على ابن مشعان، لأنه كان الأضعف، ومتردداً أكثر، وخلال بضع معارك استطاع أن يفتح ثغرة، ما لبثت أن اتسعت، مما اضطر ابن مشعان للاستسلام، خاصة بعد أن تمردت عليه فئات من قبائله.

أما مع ابن مياح فقد طلب من خزعل أن يشاغله وأن يستدرجه، وهكذا بدأت معارك الكر والفر بين الطرفين، ومع هذه المعارك الرسل والرسائل، والوعود والكمائن، فلما حقق السلطان انتصاره على ابن مشعان، اندفع لملاقاة ابن مياح، لكن عناد أحدهما اصطدم بعناد الآخر، والقسوة التي بدرت من كل طرف جعلت المعارك تطول، فلما دخل الصيف الكبير، في هذه السنة القاسية، بدا أن الطرفين قد تعبا، ويواجهان الفناء الكامل إذا حاولا الاستمرار، ولذلك فقد تراجعت المعارك ثم هدأت، انتظاراً لوقت آخر.

ولم يترك السلطان الوقت يفوته، فقد بعث بعنان بسيوني إلى الإنكليز

وراء الحدود، وإلى ابن ماضي أيضاً. وخلال هذه المباحثات تم الاتفاق على كل شيء!

ولما بدأت المعارك في منتصف الخريف مرة أخرى، اندفع السلطان بقوة كبيرة ليجهز على ابن مياح، وذكر عدد من جنود السلطان أن التعليمات التي تلقوها كانت قصيرة: «لا نريد أسرى» ولذلك فإن الدماء التي سالت في صحاري الحويزة، وعند البسيمة بالذات، خلّفت أشجاراً شديدة الخضرة، كما يذكر المسافرون الذي يغادرون الحويزة من نقطة الحدود هذه. وما كانت هذه الدماء لتتوقف لو لم يسر النبأ أن ابن مياح قد قتل. لكن ما حصل في الواقع أنه أصيب بجرح بالغ، وتم نقله إلى المؤخرة. لما علم السلطان بدا سعيداً إلى درجة أنه لم يستطع أن ينام لحظة واحدة، ولم يتوقف عن الحركة والسؤال طوال تلك الليلة.

قال لابن البخيت الذي كان يساهره:

ـ والله.. والله يا عبدالله بعدما ظفرت بابن مياح لأخليه درس لكل بني آدم!

وابتسم وأضاف بثقة:

ـ الموت له راحة، لكن ما راح اخليه يموت، وإذا عشنا تشوف!

ورغم أن ابن مياح هزم وجرح، «إلا أن السلطان أصرّ على إحضاره، فأحضر محمولاً على نقالة من سعف النخيل إلى السلطان في خيمة أعدت له، وكان الجريح في حالة خطرة أعجزته عن الكلام، وأبصر السلطان بعينيه تلك الحال التي آل إليها أحد قادة جيوشه الأكفاء فتألم ولزم الصمت برهة وجيزة كان وجهه خلالها يطفح بالغضب الشديد المخيف» وبعد ذلك «نقل الجريح إلى بيته في الرويفة، وطلب السلطان من طبيبه أن يعالجه». كان يريده حياً، ويريد أن يعرف مدى الإصابة. أما حين تأكد، وجاء أقرباء ابن مياح، بعد أيام، ومع الأقرباء اثنتان من نسائه، لطلب العفو، فقد كان السلطان كريماً! قال للوفد:

ـ قولوا لأبو جازي ما يخالف، عفيت، وعفا الله عما مضى!

عمير الذي كان أقرب إلى الزرافة، والذي تبين قامته من بعيد، وأول ما يظهر منه رقبته، ثم إذا اقترب تظهر أسنانه، والذي لا يتعب ولا يتوقف عن الحركة، قبض عليه حرس السلطان، حين كان عائداً يقود مجموعة صغيرة باتجاه معسكر ابن مياح. حاول أن يقاوم، أن يفعل شيئاً، لكن مقاومته انتهت حين شعر أن الرجال الذين أمامه، والذين يشهرون بنادقهم، يفهمون شيئاً واحداً: القتل، ولا شيء غير القتل، أكثر مما يفهمون الكلمات التي يمكن أن يقولها، ولذلك قرر أن يستسلم.

حين وصل إلى معسكر السلطان، والتقت النظرات، سأله السلطان:

ـ وهالحين. . يا عمير؟

رد بسخرية:

ـ ما تغير شي، يا خريبط.

ـ يعني ما أنت خايف؟

ـ ومن هو اللي يخاف من الحق؟

ـ لا تتمرجل هالحين، يا عمير، والأحسن، أن تطلب السماح، وأن نبدأ صفحة جديدة. . .

ـ كل يوم صفحة جديدة، لأن كل يوم يلزمه خمسة فروض، إلى أن يقبض الله أمانته.

ـ يا عمير، أنت كبير وعاقل، والأحسن ما تحملنا دمك ونندم وتندم!

ـ اسمع يا خريبط، وكنت أريد غيرك يسمع: الروح يقبضها اللي وهبها، والناس في هذي الدنيا عابرين، ولا تغتر، إذا اليوم ملكت وظنيت أنك قوي، رب العالمين أقوى، وحنا كنا معك، واليوم حنا قوم، والخلاف حول الجهاد، والجهاد ما ينتهي إلى قيام الساعة وما دمت أنا اليوم أسيرك تقدر تسوي اللي تريده.

ولم يستمر خريبط في النقاش، أرسل عمير إلى العوالي، قال للذين أرسله معهم:

ـ . . . وتقولون لفنر: في عين دامة قلعة عمرها ألف سنة، بناها خليفة للي يعصون، وهناك مكان عمير، إلى أن يتوب أو يموت!

وأرسل عويد المشعان إلى موران، إلى سجن قصر الروض. أما ابن مياح فقد تركه. قال لرجاله، وللعجرمي وابن البخيت وآخرين كانوا موجودين:

ـ إذا حبست ابن مياح ومات عندي يقولون خريبط قتله، لكن إذا مات بين حريمه، وبأرضه، فأنا عفيت عنه، وما لي بموته علاقة أو سبب!

ومع أول أمطار الشتاء بدا وكأن كل شيء قد انتهى، فالسلطان عاد إلى موران تسبقه أخبار الانتصارات، والطبيعة في هذه السنة اختلفت عن السنة السابقة، أو هكذا تبدو، إضافة إلى التوازن الذي حصل نتيجة موت الكثيرين وهجرة غيرهم، وما تولد بسبب ذلك من الأحزان التي وصلت إلى بيوت كثيرة شغلتها، وأخيراً هذا التوقع الذي لا يتوقفُ ولا يهدأ في موران والحويزة والعوالي: ماذا يحمل الغد؟

العجرمي الذي بدا فرحاً مثل طفل، وقد طلب من مهيوب، وألحّ عليه ألا يخبر السلطان، بزيادة عدد الحرس، «لأنه بآخر الحروب تكثر الثارات يا أبو شبل، ويلزم أن الواحد يحرص ويتوقى» أما مع السلطان فقد كان واضحاً تماماً:

ـ . . . وتذكر يا طويل العمر: كان رأيي من أول يوم أن الجماعة ما يفهمون إلا بالسيف، خاصة ابن مياح، وأي تساهل يطمّعهم ويخربون الأول والثاني!

أما عثمان العليان الذي لم تتوقف شكاواه يوماً واحداً، ورغم أنه شدد وراقب واختصر الكثير من المصاريف، فقد بدا في حالة أقرب إلى الرضا بعد انتهاء المعارك، لأن الغنائم التي تم الاستيلاء عليها، كانت كبيرة، وكانت حصة السلطان أكثر مما توقع. قال لعبدالله البخيت، وهما يستعرضان ما حصل:

ـ . . . والحرب، يا عبدالله، ما هي لعبة، ينراد لها كل مصباح ألوف مؤلفة. . .

ويهز رأسه ثم يضيف:

ـ لكن ربك سلّم وسترها، وابتداء من اليوم يلزم نفكر بطريقة ثانية.

وقصر الروض، رغم أن المدة التي غابها السلطان قصيرة، فقد كان يخبئ له مفاجآت عديدة: ثلاثة مواليد جاءوا أثناء غيابه، مصالحة فضة والعنود، وقد قامت الشيخة بهذه المصالحة، إضافة إلى خمسة من أبناء السلطان، اثنين منهم أبناء فضة، ينتظرون، مع الخيل، لتحديد يوم الاحتفال. وفضة التي لم تعترض ولم تحتج في المرة السابقة على إلغاء الحفلة الغنائية، فقد أصرت على أحيائها هذه المرة، وإصرارها غلّفته، لكي يوافق السلطان، بحالة الفرح نتيجة الانتصارات، أكثر مما هو لاحتفالات البلوغ.

طالع العريفان، وهو يرى الموسيقيين الذين جاءوا من العوالي يدخلون قصر الروض مع آلاتهم، وكان أيضاً يرقب حركاتهم وتصرفاتهم، قال لناهي الفرحان:

ـ اسمع يا ابن الفرحان، ترى من اليوم يلزم الواحد منا يصير طبال أو زمار، وإلا راحت علينا، باكر يقولون: ما لكم شغل بهذا المكان، ويلزم تلقون لكم شغل بالسوق!

رد ناهي وهو يضحك:

ـ من فمك لباب السما، يا رجّال، يكون الله راضي علينا، ونخلص!

ـ بعد اليوم ظني ما راح يخلص أحد، لأن طويل العمر صار خيال الشقرا، وحاكم البر والبحر، وتعرف أن الواحد ما يخلص من اللي ينتصرون ومن اللي ينهزمون!

ـ خلنا هالحين نشوف الطبالين والزمارين، وبعدها الله كريم، إما نصير مثلهم أو نرحل!

ـ القول قولك يا ناهي، خلنا نشوف!

وقيان الضاري الذي كان يتلقى التهاني إلى جانب السلطان، كان في أزهي حالاته، فقد وضع على خصره، لأول مرة، مسدساً إلى جانب

السيف، وكان هذا المسدس هدية من الشيخ العجرمي، وقد انتهز فرصة مناسبة لأن يقول وهو يتطلع إلى السلطان:

ـ «. . . ويلزم للقائد العظيم أن يكون فيه خصال واقرة نافرة: سخاء الديك، وتحنن الدجاجة ونجدة الأسد وحملة. . . شنّهو يا وقيان؟ حملة شنهو. . . الله يلعن الشيطان شلون ينسي الإنسان. . .

ونسي الخصال الأخرى، ولكي يداري نسيانه، تابع بإنفعال وهو يضرب الأرض بقائم سيفه:

ـ وبالموجز المفيد، ناظروا أبو منصور، وفهمكم كافي ووافي!

ابن البخيت الذي ظل، أغلب الوقت، يسمع ويراقب، أحس أن المكان يضيق به، إذ لم يدخل أحد إلا وبدأ يشيد بالسلطان ويثني على ذكائه وشهامته، وتوقف الكثيرون عند موقف السلطان من ابن مياح، وكيف عفا عنه وتركه، رغم أنه كان أشد الخصوم وأكثرهم شراسة، ولم يذكر أحد أن ابن مياح فقد اثنين من أولاده، إضافة إلى العشرات من أصدقائه، والمئات من جنده، عدا عن الجرح البالغ الذي أصيب به. قال في نفسه: «وينك يا أيام مصر؟ الواحد مفلس، وما يعرف يتعشى أو ينام بدون عشا، وراضي؛ هالحين، الواحد حصل كل شي لكن يحس أن نفسه صادّة، وما هو راضي، وما يدري يظل أو يمشي!».

مرّ شهران. الأفراح لم تتوقف ولم تنقطع في قصر الروض. فرقة العوالي الموسيقية أحيت في القصر عدة حفلات: للبلوغ، والانتصارات، ولمجيء ولد جديد للسلطان أيضاً، سماه نصر! وكادت فضة أن تقنع السلطان بإقامة حفل بحملها الجديد، غير أن السلطان نظر إليها بطريقة معينة، مع إشارة بيده، فخجلت ثم سكتت! ومع ذلك فإن الفرقة انتقلت، وبكثير من التكتم والحذر، إلى بيت العجرمي، لقراءة المولد النبوي، وبمناسبة مرور ثلاثة شهور على الابن الجديد الذي رزق به من بنت العليان، وقد سماه خريبط، تيمناً باسم السلطان.

ابن البخيت الذي حضر الحفل، قال للسلطان في اليوم التالي:

ـ . . . وهذول، يا طويل العمر، زمّارين وطبالين، اليوم هنا وباكر

بغير مكان، وما يتأمنون، والرأي أنهم يتوكلوا على الله ويشيلون، وإلا انفضحنا!

والسلطان الذي فتح عينيه بدهشة، صمت قليلاً ثم قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ والله اللي تقوله صحيح يا عبدالله، ويلزم يشيلون.

وبعد قليل، وبأسى:

ـ والله يلعن النسوان من حواء وأنت نازل، لأنهن كلهن صويحبات يوسف، وما من وراهن إلا المشاكل والمصايب، والله يستر!

قبل أن ينقضي الشهر الثالث وصلت الأخبار إلى موران: ابن مياح ترك الرويفة، ولا أحد يدري أين ذهب.

قال السلطان لما بلغه الخبر: الله يستر.

وقال ابن البخيت لعثمان العليان:

ـ . . . وتعرف، يا عم: إذا الذيب انجرح ما أحد يقدر يقف في وجهه، وكل اللي صار كوم واللي راح يصير كوم، ومثل ما قال طويل العمر: الله يستر!

سأل عثمان العليان مثل طفل:

ـ وقولك هالحين أن الحرب واقعة مرة ثانية؟

ـ أما أنها واقعة. . . واقعة، لكن الأهم، هذي المرة من اللي راح تأكله ومن اللي راح تخليه!

ـ الله يبشرك بالخير. . .

قالها بحقد، وبعد قليل:

ـ لو ظل الواحد بعيد كان راسه بارد، لكن شلون تركنا الدنيا كلها، تركنا البسط والعز، الفي والمي وجينا لوجع الراس. . . والإفلاس؟

رد ابن البخيت وهو يضحك، لكي يخفف عن ابن العليان:

ـ وكّل الله يا عم، وعسى يكون آخرها مثل أولها!

السلطان الذي كان قوياً وواثقاً، تذكر كلمة قالها له العم دحيم قبل سنوات: قال له:

ـ «واسمع زين يا أبو منصور: لا تقرب الجريح والمظلوم والمجنون إلا بعد ما تعدّ للألف، لأن الواحد منهم يريد يستوفي حقه قبل ما يصل ربه».

ولذلك تحسب هذه المرة إلى أقصى حد، خاصة وأن الكثيرين تحدثوا عن الأفراح والعطايا والإنكليز، وكيف أن ابن مشعان وعمير وابن مياح كانوا على حق فيما قالوه، أما التقوى والدين، وحتى الأخلاق، فقد أصبحت شيئاً من الماضي!

لما بعث إليه المستر ميلر يطلب إليه الاجتماع مع ابن ماضي لكي تبحث الأمور بصورة كاملة ونهائية، من أجل الاتفاق وتخطيط الحدود، لم يتردد.

ابن البخيت الذي رافق السلطان، وقد استعاد عدة مرات قصة سقيفة بني ساعدة، والتحكيم الذي حصل بين علي ومعاوية، وكأنه يريد أن يحفظ كل كلمة، قال بنوع من المكر، وكان يحدث عثمان العليان:

ـ ويلزم البني آدم يحرص ويتوقى، لكنه كان مثل الجمل: يريد وما يريد. ولما تلاقى مع ابن ماضي كان أزرق، مثل الريح، لكن ما مرت ساعة إلا وارتخى، وبعدها قال لي: قال ابن ماضي: عفا الله عما مضى، وحنا أولاد اليوم، اترك الماضي، انساه، ومن اليوم نبدأ صفحة جديدة...

وضحك، وكان ضحكه قهقهة، وبعد أن هدأ أضاف بسخرية:

ـ هذي الدنيا أعجب من العجب، لأن الواحد كل يوم يشوف ويسمع شي جديد، وكل يوم يطلع له قلب جديد!

وبعد قليل:

ـ وهذا الإنكليزي، اللي كان خايف، وما يعرف شلون يسوي حتى ما يزعل واحد أو الثاني، صار غريب. خريبط يسولف مع ابن ماضي، وابن ماضي يصيح: قهوة، وبعد القهوة؛ شاي قهوة نوبة ثانية، وأحاديث وسوالف... واتفقوا طال عمرك.

صرخ ابن عليان بنزق:

ـ خلهم يتفقون حتى نخلص.

ابن مياح الذي خرج من الرويفة، واستطاع أن يجمع الكثيرين، وكان يريدها معركة حاسمة، كانت كذلك، لكنها كانت يائسة أيضاً. فقد ظل يحارب هو ورجاله ببسالة، وحقق بعض الانتصارات، لكن خريبط، بالاتفاق مع الإنكليز، ومع ابن ماضي، تركوا له خطاً خلفياً لكي يتسرب منه، فلما وصل إلى هذا الخط، ودخل فيه، انتهى كل شيء.

قال مؤرخ خريبط: «وانحصر بقواته في زاوية، وكان أمامه أحد أمرين: إما القتال أو الانهزام، بيد أن السلطان الذي كان يقود قواته بذاته أفسد عليه الأمر الأول اذ دهمه بسرية من السيارات المسلحة بالرشاشات فقالت كلمتها الفاصلة. أما ابن مياح فقد انهزم متلجئاً إلى الإنكليز، فأخذوه إلى ظهر دراعة حربية. وحيال إصرار السلطان وإلحاحه على الإنكليز بتسليمه مع من معه من رفاقه، فقد قبلوا بذلك، وأرسلوه في الطائرة إلى خيام جلالته».

وقال مؤرخ محايد: «وكان ابن ماضي يدعو إلى منح حق اللجوء للمحاربين، ولكن البريطانيين لم يتفقوا معه بالرأي، وهكذا تمت إعادتهم للسلطان خريبط».

أما ما جرى بعد ذلك فإن الروايات تتعدد وتتناقض إلى درجة كبيرة، وقد يتطلب الأمر انتظار وقت طويل قبل أن تعرف الحقيقة. ومع ذلك فإن ابن مشعان وعدداً من رجاله، خاصة الأقرباء المباشرين، قد وضعوا في سجن قصر الروض، وظلوا هناك إلى أن مات ابن مشعان، وقد حصل ذلك قبل أن تنقضي سنة على سجنه. وبعد وفاته نقل من بقي من السجناء إلى سجن موران، وظلوا هناك. أما منازل العشيرة، والقرى التي كانت تقيم فيها فقد هدمت، كما تمت مصادرة أعداد كبيرة من الخيول والجمال التي كانت لهم.

ابن مياح الذي وضع في خيمة غير بعيدة عن السلطان، ظل وحده فيها

بضعة أيام، وقد جرت خلال هذه الأيام احتفالات لم تشهدها البادية خلال سنين طويلة، وكان يراد له أن يسمع وأن يشهد، دون أن يرى، مدى فرح السلطان بالنصر، وأكد عدد من خدم السلطان أن ابن مياح رفض أن يتناول خلال هذه الأيام شيئاً، عدا الماء. إذ كان الطعام الذي يمد إليه من طرف الخيمة، يعيده، بعد لحظات، دون أن يقربه.

أما حين نقل إلى موران فقد عصبت عيناه، ونزع عقاله، وقيل إنه بدا هزيلاً متعباً، وكأنه لم ينم طوال الليالي السابقة. ولما رفع إلى السيارة التي أقلته، كاد يقع. وأكد واحد من الحرس الذين رافقوه أنه طوال السفر لم يتكلم كلمة واحدة.

وضع في زنزانة وحده في سجن قصر الروض، وقد زاره طبيب السلطان عدة مرات خلال الأسبوع الأول، ولما استمر رفضه للطعام، اضطر الطبيب لمعالجته. وقبل أن ينقضي شهر على سجنه توفي. وأكد أحد أقرباء العجرمي، وقال ذلك بهمس لأصدقائه، أن الحرس «أعانوه» على أن يموت بسرعة.

الرويفة التي كانت ذات يوم بلدة عامرة، وكانت بساتينها مضرب المثل، لم يبق منها سوى بعض الآثار التي تحكي أن بشراً سكنوا وعاشوا هنا في يوم من الأيام. أما العشيرة فقد رُحّلت من مساكنها. أما الذين ظلوا في سجون خريبط من الرجال والأطفال، فقد تفاوت عددهم، لأنهم لم يسجنوا في مكان واحد، والكثيرون منهم ماتوا أو كبروا في هذه السجون.

عمير ظل في قلعة عين دامة سنيناً عديدة، ولم يعفُ عنه السلطان بعد هذه السنين رغم أنه أصيب بالعمى. وطوال سنين القلعة، ثم بعد ذلك. وإلى أن مات في وقت متأخر، ورغم أن كل عضو من أعضاء جسده قد ضمر أو تخلف أو عجز، فإن العضو الوحيد الذي نما وظل قوياً: لسانه. وهذا اللسان لم يهدأ ولم يتوقف. وقال الكثيرون، ممن سمعوا عمير، أو نقل لهم ما يقوله، أن الخطر إذا جاء يوم من الأيام، يكون نتيجة ما يقوله عمير، ونتيجة ما يريد أن يوصله إلى الناس.

ومن جديد بدأت موران تتعود على الحياة، دون الفرسان الذين ملأوا حياتها فترة طويلة من الزمن!

قال شمران العتيبي، وكان حوله الكثيرون:

ـ . . . وهذي موران بالها طويل، تحمل وتحبل، لكنها أبد ما تنسى، وما هو بس كذا، ما تستعجل، فإذا كانت اليوم بهذا الشكل، ما أحد يدري شنهو اللي يصير باكر أو اللي عقبه. . .

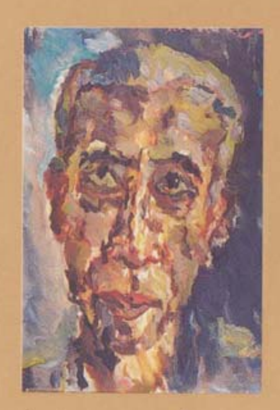
وهز رأسه، وأضاف وكأنه يحدث نفسه:

ـ والدم، يا جماعة الخير، يجر الدم، وتشوفون!

وقت الهزائم يجب أن نستعيد وقائع التاريخ؛ والتاريخ، أول كل شيء، وقبل أي شيء، هو الذاكرة. وإذا كنا قد رأينا الكثير خلال القرن العشرين، فيجب أن يتحول إلى ذاكرة، لتجنب الأصعب والأكثر مرارة. أو كما يقول تشيخوف: «لقد آن الأوان! ثمّة شيء هائل يتقدم نحونا، ثمة عاصفة قوية تتهيأ».

«إننا لن نشارك في الحياة (القادمة) ولكننا نحيا اليوم من أجلها. إننا نعمل ونتألم من أجل خلقها، وفي هذا وحده يقوم هدف وجودنا، وتقوم، إذا أردتم، سعادتنا».

وتقاسيم الليل والنهار استعادة للماضي من أجل التهيؤ للمستقبل.



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

أرض السواد (3 أجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

عالم بلا خرائط
(بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

أم النذور

سيرة مدينة
(عمان في الأربعينات)

النهايات

لوعة الغياب

الكاتب والمنفى

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة

بين الثقافة والسياسة

عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي
الإخراج:
آنيا مورينغ
صورة الكاتب:
رسم لمرون قصاب باشي

مُدُن المِلح

تقاسيم الليل والنهار

* تركز مدن الملح، بصورة جلية، على العناصر الملحمية بحيث ينتقل القارئ ضمن مراحل تطور المجتمع على نفس الخطى التي قطعها أبناء ذلك المجتمع إبان ذاك التحول.

روجر الن

* إن عبد الرحمن منيف يقدم نموذجاً جديداً للبطولة الروائية المضادة للبطولة التاريخية، إنها بطولة اللابطولة. إنها البطولة الروائية التي ترى كل معاني البطولة وقيمها وسموّها ونبلها في الحياة، فهي بطولة العصر العربي الراهن الفاقد لكل البطولة. إنها بطولة التردي والانحدار والانحطاط.

عبد الرزاق عبد

* لعل تجربة مدن الملح تكون أوسع وأجرأ تجربة روائية عربية تناصية وأكثر تطوراً في حدود معرفتنا بالرواية العربية.

نبيل سليمان

* مدن الملح بروحها الملحمية... أوديسا اجتماعية، تنقلنا إلى حقبة من ماضي جزء من العالم العربي في مرحلة من الزمن.

اي.تي.اي ـ كرونيكل

ISBN 9953-68-103-1



المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي

عبد الرحمن مُنيف



مُدُن المِلح
المُنْبتّ

علي مولا

IV



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

- أرض السواد (3 أجزاء)
- الأشجار واغتيال مرزوق
- سباق المسافات الطويلة
- عالم بلا خرائط (بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)
- شرق المتوسط
- قصة حب مجوسية
- أم النذور
- سيرة مدينة (عمان في الأربعينات)
- النهايات
- لوعة الغياب
- الكاتب والمنفى
- العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة
- بين الثقافة والسياسة
- عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي
الإخراج:
أنيا مورينغ
صورة الكاتب:
رسم لمرون قصاب باشي

جزء من الخسارة التي تلحق البلدان أنها تركن إلى الأوهام، وتعيش في الماضي، وتخطئ في قراءة الواقع واحتمالات المستقبل. وكما أن التاريخ ذاكرة، فإن إدراك الجديد ذاكرة أخرى، وقدرة أكبر على مواجهة المختلف والطامع والعدو. فإذا لم يُحسن استيعاب دروس التاريخ، ولم يجر معرفة الجديد، فإن كل شيء سوف يتحول إلى ذكريات وأغان حزينة.

«المنبتّ» قراءة للهزيمة، والعيش في ظلالها، مع الألم والحسرة وانتظار ما لا يتحقق ولا يأتي.

عَبدالرّحمَن مُنيف

مُـدُن المـلح

المُنْبَـــتّ

IV

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

المركز
الثقافي
العربي

عبد الرحمن منيف

مدن الملح

المنبت

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص. ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

«... فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»

حديث شريف



هبطت الطائرة في شتوتغارت بعد رحلة طويلة، أطول مما توقعها السلطان. ولقد تخللها الكثير من الأسئلة ومراقبة الأماكن ومحاولة النوم، وحين لم تكف هذه الأمور طلب جلالته أن يوافيه إلى مقصوراته شايع السحيمي لكي يحدثه ويؤنسه.

كان شايع يروي له قصة نبي الله يوسف، حين جاءه كبير المضيفين يبلغه أن الطائرة تقترب من شتوتغارت. تحرك شايع ليغادر المقصورة، قال له السلطان:

ـ قلت لي أربع لا يشبعن من أربعة... ما هو كذا؟

ـ أيْ نعم، يا طويل العمر. أربع لا يشبعن من أربعة: عين من نظر، وأذن من خبر، وأرض من مطر، وأنثى من ذكر.

مطَّ الكلمة الأخيرة وهو ينهض. ابتسم السلطان. مسّد لحيته عدة مرات، وبدأ وجهه يكتسب الحزم تدريجياً.

في شتوتغارت كان الاستقبال مليئاً بالحفاوة والمرح. بدا السفير متهيباً أقرب إلى الخوف أو الارتباك، لكن بمرور الوقت أصبح واثقاً ومتألقاً.

في السيارة التي أقلّت السلطان، ورافقه ممثل عن بلدية المدينة والسفير، جرت أحاديث سريعة عن الطقس والخضرة والمسافة إلى بادن بادن. أما عند القصر فقد كانت فرقة موسيقى بافارية تنتظر، وقد أدت لجلالته التحية، ثم عزفت ألحاناً مرحة، واستمرت حتى بعد أن تجاوز الجميع البوابة. أما في حديقة القصر فقد نصبت عدة طاولات، وضعت فوقها الأزهار والفواكه والحلويات.

بعد استراحة قصيرة غادر الضيوف والفرقة الموسيقية. وبطريقة لا تخلو من مكر، هيأ رجال السلطان احتفالاً على طريقتهم الخاصة، تعبيراً عن الفرح، ورداً على موسيقى الألمان! وقد شارك الجميع، وفي لحظة معينة كاد السلطان يشارك، لكنه تردد ثم صرف النظر، رغم أنه لم يتوقف عن هز رأسه دلالة الفرح. وبدرت من النسوة جرأة غير معتادة، إذ وقفن على أكثر من شرفة وتابعن الرقص.

كان السلطان مأخوذاً بالجمال الذي يطوقه من كل ناحية. ولفت نظره أن ضوء النهار باهر، والشمس لا تغيب. استغرب ذلك، نظر إلى ساعته أكثر من مرة. لاحظ ناصر السحيمان، السفير، استغراب السلطان، قال بمداعبة:

ـ هذي الديرة غير ديرتنا، يا طويل العمر. صيفهم غير صيفنا، وشتاهم غير شتانا...

التفت إلى أكثر من ناحية، ابتسم ابتسامة الواثق وأضاف:

ـ وبعض الأيام، يا طويل العمر، الشمس تغيب من الغرب، وبعد ساعتين أو ثلاث تناظرها من الشرق.

قال السلطان وهو يقهقه:

ـ هذي هي الجنة التي وعد الله بها المتقين.

قال زيد الهريدي بافتتان:

ـ لعن الله والدين الألمان، منين جابوا هذي الخضرة كلها؟

ولم يهدأ السفير، ولم يتعب، وهو يحدث السلطان عن الحقول والغابات والأنهار. وكيف أن الإنسان لا يستطيع اجتياز الغابة السوداء القريبة، وأن الحكومة تدفع للمزارعين مبالغ طائلة من أجل دفع الغابات قليلاً إلى الوراء! تظاهر السلطان بالاهتمام والمتابعة، لكنه بدا مشغولاً بأمر آخر. في إحدى اللحظات سأل بمرح:

ـ والناس، بهذي الديرة، ما ينامون؟

وحين نهض ليأوي إلى فراشه، خاطب الموجودين بمداعبة:

ـ هذي الديرة، يا جماعة الخير، ما لها رباط، ليلها مثل نهارها، ورجالها مثل نساها، والأَخْيَر أن البني آدم يتوقى!

حتى ظهر اليوم التالي، انشغل السفير ورجال السفارة بإعادة ترتيب إقامة الحاشية والمرافقين، إذ جرت مشاورات عديدة، تدخل فيها الكثيرون، من أجل توزيع الحرس، وتغيير الغرف، وتأمين المترجمين والسيارات. ورغم أن ترتيباً مبكراً قد أعد، وتم الاتفاق عليه مع إدارة الفندقين اللذين خصصا لنزول الحاشية، إلا أن المراجعات والصخب، إضافة إلى التغير المستمر، خلق ارباكات عديدة. أما موضوع الطعام فقد ظل مشكلة غير قابلة لأي نوع من الحل، لأن الأكل الذي أعده الفندقان لمائة وسبعين شخصاً، لم يتناول شيئاً منه سوى المرضى وعدد محدود من الذين بقوا في الفندقين.

ما كاد يعود السفير عند الظهر، ويعرض على جلالته رغبة وجهاء الجالية العربية بزيارته والسلام عليه، حتى رد السلطان بطريقة لا تخلو من ضيق:

ـ خلنا نشوف الدنيا يا ابن سحيمان، وجماعتنا نلحق عليهم.

والتفت وواصل الحديث، وكأنه يخاطب زيد وحده:

ـ وهذول، جماعتنا، ما عندهم إلا سوالف الحريمات: قلنا وقالوا، والأَخْير نخليهم للتالي!

في فترة بعد الظهر، أثناء قيلولة السلطان، وصل من بون السكرتير الأول للسفارة. اختلى بالسفير فترة، وما كاد يغادر، حتى اهتزت غرفة زيد الهريدي، إذ دخلها السفير مضطرباً اصفر الوجه، وقد تصبب منه العرق. ومن خلال الأصوات العمياء والاشارات نقل لزيد الخبر.

لفترة غير قصيرة ساد الذهول والصمت، وحين تمالك زيد نفسه سأل:

ـ وأنت متأكد يا ابن الحلال؟

يهز السفير رأسه مؤكداً، ولا يقوى على أن تلتقي عيناه بعيني زيد إلا للحظة خاطفة، لحظة مليئة بالخوف والتوسل. يتابع زيد:

ـ ما هو معقول، يا ابن الحلال!

ـ هذا ما حصل يا شيخ. يلهث ويضيف: والحكومة الألمانية بعثت تريد اقابلها اليوم بعد الظهر.

ـ وشنهو اللي نقوله لطويل العمر؟ ومن هو اللي يقوله؟

وحين يصمت السفير، لا يقوى على الرد أو النظر إلى عيني زيد، يتابع زيد محدثاً نفسه:

ـ أبد ما هو معقول، يا جماعة الخير. وفنر؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد فترة صمت يضرب زيد على ساقه، ويسأل من جديد بلهجة مختلفة:

ـ خاف تكون السالفة من أولها إلى تاليها: قيل عن قال؟

يرد السفير بيأس:

ـ خلنا نشوف الحكومة الألمانية، وبعدها الله كريم!

ـ والحكومة الألمانية ويش اللي درّاها؟ ومن عملها؟

ـ هذي حكومة يا ابن الحلال.

ـ وحنا شنهو حنا؟ زق؟ فزاعة زرع؟

ـ حاشاك يا شيخنا، بس هذي حكومة وعندها علوم كثيرة.

ـ وإذا رحت، متى ترد؟

ـ من ساعتي ماشي، يا مبارك، وباكر ارد.

ـ ولباكر تخلينا نضرب أخماس بأسداس؟

ـ بعد المقابلة اتصل بكم، وما أترك أحد إلا وأنشده، وباكر، إنشاء الله، اجيكم بالعلوم، وعسى تكون علوم زينة.

ـ وطويل العمر؟

ـ خل طويل العمر بعرسه، وباكر نشوف.

ـ وإذا سمع من غيرنا؟ إذا علّمه أحد؟

ـ أنت موجود، يا شيخنا، وما أظن يصله أحد.

ـ وأنت. . . أريدك تعلمني بكل شيء، بالتلفون، بطارش، شلون ما كان، وأريدك ما تبطي.

وبعد قليل:

ـ متى ترجع؟

ـ ما ابطي عليك يا شيخ زيد، وإذا قدرت ارجع اليوم.

ـ ترى إذا غيبتك طالت أمورنا حارت.

ـ وكّل الله يا شيخنا.

ـ اعتمادنا على الله وعليك، وإنشاء الله بعودتك تجي البشاير ونخلص من هذي المصايب.

بعد العصر كان مزاج السلطان رائقاً وجليلاً:

ـ «. . . وأول رجعتنا، يا زيد، بالخير والسلامة، يلزم تذكرني: العجيزّة، الشيخة، لا بد ونزورها ونحب راسها. تعبت الحريمة، يلزم نطيّب خاطرها، وهي ما تريد أكثر.

«ويلزم، يا زيد، نروح لجماعتنا. نزورهم ببيوتهم. نشوفهم ونسألهم: شلونكم يا جماعة الخير؟ إنشاء الله مرتاحين وراضين علينا؟ وإذا نسيناكم، يا جماعة، فسبحان من لا ينسى. لكنها الدولة وهمومها، ويلزم تسامحونا، وعسى الأيام اللي تجي أحسن من الأيام اللي راحت. ويلزم نسمع منهم يا زيد. خلِ كل واحد يسولف. يقول اللي يريده. وحنا لازم نسمع. نقول لهم: الحق حق، وما ينزعل منه، واللي تقولونه صحيح، لكن البني آدم عقله ما هو دفتر، ينسى، تغره الحياة الدنيا أو تشغله، لكن بعد هذا اليوم أبد، ذاك يوم وهذا يوم. وإذا زعلنا يا زيد نكون مخطين.

«ويلزم نسأل عن كل واحد، يا زيد. لأن جماعتنا أرواحهم عزيزة، والواحد منهم يموت وما يقول آخ. وأنت تعرف: أولاد الحرام سدوا علينا كل باب. كل يوم بوجوهنا، وسوالف وأخبار. وقالوا وقلنا. وبعدها: الله

أكبر. وبعد الصلاة: تفضلوا يا جماعة الخير. وكّلهم لقّامة، وأبد ما يقولون لا. ياكلون ويتسوكون. وإذا قمنا قاموا. وثاني يوم سروة يجون. وإذا سألنا: وين فلان يا جماعة الخير؟ يسكتون، يناظرون بوجوه بعضهم ويسكتون. وإذا سألناهم نوبة ثانية يقولون: ما ندري.

«أمس يا زيد تذكرت شداد، وتذكرت شمران. صار سنين وأيام ما شفنا شمران. قال لي حماد: شمران ما عنده سالفة إلا سوق الحلال. قلت لحماد: اتركوا سوق الحلال بمكانه. قال لي: سوق الحلال صار أثر بعد عين، ومكانه ما هو مناسب. قلت له: اتركوا الناس يترزقون. قال لي: العوالي أخْيَر لهم وأوسع.

«يلزم تذكرني، يا زيد، إذا رجعنا بالخير والسلامة حتى نزور شمران، فإذا شفناه كلمة منا وكلمة منه وتصفى القلوب، لأن الناس إذا ناظروا وجوه بعضهم، إذا قالوا اللي بقلوبهم تصفى. أما إذا قيل عن قال خاست، وأولاد الحرام يحصدونها.

«ويلزم، يا زيد، أن الواحد يقول اللي له واللي عليه. وموران اليوم ما هي مثل أمس. أمس كنا ندوّر ونقول: عطونا يا جماعة الخير: دين، قرضة حسنة. اليوم، وبعد ما أفاض الله علينا يلزم نقول: خذوا. وما نترك أحد يجوع أو يحتاج. لأني بين يوم والثاني اسمع من الحريمات: فلان ذابحه الجوع. وفلان محتاج وما يلقى. وبمجالسنا، يا زيد، كلهم يحمدون ويشكرون. لكن الناس ما هم بس اللي يجونا.

«بعد اليوم، يا زيد لا تترك الشيبان، اللي ما عندهم إلا: قال الله وقال الرسول، يملون مجالسنا ويسدون بيبانا. خلنا نروح للناس، خلهم يجونا. وبعدها نسوي اللي الله يقدرنا عليه، لأنه بعد اليوم ما لنا عذر، وما لنا شفاعة عند أحد».

يستريح السلطان قليلاً، يتذكر وجوهاً وأموراً كثيرة، لأن الأطياف القديمة تعاوده من جديد، فتتغير لهجته:

«ـ وحماد، الله يصلحه، ما عنده إلا سالفة: احذر وتوّق يا طويل

العمر. أولاد الحرام كثر وقلوبهم ماليها الطمع. وأقول له: يا ابن الحلال، جماعتنا وحنا أدرى بهم. عطهم، خلهم يشبعون، لأنهم إذا شبعوا ارتخوا وفترت حركتهم، وما يهمهم فلاني وتركاني. ويقول: المؤامرة الفلانية: الجماعة الفلانية. الشخص الفلاني، كلهم طامعين ويتآمرون. وأقول له: سوالف يا حماد، وأخاف جماعتك هم اللي ينقشون ويكتبون، وتراهم واهمين. يقول: حنا متأكدين، يا طويل العمر، وعندنا الدليل.».

يهزّ السلطان رأسه. يحاول أن يضحك، فلا تخرج من فمه إلا همهمات ساخرة. يتابع:

«ـ ولو قدر حماد كان سد ببيابنا، وما خلى حتى الطير يمر فوقنا أو أحد يتقرب منا».

وتغيرت اللهجة، أصبحت آمرة وأقرب إلى الحدة:

«ـ لكن من رجعتنا، يا زيد، نقول لهم: اتركونا. افتحوا بيبانا وخلوا الناس يجونا، ومثل ما سوى المرحوم أبوي نسوي. لا نخاف ولا نجفل. وما تاخذنا كلمة وتردنا الثانية. ونقول لحماد: وأنت يا حماد إنسَ هذي السوالف ولا تخف، وأولها وتاليها: المقدر لازم يصير».

ويضيف مخاطباً نفسه:

«ـ أي نعم، أي نعم هذا اللازم، وهذا اللي يصير».

وبعد أن يخيم الصمت، وكل من الرجلين يفكر بأمور مختلفة تماماً عن الآخر، يقول السلطان وهو يتلفت حواليه:

«ـ وبعد ما أنعم الله علينا يلزم نسوي موارن جنة، يا زيد، البيوت، الشوارع، الحدايق، المدارس. ومثل ما قال لي الجماعة قبل شهر أو شهرين، قالوا: مشكلة موران: الماء. إذا توفر الماء كل شيء يتغير. وما دام الله أعطانا وتفضل، وما دامت الفلوس واجدة، نقدر نجر الماء من كل مكان، نحفر البيار، ونحفر القاع...».

وتتغير اللهجة مرة أخرى، تصبح تعليمية:

«ـ الماء يجر الماء، يا زيد، مثل الفلوس تجر الفلوس. فإذا ربّعت

قاعنا، وإذا زاد زرعنا، وصار الشجر والثمر، ترى ديرتنا تتغير. تصير موران مثل البستان».

وتصبح اللهجة آمرة من جديد:

«ـ برجعتنا، يا زيد، لا تنس تذكرني: كل من يحفر بير الحكومة تساعده. كل من يزرع شجرة الحكومة تساعده. وما يروح يوم ويجي الثاني إلا والسلطنة كلها، من حران إلى البقعة، من المطالع إلى عين موسى أرض خضرا مثل هذي الديرة وأحسن.

«وتذكرني، يا زيد: المدارس على حسابنا. الاجزخانات على حسابنا. وتعالوا يا ناس، تعالوا يا أولاد الحلال: كل من يريد يعلم أولاده: ولا قرش. كل من يطب الاجزخانه ما يدفع ولا قرش. وما هو بس كذا، كل واحد يخرج من الاجزخانة معافى إكرامية: دشداشة وعباية، وفي أمان الله. واللي يموت يدفن على حسابنا!

«الناس، من قبل، يا زيد، جواعا. الخبز ما يحصل. تذكر ذيك الأيام. هالحين لازم ياكلون ويشبعون. وكل واحد بموران عنده عيال، عنده أكثر من أربعة يلزم الحكومة تعاونه. الفلوس من فضل الله واجدة. وخذوا يا أولاد الحلال، أنتم النشامة وتستاهلون، وما ننسى أحد أبد.

«والمحابيس يا زيد. الله يرحمه خريبط، كان بكل عيد يطلق قسم منهم. كل واحد جرمه خفّيف، كل واحد بقى له مدة قصيّرة، تعال يا فلان، ترى هالمرة سامحناك، وأنت من اليوم طليق، لكن إذا جيتنا نوبة ثانية ترى ما تخلص منا. تسمع؟ وبعد ما يسمع ويطيع: اعطوه قرشين يا جماعة، وخله يدوّر أهله.

«حنا يا زيد نسينا هذي العادة، سويناها نوبة، وبعدها الشيطان، الله يخزيه، نسّانا. هالحين من رجعتنا. أول شيء تذكرني به هالمساكين. ذكرني ولا تمل، وما يهم عيد أو ما هو بعيد، يلزم هالمساكين يرجعون لأهلهم».

ويهز رأسه أسفاً لهذه الأخطاء التي وقعت دون أن يفطن لها، ودون أن يذكّره بها أحد. يضيف بحزن:

«ـ واللي ذبحوهم جماعتنا هنا وهنا، يا زيد، لا تتركوا أهلهم إلا وترضوهم. حطوا بجيب كل واحد منهم قرشين، وقولوا لهم: عفا الله عما مضى، وحنا أولاد اليوم».

وتتغير النبرة.

«ـ لأن هذول إذا ما كانوا راضين يسوون كل شيء. يلزم ترضوهم، يا زيد. وأريد منك أنت وحماد أن تحضروا لايحة بكل اللي ذبحهم الجماعة من يوم استلامي العرش. وتعالوا يا اخوانهم، يا أهلهم، وتبلغونهم: ترى يا جماعة الخير طويل العمر ما يدري. لا عرف ولا سمع. وتعرفون: براسه ألف شغلة وشغلة، لكن لما جا من قال له، رد وقال: أبد ما يصير. وهالحين هو اللي أمرنا. قال: شوفوهم، طيبوا خاطرهم، واللي يريدونه يصير. وحنا، يا جماعة الخير ما نقدر إلا ننفذ أوامر جلالة السلطان. تسمع يا زيد؟ لا تتركوا أحد أبد، لأن من هذا الباب تجي الريح، فإذا خلصنا منهم تخلص الطلايب، ونخلص من سوالف حماد.».

وبعد أن قدم الشاي والقهوة مرتين، طلب جلالته، خلافاً لليوم السابق، أن يعد له الطعام في جناحه الخاص. ولما خيم الصمت وطال، قال السلطان يواصل حديثه:

«ـ هذي الديرة تعجب، يا زيد. من ساعة ما حطينا رجلنا بالمطار، وإلى هنا، والخضرة ما فارقتنا. وبيوتهم زينة، والناس شبعانين، ويلزم موران، وعموم السلطنة، تصير مثل هذي الديرة. ويلزم الأمراء كلهم يجون ويناظرون. إذا شافوا الغيرة تاكل قلوبهم، وبعدها: يا الله يا جماعة. ازرعوا وعمّروا، وما تمركم سنة إلا وموران مثلا الجنة. ومثل ما قلت، يا زيد: الماء نلقاه. توصله المواسير، ينجرّ ما دامت الفلوس واجدة. المهم أن الواحد ينوي».

وربما خطر للسلطان خاطر وهو يتكلم، إذ فجأة سأل:

ـ وينه ناصر؟ ما شفناه المسويات؟

ارتبك زيد الهريدي الذي ظل صامتاً طوال الوقت. رد بصوت بدا حزيناً:

ـ نسيت اعلّمك، يا طويل العمر، الحكومة الألمانية طلبت مقابلته، فاستأذن وسافر.

ـ الحكومة الألمانية طلبت مقابلته؟

ـ وقال أنه ما يبطي.

قال السلطان بزهو:

ـ الله أعلم أنهم يريدون يشوفونا، وهذا اللي قاله صاحبهم بالمطار.

وبعد قليل:

ـ ومثل جماعتنا، بعد اليوم الثالث يسألون ويتقصّون.

مرت نسمة خفيفة فارتجف زيد. تراءت له موران بعيدة مستحيلة. سأله السلطان:

ـ ومتى يرجع؟

ـ ما أدري، يا طويل العمر، لكنه قال أنه ما يتأخر.

هزّ السلطان رأسه دلالة الفهم والموافقة، وأضاف:

ـ أريدك ما تنسى أبد اللي علمتك به يا زيد، وأريدك تذكرني بكل شيء...

وتغيرت لهجته، أصبحت حزينة:

ـ لأن الناس إذا تحملوا وسكتوا، تراهم ما يحتملون أكثر، وإذا ما قالوا بوجوهنا، يقولون إذا قفينا، إذا مشينا، وعندها الله يستر.

وظلت أنوار القصر تتلألأ، وأصوات الضحكات تسمع بعد مضي ساعات على مغادرة السلطان للحديقة. كما شوهد أكثر من مرة يخرج إلى الشرفة، وكانت عروسه، وكانت معهما أم العروس في إحدى المرات.

وزيد الذي دخل إلى البناء الجانبي، عند بوابة القصر، أبلغ آمر الحرس أن لا يسمح بدخول أحد، أياً كان، عدا السفير، حتى صباح اليوم التالي. وظل يتقلب في فراشه وينتظر، ولم يستطع أن يغفو لحظة واحدة.

. . . ـ **والله** ، والله لو ظل بعمري ساعة واحدة ما اتركهم ولا اخليهم يفرحون.

ويهز السلطان رأسه بسرعة وبطريقة آلية تشبه اهتزاز رأس الحرذون. يغيب. يحاول أن يتخيل ما حصل، ثم فجأة يصرخ بحقد:

ـ قالوا لأرواحهم: أبو مشعل طيب. طيب ويده مبسوطة وصدره واسع، ويحمل مثل بعير؟ وقالوا: كم يوم ينسى؟ لا مخطين. هالحين يلزمهم يعرفون من هو أبو مشعل. لأن أبو مشعل مع الكريم أكرم، ومع اللئيم العصا، وماله بقلبي رحمة، ويلزمهم يعرفون: ما هو كل من ركب الفرس فارس، ولا كل من حمل السيف صار عنتر ابن شداد.

يتنفس بعمق وحسرة، وكأنه يريد أن يمتص الهواء كله، ويتابع بلهجة مختلفة:

ـ قالوا لأرواحهم: غاب ألبس ألعب يا فار؟ قالوا: بعيد ونقدر نسوي كل شيء؟ تراهم مخطين وواهمين، وراح ياكلون أصابعهم ندامة، لأن بعد كل ليل صباح، وبعد كل نشوة صحوة. . . ونشوف.

ويضرب على الطاولة، التي جلس وحده في جانب، وجلس السفير وزيد الهريدي في الجانب الآخر، ويهدر صوته:

ـ من هذا اليوم، من هذي الساعة، أنا كوم وهم كوم، وما عاد بقلبي رحمة، ولا لاحد منهم شفاعة. . .

ويضرب الطاولة مرة أخرى:

ـ والله. . والله لاخلّي الدم يصل للركب، وبيدي هذي لاقص رأس

كل من خان، وكل واحد اشترك، وتشوفون.

ويخيم الصمت، صمت ثقيل مدوٍّ، فتبدو الأنفاس ثقيلة، وكأنها خارجة من أعماق بعيدة. لا يقوى أحد أن ينظر إلى وجه الآخر، إلى عينيه، لأن في تلك النظرة النهاية.

تحرك السلطان قليلاً، وقال بلهجة آمرة قاسية:

ـ إذا قالوا لك يا ناصر أنهم ما يريدوني، وإذا قالوا أنهم يرمون طيارتي إذا وصلت موران، فقل لهم: تعالوا لهنا. قل لفنر: أبو مشعل يريدك، يلزمك تجي فوراً، ومن رأسك لرأسه تتفاهمون. يا الله، قم وقل هذا الشيء.

ويحاول ناصر السحيمان أن يشرح من جديد أنه حاول مرات كثيرة الاتصال مع موران، لكن موران لا تجيب. لا تستقبل أية نداءات تلفونية. وكل ما وصله عن طريق البرقيات، والبرقيات واضحة لا تحتمل التأويل، ويختم كلامه برجاء:

ـ وأنت، يا طويل العمر، أب للجميع. ورأيي أن نصبر يوم أو اثنين، ولا بد أن يندموا ويتراجعوا.

وحين يحاول أن يضيف كلمات أخرى تفزعه صرخة السلطان:

ـ قم واتصل بهم قبل كل شيء.

ويتصل ناصر السحيمان بالسفارة ببون، ويسأل بصوت عالٍ ما إذا عادت الاتصالات مع موران، وحيت يتلقى جواباً بالنفي، يحاول أن يشرك زيداً في سماع الجواب، فيصرخ السلطان:

ـ لكن وين يروحون مني هالكلاب؟

ويزفر وتتغير اللهجة:

ـ يا عباد الله أنا اللي سويتهم. أنا اللي عطيتهم. قلت لهم: خذوا. قلت لهم: صيروا مثل الناس والعالم. وسكت على فضايحهم وسرقاتهم، سويت روحي لا شفت ولا سمعت، وبعدها اليد اللي ربتهم وعطتهم

يعضونها؟ الصدر اللي حماهم يسوون به كذا؟ هذا وين صار، ومتى صار يا عباد الله؟

يزفر بحرقة ثم يتابع:

ـ اسمع يا ابن سحيمان: تبرق لهم هالحين، نعم هالحين: إما يجوني، وخاصة فنر، يجي ويحب يدي ويقول أخطيت واطلب السماح، أو اركب طيارتي وامشي، وهناك إذا تواجهنا نتحاسب، ولكل حادث حديث.

وحين يهز ناصر السحيمان رأسه دلالة الموافقة، ويحاول أن يجمع نفسه لكي ينهض وينفذ الأمر، يسأله السلطان:

ـ والالمان، الخنازير، قالوا لك: نقبله، ونوافق على إقامته، لكن بشرط: ما يشتغل بالسياسة؟

ويهز ناصر رأسه للتأكيد، فيهدر صوت السلطان:

ـ يخسون، ما نريدهم ولا نريد ديرتهم.

وبعد قليل:

ـ لا هم ولا غيرهم يقولون لنا شنهو اللي يلزم نسويه. حنا شورنا من راسنا، ما هو مثل غيرنا. ونسوي اللي نريده.

ويخيم الصمت من جديد، يصبح ثقيلاً مرهقاً، فيحاول زيد أن يجد مخرجاً:

ـ نزوة شباب، يا طويل العمر، وتنقضي.

ـ فنر ما هو صغيّر يا زيد. فنر بعمري. وهذا اللي سواه ما هو بنزوة. جا من شار عليه، وقال له تسوي كذا وكذا، ولا بد يكون مستشاره أبو العيون الزرق والسنون الفرق، ذاك الابليس الانكريزي. لكن ما يخالف، إذا تواجهنا، إذا بحّرت به لا بد واعرف كل شي. شنهو اللي قاله الأميركان والانكريز، وشنهو اللي قالته الحريمات، ومن وزّه، ومن معه. بسيطة، نتواجه ونشوف.

ـ ظني يا طويل العمر أن الندامة راح تاكل قلوبهم، وباكر يزحفون طالبين التوبة والعفو.

ـ ما اريدهم ولا اريد توبتهم، لأنّا من هذه الساعة قوم، وغلطة مثل هذي ما تنصلح يا زيد، يلزم يندفع عليها مخاضة دم وتتعلق روس، حتى ما يعاودوها نوبة ثانية.

ويهز السلطان رأسه هزات طويلة متصلة، وهو يستعرض كل شيء، وحين يصل إلى نقطة يعتبرها حاسمة يصرخ:

ـ اتصل بالحكومة الألمانية يا ابن سحيمان، وقل لها السلطان يريد يكلّم موران، ولا بد أن يوصولنا بموران.

ـ حاولت، يا طويل العمر، حاولت بكل الوسائل. والغريب أن الحكومة الألمانية نفسها حاولت الاتصال بسفيرها بموران، لكن ما حصّلوا جواب. الخطوط كلها مقطوعة، وموران معزولة عن العالم الخارجي.

قال زيد، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ الله العليم أن الجماعة أبد ما سيطروا، ولا بد تكون المقاومة مستمرة، والناس حملوا سلاحهم ضد الفئة الباغية ودفاعاً عن العرش.

ـ الحق اللي تقوله يا زيد، لأن القوي ما يخاف، ولا يقطع التلفونات. . .

هكذا قال السلطان، وأضاف بعد قليل بنزق:

ـ وهذا الزق راديو أو تابوت؟ ما به إلا يفحّ ويشخر، وما ينفهم منه شي! والتفت إلى ناصر السحيمان:

ـ ومتى اتصلت بموران آخر مرة؟

ـ يوم وصولكم، يا طويل العمر. بعد إقلاع الطائرة اتصلوا وأبلغوني أن طويل العمر غادر موران، متوجهاً إلى هنا.

ـ وكانوا يريدون امشي؟

ـ ما أدري، يا طويل العمر، بس هم اتصلوا وقالوا: غادرت الطائرة.

ـ كانوا يريدون امشي، أن أغيب عن وجوههم، لأنهم جبناء ورعاديد ما يقدرون على شي وأنا موجود.

وساد الصمت من جديد.

سُمعت حركة خارج الغرفة. تنبهت الحواس. بدت عينا السلطان حمراوين وكبيرتين، وكانت شفته العليا ترتجف. حين رأى أن العيون تعلقت به، صرخ بوجه زيد:

ـ قم، شف من.

قام زيد متعثراً. فتح الباب. وجد كبير الخدم، الألماني، ومعه اثنتان من الخادمات، وبدا من الإشارات والحركات أن وقت تنظيف هذه الغرفة قد حان. عاد زيد. قال كلمات متعثرة، فهمت أن لا شيء.

قال السلطان ليعيد الجو إلى ما كان عليه:

ـ دز برقية هالحين يا ابن سحيمان، تقول: السلطان يطلب مجيء فنر فوراً، وعليه التنفيذ.

وبعد قليل:

ـ وإذا تأخر ردهم، تدز برقية ثانية، تقول: السلطان راكب وماشي، وهو واصلكم بين ساعة والثانية. وما يشوفوني إلا فوق روسهم، وإذا كان بهم خير أو بهم مرجلة، خلهم يرمون الطيارة.

قال زيد في محاولة لأن يخفف من الهياج:

ـ الصباح رباح يا طويل العمر، وظني أنهم راح يندمون ويتوبون.

رد السلطان بحدة:

ـ اسمع يا زيد، الجماعة ركبهم إبليس. قالوا لأرواحهم: راح وما يقدر يسوي شي. وحنا نقدر نسوي اللي نريده ما دام بعيد وغير موجود، لكن إذا شافوني فوق روسهم، إذا عرفوا أن السلطان طبّ ووصل، يصيرون مثل الأرانب، يسلحون على هدومهم، وكل واحد منهم يدوّر السلامة ويختبي بحجره.

والتفت إلى ناصر السحيمان، وبلهجة آمرة:

ـ حضروا الطيارة من الفجر، نعم، حضروا الطيارة، لأن البني آدم يعيش بالدنيا نوبة واحدة، وأريد أشوفهم إذا وصلت الطيارة، وإذا رموها بيّنا حساب بالدنيا وبالآخرة.

بعد الكثير من الجهد والمشقة أمكن إقناع السلطان أن الأفضل والأقرب إلى الحكمة تأجيل الرحلة يوماً أو اثنين. وقد تعهد السفير أن يبرق إلى موران بالسرعة الكلية ليخبرها بكامل الأوامر، ويطلب مجيء فنر فوراً. وعلى ضوء الجواب يمكن أن يتصرف السلطان. أن يبقى هنا أو أن يعود إلى موران مباشرة.

لقد حصل الاتفاق على هذا الحل بعد الكثير من الجهد وفترات التفكير والصمت، إضافة إلى محاولات اتصال مجددة مع موران. ثم مع السفارة. وقد طلب السفير من عنصر المناوبة في السفارة أن يبلغه بأي اتصال، وفوراً، خاصة إذا كان من موران، وإلى قصر صاحب الجلالة في بادن بادن، وفي أية ساعة من ساعات الليل والنهار، وأن يطلب التحدث مباشرة مع السفير أو مع الشيخ زيد الهريدي.

في اليوم السابع وصل الدكتور صبحي المحملجي إلى بادن بادن.

وصل قبل الظهر بقليل. بدا متعباً مريضاً، حتى أن الذين فتحوا له بوابة القصر لم يعرفوه لأول وهلة. أما بعد ذلك، وخلال فترة قصيرة، فقد انتشر خبر وصوله بسرعة، وترافق ذلك مع الكثير من الأخبار والتوقعات، الأمر الذي حمل أغلب الذين رافقوا السلطان، وكانوا ينزلون في فندقين وسط المدينة، على أن يتوجهوا إلى القصر، انتظاراً لسماع الأخبار الجديدة، بعد أن امتلأوا خوفاً وحيرة خلال الأيام السابقة، لكن زيد الهريدي لم يسمح إلا لعدد محدود بالبقاء، وطلب من الآخرين العودة.

وللمرة الثانية يأمر السلطان بتأجيل الزيارة التي كان يفترض أن يقوم بها أحد موظفي الخارجية الألمانية «لأن السلطان لن يكون قادراً على استقبال أحد، نظراً لانحراف صحته». أما موظفو السفارة الثلاثة الذين بقوا في بادن بادن، وتحت تصرف صاحب الجلالة، بعد أن اضطر السفير لمغادرة المدينة عائداً إلى بون «لأعمال طارئة، ومن أجل إجراء مزيد من الاتصالات لاستجلاء الموقف»، فقد طلب منهم، بعد وصول الحكيم، «أن يكونوا في حالة الجاهزية الكاملة، لأن أوامر هامة سيصدرها السلطان، وعليهم أن يقوموا بنقلها فوراً». لكن ذلك اليوم انقضى، وجاء بعده الليل، وظلت أنوار القصر مشعة حتى ساعة متأخرة، دون أن يتغير شيء، أو يظهر أحد، ولم تصدر الأوامر التي ظلت متوقعة في كل لحظة.

ضحى اليوم التالي، شوهد السلطان والحكيم يتمشيان في الحديقة الخلفية للقصر. لأول مرة يشاهد السلطان بعد تلك الليلة. بدا هرماً متعباً، وكأنه خارج لتوه من المرض. كان لا يتوقف عن هز رأسه، دلالة أنه

يسمع ويتابع. وبدا الحكيم منفعلاً حاداً وهو يتحدث. ظلا كذلك ساعة من الزمن، ثم دخلا القصر. ولم تمض دقائق حتى استدعي زيد، وطلب منه الاتصال بالسفير واستدعاؤه فوراً. وبعد اتصالات عديدة، تخللها الانتظار والتشاور، أوضح السفير أنه «لن يستطيع مغادرة بون بناء لتعليمات من موران، وأنه سيوفد نيابة عنه السكرتير الأول للسفارة. وسوف يحمله رسالة هامة» ورغم الاتصالات العديدة التي جرت لاحقاً، اشترك في أحدها الحكيم، فقد ظل جواب السفير واضحاً وقاطعاً:

ـ تعليمات موران، يا جماعة الخير، واضحة جداً. تقول التعليمات: لا تغادر بون إلى أي مكان، حتى تصلك تعليمات جديدة.

وأشار السفير، بشكل غامض، إلى أن من الأفضل للجميع، وأكد على الكلمة الأخيرة بالذات، بقاءه في بون. وقد فهمت هذه الكلمة، وفسرت، بشكل متفائل، الأمر الذي جعل الحكيم يفكر ثم يقترح أن يسافر بنفسه إلى بون لاستقصاء المعلومات، وليحمل بنفسه الأخبار الطيبة الهامة التي أشار إليها السفير بغموض.

بعد امعان تفكير وتردد، قال السلطان بأسى وحدة:

ـ توكل على الله يا أبو غزوان، بس لا تبطي.

استغرقت الرحلة يوماً وليلة. وحين عاد الحكيم قبل عصر اليوم التالي، وقد رفض السلطان تناول الغداء مبكراً، خلافاً لعادته، «لأن الحكيم بين لحظة والثانية يصل ونتغدى جميع» فلم يفكر السلطان، بعد عودة الحكيم بالغداء، ولم يقترح عليه ذلك سوى مرة واحدة، لكن بدا للجميع أن الأمور تسير عكس التوقعات، وإن كل شيء منتهٍ.

فالحكيم الذي قرر، بينه وبين نفسه، أن يطلب من السفير تقديم احتجاج، والطلب من الحكومة الألمانية الاعتذار رسمياً، لأنها تأخرت في منحه تأشيرة الدخول، رغم أن أوضح للسفارة الالمانية في بيروت صفته، والسبب الذي يسافر من أجله، فقد أصرت السفارة أنها لا تستطع منحه التأشيرة قبل أن تحصل على موافقة بون، مما اضطره للبقاء أسبوعاً كاملاً

ينتظر. هكذا فكر الحكيم أن يبدأ. وقرر أيضاً أن يتصل بموران من السفارة مباشرة والتحدث إلى الأمير فنز شخصياً. وقرر أن يكون واضحاً وحازماً معاً، وأن يبلغ السلطان بالأخبار والنتائج دون تأخير.

الآن، وهو يعود، دون أن يفعل أياً من هذه الأمور، كما لم يستطع أن يرد على استفسارات زيد الذي كان ينتظره عند البوابة الخارجية للقصر، ولم يرفع عينيه إلى الحرس، أو إلى الذين كانوا عند المحرس الداخلي يدخنون ويثرثرون، وقد نهضوا بسرعة وارتباك حين رأوه، وهم يرفعون أيديهم بحيوية ومعها أصواتهم: «الله يقويك، يا أبو غزوان. القوة يا أبو غزوان»، وكانوا يتطلعون إليه بإمعان في محاولة لاكتشاف النتائج حتى دون كلمات.

رد الحكيم على تحياتهم بسرعة، بأن هز يده، دون أن ترتفع إليهم نظراته. كان متأكداً، تلك اللحظات، أن قواه تخونه، وأن وجهه يفضحه. أكثر من ذلك، ظن أن الدموع لا بد أن تنفر من عينيه. آثر أن يردّ هكذا، وأن يهرول.

السلطان، وهو يرى الحكيم داخلاً بذلك الشكل وبتلك الملامح، ولأنه لم يتصل من بون، أدرك كل شيء. قال له بصوت تخنقه العبرة:

ـ تعال.. تعال استرح هنا، يا أبو غزوان.

لم يكن يريده أن يتكلم، أن يتحدث أمام سلمى وأمها. كان يشعر بالحزن والضعف في آن واحد. وكان يحاول تغليف حزنه وضعفه بالصمت، أو بتلك الثورات المفاجئة، وهو يأمر بالقهوة، بالماء، أو بمجيء أحد من رجاله.

كانت الأيام الأولى قاسية إلى درجة الألم، وكانت حزينة وطويلة، وان ظل يشوبها التوقع والأمل. أما بعد أن جاء الحكيم، وبعد أن سافر إلى بون وعاد، فقد أصبح الألم قهراً والحزن يأساً. ومما زاد الخوف والتشاؤم أن سرى الهمس، ولا يعرف كيف تسرب، إن كل من هو مع

السلطان سينال من العقاب أقله السجن مدى الحياة، وإلى أن يعود سيكون أهله وأقاربه رهائن في موران.

ورغم أن مراهنات كثيرة، وبأموال طائلة، جرت بين نزلاء الفندقين، حول احتمالات أو أخرى، واضطر عدد من هؤلاء إلى «استئجار» مترجمين، غير الذين خصصوا من السفارة، لمعرفة آخر الأخبار، سواء بترجمة أخبار الصحف والاذاعات، أو بإعطائهم أرقام الهواتف في موران لكي يتصلوا ويعرفوا من الأهل والأقارب، وليتأكدوا فقط أنهم لا يزالون أحياء وفي بيوتهم، فإن الاشاعات والدسائس والأخبار التي انتشرت بين نزلاء الفندقين، ما لبثت أن انتقلت إلى القصر، فخلقت تشويشاً إضافياً، وزادت الحيرة والترقب والخوف.

حاولت أم غزوان، بمكر واضح، أن تحمل الحكيم على الكلام، لكن محاولاتها انتهت إلى الفشل، لأن السلطان كان يقرأ في الصمت، وفي الملامح، ما لا يمكن أن تقوله الكلمات، ولذلك كان فظّاً قاسياً حين طلب مغادرة النساء. قال بحزم:

ـ اتركوه يا جماعة الخير. خلوا عرقه ينشف.

وبعد قليل:

ـ ضاقت أرواحنا من السوالف، ومن القيل والقال، فاتركونا يرحم والديكم.

حين خرجت أم غزوان، وكانت الأخيرة التي تخرج، قال الحكيم:

ـ . . . ومثل ما قلت لك، يا طويل العمر: الجماعة راكبين روسهم وما هم مصلين على النبي، حاولت معهم، لكن لا حياة لمن تنادي. فنر رفض الكلام. حماد لما عرف صوتي ارتبك. أما مطيع فقال: بعدين بعدين يا خالي.

وبعد قليل:

ـ هذي الشغلة ما هي شغلتهم، لا بد من قال لهم.

ـ هذا اللي قلته من أول ساعة، يا أبو غزوان. لا بد أحد وزهم. وهذا الانكريزي اللي حميناه وعطيناه، مثل ذنب الكلب، نجس واعوج، والحق عليّ، بدل ما اقصّبه واخليه عبرة، قلت له: انطح فالك يا ولد، دور لك ديرة غير هذي الديرة، وما نسيها، ظل يداور ويحاول، حتى اقنعهم، وسووا اللي صار.

ـ يا أبو مشعل، يا طويل العمر، المسألة ما عادت تحتمل، ولا يمكن السكوت. . .

ـ بس علمنا باللي صار واللي جرى، يا أبو غزوان.

ـ العلوم كلها ما عاد منها فايدة يا صاحب الجلالة. الآن، المطلوب الموقف، الحزم. وإذا بدأنا نحلل ونتفلسف تراها راحت علينا.

ـ يا أبو غزوان، يا ابن الحلال، علمنا شنهو اللي صار معك. وبعدما نسمع نتدانش شنهو اللي يلزم نسويه.

ـ يا صاحب الجلالة: حنا بواد والدنيا بواد ثاني. . .

وبعد قليل:

ـ السفير محرِج وخائف، صحيح أن عواطفه معنا، ويريد أن يساعد، لكن الجماعة هناك ما هي فارقة معهم، وقد حرقوا كل الجسور، ولذلك يجب أن لا نتوقع نتائج من أي نوع عن طريقهم. لن يسمعوا ولن يفهموا، وليس بيننا وبينهم سوى السيف!

قال السلطان بعصبية:

ـ ما يخالف، اللي تقوله صحيح، يا أبو غزوان، بس يلزمنا نعرف شنهو اللي جرى بينك وبين ابن سحيمان.

ـ أطلعني السفير، يا صاحب الجلالة، على برقية. البرقية تقول: بلغ السلطان السابق أنه إذا أراد أن يبقى أخاً وموضع تقدير، وأن يعيش، فيجب أن ينسى الماضي، وأن الاجراءات التي اتخذت كانت ضرورية للحفاظ على السلطنة وعلينا جميعاً. يجب عليه أن يفهم هذا الشيء، وإذا أخطأ أو

اغتر فلا بد أن تنعكس النتائج على الجميع، وإلى أضرار لا تترك شيئاً ولا ترحم أحداً.

تنفس الحكيم ملء رئتيه وتابع:

ـ وتقول البرقية: أبلغوا السلطان السابق أن مصاريف أقامته، وأية مبالغ يحتاجها، يمكن تأمينها بشرط: أن يصمت، وينسى أنه كان السلطان...

وزفر وهو يهز رأسه بلوعة ثم أضاف:

ـ وقالت البرقية، وقد خبأ السفير بعض الفقرات: إذا كان له رأي آخر فلنا رأي آخر، ولا بد أن يعرف.

مع الكلمات الأخيرة أخذت دموع السلطان تنحدر على خديه ولحيته. كان يبكي بصمت. لم يحاول أن يخفي دموعه. والحكيم الذي فوجئ، للحظة، وجد نفسه، دون إرادة، يجهش بالبكاء أيضاً. بدأ صوته أقرب إلى المواء، ثم تحول إلى نحيب، وكأنه يختزن، منذ وقت طويل، دموعاً تفوق طاقته على الاحتمال.

لم تصدق وداد أذنيها، دهمتها المفاجأة فارتبكت. أما حين شقت الباب قليلاً، ورأت الحكيم يضرب رأسه ويبكي، وكان يجلس قبالة السلطان، فقد خافت. أغلقت الباب بسرعة، وهربت.

وأخذ القصر يغرق في الصمت والعزلة، وكثيراً ما غرق في الظلام أيضاً. فالأنوار لا توقد إلا في وقت متأخر، ولا تطفأ حتى بعد أن تملأ أضواء الشمس الكون كله، لأن لا أحد يفطن إلى ذلك، أو لديه الرغبة في أن يفعل.

وأكثر الناس حيرة وعذاباً، فلا يعرف كيف يتصرف أو كيف يرد على الأسئلة والنظرات، هو زيد الهريدي. فالمرافقون والأقرباء والحرس يتدفقون على القصر، وبدل أن يستفسروا يحملون الأخبار والتعليقات والخوف، حتى أصبح من الصعب التحكم بهم أو ضبطهم. أكثر من ذلك بدأت تعليقاتهم تتجاوز التساؤل إلى السخرية والتعريض.

زيد الذي كان قوياً مرهوباً، وتكفي نظرة منه، أو إشارة، لأن تحمل أي إنسان على السكوت، لم يعد قادراً على وضع حد للهرج والفوضى اللذين يزيدان كل يوم.

مقابل الصمت الذي خيم على القصر، بلغ الاضطراب في الفندقين حداً زاد على كل تصور. فالنزاعات بين النزلاء أنفسهم لا تتوقف ولا تهدأ. والنزاعات بين هؤلاء والادارتين تزداد وتتعقد يوماً بعد آخر. والمترجمون الذين كانوا يسهلون الحركة والتفاهم بين الطرفين تواروا، أو لم يعودوا قادرين على القيام بمهمتهم، لأنهم أصبحوا عاجزين عن التفاهم مع أي من الطرفين. أما موظفو السفارة الثلاثة، فقد جاءوا إلى القصر وأبلغوا زيداً الهريدي أن اثنين منهم سوف يغادران إلى بون، تلبيةً لتعليمات من السفارة، وأن الثالث سيبقى.

وإذا كان السفير، ثم الثلاثة، قد عجزوا عن تقديم المساعدة المطلوبة خلال الأيام الماضية، فقد رد زيد على الطلب الجديد بكثير من السخرية:

ـ بعون الله وبعونكم شفنا كل خير، وتأمن لنا كل شي. وهالحين يلزم أن الواحد منكم يستريح مثل ما استراح السفير!

وضحك وهو يهز رأسه، ثم أضاف:

ـ أنتم ناس شوركم ما هو ما روسكم، أنتم عبيد مأمورين، ومثل ما قالوا: اللي ياكل من تمرهم يقوم بأمرهم، فيلزم، هالحين تدّورون أهلكم!

موظف الخارجية الذي أجّلت زيارته إلى القصر للمرة الثالثة، بحجة انحراف صحة السلطان، وصل فجأة في اليوم الرابع لعودة الحكيم من بون. استمرت زيارته عشرين دقيقة، ولم يعرف ما إذا قابل السلطان أم لا، كما لم يتسرب أي خبر عما دار أثناء هذه الزيارة. ومع ذلك لم يبق أحد إلا ورأى الحكيم يودعه عند بوابة القصر الخارجية، كان يهز رأسه دلالة الفهم ومتابعة ما يقوله. وحين غادر قفل الحكيم عائداً إلى القصر دون أن يكلم أحداً، حتى زيد الذي وقف عند بوابة الحرس وحياه أثناء عودته، فقد رد عليه الحكيم باختصار وسرعة. قال زيد لنفسه: «إذا كان الغراب دليل قوم...» ومرت في مخيلته صور الحكيم منذ لحظة التعارف الأولى في حران وحتى هذه اللحظة، قال بهمس، وهو يبتسم: «إذا ظل ورانا ما راح تطول خطانا، لأن من ورا شوره ما جاتنا إلا المصايب».

دبت الحركة مبكراً، وبشكل مفاجئ، في القصر، صباح ليوم التالي. تمشى الحكيم في الحديقة الأمامية. توقف عند بعض الشجيرات، تمعن بها، ثم فجأة، وكأن الفكرة وأتته في اللحظة، توجه إلى المبنى الجانبي الذي يقيم فيه زيد الهريدي، ولم يمكث أكثر من دقائق، خرج الاثنان بعدها وتجولا في الحديقة. كان الحكيم يتحدث ويستعين بيديه، وزيد يهز رأسه دلالة الفهم والموافقة. ولم تمض نصف ساعة حتى افترقا. توجه الحكيم إلى داخل القصر، وزيد إلى المبنى الجانبي، وبعد دقائق انطلقت إحدى السيارات لإحضار بدري المدلل من الفندق.

من يعرف بدري المدلل، ويمعن إليه النظر الآن، لا يتصور أن عشرة أيام يمكن أن تغير إنساناً بهذا القدر. فالبدلة الطحينية التي يرتديها تبدو واسعة جداً، وكأنها لشخص آخر، أكبر وأضخم، والحقيبة اليدوية التي يحملها تجعل كتفه الأيسر يميل تحت ثقلها، أما تعابير وجهه ولون بشرته فإنهما يدلان على التعب والهم، أو مثل إنسان خرج لتوه من مرض.

هذا التغير حلّ ببدري منذ لحظة وصوله إلى ألمانيا. فالثقة التي ملأته أن يكون أقرب الناس إلى السلطان، وأن ينزل معه في نفس القصر، ما لبثت أن تبددت، إذ طلب منه أن يصعد إلى الباص مع آخرين لكي يتوجه إلى الفندق. وعندما تردد وأبدى ممانعة، أُبلغ أن كل شيء معدّ سلفاً، حسب القوائم، ولا مجال لأي تغيير. ترافق هذا مع غمزات وتعليقات من بعض المرافقين الذين سمعوه في الطائرة يؤكد بصوت عالٍ أن غرفته ستكون إلى جانب غرفة السلطان مباشرة!

وزاد في هذا التغير العارض الصحي الذي أتعبه وأقعده، وعندما أبلّ قليلاً جاءت الأخبار الغامضة والمشوشة لتجعله أقرب إلى الانهيار. فقد أصبح على يقين أنه لن تتاح له فرصة العودة إلى موران، وأن زوجته وابنه مصباح لن يستطيعا شيئاً أثناء غيابه أو بدونه. أما الأموال التي جمعها، فقد أصبحت في الأرض والحجارة، إذ اشترى أكثر من أرض، وأقام أكثر من بناء، وتراكمت عليه الديون، فلا يعرف كيف يعالج الموضوع بعد أن أصبح بعيداً، وبعد أن كان مقدراً الحصول على عطايا كثيرة في هذه الرحلة. الآن، وهو يصل القصر، يبدو مرتبكاً، أقرب إلى الخوف. تطلع بإمعان إلى كل شيء لعله يفهم ما لم يستطيع فهمه من ثرثرة الذين حوله في الفندق، وسخريتهم ومخاوفهم. تخيل السلطان حزيناً مهموماً، كما كان في فترات سابقة. انقبض صدره وامتلأ بالحزن فقرأ آية الكرسي.

انفتح الباب فجأة ودخل الحكيم. تطلع إليها للحظة خاطفة، ثم هجم عليه. عانقه بكثير من المودة. دفن رأسه في صدره، عند الكتف وأطال، وكأنه لا يريد أن تلتقي نظراته بنظرات بدري. ارتجف قلب بدري وأحس

بمودة حقيقية تجاه الحكيم. لام نفسه أنه أساء الظن به إلى هذه الدرجة. قال في نفسه: «لا تعرف حقيقة الناس إلا في الغربة، أو عند المصائب».

قال له الحكيم، وخرج صوته مرتجفاً:

- ما غبت عن بالي لحظة واحدة، يا أبو مصباح.

تمتم بدري بكلمات مرتبكة ليعبر عن شكره. لم يمهله الحكيم:

- وفي الأول والأخير الناس لبعضها، يا أبو مصباح، والبني آدم ما ينعرف إلا بالتجربة.

وليداري أبو مصباح خجله، ويخلص من هذا المديح الفضفاض، سأل بهمس:

- شو آخر الأخبار يا أبو غزوان؟

عدل الحكيم جلسته، تلفت، ثم قال بصوت أراده صلباً:

- غيمة صيف، يا أبو مصباح، لا تطول ولا تمطر.

وضحك بمرح، وهز رأسه أكثر من مرة، ثم تابع:

- طيش شباب، ولازم حدا لعب بعقولهم وقال لهم: استغلوا غيبة السلطان، لكنها كم يوم وتنتهي على خير.

- الله يبشرك بالخير يا أبو غزوان.

- لا... اطمئن من هذي الناحية، يا أبو مصباح.

- وإنشاء الله ما راح تطول إقامتنا هون، يا أبو غزوان؟

- بس يأمر صاحب الجلالة نركب ونمشي، لأننا دائماً جاهزين وحسب أوامره.

ابتسم الحكيم وهز رأسه عدة مرات، تطلع إلى بدري المدلل ليقرأ على وجهه مدى الاقتناع، فلما رآه اقرب إلى الاطمئنان، قال بلهجة متآمرة:

- تتذكر أول وصولك لموران يا أبو مصباح...

وبعد قليل:

ـ أنت اللي أعطيت للسلطان الشخصية والوجه، وأنت اللي غيّرت منظره من خلال لمساتك الفنية وعِنايتك، لأنه قبل وصولك تعرف كيف كانت الأمور. . .

هز بدري المدلل رأسه بكبرياء وقد تذكر. تابع الحكيم:

ـ المطلوب منك، يا أبو مصباح، اليوم، أكثر مما كان مطلوب من قبل!

وتغيرت اللهجة، أصبحت أكثر تآمراً:

ـ لزم نخلق منه صورة لا تغيب عن البال أبداً: القوة، الشباب، الحيوية. ولازم، بمجرد النظر إلى صورته، يولد في القلب الخوف والاحترام والهيبة.

بعد هذا التوضيح، والذي تخلله أيضاً بعض الذكريات، وأهمية أن تظهر هذه الصورة بسرعة وقوة، أدخل بدري المدلل إلى غرفة السلطان.

لم يتخيل بدري الاختلاف إلى حدّ الانكار إلا وهو يرى السلطان: بدا مسناً متعباً، بل أقرب إلى المرض. ولما حاول الابتسام ظهر وجهه قبيحاً إلى درجة لا يمكن معها إجراء أي إصلاح. وحين هجم ليقبل يده سحبها السلطان بجفلة أقرب إلى الخوف.

كان الصمت موجعاً، ولم تكن أية كلمة قادرة على تبديده. وعندما فتح بدري حقيبته، وبدأ يعد أدواته، كانت الأصوات الصادرة عنها تشبه اصطدام الأواني الفارغة.

بالاضافة إلى رخاوة الجلد، وقد أصبح مثل كيس اللبن، فقد انتابت السلطان ارتجافات عصبية في الوجنة اليسرى، قريباً من العين، الأمر الذي جعل الحلاقة صعبة إلى أقصى حد، وجعل بدري المدلل في حالة من الخوف أقرب إلى الهلع. فهذه الحركات العصبية، وهي على شكل تشنجات مفاجئة، كادت تؤدي إلى أخطاء لا يمكن تداركها.

قال الحكيم، في محاولة لكي يسيطر على الموقف ويطمئن الاثنين:

ـ هذه التقلصات في الوجه تشبه حزقة البلعوم أو المري، انها طارئة، وغالباً ما تكون نتيجة اضطرابات هضمية، أو بسبب الطقس.

وبكثير من الجهد حاول أن يضفي جوّاً من المرح، فأكد أن الحلاقة والحمام والنوم تجدد الإنسان وتنشطه، وأنه يحس بولادة جديدة بعد كل حلاقة، وبعد كل حمام!

حين انتهى بدري المدلل، وتطلع إلى السلطان مواجهة، ثم تطلع إليه في المرآة، بدا له كالدمية: فالبقع الحمراء في رقبته ظاهرة، وشارباه أصبحا دقيقين رفيعين بشكل غير مألوف، بل ويثيران الضحك، قياساً إلى ما كانا عليه. أما الشعرات البيض في لحيته فلم يستطع أن يمد يده إليها، لأن وضع السلطان النفسي، وارتجافات الوجنة، لم يساعداه!

قال الحكيم بطريقة تقريرية صلبة:

ـ المساج اليومي ضروري لوجه صاحب الجلالة.

لم تنقض ساعة حتى امتلأ الصالون الكبير للقصر، في الطابق السفلي، بأبرز الشخصيات التي رافقت صاحب الجلالة في رحلته. وصل حوالي عشرين من هؤلاء. وخلال فترة انتظارهم للسلطان كانوا، بصمت، يقلبون أنظارهم في أنحاء القصر، وفي وجوه بعضهم بعضاً، يقرأون ويتساءلون عن سر هذه الدعوة، وماذا يمكن أن يقال أو أن يحصل.

حين دخل السلطان، وكان وراءه الحكيم وزيد الهريدي، حاول أن يتصرف بمرح: رسم على شفتيه ابتسامة كبيرة، لكنها بدت أقرب إلى التكشير. أما وهو يتطلع إلى الوجوه، ويسأل عن الرأي بالزيارة وألمانيا، فكان مظهره يثير الاستغراب والحزن، فقد تغير تغيراً كبيراً، وبدا للجميع مريضاً ومتعباً. أما الوصايا التي أكد عليها الحكيم عدة مرات، بأن يتصرف تماماً كما كان يفعل في عيد الجلوس، فقد نسيها، إذ ما كادت دقائق قليلة تمضي حتى خيم صمت قاس أقرب إلى صمت المآتم.

تنحنح الحكيم أكثر من مرة لينبه السلطان، فلما انتبه ارتجفت وجنته ارتجافة عصبية زادته ارتباكاً، وأثار خوف الذين نظروا إليه وتساؤلهم.

تطلع إلى الأرض بامعان، وكأنه يبحث عن شيء، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ لا بد وأنكم سمعتم أن أشياء وأشياء صارت بموران بعد ما تركناها. وهذا الحكيم، أبو غزوان، كان هناك، وراح يسولف لكم عن اللي صار واللي جرى.

عدل الحكيم جلسته، تنحنح، ثم أخرج ورقة من جيبه وبدأ يقرأ:

ـ «لم يكد صاحب الجلالة يغادر موران حتى سوّلت للبعض نفوسهم المريضة الاصطياد في الماء العكر والتآمر تحت جنح الظلام، فاستغلت هذه الفئة القليلة جهل عدد محدود جداً من العسكريين وأغرتهم بالوعود الكاذبة والآمال الموهومة لكي يقفوا معها، لكن يقظة الشعب وتماسك الأسرة السلطانية والتفاف الجيش حول صاحب الجلالة لا بد وأن يفوت على الغادرين غدرهم وعلى الحاقدين حقدهم، ولا بد أن ترتد السهام إلى نحور الذين أطلقوها.

«أيها الأخوة الكرام: تعرفون أن صاحب الجلالة السلطان خزعل تمت تسميته من قبل المغفور له السلطان خريبط، وأنا على ذلك شهيد، ثم تمت مبايعته من قبل الأمراء جميعاً، وهذه التسمية والبيعة دين في رقبة كل مسلم، لا يمكن أن تنقض ولا يمكن أن تخان كما لا يمكن أن تسحب إلا عن طريق الشرع. أما إذا تصور البعض أنه بغياب السلطان توضع اليد فلا بد أن يحارب ويقهر. وإذا تصور غيرهم أن التراجع عن البيعة سهل ميسور فإن دمه مباح مهدور لأنه مرتد ومغرور. وإذا تصور البعض أن الدول تبنى بالرغبات والشهوات فلا بد أن يلقم حجراً، لأن الدول لا تعترف إلا بالشرع والشرعية، ولا تتعامل إلا حسب الأعراف والتقاليد. وعليه فإن جميع ما حصل، من قيام هذه الفئة القليلة الباغية، وادعاءاتها ومزاعمها، لا يعتد به، ولا يساوي قلامة ظفر، كما لا يغير شيئاً. فما دام السلطان حياً وقادراً، فإن البيعة باقية، والسلطة، بعد الله، له وحده، وكل تصرف يخالف ذلك، ومن أي شخص، يؤدي إلى هدر دمه. وصاحب الجلالة،

بما عرف عنه من أبوّة وصبر وبعد نظر، والذي رعى الجميع أمام الله وضميره، إذا لم يتحرك، ولم يلجأ إلى القوة، حقناً للدماء، فإن للصبر حدوداً، وللتسامح حدوداً، وللرحمة حدوداً. وقد أعذر من أنذر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

كان هذا أقصى ما يستطيع الحكيم أن يقوله. ورغم أن ما قيل لا يرضي أحداً، ولا يشفي غلا، فقد كان كل من في القاعة مرتبكاً. لكن ذلك لم يستمر طويلاً، إذ اندفع الموجودون، واحداً بعد آخر إلى الوعيد والتهديد، مع التأكيد أن ما حصل لا يمكن السكوت عليه أو التساهل فيه، «وإذا أمر صاحب الجلالة نمشي من ساعتنا، وما تأخذنا في الحق رحمة أو لومة لائم، نحاربهم ونعلق روسهم». والحكيم الذي انفعل بهذا الجو تولى الرد نيابة عن السلطان، قال، وخرج صوته مرتجفاً:

- كنتم دايما، أيها الأخوة، عند حسن ظن صاحب الجلالة وموضع ثقته، ووجودكم هنا أكبر دليل على ذلك. وأنتم تعرفون أن للظلم جولة وللحق جولات، وعلى الباغي تدور الدوائر.

تنفس ملء رئتيه، تطلع إلى السلطان يستأذنه أن يواصل في هذا المنحى، هز السلطان رأسه بالموافقة والرضا، تابع الحكيم:

- نعم، لا يمكن السكوت عما حصل، لكن من رأي صاحب الجلالة، وفي هذه الفترة بالذات، أن ننتظر قليلاً، وأن نعطيهم الفرصة الأخيرة، خاصة وأن الاتصالات جارية حالياً، لعلهم يعودون إلى رشدهم، ويتراجعون عن غيهم. أما إذا ركبوا رؤوسهم، واستمروا على عنادهم فليس بيننا وبينهم سوى السيف حكم.

قال السلطان بانفعال:

- الحق اللي تقوله يا أبو غزوان.

وحين بدأت التهديدات تتوالى من جديد، تبادل والحكيم النظرات، وكأنها أشعار بانتهاء الاجتماع. تحرك السلطان في مقعده، كما لو أنه باب

حجري يدور، وما كاد ينهض حتى ارتجفت عضلة الوجنة، ارتبك، وبعد قليل، خرج صوته من بين أسنانه:

ـ تهون يا جماعة الخير، ولا بد تشوفونهم شلون راح يندمون.

قال زيد الهريدي للضيوف بعد أن انسحب السلطان:

ـ يا جماعة الخير... طويل العمر ما والمته هذي الديرة. من يوم وصولنا انحرفت صحته، ولولا هذا السبب كنتم تشوفون غير اللي شفتوه هالحين.

ولما التفت الرجال بعضهم إلى بعض، وكانت عيونهم مليئة بالتساؤل والخوف والهم، قال الحكيم، وكان صوته أقرب إلى النشيد:

ـ وان غداً لناظره قريب.

قال زيد بسخرية:

ـ مثل ما قال الحكيم، يا جماعة الخير، لازم نطول بالنا، ومن اليوم لباكر الله كريم.

كإلهام مفاجئ رنت الكلمة التي قالها غزوان قبل فترة طويلة في أذني الحكيم من جديد: «الحرب أخطر من أن يقرر أمرها العسكريون».

وتراءت للحكيم الحرب التي يمكن أن تدور أكبر وأخطر مما قد تبدو في الظاهر، إذ لا تقتصر على عدد من الدبابات أو على مجموعة من المهووسين، كما لا يمكن أن تحسم في يوم أن اثنين، فهي تتطلب الاستعداد وتتطلب أساليب جديدة «أساليب غير مطروقة».

هكذا قال لنفسه وقد شعر ببعض الراحة، وأضاف وهو يتنهد: «صحيح اننا خسرنا معركة لكننا لم نخسر الحرب». رفع يديه إلى أعلى، مثلما يفعل عادة، وجرّ نفسين عميقين. حاول أن يبتسم، لم يطاوعه فكاه، بل وشعر بمرارة في حلقه.

قال لنفسه بحدة: «الوقت كالسيف» وقرر أن يتحرك:

ـ اسمع يا سمير، أنت مثل ابني غزوان، ونحن عملنا معاً وأصبحنا نعرف بعضنا جيداً. والآن نواجه نفس الصعوبات والتحديات...

نظر إليه بحزن، هز رأسه أكثر من مرة وتابع بنفس اللهجة:

ـ لقد تشاورت مطولاً مع جلالته، وبعد المشاورات أعطاني الضوء الأخضر وفوضني أن نفعل كل ما نراه مناسباً لصالح القضية.

وتغيرت اللهجة:

ـ أريدك، يا سمير، أن تعطيني نفسك، أن تكون ساعدي ومساعدي، لأن الأمر، في النهاية، يعتمد على ما سنفعله...

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ وأنت تعرف أن القضية الآن، وفي مراحل كثيرة لاحقة، تعتمد على الفكر: كيف يمكن أن نقنع الناس بصحة وعدالة موقفنا، وكيف نخرج من هذا الموقف. ومن هنا أهميتنا وضرورة تعاوننا.

لم يكن سمير بحاجة إلى هذه الديباجة، ولم يكن بحاجة إلى تذكيره بأهميته وصعوبة الظرف الذي يواجه الجميع. قال بطريقة اختبارية ماكرة:

ـ المسألة، يا أبو غزوان، بين أخوة، وأنا وأنت غرباء، مجرد ضيوف في موران، والأنسب أن نبقى بعيدين!

ـ لا. . لا يا سمير، المسألة مسألة مبدأ، مسألة حق وعدالة، ونحن أصحاب القضية. . ونخطئ إذا ترددنا أو تخلينا.

ـ لكن هم أسرة يا حكيم.

ـ ونحن من الأسرة!

هكذا رد الحكيم بانفعال وسرعة، لم يكن ليقصد المعنى المباشر للكلمة، وحين رأى ابتسامة سمير تابع ببعض الحرج:

ـ قصدي أن القضية أكبر من الأسرة وأخطر، ومطلوب من كل إنسان أن يحدد موقفه.

ـ وايه فائدة موقف واحد مثلي يا حكيم؟

ـ نحن الأساس يا سمير، لأنه إذا صَفَت قلوبنا، وإذا تضامنا وفكرنا بما يجب أن يُعمل فنحن أقوى من الدبابات وأكثر تأثيراً من الجيوش!

ـ أنت متفائل قوي يا حكيم!

ـ وبعد قليل وهو يضحك:

ـ في هذا العصر يا حكيم الذي يملك أموالاً أكثر ودبابات أكثر هو الأقوى، وكل قوة أخرى في مواجهة المال والسلاح مجرد وهم، فلا تغلط.

ـ يا ابني، يا سمير، مسألة المال لا تخف ولا تسل، خير الله كثير، والدبابات بدون عقل، بدون فكر يوجهها تنقلب على أصحابها.

تنفس بهم وكأنه يبحث عن طريقة جديدة لإقناعه.

ـ مثلما قلت لك يا سمير: أعطني نفسك، ووظف الفسفور الموجود في دماغك للقضية وسوف ترى النتائج وتفاجأ بها.

ابتسم سمير وسأل بدعابة:

ـ «ونسر موران» اللي بقى لنا مدة نشتغل فيه؟

ـ يمكن تأجيله لفترة، لأن لدينا واجبات عاجلة.

لم تطل المناقشة. اتفقا على أن يجريا مناقشات عميقة وواسعة، بعد أن يعدّ الحكيم ورقة عمل تكون أساساً لهذه المناقشات، وأن يفكر كل منهما بالطريقة المناسبة والفعالة لمواجهة الموقف الجديد.

قال سمير وكأنه يخاطب نفسه، ولكن يريد الحكيم أن يسمع:

ـ نحن أخطأنا في قضية أساسية: لو أن الجهود كلها انصبت وتركزت خلال الفترة الماضية على إنجاز نظرية المربع لما حصل ما حصل.

هز الحكيم رأسه بلوعة، ونظر بطرف عينه إلى سمير ليقرأ في وجهه ما إذا كان يعني الكلمات التي قالها أم لا. لما وجده جاداً حازماً، قال بصوت مرتجف:

ـ أولاد الحرام ما تركوا لنا فرصة حتى نحكّ روسنا. كل يوم فتنة، وكل يوم مؤامرة، وتعال في مثل تلك الظروف فكر واشتغل.

وضحك بسخرية ثم أضاف:

ـ عند أهل موران مثل يقول: إذا جن قومك عقلك ما ينفعك، وهذا اللي صار معنا يا سمير.. قلنا لحالنا الأيام تعلمهم وتهديهم، فتركناهم شوية وصار اللي صار!

الاجتماعات لا تهدأ ولا تتوقف، في الليل والنهار. وزيد الهريدي الذي يرتب ويتصل ويشرف يحضر بعض هذه الاجتماعات، ولا يحضر الأخرى، لأنه لديه دائماً ما يفعله. أما السلطان الذي يتفجر غضباً في بعض الساعات، ويقرر أن «يركب ويمشي فوراً»، فلا يلبث أن يصاب بالهبوط،

إذ يطلب إلغاء الاجتماع أو تأجيله، ودائماً الحجة موجودة لدى زيد: «انحرفت صحة طويل العمر» ثم فجأة يعود ويطلب مجيء فلان وفلان من الذين رافقوه للتشاور. والحكيم الذي لا يقيم وزناً لهذه «العراضات» كما سمى الاجتماعات، «لأن مركز الثقل انتقل من الداخل إلى الخارج، ولأن الذي سيحسم الموقف القوى الكبرى وليست سوالف هؤلاء المفاليس الكسالى والعاجزين». ويعجب الحكيم كيف أنه لم يتوقف عند هذه الفكرة الذكية التي قالها غزوان من قبل، وكيف أنه انشغل بقضايا صغيرة وثانوية، مثل غرفة التجارة والعجرمي وأشباهه!

وحين تتبدى له من جديد صور هؤلاء الذين خدعوه أو تخلوا عنه، يخرج صوته كالصرير من بين أسنانه:

اعـلّـمـه الـرمـايـة كـل يـوم   فـلـمـا اشـتـد سـاعـداه رمـانـي
وكـم عـلـمـتـه نـظـم الـقـوافـي   فـلـمـا قـال قـافـيـة هـجـانـي

وتتمطى صورة حماد. تملأ مخيلته تماماً. يقول في نفسه: «ابن الزانية من نكرة لا يعرفه أحد إلى وزير داخلية عدو. من مجرد صعلوك ورجل ليل، وصاحب المهمات القذرة، ومعروف أن أذنه في يد النّخّاس دامية، إلى إنسان خلقناه وناسبناه، وبعدين هذا جزاك يا أبو غزوان؟ «خلال أربع وعشرين ساعة يجب أن تغادر موران. صارت موران مورانه، وطلعنا نحن الغرباء. أي والله الحق معك يا حماد، والله يكثر خيرك ويكثر من أمثالك، لأنك رددت الجميل بأحسن منه. كانت المياه جارية تحتنا، ونحن يا غافل لك الله، والبهايم اللي حوالينا لا من تمهم ولا من كمهم. ولا ابن حلال جاء وقال: انتبه يا أبو غزوان، الجماعة حواليك مالهم شغلة إلا يتآمروا عليك. وأنا من طيبة قلبي، من ثقتي بالناس، شغلتني أمور ثانية، لكن بسيطة، المؤمن لا يلدغ من جُحر مرتين، والله، والله لأصير معهم أقسى من الحجاج مع أهل العراق، ولأجعلهم عبرة للأحياء والأموات، بس الأول لازم أركب. إذا ركبت الله كريم، ونشوف».

ولا يقطع عليه أفكاره إلا هؤلاء البدو الذين يتدفقون على القصر، وإذا

كان قد استأذن السلطان أن لا يحضر بعض الاجتماعات، لأنه سينصرف إلى إعداد بيان قوي يذاع على العالم حول الأحداث الأخيرة في موران، فإن السلطان لم يلحّ عليه، إذ ترك له الحرية وبعض الأحيان كان يفضل ألا يكون موجوداً!

وتتوالى الاجتماعات في القصر وتتزايد معها الخلافات والتهديدات في الفندقين، وتعزل إدارة الفندقين، الواحدة بعد الأخرى، لكن بالتشاور والاتفاق بينهما بكل تأكيد «هؤلاء الرعاع القذرين» في المقهى الخلفي، القريب من البار، بدل الصالات الأمامية، «لأن الزبائن الآخرين ضاقوا من الأصوات العالية ومن إشارات المجانين، إضافة إلى القذارة» ويضيف المترجم الذي يرافق مندوب السفارة، وهما يحدثان زيد الهريدي:

ـ وإذا استمرت الأمور بهذا الشكل باكر يرمون هدوم الجماعة في الشوارع وتصير مشكلة.

فيرد زيد بحنق:

ـ يا عباد الله الواحد منهم بعمر أبوي فشنهو بلاهم يتصايحون ويتعاركون؟

ـ جماعتكم وأنتم أدرى بهم!

هكذا رد مندوب السفارة، وكان في كلامه تعريض لا يخفى. ابتسم زيد وقال:

ـ الحق حق، يا وليدي، جماعتنا وحنا أدرى بهم، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته، أصبحت ساخرة تماماً:

ـ وأنت يا وليدي، جماعتك ما يبوك؟ ما دزوا وراك؟

ـ تقصد السفارة؟

ـ كل واحد يدري بجماعته!

قال المترجم ليغير الجو:

ـ ومن رأيي أن تتدخلوا، أن تنبهوا عليهم، لأن الألمان ما لهم أمان ولا لهم صاحب!

ضحك زيد وقال:

ـ بهذي الأيام ما عاد، يا ابن أخي، أمان لا للالمان ولا للعربان!

وحين قلب المترجم شفته وهز كتفيه دلالة عدم الاهتمام، تابع زيد:

ـ بسيطة يا وليدي. . . نشوفهم ونوصيهم!

حين عرض زيد على الحكيم أن يزور الفندقين وأن يعمل على تهدئة الموقف، كان رد فعل الحكيم عصبياً وسريعاً:

ـ الله يخليك يا أبو راشد هذه الشغلة ما هي شغلتي. شوفهم أنت أو شوف واحد غيري، وتفاهموا معهم!

ـ ولكنك أدرى بالألمان يا أبو غزوان.

ـ المسألة مسألة جماعتنا، إذا جماعتنا تربوا وتأدبوا الألمان مالهم معهم شغل ولا في مشكلة.

ضحك زيد بغيظ، وبعد قليل قال وكأنه يحدث نفسه:

ـ بسيطة، على خيرة الله، حنا نشوفهم ونقول لهم صيروا عاقلين ومؤدبين يا جماعة الخير، ولا بد أن يفهموا ويسمعوا!

ويصل في اليوم التالي السكرتير الأول للسفارة حاملاً رسالة شفوية من السفير ينقلها إلى زيد الهريدي والحكيم معاً: «سعادة السفير يبلغكم تحياته واحترامه، وكان بوده أن يقوم بهذه الزيارة بنفسه، لكن تعليمات موران بهذا الخصوص واضحة، إذ يجب أن يبقى في بون، وقد كلفني أن أقوم نيابة عنه بزيارتكم واطلاعكم على بعض الأمور، ويبدأ يقرأ:

ـ «موران قلقة بل منزعجة من النشاطات المعادية والتحريضية التي تتم في بادن بادن، وتعتبر هذه النشاطات غير الودية بمثابة موقف عدائي تجاهها، الأمر يضطرها إلى اتخاذ موقف مقابل، وقد أُبلغت السفارة بضرورة موافاتها بجميع التحركات لكي تحدد الموقف على ضوئها.

وسعادة السفير الذي بلغته أخبار الاجتماعات التي تعقد هنا، والاتصالات التي تجري، شديد الحرج ولا يعرف كيف يتصرف، فهو من ناحية لا يمكن أن يتغاضى، لأن لديه قناعة أن هناك من يبلغ موران مباشرة، ولا يمكن السكوت، لأنه مضطر لإبلاغ موران بكل شيء، ولذلك يرجو أن تتوقف هذه النشاطات، وأن يسود التفاهم والاخاء بين الأطراف المعنيّة».

بهذه الطريقة المتقنة الموجزة، والمليئة بالاشارات أيضاً، نقل السكرتير الأول الرسالة، وإذا فاتت زيد دلالة الإشارات أو العبارات، فإنها لم تفت الحكيم، سأل الحكيم بمودّة مصطنعة:

ـ هل تلقت السفارة رسائل أخرى من موران؟

ـ لا أدري!

ـ وهل يطلب تبليغ السلطان برسائل أخرى غير هذه؟

ـ هذا ما أبلغني به السفير وطلب إليّ نقله.

ـ ومعلومات السفارة حول النشاطات المعادية. . من أين؟

ـ لا أدري.

قال زيد بسخرية مخاطباً الحكيم:

ـ عندهم واحد من جماعتهم يا أبو غزوان، وهذا يناظر ويرسّل!

وهز رأسه بأسف ثم أضاف:

ـ وهذول التراجمة، يا أبو غزوان، يترجمون على الوجهين!

عندما قام الحكيم وزيد الهريدي بإبلاغ السلطان، في المساء ذاته، برسالة موران والسفارة، وقد تعمد الاثنان أن يمهدا لذلك، وأن يخلقا جواً يجعل الأمر عادياً، استبدت بالسلطان ثورة عارمة، لم يماثلها إلا ثورة الليلة الأولى، حين أبلغه السفير بما حدث في موران. خرج عن طوره وأخذ يشتم ويتوعد، ولام الاثنين، وان كان يوجه كلامه في الغالب إلى زيد الهريدي، أن تركا الرجل يأتي ويذهب دون أن يبلغاه، «إذ لو مسكناه وبعد سطرتين والثالثة يطلع كل اللي ببطنه وما يقول أدري وما أدري».

وزيد الذي نظر إلى الحكيم بسرعة، لا يعرف كيف فاته هذا الأمر، إذ لو قبض على هذا الرسول وحبس يوماً أو اثنين فلا بد أن تؤخذ منه معلومات كاملة، ولا بد أن تتردد السفارة في القيام بأعمال التجسس. قال زيد في محاولة لتخفيف غضب السلطان:

ـ هذا ما هو أول أو آخر رسول، يا طويل العمر.

ـ ولكنه كان بأيدينا يا زيد!

ـ إذا أمرت يا طويل العمر حتى السفير نجرّه مثل الخروف!

قال الحكيم بلهجة فخمة:

ـ يا جماعة الخير. . نحن في ألمانيا. . .

وبعد قليل وبصوت منخفض:

ـ كل فرد في السفارة له حصانة، والحكومة الألمانية مسؤولة عن حمايته، ولسنا بحاجة إلى عداوة الدولة الألمانية، أو أن ندخل بمشاكل معها.

ـ حنا ما علينا بحكومة الزق، بالحكومة الألمانية أو غيرها، حنا علينا جماعتنا!

هكذا رد السلطان بغضب وهو يدور نصف دورة دلالة التعب أو الاحتجاج.

قال زيد ليغير الجو:

ـ ثارنا عند الجماعة هناك يا طويل العمر، والرسول مبلغ ما هو ملوم.

ـ صحيح يا ابن الحلال لكن البعرة تدل على البعير!

وانتهى الأمر بأن تحول الحديث إلى أمور أخرى.

تحديان اثنان يواجهان الحكيم ويثقلان عليه: الأمير فنر ووداد. وإذا كان يواجه تحدي الأمير مع الآخرين، وبجوّ من الحماس والإصرار، ويمتلئ ثقة، في لحظات معينة، بإمكانية النصر، فإنه وحده يواجه وداد، أو بالأحرى لا يعرف كيف يواجهها. وإذا كانت هناك أنواع من المعارك يمكن كسبها مع الزمن، فإن الزمن لا يعمل لمصلحته، ولا يترك له فرصة للتفكير الهادئ المتوازن.

ووداد تلك الدجاجة الخائفة في السنوات الأولى من الزواج، والتي لم تكن تجرؤ على مواجهة نظرات الحكيم أو تعليقاته اللاذعة، وتغرق في صمتها كما تغرق السلحفاة في قوقعتها، أخذت بالتغير ولداً بعد آخر. فغزوان أنبت لها جذوراً، وحامد وكمال أنبتا لها جناحين، أما حين جاءت سلمى، خاتمة العنقود، فقد أصبحت ترفرف بالفرح، وكان يمتلئ البيت بضحكاتها الرنانة، ولما سافر الحكيم بدأت تطير وتحلّق، وعندما تدفقت الأموال أصبحت امرأة من نوع مختلف.

لم يلتفت الحكيم إلى التغير الذي كان يحصل ويتراكم سنة بعد أخرى، إذ كان مشغولاً، أكثر من ذلك، بمشاريعه ثم بأفكاره، ولأنه لم يكن يقضي إلا أوقاتاً قصيرة، وغالباً ما تمتلئ بالدعوات والبهجة وتوزيع الهدايا والوصايا، فلم يلاحظ، إلا متأخراً، المزاج الحاد المترافق مع الصداع والمرض، الذي يستبد بوداد بين فترة وأخرى. عزاه إلى الغربة، وكان على يقين أن الزمن وحده كفيل بمعالجته. وغرق مرة أخرى بهموم الحياة وركضها المجنون، فلم يفطن لوداد إلا كما يفطن الإنسان لنبتة بدأت تذوي، فيلجأ إلى أدويته أو إلى ذلك الدلال المبالغ فيه، فيغدق عليها من

الهدايا الكثير، ويقدم الوعود أن يكون صيف هذه السنة أفضل من كل الأصياف الماضية. وحين ترضى وداد وتؤخذ بالهدايا، أو حين يترافقان في سفرة، مثل تلك التي ذهبا خلالها إلى الولايات المتحدة لزيارة غزوان، فإنهما يتحولان من جديد إلى عاشقين لا يملّ الواحد منهما الآخر في الليل والنهار، بل أكثر من ذلك تتحول وداد إلى امرأة من نمط مختلف، فتعطي الكثير، وتصبح أكثر حناناً، وأقل عرضة للمرض أو لتعكر المزاج.

حتى في الفترة الأخيرة، سواء عندما دعا السلطان أول مرة إلى بيته، أو عندما دعاه للمليحة، وما تخلل الاستعداد للدعوتين من بكاء وداد ومرضها، فقد اعتبره نتيجة التعب أو القلق. وأثناء الاستعداد لزواج سلمى وما رافق ذلك من الحدة والمخاوف، فقد اعتبره نتيجة الرهبة ومداهمة الوقت، خاصة وأن شبح السلطان كان يخيّم مثل ظل كثيف لا يعرف أحد كيف يداريه أو يسترضيه. وكان الحكيم على ثقة أكيدة أن الراحة بعد التعب والانتظار، وفي ألمانيا بالذات، سوف تجعل ما سبقها ذكرى بعيدة، خاصة حين ينضم إليهم، ويقضي أسابيع طويلة في حالة من الاستجمام الكامل بعيداً عن موران ومتاعبها!

الخلافات الماضية كلها لا تعني شيئاً، ولا تستوقف الذاكرة إلا لحظات قليلة ثم تتوارى، ازاء ما بدأ يحصل في بادن بادن. فالسلطان الذي بدا أنيساً ودوداً خلال الأيام الأولى، وقدم لوداد وسلمى هدايا تفوق التصور والخيال، جعلتها تصرفاته تغبط نفسها على هذا الزواج، لكن ما لبث أن غرق في جو غامض، إذ سيطر عليه الصمت وتحول ليله إلى نهار ونهاره إلى ليل، كما عافت نفسه الأكل فجأة، وإذ استغربت وداد وسألت نفسها ثم تساءلت، فلم تستطع الوصول إلى أية إجابة. حتى وهي تحرّض سلمى على أن تسأله، أن تستغل لحظات الإشراق، وفي الفراش بالذات، فلم تجرؤ أي منهما على السؤال، وظلتا كذلك إلى أن جاء الحكيم!

لم تكد وداد ترى الحكيم حتى خافت. وعندما سمعت بعض ما حصل لم تفهم، أما حين فهمت فقد أصيبت بالذهول والصمت، ولما

استوعبت تماماً ما وقع غرقت في البكاء خلال اليوم الأول واليوم الثاني، ثم أصبحت بعد ذلك امرأة لا يعرف أحد كيف يعاملها أو كيف يتعامل معها، أكثر من ذلك تغير شكلها، خاصة العينين، أصبحت شاحبة، معادية، واتسع بياض العين مع تقلص البؤبؤين وبروزهما.

قالت للحكيم بعد أن خلّفت البكاء وراءها وقررت أن لا تبكي أكثر مما فعلت:

ـ هالدربكة كلها ما كانت لازمتنا!

وحين نظر إليها بتساؤل واصلت الهجوم:

ـ ونحن ما جينا لهون حتى ننحبس أو نموت طقيق.

ودون أن يفارقه هدوءه تساءل:

ـ خير.. خير يا أم غزوان؟

ـ لا تسوي حالك ما بتعرف.

رد بحدّة وكأنه يدافع عن نفسه:

ـ فهمينا أولاً ليس لابسة وجهك على المقلوب، وشو اللي صار في الدنيا؟

ـ مية مرة قلت لك: هالجيزة ما بتناسبنا وما هي إلْنا، لكن حضرتك اذن من طين واذن من عجين، ولازم تصاهر الملوك والسلاطين.

قالت الكلمات الأخيرة بسخرية لا تخفى، بل كانت أقرب إلى التعريض.

ردّ بحدّة:

ـ اسمعي يا وداد: احنا ربنا طاير، فالله يخليك لا تزيدي مصايبنا.

ـ أي والله الك حق تحكي!

ـ أي نعم يا ستي، الي حق ونص...

وبعد قليل:

ـ لحد امبارح كنت طايرة من الفرح، وما اعترضت بكلمة واحدة!

ـ أنا؟

ـ أي نعم، أنت يا ستي!

ـ غلطان.

ابتسم بسخرية في محاولة للدفاع، تابعت:

ـ لو سمعت كلامي كان ظلينا بعيدين، ولا كان شفنا ملوك وسلاطين!

ضحكت بتحدٍ وقالت برخاوة:

ـ ولا كان صاهرناهم ولا ناسبونا.

ـ أنت غلطانة يا وداد.

وتغيرت لهجته:

ـ لأن كل شيء كان بشورك وبالاتفاق معك.

وتغيرت اللهجة، أصبحت ساخرة متحدية:

ـ وكانت ضحكتك للسما، وما كنت عاطية فرحتك لحدا.

ـ دمعتي كانت قنطار وما كنت أنام لا في الليل ولا في النهار...

وبعد قليل:

ـ حاطة إيدي على خدي واسأل حالي: منين الله جاب لنا هالمصيبة؟ شو جابنا على الملوك والسلاطين؟ وشو بدنا بها الشغلة؟

ـ الحق معك يا أم غزوان، أنا الغلطان والحق عليّ!

ـ قول أنا اللي غلطانة؟

ـ ابداً.. استغفر الله، أنت ما غلطت أبداً!

ـ عم تتمألس؟ بدك تضحك عليّ!

ـ أعوذ بالله.

وانتهت الجولة الأولى دون انتصار لأحد الطرفين، لكن خيمت الكآبة على الجناح الغربي من القصر، حيث كان ينزل الحكيم وزوجته، أو حيث كانت تنزل وداد ثم جاء هو، وأصبح واضحاً تماماً للحكيم أن المعركة مع وداد لن تقل ضراوة وصعوبة عن المعركة مع فنر!

ما كادت أيام تمضي، وهي تحارب الجميع بنظراتها وصمتها، حتى انفجرت مرة أخرى، وكانت رغبتها عارمة هذه المرة لأن تغادر فوراً القصر. أكثر من ذلك فكرت أن تغادر بادن بادن عائدة إلى موران.

إذ ما كادت إحدى السهرات تنقضي مع السلطان، بعد اجتماع طويل بعدد من المرافقين، تقرر نتيجته أن يعود هؤلاء إلى موران لكي يبدأوا اتصالاتهم، وكي ينقلوا رسائل شفوية إلى آخرين، وأن يطلبوا منهم الاستعداد، «لأن المعركة الفاصلة ستكون قريبة»، بعد هذه السهرة، وما كاد الحكيم ينسل إلى الفراش، دون أن يحدث ضجة، ودون أن يشعل النور، مستعيناً بضوء الممر، ما كاد ينسل كقط إلى جانب وداد، وقبل أن يستقر في فراشه، حتى جاءه صوتها في الظلمة، ويبدو أنها راقبت هدوءه وحركاته واكتشفت رغبته في النوم:

ـ ضميرك مرتاح وجاي حتى تنام، ولا كأنه في مشكلة!

نظر إليها في الظلام وقد فوجئ بهذا الصوت الصافي الواضح، وكأنها كانت تنتظره لكي تقول له ما قالته.

هز رأسه في الظلمة أكثر من مرة بنوع من الأسف الحزين، وكأنه كان يتمنى أن يجدها نائمة أو منشغلة بقضية أخرى. تابعت دون أن تقيم وزناً لأفكاره وعواطفه:

ـ راح اقتل نفسي واسوي لك فضيحة.

ـ خير انشاء الله، قالها بسخرية، كل يوم لك قصة؟

ـ حضرتك سويتنا قصة، وما ضلّ أحد إلا وحامل قصتنا وداير، وتعالوا تحملوا وداروا.

ـ طيب، طيب، اجّلي كل شيء للصبح، والله كريم!

وجر اللحاف بقوة وغطى رأسه، في محاولة لأن يجبرها على النوم. وللحظة ظن أنه نجح في ذلك، لكن حركتها في الظلمة جعلته يتوجس، وإشعال النور جعله يتوجس أكثر، أما حين سحبت اللحاف بتلك الشراسة، وتلك الوقفة المتحفزة، وقد امتلأت عيناها بالشر، فقد أصبح على يقين أن

الأمور لن تنتهي على خير. ولذلك حاول أن يذيب غضبه بابتسامة حزينة، تكوم وسط السرير وسألها بطريقة أبوية:

ـ فهميني، يا حبيبتي، ليش معصّبة ومنرفزة؟

ـ وتسأل؟

ـ ما لي حق اسأل؟

ـ اي والله لك حق، تقتل القتيل وتمشي بجنازته!

ـ بس نوريني يا حبيبتي، يا عيني.

ـ لا تطولها ولا تقصّرها، هذي الساعة لازم اترك، لازم تلقى لي مكان غير هذا المكان.

ـ يا وداد، يا حبيبتي، نامي، اجلي الموضوع للصبح، وما بيصير إلا اللي يرضيك.

ـ أبداً، روحي طقت وراح أموت.

انزل رجليه، اقترب منها كثيراً، جذبها فقاومت، جذبها أكثر وأجلسها إلى جانبه، جلست بتثاقل وأخذت تبكي. بكت بحرقة وبصوت عالٍ. ضمها إلى صدره ليهدئها وليخفف من صوتها فلا يصل إلى الجناح الآخر من القصر. أحس أنه حزين كما لم يكن هكذا من قبل. ماذا يفعل من أجلها وكيف يتصرف؟ وهي، لماذا أصبحت بهذا الشكل؟ كان حائراً لا يعرف كيف يفسر ما يرى ولا يجد له سبباً. وكانت كلما هدأت قليلاً أو كلما تراجع صوتها، تجدد بكاءها وتجعل له جزساً حاداً وكأنها تتعمد أن يصل إلى الجناح الآخر، الشرقي، من القصر.

بكثير من الصعوبة، ومع حركات المداعبة، والوعود الكثيرة أن يفعل ما يرضيها، أخذت تهدأ تدريجياً، أصبح بكاؤها شهقات تعلو وتتراجع بين لحظة وأخرى. الدموع الصغيرة المنحدرة من العينين تمتزج بالكحل، بالعطر، وهو يحاول كقطة وبمسكنة أن يجفف الدموع، أن يعلقها، كانت مالحة ولزجة، وكانت تثير فيه رغبة التقيؤ.

لأول مرة، منذ وقت طويل، يشعر أن حياته منذ البداية وحتى هذه اللحظة تافهة، عديمة المعنى، وان ما فعله طوال عمره لا قيمة له أبداً، بل ويثير اشمئزازه وكراهيته. أكثر من ذلك يشعر أن خلافه مع وداد، أو اختلاف وداد عنه، وحده الشيء الصحيح. إنها امرأة شقية، وهو سبب شقائها. لم يمنحها الحياة التي تستحقها، لم يمنحها الحب الذي ملأ قلبه. كان يؤجل ذلك باستمرار، وكان يخاف أن يبوح بما يعتمل في قلبه. الآن يبدو له كل ما فعله، وكل ما عاشه مجرد خطأ كبير، وكان يكابر ويواصل الخطأ، كأنه سيجد الصواب في نهاية هذه السلسلة من الأخطاء.

حين تعبت ومالت عليه، شعر فجأة أنه يحبها أكثر مما يعترف لنفسه، وأنه يريد أن يكفّر عن أخطائه كلها.

مددها بهدوء في السرير، سحب اللحاف عن الأرض ووضعه فوقها، أطفأ النور وانزلق إلى جانبها.

كانت دافئة أكثر من أية مرة سابقة. للحظة ظن أنها مريضة، وأن المرض سبب ارتفاع حرارتها. استبعد الفكرة وجعل يده تنزلق تحت ظهرها، احتضنها برقة، تنبهت وتحركت قليلاً. اقترب منها ودفن وجهه في عنقها وزفر، تحركت أكثر من قبل، وكأنها بطريقة اختبارية تحاول الابتعاد. زفر مرة أخرى في أذنها مباشرة، أنّت وارتعشت، تأكد أنها تستجيب له. اقترب أكثر واحتضنها بقوة، تحركت لتعطي لجسدها وضعاً ملائماً. عضّ شحمة الأذن، هزّت رأسها وتلوّت. عضها مرة أخرى، قالت وهي تستدير نحوه:

ـ وجعتني، اخس عليك!

ـ راح آكلك، لسّه ما شفت شي!

ـ ما فيك، ما بتقدر!

ـ راح تشوفي بعينك.

حاولت أن تبتعد وتقترب، تحرّك، طوّقها، قالت بطريقة مغرية:

ـ الوقت متأخر، خليها لبكرة!

ـ اليوم وبكرة.. ضحك: وكل ليلة وكل يوم!

ولا يعرف هو كيف تعرّى وكيف عرّاها، فعل ذلك بطريقة أقرب إلى السحر؛ وكانت استجاباتها خجولة بطيئة أول الأمر، لكن ما ان دب الدفء، وما ان احتك الجسدان حتى تحولت بسرعة إلى جنون. كانت تنهشه، تعض كتفه، تنزلق ثم ترتفع كالدرفيل. كانت تبكي وتضحك كل لحظة، ولا تعرف كيف تعبر عن فرحها وغضبها. والحكيم الذي يصهل ويهمهم ويحرّض بوعي حاد خلاياه كلها لكي تستجيب، يجد نفسه كقط عجوز يقفز، يرتفع وينخفض، حتى إذا حانت تلك اللحظات المجنونة كانت وداد تموء وتتشبث بكتفيه مثل الغريق الموشك على الهلاك.

ويمتد صمت آخر الليل ليعمّ الجناح الغربي من القصر اليوم التالي كله، وينصرف الحكيم إلى الخصم الآخر. يقول لمناور المزعل الذي سيكون طليعة المسافرين العائدين:

«ومن يوم وصولك، يا شيخ مناور، تتصل بمطيع، ويجب أن يكون الحديث بينك وبينه على انفراد ومواجهة، وتبلغه رسالة قصيرة: الحكيم يريدك، ولازم تجي، والأفضل أن لا تكون وجهته ألمانيا مباشرة، يمكن أن يأتي إلى سويسرا ومنها إلى هنا. وقل له أن كل حجة غير مقبولة، وللأهمية».

ويهز مناور المزعل رأسه دلالة على فهم الرسالة واستعداده للقيام بإبلاغها فوراً. يلتفت الحكيم إلى السلطان الذي كان ساهماً وبعيداً، ويقول له:

ـ إذا جاء مطيع، يا صاحب الجلالة، يمكن أن نأخذ صورة كاملة ودقيقة عن الوضع، وعلى ضوئها نضع الخطة المناسبة.

وتخرج همهمة من فم السلطان، همهمة غير واضحة، أقرب ما تكون إلى صوت الحيوان، فيؤكد الحكيم بنبرة مختلفة:

ـ المهم، في المرحلة الأولى، أن نجمع المعلومات، لأن المعلومات الدقيقة تساعدنا في وضع الخطة...

يقول زيد بحزم:

ـ الحق اللي تقوله يا أبو غزوان. . .

يتطلع إليه السلطان ليكتشف مدى جديته، يضيف زيد:

ـ وإذا جا، بالخير والسلامة، نشوف ويش يلزم وشنهو اللي نسوي!

يهز السلطان رأسه حزناً، لأنه وحده يعرف ماذا تعني كلمات زيد.

يتابع الحكيم محذّراً مناور المزعل:

ـ ويلزم يا شيخ مناور أن حماد ما يدري!

يهدر صوت السلطان:

ـ اه على اللي يجيب لي حماد. . .

وتتغير اللهجة، تخرج من أعماق الصدر:

ـ والله. . . والله إذا ظفرت به، إذا مسكته يدي لأخليه يشتهي الموت ويتمناه، ويقول: ليتني لم أولد أو لو كنت نسياً منسياً.

ويخيم الصمت، تسيطر صورة حماد. تملأ مخيلة الجميع، يتذكر السلطان هذه الصورة، يقول لزيد، لكنه يعني الحكيم:

ـ تذكر، يا زيد، أول أيامه في القصر «يا وليدي أنت واحد منا، نعرف أبوك ونعرف عمك، أجاويد وما مثلهم، وأنت اللي الله يقدّرك عليه»، وراح يوم والثاني وخذ يا حماد، وموافقين على شورك يا حماد، واللي تقوله يا حماد، وبعدين هذا اللي طلع من حماد!

ويزفر بحرقة، يغلف وجهه حزن قاتم، يود لو يرى حماداً لحظة واحدة، لو رآه لشقه بنظرة إلى نصفين، لجعله يذوب كما يذوب الملح في الماء. قال يواصل تعريضه:

ـ وأنت، يا أبو غزوان، تذكر شلون كان حماد!

ـ اي والله اذكر يا طويل العمر.

ـ دنيا ما بها أمان!

ـ بس يجي يوم يتحاسب كل واحد عن أفعاله يا طويل العمر.

هكذا يرد زيد، فيفهم كل واحد أكثر من معنى. وحين يهمّ السلطان بالنهوض يقول لمناور، ويريد أن يفهم ما يعنيه:

ـ تعال معي يا مناور، عندي وياك كلمتين.

وحين يبتعد الجميع، تاركين للسلطان أن يتحدث مع مناور، يتطلع كل واحد إلى الآخر، ولا تفهم هذه النظرات أبداً، هل هي نظرات تساؤل؟ اتهام؟ انتظار؟ يقول زيد ليعطي للنظرات مساراً لا يخطئ:

ـ يجيء يوم يا جماعة وكل واحد وما قدّمت يداه.

وبعد قليل، وفي جو الصمت، يضيف بتحدٍّ ساخر:

ـ ويا ما روس راح تطير!

في أوائل حزيران، ولثلاثة أيام متوالية، بدأت تصل إلى القصر سلال ورد كبيرة، ومع كل سلة بطاقة صغيرة: «مع تحيات هانس أورلخت».

السلة الأولى لم تلفت النظر. أكثر من ذلك اعتبر زيد وصولها صدفة أو بطريق الخطأ. السلة الثانية تحدث زيد بشأنها مع السلطان، لأنها وصلت بنفس الطريقة وبنفس الساعة: سيارة سوداء كبيرة تقف في العاشرة، يهبط منها اثنان بملابس سوداء، أقرب ما تكون إلى ملابس الجنود، يتعاونان على إنزال سلة الورود، يقدمانها مع التحيات، ويغادران.

السلة الثالثة كان الجميع بانتظارها، ولم يبق أحد في القصر إلا توقع وانتظر، وحين وصلت في العاشرة تماماً قال الحكيم يحدث السلطان:

ـ المسألة أكثر من مجرد هدية!

قلب السلطان شفته دلالة عدم المعرفة، وظل ساهماً مفكراً. قال الحكيم:

ـ إذا كان للرجل علاقة بالحكومة أو الأجهزة، فلا بد أن تكون الحكومة الألمانية قد غيّرت موقفها مما حصل في موران، وتريد أن تشعرنا بذلك بطريقة غير مباشرة.

وتغيرت لهجته:

ـ في أوروبا، يا طويل العمر، يحمّلون الورود والأزهار معاني كثيرة، ويعتبرونها رسلاً بين الناس، ولكل مناسبة، ولكل حالة، ورود تعبر عنها، سواء بألوانها أو طريقة تقديمها أو. . .

سأل السلطان بفرح وسخرية معاً:

ـ وصاحبنا هذا ما عساه يريد يقول؟

ـ إذا لم أخطئ في فهم الرسالة، فإنه يعبّر عن المودة!

ـ ومنين عرفنا؟ ويش درّاه بنا؟

ـ يا صاحب الجلالة. . .

وضحك الحكيم قبل أن يضيف:

ـ انكم، يا صاحب الجلالة، معروفون في جميع أنحاء العالم. . .

قاطعه السلطان وهو يبتسم:

ـ وما تذكّرنا هو أو غيره إلا اليوم؟

ـ مثل ما ذكرت لك يا صاحب الجلالة: إذا كانت للرجل علاقة بالحكومة، فإن هذا هو موقف الحكومة، تريد أن تعبّر عنه قبل إجراء أية إتصالات، وربما للاعتذار أيضاً عن الموقف الذي بدر منها خلال الفترة السابقة.

وبعد قليل وبنبرة جديدة:

ـ ربما كانت المعلومات السابقة عند الحكومة الألمانية ناقصة أو خاطئة، وجاء من يقول لها كيف تتصرف لئلا يستمر الخطأ.

لأول مرة يمتلئ القصر بتوقع مرتاب، أن شيئاً ما على وشك الحصول، لا أحد يدري ما هو وما إذا كان إلى الأحسن أو إلى الأسوأ. أما اسم هانس أورلخت فقد أصبح مألوفاً جداً بالنسبة للحكيم. للحظات تصور أنه عرف هذا الشخص، أو بالأحرى عرف واحداً بهذا الاسم. حاول أن يتذكر متى كان ذلك، وما هي ملامح ذلك الشخص، لكنه لم يستطع أن يواصل، إذ اختلطت الأشياء والملامح والأسماء، اختلطت وتداخلت. قال في نفسه: «يبقى العالم صغيراً، وتبقى الأفعال الطيبة تذكر بأصحابها حتى لو مرّ الزمن!».

عصر اليوم الثالث رنّ الهاتف. كان المتكلم هانس أورلخت، وكان

الحكيم على الطرف الآخر. لأول وهلة بدا الصوت للحكيم مألوفاً، انه يعرف صاحبه تماماً، ولولا تلك اللهجة الشمالية المترفعة، رغم الود، لتصرف بشكل آخر، لكن في لحظة معينة تريث وفضل الانتظار.

بعد أن قدم هانس أورلخت تحياته واحتراماته، صمت قليلاً ثم طلب أن يحدّد له موعد للقاء السلطان. كاد الحكيم أن يطلب منه المجيء فوراً، لكنه تردد، ثم فكر أن يطلب منه المجيء في أي وقت يشاء، لكنه تردد أيضاً، فسأله عن صفته والغاية من الزيارة. كان السؤال شديد التهذيب، ومع ذلك أحسّ أنه يضع أمامه مجموعة من الحواجز، وللحظة ندم ولام نفسه أنه فعل ذلك. أما حين أجاب هانس أنه سيوضح أسبابه في اللقاء نفسه، فقد اعتبر الحكيم سؤاله حكيماً وضرورياً، وحين ألحّ يسأله من جديد ما إذا كان الأمر مهمّاً وعاجلاً أم أنه يحتمل التأجيل، فكان جواب هانس مع ضحكة لا تخلو من مغزى:

ـ حين نلتقي ستتوضح كل الأمور!

حدد له الحكيم، بعد تشاور قصير مع السلطان، الخامسة من عصر اليوم التالي.

أربع وعشرون ساعة من الانتظار والتقدير والقلق والاتصال مع السفارة في بون، ومع موران، دون أن تتضح إشارة يمكن أن تقود إلى فهم ما يحصل، ودون أن تعطي فكرة عن شخصية هانس أورلخت، أو الغاية من الزيارة. وإذا كانت العاشرة من صباح اليوم التالي جعلت جميع من في القصر ينتظر ويتوقع، فقد مرت دون أن يصل الورد، ودون أن يحدث خلالها شيء، ولقد ولد ذلك لدى الكثيرين القلق وجعلهم يتساءلون، ومع ذلك لم يقلق الحكيم ولم يتساءل، لأن الرجل ذاته سيكون هنا، أمامه، بعد بضع ساعات. وما لم يستطع فهمه من خلال سلال الورد سيفهمه من فم الرجل مباشرة، وسيعرف الأسباب التي دعته لأن يكون كريماً هكذا ولأن يتصرف بهذا الشكل.

قال السلطان، وهو يتناول الغداء مع الحكيم وزيد:

ـ جيّة صاحبنا اليوم، يا جماعة الخير، ما هي لله، لا بد يكون وراها شي.

رد زيد بسرعة وهو ينظر إلى الحكيم:

ـ حتى ورده ورياحينه ما هي لله يا طويل العمر!

ابتلع الحكيم اللقمة بسرعة ورد:

ـ أكيد المسألة ما هي طبيعية، ولازم يكون وراها شيء، واعتقد أن وراها الحكومة الألمانية، خاصة بعد الأخطاء التي ارتكبتها.

كاد يذكر، مرة أخرى، تأخرها في إعطائه سمة الدخول، وكاد يذكر زيارة ممثل وزارة الخارجية، لكنه آثر هذه الصيغة العامة! قال زيد وهو يهز رأسه بسخرية:

ـ لو كان عنده سالفة زينة كان جماعتنا خبرونا قبل ما يخبرنا الغريب!

قال السلطان في محاولة لأن يستبقي بعض الأمل:

ـ الغايب سالفته معه، يا زيد، إلى أن يحضر.

ـ ننتظر ونشوف!

هكذا رد زيد وهو يتطلع إلى الحكيم، ثم سأله:

ـ وشنهو قولك يا أبو غزوان؟

ـ مثل ما قال طويل العمر، الغايب سالفته معه.

وبين انتظار هانس أورلخت والاستعداد لهذه الزيارة، وتقدير ما يحتمل أن يترتب عليها، انقضت، الساعات المتبقية، وكانت طويلة، مشحونة بالقلق والترقب.

في الخامسة تماماً وصلت سيارتان: سيارة هانس أورلخت وسيارة الورد، ومثلما أنزلت سلال الورد في الأيام الماضية، أنزلت عصر هذا اليوم، ولم يعرف الحرس هل يتسلمون الورد قبل أن يدخلوا الضيف أم العكس، لأن لا أحد في القصر، ذلك اليوم، لم ينتظر ولم يتوقع.

حين أدخل هانس أورلخت إلى القصر، إلى غرفة الاستقبال في الطابق السفلي، كان السلطان وزيد والحكيم في غرفة مجاورة. كاد السلطان يعتذر

عن لقائه في آخر لحظة، لأنه لن يفهم منه شيئاً. لكن إصرار الحكيم على أن يتم اللقاء، ويمكن أن ينتقل هانس إلى حيث يجلس جلالته، على أن يلتقي به الحكيم قبل ذلك، جعله يوافق.

خلال الدقائق العشر، وهي الفترة التي بقي فيها الحكيم مع هانس على انفراد، لم يستطع أن يفهم بوضوح دوافع الاتصال ثم الزيارة، لكنه، بالمقابل، ارتاح للرجل: كان ودوداً مهذباً، ولم تفارق الابتسامة وجهه. وكان لبقاً حين سأله مجدداً عن هدف الزيارة. رد وقد اتسعت ابتسامته:

ـ لن أخفي عنك: قضايا تهم جلالته.

وبعد قليل وبمودة:

ـ وسوف تسمع كل شيء بنفسك!

وبعد قليل، وهانس أورلخت بين يدي السلطان، وبعد كلمات المجاملة، وقد سَرّ الحكيم أنه لم ينس الألمانية، إذ كان يترجم بين الطرفين براحة، قال هانس أورلخت:

ـ عرفت بزيارتكم، يا صاحب الجلالة، قبل وصولكم بأسابيع، وقد كان هذا مصدر سرور شخصي بالنسبة إليّ. ورأيت جلالتكم لحظة وصولكم إلى بادن بادن، وقد سررت بذلك أكثر من قبل، وكدت أطلب موعداً لزيارة جلالتكم خلال الأيام الأولى، لكن الأحداث التي وقعت في مملكتكم جعلتني أؤجل ذلك.

صمت قليلاً تعبيراً عن الحزن أو الحرج، ثم تابع:

ـ وقد يكون من المناسب أن أذكر لجلالتكم أن أجدادي، من ناحية والدتي، كانوا ملوكاً لبروسيا، ثم بعد الأحداث التي عصفت بألمانيا في القرن الماضي، وتغير الأوضاع والنظام في هذه البلاد، جعلت العائلة تتفرق، ولم يبق سواي في هذه المنطقة.

للحظة بدا للحكيم أن الحديث غير مناسب، إذ صدرت عنه إشارة أدركها هانس. تابع الرجل، بعد أن ابتسم استعداداً للدخول في الموضوع:

- في مثل الظروف التي تواجهون، يا صاحب الجلالة، أقدّر وأفهم أنكم قد تحتاجون إلى أشياء كثيرة، ولقد جئت لكي أضع نفسي بتصرف جلالتكم، ويمكن أن أفيد جلالتكم في عدة أمور.

تطلع السلطان إلى الحكيم وتطلع إلى زيد. كانت نظراته بين الارتياب والتساؤل. ماذا يريد الرجل؟ ولماذا جاء؟

خيم الصمت فترة غير قصيرة. لم يكن أحد يعرف ماذا يجب أن يقال. أكثر من ذلك شعر هانس بالحرج، إذ قدّر أنه لم يُفهم. تبادل مع الحكيم، بصوت منخفض، بضع كلمات، سأله ما إذا كان واضحاً ومفهوماً، أم يتطلب أن يشرح ويوضح أكثر. التفت الحكيم إلى السلطان وإلى زيد، سأل بحرج:

- هل ترغبون بتوضيح أي أمر يا صاحب الجلالة؟

- حنا ما رحنا يمّه ولا سألناه، هو اللي جا، وما فهمنا مقصده أو شنهو اللي يريده.

قال زيد بخبث:

- اللي يبيه بعد ما سولف به يا طويل العمر!

قال السلطان بارتياب:

- منهو اللي دزه علينا؟ وشنهي علاقته بالحكومة؟

- ومن هو اللي يثبت لنا أن أجداده ملوك وسلاطين؟

ومع كل كلمة جديدة يقولها واحد من الثلاثة ولا تترجم يزداد حرج هانس وارتباكه، ينقل عينيه في الوجوه، يستقرئها، يتابع انفعالاتها.

قال السلطان وهو يدق الأرض بعصاه:

- قل له، يا أبو غزوان، خله يعلمنا بمراده، وبعدها نشوف!

حين بدأ هانس أورلخت يشرح مرة أخرى، كان أكثر وضوحاً: أشار إلى أن لديه شركة كبرى، وهذه الشركة تتولى العلاقات العامة، وبيع وشراء العقارات، إضافة إلى فرع أساسي للاعلان وآخر للمجوهرات، كما أشار

إلى أن لشركته علاقات واسعة وقوية مع شركات في ألمانيا وخارجها، وهذه الشركات تتولى أعمالاً كثيرة، ويمكن أن تقدم خدمات لا حدود لها في ألمانيا وفي الخارج. كما أن لديه مجموعة مصارف تكفل أعماله وتغطيها، وأنه مستعد، عند الضرورة، وحين يتطلب الأمر ذلك، أن يقدم كفالات مصرفية، تضمن حسن تنفيذ الأعمال، وبالمواعيد اللازمة.

رغم أن الشرح الذي قدمه هانس أكثر وضوحاً، إلا أنه زاد الموقف غموضاً. قال زيد بسخرية:

ـ رأي تنشده يا أبو غزوان أخاف يريد غيرنا وتوهم وجانا.

قال السلطان بطريقة متآمرة:

ـ أثاري الرجال بياع شرا، وحنا ما عندنا اللي نبيعه أو اللي نشريه.

ـ وإذا كان لكل من يبيعه أو يشتري منه يدزّ ورد وريحان ظني أن ربحه يروح بخسارته، ويطلع مثل معايد القريتين!

هكذا علق زيد ولم يستطع أن يخفي ابتسامته.

قال الحكيم مخاطباً السلطان:

ـ مثل هذه الشركات موجود بكثرة في أوروبا يا طويل العمر، وهذه الشركات تعرض خدماتها على الحكومات والجمهور، ولا تلزم أحداً بشيء...

قال السلطان بسخرية ونفاد صبر.

ـ حنا بديرتنا يا أبو غزوان ما بعنا ولا شرينا، فخله يدوّر غيرنا!

رد الحكيم بطريقة فخمة:

ـ من رأيي يا طويل العمر أن نسأله إذا كانت لشركته علاقات بالصحف، لأن الاعلام أساسي جداً، ويمكن أن يساعدنا كثيراً.

كانت هزات رأس السلطان بين الحزن والموافقة. وحين تحدث الحكيم مع هانس أورلخت يسأله ما إذا كانت لشركته علاقات بالصحافة والنشر، ويمكن أن تساعد في نشر بعض البيانات السياسية، أجاب هانس

أن لشركته علاقات مثل هذه، ورغم صعوبة نشر بيانات سياسية، إلا بموافقة الحكومة، إلا أنه سيبذل جهده، وسوف يحصل على أفضل العروض.

رغم السخرية وخيبة الأمل فقد استطاع هانس أورلخت أن يبيع للسلطان خمس ساعات يدوية، اثنتين منها نسائية، وعقداً من الألماس، وعرض على السلطان أن يشتري له قصراً كان لأحد الملوك السابقين، كما أبدى استعداده لترتيب رحلة لجلالته يتجول خلالها في ألمانيا من أقصاها إلى أقصاها. وأكد أخيراً أنه سيكون حاضراً لتقديم خدماته لصاحب الجلالة حين يطلب منه ذلك، ولم ينس أن يلتقط لجلالته عدة صور، كانت احداها على الشرفة، وكان يقف إلى جانبه!

عند الباب الخارجي كان وداع هانس أورلخت لزيد والحكيم حاراً، وأكد مجدداً أنه سيقوم بزيارة القصر وتقديم الاحترام لصاحب الجلالة بين فترة وأخرى.

قال زيد للحكيم وهما يسيران في الحديقة باتجاه الشرفة التي يقف عليها السلطان:

ـ ظني يا أبو غزوان أن الرجال حصّل ثمن ورده وزود!

وضحك بسخرية ثم أضاف:

ـ وبعد اليوم ما راح يدز ورد وريحان!

عندما كانت سيارة هانس أورلخت تنعطف لتدخل إلى الشارع العريض، وكانت تُرى من شرفة القصر الأمامية، حيث وقف السلطان وإلى جانبه الحكيم وزيد، قال السلطان موجهاً الكلام إلى الحكيم، وبسخرية أقرب إلى المداعبة:

ـ أتاري صاحبك، يا أبو غزوان، بياع شرا، وما عنده سالفة غير البيع والشرا!

قال زيد وهو يقهقه:

ـ عمي يا بياع الورد.

شاركهما الحكيم الضحك، لكن بغيظ. وفي تلك الليلة، والأيام التالية، أصبح هانس أورلخت مادة للسخرية والتندر. فزيد لا يشير إليه إلا بعمي يا بياع الورد، والسلطان الذي سمع محاضرة الحكيم عن مغزى الورود ومعانيها، وفي اللحظات التي تمتلئ روحه بالأسى، لا يتردد في أن يشير إلى بعض ورود الحديقة ويقول: «هذا ورد الحكومة.. وهذا ورد القصابين» أو يقول: «هذا ورد الحكومة الألمانية وهذا ورد الانكريز». والحكيم الذي يضحك، ويبالغ بعض الأحيان، لكلمات السلطان ومداعباته، يبدو شديد الحنق، أقرب إلى الغيظ حين يسمع تعليقات زيد أو تعريضه، لكن مع ذلك يعض على جرحه، لا يريد أن تفلت منه كلمة تكون سبباً لخلاف أمام السلطان.

ما كادت بضعة أيام تنقضي حتى أصبح هانس أورلخت نفسه الشخص المطلوب، لأنه الوحيد القادر على المساعدة وحل المشاكل!

فقبل أن ينقضي الشهر على إقامة السلطان، وقعت أحداث عديدة: جاء صاحب القصر، وجاء مندوب عن بلدية بادن بادن. وجاء أيضاً عدد من الشرطة، إضافة إلى حصول مظاهرة أمام القصر.

فصاحب القصر أجّر قصره «لملك وعروسه ولم يؤجره إلى قبيلة من الغجر». هكذا قال، وأظهر، للحظة، عقد الإيجار. هزه في الهواء أكثر من مرة، وأعاده إلى جيبه، دون الإشارة إلى أية فقرة، كما لم يشر أن السفارة هي التي أبرمت العقد، وبالتالي عليه مراجعتها. كان يهدّد أن يقيم دعوى عاجلة لإخلاء القصر والتعويض عن الأضرار الجسيمة التي لحقت به.

لما حاول الحكيم الاستفسار عن أسباب غضبه، أو ماذا يريد، أجاب أنه لم يتصور أن يتحول القصر إلى هذا الشكل، وأنه، حتى هذه اللحظة، لا يفهم شيئاً مما يجري حوله، كما لا يقبل أن تستمر الأمور هكذا. وان المسألة تتجاوز كثيراً الجانب المادي لتطال سمعة القصر والمنطقة، وأنه محرج وحائر فيما يجب أن يفعله لإنقاذ الموقف أو وضع حد لشكاوى الجوار.

ويبذل الحكيم كل براعته ودهائه في أن يفهم المطالب أو الشكاوى، وصاحب القصر يهدأ لحظة ليثور في اللحظة الثانية. يرفض الإجابة عن الأسئلة الدقيقة التي يوجهها الحكيم. لا يطلب، بوضوح، زيادة الأجرة. لا يطلب إخلاء القصر تماماً. وبعد الكثير من الصخب والحدة يتلخص الأمر: بشراء القصر، أو إخلائه فوراً.

بعد جهد كبير، ويومين من المناقشات، تم الوصول إلى حل وسط: يعتبر عقد الإيجار مستمراً لشهر أو اثنين، على أن يرفع السعر من خمسة عشر ألف مارك شهرياً إلى مائة ألف، وينظر في وضع الأثاث بعد انتهاء العقد.

لقد اعتبر الحكيم هذا الحل المؤقت مقبولاً ومرضياً في الظروف الراهنة، لأنه الحل الوحيد الممكن عملياً، ولأنه من الصعب أو المستحيل الوصول إلى حلول أخرى في ظل الحصار والمصاعب، إضافة إلى الانشغال بأمور أكثر أهمية!

ما كادت هذه المشكلة تجد حلاً، حتى جاء مندوب البلدية، مع قائمة لا نهاية لها من الممنوعات، تحت طائلة العقوبة: يمنع بصورة قاطعة ذبح أية حيوانات في القصر. يمنع إيقاد النار. يمنع الجلوس في الشارع. يعاقب على الضجيج وإقلاق الراحة، كما يعاقب على التلصص وإزعاج الجوار.

والحكيم بكثير من الصبر والتهذيب، وهدوء الأعصاب مع الابتسامة، يحاول الاستفسار من مندوب البلدية فيما إذا بدرت من أحد مخالفات من هذا النوع، ويسأل ما إذا كان من الضروري التوقيع على الاستمارة التي قدمها إليه المندوب، فيكون الرد: ابتسامة ساخرة أقرب إلى الاهانة، مع كلمة قصيرة:

ـ أنتم الآن في المانيا وتخضعون للقوانين الالمانية.

وحين أراد الحكيم أن يعرف أكثر من ذلك كان الرد أقسى من قبل:

ـ دائماً أنتم الشرقيون تتظاهرون بالبساطة أو الغباء، لكي تتهربوا من القوانين.

وفجأة خطرت للحكيم العجوز فكرة، وتراءى له احتمال ترحيله مرة أخرى، وهذه المرة ليس وحده، وإنما معه السلطان والآخرون، عندها ستحدث فضيحة لا يعرف مداها أو نتائجها. تناول الورقة لكي يوقع. قال له مندوب البلدية:

ـ لا يمكن التسامح مرة أخرى، ولا يمكن السكوت!

وحين نظر إليه الحكيم مستوضحاً أضاف بحدة:

ـ لدينا من الشكاوي والوقائع ما يكفي لاحالتكم جميعاً إلى المحكمة، وهذه وحدها تجعلكم تقضون بقية حياتكم في ألمانيا، لكن نفضل لكم العودة إلى أوطانكم!

قال الكلمة الأخيرة بنوع من السخرية، وكأنها تعريض واضح يشير إلى معرفته بعزل السلطان وعدم إمكانية عودته. رد الحكيم بخشونة:

ـ يجب أن تعرف أنك أمام رجال يعرفون القوانين ويحترمون الأنظمة.

ـ المهم أن توقع الآن...

بنظرة خاطفة تطلع الحكيم، ووقع، وبعد أن سحب مندوب البلدية الورقة وطواها قال له وهو يبتسم:

ـ والمهم أيضاً أن تحترموا توقيعكم وأن تحترموا القوانين الألمانية!

وعصر اليوم ذاته تظاهر الجوار:

عشرات السيارات المليئة بالشبان والشابات، تمر أمام القصر، وكل من فيها يرتدي طرطوراً أو قناعاً، وقد خطط عدد منهم وجوههم بألوان سوداء أو حمراء، ومع أبواق السيارات يصرخ الشباب ويقومون بأداء إشارات الاستهزاء، ولم يتردد بعضهم في إلقاء زجاجات فارغة. لقد فعلوا ذلك مرات عديدة، بين العصر والغروب.

وإذا استطاع الحكيم وزيد أن يخفيا عن السلطان مجيء صاحب القصر، قبل يوم أو اثنين، ولم ينتبه أحد لوصول مندوب البلدية، وما دار من نقاش بينه وبين الحكيم، لأن الحديث كله جرى بالألمانية، وزيد الذي

حضر جزءاً من الحديث ما لبث أن غادر الغرفة دون اهتمام، أو حتى رغبة المعرفة. لم يستطع أحد إخفاء أمر المظاهرة التي جرت كما لم يستطع الحكيم أن يموهها أو أن يعطيها تفسيراً آخر.

في ذلك المساء قال الحكيم كل شيء:

ـ يا طويل العمر هذه الديرة ليست ديرتنا، نحن هنا ضيوف، ومن شروط الضيافة أن يكون الضيف مؤدباً . . .

وهذه الديرة، يا طويل العمر، لها قوانين، ومن شروط الإقامة فيها أن يلتزم الإنسان بقوانينها . . .

وهذه الديرة، يا طويل العمر، لها أخلاقها، ومن شروط قبول الأجنبي أن يتخلق بأخلاق أهلها . . .

وكاد يستمر بهذه الطريقة، لكن السلطان قاطعه بنزق:

ـ لكنا ما سرقنا ولا نهبنا يا أبو غزوان!

وضحك بسخرية وأضاف:

ـ وما تعدينا على أحد!

كاد الحكيم أن يتكلم، لكن السلطان قاطعه مرة أخرى:

ـ لكن إذا طاح كبير القوم، يا أبو غزوان، طفيت نارهم، وعلم الله أن نارنا طفيت، والجماعة هنا يجربون سلاحهم بروسنا.

ضحك بسخرية أقرب إلى الحزن، وقال بحدة:

ـ لكن يا أولاد الحلال، يا عباد الله، الواحد ما يجرّب سلاحه بميت، ولا يمد يده إلى مال اليتيم.

وهز رأسه بلوعة وأضاف كأنه ينتقم من نفسه:

ـ صحيح أننا طحنا، لكن مثل ما قالوا جماعتنا: لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة، وهذه الدنيا مالها أمان ولا لها صاحب، مثل ما كانت لنا صارت علينا، وباكر ما أحد يعرف ويش يصير!

حاول الحكيم أن يشرح، من جديد، الأمور. قال ان الاخطاء، فيما

إذا كانت هناك أخطاء، من الحرس والمرافقين، ولذلك يجب أن يراقب زيد الأمور، وأن يحرص على عدم مخالفة القوانين والتعليمات، وذكر أن مندوب البلدية أشار إلى مجموعة من المخالفات التي وقعت، بما في ذلك نقف الحرس لبعض النساء بالحصى، أو التعرض لهن.

بعد الكثير من الحديث المتنوع والمتشعب طلب السلطان من زيد أن يكون حازماً، وأنه ينبّه على الحرس والمرافقين، وأن يعاقب المعتدين فيما إذا حصلت اعتداءات من أي نوع، ووافق السلطان على استدعاء هانس أورلخت، لكي يستعان به من أجل شراء القصر، أو من أجل البحث عن مكان آخر للسكن.

وتم الاتفاق أيضاً على الاستعانة بالمحامي الذي اقترحه هانس، لمعرفة حقوق صاحب الجلالة، مقابل الالتزامات والواجبات التي ترتبت عليه، ولتحديد إمكانية التحرك في ألمانيا والاستفادة من الرأي العام. ورغم أن زيداً بدا مغيظاً أقرب إلى الحنق، فقد اعترف أنه سمح لرجاله بحرية كبيرة، الأمر الذي خلق بعض الاعتراضات وردود الفعل. لكن اعتبر أن الاستعانة «بعمي يا بياع الورد وربعه» كما درجت التسمية، «كمن يتقي الرمضاء بالنار» وطالب أن يذهب الحكيم إلى بون، وأين يأتي بالسفير، أو بأحد المسؤولين في السفارة، من أجل ترتيب الموضوع. أما أن نكون «مطبّة للطالع والنازل، للي يسوي واللي ما يسوي، وأن نسكت، فالجماعة ياكلون وما يستوكلون، يحللون وما يحرمون، وإذا جماعتنا أخطوا فخطاهم أكبر، وباكر تشوفون».

لم تُجْدِ اعتراضات زيد، إذ لم تمض بضعة أيام، حتى أصبح هانس اورلخت شخصاً لا يفارق القصر، وإليه يرجع في الكبيرة والصغيرة، فقد عُيّن وكيلاً عاماً لصاحب الجلالة، مقابل راتب شهري تم الاتفاق عليه، تضاف إليه نسبة عن كل عملية يتولى القيام بها!

كل يوم جديد ينقضي دون أن تظهر نتائج يتعكر مزاج السلطان أكثر من اليوم الذي سبقه. لا أحد يعرف كيف يتعامل معه، أو كيف يتصرف. والسلطان نفسه شديد التقلب والتغير: يسهر في بعض الليالي إلى أن يرى شمس النهار تبزغ. ويأوي إلى فراشه، في ليالٍ أخرى، عند الغروب. يبدو في بعض اللحظات راغباً أن يكون الجميع حوله. وفي حالات غيرها لا يطيق حتى زيد الهريدي. وينطبق الأمر ذاته على الأكل والحديث، عدا رغبة المضاجعة، فقد تحوّل خلال هذه الفترة إلى «حصان شبابه» كما قال زيد، إذ كثيراً ما ترك الآخرين وصعد إلى الطابق العلوي، وكثيراً ما سمعت وداد الصهيل والصخب. كانت تشعر أن جسدها يضطرب، فتحاول إشغال نفسها أو الابتعاد، لكن مشاعر اللذة لا تفارقها، وبمرور الأيام أصبحت تخاف على سلمى، بعد أن أصبحت مثل خرقة مبلولة، إذ علاها الشحوب، وبدت متعبة، والهالات الزرق حول عينيها. أما السلطان، رغم الهرم والتعب، فقد ظل مثل دب مسّن، ولم يتردد في أن يطلب من الحكيم المقويات، كما لم يتردد في أن يطلب من شايع السحيمي استخراج كتبه لكي يقرأ له فيها أخبار النساء!

ومع هذا المزاج المتقلب تتغير الحياة أيضاً. فبعد أيام دافئة منعشة في أواخر مايس، جاءت في نهاية حزيران أيام المطر. فجأة تتلبد السماء بالغيوم السوداء، وتبدأ عربدة الطبيعة بالبروق والرعود الصاخبة، ثم ينهمر المطر غزيراً سريعاً، ومع انهماره تتولد في الصدور مشاعر الضيق والحزن، فيصبح كل واحد من مرافقي السلطان في حالة من التوتر أقرب إلى النزق.

وبتعكر أمزجة الرجال يصبحون أكثر استعداداً للحدة أو للصخب. فنزلاء الفندقين، الذين كانوا يكتفون بالأسئلة أول الأمر، ثم بدأوا يتساءلون ويتناقشون، ولا يفعلون أكثر من الانتظار، تحولوا إلى نوع آخر من البشر: عيون مليئة بالتحدي والسخرية، خلافات لا تنتهي مع إدارتي الفندقين، ثم تبدأ المعارك فيما بينهم. وحين نقل الجميع إلى القسم الخلفي من المقهى قريباً من البار، تجرأ عدد منهم وشارك المترجمين بشرب البيرة أول الأمر، ثم أصبح بعضهم لا يفيق من حالة السكر.

وعندما سافرت الأفواج الأولى عائدة إلى موران، بدا وكأن الأمور أخذت مساراً يمكن التحكم به، إذ بالإضافة إلى جمع من تبقى من المرافقين في فندق واحد، ونقل عدد منهم إلى القصر، بناء لمشورة الحكيم، بعد أن سحبت الحكومة الألمانية عدداً من الحرس الذين وضعتهم في البداية، فإن حالة الترقب سيطرت على الجميع، إذ لا بد أن تصل الأخبار التي طالما انتظرها الجميع، خاصة وأنه أشيع عن قرب وصول عدد من الموفدين، بمن فيهم مطيع. أما الذين تسببوا بمتاعب نتيجة السكر، فقد نُبّه عليهم بشدة بلغت حد القسوة، أن من يقبض عليه سكران فسوف يؤتى به إلى القصر ويجلد، الأمر الذي حدا بهؤلاء، أو ببعضهم، أن يشتروا المشروبات من البار، أو من المخازن الكبرى، ويحملوها إلى غرفهم، وهناك يشربون ويسمرون، بحيث أصبحت غرف كثيرة بارات، أو حانات.

أما الحكيم الذي بدا متفائلاً، أو هكذا تظاهر، خلال الأيام الأولى، فقد تغير. حصل ذلك، أول الأمر، بسبب وداد، فحين «روضها» كما يقول لنفسه، أو حين استرضاها مع وعود كثيرة، كما تقول هي، فإن سميراً «عنفص وتغير». فبعد أن طلب مبلغاً من المال، لكي يرسله إلى القاهرة، لأن لديه التزامات، كما قال، ودفع إليه الحكيم بسرعة مع ابتسامة متفهمة، ما لبث أن بدأ يعترض على الكثير من الأفكار والاقتراحات التي يتقدم بها الحكيم، إضافة إلى التلكؤ في إنجاز الأعمال التي تم الاتفاق

عليها، وأخيراً، وقبل أن ينقضي شهر حزيران اختفى، ولم يعرف ما إذا عاد إلى موران، أو رجع إلى القاهرة!

حتى بدري المدلل، الذي وُجد له مكان في المحرس، وأفردت له غرفة خاصة، بدأ يتذمر، ويرفض، في حالات كثيرة، أن يقص شعر الحرس والمرافقين، بحجة أن أدوات الحلاقة مخصصة لجلالته، «وأنه حلاق السلطان، وما هو حلاق التنكة أو السحّارة في سوق الحلال». وبدا أيضاً شديد السهوم واضح القلق، إلى أن اتصل به موظف من السفارة، عن طريق أحد المترجمين، وطلب منه أن يستعد للعودة إلى موران!

وإذا كان الحكيم افترض منذ البداية أن الزمن سيتولى حل بعض المشاكل، فإن مشاكل أخرى أخذت تظهر، وأخرى تتعقد بمرور الزمن. فالاعتراض العابر الذي بدر منه في معالجة مشاكل المرافقين مع إدارتي الفندقين، «لأن همنا أكبر من هذي الولدنات، يا زيد»، ما كان يتصور أن هذا الاعتذار بداية حرب بينه وبين زيد الهريدي. فالعلاقات بين الرجلين، أو بالأحرى مواقف زيد، بدأت تأخذ منحى جديداً. أصبح يتجنب الحكيم، أو يغرق في الصمت إذا جمعهما مجلس واحد. وبدأ يشير أمام السلطان بطريقة واضحة إلى دور حماد فيما حصل، وكيف أصبح شخصاً مهماً في موران، واسمه يتردد على كل شفة ولسان. وهو حين يذكر حماداً بالذات فلكي يحمّل الحكيم مسؤولية اختياره وتعيينه. أما عندما أخذت تصل جرائد موران، وقد تعمدت السفارة إيصالها، وكانت تمتلئ بالإشادة والتقدير للعهد الجديد، وكانت صور رجال العهد وتحركاتهم تملأ هذه الجرائد، فقد توافرت مادة جديدة للتعريض بالحكيم، خاصة من قبل زيد وشايع السحيمي ثم للتحريض عليه.

ولم يكن السلطان بحاجة إلى التحريض، لأن كل شيء حوله يثيره ويحرضه. فتأخر وصول الأخبار، مثلاً، أو مجرد نشر صورة لمطيع إلى جانب فنر، بعد أن عُيّن مستشاراً في القصر، أو صورة حماد، وهو يمنح الأوسمة لدفعة جديدة من ضباط الشرطة، تقديراً للخدمات الجليلة التي

قدموها للسلطنة والحفاظ على الأمن. إن إياً من هذه الأمور كفيل بأن يجعل ذلك اليوم جحيماً لكل من في القصر. فإذا جاءت تعريضات زيد أو سخرية شايع، فعندئذٍ يضطر الحكيم للانسحاب، متذرعاً بالمرض، أو ضرورة تناول الدواء، أو بحجة مواصلة العمل على البيان الذي يعده «لينشر في جميع أنحاء العالم» كما كان يقول! وحين تبدو مثل هذه الذرائع واهية، أو تتكرر مرة بعد أخرى، يخفض رأسه، ويزرع عينيه في مكان، أو ينشغل بسبحته، في محاولة لأن يهرب من كل ما حوله. فيهمس زيد في أذن شايع، وهو لا يخفي ابتسامته: «سبت ابن الحرام».

الاتصالات بين بادن وموران صعبة، ويتخللها الكثير من المنغصات، فهي مع القصر غير ممكنة، أو تنقطع خلال اللحظات الأولى. ومع الآخرين مشوشة ومراقبة، وكثيراً ما تدخل الرقيب مشعراً أو منبهاً الطرفين أنه ينصت ويسجل كل كلمة. والسلطان الذي افترض، أول الأمر، أن مجرد إمكانية الاتصال مع موران سيحل المشاكل وينهي هذا الكابوس، ما لبث أن تأكد من خطأ هذا الافتراض. وحين تجنب الاتصال بنفسه، طالباً من الآخرين أن يتصلوا، كان مجرد انتظار مثل هذه الاتصالات عذاباً لا يطاق، إذ بعد ساعات من الانتظار، والتأكيد مرة بعد أخرى على الطلبات، كان يأتي الجواب: «الخطوط مقطوعة» أو «الرقم الذي تطلبونه لا يجيب».

والسفير الذي كان يردّ بعض المرات على اتصالات زيد أو الحكيم، ويبدو، في حالات كثيرة، مهذباً وراغباً في التفهم والمساعدة، ما لبث أن أخذ يتهرب، فيجيب مرة ولا يجيب أخرى، أو يرفع صوته مدعياً أنه لا يسمع، ثم فجأة ينقطع الاتصال! وفي وقت لم يتأخر أصبحت إجابة عامل المقسم تتكرر: «سعادة السفير غير موجود» دون رغبة في أن يضيف كلمة أخرى، حول ساعة عودته. وحين سافر بعض الذين رافقوا السلطان، عائدين إلى موران، سافر هو أيضاً للتشاور، وطال بقاؤه في موران، دون أن يعرف أحد متى يعود، ودون أن يكون أحد مسؤولاً في السفارة أثناء غيابه!

وعشرات المنغصات اليومية تحدث في حدود هذه المساحة المسورة من بادن بادن، فلا يعرف أحد كيف يواجهها أو كيف يتغلب عليها.

قبل أن ينقضي الشهر، وفي هذا الجو من الانقطاع والارتباك والحيرة والمرض، جمع السلطان عدداً من الرجال لكي يتشاور معهم، ويتخذ قراراً.

كان في حالة من الضعف أقرب إلى الانهيار. لم يخف ذلك، وما كان ليستطيع حتى لو أراد. كان بادي المرض، وقد اضطر إلى حمل عصا، اشتريت له على عجل، «لأن الأدراج تتعب والركب ما تحمل». وترك لحيته تطول أكثر من السابق، دون رغبة في أن تقصّ أو تهذب، كما فعل في المرة الأولى. أما وجنته فأصبحت ترتجف بوتيرة أسرع، ومن يرها لا يتمالك نفسه من الضحك لهذا الرقص الرتيب المنتظم.

في هذا الاجتماع الذي خيم عليه الحزن، تكلم السلطان، عكس المرة السابقة. تحدث عن الزمان وخياناته؛ عن الأصحاب وتخليهم؛ عن الأخوة وكيف تغيروا. وتحدث عن الناس، قال أنهم يقفون مع القوي الذي يخافونه، ومع مصالحهم. كما أشار بحزن، بلغ درجة المرارة، إلى أن الحياة تغيرت كثيراً عن السابق، ويعتبر نفسه أحد الذين تسببوا في هذا التغير، نتيجة التساهل والسماح بوصول الأجانب. وقال أخيراً:

ـ وإذا الوجدان ما صحي، والناس ما رجعوا إلى حليبهم، فالأيام الجاية أصعب من اللي راحت.

وقال أشياء أخرى أيضاً. وفي لحظة معينة سقطت دموعه دون إرادة، وخيّر كل واحد من الذين رافقوه بين البقاء أو الرحيل، «لأن الله لا يكلف نفساً إلاّ وسعها» وأقسم أنه لن يلوم أحداً على أي قرار يتخذه.

حاول أكثر من واحد أن يتدخل، أن يهدد. دق السلطان الأرض بعصاه، ورفع يده وهو يقول بحزن:

ـ يا جماعة الخير. . . حنا اليوم بديار غريبة، بعيدين ومقطوعين، ولو كنا يديرتنا، بين أهلنا وعشيرتنا، كانت الأمور اختلفت. ومثل ما قلت

لكم: ان الله لا يكلف النفس إلا وسعها. وشوري عليكم أن تكونوا هناك، لأنكم هناك تفيدون، وعسى أن الله يقدّرنا ويرجعنا، وعندها الله كريم، ما ننسى لأحد افضاله.

قال الحكيم، في محاولة لأن يعطي المناقشة عمقاً إضافياً:

ـ يجب أن يتم العمل على خطين، يا طويل العمر، خط الداخل وخط الخارج، واقتراحكم أن يعود معظم الأخوة اقتراح صائب، وأرى تنفيذه دون إبطاء، لأن الموجودين في الداخل سيكونون عدة لنا وذخراً، وسوف يقومون بالاتصالات التي تكلفونهم بها، كما أن مجرد وجودهم هناك سوف يؤثر نفسياً.

تلفت أكثر من مرة ليرى أثر كلماته، فلما وجدهم صامتين تابع:

ـ والزمن الذي نعيش فيه، يا طويل العمر، أوجد ارتباطاً وثيقاً بين العلاقات الداخلية والعلاقات الخارجية، بين موران والدول الأخرى، خاصة الولايات المتحدة، ولذلك يجب أن نعمل على هذا الخط، وأنا واثق أن النتائج ستكون إيجابية وقريبة.

رد السلطان، وكأنه يكلم نفسه:

ـ أي بالله، والواحد معهم كأنه بحضن أمه وأبوه!

قال زيد الهريدي:

ـ أمّن البزّون شحمة. . .

والتفت إلى شايع السحيمي، وقال له بسخرية:

ـ ترى حقنا وصلنا يا أبو عاهد!

لكي يخفف الحكيم من وقع خيبة الأمل بعد تأخر مطيع ثم اعتذاره عن المجيء، تذكر الكلمات التي قالها غزوان في إحدى المناقشات: «تزايد أهمية السلطنة للاقتصاد العالمي يترافق مع انتقال القرار من الداخل إلى الخارج، إذ كلما أصبحت موران أكثر أهمية أصبحت أقل قدرة على اتخاذ القرار». ويتذكر أن غزوان لامه على انشغاله بالموضوعات الصغيرة، كانتخاب غرفة التجارة أو انصرافه إلى الكتابة وما شابه ذلك.

الآن تتكشف أمامه الحلول المناسبة: يطلب من غزوان المجيء إلى بادن. بادن، يفهم منه رأي الدوائر المسؤولة، ويتفق معه على ترتيب زيارة لصاحب الجلالة إلى الولايات المتحدة، والالتقاء فيها بالمسؤولين، ويتفق مع هؤلاء على كيفية العودة. هذه المرة يجب أن يكون الشخص الأساسي، كل شيء، في المفاوضات، في الاتفاقات. يجب أن يبحث الصغيرة والكبيرة، أن يدقق في تقرير صيغة السلطنة التي يجب أن تكون. لم يعد يثق بالآخرين، أو أن يكلفهم بمهام كبيرة، عليه أن يتولى الأمور بنفسه، لأنه لا يريد أن يكرر الأخطاء السابقة.

أحس بالراحة والانتعاش. كان يجب أن يفكر هكذا منذ اللحظة الأولى، لام نفسه أنه لم يفعل. قال، وكانت الكلمات صارمة ليخفف شعوره بالخطأ: «الآن يمكن أن نملي شروطنا، خاصة بعد أن جربوا غيرنا واكتشفوا عدم جدارتهم».

بكثير من الانفعال، وقد تخيّر وقتاً مناسباً، شرح للسلطان خطته، وعرج بثقة، وان يكن بإشارة سريعة، على ما سمعه من غزوان، وكيف أنه

أخطأ إذ لم يول هذه الفكرة ما تستحقه من الاهتمام. ثم ذكر مزايا غزوان وما اكتسبه من خبرات، إضافة إلى العلاقات الواسعة التي نشأت له في الولايات المتحدة. وكيف أنها ستفتح الأبواب وتغير المعادلات كلها.

استغرب أن السلطان لم يشاركه الانفعال. كان يكتفي بالاستماع ويهز رأسه بين فترة وأخرى. وحين عرض عليه أن يستدعي غزوان فوراً، وأن يتم التداول معه بهذه الخطة، قال السلطان، وخرج صوته مسكيناً:

ـ تذكر يا حكيم: قلنا لغزوان أن يكون قريباً منا ويشور علينا، لكن الله يسلمه، ظل بعيد.

ـ اشغاله ما سمحت له يا طويل العمر!

ـ أدري... أدري يا أبو غزوان!

هكذا رد السلطان، وكان لا يخفي تعريضه، وحتى سخريته. قال الحكيم في محاولة للدفاع:

ـ تتذكر مسألة تسليح الجيش يا طويل العمر.. وتتذكر...

ـ أتذكر كل شيء يا أبو غزوان!

ـ أنا من رأيي أن نستدعيه وأن نتشاور معه.

ـ يا حكيم غزوان مثل ما هو ولدك هو ولد لنا، ونحب نشوفه بكل وقت...

وبعد قليل وبحزن:

ـ لكن ظني أن وقت التكليم راح وانتهى!

رد الحكيم بانفعال:

ـ اترك المسألة عليّ يا طويل العمر، أنا أتابعها، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

ـ لا تتعب روحك يا أبو غزوان، تراك تعبت وشقيت أكثر من اللازم.

ـ التعب ما له قيمة، يا صاحب الجلالة، المهم أن نصل إلى نتيجة.

ـ على خيرة الله.

في تلك الليلة، وفي اليوم التالي، ذهبت محاولات الحكيم للاتصال بغزوان عبثاً، ولقد لعن في سره كروية الأرض وفرق التوقيت مئات المرات، لأن هذه الأميركا يبدأ يومها حين ينتهي يوم الآخرين، ويبدأ ليلها حين يُغرق النور باقي أجزاء الأرض. لا يعرف متى يبدأ غزوان عمله ومتى ينتهي منه، ولا يعرف هل هو في سان فرانسيسكو أم خارجها. وماذا لو كان مسافراً، مثل سفراته السابقة، إلى البرازيل أو اليابان أو إلى أماكن أخرى؟

وعنّ له لو يسافر إلى هناك بنفسه، أن يصطحب وداداً مثلما اصطحبها قبل بضع سنين ويسافر. سوف ترتاح قليلاً، وسوق يتغير مزاجها، ولا بد أن يلتقي غزوان هناك على انفراد، ويتباحث معه، دون ازعاج الآخرين أو تدخلهم. سوف يبحث معه كل شيء، ويطلب منه أن يمهّد للاتصالات التي سيجريها السلطان. إن ذلك لو جرى سيختصر الكثير. ومن هناك أيضاً يمكن الاتصال بموران. سيتحدث إلى مطيع وحماد وآخرين. لن يقول لهم أنه في الولايات المتحدة، ولن يقدروا، وربما وجد الكثيرين هناك من معارفه أو مرؤوسيه السابقين..

وفي اليوم الثالث، عند الفجر، استطاع الاتصال بغزوان. كانت لحظات متفجرة على الهاتف. صحيح أنه ظل متماسكاً حين تحدث إليه وحين سمع صوته، أكثر من ذلك طمأنه أنه وجميع أفراد العائلة بخير. لكن لم يستطع أن يتماسك حين بدأت دموع وداد تنهمر وهي تتحدث مع غزوان. أحس أنهما تعيسان أكثر من الآخرين، وأنهما بدّدا حياتهما في أشياء وأماكن لا طائل من ورائها. وعنّت للحكيم الرغبة أن يوقظ السلطان وسلمى، وأن يطلب منهما التحدث مع غزوان، لكن الفكرة تراجعت حين نظر إلى ساعته ووجدها الثالثة والنصف.

تسلّم سماعة الهاتف من جديد، كانت مبتلة من العرق والدموع. قال لغزوان بلهجة حنونة، لكن لا تخلو من حزم إنه يريد منه المجيء إلى بادن بادن، وأن يكون ذلك اليوم قبل الغد. قال هذه الكلمات وشعر أن غزوان،

في الطرف الآخر، قد ارتبك. إذ تنحنح أكثر من مرة، وطال الصمت الفاصل بين كلمة وأخرى. وحين أكد عليه من جديد أن الأمر يتجاوز الاشتياق والرغبة في اللقاء إلى أمور أخرى، وأن السلطان يريد أن يراه أيضاً، فقد رد غزوان باعتذار حانق، أن لديه مجموعة هامة جداً من المواعيد خلال الأيام القادمة، ولا يستطيع، بأي شكل من الأشكال، إلغاءها أو تأجيلها. ولما سأل من جديد متى يستطيع أن يأتي ومتى تنتهي مواعيده رد بأنه لا يستطيع إعطاء أي جواب الآن، لكنه سيبقى على اتصال.

انتهت المكالمة بعد نصف ساعة. تبادل الحكيم السماعة مع زوجته عدة مرات، وتغيرت لهجة الحديث عدة مرات، لكن لم يستطع الوصول إلى نتيجة محددة. أما عندما اقترح عليه أن يقوم هو وأمه بزيارته، فقد كان رد غزوان أوضح:

ـ هذه الفكرة أحسن، وأميركا كبيرة، إذا ما التقينا بسان فرانسيسكو يمكن أن نلتقي في نيويورك أو في مكان آخر.

لم يستطع أن ينام بعد هذه المكالمة، كان منفعلاً حانقاً، وكان أقرب إلى التشوش، «فهذا الغزوان يزداد بعداً واختلافاً كل يوم، بل ويزداد غموضاً أيضاً. كيف يفكر وماذا يريد؟ صحيح أنني لا أفهم أفكاره، لكنه، كما يبدو لي، شديد الذكاء. قد تختلف أفكارنا، ربما نتيجة فارق العمر واختلاف الأجيال، وقد لا يفهم أحدنا الآخر بسرعة أو بسهولة، بسبب تباين التربية أو الدراسة، ومع ذلك يجب أن أبذل جهداً إضافياً من أجل أن اقترب منه، لكي أفهم ما يقوله وما يعنيه. والكرة في ملعبي الآن، كما يقولون، ولذلك عليّ أن أعرف كيف أتصرف».

لما سأله السلطان، عرضا، بعد بضعة أيام، ما إذا اتصل بغزوان أم لا فوجئ بالسؤال وارتبك، إذ رغم أنه هيأ نفسه لهذا، وهيأ الإجابة، فقد ظل محرجاً. راودته نفسه أن يكذب، أن يموه الإجابة فيجعلها غامضة، لكنه وجد نفسه يقول:

- اتفقنا، يا طويل العمر، أن أسافر أنا وأم غزوان إلى هناك!
فوجئ السلطان، إذ لم يقدر احتمالاً مثل هذا. تابع الحكيم موضحاً:
- وهناك يمكن أن تجري مجموعة من الاتصالات تمهد لزيارتكم يا صاحب الجلالة.
قال السلطان وكأنه يحدّث نفسه:
- ترى اللي يروح بدون دعوة يقعد على غير بساط يا أبو غزوان!
وتطلع إلى عيني الحكيم بتركيز وأضاف:
- لما كنا بحيلنا وقوتنا، يا أبو غزوان، ما قالوا لنا تفضلوا، ما قالوا تعالوا يا جماعة الخير، تريدهم هالحين ينتخون ويقولون: تعالوا؟
وأضاف بعد قليل، مع تنهيدة طويلة:
- بلادي وان جارت عليّ عزيزة وأهلي وان ضنوا عليّ كرام
وهز رأسه عدة مرات:
- لكن الظاهر أنه ما ظل لنا بلاد أو عباد، يا أبو غزوان. البلاد بعيدة أو راحت، والأهل ما عادوا أهل.
وبأسىً كاوٍ يخفض صوته وهو يردد:
- وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
الحسام المهند
المهند
ولم يتأخر الحكيم، أبلغ وداد بالسفر، وطلب منها أن تستعد. امتلأ يقيناً أنه سيتوصل إلى نتائج حاسمة خلال فترة قصيرة. سيبلغ السلطان بهذه النتائج، لكن يجب أن يفعل ذلك بطريقة ذكية، لئلا تنكشف الأمور. يتفق معه على مجموعة من المصطلحات والرموز، لكي يتبادلا الأخبار والتقديرات دونما إحساس بالخطر أو بالمراقبة. وسوف يتفق مع غزوان على طريقة لمواصلة الاتصالات في المستقبل أيضاً!
حين ارتسمت له الصورة كاملة بدا أكثر راحة وتفاؤلاً. المهم أن يلتقي بالمسؤولين الأميركيين لكي يبحث معهم كامل التفاصيل. يتذكر كيف كانوا

يتبادلون النظرات وهو يتكلم، وهو يجيب عن أسئلتهم أثناء زيارته، كانوا لا يخفون إعجابهم. الآن يمكن أن يتوصل معهم إلى النتائج المرغوبة دون جهد، سوف يقنعهم بكل تأكيد. وسوف يعود إلى موران منتصراً.

عندما بدأ الحكيم بالاجراءات العملية واجه صعوبات لا حدود لها ولم يتوقعها: القنصلية الأميركية في شتوتغارت لن تستطيع مساعدته بأكثر من إرسال طلبه إلى السفارة في بون، والأفضل أن يقدمه بنفسه هناك. والسفارة في بون لا تمنح السمات إلا للألمان أو المقيمين بصورة دائمة، ولا بد من استشارة واشنطن في جميع الحالات. وواشنطن تجيب «على طالب السمة أن يحصل عليها من موران، أو أن يحصل على موافقة حكومته!».

بعد انتظار وشروح لا نهاية لها، وبعد اتصالات عديدة بغزوان، والذي أوضح أنه لا يستطيع مخالفة القوانين الأميركية، وافقت السفارة على منح وداد سمة لزيارة ابنها، وأبلغت الحكيم أن طلبه «قيد الدرس»، وحالما تتلقى جواباً من واشنطن سوف تقوم بإبلاغه الجواب.

بعد عشرة أيام من سفر وداد، وبعد محاولات عديدة، في الليل والنهار، لقط غزوان:

ـ الله يصلحك، نطّفت قلبي يا غزوان. كل يوم عشر اتصالات، عشرين اتصال، وحضرتك غير موجود.

كان جواب غزوان، في الجهة المقابلة، ضحكة رنانة فرحة. واستشاط الحكيم:

ـ اي والله الحق معك، شو على بالك، اضحك كمان.

ولا يتردد غزوان في مواصلة الضحك. يزمجر الحكيم:

ـ مالك حق يا ابني، وأنا زعلان منك ومن الخانم، أمك، كتير.

وبعد أن يستمع إلى شرح غزوان كيف انتظر أمه في نيويورك، وأنه تجول معها في عدة مدن أميركية قبل أن يصلوا أول أمس إلى سان فرانسيسكو، يرد الحكيم بحزم:

ـ يا حبيبي، يا عيني، كان لازم من أي مكان أنت فيه تتصل، تقول: أنا بالمدينة الفلانية، يا جماعة الخير، أنا مبسوط، والوالدة وصلت. . .

وبعد قليل وقد عاد لصوته شيء من الغضب:

ـ تخسر شي لو فتحت تلفون وقلت كلمة، كلمتين؟

وبعد أن يطيب غزوان خاطره، ويعد بالاتصال، يسأله الحكيم من جديد:

ـ وأمك، يا غزوان، كيف صحتها وأحوالها؟

وقبل أن يستمع إلى كامل إجابته يقول له:

ـ وإذا كانت قريبة خليها تحكي معي.

حين يسمع صوت ضحكتها الرنانة، وكلماتها المتداخلة بين الاعتذار وعدم معرفتها الاتصال وانشغالها، يصرخ:

ـ وينك يا بنت الحلال؟ هيك اتفقنا؟

وتضحك. ترتخي أعصابه، يصبح مستعداً للتسامح والنسيان. يقول لها وكأنه يهمس:

ـ كيف اقتنع معك؟ وافق؟

تجيب عن سؤال آخر. يهز رأسه بحزن ويتابع:

ـ مثل ما اتفقنا يا حبيبتي. ابذلي كل جهدك، ولازم ترجعوا بسرعة.

وحين توضح له أنها لم تسترح بعد من عناء السفر، وعليه الصبر والانتظار ينفعل:

ـ يا حبيبتي يا عيني: لاحقين على السفر وشمات الهوا. بس الآن في قضايا أكبر واهم، ولازم تساعديني، فهمانة؟

وتؤكد له أنها فهمت، لكن القضية ليست بالسهولة التي يفترضها. يصرخ بحدة:

ـ أعطيني غزوان.

وتتغير اللهجة، تصبح صارمة:

ـ ها يا غزوان، شو صار بسمة الدخول؟

ويفهم منه أن القضية تتطلب وقتاً، وربما وقتاً طويلاً، فيهدر صوته:

ـ لك يا حبيبي، المرة الماضية أعطوها على الحارك. ساعة ما تحملت، بدون أسئلة وبدون مراجعات، شو صار بالدنيا؟ ليش هالعرقلة والتعقيدات؟

وجلس على طرف السرير، بعد أن تعب من الوقوف والحركة، وتغيرت اللهجة:

ـ اسمع يا غزوان: لازم نلتقي، وأنا لو أعطوني السمة لكنت ثاني يوم عندك، لكن ما دام تأخروا فأنت أحمل حالك وتعال. الموضوع هام ولا يحتمل التأخير.

وينقطع الخط فجأة. ويبذل الحكيم جهوداً خلال ساعة أو أكثر ليعاود الاتصال، لكن لا يوفق، فيأوي إلى فراشه وخيوط النور تتسرب عبر النافذة. يحاول أن ينام فلا يستطيع. يتخيل وداد، ترن ضحكاتها في أذنيه. يحس أنهما سعداء. يقول لنفسه: «طبيعي، الصياد يتقلى والعصفور يتفلى. الجماعة مبسوطين، مروقين، وحضرتي ملعون سنسفيل أجدادي وآكل خرا».

يتقلب في الفراش، لكن النوم لا يأتيه. يسمع جلبة تبديل الحرس، يقول في نفسه: «المرة الماضية بدون طلب: تفضل يا دكتور، ونحن سعداء بزيارتك. ولازم تقوم بجولة على جميع الولايات، ولازم تكون ضيف الحكومة الأميركية. هذه المرة: يا جماعة الخير أريد زيارة ابني. ابني غزوان، والكل يعرفه، لكن: متأسفين. يجب أن تقدم طلباً وتنتظر. ويجب أن يتضمن الطلب معلومات حتى الجد السابع، وأن تذكر فيه جميع الأمراض التي أصيبت بها العائلة، خاصة البلهارسيا والتراخوما، وكأن الواحد مصاب بالجذام ويخافون منه، أو لا يريدونه».

وماذا يقول للسلطان؟ وكيف يرد على نظرات زيد الساخرة؟ ويتذكر كلمات زيد عندما بدأ يستعد للسفر:

ـ يا أبو غزوان: شوري عليك أن تبقى، لأن طويل العمر يتونس بوجودك، وما يقدر على فراقك!

ولما أوضح له الحكيم أن السفرة ضرورية إلى أقصى حد، وتتوقف عليها نتائج كبيرة ردّ زيد بسخرية:

ـ من مغرب، يا أبو غزوان، ما جتنا إلا البلايا، من حماد وجماعة حماد، وأمثالهم، والأَخْيَر أن نتركهم.

حاول الحكيم تغيير الموضوع:

ـ مجرد زيارة لغزوان.

ـ وعلامة ما يجينا؟ ما يسأل عنا؟ وإلا الدنيا صارت بالعكس: الكبار يروحون للصغار؟

وتتحول المسألة في ذهن الحكيم إلى تحدٍ، أو ما يشبه عناد الأطفال: «يجب أن يأتي، ومهما كانت أشغاله يمكن أن تؤجل». ولا يصبح لديه همّ إلا أن يتصل به، لكن معظم محاولاته تصطدم بالصمت. وترن في أذنيه ضحكات وداد «قادرة تطلّع الحية من جحرها، ولا بد أن تقنعه».

ومع كل محاولة جديدة للاتصال تطول قائمة الأسئلة التي دوّنها لكي لا تفوته أية قضية. لكن التلفون، هذه الآلة اللئيمة، لا يجيب، أو أنه مشغول في الغالب «هؤلاء الألمان لا يعرفون شيئاً سوى الثرثرة. أنهم يقضون حياتهم يثرثرون في مشارب البيرة أو بالتلفون». ثم يفترض أن تلفون غزوان هو المشغول «الا يستريح؟ وهل لديه كل هذه الأشغال والعلاقات التي تجعل تلفونه مشغولاً بصورة دائمة؟» ويعاود، من جديد، حساب فرق التوقيت بين ألمانيا والولايات المتحدة، خاصة الساحل الغربي، هذه المسألة تقلقه تماماً، أو بالأحرى لا يستوعبها بالمقدار الكافي، ومع ذلك لا يكف عن المحاولة.

ذات مرة، بعد الغداء مباشرة وبعد ذلك السؤال اللئيم من زيد عن موعد سفره، وربما عرف أن السفارة الأميركية رفضت منحه السمة، بدأ يحاول الاتصال. بعد عدة محاولات رن التلفون في الجهة الأخرى. امتلأ

فرحاً. نسي كل تعبه السابق، وقدر أن الوقت مهما كان متأخراً لا بد أن يجري حديثاً هادئاً وحاسماً.

للحظة سمع صوتاً في الجهة الأخرى. قدر أنه صوت غزوان. كان الصوت بين النوم والغضب. قال بضع كلمات بالانكليزية، وخبط سماعة التلفون.

لم يصدق. لا يمكن أن يحصل هذا، لا بد أن يكون خطأ من نوع ما، فغزوان شديد الأدب ولا يمكن أن يتصرف بهذه الطريقة!

ولم يستطع أن يهدأ إلا بعدما أقنع نفسه أن الصوت الذي سمعه لشخص آخر، غير غزوان، ولا بد أن يكون قد أيقظ ذلك الشخص من النوم في هذه الساعة المتأخرة من الليل. ولم ينم في تلك الليلة إلا بعد أن ابتلع حبة ڤاليوم.

وزيد لا يتركه، لا يسهو عنه يوماً واحداً، فإذا لم يطلب منه تلك الطلبات «المتعلقة بالمعيشة» كما يسميها، والخاصة بالمعاملات والاتصالات والأوراق، فلا بد أن يسأله، وبطريقة ساخرة، عن مطيع أو سمير أو غزوان. فإذا تجنب هؤلاء، يسأله عن الأخبار. وهو بأسئلته، والتي ترافقها الابتسامات، يعرّض به، يتهمه. وتكون إجابات الحكيم سريعة مختصرة، حادة، فيهز زيد رأسه دلالة الفهم والاقتناع، لكنه وهو يفعل ذلك، يثير الحكيم أكثر من قبل!

لو اقتصر الأمر على هذه الواجبات والأسئلة لاحتمل الحكيم، لكن نزلاء الفندق أصبحوا هماً مستمرّا، فهم لا يفعلون شيئاً سوى العراك، وعلى مرأى من الناس. كما لا يتردد عدد منهم في شرب الخمر علناً، وما يستتبع ذلك من تعديات على الآخرين، أو النوم في ممرات الفندق، رغم تدخل الشرطة والعقوبات التي توقع على الكثيرين في ساحة القصر.

الأيام التي خلت من المعارك لم تخل من الأخبار. فإذا خلت من الاثنين معاً، فلا بد أن تمتلئ بالأمطار والأحزان والانتظار.

كل شيء في القصر ثقيل خانق، الأمر الذي دفع الكثيرين إلى

الصمت، ودفعهم لأن يأووا إلى فراشهم مبكرين. وفي وقت لاحق دفعهم إلى العزلة، لأن كل كلمة تسبب اختلافاً، وأية نظرة تولد شقاقاً وسوء فهم.

وليالي بادن بادن ليست مثل أية ليالٍ غيرها، فهنا الصمت قوي فضّاح، والظلمة لها بريق يُغشي البصر، فإذا امتلأت بالرعود والأمطار، فعندئذٍ يحس الإنسان أنه محاصر بآلاف الأعداء، وعندها يغادره النوم، وتستيقظ فيه المخاوف، فلا يعرف هل يبقى حيث هو أم يهرب إلى أي مكان آخر لعل فيه تكون النجاة.

الحكيم يمتليء تصميماً، مطلع كل نهار، أن يكون أكثر حكمة وأكثر صبراً، وأن يستفيد من وقته كله، لكن مع ارتفاع الشمس وتقدم النهار لا بد أن تقع عشرات المنغصات التي تجعله ينسى. فإذا لم يأت هانس أورلخت، فلا بد أن يتصل تلفونياً. وبوجوده، أو باتصاله، تنبع المشاكل الصغيرة: كتابة مذكرات لوزارة الداخلية من أجل تمديد إقامة الحرس والمرافقين؛ مذكرات للمشافي، تأمين المؤونة والأسفار، إضافة إلى رسائل المصارف والتحويلات. ان هذه الأعباء تقع على كاهله في الغالب، لأنه الوحيد الذي يحسن الألمانية، بعد أن سُحب أغلب المترجمين، واضطر من بقي منهم إلى ملازمة نزلاء الفندق.

إذا انتهت هذه المشاكل، وغالباً ما يتخللها الكثير من الاختلاف والتصحيح وإعادة الكتابة، وزيد دائماً المتسبب بهذه «المنغصات» كما يسميها الحكيم، فلا بد أن تكون الأخبار الواصلة من موران، أو التي لم تصل، سبباً لمزيد من المشاحنات والاختلافات، خاصة حين يدعو السلطان إلى اجتماع من أجل التشاور. فغالباً ما يتسمم الجو بسرعة في هذه الاجتماعات، لأن كل كلمة، ونظرة، وحتى الابتسامة الصغيرة، تفهم على أنها تحدٍّ أو تعريض، وكل تصرف يمكن أن يفسر تبعاً للعلاقة، وعمن يصدر.

من أكثر الشخصيات التي تثير استغراب الحكيم وتساؤله: الأمير مجحم. إذ رغم السنوات الطويلة التي قضاها في موران، وتعرّف خلالها على كل شيء، ولم يبق أحد، تقريباً، إلا وعرفه أو عرف عنه شيئاً، فإن الأمير مجحم ظل بالنسبة إليه محيراً، فهو بالإضافة إلى غموضه، مرهوب ومحبوب من جميع الأخوة، وان كان مختلفاً عنهم. وهو قدر ما كان موجوداً كان غائباً، لأن الفترات التي يقضيها في البادية، ومن أجل القنص، أطول من الفترات التي يقضيها في أي مكان آخر.

التقى به الحكيم مرات قليلة، أو على التحديد لا تتجاوز الثلاث عدّاً، ولا تتجاوز الساعة الواحدة في مجموعها. أول مرة جاء الأمير لإلقاء نظرة على الحصان الذي قدمه الحكيم للسلطان في عيد الجلوس. المرة الثانية التقى به في البادية، ولم يعرفه أو لم يميزه من رجاله لأول وهلة، كما لم يطل الأمير وقوفه لأنه كان مشغولاً بصقوره، وبرغبة متابعة القنص.

المرة الثالثة كانت في حضرة السلطان، وكانت أطول المرات. ففي إحدى زيارات الأمير إلى موران، جاء للسلام على أخيه السلطان، وكان الحكيم موجوداً، وقد انقضى الوقت في الحديث عن الرحيبة. كان الآخرون يتحدثون وكان يستمع. لم يتكلم الأمير ولم يعلق. وما لفت نظر الحكيم الضحكة العالية المجلجلة التي كانت تميز الأمير، حتى ليظن من لا يعرفه أنه لا يحسن الكلام، أو يكتفي بيده وعينيه وسيلة للتعبير.

ولأن الأمير مجحم كثير الغياب، ويختلف عن الأخوة الآخرين، فلم يرد ذكره إلا نادراً، أو حين يجري الحديث عن الصيد.

والآن، بعد مكالمة هاتفية مضطربة وسريعة من السفارة في بون، انتشر خبر وصول شخصية كبيرة من موران، وان هذه الشخصية ستصل لمقابلة السلطان بين لحظة وأخرى.

قال الحكيم، ولم يستطع أن يخفي اضطرابه:

ـ الزائر الذي سيصل هو الأمير فنر... بكل تأكيد.

رد زيد، وهو يتطلع إلى السلطان:

ـ الأخير أن ننتظر ونشوف، يا طويل العمر.

ـ طويل العمر لا يتباحث إلا مع أهل الحل والعقد، ويجب أن يعرفوا ذلك.

هكذا قال الحكيم، في محاولة لأن يضغط على السلطان. رد زيد بحنق:

ـ وكل الله يا أبو غزوان، والأمر أمر جلالته.

قال السلطان بحزن:

ـ خلنا أول مرة نشوف الرسول، وبعدها الله كريم.

وفكر الحكيم أن توضع مذكرة تتضمن شروط صاحب الجلالة، لكن جو الصمت الذي خيم، الذي كان أقرب إلى الحزن والهم، جعله يصرف النظر. ومع ذلك بدأ يرتب الأمور في ذهنه، وكان مستعداً لأن يهمس في أذن جلالته بهذه الشروط أثناء المباحثات!

كان الزائر الأمير مجحم، وصل والسفير. وخلال الدقائق القليلة التي استغرقها الاستقبال والسلام، تحرك الحكيم كثيراً، وبدا في حالة من التفاؤل أقرب إلى التألق، خاصة وأن طريقة سلام الأمير كانت حارة، وأيضاً شديدة الود، أقرب إلى الاعتذار. للحظات بدا السلطان شخصاً آخر، إذ عاد لعينيه البريق وابتسم ابتسامات واسعة، انعكست بالرضا على وجوه الجميع، بمن فيهم السفير الذي كان شديد الحرج خلال اللحظات الأولى.

بعد ذلك، وبطريقة أقرب إلى التآمر، انسحب السلطان وأخوه إلى غرفة مجاورة، وظلا وحدهما ساعات عديدة.

كانت صدمة كبيرة للحكيم، فهو الآن أكثر من مجرد مستشار لجلالته، كما كان الضحية الأولى للمؤامرة، لذلك لا يمكن ولا يوافق أن يكون بعيداً، أو أن يعود كنتيجة لاتفاق الأخوة. يجب أن يعتذروا له، وأن يكون ذلك علناً، ويجب أن يُردّ اعتباره، بعزل الذين تسببوا بهذه الإساءة ومحاكمتهم. أما أن تنتهي الخلافات والاساءات ببوس اللحى وعفا الله عما مضى، فلن يوافق. أكثر من ذلك قد يضطر إلى عدم العودة نهائياً إلى موران.

بعد أن فكر ملياً بالأمر، قدر أن ما يجري بين الأخوين هو العتاب، وأنهما يفضلان أن يكون بينهما وحدهما، والعادة أن يجري على انفراد، ولذلك سيتغاضى عن الأمر، ولن يتوقف عنده طويلاً.

انشغل مع السفير بأحاديث جانبية عن الطقس والأمور العامة، وتعمّد أن لا يسأله عن موضوع سمة الدخول إلى الولايات المتحدة، لكي لا يلفت نظره، ويثير شكوكه. عندما حُمل العشاء إلى غرفة السلطان، أحس الحكيم بالإهانة، إذ يمكن أن يفهم بعض المواقف المحرجة ويتسامح فيها، وقد تطول خلوة العتاب، أما أن لا يُحسّ بوجوده، أن يعامل كالآخرين، وما عليه سوى الانتظار، فأكثر مما يحتمل. وحين انسحب السفير إلى فندقه، ومعه بعض مرافقي الأمير، بدا واضحاً أن المباحثات الجدية سترجأ إلى الغد، ولذلك لم يتردد في أن ينسحب إلى جناحه!

وحتى ساعة متأخرة ظل يسمع تحت شباك غرفته جلبة، كان يتميز فيها صوت زيد وهو يعطي أوامره أو يطلب نقل بعض الأمتعة. وقدر، دون أن يكون متأكداً، أن الأمير مجحم تمشى في الحديقة قبل أن يأوي إلى فراشه.

في اليوم التالي تعمد الحكيم النزول مبكراً إلى الحديقة، كان متأكداً أن السلطان سيصطحب ضيفه وبزهو واضح، ليطلعه على الزهور والرياحين، وليجعله يقارن، ضمناً، بين موران وبادن بادن. فإذا كان

موجوداً، فلا بدّ أن يتقدما نحوه، وفي ذلك معنى من معاني الاعتذار، ثم ستجري الأحاديث على رسلها، وسوف يثبت للأمير مقدرته وكفاءاته حين ينتقل من موضوع إلى آخر، وبعدها يواصلان اجتماعاتهم، وسوف يكون هو الأول والأخير في صياغة الأفكار والاقتراحات!

ومثلما اجتمع الاخوان أول مرة واصلا اجتماعهما في صباح اليوم التالي، فلم يحضر أحد معهما. وربما قدّر السفير ذلك فتأخر في الوصول إلى القصر ومعه مرافقو الأمير. أما حفلة الغداء التي أقامها السلطان فقد حضرها معظم الأشخاص، الأمر الذي لم يشعر الحكيم بأية ميزة أن يكون موجوداً، ولم يحرضه على المشاركة بأي حديث، خاصة نتيجة التجهّم أو الانشغال الذي بدا على السلطان وأخيه.

خلال فترة بعض الظهر خرج السلطان وأخوه في جولة حول المدينة، وقد رافقهما زيد بنفس السيارة، وفضل الحكيم البقاء في القصر، ليعطي لنفسه تميزاً يجعله مختلفاً عن الآخرين، ولكي يشعرهم، أكثر من قبل، أنهم بدونه لا يستطيعون شيئاً، إذ لا بد أن يحتاجوا بشكل أو بآخر إلى معلوماته أو إلى لغته، وسوف يتساءلون!

كل ذلك غير مهم إزاء ما حصل بعده، إذ ما كاد الموكب يعود، وربما نتيجة اتفاق تم خلال الجولة، حتى بدأ اجتماع حضره معهما اثنان من مرافقي الأمير، وحضره السفير وزيد الهريدي. وقد تم بتعمد تجاهل أو نسيان الحكيم فلم يدع للاجتماع، وظل هو يتمشى في الحديقة الخلفية، وقد لمحه الكثيرون، لكن زيادة في الترفع، تظاهر بمراقبة الحديقة، وأنه لم يلحظ أو يفطن لعودتهم.

انتظر لعدة دقائق، إذ ربما وقع سهو أو انشغلوا ببعض الأمور الطارئة. تقدم إلى الحديقة الأمامية، إذ يحتمل أن يكونوا بحثوا عنه ولم يجدوه. صرخ على أحد الحرس، خلافاً لعادته، وكان تحت شباك الغرفة التي اجتمعوا فيها، وسأل إن عاد السلطان، فلما أكد له عودة جلالته، سأله من جديد إن كان متأكداً أم لا.

كان يتوقع في كل لحظة أن تنفتح الأبواب ويهرع أكثر من واحد معتذراً وطالباً إليه أن يسرع في المجيء، لأن الجميع بانتظاره، لكن الدقائق تمر ثقيلة معادية إلى درجة لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل. هل نسوه؟ هل تعمدوا نسيانه؟ الا يريدون أن يكون بينهم؟ وإذا كان الأمر كذلك هل يوافق السلطان؟ هل هو شرط الأمير أم شرط موران؟ وهو. . . هل يلبد كقط ويسكت منتظراً اللحظة التي ينادى فيها عليه أم يثور ويقلب الأشياء فوق رؤوسهم؟ وإذا لم يكن منذ البداية، وبكل ثقله، صانعاً وشاهداً، هل يقبل أن يؤتى به، في اللحظات الأخيرة فقط، استكمالاً للشكليات؟

كل ما مر عليه من مصاعب وإهانات لا تعادل لحظة من لحظات الانتظار هذه. مرت عليه مصاعب كثيرة، وواجه لحظات قاسية، لكنه كان يقاوم، كان يحتمل. الآن يشعر أنه مهزوم، مهزوم وذليل. لا أحد إلى جانبه، لا أحد يريده. الجميع يهربون منه وينكرونه. وهؤلاء الناس ليسوا أعداءه، انهم الأصدقاء، أو هكذا كان يفترض.

كيف يتصرف إزاء الذين منحهم أحسن أيام حياته وأعز ما عنده؟ لم يكتف بأن يحبهم ويخدمهم، أعطاهم جزءاً من لحمه الحيّ، أعطاهم ابنته الوحيدة، وها هم الآن يتخلون عنه، لا يعترفون به، بل ولا يحسون بوجوده!

دارت به الدنيا، غامت ثم اسودت، اضطربت ثم عصفت، أصبح صغيراً مسحوقاً، ذرة رمل في ريح، شيئاً لا وزن له ولا قيمة. أحس أنه وحيد تماماً ومتروك. ماذا يفعل. . . هل يبقى منتظراً كالمتسول لا يفعل شيئاً سوى انتظار حسناتهم وعطفهم؟ وإلى متى يبقى هكذا؟ وكيف سينظرون إليه بعد أن تنتهي الاجتماعات ويتفقون وضحكاتهم تملأ وجوههم؟ هل سيقولون له؟ ولماذا؟ ومن هو؟

فكر أن يمرّ على سلمى في جناحها، أن يقضي معها فترة من الزمن، أن يسألها عن حياتها أو عن سعادتها، لكن لم يجد في نفسه القوة أو

الرغبة. بالتأكيد ستصمت، أو ربما سألته عن السلطان، ماذا.. أيقول لها أنه لم يدع إلى الاجتماع وأنه لا يعرف شيئاً؟ أيكذب ويدعي أنه لم يحضر الاجتماع لانحراف صحته؟

دون تردد، بل بطريقة أقرب إلى الحزم، توجه إلى جناحه.

أية ليلة كانت تلك الليلة من حزيران؟ أية أحزان وأية أفكار مرت في تلك الليلة؟ شعر بالاختناق إلى درجة المرض، وشعر بالقهر إلى درجة الألم.

حتى لو أراد أن يستعيد ويتذكر فإنه لا يستطيع. يتذكر أنه بكى مثل طفل، ويتذكر أنه ضرب رأسه بالجدار، ويتذكر أنه دفن وجهه في الفراش، لكن ما حصل أكثر من ذلك وأكبر، لأنه في اليوم التالي وهو يتذكر اختلطت الوقائع إلى درجة لا يعرف أي شيء حصل قبل الآخر.

فغزوان وهو يرد عليه، أكد له، بطريقة معينة، أنه سيبذل جهده لكي يجيء أو أن يؤمن له سمة الدخول في أقرب وقت ممكن.

ووداد، وهي ترد عليه، أقسمت أنها حزمت حقائبها وستعود، سواء عاد معها غزوان أو لم يعد.

وسلمى جاءته، لا يتذكر إن جاءت قبل المكالمة الهاتفية أو بعد ذلك، لكن بدت له حزينة إلى درجة لا تصدق، ويتذكر أنه بكى وإياها. كانا يبكيان كطفلين، وضعت رأسها على كتفه وظلت تبكي وتنشج فترة طويلة من الزمن. عادت تبكي مثلما كانت تفعل قبل فترة طويلة، كانت تريد أن تبقى معه، أن لا يتركها، وظلت تبكي حتى بعد أو أوصلها إلى غرفتها. ويتذكر أنه كان يسمع الضحكات والتعليقات في الحديقة الخلفية. ويتذكر أنه شم رائحة الشواء. كان الدخان يعلو حتى يصل إلى غرفته، مما اضطره إلى فتح النافذة الثانية، لكي يبدّد الهواء الرائحة الخانقة، رائحة الدهن المحترق.

أما وهو يستمع إلى ضحكات زيد الهريدي وأوامره فقد كان يحس أن سكيناً تنغرز في خاصرته. كان زيد يفعل ذلك بلذة وسادية، وبتعمد فجّ.

كاد أن ينزل إلى الحديقة، أن يمسك زيداً من كتفه ويصرخ في وجهه: «أنا أكبر من هذه الأشياء الصغيرة يا زيد، ولا تلعب معي هذه اللعبة!» وفكر أن يلبس ثيابه ويقابل السلطان: «يا أبو مشعل: أنا رجل صاحب مبادئ ولي رؤيا فيما يجب أن تكون عليه الأوضاع، ولقد جئت بهذا الدافع ولهذا الهدف، حاولت، لكن الظروف لم تكن مواتية، وها أنذا أتركك، لكن ليس كما تركك الآخرون، ليس عن جبن أو رغبة في الأحسن، وإنما لأن الزمن لم يساعدنا، أو بالأحرى لأن القضايا لم تتوافق ضمن التصور الذي افترضته، ولذلك فإني أعلن فشلي وأعلن خيبتي، وسوف أتفرغ من جديد إلى الكتابة»، وأيضاً لا بد أن يوجه كلمة واضحة إلى الأمير مجحم، «وأنت، يا صاحب السمو، يجب أن تعرف بوضوح من هو صبحي المحملجي، وأية أفكار دفعته إلى موران. لا يهم ماذا تفكرون أو كيف تنظرون إليّ، المهم أن تفهموا بوضوح أي إنسان كنت، وماذا أردت أن تكون موران. ولا يعنيني بعد ذلك أن تبقوا ضمن قناعاتكم وأفكاركم، أو أن تفهموا الحقيقة».

لا يعرف كيف نام أو متى، ولا يعرف من جاءه أو ماذا قال له. يتذكر آخر كلمة سمعها من وداد. قالت له وهي تحاول أن تضحك وتعطي ضحكتها نوعاً من الفرح:

ـ يا أبو غزوان أنا معك، ولو كنت قريب كان عرفت، لكن لازم تطول بالك.

وحاول أن ينام، ابتلع حبتين من الڤاليوم، ولم يكن الفارق بين الحبة والأخرى أكثر من نصف ساعة، وهذا ما يفعله أول مرة في حياته.

وعندما نام حلم أنه يتعارك مع غزوان. ويتذكر أنه طلب من وداد عدم التدخل، وأنه قال للسلطان أنه سيسافر. ويتذكر أنه قبّل سلمى، وقال لها: يجب أن تصبري يا حبيبتي، لأنه لا بد لنا أن ننتهي من هذه المحنة.

وحالته تراوح بين الانهيار الكامل، نتيجة الحمى والبرودة اللتين تتناوبان عليه كل ساعة، وفترات الصحو القصيرة التي تفصل نوبة عن أخرى.

لا يعرف متى رحل الأمير ومرافقوه، ولا يتذكر أنه رأى وجوهاً يعرفها. صحيح أن الأطياف كانت تحوم حوله، وكان يسمع أصواتاً تخاطبه، لكنه لم يستطع أن يميز شيئاً أو أحداً. حتى في لحظات الصحو القصيرة، حين يفتح عينيه، وينظر حوله، كان أقرب إلى الاعياء والتلاشي، فلا يقوى على التقاط الصور والكلمات، إذ سرعان ما تتبدد وتذوب، ويغرق في الحمى من جديد.

عندما بدأ يستعيد وعيه وشيئاً من قوته لم ير سوى سلمى إلى جانبه. كانت تتحرك بخوف واضطراب، وكانت عيناها حمراوين، تحيط بهما هالات زرق، وللحظات بدت له امرأة أخرى: أكبر سناً وأكثر شحوباً، وكأنها لم تعرف طعم النوم لعدة ليالٍ متوالية.

أخفت عنه دموعها وهي تحدثه. قالت ان أمها وغزوان اتصلا عدة مرات، وأن الطبيب الذي عالجه أكد أنها حالة عابرة سوف تزول بسرعة، وهي من نتائج ملاريا قديمة.

كان يستمع بصمت. يجيل نظراته في الغرفة. ينظر إلى الطاولة الصغيرة بجانب سريره وقد امتلأت بالأدوية. يحاول أن يتذكر كيف حصلت الأمور، أو كم مر عليه وهو مريض، فلا يصل إلى نتيجة. تختلط الوقائع وتفقد ترابطها وتسلسلها، ولا يجد في نفسه الرغبة لأن يسأل، أو لأن يعيد ترتيب الوقائع.

في الأيام اللاحقة زاره السلطان وزيد. زاراه أول مرة معاً، ثم بدأ كل منهما يزوره بمفرده. وبدأت الزيارات أيضاً تتباعد. زاره هانس أورلخت، وأكد له أن الطبيب مطمئن، وتأكد من تشخيصه للحالة باعتبارها ملاريا مزمنة. كان الحكيم لا يفعل شيئاً للرد على الاستفسارات والنظرات إلا محاولة ابتسامة، وغالباً لا يطاوعه فكاه، فيكتفي بهزات رأسه شاكراً وموافقاً.

ولأن لديه وقتاً طويلاً، ولكي لا يشغل نفسه «بالأفكار السوداء»، كما سمى ذكرياته حول حياته الماضية، أخذ يشغل نفسه بمراقبة الحمام أو انتظار أصوات البلابل. كانت هذه المخلوقات الصغيرة الرائعة تملأ حديقة القصر.

ولأول مرة في حياته يكتشف أنه ينتظر أشياء يحبها، وان هذه الأشياء دائماً تلبيه ولا تخيب أمله.

فما يكاد بلبل في جانب من الحديقة يصدح حتى يجيب آخر، بعد لحظات، من الجانب الثاني. كانت هذه الطيور تتبارى في التغريد والإطالة، وكان هو ينتظرها بكثير من اللهفة والشوق. أصبحت تملأ ساعاته الطويلة، وأصبح ينتظرها. وبالغ فتصور أنه يعرفها واحداً واحداً، واسف لأنه لم يحب الحيوانات طوال حياته. أما البشر الذين أحبهم، الذين مدّ لهم يد المساعدة، فلم يبادلوه الحب، بل أكثر من ذلك تخلوا عنه وأساءوا إليه عندما واتتهم الفرصة!

حتى الحصان الذي أهداه للسلطان قبل سنين كان مجرد مقدار من المال، أكثر مما كان شيئاً يحبه ويعتز به. وتذكر بدري المدلل وعصافيره، وكيف غضب وسخر عندما انشغل بها قصر الغدير، وندم أنه قال كلمات قاسية لمحمد عيد.

الآن، خلال الساعات الطويلة، وهو مستلق على سريره، لا يفعل شيئاً سوى تحريك رأسه في هذا الاتجاه أو ذاك، انتظاراً لرؤية زوج من الحمام، أو لسماع صوت بلبل، ثم الرد على الصوت الأول.

عملية فاتنة تعطي للحياة معنى، وللانتظار قيمة، بل أكثر من ذلك تعطي للوقت جدوى، إذ لولا الانتظار الممض الممتع للصوت الذي يحبه لما احتمل الدقائق التي يزوره خلالها زيد. كانت دقائق ثقيلة كثيفة، تشبه الرصاص المصهور، أو حالة الغرق، لا يقوى على احتمالها ولا يعرف إلى متى تستمر. حتى الوقت الذي يقضيه السلطان إلى جانبه كان أقرب إلى المجاملة الساخرة، إذ لا يجدان ما يقوله الواحد منهما للآخر. فما عدا السؤال عن الصحة، ويكون الرد عليه همهمة أو هزة رأس، فإن الصمت يغرق الرجلين.

وسلمى... تلك العصفورة الصغيرة الوحيدة الحائرة، والضعيفة أيضاً، لشد ما تغيرت خلال هذه الفترة. كانت، في فترة سابقة، تملأ حياته بزقزقاتها وأناشيدها. كانت تعرف كيف تتسلل إلى قلبه، ومتى تتشبث برقبته. الآن، وهي تدور حوله، وهي تحمل صينية الطعام أو كوب العصير، حزينة، مملوءة بالخوف. فإذا تبادل معها بعض الكلمات ترتبك، وكأنها لا تفهم ما يقوله، أو تخشى من الخطأ. حالة من الشعور العميق بالاثم، واللحظة اللاحقة لحظة العقاب.

قال لنفسه، وقد تعجب من الفكرة التي خطرت له: «ربما لم يطل نهار الصيف بهذا القدر إلا ليمنح الطيور فرصة أطول للتمتع بالحياة». واستهوته الفكرة، وبدأ يفكر فيها: «الطيور، وكل الحيوانات، تعبد النور، تستحم فيه، تلاحقه من مكان إلى آخر؛ وفي النور تأكل، تطير، تمارس الحب، وتتفلى في ضوئه. فإذا جاء الظلام، أو جاءت الأيام الشتائية القصيرة، خلدت إلى الراحة أو بدأت هجراتها. أما الإنسان فإنه يفعل العكس: ينتظر الظلمة لكي يمارس ما يعتبره جميلاً ولذيذاً، وفي الظلمة أيضاً تتم المؤامرات، وتتغير الدول، وتحضّر الاغتيالات والفتن، بحيث لا يبقى للنهار إلا تلك الأقنعة التي يضعها الناس لكي يخفوا وجوههم وقناعاتهم، والعواطف التي تملأ قلوبهم».

ويسمع صوت البلبل فيمتلئ فرحاً، صوت لا يصدر من حنجرة، ولا

يقوله اللسان، أنه يقال بكل الجسد، بالخلايا ورعشات الدم وصهيل الريش، فيمتلئ الهواء بذلك الفرح اللذيذ الذي ينتقل إلى حبات التراب وأوراق الشجر ورائحة الورد، فيبدو جليلاً كثيفاً، وكأنه يصدر من الطبيعة كلها، وليس فقط من هذه اللهاة لذلك الطير الصغير.

ما كادت بضعة أيام أخرى تمضي حتى أصبح الحكيم قادراً على النهوض من الفراش والتمشي في الغرفة. قال لنفسه، في اليوم الأول، بعد أن أحس بالإعياء: «جسد الإنسان شديد العطب، يحتاج إلى سنين لكي يُبنى، ولا يتطلب أكثر من أيام لكي ينهار».

في الأيام التالية أصبح يقضي وقتاً إلى جانب النافذة، وخلال ذلك الوقت، وبالإضافة إلى متابعة «نشيد الحياة» كما أصبح يطلق على تغريد البلابل، أخذ يفتّ على الحافة البارزة للنافذة قطع الخبز، لعله يغري الطيور بزيارته، ولم يخب أمله، ولم تتأخر عليه في الزيارة! كان الحمام يملأ الحافة ويتدافع فوقها. أصبحت هذه تسلية جديدة: أن يراقب الطيور، أن يتابعها. ود في أعماقه لو أنه لم يبدّد حياته في ذلك الركض من مكان إلى آخر، إلى أن انتهى في تلك الظهيرة البائسة وبذلك الشكل المذل. لو أنه صرف حياته، عوضاً عن الركض البائس من مكان إلى آخر، إلى مراقبة الطيور، والعناية بها، لكان ذلك أجدى له وأنفع. لكن كل شيء يبدو الآن متأخراً، ودون جدوى. قال لنفسه، وهو يرتفع قليلاً في الفراش: لكي يرقب زوجاً من الحمام، وكان متأكداً أنهما ذكر وأنثى، وكانا، من خلال الركض والمداعبة، يستعدان لفعل شيء ما، وفي الهواء الطلق، تحت أشعة الشمس: «أكبر أحمق في هذا الكون هو الإنسان، وأنا أكبر الحمقى في البشرية، لأني لم أفعل الشيء المناسب في الوقت المناسب». أما عندما رأى الذكر يعتلي الأنثى، ويمسك مؤخرة رأسها بمنقاره، ويتمرجح بتلك الطريقة اللذيذة الأخاذة، فقد أحس بالنشوة والألم، وحينما نفضا جسديهما وطارا، هبط الحكيم في سريره شيئاً فشيئاً، وقد سيطر عليه الألم وحده!

هكذا كان يقضي أيام النقاهة، ولم يكن مستعجلاً انتهاءها. بل كان على يقين أن وداد وغزوان سيأتيان قبل أن تنتهي. وعلى الرغم من تصميمه أن لا يسمم دمه في تذكر الأشياء التي حصلت، فقد كان عازماً على أن لا يفكر بالمستقبل أيضاً «ليتحملوا مسؤولياتهم، وليقرر كل إنسان ما يعتبره أكثر ملاءمة له» هكذا يقول ليقنع نفسه، فإذا تذكر السلطان بالذات، أو سمع جلبة تبديل الحرس، مع صوت زيد الهريدي الآمر، فكان يقول: «ليتنزعوا أشواكهم بأصابعهم، ولنرقب لنعرف النتائج».

سلمى، بين يوم وآخر، تبلغه أن أمها وغزوان اتصلا، وأنهما يسألان عنه ويسلمان عليه، ولا تضيف شيئاً. وفي المقابل يسمع ولا يرد، كما لا يسأل. يهز رأسه وينتظر، مع ابتسامة صغيرة تشي بالحزن، لكن إزاء حزنها وحيرتها لا يستطيع أن يواصل حزنه أو أن يعبر عنه.

في أوائل تموز، وقد تماثل للشفاء، إذ نزل إلى الحديقة عدة مرات، وأخذ يتمشى فيها خلال الأوقات التي يقدر أن الآخرين في غرفهم، أو غائبون أو مشغولون بأمورهم الخاصة، في هذا الوقت، وبشكل مفاجىء، وصل خمسة من أبناء السلطان خزعل، ووصلت عدلة أيضاً، إضافة إلى عدد من الرجال والنسوة. ومثلما فوجىء بوصولهم، فوجئت سلمى أيضاً، وقد أجريت عدة تبدلات في القصر، من أجل استقبال الضيوف، ولم يعرف ما إذا كان هؤلاء جاءوا بزيارة قصيرة، أو جاءوا ليبقوا.

قال الحكيم ليهدىء من مخاوف سلمى:

ـ زيارة كم يوم، مثل زيارة الأمير.

وحين قلبت شفتها دلالة عدم المعرفة، قال بنبرة جديدة:

ـ وأمك، الله يصلحها، راحت وغابت، ولا كأن ورانا ألف مشكلة.

ومثلما تغير القصر بزيارة الأمير مجحم فقد تغير هذه المرة أيضاً. ومثلما قضى السلطان خلوات طويلة مع أخيه، فقد فعل أيضاً مع أولاده. وإذا كان الحكيم توقع دوراً في الزيارة السابقة، وانتظر، ثم سقط مريضاً، فإن سلمى لازمت غرفتها لا تغادرها، ولا تعرف هل تفرح أم تغضب أم

تبكي. كانت أقرب إلى الارتباك والحزن، وإن شعرت بالراحة لأن أحداً لم ينشغل بها ولم يسأل عنها!

بعد ليلة طويلة لم ينم الحكيم خلالها إلا كما ينام الذئب، وقرر أن يتعافى بسرعة، لأن عليه مسؤولية «الطفلة» كما أصبح يسمي سلمى بينه وبين نفسه، قرر أنه يستدعي وداداً. قال لنفسه بحزم: «يجب أن تأتي، جاء غزوان أو لم يجئ، لأنها وحدها التي تستطيع أن تقف إلى جانب الطفلة وتساعدها وتحميها».

ومع أضواء الفجر بدأ يحاول الاتصال. بعد عدة محاولات، لم ينقصها الإصرار والمثابرة، تحدث إلى غزوان. فوجئ غزوان بصوته، أو هكذا قدر الحكيم. وبعد لحظة المفاجأة، حاول أن يعبر عن فرحه واعتذاره في آن واحد، فرحه بشفائه، واعتذاره أنه فضّل الحديث مع سلمى، إذ أبلغتهم أن ذلك أنسب. والحكيم الذي بدا متماسكاً، وتقبل الاعتذار، كان مشغولاً بأمر آخر: بعودة وداد. في لحظة مناسبة طلب أن يكلمها.

كانت وداد، على الطرف الآخر، شديدة اللهفة. أكدت أنها مرضت بمجرد سماعها بمرضه. وقالت ان قلبها عنده في الليل والنهار. وسألت باهتمام ما إذا شفي تماماً أو يشكو من شيء. وأكدت أنها كانت قلقة، وقد عافت الأكل والنوم، إلى أن طمأنتها سلمى، وأقسمت لها «أن البابا بألف خير»!

استمع إليها ومشاعره بين الحزن والفرح. حزن لأنه كان في هذا الوضع، وفرح لأن في الدنيا ما يزال من يسأل عنه ويقلق لمرضه. تمنى لو كانت إلى جانبه أثناء المرض، لو أنها موجودة لشفي في وقت أقصر. وتذكر كيف ظل يردد على مسامعها، حين تتعرض لتلك الحالات المرضية في موران، أن الصحة والمرض يتعلقان بالإرادة أكثر مما يتعلقان بالجسد.

ما كادت تنتهي حتى قال لها بطريقة أقرب إلى الهمس:

ـ لازم ترجعي بسرعة يا وداد، لأن رجعتك ضرورية، فهمانة؟

سألت باضطراب:

ـ خير إنشاء الله؟ في شي؟

وبعد قليل، وبنفس الاضطراب:

ـ أنت.. بعدك مرضان؟ في حدا مريض؟

ـ لا يا وداد، الصحة ماشي الحال، لكن في أشياء ثانية.

ـ خير؟ خير إنشاء الله؟

ـ الله يجعلك بخير، بس تصلي بنحكي.

ـ خبرني يا أبو غزوان، شوشت بالي.

قال بنفاد صبر:

ـ المهم وجودك، يا وداد، لازم تجي بسرعة.

ردت في محاولة لئلا تلتزم بشيء:

ـ احكِ مع غزوان يا أبو غزوان.

كان غزوان واضحاً وحازماً:

ـ أنا مقدر ظروفك، يا بابا، وكانت رغبتي أن تكون معنا حتى نحكي، وإذا كان هذا الشي ما حصل حتى الآن، إنشاء الله يحصل في أقرب وقت.

توقف لحظة، ربما نظر إلى أمه أو تشاور معها. هكذا قدر الحكيم، ثم تابع:

ـ أنا يا بابا مسافر بعد بكرة إلى موران. عندي هناك أشغال ضرورية، والحكومة طلبت مجيئي بسرعة للتشاور، وأنت تعرف القضايا اللي ارتبطنا بها، ولازم ننفذها، وهذا امتحان لي وللشركة، ولازم ننجح.

وضحك بطريقة معينة وأضاف، وبدا صوته مختلفاً:

ـ وسمحت لنفسي، يا بابا، أن أتخذ قراراً نيابة عنك: سترافقني الوالدة إلى موران، لأنك تعرف أن غيبتنا كلنا، ولفترة طويلة، مضرة، ويمكن أن تُفسّر وتستغل، فلازم نشوف كيف نرتب أمورنا هناك.

ورغم أنه تحدث مع وداد مرة أخرى، وأشار إلى وصول عدلة، ولا

يعرف ما إذا جاءت بزيارة أو للإقامة، وبالتالي من الضروري مجيئها، ويمكن أن تؤجل زيارة موران إلى وقت آخر، فقد أكدت أن ذهابها إلى موران ضروري «لأن غزوان من رأيه أن أروح معه، وهو مو كل يوم رايح» وسوف لن تتأخر. وتركت لغزوان أن يحاول إقناعه، أو التغلب على ممانعته.

قال له غزوان بمرح:

ـ الأحسن، للكل، أن تسافر الوالدة معي يا بابا، خاصة وأني سأقابل السلطان فنر، ويمكن أن نحكي بموضوعك وننهيه.

اختلطت مشاعر الحكيم واضطربت. لأول مرة يسمع اسم فنر مسبوقاً بلقب السلطان، ولأل مرة يبدو صغيراً بنظر نفسه. قال لغزوان بحدة:

ـ اسمع يا غزوان: إذا رحت لموران فاترك موضوعي، لا تبحثه مع أحد، لأني قادر بنفسي على معالجته.

ضحك غزوان في محاولة لأن يطوق غضب أبيه، ثم تابع:

ـ بسيطة يا بابا، وإنشاء الله ما يصير إلا الخير.

أصيب الحكيم بالانهاك، ووجد أنه عاجز عن الاستمرار في المناقشة. ولما لم يجد شيئاً يقوله، فقد رد بحزن:

ـ طيب. . طيب يا غزوان.

ولكي لا يترك غزوان لأبيه فجوة، فقد قال بلهجة مرحة:

ـ راح ابعث لك يا بابا مساعدي ومعه رسالة، وراح تفهم منه كل شيء.

طلب الحكيم أن يكلم وداد من جديد.

ـ وإذا سافرت متى راح ترجعي؟

ـ ما راح أطول يا أبو غزوان.

ضحكت بطريقتها، وسألته:

ـ توصيني على شيء، يا أبو غزوان؟

ـ أبداً. . أبداً، يا وداد، بس ديري بالك على حالك ولا تطولي!

وصول الأميرة عدلة، زوجة السلطان، وعدد من أولاده، إلى بادن بادن غيّر الكثير.

الأيام الأولى لهفة وشوق، وشكر لله أن الجميع ما زالوا أحياء، وأنهم استطاعوا النجاة، «وكل شيء، ما دام الإنسان حي، سهل» والحمد «لأن طويل العمر بالصحة والسلامة، والأشياء الثانية يجي وقتها».

بدا السلطان خلال هذه الأيام أقوى وأكثر ثقة، أما الأسئلة التي وجهها للقادمين فكانت بمثابة اختبارات حذرة، إذ لم تتعد معرفة كيف وقعت الأحداث، وكيف عرفوا بها، وأين كانوا، وماذا كان رد الفعل، وكيف استقبل الناس هذه التغيرات.

في الأيام التالية كان حريصاً على معرفة أدق التفاصيل، وحريصاً أكثر على معرفة موقف كل فرد. سأل عن موقف حامية القصر، وعن الضباط، وجهاز الأمن والسلامة التابع للقصر. ولم ينس السؤال عن موقف الحرس الخاص، وعدد من المرافقين والخدم. ومن اتصل بالقصر ومن زاره.

الأميرة عدلة والأولاد، واشترك أيضاً بعض المرافقين، أجابوا عن الأسئلة بدقة كبيرة، وأوردوا تفاصيل لا نهاية لها، كما أجابوا أيضاً عن أسئلة افترضوا أنها تهم السلطان. ورغم الاختلافات والمقاطعات، وما تخللها من طرائف أو ردود فعل، كتخزين المياه والطحين، وإغلاق الأبواب الداخلية بمفاتيح وأقفال، ونوبات الحراسة التي باشرها الجميع خلال الأيام الثلاثة الأولى، بما في ذلك النسوة، وعلى مدار ساعات الليل والنهار. . . هذه التفاصيل التي عرضت رافق بعضها ابتسامات أو نظرات

أقرب إلى التحذير واللوم، خاصة من الأخوة الكبار، أو من المسنين، لمن هم دونهم!

بعد أن أصبح السلطان ملماً بكل هذه التفاصيل، وأخرى غيرها، وعلى دراية بمواقف معظم الذين كانوا يحيطون به، أو بالآخرين، وفي الليلة الرابعة أو الخامسة لوصول هؤلاء، وفي الصالة الكبيرة، في الطابق العلوي من القصر، وكان أغلب الذين وصلوا يتحلقون حوله، قال السلطان بصوت عميق:

ـ من الآن، وبعد اللي صار، وبعد اللي شفناه، يلزم الواحد يفتّح عينه، ويلزم يعرف كيف يختار رجاله، ولمن يعطي سره!

وزفر مثل جمل وأكمل:

ـ وإذا الله ردنا بالخير والسلامة، يلزم نتذكر كل شيء، لأن مثل هذا الدرس يعلّم اللي ما يتعلم.

وحين خيم الصمت، ولا أحد يعرف كيف يواصل الحديث، وقد مرت صور كثيرة في ذاكرة السلطان، أضاف بلهجة حانقة أقرب إلى الغضب:

ـ يا جماعة الخير.. ما تركنا أحد منهم إلا ونشدناه: شلون تشوف الأحوال يا فلان؟ شلون رضا الناس وراحتهم؟ وكلهم يحمدون ويشكرون، وإذا زادوا يقولون: أحسن من كذا أبد ما تلقى يا طويل العمر.

وبعد قليل وهو يهز رأسه بلوعة:

ـ حتى فنر لما نشدناه، وفتح حلقه، قال: «الأمور بخير، والدنيا بخير، وحنا شاكرين، وما نريد أي شيء». وأنا، بكل نية طيبة. أسأل: أخاف تكونون محتاجين شي يا جماعة الخير؟ أخاف تريدون شي؟ ويقولون «سلامتك يا طويل العمر، وإنشاء الله دايم فوق روسنا يا طويل العمر». وراح يوم، وجا الثاني، ويا غافل لك ربك، أثاريهم من ورا ظهري يدبرون ويتآمرون. وبعدني ما ركبت وطرت إلا ودق الطوب، وصار اللي صار!

وزفر، وخرج صوته خشناً، لكنه بطيء:

ـ ما يخالف، الواحد يتعلم، ويجي يوم ونتحاسب. يجي يوم ونتواجه، وإذا بيهم حيل ومرجلة خلهم يبيّنون!

قالت روفة، خادمة الأميرة عدلة، بصوت خافت، لم يسمعه إلا من كان حولها:

ـ أخاف ما يجي هذا اليوم!

التفت السلطان ناحية الصوت، وسأل:

ـ شنهو اللي قلتيه؟

ـ سلامتك، طال عمرك، ادردم ويّا نفسي!

هكذا ردت روفة، وقد تملكها الخوف. قال زيد الهريدي، وخرج صوته من بين أسنانه:

ـ جماعتنا، اللي أمناهم، يا طويل العمر، هم اللي خانونا، نكثوا بنا.

قال شايع السحيمي بعصبية:

ـ يا زيد، هذي ما هي سالفة يوم واثنين، هذي تدبير سنين. والجماعة هناك كانوا ينتظرون طويل العمر يمشي حتى يسووا فعلتهم. ومن المؤكد أنهم رابطينها من مشرّق لمغرّب، وإلا ما نجحت وصار اللي صار.

ـ وجماعتنا، يا شايع؟ وين جماعتنا؟

ـ جماعتنا، يا زيد، بين اللي شروه، وبين اللي سحروه ودوخوه. واللي ما انشرى وما داخ تنبل ما يدري كوعه من بوعه، أو نايم نومة أهل الكهف.

تلفت زيد في أكثر من اتجاه، يريد مؤيداً أو حليفاً. تابع شايع السحيمي دون أن يأبه لنظرات زيد:

ـ ويلزم نعترف، يا زيد، ومثل ما قال طويل العمر: حنا كنا نايمين على حرير، فصدقنا كل اللي ينقال لنا، كل اللي نسمعه، ولا هو ببالنا أن

فنر وغير فنر يغزلون بالليل والنهار، ويركضون من هنا لهنا يدبرون ويتآمرون.

ـ حطينا كل ثقتنا بحماد، يا شايع، بحماد وأمثال حماد، وأثاري هذول اللي جانا منهم البلا، هذول اللي يقولون الدنيا بخير والناس راضية. كانوا يريدونا نصدقهم، وصدقناهم. وبعدها تدردبت المصايب فوق روسنا.

قال السلطان بحقد:

ـ والله. . . والله إذا ظفرت بابن هالحرام حماد، لا خليه يشتهي الموت وما يحصلّه!

وبعد لحظات صمت طويلة:

ـ كل يوم والثاني يجيني: «تقارير الجهاز، يا طويل العمر: الناس شبعانة وراضية، والدنيا بألف خير». وأنا أقول له: يا حماد، فتّح قلبك قبل ما تفتح عينك، لأن هذي موران ما ينحزر عليها، وناس موران ضحكتهم شبر، والخنجر تحت البشت، فإذا سهيت عنهم دقيقة غدروا بك. ويجاوب حماد ويقول: «حنا تحرينا وتأكدنا يا طويل العمر، وما يكون لك فكر» ولما وقعت الواقعة أثاري حماد براس القايمة، وهو، بعد فنر، أبوها وأمها!

ووقف السلطان بعصبية. مشى خطوتين، وكان بادي الانفعال، ثم عاد بسرعة وكأنه لام نفسه، وبعد أن هدأ قليلاً، قال كأنه يكلم نفسه:

ـ القضية، يا جماعة الخير، أكبر من حماد، وأكبر من فنر. . .

وبعد قليل:

ـ لكن بسيطة، تهون، والله كريم.

قالت عدلة بصوت رخو، أقرب إلى التشفي:

ـ حنا ثارنا عند اللي خانونا، عند فنر وحماد. . .

وأضافت وهي تبتسم ابتسامة صغيرة:

ـ وأمثالهم!

والأميرة عدلة حين تتحدث بهذه الطريقة، فإن دلالة كلماتها لا تخفى، أكثر من ذلك تحرض الجميع لأن يلتفتوا إلى العدو القريب، العدو الذي يستطيعون أن ينتقموا منه، بدل الالتفات إلى موران البعيدة.

سأل مجلي، أكبر الأبناء الذين وصلوا:

ـ من تقصدين؟

ـ ردت بنفس اللهجة الرخوة:

ـ يا وليدي.. من هو حماد، بليا اللي جابوا حماد، اللي حموا حماد؟

رد السلطان بغضب:

ـ أنت يا عدلة مالك شغل بهذي السوالف، خلي الرجال يتكلمون!

قالت وكأنها لم تسمع:

ـ والخوف ما هو بس من اللي صار وجرى، الخوف، هالحين، من اللي حايفين حولنا، وإذا نام الناس ما ينامون!

ولم يتأخر السلطان في أن ينهض، إيذاناً أن الحديث انتهى، قال وهو يمشي:

ـ ما هو كل اللي ينعرف ينقال، وحرام أن الواحد يجرب سلاحه بميت.

كان السلطان واضحاً في رده على الذين يفترضون أن الحكيم وراء كل ما حصل. لم يرد أن يسميه، لأنه يعرف أن لا أحد معه أو يمكن أن يدافع عنه.

في الليل المتأخر، وقد ترك السلطان جناحه وجاء ليقضي باقي ليلته عند عدلة، قالت له، وكانت أكثر وضوحاً وحزماً:

ـ كل البلاوي، يا طويل العمر، جتنا من هذا خويك، الحكيم. هو اللي يفتي وهو اللي يحكي. مهفهف ومحفحف، وما يندري يفتي لإبليس أو لرب العالمين، وما ينعرف شنهو اللي بباله وشنهو اللي يريده.

ولأن السلطان كان متعباً، ومستعداً لأن يسمع كل شيء، دون قدرة أو رغبة في الرد، تركها تتكلم:

ـ وإذا لنا أمل، والحظ ساعدنا، يا طويل العمر، ورجعنا؛ وإذا الناس بعدها تحبنا وتريدنا، فأول شي تسويه أن هالإبن الحرام يتركنا، يكفينا شره، لأنه من يوم ما شفناه، ما شفنا الخير، ومن يوم ما عرفنا، وقال: أنا خوي السلطان، الناس تحكي وتقول. فشوري عليك، يا بعد قلبي وعيني، وشرهتي منك، أن تتركه، وأن تقول له: هذا حدّك ويانا، وبعدها تشوف شلون الخير يجيك!

رد السلطان برخاوة:

ـ أنت ما تعرفين الناس، يا بنت الحلال!

ماءت بضحكتها مثل قطة، وتساءلت:

ـ أنا ما أعرف الناس؟

ـ أنت ما تعرفين شي!

اقتربت منه كثيراً، أطفأت النور، وهمست:

ـ ما يخالف، أنا ما أعرف، بس أنت، بروحك، راح تشوف!

ويزداد القصر في بادن بادن اضطراباً. فأولاد السلطان، الذين كانوا صغاراً في موران كبروا فجأة. كبروا من الهزيمة ورغبة الانتقام، ولأنهم حملوا مقداراً كبيراً من المال، خاصة من الذهب والمجوهرات، ولأن الأميرة عدلة، أيضاً، أصبحت امرأة أخرى!

فما كادوا يتأقلمون مع الجو الجديد، حتى أصبحوا أكثر جرأة، وأكثر وضوحاً.

قال مجلي، وهو الابن الرابع للسلطان، والثاني لعدلة، قال لأبيه:

ـ لي كلمة معك، يا طويل العمر، وأريدك ما تزعل مني.

فوجئ السلطان، فقد كان يعتبر مجلي خجولاً، قال وهو يضحك:

ـ أي يا وليدي، أريدك تسولف، لأن موران وناس موران نسّوا الواحد صلاته، وما خلونا نشوف بعضنا زين، ولا سولفنا.

خجل مجلي وكاد يتوقف أو يعتذر، لأن ما لديه ليس الحديث الذي يفرح، أو يقيم حواراً أو علاقة، إلا أن نظرات السلطان المستطلعة، المشجعة والدافقة، جعلته يواصل:

ـ يجوز كلامي، يا طويل العمر، ما يعجب، بس يلزم أقوله، ويلزم تعرفه.

ـ قل يا وليدي، ولا تخف.

ـ ما ظل أحد بموران إلا وقال لي: بعد ما تبلغ طويل العمر السلام، تقول له هذا خويه، نسيبه الجديد، إذا تركه اليوم قبل باكر أخير له وأحسن.

ـ شلون يا وليدي؟

ـ ما أدري، طال عمرك، بس الناس تقول أنه أصل المصايب.

رد السلطان بهدوء، وهو يكظم غيظه:

ـ يا وليدي المصايب من الله، ما هي من العبد، وكلام الناس واجد، وما أريدك تصدق كل ما تسمعه.

ـ موران ما عندها سالفة إلا الحكيم، يا طويل العمر، والناس يقولون: كل اللي صار لأن السلطان ناسب الحكيم.

ـ اللؤم ذابح الناس، يا وليدي، والحسد عامي عيونهم وقلوبهم، ويلزمك تعرف: لا أحد يرضي الناس، حتى لو شعلت لهم أصابعك شموع.

قال مجلي بانفعال:

ـ حتى أعمامنا يقولون: لو أن السلطان ما حط يده بيد الحكيم، لو ما ناسبه، كانت الأمور ما وصلت هالمواصيل.

ـ أعمامك، يا مجلي، يا وليدي، يدورون حجة، ولأنهم ما لقوا، حطوها براس هالمسخوط...

وبعد قليل وبحنق:

ـ بنفسي لو واحد منهم جاني، واجهني وقال لي: ما نريد فلان، حنا ما براضين عن فلان. لكن أبد. الكل يحمدون ويشكرون، والكل يقولون: الحكيم، أبو غزوان، ما مثله لا بالهند ولا بالسند. لكن بعد ما سووا سوايتهم يريدون حجة وسبب، فقالوا: الحكيم!

وزفر فخرج صوته حاراً مديداً:

ـ يا وليدي القضية أكبر وأكبر من الحكيم. ولو ما كان هو لقوا غيره. المهم: ان يخلصوا من أبوك يا مجلي. هذول طالبين ملك وحكم، وهذا اللي يريدونه، والحجة دايماً موجودة وسهلة.

ـ لكن حنا، يا طويل العمر، عطيناهم السكين اللي ذبحونا بها.

ـ مثل الذيب والعنز، يا وليدي، إذا شربت العنز من راس النبع أو من

حدر السيل عكّرت الماء على الذيب ويلزمها تنذبح، هذي هي سالفتنا مع أعمامك يا مجلي، وكل كلام غير هذا لا تصدقه، لا تشيله من أرضه، لأنه ما هو بصحيح.

وانتهى الحديث مع السلطان، هذه المرة، عند هذا الحد. أما مع آخرين فقد أخذ شكلاً مختلفاً.

ولأن مجلي الأخ الأكبر بين الذين وصلوا من أولاد السلطان، ولأن المال ظل معه، وقد تم الاتفاق على ذلك بينه وبين أمه، فقد أصبح يوماً بعد آخر، بعد أن تعود على الجو وطرق المواصلات، وعرف الذين يحيطون بالسلطان، أقوى الأشخاص، والذي يقرر في أمور كثيرة.

كان مجلي طويلاً مثل أبيه، وماكراً مثل أمه، أما حدة الطبع التي كانت تميز بعض مواقفه، فتعزوها الأم إلى داء المرارة الذي ورثه عن عمه فنر! كان خجولاً أقرب إلى الانطواء، لكنه يمتلك تأثيراً خفياً على الآخرين، وقد لاحظ ذلك أبوه منذ وقت مبكر، ثم جاء من أكد له ذلك. وإذا كان قد أهمله، أو انشغل عنه في موران، فقد أصبح الآن شيئاً مختلفاً. ولذلك بذل معه جهداً كبيراً. قضى وإياه ساعات طويلة، كانا يتمشيان ساعات في الحديقة الخلفية كل يوم، صباحاً وعند الغروب. كما أسر لعدلة أن تبذل معه جهداً خاصاً. ومجلي الذي يدرك جزءاً من اللعبة، ويحس أن معاملته اختلفت عن السابق، بدأ يشعر بالثقة والقوة معاً، تخلى عن خجله، أو عن جزء منه على الأقل، وأصبح يهيّئ نفسه أن يكون الأقوى في قصر بادن بادن.

قال لزيد الهريدي في اليوم الثالث، بعد ذاك الحديث مع أبيه:

ـ وأنت، يا عم زيد، طويل العمر يسرّك ويسمع منك...

فتح زيد عينيه وابتسم، وقد تقدم بوجهه وبجزء من جسده ليعرف بقية الحديث:

ـ والجماعة بموران وصوني وقالوا لي: ما دام الحكيم هو اللي يفتي ويشور ترى السلطان ما يرجع!

دمدم زيد بكلمات غير واضحة، لكن لا تخفى دلالتها كشتيمة. ولو لم يكن يريد أن يعرف أكثر، فلا ينساق لعواطفه، لواصل شتائمه. لكنه كتم غيظه، نظر بتحديد إلى مجلي، وسأل:

ـ وشنهو بعد اللي قالوه بموران؟

ـ السوالف كثيرة يا شيخ، بس الكل يقولون أن الحكيم أصل المصايب، وأول شيء يلزم يصير ويتسوى، أنه يمشي، يفارق.

ـ هذا الكلام ما يوكل خبز، الله يسلمك، إلا إذا كان كلام فنر أو واحد مثله.

وبعد قليل وبمكر:

ـ من هو اللي قاله؟

ـ قاله لي الدريعي، وأنت تعرف علاقته بعمي فنر. قاله لي قبل السفر بيوم.

ـ وبعد شنهو اللي قاله؟

ـ هذا اللي قاله.

ـ وهذا رأيه أو رأي صاحب قصر السعد؟

ـ ما أدري يا شيخ زيد، بس هذا الكلام من راسه لراسي.

قال زيد، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هذا الخرندعي، الحكيم، سالفته هينة، الله يسلمك، نقدر نهججه، إذا ما هو اليوم اللي عقبه، نخوّفه، نسلّط عليه الجماعة...

ابتسم، وتطلع بتحديد إلى مجلي، ثم أضاف:

ـ بس اللي ما يندري عنه علاقة طويل العمر ببنته...

وابتسم أكثر، وكأنه اكتشف الحل. قالت ذلك تعابير وجهه كلها:

ـ إلا إذا الوالدة ساعدتنا!

التفت إلى أكثر من جهة، وبعد قليل بهمس متآمر:

ـ ومثل ما زوّجته من قبل، ومثل ما كانت تجاوبه: أطلب وتمنى، إذا قال: حنّيت واشتهيت، وواحدة تجي وواحدة تروح، فإذا طال عمرها بعثت على فلانة وفلانة، وواحدة بعد الثانية، وهي تعرف من، ترى تصير سالفتنا سهلة! يوم والثاني ما تشوف الحكيم إلا حمّل ومشى!

قال مجلي بانفعال:

ـ أترك هذي القضية عليّ.

ـ إذن سالفتنا، الله يسلمك، خالصة.

لم تكن عدلة تحتاج إلى من يطلب منها، أو من يحرضها على أداء مهمة من هذا النوع، فقد بدأت المهمة قبل أن تبدأ. وإذا كانت قد خبرت السلطان طوال السنين السابقة، وعرفت مزاجه، كما قامت بتزويجه المرة بعد الأخرى، فقد كانت هذه المرة غير متأكدة، ولا تعرف لماذا يبدو السلطان ضعيفاً مأخوذاً هكذا.

قدّرت أن لا غنى له عن الحكيم، لأن الأدوية التي تزداد وتتنوع بين فترة وأخرى، هي التي تجعل السلطان يشعر باستمرار الشباب، لكن لا يفسر هذا السبب شدة تعلق السلطان به، لأن مل هذه المهمة، وهذه العلاقة، ليس جديداً. واستعادت عدلة، في ذاكرتها، الدعوات التي وجهت للسلطان، والزيارات التي قام بها لبيت الحكيم أو في المليحة، وتساءلت ما إذا وضع له سحراً في الأكل الذي تناوله فغيّره؟ وشكّت في أن يكون سحر وداد لهذه الدرجة من القوة والاستمرار. وهذه الفتاة الصغيرة، الأقرب إلى اللعبة، هل تملك من البراعة والمعرفة ما يجعلها تؤثر عليه إلى هذه الدرجة؟ تتذكر كيف ابتسمت وداد حين نبهتها لليلة الدخلة، كانت الابتسامة الساخرة تقول: لا عليك، نعرف كل شيء، وسلمى مستعدة لكل شيء!

والآن، في بادن بادن، وبعد أن انقضى شهران على الزواج، وحين تتطلع عدلة إلى الاثنين، تجدهما مثل الحبال المبلولة: رخوين، مأخوذين، ولا يملاّن.

تريد الأميرة عدلة أن تكتشف هذه الفتاة ـ اللعبة، من جديد، ومدى تعلق السلطان بها، إذا جاءت غيرها.

بدت سلمى مثل طالبات المدارس الداخلية: خجولة، مؤدبة، وبعض الأحيان شديدة الارتباك؛ أو كأنها ابنة الجيران التي جيء بها للاختبار، دون أن تدري ودون أن تستعد. كانت تتحرك بخفة، تبتسم للجميع، وفي بعض اللحظات تحتار وتكاد تبكي لأنها لا تعرف ما يقال، أو لا تعرف هل هذا الذي يقال هو سؤال أم ثناء أم شيء لا يقع تحت أي من هذه التسميات!

قالت عدلة لنفسها، وقد سيطرت عليها الحيرة: «الرجال يعرفون أشياء كثيرة في هذه الحياة، ولكنهم لا يعرفون المرأة. أنهم يتصورونها كما يتمنون أو كما يحلمون، والغريب أنهم غير قادرين على أن يروها على حقيقتها، رغم أنها تكون عارية بين أيديهم». توصلت إلى هذه القناعة، وهي تنعم النظر بهذه الطفلة الغرة، والتي لا تملك إلا مقداراً ضئيلاً من اللحم على ردفيها.

سألت خادمتها روفة بسخرية:

ـ ما تقولي لي يا مسخوطة: هذي لعابة أو آدمية؟

ورغم أن روفة تعرف عمن تسأل سيدتها، فقد تساءلت ببلاهة:

ـ عمن تسأليني، يا عمتي؟

ـ عن المصّبغة المعظّمة، اللي البس ياكل عشاها وهي تناظره وما تقول له: بس.

ـ تلحق وتصير، يا عمتي، ويصير عليها لحم ما دام عظمها زين.

ـ عظمها زين؟ الله لا يخلي فيك عظم سالم!

تضحك روفة، وبعد قليل:

ـ حزري عليها، يا عمتي، أنها آدمية وبنت حلال.

ـ وبعد؟

ـ ضحكتها تشفع وخدها يلمع، ويا أسنانها نظم اللولو. . .

ـ وبعد، يا بنت الحرام؟

ـ إذا هذا الكلام ما يعجب ستي، عندي غيره كلام!

كانت روفة امرأة ضخمة، ثقيلة الحركة، أقرب إلى البطة إذا مشت، وأقرب إلى الحصان إذا فتحت حلقها. تعرف كيف تسخر، وكيف تضايق، ولولا خفة دمها، وتحملها للشتائم، وبعض الأحيان للمقالب، لما استمرت.

ما كادت بضعة أيام تمر، وعندما تأكدت أن سيدتها تريد التخلص من هذه الوافدة، حتى بدأت:

ـ راح أدبي عليها، يا ستي، ومنها كلمة ومني كلمة ونشوف!

ومن خلال الأسئلة والاستفسارات، أو وهي تنظر إليها تقيسها، مع الابتسامة، التي تقع عند الحد الفاصل بين السخرية والطيبة، تبدأ رحلتها اليومية مع سلمى.

وفي إطار الاختبار اليومي، والذي لم يطل، وبعد أن سألتها بطريقة لا تخلو من عهر، كيف تستلقي، وكيف يأتيها السلطان، وعن أعضائها وأعضائه، وهل تستمتع ومتى، ومن قبل الآخر، وهذه الفتاة المرتبكة الخائفة لا تعرف هل تجيب أم تبكي أم تهرب. بعد هذه الجولة من الاكتشاف والاستطلاع توصلت إلى الطريقة المناسبة للتعامل.

بدأت عشرات النظرات الساخرة تطاردها، وبدأت همسات الخدم تلاحقها. ومهما حاولت أن تهرب، أن ترابط في غرفتها، فقد كانت أصوات «الجيش» الذي وصل من موران تصلها، تقطع عليها الطريق، تقتحم غرفتها، وبعض الأحيان، بحجة الخطأ أو السؤال عن شيء من الأشياء!

وسلمى التي كانت ترتبك أصبحت الآن تعيش في حالة من الفزع الدائم. كانت تغلق على نفسها الغرفة من الداخل. فإذا دعيت لتناول الطعام توافق مرة وترفض مرات، فإذا جاءها السلطان ووجد الباب مغلقاً،

وترفض الاستجابة للدقات، إلا إذا عرفته وتأكدت بعد أن أصبح الباب يدقّ بعدد أرباع الساعات فقد توتر الجو، ووصل إلى حد الخطر.

وعدلة المرأة التي لا يمكن أن يحزر أحد عمرها، ولا يعرف إن كانت أماً للأولاد الذين حولها أم أختاً كبيرة، استطاعت خلال أيام قليلة أن تتغير تماماً، وربما بتأثير الجو والرطوبة. فالوجه القاسي الذي رافقها من موران، وزادته الزرقة، خاصة حول العينين، نتيجة التعب وقلة النوم في الأيام التالية، ما لبث أن استراح وتغير، بعد أن استخرجت من حقائبها مجموعة من النباتات، فاغتسلت ببعضها، وصبغت شعرها ببعضها الآخر، وتبخرت بقسم ثالث، فبدت امرأة مختلفة تماماً، حتى بنظر السلطان! ورافق ذلك أيضاً نوع من المرح والأحاديث خلقتها الحالة النفسية بهدف نسيان وتجاوز المصاعب التي كانت تواجه الجميع.

بهذه الطريقة البدائية الماكرة تولد جو أنعش السلطان، أصبح أكثر استعداداً لأن يصدق ما يقال له عن الحكيم أولاً، ثم عن «اللعابة» «أم وزنة ونص» كما أصبح يطلق على سلمى. أما حين نقل إليه ما قالته روفة، وقد استدعتها عدلة، لتقول له بلسانها ما سمعته منها عن رائحته وقسوته وثقل جسده، وكيف أنه يستعمل أسنانه ولسانه، وأنها تتأذى من ذلك ولا تتحمله، ثم امتناعها عن فتح الباب له متعمدة، رغم أنها تعرف دقاته، فقد تأكد أن أيامها معه أوشكت أن تنتهي.

صفاء الشلبي ليس مجرد مساعد لغزوان، انه أخ شقيق: الشبه، المرح، التعلق بالحياة، إضافة إلى اللياقة الاجتماعية. يعرف أدق التفاصيل المتعلقة بعائلة المحملجي، وكأنه أحد أفراد هذه العائلة. أما الذكاء والنباهة وإمكانية إقامة علاقات مع الآخرين، فإنها صفات أصيلة وليست مكتسبة «تماماً مثلما هي عند غزوان» هكذا قال الحكيم لنفسه بعد جولتين من المناقشة.

وصل صفاء بعد ثلاثة أيام من المكالمة التلفونية مع غزوان، أو كما قال للحكيم:

ـ بعد أن أقلعت الطائرة بالأستاذ غزوان والوالدة إلى لندن، في طريقها إلى موران، بخمس وأربعين دقيقة أقلعت طائرتي إلى هامبورغ. قضيت الليلة الفائتة في هامبورغ، وها أنذا الآن بين يديكم!

وقبل أن يقدم رسالة غزوان قدم الهدايا. كانت كبيرة ومتنوعة، وأغلبها لسلمى. أما الرسالة التي تسلمها الحكيم، ووضعها في جيبه، على أن يقرأها في وقت لاحق، وبمفرده، فقد كانت تقلقه. أو بالأحرى كانت مثل جمرة في جيبه. حاول أن يستفسر من صفاء لماذا لم يجئ غزوان، وما إذا كانت رحلته إلى موران، وفي هذا الوقت بالذات، ضرورية أم لا، وأيضاً رحلة أم غزوان. أجاب صفاء عن الأسئلة بالكثير من التهذيب والمعرفة، وأباح لنفسه نوعاً من الجرأة خاصة بعد أن روى بعض الملابسات الضاحكة التي وقعت لأم غزوان في مطار نيويورك. كان لا يكف عن الإشارة بقدرة الحكيم وحكمته في أنه يتفهم الأسباب التي منعت غزوان من المجيء.

لم يقرأ الحكيم الرسالة إلا بعد أن قام بجميع مراسيمه: تمدد في الفراش، رفع يديه في الهواء وجرّ نفسين عميقين، كما كان يفعل، ثم فض الرسالة بعد أن تمعن بالعنوان، كانت الرسالة كما يلي:

والدي العزيز

أقبل يدك الكريمة، وأقبل وجنتيك الطاهرتين، وبعد:

الوالدة العزيزة بصحة جيدة، وقد سررت بلقائها، وتنسمت فيها رائحتكم الزكية، وقد أبلغتني بأخبار الجميع. . .

إذا سألت عني، يا والدي العزيز، فأنا، برضاك ورضا الوالدة، في صحة جيدة، وأحوالي في العمل تسير من حسن إلى أحسن.

والدي العزيز، أنا مشتاق لسلمى كثيراً، ولقد فرحت وحزنت للأخبار الأخيرة، ومع ذلك أتمنى لها التوفيق في حياتها.

والدي العزيز

أبعث إليك بهذه الرسالة لكي أوضح لك وجهة نظري بالنسبة لأمور أساسية حدثت في الفترة الأخيرة، وأرجو أن أسمع منك رداً.

مثلما علمتني، وكما تعلمت منك، وأخيراً مثلما تعلمت في الولايات المتحدة: يجب على الإنسان أن يحدد لنفسه هدفاً في الحياة، وهذا الهدف هو الذي يقود خطواته، ويحدد مواقفه وعلاقاته. وأنا، يا والدي العزيز، منذ أن عملت في ميدان الأعمال الحرة، اعتبرت أن الثروة، والثروة وحدها، هي الهدف، ولذلك فإن السؤال الأساسي الذي أطرحه على نفسي صباح مساء هو: كيف أستطيع أن أصل إلى الثروة، وكيف أصبح ثرياً.

أشعر بعجز أو بصعوبة لتفسير أفكاري، خاصة في مجال العلاقات بالسلطة، فأنا أعتبر أن موران الدولة هي الأساس، وهي التي يجب أن أتوجه إليها وأن أتعامل معها، لأن موران ليست السلطان خزعل أو غيره. موران هي الكيان، هي الثروة، وهذا ما يجب أن أفكر فيه باستمرار.

لا أنكر أن السلطان خزعل ابتعثني وأنفق على دراستي، وكان يحبني.

أكثر من ذلك تزوج أختي، ولكن إذا أردت أن أصل إلى هدفي فلا بد أن أميز بين أمور كثيرة، لأن الخطأ، في مثل هذه الحالات، قاتل ومدمر. وإذا كنت في السابق قد تعاملت مع السلطان خزعل، وكنت قريباً منه، فلأنه كان يمثل موران، ولأنه كان قادراً على تقريبي من هدفي، فإذا اختلفت المعادلة الآن فلا بد أن أعيد النظر، وأن آخذ بعين الاعتبار الظروف الجديدة.

لا زلت أتذكر بوضوح تلك العبارة التي كان البروفسور ماكنلي لا يمل من ترديدها على مسامعنا في الجامعة: يجب أن نميز دائماً بين الرأسمال والإدارة. الرأسمال باق، وهو الأساس، وهو الذي يشكل القوة والهدف، أما الإدارة فإنها قابلة للتغير باستمرار، وقابلة للتطور، تبعاً لما تمليه حاجات الرأسمال وضروراته.

هذا المثل، يا والدي العزيز، ينطبق على ما نحن فيه، وبالتالي يحدد طريقة التعامل. فالحكومة، أية حكومة، هي الإدارة، وهذه الإدارة قابلة للتغير باستمرار، أما الدول فهي وحدها الباقية والمستمرة، ولذلك فإن ما يعنينا هو الدول وليس الحكومات، إلا بمقدار ما يحصل التطابق.

واسمح لي، يا والدي العزيز، أن أعبر عن قضية شديدة الحساسية، وهي أن الإدارة السابقة لموران انتهت، ولذلك لا حاجة للتشبث أو الوهم، خاصة من قبل عائلة المحملجي. ولا أخطئ إذا قلت العكس. فالمهم الآن أن نقيم علاقات جديدة، لكي نزيل من أذهان البعض أننا محسوبون على الإدارة السابقة، وهذا ما أحاول أن أفعله الآن، سواء من حيث تنفيذ العقود السابقة، أو من حيث إبرام عقود جديدة. بهذه الطريقة يمكن أن نفرض وجودنا مرة أخرى، ويمكن أن تسمح بعودتك من جديد.

ومن هذه الزاوية يجب أن تفهم عدم وجود مصلحة أو ضرورة لزيارتي ألمانيا. وحتى لو أردت زيارتها يجب ألا تقبل، لأن الحساسية الموجودة في الوقت الحاضر يمكن أن تؤثر على أوضاعنا لفترة غير قصيرة.

ومن هذه الزاوية ارتأينا أنا والوالدة ضرورة قيامها بزيارة موران، إذ

علينا أن نميز بين الأمور الشخصية والعاطفية وبين المصالح المادية والمستقبل. وأنت تعرف أن الرزق الذي تركته في موران إذا نسي، أو لم يتابع، يمكن أن يتناهبه الطامعون، وهم كثيرون، ونحن حريصون عليه، ليس فقط كقيمة مادية، وإنما كقيمة معنوية أيضاً، خاصة أنك تعبت وشقيت وأفنيت عمرك من أجله. وهذا الموضوع الذي قررته أنا والوالدة فيه اعتراف بالجميل وتقدير للجهد الذي بذلته.

والدي العزيز

هذا ما أردت توضيحه في هذه الرسالة، وفي حال وجود استفسارات يمكن أن تستوضح بشأنها السيد صفاء، وهو موضع ثقتي، ويعرف الكثير من التفاصيل. وسوف أتصل بك بعد عودتي من موران وأطلعك على الموقف، وسأبذل جهدي لكي نلتقي في مكان ملائم.

وتقبل في الختام مودتي واحترامي، كما أقبّل يدك الكريمة، ووجنتيك الطاهرتين، راجياً أن تبلغ الشقيقة سلمى تحياتي.

ولدك المحب والمخلص

غزوان

قرأ الحكيم الرسالة مرة أخرى وثالثة، وأشّر على بعض العبارات، ورغم أنه كان موافقاً، بصورة عامة، على الموقف، إلا أنه يحس بعدم قدرته على استيعابه. ولكي لا يقع في أخطاء، كما حصل في حالات سابقة مماثلة، قرر أن يتريث وأن يستوضح صفاء بعض النقاط. أما مسألة أن يكتب أو لا يكتب لغزوان فلن يقررها إلا في المرحلة الأخيرة، بعد أن يمعن النظر والتفكير فيما يجب أن يُعمل، وبعد أن يستكمل جميع التفاصيل. وإذا كتب، ولن تكون كتابته رداً على هذه الرسالة، وإنما ستتعداها إلى تلخيص فلسفته في الحياة، وربما من الأفضل إلا يفعل ذلك الآن، في ظل الظروف النفسية التي يعيشها، إذ قد تظهر من خلال الكلمات أو ظلالها، وربما أثرت على غزوان وعلى مشاريعه.

وفكر أن يستعيض عن الرسالة بمجموعة من الأفكار يدوّنها تحت

عنوان: «أوراق الغربة» أو «ذاكرة الأيام» ويضمنها تحليلاً وتقييماً لما حصل، ويمكن أن تكون موسعة ودقيقة، لعلها تصبح درساً وعظة للأجيال اللاحقة، خاصة لأبنائه. ولام نفسه أنه لم يسجل يومياته، لو أنه فعل لأصبحت له الآن ذخراً، إذ من خلالها يستطيع أن يستعيد الوقائع واحدة واحدة، دون سهو أو خطأ، وربما كتب تاريخاً لمرحلة مهمة.

وشعر بالانقباض لأن أموراً أساسية كان يجب أن ينجزها في فترات سابقة، لكن مشاغل الحياة اليومية منعته من ذلك. كان يفكر على وجه محدد بالنظرية. انها الأساس وكل ما عداها فروع وتفاصيل. وها هو الآن، بعد سنوات من الاستعداد والتحضير، يراوح في مكانه. لم ينجز شيئاً يعتز به. وحتى الأشياء المادية التي حققها تبدو له الآن عرضة لمخاطر لا نهاية لها، إذ ربما يطمع بها، ومن الشركاء بشكل خاص، وعلى التحديد بعض الأمراء، وقد يستغلون غضب فنر عليه، ويضعون أيديهم على الأراضي والعقارات التي له. أنهم قادرون، وضمائرهم لا تمنعهم. وتذكر وقائع معينة حصلت بمعرفته، لكن اعتبر نفسه غير مسؤول.

وتأكد تلك اللحظة أن سفر غزوان ووداد يمثل منتهى الحكمة والنضوج. يجب أن تحمى الممتلكات، لأن لا فائدة من ندب الماضي. وشعر بالاعتزاز لأنه احتاط منذ وقت مبكر وسجل أكثر هذه الممتلكات بأسماء وداد والأولاد. وشعر باعتزاز مماثل لأنه استطاع غرس بعض العادات والتقاليد في العائلة. وها هو غزوان يدرك ويعترف فيقول له في الرسالة: إن قيمة الرزق لا تحدد بمقابل مادي فقط وإنما بمقابل معنوي أيضاً، كونه يمثل تعبه والارتباط به.

وكاد يكتب رسالة قصيرة قبل أن ينام يشير فيها إلى هذه النقطة بالذات، لكن شعر أنه غير متحمس بالمقدار الكافي. أكثر من ذلك اعتبر القضايا كلاً واحداً غير قابل للتجزئة، فأما أن يكتب أو لا يكتب.

نام تلك الليلة دون أن يقرر. نام على جنبه الأيمن، لأن ذلك أكثر بركة وأكثر صحة!

أما في اليوم التالي، وأثناء جولة العمل مع صفاء، فقد استفسر عن العقود السابقة، كيف نفذت، ومدى رضا غزوان عن النتائج. وتعمد إلا يسأل صفاء عن الأرقام، فقد قدّر أنه لا يعرف، أو بالأحرى يجب ألا يعرف. وسأله عن العقود التي يحتمل أن يبرمها غزوان وما هي توقعاته بالنسبة لها. وصفاء الذي حفظ الدرس جيداً، ربما بتكليف من غزوان، تلاه بطلاقة وفرح، وأشار، بسرعة، إلى أن الأمور تسير سيراً جيداً للغاية، وأن المستقبل سيكون أفضل بكثير. ولم ينس ذكر الأصدقاء الكثيرين من موران وغيرها الذين يزورون الأستاذ غزوان، أو يتصلون به، للاستعانة به أو لتكليفه بعدد من المشاريع الكبيرة، وكيف أن الأمور لم تتغير، نتيجة ما حصل في موران، بل ويستطيع أن يقول العكس.

كان الحكيم يستمع بكثير من الاهتمام والشغف. وكان يفترض أرقاماً ونتائج معينة للعقود والمشاريع. وتمنى لو كان قريباً من غزوان، إذن لأشار عليه بأفكار ومشاريع جديدة يمكن أن توسع أعماله وتسرّع بها، لكن ما لبث أن صرف النظر. قال لنفسه: «غزوان ملم وواعٍ ويعرف ما يجب أن يعمل» وضحك وهو يتذكر المثل: لا توصِ الحريصَ. وتذكر مقطعاً من الرسالة، وقد أشار فيه غزوان إلى أن سفر وداد جاء باقتراح منه، فسأل صفاء عن الموعد المحتمل لعودتهما. تعمد أن يسأل بهذه الطريقة العامة، فأجابه أن البطاقات كانت بالدرجة الأولى، وأنها من سان فرانسيسكو ذهاباً وإياباً، وصالحة لمدة سنة قابلة للتجديد بالنسبة لأم غزوان. أما طريق العودة فإنها مرنة، إذ يمكن أن تعود عن طريق لندن أو باريس، أو أي طريق آخر تختاره.

تركت الإجابة بعض الظلال بالنسبة لعودة وداد، وقد أقلقه هذا الأمر، فسأل صفاء، عرضاً، عن العلاقات مع الإدارة الأميركية، وحول تأخر السفارة في منحه سمة الدخول، وقال ان ذلك يسيء إلى الولايات المتحدة ويضعف الثقة بها، فأكد له صفاء أنه سيتولى الأمر بنفسه، حتى لو اضطر إلى الرشوة، ودفع مبالغ معينة إلى بعض الأشخاص الذين يعرفهم ولهم

علاقة، وقد يكلف محامياً لمتابعة الموضوع، وهو متأكد أن النتائج ستكون إيجابية وسريعة. سر الحكيم كثيراً، وأكد عليه أن يفعل ما بوسعه وبسرعة، وختم الحديث حول هذه النقطة، وهو يطبطب على ركبته ويضحك:

ـ تابع الأمر، يا ابني، بهمة، وحسب ما تشوفه مناسب، بس بدون ما يعرف غزوان!

وبعد قليل، ولئلا يترك ظلالاً من الشك:

ـ لأن غزوان، الله يسلّمه، مشغول، وكثير النسيان.

أثناء اللقاء جاء هانس أورلخت لزيارة الحكيم. جاء بصحبة مترجم عينته السفارة. وخلال اللقاء تم التعارف بينه وبين صفاء، وبسرعة تبادلا بطاقات الزيارة وتحدثا حول فرص العمل. وقبل أن ينتهي هذا اللقاء اتفقا على أن يسافرا معاً في اليوم التالي إلى بون، لأن صفاء يجب أن يلتقي هناك بالمستشار الأول للسفارة، والذي زارهما في سان فرانسيسكو وقضى أسبوعاً في ضيافة غزوان وبرفقة صفاء، وكان على هانس أن يحصل على كتاب من السفارة من أجل شراء قصرين للسلطان، أحدهما قررت موران شراءه له، والآخر قرر السلطان أن يشتريه.

تبين للحكيم، من خلال الحديث، أن أموراً كثيرة جرت في الفترة الأخيرة دون معرفته، ورغم ذلك تظاهر أنه يعرف، وأنه ملم بأدق التفاصيل، لكن ظروفه الصحية لم تمكنه من المشاركة!

في ختام اللقاء، أشار صفاء، بكثير من التهذيب، إلى أنه سيمر في اليوم التالي، «للسلام والاستئذان بالسفر»، وأشار، أيضاً، أنه جاهز لحمل أية رسالة أو توصية. أما ما تبقى من النهار فسوف يقضيه في جولة داخل المدينة وحولها وأنه استأجر سيارة لذلك.

ظل الحكيم حائراً متردداً: هل يكتب جواباً لرسالة غزوان أم لا. وفيما إذا كتب هل يبقى في إطار الرسالة نفسها أم يتحدث في الأمور الأخرى؟ وغزوان لماذا يبدي هذه التحفظات والمخاوف، ألم يكن بمستطاعه أن يقترح مكاناً لكي يلتقيا فيه دون أن يعرف أحد؟

ووداد، إذا ذهبت إلى موران، متى تعود، وماذا تستطيع أن تفعل هناك؟ انه يعرف أهل موران، يعرف كيف ينظرون إلى المرأة وكيف يتعاملون معها. كان يجب أن ينبه غزوان لئلا يصبح مضغة في أفواه الصغار والكبار، في أفواه الذين يحبونه والذين يكرهونه. صحيح أن ما تركه في موران كثير وعزيز، لكن لا أحد يستطيع أن يتابعه مثله، أو على الأقل يجب أن يتابعه رجل يتمتع بالمعرفة والعلاقات. وشعر بالندم لأنه لم يطلع أحداً على الكثير من المعلومات التي لديه، كما لم يزودهم بالأوراق التي بحوزته.

لم يقل له صفاء أن يهيّئ رسالة، كما لم يعد. قال كلمة عامة تحتمل أكثر من معنى. انها طريقة غزوان ذاتها، فهو يحب أن يترك لنفسه وللآخرين أكثر من خيار. انها طريقة ذكية، هذا الشيء الذي لم يعرفه، كان حاداً، وكان يرى الأشياء بلون واحد، وتذكر العلاقات التي قامت له بالكثيرين، وكيف انتهت بالعداء أو بسوء الفهم. أغلب أصدقائه تحولوا إلى خصوم لماذا؟ ألم يحسن إليهم؟ ألم يساعدهم؟ لماذا أصبح البشر هكذا؟

وإذا لم يكتب، هل يكتفي بمجموعة من التوصيات؟ وهل سينقلها صفاء بدقة؟ ماذا لو أضاف إليها استنتاجاته وأفكاره، وربما أكاذيبه؟

انه يشعر بحالة من الضياع، لا يعرف كيف يتعامل مع البشر. حتى أقرب الناس إليه، زوجته، لا يعرف كيف يتعامل معها. كل واحد من الناس جزيرة منفردة عن الأخرى، يفكر وحده، يتصرف وحده. لماذا أصبحوا هكذا؟

كان مساءً كابياً أقرب إلى القهر. مرت الوجوه والذكريات مثل موكب حزين. حاول أن يبعد الكتابة. قال لنفسه: «الوحيدة التي تستحق الاهتمام هي الطفلة، أما نحن فقد عشنا حياتنا كلها». وحاول أن يستعيد ملامح سلمى منذ البداية. تذكرها طفلة صغيرة تحاول أن تقول أولى الكلمات، ثم بعد ذلك كيف بدأت تمشي. كانت بإصرار تحاول لكن في الغالب لا تستطيع. كان يحبها أكثر من أخوتها الذكور، كان يعتني بها بشكل خاص،

لم يكن قصده بريئاً، كان يريدها مادة لدراسته. أخضع نفسه لمنهج صارم في الدراسة خلال الشهور الأولى. كان يكوّر فمه بطريقة معينة، ويقول «بابا». ويكوره بطريقة أخرى ويقول: «دادا». راقب كيف تسير، كيف تتصرف، وكيف تتعامل مع الآخرين. بدت له، منذ اللحظة الأولى، أقرب إلى الدمية، وكاد يواصل الدراسة لولا أن شغلته أمور الحياة، ثم سافر!

لماذا تركها وسافر؟ أمن أجل المال؟ لقد كان عنده مال يكفيه. ولماذا زوجها للسلطان؟ أمن أجل الجاه؟ لقد أصبح معروفاً ومرموقاً وقوياً بحيث لا يحتاج إلى جاه أو إلى موقع جديد.

في مستشفاه الذي بناه في حران، كان يتمنى لو أن سلمى طبيبة إلى جانبه. كان يتصورها تحضر معه العمليات، تساعده، تقف دائماً إلى جانبه. وتخيلها تضع على وجهها القناع، ودون كلمات، من النظرة، من الالتفاتة، تفعل ما يجب أن يُفعل، تستجيب لكل ما يريد، تلبي طلباته، تقوم ببعض الأعمال نيابة عنه. هكذا كان يتصورها، وهكذا كان يتمنى ان تكون.

الآن لا يعرف ماذا تفعل، أو في أية حالة نفسية هي، وأيضاً دون أن يحقق لها، أو لنفسه، ما كان يتمنى. لماذا كان أنانياً وسمح لنفسه أن يفعل ما فعله؟ وهي، هل تسامحه؟ هل تغفر له؟

لولا البلابل، هذا المساء، لشعر بالأسى، أنها لا تتوقف عن التغريد، إذ ترتفع إلى أقصى مكان في القصر، أو تهبط إلى جانب سيقان الأشجار، وتتخاطب بتلك الطريقة الفذة، تفعل ذلك وهي تطير وتحط، وحيت ترقّص أذيالها أيضاً بلذة. شعر أن لا فائدة في كل ما عاشه وما فعله، لكن تلك المخلوقات الصغيرة الراكضة تشعره بنوع من التوازن مع ما يحيط بها. ينسى لحظة، يغيب، لكن مع ذلك يحس أن حياته ذهبت دون معنى. حتى غزوان، وهو يحصل على المال يعرف كيف يتصرف به. أما هو فقد جمد كل طموحاته وحياته في مساحات من الأرض. وحتى هذه الأرض تبدو بعيدة ومستحيلة، ولا تتيح له حتى قبراً فيها. لقد أخرجوه، طردوه مثل

كلب، لم يمهلوه سوى عشرين ساعة «يجب أن تخرج، لا يهم إلى أين، المهم أن تخرج». لم يستطع أن يفعل شيئاً. انتزعوه كما تنتزع الحشرة السامة، ورموا به بعيداً.

وعاد إلى سلمى الصغيرة، عود النعنع، التي لا تعرف الحياة. لقد انتزعها من ألعابها، ومن عالمها الوردي لكي يلقي بها في أشداق ذلك الوحش. قال لنفسه: «حتى المصريون القدامى كانوا أحسن منا وأرحم».

وعادت لذهنه وداد: امرأة مختلفة، امرأة تريد كل شيء. لم تحاول في يوم من الأيام أن تتفاهم معه. التحدي هو الطابع الوحيد لحياتها: إما أن يذلها أو أن تذله. قال لنفسه بحزن «لم تحاول أن تفهم دوافعي وأفكاري، ولم تتعاون معي».

رغم الغضب، كانت أصوات البلابل تعيده إلى الهدوء، فيشعر بالضآلة وما يشبه التوازن. يقول لنفسه: «الطيور والحيوانات أفضل من الإنسان، لأنها تعرف كيف تعيش. أما الإنسان فيعرف شيئاً واحداً: كيف يقضي على الآخر. ومن أجل القضاء على الآخر يبدد حياته كلها، ثم ينتحر».

وعنّت له فكرة أن يكتب كتاباً للمقارنة بين الإنسان والحيوان. كان متأكداً أنه منحاز إلى الحيوان، وأنه سيدافع عنه بكل قوته، وبكل ما يملك من معلومات، لكن شعر أن معلوماته قليلة إلى درجة لا يستطيع معها أن يقول شيئاً هاماً أو ذا معنى ودلالة. قال لنفسه بحدة: «متى يستطيع الإنسان الطيران؟».

وسيطرت عليه فكرة ساخرة: لا يتحرر الإنسان إلا بالطيران. ضحك وقال لنفسه: «الإنسان يفني حياته من أجل أن يمتلك جناحين، وبعد أن يمتلكهما يغرسهما في التراب على شكل أسمنت وحديد».

ومع تغريد آخر بلبل، وقد هبط الظلام، قرر أن لا يكتب. سوف يكتفي بكلمات يبعث بها مع صفاء، وسوف يتحدث مع غزوان بالتلفون، أما ما يريد أن يقوله للآخرين، عبر غزوان، فسوف يكتبه في وقت آخر.

منذ أن وطئت قدما الحكيم أرض موران، قبل سنوات طويلة، لم يتخل عن الشك الذي ظل يلازمه حول طبيعة الناس وسلوكهم. صحيح أنه واجه بعض الصعوبات الناشئة عن الطقس في البداية، لكن تعود عليها بمرور الوقت. وواجه صعوبات مماثلة في تعلّم اللهجة، ورغم أنه بذل جهداً كبيراً لكي يتكلم مثل أهل موران، إلا أنه لم يستمر في المحاولة، لأن ذلك الإبليس، مالك الفريح «قعد لي ركبة ونص» كما يقول الحكيم، فإذا لم يسخر من لهجته بشكل مباشر، فلا بد أن يلفت نظر الآخرين، الأمر الذي جعله في وقت مبكر يعزف عن الاستمرار في هذه المحاولة البائسة. قال لنفسه بكثير من الثقة: «ما داموا يفهمون ما أقوله وأفهم ما يقولون فإن كل شيء عدا ذلك نافلة».

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن صعوبات الأكل واللباس والعادات، لكن استطاع بالمثابرة والإصرار أن يتعود على الكثير منها، وأقنع نفسه بعدم جدوى التعود على الأشياء الأخرى، وانتهى إلى صيغة ارتضاها لنفسه وألفها منه الآخرون.

حين يتذكر الحكيم الأيام الأولى، ويتذكر الفترة الأخيرة، يعترف بثقة أنه قطع مشواراً طويلاً. فإذا سئل عن المدة التي قضاها، وكيف توافرت له كل تلك المعلومات عن موران، يشعر بالغبطة حين يرى الدهشة على وجوه سامعيه، فيبالغ في استعراض ما يعرف، وتزداد دهشة الذين يتابعون ويسمعون.

رغم هذه الحصيلة من الخبرة والمعرفة، فإنه يعترف لنفسه، في لحظات معينة، أو على التحديد في لحظات الخيبة، أنه لا يفهم بالمقدار

الكافي طبيعة الناس: كيف يفكرون، لماذا يسلكون بهذا الشكل، ما هي حقيقة عواطفهم ومواقفهم. فهم بمقدار البساطة التي تميز سلوكهم وأقوالهم وردود أفعالهم، فإنهم شديدو المكر، أقرب إلى الغموض. أو مثلما قال في وقت مبكر: انهم مثل الصحراء التي يعيشون فوقها، إذ بقدر ما تبدو الصحراء بسيطة، مكشوفة، متشابهة، فهي خادعة، غدارة، ولا يمكن للإنسان أن يستحوذ عليها. ويتذكر الهدوء المخاتل الذي ميز بعض رحلاته، وكيف انقلب فجأة إلى هوج ماحق. بل ويستغرب كيف قدّرت له النجاة. ورغم أنه متعلم، وسافر وتجول وقرأ الكثير عن الصحارى، إلا أنه لا يعرف إلا مقداراً بسيطاً قياساً لأولئك البدو الصامتين الضامرين، الذين كانوا يرافقونه في رحلاته، ويبدون وكأنهم خرس، أو فقدوا القدرة على الكلام، لكنهم في الوقت ذاته يملكون فراسة ملعونة أقرب إلى غريزة الحيوان، ولولا تلك الفراسة التي تميزهم لهلكوا، فهي التي جعلتهم قادرين على البقاء كل تلك السنين، ومكنتهم من الاحتيال على هذه الصحراء القاسية الغادرة.

هذا الشك الذي سيطر على الحكيم وميز علاقاته ونظرته هو الذي جعله قليل الثقة بالآخرين، فقد حرص، منذ البداية، على أن يبقى بعيداً «لأن البدو إذا أخذوا وجهاً طمعوا» وكان يضحك ويضيف: «لا تدل الشحاد على باب دارك».

الآن وهو يستعرض الوجوه والتجارب، ثم النتائج التي توصل إليها، يزداد اقتناعاً وتأكداً، إذ لو لم يكن على هذه الدرجة من اليقظة والحذر لهلك منذ وقت طويل.

إن ذلك جزء من تاريخه الذي يحاول أن ينساه، أو يهرب منه، لذلك لا يتردد في الاعتراف لنفسه على الأقل، أنه وضع ثقته بأناس أثبتت الأيام أن تلك الثقة لم تكن في مكانها، وهذا ما جعله يتغاضى عن ملاحظات زيد الهريدي، أو عن بعضها على الأقل، ويعتبر أن دوافعها الشعور بالخيبة، وبالتالي لا يبرئ نفسه من المسؤولية.

كان مستعداً لأن يبدأ من جديد، وهذا ما دعاه للمجيء والسكوت، وما دعاه أيضاً لأن يتصرف بتلك الطريقة.

حتى اليوم الذي وصل فيه الأمير مجحم كانت الصورة له مفهومة ومبررة. أكثر من ذلك بدا له أن السلطان يستجيب لأفكاره ومقترحاته، ثم فجأة يتغير كل شيء. ماذا حصل في تلك الزيارة؟ ماذا قالوا للسلطان وبأي شيء رد عليهم؟ ولماذا كتموا كل شيء عنه؟ قال لنفسه في محاولة لتفسير ما حصل: «العلاقة بيني وبين السلطان لا يمكن لأحد أن يفسدها أو أن يغيرها، لكن ربما مرضي هو السبب». وبدا له هذا السبب مقنعاً. فالسلطان، منذ لحظة التعارف الأولى، وحتى لحظة الغداء مع الأمير مجحم، كان في منتهى الود والثقة، وإذا كانت قد حصلت فجوات صغيرة في موران، عندما انقطع السلطان، ولم يره، فإنه لم ير الكثيرين أيضاً، ولقد كان لتلك المواقف مبرراتها. الآن هو بحاجة إلى الآخرين أكثر من السابق.

ووصول عدلة؟ لقد بالغ في إعطاء أهمية لهذا الموضوع، إنه أمر طبيعي للغاية، فقد زوّج سلمى وهو يعرف أن عدلة أولى الزوجات، ولا يمكن للسلطان أن يتخلى عنها، فهي التي زوّجته بالكثيرات. ويعرف أيضاً أن الشرع ذاته يعطي للإنسان العادي أن يتزوج أكثر من امرأة، فكيف إذا كان سلطاناً، ومثل خزعل بالذات؟ لذا يجب أن لا يعترض. صحيح أن اللياقة تقتضي أن لا يعكر مزاجه في شهر العسل، لكن الظروف الراهنة غير طبيعية، لذلك يمكن فهم الكثير من الأمور، ويمكن أن يتسامح.

ما لفت نظره أن السلطان تغير. في الأيام الأولى وجد للصمت تفسيراً جزئياً، لكن حين يسمعهم يتحدثون باهتمام وانفعال، وما أن يطل عليهم من الباب الجانبي للحديقة الخلفية، حتى يغرقوا في الصمت، ويتبادلوا نظرات لا تخلو من مغزى، ثم يبدأ ضجرهم، وبعض الأحيان ضيقهم، ولا يجدون وسيلة إلا بأن يفضوا الجلسة، انه لا يستطيع أن يفهم ذلك أو أن يجد له تفسيراً مقنعاً.

التقى بالسلطان بعد وصول زوجته عدلة مرتين، وفي المرتين كان السلطان أقرب إلى السهوم، إذ لم يتبادل معه سوى كلمات المجاملة. كانت اللقاءات قصيرة، وغالباً ما يتصرف زيد بطريقة توحي بانتهاء الجلسة، إذ يقول، وكأنه يخاطب الحكيم:

ـ نشوفك تعبان، يا طويل العمر، ويلزم تستريح.

والسلطان الذي كان يجامل حتى الذين لا يحبهم، فيبقى معهم ويتحدث ويسمع، فإنه الآن سريع الاستجابة لكلمات زيد، وكأن تواطؤاً بين الاثنين، إذ يقول:

ـ اللي تقوله يا زيد صحيح، وهذي الديرة هواها غدار، لا ينوم لا في الليل ولا في النهار.

وينهض إيذاناً بانتهاء الجلسة.

لما بدأ الحكيم يطيل إقامته في الحديقة، يرقب الحمام والبلابل، ويعتني بالزهور، لكي لا يفكر بأمور السياسة والمستقبل، بدأ السلطان يطيل إقامته في جناحه الخاص، أو بدأ يطلب أن يوافيه بعض الأشخاص إلى هناك. والحكيم الذي كان في وضع نفسي وصحي لا يمكّنه من المشاركة، لم يكن مهتماً بحضور مثل هذه الاجتماعات، وقدّر أيضاً أن الحاجة إليه ستضطرهم للاستعانة به. كان يقول لنفسه «أنا متأكد أن الأمر لن يطول، وسوف يعود كل شخص إلى حجمه الطبيعي».

لفت نظر الحكيم أن زيداً بدأ ينظر إليه بطريقة مختلفة عن السابق، نفس نظرة البدو، وكأنه يختبره. كان يتطلع إلى عينيه، فإذا التقت النظرات هرب. ولأنه يعرف البدو، وطريقتهم في الاختبار، إذ يخافون أن تفضحهم عيونهم، فإنه اذا قبض عليهم متلبسين بهذه النظرات، أو بهذه الحالة، يبتسمون بغباء، في محاولة لأن يموهوا. وحين يُتابعون ويُراقبون يصبحون مضطرين للاعتراف. لقد خبر هذه الحالة مرات كثيرة، ولذلك لا يمكن لنظرات زيد أن تموه نفسها، أو أن تخفى عليه.

وزيد الهريدي. . من هو بالنسبة له؟ انه مجرد مرافق، خادم، شخص عادي. وبالصدفة، أو لسبب ثانوي، أصبح قريباً من السلطان. ولأنه يعرف كيف يكون مخلصاً لسيده، مطيعاً وناقلاً للأخبار والوشايات، ومسؤولاً عن تلبية جميع المطالب والرغبات، فقد أصبح في هذا الوضع الذي يبدو فيه قوياً في الظاهر، لكن قوته محدودة ومؤقتة، وهي مستمدة من السلطان أكثر مما هي قوة ذاتية. ويتذكر الحكيم كيف كانت مواقف زيد تجاه بعض الأشخاص أو بعض الحالات: إذا رأى السلطان غاضباً، أو غير راض، يغضب أكثر منه، ولا يمكن لأحد أن يسترضيه أو أن يتحدث معه. كان يعربد، يهدد، ولا يتردد، بعض الأحيان، في أن يتصرف بحماقة، كأن يشتم ببذاءة أو يجلد، حتى إذا هدأ غضب السلطان، ونسيه، فإن زيداً أسرع منه إلى النسيان، بل ويبدو مستغرباً الغضب السابق!

ليس هذا كل شيء، فزيد لا يعربد، ولا يرفع صوته إلا على من هو دونه، أما من كانت له صلة بالسلطان، أو كان قوياً، فلا يجرؤ على أن يظهر له الغضب. كان يكتفي بالصمت، أو يتهرب منه. حتى إذا انتهت فترة السبات، كما يسميها الحكيم، وعاد السلطان إلى سابق علاقاته ومودته، كان زيد أسبق منه وأكثر احتفالاً.

الآن، في بادن بادن، فقد زيد قدرته على التصرف. يبدو مرتبكاً عاجزاً، ويبدو كل يوم في حالة مختلفة عن حالة اليوم السابق، وكثيراً ما اختلط تفاؤله بتشاؤمه، وغضبه مع فرحه. وفي وقت لاحق بدأ الصمت فالعزلة، كما يفعل السلطان. أما بعد زيارة الأمير مجحم، فإن زيداً تنمر وبدا مختلفاً عن السابق، خاصة تجاه الحكيم.

بعد أيام عديدة من الانقطاع والعزلة والصمت والانتظار، لعل شيئاً يقع ويغير الوضع خلالها، قرر الحكيم أن يصارح السلطان، أن يفضي إليه بأفكاره ومخاوفه، وأن يخلص من هذا العذاب: «لا بد أن أطلعك، يا طويل العمر، على مكنون صدري وهواجسي، ولا بد أن نذبحها على قبلة: إذا أردت مشورتي فأنا جاهز، وقد جئت من أجل ذلك، وإذا كان

لك رأي آخر فسوف أستأذن وأسافر». وتساءل أين يمكن أن يسافر، وحين تذكر كيف أخرج من موران قال بحقد: «لا يهم إلى أين، لأن الأماكن أصبحت متشابهة بعد يوم موران» وشعر أنه أخطأ سواء في إلحاحه على غزوان في المجيء إلى ألمانيا، أو فكرة سفره إلى الولايات المتحدة. قال وهو يهز رأسه «يمكن أن نلتقي في أي مكان. نختار مدينة صغيرة في أوروبا، لا تلفت نظر أحد، ونسافر إليها مثل السياح الآخرين». وأحس بالندم لأنه ترك آلات التصوير القيمة في موران، وكذلك كل ثروته من الصور. قال وهو يزفر: «يجب أن تكون للإنسان هواية تشغله، وكلما كانت الهواية أبسط كلما كان ذلك أفضل».

ومرت في ذهنه هوايات كثيرة شغلت الآخرين، لكنها لم تشغله، بل كان ينظر إليها بازدراء وسخرية: الخيول، السيارات، الصقور، أو جمع قطع السلاح القديمة والنادر «هذه ليست هوايات ممتعة أو مفيدة، انها تشبه القمار، ومن يتعلق بها لا بد أن يدفع ثمنها غالياً» واستعاد ما قاله للسلطان ذات مرة أثناء زيارتهما لحران، قال له أنه سيصدر كتاباً عن حران، وسوف يسميه «مدينة تتكلم» وكان مقرراً أن يكون للصور دور في هذا الكتاب، لكنه لم يواصل الموضوع، تركه لفترة لاحقة يكون خلالها أكثر تفرغاً واستعداداً، ومرت الشهور تبعتها السنوات، ولم يفعل شيئاً.

فكر فيما يجب أن يقوله للسلطان فوجد أن كل شيء غير مواتٍ: «كلانا في ظرف غير طبيعي، لأن الجروح لا تزال طرية، جديدة، وفي مثل هذا الظرف يظهر الأصدقاء وتظهر الصداقة، فإن أطرح عليه تساؤلات وخيارات مثل هذه معناها أني أريد التخلي عنه كما تخلى الآخرون، وليس من الشرف أن أفعل ذلك». وتمنى لو كانت وداد إلى جانبه، لا بد أن تساعده في أكثر من موضوع، يمكن أن تفهم جو السلطان بعد مجيء الأمير مجحم، وبعد مجيء عدلة، ويمكن أن تجعله أكثر استعداداً واستجابة من خلال سلمى، فإذا تحدث معه يعرف ماذا يقول وكيف يقوله. ويمكن أن يتشاور معها بالنسبة لأي موقف قد يتخذه. انه الآن عند مفارق

الطرق، ولا بد أن يختار. وتصورها وغزوان هناك، في موران، ولا بد أن تستعين بمطيع وراتب، وتنظم الأمور بحيث لا تترك فرصة لطامع. وندم أنه لم يعطها أو لم يعط غزوان وكالة عامة. لو أنه فعل لاستطاعا نقل جميع الأملاك إلى أسماء الأولاد. صحيح أن هذه الأشياء شكلية، لكنها ضرورية أيضاً: عمليات بيع أو نقل صورية، فقط لتثبيت الحقوق في هذه المرحلة، وعدم إفساح المجال أمام أي شك أو خوف. أنه يعرف الأمراء، كم هم جشعون ومحتالون. انهم يلجأون إلى الجزرة والعصا، يغرون ويهددون، ولا بد أن يصلوا إلى ما يريدون. الأراضي أكثر ما تغريهم في هذه الفترة. يريدون أن يسجلوا كل شبر في موران بأسمائهم، ولا يشبعون أبداً.

قال لنفسه لكي يتغلب على هواجسه: «الخير فيما اختاره الله، وسفر وداد وغزوان عين الحكمة وقمة الصواب، أما المشاكل الأخرى فلها وقتها».

وفكر أن يؤجل مفاتحة السلطان. سوف يعطي لنفسه وقتاً إضافياً، ربما تتغير الأمور خلاله، وسوف يلجأ إلى أسلوب غير مباشر. فكر أن يستعين بسلمى «لكن هذه الطفلة، منذ أن جاءت الامابة. الكرنيبة، أضيع من الأيتام على مائدة اللئام: ضائعة، خائفة» وعنّ له الاستعانة بشايع السحيمي، لكن تردد، «لأن ما عنده إلا سوالف العربان، وإذا طلع عنها فإلى الخيل، وإذا روّق وجاد يصل إلى داحس والغبراء».

لم يبق أمامه إلا زيد «رغم كل حماقاته فنحن نعرف بعضنا، فإذا تفاهمت معه بشكل رحماني يمكن أن نؤثر على السلطان. أما إذا تمترست وتمترس، ووقعت بيننا، فسوف نخسر كل شيء».

وضحك وهو يتذكر زيداً عندما زاره في حران أول مرة. ويتذكر زيارة ولي العهد إلى حران. كان زيد محرجاً متردداً وهو يطلب منه المقويات. لكنه شجعه إلى أن أصبح طبيعياً، ثم توثقت بينهما العلاقات. وتذكر بعض الهدايا التي جلبها لعدد من الأمراء، ثم فجأة أصبحت من نصيب زيد!

انه يعرف «هذا الحرذون الذي لا يتعب من هز رأسه، والذي يشبه الضفدعة وهو يردد كلمة أقرب إلى الصوت: نعم». لا بد أن يؤثر عليه ويستعيده مهما حاول أن يبتعد. يعرف نقاط قوته ونقاط ضعفه، وهذه المعرفة ستمكنه من إقامة علاقات جديدة وقوية. قال لنفسه: «كم كلمة حلوة، وأنت الأول والتالي يا شيخ زيد، لا بد أن صاحبنا يسخسخ وينبطح، وبعدها يمكن أن يتدوزن ويصير مثل الخلق والعالم».

كانت عينا الحكيم كعيني صقر، ترقبان كل حركة، تتابعان كل شخص، وهدفه زيد الهريدي. لا بد أن تعود العلاقة بينهما إلى ما كانت عليه أيام موران. وزيد الذي كان شديد الثقة بنفسه، قوياً مهاباً، أصبح الآن مثل المرأة المهجورة: كثير الحركة، ينظر إلى الآخرين بعيون متسائلة، لا يستقر في مكان أو مع جماعة.

لم يخف على الحكيم قلق زيد. قال لنفسه: «ليس الخط المستقيم دائماً أقصر الخطوط». تعمد أول الأمر أن يلتقي به في الحديقة، ثم أخذ يذهب إليه في البناء الجانبي ليشرب عنده القهوة، ويتحدث معه عن الطقس وأمطار الليلة الفائتة. وزيد الذي يستجيب مرة، كان يبدو عليه الضيق والضجر في مرات كثيرة، وغالباً ما يسود الصمت، مما يضطر الحكيم إلى الانسحاب.

بعد أيام من الغزل الناعم، تخير الحكيم وقتاً اعتبره مناسباً وفتح قلبه لزيد:

ـ يا شيخ زيد: رجل ورجل يلتقيان مهما حصل بينهما، أما جبل وجبل فلا يلتقيان، مهما كانت المسافة قريبة. . .

وحين ينظر إليه زيد باستغراب يتابع:

ـ عندي كلمة والثانية، ولازم تسمعني!

ـ كلي آذان يا أبو غزوان، تفضل، سم.

ـ والحق ما أحد يزعل منه؟

ـ الحق حق يا أبو غزوان، وظني أن اللي يزعل من الحق ما له حق.

ـ بارك الله فيه يا شيخ زيد.

يتنفس الحكيم بعمق، يرفع يديه الاثنتين، وكأنه يوشك أن يطير، ويأتي صوته مختلفاً:

ـ من اليوم الأول كان لازم نقعد أنا وأنت ونتكلم...

ـ بعده ما صار شي، والدنيا بأولها، يا أبو غزوان.

هكذا رد زيد وهو يضحك، في محاولة لأن يشجع الحكيم على الكلام.

تابع الحكيم:

ـ إذا اتفقنا أنا وأنت يا شيخ، إذا صفيت قلوبنا يمكن تتغير أشياء كثيرة وتساعد على عودتنا إلى موران بسرعة.

يقهقه زيد، وهو ينظر إلى تلك الجدية الظاهرة في قسمات الحكيم وكلماته أكثر مما يتطلب الموقف، وبعد قليل يقول وبقايا الضحكة على وجهه:

ـ أنا وأنت، يا أبو غزوان، مثل الجفن والعين، الواحد ما له غنى عن الثاني، واللي بينا أحسن ما يكون، إلا ما حرّم الله.

ـ يا شيخ زيد...

ويهز رأسه حزناً، وكأنه يتذكر أشياء كثيرة، ثم يخرج صوته من صدره:

ـ المصيبة التي أصابتنا يا شيخ زيد كبيرة، أكبر من أن يستوعبها الإنسان أو أن يتحملها، ولازم نعترف أننا كلنا أخطأنا. كنا حسني النية وغافلين، وثقنا بأناس لم يكونوا يستحقون الثقة، ووضعنا أشخاص في مراكز وأماكن وأساءوا إلينا، وربما أكون أحد المسؤولين عن تعيين أشخاص كانوا سبباً فيما حدث...

كان زيد يستمع، يهز رأسه، ومستغرباً أيضاً هذا الحديث، أو ما يريده منه الحكيم. قال محرضاً:

ـ اللي تقوله صحيح يا أبو غزوان. . . لكن. . .

ـ المهم، عفا الله عما مضى، نحن أبناء اليوم، ولا بد أن نتفاهم ونتفق!

ـ سم يا مبارك.

ـ طويل العمر ما له أحد غيرنا، ولا يثق بأحد ثقته بنا، ومن رأيي أن كل كلمة تقال له لازم نتفق عليها.

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة:

ـ وإذا أردت الصدق، يا شيخنا، كل المشاكل اللي صارت إخوة طويل العمر هم اللي وراها، هم السبب. . .

ـ والحل يا أبو غزوان؟

ـ أن نقطع الصلة بهم، أن نمنع اتصالهم بطويل العمر، وأن نتحمل المسؤولية نيابة عن جلالته.

ـ الرأي رأيه يا أبو غزوان!

وضحك ثم أضاف:

ـ والأخير أن ما نتدخل بين الأخوة يا أبو غزوان!

ـ هذول ما هم أخوة، هذول أعداء، وهم السبب بكل اللي صار.

هكذا رد الحكيم، وقد بدا حانقاً أكثر مما يحتمل الموقف، رد زيد برخاوة:

ـ مهما كان رأينا، يا أبو غزوان، يظل الرأي رأيه والقرار قراره.

ـ لكن ممكن إقناعه. . .

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ يا أبو راشد. . . من يوم زيارة مجحم والأمور ما عاجبتني، السلطان تغير والدنيا تغيرت، ويمكن حصل شيء أنا لا أعرفه.

ـ أبداً يا حكيم، وأنت تعرف طويل العمر ومودته لك!

قال الحكيم وكأنه يخاطب نفسه:

ـ إذا ما فتحنا عليهم النار، إذا ما فضحناهم يتغدونا قبل ما نتعشاهم.

ـ وتريدنا نشتمهم ونقول عليهم فلاني وتركاني؟

ـ بعد اللي صار كل شيء مسموح وضروري، خاصة إذا كنا في حالة الدفاع عن النفس واستعادة الملك.

ـ لكن جماعتنا قالوا من قبل يا أبو غزوان: جيب المجنون وسبّ أهله وشوف جنونه من عقله، وظني أن طويل العمر ما يوافق ولا يعطي على أخوته وأهله.

ـ اذا كل يوم والثاني مطرّشين لنا خبر أو رسول، وحنا شغلتنا نضرب أخماس بأسداس وننتظر، تراها راحت علينا.

ـ وكّل الله يا أبو غزوان.

ـ والله، سبحانه وتعالى، قال: اعقل وتوكل، ما قال بس توكل!

اعتبر الحكيم أن هذه الجولة من المناقشة تمهيدية، ولا بد أن يحاول مع زيد مرة أخرى، في وقت آخر، وسوف يلجأ إلى أسلوب جديد إذا لم يُجْدِ هذا الأسلوب.

في المساء ذاته، وهو يجلس مع السلطان وزيد في الحديقة، ولم يجدوا الكثير ليقوله أحدهم للآخر، خيم صمت أقرب إلى الكآبة. أكثر من ذلك بدا السلطان أقرب إلى المرض، كان أصفر الوجه على زرقة، ربما نتيجة التعب أو بسبب تضخم الكبد الذي يعاني منه منذ فترة طويلة. وإذ تطلع إليه الحكيم في محاولة لأن يقرأ في وجهه ما إذا كان المرض يعاوده مرة أخرى أو مجرد الإرهاق، فقد أجفل السلطان من ذلك التحديق، وحين سأله الحكيم ما إذا كان يشكو من ألم أو من تعب رد السلطان بسرعة أقرب إلى العصبية:

ـ أبد... أبد وأشوف حالي زين والحمد لله!

قال الحكيم بطريقة جليلة:

ـ درهم وقاية خير من قنطار علاج، والأخير، يا طويل العمر أن تأخذ دواء ليوم أو ليومين.

ولم ينتظر الحكيم، إذ نهض مسرعاً، دخل إلى القصر، عاد بعد دقائق حاملاً علبتين من الدواء.

قال للسلطان وهو يبتسم:

ـ الدواء الأصفر، يا طويل العمر، حبة واحدة قبل كل وجبة، وهذا الثاني الدواء الأحمر، حبة صباحاً وحبة قبل النوم.

تطلع السلطان إلى الأدوية وتطلع إلى زيد. كانت النظرات التي تبادلاها تحمل معاني لا حدود لها، معاني التساؤل والخوف والريبة وعدم الارتياح، سأل السلطان وهو يتناول العلبتين ويقلّبهما:

ـ ورأيك هذا الدوا ضروري يا أبو غزوان؟

ـ مجرد احتياط يا طويل العمر.

ـ احتياط؟

ـ مثل ما قلت لك، يا طويل العمر، درهم وقاية خير من قنطار علاج!

سأل زيد بارتياب:

ـ عطيت طويل العمر من هذا الدوا قبل هالمرة؟

ـ الدوا الأصفر أخذه جلالته من قبل، والدوا الأحمر منشط ومقوي.

قال السلطان ساخراً:

ـ النشاط والقوة من الله!

وبعد قليل قال لزيد مازحاً:

ـ وأنت يا زيد يلزمك دوا ينشطك ويقويك!

رد زيد بدعابة:

ـ الأخير يا طويل العمر أن نظل على صومنا، وإذا أفطرنا بديرتنا أو بهذي الديرة أبو غزوان نشامة وما يقصّر.

بمثل هذه الدعابة انتهت جلسة السلطان، قام إلى جناحه، وبعد قليل اعتذر زيد أنه متعب ويريد أن يستلقي على فراشه. والحكيم الذي كان ينوي متابعة حديث الصباح، خاصة بعد الجو المرح الذي تولد في

اللحظات الأخيرة، شعر بهبوط وخيبة أمل لانسحاب زيد، قال في نفسه معزّياً «ألذ طعام ما ينضج على أهدأ نار وان غداً لناظره قريب».

الظلمة تتسلل بخفاء ثم تتكاثف، ومع الظلمة يظلم قلب الحكيم أيضاً. كان يشعر بإنقباض إلى درجة الكآبة. ودّ لو أن أحداً إلى جانبه. كان يريد أن يتكلم، أن يستمع، أما أن يكون وحيداً ومتروكاً، أن يرقب من بعيد حركات الحرس، أن يرى هذه الخطوات البطيئة الثقيلة، أو أن يتابع الشرفات والأضواء، ويركز نظراته على البناء الجانبي لعل زيداً يخرج مرة أخرى، فإن هذه المهمة بمقدار ما تشغله تدخل الضيق إلى صدره؛ أنه الوحيد بهذا الشكل، حتى الحرس وهم يتحركون، وهم يتبادلون الكلمات، يشعرون أن وضعهم أفضل من وضعه، فهم يفعلون شيئاً نافعاً، وأكثر حرية منه. لقد أصبح زائداً في هذا المكان، لا يفعل شيئاً ولا يفيد أحداً. والأسوأ من ذلك لا يعرف إلى متى!

لماذا أصبحت الأمور بهذا الشكل؟ وشعور الضيق والخيبة هل يقتصر عليه أم يطال الجميع، ولذلك يتصرفون بهذه الطريقة؟ قال في نفسه وهو يزفر: «الهزيمة تولد الهزيمة، والناس المهزومون أسوأ الناس تصرفاً وفي جميع الأمور، وعلى الإنسان أن يفهم هذه الحالة، وأن يقيس الأمور على نفسه وعلى وضعه».

وبهدوء أقرب إلى الهم والتعب نهض.

وهو يدور في غرفته راودته الرغبة أن يتصل بموران، أن يسمع صوت وداد وغزوان، أن يتحدث إليهما، سوف يقصر حديثه على الصحة والأحوال، ولكن بالتأكيد سيكتشف من الكلمات أو ظلالها الوضع كله، وسيعرف ما إذا تحسنت الأمور أم لا تزال تراوح مكانها.

لكنه في اللحظة التي مد يده إلى التلفون شعر بالتردد: «يمكن أن أخلق لهما إشكالات هما في غنى عنها، ويمكن أن يساء فهم هذا الاتصال هنا وهناك» ولم يطل به الأمر، صرف النظر عن الموضوع انتظاراً لوقت آخر. وفكر أن يتصل بصفاء، أن يسأله عن سمة الدخول إلى الولايات

المتحدة، لكنه وجد الأمر مبكراً وفيه تسرع أقرب إلى الخفة «سوف يسيء فهم هذه الرغبة، وقد يعتبرها طيشاً». وقرر أن يؤجل الموضوع إلى حين عودة غزوان، أو يترك صفاء ليتصل بنفسه ويبلغه النتائج. فكر لو يتصل بأولاده في لبنان، لكن وجد أن الوقت متأخر ولا يجوز أن يوقظوا من نومهم في هذه الساعة ليسألهم عن صحتهم وأحوالهم!

ولا يعرف كيف عنّت له تلك العجوز في هامبورغ. تراءت له من جديد ومعها القطة التي كانت لديها. كانت أفضل من حاله الآن، القطة تشغلها، تتحدث معها، تقلق من أجلها. ويتذكر تلك النظرات الغاضبة حين اختفت القطة. ود لو يتصل بها في هذه الساعة، ويشرح لها أنه بريء، لا علاقة له البتة باختفاء القطة. سوف تفهم موقفه الآن، بعد أن زال الغضب، وبعد أن مرت سنوات كثيرة على ذلك. ربما ربت قطة أخرى أو كلباً، ولا بد أن تكون قد نسيت الموضوع كله ولكن هل تتذكره؟ هل تحفل الآن، بعد مرور هذه السنين، أن يشرح لها موقفه ويعلن براءته؟ وماذا يعني كل ذلك، خاصة ضمن الظروف التي يعيشها؟ كان يتمنى أن تكون بداية العلاقة الجديدة بينهما كتابه حول نظرية المربع أو حول تاريخ موران. هل يليق به أن يحدثها الآن عن القطة الضائعة؟ لا بد أن تفسر موقفه على أنه سخرية جديدة تضاف إلى الإساءة السابقة. لن تفهم حقيقة دوافعه، ولن تتصور أن يتصل بعد سنين طويلة ليعتذر عن خطأ نسيته بكل تأكيد.

وهو يدور في الغرفة، وتدور في رأسه الأفكار والخواطر والرغبات، رأى صينية الطعام على الطاولة الجانبية. منذ فترة مرضه وهو لا يغيّر عشاءه: قطعة من الجبنة مع قليل من الخضرة والفاكهة، وقطعة من الخبز. لم يجد في نفسه رغبة للأكل، لكن تراءت له البلابل والحمام على شباكه منذ الصباح.. فتح النافذة وبدأ يقطع الخبز قطعاً صغيرة ينشرها على الافريز. سوف تأتيه الطيور في الصباح الباكر، سوف تتدافع على حافة النافذة وتصطدم بالزجاج. ستوقظه حركتها وعراكها وهي تلتقط قطع

الخبز. إنه ما زال نافعاً، وهناك من ينتظره. هكذا قال لنفسه وهو يواصل بلذة تفتيت قطع الخبز. ويجعلها صغيرة قدر ما يستطيع.

كان يواصل هذه المهمة بلذة حين لمح زيد الهريدي يدخل القصر. نظر إلى ساعته، كانت قد تجاوزت الحادية عشرة ببضع دقائق!

لماذا جاء في هذه الساعة؟ هل جاء لأمر عاجل أو بناء لطلب السلطان؟ هكذا تساءل باستغراب.

لم يمض على مجيء زيد نصف ساعة حتى جاءته سلمى. كانت خائفة، أقرب إلى الاضطراب. بدت له أكبر عمراً وأكثر هماً من أية فترة سابقة. تأكد أن أخباراً خطيرة تنتظره، فان يجيء زيد، وأن تجيء سلمى، وأن يكون وضعها بهذا الشكل، فلا بد أن تكون هناك أحداث كبيرة حصلت.

تطلعت إليه وظلت صامتة، وظلت خائفة. سألها بعصبية إن كانت هناك أحداث جديدة وقعت في موران. هزت كتفيها دلالة أنها لا تعرف. سألها عن أمها وعن غزوان، قلبت شفتيها أنها لا تعرف. سألها لماذا هي خائفة ومصفرة الوجه، انتفضت وقالت انها لا تعرف. سألها ما بها، تنفست ملء صدرها وقالت ان السلطان جاءها إلى غرفتها وقال لها كلمة واحدة، وحين لم تفهم هذه الكلمة قال لها: إذهبي إلى أبيك لكي تفهمي معنى هذه الكلمة.

ارتجف الحكيم وخاف. تقدم نحوها، وضع يده على كتفها ودفعها برفق لكي تجلس على حافة السرير. كان قلبه يرتجف. لأول مرة، بعد تلك الليلة في موران، يشعر، مجدداً، بالخوف. استجابت له وجلست على حافة السرير. كانت خائفة أيضاً. نظرت إليه بسرعة. كانت عيناها عيني حمامة، كانت تهرب من نظراته، بل وتخاف منه، وكانت تريد أن تفعل شيئاً. لاحظ ذلك من حركة قدميها، إذ كانت تحركهما حركة عصبية سريعة. حاول أن يهدئها، لكنه نفسه لم يكن هادئاً أو قادراً على القيام بهذا الدور. تلفت حواليه عدة مرات. مرت في رأسه أفكار كثيرة. شعر بحقد

على وداد، لماذا تركته وحيداً يداري أموراً لا يعرف بها. للحظة خاطفة تصور أن سلمى حامل، وجاءت لتبلغه، وتصور أشياء أخرى أيضاً، لكنه لا يعرف كيف يسألها أو كيف يفهم منها.

جلس إلى جانبها على السرير، نفض يديه من بقايا الخبز، وحين شعر بنسمة باردة قام وأغلق النافذة. لما رجع، وقبل أن يجلس من جديد سألها:

ـ ماذا قال لك؟

قالت وخرج صوتها مرتجفاً:

ـ قال لي: أنت طالز، أنت طالز، أنت طالز!

وردد بصوت خفيض لنفسه الكلمة لكي يستوعبها: أنت طالز. دارت عيناه في محجريهما دورة كاملة. أغمض عينيه قليلاً لكي يعيد ترتيب الحروف، ولكي يضعها في سياقها، وحين تبدت له تلك الكلمة مدّ شفته السفلى مثل مجداف استغراباً ودهشة وألماً، وبعد لحظة سألها:

ـ وقالها ثلاث مرات؟

ـ أي نعم.

ـ وقال لك إذهبي لأبيك؟

ـ أي نعم.

زفر كما يزفر حوت، وبعد قليل، خرج صوته من أعماق صدره:

ـ بسيطة!

بخوف ممزوج بالارتجاف تطلعت إليه لكي تعرف معنى الكلمات التي قالها السلطان. حاول أن يبتسم. كانت ابتسامته أقرب إلى الحزن، ومليئة بالبلاهة. وضع يده على كتفها وشد على الكتف دلالة المودة. قال وهو يرفع يده الأخرى لكي يتنفس براحة:

ـ بسيطة يا بنتي، خلصنا.

وحين خيم الصمت، قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ هذا الزواج كان من أوله غلط.

ولم يجدا شيئاً يقولانه. غرقا في حالة من الكآبة والتفكير. لم يعرفا ماذا يتكلمان أو ماذا يفعلان. عاد الحكيم إلى أول أيامه في موران. أيام كان في حران وحيداً، كان قوياً وواثقاً. وعاد إلى الأيام الأولى في موران العاصمة. يوم جاءت سلمى، والأولاد ووداد، وكيف تصرف وكيف تصرف الآخرون. تذكر كل شيء، شعر أن حياته كانت تافهة، دون معنى. والآن..؟ ماذا يستطيع أن يفعل الآن، بعد أن انهارت كل آماله وأحلامه؟ ولماذا يبقى هكذا فقط ليتلقى المصائب واللطمات؟ ولماذا ارتكب تلك الحماقة وزوجها للسلطان؟ وهل كان يستطيع أن يرفض؟ جاءه حماد لا ليسأله عن موافقته أو رفضه، وإنما لكي يبلغه أن السلطان يريدها ولا شيء غير ذلك. والآن، ماذا يستطيع أن يفعل؟

وهو في هذه الأفكار والهواجس دُقّ الباب، قام بنفسه وفتحه. كان زيد يملأ الباب، تنحى له، دون كلمات، وأشار إليه أن يدخل.

كان زيد يحمل صرة تملأ كفه المفتوح، وباليد الأخرى علبتي الدواء. نظر إليهما الحكيم ونظر إلى زيد. بدا له، للحظات، أنه يرى هذا الوجه لأول مرة. بدا له غريباً وأقرب إلى الشبح، ولم يفهم شيئاً.

الصمت ثقيل موجع، الرجلان يتبادلان النظرات ولا يفعلان شيئاً آخر. سلمى ترقب المشهد ولا تصدق عينيها. النور يتراقص وكأنه يوشك على الانطفاء، أو هكذا تراءى للحكيم. الأفكار تتراكض في رأسه كأنها الخيول الجامحة. لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يقول. بعد وقت بدا طويلاً وقاسياً خرجت كلمات زيد وكأنها تخرج من بئر:

ـ هذا الصداق وهدية.. وهذا الدوا طويل العمر ما يحتاجه.

ومد إليه بالصرة وبعلبتي الدواء. لا شعورياً تناولها الحكيم، لكن في اللحظة التالية سقطت من يده الصرة محدثة رنيناً مكتوماً، أما علبتا الدواء فقد شد يده عليهما بقوة.

تراجع زيد خطوة إلى وراء. التفت أكثر من مرة، قال وهو يتطلع بطرف عينيه نحو سلمى:

ـ ويقول طويل العمر: إذا جاء الألماني نكلفه يلقي لها بيت!

وتحرك زيد من جديد إعلاناً عن انتهاء مهمته. قال الحكيم وخرج صوته مسكيناً:

ـ لي طلب واحد يا زيد...

ـ سم يا أبو غزوان.

ـ إذا كان في أحد يوصلني لمحطة القطار.

ـ هالحين؟

ـ أي نعم، هالحين، وأنا جاهز وسلمى جاهزة.

ـ خلنا للصباح يا ابن الحلال.

ـ لا يا زيد هالحين أحسن.

قلب زيد شفتيه وهز يديه وكتفيه دلالة الدهشة والاستغراب، وقال وهو يخرج:

ـ بسيطة.. خير.

قال الحكيم بلهجة حازمة مخاطباً سلمى:

ـ حطي على كتفك شي يا بنتي وخلينا نمشي.

ومثل حمامة خائفة قامت. مشت أمامه، وفي نهاية الممر فتحت خزانة الثياب. أخرجت معطفاً وشالاً. لبست المعطف وعلّقت الشال بأسنانها خلال اللحظات التي استغرقها ارتداء المعطف، ثم تناولته ووضعته على يدها وسارت وسار وراءها!

الحكيم، وهو يدلف إلى فندق ستراسبورغ، القريب من محطة القطار في جنيف، في ذاك الصباح الباكر، وسلمى تقف على مبعدة خطوتين منه، وقد بدت خائفة، أثار الاستغراب والفضول معاً. وقبل أن يجيبه موظف الاستعلامات ما إذا كانت لديه غرف، وإنه مستعد لاستقبالهما، نظر إليه نظرة طويلة متأملة، ثم نظر إلى سلمى وابتسم. أما حين سأل عن الأمتعة، فقد رفع الحكيم يده اليسرى إشارة أن لا أمتعة، فهز الموظف رأسه دلالة أنه فهم الموقف كله! ولما تناول جوازات السفر وسجل الأسماء بدت عليه الدهشة، لأن الكنية واحدة، وفارق السن كبير إلى درجة لا تصدق!

قضى الحكيم ثلاثة شهور وبضعة أيام في تلك الغرفة المتواضعة، المطلة على شارع جانبي، والتي تواجه مجموعة من النوافذ القريبة لبيوت أقرب إلى الفقر، لم يطلب الحكيم تغييرها ولم تفكر إدارة الفندق بذلك.

وإذا كان أي نزيل، في أي فندق، يصبح مألوفاً بعد بضعة أيام، فقد ظل الحكيم يثير التساؤل والاستغراب. صحيح أن له عادات وأماكن لا يغيرها، وأصبح يعرف جميع العاملين في الفندق والجميع يعرفونه، لكن مع ذلك ظلت العيون تتابعه وتراقب حركاته وتصرفاته. حتى الزاوية اليمنى في مطعم الفندق، وقد شغلها صباحاً ومساءً خلال الأسابيع الأولى، كثيراً ما دفع الفضول بعض العاملين لأن يطلوا برؤوسهم ليتأكدوا أنه هناك!

في الثامنة والنصف تماماً يشير المصعد إلى أنه في الطابق الثالث، وفي الثامنة وواحد وثلاثين دقيقة يكون الحكيم أمام الاستعلامات، يلقي التحية،

يدير رأسه في نظرة دائرية واسعة، وكأنه صاحب الفندق، ليتأكد أن كل شيء في مكانه، وليتعرف ما إذا رحل بعض النزلاء أو جاء غيرهم! فإذا اطمأن تخطّر لمدة خمس دقائق في الصالة المقابلة للمطعم، ثم يتوجه بخطوات ثابتة إلى الزاوية ويحتل مقعده، ومن هناك يرقب الباب والمصعد. ولأن الجميع يعرفون أنه ليس وحيداً لا يقتربون منه. عند التاسعة، قبل التاسعة بدقائق أو بعدها بدقائق، تصل سلمى ويُقدّم الفطور. بعد أن يغادرا المطعم يجلسان في القاعة المقابلة، يجلسان صامتين، أو يتبادلان بهمس حديثاً قصيراً وغالباً ما يختار الحكيم الركن القريب من الباب، وراء العمود، ناحية اليسار. فإذا شغله أحد غيره يتضايق، ولا يخفى ذلك، ويظل يرقب المكان إلى أن يفرغ. فإذا فرغ انقضّ عليه كالقط، لأنه في ذلك المكان يشعر بالأمن والراحة. بل أكثر من ذلك يشعر أنه يسيطر ويشرف على كل شيء.

حوالى العاشرة والنصف يغادران الفندق، ولا يعودان قبل الثانية والنصف، إذ كانا يتناولان طعام الغذاء في الخارج، وأغلب الأحيان في مطعم لا يغيرانه، عدا الأيام الممطرة، إذ يضطران إلى البقاء في الفندق وتناول الغذاء أيضاً.

ولأن الحكيم تعوّد في موران أن يقيل لم يستطع أن يتخلص من هذه العادة، رغم أنه لم يتوقف عن لوم نفسه، وبعض الأحيان تعنيفها، «لأن مثل هذه العادات السيئة لا تناسب الأطباء»، حاول أن يتجاوزها لكنه لم يستطع، ولذلك لا بد أن يكسر بعد الغذاء كسرة قصيرة، ولو لدقائق.

بين الرابعة والنصف والخامسة يجلسان مرة أخرى في البهو وفي الركن ذاته، وقد تطول الجلسة إذا كانت برامج التلفزيون مسلية أو اهتم بها أحدهما. لكن في كل الأحوال يجب أن يخرجا لنزهة، ويجب أن يرجعا قبل الثامنة، لأن العشاء يقدم بين الثامنة والتاسعة. وما يكادان يفرغان منه حتى ينتقلا من جديد، إلى البهو، وإلى الركن ذاته أيضاً، ليتابعا من هناك برامج التلفزيون، فإذا لم تطل الأفلام، أو لم يتخلل البرامج شيء مثير،

فلا بد أن ينهضا بين العاشرة والنصف والحادية عشرة، وبعد سماع نشرة الأخبار بطبيعة الحال.

رغم الصرامة التي تبلغ درجة الآلية في مواعيد الحكيم وتصرفاته، والتي كانت تفترض تعوّد الآخرين والفتهم لها، فإن التساؤل لم ينقطع والاستغراب لم ينته. موظف الاستعلامات وهو يرد على تحية الحكيم في الصباح ينظر إلى الساعة المعلقة وينظر إلى ساعته ليتأكد. وخادمة المطعم تطل على الزاوية ذاتها، بكثير من الفضول، صباحاً ومساءً، لتكون أول من يلفت نظر العجوز القابعة وراء النافذة الصغيرة، والتي تقدّم الصحون، أو تتسلم البقايا، وتبتسمان. وجميع العاملين في الفندق، وحتى بعض الذين يقضون فيه أياماً، ينظرون إلى ذلك الركن، وهم واثقون ان الحكيم سيكون هناك!

مدير الفندق وموظفوه الذين ارتابوا بالحكيم في الأيام الأولى، فاحتفظوا بجوازات السفر، لئلا يغادرهم دون تسديد الحساب، اعتبروا أن تقديراتهم خاطئة بعد أن وصلت إليه وبسرعة عشرة آلاف دولار، وصلت قبل نهاية الأسبوع الأول، استبقى الحكيم القسم الأكبر من المبلغ لدى الإدارة، واشترى لسلمى ولنفسه مجموعة كبيرة من الثياب، واشترى حقيبتين كبيرتين، فأعيدت إليه جوازات السفر، مع الاعتذار بأنها استبقيت سهواً! وأصبح يحاسب في نهاية كل أسبوع. ولما تكررت النداءات الهاتفية إلى الولايات المتحدة أو منها، لم يعد موضع شكوك من ناحية ملاءمته المالية. أكثر من ذلك كان لا يُشعر بالحساب إلا عرضاً وببعض الخجل. ولم يتردد صاحب الفندق في أن يخصه بضع مرات بزهور وضعها له في الغرفة وبسلال من الفواكه. وقد سُرّ الحكيم من هذه الالتفاتات وقدرها بامتنان. وكرد على هذه المواقف كان يترك للعاملين هدايا مالية، في الغرفة أو في المطعم.

لو أن الظروف طبيعية لرضي الحكيم بهذه الحياة وهنئ بها، لأنه هنا يستطيع أن ينفذ الخطط التي طالما حلم بها وخطط لها. كان يمني نفسه أن يقضي أياماً هادئة إلى جانب البحيرات أو في أعالي الجبال، لكن مشاغل

موران وهموم الحياة في السنين السابقة جعلته ينسى، أو بالأحرى يؤجل الرحلة إلى أوقات أخرى.

الآن، وهو يخطو أولى خطواته في سويسرا، قرر أن يبدأ من جديد «الوطن وهم كبير، وتكفيني الأوهام التي عشتها في هذه الحياة» وحاول أن يحسب، على وجه التقريب، المبالغ التي سيحصل عليها إذا صفى أملاكه في موران وباعها كلها. وبدا له المبلغ كبيراً إلى درجة يستطيع أن يشتري بجزء منه قصراً ومزرعة في مكان قريب من البحيرة، وهناك سوف يتفرغ للأشياء، التي يحبها: للتأمل ثم الكتابة والتأليف، وسوف ينجز أعمالاً كثيرة أجلها طوال السنوات الماضية. لم يكتف بالفكرة، بدأ ينظر بعين مدققة، وهو يسير في بعض الضواحي القريبة، إلى الفيلات الأنيقة والحدائق الواسعة، ولا يتردد في سؤال سلمى أو استشارتها؛ بل وخطا خطوة أخرى، إذ طلب نصيحة مدير الفندق. ومدير الفندق لم يبخل عليه، بل وأخذ يعامله بطريقة مختلفة عن السابق، وتمادى أكثر من ذلك، فسأله ما إذا كان يفكر أيضاً بتوظيف استثماراته في مشاريع تدر أرباحاً كبيرة. وقد أجابه الحكيم إجابات غير نهائية، وان لم يرفض. «حالما تعود وداد سأبدأ الخطوات العملية» لكن وداد لا تعود، وطالت إقامة غزوان في موران أكثر مما قدّر. وصفاء، على الجانب الآخر من المحيط، يطمئن الحكيم، يؤكد له أن «الشغل وحده هو الذي أخّر الأستاذ» «وأن الأستاذ والوالدة بصحة جيدة ويبلغون التحيات والأشواق».

ويواصل الحكيم مشاويره اليومية، يعبر الشوارع القليلة ويدور حول الميدان إلى أن يصل البحيرة، أو يعبر الجسر ليصل إلى البحيرة من الجانب الآخر.

بدأ يتكيف مع الوضع الجديد أو يقنع نفسه بهذا الوضع، تاركاً اتخاذ القرارات إلى وقت آخر: «يجب أن يكون لها رأيها، لأننا صفينا: راسي وراسها، ويجب أن تقرر لكي تتحمل المسؤولية، وليس مثل المرات السابقة».

في بداية الأسبوع الثالث، وحينما كان جالساً وسلمى في إحدى مقاهي الشاطئ، وكان النهار جميلاً والشمس مشرقة، وبدا فرحاً منتعشاً، مرّ اثنان، كانا يتحدثان باهتمام ومنشغلين، لكن فجأة التقت نظرات احدهما بعيني الحكيم، فأجفل قليلاً، توقف للحظة دقق النظر، ثم لفت نظر صديقه، فتطلعا معاً نحو الحكيم.

حصل كل شيء في لحظة خاطفة لم تستغرق أكثر من ثوانٍ، وكان يمكن للأمر أن ينتهي دون أن يخلف أثراً، لكن أن يعود الرجلان خلال ربع ساعة، وأن يجلسا في نفس المقهى، وأن يتبادلا الحديث وينظرا بين فترة وأخرى إلى الحكيم، فقد دخل التوجس إلى قلبه وأصبحت خشيته جدية.

ومما جعله متوجساً أكثر أنهما من موران: الملامح، التصرفات، النظرة. ولم يراوده الشك إنهما ينظران إليه ويتابعانه. تعمد أن يدير كرسيه قليلاً، أن يتحدث مع سلمى، أن ينشغل بمراقبة البحيرة أو العابرين، لكن في لحظة مناسبة، وبطريقة لا تخلو من مكر، كان ينظرَ إليهما، وحالما تلتقي النظرات يهربان، أو يشعران بالحرج!

قبل أن ينهض نهضا، وقفا عند باب المقهى وتطلعا إلى أكثر من اتجاه. تراءى للحكيم أن واحداً منهما تحسس شيئاً تحت سترته، «ربما يكون مسدساً». للحظة رفض أن يصدق، لكن النظرات الشريرة الأقرب إلى الحقد الممزوج بالخوف جعلته يتحسب: «بالتأكيد من موران وأرسلا من أجلي، ولا بد أن أكون مستهدفاً».

لكي يفوّت عليهما خطتهما، ولأنهما لاحظا أنه دفع الحساب، قاما، مال على سلمى وسألها ان كانت تحب أن تتناول مشروباً جديداً، وحين نظرت إليه باستغراب واعتذرت. قال إنه بحاجة إلى فنجان قهوة، لكي يصحو ويروّق، وبعده يغادران. ولم يتأخر إذ طلب من الجرسون أن يأتيه بفنجان قهوة.

خلال تلك الفترة القصيرة فكر كيف يرجع إلى الفندق: «يجب ألا

يعرفا الفندق، هذه هي المهمة الأولى» وتطلع إلى الاتجاه الذي سارا فيه «ويجب أن أغيّر الطريق والاتجاه، إذ ربما كانا يكمنان في أحد المنعطفات» وعليه أن لا يدخل في أزقة جانبية أو مظلمة «لأن القتلة يخافون الأضواء والبشر». وفكر أن يبلغ البوليس، لكن اعتبر الفكرة مبكرة وربما تلفت النظر أكثر مما ينبغي. وشعر بالندم لأنه لم يحمل سلاحاً ولم يحتط للأمر. وحاول أن يعتبر ما حصل مجرد صدفة، لكن كيف يفسر التصرفات كلها منذ اللحظة التي التقت النظرات حتى لحظة المغادرة؟

تراءت له من جديد صورة فنر: وجه خشبي قاسي الملامح، الوجه عنوان الشخصية، لا يحرم ولا يحلل، حتى أخاه غدر به، فكيف الغريب والبعيد؟ «لا يريد أن يقتلني في موران لئلا يتحمل المسؤولية، أما هنا، في سويسرا، على بعد آلاف الأميال، فيمكن أن تتم العملية بسهولة، ودون أن تخلف أثراً: مجرد قاتل مأجور وبضع رصاصات وينتهي كل شيء».

شعر بالانقباض والخوف. لم يكن جباناً إلى هذه الدرجة، لكنه لا يريد أن يموت بهذه الطريقة، أو بهذا المكان، وبهذه السهولة أيضاً!

بعد مرور أكثر من نصف ساعة رجا سلمى أن ترجع بمفردها إلى الفندق، مؤكداً لها أنه سيمرّ على إحدى الصيدليات، وحين أبدت رغبتها بمرافقته، طلب بإلحاح، بأن ترجع قبله، وأكد لها أنه لن يتأخر، ويجب ألا تخاف.

وهو يأخذ الاتجاه المعاكس، ثم ينعطف يساراً، لم يتوقف عن الالتفات. لأول مرة يشعر بهذا القدر من الخوف. لا ليس الخوف تماماً، إنه حالة من العصبية وعدم القدرة على التركيز، مع جفاف في الحلق وسرعة في ضربات القلب. رأى مجموعة من الأشخاص عند باب فندق هيلتون، فانتقل إلى الرصيف الآخر. ولقد لفت نظره أنهم تابعوه باهتمام، فازداد توتره. «كان يجب أن أتصرف بطريقة مختلفة»، هكذا قال لنفسه، وهو يسرع أكثر من قبل ليخلص من هذا الحرج. عندما وصل إلى مفارق الطرق تردد قليلاً، يجب أن يذهب إلى اليسار، ليتجاوز الميدان ويواصل

طريقة، لكن ماذا لو كانا قد تجاوزا الميدان وانتظراه في الشارع المؤدي إلى المحطة؟ ولماذا لا يستقل تاكسي ويصل إلى الفندق؟ ولكن ماذا سيتقول له السائق إذا عرف أن فندق ستراسبورغ على هذه المسافة القريبة؟

انعطف نحو اليمين وأسرع في سيره، التقى بامرأة مسنة آتية من الجهة الأخرى. نظرت إليه باستغراب: هل يبدو غريباً ومثيراً للانتباه؟ هل تظهر عليه علامات تلفت نظر الآخرين؟ قرر أن يبطئ في سيره وأن يعطي وجهه ملامح عادية أقرب إلى عدم الاهتمام. التفت إلى الخلف ليعرف ما إذا كان أحد يتبعه، رأى المرأة تلتفت أيضاً، اضطرب قليلاً: «يمكن أن تبلغ الشرطة وتثير حولي الشكوك». تطلع إلى أعلى، رأى امرأة في إحدى الشرفات تسقي آنية زرع، وقد توقفت حين التقت نظراتها بنظراته، وتطلعت أيضاً نحو المرأة الأخرى. ازداد حرجه. يجب أن يتخلص من هذه النظرات. أسرع مرة أخرى، والتفت إلى اليسار. مجموعة من الطرق المتقاطعة. أين يذهب وكيف يصل إلى الفندق؟ احتار. شعر أنه أخطأ. قال في نفسه: «الطرق الجانبية مصائد والقتلة لا يقتلون إلا في مثل هذه الطرق». وقرر، مرة أخرى أن يندفع إلى شارع رئيسي، لا يهم أن يكون بعيداً. . . لا بل الأفضل أن يكون كذلك، لكي يضلل أي إنسان يتبعه. يجب ألا يخاف الضياع أو عدم إمكانية الوصول إلى الفندق، فما دام يعرف اسم الفندق فإنه قادر على العودة.

انعطف مرة أخرى نحو اليمين؛ لاحظ أن بعض المارة نظروا إليه، اضطرب قليلاً لكنه قرر أن يتماسك، أن يبدو عادياً، بل وفكر لو يدندن بلحن لكي يضفي على ملامحه ونفسيته حالة أقرب إلى الرضى والهدوء، لكن لم يستطع أن يواصل هذه الفكرة، بل وبدت أقرب إلى التمثيل، أو الخفة، وحتى أقرب إلى الرعونة. . وقد تثير الانتباه أيضاً.

لا زال متوتراً مع شيء من الاضطراب، ولا زال حائراً أي الاتجاهات يأخذ أو بأية سرعة يسير. لأول مرة يراقب نفسه، ينظر إلى الوجوه بتساؤل. أبطأ قليلاً ثم أسرع دون أن ينتبه. ما كاد يتجاوز حديقة صغيرة

حتى وجد نفسه يتجه إلى الشارع الموازي للبحيرة، الشارع الذي هرب منه! لم يستطع أن يتراجع، فالرجل والمرأة اللذان خرجا من إحدى العمارات، وكاد يصطدم بهما لحظة خروجهما، أفسحا له الطريق وظلا يسيران وراءه، وأية محاولة للتباطؤ أو العودة ستلفت نظرهما وربما تثير شكوكهما. قرر أن يواصل.

خلال الخطوات المتبقية حاول أن يستعيد ملامح الرجلين، وحاول أن يتذكر ماذا إذا كان الإثنان من هناك. ربما يكون أحدهما من الشرطة السريين الذين رافقوه أثناء تسفيره من موران. للحظة بدا له أنه يعرف واحداً منهما، لقد رآه بكل تأكيد، لكن لا يعرف أين أو متى. ولم يستطع أن يتذكر. لام نفسه على هذا العيب الذي لازمه منذ وقت طويل، إنه لا يتذكر الملامح بدقة، بشكل جيد، لأنه لا يدقق. أكثر من ذلك يتجنب النظر بتحديد إلى الشخص المقابل، ولا يحب أن ينظر إليه الآخرون بتدقيق، وكأنهم يفلّونه أو ينزعون ملابسه. عزا هذا الأمر في وقت مبكر إلى الخجل، وفي وقت لاحق عزاه إلى الهيبة. وتداخلت ملامح الرجلين في رأسه واختلطت ألوان الملابس، بحيث لا يقوى على تحديد صفتها أو لونها لو سئل. قرر أن يتوقف في زاوية الشارع، أن يتلفت في أكثر من الاتجاه، ثم يتظاهر أنه أخطأ، حتى إذا تجاوزه الرجل والمرأة عاد من نفس الشارع ليواصل طريقه نحو الفندق!

بعد أكثر من ساعة من الضياع المقصود وغير المقصود، وبعد أن دخل محطة القطار، وقضى فترة، وكأنه ينتظر مسافراً، وخلال تلك الفترة دقق باهتمام بالذين مروا أو الذين يقفون مثله ينتظرون، فلما اطمأن تماماً اتجه إلى الفندق. سلك إليه طريقاً مختلفاً عن الذي يسلكه كل مرة، وقبل أن يدفع الباب الزجاجي ويدخل، توقف، نظر إلى السيارات المتوقفة، ونظر إلى الشارع في الاتجاهين، ثم بسرعة انزلق كما تنزلق سمكة.

سلمى تلبد في الركن ذاته بخوف، وقد ازداد خوفها لما رأته، وهو يرتمي على المقعد القريب. سألته إن كان مريضاً أو يشكو من شيء، هز

رأسه بالنفي، لكنها لم ترفع نظراتها عنه، كانت تراقبه. تنظر إليه بتساؤل، وكانت أقرب إلى البكاء.

بعد دقائق أبلغها أنه سيصعد إلى الغرفة ليستريح، وطلب منها أن تتناول الغداء بمفردها في مطعم الفندق، اضطربت، ثم اعتذرت. قالت إنها غير جائعة، وحين نهض نهضت معه.

في الغرفة سألته من جديد ان كان مريضاً أو بحاجة إلى مساعدة من أي نوع، فرد عليها إنه متعب ولا شيء غير ذلك، وسوف يستعيد نشاطه خلال فترة قصيرة. تذكرت مرضه في بادن بادن فخافت أكثر من قبل. قالت من الأفضل أن يراجع الطبيب. هز رأسه ولم يجب.

حاول أن يتماسك، أن يبدو قوياً. طلب من إدارة الفندق غداء لواحد وكأساً من العصير. بعد إلحاح كبير منه مدت سلمى يدها إلى الطعام. كان يراقبها وهي تقضم قطعة الخبز، وهي تمد يدها بتردد. لم تأكل إلا كما يأكل عصفور، وكانت تشرب الماء بعد كل لقمة. شعر بحزن. حاول أن ينام لكي ينسى، لكن النوم لم يطاوعه ولم يأته. تقلب كثيراً، غيّر وضع الوسادة، استرق نظرات إلى سلمى، رآها تراقبه. خجل. عزا عدم قدرته على النوم إلى فنجان القهوة.

حين نهض من الفراش فعل ذلك بحيوية أقرب إلى العنف، ليضفي على حركاته، ونفسيته شيئاً من العنفوان، ولكي يقاوم الخوف الذي يطوّقه. لكن هذه الحركات أفزعت سلمى أكثر مما طمأنتها. أما وهو يعود من الحمام، بعد أن اغتسل، فقد سألها بشكل مفاجئ:

ـ ما رأيك بهذي اللحية يا سلمى؟

ومسّد على لحيته. كانت عيناه تحوّمان، وكأنه يفكر بشيء آخر. قلبتْ سلمى شفتيها دون أن تجيب. تابع:

ـ انها تلفت نظر كل من يتطلع إليّ؟

هل هي الحمى عاودته من جديد ولذلك يتكلم حول موضوع لم

يخطر ببالها؟ وشكله الآن هل يزعجه إلى هذه الدرجة؟ تجاوزت الأمر وسألته أن تحسن وكيف هو الآن، رد بمرح:

ـ النوم والحمام الساخن أحسن الأدوية لمعظم الأمراض!

حاولت أن تصدق، أن تبتسم، لكنها كانت متأكدة أنه لم ينم لحظة واحدة. وبعد الحمام يحدّثها عن اللحية! تابعت حركاته بتدقيق لتتبين وضعه، قال وكأنه يحاول إقناع نفسه:

ـ يجب أن أتخلص منها. . .

وبعد قليل وبنبرة مختلفة:

ـ إذا مو اليوم اللي بعده!

ظلت تتطلع إليه وهي صامتة، فلم تكن تفترض أن أسئلته بحاجة إلى إجابات، بل أكثر من ذلك تبدو لها غريبة وكأنها نتيجة الحمى. قال وقد أحس بهواجسها:

ـ الواحد يزهق إذا ظل بشكل واحد!

وقهقه وهو يضيف:

ـ أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

وحين هدأ:

ـ إذا كانت اللحية لازمة وضرورية لموران، فعصر موران انتهى، ولازم تنتهي معه كل مستلزماته!

وهو يستعد للخروج رسم على وجهه ابتسامة كبيرة، شد جسده وتطلع إلى نفسه في المرآة. ابتسم بمرح فاطمأن قليلاً، تلفت إلى الاتجاهين لكي يتأكد. حين أغلق الباب، لم ير أحداً ولم يسمع حركة. قال في نفسه «الانتباه والحيطة ضروريان دائماً» قبل أن يضع المفتاح لدى الاستعلامات ألقى نظرة فاحصة مدققة على القاعة ونحو الباب. بدا له كل شيء عادياً، وركنه فارغاً يستعد لاستقباله. ابتسم أكثر مما تعود، رفع يديه في الهواء أكثر مما يفعل في حالات مماثلة وتنفس!

خلال الفترة التي كانا يتابعان سيرك فرانكفورت، كان يغيب في أعماق موران وفي أعماق ذاكرته لكي يستعيد الوجوه. الألوان والملامح تتشكل تدريجياً ثم تعتكر وتتلاشى. حتى ملامح فنر تغيب، تتراءى له في لحظات معينة ثم تتداخل مع ملامح الآخرين، فلا يعود قادراً على استعادتها مرة أخرى.

في أحد المشاهد، ومروّض الفيلة يفرقع سوطه، ويدور بسرعة، تراءى له شبهاً تاماً بين المروض واحد الرجلين. ارتجف قليلاً وغرق في مقعده لا إرادياً وكأنه يتخفى، ثم استدرك وانتبه أن ما يراه مجرد سيرك. فكر لو يقترب أكثر لكي يتأكد، لكن اعتبر الأمر هراء ولا يستوجب منه هذا الانشغال، تحرك في مكانه ليشعر سلمى أنه مستعد للحركة.. انتبهت فجأة، تطلعت إليه، قال لها وهو ينهض:

ـ كلها مسخرة، ضحك على الذقون!

ولا شعورياً تلمس لحيته، ثم أنزل يده بسرعة، بعد أن استعاد ما قاله. قامت وتحركا!

كانت تملؤه فكرة واحدة: أن يصبح شخصاً آخر، شخصاً جديداً!

بصمت ودراية سار ومشى إلى نهاية الشارع وانحرف يميناً، تجاوز مجموعة المطاعم ثم انحرف يساراً، وبعد أن سار بعض خطوات أخرى دخل محلاً صغيراً، دخل بحزم وتصميم: مجموعات كبيرة من القبعات بأشكال وألوان لا حصر لها. كانت سلمى تقف إلى جانبه بترقب واندهاش: ماذا يريد؟ هل يفكر بشراء قبعة؟

جرب عدداً كبيراً من القبعات إلى أن استقر على واحدة، واحدة تلبس رأسه تماماً، أما حافتها المائلة على شكل هلال فإنها تحجب جبينه كله وتنزل حتى الحاجبين. تأكد أنها تلائمه حين نظر إلى نفسه في المرآة مواجهة وبشكل جانبي. ولكي يطمئن أكثر سأل سلمى إن كانت مناسبة أم لا، ردت بأن رفعت شفتها السفلى دلالة عدم المعرفة. ولكي لا يترك لنفسه مجالاً للتردد أشار للبائع أنه يريدها، ويريد واحدة أخرى. ساعده

البائع في انتقاء الثانية، بعد أن عرف أي نوع من القبعات يناسبه أو يريده.

سارا في شوارع جانبية لم يمرا فيها من قبل، شعر الحكيم بالثقة. كان يرفع رأسه قليلاً لكي ينظر إلى وجوه الذين يمرون به. أخذ يراهن نفسه أنه يستطيع أن يعرف الأشخاص دون أن ينظر إلى وجوههم. وراهن نفسه أيضاً أن يحزر أطوال الذين يمر بهم وألوان شعورهم، بمجرد أن ينظر إلى الأرجل أو إلى السيقان، أو حتى إلى الأحذية! كان إذا مرّ رجل أو امرأة يخمن كيف يكون، وما يكاد يتجاوزه حتى يلتفت لكي يتأكد!

سلمى تلتفت إليه بين لحظة وأخرى. تتابع حركاته وانفعالاته والتفاتاته وقد امتلأت بالتحسب. لماذا يفعل هكذا؟ ماذا حصل له؟ لم تستطع أن تسأله أو تتكلم معه، فقد كان مستغرقاً في هذه المهمة، يمارسها بشغف، ولا يحس بنظراتها أو بنظرات الآخرين!

حين عاد إلى الفندق، بعد هذه الجولة، كان أكثر اطمئناناً. أما حين رآه العاملون في الفندق وقد اعتمر، بزهو، القبعة وكان حريصاً على أن تظهر، فقد استغربوا، لكنهم اكتفوا بالابتسام!

لاحظ الاستغراب والابتسامات لكنه لم يحفل. المهم ألا يعرفه أحد، «سوف أضلل حتى العفاريت» قال لنفسه، وهو ينتزع القبعة ويضعها على ركبته. نظر إلى لونها، إلى مدى ملاءمتها لملابسه، ثم استخرج القبعة الثانية ولبسها. كان يفعل ذلك بلذة، دون أن يأبه للنظرات التي تتابعه.

قال لمدير الفندق في اليوم التالي، لما رآه ينظر إلى القبعة ويبتسم وكان يهز رأسه:

ـ تعوّدنا في بلادنا أن نغطي الرؤوس، ومنذ أن وصلت إلى سويسرا أشعر أنني عار بدون غطاء للرأس، ولذلك اشتريت هذه القبعة!

وافقه المدير وأضاف أن كل شيء في هذه الحياة عادة!

ومع القبعة، في الأيام التالية، نظارات سوداء وعصا، هي بين العكاز والبسطون، فبدا أكثر اطمئناناً، لكن أصبح أكثر إثارة لانتباه الآخرين. ولكي يحارب هواجسه وشكوك الآخرين، لا يتردد، في بعض الحالات،

أن ينتزع القبعة أو النظارات السوداء، لكن حين يفعل ذلك يضطرب، يحس أنه مكشوف!

ويزداد حرصاً وحذراً يوماً بعد يوم، ويشتعل ذهنه في ابتداع وسائل جديدة للتخفي: «أكبر خطر يتعرض له الإنسان أن يعرف خصومه نظامه اليومي» «أفضل طريقة لتضليل الخصوم أن لا يكون لك عادة، لأن العادة، كما يقول الفلاحون فضّاحة، وأن لا يكون يومه مثل أمسه». وبطريقة لا تخلو من المكر يتفتق ذهنه عن عشرات الوسائل: لا تخرج في ساعة محددة؛ لا تتبع نظاماً ثابتاً؛ لا تترك أحداً يعرف كيف تفكر أو ماذا تفعل؛ لا تتعود على أمكنة أو تعوّد الآخرين أن يجدوك هناك؛ لا تدخل إلى مكان قبل أن تعرف كيف تخرج منه ساعة الخطر أو عند الضرورة؛ اعتمد دائماً على عنصر المفاجأة والمباغتة؛ اترك المكان دون أن يحس بك أحد.

كتب الحكيم هذه الوصايا وأخرى كثيرة غيرها. وسلمى التي ترقب أباها مهموماً مشغولاً، وتراه بين يوم وآخر يغير عاداته وشكله، لا تعرف ماذا حلّ به، وإلى متى سوف يستمر.

في الصباح، يطلب المصعد، فما يكاد يصل حتى ينزل الأدراج على قدميه، أو ينزل إلى الطابق التالي ويأخذ المصعد من هناك. الذين تعودوا على رؤيته في الثامنة والنصف، أصبحوا يلاحظون نزوله في أوقات مختلفة. ومع هذه الاحتياطات، فإنه كل صباح يسأل إن جاء للفندق ضيوف من موران، ورغم معرفته بالجواب، كان يتظاهر بالأسف، لأنه ينتظر مثل هؤلاء الضيوف!

والزاوية على يسار الباب يجلس فيها مرة ويهجرها مرات. ومغادرة الفندق ليس لها موعد ثابت، وكذلك العودة. أما الأبواب الجانبية للفندق فقد تحراها بنفسه، وسأل أيضاً إن كانت هناك أبواب للطوارئ أو لإدخال المؤن. وسأل عن موعد إغلاق الباب الرئيسي. فعل كل ذلك بطريقة غير مباشرة ولاتخلو من مكر.

بعد أن يتأكد من الاحتياطات التي اتخذها يشعر بالثقة، بل ويشعر

بالقوة أيضاً: «عقل الإنسان قادر على اجتراح المعجزات، وباستطاعته التغلب على اعتى الخصوم». يرفع ساعديه قليلاً، دون أن يترك لأحد ملاحظته، يتنفس ملء رئتيه، يستعجل سلمى بالخروج، وقد تهللت أساريره، وبدا إنساناً مختلفاً عن الأمس أو الأيام السابقة. تتطلع إليه سلمى لتتأكد، لتعرف ان كان يعني كلماته. وفي الشارع يحدثها عن البيت الذي سيشتريه:

ـ يجب ألا يكون على الضفة ولا في أعلى الجبل. على الضفة: الرذاذ، الرطوبة، رائحة الماء، كلها تؤذي الجسم، تجعله كسولاً؛ أما إذا كان عالياً فسوف يكون معزولاً وبعيداً وبارداً. . .

ويبتسم وتتغير لهجته:

ـ خير الأمور الوسط!

ويعود إلى اللهجة السابقة:

ـ أن يطل على البحيرة. لكن بعيداً عنها. ويجب، من ناحية الجبل، أن يكون محاطاً بسور عالٍ وبسياج من الأشجار الكثيفة والدائمة الخضرة، لأن السور والسياج يمنعان نظرات المتطفلين والمتسكعين ومضايقات الجيران أيضاً!

ويجيل نظراته في البيوت على التلال المحيطة بالبحيرة، يشير بإصبعه الممدودة إلى عدد منها ويقول:

ـ مثل هذه!

وتتطلع إلى حيث يشير لكن لا ترى!

يتابع كأنه يحدّث نفسه:

ـ ولازم يكون عندنا كلب أو أكثر، كلاب ألمانية أصلية، لأنها أحسن الكلاب للحراسة، ومطيعة، ولازم نربيها على أيدينا حتى تألفنا وتسمع كلامنا.

وحين يراها صامتة لا تعلّق ولا تسأل يتبسط في الحديث أكثر من قبل:

ـ طبيعي لازم تكون مدربة، لأن تدريب الكلاب عملية ما هي سهلة، ولازم نعطيها أسماء جديدة، أو يمكن تركها بأسمائها أحسن ما تضيع عليها وتتخربط.

ويتنفس ملء رئتيه فيخرج صوته مختلفاً:

ـ ولازم تكون بوابة الفيلا قوية، مثل بوابات القصور...

ولما يرى في عينيها الاستغراب والتساؤل وهي تنظر إليه يستدرك:

ـ طبيعي السرقات في سويسرا قليلة، والجرائم قليلة أيضاً: الناس شبعانة وراضية، ولذلك فالدنيا أمان، لكن الاحتياط ضروري.

ولا شعورياً يلتفت حواليه، يحس بقشعريرة باردة، يتابع باضطراب:

ـ ولازم يكون عندنا حارس وخدام وطباخة، لأن الواحد منا ما راح يشغل نفسه بالأشياء الصغيرة: افتح الباب، سكر الباب، أو بالمسح والكناسة أو بحمل الأغراض من السوق...

وتتغير اللهجة:

ـ هذه الأشياء لها أصحابها.

وما يكاد يعبر الجسر ويصل إلى الضفة الثانية من البحيرة ويدخل إلى الأسواق حتى يضطرب قليلاً: «جماعتنا ما عندهم همّ إلا الأسواق، فإذا ضيّعت واحد لا بدّ تلقاه في السوق!» ويحاول أن يفكّر بأمور اخرى، ان يشغل نفسه بواجهات المحلات لئلا تلتقي نظراته بواحد يعرفه. كان يلفت نظر سلمى إلى الأزياء، إلى الأحذية، يحضها على الشراء، لكنها تكتفي بكلمة:

ـ اللي عندي يكفيني!

حين جلسا في مقهى، قريباً من الجسر، نظر بعناية إلى الوجوه. لاحظ وجود شاب أسمر، وقد تطلع إليه وإلى سلمى، وابتسم. هذه النظرة مع الابتسامة أقلقت الحكيم أكثر مما اسعدته: «لأبد أن يكون من هناك، وربما عرفني». تعمد الحكيم أن يعطيه ظهره، وألا يلتفت. بعد قليل،

وحين استرق إليه نظره لم يجده: «بالتأكيد إنه واحد منهم، وربما ذهب بسرعة ليبلغهم بوجودي». ارتجفت يده بفنجان القهوة. خجل حين رأى سلمى تتابعه. قال ليفسر الأمر:

ـ المسكة ما هي مضبوطة!

ابتسمت موافقة. قال وهو يقرب رأسه من رأسها:

ـ والواحد، يا بنتي، إذا ما كان في بيته، وإذا ما نام على مخدته، وإذا ما أكل من الأكل اللي يحبه بيتعب، تتوتر أعصابه، خاصة إنه ما عندنا شغل إلاّ نازلين بالشاي والقهوة. . . والانتظار.

وبعد قليل وبعصبية:

ـ لازم نحكي معها اليوم ونقول لها اتركي كل شي وشرفي يا خانم، ارجعي!

كان متلهفاً لأن يحدثها، لكنه ظل متردداً، حتى ذلك اليوم، في الاتصال بموران لئلا يخلق متاعب أو شكوكاً هو في غنى عنها. ووداد لا تتصل، لا تسأل. بل أكثر من ذلك يبدو أنها لاتنوي المجيء خلال فترة قريبة. وإذا غادرت موران سوف تذهب إلى الولايات المتحدة. قال له صفاء إن بطاقة الطائرة ذهاب وعودة إلى الولايات المتحدة. «لماذا ترجع إلى أميركا؟» وهو، إلى متى يبقى ينتظر ولا يعرف شيئاً مما يحصل؟

قال لسلمى، وقد حاصرته مخاوف كثرة:

ـ اشربي العصير بسرعة وخلينا نمشي.

ـ أنا حاضرة يا بابا!

ردت بصوت مرتبك وكأنها تدافع عن نفسها، أو تثبت له براءتها.

لم ينتظر لكي يحاسب الجرسون، ترك له المبلغ على الطاولة وخرج.

كان يود أن يتناول الغداء، هذا اليوم، في المدينة القديمة، بناء لنصيحة مدير الفندق، لكن اعتبر تطبيق النصيحة مغامرة غير مأمونة النتائج «ماذا لو كان ينتظرنا وتابعنا؟» «ماذا إذا اتصل بالآخرين تلفونياً وأبلغهم أننا

في المكان الفلاني؟ سنكون صيداً سهلاً، ولن يتاح لنا مجرد محاولة الدفاع عن النفس». ولم يتردد كثيراً، أخذ سيارة أجرة وعاد رأساً إلى الفندق!

وزيادة في الاحتياط، وبحجة الاتصال بموران، طلب الغداء للغرفة، قال لموظف الاستعلامات، بعد أن انتزع، بعصبية، القبعة ثم انتزع النظارات ووضعها في داخلها:

ـ هذا رقم منزلي في موران، وأريد منك أن تؤمن لي اتصالاً عاجلاً!

تأمل الموظف الرقم كما يتأمل لوحة لأول مرة، بعد أكثر من شهر، يتصل بموران، يتصل بمنزله. سأله الموظف في محاولة للتأكد:

ـ هل نطلب شخصاً محدداً؟

للحظة خاطفة ارتبك الحكيم، لكنه استدرك بسرعة:

ـ لا... لا يهم، يمكن أن أتحدث مع أي كان!

أثناء تناول الطعام، فجأة رن جرس التلفون. اضطرب الحكيم كثيراً، وكأنه لم يكن يتوقع. أشار إلى سلمى أن ترد، لكنه قرر في اللحظة الأخيرة أن يرد بنفسه.

بعد الكثير من الجهد، ورغم ارتباك الخط، فقد اضطر الحكيم أن يضع منديلاً على سماعة التلفون لكي يخفي صوته! فهم من أبي عبد الله أن وداد غير موجودة في المنزل، وأن غزوان سافر قبل يومين. أما حين استوضح منه متى تعود معلمته فقد رد أبو عبد الله أنه لا يعرف، ولم يشأ الحكيم أن يطيل، كما لم يشر إلى أنه هو المتحدث، وإن بدا، في لحظات معينة، وبشكل ما، أن أبا عبد الله عرف!

لما عادا لمتابعة تناول الطعام لم يجد الحكيم رغبة في ذلك. كان محروراً، نزقاً، وأقرب إلى الغضب، لكنه حاول أن يكتم عواطفه. تظاهر أنه يأكل. كان يلوك اللقمة، يحركها من مكان إلى آخر، لكن لا يقوى على ابتلاعها. قال في نفسه: «ماذا حلّ بهذه الدنيا حتى يصبح الناس هكذا؟ ومن هم الناس؟ الزوجة والأبناء!».

قال لسلمى وقد شعر بالكآبة:

ـ لازم تكون أمك عم تركض من مكان لمكان حتى تأمّن الرزقات!

هزّت رأسها دلالة الموافقة وهمهمت بكلمات غير مفهومة. تابع:

ـ لكن الحق على غزوان...

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة:

ـ كان لازم، الله يصلحه، يمرّ، يسأل؛ كان لازم يجي حتى نتفاهم، لكن أذن من طين وأذن من عجين.

وهزّ رأسه بلوعة:

ـ وبعدين، بعد الأخطاء والكسل، يعبطنا بضحكاته، مثل ضحكات الحشاشين، ويقول: بسيطة يا بابا، ولا يهمك يا بابا، ولا كأننا عم نتقلى على الجمر، ولا كأن وراءنا ألف مشكلة ومشكلة.

وتغيّرت لهجته، أصبحت أقرب إلى العتاب:

ـ شو بيخسر لو فتح تلفون؟ لو قال: يا بابا أنا بالمحل الفلاني؟ لكن مثل أمه قلبه بارد، ولا هامه شي أبداً!

قالت سلمى بانكسار:

ـ يمكن مشغول يا بابا!

ـ شو مشغول؟ ما بيقدر يفتح تلفون؟ ما بيقدر يقول صار معي كذا وكذا وأنا بالمحل الفلاني؟ احنا مو طالبين منه شيء، بس حتى نطمئن، حتى نعرف!

وبعد قليل ويحزن:

ـ لكن بسيطة، لما نلتقي!

انتظر إلى ساعة متأخرة وطلب مكتب غزوان. جاء صوت صفاء قوياً واضحاً:

ـ الأستاذ سيرجع بعد يومين أو ثلاثة أيام.

ـ ولكنه غادر موران!

سيتوقف ثلاثة أيام في لندن ويوماً في نيويورك، قبل أن يصل إلى سان فرانسيسكو.

ـ ثلاثة أيام في لندن؟

ـ هكذا أبلغني عندما غادر موران.

ـ وما عرف يشرّف لعندنا؟

ـ والله ما عندي فكرة يا حكيم.

ـ وأم غزوان، يا صفاء؟

ـ أم غزوان بقيت في موران.

ـ طيب عندك تلفون غزوان في لندن؟

ـ لا والله يا حكيم، ومن أول أمس ما اتصل.

ـ والحل يا صفاء؟

ـ اللي تشوفه يا حكيم.

ـ طيب، يا ابني، إذا اتصل بك، إذا عرفت هوّ وين، خليه يتصل بي.

ـ أمرك يا أبو غزوان، على عيني ورأسي.

ولم يشأ أن يتصل بموران في هذه الساعة المتأخرة من الليل. شعر بغيظ شديد لأنه عاجز ومنسيّ، ولا يفعل شيئاً سوى انتظار الآخرين. قال في نفسه: «أصعب شيء بالنسبة للإنسان أن ينتظر، وأصعب انتظار انتظار من لا يتذكرك ولا يحس بك». حاول أن ينام، لكن تلك البراكين التي تغلي في داخله تؤرقه، تجعله نزقاً وأقرب إلى الغضب. بعد أن تقلب مرات لا حصر لها، وبعد أن تأكد من نوم سلمى، نهض إلى الحمام. نظر إلى وجهه في المرآة. بدا له الوجه حزيناً إلى درجة القهر: التجاعيد، علامات الزمن، البياض يغلب السواد في اللحية، ثم ذلك الاستسلام الذي تنطق به الملامح. انتفض فجأة، سيطرت عليه رغبة حاقدة أن يفعل شيئاً، أن يصرخ، أن يبكي، أن يحطم المرآة، لكنه لا شعورياً أمسك بالمقص، وبطريقة قاسية مرّره من أسفل الذقن حتى شفته السفلى فتساقطت كمية

كبيرة من الشعر، وبدا مشوهاً أو كالغنم المقصوصة في بداية الربيع. ابتسم بتشف، ثم التقط ماكنة الحلاقة وأتى على اللحية كلها. كانت الشعرات تتكسر، كان يسمع صوتها بلذة، كان يتابع سقوطها في حوض الماء، فلما أتى عليها كلها بدا وجهه غريباً وأقرب إلى وجوه المهرجين، قال وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ آخر رابطة بموران وبالعصر الحجري!

فزعت سلمى لما رأته في الصباح. قال وهو يبتسم:

ـ عصر موران، بالنسبة لنا، انتهى يا سلمى، انتهى ولازم ننتهي من كل مظاهره وآثاره، وإنشاء الله ما يمركم شهر إلا ونصفي أملاكنا وجميع ما لنا في موران وننتقل إلى مكان آخر، ونبدأ من جديد وكأن موران ما كانت!

وفجأة أصبح حزيناً، قال بانكسار:

ـ الحق علينا، أنا وأمك لأن هالجيزة ما كانت لازمة لك يا بنتي، لكن كل شيء في هذه الدنيا قسمة ونصيب، وإنشاء الله ما يمر كم شهر إلا وننسى، وكأنه كان حلم، أو كأنه ما صار.

حاول أن يبتسم، لكن فكيه كانا يؤلمانه، ربما من تأثير إزالة اللحية، قال بحزن: :

ـ الإنسان في هذه الحياة مسيّر لا مخيّر، ولا يستطيع أن يعمل ما يريد.

وحاول أن يبتسم وهو يضيف:

ـ لكن بسيطة، يا سلمى، ومن هذه الساعة أي شيء بتريدي، أي مكان بتحبي، على عيني وراسي، بس اطلبي وتمني.

أحنت رأسها بانكسار ولم تجب، قال برجاء!

ـ بدي ترضي يا سلمى، بدي منك تسامحيني، وتنسي كل اللي صار.

ـ أمرك يا بابا.

ـ لا . . . عن جد، وبدون أية مجاملة.

ـ خلص يا بابا.

ولكي يضفي جواً من الحبور بدأ يدندن:

يـــا دنـــيـــا يـــا غـــرامـــي يـــا دمـــعـــي يـــا ابـــتـــســـامـــي
مـــهـــمـــا كـــانـــت آلامـــي قـــلـــبـــي يـــحـــبـــك يـــا دنـــيـــا

ورافقه جو المرح وهو يطلب المصعد، وهو ينزل إلى البهو. وحين ألقى التحية ورآه الآخرون دون لحية، استغربوا، لكنه لم يكترث، لم تفاجئه نظراتهم ودهشتهم، كان مستعداً لها، أو بالأحرى غير آبه بها. أكثر من ذلك أحس أنه إنسان جديد، أو لم تعد له صلة بالإنسان الذي كانه.

استمر هكذا ثلاثة أيام.

في اليوم الرابع جاءه صوت غزوان. كان واثقاً ومرحاً:

ـ ألو بابا؟ سلامات يا بابا.

ـ الله يسلمك يا غزوان. . كيف حالك يا غزوان؟

ـ عال العال يا بابا. وإنت وسلمى؟ كيف حالكم؟ مشتاقين لكم كثير كثير والكل بيسلموا عليكم وبيسألوا عنكم.

ـ الله يسلمك يا غزوان، وكيف حال الجماعة هناك؟ كيف حال الوالدة؟ إجت معك؟

ـ لا . . . ظلت بموران.

ـ وليش ما إجت معك يا غزوان؟ ليش ما رجعت؟

ـ مشاكل وأشغال كثيرة يا بابا.

وبعد قليل:

ـ ولازم أحد يتابعها، يبقى قريب منها، حتى ما تضيع.

ـ طيب وهي قادرة؟

ـ هناك، يا بابا، عمو راتب، ومطيع وحماد، كلهم مستعدين للمساعدة. ووعدوا.

ـ طيب وإلى متى راح تبقى؟

ـ حسب التساهيل يا بابا.

ـ طيب. وإنت ليش ما شرفت لعندنا؟

ضحك غزوان ضحكة رنانة قبل أن يجيب:

ـ إلي الشرف يا بابا، بس. . .

ـ بس شو؟

ـ الوقت والمواعيد يا بابا!

ـ يعني بخلت علينا بيوم يومين؟ يعني مواعيدك أحسن وأهم منا؟

ـ أستغفر الله يا بابا، بس إنت بتعرف. . .

ـ لا باعرف ولا بدي أعرف. .

ضحك غزوان من جديد لكي يتغلب على غضب أبيه، وبعد قليل:

ـ لو كنت محلي، يا بابا، كنت عذرتني، كنت شفقت على حالتي، لكن بسيطة.

رد الحكيم وقد تراجع غضبه:

ـ طيب. . ومتى راح تشرف لهون؟

ـ حسب رغبتك وأوامرك يا بابا.

ـ إذا كان حسب رغبتي، رغبتي اليوم قبل بكرة.

ـ بس بدك تسامحني بكم يوم حتى ارتب أموري ومواعيدي، وراح أخطف رجلي كم يوم للبرازيل، لأن هناك عندي أشغال ضرورية، إنت تعرفها، ولا يمكن أن تؤجل، وعلى ضوء نجاحنا فيها كثير أمور تنحل وتتيسر.

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ فهمان عليَّ يا بابا، وإنت معي، موهيك؟

ـ يعني كم يوم؟ إلى متى يتحمل شغلك ومواعيدك؟

ـ لو كنت بيدي، تتوقف عليّ يا بابا، كان شفتني عندك في لمح البصر، لكن الأمور متعلقة بالخلق، والمواعيد مرتبة قبل شهرين ثلاثة، وعلى نتائجها يتحدد مستقبلنا لسنين وسنين!

ـ فهمت عليك يا غزوان، بس أنا وسلمى مشتاقين وبدنا نعرف أخباركم.

ـ سلمى حواليك يا بابا؟

ـ أي نعم وبدها تحكي معك.

ناولها السماعة بيد مرتجفة. كان يريدها أن تتكلم، أن تضحك، أن تعبر عن فرحها، لكنها صوتها الصغير، الأقرب إلى الحزن، وتلك الإجابات القصيرة الخجولة، جعلاه يرتبك، ابتسم ببلاهة ليشجعها على الابتسام، طلب منها أن ترفع صوتها لكي يسمعه غزوان، وقال بالكلمات والإشارات أن تطمئنه. حاولت، لكن بدت خائفة ولا تملك شيئاً تقوله. حين نظرت إليه بتساؤل استرد السماعة:

ـ نسيت أسألك، يا غزوان، شو أخبار موران؟ كيف الوضع هناك؟

ـ ماشي الحال يا بابا، والأصدقاء سلموا عليك، سألوا عنك..

ـ مين شفت؟

ـ شفت كثيرين، يا بابا، شفت الكبار والصغار، ما ظل حدا إلا وشفته.

ـ يعني كوَّنت صورة، أخذت فكرة؟

ـ أي نعم.

ـ يعني في أمل؟

ـ بس نلتقي بنحكي يا بابا!

ـ والكبير؟ شفت الثور الكبير؟

ـ بس نلتقي بنحكي.

ـ يعني خايف؟

ـ أبداً، لكن للحيطان آذان، يا بابا، والأحسن أن نؤجل الموضوع.

ـ طيب سألوك عني؟ سألوا أنا وين؟

ـ سألوا، قلت لا أعرف أي شيء!

ـ خير، شو بدهم مني؟ لسّه بعدهم وراي؟

ـ لا يخفي عليك يا بابا: أولاد الحرام كثار، والجماعة هناك ما عندهم إلا اللت والحكي، وإنت تعرف أن المقروض من الحبل يخاف!

ـ بس لعلمك، يا غزوان، إذاتصوروا أنهم يخوفوني غلطانين، فشروا، وأنا لا أخاف إلا من رب العالمين، وكلهم على صرمايتي!

ـ ما في من هذا كله يا بابا، والجماعة هناك يذكروك بالخير ويعرفوا أفضالك!

ـ يا سيدي لا بدي ياهم ولا بدي يذكروني، المهم ينسوني، ولا كأني كنت، والواحد إذا عمل الخير لا ينتظر عليه الأجر، وأنا عملت خير ورميته في البحر، ما انتظرت الاعتراف بالجميل ولا بالشكر، ومع ذلك الأيام بيّنا، بسيطة!

ضحك غزوان في محاولة لأن يغير الجو، وأضاف بعد قليل:

ـ بسيطة يا بابا والموضوع كله ما بيحرز.

ـ يا سيدي بسيطة، هذا ما هو أول خازوق، ولا راح يكون الأخير، واللي يعيش ياما يشوف!

رد غزوان وهو يقهقه:

ـ واللي يلفّ يشوف أكثر، هيك قالوا يا بابا!

قال الحكيم وقد بدأ يسيطر عليه الغضب الممزوج بالخوف:

ـ اتركنا من هذا يا غزوان. . أنت. امتى جاي؟

ـ مثل ما قلت لك يا بابا، ابو اسبوع اسبوعين.

ـ ما ممكن أبكر؟

ـ أحاول يا بابا، وإذا خلصت أشغالي ومواعيدي أبكر ما تشوفني إلا وأنا عندك..

ـ طيب يا غزوان، لا تقطعنا، اتصل باستمرار، وإذا اتصلت بالوالدة سلّم عليها وقلها ما تطوّل!

ـ أمرك يا بابا، وراح اتصل باستمرار. تصبح على خير، وسلم لي على سلمى!

ـ دير بالك على حالك يا غزوان ولا تطول علينا، وفي أمان الله!

ثلاثة أسابيع من الانتظار والقلق والتخفي. ثلاثة أسابيع طويلة، اتصل الحكيم خلالها بسان فرانسيسكو عدة مرات. تحدث مع غزوان مرة، ولم يجده في المرات الأخرى، وقد أبلغه صفاء أن الأستاذ سيعود بين يوم وآخر، وأنه حجز له مرتين إلى جنيف وألغى الحجز في آخر لحظة لأمور طارئة. واتصل الحكيم أيضاً بموران. تحدث إلى وداد مرة واحدة، ولمدة دقيقة ثم انقطع الخط. وفي المرة الأخرى تحدثت سلمى فقط، وقد أكدت وداد أن الأمور تسير بشكل جيد ولا داعي للقلق، وأشارت، بشكل خفي، أنه من الأفضل أن يتم الاتصال عن طريق غزوان، ولم توضح أكثر من ذلك!

إذن هم لم ينسوه؟ بل أكثر من ذلك يلاحقونه، وإلا لماذا تحدث غزوان بهذه الطريقة؟ وهل يخاف منهم وهو على بعد آلاف الأميال لو لم يكن الأمر جدياً وربما خطراً أيضاً؟ ووداد.. إنها لا تريد أن يتصلوا بها، تريدهم ألاّ يعرفوا مكانه. لو لم تسمع شيئاً وعرفت مدى خطورته لبادرت بنفسها إلى الاتصال، لكنها فضلت أن يتم كل شيء عن طريق غزوان.

وتأكد له أنه يحبها أكثر من قبل. إنها تحرص عليه إلى درجة أن تقطع الخط حين تقدر أنهم يمكن أن يكتشفوا صوته. وتلجأ إلى هذه الطريقة غير المباشرة. حتى وهي تحدث سلمى، وقد استنتج ذلك من إجابات سلمى، تحيل إلى المسائل اليومية التي لا تثير شكوكاً من أي نوع، وكانت تريدها ألا تطيل، أما وهي تسألها عنه فقد قالت: «كيف الجماعة عندك» لم تذكره بالاسم متعمدة، ولم تشأ أن تتحدث معه، رغم معرفتها أنه قرب سلمى، وأنه كان يتلهف لأن يتحدث معها. إنها حصيفة وذكية إلى درجة يمكن أن

تمرر أصعب القضايا دون أن يحس الطرف الآخر.

قبل ساعة من وصول طائرة غزوان كان الحكيم ينتظر في قاعة انتظار المسافرين بمطار جنيف. وقبل ذلك بساعات كان قد استعد تماماً: أبلغ الفندق بحجز غرفة «والأحسن أن تكون إلى جانب غرفتنا، أو على الأقل في نفس الطابق». نظر إلى نفسه في المرآة عدة مرات، كما عدّل وضع القبعة، إذ رفعها قليلاً، خلافاً للمرات السابقة، كما يفعل عادة في ساعات الراحة، أو حين يكون في حالة من حالات الانسجام، وقرر ألا يضع النظارات، لكن مع ذلك احتفظ بها في جيبه حيطة. وطلب من سلمى، وعلى شكل أمر «أن تفرد وجهها وأن تبتسم» أما العصا فقد تردد في أخذها أو تركها، وحين طلبت له الإدارة سيارة أجرة تركها عند موظف الاستعلامات!

ساعة طويلة من الانتظار الممض. حاول خلالها أن يشغل نفسه بمراقبة المسافرين، والتطلع إلى واجهات المحلات في المطار. أعاد ترتيب الأفكار والقضايا التي سيناقشها مع غزوان، كما لفت نظر سلمى أن تسترخي وأن تبدو طبيعية وسعيدة!

رغم الاستعداد والتهيؤ النفسي فوجئ الحكيم بكل شيء: فغزوان تغير كثيراً منذ أن رآه آخر مرة. أصبح أكثر سمنة وبرزت الصلعة أكثر من قبل. كما أنه لم يكن وحيداً، كان إلى جانبه، وعلى بعد نصف خطوة تقريباً، صفاء الشلبي، ومن الجهة الأخرى، فتاة شقراء جميلة في نحو العشرين أو أكثر قليلاً. وقد كان الثلاثة من أوائل المسافرين الذين هبطوا من الطائرة.

ماذا... هل تزوج وجاء ليقضي شهر العسل في سويسرا؟ لماذا لم يقل أو لم يشر إلى ذلك مجرد إشارة؟ أيريد أن يفاجئ الجميع أم يضعهم تحت الأمر الواقع؟ ويتزوج امرأة أجنبية؟ كيف سيتفاهمون معها وماذا سيكون رأيها فيهم؟ والأطفال؟ والمستقبل؟

ولم تقتصر المفاجأة على الحكيم، فغزوان الذي تطلع في وجوه المستقبلين، مرّ على وجه أبيه دون أن يتوقف عنده. وكذلك فعل صفاء.

أما سلمى التي كانت تقف إلى جانب أبيها فلم تتردد ولم تنتظر، إذا نادت على غزوان ثم هجمت عليه. اختلطت القبل بالدموع بالابتسامات، بتساؤلات الدهشة عن السمنة والقبعة والأشواق. وخلال دقائق طلب غزوان من صفاء والفتاة أن يهتما بالحقائب، وأن يلتحفا بهم في سيارة ثانية.

في فندق البوريفاج، حيث توجهوا، كان جناح وغرفتان قد حجزت لغزوان، وحين أشار الحكيم إلى أنه حجز له غرفة في فندقه، رد غزوان بمرح «أن الحجوزات والمواعيد وجميع الإجراءات الأخرى تمت من سان فرانسيسكو، ودون مشقة».

وأضاف بعد قليل في محاولة للتفسير:

ـ وفي هذه الفنادق تسهيلات خاصة لرجال الأعمال من حيث الاتصالات والطباعة وترتيب المواعيد والخدمات.

على الطاولات الجانبية، في الغرفة المخصصة للاستقبال، باقات من الزهور صُفَّت بعناية في أوانٍ من الكريستال القديم. وفي وسط القاعة، على طاولة دائرية، سلة كبيرة مليئة بأنواع الفاكهة. ما كادوا يدخلون حتى استقبلتهم موسيقى ناعمة، وكأنها آتية من مكان بعيد. كل شيء ناعم ويوحي بالاسترخاء، لكن في داخل كل منهم حمى تفور وكلمات كثيرة يجب أن تقال، ومع ذلك يحاول كل منهم تأجيلها أو خلق الجو المناسب لقولها.

أكثر من ذلك يحس الحكيم بالإضافة إلى التفجر الداخلي أنه موضع السخرية، فتأخر غزوان ليس الشغل والمواعيد والبرازيل وإنما الغرق في الأشياء الصغيرة، وبدل المشاركة في المأساة التي تعيشها العائلة يختار هذا الوقت للزواج، ولا يكتفي بذلك، يأتي بزوجته إلى سويسرا ليقضي شهر العسل!

بعد الابتسامات والنظرات المتسائلة، ودون تمهيد سأل الحكيم:

ـ من هي البنت، بالخير، اللي معك، يا غزوان؟

فوجئ غزوان بالسؤال واستغرب، ولما أدرك مخاوف أبيه أو شكوكه قهقه وهو يجيب:

ـ هذي سكرتيرتي يا بابا!

ـ سكرتيرتك؟

هكذا تساءل الحكيم، وكان في تساؤله ما يشبه الاستنكار والسخرية، رد غزوان:

ـ ونحتاجها كثير يا بابا، لأنها متخصصة بالعقود السرية، وتحسن عدة لغات إضافة إلى الاختزال.

ـ عال العال.

وبعد قليل:

ـ طمئنت بالنا، الله يطمّن بالك!

ـ والا... شو افتكرت؟

ـ بهذه الأيام ما عاد ينحرز يا غزوان... كل شيء ممكن!

قهقهة غزوان في محاولة لأن يقضي على جو المخاوف والقطيعة والحزن، ثم تقدم نحو سلمى، ضحك ومازحها وبعد قليل التقط قبعة أبيه، وكانت على مسند المقعد، قلّبها بعناية، وخرج صوته وكأنه يخاطبه:

ـ أشياء كثيرة تغيرت منذ آخر مرة التقينا!

ـ ولسّه أشياء كثيرة راح تتغير...

قصد الحكيم، تلميحاً، أكثر من موضوع، ولم يكن متعجلاً لأن يخوض فيها فوراً. رد غزوان بمكر:

ـ سنة الحياة، ولا يمكن أن تبقى الأشياء كما كانت، لا بدَّ أن تتغير.

ـ ومع ذلك نحن أبناء اليوم، وإذا كان للماضي فائدة فلأنه درس، لكن المهم اليوم وبكرة، أي نعم. . اليوم وبكرة!

ولكي يتغلب الحكيم على انفعالاته سأل غزوان عن صحته وأشغاله، وسأله عن الوالدة، ومتى يمكن أن تعود. وغزوان الذي كان يوزع نظراته

بين أبيه وسلمى، وكأنه يقرأ في وجهيهما عذاب الفترة الماضية، أجاب بمرح عن الأسئلة، مؤجلاً أية مناقشة، وراغباً بخلق جو يساعده على الوصول إلى النتائج التي يريدها.

بوصول صفاء واليانور دب المرح وتغير الجو. أفاض صفاء بالحديث عن عدد المرات التي حجزت فيها مقاعد الطائرة والغيت، وأن الأستاذ غزوان لم يسترح أكثر من اربع وعشرين ساعة بعد عودته من البرازيل، وإن الرحلة كانت مريحة وأسرع من المرة الماضية لأنها مباشرة.

اليانور أشرفت على إدخال الحقائب ثم التفت إلى الزهور، وقد وزعت ابتساماتها أثناء ذلك بسخاء، وكانت تبدو طبيعية وبسيطة.

الهدايا التي حملها غزوان كثيرة ومتنوعة، وكانت حصة سلمى هي الكبرى، وقد شاركت اليانور في تقديمها وعرضها، وبدت خلال ذلك بسيطة وشديدة الحيوية، إذا كانت تضع على صدرها أو على كتفها الفساتين والبلفورات، وتحمل من الحقائب ما يناسب الأحذية، في محاولة لإقناع سلمى بحسن الاختيار ومدى الملاءمة. وسلمى التي كانت بين الفرح والخجل لم تعرف كيف تعبر أو من تشكر. وقد بدا واضحاً أن اليانور وراء هذه المشتريات كلها.

خلال فترة إحضار الهدايا وتقديمها أبدى صفاء استغرابه إنه لم يوصّ بعد على المرطبات والقهوة، وبعد سؤال سريع عما يفضله كل منهم طلب القهوة للحكيم وللأستاذ ولنفسه وطلب عصيراً لسلمى واليانور. وقد وصل الطلب أثناء ما كانت اليانور تضع على كتفها فستاناً من الحرير الأزرق، وعندما تطلع إليها الجرسون ابتسمت له والتفتت، كأية عارضة أزياء!

ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ والحكيم في حالة من القلق والحيرة: ما خطط له خلال أسابيع انهار في لحظة؛ وما تمناه وانتظره طوال شهور تلاشى وتبدد أسرع مما يتبدد الزبد؛ أما الأفكار الكبيرة التي شغلته في لياليه الطويلة ومنعته من النوم فلم تتح له الفرصة لمناقشتها!

لماذا حصل هذا؟ كيف؟ لا يعرف ولا يجد له جواباً.

فبعد أن ارتبك في المطار، وفوجئ، فأجل توجيه الأسئلة، وأجل أيضاً العتاب، خاصة وهو يرى الحفاوة والاهتمام اللذين رافقا وصولهم واستقبالهم في الفندق، بل وكان متأكداً أنهم يعرفون غزوان جيداً. سأله ان جاء إلى جنيف من قبل ومتى، رد غزوان باقتضاب أنه جاء مرتين، لكن لم يبقَ إلا وقتاً قصيراً. وحين أبدى الحكيم استغرابه، ردّ عليه بأن البوريفاج أحد فنادق السلسلة التي تساهم فيها شركته، وقد تأكد الحكيم من ذلك وهو يلمس الأهمية التي يتمتع بها إبنه، خلال حفلة العشاء التي أقامتها إدارة الفندق، وما تخللها من اهتمام ورعاية.. ومرح أيضاً.

في المساء، وهم على الشرفة المطلة على البحيرة، وفي لحظة تخيرها الحكيم، وقد وجد الآخرين منشغلين، قال لغزوان بلوم مشوب بالغضب:

ـ والوالدة.. كيف تركت الوالدة وحدها في موران يا غزوان؟

ولم يتركه يجيب عن السؤال، أضاف بحدة:

ـ مالك حق تتركها وحدها، لأنك تعرف موران وأهل موران: جماعة علاّكين وذمتهم واسعة، وما هم تاركين أحد من شرهم.

ـ لو ما راحت، يا بابا، لصارت ألف مشكلة ومشكلة، وأنت أدرى الناس بموران!

ـ خير إنشاء الله؟

ـ الله يجعلك بخير يا بابا، بس أنت بتعرف المشاكل هناك.

ـ يعني غرقت؟

ـ لا.. بس تعبانة وبتركض حتى تحيي الرزق، والله يساعدها.

شعر الحكيم بالغضب. تراءت له من جديد صورة موران، سأل بحدة:

ـ وإنت.. شو عملت؟

ـ عملت اللي الله قدرني عليه!

وضحك بصخب ليتغلب على غضب أبيه، وبعد أن هدأ قليلاً أضاف:

ـ موران اللي ببالك، يا بابا تغيرت، انتهت، ولازم الإنسان يعرف كيف يتصرف في المرحلة الجديدة...

وكاد يضيف أشياء أخرى، في محاولة لأن يلخص التطورات التي حصلت، لكن الحكيم رد بنزق:

ـ اتركنا من موران الزفت، المهم أن تخبرني عن نفسك، كيف أحوالك وكيف شغلك؟

وأخذ الحديث نسقاً مختلفاً، فبدأ غزوان يتحدث عن مشروعاته وعن النتائج التي حققها، لكن انتباه الآخرين جعل الحكيم حذراً، فهو لا يريدهم أن يعرفوا، قال ليغير الحديث:

ـ المهم أن الحال ماشي والصحة كويسه!

طبطب غزوان على بطنه دلالةِ أن الصحة جيدة، ورد بمرح:

ـ إذا سارت الأمور بشكل طبيعي، وكنا شاطرين، والله أعطانا الصحة والعافية، راح نصير فوق الريح، وخلال فترة قصيرة.

الحكيم يسمع بعناية واهتمام، لكنه لا يريد أن تناقش الأمور بهذا

الشكل المكشوف، أن تعرف أدق التفاصيل. صحيح أنه يريد أن يعرفها كلها، لكن في وقت آخر، لا بدّ أن يسأل ويدقق شرط أن يكون وحده مع غزوان، أن يسمع منه كل التفاصيل، ولا بدّ أن يتقدم بأفكار واقتراحات من شأنها أن تدفع العمل إلى الأمام، وقد يساعد هو في بعض المراحل. لا يقبل أن يبقى متفرجاً، ولا يمكن أن يسلّم هكذا، فقط يهز رأسه كما يفعل الآخرون ويصمت!

وغزوان لا يهدأ لحظة: حين يخرجون من صالة الطعام لا بدّ أن يتوقف عند مخزن الملابس والعطور، ولا بدّ أن ينتقي زجاجتي عطر أو ربطة عنق، وأن يقدمها إلى سلمى أو إلى أبيه، مع الكثير من المرح! ولا بدّ أن يقف، ولفترة غير قصيرة، بعد ذلك، عند الصبية الشقراء التي تبيع الصحف، وأن يشتري عدداً من المجلات والجرائد، وأن يقلب الحاجات الأخرى التي تبيعها، وغالباً ما يشتري أشياء لا يعرف أبوه كيف يراها أو كيف يلتقطها. فإذا تجاوزوا الممر الطويل باتجاه الإدارة والصالة، ورغب الحكيم بتناول فنجان قهوة، فإن جواب غزوان جاهز:

ـ القهوة والنوم عدوان، والأحسن أن آخذ غفوة صغيرة لأكون أكثر نشاطاً.

ـ وليمنع أي سؤال أو تردد، يتوجه إلى صفاء:

ـ أطلب للبابا قهوة يا صفاء، وتسلى أنت وإياه، لحد ما آخذ لي غفوة وبعدها أتدوّش وأنضم لكم.

صفاء لديه الكثير لكي يقوله للحكيم أو ليسأل الحكيم عنه. أما سلمى واليانور فلا بدّ لهما أن تذهبا، كل إلى غرفتها، والسؤال الذي تكرر، وأصبح مألوفاً: «متى نلتقي مرة أخرى»؟ ولا يتردد صفاء في الإجابة:

ـ أنا والحكيم في الصالون.. وبأية ساعة تشرفوا أهلاً وسهلاً.

ويغير الحكيم في اليوم التالي خطته:

ـ أنت جاي تنام، يا غزوان، أو جاي حتى نشوفك؟

ولا يتردد غزوان في اقتراح المشاريع:

ـ إذا استغنيتوا عن نومة الظهر فلا بدّ أن نذهب بنزهة، في البحيرة، إلى الجبل، المهم أن نكون مع بعض. . .

في اليوم الثالث، بعد الغداء، قال غزوان بطريقة استعراضية حزينة:

ـ ما أسرع ما طارت الأيام. . .

ونظر إلى أبيه وإلى سلمى، وهو يهز رأسه، ثم أضاف:

ـ كان لازم نقضي مع بعضنا أيام كثيرة، لكن إنشاء الله خيرها بغيرها.

تهدل فكا الحكيم. لم يكن يتصور أن الزيارة بهذا القصر. لا يمكن أن يوافق بشكل من الأشكال، سأله بغضب:

ـ إنشاء الله مسافر؟

ابتسم غزوان طويلاً لكي يمتص الغضب، لكي يتغلب عليه، وبعد لحظة صمت:

ـ لو كان بإرادتي، حسب رغبتي، لما تركتم، لكن. .

وهز رأسه بلوعة والتفت إلى صفاء:

ـ إحك لهم يا صفاء، كيف طلعت أرواحنا إلى أن أجلنا مواعيدنا في طوكيو ٤٨ ساعة.

وتغيرت نبرة الصوت.

ـ خاصة وأن الشغلة كلها مخوطرة ولنا شهور نضبط فيها وواقفة على شعرة، والمنافسين بس منتظرين غلطة!

والتفت إلى أبيه:

ـ وأنت بتعرف عقول اليابانيين يا بابا: عقول متحجرة، جامدة، والواحد منهم كأنه آلة، لا عواطف، لا حب، لا تساهل. المهم الموعد، الدقة بالموعد، وبعد ذلك لا يهمه شيء.

قال صفاء بأسى:

ـ أتذكر عندما جاءوا بزيارة إلى عندنا في سان فرانسيسكو: قبل الزيارة بشهرين: بعثوا لنا بأسماء الوفد، صورهم، شهاداتهم، الأماكن التي عملوا

فيها، المناصب، الترقيات، كل شيء.. نعم كل شيء، وكأن الواحد منهم جاي حتى يخطب، ومطلوب منه صفحة أحوال مدنية، وفوقها مضبطة برضا الله والوالدين!

رد غزوان بمرح:

- يا سيدي أترك الصور والمعلمومات، إحك لهم كيف تصرفوا لما شرفونا ووصلوا...

- شي لا يمكن أن يصدّق يا أبو غزوان: ولا يمكن أبداً، بتاتاً، أن تحزر عليهم.

كلهم مثل بعضهم: بأشكالهم، بأحوالهم، بأعمارهم، بملابسهم.. شيء غريب، وبعدين بتصرفاتهم: كل شيء كتابة، حتى الواحد إذا ضحك يكتبون أنه ضحك، وينظرون إلى الساعة. جماعة تصرفاتهم غريبة.

تنهد غزوان وهز رأسه عدة مرات ثم قال:

- صحيح أن الواحد شاف كثيرين، لكن مثل اليابانيين لا يمكن أن يشوف. الواحد منهم طوله طول الشبر، ولا تعرف إذا كان آذن أو مدير، لكن مثل فريق كرة القدم...

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

- بعد ألف تلفون واتصال، ونشف ريقنا حتى قدرنا نقنعهم بتأجيل الموعد ثماني وأربعين ساعة فقط.

ولا نعرف الآن إذا كانوا راضين أو زعلانين.

- الله يساعدكم يا أستاذ غزوان، هكذا علق صفاء.

كان الحكيم يسمع، ينقل نظراته بين غزوان وصفاء، يبدي دهشة، يفكر، وفي لحظة عصبية قال لينهي المناقشة:

- كلمة سفر من فكرك شيلها يا غزوان، سفر ما في، يفتح الله.

- اللي بتؤمر يا بابا، على العين والراس.

ـ أي نعم: سفر ما في، لا يابانيين ولا غير يابانيين، لا مواعيد ولا غير مواعيد!

وتغيرت لهجته، أصبحت غاضبة:

ـ وبعدين عندنا ألف مشكلة يا غزوان ولازم نحلها، لازم نشوف طريقنا، نشوف شو راح نسوي.

ضحك غزوان ورد:

ـ كل شيء بيصير، بسيطة، وبعد قليل:

ـ ما ظل أحد غيرنا في المطعم يا جماعة، ولازم نتحرك!

وتوقف أيضاً عند البائعة. اشترى أكثر من أية مرة سابقة. وتوقف فترة أطول عند الشقراء، اشترى عدداً من المجلات أكثر مما يفعل كل يوم، قال لأبيه في محاولة ماكرة:

ـ الطريق طويل ولازم الواحد يسلي نفسه!

كان الحكيم غاضباً وحزيناً. لقد انقضت الأيام دون أن يتحدث مع غزوان، ودون أن يراه. هل يوافق على سفره؟ هل سمع منه حول موران ورأي الآخرين هناك؟ هل يسكت ويترك الأمور تمر هكذا؟ قال في نفسه «جيلان وعصران» وابتسم بحزن ثم أضاف: «واللي ياكل العصي ما هو مثل اللي يعدها».

حول الطاولة الكبيرة التي جلسوا إليها حاولوا أن يتكلموا شيئاً مشتركاً، لكنهم لم يفلحوا. كان الحكيم لا يقوى على إخفاء غضبه، فيداه ترتجفان، وابتسامته أقرب إلى الحزن. لاحظ غزوان ذلك. أمسك بفنجان قهوة أبيه وبفنجانه باليد الثانية وقال له:

ـ خلينا نقعد مع بعضنا شوية يا بابا.

لم ينظر الحكيم إلا لسلمى، وكأنه يستأذنها، قال صفاء بحيوية:

ـ تفضلوا.. تفضلوا!

... الساعة التي قضاها غزوان وأبوه لا يمكن أن تصنف، فقد

تخللتها الملامة والأشواق والمخاوف والرغبات، وكان كل منهما يريد أن يتكلم أكثر من الآخر، أكثر مما يريد أن يسمع من الآخر. الحكيم لديه عشرات الأفكار، مئات الأفكار. يريد أن يقولها، أن يوصلها كرسائل، وأن يسمع من غزوان الإجابات. أن يعرف رأيه تماماً. وغزوان بمقدار ما كان يريد أن يعكس له وضع موران الجديد، وما يجب عليه أن يفهمه، كان يريد أيضاً أن يفهم منه ما إذا حان الوقت لكي يتوسط من أجل العودة، وضرورة التعامل مع السلطان فنر، وكان يريد أن يبحث معه أيضاً مسألة الأراضي، وبشكل خاص الأملاك في حران، والتي لا يعرفها أحد غير الحكيم. ثم وضع سلمى ومكان الإقامة.. أين يجب أن يقيم وكيف يجب أن يتصرف. وسلمى.. هل هي زوجة السلطان خزعل أم مطلقة؟

كلمات تتلاحق مثل الطلقات. الإثنان يتكلمان. الإثنان لا يسمعان. الإثنان يفكران بأمور مختلفة. قالا أشياء كثيرة، لكن دون رابط، دون هدف. الكلمة تجر الأخرى. الفكرة تؤدي إلى ثانية، ولا يعرفان هل ما يقال أسئلة أو أفكار أو مجرد أصوات واختبارات ومعلومات يسر بها الواحد للآخر.

قال غزوان، وقد نظر إلى ساعة:

ـ الحديث، يا بابا، ما له نهاية، وأنا متأكد أننا إذا التقينا مرة ثانية، وقريباً، يمكن أن نتفاهم على أشياء كثيرة...

وضحك ثم أضاف

ـ المهم أننا شفنا بعضنا، أننا سمعنا من بعض، وبعدها لكل مشكلة حل...

قال الحكيم وقد تمثلت له مشاكل كثيرة:

ـ المهم أن نؤمن «قاعدة»، أن نكون مطمئنين إلى مكان الإقامة، أي يكون الواحد عنده أرض، وبعدها كل المسائل تهون.

ـ هذه مسألة بسيطة يا بابا.

ـ بسيطة؟

ـ أي نعم. . . يمكن أن تختار أي مكان للإقامة والحياة.

قال الحكيم بنزق:

ـ أو للقبر. . .

ـ لا قدر الله يا بابا!

وساد صمت قاسٍ. كان الحكيم غاضباً، وحزيناً، وكان يريد أن يفتعل سبباً لخلق خصام من نوع ما. قال غزوان وهو يبتسم:

ـ مثلما قلت لي قبل سنين. . يا بابا: وطن الإنسان حيث يكون قوياً ومؤثراً وقادراً. الوطن ليس التراب أو المكان الذي يولد فيه الإنسان، وإنما المكان الذي يستطيع فيه أن يتحرك. . . هل تتذكر أم نسيت؟

قال الحكيم بيأس:

ـ أتذكر. . يا ابني، أتذكر، لكن المسألة الآن اختلفت!

بعد الكثير من المحاورة والمداورة اتفقا أن يبقى صفاء، وأن يساعدهما في اختيار قصر مناسب في جنيف أو حواليها، وأن يستقرا هنا، على الأقل مؤقتاً، ريثما ترتب الأمور، وبعد ذلك يمكن للإنسان أن يفكر، أن يدبر أموره بشكل مختلف. أما موران أو حران، أما طرابلس أو بيروت، أما حلب أو دمشق، فإنها مجرد محطات يمكن أن يبقى فيها الإنسان ويمكن أن يغادرها تبعاً لعوامل واعتبارات كثيرة.

وهكذا انتهى هذا اللقاء، على وعد أن يلتقوا خلال شهر، وأقصى حد شهرين! وأن يبقى غزوان فترة طويلة وليس مثل هذه الزيارة!

قضوا يوماً آخر في البوريفاج بعد سفر غزوان. في اليوم التالي، قبل الظهر بقليل، وقبل أن يستقلوا سيارة الروز رويس متجهين إلى المطار، أجزل صفاء العطاء للخدم والعاملين في الإدارة، وجرى لهم وداع لائق. وما كادت السيارة توصلهم إلى المطار، ويتأكدون من مغادرتها حتى استقلوا سيارة أجرة عادت بهم إلى المدينة، إلى فندق ستراسبورغ، حيث حجزت غرفة إضافية لصفاء!

كان هذا الإجراء ضرورياً لكي تبدو الأمور طبيعية فلا تلفت نظر أحد، خاصة وأن إصرار الحكيم على سرعة المغادرة والانتقال منعت مناقشة أية صيغة أخرى. فالانتقال مباشرة إلى فندق آخر، أو صرف السيارة المرافقة، ربما يبدو غير لائق وقد «يزعج الأستاذ غزوان ويسيء إلى سمعته، وإلى سمعة الشركة أيضاً، وهذا لا يرضاه أبداً» كما أوضح صفاء في تفسير إرجاء الانتقال إلى فندق ستراسبورغ، أو لجوئه إلى خطة التمويه.

بالمقابل كان الحكيم يريد العودة إلى مكان ألفه، وإلى أناس يعرفهم. يريد أن يتصرف بحرية، وأن يشعر بثقة. وهو في البوريفاج ظل محبطاً، أو لا يفعل شيئاً سوى الرد على الابتسامات والنظرات التي تطوقه من كل جانب. أكثر من ذلك بدا له الناس أقرب إلى الدمى. الخدم والنزلاء معاً: يبتسمون ببلاهة، يبدون مؤدبين أكثر مما يحتمل الموقف. وإذا كان قد فسر لنفسه أن الخدم يفعلون ذلك نتيجة الأوامر أو طمعاً بالإكراميات، فلم يستطع أن يفسر لماذا يتحرك النزلاء بخطوات بطيئة، خائفة، ويطلبون بأصوات هامسة، وبأدب مبالغ فيه، ولا يترددون في الابتسام لأتفه الأسباب؟

ليست الإلفة وحدها ما دفعت الحكيم لاستعجال العودة. لا بدّ أن يفسر للمسيو مولان، مدير فندق ستراسبورغ، ما حصل، خاصة إلغاء الحجز. يصمت، ثم بعد قليل وبحدة:

ـ لقد عُلّقت كل الأشياء إلى حين مجيء غزوان والتشاور معه.

لم يشك أحد من العاملين في فندف ستراسبورغ أن الذي يصل مع الحكيم هو ابنه المقيم في الولايات المتحدة، فقد كان يسرف في الحديث عنه عند كل تحويل مالي جديد يصل إليه، أو بعد أية مكالمة هاتفية من الولايات المتحدة أو إليها. وقد أكد للجميع بفرح وصل حد الزهو أن ابنه سيأتي بين يوم وآخر.

الآن لا بدّ أن يشرح لمسيو مولان التعديلات التي جرت، وبالتالي أن يبلغه بخططه للمستقبل تمهيداً للاستفادة من خبرته وعلاقاته.

قدم صفاء باعتباره أحد أقرباء العائلة والساعد الأيمن لابنه، الذي تعذّر عليه المجيء. أما في اليوم التالي، وبعد الإفطار وانسحاب سلمى إلى غرفتها، فقد عقد الثلاثة اجتماع عمل، كما سماه الحكيم، وتركز البحث حول مواصفات القصر الذي يود شراءه: «أن يكون في جنيف وخارجها، قريب وبعيد في آن واحد، على الجبل وليس بعيداً عن البحيرة، في الريف والمدينة معاً!».

هكذا لخص الحكيم المواصفات. ولما بدت غامضة مشوشة ما لبث أن عرضها بشكل آخر: «أريد القصر قريباً من جنيف، خاصة من جهة المطار، لكي لا تكون هناك صعوبة إذا أردت السفر، أو إذا جاءني أحد الضيوف، لكن لا أريده قهوة أو ديواناً لكل من يزور هذه المدينة. ولا أريده مكاناً لكل مستطرق أو لكل طفيلي أو عاطل عن العمل. أما أن يكون قريباً من البحيرة والجبل معاً فالقصد أن أتمتع بمنظر البحيرة وجمالها دون أن أقع في محيطها من حيث الرطوبة والرذاذ وأعين الفضوليين». وحين يهز المسيو مولان رأسه دلالة الاستيعاب والموافقة يضيف «وله مزايا القرية والمدينة أيضاً: الهدوء، عدم وجود الغرباء» يتوقف لحظة، يرفع يديه

قليلاً، يتنفس ثم يضيف بحزم: «أهم شيء ألا يصطدم الإنسان بالغرباء، ألا يراهم يسدون عليه طريقه».

كان مع صفاء أكثر وضوحاً، إذا ما كاد يستدعي المسيو مولان للرد على الهاتف، حتى قال لصفاء:

ـ أهم شرط يا صفاء، الشرط الأساسي، أن أكون بعيداً عن العرب، نعم يجب أن أكون بعيداً، لأن من العرب ما جاءتنا إلا المصائب. . .

ويهز رأسه بلوعة ويتابع:

ـ يا ابني. . غزوان براسه ألف مشكلة، ألف هم، ويمكن تقديره يختلف عن تقديري.

يصمت، ثم بعد قليل وبحدة:

ـ أنا راسي مطلوب يا صفاء، رأسي بالدق. وموران مستعدة تدفع الملايين حتى تقتلني، فإذا كان العرب حوالينا الواحد منهم إما ينشري أو ينخّى، وكلها كم رصاصة والعوض بسلامتك، أبو غزوان بح، ولا كأنه كان. مو بس هيك يقتلوني كخائن، كنصاب، ولا أحد يقول الله يرحمه.

يرتجف الحكيم، تمر الصور في رأسه، فتخرج الكلمات من بين أسنانه:

ـ أنا أعرفهم منيح، يا صفاء، حافظهم عن ظهر قلب، أهل موران لا يمكن أن تجد من يشبههم: حقودين وجبناء، وفي هذه الحياة لا تخف إلا من الحقود والجبان، يمكن الواحد منهم يعمل أي شيء، لا ذمة ولا ضمير، ولأنهم جبناء وحقودين يحاولون أن يخفوا جبنهم وحقدهم بالكلمات الكبيرة، وأنت تعرف العرب: كلمة تأخذهم وكلمة تجيبهم. اللي ما يجي بالفلوس يجي بالعبطة، بكم كلمة تفتل روسهم، فإذا وصلوا لكم واحد هون وعرفوا مكاني فتأكد أن أجلي حان ومستحيل أفلت.

وتتغير نبرة الصوت، تصبح غاضبة:

ـ لا يا سيدي، بدي أبرّد راسي، بدي أهرب من المشاكل، وكل ما هربت من العرب أكثر كلما سلمت.

ويهز صفاء رأسه دلالة الفهم والموافقة، وما أن عاد المسيو مولان حتى بادرة:

ـ القصر المناسب للدكتور المحملجي أن يكون في ضاحية راقية من ضواحي جنيف، ومن المناسب أن تكون بعيدة عن وسط المدينة ولا يؤمها الغرباء خاصة الشرقيين، لأن وقت الدكتور ثمين للغاية ويريد أن ينصرف للكتابة والتأليف.

حتى ذلك الوقت لم يخطر ببال المسيو مولان أن الحكيم يمكن أن يكتب، فخلال الشهور الثلاثة التي مرت لم يره يقرأ أو يحمل كتاباً، ولم يلحظ في غرفته ظلاً، أي ظل، لكتاب أو ثقافة. كان يراه ساعات في الزاوية ذاتها صامتاً ساهماً ضجراً، فإذا انشغل بشيء فبمراقبة برامج التلفزيون، وبعض الأحيان بأن يفرد ورق الشدة، كالساحر، ويظل يقلبها لساعات متواصلة. سأل المسيو مولان الحكيم بمودة:

ـ أي نوع من الكتابة تكتب يا دكتور؟

فوجئ الحكيم بالسؤال، وكأنه لم يتوقعه أو لا يحبه. دارت عيناه كعيني قط، ثم قال بحزم وقد أعطى لوجهه ملامح صارمة:

ـ الكتابة الفلسفية والتاريخية!

هزّ المسيو مولان رأسه دلالة الإعجاب والاستغراب معاً وسأل من جديد:

ـ وهل وضعتم كتباً عديدة؟

ومرة أخرى يفاجأ الحكيم، شعر بالضيق، تطلع إلى صفاء بارتباك يستنجد به، قال صفاء بمكر:

ـ للحكيم عدة مؤلفات فلسفية، والآن، وبعد أن أصبحت ظروفه أفضل، وضع خطة للتأليف والمتابعة.

قال الحيكم لصفاء بنزق:

ـ كان الوقت ناقصني يا صفاء، كانت الأشغال والهموم لفوق راسي...

وزفر بحرقة. بدا حزيناً، أدار كرسيه وجلس بشكل جانبي، وكأنه لا يريد أن يواصل حديثاً ينغّص عليه راحته. قال صفاء للمسيو مولان هامساً ولا يريد للحكيم أن يسمع:

ـ الأسى الحقيقي الذي يشعر به الحكيم أنه لم يتيسّر له الوقت الكافي لمواصلة أبحاثه الفلسفية والتاريخية، فقد كانت أشغاله ومسؤولياته تحول دون ذلك، أما الآن، وبعد أن تقاعد، فقد تفرغ نهائياً للعمل.

تغيرت نظرة المسيو مولان، أصبحت إعجاباً، قال بطفولة:

ـ ويجب أن يكون القصر قريباً من الجامعة أو من المكتبة العامة لكي...

رد الحكيم بصرامة:

ـ المهم أن يكون هادئاً!

خلال أسبوعين، وبعد جولات عديدة، ومشاهدة عدد من المنازل والقصور، تم الاتفاق على شراء قصر قرب مدينة نيون: يطل على البحيرة من الجهتين الشرقية والجنوبية، ولا يبعد عن المدينة سوى كيلو متر ونصف. ورغم أن بناء القصر يعود إلى أواخر القرن الماضي، إلا أن صاحبته ظلت تصرّ أن البناءين لم ينتهوا منه إلا بعد انتهاء الحرب الأولى!

ـ صفاء... شفت بعينيك: البيت بثلاثمائة وخمسين، والتصليحات تحتاج خمسين أو ستين ألف، أريدك من يوم وصولك أن تحوّل لي نصف مليون دولار، وكل تأخير ندفع مقابله، عدا عن إيجار الفندق!

ـ تؤمر يا حكيم.. ثاني يوم من وصولي.. التحويل عندك.

ـ لا تنس ولا تتأخر.

ـ ولو.. يا حكيم، لا توصني!

ويتيه الحكيم في أفكاره «رب ضارة نافعة. تقاعدت في الوقت المناسب. الآن تنفتح أمامي كل الفرص. الشيء الذي لم أستطع أن أنجزه في موران يمكن أن أنجزه هنا، يمكن أن أكتب كل ما أريد وبحرية، دون

رقابة ودون إهداءات، كنت مضطراً أن أهدي الكتاب للسلطان خزعل، الآن لا يمكن أن أفكر بهذا الشكل، السلطان صار بالنسبة لي ماضياً وانقضى، ولا بدّ الآن أن تكتب الحقائق والقناعات كاملة ودون مجاملة».

ويشعر أن معدته تؤلمه. منذ اللحظة التي غادر فيها بادن بادن لا يطيق أن يستعيد صورة السلطان. وعندما يضطر لذلك، سواء إذا فكر فيه أو سئل عنه، يشعر بالغثيان. أكثر من ذلك يشعر أنه بدّد حياته مع شخصيات وفي أماكن لم يتصورها، ولم يكن مستعداً لها. وكان نتيجة ذلك يشعر بألم في معدته. وهو، باعتباره طبيباً، يعرف أن القلق أحد أهم الأسباب الذي يولّد آلاماً للمعدة، وقد يتطور الوضع إلى قرحة، والقرحة قد تصبح شيئاً أكبر!

استبعد السلطان وعاد إلى القصر: الغرفة العليا المطلة على البحيرة، من ناحية اليسار، ستكون غرفة سلمى: واسعة، هادئة وقريبة من الحمام. الغرفة ناحية اليمين ستكون: المحراب. هناك سأبدأ الحياة من جديد. إنها الولادة الثانية للإنسان، خاصة بعد هذه التجارب المريرة، ولذلك لا بدّ أن أستثمر كل لحظة، أن أقدم أفضل ما عندي، وأن أنجز كل شيء في فترة قياسية. وتذكر واجباته تجاه سلمى، أحس بالمرارة لأن وداد غائبة، وحدها التي تستطيع أن تساعدها، فهذه الصغيرة لا تقوى حتى على إزاحة الستارة، أو فتح النافذة، وكأنها تخاف من شيء. ويلاحظ أنها تخاف أكثر حين يكونان في الخارج، تجفل من أية حركة ومن أية نظرة، تلتصق به تريد الحماية والدفء. أما حين يكونان وحيدين فإنها تغرق في الصمت والحزن، فيحار كيف يخرجها من هذا الجو، وكل المحاولات التي يبذلها لا تستجيب لها، إذ كثيراً ما ردت على أحاديثه بنظرة تحمل كل معاني الضجر والبعد، فإذا سألها عن رغباتها، أو استفسر منها عن أمر من الأمور فغالباً ما تكتفي بكلمة أو بهزة رأس إنها لا تريد شيئاً أو لا تعرف.

ويغرق نفسه في إصلاح القصر وترتيبه، وخلال شهرين لا يهدأ ولا يتوقف. ومع الحركة تتولد في نفسه الثقة، يصبح أكثر تفاؤلاً، فيشتعل رأسه بالأفكار والأحلام، فتتوارى موران وتبتعد، كما تعاوده الرغبة في أن

يبدأ حياته من جديد «عندما ينضج الإنسان وتصقله التجارب يصبح قادراً على إعطاء أفضل ما عنده، ويصبح قادراً على اجتراح المعجزات».

لكن هذه الثقة لا تواتيه دائماً وفي كل الأوقات، إذا ما يكاد ينزلق إلى فراشه استعداداً للنوم، وما يكاد يخيم الظلام، حتى يشعر بالانقباض ويستبد به الإحساس بالنهاية. لا يعرف لماذا تسيطر عليه هذه الأفكار والمشاعر أو كيف يقاومها. يشعر برغبة لأن يكون مع الآخرين، لكن الآخرين تخلوا عنه، وحين يسأل غزوان عن أمه وعن أخبارها يأتيه الجواب الحزين: «أتركها بهمها يا بابا، طول نهارها تركض وما تركت أحد إلا ووسطته، لأن الجماعة حاطين عيونهم على أرض الحاووز، وأنت تعرف أهمية هذه الأرض ومساحتها» ويرد عليه بغضب ويهدد، فيقول له غزوان برجاء «المهم أن تبعث لنا وكالة يا بابا لننقل ملكيتها، حتى لا تبقى مجال ضغط ومساومة» ويحار ماذا يفعل أو كيف يتصرف. «وأنت يا غزوان، متى تأتي لزيارتنا؟» ومثل عادته كل مرة: «في أقرب فرصة يا بابا».

ولا يعرف متى يغرق في النوم، لكن النوم ذاته عذاب لا يقل عن عذاب اليقظة، وكثيراً ما استيقظ في الليل العميق مرعوباً عطشاناً، او بعد أن يشرب لا يستطيع أن يعاود النوم من جديد، فيبقى ساهراً في الظلمة. كان يسمع صوت أنفاس سلمى، وبعض الأحيان أناتها، وكان يفكر في حياته كلها، يستعرضها، بكل تفاصيلها، من جديد، فلا يعرف أين أخطأ أو كيف، لكنه يمتلئ إحساساً أنه وحيد وأن الجميع تخلوا عنه «الناس لا يؤتمنون، الأنانية هي الموجه الأساسي والوحيد لتصرفات الإنسان، أي إنسان، من أجل أن يكون أقوى وأغنى لا يتورع عن عمل أي شيء» وتمر الأطياف والأسماء «حتى الأقرباء، حتى اللي من اللحم والدم نسوا... ابتعدوا، كل واحد يا نفسي».

ويحار في عواطفه وعلاقاته، ويمتلئ بالخوف والهواجس.

بعد الانتقال إلى قصر «الحير الأوروبي» كما أطلق الحكيم على القصر الذي اشتراه في نيون، وبعد أن استكملت الإجراءات الضرورية: أجراس الإنذار، كهربة السور، خاصة في الليل، كلب ألماني من نوع بيرجيه، إضافة إلى سائق وخادمة جزائريين، أصبح الحكيم في وضع مستعداً معه «للرحلة الكبرى» التي طالما أجلها «لأسباب قاهرة»، كما يقول لنفسه، لكن، مرة أخرى، يقع ما يغيّر كل شيء.

كان يحتضن ثلاثة دفاتر، ويضع إلى جانبه، على المقعد الخلفي للسيارة الصغيرة التي اشتراها، كمية كبيرة من الورق.

«الدفاتر للأفكار الكبرى والناضجة. . . أما الورق فإنه الطعام اليومي» هكذا فكر وهو يشتريها. أكثر من ذلك فكر وهو في السيارة، بعناوين للدفاتر الثلاثة. العنوان الأول: «ذكر ما جرى»؛ وكان الثاني «عبر الأيام ومعرفة الأنام»؛ أما الثالث ففكر له بعنوان سريع: «أثقال المنون في معرفة الظنون». صحيح أنه كان متردداً في اختيار العناوين، لكنه يريد أن يلزم نفسه ببرنامج، أن لا يترك شيئاً للصدفة أو المزاج، وهذه الطريقة التي اختبرها من قبل، والتي تبدو متسرعة بعض الشيء، تلزمه بعادات: «العادات أساس الحياة، لأن الحياة هي العادة المكررة» هكذا كان يقول لنفسه بنوع من الإصرار لكي ينجز أعمالاً معينة. لقد تعلّم ذلك من الألمان. يتذكر أن مدرس الوراثة كان يكرر عبارة: «الوراثة هي عادة مكررة، والمكرر هو النواة، هو الباقي». وهكذا ألزم نفسه، منذ وقت مبكر، بعادات أصبحت جزءاً من حياته. ولا يريد الآن أن يستعيد كل شيء، لكنه يبتسم وهو يتذكر: «الرجل اليمنى قبل اليسرى أثناء السير، في

الدخول إلى بيوت الأصدقاء، وفي الدخول إلى المساجد. الرجل اليسرى في الخروج من المرحاض والمقابر. .» ولا يريد أن يتذكر بيوت الأعداء. كان صديقاً ومحباً للجميع. كان يحترم الجميع، يتعاطف معهم، يساعدهم، «لكن الناس، منذ أيام نوح هم الناس: الحسد، البغض، الحقد». ولا يعرف لماذا تتركز هذه الخاصية في الإنسان «الحيوانات تتعاطف تأتلف تصل إلى صيغة من التفاهم والتراضي، أما الإنسان، فإنه الحيوان الوحيد الذي لا يستطيع أن يصل إلى وسيلة للتفاهم مع الإنسان الآخر».

كانت موران تمر في ذاكرته مضطربة، لكنها تشبه شريطاً حزيناً قاسياً. لم يبق أحد إلا وساعده. فتح الأبواب للذين يعرفهم وللذين لا يعرفهم، قال لهم: تعالوا. فلما جاءوا، وبدأوا، وتدفقت عليهم الأموال، وبمساعدته، وبدل أن يشكروه تنكروا له. قال في محاولة لأن يقنع نفسه: «موران حالة خاصة» لكن تذكر أماكن أخرى، تذكّر أشخاصاً آخرين. قال الإنسان عدو ما جهل». . وكان يفكر أن البشر، على مدى مئات السنين لا بد أن يتغيروا، هو متأكد من ذلك، والحياة والطبيعة سوف تفرضان شروطهما، ولا بدّ أن تعلّم الآخرين كيف يجب أن يتصرفوا. «نحن ما زلنا في البداية، البداية لها مخاطرها وأهوالها، ولا بدّ أن يقع الكثيرون ضحايا، لكن الحياة خير معلم». واعتبر هذه النتيجة رائعة سوف يتعمق أكثر فيها وسوف يخصها باهتمامه لكي يبلورها، ويعطيها أبعادها الفلسفية، يمكن أن تكون أيضاً بداية «للتدوين». إنه الآن في حالة نفسية مقبولة، صحيح أنه ليس في أحسن حالاته، وليس مستعداً تماماً، لكنه يشعر بمزاج رائق، ويشعر أيضاً بالهمة والنشاط، كما يمتلك أفكاراً كثيرة جديرة بالتسجيل. سوف يفكر ويخطط لهذه الأمور بطريقة أفضل، ولا بدّ أن تتبلور من خلال التأمل والعمل، وسيصل في النهاية إلى النتائج التي يريدها. هذا لا شك فيه، وهو ليس نتيجة رغبة أو حالة جموح، إنه متأكد، وهاهي الأفكار تواتيه وتتراكم بطريقة منطقية واضحة. يستطيع الآن أن يكتب

ويستمر، دون حاجة إلى مراجع أو مناقشة أحد. الآخرون يشوشونه، يربكونه ويجعلونه في حالة نفسية قلقة، لقد كانوا دائماً السبب الذي أعاقه عن مواصلة العمل.

القصر على تل، يليه آخر. فكر الحكيم أن يسميه، في البداية، «السنام»، لكن صرف النظر بسرعة «يجب أن أنسى موران والبادية».

وفكر أن يشرك سلمى معه. لو فعل لا بدّ أن يخلق لها اهتمامات جديدة وينقذها من حالة الفراغ والقلق. صحيح أنها صغيرة لا تدرك أفكاره، وقد يكون من الصعب عليها أن تجاريه، لكن ربما استطاع أن يدخلها تدريجياً في هذا العالم، وبمرور الوقت، مع الأيام، لا بدّ أن تصبح لها اهتمامات مماثلة. فالوراثة تتخفى لكنها لا تنتهي، وقد تكون هذه الصغيرة امتداده الحقيقي على هذه الأرض. لا يستطيع أن يحكم حكماً أكيداً صائباً، خاصة وأن الأوقات القليلة التي قضاها مع ابنيه لم تساعده على اكتشاف هواياتهما، أو معرفة مراكز الثقل لدى كل واحد منهما. يعرف غزوان، يعرف هواياته واتجاهه، أما سلمى، وفي مثل هذه السن، فيمكن أن يتولى إعادة تشكيلها. إنها فرصته الحقيقية لتطبيق نظريته وتحقيقها، وسوف يتأكد أكثر من جميع التفاصيل.

تمنى لو كان في ظروف نفسية أفضل، مثلاً لو أن وداد معه الآن، إذن لاتخذ قرارات حاسمة، وبدأ حياته من جديد. ومع ذلك يجب ألاّ ينتظر أو يتأخر. «العمر يركض كماء النهر ولا يمكن أن يتوقف أو أن يستعاد». وقرر أن يبدأ، خاصة وأنه يحب فصل الشتاء أكثر من الفصول الأخرى، لأنه «فصل الاختمار والبيات»، وندم أنه لم يحمل معه العباءة، فهي هنا أكثر ضرورة من موران، وفكر أن يطلب من وداد أن تحضرها معها «لكن متى تعود» وأحس بالضيق لأنه عاجز عن اتخاذ القرارات، لا يستطيع أن يفعل شيئاً سوى الانتظار.

السيارة تصعد، المرزوقي لا يزال غير قادر على التفاهم مع الحكيم بيسر، صحيح أنه اختاره رغم كونه عربياً، لكن تعمد ذلك لعدة أسباب:

بدا له قوياً بحيث يستطيع أن يقوم بأكثر من مجرد قيادة السيارة، والسبب الثاني أنه يمكن التفاهم معه، رغم الصعوبة، أكثر مما يستطيع التفاهم مع سائق سويسري؛ وأخيراً فهو قادر على أن يبعد عنه العرب بكل سهولة، ودون أن يثير الشكوك.

تأكد من ذلك بعدما: استدعاه وحاوره. قال له المرزوقي، حين اختبره: «مُسلم والحمد لله»، ولما سأله عن علاقاته مع العرب أو إن كان يعرف أحداً منهم رد عليه باختصار: «يرحم والديك، اتركنا من العرب الخامجين»، وضحك الحكيم وسأله من جديد لماذا يعتبرهم هكذا أجابه بنزق «يا أخويا ما نعرفوش أيش كاين، لكن ما نشوفهم إلا مع الطفلات والقحبات وما يفكوا السكر. وأنا بنفسي شفتهم، ولا واحد منهم يمسك رمضان».

اليوم، بعد أن قضى وقتاً في جنيف ولم ينس المرور على فندق ستراسبورغ والتحدث إلى المسيو مولان، تزود بكمية وافرة من أدوات الكتابة، بما في ذلك عدد من أقلام الرصاص والجافة، ومسطرة وثلاث داويات حبر بألوان مختلفة ومماحٍ، واشترى أيضاً أكداساً من الورق وثلاثة دفاتر.

اليوم هو الخامس في مقره الجديد، وقد عنّ له وهو يستعرض الأسماء التي يمكن أن يطلق واحداً منها على القصر، اسم «عشّ النسر» لأنه تذكر أحد مقرات هتلر أثناء الحرب، لكنه استبعده بنزق وسرعة لأنه ارتبط بالسلطان والسيرة التي ماتت قبل أن تولد. شعر للحظة بأحاسيس مختلفة، لكن أبرزها شعور الراحة، لأنه تخلص أخيراً من هذه الحماقة، رغم أنه صرف وقتاً طويلاً وبذل من الجهد والأعصاب الكثير لكي يرضي ذلك الشره المنافق سمير، الذي لا يميزه سوى أنفه، وكأنه أنف مهرج في السيرك. صرف عليه ما يمكّن من تأليف عشرة كتب. وبعد ذلك، وفي غفلة من الجميع هرب، عاد إلى موران، عاد دون أن يشعر به أحد من الذين حوله. ولم يعرف بسفره إلا بعد أيام من السفر!

لن يقع بعد اليوم في إشراك الآخرين، يجب أن ينصرف إلى كتاباته الخاصة، لديه ما يقوله قبل أن يغادر هذه الدنيا، لديه الكثير. حتى المناقشات التي كان يجريها مع مطيع وحماد وآخرين، كوسيلة من الوسائل الثقافية، يحس الآن أنها كانت على حسابه، وعلى حساب قضايا كبرى كان من السهل أن يقوم بها لو ملك الوقت والجو النفسي الملائم. أين مطيع الآن؟ لقد تذرع بعشرات الأسباب لكي لا يأتي. حين سأل غزوان عنه، قال إنه لم يره إلا عرضاً، وحين سأل الآخرين قالوا انهم لم يروه منذ شهور. من هو مطيع لو لم يسنده ويحمه؟ وفي النهاية تخلى عنه، لم يره ولم يسمع منه حتى كلمة مجاملة. ومطيع من الأقارب، وليس مثل سعيد أو رضائي، لكنه، في المواقف الحاسمة، حين يطلب منه أن يختار لا يرى سوى مصلحته، لا يرى إلا ما يعزز قوته. «الآن صار الحكيم كخ، صار عبئاً، ويجب أن يبتعد عنه الآخرون، لكن بسيطة، سوف نرى».

وأبعد عن تفكيره موران وناس موران. قال للمرزوقي بتحبب ظاهر:

ـ وتفكر تبقى هنا طول حياتك؟

ـ بحق الرب ما تقول لي نروح فين؟

ـ ما تحب ترجع للبلاد؟

ـ نحب البلاد، لكن بالبلاد ما في إلا Chomage والبوليس.

واستمرت السيارة في الصعود.

جنيف، ظهيرة ذلك اليوم من أوائل أيام الخريف، هادئة. الشمس تظهر وتختفي كما لو أنها كرة بيد ساحر، إذا اختفت يرشح ضوء هو مزيج من ضوء القمر ورياح الشتاء، وإذا ظهرت تبدو مثل عجوز غلبها الزمن، ولم يبق منها إلا بما يذكّر بماضيها. وبين الظهور والاختفاء كان رذاذ البحيرة يملأ ذرات الهواء، ويجعل للجو رائحة باردة، فيغلق الحكيم نافذة السيارة بإحكام، لأنه يريد أن يستبقي شعلة الحماس في داخله دافئة. يتطلع حواليه لكنه لا يرى إلا أطيافاً، فقد كان مشغولاً بعالمه الداخلي الحافل والمضطرب.

لم يبق إلا المنعطف، ناحية اليمين، ويرى «قصر الحير الأوروبي» غارقاً في خضرة داكنة، وإلى جانبه، من الناحيتين، أبنية وقصور قديمة. قال في نفسه: «البشر في أوقات سابقة كانوا يعيشون في هموم أقل» وتذكر موران فأضاف «والفرق كبير بين بشر هذه البلاد وبشر تلك الصحراء الملعونة» وكرت في ذاكرته مجموعة من الوجوه، كانت غائمة متداخلة أقرب إلى التشوه. قال في نفسه: «سوف يتشوهون أكثر، سوف يصبحون مسوخاً».

انعطف المرزوقي ناحية اليمين. لم يخفف السرعة، وهو ينعطف، فقط، كاد يتوقف. الحكيم الذي كان غارقاً في عالمه البعيد ـ الغريب، انتبه لهذه الحركة المفاجئة. سحب نظراته مما حوله، وسحبها من الداخل. تطلع نحو «قصر الحير الأوروبي» للحظة فلم يصدّق عينيه، بلمح البصر أغلقهما وفتحهما مرة أخرى ليتأكد. وجد عند باب القصر سيارة بوليس وأخرى لم يستطيع أن يحدد صفتها. قال في نفسه: «الإنسان لا يخلص من موران ما دام حياً» ولا يعرف كيف انصرف ذهنه إلى احتمال القبض على مجموعة جاءت لاغتياله. «الحكومة السويسرية تحترم نفسها، ولا تسمح للعصابات أن تسرح وتمرح وأن تفعل ما تشاء، وهي مسؤولة عن حماية كل فرد على أرضها». وتذكر كلمات المسيو مولان، الذي أشار إلى ضرورة إشعار الحكومة السويسرية بالصفة الرسمية التي كان يتمتع بها، لأن من شأن ذلك تسهيل تسجيل القصر، وربما أيضاً توجيه الدعوة له في المناسبات الرسمية. تردد الحكيم، «لأني لا أملك الوقت لتلبية الدعوات والانخراط في الجو الاجتماعي أو الرسمي»، ومع ذلك ترك للمسيو مولان أن يشير إلى هذه الصفة في طلب التسجيل، ومن أجل الإشعار فقط.

سأل المرزوقي والسيارة تتقدم ببطء:

ـ شو صاير؟ يا فتاح، يا كريم، بعدنا ما سكنا وبلشت المشاكل؟

ـ والله، يا سيدي، ما نعرف.

ـ اللهم اجعله خير!

ـ الله يسمع.

أما ماذا حصل منذ أن غادر الحكيم القصر وحتى العودة إليه، فإن الروايات تتعدد وتتناقض كثيراً. حتى البوليس السويسري لم يستطع أن يجزم ما إذا كانت الوفاة نتيجة ماس كهربائي أم بفعل تصميم على الانتحار، لأن الوقائع التي تؤيد أياً من الاحتمالين قائمة، وتكاد تساوي الأخرى. خاصة وأن جزءاً من المعلومات المتعلقة بالفترة السابقة، ظل مجهولاً نتيجة التطورات اللاحقة التي أصابت الحكيم.

الكلب هو أول من اكتشف وفاة سلمى، فقد كان يحوم بين غرفة النوم والممر والحمام، كان هادئاً متمتعاً بالدفء، وفجأة بدأ بالعواء. كان يعوي بطريقة عصبية، وهو لم يفعل ذلك طوال الأيام السابقة. نعيمة، قريبة المرزوقي، التي بدأت الخدمة معه، لكن لم تتحدد صفتها بصورة كاملة ونهائية، هل تعتبر خادمة، وسوف يتم استخدام أخرى للطبخ، أم ستتولى الأمرين معاً، على ضوء تحديد الحاجات الفعلية. نعيمة التي استغربت عواء الكلب، ولم تفهم له سبباً، استدعت البستاني، وكان يعمل في الحديقة الخلفية، إذ ربما يكون أقدر منها على التفاهم مع هذا الحيوان، أو فهم أسبابه. ما كاد البستاني، وهو رجل قصير، أقرب إلى الكهولة، يدخل وينادي على الكلب، ويحاول أن يهدئه، حتى تلفت إلى أكثر من ناحية، وكأنه يبحث عن شيء ما تسبب فيما حصل. وبين مراقبة الكلب والانتقال من مكانه إلى آخر، التمعت صورة سلمى في ذهن نعيمة. اندفعت إلى الحمام، وجدت الباب مقفلاً. دقته عدة مرات لم تتلق جواباً ولم تسمع صوتاً. ذهبت إلى غرفة سلمى تبحث عنها، لم تجدها. صرخت برعب وأشارت إلى الحمام. الكلب طوال هذه الفترة لم يتوقف عن النباح. وتم استدعاء البوليس، وجاء مع البوليس الاسعاف، لكن كان كل شيء متأخراً.

لما وصل الحكيم كان البوليس قد أنجز مهمات المرحلة الأولى، إذ نقلت سلمى إلى المستشفى وسط المدينة، وتحفظ على العاملين في

القصر، وبدأ، بواسطة خبراء، معاينة مكان الجريمة وتسجيل التفاصيل.

بعد ثلاثة أيام وصل غزوان وصفاء الشلبي.

وبعد يومين من وصولهما استكمل التحقيق، وإن ظلت بعض الأسئلة دون إجابات. وجرت مراسيم دفن سلمى، ثم سافر غزوان، وبقي صفاء بضعة أيام من أجل إجراءات مجموعة من الترتيبات، بما فيها مرافقة الحكيم إلى مصحّ في جبال الألب.

وبعد سنين، حين أصبحت روفة عاجزة عن المشي، قالت لإحدى قريباتها:

ـ الله العليم إنه ما قرّمني إلا خطيّة ذيك البنية!

قالت ذلك لأنها تذكرت صرخة عدلة، وهي تطلب منها الاستعجال لاستدعاء سلمى. فالسلطان قبل أن يأوي إلى فراشه، في تلك الليلة البعيدة، طلب أن ينادى له على سلمى. كان واضحاً أنه اتخذ القرار. لم يقل ذلك لأحد، حتى لعدلة، لكن عدلة احست، أو ربما أصبحت على درايه عندنا يتخذ السلطان قراراته. فما كادت روفة تبطئ في النهوض، وربما تعمدت ذلك حتى صرخت بها عدلة وبصوت مخيف:

ـ عسى أن الله يقرّمك. تسمعين كلام طويل العمر، وبعدك بمكانك؟ يا الله. يا الله.

ومثل بنات المدارس وقفت سلمى في مدخل الصالة. لم يطلب إليها الجلوس، ولم تسمع رداً على التحية التي ألقتها. كان الصمت، وكانت العيون الوجلة تتطلع إليها، قال لها السلطان وخرج صوته مرتجفاً:

أنت طالز، أنت طالز، أنت طالز.

وحين ابتسمت وهزت رأسها دلالة أنها لم تفهم، خفض رأسه قليلاً لكي لا تستمر في النظر إليه هكذا، لأنه في لحظات معينة يخاف تلك النظرات، وربما يضطر للتراجع. قال لها ورأسه مائل ونظراته مصوبة إلى مسند الكرسي:

ـ تصلين أبوك وهو يعلمك شنهو معنى الكلام اللي قلته!

ابتسمت وهي تنسحب. نظرت إلى العيون التي تتابعها، هزت رأسها، وكأنها تقول: «تصبحون على خير».

أما عدلة التي لم تغادر فراش السلطان خلال الشهرين التاليين، وظنت أنها ستبقى في ذلك الفراش ما بقي لها من أيام، ولم تأبه للأحلام والكوابيس التي لاحقتها خلال تلك الفترة، وعزتها إلى الطعام، وإلى ارتفاع الوسادة التي تنام عليها، فقد اكتشفت، بمرور الوقت، أن هذه الكوابيس وحدها هي التي ستلازمها إلى أيامها الأخيرة، إذ بعد أن سفّرها السلطان، وعادت إلى موران، وعادت إلى الأكل الذي تفضله، وإلى الوسادة التي تعودت أن تنام عليها، فإن الكوابيس لم تفارقها، بل كانت تتزايد وتثقل على صدرها. وحين سألت نجمة العجرمي أن تساعدها، ردت عليها بسخرية:

ـ ما يفيدك إلا نجم الدب، هو اللي يفك السحر ويرخي الحبال!

وحين لم تفهم، أضافت:

ـ ما لك إلا وداد، يجوز تبخرك أو تسوي لك دوسة، وإذا ما فاد لا هذا ولا ذاك فعليك بديك أسود وخصوة ثور وجلد حية ولسان عصفور، تطحنيها كلها زين، وتبيتيها كلها تحت السما، وبعدها إذا شربت منها تتعافين فقولي آمين!

المنفى . . . المكان البارد، الموحش، الذي يشعرك دائماً أنك غريب، زائد، وغير مرغوب فيه؛ المكان الذي تفترضه محطة، أو مؤقتاً، فيصبح لاصقاً بك كالعلامة الفارقة. وربما لأنه مؤقت يصبح وحده الأبدي، كالقبر، لا يمكن الهروب منه أو مغادرته.

حتى الفرح والمسرات الصغيرة، وأيضاً الانتصارات العابرة أو الموهومة، إن لها في المنفى مذاقاً مختلفاً: إنها ليست لك. إنها مؤقتة، هشة، وتتحول بسرعة إلى حزن كاوٍ، وإلى بكاء لا يعرف التوقف. أما كيف تذوب وتتراجع كالحلم، ولا تشبه مثيلاتها التي تحدث في الوطن، فإن في الأمر سراً يستعصي على الفهم أو التفسير.

فما كادت سلمى وأبوها يغادران القصر، تلك الليلة، ولا يعرف متى حصل ذلك، أو إلى أين، وما كاد اليوم الأول ينقضي، ولم يبق أحد إلا وعرف، حتى أحس الجميع بالفراغ، بفقد شيء ما. في الأيام التالية مازج الفراغ شعور بالخطأ، ما لبث أن تحول إلى خطيئة. صحيح أن الحكيم لا يعني للكثيرين شيئاً مهماً، ولم تقم بينه وبين أغلب الموجودين علاقة من أي نوع، بل أكثر من ذلك كان يبدو بالنسبة لهم بعيداً أو أقرب إلى الشبح، ومع ذلك، أخذت الشفقة عليه تزداد يوماً بعد آخر.

أما سلمى، وقد جاء هذا «الجيش» معها، أو من أجلها، واعتبرت شؤماً وقدماً سوداء، وربما تسببت فيما وقع في موران، فإن أحداً لم يرها منذ أن وصلت إلى بادن بادن، ولذلك غابت تلك الصورة عنها أو تراجعت. وحين أخذت قصص السلطان تنتقل وتعم، كيف يترك الربع

ويصعد إلى الطابق العلوي، وكيف لا يتعب ولا يمل، مثل أي ديك، وهو يصعد وهو يهبط، فقد تساءل الكثيرون همساً: «لكل كبْش عشرين نعجة، أما هذا التيس فما عنده إلا هذه السخلة، فكيف تحتمل في الليل والنهار؟» ولذلك تغيرت النظرة لها، واختلفت العواطف تجاهها. أما بعد أن نُقل عن زيد كيف غادرت القصر، دون أن تحمل معها أي شيء، وأنها كانت مكسورة حزينة، ولا يعرف أين ذهبت أو ما هو مصيرها، فقد ساد شعور أنها ضحية، ولا تستحق مثل هذه النهاية.

ترافقت صورتها، وهي تغادر هكذا، بذلك الشجن الذي يضاعفه المنفى مئات المرات. أحس أغلب المقيمين أنهم ضحايا، وأنهم معرضون لنفس المصير، ولا يختلفون عن هذه الفتاة الصغيرة، التي امتُصت ثم رُميت!

وشيئاً فشيئاً، ويوماً بعد آخر، أخذت صورة السلطان تهتز وتتغير. لم يعد أباً رحيماً، ولا إنساناً مظلوماً، كما أنه لم يختلف، رغم الابتسامات والود الذي بدر منه تجاه عدد من الحرس وبعض الخدم، عن الإنسان الذي كانه هناك: أنانياً، قاسياً، لا يعرف الرحمة حتى تجاه أقرب الناس إليه.

عدلة التي لم تخرج خلال الأيام السابقة، أخذ الحرس يشاهدونها تتدحرج كالكرة يومياً، قاطعة المسافة مرتين بين بوابة القصر والبوابة الخارجية، ذاهبة إلى طبيب الأسنان أو راجعة من عنده. كانت تتعثر في مشيتها، وتنظر إلى كل شيء بخوف، وكأنها تحاول أن تثبت براءتها، دون كلمة، أو تعلن عدم مسؤوليتها عن كل ما حدث!

قدّر الكثيرون، خاصة من الحرس والخدم، وإن لم يملكوا معلومات، عكس ما كان الحال في قصر الغدير، أن عدلة مسؤولة. وقد عبروا عن ذلك، فيما بينهم، ولنزلاء الفندق، بصراحة ودون تردد، خاصة وأن عمليات التمويه هذه لم تنطلِ عليهم، أكثر من ذلك، أحسوا أنها تخدعهم. حتى النذر الذي وزعته في اليوم الثالث لمغادرة الحكيم، وقد أشرف مجلي

بنفسه على توزيعه، وكان عبارة عن حلويات صُنعت في القصر، ومعها مبلغ من المال، لم يستطع أحد أن يفهمه أو أن يفسره إلا باعتباره نكاية وشماتة، ودليل على أنها انتصرت في هذه المعركة، أيضاً!

نزلاء الفندق كانوا أكثر شراسة وأكثر تحدياً، ليس لأن الحكيم يعني لهم شيئاً، وإنما لأنهم منسيون من قبل القصر، متروكون، لا يعرفون ما يخبئه لهم الغد. ليس ذلك فقط، أصبح مبارك الموينع، الذي كان مكلفاً بقضايا الأمن، إنساناً لا يطاق: عمليات الاستدعاء والتحقيق تجري كل يوم في الغرفة ٣٣٧. سحب جوازات السفر والاحتفاظ بها في القاصة الحديدية، خاصة بعد عمليات الهروب العديدة التي وقعت، وكان آخرها هرب بدري المدلل، حلاق صاحب الجلالة. التوقف عن صرف المخصصات الأسبوعية، أو تأخيرها، نتيجة الاختلاف حول أي من الأمور، أو بسبب الشك الذي يحوم حول بعض الأشخاص.

كان مبارك، المتين، الشديد السمرة، الأقرب إلى السواد، إنساناً دمثاً خلال الأسابيع الأولى، ولم تكن صفته واضحة أو محددة بالنسبة للكثيرين. كان يظن أنه من فريق المشتريات؛ وقيل أنه من الحرس الخاص؛ وذكر أنه جاء مع السلطان لإجراء عملية في عينه اليسرى، لأن غشاوة بدأت تزحف على هذا العين، وأشار عليه الأطباء الذين راجعهم في موران بضرورة إجراء عملية في الخارج، وقد توسط له الحكيم، وضم إلى الوفد المسافر في آخر لحظة، إلى أن تبين خطأ جميع هذه التقديرات، وتأكد ذلك بعد أن تم استدعاؤه للقصر، ومقابلته الطويلة مع زيد الهريدي وصالح الهلالي، مسؤول أمن السلطان، وتسربت أقوال أنه قابل جلالته، وأقسم يمين الولاء، مجدداً، أمامه.

بعد هذه التطورات، وفي محاولة لضبط الأمن، والتأكد من سلامة العناصر، إتخذ مبارك تلك الإجراءات.

كان من الممكن أن تقبل الإجراءات التي اتخذها، لو أن ظروف الرجال عادية، أو كانوا من طبيعة واحدة، لكن لأنهم خليط من المستويات

والأمزجة والعلاقات، فإن ردود الفعل لا تنتهي، والمواقف تتغير بين يوم وآخر، مع ما يرافق ذلك من خصومات وتحديات لا تتأخر لكي تصل أصداؤها إلى القصر.

ترافق هذا مع همس وإشاعات تتزايد وتتسع، أن مبارك، وهو يلجأ لتلك الإجراءات، لا يصدر عن رغبة لوضع حد للاضطراب الذي يقع بين نزلاء الفندق، وإنما نتيجة تعليمات من السفارة في بون، بحكم القرابة بينه وبين بديوي المطلق، مساعد القنصل. ومما يؤكد ذلك أن بديوي زار بادن بادن، خلال شهر واحد، مرتين، وفي المرتين التقى مطولاً مبارك. وراجت إشاعات أيضاً أن حماد الذي اختار مبارك لهذه الرحلة، وليس الحكيم، كان مكلفاً، ومنذ البداية، بمهمة، لكن طلب منه أن يتستر عليها، وأن يسلك سلوكاً من شأنه أن يخلق الطمأنينة لدى الجميع، حتى إذا حانت الساعة المناسبة قلب كل شيء.

امتناع مبارك عن صرف مخصصات عدد من نزلاء الفندق، بحجة السكر، وقد حصل ذلك في الأسبوع التالي لمغادرة الحكيم، فجرّ الموقف، إذ بالإضافة إلى «اعتقال» مبارك في الغرفة ٣٣٧، عُقِد اجتماع في الصالة الخلفية، القريبة من المطعم، وقد حضر هذا الاجتماع معظم النزلاء، وتقرر فيه: عزل مبارك، وتسمية وفد لزيارة القصر ومقابلة السلطان، لعرض الموقف عليه، والإتفاق على صيغة جديدة.

حصل هذا في جو من الهياج والاضطراب، وقد امتزجت كلمات الغضب بنظرات التحدي، بالشتائم، الأمر الذي اضطر إدارة الفندق لاستدعاء البوليس والاتصال مع القصر.

قيل إن عدد القوات التي حاصرت الفندق، وهي من القوات الخاصة، يكفي لاحتلال ثكنة عسكرية محصنة؛ كما رافق القوات عدد من سيارات الإطفاء الإسعاف، وأقيم، غير بعيد من الفندق، مركز قيادة، أما الشوارع الثلاثة الموصلة للفندق فقد سدّتها سيارات الشرطة؛ أما سطح البنايات المجاورة فقد احتلها القناصة!

إنه واحد من الأيام القليلة الذي تتذكره بادن بادن، ومع الذكرى تتداخل العواطف والأفكار وتختلط. فمدير الفندق، الذي نقل إليه ما يجري في الطابق الثالث، وشهد، من بعيد، جزءاً من الاجتماع الصاخب في المقهى الخلفي، كان متيقناً أن عملية قتل جرت في الغرفة ٣٣٧. ومدير بوليس المدينة نتيجة تقارير المخبرين، كان متأكداً من وجود كميات كبيرة من السلاح غير الشرعي، الذي قد يستعمل في أغراض خطرة، وحين أبلغ رؤساءه، واتصلت الخارجية بسفارة السلطنة ببون مستفسرة عن وجود سلاح، كان الجواب ملتبساً، ويحتمل أكثر من معنى، مما أكّد المعلومات السابقة! وقد فوّض مدير شرطة المدينة أن يتخذ الإجراءات المناسبة، «بأقل ما يمكن من الخسائر، وفي الوقت المناسب، مع أحكام المراقبة». والبارمان ورئيس المطعم أكدا، عندما سئلا، أن ثلاثة، على الأقل، من الوفد كانوا في حالة سكر ظاهر، وكان لهؤلاء دور فيما حصل قبل ظهيرة اليوم التالي.

وقصص مقابلة: أن مبارك لم يمتنع عن دفع المخصصات، وإنما أبلغ الذين راجعوه أن أحد المكلفين، مع مترجم، ذهب لإحضار الدراهم من البنك، وحالما يعود سوف يدفع لهم مخصصاتهم. قيل أن المترجم تاه في الازدحام، وضاع المكلف، ولم يستطع العودة للفندق إلا بعد الثالثة، وأثناء إخراج النزلاء بالقوة! وهناك من يؤكد أن المترجم مرتبط بالبوليس، وربما بالسفارة أيضاً. وأكد أحد الذين رووا القصة لزيد والهلالي، أن المترجم كان يسكر في الليلة السابقة مع الذين راجعوا مبارك بطلب المخصصات، فرفض استقبالهم وأغلق على نفسه الغرفة من الداخل.

ولا يعرف لماذا لم يعثر طيلة ذلك اليوم على هانس أورلخت، إذ لم يتصل، كعادته، ولم يمر، كما كان يفعل خلال يومين أو ثلاثة أيام من كل أسبوع، وذهبت كل المحاولات للاتصال به دون جدوى!

أما المترجم الذي حضر مع مفرزة الشرطة للقصر، فقد خلق من الإرباك وسوء الفهم أكثر مما سهّل أو ساعد للوصول إلى تفاهم أو إلى

حل، لأن لغته العربية كانت خليطاً من المفردات المالطية والشتائم، الأمر الذي اضطر زيد إلى الإنسحاب وإغلاق بوابة القصر، وقد تسبّب ذلك، في وقت لاحق، بمضاعفات عديدة.

وغير ذلك من الملابسات كثير. أما عندما وصل خمسة من نزلاء الفندق إلى القصر، وقد وصلوا بسيارتي أجرة، وبناء لاتفاق بين إدارة الفندق والبوليس، فكانوا في حالة من الاضطراب والخوف والفوضى، بحيث لم يستطيع زيد أن يفهم عليهم إلا في وقت متأخر. أكثر من ذلك، ظن أن شيئاً حصل في موران، وليس في الفندق، وخلال لحظات كاد يتركهم ويهرع لإبلاغ السلطان، لكن خوفهم واضطرابهم سرى إليه، الأمر الذي اضطره إلى الصراخ كالملسوع:

ـ يا عباد الله، اسكتوا. خلوا واحد منكم يتكلم، وخلنا نفهم شنهو اللي صاير بالدنيا.

ورغم أن الصمت ساد، وبدأ شعلان الشبل يروي ما رأى وما سمع، إلا أن تدخلات الآخرين وتصحيحهم لبعض الوقائع، خلق الفوضى من جديد. ومع ذلك، فهم زيد أن الأمر يتعلق بالسكر ومبارك وإدارة الفندق. ضرب على فخذه بقوة وخرج صوته كالفحيح:

ـ فوق السكر وقلة الدين، هالحين بلشتونا مع أولاد الحرام، اللي الواحد لا يقدر يصل معهم لا لحق ولا لباطل، مع الألمان؟

ونهض، دار في الغرفة، لا يعرف ماذا يفعل، وبعد قليل قال بحقد:

ـ الله يخزيكم كسرتم عرضنا ونكّستم عُقلنا.

قال سلطان الفهيد، وهو أحد أقرباء عدلة غير البعيدين، وجاء للعلاج:

ـ إلزم حدك واحفظ لسانك يا زيد...

وبعد أن هدأ قليلاً، تغيّر صوته:

ـ الكلام اللي قلته تقوله لغيرنا، للمخطين وأصحاب الطلايب!

ـ يا عباد الله، تركناكم بهواكم. قلنا لأرواحنا: خلهم. لا شفنا ولا سمعنا. وبعدها هذا اللي يطلع منكم؟

قال شعلان الشبل:

ـ يا أبو راشد حنا ما علينا، حنا واسطة خير، وهالحين يلزمكم تلحقوا جماعتكم هناك، لأنا تركنا الدنيا قايمة قاعدة، وما يندري شنهو اللي يصير.

وبدأ الركض وبدأت التلفونات. لكنه ركض العميان، وتلفونات باردة أقرب إلى الموت.

قال صالح الهلالي للسلطان:

ـ . . . . وأرى يا صاحب الجلالة أن تقابلوا الحكومة الألمانية، لأن الأمور وصلت إلى حد لا يمكن معه السكوت. .

وكاد يتابع، إلا أن ضحكة السلطان الحزينة، جعلته يتردد، قال زيد وخرج صوته من بين أسنانه:

ـ لو ابن الحرام، الحكيم، سمع كلامنا، وظل هنا، كان عرف شلون يدبر الأمور، لكنه ما يبول على يد مجروح، وما هامّته إلا روحه.

سأل السلطان بطريقة مسكينة:

ـ والحين. . . شنهو اللي راح تسوونه؟

ـ أصل، طال عمرك، المخفر، أنا وصالح، ونسوي اللي الله يقدرنا عليه!

قال السلطان لابنه مجلي:

ـ وأنت تظل ترقع بالتلفونات على سفير الزق، ابن السحيمان، إلى أن تحصّله، وإذا حصلته، ما عليك، عطني، وأنا أتفاهم معه!

وذكر بعض الحرس، وأكد ذلك خادمان من خدم السلطان، أنهم لم يروا السلطان نزقاً مضطرباً مثلما كان ذلك اليوم. فما كاد زيد والهلالي يغادران القصر، وقد توجها، مع عدد من المرافقين، إلى حيث ينزل

المترجم الجديد، العنجري، حتى بدأ السلطان بالسؤال إن عاد أم لا. كان يفعل ذلك كل بضع دقائق. وقيل إنه صرخ على إحدى بناته بخشونة حين سألته إن كان يحتاج شيئاً. أما عدلة التي ظلت تدور، دون أن تجرؤ على سؤاله أو محادثته، فقد لجأت، مثل عادتها، إلى روفة. قالت لها بهمس:

ـ إذا لاح سنه وضحك، لك مني رشادية!

وروفة التي تعرف كيف تضحك النسوة، بعيونها، بحركات وجهها، أو بتلك التوريات البذيئة، اقتربت من السلطان، متظاهرة بالإعياء وما يشبه المرض، فما كاد يراها تقترب هكذا حتى توقف. تطلع إليها وظل صامتاً. قالت برجاء:

ـ أريدك تسامحني يا طويل العمر، وما تخيّب رجاي...

ظل يتطلع دون أن يتكلم، تابعت:

ـ الله يفكّ كربتنا ويرجعنا لديرتنا، وهناك، إذا الله يريد، يأخذ أمانته.

تضايق السلطان، زفر. هجمت عليه تريد تقبيل يده. رفض، قالت بانفعال:

ـ ما أريد أموت بهالديرة، يا طويل العمر. وأنا هالحين وجعانة، وجاني طيف قال لي: ما تشفين من علتك إلا إذا طويل العمر حط يده على راسك أو باس قصتك فاريد واحد من الاثنين، أو الاثنين جميع.

ضحك السلطان، لكن ضحكته كانت مسكينة، وكانت تثير الشفقة أكثر مما تولد الفرح. اقتربت منه. أمالت إليه رأسها، تاركة له الخيار أن يفعل ما يراه مناسباً. لمح في عينها مكراً، قال وهو يضع يده على رأسها:

ـ لو كنا بموران هالحين كان لقيت لك تكروني يسنّعك زين ويشفيك من أوجاعك كلها، يا بنت الحرام!

أما كيف تطورات الأمور بعد ذلك، فهناك عشرات الوقائع والتفاصيل المرهقة، والتي تختلط معاً إلى درجة لا يمكن معها معرفة الحقيقة. فالسفارة التي امتنعت عن الإجابة خلال الأيام الثلاثة الأولى، أصبحت

المفاوض الوحيد، سواء مع المدينة أو مع السلطات الاتحادية. والبوليس الذي رفض أية مناقشة مع زيد الهريدي والهلالي، لإطلاق سراح اثنين وعشرين من الموقوفين، بتهمة حمل السلاح والتعدي على رجال الشرطة، إضافة إلى المقاومة المسلحة، وحين ألحّا، ورفع زيد صوته مهدداً، خُيّر بين الانصراف أو أن ينضم إلى الموقوفين! أما كيف تغير موقف البوليس، بعد ذلك، فأصبح أكثر مرونة ووداً، بل وبلغ الأمر، في لحظات معينة، أن يمزح بعض الأفراد منهم مع زيد، فإن المترجم الذي جاء من بون ليس أكثر كفاءة من العنجري، لكن حصل شيء خلال ذلك!

وإدارة الفندق التي رفضت استقبال الموقوفين؛ بأية صورة من الصور، ولو لليلة أو اثنتين، بحجة عدم وجود أماكن، وأودعت حاجاتهم في مستودع الأمانات السفلي، خطت خطوة إضافية، إذ أشعرت الآخرين بضرورة البحث عن أماكن جديدة، «لأن الفندق سوف يغلق أبوابه بعد عشرة أيام للترميم!».

وإجراءات التسفير لعدد كبير من المرافقين والمرضى، وقسم من الحرس، بحجة انتهاء الإقامة الممنوحة بالتأشيرة، استطاعت السفارة، بعد جهد وانتظار، أن تجدد لعدد منهم، وأن تتولى هي تأمين سفرهم، بدل عمليات الطرد والتسفير التي تهدّد بها السلطات الألمانية.

وإلى أن تتم عمليات التسفير نقل قسم كبير من هؤلاء إلى شتوتغارت، ورغب آخرون أن يسافروا إلى إسبانيا وإنكلترا، على أن يواصلوا سفرهم بعد ذلك إلى موران، عدا عن نقل الباقين إلى القصر، ونصب خيمتين في الحديقة لإيوائهم.

وهانس أورلخت الذي غاب اليوم التالي بطوله، اتصل يوم الأربعاء، لكن لا ليساعد في حل المشاكل القائمة، وإنما ليضيف هماً جديداً: القصر. فصاحبه يطلب إخلاءه فوراً. وبعد مشاورات شاقة، تدخلت السفارة في إحدى المراحل، تم الاتفاق على شرائه، وبشروط البائع، وبالسعر الذي طلبه. كانت عملية شاقة طويلة، أزعجت السلطان كثيراً، وقد

فكر في أن يركب ويسافر فوراً إلى موران، أياً كانت النتائج. إلا أن وصول مشعل، الابن الأكبر، وثلاث من نساء السلطان، غيّر في الموقف. إذ كانت معلومات مشعل وتقديراته أن الأمور بدأت تنضج. والانتظار، رغم كونه صعباً، لمدة شهرين أو ثلاثة شهور، سوف يؤدي إلى تغييرات جوهرية، «ولمصلحة القضية»، كما قال، وهذا التقدير استناداً إلى توصيات مشددة من عدد من الأعمام، أخوة السلطان، وأقرباء آخرين، إضافة إلى رجاء، على شكل توسّل، من كبار قادة الجيش، خاصة الطيران وسلاح الحدود، والذين يعملون ليل نهار من أجل عودة السلطان وعودة الشرعية.

ومبارك الذي كان جلاداً وضحية، وقد أطلق سراحه من الغرفة ٣٣٧ خلال الدقائق الأولى لاقتحام الفندق، لم يعرف كيف يتم التعامل معه، أو إلى أين يجب أن يرسل. قيل انه طلب البقاء في الفندق، إلا أن الإدارة أغلقت الطابق الثالث بمجموعه، لإجراء إصلاحات عاجلة، ولم تجد له، بالمقابل، غرفة في أي من الطوابق السبعة الأخرى، رغم تدهور حالته النفسية، وكان بحاجة إلى الراحة، وتبديل ملابسه، بعد الشيء الذي حصل! وقيل إن البوليس اقترح نقله إلى القصر، أو إلى فندق آخر، لكن ظل الأمر معلقاً أو قيل لا يراد حسمه، انتظاراً لتعليمات لاحقة، إلى أن جاء بديوي المطلق في مساء اليوم ذاته وأخذه بسيارته إلى بون، وقيل إن ذلك تم بعد عدة مكالمات هاتفية!

ونساء السلطان اللواتي جئن إلى بادن بادن: لقد فعلن ذلك بعد أن أبلغن، وبطرق خاصة، أن صحة السلطان خزعل تدهورت، وأنه طلب مجيئهن، وقيل لهن أشياء كثيرة أخرى! كما قيل لمشعل أن وجود مجلي وحده هناك يمكن أن يقطع الطريق عليه، ولذلك لا بدّ من سفره، خاصة أثناء إجراء ترتيبات معينة، في نقل الثروة وتقسيمها، وربما أمور تتعلق بالسلطة، أيضاً.

كان وصول الزوجات الثلاث مفاجأة للسلطان، وكذلك وصول مشعل.

وإذا كانت لكل واحدة من الثلاث اللواتي وصلن ميزة وموقع في قلب السلطان، إلا أن المفاجأة كانت أكبر من أن يستوعبها. ومثلما قيل لمشعل حول شؤون الثروة وولاية العهد ومنافسة الآخرين، فإن لدى الزوجات من الحوافز ما يفوق الرجال، في غالب الأحيان، وهذا ما قيل لهن بكل تأكيد.

طبيعي أن يخلق وصولهن، مع عدد من المرافقين والخدم، وعدد من الحرس أيضاً، مشاكل لها علاقة بالإقامة، وبالآخرين، لكن السفارة كانت موجودة وجاهزة، فقد رتبت، مبكراً، الإقامة بالنسبة للجميع في فنادق خارج المدينة، أو في فيلات تم استئجارها بشكل عاجل. وقد تم اختيارها على مسافات مناسبة، بحيث تمكّن السلطان، لو أراد، أن ينتقل، دون مشقة، وأن تكون من الإتساع بحيث لا يشعر بصعوبة أو حرج لو أراد أن يقضي فيها يوماً أو اثنين!

كاد السلطان يتخوف ويرتاب من مجيء الجميع، إلا أن المعلومات التي وصلت، والعواطف التي حملت هذه الأرهاط على القدوم، جعلته ينسى المصاعب، ويهجس بالاحتمالات، ويغرق في التفكير والحلم.

قال لزيد بعد أن تطامنت العاصفة، وبدأت المشاكل تجد الحلول:

ـ أخطينا يا زيد أنّا تركنا هالقرمبع كله بوجوهنا طول هذي المدة. لو تركناهم يرجعون لديرتهم، لأهلهم وعشيرتهم، كنا استرحنا واستراحوا، لكن البني آدم ما يتعلم.

رد زيد الذي لم يعد قادراً على استيعاب كل ما يجري حوله:

ـ ظني يا طويل العمر، أن الحكيم أبو غزوان، ما هو بعيد عن الشيء اللي صار.

ـ هذا رأيك يا زيد؟

ـ وظني يا طويل العمر أنه مع الألمان، أو وصلته تعليمات موران، وفنر بالخصوص، لأن الخويا اللي جوا من هناك يقولون ابنه، غزوان، يسرح ويمرح!

ـ بدّل، غير، يا ابن الحلال.

ـ هذا اللي سمعته يا طويل العمر، ويلزم أبلغك به.

أما صالح الهلالي فقد شغله تماماً أمر مبارك. هل يمكن أن يكون خدعه؟ هل يحتمل أن تكون مغادرته لبادن بادن نتيجة اضطرار أم حسب ترتيب مع جهة معينة؟

قال للسلطان حين سأله عنه:

ـ . . . والجماعة لما كظّوه، يا طويل العمر. أذُوه. وقالوا لي إن اثنين ضربوه ضرب كفار، وتفلوا بوجهه، وقالوا له: هذا المقدّم، أما المتأخر فالأحسن أن تشوفه بعينك، لا أن تسمعه بإذنك. . .

وبعد قليل، وبهمّ:

ـ والله العليم أنه خاف. قال لروحه: ديار بعيدة وغريبة، وأخاف ما ألقى من يحميني ويدافع عني، والأخير أتوفى، وجاه قريبه لقاه مستوي فجّره مثل ما تنجّر الشعرة من العجين.

قال السلطان، وخرج صوته من أعماق صدره:

ـ الغايب عذره معه، خلنا نستخبر، وبعدها الله كريم.

ثلاثة شهور من السكينة والأحلام بعد الطربقة، وهذه تسمية السلطان نفسه، خيمت على القصر في بادن بادن، وعلى الفيلات التي زارها السلطان خلال تلك الفترة. إذ بالإضافة إلى الأخبار التي وصلت مع القادمين الجدد، وقد استقصاها جلالته بكثير من العناية والدقة، وقارنها بما سمع من قبل، وتأكد، فإن اثنين من إخوته وصلا بالتعاقب، مهيد ومزعل، وأكدا وأقسما، كل بطريقته، ندم فنر على ما حصل، وأنه بعد أن راجع نفسه، وراجعه الأخوة الآخرون، اعترف بخطئه، وأعلن أمامهم ندمه وتوبته، لكن يفضّل أن يتم التراجع عن الخطأ في بحر شهرين أو ثلاثة، «لئلا يشمت بنا الناس، ونطمع العدى» وكتعبير عن هذا التوجه، طلب تأمين راحة السلطان في المصيف، وتوفير كل ما يحتاج، كما طلب من الأولاد والأخوة القيام بزيارته والتماس العفو منه.

كان السلطان يسمع ويهز رأسه، وإن ظل مع الإخوة، وعدداً آخر من الزوار، مغلقاً متحفظاً، أقرب إلى التكتم، لكنه لم يخف استعداده لتناسي الماضي، والبدء من جديد.

السفير الذي استغل وصول الأميرين، مهيد ومزعل، ورافقهما في الزيارة، وقع على رجليّ السلطان يريد أن يقبلهما، طالباً السماح والعفو، إلا أن السلطان قال له بحزم أقرب إلى الخشونة:

ـ أنت يا ابن سحيمان عبد مأمور، ما لك ذنب وما عليك عتب، إلا كابن عرب، لأن مهما صار بيني وبين الجماعة هناك فأنت غريب، وما لك لا ناقة ولا جمل، فيلزم تقول: مرحباً، شلونكم يا جماعة الخير؟ محتاجين شي؟

هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ هذا كان واجبك، ومع ذلك ما يخالف.

وتذرع ابن سحيمان بالسفر والانشغال، ثم أشار إلى الجهود التي بذلها شخصياً مع الألمان، يوم الفندق، وبعد ذلك...

وختم حديثه بتوسل:

ـ ورغم كل اللي صار، يا طويل العمر، أعترف أني مقصّر ومحقوق، وعيب أقول أمامكم، يا طويل العمر، أني ما أنام الليل، وتحركت عليَّ كل الأمراض، وأتمنى اليوم اللي استعفي وأخلص، لكن ما هو كل ما يتمناه المرء يدركه.

وكتعبير عن حسن النيّة، والتوجّه الجديد، استبقى السفير سيارته الرسمية في قصر بادن بادن، وسأل زيد الهريدي، بصوت عالٍ، يريد أن يسمعه السلطان، عن عدد السيارات التي تكفي لاستعمالات القصر وضيوفه، وما إذا يفضلون غير السيارات الألمانية. وسأل عن أية حاجات أو خدمات تستطيع أن تقدمها السفارة. وزيد الذي تطلع إلى السلطان، ولم يجب، تولى الإجابة نيابة عن مجلي، لكن بدعابة، قال:

ـ سبحان مبدّل الأحوال...

قال السلطان ليقطع الطريق على أي احتكاك:

ـ يظل ابن سحيمان يرده حليبه، ما هو مثل الناس اللي ياكلون وينكرون...

وكاد يغضب، حين تذكّر الكثيرين، لكنه أحجم، خوف أن يفشي ما انتواه بأن لا يظهر عليه إلاّ التسامح والرضا، إلى أن يعود، فإذا وصل إلى موران، إلى ما كانه في الماضي، فإن الروس اللي راح تطير، والجماعة اللي راح يجيفون بالحبوس لهم أول وما لهم تالي: كل ابن حرام ساعد فنر؛ كل من أيده؛ كل من قال له: العوافي، وزين ما سويت، راح يصير أثر بعد عين». هكذا كان يقول السلطان لنفسه، في بعض اللحظات. وقال شيئاً مشابهاً لعدلة ولمجلي، لكن كلامه كان عاماً، لم يحدد اسماً ولم

يحدد وقتاً. الآن في مواجهة ابن سحيمان لا بدّ أن يبقى كبيراً، فالسفير، في النهاية، لا يتجاوز الموظف الذي يبلّغ رؤساءه كلّ شيء، كجزء من الوظيفة وكتعبير عن الولاء.

مرت هذه الأفكار في رأسه، تابع وكأنه يخاطب نفسه:

ـ ومع ذلك، لكل حصان كبوة، ولكل سيف نبوة...

وضحك بصوت عالٍ. التفت إلى الذين حوله، وقال بفخامة:

ـ وهذي مورانا صغيّرة يا جماعة الخير، ومهما حاول الواحد أن يغيّر أصله، أو يلبس هدوم غيره، ترى ما يخفى. إذا ما بيّن أول يوم، ينكشف بالثاني، وبعدها ما يقدر يرفع راسه، ولا يقدر يناظر الناس.

قال ابن سحيمان لينهي الموضوع:

ـ أهل السماح ملاح، وجل من لا يخطئ.

قال شايع السحيمي الذي ظل ساكتاً، على غير عادته، طوال الوقت:

ـ الغلط بالميزان موجود، والخطأ بالحسب مردود، بس غلط اللسان أبد ما ينسي، والقلب إذا زاغ وانحرف أبد ما يعود مثل ما كان.

رد السلطان بمكر:

ـ يا أبو عاهد، يلزمك تعرف: حتى عليه الصلاة والسلام قال: «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور»، إلى أن مات، أو بالصحيح إلى أن قُتِل عمه حمزة، فما حمل ولا قدر، فقال: «ألا فزوروها».

وتلفت السلطان في الوجوه ليرى وقع كلماته، فلما وجد موافقة وقبولاً أضاف:

ـ العصمة ما تكون إلا لنبيّ، وجلّ من لا يخطئ.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فإن موظفاً من الخارجية زار القصر، ولم يكن زيد متأكداً إذا كان هو الموظف ذاته الذي جاء قبل بضعة شهور أم غيره، لكن ما قاله في توضيح الإجراءات التي اتخذت، تعتبر بمثابة اعتذار، أو هذا ما فسره زيد والهلالي معاً، وكان العنجري مترجماً. أما

العنجري فقد فهم من الزيارة شيئاً آخر: كانت الخارجية الألمانية تريد أن تعرف إلى متى سيبقى السلطان، وعدد المرافقين، وما إذا جلالته يطلب اللجوء السياسي. وأكد أن كل شيء قابل للبحث والدراسة على ضوء القوانين الألمانية. رد زيد بأن الجميع سيلتزمون بالنظام والقوانين، «وأن كل شيء سيكون حسب رغبة الألمان» والسفارة مفوضة بالأمر، واعتبر الزيارة اعتذاراً، وقد وافقه الهلالي، الذي قال معلقاً على هذه الزيارة:

ـ لما زرناهم: لا هلا ولا مرحبا، وكأنهم ما يعرفون الناس. أما هالحين فوصلونا على رجليهم، وما هو بس كذا: سألوا وعرفوا، وقالوا: نصلهم قبل ما يأخذون على خاطرهم، فالله يكثّر خيرهم وعفا الله عما مضى.

حتى هانس أورلخت لم يعد يفارق خلال هذه الفترة، لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد جاء مرتين بصحبة المحامي. صحيح أنه في إحدى المرتين لم يكن من السهل إجراء أية محادثات، لأن المترجم، وكان ابن سلطان الفهيد، ولم تمض على إقامته في ألمانيا سوى ثلاث سنين، لم يكن «يعرف المصطلحات القانونية والاقتصادية»، كما أوضح في تعليل عدم استمرار الترجمة بخصوص شراء القصر الثاني للسلطان، في شمال ألمانيا، عدا عن الأرقام التي حُدّدت ثمناً للقصر، وقد كتبها هانس بأرقام كبيرة، بحيث أن الهلالي، الذي قضى سنة ونصفاً في الولايات المتحدة، بدورة تدريبية، عرفها وهمس لزيد يبلغه عن ثمن القصر! أمّا الزيارات الأخرى، خاصة بعد أن فرض زيد على العنجري الإقامة في القصر، «للضرورة» ثم «لأمر سام من السلطان» فقد كانت أسهل، وتم الوصول إلى نتائج بشأن القضايا التّي كانت تطرح.

كتب يونس شاهين في يومياته عن تلك الفترة: «. . . ولم ينس عظمة السلطان، رغم كثرة مشاغله، تقصي أدق التفاصيل المتعلقة بأخيه المعزول. كان يتصل بالسفارة ببون يومياً، ويتحدث مطولاً مع السفير والملحق العسكري؛ وكان أيضاً يتلقى تقارير ضافية من بعض مرافقي

السلطان المخلوع، وكانت هذه التقارير تصل عبر قنوات متعددة.

«إن اهتمام السلطان ومتابعته بسبب الدقة، والظروف الخاصة المحيطة بعملية العزل، إذ كان يخشى رد الفعل، خاصة من قبل رجال القبائل والمشايخ، إضافة إلى أفراد العائلة السلطانية.

«أما عندما أبلغ جلالته الأمير مجحم أن الدكتور محملجي أصبح ثانوياً فلم يصدق. بدا فرحاً مثل طفل، وقال كلمة لا بدّ من تسجيلها: يجب أن يغادر، أن لا يبقى إلى جانبه، لأن معظم الآخرين لا يستطيعون شيئاً إذا غاب.

«أما بعد أن غادر نهائياً، وبعد أن طلّق السلطان ابنته، فقد قال كلمة انتشرت بين رجال الحاشية، قال جلالته: «النصف الصعب انتهى، أما النصف السهل فهذا الزمن كفيل به». ولذلك أوعز إلى عدد من الأخوة، وإلى السفارة في بون، وإلى أصدقاء السلطان المخلوع، أن يجعلوه يعيش على الأمل، على الوعود، فترة بعد أخرى، فإذا انقضت شهور يصبح خبراً بعد أثر...».

أول صدمة وقعت حين صدرت عن السلطات الألمانية إشارة أن «الهلالي شخص غير مرغوب فيه بألمانيا» جاء هذا البلاغ عن طريق هانس أورلخت، وقد نقله لزيد، استناداً إلى أقول المحامي، الذي بلّغ عن طريق السلطات المحلية، بعد انتهاء التحقيق بموضوع الفندق، والسلاح غير المرخص الذي عثر عليه لدى عدد من الموقوفين، فقد اعترف الكثيرون «أنه سُلّم إليهم من قبل صالح الهلالي». وزيد الذي فوجئ وارتبك، لم يعرف هل يلجأ إلى السفارة لمعالجة الموضوع أو إلى السلطان، وظل حائراً ثلاثة أيام، باعتبار أن ابن السحيمان غادر إلى فرانكفورت لحضور معرض زراعي. أما حين جاء مفوض من قبل المحكمة، لإبلاغ صالح الهلالي ضرورة مثوله أمام قاضي التحقيق للرد على التهم المنسوبة إليه، فقد كان رد القصر، وتم الاتفاق على الرد بين زيد والهلالي، «أنه غير موجود حالياً ويجب الانتظار».

لو أن الأمر اقتصر على مجرد استدعاء الهلالي لوجد له حل بالاتفاق مع هانس والمحامي. لكنه تجاوز ذلك إلى ضرورة تقديم صور شمسية لجميع النساء المرافقات للسلطان، بدءاً من عدلة وانتهاء بأصغر خادمة.

لقد أثار هذا الأمر قلقاً حقيقياً. فالنساء اللواتي وصلن إلى ألمانيا، وصلن بجوازات لا تحمل أية صور فوتوغرافية، إذ كتب مكان الصورة: «سيدة محجبة» ووافقت سلطات المطار والحدود على استقبال هاته النسوة، فما معنى أن تطلب صورهن الآن؟

اتصل زيد عدة مرات بالسفارة لمعالجة الأمر، فكان رد نائب القنصل، بديوي المطلق، «أن الصور ضرورية، وليس هناك بديل عنها: لا صور الأزواج، ولا صور الأخوة، والغريب أن السلطات الألمانية تساهلت في دخول النسوة دون صور فوتوغرافية».

ماذا يستطيع أن يفعل زيد؟ وما هو رد فعل السلطان، خاصة في مثل هذه الظروف؟ وماذا لو امتنع عن التجاوب مع السلطات الألمانية والاستجابة لمثل هذا الطلب؟

قال زيد لهانس، عن طريق المترجم:

ـ . . . ويلزمهم يعرفون: حريمنا كذا، وحنا راضين.

فأكد له هانس أن أمراً كهذا لا يمكن أن تسمح به ألمانيا، ولا بدّ من الاستجابة إلى مثل هذا الطلب العادي والمشروع. وحين يؤكد له زيد استحالة الأمر، يسأله، أو يتساءل: كيف يفسر إذن أن بنات السلطان وزوجاته ينزلن إلى الأسواق بوجوه سافرة؟ وكيف أن نزلاء الفندق يلتقون بهن في المقهى والمطعم، وفي برك السباحة أيضاً، ولا يشكل ذلك حرجاً بالنسبة لهن، ويمتنعن في نفس الوقت عن تقديم مجرد صور للوجه؟

والسلطات الألمانية إذا كانت تتساهل فإنها لا تنسى.

قال المحامي الذي جاء إلى القصر مع هانس، وكان العنجري يترجم:

ـ . . . ولا بدّ أن يعرف صاحب الجلالة، وجميع مساعديه، أن المحامي لا يستطيع أي شيء، إذا لم يتعاون معه موكله. . .

وحين بدا كلامه، رغم بداهته، غير مفهوم، أضاف بحزم:

ـ الأفضل لصاحب الجلالة، ولجميع المرافقين، أن يتعاونوا مع السلطات، لأن هذه السلطات تعرف كل شيء.

وخفّض المحامي صوته، وكأنه يبوح بسرّ إلى المترجم، فأكّد أن السلطات الألمانية تعرف بوجود صالح الهلالي، وبسهرات عدد من نساء القصر، وعلى صلة بموضوعات أخرى...

قال الكلمات الأخيرة وابتسم، وبعد أن هزّ رأسه عدة مرات أضاف:

ـ لا حاجة لأن تذهب كل مسألة إلى المحاكم، وأن يصدر بشأنها حكم، لأنها إذا وصلت إلى المحاكم تنتشر، ويمكن أن تضر بسمعة السلطان، وقد تصل إلى موران، إلى الطرف الآخر، أيضاً!

الأمور التي كان يراد إخفاؤها عن السلطان، كانت تصله قبل غيرها. إذا لم يسأل عنها بنفسه، خاصة بعد أن أصبح يقضي ساعات طويلة في «المنظرة»، وهي عبارة عن غرفة نصف دائرية تشكل بروزاً في القصر، وتشبه برج المراقبة في قلاع القصور الوسطى. كان من هناك يرى الداخلين إلى القصر والخارجين منه، فإذا جاء غريب، أو رأى شيئاً غير عادي، فلا بدّ أن يسأل عنه، اللهم إلا إذا شغله أمر آخر. أما الأشياء التي لا ترى مباشرة فهناك الخدم والنساء، ثم زيد أو أحد المرافقين، لا بدّ أن ينقله إليه، حتى من خلال الصمت، أو تبدل الملامح واختلاف السلوك.

حين يطول صمت زيد، أو تضطرب حركاته، يدرك السلطان أن وراءه شيئاً يريد أن يقوله، فيسأله بسخرية:

ـ لما كان خوينا موجود، ويصم حلقه ويسكت، كنت تقول: سبت. وهالحين أشوفك أنت السابت؛ وراك سالفه؟

وبعد تردد، وفي محاولة غير جادة للهروب، يعترف زيد، يقول كل ما عنده.

حين طُلبت الصور الشمسية، واحتار زيد بأمرها بعد أن تلقى ذلك الجواب من بديوي المطلق، لم يجد مفراً من مفاتحة السلطان.

صمت السلطان، أطرق مفكراً، حتى ظن زيد أن ليس لديه ما يقوله حول الموضوع، وكاد يبحث موضوعاً آخر، إلى أن جاء الصوت المثقل والمستسلم:

ـ إذا كان هذا طلبهم ما يخالف، وأنت تعرف: الضيف أسير المعزّب!

وبعد مناقشات تفصيلية تم الاتفاق على إحضار مصوّر إلى القصر، لكي يقوم بتصوير النساء.

إنه يوم مشهود من أيام قصر بادن بادن، إذ بعد أن تعذر العثور على ذلك المصور الذي ينتقل بكمراته وأدواته إلى القصر، جيء بواحد من شتوتغارت. جاء به هانس. كان مسناً، أبيض الشعر، وكأنه أفلت بأعجوبة من القرن السابق، ولم يفطن أحد إليه وهو يتسلل خلسة إلى هذا القرن. كان قصيراً، وفي رجله اليسرى عرج خفيف يحاول إخفاءه من خلال الحذاء الخاص الذي صنعه لهذه القدم.

لم يبقَ أحد إلا وانشغل، بشكل ما، بهذا الرجل وأدواته. حتى السلطان الذي راقب جزءاً من المشهد من «المنظرة» وبدا له طريفاً، من خلال حركاته، وتجمُّع الصغار والكبار حوله، وقد نصب آلاته في الحديقة، وكان مثل الساحر يدخل في غرفة الحرس لكي يهيّئ أفلامه، ثم يُدخل رأسه في الكيس الأسود، وبعد أن يطمئن، ولكي لا يضطر لإعادة الصورة، بدأ بالكبار، لكن التجارب الأولى كانت فاشلة تماماً، لأن الحركات والأصوات التي تصدر عن الآخرين، تجعل الجالس للتصوير يلتفت، يضحك، يغيّر في وضعيته، مما اضطر زيد للتدخل عدة مرات.

في مرحلة لاحقة نزل السلطان. كان في ثوب منزلي أبيض بسيط، ورغم أن هانس ملأ رأس المصور، خلال الرحلة من شتوتغارت إلى بادن بادن، بأهمية الشخصيات التي سيقوم بتصويرها، واستجاب المصور لانفعالات هانس، فذكر أنه قام بتصوير عدد كبير من الأشخاص المهمين، وأنه يحتفظ بهذه الصور ويفخر بها، فقد كان خلال الفترة الأولى لوصوله إلى القصر متهيباً، أقرب إلى الخوف، لكن حين بدأت أفواج الصغار

والكبار تتقاطر، لم يصدق عينيه، تساءل أي نوع من الأسر المالكة هذه؟ ولماذا يبدو أفرادها هكذا، وهل هم حقيقة مثلما ذكر هانس؟

وشيئاً فشيئاً بدأ يألف الوجوه والملابس. وحين بدأ بتصوير الصغار، ولكي يثبّت أنظارهم على فتحة الكاميرا، بدأ يشير إلى العدسة، إلى أن قال العنجري لأحد الصغار: «عصفور.. عصفور، ناظر هنا وراح تشوف العصفور» وبعد أن ثبت الصغير عينيه حيث أشار العنجري، اعتبرت هذه الطريقة وحدها الكفيلة بالتقاط صور مناسبة، وهكذا أخذ يلتفت المصور إلى العنجري، ويقول له: «آسور... آسور»، مع كل صورة جديدة!

عندما بدأ يلتقط صور النساء، طُلب من الحرس أن يبتعدوا، لكن أفراد الأسرة والمقربين كانوا وحدهم كافين لإفشال عشرات الصور. مجرد أن يضع المصور يده على كتف، أو يعدل خد سيدة من السيدات، حتى يبدأ الضحك والتعليقات، وبعض الأحيان الصفير. أما حين وضع يديه على ساقي روفة لكي يعدل جلستها على الكرسي، فقد بلغت الفوضى ذروتها. وفي تلك الأثناء، وصل السلطان، ورغم أن الكثيرين شديدو التحفظ، وحتى الخوف، بحضوره، إلا أن تعليقات روفة البذيئة وشتائمها «على هذا المقرود المفرود» لم تترك أحداً إلا وضحك وقهقهه، بمن فيهم السلطان، وكذلك الحرس أيضاً، فقد ظل المصور مشوقاً لرؤية الملك الكبير، وحين أشار هانس، ببعض التحفظ، للرجل الطويل ذي الثوب الأبيض، رد عليه المصور:

ـ يمكن أن تقول هذا الكلام لمصور مبتدئ، وليس لواحد مثلي يمتلئ بيته بصور كبار الشخصيات التاريخية!

إنه يوم حافل ظل الكثيرون، بل الجميع، يتذكرونه، حتى بعد المآسي التي وقعت في وقت لاحق.

وإذا كان التقاط الصور السبب لاجتماع هذا العدد من أفراد الأسرة، الكبار والصغار، إضافة إلى الخدم والمرافقين، فإن مجرد اجتماعهم، وقد اعتبره السلطان مناسبة لتصفية القلوب، فإن الابتسامات التي تبادلها الجميع

فيما بينهم، أو أمام الكاميرا أو حولها، لم تخف الأحقاد والضغائن. وما لم يقله السادة قاله الخدم، والشيء الذي لم يقُل أثناء اللقاء قيل بعده.

فعدلة التي كانت مضيفة عذبة، وهي تنتقل بين أجنحة القصر وردهاته، توزع ابتساماتها ولطفها على الكثيرين، لأنها في بيتها وواثقة تماماً، بعد أن قضت على آخر المنافسات، ولم تتردد في أن تظهر مكشوفة الوجه، كما لم يعترض السلطان، خاصة بعد أن قالت روفة بصوت عالٍ، ولم يبق أحد إلا وسمع:

ـ إذا الكفار شافونا فارعات دارعات فأهل دينا أولى!

وفي هذه الزيارة، التي لم تستغرق سوى يوم واحد، قارنت كل زوجة من زوجات السلطان وضعها بوضع عدلة، هنا وهناك، وفعلت ذلك كل خادمة، وبتدقيق أكبر، لكي تنقل لسيدتها، فيما بعد، ما لم تره السيدة، ولكي تسرّ إليها أيضاً بأحاديث كثيرة ومتنوعة سمعتها من الخادمات والماشطات.

تمنت كل واحدة من زوجات السلطان في أن تكون الأجمل والأرق والأقرب إلى القلب، وإذا كان لموران قانونها الخفي، حيث تعرف كل واحدة ليلتها ودورها ومتى يشتهي زيارتها السلطان، خلافاً للمواعيد، «فهذه البلاد القشرة مقطع، وما يقدر أحد يحصل منها لا خير ولا شر» ولذلك انهارت الهدنة، لتبدأ الحرب من جديد. صحيح أنها، هنا، من بعيد، على شكل غارات، وحين تحين الفرص، لكنها بدأت تؤثر. إذا ما يكاد السلطان يصل واحدة من الثلاث اللواتي وصلن، حتى تطبق عليه كالعنكبوت. كان السلطان، في أحيان كثيرة، يستجيب، يستسلم، لأنه يفضل أن يبقى حيث هو، ويفضل أكثر من ذلك أن ينسى ويغيب.

ولأن الظرف استثنائي إلى أقصى حد، ورغم التكتم، فقد كانت كل واحدة قادرة على استخراجه من مخبئه: الأخبار الجديدة، رسائل عاجلة، أسرار لا تقال إلا لطويل العمر.

عدلة التي كانت واثقة ما لبثت أن اهتزت ثقتها. أما مجلي الذي كان

يخطط لغزو موران، وبحث عن عدة مشاريع مع أبيه لاقتحام الحدود، فبدأ يجد أباه أقل استعداداً لأحاديث من هذا النوع. عزا الأمر، في البداية، إلى الأخبار الجديدة التي حملها مشعل والذين جاءوا، وعزاها في وقت لاحق إلى وعود مهيد ومزعل، لكن في وقت متأخر اكتشف أن نسوة أبيه الثلاث لا يقلّن عن القوى الأخرى الكثيرة المتربصة!

ولأن مجلي هو آمر الصرف، والثروة، أو القسم الأكبر منها، بين يديه، فقد بدأ يستخدمها كوسيلة ضغط. بدأ يعطي ويمنع، وإذا لم يمنع تماماً، لا يعطي ما هو المطلوب، أو في الوقت المناسب.

والنساء ومن معهن من الأقرباء والخدم، إذا كانوا قادرين على التحمل والصبر هناك، فإنهم هنا طيور مقصوصة الأجنحة، سمك أخرج من الماء، ولذلك فإن أصغر القضايا، بما في ذلك بنزين السيارة، أصبح يصل إلى السلطان، ويفترض فيه أن يعالجه، ومجلي الذي يلقي اللوم على المساعدين، وعلى عطلة البنوك الطويلة، ولغياب المترجمين، يعطي من جديد، «ومن مصروفه» كما يقول. لكن لا تكاد تنتهي مشكلة حتى تبدأ أخرى. وفي الغربة، ومهما كانت المشكلة صغيرة، فإنها تصبح هماً ثقيلاً، لا يمكن أن تُنسى أو أن تُؤجّل!

زيد الذي كان يستطيع أن يفعل أي شيء هناك، وتجرأ وجلد عدداً من نزلاء الفندق في باحة القصر، هنا، وبدا واثقاً حين أجبر الحكيم على الرحيل، وجد نفسه، فجأة، غير قادر على التصرف أو التقرير. قال لصالح الهلالي:

ـ صدري ضاق بهالديزة القشرة يا صالح: لا لقمة هنية ولا نومة رضية، وما هو بس كذا، روسنا مطلوبة، إذا ما هو من جماعتنا العربان، فمن أولاد الحرام الألمان، فما تقول لي شلون راح نخلص؟

وصالح الذي كان كالديك خلال الفترة السابقة، أصبح في المرحلة الجديدة ضائعاً خائفاً، فهو لا يريد أن يُسلّم إلى موران، مهما كانت الظروف، لأن فنر إذا نسي أحداً، أو عفا عن أحد، فلن يكون، أبداً،

صالح الهلالي واحداً ممن ينساهم أو يعفو عنهم، لأنه نقل لحماد المطوع ثلاث مرات ما سمعه من قطمة، خادمة موضي، وكانت تربطه بها علاقة قرابة، وقيل إنه كان يريد أن يتزوجها لولا اعترض الأمير فنر. الآن، وقد أصبح حماد اليد اليمنى لفنر، ويتذكر ما قاله عن محاولة اغتيال السلطان خزعل، وكان ضمن الذين اشتركوا في المحاولة ثلاثة من رجال فنر، فلا بد أن يدفع الثمن، ولا بد أن يتذكره أحد الأطراف الثلاثة: فنر، أو حماد، أو أولئك الذين قضوا سنوات في السجن بهذه التهمة.

قال صالح الهلالي بيأس:

ـ مهما قلنا عن الجماعة هنا، يا أبو راشد، يظلوا أرحم من جماعتنا.

ـ وإذا كظّوك وسفّروك يا صالح؟

ـ أرمي نفسي من الطيارة، وبيدي لا بيدك يا عمرو، لان الموتة عن طريقهم ما تنراد، يا أبو راشد.

ـ من رأيي يا صالح أن تقول لطويل العمر: نريد أهلنا أو يلقي لنا بنت حلال من هنا من هنا!

ـ ويا ولّ حنا الخوف قطّع ركبنا، وأنت تريد تعرّس؟

ـ ما ينسّي الخوف، يا صالح، إلا العرس..

وبعد قليل وهو يضحك:

ـ وما تشوف طويل العمر نسي كل شيء، وما تلقاه هالحين إلا يحوّس من واحدة للثانية؟

ـ يا ابن الحلال خلنا، هالحين، بهمنا، وعسى أن الله ينسّي الألمان، ويخلّصنا.

بعد يوم من هذا الحديث اتصل السكرتير الأول من سفارة السلطنة بصالح الهلالي، وأبلغه أن السفارة تلقت مذكرة تطلب تسليم صالح، للمثول أمام قاضي التحقيق، والإجابة عن التهم الموجهة إليه. كان السكرتير مؤدباً، لكنه دون عواطف، أو هذا ما قدره صالح. وحين بدأ

يناقشه فيما إذا كانت هناك حلول أخرى، وماذا يترتب على نتائج التحقيق قال السكرتير ببرودة وحياد:

- إذا ثبتت التهمة فالنتيجة أحد أمرين: السجن أو التسفير.

رد صالح بتوسل:

- غيّر، بدّل، يا ابن الحلال...

وكاد يتابع، إلا أن الرد جاء سريعاً:

- فكّر بالموضوع، وحنا نفكر، ونتصل بك باكر أو اللي عقبه، ونتدانش.

قال شايع السحيمي لصالح الذي جاءه متوسلاً طالباً مساعدته:

- بردان طاح على متلحف ردونه.

وضحك بسخرية وتابع

- لو كنا بموران، يا صالح، كان حميتك ببطن عيني، لكن هنا مثل ما تشوف: العين بصيرة واليد قصيرة، فخلنا نشوف طويل العمر ونسولفه، وناخذ رأيه، يجوز أنه يدز ورا ابن سحيمان ويكلّفه ويقول له.

في اليوم التالي كانت الفتوى عند العنجري، المترجم. قال لصالح:

- ... وحسب القوانين الألمانية، فإن قصر صاحب الجلالة السلطان، جزء من أرض السلطنة، ولا يمكن لأية قوة أن تقتحمه عنوة، أو تلقي القبض على أي فرد ما دام في رحاب القصر، لأن هذا مخالف للقوانين الدولية والأعراف الدستورية والحصانة الدبلوماسية...

وكاد يتابع، إلا أن شايع السحيمي رد بسخرية:

- يا وليدي على مهلك، فهذا الكلام إذا ينقال با لمدارس، أو ينكتب بالجرايد، أو إذا علموكم كذا، أو قريته بكتاب، فانساه، وخلنا ندور درب ثاني.

وفي نفس اليوم أيضاً اتصل السكرتير الأول. كان أكثر وداً من الأمس، وبعد ما سأل صالح إذا توصل إلى حل، قال له إن لديه صديقاً

يريد أن يكلمه. كان في الظرف الآخر مبارك المونيع!

من خلال كلمات متباعدة، لكن لا ينقصها الوضوح، أبلغه «قضيته رغم صعوبتها ودقتها، فالأخوان قادرون على المساعدة» وأبلغه أيضاً أن قريبه، بديوي، يمكن أن يكون بتصرفه ويأتيه إلى بادن بادن.

كان صالح الهلالي ممتناً وشاكراً إلى أقصى حد. قال كلمات كبيرة، ربما لا يعنيها، لكن أفلتت منه هكذا، تعبيراً عن الفرح. وتم الاتفاق على اتصال لاحق خلال بضعة أيام «وإلى أن يرتبوا الجماعة كل شيء ويضطبوها زين».

ومثل أمطار الصيف التي تأتي فجأة وعلى غير توقع، استيقظ القصر على مفاجأة كادت تهد أركانه:

فالسلطان الذي بقي ممسكاً بورقة أساسية، يمكن أن يستعملها في اللحظة الأخيرة، وفي الوقت الذي لا يجد حلاً آخر، اكتشف، فجأة، أنه فقد هذه الورقة.

فالطائرة الخاصة التي أقلته من موران، والتي كانت جاثمة في مطار شتوتغارت، لم تغادره، إلا في جولات قصيرة فوق المطار وحوله، وكان يعتبرها مثل فرسه أو ناقته، يمكن أن يمتطيها عندما تضيق به الأمور ويهبط في موران، أبلغ السلطان أن الطائرة لم تغادر المطار فقط وإنما وصلت إلى موران أيضاً. ولقد غادر على متنها، بالإضافة إلى ملاحيها، عدد من نزلاء الفندق، وكان ضمنهم مبارك المونيع.

قيل ان الخبر كتم عن السلطان ثلاثة أيام. ورفض كل من مشعل ومجلي أن يقوم أي منهما بإبلاغه، رغم توسلات زيد والهلالي. وقيل ان مجلي أبلغ أمه في اليوم الثالث لتقوم هي بنقل الخبر للسلطان، فكان رد عدلة:

ـ إذا الملك كله طار، وما حيكت ولا شكيت، هالحين تريد مني يا وليدي أقول له: والطيارة طارت بعد؟

وظهرت على وجهها علامات الحزن والاستغراب.

بعد أن تركها مجلي حائراً، قالت لروفة:

ـ روفة، يا مسخّمة، يقولون الطيارة طارت...

ـ الطيارة طارت؟

ـ ووصلت موران.

ـ وبعد؟

ـ ما أدري!

ـ وأنا ما أدري يا عمتي!

وبعد فترة صمت، سألت عدلة من جديد:

ـ نقول له أو ما نقول؟

ـ شنهو يا عمتي؟

ـ الطيارة طارت ووصلت موران.

ـ إذا طارت ووصلت سلامات فهذي بشارة يا عمتي.

ـ ونبشر طويل العمر؟

ـ وليش ما نبشره ونقول له: الطيارة طارت ووصلت موران بالخير والسلامة؟

ـ الله لا يسلّم عظمك يا بنت الحرام!

وبعد أن فهمت روفة، وبصعوبة، أن الطائرة التي كانت تنتظر السلطان، غادرت، قالت وكأنها تكلم نفسها:

ـ أثاري الطيارات مثل الأباعر تهجّ إذا عافت، فالله يسترنا بعد هجيجها.

وبعد قليل:

ـ من رأيي، يا عمتي، ما دام أنّا ما شفنا، ما نحكي ولا نقول!

وهكذا قررت عدلة أن لا تقوم بمهمة إبلاغ السلطان.

قيل إن زيد، وهو يبلغ السلطان، كان يرتجف. وأكد الساقي وواحد

من الحرس أن السلطان حين سمع بالخبر تهدل فكاه وكاد يقع. وبعد أن استوضح واستوعب ما حصل هاج مثل ثور، وأكد الاثنان أنه لطم زيد وصرخ في وجهه:

ـ أغرب عن وجهي يا غراب البين!

وأسرّت عدلة لمجلي في اليوم التالي أن السلطان أغلق على نفسه الجناح، ورفض الأكل، ورفض استقبال أحد، رغم جميع المحاولات التي بذلتها. وقد سمعت، خلال الليل المتأخر، بكاءه أقرب إلى النشيج، وأظهرت ندمها لأنها لم تقدّر أن الأمر مهم إلى هذه الدرجة، وإلا لحاولت إبلاغه بنفسها، ولوجدت الطريقة المناسبة.

استمر الأمر هكذا حتى عصر اليوم التالي. وخلال ذلك بُذلت محاولات عديدة، شارك فيها الكثيرون. تناوب على باب الجناح عدلة ومجلي ومشعل، وشارك شايع والهلالي، واشتركت روفة أيضاً، وبالتوسل والرجاء، وبحرق البخور ورش الماء، وبقراءة بعض الأدعية التي تطرد الجن والعفاريت، وافق السلطان أخيراً على فتح الباب.

قالت غزيلة، المتخصصة بتفريك رجلي السلطان، أنها أنكرته تماماً حين رأته. كان شاحباً إلى درجة المرض، وكان يستند إلى حافة الباب لكي لا يقع. وأكدت أنه ظل واقفاً هكذا وقتاً غير قصير، لا يتقدم ولا يفسح المجال لدخول الذين يقفون في وجه الباب، وظل صامتاً أيضاً، لا يجيب عن الأسئلة التي توجّه إليه.

وأيدت زينة، الماشطة، ما قالته غزيلة، وأضافت أن السلطان كان يبكي بصمت، وكان الذين يقفون حوله يبكون. فعلوا ذلك دون إرادة، ولم يستطيعوا منع أنفسهم من النشيج في بعض اللحظات، إلى أن مشوا جميعهم إلى القاعة الكبيرة في الطابق العلوي، وهناك غرقوا في الصمت. وأكدت أنهم ظلوا كذلك حتى بعد أن هبط الظلام، ولم يجد أحدهم لديه الرغبة أو الإرادة لإشعال النور.

شايع أسرّ لصالح الهلالي في اليوم التالي أن السلطان لم يفتح الباب نتيجة إلحاح الذين يدقون ويتوسلون، وليس بفعل الأدعية والبخور، وإنما «لأن ما عنده من بول إبليس خلص، ففتحه ولقانا بوجهه. ويجوز، إذا الله ما كذبني، أن الجوع قتله، وراد شي يتبلغ به».

أما كيف سارت الأمور بعد ذلك، فإنها تشبه إلى حد كبير ما حصل بعد أن بلغه نبأ العزل. اعتكف في جناحه الخاص، لا يراه ولا يزوره إلا خاصته، لم يغادر الجناح إلى الحديقة أو المنظرة إلا بعد أسابيع. وكان أغلب الوقت صامتاً مطرقاً.

ومثلما تصرفت السفارة في المرة السابقة، ومثلما تصرف السفير، حصل هذه المرة أيضاً. فالسفارة التي أبدت استغرابها لما حصل، وأسفها، عندما اتصل زيد بالسكرتير الأول، نظراً لوجود السفير في موران، لأنه استدعي للتشاور، ولا يعرف وقت عودته، فإنها التزمت الصمت والتجاهل. أما حين وصلت صحف موران، وفي أحد أعدادها مقابلة طويلة مع قائد الطائرة ومساعديه، فقد انفعل مجلي إلى أقصى حد، فشتم وهدد، وأحس «أن المؤامرة مستمرة»، كما قال لمشعل ولزيد الهلالي، واتفقوا ألا يطلع السلطان على هذه المقابلة، وألا يرد ذكر لها أبداً!

وغرق قصر بادن بادن، وغرقت الفيلات الثلاث، في الصمت.

مـن جملة الأمور التي أعقبت الزيارتين اللتين قام بهماالأميران مهيد ومزعل، وكتعبير عن المودة تجاه السلطان خزعل، وربما نتيجة الأحاديث العرضية التي تطرق إليها الأخوة، فقد وصلت إلى بادن بادن كوكبة من الخيول العربية الأصيلة: اثنان هدية من فنر، واثنان هدية من مهيد ومزعل، وثلاثة من إسطبل قصر الخالدية، وقد ذكرهم السلطان خزعل بالاسم أثناء الزيارة، وأشاد بمزايا هذه الخيول وشوقه إليها.

وصلت الخيول بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من زيارة مهيد، لكن الإجراءات الصحية والحجر أخرت وصولها إلى القصر، وربما كان هذا التأخير عاملاً إيجابياً، إذ أتاح الفرصة الكافية لإعداد مكان لاستقبالها، والاتفاق مع أحد السواس المشهورين في جنوب ألمانيا للإشراف عليها، خاصة في الفترة الأولى، ريثما تتكيف مع الجو الجديد، وإلى حين تسمية واحد أو اثنين من الحرس للعناية بها.

لم يكن تأخر وصولها إذن إلى القصر ليسبب إزعاجاً للسلطان، الأمر الذي لا يمكن التسامح فيه أو قبوله، لولا الحالة النفسية المسيطرة، إذ بالإضافة إلى الآمال الكبيرة التي أعقبت الزيارة، والأخبار التي جاءت مع القادمين الجدد، فإن السلطان كان بشوق إلى زوجاته وأبنائه، وقد شغله هؤلاء خلال الفترة التي تم فيها إعداد الإسطبل. كما لمس أيضاً مقدار المودة والندم معاً في سلوك فنر. صحيح أنه لن يغفر له، ولن يتهاون في محاسبة كل من له علاقة، لكن سيأتي يوم، سيأتي بالتأكيد، يتصالح الأخوة، وتعود المياه إلى مجاريها، كما يقولون، بعد أن يتم التراجع

والاعتذار، وبعد أن ينزل العقاب بالمستشارين ورفاق السوء الذين أغروا فنر بأن يعمل ما عمل.

كان يوم وصول الخيول إلى القصر مشهوداً وجليلاً: فالسلطان ذاته كان في استقبالها، وكاد بعض الحرس يطلق النار حين امتطى جلالته غصن البان، وهو واحد من الخيول التي يعتز بها السلطان، وكثيراً ما جرّ الحديث نحو الخيل، لكي يتاح له، وللمقربين منه، التحدث عن غصن البان بشكل خاص. كاد الحرس يطلقون النار، لولا الصرخة الزاجرة من زيد، ثم التنبيهات المشددة من صالح الهلالي. قال لهم صالح بحزن وحزم معاً:

- إحرصوا، فالطلايب الموجودة بيننا وبين الألمان تكفي وزود، ومانريد دوشه ووجع راس.

أما حين تفقد جلالته كل واحد من الخيول، وقد فعل ذلك بعناية لافتة للنظر، فلم يبق أحد إلا وتأكد من معرفته أولاً، ومن تعلقه بها، بعد ذلك.

ومع أن الخيول الأصيلة لا تخفي نفسها ولا تخفى، فقد تأكد السلطان من هيئاتها، وجمالها، وحتى من أعمارها، إذ فتح أفواهها، وتطلع بإمعان، إلا أنه شعر بأسى لعدم توافر معلومات بالمقدار الكافي عنها. فالرجال الذين جلبوها كانوا مجرد حراس عليها أكثر مما كانوا سواساً، أو ملمين بتواريخ الآباء والأمهات، كم عاشت، وكم خلفت، ومن يملك مثيلاتها. وشعر بأسى أكبر أنه ليس في موران. لو كان هناك لوجد الكثيرين الذين يمكن أن يقدموا معلومات وافرة ونافعة، ولا تخلو، بالتأكيد، من الطرافة أيضاً، أما هنا، فإن الحديث لن يمتد ولن يطول، وسوف يعود الرجال، بسرعة، إلى همومهم، وإلى ما هم فيه من الرتابة والضجر. حتى السلطان نفسه، ورغم غبطته بهدية الأخوة، فإنه لم يشعر بالتألق كما كان يحصل هناك، وإزاء هدايا أقل أهمية من هذه الهدية.

السلطان، بعد أن روى، ربما للمرة المائة، قصصاً لها علاقة بغصن البان، ورغم أن الرجال حوله استمعوا باهتمام، وأبدوا دهشتهم لذكاء

الحصان وقدرته على التحمل وسرعته، إلا أن الأسئلة التي وُجّهت، والتعليقات التي أعقبت كلامه، كانت باهتة، عادية، بحيث قتلت رغبته في مواصلة الحديث، في الوقت الذي كان مثل هذا الحديث، لو جرى في موران، فإنه يبدأ لكن لا أحد أبداً يعرف كيف سينتهي، أو كم من المفاجآت سيحمل في ثناياه. قال السلطان لنفسه «أهل الخيل ما هم مثل غيرهم؛ من يوم ما ينفطمون وهم مصبحين مسيين معها، وما ينسون ذكرها إلى أن يموتوا».

ورغم أن الخيل كانت تحمل أسماءها وحججها، فقد راودت السلطان الرغبة في أن يطلق عليها أسماء جديدة، خاصة الخيول التي جاءت من الأخوة، لأن في ذاكرته رنيناً لأسماء بذاتها، وفي قلبه مودة لخيول أحبها أو امتلكها في أيام بعيدة، ويريد، هنا، أن يستعيدها، أو أن يستعيد، معها، أياماً ماضية. ومما حرّض السلطان على أن يفكر مثل هذا التفكير أن المسؤول الألماني عن الأسطبل وجد صعوبة في نطق عدد من الأسماء، أو تحولت على لسانه إلى شيء مضحك. لكن هذه الفكرة لم تستمر طويلاً، باعتبار أن الحرس، والذين رافقوا الخيول، لم يتصوروا أبداً إمكانية لمثل هذا العبث، رغم أنهم ضحكوا وتندروا، فيما بينهم، على طريقة الألماني في المناداة على الخيول أو ترديد أسمائها، وبذلوا، بالمقابل جهداً مضاعفاً معه من أجل نطقٍ أسلم، وهذا ما تمّ الوصول إليه بعد عدة أسابيع!

ليس هذا كل شيء، فإن المضمار الذي تجري فيه الخيول من الضيق إلى درجة لا يمكن أن تحافظ على لياقتها ونشاطها إن بقيت فيه. قال ذلك المشرف، وذكره زيد لابن سحيمان، الأمر الذي دعا للبحث عن قصر آخر للسلطان في شمال ألمانيا، مع مساحة تابعة له تكفي لإقامة مضمار أطول وميدان أوسع.

تشاءم شايع السحيمي لوصول الخيل، رغم الأحاديث التي طالما رددها حين كان في موران. لقد بات متأكداً أن الإقامة ستطول هنا، وربما تصبح نهائية. لم يشأ أن يقول ذلك لأحد، أو أن يعبر عن رأيه أمام

الآخرين. أما حين سأله السلطان ماذا يقول بخيله والخيول الأخرى التي وصلت، فقد رد بتورية:

ـ الخيل الأصيلة ما ينراد لها شهادة يا طويل العمر، مثل البنت المزيونة، تبرق وتضوي، وما تخفى، وإذا حكت وقالت، تقول: هذا أنا!

ضحك السلطان، بانت أسنانه الكبيرة، كانت تشبه أسنان غصن البان تماماً. تابع السحيمي:

ـ بس لها عيب واحد يا طويل العمر!

ـ شنهو عيبها يا السحيمي؟

ـ عيبها، طال عمرك، إنها ما تحمل غير راعيها، وما تحمل برد هذي الديرة.

هزَّ السلطان رأسه موافقة وحزناً، وجعل الحديث، بعد ذلك، يأخذ نسقاً آخر.

ربما رجّح الاحتمال الذي أشار إليه السحيمي، أن الخيول، رغم العناية والاهتمام، بدت مستوحشة، قليلة الأكل، ثم أصبحت زيارات الطبيب لها متقاربة، والأدوية التي تعطى إليها تزيد يوماً بعد آخر.

قال زيد للسلطان ذات يوم:

ـ الله العليم أن هوا هذا البلاد، يا طويل العمر، ما والم خيلنا. أشوفها مدنقرة وعايفه الأول والتالي؛ ويلزم تعرف، طال عمرك: الإبر فتحت جنابها.

ـ ما تقول لي والم من هوا هذي الديرة يا زيد؟

هكذا تساءل بمرارة السلطان، وبعد أن زفر:

ـ خلنا نلحق العيار لباب الدار. قال شهر شهرين ونتفرج، نرجع لأهلنا وديرتنا، فراح الكثير ظل القليل، خلنا نصبر..

وتغيرت لهجته، أصبحت آمرة:

ـ وقبل أي آدمي يركب ويمشي، يا زيد، تمشي الخيل. وهناك، بديرتها، وبين الناس اللي يفهمون بها ويقدرونها، تلقانا وعليها فرسانها.

وابتسم ابتسامة كبيرة وهو يضيف:

ـ ولولا العيب، يا زيد، غصن البان ما يركب إلا طيارتي، وما يأكل إلا من راحة يدي. وإذا هنا انظام وما لقي الدلال اللي يستاهله، عسى أن الله يمكّنا ونعوض القصور هناك.

أما بعد الأحداث التي وقعت، واعتكاف السلطان، وبعد أن سافر المشرف الألماني لأستراليا، إذ كان يخطط لإنشاء مزرعة كبيرة للخيول، ويطمح إلى تهجين يعطي خصائص جديدة، فقد أصبح شايع السحيمي المشرف الحقيقي على الخيل. صحيح أن اثنين من الحرس فُرزا لهذه المهمة، ويقع عليهما العبء اليومي، إلا أن معرفتهما بمتطلبات الخيل، وأمراضها، كانت أقل من السحيمي.

وانقضى الصيف كله وانقضى الخريف، وبدأ الشتاء.

الشمس بعد أن كانت تملأ جنبات القصر، وتلاعب الأشجار والخيول، في محاولة للنفاذ إلى أعماقها، ولا تمل أبداً من هذه اللعبة، وتتفنن فيها، إلا أنها بدأت تتأخر، ثم أخذت تختفي، فلما دخل الشتاء، أصبحت تظهر وتتلاشى قبل أن يستعيد الجسد تكيفه مع يوم جديد، وقبل أن تزول آثار الليلة السابقة.

رجال السلطان الذين كانوا يشغلون أنفسهم بالتجوال، ويقضون ساعات كل يوم في دفء النهار، وجدوا أنفسهم، فجأة، أسرى الغرف الباردة المعتمة، وأصبح الوقت طويلاً مثل حبل لا نهاية له، لا يعرفون متى يبدأ النهار ومتى يأتي الليل، لكي يتكيفوا مع الأول ويحتالوا على الثاني.

وإذا كانت خضرة الأشجار انهارت دفعة واحدة، وغادرت تماماً، فقد تكشّف المحيط عن خواء أقرب إلى الفوضى. تأمل الرجال، من وراء نوافذ مغلقة، هذا الذي حدث فجأة، فتبدت لهم الأشجار المنتصبة بلونها الإسمنتي القاسي، وكأنها لم تكن خضراء في يوم من الأيام؛ وأشبه ما

تكون بالأنابيب المقشورة، والتي يتراوح لونها بين الأزرق المقتول والرمادي الكامل، مع مقدار كبير من البني المغبّر أو المتسخ. ومع أنهم حزنوا، فقد قالوا لأنفسهم: «تبقى أشجاراً، وتبقى أشجارهم». وتذكروا الأشجار في الأماكن الأخرى، وفي موران بالذات. صحيح انها لم تكن بهذه الخضرة، ولا بكثافة الأوراق، لكنها لا تستسلم هكذا. أما حين تذكروا النور هناك فقد أحسوا أنهم تحولوا إلى شموع سوداء، أو إلى أعمدة من رماد.

وحين هزوا أجسادهم وتوجهوا إلى الخارج صفعتهم الريح الباردة، وحملت إليهم من الزوايا وحافات النوافذ الأوراق الميتة؛ كانت الأوراق تتطاير مثل عصافير خائفة. وفجأة تذكر عدد منهم الخيل فاتجهوا نحوها.

كانت الخيول، في هذا الشتاء، ضعيفة وحزينة، رغم العناية الفائقة التي خصها بها شايع السحيمي واللذان يساعدانه. فالمدافئ التي وضعت في الزوايا بدل أن تشيع الدفء ولّدت رائحة خانقة هي مزيج من الروث المتخمر والرطوبة الثقيلة والهواء الراكد، الأمر الذي جعل الخيل أقرب إلى الدوخة والخدر، فحركتها بطيئة، غير متوازنة، وعيونها كامدة مليئة بالحزن والعذاب، أما استجابتها للأكل والصفير، أو للمداعبة، فكانت في حدها الأدنى، أو أقل من ذلك.

قال شايع لزيد الهريدي.

ـ إذا جتّ المصايب يا زيد تجي مثل مزن الربيع...

وزيد الذي هزّ رأسه موافقاً لم يتكلم ولم يعلّق، إذ يعرف أن للحديث تتمة، تابع السحيمي:

ـ وهالحين ما عدنا نحكي على مصايب البشر، لأن البشر يستاهلون، واللي ما يستاهل يدبر أموره، بس هذه الأمانة التي توكلنا عليها شلون ندبرها؟

وأشار بيده كلها نحو مكان الخيول. رد زيد بحزن:

ـ يا أبو عاهد نسوي اللي الله يقدّرنا عليه.

ولم يتأخر الرجلان، ولم يتأخر الرجال الآخرون، في تنظيف الإسطبل وتهويته. ومن عباءات الوبر وأغطية الأسرة صنعوا للخيول أغطية ودثروها بها، واتفقوا إلا توقد المدافئ قبل منتصف الليل، في الوقت الذي تستلم مجموعة الحراسة الليلية الأخيرة نوبتها.

أعطى هذا الحل بعض النتائج المرضية، لكن عندما دخل الشتاء الكبير، وأصبح الكون كله مثل عمودٍ من جليد، وتداخل الليل بالنهار، وسيطرت العتمة على كل شيء، فقد تحول خوف شايع السحيمي إلى رعب حقيقي. فهو لا يستطيع أن يفارق الخيل، ولا يستطيع، في نفس الوقت، أن يفعل شيئاً من أجلها. كان يقضي معظم لياليه في الإسطبل، كان يسمّك الأغطية ليلة بعد ليلة، وكان يوقد المدافئ لكسر حدة البرد، ثم يطفئها لئلا تفسد الهواء. وكان لا يتردد في أن يستعين بأنفاسه وبيديه الاثنتين من أجل أن يولّد الدفء في أجسادها، ويحرك الدم في عروقها. كان يفعل ذلك دون شعور بالتعب أو الملل. لكن حزن الخيل يزداد يوماً بعد آخر، ومقاومتها تضعف يوماً بعد آخر.

قال لزيد في أحد الأيام التي ملأ فيها الثلج الكون كله:

ـ ما بقي، يا زيد، قدامنا إلا واحد من اثنين: إمّا نوجهها نحو القبلة، وكل واحد منها طلقة بقصته، وينتهي كل شيء في أمان الله، أو نسفّرها، نردها لديرتها.

وانفعل فجأة، تملكه غضب حزين:

ـ عيونها، يا زيد، وأنت تناظرها، كأنها عيون الغزلان ساعة الذبح، ونظرتها نظرة المظلوم، ونفَسها نفسَ الملهوف اللي يترجى. أما دقات قلوبها فمثل دقات قلب الأم. وإذا التفتت برقابها، يا زيد، فكأنها التفاتة العاشق، تقول كل اللي بقلبها، وبعد هذا شلون تريدني اصبر واحمل؟

وتغيرت لهجته، فارقها الغضب، أصبحت حزناً كلها:

ـ انذبحت يا زيد، ما أقدر أشوفها وأحمل؛ وهي، هالمسكينة، ما لها لا صوج ولا ذنب، شيّلوها من آخر تلفات الدنيا لأنجس مكان، لهذا

الزمهرير، وقالوا لها هنا تموتين. فما تقول لي شنهو ذنبها؟ وليش يسوون بها كذا؟

ـ الذنب ذنب اللي دزها، يا أبو عاهد.

ـ لا بالله، يا زيد، الذنب ذنب اللي رادها وطلبها!

ـ والحل يا شيخنا؟

ـ مثل ما قلت لك من قبل: نذبحها أو نسفّرها!

ـ خلينا نشوف طويل العمر، ونأخذه شوره.

ـ شفه أنت، لأني ما أحمل كلمة زايدة أو كلمة ناقصة، وأخاف أغلط عليه أو يغلط عليّ.

ـ وكل الله يا أبو عاهد!

جرى هذا الحديث بعد أيام قليلة من الحركة المفاجئة التي دبت في القصر، فقد جاء هانس أورلخت خلال يوم واحد مرتين، وكان معه في المرة الثانية أحد موظفي السفارة، إضافة إلى المحامي ومترجم جديد. وقيل إن الجميع التقوا بالسلطان أثناء الزيارة الثانية.

ورغم أن الحركة بدأت في القصر قبل هذه الزيارة، أو على التحديد حين غادر السلطان جناحه، إلا أنه لم يلتق سوى زيد، ولمرتين فقط، ولم يدم كل لقاء أكثر من عشرين دقيقة. ومع ذلك شوهد السلطان مرتين في «المنظرة»، وقد ميزه الحرس حين اقترب كثيراً من النافذة، فملأها كلها، وكانت عدلة معه في المرة الثانية.

ترافق ذلك مع همس سري وتزايد يوماً بعد آخر أن أموراً كثيرة متوقعة، لكن لم يستطع أحد أن يقرر هذه الأمور، أو عما ستسفر، كما لم يشر إليها زيد حين سئل.

صالح الهلالي الذي بدأ بياته الشتوي قبل أن يدخل الشتاء الكبير، إذ لم يعد يُشاهد إلا قليلاً ونادراً، وجاء اعتكاف السلطان ليجعله يغلق أبواب القصر، فلا يفتحها إلا لإحضار التموين، والحاجات الضرورية، وصدف

عدة مرات أن امتنع الحرس عن فتح البوابة، بأمر من صالح، «لأنا ما نفتح لأحد بدون موعد»، وكأنه بهذه الطريقة يوفر لنفسه أقصى درجات الحيطة والأمن. . .

الآن، وقد قطع السلطان اعتكافه، بدأت الزيارات، ودبت في القصر حركة غير عادية، أصيب صالح الهلالي بحالة من الفزع أقرب إلى التطير، وقد سيطرت عليه هذه الحالة قبل أن يسأل وقبل أن يعرف. أكثر من ذلك لم تكن لديه الرغبة لأن يسأل زيداً، إذ كان يخشى من الإجابة، وكان يفترض أن أي شيء يحصل سيكون على حسابه.

قال الذين كانوا بإمرته، منذ سنوات طويلة، إنهم لم يروه هكذا أبداً. فالأرض التي كانت تهتز لأوامره، والعقوبات التي توقع لأبسط الأخطاء، وذلك الصوت الجهوري، وكان لا يتفوه إلا بالأوامر والشتائم، أصبح خلال أقل من شهرين إنساناً آخر: نقص وزنه إلى النصف، غارت عيناه وبدت أكثر صفرة، أما يداه فإنهما ترتجفان مثل سعفة حين يرفع بواحدة فنجان القهوة، ويحاول بالثانية أن يسندها ويسنده!

خلال المرات القليلة التي تحدث، لم يُسأل عن ذلك أبداً، قال إن الأكل لم يواته، والطقس آذاه، أما المياه «فتنزل بقلبي، يا جماعة الخير، مثل الرصاص». وأشار في مرحلة أخرى إلى أن رجفة اليد حالة ورثها عن أبيه «وإن الطب عجز، وما تركنا شيء إلا وسويناه، لكن ما فاد».

فسر اثنان من الحرس القدامى للسلطان «أن صالح الهلالي برقبته بين العشرين والثلاثين، ذبحهم بمسدسه البراون، فإذا فلت من أهل واحد ما يفلت من غيرهم خاصة بعد ما طاح السلطان»، وهذا ما يفسّر خوفه من أن يُسلَّم إلىٰ موران، وخوفه أيضاً من كل زائر غريب. صحيح أنه لم يشر إلى ذلك أبداً، كما لا يحب الأحاديث التي تتناول موضوعات لها صلة، لكن هذا ما يُرجِّح.

عندما أبلغه زيد، بعد الزيارة التي قامت بها هذه المجموعة للسلطان، أنه يجب التحقيق معه، من أجل إنهاء القضية، كما قال المحامي، وكما

أكد مندوب السفارة، فقد أصيب بحالة من الانهيار. لدقائق ظل يرتجف، ولم ينطق بكلمة واحدة، ثم سقط على الأرض. كان في وضع أقرب إلى الذهول، لا يسمع ما يقال له، ولا يجيب عن أي سؤال. وبالرغم من كل الكلمات المطمئنة التي قالها زيد والابتسامات، والتأكيد المتزايد «إن المسألة شكلية، ولا تتعدى سؤالاً أو اثنين وترجع بالسلامة والقضية خالصة»، إلا أن وضع صالح يتراجع ويسوء بين لحظة وأخرى، مما اضطر زيداً واثنين من الحرس إلى حمله ووضعه في سريره، وقد استولت الحيرة والمفاجأة على الجميع.

الأيام الثلاثة اللاحقة شديدة الغموض. ففي الوقت الذي يؤكد الكثيرون أن صالح لم يغادر غرفته، أو بالأحرى سريره، ورفض الأكل أو تناول أي نوع من الأدوية، يؤكد عناصر نوبة الحراسة الصباحية إنهم شاهدوه يحمل بندقية ومسدساً وخنجراً، ويتوجه نحو إسطبل الخيل. لقد ارتابوا كثيراً بوضعه، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً، حتى إنهم لم يبلغوا أحداً. ومما جعلهم يصمتون هكذا إن صالح عاد إلى غرفته بسرعة. وقد فسروا الأمر، فيما بعد، إنه اضطر إلى ذلك نتيجة وجود شايع السحيمي، إذ ربما كانت لديه نوايا عدوانية وخطرة تجاه الخيل، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لما رأى شايع.

ويؤكد غير هؤلاء أن صالحاً، على غير عادته، استيقظ مبكراً، ولبس أحسن ثيابه، وقضى فترة الصباح كلها في قيادة الحرس، وحين استغرب الذين دخلوا المحرس ورأوه، فقد أجاب في إحدى المرات «ورانا أشغال واجد هذا اليوم» ولم يعرف ما إذا كان يستعد لمقابلة السلطان، أو للمثول أمام قاضي التحقيق، وقيل أيضاً إنه كان ينوي الذهاب إلى شتوتغارت مع الذين سيذهبون.

أما لماذا أجّل موعد قاضي التحقيق من يوم الجمعة إلى يوم الاثنين اللاحق، فإن الأمر يحتمل تأويلات كثيرة. قال صالح، أو ربما زيد «مثل ما هو الأحد للنصارى، فنحنا مسلمين، عطلتنا الجمعة، وفيها ما نسوي

شيء أبداً». وجاء من أكد أن القاضي المنوط به الأمر تعرّض لحادث سيارة، اضطر معه لتأجيل الموعد. وقيل إن انشغالات القصر خلال تلك الفترة هي السبب في التماس تأجيل الموعد لبضعة أيام لاحقة.

وتوجُّه الكثيرين إلى القصر صباح يوم السبت، وما رافق ذلك من هرج ووصايا، إضافة إلى الحركة السريعة، لم تسمح بالجزم ما إذا كان صالح الهلالي واحداً من الذين زاروا القصر والتقوا السلطان، وإن كان واحد من نوبة الحراسة ذاتها قال إن صالحاً ظل يحاول الوصول إلى الحديقة الخلفية للقصر، وربما كان يضمر شراً بالسلطان، لكن نتيجة الحراسة المشددة هناك، أو ربما نتيجة التردد، فقد عاد أدراجه، ولم يغادر غرفته، وقيل سريره، طوال ذلك اليوم، رغم الهرج والصراخ، ورغم السيارات التي وصلت.

ما كان أحد ليهتم بهذه التفاصيل، أو ليقف عندها، خاصة وأنه اليوم الذي كان مقرراً لسفر عدد كبير من ساكني القصر، لولا ما حصل بعدها.

فالسلطان الذي احتجب فترة طويلة، اتخذ فجأة مجموعة من القرارات، وطلب تنفيذها دون تأخير.

أمر بتسفير زوجاته الأربع، ومعظم الذين جاءوا معهن. وطلب من مشعل أن يسافر، كما سافر عدد من المرافقين.

أما لماذا فعل ذلك، فإن جميع التفسيرات مجرد تقدير وتوقع. فالمكالمات التي جرت مع موران، جرت من جناح السلطان، ولم تجرِ، كما هي العادة، من الصالة الكبيرة، في الطابق العلوي، أو من غرفة التشريفات في الطابق الأول. واقتصرت هذه المكالمات على السلطان أول الأمر، ثم شاركه مشعل ومجلي، وقيل مجلي وحده، وحتى عدلة التي أرادت أن تكلّم عدداً من أولادها أو أقاربها، لم تفعل في جو الاضطراب والارتباك والسرعة. أما ما جرى وما دار خلال هذه المكالمات، ومن كان الطرف، أو الأطراف الأخرى، فإن أحداً لم يدرِ. حتى الذين كانوا

قريبين، وسمعوا، أو تنصتوا، فقد حملوا معهم معلوماتهم وأسرارهم وارتحلوا بها.

وقبل ذلك لماذا أنهى السلطان اعتكافه وما حقيقة ما دار بينه وبين السفير، ثم ما دار بينه وبين عنان بسيوني الذي وصل إلى القصر في بادن بادن برفقة السكرتير الأول للسفارة، وقد قضى هذا الأخير فترة المحادثات كلها في المحرس، ولم يدخل مع عنان، ويبدو أن الأمر متفق عليه سلفاً؟

إن أية إجابة عن مثل هذه الأسئلة تفتقد البرهان، أو حتى مجرد القرينة، لأن أياً من الذين شاركوا لم يتكلم.

وعكس مرات سابقة، إذ كانت تتسرب الأخبار، أو تشي بها التصرفات، وتفضحها، بعض الأحيان، العيون أو زلات اللسان، أو تغير السلوك، ففي هذه المرة، ونتيجة اتفاق جازم، أن لا يتسرب خبر، فإن كل شيء ظل طي الكتمان، وزاده غموضاً المبالغة في السرية، والحرص أيضاً على الصمت والغياب.

حتى زيد الهريدي، الذي راقب الحركة بعناية، فقد أجاب شايع حين سأله أن الأمور تبدو له غير مفهومة، ولا يستطيع أن يفسر ما يجري.

وحين ألحّ عليه شايع السحيمي، وكان صوته حزيناً، رد بانفعال:

ـ تاهت عليّ يا أبو عاهد، وما أدري شي ابد...

وبعد قليل ولم يغادر الأسى صوته:

ـ من يوم ما وصل أبو العظم الأزرق، مجلي، وبعده عدلة، الله لا يعدلها، ما هو بس ابعدوني عن كل شي، صرت بنظرهم المسؤول عن كل المصايب اللي وقعت. يناظروني، يا أبو عاهد، ويدردمون، يتكلمون بين بعضهم ويريدوني أسمع. والسلطان، الله يسلمه، مثل العجي، كلمة تأخذه والثانية ترده. يصدق كل شي ينقال له، فلما شفته كذا، قلت لروحي: خلك بعيد يا ولد أحسن لك وآمن...

وتغيرت النبرة تماماً:

ـ ومن يومها، يا أبو عاهد، ما عرفت، ولا سألت.

ـ وهذا الخبل، المسكين، صالح، شلون قضي؟

ـ والله علمي علمك، يا أبو عاهد، وسوالف الناس كثيرة، وكل واحد يسولف شي يختلف عن الثاني. . .

تنحنح وتلفت، ثم تابع:

ـ يقولون أن جماعة السفارة، وهو بالمطار يودع الجماعة، رادوا يحمّلونه بالطيارة اللي رايحة، شرّبوه شي وداخ، لكن ما قدروا عليه، انكشف أمرهم، فخافوا. ويقولون إن الألمان رادوا يقبضون عليه، لكنه قاوم وصاح، فقالوا مريض ويلزم يتعالج. ويقولون إنه هو نازل من الطيارة، بعد ما تأكد من راحة المسافرين، داخ وطاح. رشوه بالماء صاحوا طبيب المطار، قال الطبيب، يلزمه أجزخانة، ورأساً حمّلوه وراحوا به. . .

هز رأسه، تنفس بعمق، وبعد قليل:

ـ وسرّ لي عجرم، حارسه وقريبه، إن صالح نبه على جماعته، قال لهم وحرّصهم: إذا شفتم شي غير طبيعبي تصرفوا، لأني بخطر، وكل شي بهذي الدنيا يصير. فلما طاح، وهو نازل من الطيارة، وجت سيارة الإسعاف وجا الطبيب، رفض إبراهيم الشرابي، ومسفر دخل الله إن أحد يتقرب منه، لكن وهم يشوفونه يلبط، يريد يموت، وافقوا إنهم يشيلونه، بس شرطهم أن يرافقوه.

أكد إبراهيم الشرابي أن الوفاة حصلت أثناء نقله، وقبل وصوله إلى المستشفى، «لإني، بعيني، شفت روحه تطلع، طلعت مثل غيمة زرقة وملت السيارة كلها، ولما جسيته لقيته بارد، وما به حركة». أما مسفر دخل الله، فقد أجاب، بعد أيام، حين سأله السلطان، «إن الرجال، وهم يشيلونه، صاحي ويسولف، وقال لنا: لا تخافوا، بس يلزم تحرصوا وتفتحوا عيونكم زين، وبلشوا به: أبر ودوايات، ووين الجنب اللي يوجعك، وتحمل. وبعد أن وصل المستشفى منعونا من الدخول إلى غرفته، وهناك ذبحوه».

ومما عزز رواية مسفر دخل الله التحقيق الذي طلبت السفارة إجراءه، بناء لطلب السلطان، الأمر الذي أدى إلى تشريح الجثة، وبالتالي تأخير تسلمها، خاصة بعد أن تقرر دفنها في ألمانيا وفق الإجراءات الإسلامية.

وإمام مسجد ميونيخ، الذي استدعي إلى القصر، للاتفاق معه على تسلم الجثة ودفنها حسب المراسيم الإسلامية، طلب مبلغاً كبيراً، وكانت حجته: مرور فترة طويلة على الوفاة، ولأنه مضطر إلى الاتصال بمسلمي المدينة، واستدعائهم في غير يوم الجمعة، من أجل المشاركة في الصلاة على المتوفى ودفنه. كان ثملاً وهو يتحدث، وزيد الذي وافق على جميع الشروط، أعطاه مبلغاً إضافياً، بناء لطلب السلطان من أجل إقامة عشاء على روح صالح الهلالي.

العلقاوي الذي كان يترجم ويفسر بين الإمام وزيد، قام بمراجعة إدارة المستشفى للحصول على شهادة وفاة، وبعد عدة أسابيع، بناء لطلب من موران، فتبين له أن جثة صالح الهلالي بيعت لمستشفى كلية الطب. وقد باعها إمام مسجد ميونيخ، اعتماداً على تفويض من عائلة المتوفى!

لما عرف شايع السحيمي، ارتجف، خاف، قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ يلزمنا نلحق أهلنا وديرتنا يا جماعة الخير، لأن الغريب يظل غريب دنيا وآخرا، وخاف باكر ما نلقى قبر يحوشنا ويصير بنا مثل ما صار بهذا المسكين!

خلال أكثر من شهر لم تهدأ الحركة ولم تتوقف بين قصر بادن بادن وموران، أو بين القصر والسفارة في بون، إذ بالإضافة إلى التلفونات خلال النهار، وبعض الأحيان في ساعات متأخرة من الليل، وقيل إن السلطان تحادث مع عدد من أخوته، بينهم فنر، وقد جاءت المبادرة من فنر، فإن الزوار الذين وصلوا خلال تلك الفترة أكثر من أية فترة سابقة. أما حين وصلت ياسمين، عروساً جديدة للسلطان، ومعها أمها وعدد من المرافقين، فقد فُهم، بشكل أفضل، السبب وراء سفر الزوجات السابقات! وحين تبين الشبه، على الأقل من حيث العمر، وبياض البشرة، بين العروس الجديدة وسلمى، فقد تأكد الجميع أن عدلة، التي رتبت هذا الزواج، تريد أن تثبت للسلطان قدرتها على الاختيار!

الهدايا التي رافقت العروس أكّدت، مرة أخرى، المكانة التي يحتلها السلطان لدى الإخوة، خاصة فنر. فبالإضافة إلى هداياه الثمينة والمتنوعة للعروس، فقد أرسل مسدسه المذهّب، والذي تلقاه من أبيه في احتفالات البلوغ، هدية لأخيه، مع كلمة قصيرة: «أغلى هدية من أعز إنسان لأكبر أخ، فنر».

ورغم أن الاحتفال كان محدوداً، إذ اقتصر على أفراد الحاشية والمرافقين، إضافة إلى السفير، فقد قال زيد، نيابة عن السلطان، وربما بإيعاز منه:

ـ اليوم قراءة الفاتحة، أما العرس فما يكون إلا بموران، لأن الأعراس انخلقت لموران!

فهم كلام زيد بأكثر من معنى، خاصة حين علق السلطان:

ـ الحق اللي تقوله يا زيد، وهذا اللي راح يصير!

أما المسدس الذي عرض بهذه المناسبة، مع الكلمة المرفقة، فقد أثار الإعجاب والتقدير، واعتبر بمثابة اعتذار علني من فنر. هكذا فهم وهكذا فسر من الجميع عدا شايع السحيمي، الذي قال لزيد في نهاية الاحتفال:

ـ الله يسترنا من التوالي يا زيد. . .

ظل زيد صامتاً. ضحك شايع بحزن، وخرج صوته مضطرباً:

ـ قال له: إذا ما كفّتك الخيل وربطتك، خذ معها، هالحين، الليل، وإذا لا هذا ولا ذاك، دواك هذا المسدس، رصاصة واحدة منه تكفي وتوفي، وكفى الله المؤمنين شر القتال!

وضحك بسخرية وهو يتابع:

ـ بس هات من يفهم!

وبعد قليل:

ـ ألف رحمة عليك يا أبا العلاء!

مجلي بعد أن حضر احتفال الزواج غادر في اليوم التالي إلى شمال ألمانيا، برفقة هانس والمحامي، وصحبه مترجم، للتأكد من ملاءمة القصور المعروضة للبيع، ولاختيار واحد منها. وبناء لاتفاق سابق مع هانس لم يبلغ السفارة، ولم يصطحب أحداً معه، «أنه بمجرد أن يُعرف وجود علاقة للسفارة يتضاعف الثمن مرات، وقد لا يبيعون»!

الخيول التي احتملت برد أول الشتاء، وكادت تنجو، لم تستطع أن تحتمل برد شباط القاسي. كان البرد، في هذه السنة، أو هكذا افترض السحيمي، مخصصاً للقتل، ولقتل الخيول بشكل خاص، إذ رغم العناية الفائقة، بما في ذلك استعمال الأغطية المخصصة للحرس، فقد فرض السحيمي على عناصر نوبة الليل، قبل أن يتبادلوا السلاح وكلمة السر، أن يدثروا الخيول بالأغطية التي كانوا يتدثرون بها! ولجأ في فترة لاحقة إلى

إبقاء المدافئ مشتعلة، «لأن اللي يخاف من الموت يرضى بالحمى». ومع ذلك فإن الخيل بدأت تتساقط. ولم يأت أول الأيام المعتدلة، وليس الدافئة، إلا وكان قد سقط منها ثلاثة رؤوس.

أخفي الأمر، في البداية، عن السلطان، لكن مسألة إخراج الخيول النافقة، في هذا الجو، ومن هذا المكان، بالإضافة إلى ما كان يسببه من الإرهاق والهموم، غالباً ما تترافق مع حركة غير عادية، وأصوات لا يمكن التحكم بها، مما اضطر السحيمي، بعد أن مات الحصان الثالث، إلى مقابلة السلطان:

ـ الخيل يا طويل العمر، طلبت أهلها، وإذا قدرنا عليها طول المدة الماضية، وحمينا اللي قدرنا نحميه، تراها مصبحة مسيّة، وأولها غصن البان.

والسلطان الذي عرف بما حصل، أو ببعضه على الأقل، خاف، علق بصوت مرتجف:

ـ لو كان بيدي، يا أبو عاهد، بروحي أفديها، بس مثل ما تشوف عينك: عايشين بالأمل، اليوم وباكر، فاصبر شوي، عسى أن الله يفرجها.

ـ أنا سلمت أمري للواحد القهار، يا طويل العمر، بس أمر هذي الأرواح المسكينة بيدك، فاعتقها أو أقتلها، لأن روحي شاغت وما أقدر أحمل، وكل يوم أموت ألف موتة.

ـ وشنهوا اللي نقدر نسويه؟

ـ نرجعها لموران.

ـ يلزم يطرّشون لنا طيارة من هناك، لأن السفير يقول طيارات الألمان ما تشيلها..

وبعد قليل وبحزن:

ـ إذا فاتت المربعانية، يا أبو عاهد، نخلص، ويكون الله كاتب لها ولنا عمر جديد، فخلنا نتحمل ونصبر، وكلها كم يوم.

ـ لكن مربعانيتهم، يا طويل العمر، حسابها غير عن ديرتنا، والخويا اللي قبلنا يقولون: البرد بعده بأوله، وراح يجي برد أزرق وريح تقطع المسمار، فخاف ننغدر ونخسر الأول والتالي.

ـ وكل الله، وخلنا نشوف!

جرى هذا الحديث قبل وصول العروس ببضعة أيام، وكان السلطان مشغولاً بهذا الأمر أكثر من أي أمر آخر! أما بعد ان وصلت، ولم تكد تنقضي فترة قصيرة، حتى بدا السلطان لكل من يعرفه أو رآه، إنساناً آخر: عصبياً، نزقاً، سريع الغضب لأية كلمة، ولا يتردد في أن يشتم أو حتى أن يضرب.

رجال حرسه الخاص، وبعض مرافقيه، الذين حضروا عدداً من زيجاته السابقة، لاحظوا، ومنذ الأيام الأولى للزواج، أنه لا يبدو مرحاً أو منتعشاً، ليس لأنه لم يوزع عليهم العطايا، كما كان يفعل من قبل، ولا لأنه لم يتبسط معهم أو يمازحهم، وإنما لأنه تجاوز كل حد، وأصبح يخرج عن طوره لأبسط الأسباب وأقلها أهمية.

قال تركي الصهيب الذي يقف وراء السلطان مثل ظله «الثلاثاء خنثى، لا ذكر لا أنثى، وظني، لأنه تزوج بهذا اليوم، ارتكس وانتكس، والله يستر».

أما صويلح الجريان، كاتب السلطان، فقد تلقى نظرة حارقة وبعض الشتائم، في اليوم الثالث للزواج، لأنه اقترح توجيه دعوة للجالية العربية في ألمانيا بهذه المناسبة. ولم يفهم أبداً لماذا غضب السلطان أو سبب رد فعله الحاد.

ترافق ذلك مع تراجع واضح في الحالة الصحية لجلالته، إذ قلّ أكله، وبدأ يشكو من آلام المعدة والخصيتين، ورغم أنه احتمل الآلام، فقد رفض بإصرار أن يزوره الطبيب، كان يرد بحدة حتى يُقترح عليه دعوة الطبيب:

ـ البني آدم طبيب روحه، ويعرف سالفته أكثر من أي واحد آخر.

وبدل أن يستجيب لرأي طباخه الخاص، فيما يجب أن يأكل أو يمتنع عنه، بدأت يستهلك في القصر كميات كبيرة من التوابل والمكسرات والعسل، إضافة إلى أنواع عديدة من الحشائش، تمّت التوصية عليها من موران، وأرسلت بالطائرة. كما أصبح السلطان يشرف بنفسه على الطعام الذي يجب أن يعدّ له، ولا يتردد في أن يضيف إليه، في اللحظة الأخيرة، مقادير من أدوية كان يحتفظ بها!

زيد الهريدي، رغم مسافة البعد التي فُرضت عليه منذ أن وصل مجلي، والتي فرضها على نفسه أيضاً، نتيجة الكلمات التي سمعها، والاتهامات التي وصلت إليه، كان أول الناس يكتشف أن عطباً كبيراً، أقرب إلى الخطر، ألمّ بالسلطان. ظنه، خلال الأيام الأولى، بسبب الخدعة الجديدة، مثل الكثير من الوعود التي أعطيت وتم التراجع عنها، لكن حين تأكد أن العلاقة مع موران، والعلاقة مع السفارة، لم تتعرضا إلى التغيير، فقد أصبح على يقين أن الأمر لا يتجاوز قصر بادن بادن. قال لنفسه بسخرية: «الملدوغ من الحبل يخاف، والبني آدم إذا سمع الصوت يناظر بعيد، وما يريد يشوف القريب منه؛ وياما مصايب طلعت من حدر الرجلين، أو كانت من صنع الإيدين». وبعد تحريات جادة، استمرّت عدة أيام، توصل زيد إلى معرفة السبب: جاويد.

فهذا الفتى الأشقر، الأحول، ابن الثامنة، والذي يشبه القرادة، وجاء في موكب أخته، عروس السلطان، ولّد هذا الجو المشحون، أو بسببه خُلق هذا الجو.

إن زيداً على يقين. فالسلطان الذي كان يتطير إلى أقصى حد من العوران، ومن المصابين بالحول، وكان يرفض استقبالهم، ويشيح بعينيه إذا التقى بهم، وجد نفسه فجأة أمام هذا الصغير، الذي رفض الجميع وتعلق بالسلطان! كانت علاقته بياسمين علاقة قوية، وكانت هي تحبه وتعطف عليه، وربما وُجد من قال إنه يمكن معالجته في ألمانيا، فجاء، ولذلك تشاءم السلطان، وأصبح عصبياً هكذا.

الذين كانوا ينقلون المواد التموينية إلى القصر لهم رأي آخر: «البلاد الباردة» ينراد لها أكل حار، والشمس إذا غابت لازم يتعوض عنها بقرفة وزنجبيل وعسل، إذا ما انوجد حليب النوق، والله العليم إن هذه الفريخة ما تكفي، لهذا السبب ضاق صدره!».

أم العروس كادت في ليلتين، تفصل بين الواحدة والأخرى ثلاثة أيام، أن تتعرض إلى مشاكل بما فيها إطلاق النار، إذ بعد أن نقّبت في القصر، كما يفعل الشحاذ، عثرت على ما تعتبره السحر الذي يربط السلطان، عثرت على حزمة من شعر ملفوفة بورقة مشمّعة، معها سفوف، مربوطة بخرقة صفراء، موضوعة بزجاجة، والزجاجة محزومة بخيط، والخيط متدلي من أعلى السرير ومارّ تحت الجانب الأيسر حيث ينام السلطان!

«إنه السحر ولا شيء غيره. تركته عدلة، أو واحدة غيرها، حتى تربط السلطان».

أخذته ميّسر، أم العروس، ليلة الجمعة، بعد أن نام الجميع، إلى الحديقة الخلفية للقصر، وكانت قد حفرت له في النهار حفرة، وما كادت تضعه فيها، وتغطيه، حتى وجدت حارساً فوق رأسها. خافت، صرخت، خرج صوتها كمواء القطة. حين عرفها الحارس، سألها، وكان صوته يرتجف:

ـ الله العليم: وحشة الديار، واختلاط الليل بالنهار، وكأنك تنشدين موران، يا عمتي، ما هو كذا؟

ـ موران بعيدة يا ابن الحلال، والأقرب منها ماحنا واصلينه!

لم تنم أم جاويد براحة تلك الليلة، ولأن اليوم التالي هو السبت، لم تستطع أن تفعل شيئاً، ولذلك مر السبت بطيئاً ثقيلاً، وجاء الأحد، كان أكثر بطأً وأثقل، وقد لفت اضطراب ميسر، أم جاويد، نظر الكثيرين، خاصة وأنها لم تقرب الطعام؛ أما بعد أن تقدم الليل، وتأكدت من نوم الجميع، فقد اتجهت إلى الحديقة، إلى نفس المكان الذي دفنت فيه السحر، لكي تستخرجه، من أجل مكان أفضل ووقت أنسب. ما كادت

تبدأ، حتى وقف الحارس نفسه وقال:

ـ فلا شدة إلا ويرجى لها فرج ولا كربة إلا ولها ألف حلال

بقي لي عوض ما فات تذكار ما مضى وحزني عليهم وين ما رحت يبرى لي

بدت أم جاويد أقل خوفاً هذه الليلة، ردت، وخرج صوتها متحدياً:

ـ خلينا يا ابن الحلال نصلي ركعة أو ثنتين تحت السماء عسى أن الله يستجيب ونخلص.

ـ صلاة مقبولة يا عمتي!

وبدل أن يستجيب الله ازدادت الأمور سوءاً:

الفترة التي حُدّدت انقضت دون أن تنفّذ الوعود. زيارات الموفدين من موران تراخت ثم انقطعت. الاتصالات التلفونية أخذت تتأخر ثم اضطربت، لتصبح في الأخير هما ثقيلاً. ومثلما فعل السفير في مرات سابقة فعل هذه المرة أيضاً: «سافر إلى موران للتشاور» كما قيل لزيد الذي اتصل بالسفارة من أجل طلب بعض المواد التموينية.

وصحة السلطان تتراجع أيضاً، أما رفضه لزيارة الطبيب فقد أصبح أقل من السابق، وحين وافق أخيراً، كان مصمماً أن لا يستجيب لما قد يطلب منه، أما بعد وضع الطبيب قائمة طويلة للممنوعات والأدوية، فقد قال السلطان لزيد:

ـ ثلاثة يعرفون داي زين: أنا وموران وأبو غزوان. . .

زفر. خرج الهواء من صدره ثقيلاً حارقاً، واضطرب صوته:

ـ وأنا، يا زيد، مربّط، مثل ما تشوف عينك؛ وموران كلها لئامة وقلة دين، ما تعرف إلا اللي فوقها وبه حيل؛ أما أبو غزوان فيعرف الداء والدواء، لكنه بعيد، وظلمناه. وتعال، هالحين، وافق على اللي ما يعرفون شي، وسفّ أدويتهم، ونام على الجنب اللي يريدون!

ضحك بسخرية وأضاف:

ـ لكن ظني ما يفرحون!

ويزداد القصر توتراً وخوفاً. يظهر السلطان يوماً، ويختفي أياماً. ويزور القصر بين فترة وأخرى موفد من السفارة، حاملاً الجرائد والرسائل وبعض الكلمات التي ينشغل بها الجميع، ويحارون في تفسيرها.

مجلي لم يعد يظهر في القصر إلا لفترات قصيرة، يغيب بعدها في أسفار لا يعرف أحد إلى أين يصل أو ماذا يفعل، فإذا عاد من جديد اختلى بأبيه وقتاً طويلاً، يعقبه اتصالات مع موران، وتوقعات وانتظار، لا يقطعهما إلا سفر جديد.

هانس الذي تردد في اختيار القصر الجديد للسلطان، توصل في أول الربيع إلى القصر المناسب، لكن العقبة التي شغلته، وأخرت تسجيل ملكية القصر، الإجراءات، كما قال، خاصة وإن الملكية لأجانب. ولئلا تضيع الفرصة سجّل القصر، مؤقتاً، باسمه، على أن تُنقل الملكية لاسم السلطان في وقت لاحق!

السحيمي الذي قلق لمرض الخيول، وتحسب، ثم أخذ يغرق في الحزن والجفاف مع كل رأس يميل ويسقط، ما لبث أن وقع مريضاً حين التوت رقبة «مرزوق» وانتهى. كان يحب مرزوقاً ويفضله على باقي الخيل، وكان يعتبره أفضل خيول السلطان، قد لا يكون أسرعها أو أغلاها ثمناً لكنه أكثرها حناناً ووفاء. صحيح أنه لا يعترف بميزة الآخرين على مرزوق، من حيث النشاط والسرعة، ففارق العمر بينه وبينها كبير، وحين كان لا يجاريه أحد، لم تكن هذه موجودة، أو حتى لو وجدت لما استطاعت معه شيئاً، «لكنه العمر» هكذا يقول، وهو لا يخفي اعتزازه.

قال زيد: إذا عاش أبو عاهد بعد مرزوق تكون انكتبت له حياة جديدة.

مرت أيام، تعافى شايع وبدأ الربيع. ومع بداية الربيع وصلت، فجأة، عدلة.

كان وصولها مفاجئاً غير متوقع، وخلال فترة قصيرة دب النشاط في القصر كله، وشوهد السلطان في «المنظرة» عند الظهر، بعد أن غاب، لم

يشاهده أحد، أسبوعين كاملين، حتى إنه سرت إشاعات قوية تؤكد سفره إلى جهة مجهولة، وقيل إنه سافر إلى بون لكي يلتقي بأخيه فنر هناك. وفي عصر اليوم نفسه شوهد في الشرفة، وكانت عدلة إلى جانبه، تحدثه حول أمور بدت مهمة من خلال هزات رأسه التي كانت تتوالى بانتظام. ولم تكد تمر نصف ساعة حتى دخلت عدلة، وحين عادت كانت تحمل عباءة سميكة القتها على كتفيه. وأكد من راقبهما بعناية أنهما ظلا كذلك حتى بعد أن هبط الظلام.

زيد الذي كان خائفاً وحائراً، باعتباره الوحيد الذي يلتقي بالسلطان، وكان يرى ضعفه وتراجع قواه، لكن لا يقوى على إقناعه بتناول الدواء أو بإجراء فحوص طبية جديدة، وبالتالي لا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل، اعتبر مجيء عدلة حلاً مناسباً، أو حلاً بعث به الله.

قال لشايع السحيمي الذي هرم خلال شهور:

ـ أبشر يا أبو عاهد. . .

وشايع الذي رفع إليه عينين متعبتين، ولا تحملان فضولاً أو تساؤلاً، قال بصوت لا يكاد يسمع:

ـ راح وقت البشاير يا زيد. . .

وانخفض صوته، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ اللهم حسن الختام.

قال زيد بحماس، لعله ينعش السحيمي وينعش نفسه.

ـ جماعة السفارة قالوا وأم مشعل تقول. .

ـ شنهو اللي يقولونه؟

ـ صارت الرجعة قريبة، وكل شيء انتهى!

ـ تنينا إيام وسنين، يا زيد، والشي الزين راح وانقضى، وهالحين ما حنا بخسرانين شي إذا انتظرنا يوم وثنين، لكن. . . .

ـ هذي النوبة غير عن كل اللي قبلها يا أبو عاهد!

ـ ما عاد يلزمني من هذي الدنيا، يا زيد، إلا ما يلزم العجين من الملح، بس حتى أوصّل هالخيل لأهلها وديرتها، وبعدها، ما بنفسي شي.

ـ الله كريم، يا أبو عاهد.

ويوماً بعد يوم، ومثلما تنفجر الضحكة المفاجئة، أو الصرخة في الظلمة، بدأت تنفجر الطبيعة، وتفاجئ نفسها وتذهل الكثيرين.

السلطان، بعد الغياب الطويل، أخذ يطيل جلوسه في الشرفة الأمامية صباحاً، وفي الشرفة الغربية بعد الظهر، وقد رآه أكثر من واحد يضحك. أما حين نزل إلى الحديقة، فقد أثار فرح الجميع. صحيح أنه بدا متعباً، أقرب إلى الإعياء، وكان يستند إلى عصاه وإلى كتف زيد، لكنه وقف مع الرجال وتحدث. سألهم عن أحوالهم، وقال، بمداعبة، أن الأيام الدافئة أقبلت، «لكن الله العليم انّا نرحل قبل الصيف»، وتوجه بعد ذلك إلى الإسطبل.

داعب غصن البان طويلاً، ويبدو أنه استعد لذلك، إذ وضع في جيبه قطعاً من السكر، وكان بين فترة وأخرى يعطيه واحدة منها، ولم ينس عقاباً، وغالب حصاني فنر، وكذلك الوضحة، فرس مهيد. وفي لحظة من اللحظات همس بكلمات، لكنها لم تسمع، وقيل إنه كاد يمتطي حصانه، لكنه عدل، مرجئاً الأمر إلى وقت آخر.

هذا اليوم كان مشهوداً في قصر بادن بادن. فبعد الحزن والعتمة والبرودة والخوف، يشيع جو جديد. حتى السحيمي الذي جاء من يقول له إن السلطان يتمشى في حديقة القصر، ثم أبلغ وهو يتوجه إلى الإسطبل، لم يجد في نفسه الرغبة أو الهمة لكي يلحق به أو ليطلب منه شيئاً خاصاً بالخيل، لكنه لم يتردد في أن يستوضح الذين رافقوا السلطان عن كل صغيرة وكبيرة.

اليوم التالي غامت السماء وأمطرت، فالتزم الكثيرون الغرف، لكن راقبوا الغيوم والشرفات، وبدا لكل واحد منهم أنه أكثر قوة وأكثر تفاؤلاً.

وفي اليوم الثالث، ومنذ الصباح الباكر، سُجلت حركة غير عادية في القصر، اتضح بمرور الساعات أن مرضاً مفاجئاً ألمَّ بأحد النزلاء، ولقد تأكد ذلك من وصول الطبيب في الصباح الباكر، ثم قبل العاشرة. أما عند الظهر، فقد وصل السفير نفسه ومعه سيارتان، وتبين من الحركة المحاذرة والنظرات أن الأمر أكثر جدية مما قدر الكثيرون. ومع ذلك لم يعرف من المريض، وما هو المرض. وإن بدأت تتسرب أخبار، غير واضحة، وغير مؤكدة، أن السلطان هو المريض.

عناصر النوبة الليلية لاحظوا نشاطاً وحركة، وسمعوا أصواتاً في القصر لم يتبينوها بوضوح، لكن وصول الطبيب مرة أخرى أكد أن الحالة بلغت حد الخطورة، خاصة وأن السفير واثنين من مرافقيه بقوا في القصر لم يغادروه. وقبل أن يطلع الفجر، ومن الركض المفاجئ، والمناداة، وخروج النسوة من غرفهن نحو غرفة السلطان، ومجيء اثنين من الأطباء، ثم مغادرتهما السريعة، والحركة المضطربة المهتاجة، ثم ما أعقبها من السكون الذي يشبه السقوط، دل بوضوح أن السلطان أسلم الروح.

قال تركي الصهيب، وكان يبكي:

ـ كان صاحي، ناظرنا وابتسم، وتحسنت أحواله بعدما أخذ الدوا. قلنا لأرواحنا باكر يكون أحسن من اليوم، وما أن نام وغفا، وأنا حدّ رجليه، أناظره، وعيني ما فارقته، إلا وأشوفه يختض ويرجف. تقربت منه، سألته إن كان يحتاج شي أو شي يوجعه، لكنه لما فتح عينه شفته ما هو ولا بد، يناظر، لكن عيونه شاخصة. جت عمتي عدلة، وجا كل من بالقصر. ناديناه. هزيناه. جا الطبيب، فحصه، ضربه إبرة، لكن ما مرت ساعة إلا وخلص.

هكذا قضى السلطان.

في اليوم التالي بدأت الاتصالات لنقل الجثمان.

موظفو السفارة يتراكضون. نزلاء القصر، وأفراد الحاشية والحرس، في حالة من الحزن والذهول. زيد يذرع الحديقة من أولها إلى نهايتها وكأنه

يقيسها. شايع السحيمي، لما سمع بالخبر طب على وجهه وغرق في النوم، حتى إن الكثيرين خافوا عليه.

لم تهدأ الحركة ولم تتوقف.

عند الظهر رأى عدد من الحرس غصن البان يغادر الإسطبل، كان يمشي هادئاً نحو القصر، توقف عند الأدراج، تطلع إلى فوق. دار حول القصر، كان يمشي بهدوء ورأسه يتشمّم الهواء. دار مرة ثم أخرى، تطلع إلى فوق، ثم عاد، بهدوء، أيضاً، إلى الإسطبل. وقبل الغروب مات غصن البان!

في اليوم التالي وصلت طائرة من موران لنقل جثمان السلطان. كانت نفس الطائرة التي حملته إلى هنا، وكان قائد الطائرة هو الذي أوصل السلطان إلى بادن بادن.

نقل الجثمان بسرعة، وسافر على نفس الطائرة معظم نزلاء القصر وأفراد الحرس والحاشية. أما شايع السحيمي فقد تأخر. قال له زيد، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ ومن وصلتنا، يا أبو عاهد، من كل بد ندز لك طيارة تحملك وتحمل الخيل والغراض وكل ما بقي ومن بقي.

قال شايع السحيمي:

ـ احرص يا زيد، ولا تنسَ، وما هو من أجلي، من أجل الخيل، لأن ما لها أحد غيرنا، وخاف تموت مثل اللي مات قبلها.

ـ لا تخف يا أبو عاهد ووكل الله.

ـ ما أنا بخايف يا زيد لكن المصيبة أن البعيد ينسى، وهذي أرواحها برقبتنا، وباكر نتحاسب عليها!

وأغلقت بوابة القصر، واتجه شايع السحيمي إلى الإسطبل، وما إن وصل حتى بدأ يحدّث الخيل، ويبكي.

صيف ١٩٨٨



مُدُن المِلح
المُتْبَـــتّ

* إنها عمل طموح يغمره إيقاع حزين وعمق اجتماعي فكري حاذق في تعبيره.

ميشيل ابشيرسن

* إن المثابرة على قراءة عمل من هذا النوع، هي مغامرة ليست سهلة، إلاّ أنّي تجشمت عناء هذه الرحلة، ويسرني أن أقول: إنَّ مكافأتي كانت قيمة، ألا وهي نظرة غنية جديرة بالثقة حول تجربة مجتمع وهو يخوض غمار تحوّل وتبدّل في نمط حياته.

شكران كمال

* ما يريد مؤلف مدن الملح أن يقوله هو أنه لا توجد على الإطلاق إمكانية للحلول الوسط.

ديفيد جيلمور ـ نيويورك ريفيو

* مدن الملح بمحتواها واتساع نطاقها وأسلوبها ومنظورها السردي وتكنيكها تنحو منحى التقاليد الرفيعة في الأدب القصصي.

محمد صدّيق

* مدن الملح رواية ذكية جاءت في الوقت المناسب. المسائل التي تطرحها ربما كانت قائمة ومطروحة، ولكنها الآن، في الثمانينات مطروحة أكثر، وهي أن العرب، كأُناس عاديين، وقعوا تحت الظلم من جانب كلٍّ من الغرباء ومن جانب قادتهم وحكامهم.

ديفيد لامب ـ التايمز


ISBN 978-9933-407-05-6



المؤسّسة العربية للدراسات والنشر – المركز الثقافي العربي

عبد الرحمن منيف



مدن الملح
بادية الظلمات



V

عبد الرّحمن مُنيف

مُدُن المِلح

بَادية الظلمَات

V

المركز
الثقافي
العربي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

عَبدالرّحمَن مُنيف

مُـدُن المِـلح

بـَاديَة الظلمـَات

الطبعة الحادية عشرة، 2005

الناشران

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج
الكارلتون، ص.ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف:
5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي
(الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية
المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

ذاكرة الأمس البعيد

الذاكرة. . . لعنة الإنسان المشتهاة ولعبته الخطرة، إذ بمقدار ما تتيح له سفراً دائماً نحو الحرية، فإنها تصبح سجنه. وفي هذا السفر الدائم يعيد تشكيل العالم والرغبات والأوهام.

وإذا كانت في حياة كل إنسان لحظات ومواقف تأبى أن تغادر الذاكرة، فليس لأنها الأهم، أو لأنها أعطت لحياته مساراً ومعنى، إذ ربما لم تقع بنفس الدقة أو بالتفاصيل التي يتخيلها أو يفترضها، وإنما لفرط ما استعادها في ذاكرته، بشكل معين، ربما الذي يتمناه، يوماً بعد آخر، فقد أصبحت وحدها الحقيقة، أو وهم الحقيقة.

فنر وهو يتذكر عين فضة، وأيامه في موران، ثم عندما أصبح نائباً لأبيه في العوالي، فإنه يتذكر لحظات ومواقف وتغيب أخرى، لكن تظل صورة هاملتون هي الأقوى.

فبعد أن رتب وهاملتون عدداً من الأمور في العوالي، وحلا الكثير من القضايا المتراكمة، وكانت عادتهما أن يسهرا ويطيلا السهر، يتذكر فنر أن هاملتون قال له في إحدى الليالي كلاماً لم يألفه.

قال له:

- إنك، يا سمو الأمير، بحاجة إلى كمية كبيرة من البحر، نعم كمية كبيرة، لكي توازن هذا الكم الهائل الذي لديك من الصحراء!

والأمير الذي أعجب بالتعبير، لم يجد له دلالة عملية، أو معنى محدداً.

ابتسم، هز رأسه، ولم يعلق.

هاملتون، مثل عادته، حتى عندما كان طالباً في الجامعة، «إذا أردت

أن تستقطب انتباه الآخرين يجب أن تتكلم أما بطريقة مختلفة أو شيئاً مختلفاً». لا يتذكر هل قرأ هذه العبارة، هل سمعها، أم هو الذي صاغها؟ المهم أنها ظلت ملازمة له منذ وقت طويل، وإن أخذت أشكالاً متطورة وذكية تبعاً لتقدمه في العمر، واتساع ثقافته وتجاربه.

الآن، وهو يقول هذه العبارة للأمير، وكانا جالسين على شرفة قصر الهازعي بالطريفة، وجانب من البحر يرى من هناك، يريد أن يكون هذا الدرس أول الدروس وأكثرها أهمية.

ـ . . . والبحر، يا صاحب السمو، ليس المياه والزرقة والأمواج، إنه فلسفة كاملة، تبدأ بالخوف ثم التأمل وأخيراً بالتواصل. والتواصل يشكل قاعدة المثلث، لأن الصحراء تشترك مع البحر في الصفتين الأخريين، إذ بمقدار ما تثير الصحراء الخوف في حالات معينة، فإنها، بعد أن يزول الخوف، تحمل الإنسان على التفكير والتأمل، وتوحي له بالكثير، لكنها، مع ذلك، تضع بينه وبين الآخرين سداً. وهي بمقدار ما يمكن أن تكون حماية ضد الغزاة والطامعين، فإنها أيضاً سجن للقاطنين فيها، فهي تعزلهم عن الآخرين، وتجعلهم يولدون ويعيشون ثم يموتون وحيدين وبعيدين. . . إلا في حالات قليلة ونادرة، حين يتوافر الرجال الشجعان، والظروف المواتية. عندها يمكن أن تكسر قضبان هذا السجن، وينطلق السجناء إلى الخارج، حاملين صفاءهم وتأملاتهم وإرادتهم المديدة الصلبة، وقد ازدادت قوتهم حين امتحنوا بقطع هذه الصحراء. . .

فنر يرى هاملتون لأول مرة بهذه الصورة، لقد أغلق عينيه نصف إغلاقه، وكأنه يستعيد درساً، لفرط ما كرره، أصبح يردده بهذه الطريقة العميقة المؤثرة. ورغم أنه فهم المعنى العام للكلام الذي أداه هاملتون كما يؤدي المؤمن الصلاة، أو كما يرفع المتوسل دعاءه إلى قوة مجهولة، لكي تساعده، فقد احتار. لم يكن هاملتون هكذا من قبل، وما يقوله الآن يتجاوز تلك الثرثرات التي يروق للبعض أن يرددها لإشعار الآخرين بسعة المعرفة.

قال فنر:

ـ لا أريد أن أسأل الآن، يمكن أن تتكلم، مستر هاملتون، كل ما تريد، لكن لدي الكثير من الأسئلة فيما بعد.

ـ يمكن أن أقول أشياء عديدة، يعرفها غيري، لكن أحس، خلافاً للكثيرين، إنه إذا تم الوصول إلى معادلة جديدة، هي الصحراء والدين والبحر، فعندئذٍ يمكن أن يترتب على هذه المعادلة شيء جديد!

ابتسم. نظر إلى السماء، التفت قليلاً، نظر إلى البحر، تنحنح ثم تابع:

ـ لا أريد أن أفسد الفطرة التي يتمتع بها سكان هذه الصحراء، وربما كان جلالة السلطان نموذجاً لها، وحتى لو أردت قد لا أستطيع. وأعرف أن لديك من روح الصحراء فيضاً يزيد عما تحتاجه، أو عما هو مطلوب في مثل العالم الذي نعيش فيه اليوم، كل ما افترض أنه ضروري، لكي تولد المعادلة الجديدة، أن يكون في قمة الهرم بحارة شجعان كسروا قضبان سجن الصحراء وانطلقوا، عبر البحر، وليس عبر صحاري أخرى، لكي يمثلوا نموذجاً، يحتاجه هذا العصر.

هز رأسه كمن يفيق من النوم، أو كمن يختبر نفسه بعد صدمة قوية، وبعد قليل:

ـ لا أخفي عليك، يا صاحب السمو، إنني مشوش، إذ بمقدار ما تبدو لي الصورة واضحة، وكأنها جوهرة في الظلمة، إلا أنها زلقة مثل سمكة، أو خادعة مثل نقطة نوز تسقط من مكان عالٍ. أحس الأشياء بغزارتها الأولى وتدفقها، لكن لا أقوى على مسكها، وهذا ما يعطي حديثي نسقاً مضطرباً وغامضاً.

ضحك فنر، وكان ضحكه أقرب إلى القهقهة، لأن حالة الانفعال التي سيطرت، فجأة، على هاملتون، جعلته مضطرباً حنقاً. تابع دون أن يأبه لهذه المقاطعة:

ـ اعترف أن الدوافع الحقيقية لوجودي هنا لم تعد واضحة حتى بالنسبة لي. ربما كنت أعرف، من قبل، لماذا جئت أكثر مما أعرف الآن. صحيح أنني قدمت بعض الخدمات، وأديت بعض المهمات التي كُلّفت بها، كما

أتيحت لي الفرصة لأن أطلع وأعرف أكثر من قبل، ويمكن أن أكتب كتاباً أو أكثر عن الآثار، لكن، مع ذلك، أشعر أنني افتقدت التركيز اللازم، أو بالأحرى أصبحت أكثر حيرة وأكثر قلقاً. أو بكلمة دقيقة أصبحت أقل يقيناً.

وتذكر كلمات عمته، ماركو. منذ سنوات طويلة قالت كلمات لا يزال رنينها يعاوده بين فترة وأخرى. كان هو وكان أبوه، وكانوا يتناقشون فيما إذا من الأفضل بالنسبة له البقاء في لندن أو السفر إلى الهند، وكان هو متردداً وحائراً. قالت عمته:

ـ مشكلة هاملتون، وابتمست، إنه نصفان: نصفه شاعر ونصفه مفكر...

وابتسمت أكثر من قبل وهي تضيف:

ـ ولا أعرف أي نصفيه الشاعر وأي نصفيه المفكر، ولا أعرف أي النصفين سوف يتغلب في النهاية.

ابتسم أبوه وقال بسخرية لاذعة:

ـ ولا أحد يعرف ما إذا كان مقسوماً عمودياً أم أفقياً!

استعاد هاملتون مع عمته ذلك الحديث بعد سنوات طويلة، ابتسمت، وأضافت العمة في المرة الثانية:

ـ وربما الأصح أن استبدل كلمة شاعر بكلمة مغامر.

تذكر هاملتون هذه القصة وهو يتدفق، اضطرب، قال لفنر:

ـ من حسن حظي أني لم ألتحق بسلك التدريس، لأن هذا السلك يوحي للمدرس أنه ينقل اليقين للآخرين، والآخرون ينتظرون من المدرس هذا اليقين، دون أن يكلفوا أنفسهم امتحان القناعات بشكل جدي، ودون رغبة بتبادل الأدوار.

وبعد قليل وهو ينهض لكي ينهي الحديث ويريّض جسده:

ـ يمكن أن نتحدث حول هذا الموضوع في وقت لآخر!

لقد جرى هذا الحديث في بداية إقامتهما في العوالي، وكان هاملتون

في أوج حماسه واضطرابه معاً. إذ ربما افترض، خلال فترة سابقة، أنه يستطيع أن يؤدي دوراً بين طرفين بحاجة إلى بعضهما، وبحاجة إليه، وهذا الدور إذا تعدى ساعي البريد، أو المشورة التي قد يؤخذ بها أو تهمل، فإنه لا يرقي إلى درجة يمكن أن يجسد فلسفة طالما راودته بغموض، أو حلم بها في ليالي الصحراء الناعمة المديدة.

الآن، يقف في مواجهة التحدي الذي طالما انتظره. صحيح أنه كان في فترات سابقة يعرف ما يجب أن يعمله، وكان متأكداً وراغباً، لكن مثل أشياء كثيرة في هذه الحياة، لا يقدّر الإنسان مدى إمكانياته في ممارستها إلا حين يمارسها بالفعل.

المشاكل الكبيرة والصغيرة لها الأهمية نفسها، في هذه الفترة الدقيقة: فتح شارع، أو تأمين المواد التموينية لإحدى المناطق، أو مواجهة نتائج سيل من السيول، تأخذ من وقت الأمير فنر، وبالتالي من وقته، المقدار نفسه الذي تأخذه مسألة غضب ابن مشعان، وسفره العاصف إلى مناطق الشمال ليلتحق بقواته، ونفس مقدار الوقت أيضاً الذي تأخذه مسألة ترتيب العلاقة بشكل كامل ونهائي مع بريطانيا العظمى أو إحدى الدول المجاورة.

قال هاملتون لنفسه، بعد أن داهمت السيول مناطق عديدة في العوالي وخربت وأتلفت الكثير: «لا بد أن تترك الفلسفة إلى الفلاسفة، يا هاملتون، أو أن تتركها إلى الوقت المناسب». والتفت إلى مواجهة السيول وآثارها. وبالإضافة إليها هناك آلاف الطلبات الصغيرة التي تبدأ بالمتسولين وتنظيف الشوارع، وليس هناك حدود لما يمكن أن تصله.

هذا الوضع لم يختره أحد، وإنما فرض نفسه، لأنه الشيء الوحيد الذي يكوّن الحياة والعلاقات، وبالتالي يحدد النتائج التي يمكن الوصول إليها الآن أو في المستقبل.

وإذا كان هاملتون يجد وقتاً فارغاً، بعد أن تنتهي الأعباء اليومية، وتنتهي هنا بمعنى أنه لم يعد من الممكن معالجة أكثر مما تمت معالجته ذلك اليوم، فإنه يكون متعباً ومنطفئاً، ولا يستطيع أن يستعيد نفسه إلا برشفات من الويسكي.

لقد اكتسب هذه العادة، مع عادات أخرى، من الهند، أثناء خدمته هناك. ورغم أن الكثيرين من الذين زاروا موران، أو عرفوا عاداتها، حذّروه من الشرب، إلا أنه لم يتوقف. كل ما فعله أنه غيّر الطريقة، فبدلاً من أن يشرب الويسكي مع الصودا، وبدل الكأس الكريستال التي كان يحرص عليها كثيراً، أصبح يشرب الويسكي جافاً ومن فم الزجاجة، بعض الأحيان. قال للسلطان، منذ الأيام الأولى لإقامته:

ـ . . . وأحب، يا صاحب الجلالة، أن أبلغك، حتى لا يأتي من ينقل إليك في المستقبل، أني أتناول مقداراً من الكحول، وأنا أفعل ذلك بناء لطلب الطبيب.

ولما التبست الكلمة على السلطان، وتساءل عن هذه «الكحول»، أوضح له أن الكحول هي الخمر. التفت السلطان في أكثر من اتجاه، ليتأكد أن أحداً لم يسمع، وأجاب:

ـ وإذا كانت هذي وصية الطبيب ما أحد يقدر يخالفها، يا الصاحب!

وبعد قليل ويهمس:

ـ بس يلزم تعرف، الله يسلمك، جماعتنا عقولهم مثل العصافير، إذا شافوا أو عرفوا ما نخلص من حلوقهم. والأحسن أنهم ما يشوفون ولا يعرفون!

والسلطان الذي تحسب وخاف ما لبث أن تأكد واطمأن، فهاملتون أشد حرصاً أن لا يعرف أحد، خاصة وأنه يشرب مقداراً محدوداً، ولكي «يفتّح خلايا الذهن وينشط الدورة الدموية» كما قال مرة، حين سأله السلطان. أكثر من ذلك حرص أن يحمل معه مقادير وافرة من الأدوية المعروفة، للأوجاع الطارئة أو للجروح. وما يكاد يواجه حالة أو وضعاً يستدعي التدخل أو تقديم المساعدة حتى يفعل. فالصيدلية التي يحملها معه في أسفاره، وكانت تكبر وتتسع فترة بعد أخرى، كان ضمنها «دواء الحصر» كما سماه السلطان ذات مرة، حين رأى عدداً من صناديق الويسكي تحمل إلى سيارة هاملتون!

أن يشرب إذن كأساً قبل الغداء، واثنين قبل العشاء، يجعله أكثر نشاطاً

وحيوية، ويستغرب كيف أن «دواء الحصر» كما أصبح هو يسميه أيضاً، يولد فيه هذا القدر من الانطلاق والذكاء ورغبة الحديث، إضافة إلى نسيان التعب أو الهموم.

حتى في المرات التي سافر إلى لندن، أو إلى أماكن أخرى، وانتفت الرقابة، وجد أنه يفضل تناول الويسكي دون إضافة الصودا أو الثلج. ولكي يبرر، حين سئل، قال:

ـ لقد صُنع كذلك ويجب أن يشرب بهذه الطريقة، لأن الإضافات، أياً كانت، تموهه، تغير طعمه الحقيقي، ومن يتعود على الطعم الحقيقي لا يستسيغ أية إضافات أخرى!

لقد عرض على فنر، في إحدى السفرات، أن يشرب، فلما تردد، لم يلحّ عليه، وانتهى الأمر بأن يشرب هو دون حرج، ويعرف الآخرون ولا يستنكرون!

في بعض الأمسيات، ورغم التعب والهموم، كان يعود إلى بعض الأحاديث التي ترتفع فوق اليومي والعادي. ذات ليلة، ورغم التعب، عاد مرة أخرى إلى البحر:

ـ . . . وكما ذكرت في مرة سابقة، البحر يولّد عقلية ونوعاً من السلوك والتصرفات مختلفاً عن مناطق الداخل وعن الصحراء. حتى المناطق الداخلية فإن سكان السهول يختلفون عن سكان الجبال، لأن الطبيعة تفرض قوانينها وتضطر الناس لأن يتكيفوا معها. . . ومن هنا كنت ألفت النظر باستمرار أن الصحراء لها أيضاً قوانينها، وربما تكون هذه القوانين أكثر صرامة وقسوة من أماكن أخرى، وهذا ناتج عن قسوة الصحراء ذاتها. أما البحر، وكذلك المدن البحرية، فإن رغبة الاكتشاف والاتصال مع الآخرين، أو استقبال الآخرين، تولّد بالضرورة عقلاً مختلفاً، تجعل الناس أكثر استعداداً لإقامة العلاقات، للسفر، لاكتساب معارف جديدة.

قال يونس شاهين، الذي لم يحضر المناقشة السابقة، وكان حاضراً هذه المرة:

- أتذكر يا مستر هاملتون، أني قرأت في بعض الكتب، أن بريطانيا ذاتها، والتي هي جزيرة يحيطها البحر من كل الجوانب، كانت خلال فترة طويلة معزولة عن العالم، وتشبه الكثير من الصحاري، لانقطاعها وعدم تواصلها مع الدول الأخرى.

قال فنر:

- جماعتنا، بموران، إذا الواحد منهم ما سافر مرة سافر مرتين. وما أن يفكوا أحمال السفر حتى يحزموا من جديد، وتلقاهم بكل مكان.

ابتسم هاملتون، هز رأسه عدة مرات، وكان لديه الكثير ليقوله:

- هذا بالضبط ما قصدت إليه يا طويل العمر: الإنسان إذا سافر، إذا اطلع واحتك بالآخرين، يمكن أن يكتسب معارف جديدة. والبحر بطبيعته وسيلة الاتصال الفعلية، وبريطانيا، حين كانت معزولة في تلك الجزيرة لم تستطع أن تفعل شيئاً، أما عندما ركب أبناؤها الشجعان سفنهم وانطلقوا، فقد تغيرت الأمور جميعها، أصبحوا يحكمون العالم كله، العالم القديم والعالم الجديد. ومن هنا اعتبر أن موران يجب أن تلتفت إلى البحر، أن تنتظر منه وأن تنظر إليه باستمرار...

كاد هاملتون يجري مقارنة بين فنر وخزعل، ليدلل على صحة وجهة نظره، لكنه تردد، فقال كلاماً عاماً:

- وحتى أبناء موران، يا طويل العمر، فإن الفرق كبير بين الذين سافروا واحتكوا واطلعوا وبين الذين لم يغادروا أماكنهم.

قال يونس:

- السفر، يا مستر هاملتون، يمكن أن يزيد المعارف، لكن الأهم من السفر هو الاستعداد الشخصي...

وابتسم وهو يتطلع إلى الأمير فنر:

- وأرجو ألا يفهم من كلامي التملق، لكن من المعروف والثابت أن أبناء الصحراء يتمتعون بذكاء فطري، ولديهم الاستعداد الذي لا تجد ما يشابهه في الكثير من المدن، حتى البحرية، ولا شك أن للصحراء دوراً في هذا المستوى من الذكاء!

ومرة أخرى بدا هاملتون غير قادر على أن يوصل فكرته، كما يريد. قال في محاولة لأن يلتف عليها:

ـ هذا جوهر الموضوع الذي أردت أن ألفت النظر إليه: إذا استطعنا أن نستخدم الذكاء الذي ولدته الصحراء في الاتصال مع العالم، في بلورة صيغة، فيمكن لهذه الصحراء أن تلعب، مرة ثانية، دوراً خطيراً للغاية.

ويونس شاهين الذي جاء إلى موران، وأصبح من رجال خريبط الأساسيين، يعتبر أن الصحراء، ولا شيء غير الصحراء، هي التي ستعيد العرب إلى أمجادهم وأصالتهم، وبالتالي تجعلهم قادرين على أن يلعبوا دوراً تاريخياً. كما يعتبر أن الصراع المسيحي الإسلامي لم ينته، وأن الحروب الصليبية لا تزال مستمرة، ولذلك فإنه بمقدار ما يكره الافرنسيين ويخافهم، لا يطمئن للإنكليز. صحيح أنه يتعاون معهم، لكن يعتبر ذلك ضرورة أكثر مما هو قناعة.

في الأيام التالية، ومن وحي هذه المناقشة، ولأنه يعتبر نفسه مسؤولاً عن الجريدة، وبالتالي عن الفكر الذي يجب أن يسود السلطنة كلها، كتب يونس شاهين مجموعة من المقالات، وكلها إشادة بالصحراء وبالقادة الذين أنجبتهم، وتوقف طويلاً عند شعر الصحراء، وأورد أمثلة طويلة منه.

فنر الذي ابتسم أكثر من مرة، وهو يقرأ مقالات يونس شاهين، وقد وقعها «بفتى الصحراء»، لم يفته أن يونس هو الذي كتبها، وكتبها من وحي تلك المناقشة. أما هاملتون فقد اعتبر أن مناقشة من هذا النوع مفيدة «لأن المهم أن نحرك هذه البحيرة الراكدة» كما قال لنفسه.

ولأن المشاكل من الكثرة والأهمية بحيث لا تحتمل التأجيل، فقد جعلت أغلب الأشياء تقال مرة، ولا يعاد إليها إلا بالصدفة، أو إذا جدّ بما يذكّر بها.

«**قيل**: كان في الزمن الأول ملك يشرب وأهل ناحيته من ماء السماء، فقال له منجموه: أنّا نجد في علمنا أنه من شرب من ماء هذه السنة المقبلة تغير عقله وخولط، فإن رأى الملك أن يأمر بادخار الماء لنفسه وخاصته فليفعل، ولا يشربوا من ماء هذه السنة المقبلة. فأمر بالمصانع فاتخذت وادُّخر فيها من الماء ما يكفيه ويكفي خاصته. فلما جاء المطر وشرب الناس منه تغيرت عقولهم، واختلطوا. وشرب الملك من الماء الأول هو وخاصته فلم يصبهم ما أصاب العوام.

«فلما رأتهم العامة في خلاف حالهم، قال بعضهم لبعض: إن ملكنا قد خولط وتغيرت عقله وعقول أصحابه. وما الرأي إلا خلعه والاستبدال به ملكاً منا: عاقلاً لم يتغير عقله. فبلغ ذلك الملك، فقال لوزيره وكتّابه ومنجميه: قد ترون ما أجمع هؤلاء عليه، فما الرأي؟ قالوا: الرأي أن نشرب من مائهم حتى نصير في مثل حالهم، فلا ينكروا منك ولا منا ما أنكروه. ففعل وخولط، فصار مثلهم وأصحابه، فلما رأت ذلك العامة قالت: قد برأ الملك وصلح أمره».

لقد استعاد السلطان خريبط هذه القصة أمام فنر عدة مرات، كان يعتبرها مليئة بالذكاء والفطنة، وكان يريده ألا ينساها، إذ غالباً ما يضيف، وهو يغمض عينيه قليلاً، فلا تبينان إلا كخيطين سوداوين كثيفين ويخرج صوته حكيماً:

ـ لأنه إذا جنّ قومك عقلك ما يفيدك.

وقد أضاف مرة أو مرتين، أيضاً:

ـ واللي يرافق القوم أربعين يوم يصير منهم!

حاول فنر، بجهد، أن يكتشف الحكمة في هذه القصة، فلم يجدها. إنها تختلف عن القصص الكثيرة التي سمعها في عين فضة، وتختلف عن الأمثال التي كانت تتردد هناك. وإذ بدت قصص أخرى، كانت تروق لأبيه، وكثيراً ما طلب من عبد الله البخيت أن يرددها على مسامعه، مرة بعد أخرى، مفهومة، أو ربما مقبولة، فإن عدداً آخر من الأسماء والكتب، وكان يحرص عليها السلطان، لم تكن كذلك، وظلت هكذا حتى وقت متأخر.

قال فنر لعنان بسيوني ذات مرة:

ـ وبروحتك لمصر أريدك، الله يسلمك، تجيب لي ما كتبه القالي والشاوي، ومعهم النجار والإسكافي!

وعنان الذي فوجئ بالطلب، دارت عيناه مثل قط، ولا يفعل ذلك إلا «إذا شغّل الماكنة الاحتياط» كما يقول بمرح، فيما لو واجهته أسئلة غير متوقعة أو حرجة، إذ يعطي لنفسه مهلة إضافية ليتذكر أو يفكر بما وراء السؤال، قبل أن يتورط بالإجابة، رد بمرح وأريحية:

ـ نجيبهم يا صاحب السمو، ونجيب الشوباصي، حتى يقسم بينهم بالعدل والقسطاس!

قال فنر بسخرية:

ـ ما نخلص من القالي إلا ويسأله: والإسكافي شنهو اللي قاله عن سالفة عمر وسلمان الفارسي» وابن البخيت: حاضر، يبدأ وكأنه يقرأ بكتاب:

«لما خطب سلمان الفارسي إلى عمر بن الخطاب ابنته فلم يستخبر رده، فأنغم له وشق ذلك عليه وعلى ابنه عبد الله، فشكا ذلك عبد الله إلى عمرو ابن العاص، فقال له: أفتحب أن أصرف سلمان عنكم؟ فقال له: هو سلمان وحاله في الإسلام حاله. قال: احتال له حتى يكون هو التارك لهذا الأمر والكاره له، قال: وددنا أنك فعلت ذلك. فمرّ عمرو بن العاص بسلمان في طريق، فضرب بيده على منكبه وقال: هنيئاً لك يا أبا عبد الله، قال له: وما ذاك؟ قال: هذا عمر يريد أن يتواضع بك فيزوجك، فقال:

وإنما يريد أن يزوجني ليتواضع بي؟ قال نعم، قال: لا جرم، والله لا أخطب إليه أبداً!».

قال عنان بسيوني بأبّوة

ـ هذان من شيوخ العرب وأكثرهم حكمة، يا صاحب السمو، فإذا تأملت فيما قالاه وما كتباه لا بد أن تعجب.

ضحك فنر وسأله:

ـ وقصة القرد؟

ـ ما هي قصة القرد»

ـ «قيل كان رجل يسخر بالناس ويدعى أنه يرقى الضرس إذا خرب على صاحبه، فكان كلما أتاه من يشتكي من ضرسه قال له إذا رقاه: إياك أن تذكر القرد إذا صرت إلى فراشك، فإنك إذا ذكرته بطلت الرقية. وكان أحدهم إذا صار إلى فراشه أول ما يخطر على باله القرد، فيبيت على حاله من وجعه، فيغدو إلى من رقاه، فيقول له: كيف بتّ؟ فيقول بت وجِعاً. فيقول: لعلك ذكرت القرد؟ فيقول: نعم. فيقول: من ثمّ لم تبرأ».

قال عنان:

وسمعته يحدث السلطان بهذه القصة: «وحكي أن المنصور جلس في إحدى قباب مدينته، فرأى رجلاً ملهوفاً مهموماً يجول في الطرقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله، فأخبره الرجل أنه خرج في تجارة فأفاد منها مالاً، وأنه رجع بالمال إلى منزله فدفعه إلى أهله، فذكرت امرأته أن المال سرق من بيتها، ولم ير أثر ثقب أو تسلق. فقال له المنصور: مذ كم تزوجتها؟ قال: منذ سنة. قال: أفبكر تزوجتها؟ قال: لا. قال: فلها ولد من سواك؟ قال: لا. قال: فشابة هي أم مسنة؟ قال: بل هي حدثة. فدعا له المنصور بقارورة طيب كان يتخذ له حاد الرائحة غريب النوع، فدفعها إليه وقال له: تطيب من هذا الطيب، فإنه يذهب همومك (يقويك).

فلما خرج من عند المنصور، قال المنصور لأربعة من ثقاته: ليقعد على كل باب من أبواب المدينة واحد منكم، فمن مر به أحد فشم منه رائحة هذا الطيب، وأشمهم منه، فليأتِني به. وخرج الرجل بالطيب فدفعه

إلى امرأته وقال لها: وهبه لي أمير المؤمنين، فلما شمته بعثت به إلى رجل كانت تحبه، وقد كانت دفعت المال إليه، فقالت له: تطيب من هذا الطيب فإن أمير المؤمنين وهبه لزوجي. فتطيب منه الرجل ومر مجتازاً ببعض أبواب المدينة، فشم الموكل بالباب رائحة الطيب منه، فأخذه وأتى به إلى المنصور. فقال له المنصور: من أين استنفذت هذا الطيب، فإن رائحته غريبة معجبة! فلجلج الرجل واختلط كلامه. فدعا المنصور بصاحب شرطته فقال له: خذ هذا الرجل إليك، فإن أحضر كذا وكذا من الدنانير فخله يذهب حيث شاء، وإن امتنع فاضربه ألف سوط من غير مؤامرة. فلما خرجا من عنده دعا صاحب شرطته وقال له: هول عليه وجرده، ولا تقدم بضربٍ حتى تؤامرني.

فخرج به صاحب الشرطة، فلما جرده وسحبه، أذعن برد الدنانير كهيئتها، فأعلم المنصور ذلك، فدعا بصاحب الدنانير وقال له: أرأيتك إن رددت عليك الدنانير بأعيانها تحكمني في امرأتك؟ قال: نعم. قال: فهذه دنانيرك، وطلق المرأة، وخبره خبرها».

هز فنر رأسه وقال:

- هذه قصة تدل على الذكاء وبعد النظر.

طال عنان بسيوني بثقة ومرح:

- وقرأت قصة أخرى في لطف التدبير للإسكافي، وأريدك أن تسمعها يا طويل العمر، لعلها تفيدك.

قال فنر، هات، رد عليه عنان:

- «حدث أبو عبد الرحمن عن شعبة عن قتادة عن جابر بن زيد عن الربيع ابن زياد الحارثي، قال: ما أظن أحداً خدع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، غيري، وأعوذ بالله أن أقول أنها خدعة، ولكنها توفيق من الله عز وجلّ: كنت عامل أبي موسى على البحرين، فكتب عمر إلى أبي موسى: أنّ وافني بعمالك إذا صدرت عن الموسم. قال: فقدمنا مع أبي موسى، فلما كنا بصرار سبقت أصحابي إلى المدينة، فلقيت يرفا، حاجب عمر رضي الله عنه، فقلت له: يا يرفا، سائل ومسترشد، فأرشدني أرشدك الله،

فقال: سل عما بدا لك. فقلت: على أي حال يحب أن يرى أمير المؤمنين عامله؟ قال: يحب أن يراه أشعث أغبر دميم الثياب عافي الشعر. قلت: أي الطعام أحب إليه؟ قال: ما جَشُب وغلظ.

قال: فانطلقت إلى منزلي فتجوعت يوماً وليلة، ولبست أطماري، ووافيت أصحابي بباب أمير المؤمنين عمر ويسحبون حللهم. قال: فدعي أبو موسى فدخل، ثم دعي بنا فدخلنا، فاصطففنا بين يديه. وصعّد فينا البصر وخفضه، فوقفت عينه عليّ. فقال: هكذا. وأشار إليّ أن أقبل، فدنوت. فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد بن أنس بن الريان الحارثي. فقال بيده هكذا، أي تنحّ، فتنحيت. فصعد فينا البصر وخفضه، فوقعت عينه عليّ، فقال بيده أن أقبل، فدنوت، فقال لي: ما تلي من عملنا؟ قلت: البحرين فقال: يا أبو موسى، كيف هذا؟ قال كالخبر. ثم قال بيده (أن تنح فتنحيت، ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال بيده) أن أقبل، فدنوت، فقال: كم ترتزق؟ قلت: خمسة دراهم في كل يوم. قال: مع عطائك؟ قلت: نعم. قال: كثير، مذ كر وليتها؟ ثم قال بيده فتنحيت. ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال بيده أن أدن فدنوت، فقال: كم أنت لك؟ قلت: أنا في ثلاثة وأربعين، يعني سنة، قال ذلك حين استحكمت سنك. ثم قال بيده، فتنحيت. ثم صعد فينا البصر وخفضه، ثم قال: اجلسوا، فجلسنا. ودعا بطعامه، فأُتي بجفنة فيها ثريد قلّة[1] ولحوم ابل، قال: فأما أصحابي فعهدهم بالطعام اللين حديث، وأما أنا فكنت جائعاً. قال: فأقبلت آكل وهو يلاحظني، ثم أُسقطت بكلمة تمنيت أن تنشق بي الأرض فأدخل فيها، فقلت لأمير المؤمنين: لو كان طعامك الذي تأكل الين من هذا. فرفع رأسه، قال هيه، قلت ماذا؟ فأدركتها، فقلت: لو كنت تعمد إلى قوتك من الخبز فيخبز لك في الساعة التي تريد أكله فيها أتيت له ليناً، ولو نظرت إلى قوتك من اللحم فطبخ لك في الساعة التي تريد أكله فيها، أتيت به غضباً. قال: أوَ هناك فرق؟ قلت: نعم، قال: أنا والله لو

(١) الثريد: الخبز المبلل بالمرق.

شئنا أن نملأ هذه الرحاب التي ترى من صلائق[1] وناب[2] وكراكر[3] وأسنمة[4] وسبائك، يعني خبز الرقاق، فعلنا، ولكن سمعنا الله يقول: إذ هبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون» ثم التفت إلى أبي موسى فقال: يا أبا موسى، إذا انصرفت إن شاء الله صالحاً فأعزل هؤلاء جميعاً وأترك هذا على عمله».

كانت تلك طريقة السلطان خريبط في تعليم أبنائه، وقد أوعز «للمعلمين» أن يفعلوا مثلما يفعل، فاحتال المعلمون، كل بطريقته، في إيصال «العلوم»، واختلف الأبناء في استيعاب هذه العلوم!

وإذا كان فنر يتذكر أن أفكاراً أو كلمات أثرت عليه، فتلك التي سمعها في طفولته. يتذكرها بوضوح، يستعيدها بلذة، وتتألق في لياليه، أكثر من القصص التي تتردد في مجلس أبيه. لا يزال يتذكر أمثال جدته وأحاديثها، أما أحاديث مجول المهنا في عين فضة، فلا يمكن أن تنسى أبداً، وكذلك أشعار مزبان الحمد، وصوت سعد الجريان.

كان سعد الجريان إذا غنى لا يبقي أحداً في عين فضة إلا ويحمله على الركض لكي يسمع صوته؛ ويبالغ الذين يحبونه فيقولون أن صوته لا يطرب البشر وحدهم، بل ويجعل الحيوانات الهائجة تهدأ وتستجيب، وكثيراً ما سمعت الطيور، حتى في الليل المتأخر، تشاركه التغريد. وأكد هؤلاء أن شلعة من الغزلان كانت تمر بالقرب من عين فضة، في إحدى الليالي، وحين سمعت سعد يغني توقفت، ثم اقتربت، وقبل أن تنتهي الليلة أصبحت لا تخاف ولا تجفل من البشر. ويبالغ بعض هؤلاء فيقول إنها أصبحت أليفة بعد تلك الليلة، وأخذت تجيء بعد غروب كل يوم، ولا تردد في أن تتناول الطعام من أيدي المسنين، إلى أن تحولت إلى مخلوقات

---

(١) الصلائق: مفردها الصليقة، وهي اللحم المشوي الناضج.

(٢) الصناب: ادام يتخذ من الخردل والزيت.

(٣) الكراكر: مفردها الكركرة، وهي الصدر من كل ذي خف، وزور البعير الذي إذا برك أصاب الأرض، وهي من أطايب ما يؤكل في الأبل.

(٤) الأسنمة، جمع سنام.

وديعة لا تريد مغادرة عين فضة، وهذا ما دعا فهيد الجريان، ابن عم سعد، وأبرز الذين يرددون الغناء معه، أن يتحول إلى راعٍ ويسرح بالغزلان، وقيل أنه أصبح يركض مثلها، وبعض الأحيان يسابقها ويسبقها، مما جعل شباب القرية يسمونه: فهيد الغزال الجريان!

هكذا يتذكر فنر أيامه في عين فضة. أما حين كبر وانتقل، وبعد أن حملته تلك السفرات إلى الأماكن البعيدة، وسمع ورأى الكثير، ثم بعد ذلك، لما أصبح حاكماً في العوالي، وقامت بينه وبين هاملتون تلك العلاقة، فإن شيئاً، أشبه بالزلزال، غيّر حياته كلها، وسيطر عليه تماماً: كان ذلك نتيجة «الوصايا» الي جاء بها هاملتون في إحدى سفراته.

فلأوّل مرة، منذ سنوات طويلة، يرجع هاملتون مشتعلاً ومليئاً بالتفاؤل والأفكار والأحلام: رجع يحمل تأكيدات بريطانيا العظمى أنها مع السلطان «إذا كان السلطان مع نفسه»، وبالتالي استعدادها لتسوية كافة مشاكل الحدود، إذا استطاع السلطان أن يضبط القوى التابعة له؛ وإثباتاً لحسن النية وتعبيراً عن المودة: منحة مالية، فوق المعونة المقررة.

ورجع هاملتون أيضاً بشهادة تقدير من الجمعية الجغرافية، مع وسام رفيع، على كشوفه الصحراوية السابقة، مع تمن من الجمعية لو يستطيع اجتياز الصحراء من الشمال إلى الجنوب، وتسجيل ملاحظاته ومشاهداته، ودعوة لإلقاء سلسلة من المحاضرات خلال الصيف القادم، أو في أي وقت آخر يحدده ويكون أكثر ملاءمة له، وهذه المحاضرات لن تقتصر على بريطانيا، إذ من الضروري أيضاً أن تنتقل إلى كندا واستراليا. أما إذا تم الوصول إلى كشوف جديدة فسوف يكون ذلك مدعاة للاعتزاز والفخر، لأنه سيكون أول بريطاني يقطع الصحراء من الشمال إلى الجنوب.

بالنسبة لفنر كان هاملتون يحمل هديتين: رسالة من مس ماركو، وجواهر انتقاها من الكتاب الذي لا بد لكل حاكم أن يلم بها إلماماً دقيقاً، جواهر «الأمير» وقد سماها «الوصايا».

هذه الإنجازات جعلت هاملتون إنساناً جديداً، ومثلما سافر عن طريق البحر والطائرة، عاد أيضاً عن طريق الطائرة والبحر. لم يتوقف في القاهرة

سوى أيام قليلة، وبناء لرغبة عنان بسيوني، الذي كان مشتاقاً لزيارة الأهل والأصدقاء، ورغم الأفكار الكثيرة التي راودته أثناء السفر، خاصة فيما يتعلق ببناء الدولة الجديدة، ويمكن أن يبدأ تجربته في العوالي، إلا أنه كان متردداً بين أن يسلم جواهر «الأمير» لفنر دفعة واحدة، وبين أن يلقنها له مادة فمادة، موقفاً فآخر. لكنه في جو الانفعال، وهو يتحدث مع الأمير، في الليل المتأخر، وكانا على شرفة قصر الهازعي، وبعد أن شرب كأساً من الويسكي بدد التعب والتردد، قال وهو يستخرج الأوراق من حقيبة صغيرة، لم تكن بعيدة عنه:

ـ قد تبدو، يا صاحب السمو، الأوراق التي سأقدمها لك الآن قليلة العدد، وقد يبدو قسم منها غير مفهوم، ربما نتيجة الترجمة، مع أني استعنت باثنين ساعداني في هذه المهمة، أو ربما لا تتطابق مع أوضاع هذه المنطقة أو هذه المرحلة. . .

كاد يتوقف، فقد أحس أن هذه البداية، وبالطريقة المتواضعة التي يعرض بها سلعته، قد تقلل من أهمية الهدية. تنحنح فجلا صوته:

ـ هذا الكتاب الذي ترجمت الأقسام الأساسية منه، يا صاحب السمو، كان فقط في خزائن الملوك، وكان الملك الأب، حين يبلغ ابنه مبلغ الرجال، ويتوسم فيه القدرة على متابعة الطريقة وحماية التاج، يقدمه إليه بالكثير من الاحترام والأبهة، لأن فيه نصائح وتجارب صنعها عقل فذ، وبالتالي أصبحت قوانين لأجيال متعاقبة من الملوك والحكام. . .

ابتسم، وكانت ابتسامة أقرب إلى الضحك الساخر، واسترسل:

ـ بعض الناس يحبون أن يلخصوا البحر بقطرة ماء، والصحراء بحبة رمل، ولذلك يقعون في خطأ فادح، وغالباً لا يشعرون بهذا الخطأ إلا في وقت متأخر، وهكذا لخص بعض المؤرخين المثاليين كتاب الأمير بكلمة لا تعبر عنه، قالوا: «الغاية تبرر الواسطة»، إن هذه لا تعني شيئاً إزاء البحر والصحراء.

استراح قليلاً، عبّ قطرات من الويسكي، ولا تزال الأوراق بيده

اليسرى، وكأنه يؤخر تقديمها، فلما أحس أن كلماته تسربت إلى فنر غيّر نبرة الصوت:

ـ الوصايا التي عبر عنها «الأمير» ليست لليوم والغد، إنها للحياة كلها، وقد تنقضي الحياة أيضاً دون أن تطبق جميعها، ومع ذلك، ومثلما يتعلم الطبيب أعراض الأمراض وكيفية علاجها، فيجب على الحاكم أن يتعلم ما جاء في هذا الكتاب، لكي يستطيع أن يواجه المصاعب والمشاكل والأزمات. . .

ولكي يتغلب عليها أيضاً قال فنر بدعابة، وقد شاقه حب الاستطلاع:

ـ عطني، طال عمرك، وما يكون لك فكر، ولك عليّ أن أحفظه!

اقترب منه هاملتون، حتى كاد يلامسه، وقال بهمس:

ـ إن قراءته أو حفظه لا تعني شيئاً كثيراً، أو بالأحرى، لا تعني الشيء الأهم.

تراجع فنر قليلاً وهو ينظر إليه لكي يكتشف ما إذا كان جاداً أو مازحاً، تابع هاملتون بانفعال:

ـ المهم، يا سمو الأمير: أن يُفهم بعمق، أن يستوعب، وأيضاً أن يضاف إليه مقدار هام من البداوة، لكي يلائم هذا المكان وهذه المرحلة، لأنه بدون البداوة كمن يزرع ثماراً استوائية في القطب!

بدا الأمر لفنر مثيراً وطريفاً في آن واحد، تساءل:

ـ وهذا صاحبكم، اللي سوى هذي العلوم كلها، حي أو ميت؟

تطلع إليه هاملتون وابتسم، إذ لمح في كلامه ما يشبه السخرية، تابع فنر:

ـ يعني إذا كان موجوداً، نقول له تعال يا ابن الحلال، تعال عندنا بزيارة، مثل ما يجي الطبيب إذا البني آدم احتاجه.

ـ لقد مات هذا الرجل، يا صاحب السمو، منذ مئات السنين، لكن تعليماته لا تموت، تتجدد مع كل نظام، وتلبس دائماً الأزياء المحلية والشعبية في البلد الذي تطبق فيه!

تخوف فنر قليلاً، تساءل بنبرة حذرة:

- خاف يكون واحد من الأنبياء، وخاف تريدني أصير نصراني؟

قهقة هاملتون، وبعد أن هدأ:

- لا أريد أن أشرح أكثر من ذلك، إليك هذه الأوراق، اقرأها بإمعان، وسوف تتحدث عن ذلك طويلاً في المستقبل.

أخذ فنر الأوراق، قلبها، لم يقرأ إلا كلمة هنا وكلمة هناك، قاطعه هاملتون:

- تتذكر، يا صاحب السمو، أحاديثنا قبل شهور حول الصيغة أو المعادلة التي يجب الوصول إليها من أجل بدء مرحلة جديدة؟ لقد ذكرت لك أنه إذا أمكن دمج الصحراء والبحر والدين في معادلة فعندئذٍ يمكن الحديث أن دولة جديدة ولدت في هذا الشرق، ويمكن أن يكون لها مستقبل هام.

وفنر الذي كان أكثر رغبة لمعرفة تفاصيل السفرة والنتائج التي تم الوصول إليها، تذكر بعض المناقشات المضطربة التي جرت بينه وبين هاملتون، قال في محاولة لأنِ يعطي الأمور مساراً متواضعاً:

- حنا، طال عمرك، إذا حلينا مشاكلنا ودبرنا أمورنا، ترانا بألف خير، وما نريد أكثر من كذا.

قال هاملتون بثقة:

- كل ما أريده منك، يا صاحب السمو، أن تقرأ، بعناية، الأفكار الأساسية التي اخترتها لك. لا أريد أن تطبّق بالكامل، بحرفيتها، المهم أن تستوعب، وأن تتحول إلى صيغة تلائم هذه البلاد وهذه المرحلة.

تطلع فنر مرة أخرى، في ظلمة المساء إلى الأوراق، لم يميز الحروف، ولم يقرأ شيئاً، قال وهو يكوزها على شكل اسطوانة:

- وعد، يا مستر هاملتون، أن أحفظها، أكثر من أن أقرأها، وبعدها نشوف...

وابتسم قليلاً ثم سأل:

ـ والسفرة. . . إنشاء الله كانت زينة؟ والنتائج، إنشاء الله، كانت مثل ما تريد؟

ـ وأكثر من ذلك، يا طويل العمر.

وفي اليوم التالي، سافر هاملتون بالسيارة إلى موران، لكي يحمل إلى السلطان النتائج التي توصل إليها. وعنان بسيوني الذي كان رفيقاً في السفر، وقد عاد معه، كان أميل إلى الصمت، إذ لم يشارك إلا بعبارات عامة، وأكدّ أن النتائج كانت مرضية، ولم يضِف أكثر من ذلك.

كانت، أولاً، رسالة مس ماركو، ودية وقصيرة:

«سمو الأمير

كنت أتوقع، بل وأتمنى، أن أراك هنا مرة أخرى، فالشوق الذي أحسه نحوكم يجعلني، في أحيان كثيرة، أفكر أن الأصدقاء يجب أن يلتقوا، وأن يتبادلوا الأفكار والتجارب. صحيح أنه ليس لدي تجارب يمكن أن تفيدكم، أو تساعدكم على أداء مهماتكم المباشرة، لكن، مع ذلك، فإن تبادل القصص، وحتى التجارب الشخصية، يمكن أن تساعد في رؤية أفضل، خاصة وأن هاملتون ذكر لي الكثير عن المهمات اليومية التي تواجهونها.

عزيزي سمو الأمير

لو كنت أصغر سناً، وبالتالي لو كنت أكثر قوة ونشاطاً، لما ترددت في أن أعرض عليكم خدماتي، فأنا متأكدة أن بلادكم بحاجة إلى الكثير من الجهد والعمل، وفي كل المجالات، ومع ذلك، فإني لم أتردد، رغم الشيخوخة، في أن أضع نفسي تحت تصرفكم، فيما لو كانت خدماتي الطبية مفيدة لبلادكم. طبيعي لن أستطيع أن أفعل أو أن أبدأ كما كان الأمر في سيلان، لكن مع ذلك فقد أكون مفيدة في مستوى معين ولمرحلة محدودة، أترك لكم التقدير وتقبل تحياتي وتقديري، سمو الأمير».

أما الصفحات المختارة التي قدّمها هاملتون فكانت كما يلي:

«مختارات من كتاب الأمير:

«على كل من يضع يده على الممتلكات ويود الاحتفاظ بها، أن يجعل

نصب عينيه دائماً أمرين في منتهى الأهمية: أولهما: إبادة الأسرة الحاكمة السابقة، وثانيهما عدم أحداث تبدل جوهري في قوانين هذه الممتلكات وضرائبها، وبهذه الطريقة يمكن للبلدين أن يتحدا في وقت قصير، وأن يؤلفا دولة واحدة».

«وفي سبيل الحفاظ على الممتلكات الجديدة فإن خير الوسائل وأكثرها طمأنينة هو أن يقرر الحاكم الجديد إقامة مقره في الممتلكات الجديدة، وهذا القرار يجعل الامتلاك أكثر سلامة وأطول أمداً».

«إن علينا إما أن نعطف على الناس، أو أن نقضي عليهم، إذ ان في وسعهم الثأر للإساءات الصغيرة، أما الإساءات الخطيرة والبالغة فإنهم أعجز من أن يثأروا لها. ولذا إذا أردنا الإساءة لإنسان فيجب أن تكون الإساءة إلى درجة بالغة لا نضطر بعدها إلى التخوف من انتقامه».

«القاعدة العامة تنص على أن الأجنبي القوي، عندما يدخل إمارة، فإن الضعفاء من أهها يصبحون فوراً من أنصاره».

«وعلى حاكم المقاطعة أن يقيم نفسه زعيماً لجيرانه الضعفاء، وحامياً لهم، وأن يحاول إضعاف الأقوياء منهم».

«للأمير في الدول التي يحكمها الأمراء وموظفوهم سلطة أكبر وأوسع، إذ ليس في الدولة من يعتبر في منصب الرفعة سواه، وإذ كانت الطاعة مفروضة لغيره، فلأنهم من وزرائه وموظفيه، وليست لهم أية اعتبارات خاصة، كما لا يحمل الناس لهم أية عاطفة معينة».

«بالنسبة إلى الممالك الجديدة، حيث يوجد أمير جديد تتوقف سهولة السيطرة أو صعوبتها على ما يتمتع به المسيطر من مقدرة فائقة أو ضئيلة»،.

«... أثبتت الأيام أن الأنبياء المسلحين قد احتلوا وانتصروا، بينما فشل الأنبياء غير المسلحين».

«تختلف طبيعة الشعوب، وقد يكون من السهل إقناعها بأمر من الأمور، ولكن من العسير إبقاءها على هذا الاقتناع، ولهذا أصبح من الضروري فرض الأمور عليها، حتى إذا توقفت عن الاقتناع أرغمت عليه بالقوة».

«إن على المحتل، عند احتلاله لدولة من الدول، أن يتخذ التدابير اللازمة لارتكاب فظائعه فوراً ومرة واحدة، وأن لا يعود إليها من يوم إلى آخر، وهكذا يتمكن عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة من خلق الطمأنينة عند شعبه، واكتسابه إلى جانبه بواسطة المشاريع النافعة له».

«أما المنافع فيجب أن تمنح قطرة فقطرة، حتى يشعر الشعب بمذاقها ويلتذ بها».

«إن الأمير الذي يعجز عن إدراك ما يقع في دولته من مشاكل عند وقوعها إنسان تعوزه الحكمة الصادقة».

«على الأمير أن لا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وأن لا يفكر أو يدرس شيئاً سواها، إذ أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة».

«وكثيراً ما يرى الإنسان أن الأمير الذي يفكر بالترف والرخاء، أكثر من تفكيره بالسلاح، كثيراً ما يفقد إمارته، ولا ريب في أن ازدراء فن الحرب هو السبب الرئيسي في ضياع الدول وفقدها».

«وعلى الأمير أن يقرأ التاريخ، وأن يدرس أعمال الرجال البارزين، فيرى في أسلوبهم في الحروب، ويتفحص في أسباب انتصاراتهم وهزائمهم، ليقلدهم في هذه الانتصارات، ويتجنب الوقوع في الأخطاء التي أدت إلى هزائمهم، وأن يفعل كما فعل غيره من الرجال في الماضي، من تقليد لشخص انهال عليه المديح والتمجيد، وترك أعماله ومآثره مكشوفة للجميع».

«وعلى الأمير إذا كان يعجز عن ممارسة فضيلة الكرم دون المجازفة باشتهاره، أن لا يعترض إذا كان حكيماً عاقلاً على تسميته بالبخيل. وسيرى الناس، مع مضي الزمن، أنه أكثر سخاء مما كانوا يظنون، وذلك عندما يرون أنه على طريق تقتيره أصبح يكتفي بدخله، ويؤمن وسائل الدفاع اللازمة ضد كل من يفكر بإشهار الحرب عليه، ويقوم بمشاريع كثيرة دون أن يرهق شعبه، ويكون بذلك كريماً حقاً مع جميع أولئك الذين لا يأخذ منهم أموالهم، وهم كثر للغاية، وشحيحاً مع أولئك الذين لا يهبهم

المال، وهم قلة ضئيلة، وقد رأينا في عصرنا الأعمال العظيمة يحققها أولئك الذين يوصمون بالبخل، أما الآخرون فمصيرهم إلى الدمار».

«إن الأمير أما أن ينفق ثروته الشخصية أو ثروة رعاياه، أو ثروات الآخرين. وعليه في رأي أن يوفر ثروته. أما بالنسبة إلى الثروات الباقية فعليه ألا يهمل، ان يكون جواداً معطاءً».

«إذ ان إنفاقك أموال الآخرين لا يقلل من شهرتك، بل يرفع من قدرها، بينما إنفاقك لأموالك يلحق بك الضرر. وليس هناك ما هو أشد ضرراً على نفسه من الجود والكرم، إذ باستعمالك له تفقد قدرتك على استخدامه، وتصبح إما فقيراً وإما حقيراً، أو إذا رغبت النجاة من الفقر تضحى نهاباً سلاباً، يكرهك رعاياك. وعلى الأمير أن يتجنب قبل كل شيء أن يوصم بالحقارة، أو يتعرض للكراهية، ولا شك أن الكرم سيقوده إلى إحدى هاتين النتيجتين».

«ولذا على الأمير أن لا يكترث بوصمه بتهمة القسمة، إذا كان في ذلك ما يؤدي إلى وحدة رعاياه وولائهم».

«إن من الواجب أن يخافك الناس وأن يحبوك، ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين، فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك».

«وعلى الأمير أن يفرض الخوف منه بطريقة يتجنب بواسطتها الكراهية إذا لم يضمن الحب».

«إن الناس يحبون تبعاً لأهوائهم وإرادتهم، ولكنهم يخافون وفقاً لأهواء الأمير وإرادته، والأمير العاقل هو الذي يعتمد على ما يقع تحت سلطانه لا تحت سلطان الآخرين، وعليه فقط أن يتجنب الكراهية لشخصه».

«وعلى الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان، أي اللجوء إلى القوة، أن يقلد الثعلب والأسد معاً، إذ ان الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الإشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب. ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً يميز الفخاخ وأسداً ليرهب الذئاب».

«وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعده عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الإضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي دعته لإعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة».

«كم من المرات تنكر الأمراء لمواثيق السلام، فنقضوا معاهداتهم، وكم من المرات أضحت عهودهم لا قيمة لها من جراء تنكرهم لها، وأن يبرهن على أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً قد نجحوا أكثر من غيرهم. ولكن الضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة أن يجيد إخفاءها عن الناس، وأن يكون مداهناً كبيراً، ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع يجد دائماً أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم خديعته».

«وليس من الضروري، تبعاً لذلك، بالنسبة للأمير، أن يتصف بجميع ما أوردته من صفات، ولكن من الضروري أن يتظاهر على الأقل بوجودها فيه».

«وعليه أن يجعل الناس يرون فيه، ويسمعون منه، الرحمة مجسدة، والوفاء للعهود، والنبل، والإنسانية، والتدين، ولعل هذه الصفة الأخيرة هي أكثرها لزوماً وضرورة لأن الناس عموماً يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم، ولأن في وسع كل إنسان أن يرى، بينما لا يشعر إلا القليلون. فجميع الناس يرون ما تعمل، وكيف تبدو لهم. أما القلة فيحسون حقيقتك، وستتردد هذه القلة في معارضة رأي المجموع، الذين يعتمدون على جلالة الدولة في الدفاع عنهم، وفي اعمال جميع الناس، ولا سيما الأمراء، وهي حقيقة لا استثناء فيها، تبرر الغاية الواسطة».

«إن على الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، إذا كان الشعب راضياً عنه، أما إذا كان مكروهاً، ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل إنسان ومن كل شيء».

«ومن واجب الأمراء أن يعهدوا بالمهام التي لا يحبها الشعب إلى الآخرين، وأن يقوم هو بإغداق المنح والعطف».

«عندما يحتل الأمير دولة جديدة يضيفها إلى دولته السابقة، فمن واجبه أن ينزع السلاح من أهل تلك الدولة، باستثناء أولئك الذين وقفوا إلى صفه عند احتلالها. وعليه أيضاً، عندما تحين له الفرصة، ويحين الوقت المناسب، أن يضعف هؤلاء الأنصار ويخضعهم، وأن يرتب أموره بحيث يضمن نقل سلاح الدولة الجديدة إلى أيدي جنوده الذين يعيشون على مقربة منه في دولته السابقة».

«ويغدو الأمراء، دون شك، عظاماً عندما يتغلبون على العقبات والمعارضة، ولذا إن الحظ عندما يود أن يعلي من شأن أمير جديد، هو في حاجة إلى الحصول على الشهرة البالغة أكثر من زميله الأمير الوراثي، يخلق له الأعداء، ويرغم على شن الحروب عليهم، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم ليرتقي إثر ذلك عالياً السلم الذي وضعه أعداؤه في طريقه. ويؤمن الكثيرون، تبعاً لذلك، إن على الأمير العاقل، إذا أتيحت له الفرصة أن يخلق بمكر عداوات له، حتى إذا قهر أعداءه، ضاعف من عظمته».

«وكثيراً ما رأى الأمراء، ولا سيما الحديثون منهم، ولاء ونفعاً أكثر في أولئك الرجال الذين كانوا يشكون فيهم في بداية عهدهم من أولئك الذين أولوهم الثقة».

«ويبقى الأمير، أيضاً، بالغ الاحترام، إذا برهن على أنه اما أن يكون صديقاً مخلصاً أو عدواً لدوداً، وهذا يعني أن يعلن بلا تحفظ، عطفه على إنسان، وعداءه لإنسان لآخر، ولا ريب في أن هذه السياسة أفضل من البقاء على الحياد».

«وعلى الأمير أن يظهر نفسه دائماً ميالاً إلى ذوي الكفاءة والجدارة، وأن يفضل المقتدرين ويكرم النابغين في كل فن، وعليه أن يشجع، بالإضافة إلى ذلك، مواطنيه على المضي في أعمالهم».

«وعليه في الفصول المناسبة من السنة أن يشغل الشعب بالأعياد ومختلف العروض المسرحية وغيرها».

«ليس اختيار وزراء الأمير بالمسألة القليلة الأهمية، فهم اما أن يكونوا لائقين، أولا يتفقون مع فطانة الأمير وحسن تبصره بالأمور. والانطباع

الأول الذي يتولد لدى الإنسان عن الأمير وعن تفكيره يكون من رؤية أولئك الذين يحيطون به. فعندما يكونون من الأكفاء والمخلصين، يتأكد الإنسان من حكمة الأمير، لأنه استطاع تمييز هذه الكفاءة والاحتفاظ بهذا الإخلاص، أما إذا كانوا على النقيض من ذلك، ففي وسع الإنسان دائماً أن يأخذ فكرة سيئة، إذ ان الخطيئة الأولى التي يقترفها تكون في إساءة اختياره».

«هناك ثلاثة أنواع من العقول، أولها يدرك الأمور دون عون ومساعدة؛ وثانيها يدركها بمساعدة الآخرين وإرشادهم؛ وثالثها لا يدركها لا بالمساعدة ولا بدونها. الأول ممتاز، والثاني جيد، أما الثالث فلا جدوى منه».

«وهناك طريقة تمكّن الأمير من معرفة وزيره واختباره، وهي طريقة لا تخطئ أبداً. فعندما يفكر الوزير بنفسه، أكثر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يكون وزيراً نافعاً، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه، إذ ان من تعهد إليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر قط بنفسه وإنما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير؛ وعلى الأمير بدوره، لكي يحتفظ بولاء وزيره وإخلاصه، أن يفكر به، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم، مبدياً له العطف، ومانحاً إياه مظاهر الشرف، وعاهداً إليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الأموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة، ويجب أن تكون المناصب التي يشغلها مهمة إلى درجة يخشى على ضياعها».

«والأمير العاقل من يختار لمجلسه حكماء الرجال، ويسمح لهؤلاء وحدهم بالحرية في الحديث إليه، ومجابهته بالحقائق، على أن تقتصر هذه الحرية على المواضيع التي يسألهم عنها ولا تتعداها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء، وأن يستمع إلى آرائهم في كل شيء، وأن يفكر بعد ذلك بطريقته الخاصة».

«وعليه أن يتصرف في هذه المجالس، ومع كل من مستشاريه، بحيث يجعله واثقاً من أنه كلما تكلم بصراحة وإخلاص، كلما كان الأمير راضياً عنه، وعليه بعد ذلك أن لا يستمع إلى أي إنسان، بل يدرس الموضوع بنفسه على ضوء آراء مستشاريه، ويتخذ قراراته التي لا يتراجع عنها».

«وعلى الأمير أن يقبل النصيحة دائماً، ولكن عندما يريد هو، لا عندما يريد الآخرون، بل عليه أن لا يشجع مطلقاً المحاولات لإسداء النصيحة إليه، إلا إذا طلبها».

«وعليه في الحقيقة أن يغضب إذا رأى أحد مستشاريه يتردد في قول الحقيقة».

العبارة الأخيرة استوقفت فنر، استوقفته تماماً. صحيح أن المشاعر التي اعترته خلال قراءة هذه الوصايا كانت متفاوتة أشد التفاوت، فقد تناوب عليه الخوف والإعجاب والتساؤل، بل وتوقف في لحظات معينة، كي يعيد القراءة من جديد، ولكي يتساءل مرة أخرى. ومثلما يحس الإنسان أنه في حلم، حلم أنه قادر على تنفيذ هذه الوصايا، وأنه يريدها، وأحس أيضاً بالخوف، لأنه يريد أن يبقى وحده الذي يعرفها، لأن الآخرين إذا عرفوها فلا بد أن يكشف، أن يصبح عارياً.

قال في لحظة حزم «عليّ أن أتعلم كثيراً، وعليّ أن أصمت كثيراً، وعليّ ألا أظهر ما يجب أن أفعله، أما تطبيق ما يقول هذا الرجل فإنه...» ولم يستطع أن يكاشف نفسه، فقد بدا مضطرباً، أو كأنه لا يعرف، وشعر أيضاً بالحيرة، ولام نفسه أنه يملك هذا المقدار من اللذة في تعذيب الآخرين، أو عدم احترامهم، وتمنى أيضاً لو أن الآخرين الذي يعنيهم غير موجودين، أو لو كانوا بشكل لآخر. ومرت في ذاكرته صور كثيرة. العم دحيم، وأبيه، وخاله عمير، وابن مشعان، واضطرب من جديد. قال في نفسه: «ربما من المفيد أن يعرف الإنسان أقل، لأن المعرفة تعب». وتمثلت له صورة خزعل: يضحك يصخب، يأكل مثل وحش، يحب النساء كما يحب الهواء، وينام في النهاية كما تنام الحية. وفكر في نفسه: كل شيء يزعجه، يجعله يفكر ويقلق ويحتار، إضافة إلى أنه لا يحب

الأكل إلا بما يجعله قادراً على البقاء، والنساء. . . زينة الوحيدة التي كانت تعني له شيئاً، أما بعد أن تركته وذهبت، فإنه يشعر أن المرأة تحمل مقداراً كبيراً من الأشياء التي لا يحبها، خاصة بعد مجيء موضي، وتلك القصص التي روتها له عن قصر الروض، وكيف أن المرأة أصبحت مجرد فرج، ولا يعني لها الكثير أن تنام مع عبد أو خادم أو مع السلطان!

وتمنى لو كان مكان خزعل، قال في نفسه: «بداية مشكلة الإنسان أن أقرب الناس إليه هم أول خصومه». قال بعد أيام ليونس شاهين:

ـ أريدك أن تكتب في الجريدة أن موران أكبر من موران، وأن لها مهمة تتجاوز حدودها الجغرافية، لا بد أن تكون لها رسالة، وأن تكون لها أهداف.

ويونس شاهين لم يكن ينتظر إيعازاً مثل هذا، فقد كتب الكثير عما فعلته هذه الصحراء، ومع كل حدث أو حديث مجموعة من أبيات الشعر، بدءاً من الجاهلية، وحتى فترة متأخرة في تاريخ العرب.

قال مرة أخرى، بعد سلسلة المقالات التي كتبها:

ـ . . . ويجب أن يكون لموران دور في المستقبل.

فكتب يونس شاهين مجموعة من المقالات، فهم فنر جزءاً منها، ولم يفهم الجزء الآخر. وحين ورد ذكر هذه المقالات، بعد شهور، قال هاملتون، وهو لا يخفي ابتسامة السخرية:

ـ هناك أشخاص لديهم مقدرة فائقة أن يتكلموا كثيراً لكي لا يقولوا شيئاً!

فنر الذي ظل في تلك الحالة من الحيرة قرر أن يطلب من أحمد محمود الجمال أن يكتب له تلك الوصايا بخطه الجميل، وأن يضعها في غرفة نومه، لعله من خلال القراءة اليومية يعرف ما يجب أن يفعله في المستقبل. ولم يتأخر الجمال، فقد كتب هذه الوصايا بخط النسخ، وزينها، ووضعها فنر في غرفته!

كيف يمكن لبضع صفحات أن تغير إنساناً بهذا المقدار؟ وكيف يمكن لشخص أو حدث أن يفتح عالماً بهذا الاتساع كان إلى الأمس القريب غائباً مجهولاً؟

إن شيئاً أقرب إلى الكشف أو الزلزال حدث في فكر وحياة فنر منذ أن أخذ يمعن النظر في تلك الأوراق المكتوبة بخط النسخ الجميل، والموضوعة داخل غلاف جلدي بلون أخضر كامد، والقريبة من السرير.

كل ليلة يقرأ ويسافر في أحلامه إلى ما لا نهاية. كان يبدأ لكن لا يعرف متى انتهى أو كيف. فالكلمات الصماء التي تمر تحت ناظريه، لا تلبث أن تتحول إلى كائنات حية لها أسماء وملامح، ولا تكف عن الحركة والصراخ والغضب، وبعض الأحيان تبتسم وتهمس. وكان مثلما يقبل الإنسان على رسالة جاءت من عزيز، فيقرأها أول الأمر ليعرف، ثم يقرأها ليتخيل، وفي مرات لاحقة يقرأها ليبدأ برسم الأشكال والملامح، ويستحضر الأصوات والروائح وطريقة التصرف ورد الفعل، فإن فنر وهو يقرأ «الوصايا»، كما سمى تلك الأوراق، كان شديد الحرص ألا يطلع عليها أحد، وكان يمتلئ بالأفكار والرغبات والصور.

لأول مرة يحس أن تلك الأفكار التي تصطرع في رأسه، وكثيراً ما سببّت له الحيرة، تنتظم في انساق وأشكال يمكن تميزها وفهمها. زيادة على ذلك، فإن أغلب المواقف اليومية، والعلاقات مع الآخرين، بما فيها العلاقات مع أقرب الناس إليه، دخلت الآن في مرحلة جديدة، على الأقل من قبله. الوعود التي يعطيها، طريقة التصرف أو التعامل، النظر إلى الأصدقاء والخصوم. وفي لحظات معينة كان يتمثل له هاملتون بالذات:

«ما دام يعرف بهذا المقدار، ويتعامل بهذه الطريقة، فإن كل ما يقوله أو يفعله يستدعي التأمل والتفكير».

الفترة التي قضاها هاملتون في موران كانت فترة اختبار وتأمل بالنسبة لفنر. ما كاد يعود حتى أخذت الأمور مساراً جديداً:

ـ . . . والفرق، يا صاحب السمو، بين البحر والصحراء، إن البحر له قوانينه الصارمة، وعلى الإنسان أن يفهم هذه القوانين وأن ينسجم معها، عليه أن يتأكد أولاً من مركبه، وأن يفهم حركة الرياح والتيارات، وأن يستعد لها ويستفيد منها، وعليه أخيراً أن يعتمد على البوصلة التي تعرّفه بالاتجاهات، وتقوده إلى الموانئ التي يريدها. . .

كان يريد أن يتابع، إلا أن ابتسامة فنر، والتي بدت له ماكرة، جعلته يتردد، تساءل بارتباك:

ـ هل تعتقد شيئاً آخر يا صاحب السمو؟

ـ لا. . . لكن أعتقد أن الكلام نفسه ينطبق على الصحراء أيضاً، قد تكون الأمور مختلفة لكن هناك أشياء مشتركة.

ابتسم فنر وهو يضيف، وقد تغيرت لهجته:

ـ وأنت عشت في الصحراء وتعرف: بدل المراكب الجمال، وبدل مشي النهار مشي الليل، وبدل البوصلة النجوم، وأبوك الله يرحمه!

تراجع هاملتون قليلاً، تطلع إلى فنر كما يتطلع أستاذ إلى تلميذه، وأضاف بكبرياء:

ـ إن هذه المقارنة تجعلنا نسير في الطريق الصحيح. . .

وبعد قليل، وبنبرة كبرياء:

ـ ذكرت لسموكم، وفي وقت سابق، إن الذي كتب «الأمير» كتبه من مئات السنين، ولأمكنة مختلفة، وذكرت لكم إن هذه الأفكار، لكي تصبح مفيدة وعملية، تحتاج إلى مقدار مهم من البداوة، تحتاج إلى معرفة المكان الذي تطبق فيه، والناس الذين تطبق عليهم.

تنفس بعمق وهمّ، وتابع:

ـ في كثير من الأحيان تكون لدى البشر قوانين متشابهة وظروف متشابهة، لكن نلاحظ أن طريقة تصرف البشر، والنتائج التي يتوصلون إليها، مختلفة إلى حد بعيد، وهذا، كما يبدو لي، ناشئ إما بسبب عدم فهم هذه القوانين، أو بسبب طريقتهم الخاطئة في تطبيقها، تماماً كما يفعل الخياط الجيد والخياط الرديء.

قال فنر وهو يبتسم:

ـ كان جدي، يا مستر هاملتون، يقول: ما خاب من أعطى الصنعة سيدها. . .

وبعد قليل:

ـ وكله توفيق من الله، يا الصاحب.

هاملتون الذي سُرّ في هذه الليلة أكثر مما سُرّ في ليالٍ كثيرة أثناء إقامته هنا، كان يفترض أن الفرصة التي طالما انتظرها، من أجل الوصول إلى صيغة جديدة لما يجب أن يكون، قد تهيأت، لذلك لم يتوقف طويلاً عندما قاله صاحب «الأمير»، إلاّ بمقدار ما يمكن أن تساعد تلك الأفكار في الوصول إلى نتائج محددة.

أولى النتائج التي كان يراد الوصول إليها: كيف يمكن تصفية ابن مشعان؟

قال له السلطان أثناء إقامته في موران:

ـ عليكم، أنت وفنر، تخلّصونا من ابن مشعان. . .

ابتسم السلطان، ثم تحولت ابتسامته إلى ضحك، وهو يتطلع بتحديد إلى عيني هاملتون، إلى أن قال:

ـ ابن مشعان موجود، وقوي، لأن ابن ماضي موجود، فإذا راح ابن ماضي، وإذا الجماعة اللي يساعدونه وقفّوا مساعداتهم، ترى ابن مشعان يدوّر الخلاص!

وقال السلطان وهو يهز رأسه بثقة:

ـ اتركوا الباقين علينا: ابن مياح أنا له: والله لأخلي ضراطه يسبق

عجاجه، وابن عمير له العجرمي، فإذا أبو مشعل قعد له ركبة ونص راح يطلعه من دينه!

العجرمي الذي كان يسمع، وبدا واثقاً وقوياً، ورفض أن يبتسم، حين ابتسم الآخرون، قال:

ـ الدين: الجماعة، يا طويل العمر، وصلى الله عليه وسلم قال: لا تجتمع أمتي على ضلال!

لم يتأخر فنر في استخدام كل القوى من أجل محاصرة ابن مشعان: بذل جهوداً كبيرة لكسب خصومه، حرض رجال ابن ماضي، وذكّرهم أن الوحشية التي رافقت الاستيلاء على العوالي كانت من ابن مشعان، ولقد ولدت هذه القسوة استياءه واستياء السلطان. كما كلف عدداً من رجال ابن مشعان بالذات لأن يكونوا عيوناً عليه. ومن جهة ثانية انصرف بهمة كبيرة لإزالة الأسباب التي يمكن أن تسوء الناس، إذ صرف مبالغ في فتح الطرق وإيصال الماء؛ صحيح أن الأمر احتاج إلى عدة شهور من التحضير والعمل، لكن بدأت تظهر نتائجه. أما العطايا التي قدمت في شكل هدايا، والزيارات إلى بعض المناطق، ثم المعونات من الطحين والسكر والقماش، فقد وزعت بسخاء في عدة أماكن، خاصة تلك التي تعرضت إلى السيول، فخلقت حالة من الارتياح.

قال هاملتون ذات ليلة، وكان يونس شاهين موجوداً:

ـ . . . وتعرفون، يا صاحب السمو، أن المحاربين إذا مرت فترة دون حرب، فإنهم يحاربون بعضهم، وفي النهاية يحاربون أنفسهم، ولذلك، فإن أفضل وسيلة للتخلص من ابن مشعان أن لا تبقى هناك أية حرب. . . عندها سوف ينتهي دون طلقة رصاص واحدة!

قال فنر، وكأنه يحدث نفسه:

ـ راح استدعي القنصل وأتفاهم معه. . .

ابتسم وتطلع إلى هاملتون ثم إلى يونس:

ـ ويلزم ندز فلوس لابن مشعان، قدر ما يحتاج وأكثر، ونقول له: الفلوس علينا، اصرف مثل ما تريد، بس اترك الناس. وحنا إذا قدرنا أن

نعلّم الناس إنهم لا يدفعون ضرائب إلا للحكومة، ترى هذا الشيء، إذا صار، فظني أن الأمور تنتهي!

ولم يتردد فنر في أن يجرب هذه الطريقة. بعث بسخاء، وبعث مع المال هدايا عديدة لابن مشعان، وطلب منه زيارة الطريفة، «وإذا كانت الظروف لا تساعد، فسوف نقوم بزيارتكم في فرصة قريبة» وابن مشعان الذي تساءل عن الأموال والهدايا، وعن تحيات السلطان، التي كانت ودية ومتلاحقة، قدّر أن الظروف أصبحت مواتية أكثر من قبل لأن يتصرف بثقة وأن يفرض شروطه، فلم يتردد في صرف الأموال، وأبلغ جنده أن يستعدوا للحرب والغنائم.

أما بخصوص زيارة الطريفة، أو استقبال الأمير فنر في مقره في شمال العوالي، فقد بعث برسالة قصيرة: «صاحب السمو الأمير. الظروف الجارية لا تساعدنا على مبارحة الشمال، وإنشاء الله نقدر نزوركم في وقت ثاني. أما أن تتوجهوا لطرفنا، في الوقت الحاضر، فإن الأوضاع لا تساعد، وإذا استقرت الأمور سوف نبلغكم بذلك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

لم تكد تمضي بضعة شهور، حتى توقفت الإمدادات تماماً. لم تتوقف بشكل رسمي، أو بموقف واضح أو معلن، وإنما أخذت شكل التأجيل والوعود، مع إشارات إلى الصعوبات وضرورة الانتظار. والجنود الذين تعودوا على استلام الرواتب، ولم يعودوا يطالبون بالحرب أو بالزحف، ضجوا بالشكوى والاحتجاج نتيجة انقطاع الرواتب والمؤن، وأصبحوا هماً بالنسبة لابن مشعان، وبالنسبة لبعضهم أيضاً، خاصة وأن الحنين إلى الأهل والديار قد أكل قلوبهم، وبدأ يشكل عبئاً لا يمكن مقاومته.

قال فنر لهاملتون، بعد أن بلغته الأخبار:

ـ . . . والبدوان نَفَسَهم ضيّق، فبعد وعد القنصل أنهم نفضوا يدهم من ابن ماضي، وبعدما عودناهم، هالحين جاءت الأخبار أن ابن مشعان راح يشيل بين يوم والثاني.

هاملتون الذي لم يتوقع أن يتم استسلام ابن مشعان بهذه السهولة،

وقدر أن يلجأ إلى الحرب، أو إلى افتعال المشاكل، وقد عبر عن مخاوفه لفنر، فرد عليه فنر وهو يبتسم:

ـ حنت البلُ لأهلها، يا مستر هاملتون، والجماعة مضت عليهم شهور وشهور، واليوم وباكر، ولأن ابن مشعان ما يعرف ويش يقول، تراهم فجموا عليه، وصاروا له مصيبة: «إذا تريد الحرب حنا مستعدين، أما إذا الحرب خلصت فكل واحد يدور أهله!».

وجاءت الأخبار أيضاً: «وبعث إليه ابن مياح يقول: وإذا مقامك بالعوالي صار صعب، فمن رأيي ترجع إلى الأهل والحمولة، لأن حسابنا مع خريبط ما يكون ولا ينحسم إلا بموران، وأنت أدرى مني بأهل العوالي، أهل العوالي مطبلين بالدنيا مزمرين بالآخرة، وأبد ما يتأمنون. أمس كانوا مع ابن ماضي، واليوم مع خريبط، وما ندري باكر مع من. جماعة يريدون ويدرون مصلحتهم، وهوا البحر غيّرهم، فالرأي أن ترجع وتحضر نفسك، ويلزم تطرش لنا مراسيل بين يوم والثاني، وحنا، هنا، شاغلين الدنيا والآخرة، وخريبط ما يقدر يتقرب، وابنه خزعل ترك الحويزة من شهور، وإنشاء الله ينصرنا على خريبط وعلى القوم الضالين».

أصبح مؤكداً إذن أن مشعان لن يبقى في العوالي، لكنه لا يريد أن ينسحب هكذا. بعث إلى فنر برسول، وثانٍ، يقول:

«الحرب تحتاج إلى المال والعتاد. انتظرنا وصول الإمدادات، لكن الإمدادات تأخرت، إذا لم ترسلوا المال اللازم مع الرسول، سوف ننسحب، وعليكم أن تتحملوا النتائج، وقد أعذر من أنذر».

استبقى فنر الرسول الثاني بضعة أيام إضافية، وبعث إليه من يبلغه، أن نائب السلطان، سمو الأمير فنر، يبذل كل جهده من أجل تأمين الأموال والإمدادات اللازمة، وهذه الأموال طلبت من موران، وينتظر وصولها بين شهر وآخر، ونأمل خيراً!

بعد عشرة أيام من الانتظار عاد الرسول لابن مشعان برسالة من الأمير فنر: «وصلت رسالتكم وأخذنا بها علماً. ما زلنا بانتظار جواب صاحب الجلالة السلطان، فإذا رأيتم أن تتركوا المناطق التابعة لكم، فهذا يرجع

تقديره لجنابكم وسوف نتحمل هذه المسؤولية عنكم، ونطلب إليكم مراجعة موران لتحصيل مخصصات الجند، وسوف نكتب إلى موران بذلك، وعلى الله التوكيل».

ابن مشعان في العوالي، رغم الخيول التي حصل عليها، والزوجات اللواتي أصبحن له، يحس أنه سمكة خرجت من مائها. فالجند في المرحلة الأخيرة غير الجند، والناس غير الناس، إضافة إلى الصعوبات التي بدأت تواجهه فيما يتعلق بالبقاء أو الانسحاب.

قال يونس شاهين في إحدى الافتتاحيات التي كتبها: «. . . ولا بد من الاعتراف في المرحلة الجديدة أن العوالي لا تستطيع أن تبقى في حالة حرب أو استعداد للحرب، بعد أن استسلم ابن ماضي، وأصبح أثراً بعد عين، ولذلك يجب أن تنصرف الدولة الآن إلى الإعمار وإلى الخدمات، خاصة وأن القادة العسكريين قد أعلنوا لصاحب الجلالة السلطان ولنائبه في العوالي، أن مهمتهم قد انتهت، وأنهم الآن يعودون إلى أهلهم وديارهم بعد أن أدوا المهمة وأكملوا الرسالة.

«أما كل دعوة للخروج عن طاعة الدولة، أو عدم الامتثال للقوانين والأنظمة السائدة، فإنها سوف تعرّض مرتكبها للعقوبات والمساءلة، ولذلك يجب أن ينسى السكان المرحلة السابقة، وأن ينصرفوا إلى الجد والعمل، وقل اعملوا فسيرى الله أعمالكم والرسول».

وانطلق فنر، أكثر من أية فترة سابقة، إلى زيارة المناطق، إلى دعوة الشيوخ، إلى تأمين المطالب والخدمات. كان يرافقه في هذه الزيارات عدد كبير من المرافقين، وكان يستمع ويسجل الكتبة، وكان يعد، دون مبالغة، أن تحاول الدولة تأمين ما تستطيع القيام به، ويطلب في الوقت نفسه من الناس أن يتعاونوا، أن ينتظروا، أن يتحملوا، لأن الظروف التي تمر بها البلاد من الصعوبة والدقة بحيث تتطلب تعاون الجميع.

حين تأكد أن ظروف ابن مشعان أصبحت صعبة في العوالي بعث يخبر أباه السلطان، فبعث إليه أبوه بالرسالة التالية:

«ولدنا فنر:

إذا سألت عنا فنحن، ولله الحمد، بخير وسلامة، لا ينقصنا إلا رؤيتكم والاطمئنان على أخباركم. بخصوص أخبار ابن مشعان كل شيء صار بالنسبة لنا معلوم، وما حصل حتى الآن الذي ذكرتوه مناسب، ولا يكون لكم فكر، فنحن، بمشيئة الله، ندبر الأمور بما هو ضروري ولا حاجة للقلق، ومع ذلك تحذروا وكونوا دوماً مستعدين.

ولدنا فنر، تبلغ الصاحب أنه يلزم يضغط على الجماعة في الطريفة وعلى لندن بضرورة زيادة المخصصات، لأن المصاريف زادت أكثر من التقديرات، ولأن السيول التي حصلت ضربت الكثير، وتبلغ الصاحب أن المشاريع اللي قال لنا عنها، حنا بأتم الاستعداد، بس يلزم أن الجماعة ما يتأخرون.

هذا ما لزم تبليغه، ومن عندنا الجميع بخير ويهدونكم السلام، ونسأل الله أن يديم عليكم الصحة والسلامة، والدكم، السلطان خريبط».

قال هاملتون لنفسه، بعد أن قرأ له فنر الرسالة «هؤلاء البدو لديهم خاصّية أنهم يفهمون ما لا يكتب، ما لا يقال بشكل مباشر، وفنر يفهم ما يريده أبوه دون كلمات، من عيون حامل الرسالة، ومن الطريقة التي تكتب بها الرسالة». وبدا له الأمر طريفاً ومثيراً للتساؤل أيضاً. إذ رغم السنوات العديدة التي قضاها فما يزال لا يعرف كيف يتكلمون أو كيف يفهمون.

قال ليونس شاهين:

ـ أراهن أن ابن مشعان لن يترك العوالي.

ـ البدو، يا مستر هاملتون، يختلفون كثيراً عن غيرهم، فهم يخافون الشتاء والغربة والحروب التي تفرض عليهم. وما دمنا الآن في فصل الشتاء فإن الحرب مؤجلة، وما دام ابن مشعان بعيداً عن عشيرته فلن يحارب هنا وإنما سيحارب هناك. ولذلك فإذا لم يكن مضطراً فلن يحارب.

هز هاملتون رأسه عدة مرات دلالة الفهم، لكن ظل قلقاً. وتأكد في نفس الوقت أن «الأمير» بدأ يلبس العباءة والعقال، وأن «وصاياه» اكتسبت الكثير من صفات البداوة وملامحها، وحتى لهجتها، فضحك بزهو، وقال لنفسه: «ليت ميكافلي حي ويرى».

أما بعد أن سقط الفرسان الثلاثة، الذين ملأوا الصحراء دوياً وخوفاً سنين عديدة، وقد كان لفنر دور هام في تأمين الأموال التي تحتاجها الحرب أولاً، وفي تأليب قوى كثيرة، في الداخل والخارج، ضد «العصاة»، بعد ذلك، فقد أصبح هاملتون على ثقة أن «الوصايا» لم تستوعب فقط، وإنما بدأت تثمر أيضاً. وذهب به الخيال أن فكر بإعادة كتابة «الأمير»، لكن ضمن متطلبات مجتمع مختلف وعصر آخر.

فموران الإمارة الصغيرة التي كانت متوارية منسية، وسط الصحراء، أصبحت الآن تفوق كثيراً ما أراده السلطان أو ما حلم به. صحيح أن زمن الحروب والفتوح قد انتهى، كما اقتنع الجميع أخيراً، وبدأ كلٌ يستجيب للواقع الجديد، لكن السلطان ترك بعض المسائل معلقة، لعلها تكون مفتاحاً أو طعماً للأيام القادمة، حين تتغير الظروف. وإلى أن تأتي تلك الظروف لا بد أن يهدأ، لكن دون أن ينام. وعليه أيضاً أن يتصل ويقيم العلاقات، لكن دون أن يتوقع تغيرات كبيرة، خاصة وأن هاملتون الذي وزع وقته وجهده بين العوالي وموران، بحيث يقضي الشتاء في العوالي والصيف في موران، وخلال الإجازات، أو بين الزيارتين، أو حين تسنح الظروف، لا بد أن يشبع هواياته للآثار والجغرافيا، أكد على السلطان مرات عديدة «أن الأهم في المرحلة الجديدة، يا صاحب الجلالة، أن نقيم بناء قوياً، من أن نحاول توسيع دائرة السلطنة، لأن القوة تبقى الأساس للتوسع حين يأتي وقته، ولا يمكن للتوسع أن يكون قوة إلا إذا كان ضمن ظروف دولية مناسبة».

ولكي لا يترك هاملتون مجالاً لأخطاء قد تقوّض كل ما شُيّد، فقد

اندفع بحماس لتأمين موارد إضافية لموران، فاستطاع أن يتوصل، بعد جهد، إلى توقيع اتفاق النفط أولاً، ثم أشار على السلطان بأن ينفتح على العالم، وأن يقيم علاقات مع الكثيرين. ولم يتأخر السلطان في الاستجابة، لكن ظل الانكليز، بالنسبة له، البوصلة التي تدله على الطريق. ولذلك فإن العلاقات التي قامت كانت استجابة، وبحدود ترضي الانكليز ويوافقون عليها.

جاء هاملتون ذات ليلة، وقد بدا فرحاً متألقاً، كما لم يكن هكذا، وهمس في أذن السلطان أنه يريد أن يختلي به ويحدثه بأمر هام. نظر إليه السلطان بارتياب. ظن لأول وهلة أن الرجل أخذ من دواء الحصر أكثر مما يفعل عادة، أو أن لديه خبراً جديداً هاماً، ولكي يتأكد من ظنونه سأله:

ـ هالحين يا الصاحب؟

ـ أي نعم، يا طويل العمر.

والسلطان الذي أحرج، للحظة، وبدا له أن من الأفضل أن يقوم مع هاملتون من أن يطلب إخلاء المجلس ويغضب الموجودين.

قال بتبسط يخاطب زواره:

ـ يلزم، يا جماعة الخير، نطرش برقية، فظلوا بمكانكم، وأنا دقايق وراجع لكم.

وفي غرفة مجاورة، ورغم أن هاملتون استعد وحضّر أسبابه لتقديم الاقتراح، إلا أنه بدا مرتبكاً. قال بعد أن تلفت أكثر من مرة:

ـ ولدي يا صاحب الجلالة اقتراح فكرت فيه طويلاً، واعتبر أنه ضروري وهذا وقته، لكي نتخلص من إشكالات ومصاعب كثيرة...

والسلطان الذي ارتبك أيضاً وتلفت، سأل بنفاد صبر:

ـ سم... يا الصاحب!

ـ ويجب أن تعتبر الاقتراح حلاً لمشكلة، وليست له دوافع أخرى.

ـ سم، وبعدها الله كريم.

ـ من جملة الأسباب والعوامل التي تساعد على رسوخ الدولة

واستمرارها، وإنهاء أطماع الآخرين، وحتى إنهاء مطالباتهم، أن تزول الأسماء القديمة والصيغ القديمة، وتحل أخرى مكانها. إن استمرار وجود الحويزة والعوالي، إضافة إلى موران، ووجود مطالبين، سيبقي الأمور معلقة، وخاضعة لكثير من العوامل والتقلبات، ولذلك يجب أن تنتهي هذه الأسماء وتقوم مكانها تسمية جديدة.

أحس السلطان، غريزياً، أن ما يقوله هاملتون صحيح، لكن تخوف أن يكون وراء كلامه شيء آخر.

سأل بحذر:

ـ خاف تكون سامع شي، يا الصاحب، أو عندك علوم جديدة؟

ـ أبداً، يا صاحب الجلالة...

ـ وبعد قليل وهو يبتسم، ويغير لهجته:

ـ لكن من خلال معرفتي وقراءتي للتاريخ، وأثناء زياراتي للمواقع الأثرية، كما أن صحراء بلادكم، يا طويل العمر، تحرض ذاكرة الإنسان، وتدفع إليها، كل لحظة، بعشرات الشواهد والحقائق التاريخية، ولأني لا أتوقف عن التفكير وتقليب الأمور، فقد أصبحت على يقين أن من جملة الأسباب التي سوف تساعد على تثبيت الحكم الجديد، وتجعله غير قابل للمناقشة أو إعادة النظر، أن يكتسب اسماً جديداً وصفة جديدة.

اطمأن السلطان، ارتخت عضلاته، نظر إلى هاملتون، ابتسم، وقال بطريقة طفولية:

ـ أي يا الصاحب، سولف، وشنهو بعد؟

ـ ليس عندي الكثير لأقوله الآن، يا صاحب الجلالة، لكن يبدو لي أن هذا الأمر ضروري إلى أقصى حد، ويجب أن تحسموه في أقرب فرصة.

ـ وشنهو اللي تشور به علينا؟

ـ أرى، يا طويل العمر، أن يطلق على الدولة الجديدة اسم يشمل موران والعوالي والحويزة معاً، وأن تعلنوا أنكم سلطان هذه الدولة.

ـ وما دام حنّا الحاكمين، يا الصاحب، شنهو اللي يزيد أو ينقّص؟

ـ في الوقت الحاضر لا يزيد ولا ينقص شيء، يا صاحب الجلالة...

ـ لكن... أتاريك تعرف شي ما نعرفه يا الصاحب، ومن بد ولازم تقول شنهو اللي عرفته؟

ضحك هاملتون، والتفت، وبعد قليل وقد تغيرت لهجته تماماً:

ـ ربما الطريقة، أو الوقت الذي اخترته لأعرض على جلالتكم هذا الاقتراح غير مناسب، لكن بعد أن توصلت لهذه القناعة وفكرت طويلاً، لم أسمح لنفسي بتأجيل عرض الاقتراح إلى الغد!

وتحرك هاملتون بطريقة معينة ليشعر السلطان أن هذا ما عنده، أو ما ارتآه. وكانت النظرات تحمل معنى الاعتذار إذا كان قد حصل خطأ نتيجة هذا التصرف أو التقدير.

قال السلطان بمودة:

ـ اللي تقوله، يا الصاحب، صحيح، بس ما أدري ليش هالحين خطر ببالك؟

نكس هاملتون رأسه، وصمت. وحين طال صمته، قال السلطان وهو يضرب على ساقه بمداعبة:

ـ ما جاوبت على سؤالي، الله يسلمك؟

رد هاملتون بحزن:

ـ ربما وجدت نفسي مضطراً، يا صاحب الجلالة، لأقول ما قلته، خاصة وأن الكثيرين الآن لا يتكلمون إلا حول ما يريدون، وحول أدوارهم فيما حصل، ناسين ما يجب أن يُفعل من أجل مصلحة موران اليوم وغداً. وهذا ما يجعل الكلام بالنسبة لي صعباً، خاصة عندما يسكت الآخرون!

قال السلطان، وقد تأثر:

ـ اللي يسولفون، الله يسلمك، ولا أكثر منهم، بس كلام عن كلام يفرق، وحنا نسمع واجد، بس، والشهادة لله، نعرف اللي يتكلمون صدق، واللي يحركون لساناتهم وينافقون...

وبعد قليل:

ـ وحاشاك، يا الصاحب، تظن أن كلامك مثل كلام غيرك.

هز هاملتون رأسه عدة مرات، تنفس بعمق، ثم قال:

قد يكون من غير المناسب أن أذكر لجلالتكم أنني منذ أن أعطيتكم كلمتي، قبل سنوات، للبقاء هنا، إلى جانبكم، وأن أشور على جلالتكم، ليس لدي أي هم أو موضوع يفوق الاهتمام بهذه السلطنة: كيف يمكن أن تبقى، وأن تكون أقوى، وما يجب أن نعمل من أجل أن...

قاطعه السلطان بمودة:

ـ هذي ما ينراد لها يا الصاحب، وظني أنك ما تحتاج إلى شهادة.

وتغيرت اللهجة قليلاً:

ـ وما يلزم نقول بوجهك، الله يسلمك، شنهو اللي نقوله عليك، وأي منزلة تحتل بقلوبنا، وأنا شخصياً تحملت الكثير الكثير حتى أكدت. للجماعة، القراب والبعيدين، إنك بإخلاصك ومحبتك مثل أخواني وأولادي.

وضحك... ثم تابع:

ـ وعيب أن البني آدم يحكي ويقول، لكن يلزمك تعرف: ما يمر يوم إلا وأوصي أولادي، وكل الجماعة: الصاحب، يا جماعة الخير احرصوا عليه وما تخلوه إلا راضي.

وبعد قيل:

ـ فإذا ببالك شي، أو سمعت كلمة، أو أحد زعلك، يلزم نعرف.

ـ أبداً، معاذ الله، يا صاحب الجلالة.

ابتسم، نظر إلى السلطان، وكانت نظرته حزينة، وهمس:

ـ كل ما أريد أن أقوله يا صاحب الجلالة أنني أعتبر نفسي مواطناً في هذا البلد، ولأني أصبحت هكذا فيجب أن أخلص له، أن أعطيه أحسن ما عندي...

تنحنح حتى جلا صوته، وأخرج منه الحزن:

ـ هذا ما دعاني، يا طويل العمر، إلى تقديم الاقتراح الذي حدثتكم عنه.

قال السلطان بأريحية.

ـ حنا معاك يا الصاحب، وأنت بالنسبة لنا فوق ما تتصور، وهالحين قل وحنا موافقين، أو مثل ما يقول أهل مصر: فصّل وحنا نلبس.

ضحك هاملتون. كان مسروراً، وبدا كأنه أوصل الرسالة، ولا يريد أن يتابع، لكن السلطان، الآن، لا يريد أن يتركه. لقد راقه الموضوع، وبدا له هاماً أيضاً. وبعد فترة صمت طويلة، سأل:

ـ ما قلت لنا رأيك يا الصاحب؟

ـ رأي أن نناقش الأمر في وقت لاحق، يا طويل العمر. يمكن أن تفكروا في الاقتراح، ويمكن أن أفكر، والأيام طويلة.

ـ أبد... يلزم تقول.

ـ تأخرنا على الجماعة، يا طويل العمر، وخاف يزعلون!

ـ لا تخف، وأنت ما عليك.

تراجع هاملتون في مقعده. نظر إلى السلطان نظرة جادة، أقرب إلى الحزم، وقال وقد اكتسب صوته لهجة احتفالية:

ـ بعد أن فكرت طويلاً في الموضوع، يا طويل العمر، ولما كانت أسرتكم تنتهي إلى الجد الأكبر والذي كان باسم هديب، لذلك أرى أن تسمي السلطنة بالسلطنة الهديبية.

ومثلما تراجع هاملتون في مقعده تراجع السلطان، ونظر بتلك الطريقة البدوية، وللحظة، ظن هاملتون أن السلطان غاضب أو يختبر، أو ربما حائر، لكن فجأة تهلل، وسأل:

ـ وإذا سميناها السلطنة الهديبية، برأيك أن الناس ما تسبنا؟ ما تقول فلاني وتركاني؟

ـ أبداً، يا صاحب الجلالة، ومثلما تعرفون: إن الدول تسمى بأسماء الأشخاص، وحتى العملة يسمونها بأسماء الأشخاص؛ فعملة ماريا تريزا،

والليرة الرشادية، والحميدية، وحتى العباسيين وقبلهم الأمويين، كل هذه الدول منسوبة إلى الجد الأكبر، الجد الأول، ولا أظن أن من حق احد أن يحتج أو أن يعترض.

- هذا رأيك؟

- أي نعم... هذا رأي!

- ويقولون: السلطنة الهديبية؟

- ولِمَ لا؟

- قصدي ما هي كبيرة؟ وأنت تعرف أهل موران... وغيرهم وغيرهم، كلهم لساناتهم طويلة وعيونهم ضيقة.

- أبداً يا صاحب الجلالة، والمسألة، أولاً وأخيراً، مسألة عادة، ومثلما تسمي ابنك اسماً، ومهما بدا غريباً أو غير مألوف، فلا يلبث أن يتعود عليه الناس، ويصبح وحده الاسم الذي يعرف به، وأيضاً الاسم الوحيد المقبول.

- هذا رأيك؟

- أي نعم.

وضحك هاملتون، وأضاف:

- ومثل كل الأشياء الجديدة، لا يألفها الإنسان بسرعة أو بسهولة، لكن باستمرار استعمالها وتكرارها تُؤلف وتُقبل...

وبعد قليل:

- ومن رأي، طال عمرك، أن تفكروا بالموضوع، وما يلزم أن تقرروا الآن، لكن، وكما ذكرت لكم، يجب أن يتم اختيار الاسم، وكلما كان أسرع كان أفضل.

- خلنا نفكر...

وبعد قليل وهو يضحك:

- ويلزم نبيّت خيرة، وعسى أن الله يوفقنا.

وهما ينهضان ليعودا إلى المجلس قال هاملتون برجاء وبصوت هامس:

ـ لي رجاء وحيد، يا صاحب الجلالة...

ـ سم... الله يسلمك.

ـ أياً كان القرار الذي تقررونه بخصوص التسمية، كل ما أرجوه أن لا يشار، بأي شكل، وأمام أي إنسان، أن لي علاقة بهذا الموضوع. الاقتراح اقتراحكم، وصادر عنكم وحدكم.

ضحك السلطان وهو يصلح ملابسه، وقال وهو يخطو:

ـ ما يكون لك فكر، يا الصاحب، هذا رأينا وهذا أمرنا، ولا أحد له علاقة!

ـ هذا ما أريده طال عمركم.

ـ اطمأن من هذي الناحية.

وضحك وهو يخطو مجتازاً الباب:

ـ وإنشاء الله ما يصير إلا الخير!

وخلال شهور لم تهدأ موران، إذ بعد احتجاب السلطان الطويل، بدأ من جديد يستقبل الكثيرين، كما واستدعى كبار العائلة والوجهاء، حتى ظُن أنه لن تمر فترة إلا وتبدأ حملة جديدة، ومما عزز هذا الاحتمال وصول القنصل البريطاني إلى موران، والخلوة الطويلة بينه وبين السلطان، ثم رحلة القنص والتي شارك فيها السلطان ذاته، إضافة إلى عدد محدود من رجاله. ورغم الاستفسار والتقصي، لم يعرف ما دار. ومما زاد في القلق وتشوش الأفكار المقال الذي كتبه يونس شاهين، ومما جاء فيه «... والدولة بعد أن اتسعت واعترفت بها الدول الأخرى، وبعد أن أقامت نظاماً لم تشهد مثله هذه الصحراء منذ وقت طويل، لا بد أن تكتسب وضعاً جديداً واسماً جديداً. وإننا ندعو صاحب الجلالة السلطان لأن يبادر وأن يقدم الصيغة الملائمة للمرحلة».

وفي الطريفة، وبطريقة احتفالية بالغة الأبهة والفخامة، وأثناء استقبال

القناصل، وبمناسبة ذكرى معركة الرحيبة، ألقى السلطان خطاباً أعلن فيه أن دولة جديدة قامت، ومنذ اليوم لم تعد هذه الدولة مجرد موران والحويزة والعوالي، وإنما هي الدولة الهديبية.

بدا الاسم غريباً مثيراً للعجب والتساؤلات. بل أكثر من ذلك بدا مثيراً للسخرية، خاصة في موران.

شمران العتيبي الذي لم يسمع بالاسم إلا بعد عدة أسابيع، رفض أن يصدقه، لكن حين أكدوا أن موران لم تعد موجودة، وأن اسمها منذ الآن المنطقة الوسطى في الدولة الهديبية، فقد رفع رأسه إلى أعلى وقال بسخرية:

ـ ما يخالف، خلهم يسمّون، وما هي إلا أسماء سمّوها هم وآباؤهم، لكن ظني أن اللي الله خلقه العبد ما يقدر يغيره، وهذي الأيام بينا وتشوفون!

وبعد قليل وهو يقهقه:

ـ هذول اللي يحكمون ما أدري شنهو اللي يصيبهم يا جماعة الخير، يكونون عاقلين مثلنا، يسولفون، ويضحكون، لكن طُبّ،. ما يروح يوم ويجي الثاني إلا ويصيرون غير ما عرفناهم وغير ما كانوا: روسهم تدور، أوداجهم تنتفخ، وما تعرف شلون تغيروا. نقول لهم: يا معودين، يا أولاد الحلال، احرصوا، ديروا بالكم، والغلط بهذي المسائل أبد ما يتصلح، مثل البنيّة بعد ليلة العرس، لكن أبد ما يسمعون ولا يفتهمون، ويصيرون مثل الكدش الحارنة.

وبدا على وجهه الحزن. هز رأسه عدة مرات وأضاف.

ـ لكن ما يخالف، الظاهر أن البني آدم ما يتعلم إلا من كيسه، وما دام خريبط هالحين كيسه مليان خله يدفع، ومثل ما قالوا: رزق المهابيل على المجانين، ولو كان عاقل ويفهم شنهو اللي صار بالناس اللي قبله، ويلزمه هالحين يكون عبره للّي بعده، وهذي موران أبد ما تنسى. تسكت، تصبر، تتحمل، لكن أبد ما تنسى!

عبد الله البخيت الذي تعوّد أن ينفث، فينظم، بين فترة وأخرى، أبياتاً

من الشعر، وأغلبها في العتاب والغزل وذم الزمان، وقد عرف عنه هذا بين أصدقائه ومعارفه، لما طلب منه العجرمي أن يقول كم بيت بهذه المناسبة، رد بسخرية:

ـ وأنت تعرف، يا شيخنا: الشعر والشعراء للغواية والشيطان، وهذي دولة للرحمان، فيلزم أن الواحد يكتب لها حجاب، حتى الله يحميها، وظني أن السلطان ذاته ما يقبل.

ابتسم العجرمي، ورد ساخراً:

ـ وغيرك، يا عبد الله، بيوم الحويزة، وبعدها العوالي، قالوا شعر!

ـ وهذول جاهزين، ولا بد حضّروا أرواحهم لهذا اليوم، طال عمرك.

ـ كنا نأمل ونريد منك.

ـ ومن هو ابن البخيت، يا شيخنا، أمام دولة هذا كبرها؟

ـ ولكن الخويا يقولون لك شعر زين.

ـ أنا شويعر، طال عمرك، اخط بالرمل، ودولة الهديبية ينراد لها شعر بكبرها!

ـ يعني بالمختصر المفيد شيطان الشعر ما جاك!

ـ لا بالله طال عمرك!

عثمان العليان كان مشغولاً بهم أكبر، فموران، من يوم ما عرفها، تتعامل بعدة أنواع من العملة، وكانت هذه الأنواع تسبب الكثير من المتاعب والإشكالات، وقد جاءت الفرصة الآن، وبعد أن تشاور مع هاملتون، لكي تنتهي هذه المتاعب، وذلك بأن تُسّك عملة جديدة وموحدة.

ما كاد مهيوب يقول له، همساً وسراً، أن السلطان في ذكرى احتفالات الرحيبة سيعلن عن قيام الدولة الجديدة، حتى قال بنفاد صبر:

ـ أي، وكانت هذي لأزمة من سنين وسنين...

وبعد قليل:

ـ ونخلص من فلوس المقادي، وتصير لنا عملة ترنّ وتسوى ثقلها ذهب!

أمي زهوة التي كانت تحس بالحركة حولها، ولا تعرف على وجه الدقة ماذا حصل، وكل من تسأله يدير يديه ويقلب شفته، أو يهز رأسه، دلالة أنه لا يعرف، إلى أن جاءها عبدها سرور، بعد أن استفسر وتأكد، قال لها:

ـ . . . ويقولون، يا عمتي، إن دولة طويل العمر صارتِ أكبر وأكبر، ويقولون إن الفارس حتى يجتازها من طرف إلى طرف ينراد له سنين وسنين!

ـ يا ولّ يا سرور، هذا كلام حاسدين.

ـ والله يا عمتي يحلفون ويتكفرون. . . وما أدري!

ـ وليش ما قلت لي من قبل حتى ننشد أبو منصور ونتأكد؟

ـ راحت عن بالي يا عمتي، لكن غيبته ما تطول.

ـ رح دوّر لنا العجمي وخله يجي ومعه دواته وقراطيسه ويكتب لنا حجاب، عسى أن الله يحمي أبو منصور ويفتح عليه ويردّ عنه كيد عداه.

وجاء المنجم وكتب الحجاب المطلوب، وتقاضى خمس ليرات مجيدية، ولما عاد السلطان، وحدثته أمي زهوة، استفسر منها متى كتب الحجاب، وأين وضع ثم ابتسم، وحدّثها أن سيارته كادت تنقلب في وادي الرخم. لكن الله سلّم. ولم يتأخر لكي يستدعي المنجم ويمنحه ذلولاً وثلاثين ليرة رشادية!

. . . ومرة أخرى سافر فنر في جولة جديدة، حاملاً رسائل من أبيه للحصول على اعتراف الدول الأخرى ودعمها، ولم ينس السلطان أن يطلب منه، وقد قال ذلك وهو يبتسم، أن يمر على استانبول، وأن يزور عائلة رفيفان، لكي يخطب له ابنة بندر رفيفان، «لأنها مزيونة، وأبوها الله يرحمه، من جماعتنا، وأنا، من قبل، طرّشت واحد من الجماعة ومعه مكتوب وهدية، وما يلزم ترجع ويدك فارغة».

والسلطان، منذ وقت مبكر، لم يسقط من اهتمامه، الأصدقاء ـ الأعداء. صحيح إنه كانت تمر فترات، وبعض الأحيان طويلة، لكي يتذكر «صديقاً» من هؤلاء، لكن غالباً ما يرافق تذكره هدايا ودعوات، فإذا لم يقم بالزيارة بنفسه، يكلف أحد رجاله، وفي حالات قليلة واحداً من أبنائه، ويترافق ذلك مع الكثير من الضجة والاهتمام، بحيث لا يبقى أحد إلا ويعرف بذلك، ويؤدي أيضاً إلى أن ينسى ذلك الصديق النسيان الطويل السابق والإهمال المتعمد. وفي حالات معينة، ومقصودة، لم يتردد السلطان في أن يصاهر ويتزوج، ليفتح صفحة جديدة.

لقد قام السلطان بنفسه مرتين أو ثلاث مرات بزيارات من هذا النوع، وقد تحدثت عنها موران طويلاً. قام مرة بزيارة لمفلح الحريشي، بعد أن تقدم العمر بمفلح وأصيب بالفالج. وقد قضى في زيارته فترة غير قصيرة، رغم أن العلاقات بين الاثنين تخللها الكثير من الاختلاف، وبعض الأحيان حمل السلاح. لكن مفلح حين أدرك أنه هُزم، ولم يعد قادراً على الاستمرار أو المقاومة انزوى، وظل ينقل عن لسانه التعريض بالسلطان وبعلاقاته مع الانكليز. وخريبط الذي كانت تصله الأحاديث مع التعريض،

كان يهز رأسه ويبتسم ابتسامة ساخرة، وكان بعض الأحيان يردد:

ـ كان مفلح يريد رأسي، لكن التمني رأس مال المفاليس!

في هذه الزيارة التي تحدثت عنها موران، بدا لكل من حضر أن الرجلين لم يعرفا الاختلاف، وأن الصداقة التي تجمعهما أقوى من الأقوال التي كانت تتردد. أما عن الأموال التي سبقت الزيارة، ثم أعقبتها، فقد اختلف الكثيرون في تقديرها.

وقام خريبط أيضاً بزيارة لبيت المرحوم شبل الغامدي، قام بها بعد الوفاة بثلاثة شهور. لم تكن للعزاء، إذا جاء من قبل من قام بهذا الواجب نيابة عنه، وإنما لتفقد الأولاد والتأكد أنهم لا يحتاجون إلى شيء، كما ذكر. وأبلغهم أيضاً أن لهم أباً غير أبيهم، ويمكن أن يعتمدوا عليه، وأن يدقوا بابه في أي وقت يشاؤون، وأشار إلى نفسه، ودق على صدره، وقد بدا حزيناً أقرب إلى الانفعال!

أما كيف كانت العلاقة بين السلطان وشبل الغامدي، فلا أحد في موران إلا ويعرف الكثير من تفاصيلها: كيف أنه قرر إعدام شبل، ثم عدل عن ذلك في اللحظة الأخيرة، فاستبدل القتل بالحبس، وبعد أن قضى شبل فترة طويلة في سجن القصر، وقيل إنه مرض وكاد ينتهي، أطلق سراحه. وقيل إن شبل زار السلطان وقبل أنفه وجبينه، واعتبر كل شيء، بعد ذلك، منتهياً، وقامت صداقة جيدة بين الاثنين، لكن لم تدم إلا شهوراً قليلة، مات بعدها شبل!

تذكر الذين سمعوا السلطان يطلب من فنر زيارة عائلة بندر الرفيفان هذه القصص، وتذكروا غيرها، خاصة حين أكد على ضرورة عودة العائلة إلى أهلها وبلدها.

وبندر الرفيفان الذي ترك موران قبل سنين طويلة، وأعلن أمام الكثيرين أنه لن يعود، مهما كانت الظروف، لأنه كان أحد الذين ساعدوا خريبط في الوصول إلى السلطة، ثم خدعه خريبط وخدع كثيرين غيره، بعد أن تمكّن وسيطر، وأعلن أيضاً أنه سيذهب إلى أبعد مكان، بحيث لا يريد أن يسمع شيئاً عن موران، فحمله خياله، ومكنته ساقاه من الوصول إلى أبعد مكان

في ديار الإسلام، إلى استانبول، وهناك قرر أن يبقى.

أما تاريخ بندر بعد موران فإنه من الغموض والتداخل، بحيث يرويه كل واحد على هواه. قيل إنه عاش سعيداً، بعد أن اصطحب معه زوجته التركية، وقد تزوجها قبل ذلك بعدة سنين، وأنجب منها ابنة وحيدة. عاش على ضفاف البسفور، بعد أن أخرج مقداراً من الذهب الذي يحمله، وكان راضياً. وقيل إن حياته بعد موران لم تعرف الراحة يوماً واحداً، فقد كان يتأكله الحنين إلى بلده وأهله، وكان لا يفعل شيئاً سوى الصلاة والدعاء، وبعض الأحيان ترديد أبيات من الشعر والبكاء. وقيل إن الحزن الذي استبد به عجّل بموته. وقال بعض الذين زاروه في غربته، انه أصيب بلوثة، ولم يعد يعرف أحداً، وان امرأته لم تكن تفعل شيئاً سوى إبعاد السكاكين والأدوات الحادة، والتي لم يتوقف يوماً عن شحذها وتحضيرها، لكي يقتل خريبط!

زيارة فنر إلى استانبول كانت في نهاية جولته، وكان يفترض ألا تزيد عن يوم أو اثنين، لكي يقوم بالواجب الذي كلفه به أبوه، ولن يتعدى المرور على عائلة رفيفان وتقديم الهدايا ثم الحديث في الموضوع: «الوالد يريد مصاهرتكم، يريد ابنة بندر الرفيفان» وبعد ذلك يترك لمجوُل العصيفير، الذي اصطحبه لهذه الغاية، ومرافقيه ليتابعوا الأمر، خاصة وأن رسالة بهذا المعنى سبق أن حملها رسول من خريبط.

لكن هذه الزيارة امتدت أسبوعاً كاملاً، وغيرت الكثير في شخصية وحياة فنر، أو بالأحرى قلبتها!

إذ ما كاد يقوم بهذه الزيارة، لكي يؤدي المهمة، حتى وجد نفسه، وربما من المرات النادرة في حياته، مرتبكاً وأقرب إلى الاضطراب، بعد أن جاءت الأم والابنة للسلام عليه!

وإذ كانت عادته، منذ أن كان صغيراً، ألا ينظر مباشرة إلى عيني محدثه، فقد اختلس النظر إلى الأم والابنة عدة مرات، وراقب، بعناية، طريقة تصرفهما، وكيف تتكلمان وكيف تنظران، واسترجع ما قيل من قبل، وأحب لكنة البنت وهي ترد على بعض الأسئلة. أما الأم التي كانت

متلهفة لسماع كلمات معينة، فقد انقضت الزيارة دون أن تسمعها، فشعرت بالقلق، وما يشبه خيبة الأمل، لكن ما جعلها تؤمل وتنتظر أن الأمير أبدى رغبة في أن يقوم بزيارة ثانية في مساء اليوم التالي!

في الزيارة الثانية، جاء فنر مع مستشاره الخاص، عنان بسيوني، وحارسه، نصار، فقط، وقد سبقته مجموعة كبيرة من الهدايا، ثم شراؤها على عجل من استانبول. وقد بدا الارتباك منذ بداية السهرة، كان حائراً إلى أقصى حد بين أن ينهي واجبه بسرعة، وبين أن يسمع النداء الذي بدأ يدق صدره ويلحّ عليه. فالفتاة خلال السهرة كانت أكثر جمالاً وأكثر بساطة. والأم تطلعت إلى فنر عدة مرات، وكأنها تختبره، أو ربما قدرت ما يدور في رأسه، وقد زاده ذلك خجلاً، مما أدى في لحظة تقديم القهوة إلى انزلاق كوب الماء وهو يتناوله، فضحكت الأم ضحكة رنانة، وقالت إن الناس في هذه البلاد يعتبرون ذلك فألاً حسناً، ويؤدي إلى السعادة والرزق الوفير، مما خفف حرج الفتاة، فاعتبر الأمر لذيذاً وطريفاً!

وإذا كان عنان بسيوني مفيداً وضرورياً في أوقات الصعوبة والحرج، فقد كان في هذه الليلة إنقاذاً حقيقياً، إذ بالإضافة إلى معرفته باللغة التركية، فإن الطريقة التي اتبعها في إدارة الحديث، ثم النكت التي رواها، خلقت ألفة ما لبثت أن سيطرت على الجو تماماً، عكس الزيارة الأولى، والتي كانت أقرب إلى المجاملة والصمت.

من الإشارات غير المباشرة، ومن الحديث مجدداً عن موران، كيف كانت وكيف هي الآن، بدا واضحاً أن الزواج لا يزال الموضوع الذي يدور حوله الجميع، ومع أن السهرة انقضت أيضاً ولم يتم التطرق إليه، فإن الدعوة التي وجهها الأمير للعائلة لتناول العشاء على مائدته، وإعلانه أنه قرر إرجاء السفر، ثم الابتسامة التي رافقت ذلك، بدا مؤكداً أن الأمر سيحسم في اليوم الثالث، وسوف يتم الاتفاق على كل شيء. وقدر عنان بسيوني أن الأمير يكون في حالة نفسية أفضل، ويشعر بالثقة أكثر حين يأتي الآخرون لزيارته، وليس حين يذهب هو لزيارة الآخرين!

حتى ساعة متأخرة لم ينم الأمير تلك الليلة، والتلميحات التي بدرت

منه، وهو يتحدث مع عنان، حول جمال الفتاة وتهذيبها، ثم تساؤلاته ما إذا كانت مناسبة أم لا، وتلك الزفرات التي يصعدّها، جعلت عنان يدرك أن في الأمر شيئاً لا يفهمه. فليس هذا الزواج الأول أو الأخير للسلطان، ولا يتطلب تمديد الإقامة والاتفاق على زيارة وراء أخرى، خاصة وأن المجموعة المكلفة بهذه المهمة وصلت قبل الأمير، وتنتظر الإشارة لكي تحمل العروس وتنطلق بها، كما في كتب الأحلام والمغامرات.

قال عنان، وهو يتثاءب، إعلاناً أن سلطان النوم قد غلبه:

ـ لننم يا طويل العمر، ولما يصبح الله بخير الصباح فإن لكل مشكلة حلها.

ـ نياله اللي يقدر ينام بعد هذي الليلة، يا عنان بك!

وبلهجة مصرية لا تخلو من استغراب ومرح:

ـ الله... الله ايه اللي جرى يا صاحب السمو؟

ولما صمت الأمير تابع عنان بجد:

ـ لأ.. أصبحت المسألة جد خالص!

وبانفعال أقرب إلى العصبية اعترف الأمير أن الفتاة دخلت إلى قلبه، وأنه يجدها المرأة الوحيدة التي تناسبه، ولا يعرف كيف يتصرف أو ماذا يفعل. هل يواصل المهمة التي كلفه بها أبوه؟ هل يجرؤ أن يخطبها لنفسه، خاصة بعد أن جاء رسول من قبل وذكر أن السلطان يريدها؟ وماذا تقول الفتاة وماذا يكون رد فعل أهلها؟ وهؤلاء الأبالسة الذين ينتظرون منذ أسابيع، والمستعدون للانطلاق في كل لحظة، ماذا سيقولون في موران، للسلطان، حين يرجعون؟

ومع أضواء الفجر الأولى، وقد استعاد عنان بسيوني يقظته، تبين له أن في الحياة أموراً كثيرة لا يمكن أن تفهم بسهولة، وأن القشرة التي تغلف سلوك الإنسان، تخفي، أغلب الأحيان، تحتها أموراً عديدة وبمنتهى الغرابة. فالأمير الذي رفض بإصرار، بلغ حد النزق، أن يسمع من أحد، حتى والده، حديثاً عن الزواج، بعد وفاة زوجته الأولى، والذي يغرق في الصمت، وبعض الأحيان يسخر من أخوته، خاصة خزعل، لأنهم لم

يجدوا شيئاً يفعلونه سوى الزواج مرة بعد أخرى، يكتشف الآن أن فنر لا يختلف عن الآخرين، وأن في دماء هذه العائلة شيئاً يستعصي على الفهم أو التفسير. استعاد صورة الفتاة، وتساءل ما إذا كانت تملك من المزايا ما جعله يهتز ويتغير بهذا المقدار.

قال للأمير، وهو يهز رأسه:

ـ لنترك الأمر للغد، وأن غداً لناظره قريب!

في اليوم التالي، وبطريقة حازمة تماماً، طلب عنان بسيوني من مجول العصيفير والمجموعة التي جاءت معه، أن يستعدوا للسفر خلال ساعات، وأبلغهم أنه تشاور في الأمر مع طويل العمر، وعليهم أن لا يقولوا شيئاً «لأن موران ستبلغ بالنتائج».

ولم يترك الأمر هكذا، أشرف بنفسه على سفر المجموعة، وأبلغ إدارة الفندق بدعوة العشاء، ولأن الأمير ظل نائماً أو مرابطاً في جناحه، ولم يشأ، أو لم يستطع، أن يكون مع الآخرين، فقد اختار ذلك الغروب في شهر حزيران، لكي يبلغه، وبشكل تقريري، أقرب إلى رواية قصة قديمة:

ـ .... ولقد أعطى خادمكم لنفسه الحق في أن يتخذ نيابة عنكم بعض القرارات، وأعتقد أن القرارات التي اتخذت لن يندم عليها أحد طوال حياته...

وحين تطلع إليه الأمير بعينين تختلط فيهما الحمرة بالصفرة، وبدا أنه متعب وضجر، وربما أقرب إلى الحزن، تابع بلهجة أبوية:

ـ لقد طلبت، يا صاحب السمو، من الجماعة أن يسافروا، وقد سافروا...

وتطلع إلى ساعته، وأضاف:

ـ وقد مضى على سفرهم أكثر من ثلاث ساعات!

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ وإذا سمحت لي، يا صاحب السمو، يمكن أن أسافر الآن، وسوف أكون قبلهم في موران، لكي أشرح لصاحب الجلالة السلطان الأمر بنفسي،

وسوف يكون أسعد إنسان، لأن الشيء الذي تعب من أجل الوصول إلى تحقيقه، قد تحقق: لقد وافق سمو الأمير على الزواج...

وبعد أن نظر إلى الأمير الذي كان فرحاً ومحرجاً معاً، قال وهو يقهقه:

ـ ولولا دعوة العشاء هذه الليلة لما رأيتني الآن هنا...

وحين تذكر فنر دعوة العشاء، وأصبح كله عينين تنظران وتتساءلان، قال عنان بسيوني بجد:

ـ المهمة الآن تقع على عاتق شخص واحد، تقع على عاتق صاحب السمو الأمير فنر بن خريبط، ولا بد أن يقرر وينتهي كل شيء الليلة!

وبعد قليل وهو يفرك يديه:

ـ وإذا أردتني أن أساعد في هذه المهمة، يا صاحب السمو، فأنا جاهز ومستعد تمام الاستعداد.

حتى بعد انقضاء سنين عديدة، وكيفما ورد ذكر استانبول، أو تركيا، وكان عنان بسيوني موجوداً مع فنر حين كان أميراً، ثم بعد أن أصبح سلطاناً، والتقت نظراتهما، فلا بد أن تمر على الشفاه ابتسامة، لأنها تقترن بالكثير من الذكريات، ولأن ذلك القرار الذي أُتخذ فجأة، وعلى مضض، لم يكن خطأ، ولم يخلف ندماً.

لا... يمكن أن يكون الأمر معكوساً تماماً. فلو لم يُتخذ ذلك القرار لسارت الأمور في مسارات أخرى. فالأمير الذي بدا حائراً، ثم مفتوناً، وأخيراً صار مغرماً، والذي أجّل سفره مرة بعد أخرى، لم يسمح لمستشاره أن يسافر لكي يحسم الأمر مع أبيه، بل وأحس في بعض اللحظات بالخطأ والندم، وفي لحظات أخرى بالقوة وضرورة أن يتخذ قراراً حاسماً، ثم يترك للآخرين أن يتخذوا نيابة عنه القرار الذي يعنيه وحده، يعتبر أن ذلك القرار بالذات هو الصحيح، ووحده الذي كان يجب أن يتخذ، بغض النظر عمن اتخذه، وبغض النظر عن التفاصيل الثانوية أو الصغيرة.

ليس ذلك فقط، فإن الأمور سارت ضمن منطقها الخاص أيضاً، فالسلطان الذي لم يقابل مجول العصيفير إلا بعد ثلاثة وعشرين يوماً، إذ

كان، أول الأمر، في البادية، ثم انشغل باستقبال وفود زائرة، جاءت للتهنئة بقيام الدولة الجديدة، ظن، وهو يستقبل مجول، أنه واحد من الذين جاءوا للسلام، وفي لحظة معينة تذكر، خاصة حين اقترب مجول ليبلغه أن عنان بسيوني طلب منه العودة. قال السلطان وهو يشد على يده:

ـ كل شيء صار معلوم يا مجول، وعسى يكون خير!

مجول العصيفير الذي أراد أن يشرح ويوضح، لم يجد الجو ملائماً، قال وهو يتراجع، وبعد أن عرف ما حصل:

ـ الله يقسم اللي به الخير، يا طويل العمر.

أما الأميرة الجديدة، الأميرة ثروت، والتي أصبحت جزءاً من حياة السلطنة الهديبية منذ اقترانها بالأمير فنر، وقد اعتبر الأمير، ثم أبوه السلطان، ذلك فألاً حسناً للسلطنة في عهدها الجديد، فكان لقاؤها بالأمير صدفة فرضت نفسها، ولم يخترها أحد، وحتى الأمير الذي لم يكن يفكر بالزواج، وجد نفسه أسيراً لحالة جديدة: حالة لذيذة وضرورية وكان يجب أن تقوم منذ وقت طويل.

لماذا حصل كل ذلك؟ أو كيف حدث بهذه السهولة وبهذا التوافق؟

النبع الأول الذي شرب منه الجد القديم، رفيفان، وطالما سمعت ثروت أباها يتحدث عنه، وظلت أمها تذكره، وتتذكر القصص التي حدثها عنها بندر، هذا النبع سرت مياهه في الخلايا البعيدة فروتها، وجعلتها تتفتح وتنهض. لكن هل كانت مياه ذلك النبع هي التي دفعتها لأن توافق، ولكي تكون، مرة أخرى، جزءاً من عالم شديد التغير، سريع الانفجار؟ هل هناك شيء، في كل إنسان، يخبو، لكن لا يموت، ويظل هذا الشيء يحركه ويدفعه من مكان إلى آخر، حتى يعود إلى منابعه؟

هناك قوى غامضة، وإلى حد كبير مجهولة، وقد تنقضي سنوات كثيرة قبل أن يكتشفها الإنسان أو يعرفها، وهذه القوى هي التي تحرك وتغير، وأخيراً تدفع إلى حيث يجب أن يكون البشر.

عنان بسيوني، وهو يستعرض الأمور، كيف كانت، والأشخاص،

كيف كانوا وكيف هم الآن يقول لنفسه بنوع من الحيرة: «الصدفة هي أخطر القوانين في التاريخ، إذ يمكن أن يترتب عليها تغيير المصائر والرجال والأنظمة... وحتى الحدود الجغرافية». يقول ذلك لأن الأمير فنر لم يتوقف عن التغير منذ السفرة الأخيرة. صحيح أن سفراته السابقة أثرت فيه، جعلته يتطور، ومختلفاً، لكن منذ أن جاءت هذه المرأة أصبح إنساناً آخر. يحدث نفسه بقناعة واستغراب معاً: «الإنسان، أي إنسان، يكتسب الكثير من التجارب والمعارف، والأسفار تجعله باستمرار غير ما كان قبلها، أما أن ينقلب بهذا المقدار، فلا شيء يقوى على ذلك إلا الله والمرأة». ويتذكر كيف كان الأمير فنر محباً للعزلة والانطواء، وسابحاً في عالم من الخيال، ويتذكر أيضاً كلمات الطبيب البلجيكي، الذي جاء إلى موران، قبل بضع سنوات، وقد قام بفحص الكثيرين من أفراد أسرة السلطان، وكان هو الذي يترجم للطبيب ويحاوره. قال الطبيب يصف حالة فنر «يعيش في أحلام اليقظة، ولا بد أن يحتك بالآخرين، لكي يخلص من الحزن والإمساك وكوابيس الليل» وأضاف وهو يغمز بعينه: «وإذا تزوج مبكراً أفضل، لأنه إذا ظل هكذا يجهد نفسه...».

صحيح أن ذلك جزء من تاريخ بعيد، لكن آثار ذلك التاريخ ظلت باقية، وظل الأمير ميالاً إلى العزلة، وتعاوده، بين فترة وأخرى، أمراض غامضة، لا يعرف الأطباء كنهها أو أسبابها. أما الأدوية التي كانت توصف لعلاجه فكانت تؤذيه أكثر مما تفيده.

في السنوات الأخيرة، وقد تغير فنر كثيراً، وظهر للذين يعرفونه أنه غادر الحزن والعزلة، فما لبثت أن عاودته بعض الأمراض اثر وفاة زوجته. ومع أنه يصرف وقتاً طويلاً في إدارة شؤون الحكم، واكتسب الكثير من التجارب والمعارف، إلا أنه ظل رجلاً صعباً.

ورغم أن عنان بسيوني يعتبر الزواج سبباً للاستقرار والهدوء النفسي بالنسبة للكثيرين، فقد كان على يقين أن الزواج لا يتعدى المتعة العابرة بالنسبة للسلطان وأولاده وأقاربه، بل وكاد يعتبر ذلك قاعدة في موران كلها، ولهذا لم يتصور أن زواج الأمير حدث خارق. صحيح أنه بدا له

هاماً، واستثنائياً لأغلب الذين عرفوا الأمير فنر، خاصة من أخوته وأقاربه، الذين حاولوا إقناعه بالزواج من قبل، وكيف اتخذ ذلك الموقف الرافض، الأقرب إلى النزق، إلا أن الأمر ما لبث أن أصبح مألوفاً، ثم عادياً، ولم يعد أحد يأتي على ذكره، ما دام رد فعل الأمير هكذا!

بعض مسني العائلة من الرجال، الذين يسمعون الكثير، ولا يتكلمون إلا نادراً، والذين يرقبون بعناية كل تصرف وكل حركة، وبعد أن سمعوا ورأوا كيف تغير السلطان بعد وفاة ابنه منصور، وبعد أن نقل الخدم والنسوة كيف يتعامل مع خزعل، وتذكر عدد منهم كيف أن خريبط ألحّ على ضرورة تدخلهم من أجل إقناع فنر بالزواج من جديد، وأكد لهم أن فنر يعني له الكثير لكي تستمر الدولة والأسرة، وبالتالي قدرتها على مواجهة الخصوم والمنافسين والأحداث، فقد قال بعض هؤلاء أن خريبط لن يتردد في أن يجعل فنر سلطاناً بعده. المسألة مسألة وقت، ولكن ذلك لا بد أن يحصل. أما من كانوا أصغر سناً من هؤلاء، والذين يعرفون خزعل وفنر، فإنهم أكثر جرأة على أن يقولوا بصوت عالٍ:

ـ اللي يقدر يدبر الأمور بعد السلطان هو فنر، وإذا جاء خزعل الله يستر!

النسوة، في الجناح الغربي من قصر الروض، ورغم أن فنر بعيد أغلب الوقت، لم يكنّ يخفين قناعاتهن أن السلطان بعد السلطان هو فنر. وأمي زهوة التي كانت شديدة الغضب والنزق في الفترة الأخيرة، كانت تسأل عن فنر بمقدار ما تسأل عن السلطان، وحين كان يرد عليها أن فنر في العوالي، وقد تطول غيبته هناك، كانت تصرخ:

ـ الله من الظلاّم، يريدونه بعيد حتى ما أحد يتذكره، لكن الله بالعين ما نشاف بالعقل انعرف، وهذا فنر قدر ما يريدونه بعيد قريب، وبس يجي طويل العمر أسولفه وأقول له، ويشوفون!

موضي التي اختلفت مع زوجة فنر الأولى، وآثرت أن تبتعد، غضبت أكثر لأن فنر انتهى أو كاد بعد موتها. حاولت أن تصالحه، أن تقترب. زارته وبكت لموتها، واعتبرت أن كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد، لكن

لما وجدته غارقاً في الحزن، لا يريد أن يكلم أحداً، أو أن يسمع من أحد، فقد عادت مرة أخرى إلى موران، دون أن تودعه، ودون أن يحس بها إلا من كان قريباً منها.

الآن، بعد أن تزوج من جديد، فقد حملت هدايا كثيرة وجاءت. كانت فرحة مثل طفلة، وكانت لا تقوى على إخفاء ندمها لما بدر منها سابقاً. أما العلاقة التي قامت بينها وبين ثروت، فكأن الاثنتين تعرفان بعضهما منذ وقت طويل، أو كأنما عاشتا معاً من قبل. وفنر الذي تمزق بين الحزن والعناد، وكان سفر موضي عاملاً إضافياً في الكآبة، وربما المرض الذي عانى منه، فإنه الآن، وقد رأى موضي تعود، واكتشف أنه يحبها أكثر مما كان يفترض أو يتصور، ورأى أيضاً أثر السنين التي مرت، فقد أحس بقسوته وخطئه، ولام نفسه انه كان عنيداً هكذا.

خالته مزنة التي جاءت لتهنئته بالزواج، ولكي تبذل جهداً جديداً من أجل إطلاق سراح خاله عمير، وكانت قد رأته قبل شهور وتراه الآن، فقد قالت:

- فنر هالحين مثل يوم ما كان عندنا، لأنه تصالح مع موضي.

وتتذكر أن فنر حين كانت تغضب منه موضي يمرض، ولا يقوى على الأكل أو النوم.

الآن، وقد عادت موضي، وبدت فرحة، راضية، ومنذ أن التقت نظراتها بنظرات ثروت، وعبّرت عن التعاطف ثم المحبة، وكان فنر قلقاً لاحتمال ألا تنسجم المرأتان، كما حصل مع زوجته السابقة، فلم يستطع أن يخفي انفعاله لهذا الود وذلك الانسجام.

همس في أذن ثروت في الليل المتأخر:

- . . . موضي بالنسبة لي أكثر من أخت، كانت أختي وأمي.

قطمة، خادمة موضي التي لا تفارقها لحظة واحدة، قالت لإحدى صديقاتها، وقد لحظت التغير الذي حصل:

- ستي ولدت من جديد، ولا تريد أن تعطي فرحتها لأحد بعد أن تزوج سيدي من ثروت.

وموضي التي كانت على ثقة أن مثل هذا الزواج وحده يمكن أن يكون معقولاً ومرضياً، فقد كانت مثل أية أم حين تنظر إلى الفتاة التي ستكون زوجة لابنها، إذ تبحث في شكلها وصفاتها عما يلائمها هي بالدرجة الأولى، قبل أن تعرف ما يلائم ابنها، لكنها، مع ذلك، لا تريد أن تعترف بهذا حتى لنفسها.

وثروت التي دخلت قصر الروض مذعورة، وكانت تجفل من أي صوت، وتخاف النظرات والهمسات، بل وندمت في لحظات معينة أنها وافقت وتزوجت الأمير فنر، وأصرت على أن تبقى أمها إلى جانبها، وأن لا تفارقها إلاّ حين تذهب لتنام، ما لبثت أن شعرت بالاطمئنان والراحة وهي تصل إلى العوالي، وتبتعد تماماً نظرات نساء قصر الروض وابتسامات الصبية والخدم.

قالت لها أمها، فريزة خانم، وهما تجلسان على شرفة قصر الهازعي، مقابل البحر:

ـ . . . قد يكون الطقس في هذه البلاد قاسياً، لكن القسوة خارج القصر، وعليك ألا تفكري بالخارج، المهم الداخل، وداخل قلب فنر بشكل خاص.

تنهدت وبان عليها الحزن وهي تتذكر:

ـ ورجال موران بمقدار ما يبدون قساة، ولا يعرفون الضحك، أو كيف يفرحون، إلا أنهم، في لحظات كثيرة، يصبحون كالأطفال، ويريدون من المرأة أن تكون كل شيء بالنسبة لهم: أن تكون أماً وأختاً وعشيقة، ويجب على المرأة أن تفعل ذلك، وأن تكون كل ذلك، شرط ألا يحس أحد، حتى زوجها، وأن تفعله في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة!

ابتسمت وتلمظت، ثم تابعت وقد تغيرت نبرة صوتها:

ـ لم أتصور أنني سأكون قادرة على العيش مع أبيك خلال الشهور الأولى، كان دائم التجهم، شديد الحزن، وأغلب الأحيان، صامتاً، ولقد فكرت أن أتركه وأعود إلى بيت أبي، لكن مع كل يوم يمر، ومن خلال الابتسامة والمداعبة، ومن خلال تقديم الخدمات الصغيرة، ومشاركته في

أحزانه وأفكاره، ثم الاستماع إليه وهو يفضي إليّ بهموم قلبه، تغير. نعم تغير، أصبح إنساناً آخر.

ابتسمت بحزن وتابعت كأنها تحدث نفسها:

- . . . وفي استانبول، وخلال فترة شهور طويلة، أصبح مرة أخرى إنساناً صعباً إلى أقصى حد، لكن بمرور الأيام تغير. . . وحتى أصدقاؤه في موران الذي زاروه في استانبول، أكدوا له أنه يبدو الآن أصغر من عمره، وأكثر نشاطاً وفتوة مما كان عليه في موران.

هزت رأسها بحزن، وبعد قليل:

- أما حين سمعوا ضحكاته الصاخبة، ورأوا طريقته في الحياة والتصرف، فقالوا له: التركيات غير بنات موران. ولم يتردد بعضهم في ممازحته والطلب منه أن أدبر لهم زيجات مثل زواجه!

غيرت فريزة خانم جلستها، أعطت البحر كتفها والتفتت إلى ثروت تنظر إليها بتحديد، وهي تتابع:

- والمرأة الذكية تستطيع أن تفعل كل شيء. المهم أن تعرف ماذا يجب أن تفعل ومتى. وهذا يتطلب، بالدرجة الأولى، أن تعرف زوجها: ما يحب وما يكره، كيف يفكر وماذا يريد. إذا عرفت ذلك وصلت إلى قلبه أسرع من البرق.

اسدارت مرة أخرى نحو البحر، وعادت إلى لهجة الذكرى:

- لم يعرف أنني أعزف على العود وأغني إلا في وقت متأخر، لو عرف ذلك في البداية لظن الظنون، وربما لم نستمر. إن الشك بالنسبة لهم يعذبهم، وقد يقتلهم، لأنهم شديدو الغيرة، ولا يثقون بسهولة، لكنهم إذا وثقوا فإنهم يعطون كل شيء، ولا يترددون في أن يفعلوا كل ما تطلبه منهم.

ضحكت بصوت عالٍ والتفتت إلى أكثر من جهة قبل أن تتابع:

- في وقت لاحق، خاصة في استانبول، أصبح يردد معي بعض الأغاني التركية. كان يضرب على صينية الشاي، لكي يلتقط النغم

ويشاركني الغناء. وفي أحيان كثيرة، وربما تتذكرين ذلك، كان يحمل إليّ العود لكي أعزف ألحاناً لأشعار يحفظها!

هل هو نفس الرجل؟ هل تغير بهذا القدر؟ وأنا... كم تغيرت أيضاً؟

تابعت دون أن تنتظر جواباً:

ـ بالتأكيد تغيرنا نحن الاثنين. أصبحت له وحده، وجعلته يصبح لي وحدي، والحياة تغيرت أيضاً.

ردت ثروت بضيق:

ـ ولكن فنر أمير، يا أمي، وأنت تعرفين أمراء هذه البلاد!

ـ إنه رجل قبل أن يكون أميراً!

وابتسمت الأم بثقة وخرج صوتها عميقاً واثقاً:

ـ عند عتبات غرف النوم يترك الرجال ألقابهم وسيوفهم ونياشينهم، أما حين ينزعون سراويلهم فإنهم يتخلون عن قسوتهم وتحفظهم وخوفهم، ويصبحون أكثر استعداداً للفهم والاستجابة، شرط أن نقول لهم الشيء المناسب، وعلى دفعات تتناسب مع اهتزازات السرير!

احمّر وجه ثروت وشعرت بالحرج، لكنها لم تخف ابتسامة عبرت وجهها، مع التماعة في العينين، وكأنها تتذكر ذلك تماماً، وشاركتها أمها الابتسام!

خلال فترة طويلة لم تفعل ثروت سوى أشياء قليلة: تتطلع إلى فنر بإمعان، تراقبه، تسمع باهتمام كل كلمة يقولها. كانت تريد أن تعرف كيف يفكر وماذا يريد. في بعض الأحيان، حين يراها تنظر إليه، أو يحس بمراقبتها، تبتسم تعبيراً عن الإعجاب والغرام، فإذا سألها لماذا تتطلع إليه هكذا كانت لا تتردد في أن تحرك رأسها، أو تغمز بعينها، لكن بطريقة لا يمكن أن يخطىء فهمها، أو دلالتها. وحين يكون الوقت ملائماً، لا تكتفي بهزة الرأس أو غمزة العين، كانت تجيبه بجسدها كله!

ويوماً بعد يوم: ما يحبه فنر تحبه. ما يريده يمثل أقصى أمانيها. تعودت ساعات نومه وساعات اليقظة. ليس لها طلبات خاصة، وتعجب

بكل ما يفعله أو يقوله. كانت تبدي دهشة، تصل حدود الخفة، حين يقدم لها هدية. ومثلما تعودت، ومنذ أيام الصغر، أن تقبّل أمها لأية هدية تقدمها إليها، أخذت تقبله. صحيح أنه كان يبدي تحفظاً ظاهراً أول الأمر، ثم أصبح التحفظ خفراً، وانتهى إلى أن ينتظر القبلة إذا قدم إليها الهدية فانشغلت بها عن تقبيله. كان يقول بدعابة:

- ولا كلمة شكر؟

وتهجم عليه، تتعلق برقبته، تقبله على خديه، على شفتيه، فيحس أنها منحته أكثر مما قدم إليها.

أما الأشياء التي يفضلها، أما الأشخاص الذي يحبهم، فقد أصبحوا جزءاً من حياتها واهتمامها. لا تعرف النوم قبل أن يعود. وكثيراً ما وجدها، وهي بكامل زينتها، نائمة، أو بالأحرى غافية على المقعد المقابل للحديقة التي يحبها. وكان هناك يفضل أن يتناول معها القهوة كل صباح.

لقد علمه هاملتون، أو بالأحرى أوحى له، وبطريقة غير مباشرة، أن جزءاً من محبة الشعوب لملوكها وأمرائها، هو إحساس هذه الشعوب أن أمراءها مختلفون، وأنهم متفوقون. وها هي ثروت تؤكد له ذلك.

قال له هاملتون ذات ليلة:

- يجب أن يكون الملوك والأمراء مثل الشمس: بعيدين وقريبين، في آن واحد. يجب أن يملأوا كل مكان، وأن يكونوا موجودين بكثافة، ودائماً فوق الآخرين، ولكنهم أيضاً عصيّون على كل شيء، ويمكن أن يفعلوا ما لا يتوقعه الآخرون.

فنر الذي تعود منذ وقت مبكر عادات خاصة، وربما فرضتها العزلة، أو الخوف من الآخرين، أصبحت هذه العادات جزءاً من حياته وسلوكه، وأصبح يختلف أيضاً عن الكثيرين. فإن يشرب أبوه القهوة مع جماعة كبيرة، ومنذ الصباح الباكر، لا يعني أن يصبح مثل أبيه، أو أن تصبح هذه الطريقة عادة يجب أن تتبع. فهو يفضل أن يشرب القهوة بملابس النوم، وحده، أو مع من يريد، ولا يريد أن يصبح واحداً من القطيع، كما قال هاملتون مرة، حين نهض أحد المدعوين الغاضبين عن المائدة، وجعل

الآخرين ينهضون، تعبيراً عن الغضب، ولكي يشعر السلطان، أنه قادر وقوي مثله، قال هاملتون بدعابة:

ـ الإنسان يأكل قدر ما يحتاج وقدر ما يريد، لا حسب رأي الشيخ أو حسب الإمساك الذي في معدته!

وأضاف بعد قليل وهو يقهقه.

ـ أما القطيع فإنه يأكل حسب رغبة الراعي وحسب شراسة كلبه!

هذه الكلمات التي قالها هاملتون عرضاً انغرزت في عقل فنر ووجدانه، ولذلك، وبكثير من الإصرار والتحدي، أصبح يتصرف حسب ما يراه معقولاً ويناسبه أكثر.

صحيح أنه يمتثل لعادات أبيه حين يكون معه، ويفعل ما يجب أن يُفعل، لكن إذا كان وحده، أو في مكان يمتلك حرية التصرف، خاصة إذا كان في العرين، كما كتب أحد الصحفيين واصفاً الأمير في العوالي، فإنه لا يفعل إلا ما يعتبره ضرورياً وملائماً. كان يكره تصرفات خزعل، وطريقته في التعامل مع الآخرين. فخزعل لا يفعل سوى تكرار ما فعله أبوه: الحركات، الكلمات، وبعض الأحيان لا يتردد في أن يقوم بأعمال سوقية، كأن يمازح أو يشتم. كان فنر يعتبر ذلك لا يليق بالأمراء. فإذا كان أبوه قد تعود مداعبة بعض الأشخاص الذين عرفهم منذ وقت مبكر، وإذا تمخط أو بصق، فلا يعني ذلك أن يفعل الآخرون مثله، لأن حياة السلطان، وأيامه، تختلف عن الحياة التي يعيشونها الآن، ولا يتطلب تكرار ما انتهى.

لقد بدر مثل هذا الاختلاف أكثر من مرة، لكن لم يصل إلى حد الخلاف.

كان فنر، أغلب الأحيان، ينظر إلى مثل هذه التصرفات بسخرية ويمضي. أما إذا أراد أحد أن يوقفه، أن يناقشه، فكان يرد بحدة:

ـ الواحد يدوّر على راحته...

وتتغير نبرة الصوت، تصبح أقرب إلى الغضب:

ـ ومثل ما قالوا من قبل: نم على الجنب اللي يريحك، ولا تنم مثل ما يريد الناس!

فإذا كان الحديث يجري عن طريقته في الأكل، فإنه ينبر:

ـ وأنا، إذا قطعت اللحم بالسكين، أضر أحد؟

وحين يكون الجواب المؤكد بالنفي يتابع بزهو:

ـ كل اللي يعجبك، وبالطريقة التي تعجبك، وألبس ما يعجب الناس، وسولف معهم بالكلام اللي يعجبهم!

فإذا ذكّروه بالبادية والعادات، كان يرد بسخرية:

ـ إذا كنت بالبادية، مع البدوان أسابقهم وأسبقهم، وأنتم تعرفون!

وهذه الصفة بالذات هي التي أعجبت فريزة خانم، ولفتت نظرها، منذ اللقاء الأول. وإذا كانت فريزة خانم، أول الأمر، بدت خائفة أو متحفظة، حين قال لها عنان بسيوني أن الأمير يطلب يد كريمتها، فقد أصبحت مختلفة حين استعادت الصورة والتصرفات. فقد ظهر لها الأمير زوجاً مناسباً، ولا يمكن أن يرفض، بل أكثر من ذلك بدا لها محبوباً. فبندر الرفيفان، رغم السنوات، ورغم أنه سمح لها بالتدخين، أو بالأحرى لم يمانع أن تدخن أمامه، فلم يكلف نفسه مرة واحدة، عناء أن يشعل لها سيجارتها. كانت تشعل له سيجارته. كانت تهيى له أركيلته، لكنه لم يتنازل، أو لم يفكر، بأن يشعل لها سيجارتها مرة واحد. فنر، لم يتردد في أن يفعل ذلك، بل ولم يتردد في أن يحمل لها طبق الفاكهة، ويعرض عليها، مرة، بعد أخرى، أن تختار.

قالت لعنان بطريقة لا تخلو من مكر:

ـ ولكنهم قالوا لنا أن العريس شخص آخر.

رد عنان بحزم:

ـ الذين قالوا أخطأوا، فصاحب السمو الأمير فنر، يسعده أن يطلب يد كريمتكم!

والأيام الثلاثة التي طلبتها فريزة خانم كمهلة، لتعطي بعدها كلمتها،

والتي انتظرها الأمير فنر، كانت أياماً صعبة وقاسية. بل ووصل الأمر به إلى حد الندم ولوم النفس، لأنه سمح لنفسه، أو سمح للآخرين، أن يتصرفوا بهذه الخفة. لكن عنان بسيوني الذي استعمل ذكاءه وخفة دمه، وحزمه أيضاً، لكي يصل إلى نتائج إيجابية، لم يترك الأمور هكذا. ففي صباح اليوم التالي استأذن الأمير، لأنه مضطر للغياب لعدة ساعات، لكي يزور قريباً فقيراً في قرية غير بعيدة عن استانبول، وأن الواجب يقتضيه أن يترك له بعض الدراهم. والأمير الذي وافق على أن يقوم عنان بهذه الزيارة، طلب منه ألا يتأخر!

بعد سنين عديدة، كانت فريزة خانم تشعر باللذة، حين تتذكر تلك الساعة، عند الضحى، وهي تجلس مقابل عنان بسيوني. كانت مترددة، قلقة، وأميل إلى إرجاء الجواب، فبعد أن حدثها بندر رفيفان مرات ومرات عن خريبط، امتلأت بالخوف والإعجاب معاً. وفي لحظات معينة تصورت بندر سلطاناً أو ملكاً، وأنها إلى جانبه الملكة، وكل العيون تتطلع إليها، تتابعها بإعجاب. أما وإن كل ذلك قد انتهى، فإن الباب الخلفي يُدقّ الآن، ويأتي خريبط، أو من يمثله، لكي يتقرب منها، ولذلك فإن ما عجزت عن تحقيقه أو الوصول إليه، يتاح لها الآن، ولكن من خلال ابنتها، فيجب أن تستغله، أن تقبض عليه بيديها وأسنانها. لقد عاشت الفترة الماضية، منذ وصول مندوب خريبط وهداياه، وحتى الآن، وهي تهيئ نفسها، لأن تكون أم الملكة، فهل تبدد حلمها وتتراجع لتقبل أن تكون ابنتها مجرد امرأة ضمن هذا العدد الهائل من النساء المنتظرات، ولا تعرف ماذا سيحصل كل واحد من الأخوة المتنافسين من ميراث أبيهم؟

قالت لعنان بسيوني، وخرجت كلماتها متلجلجة:

ـ ما فهمناه أن السلطان نفسه يريد ثروت!

رد عنان بمكر:

ـ صحيح أن السلطان يريد ابنتكم، ولكن لابنه فنر، يا فريزة هانم...

وتابع وهو يبتسم ويحرك رأسه ويديه:

ـ وأنت تعرفين، يا فريزة خانم، أن ابن السلطان سلطان بعد أبيه!

ـ ولكن أولاده كثيرون.

ـ السلطان لا يعتمد إلا على سمو الأمير فنر، وهو الآن نائبه وحاكم العوالي، وهو أحب أولاده إليه، ويعتمد عليه في الصغيرة والكبيرة!

وحين صمتت وقلبت شفتها، بدرت منه حركة وكأنه أدى كامل مهمته، وليس عليه إلا الانسحاب، إيذاناً بأن كل شيء قد انتهى. تطلعت إليه بطريقة تريده أن يبقى، أن يواصل الحديث. أدرك. قال بنبرة جديدة:

ـ لا أريد أن أذكر ما حصل خلال الشهور الأخيرة: لم تبق امرأة، في السلطنة كلها، وفي بلدان أخرى غيرها، إلا وتمنت أن تكون زوجة لسمو الأمير فنر، وسموه، حتى أيام قريبة، لم يكن يفكر في الزواج، ولم يخطر بباله، لكن في هذه الحياة كل شيء قسمة، كل شيء صدفة، وعلى الإنسان الذكي ألا يفوّت الفرصة.

وبعد أن استفسرت فريزة خانم عن ترتيب الأمير بين أخوته، وعن المهمات التي يشغلها، وعن الأسباب التي دعت الأمير إلى اختيار ابنتها لتكون زوجة له، وعنان بسيوني يفيض في الحديث والإشادة، ولم يتردد، في لحظة معينة، حين تأكد من اقتناعها، بأن يهمس، وكأنه يفضي إليها بسر:

ـ لو كنت مكانك، يا فريزة هانم، لما ترددت لحظة واحدة، لأن المرأة التي ستكون زوجة سموه ستكون أسعد امرأة في العالم!

حين تذكر فريزة خانم الجلسة، والحوار الذي جرى خلالها، تقول لنفسها، ولا تتردد في أن تقوله لثروت: الفضل كله لعنان بك، نصيحته كانت من قلبه، والله، سبحانه وتعالى، أعطاه على نيته، لأن كل من يوفق رأسين على مخدة له عز الدنيا وجنة الآخرة».

وفريزة خانم التي خافت من القرار الذي اتخذته، وظلت أياماً لا تنام، وكادت تتراجع بعد أن أحست بهول النقلة وبعد المسافة، لما تأكدت أنها ستترك استانبول إلى مكان بعيد ومجهول، حزمت أمرها وأعطت كلمتها في لحظة يأس، مع دمعة سبقت الابتسامة!

وهي تصل إلى موران لم تزايلها مشاعر الضيق والخوف. أكثر من

ذلك، بدت لها موران بلدة موحشة، أقرب ما تكون إلى تلك الأحياء البعيدة والفقيرة عن وسط استانبول، حيث لا يرى الإنسان سوى تلك الوجوه المتحفزة الخطرة، والمليئة بالنوايا الشريرة. ومع ذلك قررت الاستمرار والمقاومة.

قابلت نظرات الاستطلاع من نساء القصر بالابتسام، ولا يعرف ما إذا كانت ابتسامتها تشفياً أو دلاً، وهي تصطحب معها أكثر بنت بياضاً، وربما جمالاً، إلى موران، أم أن الابتسامة كانت درعاً تحصنت وراءه لكي تتقي النظرات المكتشفة وغير الودية التي ترمقها بها النسوة.

قالت لثروت في الأيام الأولى، وقد لمست ضيقها وخوفها:

- سوف يتعودن على وجودك يوماً بعد يوم.

وبعد قليل، وكأنها تحرض نفسها:

- حين تبتسمين للآخرين تنتزعين منهم أقوى أسلحة المقاومة، كما تنتزع السنارة الصغيرة السمكة الكبيرة. أما الرقة مع الرجل فإنها أقصر الطرق إلى القلب.

وابتسمت وهزت رأسها، وكأنها تتذكر:

- لا تنسي ذلك أبداً، ولذلك يجب أن لا تخافي وأن لا تتضايقي.

قال قطمة لموضي:

- . . . وهذي البنيّة غير عن النساء ياستي: تضحك من قلبها وتحب سيدي.

وبعد قليل وهي تبتسم:

- وحبتك يا ستي!

قال نصار حارس الأمير الذي لا يفارقه:

- كان يلزم تجينا هالكرجية من أيام وأيام. . .

وضحك ثم أضاف:

- من قبل، كانت كلمة صبحكم الله بالخير، أو مساكم الله بالخير، ما

تطلع منه. هالحين: شلونك يا نصار؟ وعساك زين يا نصار؟ وما تريد شي يا نصار؟ والخوايا شلونهم وما يريدون شيء؟

وقهقه وقال لنفسه:

- اللهم أتمم علينا بخير؟

رد بخيت الذي يصب القهوة للأمير:

- القول اللي تقوله يا أبو عزّيز. كان من قبل يهز الفنجان، وإذا تكلم قال: بس، هالحين صار رجال ثاني، غير شكل.

هز رأسه عدة مرات وخرج صوته همساً:

- فكفكته بنت الأوادم، وحتى لسانه العظم حلّته، وإذا ظلت عاتّته، تراها، الله العليم، ما راح تخلي منه إلا الجلد والعظم!

- لا تخف يا رجال، هذولا الكرجيات يعرفن وين الداء وكيف يداون!

وفريزة خانم عينان لا تتعبان: تراقب بدقة، تنظر إلى كل شيء بعناية، وما لا تستطيع أن تراه بعينها تلتقطه بأذنيها. وتحملها الذكرى بعيداً، تقول لثروت بحزن:

- . . . وكنت أعرف وقع خطاه في الظلمة وهو عائد من المقهى، وكنت أميز، من نظرة، ما إذا كان سمع شيئاً يفرحه أو يحزنه، وكنت أقدر أي الأكلات يشتهيها فأعدها دون أن أشعره، وكان يفرح بذلك ويزداد حبه لي.

وثروت، بمرور الأيام، لم تعد بحاجة إلى كل هذه النصائح، قالت ذات مرة لأمها، وهي تضحك:

- لا تخافي، ولم أعد صغيرة!

ولم تتوقف فريزة خانم عن إبداء الملاحظات، مؤكدة على ضرورة الانتباه والحرص. وثروت التي تسمع تبتسم، مع قناعتها أنها تجاوزت كثيراً الكلمات والنصائح التي تقال!

لم تتوقف رياح الصحراء عن الهبوب يوماً واحداً. كانت تهب قوية مرة، وهادئة رضية مرة أخرى، لكنها دائماً، وهي تهب، تدفع أمامها أشياء جديدة.

فالرياح التي هبت على السلطان في عين دامة أثناء عودته من الطريفة، وقد خيم في الناحية الشرقية، بناء لرغبة العجرمي، وليكون أيضاً بعيداً عن القلعة التي يطل منها خصمه الذي لا ينساه، عمير، جعلته ضيق الصدر عصبياً. وإذا كان قد احتمل اليوم الأول، والليلة الأولى، فقد طلب ظهر اليوم التالي أن يُشدّ الرحال. قال للعجرمي بمداعبة لا تخلو من غمز:

- عين دامة، يا أبو مشعل، ما تحملنا حنا الثلاثة، أنا وأنت وثالثهم...

وأشار إلى القلعة وهو يضحك، وبعد أن هدأ:

- والقضية الثانية: جانا طارش أن القناصل يريدون يقابلونّا بموران، ولا بد يكون عندهم سالفة، ويلزم نشوفهم.

العجرمي الذي حاول إقناع السلطان بفوائد مياه عين دامة، وتأثيرها المؤكد، كان حريصاً أكثر أن يقتنع ببقائه. قال له بانفعال:

- الأشياء الزينة، يا أبو منصور، والمجربة، مثل ما يريدها الإنسان لنفسه يريدها للي يحبهم!

- وكلّ الله، يا أبو مشعل، المهم، هالحين، تشد حيلك، وترجع لنا معافى وسالم.

وبعد قليل وبتعريض واضح:

- وحنا، الله يسلمك، يجي دورنا ونلحق عليها!

فنر الذي رافق أباه إلى عين دامة، وكان يتحين الفرص لكي يبحث معه أمر خاله عمير، وقد أرسل مبكراً لهذه الغاية عدداً من رجاله، لكي يقابلوا عمير في القلعة، لعلهم يقنعوه، فيعلن ندمه وتوبته، ويكون وجود السلطان مناسبة لإنهاء هذه المشكلة، فقد أبلغه الذين أرسلهم أن عمير نسي خريبط أو كاد، ولم تعد شتيمة فنر تترك لسانه. وأشار بعضهم، بحياء، وبكلمات غير مباشرة، إلى ما يردده، الأمر الذي أوغر صدر فنر، وصرفه عن بحث الموضوع. أما حين سأله أبوه عن «جماعة» القلعة، وقد سأل بسخرية، فكان رده سريعاً وجاهزاً:

ـ بعده ما تأدب، طال عمرك، لسانه طويل والشتيمة توّنسه.

ـ إذن خله متونس إلى أن ينقض!

عبد الله البخيت حين حاول العجرمي أن يمسك به ويجبره على البقاء، فقد همس بأذنه:

ـ الأحسن يا شيخنا امشي، لأني الوحيد اللي قلت لأهل موران أن شيخنا ظهره قوي، وما يشكي إلاّ من صوابعه. ناظروا بوجوه بعض وقالوا: عبد الله ما يحكي إلا الصدق، وغيره يكذب!

وبعد قليل:

ـ وإذا تركناهم، أنا وأنت، يا أبو مشعل، تراهم يسلقونّا، وما يخلون ستر مغطى، وبعدها يصدقون كل اللي ينقال لهم، الأخير أكون هناك، والقمّ لكل لئيم، وكل صاحب لسان طويل، حجر!

وابتسم ثم قال وهو يترنم، لكي يقطع على العجرمي أية محاولة للضغط:

ـ وإذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وان تدخل من الباب تهتدِ

العجرمي الذي اضطرب، لأن الناس تتناوله بهذه الطريقة، سأل بحنق:

ـ وشنهو اللي يقولونه يا عبد الله؟

ـ وأنت تعرف أهل موران، طال عمرك، إذا ما لقوا أحد يسولفون عليه يسولفون على أرواحهم!

ـ الخنازير . . . أولاد الحرام.

ولكي لا يترك ابن البخيت مجالاً، قال وهو يرفع اصبعه مهدداً:

ـ بس أبد لا تدير بال، يا أبو مشعل، أنا وراهم واشعل موتاهم، وهم يخافونّا خوفه حية . . .

وتابع بعد أن جر نفساً عميقاً:

ـ الق العصا تتلقف كل ما صنعوا   ولا تخف ما حبال القوم حيات

قال العجرمي بهدوء وحزن:

ـ زين . . . زين ارجع ونشوف . . .

ثم بلهجة مهددة:

ـ بس أريد منك، يا عبد الله، تعلمني، لما أرجع، من هو اللي يقول وشنهو اللي يقوله!

ـ سوالف ليل يا أبو مشعل، وما تنشال من أرضها.

ـ لا . . . أريدك تعلمني.

ـ بسيطة، يا شيخنا، المهم، هالحين، تشفى صوابعك وتتعافى، وبرجعتك، بالخير والسلامة، لكل حادث حديث!

ولم تتوقف الرياح عن موران أيضاً:

شمران العتيبي في سوق الحلال يستقبل الرياح وأصحاب الرعايا والأخبار، فإذا كانت الريح غربية قوية يصدّ قليلاً، ويطلب من الذين حوله أن يعطوا ظهورهم لها، وأن يتابعوا ما يروونه من الأخبار، حتى إذا عرف ما حصل، وتذكر ما رأى وما سمع، تنحنح وخرج صوته صافياً قوياً:

ـ . . . وموران هي موران، الله خلقها بهذا المكان، وخلق ناسها، وما أحد يغير اللي الله خلقه.

ويتنفس بحزن، ويتطلع في الوجوه:

ـ الأسماء ما يخالف، هذي ما هي بينا وبينهم، يريدون يسمّون موران المنطقة الوسطى، أو المنطقة الشرقية أو الغربية، هذي يمهم، ما يخالف، بس شلون يقدرون يحوّلون أحساب الناس وأنسابهم؟ وليش يدورون على

كل عظريط أو خصي أو ابن حرام ويحكمونه بروس العباد؟ وتترقبه العيون، تتابعه، فيحتد:

ـ العجرمي... إذا أحد سأله عن اسم أبوه يصفن، وإذا سأله نوبة ثانية يقول: خلني أتفطن؛ راح يوم وجا التاني صار مفتي السلطنة... تركوا كل الناس، اللي يفهمون والأوادم، وقالوا له: أنت اللي تفتي وأنت اللي تشور!

ابتسم بحزن وأسف، ثم تابع بتحذير:

ـ يلزم تاخذون بالكم يا جماعة الخير: اليوم لقيت جماعة من القصر وقالوا لي: من هالحين وصاعد، كل واحد ينسأل أنت منين وما يقول هديبي يدفع جزا، فولفوا أرواحكم وفكوا أكياسكم إذا ردتم تحافظون على أصلكم!

قال أحد الذين يتابعون:

ـ يا أبو نمر: اللي ينسى أصله ما له أصل!

ـ يا ابن الحلال، حنا مع اللي يقول: كلنا عربان، كلنا مسلمين؛ أما اللي يقول: كل الناس ما لهم أصل، ويلزمهم يكونون لي تبع، لا بالله، البني آدم ما هو مقطوع من شجرة، كل واحد له أب وأجداد، وكل واحد يصل إلى عدنان أو قحطان، فيلزم يعرفوا الناس ويلزموا حدودهم، وإلا انقلبت عليهم.

قال آخر:

ـ أي، يا أبو نمر... شنهي سالفة الشيخ العجرمي؟

ـ العجرمي؟ أبو مشعل؟

ويضحك ويهز رأسه ثم يتابع:

ـ هذا العظريط: شيخ الدنيا والدين، بدل ما يصلي ويصوم، ويلقى زاوية يلبد فيها ويتعبد، تعرفون وينه هالحين؟

وحين تتطلع إليه العيون بتساؤل، يجيب:

ـ أبو مشعل هالحين بعين دامة. وصفوا له ميّتها، قالوا له: تنعظ الذكر

وتقوّى الظهر، فقال: لا غنى عنها ومالي غيرها، ولا بد هالحين العجمي يمسّده ويوسّده، وطويل العمر ينتظر فتاويه!

وفي سوق التجار، الذي اضطرب واهتز، نتيجة الأخبار عن احتمال سقوط العملات كلها، وأن ابن العليان جمع من السوق الذهب والفضة، ويريد أن يستبدلها بالنحاس والورق، فقد قال عثمان الأصقى، تاجر الرز، الذي لم يعد يبيع ويشتري كما كان يفعل أثناء حملات السلطان:

ـ الله لا يعلّيك يا ابن العلّيان، تريد تخرب بيوتنا بعد ما خربت الهند والسند؟

ولأن أحداً لا يجيب، ولا يشترك معه في هواجسه وأفكاره، فإنه يتابع:

ـ الحق ما هو عليه، على خريبط، وكأن موران ما بها تجار، راح دوّر هنا وهنا إلى أن لقاه، قال له تعال: خرّب اللي بعده ما خرب بهذي الديرة!

ويرفع يديه إلى السماء ويصرخ بحسرة:

ـ الله لا يوفق اللي يضر الناس، الله يهدم ملكه ويهد حيله ويجعله أثر بعد عين!

خريبط الذي يسمع بعض ما يدور في سوق الحلال وسوق التجار، والذي كان يصل هذه الأسواق في أوقات سابقة، فيبدد الإشاعات، ويشرح ويوضح، فقد غاب تماماً وراء الأسوار في قصره، لا يريد أن يسمع إلا ما يطيب له أن يسمعه، ولا يستقبل إلا من يجب أن يراهم ويلتقي بهم.

ومثلما توارى السلطان وراء أسوار القصر، فإن الكثيرين، ممن كانت لهم أدوار في المرحلة السابقة، تراجعوا أو تواروا أيضاً، وإن تنوعت الأسباب واختلفت.

فالجفاء الذي بدر من السلطان تجاه بعض القادة، اضطرهم إلى الانسحاب. والكلمات التي كانت تحمل السخرية والتعريض، وقد قالها عدد من رجال السلطان وبوجوده، ولم يعترض، بل وشارك في الابتسام،

حملت عدداً من الشيوخ على أن يغادروا بسرعة، وبعضهم لم يكلف نفسه وداع السلطان. وقيل إن مهيوب اجتمع بمجموعة من الذين كان لهم دور بارز في المعارك الأخيرة، وقد سلمهم هدايا السلطان، وطلب منهم المغادرة والعودة إلى الأماكن التي جاءوا منها، وانتظار استدعائهم في فترة لاحقة.

أما البدو الذي جيء بهم من أماكن عديدة، ونظموا في مجموعات، حسب القبائل، وقد وعدوا بالكثير حين جُندوا، وكذلك الفلاحون والمزارعون الذين طلب منهم النزول من الجبال، أو جُلبوا من الواحات والقرى، لكي يحاربوا، مع وعود لا تنفك تتزايد أنهم سينالون أضعاف ما كانوا يحصلون عليه من أعمالهم، وبعد أن حاربوا وحققوا النصر للسلطان، فقد اضطروا للانتظار أسابيع، صارت شهوراً، عند أسوار قصر الروض، لعلهم يحصلون على ما وُعدوا به، أو بعضه، إلى أن صرف أخيراً لكل شيخ راتب ثلاثة شهور عن كل «رأس»، وأعطى كل نفر ثوباً وحذياناً.، وفي وداع كل مجموعة، وعلى مدى أسابيع، كان يقف مهيوب خطيباً، لكي ينقل إلى العائدين تحيات طويل العمر، وينهي خطابه بأن يقول:

ـ وطويل العمر يقول: يكثّر خيركم، والله يعطيكم العافية، وترجعون لأهلكم بالسلامة، ولا تنسوا، يا أولاد الحلال، الدعاء للسلطان بطول العمر والتوفيق.

ورحل أو توارى أيضاً كثيرون غير هؤلاء. فالدعاة الذين كانوا ينتشرون في كل مكان، وقد اجتمعوا حين انتهت الحملة الأخيرة في موران، فما لبث عددهم أن تناقص أسبوعاً اثر آخر، بعد أن توقفت المخصصات، وتعذر عليهم الوصول إلى نتائج، لأن العجرمي تظاهر، خلال الفترة الأخيرة، أنه لم يعد يسمع، ثم سافر مع السلطان إلى العوالي. وما عاد السلطان ولم يعد، وقيل ان غيابه سيطول، فقد آثر هؤلاء أن ينتشروا في الأرض، بحثاً عن الرزق.

وكذلك الخياطون وصانعو السيوف، وأصحاب حرف أخرى لها علاقة بالحرب. أما الحطابون وأصحاب الرعايا، والذين كانوا يرافقون الجند، أو

يخيمون حول المعسكرات، من أجل تقديم الخدمات أو لتأمين الذبائح، فقد رجعوا إلى قراهم أو بواديهم، بعد أن رفعت المعسكرات وتفرق من كان فيها. كذلك الباعة الجوالون، والذين يجمعون البقايا، أو يبادلون على ما يفيض لدى الجنود... لقد عاد كل هؤلاء، وغيرهم أيضاً، إلى المدن أو إلى البوادي، لكي يبدأوا عملاً يؤمن لهم معيشة أولادهم.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالكثيرون الذين كانت لهم أعمال أو صلات، وكان يبحث عنهم باهتمام وإلحاح رجال السلطان، ما كادت الحملات تنتهي حتى نسوا تماماً، وزاد في تجاهلهم ونسيانهم أن عدداً ممن كانت لهم بهم صلة تركوا خدمة السلطان، أو نقلوا إلى أماكن أخرى، أو لم يعودوا حريصين على مثل هذه العلاقات.

باختصار: لم يبق شيء في مكانه، فالرياح التي هبت خلال هذه الفترة كانت قوية إلى درجة غيرت مواقع الكثيرين، أو اضطرت الكثيرين إلى تغيير مواقعهم، لعلهم يكونون أقدر على التكيف مع وضع لم تعد الحرب هماً من همومه.

وهذه الرياح لم تقتصر على مدينة أو منطقة، فقد طالت المدن الكبيرة والبلدات والدساكر، ووصلت أيضاً إلى أعماق البادية وإلى أعالي الجبال، بحيث لم يبق أحد إلا ووصلته أو تأثر بها. لكن أكثر من تأثر الفقراء، والذين تركوا أعمالهم السابقة، فاضطر أغلب هؤلاء إلى الانتقال من مكان إلى آخر بحثاً عن الرزق.

والسلطان الذي لم يكن يترك لأحد أن يتصرف أو يقرر في الفترات السابقة، فقد أصبح إنساناً آخر في المرحلة الجديدة.

كان في السابق، وأينما ذهب، يحمل معه ديوانه، ولم يكن الديوان سوى الأوراق في صناديق، وهي عبارة عن الرسائل والسجلات، إضافة إلى الأموال والأشياء الثمينة. كانت هذه الصناديق تزيد سفرة بعد أخرى، وتحملها جمال مخصصة لها، وقد اكتسبت هذه الجمال، مع الأيام، صفات الصناديق التي تحملها. فإذا كان يراد التأكد، مثلاً، إن حامية عين دامة استلمت رواتبها، كان ابن هجرس يصيح منادياً مسؤول الركائب،

فيسأله عن أحمال عين دامة، وهذه الأحمال تعرف من الجمل الذي يحملها، وقد أصبح يحمل اسم المكان ذاته. وفي صناديق عين دامة: أسماء المحابيس، وأسماء الخصوم والحلفاء، وعدد الجمال والأغنام في المنطقة، ومتى دفعت الضرائب آخر مرة، إلى غير ذلك من التفاصيل. أما المراسلات المتعلقة بابن ماضي أو بالانكليز، فإنها كانت من الكثرة والتنوع، ومحمولة على عدد من الجمال، الأمر الذي تطلب من ابن هجرس لأن يعطي هذه المراسلات أسماء فرعية. ورغم أنه كان يعتمد، في الكثير من الأمور، على ذاكرته، إلا أنه اضطر في وقت لاحق لأن يخصص دفتراً لذلك، ولأن يسم الجمال بوسم لا يعرفه سوى ثلاثة: هو ورئيس ركائب الديوان والمكلف المباشر عن الجمل.

هذا الديوان المثير للسخرية، والذي أصبح موضع تندر الكثيرين، خاصة ابن البخيت، كان السلطان يحرص عليه أشد الحرص. ورغم الاختلاف في تفسير حرص السلطان، إذ عزي إلى المال المحمول، فترة، وعزي إلى أهمية المراسلات التي تلقاها السلطان، أو إلى حاجته لمراجعتها بين مدة وأخرى، فإن لدى عدد من خدم السلطان قناعة أكيدة أن هذه الأهمية نابعة بالدرجة الأولى، وربما الوحيدة، من مجموعة الحجب الموجودة في صندوق «الأمانة»، والذي يُحمل على أحد الجمال المكلف به اثنان، والذي يسمى «الأمين».

كان صندوق الأمانة الوحيد الذي يوضع في خيمة السلطان، وكان مفتاحه معه دائماً. وجويبر الذي ظل واحداً من أقرب العبيد للسلطان، ولم يكن يفارق خيمته، حتى مع أقرب الخلصاء، إلا إذا طلب منه السلطان بالذات، ذكر جويبر الذي التحق بابن ماضي، بعد أن أهانه خزعل وضربه، أن في هذا الصندوق مجموعة من الأشياء التي يحرص السلطان على أن يحملها: حجب متعددة الاستعمالات والفوائد عددها سبعة: ثلاثة بأنياب لذئاب مسنّة مأخوذة من الجهة اليسرى؛ كمية من الأحجار الكريمة، استطاع أن يميز من بينها ثلاثة أنواع من الزمرد: حجر زمرد ذبابي، لونه أخضر صادق الخضرة، وهو يسمى كذلك، كما قال فطين الذي يصب

يصب القهوة لابن ماضي، والذي كان يسمع القصة: لأنه شبيه بلون ذبابة خضراء. وحجر زمرد ريحاني، لونه بلون الريحان الأخضر النضير، وحجر زمرد شفاف ينفذ منه البصر.

وذكر أحد الذين سمعوا جويبر يروي عن الزمرد، أن رجلاً عجوزاً لا يكاد يرى، قال وهو يرفع رأسه إلى أعلى وكأنه يتذكر: «والزمرد يدفع العين، ويخلي البني آدم ما يخاف، ويقاوم السم، ويفرح القلب ويقوي البصر...». وكاد يضيف أشياء أخرى لولا أن ابن ماضي قاطعه وهو يضحك «ونسيت تقول: ويحيي الموتى».

وذكر جويبر أيضاً أن في ذلك الصندوق: سبعة كعوب أرانب، وحافر بغلة سوداء، وخصيتا ثور مجففة ومسحوقة، ومجموعة من الخطاطيف، وقد جُعلت كلها في إناء أزرق؛ وفي ثلاث زجاجات صغيرة دم ضبع؛ وفي الصندوق جلد ذئب وعليه قلب طير. وقد عرف جويبر ذلك من السلطان الذي قال له: «في هذا الصندوق ذخر الدنيا والآخرة» وأمره أن لا يقترب منه أحد، وأن يوضع دائماً على يمين الخيمة، وأن يُسمى بالله قبل النظر إليه، وأن يلمسه الإنسان بيده اليمين، إذا اقترب منه، أو حمله، أو فتحه. ولكي لا يخاف جويبر ذكر له السلطان عن بعض ما فيه!

كل هذا الحرص الذي كان يبديه السلطان تخلى عنه في المرحلة الجديدة. وما عدا «الأمانة» فقد ترك الصناديق الأخرى في عهدة عرفان الهجرس، الذي سُمّي في هذه المرحلة برئيس الديوان، وقد اختار عرفان لنفسه مكاناً إلى يمين ديوان السلطان، ووضعت الصناديق كلها هناك. كان حرص عرفان على معرفة زوار السلطان، والغاية من الزيارة، أكثر من حرصه على الصناديق. وانتقل هذا الاهتمام إلى الذين يعملون معه أيضاً، بحيث صدف كثيراً أن تُرك المكان خالياً ومشرع الأبواب!

وكلف السلطان أيضاً عدداً من الذين حوله بتصريف الأمور، فإذا كانت هوايته في فترة سابقة أن تُقرأ عليه رسائل أمراء المناطق، وإملاء الإجابة، فقد كلف عبد المحسن الساعدي بأمور الأوراق، وطلب منه أن لا يعرض عليه، وأن لا يسأله إلا حول الأمور الكبيرة. وعبد المحسن

الذي لم يكن يميز بين الأمور الكبيرة والصغيرة، اضطر أن يعتبر الأمور كبيرة أم صغيرة حسب مزاج السلطان، وبمدى إمكانية أن تعرض عليه، إضافة إلى الوشايات والأخبار الخاصة!

وأنور عبد الغفار الذي اختاره فنر، ليكون «البريد»، كما سماه، والذي يحمل الرسائل بين العوالي وموران شهرياً، كان يحظى، في الفترة الأولى، بساعة من وقت السلطان، لكي يعرض عليه ما جدّ خلال شهر في العوالي، وليأخذ رأيه فيما يجب أن يعمل؛ لقد انتهى الأمر «بالبريد» بأن يرجع إلى العوالي، مع كلمة، غير مباشرة، نُقلت على لسان السلطان: «تصرّف، وأبلغنا النتائج».

وإذا كان خزعل قد اقترب كثيراً، في هذه الفترة، من موران، فقد كان شديد الدقة والحذر، لا يريد أن يرتكب خطأ يمكن أن يؤدي إلى عكس ما يطمح إليه، ولذلك بدا محباً، متواضعاً، لا يترك أحداً من العائلة إلا ويتفقده ويسأل عنه. وهذا السلوك إذ أرضى الموظفين والخدم والمسنين في العائلة، فإنه أيقظ المخاوف لدى زوجات السلطان، ولدى الأبناء الكبار. أما الحروب العلنية أو غير المكشوفة، التي كانت تجري في أوقات سابقة، خاصة أثناء غياب السلطان، وكانت تتخذ عشرات الأشكال، وتتذرع بأوهى الأسباب، فقد بدأت تبرز مرة أخرى، وإن أخذت أشكالاً جديدة أو مختلفة.

راكان الذي كبر، وأصبحت له قوة وفرض وجوده لأنه ابن فضة، وأكبر الأخوة الموجودين في موران، ولأنه أيضاً في قصر الروض، توصل، أو جاء من أوحى إليه، أو أقنعه، أن جوهر الصراع في هذه المرحلة، يتلخص بنقطة أساسية: من الأقرب إلى السلطان ومن يحميه؟ ليس هذا فقط، يجب أن تكون الحماية حاجة حقيقية وليست مجرد مظهر!

وتكررت القصة ذاتها: اثنان، لكن هذه المرة، من أقارب ابن مياح، قبض عليهما، وهما يرتبان محاولة لاغتيال السلطان، عن طريق عدد من الخدم والعبيد.

رتبت القصة بكثير من الدقة، مع تفاصيل وافية: المكان، الهدف،

الأدوات، الطريقة، بحيث عندما عرضت على السلطان، وقد عرضها راكان وأمه معاً، وجيء بعدد من الشهود، ثم جيء بعائد العريني وذياب العقلة، المكلفين بهذه المهمة، واعترفا للسلطان، وقيل انه طُلب منهما ذلك مقابل أموال كبيرة، ووعد أن يطلق سراحهما بعد فترة، عند ذاك أصبحت القضية بالنسبة للسلطان لا تحتمل الشك أو التردد.

أما ما تلا ذلك من إعدام الاثنين، إضافة إلى خمسة من العبيد والخدم، وهناك اعتقاد أن لاثنين من هؤلاء علاقة بخزعل، وقيل إنهما عيونه في قصر الروض، وإعدام صويلح التركي الذي رتب العملية كلها، وكان قد وعد بمائة ليرة ذهبية وبأن يزوج بمريم التكرونية لقاء هذه الخدمة، ولقد تم إعدامه للتخلص من أي أثر. . . فإن أهم نتيجة تم الوصول إليها هي تسمية راكان رئيساً لحرس القصر، وبالتالي الشخص الوحيد المسؤول عن حماية السلطان، بما في ذلك الإشراف على شؤون القصر والديوان، والتأكد من صفة الزوار وأسباب الزيارة، إلى غير ذلك من ترتيب الشؤون الأمنية والاتصالات.

هذه المعركة التي اعتبرها خزعل موجهة إليه، وهزيمة له، تظاهر أنها لا تعنيه، بل أكثر من ذلك أشاع أن العبدين كانا يتجسسان عليه، وأنه نبه سلمان الأعرج إلى ذلك، وطلب منه أن يبلغ السلطان أو مهيوب، ولا يدري فيما إذا قام سلمان بذلك، لأن سلمان مات قبل ثلاثة أسابيع، في أحد حمامات القصر!

فقد صدف أن ثلاثة من الخصيان، إضافة إلى سلمان الأعرج، ماتوا مختنقين، في حمام القصر، ولا أحد يستطيع أن يؤكد أو ينفي، ما إذا كان ذلك الموت نتيجة الاختناق فعلاً، أم نتيجة إغلاق أبواب الحمام وضياع المفاتيح!

إن التفاصيل في مثل هذه الأمور تؤدي إلى متاهة حقيقية، ولذلك لم تمض أيام حتى نُسيت! واستمرت الأمور في القصر كما كانت من قبل، على الأقل بالنسبة لخزعل. أما راكان، الذي أخذ يعزز وضعه بوقت مبكر، فلم تزد تسميته رئيساً لحرس القصر، إلا إعطاء الأشياء أسماءها

الحقيقية، والاعتراف له بالسلطة، التي من خلالها، يستطيع أن يفرض على الآخرين ما يشاء.

ولئلا يعتبر من تسول له نفسه أن السلطان أصبح متقدماً في العمر، أو ربما عاجزاً، ولكن يبقى موجوداً بقوة وكثافة، كان يروق له أن يخرج بجولة في السيارة بين فترة وأخرى. وهذه الجولة تمتعه إلى أقصى حد. كان يخطط أين يجب أن يذهب، من يجب أن يرى، ماذا عليه أن يقول، وكيف يجب أن يتصرف. كانت هذه الأمور تشغله إلى أقصى حد: يتخيلها، يضع لها أكثر من احتمال، يفترض ماذا سيقول الآخرون وماذا سيكون جوابه، ويتصور رد الفعل وكيفية الاستقبال!

ولأنه يسمع ما يقال، أو على الأقل بعض ما يقال، وكان أكثر ما يزعجه أن يتحدثوا عن تقدمه في العمر، فقد قرر أن يرد عليهم بالطريقة المناسبة.

فإذا كان مظهره خلال الفترات السابقة يثير الاحترام، وكان يعتز بقامته المديدة، وقوته الخارقة، ويترك للآخرين أن يتحدثوا عن هذه المزايا التي لا تخفى على أحد، وكان يروق له أن يسمع من عيونه كيف يتحدث الناس عن طوله الفارع، وعن عدد نسائه، ويختلفون على عدد البنين، فقد كان لا يتوقف عن إرسال الرسائل التي تبرهن على استمرار هذه القوة، من خلال الزيجات التي يعقدها، ومن خلال المحظيات والعبدات اللواتي يزداد عددهن في قصره، وكدليل على هذه القوة، أيضاً، تلك الأفواج الجديدة من البنين والبنات.

سأل هاملتون ذات ليلة الأمير فنر، وكان السؤال بين الجد والمزاح، عن عدد أخوته الذكور، ومن أي الأمهات، وفنر الذي فوجئ بالسؤال، ودارت عيناه دورة سريعة، وكأنه يتذكر، أو يريد أن يكتشف ما يرمي إليه هاملتون رد بمرح:

ـ قبل ما أصل العوالي كانوا عشرين!

ابتسم، وبعد قليل:

ـ أما بغيبتي كم واحد جاء فعلمي علمك يا مستر هاملتون!

اعترض هاملتون بمرح:

ـ منذ وقت طويل اتفقنا، يا طويل العمر، أن هاملتون انتهى، فأنا الآن عبد الصمد.

ـ عفواً، أستاذ عبد الصمد!

ابتسم هاملتون ثم حرك رأسه وتغيرت تعابير وجهه، وتساءل بخبث:

ـ هل أستطيع أن أسأل الأمير ما إذا كانت لديه الرغبة أو النية لأن يكون له أولاد مثل صاحب الجلالة السلطان؟

وحين بدا فنر محرجاً أو غير واثق، تبدلت سحنة هاملتون تماماً، قال وخرج صوته عميقاً:

ـ طبيعي لا يحق لي أن أتدخل في مثل هذه الأمور، ويمكن للإنسان أن يقرر بنفسه، لكن، مع ذلك، أعطي لنفسي الحق في أن ألفت النظر إلى ملاحظتين، الأولى: أن العائلة الكبيرة، خاصة إذا كانت من صلب واحد، يمكن أن تكون قوة، ويخشاها الآخرون. وأكثر العائلات، في فترات معينة، كانت تفاخر وتعتز بعدد أفرادها، وهذا التقليد لا يقتصر على هذه البلاد، لقد كان سائداً في أوروبا أيضاً، وكان نموذجاً لعصر بكامله، لكن طبيعة الحياة هناك والتطورات التي حصلت، فرضت صيغة جديدة: العائلة الصغيرة. ربما يكون الدافع اقتصادياً بالدرجة الأولى، لكن هذا ما حصل.

أما الملاحظة الثانية، يا صاحب السمو، فهي أن هذه القوة التي تتمثل بعدد الأفراد، فإنها تبلغ ذروتها في فترة ثم تبدأ تتراجع، لكي تصبح في فترة لاحقة مصدر ضعف. تكون قوية ومؤثرة بوجود رب الأسرة، وبمدى قدرته على التحكم وعلى الاستفادة من هذه القوة. أما في حال غيابه أو ضعفه، فإن ما يتولد نتيجة الصراع والنزاع والتنافس يمكن أن يؤدي إلى العكس.

هذه الفكرة التي طرحها هاملتون كانت تدور في ذهن فنر. صحيح أنها غائمة متداخلة، أو لم تكن بهذا الوضوح. وكانت أيضاً تعليقاً على ما نقله «البريد» أنور عبد الغفار أثناء زيارته الأخيرة لموران، وكيف أن الكثيرين

يتحدثون عما جرى في القصر، وكيف أن راكان أصبح الشخص القوي، وأن عدداً من رجال خزعل قد أعدموا.

وكان يريد من طرح الفكرة أيضاً أن يهيّئ فنر نفسياً إلى ما يجب أن يفكر فيه ويقرره في يوم من الأيام.

قال كأنه يحدث نفسه:

ـ ومع ذلك فإن العادات والتقاليد في الشرق تختلف عن أوروبا، عن أماكن أخرى، ولذلك ما حصل في تلك الأماكن لا يعني أنه سيحصل هنا.

تساءل فنر بمكر لا يخفى:

ـ صحيح أن التقاليد تختلف، لكن الديانة المسيحية، كما أعرف، يا مستر هاملتون، تحرم تعدد الزوجات أليس كذلك؟

ابتسم هاملتون وأجاب:

ـ يمكن للمستر هاملتون، المسيحي السابق، أن يجيبك، لكن أرجو ألا تنسى، مرة أخرى، أنني عبد الصمد.

وقهقه، ثم بعد قليل:

ـ نعم، لا تجيز المسيحية تعدد الزوجات...

تنفس بعمق، ثم أضاف بمكر:

ـ وتمنع الطلاق أيضاً.

رد فنر بمرح:

ـ وحدة بوحدة، يا أستاذ عبد الصمد، وبالتالي الزواج الواحد اما أن يكون نعيماً مطلقاً، أو جحيماً مطلقاً، والإنسان وحظه!

قال خزعل، وهو يستأذن أباه في السفر إلى الحويزة، ليزورها ويتفقد أحوالها:

ـ ... وتعرف البدوان، يا طويل العمر، إذا الواحد ما مرّ وسأل ياخذون على خاطرهم، فقلت لنفسي ما دمت أنت مشغول أمرّ بهم واسأل عنهم وأبلغهم سلامك.

رد السلطان بمرح:

ـ الشباب ما يتعبون، ولما كنا بعمركم، يا وليدي، ما بتنا بمكان ليلتين، فعلى خيرة الله، ولا تنس تسلم على الكبير والصغيّر، وإنشاء الله بس تخلص شغيلاتنا من بدّ ولازم نزور كل المناطق، ونسأل ونتفقد الجميع.

وقال خزعل لزيد الهريدي:

ـ ويلزمك تتذكر كل اللي صار بهدي الأيام، ويلزمك تذكرني.

واستمرت الرياح تهب. مرة تكون قوية، وأخرى خفيفة، لكن يوماً لا يشبه الآخر في السلطنة!

في مواجهة الرياح الشرقية التي تهب من جهة الصحراء، كانت رياح البحر تهب من الجهة الأخرى. وعند سفوح جبال الصد، العالية الممتدة، وفي الأودية العميقة، كانت رياح الصحراء ورياح البحر، والتي لا تتوقف عن الهبوب معظم أيام السنة، تلتقي. وهناك، وهي تتواجه لأول مرة، تتصارع، تلتحم، تتقدم وتتراجع. كانت تفعل ذلك دون توقف، غير آبهة بالحواجز والعلامات التي وضعها البشر، كما لا تعترف بالرغبات أو الأمزجة، حتى إذا تغلبت ريح على ريح، فوصلت رياح الصحراء إلى العوالي، أو واصلت رياح البحر طريقها إلى ما وراء جبال الصد، فإن أمزجة الناس الذين تصلهم، وتصرفاتهم، وحتى أخلاقهم، تكتسب صفات جديدة، تظهر واضحة في التعامل والنظرة، وتبقى كذلك إلى أن تأتي الرياح الأخرى فتغيرها!

ثروت الرفيفان، التي بدت خائفة، ثم عصبية، في موران، لم تلبث أن شعرت بالثقة، والقوة وهي تصل إلى العوالي، وتواجه البحر. لقد ذكّرتها الطريفة، ببحرها الأزرق الممتد، باستانبول والبسفور، فشعرت بالرضى والامتلاء، لكن مع هبات رياح الربيع ثم الصيف، وتغير النوء، اختلفت: وجدت نفسها، من جديد، وفي الطريفة هذه المرة، محاصرة، ضيقة النفس.

قالت لها أمها، فريزة خانم:

ـ المسألة ليست لها علاقة بالحرارة أو الريح، وإنما لها علاقة بشيء آخر!

وثروت التي فهمت ما تعني أمها، لا تريد أن تعترف. ردت بنزق:

ـ المسألة أكثر . . . ماما!

فتحت فريزة عينيها بخوف متسائل، تابعت ثروت:

ـ يريد أن يسافر ويتركني.

قالت فريزة وهي تضحك:

ـ الرجال يسافرون، يا بنيّتي. دائماً يسافرون، وقد يغيبون شهوراً طويلة . . .

هزت رأسها ثم بعد قليل وقد تذكرت صوراً معينة:

ـ كان بحارة استانبول، في بعض الأحيان، يغيبون عن زوجاتهم شهوراً طويلة، أو ربما سنوات، وكانت المرأة الحامل تلد وتربي، حتى إذا عاد الزوج رأى في بيته رجلاً آخر، وبدل أن يخاصمه يؤاخيه. هكذا النساء في كل مكان!

بعد أن نطقت بهذه الكلمات الحكيمة، ولا تعرف كيف خطرت لها، سألت ابنتها:

ـ وأين سيسافر، ومتى سيذهب ومتى سيعود؟

ردت ثروت من بين دموع ملأت عينيها فجأة، وكانت هذه الدموع نتيجة الضيق والألم والغثيان:

ـ لا أعرف . . . ماما . . .

وبعد قليل:

ـ حين طلبت منه أن يأخذني معه ضحك، وقال إن ذلك مستحيل. فلم أسأله ولا أعرف كم سيغيب!

قالت فريزة بقسوة:

ـ نعم يجب أن يسافر الرجال دون زوجاتهم . . . بعض الأحيان.

وبعد قليل وهي تبتسم بسخرية:

ـ إن ذلك مفيد للرجال والنساء معاً: الرجال يكتشفون أن الأسرّة التي كانوا ينامون عليها أكثر دفئاً وفيها وحدها يشعرون بالأمن، لأن الأسرّة الأخرى إذا امتلأت، فمثل امتلاء اليد بالماء، فهذا الماء يهرب باستمرار

ولا يروي. والنساء، لأن الأشياء الصغيرة التي تعنيهن وحدهن، ويجب ألا يشغلن الرجال بها، يمكن أن ينتهين منها ما بين سفر الرجال وعودتهم!

ردت ثروت بألم:

ـ وكيف يتركني وأنا في هذا الوضع؟

ـ لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلك، يا صغيرتي. أنت وحدك التي تستطيعين: أن تعطيه ولداً حين يعود. وهذا الولد يمكن أن يربطه، أن يجعله يفكر ويتحمل، وأن يتغير أيضاً!

قالت ثروت وهي تحاول أن تمنع نفسها من التقيؤ:

ـ ولكن كيف أستطيع تحمل كل ذلك وحدي؟

ـ الأفضل، يا صغيرتي، أن تتحمليه وحدك، لأن المرأة خلقت من أجل هذا، أما إذا أرادت من الرجل أكثر، أو حاول هو أكثر، فإنه يتظاهر، وهذا التظاهر لا بد أن تدفعي ثمنه في وقت لاحق، ولذلك لا أريد أن تكوني بلهاء إلى هذه الدرجة.

تنفست فريزة بما يشبه التنهد وقالت كأنها تحدث نفسها:

ـ ولقد ذكروا لي أن النساء في هذه البلاد لا يبلّغن الرجال بالحمل، لا أعرف لماذا، وحين لا يستطعن إخفاء ذلك يشعرن بإحدى الحالتين: إما بالفخر أو بالخجل. أما إذا حانت ساعة الوضع، فإن المرأة تصبح تماماً مثل الكثير من الحيوانات: تريد أن تحل مشكلتها بنفسها، ولذلك لا تكون بحاجة إلى مساعدة أحد، أو حتى إلى معرفة أحد، إنها تذهب بعيداً عن العيون لكي تنهي هذه المشكلة!

وضحكت ثم أضافت:

ـ أما إذا عادت وعلى يديها ولد، فإنها تكون فخورة، قوية، وينظر إليها زوجها بكثير من الإكبار والمحبة. صحيح أنه ينظر بسرعة إلى الولد، لكي يكتشف شبهاً من نوع ما بينه وبين هذا المخلوق الذي لا يعرف من أين جاء أو كيف، لكنه أيضاً يشعر نحوه بالمحبة، ويشعر نحو زوجته بالامتنان.

استراحت فريزة وربما مرت في ذاكرتها صور كثيرة، ثم بعد صمت:

ـ الأفضل أن يسافر. . .

وضحكت بسخرية، وقالت:

ـ إذا قرر الرجل السفر يجب أن يسافر، والأفضل أن توافق المرأة. أما إذا اعترضت، وسافر، فإنها تخسر نفسها، وإذا لم يسافر، بناء على رغبتها، فلا بد أن يخسر نفسه. وفي الحالتين فإن هناك خسارة يجب ألا تقع. . .

وهزت في وجهها يدها كلها وهي تضيف:

ـ هذا عن الرجل العادي، أما إذا كان أميراً أو ملكاً، خاصة من هذه البلاد، فإن الخاسر الوحيد هو المرأة، فاحذري تماماً، ويجب ألا تكون حمقاء إلى الدرجة التي تخسرين فيها كل شيء!

هذه القصة حصلت في وقت مبكر ونُسيت، وربما كانت بسبب الضيق وعدم المعرفة، أكثر مما كانت للاختبار، لأن مثلها لم يتكرر، ولأن فنر لم يتوقف عن السفر، سواء داخل السلطنة أم خارجها. وإذا كانت ثروت قد أحست، في لحظات معينة، أنها وحيدة، أو غير مفهومة، فإنها بمرور الوقت تعلمت أشياء كثيرة، وأصبحت امرأة مختلفة، وساعدت أيضاً في أن يكون فنر إنساناً آخر.

صحيح أن ذلك كلفها جهداً كبيراً، لكن تلك الروح التي ورثتها عن أمها جعلتها تصمم، ثم مكنتها من الوصول بعد ذلك.

قالت لها أمها، ذات يوم، وقد رأتها تضرب الطفل بقسوة، لأنه يبكي ولا تعرف سبب بكائه:

ـ حين تضرب الأم أولادها، أو حين تصرخ في وجوههم، دون مبرر كاف، فلا بد أن يكون السبب في الأم قبل أن يكون في الأولاد. . . نعم في الأم وفي الفراش بالذات!

وضحكت فريزة لأنها تذكرت أمراً، وبعد قليل:

ـ قالت لي امرأة مسنة، كانت من قريبات جدتي، وقد حصل ذلك قبل

سنوات طويلة: على المرأة التي تحس أن زوجها لم يعد يحبها، أن لا تبحث في ثياب الزوج عن رائحة امرأة أخرى، أو أثر من آثارها، عليها أن تبحث في مكان أقرب...

والتفت فريزة خانم، لكي تتأكد أن لا أحد يسمعها، وهمست:

ـ نعم، عليها أن تبحث في مكان أقرب بكثير: في سريرها، في ثيابها، أو ربما عليها أن تبحث في سراويلها، لأن عدم إقبال الرجل لا يعني دائماً أن امرأة أخرى دخلت حياته، وإنما لأنها هي لم تعد امرأة بالمقدار الكافي، أو لم يعد زوجها يرى فيها المرأة التي يشتهي!

وضحكت وقد تغيرت نبرة صوتها:

ـ وكانت تلك العجوز تقول، وهي تهرش رأسها: «أخطر شيء في هذه الحياة، بعد الله والمال، هو السروال: إذا كانت دكته قاسية أتعب، وإذا ارتخت دكته أشقى وأتعب». ولم تكن تقصد سروال المرأة وحدها، إنما وسروال الرجل أيضاً.

ابتسمت فريزة خانم وهزت رأسها عدة مرات. مرت في ذاكرتها صور لا حصر لها. كانت ثروت لا تزال متجهمة، وتعتبر أن جزءاً من الحديث، رغم أهميته، زائد. قالت الأم وهي تنظر إلى عيني ابنتها تماماً:

ـ وقدرة المرأة غير قدرة الرجل. المرأة، في يوم، يمكن أن تتعلم ما لا يستطيعه الرجل في سنين، لأن المرأة تدفع ثمن كل ما تتعلمه، أما الرجل فإنه يؤجل الدفع، وقد يوافق على أن يدفع عنه الآخرون. وفي حالات كثيرة فإن ما يتعلمه صدى لأوهام أو لأحلام غيره. ان ذلك لا يحصل مع المرأة، فهي وحدها التي تقرر حين ترغب وتريد، ومستعدة لأن تدفع ثمن القرار الذي تتخذه.

وعادت فريزة خانم من رحلتها، فتغير صوتها، أصبحت امرأة أخرى:

ـ والنوم غير المريح، يا ثروت، يؤدي إلى النرفزة وأمراض المعدة...

وقعد قليل، وبرجاء:

ـ وقرب الولد من أبيه، خاصة في مثل هذا العمر، لا يؤدي إلى محبته

أو زيادة تعلقه به، ربما العكس هو الصحيح. فالأب يريد أن ينام، ويريد أن تكون إلى جانبه امرأة لا مرضعة، فلذلك اتركي الطفل الصغير واهتمي بالطفل الكبير!

وثروت التي كانت غاضبة، وكانت تستمع لأمها مضطرة، اكتشفت، فجأة، أن أمها تقول شيئاً مهماً. بل أكثر من ذلك اكتشفت أنها لا تعرف أموراً كثيرة في هذه الحياة. لقد اعتقدت أن الليلة الأولى، إذا اجتازتها كما ترغب، فإن كل الليالي بعدها أسهل منها؛ وبعد أن اجتازت تلك الليلة، وليالي أخرى غيرها، وبدت متأكدة وواثقة، اعتبرت أن مجيء الطفل يجعلها في مصاف جميع الأمهات، ولن تكون أم، حتى أمها، أكثر معرفة منها! الآن تكتشف، أن العمر وحده هو ما يجعل الإنسان أكثر إدراكاً، ولذلك، فإن تلك العجوز، أو أمها، أو أي عجوز أخرى، تعرف ما لا تعرفه هي.

أخرجتها أمها من الأفكار:

ـ الأطفال لا يبكون دون سبب.

ردت ثروت بحدة:

ـ ولكن أكل ونظيف، ولا يحتاج إلى شيء.

ضحكت فريزة وقالت تحدّث نفسها:

ـ إذا لم يبك الأطفال من الجوع والألم، فلا بد أن تكون عندهم أسبابهم...

وبعد قليل، وبسخرية:

ـ ربما يريدون أن يصبحوا ملوكاً أو أنبياء بسرعة، ويحسون أن الزمن يسير على غير ما يشتهون أو يحلمون، ولذلك يحتجون بالبكاء!

ردت ثروت بغيظ:

ـ ماما... لا تسخري مني.

قالت فريزة بصوت بطيء وواثق:

ـ حبيبتي. . . أرى أن تهتمي بالطفل الكبير، وأن تتركي الصغير إليّ، لأنك لا تستطيعين أن تعتني بالاثنين معاً.

قالت ثروت وهي تدير وجهها بعيداً عن عيني أمها:

ـ ماما. . . الخدم، كما قال لي كل الذين سألتهم، يفسدون الأطفال، وأنا أريد أن أربي ابني كما أشاء.

قالت فريزة خانم، وخرج صوتها من صدرها، وكان حاداً:

ـ أنا التي أريد أن أربيه، وأنا لست خادمة، ولست صغيرة!

ولم تتأخر ثروت في فهم هذه اللهجة، خاصة وقد اختبرتها منذ أن كانت صغيرة. إضافة إلى أن قصة تلك العجوز والسراويل التي تحدثت عنها، أعجبتها، أو بالأحرى وجدت أن لها معنى يفوق ما افترضته. ولذلك تركت لأمها أن تهتم بالطفل، وانصرفت هي للطفل الآخر!

كتب هاملتون في مذكراته «. . . والغريب في أمر الشرقيين أنهم مفتونون بالحديث عن الجنس إلى أقصى حد، وربما أكثر من ممارسته. لا أريد أن أزعم أنهم لا يمارسون بالمقدار الكافي، أو أن الحرمان الطويل يجعلهم هكذا، إن في الأمر ما يستعصي على التفسير البسيط. إنهم، بعض الأحيان، يقضون الساعات الطويلة، وربما سهرات بكاملها، وهم يتحدثون في هذا الموضوع بالذات. لا فرق بين غني وفقير، بين شاب ومسن. بل أكثر من ذلك: إن الرجال الذين يعرفون كيف يتحدثون في هذا الموضوع يتمتعون بمنزلة تفوق غيرهم، ورغم أنهم يكررون القصص ذاتها، دون أية إضافات أو تفاصيل جديدة فإن الآخرين يستمعون بشغف، وكأنهم يسمعون هذه القصص للمرة الأولى. تظهر الشهوة في عيونهم، في حركاتهم. وتصدر عنهم، دون شعور، أو دون قدرة على التحكم، أصوات أو تصرفات تثير الدهشة والاستغراب.

بل أكثر من ذلك، يمكن للإنسان أن يستنتج دون عناء، أن في الشرقيين ميلاً واضحاً ليس إلى الجنس وحده، وإنما، بنفس المقدار، إلى الظلال والطقوس التي تحيط به وترافقه. وفي حالات عديدة تكون الظلال والطقوس أكثر أهمية. هل لذلك علاقة بمفهوم الخصب، أو بالآلهة الأنثى

التي سادت خلال فترة من التاريخ؟ وهل يجوز أن العطور والبخور وتلك الأغاني والأشعار التي يرددونها، تعطي للأمر هذه الأهمية؟

قد أكون مخطئاً أو متسرعاً في استنتاج أحكام دقيقة أو كلية، لكن ما بدا لي، حتى الآن، لافت للنظر ويثير التساؤل والحيرة.

السلطان، مثلاً، لا يتردد في أن يقضي الساعات الطوال لكي يسمع قصة، ربما تكون ملفقة، أو مليئة بالأوصاف والخيالات، رغم أن ما عنده من النساء، من حيث العدد أو الجمال أو التنوع. يفوق ما يسمعه بعشرات المرات. هل لذلك علاقة بالشعر؟ هل لذلك علاقة أن تراث هذا الشعب يعتمد بالدرجة الأولى والأساسية على الاذن، قبل أن ترى العين أو تختبر الحواس الأخرى؟

إن في الأمر ما يتطلب التفكير والتأمل.

صحيح أن في أدبنا وتراثنا، منذ أيام روما، وحتى الآن، الكثير حول الجنس، لكن الفرد العادي في بلادنا، في أوروبا عموماً، لا يشغل نفسه ولا ينشغل بالجنس إلى هذا الحد أو بهذه الطريقة. وحتى ما يقال عن السلاف، وذلك الوله بالجنس، فإنهم يمارسونه، وبكل حواسهم، أكثر مما يتحدثون عنه.

إذا قيّض لي فائض من الوقت فلا بد أن أبحث هذا الموضوع، من خلال أسئلة مباشرة ومحددة، وصريحة أيضاً، لمن أثق بهم، ولمن يثقون بي، وأعدهم أن أخفي أي إشارة أو دليل، فقط أريدهم أن يحدثوني بصدق في هذا الموضوع بالذات».

وفي وقت سابق كتب هاملتون في يومياته ما يلي: «... زواج فنر أمر جيد. عندما لا تكون المرأة موجودة، يصرف الرجل وقتاً مضاعفاً في التفكير فيها واستحضارها، ثم إغرائها لإقناعها، وأخيراً إذا وصل إلى نتيجة، فهي مؤقتة، وتضاعف همومه في النهار، ولذلك يصبح صعباً.

لا أريد أن أضع معادلات أو قواعد، لكن ما لاحظته أن فنر أصبح الآن، وبعد أن تزوج، أكثر ليونة وأكثر استعداداً للفهم. كان ليناً من قبل، وكان فهيماً، لكنه كان أيضاً مثل الآلة التي تحتاج إلى التزييت والدوران.

إنه الآن شخص آخر: أقل تجهماً، محب للحديث، وإنتاجه أفضل بكثير من قبل. ربما كان جزء من طاقته يذهب هدراً نتيجة الحزن أو لانشغاله بأفكار وخيالات.

قيل لي: إن الشرقيين يتهيبون الزواج في البداية. إنهم يترددون، وتتملكهم الحيرة، وقد يؤجلون الزواج مرة بعد أخرى، في محاولة للهرب، لكن بعدما يكتشفون كم كان سهلاً وجميلاً ومثيراً، فإنهم يستمرئون الزواج الثاني، ثم أي زواج لاحق، وقد لاحظت أن الذين يتزوجون مرتين من السهل عليهم أن يتزوجوا مرات أخرى، ودائماً لديهم الأسباب الكافية، على الأقل لإقناع أنفسهم!

أصبحت مقتنعاً الآن أن زواجه كان ضرورياً، وأقدّر أن الزواج، بصورة عامة، ضرورة، لكن لا أعرف إلى أي مدى يمكن أن يكون مثل الآخرين أو مختلفاً عنهم. خاصة وأن لدى العائلة تراثاً في هذا المجال ما يجعل الزواج بواحدة ضرباً من المستحيل، عليّ أن أراقب لأعرف المزيد».

. . . والعوالي التي ظلت تستقبل السفن والغرباء والأخبار، وامتلأت ذاكرتها بكلمات الحكام، ما قاله الأتراك، ثم من بعدهم ابن ماضي، وأخيراً ما قاله خريبط، مع وعوده وسيوفه، ورأت الملوك والقادة يأتون ويذهبون، ومع كل ملك وقائد: الموت والحصار والجوع، فقد كانت متأكدة أن الذين يحكمون، خاصة من يأتون حديثاً، لا يعنون دائماً ما يقولون. أما الوعود التي يطلقونها فهي لكسب الوقت وإلهاء الناس، أكثر مما هي جدية أو للتنفيذ، كالآباء تماماً في معاملة الأبناء الصغار: لا يرفضون لهم طلباً، خاصة أمام الضيوف والغرباء، أو في أوقات المرح والتفاخر، لكنهم، مع ذلك، لا يحققون إلا ما يريدون. وحتى هذا الذي يحققونه لا بد أن يقدم على دفعات، وبكثير من الاحتفال والمهابة، ويطالبون، مقابل ذلك: بالشكر والاعتراف، وأيضاً بالصمت.

الناس في العوالي الذين تعودوا أن يكون الحكام هكذا، ولكي يواجهوا أكاذيبهم، ويحتملوا الحياة التي تزيد صعوبة حاكماً بعد آخر، فقد لجأوا إلى الحيلة يخدعون بها أنفسهم ويخدعون غيرهم. فإذا لم تكف نكات النهار وتورياته، والتي تنطلق من كل مكان، ولا يُعرف من أطلقها، لكنها تتطاير في الهواء كما تتطاير الفراشات، لتنتقل من أقصى مكان إلى أقصى مكان يقابله، وقد تتجاوز العوالي إلى موران، وخلال الرحلة السريعة تتشذب هذه النكات وتتكامل، وقد تكتسب نكهة المكان الذي تمر فيه. . . إذا لم تكف نكات النهار، فإن الليل كفيل بأن يلغي الحكام والعيون والخوف، ولذلك فمع القصص التي تروى، والأخبار التي تنتقل، تصبح النكات أكثر وضوحاً وحدة، ثم تأتي الأغاني لتغسل الأحزان

والهموم، وتفتح في القلوب كوى صغيرة: «لنؤمل أن يكون الغد أفضل من اليوم. ولنتوقع أن تكون أيام الأولاد أحسن من أيام الآباء، ولنتأكد أن الحكام يشبهون السيول: يأتون بقوة، لكن يذهبون بسرعة. البحر ينتظر ليبتلع كل السيول، والبحر يبقى، وتبقى العوالي، ويبقى الناس».

كانت الأغاني سلوة حقيقية في العوالي. وكانت العوالي في الليل غيرها في النهار. فإذا قال المسنون في النهار: «علينا أن ننتظر، ولا بد أن يُعطي الذين جاءوا بالأمس فسحة، لكي يزول خوفهم، وبعدها نتبين ما إذا كانوا يعنون الكلمات التي يقولونها، وهل هم أحسن أو أسوأ من الذين سبقوهم» فإن الأصغر سناً يصمتون في النهار، احتراماً للكبار، أما في الليل فإنهم لا يوفرون أحداً أو شيئاً.

لقد انقضى وقت يعتبرونه كافياً منذ أن وصل خريبط إلى العوالي، وخلال هذا الوقت توقفت الحرب، لكن لم تنته. وتراجع الموت لكن ليبدأ العذاب والانتظار. فالوعود التي أعطيت تراجعت ثم نسيت، والجنود الخائفون الذين كانوا يشهرون أسلحتهم، كرد فعل، لأي تصرف، والذين كانوا شديدي التجهم والحنق، ذهبوا، وجاء بدلاً عنهم آخرون: أكثر نعومة لكن أكثر دهاء. صحيح أنهم لا يرفعون السلاح، لكنهم يربطون اللقمة بمدى الولاء. وهؤلاء جاءوا ليبقوا، وكان على رأسهم فنر.

وفنر بمقدار ما يبدو ودوداً، يستمع بانتباه، ويسأل، فقد كان يتحصن بالصمت والغموض. فإذا تكلم، فإنه يتكلم همساً، ولعدد محدود، أن موران لا تستجيب، رغم أنه يريد تلبية كل طلب، وإجابة كل سؤال. فإذا زاد الإلحاح وتعاظمت الشكوى يذهب إلى الجامع الكبير في الطريفة ليصلي ويطيل الدعاء، ويهمس في آذان الذين حوله أن يعطوه وقتاً لكي يقنع موران.

والعوالي التي تعتز بالغناء، وتعتبره سلوتها وطريقتها في الفرح، تعتز بمغنيها وتعتبرهم رسلها. وعمر زيدان، كبير مغني العوالي، كاد أن يصل إلى مصر والشام، لكي يغني هناك، لكن الحرب وما ولدته من ضجة ومصاعب وانقطاع المواصلات اضطرته إلى تأجيل رحلته سنة بعد أخرى،

وإذا افترض أن صوته يذيبه البحر، وتقف في وجهه جبال الصد العالية، وتمنعه من الوصول، فقد تأمل خيراً وانتظر كثيراً بعدما انتصر خريبط، خاصة وأن الناس لم يعودوا قادرين على الاحتمال.

بوصول خريبط، أصبح عمر زيدان متأكداً أن جبال الصد التي كانت حاجزاً ومانعاً، لن تلبث أن تصبح بوقاً أو مئذنة. وهناك يمكن أن يقف على ذراها لكي تسمع موران غناءه، ومنها إلى مصر والشام. لذلك لم يتردد ولم يتأخر في الاستجابة إلى الدعوة التي وجهت إليه لكي يغني في قصر الروض.

أما بعد أن ذهب وعاد فقد امتلأ غماً أمرضه. وأكد عدد من الذين رافقوه، أنه بكى حين قيل إليه أن يذهب إلى المقابر، كما طلب أحد مرافقي السلطان، لكي يغني هناك للموتى. وقيل أيضاً انه رفض الغناء، بعد أن عاد، لعدة شهور. أما المحاولات التي بذلت معه في وقت لاحق أن يغني في موران، وفي احتفالات السلطان، فقد فشلت، وحين ألحّ عليه يونس شاهين، وأكد له أن ذلك سيساعد العوالي كلها ويفرج عن الناس، فقد وافق على أن يرأس فرقته نائبه رضا الجاوي.

قال لرضا بسخرية مرة:

ـ ظني أن موران ينراد لها ألف سنة حتى تقدر تسمع السيكا والمنصوري، فلا تقرب، الله يسلمك، الثقيل، يلزمك تغني من الخفيف وما دونه!

رد رضا الجاوي:

ـ الغناء يا أبو ناصر إذا ما كان من القلب ما يصل، وحنا رايحين وقلوبنا هنا، ولذلك حتى الخفيف يجوز ما نقدر عيه!

بعد أن سافرت الفرقة قال عمر زيدان، لبعض الأقربين، وكان يتذكر:

ـ قبل سنوات طويلة، التقيت بمغني تركي، جاء على سفينة، وكان بينا ابن حلال يترجم ويفسر، ومنه صوت ومني صوت. . . وإلى الصبح. وكل ليلة، ما دامت الباخرة في الطريفة، نغني. كنا أول ليلة نغني وحدنا، بآخر

ليلة ما ظل أحد إلا وغنى، والناس إلى الصباح، ويمكن بعضكم كان... ويذكر.

وهز رأسه بحزن ثم أضاف:

ـ وبعدما صار بيني وبينه خبز وملح، قال لي: اركب معي، فإذا وصلنا استانبول تشوف العجب. قلت له: لا بالله، ما أترك ديرتي، وإذا تركتها لأولاد العم، لمصر والشام، وهذا حدي. حاول. ألحّ، قال: جرب. وابد. قال: بالبحر نؤلف أنا وأنت غناء بالعربي والتركي، فإذا وصلنا استانبول وغنينا نصير فوق الريح، قلت له: لك البحر واللي ورا البحر، وأنا هنا، وإذا جابك الزمان لهذه الديرة، نوبة ثانية، فلا تنسى: لك أخ وما ينساك.

خيم الصمت ثقيلاً، ولما أحس أنه لا يطيق هذا الصمت كله، صفق بيديه بتلك الطريقة التي يعرفها مريدوه، ليستحضر النغم، وقال:

ـ أتذكر أني حضّرت لموران هذي الأبيات:

عيني لغير جمالكم لا تنظر ... وسواكم في خاطري لا يخطر
صبّرت قلبي عليكم فأجابني: ... لا صبر لي، لا صبر لي، لا أصبر
لا صبر لي حتى أراكم بناظري ... وعلى محبتكم أموت وأحشر

بعدما انتهى من الغناء قهقه. هز رأسه مرات أسفاً، ثم أضاف وجاء صوته حاداً:

ـ قال لي ذلك التركي لا تغن أبداً إلا لمن تحبهم، لمن تعرفهم، أما من يغني للملوك فإنه يبقى أسير قصورهم.

وبعد قليل:

ـ توهمت أني أعرف خريبط وأني أحبه، هكذا أوحى لي الناس، وطلبوا مني أن أستميل قلبه، لكي يخفف عذابهم. ذهبت دون وقفة في دارم أو عين دارة، ولم أتوقف في عين بنات أو في رحاب خزمة، كنت أريد أن أصله... لكن...

وصفق بيديه مرة ثانية وأنشد:

ـ وضيعني قومي لأني لسانهم ... إذا أفحم الأقوام عند التكلم

وطالبني دهري لأني زنته وأني فيه غرة أدهم

لكن هيت لك، هيت لك، هيت!

قال جمعة عبد الباري الذي لا يفارق عمر زيدان:

ـ مولانا أضاعوني وأي فتى أضاعوا...

رد عمر:

ـ أنا وأنت، يا جمعة، وكل أهل العوالي، وحتى الناس غيرنا، لازم نكون ذياب أو أشد، حتى نعيش.

قال جمعة بغضب:

ـ حاشاك مولانا...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ ألف ذيب ولا غزال واحد مثلك، مولانا!

رد عمر، وكأن إنساناً آخر في داخله يتكلم:

ـ حتى الغناء ما عدنا نقدر عليه يا جمعة، كان سلوتنا، وهالحين، مثل ما تشوف عينك: «حرام وحلال، يصير وما يصير»؛ فإذا سكتنا أكثر، يا جمعة، متنا، راحت علينا، وحتى...

قاطعه جمعة:

ـ يا مولانا...

كان جمعة عبد الباري يبدأ كل كلام يقوله بهذه الجملة، وقد أصبحت لازمة تثير الضحك، أو تنبه لما يمكن أن يقول، وغالباً ما يكون مثيراً وحاداً. تابع:

ـ يا مولانا، أنت سبب بلانا...

وابتسم، ثم بعد قليل:

ـ كل الناس بنظرك خير وبركة. كل الناس يفهمون ويقدرون، ونطيعك. وبعدما نركض ونتعب، وبعدما نتحمل اللي ما يتحمله الحمير، ويطردنا اللي تعرفهم مثل ما يطردون الكلاب، تقول لنا: أنا غلطان، سامحوني، ونسامحك. ونظن أنك تعلمت. لكن المرة الثانية: نفس

الأخطاء ونفس المشاكل، وتعالوا يا ناس: اصبروا وتحملوا، واستروا ما شفتم منا...

قال عمر وهو يضحك:

ـ الحق اللي تقوله يا جمعة.

ـ مولانا... هذا الكلام ما ينصرف، وما يفيد، لأن الخازوق وصل لليافوخ!

ـ والحل يا جمعة؟

ـ الحل، مولانا، تسافر فرقتنا لمصر، لأن موران ما تسمع إلا من بعيد.

وظلت العوالي موزعة مشتتة، عين على البحر، وما يحمله من أخبار، وما يقذفه من بشر، وعين إلى جبال الصد، وما يأتي من ورائها.

قال رضا الجاوي بعد أن عاد من رحلة موران:

ـ ... ولا يحتملون السرعة أو أنغام الطرب. صحيح أنهم يفهمون الكلام، لكنهم لا يتذوقون النغم، خاصة الرجال الكبار في السن. وحتى السلطان الذي بدا فرحاً ويريد المزيد، كان لا يطرب قبل أن يعرف الكلمات، وكان يستعين بواحد إبليس، يقال له ابن البخيت، وهذا يعرف الأنغام والكلمات، وقد طلب منا أن نغني السيكا والمنصوري، وحتى البيات، وفي بعض الحالات كان يغني معنا.

تراجع عمر زيدان قليلاً بظهره إلى الوراء، زم ما بين حاجبيه، وسأل:

ـ ابن البخيت؟

ـ اي نعم. وإذ تتذكر المرة الأخيرة التي جاء فيها السلطان إلى الطريفة، كان دائماً معه: أسمر، طويل، ضعيف مثل قصبة، ودائماً ينظر إلى الوجوه وكأنه مضيع أحد.

ـ وعينه اليسرى كريمة؟

ـ عيونه مثل عيون الصقر، يا شيخ.

ـ ومن حاشية اليمين أم من حاشية اليسار؟

ـ كان مع السلطان، ولا أدري عن الحواشي!

ـ ويفهم في الغناء؟

ـ اي نعم، مولانا!

هكذا أجاب رضا الجاوي، وهو ينظر إلى جمعة، ويبتسم:

سأل عمر زيدان بجدية:

ـ وهو من موران؟

هز رضا رأيه إيجاباً وهو يصفق بيديه، وعلى طريقة معلمه، ويغني:

ـ تصورت من ألقى فلما رأيته ذهلت فلم أملك لساناً ولا طرفاً
وأطرقت إجلالاً له ومهابة وحاولت إخفاء الذي بي فلم يخف
وكنت معداً للعتاب صحائفاً فلما اجتمعنا ما وجدت ولا حرفا

قال عمر زيدان، وكأنه يحدّث نفسه:

ـ إذن موران فيها خير، ما دام فيها واحد مثل اللي تسولف لي عنه!

قال رضا الجاوي بمرح:

ـ لكنه ابن حرام يا مولانا، عين على الشيطان وعين على الرحمان، ما تصل إلى حد إلا يتلفت مثل الذيب، أكثر من السلطان ومن شيخ الإسلام، وكان يدخل علينا ويغشانا مثل الموت أو مثل السيل، فإذا غنينا:

قد صفا وقتنا وطبنا وهمنا في هوى زينب وسعدى ولبنى
فاسقني الراح يا نديمي ودعني بين أهل الهوى أموت وأفنى

يصرخ:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم والكون لم تفتح له الأغلاق
ايروم مخلوق ثناءك بعدما أثنى على أخلاقك الخلاق

وكنا لا نعرف هل هو من الانس أم من الجان: عيناه تحلّق مثل طيور الحمام، وعقله بيننا وبين السلطان. حاولنا معه، حاورناه، كان فهيماً لبيباً. وكان شيطاناً رجيماً. قال لنا، في إحدى الليالي، بعد حفلة كبيرة: «احذروا يا أهل العوالي، العين حمرا، وموران ما تحمل». وغاب أياماً، ثم بعد ذلك قال لنا: ارحلوا.

سأل عمر زيدان بقلق:

ـ ولم تروه بعد تلك الليلة!

ـ مرة... وفي النهار، لكنه في النهار غيره في الليل، مع السلطان غيره معنا، ولا تعرف هل هو مع نفسه أم مع غيره. عجيب هذا الإنسان!

ومن جديد سأل عمر بقلق:

ـ ووحده أم معه أحد؟

ـ تراه واحد وتراه مائة. أما إذا تكلم أو إذا ترنم فإنه يحلق، حتى إذا عاد لم يبق أحد إلا وتحرك، حتى السلطان.

قال عمر زيدان، وخرج صوته من صدره عميقاً:

ـ موران مثل العوالي، إذا كانت هالحين تغطيها غيمة، فمع أول ريح تنكشف، وما أحد يدري بعدها شنهو اللي يصير!

قال جمعة:

ـ أتاريهم مثلنا، يا مولانا يخافون؟

ـ الفرق باع أو ذراع، لكنهم يصلون، وإذا ما هو اليوم اللي عقبه...

هكذا قال رضا بمرح، وتابع:

ـ ونساهم، يا مولانا، غير رجالهم، صحيح، والشهادة لله، ما قرّبن، لكن البني آدم يسمع وصوصتهن، ويسمع ضحكهن، إذا صفا الجو، والوصوصة والضحكة تشلع القلب. وبتوالي الليل كنا نشوف الأطياف مثل خطوات العافية. والأصوات تلمع ويقولن: سمعنا وطربنا.

قال جمعة عبد الباري:

ـ إذن الدنيا بخير يا مولانا؟

رد عمر زيدان بأسى:

ـ عجيب أمر الناس: الخوف قاطع قلوبهم، كلهم يعشقون ويغنون، بس بالسر، ما أحد يأمن لغيره، وكل واحد يخاف من الثاني، لكن يجي يوم وتشوفون.

سأل جمعة:

ـ وبرأيك، مولانا، أن هذا اليوم قريب أو بعيد؟

ـ قريب وبعيد، مولانا...

وقهقه عمر ثم أضاف:

ـ إذا راده الناس يقرب، وإذا نسيوه يجوز نموت وما نحصّله، لكن لا بد ويصير، إذا ما هو على أيامنا على أيام أولادنا.

قال رضا الجاوي:

ـ والغريب، يا عمي عمر، أن الناس، هناك، في الليل، غيرهم في النهار، بين بعضهم غيرهم مع الأغراب، وما هو بس كذا، يتغيرون بالساعة. هذا اللي كان يسولف ويمزح، واللي كان يدندن ويغني، إذا مرّ منادي الصلاة انرعص، وكأن عقرب لدغه، وحتى هذا اللي محني لحيته، اللي يقولون له العجرمي، مثل الشيطان الرجيم، وما تعرف من هو اللي يخاف من الثاني!

قال عمر زيدان، كأنه يحدث نفسه:

ـ ... والعوالي، من قبل، كانت كذا، لكن البحر ورياحه، والمراكب واللي جوا عليها، وتغير كل شيء، لكن الله يستر.

وبعد قليل وبحزن:

ـ وهالحين ما أحد يدري: ياخذون منا أو يصلونا هم وخوفهم، ويخلونا نصمت مثل المقابر...

وينتفض ويضيف:

ـ ولكن حنا بروسنا، مواويل بعدما غنيناها، وما أحد يقدر يمنعنا...

وصفق بيديه وأنشد:

باحت بسري في الهوى ادمعي	ودلت الواشي على موضعي
يا معشر العشاق إن كنتمُ	مثلي وفي حالي فموتوا معي

نزاعات

قصر الروض ومشاكله لا تتوقف ولا تنتهي. قد تتراجع، بعض الأحيان، أو قد لا تظهر، خاصة أثناء وجود السلطان، أو ربما تأخذ مظاهر خادعة، إذ يفيض الود، وتكثر الدعوات، وتبادل الزيارات ـ وصدف أن وقعت خلال ذلك زيجات مفاجئة ـ لكن ما يكاد يسافر السلطان، أو يتغير الجو، حتى تدب المشاحنات من جديد، وقد تؤدي إلى النزاع فالحرب المكشوفة.

قالت وريدة قابلة القصر تحذّر امرأة جديدة من نساء السلطان:

ـ إذا تغيرت الريح، وكان الحمل بين سعد بلع وسعد الخبايا، فلا تنتظر الحامل إلا بنيّة.

وبعد قليل، وبتأكيد:

ـ فإذا جابت بنيّة يصير وضعها مخوطر، ويجوز تروح عليها!

اقتربت منها وهمست:

ـ فإذا رادت وليد، يلزمها تنام، قبل ما يجيها، ثلاثة أيام على جنبها اليمين، وما تناظر كريمة عين، أو مفروقة سن، ويتلك الليلة ما يلزم تتفلقح مثل البقرة، إنما ترمح مثل الغزالة، وبعد ما يسمّي تحرف به نحو القبلة وتنوي، فإذا وطاها تاخذه وتجيبه الهون الهون، وبثاني يوم إذا شافت القمر تقول: أريد ضدك، وإذا شافت الهلال تقول: وفيت حقك، وهذا الله شهيد.

إما لماذا امتلأت وريدة بهذه القناعة، فلأنها، كما تقول، سمعت منجماً عاش في القصر، ومات فيه، وكان السلطان يحبه ويصطحبه أينما ذهب، يهمس للسلطان: «هذا القصر الجن رابطه وحاميه، وما أحد يقرب

منه أو يقدر عليه، وإذا خرب فوراء خرابه مريّة أو بنيّة ومن داخله» وهذا ما يفسر تطير السلطان من المواليد الإناث!

كانت وريدة تقول ذلك، محذّرة، ولا تشير إلى أنها إذا بشّرت السلطان بغلام فلها فوق المعاش ثلاث أعطيات: كسوة، وحشوة وقريشات. الكسوة عادة: ثوب للشتاء، إذا كان الفصل شتاء، وغطاء للرأس، وخف هي التي تحدد لونه. أما الحشوة فهي عبارة عن ذبيحتين أو ثلاث ذبائح، حسب أم المولود. والقريشات: خمسة مجيديات، أو ليرة ذهب، عصملية، وفي وقت لاحق وريقة أم الميّة. أما إذا كان المولود بنتاً فإنها، أغلب الأحيان، تتوارى، وإذا سئلت لا تجيب.

لهذا لم تكن وريدة تخفي محبتها للذكور. أما إذا اضطرب قصر الروض ودبت فيه المشاحنات، فكانت تتطلع إلى نجمة الصبح وتقول بصوت عالٍ:

ـ يا ملك الجان، بحق نبي الله سليمان، تربط العمدان، وتقوّي الحيطان. . .

وتجر نفساً عميقاً ويتغير صوتها:

ـ وكل مريّة تفري على غيرها فرية ترد عدوانها لنحرها وتجيب أجلها، أو تقطع نسلها!

المصالحات التي رعتها أمي زهوة، بين نساء السلطان الأقدم والأقوى، ساهمت في خلق فترة من الهدوء بين الكثيرين، وبدت فضة امرأة مسالمة أقرب إلى الانطواء والحزن، بحيث ان الذين عادوها من قبل لاموا أنفسهم، واكتشفوا خطأهم وقسوتهم! خدم القصر فسروا تغير فضة إلى اليأس والتعب خاصة إن النساء الجديدات، أو أكثرهن، سكن خارج القصر، وقال آخرون إن تغير فضة بسبب صعوبة حركتها نتيجة السمنة.

لكن فجأة، وكما تهب العاصفة، ويداهم السيل، وبعد أن أصبح راكان مسؤولاً عن أمن القصر وحماية السلطان، أخذ كل شيء يتغير: «قصر الروض لراكان وأخوته»، هكذا قال مجلي، أحد حرس راكان، مبرراً الإجراءات الجديدة. أما ابن العريفان، والذي لا يعرف كيف يواجه

الأعباء والمشاكل فقد قال: «فضة تريد القصر لها ولأولادها» ولأن السلطان انشغل بزيجات سريعة متتالية، ثم أصبح يقضي فترات طويلة في البادية، للقنص أو لرد الزيارات أو لمصالحة بعض الشيوخ الذين غادروا موران غاضبين، فقد جاء من أكّد أن الأسباب الحقيقية لغيبات السلطان الطوعية عن موران، وعن قصر الروض، بالتحديد، نتيجة لنبوءة قالها له أحد المنجمين المشهورين في العوالي، إذ أبلغه، ولم يكن معه سوى مهيوب وابن البخيت: «النجاة في الفلاة، ويلزمك، طال عمرك، ما تصل موران الشهور الحرم جميعها، وما دام نجم الثريا في منازل الغياب».

ومثلما كانت فضة قبل سنين، عادت، أما راكان فلم يكن بحاجة إلى من يحرضه أو يوغر صدره. فالإهانة التي تلقاها من العنود ظلت تنام وتقوم معه. الآن وقد تهيأت الفرصة لا بد أن ينتقم.

خلال يومين لم يبق في جناح العنود، فقد استغل سفرها، أي معالم تدل على استقلاله؛ هدم الحواجز والجدران التي تفصل جناحها عن الجناح الذي يحتله وأمه، وأجرى تغييرات بحيث حوّل الجناحين إلى واحد. أما الأثاث فقد أوعز إلى الخدم والعبيد أن يأخذوه أو يحرقوه، لأنه لا يريد أن يراه مرة أخرى!

فعل ذلك بصمت أول الأمر، ثم حين تحسب من لوم أبيه إذا عاد، لجأ إلى القبض على عدد من خدم العنود وعبيدها، وأمر بجلدهم في ساحة القصر، لأنهم لم يبلغوا عن الخمور التي وجدت في الجناح، بعدما اعترف الخدم «إن ضافي، أخ العنود، وكان في العادة ينزل ضيفاً على أخته، إذا جاء إلى موران، تعود أن يجلب الخمر إلى القصر، وكان يشربه. راكان لم يتجاوز ما فعله أبوه في حادثة مماثلة حين طرد أحد أبناء عمه، لأن ثلاثة شهدوا أنه تناول الخمر في القصر، وقال السلطان آنذاك، وأمام عدد من رجاله «. . . ولو شافته عيني شربان لسويته عبرة» ولذلك اكتفى بطرده ومنعه من دخول القصر بعد ذلك.

لم تكن العنود وحدها التي تعرضت لمثل هذا الإجراء، فاثنتان من أقدم زوجات السلطان، وثلاث من محظياته، إضافة إلى عدد من الجواري

والخدم تعرضن أيضاً إلى النقل والمضايقة. فالقسم الشرقي من القصر، والذي جرى توسيعه عدة مرات، وألحقت به أجنحة جديدة، وكان قد بني بعد حادثة التسمم المشهورة، وأصبح سكناً للسلطان ومكاناً للعمل، تقرر توسيعه من جديد، بحيث اقتضى الأمر هدم الأسوار التي تفصله عن أجنحة أخرى.

لقد تم ذلك «لاعتبارات متعلقة بالأمن» كما قال راكان، حين سئل، «ولأنه من الواجب أن يكون للسلطان قصر يليق به».

بدأت عمليات الهدم دون أن يطلب راكان من أحد مغادرة سكنه، ولأن الحياة في مثل هذه الظروف أصبحت مستحيلة لهؤلاء الساكنين، فلم يوافق على أن تغادر أي منهن إلا بعد أن تكتب طلباً أو تبصم على ورقة أعدت لذلك، لكي يؤمن لها سكناً آخر، وليثبت لكل إنسان، مستقبلاً، أن تغيير السكن تم بناء لطلب، وامتثالاً لرغبة!

أمي زهوة التي تسكن في الجنوب الغربي من القصر، وقد ظلت معتكفة لمدة شهرين، بسبب الكوابيس التي لاحقتها خلال ثلاث ليالٍ متواصلة، وقد تشاءمت منها كثيراً، لم تدر بما يدور. أما تهاني التي سمعت وعرفت، فقد قالت بسخرية:

ـ إذا كان هذي سواياتهم والسلطان على مرمى عصا، فشلون إذا غاب؟

وبعد قليل وبهزء:

ـ وشدوا روسكم يا قرعان!

وقررت تهاني أن تؤخر إبلاغ الشيخة، لأنها كانت في طور النقاهة، وخشيت أن تؤثر عليها مثل هذه الأخبار.

ابن العريفان الذي كان أقوى شخص في القصر أثناء غياب السلطان، رغم مظاهر البساطة والتواضع، امتلأ غيظاً نتيجة تصرفات راكان، خاصة بعد أن بدأت الاحتجاجات تنهال عليه من كل جانب، ولا يستطيع أن يمنع الأذى، أو يغيّر من إجراءات الهدم والنقل. وحين عبّر عن استيائه لراكان تلقى جواباً مختصراً وقاسياً:

ـ حياة طويل العمر قبل كل شيء وفوق كل اعتبار. . .

وبعد قليل وباستهانة:

ـ واللي ما يعجبه يرحل، وأرض الله وسيعة.

ولما حاول ابن العريفان أن يلفت نظره إلى احتمال غضب السلطان نتيجة هذه الإجراءات أجابه:

ـ أنا المسؤول ولا أسمح لأحد أن يتدخل.

قال ابن العريفان لسكينة، إحدى زوجات السلطان التي جاءت محتجة:

ـ . . . ورأي تطولين بالك، لأن راكان وأم راكان ما عندهم لحية مشّطة، وشايفهم ما هم مصلين على النبي، فاما تصبرين على الهدم فوق راسك أو ترحلين. . .

وبعد قليل وبحزن:

ـ وإذا رجع طويل العمر تسولفينه واسولفه باللي جرى وباللي صار، وعسى أن تنتهي على خير.

ابن العليان الذي لم يكن يرافق السلطان في رحلاته، لأن لديه الكثير ليفعله في موران، وقد شعر، خلال فترة، بالراحة، نتيجة غياب السلطان، وبراحة أكبر لغياب خزعل، فقد أصبح راكان هماً جديداً بالنسبة له.

إذ بعد أن فرض راكان نفوذه وسيطرته على القصر، ونتيجة الطلبات المتزايدة من أجل ترميم القصر ومصاريفه، إضافة إلى تشكيل الحرس الخاص، ولأن ابن العليان يستجيب مرة، ويتظاهر بالغباء والنسيان في مرات أخرى، إضافة إلى الادعاء بعدم وجود المال المطلوب، فقد لجأ راكان إلى أساليب جديدة لتحصيل الأموال التي يريدها: أخذ يوفد رجاله إلى أمراء المناطق لجلب المال، ثم لجأ إلى الاستيلاء على كل شيء يمكن أن يباع، وباعه. هذا عدا عن تهديد ابن العليان، وتأليب سكان القصر عليه.

والسلطان الذي كان يبعث، بين فترة وأخرى، رسله إلى موران،

ويبلّغ أنه لن يتأخر في العودة، إلا أن الأسابيع، تتلوها الشهور، تنقضي، ولا يزال ينتقل من مكان إلى آخر في البادية. فإذا عنّ له أن يستريح، فإنه يذهب إلى الحويزة، أو إلى العوالي، وغالباً دون المرور بموران، أما الديوان الذي لم يكن يفارقه في رحلاته كلها، فلم يعد بحاجة إلا إلى القليل منه.

قال عثمان لطالع العريفان، الذي جاء يطالب بمخصصات القصر:

ـ طلعت روحنا يا طالع من قولة هات، وطويل العمر يظن أنه عندنا مكينة تطلّع ذهب...

وزفر مثل جريح، وأضاف:

ـ وهالحين إما تروح لطويل العمر، وتقول له اللي صار واللي جرى، أو أروح بنفسي.

وبعد قليل:

ـ الله يذكره بالخير خزعل، قلنا إنه ما يشبع من الفلوس، هالحين راكان وأمه، وباقي الويلاد ما يعرفون إلا قوله هات، وما تدري اللي يسوونه بالفلوس.

قال طالع بحزن:

ـ تروح بنفسك يا أبو عزيّز، تصل طويل العمر، وتقول له: وما هو بس الفلوس، القصر بليّاك ما ينداس، ويلزم ترجع من كل بد ولازم، وإلا...

وتلفت أكثر من مرة وأضاف بهمس:

ـ يا أبو عزيّز، أنت ما تدري وما يصلك إلا اللي له علاقة بالفلوس، أنا شعري شاب وقلبي ذاب من السوالف الثانية: كل يوم، كل مطلع شمس، سالفة جديدة، وتعال يا ابن الحلال: حل المشاكل، هدّي الأمور، طيّب الخواطر...

وبعد قليل:

ـ والله لولا الخجل والحرام ما أبقى بالقصر يوم واحد!

قال ابن العليان وهو يضحك بسخرية:

ـ لو كان ابن البخيت بهذي الديرة كان فرّج علينا، يجوز ما يقدر يحل المشاكل، لكن يقول كلمتين تشفي الغل وتبل القلب، لكن وينك، هالحين يا أبو بادي؟

ـ والله لا ابن البخيت ولا مية مثله، يا أبو عزيّز، لأن الهم زاد عن الحد وفاض!

. . . المرح الذي كان يميز بعض تصرفات السلطان وتعليقاته، حين يكون في جو أليف، أو بين المختارين من جماعته، وكان يطلق عليهم: الربع، هذا المرح غادره تماماً في المرحلة الأخيرة، وحل مكانه همّ أقرب إلى الحزن، وكان يتبدى واضحاً لكل من يراه. أما الصمت الذي كان يتحصن وراءه في حالات خاصة، أو على التحديد حين يريد الإقدام على عمل خطير، وكان يخشى أن تفضحه كلماته، أو طريقته في الكلام، فقد أصبح في هذه المرحلة الصفة البارزة أو الوحيدة في علاقاته مع الجميع، مما أدى إلى خشية المحيطين به، ثم تخوفهم أنه يعد لعمل كبير، ولا يريد لأحد أن يعرف. وقد صدف أكثر من مرة، حين صفّى بعض خصومه، أو أصدر أحكام الإعدام على من اعتبرهم مخطئين، أن اعتصم بالصمت، وخيّمت عليه الجهامة الممزوجة بالحذر أو التخفي.

ترافق ذلك مع تغير واضح في الهيئة ثم في السلوك والتصرفات. إذ بالإضافة إلى عدم رغبته في سماع أي حديث له علاقة بالمطالب والشكاوي، كان بادي الضيق، سريع الانفعال، وفي فترة لاحقة لم يعد راغباً بلقاء أحد. وأخيراً، وبشكل سريع، قرر مغادرة موران، ولم يصطحب معه إلا عدداً محدوداً من رجاله. ظهرت الحيرة على وجوه المسافرين، أو الذين عرفوا بالسفر في آخر لحظة، لأنهم لا يعرفون مستلزمات رحلة من هذا النوع، وما تتطلبه من تجهيزات تتناسب مع المكان الذي يقصده، أو المدة التي ستستغرقها الرحلة. وإذا كان البعض قد عزا التغير والاختلاف إلى هموم القصر، خاصة نكد النساء، فإن آخرين كانوا متأكدين أن الأمر أخطر من ذلك، خاصة وأن السلطان اصطحب

اثنتين من نسائه الجديدات، إضافة إلى عدد من محظياته وجواريه. وكان المحيطون به على يقين أن حصيلته من النساء أثناء العودة ستكون ضعف العدد الذي رافقه، أو ربما أكثر.

وإذا ظلت هناك مزايا يفاخر بها السلطان، وغالباً دون كلمات، وبشكل غير مباشر، فإن من جملتها: قوته الخارقة، وقامته المديدة، إضافة إلى ما يتمتع به من طاقة على التحمل، وكان يترك للآخرين أن يتحدثوا عن هذه المزايا في مجالسهم، شرط ألا يكون موجوداً، وظل هو يبعث بالرسائل التي تبرهن على استمرار هذه القوة، من خلال الزيجات المتلاحقة التي يعقدها، ومن كثرة المحظيات والجواري اللواتي يزداد عددهن في قصوره وأماكن وجوده. كما لم يكن يتردد في التعبير عن هذه القوة أيضاً، وخاصة من خلال الأفواج الجديدة من البنين والبنات.

في الفترة الأخيرة لاحظ مرافقوه تخوفه الواضح من النساء. إذ أصبح يأكل منفرداً، أو مع عدد محدود من رجاله، وأصبح العويدي، طباخه الخاص، لا يفارقه، وهو وحده موضع ثقته أكثر من أي شخص آخر. وقد تذكر الكثيرون حادثة التسمم التي وقعت في القصر قبل عدة سنين: فراودتهم الشكوك أن حادثة من نفس النوع، أو على الأقل، إشارة، نتيجة معلومات أو وشاية، وصلت إلى السلطان، وجعلته حذراً متحفظاً هكذا. ولقد لفت نظر القريبين في السنة الأخيرة أن المواليد أقل من أية سنة سابقة، مما أثار التساؤلات، وبعض الأحيان التعليقات الساخرة، فأغلب النسوة اللواتي وصلن إلى القصر، بعد معارك العوالي، لم ينجبن. رغم صباهنّ وقوة أجسادهن، واختلف الذين راقبوا هذه الظاهرة في تفسيرها، أو استنتاج دلالات منها.

قال ابن العليان في إحدى الليالي، حين جرى الحديث عن أولاد طويل العمر:

ـ ... والغريب، يا جماعة الخير، أن أكثر أولاده من أول نسوانه، والظاهر أن الرجّال مثل المرية، يبلغ سن ويقف!

سأل ابن البخيت بمكر:

ـ وشنهو اللي تقوله عن الأولاد اللي جوا بالسنين الأخيرة؟

ـ كل شيء يظل به توالي، يا عبد الله، ظرف السمن بعدما تتعب وأنت تعصره، اتركه بالشمس ساعة وشف شنهو اللي يطلع منه... وما هو بس هذا: عين الماء، الغدير، كل شيء، والبني آدم كذا.

ـ وشيخنا العجرمي، كم عمره يا عم؟

ـ ليش تسألني؟ تريد توقع بيني وبينه؟

ـ لا... أريد أقول أنه بهذا العمر، وما تمر سنة إلا وعنده فلو جديد!

ـ الله منك يا عبد الله: كل سالفة ويلزم تقول: تصير وما تصير، قاعد للناس سكينة خاصرة، ولا كأن شيء عاجبك أو مالي عينك!

قهقه ابن البخيت، وبعد أن هدأ:

ـ كل الناس خير وبركة، يا عم، بس اللي أعرفه أن سن اليأس عند النسا؛ أما الرجال فتظل ظهورهم قوية حتى ولو وصلوا للمية، خاصة إذا كانت الأفراس حايلة وطالبة!

ـ يا ابن الحلال... عمري بعمر طويل العمر، وما أريد أسأل أحد، أشوف نفسي!

ـ لكن عنده النشامى والأجاويد: شيخ الصاغة ومعتمدي، وغيرهم وغيرهم، وهذول ما لهم شغلة إلا يسنّعونه زين: بالأكل، بالعطر، بالدهون، وأنت يا عم همك غير همه!

لقد جرى هذا الحديث، أو ما يشابهه في وقت مبكر: أما بعد أن بدا هذا التغير على السلطان، ثم سفره المفاجئ، ولا أحد يدري إلى أين، أو إلى متى سيبقى، فقد ساورت الظنون والشكوك الكثيرين، أو بالأحرى لم يبق أحد في قصر الروض أولاً، ثم بعد ذلك في موران، ألا تساءل وتوقع.

ابن البخيت الذي استأذن السلطان قبل يومين من السفر، لكي يقوم بواجب العزاء لعائلة صديق توفي، لما سأل عنه السلطان، وأبلغ بسفره، هز رأسه، وكأنه تذكر، أو أن الأمر لا يعني له شيئاً. وحين استفسر طالع

العريفان ما إذا كانت رغبة جلالته أن يلتحق به عبد الله البخيت، اكتفى بأن هز رأسه علامة النفي.

وحين ظل طالع يدور حول السلطان، منتظراً اللحظة المناسبة، لكي يسأله ويتلقى توجيهاته خلال فترة غيابه، فقد قال له السلطان بحدة بالغة، أقرب إلى الغضب:

- امسك الأرض، يا طالع، لأن عيونّا زاغت من دبيّك!

وفي اللحظة الأخيرة قبل أن ينطلق موكب السلطان، سأل طالع، وخرجت الكلمات مسكينة:

- تؤمرني بشي، طال عمرك، بغيبتك؟

تلقى جواباً لن ينساه بعد سنين طويلة:

- النملة إذا دبت وما عرفت بها لا تلوم إلا نفسك، وبس ارجع نتحاسب!

قال طالع العريفان لناهي الذي كان خارج القصر أثناء سفر السلطان:

- طويل العمر ما يعجب، يا ناهي، متسودن، ونفسه حامضة، ولو حكيت كلمة واحدة، ما عنده مانع يطقني، ويلعن أجداد أجدادي.

استغرب ناهي، حاول أن يستفسر:

- شلون يا أبو جازي؟ شنهو اللي شفته وشنهو اللي صار؟

تنفس ابن العريفان بعمق وبحزن، ثم أجاب:

- البني آدم ما يتعلم إلا من كيسه يا ناهي. قبل سنين قلت لي: خلنا نمشي، وأنا عاتّ بك وأقول لك أحسن من هذا المكان ما نلقى. اليوم تأكدت بنفسي أني متوهم وكان يلزمنا نهجّ من قبل، ونترك أهل موسى يندبون موسى!

- ظني أن هالحين ما تفيد الندامة، يا أبو جازي...

وبعد قليل وبمرارة:

- باكر، إذا رجع لحليب أمه، وجرب غيرنا، يتذكرنا يا أبو جازي.

رد ابن العريفان بحزن:

ـ إلى هذا الحد طاح حظنا بهذي الدنيا يا ناهي وما عاد خير إلا إذا لقي أخيس منا؟

ـ من قبل قالوا، الله يسلمك: لا تحط يدك بالنار، ولا تصيح: يا الغريب الفرج!

قال ابن العريفان بيأس:

ـ لا صافي يظل، ولا خابط يظل مخبوط، واللي تدردبه السما تتلقاه القاع وهذا هو.

عرفان الهجرس الذي بدا حائراً خلال فترة التحضير للسفر، لا يعرف ماذا يأخذ وماذا يترك، ولا يجرؤ أيضاً على سؤال السلطان، استمر يصدر التعليمات ثم يوقفها، ويعود لإصدار تعليمات جديدة. يأمر، مثلاً، باستبدال الركائب بالسيارات، ويحمل جزءاً من الديوان، ثم يطلب إنزال الأحمال مرة أخرى، والوقت يمضي بين تعليمات وأخرى نقيضها، إلى أن تقدم، في لحظة عصبية، من السلطان، وسأله همساً:

ـ شنهو اللي يلزمكم، طال عمركم، من الديوان، حتى نشيله؟

تساءل السلطان كأنه يخاطب نفسه:

ـ شنهو اللي يلزمنا من الديوان؟

وهز رأسه عدة مرات، ثم أضاف:

ـ إلى الحين وما تعرف شنهو اللي يلزمنا واللي ما يلزمنا يا ابن الهجرس؟ متى تتعلمون وتصيرون؟

وبعد قليل وباستدراك:

ـ لا... خَلِ كل شيء بمكانه، بس أقفل وحزّم، وتبلغهم ما أحد يقرب شي إلى أن نرجع.

ثم استدرك مرة أخرى:

ـ ولا تنس الصندوق، يا عرفان، خله بالسيارة اللي اركبها.

مهيوب طول الوقت لم يهدأ لحظة واحدة من أجل اختيار مجموعة خاصة من الحرس، كما لم يجب أي إنسان عن وجهة سفر السلطان، رغم

أن الكثيرين سألوه، إذ كان يكتفي بالصمت أو بنظرة تجاهل. حتى السيارات الخمس التي طلب إليها التحرك قبل ساعة، أعطيت لسائقيها تعليمات مبدئية: «تذهبون إلى المليحة، وهناك تتبلغون بالوجهة النهائية للسفر».

وأغلب نساء السلطان لم يعرفن بسفره إلا بعد السفر، أو في اللحظات الأخيرة؛ ولذلك، وخلافاً لرحلات سابقة، لم يختلفن ولم يتراهن. أكثر من ذلك شعرن، جميعاً، وإن كان بنسب متفاوتة، بخيبة الأمل، وأنهن لم يعدن شيئاً بالنسبة له.

لما عاد عبد الله البخيت من سفرة العزاء، بعد عدة أيام، وعرف بسفر السلطان، قال لعثمان العليان، والذي أبلغ ابنته أن تبعث وراءه حالما يعود عبد الله:

ـ مثل اللي راح للمسجد ولقاه صاكّ بابه، قال لربنا: جت منك، وما هي مني!

وقهقه، وبعد قليل:

ـ خلنا نستريح، خلنا نشوف أهلنا ونشوف الناس...

وكاد يتابع بنفس المرح، لكنه تنبه فجأة، فسأل بخوف:

ـ وما قال: تحملّوه وراي وتذروه مثل الجدي؟

ـ ربك سترك، هذي المرة، يا عبد الله. ولا بد أنك مسوّي بدنياتك خير يوم من الأيام، لأن الله رحمك، ونسّاه!

رد عبد الله البخيت بمرح:

ـ الله يدري بالقلوب، يا عم. وعمل الخير ما هو بس باللي يعطي الفلوس ويزكّي، باللي يقول الكلمة الزينة، أو يمنع الأذية، ويرفع الظلم عن المساكين. وحتى إذا نسّى الواحد السلطان عن الناس، فنسيانه لهم رحمة، لأنه إذا تفطن الله وأكبر!

قال ابن العليان بنزق:

ـ اتركنا من هذي السوالف هالحين، وأريد أسألك...

ـ سم يا عم.

ـ أبو منصور... شنهو اللي بلاه بهذي الأيام؟ ما رحت للطريفة ورديت إلا وشفته غير بني آدم، غير اللي أعرفه. صار شي بغيبتي؟ أحد خربه؟ أريدك تسولف لي كل اللي تعرفه، يا عبد الله.

رد ابن البخيت بمرح:

ـ هالدنيا أبد ما ينحزر عليها يا أبو عزّيز... وما لها أمان.

وضحك بسخرية ثم جاء صوته رخواً وبعيداً:

ـ وأنا، غافل وعلى نيتي، كل ظني أن الوسادة أقوى شي بهذي الدنيا، أتاري غيرها ما هو أقل منها...

وبعد قليل وقد تغيرت النبرة:

ـ وكنت أحسب وأخاف من توالي الليل، ودايماً أقول لروحي: إذا تغير، إذا حب أو بغض فالحريمات هن السبب، وأنت تعرف، الله يسلمك، سوالف الوسايد أبد ما تنسي، لكن، ومثل ما يقولون: اللي يخاف من العفريت يطلع له!

قال عثمان العليان بنزق:

ـ موّتني يا ابن الحلال، علمني بليّا طولة سيرة.

قهقه ابن البخيت لأنه استطاع أن يغيظ عثمان، وتابع بنفس السخرية:

ـ وشلون تريدني أجاوب وأقول؟

وحين لاحظ أن ابن العليان لم يعد يحتمل، غيّر جلسته فتغيرت نبرة صوته:

ـ أما مسألة أنه تغير فهذي واضحة، مثل عين الشمس، يا ينراد لها، أما شنهو اللي غيّره، فأنا اهجس وماني متأكد...

ـ هات اللي عندك، وبعدها نشوف.

ـ من شهرين أو ثلاثة شهور، يا أبو عزّيز، وبالمليحة، وبعد ما قضّى هو ومشرف البكيري، وحدهم، من رأسه لراسه، الليل بطوله، وثاني يوم من الصبح للظهر، طويل العمر اتخربط، تغير وصار غير شكل!

وهز رأسه وهو يتذكر:

ـ وما أدري، إذا كنت شفته، أو تعرفه، لمشرف؟

ـ لا بالله، يا ابن أخي، لا شفته ولا سمعت به.

ـ هذا، يا عم، أهل العوالي كلهم كوم وهو، وحده، كوم.

ـ شلون يا ابن الحلال، هات، سولف.

ـ إذا ناظرته تظنه مهبول وما تشريه بنواة، لكن ألعن من ابليس، وما هو تارك أحداً من شره.

وضحك ثم تابع:

ـ طويل، متين، لكن ريحته تقطع النفس، وما هو بس كذا، مكحّل، حتى إنك تحسب عيونه عيون حرامية أو بقرة وحشية، وهذي العيون مالية وجهه كله، وتحتها لحية محنّاة، وما تعرف حمرا أو زرقا، ويا كبرها يا أبو عزيز، كأنها جزة خروف. ومطمّس راسه بخريقات ملونة وشادّها شدة سياف، ومبخّر ومعطّر، وخاتمه... فُصّه عشرين قيراط...

هز رأسه استغراباً وعجباً، وبعد قليل:

ـ أما شنهو اللي دار بينهم، شنهو اللي قاله لطويل العمر، فعلمي علمك. ومن يومها السلطان كان به عقل وطار. ركبه الوسواس، وعاف الأكل وما يقدر ينام، وعيونه، يا أبو عزيز مشلوحة، من ذاك اليوم، تناظر بخوف، وما تأمن لأحد.

وزفر بحرقة ثم أضاف نبرة جديدة:

ـ ويومين وسافر مشرف، رجع للعوالي، وأنا، طال عمرك، ما خليت طريقة أو حيلة، أريد أعرف شنهو اللي جرى، لكن أبد. قلت لطويل العمر: جماعتنا من قبل قالوا: حط بينك وبين النار منجم؛ وإن المنجمين يتبعهم الغاوون؛ وأن من كان دليله المنجمين مأواه العذاب والخراب. يسمعني، يبتسم، يهز رأسه، ويسكت. وإذا تكلم قال: «مشرف البكيري، يا عبد الله، ما هو منجم، هذا الله كاشف له، وهذا يقرا الممحي، وأنا تأكدت» أما شنهو اللي قاله، وشلون تأكد طويل العمر، فهذا علمه عند علام الغيوب!

ـ ومنين جانا هذا البلية؟ من هو اللي وصّله، من هو اللي اقنع به طويل العمر؟

ـ دورت وتقصيت، يا أبو عزيز، سألت جماعة كثيرين من العوالي، قالوا لي: هذا يعيش بجبل عالي، وانه قال للناس قبل سنين من هزيمة ابن ماضي، وقبل ما تقع بينه وبين طويل العمر، إن ابن ماضي يمشي بفلان وقت وبفلان تاريخ. وحدد السنة والشهر، ويقولون إنه حدد اليوم. كل هذا صار قبل ما تثور بالعوالي أول فشكة. وقالوا إن ابن ماضي استدعاه وسأله، فجاوب نفس الجواب. حاول معه، هدده، حبسه، رد عليه: أنا أقرأ المكتوب وما أقدر أرد القدر. عرض عليه فلوس، ووعده بعشرة روس خيل، وقال له: يا ابن الحلال: إذا تقدر تغير أو تبدل. جاوب: فات الأوان!

وقلب شفتيه وحرك يديه، وقد رأى تأثير كلماته على ابن العليان، فقال وهو يضحك:

ـ هذا اللي سمعته يا أبو عزيز، وما يندري صدقه من كذبه!

ـ وأنت شفته يا عبد الله؟ سولفت معه؟

ـ شفته، الله يسلّمك، أما أني أقول لك سولفت معه فاكذب إذا قلت أي، لأن الرجّال عيونه مثل المغارات، ما تقدر تناظره، وسبحته ألف حبة، وغرقان فيها: يتمتم، يهذي، يغيب، ولا يفرق عن المهبول، وإذا سألته ينتفض وكأنك فزرته من النوم.

ـ وبعد يا عبد الله؟

ـ سوالفه كثيرة يا أبو عزيز: يقولون إذا وقع بالساعة يعرف اللي صار واللي بعده ما صار. وشفت واحد من جماعته، وهو اللي دزه بعد رجعته للعوالي بشهر، ومعه حرز لطويل العمر، وهذا قال لي: «شيخنا متصل بالأولياء، وتجيه وفود من الهند والسند، ويعرف القتيل والقاتل من سفر أربعين يوم. ويلقى المسروقات ولو كانت مدفونة ببطن القاع». وقال وقال، بس ما أذكر كل اللي قاله يا أبو عزيز!

ـ ومن هو الي وصله لطويل العمر؟

ـ سمعت أن فضة، أم راكان، هي التي شارت عليه، لأن جماعة زاروها وسولفوا لها عنه، وقالوا: يا ما نساء حبلن على يده، ويا ما سرقات لقاها!

ـ متأكد يا عبد الله؟

ـ لا بالله يا أبو عزيز، لأنها هرجة ليل وسوالف حريم، وما يندرى!

ـ وبعد يا عبد الله؟

ـ خلنا ننتظر ونشوف، يا عم.

نساء قصر الروض أحسسن في وقت مبكر، وقبل الرجال، أن السلطان لم يعد مثل قبل، وأن في الأمر شيئاً لا يفهمنه، ولا يقدرن على تفسيره، لكن، مع ذلك، امتلأن بمشاعر الخوف والحذر. واتجهت أنظارهن إلى الجناح الأوسط، وإلى أمي زهوة، واتجهت أنظار أقدم النساء إلى الجديدات، سواء كن في الجناح الشرقي، أم كن خارج القصر كله. لم يكتفين بما يصل إليهن من معلومات، فقد أرسلن الخدم والأطفال، وأرسلن بطلب بعض الزهور أو بعض العطور، أو بادرن بإرسالها، تعبيراً عن المودة وحسن النية، لتكون رسلهم في معرفة الأشياء الجديدة، لكن لم تصل المعلومات التي تطمئن إليها قلوبهن. كن على يقين لا يتزعزع أن التغير الذي حل بالسلطان نتيجة امرأة، أو نتيجة عدة نساء. وكان هذا اليقين بسبب حالات سابقة. حتى عندما ماتت لولوة من حالة التسمم، وقيل إن السلطان كان مقصوداً، أو على أقل تقدير وطفة، فقد وجدت كل واحدة وسيلة أو صيغة لتظهر براءتها أولاً، ولكي تحاول أن تستعيد السلطان بعد ذلك. أما الآن، وبسبب الجفوة والبعد، إضافة إلى الغموض الذي رافق سلوك السلطان، فإن الحيرة، الأقرب إلى الخوف، جعلت كل امرأة تشعر بالإهانة. بل وأكثر من ذلك، أصبحت كل امرأة تعتبر الأخرى، أياً كانت، عدواً.

أمي زهوة التي اختفت شهوراً، لا أحد يراها، أو يعرف عنها شيئاً مؤكداً، ظهرت من جديد. لكنها، وهي تظهر، بدت بحالة صحية ونفسية أقوى بكثير من قبل، كانت أكثر مرحاً وكبرياء وسخرية. حتى تهاني التي

تغيرت خلال الشهور السابقة، فأصبحت أكثر استعداداً ورغبة لإقامة علاقات طبيعية مع الأخريات، وفي أن تزورهن، ما لبثت أن تحولت مرة أخرى، بل وبلغ الأمر أن رفضت السلام، أو رد التحية، حين وجدت في بعض المجالس، ولنساء تعرفهن، وسبق لها أن كانت لها علاقات معهن!

نعوّم، مسؤولة الحمام الكبير، أو نعّيمة، كما تسميها أمي زهوة، حين تجاهلتها تهاني، ورفضت أن تمد يدها للسلام، قالت:

- وي... وي، العنزة الجربة ما تشرب إلا من راس النبع...

وأضافت بعد قليل وبغيظ:

- ما يخالف... ونشوف، إذا ما خليت صنّتها، تذبح الخنزير وتذبحها، ما أكون نعوم.

أما وريدة التي كانت على علاقة وثيقة بأمي زهوة، ولا تطيق، بنفس الوقت، تهاني، كما لا تعرف كيف تتعامل معها، وكانت وريدة تبلغ الشيخة بكثير من المعلومات الخاصة عن نساء السلطان، وتهاني تحاول أن تكون الوسيلة المباشرة، أو ربما الوحيدة لهذه المعلومات، ولم تستطع المرأتان أن تتوصلا إلى صيغة، فقد قالت وريدة تعليقاً على ما سمعته من النسوة عن تغير تهاني:

- المريّة إذا ما خلّفت ورضّعت، وإذا مرّ العمر وما شافت بين رجليها شي يلعب ويتحرك تبغض كل الناس، وتصير غضب وما تنحمل.

شمران العتيبي الذي تصله الأخبار إلى سوق الحلال، وتصل غامضة، متداخلة، وقد عرف أن السلطان «تسودن» وهرب من موران، وهمس في أذنه اثنان من خدم القصر، إن ذلك كان نتيجة كيد النساء، فقد تساءل عن العجرمي. وحين قيل له انه في عين دامة، وهناك يعالجونه ويعطونه المقويات، وقيل إنه عاد شاباً وقوياً، فقد قال كلمة تناقلها الكثيرون وضحكوا. قال في سوق الحلال:

- إذا عين دامة رجّعته، شاب ما يرجع، ولا تصدقون أخباره، ومثل ما قالوا: حزموني ولزموني وعلى العودة مالي نيّة.

أما حين بلغه أن في العوالي ساحراً تفوق كثيراً على العجرمي، وقد

زار السلطان، وقرأ له طالعه، وقيل إنه أبلغه بأمور كثيرة، ثم طلب منه المغادرة، وأن لا يبقى في موران، فقد قال:

ـ من يوم موسى وكل أنبياء بني إسرائيل: ما يرد السحر إلا السحر، وما يقدر على الساحر إلا ساحر أقوى منه، وما لنا هالحين إلا العجرمي، فإذا ما جاء هو وحيّاته من عين دامة، ترى أبو منصور مخوطر، وما ينعرف شنهو اللي يصير!

وفي سوق التجار، وفي الحارات والأزقة، وبين الحرس والخدم، ظلت القصص تتزايد وتتناقض حول سفرة السلطان: أتطول أم تقصر؟ وهل حدث شيء لا يعرفونه؟ وهل أن السحر الذي تهمس به الألسن هو ما دفع السلطان إلى السفر أم أن هناك أشياء أخرى؟

قال ناهي الفرحان لطالع:

ـ ترى يا أبو جازي سفرة طويل العمر، هذي المرة، ما تعجب، والناس يسولفون!

ـ الناس، يا ناهي، ما عندها غير السوالف.

ـ لكنهم، هذي المرة، غير شكل.

ـ أنت بس راقب: إذا ابن البخيت والعجرمي بخير، الدنيا بخير، ولا تسمع غير سوالف، لأن الواحد منهم، بيرَ، ويعرف كل شيء، وغير هذا لا تصدق.

ـ إذا على هذول تبني آمالك فالعجرمي بعده بعين دامة، وابن البخيت كل يوم يفتر بالسوق، ولسانه ما يفوت حلقه: سوالف وأخبار، وما يهدا ولا يترك أحد من شره، وبعدها ما يندري: قمحة أم شعيرة؟

ـ خلنا نشوف يا ابن الحلال، وعسى ولعل، ومثل ما قالوا: اللهم حسن الختام.

. . . وطالت غيبة السلطان؛ ومن جديد اضطرب قصر الروض.
راكان الذي شعر بالثقة والقوة، خلال الفترة الأولى، وتصور أنه سيد القصر، ويستطيع أن يفرض ما يريد، اكتشف، بمرور الوقت، أن الأمور أخذت تفلت منه أو تتحداه. إذ بالإضافة إلى معارضة عدد من الأخوة، وجميع نساء السلطان، فقد قلّ المال بين يديه فاضطربت الخطط، وأصبحت الوعود والآمال التي منّى بها الكثيرين، لاسترضائهم أو لكسبهم، مثاراً للسخرية والتعليقات. أما الصمت أو التجاهل الذي ظهر واضحاً على الكثيرين من الخدم والحرس والموظفين، فقد ساهم في زيادة توقعات ومخاوف غيرهم، فبدا وكأن يداً خفية تدبر كل شيء. صحيح أن الأمور لم تأخذ هذا الشكل الحاد أو العلني منذ البداية، لكن غياب الأخوة الكبار، ثم عدم امتثالهم لما يريد راكان، وقد ترافق ذلك مع تعليقات الاستهزاء الأقرب إلى الإهانة، شجع الصغار والكبار ودفعهم لإظهار عواطفهم، ثم المساهمة في خلق جو مشحون بالقلق والخوف والانتظار.

بدأت المواجهة بتحريض العبيد والخصيان، وهؤلاء لا يحتاجون إلى الكثير لكي يجندوا أنفسهم، ثم لكي يبالغوا فيما طلب منهم، وأخيراً ليفعلوا ما يرونه ضرورياً ومناسباً. ترافق ذلك مع التعديات والتحرش والتحدي، ثم إفساد جميع الترتيبات والصيغ التي أرادها راكان للقصر في المرحلة الجديدة.

ونساء السلطان، ثم الخدم والمربيات والمرضعات، والمئات غيرهن المقيمات في القصر، لم ينتظرن الإذن، أو كلمات التحريض لكي يشتركن في المعركة، إذ كانت معاركهن قد بدأت منذ وقت مبكر، أو على التحديد

منذ الأيام الأولى لسفر السلطان، وإن أخذت شكل الإشاعات والقصص، ثم المؤامرات الصغيرة، بحيث تحول القصر خلال فترة قصيرة إلى خليّة من الدوي والاضطراب لم يعرف لها مثيلاً في أي وقت سابق. وكانت معظم الإشاعات والأخبار تتناول فضة وراكان، فإذا قلّت الأسباب لخصومات جديدة، أو لم تعد كافية لإشعال القصر، فلا بد من إيقاظ الخصومات القديمة، والتذكير بالإساءات من أجل التحريض والزج بكل الخصوم.

وأخيراً جاءت تحديات موظفي القصر ورجال السلطان.

فبعد أسابيع من الهدوء المريب، والتحضيرات الخفية، إضافة إلى اتخاذ عدد من الخطوات لمواجهة أي رد فعل، امتلأ قصر الروض بالفوضى.

أصبح لكل أخ من الأخوة، وحسب الأمهات، حرسه الخاص، بعد أن تم الاستيلاء على أعداد متزايدة من خيول السلطان، سواء بالحيلة والمكر، أو بالقوة؛ وبعد أن تم أيضاً فتح مخازن السلاح، ووضع اليد على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة.

أما مباريات الرماية والفروسية، والتي تعوّد عليها القصر منذ وقت مبكر، وكانت للرياضة أو للتفاخر، وقد تصل إلى المراهنات في بعض الحالات، فقد أصبحت في المرحلة الجديدة استعراضاً للقوة، ثم تأكيداً للأهمية والاستقلال، إلى أن تحولت إلى المشاحنات والتحدي، ولم تبق إلا الخطوة الأخيرة لتصل إلى المجابهة.

موران لم تتوقف عن التساؤل بفضول، ثم بخوف، عن غياب السلطان. كانت تفسيراتها تتغير حول أسباب هذا الغياب، نتيجة التقدير، أو الأخبار التي تصلها، وتبعاً للرياح التي تهب من هنا وهناك حاملة معها المسافرين من الأماكن البعيدة، وما يرافقهم من القصص الغريبة التي سمعوها في محطات الطريق. كانت هذه القصص تشغل موران، فتقلق وتتحسب، لكن لا تلبث أخبار قصر الروض أن تطغى على كل ما عداها. حتى المسافرون الذين غابوا فترات طويلة، ونظروا إلى قصص موران

باستخفاف رافقه الاستغراب أن الناس انشغلوا بهذه الأمور الصغيرة، ما لبثوا هم أن تغيروا أيضاً، إذ أخذوا يسمعون باهتمام، ويتساءلون، ثم بدأوا يشاركون، مع ما يرافق ذلك من الأخطاء والتحريفات في رواية القصص، أو في تسمية «أبطالها» أو من هم وراءها.

أما السلطان فقد تعود أن يبعث برسول أو اثنين كل أسبوع إلى موران، لكي ينقل الأوامر والرغبات، أو ليطلب موافاته ببعض الحاجات، وبالأخبار والرسائل التي تصل، أو ليطلب التحاق عدد من «الربع»، وغالباً ما تكون التسمية دقيقة، والطلب محدداً بالاسم، بحيث ان الرسول يقابل، أول الأمر، ابن العليان، ثم طالع العريفان، ويقابل من يسميهم له السلطان، وفيما بقي من وقت قد يقابل أيضاً عدداً من الأمراء، أو بعض نساء السلطان، لكن دون أن تعني المقابلات الأخيرة شيئاً، ودائماً بناء لطلبهم وإلحاحهم.

ما لفت نظر الكثيرين، في هذه الفترة، أن الرسل يرفضون حمل أية رسائل بعودتهم، عدا المكلفين بها، مما اضطر أغلب الذين يريدون موافاة السلطان بالرسائل والأخبار إلى البحث عن أشخاص أو وسائل تمكنهم من ذلك. وقد أدى الأمر إلى أن يتكاثر الرسل والرسائل لدرجة أثارت السلطان وجعلته شديد الحنق. فالرسل الذين يُهيأون جيداً في قصر الروض ويشحنون بالعواطف والأخبار، لا يلبثون أن ينسوا أو يترددوا حالما يصلون إلى حيث يكون السلطان، أو حين يسألهم. أما الرسائل المكتوبة التي ترسل معهم فقد كانت تثير السخرية والضحك، إذ لا تتعدى بضعة أبيات من الشعر، أو توسلات ورجاء أن يعود، وبسرعة. المرات القليلة التي كانت الرسائل أوضح، وغالباً ما تتعلق بشكوى ضد راكان، فقد سمع الكثيرون السلطان يقول بغضب:

ـ إذا الرجّال وقع بين الحريمات والعجيان أكلوه مثل ما العقارب تاكل كبارها، وإذا خلصنا من العجيان، وقلنا لهم انْشبوا واسكتوا، فأمهاتهم يأكلن القلب مثل ما أنثى العنكبوت تأكل الذكر، وتعال اخلص.

ويفتل يده بغيظ وسخرية ويقول بلهجة جديدة:

ـ وأحسن شي أن الواحد يبعد، لأنه إذا أبعد بلشوا بأرواحهم!

لم يكن من الصعب أن تبقى الأمور في القصر تراوح هكذا، فهي، بالنتيجة، خصومات وخلافات تعوّد عليها منذ وقت طويل، وكانت تهب وتتزايد، أو تتراجع، تبعاً لقرب السلطان ومزاجه، وتبعاً لاعتبارات متعلقة بموران المدينة والناس.

لكن حين جرح مجلّي، أحد عبيد السلطان المقربين، أثناء مسابقة رماية، واقترح الدكتور رأفت شيخ الصاغة، ضرورة نقله إلى موران، وبعد أن قضى في المستشفى أسبوعين، وبدا أنه تماثل للشفاء، وبدل أن يلتحق بالسلطان، فقد بقي في قصر الروض.

ومنذ ذلك الوقت أخذت الأمور مجرى جديداً.

أما التاريخ الذي طلب فيه السلطان أن ترسل إليه فرسة الكحلة، وكان قد استولى عليها راكان، هل كان أثناء وجود مجلّي في المستشفى أم بعد أن خرج منه، فإن الأمور غير واضحة بدقة، لكن ما حصل أن الفرس لم تُرسل، رغم أن الرسول بقي في انتظارها ثلاثة أيام، وكان يبلّغ كل يوم أنها ستصل. وحين عاد الرسول، ولم تعد الكحلة، فقد استاء السلطان. وبعث برسول آخر يطلبها، ولم ترسل أيضاً. أما الرسول الثالث فقد أبلغ أن الكحلة نفقت.

شمران العتيبي الذي يعتبر أن خيول موران كلها خيوله الخاصة، ولا يسمح بأن تُمسّ أو تساء معاملتها، وحين عرف أن الكحلة قضت أثناء رهان بين راكان وأخيه مقرن، وكان اثنان من العبيد يتباريان على فرسين، أيهما يستطيع أن يطلق ويصيب هدفاً من تحت فرس الآخر، وكانت الكحلة هي ضحية هذا الرهان، فقد ظل شمران مرابطاً ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في سوق الحلال، وكان خلال هذه المدة صامتاً، حزيناً، غاضباً، ولا يفعل شيئاً سوى إيقاد نار كبيرة، تعبيراً عن الحزن والغضب لغياب الكحلة. أولاً لأنه الذي باعها للسلطان، وثانياً لأن فرساً مثل الكحلة لا يمكن أن تذهب هدراً هكذا.

أما بعد أن انتهت الأيام والليالي الثلاثة، فقد دوى صوته في سوق الحلال:

ـ خيلنا وحريمنا صارن للعب...

يتلفت إلى الذين حوله بلوعة، ثم يتابع:

ـ وتعرفون، يا جماعة الخير، إذا الواحد لعب بالنعمة، بما حرمه الله، تراها الدنيا بآخرها، مصبحة مسيّة:

ويضرب على ساقه بقوة:

ـ آه ثم آه، على اللي يرجّع الكحلة ويأخذ ولد من أولادي. آه ثم آه على اللي يراويني لمعة عينها ويأخذ نور عيني. وآخ ثم آخ على من يقدر يعيش بهذي الأيام الكشرة!

وحين يخيم الصمت، وتمتلئ القلوب بالحزن، نتيجة حزنه، يهدر صوته متسائلاً:

ـ الدنيا صارت لعب كعاب؟ الأولاد صاروا يحكمون ويرسمون؟ وحنا، حنا رجال موران، صرنا سوالف وأخبار؟

وفي فترة مقاربة، يوم وصول مجلي أو بعد وصوله ببضعة أيام، وبالتأكيد قبل مقتل الكحلة، ربما بأسبوعين كاملين، غابت الشيخة فجأة. وغابت تهاني. وإذا كانت العادة أن لا يعرف أحد بدقة مكان الشيخة، فمن المؤكد أن لا أحد يعرف كيف تفكر أو ماذا تدبر وماذا تريد ونساء السلطان اللواتي تعودن أن يعرفن، بوسائلهن الخاصة، شيئاً من أخبارها، عن طريق رشوة الخدم، أو بإظهار فيض من العواطف المفاجئة، على شكل أطباق من الحلوى ترسل إلى جناحها، أو كميات من التمر الجيد أو الصابون الذي تفضله، بهدف التأكد من وجودها، أو معرفة ما يدور حولها، فهذه المرة لم يستطع أحد أن يصل إلى قناعة أو نتيجة يطمئن إليها. لأن كل من سئل لم يجب إجابة واضحة، ثم اختلطت الإجابات بالرغبات والتوقعات، ومما زاد في تعقيد الأمور أكثر أن حسيبة البصرية، التي كانت تصنع الشاي للشيخة، كانت تجيب كل من يسألها أن «الشيخة شربت الشاي من يدي

هذا الصباح». وإذا أرادت أن تمكر أكثر تستأذن لأنها بعد قليل ستهيئ الشاي، «فهذا هو الوقت الذي تفضله الشيخة للشاي».

إن غياب أمي زهوة، أو توهم غيابها، له علاقة مؤكدة بالتغير الذي حصل. ومما عزّز هذه القناعة ما قيل عن استدعائها لراكان حين طلب من سكينة أن تخلي الجناح التي تسكنه، فكان الجواب الذي قاله لسرور لما طلب منه الحضور:

ـ . . . وتسلم عليها وتقول: هالحين يصل، وإذا ما هو على رجليه، على رأسه!

وضرب ثلاث مرات على رأسه، دلالة الامتثال والسخرية. والشيخة التي انتظرت وانتظرت، وحين بعثت بسرور مرة أخرى، قيل له ان راكان ذهب إلى البادية، ولن يعود قبل ثلاثة أو أربعة أيام، وأُبلغ سرور أيضاً، وبطريقة لا تخلو من تحدٍ، أن من الأفضل أن ترفع الشيخة يدها، وأن لا تتدخل، إذ ان ضرورات الأمن والسلامة فوق كل اعتبار!

الشيخة التي أبلغت بكل هذه التفاصيل، صمتت، لكن تولت تهاني الكلام نيابة عنها.

قالت تهاني لموزة:

ـ وتقولين لعمتك: هذا قصر أبو منصور، وأبو منصور بعده حيّ، وبعد قوي.

قالت الكلمة الأخيرة بطريقة خاصة تماماً، ويمكن أن تفهم منها عدة معاني معاً. وأكد عدد من الخدم أن الشيخة لازمت جناحها لم تتركه، ثم بعد ذلك غاب أثرها، فلا يعرف ما إذا كانت لا تزال موجودة أم غادرت، وإن دلت الوقائع، أو معظمها، على سفرها. وبعد أيام أصبح التساؤل هل أن هذا الغياب في موران ذاتها، أم غادرت إلى حيث تعودت أن تذهب خلال فصل الشتاء؟ وجاء من قال إنها واصلت رحلتها إلى حيث يقيم السلطان.

وعبد الله البخيت أيضاً ليس بعيداً عما جرى. إذ بعد أن أكد عدد من الذين يعرفون أن السلطان طلب منه البقاء في موران، وأن هذا الطلب

نتيجة الضرورة القصوى، ليكون عينه وأذنه، ولئلا يحصل مثلما حصل في مرة سابقة، خاصة أثناء حملة العوالي، فقد أكد آخرون أن البخيت سيسافر ويلتحق بالسلطان بين يوم وآخر. وأكد غير هؤلاء أن بقاء ابن البخيت في موران دليل لا يقبل الشك أن عودة السلطان متوقعة اليوم أو غداً، وهذا ما جعل عبد الله يبقى، لأن أياً من الاثنين لا يقوى على فراق الآخر!

عثمان العليان لديه من المشاكل والهموم ما يجعله بعيداً، أو غير مستعد لأن يخوض مع الآخرين في موضوعات القصر، والخلافات التي تنشب فيه، رغم قناعة الكثيرين أنه الوحيد الذي يقرر كل شيء، وأن رأيه وحده الذي يمكن أن يفرض، دون قدرة على المناقشة أو الاعتراض. وهذه القناعة نتيجة علاقاته الخاصة مع السلطان، أولاً، ولأنه الذي يملك «الدهن»، كما كان يقول ابن البخيت مازحاً، إشارة إلى أنه يملك المال.

وإذا كانت عادة ابن العليان أن يبدو مرحاً محباً للحديث، ولا يخلو من سخرية، فإنه يصبح إنساناً آخر حين يطلب منه المال. فجأة تتغير ملامحه وتصرفاته. وفجأة يختفي الإنسان الذي كانه، ليولد آخر مكانه، وهذا الجديد لا يعرف الابتسامة، ولا يعرف الصداقة، إلا بمقدار «الشرع»، وهو يحب هذه الكلمة، ويعتبرها سيفاً بينه وبين الآخرين، عدا السلطان. لا يتعب من المساومة، وفي عصر أية مطالبة، فإذا اقتنع، أو رأى ضرورة، فإنه لا يتردد في الأمر بالصرف، عكس غيره من المحاسبين.

قيل ان راكان اصطدم، أول ما اصطدم، بعثمان العليان. كان السلطان يطلب، أو يبعث بورقة صغيرة عليها خاتمه، وعثمان العليان يمهرها بتوقيعه، مع كلمة صغيرة: «تصرف». جرب راكان الوسيلتين معاً: أن يطلب من عثمان العليان، وأن يبعث إليه بالأوراق، ولم يتأخر عثمان لكي يضع حداً: فحين طلب منه صرف مبالغ من أجل إنشاء الحرس وشراء الأسلحة، كان رده مختصراً: «قدّم لنا القوائم، وبعدها نشوف شنهو اللي الله يقدرنا عليه»! ولما بعث إليه بأوراق عليها خاتم القصر وتوقيعه، قال ساخراً لعبد الله البخيت:

ـ سبحان الله، يا عبد الله: أولاد الملوك يصيرون ملوك قبل آبائهم؛ مستعجلين والأرض ما تحملهم!

وحين ظهر التساؤل، وعدم الفهم، على وجه ابن البخيت، أضاف موضحاً بسخرية:

ـ ابن فضة صار وتصور! يظن أن ختم القصر، وتوقيعه، اللي طوله طول حية، مثل عصاة موسى، يسوي كل شيء، لكن يخسا.

ابتسم ابن البخيت، وقال:

ـ عجيان، الله يسلمك، ويلزم تأخذهم على قدر عقولهم!

ـ العجي تضحك بوجهه، تربرب على كتفه، تقول له: عفارم، أما أن يقول: اصرفوا لأمر فلان، فهذا حدنا وياه، تقول له: دوك التعريفة، أشربيها قصب المصّ، وما عليك بغيرها.

ـ لا تروح بعيد يا أبو عزيز، خلك خد وعين، لأن هذي دنيا وما تعرف شنهو اللي يصير بيها... وضحك، وخرجت الكلمات متداخلة:

ـ وهذا، بالأول والتالي، ابن فضة، وأنت تعرف منزلتها عنده!

ـ خلنا يا عبد الله، من هذي السوالف.

هز عبد الله البخيت رأسه وهو يبتسم، وقال كأنه يخاطب نفسه:

ـ ظني ما له غنى عنها. رابطته. ومهما راح لا بد يرجع لها، وبقلبها تقول مثل ما قال صاحبنا القديم: أيتها السحابة اذهبي أنا شئتي فإن خراجك راجع إليّ، فأخاف يروح يوم ويجي الثاني وننكس على روسنا يا أبو عزيز، ونضيّع الدنيا والآخرة. وترنم:

يستغفر الناس بأيديهم   وهن يستغفرن بالأرجل

ـ لا تخف يا رجّال، مثلها آلاف!

ـ زين... زين يا أبو عزيز، بس هذي دنيا وما ينحزر عليها!

ـ وكّل الله يا عبد الله، وهالحين همّ العود أكبر من همّ العجيان، فخلنا نستغفر رب العالمين ونشوف شلون ندبر روسنا...

وبعد قليل وبقلق:

ـ وأنا، خوفي، يا عبد الله، من خوّيك، هذا اللي سولفت لي عنّه، مشرف البكيري، فيلزم نفّك رباطه ونلعن والد والديه، وكل ما عداه سوالف ليل!

ـ اللي تقوله يا أبو عزيز، وما لي إلا أسرى عليه، أو نسري جميع، ومني كلمة ومنك كلمة وعسى أن الله يفرجها.

طالع العريفان كان الضحية، خلال الأسابيع الأولى، بل خلال الشهرين الأولين، لغياب السلطان، إذ حاول راكان إرهابه، وحمله على أن ينفذ كل ما يريد، وطالع استجاب وحاول كل جهده، لتجنب الشر، ولرغبة في أن تسير الأمور بأقل ما ينبغي من الإزعاجات، لكنه لم يتوقع أن تطول غيبة السلطان هكذا، ولا يعرف أيضاً متى يعود، ولذلك استيقظ فيه، يوماً بعد آخر، الشعور الحاد بالرفض والتحدي. وقد ترافق ذلك مع التغيرات التي طرأت على قصر الروض، إذ ما كاد يكتشف تمرد الأخوة، ويتأكد من صلابة ابن العليان، حتى أصبح أكثر الناس حزماً وعناداً. وراكان الذي افترض أنه قادر على ترويضه، أو يمكن تجاوزه، اكتشف أن لا شيء في القصر يمكن أن يمر دون موافقته، فهو يعرف الرجال، يعرف كيف يتعامل معهم، وكيف يحملهم على طاعته، كما أنهم يفهمون عليه بأقل الكلمات، وبعض الأحيان بمجرد الإشارة. ورغم التعليمات العديدة التي أصدرها راكان، إضافة إلى الأوامر المشددة، وتكون الإجابة عليها غالباً هزات الرؤوس بالموافقة، إلا أن لا شيء يتم، أو يسير بشكل طبيعي، الأمر الذي اضطره مرة بعد أخرى إلى الرجوع لطالع العريفان والاستعانة به، وما يرافق ذلك من محاولات استرضائه وسماع رأيه.

وطالع الذي بدا، خلال الفترة الأولى، منكسراً، أقرب إلى الحزن والحيرة، لا يعرف كيف يواجه هذه الصعوبات، أو كيف يتعامل مع سادة القصر الجدد، وكان يحس بنظرات ناهي المليئة بالتشفي والسخرية، فقد أصبح خلال الفترة الأخيرة أكثر حيوية واستعداداً للمقاومة. قال له ناهي، ذات ليلة، بعد أن غادرت الشيخة:

- شلون تريدنا نحمل، يا أبو جازي، إذ الجمال هجّت والجبال ارتجّت؟

وحين التفت طالع وتساءلت عيناه، تابع:

- الشيوخ شيّلوا، وآخرهم الشيخة، يا ابو جازي، فإلى متى تريدنا نصبر ونحمل؟

رد طالع بحزن مشوب بالأسف:

- إذا عاد العود، وحال الحول، يا ناهي، ما أظلّ لو يرتمي وردهن على رجليّ حجول.

- من هو اللي يقول الشعر هالحين، أنا أم أنت يا أبو جازي؟

ولم يتوقف إلا قليلاً، ليضيف بنبرة ساخرة وهو يعني راكان:

- له هدّة ما قيل أبا زيد هدها ولا عنتر المشهور ما قيل نالها

- وعيب على مثلي إن هد ينثني إن شاف نيران الحرب كبار

وقال ناهي وهو يضحك:

- يا ما ذكرته إن كثرت نوايبي والكبد كنه على كير يهاج بها

وضحك طالع العريفان بحزن، اسيان، وقال:

- اسمع يا ناهي، ومن قبل قالوا:

يا طالبين الحكم مهلاً ترفقوا رويداً ترى قضب النجوم عسار

وبعد أن صمتا، وتذكرا، وامتلآ بأحاسيس كثيرة متناقضة، وكانا متأكدين أيضاً أنهما لا يستطيعان أن يتركا في هذه الفترة، وقبل عودة السلطان، فقد قال طالع العريفان، وخرج صوته مديداً، وكأنه آتٍ من بعيد:

- ما لنا، يا ناهي، إلا نومة أهل الكهف: لا عين شافت ولا قلب يحزن، إلى أن يبدل الله حالاً بحال.

رد ناهي، وكان صوته بعيداً أيضاً، كأنه خارج من مغارة:

- مشينا خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها

ومن كانت منيّته بأرض فليس يموت في أرض سواها

لم يكن الاثنان بحاجة لمن يعلمهما كيف يقاومان أو كيف يحرضان الآخرين. إذ لم تمض فترة، ونتيجة لاتفاق ضمني، ترك بموجبه طالع العريفان لمساعده أن يتصرف، أن يفعل ما يراه ضرورياً، حتى امتلأ جو القصر بالصمت، فإذا تجاوزه فإلى تلك الابتسامات الصغيرة المتحفظة، رداً على أي طلب. أما مسألة التنفيذ، أما مسألة الفهم والاستجابة، فإن كل واحد من الرجال الذين يعملون معهما كان يفهمها بالطريقة التي تروقه. وناهي الفنان، لم يقل، مرة واحدة، كلمة لا، حين يطلب راكان أو أحد رجاله. كان يبدي تفهمه الكامل، وبعض الأحيان حماسته، لكن لا ينفذ إلا ما يريد، ما يراه ضرورياً.

إنها الحرب الحقيقية، رغم الصمت والدماثة، والمليئة بالابتسامات.

قال طالع بعد ثلاثة أسابيع من الشعر والاتفاق:

ـ تراك، يا ناهي، مخبا بثيابك!

ـ عساني ما أخطيت، الله يسلمك، وسويت اللي ما يتسوى؟

ـ المهم، يا ناهي، نعلّمهم شنهو اللي يقدرون عليه بليانا.

ـ هذي خلها عليّ، يا أبو جازي، ونم مرتاح، وابن فضة عجي، كلمة تأخذه، وكلمة ترده. قل له تؤمر، وسوي اللي تريده!

ـ بس احرص يا ناهي، ترى أخواله عيونهم حمرا، وأشوفهم يلوبون.

رد ناهي الفرحان بصخب:

ـ أنت حط بظهر ابن العليان، وابن العليان ظهره قوي ويحمل، وطويل العمر ما يرد كلمته، وخلي الكبار يتبالشون، وحنا نتفرج.

كان المال الحائط الذي اصطدم به راكان، واحتج به طالع العريفان، وأمور القصر دون المال متعثرة، مرتبكة، وعرضة لتقلبات ليس لها نهاية. وعثمان العليان الذي كانت له تجربة قاسية مع خزعل، وقد تعلم منها الكثير، فضل أن يعطي بمقدار، وأن يوازن أموراً كثيرة، فالمصروفات المقررة للنساء ولأولاد السلطان يصرفها دون ضجة وبمواعيدها، فإذا أراد أن يزيد، أن ينوّع، لكي يكسر هيبة راكان، فكان يفعل ذلك بكثير من

الحذر وبسرية مطلقة، ويوصي من يعطيه أنه يفعل ذلك بناء لأوامر السلطان، ولمرة واحدة فقط. لقد كان ضد العادة، وضد أن تصبح العطايا واجباً إلزامياً. حتى ما صرفه لراكان، فوق ما يستحقه، لم يدفعه هكذا، ولم يفعل إلا بعد انتظار. وهذه الحالة خلقت جواً من القلق ومن الارتباط به. وقد استند إليها طالع العريفان واعتبرها حجة كافية لكي يؤجل تنفيذ الكثير من الطلبات، وبدا أن الرجلين، يفهمان على بعضهما، أو أنهما متفقان.

وخصومات النساء لا تقل عن خصومات الرجال. صحيح أنها اتخذت، في المرحلة الأولى، شكل الإشاعات والمؤامرات الصغيرة، إضافة إلى التحريض، ولم يتجاوز ذلك، خشية أن يتصرف راكان بطريقة قاسية، كما تصرف تجاه بعض النساء، خلال الفترة الأولى، خاصة وأن السلطان لم يستجب للرسائل التي بُعثت إليه، ولم يكلف نفسه عناء الرد، حتى بكلمات قليلة، مع الذين حملوا تلك الرسائل. الآن وقد تغيرت الظروف، وبدأت تصل إلى الجناح الغربي أخبار الرجال، وكلمات الاستهزاء التي تنال راكان، ثم ما نقله الخصيان والعبيد، فقد اختلفت الأمور كثيراً عن السابق.

العنود التي عادت، ولا يعرف إن كانت عودتها نتيجة تقديرها أن السلطان لا يمكن أن يغيب أكثر مما فعل، ولا بد أن يعود، أو نتيجة الرسالة التي وصلتها من قصر الروض، حول ما جرى.

كانت عودة العنود صاخبة مليئة بالتحدي. فالجناح الذي كان لها، والذي هدمت الجدران التي تفصله عن جناح فضة، عادت إليه. وضعت نفسها وأولادها، وحولهم الخدم والحرس، وأيضاً ما وجدته من أثاث، أو ما حصلت عليه، وقد ساعدها طالع العريفان، في نفس الحجرات التي كانت لها، أو ما تعتبره جناحها. وفضة وراكان اللذان قاوما بحدة وخشونة، ما لبثا أن وقعا في حيرة كبيرة، خاصة وأن العنود كانت من الحدة والعناد إلى درجة تحدّت الاثنين، وجمعت حولها الكثيرين. ورغم المحاولات والجهود التي بذلت لتسوية الأمر، بتقديم اقتراحات بديلة، كأن

تنتقل العنود إلى جناح جديد، أو أن تنتظر عودة السلطان، فإنها رفضت كل العروض.

ما كانت تستقر، وبعد بضعة أيام، وبمساعدة الكثيرين في القصر، حتى أعادت بناء الجدران، وأعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

هذه الضربة، زعزعت راكان، وجعلت فضة في حالة عصبية لم يشهدها أحد هكذا من قبل.

لم تكتف العنود بذلك، فقد بدأت تطالب أن تعود لها أشياؤها التي كانت في الجناح. كانت تريدها بالذات، ولا تريد بديلاً عنها، حتى لو كان أفضل منها.

صحيح أن راكان بعث عدداً من حرسه لخلق مضايقات كثيرة للعنود، وللتحرش بعبيدها وعدد من أقربائها، لكن انتهى الأمر بأن بعث بطالع العريفان لكي يسترضيها، أو يحاول شراء سكوتها. وبعد الكثير من الجهد والوقت، أمكن الوصول إلى صيغة اعتبرت مقبولة مؤقتاً: وهي أن تفتح لها مخازن القصر لتختار ما تريد بدلاً عن الأثاث الذي احترق أو الذي غرق، كما قال طالع، في محاولة لإقناعها.

هذه الخطوة لم تترك أحداً يسكت أو ينتظر. كانت سابقة شجّعت الجميع، وهزت قصر الروض، وجعلت راكان وأمه يتبادلان اللوم والعتاب، وفي تحميل كل منها الآخر مسؤولية هذه الأخطاء.

في يوم من أواخر أيام الشتاء، وصل مهيوب فجأة إلى القصر.

وصل عند الضحى، وفي ساحة القصر الأمامية، كان ثلاثة من خدم وطفة يجلدون، بناء لأمر من راكان. الذين رأوا مهيوب يصل القصر، في سيارة سوداء، ظنوا أول الأمر أن السلطان هو الذي وصل. أما حين ترجّل واتجه فوراً إلى الساحة، وصرخ، بحدة، طالباً وقف الجلد، ثم تناول بنفسه خيزرانة وضرب بها أحد رجال راكان، فقد توقع الكثيرون أن القصر سوف ينقلب رأساً، لأن أحداً لا يجرؤ، غير السلطان، على التصرف بهذا الشكل، خاصة وأن عدداً من رجال راكان تراكضوا ليبلغوه. الذين كانوا مع

راكان، وحين بلغه وصول مهيوب، ثم ما فعله، نقلوا أن حالة من الخوف سيطرت عليه، جعلته صامتاً لفترة غير قصيرة، ثم بدأ يتصبب منه العرق، وحين أراد أن يتكلم قال كلمات مرتبكة غير مفهومة. أما بعد ذلك، وحين فُتح الديوان، وجلس مهيوب في الغرفة الأمامية المطلة على المجلس، ثم بعث أحد رجاله يبلغ راكان بضرورة المجيء، ليتلقى رسالة من السلطان، قد بدا واضحاً أن الرجلين إذا تقابلا، وهما في هذه الحالة من الانفعال، لا بد أن يقتل أحدهما الآخر.

لا يُعرف من أشار على راكان أن يصمت، ثم أن يعتكف في جناحه بالقصر. ولا يُدرى أيضاً لماذا لم يلحّ مهيوب على ضرورة حضوره. فالزمن الذي انقضى بين الوصول واللقاء، جعل الكثيرين يتحركون بين الاثنين، ويتدبرون الكثير من الأمور وسوء التفاهم، وبالتالي احتمال الصدام. وحين حصل اللقاء عصر اليوم التالي، وقد حضره العم ضاري، وابن العريفان، وعدد من الأمراء، إضافة إلى ثلاثة من أقرباء راكان من ناحية الأم، فقد بدا هذا اللقاء شكلياً، ولا يتعدى قراءة رسالة السلطان القصيرة، والتي تطلب من راكان أن يوافيه إلى العوالي؛ ولم تخل الرسالة من الجفاف وعبارات غامضة فهمت وفسرت بأشكال مختلفة.

العم ضاري، أكبر أفراد العائلة، والذي حضر الاجتماع، لم يكن في عمر أو حالة صحية تمكنه من المشاركة، أو حتى إبداء الرأي، فقد تراجع نظره، وخف سمعه، وأصبح يقاد إلى المكان الذي يجب أن يذهب إليه. أما الآخرون الذين حضروا الاجتماع، فقد ظلوا صامتين أيضاً، لأنهم فرحوا بقرار السلطان، وكانوا يريدون نهاية لهذا الذي حصل في القصر. حتى رجال راكان لم يستطيعوا أن يقولوا إلا بضع كلمات، وكلها تتعلق بتوضيح بعض المسائل التي حصلت، خاصة موت الكحلة، ثم التساؤل عن الموعد الذي يجب أن يكون فيه راكان في العوالي، وما إذا يحتمل الموقف تأجيل السفر إلى أواسط الربيع. قال مهيوب ليحسم الموقف:

- . . . وطويل العمر طلب مني أبات ليلة وأرجع الليلة الثانية، ويلزم يكون أمره تنفذ، وما أحد يعاوده، ولو بكلمة.

وحين بدا الضيق على وجه راكان، أضاف مهيوب:

ـ وإذا تلاقت العيون، وقال كل واحد اللي بقلبه، يصير خير!

وبعد الكثير من الجهد أمكن تأجيل السفر إلى ظهر اليوم التالي، وبدا لكل من سمع أو عرف أن قصر الروض، وربما موران، أو حتى السلطنة الهديبية كلها، تبدأ عهداً مختلفاً.

شمران العتيبي الذي بلغته الأخبار، وكان يستعد للسفر إلى الزرنوق، لكي يبقى هناك فترة يستريح خلالها، ويعيد التفكير، ليقرر بعد ذلك هل يعود إلى موران أم لا يعود، قال أمام عدد من أصدقائه:

ـ والحر إذا شاف الجفا عاف، يا جماعة الخير، وأنا كبدي ورم، وما أحمل، فخلني أغيب هالحين، فإذا جاء الصفري الله كريم.

رغم محاولات التكتم والنفي، ورغم الاحتفال الرصين الذي جرى للسلطان حين عاد إلى موران، لم يتوقف الناس عن الهمس، أو حتى الحديث العلني الصريح، حول محاولة الاغتيال التي تعرّض لها جلالته في أحد مساجد العوالي. كادت المحاولة تقضي عليه، لولا خزعل الذي ارتمى فوقه، وحال بينه وبين القتلة. أما الجروح التي أصابته، وأصابت خزعل، فلم يستطع أحد أن يحدد عددها أو طبيعتها، إذ جاءت الأخبار متناقضة إلى أقصى حد، وزادها غموضاً أن السلطان لم يغادر سيارته أثناء استعراض الجنود في الاحتفال. صحيح أن الاحتفال كان قصيراً، لكنه كان وقوراً ـ أما استقباله للوجهاء والشيوخ، بعد ثلاثة أيام من وصوله، وما دار من أحاديث أثناء الاستقبال، أو ما نقله الذين حضروا، فإن كل إنسان فهمه بالشكل الذي يروق له، وتبعاً لعواطفه أو مواقفه من السلطان، ومما زاد في التناقض والغموض غياب السلطان أو احتجابه بعد ذلك.

موران التي نسيت الحملات العسكرية السابقة، أو انشغلت بالهموم التي جاءت بعدها، نسيت أعداء السلطان السابقين، وبغيابهم غابت أيضاً أسماؤهم وملامحهم. وهذا ما أفسح مجالاً كبيراً لأن يتعدد القتلة بتعدد الأعداء. بل وبلغ الأمر، في بعض المجالس، أن سُمّي أعداء لم يسمع بهم أحد من قبل. ولتأكيد مثل هذا الافتراض ذكر الذين تبنّوه أحداثاً جرت قبل خمسين أو سبعين سنة، وحاولوا أن يذّكروا المسنين، لكي يستعيدوا وقائع جرت في ذلك التاريخ، لكن الذين أشاروا إلى مثل هذا الاحتمال لم يصروا عليه، ولم يستطع المسنون أن يسعفوهم في تذكر الأحداث

والعداوات التي جرت زمن جد خريبط أو قبل جده.

ولأن الأمور تزداد تناقضاً وتشابكاً، فقد وجد من قال أن المؤامرة من بدايتها إلى نهايتها من داخل الأسرة. إذ بعد أن جرت عدة محاولات في السابق، وأخذت أشكالاً مختلفة، وفشلت، فإن المحاولة الجديدة امتداد لما سبقها، وكأن الذين قاموا بها يريدون أن يقولوا: «حتى لو لم نستطع قتل السلطان، فقد جرحناه، وأمام جميع الناس»، لكي يدللوا على عدائهم له واختلافهم معه.

ولئلا يترك أصحاب هذه الرواية مجالاً للشك يروون قصص الخلافات التي وقعت داخل الأسرة، وكيف أصبح القتل القانون الذي يحكم بين أفرادها، إلى أن تعبوا، فاستراحوا خلال الفترة السابقة، وها هم يعودون إلى نفس القانون من جديد! ولكي يقنعوا أنفسهم، وهم يقنعون الآخرين، يوردون خلافات خريبط مع عمير، ومقتل مشاري قبل سنين، ثم محاولات الاغتيال التي جرت داخل القصر، ولم يتسرب إلا قسم يسير منها، بل وجرت عمليات نفي لها، كما يفعل هذه الأيام.

فإذا اختلطت الوقائع أو تداخلت، أو إذا نُسيت التفاصيل، في مجالس الرجال، فإن لدى نساء موران الكثير ليقلنه، وليقسمن الإيمان الغليظة على صحته، ويبلغ الأمر ببعض النساء أن كن شهوداً عليه! وهنا تبدأ مجموعة لا نهاية لها من الوقائع والأسماء، وهي من الدقة والتشابك إلى درجة يضيع فيها أي رجل، لكن غالباً ما تنتهي مثل هذه الروايات عند مجموعة من أسماء زوجات السلطان، وعدد من أبنائه.

أما لماذا تصدى خزعل للذين حاولوا اغتيال أبيه، ولماذا لم يتصد فنر؛ ولماذا كان راكان بعيداً في زاوية المسجد، وقيل أنه غادر فور وقوع المحاولة، ولم يعد إلا بعد أن ذهب اثنان من أخواله وجاءوا به؛ ولماذا اختار رأفت شيخ الصاغة ذلك اليوم بالذات ليمرض فيه، ولا يشارك السلطان الصلاة في المسجد، وبالتالي ليحاول إسعافه في الوقت المناسب، بدل أن يُترك فترة طويلة ينزف، وينهكه ذلك النزيف؛ ولماذا يقتل فوراً الذين قاموا بالمحاولة، بدلاً من إلقاء القبض عليهم ومعرفة الذين وراءهم،

فإن مثل هذه الأسئلة، وغيرها أكثر منها، ظلت تدور من مجلس لآخر، ومن لسان إلى لسان، دون أن تلقى إجابة مقنعة، أو دليلاً ينفيها.

وفي المقاهي والدكاكين، وفي سوق الحلال، وفي مضارب البدو، كان الحديث يدور حول اغتيال السلطان.

وأن يكون الإنسان قريباً من القصر، أو يعرف بعض العاملين فيه، لا يعني، حكماً، أنه يعرف أحسن من غيره أو أكثر من غيره. صحيح أن البدو في المضارب، حين وصلت إليهم الأخبار، بعد أن قطعت مسافات طويلة، وانتظرت فترات أطول في محطات الطريق، وصلت قصيرة، محددة، وأغلب الأحيان تخلو من أية تفاصيل، ولا تتعدى بعض كلمات: «حاولوا ذبح خريبط لكن لا أحد يدري شلون نجا». أمّا بعض الرعاة، وهم يتبادلون الأخبار، عن بعد، وسط الفلاة، فكانت الكلمات أقصر: «ذبحوا العود» وحين لا تفهم الكلمات من هذه المسافات، أو حين تبعثرها الريح، فإن الذي يعرف يبلغ من لم تصله الأخبار بعد بحركة اليد، مع كلمة واحدة: العود ـ خريبط، ويشير بيده إلى الرقبة، دلالة الذبح.

قال شمران العتيبي، حين وصله، إلى الزرنوق، خبر الاغتيال:

ـ إن الله، يا جماعة الخير، يمهل ولا يهمل، فإذا فات هذي النوبة ما أظنه يفلت منها النوبة الثانية، وتشوفون وتسمعون!

صالح الرشدان في سوق الحلال، حين بلغه الخبر، وكان يحذي حماراً، قال، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ هالابن الحرام يلزم يذبحونه ألف مرة.

والتفت قليلاً ليرى أن فهمت كلماته، فلما لمح التساؤل في عيون الذين يتابعونه أضاف:

ـ ما دام نوى، ويعرف أنهم راح يذبحونه بأولها أو بتاليها، فكان يلزم أن خريبط ما يفلت منه. كان يلزم يوكد وين يضرب، وشلون يضرب، حتى ما يخلي واحد مثلي يقول: بومة، والله لا يبارك فيه.

وأخذ يضرب بقوة حذوة الحمار، وكان المسمار الكبير ينزلق بعد كل ضربة، وهو يردد:

ـ هالشكل يكون الضرب. أي نعم، هالشكل، وإلا . . .

في مقهى زيدان، في مقاهي موران الأخرى، وفي دكاكين القصابين بشكل خاص، حين يجري الحديث عن المحاولة، وكيف فشلت، كان الكثيرون يستعملون قبضاتهم، أو السكاكين التي في أيديهم، ليعبروا بشكل ما عن الطريقة التي كان يجب أن تتبع من أجل الوصول إلى النتائج المطلوبة. كانوا يفعلون ذلك دون حقد، وكأن الأمر لا يعني خريبط. إن ما يزعجهم، بالدرجة الأساسية، أن لا يكون الإنسان ماهراً قوياً. كان ذلك يثير حنقهم، ويجعلهم يتكلمون بطريقة غير مألوفة. فليس العيب أن يفشل الإنسان، العيب أن يخطئ، الخطأ غير مسموح به، تماماً كما لو تكلمت المرأة أمام الرجال كلاماً غير لائق. أما أن يفشل الإنسان، كأن ينكشف أمره في اللحظة الأخيرة، أن تستعصي البندقية، ولا تخرج الرصاصة، فإن ذلك خارج عن الإرادة أو الرغبة.

هكذا كان يجري قسم كبير من الأحاديث، رغم أن السلطان مادة هذه الأحاديث! وكان المسنون يطلبون من الشباب أن يحرصوا ويتوازنوا، إذ لا يجب أن تصدر عنهم كلمات أو تصرفات يمكن أن يساء فهمها، أو قد تسبب متاعب مع جماعة السلطان. وكان الرجال يحرّصون النساء، لكنهم، في نفس الوقت، يستمعون إلى ما يقلنه باهتمام بالغ، وإن تظاهروا بغير ذلك، لأنهم يعتبرون ما يجري على ألسنة النساء يعكس ما يفكر فيه الرجال، وإن ترددوا في التعبير عنه، أو إعلانه.

والسلطان. . . أين هو الآن، ولماذا لا يظهر ويبدد كل الشائعات التي تملأ البيوت والأسواق؟

فإذا كانت محاولة الاغتيال قد شغلت موران والعوالي والحويزة، ثم انتقلت إلى ما وراء «الحدود» وأصبحت الأمور أوضح بمقدار البعد عن المركز، وليس القرب منه، فإن ما شغل قصر الروض، وشغل الخدم والعبيد والخصيان والنساء والأطفال في المرحلة الجديدة: احتجاب السلطان.

قال عرفان الهجرس لعثمان العليان برجاء:

ـ . . . وأريدك، طال عمرك، ما دام تشوفه، ويسمع منك، تقول له: البريد، وما أريد بعد هذا أي شي.

أما العجرمي، الذي وصل إلى المسجد قبل السلطان بدقائق، وشهد المحاولة، فكان على ثقة أن الاغتيال لم يكن يستهدف السلطان وحده، وإنما يطال الآخرين أيضاً. وقد أكّد لابن العليان، بعد أسابيع، أنه رأى اثنين عند باب المسجد لم يرتح لهما، وقد نظرا إليه «بعيون شر»، لكنهما لم يقدما على عمل شيء ضده لأنهما يريدان اكتمال الشمل، ولو أن محاولتهم نجحت ضد السلطان، لكان هو الأول بعده.

ابن العليان الذي اعتبر الأمر عارضاً، ويعني السلطان، ولا أحد غيره، حاول أن يخفف أو ينفي احتمال أن يكون غيره مقصوداً، لكنه سمع كلاماً قاسياً:

ـ اسمع يا عثمان، وأريد غيرك يسمع: الناس فسدت، ما هو بس كذا، وفسقت، أي نعم فسقت، صار الواحد، بدل ما يقول: ربي لك الحمد والشكر، صار يتلفت ويقول: منين لفلان، وشلون بس فلان؟ وصار الناس، يا عثمان، لا يصلّون ولا يستغفرون، قتلهم الطمع والحسد، عيونهم مثل الفناجين، وحلوقهم مفتوحة. وما أحد يفتح الله عليه، ويقول له: خذ يا عبدي، حتى تشوفهم يدبون حوله مثل الجراد: منين لك؟ شلون؟ شكثر؟ وتعال اخلص من حلوق الناس، أو ارضيهم.

تنفس بعمق، تنفس أكثر من مرة، وكأنه يحاول تذكر ما يجب أن يقوله، ويواصل ما بدأ فيه، إلى أن تذكر ما اعتبره استمراراً:

ـ وحنا، يا عثمان، اللي نقول: هذا مع الشرع، وهذا اللي يخالف الشرع، والناس، يا عثمان، مع مصالحها، مع اللي يفيدها، وتزعل وتنتفخ، إذا قلت هذا ما يصير، هذا ما يجوز. فالله العليم، بعدما سولفنا مع شيوخ العوالي، وعلمناهم اللي يصير واللي ما يصير، وهم رادوا الشرع يمشي، وهو فوق الصغير والكبير، من كل بدّ ولازم أن جماعة تضرروا، تلفتوا هنا هنا، وقالوا: الشيخ العجرمي.

تنفس بحزن مرة أخرى، وسأل:

ـ فهمت شنو هي السالفة يا عثمان؟

عثمان العليان فهم الأمور بشكل آخر، لكنه لا يروق له النقاش، بعض الأحيان، قال بطريقة مسالمة:

ـ الصحيح اللي تقوله يا شيخنا!

بعد قليل، وبسخرية:

ـ وإيمان أهل العوالي، يا شيخنا، ضعيف ومزعزع، وما هم مثل أهل موران!

الشيخة عادت مع السلطان، بنفس الموكب وبنفس اليوم. وقد بالغ اثنان من خدم فضة، وأكدا أنهما شاهداها أثناء الاحتفال الكبير، خاصة حين مرت الخيول، وسمعا أيضاً زغردة من المكان الذي كانت فيه، ولم يعرف هل أطلقتها هي أم إحدى خادماتها. المهم: أصبحت عودتها مؤكدة، وأصبح وجودها قوياً ومؤثراً، خاصة حين غاب السلطان أو حين احتجب. فقد ذُكر أن السور الذي تعب راكان في إقامته، والذي أدى إلى ترحيل وهيبة وزينة، وثلاث من محظيات السلطان، من أجل تشييده، قد هدم. وصدف أن مرت الشيخة لما بدأ هدم السور، وحين أزيل آخر أثر من آثاره. أما الذين رأوا السلطان ذاته، بعد ذلك بشهور، يزور وهيبة في الجناح الجديد الذي بني لها مكان الجناح الذي هدم من قبل، فقد تأكدوا أن الشيخة، قبل أي إنسان آخر، عرفت كيف تنتقم من راكان. ومما عزّز هذه القناعة أن سرور، زلمة الشيخة، هو الذي تولى نقل الأثاث، والإشراف على الانتقال، ثم الاحتفال الذي حضره السلطان.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فتهاني التي لا يُعرف من يحبها ومن يكرهها في قصر الروض، والتي تُحب أن تعادي دون أسباب واضحة، بالنسبة للآخرين، وربما الأمر ليس كذلك بالنسبة لها، فقد بدت في المرحلة الجديدة كالطاووس، وتجرأت أيضاً على وريدة، الأمر الذي أزعج الشيخة.

فبعد غيابها شهوراً طويلة عن قصر الروض، وعن موران، عادت واثقة متحدية، بل أقرب إلى الاستفزاز. فما لا تحصل عليه من معلومات وأخبار

بأسئلة مباشرة، تلجأ إلى الإغراء أو التهديد. فهي تريد أن تبقى عين الشيخة وأذنها، ولذلك يجب أن تحصل على كل ما فاتها من معلومات، وأن تنقلها بطريقتها الخاصة.

الصدام الأول، أو الحقيقي، كان مع وريدة. إذ رغم التحفظ، الأقرب إلى البغض، بين المرأتين، فقد قامت تهاني بالزيارة أولاً، وخلال هذه الزيارة بالغت في إظهار المودة، لكن وريدة ظلت متحفظة: تبتسم، تتطلع باهتمام، تسمع، لكنها لا تتكلم إلا بمقدار، وأغلب الأحيان جواباً عن سؤال. وحتى الجواب يكون قابلاً للتأويل أو لعدة تفسيرات، الأمر الذي أزعج تهاني تماماً. قال لها قبل أن تبدأ الردح والكلمات الكبيرة.

ـ أنا والشيخة أمّنا بكِ واعتمدنا عليكِ، فيلزم تقوي لي كل اللي حصل بغيبتنا.

وحين ابتسمت وريدة، وقالت بهدوء، أقرب إلى الرخاوة:

ـ وبغيبتكم ما حصل إلا الخير والسلامة.

ردت تهاني، التي شعرت بالتعريض:

ـ من أمّنك لا تخونه ولو كنت خاين!

وفجأة تحولت المرأتان إلى قطتين، كل واحدة تريد أن تنهش الأخرى، أن تمزقها، لكن بعد قليل انتبهت وريدة أن تهاني جاءت لزيارتها، فاحتملت، ثم حاولت أن تتراجع، لكي تمر الأمور، وأن تجعل الزيارة تنتهي على خير. فلما تحققت لها هذه النتيجة، وقبل أن ينقضي يوم واحد، لم تتأخر عن زيارة الشيخة، وأن تحكي لها كل شيء، لكنها أضافت، قبل أن تتكلم عما حصل بينها وبين تهاني، ثم بعد أن انتهت من ذلك، مجموعة كبيرة، وهامة، من الأخبار المتعلقة بقصر الروض، الأمر الذي جعل الشيخة تغضب على تهاني، وأن تؤنبها، ليس أمام وريدة، وإنما أمام اثنتين من النسوة، إحداهما صديقة وريدة!

ابن العريفان المشغول بهموم قصر الروض، ولا يعرف ماذا حصل بالعوالي، وحائر بين أن يصدق أو لا يصدق ما ينقل إليه، والذي راقب

الأمور بكثير من الحرص والدقة، يشعر، لأول مرة، إنه لا يفهم السلطان، أو كيف يفسر تصرفاته.

قال لمهيوب، بعد أن انقضت أسابيع لم ير السلطان خلالها:

- التليفون، يا مهيوب، ما يغني ولا يسد مسدّ العين. العين هي اللي تاكل وتشرب، ومن بد ولازم اشوف طويل العمر.

- مشغول، هالحين، يا أبو جازي، وما يقدر يشوف أحد.

- بس مسائلنا ما تنتظر، الله يسلّمك.

- اللي نقدر عليه، أنا أنت، نسويه، واللي ما نقدر عليه خلّه، فإذا خلص شغل طويل العمر وتعافى، أنت أول من يشوفه.

ولناهي الفرحان، وهما يستعرضان المشاكل الكثيرة التي تراكمت خلال فترة احتجاب السلطان، قال وهو يبتسم:

- اسخنا الماء طار الديك...

وبعد قليل:

- كنا نريده يجي حتى نفضّ شغيلاتنا، وبعدها ننفض أيدينا، ونقول له: اعتقنا يا طويل العمر، فحنا من يوم ما خلق الله ناس دراويش، على باب الله، وهالحين يلزم نسعى في مناكب الأرض ندوّر رزقنا، وغيرنا آلاف أخير منا، يخدمونك، يا طويل العمر، ونمشي. لكن، مثل ما تشوف عينك، صار من أهل الكهف، وهذا الماخوذ، التليفون، بدل ما يفرّج عنا الهم صار لنا هم: ألو، سووا فلان شي، أعطوا، استعجلوا، ويسدّه. وما تعرف شهو اللي تقوله، ومع من!

قال ناهي:

- والملوك والسلاطين، يا أبو جازي، وأنت أعرف مني، ما يتأمنون، وما يتذكرون إلا اللي يريدونه، واللي ينفعهم. وحنا، الناس ضاربينا بحجر كبير. كل كلمة والثانية: «الله ربكم، ما أحد مثلكم، اللي تريدونه يصير، واقعين بالرز واللحم، تاكلون وتتسوكون، والناس ما تلقى خبز الشعير». ما يدرون أن كل لقمة سودا، وكل نظرة تحرق. وما عاجبين أحد، لا حنا

مع سيدي بخير ولا مع ستي بخير. الضرب فوق روسنا، وما يكفي، يلزم من حذر، وتعال احمل وتحمّل!

ابن العليان حاول أن يساعد الآخرين، أن يتحمل الأعباء نيابة عنهم. لكنه في داخله غير مقتنع، ولا يقوى على تغيير الأمور، لذلك وصل، في وقت مبكر، إلى معالجة مريحة: اتركهم يقولوا ما يريدون، واعمل ما تريد. هذه المعادلة وجدت كل تطبيقاتها في المرحلة الجديدة: فما دام السلطان يعيش في ظل تلك الهواجس التي فجرها البكيري، ولم يخلقها، وبعد تلك الجروح التي جعلته في حالة صحية أقرب إلى نفسية المرأة الحامل، التي تخاف من كل شيء، وباعتبار أن المال أصبح العصب الوحيد، بعد أن انتهت الحروب، لذلك يجب على الإنسان أن يكون ذكياً وماهراً، ولأن فرصة مثل هذه لن تتكرر مرة أخرى.

قال لابن البخيت ذات ليلة:

ـ . . . أريدك تسمعني زين يا عبد الله. . .

وعبد الله البخيت الذي تعوّد أن يسمع بين فترة وأخرى من نسيبه كلاماً غير عادي، أو أسئلة غير عادية، وكان يفاجأ، بعض الأحيان، كيف تخطر مثل هذه الأفكار أو الأسئلة له، أصبح لا يستغرب. بل أكثر من ذلك بدا له الأمر طريفاً، وكان في حالات كثيرة لا يتردد أن يقول له بمداعبة:

ـ والله لو كنا، أنا وأنت، بغير هذا المكان، وبغير هذا الوقت، لكنا حملنا ربابة ودشينا على العربان، أنا أغني وأنت تسولف، ومني عتابة ومنك سالفة عن الهند أو السند، وعشنا، وربي لك الحمد والشكر!

وبعد أن يضحك ابن العليان بصخب يرد:

ـ الله يخزيك، الواحد يشتهي يصير ملك أو وزير. ما اشتهيت لنا إلا نصير قرباط؟

ويضحك من جديد، وبعد قليل:

ـ قرباط وجواعا، ووين؟ عند هذول الظلاّم، البدو، اللي ما يعرفون ربهم. لا يا ابن أخي، أريد أوقف على تل من مال، والناس تجيني، وما أروح لأي بني آدم، أقول له: عطني مما عطاك الله!

الآن، وعثمان العليان يطلب من ابن البخيت أن يستمع إليه، قدّر أن في الأمر شيئاً غير عادي، قال وقد جمّع نفسه وتحفز:

ـ كلي، آذان، يا أبو عزيز...

وبعد أن هزّ ابن العليان رأسه عدة مرات، وكأنه متردد، قال له عبد الله:

ـ هات، يا محروس السلامة، وخلنا نشوف شنو هي بضاعتك اليوم!

ـ مية مرة، ألف مرة، قلت لك يا عبد الله: اليوم اللي يروح منك راح عليك. وإذا كنت قبل كم سنة زكرتي، والفلوس، مثل ما كنت تقول: وسخ دنيا، وما تسوى أن البني آدم يتعب حتى يحصلها، لأن كل واحد لاقي خبزته، فأريدك، من اليوم، تصير غير شكل، أريدك تأمّن روحك، تضم تحت وسادتك قرشين، لأن هذي دنيا، وغدارة، ومثل ما شافت عينك بالشهور الماضية، طويل العمر عنفص، وحتى أنا وأنت ما يريدنا، ولا يريد يشوف وجوهنا، وتذكر ما وصلناه بغدير الفارعة: اصفّر، وقال: شنهو اللي جابكم؟ ولما قلنا: الشوق، وما لنا غنى، انفرد، وقال: ابن الحال عند طاريه، ومن توّي اسولف عنكم للربع، وأقول: من بد ولازم نطرّش واحد من الخويا حتى تجوّنا.

توقف عثمان، وهو يهز رأسه بحزن، وبعد لحظات صمت طويلة، تابع بلهجة جديدة:

ـ وأنت أدرى بالسوالف التالية، يا عبد الله.

رد ابن البخيت بنزق:

ـ ما عرفت شنهو اللي تريد تقوله، يا أبو عزيز.

ـ تذكر شلون صار لما قلنا له: سفرة العوالي مالها لزوم، يا طويل العمر؟ وتذكر شلون تغير وتنكد لما قلنا كلمة والثانية عن مشرف البكيري؟

ـ اذكر، يا أبو عزيز، وبعدها؟

ـ أريد أقول لك، يا عبد الله، إن المال، بهذي الدنيا، كل شي. إذا معك قرش تسوى قرش، أما إذا كنت مفلس فما يناظرك أحد، ولا أحد يقول لك مرحبا يا ولد.

قال ابن البخيت بيأس وألم:

ـ المال ما هو كل شي بهذي الدنيا، يا أبو عزيز.

ـ لكن الدنيا بلّيا مال ما تسوى يا عبد الله. البني آدم ينذّل، يتعب. والناس تهرب منه. وهو، نفسه، يخجل ويهرب، وبعدها ما يدري يروح لمن أو شنهو اللي يسوّيه.

تنفس عبد الله البخيت من رئتيه، وصمت طويلاً، ثم قال بحزن:

ـ خلنا من هذي السالفة يا عمّ، لأن هذي السالفة، مثل أغنية الشيطان ما لها تالي.

ـ خليناها، وسولف أنت هالحين.

تلفت عبد الله البخيت أكثر من مرة، وكأنه يخاف أن يسمعه أحد، أو يحاول أن يكسب وقتاً، لكن حين لابت في رأسه، وتذكر أموراً كثيرة، احتقن وجهه فجأة، وقال بحدة:

ـ وأريدك تعرفني زين، يا أبو عزيز...

شعر عثمان العليان، من الصمت، من اللهجة، ثم احتقان الوجه، أن عبد الله البخيت سيقول كلاماً خطيراً. ولكي يقطع الطريق عليه، ابتسم، لكن ابن البخيت تابع:

ـ إذا جيتك محتاج، يوم من الأيام، يا أبو عزيز، إذا قلت لك عطني، فكل ما أريده أن تقول: الله يعطيك. وإذا متّ، وأولادي احتاجوا، فأنت خلك بعيد، لا من شاف ولا من سمع.

ضحك عثمان بصخب ليمتص هذا الاحتقانِ، ولكي يعيد الحديث إلى مجراه، وبعد فترة صمت، قال:

ـ الله منك يا عبد الله، نفسك حامضة، وكل شي تحسبه عليك...

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ اللي أريده لك، يا أبو بادي، فوق اللي تتصوره. أريدك تتحرر حتى من السلطان. عندك قريشاتك وتقدر تروح للمكان اللي تريده، وإذا رحت ما تخاف وما تحسب؛ أما هالحين فأشوفك مربوط، وطويل العمر إذا زعل

أو رضي تصير فوق الريح أو تنزل أسفل السافلين.

ولم تنته المناقشة بين الاثنين، لكن تركتْ الأسئلة والقلق!

خزعل الذي عاد مع أبيه إلى موران، وكان بادي النشاط والمرح، رغم الجروح التي أصابته في كتفه الأيمن، وفوق الساعد، وفي راحة يده اليسار، وقد ظلت اليد مربوطة لعدة أسابيع، لأن نزاً أصاب الجرح، وجعله متقيحاً فترة طويلة، وقيل ان رأفت شيخ الصاغة أخطأ أو أهمل في تضميده، وفي فترة لاحقة أصبح الجرح رمزاً يفاخر به كعنوان لبسالته؛ استطاع خزعل أن يفرض وجوده وهيبته على القصر، سواء في استقبال الوفود، أو في تثبيت صيغة جديدة، ومختلفة للقصر عن السابق، أثناء غياب السلطان. ورغم محاولاته أن يكون ودوداً مع أخوته، بمن فيهم راكان، إلا أن الاستجابة، من راكان بالذات، أو الذين كانوا إلى جانبه، بدت محدودة، بل وأخذت في بعض الحالات، مظاهر العداء والتحدي، خاصة أثناء إعادة تنظيم مخازن الأسلحة واسطبل الخيول.

ورغم الكثير من الود الذي ميز تصرفات خزعل، وقيامه بكل الواجبات، بما في ذلك زيارة المسنين في العائلة، وتقديم الهدايا، والسؤال عن النساء، فإن العداء الذي قوبل به لم يكن يخفى.

قالت تهاني لثلاث من نساء السلطان، جئن لزيارة الشيخة، قبل أن تدخل عليهن الشيخة:

ـ الحمد لله، خلصنا من راكان وأمه. . .

وبعد قليل:

ـ وخزعل، الله يسلمه، ما مثله.

أما الشيخة، فقد كانت أوضح:

ـ . . . ويا بعد عيني خزعل: قوي وقلبه جَسر. ما جا الأول إلا ورماه؛ ولما جا الثاني لطمه ودفره؛ ولما جا الثالث، وغدْر، ومن وراه، ما شافه، فطعنه أول طعنة، وطعنه الثانية، لكن أبد، ما قال: آخ. وظل يضرب بيده اليمنى ويحمي أبوه باليسار. ولولا أنه خشن، وقوته، الله

يسلمه، مثل الجمل، وإلا راح وراح معه طويل العمر. تحمل، صبر، والجرح، وهو حامي، ما يحس به البني آدم. بس الله نجاه. الملائكة حمته، كانت تتلقى عنه خناجرهم وسمومهم. كانت الخناجر مسمومة، يا جماعة الخير، لكن الله هو الحامي.

ونساء السلطان اللواتي يسمعن هذه التفاصيل، كانت تتقلص وجوههن، وتنقبض أجسادهن، وتصدر عنهن أصوات صغيرة، هي بين اللذة والخوف، وكأنهن يشهدن الخناجر وهي تهوي مرة أخرى من جديد.

قالت الشيخة، لكي تختم هذا المشهد، ولكي تعرف الجديد الذي يجري في قصر الروض:

ـ أولاد الحرام كثر. وهذه السالفة تنذكر وما تنعاد. . .

وابتسمت ابتسامة واسعة، وهي تمرر أصابعها حول فمها، وتسأل:

ـ يا الله. . . صارت تواريخ وأمثال؛ وأنتن، إنشاء الله ما وراكن خلاف، بعدما راح اللي تحكمه مرية؟

قالت سكينة، وهي تنظر، بسرعة:

ـ ما دمت أنت بخير، يا أمي زهوة، حنا بخير، وما دام طويل العمر سالم ودايم، وفوق روسنا، الدنيا بألف خير.

قالت أمي زهوة بثقة:

ـ وكلّن الله، يا جماعة الخير، فأبو منصور خيّال الشقرا، وخيّال الكحلة. . .

وغصّت بالكلمة الأخيرة، وبدا أنها أخطأت، قالت بحدة:

ـ كانت الكحلة، عند طويل العمر، تسوى الدنيا، لكن ابن فضة، الأرعن، كيس الشحم، تصور نفسه رجّال، وبدل ما يحطها بعينه، لأنها فرس أبوه، واللي لها الفضل في الحويزة والعوالي، كدّشها، وبعدين قتلها، لكن لكل ظالم يوم. . .

قالت تهاني، بانفعال، وليس من عادتها أن تتكلم:

ـ لكن مثل ما قالوا، يا عمتي: غاب البس العب يا فار.

قال فنر:

ـ أهل العوالي أخبث من الحيات، سوالفهم زينة لكن أفعالهم شينة، وأبد ما يتأمنون...

قال ذلك لثروت، وقد عاد لتوه من عين دامة، حيث ودع أباه هناك. كان متعباً، بادي الشحوب، وكان منفعلاً أيضاً. وفي مثل هذه الحالات، فإن دواء هاملتون وحده يجعله في حالة أفضل. بعد أن تناول جرعات، قال بمرح:

ـ ومن اليوم يلزم أن الواحد يكون معهم ألعن من إبليس، يضحك بوجوههم، يقول لهم: ما يخالف، بس ما يسوى إلا اللي بباله.

قالت ثروت بحنان:

ـ كنت خايفة، وكنت أريدك تكون قريب!

ـ كنت أريد أصل معه إلى موران، لكن أبد، رفض، قال: حدك عين دامة وترجع، ورجعت.

ضحكت بفرح، اقتربت منه، قالت بهمس:

ـ ومن اليوم لازم تحرص، وتدير بالك زين، لأن أولاد الحرام ما يتركون أحد يرتاح!

هز رأسه، نظر بتحديد، لكن لم يكن يرى ما حوله، كان يفكر بما يجب أن يفعله. لأول مرة يحس أنه أهين، فكل ما افترضه ذكاء وقدرة على السيطرة، تكشّف، في لحظة، عن هشاشة كادت تهدم ما بني خلال سنوات طويلة. ليس ذلك فقط، كان أبوه، خلافاً لفترات سابقة، صامتاً، أقرب إلى التحفظ. حتى طريقة الطلب إليه أن يبقى في العوالي، وألا يرافقه إلى موران، بدت جافة، وتشبه الرفض. نظر إلى القلعة، حين كان يكلمه، وقال:

ـ بعد ورانا سوالف كثيرة، يا فنر، ويلزم نفتح قلوبنا قبل عيونا.

وتمثلت له صورة خزعل: لأول مرة يراه واثقاً هكذا. وكان أبوه ينظر إليه بمحبة أقرب إلى الإعجاب. استرق النظر عدة مرات، وفي كل المرات

كان أبوه يتابع خزعل، يتملاه. الصدفة وحدها جعلت خزعل قريباً منه، وبالتالي لأن يبذل كل قوته من أجل حماية نفسه وحماية أبيه. وما ذنبه إذا كان ضعيفاً هكذا؟ إنه لم يختر هذا الجسد، لقد ورثه كله، فإذا كان خزعل قد ورث جسده من أبيه، وجزءاً من أخواله، فليس ذنبه أن يرث جسده هو من أخواله وخدهم. إنهم أقرب إلى الضمور، لأنهم بذروا حياتهم من أجل إقناع الناس، لحملهم على أن يكونوا شيئاً مختلفاً. لم يعرفوا الراحة يوماً واحداً، ولا عرفوا الاستقرار. ولذلك أكلت الصحراء أرجلهم وهم يركضون، لم يكونوا مثل غيرهم، كان لديهم هم يعذبهم، وهذا ما جعل أجسادهم تضمر، مقابل تفتح عقولهم ونموها.

وامتلأ بمشاعر متناقضة، هي مزيج من الفخر والحقد. كان يتمنى لو أنه ورث من أبيه جزءاً من هذه القوة. وتساءل ماذا لو أنه كان الأقرب إلى أبيه، أو لو كان بدل خزعل؟ هل يستطيع أن يرد القتلة؟ أن يمنعهم من إتمام جريمتهم؟ وألا يكون هو الضحية الأولى قبل أبيه؟

قالت ثروت، وهي تستعيده من المكان البعيد:

ـ أمي تقول أن الأطفال والحكام تحميهم الملائكة، ولولا ذلك لما بقي طفل سليماً أو حاكم حياً. قلت لها: الملائكة تحمي الأطفال، أما الحكام فيجب أن يعرفوا كيف يحمون أنفسهم!

ضحك، وقال بمداعبة:

ـ أنت وأمك تعرفن كل شيء!

ـ لا. صحيح، يجب أن يكون الحاكم في هذه البلاد غير ما هو عليه الآن.

نظر إليها بود، سأل والابتسامة تملأ وجهه:

ـ شلون يلزم يكون؟

ـ لا أدري، ولكن طريقتكم غير معقولة.

فتح عينيه جيداً، تابعت بحدة:

ـ بيوتكم مفتوحة، والناس تدخل وتخرج، وكأنها داخلة إلى بيوتها،

وأنتم بين الناس دون حساب، ودون حراسة.

وكادت تسترسل، لولا أنه هز يده بطريقة أصبحت تعرف معناها، وبعد قليل قال كأنه يخاطب نفسه:

ـ وكلي الله يا بنت الحلال، وما يصير إلا اللي كاتبه الله.

موضي كانت «المشرفة» الطبية طوال الفترة التي قضاها السلطان في العوالي. إلى ما قبل هذه الحادثة، لم تتصور نفسها أنها قادرة على رؤية دم ينزف، أو إنسان يتألم. بل أكثر من ذلك كانت تصاب بالغثيان، وتمتنع عن الأكل، إذا صدف أن عرفت بوفاة أحد تعرفه. وكان معظم الذين حولها يعرفون هذه الصفة فيها. أما بعد محاولة الاغتيال، فقد أصبحت امرأة أخرى. إذا تركت غرفة أبيها في القصر، فإلى الغرفة المجاورة، لأن أحداً من الرجال جاء. والسلطان الذي لاطفها كثيراً، اكتشف أنه يحبها أكثر من بنات أخريات له، وأنه يريدها أن تكون قريبة. أما حين طلب منها أن ترافقه إلى موران، لكي تواصل العناية به، فقد قالت، وخرجت كلماتها متلعثمة:

ـ أرافقك لأي مكان تريده، بس ما أريد أزعّل فنر!

رد وهو يقهقه:

ـ خلي فنر عليّ.

ولم يستأذن السلطان فنر، قال يبلغه:

ـ موضي رايحة معانا!

سأل فنر بخوف، إذ خشي أنها قد تتزوج، وأن أباه وعد أحداً:

ـ وسفرتها، طال عمرك، طويلة؟

وضحك السلطان، وترك الأمر غامضاً، حين قال:

ـ إذا ملّتنا أو ملت موران، نلقى لها مكان ثاني!

وسافرت موضي إلى موران.

قال هاملتون بعد أسابيع من سفر السلطان:

ـ . . . وذكرت للسلطان، أكثر من مرة، أن اتخاذ الاحتياطات ضروري، خاصة في بلد تعود الناس ألا يشعروا بفرق بينهم وبين الحاكم.

لقد صلى جلالته في الجامع نفسه ثلاثة أيام متوالية، وكان رأي ألا تصبح الصلاة أو أي شيء غيرها عادة أبداً، سواء في المكان أو الوقت. وقلت له: إن الحراسة ضرورية، خاصة في الأماكن التي يدخلها الناس دون استئذان. غضب جلالته، وقال: وتريدنا نحطّ الحراسة على بيوت الله؟

وابتسم هاملتون، وكأنه كان يتوقع ما حصل:

ـ بعد المحاولة ذكّرته، قلت له: لقد صحّت مخاوفي. رد: الله، سبحانه وتعالى، كاتب كل شيء باللوح المحفوظ، والإنسان، مهما حرص، ما يعرف تجيه منين. قلت له: ولكن الرسول، عليه الصلاة والسلام قال: اعقلها وتوكل، وهذا معناه أن يحتاط الإنسان، أنه ينتبه، لكن...

وفي مذكراته كتب هاملتون: «البدائية حالة متكاملة، ولا يمكن أن تتجزأ. وهذه الصفة تنطبق على الصغير والكبير، الحاكم والمحكوم. السلطان يعتبر الحديث مع الناس، أياً كانوا، ومهما قضى معهم الوقت، الصيغة التي تجعله قريباً ومحبوباً. بل ويبالغ، في أحيان كثيرة، فيقضي الساعات الطويلة مع أناس عاديين تماماً، يسأل عن المطر، وعن الأماكن، ويتوقف، ويستعيد، وهؤلاء البدو إذا كانوا ماهرين بشيء فإن يتكلموا الساعات الطوال دون أن يعنوا شيئاً، ودون أن يقولوا فكرة هامة. إن الزمن بالنسبة لهم يشبه الصحراء، ويشبه الريح، ولذلك تراهم، أغلب الأحيان، يتأملون أو يكررون ما سمعوه، وهم بذلك يشبهون ذرات الرمل أو هبات الهواء.

أما محاولة الاغتيال فإنها إنذار خطير. لا تزال الأحقاد تملأ الصدور، ولا يزال الناس قادرين على تذكر الأشياء التي تزعجهم، وقادرين أيضاً على الانتقام. طبيعي كل ذلك يجري بأسلوب بدائي أيضاً، وإلا، لماذا لم يحاول القتلة، استعمال السلاح المتطور بدل اللجوء إلى هذه الوسيلة البدائية؟

قالوا لي، في تفسير هذه الظاهرة، أن البدو، رغم محبتهم للسلاح، فإنهم يعتبرون السكين، أو ما يشبهها من الأدوات، الوسيلة الأفضل

للانتقام. يحس الواحد وهو يغرز السكين في صدر عدوه أنه ينتقم فعلاً، إذ يقبض على الضحية، ويتفنن في إنهاء الحياة، كعلامة للنشوة والامتلاء. أما من بعيد، فإنهم إذا اعترفوا، فيعزون الأمر للمهارة، أكثر مما هو للقوة أو الشجاعة. ويبدو لي أن هذا ما دفع الذين قاموا بالمحاولة لاستعمال هذه الوسيلة. وفي ذلك دليل على عمق الكراهية، ورغبة الثأر الحقيقية، واستعداد للموت من أجل ذلك!

إن قوة الجسد، في أحيان كثيرة ميزة في هذه البلاد. لأول مرة أشعر أن فنر يخجل بجسده. ولأول مرة يبدو لي خزعل قادراً على أن يكون اكثر من مجرد وعاء للجنس أو الأكل. ذكروا لي أنه كان يهزج ويده مرفوعة ومليئة بالدماء!

إن الشعوب البدائية جديرة بالدراسة، لأنها لا تعكس الصفات الأولى، وربما الأساسية، في الإنسان فقط، وإنما تحدد أيضاً نمطاً من العلاقات والصيغ أصبحنا نجهلها، لأننا ابتعدنا عنها كثيراً، ومن هنا ضرورة أن ينخرط الإنسان في هذا المجتمع أكثر فأكثر من أجل أن يصل إلى أعماقه، وأن يفهمه بدقة، لكي يتوقع ويستنتج ما يمكن أن يتمخض عنه».

عادت موضي بعد أن قضت ثلاثة شهور في موران. قالت لفنر إن أباها شفي، وأنه ينوي أن يتزوج من جديد، وقالت إن خزعل في الحويزة، كما أشارت إلى أن أباها لا يكف عن ذكره وامتداحه، ويبعث إليه بتحياته الحارة وأشواقه الكثيرة.

وحين سألها من جديد وبإلحاح عن صحته وجرحه، أجابت من بين الدموع التي سقطت فجأة:

ـ يعجب وما يعجب، يوم زين ويوم ما هو زين، وما أدري.

وساد الصمت، وبدأ فنر بالتفكير!

محاولة اغتيال السلطان، التي شغلت الكثيرين، وكانت حديث الناس في الأسواق والمضافات، وسبباً لتساؤلات لا نهاية لها، ما لبثت أن تراجعت، أو تباعد الحديث عنها، خاصة بعد أن احتجب السلطان ولم تعد تسمع أخباره.

شمران العتيبي، الذي رجع من الزرنوق لم يكتف بالأخبار التي وصلت إلى سوق الحلال عن المحاولة، ذهب إلى الكثيرين، بمن فيهم عدد من خدم القصر وحراسه، وسألهم، قارن بين الروايات فداخله القلق والشك. أما حين غاب السلطان، وقال صالح الرشدان «رجعت حليمة لعادتها القديمة»، فقد رد عليه شمران بحدة:

ـ اسكت يا معوّد، لأن غيبته هذه المرة أكبر من عرس وأكثر من حصرة صدر.

وحين تطلعت إليه العيون بتساؤل، هز رأسه وخفّض صوته:

ـ مخوطرة يا جماعة الخير، لأنه حتى ابن البخيت نشف ريقه يريد يقابله... وأبد، لا أي ولا لا، وهذا أنا سامعه منه.

ـ وبعد يا أبو نمر؟

ـ إذ بعده حيّ وعدل نسمع أخباره، وإذا لا نسمع خبره.

ـ وإلى ذاك الوقت نضرب أخماس بأسداس يا أبو نمر؟

هكذا سأل مغامس الحصيني، فرد صالح الرشدان، وهو ينهض ليواصل حذو حمار:

ـ يلزمنا نبيّت خيرة، أو نطرّش الحريمات ينشدن جماعة القصر، وإذا ما فاد لا هذا ولا ذاك، فما لنا ألا نحذي خيلنا زين، لأن ورانا مشي ليل.

قال شمران بثقة، وهو يحرك رأسه، وكأنه يشير نحو القصر:

ـ الأخبار الزينة بهذي الأيام تنضمّ يا صالح، والشينة ما أحد يقدر يضمّها، فسدّ خشمك أحسن ما تذبحك رياح مغرّب!

وانشغل الناس، من جديد، بتدبير أمورهم، ولم يحفلوا كثيراً بالخصومة الجديدة التي دبت فجأة بين العجرمي وابن شاهين، ومعها القصص والنكات تنتقل بين حي سبيع والقلعة. وإذا كانت العادة في خصومات مشابهة ألا يكون السلطان بعيداً، وقيل انه كان يحرّض عليها، من خلال الاستفسار والأسئلة، وبعض الأحيان بتعليقات ساخرة، فإذا وصلت حد الخطر، أو طغت على ما عداها من القضايا والأخبار، فلا بد أن يتدخل، عن طريق رجاله ورسله أول الأمر، ثم بالهدايا، حتى إذا أوشك الاثنان على الرضا، يدعوهما إلى وليمة ويدعو إليها الكثيرين، وفي هذه الوليمة يتصالح الرجلان ويتعانقان، تحت أنظار الجميع، ووسط كلمات الإشادة والثناء، ويكون السلطان، دائماً، القمر الذي يسطع ويضيء، وموضع التقدير.

هذه المرة، حين دبت الخصومة، وتجاوزت ما كان مقدراً لها، وتوقع الذين يعرفون أن يظهر السلطان ويضع حداً لها، أخذت توقعات شمران تجد ما يؤيدها، فالأخبار التي تسربت عن طريق الخدم، أو عادت بها النسوة، رغم غموضها وتناقضها، بدأت تنتشر وتولد الخوف. وحين تساءل مغامس الحصيني في سوق الحلال عن أخبار العجرمي وابن شاهين، أيهما المصيب وأيهما المخطئ، وما إذا سيتدخل السلطان، فقد رد شمران بسخرية:

ـ طوشة خرسان وعزيمة عميان، يا ابن الحلال. أما من هو أحسن من الثاني فالكلب أخو السلوقي، فلا تدوخ روحك يا مغامس، ولا تقرب بلشتهم!

ـ والعود يا أبو نمر؟

ـ العود إذا عاد راح يخرب البلاد ويفني العباد!

وأشار شمران للذين حوله أن يقتربوا أكثر، وأخذ يروي، بغموض، ما سمعه عن حالة السلطان:

ـ . . . وقالوا: يسهر الليل بطوله، ما تغمض له عين، ويدربس البيبان بيده، وما يريد يشوف أحد، وإذا سمع حركة أو صوت عمّر سلاحه وصاح ذاك الصوت: قف. ويقول غيرهم: من يوم ما نصاب مسدوح، وبين الموت والحياة، واللي شافوه يقولون ما منه أمل، إذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، وما يندري!

بالإضافة إلى هذه الأخبار عادت النسوة بأخبار من نوع آخر: «بعد يوم الغدر تاهت عليه، ما يعرف حريمه من حريم غيره، وكل ليلة، من بد ولازم، زواج جديد، بنت بكر، بعمر بنات أولاده، يقصّ ويمشي، وهاتوا غيرها، وما ينعرف سوالف صدق أو سوالف عدى وحاسدين».

وحين تُسمع في السوق العتيق مثل هذه الأخبار يصيح حائك مسن:

ـ ما لنا إلا شيخنا، العدوي، فهو يقول: «وإن أُخذ قضيب الذئب بحيث لا تراه الشمس، بل يكون ذلك قبل طلوعها أو بعد غروبها ثم جفف في الظل وسحق وشرب منه فإنه يذهب شهوة الجماع» «وإذا أَخذتَ من شجرة مريم وسحقتها وعجنتها بماء النعنع وجبّتها مثل دانق وسقيت منها حبة انقطعت الشهوة لسنة وحبتين لسنتين».

رد عليه حائك في مثل سنه:

ـ اسقيه مية حبة، خلنا نخلص منه!

قال بائع البسط الذي يتعامل معهما:

ـ أو ندوّر على شهرزاد عساها تخلصنا من هذا الغضب!

انتهت الخصومة بين العجرمي وابن شاهين، أو على الأقل علقت لفترة، لما توفي أحد أولاد ابن شاهين. مات فجأة، فتوقفت الشتائم والنكات، ولم ينتظر العجرمي، بادر بحمية، لفتت نظر الكثيرين، بزيارة دار المتوفى أولاً، ثم في الصلاة على الميت وتلقينه، وأخيراً بالوقوف إلى جانب غريمه والناس يعزونه. وفي اليوم التالي، قبل غروب الشمس

بقليل، شوهد، وكان إلى جانبه، ناحية اليسار، في السيارة السوداء، معتمدي، يغادر موران باتجاه العوالي. وبعد أكثر من أسبوع عُرف أنه سافر إلى عين دامة.

قبل أن ينقضي شهر على سفر العجرمي بدأت تخرج من قصر الروض أخبار مقلقة، لكنها أكثر وضوحاً.

قال مهيوب لعرفان الهجرس:

ـ اللي أصعب من الموت، يا عرفان: خوف الموت.

وتغيرت لهجته تماماً، بدا وكأنه يحدّث نفسه:

ـ . . . الشي اللي يدوخني ويحيرني: إني من يوم ما عرفته، قبل عشرين ثلاثين سنة، وبمعاركنا كلها، بالحويزة والجمرة، بالرحيبة والعوالي، وقبلها وبعدها، ما هجست يوم من الأيام أنه يهاب الموت، وكان الموت أقرب له من حبل الوريد. ما هو بس كذا، كم مرة تعرّض للذبح، للاغتيال؛ كم مرة انجرح، وكم مرة قلنا خلص، لكن أبد، ينفض الموت وهو ينفض عباته، ويقول: يا الله يا جماعة الخير. . .

توقف. هز رأسه عدة مرات. صفن، وبعد وقت غير قصير:

ـ والجرح اللي صابه، يا عرفان، ما يبيّن هالحين، لكن الظاهر أنه غار بالقلب، وهناك يدبي، وظني أنه ما له منه شفا.

كتب رأفت شيخ الصاغة في مذكراته ما يلي:

ـ «. . . البناء القديم، الذي كان يبدو قوياً راسخاً، أخذ يتصدع، ولن يطول به الأمر، كما أقدر، إلا وينهار. لقد كان مثل الصخرة الكبيرة يسندها حجر صغير، فلما أزيح هذا الحجر اهتزت ولا تلبث أن تتهاوى، هكذا هو وضع السلطان الآن. فالثقة التي كانت تملؤه طوال السنوات السابقة، أصبحت شكاً قاتلاً، والشجاعة التي كانت تفيض منه على كل من حوله، ويعرفها خصومه، تحولت إلى حذر أقرب إلى الخوف. أما مظاهر القوة والجبروت، وكان يدلّ بهما على أعدائه وأصدقائه معاً، فإنها الآن تثير الحزن والرثاء.

«ما أرجّحه أن الإصابة ليس من شأنها أن تؤدي إلى هذه النتائج

والمضاعفات. صحيح أنه لم يلتزم التعليمات بدقة، وامتنع، خلال فترة، عن تناول أدوية الالتهابات، مما أدى إلى تقيح الجرح مرة وثانية، لكن الأكثر أهمية من الإصابة، أن هذا الجسد المكابر، والذي يبدو قوياً، في الظاهر، كان مليئاً بالأمراض المزمنة، وبعضها وراثي، مثل العقد السلّية في الكليتين وفي الرقبة، وقد أخذت تتحرك بسرعة الآن، وربما يكون لها مضاعفات، قد تظهر خلال فترة غير بعيدة.

«مع ذلك، وبالرغم من عناده، ورفضه للأدوية، مثل أي بدوي جاهل، وعدم تقيده بالنظام الغذائي الملائم، إضافة إلى إرهاق جسدنه بالممارسة الجنسية، لا بد من عمل شيء من أجل وقف التدهور، حتى لو اقتضى الأمر إرغامه على دخول المستشفى».

وقصر الروض، بعد الخوف والصمت اللذين استمرا شهوراً عديدة، أخذ يتململ. بدأت المناوشات بينه وبين القصور الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، في موران وما جاورها، والتي تسكنها، في الغالب، الزوجات الجديدات. ومناوشات أخرى بدأت أيضاً بين هذه القصور مجتمعة وقصر الغدير. صحيح أن خزعل يبدو ودوداً متواضعاً، ولا يكاد يفارق قصر الروض، وأصبح، خلافاً لفترات سابقة، لا يسافر، أو لا تطول سفراته إذا اضطر للسفر، إلا أن ما يدور داخل هذه القصور، وما ينتقل إلى موران من الأخبار والإشاعات، جعل الكثيرين في حالة من الترقب والخوف.

قال عبد الله البخيت لطالع العريفان الذي جاءه راجياً أن يعمل شيئاً لكي يحمل السلطان على وضع حد لخصومات النساء:

ـ وتكتب معروض، يا أبو جازي، وتوقعه وتندندشه بالأختام الحمرا والخضرا ولا تنسى الزرقا، وتبيّته تحت السما ليلة والثانية، وباليوم الثالث تنقعه وتشرب مياه، وبعدها يصير خير: أما يقابلنا السلطان أو نقابله، وإذا لا هذا ولا ذاك، ندوّر على مشرف البكيري عسى أن يفتح لنا على الجنة باب.

وحين بدا الضيق على طالع العريفان من هذه السخرية، قال ابن البخيت بيأس:

ـ يا طالع، وأنت أدرى الناس، طلعت أرواحنا وحنا ندقّ بابه، لكن لا حياة لمن تنادي.

ـ والحلّ يا أبو بادي؟

ـ لا أمر لمن لا يطاع...

وبعد قليل:

ـ تسودن يا أبو جازي، وفوقها الفزع والمرض وما تدري بعد شنهو، وما دمت صبرت كل هذي الشهور، فبعد اصبر، وعسى الله أن يفرجها، وتنتهي على خير!

ـ ما أظن يا أبو بادي، لأن المكتوب يبيّن من عنوانه، ولأن السودا هذي النوبة غير عن كل نوبة.

ومثلما غاب السلطان غابت بعض نسوة القصر. قيل: فضة عند أهلها، وكذلك العنود. ولم يعرف ما إذا سافرن نتيجة غضب السلطان عليهما أم لأسباب أخرى. وقيل إن فضة لم تفارق قصر الروض ليلة واحدة، وبالغت واحدة من خادماتها، وردت عندما سئلت: «ستي أبد ما تركت حجرة السلطان»، وضحكت! أما أمي زهوة فهي الغائبة الحاضرة أبداً. تغيب أياماً، تمتد لأسابيع، ولا يعرف إن كانت موجودة أم مسافرة، لأنها في كل المرات تترك ما يدل على وجودها بشكل أو آخر. فإذا لم يبق سرور، فلا بد أن تبقى تهاني، وحين يغيب الاثنان وتغيب، فحسيبة البصرية، التي تصنع القهوة والشاي لأمي زهوة، لا بد أن تدور في قصر الروض، متعمدة أن يراها الكثيرون، ولا ترضى بأية دعوة توجه إليها للبقاء، أو لإطالة الجلوس في مكان، «لأن الشيخة إذا ما طلبت الشاي هالحين لا بد تريد القهوة» وتسرع في سيرها، أو تنهض باستعجاب، لئلا تتأخر وتعرّض نفسها لغضب الشيخة! وحول حضور الشيخة أو غيابها يمتلئ قصر الروض بالهمس عن البخور الذي أمرت بإشعاله، أو أشعلته بنفسها، مع الأدعية بأصوات عالية، ترددها نساء سوداوات، والتي ملأت القصر كله، وأخذ هذا يتكرر مرتين، على الأقل، كل أسبوع، ليلة الاثنين وليلة الجمعة. وأكد عدد من الحرس والخدم أن الشيخة كانت تحرص

على دعوة عدد من الفقراء مطلع كل شهر، وأكد غيرهم أن هؤلاء ليسوا فقراء، أو لم يدعوا لأنهم فقراء، وإنما لمعرفتهم بالسحر والتنجيم، إذ حالما يفرغون من الأكل، تبدأ الطبول والابتهالات وإلقاء الملح والبخور في النار، وقيل إنهم في الليل المتأخر يدورون سبع مرات حول القسم الأوسط من القصر، حيث يقيم السلطان، حاملين أكياساً من الملح، وربما أشياء أخرى، ينثرونه في الزوايا بعد أن يقرأوا عليه.

المرات القليلة التي شاهد الكثيرون أمي زهوة تنتقل من مكان إلى آخر، كانت مسرعة، وكانت ساهمة أقرب إلى الحزن، وربما هذا ما دعاها لعدم الرد على التحيات التي كانت توجه إليها، وقيل لأنها تكون صائمة عن الكلام، فقد نذرت ألا تكلم أحداً قبل أن يشفى أبو منصور!

وأبناء السلطان يتحركون، لكنهم، هذه الفترة، مع أقربائهم لأمهاتهم أغلب الأحيان، متجنبين زيارة بعضهم، وإذا اضطروا للزيارة، فإنها تتم ضمن حشد من المرافقين والحرس، ولا تدوم طويلاً، كما تخلو من أي ود، وكأنها استعراض للقوة والأهمية، إضافة إلى عدم الرغبة في أي حديث طويل أو جدي، لئلا تشي الكلمات بما وراءها من مواقف ونوايا.

قال ابن العليان لعبد الله البخيت، بعد زيارة قصيرة للسلطان:

ـ أبد ما يعجب يا أبو بادي...

صمت قليلاً، وكأنه يستعيد صورته، ثم تابع:

ـ أفكاره تايهة وعيونه شايحة، وضيّع الأول والتالي...

ضحك بحزن وأضاف:

ـ قلت لروحي إذا قعدنا وتواجهنا لا بد تنحلّ المشاكل، لكن تعيش، طلعت لنا هالحين مشاكل جديدة.

ـ خير يا أبو عزيز؟

ـ «تدزون على منجمي المشرق والمغرب، على منجمي الهند والسند، تجمعوهم هنا، بموران، يوم، اثنين، أسبوع أسبوعين، وأريد جواب على سؤال واحد: أموت موت الله أو بيد العبد؟ متى؟

يزفر ألماً ويضيف:

ـ وكل ما أريد اطمنه وأغيّر الموضوع، يرجع من جديد: «يا عباد الله سويت لهم اللي ما يتسوى، اللي ما يسويه بشر، وبعدها يريدون يذبحوني؟ يريدون أموت موتة كلب؟ لكن يخسون، أنا ما أحد يقدر عليّ، وما أموت» ومن جديد نطيب خاطره، نطمنه، لكن أبد ما يفيد: «أنا أعرف كل شي يا ابن العليان، وقبل ما أذبحهم، وقبل ما يذبحوني، أريد أتأكد» ولم يترك أحداً من أولاده أو أهله إلا وسماه، واعتبره غريماً. لو أخذت وأعطيت معاه يجوز اعتبرني أريد أذبحه، وبعدها ما تدري شنهو يطلع منه!

ظل القلق والتساؤلات، ثم الخوف، هكذا، بضعة شهور. الناس الذين انشغلوا بأخبار قصر الروض والسلطان، وبتحركات أبنائه ونسائه، أو بخصوماتهم، ولأن لا جديد هام وكبير، فقد ملّوا. تراجعت أسئلتهم، ثم مخاوفهم، إلى أن نسوا أو تناسوا. حتى شمران الذي اهتمّ وتوقع ما لبث أن تراخى إلى أن نسي الأمر تماماً. قال لمغامس الحصيني حين جاء يسأله عن صحة السلطان:

ـ لا حي فيرجى ولا ميت فينسى!

ـ وقريشاتنا، يا أبو نمر؟

ـ الداخل مفقود، والخارج مولود!

ـ ولكن الحي يلزمه يدفع يا شمران، والميت، قبل القسمة، تتوفى ديونه.

ـ سل ابن شيخ الصاغة إن كان بعده حي، أو سل العجرمي إن كان صلى عليه.

ـ يعني خيلنا راحت وقريشاتنا ماتت يا أبو نمر؟

ـ هذا ابن عليان، هو أمين الصندوق، هو اللي يقبض واللي يدفع.

ـ قال لي: المعاملة خالصة، بس ورقة من يد طويل العمر، وحنا جاهزين!

ـ دوّر أهلك يا ابن الحلال، غب شهر اثنين، وبعدها تعال، عساه

يكون انصمد أو انلحد، عندها يجوز تحصّل فلوسك، لأن الخيل راحت عليك.

هذا الاهتمام الذي كان يبديه مغامس الحصيني، لأنه باع ثلاثة رؤوس من الخيل إلى القصر، ووعد أن يسدّد له ثمنها بعد عودة السلطان في العوالي، أما بعد محاولة الاغتيال، وبعد ما جرى، فلم يجرو أحد على إعادة الخيل أو دفع ثمنها، وهكذا ظل الأمر معلقاً.

ظل الأمر معلقاً بضعة شهور، إلى أن جاء فجأة هاملتون.

ما كانت زيارة هاملتون إلى موران لتلفت النظر، أو لتثير كل هذا الاهتمام، لولا النتائج والأحداث التي أعقبتها. صحيح أن الزيارة كانت قصيرة جداً، إذ لم تتجاوز ليلة وجزءاً يسيراً من اليوم التالي، ولم يرافقها احتفال أو ضجة، كما لم تتسرب عنها أخبار هامة، لكن، مع ذلك، لم يبق أحد، تقريباً، في موران، ثم في أنحاء عديدة من السلطنة، إلا وعرف أو سمع بها، خلافاً لزياراته الكثيرة الي سبقتها، وتلك التي أعقبتها أيضاً.

إذ ما كاد هاملتون يصل قصر الروض، وقد وصل عند الغروب، أو قبله بقليل، في يوم دافئ من أيام الربيع المبكرة، وكان مرهقاً بادي التعب، ولا تخلو ملابسه من بقايا الغبار، وبعد فترة استراحة قصيرة في غرفة عرفان الهجرس، حتى تراهن عدد من موظفي القصر: هل يستقبله جلالة السلطان أم لا؟ الذين قالوا نعم، وكسبوا الرهان، اعتمدوا على العلاقة التي تربط بين الرجلين، ولم يخطر ببالهم، أو لم يفترضوا أن الزيارة تمت اعتماداً على اتصالات سبقتها. أما الذين كانوا متأكدين أنه لن يُستقبل، فقد قاسوا الأمر على ما رأوه من عزلة السلطان، ورفضه بإصرار لقاء أحد.

لمداراة الخطأ، برر الذين لم يتوقعوا استقباله «أنه من غير اللائق، وغير الجائز، بعد أن قطع الرجل ما يزيد على الألف كليومتر، أن يعود هكذا» ثم أضافوا بصراحة بلغت درجة الوثوق الكامل «زيارة مجاملة ولن تطول». أما حين طالت وامتدت إلى ساعة متأخرة من الليل، وتخللها العشاء أيضاً، فقد أصبحوا على يقين «أن الرجل يحمل أخباراً هامة» ومما رجح هذا الاحتمال، إلى أن أصبح حقيقة مؤكدة، استدعاء مهيوب، ثم

عرفان الهجرس، وأخيراً رأفت شيخ الصاغة. صحيح أن أياً منهم لم يمكث فترة طويلة، واستدعي كل واحد على انفراد، لكن بدا واضحاً أن اللقاء يتجاوز السمر والأحاديث العامة إلى أمور محددة وجديّة، بما في ذلك التأكد من صحة جلالته.

في الليل المتأخر، أثناء وداع هاملتون، بدا المنظر مثيراً للاستغراب والدهشة، للحرس، للخدم، للسواق، ولكل من كان موجوداً أيضاً. فالسلطان الذي اعتزل الناس، ولم يره أحد، تقريباً، خلال الفترة الماضية، والذي كان يتباهى بقوته وقامته المديدة، لم يعرفه الكثيرون، بل وأنكره معظم الذين رأوه. كان ضعيفاً شاحباً، وقد تقلص تماماً. ليس هذا فقط، ما أثار الاستغراب أكثر من أي شيء آخر، إنهم رأوه وكان يدرج على كرسي متحرك، ووراءه اثنان من حرسه الخاص، وهاملتون يسير إلى جانبه. بعد صدمة المفاجأة لكل من رآه هكذا، بدا وكأن الثلاثة: السلطان والحارسين، يتعاملون مع الكرسي بمعرفة وألفة.

صحيح أن السلطان أخذ يستعمل عصا في السنوات الأخيرة، وكانت تلك العصا للغواية أول الأمر، ثم أصبحت تساعد أثناء الحديث، إذ كثيراً ما شعر بالقوة والثقة وهو يستند إليها، إلى أن تحولت في وقت متأخر إلى حاجة ضرورية، أو لا غنى عنها، للمشي أو في التعبير.

قال بعض الحرس: «هاملتون حمل إليه هذا الكرسي». صحح آخرون: «أن الكرسي وصل قبل أسابيع، مع الأثاث الجديد الذي جاء عن طريق الطريفة». رفض اثنان أو ثلاثة مثل هذا التفسير، وأصروا أنه وصل هذه الليلة بالذات، والدليل أنه تجري تجربته الآن أمام هاملتون ليتأكد. أما حين استدار السلطان عائداً إلى الداخل، فقد أصبح الجميع على يقين أن استعماله بدأ قبل فترة، وربما بعد المحاولة مباشرة، لأنه لم يبق أحد آنذاك إلا ورآه يعرج وينقل خطواته بصعوبة، قاطعاً الأمتار القليلة بين مكان وقوف السيارة والأدراج، وقد لفت النظر تماماً، وإن عزاه البعض إلى مرض النقرس الذي يشكو منه.

ظل المشهد كحلم، وظل يثير التساؤل والدهشة. أما في اليوم التالي،

عند الضحى، فقد دبت حركة غير عادية في جناح السلطان، ثم في أنحاء متعددة من القصر، وأصبح من المؤكد أن شيئاً ما يجري ترتيبه، لكن لم يجرؤ أحد على السؤال. وحين اصطفت مجموعة من السيارات، وفيها حرس السلطان، وبعض رجاله، وتحركت سيارات أخرى، وهي في العادة ترافق جلالته في رحلاته إلى البادية، فإن التقدير تحول إلى يقين ـ خاصة حين هبّت نسمات الربيع الدافئة وملأت الجو ـ بعزم السلطان على أن يضع حداً لعزلته واحتجابه، وباعتباره لا يزال تحت وطأة الحالة السابقة، فليس كالبادية مكان يعيد إليه الصفاء.

تذكر الذين يشهدون الاستعدادات والحركة النشيطة، والرحلة الأولى لفنر مع أبيه، وكيف أنه كان من نتائجها موافقة هاملتون على البقاء في موران، وأن يكون من رجال السلطان المقربين. لقد مضت سنوات طويلة، وربما طويلة جداً، على تلك الرحلة، لكنها، وحدها، لمعت الآن في أذهان الكثيرين، وكأنها حصلت البارحة. هزوا رؤوسهم وابتسموا، قال واحد منهم: «كان يلزم يجينا الصاحب قبل أيام وأيام». قال غيره: «ما أحد يقدر على القوي إلا الأقوى منه، وهذا الصاحب طلّع، هالحين، الحية من جحرها». قال آخر: «الانكريز رب الدهاء والمكر، والصاحب لا أسلم ولا صار ابن عرب، وأبد لا يغرّكم، لأن الدم ما يصير ماي».

لم يكن الكرسي المتحرك وحده، ما فاجأ الذين يتابعون المشهد، إذ ما كاد يصل السلطان على كرسيه إلى بداية الشرفة حتى حُمل والكرسي معاً إلى نهاية الأدراج. ولما كان باب السيارة مفتوحاً، فقد امتد المقعد الخلفي، بكامله، تقريباً، كلسان طويل، ليلاصق الكرسي تماماً، وبعد أن تحرك السلطان، بمساعدة حارسيه الاثنين اللذين حملاه، واستوى على اللسان الممدود، انزلق المقعد إلى داخل السيارة واستقر. ركض هاملتون، كقط بري، ليركب إلى جانب السلطان من الجهة الثانية.

جرى كل ذلك بسرعة ومهارة، مما أكد أن تدريبات مبكرة وعديدة قد حصلت من قبل. وبين الاستغراب، والمتابعة النشيطة والدهشة وعدم التصديق، ثم السرعة في انطلاق الموكب، حار الكثيرون في فهم أو تفسير

ما يرونه يجري أمامهم، وفات بعضهم أن يتملى السلطان، أو يقدر وضعه الصحي، كما فاتهم أن يعرفوا المرافقين على وجه الدقة والحصر.

وإذا لم يفت أحد، بعد ذلك، التساؤل أو السؤال عن كل ما رأى، فما لبثت التساؤلات، بعد أن انطلق الموكب وغاب، أن أخذت شكلاً آخر: أين وجهة سفر السلطان؟ وإلى متى سيغيب؟ ولماذا لم يصطحب معه أياً من نسائه هذه المرة؟ ولماذا لم تطلب النساء أو لم تحاول، كما هي عادتهن دائماً؟ ولماذا تجاوز السلطان معظم رجاله المقربين، لم يصطحب أي واحد منهم، واصطحب ناهي الفرحان بالذات؟

وعشرات الأسئلة الأخرى أثيرت، أو طرأت فجأة على البال أو على اللسان، لكن لم يكن هناك من يجيب، أو من ينتظر الإجابة.

ناهي الفرحان الذي لم يصدق أذنيه، حين أبلغه طالع أنه سيرافق السلطان، وعليه بعد لحظات أن يتوجه إلى السيارة الرابعة في الموكب السلطاني، تساءل بخوف، بعد أن استوعب كلمات طالع:

ـ واترك الشقا على من بقى، يا أبو جازي؟

وحين لم تستطع عينا طالع، أو كلماته المتلعثمة، أن تجيب، تابع ناهي:

ـ راح تصير بغيبتي، يا أبو جازي، أذلّ من ابليس يوم عرفة.

ـ عساها ما تطول!

انقضى أسبوعان قبل أن تعرف أخبار السلطان الأولية. قيل انه ذهب، خلافاً لعادته، إلى حومة الوادي، ورغم أن الكثيرين لم يصدقوا أن يختار هذا المكان البعيد، والأكثر برودة من غيره في هذا الوقت من السنة، فقد ذهبت الظنون بغيرهم أن شيئاً كبيراً وخطيراً يدبر هناك، وربما تكون الدواحس الهدف الجديد للسلطان. وقال غير هؤلاء: رحلة قنص، وليس مثل الحومة الوادي مكاناً ملائماً. وقالت نسوة القصر: ما اختار ذلك المكان إلا وبباله الوطفانيات، وهالحين يتزوج واحدة ويطلق الثانية، فإذا ملّ منهن، العوالي كلها على مرمى حجر، وحواليه المرابيع والحواتمة وأهل السوافي.

عبد الله البخيت لم يسمع بخبر سفر السلطان، وبزيارة هاملتون، إلا في اليوم التالي للسفر. بعد أن تأكد من التفاصيل، قال، بنغم، لعثمان العليان ولاثنين كانا معه:

ـ . . . وسافر هو والصاحب جميع، ما هو كذا؟

حين اهتزت الرؤوس بالإيجاب، زفر وقال بسخرية:

ـ اي نعم، الفرنجي برنجي، وابن العرب اكنجي. . . أو كرخنجي!

وبعد قليل وهو يدق على ساقه بإيقاع:

ـ أنا صاحبت صاحب، أتاري صاحبي مصاحب، وصاحب الاثنين ما لهوش صاحب، فاشكي لمين الهوى يا أهل الهوى؟

رد ابن العليان بدعابة:

ـ مالك يا أبو بادي ألا تصاحب الصاحب، لأنه وحده يعطيك مفتاح الجنة.

ـ نارك ولا جنة الصاحب!

وغرقوا بعد ذلك في أحاديث أخرى!

خزعل ولأول مرة في حياته يصبح سيد القصرين، إذ رغم الكراهية، والتي تصل إلى حد العداء في راكان وأخوته، فإن الخوف، منذ «يوم الغدر»، مثل الجميع، خاصة وأن الشيخة لعبت دوراً بارزاً في الإشادة بخزعل، كيف دافع عن أبيه وكيف حماه. وإذا كانت مواقف راكان قد خفيت خلال الفترة الأولى، فما لبثت أن أصبحت مثار السخرية والتندر في موران كلها، فقد أسرّ اثنان من حرس السلطان، وكانت مهمتهما البوابة الشمالية، إن «راكان أصيب بالإسهال» عندما سمع أو عرف أن أباه قد قتل. وأكد هذان الحارسان أنهما ساعداه في الخروج من المسجد، وأوصلاه إلى بيت موزة بنت دحيان، لكي يغير ملابسه!

لا يعرف على وجه التثبت ما إذا كان شيء مثل هذا قد حصل أم لا، ولكنه راج وانتشر، ثم أهمل أو نسي بعد عزلة السلطان، وما قيل عن طلاقه فضة، ثم ما تلا ذلك من أحداث.

ولا يعرف أيضاً ما إذا كان خزعل قد استغل هذه الأمور واستفاد منها، لكن المؤكد أنه أصبح سيد القصرين أثناء غياب أبيه. ولتعزيز هذه الصفة فقد طلب من زيد الهريدي أن يعيد تنظيم حرس القصر، وأن يلغي جميع الإجراءات، بما فيها ضرب البوق، والملابس المزركشة للحرس، وقد سنّها راكان خلال فترة غياب السلطان في العوالي.

قال ابن شاهين لعدد من أقربائه، بعد أن عرف بما حصل، وكان غاضباً من السلطان لأنه لم يوفد أحداً للعزاء:

- . . . وكان سليم الفاتح يكسّر بيبانهم ويعتلي حيطانهم، وهم يتصايحون ويسألون: هل الملائكة كلهم ذكور أم فيهم الإناث؟ والجمل إذا كان يعبر سُمّ الخِياط، فهل يا ترى يصغر الجمل أم تتوسع الابرة؟ وبين الأخذ والعطاء، وهم متبالشين، ما شافوا إلا وهو بينهم، وسمعوه يقول: الملائكة ذكور، والجمال نسور، وراح العن والد والديكم!

بعد أن ترك هذه القصة تستقر في عقولهم ووجدانهم، أضاف:

- وحنا هالحين بدل ما ندوّر على الشي اللي يفيدنا، ونعرف عدونا من صديقنا، دوخونا وتوهونا بين حومة الوادي وعين دامة، بين خزعل وراكان، بين البيادا والسواري، وتعال بعد كل هذه الدوخة افتي وقول!

قال أحد الذين يستمعون:

- كنا من قبل بهمّ واحد، هالحين صرنا بهمين. كنا بسوالف عين دامة، شنهو اللي صار أو اللي جرى، هالحين فوق عين دامة حومة الوادي، وما ينعرف باكر من هو بعد، وشنهوا!

قال آخر:

- من دليله البقر طاح بالحفر، فما دام العجرمي هو اللي يفتي ويقول، ترى حنا بألف خير!

رد ابن شاهين بسخرية:

- إذا كان رب الدار بالدف ناقراً فشيمة أهل الدار كلّهم الرقص

قال آخر ينهي المناقشة:

- اذكروا الله يا جماعة الخير، لأن من عرف الله هانت مصيبته.

الشيخة التي لم تتأخر لتظهر في قصر الروض قوية متجبرة، ودقات عصاها تسبقها وتعلن قدومها، لم تلبث أن اختفت من جديد. لم تعد ترى أو تسمع أخبارها، حتى حسيبة البصرية اختفت أيضاً. قيل إنها انتقلت إلى قصر الغدير، لأنها لم تقو على البقاء بعد أن سافر السلطان، ولأن سفره هذه المرة يختلف عن المرات السابقة. وقيل إنها التحقت بالسلطان في حومة الوادي. وأكد عدد من خدم وطفة أنها تعمدت أن تختفي، أو تتظاهر بالغياب، لأنها ترتب للإيقاع بعدد من نساء السلطان، بعد أن سمعت أخباراً لم ترتح لها.

وإذا كان احتمال سفر الشيخة إلى حومة الوادي ضعيف أو مشكوك فيه، لأن أحداً لم يؤكده، فإن وصولها إلى الحوطة أمر أقرب إلى الصحة والاحتمال، إذ بالإضافة إلى الدريبي، وهو أحد حراس مهيوب، وقد نقل خبر وصول الشيخة، فإن سرور، حين زار شداد المطوع وفاوضه بشأن الحصان الذي يريد أن يبيعه، ذكر أنه اشتراه من الحوطة، وفي نفس الفترة التي كان خلالها السلطان، مما اضطره لأن يدفع مبلغاً كبيراً ثمناً له.

إن سفر الشيخة إلى حومة الوادي أو إلى الحوطة ليس مهماً بحد ذاته، لكن أن يترافق ذلك مع مقتل ناهي الفرحان، ثم عودة السلطان المفاجئة والسريعة إلى موران، والإجراءات اللاحقة التي اتخذها، فكل هذه الأمور تثير تساؤلات وشكوكاً يتعذر معها معرفة حقيقة ما جرى، أو معرفة الأسباب التي أدت إلى تلك النتائج.

ليس ذلك فقط، إن سفرة السلطان المفاجئة، وعودته المفاجئة، ونوع المباحثات التي جرت بينه وهاملتون، ولماذا اختار هذا المكان بالذات، ولماذا اختار ناهي الفرحان لكي يرافقه في السفر، وعشرات الأسئلة الأخرى لن تجد، حالياً، من يجيب عنها، لأنها حملت معها أسرارها وابتعدت أو توارت، أو لأن الذين يعرفون لا يجرأون، على الأقل الآن، وربما بعد وقت طويل، على أن يتكلموا.

من الطبيعي، والمفهوم أيضاً، أن يقول رجال السلطان، خاصة بعد أن نبّه عليهم مهيوب وحذرهم، أن ناهي سقط في الجب ومات. وأن يشير

واحد منهم، في محاولة لإقناع الذين يسألونه، إلى المرض الذي أصاب عيني ناهي، الأمر الذي جعله لا يرى البئر التي أمامه ويسقط فيها. ورغم أن أحد رجال السلطان أخطأ، لكن بعد مرور بضعة شهور، وذكر أن الرصاصتين اللتين أصابتا ناهي لم تقتلاه، مما اضطر مهيوب لأن يسحب مسدسه ويطلق على رأسه رصاصة أصابته في الصدغ الأيمن وفجرت جمجمته.

أما حول الأسباب فهناك روايات لا حصر لها، لكن أقواها، أو الأكثر رواجاً، واحدة تشير إلى أنّ شيئاً ما حصل في القصر، وكان طالع طرفاً فيه، أما الطرف الآخر، فإنه يبدأ باسم امرأة ثم يمتد ليطال أسماء أخرى، وهذا ما دعا السلطان لاصطحابه من أجل التحقيق معه، أو لاستدراجه، لكي يعرف الحقيقة منه مباشرة، قبل أن يقدم على اتخاذ الإجراءات وإنزال العقوبة. قيل ان ناهي لم يعترف بشيء، لكن ذكر، وبمرح، أن ما رآه يشيب له الأطفال!

ورواية ثانية، وربما كانت أقوى واحتمالها أكبر، أن ناهي طلب الزواج من موضي ابنة السلطان، وكلف عرفان الهجرس أن يفاتح جلالته بالأمر، وهذا هو سبب الغضب، ثم القتل!

الذين لم يقبلوا أياً من الروايتين تساءلوا عن علاقة هاملتون. وغيرهم أشاروا إلى أن قرار السلطان كان مبيتاً وسابقاً على زيارة هاملتون، والدليل أن ناهي قدّم طلباً خطياً بنقله إلى العوالي، أو الحويزة، وأن عرفان لم يرفعه وإنما كتب عليه: يحفظ. لقد فعل ذلك بعد أن زادت مشاكل القصر، وعجز عن حلها، وبعد أن رفض السلطان استقباله، أو حتى الحديث معه بالهاتف.

وهناك رواية ذُكرت بحذر، وعلى نطاق محدود، وقيل ان هاملتون وراءها، تؤكد أن ناهي، ومنذ وقت طويل، يعمل لحساب ابن ماضي، وكان ينقل إليه كل ما يجري في القصر.

الذين يرفضون مثل هذه الروايات يشيرون إلى أن مقتل ناهي، أو موته، حصل بعد وصول الشيخة، وليس خلال الفترة الأولى، وفي ذلك

دليل أن الأمر متعلق بقضية نسائية، ومتعلق بالشيخة شخصياً، وإلا كيف يفسر أن يقتل في الفترة الأخيرة، وأن يعود السلطان بسرعة إلى موران؟

لكن رواية مثل هذه تبقى مليئة بالثغرات، إذ لم تعقبها أية نتائج أو تغييرات بالنسبة لنساء السلطان أو محظياته.

الشيء الذي حصل، وقد حصل بعد أسبوعين من عودة السلطان، أن سُمي خزعل ولياً للعهد، خلافاً لتوقعات الكثيرين، ولرغبات هاملتون، كما قيل. بل أكثر من ذلك، هناك من يؤكد، وإن يكن بتكتم شديد، أن هاملتون لم يأت موران إلا بهدف إقناع السلطان بتسمية فنر ولياً للعهد، خاصة بعد أن بدأت تتسرب أخبار مرض السلطان، وما قد يترتب عليه من عجز أو وفاة.

أما وصول الشيخة السريع وغير المتوقع إلى الحوطة، فقد كان نتيجة ما بلغها من أخبار حول ما يجري ترتيبه بالنسبة لولاية العهد، وهذا ما حملها، وبالاتفاق مع خزعل، على أن تلتحق بالسلطان، وأن تمنع أو تؤخر ما يحاوله هاملتون. وقيل انه كان ضمن رجال السلطان من يبعث الأخبار إلى الشيخة وإلى خزعل، وهذا ما دعاهما إلى التحرك بسرعة. ومما يؤيد مثل هذا الاحتمال أن هاملتون عاد مباشرة إلى العوالي، عاد غاضباً، وقيل انه لم يستأذن بالسفر.

وفي وقت لاحق قيل أن ناهي الفرحان هو من أبلغ الشيخة أو خزعل، وهذا ما أغضب السلطان فأمر بقتله في لحظة غضب، خاصة بعد أن أعطى هاملتون كلمة بالموافقة، إذا لم يكن بتسمية فنر ولياً للعهد، فلا أقل من أن يكون شريكاً في جميع الأمور، بحيث لا يفعل خزعل شيئاً دون استشارة فنر وموافقته.

إن هذه الأمور من التداخل والتعقيد إلى درجة يمكن معها لأية رواية أن تجد ما يؤيدها.

لم تكد تنقضي فترة أسبوعين على عودة هاملتون إلى موران، وثلاثة أيام على عودة موضي، حتى وصلت من السلطان البرقية التالية:

«ولدنا فنر. بعد الاتكال على الله، قررنا تسمية الأمير خزعل ولياً للعهد، فيلزمكم أن تأخذوا البيعة له، ونكلفكم بذلك نيابة عنا».

وفي الجامع الكبير، الذي جرت فيه محاولة الاغتيال، استقبل الأمير فنر وجوه وشيوخ العوالي، وأخذ البيعة لأخيه خزعل، كولي للعهد!

كتب هاملتون في يومياته: «تسمية الأمير خزعل ولياً للعهد تعني مرحلة جديدة وشاقة، ويجب أن يعيد الإنسان حساباته، وأن يتوقع الكثير».

الخاتم الفضي، المائل إلى السواد، بحجر العقيق، الكامد، هو الارث الوحيد الذي تركه الشيخ عوض لحفيده فنر، حين قدمته إليه الجدة، فعلت ذلك بكثير من الحفاوة والاهتمام، وقالت إن الجد أوصاها أن تبلغ فنر «من الجد إلى الحفيد، ومنه إلى ولد الولد، ومعه العز وطول العمر والسعد». وقامت الجدة بوضعه في بنصره الأيسر، وبعد أن بخرّته، وقرأت عليه آية الكرسي تسعاً وتسعين مرة، وكانت قد دفنته في تراب طاهر سبعة أيام، وفي اليوم الثامن، توضأت وصلّت ركعتين، وقرأت تبارك، ثم استخرجته، وذبحت ديكاً أسود. أما وهي تضعه في بنصر فنر، فقد أسبلت أجفانها، لكي تخفي الدمعتين اللتين انحدرتا، إلى جانب الصوت الخافت المتضرع أن يقوّي الله فنر وينصره على أعدائه ويرد كيد حساده.

وفنر الذي كان بعيداً أثناء وفاة الجد، اعتبر ذلك الإرث، مع الأدعية، حرزاً فتقبله بكثير من الامتنان والتذكر، وقال لجدته.

ـ الأمانة وصلت، وراح تتسلم لراعيها، ومنه لولد الولد.

ثروت كانت أول من لاحظ انتقال الخاتم، بعد تلك السنوات، من بنصر اليد اليسرى إلى بنصر اليمين. وحين نظرت إلى عينيه متسائلة، وقبل إن تقول كلمة، خرج صوته حازماً:

ـ ما أريد اسها أو أنسى يوم من الأيام. . . وإلى حين ترجع الحقوق لأصحابها!

وقد فهمت كلماته فابتسمت، وهزت رأسها علامة التأييد.

أما ماذا خصل منذ «يوم الغدير»، كما أصبح يطلق على محاولة

الاغتيال، وإلى أن سمي خزعل ولياً للعهد، ولماذا أخذت الأمور هذا المجرى، وخلافاً لما كان متوقعاً، فإن الروايات تتداخل وتتناقض إلى درجة تجعل كل شيء ممكناً، وكل تفسير له مبرراته. بل أكثر من ذلك، إن الأسباب الخفية، والتي أخذ الكثيرون يرددونها، بدت، في أغلب الأحيان، أشد قوة وإقناعاً من تلك التي كانت متداولة من قبل.

فزواج فنر من ثروت، وقد ولّد في حينه، فرحاً عم قصر الروض، وكان مناسبة للتعبير عن المودة، من خلال الهدايا الثمينة التي قدمت، ولم تبدر ملاحظة حتى من نساء القصر على هذا الزواج، بدا في هذه الفترة وكأنه السبب الذي دفع السلطان إلى تسمية خزعل ولياً للعهد، إذ وجد من همس أن التسامح الذي أظهره السلطان في البداية شكلياً وظاهرياً. فقد حقد في أعماقه على فنر، «لأنه خان الأمانة». ويؤكد هؤلاء أن ندم السلطان تجلى أثناء فترة العلاج، إذ لأول مرة يرى ثروت من هذا القرب، ويتملى منها، وأحس أنه خُدع!

الذي سمعوا هذه الرواية سخروا كثيراً، لأن ثروت، التي بدت جميلة بأعين الذين رأوها لأول مرة، فقد كان هذا الانطباع نتيجة بياض البشرة وصغر السن، أكثر من أي شيء آخر. أما بعد أن مرت سنوات، ومثلما يحصل لمعظم التركيات والشركسيات، فقد خبت، وتراجع جمالها، بل ودب إليها الهرم مبكراً، ولن تلبث أن تصبح، بعد بضع سنين، مثل أمها. ولذلك لا يعقل أن يكون سبب مثل هذا وراء التغير الذي حصل، خاصة وأن لدى السلطان من النساء من هن أجمل وأكثر فتوة وأشد بياضاً!

ولأن التغير، كما يؤكد عدد من الحرس والخدم، ظهر على السلطان في العوالي، وحتى قبل «يوم الغدر»، فقد تكونت قناعة لدى الكثيرين أن فريزة خانم تتحمل المسؤولية، إذ بالإضافة إلى المكان الزري الذي خصصته للشيخة، وكان عبارة عن غرفتين في منتصف المسافة بين القصر وقسم الخدم، وكانتا في وقت سابق مستودعاً، ثم أصبحتا المطبخ الخارجي للقصر، فإن طريقة التعامل، ثم العلاقة التي قامت بين المرأتين، ولدت النفور فالكراهية، وحين أوعز فنر لزوجته إصلاح الموقف، ونقل

الشيخة إلى الطابق العلوي من القصر، فقد كان الوقت متأخراً، وأصبحت العداوة مستحكمة. خاصة وأن الشيخة، كما أكد أكثر من واحد، عبرت عن رغبتها باستدعاء مبروكة العمياء، لتقرأ لها طالعها، إلا أن فريزة خانم أرجأت الموضوع مرة بعد أخرى ثم تظاهرت بالنسيان إلى أن تم تجاوزه.

بعد عدة سنين، حين أشار فنر، عرضاً، وهو يتذكر، إلى غضب الشيخة، ونظر إلى فريزة خانم، وكانت قد سمعت في حينه لوماً مماثلاً من ثروت، فقد ردت بسخرية.

ـ يشهد الله أني ما عاملت امرأة مثلما عاملت الشيخة. عرضت عليها القصر كله، قلت لها اختاري. قالت: ابعديني عن الزلم وعن الهرجة أبعدك الله عن نار جهنم. قلت لها: الطابق الثاني لفنر وأولاده، قالت: كل شيء إلا الصغار، لأن صدري ضيق وما أحمل. قلت لها: بمكاني، في الطابق الأخير، وتكون فرصة نسولف ونتسلى، قالت: ما بي حيل للسلم، وهذا ينراد له شباب. ما تركت مكان إلا وعرضته، قالت: أريد الفلا، وأريد أكون وحدي، ولو بخيمة. قلت لها، وأنا خايفة: هنا، بالحديقة وبعيد عن مدخل الرجال، غريفة، وثانية ببطنها، قالت: اي، راويني الله يروّي عليك، ولما شافتها قالت: هذا مكاني وما أريد غيره!

تهاني قالت لوهيبة لما جاءت مبروكة إلى قصر الروض، بعد شهور من زيارة العوالي:

ـ ولما شافتها الشيخة بالطريقة انشرح صدرها، وقالت: الله سبحانه وتعالى نور عيونها بقلبها، ومن الصوت، ومن لمسة اليد، تعرف كل شيء.

وهذا ما تأكد أيضاً حين التقت المرأتان، فقد ظهر، لكل من رآهما، أنهما تعرفان بعضهما من قبل، من طريقة السلام والمودة، وقد عبرت الشيخة عن ذلك بوضوح، وقلما تفعل ذلك، أما مبروكة فإنها دست في يد الشيخة، خلال الدقائق الأولى، شيئاً، ثم أغلقت اليد. لقد فعلت ذلك حين خيم الصمت للحظات، وحين ضربت الشيخة كتفها دلالة المودة!

رغم كل ذلك ظلت القناعة تزداد رسوخاً أن الشيخة ليست بعيدة عما

حصل، لكن اختلف تفسير دوافعها. فالأمر ليس له علاقة بفريزة أو مبروكة، وإنما له علاقة براكان، فتلك المودة التي أبداها فنر تجاهه، وطريقته في معاملته، أوغرا صدر الشيخة، وحملاها على مقاطعة الأماكن التي يكون موجوداً فيها، وحدد بالتالي موقفها من فنر.

وإذا كانت مثل هذه التفسيرات راجت ولاقت قبولاً في الجناح الغربي من القصر، وفي موران، فإن في قصر البحر، الذي انتقل إليه فنر مؤخراً، وفي العوالي كلها، تفسيرات أخرى مغايرة. فالتجار والوجهاء الذين أبدوا رضى عن وجود فنر في العوالي، وكانوا قادرين على التفاهم معه، وهيأوا جواً لتسهيل مهمته، لأنهم خافوا أن ينتقل إليهم جو موران، أو أن يأتي ليحكمهم من لا يعرفونه، أو من لا يستطيعون التفاهم معه، فقد سرت في السوق إشاعات قوية أن محاولة الاغتيال من تدبير أهل موران، وتجرأ بعضهم وقال إن خزعل وراء المحاولة، بدليل أنه كان قريباً جداً من السلطان، وكان متنبهاً وجاهزاً، بحيث «حمى» أباه من المحاولة، وتلقى الطعنات في مكان غير خطر، وهو الذي صاح على الحرس لكي يبطشوا بالقتلة، كما أنه قام بالإجهاز على واحد منهم بنفسه، لأنه لا يريد أن يبقى أي واحد منهم حياً. وهذا ما يفسر سرعة التخلص منهم، ثم الأهازيج التي أخذ يرددها!

أما لماذا اختار هذه الصيغة، وهذا المكان للمحاولة، فلكي يدلل لأبيه أنه الوحيد الذي أنقذه من موت محقق، وأنه عرّض نفسه للقتل بدلاً عنه. وليثبت أيضاً أن الطريقة التي تدار بها العوالي، أي طريقة فنر بالذات، تخلق مكاناً أو مناخاً للمؤامرات التي تهدد السلطنة والسلطان، ولذلك يجب أن يتغير كل شيء، وأن يُعطى درس لفنر.

خارج الأسواق في البيوت الفقيرة، وفي الأرياف والجبال، أحس الناس أن الأمور تزداد صعوبة كل يوم، ولذلك لم يفرقوا بين فنر وغيره، ولم يستغربوا أن تجري محاولات لاغتيال السلطان أو أحد أبنائه، كرسالة أو كإنذار، أن الأمور لم تعد تحتمل، ولا بد أن تتغير بعد هذا العذاب الطويل.

اثنان من المنجمين قالا، أمام عدد كبير من الناس، في سوق الخميس، أن مشرف البكيري له علاقة بالمحاولة، وقد غادر الطريفة قبل ثلاثة أيام من وقوعها. وحين بعث وراءهما مهيوب ليسمع منهما، وبعث أيضاً ليستدعي مشرف البكيري، دون سؤال السلطان، ودون علمه، فقد ثبت له من الأقوال التي سمعها أن مشرف تصله أموال من عدة جهات، وأن رجال ابن ماضي يزورونه، وأنهم لم يتركوه خلال الفترة الماضية. أما مشرف نفسه فلم تجده المفرزة التي أرسلها مهيوب، وتضاربت الأقوال حول المكان الموجود فيه. ويبلغ الأمر ببعض مريديه أن أكد سفره للهند، لكي يكشف جريمة وقعت هناك!

وأكد أحد هذين المنجمين أنه قادر على معرفة الذين وراء المجرمين، إذا استطاع مهيوب أن يؤمن له خصلات من شعر وقطعاً من ثياب القتلة، ولم يعرف ما إذا كان شيء من هذا قد جرى أم لا، لأن تقصي هذه المعلومات تم في جو من الكتمان الشديد، ومن قبل مهيوب بالذات. أما حين سافر مع السلطان فقد انقطع الحديث، ولم يعرف ما تم بعد ذلك.

ومما يعزز عدداً آخر من التفسيرات، ويعطيها أهمية، خاصة في الأوساط القريبة من السلطان، ثم يجعلها بمنزلة الحقائق التي لا تقبل الشك أو النقاش، أن تغييرات عديدة أخذت تحصل. فإن يعود السلطان إلى قصر الروض، وأن يقلّ خوفه من موران، بعد تلك الهواجس التي ركبته خلال الشهور الماضية، وأن يقرّب خزعل، ويبعد الآخرين، فإن الذين يراقبون بصمت، ويرون ذلك يجري أمام أعينهم، وقد يسمعون، بعض الأحيان، كلمات لا تصل إلى الآخرين، فإن هذا جعل القلق يدخل إلى نفوسهم، وفي حالات معينة، يطلق ألسنتهم، خاصة أمام الأهل والأصدقاء، وقد زاد ذلك في بلبلة الأمور، لأن القصص، وهي تروى، يحرص الذين يروونها على إخفاء أسماء الذين سمعوها منهم، أو تمويهها، زيادة في الحذر، ولئلا يخلقوا إحراجات جديدة، خاصة وأن مهيوب، في هذه الفترة، أصبح لا يترك أحداً أو خبراً دون أن يتحقق منه ويتابعه بنفسه. ولا يعرف ما إذا كان هذا الإجراء بمبادرة شخصية منه، لرغبة في متابعة الجريمة، أو

بناء لتعليمات من السلطان، لأن أحداً لم يعد يرى السلطان، أو يسمع أخباره، وأصبح مهيوب، تقريباً، وحده، أو أحد أشخاص قلائل، الذي ينقل أوامره ورغباته.

أما حين وصل إلى العوالي، بعد أسبوعين من تسمية خزعل ولياً للعهد، وقيل انه يحمل صدقات السلطان إلى الفقراء هناك، فقد بقي ثلاثة أيام في الطريفة، غاب بعدها. وظل الدافع لمجيئه غامضاً، ثم اختفت آثاره، رغم أن فنر أوعز لعدد من رجاله بمرافقته، وأن يلازموه تماماً، لكنه، في مرحلة معينة، استطاع أن يتخلص منهم، بحجة الاستراحة في عين دامة، ومقابلة عمير.

وفي هذه الزيارة انتشرت إشاعات كثيرة أيضاً. فالذين اتصل بهم من الوجهاء والشيوخ، وقدم إليهم هدايا السلطان، سألهم، بشكل غير مباشر، عن البيعة، كيف تمت، ومن بايع ومن لم يبايع، ورأي الناس، وكان السؤال يتضمن، بمكر ومداعبة رأيهم بفنر، وقد فسر الكثيرون دافع الزيارة بهذا الموضوع بالذات، ولا شيء غيره. وآخرون قالوا أن ابن ماضي يحاول العودة مرة أخرى، وأنه جدد اتصالاته بعدد من الشيوخ، وقيل أنه التقى ببعضهم في عرض البحر، وقد عزز مثل هذه الشكوك سؤال مهيوب عن الموانىء الصغيرة، بما فيها موانىء الصيد، وقد دوّنها، بالأسماء، مرافقه، شكري الروماني، وسأل عن أسماء أصحاب المراكب والوجهاء والأقوياء، ولم ينس مواعيد الصيد أيضاً!

أما الذين يعرفون، أو سمعوا، عن علاقة مشرف البكيري بالسلطان، فكانوا على يقين أن زيارة مهيوب تتعلق بهذا الموضوع وحده، ولا شيء غيره. ولما كان مشرف خلال هذه الفترة غائباً، فقد تعززت شكوك سابقة، وهذا ما يفسر أيضاً الهدايا السخية التي أعطيت لبعض منجمي العوالي، فقد أعطيت لسبعة منهم كسوة كاملة، وقيل ان الذي طلب من مهيوب شعر القتلة أو أجزاء من الملابس، رافقه إلى موران.

وأكد مساعد حفار القبور في مقهى الحويلة بالطريفة أنه وجد عدة قبور منبوشة. الأمر الذي أثار شكوكه ومخاوفه أن تكون الحيوانات الجائعة قد

فعلت ذلك، خاصة وأن المقبرة تعرضت لحالة مماثلة قبل سنين، مما استدعى شراء سلاح لقتل الغريريات والكلاب السائبة التي تشاهد في المقبرة، لكن ظل السلاح دون استعمال، إلى أن سرق!

العجرمي الذي لم ير مشرف البكيري، ولم يعرف بعلاقته بالسلطان إلا متأخراً، والذي قضى في عين دامة شهوراً، وظل ينتظر القمر ليصير بدراً سبع دورات، وقد ثبت له بالدليل الحسي أن صحته تحسنت أكثر مما قدر في البداية؛ تعرض العجرمي لانتكاسة حين وصلته رسالة مشتركة من ابن العليان وعبد الله البخيت، يطلبان فيها أن يلتحق بالسلطان، في الطريفة، لأن المسألة مسألة موت أو حياة، بعد أن وصل السحرة والمنجمون إلى السلطان، وأصبحوا وحدهم الذين يحكمون ويرسمون. وذكر عبد الله البخيت في الرسالة أموراً مفزعة، وقد صاغها بطريقته. وطلب من ابن السويد الذي حمل الرسالة أن يروي له غيرها، ودربه خلال ليلتين كيف يجب أن ينقل الأمور إلى الشيخ، وأن يستعمل كل الوسائل لإقناعه بخطورة الوضع. ويبدو أن كلام الرسول أثّر أكثر من الرسالة، وبدا لابن السويد، وكان يطمح أن يكون وكيلاً لابن العليان في العوالي، الأمر طريفاً، فأضاف من عنده الكثير، ليحمل العجرمي على أن يلتحق بالسلطان فوراً. لم يكن العجرمي بحاجة إلى هذا التحريض كله، فقد حنّ أيضاً للأهل والدار والأصدقاء، وكان متأكداً أن السلطان لن يطيل الإقامة في العوالي، وقرر، في نفسه، الموافقة على أن يعود معه بالسيارة!

بعد شهور، وبعد أن سمع العجرمي الكثير، عن مشرف وغيره من المنجمين، وبعد أن شهد محاولة الاغتيال، وقد تأثر من ذلك إلى درجة أن طلب من مهيوب إعادة الحرس، بعد أن كان قد صرفه منذ شهور طويلة، وقبل إقامته في عين دامة، فقد تبين له أن المخاطر لا تزال كبيرة، ولام نفسه أنه ترك السلطان وحده فريسة لهؤلاء «الذين لا يخافون الله». أما بعد عودته إلى موران فقد طلب من عبد الله البخيت مساعدته في كتابة رسالة إلى علماء العوالي، لكي يبصرّهم أن السحر حرام، وأن لديهم ساحراً أفاقاً لا بد من محاربته، لأنه تأكد من كفره. وابن البخيت الذي وجد الأمر

طريفاً، فتح أحد الكتب التي أحضرها معه من مصر، وكتب في الرسالة ما يلي: «... ما يقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم وأرضاهم في رجل يرى أنه من أئمة الشرع، ومن أرباب الأصل والفرع؛ ويعتقد أن له الدرجة المنيفة في مذهب أبي حنيفة؛ ويقول لو جادلت مالكاً لكنت له مالكاً، ولو لقيت ابن إدريس لسلم لي التدريس؛ ولو أدركت ابن حنبل لكنت أتقى وأنبل، وسره وفقكم الله بخلاف نجواه، وفعله يكذب دعواه، وذلك يبيح أنه يبيح الفروج بفروج، ويستحل سفك الدما على البيض الدمى، ويأخذ بأرخص الأقوال في استباحة الأموال. ان ولي المدارس صيّر العلم كالطلل الدارس، وان دخل الجامع صانع فيه وجامع، وإن سكن المساجد طلب الرقص والشاهد، وإن صعد للوعظ على الأعواد حث الحرم على الوفاء بالميعاد، ومزج لهم الهزل بالجد فأخرجهم في الحال إلى البد، ثم إنه لركاكة دينه، وضعف يقينه، يصلي قاعداً من غير ألم، ويبول قائماً على فرد قدم، وتراه يسهر على التمام والورد، وينام عن ليلة القدر، يحلل بيع القبلة بقبلة، ومكة بصكة، ولا يشتري حجة بعجة، ولا عمرة بتمرة، قد أخرج مال الفتوح والصدقات، في وزن المهور والصُدقات، وصير مال الحبس والأوقاف، لربات الشنوف والأرداف. وقد أفرخ في الوطء قواه، واتخذ الهه هواه، فغدا بلا عقل ولا حلم، وأضله الله على علم، وختم سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فبينوا لنا، وفقكم الله، هل يجب أن يضرب السلطان على يديه أو يقره على ما هو عليه؟ مأجورين مثابين، إن شاء الله تعالى»(*).

لقد سرت الرسالة العجرمي إلى أقصى حد، ولام نفسه أن بخس ابن البخيت حقه، حين عنفه أكثر من مرة لتركه الصلاة. وطلب منه أن يستنسخ له صورة منها ليحتفظ بها، ويحاول أن يحفظها، إذ قد يحتاج إليها في المستقبل!

(*) من منامات الوهراني ومقالاته ورسائله، تحقيق إبراهيم شعلان ومحمد نفش ـ مراجعة عبد العزيز الأهواني ـ القاهرة ١٩٦٨.

لم يكتف بذلك، طلب من ابن البخيت وابن العليان معاً، أن يعملا ما بوسعهما من أجل الحصول له على كتب من مصر والمغرب لإبطال السحر، ورد كيد السحرة، لأن مشرف البكيري طالما ظل مختفياً أو غائباً لا بد أن يستمر مؤثراً، «ولا بد محاربته بسلاحه».

راكان الذي رافق أباه، وأبدى ندمه، وحاول أن يصحح مواقفه وسلوكه، تأخر ثلاثة أيام في الطريفة، بحجة المرض، وقيل ان خلوات طويلة جرت بينه وبين فنر. أثناء عودته إلى موران توقف أياماً عند أخواله، كانت فضة هناك، وقد استطاع أن يقنعها بضرورة العودة معه إلى موران، وأن تتناسى الكثير مما حصل. «لأن هذي فرصتنا، فإذا ضاعت منا ضاعت علينا». وفضة التي غضبت من طريقة استدعاء راكان، وأقسمت ألا تعود إلا إذا جاء مهيوب وقبّل قدمها، وعند ذاك فقط قد تفكر بالعودة، وقد تكون لها مطالب أخرى!

الآن، وقد جاء راكان، وزعم أن استدعاء السلطان له كان بدافع الشوق، أكثر من أي دافع آخر، وأورد الكثير من التفاصيل حول محاولة الاغتيال، كيف جرت، وكيف أغلق الباب بنفسه ليمنع هرب المجرمين، ثم كيف أوعز لرجاله أن يحيطوا بالسلطان، وقد وضع رأسه على ساعده طوال الفترة التي استغرقها إسعافه، وكان أبوه ينظر إليه بكثير من الحنان والامتنان... بعدما أورد راكان هذه التفاصيل، رقّ قلب فضة، وقررت أن تعود. بل وبلغ الأمر أن انحدرت دموعها، ثم أجهشت بالبكاء، وفي إحدى اللحظات طلبت أن تسافر على الفور، وأصرت، لكن أخوتها وعدداً من الأقارب تدخلوا لثنيها عن السفر وتأجيله يوماً أو اثنين، ليأنسوا بوجود راكان، ولأنهم يريدون أن يتحدثوا بأمور كثيرة، وحين أصرت على السفر، قالوا أن السفر ليلاً مليء بالمخاطر، ولا بد من الانتظار إلى الصباح. في اليوم التالي وافقت على إرجاء السفر يوماً آخر، لكن بكت أكثر من مرة، ورفضت تناول الطعام مع الآخرين، وقيل إنها لم تتناول الطعام أبداً!

أما حين وصلت قصر الروض وكان الوقت بعد الغروب، فقد دخلت بصمت، كما يدخل اللصوص، وقيل ان الكثيرين لم يعرفوا بوصولها إلا

في الضحى العالي لليوم التالي، أما حين أُبلغت الشيخة، فقد ردت بسخرية:

ـ والطقعة!

هاملتون اعتبر تسمية خزعل ولياً للعهد، ضربة قاسية. لكن بعد أن زالت المفاجأة، بدأ يخطط إلى ما بعدها. قال لفنر، في إحدى الليالي، وكان يتمشى في شرفة القصر الجديد المطلة على البحر:

ـ الضربة التي لا تقتلني تقويني وتفيدني.

وفنر الذي فهم أي شيء يعني، وكان الحوار، أغلب الأحيان، يستمر من حيث توقف في وقت سابق، وأصبح الاثنان يفهمان بعضهما دون مقدمات، فقد آثر هذه المرة الصمت. كان حائراً ومملوءاً بالمرارة، وسيطرت عليه، خلال فترة طويلة، حالة سوداوية أقرب إلى التشاؤم، ليس لأن الفرصة فاتته فقط، وإنما لأن الأمور أخذت هذا السياق، وتوقع أن تتلوها أمور أسوأ. وهاملتون الذي لاحظ، وقدر أيضاً، كيف يفكر فنر، كان يريد أن يخرجه، وبسرعة، من هذا التخبط.

تابع بنفس النبرة:

ـ ثم إن بناء الدول ليس عملاً مزاجياً، أو شيئاً يتم بين يوم وآخر. إنه يحتاج إلى الكثير من الجهد والذكاء، إضافة إلى الاستفادة من الظروف...

وضحك وهو يضيف:

ـ والظروف تتغير كثيراً، خاصة في هذا الشرق!

ورغم أن الرجلين يتحاوران، إلا أن جزءاً من الحوار، يتم، في بعض الحالات، من خلال الصمت، أو بنظرة عابرة. ويكون الصمت، أو تكون النظرة، كافياً للتعبير. وفنر الذي يتلحف الصمت، كما يتلحف عباءته، تستبد به أحياناً، رغبة المشاكسة، فيلجأ إلى التعليقات القصيرة الساخرة. وهاملتون الذي يعرف هذه الصفة يحتال عليها بالابتسام، بتغيير الموضوع، لكنه يرجع إليه المرة بعد الأخرى.

في هذه الليلة، وقد تحصن فنر بصمته، قال هاملتون وهو يذرع الشرفة:

ـ ثم إن الدول ليست فقط الملوك، إنها أكثر من ذلك وأهم. . .

وفجأة استدار وأسرع بخطواته، أمسك الكرسي المقابل لفنر، من الخلف، استند إليه، تطلع بإمعان، فلما تأكد أنه خلق جواً، تدفقت كلماته:

ـ كيف يمكن أن تجعلهم ليس فقط بحاجة إليك، وإنما لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً دون الاستعانة بك؟ أن تكون عقلهم الذي يفكر، يدهم التي تضرب، عيونهم التي يرون بها، وآذانهم. . . بكلمة أخرى: يجب أن يشعروا شعوراً قوياً ومستمراً أنهم غير قادرين على أن يفعلوا شيئاً دون الرجوع إليك.

هاملتون يعرف أن كلماته ليست عبثاً كلها، قد تسرق الريح قسماً منها، وربما موهتها الرغبة أو الطموح، وقد يفسدها تشاؤم فنر، لكن، مع ذلك، يبقى قسم منها وكان يكفيه، الآن، هذا القسم. كان يقول لنفسه: يجب أن يتصف السياسي بمزايا عالم الآثار: «أن يبحث في المكان المناسب، أن يبحث بصبر، لكن بدأب، وعليه ألا يهمل أي دليل، مهما كان ثانوياً، ويجب أن يفكر بعمله حتى أثناء النوم، إذا توافرت هذه المزايا لا بد أن يصل!».

تابع دون أن ينتظر تعليقاً من فنر:

ـ يجب أن نعمل وأن نصبر.

رد فنر بسخرية واستفزاز:

ـ عش يا كديش إلى أن يجيك الربيع!

وهذا المثل الذي سمعه هاملتون مرات كثيرة، وعرف معناه، ومتى يطلق، رد بحدة:

ـ أنتم البدو أبناء اللحظة وأبناء المزاج. وحتى ما تدعون من أنكم قادرون على الانتظار أربعين سنة لكي تثأروا، فإن ذلك نتيجة العجز وليس نتيجة الصبر. دائماً تمتلئون بعدم الرضا والرفض، لكن دون أن تعرفوا ماذا تريدون وماذا يرضيكم!

وقف فنر، اتجه إلى نهاية الشرفة، وقال بسخرية:

ـ وأنتم، يا الصاحب، ترون البدو الذي يمرون أمامكم، ترون أشكالهم، لكن لا تعرفون أعماقهم، لا تعرفون كيف يفكرون، وماذا يملأ عقولهم وصدورهم، ولذلك فإن الواحد منكم يتوهم، يرى ما يريد فقط، أما الأشياء الأخرى...

ظل هاملتون في مكانه، مستنداً إلى الكرسي، وقال بحدة أقرب إلى الغضب:

ـ يا صاحب السمو، اعتبر الأمور لا تزال في بدايتها، ولا تزال أمامنا واجبات كثيرة.

لم تعجبه هذه البداية. صمت: الصمت لا يؤذي فنر، أو بالأحرى يروق له.

جلس على الكرسي. صب لنفسه قدحاً. شرب. قال بطريقة جديدة:

ـ لا أعرف كيف يمكن أن نطلق على الأشياء بعض الصفات دون أن نخطئ. هناك قوة مجهولة، هل هي الصدفة، أم القدر، أو ربما لها تسميات أخرى، تلعب دوراً أساسياً في كثير من الحالات؟ أن يكون خزعل أكبر سناً. أن تجري محاولة الاغتيال. أن تأخذ الأمور هذه الصيغة... إن كل هذه الاعتبارات تلعب أدواراً هامة، وبعض الأحيان حاسمة، والمهم، إزاء مثل هذه الاعتبارات، كيف يتصرف الإنسان، كيف يكون رد فعله. هذا هو التحدي الحقيقي، وهذا ما يميز إنساناً عن آخر، وبالتالي يجعل هذه القوة معه أم ضده!

راق لفنر هذا الانفعال. كان شديد التنبه، ويعتبر الاستفزاز أو الصمت، أهم الوسائل من أجل الوصول إلى الحقيقة، قال بعد لحظات صمت طويلة:

ـ بهذي البلاد، طال عمرك، يقولون: احذر عدوك مرة واحذر خويك ألف مرة!

ـ الحذر ضروري في كل الأحوال، تجاه الأعداء والأصدقاء، لكن الأهم من ذلك: كيف تجعل أعداءك وأصدقاءك معاً بحاجة ماسة إليك؟ كيف ترغمهم، بغض النظر عن الحب والكراهية، على أن يعتبروك ضرورياً

إلى أقصى حد، وأنك الوحيد القادر على أن تفعل شيئاً يناسب الحالة، وتجعلهم، أيضاً، مضطرين للموافقة، لأن ليس هناك إلا البدائل الأسوأ؟

بعد سنوات طويلة سوف يتذكر فنر هذا الدرس مرات عديدة، لأن هاملتون لم يمل من تكراره، وبأشكال مختلفة؛ ولأن هذا الدرس، بمقدار ما يبدو بديهياً وبسيطاً، ويكن أن يمارسه الكثيرون دون وعي، وربما بحكم الغريزة، فإنه يبقى أهم الدروس وأصعبها، وقد يحتاج إلى مراجعة يومية.

قال لثروت في الليل المتأخر:

ـ أحد عيوب السلطنة أنها تبدأ بشخص قوي وذكي، لكنها عندما تستقر تستغني عن القوة والذكاء، وتستبدلها بعيوب الدولة التي جاءت بدلاً عنها.

وثروت التي لم تفهم ما يريد قوله، قدّرت أنه يعني أباه وخزعل، قالت لتغير الحديث:

ـ الرجال يخافون من الأشياء التي لن تحصل أبداً، أما النساء فعندهن مشكلة واحدة: المشكلة القائمة، وهذه وحدها هي التي تحتاج إلى الحل، وعندما تأتي المشكلة الأخرى، يجب أن يفكر بحلها، أما قبل أن تقع تلك المشكلة فإن من العبث التفكير بحلول لمشاكل وهمية!

وحين اقتربت منه، ابتعد قليلاً، لينظر إلى عينيها، ولما ابتسمت بسخرية، قال وهو يضمها:

ـ بسيطة، وتشوفين!

فنر الذي سافر ورأى العالم، وعرف الكثير من أسراره وخباياه، والذي التقى بالكثيرين وتعلم منهم، كان يوماً بعد آخر يزداد خوفه من العالم ومن الناس، وكان يزداد شكه أيضاً. يعتبر الشر قوة مسيطرة، والخير إذا لم تكن له أنياب لا يمكن أن ينتصر. أما أفكار أبيه وقناعاته وطريقته في إدارة السلطة، فإن استطاعت أن تقنع أهل موران، أو ترغمهم على الطاعة، فإنها الآن أضعف من أن تواجه التغيرات التي حصلت، لذلك لا بد أن يهيئ نفسه، إذا أراد أن يكون كل شيء في السلطنة.

لكن ما هو العالم أو من هو العالم؟

كان أبوه في كل سفرة يسافرها يوصيه وصية واحدة: «اسمع من كل واحد تشوفه، وشاور كل من تلقاه، لكن لا تعط سرك لأحد، ومثل ما الصلاة غير جايزة إلا إذا توجهت نحو القبلة، فيلزم ما نخطي خطوة إلا إذا تشاورنا مع الخويا، لأن الانكريز، يا وليدي، آفة، ما ينقدر عليهم، والأحسن أن يكون الواحد معهم صاحب».

ولأن الوصية تكررت، فقد حفظ فنر الدرس جيداً، وجاء الذين اختارهم له أبوه ليكرروا الدرس ذاته. أكد له النويعري «إن الانكليز سادة البحر والأرض، وأنهم، مثل الموت، في كل مكان وكل زمان» وجاء بعده الدوسري ليكرر نفس الأفكار وليضيف «عادِ كل الناس وصادق الانكليز، وأنت الرابح». أما عماد فوزي الذي رافقه في أول زيارة إلى نيويورك، فقد همس بأذنه كلاماً مختلفاً. قال له:

- بريطانيا كانت قوية في القرن الماضي، وظلت تحتفظ بهذه القوة حتى الحرب العالمية الأولى، أما بعد ذلك، خاصة بعد الحرب العالمية

الثانية، فأصبحت أثراً بعد عين. ونكون مجانين إذا راهنا على بريطانيا.

وأضاف عماد فوزي وهو يلقي نظرة من نافذة الفندق على ناطحات السحاب:

- الآن تحكم العالم قوتان: أميركا وروسيا. والذي يفكر في المستقبل ليس أمامه إلا هاتان القوتان، وما دامت روسيا كافرة ملحدة، وما دامت ضد الدين فنحن مع أميركا!

لم يكن فنر بحاجة إلى الكثير ليقتنع، لقد لمس الأمور بنفسه، وان أدركها من قبل بالحدس والتقدير. فبريطانيا، رغم الضجة والمظاهر، تتراجع وتنسحب، رأى ذلك بعينه، لم يقل له أحد. رآه في أماكن كثيرة بعد انتهاء الحرب. وحتى الحرب ذاتها لم تكن لتكسب لولا الروس والأميركيين. الروس قدموا الرجال، والأميركيون قدموا الأموال. أما بريطانيا فكانت تعدّ قتلى الآخرين، وتحسب المساعدات، وتنتظر!

حتى هاملتون لم يعد كما كان. صحيح أنه لا يحمل وداً للأميركيين، لكن يقدر جرأتهم، وتلك الروح العملية التي تملي عليهم مواقفهم وعلاقاتهم. يقول هاملتون بدعابة، حين يرد ذكرهم:

- إنهم بحاجة إلى حضارة، إلى جذور.

يهز رأسه عدة مرات ويضيف:

- لو أنهم لا يرفعون أبنيتهم بهذا المقدار، ويستعيضون عن ذلك بحفر الأرض، لعلهم يجدون آثاراً لحضارة...

ولقد تأكد فنر أن الرياح تدفع المراكب ليس نحو القارة القديمة وإنما نحو القارة الجديدة من خلال ذلك النشاط المجنون لاستثمار النفط خلال الفترة الأخيرة من سني الحرب ثم بعد ذلك.

ويتذكر ذلك الوجه المستدير، الأقرب إلى رأس الملفوف، والذي أصرّ على لقائه في سويسرا، خلال السنة الأخيرة من الحرب، وكان في إجازة. قال له ذلك الأميركي:

- الخطر الحقيقي الذي يتهدد السلطنة يأتي من الشرق، من الروس، ولا بد أن يدرك السلطان ذلك، ولا بد من الاستعداد له منذ الآن.

وكأن ذلك الأميركي قرأ ما يدور في رأس فنر، إذ أضاف بسرعة:

ـ والانكليز معنا في هذا التقدير، ويطلبون مساعدتنا!

لما رجع فنر حدّث أباه. قال له: كان الانكليز اسوداً، لكنهم الآن دون أنياب. لم يصدق السلطان أن الأسد يمكن أن يكون بلا أنياب. ابتسم، وربما قال في سره: أوهام شباب، والزمن هو المعلم.

لم يكن السلطان خريبط خالي البال إلى الدرجة التي افترضها فنر، لذلك حين تابع بحماس وهو يحدث عن عظمة أميركا وقوتها، وأن المستقبل لها، ابتسم السلطان، وعلق ببرود:

ـ أنا، يا وليدي، ما زرت لا هذول ولا هذول، ولا شفت ديرة الانكريز ولا ديرة غيرهم، بس اتذكر كلامك بعد رجعتك مرة من بلاد الانكريز، شلون كنت مدهوش ومتعجب، فخلنا نصبر ونشوف!

وحين بدا الحرج على فنر أضاف أبوه:

ـ هناك مسائل، يا وليدي، ما يختلف فيها اثنين: الشجاعة للألمان، والدهاء للانكريز، واللي يحبون الدنيا والكيف الفرنسيين، والطرب للأتراك، والصبر لأهل الهند والصين، واللي يرمون قروشهم بالقاع وما يخافون الأميركان...

وضحك السلطان بثقة، وهو ينهي حديثه:

ـ وحنا، وبتوفيق من الله، نصلي ورا علي وناكل مع معاوية، بالسياسة مع الانكريز وبالمصلحة والشغل مع الأميركان!

... ولم يتوقف فنر عن السفر. جال العالم من أقصاه إلى أقصاه، وتكونت له علاقات واسعة، فعرف معنى السلطة، وما يجب أن يفعل، خاصة حين أصبح نائباً لأبيه في العوالي. أما المهمات التي كُلف بها داخل السلطنة وخارجها، وملازمة هاملتون له، وأيضاً الرجال الذين اختارهم لكي يكونوا إلى جانبه، فكل ذلك جعله يحس أنه اقترب من الوصول، ولا بد أن يصل، خاصة وأن موقف السلطان من خزعل شديد التقلب والخطورة. فما يكاد يرضى عنه يوماً حتى يغضب في اليوم التالي. صحيح أن هناك أسباباً للغضب، أو لفتور العلاقات، لكن ليس دائماً خزعل وحده المسؤول عن ذلك، فالأخبار التي لا تنقطع يوماً واحداً، والتي تنقلها نسوة السلطان عن البذخ والإسراف في قصر الغدير، ونزاعات النسوة هناك، إضافة إلى التعريض، والذي يصل حدود الشتيمة، بقصر الروض، يدفع الدم قوياً حاراً إلى رأس السلطان فيمتلئ غيظاً ومرارة، فإذا أضيف إليها ما يصله من الحويزة، أو أخبار المناطق، ثم نقمة شيوخ القبائل واحتجاجهم، لأن أحداً لم يزرهم أو يسأل عنهم، فلا بد أن يتذكر السلطان أيضاً أخطاء خزعل مع ابن مياح، عندئذٍ يهدر صوته بالغضب:

- إلى متى يظل كذا يا عباد الله؟ وإذا كانت هذي سواياته وحنا بعدنا طيبين، شنهو اللي راح يسويه إذا متنا وصار هو السلطان؟

ويصل كل ذلك إلى فنر، وكان له أيضاً في موران من يهمس بأذن السلطان عما فعله في العوالي، وكيف أن الأمور تسير من حسن إلى الأحسن، وأنه لا يهدأ ليل نهار، والناس راضون، فيصبح الاقتناع مرجحاً

أن يسمي السلطان فنر سلطاناً بعده، وأن يجعل خزعل ناظراً، وهذه الصفة أو اللقب اخترعه الأتراك في فترة سابقة وطبقوه في العوالي، بل أكثر من ذلك طبقه السلطان ذاته على أبيه، خلال فترة من الزمن!

وفنر الذي يعرف كل ذلك يبقى بعيداً، وغير ظاهر، وبعض الأحيان يبدو زاهداً، إلا إذا كلفه أبوه أو انتدبه لعمل، فلا يتوانى ولا يهدأ. كان يتابع وينتظر. وكان له من يتابع أثناء غيابه. فأمي زهوة التي تحظى باهتمام خاص منه، ويتذكرها في أسفاره بالهدايا التي يحملها، وبإصراره أن يكون ضيفها أثناء إقامته في موران، لا بد أن تتذكره أيضاً، خاصة أمام أبيه السلطان. ولكي لا تنسى كان يبعث إليها من العوالي، بين فترة وأخرى، بالتمر والبخور والرمان، ويوفد أيضاً الأقرباء والأهل لزيارتها، ولا ينسى فتاحي الفال والمنجمين، كان يرسلهم ويرسل معهم العطرة والريحان، وأنواعاً أخرى من الحشائش التي تقوي البصر وتمنع النسيان وتطيب الأنفاس!

قالت تهاني لوطفة، ذات ليلة، بتكتم، وهي تلتفت:

ـ . . . بعد طول عمر، السلطان بعد السلطان فنر!

وحين حاولت وطفة أن تعرف أكثر من ذلك، فسألت، ضاحكة، ما إذا كان هذا رأي الشيخة أيضاً، تخوفت تهاني، فقالت بتلعثم:

ـ وتعرفين . . . كل شي بهذي الدنيا قسمة، وكل شي مكتوب على الجبين!

ولما أرادت أن تعرف بشكل محدّد، قامت تهاني معتذرة، وقالت بتحذير:

ـ ما أريد أوصيك، يرحم والديك: ترى المجالس بالأمانات!

ما قالته تهاني لم يكن سراً، أو لم يعد كذلك، منذ شهور طويلة. حتى خزعل كانت تصله مثل هذه الأخبار، فلا يعرف كيف يداري حرجه. وفي مرات كثيرة، إذا جاء من ينقل إليه ماذا سمع، أو ماذا قال أبوه يصبح عصبياً نزقاً، وكأنه لا يريد أن يسمع أو أن يصدق. ومما زاد في هذه القناعة أيضاً الزيارات الطويلة التي كان يقوم بها السلطان للعوالي.

وبالمقابل لا يكاد يقضي بضعة أيام في الحويزة، حتى يطلب أن تُشدّ الرحال. لقد حصل ذلك مرات عديدة. قال مهيوب في إحدى زيارات السلطان للحويزة، ليبرر الموقف:

ـ الحويزة ديرتنا وجماعتها أهلنا، وطويل العمر خزعل يكفي ويوفي...

وبعد قليل:

ـ ويلزم طويل العمر، أبو منصور، يزور اللي ياخذون على خاطرهم!

استمرت الأمور هكذا فترة غير قصيرة حتى ظن الكثيرون أن الأمر حسم، ولا يحتاج إلا لظرف مناسب لكي يعلن. ويبلغ الحال بثروت وموضي أن هيأتا ثياباً زاهية، موشاة بخيوط من ذهب، لهذه المناسبة. ويبدو أنهما تحدثتا في الأمر واستعدتا له تماماً، لكن فريزة خانم التي لاحظت انشغال ابنتها، والمبالغة التي ظهرت منها، خاصة أمام الخدم، فقد قالت تعنفها:

ـ يلزم تكوني عاقلة وحريصة، لأن ما هو كل شي ينعرف ينقال، خاصة قدام الحريمات، لأن هذولا ما عندهن شغل إلا يسولفن ويبربرن، وبعدما تضيع علينا أو ما نخلص...

وبعد قليل، وقد تغير صوتها تماماً:

ـ كان أبوك، الله يرحمه، يقول: من طلب الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه!

لقد حفظت فريزة هذه الكلمات من بندر الرفيفان لفرط ما رددها، وهو يصف خطأه المميت تجاه خريبط، وكيف أنه أضاع كل شيء نتيجة هذا الخطأ!

ورغم أن ثروت أخفت الثياب، وبالغت في التهذيب والتواضع مع الخدم، إلا أنها كانت على يقين أن في زيارة السلطان إلى العوالي سيتم إعلان النبأ. وهذا التقدير ليس تعبيراً عن رغبة أو استنتاجاً سريعاً، وإنما نتيجة إشارات، شديدة الدلالة، التقطتها من فنر، خاصة بعد أن ألقى نظرة

على الطابق الأوسط من قصر البحر، حيث سينزل السلطان. لقد ألقى بنفسه نظرة مدققة، وتأكد من كل شيء، فلما اطمأن، قال وهو يفرك يديه:

ـ مكان يليق بالزوار العظام والمناسبات الكبرى!

لكن الرياح، في هذه الصحراء الملعونة، لا تجري أبداً كما يريد أصحاب القوافل، أو الذين يريدون الوصول بسرعة. فتلك الحادثة المشؤومة، محاولة اغتيال السلطان، غيّرت كل شيء!

أما كيف أخذت الأمور هذا المسار بعد ذلك، وماذا حصل في حومة الوادي، ولماذا سمي السلطان خزعل ولياً للعهد، ومن حمله على اتخاذ القرار، ولأية أسباب، فإن الأمور من التداخل والتعقيد إلى درجة لا يستطيع أحد أن يدّعي معرفة ما جرى.

ومع ذلك، فقد قرر فنر، بالاتفاق مع هاملتون، أن يصمد، أن يعتبر الأمر طبيعياً، لعل رياحاً من جهة أخرى تهبّ وتغير المعالم والتضاريس، وتجعل من الممكن أن تُنسى تلك اللحظات المجنونة التي حصلت في المسجد، وربما كانت السبب التي أعطت الأمور هذا المسار.

كانت المراهنة «أن يبقى السلطان، أن يستعيد صحته، أو أن يخطئ خزعل». «أو أن. . .» وابتسم هاملتون، وهو يطرح الاحتمال الثالث:

ـ أو أن تتغير الظروف!

أخذ فنر البيعة لأخيه، وأكد على رجاله في موران أن يتابعوا بدقة صحة السلطان ومزاجه، وأن يوافوه بأي جديد. ولقد سر إلى أقصى حد حين بلغته الأخبار أن السلطان استعاد قوته، وأصبح يشاهد يومياً في حديقة القصر، أو قرب اسطبل الخيول.

استمر الحال كذلك إلى منتصف الخريف، وبعدها لم يعد يشاهد السلطان. قيل بسبب البرد. وقيل ان السودا عاودته من جديد، إذ بعد أن أمر بإطلاق عدد من المحابيس، أمر بعد ثلاثة أيام من ذلك بجلد عشرين أو ثلاثين من الخدم والحرس، ونقل عن لسانه التهديد والوعيد، والسبب أن طالع العريفان اختفى من القصر نهائياً، اختفى دون أن يحس به أحد، ولم يكتشف غيابه إلا بعد يوم أو يومين.

وقيل أيضاً أن سبب غياب السلطان انهيار صحته.

ومثل أي شيء في هذه القصور، إذ يصبح ما يجري داخلها معروفاً وغير معروف، في آن واحد، لكن بدا أن أقوى الاحتمالات انهيار صحة السلطان.

أما كيف بدأ الانهيار؟ وهل أصيب بالعمى خلال هذه الفترة، أم مجرد تقولات تصدر عن الخدم المضطربين؟ وهل أن ما حصل أمر طارئ أم له ما بعده؟ فإن الأخبار التي تخرج من القصر متعارضة متداخلة بحيث لا يمكن الجزم بصحة أي منها، لكن بدا واضحاً أن الحالة الصحية لجلالته تزداد سوءاً يوماً بعد آخر، ومما أكد ذلك وصول الأطباء المتعددي الاختصاصات، وفي فترات متقاربة. وهذا ما جعل رأفت شيخ الصاغة في حالة عصبية أقرب إلى الهياج، إذ ما يكاد يبدأ معالجة السلطان حتى يتدخل الآخرون، من الأطباء والسحرة والمنجمين، والأقرباء أيضاً. ولكل واحد من هؤلاء رأي يختلف عن الآخرين في تشخيص الحالة أو طريقة المعالجة. ونتيجة الاختلافات الكثيرة، والتدخل المستمر من هنا وهناك، تولت الشيخة الأمر خلال فترة معينة، إذ منعت الدخول عليه، وأوقفت الأدوية التي وصفت له، وأكد بعض الأقرباء أنه تحسن، واستمر كذلك لعدة أيام ثم انتكس من جديد، الأمر الذي دعا خزعل للتدخل.

وخزعل الذي كان متعجلاً وخائفاً استدعى طبيباً من حران. لقد استدعاه وأوكل إليه الأشراف الكامل على صحة جلالة السلطان، وفي وقت متأخر قيل إن هذا الطبيب، الذي لا يؤمن بالأدوية الجاهزة، وقام بتركيب الأدوية التي أعطيت للسلطان، تسبب في التعجيل بالوفاة. إنه مجرد ظن، أو اتهام، لأنه في ظل الاضطراب والفوضى يحق لكل إنسان أن يقيّم أعمال الآخرين وحتى نواياهم! ورغم أن شيخ الصاغة ظل، نظرياً، مسؤولاً عن صحة السلطان، إلا أنه رفض التدخل في أكثر من مرحلة. وفي مذكراته وردت كلمات غاضبة، لكنها غامضة أيضاً. كتب «... ومثل أي شيء في هذه البلاد، ولدى كل إنسان، فإن العجلة والادعاء، والجهل يحكم ويسيطر، وقد لمست ذلك بنفسي، ومن خلال

أدلة حسية لا يرقى إليها الشك ولا تقبل المناقشة، خاصة في طريقة معالجة السلطان.

«... وحتى الأطباء الأجانب، في ظل الفوضى السائدة، لا يلبثون أن يصبحوا أسرى الحالة العامة، ويبالغ بعضهم فيتجاوزها».

«... ومن المناسب أن أهيّئ نفسي لمرحلة جديدة، إذ يبدو لي أن إقامتي لن تطول هنا، أو على الأقل لن تستمر بنفس الوضعية السابقة، خاصة إذا انتهى السلطان وجاء خزعل».

ظلت الأمور هكذا طوال فصل الشتاء. وفي الأيام المبكرة من فصل الربيع، بدا لكل إنسان أن النهاية أصبحت وشيكة، وتأكد هذا التقدير من وصول أبناء جلالة السلطان، والصمت الذي خيم على القصور، ومن خلال الأخبار التي تتسرب، وينقلها الكثيرون. ولم تمض أيام حتى أعلنت وفاة السلطان خريبط.

ذاكرة الأمس القريب

بموت السلطان خريبط انتهت وانطوت صفحة كاملة في تاريخ الصحراء.

أما الصفحات التالية فإنها من الاضطراب والتداخل، وعدم اليقين أيضاً، إلى درجة تختلط فيها الوقائع بالرغبات والأوهام، ورغم قربها، أو بالأحرى بسبب قربها، فإنها زلقة، رجراجة، خادعة، وشديدة التحول أيضاً. وهي بمقدار ما تبدو واضحة، مثل الكثير من وقائع التاريخ الذي يتكون تحت أبصارنا، فإنها مموهة، محرفة، إن لم تكن كاذبة.

ولأن رياحاً شديدة ومستمرة ظلت تهب طوال سنين، فقد غيرت الكثير من المعالم والأشكال، وغيّرت أيضاً أفكار الكثيرين وقناعاتهم وعلاقاتهم، أصبحوا بشراً من نمط آخر.

وإذا كانت إحدى العواصف التي هبّت على هذه الصحراء قد أخذت خزعل وقسماً كبيراً من رجاله، وحملت تلك العاصفة فنر، فأصبح سلطاناً، وتوقع الكثيرون وأمّلوا، فإن أغلب هؤلاء خاب أملهم، ليس لأن فنر أحسن أو أسوأ من أبيه أو أخيه، وإنما لأن هؤلاء كانوا يعرفون فنر الآخر، فنر الذي كان، ولأنهم ظلوا يعيشون في أوهام الأيام التي مضت.

قالت غزالة الحوشان لأختها سارة:

ـ هذول الرجال دينهم ومعبودهم القصر. إذا زعلوا من القصر، أو القصر زعل عليهم ما ينحملون، وإذا رضي القصر يقومون وينامون هناك. وحنا رايحة علينا، دنيا وآخرة!

سقطت من عينيها دمعتان، وخرج صوتها متكسراً:

ـ قلت له: يا أبو هايل، خلنا بهمومنا، وعندنا من الهموم اللي يكفينا،

وفنر مثل خزعل، وما يلزمك تخطي. وابد، ومثل الولد الصغير، عاند. كل يوم لابس العقال المقصب، وبيده السبحة الكهرب، وعيونه تشولح مثل القطاة، وإذا سمع صوت: «ها، جوا جماعة القصر؟» وما أحد جاه. مر يوم، اثنين، شهر، شهرين، وكل يوم يمر يزيد عناده وتكثر شتايمه، وصار البيت نار الله الكبرى، لا ينعاش فيه ولا ينداس، ولا أحد يقدر يفتح حلقه أو يسأل ويقول!

قالت سارة بحزن:

- يلزمك تصبري يا أم هايل، وعساها عجّة، تمر وتنقضي.

- وسقم الأولاد، يضربهم ويصيح بوجوههم، وما يريد يسمع أحد، وأنا ما خلّى عليّ ستر مغطى: إذا ما عجبك ذاك بيت أبوك، وما أريد أحد يراجعني أو يقول لي شنهو اللي أسويه.

بعد شهر من هذا الحديث قالت سارة لإحدى جاراتها:

- ... وخنق روحه بعقال القصب. كان معلق بالشباك، أزرق، ولسانه شبر، وراحت عليه وعلى أهله وأولاده.

زفرت وهي تضيف:

- الله يساعدك يا غزالة، والله يجازي اللي كان السبب!

عبد الله البخيت الذي عرف بأن مطشر الغصيب قتل نفسه، لأن خصومته مع جماعة خزعل أكلت اليابس والأخضر، ولأن رجال فنر اتصلوا به ووعدوه، فظن أن هذه الصلة تقربه وتجعله واحداً من رجال العهد الجديد، لكن بعد أن انتظر طويلاً، ولم يتذكره أحد، قرر أن ينتهي هكذا. قال عبد الله البخيت:

- هايل أبو هايل، عرف شلون يسمي ابنه وشلون يخلص نفسه!

وأضاف بعد قليل بلهجة هي مزيج من الحزن والسخرية:

- صحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال: اذكروا حسنات موتاكم، وعلى الميت ما تجوز إلا الرحمة، لكن بعد ذلك، كان، الله يرحمه، عقله خفيف، كان يظن السلطان مثل الزكرتي والقصر مثل المضافة، ولما قاس

الدنيا على أيام خريبط زلق، لأن كل شي تغير، وهالحين راح واستراح. وترك الهم والغم للباقي واللي يريد يناطح!

مطشر الغصيب كان واحداً من عشرات، من مئات، وهؤلاء حين تخاصموا مع رجال خزعل، أو بالأحرى حين انتزع منهم رجال خزعل أموالاً وخيولاً، أو حين حبسوهم دون وجه حق، ظنوا أن غياب خزعل سيعيد إليهم ما أخذ منهم، ويرد اعتبارهم، لكن بعد أن استقر فنر ورجاله، وغاب رجال خزعل أو تغيروا، لم تتغير الأمور.

قال عمر زيدان لرضا الجاوي لما جاءه يبلغه بما حصل في موران:

ـ خلنا نصبر ونشوف، يا ابن الحلال، من هو اللي صار عمنا بعدما تزوج أمنا!

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ العروس ما تبيّن إلا ثاني يوم العرس، والمرية ما ينحزر عليها إلا إذا حال الحول!

قال رضا بانفعال:

ـ لكن اللي جا فنر، فنرنا، اللي عاش بينا، واللي عرفناه وعرفنا.

ـ اللي عرفنا، يا رضا، كان صغيّر وفقيّر، هالحين فنر صار سالفة ثانية، هالحين فنر سلطان، يا ابن الحلال. سلطان قد الدنيا. . . ولم يمهله دندن وارتفع صوته:

علمي به من ليالي الصيف ... يوم البخت ناشر نوفه

دار العجب والطرب والكيف ... والانس والفن ودفونه

أيام حظي يقصّ السيف ... يشرب من المي بكفوفه. . .

لكن هالحين فنر حاجة ثانية!

واهتز رأسه عدة مرات وتابع:

ـ والسلطان غير الأمير، والأمير غير الخفير، وحتى الخفير جاء يوم، يا رضا، وتذكر، كنا ناخذ له تمني، وما يتركنا ولا يحل عنا، فخلنا نصبر ونشوف، وبعدها الله كريم!

عبد الله البخيت، الذي سمع مثل الآخرين، بما حصل، قال بعد أيام، يخاطب نفسه ويريد للذين حوله أن يسمعوا:

ـ بهذي الدنيا والواحد ما يتكلم ولا يتعلم إلا من كيسه...

وخفض صوته، أصبح همساً:

ـ ايه يا دنيا، مثل الدولاب، يوم فوق، وثاني يوم أسفل سافلين. وما تعرف متى وإلى أين، لكن، سبحانه الله، ما أحد يتعلم، وكل واحد يظن أنها له باقية ودايمة: يمشي مثل الطاووس ويقول: يا دنيا اشتدي، وما تلقي أحد قدي، لكن...

ضحك بصخب وظل يحرك يده حركات سفيهة، ثم أضاف:

ـ أين الفراعنة والأكاسرة؟ أين الملوك والأباطرة؟

وتغير صوته، أصبح طقسياً:

ـ من التراب وإلى التراب تعودون!

لقد قال هذا الكلام لأنه فعل مثلما فعل مطشر الغصيب، إذ كان يتوقع أن يستدعيه القصر، إذا لم يكن في الليلة الأولى، ففي اليوم التالي، لكنه انتظر أياماً وليالي، وحين لم يصل الرسول، قال لزوجته ساخراً، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ إذا قدر الواحد يبني نفسه دون مساعدة فيكون مجنون إذا قال: يا جماعة ساعدوني. وإذا الواحد قدر يكون بعيد عن السلاطين والوزراء، يكون مجنون إذا تقرب، لأن السلاطين وأتباع السلاطين ياخذون قبل ما يعطون، وإذا أعطوا بحساب وكتاب، وإلى حين. أما غضبهم فالله أكبر، وعن هذا لا تسل: ولية المخانيث وجنون العبيد.

بدا له أنه يتكلم وحده. التفت بألم. تأمل الجدران، أراد أن يتابع وأراد أن يصمت، وأخيراً خرج صوته:

ـ وأنا جرّبت وأكلت خرا!

وضحك وهو يتذكر:

ـ اللي سويته لخريبط ما يسويه أخ لأخوه، والنتيجة: زق. وخزعل

يناظرني كأني قاتل أبوه، وهذا، خوينا الجديد، ما ينحزر عليه، ومن قبل قالوا: «ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج أن يلتفت: ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس، وإذا سار بين يديه أن يحيد عن سنن الريح التي تؤدي الغبار إلى وجهه» وحنا ما نقدر نمنع شمس ولا نصد ريح، فخلنا بعيدين أحسن وآمن.

شداد المطوع الذي ذهب ليرى أخاه أو ابن أخيه، ولم يجد الاثنين، لكي يعرف أي شيء حصل في هذه الدنيا، وجد مفلح المطوع؛ وبعد القهوة والصمت، جاء من يبلغ شيبة آل المطوع أن حماد صار وزيراً. ولم يفهم مفلح، أو لم يكن مهتماً، عكس مرة أو مرات سابقة، حين توقع أن يصبح حماد سلطاناً. أما بعد أن هدأ الصراخ وانصرف الكثيرون، وكان الشايب يقلب الجمر ويقلب نظراته، فقد استغل شداد الظرف لكي يتكلم وحده، وإن كان يكلّم مفلح:

ـ . . . وكان الناس مثل الخيل: هذا ابن أصل وهذا مضرب. هذا أبوه فلان وأمه فلانة، وتسلسله لسابع جد، وتحزر عليه شلون رايح يصير. هالحين خاست وتاهت علينا يا أبو دهام. . .

وابتسم، وابتسم مفلح المطوع، كأنه فهم كل ما قاله. تابع شداد:

ـ هالحين إذا الواحد ابن حرام، يصعد ويصعد، يصير مكان النجم وازود. شلون، يا جماعة الخير؟ ليش يا جماعة الخير؟ يبّحرون بوجهك ويضحكون. يقولون: ما هو صحيح أنك ما تدري. تقول لهم: والله ما أدري، علمونا، يا أولاد الحلال. يقولون: ما هو بصحيح وتضحك علينا، وأنت تعرف كل شيء. وتقول ويقولون، وما تعرف شنهو اللي يقولونه، وما يسمعون اللي تقوله، وضاعت عليهم وعلينا!

قال مفلح المطوع:

ـ إذ الله أراد يهلك قوم امحلهم. وبعث عليهم الجراد.

قال شداد ضاحكاً:

ـ ومع الجراد العجاج وأولاد الحرام.

قال مفلح المطوع:

ـ ومن سنين، وكنت صبيّ، ومات الناس والحلال، وقالوا: هذي آخرة موران، وموران صامتة كأن فوقها حجر، لكن هذي موران ما ينحزر عليها. مثل الفقع، إذا جت سنة خير والمطر وسمي تطلّع الأرض اللي ببطنها، وإذا أمحلت تسكت وتنام، لكن. . .

وضحك وقد تذكر أموراً كثيرة، ويبدو أنها اختلطت إلى درجة لم يعرف كيف يفصلها:

ـ بسنة الخير الناس بخير والدنيا بخير، وبسنة القشرة اللي عنده فلوس يخيس لا يريد يشري ولا يريد يبيع، لكن أهل موران أباليس، يعرفون شلون يطلّعون الحية من جحرها، وشلون يدبرون أمورهم، وهذا ما هو من الأمس واليوم، لا، عتيق. . . عتيق.

قال شداد:

ـ وبسنة القشرة، يا أبو دهام، يبين المعدن الزين من المعدن الردي. وإذا ابن أخوي حماد، بعد اللي سوّاه، وبعد ما خان خويه، يصير أعلى وأعلى فعلى الدنيا السلام. ويلزم ألحق نفسي واضرّب خيلي، لأنهم باكر أو اللي عقبه يقولون: عندك خيل أصيلة، أبوها معروف وأمها معروفة، وهذا ما يصير، ويجوز يطلع معهم أكثر!

قال مفلح المطوع:

ـ وكنا، يا وليدي، نعاون بعضنا، وكنا نسأل على القريب والبعيد، وكانت الناس عايشة: القهوة، الذبايح، السوالف، وما تلقى محتاج، لكن ما أدري شنهو اللي صار بهذي الأيام.

قال شداد:

ـ ما لي بليلة سودا مثل هذي غير شمران. شمران مثل الذهب، شلون ما رميته يرن، ويعرف الناس والدنيا، ويعرف اللي يصير واللي يلزم.

والتفت إلى مفلح الذي بدأ بدق القهوة، وقال:

ـ يا أبو دهام: أولاد الحرام قدروا علينا، طمّسوني بالخيل والليل،

وقالوا: هذا مكانك، وأنت طمست بليل أبيض، لأنك ما عدت تسمع، وبعدك عايش قبل ثلاثين أربعين سنة، وما تعرف شنهو اللي صار واللي جرى.

سعيد الأسطة الذي باع حصته في شركة السجاد، وقرر أن يصفي أعماله الأخرى، وقد سافر إلى الاسكندرية لكي يبدأ عملاً هناك. ما لبث أن رجع بعد أسابيع قليلة. رجع نادماً لأنه تصرف بهذه السرعة وبهذه الخفة، بعدما تزوج السلطان ابنة صبحي المحملجي. قال لشريكه السابق:

ـ حلال عليك يا أبو الحميدي، بس أريدك هالحين تكون معي مثل ما كنت معك.

رد ابو الحميدي بثقة:

ـ ابشر، يا رجل، واللي تريد يصير.

ـ حنا أولاد اليوم، ومثل ما اشتركنا بخير، أريدك هذه المرة تساعدني...

وبعد قليل، وبرجاء:

ـ إذا أحد سألك متى تفاككنا تقول قبل سنتين أو ثلاث سنين.

ـ كل شي... إلا هذي...

وبعد قليل وبحدة:

ـ شفت مني شي يا رجال؟ قالوا لك عني ناهب؟ سارق؟ ليش تخجل مني؟

ـ والعياذ بالله يا أبو الحميدي، بس صاحب الجلالة السلطان فنر يظن، أني من جماعة خزعل، وأنا، وأنت تعرف، لا من جماعة خزعل ولا من جماعة غيره. حنا تجار، على باب الله، نبيع ونشري، ولا حنا جماعة أحد، بس أولاد الحرام، ولا أكثر منهم. فحتى الواحد ما ينحسب على هذا أو ذاك يوصي جماعته، الناس اللي اشتغل معهم.

زفر أبو الحميدي، وقال، وخرج صوته ثقيلاً:

ـ إذا المسألة هالشكل، ما يخالف!

عمر الطريفي الذي درس القانون في استانبول، وأقسم ألا يعود إلى العوالي إلا بعد زيارة باريس، لكي يقضي أياماً في بلاد الحرية والعدالة والمساواة، وقد فعل، عاد في تلك الفترة المضطربة، وظل يبشر الناس أن الغد سيكون أفضل من اليوم، إلى أن وقعت معركة الطريفة الفاصلة، وما رافقها من كلمات كبيرة، إضافة إلى سيول الدماء، فالتحق، مضطراً، بابن ماضي، وظل ابن ماضي حريصاً عليه ما دامت العوالي تعني له شيئاً، ثم تخلى عنه وعن العوالي، فعاش ابن الطريفي خائباً منتظراً إلى أن جاءته الساعة التي اعتبرها مناسبة، هزيمة البداوة أمام الحضارة: ذهاب خزعل ومجيء فنر، خاصة وأن فنر، قدّم وعداً أكيداً: الدستور، والدستور يحكم بين الجميع.

عاد الطريفي. عاد إلى أرضه ووطنه، بعد أن أكله الحنين، وامتلأ بآمال انتظرها طويلاً. الآن يبدأ الدستور، ويعرف كل مواطن ما له وما عليه، هكذا قال فنر.

بدت له الطريفة مسكينة مسبيّة. وبدا له الناس متعبين تائهين، لم يصدق ما رأته عيناه. هل يمكن لهذا العدد القليل من السنين أن يغيّر الناس والأشياء بهذا المقدار؟ وإلى أين؟ إلى الوراء؟ أو الأسوأ؟ هل يعقل هذا وهل يصدقه أحد؟

كتم غيظه وقال للكثيرين: فنر أعطى كلمة: الدستور. لنصدق. الدستور أمر كبير ويجب أن تثقوا. إذا حصلنا على الدستور حصلنا على نصف الحقوق، أما النصف الثاني فإنه يحتاج إلى الجهد والعرق... والعقل.

وظل ينتظر.

بعد أن مرت سنوات قال لابن أخته الذي كان يستعد للسفر إلى باريس من أجل دراسة القانون:

ـ لو تفكر بدراسة غير هذه الدراسة...

وحين انفتحت عينا الشاب باستغراب، تابع عمر الطريفي:

ـ كلمة واحدة استنفدت عمري كله لكي أعرف معناها، وها أنذا أغادر الدنيا دون أعرف: الدستور.

وابتسم بحزن وأضاف كأنه يكلم نفسه:

ـ لكن ما يخالف لازم يبقى كم واحد من المجانين يتكلمون بلغة غير عادية، لا لكي يحققوا جنونهم، وإنما ليفضحوا الآخرين الذين يقولون كلمات لا يعنونها.

زعم بعض الذين عرفوا عمر الطريفي أنه حين جاءته الوفاة، وقد حصل ذلك في عهد فنر، أنه كان يردّد، أو يهذي، بكلمة واحدة: الدستور، الأمر الذي أغضب بعض رجال الدين، فصرخ أحدهم: أذكر ربك يا ابن الحلال، واترك كلام الشياطين!

عمير الذي أطلق سراحه مُنع من الإقامة في عين فضة، ورتبت له إقامة في موران، بحجة التكريم، وإن كان الواقع الحقيقي أن يكون تحت الرقابة المباشرة. قال لعدد من الذين زاروه بالعيد الصغير، وقد تطرق زواره، بشكل متعمد، إلى أن فنر غيّر الكثير، خلافاً لخزعل، وأن الناس يشعرون بالفرق بين ما كان، وما هو قائم الآن:

ـ قولوا اللي تقولونه، بس يلزم تعرفون: الكلب أخو السلوقي، والعرق دساس. ووين ما راحت مردها ذاك العرق!

أما شمران الذي لم يؤمل ولم يتوقع، وبعد أن قرر العودة إلى الزرنوق، فقد قال كلمة ترددت كثيراً:

ـ ما ينصلح آخرها إلا مثل ما انصلح أولها، واتركوا كلام الهزل، وهذا وحده كلام الجد.

أما هاملتون الذي طرد من السلطنة بعد بضعة شهور من استلام خزعل للسلطة، وبعد أن سافر فنر إلى الخارج للراحة والعلاج، رغم توصيات السلطان الراحل أن يكرم الرجال الذي ساهموا بإقامة السلطنة، فإن قرار خزعل كان حاسماً وسريعاً. قال لزيد الهريدي:

ـ هذا اذا تركناه يسرح ويمرح، من ديرة للثانية، تراه يحوسها علينا. . .

ابتسم أضاف بسخرية:

ـ لا تصدق أنه يدوّر أصنام وسوالف من هذا النوع، وأنا أعرفه زين يا زيد: خبيث وعظمه أزرق. لا يحلل ولا يحرم؛ والغريب أن أبوي ما عرفه زين، لكن الأغرب أن فنر ما يطلع عن شوره، وأبد لا تصدّق يا زيد أنه أسلم أو صار ابن عرب، هذي سوالف. . .

وعاد إلى لهجة الحزم:

ـ كل ما يهمنا يا زيد هالحين أريدك تكظه كظة فار، وما تخلي له درب، ومثل ما وصل موران يطلع منها: يد من ورا ويد من قدام، وما أقبل كل شفاعة.

وغادر هاملتون إلى لبنان.

أما السنوات التي قضاها بين بيروت وبرمانا فليست كلها انتظاراً لرضا السلطان خزعل أو لوصول رسائل فنر ووعوده، إذ بعد عدة رسائل بعث بها، وقد تضمن قسم منها تهديداً لا يخفى، انصرف إلى الدراسات والكتابة. كان لديه الكثير ليقوله، وكان يهيئ نفسه منذ سنين طويلة لكي يتفرغ لهذه المهمة، وهو على قناعة أن عملاً مثل هذا، إذا تم إنجازه،

سيكون بالغ الأهمية والأثر في المرحلة الحالية وفي المستقبل.

كانت الدراسة الأولى: «مقدمة في تاريخ موران» وهي عرض تاريخي، استغرق التاريخ القديم الجزء الأكبر منها. ولقد هدف من وراء ذلك إلى تأكيد مفاهيم يرى ضرورة حسمها، فاعتمد، في جزء من هذه الدراسة، على كشوفه الأثرية، على أفكار وملاحظات تأكدت نتيجة إقامته الطويلة في الصحراء، ومعرفته لهجات البدو وأساطيرهم.

ثم كتب كتاباً آخر: «موران أرض ورجال» وقد تطرق في هذا الكتاب إلى الرحلات التي قام بها عدد من الرحالة الأجانب. ولأنه كان أول من قطع الصحراء من شرقها إلى غربها، فقد صحّح الكثير من المعلومات الخاطئة التي وردت في مذكرات هؤلاء الرحالة، اعتماداً على معاينة مباشرة، نتيجة المساعدات التي قدّمت إليه، عززتها معرفته للغة، وقياس المسافات بدقة، ثم إعداد خرائط لبعض المناطق. وفي هذا الكتاب وهو مزيج من الوصف والذكريات وبعض الصور، تطرق إلى بداية علاقته بالسلطان، ثم كيف تطورت هذه العلاقة ونمت واتسعت، وتوقف عند مرحلة معينة، معتبراً هذا الكتاب جزءاً أولاً سوف تتلوه أجزاء أخرى، وفي ذلك أكثر من إشارة. كان بمثابة رسالة واضحة للسلطان خزعل.

بعد ذلك التفت إلى الجانب الأثري في السلطنة، مرجئاً التاريخ المعاصر، ليعطي فرصة لأكثر من جهة، خاصة وأن عدة رسائل وصلته من فنر بعد صدور هذا الكتاب، وفيها يرجوه أن يؤجل الكتابة، خاصة في مثل هذه الموضوعات، «للضرورة». وحين استفسر عن هذه «الضرورة» أجيب إجابات متعددة، لكنها ظلت غامضة، أو غير دقيقة، وإن فهم منها أن فنر يعدّ لأشياء كبيرة!

لم يترك الأمور تمر هكذا. انه ليس مجرد متفرج عادي، أو إنسان لا يملك سوى الانتظار. ففي مقابلة صحفية، وباعتباره خبيراً بهذه المنطقة، أشار، دون أن تكون إشارته إجابة عن سؤال محدد، إلى وجود مصاعب وتناقضات كبيرة، وأنها لن تمر هكذا، ولن تنتهي بهدوء أو بسلام. ولم يتطرق إلى تفاصيل أكثر.

هذه الإشارة أفزعت فنر قبل أن تفزع أي إنسان آخر. حتى السلطان الذي نقل إليه ما ورد على لسان هاملتون، علق بمرح:

ـ إذا الواحد قلّ عزمه وراحت عليه يطول لسانه وتكثر طلايبه!

وابتسم وقد تذكر أموراً كثيراً، ثم أضاف:

ـ واليهودي إذا أفلس يدوّر على دفاتره العتيقة.

فنر بعث إليه يونس شاهين، أو بالأحرى أبدى يونس شاهين استعداده لأن يقوم، أثناء زيارته للبنان من أجل اقتسام تركة مع اثنين من أخوته، بالاتصال مع هاملتون، وأن يعمل على تهدئته وامتصاص غضبه، مع جملة من الوعود والعواطف.

ولأن بين الرجلين من الفروق الكثير، فقد كانت رسالة فنر الشفوية سبباً إضافياً لأن يبعث هاملتون برد جاف: «إذا لم نلتق، وافهم منك شخصياً، فإنني غير قادر على الاستمرار بالصمت، لأن الواجب وطبيعة المرحلة، إضافة إلى قناعاتي، يملي عليّ أن أحلل وأفسر الأمور ضمن ما أعتبره أكثر صواباً».

ورغم اللوم الضمني الذي لم يخفه فنر، وهو يستوضح من يونس شاهين عما دار بينه وبين هاملتون، فقد بعث إليه يشعره أنه سيتوقف في القاهرة، أثناء عودته من الولايات المتحدة، بعد أن يجري فحوصات طبية ضرورية، ويقترح عليه أن يتم لقاؤهما هناك. إلا أن رسالة عاجلة وصلت لاحقاً من راكان غيّرت الكثير من خطط فنر، الأمر الذي اضطره إلى العودة مباشرة إلى موران. ومرة أخرى بعث نصّار برسالة جديدة لهاملتون، يعتذر فيها عن التعديل في برنامج الرحلة، لأمور طارئة، مع وعد أن يبذل أقصى الجهد لتأمين لقاء قريب، ومن جديد يرجوه أن يضبط نفسه، وأن يمتنع عن الإدلاء بأية تصريحات أو أقوال ربما يكون لها تأثير سلبي!

بعد انتظار طويل، ومرارة، لا يمكن إخفاؤها بسبب التأجيلات المتلاحقة، تم اللقاء بين فنر وهاملتون في جنيف.

المرة الأولى التي يلتقي الرجلان بعد سنوات من الغياب القسري.

كان اللقاء حاراً، أقرب إلى النشوة. في الليلة الأولى، وفي لحظات كثيرة، كان الاثنان يتبادلان النظرات المليئة بالود والمفعمة بالذكريات، ويشعران أنها تكفي، وتغني عن الكثير من الكلمات الكبيرة التي يتبادلها عادة الذين يلتقون بعد غياب طويل.

وفي هذه الليلة تعمد الاثنان ألا يخوضا في السياسة أو في الأحاديث الجادة، لكن كلمات كثيرة، كانت أقرب إلى الذكرى، وشت بما وراءها، وبدا وكأن الاثنين يستعدان لجولة طويلة، وربما مريرة، من الأحاديث الجادة، خاصة وأن الموفدين أو الرسائل خلقوا من المشاكل أكثر مما ساعدوا في حل المشاكل السابقة.

وفي الليلة الأولى تعمد الاثنان أن يشربا. شرباً أكثر مما تعودا في الأيام العادية، ولأنهما لم يحرصا كثيراً فقد أفلتت بعض الكلمات، كانت تتجاوز العتاب إلى اللوم.

قال نصار العديلي، مرافق الأمير فنر، لفوزان الشارخ، قريبه، ومدير مكتب الأمير:

- ترانا، يا فوزان، لا شفنا ولا سمعنا، لأن طويل العمر، أصعب ما عليه، بليلة مثل ليلة الأمس، أن تقول له: قلت وقال.

وخاطب نفسه، لكن يريد فوزان أن يسمع:

- وطويل العمر، هالحين، شوره من رأسه، وما هو مثل قبل، وصاحبنا يظن الأمور مثل ما كانت.

في الأيام الثلاثة اللاحقة عقد الأمير وهاملتون خلوات خاصة، لم يحضرها أحد. صحيح أنها اقتصرت على فترات قبل الظهر، لأن الأمير أبدى رغبة أن يتعرف على جنيف وما حولها، وقابل عدداً من المعارف والأصدقاء، وقد جاء بعضهم خصيصاً للقائه، إلا أن هذه اللقاءات كانت كافية لأن يتبادل الاثنان العتاب، والمعلومات، وأن يتفقا أيضاً على خطط للمستقبل. خاصة وأن لقاء اليوم الثالث كان قصيراً، وأقرب إلى استعادة ما تم الاتفاق عليه، لأن الأمير سافر قبل ظهر ذلك اليوم متوجهاً إلى باريس بناء لموعد سابق.

يمكن أن يتذكر نصار بعض ما حصل، وقد يستنتج، أو يتخيل! وفوزان مثله يستطيع أن يفعل ذلك اعتماداً على ملاحظاته، وعلى الأوراق التي أودعها لديه الأمير، وقد سلّمها إليه بطريقته، إذ قال، ويدا فوزان ممدودتان لاستلام الأوراق:

ـ وهذي مكانها مع الأوراق الخاصة، حقتي، وما أريد أوصيك!

وفوزان يفهم هذه اللغة، من النظرة، دون كلمات، لأن الأمير اختبره، بأشكال متعددة، فتولدت الثقة، وأصبح فنر متأكداً أن كلمات محدودة لفوزان كفيلة بأن تجعله مثل دجاجة وصيصانها، إذ يكون حرصه مبالغاً فيه، وتجاهله مفضوحاً، وخوفه من الأمير لا يخفى.

هاملتون كتب في يومياته: «. . . في حالات معينة يفضّل الإنسان أن يعيش في الماضي وعلى الذكرى، لأن الماضي، رغم صعوباته، كان شيئاً واقعياً ملموساً، وقد تكوّن وحصل تحت سمع الإنسان وبصره. والذكرى هي تلك الصورة التي انبنت في الذاكرة ذرة فوق أخرى، حتى أصبحت بهذه القوة وبهذا الرسوخ.

الماضي والذكرى زاد الإنسان وسبب بلائه، إذ بمقدار ما فيهما من قوة، ويولدان الثقة في النفس، ويجعلان حتى الحياة الصعبة أكثر سهولة، فإنهما يخدعان ويخلقان من الإشكالات والمصاعب، والمفاجأة أيضاً، ما يجعلان الإنسان أقرب إلى الاستغراب والحيرة.

المدة الطويلة، الأقرب إلى العمر، التي قضيتها مع فنر، تبدت لي، خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وكأنها تنهار تماماً، أو تحتجب دفعة واحدة، وخلال ثوان. ومن أعماق العين، ينبثق شيء آخر: حياة مختلفة، وإنسان جديد، وكأن لا صلة بين الحياة التي كانت، ولا صلة بالإنسان الذي كان.

هل أنا مخطئ؟ هل كنت متوتراً ومنفعلاً إلى درجة جعلتني لا أميز؟ هل تغير فنر بهذا القدر؟

وأنا، هل أعتبر نفسي ذلك الموتور الذي يبحث عن الثأر، ولا يرى شيئاً غيره؟ ولماذا أخذت المناقشات هذا المجرى، وجعلتنا، مرة أخرى،

متقابلين، وكل منا يبحث عن المبررات أو الأفكار التي تجعله أقوى، أو كأنه يريد أن يهرب من شيء يخاف منه أو لا يصدقه؟

«لو أتيح لي أن أبدأ من جديد لبدأت بشكل مختلف، خاصة بعلاقتي مع فنر، فهؤلاء البدو، في لحظة معينة، يصبحون شديدي الخطر، وهذه اللحظة التي تموه نفسها كثيراً، وقد تأخذ عدة أشكال، هي لحظة إحساسهم بالقوة وأنهم ليسوا بحاجة إليك. قبل ذلك يبدون بمنتهى الود والكرم، ويغيّبون أشخاصهم تماماً، لكي تكون أنت عقلهم ولسانهم، وكل شيء بالنسبة لهم، لكن ما يكادون يصلون إلى ما يريدون حتى ينسوا كل شيء، ويصبحوا نمطاً آخر من البشر».

«خريبط ظل حتى أيامه الأخيرة بحاجة إلى المساعدة والمشورة، وكان، ببساطة، يسأل عن الأشياء التي لا يعرفها لكي يتعلمها، وعن الآخرين لكي يعرف كيف يتعامل معهم. لا يخجل، لا يتكبر، ولا يتردد أن يفعل ذلك أمام الآخرين».

«فنر الذي بدأ خجولاً، متعثراً، والذي أخذ يتعلم بجهد، وقد بذلت من أجل ذلك كل جهدي ووقتي، أراه الآن إنساناً مختلفاً. فيما علّمته من وصايا وأساليب، وتلك الترجمة المبكرة «للأمير» التي وضعتها بين يديه، وحاولت معه بكل الوسائل لكي يتعلم اللغة الانكليزية، ولأن يتخطى الخجل والتردد في علاقاته مع الآخرين، خاصة مع الأجانب، بدا لي خلال الأيام الثلاثة، وكأنه يطبّق علي الوصايا والأساليب التي تعلّمها مني، وزاد عليها ما تعلمه من الآخرين. أصبح أكثر مكراً، وأقل رغبة في أن يخوض بشؤون المستقبل، كما أنه كلماته القصيرة زلقة تحتمل تفسيرات كثيرة، وتترافق مع تلك النظرات المفكرة المغادرة دائماً، وكأنه يخاف أن تلتقي نظراتنا، خلافاً لفترات سابقة».

«كان يتمنى أن تنتهي لقاءاتنا بأسرع وقت ممكن، هكذا أحسست، دون دليل مادي ملموس، ولكن هذا الإحساس ملأني تماماً. أعرف حالة الضجر أو الضيق التي يعاني منها الإنسان حتى لو أراد إخفاءها. أعرف أن الابتسامات أو المجاملات تخفي وراءها ما لا يريد الإنسان أن يقوله، حتى

ولو بطريق الخطأ أو المزاح. ولذلك كانت تتشعب الأحاديث بسرعة، ويدفع بعض الأمور إلى الظل، كما كان يثير ذكريات وأحاديث جانبية، ويسترسل ويسأل، وكأنه يريد أن نبقى في الماضي».

«لعبت معه اللعبة ذاتها، ورغم ذكائه، فقد كنت أكثر منه ذكاء، بحكم الثقافة وفارق العمر، ولذلك بدا محرجاً بعض اللحظات، اعترف أن خزعل لن يبقى سلطاناً. اعتقد أنه ما كان ليصرح لي بذلك لولا الخوف الذي لا يزال في أعماقه، نتيجة علاقتنا السابقة، ولأنه لا يقوى على الكذب إلى النهاية».

«تركت، وترك متعمداً، الكثير من النقاط دون إجابات كاملة أو دقيقة، لعل الفترات القادمة تتيح لنا إمكانية أفضل لمناقشتها».

«كان يريد أن يؤكد لي، بشكل مسرحي، أن الإهانة التي لحقت بي، نتيجة إبعادي عن البلاد، هي السبب الذي دفعه لأن ينتقم. صدقته، وبالغت في إظهار تأثري، وبضرورة الانتقام، لكي أعرف تفاصيل أكثر، لكن مثل عادته، تجاوز هذه النقطة إلى أخرى، إلى ثالثة، وعندما حاولت إعادته إلى الطريقة التي سينتقم من خزعل، أو ما يجب أن أساعده، عن طريق علاقاتي وخبرتي، فقد قال لي كلمة موجزة: «الطريقة الوحيدة ألا تكون موجوداً في الصورة، لأن العيون كثيرة، وحتى اجتماعنا هذا اليوم لا بد أن يصل إليه، وربما يؤخر أو يمنع ما يجب أن نفعله». هؤلاء البدو يسري المكر في دمائهم، إنه دائم الحركة، دائم الاستعداد لأن يعبّر عن نفسه بأشكال لا حصر لها، وإن كانوا يخفونه، كما تختفي الدورة الدموية».

«لو تركت بعض المفاتيح عندي لاضطر فنر، أو غير فنر، أن يعود إليّ، لكن حين سلّمت له كل شيء، لا أملك شيئاً ان فتح الطير، أو الحيوان، القفص، وانطلق إلى حيث يريد، إلى حيث يجد أن ذلك أكثر ملاءمة له».

«أتذكر الآن تلك الحكمة الصينية: «ان تعلّم الإنسان صيد السمك خير ألف مرة من أن تعطيه سمكة كل يوم». لقد قتلتني هذه الحكمة، كنت

أفترض أن الإنسان المتعلم، الذي يتقن اللغة، ومن كانت له علاقة بالآخرين، خاصة الأجانب، يمكن أن يكون إنساناً أفضل لأن أتعامل معه، لأن يساعدني. الآن اكتشفت أن مثل هذا الإنسان، عندما امتلك الأدوات كلها، لم يعد بحاجة إليّ، تجاوزني ليبحث عما يراه ضرورياً ومناسباً له بمعزل عن آرائي وما أريد».

«لقد علّمت فنر صيد السمك، وعلّمته أيضاً أين يوجد السمك، وتخليت عن أدوات الصيد كلها، فهل يحق لي الآن أن ألوم أحداً؟»

«قد أبدو متشائماً، وقد أشعر بالخيبة نتيجة تجارب معينة، لكن الأمر لم يصل إلى هذا الحد بعد، ويجب ألا أدعه يصل، خاصة وأن فنر، بالإضافة إلى الجانب السياسي، ترك في نفسي شعوراً بالاعتزاز، فقد تأكدت أن تعب الإنسان، أياً كانت النتائج بالنسبة له، لا يذهب سدى، ولا يمكن أن ينتهي إلى الخواء واللاجدوى. فنر كإنسان، الآن، يتمتع بمزايا كثيرة لم أكن أتوقع أن تظهر فيه بهذه القوة أو بهذه السرعة. ولولا المرض، الذي قد يعيقه، وربما أيضاً يطبع الكثير من تصرفاته، فإن شخصه وسلوكه يلفتان النظر، ولذلك يحق لي أن أفخر، كالأب الذي يفخر بأبنائه، رغم الخلافات، وهي دائماً موجودة، وبعض الأحيان كبيرة، بين جيلين، وبين عصرين».

«وفي هذه اللحظات المنفعلة التي أكتب عن انطباعاتي قد أراجعها في الغد، وأندم، أشعر أن خسارتي الحقيقية، إذا جاز لي أن أستعمل مثل هذه الكلمات، هي دورثي ومايكل، هل فقدتهما إلى الأبد؟ هل أستطيع أن أستعيدهما؟ وماذا يجب عليّ أن أفعل؟»

«إذا أهين الإنسان من الصعب أن ينسى. أنا، بمعنى ما، رجل مهان، ولا أريد أن أكتب أكثر من ذلك، لكي لا أحتقر نفسي».

وافترق الرجلان، على أنهما متفقان، فانصرف هاملتون إلى الكتابة، وعاد فنر إلى موران. ومرت أيام كثيرة. أصبح فنر سلطاناً. فوجئ هاملتون ولم يفاجأ. انتظر أن يبعث فنر وراءه، لكن فنر، ربما في زحمة الانشغال، أو لأسباب أخرى، نسي! ولم ييأس هاملتون، ظل ينتظر، وظل متفائلاً!

وبعد أن بعث عدة برقيات ورسائل، للتهنئة أولاً، ثم يعرض خدماته، وأخيراً يطلب زيارة موران، ولم يتلق رداً إلا مرة واحدة، إذ أبلغه السفير «أن مفاجأة كبيرة تنتظرك، ولا بد أن تصبر قليلاً، حتى يحين وقتها المناسب» ومثل طفل انتظر واحتمل، وظل متفائلاً، إلى أن جاءه الموت في إحدى الليالي واختطفه.

حين بلغ فنر خبر وفاته، ضرب على ساقه وقال أمام الكثيرين:

ـ لهْ لهْ لهْ...

وأضاف بعد قليل:

ـ سبحان الله، كان ببالي اطرّش نصار أو أحد الخويا هالجمعة حتى يجيبه ويجي... لكن الدنيا ما لها أمان.

وحين خيم الصمت، بدأت تتراءى له صورة هاملتون، كانت صورة مضطربة غائمة بعيدة، لم تكن واضحة، ثم توارت خلف غيمة من الدخان، وفيها قطرة صغيرة من الدمع!

الشهور والأسابيع الأخيرة، التي سبقت استيلاء فنر على السلطة، كانت عصيبة، إذ بعد الزيارات التي قام بها لأنحاء متعددة من السلطنة، والاتصالات التي أجراها، وكانت لا تخلو من التعريض والسخرية لطريقة خزعل في الحكم، وبعد أن تعبأ الجو تماماً، خاصة حين تم الاتفاق مع حماد المطوع، فإن التوتر الذي سيطر على فنر وصل إلى درجة التردد ثم الخوف، وإذا كان قد تحصن بالصمت خلال الفترة الأخيرة، ولجأ إلى عدم الظهور، وبعض الأحيان إلى التخفي، فإن صمته أخذ يفضحه، وغيابه يثير التساؤل، لكن ثروت وموضي كانتا قريبتين.

فحين أصبحت فريزة خانم، بعد إنجاب ثروت لولدها الأول، المسؤولة عن تربية الأطفال، لأن ثروت زادت أعباؤها ومسؤوليتها عن الطفل الكبير، فنر. إذ بالإضافة إلى غلبة السوداوية على مزاجه، أخذت حالات المرض تعاوده، وأخيراً جاءت الأسفار، وترافق ذلك كله مع فيض من الهذيان الذي يتفجر كل ليلة، تقريباً، من خلال الأحلام والكوابيس، الأمر الذي أصبح يخيف ثروت أكثر من أي شخص آخر.

قالت لأمها ذات ليلة:

ـ إذا كان لخزعل أحد بقصرنا، وينقل له اللي يسمعه، فالله يعلم إذا مسّينا ما نصبّح...

كانت شاحبة، ظاهرة الخوف والتعب، لأنها لم تعد قادرة على النوم في أغلب الليالي، كما لجأت إلى إخلاء عدة غرف مجاورة لغرفة النوم. لقد فعلت ذلك لأنها لم تعد أمينة أن لا يصل صوت فنر إلى هذه الغرف،

حيث كانت المربيات والخادمات، رغم أنها بذلت جهداً خارقاً في انتقاء هاته النسوة.

ردت فريزة خانم في محاولة لأن تخفف عن ابنتها:

ـ القصر أمين يا بنتي، وناسه أوادم، والنوم إذا حطّ يغرق الجمل.

تنحنحت وخرج صوتها مصقولاً:

ـ أغلب الأوقات الواحد مثل ما ينسى أحلامه ينسى الكلام اللي يسمعه وهو نايم!

وتغير صوتها وهي تسأل:

ـ وبعدها القصة ذاتها، ما تغيرت؟

ـ بعدها وزادت أكثر من قبل!

وتابعت كأنها تكلم نفسها:

ـ قلت له: صحتك، الله يسلمك، أغلى شي علينا، وأهم ما في الدنيا، ولازم تترك هذا المجنون، خزعل، وكل سوالفه، والمُلك أولها وتاليها واصلك، إذا ما هو اليوم اللي عقبه، وأنت اليوم بالنسبة للسلطنة كل شي، وخزعل، بليّاك، ما يقدر يسوي شي، لكن يناظرني ويسكت، وإذا هذا الحيط ينطق ويقول هو تطلع منه كلمة.

قالت فريزة خانم بغيظ:

ـ هذول الرجال مثل الأطفال قدر ما تعرفيهم ما تحزري عليهم!

ردت ثروت بحزن:

ـ وهذا خزعل ما يوقّر أحد، وإذا صبر اليوم ما يصبر اللي بعده، وأنت أعرف الناس: أولاد الحرام ولا أكثر منهم، فأخاف أحد، مريّة أو رجّال، إذا أعطوه، إذا طعّموه، يشيل روحه ويروح لخزعل ويقول له: بقصر السعد صار كذا وكذا، وفنر سوى كذا ويقول كذا، وتقع.

لقد وقعت سابقاً عدة مرات بين الاثنين. وفي كل مرة تنتهي بانسحاب فنر، يحزم حقائبه ويغادر، غاضباً أو يائساً. وكانت ثروت، خلال أيام قليلة، تلتحق به. أما الأولاد فكانوا يتركون لدى جدتهم. وفريزة خانم مثل

الدجاجة القوية، والتي لا تخلو من دهاء، تعرف كيف تسوس الأمور: تقبل هدايا خزعل وعطاياه بمودة وامتنان، لكن تعرف كيف ترفض الانتقال من الطريفة إلى موران. وكان لديها دائماً أسبابها المقنعة: الربو، الحرارة، دراسة الأولاد. وخزعل الذي يتذكر الأمر فترة، ويلح عليه، لا يلبث أن ينساه. حتى إذا تعثرت الأمور، وخلا الصندوق، وغاب ابن العليان في تلك الأسفار التي أخذت تمتد وتطول، وبدأت موران تململ، ويظهر ذلك أكثر ما يكون من صمت الناس، أو من خلال النكت التي لا يُعرف من أطلقها، لكن سرعان ما تنتشر، وتتحرف، لكي تصبح كلها في النهاية تعني قصر الغدير، ثم الخالدية بعد ذلك، ولتطال خزعل بالذات...

عندما تصل الأمور إلى هذا الحد، ويتفرق أولاد خريبط ما بين الأسفار الطويلة أو القنص، ويُنقل إلى السلطان ما يدور في المقاهي والمضافات، عندئذٍ كان يزفر ويخرج صوته عميقاً من صدره، وكأنه يخرج من بئر عميق:

ـ كلها شغلة هذا الخبيث: فنر.

وبعد فترة صمت طويلة، والجميع حوله صامتون، يقول بصوت متآمر:

ـ لازم يجي، لأنه إذا جا يدبر الأمور، ويظل تحت أنظارنا. أما وهو بعيد فيظل يحوص ويلوص.

وصدف أكثر من مرة، أن جاء فنر وحده، وصدف أن جاء بناء لإلحاح الأخوة، وبعد أن زاره عدة موفدين بعثهم السلطان.

ثروت ما دامت بعيدة، ورغم شوقها للأولاد، ورغبتها أن تكون سيدة القصر الأولى، إلا أنها صحتها في هذه الأسفار تتحسن وتنعكس على جمالها ومرحها، فتبدو أكثر تألقاً، أكثر فتوة، كما تميل إلى المزاح، وهذا ما كان يخفف عن فنر، وينسيه بعض الأحيان، خاصة تلك الكوابيس التي كان تشغل معظم لياليه.

ولما كان فنر قد تعوّد الصمت حتى أدمنه، خاصة حين يكون في السلطنة، فكانت تفلت منه، بعض الأحيان، كلمات، تعرف ثروت كيف

تلتقطها، وتجمعها إلى جانب بعضها بصبر، حتى إذا شكّلت موقفاً أو فكرة دفعتها إلى مكانها المناسب، لتستخرجها مرة أخرى، حين تحتاج إليها، بعد أن تتراكم فوقها معلومات. وبطريقة بسيطة، لكن لا تخلو من مكر، تعرف كيف تحاوره وكيف تواصل معه الحديث. في حالات عديدة كان يفترض أنها لا تعرف مثل هذه المعلومات، لأنه لم يقلها لها مباشرة. لكن كان يعزو ذلك إلى هذيان الليل، أو حين يفرط في الشراب، وبعد أن ينظر إليها بطريقة خاصة، يضيف كلمات أخرى في نفس الموضوع، ثم ينتقل إلى آخر!

وشيئاً فشيئاً، أصبحت ثروت وجهه الآخر. لقد تعلمت هذا الدرس من موضي إلى أن تفوقت عليها. وتذكرت أمها حين كانت تلحّ عليها لكي تصبح مثل موضي، وكيف تدخل إلى قلبه، لتعرف ما يدور في رأسه دون كلمات، بأقل الكلمات. أصبحت تلك النصيحة ذكرى بعيدة، لأنها تجاوزتها لكي تصبح كل شيء بالنسبة له.

قالت لأمها والسلطان خزعل يستعد للزواج من سلمى المحملجي:

ـ هذا آخر زواج له وهو سلطان...

ابتسمت بخوف والتفتت، فهي لا تقوى على إخفاء مثل هذا السر، ومع ذلك تريد من أمها أن تستعد فيما لو تعقدت الأمور، أو أخذت مجرى آخر، نتيجة خطأ، وتريد أيضاً ألا يقع هذا الخطأ، خاصة ممن حولها، على شكل تعليق ساخر أو شتيمة، فيشي بما وراءه.

ردت فريزة خانم:

ـ هذول، يا بنتي، تعودوا، حتى لو قالوا: هذا الأخير؛ لأن ما يمر شهر شهرين إلا وينسون، ويبدون من جديد!

وحين ظلت ثروت صامتة، واكتفت بهزات ساخرة من رأسها، سألت الأم:

ـ هو اللي قال إنه آخر زواج؟

قالت ثروت في محاولة للتمويه:

ـ هو وغيره، يا ماما!

لقد انتظر فنر طويلاً. الحيرة لا تزال تأكله، والخوف يجعل تفكيره مضطرباً أقرب إلى الشلل. «ماذا لو عرف خزعل؟» «ماذا لو فشلت المحاولة؟» وهؤلاء الذين تحدث معهم، اتفق معهم، ماذا لو نقلوا لخزعل ما يفكر فيه وما يخطط له؟

يتذكر، قبل سنين، حين بدأت العواصف تثور حول السلطنة، أن هاملتون قال له:

ـ يجب الحذر الشديد في أواخر الليل وعند الفجر، لأن في الليل المتأخر تبدأ القطعات العسكرية بالتحرك، وعند الفجر تصل إلى حيث يجب أن تكون، بما في ذلك الإذاعة؟

وحين لم يفهم بدقة ما يرمي إليه هاملتون، وتساءلت عيناه، أوضح هاملتون:

ـ على الحاكم أن ينام قبل الآخرين وأن يستيقظ قبلهم، لأن الذين يستيقظون مبكراً يستطيعون أن يفعلوا شيئاً: أن يمنعوا انقلاباً ضدهم، إذ يمكنهم أن يتحركوا بسرعة، وإذا لم يحالفهم الحظ، يكون لديهم متسع من الوقت لكي يتواروا عن الأنظار، ليهربوا، وعند ذلك تكون أمامهم فرصة ثانية، أو على الأقل يمكن ان ينجوا بأرواحهم!

ومرت في ذاكرته صور الانقلابات التي حصلت هنا وهناك. كان يقرأ تفاصيلها بكثير من العناية والشغف، يريد أن يعرف كل شيء، لا لكي يطبقها، وإنما لكي يمنع وقوعها، فهو يبقى، مهما اختلف مع خزعل، شريكاً في السلطة، وإذا أسعفته صحته لا بد أن يصبح سلطاناً بعد أخيه، فهل وصل به الأمر الآن لأن يفكر بالانقلاب؟ إن هذه الوسيلة الملعونة إذا مكّنته من الوصول، فإنها تفتح الباب عريضاً لكل واحد آخر يمتلك عدداً من الدبابات والرجال والبنادق أن يفعل مثله، وعندئذٍ يكون كمن فتح باب الجحيم، وترك الشياطين تخرج من أوكارها لتفعل كل ما تريد.

قال لأخيه مساعد الذي جاءه واقترح عليه أن يتم اغتيال خزعل:

ـ مجنون أنت؟

ولما فوجئ مساعد برد الفعل، قال بتلعثم:

ـ لأنه إذا ما تحركنا غيرنا راح يتحرك، طال عمرك، وهذول إذا تحركوا يذبّحونا كلنا، ما يخلّون منها مخبر.

رد فنر، وكانت لهجته لا تخلو من لوم.

ـ صحيح أننا مختلفين مع خزعل، وخزعل خرّب الأول والتالي، لكن ما وصلت بينا أن الواحد يذبح الثاني...

وبعد قليل:

ـ وهذا الكلام ما أريد أسمعه منك نوبة ثانية يا مساعد!

قال مساعد بضيق:

ـ الواحد ما يقول هذا الكلام، طال عمرك، إلا لأنه انشق كبده، ولأن اللي سوّاه خزعل ما نزل بكتاب ولا يشيله عقل!

وتغيّرت اللهجة:

ـ صار الغُرب هم اللي يحكمون ويرسمون، وحنا، أولاد خريبط، مثل الأيتام، لا نحكم ولا أحد يسمعنا؛ وهالحين مثل ما تشوف ومثل ما تسمع: المحملجي ما هو بس مستشار طويل العمر، راح يصير نسيبه وعمه، وحنا إذا كنا نقدر نقول له يصير وما يصير، لا بالله بعد اليوم يلزم نقول له: اللي تؤمر، وأمرك، واللي تريده يصير على العين والراس.

رد فنر بحدة ونزق:

ـ اتركنا من العظريط، هذا على مريته ما يمون!

ـ بس هذا اللي راح يتحكم بروسنا، يا طويل العمر!

ـ خلنا من هذي السوالف هالحين، بس أنت قوِ أعصابك، وقوِ قلبك، وما يصير إلا الخير.

ـ أعصابي قوية، طال عمرك، وقلبي صخر جلمود، بس خلي غيري تصير أعصابه قوية ويقوي قلبه.

كانت الكلمات الأخيرة تحمل تعريضاً لا يخفى، وفنر الذي احتملها وابتسم، أدرك ان استمراره في موقف الانتظار والتأجيل يمكن أن يدفع الآخرين للتحرك، لعمل شيء، كما أن طاعة الأخوة له، والهيبة التي تميزه بالمقارنة مع غيره، قد تتلاشيان، أو لا يعود قادراً على الاستفادة منهما.

قال بعد فترة صمت طويلة:

ـ بلغ راكان وسند وميزر وحمود أنهم يمرون بي المسوّيات، وتعال معهم، وعساها تنفرج!

موران التي أخذت باحتفالات الزواج، وانشغل الناس فيها بمتابعة الألعاب النارية وفرقة موسيقى القصر، وقد لبس أفرادها ثياباً جديدة ملونة، وتابع الكثيرون سباقات الخيل والهجن، وحضر قسم منهم الولائم التي أقيمت، وخرجت النسوة مع الأطفال إلى الشوارع، وتجرأوا في الوصول إلى أسوار القصر، وراقبوا السرادق الكبير بوجوه نصف مكشوفة، دون خشية من لوم الرجال أو تعنيف الأزواج والأخوة، ثم المراهنات التي جرت بين الكثيرين حول عدد أيام التعطيل والمنح التي ستعطى للموظفين... كل هذه الأمور جعلت الناس يكفون عن مراقبة بعض، أو عن الاهتمام بالأشياء الصغيرة والعادية. وكان هذا كافياً لأن يلتقي أولاد خريبط دون خشية أن تصل أخبارهم إلى السلطان. وأن يلتقوا أيضاً بآخرين، وأن يتفقوا معهم على أمور كثيرة.

ما كادت حفلات الزواج تبدأ، ومعها الأصداء والولائم والصخب، حتى توارى فنر. غاب تماماً. قيل انه ذهب إلى عين فضة، وقيل إنه ذهب إلى القنص، لكن ما هو مؤكد أنه غاب وعدد من الأخوة. صحيح أنهم هنأوا السلطان بزواجه، وقدم بعضهم هدايا بهذه المناسبة، إلا أن الكثيرين انسحبوا دون أن يحس بهم أحد.

حين تقرر سفر السلطان، وكانت موضي أول من عرف، ذهبت بنفسها إلى الرحيبة لتبلغ فنر، وقد كانت من القلائل الذين يعرفون مكانه. قال لها أو قال لنفسه، ولم تفهم معنى الكلمات بدقة:

ـ هالحين تحددت ساعة الصفر!

أما حين تقرر أن يسافر السلطان قبل ظهر يوم الخميس، فقد أرسل فنر مرافقه نصار ليعتذر عن عدم الحضور لوداع السلطان بسبب انحراف الصحة. كان يخشى أن تفضحه عيونه، أن يجرحه صمته، وكان يريد أن يتأكد أيضاً من آخر التفاصيل التي تسبق الحدث الكبير.

ومرة أخرى تذكر كلمات هاملتون حول النوم المبكر والاستيقاظ قبل الفجر، وإذا كان قد حاول النوم، فإنه لا يتذكر أن غفوة، ولو صغيرة، زارت عينيه، رغم أنه شدّ العينين كثيراً، أكثر مما يفعل في العادة، لكي ينام. وفي هذه الظلمة البراقة سافر كثيراً وحلم كثيراً، لكن خوفه كان أكثر، وقد لاحظ أن دقات قلبه أصبحت قوية صاخبة، أما عندما سمع الأذان فقد نهض مثل قط، ولم ينتظر لترتفع الشمس لكي يتوجه إلى موران.

النقطة الوحيدة، وربما الأخيرة، التي شغلته: هل ينتظر انقضاء اليوم كله، والليلة التي تليه، وإلى أن يأتي الفجر، لكي يعلن أن السلطان خزعل قد عزل، وأنه أصبح السلطان، أم يتجاوز طريقة الانقلابات التي قرأ عنها الكثير، ويعلن في وضح النهار، أمام جميع الناس، أنه أصبح لهم سلطاناً جديداً، بعد أن عزل السلطان الذي كان؟

بعد سنين، قال فنر بنشوة، وهو يتذكر:

ـ . . . ولو صبرنا عليه سنة ثانية كان خرّب الأول والتالي، وكان صرنا كلنا اثر بعد عين، لأنه بآخر أيامه صار مثل الجمل الهايج، ولأن اللي حوله بس يهزون رؤسهم ويوافقون على كل اللي يقوله، وما هو بس كذا، صار كل واحد منهم مستشار وهو اللي يؤمر وينهي!

من الأوامر الأخيرة التي أصدرها زيد الهريدي، قبل أن يغادر مع السلطان: حجز الشيخة إلى ما بعد السفر. وقد استدرجت أمي زهوة بطريقة لا تخلو من مكر، وحبست في قصر الروض، في جناح كان ذات يوم مستودعاً، وظلت خمسة أيام بعد سفر خزعل، لأن أحداً لم يتذكرها في خضم الأحداث الكبيرة التي وقعت.

عصر اليوم الخامس أفرج عنها فنر. فعل ذلك بكثير من الانفعال والغضب، إذ قام، يرافقه عدد محدود من الحرس، وفتح بنفسه بوابة المستودع، ولأنه لم يسمع صوتاً خلال اللحظات الأولى، وكان الظلام في الداخل كثيفاً، فقد ظن أن الشيخة غير موجودة، أو أنها فارقت الحياة.

قيل إنه بكى وهو يقبلها ويعتذر منها، وأكد لها أنه لم يعرف بالأمر إلا قبل لحظات، حين سأل عنها يريد أن يزورها. أما قبل أن يغادر المكان، ويصطحب معه الشيخة، فقد أمر بإنزال مائة جلدة بكل واحد من الحرس الذين كلفوا بحراستها!

الشيخة، وهي تدخل قصر السعد، وبعد أن عرفت بتنحية خزعل، ملأت القصر بزغاريدها! كان صوتها ضعيفاً منهوكاً، أقرب إلى مواء قطة مسنّة، لكن خلال لحظات اشتركت معها نسوة أخريات، وترافق ذلك مع إطلاق الرصاص، فامتلأ القصر بالخوف، أول الأمر، ثم بالفرح، بعد أن تبين السبب!

في اليوم التالي، ولعدة أيام لاحقة، كانت الشيخة بملابس زاهية تتنقل، كالبطة، بمشيتها البطيئة المضطربة، في جميع أنحاء القصر، وعلى غير عادتها كانت ترفع يديها بالتحية، ليتبيّن كل من يراها الحناء الذي ملأ اليدين، ولأن تهاني أسرفت في وضع الكحل حول عيني الشيخة، فقد بدا

الوجه وكأنه عينان كبيرتان، أما العصا التي كانت تسبقها وتنذر باقترابها، فكانت غير تلك القديمة المسودة، إنها عصا جديدة بلون خشب الزان، وكانت هدية من فنر.

رغم إلحاح فنر أن تبقى، ورغم مظاهر الاهتمام والتكريم التي كانت تحيط بها، وهذا ما جعلها تستعيد جزءاً من عافيتها وقوتها، فقد أصرت الشيخة على أن تعود إلى قصر الروض، إلى «بيتها»، كما قالت لنصار الذي جاء كرسول أخير يرجوها أن تبقى.

في قصر الروض، ولثلاثة أيام متوالية، بدت الشيخة، وحدها، سيدة القصر: استقبلت بالذبائح وإطلاق الرصاص. أمرت أن توزع الهدايا والأعطيات، أمرت بذبح أعداد كبيرة من الغنم والجمال وأن توزع لحومها في موران كلها. قال حرس القصر وعدد من الخدم أنهم لم يشهدوا سخاء مثل هذا إلا مرات قليلة، وأثناء انتصارات خريبط، وبالغ بعضهم فزعم أن مثل هذا الكرم لم يظهر حتى من خريبط ذاته.

بعد هذه الأيام بدأ يعود قصر الروض إلى حياته السابقة، وكان من الطبيعي أن يحصل ذلك، لأن الأحداث والأخبار، وحتى الشائعات، لم تعد تقع فيه أو تصدر عنه، وإنما في القصور الأخرى، منذ أن هجره معظم ساكنيه، وقد فعلوا ذلك بشكل متلاحق وسريع بعد وفاة السلطان خريبط. وبمرور الوقت لم يبق في القصر إلا المسنون، والذين لم يجدوا أمكنة أفضل، أو أولئك الذين تعودوا عليه وأصبح جزءاً من حياتهم وملامحهم. ويوماً بعد يوم أصبح قصر الروض قديماً متعباً، أقرب إلى الهرم. حتى الأحداث التي تقع خارجه لا تصل إليه إلا أصداء وبعد مرور وقت غير قصير.

الفترة الواقعة بين الإفراج عن الشيخة ثم اختفائها الكامل من الغموض والتداخل إلى درجة، لا يمكن لأحد أن يقطع برأي. فما عدا الأسبوع الأول، أو على التحديد الأيام العشرة التي أعقبت إطلاق سراحها، وقد حفلت بالعطايا والزيارات والضجة، فإن ما تلا ذلك أقرب إلى التقدير أو الافتراض.

قيل إنها نذرت الصيام العمر كله، إذا قُدّر لها أن تعيش. الصيام ليس فقط عن الأكل وإنما عن رؤية الناس أيضاً، وها هي تعتبر النصف من شعبان الوقت المناسب لتنقطع عن العالم وتنصرف إلى التعبد، لأن الأشباح التي طوقتها في محبسها، والأصوات التي كانت تسمعها طوال الأيام الخمسة، جعلتها تحسّ بالخوف والإثم معاً، وتريد الآن أن تطهّر روحها قبل أن تنتقل إلى الدار الأخرى.

وقيل إنه المرض، إذ بعد أن رفضت الأكل طوال الأيام الخمسة، وتحاملت كثيراً على نفسها، لكي تظهر قوية، ولتفرض إرادتها من جديد، لم تلبث أن سقطت، وقد تكتمت، وفعل ذلك كل من حولها أيضاً، لتبقى بالصورة التي رآها عليها الكثيرون. ومما يعزز احتمال المرض أن نعوّم قضت بضعة أيام في الجناح الغربي، وأنها استعانت باثنتين، ممن يعملن معها في حمام القصر، لتدليك الشيخة ثم حجمها، وقيل إنها كوتها أيضاً.

بعض الذين سمعوا الحديث يدور عن مرض الشيخة، وبالتالي احتجابها، وما رافق ذلك من تكتم، ضحكوا كثيراً وهزوا رؤوسهم سخرية، لأنهم كانوا على ثقة أن وراء هذا الغياب أموراً خطيرة وليس لها علاقة بالمرض أبداً! يستدلون على ذلك من وصول مزهر العطيفي، المنجم، وفاتح الرمل الذي تعرفه موران كلها، وهو الوحيد الذي تنبأ بقرب وفاة السلطان خريبط، وقيل إنه أسرّ بتلك النبوءة، بعد تردد وامتناع طويلين، إلى اثنين: الشيخة والأمير خزعل، وقد طلب منه أن يغادر قصر الروض فوراً وأن لا يبوح بذلك لأحد. وأكد بعض الحرس أنه أرسل إلى الحويزة مع رسالة إلى أميرها أن يستبقيه هناك، وأن لا يسمح له بمغادرتها إلا بأمر لاحق. مزهر العطيفي الذي غاب عن قصر الروض طوال الفترة السابقة، شوهد من جديد ولمرة واحدة في القصر، ثم اختفت آثاره تماماً بعد ذلك.

ولأن الأمر تشعب في اتجاهات عديدة ومتضاربة، من مداهمة لقصر المحمجلي، والاستيلاء على حاجات عديدة خاصة، بما فيها ملابس للثلاثة، الأب والأم وعروس السلطان، وقيل ان جزءاً منها أحضر إلى قصر

الروض، بناء لطلب مزهر؛ ولأن كميات من النباتات الطبية حملت إلى القصر، ولم يعرف ما إذا كانت للعلاج أم لأغراض السحر. ثم وصول عدلة وبقاؤها يوماً كاملاً في جناح الشيخة، مع لغط تزايد كثيراً قبل مغادرتها بساعة، إذ وصلت عدة سيارات من قصر الغدير، وفيها عدد من أبناء السلطان خزعل، وقد بدت على ملامح الجميع مظاهر الغضب، ثم مغادرتهم السريعة بعد ذلك، جعل الكثيرين يحارون في تفسير ما يجري، خاصة وأن تهاني غادرت مع هؤلاء، وبدت مضطربة وهي تسير بينهم. أما الذي تلا ذلك من إشاعات عن احتمال وصول السلطان فنر، وأن مصالحة سوف تتم بين الأخوة، بعد أن ظلت عدلة تبكي من لحظة وصولها، وتتوسل، وربما لتعيد خزعل، فقد حمل الشيخة على أن تستجيب، وقد عزز توقعاً مثل هذا أن موضي وصلت فجأة عند الغروب، وقيل إن السلطان أرسلها نيابة عنه، لأن المفاوضات لا تزال، حتى الآن، تجري بين النساء، ومن الأنسب أن تكون موضي المفاوض نيابة عنه.

وفجأة ينتهي كل شيء، إذ يغادر الزوار ويغرق الجناح الغربي في الصمت، ولا يعرف ما تم الوصول إليه. وتبدأ بعد ذلك الفترة التي يحيط بها الغموض.

تهاني لم تتكلم أبداً، خوفاً أو عجزاً، ولهذا سيبقى الأمر سراً إلى الأبد، ولا يمكن لأحد أن يجزم تماماً بما حصل. لكن، مع ذلك، فإن الخدم والحرس، قدروا أن شيئاً ما وقع في اليوم الأول، واستكمل في الأيام الثلاثة اللاحقة، لكن يبقى، مع ذلك، كل تفسير قابلاً للنقض والرفض بأدلة قوية معاكسة.

أكثر من هذا أن الكثيرين، حتى بعد مرور فترة طويلة، يصرّون، وبقناعة أكيدة، على أن الشيخة لا تزال على قيد الحياة. صحيح أن أحداً لم يرها، لكن أن توقد أنوار القصر كل ليلة، وأن تسمع بعض الأصوات في ليالٍ معينة، خاصة ليالي القمر، أدلة لا تقبل الشك على وجودها. أما عدم رؤيتها، أو عدم ظهورها فلا يتعدى الرغبة التي سيطرت عليها في أن تبدأ ذلك الصيام الطويل لما تبقى لها من سنوات العمر.

ولأن هذا التفسير أتى من جهة قصر الغدير، ويروج له الذين لا يزالون على ولائهم للسلطان المعزول، ولنفي أية علاقة بما تردد بعد ذلك، فإن آخرين يؤكدون أن عدلة التي وصلت إلى الجناح الغربي من قصر الروض، لم تأت من أجل الزيارة، أو تعبيراً عن المودة، كما لم تأت للاعتذار عما بدر من السلطان، أو بالأحرى من المرافقين والحرس، وإنما جاءت لمهمة محددة: أن تخدّر الشيخة، وقد فعلت ذلك بكثير من البراعة والمكر، إذ وضعت لها مادة في الشاي الذي شربته، ولما تأكدت من نجاح مهمتها جاء عدد من أبنائها ومعهم حرسهم، وخلال دقائق معدودة أكملوا المهمة، وانتهى كل شيء.

مقابل هذا التفسير يتردد على ألسنة خدم قصر الخالدية: إن الشيخة نُفيت، أو ربما قتلت، بأمر من السلطان فنر ذاته، لأنها رفضت البقاء بقصره، وأصرت على أن تعود إلى قصر الروض، ثم حين أمرت، زيادة في تحديه، بذبح الخراف، وكأنها تريد أن تعيد لقصر الروض المكانة التي كانت له. أما مجيء موضي، عند غروب ذلك اليوم، ولم تدم زيارتها إلا وقتاً قصيراً، فكان بمثابة الإنذار الأخير: إما أن تكفّ الشيخة نهائياً عن التدخل في شؤون القصر وإلا...

قيل إن الشيخة لم تكتف برفض التهديد، إذ لم تسمح لموضي أن تتم رسالتها، ومما يؤكد افتراضاً مثل هذا أن موضي تعثرت وهي تصعد إلى السيارة نتيجة الانفعال، بينما قالت قطمة لإحدى خادمات العنود، أن سيدتها لم تتوقع وجود عدلة عند الشيخة. لذلك انسحبت بسرعة لكي لا تختلف معها، رغم محاولات الشيخة استبقاءها!

أما ما ظهر من غنى ورفاه على عدد من الأمراء بعد فترة من غياب الشيخة، فإن بعض الذين يميلون إلى تفسير الأمور تفسيراً سيئاً، يؤكدون علاقة هؤلاء بغيابها، أو حتى بمقتلها، ثم الاستيلاء على ما كان عندها من أموال. خاصة وأن تهاني لم تعد إلى قصر الروض إلا بعد أيام من مغادرته، ويظن أنها هي التي أبلغت عن مكان وجود ذهب الشيخة وجواهرها، والسيوف الذهبية التي كانت تحتفظ بها. فعلت ذلك نتيجة

السحر الذي عمله لها مزهر العطيفي، والذي استدعي لا ليشفيها من الأوجاع التي ألمّت بها بعد ان حبست، وإنما لأسباب أخرى!

ولأن لدى موران الكثير مما يشغلها أو تتلهى به، ولأن عدداً كبيراً من الذين رافقوا السلطان خزعل في سفرته إلى بادن بادن بدأوا يعودون، ورافق عودتهم الكثير من اللغط والتوقع، فقد تراجعت الأخبار والشائعات المتعلقة بالشيخة، لتحل مكانها أخبار وشائعات أخطر منها: عادت طلائع خزعل، وهو سيعود بين يوم وآخر. ومما ساعد على انتشار هذه الأخبار التعزيزات والتحصينات التي أقيمت حول عدد من قصور الأمراء، وعودة الدبابات إلى حراسة قصر السعد، إضافة إلى معلومات، لم تتأكد، حول اعتقالات وإعدامات نتيجة اكتشاف محاولة لاغتيال السلطان فنر.

ومثلما حصل في مرات سابقة، خاصة أثناء التغيرات الكبيرة، وما كان يرافقها من مخاوف وانتظار، فإن موران بدأت تتوقع وتراقب وتنتظر.

لكن خلافاً للمرات السابقة، حيث كان الخدم والحرس، إضافة إلى النساء، هم الذين يتولون تسريب الأخبار، وبأشكال لا حصر لها، وكان يجري في سوق الحلال إعادة ترتيبها ضمن انساق يمكن في النهاية استنتاج ما تحمله من مغزى ودلالات، فإن قصر السعد هذه المرة غرق في الصمت تماماً، وقيل إن عدداً من الحرس استبدل أكثر من مرة نتيجة هفوات صغيرة، وأشرف حماد المطوع بنفسه على ترتيبات الأمن، بما فيها التحريم الكامل أن تنتقل أية أخبار عن القصر، حتى أسماء الذين يزورونه، وأسماء الذين لا يأتون. لذلك فإن أي خبر ينتشر في موران يمكن أن يكون صحيحاً ووقع بالفعل، ويمكن أن يكون مجرد شائعة.

عبد المولى الذي انتقل مع حماد المطوع من جهاز الأمن والسلامة إلى وزارة الداخلية، وسُمّي في هذه الفترة مديراً لمكتب الوزير، كتب إلى مسؤولي الجهاز، بناء لأمر الوزير، ما يلي: «... ويراقب مسؤولو الجهاز مرؤوسيهم بدقة عن تنفيذ التعليمات السابقة، ويعتبر المسؤول نفسه معرضاً للعقاب الشديد في حال تسرب أية أخبار، مهما كانت، عن القصر، وعن صاحب الجلالة السلطان بالذات، وعن الأمراء».

«ويحظر على منتسبي الجهاز تقديم أية تفسيرات للأخبار التي يتداولها الناس، مهما كانت الظروف».

«ويحظر على منتسبي الجهاز إقامة أية علاقات مع الأجانب وزوار موران، ويلزم التبليغ عن أية صلات سابقة».

«ويطلب من كل مسؤول أن يقدّم تقريراً أسبوعياً عن العناصر التابعة له، وسوف نوافيكم، في بلاغ لاحق، بالنموذج الذي يجب اعتماده في إعداد التقرير المطلوب».

«يعتبر مساء السبت، الساعة التاسعة، موعداً ثابتاً ودورياً لاجتماع مسؤولي الجهاز، دون حاجة لإشعار لاحق. ويكون الاجتماع في شعبة العمليات والمتابعة».

لقد فعل حماد المطوع ذلك بناء لأمر مباشر من السلطان. قال السلطان فنر في اجتماع ضمهما وحدهما، وقبل تسميته وزيراً للداخلية:

ـ . . . وما يحتاج أن أحد يوصيك يا حماد، ومثل ما قالوا جماعتنا من قبل: اقطع رأس تموّت خبر، فابتداء من اليوم، كل واحد، خاصة من الجهاز، ينسمع عنه أنه قال كلمة واحدة، ما أريدك ترحمه، ويلزم تخليه عبرة لمن يريد يعتبر. . .

تنحنح فخرج صوته حاداً:

ـ وأنت تعرف: أهل موران، ما عندهم غير السوالف، ويعرفون شلون يجرون الواحد حتى يطلّع اللي ببطنه، ودايماً يأخذون أسرارهم من زغارهم، يدورون الحرس والمرافقين والناس اللي حوالينا: ها من زار القصر اليوم؟ مع من تغدى عمك؟ شلون جا فلان وشلون طلع؟ ومن هذي السوالف يبنون علالي وقصور، ويعرفون الأول والتالي. . .

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ فأريدك يا حماد تقطع دابر كل واحد من هذول. أريد الواحد منهم أخرس حتى لو قطعت رأسه، وأريد سوالفنا تظل بينا، وما تتعدى القصر أبد.

تطلع فنر ملياً إلى حماد، وابتسم، ثم قال بصوت متآمر:

ـ ولأنا نثق بك يا حماد، وجربناك وعرفناك، فأريد منك تساعدني، وأريد أمون عليك، وأحمّلك فوق ما تحمل: مع الجهاز أريدك تكون وزير للداخلية، وابتداء من اليوم ما يطير طير فوق السلطنة إلا وتعرفه وبأمرك، والرجال للأحمال، وعسى أن الله يوفقنا!

لقد اعترف حماد بما دار في هذا اللقاء، بعد سنتين، لتركي السقيّان، حين سُمّي الاثنان سفراء في وزارة الخارجية. تمهيداً لاختيار الأمكنة التي تناسبهما. قال ذلك بمرارة، وهو يستعرض الفترة السابقة كلها.

أما الإجراءات التي اتخذها، خاصة لحماية أسرار الدولة، كما وصفها لكبار معاونيه، فلم تترك أحداً صديقاً له، إذ بالغ كثيراً فيما يعتبره سراً، ولم ينج أحد من عقابه، إذا كان تابعاً له، أو من الملامة، وحتى المساءلة، إذا كان من الإدارات الأخرى.

قال شداد المطوع تعليقاً على ما سمعه في مقهى زيدان، وقد انتشر فيه المخبرون، وحين سأل أحد الجالسين حوله عن أخبار موران، فاكتفى هذا بجواب مختصر: هز كتفيه وضحك بسخرية، قال شداد موجهاً الخطاب إلى الكثيرين:

ـ ابن أخوي يريد الناس جيران مقبرة: لا يتكلمون، لا يتزاورون، ولا أحد يعرف الثاني، لكن هذي موران: إذا الواحد ما طلّع اللي بقلبه يموت حسرة أو يهجّ...

وأضاف بعد قليل بحزن:

ـ وظني أن ولد اخوي ما يعرف موران ولا يعرف أهلها، واللي يعيش يشوف!

وموران التي انكفأت على نفسها، وغطّت وجهها بطبقة سميكة من الصمت، عرف الناس فيها كيف يهجرون المقاهي والمضافات المفتوحة، ليستبدلوها بوسائل أخرى تفننوا باختراعها، إذ بالإضافة إلى اللغة الجديدة التي بدأت تغتني كل يوم بمفردات وتعابير لا يعرف من اخترعها، فإن الراديو هذا الجهاز الذي دخل كل البيوت، وأصبح حتى الرعاة يحملونه أينما ذهبوا، غيّر كل شيء.

قال زيدان لعدد من الأصدقاء الذين يجلسون حول طاولته، في مقدمة المقهى، وأصبحوا جزءاً من أثاث المقهى:

ـ . . . وأولاد الحرام عيونهم مثل عيون الحرامية: يشربون ويمشون، ولا أحد منهم، في يوم من الأيام، يخطي ويمد يده على كيسه ويقول: هذا حق المشروب. . .

وضحك بسخرية ثم تابع بحسرة:

ـ قلنا أول شهر شهرين: ما يخالف، زكاة، وإن ما كانت تحلّ عليهم، لأن غيرهم يكّفي ويوفي. لكن مثل ما تشوف عيونكم: أولاد الحلال، اللي يشربون ويدفعون ما عادوا عتّبوا قهوتنا، وما شفناهم، وظل هذول اللقامة بوجهنا، فيلزم ندوّر شغلة ثانية!

ولم يتأخر زيدان لأن يحوّل مقهاه إلى فرن، سماه فرن الأصدقاء، وإن ظل أهل موران لا يعرفونه إلا بفرن زيدان.

أما الراديو الياباني الصغير فقد حل مكان سوق الحلال والسوق القديم، وبين يوم وآخر تغيرت موران. فالصمت الذي بدأ يملأ شوارعها خلال ساعات النهار، تحوّل إلى دوي يملأ لياليها، وترافق ذلك مع النكت والتعليقات الساخرة. كان الناس يسمعون أخبار موران من الإذاعات الخارجية، حتى خلاف الأخوة، وانتقال خزعل من مكان إلى آخر، كانت تصلهم من بعيد، فإذا صدف أن فتح أحد على إذاعة موران، وغالباً ما يكون ذلك بطريق الخطأ أو لحب الاستطلاع والفضول، فلا تلبث أن تنهال عليه التعليقات الساخرة: «اتركنا، يا ابن الحلال، من هذا الكذوب» «تركت إذاعات الدنيا كلها وفتحت إذاعة أكلك منين يا بطة».

قال زيدان يوصي صديقاً يريد أن يسافر أحد أقربائه إلى اليابان:

ـ وأريد تكلّف لي قرابتك، ما دام رايح لليابان، أن يطرّش لي راديو زين زين، وادفع له، مهما كان.

وخفض صوته، صار متآمراً:

ـ بس بشرط. . .

وتابع بتآمر أكثر:

ـ الشرط أنه ما يجيب موران!

ـ عمر الطريفي الذي جلب معه دساتير اثنتين وعشرين دولة، وقيل أنه أعد مشروعاً لدستور، وقد صودرت هذه الدساتير، مع مكتبته الكاملة، قال لرئيس المفرزة التي داهمت بيته بمرارة وسخرية معاً:

ـ يا وليدي أنت مأمور، وما لك ذنب، بس يلزمك تعرف: الدنيا اليوم ما هي مثل قبل، الدنيا صارت صغيرة. إذا أخذت هذي الكتب ترى مثلها بالآلاف، والكتاب قبل ما يخلص ينطبع مرة وثنتين وثلاث. وإذا ما وصل بأول يوم يصل ثاني يوم، وإذا ما نقرا اليوم ينقرا عقبه، وإذا ما قريته أنت يقراه غيرك. وكل ما أريده منك أن تحمل الكتب على مهلك، وتوّصلها للي يلزم تصل له. وبهذا وحده أعتب عليك وألومك إذا أخطيت.

ورئيس المفرزة الذي تظاهر، أنه لم يسمع هذه الموعظة، استشاط غضباً حين أوقع أحد عناصر المفرزة كمية من الكتب وداس فوقها. قال، وخرج صوته حاداً:

ـ لا تدوس عليها، يا ابن الحرام، لأن بكل صفحة منها مكتوب اسم الله، فخاف الله يسخطنا!

قال عمر الطريفي:

ـ مهما حاول الواحد يهرب من الشمس والقمر، لكنهم فوقه، وما يقدر يغيرهم أو يوقفهم، والأحسن والأسلم أن الواحد يمشي ممشى زمانه!

وبعد قليل وكان يحدث نفسه، ولا يهمه إذا سمعه أحد أو لم يسمعه:

ـ والدستور ما منّه، إذا ما جا اليوم يجي اللي عقبه، بس ما أدري ليش اللي يحكمون يكذبون هالكثر!

قال قائد المفرزة بغضب مبالغ فيه:

ـ خفّوا أيديكم، ورانا ألف شغلة غير هذي الشغلة، وأهم منها!

نمر، ابن شمران العتيبي، قال للسجناء الخمسة الذين كانوا معه، وبعد أن انتزع من أذنيه سماعات الراديو، وقد دفع من أجل الحصول عليه كل ما

أخذه من بدر، في زيارته الأخيرة. دفع المبلغ، وكان كبيراً، ثمناً للجهاز ورشوة للحارس الذي جلبه:

ـ ولولا مية سبب وسبب يظن الواحد أنه بقهوة زيدان!

رد أحد السجناء الخمسة:

ـ لا بالله، وأنت الصادق، يا أبو شمران، يظن روحه بقصر السعد. . .

وبعد قليل وبسخرية:

ـ هات علمنا علومك، شنهو اللي سمعته، من أول الليل إلى هالحين؟

وبدا نمر، مثل عادته:

ـ إليكم أولاً، يا جماعة الخير، الأخبار. أخبار موران اليوم أن المعاهدة التي وقعها فنر نيابة عن السلطان خريبط مع الولايات المتحدة قبل عشر سنوات، تم تجديدها اليوم، ولمدة عشر سنوات جديدة.

أما التعليق، يا جماعة الخير. . .

قال أحد السجناء مقاطعاً وبسخرية:

ـ ونريدك، يا أبو شمران، مثل ما تحفظ الأخبار وتعيدها، أن تحفظ الأغاني، وبين نشرة ونشرة، ومن صوتك الحلو، مجموعة أغاني وتقاسيم.

ـ وتريدنا نسمعه، يا ابن الحلال؟

هكذا سأل سجين آخر، وكان لا يتكلم إلا نادراً، وأضاف بعد قليل وهو يقهقه:

ـ لو سوّاها أبو شمران كان ثاني يوم يفرجون عنا، أو يهدمون السجن فوق روسنا!

قال نمر بغضب:

ـ والله يا خنازير ما تستاهلون إن الواحد يتعب روحه لأجلكم!

وظلت موران تدور في هذه الحلقة الرجراجة، وظل الناس ينامون على آخر نشرات الأخبار، ويستيقظون على أول النشرات، وقد امتلأوا قناعة أن شيئاً ما لا بد أن يحدث!

الزيارة التي قام بها ليفي شاوات، كنائب لرئيس الوفد الذي أبرم صفقة السلاح مع سلطنة موران، غيّرت الكثير من أفكاره ومشاريعه.

قبل الزيارة كان يخطط لشراء مزرعة في كاليفورنيا لكي يستقر فيها، بعد أن تعب من الانتقال من قارة إلى أخرى، إلى ثالثة، حتى استقر في هذه الشركة. لكن والسنوات تمر، والأعمال المكتبية تحاصره، ثم تلك الاجتماعات والمناقشات ودراسة العقود التي لا تنتهي، جعلته يحس أن صدره يضيق، وحياته تتبدد. الآن يريد أن يتصرف، بما تبقى له من سنوات، بطريقة مختلفة، يريد أن يعمل بيديه. وبعد أن يتعب، أو ينتهي من العمل، يجلس في الشرفة لكي يتأمل ويستعيد حياته كلها، والتي تبدو له في لحظات كثيرة غير قابلة للتصديق، لفرط ما عانى وما رأى، حتى إذا جاءه الموت ذات يوم يترك لأولاده وأحفاده شيئاً ثابتاً وقوياً، ولم يجد أقوى وأكثر ثباتاً من مزرعة كبيرة في هذه البقعة من العالم.

هكذا كانت تنساب أفكاره، وكانت أقرب إلى الحلم، وفجأة، ولا يعرف كيف، تغير كل شيء دفعة واحدة.

لا يمكن أن تكون الأحاديث التي تبادلها وغزوان في مكاتب الشركة، ثم في الرحلة الطويلة التي حملتهما إلى موران، السبب وراء القلق ثم الحيرة وأخيراً التغير الذي سيطر عليه، وحرك شيئاً في داخله.

إذا أراد أن يعتبر لحظة بذاتها أثرت عليه، وجعلته يعيد النظر بكل شيء، فهي بالتأكيد تلك اللحظة التي لامس فيها وجهه هواء موران. كان الهواء دافئاً، أقرب إلى اللفح، وهو الذي أشعره بالتغير، بشيء جديد. أو ربما انبعثت، في تلك اللحظة، رائحة شيء أحبه عندما كان صغيراً، وربما

تراءات له صور يعرفها أو رآها من قبل، وقد يكون أحد أو شيء تكامل في ذاكرته تلك اللحظة وأقنعه، وإن كان بشكل غامض، أن هذا ما يريده وما يبحث عنه.

طوال رحلة العودة، وفي محطات الطريق، خاصة في باريس، لم يترك فرصة إلا واستغلها لكي يبحث مع غزوان إمكانية أن يبدآ معاً عملاً، وأن يكون مجاله موران. ربما لاحظ علاقات غزوان ونفوذه، وربما أغراه هذا المجال الذي لم يفكر فيه من قبل، أو بالأحرى لم يفكر أن يتجاوز دوره في قسم مبيعات الشركة. الآن، بعد أن رأى، وتعرف، وسمع الكثير، وقد ساعدته معرفته للغة العربية، وكان في جزء هام من المفاوضات، خاصة مع المسؤولين الكبار، المترجم الأساسي، وبعض الأحيان الوحيد مع غزوان، وما قيل من أمور على هامش المفاوضات، تبدي له أنه قادر على القيام بأعمال كثيرة تتجاوز حراثة الأرض، وقيادة التراكتور، ثم انتظار الثمار لكي تنضج.

وحتى إذا أراد أن يصبح مزارعاً، في أخريات أيامه، وأن يترك شيئاً وأثراً يفتخر به، ثم يواصل أولاده وأحفاده، من بعدهم، التفاخر به، فإنه سيكون أقدر، بما لا يقاس، إذا استطاع أن يستغل بمهارة مجالاً يمكن أن يحقق له في عدد قليل من السنين، وربما بضعة شهور، ما لم يستطع أن يحققه طوال عمره.

في باريس، المكان الذي عرفه وأحبه في سنوات شبابه، اقترح على غزوان أن ينفصلا عن الوفد، وأن يقضيا معاً عدة أيام.

بسهولة اتفقا، ولم يجدا صعوبة أبداً في موافقة رئيس الوفد على أن يتأخرا بضعة أيام، خاصة وأن رئيس الوفد كان لديه الكثير من المشتريات من باريس أولاً، ثم لديه الرغبة أن يكون الأول، والوحيد، الذي يعرض النتائج التي توصل إليها، دون أن يكون مضطراً، حتى من خلال النظرات، لاستئذان أي من الاثنين اللذين ساهما معه في هذا النجاح.

عامل المعرفة؟ السن؟ الخبرة؟ ما الذي سهّل له أن يصل وغزوان إلى اتفاق كامل على ما يجب أن يعملاه في المستقبل؟

الأيام الأربعة في باريس كانت كبيرة وحاسمة: «يمكن أن نبقى لشهرين أو ثلاثة شهور في الشركة، لكن خلال هذه الفترة، وبهدوء، نهيئ الجو لأن نترك، ونهيئ أنفسنا لأن نبدأ العمل الجديد. يمكن أن نضع جزءاً من خبرتنا وعلاقاتنا في خدمة الشركة ولمصلحتها، «ثم أن رئيس مجلس الإدارة يعرف أني أنوي الاستقرار في كاليفورنيا، وأريد أن أبدأ عملاً جديداً» «ووالدي قال لي: يجب أن تبدأ عملاً خاصاً بك، لأن الوظيفة، مهما كانت كبيرة، ليس لها مستقبل» «ويمكن، كبداية، أن نعمل في مجالات بعيدة عن السلاح، خاصة وأن فرص العمل في السلطنة، كما بدت لي، غير محدودة، بدءاً من توريد الطعام وانتهاء بالهدايا للقصور» «كانت الهدايا مؤثرة وموضع اعتزازهم، حتى السلطان، وهو يقلب البنادق، كان بادي السرور» «ويمكن أن تتنوع الهدايا في المستقبل، وتثير الإدهاش» «وهي بنظرهم تعبير، كما أخبرني الوالد، عن المودة ومدى الاهتمام» «وفي المستقبل سوف تتجاوز الأشياء المادية إلى هدايا من أنواع أخرى!».

وغزوان الذي كان يفضل البيرة، وشرب مرة أو مرتين النبيذ الأبيض، خاصة وهو يأكل السمك في المطعم، بدا مأخوذاً بليفي شاوات وهو يتنقل به في باريس من مكان لآخر، ويصرّ على أن يدفع، ويفتح أمامه الطرق بلغته الفرنسية الواثقة، ثم يختار، في الليلة قبل الأخيرة، غزالتين، كما كان يطلق على تلك الحسناوات الصغيرات والشقيات! وتعرف الغزالتان كيف تكسران آخر مظاهر التردد.

بعد سبعة شهور، طويلة وصعبة، وافقت الشركة على قبول استقالة ليفي شاوات. وافقت لكن بشروطها: «أن يبقى المستر شاوات مكلفاً بتنفيذ العقود السابقة، وبالتالي موظفاً في الشركة من أجل تنفيذ هذه العقود، وليس له صفة مستقلة؛ وأن يكون من حق الشركة أيضاً إيفاده بمهمات، وبأجور مقطوعة، إلى البلدان المتكلمة بالفرنسية أو العربية، وبصفته مترجماً، دون أن يكون له حق الاعتراض، أو المطالبة بالنسبة المقررة لعقود من هذا النوع».

وافق ليفي شاوات، وصفى علاقاته، وافتتح مكتباً في سان فرانسيسكو، وبدأ بإعداد الملفات ومراجعة السابقة. ورغم التفاؤل، لا يريد أن يغامر، ولا يقوى أن يبدأ، كما فعل قبل عشرين سنة، حينما كان مجرد بائع، وليس له مهمة سوى الاتصال، وعرض سلعه، واستعمال كل براعته لإقناع الزبون بالشراء. إنه متأكد أن موران تحتاج إلى كل شيء، ليس موران وحدها، وإنما المنطقة كلها، لكنه يحتاج إلى «مفاتيح»، يحتاج إلى الآخرين، ومن هناك، لكي يقدموه، ليس كمجرد بائع، يحمل في حقائبه السلع، وإنما كرجل أعمال، بإمكانه أن يؤمن كل شيء، كما يقال في التعبير الذي صار متداولاً: من الإبرة إلى الطائرة.

اليانور، إحدى القريبات، أصبحت السكرتيرة في «الشراكة العالمية للاستيراد والتصدير». فتاة في العشرينات من عمرها. قطة في وداعتها، وفي قدرتها على أن تعرف البشر، خاصة من يحبونها، ويمكن أن تطمئن لهم. جميلة، لكن ليس إلى الحد الذي يجعل الشباب في شوارع سان فرانسيسكو يصفرون إذا مرت. ومع ذلك، وإذا ألفها الإنسان، إذا تمعن بملامحها، يكتشف اتساق الملامح، والابتسامة الحلوة، الأقرب إلى الخجل، وكأنها، حين تبتسم، تحس بنوع من الذنب أو العري، إضافة إلى ذلك الجسد المغري، الأقرب إلى السمرة الهادئة الرقيقة.

عندما التحقت اليانور بمكتب الشركة العالمية للاستيراد والتصدير، كانت خارجة لتوها من تجربة حب مريرة: واحد من هؤلاء المجانين الذين يريدون أن يغيروا كل شيء في العالم، وكان يحلم أكثر مما يفعل الذين حوله، وأكثر مما يحتملون، وحين عجز عن إقناع اليانور أن تجن وتحلم مثله، ألقى بنفسه من فوق جسر سان فرانسيسكو، وغاب.

كانت متأكدة، وهي تحلم معه بعض أحلامه، إنها قادرة على ترويضه، كانت تتكلم بنفس لغته، وتؤكد أنها تريد ما يريده، ولكنها كانت تؤكد لنفسها أنها قادرة على استيعابه وإعادته إلى حيث يجب أن يكون. ولما اكتشف أنها تسخر منه، وأنها لا تعني الكلمات التي تقولها غادر بسرعة. ووافقت هي أن تكون مثل ما يريد الآخرون، ولذلك عندما عرض

عليها ليفي أن تكون سكرتيرة له، لم تتردد.

غزوان، وهو يتردد على الشركة العالمية، تعرف عليها. كانت مهذبة، لكن لم تكن رقيقة أو ودودة. كانت تؤدي عملاً، وليس لديها شيء آخر. ابتسم لها فهزت رأسها. حاول أن يفتح حديثاً، شاركت في الحديث عن الطقس والحوادث، ولم تشارك، أو لم تجب، عن الأحاديث الأخرى.

قال غزوان، بعد أسابيع لليفي:

ـ هذه الفتاة صعبة، ولا تريد أصدقاء!

ـ إنها تبحث عن الأصدقاء.

ـ حاولت معها، لكنها تبدو بعيدة وصعبة.

ـ الزمن يجعل البعيد قريباً، والصعب تروضه الحياة!

ـ إذن ليس عليّ إلا أن أنتظر.

ـ أن تبذل جهداً متصلاً، وأن لا تيأس!

ـ ليس لي القدرة على ذلك.

ـ يجب أن لا تعلن هزيمتك، حتى لو كنت مهزوماً، لأن المرأة، وربما الحياة أيضاً، لا تحب أن تتعامل مع الذين يعلنون هزيمتهم!

ـ نتكلم الآن بطريقة لا يفهمها إلا الفلاسفة والمجانين...

وبعد قليل وهو يضحك ويسأل:

ـ المهم بالنسبة لي كيف أروضها؟ كيف أصل إليها؟

زفر ليفي وقال بلهجة أبوية:

ـ حالما تقبل استقالتك من الشركة، وتأتي إلى هنا.

وضحك بثقة وأضاف:

ـ عندما تصبح في وجهها كل ساعات النهار، وبعض ساعات الليل، سوف تتعود عليك وسوف تحبك.

وابتسم وهو يضيف واصبعه في الهواء:

ـ ولا تظن أن كل النساء مثل تلك الغزالتين اللتين لم نستطع أن نتخلص منهما حتى في المطار ونحن نريد أن نسافر.

وبعد قليل، وكأنه يكلم نفسه:

ـ المرأة، خاصة حين تريد أن تكون أماً، تتصرف بطريقة قد لا يستطيع الرجل أن يفهمها بسهولة. إنها تريد كل شيء، ولا تريد شيئاً.

قال غزوان برخاوة:

ـ أنا لا أفهم هذا المنطق، ولا أتصور أنه يمكن أن يؤدي إلى نتيجة.

رد ليفي شاوات:

ـ لدينا الكثير لنتكلم فيه إذا جئت إلى هنا.

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

ـ وماذا عن الاستقالة؟ لقد تأخرت أكثر مما أتصور.

ـ وعدني المدير، بعد الكثير من محاولات الإقناع لسحب الاستقالة، أن يوافق عليها في مطلع العام، وبشروط:

ـ مطلع العام؟ وبشروط؟

ـ أي بعد شهرين، وأن أكون مستشاراً للشركة في العقود التي تبرم مع المنطقة...

ـ ووافقت؟

ـ ليس لي إلا الموافقة.

ـ مثلما وصلت إلى القرار الصحيح في هذا الموضوع لا بد أن تصل إلى قرار صحيح أيضاً مع اليانور.

رغم تأخر، بل وتعثر، الموافقة على استقالة غزوان، فقد بدأت الشركة العالمية بتقديم عروض وخدمات للسلطنة. صحيح أنها كانت عروضاً ثانوية، إلا أن الزيارات التي قام بها غزوان للسلطنة، أو الزيارات التي حملت بعض الأمراء وكبار الموظفين والضباط إلى الولايات المتحدة، جعلت ليفي شاوات أكثر ثقة وتفاؤلاً بمستقبل العمل. وجعلته أيضاً شخصاً مختلفاً عما كان قبل شهور قليلة.

يشعر ليفي الآن أنه أكثر شباباً وأقدر على الحركة، بل ويفكر بطريقة مختلفة عن السابق. القواعد التي تعلمها في وقت مبكر، حين كان موظفاً مبتدئاً في ادارة المبيعات، والذي أخذ يتخلى عن قسم منها، ثم آخر، ما دام يترقى في سلم الوظيفة، وتقل وتبتعد علاقاته المباشرة بالناس، وينصرف بشكل متزايد إلى العقود الكبيرة التي تهم الدول أكثر مما تهم الأفراد... هذه القواعد التي تراجعت وكادت تتوارى، بدأت ترفع رؤوسها من جديد، وبدأ يستعيدها، لكن ضمن نسق أكثر حيوية وقوة. إنه الآن يعمل لحسابه الخاص، وأية صفقة يعقدها لا تتلخص ولا تقتصر على الراتب الثالث عشر أو نسبة الثلاثة بالمائة.

لم يكن يفكر أبداً أن يقطع القارة من غربها إلى شرقها لكي يستقبل أحد الأمراء في نيويورك، وأن يقضي معه بضعة أيام، يكون خلالها مرافقاً ومترجماً، وفي الليل أنيساً ونديماً. إنه شيء جديد بالنسبة له، لكنه «مقنع وضروري، على الأقل في البداية» هكذا قال لنفسه في إحدى السفرات، حين وصل الأمير راكان إلى نيويورك، وجاء لاستقباله ومرافقته. صحيح أن الشركة طلبت منه ذلك، اعتماداً على الاتفاق الذي تم بينهما بالنسبة للعقود

القديمة، لكن الأصح من ذلك أنه عرف بزيارة الأمير من غزوان، وأنهما اتفقا على أن يكونا بمعية الأمير طوال زيارته، لأنها الفرصة المناسبة لانطلاق الشركة العالمية، والوصول إلى العقود الكبيرة.

ـ أسبوعان رائعان، لم يعش الإنسان مثلهما في حياته...

وأصبحت لهجة ليفي تقريرية أكثر:

ـ الأكل، الثلاث وجبات، جيد جداً، ممتاز. النوم في أغلى الفنادق وأرقاها. السفر بطائرة خاصة، المشروب...

وضحك بلذة ثم أضاف:

ـ وأهم من ذلك كله: الأحلام...

وتغيرت اللهجة:

ـ إذا تحقق جزء من هذه الأحلام، يا غزوان، فلا بد أن نصبح من الأغنياء الكبار خلال فترة قياسية، ودون أن نغادر مكاتبنا، أو أن نتعب كما كان يفعل الرأسماليون في بداية هذا القرن.

رد غزوان بثقة:

ـ وهناك فرص أخرى كثيرة يا مستر ليفي!

ـ ويجب أن يحسم موضوع قبول استقالتك، لكي نتحركَ بقوة.

ـ أبلغتني الإدارة أن الموضوع حسم من حيث المبدأ، وسوف تعرض عليّ أكثر من صيغة لاتفاق لاحق...

وضحك، وهو يتابع بمكر:

ـ لم أترك فرصة اجتماع الأمير راكان والمدير العام للشركة تمر. قال له الأمير: «... ونحتاج إلى غزوان في موران، ونظن أن ما عندكم مانع، وسيبقى الصلة بيننا» وفهم المدير معنى هذه الإشارة وكلف القسم القانوني بإعداد الصيغة الملائمة.

انفعل ليفي شاوات، ولم يخفف مرحه وأحلامه. قال:

ـ ونحتاج إلى فتح فرع، على الأقل، في نيويورك، لكي يتابع الأعمال من هناك.

وتراءت له من جديد صور الأسبوعين الماضيين: البشر، الأماكن، الأحداث، وحتى الأحلام، فقال كأنه يحدّث نفسه:

- أتذكر الأمير راكان، أثناء توقيع العقد في موران، كان شخصاً آخر، شخصاً مختلفاً تماماً!

قهقه غزوان، وكأنه يريد من خلال هذه الضحكة الصاخبة، أن يثبت لليفي شاوات، أنه أكثر معرفة ودراية بموران، وبشرها، خاصة الأمراء منهم.

قال ليفي، وهو يبتسم لهذا الاكتشاف:

- يبدو لي أن الأمراء وكبار الموظفين والضباط يصبحون بشراً مختلفين تماماً حين يسافرون! أنهم يخلفون وراءهم الكثير من المظاهر والجهامة، ويكونون أكثر استعداداً للتفاهم والمزاح، أي أنهم يتخلون عن الألقاب والرتب والنياشين، نعم يتخلون عنها برضاهم ورغبتهم ويريدون أن يكونوا مثل غيرهم!

قال غزوان بانفعال:

- وعندما تزداد معرفتك بهم، يا مستر ليفي، وتتوثق علاقتك معهم، تكتشف فيهم البساطة والود والرغبة في المساعدة...

كاد غزوان يتابع، لولا مقاطعة ليفي:

- وهم في الليل غيرهم في النهار...

ولئلا يترك أي ظلال لكلماته، تابع مصححاً:

- أقصد أنه بعد ركض النهار، والمناقشات الجادة التي تجري خلاله، يكون الإنسان قادراً أو راغباً في أن يخوض بالموضوعات الإنسانية، وبالتالي إقامة علاقات شخصية صحيحة.

رد غزوان:

- إنهم أكثر مودة وبساطة مما يتصورهم الكثيرون.

- أنا متأكد تماماً مما تقول، لأني لمست الأمور بنفسي...

تنفس بعمق وتابع:

- كنت أتابع انفعالاتهم وردود أفعالهم تجاه الموضوعات الإنسانية.

إنهم سريعو التأثر والاستجابة: البنادق الأتوماتيكية الصغيرة التي قدمت، كهدايا، للأمير راكان ومرافقيه، كانت بالغة الأثر والأهمية. كان الأمير فرحاً بها، ولقد رأيت ذلك بنفسك.

ضحك وهز رأسه، ثم تابع بسرعة:

ـ حتى الهدايا المتواضعة التي قدمناها باسم الشركة العالمية كانت موضع تقدير وامتنان.

قال غزوان بفخامة:

ـ يردد أبي حديثاً للرسول، وأنا أحفظ معناه منذ سنوات طويلة، لكثرة ما سمعته: تهادوا فإن الهدية تخلق المودة وتقرب بين الناس.

ـ هذا صحيح...

قبلت استقالة غزوان أخيراً، وحرصت الشركة أن يبقى على صلة معها، لكن لم تحدد هذه الصلة ضمن صيغة، كما فعلت مع ليفي شاوات. وبدأ التفكير والتخطيط في مكاتب الشركة العالمية لبرنامج التحرك، وقد أبدى غزوان رغبة ظاهرة أن يتم استئجار مكاتب أوسع وأكثر فخامة، وأن يتم استخدام عدد إضافي من الموظفين. وليفي شاوات الذي فهم الدوافع وراء مثل هذا الاقتراح، ورغم موافقته، إلا أنه اعتبر الأمر مبكراً. رد غزوان، وبدا في لهجته الضيق:

ـ لو أننا أقمنا احتفالاً في مكاتب الشركة، ودعونا الأمير ومرافقيه، لكانت النتائج أفضل بما لا يقاس..

وبعد قليل وبحزن:

ـ أكثر من واحد سألني عن مكاتب الشركة العالمية التي يرأسها المستر ليفي شاوات، وكنت أضطر للإجابة بشكل غامض، أو أتهرب من الجواب.

رد ليفي بطريقة أبوية:

ـ لا أنكر أهمية ووجاهة اقتراحك، لكن يجب أن تعرف أننا لا زلنا في بداية العمل، ومن الحماقة أن نضع كل مدخراتنا، أو كل ما نحصل عليه، ثمناً للأثاث أو رواتب للموظفين.

وبعد قليل:

ـ ثم ان حجم العمل الآن، لا يقتضي موظفين إضافيين، إن اليانور تكفينا وتفيض عنا!

تطلع غزوان، من الباب المفتوح مواربة، كانت اليانور تجلس في الغرفة المجاورة، وربما تسمع الحوار الذي يدور بينهما. قال، يريدها أن تسمع:

ـ لا أنكر أبداً كفاءتها، والمهمات التي تقوم بها، والتي قد تحتاج إلى اثنين أو ثلاثة من الموظفين للقيام بها، لكن المسألة، يا مستر ليفي، لها أوجه أخرى...

هز رأسه عدة مرات. وجرح صوته الصمت:

ـ وأنا، يا مستر ليفي، أعرف طبيعة الناس الذين نتعامل معهم، إنهم يقيمون وزناً كبيراً للمظاهر، لطريقة التعامل، أكثر مما يفكرون بأي شيء آخر...

ابتسم وهو يضيف بلهجة جديدة:

ـ وأبي يردد دائماً: أهمية القبيلة بعدد أفرادها، وأهمية الشيخ بعدد المرافقين، وأهمية الموظف بحجم الطاولة التي يجلس وراءها!

انفعل ليفي شاوات، ورغم محاولته أن يخفي انفعاله، إلا أن صوته الحاد كان يشي بذلك الانفعال:

ـ وهل تعتقد أن قواعد مثل هذه صحيحة دائماً؟

ـ في بعض الأماكن، وتجاه بعض الأشخاص، صحيحة.

وحين ابتسم ليفي استدرك غزوان:

ـ ليس المهم أن تكون صحيحة أو غير صحيحة، المهم أن تكون مؤثرة، وأن تؤدي إلى النتائج المطلوب الوصول إليها.

قال ليفي شاوات لينهي المناقشة:

ـ سوف نفعل أشياء كثيرة حين نبرم عقوداً تأتينا بالأموال اللازمة، والتي نحلم بها.

قال غزوان بمكر:

ـ ما دامت اليانور قادرة على القيام بكل هذه المهمات، ولا تشكو من التعب، فليس لدي أي اعتراض أن نؤجل خطوات مثل هذه.

صرخ ليفي، الذي كان متأكداً أن اليانور تتابع هذا الحوار:

ـ اليانور... إذا كنت بنفس قناعتنا فاصنعي ثلاثة أقداح من القهوة، ولك الخيار أن تحمليها جميعاً إلى هنا، أو أن تحملي اثنين فقط، وأن تتناولي قدحك وحدك وأنت تحلمين!

ولم تتأخر اليانور في أن تحمل الأقداح الثلاثة، وأن تواصل معهم الحديث من حيث انتهوا!

خلال الشهور الأربعة اللاحقة لزيارة الأمير راكان، أبرمت الشركة العالمية صفقتين مع السلطنة، الأولى: توريد مائتين وخمسين رأساً من الخيل؛ والثانية توريد مائة ألف طن من الطحين.

تمت الصفقتان بإيعاز من صاحب الجلالة السلطان، تعبيراً عن الثقة والمودة التي يكنها جلالته لمستشاره الدكتور صبحي المحملجي، بعد أن عرض عليه، وبالاتفاق مع رابح الحنيحن مسؤول الاسطبلات السلطانية، أن خيول صاحب الجلالة قد وزعت، بناء لأوامر جلالته، وبحاجة إلى تعزيزات عاجلة، خاصة بعد أن تم شراء معظم الخيول المعروضة للبيع في موران. ولقد أبدى غزوان استعداده للمساعدة في تأمين ما يلزم السلطنة من خيول، ووعد أن يتم اختيارها من أفضل الاسطبلات وأفضل السلالات، وسوف تكون فخراً لموران!

أما الصفقة الثانية فكانت بإيعاز من سيف الفتوحي، الذي جاء مكان ابن العليان، بعد أن أبلغ من أمراء المناطق أن الناس جاعوا، ولا بد من تدخل الدولة لإنقاذهم.

وبطريق الصدفة المحضة، حين جرى الحديث حول القحط والجوع، أبدى الحكيم المحملجي، استعداده للمساهمة في حل المشكلة، وتأمين الطحين المطلوب، وأنه سيكون مضطراً لتكليف غزوان أيضاً لبذل كل جهده من أجل ذلك!

صفقة الخيول أرهقت الشركة العالمية، إذ بالإضافة إلى الوقت والجهد اللذين صرفا من أجل توفير هذا العدد من الخيول «الكريمة»، فإن المفاوضات الشاقة التي جرت في القاهرة والاسكندرية وبيروت، في دير الزور والموصل، اضطرت الشريكين، أو أحدهما على الأقل، إلى السفر، وأن يدخل في مساومات طويلة ومتعبة، سواء في محاولة الاتفاق على أسعارها، أو التأكد من حججها، وأخيراً لتأمين وصولها إلى السلطنة.

ورغم الأرباح التي حققتها الشركة، فإن غزوان الذي لم يكن ميالاً إلى هذا النوع من الصفقات، خاصة وأنها تتم في أمكنة لم يتعود عليها، ودخل في مشاحنات حول أمور تفصيلية لم يفكر فيها يوماً، فقد قال لليفي شاوات، بعد أن استراحا من الركض والتعب، وبدآ يحسبان نتائج الصفقة:

ـ صحيح أن الصفقة متعبة، وتشبه ما ذكرته عن تعب الرأسماليين في بداية القرن، وهم يركضون من مكان لآخر، لكن نتائجها، ويجب أن نعترف، تفوق نتائج أية صفقة يمكن أن يجريها الإنسان في حياته!

رد ليفي في محاولة لأن يخفف من أثر التعب:

ـ الأرباح الصعبة ممتعة أكثر من غيرها، ولا بد أن يتذكرها الإنسان، لكي يرويها لأولاده ثم أحفاده لتكون دروساً للأيام الصعبة. . .

وبعد قليل، وباستمتاع:

ـ فعلاً الأرباح التي تحققت تبرر التعب!

لم يكن التعب هو الذي أزعج غزوان، فالسفر كان أشق عليه وأصعب، لأنه لا يريد أن يبتعد عن اليانور، تلك المرأة التي بدأت تشغله.

ليفي، رغم ذكائه ودقة مراقبته، لم يفطن أن جزءاً من حماس غزوان، والوقت الذي يقضيه في المكتب، من أجل اليانور. صحيح أنه لاحظ تغيراً في وضع اليانور وسلوكها، سواء من حيث اختيار ألوان الفساتين التي ترتديها، أو تسريحة الشعر، وحتى الابتسامة، ولا تتردد بعض الأحيان، ليالي السبت عادة، في أن تضع بعض المساحيق على وجهها، لكنه اعتبر الأمر طبيعياً وعادياً، خاصة وأن الزمن، كما يحلو له أن يردد، الطبيب الحاذق، الذي يداوي جميع المرضى، والذي يقرر، في

النهاية، من يجب أن يبقى، ومن يجب أن يرحل!

اليانور التي خرجت، أو بشكل أدق، بدأت تخرج، من تلك التجربة، لم تتهيأ، بعد، لأن تدخل في تجربة جديدة، وبالتحديد مع رجل غريب، لا تفهمه بالمقدار الكافي، وهي في مثل عمره أو ربما تصغره بسنة أو اثنتين، وتفوقه معرفة وثقافة. لكن، مع ذلك، بدت أقل نفوراً، ولا تمانع في أن تتبادل وإياه الحديث، أحياناً، في القضايا العامة والسريعة.

وفي خضم الأحلام وتحضير ملفات العمل، خاصة ما تحتاجه موران، وضرورات السفر، أو انتظار الرسائل والقرارات، حول ما يجب، وما هو مطلوب، كان غزوان حائراً موزعاً، يريد أن يكون هنا وهناك في آن واحد. أن «يصطاد» اليانور وأن يهرب منها، أن يبقى قريباً، وأن ينطلق إلى أبعد مكان. أن يقرر ما يناسبه، أو أن يترك لأمه لتقرر نيابة عنه.

لم يخرج، مؤقتاً، من بعض الأوهام، إلا حين جاءه، بشكل لم يتوقعه، رسول من حماد.

كان جهاز الأمن والسلامة يريد تجهيزات إضافية للاتصال، وجاء عواد المفلح، المكلف بالأمر، إلى غزوان يطلب مساعدته، ويعرض عليه صداقته أيضاً. ومنه فهم أنه كان ضمن الوفد الذي زار الولايات المتحدة، مع الأمير راكان، أحد رجال القصر، وقد أرسله السلطان ذاته، ونقل إليه، بعد عودته، كل ما قاله راكان، بما في ذلك الوعود التي أعطيت للشركة العالمية، حول فرص العمل في السلطنة. وفي محاولة لقطع الطريق على راكان، والذين معه، بادر السلطان ذاته إلى تكليف الشركة العالمية بصفقة الخيول، ثم بصفقة الطحين!

وتأكد غزوان من صحة هذا التفسير حين صمت راكان تماماً، بعد الوعود الكثيرة التي أعطاها، حول إمكانية إبرام عقود تتجاوز تلك التي وقعت من قبل، وفي مجالات عدة، تم الاتفاق عليها!

بعد أن انقضت شهور، دون أن تظهر أية بادرة من راكان، بدأ ليفي شاوات يستعيد مقاطع عديدة من الحوار الذي جرى بينه وبين روبرت يونغ، أثناء زيارته الأخيرة لنيويورك.

وروبرت يونغ، الذي افتتح في السنين الأخيرة مكتباً للاستشارات الاقتصادية والقانونية خاصاً بالشرق الأوسط، كان موظفاً في شركة نفط موران، وظل في الشركة سنين طويلة، عرف خلالها السلطنة كلها، وجال، أيضاً، في المنطقة، وتعرف على الكثير من معالمها واحتمالاتها، وقامت العلاقة بينه وبين ليفي، من خلال العمل، وأثناء ترتيب صفقة السلاح، حيث تمت استشارة «مكتب خدمات الشرق الأوسط».

قال له روبرت:

- . . . ومن عادة أهل تلك البلاد، في لحظات الانفعال، أن يعطوا وعوداً، لكنهم لا يعنونها دائماً، ولذلك يجب أن تكون دقيقاً، وأن لا تعتمد على مصدر واحد فقط.

قال ليفي لغزوان:

- يبدو أن أشغال الأمير هناك كثيرة، بحيث نسي وعوده!

غزوان، قبل أن يرد، تطلع بإمعان إلى ليفي، ليكتشف ما إذا كان يعرف شيئاً، ولما بدت له الملامح صلبة، وأقرب الى السخرية، فقد أجاب:

- أقدر أن أشغاله حالت دون ذلك!

- إذن لا بد أن نتحرك، وأن نبحث عن علاقات وفرص عمل إضافية وجديدة. . .

وبعد قليل وهو يحاول تذكير غزوان:

- أنت تعرف روبرت يونغ. . .

لم يجب غزوان، لكن دارت عيناه، في محاولة للتذكر. تذكر. قال بمودة:

- بالتأكيد، وقد تحدثنا طويلاً عن موران، واكتشفت أنه يعرفها أحسن مما أعرفها.

- ويعرفه الكثيرون هناك، كما أن له علاقات بدول أخرى في المنطقة.

وبعد قليل وقد تغيرت لهجته:

- اتصل قبل أيام يعرض، مجدداً، خدماته واستعداده للتعاون، وأرى أن نوافق.

بعد مناقشة تفصيلية تم الاتفاق أن يسافر ليفي إلى نيويورك، وأن تُدرس إمكانيات واحتمالات التعاون، وأن يتم تبادل الرسائل، وحتى التوقيع على اتفاق!

في نهاية المناقشة، وكمحاولة لتثبيت الصيغة الجديدة، قال ليفي، بلهجة بين المزح والسخرية:

ـ لو أننا اعتمدنا في عملنا على الأمير راكان، لاضطررنا إلى تخفيض راتب اليانور، أو صرفها من الخدمة!

رد غزوان محرجاً، وهو يعرف ما حصلوا عليه من أرباح:

ـ لم يصل الأمر إلى هذا الحد يا مستر ليفي.

ـ سوف يصل... إذا ظلت الأمور هكذا!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ حين يرجع الأمراء إلى إماراتهم، يتخلون عن الشخصيات التي كانوها في السفر، يعودون أمراء، ويتصرفون كالأمراء، وعلى الآخرين أن يركضوا وراءهم!

رد غزوان، وهو يفكر بأشياء كثيرة:

ـ أو أن يبحثوا عن غيرهم!

لم يطل الوقت لكي يتم الاتفاق مع «مكتب خدمات الشرق الأوسط». لكن خلال فترة زيارة ليفي شاوات، والتي استمرت أسبوعاً، حدث أمران: بداية علاقة من نمط جديد بين غزوان واليانور، وتنحية السلطان خزعل.

في ظل التعب والاختناق يصبح الإنسان صلباً وهشاً معاً، ويكون قابلاً لأن يتشكل حسب الظروف التي تحيط به وحسب الناس الذين حوله، وقد يتخذ أصعب القرارات في أضعف اللحظات.

إذ ما كاد غزوان يقنع اليانور، في اليوم الثالث لسفر ليفي إلى نيويورك، وبعد مناقشات متشعبة حول العمل والإنسان والمستقبل والقدر، أن يتناولا طعام العشاء معاً، وما كاد يخوضان في علاقة الرجل بالمرأة، وما يحب كل منهما، وقد شرب غزوان كأساً ونصف من الويسكي، لكي

يمتلك الشجاعة ويقول ما يدور في رأسه، فإن اليانور تكلمت كثيراً. لكن بدا له كلامها بعيداً غامضاً، ومع ذلك اتفقا أن يكونا أصدقاء، بمعنى ما، وأن يتحدثا عن كل الأمور، «إلا العمل» كما قال لها مازحاً، وهو يودعها.

قبل أن تنتهي هذه الليلة، ولا تعرف اليانور لماذا فعلت ذلك، وقبل أن تنام، سمعت أخبار القارة، سمعت إذاعة لندن، وعرفت أن أحداثاً وقعت في السلطنة، أدت إلى تنحية خزعل. لم تستطع أن تنام قبل أن تتصل بغزوان.

خلال اللحظات الأولى، وكان بين السكر والصحو، لم يستطع أن يميز صوتها. كاد يتصرف بطريقته، حين تتصل به امرأة في وقت غير مناسب، خاصة وأن الشجاعة التي أحس بها، ومشاعر الندم أيضاً، لا تزال قوية فاعلة، ولأنه لام نفسه كثيراً أن ترك اليانور تذهب هكذا. لو حاول معها، لو ألح عليها، لقبلت أن تقضي الليلة معه، لكنه تراجع وجبن. الآن، وهو يسمع هذا الصوت يريد أن يعوّض، أن يستعمل براعته. تكلم بطريقة تمهد وتساعد على الوصول إلى ما يفكر فيه. تركته لحظة، وحين قالت له أنها اليانور، انتفض. أحس، تلك اللحظة، بالخطأ، لأنه تركها تمضي، فهي تريده، تشتاق إليه، بمقدار ما يريدها ويشتاق إليها.

قال لها، بعد أن عرفها:

ـ لا بد أن نلتقي، والآن.

ضحكت ضحكة جافة، قصيرة، وردت بسرعة، وبشيء من القسوة، وكأنها تريده أن يصحو:

ـ لدي أخبار سيئة، يا غزوان!

ـ أخبار سيئة؟

ـ آسفة أن أوقظك في هذه الساعة المتأخرة، وأن أبلغك بأخبار سيئة!

ولفترة غير قصيرة صمت. صرخت من الجانب الآخر:

ـ آلو. . . آلو غزوان، أتسمعني؟

ـ أسمعك يا اليانور، وأرجو أن ألا تكون سيئة جداً!

ردت بارتباك:

ـ لا أعرف إلى أي حد سيئة، أنت أقدر مني على الحكم، لكن يجب أن تعرف.

ـ قولي يا اليانور.

ـ نخّي السلطان خزعل، ويبدو أن شيئاً ما يحدث هناك.

ـ نعم؟ ماذا؟

ـ اغفر لي يا غزوان، لكن رأيت أن من واجبي إبلاغك بهذا الأمر، مهما كان قاسياً.

ـ كيف عرفت؟ من قال لك ذلك؟

ـ قبل أن أنام سمعت أخبار القارة.

ـ أية محطة؟ أين؟ ومتى؟

ـ غزوان...

وضحكت ضحكة صغيرة، وهي تضيف:

ـ أرجو أن تتماسك، أن تكون قوياً.

صرخ وكاد يبكي.

ـ أتعرفين معنى هذا الكلام يا اليانور؟

ـ أقدر مشاعرك وموقفك يا غزوان، وأرجو أن أكون مخطئة، لكن، مع ذلك، وجدت نفسي مضطرة لأن أتصل بك وأبلغك..

وبعد قليل وبلهجة حنونة:

ـ ومع ذلك، أرجو أن تكون الأخبار غير صحيحة!

ـ غير صحيحة؟

ـ لا أدري، يجب أن نتابع الأخبار لكي نتأكد!

ـ في أية إذاعة سمعت هذه الأخبار؟

ـ إذاعة لندن...

وبعد لحظة صمت أضافت:

ـ لا بد أن نستمع إلى عدة إذاعات، وإذا استطعت أن تلتقط إذاعات عربية يمكن أن تعرف تفاصيل أكثر.

وبعد لحظات صمت طويلة قالت في محاولة للمواساة:

- من رأي أن نتابع الإذاعات، وأن نبقى على اتصال. . .

وبعد قليل:

- لن أنام قبل أن تتصل بي وتبلغني بآخر الأخبار، فأنا أريد أن أعرف، أن أطمئن.

ولم ينم غزوان تلك الليلة، حاول أن يتابع الإذاعات. فهم ولم يفهم. اتصل باليانور ولم يقل لها شيئاً مهماً. ورغم أن اليوم التالي كان الأحد، وكان لدى اليانور ما تفعله، إذ وعدت، منذ بداية الأسبوع، أن تمر على العمة مرغريت، فقد اتصلت في وقت مبكر بغزوان واتفقا أن يقضيا اليوم معاً، وأبلغته أنها ستحضر معها راديو صغير لكي يستمعا للأخبار. ولأن الجو كان حاراً، فقد فضلا أن يقضيا اليوم معاً في الهواء الطلق، لكي يكونا أقدر على التقاط آخر الأخبار.

من الحديقة العامة أبلغت اليانور العمة مرغريت أن عملاً طارئاً اضطرها لعدم المرور عليها.

خلال ساعات بعد الظهر، وأول المساء، وبعد أن تعبا من الجلوس والصمت، والأحاديث القصيرة السريعة حول ما جرى في موران، وحين اقترح عليها أن يذهبا إلى شقته لكي يتابعا من هناك آخر الأخبار لم تمانع ولم تتردد.

لأول مرة تأتي إلى شقته. ولأول مرة تأتي امرأة يكنّ لها عواطف مختلفة عن الكثيرات اللواتي مررن من هنا.

رغم انشغاله، ومظاهر الحزن، كان مرتبكاً أكثر لمجيء اليانور إلى شقته يوم الأحد، اليوم الذي لا تأتي فيه الشغالة لكي تنظف البيت، وأن يبدو مكشوفاً هكذا.

وهما ينزلقان إلى الشقة، وبعد أن وضع إناء القهوة على النار، ذهب إلى غرفة النوم، وبسرعة حاول أن يقلل من الفوضى. أن يرتب، دون دقة، ودون اهتمام، ما يمكن أن يعتبره فجاً أو نابياً، وأن يزيل آثار نساء كن هنا سابقاً. فعل ذلك بكثير من السرعة مع الرغبة أن تبقى بعض مظاهر

الفوضى. وفعل الشيء ذاته في الحمام، جمع ملابسه الداخلية والجوارب، ودفعها كما دفع الأحذية، إلى الركن، تحت الغطاء الفاصل بين الدوش والمغسلة. لقد فعل ذلك بسرعة، وبطريقة آلية، وكأنه في أعماقه يريد أن يثبت لأليانور مدى الفوضى اللذيذة التي يعيش فيها، وبالتالي حاجته إلى مساعدتها، لأنها المرأة وحدها التي تستطيع، وبكفاءة، ترتيب الأشياء، ووضعها في أماكنها الصحيحة.

كان إناء القهوة، حين انتهى من الترتيبات الضرورية، قد جف أو كاد. ورغم أن صوت اليانور اندفع أكثر من مرة، تسأل، أو تعرض المساعدة، فإنه لم يستجب.

قالت، وكان داخلاً يحمل معدات القهوة، ويبدو واثقاً:

- الرجال، إذا كانوا وحيدين، لا يقلون عن النساء، في ترتيب البيت!

ابتسم وهو يجيب:

- أذا أرادت امرأة أن تهين رجلاً فيجب أن تطري قدرته على ترتيب البيت!

وحين رفعت حاجبيها استغراباً أو استنكاراً، فقد تابع:

- إذا رأيت اي ترتيب في الشقة فإن الفضل يعود إلى مسينر آندورز.

وبعد لحظة، وبعد أن أدار نظراته في غرفة الجلوس، وكانت مرتبة، وفي زاوية زهرات اشتراها بالأمس، وكان يفكر أن تأتي، أو أن تأتي غيرها، قال برخاوة وهو يضع معدات القهوة على الطاولة الواطئة:

- الإنسان حين يكون وحيداً ينسى أموراً كثيرة.

هذه الزيارة، التي طالت أكثر مما قدر غزوان، وتخللها سماع أكثر من نشرة أخبار، وفي ذلك الجو الرمادي الواقع بين اللذة واليأس، تركت تلك الزيارة آثاراً قوية، وسوف يكون لها أصداء ستردد طويلاً!

قال ليفي شاوات في لقائه الأول مع روبرت يونغ:

- . . . ولا بد أن تعرف، يا مستر يونغ، أن مركزنا أصبح أقوى من السابق بما لا يقاس، وأن لدينا الآن فرص تفوق أية جهة.

نظر روبرت يونغ إلى ليفي نظرة فاحصة مدققة، وانتظر ليسمع، أضاف ليفي:

ـ لقد تزوج السلطان شقيقة المستر محملجي:

بعد قليل وبمرح:

ـ لا أعرف إذا سمعت بهذا النبأ أم لا؟

دارت عينا روبرت دوراناً سريعاً مرحاً، وصفق بيديه وهو يعلق:

ـ يجب أن نشرع إذن في العمل بسرعة، لأننا نمتلك الآن أهم المفاتيح، ولا بد أن. . .

مساء الأربعاء وقع الاتفاق بين الشركة العالمية، ومكتب الشرق الأوسط للاستشارات الاقتصادية والقانونية. وُقّع بجو من المرح والتفاؤل، وقد اتصل ليفي وروبرت يونغ بعد التوقيع مباشرة بغزوان، وتحدثا معه طويلاً، وهنآه، وقالا كلمات كبيرة حول آفاق العمل واحتمالاته الإيجابية. ولم يتردد روبرت يونغ في أن يدعو ليفي إلى حفلة عشاء باذخة، وقد دعا إليها عدداً من العاملين معه والأصدقاء، وتركز جزء كبير من حديث السهرة حول الشرق. عاداته وأهميته وغرائبه. ولم ينس أحد، حتى النساء، من استعادة بعض ما قرأه في ألف ليلة وليلة. كما لم يبخل روبرت يونغ في أن يحدّث ضيوفه عن ذكرياته في تلك البقعة من العالم. وقد أشار، أكثر من مرة، وأن يكن بشكل عرضي، حول الدور الذي تلعبه المرأة هناك!

مساء الليلة التالية، وكان ليفي مقرراً أن لا يغادر فندقه، رغم العرض السخيّ الذي أصرّ عليه روبرت، بأن يقضيا المساء معاً في البيت، لمشاهدة إحدى المباريات الرياضية، واحتساء البيرة، وأيضاً لاستعادة ما يجب عمله أو تبادله من أفكار واقتراحات، إلا أن ليفي وجد نفسه مضطراً، بعد الأخبار التي سمعها من روبرت على التلفون، أن يركب إحدى سيارات التاكسي المرابطة عند بوابة الفندق، وأن ينطلق للقائه في بيته.

كيف يمكن أن تتحول عواطف الإنسان، أو بالأحرى كيف يمكن أن تنقلب بهذه السرعة؟

ما كادت نظراتهما تلتقي، حتى قال روبرت، وخرجت الكلمات من بين أسنانه:

ـ لا بد أن تعرف، يا مستر شاوات، إني قضيت أهم أيام حياتي في موران، وخلال تلك المدة كوّنت علاقات، ولدي من الأصدقاء، بحيث لا أريد أن أدمر كل شيء في لحظة واحدة.

فوجئ ليفي، سأل بارتباك:

ـ لا أفهم ما تعني، يا مستر يونغ؟

ـ ما أعنيه، بشكل مختصر وواضح: إن العقد الذي وقعناه بالأمس لم يعد ملائماً لي.

ـ ولكن ماذا حصل ما مستر يونغ؟

ـ ماذا حصل؟

ضحك بسخرية، ثم أضاف:

ـ بمجرد أن تُعرف علاقتي بالمستر محملجي انتهى كل شيء!

جر نفساً عميقاً، وهو يحاول أن يبتسم، لكن ينتقل من صيغة الهجوم إلى صيغة أخرى، بعد أن سجل على خصمه بعض النقاط، سأل بتهذيب:

ـ ماذا تحب أن تشرب، يا مستر شاوات؟

بانفعال وسرعة رد ليفي:

ـ لا أريد أي شيء!

وحين خيم الصمت للحظات، ولخلق محطة جديدة، سأل ليفي:

ـ ولكن ماذا حصل بالضبط، يا مستر يونغ؟

ماذا حصل؟

ثم بسخرية:

ـ الورقة الرابحة التي كنا نراهن عليها جميعاً، أصبحت لاغية، لا تعني شيئاً، هذا ما حصل يا مستر شاوات!

ضحك روبرت بطريقة مصطنعة وهو يوضح:

ـ من الأخطاء الجسيمة التي يقع فيها الغربيون، ويبدو أنهم لا يريدون أن يتعلموا أبداً، إنهم يسألون بطريقة خاطئة.

هز رأسه عدة مرات، دلالة الوثوق، وهو يضيف:

ـ يجب أن لا نسأل أنفسنا لماذا. إن هذا السؤال، وهو يطرح بهذه الطريقة، يؤدي إلى أجوبة خاطئة. يجب أن نسأل أنفسنا «ماذا حصل»، وأن نجيب عن هذا السؤال فقط، أما اللا، هذه التي غيّرت الغرب فإن الشرق لا يعرفها!

بعد مناقشات طويلة اتسمت بالمداورة والمكر، وباعتبار أن العلاقة تعتمد على العمل، فإذا انتفى العمل، أو تغيرت طبيعته وظروفه، تتغير محتوياته وشروطه، اتفق الطرفان أن يمنحا أنفسهما فترة من الاختبار والانتظار، ووافقا، ضمناً، أن تجمد بعض بنود الاتفاق، إلى أن تتضح المواقف، وأن يتوارى غزوان من المشهد، لبعض الوقت.

قال روبرت يونغ في إحدى مراحل النقاش، وكان يريد أن ينبه ليفي:

ـ . . . ولا بد أن تدرك، يا مستر شاوات، أن الشرق القبلي يتمثل برموز محددة، فإذا سقطت هذه الرموز يسقط معها كل شيء.

ولما ظل ليفي صامتاً، وراغباً أن يستمع، لكي يستوعب هذا الدرس، لم يبخل عليه روبرت:

ـ فإذا سقط السلطان، أو هزم الشاعر، أو لحقت الفضيحة بالمرأة، فإن هذا البنيان كله، والذي يبدو قوياً راسخاً، يتعرض للشرخ ثم إلى السقوط. . .

وبعد قليل، وكأنه يحدّث نفسه:

ـ الآن، بعد أن ذهب هذا السلطان، ذهب معه كل شيء: رجاله ووعوده وعداواته وصداقاته، ليبدأ عهد جديد، برجاله ووعوده وأصدقائه. . .

وأضاف بسخرية:

ـ ولأني لم أكن من أصدقاء العهد السابق، فلا أريد أن أكون من أعداء العهد الجديد، هذه هي المسألة، يا مستر شاوات، وأرجو أن لا تسألني لماذا؟

يذكر الكثيرون في موران أنه حين بدأت طلائع الخيل بالوصول، وكانت سنة قاسية لم يمر على الناس مثلها منذ وقت طويل، أن الجياع هاجوا وشتموا في السوق القديم، وتوجه الكثيرون منهم إلى قصر الغدير لمقابلة السلطان، ليشكوا إليه الحال، لكن رجال حماد التقوا بهم قبل أن يصلوا، ومنعوهم من الوصول، وقبضوا على نفر منهم، أودعوهم السجن، فازداد الوضع سوءاً، وخيم على موران صمت ثقيل ينذر بأخطار كبيرة. لم يقتصر الأمر على موران المدينة، فقد عم الجوع السلطنة كلها، فبعث أمراء المناطق يشكون ويستغيثون، وهذا ما دفع حماد المطوع وسيف الفتوحي إلى مقابلة السلطان، والطلب منه أن تتولى الدولة تأمين الطحين. وبعد سؤال وانتظار، وبعد أن أبدى مستشار السلطان رأيه في أن ما يطلبه الناس لا بدّ أن يُلبى، تولى بنفسه تكليف من يلزم لتأمين الطحين!

شمران العتيبي الذي انقطعت علاقاته بالقصر منذ وقت طويل، تحسب وخاف حين بدأت تصله الأخبار عن الخيول التي ينوي السلطان شراءها. بل أكثر من ذلك اعتبر الأمر حديث حسد ونكاية، لأن موران، كما قال في مقهى زيدان:

ـ اللي تحتاجه اليوم قبل باكر الماء تبل به ريقها، أما اللي يسولفون عن الخيل والطير فاشهد بالله أنهم فسقانين.

وحين أكدوا له أن رابح الحنيحن بعث برجاله لملاقاة الخيل، ومرافقتها إلى موران، فقد قال بسخرية:

ـ ابشروا يا أهل موران لأن الدنيا بآخرتها...

تنفس بعمق وابتسم ثم بعد قليل تابع يحدث نفسه:

ـ كانوا يقولون من قبل أن المهبول هو اللي يولّم المعلف قبل الفرس، هالحين راح تجينا الخيل الطيبة وما نلقى لها العلف، وراح نصفّر لها حتى تشرب السراب!

مع ذلك، ورغم ما قيل، ظل شمران غير مصدق أن الأمر يصل إلى الحد الذي يمكن أن تُشترى فيه الخيل الطيبة من خارج موران، وحين جاءه ابنه نمر ليؤكد أنه أحصى بنفسه عشر سيارات تحمل كل واحدة منها ما بين خمسة وستة رؤوس من الخيل، وقد دخلت قصر الغدير، فقد شهق وصرخ:

ـ عشر سيارات، وعلى كل واحدة خمسة أو ستة روس؟

هز نمر رأسه للتأكيد، فقال شمران:

ـ يا عباد الله إذا التقى خارج موران كلها كم فرس أو كم حصان، فاصلهم من موران، انباعوا أو انشروا على أيدينا، هنا، وحنا نعرفهم زين، نعرف أسماءهم، ونعرف آباءهم وأمهاتهم، فمنين هالحين جتنا هذي الكدش كلها؟

ولكي لا يبقى نهباً للإشاعات والأقاويل، ولأنه يريد أن يتأكد بنفسه، فقد ذهب إلى قصر الغدير.

بدا القصر، الذي تركه السلطان قبل بضعة شهور، وانتقل إلى قصور الخالدية، أشبه بيوم السوق: الناس بالعشرات، يدخلون ويخرجون. رجال الحرس الذين كانوا، إلى وقت قريب، يتميزون عن الآخرين بملابسهم النظامية، تخلّوا عن قسم من هذه الملابس، أو تخلوا عن الأحذية، واختلطوا بغيرهم! ومثلما كان أغلب الذين يدخلون أو يخرجون، يبيعون ويشترون، وتبدو الأشياء التي تباع أو تشترى مثاراً للتساؤل والسخرية، فقد كان الحرس أكثر نشاطاً وأوفر حظاً، لأن لديهم ما يبيعونه، خاصة الأحذية والثياب، كما كانوا أقوى من الآخرين وأكثر ثقة، لأنهم يحصلون على الحد الضروري من الأرزاق، التي توزع عليهم عيناً في نهاية الأسبوع، أو على التحديد عصر الخميس، وكانت هذه الأرزاق وحدها تقيم سوقاً حافلاً كل يوم جمعة.

كان المنظر غريباً، وللحظات ظن أنه أخطأ المكان، أو أنه في حلم. فقصر الغدير، منذ أن أصبح قصر السلطان، وبعد أن وُسّع عدة مرات، وأضيفت إليه مساحات جديدة، ثم وضع على بواباته الحرس، وكان هذا أمراً جديداً وغير مألوف في موران، وقد زاره شمران مرتين أو ثلاث مرات، ليعطي رأياً بعدد من الخيول، وإن كان ذلك من عدة سنين، بدا له القصر ذلك الوقت مهيباً قوياً، وحرسه في منتهى العنفوان، وهم ينقلّون خطواتهم المنتظمة الواثقة، وقد ظهرت عليهم ملامح القوة والشباب.

الآن يبدو كل شيء مختلفاً إذ بالإضافة إلى الضجة واللغط اللذين يسيطران على المكان، كما كان الحال أيام السوق، (آه يا زمن سوق الحلال) فإن الحرس يبيعون الحاجات والأرزاق الآن، قريبو الشبه بالمتسولين، إذ بالإضافة إلى تقدمهم في العمر، فإن ملابسهم قديمة ممزقة، ويتصفون بالسخرية والقسوة، حين يرفضون الأسعار التي تعرض عليهم، أو باللجاجة لمعرفة كل شيء حين يُسألون عن أحدٍ من أهل القصر.

سأل شمران نفسه، وهو يشق طريقه عبر البوابة الشمالية، وكانت أقرب البوابات إلى أسطبل الخيول، كما يتذكر القصر قديماً «إذا حرس طويل العمر باعوا هدومهم، حتى يشبعوا خبز فشلون راح يكون حال الناس؟» وتذكر بعض الوجوه التي يعرفها، التي رآها من قبل. لقد تغير الناس كثيراً. دب إليهم الهرم منذ أن ترك سوق الحلال، واعتزل البشر. ثم أصبح لا يرى إلا من يأتون إلى مقهى زيدان. كان بعض هؤلاء من حرس خريبط، أو الذين حاربوا معه. كانوا شباباً وأقوياء، كانوا يتيهون إذا مشوا أو حملوا السلاح. الآن يبدون بشراً آخرين. قال «أيام السوق كان الناس حديد، مثل الحديد» وابتسم بحزن وهو يضيف: «يمكن اللي يشوفوني هالحين، واللي يعرفون شمران ذاك، يقولون لأرواحهم: الله الله يا زمان، صحيح أن هذا اللي تشوفه عيونّا هالحين كان شيخ السوق؟».

أما حين سأل عن رابح الحنيحن وطلب أن يوصلوه إليه، فقد تطلع إليه الذين سألهم، وكانت عيونهم تقول: «من أنت لكي تصل إلى ابن

حنيحن؟» ولما ابتسم وسأل من جديد، لكن بلهجة واثقة: «وين مكان رابح يا أولاد الحلال؟» فقد أفسحوا له الطريق وأشاروا. قال لنفسه: «لا أحد هالحين يعرف أبو نمر، لأن كل شي تغير: الدنيا والناس». ولو انصت أحد، وسط تلك الضجة، لسمعه يقول:

ـ أي نعم اللي ما يعرف الطير يشويه!

قال له رابح، بعد أن حيّاه بمودة:

ـ جيت والله جابك يا أبو نمر...

كان مع رابح عدد من العاملين معه، من المشرفين وسواس الخيل، وأغلبهم يعرف شمران، تابع رابح بلهجة ساخرة:

ـ كانوا يقولون عن الخيل: ظهورها حرز وبطونها كنز، فأريدك، يا أبو نمر، تقول قولك بالخيل اللي وصلتنا.

بعد أن دقق شمران بهيأتها، وفتح أفواهها، ليتأكد من أعمارها، وقد تعرف على اثنين من هذه الخيول كانت قبل سنين بموران، وكان تعرّفه على واحد منهما حاسماً لكل سؤال أو نقاش، إذ روى مانع الوهيبي «ما أن ناظره أبو نمر إلا وصاح: هذا مفتاح، حصان ابن الرشودي، أبوه حمداني وأمه سبيلية، وعمره تسع، واللي ما يصدق عندي علامته» تعجّب كل من سمعه، وقال له رابح: هذا، يا أبو نمر، وأنت الصادق والعارف، وحجته معه، صقلاوي ابن صقلاوية. وبعد ما تراهنوا، قال شمران: عندي علامته. وما كذب خبر، قال لهم: شوفو أذنه اليسرى، قيسوا اصبعين من حدر وناظروا: مخرومة أم لا؟ لما ناظروها، أي بالله، مخرومة، وبنفس المكان».

قال رابح لشمران، وقد سار معه حتى البوابة الشمالية:

ـ من كثرة الطوشة واللوشة، يا أبو نمر، تراها ضاعت علينا، وحنا هالحين شورنا من روس غيرنا!

كما يرجع المهزوم رجع شمران العتيبي إلى مقهى زيدان. تابعته الأعين. انتظر الذين عرفوا بزيارته لأسطبلات قصر الغدير، أن يتكلم، وحين طال صمته سأله زيدان:

ـ سولف يا أبو نمر، شلون شفت الخيل اللي وصلت!

جرّ نفسه عميقاً، وظل صامتاً. قال صالح النذير لزيدان، ويريد لشمران أن يسمع:

ـ طفّ نارك وثبت دارك، يا أبو جاسر، لأن ابو نمر جرّ النفس من بعيد بعيد، وهالحين إما يحرق نفسه أو يحرق الدنيا.

رد زيدان مازحاً:

ـ نَفَس أبو نمر ولا أطيب يا صالح، فخله ينفث. . .

ابتسم شمران العتيبي، وخرج صوته حزيناً:

ـ ترى الخيل، يا جماعة، صارت مثل ناس هذي الأيام: يجيبك الواحد أول يوم ما تعرف قرعة أبوه منين، وثاني يوم بيده حجة تسلسله إلى محمد العربي، ومنه إلى عدنان، واللي ما يصدّق: هذه شجرته، وهذي حجته برقبته!

ولما بدت كلماته غير مفهومة بالمقدار الكافي، أضاف وهو ينظر إلى الوجوه:

ـ أي نعم، شفت الخيل، ناظرتها زين: الحصان اللي طلع من بين أيدينا حمداني رجع لنا صقلاوي!

وابتسم وهز رأسه، وبعد قليل، وبنغم:

ـ واللي ما يصدق: الحجة موجودة، وفوق كل أختامها ختم الأملط، ومعها كوشان ابنه، وكُبره كُبر الرغيف!

وتغيرت لهجته، أصبحت أقرب إلى السخرية:

ـ بها نبطي من أهل السواد يدرّس أنساب أهل الفلا

قال زيدان مازحاً:

ـ الخيل تظل خيل يا أبو نمر!

ـ آخر ما ظل للعرب، يا أبو جاسر، خيلها، ضيعوا الأرض، وضيعوا العرض، قلنا الخيل ترجّع الأول والتالي، وهالحين صارت خيلنا تجينا من

غيرنا، وصار الغُرب هم اللي يعلّمونا الخيل الأصيلة من الخيل المضربة، فتريدني بعد كل هذا انشبّ وأسكت؟

قال صالح الرشدان بحدة:

ـ باطن الأرض خير من ظاهرها!

قال الحكيم في الاحتفال الذي عُرضت فيه الخيول:

ـ . . . وهذه العتاق المطهمة الأصيلة فخر لموران ولما جاورها. إنها كريمة الأحساب، عريقة الأنساب، على ظهورها يعقد النصر، وبها ترتفع راية الحق، إنها ذخر لهذا اليوم ولكل يوم، أو كما قال عليه الصلاة والسلام: معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة!

قال شداد المطوع لابن أخيه حماد:

ـ اسمع وسمّع، يا ول، يا حماد: تراكم كسرتم أعراضنا ونكستم عُقلنا، والناس إذا صبرت اليوم تراها ما تصبر ثاني يوم.

وتغيرت اللهجة، أصبحت مشوبة بالحزن:

ـ ترى الناس جاعت يا حماد، وضاقت أرواحها، وبدل ما ترموا فلوسكم بالتراب أطعموا العباد، ويلزمكم تعرفوا حدكم.

وحين ابتسم حماد، لكي يمتص غضب عمه، أضاف شداد:

ـ الفلوس تروح وتجي يا حماد، والربح والخسارة ما هي كل شي بهذي الدنيا، ولا تظن أن الفلوس بعيني، وأنت تعرفني زين. بس أريدكم تصيرون خلق وأولاد أوادم، اللي يصير سوّوه، واللي يصير وتسوونه ينقال عليه كفر وقلة دين!

سأل حماد بدعابة:

ـ لكن ما فهمت عليك يا عم.

فهمت وزايد، يا حماد، لأنه ما ظل أحد إلا ويسولف: الحصان إذا طلع من الحدود صقلاوي يرجع عبيّان، وإذا كان أمس سبيلي ثاني يوم حمداني، وهذا ما نزل بكتاب ولا يقبله عقل.

رد حماد باعتذار مصطنع:

ـ إذا صار خطأ بحصان أو اثنين، يا عم، فهذا ما هو قياس!

ـ يا ابن أخي: اعطوا الأملط اللي يريده، بس لا تخلوه يحوس بأعراضنا وأنسابنا، لأن هذي اللي بقيت لنا، وكل ما عداه زرده زردة حيّة.

العجرمي الذي طالت إقامته في عين دامة، ولم يسمع بالكثير مما جرى في موران، حزم أمره وعاد، مضطراً، لمواجهة ابن شاهين الذي قال كلمة انتشرت في موران كلها، وطارت لتصل إلى العوالي، ولتصل إليه بالذات. قال ابن شاهين لما طالت غيبة العجرمي:

ـ يا أهل موران، الحاضر يبلغ الغايب، وهذا الكلام يلزم يصله: لا يتعب روحه، الخصوة مثل الغيمة ومثل الزناد. الغيمة إذا بها حيل تمطر، والزناد إذ به نار يوّج، فحرام عليه يوسّد ويمسّد، لأن لا أحد يحيي العظام وهي رميم إلا رب العالمين. فإذا كان عنده فلوس زايدة، فالزكاة بسنة القحط ألفاً مما يعدّون، خلّه يرجع ويفك كيسه ويتصدق، خير من أنه يظل يلعب بخصيانه!

لما سمع العجرمي، ما يتناقله الناس عاد. ورغم أن الكثيرين توقعوا، مثل مرات سابقة، أن يرد على ابن شاهين، وأن تعيش موران على قصص حي القلعة ووادي سبيع، لكي تتغلب على الجوع والمعاناة، فقد سكت العجرمي، خلافاً لعادته. وقيل إنه بعث بهدية لابن شاهين، وهي عبارة عن كمية من العسل وزناد وقطعة من الخشب. وقد فُسّرت هذه الهدية تفسيرات لا نهاية لها، وأكّد الذين يتابعون هذه الخصومة، والذين يزيدون في اشتعالها، أنهم لم يروا ابن شاهين غاضباً محتداً متوعداً كما كان حين تلقى هدية العجرمي، لكنه، مع ذلك، لم يرد عليه مباشرة، انتظاراً لوقت ولطريقة «يرد بها الصاع صاعين»، كما قالوا، وكانوا متأكدين!

أكثر من ذلك، أخذت الخصومة، في هذه المرحلة، وجهاً مختلفاً، إذ تركزت على السلطان. فقد اعتبر العجرمي أن السلطان ذاته وراء تحريض ابن شاهين، وأنه يريد إبعاده، ولذلك لم يكتف بالامتناع عن زيارة القصر فقط، وإنما بدأ الهجوم أيضاً، خاصة بعد قصة الخيل:

ـ الخيل لأهل الخيل، يا ناس: العتاق للعتقين، والضامرات

للضامرين، أما إذا الواحد كله طيز فيلزمه وانيت يتعبا به، واللي يزيد ينقص...

يلتفت، وبهمس، يسأل ابن البخيت:

- شنهو قولك، يا أبو بادي، بهذا الكلام؟

يقهقه عبد الله البخيت، يبدو مسروراً، وحين تطالبه عينا العجرمي بالجواب، يقول:

- ما يفيد، يا شيخنا، ويلزم تقول غيره!

وبغضب، لكن بهمس أيضاً، يرد عليه العجرمي:

- لكن ما تشوف عينك؟

- هذا منه كثير، يا شيخنا!

وظلت موران تتابع وتسمع، حتى إذا تزوج السلطان، وانتشرت القصص التي رافقت ذلك الزواج، فقد حمل ابن البخيت كتاباً من الكتب الكثيرة التي حملها معه من القاهرة، يوم عاد، وذهب إلى زيارة شداد المطوع.

- حنا ما علينا، يا أبو غانم، باللي يسولفه الناس. الناس عيونهم ضيقة وقاتلهم الطمع، لكن اقرأ لك اللي قريته بالتاريخ أمس.

وضرب على الغلاف، ثم بلّ أصبعه بشفته، وفتح الكتاب، وقال:

- هذا كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، يا أبو غانم، وهذه الصفحة التي انفتح عليها الكتاب رقمها ٧٤٠، وقرأ «وكان السلطان أيضاً يلعب مع العوام، ويلبس ثبان جلد (والثبان، يا أبو غانم، السروال) ويتعرى من ثيابه كلها ويصارعهم، ثم يلعب معهم بالعصي، ويلعب بالرمح والكرة، فيظل نهاره مع الغلمان والعبيد في الدهيشة، ويحضر في الليل عبد على العود، ويأخذ عنه الضرب بالعود، ويتجاهر بما لا يحمد.

«وشغف السلطان بكيرا (وهذا اسم جارية، يا شداد) حتى كان لا يكاد يفارقها»، واشترى لها زربية بمائة ألف درهم.

«وفيه (أي بذيل السنة) ارتفع سعر القمح، وغلا اللحم، وعامة

الأصناف المأكولة، حتى بلغت مثلي ثمنها. وتوقفت الأحوال، وقلت الغلال، وكثر السؤال من كثرة قدوم أهل النواحي إلى القاهرة، حتى ضاقت بهم، فكانوا كذلك مدة سنة، مع كثرة المناسر في البلاد والقاهرة، وقوة المفسدين وقطاع الطرق بأرض مصر وبلاد القدس ونابلس، وفتنة العشير بعضهم مع بعض».

«وأنعم السلطان من ليلته على كيرا محظيته بعشرين ألف دينار سوى الجواهر واللآلئ، ونثر الذهب على الخدم والجواري، فاختطفوه، وهو يضحك منهم. وفرق السلطان على لعّاب الحمام والفراشين والعبيد الذهب واللؤلؤ، وصار يحذفه لهم، وهم يتدافعون عليه، ويأخذونه، بحيث لم يدع منه شيئاً سوى القماش والتفاصيل والآنية والعدد، فإنها صارت إلى الخزانة، فكانت جملة ما فرقه ثلاثين ألف دينار، وثلاثمائة ألف درهم، وجواهر وحلياً، وزركشاً ولؤلؤاً ومصاغاً، قيمته زيادة على ثمانين ألف دينار.

«فمعظم ذلك على الأمراء».

وفي مكان ثان، بعد صفحة أو صفحتين، يا أبو غانم، يقول صاحبنا «وساروا به على فرس إلى تربة كذا، تحت الجبل، وذبحوه في ساعة قبل العصر [لما أنزلوه وأرادوا ذبحه توسل إلى الأمراء] وهو يقول: بالله، لا تستعجلوا على قتلي، وخلوني ساعة. فقالوا: فكيف استعجلت على قتل الناس، لو صبرت عليهم صبرنا عليك».

ما كاد يمضي أسبوع، وتقع تلك الأحداث، حتى هرول شداد المطوع لابن البخيت:

- اسمع يا عبد الله، ما أريدك تحلف وتتفكر، أريدك تعلمني الصدق.

- سم يا شيخنا.

- أنت، أي نعم، أنت، كنت تدري بهذا الشي اللي صار؟

ولما قهقه عبد الله البخيت، في محاولة للتمويه، تابع شداد:

- الكتاب اللي حملته، والصفحة التي قريتها، ما هي لله، بس أريد أعرف من هو اللي قال لك، وشنهو اللي قالوه.

ـ يشهد الله، يا أبو غانم، ومالك عليّ يمين، أني ما أدري شي، لكن إذا زاد الأمر عن حده انقلب إلى ضده، وأنت تدري شنهو اللي صار بموران، وشلون الناس تعذبت وتمرمرت، وشنهو اللي سواه خزعل بالعباد.

ضحك شداد المطوع غير مصدق، غمز بعينه، وبعد قليل:

ـ وهذا صاحبنا شلون تشوفه؟ شنهو حزرك عليه؟

ـ هذا ما أدري به، يا أبو غانم.

ـ ما تدري أم تخاف تقول؟

ـ لا بالله، خوف ماني خايف، بس هذول الحكام ما ينحزر عليهم. قبل ما يحكمون يكونون شكل وإذا حكموا يصيرون شكل تاني!

وابتسم، وبعد قليل وكأنه يقنع نفسه:

ـ وكتاب صاحبنا قرّيب، ومثل ما فتحناه على صفحة يا أبو غانم، واللي قريناه صار، نفتحه على صفحة ثانية، ونشوف شنهو اللي راح يصير!

ـ هذا قولك؟

ـ اي بالله.

ـ يعني هذا اللي نشوفه ونقراه، يا ترى ما أحد قراه على روسهم؟ ما أحد علّمهم، حتى يحرصوا؟

ـ أما هذي فلا!

وابتسم ابن البخيت وهز رأسه، ثم تابع:

ـ اللي قبلنا قالوا: آفة العلم النسيان، وآفة اللي يحكمون يا أبو غانم أن الواحد منهم ما يتعلم إلا من كيسه، وسوالف التاريخ وغير التاريخ، لواحد مفلس مثلي، يقرا ويترنم، وإذا سولف يسولف وحده أو بليل، ولهذا السبب تشوف أن الواحد منهم مثل الثاني، يجوز يكون واحد طويل والثاني مربوع والثالث طوله طول الشبر، لكن، يا سبحان الله، من ظهر واحد ومن أم وحدة، ولا يغرّك صوتهم العالي، والوعود، وحلّت البركة، واللي تريده يصير.. لا، أبد، ما يسوون إلا اللي بروسهم، واللي

يفيدهم، فخلنا نّاظر ونشوف صاحبنا الجديد، مثل ربعه، مثل اللي قبله أم أنه غير شكل.

قال شداد:

ـ والله، يا عبد الله، ما أنت قليّل، تعرف اللي صار واللي راح يصير!

رفع يديه الاثنتين، وهو يبتسم لكي ينفي أية معرفة:

ـ لا بالله يا شيخنا، أنا واحد مسيكين، أناظر وأسأل نفسي قبل ما أسأل الناس، ومتحير، ما أعرف عيبي أو عيب غيري.

ـ لا تتمسكن يا عبد الله، وهالحين عرفت ليش خريبط ما كان يقدر ينام إلا إذا سولفت أنت ويّاه!

ـ صيت غنى ولا صيت فقر يا أبو غانم، وهالحين كل واحد يغني من راسه، ويغني على ليلاه!

إذا كان روبرت يونغ قد شعر بالخديعة، نتيجة التغيرات التي حصلت في موران، فإن ليفي شاوات شعر بالهزيمة، فقد ترك شركته، رغم المحاولات التي بذلت معه من أجل أن يبقى، وترك معها التعويضات المجزية التي تمنح عادة لمن ينهي الثلاثين سنة، وكان قد بقي له أربع سنين من أجل بلوغها، على أمل أن يحصل على أضعاف هذا المبلغ، من خلال الصيغة الجديدة، خاصة بعد أن رأى بعينه ماذا يعني غزوان في موران، وبالتالي ماذا يمكن عمله. صحيح أنه استعمل كل مهارته لكي تبنى العلاقة دون مبالغات، ودون إشعار غزوان بمدى الأهمية، لكنه كان يراهن على هذه الورقة بالذات.

الآن، بسقوط خزعل، خاصة بعد أن تزوج شقيقة غزوان، سلمى، بدت لليفي الدنيا صغيرة إلى درجة لا يعرف كيف يتصرف. لا يريد أن يظهر ضعيفاً أمام غزوان، كما لا يمكن أن يسلم بهذه السرعة. بنفس الوقت لم يعد قادراً على أن يكون طبيعياً مثلما كان من قبل، لذلك فإن العلاقات الشخصية، رغم مظاهر الود، تعرضت إلى الارتباك والفتور.

صحيح أنه احتفظ بكل المظاهر لكن تحركت عليه قرحة المعدة، أو هذا ما ادعاه، لكي يبرر غيابه الطويل عن المكتب.

لقد فعل ذلك مضطراً أو ربما غريزياً، لكي يعيد التفكير، ولئلا يتخذ قراراً متسرعاً قد يندم عليه في المستقبل. إنه شديد الحيرة، ولا يقوى على إخفاء ارتباكه، ولذلك يتحصن بالصمت، انتظاراً لوقتٍ يعتبره أكثر ملاءمة، أو لقوة مجهولة تساعده على الخروج من المأزق الذي اندفع إليه بإرادته الخاصة. ولا يعرف لماذا سيطرت على فكره اليانور، وافترض أنها يمكن أن تساعده.

اليانور التي لم يمض على خروجها من التجربة إلا وقت قصير، لا تزال تعيش في جو تلك التجربة، كأنها تحس بالمسافة، وبعض الأحيان الكبيرة، بينها وبين غزوان؛ وهي في نفس الوقت، ورغم القرابة التي تجمعها بليفي، إلا أنهما جيلان، وبالتالي عالمان، فلا يتصور أنه قادر على أن يكلفها بأعباء أو مهمات فوق طاقتها، أو غير مقتنعة بها، خاصة وأنها ذاتها بحاجة إلى علاج من نوع ما يساعدها على تجاوز الفترة الصعبة، فهي تواقة، إلى أقصى حد، لأن تنسى، لأن تهرب من أشباح الليل والنهار، وأن تبدأ حياة جديدة.

في ذلك الجو من العذاب والحيرة والبحث، وربما لأن اليانور شعرت، حتى من خلال المكالمة الهاتفية، أنها كانت وراء الأخبار السيئة التي نقلتها لغزوان، وتسبّبت بأحزانه، فقد بدت محرجة، وتريد أن تكفر عن هذا الخطأ، خاصة وأن غزوان غرق في السكر والتعاسة، وبالغ أكثر من ذلك بأن أخذ يتحدث عن الانتحار!

كانت الأحاديث الشخصية، وبعض الأحيان الدقيقة، تجري بينهما بالهاتف. ففي الأيام الأولى، وفي محاولة من اليانور لمتابعة تفاصيل أحداث موران، اتصلت بغزوان عدة مرات، وفي ساعات متأخرة، تنقل إليه ما سمعته من الإذاعات، ولتسأل عما تحمله من معاني ودلالات. كانت، وهي تحدثه، تريده أن يفكر بما يمكن عمله لمواجهة الوضع الجديد. أما وهي تفيض بالأسئلة، بوضع الاحتمالات، بتفسير الأخبار التي تسمعها أو تقرأها، فكانت تفكر نيابة عنه، أكثر مما تريده أن يجيب عن أسئلتها. وكان يتوهم، في بعض اللحظات، وهو يصرخ ويتحدى، أنه تجاوز حالة التشاؤم، مع أن يأسه لا يخفى.

ولمداراة التشاؤم واليأس كانت تحس أن من واجبها أن تطيل الحديث معه، وأن تضمّن حديثها عبارات رقيقة لكي تشجعه! لكنها بمرور الأيام اكتشفت أن غزوان كالطفل يستجيب لتلك الكلمات والعبارات، ويرتاح إليها، بل ويعتبرها وحدها التي تسنده وتجعله قادراً على التماسك.

في المكتب يبدو الأمر مختلفاً، إذا بالإضافة إلى عدم الرغبة، أو ربما

عدم القدرة، على الخوض فيما تبادلاه من أحاديث في الليلة الفائتة، كان خجولاً، أقرب إلى الصمت أو الارتباك. حتى نظراته تبدو خائفة وهاربة. لقد سبّبت لها هذه الحالة قلقاً إضافياً، فالرجل الذي تراه أمامها، بأناقته المفرطة، ووجه الحليق الضاجّ بالعافية، أقل قلقاً مما يبدو على الهاتف، أو كأنه شخص آخر.

ليس الأمر متعلقاً بالليل والنهار، وإنما، كما قالت لنفسها، وهو يوقظها في ساعة متأخرة، في إحدى الليالي، ليتحدث إليها، ويطيل الحديث، وليعترف لها أيضاً، أن «الأمر، بالدرجة الرئيسية، متعلق بالمسافة، وبالسكر. كان يريد مسافة أمن، أن يبقى بين أربعة جدران، وواثقاً، لكي يتصرف كما يملي عليه عقله، أو أن يفقد السيطرة على هذا العقل لكي لا يبقى كابحاً له».

وتذكرت آخر سهرة لهما: في بداية السهرة كان أنيقاً وخجولاً، وفي نهايتها تخلى عن أناقته وخجله معاً، وكأن الأناقة أو الصحو، ما يمنعه ويحدّ من شجاعته وحريته، أو يريد مناسبة لكي يتخلى عن هذه القيود. فما كاد السكر يعربد في رأسه حتى أصبح شخصاً مختلفاً. وحصل الشيء ذاته، في مرات أخرى، فما يكاد يعود إلى بيته حتى يشعر بالأمن، بالثقة، وكأن المسافة ما يوفر له الشعور بالحماية، فلا يتركها لتنام. يتحدث إليها كما لا يتحدث أبداً حين تلتقي نظراتهما، وفي لحظات كثيرة، يبدو ذكياً ولا يخلو من دعابة.

وفي اليوم التالي، بعد كل لقاء، يبدو، من جديد، إنساناً خجولاً وضائعاً إلى أقصى حد.

قالت اليانور لنفسها: «لا أريد أن أغرق بتفسيرات نظرية، تحتمل الخطأ والصواب، أريد أن أكون أقرب إليه وأكثر حناناً». ولم تنتظر ولم تتردد في أن تفعل ذلك.

ليفي شاوات الذي شعر أن آلام القرحة خفت، ويمكن أن يمر على المكتب، وأن يقضي بضع ساعات يومياً، اكتشف أن العلاقة بين غزوان

واليانور تجاوزته، أو ربما لم يعد قادراً على أن يتحكم بها. قال لنفسه، وهو ينظر بطرف عينه، كيف أن اليانور عدّلت ربطة عنق غزوان: «لا يمكن للمرأة أن تصطاد الرجل إلا حين يكون في أضعف لحظاته، واللحظات الضعيفة بالنسبة للرجل تقع وتتكرر كل يوم، لأن المهم بالنسبة له أن يكون مرغوباً، أن ينتزع الاعتراف، وبالتالي لا غنى عنه، وأن يكون فحلاً إذا وصل إلى السرير» وبعد أن اطمأن لهذه القاعدة أو ربما بسببها، تذكر زوجته: «لم تقبض عليّ روزا إلا حين وجدتني ضعيفاً: مجرد إنسان يبحث عن وطن وعمل. وكان لديها الاثنان: المكان والعمل: وبعدها أصبح كل شيء بيدها».

روبرت يونغ المخدوع، والذي أحس بحجم الفجيعة، لم يترك للزمن أن يرسم له المسار، أو أن يفرض عليه ما يجب فعله. فبعد أسابيع من القلق والتفكير، وحين استعاد أيامه السابقة في موران، قرر أن يغامر بالسفر، مرة أخرى، إلى هناك. لا بدّ أن يذهب ليكتشف، لا أن ينتظر، لكي ينقل إليه الآخرون ما حصل في موران، أو ماذا فعلوا هناك.

فما دام يعرف فنر، وقد التقى به عدة مرات، ويعرف أيضاً ابن عليان، الذي وقّع عقد النقط، والإثنان في موران، الأول هو الحاكم، والذي يمكن أن يفتح له آفاقاً لا نهاية لها، والثاني، وقد أصبح أحد الأغنياء الكبار، ليس في السلطنة وحدها، وليس في المنطقة وحدها، وإنما تجاوزهما ليصبح أحد الأغنياء المعدودين في العالم. إذا استطاع أن يجدد علاقته معهما، أو مع واحد منهما، فيمكن أن يبرئ نفسه من أية علاقة مع العهد السابق، وأن يبدأ عملاً جديداً وكبيراً، اعتماداً على هذه العلاقة.

جاء روبرت إلى موران بعد عشر سنين من الغياب، ولأنه له اهتمامات تتجاوز العقود إلى نظرة باروكية، خاصةً في مجال البناء، ولأن له مذكرات مكتوبة حول مراحل بناء حران، ثم رأس الطواشي، وقد جال في السلطنة، وقضى عدة إجازات ينتقل ويتعرف، فقد كتب أثناء زياراته ملاحظات كثيرة.

الآن، وهو يحاول تجديد العلاقة مع معارفه القدامى، ويتعرف على

التطورات التي حصلت خلال الفترة السابقة، يستغرب كل شيء، إذ بالإضافة إلى عدم تمكنه من مقابلة السلطان، لأنه لم يجد الصيغة أو الشخص المناسبين، ولأن ابن العليان يهمه العمل المحدد أكثر مما تهمه الأفكار، بحيث لم يستطع بعد أن التقاه، ولفترة قصيرة، أن يتوصل إلى نتائج، أو صيغة يمكن أن تفتح له الآفاق إلى ما يريد، فقد كتب، بعد أسبوعين، بمذكراته الشخصية ما يلي: «... وتغيرت موران، خلال السنين العشر الأخيرة، كما لا تتغير مدينة أبداً. لم أعرفها، أو بالأحرى، لم أتعرف على أي من معالمها التي ارتسمت في ذاكرتي. أين هي الصلة بين المدينة التي رأيتها من قبل، أو عرفتها فيما مضى، والمدينة التي أراها الآن؟ لا شيء أبداً يجمع الاثنين. ليس المهم الآن الحديث عن العواطف والرغبات، فكل ما هو ماضٍ، حتى البائس، عزيز على الإنسان، وله مذاق خاص، لكن مع ذلك، فإن المدن إذا خلت من المعالم التي تجعلها دائمة ومتميزة فإنها لا تستحق التوقف أو الإشارة. لا يهم أن تكون المعالم ما خلقته الطبيعة أو ما صنع الإنسان، لكن، في كل الأحوال، يجب أن تبقى المدينة، أية مدينة، مختلفة عن غيرها، لها نكهتها وشخصيتها، وأيضاً معالمها.

حين بنيت حران، اقترحت أن يكون الامتداد نحو الجنوب والشمال الشرقي، وأن تكون المحاجر الغربية حداً للمدينة؛ اقترحت أيضاً ألاّ تنتزع من مكانها التلال، أو تتغير معالم البحر، إذ لا يمكن التسامح بأي منهما. وإذا كانت الشركة لها أسبابها في أن تمتد المدينة نحو هذه الجهة أو تلك، فقد راعت بعض الاعتبارات. ليس المهم أن تكون أخذت بوجهة نظري، ولكنها كانت حريصة أن تبني مدينة لها ملامحها، وأن تبقى فترة ليست قصيرة.

موران، وأنا أراها، الآن، بعد أن زالت معظم، وربما كل، معالمها القديمة، وبعد أن أعيد بناؤها من جديد، لكن ضمن ألف طراز، أصبحت شبيهة ببعض الطيور الإفريقية: مزركشة جداً لكن دون جمال. الطراز القديم إلى جانب الحديث جداً: اللبن إلى جانب الزجاج العاكس؛

الأندلسي إلى جانب الياباني؛ الهندي إلى جانب ناطحات نيويورك. أكثر من ذلك: القصر الواحد مزيج من عدة عصور، ومن عدة أماكن.

«موران القائمة، الآن يمكن أن تنتقل أو تزول، بعد عدد من السنين، وهذا العدد، إذا تفاءلت، (أو تشاءمت) لا يتجاوز الثلاثين سنة، لأن كل شيء ليس في مكانه: الأبنية والبشر، إضافة إلى الرغبة الإنسانية المجردة.

«قد أبالغ، أو ربما أشغل نفسي بهذه الأمور، التي لا تعني، في النتيجة شيئاً هاماً أو ذا قيمة، تماماً، كما يحاول الإنسان أن يمسك موجة، لأنها أعجبته، أو أن يقبض على الشفق أو اهتزاز الريح. هناك أشياء تأتي مرة واحدة، فإذا استطاع الإنسان أن يقبض عليها، أن يجمدها، أو أن يمجدها، تصبح ملكه، شيئاً خاصاً به، أما إذا أفلتت ثم تراجعت أو توارت، فإنها تذهب إلى الفناء، أو تصبح ملك غيره.

«لا أريد أن أسقط الإحباط الذي شعرت به، نتيجة عدم قدرتي على مقابلة السلطان، على الأمكنة والناس. أنني أحاول أن أكون محايداً، وربما أيضاً، نزيهاً، لكن، مع ذلك، لا بد أن أقول رأيي، وهو بطبيعة الحال ليس للنشر، خاصة الآن، لأن مدينة مثل التي أراها تصلح لأن تكون معسكراً لجيش منتصر، لجيش كان يراهن على تحقيق هدف معين، وحين تحقق هذا الهدف بالغ هذا الجيش في التعبير عما افترضه نصره الخاص، بغض النظر عما عدا ذلك، أو ماذا يحمل المستقبل من مفاجآت.

بعد أن يبتعد النصر وتتغير مهمات الجيش، سوف لن تجد هذه المدينة من يحرص عليها، أو يريد بقاءها، لأنها ولدت في غير مكانها وفي غير زمانها. حتى الذين بنوها سوف يتخلون عنها، لأنهم لم يتصوروها بهذا القبح وبهذا العداء. ماذا يفعلون بناطحات السحاب الزجاجية إذا أصبحوا عاجزين عن تأمين التبريد لها؟ هل يريدون أفراناً إضافية زيادة على الجحيم الذي يعيشون فيه؟ هل يريدون مزيداً من مصائد الغبار إذا راكموا ذلك الفرش والأثاث المصمم للمناطق الباردة؟ وماذا يفعلون بهذا الكم الهائل من الأجهزة إذا عجزوا عن إصلاحها؟

الفقراء، نعم الفقراء، وحدهم الذين سيكونون مضطرين للبقاء. لكن

كيف سيشقون طريقهم ضمن هذا الركام الهائل من الإسمنت والحديد والزجاج لكي يبدأوا حياتهم من جديد؟

الأمر لم يقتصر على شكل المدينة، أو طراز بنائها، فإن البشر، خلال هذه الفترة، تغيروا إلى درجة لم يعد من السهل فهمهم أو التعامل معهم. صحيح أننا عانينا الكثير ونحن نقيم العلاقة من قبل، كانوا يبدون لنا، في حالات كثيرة، غير مفهومين بالمقدار الكافي، لكنهم الآن أصبحوا طرازاً مشوهاً من المخلوقات، أو أشبه ما يكونون بإحدى مراحل نمو الضفدع، خاصة المرحلة المتوسطة، حيث لم تعد تربطهم بما كانوه صلة، وسوف لن يحملوا من ملامحهم الحالية شيئاً للمستقبل. وهذا لا ينطبق على الملامح وحدها، وإنما يمتد إلى النظرة والسلوك والعلاقات أيضاً.

لذلك يجب ألا أستغرب أو أفاجأ بابن العليان. صحيح أنه كان مهذباً طوال لقائنا، وربما كان هذا التهذيب نتيجة الأسفار أكثر مما هو قيمة محلية، لكن مع ذلك لم نتوصل إلى أكثر من وعود غامضة، وأغلب الأحيان لا يعنيها.

«وسوف أزور حران خلال الأسبوع القادم. قد أبحث مع إدارة الشركة إمكانيات التعاون. أعرف أن جوابهم لن يكون إيجابياً، لأنهم يفضلون التعامل مع العناصر المحلية، وليس لي صفة هنا، باعتباري غير مقيم، وفيما عدا ذلك سيشيرون إلى ضرورة مراجعة رئاسة الشركة هناك! مع ذلك يجب أن أحاول، خاصة وأن الكثيرين، الآن، يحاولون، حتى أننا نبدو في الفندق، وقد اجتمعنا وتعارفنا، أو هذا ما افترضه كل واحد منا، وهو يلتقي زملاءه في صالة الفندق، في الإبهاء، في صالة الطعام، أننا، هنا، أشبه بالخيول التي تستعرض وتستعد ليوم السباق. لا أحد يعرف، بدقة، أو على التحديد، ماذا يريد الآخر، أو ما هي فرصته، ومع ذلك فإن الاستعراض لا يتوقف يوماً واحداً. أننا نراقب، بعناية، كل زائر جديد، سواء أكان من أهل موران أو من الأجانب، نحسب ونقدر ما تعنيه كل إشارة، لكن، مع ذلك، يبدو الفندق كسجن، لأن لا أحد يستطيع أن يغادره إلا ليعود إليه بسرعة، وكأنه مربوط إليه بسلاسل حديدية لا يستطيع الفكاك منها.

العمل، الثروة، الحياة، وربما كل شيء آخر، يحتاج إلى علاقات من نمط خاص لكي تعطي النتائج المطلوبة».

بعد الزيارة التي قام بها عواد المفلح، والمكالمات الهاتفية الثلاث التي تلقاها غزوان من موران، وكانت الأولى من حماد المطوع، وقد بدا فيها ودوداً محباً، وهو يحاول الاستفسار، والتأكيد أن الأمور تسير سيراً حسناً، كما عرض على غزوان المجيء بزيارة إلى موران «لأن الجميع يسألون ويبعثون إليك بتحياتهم» وأكد أنه سيبقى معه على اتصال، أما المكالمة الثانية فكانت من الأمير راكان، وقد بدا متلهفاً، وجاداً في أسئلته وتعبيره عن المودة، ولم ينس الإشارة أنه عاتب أيضاً، لأن غزوان لم يهنئه بمنصب الوزارة. المكالمة الثالثة جرت من مكتب وزير الداخلية، حماد المطوع، وشارك فيها، بالإضافة إلى حماد، الأمير راكان أيضاً، وكانت أقرب إلى المرح والعتاب، «لأننا كنا بذكرك، وعاتبين لأنك لم تتصل ولم تأت» واختتم الأمير راكان الحديث بكلمات لها دلالة واضحة: قال له: «تعال بضيفاتي، وعلى مسؤوليتي، لأن طويل العمر سأل عنك أكثر من مرة».

كان الفاصل بين مكالمة وأخرى أقل من أسبوع، وقد ظل غزوان حائراً متردداً، إلى أن جاء عواد المفلح.

بعد أن عرض له عواد صورة عن الأحداث التي جرت، وكيف أن السلطان فنر دُفع إليها دفعاً، ووجد نفسه مضطراً، لأنه لو لم يفعل ذلك لأخذت الأمور مساراً خطراً، قد يؤدي إلى الإطاحة بكل ما هو موجود وقائم، طلب منه تلبية الدعوة الموجهة إليه لزيارة موران. وأشار، بطريقة لا تخطئ، إلى أن المصلحة تقتضي منه القيام بهذه الزيارة لأكثر من سبب. قال الكلمات الأخيرة وهو يبتسم.

غزوان الذي تغير كثيراً بعد أن سمع صوت حماد أول مرة، وبد مرحاً متفائلاً بعد مكالمة الأمير راكان، وقد أبلغ اليانور، في الليل المتأخر، أن موران اتصلت به، وأشار، وهو يضحك، إلى شخصيات عليا، دون أن يسميها. في اليوم التالي، وحين تأخر وصول ليفي إلى المكتب اتصل به

وطلب إليه الحضور «للأهمية البالغة». خاصة بعد أن تشاور واليانور، وقد أبدت اليانور حماستها«لبقاء الاتصالات» دون أن تلحّ على ضرورة تلبية الدعوة. أما ليڤي الذي بدا متعباً، وقد شاخ خلال الشهور الثلاثة الأخيرة، فقد أظهر اهتماماً وفرحاً لم يتوقعهما غزوان، وطلب أن تُلبى الدعوة دون تأخير.

الاتصال الثالث، وكان ليڤي موجوداً، وقد سمع بنفسه صوت الأمير، بعد أن رفع غزوان مكبر الصوت، حسم الأمور.

لكن مجيء عواد المفلح، وذلك الأسلوب الذي اتبعه، وهو يؤكد الدعوة من جديد، جعل غزوان يخاف ويتحسب، إذ بعد أن تهيأ نفسياً للرحلة، وبدا أكثر استعداداً، عاد إلى التردد فطلب إلغاء حجز السفر، ومهلة للتفكير. وكاد يتصل بأبيه ليسأله رأيه، إلا أن ملاحقة ليڤي أن لا يفعل، ثم تدخل اليانور، في مرحلة دقيقة، إذ أعلنت استعدادها الكامل لمرافقته، تعبيراً عن اطمئنانها للدعوة، واستعدادها أن تضع مصيرها معه، جعل الأمور تأخذ مجرى إيجابياً.

لم يعرف ليڤي بسفر روبرت يونغ إلى موران، إذ بعد انقطاع طويل، وبدا واضحاً أن العلاقات ستنتهي دون تدخل أي من الطرفين، ودون إجراءات رسمية للإعلان عن انتهائها، إلا أن التفاؤل الذي خيم على مكتب الشركة في سان فرانسيسكو، دفع ليڤي للاتصال بنيويورك، بمكتب روبرت، فأبلغ بسفره، دون أية إيضاحات عن المكان الذي سافر إليه أو عن موعد عودته!

كان يريد ليڤي أن يرد إليه الضربة، أن يثبت له ماذا تعني هذه العلاقة، التي حاول أن يهرب منها ويتنكر لها. قال لغزوان بتشفٍ:

ـ الذين يتعاملون مع الأرقام والنصوص فقط لا يفهمون الحياة بالمقدار الكافي، انهم يرونها مجرد رقم أو نص ميت، لا يحسون بمدى القوة والحيوية الموجودين في الحياة العملية، ولذلك فإنهم معرضون للخطأ!

في فندق موران الكبير كانت المسألة أكبر من أن تستوعب، حين التقت نظرات غزوان بنظرات روبرت يونغ. ارتبك الاثنان. لم يتوقع أي

منهما أن يلتقي بالآخر هنا، وفي هذا الوقت. لم يعرف روبرت كيف يتصرف. كاد يتظاهر بعدم المعرفة، وأن ينسحب، لكن مبادرة غزوان وضعت حداً، إذ أقبل نحوه بمودة ظاهرة مما لفت نظر الكثيرين، فلم يستطع روبرت أن يتجاهل أو أن يتهرب.

قال له روبرت من موقع قوة:

ـ كنت أتوقع مجيئك، خاصة بعد أن أصبح الأمير راكان وزيراً!

ـ لم أكن أتوقع أن أراك هنا!

هكذا رد غزوان، بعد قليل، في محاولة لأن يستجمع نفسه:

ـ متى وصلت إلى هنا؟ هل أستطيع مساعدتك؟

ـ لا بد أن نجلس ونتحدث!

بعد أن تحدثا طويلاً، وبعد معرفة روبرت أن غزوان التقى بالسلطان، والأمير راكان، تغير كل شيء. قال له بدعابة:

ـ لا أدري لماذا كنت أتوقع أن أراك هنا، وفي هذا الوقت بالذات؟

ـ في الشرق يقولون إن القلوب هي التي تتكلم!

لم يطل الأمر لكي يتم الاتفاق، خاصة وأن غزوان تذكر كلمات السلطان فنر، قال له السلطان:

ـ حنا، يا غزوان، أولاد اليوم، وما نريد نحمّلك أخطاء غيرك، فإذا ردت تكون بينا فأهلاً بك ومية مرحبا، أما إذا ردت تكون مع غيرنا، فأنت حر، ولا تزعل منا مهما سوينا، ومهما حصل!

وقال له الأمير راكان:

ـ . . . كل اللي صار بداية، وهالحين، وأنا أتكلم كمسؤول، نريد نعقد اتفاقيات، ونسوي عقود لتسليح الجيش، لبناء البلد، لاستيراد مواد كثيرة، فنريدك معنا، نريدك تساعدنا.

ولم يطل الأمر، لكي يتفقا، وفي مرحلة من مراحل المفاوضات شارك روبرت يونغ. كان سعيداً إلى أقصى حد، خاصة حين جرى الحديث عن

كيفية تقاسم الأرباح. أما حين هيئت الصيغة، فقد طلب الأمير راكان أن لا يرد فيها اسم الطرف المستفيد في موران. قال ذلك وابتسم!

قال له روبرت في إحدى الليالي، وقد عادا من سهرة أقامها لهما الأمير راكان:

ـ . . . لا بد أن أعترف بشيء أساسي: خفت كثيراً نتيجة التغيرات التي حصلت في موران، وكدت أنهي العلاقة بيني وبين الشركة العالمية للاستيراد والتصدير. . .

ابتسم، هز رأسه، ثم تابع:

ـ وعليّ أن أعترف أيضاً: إن الإنسان، خاصة الأجنبي، في هذه البلاد، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل، أو ما هو الشيء الصحيح. أنه بحاجة ماسة إلى أبناء البلاد، فهم وحدهم الذين يعرفون كيف يجب أن تتم الأمور، عن طريق أي الأشخاص، وكم يجب أن يدفعوا لقاء ذلك!

قال غزوان بمرح:

ـ لقد أصبحت هذه القاعدة عامة يا مستر يونغ، وفي كل مكان. . .

ابتسم وهو يضيف:

ـ وأنا تعلمت هذه الأشياء في الولايات المتحدة أكثر مما تعلمتها هنا!

ـ ولكن الأمر هنا يختلف عن أي مكان آخر. في الولايات المتحدة، تعرف لمن يجب أن تدفع، ولماذا، أما هنا فلا بد أن تدفع إلى أناس مجهولين، لأن غيرهم هم الذين يظهرون أمامك، وهؤلاء لا يعنون شيئاً، أنهم مجرد مراسلين، أما الآخرون. . .

حين عاد غزوان وروبرت إلى الولايات المتحدة كانت اليانور مع ليفي في المطار لاستقبالهما، وقد أصرّ غزوان أن يذهبا معاً إلى سان فرانسيسكو، عبر مطار بوسطن، لكي يرى روبرت مقر الشركة العالمية، ولكي يتفقا على ما يجب أن يعملاه في المستقبل. قالت اليانور، وهي تعانق غزوان:

ـ لا أدري ما إذا افتقدتني كما أفتقدك؟

ـ بكل تأكيد يا اليانور!

قال هذه الكلمات، وهو يعانقها، ولم يفعل ذلك من قبل، لكن منح نفسه هذا الحق الآن، وكأنه يبلغها رسالة. ردت بمرح:

ـ لم أكن أتوقع أن تطول سفرتك إلى هذا الحد، فأين كنت كل هذه المدة؟

ـ كنت هناك، في الأماكن البعيدة والمجهولة!

وانصرف الجميع إلى أحاديث عامة، حول السفرة، والطقس، والاحتمالات القادمة بالنسبة للعمل، وكان جو المرح طاغياً، مما يوحي بالأجوبة، دون كلمات كبيرة!

لم تمض شهور على تسلم فنر للسلطة حتى قالت فريزة خانم لابنتها بتحذير أقرب إلى اللوم:

ـ الهمّ، يا بنتي، بالنسبة للبني آدم أخطر من المرض، لأن الواحد يتعافى من المرض إذا تعالج، صحيح أنه يهدّه كم يوم، لكن بعدها يروح. أما الهم فإذا ما انفرج يصير مثل السوسة، والواحد أبد ما يخلص منه. فأريدك تفتحي عينك زين، وتسوي كل اللي تقدرين عليه، حتى هالرجال يشوف دربه ويضحك سنّه.

ردت ثروت بأسى:

ـ والله، يا ماما، لا يجيني نوم، ولا تغفى لي عين قبل ما يرجع. وأول ما يصل أسوي كل اللي أقدر عليه حتى يرتاح ويرضى، لكن ما اقدر اخش تحت جلده، ولا أعرف شي غير اللي يقوله!

اقتربت فريرزة، منها وسألت باستعجال:

ـ أي يا بنتي، وشنهو اللي يقوله هذي الأيام؟

ـ والله، يا ماما، كان حالنا قبل ما يصير سلطان، وحنا بعيدين، أحسن بألف مرة!

هزت ثروت رأسها بحزن، وأضافت بعد قليل:

ـ كنت خايفة عليه من الأحلام، والكلام اللي كان يقوله، هالحين أخاف عليه من نفسي وأخاف على نفسي منه.

ـ شلون يا بنتي؟

ـ ثابر الدنيا، لا يرتاح ولا يخلي أحد يرتاح، لا ينام ولا يخلي أحد ينام!

وضحكت بحزن وسخرية، وتغير صوتها:

ـ إذا خلص من الاجتماعات، سبقته الأوراق، وإذا تعب من الطاولة، ينسدح ومناظره على خشمه، يقرأ ويوقع، وأنا أتعطر، واتنطّر، وهالساعة، وبعد شوي، لكن أبد، مثل الحجر، فاغفي، وبعد ساعة، ساعتين، الله يدري، أقوم وأناظره: بعده بأوراقه وأختامه!

ـ وما سويتي شي؟

ـ شنهو اللي اقدر اسويه؟

ـ اندحشي بجنبه، اسأليه، قولي له: يكفيك يا بعد عيني، لأن الأوراق ما تنتهي، ولأن الأولياء والأنبياء قالوا: إن لنفسك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً.

ضحكت ثروت بسخرية وهي توضح:

ـ ما خليت شي إلا سويته. وإذا لان مرة، وضحك سنه، وإذا طوى أوراقه وشال مناظره مرة، فألف مرة غيرها لا من شاف ولا من سمع!

قالت فريزة خانم، وهي تغير جلستها:

ـ يا بنتي، يا ثروت: الرّجال مثل الولد الصغير، كلمة تأخذه والثانية تجيبه، بس المهم أن تتحرك المريّة، أن تعرف شلون لازم تتصرف، أما إذا كانت مثل الحجر، فتصير هم لنفسها ولزوجها، وتخرب بيتها بيدها.

تنفست فريزة خانم مثل بقرة، وبدا أنها حانقة، وغير راضية عن سلوك ابنتها، ولما تأكدت أنها أوصلت الرسالة تابعت:

ـ ومن قبل قالوا: إذا شفتم الفقير مخبوص وملتاش فاعرفوا: أن الغني سخره! وأنا، يا بنتي، إذا شفت الرَّجال مهموم، وبيّن عليه الكبر والتعب والهم، اسأل حرمته: شنهو اللي سويتيه بالرجال...

وبعد قليل، وكأنها تحدّث نفسها:

ـ الرجال مثل عود النعنع، لا يغرك كبره وصوته العالي، وحتى قوته، المهم أن يرتوي. إذا ما ارتوى يهرم بسرعة، تضيع عليه، يصير غير شكل.

ردت ثروت بنزق:

ـ الصحيح: ما عدت أعرف شنهو اللازم يتسوى!

قالت فريزة خانم:

ـ المهم أن أي شي إذا تسوّى، لازم يتسوى بوقته!

ـ هذول الرجال، يا ماما، الله ما يرضيهم، وصعب أن ينفهموا، والأحسن أن الواحد يتركهم وحدهم. إذا زعلوا اليوم يرضون ثاني يوم!

هكذا ردت ثروت، وبنفس النزق، فقالت فريزة خانم:

ـ الله يسامحك يا بنتي...

وبعد قليل، وبهمس:

ـ إذا المرية ما قدرت تتفاهم مع زوجها بعد عِشرة هالسنين، فهذه مصيبة كبيرة، لازم المرية بعد شهر، اثنين، سنة، ثنتين تفهم زوجها، تعرف شنهو اللي يوجعه، وليش، وتعرف شلون تداويه. وإذا ما قدرت تسوي هذا الشي فالحق عليها ما هو عليه.

ردت ثروت بألم:

ـ إذا كان زوجها واحد عادي، أما إذا كان حامل الدنيا على أكتافه، وإذا رايد يغيّر كل شي، ويسوي الناس على مزاجه، فيتعب ويتّعب معه غيره!

ـ كل واحدة تقول نفس الكلام عن زوجها، بس الله يسامحك، لأنك بعدك صغيرة، ورايدة الدنيا على كيفك.

قال فنر لثروت في الليل المتأخر:

ـ إذا مرت هذي السنة على خير، وأعلن خزعل استسلامه، وأوقف تهديداته، فأظن أن الأمور تمشي زين، لكن الظاهر أنه ما هو ناوي، ويلزم أن الواحد ينتبه ويأخذ باله.

ردت برخاوة وإغراء:

ـ ما دام طلب عدلة، وعدلة راحت، فالدنيا بخير، صار يريد السلامة!

ـ لكنه يلعب بذيله، وعنده فلوس برّه، والتقى من يوزّه.

وبعد قليل ولنفسه:

ـ لازم اقصقص جناحاته، واخليه يرمح على أقرب أصحابه!

قال لراكان:

ـ وأريدك، يا أبو منصور، تعمي قلبه، وتخليه شاكّ وحاير. وأريدك تجرّ أقرب الناس من حوله. عطهم. قل لهم: حلت البركة، واللي تريدونه يصير. بس أبيه يظل وحده، لا أنس ولا جان معه. إذا صار هالشكل يجي يحبّ الأيدين، ويقول: أنا أخوكم، وأريد الستر والسلامة، بس وافقوا أن أكون معكم!

قال راكان:

ـ الحق اللي تقوله، يا طويل العمر، وأنت فوضني، وما يصير إلا اللي تريده.

قال حماد لراكان:

ـ زيد خرطي. صحيح أن صوته يفرقع، لكنه ما يمون إلا على خصاويه، وإذا همّ وتكلّف ينشد: شنهو غدانا اليوم؟ وإذا طخت النخوة برأسه شتم وبرّد قلبه، هذا حده زيد.

وابتسم حماد هز رأسه، ثم أضاف:

ـ خزعل عقله جوزتين بخرج، إذا اتخربط تاهت عليه، ولولا أن الحكيم انقرص، ويلزم له وقت حتى يروح جنونه ويرجع لصوابه، لفادنا، كان زين، بس هالحين ما لنا إلا ابنه، غزوان، فخلنا نجرب حظّنا معه، ونشوف بعدها.

قال حماد لغزوان في زيارته الأولى لموران:

ـ . . . وأنت، يا غزوان، تعرف معزتك عندنا. الكل يقدرك ويحبك، والكل يريد مصلحتك، بس أولاد الحرام ولا أكثر منهم. . .

ابتسم، وهو يتطلع إلى غزوان بعينين أقرب إلى التحدي:

ـ كل ما يرد ذكرك يقولون: إذا غزوان أراد شي، وإذا اقتنع، لا أحد يمنعه، وأنا هذا رأيي. بس غيرهم يقولون: غزوان ما يخرج عن رأي أبوه،

وأعرف أن هذا رأي جماعة خزعل. وأنا حاير ما أدري شنهو اللي أقوله لهذول أو لهذول!

حاول غزوان أن يوضح، أن يبرر بعض المواقف، لكن الأمير راكان قال بحزم أقرب إلى الحدة:

ـ . . . وما أريد أحد يقول ليه، أو يعطيني الدروس. لما خزعل خاس وخان الأمانة، ولما خبّص وسوى اللي ما يصير، وأنا أخوه، تركته. تخليت عنه. وهذا اللي سويته من أجل مصلحته، فإذا ما عرف اليوم مصلحته واللي يفيده يعرف باكر أو اللي عقبه.

وزفر:

ـ وكثيرين ما يعرفون مصلحتهم، ما يعرفون اللي يفيدهم من اللي يضرهم، ويلزم اللي حوّلهم يتصرفون، ويقولون اللي يصير واللي ما يصير!

قال ابن البخيت للعجرمي:

ـ يلزم، يا شيخنا، يا أبو مشعل، نحسب للألف قبل ما نقول نعم أو لا، لأن الجماعة لا يحللون ولا يحرمون!

وحين انتفحت عينا العجرمي بتساؤل مرعوب، أوضح:

ـ ما دام جرّوا ابن شيخهم، الحكيم، وصار بيدهم مثل المحبس، ولا تعرّف على أحد، حتى أبوه، فأظنهم راح يجربون سلاحهم بكل اللي حولهم، فأريدك تحمل وتصبر، وعسى أن يكون آخرها أحسن من أولها.

قال العجرمي بفخامة:

ـ يا أبو بادي، ما دام خزعل راح فحنا بخير، لأنك تذكر شلون الأملط خبط الخير بالشر، وحاس الدنيا. والابن ما يلزم أنه ينأخذ بجريرة أبوه!

رد ابن البخيت وهو يبتسم:

ـ خلنا ننتظر ونشوف يا شيخنا.

ـ المكتوب يبين من عنوانه، يا عبدالله!

ـ الله خلق الدنيا بستة أيام، يا أبو مشعل، ما هو بيوم واحد، والصبر زين!

ـ ما يخالف يا وليدي!

قال شداد المطوع:

ـ الله الله يا دنيا، دنيا عجب، كل شي يصير بيها. . .

وقهقه والتفت حواليه، وحين بدا كلامه غير مفهوم أضاف:

ـ إذا طلع واحدهم من الباب يرجع من الشباك، مثل الخيل اللي شروها للسلطان، يطلع الحصان حمداني يرجع صقلاوي. وهذول مثل خيلهم، طلع الأب مدحور، رجع الابن منصور. قلنا خلصنامن الأملط رجع لنا الأزرط. قلنا راح عهد وجا أحسن منه، ترانا صرنا مثل بول البعير، كل يوم لورا، وظني ما عاد يفيد لا كي ولا حجامة!

قال زيدان في المقهى:

ـ ترى، يا جماعة، هذي موران تسامح، لكن ما ننسى. الأب بعد ما أكل الأخضر واليابس، وبعد ما سوّى اللي ما يصير، قلنا بروحته خلصنا. اشوف اليوم رجع ابنه. وقالوا إن طويل العمر شافه وسولف معه وطيب خاطره، فأريد منجم يفتح ويقول: موران بعدها بوعيها أو الله هبل أهلها؟ وإذا أمهلها، فيا ترى ينذرها، وبعدها يسوي بها اللي سواه بارم ذات العماد ويقلب عاليها سافلها، ويغير كل شي فيها، أم عنده أشغال أهم منها؟

قال صالح النذير:

ـ يلزمك تورم أكثر يا قلب، لأن اللي شفته ما شافه أحد من قبل، وظني ما أحد يحمله من بعد.

وبدأ يدندن:

سأصبر حتى يعلم الناس أنني	صبرت على شيء أمر من الصبر
ولو أن ما بي بالجبال لهدمت	وبالنار أطفأها وبالريح لم يسر

قالت فضة لأصغر أبنائها، وهي تقص عليه الحكايات، لكي ينام:

ـ «. . . وكان ذاك الولد اليتيم، كان أصفر وقلّيل، ودايماً معلعل،

لكنه ذهين، فقال الأخوة لما مات أبوهم: أحسن ما نختلف وتقع بيّنا، خلنا نسلطن أخونا اليتيم، وهذا اللي صار».

وحين فتح الصغير عينيه ليعرف بقية القصة تابعت «وأنت تعرف أن القليل والعليل ما يقدر يسوي شي بليا أخوانه، قال لهم اصير إذا صرتم معي، قالوا ما يخالف، قال نجيب القرآن ونحلف عليه، قالوا: عهد الله بينا، بس نريدك بكل شي تشاورنا وتأخذ رأينا، قال: على خيرة الله، وما يصير إلا اللي تريدون، وبهذه الطريقة حكموا وعاشوا سنين وسنين».

قال الصبي وقد تنبهت حواسه:

ـ وبعدها شنهو اللي صار؟

ضحكت وقالت:

ـ وهذول الأخوة، اللي هم من فرد أم، كانوا متصافين ويحبون بعضهم ومتفاهمين، وغيرهم مختلفين ومتنازعين، وما مر يوم والثاني، إلا والسلطان، ذاك اليتيم، مرض ومات، واجتمعوا الأخوة وقالوا: السلطان منا، وما يصير من غيرنا، واللي يصير الكبير، واللي بعده، واللي بعده، وظلوا بهذا الشكل، والناس راضين، وهم عايشين، وبعدهم أولادهم، وبعدهم أولاد أولادهم، إلى قيام الساعة».

قالت فضة توصي راكان:

ـ . . . وما أريد أوصيك، يا وليدي، لأن هذي الدنيا غدارة، وكل واحد يا نفسي، وتذكر سالفتنا مع خزعل!

واختنق صوتها:

ـ كان أبوك، الله يرحمه، يريدك أنت تصير بعده، لكن بآخر أيامه دهوا بعقله، وقالوا خزعل. قلنا ما يخالف. وأنت وأخوانك، الله يسلمكم، سويتم لخزعل اللي ما يتسوى، لكنه لئيم، وتذكر كل اللي صار.

وتغير صوتها من جديد:

ـ وأخاف السالفة تنعاد مع فنر؟

ضحك راكان، ضم أمه إلى صدره، وهو يقول:

ـ وكلي الله يا بنت الحلال، لأن اليوم غير الأمس، وفنر غير خزعل!

تطلعت إليه بتحديد وسألت:

ـ أنت متأكد يا وليدي؟

ـ وحنا هالحين غيرنا قبل سنين.

واحتضنها، قبّل رأسها وهو يقول:

ـ بس أريد دعاك!

فتحت عن صدرها قليلاً، ورفعت يديها إلى السماء:

ـ يا حامل السموات من غير عمد، ويا واهب الأرزاق من غير عدد، يا مكرم المرضعات ومجيب المتضرعات، يا مسيّر الأفلاك وحامي الأملاك، أمانتي عندك راكان وأخوانه، لا تنساهم ولا تغفل عنهم، وتوصلهم لمرادهم، يا مستجيب الدعاء!

قال راكان لأخوته الأربعة الكبار، وقد اقتصر لقاؤه عليهم وحدهم، لأن الآخرين كانوا أصغر من أن يفهموا ما يمكن أن يقال:

ـ . . . بعد اليوم أبد ما يلزم تفلت منا. . .

وتغيرت النبرة:

ـ فنر بدونّا ما يقدر يسوي شي، وحنا، بدون فنر، ما كنا قادرين نسوي شي، وفنر يفهم الدنيا والناس، وتعرفون أنه مريض، إذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، فيلزم منا أن نستعد، أن نكون قدر الحمل!

ابتسم، تطلع في وجوه أخوته، ثم تابع:

ـ والدنيا اليوم غير الأمس. والناس اليوم غير الناس قبل. الدنيا تغيرت، والناس صاروا يريدون ويحاسبون، وتعرفون أن اللي ما عنده قرش ما يسوى قرش. . .

هز رأسه وهو يضحك، تنحنح، وخرج صوته متكسراً:

ـ أتذكر أبوي، الله يرحمه، شلون كان يترجى ابن العليان أن يدبر له كم قرش، من هنا أو هنا، كان يقول له: أريد فلوس يا ابن العليان، أريد

أدفع للخويا، واللي يحملون السلاح معنا، لأنا إذا ما دفعنا داروا ظهورهم ومشوا. وابن العليان يصفق يد بالثانية ويقول: منين نجيب يا طويل العمر؟ ما نقدر يا طويل العمر. وأبوي، الله يرحمه، يهز رأسه، ويرد عليه: دبر رأسك، يا ابن العليان، بع اللي فوقك واللي تحتك ودبر الفلوس...

وتغيرت اللهجة:

ـ والله يرحمه دبر الأمور لأن الناس كانوا قنوعين. هالحين، إذا ما كنا قاعدين على تل من ذهب، لا أحد يناظرنا أو يقول مرحبا. فيلزم أول شيء أن تكون فلوسنا سلاحنا، وما نحتاج أحد، ولا نسأل أحد.

قال دحام:

ـ اللي تقوله، الله يسلمك، صحيح، والفرصة، هالحين، ما مثلها، وتشوف عيونا شلون الناس يتراكضون حولنا...

قال دهام:

ـ قبل الفلوس، والأهم منها، أن نتفق: أنه الواحد منا ما يخطي خطوة قبل ما نتشاور. إذا اتفقنا كل شيء سهل.

ـ الحق اللي تقوله يا دهام، هكذا رد راكان، وهو يضيف: ومثل ما كان أبوي، الله يرحمه، يجمعنا كل صباح اثنين، يلزم نجتمع ونتشاور، والواحد ما يسوي شي إلا إذا اتفقنا.

سأل دحام:

ـ وفنر؟

قال راكان:

ـ فنر عنده من الهموم ما يكفيه وزود، وحنا إذا اجتمعنا نلبلب له المسائل ونرفعها خالصة للموافقة فلا يحتار ولا يتعب.

سأل دهام:

ـ وجازي ومسّلم ودعيج ومحجيم وتركي...

رد دحام بمداعبة:

ـ لا تزيد يا ابن الحلال، لأنا إذا بدينا ما ننتهي، وباكر يطلع أولاد

العموم، والأخوال، وغيرهم وغيرهم، فخلنا، هالحين، بفخذ آل عجاج، وبعدها كل واحد له نبي يصلي عليه!

قال راكان بحزم:

ـ ومن رأي نحرص أن اللي يصير بينا ما يطلع ولا يصل لغيرنا، لأن الدنيا محظورة والأرض مشبورة، ولا بد كل واحد يفكر ويعمل حتى يجر النار لقرصه.

قالت قطمة، خادمة موضي، للعنود:

ـ وستي قالت لسيدي: يلزمك تعرف، طال عمرك، فضة وأولادها، ما يتأمنون. إذا كانوا معك اليوم، فما تدري شنهو اللي يصير ثاني يوم. فيلزم تكون مثل أبوي: كلمة حلوة وعين حمرا، لأنهم إذا انتركوا يركبون ويطحطحون!

سألتها العنود:

ـ وشنهو كان جوابه؟

ـ قال: أنا شوري من راسي، وما أريد أحد يشور عليّ، وأعرف اللي يفيدني من اللي يضرني!

ـ وموضي؟

ـ قالت ستي: الواحد يشاور اللي أكبر منه، واللي أصغر منه، وبعدها يرجع لشوره...

وضحكت قطمة، وهي تضيف:

ـ وقالت له: ويلزمك تعرف أني أكبر منك، وأبوي كان يشاورني!

وبعد قليل، وبجو من الحزن، أنهت قطمة القصة:

ـ قالت له: يا طويل العمر: أنا تعودت على العوالي، فأريد أكون هناك إذا توافق، ناظرها، صفن، وبعدها قال: إذا كانت العوالي تريحك فعلى بركة الله، بس يلزمك ما تطولي الغيبات، قالت: أروح وقلبي هنا، وما يمر شهر والثاني، إلا وتشوفني بوجهك، بس يلزمك تتحملني، ولا تقول حريمة وما تفهم. حبّها على راسها، وقال لها: توكلي على الله!

قالت سعدة، زوجة السلطان لابنها وهي تهديه حصاناً:

ـ مالك يا وليدي غير حصانك ولسانك، وغيرك عنده المال والأخوان، فناظر نفسك وشف شلون تأخذ ثارك!

رد حمود على أمه، وكان جازي، قريبه ومرافقه يسمع:

ـ الشمس وحدها مالية الدنيا، والقمر وحده شاغل الناس، والله واحد، وأنا واحد، ويروح يوم ويجي الثاني وتسمعون!

قال جازي الهداوي لسعدة:

ـ إذا أولاد فضة ما صادوه، وإذا الله كتب له العمر، تراه راح يسوي اللي ما صار.

ردت سعدة بحزن:

ـ من هذا اليوم لذاك اليوم الله يستر!

قالت فريزة خانم:

ـ خريبط، الله يرحمه، سوى سوايته، خلّف كل هذي الذرية، وراح. ترك الشقا لمن بقى!

وقالت صفية الحلواني، الخادمة الجديدة لفضة:

ـ عمتي تحب أولاد الضراير أكثر مما تحب أولادها، وما يمر يوم إلا وتسأل عن كل واحد منهم، الكبير والزّغير!

قالت نعوّم: وهي تنظّف الحمام، بعد أن تخلى عنها أغلب الخدم:

ـ موران مثل حمّال الملح، بس يريد يخلص من حمله، حتى لو غرق بالماء!

بعد أحاديث بالغة الود، قال حماد لغزوان أثناء سفرته الثالثة لموران:

ـ أبلغني صاحب الجلالة السلطان أن أملاك الوالد، وكل ما يعود إليه، يمكن أن تستعيدوها شرط أن تنتقل من اسمه إلى أسمائكم.

ابتسم غزوان، عبّرت عيناه عن الشكر، وقبل أن يعلق أضاف حماد:

ـ ومن رأي، ما دمت أنت مشغول وأسفارك كثيرة، أن تتولى الوالدة الموضوع، فإذا جاءت إلى هناك فالكل سيساعدها ويسهّل لها الأمر.

واتفقا أن تأتي زوجة الحكيم!

الفكرة لم تكن بهذا التحديد أو الوضوح لو لم يتدخل سعيد الأسطة، فقد أجاب حماد، عندما سأله، باعتباره يعرف الحكيم معرفة جيدة، وسبق أن عمل معه، عن الطريقة المناسبة لإسكات المحملجي الأب وشل معارضته:

ـ الحكيم، يا سعادة الوزير، قضيته بسيطة: زكزكه تكسب نصف معركته معه، لأنه، الله يسهّل عليه، لا يتحمل المعارضة أو المزح، فإذا عصّب ضاعت عليه، يصير مثل ثور المسلخ: ينعمي ويظل يدور ويخور.

ابتسم حماد وهو يرد:

ـ اسمع يا أبو شكيب، احكِ لي كلام اقدر أفهمه، يطلع منه شي، ما أريدك تدوخني!

ـ والعياذ بالله، يا سعادة الوزير!

وضحك بمكر، وبعد أن نظر إلى عيني حماد بتحديد قال:

ـ ما ينراد أحد يوصيكم، يا أبو راشد، لأنكم قطعتم نصف المشوار.

فما دام جربتم المحروس، ابنه غزوان، ظل عليكم النصف الثاني، وهذا سهل وبيدكم.

- شلون يا أبو شكيب؟

تنبهت حواس حماد تماماً، واقترب. رد سعيد الأسطة:

- باقي عليكم، هالحين، الخانم، أم غزوان، لأن الحكيم بدونها يصير قط من خشب، فإذا قدرتم تكسبوها، ترى الحكيم صار في خبر كان، أثراً بعد عين!

- هذا قولك؟

- جربوا وشوفوا، وبعدها قولوا: أبو شكيب يعرف الناس أم لا!

وهكذا جاءت وداد الحايك، أم غزوان، لتتولى إدارة أملاك العائلة! ولأنهم يريدونها أن تبقى بصورة دائمة، أو على الأقل لأطول فترة ممكنة، فإن الآمال الكبرى والوعود كانت تسير جنباً إلى جنب مع بطء المعاملات وانتظار الموافقات والتدقيق. وبين فترة وأخرى تكتمل إحدى العمليات، وتكون نتائجها كبيرة إلى درجة يدور معها رأس وداد. فالأرض المنسية إلى جانب مسجد الرفيعي مثلاً لم يكن أحد يظن أنها للحكيم، لكن عندما اتخذ قرار بتوسيع المسجد، واستملاك الأراضي المحيطة، والتعويض على مالكيها، فقد كان المبلغ الذي دفع إلى وداد خيالياً، دفع إليها بصفتها القيّمة، دون حاجة إلى أوراق تفويض، إذ اكتفت دائرة الأوقاف، بإيعاز من حماد، بحضور مجرد شاهدين يؤكدان أن وداد الحايك لا تزال زوجة المالك، وكان الشاهدان راتب الفتال وسعيد الأسطة.

قال السلطان فنر لحماد:

- ترى الفخ قرّب يطبق، بس أريدك تتوعى أكثر، خاصة من الجماعة اللي حولنا...

لم يتكلم حماد، ظل منتظراً السلطان لكي يوضح ما يريد، تابع السلطان:

- إنما الأولاد والأموال زينة الحياة الدنيا، وحنا ما قصرّنا: بعثنا لخزعل عدلة وخمسة من أولاده، راحوا وشالوا معهم أموال ما تأكلها

النيران، وسوينا حالنا ما شفنا ولا عرفنا. والحكيم، قلنا لأهله وأولاده تعالوا وخذوا اللي تريدونه، وما كذّبوا خبر، جوا يركضون، وهالحين تشوفهم عينك.

ابتسم السلطان، بدا مرحاً، وهو يحس بالظفر، وبعد قليل:

- ويلزمك تعرف يا حماد، إذا الواحد بدأ يشك بأقرب الناس له، ترى سالفته ما منها نتيجة. فإذا ما رفع الراية البيضا اليوم يرفعها ثاني يوم. فأريدك تملا قلوبهم همّ، وتخليهم يشكّون بكل واحد معهم، وأريدك تقطّع حبالهم مع موران، لا يقدرون يبعثون طارش، ولا يصلهم من هنا رسول.

- الحق اللي تقوله، يا طويل العمر، وهذا اللازم يصير.

- هذا ما يصير إلا إذا مسكنا الداخل، عرفنا كل شي، فأريد من رجالك يفتحون عيونهم وقلوبهم.

- رجالنا ما هم مقصرين، طال عمرك، بس...

وتردد في أن يوضح أكثر، سأله السلطان بحدة وقلق:

- شنهو بس، يا حماد؟

- الخال عمير، يا طويل العمر، وأولاده، ثابرين موران.

- وغيرهم؟

- وتعرف سوالف أولاد خزعل وحريمه، واللي كانوا عايشين على عطاياه.

- اسمع يا حماد...

تنفس بعمق، صمت قليلاً، ثم تابع، وكان صوته عميقاً:

- خالي عمير، ما منه غير السوالف، وما نقدر نمنعه، بس نقدر نمنع الناس تصله. كل واحد يصل دار عمير ألعن والد والديه. ما عندنا لحية مشطة، ولا أحد فوق الدولة أو أكبر منها.

- ما قصرّنا مع اللي يزورونه، يا طويل العمر، جبناهم وهددناهم، وهالحين ما أحد يتجرأ يزوره. فلما شاف أن الناس ما يجونه، كل يوم، صبح وعصرية، واحد من أولاده قايده، ويهفي، من مضافة للثانية، من

مكان إلى مكان، وتعرف، طال عمرك، الناس أبوابهم مفتوحة وما يقدرون يردون أحد، فصار الشر شرين. اللي كانوا يصلونه أربعة خمسة، هالحين يشوف الناس بالميّات، وما أدري شلون نتصرف!

ـ الشيبة، يا حماد، ما منه نتيجة، فأريدك تشوف أولاده. جيبهم، سولف وياهم، ومثل ما قالوا: جرّب معهم السيف والذهب، وما تسوّي شي قبل ما تشاورني، وخلنا نشوف تاليها معهم!

ـ تؤمر يا طويل العمر!

وبعد قليل، وبحيرة:

ـ وأولاد خزعل، طال عمرك؟

ـ هذول خلّهم عليّ، يا حماد، هذول دبارهم عندي، وتشوف...

وتغيرت نبرة السلطان وهو يتابع، كأنه يحدث نفسه:

ـ أولاد الأمراء والسلاطين ما تموّتهم إلا الغيرة، تماماً مثل الحريم، الواحد منهم ما يقدر يشوف غيره عنده أكثر منه، أو أحسن منه، وظني أن راكان يدبر الأمور...

وبعد قليل، وبمكر، وكأنه فكر بأشخاص آخرين:

ـ راكان... وغير راكان!

حين دفعت الأموال لوداد الحايك، وطالت سفرة غزوان، ولأنها سمعت عدة قصص عن سرقات وقعت في موران، فقد بدأت تفكر بطريقة ما لحماية هذه الثروة، ولاستثمارها أيضاً.

قالت لراتب، الذي جاءها وزوجته، في إحدى الأمسيات.

ـ ... وفكرت أسألت إذا كان ممكن أن تشغّل لي الفلوس اللي استلمتها، يا راتب.

وراتب الذي فوجئ بالسؤال، أو بالطلب، تطلع إلى زوجته، وقبل أن يتاح له اتخاذ القرار المناسب تولت زوجته الإجابة:

ـ والله، يا أم غزوان، من شهور، راتب عمّ يفكر أن يصفي أعماله ونرجع.

وبعد لحظة، وقد حدّدت هذه البداية مساراً إلزامياً:

ـ الشغل، بعد المشاكل اللي صارت، دأر، يا أم غزوان، والواحد محتار، ما بيعرف يبقى أو...

قال راتب بأسى:

ـ ما أعرف إذا كان الحكيم حكى لك عن شراكتنا مع الزوبعي، وكيف هالابن الحرام أكلنا واستوكلنا؛ حتى الرأسمال اللي حطّيناه بالشراكة ما حصلناه إلا بالويلاه، وإلى اليوم لنا ببطنه كم ألف...

وتغيرت النبرة، أصبحت واثقة:

ـ سمعت قبل كم يوم، من جماعة، يا أم غزوان، أن سعيد الأسطة عم يفتش عن ناس عندهم فلوس حتى يتشارك معهم، وسمعت أنه عارض شروط ممتازة...

وبعد قليل:

ـ وأنت بتعرفي سيعد الأسطة، أبو شكيب، والحكيم بيعرفه، فإذا وافق أنه يستلم هذه الفلوس ويشغّلها فحظك من السما، لأن الزلمة شغّيل، ويعرف البلد، وعلاقاته فوق فوق، بالعلالي.

قالت وداد بمرارة:

ـ يضرب، ما كان في اتقل من دمه إلا دم أمه!

ـ ما راح تناسبيه، يا أم غزوان، راح تحطي عنده الفلوس وهو يشغّلها، وبنهاية كل سنة يقدم الكشف: هذا إليك وهذا إلي، وإذا قويت العلاقة ما راح تزيد عن فنجان قهوة، ويحمل حاله ويمشي!

سأل حماد سعيد الأسطة عن نتائج الزيارة التي قام بها لأم غزوان، لأن سعيد لم يجرؤ أن يقوم بهذه الزيارة قبل أن يستأذنه ويبلغه، رد وهو يضحك:

ـ بدأ الفار، يا أبو راشد، يقرقش بالجبنة!

ـ الله يخزيك، احكِ كلام يمكن الواحد يفهمه، لا تحك عن الفار والبزون وما أدري شنهو!

ضحك سعيد بصخب، وبعد أن هدأ:

ـ القصة، يا سيدي، وما فيها، أن الخانم تريد تشغّل الفلوس اللي دفعتوها، تريد تنزل للبورصة وتخرب السوق، فالله يستر!

ـ أي، وشنهو اللي اتفقتم عليه؟

ـ قلنا لها: على العين والراس، يا أم غزوان، اللي تؤمريه يصير!

ـ أي. . . وبعد؟

ـ حطينا الفلوس بالجيب، وراح نشوف شلون نشغّلها.

قال حماد بفرح:

ـ بارك الله فيك يا أبو شكيب، وأريد منك تشغلها زين، تضاعفها، لأن الظاهر الحريمة ذاقت الطعم وحبته!

غمز سعيد الأسطة، وسأل بمكر:

ـ أخاف، يا أبو راشد، نفسك اشتهت وناوي شي نية؟

ـ الله يخزيك، شنهو يطلع من هذي العجوز القاضية؟

ـ لا تغلط، يا أبو راشد، هذي مربّاية على الغالي، على اللوز والعسل، والحكيم ما كان عنده شغلة إلا يدللها ويرطّل فيها، فخيرها بعده، ودلالها السابق هالحين وقته!

ـ اسكت، اسكت يا رجّال. إذا كانت زوّجت بناتها، فلا بد تكون قطعت الخمسين، وما أظن أن أحد يفكر بها!

قال سعيد، وكأنه يحدث نفسه:

ـ والله اللي يشوفها يظنها بنت ثلاثين، وإذا كثّرت خمس وثلاثين. وما هو بس كذا، هالحين شايشة وتقمز مثل القطة بشباط!

ـ يا وّل خاف الفلوس عمتك؟

ـ الفلوس وغير الفلوس، يا أبو راشد!

قال حماد ليغير الموضوع:

ـ خلنا من هذي السوالف هالحين. اللي أريده منك أن تربطها بموران، تخليها هنا، حتى نشوف شلون نحل مشاكلنا مع ذاك الأثول.

وبعد قليل، وبصوت متآمر:

ـ إذا ربطنا الكُرّ، أمه ما تذكره مثل ما يتذكرها، وهو ما يقدر بلّياها، فخلنا هالحين نجرب، وبعدها نشوف!

قال السلطان لراكان:

ـ . . . وتبلغ أبو صفوق، مالك الفريح، أن لا يدفع لأصحاب القايمة الزرقا إلا النصف. واللي أسماؤهم بالقايمة الخضرا يدفع لهم مرتين أكثر مما كان يدفع. وفوقها، لكل واحد من هذول سيارة جديدة هدية مني.

ابتسم وهو يضيف:

ـ وخلنا نشوف بعد شهر أو شهرين.

مالك الفريح لم يكن بحاجة إلى توصية من هذا النوع، فقد كان أحرص من كلب، فعندما يأتيه واحد من وكلاء الأمراء، كانت تدور عيناه كبندول الساعة، ويسأل نفسه: «صاحبنا أزرق أو أخضر؟» وكان ميالاً إلى توسيع القائمة الزرقاء، وكان يردد عبارات بذاتها:

ـ قلت لي تريدون المخصصات. . . ها؟

ولا ينتظر الإجابة:

ـ كل واحد يقول هات، كل واحد يريد. . .

ويضحك بسخرية وهو يضيف:

ـ أتمنى، ولو مرة بحياتي، أن يجيبني واحد ويقول: خذ يا أبو صفوق!

ولأن أغلب الذين يأتون لا يريدون إغضاب مالك الفريح، أو إثارته، فإنهم يفضلون الصمت، وإذا التقت نظراتهم بنظراته يبتسمون. عند ذاك لا بد أن يتأكد ما إذا كان طالب المخصصات بهذه القائمة أو بتلك. يفتح الدرج، يضع نظاراته، وخلال ذلك، وفي محاولة للتمويه، يتكلم:

ـ تريدون مخصصات شهر ربيع أول، ما هو كذا؟

وبعد قليل، وعندما يتبين موقع صاحب الطلب، يغلق الدرج، يخلع النظارات، ينقر الطاولة وهو يترنم:

ـ الحق حق، بس الواحد يلزمه يمد رجليه على قدر لحافه. . .

وتنفرج شفتاه عن أسنان كبيرة أميل إلى الصفرة، وهو يزف البشرى:

ـ لأن الدولة دولتكم وتعتمد عليكم، ولأن طويل العمر ذاته تنازل عن مخصصاته، فظني أنكم تقدرون الظروف، فإذا سويتم مثل ما سوى طويل العمر فخير منكم وبركة، وإذا لا والله ما تقدرون، فحنا قررنا تنزيل المخصصات للنصف، وهالحين تروحون تتشاورون مع اللي دزوكم وترجعون لنا بعد أسبوع أو اثنين، وإن شاء الله يصير خير!

هذا إذا كان صاحب المخصصات في القائمة الزرقاء، أما إذا كان في القائمة الخضراء فإن أجزاء كثيرة من هذا الحوار تبقى هي ذاتها. ما عدا البشرى الأخيرة، إذ يقول وهو يضحك:

ـ . . . وقال طويل العمر أن مصاريف الأمراء زادت والغلاء ما ترك شي، وقرر طال عمره زيادة المخصصات. فإذا كنتم محتاجين للزيادة دفعناها هالحين، وإذا ما كنتم محتاجين نخليها لكم أمانة بالصندوق إلى حين الطلب، وهالحين تروحون تتشاورون مع طويل العمر وترّدون الخبر، وحنا جاهزين من هالعين وهالعين.

ويشير بإصبعه، لكن بهدوء شديد، إلى عينيه واحدة بعد الأخرى، دلالة المودة والتقدير.

ولم يتأخر مفعول هذه الوصفة، فالاضطراب الذي حدث في القصور ودارات الأمراء بدأ خفياً ثم اتسع. بل أكثر من ذلك اعتبر الكثيرون من الوكلاء أن الأمر مجرد نزوة، وربما من مالك الفريح بالذات، ولذلك لم ينقل أغلبهم الأخبار السيئة فوراً. تمهلوا، حاولوا مرة ثانية وثالثة مع مالك، لعل خطأ أو سهواً دفعه لأن يقول ما قاله. أما حين تأكدوا، فقد لجأوا إلى التمويه وتجزئة الجواب، لأن الأمراء إذا غضبوا، فإن غضبهم سينصب على هؤلاء الوكلاء الذين لم يعرفوا التصرف في يوم من الأيام، ولا يفعلون شيئاً سوى الثرثرة، وسرقة معظم الأموال التي يستلمونها، ظناً منهم أن الأمراء لا يتذكرون، ولا يهمهم سوى الساعة التي يعيشون فيها.

لكن الأمور، مهما بذل من جهد لإخفائها أو تمويهها، وإذا نجحت

محاولات من هذا النوع في مرات سابقة، فإنها لا يمكن أن تبقى كذلك، إذ ما كادت السيارات الجديدة توزّع، وقد تعمد راكان اختيارها بشكل متميز، لتكون رسالة واضحة الدلالة، حتى ارتفعت الأصوات والاحتجاجات، وتحول الاعتراض إلى تحدٍ، والهمس إلى شتائم.

استمر الأمر كذلك بضعة شهور. ومالك الفريح الذي وجد لذة أقرب إلى المتعة، وهو يطبق التعليمات بدقة صارمة، ويرفض أن يناقش، ما لبث أن شعر بالخطورة، خاصة وأن التهديدات لم تتوقف يوماً واحداً، وأصبحت تصل إلى مسامعه واضحة، وبعض الأحيان من الأمراء انفسهم.

قال لحماد المطوع بمرارة:

ـ يلزم تسمعني زين يا أبو راشد...

ابتسم حماد، لأنه يعرف، أو يقدر، في أي الموضوعات يفضل مالك الفريح أن يخوض، قال له بمداعبة:

ـ كلي آذان يا أبو صفوق إذا ردت تسولف بغير قضية الفلوس!

ـ لا بالله، يا حماد، لأن كل السوالف منشاها أو وراها الفلوس، والواحد مهما حاول يهرب منها ما يقدر، فيلزم يحكي عن وجعه.

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون...

قالها حماد بحزن متصنع، ثم أضاف:

ـ إذا كان لا بد سولف، يا أبو صفوق، وعسى أن الله يقدّرنا على مساعدتك!

هز مالك الفريح رأسه بحزن، لأن لا أحد في الكون يستطيع أن يفهمه، أو أن يتعاون معه. الجميع يعادونه، لا يعرف لماذا. حتى الذين يعطيهم من ذوي القائمة الخضراء، فإنهم يعتبرون كل شيء حقاً لهم، وأنه لا يعدو أن يكون مجرد أمين للصندوق. حتى كلمات الشكر التي يطلقونها جزافاً يبخلون بها عليه. وحين ينفذ الأوامر يتحول إلى عدو، ولا يخفي أكثرهم حقدهم عليه، واحتقارهم له. وإذا كان قد تحمل كل هذا في السابق، فالأمور الآن أخذت مساراً خطراً، لأن رأسه أصبح مطلوباً. ليس ذلك فقط، ما الفرق بين غزوان وأبيه؟ ولماذا اختلف مع الحكيم؟ صحيح

أن بينهما شيئاً شخصياً، لكنه، وهو يؤدي واجبه، لا يقيم وزناً لعواطفه. قناعاته وحرصه ما يملي عليه اتخاذ الموقف المناسب، مهما كانت النتائج.

مرت هذه الصور والأفكار، وحماد ينتظر، وحين طال صمته، قال له حماد بمداعبة:

ـ إذا ما كنت غلطان، يا أبو صفوق، فظني أنك، هالحين، معي، وأن الفلوس ما هي كل شيء بالدنيا!

رد مالك الفريح بحزن:

ـ أنا معك وماني معك يا حماد، لأني صرت حمامة بشبكة، وأنا بكل الأحوال مأكول ومذموم، وجه قباحة. . . .

وبعد قليل، وهو ينظر إلى البعيد:

ـ طويل العمر يريد يصل إلى هدف موكده زين. فليش حتى يصيب النيشان، يلزم نصاله تمر بي؟

وضحك بسخرية، وهو يترنم:

ـ وصارت إذا أصابتني سهام   تكسرت النصال على النصال

غير قعدته، تنحنح، شد وجهه، وهو حين يفعل ذلك، يريد أن يحارب، وحماد يعرف هذه الإمارات. قال بمداعبة، لكي يقطع عليه الطريق:

ـ وكلّ الله يا أبو صفوق، لأن الأمور أبسط بكثير!

ـ اسمع يا حماد. . .

قال هذه الكلمات، وخرجت من بين أسنانه، فتجعد وجهه، ولم ينتظر:

ـ أعرف أن أي وزير مالية ما أحد يحبه، والكل يحكون عليه، لكن الوزير هو اللي يحمل الوزر، هو اللي يتلقى الضربات، وأنا وأنت، يا أبو راشد، بكفة ميزان واحدة، أنا للمالية وأنت للداخلية، لكن ما يلزم نكون طعام لأولاد خريبط، وأظنك تعرف: إذا تغدوا بي لا بد يتعشون بك، وإذا ما هو اليوم اللي عقبة!

ضحك حماد ليداري حرجه، ولم يشأ أن يشارك بهذه اللعبة: تابع مالك الفريح:

ـ كفر وقلة دين أن الواحد يفرّق بين أولاده، يأخذ من واحد ويعطي الثاني. وما هي سياسة أن نشد الحزام الظهر ونفجر ونطّلع الأول والتالي العصر. فيلزم طويل العمر يكون عادل ومنصف، وأنت تعرف أن العدل أساس الملك، فظني إذا فنر ما فتح عينه زين، وعرف اللي يصير واللي ما يصير، ترى هذول اللي تعودوا على المخصصات والعطايا ينقلبون ذياب، ولا أحد يقدر يلمّهم، ومن قبل قالوا: خف من الغني إذا جاع ومن الفقير إذا شبع!

قال حماد المطوع بمكر:

ـ حنا مأمورين، يا أبو صفوق، حنا ننفذ اللي يقوله السلطان، وهو وقرابته ينجازون، لأن اللي يطاول الأطول منه يتعب!

بعد ثلاثة أيام قال الأمير راكان لمالك الفريح، وقد تشعب الحديث بينهما كثيراً:

ـ أنت، يا شيخ مالك، ما عليك إلا تصرف إذا صدر لك الأمر، أما ليش فلان بالقايمة الزرقا وليش فلان بالقايمة الخضرا، فهذي يمّ طويل العمر، وهو أدرى منا جميع!

زار حماد وداد الحايك، زارها حاملاً إليها مبلغاً كبيراً، وهو عبارة عن بقية ما يستحق للحكيم في ذمة الزوبعي، بعد أن انتهت الشراكة، وقد استدعاه حماد حين تأخر في تسديد بقية الدين وأجبره على دفعه.

قال لوداد، وهو يتطلع إليها بطريقة مختلفة عن السابق:

ـ نشف ريقنا، يا أم غزوان، حتى حصلنا اللي لكم من الزوبعي، وهذا هو المبلغ.

وفتح حقيبة سوداء كان يحملها، وقد ظلت عينا وداد معلقتين بهذه الحقيبة منذ لحظة دخوله، إذ لم تره من قبل، في زياراته السابقة، يحمل أي شيء. استغربت وتوقعت. أما وهي ترى الأوراق المالية تتراكم وتصطف، فقد صرخت بلذة:

ـ كل هذا المبلغ إليّ؟

ـ هذا ما هو شي، يا أم غزوان، بالنسبة للدفعات التي راح تجي!

وامتدت يدا وداد للنقود، حملتها لتعرف وزنها، لتتأكد، تابع حماد بنبرة جديدة:

ـ وأنا اتصلت اليوم، يا أم غزوان، بغزوان، واقترحت عليه أن يجوا الأولاد، أو واحد منهم على الأقل، حتى تتلاحق المعاملات، لأنك تعرفين: موران والناس في موران، محافظين، والمرا ما تقدر تتابع وتراجع، خاصة وأن في بعض الدوائر جماعة متعصبين، وغزوان ما هو فاضي لهذه القضايا!

سألت بلهفة:

ـ وشو كان جوابه؟ شو كان رأيه؟

ـ وافقني تماماً، وقال إن كمال يمكن أن يتم دراسته بالمراسلة...

وضحك وهو يضيف:

ـ وشنهو قيمة الشهادة؟ المهم، هالحين، أن يستلم الرزق، أشغالكم ومصالحكم، ويلاحق القضايا. والشهادة ما راح تطير، تتحصل، إذا ما هي بهذي السنة، اللي عقبها. والشهادة، ليش الشهادة، حتى تفتح للواحد الطريق، فإذا الطريق انفتح كل شي سهل.

ـ كأنك بقلبي يا أبو راشد، وهذا كان رأي!

تطلع حماد إلى ساعديها البيضاوين وإلى رقبتها. رأته وهو ينظر إليها. خفضت نظرتها للحظة، ثم رفعت إليه، وبسرعة، عينيها، لكي تشعره أنها رأت. قال بمكر:

ـ ولا بد أن روحك ضاقت وأنت وحدك يا أم غزوان!

ردت بأسى:

ـ هيك النصيب، يا أبو راشد!

قال سعيد الأسطة لحماد، بعد أن استلم المبلغ الجديد:

ـ بعدك تريد، يا أبو راشد، نخلي الجدي مربوط، أو نتركه لحال سبيله؟

ـ كنت تسولف من قبل عن الفار والبزون، أشوفك اليوم تسولف عن الجدي والتيس؟

ـ اليوم وقعت عليّ قفة من السما.

ـ شلون؟ هات، علّمنا.

ـ أم غزوان، يا أبو راشد، الفلوس تمطر عليها مطر، ومحسوبك صار أمين الصندوق وموضع الأسرار، بعد كل اللي صار بيني وبين ذاك المقرّن!

وضحك بصخب، وسأل من جديد:

ـ ها... شنهو رأيك، نربط الجدي؟

ـ أي بالله، يا أبو شكيب، هذا الجدي يلزمه ربط، لأنه إذا ظل طليق يلبط ويعور!

ـ راح ادخلها، يا أبو راشد، بدرب له أول لكن ما له آخر!

ـ شلون، يا ابن الأوادم؟

ـ ما عليك، خليها عليّ!

ـ وحنا؟ ما تحسب حسابنا، ما تقول أصحابنا؟

ـ اللي تريده يصير يا أبو راشد.

وبعد قليل وهو يغمز بعينيه:

ـ أنت شفتها بالأيام الأخيرة، شلون شفتها؟ عجبتك؟

ـ استر عليها وعلينا يا ابن الحلال، وخلنا هالحين، بقضايا العمل.

ـ اللي تؤمره، يا أبو راشد، واللي تريده يصير.

قال حماد، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ بس إذا ربطت اربط وحزم زين!

ـ لا توصِ حريص، طال عمرك.

قال راكان لتسعة من أولاد خزعل، وكان سبعة منهم في القائمة الزرقاء، واثنان في القائمة الخضراء، قال لهم بلهجة أبوية:

ـ طويل العمر، السلطان فنر، وصاني أشوفكم وأسولف معكم، ونريد نفتح قلوبنا ونتكلم بصراحة...

خيم الصمت. تطلع إلى الوجوه. تنحنح وتابع:

ـ أبوي، الله يرحمه، تعب وهو يوصينا: الدولة أكبر من أي واحد منا. وهذه الدولة، اللي أنتم أمراء فيها، ما صارت بالهين، سالت أنهار من الدم حتى صارت، وما أظن أن أحد يفرط بها، خاصة وأن الدنيا حولنا تغلي، وكل يوم والثاني تسمعون شنهو اللي يجري واللي يصير!

تعب وتشتت، تابع بعصبية:

ـ وما نسمح أنه واحد منا، واحد من دمنا ولحمنا يقول فلاني وتركاني...

ضرب على الطاولة الصغيرة، وتابع:

ـ أدري أن بعضكم ما هو براضي، وادري أن الواحد ما يقدر يتنكر لأبوه، بس أنتم كبار وتتفهمون زين، ويلزم أن العقل يتحكم، إذا أحد يريد يعاند، ويقول يصير وما يصير، ترى ما هو منا...

وزفر بحزن:

ـ أبوي، الله يرحمه، ما ترك أحد يتدخل، حتى أبوه، قال له: أطيعك كأب، وأخضع، لكن الدولة أكبر مني ومنك، فإذا ردت أن نخسر أنا وأنت، فالدولة يصير لها راسين، وهذا معناه أن الكل يطمع بينا، ونختلف، ونتذابح، وننتهي، أو نترك كل شيء.

ابتسم، تطلع إلى الوجوه، تطلع بإمعان، وأضاف:

ـ وجدي، الله يرحمه، قال له: اللي تقوله حق، وهذا وحده يلزم يصير، وما دمت قادر وقوي، وعلى طاعة الله ورسوله، اترك لك كل شي، ونفسي راضية، وقلبي معك!

وخبط راكان على الطاولة، وقال بلهجة جديدة:

ـ ويلزم كل واحد منكم يعرف: الدولة أكبر من أي واحد منا، والدولة، هالحين، غيرها أيام أبوي؛ الدولة هالحين تقدر تسوي كل شي.

الدولة هي أبونا وأمنا، تغني الواحد وتجوعه. اللي يكون مع الدولة، يا أهلاً ومرحباً، وكل ما يريده يصير، أما إذا أراد أن يكون أكبر من الدولة، ضد الدولة، لا بالله، لا نعرفه، ولا له مكان بينا.

وابتسم، بعد أن تعب، لكن شعر أنه أوصل الرسالة. ترك الصمت يمتد طويلاً قاسياً، لكي يتيح لكل فرد أن يتخذ القرار المناسب، وبعد أن مرت دقائق في ظل الصمت، سأل:

ـ يجوز تكلمت أكثر من اللازم، أو قلت شي تعرفونه زين، وهالحين اريد أسأل كل واحد منكم: أنت مع الدولة، أو مع غيرها؟

لم يجب أحد إجابة واضحة أو قاطعة، لأن المناقشات أخذت مسالك كثيرة، وكانت، أغلب الأحيان، غامضة متداخلة، خاصة وأن معظم الذين حضروا، استعدوا، هيأوا أنفسهم لأسوأ مما قيل، لكن كل واحد صمم أيضاً ألا يقول كلاماً واضحاً أو نهائياً.

حين نقل راكان ما دار من أحاديث بينه وبين أولاد خزعل لفنر، فقد أمر السلطان أن ترسل، وبشكل عاجل، سيارات من نفس النوع، لكل واحد من أولاد خزعل، وأمر أيضاً أن يترك لكل أمير منهم اختيار اللون الذي يفضله!

قال مالك الفريح لمساعده:

ـ سجل، يا وليدي، بتاريخ اليوم: وصرفت لأصحاب السمو الأمراء أربعون سيارة كاديلاك. وسجل يا وليدي: إلى إدارة النقل والمركبات: بأمر صاحب الجلالة السلطان تستورد مائة وخمس وأربعون سيارة كاديلاك جديدة، ويفضل أن يكون اللون بين الأخضر والأصفر والأحمر والقلقلي والكموني، ولا تنسَ يا وليدي، تقول لهم، وبأمر من صاحب الجلالة، سبع من السيارات كشف، لأن بعض الأمراء يحبون الصيد.

اتصل غزوان بأمه. كان محرجاً، لأنه لم يستطع أن يأتي في الموعد الذي قدّره، لكثرة الأشغال، وقال في نهاية المكالمة:

ـ واتفقت، يا ماما، مع أبو راشد، وأبو شكيب، أن يتوجه كمال إلى موران، حتى يحمل عنك كتف ويساعدك.

ـ ودراسته، يا غزوان؟

ـ بسيطة يا ماما، اتفقنا مع الجامعة على أن يتابع الدراسة بالمراسلة.

ـ أنت متأكد يا غزوان؟

ـ تماماً يا ماما.

ـ والبابا، شلون البابا، يا غزوان؟

ـ كل شي منيح يا ماما، وأنا راح يكون لي مشوار عن قريب لموران...

ـ البابا، يا غزوان، كيف أحواله؟ صحته؟

ـ نعم؟ آلو... آلو...

وانقطع الخط!

رغم تعاقب الأزمان، وتغير الحكام والسلاطين، فإن لموران قدرة متجددة وغير محدودة على متابعة أدق أسرار الذين يحكمون، وأكثرها خفاء. قال المسنون: من يريد أن يعيش في موران عليه أن يألف هواءها. قالوا ذلك وهزوا رؤوسهم، وهم يعنون أشياء كثيرة. لم يقصدوا تحمّل حرها وبردها وحدهما، وإنما قراءة رياحها أيضاً. والنساء المسنات، وهن ينمن الأطفال، لا يجدن حديثاً أمتع من حديث الذين مروا: الحكام والشيوخ والذين اغتنوا فجأة. كان الخيال يحمل الأطفال والعجائز بعيداً، يعطيهم القدرة على إعادة تشكيل العالم، بحيث يبدو كل شيء هشاً ومؤقتاً، ولا بد أن يسقط نتيجة أول هبة ريح، أو إذا رفع الرجال في وجوه بعضهم السيوف!

في بعض الأحيان تبدو الأمور راسخة، وفي أحيان كثيرة يتصرف الذين يحكمون بثقة مبالغ فيها، ربما اعتماداً على ما يسمعونه. لكن فجأة، وبسرعة لم يتوقعها أحد، حتى الذين يقرأون الرياح، ينهار كل شيء وينتهي.

قال السلطان لعدد من أخوته، بعد أن اكتشفت محاولة تمرد.

- بعد اليوم ما اريد سوالفنا تنطرح بسوق الغزل أو بالسوق العتيق...

تطلع إلى الوجوه بحزم، وأضاف:

- بعيني هذي، اللي راح ياكلها الدود في يوم من الأيام، أنا شايف أبوي يؤمر بقص آذان ثلاثة من العبيد، ولسان الرابع، لأن الثلاثة سمعوا الرابع يسولف لهم عن واحدة من حريمه، وما بلّغوا ولا قالوا...

ابتسم بشفقة، وهو يضيف:

ـ أما أيام خزعل، وأنتم تعرفون زين، فاللي يصير بالليل، وقبل ما يطلع النهار، على كل لسان، واللي يجري بين الواحد وأهله، ما يظل أحد إلا ويعرفه!

ولأن الصمت ظل مخيماً، فقد تابع بصوت مختلف:

ـ ما أريد أوّصي، ولا أريد أهدد، لكن يلزم كل واحد يعرف حده ويقف عنده. لأن أهل موران، وهذه عادتهم، ما يعرفون غير السوالف. ما يفيد معهم عيني وآغاتي، هذول ما يجون إلا بالعصا والعين الحمرا، ولازم يتأدبون!

قال راكان، وهو يفرك يديه:

ـ ظني، طال عمرك، أن وقت السوالف راح، وحتى القهاوي اللي يجتمع فيها التنابل والسريرية واللي ما عندهم إلا نقل الكلام، ما ظل لها أثر. وهالحين يلزم كل واحد منا يشمر عن ساعده ويشتغل!

قال سند، وهو واحد من الأخوة يفضل أن يقضي معظم وقته في البادية، ولا يأتي إلى موران إلا في أوقات متباعدة، قال وهو يبتسم:

ـ لا تضيقوا، يا عباد الله، أكثر من اللازم، على أهل موران، ولا يخدعكم اللي حولكم، واللي ما يسولفون إلا السوالف اللي تعجبكم!

ولأن الكثيرين لا يعرفون سند معرفة دقيقة أو واثقة، فقد بدا لهم الكلام غريباً. قال السلطان ليعيد الجو إلى ما كان عليه:

ـ حنا، الله يسلمك. ما نريد نتعدى على أحد، نريد كل واحد يلزم حده. اللي يقول لنا مرحبا نقول له مرحبتين، واللي يرفع خشمه ويقول يصير وما يصير ما له إلا العصا!

قال راكان بانفعال:

ـ وأنت، يا سند، بعيد، وما تعرف شنهو اللي صار بأيام خزعل.

قاتل مساعد، الأخ الشقيق لراكان:

ـ أشهد بالله أنّا انفضحنا، وما ظل لنا سر مخبّا، والناس ما عندهم سالفة إلا صار وجرى بقصر السلطان، أو بقصر الأمير الفلاني والأمير

الفلاني. والناس، يا سند، مثل ما تعودّهم، أما إذا انتركوا فإنهم يفجمون، يفجرون، وبعدها ما أحد يقدر عليهم!

رد سند بسخرية:

- أنتم أدرى بأهل ديرتكم، بس لا تروحوا زايد بليلة العرس، خاف بعدين تندمون!

قال السلطان ليحسم المناقشة:

- وأهل البادية غير أهل موران، يا سند.

ولأن التغيير، ثم التمرد، ما زالا قريبي العهد، وقد رافقتهما الإعدامات والسجون، فقد تحسب الكثيرون، فخيم صمت ثقيل على موران، وتراجعت الإشاعات التي تروى في المضافات، إذ انتقلت إلى البيوت، وأصبحت تروى همساً أو في الليل. فبدا كل شيء قوياً مستقراً، خاصة بعد أن غادر شمران موران إلى الزرنوق، وامتلأت مقهى زيدان بالمخبرين. أما بعد أن عاد العجرمي، وبدأ عمير ينتقل من مضافة إلى أخرى، وتنتقل معه القصص والشتائم، فقد قال شداد لعبدالله البخيت، وبدا واثقاً:

- أتذكر زين، يا أبو بادي، الكلمة التي قلتها لي قبل شهور: علة العلم النسيان، وعلة اللي يحكمون موران أنهم ما يتعلمون إلا من كيسهم... تذكر؟

- شلون ما أذكر يا أبو غانم.

- وهالحين تحققت بنفسي!

- هات، سولف، يا أبو غانم.

- حتى ابن أخوي، حماد، الله عماه، صار أثول...

وضحك بسخرية، ثم أضاف:

- قبل أيام سألته: شلون الدنيا يا حماد؟ رد عليّ: الدنيا بألف بخير، الناس ساكتة، وكل واحد ما عنده شغل ألا يركّض ليل ونهار، حتى يؤمن خبزته، وهذا اللي نريده. قلت له: لا تدوسوا على ذيل الناس أكثر مما

يتحملون، ولا تظنوا أن السكوت رضا، لأن الديرة اللي أنتم فيها اسمها موران، ويلزم الواحد يعرفها زين، وإلا أخذته ريحها!

ـ وشنهو كان رده، يا أبو غانم؟

ـ قال: ما عليك يا عم، فنر غير خزعل، والمال يركّع أكبر جمل ويهدّ أكبر جبل!

ـ وأنت، شنهو اللي قلته؟

ـ والله، يا أبو بادي، بلعت لساني وسكت. قلت لروحي مثل ما يقول أهل العراق عن اللي ما أحد يسمعه: لا تتعب روحك يا شداد، لأن كلامكِ بول بشط، ما أحد يسمع ولا أحد يفهم!

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

ـ وهذي مورن أبد ما ينحزر عليها، يا أبو بادي، تأخذ الواحد غفل، وياما أخذت!

لم يكن هذا رأي شداد وحده، كان رأي الكثيرين. فموران، هذه المدينة الخادعة، تعرف كيف تلتقط الإشارات، وكيف تتحرى الوقائع. تقرأ الكراهية في العيون، قبل أن تسمعها كلمات أو قرقعة رصاص. تميز المشاعر والمواقف، فلا تقوى الابتسامات أو الكلمات الكبيرة على تغيير قناعتها. حتى الصمت الذي خيم على القصور، وقد نقلت قصص كثيرة عن الإعدامات التي حصلت داخل سجون هذه القصور، لم يخدع أحداً.

عمير وهو في مضافة ابن الشهيري، صدف أن كان أحد رجال حماد، فهمس ابنه عطا في أذنه، لكي ينبهه، فقال وهو يقهقه:

ـ عدلت فأمنت فنمت يا عمر، أما هالجين، فأولاد أبو جهل يدربسون بيبانهم، ويرفعون حيطانهم، ويملون الدنيا بعيونهم، وما يقدرون ينامون، فخلنا نشوف شنهو اللي يقدرون عليه باكر أو اللي عقبه.

قال عثمان الشهيري ليغير الموضوع:

ـ الواحد بهذي الأيام ما عاد يأمن أو يثق...

وحين تابعته العيون، أضاف:

ـ قبل شهر، شهرين، اشتريت هذه الساعة، اشتريتها من رضائي. ما مرّ أسبوع حتى انكسر الزنبرك. قلنا ما يخالف، دفعنا كثر حقها وصلحناها. ويوم تقدّم والثاني تؤخر، إلى أن توقفت تماماً. وما يدري الواحد يصلّحها نوبة ثانية، أو يشتري غيرها؟

ولكي لا يترك مجالاً لعمير لمعاودة شتائمه، سأل:

ـ كم الساعة، يا عثمان؟

ولما كان عثمان الدباسي يثير من المتعة والقهقهة الكثير، حين يستخرج ساعته، من كيسها الجلدي، ثم من غلافها المخملي، وبعد ذلك يفتحها وينظر إليها ملياً، وهو يردد: الساعة، يا عم الساعة، الساعة، يا عم الساعة، إلى أن ترتفع الأصوات، فيقرر أن يعلن الميقات، لكنه غالباً ما يخطئ، وبفرق كبير. وهكذا يتحول النقاش إلى مساومة عثمان الدباسي على تلك الساعة، أو على الأقل النظر إليها، وتلمسها، مما يضفي على الجو مرحاً لا يقاوم. عند ذاك يقرر الشيخ عمير أن ينهض، ويغادر، لكنه لا ينسى أن يقول، وهو يدق الأرض بعصاه:

ـ كما تكونون يولى عليكم، يا أهل موران!

وبدا، من بعيد، وكأن موران تعبت وتريد أن تستريح؛ لكن العيون لا تتعب من المراقبة، والعيون، حين تريد، تعرف كيف تنظر، وإلى أين. أما الآذان فكانت متوجهة نحو الريح.

فقبل أن تبدأ شتائم الأمراء، وقبل أن تصل السيارات التي طُلب من رضائي استيرادها بشكل عاجل، أصبح يُسمع في موران، همساً، ثم بصوت أعلى، أن الخلافات بين الأخوة وصلت إلى درجة يمكن أن تهدد كل شيء. تم تقدير ذلك دون أن ينقله الخدم والنسوة، لأن الخدم خافوا، ولأن النسوة في هذه الفترة، وعلى غير العادة، انصرفن إلى أمور لم يفكرن بها من قبل، انصرفن إلى الميراث، وإلى ترتيب أمور المستقبل. لذلك انتشرت أخبار خصومات من نوع جديد، لم تكن مألوفة في القصور: أخبار السرقات. كانت أشياء كثيرة تختفي، لا يُعرف من حملها أو متى. يكون الجناح مليئاً بالأشياء والبشر، وما يكاد الأمير أو الأميرة يغادر، وقبل

أن يمضي أسبوع، وبحجة نقل محتويات الجناح إلى مكان آخر، إلى قصر جديد، حتى تأتي سيارات وتنقل كل شيء، ثم يتبين، بعد يوم أو اثنين، بعد أسبوع أو اثنين، أن محتويات القصر اختفت.

لقد حصل هذا الشيء عدة مرات. ثم أصبحت السرقات تأخذ أشكالاً أكثر براعة واتقاناً. إذ يأتي الحمالون ويطلبون حاجات معينة، أثاثاً يسمونه ويصفونه، بحجة استبداله أو إصلاحه، ثم لا يعود أبداً!

كانت الأواني الذهبية أو الفضية أكثر الأشياء التي تُسرق، في البداية. وبعد ذلك أصبح السجاد والأثاث الخشبي، وفي فترة متأخرة، لم يعد شيء إلا وأصبح قابلاً للسرقة!

قال حماد، حين سئل عن سرقات قصر الروض، ثم قصر الغدير:

ـ يا جماعة الخير لا تسموها سرقة، هذي أخذ وعطا، ومن يومه، القصر، مال داشر. الواحد يأخذ اللي يريده، اللي يقدر عليه، واللي ما يريده يرده للمستودع. وإذا ما تصدقون افتحوا المستودع وناظروا، كأنه مقبرة.

وحين تزايدت التأكيدات أن ما يجري أكثر من أخذ وعطاء، وفي محاولة للتبرير، رد بنزق:

ـ بعدما انهجر قصر الروض، وبعده قصر الغدير، وانتقلت الحراسة إلى القصور الجديدة، ما أحد يدري شنهو اللي دخل وشنهو اللي خرج.

وبعد قليل:

ـ عندما كان طويل العمر بالقصر، وكنا مسؤولين عن الحراسة، كان الطير الطاير ما يدخل أو يخرج إلا بأمرنا، بمعرفتنا، أما هالحين...

قال عبدالله البخيت، لما سمع أن خمسة قطعت أيديهم، بعد أن «ثبتت» عليهم السرقة:

ـ الله يذكرك بالخير يا شمران...

وبعد قليل وبحزن:

ـ قبل سنين، بأيام سوق الحلال، وكان يوم جمعة، بعد الصلاة،

ورادوا يقصون يد واحد فقير، لأنه سرق حمار، كان ينوي يحمّل عليه ماء ويبيعه للبدو، قال شمران، لا بالله، كان يصرخ: «حرام عليكم يا أولاد الحلال». أما بعد ما انقصت اليد، فما ظل أحد إلا سمعه يقول: لا إله إلا الله، سارق السر يقطعه سارق العلانية!

وزفر، وهو يقوم:

- بهذي الأيام ما أحد يدري من يسرق من!

أبو جازي، طالع العريفان، الذي اختفى خلال الأيام الأخيرة من حكم السلطان خريبط عاد، لقد تقدم به العمر كثيراً، قال، حين سمع بأخبار السرقات في القصور:

- ترى إذا الواحد بدا يسرق نفسه، فاعرفوا أن الدنيا مصبحة مسيّة!

قالت نعوّم التي سُرق منها الكحل، ولا تعرف كيف سرق:

- إذا صاروا يسرقون حتى الكحل، فالله يستر ما يسرقون المرية من حضن رجلها!

وبعد قليل، وكانت تحدّث نفسها:

- ترى السرقة ما هي حاجة، هي عادة، والعادة سوسة، والسوسة ما يطيب منها الواحد إلا بالموت.

مالك الفريح الذي فرح كثيراً بتنزيل المخصصات، وبالقوائم الزرقاء لا الخضراء، واحتمل التهديدات، والشتائم، وأخذ يتصرف بحيطة وحذر، سواء في استقبال وكلاء القائمة الزرقاء، أو في التعامل معهم، بدأت تختلط عليه الأمور، خاصة بعد أن زادت المصاريف بشكل لم يتوقعه.

فرضائي، الذي بدا له في فترة سابقة إنساناً معقولاً، ربما لخصومته مع صبحي المحملجي، وقامت بينه وبين مالك معرفة، تحولت بمرور الأيام إلى صداقة، أصبح لا يفارق وزارة المالية، لاستيفاء ما يستحق له ثمناً للسيارات التي أخذت تتدفق على موران. ورضائي، رغم الود والمظاهر الناعمة، يعرف كيف ينتزع، وبوسائل لا حدود لها، الأموال. ولأن الأمور تجاوزت الحدود، بدأت عداوة صامتة بين الرجلين، من خلال امتناع مالك الفريح عن تخصيص المبالغ، بحجة عدم وجودها، ومن خلال ضغوط

رضائي المتنوعة، والتي لا تتوقف، وقد وصلت في إحدى المراحل إلى التحريض على «ابعاد وزير المالية لأنه يعيق تنفيذ سياسة السلطان، وربما لا تزال له علاقة بالسلطان المخلوع!».

لم تقتصر علاقة رضائي على الأمير راكان ومساعد ورضوان، إذ امتدت إلى موظفي الوزارة. ومن خلال هؤلاء أصبح على بينة، وادرى الناس بالمبالغ التي دخلت للخزينة، والمبالغ التي صرفت. فإذا احتج مالك بعدم وجود المال، كانت تصفعه الأرقام!

قال مالك الفريح لحماد بعد مشادة بينه وبين رضائي لتأخره في صرف بعض القوائم:

ـ أريدك، يا أبو راشد، تنوب عني، وتبلغ طويل العمر رسالة، لأني ما أقدر أنقلها بنفسي.

ـ سم يا أبو صفوق.

ـ أريد استعفي من هذي الشغلة، واريد أشور على طويل العمر من هو اللي يلزم يجي بمكاني.

قهقه حماد، في محاولة لامتصاص الغضب، ولأنه يعرف، من خلال التقارير التي تصله، اضعاف ما يعرف مالك الفريح، خاصة عن رضائي، وبعد أن هدأ، رد مازحاً:

ـ والله لو سألني طويل العمر عن وزير للمالية غيرك، لقلت له: مالك يا طويل العمر إلا مالك!

ـ مالك زعّل الناس كلهم، يا حماد، وهالحين ما يرضى الناس إلا برضائي!

لم يكن رضائي الهمّ الوحيد لمالك الفريح، فالقوائم التي بذل جهداً لحفظها، بدأت تتغير يوماً بعد آخر، وذاكرته، التي كانت يفاخر بها، لم تعد تحتمل التغيرات التي تقع كل يوم، ومع كل دفعة سيارات جديدة. قال لسكرتيره ساخراً:

ـ . . . وأريد منك يا وليدي تنقل فراشك لبوابة قصر السعد، وبكل صباح، وقبل ما تصبّح عليّ، تعطيني اللوايح الجديدة، لأن الصرف بدون

أمر، ولغير مستحق، يغرّم الصارف المصروف، ويحبسه ويلعن والديه!

وبعد قليل وهو يتبسم بحزن:

- لو طويل العمر اعتمد الأصفر بدل الأزرق كان ارتاح وريّح غيره!

قال السلطان ليونس شاهين:

- هذا الخزندعي، اللي يسمونه مطيع شخاشيرو، ما عنده سالفة إلا يمسد شواربه، وإذا كتب يكتب عن سباق الخيل وعن الطريق الفلاني أو العزيمة الفلانية!

وتغيرت لهجته:

- هذي السوالف ما تفيدنا يا يونس؛ صحيح أنها ترضي فلان أو فلان، لكنها ما تنشال من أرضها. أريد جرايدنا، والجرايد اللي معنا، هنا وهنا، ترّج الدنيا، تغير الناس، وأريدها تخلي موران على كل شفة ولسان، وإذا هذا ما صار ترى فلوسنا راحت بالتراب.

رد يونس بتشفٍ:

- لم أكن أريد، يا صاحب الجلالة، أن أتدخل مباشرة بالأمر، فقد ظننت أن هذه تعليمات جلالتكم، لاسترضاء بعض الأمراء، وتوجيه اهتمامات الناس...

ابتسم وهز رأسه، ثم تابع:

- مع العلم، يا صاحب الجلالة، إني لم أكن راضياً عن هذه الصحافة، وكنت أريدها أن تهتم بالأمور الكبيرة التي أشرت إليها.

وبعد قليل:

- وأما وأن تعليمات جلالتكم هكذا، وإذا فوضتموني، فلا بد أن نغير كل شيء، وأن نجعل الصحافة تأخذ منحى آخر.

قال السلطان بهمس:

- أنت مفوض، يا يونس، بس أريد هذا الشي يصير على مهل، يوم بعد يوم. وأريدك تترك هذا الخزندعي بمكان زين، لأنّا بحاجة له، نريده يظل مخرز بجنب الحكيم.

قال يونس شاهين مازحاً:

ـ المهم بالنسبة له، طال عمرك، صورته ويده على خده، وصفحة لغو، وغير شيء ما له علاقة!

ابتسم السلطان، فتشجع يونس:

ـ وأنا، طال عمرك، ما غفلت عن الموضوع، سألت الجماعة الذين يشتغلون معه، وأخذت فكرة كاملة، وإنشاء الله ما يمضي شهر والثاني إلا وتكون الأمور كما تريدون!

قال السلطان بنجوى:

ـ الدنيا حولنا، يا يونس، تغلي، والناس ذبحهم الحسد، وموران ما هي بعيدة، فيلزم نتغدى أعداءنا قبل ما يتعشون بينا.

ـ الحق ما نطقت به يا صاحب الجلالة.

ابتسم السلطان وأضاف ساخراً:

ـ الحق، حتى يصير حق، يا يونس، ينراد له سيف قوي ورجل سخي ولسان ما هو عيي!

هتف يونس بإنفعال:

ـ هذه الكلمات القليلة، يا صاحب لجلالة، تمثل شعارات السلطنة وعناصر قوتها، ولا بد أن تكون مبادئ موجهة!

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

ـ هذه القضية بالذات، كانت، يا صاحب الجلالة، موضوع الخلاف بيني وبين هاملتون. كنت أقول له: أن البداوة تحمل من القوة والأصالة والبداهة، ما لا تحمله أية بيئة أخرى، وأن البدو، رغم بساطتهم، فقد وصلوا إلى الحقيقة ـ الجوهر، وكان رأيه، كما تتذكر، يا صاحب الجلالة، أن البداوة أصبحت ماضياً، ولا يمكن أن تستعاد. وأن موران، إذا أرادت أن تكون شيئاً في عالم اليوم، فما عليها إلا أن تغادر بداوتها، أن تخلفها وراء ظهرها، وبسرعة، من أجل أن تلحق بركب العصر.

رد السلطان بحزن:

ـ الله يرحمك يا هاملتون!

وبعد قليل:

ـ من علمني حرفاً كنت له عبداً.

وتغيرت النبرة تماماً:

ـ كنت أتمنى لو أن هاملتون بينا بهدي الأيام، لو كان معنا، لو كان حي، لفادنا وشار علينا، لكن الأعمار بيد الله!

خيمت فترة صمت. لم يشأ يونس أن يعلق، ولم ينس السلطان الموضوع، تابع:

ـ والناس، هنا، يا يونس، مثل العجينة، شلون ما تريد تسويهم يصيرون، بس ينراد تخوفهم وتشيّمهم، فإذا خافوا ناموا نومة الحية، وإذا تشيّموا صاروا نار الله الكبرى!

قال يونس بفخامة:

ـ البدو أصل العرب، فإذا ذل البدو ذل العرب، وإذا ذل العرب ذل الإسلام.

قال السلطان بفخامة مماثلة:

ـ موران أصل البدو، وحنا أصل العرب، والإسلام بليانا ما هو بشيء.

قال يونس:

ـ صدقت، يا صاحب الجلالة!

من يصل إلى موران، عن طريق مدخلها الجنوبي، وقبل وادي الرها ببضعة كيلومترات، يفاجأ بهذا العدد الهائل من السيارات التي تراكمت بالمئات فوق بعضها. أنها واحدة من عدة «مقابر» حول المدينة، نشأت، أول الأمر، بالصدفة، ثم بمرور الوقت أصبحت مقابر رسمية يلقي فيها الجميع، بمن فيهم الدولة، السيارات القديمة، أو التي تعرضت للحوادث، وتلك التي تخلى عنها أصحابها لسبب من الأسباب. وإذا كانت تلك السيارات قد أثارت اهتمام بدو القرعة، في البداية، لأن منازلهم ومراعيهم كانت بالجوار، ولم يبق أحد من هؤلاء، كباراً وصغاراً، إلا وتفقد، بحرص وعناية، تلك السيارات، لعلها تكون مفيدة، أو أجزاء منها، لشيء ما، فلم يتردد الكثيرون من نزع المقاعد والمرايا، ثم أجزاء أخرى أيضاً. لقد فعلوا ذلك بشكل سريع، أول الأمر، ودون اتقان، إلا أنهم في وقت لاحق، وبعد أن بدأت السيارات بالتراكم، أخذوا ينتقون الأجزاء التي ينتزعونها بعناية أكبر، إلى أن كفوا عن ذلك، لأنهم لم يعودوا بحاجة إليها، ولأنها لم تعد مغرية، ولا تستحق الجهد.

شباب القرعة، مثل غيرهم من شباب موران، أبدوا اهتماماً مبكراً بالسيارات عموماً، ثم بهذه السيارات التي أخذت تتراكم حولهم وتشاوروا فيما بينهم، ثم مع الآخرين، حول إمكانية إصلاحها والاستفادة منها، لكنهم لم يستمروا، بل وتوقفوا دون تردد، حين ذكرت أمامهم الأرقام الكبيرة مقابل إعادة الحياة لها!

الوحيدون الذين لم يفتر حماسهم، ولم يتخلوا عن هذه السيارات هم الأطفال. كانوا، أو أكثرهم على الأقل، يقضون سحابة نهاراتهم

في «أم الطراقيع»، كما أصبح يطلق على مقبرة السيارات.

اخترع الأطفال عشرات الألعاب، إذ بالإضافة إلى تظاهرهم أنهم يسوقون تلك السيارات، وهم ثابتون وراء المقاود، فإن الكثيرين أعطوا أفضليات للسيارات التي يملكونها، إما بسبب أحجامها، أو بسبب الألوان، وفي وقت لاحق لأنها تعود إلى أمراء عرفوا أسماءهم. كما أنهم باعوا واشتروا، أو تبادلوا على أعداد لا حصر لها منها، وتساوموا طويلاً، كما يفعل الكبار، وهم يبيعون ويشترون!

حين زهق الأطفال من هذه الألعاب أخذوا يمثّلون بالسيارات، وبالغوا كثيراً: اخرجوا الأحشاء ومزقوا المقاعد وانتزعوا الدواليب، ونبشوا كل جزء منها، وصدف، عدة مرات، أن وجدوا داخل بعض هذه السيارات أشياء ثمينة، مما حفز الرجال لإعادة النظر والبحث من جديد، ثم حفزهم لأن يضعوا قواعد صارمة، بحيث يحرم الصغار من الاقتراب أو اللعب بالسيارات الواصلة حديثاً، وإلى أن يفرغ الكبار من الكشف عليها وفحصها والتأكد من خلوها من الأشياء الثمينة أو النافعة!

قال تركي الدوّاس، وهو أكبر بدو القرعة ملكية للإبل والمواشي، وكان يستعين بالصغار للرعي.

ـ هالمصايب الواحد ما يخلص منها لا بحياتها ولا بمماتها!

قال ذلك وهو يشير إلى ركام السيارات، ثم أضاف:

ـ بحياتها هجّجت البل، وقطعت أنفاسها، وأخذت كل أحمالها، وبمماتها أخذت الرعيان وطمّستهم ببطنها وانهبلوا بيها، وما ندري شنهو اللي راح تسويه بعد!

أما المهندس الإرلندي الذي جاء مع غزوان وروبرت يونغ، من أجل دراسة بناء عشرة جسور على الأودية بين موران والعوالي، وبعد أن شهد هذا العدد الهائل من السيارات المتراكمة في المدخل الغربي لموران، فقد قال ساخراً:

ـ سوف يعيش ناس هذه الأرض في النعيم الكامل، لأن لديهم كل ما

يريدون: نعمة النفط الآن، ونعمة الحديد في المستقبل. أما إذا غادروا هذه الدنيا فإن نعمة الجنة بانتظارهم!

قال هذه الكلمات وهو ينظر إلى تلال السيارات، وبعد قليل، وبجدية مصطنعة:

ـ في المستقبل، وبعد أن تنتهي مناجم الحديد من الأماكن الموجودة فيها الآن، وبعد أن ينتهي نفط هذه الأرض، سوف تجد الأجيال القادمة أن معظم حديد العالم انتقل إلى هنا، ولن تلقى مشقة كبيرة في البحث عنه، لأنه سيكون قريباً جداً من سطح الأرض!

العجرمي الذي طُلب منه أن يصلي على خمسة أو ستة من الأمراء الذين راحوا ضحايا بحوادث السيارات، قال لعبدالله البخيت:

ـ صحيح إني صليت عليهم وطلبت لهم الرحمة، لأن على الميت ما تجوز إلا الرحمة، لكن سمعت سوالف ما تسر القلب، يا عبدالله.

ـ خير يا أبو مشعل، شنهو اللي سمعته؟

ـ يقولون، يا أبو بادي، أن اثنين أو ثلاثة من أولاد خزعل انذبحوا بالسيارات وهم سكارى. ويقولون إن اللي ماتوا ماتوا وهم يتناطحون بهذي البلاوي. ويقولون إن السيارات مخرّبة، وبعضها ما له رسن يوقفها.. ويقولون ويقولون يا عبدالله، وما يندري الصحيح من الكذب!

قال عبدالله البخيت:

ـ أكثر الناس بالسوق، يا أبو مشعل، يقولون إن طويل العمر هو اللي دفّر أولاد خزعل.

ـ شلون يا ابن الحلال؟

ـ عطاهم سيارات تسابق الريح، وقال: «تسابقوا، وخلنا نشوف من يسبق» وقا لابن المطوع لا تتدخل: إذا تسابقوا، إذا تناطحوا. واتركوهم بدماهم إذا صارى شي!

ـ ما هو معقول يا ابن الحلال.

ـ هذي سوالف السوق يا أبو مشعل، ولو تشوف عينك تلال السيارات

عند وادي الرها أو بطريق العوالي: تلال لها أول ما لها تالي، وكلها راحت «بالحروب» و «المناورات»!

ـ كانت أيامنا، من قبل، أحسن، يا عبدالله.

قال عبدالله البخيت بعد فترة صمت:

ـ كل اللي صار من قبل، يا أبو مشعل، بكفة، واللي صار مع شداد المطوع، هالحين بكفة ثانية.

ـ شنهو اللي صار معه يا ابن الحلال؟

ـ يقولون إن حصانه، الأكحل، وهذا عنده أغلى من أولاده، ضربته سيارة من القصر، وما انعرف سيارة من، والحصان مخوطر، بين الحياة والموت، وقالوا إنهم دزوا على طبيب من مصر حتى يداويه.

ـ أي وبعد؟

ـ إلى هالحين ما يندري، بس يقولون: شداد ما خلى كبيرة أو صغيرة، إلا وقالها على القصر وأهل القصر، وهدد أنه إذا الأكحل ما رجع مثل قبل ما يرضى بأقل من راس الكبير!

ـ والله، يا عبدالله، ما سمعت بهذا أبد...

وبعد قليل:

ـ متى صار هذا الشيء؟

ـ قبل أول أمس، يا شيخنا.

ـ وأنت ما شفت شداد ما سألت عنه؟

ـ هو عند حصانه، بالحصيبة، يا أبو مشعل، ومعلومك أنه بأرض الحصيبة، جماعة القصر سووا مضمار ويتسابقون بالسيارات هناك.

ـ والله، يا عبدالله، ما أدري، ولا أحد قال لي.

ـ تجيك العلوم يا شيخنا!

قال ابن العليان لمالك الفريح، وكأنه يتذكر:

ـ بأيامنا، يا مالك، ما تنشري السيارة، إلا بطلعان الروح. ينشف ريقه الواحد من أولاد طويل العمر، ونقول له: السنة اللي حنا بها لا بالله،

والسنة اللي تجي نشوف، وبعدها إذا هو ما نسي حنا ننسى! وراح يوم وجا الثاني، وصارت السيارات تدردب على موران مثل المطر. بيوم من هذي الأيام ينشرى سيارات ما كانت تنشرى بسنين، فشنهو اللي دهاكم، وليش تمردون الفلون مرد؟

رد مالك بحزن:

ـ والله، يا شيخنا، كل سيارة تدوس أرض موران كأنها دايسة بقلبي، لكن ما نقدر نسوي شي، لأنها أوامر طويل العمر!

ـ هذي ما هي أوامر طويل العمر، هذي أوامر غيره يا مالك.

وزفر بحرقة، ثم أضاف:

ـ هذي، يا مالك، أوامر رضائي، واللي وراه، لأنهم على كل سيارة تصل موران يأخذون باج كثر حقها وازود.

وبعد قليل، وبلهجة مختلفة:

ـ وأنا، يا مالك، درت الدنيا واعرف الأسعار، اعرف هذي الحاجة بهالكثر وهذي بهالكثر، أما إذا وصلت إلى موران، فالله أكبر، يتضاعف سعرها نوبتين أو ثلاث نوبات، وهذي الزيادة تروح للمسعدين، لرضائي وشركاء رضائي!

وعاد إلى اللهجة الأولى:

ـ وهذا ابد ما يصير، ويلزم تمنعه.

ـ ظني، يا شيخنا، أن طويل العمر يسمع منك، وأنت تمون عليه، ومن كل بد ولازم تشوفه وتقول له: هذا حرام، هذا كفر، لأن كل فلوسنا راحت بهذي الطراقيع.

رد عثمان العليان بلهجة متآمرة:

ـ ما يفيد يا مالك، لأن طويل العمر بعدما شرى أولاد خزعل بالفلوس والسيارات، يريد هالحين يشري غيرهم، ويريد من كل واحد بموران وغير موران أن يبيع اللي فوقه واللي حدره ويشري سيارة وثنتين وثلاث، ويخلي كل واحد يبدّل سياراته نوبة أو نوبتين بالسنة.

ـ والراي يا شيخنا؟

قال عثمان ساخراً:

ـ خلنا نصفن يا مالك، وعسى أن الله يفتح علينا!

ولم يتأخر ابن العليان في الوصول إلى النتائج التي يريدها: فقد حصل على عدة وكالات لسيارات المانية وسويدية، ثم في فترة لاحقة على وكالات لسيارات يابانية. ابن الفريح الذي بدأ يسمع من الكثيرين عن هذه الوكالات، ثم أخذت السيارات الألمانية بالوصول، ولم يصدق أول الأمر، ثم استغرب، فقد سأل ابن العليان ساخراً حين التقى به:

ـ أتذكر، يا شيخنا، أنك قلت لي: حرام تروح فلوسنا بالسيارات، أشوفك اليوم تتاجر بالسيارات؟

رد عثمان العليان هامساً:

ـ أنت تعرف، يا أبو صفوق: ما يفل الحديد إلا الحديد...

وبعد أن التفت لأكثر من جهة، مع أنهما كانا وحيدين، أضاف:

ـ هالابن الحرام، رضائي، ما يفهم ولا يتعلم إلا إذا انكسر راسه. قلت لروحي: يلزم اخرب عليه السوق، الحبة اللي يبيعها بواحد أبيعها بنص، وإذا ديّن شهر ادين لسنة. وبهذه الطريقة يخسر وينلعن والد والديه!

ـ ونخلص من السيارات، وتظل فلوسنا معنا؟

قالها مالك الفريح بسخرية، فاقترب منه عثمان العليان، شد على يده وهمس:

ـ البّل راحت أيامها، يا أبو صفوق، وهالحين السيارة لا غنى عنها، بس السيارة الزينة، الرخيصة، غير عن سيارات رضائي.

ـ وإذا رضائي رخّص سياراته؟

ـ نرخّص سياراتنا أكثر!

ـ وتروح فلوسنا كلها على السيارات؟ وتمتلي موران بالطراقيع؟

ـ رضائي حتى يرضي اللي معه ما يقدر يحمل الخساير، ولا بد ينسحب.

ـ وتظل وحدك يا أبو عزّيز؟

ـ اللي يحمل ويصبر هو اللي يبقى يا أبو صفوق!

ـ وتحمل الخسارة يا أبو عزّيز؟ وإلى متى؟

ـ خلناهالحين نلعن والديه لرضائي، وبعدها الله كريم!

وقبل أن يُعفى مالك الفريح من وزارة المالية بشهر، حصل كمال المحملجي على وكالة سيارات لعدة شركات أميركية، وبدأت السيارات تصل مباشرة إلى موران، وليس عن طريق بيروت.

قال مالك الفريح لسكرتيره:

ـ وتكتب بالدفتر يا وليدي: كان عمي مالك يقول: يا أولاد الحلال المُلك لمالك الملك، وحنا بهدي الدنيا نعبر عبور، نعيش اليوم ونموت ثاني يوم، فإذا الله أغنانا وتفضل بنعمته علينا فيلزم نشكره ونبوس أيدينا بطن وظهر، ونقول: ربنا لك الحمد والشكر.

وضحك بسخرية، ثم أضاف بلهجة أكثر جدية:

ـ وتكتب، يا وليدي، أنه حرام الواحد يفسق ويفجر، أو ينكر نعمة ربه، وحرام أن الواحد يمرد النعمة ويدوس عليها، لأن الله عز وجل، مثل ما أعطى النعمة يمنعها...

تنحنح واكمل:

ـ وهذا اللي تشوفه عيونّا هالحين كله فسق وفجور وقلة دين، وما يرضى به لا الله ولا رسوله، وأن الله يمهل ولا يهمل.

وبعد قليل:

ـ اي يا وليدي... شنهو آخر ما كتبت؟

ـ وأن الله يهمل ولا يمهل...

واستدرك بسرعة:

ـ وأن الله يمهل ولا يهمل...

ـ ونكتب يا وليدي: اللهم إني بلغت!

ـ وبعد أن كتب السكرتير العبارة الأخيرة سأل:

ـ وهذه الرسالة لمن نبعثها؟

ـ ها؟ شنهو اللي قلته؟

ومن جديد سأل السكرتير بارتباك:

ـ الرسالة . . .

قال مالك الفريح بمرارة:

ـ عطني كاس ماء يا وليدي، لأنه يلزم انقعها قبل ما . . .

كتب روبرت يونغ في يومياته: «. . . ليس عبثاً وجود المحاكم، انها ضرورية لكي تحلّ الخلافات بين البشر، وليس أكثر من الخلافات في الأمور المالية. هذا ما افترضته حين علّقت علاقاتي مع الشركة العالمية. كنت أتصور، في أسوأ الحالات، أن نلتقي في إحدى محاكم نيويورك. لكن كنت أفترض، أيضاً، أن تنتهي العلاقة بطبيعتها، حين لا تكون بيننا أعمال مشتركة. ومن جملة المزايا التي يتمتع بها رجال الأعمال، وربما غريزياً، أو نتيجة الخبرة الطويلة، أن يتركوا جزءاً مهماً من الأمور معلقاً أو حتى مهملاً أو منسياً، إذ ربما يأتي دوره أو أهميته لاحقاً.

«لا أريد هنا أن أحلل أو أفسر العلاقة التي نشأت بيني وبين الشركة العالمية، لكن أشكر القدر لأني لم أتصرف بتسرع أو حماقة.

«المهمة التي جئنا من أجلها: بناء عشرة جسور. وهذه المهمة بحد ذاتها معقولة ومربحة، لكن ما حصل أنّا تعرفنا على عدد من الأمراء؛ ووقعنا على عقدين إضافيين، الأول: لبناء مستودعات للجيش في المنطقة الشمالية؛ والثاني لتوريد ألبسة عسكرية لقوات الحدود وحرس السلطان.

«وإذا استطعنا أن نحصل على وكالة لتوريد السيارات الأميركية مباشرة، فسوف يكون هذا مهماً للغاية. لا أريد أن أستبعد الأمور، لأن منطقة الشرق الأوسط، في عرف العديد من الشركات الأميركية، منطقة واحدة، وربما يكون أحد غيرنا حصل عليها. إذا استطعنا أن نتوصل إلى صيغة لتوريد السيارات إلى موران، فأعتبر أن القدر يحارب معنا مباشرة، وليس مؤيداً لنا فقط!».

«الأمراء مفاتيح كل عمل في هذه المنطقة. أنهم وحدهم القادرون على فتح جميع الأبواب، ويمكن من خلالهم الوصول إلى أي شيء. غزوان كان بارعاً إلى أقصى حد، ولا بد أن أعترف له بهذه البراعة. إذ بالإضافة إلى الثقة والمعرفة، فإنه يعرف كيف يعرض أصعب الأمور بأكثر الوسائل إغراءً وإقناعاً».

«موران الأرض العذراء. أنا أقف على هذه الأرض. المستقبل يحمل الكثير من البشائر. لا بد أن أتعامل مع غزوان بطريقة أستطيع أن أجعله يعتمد عليّ أكثر فأكثر. ليفي رجل منطوٍ على نفسه ولا يخلو من أنانية. عكس غزوان الذي يتمتع بأريحية ربما تكون جزءاً من طبيعته».

قـال السلطان لحماد، بعد اكتشاف تنظيم داخل الجيش:

ـ لا بالله، حنا بألف خير إذا اعتمدنا عليكم يا حماد. . .

وضحك بسخرية، وتابع:

ـ أنتم متلهين وشاغلين أرواحكم بسوالف القهاوي والنسوان، شنهو اللي قاله فلان، وشنهو اللي قالته فلانة، والماي سارح حد رجلينا وحنا ما ندري.

وضرب الطاولة بغضب:

ـ ميّة مرة قلت لك يا حماد: اترك عمير وسوالف عمير. واترك العجيان وصراخهم وأحلامهم، والتفت للجيش. . .

وزفر بحرقة:

ـ عمير خالي وأنا أدرى الناس به، ما يطلع منه غير السوالف، وأنت مالك شغلة ألاّ تروح وتردّ: قال عمير. سوّى عمير.

وبعد قليل وبلهجة ساخرة:

ـ الأميركان، وبينا وبينهم مسافات ربنا، يعرفون ويدرون أن الحريق وصلنا، وأنتم غافلين؟ ولولا أنهم قالوا لنا احرصوا من فلان وفلان، وإلا صرنا أثر بعد عين، لأن هذول الضباط، اللي حطينا عليهم دم قلوبنا، وسويناهم أوادم، محضّرين روحهم ومتفقين على كل شي: بليلة ما بها ضو قمر، يدّشون علينا، وقبل ما نقول كلمة، حتى أشهد أن لا إله إلا الله، يصلبونّا ويأخذون الأول والتالي، ونصير عبرة لمن يريد يعتبر.

وضرب الطاولة مرة أخرى:

ـ من اليوم، يا حماد، وهذه آخر مرة أقولها، الجيش هو الأول والأخير...

وتغيرت اللهجة، أصبحت أبوية:

ـ على كل ضابط تكلّف ما هو بس واحد، من جماعتك، تكلف اثنين، وليل ونهار، وأريدك تعرف كل شي.

صمت قليلاً وهز رأسه، ثم أضاف:

ـ توصي كل واحد من جماعتك يا حماد، يلزمه يترك كل شي ويلتفت للجيش، خاصة الضباط، لأن هذول بيدهم السلاح، وهم المسؤولين عن حمايتنا وحماية الدولة، فإذا غفلنا عنهم، أو طمعوا، تراهم يقدرون يسوّن كل شي.

بدا حماد محرجاً ومرتبكاً، كان يهز رأسه موافقاً ومؤيداً، خاصة بعد أن استمع إلى اعترافات عدد من الضباط الذين قبض عليهم، وكانت الاعترافات تشير إلى وجود علاقة فيما بينهم.

أما السلطان الذي أفرغ غضبه، ثم حاول أن يوجه إلى ما يجب أن يُعمل، فقد أنهى حديثه مع حماد بكلمات ظلت غامضة:

ـ وعليك من اليوم يا حماد تعرف رجالك زين. سمعتني؟

ومثلما أفرغ السلطان غضبه بحماد، فعل حماد بمساعديه.

ـ ما لكم شغل ألا تخّمون، من عزيمة للثانية، غدا وعشا، وكأن ما لكم بيوت، ولا أكلتم فيها، وبدل ما تسمعون شنهو اللي ينقال هنا وهنا، وتعرفون شنهو اللي صاير بهذا المكان وبذاك المكان، الناس يسمعون منكم، ويقولون: قال جماعة السلطان، وسوّى جماعة السلطان...

وضرب الطاولة ثم تابع:

ـ أصحاب الشرايط والنجوم لعبوكم، عرفوا منكم الصغّيرة والكبيرة، يشيمونكم ويجرون منكم كل اللي يريدونه. وهذا ما هو قال عن قيل، أنا سمعته منهم. قالوا: عرفنا من خلال فلان وفلان وين يبات طويل العمر،

وعلى من يعتمد، ونقاط الحراسة، ومواعيد تبديل الحرس، وكل شي، كل شي...

وضرب الطاولة بغضب أشد، وهو يقف:

ـ والله أكثر جماعتكم ما يسوون الأكل اللي ياكلونه: تنابل وسرسرية، ويَنْشرون بنواة أو ببوسة لحية... وكل ساعة وكل يوم يجون يهفّون: بالسوق يقولون. بالسوق يسولفون. وكلها سوالف جايفة، ما تنشري بنواة، وما تسوي بعرة، وأنتم، نعم أنتم، بدل ما تلعنون والديهم، تنقشون التقارير وترفعونها: للاطلاع.

وتغيرت لهجته:

ـ وحنا، يا عباد الله، بروسنا ألف شغلة. الواحد منا سها حتى عن صلاته، فاعتمدنا عليكم، لكن الظاهر أن ثقتنا ما هي بمكانها، ولولا أنّا انتبهنا، أنا وطويل العمر، وبالوقت اللازم، وإلا الواحد منكم تعلّق على نخلة، وسووا به اللي ما يتسوى!

وعاد إلى لهجة الغضب:

ـ اتركونا من سوالف السوق والعجيان، ما أريد أسمعها بعد اليوم. فتّحوا عيونكم زين زين على الضباط. كل ضابط. كل ضابط بدل العين الواحدة عليه، تصير ثنتين، وأريد أعرف كل شي.

قال مرخان الحمد:

ـ فرعنا رفع لكم، الله يسلمك، قبل سفري لأميركا، تقرير عن الجيش. والتقرير يتضمن كل المعلومات عن الجماعة المقبوض عليهم، فرجع التقرير، مع كلمة واحدة: نُظر.

ارتبك حماد للحظة. تطلع إلى الخلف وتطلع إلى الباب، وسأل:

ـ ومن هو اللي كتب عليه: نظر؟

ـ يجوز، طال عمرك، واحد من مكتبكم، لكن التوقيع توقيعكم!

ومن جديد ضرب حماد الطاولة، وخرج صوته حاداً:

ـ إذا تدزّون تقرير الجيش مع تقرير قهوة زيدان، مع تقارير مخالفات

السوق، فيلزمنا منجم مغربي حتى يقول لنا أقروا هذا التقرير، ولا تقروا هذا التقرير.

واحتد غضباً، إذ ترك طاولته، واتجه نحو مرخان:

ـ وأنا... كم مرة قايل لك، يا مرخان، ومنّبهك، أني أريد تقرير عن حرس الحدود؟

رد مرخان بغيظ:

ـ بعثنا اثنين، أو ثلاثة، الله يسلمك، وما رجعوا بشي مهم. فقلت لروحي ما يلزم أشغلكم فوق أشغالكم بأمور تعرفونها!

قال السلطان لعدد من أخوته المقربين:

ـ أريد منكم، اليوم قبل باكر، أن تعيدوا النظر بكل اللي يعاونونكم، لأن الناس، خاصة بهذه الأيام، تغيروا واجد...

صمت قليلاً، ثم وكأنه يحدّث نفسه:

ـ الناس، من قبل، كانوا أحسن. الواحد منهم ما يخاف ولا ينكس. ويظل معك مهما شاف ومهما جرى. هالحين، حتى جماعتنا، أقرب الناس لنا، أكل الطمع قلوبهم، صار الواحد يركّض ورا اللي يفيده. وكل يوم اسمع سوالف تعجّب!

ابتسم، وقد تذكر أموراً كثيرة:

ـ أفضالنا عليهم جميع. حنا اللي عطيناهم واللي سويناهم، وقلنا لهم تعالوا يا عباد الله: خذوا اللي تريدونه، وصيروا، بس نريد شي واحد: تكونون معنا، وما تخونون، لكن...

وانفعل وهو يتابع:

ـ حتى أولاد عبيدنا، ولأن أباءهم خدمونا من قلوبهم، قلنا لهم تعالوا: صيروا بالجيش، صيروا ضباط. فتحنا أبوابنا وجيوبنا وعطيناهم، وراح يوم وجاء الثاني، وأشوف أربعة أو خمسة منهم مع جماعة المؤامرة.

وتغيرت اللهجة مرة أخرى:

ـ وإذا هذي النوبة مرت على خير، انكشف أمرهم وكظيناهم قبل ما

يطلقون طلقة، فما ينعرف باكر شنهو اللي يصير، إذا ما فتّحنا عيونا وآذانا زين.

قال راكان بانفعال:

ـ كان رأي. طال عمرك، أن لا نعتمد على الغُرب، لأن الواحد إذا ما كان من لحمك ودمك، فالشيطان يظل بقلبه، ويزين له الخيانة، وإذا هذي المرة فاتت فأخاف اللي بعدها تصيب وننندم!

قال مساعد:

ـ وبهذه الأيام، مثل ما قال طويل العمر، الناس طمعوا، وما عاد يردّ روسهم شي، خاصة بعد الطربقة التي صارت هنا وهنا، حولنا.

قال السلطان بثقة وصوت هادئ:

ـ ما ينصلح آخرها إلا مثل ما انصلح أولها. . .

وبعد قليل:

ـ يلزم نخلي الناس عايشين بخطر، ودايماً خايفين، لأن المخوطر، واللي خايف على روحه أو على رزقه، يعرف شلون يدافع عن نفسه. أما إذا الناس عاشوا وبالهم مرتاح، وسهر وسوالف، والواحد يوشوش الثاني، ويقول له شفت بالمكان الفلاني، وصار بالمكان الفلاني، ويلزم تسافر وتقرا وتشوف، ويلزم تتعرف وتتأكد، وليش عند فلان أكثر مما عندي، أو ليش فلان يحكم وأنا ما احكم. . . إذا الدنيا صارت كذا، ومعها هذي الزعازع والخرابيط اللي ما أنزل الله بها من سلطان، فترى إذا حكمنا اليوم، وكنا متأكدين، باكر أو اللي عقبه ما يندري شنهو اللي يصير.

قال الأمير ميزر:

ـ ترى يا جماعة، وهذا أنا سامعه من أبوي، الله يرحمه، الناس اللي حولنا طمعانين ببلادنا وبفلوسنا، وما يهدأ لهم بال ولا يرتاحون إذا كنا حنا بخير.

قال مساعد بانفعال:

ـ وحتى عبيدنا طمّعوهم بينا، وقالوا لهم: تحركوا وحنا معكم. ولا بد أنكم سمعتم أو قريتم اللي يقولونه علينا بالإذاعات والجرايد.

قال راكان:

- كلام الجرايد والإذاعات خرطي، ما ينشال من أرضه، ولا يطلع منه شي، لكن الأخطر منه أن نظل بدون سلاح قوي، لأن هذول ما يخافون إلا من القوة، ولا يتأدبون إلا إذا ضربتهم على خشمهم.

قال السلطان في نهاية المناقشة:

- كل اللي أريده منكم: أن الواحد يتأكد من جماعته، وما يتكلم إلا الشي الضروري، وحتى لو تكلم ما يقول كل شي، وخلوا الباقي عليّ، وإن شاء الله ما يصير إلا كل خير!

ولم يكتف السلطان بهذه التعليمات والتوجيهات، إذ كلّف رباح الأبرش، رجل المهمات الخاصة، كما كان يطلق عليه، بأن يتولى، أولاً، مراقبة جهاز الأمن والسلامة، بما في ذلك إعادة النظر بتكوين هذا الجهاز ومهماته؛ وأن ينشىء، أيضاً، جهازاً خاصاً تكون مهمته الأساسية القوات المسلحة.

والتقى السلطان، من جديد، بيونس شاهين، لكي يعرف منه، ويتفق معه، على الطريقة المناسبة لكيفية خلق قناعات في السلطنة، وفي المنطقة، لأية خطوة قد يتخذها. قال السلطان ليونس مازحاً:

- أهل مكة أدرى بشعابها، يا أبو فنر، وأنا ما أنوي، ولا أستطيع، أن أتدخل بشؤون عملكم، لأنكم أدرى بهذا العمل، لكن مع ذلك لا بد أن ألفت النظر إلى بعض الأمور التي قد تفيدكم...

ابتسم وسأل بعد لحظة صمت:

- وإذا ما تريد، يا أبو فنر، نطوي الموضوع.

ويونس الذي ارتبط بالسلطان خريبط في وقت مبكر، والذي كلف، منذ السنوات الأولى، لوصوله إلى موران، أن يلزم فنر، وبعد أربع بنات، جاءت الواحدة بعد الأخرى، دون أن يجي الصبي، وفي فترة معينة قرر أن يتوقف عن الإنجاب، وأن يكتفي بالبنات، إلا أن زوجته ظلت تحاول، عن طريق الأدوية والمنجمين والحجب، فلما حملت حملها الخامس، نذر

أن يُسمى الصبي فنر إن كان ذكراً. ولم يخب أمله وأمل زوجته، ولم يتردد في تسميته حين جاء. وقد ذكر هذه القصة لفنر في وقت مبكر، لكي ينفي عن نفسه صفة النفاق. وكان يروق لفنر أيضاً أن يناديه بهذه الكنية، احتراماً وتقرباً، ولأن الاسم، أيضاً، يعني له شيئاً!

رد يونس بمرح:

ـ لقد قال أجدادنا، أطال الله بقاءكم: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان. وأنا كلي قلب لسماعكم!

ضحك السلطان طرباً، وبعد أن هدأ:

ـ والله، يا أبو فنر، السلطان، وأي حاكم، دون مستشارين يثق بهم، ويعرفهم ويحبهم، ما يسوي شي.

رد يونس، ووجهه نحو الأرض:

ـ استغفر الله، يا طويل العمر، وإن شاء الله نكون عند حسن ظنكم.

قال السلطان، وهو لا يخفي الود:

ـ واللي افتخر به، يا أبو فنر، وأحس أني قوي، وقادر أسوي أي شي، لأن حولي ناس يفهموني زين.

صمت يونس ليتيح للسلطان أن يتابع، فتابع:

ـ ما اكتمك: وضعنا ما هو سهل، وظروفنا، خاصة هذه الأيام، غير شكل، لأن كل الناس طمعوا بنا، هنا، بالسلطنة، وخارجها. فأريد نتعاون حتى نغير كل شي. أريد الناس، هنا، بالسلطنة، يحسون أنهم محسودين، وأنهم أحسن من غيرهم. والكل طمعان بيهم...

تنفس بعمق، وصمت قليلاً ثم أضاف:

ـ الناس، يا أبو فنر، إذا ما حسوا أنهم محسودين، وأن أرواحهم وأرزاقهم مطلوبة، تراهم يظلون نايمين. فأريد منكم، بالجرايد، بالتوجية، بصلاة الجمعة، بكل ما تقدرون عليه، تعلمون الناس، تقولون لهم: روسكم مطلوبة، وباكر أو اللي عقبه تصيرون عبيد، ويأخذونكم عسكر

مثل أيام الأتراك، ويلزمكم تتحركون وتفتحون عيونكم زين، لأن اللي حولكم إذا وفروكم اليوم، فما راح ينسونكم ثاني يوم.

ويونس شاهين الذي كان يعرف مثل السلطان، أكثر من السلطان، ما يجري في المنطقة، وقد نقل إليه أكثر من واحد أخبار التنظيم في الجيش، كان يريد أن يستمع قبل أن يعلق، قبل أن يقول رأيه.

قال السلطان بأسى:

ـ الناس أمانة برقابكم، يا أبو فنر، فيلزم أن تؤدوا الأمانة!

قال يونس شاهين بفخامة:

ـ اتفق معكم تماماً، يا صاحب الجلالة: الأيام التي نعيشها الآن صعبة وخطيرة، صعبة لأن القيم اهتزت والقواعد انهارت، وخطيرة لأن التعقل انتهى، والحكمة لم تعد الموجه الفعلي للناس...

وفجأة انفعل يونس، وكأن مجموعة هائلة من الصور عبرت رأسه:

ـ الناس اللي حولنا ما هم مصليين على النبي، يا طويل العمر. أولاد الفلاحين والحراثين، بعد ما تعلموا حرفين، ولبسوا البدلة، وحطوا البارودة بكتفهم، صاروا آلهة أو انصاف آلهة. متصورين أنهم. بكبسة زر، قادرين يغيروا الدنيا كلها. شباب هوج، كلمة تأخذهم وكلمة تردّهم، وعقولهم مليانة أوهام وأحلام، وما عندهم اعتبار لكبير، لأولاد الأصل، لشيء مقدس، لذلك يجب أن نواجه هذه الموجة المجنونة قبل أن تصلنا، وقبل أن تستفحل.

رد السلطان بثقة:

ـ كل اللي قلته، يا أبو فنر، صحيح، بس هالحين شنهو اللازم يتسوى؟

ـ تسأل، طال عمرك، شنهو اللازم يتسوى؟

ولم ينتظر، تابع بثقة:

ـ لا يمكنني أن أجيب عن هذا السؤال بعمومه، لأنه من الاتساع،

وتعدد الجوانب، إلى درجة يتطلب أن نسأل ماذا يجب وماذا يمكن أن نعمله في كل حقل. . .

وابتسم، ثم بعد قليل:

ـ ما أستطيعه، وأنا واثق، يا صاحب الجلالة، يتركز في حقل الأعلام والتوجيه. ويمكن أن أعرض على جلالتكم خلال بضعة أيام الخطة الكاملة لما يجب أن يعمل في هذا الحقل.

إلى ذلك الوقت، كان يتكلم وهو ينظر إلى السلطان، أحنى رأسه، وأضاف:

ـ وتعرفون، يا صاحب الجلالة، أنني لا أبخل ولا أتردد في إبداء وجهة نظري، في القضايا الأخرى، إذا تبين لي أني أملك ما أقول، أو إذا طلبتم مشورتي، لأنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: الساكت عن الحق شيطان أخرس.

ـ أشهد بالله أنك ما بخلت بشي، يا أبو فنر، ودايماً كان رأيك صايب، وشورك بمكانه.

وهز السلطان رأسه تأكيداً لما قاله، ثم أضاف:

ـ وإذا الناس فهمت ووعيت، وكانت كلها قلب واحد ويد واحدة، ترى ما أحد يقدر علينا، ولا يغرك الهذر اللي تسمعه حولنا، والضجة اللي تصمّ الآذان، كله ما يساوي شي إذا الناس معنا!

لـم يهدأ يونس شاهين ولم يتوقف يوماً واحداً من أجل تعبئة الرأي العام، وإعادة صياغة المفاهيم والأفكار التي كان يحلم، منذ وقت بعيد، بتحقيقها. صحيح أن المهمة صعبة، ليس لأنه غير قادر على إنجازها، وإنما لأن الناس، الآن، اختلفوا كثيراً عن السابق. فقدوا الحماسة، أو فقدوا الرغبة. تغيرت اهتماماتهم. لم يعودوا يحترقون وجداً من أجل قضية يعرفون، سلفاً، صعوبتها، أو ربما استحالتها.

وهو نفسه، رغم اقتناعه الذي لا يتزعزع، بدأت تدب إليه، وبسرعة، الشيخوخة، قال لنفسه: «الزمن هو العدو الغادر بالنسبة للإنسان، إنه يتسلل، أول الأمر، خفية، غير طالب سوى مساحة للراحة، زاوية ليست لأحد، والإنسان يحثه، يستعجله، لكي يتقدم أكثر، وبسرعة، ثم فجأة، يكتشف أنه احتل كل شيء، وفرش نفسه كالعنكبوت، وتمدد كما يتمدد البخار ليملأ المساحة كلها».

هكذا يفعل الزمن، وهو لا يقتصر على الإنسان وحده، أو على الكائنات الحية، إنه يمتد إلى الأشياء والمدن. فموران، التي كانت تبدو قوية راسخة، بنظر يونس شاهين، لا يمكن لأية قوة أن تغيرها، أصبحت، في الفترة الأخيرة، مثلها مثل المدن الأخرى في المنطقة، والتي هرب منها. أخذت ترتجف، وكأن زلزالاً حرّك أعماقها، ولا بد أن ينفجر في أية لحظة. كانت إلى وقت قريب، بعيدة، هادئة، منسية، حتى بنظر نفسها، وكانت غير معنية بما يجري حولها، لكن عندما بدأ ذلك الأرخبيل بالاهتزاز، وأخذت الحرائق تشبّ هنا وهناك، فقد وصلت الأدخنة، وملأت الجو، وربما تسري النار وتمتد إلى موران ذاتها، إذا لم يبادر إلى إطفائها، أو على الأقل تطويقها.

لذلك لا يريد أن يترك نفسه للهواجس، أو أن لا يفعل شيئاً سوى انتظار النار، لا بد أن يتحرك. لديه كل أسباب القوة: المال، والعقيدة، والاستعداد للقتال. لقد شهد في حياته الطويلة الحافلة معارك كثيرة، كانت أصعب، بما لا يقاس، مما يجري الآن، خاضها جميعها وانتصر. والمعركة الجديدة استمرار لحربه التي لم تتوقف أبدا!

قال له السلطان:

ـ معركتنا الآن، ولفترة قد تكون طويلة، نطاح كباش، إلى أن نصل، مع الآخرين، اما إلى الحرب الكاملة، أو الاتفاق الكامل. وحتى ذلك الوقت فالمعركة باللسان، بالتهديدات، بالضغط، فأريدك، يا أبو فنر، تشعلها عليهم معركة ما تعرف الرحمة، وما تخلي عليهم ستر مغطّى. ولا تسل عن المال، كل اللي تريده جاهز.

ديفيد برادلي كان ضمن الوفد الصحفي الذي جاء إلى موران، بدعوة من القصر، وقد زار عدة أماكن، والتقى بالكثيرين. كتب ديفيد إلى جريدته.

«. . . في المرات السابقة كنت أحس بالثبات، ثبات الأشياء والعلاقات والبشر. الآن، رغم الاستقرار الظاهري، فإن المراقب لا يحتاج إلى جهد كبير ليكتشف أن هذه البلاد الشاسعة، والتي كانت تميل إلى الرضا والقناعة، قد بدأت تتململ، تماماً مثلما تفعل الحية في فصل الربيع، إذ بعد السبات الطويل، ومع أول هبات الدفء تتحرك. صحيح أن حركتها تبدو بطيئة، غير واثقة، لكن مع تقدم الفصل الدافئ تنتظم هذه الحركة وتتزايد سرعتها، وخلال ذلك، ولكي تستقبل فصل الصيف الطويل القاسي، لا بد أن تتخلى عن جلدها التي قضت فيه الشتاء كله، وتستبدله، بآخر جديد.

موران، الآن، تبدو لي، وكأنها في بداية الانتقال، أول أيام الربيع.

لا أعرف لماذا تكونت لدي هذه الصورة، وطغت على كل ما عداها من الصور. ربما نتيجة ما تسرب من معلومات عن تحركات في الجيش، أدت إلى عمليات اعتقال واسعة، تبعتها إعادة تنظيمه. يجب أن لا نبالغ بحجم ما حصل، لكنه مؤشر واضح الدلالة. يضاف إلى ذلك أن همساً

متزايداً، وغير واضح حتى الآن، يشير إلى وجود تباين، ولا أريد أن أستعمل كلمة خلاف، بين الأخوة حول أمور كثيرة. قال لي أحد الجامعيين الذين أنهى دراسته في الولايات المتحدة، إن الدستور الذي وعد به السلطان يمكن أن يحل جميع المشاكل، ولذلك لا بد من الدستور. وقال لي أحد الموظفين، طلب ألا أذكر اسمه، وأن لا أشير إلى الوظيفة التي يشغلها، إن «الآخرين» يجب أن يشاركوا بالسلطة على قدم المساواة، وحين سألته عن هؤلاء «الآخرين»، أجاب وهو يبتسم: الشعب، كل من هو مؤهل، وليس فقط أفراد الأسرة، والحاشية.

صحيح أن مظاهر عديدة تغيرت، بالمقارنة مع الزيارات السابقة، لكن هناك أشياء يحسها الإنسان، حتى لو لم يرها رأي العين، لا تزال كما كانت من قبل. بل أكثر من ذلك تنبثق فجأة صور يفترض الأجنبي أنها لم تعد موجودة، أو أنها مجرد صور في كتاب قديم.

ذكر لي شاب تونسي يعمل في الفندق الذي نزلنا فيه، أنه جرت قبل أيام من وصولنا، عملية إعدام لثلاثة من العصاة. ما كاد يقول لي ذلك، حتى استعدت صورة كدت أنساها: الجلاد الأسود، الممتلئ، يهز سيفه، وكأنه يلعب به، والناس كأنهم يشهدون تمثيلية ساخرة، من جملة مشاهدها: ذلك الأسود المرح، المختال بقوته، وهو يدور ويصوب نظراته إلى الناس، ثم فجأة يتحرك بطريقة مختلفة، إعلاناً عن بدء فصل جديد، فيخيم الصمت، وخلال دقائق قليلة يؤدي دوره بإتقان: يهوي على الرأس، وغالباً ما ينفصل بضربة واحدة، وتنفر الدماء، ثم تغور في الرمال، وبعد فترة قصيرة تهرول مجموعة من الحرس لكي تجمع الأجزاء وينتهي المشهد ويسدل الستار ويتفرق الناس.

قال لي ذلك الشاب إنه لم يستطع أن يأكل لعدة أيام، بعد أن رأى المشهد، وأن الأحلام والكوابيس لاحقته في الليالي الماضية ولا تزال. وقال أيضاً، إنه يستغرب كيف أن أكثر الذين شهدوا تنفيذ الإعدام عادوا، بسرعة، إلى ما كانوا فيه. الذين كانوا يأكلون عادوا إلى الأكل. الذين كانوا يتساومون على سلعة واصلوا مساوماتهم من حيث انتهوا. الذين كانوا

يشكون من السأم، وليس لديهم ما يفعلونه، وجدوا أنفسهم، فجأة، وقد امتلأوا حيوية ومرحاً، لأنهم الآن يتفوقون على أولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لمشاهدة ما شاهدوه، وأن لديهم ما يقولونه لغيرهم!.

«في أكثر المناطق التي زرناها لا تزال الهيئات والعادات والأخلاق، وتلك الطريقة في التحية، وحتى الجلوس على قارعة الطريق، مثلما كانت في الزيارة السابقة. أكثر من ذلك، يُخيّل للإنسان أن أغلب المشاهد، بما فيها الناس، بالعيون الماكرة، وهي تتابع الصغيرة والكبيرة، هي ذاتها، أو كأن الناس والأشياء لم يغادروا أماكنهم، أو وضعياتهم منذ أن رأيناهم المرة السابقة!».

«صحيح أن عادات ومظاهر جديدة غزت المدن الكبيرة، لكنها لا تعدو القشرة الخارجية، أو بمثابة ديكور غير ملائم للمشهد العام. فذلك المدى الصحراوي الذي، ربما، وحده، يشكل الثبات الحقيقي، الأقرب إلى الرسوخ، وقد انعكس بقوة على الملامح ولون البشرة، ولا يمكن أن تمحوه أو تغيّره الأبنية الحديدية والزجاجية العالية، والتي غالباً ما تبقى فارغة، ليس لانعدام الحاجة إليها، إنما لأنها لا تلبي الحاجات الفعلية للسكان، رغم التراكم العشوائي الهائل للمصاعد وآلات التبريد، وغيرها من الأجهزة الكهربائية، التي تجدها بكثافة تزيد عما في البلدان الصانعة!

«إن حركة ما تجري تحت السطح، لا يستطيع الإنسان أن يميز جميع مظاهرها، لكنه يحسها، بل أكثر من ذلك تجد أن كل شيء غادر مكانه. ليس مهماً إلى أين، لكن ما افترضت أنه باق وراسخ لم يعد كذلك. صحيح أن الطابع العام لما يمكن أن يرى هو الفوضى والاضطراب، لكن أي زائر يقارن بين ما كان، وما هو قائم الآن، يجد فرقاً كبيراً. قد يكون من السابق لأوانه توقع احتمالات، دون غيرها، خاصة من زائر عابر، لكن الشيء المؤكد أن الأمور لا يمكن أن تعود إلى ما كانت عليه.

«أيام السلطان القديم كانت الحركة بطيئة، والتغيرات سطحية ومحدودة. فإن يأمر السلطان بإحضار الملاعق لضيوفه الأجانب، لكي يأكلوا بها، أو أن يتولى بنفسه تشغيل الراديو، وأن يشرح ما ورد في الصحيفة أو نشرة

الأخبار، ويبدو كل ذلك طريفاً، وأيضاً مؤشراً على التغيرات التي بدأت تشق طريقها، كما كتب أحد القناصل لدولته، أو أن يأمر السلطان الذي جاء بعده ببناء القصور وفتح الطرق وإقامة الميادين، فإن كل ذلك، رغم أهميته وتأثيره، لا يغير في البنية الحقيقية والعميقة للمجتمع.

«التغير العميق والمؤثر الذي حصل في السنوات الأخيرة، ولا بد أن يتفاعل في المستقبل أيضاً، هو ظهور قوي جديدة ووعي جديد لدى الكثيرين. وسوف نشير إلى مظاهر ذلك في مقالات لاحقة».

حين قرأ يونس شاهين هذا التعليق انفعل، شعر أنه خدع، إذ لم يبدر من ديفيد برادلي أو غيره، أية إشارة تدل على عدم الرضا، لكنه تذكر ادموند ميلر قبل عدة سنوات، حين جاء بزيارة طويلة إلى العوالي، وكيف أجزل له العطاء، وكلفت مجموعة بمرافقته وتلبية جميع طلباته، ولما جاء في وقت لاحق بزيارة أخرى لموران، وعاتبه يونس على ما كتبه، كان رده صريحاً ومفاجئاً:

ـ كتبت ما رأيت، وهذه قناعتي!

ولما رأى الاستغراب على وجه يونس أضاف موضحاً:

ـ من الخطأ الافتراض أن الصحفي الذي يحترم نفسه يكتب ضد قناعاته. يمكن أن يصمت، يمكن أن يكتب أشياء ثانوية، مسلية وطريفة، لكن لا يمكن أن يكتب شيئاً غير مقتنع به لإرضاء الآخرين!

وحين تساءل يونس، بمكر، ما إذا التحويل المالي وصله، رد ميلر بسخرية:

ـ تصلني بعض الأحيان تحويلات غير متوقعة، وهي بمثابة أوراق يانصيب رابحة. أو أشياء يعثر عليها في الطريق...

وابتسم ابتسامة مليئة باللؤم، وأضاف:

ـ أو أنه مال زائد لا يريد أصحابه الاحتفاظ به!

لقد تعلّم يونس شاهين الكثير من هذا الدرس، ولذلك لم يكرره بصيغته السابقة الآن، وهو يقرأ هذا التعليق أيضاً، وحين سأله السلطان عن انطباعات الصحفيين، رد بمرارة:

ـ النتائج، بصورة عامة، إيجابية، لكن دون ما كنا نتوقع، يا صاحب الجلالة!

وبعد قليل، وبدا صوته مشروخاً:

ـ لم نترك شيئاً إلا وفعلناه من أجلهم، يا طويل العمر، ليكونوا في غاية الرضا والراحة، ولكي تكون انطباعاتهم إيجابية، علماً بأن الذين دعوناهم محايدون، أو أصدقاء للسلطنة، ومع ذلك فإن النزعة الصليبية، العداء للشرق والإسلام، لا يمكن أن ينتهي. قد يتموه، أو يتخفى جزئياً، لكنه لا يزول...

وهز رأسه وتغير صوته:

ـ لا يحتملون شرقاً مزدهراً ومستقراً، لذلك تمتلئ تعليقاتهم بالسموم. قد لا تبدو ظاهرة، ولكنها موجودة بكل تأكيد.

ـ لا تكلف نفساً إلا وسعها، يا أبو فنر، ولا يمكن تغيير الناس بين يوم والثاني!

ـ لم نطلب منهم الكثير، يا طويل العمر، طلبنا الإنصاف.

ـ وظني أن هذا الشيء تحقق، لأني قريت بصحف لبنان أشياء زينة.

رد يونس بلهجة ساخرة:

ـ أغلب الذين جاءوا من لبنان كتبوا أشياء إيجابية، لأننا استطعنا التفاهم معهم وإقناعهم، إضافة إلى استمرار صلتهم بنا، لكن بعض الأجانب كتب تعليقات لئيمة. صحيح أن الجميع أشاروا إلى الاستقرار، وإلى التفاف الناس حول العرش، لكنهم، أو بعضهم، يضيفون أن المستقبل مليء بالاحتمالات والمخاطر.

وعاد إلى لهجة الحزن:

ـ من أين امتلكوا هذه النبوءة أو هذه الفراسة، ليتحدثوا بثقة عن المستقبل، علماً بأن مرافقينا لم يتركوهم لحظة واحدة، وظلوا معهم منذ لحظة وصولهم، وإلى لحظة مغادرتهم، كما حضروا معهم جميع المقابلات التي أجروها؟

ـ لا يمكن، يا أبو فنر، أن نفرض على الناس كل ما نريد، يكفي،

هالحين، أنهم كتبوا عن الاستقرار والتفاف الناس حول العرش!

ـ لكن ما كتبوه، يا طويل العمر، كل لا يتجزأ: يعطون باليمين ويأخذون باليسار، ولا تعرف في النهاية إن كنت رابحاً أو خاسراً!

قال شداد المطوع لابن البخيت:

ـ اسمع مني يا عبدالله: خلنا نشد رحالنا ونشوف لنا ديرة ثانية، لأن خبزتنا بهذي الديرة انقطعت. وما هو بس كذا، خاف، باكر أو اللي عقبه يبهدلون شيبتنا، مثل ما صار مع كثيرين.

رد عبدالله وهو يبتسم:

ـ خلنا، هالحين، من هذي السوالف؛ أريد أسألك شلون انتهت سالفة الأكحل؟

ـ هذول، يا عبدالله ما يفهمون إلا بالصوت العالي، وبالعين الحمرا...

وابتسم وهو يحس بالثقة، وبعد قليل:

ـ حتى ما ادوخ روحي: من هو المسؤول، وشلون صار الحادث، أول ما سمعت الخبر، يا أبو بادي، قلت: سيارة العود، وهو وحده المسؤول، وكل ما يقول أحد: العود ما له علاقة، ويجوز فلان أو فلان، أقول لهم العود وسيارة العود. وطلبتي منه وثاري عنده. ولا بد أن الخبر وصله. ثاني يوم طرّشوا الحكيم المصري، وعالج وسوى كل اللي يقدر عليه. صحيح أن الأكحل ما عاد مثل قبل، لكن، والشهادة لله، تعافى وصار زين. وعطاني القصر تعويض: حصان مثله وقريشات، فسكت، وقلت ما يخالف!

وتغيرت نبرته:

ـ بس، يا أبو بادي، هذا كله ما يفيد، لأن الجماعة راكبين روسهم، واسمع بين يوم والثاني أخبار ما تسر الخاطر، فقلت لروحي: امش يا أبو غانم قبل ما تسمع كلمة تغثك، وقبل ما يتحارشون بك.

ـ يخسون، والله ما يقدرون يمسون بك شعرة، لأنهم يعرفون ناسهم، ويثردون لكل واحد قدر ما يسوي!

ـ هذا كان قبل يا عبدالله، هالجين تساوت المنازل، ولأنهم خايفين من الشي اللي صار، فتشوفهم منكلبين وتايهه عليهم. . .

وأصبح صوته حزيناً بمرارة:

ـ حتى هذا المطي، ولد أخوي، تشوفه هذي الأيام مثل كلب الراعي: ينهش هنا وهنا، ويركّض هنا وهنا، وكأن الدنيا بآخرتها. قلت له: امسك الأرض يا حماد. اعقل، واحرص، فيسكت أو يجاوب جوابات ما لها معنى.

ـ الله العليم أن صوابهم طار لما عرفوا أن ابن فلان وابن فلان، وهم أقرب الناس لهم، باعوهم، وصار شورهم من روسهم!

ـ وما هو بس كذا، يا عبدالله، بهدلوا آباءهم وإخوانهم، وقالوا لهم كلام ما ينقال، وما تدري بعد شنهو اللي راح يسوونه باكر واللي عقبه!

قال عبدالله البخيت كأنه يحدّث نفسه:

ـ كأنهم ما يعرفون موران، ولا يعرفون أن الكلمة تقتل أكثر من السيف، وأن المال يداوي الجروح لكن ما يداوي القلوب.

همس شداد:

ـ وقال لي واحد من جماعة حماد أنهم ما تركوا أحد من العسكر إلا وحققوا معه، حتى اللي طرّشوهم ببعثات أو الموجودين بالملحقيات دزوا وراهم وحققوا معهم. وما هو بس تحقيق: إهانات وتهديد وبهذلة.

وبعد قليل، وبتشفٍ:

ـ وأنت، يا عبدالله، تعرف هذول العسكر: الواحد منهم شاخط بيها للسما، وكثيرين منهم حاملين دمهم على راحاتهم، فإذا تحملوا البهذلة اليوم لا بد ينتقمون ثاني اليوم، فالله يعلم شلون راح تنحاس موران، وشلون راح تنلاص.

قال عبدالله البخيت:

ـ ظني، يا أبو غانم، أن هذي السوالف ما تفوت فنر، ولا بد يكون حاسب حسابها.

ـ ما علينا، بس أريدك تصفن باللي قلته لك، يا أبو بادي، وترد لي خبر.

قال العجرمي لعبدالله البخيت:

ـ اشوف نفسي، يا عبدالله، تعبان. تعبان من كلام الناس ومن هوا موران، وظني أنه ما يفيدني إلا عين دامة. إذا رحت هناك شهر أو اثنين، ورجعت معافى، لا بد اسوي بابن شاهين اللي ما يتسوى، واخليه على سن رمح وسالفة بكل مجلس.

ـ والله يا شيخنا عين دامة ما هي قاصرة، وبها فوايد واجدة: تقوّي الواحد وتنسيّه، وهناك ما يسمع شنهو اللي صار واللي جرى، فتوكل على الله.

وبعد قليل ومازحاً:

ـ وإذا طبّيت هناك يا أبو مشعل، وشفت الجو يوالمنا، فلا تنسانا من دعاك، وإذا تونست فتذكرنا، وإذا دزيت ورانا يجوز نجيك!

رد العجرمي:

ـ الواحد، يا عبدالله، ما عاد بنفسه ونسة، بس يريد راحة البال...

وبعد قليل:

ـ والله أيامنا قبل كانت أحسن من هذه الأيام.

وهز رأسه عدة مرات. وبدأ، همساً، يدندن:

ـ اللـــي راح الـلـــي راح كـل ونـيّ عـلـى الـلـي راح

ضحك ابن البخيت انفعالاً وطرباً، وأخذ يردد، بصوت أعلى:

ـ اللـــي راح الـلـــي راح كـل ونـيّ عـلـى الـلـي راح

قال العجرمي:

ـ وهذي الأيام، اللي ما تعجبنا هالحين، يجوز يجي وقت نتحسر عليها، يا عبدالله، بس تروح، لأن الأيام اللي راح تجي، مثل ما تشوف عيني، جلهيمة سودا، والله يتممها على خير!

رغم حمّى التغير التي اجتاحت موران، مع تزايد الأموال، والتنافس بين الأمراء في بناء القصور بشكل خاص، فإن فنر الذي وافق، بعد تردد طويل، وبعد مرور فترة من الزمن، على الانتقال إلى قصر السعد، واختار له أثاثاً من طراز إنكليزي، أصرّ على أن يبقى في القصر ذاته، بعد أن أصبح سلطاناً، لم يغيّره ولم يغيّر فيه شيئاً، عدا بعض التعديلات البسيطة، إذ بنيت في الجهة الغربية، بجوار الحائط الخارجي مباشرة، ثكنة جديدة للحراسة، كما وُسّعت الباحة الأمامية، ناحية الجنوب، بإضافة الحديقة العامة، عند تقاطع طريق قصر السعد مع الطريق المتجه غرباً، مما جعل المرور في هذا الشارع محدوداً أول الأمر، ثم ممنوعاً، بعد ذلك.

ما عدا هذه التعديلات، فإن فنر أبقى كل شيء كما كان من قبل؛ رغم المحاولات التي بذلت للضغط عليه وإقناعه، من أجل الانتقال إلى قصر الحصن، كما أطلق على القصر الذي بناه أمين الورداني للسلطان المخلوع، ولم يكمل إلا بعد استلام فنر بثلاثة شهور. هذه المحاولات لم تجد، بل أكثر من ذلك قابلها السلطان برفض حازم، مؤكداً أن قصر السعد يكفيه. وحين حاول راكان، محاولة أخيرة، بحجة «أن هيبة الدولة تقتضي ذلك» فقد رد السلطان مداعباً:

ـ . . . وكل شيء، بهذه الدنيا عادة: السكن والأكل. . . حتى الزواج، واللي يغير عاداته يتعب ويتّعب غيره!

فسر راكان اعتذاره رفضاً، في الوقت الذي فسره أخوة آخرون، صدف وجودهم، تعريضاً، خاصة فيما يتعلق بالزيجات التي تمت خلال الفترة

الأخيرة والتي أعادت إلى الأذهان زيجات خريبط وخزعل، لأنه رافقها الكثير من الضجة والاحتفالات!

أما الملاحظة التي أشارها إليها رباح الأبرش، وقد نُقلت إليه، ولم يسمعها مباشرة، حول انزعاج الأمراء من هذا التعريض، وأيضاً عدم قدرتهم على فهم سلوك وتصرفات السلطان، وبالتالي ما يدور من لغط حوله. فقد دفع فنر، عن عمد، لأن يتطرق الى الموضوع مع راكان، وأثناء وجود عدد آخر من الأخوة، قال، وقد مهّد لذلك:

ـ . . . وأتذكر، قبل شهر أو أكثر، أنك اقترحت عليّ، يا راكان، قصر الحصن، وقلت لك أني تعودت على قصر السعد. واللي أريده هالحين أنْ ما ينفهم من كلامي لوم أو عتب على أحد. ومثل ما قالوا من قبل: الواحد ينام على الجنب اللي يريحه، فإذا الله، سبحانه وتعالى، وبسبب المرض، حرمني من أكلٍ اشتهيه، فما أريد من أحد أن يسوي مثلي، ويقول هذي سنة، لأن البني آدم وقدرته، وما تطلبه نفسه!

كان هذا التوضيح كافياً لأن يزول الحرج بسرعة، ولأن يتصرف الأخوة كل حسب ما لاءمه، وما يراه.

ولأن فنر اتبع، ومنذ البداية، طريقة خاصة في حياته وسلوكه، وعرف عنه الأخوة ذلك، فإن الكثيرين اختلطت عواطفهم تجاهه. لا يعرفون إن كانوا يحبونه أم يخشونه؟ هل علاقتهم به علاقة أخوة أم علاقة من نوع آخر؟ ولأن الأمر ظل ملتبساً، فإن المسافة بينه وبينهم عرضة للخطر والتغير. إنه قريب وبعيد في آن واحد. يعترف له أكثرهم بالكفاءة، وبالقدرة على مواجهة المصاعب، لكنهم لا يرونه ضاحكاً، ولذلك لا يجرأون، أو لا يرغبون، أن يقولوا ما يجول في رؤوسهم. يريدونه ويخافون منه.

هذه المسافة، وهذه الصيغة، فرضها بنفسه، أكثر مما فرضت عليه، ووحده القادر أيضاً على التحكم بها.

عندما أصبح استمرار خزعل خطراً، وهو الذي قرر ذلك، وأبلغه إلى عدد محدود من الأخوة والمساعدين، لم يبق في موران، ذهب إلى عين

فضة، رغم ما تولده تلك الزيارة في قلبه من أحزان، مما حمّل عدداً كبيراً من الأخوة على زيارته، والطلب منه، بل ورجائه، على أن يستلم مكان خزعل، وقد وافق نتيجة إلحاحهم!

وعندما أراد بيعة جامعة مانعة، شرطاً لاستلامه، وافق حتى الذين لا يخفون كراهيتهم له، لأنها الطريقة الوحيدة لإنقاذ السلطنة، ولإنقاذ كل واحد منهم بالذات.

أما حين أصبح سلطاناً وباشر مسؤولياته، فقد كان واضحاً أنه لا يريد من أحد أن يتدخل، أو أن يملي عليه ما يجب أن يعمل. ورغم المرارة، وحتى الشعور بالخديعة، فقد اضطر، أغلب الذين كانوا يفترضون أنفسهم شركاء، للانسحاب، أو للتراجع، إلى أن طلب منهم مجدداً ما يجب أن يقوموا به من أعمال.

قال مزعل، وهو واحد من الأخوة لا يعرف كيف يخفي عواطفه، قال أمام عدد من أفراد العائلة. ولم يكن يقصد إغضاب فنر أو رضاه:

ـ أبوي، الله يرحمه، تعرف متى يغضب ومتى يرضى. وتعرف أنه إذا زعل من أحد صعب أنه يرضى عليه. أما فنر فما تعرف: هو زعلان ولاّ راضي، يريد يسولف أو يصفن، يريد هذا الشيء أو ذاك!

ضحك، وتابع، وهو ينظر في الوجوه، لئلا يساء فهم كلامه:

ـ لكنه، والشهادة لله، إذا جرح يداوي، وقلبه طيب، وما بنفسه شي!

ولأنه كذلك، فقد تولدت صيغة جديدة داخل الأسرة، امتدت إلى العلاقات ما بين النسوة والأبناء، وقد ساعد على ذلك أنه تزوج امرأة بعيدة عن موران، وعاش معها فترة طويلة في الخارج، وأخيراً، حين عاد، انعزل في بيته، فلم يره إلا القليلون. لذلك فإن ثروت، بالنسبة لنساء الأسرة، امرأة مجهولة، من نمط خاص، والعواطف تجاهها غير محددة. ولأنها كانت هكذا، فقد ظل الموقف منها مؤجلاً.

بعد أن عاد وعادت معه، وبعد أن وافق على الانتقال إلى قصر السعد، وفي ظل ذلك الجو المضطرب، المليء بالتوجس، فإن أكثر نساء القصرين، قصر الروض وقصر الغدير، وبعد أن قمن بزيارات التعارف

والمجاملة، وجهن لثروت دعوات الضيافة، لكنها اعتذرت عن أغلبها، متذرعة بحجة أو أخرى، ولذلك فإن الظلال والعتمة اللتين أرادهما فنر، قد حجبا أيضاً كل شيء وراء أسوار قصر السعد.

ومنذ وقت مبكر، وقبل أن تتحسب أو تتنبه أكثر نسوة القصرين للمرأة الجديدة، فإن اثنتين، رغم ما بينهما من مسافة، وفارق العمر، تحسبتا، بل وداخلهما الخوف: فضة وموضي. فضة، من خلال الخدم والخصيان، ومن الأقوال التي سمعتها من السلطان خريبط، ثم بعد ذلك من راكان ومساعد وسيف، الذين اعتبروا أن الوحيد الذي يمكن أن يخلصهم من خزعل هو فنر، فقد داخلها الهم ثم الخوف.

ولكي لا تترك الأمور للصدف، ومن أجل أن تعرف كل شيء، ولأنها اعتبرت ثروت ليست نداً لها، أو يمكن من خلالها أن تفهم، أو أن تصل إلى ما تريد، فقد حاولت مع فريزة خانم.

فريزة خانم، بمقدار ما تبدو امرأة بسيطة، ولا تتردد، في حالات كثيرة، أن تقوم بأدوار تمثيلية، لتقريب الحالة وتوضيح الصور، باعتبار أن لغتها لا تسعفها بالمقدار الكافي، والتي تتظاهر أنها لا تعرف شيئاً عن الأسرة وموران والخلافات، فإن لها أذنين كالحمار، كما قال مرة الأمير فنر مازحاً، حين اكتشف أنها سمعت شيئاً لم يكن من المفروض أن تسمعه! كانت فريزة خانم، خلال الزيارات التي تم تبادلها، في أكثر من فترة، تقوم بهذا الدور، وقد بدا طريفاً ومرغوباً، لكن لم يلبث أن استنفذ الأمر الذي اضطر فضة، رغم شكوكها، ورغبتها أيضاً، أن ترجئ تقصي الموضوع إلى وقت لاحق.

المرأة الثانية التي تنبهت: موضي. لكن موضي التي لها تجربة قاسية من خلال زواج فنر الأول، ثم غياب فنر الذي طال، وانصرافها إلى ابنه تربيه وتعتني به، جعلها لا تعرف كيف تتصرف تجاه ثروت.

تتذكر كلام خالها عمير، حين غادرا عين فضة إلى موران، وتتذكر كلام الجد والجدة، وكيف استطاعت، خلال الفترة الأولى، أن تبني سداً يمنع اقتحام الآخرين. ثم كيف بدأ هذا السد بالانهيار: حين أصبح فنر لا

يترك مجلس أبيه، ثم يسافر، ثم بعد أن تزوج. وفي كل مرحلة، وفي كل مرة، تبذل جهداً استثنائياً من أجل استعادته، فيستجيب، يحن، يبدو حزيناً، لكن لا تلبث يد قاسية أن تنتزعه منها مرة أخرى.

قال لها الخال عمير، وهما يغادران عين فضة:

ـ إذا سهيتي عنه، يا موضي، يوم واحد راح منك إلى الأبد!

لم تفهم معنى هذه الكلمات، لكنها حفظتها. وانقضت سنوات كانت إلى جانبه. كانت كل شيء في حياته. أما حين بدأ تلك الرحلات الطويلة، كأي رجل، خاصة من موران، وفي تلك الفترة، فقد أحست بمعنى كلمات خالها عمير أولاً، ثم بدأت تستعدّ لمرحلة جديدة، لم تلبث أن تلخصت بشخص صخر، ابن فنر الأول!

مع ثروت حاولت أن تكون امرأة مختلفة، أن تكون صديقة، لكنها صداقة من طرف، واحد، فثروت لا تريد لأحد أن يقترب، أن يشاركها بفنر.

بعد الابن الثالث قالت موضي لنفسها، وقالت لصخر:

ـ تظل تربية بلادنا وأهلنا أحسن من غير تربية!

كانت موضي تشير إلى هذا العدد، الذي يزيد مع كل ولد جديد لفنر، من المربيات الأجنبيات، ولا تعرف إن كانت هذه رغبة أخيها، أم شروط ثروت وأمها فريزة خانم، واللتان جعلتاها تحس، أثناء زياراتها، أنها زائدة وغريبة، رغم ما تبذله من محاولات لتكون أقرب!

أغلب ما جرى حين كان فنر نائباً لأبيه في العوالي، ثم حين قرر العودة إلى موران. الآن، وقد أصبح سلطاناً، اختلف الأمر.

فثروت، تلك المرأة المجهولة بنظر الكثيرات، والتي لا يُعرف إن كانت موجودة أو غير موجودة، لفرط تخفيها، أو لعدم الإحساس بوجودها، بدت بنظر الجميع المرأة التي يجب أن تُعرف، أن تقوم العلاقة معها.

ومثل عادة موران، التي لا تعرف الاتزان، أو الهدوء، فإن شيئاً أقرب

إلى انفجار حصل في أجنحة النساء، وفي القصور الثلاثة معاً، بعد أن أصبح فنر السلطان.

قال لها فنر، وكان في زحمة الخوف والاجتماعات وترتيب الأمور:

ـ خلي بابنا مفتوح، ولا تسديه بوجه أحد، لأن أهل موران، بهذي الأيام، ما ينحملون، ولا أحد يخلص من لساناتهم إذا أخطأ.

ولأنها استقبلت أعداداً كبيرة من النساء، ولم تستطع أن تميز القرابة والعلاقة، ولم تحفظ الأسماء أيضاً، فقد التبست عليها الأمور إلى درجة خشيت من الخطأ، وحين سألته كيف يجب أن تتصرف، ماذا عليها أن تقول للرد على الأسئلة، فقد أجابها بسرعة:

ـ ما ينراد أحد يوصيك، يا بنت الحلال: خلي ضحكتك تملأ وجهك، وما عندك إلا: أهلاً وسهلاً وزارتنا البركة، وما أدري، وما أعرف، وبعدها الله كريم.

أما حين سألته عن تلبية الدعوات الكثيرة التي توجه إليها، وكيف تواجه الإلحاح أو كيف تعتذر، فقد رد مازحاً:

ـ قولي لهن: يا بنات الحلال، الدنيا ما هي لا يوم ولا اثنين، وأنتن تشوفن، فخلنا نخلص هالحين، وبعدها كل شي يصير!

ولأنه لم يكن لدى السلطان الوقت الكافي، أو لم تكن لديه الإمكانية، لأن يشرح لزوجته كيف يجب أن تتصرف، فقد تولت فريزة خانم الأمر مع النسوة بنفسها:

ـ . . . وقال، طويل العمر، أن كل زيارة، ولكل واحدة، دين، وإذا الواحد ما وفاها تصير حبل نار برقبته يوم القيامة. . .

وتبتسم ابتسامة اعتذار وهي تضيف:

ـ كل واحدة منكم صايمة مصلية، وتعرف أن الفرض أهم من السنة، فإذا خلصنا من فرضنا، من بد ولازم نزور. . .

وتضحك بقهقهة، ثم تضيف:

ـ وزياراتنا ثقيلة، ما هي يوم أو اثنين، أكثر وأكثر!

أما بعد أن خفت الزيارات وتباعدت، وبدأت ثروت تفكر بردّ عدد منها، فقد قال لها السلطان بحزم:

ـ الملوك ينزارون، يا بنت الحلال، ولا يزورون، إلا . . .

وحين فتحت عينيها بتساؤل، أضاف:

ـ حتى لمن يستاهل، كل مية زيارة منه زيارة منا، أما هذول اللقامة، واللي يهفّون، فالواحد منهم يريد يزور ما يريد ينزار . . .

وضحك بمرح، وبعد قليل:

ـ وإذا زرنا الواحد منهم، دون سبب، إذا كان ما عنده ميت، أو راجع من حج، أو جاه ولد بعد سبع بنات، فيحسبك تضحكين عليه، تهنينه.

وشد وجهه، أصبح صارماً، وقال:

ـ ومثل ما قلت لك: الملوك ينزارون وما يزورون، وهذا شرف للي يزورهم!

ولأن الجو، تلك الليلة، كان مرحاً وكان لدى السلطان رغبة لأن يبدأ بداية جديدة، فقد رن الجرس وطلب مجيء فريزة خانم. فوجئت ثروت بالطلب . . . وشعرت ببعض الحرج، خاصة لأنها كانت بثوب شفاف!

جاءت فريزة خانم. كانت تمشي كالبطة. كان وجهها مريحاً منتعشاً، أقرب إلى الرضى. لم تعرف لماذا استدعيت، وإلى تلك الغرفة الفاصلة بين الصالون الصغير وغرفة النوم، حيث يروق للسلطان أن يتناول قهوته كل يوم، ولم يكن يدخلها إلا أقرب الناس. قام لها السلطان على غير العادة، إلى أن جلست. طلب من ثروت أن تنتقل من المقعد الطويل وكانا يجلسان عليه إلى ما قبل وصول فريزة خانم، وأن تجلس على كرسيها، وبطريقة لا تخلو من الاحتفال، وإن مازجها المرح، أيضاً. قال، وقد وجه الخطاب إلى فريزة خانم:

ـ ابتداء من هذه الساعة، وحتى نهاية العمر، الاسم الوحيد الذي يطلق على ثروت: صاحبة الجلالة الملكة . . .

فريزة التي فوجئت وظلت خائفة، بل وساورتها الشكوك، حين قيلت

تلك الكلمات، وبذلك الشكل، لم تعرف كيف تتكلم أو ماذا تقول. تابع السلطان، الذي لم يكن يريد لأحد أن يتكلم:

ـ وأنت أول من يعرف، وأنت الشاهد والمعرّف. . .

ولم يجد السلطان صفات أخرى يضيفها، قالت فريزة خانم، في ظل هذا الصمت المنفعل:

ـ سبحانك يا ربي ما أكبر عظمتك وقدرتك!

وبعد قليل، وبصوت تخنقه العبرة:

ـ من أول يوم جات فيه للدنيا كنت أسميها الأميرة!

كادت أن تضيف شيئاً آخر، لكن السلطان قاطعها وبحزم:

ـ ومن هذه الساعة: الأميرة تصير ملكة!

سقطت دمعتان ثقيلتان من عيني فريزة خانم، وبعد صمت لذيذ سيطر على الثلاثة، قالت، وكان صوتها رجراجاً:

ـ الله ييسر لك يا عنان بك، وين ما كنت، بالدنيا وبالآخرة!

إن شيئاً أقرب إلى الزلزال وقع خلال تلك اللحظات، وهزّ كل شيء. ورغم النظرات القليلة التي تم تبادلها، والكلمات الأقل، فقد حفرت عميقاً وغيرت الكثير. خاصة وأن فريزة، وهي تتذكر عنان بسيوني، شعرت بالذنب، قالت وهي تنسحب:

ـ الله يجعلها فيكم وبذريتكم إلى قيام الساعة.

ولأن الخبر انتشر عن طريق النساء، فقد انتشر بسرعة، ولم يبق أحد إلا وسمع به. وإذا كان الرجال قد سمعوا، واستغربوا، ثم هزوا أكتافهم، فإن الأمر لم يمر بالسهولة نفسها بالنسبة لمعظم النساء، خاصة بنات التجار، والجميلات وبنات الشيوخ، لأن كل واحدة منهن كانت مرشحة، بشكل ما، لأن تصبح زوجة لأمير. وكل واحدة كانت تنتظر ليلة كبيرة في موران، خاصة وأن الزيجات التي توقفت بعد زواج خزعل، أو أخذت شكلاً متواضعاً، ما لبثت أن عادت، بعد هذا التوقف، وأصبحت، من جديد، حديثاً لموران كلها. لكن مع الحديث تلك القصة: أن ثروت

وحدها أصبحت الملكة، وأن فنر يختلف عن الكثير من أخوته!

في القصور السلطانية كان الحديث يأخذ نسقاً متنوعاً، وكان يختلف من امرأة لأخرى. نساء خريبط، وقد تقدم العمر بأغلبهن، نظرن إلى الوجوه، وتذكرن أشياء كثيرة، وقد علت وجوههن ابتسامة أقرب إلى الحزن، لكن اختلفت هذه الابتسامة بين واحدة وأخرى، فالتي لم تخلّف انشدّت إلى لحظات بعيدة، رافقتها رعشة أو خوف؛ التي خلّفت عدداً من البنات امتلأت غماً؛ أما التي كانت تنتظر الضجة إعلاناً عن وصول الأمير وعبيده وحرسه، فقد ظل يراودها أمل أخير أن يحصل شيء، وأن يكون ابنها، في يوم ما، سلطاناً لموران.

فضة الموجودة، أو أكثر نساء القصر، هياجاً وغضباً، لا تصدّق، ولا يمكن أن تسلم بهذه البدعة التي لم تخطر ببال أحد: أن تكون امرأة ملكة. ومن هي المرأة: ثروت! كيف تتعامل معها؟ كيف تناديها؟ ولماذا حصل هذا الشيء الآن؟ كان خريبط يذهب إلى أقصى الأرض، يغيب شهوراً، لكنه كان يرجع إليها مشتاقاً نادماً معترفاً أنها المرأة الوحيدة التي ترضيه، وأنها الوحيدة التي تجعله بين أحضانها طفلاً. لم يكن يرفض لها طلباً، ولا تتذكر أنها تخاصمت معه، أو غضب عليها، ومع ذلك لم يفكر، ولم تفكر هي، أنها بحاجة إلى أكثر مما حصلت عليه. من أين جاءت هذه الألقاب؟ ولماذا لهذه المرأة بالذات؟ حتى عدلة، زوجة خزعل، وكانت مثله، لا تعرف كيف تخبئ سراً، اعترفت بأشياء كثيرة: كيف طلّقت عدة زوجات، وكيف زوّجته عدة مرات، ولم تفكر بأكثر من ذلك.

المرأة الوحيدة التي كان لها وضع مميز في قصر الروض، وإلى حد أقل في قصر الغدير، هي أمي زهوة، الشيخة. لكن حتى هذه لم تطلب لقباً، ولم تناد السلطان طيلة حياتها إلا باسمه أو بأبي منصور.

قالت فضة، ولم تخش أن تصل كلماتها:

ـ أولاد السلاطين والملوك يقولون لربعهم: إذا تحبونا صدق لا تسمّونا إلا بأسمائنا، أما هذول اللي ما يدري الواحد أصلهم منين، فسالفتهم مثل سالفة البغل لما سألوه من هو أبوك، قال لهم الحصان خالي!

أما عمير فما كاد يسمع أن فنر سمى زوجته ملكة، حتى صرخ في مضافة السلامي:

ـ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.

وضحك بسخرية، وأضاف:

ـ يا جماعة الخير، لا بدّ أن عفريت وكرّ بقلب ابن أختي، لأن ما أحد يسوي سواته. شال خزعل، قلنا اختلف الحرامية؛ ظلم العباد، قلنا الظلم أيامه قصيرة؛ وسوّى وسوّى، وما كفّاه، هالحين صار مثل الأكاسرة والقياصرة: صار عندنا ما هو بس ملوك... وملكات!

قا حمود السلامي للفقيه الذي يحدّثه ويسليه، في محاولة لقطع الطريق على عمير لكي لا يواصل هذا الحديث الخطر:

ـ هات يا فقيهنا، علّمنا مما علمك الله.

قال مبروك الصخيري:

ـ وقرأت في سير العجم أن اردشير سار إلى الحضر، وكان ملك السواد متحصناً فيها، وكان من أعظم ملوك الطوائف، فحاصره فيها زماناً لا يجد إليه سبيلاً، حتى رقيت ابنة ملك السواد يوماً، فرأت اردشير فعشقته وأخذت نشابة وكتبت عليها إن أنت شرطت لي أن تتزوجني دللتك على موضع تفتتح منه هذه المدينة بأيسر حيلة وأخف مؤنة، ثم رمت النشابة نحو اردشير؛ فكتب الجواب في نشابة: لك الوفاء بما سألت، ثم ألقاها إليها، فكتبت إليه تدله على الموضع؛ فأرسل إليه أردشير فافتتحه ودخل هو وجنوده، وأهل المدينة غافلون، فقتلوا ملكها وأكثر مقاتليها وتزوجها؛ فبينما هي ذات ليلة على فراشه أنكرت مكانها حتى سهرت لذلك عامّة ليلتها، فنظروا في الفراش فوجدوا تحت المجلس (وهو ثوب يطرح على ظهر الفراش) ورقة من ورق الآس قد أثرت في جلدها، فسألها أردشير عند ذلك عما كان أبوها يغذوها به؛ فقالت: كان غذائي الشهد والزبد والمخ، فقال أردشير: ما أحد يبالغ لك في الحياء والإكرام مبلغ أبيك، ولئن كان جزاؤه عندك على جهد إحسانه مع لطف قرابته وعظم حقه جهد إساءتك،

ما أنا بآمن لمثله منك، ثم أمر بأن تعقد قرونها بذنب فرس شديد المراح جموح ثم يُجرى، ففُعل ذلك حتى تساقطت عضواً عضواً[1].

صرخ عمير:

- حيل، وتستاهل ازود، لأن اللي يخون أبوه أو أخوه ما يطلع براسه خير... أبدا!

ولما خيم الصمت، قال السلامي في محاولة جديدة لأن يغير الجو:

- فقيهنا اليوم يقسّم لعمير وعمير يرد عليه، وهذي السالفة لها أول وما لها تالي، فخلنا هالحين نسمع تقاسيم شريتح.

عدّل شريتح جلسته وقال:

- كان عندنا، كذا قال أهل الورى، كان عندنا بمرو قاص يقصّ فيبكينا، ثم يخرج بعد ذلك طنبوراً صغيراً من كمه فيضرب به ويغني ويقول:

بَا اِيْنِ تيمَار بَايَدْ أَنْدَ كي شادِي

ومعناه ينبغي مع هذا الغم قليلُ فرح[2].

تنحنح شريتح، إيذاناً باستعداده أن يصعّد أهاً طويلة، ليغير الجو.

صرخ عمير:

- عوذة، عوذة، إذا بدا الطرب ما لنا مكان بينكم...

وصرخ على ابنه:

- قم يا عمر، خلنا نمشي، لأن الجماعة قلبهم حار وراسهم بارد، ودربهم غير دربنا!

قال السلامي:

- خلك يا شيخنا، ونصلي العشاء جميع!

- يا الله يا عمر، لأنهم قالوا من قبل: اللي جامع المغنين غنى، واللي جامع المصلين صلى، وحنا أهل صلاة ما حنا جماعة طرب.

---

(١) أمين قتيبة الدينوري - عيون الأخبار، المجلد الرابع، ص١١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٩١.

قال شريتح، وقد فهم ما يريده السلامي تماماً:

ـ بعد بروسنا، يا شيخنا، نغم أو اثنين، فخلك معنا نستأنس بيك، تسمعنا وتقول رأيك بغنانا، وبعدها...

قال واحد من الموجودين ولم يبين وجهه، قال بنزق:

ـ اتركوه يا جماعة الخير!

كتب عبدالله البخيت رسالة إلى العجرمي، وقد أرسلها مع الأدوية التي طلبها العجرمي، وطلب معها عصا قوية، لأن عصاه انكسرت، وهو يستعمل الآن قضيباً من الرمان يتوكأ عليه، وأشار، مازحاً، أن «القضيب» يتثنى ولا يسعفه بالمقدار الكافي، وقد قهقه ابن البخيت كثيراً وهو يكتب الرسالة لأنه استعان بأحد الكتب التي جلبها معه من مصر.

كتب إليه: «... وشوقنا إليك، يا أبا مشعل، شوق الرضيع إلى أمه، والرجل إلى أهله، والحبيب إلى حبيبه، والمؤمن إلى ربه، لأن موران، بعد فراقك لها اسودّت وضاقت، والناس تواروا وازوروا، والحال فمن سيّئ إلى أسوأ، من نقرة إلى حفرة، فإذا اكتب إليك، استشهد بمعلمي، الجاحظ، إذ جاء في أحد كتبه: «وقيل لرجل: كيف كتمانك للسر؟ فقال: اجعل قلبي له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النشور.

«واعلم يا أبا مشعل «ان الدنيا دار زوال وملال، ليس في كيانها أن تثبت هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة، وأما الثبوت الدائم لدار القرار، فالسآمة تلحقها في محبوبها، كما يصيب المنتهي من الطعام والشراب والباه، فإنه ليس شيء أبغض إلى ما يتناهى فيه إلى غايته، من النظر إلى ناحيته، فضلاً عن ملابسته، إلى وقت عودة السبب الأول».

«وإفشاء السر إنما يوكّل بالخبر الرائع، والخطب الجليل، والدفين المضمور، والأشنع الأبلق» ولذلك لا بد أن نبلغك، يا أبا مشعل، أن مولانا السلطان، سمّى حرمه المصون، ملكة للسلطنة، وقد تأتي بعده، بعد عمر طويل، لتكون حاكمة البشر، وقائدة البر والبحر، ولتصنع ما عجز عنه الرجال وتأبى على الأبطال، وهذه الرسالة إليك وحدك، لأن أحداً إذا

قرأها غيرك فاعلم أن رأسي طار وصرت خبراً من الأخبار، فاحرص عليّ رعاك الله وهداك، لأن الملوك لا يستهان بغضبهم، ولا يغفرون، وقال معلمنا إياه، وقد شكا بعض الملوك تنقيب العوام عن أسرارهم فقال:

ما يريد الناس منا؟ ما ينام الناس عنا؟
لو سكنا باطن الأر ض لكانوا حيث كنا
إنما همهم أن ينشروا ما قد دفنا

ولِمَ نرى حب الطعن على الملوك، والتجسس على أخبارهم، وعشق نشر المعايب، واستحلال الغيبة، ظاهراً في طباع الناس لا يكاد ينجو منه أحد منهم إلا من رجح حلمه، وعظمت مروءته، وظهر سؤدده واشتد روعه، حتى قال بعضهم: الغيبة فاكهة النساك»[1].

«ولا أريد أو أوصيك، مرة أخرى، يا أبا مشعل، لأنك تعرف أنه «كتب على بعض أبواب المدن بالمسند: احفظ رأسك، وقالوا: مقتل المرء بين فكيه، وقال بهرام: وسمع في الليل صوت طائر فتحداه بسهم وهو لا يراه، إلا أنه تتبع الصوت فصرعه، فلما صار بين يديه قال: والطير أيضاً لو سكت كان خيراً له»[2].

وقيل أيضاً، ولا بد أن تسمعني، يا أبا مشعل، «ما شيء أحق بطول سجن من لسان»[3].

وقيل أيضاً: «ويسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول: كيف أنتن؟ فيقلن: بخير إن تركتنا!»[4].

«وأخيراً، إن كان لنا محل عندك يا أبا مشعل، فنحن قادمون، لأن الأكباد تورمت والقلوب تخددت، والعيون تقرحت، والأفكار تشتت، والأحلام تبددت، وأصبح الإنسان ينام وهو قاعد، ويشهق وهو صامد،

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، كتمان السر وحفظ اللسان ـ ص ١٥٨ ـ ١٥٩.
(٢) المصدر السابق. ص ١٦٧.
(٣) المصدر السابق. ص ١٦٧.
(٤) المصدر السابق.

ويقول لا وهو غير معاند، وفي الختام تقبل التحية والسلام، وموعدنا في عين دامة أو في وادي الحمام!»

قالت العنود، وقد سمعت بالخبر في وقت متأخر:

ـ وي... وي، الحايك إذا غني سمى بنته ملكة، وهذا العوج، فنر، اللي الواحد ما يعرف هو حقيقي أو طيف صار وتصور، وسمى مريته ملكة!

وبعد قليل وبمرارة وسخرية:

ـ وهي صدّقت، صارت وتصورت، لأن العنز الجربا ما تشرب إلا من راس النبع.

فريزة خانم التي سمعت بعض ما يقال، ردت:

ـ عين الحسود بيها عود، وعين كل واحدة ما تقول مبروك وتصلي على النبي تطق وتنبق، تطق وتنبق!

وحرقت ورقة وضعت عليها كل الأسماء التي تتذكرها ومسحت بها جبين الملكة ثروت!

رغم أن فترة المساكنة بين اليانور وغزوان طالت وامتدت، ولم يتخللها فتور أو خلافات، فإن فكرة الزواج، وقد تطرق إليها غزوان مرات عديدة، وبأشكال مختلفة، لم تحسم. إذ احتفظت اليانور، رغم مرور الشهور، بشقتها الصغيرة، وحرصت أن يبقى جزء من أشيائها الخاصة، بما فيها بعض الملابس والإسطوانات، وقسم من أدوات الزينة، هناك. أما ملاحظات غزوان حول ضرورة اختصار التكاليف. بالاستغناء عن تلك الشقة، وأشار إليها مازحاً، فلم تأخذها اليانور على محمل الجد أبداً، لأنها تراه كيف يصرف المال وكيف يعيش إضافة إلى الآفاق الكبيرة للعمل، والتي أخذت تتسع وتزيد فترة بعد أخرى.

في جميع الأسفار الطويلة والبعيدة كانت اليانور معه، وكانت تُقدّم في كل اللقاءات بأكثر من صيغة السكرتيرة، وتتصرف على هذا الأساس أيضاً.

المرات القليلة التي لم ترافقه في أسفاره، كانت إلى موران. لم يحرص، ولم تصرّ، وكأن اتفاقاً ضمنياً بينهما. أما حين تقرر توقيع عقد المدينة الجديدة، الذي عملت الشركة كثيراً من أجل إنجازه، وذلك الحماس الذي سرى في المكتبين، في نيويورك، وسان فرانسيسكو، وما رافقه من آمال، ووعود، وتحديات من منافسين أيضاً، إضافة إلى الجهد الخفي والدؤوب الذي بذله صفاء الشلبي، صديق غزوان، وكانت تربطه معه علاقات عمل منفردة أول الأمر، ثم أصبح أحد العاملين في مكتب سان فرانسيسكو براتب، إضافة إلى نسبة مقدارها عشرة في المائة، هذه الأسباب ساعدت في التغلب على تردد اليانور، وجعلت الشركة تتخذ قراراً بسفر الجميع إلى موران، لإنجاز العقد، وللاحتفال به هناك. وتعبيراً عن

هذا التألق، واحتفاء بالأيام الكبيرة القادمة، فقد أعلن غزوان واليانور، قبل يومين من السفر، عن زواجهما.

صحيح أن الاحتفال الذي أقيم بهذه المناسبة كان باذخاً، لكنه كان سريعاً ومختصراً، مع وعد تكرر في بداية الاحتفال، وفي نهايته أيضاً، أن تجري، بعد العودة، احتفالات كبيرة «تليق بأهمية هذا الحدث، وتعويضاً عن القصور والبخل» كما قال ليفي شاوات مازحاً، وهو يودع العروسين، اللذين قررا أن يقضيا اليومين الأخيرين، قبل السفر، في الفندق!

الاحتفالات التي أقيمت في موران، ولم تعط اسماً كما لم تحدد صفتها، عوضت عن كل شيء، كما قال ليفي شاوات أيضاً، في أعقاب الحفلة الكبيرة التي أقامها الأمير راكان في قصره للعروسين!

أما الذين رأوا جانباً آخر من هذه الاحتفالات، أو ما تعنيه، فقد كانوا متأكدين أن مصالحة محتملة بين السلطان فنر وأخيه خزعل، وأن الذي يرعى هذه المصالحة غزوان بالذات. وقد راجت إشاعات كثيرة في موران تؤكد وصول الحكيم صبحي المحملجي، مما دفع غزوان، الذي تخوف من ردات الفعل، وظن أن وراء كل ذلك خصوماً أو منافسين يتربصون ويريدون الإيقاع به أن يقول ويؤكد أمام الكثيرين، حتى دون أن يُسأل، أن الحفاوة موجهة، بالدرجة الأولى، إلى مدراء الشركة الأميركيين، وبمناسبة توقيع عقد بناء المدينة الجديدة، التي اختير لها مكان على ساحل البحر، وستكون مركزاً للصناعات البتروكيمياوية.

ومع أن أغلب الذين حضروا الحفلات لم تخف عليهم العناية والاهتمام بغزوان، فقد انتهز الأمير راكان إحدى اللحظات المناسبة ليرفع نخباً إعلاناً عن أن السبب الحقيقي زواج غزوان. وأكد أن غزوان أصرّ على أن يتم في موران وحسب الطريقة الإسلامية! ورغم أن الخبر أذيع وسط هذا العدد المحدود من الضيوف، إلا أنه لم يلبث أن عمّ وانتشر. وفي محاولة أخيرة للتمويه، كان غزوان يصطحب، في أغلب السهرات التي أقيمت على شرفه، أخاه كمال وزوجته، بحجة أن «الوالدة نذرت أن تزوّجنا نحن الاثنين في نفس السنة، لأنه صدف أن ولدنا في ذات

التاريخ»، مع أن الذين يعرفون أسرار العائلة يؤكدون أن غزوان وُلد في أواخر الخريف، وكمال في عيد النيروز، ويضيفون أن تلك إحدى تجارب الحكيم الفاشلة للتحكم بمواعيد الحمل والولادة!

«إن اليانور هي الملكة الحقيقية في موران» هكذا قال الأمير مساعد، حين رأى اليانور، وفهم كلامه تعريضاً بالتسمية التي أطلقت على ثروت. قال ذلك أمام عدد من الأخوة، وكانوا يشاطرونه الإعجاب باليانور، وعدم اقتناعهم أيضاً بالتسمية التي أطلقها السلطان على زوجته!

ولأنه صدف أن سافر، خلال فترات متعددة، عدد من الأمراء إلى الولايات المتحدة، والتقى أغلبهم بغزوان، وتعرفوا أيضاً على اليانور، وقد سهروا والتقوا كثيراً، ورافقت بعضهم إلى الأسواق، فقد حان الوقت، الآن، للتعبير عن التقدير والمودة، ولتجديد العلاقات وتقويتها.

خلال أسبوعين، وهي فترة الزيارة، لم تخل ليلة من دعوة أو أكثر. كانت الدعوات تنهال إلى درجة يصعب قبولها أو رفضها. ورغم أن صفاء حاول، ببراعة، وأكثر من مرة، وضع برنامج، إلا أن الأمور أفلتت من يده، لأن معظم دعوات الغداء، والتي يكون مقرر لها ساعتين، مثلاً، كانت تمتد وتطول، لأنها غالباً ما تقام في الهواء الطلق. في المزارع الخاصة للأمراء، ودائماً يتخللها سباق للخيل أو سباق للسيارات؛ وقد شاركت اليانور في أحد هذه السباقات، وفازت، وكانت الهدية: السيارة التي استخدمتها في السباق!

نتيجة عدم القدرة على التحكم بالمواعيد والدعوات، فقد تدخل راكان، وأعلن، بمرح، أن هذه الزيارة فقط للتعارف، ولا بد أن تتلوها زيارات أخرى كثيرة، وفي أوقات قريبة، «لأن نسيبتنا أصبحت تحمل جواز سفرنا، ولا بد أن تطيع أوامرنا، وألا نكون، مضطرين، أن نسحب الجواز وأن نعاقب حامله». وهكذا اختصر بعض الدعوات أو أجلّ، لأن غزوان، أعلن بأسف مازجه الحزن، «أن الوالدة لم ترنا، ولم تر العروس، منذ وصولنا، وحتى الآن، لأكثر من ربع ساعة».

بدل الدعوات، وكتعبير عن المودة والإعجاب، انهالت على اليانور

الهدايا. كان الصالون الكبير في الجناح الذي خصص لهما في الفندق، يمتلئ كل يوم. وكانت اليانور، مثل طفلة، بعد كل سهرة من السهرات، وحين تعود إلى الفندق، تحار في كيفية ترتيب الهدايا أو حفظ أسماء مرسليها. كانت تقلبها، تنظر إليها بفرح، تصنّفها، تتأكد من مكان صنعها، وبعد هذه الجولة، وأثناء ما تستعد للنوم، لا تتردد في أن تنتقل مرات، عارية أو بالملابس الداخلية، بين الصالون وغرفة النوم، تفرز الهدايا من جديد، تقلّبها، استعداداً لإعطاء الأوامر حول كيفية ترتيبها للشحن.

كان القسم الأكبر من الهدايا الثمينة وارداً من الولايات المتحدة، وكان هذا ما يجعلها تفخر بها، لأنها لم تحلم بمثلها حين كانت هناك! أما الهدايا الأخرى، الغريبة، النادرة، الآتية من تلك الأماكن البعيدة والمجهولة، فكانت تثير حماسها، وقد حرصت على أن تمنحها اهتمامها الأول، خاصة وأنها ذكرت، عرضاً، ولا تتذكر أمام أي من الأمراء، أنها تتمنى أن تظهر كأميرة عربية بالملابس، بالزينة، وأن يكون لديها أيضاً خيمة عربية وبعض البسط، فجاءتها بعد ثلاثة أيام مجموعة كبيرة من الملابس والحلي الإسلامية المصنوعة في إيران وتركيا ومصر والشام، وجاءتها أيضاً خيمتان واحدة سوداء، والأخرى ملونة. أما السجاد الذي وصل إلى الفندق، فقد ظن عدد من العاملين أنه أرسل من قبل بعض التجار كنماذج تعرض وتعاد، «لأن صفقة كبيرة سوف تستورد من أوروبا وأميركا، وأن الضيوف طلبوا الاطلاع على النماذج المرغوبة»، كما ذكر أكثر من واحد. وحين حُزمت وهيئت للسفر، فقد قال مدير الفندق، سرور المدوّر، أن معظم هذا السجاد تم شراؤه من الولايات المتحدة، حين كان نائباً للبعثة التعليمية هناك!

وداد التي فهمت الأسباب التي دعت غزوان للنزول في الفندق، كما في عدة مرات سابقة، واحتملت أيضاً، وإن كان بغيظ، دعوات الغداء والعشاء التي شغلته، إلا أنها قالت، وبحدة، في عصر اليوم الرابع، حين جاء لزيارتها:

ـ وبدك تفهم، يا غزوان، مثل ما للناس عليك حقوق، أنا أمك،

وأنت شقفة من لحمي ودمي، والي عليك حقوق. . .

ولما احتضنها وقبلها ارتخت وهدأت، فقال:

ـ والله، يا ماما، كل الناس بكفة وأنت بكفة، وأنا بس بدي رضاك ودعاك.

ردت بانكسار:

ـ رضاي عليك يا ابني.

وبعد أن خيم الصمت، تذكرت فعادت إلى اللهجة الحازمة:

ـ ومهما كانت أشغالك، ومهما قلت، بدي أشوفك، وأشبع منك، يا غزوان. . .

وانتبهت إلى اليانور. . .

ـ وهذي المسكينة، صحيح أنها أول مرة تجي لموران، ولازم تشوف وتتعرف، لكن أنا لازم أشوفها، وأشبع منها. . .

وبعد قليل:

ـ يقطع أهلنا اللي ما علّمونا. لو الواحد تعلم، وعرف يدير لسانه بكلمتين إنكليزي أو فرنساوي، كان تفاهمنا مع هذه المخلوقة؛ كان سألناها عن حالها وأهلها، وشو بتحب وشو بتكره، لكن مثل ما شايفين: خرسا، وما طالع بيدي شي!

قال غزوان بفخامة:

ـ والله التعب اللي تعبتيه، يا ماما، ما حدا تعبه، كنت مثل الشمعة، حرقت نفسك حتى تضوي على الناس. . .

تنفس بعمق وأضاف:

ـ لازم تفتخري، يا ماما، لأن تعبك أعطى وأثمر، وصرتِ بنظر الناس كلهم أحسن أم!

قالت، وهي لا تخفي غبطتها:

ـ لا تهيلم عليّ يا غزوان، ولا تضحك عليّ بكم كلمة، وتنسّيني. . .

وهزت إصبعها بتهديد:

ـ إذا سامحتك، ووافقت أنك تنزل أنت ومرتك باللوكاندة، مع أنه عندك بيت في موران، فلا تتصور أنك تهيلم عليّ بكثرة الأشغال حتى تهرب مني...

وبعد قليل سألت بحزن:

ـ والمخلوقة... وأنت، ما بدكم تاكلوا من كبة أم غزوان؟ ما بدي اسمع منك: تسلم أيديك يا ماما على هالكبة؟

ـ والله يا ماما دوشتها للمخلوقة قدر ما حكيت لها عنك، وعن أكلك الطيب، وعن ذوقك...

وتطلع إلى اليانور وابتسم، ثم واصل:

ـ وهي، من أول ما وصلنا، وكل يوم، تقول لي: ما بدنا نشوف الماما؟ وأنا كل يوم أقول لها: بكرة، وبس نخلّص الشغل اللي جينا مشانه؛ وما صبرتْ، قالت: اليوم لازم نجي ونزور الماما!

ـ هيك الناس المقدّرين، اللي بيفهموا، واللي عندهم ذوق!

وابتسمت لأليانور، وكادت تضمها إلى صدرها، لكنها خجلت، قالت بنبرة صلبة:

ـ العمر بيخلص، يا ابنيَ والشغل ما بيخلص، فلازم تفرّغ حالك، لأني بعدني ما شفتك!

ـ كم يوم يا ماما، وما تشوفيني إلا عندك.

ـ لا... هذي غير مقبولة، لازم اعرف امتى؟

ـ لو قلنا: لا بكرة، ولا اللي بعده،؛ واليوم الخميس، وبكرة الجمعة، شو رأيك الأحد؟

ـ أنت قرر وأنا موافقة!

قال بحزن:

ـ بسم كم يوم شغل، يا ماما، وبعدها الله كريم!

ـ معليش، يا ابني، تعب كم يوم، وراحة العمر كله، لأن الدنيا هيك!

ـ ما بتعرفي يا ماما اديش بتذكرك، ودائماً أحكي لأليانور عنك، وأقول

لها: بس تشوفيها راح تحبيها من جوات قلبك، ولازم تاكلي، من ايد أم غزوان!

قال روبرت يونغ بعد توقيع العقد، وكانت يده ترتجف، وقد أشارت أليانور إلى المكان الذي يجب أن يوقع فيه:

ـ سوف تنقضي سنوات طويلة قبل أن يُوقّع مثل هذا العقد!

راكان، وقد كان الطرف الآخر في العقد، ارتجفت أجفانه الثقيلة، وسأل عما قاله روبرت، فرد غزوان:

ـ يؤكد المستر يونغ أن العقد الذي وقعناه الآن من الأهمية إلى درجة قد تمر فترات طويلة قبل أن يوقع عقد مثله في العالم.

قال المستر ليفي بعربية ثقيلة:

ـ يمكن تشييد مركّب صناعي، يا صاحب السمو، ويمكن تشييد جسر، وهذا يحصل دائماً، وفي كل مكان، أما أن تقام مدينة كاملة، مدينة قادرة على استيعاب الآلاف، وقابلة للتوسع والامتداد، وسوف تكون أيضاً مدينة صناعية، بالتجهيزات، بالمعدات، فإن ذلك شيء خارق، ولا يحصل إلا نادراً.

عقب روبرت يونغ وهو يهز رأسه ويبتسم:

ـ ربما لأني رافقت إنشاء مدينة، خاصة في هذه المنطقة، أقدمت، وبروح المغامرة، على تبني المشروع الجديد...

وابتسم وهو يتذكر:

ـ أنشأنا حران من لا شيء. كانت صحراء، بدأنا من الصفر، ولم تمض بضع سنوات حتى أصبحت مدينة عامرة. ولي الشرف أني رافقت كل مراحلها. ولأن من جملة هواياتي تتبع تطور المدن، فقد وافقت شركتنا أن تأخذ على عاتقها المساعدة في إنشاء هذه المدينة...

اكتسبت ملامحه الصلابة وشيئاً من الحزن، وأضاف:

ـ قد تتردد شركات أكبر من شركتنا على تبني هذا المشروع، أو مجرد التفكير فيه، لأن إنشاء المدينة، معناه: بداية الحضارة، وضع النواة

الأساسية للحياة، ليس فقط لهذا الجيل، وإنما للأجيال القادمة أيضاً.
ومعناه أن الإنسان قَبِل تحدي الطبيعة، ومستعد للمخاطرة، حتى لو لم يكسب مادياً. بل أكثر من ذلك، حتى لو خسر.

قال الأمير راكان، الذي كان يستمع إلى ترجمة غزوان، وينظر، بين لحظة وأخرى، إلى اليانور:

- هذا واحد من المشاريع الكبيرة في السلطنة، وحنا متأكدين، وعلى ثقة، أن شركتكم الوحيدة القادرة على تنفيذه!

رد غزوان:

- هذا المشروع، يا صاحب السمو، دليل على رغبتنا للتعاون، بغض النظر عن المخاطر المالية، وأيضاً لكي نثبت مدى قدرة الشركة واستعدادها للمساعدة.

حاول الوفد، قبل سفره، أن يقابل السلطان، وقد بذلت مساعٍ حثيثة من عدد من الأمراء، لكن السلطان اعتذر. قال لراكان:

- فيك البركة، يا أبو منصور، كفيت وفّيت، وخلِ شوفتي لنوبة ثانية!

الأمير راكان الذي لم يصرّ، قال لوفد الشركة في الليلة الأخيرة:

- كان طويل العمر مخصص لكم الموعد، لكن انحراف صحته أخرّه، مع أنه ألحّ على شوفتكم. قلنا له: راح نبلّغ سلامك، وما يهون علينا أن تتعب، والجماعة مثلنا، ومنّا وفينا، ويقدرون.

في طائرة العودة قال روبرت لليفي شاوات:

- ... والناس هنا يعتمدون على العلاقات، وعلى العمولة. إذا عرفوك، وإذا تأكدوا أنهم سيحصلون على المبلغ، فإن كل شيء ممكن وسهل...

ضحك وهز رأسه، بأسف، وتابع:

- كان يجب على غزوان أن يصرّ على رأينا: المبلغ المقطوع.

وبعد قليل، وكأنه يحدث نفسه:

- المبلغ المقطوع، يا مستر ليفي، مقنع أكثر. حين تقول مليون دولار

تعني مليون دولار. وحين تقول عشرة ملايين تعني عشرة ملايين. وهذا المبلغ، حين يصبح خرافياً هكذا، يقنع أي إنسان، خاصة من هؤلاء، وبدل أن ينصرف الواحد إلى التفكير بالنسبة، ينصرف إلى التفكير بما يجب أن يفعله بهذا المبلغ، ولا بد أن يقتنع في النهاية. أما إذا بدأنا بالنسبة، فإن الأمر يثير المخاوف والشكوك، فكل شيء قابل للنقصان أكثر مما هو قابل للزيادة، لأنه لم يتحول بعد إلى رقم. والعكس صحيح لمن يفكر بالأمد الطويل: المدينة التي ستشاد مجرد هيكل، هناك عشرات، مئات التفاصيل، التي تولّد مالاً، في كل خطوة، بكل عمل، ولذلك يمكن أن يكون وضعنا أفضل...

ـ وإذا حصلت ارتفاعات في الأسعار، أو مخاطر من نوع أو آخر؟

ـ مستر ليفي...

وضحك، وهو يضيف:

ـ الخسارة، في مثل هذه الحالات مستحيلة، لأني أقيم مدينة، ولا ألعب كرة المضرب، يا مستر ليفي.

وبعد قليل:

ـ إذا وقعت الخسارة، وهذا افتراض صعب، أو مستحيل، فإنها تقع على الجميع، ويكون صوتها مثل دويّ الأواني الفارغة. ضاجاً، ومثلما تقبلناها لا بد أن يتقبلها الآخرون، وبالتالي ينخفض المليون إلى النصف. أما الأرباح، وبالنسبة، فإن لها بداية، وليس لها نهاية!

قال ليفي بسخرية:

ـ لمن يعرف كيف يحاسب. لمن يعرف ما له وما عليه. ثم ان هؤلاء، رغم بساطة مظهرهم وطبيعتهم، فقد أصبح لديهم من يقول لهم ماذا يجب أن يفعلوا، ولذلك يمكن أن تخسرهم، يا مستر يونغ، إذا حاولت أن تبخسهم حقهم!

ـ حقهم؟

ـ هذا ما يفترضون، ولا يمكن أن تجادل في ذلك.

قالت له اليانور، وهي تسند رأسها إلى كتفه:

ـ ... وأعطتني، أيضاً، هذا السلسال الذهبي، وفيه شيء مقدس، وطلبت مني أن أضعه ولا أخلعه.

وأخرجت من رقبتها السلسلة الذهبية، وفي نهايتها المصحف، وأضافت، وهي تضحك.

ـ وكمال، وهو يترجم، كان يستعمل كلمات كبيرة، ربما تعلمها في الجامعة، وكان شديد التجهم!

نظر غزوان ملياً إلى السلسلة والمصحف ثم قال:

ـ إنها امرأة بسيطة، مثل كل الأمهات، تحب أبناءها، وتحب ما يحب أبناؤها، ولذلك فإنها تريد أن تترك أثراً...

استدار قليلاً، وهو يضيف:

ـ أبي... وأمي. أبي يحب تغيير العالم. يحب الأشياء الكبيرة: الأراضي الشاسعة، الأبنية التي تحيط بها الأشجار، الملوك والحواشي، وحتى الكتابة...

وابتسم، وهو يضرب على ركبتها:

ـ والوالدة: مثل أي أم، تريد تأمين الحليب لأطفالها...

قهقه، وقد استدار مرة أخرى، نظر إلى عيني اليانور، بعد أن رفع رأسها، لكي تراه:

ـ لا تعرفين، يا أليانور... كان همها الوحيد، ولا أعرف لماذا، أن أتكلم مع عدد من الأصدقاء، وواحد من أصدقاء أبي، لكي يساعدوا في إنشاء عدد من المطاعم في موران، لأنها تريد أن توظف الأموال التي لنا، والتي حصلنا عليها حتى الآن، باعتبار أن أملاك أبي لا تزال غير قابلة للتصرف، في الأعمال اليومية: تريد أن تشتري عشرين أو ثلاثين سيارة لكي تعمل في الأجرة، تريد أن تفتح مشاغل للخياطة، أن تشارك بعدد من المطاعم، أن...

ـ وماذا قلت؟ وماذا كان موقفك؟

ـ قلت لها: يا ماما: هذه الطلبات سهلة، ولا تحتاج إلى جهد لكي أقنع الناس بها، لكنها لا تتناسب مع سمعة العائلة، والدور الذي نرشّح أنفسنا له. وبعد الكثير من الجهد والنقاش، تولى كمال الموضوع، قال: وافق على الفكرة وأترك لي التفاصيل، وبلغ حماد وراتب أن يناقشوا معي الأمر، وهكذا اتفقنا.

قال صفاء الذي شرب أكثر من اللازم وهم يعبرون الأطلنطي:

ـ اسمع... لا بد أن تساعدني، يا غزوان، لكي أتزوج أميرة موران.

ضحك مثل حشاش، وهو يضيف:

ـ أميرة من موران: بولصة تأمين مدى الحياة، بداية الصعود إلى القمر، مخزن بارود، خط الدفاع الأخير ضد الفاقة والفقر والتوسل والتعتير وأخيراً ضد التسول...

هز رأسه، كأنه يفيق من النوم، وسأل من جديد:

ـ كنت أشطر مني بالدراسة يا غزوان، وأريد أن أسألك: ما الفرق بين الفاقة والفقر؟ الغنى والثراء؟

قال ابن العليان لمالك الفريح بعد توقيع العقد:

ـ اعرفك، يا ابن الحلال: حريص، والقرش ما يطلع من يدك إلا مبري. وقبل ما تقول خذوا تصلي على القرش صلاة الميت، فشنهو اللي دهاك حتى وافقت أن فلوسنا ترمى بالبحر؟

ـ صار لي مسخّن أسبوع، يا أبو عزّيز، وكأنك قاتل أبوي!

هكذا صرخ مالك الفريح، ثم اختنق، فخرجت كلماته ممزقة:

ـ عافت نفسي الأكل والشراب، يا رجّال، ولا أنام لا بالليل ولا بالنهار، وإذا عشت اليوم لا بد ميت باكر أو اللي عقبه.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله...

قالها عثمان العليان بأسى، ثم أضاف مخاطباً نفسه:

ـ الواحد يبني قصر حتى يسكنه، يبني مسجد حتى يتعبد ربه. وإذا فسق يبني تياترو حتى يتونس به، أما أن الواحد يبني مدينة بالتشول، ما بها

لا أنس ولا جان، ويحط فيها، اللي جمّعه بالدنيا والآخرة، فهذا اما مجنون أو ابن حرام.

ـ والله، يا أبو عزّيز، الاثنين جميع!

ـ يا أبو صفوق هذا ما يصير، وما يرضاه لا عقل ولا دين.

ـ وشنهو اللي نقدر عليه؟

ـ احكوا، احتجوا، قولوا هذا حرام وما يصير.

ـ والله، يا أبو عزّيز، شقّيت هدومي، وانبحّ صوتي، وقلت اللي ما ينقال، لكن: أبوك الله يرحمه، لا من يسمع ولا من يفهم، كأن الواحد وحده بفلاة.

واستعاد ابن العليان، في ذاكرته، الأرقام، التي سمعها ككلفة أولية لبناء المدينة الجديدة، فثار من جديد:

ـ والله لو قطعوا يدي، لو صلبوني، ما أوقع، ولا أقول: الله يبارك لكم.

ـ ما سألوا عني، يا رجال. أخذوا الأختام، وصاحوا الرويشدي، قالوا له تنوب عن عمك، وزير المالية وتوقع هنا وتختم هنا، وما كذّب خبر. قال لهم: هاكم الأختام، وهذا توقيعي.

وضحك مالك بسخرية، وهو يضيف:

ـ ويروح يوم، ويجي الثاني، يا أبو عزيّز، وتنبني المدينة الجديدة، وكأنه ناقصنا مدن.

ـ وتقوم مدن الملح، ترتفع وتكبر، لكن إذا جاها الماء: فشّ، ولا كأنها كانت!

وتحول الحديث بينهما إلى سخرية مغيظة. سأل ابن العليان:

ـ وشنهو راح يسمونها، يا أبو صفوق؟

ـ مدينة العفاريت والجان.

ـ ومنين راح يلقون لها أوادم؟

ـ من ارم ذات العماد.

ـ هذي الله سخطها وخلصوا رجالها.

ـ الخويا يدورون لهم بشر، ويستأجرونهم.

ـ القول اللي تقول، يا أبو صفوق، يلزم يتبضعون لمدينة من هذا الشكل أوادم مخصوصين: طوال، جهامة، بطرابيش سودا، وعيون زرقا، ويحمّلون كل واحد منهم جرس بالنهار وفانوس بالليل، ويقولون لهم شقوا البحر وانتظروا، أو افتحوا بطن الفلاة، لأن أهل موران ماتوا، وأنتم اللي راح تدفنوهم بليا غسيل وبدون صلاة، وعسى أن الله يوفقكم!

ـ والحل يا أبو عزيّز؟

ـ الحل؟

أما ابن البخيت الذي سمع عن المدينة الجديدة. ولم يعرف لماذا ستبنى، ولمن، فقد انتظر إلى أن التقى بابن العليان، وحين سأله عن أمرها، ولم يتلق جواباً واضحاً أو شافياً، قال له:

ـ هذول أهل الكيمياء، يا أبو عزيّز، من يوم ما الله خلق الأرض، علامة الفقر، فإذا واحد منهم ما حمله الناس، فشلون إذا صاروا أهل مدينة كاملة؟

ـ ظني ما يصيرون يا أبو بادي!

ـ لكن الناس بالسوق يسولفون، يا أبو عزيّز، وسمعت واحد من جماعة حماد يقول إنهم راح يسمونها مدينة فنر!

ـ مدينة فنر؟

ـ أي بالله، يا أبو عزيّز.

ـ حضّروا السرج قبل الفرس؟

ضحك ابن البخيت، وتناول كتاباً، وقال:

ـ اسمع يا أبو عزيّز، شنهو اللي كتبوه من قبل: «وفي تلك السنة رسم السلطان بإكحال عيني شخص يقال له علي ابن محمد المرجوشي، فاكحل عينيه وقطع لسانه، وكان والده من أعيان وجوه التجار بسوق الشرف، وسبب ذلك أنه أوحى إلى السلطان بأنه يعرف صنعة الكيمياء، فانصاع له

السلطان حتى أتلف عليه جملة مال، ولم يفد من ذلك شيء. وفعل نظير ذلك بالأمير تمراز الشمسي، أمير سلاح (يعني مثل وزير الحربية) وأتلف على الآخر جملة مال، ولم يفد في شيء، فحنق منه السلطان وفعل به ما فعل»[*].

وأغلق الكتاب وسأل:

- شنهو قولك ياأبو عزيز، متى يحنق سلطاناً، أو غيره، ويسوي مثل ذاك السلطان؟

حين سمع السلطان ما يدور من لغط في الأسواق والمضافات، قال امام عدد من رجاله بغضب:

- شورنا من راسنا، وما نريد أحد يقول لنا شنهو اللي نسويه، وشنهو اللي نتركه.

وبعد قليل وبسخرية:

- باكر تشوفون، هذول اللي ما عندهم شغل إلا السوالف، يتراكضون حتى يجمعوا الفلوس، وإذا قلت لهم: ها يا جماعة... نسيتم سوالفكم؟ يقولون: والله ما كنا ندري، وجلّ من لا ينسى.

وبدأ الدوي على ساحل البحر البعيد لبناء مدينة فنرا

(*) أيمن أياس، الجزء الثالث، ص ٢٧٥.

ما كادت تنقضي بضعة شهور على توقيع عقد مدينة فنر، وتزايد الموارد المالية للسلطنة، حتى بدا السلطان في أحسن حالاته، لاقتناعه برضا الناس عن كل ما فعل.

وفي أعقاب الاحتفالات الكبيرة التي أقيمت بالسنة الهجرية الجديدة، وكان ابن شاهين، بملابسه البيضاء الفضفاضة، وهو يستقبل المهنئين، إلى جانب السلطان، قد أصبح المفتي الفعلي للسلطنة، دون تسميته، انتظاراً لموت العجرمي، أو لظرف مناسب... ما كادت تبدو الأمور بهذا الشكل من القوة والالتفاف والسيطرة، إلا واهتزت موران واضطربت، نتيجة ما وقع في سلطنة الدواحس.

قال السلطان لأخوته الاثني عشر، أهل الحل والربط، والذين اتخذوا القرار بتنحية خزعل:

ـ هذي مورانّا، وحنا أدرى الناس بها...

كانت ملامحه قاسية مشدودة، وهو يتكلم. وكان الخوف قد ملأ القصور، منذ الساعات الأولى، وبسرعة كبيرة سرى الخوف من الأمراء إلى الحاشية، إلى النساء، وحتى الأطفال الذين سمعوا ولم يفهموا، استغربوا سلوك الكبار والعصبية التي ميزت تصرفاتهم، فخافوا.

وأهل موران، مثل عادتهم دائماً: بدوا هادئين، أقرب إلى عدم الاهتمام، إلا أنهم لم يخفوا اعتدادهم ومرحهم. ولم يتردد الكثيرون في أن يقولوا، وقد فعل بعضهم بصوت عالٍ، خاصة في السوق العتيق، «الدنيا، يا جماعة الخير، مصبحة مسيّة» ولم تخف دلالة هذه الكلمات على أحد. فبعد أحداث الدواحس، بدا واضحاً أن النار اقتربت، فإذا لم تصل اليوم، فلا بد أن تصل غداً. وقد ولّد ذلك حرصاً، أقرب إلى

الحذر، في نفوس الكثيرين، حتى رجال حماد، الذين كانوا، إلى الأمس، يبدون قسوة وتحدياً في مواجهة الجميع، ما لبثوا أن غابوا خلال الأيام الأولى، ثم أخذوا يغيرون وجوههم وجلودهم مع مرور كل يوم جديد. وبلغ الأمر ببعضهم أن أخذ ينقل ما يجري وراء الأسوار، ويشير، بسخرية، إلى الخوف الذي عم القصور واستبد بالأمراء!

الآن، في الاجتماع الطارئ، الذي دعا إليه السلطان، في قصر السعد، بدا الهم واضحاً على وجوه المجتمعين. كان هماً ثقيلاً أقرب إلى الانهيار، ولأن السلطان عرف، وجاء من قال له: إن الأرض تهتز، ولا بد أن يفعل شيئاً، لكي لا يترك الخوف يمتد وتصل عدواه إلى الجميع، فقد بادر بسرعة، وكان قاسياً متحدياً هكذا.

تابع في جو الصمت المرتاب:

- حنا ولد خريبط، حنا النشامى، ندافع عن ملك آبائنا وأجدادنا بأرواحنا. ما نخاف، وما تأخذنا كلمة ولا تردّنا الثانية، وإذا خفنا فمن رب العالمين. حقنا واضح، وجيشنا قوي، وسلاحنا جديد. والناس، أي نعم الناس، معنا، إذا سسناهم زين، وعرفنا شلون نتصرف...

تنفس بعمق، فاسحاً المجال للحديث أن يُستوعب، وأضاف بحدة:

- والشرط، يا جماعة الخير، أن تصفى قلوبنا، ونكون يد واحدة، ونحطّ كل عزمنا...

وبعد قليل بنبرة جديدة:

- وأنا، قلت لروحي، أنه قبل ما نتخذ أي قرار يلزم نتشاور، حتى ما نندم.

بعد أن تبادل الأخوة النظرات، وكانت تمتلئ بالتحدي والخوف معاً، وحين بدأت الأجساد تتحرك، وقد زايلها بعض التوتر، بدأ السلطان بشرح الكثير من التفاصيل المتعلقة بما حصل، وما أجراه من اتصالات، وما وصلت إليه من معلومات. ولم يخلُ كلامه من التأكيد، مرات عديدة، على المخاطر التي تتعرض لها السلطنة، وضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة للمواجهة، خاصة وأن هناك معلومات مؤكدة تشير إلى احتمال تدبير

مؤامرات، والاتصال بالمعارضين، وتحريض السكان، لذلك يجب الحذر والحيطة، وإلى إحداث تغييرات تتناسب مع المرحلة الجديدة، بما في ذلك الاستغناء عن عدد من الوزراء، واستبدالهم بغيرهم، وضرورة أن يكون أحد الأمراء وزيراً للداخلية، وآخر للمالية، وأن يكون ثالثاً للدفاع.

قال راكان في نهاية ذلك الاجتماع:

ـ إذا ارتخت أيدينا سرحت الماي حدر رجلينا، وعندها صعب تدبر!

قال مساعد بنزق:

ـ أيدينا، يا أخوي، أبد على الزناد، وبعد اليوم، ما أظن أن واحد من أولاد خريبط يهنا له عيش قبل ما نخلّص سالفتنا مع الطامعين بنا.

وبدأ يتغير كل شيء في موران.

الملكة ثروت التي تغيرت قبل هذه الأحداث، بتأثير اللقب الجديد، إذ استبدلت معظم الخدم والمربيات، وتغيرت أيضاً بسلوكها وعلاقاتها، أصيبت بالهلع نتيجة ما جرى، وما يصل إليها من أخبار. وفريزة خانم التي تحسبت وخافت من سلوك ابنتها، لجأت، ودون علم الكثيرين، حتى ثروت، إلى الإبقاء على أغلب الصلات التي كانت من قبل، خاصة مع الخدم والعاملين في القصر. فعلت ذلك من قبيل الشفقة، ونتيجة العشرة الطويلة، ولأن هؤلاء كانوا نافذتها على العالم، وعلى ما يجري في القصور بشكل خاص.

أما بعد أن بدأ السلطان يحيط تحركاته بالسرية والكتمان، وأصبح ينام، أغلب الأيام، خارج قصر السعد، وما رافق ذلك من الاحتياطات والحراسات المشددة، مع الهمس والخوف، فقد جعل ثروت في حالة من العصبية أقرب إلى عدم الاتزان، ليس فقط تخوفاً من اغتيال السلطان، كما أشيع، وإنما لأنها لم تعد تعرف شيئاً مما يجري، ولا تعرف شيئاً عنه.

ورغم أنها بذلت في الفترة الماضية جهوداً خارقة لكي تضرب حوله طوقاً، مستغلة الكثير من الوقائع، بما فيها النقد لذي وُجّه إليه، خاصة من الأخوة، حين منحها لقب الملكة، وأقنعته أيضاً باستبدال عدد من المحيطين به، وجدت نفسها، فجأة، في المرحلة الجديدة، وقد فقدت

الصلة تماماً، لأن العناصر التي تم استخدامها مؤخراً، رجالاً ونساءً، لا تعرف دهاليز القصور ولا ناسها، خاصة وأن السلطان، زيادة في الحيطة، لجأ إلى التعتيم على تحركاته أو مكان وجوده.

ردت فريزة خانم على ابنتها، بعد أن انقضى أسبوع كامل، لم يعد فيه السلطان، ولم يسمع عنه أي شيء، رغم المحاولات التي بذلتها ثروت:

ـ أحمدي ربك، يا بنتي، أن الرّجال بعده حي وموجود...

وبعد قليل، وكأنها تحدّث نفسها:

ـ والسلاطين ما هم مثل الناس العاديين، ولا هم ملك أنفسهم أو ملك زوجاتهم...

وحين تطلعت إليها ثروت باستغراب وتساؤل، أضافت:

ـ أي نعم، لأن مثل ما لك حق، لغيرك حق!

ـ يعني في غيري؟

ـ والله، يا بنتي، علمي علمك، بس يمكن تكون المسألة شي تاني.

صرخت ثروت بحدة، وكان صوتها أقرب إلى الصرير:

ـ فكّر أنه ضحك عليّ بكلمة؟ بلقب ملكة؟

وبعد قليل:

ـ إذا صار مثلهم ما يلوم إلا نفسه!

ردت فريزة خانم وهي تبتسم:

ـ ما وصلت المسألة لهذا الحد، يا بنتي، وبعدين الغايب عذره معه.

وحين رددت ثروت لنفسها، بعض الكلمات، وبتورية غير خافية، قالت الأم بنزق:

ـ كبري عقلك يا بنتي، وحطي الله بين عيونك...

وهزت رأسها وهي تضيف:

ـ وبعدين... هو سلطان، يا بنتي، والسلاطين أكبر منك ومني!

انخرطت ثروت بالبكاء، وأحست بالخديعة، أما الأسباب الأمنية فلم تقتنع بها. وهكذا وجدت نفسها في عزلة. أما الخدم والحاشية الجديدة، فقد أصبحوا الأعداء الحقيقيين، لأنهم عاجزون عن المساعدة، ولا يعرفون

أي شيء، كما لا يستطيعون الوصول إلى تلك الزوايا المعتمة والمعطرة، حيث يفترض أن يكون السلطان الغائب!

أحست فريزة خانم، بغريزة الأم، بالخطورة، وهي خطوة تتجاوز غياب السلطان، أو وجود علاقة له بامرأة ثانية، خاصة وأن الابتسامات والرشاوى للخدم مكنتها من معرفة الكثير، لكن الملكة لا تريد أن تسمع، وإذا سمعت لا تقتنع، وإذا اقتنعت، فلفترة قصيرة، ولا تلبث أن تعاودها الشكوك وتملأ قلبها.

ولأن فنر بارع في صمته، ولم يكن، حين يعود، يشير أين كان، أو ماذا فعل، كما لا يقول متى سيغادر، أو كم سيغيب، فإن السياسة، بنظر ثروت تتراجع، لتحل مكانها المرأة. كانت حريصة أن تعرف، مجرد المعرفة تكفيها. سوف توافق وتسامح، المهم أن تعرف. وفنر ذلك المتنوع كالرمل، الصاخب، معها، كالريح، يتحدث، ينتقل من موضوع لآخر ثم يصمت، وصمته هو القاتل.

ولأن ثروت تمتلك براعة توازي براعته، لا تريد أن تسأل، تخفي شكوكها، تتظاهر بالرضا، تضحك، وبعض الأحيان بصخب. تتطلع إلى عينيه بإمعان، ترقب ارتجاف يديه، أو شفته السفلى، إذ أصبحت، من خلال العشرة الطويلة، تعرف إن كان يخفي شيئاً، إن كان متعباً، أو أن هموم الحياة وثقلها ما يشغله.

وفي هذه المباراة الشاقة الطويلة، احتفظ الإثنان بتلك المنطقة المحايدة، احتفظا بها بأقل الكلمات وأكثرها غموضاً وإثارة.

حتى في الفراش، كانت تعتبر أن ذلك المختبر الشفاف يمكن أن يكشف كل شيء، استطاعت، بعد تجارب عديدة، أن تضيف إلى جهلها جهلاً جديداً، حين قالت لأمها، بعد ليلة قضى السلطان معظمها في قصر السعد، ولم يغادر إلا عند الفجر، لأنه كان يخاف كما قال لها وهو يغادر:

ـ كل ما حصل في المنطقة من انقلابات وتغيرات حصل عند الفجر، ولذلك ما أريد افرّح اللي محضرين أرواحهم للفجر!

قالت ثروت لأمها في تلك الليلة:

ـ هذول الرجال ما في أحد يعرف شلون يفكرون، وشنهو اللي يريدونه، كلهم سويعاتية. كل ساعة فكر، وكل ساعة شكل!

ردت فريزة خانم:

ـ يا بنتي، يا ثروت...

وابتسمت قبل أن تتابع:

ـ هموم فنر كبيرة، ولازم تساعديه بدل ما تكوني هم على قلبه.

ـ لكن يا ماما.

ولم تستطع أن تواصل.

أهل موران، هؤلاء الذين ولدوا على هذه الأرض القفر، واكتسبوا منها صفات لا تحصى، كي يتغلبوا على قسوة العيش وصعوبات الحياة، تعلموا غريزياً: أن الإنسان الذي يبقى هو الذي يحتمل هذه الظروف، بكل ما فيها من قسوة وخشونة، ويعرف كيف يتعامل مع الأقوياء والضعفاء، دون أن يخاف الأقوياء، إلا بما يتطلبه استمرار البقاء، ولا يسخر من الضعفاء إلا بما تفرضه قوانين الطبيعة.

لم يكن أهل موران مع الذي حصل في الدواحس، كما لم يكونوا مع ما هو موجود هنا. كانوا يريدون شيئاً غير الاثنين، ولأنهم، مثل الحيوانات الصحراوية، ومثل نباتات الفلاة، ينتظرون المطر، ويتشممون الريح، فإن ما حصل في الدواحس شجعهم وأغراهم، وحين التفتوا إلى السماء يستطلعونها، وإلى الرياح يتنشقون فيها رائحة المطر، لم يجدوا، لذلك لجأوا إلى الكلمة اللاذعة، إلى النكتة يصوغونها في اللحظة، فتخرج قوية نافذة.

في هذه الفترة امتلأت موران بأعداد لا تحصى من النكت، ومعظمها يطال السلطان بالذات، ولأنها كانت متقنة، ومصوبة ببراعة، فقد انتشرت وانتقلت، ووصلت إلى السلطان أيضاً.

ولأن موران، مثل المرأة الحامل، كانت تدلّ وتفخر بحملها، فلم تترك أحداً أو بيتاً إلا وأنبأته. حتى العجرمي الذي عاد من عين دامة، بعد أن سمع بما وصل إليه ابن شاهين، ثم تلك المعركة التي وقعت بينهما،

وكانت يفترض أن تنتقل الكلمات التي يتبادلها الاثنان، فإن الكثيرين، إزاء النكات الجديدة، نسوا العجرمي وابن شاهين معاً. أما حماد الذي كانت تصله تلك النكات، فكان يضحك لها أكثر مما يفكر بنقلها. وحتى في المرات القليلة التي نقلها، فقد فعل ذلك أمام أصدقاء، ضمنهم عدد من الأمراء، أكثر مما كان يريد إيصالها إلى السلطان.

قال السلطان لأخيه راكان:

- ترى إذا ظلينا سالفة بحلوق الناس، يا أبو منصور، وإذا كفّتهم الكلمة اليوم، فباكر أو اللي عقبه ما راح تشبّعهم حتى عظامنا، فخلنا نقول لهم حنا من، وشنهو اللي نقدر عليه، لأنهم بغير ذا ما يتأدبون!

راكان الذي فهم المعنى العام، هز رأسه، أكثر من مرة، دلالة الموافقة، لكنه كان ينتظر شيئاً محدداً. تابع السلطان، وهو ينظر إلي عينيه تماماً:

- أهل موران ما يفهمون إلا بالعصا. اضرب الخشم تدمع العين.

وتنفس بأسى، وتابع:

- اللي سويناه لهم ما أحد يسويه: كانوا يرعون الإبل والغنم، كانوا يسافرون من ديرة للثانية حتى يلقوا الخبز، كانوا يشتغلون، هنا وهنا، مثل الصناع والخدم، فقلنا لهم: كفاكم يا أولاد الحلال، وأنتم من اليوم بديرتكم ويصلكم كل شيء، لأنكم تستاهلون على تعبكم، ويلزم ترتاحون ويجيكم رزقكم وأنتم جالسين، وبدل ما يشكرونّا، ويقولون طالت أعماركم وكثّر الله خيركم، رفعوا خشمهم.

ضرب على مسند الكرسي، هز رأسه بأسف، وبعد قليل:

- حتى ابن العليان، صار يحكي علينا، ويقول فلاني وتركاني، يا أبو منصور...

وتغيرت لهجته، أصبحت ساخرة:

- وابن المطوع لا يقول ولا يحكي، وكأن الدنيا ما بها شيّ. ولما سألته عن السوالف اللي يقولها الناس، تعرف شنهو كان جوابه؟ قال: سوالف ليل يا طويل العمر، وما نريد ندوخك...

وبحدة أكبر:

ـ اسمع يا راكان: من هذه الليلة أنت وزير للداخلية، وأنت المسؤول!

وراكان الذي تراجع بقوة، وكأن مساً كهربائياً أصابه، وأيقظ كل شيء فيه، أجاب دون انتظار:

ـ من قبل كان رأيي، يا طويل العمر، أن هذه الوزارة، يلزم واحد منا يكون فيها...

ابتسم، وهو ينظر إلى السلطان، وأضاف:

ـ عفا الله عما مضى، وحنا أولاد اليوم.

وما أريد أوصيك يا راكان: هذول أهل موران نار الله الكبرى، ما يخافون إلا من العين الحمرا، وما يصيرون أوادم إلا بالعصا، فلا تقصّر.

ـ وكل الله يا طويل العمر، وإن شاء الله ما يصير إلا الخيرا!

أذيعت، في نفس الليلة، إرادة سلطانية بتغيير عدد من الوزراء: سُمّي راكان وزيراً للداخلية، وميزر وزيراً للمالية، وعين الرويشدي معاوناً لوزير المالية، أما وزارة الدفاع فكانت من نصيب مساعد. كما تضمنت الإرادة ذاتها تبادلاً في الحقائب بين عدد من الوزراء.

موران، مثل غيرها من المدن، انشغلت لعدة أيام في تفسير ما جرى، لكن دون أن تصل إلى جواب. أما حين انفجرت قنبلتان، الأولى عند سور وزارة الدفاع، والأخرى في السوق العتيق، فقد تلفت الناس وتساءلوا: «ها... وصلت البشاير أم هذي غيمة صيف كذابة؟».

وظلت موران تنتظر وتترقب، الرجال يعودون مبكرين إلى بيوتهم، لا خوفاً، وإنما لكي يسمعوا ما تقوله الإذاعات الخارجية. النساء اللواتي جمعن أخبارهن من خدم القصور والماشطات، وأضفن لها من عندهن الكثير، يخلقن في عقول الرجال الاضطراب أكثر مما يساعدونهم على قراءة أحداث الغد.

قال عمير الذي سمع بالأخبار:

ـ كان يلزمه يعرف من زمان، ابن المطوع، لأنه ما حصّل إلاّ الكلمة الشينة والوجه الأسود، ويستاهل.

تذكر أشياء كثيرة، وبعد صمت، أضاف بسخرية:
ـ سألوا ذاك الواحد: أنت شنهو؟ قال: أنا عبدكم وأجير مرابعهم!
وتنحنح عمير، وقال كأنه يحدث نفسه:
ـ أهله، والشهادة لله، أوادم. أبوه تاجر، وما عنده غير تجارته. يجوز أنه طماع ويحب الفلوس، لكنه حقاني. وعمه شداد: صاحب خيل، والحصان عنده مثل ابنه. أتذكر أنه كان إذا توجع حصانه يتوجع قبله، وإذا باعه يبيع روحه معه، ويظل يوصي المشتري ويلحّ عليه، حتى انهم قالوا: شداد إذا باع الحصان اليوم مستعد يشتريه ثاني يوم ويعطي فيه مربح...
وضحك وهو يتذكر أكثر:
ـ أما مفلح، الله يعافيه، فما كان بعينه شي، وكان يقول: خريبط الثور الكبير. وكان يقول: الثلم الأعوج من ذاك الثور. ومع أن خريبط سمع هذا الكلام، لكنه، والشهادة لله، سكت، بلعه وسكت!
أما حين جرى الحديث عن مالك الفريح، فقد قال عمير وهو يصرّ بحقد:
ـ حيل، ويستأهل أكثر، لأنه أحرص من كلب وانجس من خنزير.
وتحددت عيون أهل موران ودق سمعهم. ومثلما افترشوا الأرض في الأيام الأخيرة من مرض خريبط، وكانوا يتبادلون الأخبار وينتظرون. وكذلك فعلوا يوم تزوج السلطان خزعل، ثم يوم خلع، فقد عادوا إلى تلك الهواية التي لا يملّونها أبداً: الانتظار. لكن مع الانتظار، هذه المرة، النكت اللاذعة، والسخرية.
قال راكان لعدد من أقربائه، من ناحية أمه، جاءوا لكي يهنئوه بوزارة الداخلية: وقد أشاروا، عرضاً، إلى تندر أهل موران وتطاولهم:
ـ ما يخالف، بس إذا كانوا رجال فخلهم يحملون!
وبعد قليل، ومن بين أسنانه:
ـ والله لاطلّع حليب أمهاتهم من خشومهم، وتشوفون!

سوف تنقضي أعوام طويلة قبل أن يحصل في موران مثل ذاك الذي حصل في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان من تلك السنة.

إذ ما كادت تمضي بضعة شهور على «ثورة» الدواحس، حتى امتلأت موران بالنكت والدخان والانتظار. ومع كل يوم جديد، كانت تقع بين السلطنة والدواحس منازعات من نوع لم يألفه الناس. بدأت أول الأمر بفتور بين الدولتين، ثم أصبح الفتور جفاءً: أما حين بدأت القطيعة وحرب الإذاعات والصحف، فقد قال الكثيرون: «الله يستر، لأن أول الحرب الكلام».

لم ينتظر فنر أن تصله الحرب، إذ اعتبرها واقعة، وبدأ يعد نفسه ويعمل على هذا الأساس.

فبعد الوزارة الجديدة، أرسل عدداً كبيراً من الوفود إلى الدول المجاورة والصديقة، وإلى مناطق الحدود. وإذا كان موفدوه قد حملوا إلى الدول ورؤسائها الرسائل، وطلبوا التفهم والدعم والتأييد، فإن موفديه إلى مناطق الحدود، وعلى الطريق، حملوا النقود والوعود والسلاح، كما وجهوا إلى شيوخ العشائر دعوات حارة لزيارة موران.

قال الكثيرون أنهم لم يشهدوا موران مليئة هكذا بشيوخ البدو وحراسهم وأقربائهم إلا مرتين أو ثلاث مرات أيام خريبط، وقبل أن تبدأ حملات الحويزة والعوالي. وتحدثوا عن الولائم الكبيرة التي أقيمت، والهدايا المتنوعة التي تم توزيعها خلال أسبوعين، مما اضطر عدداً من التجار، وكان أبرزهم سعيد الأسطة، ليس فقط إلى إرسال بعض رجالهم على جناح السرعة لشرائها، إذ طلبوا منهم أن يبقوا في بيروت لتلقي قوائم

جديدة للمشتريات، وشحنها فوراً، «مهما كلف ذلك» كما قال سعيد، وهو يوصي ابن أخته أيمن متولي.

أما الاحتفالات التي أقيمت، وقد تم في إحداها استعراض قطع رمزية من الجيش، كان على رأسها الأمير مساعد، فقد أثارت من الاهتمام والتعليقات الكثير. وذكر بعض الخبثاء أن الأمير مساعد، بالملابس العسكرية ـ وكان يرتديها لأول مرة ـ بدا صارماً ومضحكاً معاً. حتى وهو يمر أمام المنصة الرئيسية للعرض، وكان في سيارة جيب مكشوفة، لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام حين سمع التصفيق، مما دفعه لأن يطلب من السائق الإبطاء، فتوقف السائق فجأة، وكاد يتسبب بوقوعه. أما وهو يتماسك ويعتدل، فقد قوبل بعاصفة مدوية من التصفيق والمرح!

في الأحياء الفقيرة، وفي الأزقة البعيدة، رغم أن الفصل نهاية الربيع، وقد تعود الكثيرون أن يتركوا أزقتهم إلى وسط المدينة، وإلى الحديقة العامة، وهي الوحيدة في موران، وقد أخذت أول الأمر اسم حديقة السلطان خريبط، ثم حين وُسّعت أطلق عليها حديقة السلطان خزعل، أما بعد أن خلع فقد أصبح اسمها «حديقة السلطان»، فإن أغلب الناس لم يجدوا في أنفسهم الحماس أو الرغبة لمتابعة الاحتفالات أو التمشي في الحديقة. فضلوا البقاء في احيائهم وقريباً من بيوتهم ليسمعوا الأخبار على أن يشهدوا اللقامة، «لأن الشيوخ ورجالهم بوجوهنا وين ما رحنا وين ما جينا، وشوفتهم تقطع الرزق»، أما الأمير مساعد فلم يستطع أحد أن يتصوروه وزيراً للدفاع، إذ كان، خلافاً لأغلب أخوته، حتى الأشقاء، قصيراً، شديد السمنة، وكان في وقت من الأوقات، مشهوراً بنهمه، وقيل إنه كان يأكل خروفاً كاملاً في الوقعة الواحدة، وقد كسب أكثر من رهان!

رغم أنه لم يبق أحد من العاملين في القصور، أو له صلة بها، إلا وانشغل، بشكل ما، بضيوف موران، وانعكس ذلك بوضوح في الأسواق، وتفاءل الكثيرون من التجار، وتمنوا أن تستمر هذه الحال، فإن راكان الوحيد من الوزراء والأمراء لم يظهر في الاحتفالات والدعوات.

الذين راقبوا، مبكراً، من حضر ومن لم يحضر من الأمراء، تلفتوا في

البداية ثم تساءلوا، وحين تكرر الأمر في الاحتفالات والدعوات اللاحقة، وتأكدوا من غياب الأمير راكان بالذات، قالوا إن في الأمر شيئاً غير عادي، ولم يضيفوا أكثر من ذلك. أما الذين اكتشفوا غيابه في وقت لاحق، اكتشفوه بأنفسهم، أو جاء من لفت نظرهم، وكانوا أكثر معرفة أو أكثر شكاً، فقد كانوا متأكدين أن وراء هذا الغياب أمراً خطيراً.

أما حين بدا غيابه واضحاً جلياً في الاحتفال العسكري، لأن الأخوة، والأبناء جلسوا على جانبي السلطان، وأمام الناس، ليس حسب أهميتهم، وإنما حسب الأعمار، فقد سُمعت تساؤلات كثيرة، في الاحتفال ذاته، حول الأمير راكان.

خبر من هذا النوع لا يمكن إخفاؤه أو تجاهله. وإذا كان أغلب الذين حضروا الاستعراض قد انشغلوا بالمصفحات التي مرت، والمدافع التي كانت تدور، ثم بالجمال والخيول، وكانت قمة الاحتفال حين مرت ثلاثة أسراب من الطائرات، فإن الذين نقلوا وقائع الاحتفال للآخرين لم ينسوا الإشارة إلى غياب الأمير راكان. ذكروا ذلك بتساؤل أقرب إلى الاستغراب.

موران الأزقة الخلفية، موران الفقراء، كانت تعتبر جزءاً من حربها التي لم تتوقف يوماً واحداً، أن تلاحق السلطان، وكل من يمت له بقرابة أو بصلة. ولأنها اكتسبت بمرور الأيام، وتزايد الظلم، قدرة خفية على المواجهة والتحدي، فقد وجدت في قصة الأمير مساعد تسلية، لذلك أستعيدت رهانات أكله وشرابه، وكيف أن السلطان خريبط، حين تزايدت القصص التي تروى عن شرهه، حبسه، ومنع عنه الأكل، حتى كاد يموت. وكيف كان يتظاهر بالصيام أيام رمضان، ثم فجأة يسقط مغشياً عليه، وخلال إسعافه، إذا لم يستطع أن يأكل شيئاً، فلا بد، على الأقل أن يشرب الماء!

الآن، وموران تسمع أنه وزير للدفاع، ويستعرض الجيوش، وأنه فقد توازنه حين توقفت السيارة فجأة، فإن القصة ذاتها تنتقل من مكان لآخر بعد أن تكبر ثم تتغير، إلى أن تصبح قصة طويلة مسلية.

وإذا كانت قصة الأمير مساعد قد سلّت موران، فإن غياب راكان شغلها.

قال حمود العياف، وهو من أصدقاء شمران:

ـ غياب راكان ما هو لله، لا بد تكون وراه سالفة...

ضحك بحزن، ثم أضاف:

ـ ومَنْ طوّل الغيبات جا بالغنايم!

أما فهاد الشكبان الذي أرغمه راكان على بيع الأرض التي كانت له غرب الحاووز، فقد قال ضاحكاً، حين سمع بغيابه عن الاستعراض:

ـ الله العليم أنه موّكر ورا قاع أو بوجه حريمة، وباكر تسمعون: أرض فلان انباعت لبلدية موران، لأنهم يريدون يفتحون شارع، أو بنت فلان تركت رجلها وتزوجت ثاني، ولا بد يكون الثاني من رجال راكان!

زيدان، مع الأرغفة التي يضعها في يد المشتري، كان يهمس لمن يعرفهم:

ـ مثل الدجاجة، كل ما يلقاه يلقطه، فاحرص من راكان!

صالح النذير الذي تبهدلت أحواله، بعد أن ترك المقهى، وهام في موران من عمل لآخر، وقد دب إليه الضعف والهرم، وكان يرجع، أغلب الأيام، إلى سوق الحلال، ويسأل كل من يلقاه عن أخبار شمران، وقد تعرّض للتوقيف عدة مرات، منذ أن أصبح فنر سلطاناً، بتهمة التشرد، أو لعدم وجود كفيل. حين قابل صالح بعض الشبان الذين جاءوا إلى موران خلال إجازتهم الجامعية، وصدف لبعضهم أنه عرفه أو سمع عنه، وقد التقوه ذاهباً باتجاه السوق، ولما استوقفوه وسألوه عن أحواله، وأحوال موران، رد ساخراً:

ـ موران ما مثلها هذي الأيام: بالعلالي، نخر وزمر، غنا ورقص، وبينهم دق قهوة وشمة هيل. والشيوخ، طالت أعمارهم وكثّر الله أمثالهم، مربعين بموران: يستعرضون ويقسّمون سوالف، وطويل العمر يعلفهم حتى يحارب بهم.

وضحك بصخب، وبعد أن هدأ تطلع إلى السماء بحزن وبدأ يدندن:

ـ شكوت له ما أقاسي من الظما   فقال إلى صخر شكوت ولم تدر
فقلت له إن كان قلبك صخرة   فقد انبع الله الزلال من الصخر

لكن الظاهر أنه غافي، أو ما يسمع!

لما حاول معه الشباب أن يتكلم أكثر، قال وهو يمشي:

ـ ويجوز، يا جماعة الخير، أن ربنا عنده أشغال أهم من موران، فخله يخلّص أشغاله، وبعدها إذا جانا وسألنا، نقول له: مظلومين يا رب العالمين، وأنت ناسينا!

واتجه صالح إلى سوق الحلال القديم بخطى ثابتة قوية، وكأن وراءه عملاً لا يحتمل التأخير أو التأجيل. قال أحد الشبان:

ـ بين هذي المرة، وآخر مرة شفته، وكأنه كبر عشرين، ثلاثين سنة.

قال آخر:

ـ والشيخوخة ليست مرتبطة فقط بالسنوات، لأن الأمراض، والوراثة، وسوء التغذية، ونوع الحياة، والهم...

وكاد يضيف أسباباً أخرى، إلا أن شاباً ثانياً قاطعه:

ـ الله يساعد موران ويساعد أهلها، لأن واحداً من الأسباب التي ذكرتها تكفي وتزيد!

قال آخر:

ـ قال الله للإنسان: ساعد نفسك يا عبدي حتى أساعدك!

بعد أن انتهت الاحتفالات، ووزعت العطايا والنقود، غادر الشيوخ موران استعداداً للأيام الآتية، ولقد جرى للكثيرين وداع حافل عند وادي الرها، أو في بداية طريق العوالي، وكان كبار الأمراء في الوداع.

لم يبق لعيد الفطر سوى خمسة أيام. اليوم الجمعة، الجمعة الأخيرة من رمضان. الفصل أواخر الربيع، الحرارة معتدلة والهواء منعش، وكأن رضا الله، كيدٍ خيّرة، تبارك البشر والمخلوقات، الآباء يفكرون بكيفية تأمين المال لشراء مستلزمات العيد، الصغار يفكرون بالأحذية والملابس والهدايا، والنسوة يفكرن بالأعباء الكثيرة التي تنتظرهن.

في تلك الجمعة، منذ الصباح الباكر، وبعد صلاة الفجر مباشرة، وعلى غير العادة في أيام وليالي رمضان الأخرى، حيث كان الناس يطيلون السهر، ويتأخرون في الاستيقاظ، دب نشاط غير عادي في معظم البيوت. نهض الآباء مسرعين، وكان الأبناء بانتظارهم، وانطلقوا إلى السوق. كما انطلقت النسوة، في حملة صاخبة، إلى عمليات التنظيف، لأنها الجمعة الأخيرة، والوقت يمر سريعاً.

بدت موران بنظر الكثيرين، في ذلك الصباح الندي، يمامة فتيّة شبعت نوماً في ذلك الليل القصير، وتستعد، وهي تستقبل يوماً مليئاً بالطراوة، لحياة حافلة. أشجار النخيل تزهو بثمرها، والرمان أزهر وتورد. أما الريحان فقد ملأ أريجه باحات البيوت، وكانت تفتح هذه البيوت أبوابها لتقذف الآباء والأبناء، بحثاً عن الرزق، وتأمين حاجات العيد.

لأول مرة، منذ وقت طويل، يتقابل الرجال والصبية في هذا الوقت المبكر. وإذا كان الكبار قد حيوا بعضهم، وساروا معاً مسافة من الطريق، فإن الصغار اندمجوا بسرعة وواصلوا الأحاديث التي قطعوها في الليلة السابقة، حين نادى عليهم الكبار، لكي يعودوا، بعد أن تقدم الليل.

شكا الرجال للرجال ضيق الحال، وصعوبات الحياة، لكنها شكوى لم تصل إلى حد المرارة أو فقدان الأمل، وذكروا، عابرين، كيف كانت موران في الأيام الماضية، وتمنوا ألا تصل الأمور إلى حد الحرب والقتال. قالوا ذلك وهزوا رؤوسهم، أسفاً، ثم افترقوا. الباعة، على غير عادتهم، فتحوا محلاتهم، وعرضوا سلعهم، في وقت مبكر. فعلوا ذلك برضا وأمل، وقالوا لأنفسهم «في جمعة العيد، إذا كان الموسم طيباً، يبيع التاجر ما يبيعه في سنة» وبعد أن كنسوا ورشوا الماء، تطلعوا في هذا الاتجاه، وفي الاتجاه الآخر، وقالوا: يا رزاق يا كريم.

عمليات البيع والشراء تجري سريعة رضية، المساومات أقل من الأيام العادية، فالباعة لا يبالغون، والمشترون لا يترددون كثيراً. والأطفال، هم في الحقيقة الذين يحسمون، من خلال رغباتهم، وانكسارات العيون، ولحظات الصمت الضاجة، عمليات البيع والشراء.

خلال ساعات قليلة تم شراء معظم أو كل ما يراد شراؤه. وإذا بدا الاستغراب على الرجال أنهم أنجزوا خلال ذلك الوقت القصير ما يحتاج إنجازه إلى وقت أطول وإلى جهود مضاعفة، فقد عزوا ذلك إلى الرضا الذي ميّز سلوك البائعين، فبدوا أكثر طيبة، وأقل طمعاً، خلاف ما تعودوا عليه في شهور أخرى، خاصة شهور الصيف. وأحس الذين باعوا، والذين اشتروا، أن مجيء رمضان في ذلك الوقت من السنة رضا من الله، وتخفيفاً على البشر، وتمنى الكثيرون لو أن رمضان يأتي دائماً في مثل هذا الوقت. وتذكر بعضهم أيام الصوم الطويلة القاسية، وتراءى لهم أن رمضان لا يأتي إلا في الصيف، وربما جاء هذه السنة خلافاً للسنين السابقة.

الأطفال الذين اعتبروا أن السوق لم يعد يعني لهم شيئاً، واستعجلوا العودة إلى البيوت، لكي يفردوا الثياب والأحذية والهدايا، وليقولوا للأمهات والأخوات عن البراعة التي تميزوا بها في اختيار الأشياء التي حملوها، هذه الرغبة قابلتها أخرى، إذ سيطر على أكثر الآباء خشوع جعلهم لا يترددون في أن يصلوا الجمعة الأخيرة من رمضان في جامع السلطان فنر. ان موران كلها، في هذه الصلاة، ستكون هناك. ولا بد أن يقول العجرمي، أو من ينيبه، شيئاً هاماً وقوياً في خطبة الجمعة. إنها الجمعة الأخيرة، والناس الذين ركضوا وباعوا، وغيرهم الذين كذبوا أو غشّوا، وأولئك الذين انتظروا، كل هؤلاء سوف يكونون في مثل هذا اليوم، في مثل هذه الساعة، في حالة من التساؤل وعتاب النفس والمراجعة، ولا بد أن تتطهر قلوبهم وتصفو نفوسهم، ولا بد أن يصبحوا بشراً من نوع جديد.

لذلك، فإنه بمقدار رغبة الأبناء بعودة مبكرة، كان إصرار الآباء أن يعلموا أولادهم الامتثال لأوامرهم أولاً، وأن يهتدوا ويصبحوا صالحين، في وقت مبكر، بعد ذلك.

أودعت معظم المشتريات عند البائع الأخير: «إلى ما بعد الصلاة» هكذا قال كل أب لمن اشترى من عنده، وكان الأخير يستعد للصلاة أيضاً.

لا يتذكر أغلب الذين صلوا أي شيء قاله الإمام. صحيح أنه تحدث

عن الحياة والموت، عن الخير والشر، عن الأعمال الصالحة، وعن ضرورة أن يكون الناس أخوة، وأن يساعد بعضهم بعضاً. يتذكرون شيئاً من هذا أو ما يشابهه، ولا يتذكرون أكثر من ذلك، لأن ما حصل بعد الصلاة مسح من ذاكرة الكثيرين ما حصل قبلها، ولأنه ظل يرنّ ويتوهج فترة طويلة من الزمن.

ما كادت الصلاة تنتهي، وكان الزحام شديداً، وتخرج الأفواج الأولى من المصلين إلى باحة المسجد، ثم إلى بداية الساحة، حتى تراجعت الموجة الأولى. لم تتراجع، وإنما ثقلت خطى المتقدمين، فعرقلت الذين كانوا بعدهم، والتفتت عيون الذين خرجوا قبل غيرهم بتساؤل أقرب إلى الذعر، وكانت تقول أشياء كثيرة.

من خلال الهمسات والكلمات القصيرة المذعورة، ومن الصمت الذي امتد كثيفاً قوياً صاعقاً، عرف الذين خرجوا أن في الساحة سبعة رجال جاهزين لتنفيذ حكم الإعدام.

السبعة صغار الأجساد، صفر الوجوه، أقرب إلى المرض. كانت شعورهم، رغم قسوتها، تعبث بها ريح لا ترى، وكانت عيونهم مسكينة راجية. أما الخرق التي كانوا يلبسونها فقد تمزقت في مواضع كثيرة، فكشفت عن أجسادهم، أو كشفت أجسادهم، فظهرت ضامرة ضعيفة، وكأنها لم تكتس لحماً، وكانت أقرب إلى الزرقة.

الصغار الذين بدوا، للحظات، وقد كبروا سنين، حين انفصلوا عن آبائهم، أو ابتعدوا قليلاً، ما لبثوا من خلال الصمت والوجوم، أن عادوا، مثل الفراخ الملاحقة، إلى أيدي الآباء، أو إلى ثيابهم يتمسكون بها. لقد أحسوا، قبل أن يعرفوا، أن شيئاً خطيراً يجري خارج الباحة، في الساحة الكبيرة التي مروا بها ثلاث أو أربع مرات خلال النهار، وهم يجمعون الحاجات من هنا وهناك.

ومثلما تسري النار في بيادر الأعداء، سرت أخبار هؤلاء السبعة: انهم الذين ألقوا القنابل في السوق العتيق، وعند أسوار وزارة الدفاع. صحيح أن القنابل انفجرت، لكنها لم تقتل أحداً، لأن من وضعها قصد ذلك، فعند

الصباح الباكر، وفي مثل هذه الأيام، لا يكون أحد في السوق، أو عند سور الوزارة.

قال الرجال: «ما دام لم يُقتل أحد، لماذا يقتل هؤلاء؟» وقالوا: «ما انفجر قنبلتان، والقنبلتان تحتاج إلى رجلين، والذين سيعدمون هنا سبعة، فمن أين أتى المجرمون الخمسة الآخرون؟» وقالوا: «راكان فجّر القنابل وفنر يريد أن ينتقم من أهل الدواحس» وأشياء أخرى قالها الرجال لأنفسهم، أو قالوها همساً، ولأن الصمت كان شديداً مسيطراً، فإن الأفكار ضاعت في هذا الصمت!

لما بدا للرجال أن كل شيء مدبرٍ، وقد تأكدوا من هيئاتهم ونظراتهم، فقد امتلأوا غيظاً، ثم أصبح الغيظ حقداً، إلى أن تحول إلى غضب.

قال أب لابنه، وهو يرفعه لكي يرى:

ـ ناظر زين يا وليدي. تشوف؟

والطفل لا يعرف كيف يجيب، أو إلى أي شيء ينظر. فيدير الأب وجه ابنه بيد، ويهزه بالأخرى:

ـ هنا... هنا، يا وليدي.

وحين يتأكد أن الطفل ينظر إلى حيث يشير، يتابع:

ـ هذول المساكين، لا صوج ولا ذنب، بس لأنهم فقارا، وما لهم أحد يحميهم ويدافع عنهم.

ولأن الطفل لا يفهم ما يجري، ولأن الأب يريد أن يقول، يصرخ:

ـ أي نعم، هذول المقرّمين، وناظرهم زين، راح يذبحونهم هالحين...

ويضحك الطفل، وهو ينظر إلى أبيه من فوق، وينظر إلى الذين حوله. يخاف من الصمت، يخاف من نظرات الرجال، يهز كتفيه بحيرة. يقول أبوه:

ـ راح يذبحونهم، لا صوج ولا ذنب، بس لأنه ما لهم أحد.

وتتغير نبرة الأب وهو يضيف:

ـ وكل واحد، يا وليدي، مسكين ضعيف، وما يقدر يدافع عن روحه راحت روحه، يصير به ما يصير بهذول.

وبعد قليل:

ـ تشوفهم زين؟ ناظرهم، يا وليدي، حتى ما تنساهم.

ويهوي سيف الجلاد على الرؤوس واحداً بعد آخر. تتساقط الرؤوس وترتفع نافورة الدماء. يرتفع صراخ الأطفال، يشتد لبطهم وضجيجهم وخوفهم وفرحهم. ولا يعرف الآباء هل كان هذا الدرس ضرورياً وهل يحتمله الأطفال ويفهمونه، أم أنه سيرهقهم ويكون أكثر مما تحتمل رؤوسهم الصغيرة؟

إن شيئاً أقرب إلى الانتقام من النفس، إلى العذاب وإلى الجنون، ما كان يحصل في تلك الجمعة من رمضان. الجمعة الأخيرة من رمضان. بعد الصلاة، في ساحة مسجد السلطان فنر.

قال واحد كان يشق طريقه بصعوبة، لكي يترك الساحة:

ـ كفار وما عندهم شهامة اللي يسوون مثل هذي السواية بهذا اليوم الفضيل.

ودفعه بكتفيه أكثر من قبل وهو يصرخ:

ـ ويا حسنته اللي يلاقي وجه ربه بمثل هذا اليوم.

قال واحد من الرجال:

ـ لو كانوا من أهل موران لكان هذا ما صار.

رد آخر:

ـ وكلّ الله، يجي دوردهم، أهل موران.

ـ تخسا!

قال آخر:

ـ يا أولاد الحلال: النفس نفسٍ، من أهل موران، أو من أهل الزقان، فخافوا الله، وقولوا الله يرحمهم.

وخرجت همهمة: الله يرحمهم... ويرحمنا.

ولا يعرف الرجال كيف عرفوا الدكاكين التي أودعوا فيها حاجاتهم، وكيف حملوها عائدين إلى البيوت. ولا يعرف الأطفال هل يفرحون أم يبكون، هل يلبسون الأحذية الجديدة، أم يروون الأحداث التي رأوها. إن الأشياء، اختلطت إلى درجة لا يمكن فصلها، أو وضع مسافات، ولو وهمية، بين العقال ورأس القتيل، بين الحذاء الجديد والدماء الحمراء التي ما تكاد تستقر في الرمال حتى تتغير ألوانها. ولا يعرف الطفل هل فرح بالحذاء والثوب، أم أنه متعب ويريد أن ينام.

النساء اللواتي تعبن في هذا اليوم كما لم يتعبن السنة كلها، قلن إن التعب بسبب حزن الرجال، وذلك الهم الذي فجأ البيوت على غير توقع، واحتل كل زاوية. وقلن، بعد أن مرت فترة غير قصيرة، ان الرجال، حين عادوا قبل العصر بقليل، أكلوا، أو على الأقل شربوا ماء، لأنهم وصلوا في حالة لا يستطيعون معها الاتزان أو القدرة على التصرف.

أما الرجال الذين شهدوا في جامع السلطان فنر ما حصل، فإن الأمور تختلط بالنسبة لهم، إلى درجة لا يتذكرون كيف حصلت الأمور، وأي أمر سبق الآخر أو أعقبه، أما حول إفطارهم، أو أنهم أكلوا أو شربوا قبل غياب الشمس، فإن أغلبهم لا يتذكر. والذين تذكروا قالوا كلمات لا يجرؤ غيرهم على أن يرددها.

أحد الشبان، الذين التقى صالح الرشدان، واستغرب ما قاله، وكان يحضرّ لرسالة الدكتوراه حول «أثر النفط في التنمية، النموذج: السلطنة الهديبية» وقد صلّى الجمعة الأخيرة في مسجد السلطان فنر، وشهد تنفيذ حكم الإعدام، طوى الرسالة التي كان يحضرها، وأحرق جميع الأوراق والملاحظات، ولم يعد مرة أخرى إلى الولايات المتحدة. وقد كتب إلى أحد أصدقائه هناك رسالة سريعة وقصيرة:

«... ويجب أن لا تستغرب إذا لم أكتب إليك بعد الآن، لأن المشهد الذي صدّع به آذاننا المستر كرستوفر، حول بعض مشاهد القسوة، في إسبانيا، أثناء محاكم التفتيش، لا تقاس ولا يعتد بها أزاء ما شهدته في تلك الجمعة. لقد شهدت، بعيني، إعدام سبعة رجال، ربما ذنبهم الوحيد أنهم

مواطنون لدولة «معادية» أني أضع معادية بين أقواس، لكي أقول لك كيف كانت العلاقات بين دولتنا والدواحس. لا أريد، وقد لا أستطيع، أن أذكر كل شيء، لكن، منذ ذلك اليوم، وبعد ذلك المشهد، أحس، كإنسان، أنني مدعو للتفكير بكل شيء من جديد. ومطلوب مني، أدبياً، أن أعرف: لماذا أتعلم، ومن أخدم، وماذا يجب أن أعمل. أنها الأسئلة الأولى، البسيطة، والتي تجعل لحياة الإنسان معنى وقيمة، وإلا فلا جدوى، ومن العبث أن نقنع أنفسنا، وبطريقة أكاديمية، أن لدراساتنا، ولرسالاتنا، معنى كبيراً وخطيراً. إذا تسنى لنا أن نلتقي، وخلال فترة معقولة، فسوف نتحدث، وإذا مضت فترة طويلة، ولم تتح لنا هذه الفرصة، فقد لا أكون موجوداً، أو قد لا تجدني، وربما أيضاً أحس بعدم جدوى الحديث معك.
لا أريد أن أهدد، أو أن أضعك في خيار صعب، لكن يجب أن تعرف: أنني في الخيار الصعب، ولم أعد قادراً على التحمل بعد أن رأيت تلك المشاهد في ساحة جامع السلطان فنر، في تلك الجمعة الأخيرة من رمضان، ولا حاجة لأن أكتب التاريخ فأنت تعرفه!»

في تلك الجمعة، الأخيرة من رمضان، لم تبق بلدة في السلطنة كلها، إلا وشهدت، بعد صلاة الظهر، رؤوساً تتطاير. كان عدد الرؤوس يتناسب مع أهمية البلدة، ومدى ولائها، والرسالة المطلوب أن تصلها.

وفي قرى الحدود الخمس، المتاخمة، حين لم يعثر على أحد من الدواحس لكي يعدم، لأن الذين كانوا فيها غادروها منذ شهور، قاطعين الحدود إلى الجهة الثانية، أو توغلوا بعيداً في داخل السلطنة، فقد بعثوا إليها بعدد من هؤلاء، التقطوهم من أماكن متعددة، كما تلتقط الأرانب، وبعثوا بهم إلى هناك.

أما في الطريفة فقد جرى الموضوع بشكل مختلف. إذ بعد أن عجز أميرها في العثور على أشخاص مناسبين من أهل الدواحس، بعث إلى موران ببرقية يقول فيها: «بعد التقصي والتحري الشديدين، لم تتوفر الصفات المطلوبة بالمقيمين، ولذلك أجّلنا العمل ببرقيتكم المؤرخة في الثالث والعشرين من رمضان، إلى حين تلقي توجيهات جديدة».

ولم تتأخر موران: «يمكن الاستعاضة بثلاثة آخرين، عوضاً عن الموصوفين، موضوع برقيتنا في الثالث والعشرين من رمضان، وتؤخذ البدائل اللازمة من سجن العوالي المركزي، حسب استنسابكم، للتنفيذ، واعلامنا».

خميس البطي الذي لم يبق من محكوميته سوى أسبوع واحد، ولأن سجنه جرى في ظروف خاصة، فإن حي الدولعي بدأ استعداده في وقت مبكر لكي يستقبل ابنه البار بما يليق بسجين مظلوم، عجز الجميع عن حمايته.

أعيد تبييض البيت، وبنيت غرفة جديدة إلى يمين المدخل، مكان شجرة التوت التي يبست خلال السنة الأولى من سجن خميس، وقد أصرّ أخوه جمعة أن تبقى مكانها، يابسة، متوحدة، تعبيراً عن الاحتجاج، أو تكريماً لذكرى الغائب، لأن الشرطة حين جاءوا للقبض على خميس، كان يجلس تحت تلك الشجرة. أما بعد أن تقرر إطلاق سراحه، وفي حمى الاستعداد لاستقباله وتكريمه، فقد اقترحت زوجته قلع الشجرة، وبناء الغرفة الجديدة مكانها. وهذا ما حصل.

اشتريت ثلاثة خراف، وتقرر أن تذبح في ثلاثة أيام العيد، ورغم الحاح الكثيرين من أهل حي الدولعي على دعوة خميس، خلال الفترة الأولى، أو على التحديد بعد اليوم الأول من الإفراج عنه، إلا أن العائلة أصرّت على رفض الدعوات جميعها خلال تلك الأيام، وبالمقابل وجهت الدعوة مبكراً لرجال حي الدولعي في اليوم الأول، ولرجال حي القلعة في اليوم الثاني، ولرجال المشابك في اليوم الأخير من أيام العيد.

أما استعدادات العائلة، الزوجة والأولاد والأقرباء، فكانت لا تهدأ ولا تتوقف، سواء في تأثيث الغرفة الجديدة، أو شراء الملابس التي تليق بهذه المناسبة، أو لتأمين بعض المواد من العطور والبهارات والريحان. ان المناسبة كبيرة وهامة إلى درجة تبرر مثل هذه الاستعدادات. فذكرى سجن خميس، وما رافقها من ملابسات، خاصة في تلك الأيام الأخيرة من حكم ابن ماضي، تثير ذكريات وتعيد ماضياً كاد يندثر.

حتى خميس ذاته، والذي يعتبر أقدم سجين في الطريفة، بعد موت الأخوة الثلاثة من آل دحيمان، وقد قبض على واحد منهم يحمل رسالة من ابن ماضي إلى قبيلة العتوم، ثم قبض على الأخوين الآخرين تأديباً، وبعد أن قضوا فترة في السجن، بدأوا يتساقطون واحداً بعد الآخر، وقد حصل ذلك خلال أقل من شهر!

فسر الأمر، وقتها، أنهم سُمّموا، وقيل ان موت الأخ الأول كان طبيعياً، أما الآخران فقد ماتا حزناً! بعد موت هؤلاء الأخوة، أصبح خميس السجين الأقدام في سجن الطريفة المركزي. ولذلك نشأت له علاقات

وثيقة بالحرس والسجناء ومسؤولي التموين. ويؤكد الكثيرون أن حالة من الكآبة بدأت تخيم على السجن وتزداد كلما اقترب موعد إطلاق سراحه. حتى أن خميس ذاته بدأ يشارك السجناء هذه المشاعر، وقد لاحظ عليه ذلك أخوه مفرّج أثناء الزيارة الأخيرة.

في تلك الجمعة، الأخيرة في رمضان، وخلال زيارة سريعة لمدير السجن، وبإشارة من أصبعه، دون كلمات، كان خميس البطي واحداً من الثلاثة الذين اقتيدوا قبل ساعات قليلة من صلاة الجمعة، إلى النظارة الخارجية، أو كما يطلق عليها السجناء: غرفة المفروجين.

قيل ان عدداً كبيراً من السجناء لم يتمالكوا أنفسهم، فبكوا وهم يودعونه. كان بكاؤهم بين الفرح والحزن، الفرج للإفراج عنه قبل أيام من الموعد المقرر سابقاً، والحزن لأنهم يفارقونه.

وقيل ان اثنين من الحرس، وهما يساعدانه في نقل حاجاته القليلة، انخرطا في موجة حادة من البكاء. ورغم أنه أكّد لهما، وقال بصوت عالٍ أمام عدد كبر من السجناء، أنه لن يفوّت زيارة، ما دام حياً، وما دام يعرف أحداً في السجن، فقد طلب منهما، وبإلحاح، أن يأخذا إجازة خلال أيام العيد الثلاثة، لأنهما سيكونان ضيوفه «نيابة عن السجن، وبدلاً عن المحابيس» كما قال، إلا أنهما لم يتوقفا عن البكاء، ولم يستطع أن يفسر موقفهما.

كان يوماً غير عادي لكل واحد من أهل الطريفة، خاصة السجناء والسجانين، فمشاعر الندم وقسوة الفراق، وقوة العادة، وألفة الوجوه والأنفاس ونظرات العيون، وتلك المواعيد التي خلقت قوانين صارمة، وعشرات الأشياء الصغيرة، كلها تراكمت وكوّنت تلك الحالة التي لا شفاء منها.

مفرّج وأبناء خميس الثلاثة، لأول مرة، منذ سنوات طويل، يقررون عدم زيارته في تلك الجمعة، «لأن الفرق بين الجمعة والاثنين، ثلاثة أو أربعة أيام، وهو وصيّ وقال: تجون الاثنين ونطلع جميع». هكذا قال مفرج في تبرير عدم زيارته، تلك الجمعة.

وعجيل، مالك السجن، كما كان يطلق عليه، لأن مفاتيحه معه، كان يمكن أن يفتح للمدير الجهة اليمنى، ليدخل، وربما انتقى من هناك، لكنه لا يعرف لماذا فتح له الجهة اليسرى، وكان خميس في الغرفة الثانية على يمين الداخل. لن يغفر عجيل، لنفسه، كما لن يغفر له أحد أنه فتح تلك الجهة، وكان أن وقع الخيار على خميس.

والحساني، مسؤول التموين، خطأه بيّن واضح لا جدال فيه، لأنه أحد المتسببين في النتيجة النهائية، فقد أثار المدير أثناء الحساب، مما دفع الأمور أن تأخذ هذا الشكل العصبي الحاد.

والجراوي يعتبر نفسه مسؤولاً أيضاً، لأنه تبرع أن يقوم باستلام الأرزاق، بدل خميس، ولذلك خرج قبل عشر دقائق من دخول المدير إلى الجناح الغربي، ولو قدّر للأمور أن تسير بطبيعتها، لكان خميس في الباحة يتعارك مع رجال الحساني حول مواد الإعاشة!

وجدوع الأفطس تسبب، منذ اللحظة الأولى، في خلق إشكال لم يتعمده أبداً، فقد سأله المدير عن أسوأ ثلاثة سجناء، فقال له: «كلهم مثل بعضهم». ولا يعرف كيف فهم المدير هذا الجواب، وبالتالي أخذت الأمور هذا الشكل.

حتى غبيشان كان يمكن أن ينقذ خميس لولا إصراره على تأجيل إجازاته طوال شهر رمضان، لتتجمع ويستفيد منها، مع إجازة العيد، في زيارة لأمه في المشرفة. لو كان غبيشان مجازاً ذلك اليوم لما أمكن كسر قيود خميس، أما وهو يكسرها بذلك الحماس، فكان يريد أن يقتل خميس بدل أن يحرره قبل أسبوع من الموعد.

وعشرات التفاصيل الصغيرة الأخرى تجمعت بمصادفات عمياء في تلك الجمعة لتنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه.

كان خميس البطي واحداً من الثلاثة الذين اقتيدوا، تلك الجمعة، الأخيرة من رمضان، إلى ساحة الجامع الكبير، في الطريفة، لتقطع رؤوسهم، استناداً للبرقية التي وردت من موران.

أما ما حصل بعد ذلك: كيف انتقل خبر مقتل خميس إلى أهله،

والسجناء والحرس، إلى سكان حي الدولعي، وسكان حي القلعة أو مشابك، فإن الأمهات سيقضين العمر كله يحدثن أولادهن، ثم أحفادهن، عن ذلك اليوم، وعن الرجال الذين قتلوا ظلماً وعدواناً. أما الكتابات البدائية التي حفرت بالمسامير على جدران كل زنزانة في السجن المركزي في الطريفة، فسوف يأتي سجناء أكثر مهارة في الكتابة والخط لينقشوا على البوابات وفي القلوب قصة مقتل خميس ورفيقيه، في ذلك اليوم، من رمضان.

لما بلغ الخبر عمر زيدان لم يصدق، ظن أنهم يحرضونه، يريدونه أن يشتم، وحين أكدوا له بإيمان غليظة، صمت فترة طويلة، وفجأة خرج صوته بمقام لم يتوقع الكثيرون أنه يتقنه هكذا، غنى يقول:

تحكموا فاستطالوا في حكومتهم وعن قليل كان الحكم لم يكن
لو أنصفوا... لكن بغوا فبغى عليهم الدهر بالآفات والمحن
وأصبحوا ولسان الحال ينشدهم هذا بذاك ولا عتب على الزمن

أما رضا الجاوي فقد أنشد بصوت تخنقه العبرة:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

... وذكر من كان موجوداً أن عمر زيدان ومحبيه، منذ أن سمعوا الخبر، وحتى الفجر، لم يهدأوا ولم يتوقفوا عن الشراب والغناء والبكاء. وذكر أيضاً أنهم نزلوا إلى البحر حين نزل القمر، وطلبوا من الذين على الشاطئ، أو من كانت بيوتهم قريبة، أن يساعدوهم في انتشال القمر قبل أن يغرق وينتهي تماماً! وقال غير هؤلاء أن رضا الجاوي ظل يدور في الطريفة ثلاثة أيام متوالية ليجمع التواقيع والأختام على عريضة بلغ طولها عشرين متراً. لم يكن في العريضة مكتوب أي شيء، وحين يسأل، كان يجيب أنها مكتوبة بدموع العيون، وموجهة إلى سلطان المسلمين وبقية البشر، إلى الله، عن طريق باشا إستانبول، لعله يفعل شيئاً قبل أن تقوم القيامة. كان الناس يوقّعون، أو يمدون أختامهم أو إبهامات الأيدي اليسرى، ويسجلون موافقتهم بحماس وقناعة!

وفي الليلة ذاتها، بعد صلاة التراويح، ولأن السلطان تعوّد دعوة الكثيرين في الجمعة الأخيرة من رمضان للإفطار، فإن ابن شاهين الذي أم المصلين في صلاتي المغرب والعشاء، اختصر الكثير مما كان ينوي أن يقوله، بناء لطلب من نصار، لأن «ورا طويل العمر أشغال واجد». أما حين التأم مجلس الحل والربط، وبعد أن استفسر السلطان من راكان عن تنفيذ المهمات، قال، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ اليوم من أكبر أيامنا، ويلزم تذكرونه زين، ويلزم تعلّمونه لأولادكم..

وخيم صمت قاسٍ، لم يجرؤ أحد على أن يتكلم، لأن رائحة الدم كانت ثقيلة، وتملأ الجو. حتى النظرات التي تبادلها الأخوة كانت سريعة، مترددة، ثم انسحبت لتتركز على السلطان. ولأن العيون كانت كأفواه البنادق، كدوامات المياه، فإن الاضطراب استبد بفنر وأحرجه، فتحرك أكثر من مرة، وبعد فترة قال:

ـ ... وأنا اللي أمرت وقلت لراكان: اعدموا عشرين، ثلاثين، تصير السلطنة مثل الساعة، لا تقدّم ولا تؤخّر. ويصير الناس مثل المحبس في اليد. تقول لهم: موتوا، يموتون؛ وتقول لهم سووا فلان شي يسوون.

تنحنح وتنفس بعمق، ثم أضاف:

ـ أما إذا كان بيتنا داشر، وحيطنا واطي، فكل واحد يطمع بينا.

وتغير صوته:

ـ ومثل ما شافت عيونكم: رضينا الناس، قلنا لهم أنتم النشامى والأجاويد، واللي تريدونه يصير، فلتت. وما هو بس كذا، صاروا يقولون يصير وما يصير، ونوافق وما نوافق. وصار الغُرب يحركونهم ويقولون لهم ثوْروا وحنا معكم، وما يخفاكم، اللي صار بالدواحس...

تطلع سند إلى راكان، ووجه إليه السؤال:

ـ وهذول، يا أبو منصور، اللي انذبحوا اليوم، كان ضروري ينذبحون كلهم؟

ـ هذول مجرمين وجواسيس، يا سند.

ـ كلهم؟

ـ أي نعم. . .

ارتبك للحظة راكان. أما السلطان الذي لم ترقه هذه الأسئلة، وخشي أن تأخذ المناقشة اتجاهاً خطراً، فقد تدخل بحدة:

ـ ما نريد هالحين ندخل بإيراد ومصرف، ونفصّل جريمة كل واحد، ونقول حلال وحرام، ويجوز وما يجوز، لأن هذي سالفة ما لها تالي، وما يخفي عليكم الأخطار اللي تهددنا، وروسنا صارت مطلوبة، والناس طمعوا بنا، فإذا تركناها على غاربها ترانا ضعنا وراحت علينا.

التفت سند نحو السلطان وسأله برخاوة:

ـ أنا، طال عمرك، سألت أبو منصور إذا كان اللي انذبحوا اليوم يستاهلون الذبح أم لا، فقال مجرمين وجواسيس، وهالحين أريد أسألك، طال عمرك: هذول حاكمتوهم على أساس الدين والشرع؟ عليهم أدلة؟ اعترفوا؟

تحرك السلطان. جلس على حافة الكرسي، تطلع في الوجوه، وقال بحزم:

ـ ما أظنك، يا سند، إذا شفت الذيب غاير على غنمك، تسأله: شنهو نيتك أو شنهو اللي تريده.

ارتاح لهذه البداية، تراجع قليلاً، وأضاف:

ـ حنا الذيب غاير علينا، ويلزم ندافع عن أرواحنا. . .

تنفس بعمق وأضاف:

ـ وهذول اللي اعدمناهم اليوم، يا سند، ذياب غايرين علينا، فما يلزم أن نتركهم يُغيرون ويهبشون، وبعدما يخلصون نسألهم: ها. . . يا جماعة الخير: شنهو قصدكم؟

ـ قال سند برخاوة:

ـ لكن، طال عمرك، كل إنسان، وذنبه، والواحد ما ينسأل عن ذنوب غيره.

قال مساعد بحدة:

ـ هذول يا سند، طالبين روسنا، وإذا ما ذبحناهم ذبحونا.

ـ يا مساعد، يا أخوي، اتركنا من هذي السوالف، ذبحونا وذبحناهم، أنا أسأل: هذول الجماعة اللي انذبحوا اليوم، اتحاكموا بالشرع؟

قال السلطان بغضب:

ـ إذا المسألة، يا سند، اتحاكموا أو ما تحاكموا، ما هي خلاف بينا، يتحاكمون.

سأل سند بسخرية:

ـ ومتى طال عمرك؟

ـ إذا ما هو باكر اللي عقبه!

ـ على خيرة الله!

عمير الذي قاطع مسجد السلطان فنر، لم يسمع بخبر الإعدام إلا وهو عائد إلى البيت، كان في مسجد الشيخ جنيد، صلى هناك، وتحدث مع الناس، وقال بصوت عالٍ، وأمام الكثيرين، إن الفرج قريب. كان يعني شيئاً محدداً، وقد فهم كل من سمع. أما حين أبلغ بإعدام السبعة، وعرف أنهم من الدواحس، فقد صرخ بصوت عالٍ:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. ولا إله إلا الله.

وبعد أن استوعب الأمر، قال، وهو يجلس على عتبة إحدى الدكاكين في السوق العتيق:

ـ «يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ».

ونقل من كان موجوداً أن عمير صمت، ثم أخذت دموعه تنحدر بغزارة على لحيته البيضاء، وبعد فترة أشار لابنه أن يساعده على النهوض، وأن يعود به إلى البيت سريعاً، لأنه يحس بالتعب والاختناق.

ولم تتأخر الحرب لكي تقع بين الطرفين. ليس المهم من بدأها، أو كيف بدأت، فبعد شهور من التحريض والتعبئة والاستعداد، أصبح وقوعها محتوماً، وهكذا وقعت.

وحين تبدأ الحرب يتغير كل شيء: نظرة الناس وتصرفاتهم، بل وتتغير أشكالهم أيضاً. فيونس شاهين بذلك الصوت الخفيض، الأقرب إلى الخجل، بدا إنساناً آخر حين قدّم السلطان في الإذاعة ليعلن للشعب عن العدوان الذي تعرضت له السلطنة. أما حين ظهرت صورته، برفقة السلطان، وكان جلالته يتفقد بعض المناطق الحدودية، فقد أنكره أغلب الذين يعرفونه. فالوجه الذي كان أقرب إلى المثلث، الحاد، وربما زادته حدة اللحية المشذبة التي تبدأ عند نقطة التقاطع مباشرة، تغير ذلك الوجه لما اكتسى من جانبيه بلحية اضافية، فرضها طول الزيارة ومرافقة السلطان!

أما الكلام الهادئ، الدبلوماسي، الذي كان يغلب على كتاباته، وكان يفاخر بذلك، فقد أصبح في المرحلة الجديدة نمطاً آخر. صحيح أنه لم يتوقف خلال الفترة السابقة كلها عن الإشادة بعبقرية البدو وشجاعتهم، إلا أنه الآن يتكلم رصاصاً، وتتفجر ألفاظه في كل مقطع، ويكاد من يقرأها يحس بذلك اللهيب الذي يندلع من كل الكلمات فيفجرها، خاصة وقد أصبح لديه في المرحلة الجديدة «جيش» من الاختصاصيين في أنساب العشائر وأشعار البادية، ونشر مجموعة من المقالات والدراسات، جمعها في وقت لاحق في كتاب، وكلها تؤكد أنه لا يمكن كسب حرب، أية حرب، إلا إذا كان البدو مادتها الأساسية. وأشار في معرض إسناد هذه «النظرية» إن سكان الأرياف والجبال، في البلدان الأخرى، هم بدو تلك البلاد!

واشعار البادية التي كانت تحتل حيزاً محدوداً في إذاعة موران، أصبحت، بعد اندلاع الحرب، المادة الوحيدة، تقريباً، بعد القرآن، والأحاديث الدينية، وبعد نشرات الأخبار، في الإذاعة. وظهر خلال هذه الفترة عدد هائل من «القوالين»، ولا يعرف إن كانوا شعراء، أو حفظة للشعر. فجأة امتلأت موران بأعداد تزيد كل يوم من هؤلاء، وهم بالإضافة إلى الأموال الوفيرة التي يملكونها، كانوا يزهون بالملابس الجديدة، وبتلك الأرهاط من المرافقين والمحبين والحرس. كانوا موجودين في كل مكان: الفنادق، المطاعم، الشوارع. وإذا كانوا قد أثاروا فضول الكثيرين في الأيام الأولى للحرب، وصدف أن استوقفوا في الطرقات والميادين، وطلب منهم أن يعيدوا ما قالوه في الأيام السابقة، وقد استجابوا بزهو، وتحلق حولهم المتبطلون والصبية، فقد ملّتهم موران بسرعة، خاصة بعد أن قارنت بين ما يقولون وما يفعلون. وفي وقت لاحق وقعت عدة منازعات دامية بين هؤلاء، إذ قيل انهم اختلفوا على ما يتقاضاه كل واحد من أجور، وكانت المقياس الوحيد الذي يحدد الأهمية والمنزلة، فبدأت الملاسنات والهجاء، ويوماً بعد آخر أصبحت موران تتندر بالشتائم وتحورها لكي تنطبق على آخرين أيضاً.

وموران المدينة تغيرت أيضاً. فالمواد التي لا تظهر في الأسواق إلا في شهر رمضان من كل سنة، أصبحت متوفرة على مدار العام. وقد قامت الحكومة، بالإضافة إلى تشجيع التجار على استيرادها، باستيراد كميات كبيرة مباشرة، ووزعتها بكثير من السخاء، على ثلاثة من المتعهدين: ابن العليان وسعيد الأسطة ورضائي.

لقد فعلت الحكومة ذلك بعد الضجة الكبيرة التي أثارها ابن العليان بشكل خاص، اثر توقيع عقد مدينة السلطان فنر. فخلال الاجتماع الذي عقده السلطان لغرفة تجارة موران، وبعد أن سمع من الكثيرين شكوى، وصلت إلى حد المرارة، أن الأجانب أكلوا الأخضر واليابس، ولم يتركوا لتجار موران شيئاً، وكانوا يعنون غزوان، وعقد المدينة الجديدة، فقد ضحك السلطان إلى درجة القهقهة، وقال بصوت قوي حاسم:

ـ من اليوم ما أحد يعلى على تجار موران. . .

وتنفس بعمق وهو يضيف:

ـ بس يلزم أن يتحرك تجار موران، أن يكونوا نشيطين، لأن الرزق، إذا الواحد ما دوّر عليه، ما يجي وحده.

وفي نهاية هذا الاجتماع أبلغ السلطان أعضاء غرفة التجارة أمرين تركا في نفوسهم فرحاً لا يوصف. الخبر الأول: إيقاف العمل بعقد المدينة الجديدة، لأن هناك أموراً أكثر أهمية في الوقت الحاضر؛ والخبر الثاني تكوين: لجنة مشتركة من غرفة التجارة ووزارة المالية، لتسهيل عمليات الاستيراد والتوزيع. وقال، وهو ينهض، إيذاناً بانتهاء اللقاء:

ـ ومن هذي الساعة، ممثل الحكومة الرويشدي، وهذا هو، يسمعني، تلتقون وتتفقون عن كل شيء، وإن شاء الله ما يصير إلا كل خير.

أما مسألة إيقاف عقد المدينة الجديدة، فليست بالدقة التي عرضها السلطان، كما لم تكن وليدة اللحظة، أو أثناء اللقاء بأعضاء غرفة التجارة. فقبل ذلك بشهرين أو بثلاثة شهور، جرت مفاوضات طويلة وشاقة، ليس من أجل إلغاء العقد، وإنما من أجل تمديد فترة التنفيذ، وبالتالي الإبطاء في وتيرة العمل، فبدلاً من السنوات الخمس المحددة سابقاً، ثم الاتفاق على عشرٍ، وقد دفعت الحكومة مبالغ كبيرة تعويضاً، وأبدت استعدادها، بكتاب وقعه الوزراء الثلاثة: المالية والدفاع والداخلية، أن تتحمل الكلف الإضافية نتيجة ارتفاع الأسعار.

المفاوضات التي جرت من أجل الوصول إلى هذه النتيجة، رافقتها مفاوضات أيضاً بين الطرفين، من أجل توريد كميات كبيرة من الأسلحة، لمواجهة المرحلة الجديدة. لقد جرت المرحلة الأولى من هذه المفاوضات في موران، ثم استكملت في الولايات المتحدة وبريطانيا، حيث سافر الأميران راكان ومساعد عدة مرات إلى هناك لإتمام الصفقات.

روبرت يونغ أبدى تصلباً واضحاً، معترضاً على التعديلات المقترحة، وقد أشار، في تبرير موقفه، أنها فرصته الأخيرة، ليس من أجل جني الأرباح، وإنما للتعبير عن نفسه، كما قال، من خلال إنشاء هذه المدينة،

خاصة وأن عدداً من الأخطاء تم اكتشافه بعد تشييد حران، الأمر الذي يريد أن يتلافاه في المدينة الجديدة!

في إحدى مراحل المفاوضات، أشار، بحزن، إلى أنه أصبح متقدماً في العمر، ولا يضمن بالتالي أن يشهد قيام هذه المدينة، إذا وافق على تمديد الفترة من خمس إلى عشر سنوات. قال في نهاية أحد الاجتماعات:

ـ صحيح إنني قرأت في أحد كتب الشرق، أن صبياً مر على شيخ يزرع زيتوناً، وحين أبدى الصبي استغرابه، لأن الشيخ لن يمتد به العمر حتى يأكل من ثمر تلك الشجرة، فقد رد عليه الشيخ: لقد زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون. أن هذه المقولة إذا انطبقت على الزراعة، وعلى فترات ماضية، فإنها غير جائزة في الصناعة، وفي العصر الذي نعيش فيه.

حين خيم صمت ثقيل، وقد تأثر الجميع بالقصة، أضاف روبرت يونغ:

ـ إن أجمل لحظات الإنسان أن يرى نتائج عمله في عيون الآخرين، وأن يسمع كلمات التقدير، هذه هي المكافأة التي قضيت عمري أبحث عنها، وأريد الوصول إليها، وها إنكم، أيها السادة، تحرمونني منها!

في وقت لاحق، حين جرى بحث حاجات السلطنة من السلاح، وحين جرى تحديد الكميات المطلوبة، أصبح المستر يونغ أقل تشدداً. صحيح أنه ذكّر «برغبة العمر» كما أصبح يعبر عن بناء المدينة، لكنه كان حريصاً على معرفة حجم المعدات العسكرية، والمبالغ المخصصة لهذه الغاية، وكيفية التسديد، وقد لجأ مرات عديدة إلى الآلة الحاسبة، واستغرق فيها، لكي يقارن بين أمور عديدة!

وإذا كان روبرت يونغ بطل المدينة الجديدة، فإن ليفي شاوات كان النجم الفعلي لمفاوضات السلاح. كان يقودها بكثير من المهارة، وقد أشار، بشكل خاص، إلى الصعوبات، بل والمخاطر، التي تحيط بهذا النوع من الصفقات، الأمر الذي دفعه لأن يحرص على وجود وزير الداخلية في معظم الاجتماعات «لأن أي خطأ، أو أي تسرب للمعلومات، ثمنه حياة الإنسان، وليس مجرد خسارة بضع آلاف من الدولارات».

لقد أحس ليفي شاوات، منذ وقت مبكر، أن وجود أليانور، في أي لقاء يكون فيه راكان يغير الكثير من المسارات والنتائج. أن شيئاً ما، لا يعرف ما هو، يحصل رغم الارتباك، وبعض الأحيان الحرج. ولأن راكان هو الذي يقرر، ورأيه أساسي، إذن لا بد من وجوده، ولا بد من وجود إليانور.

وأليانور، حين تكون في الولايات المتحدة، وحتى في بريطانيا، غيرها حين تكون في موران. يتذكر أنها في موران كانت مجرد لعبة، كانوا يتابعونها ـ وقد لاحظ ذلك باستغراب ـ كأنثى، كجسد، وهي رغم الحرج الذي أحست به، تحولت إلى قطة أليفة، لا تعرف سوى الابتسام وجمع الهدايا ومجاملة أي إنسان تواجهه. هنا امرأة أخرى: أكثر شجاعة، وأشد حضوراً. ولا يريد أن يبالغ ويقول: أكثر أنوثة أيضاً. هنا كانت تتدثر بتلك الملابس المحتشمة، وكانت لا تصهل بتلك الضحكة العذبة، وكأنها خائفة أو مربوطة. في سان فرانسيسكو، في نيويورك، في لندن، امرأة مختلفة: تتحرك بثقة، تلبس ما تعتبره مناسباً، تضحك، وتنكت أيضاً. أما إذا وضعت يدها فوق يد راكان، لتحاول أن تلفت نظره، أن تكلمه، فعندئذ يصبح إنساناً آخر.

قال ليفي لإليانور قبل أن يركبوا الطائرة في طريقهم لمقابلة راكان للمرة الثانية:

ـ القدر يضع بين أيدينا، في حالات كثيرة، أوراقاً هامة، والفرق بين إنسان وآخر، في كيفية استخدام هذه الأوراق. الأذكياء وحدهم الذين يعرفون ما في هذه الأوراق، ومتى يستفيدون منها، وكيف يستخدمونها، أما غيرهم فإن الرياح وحدها هي التي ترتب لهم أوراقهم!

ورغم أن أليانور فهمت المعنى العام لما قاله ليفي، إلا أنها كانت تريد أن تمتحن ذكاءها، سألته بمكر:

ـ هل تظن أن كل شيء حسب رغبة الإنسان، أو حسب ذكائه؟

ـ دعيني أقول لك، يا إليانور، حسب ذكائه، نعم، هذه هي القاعدة

الأساسية، وإذا حصل شيء آخر، فلا بد أن يكون هناك خطأ من نوع ما، ومن الإنسان، بالدرجة الأولى، وليس من القدر.

ـ وكيف تفسر، إذن، إفلاس الكثيرين، وأخطاء الحكومات، وهزيمة بعض الأقوياء؟

استدار نحوها بأكثر من نصفه، لأنه يسمع كلمات ذكية وتروقه كثيراً، خاصة من امرأة. تطلع إليها بإمعان، كأنه يقرأها من جديد. حين ظلت نظراتها صلبة ومتسائلة، قال، وهو يتنهد:

ـ الإفلاس والأخطاء والهزائم أيضاً نتيجة قراءة خاطئة، هذه هي قناعتي الأكيدة والراسخة...

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ دعيني أقول لك شيئاً، يا إليانور، لم أقله لكثيرين: إذا حصل الخطأ، إذا وقعت الهزيمة، وأي شيء مشابه، فإن الخطأ ليس في الشيء، وإنما في الإنسان.

اعتدل في جلسته، وبدأ يكلم نفسه:

ـ حتى من يفترضون في أنفسهم الذكاء، ويعقدون الصفقات، أو يشنون الحروب، فإذا حصل عكس ما كانوا يتوقعون، فإنهم يميلون إلى تحميل الخطأ لجهة ليست لها علاقة، ربما لقوة مجهولة، أو للحظ، ولا يحاولون أن يعتبروا أنفسهم المخطئين، وعند ذاك يصبح الخطأ مضاعفاً ومركباً، وبالتالي صعب التفسير.

ابتسمت إليانور هزت رأسها، وكأنها اكتشفت مفتاحاً لمعادلة مجهولة، كانت تبحث لها عن مفتاح منذ وقت طويل. تطلع إليها، لكي يعرف. قالت بتحدٍ:

ـ في نطاق العمل، ما قلته صحيح: يستطيع الإنسان، بمهارة، ولباقة أن يصل، لكن في الأمور الأكثر تعقيداً، فإن هذه المعادلة قد لا تكون كافية.

ولكي لا يضيع، ولأنه يريد أن يصل إلى نتائج محددة، فقد استغل مرور مضيفة الطائرة ليطلب لنفسه قدحاً من الويسكي، وليسأل اليانور عما

ترغب، ولما هزت كتفيها بعدم اهتمام، أو لأن المشروبات متشابهة، فقد طلب قدحين. وخلال الفترة الفاصلة، قال لها:

ـ لكي أثبت لك أنّا لسنا أذكياء بالمقدار الكافي، تركنا للآخرين أن يتحكموا بنا. . .

التفتت إليه مستغربة ومتسائلة، قال وهو يتطلع إلى عينيها:

ـ المستر يونغ ثانوي في صفقة السلاح، لكنه وضع المدينة في مواجهة المدفع، ولذلك استجبنا له، ووافقنا على كل ما يريد. . .

خلال رحلة الاطلنطي، تحدثا كثيراً، في أمور دقيقة، وغزوان الذي كان في انتظارهما في مطار هيثرو، كان مشتاقاً لإليانور، كامرأة، وكان محتاجاً لليفي، لكي يصلوا جميعاً إلى توقيع الصفقة الجديدة، خاصة وأن راكان وصل قبل يومين، وقد تأخرا في الولايات المتحدة من أجل ترتيب بعض الأمور الخاصة بهذه الصفقة.

قالت إليانور في نفس الأمسية، حين التقوا جميعاً حول مائدة العشاء:

ـ أرجو أن تعفوني من مهمات السكرتارية. أيها السادة، خاصة في مثل الموضوع الذي تبحثونه لأني أريد أن أعيش!

ولما تطلعت إليها العيون، توجهت إلى ليفي:

ـ لابد أن تحدثهم عن الصعوبات، والتي وصلت حد الخطورة، في تأمين المشتريات!

قال المستر يونغ:

ـ أكثر الصعوبات مفتعلة، خلقها تجار السلاح، ونستطيع أن نتغلب عليها.

قال راكان، قبل أن يفترقوا:

ـ اعتبر أن النتائج التي تم الوصول إليها جيدة، ويمكن أن نوقع العقد غداً.

قال لها غزوان:

ـ وجود ليفي كان ضرورياً، لكي يوضح لهؤلاء الضباط الفرق بين

سلاح وآخر، وتفوق سلاح على آخر. كان بارعاً وموفقاً، ولولاه، لأخذت الأمور مساراً آخر.

وبعد أن جال في أماكن كثيرة واستعرض وجوهاً ومواقف، أضاف بحنان:

ـ ثم ان الصفقات الأساسية لا تجري بين الفنيين، لأن هؤلاء لديهم الاستعداد الكامل للغرق في التفاصيل والتفاهات، ويغلب عليهم عنصر التحدي والعادة، ويحبون المماحكات والتأخير، لكي يثبتوا قوتهم ووجهات نظرهم.

وضحك بصخب، وهو يضيف:

ـ في عشاء اليوم أنجزنا عملاً يحتاج إلى جهد العشرات، وإلى وقت لا يعرفه إلا الله، لو تركت الأمور إلى الفنيين.

وفي اليوم الثالث وقع العقد الجديد بصفقة السلاح. وقد لعب ليفي دوراً رئيسياً، ليس فقط في ترتيب العقد، وإنما في تمرير بعض البنود الخاصة، لأنه تم الاتفاق أن تبقى بمعزل عن هذا الذي لا يكفّ ولا يتعب من الحديث عن «رغبة العمر».

وقضى الأمير راكان بضعة أيام في لندن، لإجراء بعض الفحوص الطبية، وللتسوق أيضاً وللراحة.

كان غزوان، وكانت إليانور، وفي بعض الليالي، كان ليفي أيضاً، ضيوفاً لدى الأمير. وخلال هذه الأيام تم الحديث عن أمور كثيرة، وتم الاتفاق على أمور كثيرة.

نتيجة التبدلات التي جرت، سُمي حماد المطوع سفيراً في طوكيو، فكتب إلى صديقه، سفير الهديبية في برن: «. . . اليابان بلاد عجيبة: النظام، الدقة، النظافة، اللياقة الاجتماعية، وغير ذلك كثير، لكن تبقى موران، بعجاجها وفوضاها، بالنسبة إليّ، ارحم. في طوكيو الإنسان مثل الآلة، حتى وهو يبتسم لا تعرف هل هو تعبير عن المودة والسعادة أم أنه يضحك عليك. إنهم بشر من نوع مختلف عن أي مكان في العالم، ومن الصعب أن تدخل إلى أعماق هذا المجتمع، أو أن تفهم الياباني على حقيقته».

«لقد زرت الولايات المتحدة مرات عديدة، وتعرفت على الناس هناك، ورغم الفروق الكبيرة بيننا وبين الأميركيين، إلا أن القضايا المشتركة أو التي يشبهوننا بها كثيرة.

«وزرت أيضاً أغلب البلدان الأوروبية، وتعرفت على الناس، وكنت أسير، في أحيان كثيرة، وحدي في الليل، لكن ما أكاد أجلس في بار أو مقهى حتى تقوم علاقة بيني وبين بعض الناس، حتى لو لم تتوافر اللغة المشتركة.

«هنا كل إنسان صندوق مغلق، خاصة بالنسبة لنا، وقد صدف عدة مرات أن ابتسمت للسائق أو الطباخ، وحاولت معهما، ومع غيرهم أيضاً، من نفس المستوى، أو من مستويات أخرى، أن أقيم علاقات تتجاوز الوظيفة أو المجاملات الاجتماعية، لكن لم أنجح. والسبب أننا لا نفهم على بعضنا، ليس من ناحية اللغة، وإنما من ناحية الطباع والعادات!

«تسألني في رسالتك إذا كنت راضياً عن تعييني سفيراً في اليابان؟ لا بد

أن أجيب بالإيجاب، لأنني لم أعد أطيق البقاء في موران ضمن الظروف التي تعرفها، وقد تحدثنا عن ذلك، بشكل غير مباشر، أكثر من مرة.

«الجماعة، وتعرف معنى هذه الكلمة، يختلفون عن الذين كانوا قبلهم. صاحبنا يريد من كل الذين حوله أن ينفذّوا الأوامر، وليس لأحد حق الاعتراض، وكل من يحاول أن يتجاوز ما رسم له يصبح عدواً.

«لا أريد أن أشكو أو أن أندم، لكن هذه هي الحال الآن، كنت أظن أن الصيغة الجديدة أفضل ألف مرة، وهذا ما دعانا إلى التضحية والمخاطرة، وأنت تعرف الخدمات التي قدمتها. لا أريد أن أدعي إنني كنت كل شيء، لكن بالتأكيد ما كان ليتم التغيير لو اعترضت، لو اتخذت موقفاً مختلفاً. وحتى وزارة الداخلية التي استلمتها ما كانت تكريماً أو ترفيعاً، وإنما كانت درجة على الطريق الذي يوصل إلى الخارج. لقد قال لي السفير الأميركي هنا، وكان مساعداً لوزير الخارجية: أن الطريق الأفضل للتخلص من الموظف الكبر، هي أن تجعله موظفاً أكبر، لكي تحيله بعد ذلك على التقاعد، أو تبعث به سفيراً إلى طوكيو أو هلسنكي، حيث لا يتذكره أحد، ولا يراه أحد، إلى أن تتكون له هوايات جديدة في السلك الجديد، ويصبح عند ذاك أسيراً لهذه الهوايات.

«تقول لي إنك تفكر بالاستقالة، مهما ترتب على ذلك من النتائج؟ لا أتفق معك بهذا الرأي، بل أكثر من ذلك أطلب منك البقاء حيث أنت، لأننا، وأتكلم عن نفسي بالدرجة الأولى، لم نعد نصلح لشيء. فصاحبنا ملأ كل الشواغر هناك، ووضع كل واحد في المكان الذي يراه مناسباً، حتى التجارة لم تعد مهنة مثل قبل. أصبحت التجارة الآن بيد الدولة. والدولة هي التي تجعل من فلان تاجراً، ويملك الملايين، وتجعل من غيره مفلساً، حتى لو كانت التجارة مهنة العائلة أباً عن جد.

«ماذا يمكن أن تعمل لو عدت إلى موران؟ الأعمال الحرة؟ أن تنشئ مزرعة؟ كل ذلك يمكن في حالة واحدة: أن يكون صاحبنا راضياً عليك، وإذا لم يتوفر هذا الرضا فلا تحاول أن تقترب. أرى أن تمر عدة سنين قبل أن تفكر بمثل هذا الموضوع. إذا مرت سنوات، وتوفرت ظروف مؤاتية،

يمكن أن ترجع مرة أخرى، لتعمل عملاً خاصاً، وبرضاهم أيضاً.

«لدي أشياء كثيرة يمكن أن نتبادل حولها الرأي، لكن يفضل الآن أن نبقى بعيدين عن موران، وأن نُنسى. النسيان نعمة في مثل هذه الظروف، ولا بد أن أتعلم شيئاً من اليابان قبل أن أغادرها: أن أتعلم الابتسام، وأن أتظاهر بعدم معرفة أي شيء، أن أتساءل ببراءة عن كل ما يساعد على أن أبدأ عملاً جديداً.

«عزيزي، لقد سمحت لنفسي أن أكتب بعد أن قرأت رسالتك المليئة بالمرارة، ولا بد أن ألفت نظرك أن رسالة مثل التي كتبتها يمكن أن تؤدي إلى نتائج وخيمة، فيما لو وقعت بأيدي غير أمينة، فأرجو أن لا تكتب تحت الانفعال، أو في حالات الغضب، وأبلغك أني بعد أن قرأت رسالتك، ولأنها أخافتني، فقد أحرقتها. سمحت لنفسي أن أفعل ذلك خدمة لنا نحن الاثنين.

«ملاحظة: أنوي أن أقضي إجازتي السنوية في إسبانيا. هل تستطيع المجيء إلى هناك ما بين العاشر من تموز ونهاية آب؟ إذا استطعت سوف نقضي أياماً جميلة، وسوف نتحدث طويلاً، وأنا بانتظار أخبارك».

مفلح المطوع الذي مات بعد سفر حماد بأسبوعين، مات قبل الفجر، وكان يعد القهوة، وقد سمعت إحدى عجائز العائلة دقات المهباج قبل صياح الديك، وكان يوماً من أيام الربيع. وجد مفلح متخشباً عند دلال القهوة. قيل انه مات حزناً أو يأساً لسفر حماد، وقيل إنه أصبح أصماً تماماً، ولذلك لم يعرف بسفره أبداً. حتى عندما جاء لوداعه وقبّله بحرارة، لم يفهم سر هذه القبل، فظن الشوق، أو لمرور المدة بين هذه الزيارة والزيارة السابقة. ونقل خماس ومجلي، واثنان من رعيان آل المطوع، وقد سمعوا حماد يستأذنه بالسفر، أن مفلح قال له: هذه سنة خير، وإذا ردت تبقى من آل المطوع اعلمك بسر ما علّمته لغيرك، بس تدفى، اعلمك بعشبة إذا انغلت تطيب من قرصة الحية، وهذه ينراد لها شهر أو شهرين، فلا تغيب تعال ونطلع على الفلا، وأخليها أمانة عندك، إذا عرفتها تشفي كل ممروض!

بعد وفاة مفلح قال شداد لأخيه:

ـ يا أبو فوزان، موران اليوم غير اللي تخبرها، ويلزمك تحرص وتتحذر، ويلزم تدوّر مكان ثاني ودرب ثاني، وإلا راحت عليك، لأن حماد راح.

وصالح المطوع رغم حزنه على مفلح وعلى سفر حماد رد بحدة:

ـ درب ثاني؟ خيل وسوالف ليل؟

ـ الخيل راحت من زمان، يا أبو فوزان، وهالحين الكم راس عندي تكفي، بس أنتم بعدكم بزمن الخيل.

وضحك وتابع بلهجة جديدة.

ـ اسمعهم بالسوق يسولفون عن فلان وفلان اللي صاروا فوق الريح، اللي يؤمنون تموين القصور وحاجات الجيش وأرزاقه، وغيره وغيره، وأنت بعدك تطرّش رعية غنم وتطلب غيرها، وكأن الدنيا مثل قبل!

ـ حنا تجار، يا أبو غانم، والتاجر ما ينّغر، وما تأخذه سالفة وترده غيرها!

قال شداد وكأنه يكلم نفسه:

ـ ما لي ألا آخذ خيلي وأشدّ رحالي إلى مصر، هناك الخيل تلعب وتسبق، والناس بعدها مثلنا تفهم علينا وتأخذ وتعطي.

ـ وطويل العمر؟

ـ طويل العمر بموران!

ـ ويقول: آل المطوع راحوا لعدانا، اللي يريدون روسنا؟

ـ ما دام طويل العمر ما يريد الخيل، الخيل، يا أبو فوزان، تدور مرعاها وملاعبها.

قال صالح المطوع بغضب وكأنه يحدث نفسه:

ـ كان عندنا مفلح، إذا اختلفنا نرجع له، هالحين مفلح راح لوجه ربه. وكان عندنا حماد يقول يصير وما يصير. هالحين تاهت علينا، ما ندري حنا هنا أو هناك.

رد شداد برخاوة:

ـ إذا ما ردت مصر، يا أبو فوزان، فخلك أنت هنا وحنا هناك.

ـ وشلون نخلص من فنر ومن حلوق الناس؟

ـ الناس كلامها ما يخلص، والناس تدوّر مصالحها، اللي يفيدها، ويلزم تعرف: ولا ابن حلال بسنة، سنتين، سألني: شلون خيلك، يا أبو غانم؟ كل واحد: يا نفسي. كل واحد فلوسي ويدور اللي يفيده.

قال صالح المطوع بيأس:

ـ يا أبو غانم: خلها تفك، وخل صاحبنا يخلص من طلابيه، وبعدها الله كريم!

ـ ويشتري خيلي، يقول لي: الله يعطيك العافية لأنك حافظت على الخيل الطيبة وهالحين نريد نعوضك عن كل اللي خسرته؟

ـ الخيل سالفتها بسيطة، يا أبو غانم، هالحين، المسألة إذا الواحد راح لمصر، أكبر من الخيل وأخطر.

ـ أنت تعرفني، يا أبو فوزان، ما عندي غير هالخيل، هي دنياي وراس مالي، وما دامت موران ما تريد خيل، والسلطان صار عنده خيله ورجاله، فما لي إلا أن أدور على رزقي، ومثل ما قالوا: وين ترزق ألزق.

ـ وما تعرف أنا قوم ويّا مصر؟

ـ أصحاب الخيل ما يتكاونون إلا بالسبق يا أبو فوزان!

ومثلما سافر حماد إلى اليابان، ولم يعرف بموت مفلح. سافر شدادا المطوع بخيله إلى مصر. قال راكان للسلطان فنر:

ـ وهذول آل المطوع، يا طويل العمر، يلعبون بذيلهم، وما هو من أمس واليوم؛ حماد ما رضي يصير معنا إلا حين وعدته يصير وزير. وعمه شداد، وروحته لمصر، ما هي لله أو سالفة خيل، قبل ما يشد رحاله زار عمير، وطرّش حصان وفلوس لشمران...

قاطعه فنر بمرح:

ـ بعد اليوم ما يفلت منا أحد، اللي يجي بالفلوس نجيبه، واللي ما يجي بالفلوس يجي بغيرها، فوكّل الله ولا تخف!

ـ لكن أهل مصر. يا طويل العمر، ما ينقدر عليهم، وإذا شداد ينقصه شي يتعلمه هناك، فإذا فاته شي يتعلمه أولاده، ونكون بسالفة نصير بسالفة ثانية!

ضحك فنر، هز رأسه عدة مرات، وعلق:

ـ نظرك بعيد أكثر من اللازم يا راكان، بس من هالحين إلى ذاك اليوم سفر طويل، فخلنا بسوالف اليوم واللي عقبه!

ـ على خيرة الله، بس أذكرك أنه وعمير ظلوا ساعات، ووحدهم.

ـ غير السوالف ما يطلع منهم، لأن لحاهم بأيدينا: أرزاقهم وأولادهم، وإذا ردنا ما هم بعيدين!

ـ مهمتي، يا طويل العمر، أن أضع ما لدي من معلومات بين أيديكم.

ـ أريدك ما تنسى شمران.

ـ شمران بالقفص: أولاده عندنا، وسوالفه كلها تصلنا، وباكر أو اللي عقبه يتعب من الزرنوق ويرجع.

قال السلطان كأنه يخاطب نفسه:

ـ هذول البدو ما ينعطون وجه، لأنهم يطمعون وما يشبعون، فيلزم الواحد ينقط لهم تنقيط: لا يشبّعهم ولا يجوّعهم، إذا شبعوا فسقوا وما ينحملون، وإذا جاعوا يخوفون، يبيعون دينهم وربهم للي يعطيهم، وما دام الله عطانا يلزم نذكرهم، نعطيهم، نربطهم بالحكومة، نشغّل أولادهم، نخلّيهم حوالينا، نفتح الطرق، ونقول لهم: ذهب الحكومة قريب وسيفها أقرب، من كان مع الحكومة سلم، واللي يريد يدوّر السوالف القديمة، ويقول يصير وما يصير، لا بالله حياته ومماته بأيدينا.

الذي ولدته عمليات الإعدام تراجع، ثم زال. الضجة التي رافقت بداية الحرب، وكانت تمتلئ بالعبارات الكبيرة، أخذت تخبو. وحتى وفرة الحاجات وحركة الأسواق، ما أن انقضت بضعة شهور على اندلاع الحرب إلاّ وتحولت إلى شكوى يطلقها الناس، ويطلقها التجار أيضاً.

أما العمليات العسكرية، ولم يُتوقع أن تستغرق إلا أسابيع قليلة، وتنتهي بالنصر، فقد امتدت وطالت، وأحاط بها ذلك الغموض المحيّر حول النتائج، خاصة وأن بلاغات الطرفين متناقضة إلى أقصى حد. وموران التي كانت تدفع بآلاف الرجال، فترة بعد أخرى، بدأت تستقبل آلافاً تفوقهم من اللاجئين من النساء والأطفال، وأصبح منظر هؤلاء يثير الأسى والتساؤل والشتائم. أما القوالون الذين كانوا يتيهون في الأسواق كالطواويس، فقد انكفأوا، لأن القصائد الهامة والكبيرة التي حملتهم من أماكنهم إلى موران، لم تعد تثير أحداً، ولا تعني شيئاً، إضافة إلى أن أغلبهم لم يعد لديه ما يقوله، ولم يبق من يستمع إليهم.

وإذا كانت حروب خريبط ولدت المرارة والأحقاد، فقد كانت بعيدة، ولم تُعرف الكثير من أخبارها وتفاصيلها إلا بعد أن عاد المقاتلون. الآن، أصبحت الحرب مختلفة: دخلت كل بيت، وطالت كل إنسان. خاصة وأن راديو موران الذي حشد كل قواه، واستعان بالكثيرين، جاء بهم من هنا وهناك، وكان يقطع برامجه بين ساعة وأخرى ليعلن عن المواقع الجديدة التي احتلتها قوات صاحب الجلالة، وكان يزف البشائر بقرب النصر وانتهاء الحرب، بدأ يتراخى ويتغير، إذ اقتصر على النشرة العسكرية، يذيعها مساء كل يوم، كما تذاع نشرة الأحوال الجوية!

حتى خطوط الحرب، وأسماء المواقع التي يفرزها القتال في كل المعارك، وفي كل الأماكن، ولمعت هنا لفترة، إلا أنها ما لبثت أن انطمست ثم انطفأت. لم يعد يُعرف أين تجري المعارك، لأن هؤلاء البدو الذين دق شيوخهم بالأيدي على الصدور، وأعطوا أرقاماً خيالية عن الفرسان والأفراد القادرين على تجنيدهم وتحريكهم، ليتقاضوا مقابل تلك الأعداد أموالاً وأسلحة وأرزاقاً، أصبحوا مثل الأشباح، فلا يعرف إن كانوا موجودين فعلاً، أم أنهم أرواح هائمة تغيب وتحضر حسب اعتبارات لا يحددها ولا يعرفها أحد.

سند الذي عشق البادية، وأدمنها، كما أدمن القنص والقصيد وبرنامج البادية في إذاعة موران، وكثيراً ما استضاف في مكان إقامته، في خبرة الشاوي، أعداداً من الشعراء، وكانت الخبرة مكاناً معروفاً ومقصوداً لطيب مائها ووفرة الصيد فيها، وليس لأنها في الطريق إلى الدواحس، أو لأن الطريق إلى العوالي يقترب منها أو يمر فيها.

سند اعتبر الحرب جنوناً، ولن تؤدي، خلافاً لما تدعيه إذاعة موران، إلى النصر، أو إلى نتيجة مشرفة، لأنها تجري في تلك الفلاة المكشوفة، ولأن أبطالها هؤلاء البدو «الذين يعطون للعفاريت الدروس، ويعلمونهم شنهو اللي يلزم يسوونه».

قال، بعد أسابيع من بدء القتال، لعدد من رجاله:

ـ يلزم، يا جماعة الخير، تدّورون لنا بادية غير بادية موران...

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ سياراتهم وطياراتهم ما تركت لا قطاة ولا حبرية، وفليسات طويل العمر سوّت العفاريت أباليس: يوم يحاربون بهذا الصوب وثاني يوم بذاك الصوب، وتعال أعرف من هو اللي معك ومن هو اللي عليك!

والسلطان الذي لم يعجبه موقف سند، أو بالأحرى سلبيته ونقده، فقد طلب من مساعد أن ينساه، على الأقل في المرحلة الأولى، وأن لا يستفزه، لأنه أحد القلائل الذين «يمونون على هذول البدو المساخيط». ولاقتناع السلطان أيضاً «أنه من بد ولازم يرده حليبه، إذا ما هو اليوم اللي عقبه».

الآن، بعد مرور الأسابيع تعقبها الشهور، والحرب تدخل في ذلك النفق المظلم، فلا يُعرف متى تنتهي أو إلى ما ستؤول، فقد جمع السلطان مجلس الحل والربط:

ـ بعد اليوم ما نقبل لأحد عذر. اللي ما هو معنا، اللي ما يشدّ ويحط كل حيله، ترى حنا مضطرين، وأقولها وقلبي ينعصر، أنه ضدنا، ولا بد نتصرف. . .

كان واضح أن السلطان يعني سند واثنين أو ثلاثة من الأخوة، خاصة بعد أن بعث إليهم يطلب منهم أن يشاركوا، أن يفعلوا شيئاً، لكنهم هزوا أكتافهم باستخفاف، ولم يغيروا مواقفهم.

بعد مناقشات حامية، تخللتها اتهامات وكلمات قاسية، خاصة من مساعد، فقد وقف سند، وقبل أن ينسحب قال بسخرية:

ـ قبل ما تشعلون هذه الحرب قلنا لكم: آخر الدواء الكي، والحرب ما ينلعب بها، لأنها تحرق الأول والتالي. قلتم: عندنا سلاح وعندنا رجال، ويومين والثالث نخلي عجاجهم يسبق ظلالهم. قلنا لكم البدوان جماعة غزوة وغارة، وما هم جماعة يمسكون القاع ويظلون بيها، قلتم: ولمّنا كل شي، وحسبنا لكل شي حسابه، قلنا: حنا ما علينا، نسكت ونّاظر. . .

وضحك بسخرية، وهو يخطو نحو الباب:

ـ وهالحين، بعد ما جربتم سلاحكم ورجالكم، وشفتم أرواحكم ما تقدرون على هذا الحمل، تريدوّنا نجيب رأس كليب؟ لا بالله ما هي شغلتنا، وما نقدر نعمّر البصرة بعدما خربتوها!

في وقت لاحق، قيل أن سند ندم للكلمات التي قالها، ولم يكن في نيته أن يفعل، أو أن ينسحب، لكن طريقة مساعد أثناء المناقشة، جعلته يتصرف هكذا، وأصبح صعب عليه، كما صعب على الآخرين، التراجع. وقيل أيضاً أن مساعد لم يتصرف بهذه الطريقة إلا بعد أن تشاور وراكان، وقيل ان راكان هو الذي طلب منه أن يفعل ذلك.

غزوان الذي كان يزور موران كل بضعة شهور، أصبحت زيارته، بعد

توقيع عقد المدينة الجديدة، أكثر. أما بعد توقيع عقد السلاح فكان لا يمضي شهر إلا ويقضي أسبوعاً منه على الأقل في موران. وحين اندلعت الحرب، وأصبحت متطلباتها كثيرة ومتنوعة وعاجلة، لم يعد أحد يعرف ما إذا كان في موران، أو غادرها. لكن كل من يريده فعلى ثقة أن لا بد ويلتقيه في الليلة الأولى أو التي تليها، على أبعد تقدير.

ولأن المرحلة الجديدة تتطلب الكثير، وتتطلب الكثيرين، ولأنه وقع خلالها سوء فهم بين ليفي شاوات وروبرت يونغ، ما لبث أن أصبح خلافاً حقيقياً، رغم محاولات روبرت التي اتسمت بالكثير من المرونة والتنازل، فقد أصبح صفاء الشلبي عنصراً أساسياً ولا يمكن الاستغناء عنه، خاصة في موران، من أجل إعداد قوائم المشتريات، والاتصال مع الجهات المعنية لترتيب استلامها، لذلك انقسمت الشركة العالمية إلى فريقين: الأول، في موران، وفيه غزوان معظم الأحيان، وصفاء دائماً، والثاني في سان فرانسيسكو، وكان فيه ليفي شاوات دائماً، وإليانور بعض الأحيان، إذا كانت «تضطر» للقيام بزيارات عاجلة إلى موران، «لأن طبيعة عدد من المواد التي يراد استيرادها تتطلب ذلك» كما قال غزوان، مرة، حين سئل، وابتسم ليخفي ما وراء هذه الزيارة من شوق! كما كانت إليانور تلتقي به في حالات أخرى في لندن وتايوان أو طوكيو، بناء على اتفاق سابق أو لمكالمة تلفونية عاجلة!

قال غزوان لامه، بعد أن عجزت عن تذكر تاريخ مولده حسب التقويم الهجري:

ـ لو كان بابا موجود لأسعفنا، لأن ذاكرته قوية، ويجوز أنه مسجل الولادة في أحد دفاتره!

قال ذلك لأنه متأكد أن ولادته تمت في ليلة القدر، خاصة ووداد تتذكر، رغم مرور الوقت، وتداخل الذكريات، «إن العائلة كانت في حالة فرح. يمكن عيد، يمكن مناسبة. بتذكر هيك، لكني ماني متأكدة!».

لقد خطر له أن يشير إلى ذلك لأن عدة مصادفات تجمعت في وقت واحد، وأدت إلى إبرام عقود لم يحلم بها ولم يسع إليها. «جاءت على

رجليها»، كما يقول بعض الأحيان، وهو لا يخفي فرحه. فقد صدف مرتين أن جاء لزيارة لأمير راكان، خلال الفترة الأخيرة، دون اتفاق سابق، ووجد عنده ابن عليان مرة، ووجد راتب الحفار في المرة الأخرى. والأمير راكان، مثل عادته، لا يستطيع أن يخفي براعته، فما كاد غزوان يسلّم ويتبادل بعض كلمات المجاملة، حتى التفت الأمير راكان نحو عثمان العليان وقال:

ـ حنا، يا أبو عزيّز، نريد التركّات المائتين جميع، وبشهر، وإذا ما تقدر فنشوف شنهو اللي عند غزوان، وشنهو اللي يقدر يساعدنا.

وابن العليان الذي استاء إلى أقصى حد من إثارة الموضوع. وبهذه الطريقة، فقد أعلم أنه يسحب عرضه، ولم يعد راغباً في أن يبذل جهداً إضافياً. ورغم محاولات راكان في أن يطيب خاطره، إلا أنه أصر، ثم انسحب في ذات اليوم، وبعد عدة اتصالات تلفونية أجراها غزوان، تم توقيع عقد استيراد أربعمائة سيارة كبيرة، تسلّم خلال ثلاثة أشهر، بمعدل مائة في الشهرين الأولين، والباقي خلال الشهر الأخير!

أما ما حصل مع راتب الحفار، وقد كان راتب ينتظر في غرفة السكرتير لما وصل غزوان، ولا يعرف أية حماقة دفعته لأن يستغل وجود غزوان ويدخل معه على الأمير، وكيف أن عقد الإطعام، الذي كان يفترض أن يوقعه، لتوريد حاجات الجبهة الغربية من الأرزاق، انتقل، خلال الجلسة ذاتها، إلى «شركة المأكولات الشرقية» لأنها وحدها القادرة على استيراد الرز والسكر والشاي في المدة اللازمة. وراتب الذي أحس بهول الخسارة، وافق، أو بالأحرى اقترح، أن يقسم العقد إلى جزءين: جزء خاص بالمواد التي يمكن تأمينها محلياً، كاللحوم والخضروات والخبز، وجزء متعلق بالاستيراد، وأن يتولى كل واحد من الطرفين تأمين الجزء الخاص به، وغزوان الذي وافق على هذه القسمة، قال بطريقة لا تخلو من سخرية:

ـ أنا موافق على هذه الصيغة، بس لازم تعرف يا عمو راتب أن إمكانيات شركة المأكولات الشرقية في الداخل لا تقل عن إمكانياتها

الخارجية، ومع ذلك، ومثل ما يقال: وتعاونوا على البر والتقوى!

وهناك عشرات العقود الأخرى، وفي شتى المجالات، كانت تنهال على غزوان، وكان، في حالات معينة، خاصة حين يُستدعى للرد على مكالمة تلفونية، أو حين يجد مواعيده مزدحمة ومتداخلة، أو يكون مضطراً لسفر عاجل، لا يخفي تبرمه أو تعبه، أنه مضطر، خدمة للسلطنة، لقضاء نصف حياته في الجو، رغم كل المخاطر، متنقلاً من مكان إلى آخر، من أجل تأمين الحاجات الضرورية، والتي لا تحتمل التأجيل، كما كان يقول!

لما ذكر لأنه أن لديه شعوراً، أقرب إلى اليقين، أنه ولد في ليلة القدر، خاصة بعد توقيع عقد الإطعام، وقد امتنع عن توقيعه، تاركاً لأخيه كمال أن يفعل ذلك «لأنك أنت المسؤول في الأول والأخير» كما قال له أمام راتب... بدت وداد ميالة إلى احتمال أن يكون ولد فعلاً في تلك الليلة «أنك ولدت في الليل، هذا أنا متأكدة منه. وأنه في عيد أو مناسبة، كمان متأكدة، أما غير هيك، يا ابني، فلازم أنه...». ولم تعرف ماذا تقول!

... وعقود ملابس الجيش، والتجهيزات الطبية، إضافة إلى الأغطية وإطارات السيارات، ومسلتزمات حرس القصور، ومستلزمات السجون أيضاً، كلها وقعها غزوان، أو من فوضه بالتوقيع.

العجرمي الذي أصبح يقضي الشتاء كله في عين دامة، ويعود إلى موران في منتصف الربيع، وكان قد سمع عن الحرب، وإن لم يعرف دوافعها وتفاصيلها، وجد أن اسم غزوان يتردد مثل اسم السلطان، وأكثر من الأمراء، قال لابن البخيت، بعد عودته، وكان قد مضى على الحرب بضعة شهور:

- ما تقول لي، يا عبدالله، منين جانا هذا البلوان؟

وعبدالله الذي يعرف عمن يسأل العجرمي، قال بطريقة فخمة:

- هذا اسمه غزوان، يا شيخنا!

- غزو واحد يكفينا، يا ابن الحلال، لكن ذلك الغيم خلف هذا المطر...

هز رأسه، وهو يتذكر، ثم أضاف بنبرة ساخرة:

ـ لما أبوه كان يلعب بخصاوي السلطان، قلنا لأرواحنا: ما هي خوش لعبة، مثل ما يقول العراقيين، والله يستر؛ واشوف هالحين أن العجي يلعب بروس الناس، وما ترك شي بموران إلا وحاسه.

ضحك عبدالله البخيت، وقال:

ـ تذكر، يا شيخنا، ذيك السالفة، عن ابن الحرام، اللي كان ينزع أكفان الميتين، وكان الناس يسبونه، فقال ابنه لما سمع الناس يسبون أبوه: والله لأخليهم يترحمون عليه. وما كذب خبر: بلّش يسرق الأكفان، مثل أبوه، لكن أبوه لما يسرق الميتين يدفنهم، يرجعهم لقبورهم، أما هو فكان يسرقهم ويلقحهم، وتجي الكلاب والذياب وتنهش بيهم، فصار الناس يقولون: الله يرحم أبوه، لأنه كان أحسن منه، كان يرجع الميتين لقبورهم!

بعد أن استراح قليلاً، تابع:

ـ وهذا غزوان، يا شيخنا، يريد الناس يقولون: الله يرحم أبوه. أبوه كان أحسن منه.

ـ وسمعت ابن عليان، يا عبدالله، دايخ مع هذا البلوان. إذا راح له من مغرب، جاء هذا من مشرق. وأبو عزيّز يصفق يداً بيد، وإذا استراح يضع يده على الخد، فشنهو اللي صاير؟

ـ خلنا ننتظر ونشوف، يا شيخنا!

ـ نشوف شنهو؟

ـ إنهم يخلّونا بأكفانا أو ينزعون عنا الأكفان!

ـ بارك الله بك يا أبو بادي، لأن بشارتك تبرّد القلب!

ـ أهل مصر يقولون، يا شيخنا: اللي يعيش يشوف، واللي يلف يشوف أكثر. وحنا عشنا وشفنا، بس يلزم نشوف أكثر!

راتب الحفار، وهو يحدث سعيد الأسطة، كيف وقع بين فكّي الذئب، غزوان، وكيف انتهت المعركة، رد عليه سعيد:

ـ وين وقّعت حالك يا ابن الحلال؟

وبعد قليل:

ـ أبوه لا حلل ولا حرّم، كل شي كان مسموح إذا من وراه فلوس، ومن شابه أباه فما ظلم!

قال راتب بحسرة:

ـ آخ يا زبي... لو تحكي!

أما الأمير راكان فقد حدّث السلطان، مستبقاً أي إنسان آخر، كيف أن ابن العليان وعد بتأمين متطلبات الجبهة من السيارات الكبيرة، وبعدما تم الاتفاق: على السعر، وعلى الكميات ومواعيد التسليم، بدأ ابن العليان، مثل عادته: «اليوم وباكر، وحنا صابرين ومنتظرين. لكن تعرف، طال عمرك، هذي حرب، وكل ساعة وكل يوم له قيمة. وحنا بالسالفة الله بعث غزوان. وبساعته، طال عمرك، فرجنا: اللي تريدون من هالعين ومن هالعين. وابن العليان انحمق، يصير وما يصير، وما خلى شي ببطنه إلا وطلعه. سمعناه وقلنا ما يخالف، أنت شيخنا ولك أفضال على هالبلد، بس هالقضية ما تتحمل. وبعدما طلعت أرواحنا، وحنا نقول: ما لنا غيرك يا أبو عزيز، حمل روحه ومشى. فصار العقد بينا وبين غزوان».

هكذا شرح راكان القصة. والسلطان الذي كان ينصت ويهز رأسه، رد بحدة:

ـ خله يولي...

وبعد قليل:

ـ كل شي راده قلنا ما يخالف، وبعدها، هذا اللي يطلع منه؟

ـ ما هو بس كذا، طال عمرك، صوته يلعلع، وكل كلمة من كلامه مثل السكين بالقلب، لكن ما يخالف، حنا نريد شغلتنا، نريد نأمن حاجاتنا، فما قلنا لا طويلة ولا قصيرة، سكتنا. قلنا اللي تشوفه يا أبو عزيّز.

وضحك راكان بحزن، ثم أضاف:

ـ وأبد، ما كذّب خبر، يا طويل العمر، قال: أنا ما لي علاقة، واللي بيده شوك خله يطلّعه، وفي أمان الله!

قال السلطان:

ـ هذول، يا أبو منصور، من يومهم، ما يتأمنون، داروا الدنيا كلها ورا القرش، وصار القرش بالنسبة لهم كل شي. ما عندهم نخوة، ولا يبولون على يد مجروح...

وبعد قليل وبثقة:

ـ وعين الصواب اللي سويته، يا راكان. وأريدك دايماً بهذا الشكل.

ـ قلت لروحي، يا طويل العمر، أقول لك اللي صار، خاف باكر يجيك بغيبتي، ويقول فلاني وتركاني، صار وما صار. فقلت الأحسن والأخير أن يسمع مني طويل العمر، لأنه ما نريد أحد يفوت بيّنا.

ـ وحنا، يا راكان، هالحين، أصابعنا بالنار، ما نقدر نسمع سوالف الناس، ونسأل: شنهو بعد؟

وتنفس ملء رئيته، وأضاف:

ـ وأخوك، يا راكان، بيوم الشدة هو اللي يقف معك، اللي يقول: شنهو اللي تريده، أما واحد فسقان، مثل ابن العليان، ما يهمه إلا المربح، وما يسأل عنك وقت الضيق، ولا يفرجك إذا احتجت، فشنهو قيمته؟

ولما ظل راكان صامتاً، واكتفى بأن هز رأسه عدة مرات دلالة التفهم والموافقة، فقد تابع السلطان:

ـ وغزوان ما مثله، يا أبو منصور، فخلوا اعتمادكم كله عليه، وخلوا ابن العليان وأمثاله ينشقّون.

وإليانور، البطة نصف الداجنة، تعرف متى تأتي ومتى تسافر. متى تتكلم ومتى تصمت. أما إذا تحدثت عيناها، فإنها تقول أشياء لا يمكن أن تقال بوسائل أخرى: واضحة، كاملة، قوية، أخاذة، جامحة، مجنونة، دافئة. والعيون التي تستقبل كلماتها تعرف كيف تحتضنها، كيف تجن بها. أما الحلم فكان سيداً قوياً متجبراً يسيطر على موران، وعلى أجزاء أخرى كبيرة من المنطقة، وكان يدفع الأمور هنا وهناك، لكي تأخذ هذا الشكل المجنون من التخبط والانتظار والهوس.

قال ابن عمير الذي لم يخرج من بيته بعد يوم الإعدام:

ـ الله حق والموت حق، بس يلزم أن البني آدم يعرف متى يموت، إذا أراد يناطح، ويعرف ليش يموت.

قال ابنه دحيم:

ـ والله، يا يوبه، ولا أكثر من الأسباب!

ـ لكن، يا وليدي، أولاد خريبط ذياب، وشموا ريحة دم. والذيب إذا شم الدم يقتل نفسه إذا ما لقي أحد يقتله.

قال دحيم:

ـ هذي الأيام، يا يوبه، غير أيامكم، وهذي الحرب راح تجيب أجلهم.

ـ ما أريد أردّك يا وليدي، لأن باطن الأرض صار أخير من ظاهرها، بعد اللي شفناه، بس فتح عينك واحرص.

قال عمر لسويلم المصلح، وكان من الأصدقاء القلائل الذي بقي يزوره:

ـ . . . ما بقي من الحياة شي يستاهل، يا سويلم، لكن بيدي لا بيدك يا عمرو، مثل ما قالوا من قبل!

وابتسم بحزن ثم أضاف:

ـ ما أريدهم يفرحون بي، يا سويلم حتى إذا مت، وصيت الولد أنهم يدفنوني بساعتي، ويلزم ما يقولون لأحد، لأن موتنا يفرحهم يا سويلم.

قال السلطان لراكان، وهما يستعرضان وضع موران:

ـ . . . حتى عمير، لما شاف شنهو اللي نقدر عليه وشنهو اللي نسويّة، صار حريمة، وما أحد شافه بالسوق!

ـ وما هو بس كذا، يا طويل العمر، حتى اللي زاروه، وسألوه: شنهو رأيك بفلان شي وبفلان شي، قال لهم بعد ما ألّحوا: ما أدري، ما أعرف!

ـ هذي موران، يا أبو منصور: ما تفهم إلا بالعصا، ولا تتعلم إلا بالعين الحمرا. . . وبالدم، واللي يريد يجرب خله يطّلع قرعته!

بعد أن تحول سوء التفاهم بين سان فرانسيسكو ونيويورك، أو على التحديد بين الشركة العالمية للاستيراد والتصدير ومكتب الشرق الأوسط للاستشارات، إلى خلاف حقيقي، وبدأت تلك السلسلة الطويلة من المنازعات، وانتهت إلى المحاكم في المدينتين، وحين طالت المنازعات وتشعبت، قرر روبرت يونغ، كسباً للوقت، ووصولاً للعدالة، أن يتوجه إلى موران. فهناك النبع وهناك إجراءات العدالة البسيطة والمباشرة، حيث يلتقي الطرفان عند القاضي، ولا بد أن يحكم لأحدهما في ذات الجلسة.

وباعتبار أنه تعرض إلى خدعة مكشوفة، تصل إلى حدود السرقة الموصوفة، فقد شط الخيال بيونغ، بعد أن وصل إلى موران، وطلب مقابلة عدد من المسؤولين، على رأسهم الأمير راكان، إلى حدود الافتراض أن قضيته لا بد أن تحسم، إذا لم يحسمها الأمير راكان نفسه فإن المحاكم ستتولى الأمر. وتذكر ما قرأه عن الطريقة التي يعاقب بها اللصوص في موران، كيف تقطع أيديهم أمام الناس، وكيف يصبحون مدانين، تلاحقهم سبّة الجريمة إلى آخر أيام العمر، من خلال القرينة التي لا تخفى: اليد المقطوعة!

وحاول أن يتذكر صور خصومه: ليفي شاوات أكثرهم قسوة وبرودة دم. قال، على الهاتف، أن شركته لم تستطع أن تفي بمتطلبات العقد، ولذلك أُلغي القسم الأكبر منه. أما الأشياء الأخرى: الجسور، وعدد من المستودعات، وبعض المواد، فيمكن إجراء الحسابات بشأنها في نهاية السنة المالية، وبعد حسم كافة المصاريف والأعباء التي ترتبت بدءاً من قيام

العلاقة. هكذا لخص ليفي كل شيء، وبدا واثقاً وحازماً، أكثر من ذلك، بدا، من خلال لهجته، وكأنه رئيس عصابة أو قرصان يضع تلك العلامة السوداء على عينه، ويلف رأسه بمنديل. الآخرون كانوا أقل جرأة وأقل كفاءة. غزوان اعترف أن قسماً من المعدات العسكرية شُحن بالفعل إلى موران، لكن لم يتم تسديد أثمانها. وفي محاولة للتخلص، ادعى أنه كثير الأسفار، ولا يعرف معظم التفاصيل، ولذلك فإن من الأفضل أن يتم بحث الموضوع مع ليفي!

وحتى صفاء الشلبي، الذي كان يرد على الهاتف، في حال غياب ليفي، فقد قال كلاماً ثم تراجع عنه، بل أكثر من ذلك أنكر كل ما قاله، حين جاء روبرت لبحث الموضوع في سان فرانسيسكو!

أما إليانور فإنها عدة نساء في امرأة: لطيفة، ذكية، لبقة حين تريد شيئاً، وجاهلة، لا تعرف أي شيء، حين تتوتر العلاقات أو تسوء.

هؤلاء هم خصومه. أنهم أشبه بالمافيا: عتاة قساة حين يريدون شيئاً، وجبناء إلى أقصى حد حين يتعرضون للتجربة. وإذا كانت محاكم نيويورك وسان فرانسيسكو حمتهم ووفرت لهم فرص الهروب والنجاة، من خلال التأجيلات المستمرة، وطلب المزيد من الأوراق والبراهين، إضافة إلى طلب الخبرة، ثم المدة بين تأجيل وآخر لأسابيع تمتد إلى شهور، فإن موران، السلطة أو المحاكم، كفيلة بوضع حد لهذه المحاباة. وتصور روبرت يونغ خصومه مقطوعي الأيدي، بملابس كلها أكمام لتخفي الجريمة! وتساءل أي الأيدي هي التي تُقطع عادة؟ ولما التبس عليه الأمر، تذكر أن عدداً من الجرائم لا يُكتفى بقطع الأيدي وحدها، وإنما تُقطع معها الأرجل أيضاً!

ابتسم، للحظة، وهو يتصور منظراً مثل هذا، لكنه عاد وحزن حين تصور اليانور بيد واحدة! قال لنفسه بحدة: «ولكنها زوجة غزوان، فإذا لم تكن مسؤولة سابقاً، فهي الآن كاملة المسؤولية».

وهو نفسه لا يستطيع أن يتبرأ من المسؤولية، لقد كان شديد الحرص،

في حياته الوظيفية كلها، حتى أن زملاءه كانوا يأخذون عليه دقته المفرطة. لكنه، منذ أن بدأ هذه العلاقة المشؤومة، لا يعرف كيف أصبح على هذا القدر الكبير من الحماقة ليغفل عن أبسط الضمانات التي يجب أن يوفرها لنفسه. لقد أراد، نتيجة الخطأ الأول الذي وقع فيه بعد تنحية خزعل، أن يثبت للآخرين أن الأموال لا تعني له كل شيء. ترك لاريحيته أن تتصرف، خاصة وأنه أصبح يعمل لحسابه الخاص، ولذلك يمكن أن يبدي أقصى التساهل، ليحمل الآخرين، أيضاً، على أن يفعلوا مثله. أن علاقة من هذا النوع أساسها الثقة والأريحية، يمكن أن تفتح لهم مجالات لا حدود لها، ولا بد أن تعوض «الخسائر» التي يفترض الحريصون أنها الأساس للربح.

قال لنفسه بثقة: «هؤلاء البدو، كما قرأت، وكان يحلو لهم أن يرددوا باستمرار، يعتبرون أن الكلمة تعني لهم شيئاً هاماً وكبيراً، لذلك فإن عدم وجود الأدلة المكتوبة لا يعني انتفاء الحقوق. سأطلب منهم أن يؤدوا اليمين. والقضاة هنا يعتبرون اليمين دليلاً قاطعاً. لكن ماذا يعني لليفي أن يحلف يميناً كاذباً؟ وغزوان. . .؟ ربما يختلف عن ليفي، لكن يبقى المال أقوى من الاثنين».

فكر أن يستعين بعدد من أصدقائه القدامى في شركة النفط، لكنه قال لنفسه بحزن: «أغلب الناس غير مستعدين للدفاع عن الحمقى، أو للوقوف إلى جانبهم، وما دمت أنا المسؤول عن الخطأ، فيجب أن أتحمل نتائجه».

وفي ليالي الانتظار لمقابلة المسؤولين، كتب أفكاراً وملاحظات كثيرة، منها ما يتعلق بالجانب العملي، وهو الأهم، ومنها عبارات أقرب إلى الانطباعات عن موران والناس، أو الأفكار الأساسية حول بناء مدينة السلطان فنر.

في إحدى الليالي زاره صفاء الشلبي.

في البداية ادعى أنه عرف بوجوده عرضاً، أثناء زيارة لمكتب وزير الداخلية، واطلاعه على أسماء الذين يطلبون مقابلة الوزير. ولم تمض فترة قصيرة إلا وغيّر في هذه الرواية، إذ قال إن مكتب الوزير سأله عن عدد من

الأجانب، كان من بينهم اسم روبرت يونغ. وفي فترة لاحقة اعترف، ضمناً، أن غزوان طلب منه أن يقوم بهذه الزيارة، لكي يعرف طلباته بشكل محدد. وأضاف وهو يتلفت:

ـ والأفضل، يا مستر يونغ، أن تتم تسوية الموضوع ودياً، لأن استمرار النزاع ليس من مصلحة أحد!

وروبرت الذي كان متحفظاً، أقرب إلى التجهم، ولا يجيب إلا بطريقة دبلوماسية، وبإجابات قصيرة، ما لبث أن تحرك في مقعده، وابتسم، فقد أحس أن الآخرين خائفون من زيارته، وأن قراره بالمجيء إلى موران أصوب من أية خطوة اتخذها في حياته. أما حين سأله صفاء عن المبلغ الذي يعتبره تسوية مرضية، فقد رد روبرت بحدة:

ـ المسألة بالنسبة لي، مستر شلبي، متعلقة بالمبدأ أكثر مما هي متعلقة بالمبلغ!

ورغم أن صفاء عرض، أو بالأحرى أشار إلى استعداد الشركة العالمية، من أجل إقفال هذا الموضوع، إلى دفع مبالغ كبيرة، وأكد عدة مرات على كلمة «كبيرة»، إلا أن روبرت كان صامداً ورافضاً.

في نهاية هذا اللقاء، وقد طال وتشعب، قال روبرت بثقة:

ـ يبدو أن بعض الناس لا يفهم من العمل التجاري سوى الربح، بأية طريقة جاء، وهذا الفهم إذا حقق بعض النتائج المؤقتة، فإنه الوسيلة الوحيدة لتصفية هذا الوسط من هؤلاء، لأنهم مغامرون أكثر مما هم رجال أعمال، والمغامرة إذا صدف وحققت بعض الأرباح فإنها الطريقة المثالية التي تؤدي إلى الخسارة.

وهز روبرت يونغ رأسه في محاولة تهديد، كرسالة أخيرة:

ـ أعرف أنك من وجهة نظرهم، ولا تملك أن تتخذ قراراً في هذه المسألة، لكن لا بد من سماع وجهة نظرك غداً أو بعد غد حين نلتقي بوزير الداخلية.

ليفي شاوات وإليانور اللذان وصلا قبل يومين من هذا اللقاء، ولأمور متعلقة بالعمل، لم يعرفا بوجود روبرت إلا عرضاً، وقد نزل الجميع في

إحدى الاستراحات الخاصة بالأمير راكان، وأثناء تبادل الأخبار أشار غزوان إلى وجود روبرت، ولذلك كانت هذه الزيارة. أما بعد أن تمت، وبعد أن سمع الجميع ما قاله روبرت يونغ، والطريقة التي عرض أفكاره، فقد قال ليفي بسخرية:

ـ حتى العشرة ملايين دولار التي وافقنا أن تكون التسوية بيننا، لا يستحقها!

رد غزوان، وهو يقهقه:

ـ سوف ينتظر طويلاً لكي يقابل الأمير راكان، وإذا قابله سوف يتمنى نصف المبلغ الذي اقترحناه!

ـ أن بناء «يونغ لاند» على الساحل الشرقي سوف يجعل الولايات المتحدة أكثر استقراراً وتوازناً، إذ لا بد أن يوجد شيء يقابل «ديزني لاند».

قال صفاء بمكر:

ـ لم يعد يهم مستر روبرت يونغ، كما لاحظت، أن يبني مجرد مدينة، أنه يريد ليس فقط إعادة بناء العالم، وإنما يريد أيضاً أن يعيد بناء أفكاره وقيمه...

وابتسم وهو يضيف:

ـ من يسمعه يتحدث عن التجارة، وعن القواعد الصارمة التي يجب أن يتحلى بها رجال الأعمال، يتصوره مجنوناً، أو من عالم آخر.

قالت اليانور في محاولة لتغيير اتجاه الحديث:

ـ من حق كل إنسان أن يحلم، لأن الأحلام تلوّن الحياة، وتجعلها مقبولة أكثر!

لما وصل الأمير راكان، قبيل منتصف الليل، أخذ الحديث نسقاً آخر. وفي لحظة مناسبة أبلغت اليانور الأمير أن روبرت يونغ بدأ يضايقهم ويضع العراقيل في وجههم لأنهم مستمرون بتوريد الأسلحة إلى موران. وأضافت وهي تبتسم:

ـ وحين عجز عن تحقيق ما يريد في الولايات المتحدة، جاء إلى هنا لكي يحاول.

بعد ذلك أخذ غزوان الحديث، فأشار إلى أن العلاقة مع يونغ منذ البداية خطأ، وإذا كانوا قد احتملوه في فترات سابقة، فلم يعودوا قادرين على أن يفعلوا ذلك أكثر، خاصة «وأن الرجل يحلم ببناء المدينة، ولا يفكر بغيرها»، أو كما قال مازحاً أو جاداً في آخر لقاء لنا: «بالأسلحة التي تصدرونها إلى موران سوف تهدمون المدن، ومهمتي أن أعيد بناءها على طراز حديث».

أما ليفي شاوات فقد بدأ في هذا اللقاء أكثر تطرفاً، فهو يفكر أن ينسحب من هذا الميدان نهائياً، لأن المضايقات التي يتعرض لها، وفي حالات عديدة، تصل إلى حد الخطورة، وتجعله يتردد في الاستمرار، أو في عقد صفقات جديدة...

كانت كلماته واضحة مؤثرة، وقد أعقبها صمت طويل، مما دفع غزوان لأن يتدخل:

ـ الحالة الوحيدة التي تجعلنا نستمر، يا صاحب السمو، تتوقف على مدى التفهم والدعم...

رفّت عينا راكان باضطراب، وهو يفعل ذلك حين تلتبس عليه الأمور، سأل، وخرج صوته مشروخاً:

ـ شنهو المطلوب منا؟

ـ أن تثقوا بنا، وأن تدعمونا دعماً كاملاً!

وأُعطي روبرت يونغ ست ساعات لمغادرة موران. أبلغ الأمر في السادسة صباحاً: أوقظ من النوم، وطلب منه أن يستعد. ورغم الانزعاج الذي شعر به، وهو يوقظ في هذا الوقت المبكر، إلا أنه حاول تفسير مثل هذا السلوك. قال لنفسه «قد تكون مشاغل الوزير كثيرة إلى درجة لا يجد الوقت لاستقبال مراجعيه إلا بين عملين أو بين اجتماعين» وحين انتهى من ارتداء ملابسه كان في وضع نفسي أفضل، فقال لنفسه «ولولا اهتمام الوزير بالاجتماع لما تذكره في مثل هذه الساعة المبكرة».

أما بعد أن نقل الى المطار، ولعدم وجود طائرة متجهة إلى لندن، حيث كان مقرراً أن يعود عن هذا الطريق، للبحث مع إحدى الشركات المصدّرة للسلاح، ولأن طائرة أخرى كانت متجهة إلى فرانكفورت عن طريق أثينا، فقد حجز له عليها، وسُلّم جواز سفره داخل الطائرة.

قال راكان للسلطان:

- . . . ولاحظنا، طال عمرك، أن بعض الأشخاص اللي تعاونّا معهم، خاصة في قضايا السلاح، انعرفوا، فظل الجماعة وراهم إلى أن صادوهم. صادوهم وقالوا لهم: نريدكم تستمرون، ولا كأن شي صار، وتخبّرونا بالسلاح اللي يصلهم: منين وشكثره، ووين حاطينه. . . وغيره وغيره. . .

سأل السلطان بقلق:

- اي، وبعد، شنهو اللي صار؟

- جماعتنا، طال عمرك، كانوا له بالمرصاد، فما أن عرفنا من، ووين، إلا واتخذنا إجراءاتنا!

وشرح راكان بالتفصيل كيف أن جزءاً من الحرب أخذ يجري في الخطوط الخلفية، وعدّد للسلطان بضعة أسماء موجودة في الدواحس حالياً، وتبعث بأخبار تحركات الجيوش وأنواع الأسلحة، والخطط المبيتة ضد السلطنة، وأن هذه الأخبار غالباً ما تكون صادقة ودقيقة.

السلطان فنر الذي بدا عليه السرور أن أخبار هامة تأتي من الداخل، ومن العمق، إلا أن القلق عاوده من جديد، فسأل:

- وإنشاء الله زرعوا بيّنا جواسيسهم، وينقلون لهم سوالفنا؟

- كاد أن يصير، يا طويل العمر، بس الله نجّانا، ومثل ما قالوا: على نياتكم ترزقون.

وشرح بالتفصيل، من جديد، كيف أن روبرت يونغ، الذي كان شريكاً لغزوان، لم يرتح لتأجيل بناء المدينة الجديدة، وبدأ يخرب، مما اضطر الجماعة إلى قطع علاقاتهم معه، فجاء إلى موران خلال الفترة الماضية،

في محاولة لمعرفة ما هو حاصل، لكن الدوائر الأمنية التي راقبته بدقة، وتابعت كل تحركاته، قدّمت عنه معلومات كافية، رأت وزارة الداخلية، كإجراء رادع، أن تتخذ قراراً بإبعاده. لقد فعلت ذلك لأنه أميركي الجنسية، ولو كان من جنسية أخرى، خاصة عربية، لكان درساً لكل من تسوّل له نفسه أن يتجسس على السلطنة، أو أن ينقل أخبارها للأعداء!

والسلطان الذي أبدى أسفه لأن الإجراء اقتصر على الإبعاد، إذ كان يفترض أن يحبس ويحاكم، حتى لو جرى إطلاق سراحه فيما بعد، فيمكن أن يقال للحكومة الأميركية أن بعضاً من رعاياها يعملون لحساب الطرف الآخر، لكن تعبيراً عن الثقة بهذه الحكومة، فإنه يطلق سراحه.

أما راكان فقد برر الإجراء بضرورة أمنية، إذ أشار إلى أن عدة عناصر مكلفة الآن بمتابعة روبرت يونغ، وبأشكال متعددة، وربما أدت هذه المراقبة والمتابعة إلى كشف عناصر أخرى تعمل معه، أو تعمل لحساب الدواحس. أشار أخيراً إلى أن الولايات المتحدة، حسب الأنظمة والقوانين المعمول بها هناك، مضطرة لأن تدافع عن مواطنيها، مهما ارتكبوا من الأخطاء، وقد تلجأ إلى المطالبة بإجراء محاكمة علنية، وترسل محامين أو صحفيين، مما يخلق تعقيدات نحن في غنى عنها!

وافق السلطان، مضطراً، على الإجراء، لكنه قال بتأكيد:

ـ بس يلزم، يا أبو منصور، أن تفتحوا عيونكم زين، لأن الكلام اللي أسمعه بالإذاعات، واللي يكتبونه بالجرايد، يدل أن لهم جماعة بينا.

ـ نراقب كل شيء، طال عمرك، بسن تاركين لهم الحبل، وعسى أن الله يوفقنا ونصل لروسهم، وعندها، وبموافقتكم، نخليهم عبر ودروس، مثل ما كانوا الجماعة قبل شهور.

قال غزوان لليفي:

ـ النصف الأول من الاتفاق، أن يبعد روبرت وأن يمنع من الدخول، انتهينا منه، والآن بقي النصف الثاني الخاص بالولايات المتحدة. فكيف تتصور الطريقة المناسبة لمواجهته؟

رد ليفي وهو يبتسم:

ـ مثلما البشر هنا، خاصة الذين في السلطة، يتمتعون بمرونة عالية، ويستطيعون أن يفهموا أدق الأمور وأكثرها صعوبة، من خلال منطق السلطة والدفاع عن النفس، فإن القوانين، خاصة المالية، في الولايات المتحدة، قادرة على استيعاب أعقد الأمور وإيجاد المخارج لها، وسوف نبقى ويونغ نقدم الدفوع سنين عديدة إلى أن نزهق كلانا، وعند ذاك لا بد أن نتصالح. وأن نتصالح معناها الدقيق، وربما الحرفي، أن نتفق على مبلغ من المال. وما دام رفض العشرة ملايين الآن، فسوف يأتي يوم يوافق عليها، أو قد نضطر إلى زيادتها، وحتى لو خسرنا بضعة ملايين إضافية، فقد ربحنا مقابلاً لها زمناً مديداً، وهذا الزمن هو فرصتنا الوحيدة لأن نجني أكبر مبلغ ممكن!

ورغم الشرح الطويل، فقد قال غزوان بمرح:

ـ مثلما اتفقنا على تقسيم العمل، فإن القسم الخاص بي من هذه القضية قد أنجزته، وعليك أن تنجز القسم الخاص بك.

ـ لا عليك مستر محملجي.

قال صفاء بمكر:

ـ إذا أردتم فإنا كفيل بمعالجة مشكلة يونغ...

قاطعه ليفي:

ـ لا أحد من الحماقة إلى الدرجة التي يطلب معالجة سريعة لهذه المشكلة. أتركها الآن. اتركها حتى تبرد، حتى تفقد أظافرها، وعند ذاك يمكن أن تعالج بشكل أفضل، ولمصلحة المستر يونغ بالذات.

وبدأوا يفكرون بأمور أخرى.

ما كاد الصيف الكبير يبتدئ، والحرب قد طالت، حتى تبين أن ذلك الصيف لا يشبه غيره من الأصياف التي سبقته: اضطربت موران، وغادرها ذلك الهدوء الرجراج المغلف بالصمت، فقال الكبار: «مثلما الموت يقطع العدوات فإن الصيف يوقف الحروب» وقالوا أيضاً: «إذا هدأت الأمور تروح السكرة وتجيء الفكرة، سوف يتأكدون أنهم يتحاربون على شيء لا قيمة له». قال غيرهم: «من السهل أن تبدأ الحروب، لكن من الصعب أن تنتهي، وما دام الجنون فرضها، فالجنون لا يبالي بالفصول، ولا يميز بين الصيف والشتاء» قال العجرمي «مثلما يبعث الله الجراد والمحل ليختبر البشر، يبعث الحروب، ولكل شيء نهاية»، أما عمير فقد نقل عنه أنه قال: «يظل ذنب الكلب أعوج ولو وضعوه بالقصبة أربعين يوماً، وهذا ابن أختي كله عوج، وما يشفيه إلا الموت، وتشوفون!».

البدو الذين شاركوا في الحرب طوال الشهور الماضية توقفوا عندما دخل الصيف الكبير. فعلوا ذلك دون تردد أو شعور بالخطأ، فهم يعرفون أن الصيف لا يشبه غيره من الفصول، ولا يستطيعون أن يحاربوا عدوين في آن واحد. ومثلما فعل الناس الذين عاشوا في هذه الصحراء منذ أقدم العصور فعلوا: قاموا بجولاتهم الأخيرة، وكانت بين الكر والفر، ثم تراخوا، وطالت استراحاتهم، إلى أن توقفوا تماماً. وبدأ كل طرف من الطرفين المتحاربين، دون اتفاق، ودون أن يشعر أحدهما الآخر، بالتراجع، على أمل أن يقضي كل منهما الصيف في الأماكن التي تعود عليها، حتى إذا هبّت رياح الخريف المتأخرة، ودفعت أمامها الغيوم

الرطبة، عاد الفريقان لكي يلتقيا في منتصف الطريق، إذا لم يتدخل أحد بينهما ليضع حداً لهذه الحرب.

هكذا بدا أن الأمور ستسير، اعتماداً على قوانين الطبيعة، وامتثالاً للأعراف التي سادت الصحراء، غير أن ذلك الزهو المفاجئ، أو ربما نتيجة خطأ الحساب والتقدير، خاصة بعد أن وصلت كميات وفيرة من الأسلحة، جعل الأمير مساعد في حالة من الهيجان أقرب إلى الجنون، عندما لاحظ تراخي المعارك أولاً، ثم ذلك الاستعداد الذي لا يخفى للرحيل.

جمع قادة المحاربين، وبعث وراء الشيوخ، كما أصدر تعليماته بأن يؤخر دفع الرواتب، ووضع قيوداً قاسية على الركائب، في محاولة لأن يضرب ضربته الكبيرة، وربما الأخيرة. فعل ذلك وهو على قناعة أنه قادر على منع هذا الذي يجري أمام عينيه وعيون الآخرين، وكأنه الشيء الطبيعي، أو وحده الذي يجب أن يكون.

قال له قادة الأفراد أنهم لا يستطيعون منع الذين يريدون الرحيل، خاصة وأن عدداً كبيراً من الأفراد مضت عليهم شهور دون أن يزوروا عائلاتهم؛ وكان جواب الشيوخ أكثر وضوحاً وحسماً. الذين جاءوا تلبية لدعوة الأمير مساعد قالوا: «دخل الصيف». وقال الذين لم يأتوا للرسل: «صلاة الجمعة والصيف لها أحكام وما أحد يقدر يخالف الأحكام، ومثل ما قال الله: إذا نُودي للصلاة فذروا البيع، فالصيف إذا دخل ما أحد يحارب!».

لم يسلّم مساعد ولم يهدأ. بذل للذين وافقوا على البقاء أموالاً سخية، استدعى قوات من أماكن عديدة، واستعان بالدروع كقوة أساسية. مع ذلك فإن النتائج جاءت مخيبة للآمال، وكادت أن تنقلب الأمور، لولا تدخل السلطان، إذ أرسل على عجل يطلب من مساعد الشخوص إلى موران.

كان مساعد، ولأول مرة في حياته، قاسياً أقرب إلى الغضب، في حديثه مع راكان. ورغم أنه ضبط أعصابه وهو يتحدث إلى السلطان، إلا أنه لم يستطع أن يخفي المرارة، التي وصلت إلى درجة الحقد على سند،

إذ يعتبره أحد المسؤولين، والمتسبب في انفضاض البدو، وعدم رغبتهم في استمرار القتال، وكاد يقول كلاماً أكبر، لولا تدخل عدد من الأخوة، إذ طلبوا معرفة رأي سند، وأرسلوا مجحم إليه ليسمع منه.

قال لمجحم:

ـ . . . وتقول للسلطان، وتقول لمساعد، ولكل واحد يهمه الأمر: من يوم ما الله خلق موران، إذا ابتدت مربعانية الصيف الواحد يدوّر الظلال ويقيل، وغير هذا الكلام ما يصير!

ومجحم الذي حاول أن يشرح ويوضح أن الظروف الآن تغيرت، ولم يعد هناك فرق بين صيف وشتاء، وإذا كان هذا العامل يؤثر على الطرف الآخر، فلا بد من استغلاله، وبالتالي الاستفادة من عنصر المباغتة، لكن سند رد بضيق:

ـ غريب أمركم، ولا كأنكم أولاد هذي الديرة. . .

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ هذي مربعانية الصيف، ما بها لا نسمة ولا طير، وهي للإرطاب والأعناب، وتحرق المسمار بالباب، وتخلي البني آدم يحسب لكل خطوة ألف حساب، واللي يقول لكم غير كلام يغشكم. ولذلك امسكوا الأرض هالحين، إلبدوا، إلى أن يفرجها رب العالمين.

طلبوا من سند أن يأتي إلى موران للتشاور، فكان جوابه قصيراً وحاسماً:

ـ حنا هالحين بحمّارة القيظ، فإذا دخل الصفري، بالخير والسلامة، إن شاء الله ما تشوفونا إلا بموران.

قال مساعد لأخيه فنر:

ـ الناس، طال عمرك، يتمنون شوفتكم، ويزحفون حتى يصلوا، وإذا منعهم مانع يقولون: باكر أو اللي عقبه، فشنهو اللي بلى صاحبنا، بدل يوم. . . اثنين صارت مواعيده بالشهور والفصول؟ إذا خلصت مربعانية الصيف. إذا دخل الصفري. وما ينعرف باكر أو اللي عقبه شنهو اللي بعد يطلع منه؟

قال راكان:

ـ ترى الحرب، طال عمرك، لها راس واحد، وأنت راسها، فإذا سند شاف روحه وعاند، أو تصور نفسه راس ثاني، فيلزمه يعرف حده ويتأدب.

قال مساعد بحزن:

ـ إذا وافقتم، طال عمرك، أريد تعفونّي من هذي المسؤولية، وأنا خادمكم وين ما أكون!

قال راكان بغضب:

ـ اسكت يا مساعد...

وبعد قليل، وهو يتوجه بالحديث إلى مساعد، لكن يريد السلطان أن يسمع:

ـ حنا بهذا المكان أو بذاك ما هو لأنا نريد، لأن طويل العمر يريد.

وتذكر السلطان ما قاله له هاملتون ذات يوم، قال له «وهناك طريقة تمكن الأمير من معرفة وزيره واختباره، وهي طريقة لا تخطئ أبداً. فعندما يفكر الوزير بنفسه أكثر من تفكيره بك، وعندما يستهدف في جميع أعماله مصالحه الخاصة ومنافعه، فإن مثل هذا الرجل لا يكون وزيراً نافعاً، ولن يكون في وسعك الاعتماد عليه، إذ ان من تعهد إليه مهام دولة الآخرين، يجب أن لا يفكر بنفسه وإنما بالأمير، وأن لا يكترث بأي شيء سوى ما يتعلق بالأمير، وعلى الأمير بدوره، لكي يحتفظ بولاء وزيره وإخلاصه، أن يفكر به، وأن يغدق عليه المال ومظاهر التكريم، مبدياً له اللطف، ومانحاً إياه مظاهر الشرف، وعاهداً إليه بالمناصب ذات المسؤولية، بحيث تكون هذه الاموال ومظاهر التكريم المغدقة عليه كافية، لا تحمله على أن يطمع بثروات أو ألقاب جديدة، ويجب أن تكون المناصب التي يشغلها مهمة إلى درجة يخشى على ضياعها».

قال السلطان بطريقة أبوية:

ـ يلزمنا، يا مساعد، نأخذ الناس على قدر عقولهم، وأنا لما اخترتك لوزارة الدفاع اعرف أني اخترت الزلمة الذي يقدر عليها، ويطلع بيده أن

يسوس الناس. وسند أخونا، ويلزمنا نحمله، ومثل ما قلت قبل مدة: إذا ردنا ما نضيعه فنرخي له، ولا بد يرده حليبه أو ترده شهامته.

قال راكان:

ـ اللي تقوله هو الصحيح، يا طويل العمر، بس الحرب ما ترحم، ومساعد يريدها تخلص اليوم قبل باكر، وهو معذور.

ـ وألف معذور، وأنا أفهمه زين، يا راكان، بس هذول اللي بعدهم عايشين مثل الناس قبل ألف سنة: قنص وقصيد وسوالف، شنهو رأيك بيهم؟

وقبل أن يجيب راكان، هز السلطان رأسه بأسى وتابع:

ـ وسند مثل اي بدوي: شيّمه وخذ عباته. بسيط وقلبه أبيض، بس ينراد له واحد يعرفه، ويحكي معه بطريقته...

وضحك السلطان، كأنه يتذكر أشياء كثيرة، ثم خرج صوته خشناً:

ـ ويحسبنا، هالحين، أفندية، ما نعرف البادية، ولا كأنا عشنا فيها، ويظن روحه وحده اللي يعرف كل شيء. فخلنا نمدّ معه إلى أن يفرجها رب العالمين.

قال مساعد بخضوع:

ـ يمكن، يا طويل العمر، اسوي اللي تريده، بس أنا وسند ما نتوالم، وما أريدك تزعل مني.

ـ وكل الله يا ابن الحلال، وما تكون إلا راضي.

الطيارون السبعة الذين وصلوا إلى موران، لكي يتابعوا حملة الصيف، كما سميت منذ أن تم الاتفاق مع غزوان للاستعانة بطيارين أجانب، أصبحوا العنصر الأساسي لاستمرار الحملة أولاً، ثم في التطورات التي أعقبتها. إذ ما كاد مساعد يتبين استحالة استمرار المعارك البرية، حتى وضع كل ثقله على الطيران. وخلال أقل من شهر بدأت المعارك من جديد.

قيل أن أكثر طياري السلطنة، عندما صدرت إليهم الأوامر بإنهاء الحياة

في الجهة المقابلة، بقتل البشر وهدم القرى وحرق المحاصيل، لم يصدقوا آذانهم. أما حين اضطروا فقد ألقوا القنابل في الصحراء، وبعد أن تأكدوا لأن لا أحد أبداً تحتهم. وقيل إن عدداً منهم رفض تنفيذ هذه الأوامر. وقد أدى ذلك إلى زيادة الاعتماد على الطيارين الأجانب، وإلى الموافقة على شروطهم أيضاً! كما راجت في موران أخبار قوية، بعد الغارات التي تعرضت لها حومة الوادي، وأدت إلى مقتل العشرات وحرق الخيام والنخيل، وإلى هلاك معظم الأغنام والجمال، أن تلك الغارات قام بها هؤلاء الطيارون، ربما خطأ أو سهواً، وربما لأسباب أبعد من ذلك، إذ قيل أن سكان الحومة من أخوال سند، وكانت الغارات رسالة لسند بالذات. أما القوافل التي كانت تنتقل من الحدود إلى الداخل، وقد تعرض عدد منها إلى غارات جوية مدّمرة، فإن الكثيرين يؤكدون أن الطيارين الأجانب قاموا بها نتيجة أوامر صدرت إليهم، لكي يعطوا درساً أن الحرب لا تميز بين الفصول، ولا توفر أحداً، ولكي تثبت خطأ الذين تخلوا عن مهماتهم الحربية، وفضلوا العودة إلى أهلهم وديارهم!

الدمار الذي خلفته الغارات الجوية، وعلى جانبي الحدود، لا يوصف. ورغم أن الدواحس استعملوا الطيران أيضاً، إلا أنهم ما لبثوا أن توقفوا، لعدم وجود إمكانية الاستمرار، ولأنه بلغتهم المرارة التي يحس بها الناس نتيجة هذه الغارات. ومع ذلك، فإن البلاغات الحربية لم تهدأ ولم تتوقف عن تحميل الدواحس مسؤولية كل شيء. وإذا كان من الصعب تكذيب الحكومات في زمن السلم، فإن من الجنون أن يفكر أحد بتكذيبها زمن الحرب! ومع ذلك، فإن ما كان يتسرب من طياري السلطنة، ومن تصرفات الطيارين الأجانب، وبعض الأحيان من اعترافاتهم ومباهاتهم، جعل الكثيرين على قناعة أن مساعد يريد أن يدفع الأمور إلى الحد الأقصى من الخطورة واللاعودة.

بعث سند أخاه مسفر إلى السلطان برسالة: «. . . إنك تعلم يا فنر ما قصرت في شيء نجوكم. لقد كنت في حرب دائمة مع ربع خزعل من أجلكم، فهل هذا جزائي معكم؟ ثلاثة من أخوالنا قتلتهم طيارات مساعد،

وعشرات غيرهم من جماعتنا. أما الطرش والزرع فلا تسل، كله راح، انذبح أو احترق. وهذا أبد ما يصير لا بشرع ولا بدين، والحرب أبد ما تكون مثل ما يريدها مساعد واللي يشورون عله من الكفار.

«قاتل الله الشيطان، لأنه زيّن السوء لبعض الناس؛ وهالحين، إذا ردتم أن نتصافى وتتبيض القلوب، ونقول عفا الله عما سلف، فيلزم أول شي أن تشيلوا مساعد، وتطردوا الطيارين الكفار، وتعوضوا على أهل حومة الوادي، وإلى أن يجينا جوابكم دمتم سالمين».

قالت ثروت لأمها:

ـ من سنين وسنين ما شفته حمقان والشرر يتطاير من عيونه مثل ما شفته اليوم!

وثروت التي استطاعت بعد جهد، وبأساليب لا حصر لها، أن تستعيده، أو أن تعود إليه، بعد فترة التخفي، وما رافقها من مخاوف، إثر إعدام جماعة الدواحس، لجأت إلى التوسل، وفي فترة أخرى إلى التهديد بالانتحار، لأنها لم تطيق أن تكون بعيدة عنه، وبدا الهزال عليها، وأصبحت أقرب إلى المرض، مما دفعه لأن يتردد أكثر من قبل على قصر السعد، ثم تبين له أن لا مبرر لتلك المخاوف، وأن الإجراءات التي اتخذها مبالغ فيها، خاصة وأن الهدوء استمر في موران وفي السلطنة كلها، ولم تظهر أية أخبار أو توقعات للانتقام، فارتخت تلك الاحتياطات، إلا في فترات المعارك الكبيرة.

قالت ثروت ذلك لأمها دون أن تعرف سبباً محدداً للغضب، رغم محاولاتها غير المباشرة، إذ سألته إن كانت معدته تؤلمه، أو أحد كدره، وكان جوابه بالنفي، إلى أن استطاعت في اليوم التالي، أو الذي يليه، أن تعرف السبب. قال لها نصار شيئاً، وقال يونس شاهين شيئاً إضافياً، كما سمعت جزءاً مما دار بينه وبين راكان. وحين سألته، بكثير من المداورة، عن عدد من أخوته، وتوقفت بشكل خاص عند سند، فقد اعترف:

ـ هذا الأثول اللي يطارد الطير وظلاله، صارت له شروطه...

وذكر لها الرسالة التي وصلته، وهي أقرب إلى الإنذار، لكنه اختتم الحديث بأن قال:

ـ سند غلطان، لأنه ما عرف على من يملي شروطه. وباكر، إذا تواجهنا، راح يأكل أصابعه ندامة، ونشوف.

المحاولات والمؤامرات التي دبرت للإيقاع بسند لم تنجح، بل أكثر من ذلك لم تعرف تحركات سند، أو ماذا سيفعل. فإذا ذكر أنه شوهد في مكان، فإنه ينام في مكانٍ ثانٍ، ويستيقظ قبل الفجر، ليلحق الطير، كما كان يقول، أو في الحقيقة لكي يكون في مكان ثالث قبل أن تصل أخباره.

أكثر من ذلك قيل أن عدداً من الأخوة وافوه إلى حيث طلب منهم أن يكونوا، ومثلما حصل في الأيام الأخيرة من ولاية خزعل، حصل مرة أخرى، وقد أخاف ذلك فنر، حين عرف به، إلى أقصى حد. فندم أنه أعاد مسفر دون إجابة، وندم أكثر أن الغضب ظهر عليه ولم يستطع أن يخفيه. أما المحاولات لاستدراج سند فقد رافقتها بعض الأخطاء كشفت عن النوايا، مما جعل الأمور تتعقد أكثر من قبل، وجعل الكلام ينتقل من مكان إلى آخر، وكله يبرر المخاوف والتوقعات.

موران التي تعودت على الحرب، وعلى النكات الساخرة، أصيبت من جديد بالصمت. قال المسنون: «من قبل قالوا: خذوا أسرارها من زغارها، هالحين يلزم يقولون: خذوا أسرارها من حجارها وأطيارها». وقال أهل العوالي: «كل بلد طربها من رأسها، إلا موران طربها من رأس غيرها» وكانوا يقصدون أن موران لا تعرف الفرح، أما الغضب فإنه يظهر عليها بسرعة.

العجرمي الذي بلغه أن سند يبحث عنه ويريده، سأل ابن البخيت عن سبب هذه الدعوة، فكان جوابه ساخراً وجاهزاً:

ـ أنت، الله يسلمك، هالحين، بعين دامة، وإلى أن تتعافى... الله كريم.

والعجرمي مثل الكثيرين، سمع بما هو حاصل بين الأخوة، وقد

استغرب دعوة سند لكن لا يريد أن يرفضها ولا أن يلبيها، ولذلك كان جواب ابن البخيت مقنعاً. أما حين سأله مجدداً عن السبب وراء هذه الدعوة، فقد رد:

ـ القرعا، يا أبو مشعل، تتباهى بشعر بنت عمتها، وهالحين أولاد خريبط مفرّعين مدرعين، وكل واحد منهم يقول: أنا وياي أبو مشعل، وأبو مشعل لا شاف ولا دري، وما هو مع أحد، وإذا ما تصدقني باكر أو اللي عقبه يجيبك رسول طويل العمر.

تماوُت العجرمي مرة واحدة، وهو يرد على رسالة سند. قال للذين جاءوا لتلقي الجواب:

ـ وتسلّمون عليه وتقولون: أبو مشعل وجعان، إذا عاش اليوم يفارق ثاني يوم، حتى عين دامة الموصوفة ما يقدر يصلها، وإذا الله منّ عليه بالصحة والسلامة يصير خير!

أما السيارة السوداء الفاخرة التي وصلت من القصر، فقد أمر العجرمي أن تُدخل فوراً إلى الكراج، وأن توضع خلفها سيارة أخرى. ورد على تحيات السلطان بتحيات مثلها، لكنه أكد الى الذين جاءوا بالسيارة «إن الشيخ بالفراش، هدّه المرض، وإذا تشافى وتعافى بالخير والسلامة يمر ويسلّم».

كان بوده أن يركب تلك السيارة بالذات، لكي يراه الناس، فيصل الخبر إلى ابن شاهين، ويفهمه بطريقة غير مباشرة، لكنها واضحة، ماذا يعني للسلطان. وحين تذكر كلمات ابن البخيت اعتبر التحفظ ضرورياً. قال لنفسه: «إذ تهابش البزون والبزون فيلزمك تناظر، لأن اللي يتدخل بين البزازين يتهبّر».

قال مساعد لراكان:

ـ راس ما له فشكة، لكنه ما هو حاصل.

ـ احرص، يا ابن الحلال، لأنه إذا اتقتل ما نخلص.

ـ خلني أصله والوحه، وبعدها كل شي سهل!

ـ أمنعك يا مساعد، لأن همومنا تكفي!

برجس الابن الأوسط لعمير، قال لأبيه:

ـ قربت يا يوبه، لأن البلشة بلشة عميان، طايحين ببعضهم، وما خلوا ستر مغطى.

رد عمير، وهو يضغط على مخارج الكلمات:

ـ خلك بعيد هالحين يا وليدي، لأن بلشة العميان هي اللي تعوّر، والأحسن أن الواحد يناظرهم من بعيد.

وبين الصمت والصمت كانت موران لا تكف عن مراقبة قصر السعد، كانت ترهف السمع، لعل شيئاً يأتي من الداخل، أو من بعيد. ومع المراقبة النشيطة، والتنصت، كانت النكت وكان الانتظار.

مـن جملة شروط العقد الذي أبرمه ليفي شاوات مع الطيارين والفنيين أن يحق لهؤلاء التمتع بإجازات مأجورة بعد عدد من ساعات الطيران، أو بعد مرور شهر بالنسبة للفنيين، وفي حال تأجيل الإجازات، لضرورات العمل، فيجب توفير وسائل الراحة، والمتعة في القاعدة. وتنفيذاً لهذا الشرط خُصّص مطعمان، الأول في الطابق الأرضي، وهو مشترك للعرب والأجانب، على أن يكون العرب من درجة معينة، والثاني في الطابق العلوي، ومعه بار، وهو مقصور على الأجانب، ومن يدعونه من الضيوف.

أما وسائل الترفيه والرياضة التي جهّزت بها القاعدة، ثم الأدوات الإضافية التي تم استيرادها بشكل عاجل، بناء لطلب الطيارين والفنيين، فإنها من الكثرة والتنوع، بحيث شغلت الجميع خلال الأسبوعين الأول والثاني. لكن ما كادت موجة الحر تطبق، وأخذ اللهب يتساقط من السماء وينبع من الأرض، حتى بدأ التململ ثم الهمس.

طلب أوكلي، قائد المجموعة، استدعاء صفاء «للتباحث بتنفيذ شروط العقد» باعتباره ممثل الشركة المتعاقدة. وخلال الدقائق الأولى للقاء، أوضح أوكلي أن الاتفاق كان واضحاً وصريحاً مع ليفي على أن يتم استدعاء عدد من الفتيات أسبوعياً، بقدر عدد الذين يسجّلون أسماءهم من العاملين في القاعدة، إذا تعذر سفرهم. وصفاء الذي فوجئ، طلب إمهاله يومين أو ثلاثة أيام للاتصال مع مقر الشركة، والاتفاق على صيغة مناسبة.

قال غزوان للأمير مساعد:

ـ . . . وتعرفون، يا صاحب السمو، أن الطيارين في جميع أنحاء

العالم يُعاملون معاملة خاصة، لأنه بالإضافة إلى المخاطر الدائمة التي يتعرضون لها، فإن هذه المخاطر تتضاعف زمن الحرب، أو هكذا يشعر الواحد منهم، لذلك فالمتعة، خاصة مع المرأة، ما يبعث فيه الأمل والشجاعة، وهذا ما دعانا للموافقة على شرطهم: إذا تعذر عليهم التمتع بإجازتهم، فالشركة تتعهد بتأمين «المستلزمات الضرورية».

ابتسم وهو يتطلع بتحديد إلى عيني الأمير، وأضاف:

- اضطررنا أن نضع بعض العبارات بصيغة مبهمة في العقد، لاعتقادنا أنها قد لا تطبق، أو ربما تكون ظروف المعارك أفضل مما هي الآن، بحيث يذهب الطيارون في إجازات قصيرة إلى بعض الأماكن، ويعودون بعدها بحيوية ونشاط. أما إذا لم تساعدهم الظروف، فلا بد، قبل تنفيذ هذا البند من العقد، أن نأخذ موافقتكم.

بدا الموضوع طريفاً للأمير، قال وهو يبتسم:

- تراكم حاسبين لكل شي حسابه...

والتفت إلى أكثر من جهة، قبل أن يتابع.

- الحق حق، واللي أوله شرط آخرته سلامة!

رد غزوان بمرح:

- كنت على يقين، يا صاحب السمو، أنكم تقدّرون الحاجات الإنسانية، والظروف القاسية التي يعمل بها هؤلاء، إضافة إلى مشاعر الموت التي تطوقهم في كل لحظة.

قال مساعد:

- بس يلزم نشاور أبو منصور، أو على الأقل نبّلغه.

- عين الصواب، ولا بد أن يعرف!

راكان لم يستطع أن يخفي سروره واهتمامه، وتوقع أن تكون فعالية الطيران في المرحلة الجديدة أكبر. كما أنه سأل عن عدد العاملين بدقة، وتساءل ما إذا كان العدد الذي سيؤتى به من الفتيات مساوياً، وعن عدد الأيام التي سيقضينها هنا. ولما تأكد من هذه التفاصيل، قال بحزم:

ـ بس يلزم وصولهن بالليل، وما نريد أحد يحس أو يدري.

رد غزوان بمكر:

ـ بالتأكيد سنحرص على السرية المطلقة، يا صاحب السمو، وزيادة في الحيطة، وإذا عرف شيء عن الأمر، فإن القادمات ممرضات، ولمعالجة ضربات الشمس والحروق وبعض الإسعافات الأخرى؟

قال راكان، وهو يرفع إصبعه مهدداً بدعابة:

ـ ترى إذا انكشف الأمر ما نخلص.

ـ وكلّ الله، يا طويل العمر، وسوف أكلف صفاء أن يرافق السرب من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول، وبعد أداء المهمة سوف يعود بهن إلى قاعدتهن سالمات!

بعد رحلتين ليليتين للأسراب الجديدة، ورغم الاحتياطات المشددة، سواء أثناء الوصول إلى المطار المدني القريب من قاعدة الريمان، ثم الباصات المسدلة الستائر الواقفة عند سلم الطائرة، والانتقال السريع، ثم الدخول من الباب الجانبي، إلى الطابق الثاني مباشرة، دون المرور بمطعم الطابق الأرضي، وأخيراً استبدال الطهاة والخدم الستة السودانيين بآخرين، أربعة مهم هنود، وثلاثة مالطيين، فإن الأمر لم يعد سراً أبداً، إذ انتقل وانتشر كما تنتقل الرائحة، وكما ينتشر الضوء. لم يبق أحد في القاعدة إلا وعرف ما يجري في الطابق العلوي، ثم بعد ذلك في الجانب الغربي، حيث أجنحة المنامة للطيارين والفنيين.

ومن لسان إلى أذن، ومن مكان إلى مكان، عمت أخبار الممرضات والمرضى. قيل إن عدد الممرضات كان دائماً يفوق المرضى مرتين أو ثلاثاً. وقيل إن بين المرضى عدد من غير الأجانب، وأكد اثنان من الطهاة السودانيين أن الأمير مساعد زار القاعدة مرتين خلال ثلاثة أيام، وتفقد معظم الأقسام، خاصة الجانب الغربي. قام بهذه المهمة ليلاً، متخفياً ليتأكد من جاهزية القاعدة! أما الممرضات فتنقلن، في اليوم الثالث والرابع، وفي وقت متأخر من الليل، إلى أكثر من مكان، لعيادة عدد من المرضى الذين استوجبت حالتهم ذلك! وقيل إن عدداً من الممرضات

تخلف بعد رحيل السرب، لأن حالة بعض المرضى تطلبت العناية المشددة والإشراف الكامل على مدار اليوم!

في الرحلات التالية، ورغم الاحتياطات الأمنية المشدّدة، فإن قاعدة الريمان لم تعد مكاناً أميناً أو مناسباً، لذلك استبدلت بالاستراحة التابعة لوزارة الدفاع، والتي لم تكن تبعد أكثر من خمسين كيلومتراً عن حومة الوادي. هنا خصص القسم الأكبر من الاستراحة لنزول الممرضات. وقد قام راكان بعدة عمليات تفتيش للتأكد، وأبدى رضاه الكامل لما رآه ولما لمسه من النظافة! وحسن أداء المهمة، إضافة إلى المعرفة الدقيقة بالعمليات، في الليل والنهار!

ورغم أن الأخبار تأخرت في الوصول إلى موران والعوالي، لبعد قاعدة الريمان أولاً، ولأن إجازات العاملين أرجئت، بتعليمات مباشرة من الأمير مساعد، فإن القوافل التي مرت بالقرب من القاعدة، وسكان القرى المجاورة، سمعوا، ثم نقل إليهم معظم ما جرى، ومع ذلك فإن الكثيرين لم يصدقوا. وحتى لما وصلت تلك الأخبار إلى موران، فقد اعتبرت من قبيل المبالغة، أو ربما من وشايات الخصوم. لكن وصول أحد جرحى القاعدة، وكان يمت للعجرمي بصلة قربى، أكد تلك الأخبار، خاصة حين روى الكثير من التفاصيل.

قال العجرمي لعبدالله البخيت:

ـ تاري السوالف اللي يسولف بيها الناس صحيحة يا عبدالله.

ـ من قبل قلت لك: يا شيخنا: لا دخان بلا نار...

وضحك ثم أضاف بسرعة:

ـ يجوز الناس تكبّر، تبهّر، تزيد أن تنقص، لكن لا بد لكل شيء من أصل.

ـ وتصدّق أن هذا يصير يا عبدالله.

ـ صار وخلص، يا شيخنا، والله يجيرنا من الأعظم.

ـ وفوق هذا... بعد شي؟

رد عبدالله البخيت بصوت خفيض وساخر:

- كانوا، من قبل، يقولون: اثنين ما يندري بيهم: تعريص الغني وموت الفقير، أشوف بأيامنا، يا أبو مشعل، كل شي بانت قرعته، وصار يجري على سن الرمح، ولا كأن في الدنيا شرف أو ناموس!

لطم العجرمي خده بقوة وسأل:

- وبعدني أنا، يا عبدالله، اللي يفتي ويقول حلال وحرام؟

- أنت يا شيخنا وجعان من شهور وازمان، ومن قبل ما يصير فنر سلطان، وإذا أحد ينلام فابن شاهين، لأنه صار الأول والتالي.

- وأنا، أي نعم، أنا شنهو يا عبدالله؟

- أنت اللي عليك سويته يا شيخنا!

- صرت مثلهم يا عبدالله؟

- أستغفر الله يا أبو مشعل، بس ما كلف الله نفساً إلا وسعها!

- كسرتني يا ابن البخيت بدل ما تكسّر عليّ...

وانخرط العجرمي في نحيب أقرب إلى المواء، إذ كانت الكلمات تختلط مع صوت البكاء، وبدا مثيراً للإضحاك أكثر مما يستدعي الشفقة.

حين دخل ابن العليان، ولمح ذلك الجو المأتمي، تساءلات عيناه، فقال ابن البخيت بطريقة رصينة:

- تذكّر شيخنا قيام الساعة والحساب، وشنهو اللي صاير بالدنيا، فأخذه الوجد!

رفع العجرمي لعبدالله البخيت عينين ذابلتين لائمتين. تجاهل عبدالله تلك النظرات وأخذ يردد لنفسه بنوع من التشفي:

- والله لأبكي على روحي وأنا حي...

وبعد أن هدأ الجو وتغير، وحين عرف ابن العليان أن ما أثار العجرمي تلك القصص التي يتداولها الناس، قال:

- اللي ما ينقال، يا شيخنا، واللي ما هو معروف أكثر بكثير، وباكر تجيك العلوم!

أما السلطان الذي كان يعرف الكثير، ولا يكترث إلا لما يعنيه، أو ما يعتبره هاماً، وحين بلغت الأمور هذا الحد، فقد قال لمساعد وراكان:

ـ كلام الناس ما يخلص، وهذا ما هو من أمس أو اليوم، من يوم ما خلق الله الدنيا، وأنا أكثر الكلام ما أشيله من أرضه، بس إذا زاد عن حده، وأنتم تعرفون أهل موران، تطلع لنا بلاوي ما هي بالبال.

ومساعد الذي أشار إلى الإنجازات الكبيرة التي حققها الطيران خلال الفترة الماضية، أكد أنه لن يمر شهر آخر إلا وتدك معاقل الأعداء وتصفى جيوب المقاومة، وعند ذاك ستكون الطريق مفتوحة أمام القوات البرية، وسوف تنجز المهمة بسهولة، وختم كلامه بأن قال:

ـ وتعرفون طال عمركم، أن جماعتنا، اللي من لحمنا ودمنا، ما تحملوا هذا الجو، وكل واحد منهم دوّر أهله، وهذول جاوا من تلفات الدنيا، ومتحملين القيظ والخطر، ولأن شرطهم أن يأخذوا إجازات، فقلنا الحل الثاني أسهل وأخير، وإن شاء الله ما نكون مخطين.

قال السلطان، وقد تذكر كلمات هاملتون:

ـ إذا خيّرونا بين أن الناس يحبونا أو يهابونا، وما قدرنا نجمع الاثنين، لا بالله نختار أنهم يهابونا، ويخافون منا، وتعرفون: رضا الناس ما هو سهل المنال.

قال مساعد بحدة:

ـ وإذا تساهلنا، يا طويل العمر، وما شاف منا الناس إلا الطبطبة على الظهر، وما يخالف، فأيام الحرب ومثل ما قالوا لي، الكلمة مثل الرصاصة، ويجوز يكون فعلها أكبر، فيلزمنا أن نتشدّد وأبد ما نتساهل.

رد السلطان، وهو ينظر إلى البعيد:

ـ وتوكّدون على الخويا أن يحرصوا ويقتصدوا، لأنّا ما نريد طلايب.

قال مساعد لراكان بعد هذا اللقاء:

ـ كل هذي السوالف من سند وأهل حومة الوادي، وما نخلص من هذي الطلايب إذا ما تأدبوا!

قال راكان همساً:

ـ إذا سمعت منك هذا الكلام فما أريد غيري يسمعه!

وبعد قليل، وبنفس الصوت الهامس:

ـ كانت الوالدة، الله يذكرها بالخير، دوم توصيني، ولا بد أنك سامعها: إذا ضربت اضرب حيل، بس لا تعلّم بطاريك، لأن بعد كل عركة صلحة، والخاسر هو اللي ينضرب وما يرد الصاع صاعين!

ولم يتأخر مساعد، فالضربة التي وجهتها الطائرات لحومة الوادي، لم تبق فيها شيئاً. لكن من حسن حظ أهلها أنهم ارتحلوا عنها قبل أيام قليلة، لأن مياهها تلك السنة شحت إلى درجة لم يعد الناس قادرين على البقاء.

وسند الذي وصلته الأخبار بأن حومة الوادي لم تعد موجودة، إذ احترق ما تبقى فيها من أشجار، وهدمت بيوتِها كلها، فقد قال أمام الكثيرين:

ـ إذا الرجال سالمين كل شي يعود ويتعوض. حجر فوق حجر يصير بيت، وسنة والثانية يكبر الشجر، بس يلزم مساعد وربعه يتذكرون هذا اليوم زين، ونتواجه. . .

وبعد قليل أضاف بحزن وسخرية:

ـ ويجوز أن حومة الوادي ترجع قبل ما يحطون أول حجر بارم ذات العماد، بمدينة كبيرهم اللي علمهم السحر، فنر.

قال عمير الذي بلغه ما حصل:

ـ كان خريبط يفكر بيومه. يخلّف ويشمر، وإذا ناظر حوله وشاف عزوته تكبر، ما يعطي فرحته لأحد، لكن راح يوم وجا الثاني، وطاحت بين الولد. وإذا كان لليوم بعدهم بالإشارة والوما، فباكر أو اللي عقبه راح يصير الدم بينهم للركب، واللي يعيش يشوف!.

كتب يونس شاهين بتوقيعه، وبإيعاز من السلطان افتتاحية قال فيها:

«. . . وفي هذه الظروف الدقيقة التي تجتازها السلطنة، حيث تتعرض للعدوان السافر، فإن هذا العدوان لا يقتصر على الغزو العسكري فقط، ولا

يتمثل بالغارات الجوية التي تتعرض لها القرى الحدودية في السلطنة وحدها، وإنما ترافقها أيضاً الحرب النفسية، حيث ينشر العدو الشائعات، ويحرض بعض الحاقدين أو الطامحين للوقوف سلبياً تجاه الحرب العدوانية الدائرة، إذا لم يستطع أن يقنعهم بالوقوف معه.

«إن الجهات الرسمية على معرفة دقيقة بمخطط الأعداء، وتعرف الأيدي التي تمتد إلى الداخل، هنا وهناك، للتحريض وبث روح الفتنة، وإذا اتسمت مواقف الحكومة، خلال الفترة السابقة كلها، بالاتزان وإعطاء المضللين فرصة للعودة والتوبة، فإنها ابتداء من اليوم ستضرب بيد من حديد، وسوف تعطي درساً للجبناء والضعفاء وذوي النفوس المريضة، وقد أعذر من أنذر، والعاقبة للمتقين».

أكثر الذين قرأوا هذه الافتتاحية عرفوا أن سند هو المقصود بالدرجة الأولى، وفهموا أن إجراءات رادعة سوف تتخذ.

قال أهل موران: «الواحد، بمثل هذه الأيام، ما يسأل عن سعر السكر والطحين، يهمه أن هذه المواد موجودة، ويقدر يشتري منها اللي يكفيه، لأن باكر أو اللي عقبه، إذا بلشت بين الربع، الواحد ما يلقى أي شي».

وارتفعت أسعار الكثير من المواد، وزادت حرارة الجو أكثر من قبل، فأصبح الليل الستر الذي يغطي جميع الناس، وتحت هذا الستر كانت تجري أمور عديدة، وتقال أشياء أكثر.

قال عرّاك المشعل لولديه الذين عادا من الولايات المتحدة، خلال العطلة الصيفية، وقد سمعهما يتحدثان بصوت عالٍ، عما قرآه في الصحف الأميركية، حول موران:

ـ هذه مورانا وحنا أدرى الناس بيها، والغُرب إذ عرفوا شي، مثل اللي يشوف من الجمل سنامه، فاتركوا سوالف الجرايد وناظروا زين قبل ما تقولون فلاني وتركاني!

وحين ضحك فواز، الابن الأكبر، وأكد لأبيه أن العالم أصبح صغيراً، وأن ما يجري في مكان من الكرة الأرضية لا يلبث أن ينتقل إلى جميع

أنحاء المعمورة، وفي اليوم ذاته، ولذلك يعرف كل شيء، حتى وهو بعيد، فقد رد عليه أبوه:

ـ هذا تقول لجماعتك، لِلولد بعمرك، أما حنا اللي عشنا وشفنا، وعرفنا شلون تصير الأمور، فما نصدّق إلا إذا شفنا بعينا، أو سمعنا بآذانّا!

رد فواز بتحدٍ:

ـ حكومات هذه الأيام، يا يوبه، تقول شي وتسوي شي ثاني، والواحد ما يقدر يحكم على اللي يشوفه بنفسه، لأن الأمور تعقدت وتداخلت، وأصبحت بحاجة إلى معلومات كثيرة ومتنوعة.

قال عرّاك بضيق:

ـ يا وليدي الصحيح ما يضم راسه، يبيّن. والشين دايماً صلعته تلمع!

ـ أنا موافق، ولكن يجب أن نعرف...

ـ اسمع يا وليدي: ما أريد أدوّخ أحد، وما أريد تدوخني، فخل سوالفك لربعك وخلني بالسوالف اللي تفيدني...

وانتبه الأب فجأة إلى أن جو موران في هذه الأيام غير عادي، وخاف على ولديه أن يخطئا، قال بصوت خفيض:

ـ وموران غير بلاد ثانية: الواحد يلزمه يعرف خويه، ويعرف شنهو اللي يقوله، ولمن، وإلا راح طعام للنسور.

ضحك فواز، وبدا غير مقتنع. تابع الأب، وكأنه لم ير شيئاً:

ـ من زمان قالوا بهذي الديرة: إذا تكلمت بالنهار فالتفت، وإذا تكلمت بالليل فاخفت، لأن أولاد الحلال، اللي يشيلون حتى الحجارة من مكانها، ولا أكثر منهم.

قالت الملكة ثروت لأمها:

ـ راح يشيب شعري قبل ما أعرف شلون أتعامل معه...

وزفرت بحرقة، ثم أضافت:

ـ طلعت روحي حتى رضي وصار، وما مضت جمعة والثانية، وقبل ما يخلص الشهر، ولا كأنه هو. تغيّر. انتحس. رجع اصعب من قبل. إذا

سألته: متى ترجع؟ يتطلع لي وكأني عدوة، وما يجاوب. قلت لازم يكون مهموم، وشي شاغله، وحاولت أحمل همه، أعاونه، لكن لا يريدني ولا يريد معونتي، وأنا حايرة أكثر من قبل.

فريزة خانم التي صمتت، لا تعرف ماذا تقول، بدا عليها الهم الأقرب إلى الحزن، وكانت تنقل نظراتها بين قطع الأثاث لتتأكد من تناسقها. وهذه النظرات أثارت الملكة، إذ قالت بحدة:

ـ من يوم ما سماني ملكة ضحك عليّ. اشتراني بهذا اللقب، قال لي: ملكة وتخرسي!

قالت فريزة خانم بضيق:

ـ طولة البال، يا بنتي، ما في مثلها، فطولي بالك، وربك يفرجها.

ـ ما بعد الصبر إلا القبر.

هكذا ردت ثروت وهي تنهض احتجاجاً على أمها وعلى فنر.

قال فرحان المدلول الذي كان يصب القهوة أيام السلطان خريبط:

ـ إذا البني آدم عاش أكثر من اللازم يتعب، ويتعّب غيره، فيا رب اقبض عبدك، ولا تجعلنا من أهل الكهف!

قال أحد الذين يسمعون:

ـ لكن كل يوم من هذي الأيام، يا عم، بألف!

ـ اللهم حسن الختام.

هكذا رد فرحان المدلول، واستمر يلعب بمسبحته وينتظر، واستمرت موران تنتظر.

صفاء الشلبي: مربوع، دائم الابتسام، ذكي، طويل وأقرب إلى النحافة والسمرة، لا يكف عن الحركة، ولا يتعب من تقديم المساعدة. يحس الذين يعرفونه، أو يتعرفون عليه، أنه قريب ودافئ، لذلك سرعان ما تتحول العلاقة معه إلى صداقة. الخدمات التي يعرض أن يقوم بها غالباً ما تكون عفوية، وليدة اللحظة، مما يضفي عليها أهمية استثنائية، وشعوراً حميماً بالمشاركة، خاصة وأنه لا يريد ولا يتوقع مقابلاً لها. ولأنه كريم ومحب للآخرين، فإن علاقاته تقوى وتتمتن دون جهد، أما تلك العفوية التي تميز تصرفاته فإنها تكسر الحواجز النفسية بسرعة بينه وبين الكثيرين.

من خلال إقامته الطويلة والمستمرة في موران، أصبحت له علاقات واسعة ومتشعبة، ومما زاد في ذلك معرفته بالإنكليزية، والفرنسية، إذ أصبح نافعاً، وبعض الأحيان ضرورياً، في مجالات عديدة.

كان يستطيع، مثلاً، وهو في موران، عن طريق الهاتف، أو بواسطة أصدقاء، أن يؤمن أمكنة مناسبة للاصطياف في إسبانيا أو الريفييرا الفرنسية، ولمن يريد بلداً مسلماً، في تركيا. وكان يحصل على مواعيد مع كبار الأطباء، في عواصم عديدة، خلال فترة قصيرة، الأمر الذي تعجز عنه سفارات السلطنة. أما الهدايا التي كان يحملها معه في أسفاره المتلاحقة والقصيرة، فكانت تثير الاهتمام، وينتظرها الأصدقاء، لجمالها وارتفاع قيمتها، ولندرتها أيضاً.

لم يكن يتوقع أن تقوم بينه وبين كبار مسؤولي الدولة تلك العلاقات الحميمة، وبسرعة، لكن ما كاد يحضر بعض الاجتماعات مع غزوان،

ويتعرف على عدد من المسؤولين، حتى يصبح إنساناً لا غنى عنه. أما بعد أن أخذت سفرات غزوان تطول، وأنيطت به كافة أعمال الشركة العالمية في السلطنة، فقد أصبح الكثيرون يبحثون عنه، لأنه الوحيد القادر على متابعة الأمور.

راكان الذي تخوف منه في اللقاء الأول، ربما لحركته الزائدة، ما لبث أن أصبح أقل تحفظاً في اللقاء الثاني. وحين تعددت اللقاءات، وبدت منه تلك الاستجابة، إضافة إلى المهارة والسرعة، لم يعد قادراً على أن يتعامل مع غيره.

قال له ذات مرة مازحاً:

ـ شنهو رأيك، يا ابن الحلال، لو تترك الشركة وتشتغل معنا؟

ـ هذا أكبر شرف أطمح إليه، يا صاحب السمو.

ـ ونعطيك قدر ما تحصله وزود!

ـ وغزوان، يا صاحب السمو؟

ـ هذه البلية اللي ما لها حل!

أما بعد أن تنوعت العلاقات وتداخلت، فقد أصبح صفاء الشلبي أكثر حرصاً ودقة في متابعة أعمال الشركة، وقد لاحظ ذلك عدد من الذين لهم به علاقة. وهذه الصفة التي لم ترق لبعض العاملين في مكتب الأمير راكان، اعتبرها الأمير ميزة إضافية، وعنّ له أن يختبر صفاء من جديد:

ـ . . . وقلت لي إن الجماعة مخصصين لك راتب شهري وعشر بالمائة، ما هو كذا؟

ـ أي نعم يا صاحب السمو.

ـ والباقي؟

ـ الباقي، يا صاحب السمو، لتسديد تكاليف المكاتب والسفر والرواتب والفنادق والهدايا، وعشرات البنود الأخرى، وما تبقى لأصحاب الشركة.

ـ كل هذا اللي عدّدته، يا ابن الحلال، ما هو شي بالنسبة للأرباح. فيلزم أن تكون حصتك أكبر.

ـ ما احصل عليه يكفيني، يا صاحب السمو.

ـ لكن كل الشغل عليك، أنت اللي تطارد ليل نهار، وتركّض من هنا لهنا، وبعدين. . . لك عشر ولهم تسعين؟

ـ القناعة كنز لا يفنى، يا طويل العمر.

ـ القناعة بالصلاة والصوم، ما هو بالمال، لأن المال ما أحد يشبع منه!

ـ بس المال، يا طويل العمر؟

هكذا سأل صفاء وهو يبتسم ابتسامة ناعمة، أقرب إلى الخجل. فهم الأمير. ضحك، كانت ضحكته أقرب إلى القهقهة، وبعد أن هدأ:

ـ ما تنسى شي يا ملعون!

وأصبحت العلاقات بين الاثنين أقوى وأكثر متانة وثقة. وبمرور الوقت اكتشف الأمير راكان أن صفاء يكنّ له وداً خاصاً، وقد تأكد من ذلك حين وصلت الفتاة الفنلندية في السرب الأخير، إذ ما كاد الأمير يبدي إعجابه بها، وبدا محرجاً أن يطلب بقاءها، حتى استبقاها صفاء دون أن ينتبه أحد، بمن فيهم الأمير مساعد الذي سأل عنها بالذات، لكن لم يُجب إجابة واضحة. بقيت الفتاة في إحدى الاستراحات شهراً كاملاً، قبل أن تستبدل بثلاث أخريات، اثنتين من السويد والثالثة من جزر هاواي، كنّ قد وصلن ضمن السرب الجديد.

كان صفاء دقيقاً في تصرفاته. لا يحب الخطأ، كما لا يحب الادعاء. كان يعرف متى يجب أن يكون موجوداً ومتى يجب أن ينسحب. أما الكتمان الذي كان يتميز به، فقد تعلمه من خلال العمل، إلى أن أصبح إحدى الصفات المميزة لشخصيته وسلوكه. «لأن الكلمة في غير مكانها، ومع الشخص غير المناسب، خسارة مؤكدة» هكذا كان يقول لنفسه، ويتذكر عدداً من الخسارات، أو الأرباح التي حصلت نتيجة كلمة قيلت في غير مكانها أو في غير أوانها.

ومن الأمور التي تعلمها صفاء أيضاً، أن لا يُشعر الذين يعرف عنهم كل شيء، أنه يعرف. فالأمير راكان الذي نسي، أو تجاهل، أن صفاء كان

موجوداً أثناء بحث عقد الأربعمائة سيارة، وكيف تم الاتفاق على أن تقسم الأرباح مناصفة، النصف للأمير، والآخر للشركة العالمية ثم طلب الأمير أن يودع المبلغ المستحق له في حساب، أعطى رقمه لغزوان، في سويسرا، هذا العقد سلّم صفاء بنفسه إشعار الإيداع للأمير بعد ثلاثة أسابيع من توقيعه!

رغم أن كل الأمور كانت تجري بمعرفته، ولا بد أن تمر بين يديه، فلم يتظاهر ولم يستغل تلك المعرفة، ولا أبدى ملاحظات من أي نوع. أكثر من ذلك كان يتعمد، غالباً، أن يبدو جاهلاً، أو مجرد حامل للرسائل.

أما في إطار العلاقات الشخصية فإن صفاء الشلبي يبدو كأنه خلق لهذه الحياة. يعرف كيف يكون مرحاً، خفيف الظل، من خلال النكت التي يحفظها، وغالباً ما تكون فاضحة، لكن دون تبذل، ومن خلال نعومة التصرفات. فما أن يتواجد في مكان حتى يزول التحفظ بسرعة ويسيطر جو حميم. كان يفعل ذلك دون تصنع أو مبالغة، ودون أن ينسى أيضاً المواقع والمراتب. وهذا ما كان يجعله مختلفاً عن آخرين، إذ ما يكاد يسيطر المرح أو الشراب على جلسة من الجلسات، إلا ويعطي بعض الناس لأنفسهم حقوقاً إضافية، سواء بطريقة المناداة على الأمراء، أو التعامل معهم. وإذا أبدى بعض الأمراء تسامحاً إزاء مثل هذه التجاوزات، فإنهم لا يشعرون بالراحة، ولا يفضلون أن تتكرر اللقاءات مع هؤلاء الأشخاص. صفاء، لم يقع في مثل هذا الخطأ، رغم أن علاقاته بعدد من الأمراء فاقت الكثيرين، وهذا ما جعله مرغوباً في كل جلسة، وضرورياً في كثير من الحالات.

قال راكان لمساعد ذات ليلة، وصدف أن كان صفاء مسافراً:

ـ . . . ابن الحرام مثل البزون، شلون ما رميته ينزل على رجليه. . .

وبعد قلل وهو يتلمط:

ـ تذكر الشقراء الطويلة صاحبة الأرقش، أوكلي، ما أن وكدتها، ولمحني صفاء، حتى سألني: تريدها يا طويل العمر؟ قلت له: ظني أن

هالذيب معرّت بيها وما تصحّ. قال: ما عليك، وما تنام الليلة إلا بحضنك. وما كذب خبر، ظل ورا الأرقش، يكيل له ويشرب معاه إلى أن عماه. وبالويلات، وصلّوه فراشه، شالوه يد ورجل ونام ذيك الليل بهدومه، لا حسّ ولا دري!

سأل مساعد باهتمام:

ـ وهي... شنهو اللي صار بيها؟

ـ هذا السؤال ينسأل يا مساعد، وأنا أخوك؟

وفي مجالات لا حصر لها صفاء الشلبي إنسان ضروري ولا غنى عنه. الأفلام التي كان يحملها في سفراته لا يجدها إلا الخبراء في لندن وباريس. العطور المتعددة الاستعمالات والمتنوعة يعرف متى يقدمها ولمن. بعض المجلات «الخاصة» تخرج من حقيبته في الوقت المناسب. أما كيف يزول التحفظ، وينتهي الخجل مع «الممرضات»، أو المسعفات، كما أصبح يطلق عليهن خلال الفترة الأخيرة، والدور التمهيدي الذي يحسنه صفاء إلى أقصى حد، من خلال الترجمة، والإشارة إلى بعض الصفات والوعود، ثم كيف ينسحب في اللحظة المناسبة، بعد أن يتهيأ الجو تماماً، فإن هذه المهمات لا يمكن لأحد غيره أن يؤديها بنفس الاتقان والبراعة.

كان يقوم بهذا الدور ببساطة، ونفس طيبة، بل أكثر من ذلك يعتبره عادياً، لا يثير حرجاً ولا يولد خجلاً، «لأن العلاقة بين الأصدقاء لا تقيم وزناً للاعتبارات الاجتماعية البالية». ومن أجل تأكيد هذا المفهوم، وتمييزه عن غيره، فقد كان يفصل، وبعض الأحيان بحدة، بين مرافقة طائرة من كوبنهاغن إلى موران، وفيها تلك الأسراب التي يتولى ليفي شاوات تأمينها، عن طريق وكالة متخصصة كان يتعامل معها، باعتبار أن مثل هذه المهمة جزء من العمل، ولا يعنيه أي أمر آخر، وبين انتقاء مجموعة إضافية، وعن طريق الوكالة ذاتها، لكن ضمن شروط يحددها سلفاً وبدقة، من حيث مواصفات الطول ولون البشرة، إضافة إلى أنواع الجمال المرغوبة أو المطلوبة. كان يقوم بالعمل الثاني للمتعة، من أجل الصداقة، تعبيراً عن

الود. وكان واضحاً في التعامل، وينزعج إذا اختلطت الأمور أو تداخلت الأسراب!

إضافة إلى هذه الصفات، اكتشف الأمير راكان، ولم تمضِ بضعة شهور على التعامل، صفة جديدة وهامة بصفاء: الأمانة.

قال لغزوان وهما يجريان حساباً في نهاية العام الأول للعلاقة:

ـ . . . والله وفقكم، يا غزوان، بصفاء. ما مثله، وهذا وحده ما يتقدر بثمن، ما هو بس من ناحية شطارته وحرصه، هَمّ من ناحية أمانته.

وروى الأمير بكثير من الانفعال والمرح كيف أنه حاول إغراءه، ليختبر مدى استقامته، وكيف ألح عليه، لكنه قاوم كل الإغراءات ورفض جميع العروض. وختم الأمير كلامه:

ـ . . . والبني آدم، يا غزوان، حتى لو كان من صخر، إذا شاف هذه الفلوس، وعرف المربح، وإذا كان الشغل هنا كله عن طريقه، يرتخي، لكن، والشهادة لله، هذا الرِّجال عينه شبعانه، وما بنفسه شي، إلا اللي يجيبه بالحلال.

غزوان الذي بدا مسروراً وواثقاً، قال، وهو يهز رأسه، ويعني أشياء كثيرة:

ـ في مجال الأعمال، يا صاحب السمو، فإن اختيار المساعدين، ونوع المهمات التي يكلفون بها، وحجم الثقة التي تمنح لهم، لا تقل بنتائجها عن الأعمال السياسية، والشروط التي يتطلبها الرؤساء بمرؤوسيهم!

وبعد قليل وبمرح:

ـ وأول من لفت نظرنا إلى روبرت يونغ كان صفاء. كان يقول عنه: رجل هوائي، عجوز ثرثار وعقيم، ولا يعرف إلا أن يقاسمك على الأرباح!

قال الأمير راكان بطريقة أبوية:

ـ يلزم تحرصون عليه وما تخلونه إلاّ راضي.

أما السبب الأهم الذي جعل الأمير يكتشف أمانة صفاء، فكان موضوع

الاستثمار. فالمبالغ التي استحقت له خلال الفترة الأولى طلب إيداعها في سويسرا، ضمن أرقام سلمها إلى غزوان، ولم يفكر، ولم يأت من ينبهه، إلى إمكانية استثمارٍ أفضل، خاصة إذا أودعت في حساب طويل الأجل، أو إذا حوّلت إلى سندات.

صفاء وهو يسلّم الأمير راكان عدداً من الشيكات، لفت نظره، بطريقة لا تخلو من مشاعر الحرج، أنه يمكن توظيف هذه المبالغ في السوق المالية، كما يمكن الاستفادة من التنافس الموجود بين المصارف الأوروبية والمصارف الأميركية على نسب الفوائد، بل ويمكن الاستفادة من التنافس الموجود بين البنوك الموجودة في البلد الواحد، والحصول على شروط أفضل. والأمير الذي فوجئ بهذه الخيارات، وما تتيحه من احتمالات ربح أكبر، طلب منه أن يقوم بزيارة عاجلة إلى سويسرا، ويعود إليه بالخيارات المناسبة، بعد أن يبحثها مع عدة بنوك، أما القرار فيستخذ بعد عودته.

لم يتأخر صفاء في القيام بهذه المهمة، ثم الوصول إلى قرار صيغة إيداعات متعددة، تجنباً للمغامرة، وقبولاً بالحد المعقول من الأرباح المضمونة، إضافة إلى اعتبار هذه الصيغة تجريبية لفترة سنة أو سنتين، وعلى ضوء النتائج، يمكن تعديلها، خاصة وأن مجموعة الشركات المتعاقدة مع السلطنة على توريد السلع، أو تنفيذ مشاريع، اشترطت أن تدفع «الأتعاب» على أقساط تتناسب مع المدفوعات التي تحصل عليها نتيجة التوريدات أو تنفيذ المشاريع.

مقابل هذه الخدمات امتنع صفاء، وإلى درجة الرفض، أن يتلقى شيئاً. والأمير الذي استغرب، ولم يحتمل، قال في محاولة ضغط أخيرة:

ـ هذا معناه أنك ما تريد تعاوّنا مرة ثانية، أو أنك قمت بالعمل سخرة أو غصب عنك، وهذا ما أريده!

احرج صفاء. بدت عليه الحيرة، وبعد فترة صمت، قال وخرج صوته مرتبكاً:

ـ إذا أمرتم، يا صاحب السمو، فأنا اعتبر ما قمت به من عمل لا يتعدى الصداقة والمحبة، وفي حال الإصرار، وتحويله إلى مبلغ من

المال، فمعنى ذلك أنكم لا تريدون صداقتي، أو أني مثل الآخرين. . .

وتطلع إلى الأمير بعينين راجيتين وأضاف:

ـ وإذا كان لا بد من مقابل، فأنا أقترح أن يكون: تغطية مصاريف الرحلة و. . .

توقف قليلاً وهو يبتسم، تطلع إليه الأمير بإمعان، وحين وجده متردداً سأله:

ـ تغطية مصاريف الرحلة. . . وشنهو بعد؟

ـ منذ وقت طويل كنت أمني نفسي أن أحصل من سموكم على سيف!

ـ سيف؟

ـ أي نعم، يا صاحب السمو، لأني سأعلقه في صدر البيت، وسأنظر إليه كرمز لصداقة بيننا أرجو أن تدوم إلى الأبد.

تأثر الأمير راكان، جر نفساً عميقاً، وبعد فترة صمت طويلة قال:

ـ قبل ما تصل البيت يكون السيف هناك. . .

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ بس هذي آخر مرة أقبل منك الاعتذار. والنوبة الثانية، إذا كلفناك بشي، إذا سويت لنا شي، أول خطوة: نسألك: كم تريد؟

وضحك بمرح وأضاف:

ـ ويجوز اللي تطلبه كثير، فنقول لك: لا بالله، غيرك طلب أقل، ونتساوم، ونرفع وتنزل، إلى أن نتفق، شنهو قولك؟

ـ تمام يا صاحب السمو، وخيرها بغيرها، مثل ما يقول الشوام!

لم يكن الأمير راكان وحده الذي تربطه بصفاء تلك العلاقة، فعدد آخر من الأمراء عرفوه من خلال العمل، أو من خلال سهرات الطرب التي كانت تجري دورياً؛ وبعضهم عرفه عن طريق المسعفات. وغير هؤلاء لكثرة ما تردد اسمه، وبدافع حب الاستطلاع والتعرف. وكل واحد من الذين تعرفوا عليه، أحس أنه يعرفه منذ وقت طويل، حتى أنه لم تنته ليلة،

وصدف أنه كان موجوداً، إلا واتفق مع العديدين على تبادل الزيارات، أو على تأمين حاجات معينة. وإذا لم يتم الوصول إلى اتفاق من نوع ما، فلا بد أن تبقى في الذاكرة تلك الليلة وتلك السهرة!

ولأن موران، تلك الفترة، كانت مشغولة بالحرب، والتفكير بطريقة مناسبة لمواجهة مصاعب الحياة، فلم يكن لدى الكثيرين الوقت الكافي للانشغال بالأمور الأخرى، أو للتفكير بما يتجاوز اليوم الذي يعيشون فيه.

قال الكثيرون من أهل موران: «هذه السنة كشرة اللي ما أخذته الحرب راح يذبحه العطش أو الجوع، وعسى تكون نهايتها أحسن من بدايتها». وقال أهل العوالي: «كان الناس، من قبل، يقولون: الصيف جنة الفقير: يدفا ويتعافى، ومثل الطير يسكّت جوعته بما يلقى، لكن أثاري هذه السنة سنة العقبان والغربان، اللي ما أكله ابن العليان يحوشه راكان، وضاعت على الناس بين الصيف والشتا». أما أهل الحويزة فإن معظممهم حملوا أحزانهم وقهرهم وارتحلوا من مكان إلى آخر، وراء الكلأ والماء، ومن بقي منهم أصيب بالجرب، ثم جاء التيفوس فقضى على الكثيرين.

ولأن الحرب لا تتعب ولا تميز بين البشر، ظلت تستقبل أفواجاً لا نهاية لها من الرجال والأموال. أما الطائرات التي تجوب السماء، فإنها لا تميز، أو لا تريد أن تميز، ولذلك أخذت في طريق الذهاب والعودة الكثيرين. قال أهل حومة الوادي «الطير الحر ما يطلب الهداد إلا إذا شاف. والذيب ما يقرب الغنم إلا إذا جاع. وهذه العفاريت اللي تطارد بالسما تحرق الأخضر واليابس، بروحتها وبردتها. فعساها تروح وما ترد». أما رجال قاعدة الريمان فقد قالوا بصوت مقهور أقرب إلى اليأس: «يحرم علينا إذا قتلنا ضب بالفلا. ولو كان بنزين طيارتنا يصل كان وصلنا، وشفتم، لكن...».

قال سبندر كوانتي، متعهد الاسراب، لصفاء:

- ... ابتداء من أول هذا الشهر أصبحت الأسعار مختلفة، إذ بالإضافة إلى قانون زيادة الرواتب الذي أقرّته الحكومة قبل أسبوعين، فإن

الفتيات أقل ميلاً ورغبة للسفر إلى الصحراء، فهناك أخذت تقع أخطاء لا يمكن تجاهلها، إضافة إلى إرهاق الطقس والعمل!

ولما أبدى صفاء استغرابه، أو عدم فهمه لهذه التفاصيل، أضاف سبندر:

ـ لا أريد أن أدخل في مناقشات عقيمة الآن، لكن يجب أن تعرفوا بوضوح: أسعارنا تغيرت. . .

وضحك بسخرية، وقال:

ـ مع ليفي اتفقنا: رأس وليلة، وكان هذا اتفاق جنتلمان، أما أن يتحول الأمر إلى هذا الشكل المرعب: عدة أشخاص في الليلة الواحدة، وليس هناك فرق بين ليل ونهار، ولا وقت أبداً للراحة، فإن كل فتاة هنا تفضل أن تستقبل عدداً من البحارة، برغبتها واختيارها، على أن يفرض عليها عشرة من الذئاب، لا يتعاقبونها فقط وإنما يغتصبونها اغتصاباً.

قال صفاء في محاولة أخيرة لإنقاذ الموقف:

ـ يمكن الموافقة على ارتفاع الأسعار القانوني، أما ما عدا ذلك فلا بد من مناقشته مع ليفي.

قال سبندر بحدة:

ـ ليفي لا يهمه سوى الربح، والربح السهل، فهو يتقاضى على كل رأس ـ ليلة مائة دولار، أما كيف هو الرأس، وما هي الليلة، فانا وحدي، باعتباري أباً لهؤلاء البائسات، المسؤول واعرف. إن كل واحدة تعود من هناك تحتاج إلى أسابيع، إذا لم أقل شهوراً، من الاستجمام والمعالجة.

في مجلس الحل والربط الذي دعا إليه السلطان، وقد تغيب عنه، هذه المرة، عدد من الأخوة، إما لسفرهم خارج السلطنة، أو بحجة المرض، وغاب أيضاً سند، بدا السلطان مهموماً أكثر من أي وقت سابق. وبعد فترة صمت، بدت بنظر الكثيرين، طويلة بدأ السلطان الكلام:

ـ كلكم تدرون أن الحرب انفرضت علينا. ما كنا نريدها، لكن هذا اللي قسمه رب العالمين، وما كان أمامنا درب ثاني. . .

تنفس بحزن، تطلع إلى الوجوه بسرعة، ثم تابع:

ـ والحرب ما هي بس رصاص ودبابات وطيارات، الحرب، قبل كل شيء، بداخل النفس، يلزم أن الواحد يكون قانع ومستعد حتى يقدر يدافع عن أرضه وعرضه، وهذا يحتاج أن الناس تتصافى قلوبهم، ويكونون يد واحدة. . .

تحرك في كرسيه، بدا قلقاً شاحباً، وزاد في ارتباكه أن جميع العيون تتابعه، نبر بحدة:

ـ كنت أريد بهذا اليوم أن يكون سند موجود، ونتواجه. كنت أريد أبحرّ بعينه وأسأله: شلون يعطيك قلبك يا سند أنك تسوي اللي سويته؟ شلون يا سند تخالف الجميع وتقول على روس الأشهاد: الحرب خايسة، الحرب ما تحل مشاكل، الحرب قتلت ودمرت. . .؟ من هو اللي سوى الحرب؟ وإذا الأعداء هاجمونا ودشواعلينا، شنهو اللي يلزم نسوّيه؟ نقول هلم: لا يا جماعة الخير، ما يصير، ولا تسوونها نوبة ثانية؟ وإذا كان سند، أو غير سند، عنده رأي، يلزم يجينا ويقول، لا إنه يروح هنا وهنا وما عنده شغل ألا يسبسب ويتكلم الزايدة والناقصة!

تبادل الأخوة النظرات، خاصة راكان ومساعد. كاد مساعد أن يتكلم، لكن نظرة راكان، أو ربما عضة الشفة، الحازمة، جعلته يتردد. تابع السلطان:

ـ قبل ما تمشون، قبل ما ينتهي مجلسنا هذا، أريد منكم كلمة واضحة: بعدكم على بيعتكم وكل واحد يحط دم قلبه، وكلنا يد واحدة، ونحارب بكل قوتنا، أم أحد منكم له رأي ثاني؟.

وتباري الأخوة في إظهار حماسهم وتأييدهم، وفي إدانة مواقف المتخاذلين، خاصة سند. وفي محاولة لأن تأخذ الأمور صيغة عملية وفعالة، قال راكان بحدة:

ـ من رأي هذا ما يكفي، يلزم سند أنه يجي ويواجهنا، حتى يسمع رأينا، لأن المسألة مسألة حياة أو موت، وإذا تحملنا وسكتنا، مثل ما راد طويل العمر، فما عاد بنا صبار.

ـ ظني يا أبو منصور، أنه ما يقدر يواجه طويل العمر.

هكذا رد مساعد، فسأل شاهر:

ـ والحل؟

ـ الحل، الله يسلمك، إذا وافق طويل العمر، أن نبعث وراه، ونقول له: يلزم حضورك، فإذا ما جاء نعزله من المجلس، ونقطع عنه المخصصات، وإذا ما تأدب لكل حادث حديث.

هكذا رد راكان:

قال السلطان:

ـ المهم، هالحين، أن الموجودين يكونون قلب واحد، ويد واحدة، والمسائل الثانية تنحلّ.

بعد أن انفض المجلس، قال السلطان لمساعد.

ـ إذا ظلت الحرب هالشكل، يا مساعد، تراها تتعبنا. أريد زخم، أريد تكسر عظامهم، تضرب بقوة. أما طلقة هنا، وقنبلة هنا، فترى هذا ما يفيدنا.

ـ نريد نتعاقد على أسلحة جديدة، وعلى طيارين، يا طويل العمر.

ـ اللي يلزم سوّه، يا مساعد، وأنت مفوض.

والتفت السلطان إلى الأمير راكان:

ـ وأهل موران بخاصة، يا راكان، لساناتهم طالت، وكل يوم تصلني الأخبار...

وبعد قليل، وقد تغيرت لهجته:

ـ يلزمك تشدّ عليهم، تخليهم يركّضون وأبد ما يصلون، والواحد ما ينسدح يريد ينام إلا وبرأسه ألف همّ، لأنا إذا تركناهم يسولفون ويقسّمون، تراهم يثولونا، ويسدّون علينا الدروب...

وتغيرت اللهجة:

ـ خلّهم ينشغلون برزقهم، وخل رغيف الخبز يصير بالنسبة لهم مثل

لهايّة الرعيان، ينشاف وما ينلحق. يرجون على الصغيرة والكبيرة. واليوم وباكر، ولساناتهم، من العطش، تتدلى شبر، حتى إذا تعبوا تأدبوا، وقالوا: إن الله حق، ويشوفون كل شي وكأنه عطية من السما.

ابتسم وهو ينظر بإمعان إلى راكان، وأضاف:

ـ وأنا كلّفت رباح أن يتعاون معك، لأن مثل هذه السوالف فادت بمكانات ثانية، وسيطروا على الناس بهذه الطريقة...

قال راكان وهو يفرك يديه:

ـ أهل موران ما لهم إلا العصا، يا طويل العمر.

ـ العصا ورغيف الخبز يا راكان.

وفي اليوم التالي بدأت لجان مختصة تدرس كيف يمكن مواجهة الإشاعات، وإشغال الناس، ومحاربة ظواهر الرخاوة والبلادة والكلام البذيء والنكات!

بعد أن تمت معاقبة حومة الوادي، قصفت «الطائرات المعادية»، كم ذكرت إذاعة موران، العبيلة ثم الزميقة ومشعان، فالجريفة فالعطارة، وربما قرى أخرى أيضاً. وهذه القرى أربع منها تبعد كثيراً عن حدود الدواحس، وتبعد عن بعضها مسافات ليست قليلة.

الذين يعرفون جغرافية المنطقة، ويعرفون أكثر مما يقال في الإذاعة، أو يكتب في الجرائد، لا يميلون إلى اعتبار ما أعلن صحيحاً، ولديهم ما يؤيد وجهة نظرهم، لكنهم لا يجرأون على أن يقولوا ذلك صراحة، لأن في زمن الحرب، وأثناء احتدام المعارك، على الجميع أن يصدقوا البيان العسكري الذي يصدر في بداية النشرة الإخبارية، ومن لا يصدق ينطبق عليه ما قاله يونس شاهين في الافتتاحية التي نشرت غداة ضرب الجريفة. كتب في تلك الافتتاحية: «... ومن جملة الأكاذيب التي طلعت بها علينا إذاعة الدواحس أن طائراتها لم تقصف الجريفة. إذن الجريفة لم تقصف، لم تتعرض للعدوان، لكن البعثة الصحفية المحايدة التي قامت بزيارة المنطقة في اليوم التالي أكدت أنها لم تشاهد سوى الضحايا وجثث الحيوانات النافقة، والبيوت المهدمة وآثار الحرائق. من فعل كل ذلك؟ تقول إذاعة الدواحس أن طائرات السلطنة فعلت ذلك، ربما نتيجة الخطأ. الخطأ؟ إن أخطاء من هذا النوع إذا جاز وقوعها، ففي مناطق الحدود، وفي مناطق الاشتباكات. وكل إنسان يعرف أن الجريفة تبعد عن الحدود أكثر من مائة وسبعين كيلومتراً. كما أنها لم تشهد أية عمليات عسكرية منذ بداية الحرب!

«إن الذين يحترفون الكذب يجب أن يمتلكوا الحد الأدنى من المنطق،

لكي يصدقهم الآخرون. أما أن يبلغ الفجور بالمعتدين هذا الحد السافر والوقح، وأن يفترضوا وجود أحد يصدقهم، فلا بد أن يكونوا واهمين، ولا بد أن يكون من يصدقهم مجنوناً أو خائناً».

ولأن معظم وقائع الحرب لا تخضع للمناقشة أو لإعادة النظر، في حينها، إذن فهي صحيحة، على الأقل وقت وقوعها. وباعتبار أن الوقائع كثيرة ومتلاحقة فإن الأخير منها يجبّ ما قبله. ولذلك ذهبت صرخات سند في مهب الريح، والأخبار التي تسربت من قاعدة الريمان لم تصل إلى موران إلا أصداء، ثم تلاشت بسرعة.

وبتزايد المعارك، نتيجة وصول صفقة كبيرة من الأسلحة، وقد تم التعاقد عليها قبل شهرين من اجتماع مجلس الحل والربط، ونتيجة وصول فوج جديد من الطيارين الذين تم الاتفاق معهم بأجور كبيرة، تولد انطباع أن الميزان العسكري أخذ يميل لمصلحة السلطنة. وكان هذا أحد الأسباب لزيادة إجراءات الملاحقة والتصفية التي أمر راكان باتباعها، وإلى أشغال الناس والهائهم بتدبير أمور رزقهم، ولذلك يجب أن يسكت كل صوت، ويعتقل كل من يتفوه بكلمة، فامتلأت السجون، وساد الخوف، وانشغل الناس، وهاجر الكثيرون في هذه السنة التي لم يروا مثلها منذ وقت طويل.

ورغم أن الصيف كان طويلاً قاسياً، فقد بدأت الاستعدادات لحشد القوى. ومثلما حصل قبل بداية الحرب، حيث تم استدعاء شيوخ البدو، وتقديم الهدايا، والمبالغة في الولائم والاهتمام، حصل هذه المرة أيضاً، لكن البدو، هؤلاء الأبالسة، يمتلكون غريزة لا تخطئ؛ فإذا كانت استجابتهم كبيرة في المرة الأولى، وكلماتهم ضاجة وطلباتهم غامضة، ففي هذه المرة كانت طلباتهم أكثر واستجاباتهم أقل. شكوا صعوبة الحياة وانقطاع المطر. كما ادعوا أن رجالهم ارتحلوا بعيداً، وطالبوا بمبالغ أكبر وبأسلحة جديدة. واشترطوا أيضاً أن يمهلوا وقتاً إضافياً. ورغم الاستجابة لمطالبهم فإن الحذر لم يفارقهم. أكثر من ذلك باعوا معظم الأسلحة في طريق عودتهم، أنفقوا جزءاً من المال واحتفظوا بالباقي، وظلوا خائفين من الأيام الآتية.

وتجار موران الذين تذكروا كيف كان البيع والشراء في السنة الماضية، قالوا لأنفسهم، وقالوا فيما بينهم: انتهت المصاعب وبدأ الخير، ولا بد أن نعوّض في شهر ما فاتنا خلال العام كله. لكن حين أبدى البدو هذا الحرص، وتظاهروا بالفقر، وأنكروا أنهم حصلوا على معونات، فقد استمر الركود في الأسواق، لذلك تشاءم التجار، ولم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من الكلام. وإذا بدأ التجار، وهم أغنى أهل موران، وأقدرهم على تحمل الأيام الصعبة، فعندئذٍ يكون الوضع بلغ درجة تنذر بالخطر.

قصور العائلة، السلطان والأمراء، التي غرقت في الصمت، خلال فترة معينة، خاصة في بداية الحرب، ما لبثت أن امتلأت بالدوي. كان دوياً أقرب إلى صوت الريح: غامضاً متداخلاً، يهب فجأة ثم ينقطع. لكن والأيام تتوالى، والحركة تزداد، يصبح الدوي أكثر وضوحاً، إن لم يخل من الغموض. أما بعد أن تدفقت الأسلحة الجديدة والمعدات والأدوات والسيارات، وتغيرت أوضاع المحيطين بعدد من الأمراء، فقد عرف أهل موران أن مالاً كثيراً وصل إلى بعض الأيدي، وأن آخرين لم يقبضوا سوى المخصصات التي حددها القصر، ومثلما كانت الألوان، أيام مالك الفريح، تميز أميراً عن آخر، أو مجموعة عن أخرى، فإن الرويشدي كان أكثر براعة في إقناع أمراء المخصصات القليلة أن الفقر عارض، ولا بد أن ينتهي بانتهاء الحرب، وأكد لهم أنهم ما زالوا بخير لأنهم على قيد الحياة، في الوقت الذي مات الكثيرون على الحدود، وفي الداخل أيضاً!

ولأن المحرمات تزداد وقت الحرب، والناس لا يتكلمون خوفاً وتحسباً، أو احتراماً لذكرى الذين قتلوا، فقد سمع الكثيرون ما قاله راديو موران وصمتوا، انتظاراً لانتهاء الحرب، لكي يقولوا كل ما يعرفون.

قال السلطان لثروت:

ـ كنتِ على حق...

وحين نظرت إليه مستغربة، أضاف بثقة:

ـ الواحد قبل التجربة يهاب، يظن الأمور أصعب وأكبر...

ولم تفهم، لكنها ابتسمت، لكي تحثه على أن يواصل:

ـ قبل ما تبدأ الحرب اتخذنا احتياطات كثيرة، وتذكرين. أما هالحين، فموران، وكل السلطنة، مثل الساعة. الناس راضين، والدنيا بخير، ولا بد نخلّص عليهم بهذه السنة، وأبعد تقدير بربيع السنة الجاية.

وثروت التي صهلت بضحكة فرح، لم ترد أن تفسد هذه اللحظة الرائعة، أسبلت جفنيها وأمسكت يده بقوة. كانت دافئة ورطبة، وشعرت أنها أخطأت، خلال فترة معينة، حين أساءت به الظن، وافترضت أن هناك امرأة أخرى.

والسلطنة كلها، من أقصى الحويزة، إلى أبعد نقطة في العوالي، والشمال كله، رغم الهدوء الذي يسيطر على كل شيء، تحس أن شيئاً يتحرك تحت الجلد، ربما حرّكته رياح الخريف التي بدأت تهب، فانكسر معها ذلك اللهب الذي يتفجر مع الرمل وجدران البيوت، ومن ذرات الهواء، فكانت تنام وتقوم، وهي تتوقع.

ولم يكذب توقع الناس ولم يطل انتظارهم. ففي الأيام الأولى من فصل الخريف، ولأن مساعد ضاق صدره وهو يسمع تلك الأجوبة من ضباط القاعدة أن فترة التدريب لم تنته بعد، فقد حدد موعداً اعتبره نهائياً لكي يشارك ضباط السلطنة في الهجوم الجوي الذي سيمهد للقوات البرية كي تقتحم وتتقدم، إلى أن تصل إلى أهدافها بإسقاط النظام المعادي، وتلقين كل من يبقى حياً من رموزه وضباطه درساً يكون عبرة لكل من يفكر في المستقبل أن يغيّر نواميس الطبيعة!

مع أول أضواء الفجر من ذلك اليوم، بداية الخريف، وتنفيذاً للأوامر التي أعطيت للسرب الأول بالإغارة، وما كاد الطيارون الستة الذين يشكلون ذلك السرب، وهم أربعة من السلطنة واثنان من الأجانب، يقلعون بطائراتهم، وما كادت ترتفع الطائرات وتأخذ سمتاً محدداً، ثم تميل نحو الأفق الغربي، حتى انفصلت أربع طائرات، ولم يعرف عنها أي شيء.

حتى الظهر كانت التأكيدات تتوالى أن الطائرات أسقطت، أو ضلت طريقها. فالأخبار التي تسربت من الدواحس أشارت إلى وصول أسلحة جديدة مقاومة للطائرات نصبت حول المعسكرات وقريباً من المدن، ولا بد

أن تكون أصابت تلك الطائرات. وهمسٌ سري في القاعدة أن تدريبات الطيارين لم تكن كافية، وبالتالي ضلوا طريقهم.

وبين الخوف والانتظار، ولوم النفس، ظل التكتم على الخبر مستمراً إلى ما بعد الثانية. في نشرة أخبار الظهيرة من موران، وفي البلاغ العسكري، ذُكرت الطلعات الجوية وإصابة الأهداف المعادية بدقة. كانت لهجة الفخر والاعتزاز، والمذيع يذكر التفاصيل، لا تخفى. أما من إذاعة لندن، فقد جاء خبر، لم يتأكد رسمياً، أن أربعة طيارين بطائراتهم لجأوا إلى الدواحس.

وقبل أن يتصل مساعد بموران ليبلغها أن شيئاً ما حصل، اتصلت موران.

بعد امتناع، استمر بضع دقائق، عن الإجابة، حاول مساعد مع عدد من معاونيه واثنين من ضباط القاعدة، إضافة إلى أوكلي، أن يتوصلوا إلى تقدير أخير. كان الميل أن يكون الجواب إلى موران: «ضلت الطائرات والبحث عنها جارٍ»، لكن في اللحظة الأخيرة، وقبل أن يتوجه الأمير مساعد للرد على تلفون موران، جاءه مرافقه بورقة مكتوبة: «ذكرت الإذاعات الخارجية أن الطائرات بطياريها لجأت إلى الدواحس».

قال مساعد يرد على راكان:

ـ الأوامر كانت واضحة، ومع السرب كان اثنين من الخويا، والاثنين يقولون شفناهم راحوا مغرّب وراحوا مشرق، وبعدها ما ندري.

وسُمع كلام حاد وغامض في الجهة الأخرى، أجاب مساعد وهو يتلفت:

ـ مثل ما قلت لك يا أبو منصور: الأوامر كانت واضحة.

ـ . . . .

أي نعم معروفين زين بالنسبة لنا.

ـ . . . .

ـ كلهم؟ كلهم؟

ـ . . . . .

ـ فوراً، وبعد نصف ساعة اتصل بك.

ـ . . . . .

ـ زين. . . زين، ما يخالف.

في اليوم التالي أعلن في الدواحس أن الأمير سند ومعه خمسة من أخوته الأمراء وصلوا وطلبوا حق اللجوء السياسي.

وفي اليوم الثالث حصلت حركة لم تعرف تفاصيلها، لكن في نفس المساء أعلن من راديو موران أن عدداً من الأشقياء والمجرمين المسلحين حاولوا الاعتداء على مبنى الإذاعة، وبعد تبادلٍ لإطلاق النار استسلم هؤلاء المجرمون، فقبض عليهم وادعوا السجن تمهيداً لمحاكمتهم وإنزال العقاب الرادع بهم.

الأيام الثلاثة، وما وقع فيها من أحداث، يمكن أن يروى عنها الكثير من التفاصيل. ويمكن أن تروى بأشكال لا حصر لها، أو مثلما قال الصحفي الإنكليزي الذي جاء بعد ثلاثة أسابيع من وقوعها، وكان يجمع المواد ليعد كتاباً عن السلطنة في عهد السلطان فنر: «. . . والحادثة الواحدة، مهما كانت صغيرة أو ثانوية، تروى بعدة أشكال، تبعاً للقناعات والعواطف، وتبعاً لزمن روايتها أيضاً. ولأن الناس بسطاء وعاطفيون، فهم من ناحية لا يستطيعون أن يخفوا قناعاتهم، ومن ناحية لا يعرفون الكذب المباشر. أنهم ينقلون ما رأوا، ما سمعوا، بغض النظر عما يترتب عليه من نتائج. صحيح أن الحادثة ذاتها يمكن أن يرويها نفس الشخص بعدة أشكال، وهذا ناشئ، بالدرجة الأولى، بسبب قرب الحادثة زمنياً أو بعدها، وما ترتب على ذلك من تفاصيل أو تفسيرات لاحقة للحادثة، مما يجعله يتوهم أنه رآها بشكلها الجديد.

«ولذلك فإن مسألة الدقة أو التثبت من الوقائع، ومن ثم تفسيرها، تحتاج إلى وقت إضافي، وإلى معرفة جوانب أخرى لا تزال غامضة.

«ومما يزيد في تعقيد الأمر أن إجراءات الانتقام تترك ذيولها على قناعات الناس ومواقفهم. أن الناس هنا (وربما في كل مكان) ضد الظلم،

وغالباً مع المهزوم. ولذلك فالإجراءات اللاحقة تركت ظلالها القاتمة حتى على الأحداث ذاتها. وباعتبار أن الناس هنا لا يملكون الوسائل، وليس لديهم الضمانات لمواجهة السلطة، فإن الكلمة بالنسبة لهم سلاحهم الوحيد أو الأساسي. ويجب أن لا نستغرب إذا سمعنا أقسى الكلمات في وصف أعمال الحكومة أو تصرفاتها، لأنها الطرف المضطهد، والطرف القوي في علاقة مختلة بالأساس.

«لا أتفق مع المسؤولين الذين التقيت بهم وسألتهم عن تفسير ما جرى. أنهم يعتبرون أن هؤلاء «الخونة» تم شراؤهم، أو استدراجهم من قبل أجهزة معادية. وقد حصل ذلك في وقت مبكر، وهم معروفون بسوء سلوكهم وارتكاباتهم، وبعشرات الصفات السيئة الأخرى، وإن هذه الصفات ليست وليدة اللحظة، أو فترة زمنية قصيرة، وإنما هي صفات خلقية، أي ولدت معهم، وبنفس الوقت لا يعترف المسؤولون بأية أخطاء ارتكبت من جانبهم، بل غالباً ما يميلون إلى العكس، حيث يفاخرون ويشيرون إلى المزايا التي يتمتعون بها، وهي التي منعتهم، ومنذ وقت مبكر، من إنزال العقوبة، أو حتى الالتفات إلى هؤلاء. هذه الصفة رأيتها في الكثيرين، إذا لم أقل في جميع من قابلتهم، عدا السلطان، الذي اعترف بمسؤولية الحكومة عن بعض الأخطاء، ووعد أن يتم تلافيها مستقبلاً، ولا أدري إن كان هذا موقفه الحقيقي، أو مظهر من مظاهر الذكاء والتفوق على الآخرين. وأشار إلى أن مشاغله حالت دون مراقبة مساعديه بالمقدار الكافي.

«لا أريد أن أسرف في الحديث عما جرى، لكن لا بد من اعتباره كبيراً وخطيراً، رغم فشله. إنه يدل على الخلل الكبير، إذا لم أقل الشرخ، الذي حصل في هذا المجتمع، وجعله غير قادر على أن يبقى امتداداً لما كان، ولا يجرؤ أن يكون شيئاً جديداً.

«الوضع لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء للاستنتاج إلى أنه وضع انتقالي، ولا بد أن يتمخض عن صيغة ما، وهي بالتأكيد ليست القديمة، أو كما يريدها الذين يحكمون، وليست أيضاً كما يريدها الذين ثاروا. وإلى أن

تتوفر مجموعة من الشروط الضرورية، ستبقى حالة من القلق والصراع والثورات الفاشلة... أيضاً».

عمر زيدان الذي سمع بلجوء الطيارين إلى الدواحس، قال لعدد من تلاميذه ومحبيه:

- ... وأنا شغلتي ما هي بس الطرب والكيف، أنا أكبر قاري للتاريخ بالعوالي. الحلفاء بالحرب كانت عندهم طيارات ربنا. كانت الغارة من غاراتهم تملأ السما طيارات. وإذا صارت الغارة تظل تدك ساعات، لكن الطيارات وحدها ما تسوي شي. لازم مع الطيارات بشر من تحت، ناس على الأرض، وهذول المخبطين، بأربع طيارات شنهو اللي يقدرون عليه؟ وإذا خلص بنزينهم؟ وإذا خلصت قنابلهم؟ وين يروحون إذا ما عندهم جماعة على الأرض؟

ويزفر، وهو يهز رأسه أسفاً، وبعد قليل:

- الجماعة استعجلوا، أي نعم؛ كان يلزمهم يربطوها، لكن صار فيهم مثلنا، والواحد ما يتعلم إلا «تحريري»، وهالحين لازم يعترفون بخطأهم وذنبهم:

وابتسم ثم غنى:

إن كنت قد أذنبت ذنباً سالفاً ... في حقكم وأتيت شيئاً منكراً
أنا تائب عما جنيت وعفوكم ... يسع المسيء إذا أتى مستغفراً

وبعد آهات كثيرة غنى رضا الجاوي:

لو كنت أشرح ما ألقاه من حرق ... ومن سقام ومن وجد ومن قلق
لم يبق في الأرض قرطاس ولا قلم ... ولا مداد ولا شيء من الورق

قال عمر:

- عند هذا الفنار، قال لي يوم من الأيام، وإذا الله ما كذبني، قبل ثلاثين، خمس وثلاثين سنة، بحار اشترك في الحرب العالمية الأولى، وبعدها في اليونان وإسبانيا، قال: لا تصدق أن واحد يسوي تاريخ إذا ما قرأ تاريخ. كان ضد هتلر، وكان كل الناس معه!

وابتسم بحزن، وهو يضيف:

ـ وهذول الوليدات، هالحين جربوا وشافوا، ولا بد أنهم تعلموا... والمرة الثانية هم أو غيرهم يكون شغلهم أحسن؛

وبعد قليل غنى:

إني رأيت وقوف الماء يفسده   فإن جرى طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الغاب ما قنصت   والسهم لولا فراق القوس لم يصب

العجرمي الذي لم يسمع بهروب الطيارين إلا في اليوم التالي، سمعه وهز رأسه، تنبهت كل حواسه حين جاءه ابنه قبل الغروب ليبلغه أن «موران قايمة قاعدة، لأن الأمراء انهزموا» كان مشعل مرتبكاً، لا يعرف من هرب ومن بقى، ولا يعرف إلى أين هربوا أو لماذا. ولما ظل الأمر ملتبساً ومثيراً للقلق، فقد طلب منه أبوه أن يأخذه إلى بيت ابن العليان.

هناك كان عدد من الزوار. دخل العجرمي مضطرباً، قال له عبدالله البخيت:

ـ ابن الحلال عند طرياه.

تطلع العجرمي إلى الوجوه كلها، قبل أن يرد. عرف الكثيرين، لم يعجبه أن يكون موضوعاً للحديث. سأل ابن البخيت بمكر:

ـ ها يا عبدالله.... بعدك تندّل القبلة أو تاهت عليك؟

ـ اندل، يا شيخنا، لكن أهل مكة أدرى بشعابها، وما دام أبو عزّيز موجود، فهو أدرى مني!

ـ ها... يا أبو عزيّز؟

ـ بس المغرب بعده ما وذّن يا شيخنا.

ـ يلزم نتحضر له يا أبو عزيّز، خاف يفوتنا!

وما كاد يجلس، حتى سأل ابن البخيت:

ـ ها... يا عبدالله شلونك؟ وبعد شلونك؟ وشلون أيامك، وشلون شايف الدنيا؟

رد ابن البخيت بمكر:

ـ لحظة والثانية، يا شيخنا، يأذن المغرب، وأنا أريد أتوضأ. فشنهو قولك نتوضا ونسولف؟

وقام الاثنان.

بعد أن انفض الجمع، وبقي أربعة أو خمسة أشخاص، واطمأن العجرمي، سأل:

ـ ها... يا جماعة الخير، شنهو اللي صار بالدنيا؟

قال ابن العليان:

ـ إذا جا الكفار خربت الديار يا شيخنا...

وبعد قليل:

ـ انلاصت يا أبو مشعل، صار سافلها عاليها، وإذا كان هذا أولها ما ينعرف شلون راح يصير تاليها.

وطال الحديث وتشعب، ولم يستطع أحد أن يقنع الآخرين، أو أن يدخل الطمأنينة إلى قلوبهم. وحين تقدم الليل قام العجرمي، قال وهو يودعهم:

ـ هذي موران ما ينحرز عليها. تسكت كثير، تحمل كثير، ومثل جمالها إذا لاحت برأسها ما ينعرف لوين تصل وشنهو اللي تسويه.

قالت زوجة عمير بنزق:

ـ وأبوه قبله، خريبط، ما خلى سجن إلا وقال له تزوره. وزار، وطالت زيارته، لكن آخرتها الله فرّج عليه، وطلع.

قال عمير بفخر:

ـ برجس ابني وأنا أعرفه زين، فخل فنر يجرب سلاحه، ونشوف!

ونتيجة هذه الأيام الثلاثة حدثت أشياء كثيرة في موران. قيل إن عدة طائرات ظلت على أهبة الاستعداد لمدة شهر كامل، وقد نُقلت إلى هذه الطائرات أشياء كثيرة. وأكد اثنان من العاملين في المطار أن غير هذه الطائرات اثنتان لم تتوقفا إلا لفترات قصيرة، لكي يتم استبدال الطواقم، وظلت تنقل خلال الأيام الثلاثة التي أعقبت محاولة الاستيلاء على الإذاعة.

كما سافر عدد كبير من أفراد العائلة السلطانية، خاصة من النساء والأطفال والصبية، ولم يعودوا إلا في نهاية فصل الخريف.

وقيل إن عدداً من الأمراء اختفوا تماماً، حتى مرافقوهم وحرسهم لم يعرفوا أماكن اختفائهم. ولوحظ أن أمراضاً غامضة ظهرت في القصور، وقد أُستنتج ذلك من عدد الأطباء الذين وصلوا تباعاً خلال الأيام الخمسة الأولى، وكذلك من وصول اثنين من الأطباء الأجانب تم استدعاؤهم على جناح السرعة. وأشار بعض الذين رأوا الأطباء يصلون، أن الأمر متعلق بمعالجة عدد من الجرحى وقعوا جراء مصادمات جرت في أكثر من قصر وفي أكثر من وقت، بسبب الخلاف، وظلت هذه الأمور أقرب إلى التوقع والتقدير، لأن التكتم الذي فرض منع من انتقال الأخبار الصحيحة.

ربما ينقضي وقت، وقد يكون طويلاً، قبل أن تعرف حقيقة ما جرى، وهذا ناتج عن الكتمان الشديد، والصمت، إضافة إلى الإجراءات اللاحقة. وإذا كانت العادة أن ينقل الخدم والحرس ما يجري في داخل القصور، وأن تعرف موران بوسائلها الماكرة، فهذه المرة بدا الأمر مختلفاً للغاية.

حتى حماد الذي استدعي من مقر سفارته في طوكيو، وقضى أسبوعاً في موران، ولم يره أغلب أفراد العائلة، لانشغاله معظم الوقت، فلا يستطع أحد أن ينقل عن لسانه خبراً أو تعليقاً، إذ بالإضافة إلى غيابه طوال النهار، واعتذاره عن تلبية الدعوات، فإن الذين رأوه لفترات قصيرة لم يسمعوا منه إلا أخباراً وتعليقات متعلقة باليابان. وهذا ولّد خوفاً لدى أقربائه المباشرين، أما حين سافر فقد تنفسوا ملء رئاتهم، لأنه بقي حياً!

ويونس شاهين الذي تعوّد أن يكتب مقالاً أسبوعياً، ويكتب أيضاً في حالات خاصة، ليعبر عن موقف هام للدولة، فقد بدت كتاباته في الأيام الأولى للأحداث مرتبكة، غامضة، رغم الكلمات الكبيرة التي استعملها!

قيل إنه قبل انقضاء عشرة أيام على الأحداث التي جرت، امتلأت سجون موران. امتلأت بالعسكريين والمدنيين، الكبار والصغار، وقيل إن عائلات بكاملها اعتقلت. خاصة من لهم علاقة أو معرفة بسند وإخوته، أو

بالطيارين. أما عمير الذي اعتقل بعد أسبوع من اعتقال ابنه برجس، فقد قال للرجال الذين جاءوا:

ـ البني آدم ما به طرف، وأنا محضّر روحي، ما هو من يوم أخذتم برجس، من سنين وسنين...

ابتسم بسخرية، وهو يضيف:

ـ والسجن هالحين ما هو مثل عين دامة، ذيك الأيام كنت وحدي، هالحين الخويا واجد، والزمن ينقضي: سوالف وتواريخ وحدّ سنون، إلى أن تنفرج.

أما صالح النذير الذي التقط بالقرب من سوق الحلال القديم، فلم يُعرف باعتقاله، إلا بعد أسبوعين. وقد عرف بالصدفة، إذ التقى به صالح ابن شمران العتيبي، أثناء نقله من سجن القلعة إلى السجن المركزي، وقد وضع صالح مبلغاً من المال بيد الشرطي الذي سلمه إلى السجن المركزي، وطلب منه أن ينقل رسالة صغيرة: تبلغ زيدان، صاحب فرن الأصدقاء، أن ابن النذير حي وموجود.

ومع الأمطار الأولى، وكانت أقرب إلى الوحل، بدت موران شديدة الحزن. وبدت أيضاً شديدة الحقد.

وإذا قال عدد من المسنين في السوق العتيق: باطن الأرض خير من ظاهرها، فإن السجناء كانوا أكثر مرحاً، وأكثر تفاؤلاً، وكانت لياليهم لا تخلو من ضحكات صاخبة، وغالباً ما تزعج الحرس، فتبدأ بعد الضحكات معارك الليل!

الأجانب الذين وصلوا بعد الأحداث الأخيرة كثيرون، لاحظ ذلك المقيمون بالقرب من فندق الرابية وفندق موران الكبير، ولاحظه أيضاً تجار السوق العتيق. أما أحد موظفي المطار، فقد همس في أذن قريب له، أن الذين وصلوا يفوق بعدة أضعاف من بقي منهم في موران، لأن الكثيرين ذهبوا مباشرة من المطار إلى مدن أخرى، أو إلى معسكرات الجيش. أما لماذا جاء هؤلاء الأجانب، ومن هم، وإلى متى سيبقون، فقد تضاربت التفسيرات والتقديرات إلى أقصى حد.

ولما كانت موران، مدينة المال والصمت والانتظار، وتخشى الغرباء منذ وقت بعيد، فقد تعلمت كيف تبقى رصينة، لا يظهر عليها ما يعتمل في داخلها، ولا ما تفكر فيه، وتعلمت أيضاً أن تقوم بواجب الضيافة تجاه هؤلاء، حتى إذا تأكدت من الأسباب التي دفعتهم للمجيء، تتصرف وفق ما تمليه عليها أخلاقها وعاداتها. الذين جاءوا بحثاً عن الرزق الحلال، وكان لدى موران ما تعطيه، لا تتردد في أن تفعل. لذلك فإن عدداً كبيراً من الغرباء الذين جاءوا في يوم من الأيام إلى موران، من أجل الرزق أصبحوا أبناء لهذه المدينة، لا يعرفون غيرها، ولا يفضلون غيرها عليها. وبمرور الوقت اكتسبوا عادات المدينة وملامحها. أما الذين جاءوا لأسباب أخرى فقد كان لدى موران من القوة النفسية والعناد ما تجعلهم يتركونها دون أسف، ودون تفكير بالعودة إليها مرة ثانية.

كتب عنها أحد الصحفيين الإنكليز: «. . . وموران مدينة عجيبة، انها تشبه الصحراء بكل تفاصيلها وأخلاقها، أو بالأحرى تلخصها. فهي قادرة على استقبال كل شيء، وهضم كل شيء، تماماً مثل النعام، لكنها تعرف

كيف تتظاهر بالصمت والسكينة، حتى إذا جاءت لحظة الغضب لا تبقى ولا تذر».

ليس مهماً كيف يرى الغرباء مدن غيرهم، أو كيف يقيّمون عاداتها وأخلاق أهلها، إن هذا يحتمل عدداً غير محدود من التفسيرات والاختلاف، لكن أن تبدو المدينة بنظر نفسها وكأنها ليست هي، أو لا تشبه ما كانته بالأمس، أو ما ستكونه غداً، فإن في الأمر ما يستعصي على الفهم.

لا يمكن الزعم أن الحالة الجديدة بدأت أو تكاملت بوصول الأجانب، فأمثال هؤلاء وجدوا في فترات متعددة، وإذا كانوا قد سبّبوا قلقاً، فإنه لم يصل إلى درجة الخوف، واستطاع أهل موران، وإن ببعض الصعوبة، أن يتعاملوا معهم، لقناعتهم أنهم عابرون، ولن يبقوا طويلاً. وإذا تساهل الناس أو تناسوا وجودهم، فإن الطبيعة تتولى المهمة نيابة عنهم. فما يكاد يدخل الربيع، وتقبل موجات الدفء اللذيذة العذبة، ويتوهم الأجانب أنهم وجدوا المكان الذي كانوا يبحثون عنه، فيبدأ الكثيرون منهم يخططون لإقامة طويلة، أو حتى للبقاء نهائياً، إلا ويحدث شيء لم يخطر ببال، أو ربما غيّبه خدر الربيع وعذوبته. فجأة تهب الرياح الساخنة، ثم تتلوها موجات الغبار، فتضيق الأنفاس ويعتكر المزاج، فإذا جاءت رياح الخماسين، وصادف ذلك سنة محل، فعندئذٍ يحس هؤلاء الغرباء أنهم جاءوا على أرجلهم إلى الجحيم، فتتعالى في صدورهم، مع موجات السعال الشتائم وتقريع الذات، ثم الرغبة الجامحة بالرحيل.

لقد حصل ذلك مئات المرات. لذلك فإن أهل موران، وهم يبدون وداً ظاهراً تجاه الغرباء، يعرفون ان هؤلاء أن بقوا اليوم فلا بد أن يرتحلوا غداً. وهذا ما يجعل الخشية من الأجانب لا تصل إلى حدود التطير أو الخوف.

لكن موران هذه المرة كانت مختلفة. ما كادت ترى أفواج الغرباء، وتسمع بأخبارهم، حتى هاجت في القلوب ذكريات موجعة: أيام الطاعون، وسنين الجراد، والرياح الصفراء، وكل شيء آخر يذكر بالموت

أو يوحي به. ترافق ذلك مع الأخبار التي أخذت تزيد يوماً بعد آخر عن المحابيس الذين تتضاعف أعدادهم، وعن الأشخاص المطلوبين، والجوائز السخية لمن يرشد إليهم، أو يعرف شيئاً عنهم. وعن العائلات التي قبض على جميع أفرادها، ولم يعرف أين أخذت أو ماذا حصل لها.

وموران التي تعودت خلال السنين أن تواجه المصاعب والأحزان بالصبر والسخرية، أو بأن يرتحل بعض أبنائها، فلا يُعرف أبداً كيف اكتشفت سلاحاً جديداً، بدا ينظر الكثيرين أقوى وأشد مضاء: الصمت.

حتى الذين غابوا من أهل المدينة عن موران فترات قصيرة، ثم عادوا، فوجئوا أن مدينتهم تغيرت. لم تعد مثلما كانت. صحيح أن الأحداث التي جرت أثرت على الكثيرين، وجعلتهم على الأقل يتساءلون، ولذلك يمكن فهم جزء من التغير الذي حصل في مزاج الناس، لكن أن يبلغ الأمر هذا الحد من التواطؤ والاتقان، وأن يغلف المدينة كلها الصمت الثقيل، فقد دفع معظم الذين وصلوا حديثاً إلى الحيرة ثم إلى الخوف.

وأن يترافق ذلك أيضاً مع وصول أعداد كبيرة من الأجانب، فلا بد أن يكون الأمر مختلفاً عن أي فترة سابقة، ومختلفاً عن أية حالة قد تشابهها.

إنه الصمت، في الأسواق، في البيوت، في المساجد، وهو صمت مضني شديد الوطأة.

كتب زائر أجنبي: «وأغرب شيء في هذه البلاد أن الناس لا يتكلمون، أنهم كالسلاحف، يغرقون في قواقعهم ويصمتون، ووحدها عيونهم التي تتكلم. وحين تتكلم العيون فإنها تقول أشياء خطيرة، أقرب إلى الحرائق. حتى الباعة في الدكاكين، إذا وافقوا على أن يبيعوك حاجة تطلبها، فإنهم يشيرون إليها، طالبين، دون كلمة، أن تأخذها بنفسك. ولا يمدون أيديهم لتضع فيها الثمن، يشيرون إلى الطاولة، وعليك أن تمتثل لكل ما يطلبون. ومن أغرب الأمور التي صادفتها أنني كنت أمد يدي لكي يضع فيها البائع بقية الفرق بين القطعة النقدية التي دفعتها وثمن السلعة، فنحى يدي، ووضع النقود على الطاولة، كان يعتبر أن ما يفعله طبيعياً إلى أقصى حد.

«أما أن يمتنع البائع عن بيع سلعة موجودة لديه، ويهز رأسه دلالة عدم وجودها، وأنت تراها بعينك، فإن هذا لا يمكن أن تصادفه في غير موران».

ليفي شاوات الذي طُلب منه المجيء لبحث صفقة سلاح جديدة، كان متحمساً لهذه الزيارة، فهو يريد أن يرى الأمور بنفسه وعلى الطبيعة، بعد أن قرأ عدداً من التحقيقات والمقالات عما جرى، خاصة وإن إحدى النشرات المتخصصة، والتي توزع على نطاق محدود، أشارت إلى الهزة الكبيرة التي حصلت، وحذّرت رجال الاعمال، لأن هذا الإنذار يقتضي إعادة دراسة الكثير من المشاريع وإعطائها أولويات جديدة، على ضوء ما وقع وما قد يقع.

جاء ليفي وجاء معه أيضاً غزوان وإليانور. وبدا واضحاً أنهم تعمدوا المجيء معاً من أجل تقدير الموقف، ولكي يكونوا قادرين على اتخاذ القرار المناسب، دون تردد ودون تأخر.

وإذا كانت عادة ليفي، منذ وقت مبكر، أنه لا يحب الكلمات الكبيرة، مفضلاً عليها الكلمات الدقيقة، ولا ينظر باطمئنان إلى الرجال الذين يؤثرون أن ينتهوا من قضايا العمل بسرعة، لكي يلتفتوا إلى شؤون الحياة، كما عبر عن ذلك مرة الأمير مساعد، فإنه الآن في مرحلة إعادة النظر، وهذا ما دعاه، وبدافع ماكر، أن يقترح على غزوان اصطحاب إليانور!

كيف يمكن أن يتغير البشر والأشياء بهذه السرعة؟

حتى وقت طويل، ربما يبقى ليفي عاجزاً عن الإجابة. فالأشخاص الذين عرفهم في أوقات سابقة، في موران وسان فرانسيسكو، بدوا له، وهو يلتقيهم من جديد، أنه يتعرف عليهم لأول مرة. صحيح أن شبهاً ما زال موجوداً، لكن كالشبه بين الثمرة والشجرة، بين قطرة الماء والنهر الكبير. وما عدا السلطان، وقد التقى ليفي وغزوان وحدهما، ولم يجد الاثنان ضرورة أو أهمية لوجود إليانور، التي انشغلت، أو تظاهرت بالانشغال مع أم غزوان. السلطان وحده لم يتغير، إلا بقدر ما يخلّف

الزمن من آثار، تبدو أحياناً حادة، وربما زادتها وضوحاً وحدة، كما قال ليفي لنفسه، الأيام الصعبة التي مرت. كان السلطان واثقاً وهادئاً، رغم الحذر الذي يمكن أن يكتشفه الزائر، من خلاله نظراته السريعة، وردود فعله المتوترة. لقد استقبلهما للتعبير عن الاهتمام والود، أكثر مما يريد أن يبحث معهما تفاصيل صفقة السلاح الجديدة.

أما الآخرون، جميع الآخرين، مع تفاوت جزئي، فقد بدوا له مختلفين عما كانوا عليه، أو كما عرفهم، حتى ضحكات مساعد الصاحبة كانت للتمويه، وتخفي خوفاً أكثر مما تظهر فرحاً. أما حين شاركت إليانور قبل أن ينتهي الاجتماع، لتسجيل النقاط الرئيسية، فقد تغير. أصبح أكثر ارتباكاً، وكأنه تلميذ في امتحان صعب.

وإذا كان لا بد من الإشارة إلى الأشكال، فالأمراء يجمعون بين ميزتين: الطفولة والأنوثة معاً. يحبون الدلال والإطراء، ويميلون إلى الأخذ باقتراحات الآخرين، خاصة من حيث اللباس والزينة. راكان غيّر شكل لحيته ومدّ شنبه قليلاً، وأصبح أكثر ميلاً للألوان الكامدة، ربما ليعطي نفسه بضع سنين إضافية، لكي يدلل من خلالها على تقدمه عن أخوة آخرين أكبر منه سناً. أما مشهور الذي سُمي في التغيير الأخير نائباً لوزير الدفاع، وقد حضر معظم الاجتماعات، فكان حائراً في اختيار الملابس التي تلائمه، أو التي يعتبرها أكثر جدارة بالمنصب الجديد. فبين الملابس العسكرية والملابس التقليدية، والتي تتغير عدة مرات خلال اليوم الواحد، كان أقرب إلى الضياع، وربما تشغله هذه المسألة عن كل ما عداها!

ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن عدد آخر من الأمراء، الكبار والصغار. أما التغيرات في الأجسام والتصرفات فإنها تحتاج إلى إمعان، وإلى عين خبيرة لتلاحظ الفرق. فالأيدي وهي ترتجف قليلاً، خاصة في اللحظات الدقيقة، والهالات الزرق حول العيون، وتلك الضحكات العصبية، وتغير نبرة الصوت، ولا يهم أن تكون أقوى من قبل أو أضعف، لكنها تغيرت، ثم الحراسات المشددة، والأجهزة الجديدة التي وضعت في أمكنة عديدة، وبمبالغة ظاهرة، ولا بد أن يكون وراء الأمر إحدى الشركات اليابانية

المهتمة بمثل هذه الأجهزة! ثم التوصيات التي يهمس بها بصوت خفيض للمساعدين، ولا يُعرف عن أي شيء تدور... كل هذه المظاهر والتصرفات تدل بوضوح أن أمراً خطيراً وقع خلال الفترة الماضية.

أما أكثر شيء فاجأ ليفي شاوات فالناس والمدينة. أصبح الناس أقل بكثير في الشوارع مما كانوا، رغم أن الصباحات وساعات الغروب في مثل هذه الأيام مغرية جداً، وقد حرص ليفي، ربما نتيجة أكل المآدب، على التمشي نصف ساعة في الصباح، ومثلها عند الغروب، ولفتت نظره ظاهرة قلة الناس، أو حتى غيابهم. أما محاولاته لتحسين لغته، وهي عادة لازمته منذ وقت طويل، ولا يترك فرصة إلا ويستغلها، فقد قوبلت، هذه المرة، بالسخرية والاستغراب. فموظف الفندق العربي، الذي يبدأ في الحادية عشرة ليلاً، ويبقى حتى السادسة صباحاً، كان يرد على استفسارات وأسئلة ليفي بالإنكليزية، وحين ظهرت دلائل الاحتجاج على ليفي، أكد له ذلك الموظف أنه لا يفهم معظم الكلمات التي يقولها!

والمدينة ذاتها تغيرت ليس من ناحية المباني أو الميادين، وإنما من ناحية الجو السائد. فنقاط الحراسة والتفتيش التي أقيمت في عدة أماكن، وتغيير اتجاه السير، أو منع المرور في شوارع معينة، إضافة إلى الجنود المسلحين الذين يقفون عند تقاطع الطرق، أو لحراسة المباني العامة والقصور، لفتت نظر ليفي، وأثارت قلقه، ثم تساؤلاته.

لو جاء وحده في هذه الزيارة لندم ولام نفسه، فقد كان غزوان ليس مجرد شريك، كان صديقاً، وعوناً، وشارحاً للكثير من القضايا التي يستعصي على الغريب أن يفهمها بسهولة. كما كان عيناً تدخل إلى أكثر الأماكن سرية وعتمة، وأذناً تلتقط كل شيء. لذلك لم يضع ليفي في هذه التفاصيل، التي قد تعني زائراً غيره، وربما تفيد المؤرخ أو الصحفي، أو حتى بعض القناصل، وهم يكتبون إلى دولهم! ما بدا له أكثر أهمية، كمحصلة، أن يتلفت إلى الطلبات والأعمال التي جاء من أجلها. ولكي لا يقع خطأ قد يندم عليه، فإن تفكيره انصب بالدرجة الأساسية على الأسعار أولاً، ثم على شروط الدفع، من حيث ما يترتب دفعه معجلاً، كثمن

للصفقة، وما يتطلبه المؤجل من ضمانات. وبهذه الطريقة تم إنجاز صفقة، كما وصفها لغزوان، في الليلة الأخيرة:

ـ صفقة العمر.

إلى جانب هذه الصفقة تمت أعمال أخرى، جاءت عرضاً. حتى إليانور، التي انشغلت مع أم غزوان، وبدا لها أن هناك أموراً كثيرة يمكن أن تنجز على هامش العمل، أو بين عملين، فقد قالت، باعتزاز، وهم في طريق العودة:

ـ لقد أنجزت أول صفقة في حياتي، خلال هذه السفرة.

وأخذت تشرح لغزوان وليفي، كيف تم الاتفاق بينها وبين وداد الحايك، على فتح عدة محلات، أولاً في موران، ثم في مدن أخرى، لمستحضرات التجميل وللأزياء. كان الاقتراح، أول الأمر، من وداد، أم غزوان، وكان بدائياً وبسيطاً، إذ اقترحت أن ترسل لها، أسبوعياً، حقيبة، تحتوي على حرائر وكنزات كشمير وبعض الشالات، وهذه الحاجات يمكن أن تباع بطريقة ما، ولم يكن الأمر واضحاً. أما حين تحدثت المرأتان طويلاً، وكان كمال مترجماً جيداً هذه المرة، وبدا متحمساً، فقد تبلورت الاقتراحات إلى هذه الصيغة، وتم الاتفاق على أن يبدأ المشروع خلال بضعة أسابيع، وأقصى حد شهرين أو ثلاثة شهور. وقد تعهّد كمال أن ينجز الأمر خلال فترة أقصر!

صفاء، «الحاضر الأبدي»، كما أطلق عليه مرة ليفي شاوات، كان أيضاً في هذه الزيارة حاضراً ونشيطاً، وكان مفيداً أو «لا غنى عنه» كما قال الأمير راكان. الدفتر الأخضر لا يفارقه لحظة واحدة، كان سجلاً كاملاً ودقيقاً لكل شيء: للأسماء، وأرقام التلفونات، والمواعيد، إضافة إلى أرقام الشيكات وتواريخ استلامها ومواعيد استحقاقها، أما عناوين الشركات، وأسماء المسؤولين، فقد عوّد نفسه منذ وقت طويل على حفظها، ولذلك فإذا سجلها فمن الباب الحيطة والدقة.

كان صفاء في معظم اللقاءات. حتى اللقاء بالسلطان الذي لم يحضره، قام أولاً بتوصيل غزوان وليفي إلى تشريفات القصر، ثم عاد ليصطحب

إليانور للقاء أم غزوان، ولكي يتولى الترجمة بينهما. أما بعد ذلك فقد حل كمال مكانه.

الأحداث التي وقعت في الفترة الأخيرة كشفت لصفاء نفسه، قبل الآخرين، إنه لا يحب جواً مثل هذا. فهو أميل إلى الاستقرار، إلى الهدوء، أما أن يكون مصيره، أو حياته، عرضة لهذا الجنون، بغض النظر عن أي طرف فإنه لا يجد في أعماقه هذا الميل. قال لنفسه: «أنا لست جباناً، ولكن لا أريد أن أموت دون معنى، وفي هذا المكان». صحيح أنه يعترف، في لحظات قليلة، بالخوف، لكن يعتبر أن هذه حالة إنسانية، وكان يحلو له، أن يردد: «اللي ما بيخاف ما بيخوف» ولا يعرف لماذا كان يقول هذه العبارة، أو ماذا تعني له بالضبط.

فرح كثيراً أن كل المحاولات التي جرت في موران انتهت إلى الفشل. لا يحمل حقداً على الطيارين، ربما لا يعرفهم، صحيح أنه زار الريمان عدة مرات، خاصة مع أسراب المسعفات، وتناول العشاء والغداء هناك مرات عديدة، سواء في المطعم الأرضي أو مطعم الطابق الأول، وتعرّف على عدد من الطيارين، لكنه لا يتذكر أياً من الأسماء التي سمعها بالإذاعات أو قرأها بالجرائد. حتى المؤتمر الصحفي الذي عقده الطيارون، وظهرت صورهم في ذلك المؤتمر، وبعد أن تمعن طويلاً بالصور، ودقق بالملامح، لم يتعرف على أي منهم.

أما الأمراء الذين فروا، أو التجأوا، تمهيداً للزحف نحو السلطنة، لتخليص البلاد من الاستبداد، فإنه يعرف اثنين منهم. لا... إن كلمة «يعرف» فضفاضة، لقد التقى بهما في حفلة طرب ضمت الكثيرين أيضاً. ولذلك لا يدعي أنه يعرفهم.

عمير، هذا الذي كان يتردد اسمه كثيراً في موران، من الأمراء بسخرية، ومن الآخرين بمهابة وخوف، ترك في نفسه انطباعاً خاصاً بالتقدير، فلم يصدق ما يقال عن جنونه، أو هوسه. وباعتبار أن لدى صفاء من الأشغال والاهتمامات الكثير، فإن هذا الاسم بقي بالنسبة له مجرد اسم. الآن، بعد أن اعتبر ابنه برجس مدبراً لمحاولة انقلاب، وأنه هجم

على الإذاعة، لتكون البداية ونقطة انطلاق، وفشلت هذه المحاولة، ثم اعتقال عمير ذاته، وعدد من أفراد أسرته، بدا له أن ما قيل لا يمت إلى الحقيقة بصلة، فكيف يفسر سلوك ابنه، والآخرين الذين كانوا معه؟

بإيجاز، «صفاء لا يحب هذا الجو». هذا ما قاله لنفسه. وقال أيضاً «لا تنام بين القبور...» ولم يتذكر الباقي. وليغيّر مزاجه قال: «حين يصبح الإنسان غنياً يصبح قوياً».

ووتيرة العمل، وطبيعة العلاقات والجو، لا تترك للإنسان أن يسترسل كثيراً في الأحلام والأفكار، ولذلك فإن النسيان أحد المزايا التي يتمتع به البشر، وهكذا نسي صفاء، في زحمة العمل، كراهيته لموران والخوف والأحلام.

وموران تتغير، يتراكم صمتها، تسمع كثيراً وتصمت. ووتيرة الحرب تتصاعد، على الأقل في الإذاعة، وتغطي على كل ما عداها.

الأمراء الذين اختفوا فترة من الزمن عادوا إلى الظهور. الأجانب الذين جاءوا للتحقيق، لإعادة تنظيم الجيش، لإقامة أجهزة جديدة، لوضع أنظمة حديثة لحراسة القصور، لإعادة تخطيط موران، واصلوا العمل ليل نهار. سافر بعضهم. جاء غيرهم. توصلوا إلى نتائج معينة. دققوا بهذه النتائج هنا وهناك، ثم قدموا توصيات. بقي بعضهم وجاء غير الذين سافروا.

الحرب بين السلطنة والدواحس لا تقتصر على القنابل العمياء. اشتركت معها كلمات من نفس النوع، أو ترى قليلاً. الناس يسمعون يصمتون. السجون تمتلئ، تحمل الزائرين سيارات ثم تختفي. وتختفي معها أخبارهم. الجوائز التي ستدفع للذين يبلغون عن بعض الهاربين تزداد ثم تتضاعف مرة واثنتين. الخريف الذي بدأ موحلاً شارك الناس الصمت، إذ لم تعد ترى في السماء غيمة، ولا تسمع خفقة ريح. الجوع الذي كان قليلاً وبعيداً، أخذ يزداد ويقترب. السلطان الذي لا يعرف إن كان مريضاً أو بصحة جيدة، إن كان موجوداً أو غائباً، شارك أهل موران الصمت، فلم يتكلم ولم يعرف عنه أي شيء.

قال أوكلي لآمر قاعدة الريمان:

ـ أريد أن أرى مسؤولاً من الشركة العالمية اليوم قبل الغد.

وحين جاء صفاء، نظر أوكلي إليه بغضب، انتفخت عروق رقبته، وقال بعداء:

ـ ليست مهمتنا أن نغير العالم، هذه المهمة لغيرنا. مهمتنا الوحيدة أن نلقي القنابل حسب الخرائط، وأن نتقاضى أجوراً تتناسب مع هذا الجحيم. وحسب الاتفاق، بين غارة وأخرى، أن نلتقي بامرأة تخفف الموت الذي نعيشه في هذا الجو الذي لا يطيقه حتى الخنازير.

وبعد مناقشات هادئة مرة وحادة مرة، لخص أوكلي الطلبات:

١) زيادة الرواتب إلى الضعف، أسوة بالفوج الذي وصل مؤخراً.

٢) استمرار زيارة الفتيات، وبمعدل مرة أسبوعياً، خاصة وأن فصل الشتاء بدأ يقترب.

ولم تتأخر الموافقة على الطلبين. التعديل الذي حصل أن أصبحت الفتيات يصلن إلى مطار الطريفة، ومن هناك ينتقلن إلى استراحة، في جبل المبرد، كانت ذات يوم قصراً من قصور السلطان خريبط، وإلى هناك ينتقل أفراد القاعدة على ثلاث وجبات، فيبقى الفوج يوماً وليلتين ويعود، ليحل مكانه فوج آخر.

وما كاد يتقدم الخريف قليلاً، وتنكسر حدة الحرارة، حتى بدا أن الأمور اقتربت أن تعود إلى حالتها قبل الأحداث.

كاد ينقضي الخريف ويبدأ الشتاء. الحرب تراوح مكانها، الغارات تتكثف أسبوعاً وتتراجع في الثاني. البدو تأخروا كثيراً، رغم مضاعفة الرواتب وزيادة الأرزاق والملابس. قصر السعد غارق في حركة لم يستطع أحد أن يقدر احتمالاتها، وإلى ما ستؤدي. الأمراء الكبار ينتقلون من مكان إلى آخر سراً، أو في مواكب من الحراسة المشددة. السجناء الذين كانت تسمع أخبارهم بين فترة وأخرى، لم يعد أحد يسمع عنهم أي شيء. يونس شاهين، بعد العصبية التي ميّزت كتاباته خلال الفترة اللاحقة للأحداث، بدا أكثر ثقة وتحدياً: «لا يفل الحديد إلا الحديد، وعلى الباغي تدور الدوائر».

موران التي ظلت عيوناً تراقب وآذاناً تتنصت، أصيبت بالدوار من اضطراب الحركة وتشابكها. لم تكن موران حائرة، وفاقدة القدرة على التمييز كما هي الآن. الصمت الذي انتصب مثل جدار طوال الشهور الماضية، اعترته الشقوق.

الأجانب، خاصة من الأميركيين، الذين كانوا يحرصون على عدم الظهور، وإذا اضطروا، كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر بالملابس المدنية، ما لبثوا أن تخلوا عن الكثير من التحفظ والقيود. أصبحوا أكثر ميلاً للتجول في الأسواق بملابس الميدان، وفي ممازحة الباعة في السوق العتيق؛ أما هواية التقاط الصور، خاصة في الأماكن العامة ومع الأشخاص، لكي يتميز المكان الذي هم فيه، وإرسال الصور إلى الأهل والعشيقات، هذه الهواية التي ترددوا في ممارستها خلال الأسابيع الأولى، ما لبثت أن أصبحت الشغل الشاغل للكثيرين.

وتأخر المطر هذه السنة أيضاً، نظر المسنون إلى السماء وهزوا

رؤوسهم. التجار الذين صبروا وانتظروا، وتوقعوا أن يعوضوا ما فاتهم من ربح بعد زيارة شيوخ البدو، من جامعي النقود الصغيرة، إذا اطمأنوا أن السنة ستكون سنة خير، أو إذا عضهم الجوع، ما عادت صدورهم تحتمل هذا الصمت كله. قال الزوبعي:

- موران تحتمل شهر، اثنين. أما أنها تحمل الله وعبيد الله فهذا فوق ما تقدر!

أما سعيد الأسطة الذي بعث ابن أخته ومعه شخص آخر، بمجرد أن سمع بقرب دعوة شيوخ البدو، وطلب أن ترسل، وبالطائرة، كميات كبيرة من نوعية السلع التي باعها في السنة الماضية، وحين تجمعت تلك السلع في محلاته الثلاثة، وفي المخازن، ولم تتحرك، فقد قال بنزق كاد يخرجه عن طوره:

- والناس يشترون، يا جماعة الخير، إذا كانوا مرتاحين وبالهم فاضي، أما إذا دخلت السياسة بالتجارة، والواحد ما هو مؤمّن لا على عيشته ولا على حياته، لا بالله يضم فلوسه بعبّه ويقول: إلى أن الله يفرجها.

أما صالح المطوع الذي أصبح وكيلاً لعدة شركات يابانية، وفتح معرضاً من أكبر معارض الأدوات الكهربائية في موران، وقد وصل لتصميمه وتنسيق معروضاته اثنان من اليابان، فقد بعث بثلاث برقيات في غضون أسبوعين، يطلب تأجيل إرسال البضائع، إلى حين الطلب. وحين اتصل به رضائي ليسأله عن حالة السوق، فقد رد بسخرية:

- البدو المساخيط اللي كان دينهم ومعبودهم الترانزستور، وكان الواحد منهم يجوع حتى يشتريه، تراهم اليوم يقسّمون على الربابة وما يريدون بضاعتنا.

رضائي له رأي مختلف، اعتبر الركود أمراً طارئاً، ولا بد أن يتحسن السوق إذا عرضت بضائع جديدة، لذلك أخرج بعض ما كان في المخازن، ووافق على تسهيلات أكبر مما تعود عليها في بيوع التقسيط. لقد فعل ذلك بدافع تنشيط السوق، وللرد على ابن العليان الذي تحداه قبل فترة في شروط بيع السيارات.

المسنون الذين كان يروق لهم أن يذهبوا إلى المساجد قبل مواعيد الصلاة بفترات طويلة، كانوا، في وقت سابق، يتجنبون الحديث في أمور الحياة الدنيا، لأنهم يعتبرون أن ذلك لا يليق بالمكان ولا بأعمارهم، وإذا تطرقوا إلى شأن من هذه الشؤون، فإنهم يتكلمون أو يسألون بشكل عام، ما عدا حالة واحدة: انحباس المطر، عند ذاك ينتابهم الخوف ويسيطر عليهم الضيق، لأنهم يعتبرون ذلك مظهراً من مظاهر الغضب، وعلامة على أن الأمور وصلت حداً لا يحتمل السكوت.

قال المسنون في المساجد، وهم يتذكرون أموراً كثيرة: «إذا زاد الفساد، وفسق العباد، واستبد الحكام، فلا بد عندئذٍ من العقاب» وقالوا: «إذا نام الراعي أو جار، خربت الديار». وقالوا: «من يوم ما جاء، بلشت السبع العجاف».

وقصر السعد تظل أضواؤه مشتعلة الليل والنهار، وحراسه لا يغفلون لحظة واحدة. الحركة فيه وحواليه لا تهدأ، لكن صاحب القصر لا يتكلم ولا يظهر. حتى صلاة منتصف شعبان، وكانت مناسبة للصدقة وإظهار المودة ونسيان العداوات، لم يحضرها. بعث راكان نيابة عنه. ولم توزّع الصدقات، ولم تُنس العداوات. فقال عدد فمن حضروا الصلاة: «لا هو حي فيرجىٰ ولا هو ميت فمن، وأقسى أشكال الممات: الموت في الحياة، وإنّا لله وإنا إليه راجعون». وأدوا تلك الصلاة وهم أكثر هماً وأشد حيرة.

عندما هبت الرياح الزرقاء في نهاية الخريف، كانت لجان التحقيق قد انتهت من أعمالها، وقدمت تقاريرها لرؤسائها، وبعد أن دُققت ثم عُدّلت هذه التقارير رفعت إلى السلطان، أما البدو الذين تأخروا، فلم يجدوا مفراً، بعد أن انحبست الأمطار، من العودة إلى الحرب. صحيح أن التأخر كان نوعاً من الاحتجاج على الشيوخ وعلى الحكام، لكنه كان أيضاً لإعادة القسمة فيما يستحق لهم وما يستحق للشيوخ. وهكذا بدأت أفواجهم تصل تباعاً إلى مناطق الحدود. استغربوا كثيراً حين مروا بالجريفة، ثم بمشعان، أما حين خيموا في حومة الوادي، باعتبارها المحطة، فقد صرخوا من أعماق القلوب وهم يشهدون الآثار: «الله أكبر». ولم يتأخر رجال السلطان

كي يقولوا لهم أن طائرات الدواحس هي التي فعلت كل ذلك. كانوا يريدون أن يحرضوهم، لكن مع التحريض تولد الخوف، فتساءل الكثيرون: «الحدود إذا كانت هنا أو هنا ما يتغير شي، لأن الجماعة، بالجهتين، قرابات ونسايب، وحرام أن الواحد يقتل خويه، اللي هو صورته ومثله، على شي هو لمالك الملك».

قريباً من العبيلة، لكن دون المرور بها، وعند عين دامس، التقت طلائع القوات الآتية من موران والعوالي. كان يفترض بهذه الطلائع أن تجهز المخيمات وتعدّ كل ما يلزم، حتى إذا وصلت القوات، تقام الاحتفالات الكبرى، قبل أن تبدأ كل مجموعة بأخذ مواقعها على الحدود.

ولأن القوات كانت بطيئة في سيرها، فقد كان هناك متسع من الوقت لأن يسأل أهل العوالي أهل موران عن الأمطار والأسعار والأخبار، ولأن يفعل أهل موران مثل ذلك.

قال أحد أقرباء عمر زيدان، في الليل المتأخر، لاثنين من بدو موران، وقد سألاه عن الأسباب التي دعته للالتحاق بالقتال:

ـ لي عم، ولا بد أنكم سمعتم باسمه، اسمه عمر زيدان، أكبر مغني في العوالي، حاول أن يعلمني الغناء، جرب معي كل حيلة، لكن رقبتي ورمتْ وصوتي ما طاب، فقال لي: «يا ولد أنت ما تصلح لشي، فرّح مُت». وهاني جيت...

وضحك بصخب لأن النكتة أعجبته أكثر مما أعجبت اللذين يحدثهما. وبعد فترة صمت، أضاف:

ـ وعمي مع الغناء والطرب يقرأ علوم السابقين، وقال لي: أنا قريت تواريخ العرب، والعجم، الهند والسند، وأريد أفهم هذه الحرب وما فهمت، فرِح يا ولد عساك، إذا عشت، ورجعت تقول لنا: شنهي.

وضحك أكثر من قبل، وكأن أحداً يكركره، ثم صمت، وصمت رفيقاه. ولما امتد الصمت غنى:

«ودعتني يوم الفراق وقالت وهي تبكي من لوعة وفراق
ما الذي أنت صانع بعد بُعدي قلت قولي هذا لمن هو باقي»

ما كاد يغني هذين البيتين حتى أجهش بالبكاء، كان بكاء حاراً موجعاً. ظن رفيقاه، أول الأمر، أن به خبلاً، وقد نظرا إلى بعضهما بتساؤل ساخر، أما حين استبد به البكاء، فقد شعرا بالحزن، وبذلا جهداً إلى أن هدأ، ولما اطمأنا، قال واحد منهما:

ـ يا ربع ورانا باكر شغل، الله أكبر، فخلنا، هالحين، ننام، حتى نقدر نسوي شي إذا أصبحنا.

الاحتفالات التي أقيمت أدهشت الكثيرين، لأنهم لم يشهدوا كرماً مثل هذا منذ سنين طويلة. كان الرجال في حلقات، حول المناسف، يأكلون ويتذكرون الذين خلّفوهم وراءهم. عشرات منهم تمنوا لو أن الأهل غير بعيدين، إذن لحملوا لهم شيئاً من هذا الأكل. أما حين بدأ القصيد، على ضوء النار الخافتة، فقد أثار من الأحزان والذكريات أكثر مما أثار من الحماس. وكلمة الأمير مساعد، وكانت نصف محفوظة، إذ قضى الأيام الأخيرة في قاعدة الريمان، وكان معه عدد من معاونيه، وردد الخطبة ذاتها على مسامعهم سبع مرات خلال يومين. وحين بدأ بإلقائها، في جو من الصمت والجلال، ارتبك كثيراً. التفت عدة مرات، وكأنه يستنجد بأحد. أما بعد فتح الله عليه، وتذكر المطلع، فقد بدا وكأن في داخله شخصاً آخر هو الذي يتكلم! وقبل أن ينتهي بدقائق قليلة، وكان يفترض أن يردد ثلاثة أبيات من قصيدة اشتهرت أيام أبيه، لكنه نسي بداية البيت، فالتفت إلى أحد رجاله، وكان حاضراً التدريبات كلها، وسأله:

ـ وأنت، يا محمد، تتذكر القلوص، فشنهو اللي قاله صاحبنا!

وذكّره، لكن بدل أن يستمع الناس إلى الأمير مساعد، وهو يردد تلك الأبيات، فقد بدأ الكثيرون بترديدها، مما خلق جواً هو بين الألفة والمرح، ونسوا الأمير والكلمات التي يريد أن يختم بها، فاكتفى بذلك، وقد كثرت التعليقات والابتسامات.

قبل أن تتحرك القوات، لتأخذ مواقعها، وبعد أن قسمت إلى مجموعات، وصل عدد من ضباط السلطنة، ومعهم عدد من الأجانب. وأثناء إعطاء التعليمات الأخيرة حول المواقع وساعة الحركة، تساءل البدو

وسألوا عن هؤلاء الذين لم يروهم من قبل ولا يعرفون لماذا هم موجودون. بدأت تتوالى الإجابات، همساً، أن هؤلاء جاءوا للمساعدة. فإذا عجزت الألسنة عن أن تقول كل شيء، فقد عاضت عنها العيون وتعابير الوجوه. قادة المجموعات الذين سمعوا، وقيل لهم من قبل، أبدوا حزماً مبالغاً فيه ليقطعوا دابر الأسئلة، وليعيدوا إلى الصفوف انتظامها، لكن، مع ذلك، أفلتت كلمات كثيرة: «لا بالله حنا بألف خير ما دام الخويا معنا» «أنا وأخوي على ابن عمي، وأنا وابن عمي (ويشيرون بطرف العين إلى هؤلاء الأجانب) على الغريب» «أبشروا يا الدواحس، والله لنخلي عجاجكم يسبق ضراطكم... وتشوفون».

وبسرعة وبحزم تصرف قادة المجموعات.

الطائرات التي حوّمت فوق المعسكر في عين دامس لم تعرف هويتها على وجه التأكيد، لذلك ولدت الكثير من الحذر الأقرب إلى الخوف، ربما تعمد قادة المعسكر، بعد ردة الفعل التي لمسوها نتيجة وصول الضباط والأجانب، أن يتركوا الأمر ملتبساً، إذ دوى البوق في بداية المعسكر وفي مؤخرته، وصدرت أوامر عاجلة بالانتشار. وبالغ بعض قادة المجموعات، نتيجة الاجتهاد وعدم المعرفة، إلى إصدار أوامر بأن يكون الجميع في حالة الجاهزية الكاملة، وأخذ وضعية القتال.

أما الأوامر اللاحقة بضرورة التحرك السريع، ومرافقة ضابط من السلطنة وأحد الأجانب لكل مجموعة، فإنها لم تبدد القلق، إنما غيّرت في نفسيّة الأفراد، خاصة وأن الطائرات كانت تظهر بين فترة وأخرى، وكان الضابط والأجنبي، بعد أن يستعملا المناظير المكبرة، يتشاوران لتحديد هوية الطائرة ما إذا كانت صديقة أم معادية، مع ما يترتب على ذلك من ضرورة الحيطة وزيادة السرعة، إضافة إلى عشرات الأوامر الصغيرة التي تصدر ثم لا تلبث أن تُنسى.

كان التحرك يوم الأحد؛ وكان الوصول إلى المواقع المحددة، سلفاً، يوم الاثنين باكراً. أما يوما الثلاثاء والأربعاء فقد خصصا، بالنسبة للأفراد، للراحة والاستعداد، وللقادة الثلاثة: الضابط والأجنبي ومسؤول

المجموعة، للتعرف على جغرافية الموقع، وتحديد طريقة التقدم. أما يوم الخميس، ومع أضواء الفجر الأولى، فقد بدأت المناوشات. كانت تصدر من هذا الجانب، أو الجانب الآخر، بين فترة وأخرى، وغالباً ما تكون الفترات متباعدة، مجموعة طلقات. وقد استمر الحال كذلك حتى الظهر. أما حين بلغت الساعة الثانية ظهراً في موران، فقد أذيع بيان عسكري عن بداية هجوم كاسح شاركت فيه القوات البرية والجوية. وأكّد البيان، بلهجة حازمة تفيض بالثقة، أن الهجوم حقق أغراضه، وأن القوات المظفرة للسلطنة تواصل الزحف، وأن العدو يتراجع ويخلي مواقعه وقتلاه وجرحاه.

إنه بداية الهجوم الذي طالما تحدثت عنه موران.

يوم الجمعة، كتب يونس شاهين افتتاحية مليئة بالفخر والزهو، وأشار إلى «أن السلطنة تبدأ مرحلة جديدة وتاريخاً جديداً، وستلقن الأعداء، وكل من تسول له نفسه، درساً يكون عبرة لمن يريد أن يعتبر» وفي نهاية الافتتاحية أورد تلك العبارة التي أصبحت تروقه كثيراً: «وعلى الباغي تدور الدوائر».

في اليوم التالي، الجمعة نفذ حكم الإعدام بثمانية عشر رجلاً حكمت عليهم المحاكم المختصة، لقيامهم بالهجوم على دار الإذاعة وبعض المؤسسات الرسمية. نفذ الحكم في سجن موران المركزي، خلافاً لأحكام كثيرة سابقة، إذ كانت تنفذ في ساحة مسجد السلطان فنر، وكان بين هؤلاء برجس بن عمير، وصالح الرشدان. واختتم البيان بعبارات التهديد ثم بالآية الكريمة: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون.

ومساء الجمعة ذاتها ألقى السلطان خطاباً في مجلس العلماء، أشار بسرعة، إلى «الأحداث المؤسفة» التي وقعت خلال الفترة الأخيرة، في الوقت الذي تتعرض السلطنة إلى العدوان الخارجي. وأكد، رغم الصعوبات والتحديات، أن السلطنة في المرحلة الجديدة تبدأ عصراً جديداً من أهم مقوماته: الدستور.

سمع أهل موران بهجوم يوم الخميس. ويوم الجمعة، بعد صلاة الظهر، لم يلفت نظرهم شيء وهم خارجون من جامع السلطان فنر. ولما وصلوا إلى بيوتهم، وقبل أن تمتد أيديهم إلى الطعام، جاء من قال إنه تم إعدام ثمانية عشر رجلاً.

الكثيرون لم يصدقوا. قالوا: إشاعات. وقالوا: كلام حساد. وقالوا: العادة أن يجري الإعدام في ساحة المسجد، والآن كنا هناك، وكانت الساحة خالية مثل قلب أم موسى. ومع ذلك ترددوا في أن يتناولوا الطعام. أكثر من ذلك طلب الرجال من النساء إطعام الصغار والانتظار، لأن شيئاً من الشك تسلل إلى القلوب. خرج عدد من الناس إلى الشوارع، تطلعوا نحو قصر السعد وقصور الخالدية، تطلعوا إلى السماء. كان كل شيء ساكناً، ثقيلاً. كادوا يعودون إلى البيوت، لكن تلك الرغبة بالمعرفة منعتهم. ذهب قسم منهم إلى الأقارب والأصدقاء، وعرّج غيرهم على المقاهي التي كانت تتثاءب في شمس الظهيرة الكامدة. موران تتغطى بالهواء الرخو، هواء ليس دافئاً وليس بارداً، لكنه غير منعش. يخلق في النفس حالة أقرب إلى الضيق.

جهاز الراديو الصغير الموجود في معظم البيوت أصبح العدو الذي تنشد إليه الآذان والعيون في تلك الظهيرة. ورغم الكراهية، التي تصل حدود العداء، فإن أحداً لم يقو على الابتعاد عنه. يعرفون أنه مليء بالأكاذيب، ولا يتصورون أن جهازاً بهذا الحجم، يمكن أن ينقل هذا الكم الهائل من الكذب والهموم والأحزان.

حين أذيع الخبر في الساعة الثانية، وكان خبراً قصيراً، حاداً، مع

إشارة أن تنفيذ الحكم جرى في سجن موران المركزي، وأن بين الذين نفذ بهم برجس بن عمير وصالح الرشدان، طفت موجة من الحقد الممزوجة بالقرف على القلوب مثلما تطفو طبقة الزيت فوق الماء. شعر الكثيرون بآلام في المعدة وبجفاف في الحلق، وشعر غيرهم أنهم لا يستطيعون البقاء، وليست لديهم الرغبة في الذهاب إلى أي مكان. هجم وخيم الصمت ثقيلاً موجعاً. أغلق معظم الناس هذا الجهاز الأسود الحقود. سألت النسوة، لكن دون حماس، ما إذا حان وقت الطعام، فلما أجابت العيون، أو الصمت، أو تلك الحركة من الرؤوس، والتي لا يمكن لغيرها أن تعبر بهذه القوة، إذ أعلنت الرفض وعدم الرغبة والطلب من السائل أن يكف، أو يغور، لم تحتج النسوة، ولم يحتجن إلى جهد ليفهمن معنى النظرات الجامدة، والصمت القاسي المنصهر، ومعنى تلك الحركة. ولما نهض أغلب الرجال، وهم يترنحون، لكي ينظر بعضهم من النوافذ إلى اللاشيء، وليرفع غيرهم رؤوسهم إلى السماء، أو حين توجه آخرون إلى الفراش، فقد كان كل شيء مفهوماً ومقبولاً، أو بالأحرى وحده الذي يعبر عما يدور في عقول الناس وقلوبهم.

أغلب أهل موران، في المساء ذاته، لم يسمعوا خطاب السلطان. أما بعد أيام، حين أخذت تلك الكلمة الشيطانية، «الدستور» تقفز كالجندب، وتنتقل من شفة لأذنٍ، ومنها إلى لسان آخر، فقد نظر الناس إلى وجوه بعض وابتسموا ساخرين. تذكروا أن هذه الكلمة، او ما يشبهها، قيلت قبل سنين، حين نُحيّ السلطان خزعل، لكنها لم تعن لهم شيئاً في ذلك الوقت، ولا تعني لهم شيئاً الآن.

كتب طالب يعد أطروحة جامعية حول «طبيعة شخصية الفرد في موران» ملاحظة في دفتره: «... ومن الأمور التي تسترعي النظر، وتتطلب الدراسة، أن الناس، أو معظمهم على الأقل، لم يسمعوا بالوعد الدستوري الذي أعلنه السلطان. وبعد فترة، حين أصبحت كلمة الدستور تتردد كثيراً، لم يبدوا اهتماماً، حتى بالحدود الدنيا، بهذا الحديث الخطير، وكأنهم راضون بالوضع الحالي، وغير متأكدين من جدية الوعد.

«بالمقابل، فقد لمست بشكل واضح أن الناس شديدو الحرص على معرفة جميع التفاصيل التي رافقت عملية الإعدام، كانوا يتناقلونها بكثير من الاهتمام والدقة، ولا أبالغ إذا ذكرت هنا أن متعة من نوع ما كانت تظهر في عيونهم، أو على ملامحهم، وهم ينقلون أو وهم يستمعون، وكأنهم يلتذون بالأحزان، أو يجلدون أنفسهم بهذه الطريقة الفذة. هل أدمنوا الحزن إلى درجة أصبح متعة لهم؟ ألا يعرفون الفرح، أو لا يعتبرونه ممكناً وحقيقياً؟ أن في الأمر ما يستوجب التوقف، وقد تشكل الإجابة على مثل هذه التساؤلات مفتاحاً لفهم الشخصية».

أهل العوالي كانوا أكثر مكراً. إذ رغم أن انحباس المطر أنهكهم، ودفع بالكثيرين إلى الهجرة، فقد تطيروا كثيراً من الحرب، قالوا: الجوع ولا الموت الزؤام، لأنهم عرفوا معنى الحرب وذاقوها. لذلك لم يلتحق بمقاتلي السلطان إلا القليلون، نتيجة اليأس، أو لأنهم لم يجدوا شيئاً آخر يفعلونه.

أما بعد الأحداث التي جرت فلم يخفوا فرحهم. وإذا كان سنوات القهر قد أنستهم السخرية، فقد عادوا إليها من جديد، أصبحت النكات والكلمات اللاذعة، إضافة إلى تلك الأوصاف التي يخترعونها «من تحت أظافرهم» كما يقول رضا الجاوي، تملأ الأسواق، وتقال علناً في المقاهي. حتى أن المسنين نبهوا بقسوة وخشونة على الصغار لكي يكفوا.

لما هرب الطيارون قالوا: «الشباب حاجزين ذهاب وإياب، وعودتهم، بإذن الله، ما هي بعيدة» وقالوا: «الرائد لا يكذب أهله، وحين يرجع، حتى لو طوّل الغيبات، يرجع بالغنايم، وتشوفون». أما حين لجأ الأمير سند وأخوته إلى الدواحس، فقد قالوا: «إذا إخوانهم ما حملوهم شلون تريدونّا نحملهم؟» وقالوا: «دود الخل منه وفيه». وقالوا: «إذا أبرقت فلا بد ترعد، وبعدها المطر اما علينا أو حوالينا».

ولما جرت محاولة الاستيلاء على الإذاعة، وفشلت، حزنوا أشد الحزن، وقاطع الكثيرون منهم إذاعة موران!

الآن، بعد أن سمعوا أخبار تجدد القتال، رفعوا عيونهم إلى السماء

فوجدوها زرقاء شامخة، فقالوا: «موت الله ولا موت العبد».

أما في اليوم التالي، بعد أن سمعوا بتنفيذ حكم الإعدام، فقد سُمعت شتائم كثيرة، لكن أياً من المخبرين لم يجرؤ على أن يتطلع إلى الوجوه ليعرف الذين شتموا. ولم يكتب ولم يقل أحد منهم لرؤسائه شيئاً. كان المخبرون أكثر خوفاً من الذين يشتمون أو يسمعون. وقال واحد من هؤلاء لبعض أصدقائه: «جماعة قصر السعد ما يتأمنون، لأنهم إذا بلشوا ببعضهم، فشلون راح يكونون على غيرهم؟».

وخطاب السلطان الذي استمر خمسين دقيقة، وقد استمع إليه عدد قليل، بدافع حب الاستطلاع أو لرغبة مفاجأة الآخرين، لم يستطيعوا أن يلخصوه، حين سئلوا، إلا بكلمة واحدة: الدستور.

لم ينتظر أهل العوالي، قالوا: دقوا الحديد وهو حامي. ولذلك بدأت الدعوة إلى كتابة مضبطة ترفع إلى السلطان، لتأييد مشروع سن الدستور. بدأت من حي الرفيعي إلى السوق التجاري، فالقلعة، ثم الأحياء الأخرى، فالميناء، إلى أن وصلت إلى مراكب الصيادين. وهكذا جمعت آلاف التواقيع والأختام، وكلها تعلن تأييدها ومباركتها من أجل سن الدستور.

عمر زيدان الذي رفض التوقيع على المضبطة، قال أمام الكثيرين:

- الرفيعي مات وبقلبه حسرة: الدستور. وحنا بقلوبنا حسرات، لو جعل ماء البحر مداداً واديم الأرض قرطاساً لكتابتها لما نفذت، فاتركونا بحسراتنا يرحمكم الله.

ضحك بسخرية، تلمس خده، وقال بنغم:

- وأنا، يا جماعة، ما بنفسي أموت هالحين، لسّه براسي كم نغم، فاتركوني حتى أقسّم وأغني.

حين ألحوا عليه، لأن لاسمه أهمية وتأثيراً، رد بنزق:

- الدستور ما يجي بالهين، يا جماعة الخير؛ ما ينعطى فطرة ولا عيدية، ودونكم التاريخ أقروه!

وفي أوساط الأسرة، وبين الأخوة، ومع المستشارين، أصبح الحديث يتركز حول الوعد الذي أعطاه السلطان بسن الدستور. وقد نتج عن ذلك

الكثير من الاجتهادات والاختلافات، ومما أكدها أن السلطان لم يبحث الأمر مع الآخرين، ولم يتسن لمعظم الأخوة أن يلتقي به خلال تلك الفترة.

راكان لم يخف استياءه من وعد الدستور، خاصة وأن الإذاعة لم تجد ما تبثه سوى الخطاب، فقد أذاعته عدة مرات، وتوقفت طويلاً عند الوعد السلطاني، وما يحمله من سمات عصر جديد، كما قال يونس شاهين أيضاً في الافتتاحيات العديدة التي كرسها لهذا الموضوع. ومما زاد في استياء راكان، أن حكم الإعدام ينفذ لأول مرة في السجن المركزي بصمت وسرية، وكأن الدولة تخشى من ردود الفعل. لقد حصل ذلك بناء لتعليمات مشددة من السلطان، في الوقت الذي كان يريد أن يزرع الخوف في كل قلب، وإلى قيام الساعة، كما قال.

لم تقتصر تعليقات راكان على مجالسه الخاصة، فقد تكلم أكثر من مرة في أمكنة، ومع أشخاص، بحيث كان يريد أن يصل كلامه إلى السلطان. ولم يتأخر لكي يصل. ومن يعرف الأمور من الداخل، يؤكد أن ما قيل وصل، ومنذ اليوم الأول، لكن السلطان تظاهر أنه لم يسمع، بل أكثر من ذلك لم يشجع الذين نقلوا إليه على أن يضيفوا أو يعلقوا. نظر إليهم وقال:

ـ بس، اللي عليكم سويتوه، وما على الرسول إلا البلاغ.

أما بعد أن مرت أسابيع، وهدأت الأمور، وحين رُفعت عريضة العوالي، وعليها آلاف التواقيع، تؤيد خطاب السلطان، وتشير بشكل خاص إلى الدستور، وكاد راكان يتخذ إجراءات باعتقال الكثيرين، فقد بادر السلطان إلى عقد اجتماع مصغر لمجلس الحل والربط.

قيل ان السلطان كان في الاجتماع، خلافاً لعادته، مرحاً أقرب إلى التبسط. وهو، حين يكون هكذا، يريد أن يخلق جواً يساعد الآخرين على أن يقولوا كل ما عندهم، دون تحفظ، أو خشية. الذي يعرفون السلطان معرفة قريبة، يؤكدون أنه لم يلجأ إلى هذا الأسلوب إلا مرات قليلة: يتذكرون يوم قرر تنحية خزعل، ويوم حاول استرضاء سند.

في هذا الاجتماع، وكما اعترف يونس شاهين، بعد بضعة شهور، كان السلطان يريد معرفة كل شيء، وكان يريد من راكان، بشكل خاص، أن يقول قناعاته. ولم يتأخر راكان، كشف كل أوراقه:

ـ أنت اللي قلت لنا: دستورنا معروف، وما نقبل بغيره. وأنت، يا طويل العمر، تعرف لغاوي أهل موران وفسق أهل العوالي. وهذول وهذوليك ما يعرفون غير السوالف، وبمجالسهم يقولون: باكر أكبر راس تحت الدستور، ويدوسون، وهم يسولفون برجلينهم! ويقولون: وحسب الدستور، ما يبقى أحد إلا ونجّره مثل ما نجر التيس: تعال، يا فلان: نريدك تسولف لنا كل شي، فإذا رضينا عنك خليناك، وإذا لا والله، فترى وراك محاكمة، وسين جيم، ويصير وما يصير...

زفر ورفع يديه باحتجاج. سأله السلطان:

ـ وشنهو بعد يا راكان؟

ـ ويقولون، طال عمرك، وزير الداخلية ما طبق الدستور. وزير الداخلية خالف الدستور. وجيبوا وزير الداخلية: ها يا فلان، ليش سويت كذا وكذا؟ فإذا جاوبت ما خلصت، وإذا سكت ما خلصت.

تدخل مساعد:

ـ ويقولون، طال عمرك، أنه بحسب الدستور، إذا صار الدستور، أن السلطان ما يحكم حسب عقله وضميره واللي يشوفه بصالح الناس، يلزمه أن يسوي اللي يطلبونه منه، وإذا خالف يعزلونه!

سأل السلطان بسخرية:

ـ وبعد؟

ـ سوالف الناس وفتاويهم ولا أكثر منها، يا طويل العمر.

هكذا أجاب راكان. والتفت إلى أكثر من جهة، غريزياً، ثم تابع:

ـ ويقولون، طال عمرك، أن السلطان خايف من لغاوي سند، والكلام اللي يذيعه بالراديو ويكتبه بالجرايد.

قال صالح الذي ظل صامتاً:

ـ أنا بنفسي قريت بالجرايد، أن مسألة الدستور كلها من راس سند.

وقريت أنه قال بعد خطاب مجلس العلماء: هذا أول نصر نحققه، وحنا بعيدين، أما إذا تقرّبنا فإن الانتصارات سوف تتوالى.

ـ قال أكثر من كذا يا صالح. قال: ارغمنا موران، وارغمنا السلطان، على تنفيذ مطلب أساسي كان الشعب دوماً يطالب به: الدستور. وقال: ونريد السلطان يصير مثل ملكة بريطانيا، يسود وما يحكم، وهذه السالفة الأخيرة سألت عنها كثيرين، شنهو معناها، وكل واحد يقول غير اللي يقوله الثاني!

هكذا أجاب مساعد، بحدة، وبعد قليل:

ـ وتعرف، طال عمرك، حنا هالحين أيدينا بالنار، والحرب ما ترحم، فإذا ظلينا بين راديو سند وعرايض العوالي وسوالف أهل موران، ترى حسبتنا واقفة ومخوطرة، ويجوز باكر أو اللي عقبه ما نقدر نواصل الحرب.

ولم يترك السلطان أخاً إلا ودفعه أو طلب منه الكلام، أن يقول كل ما يريد، وبمنتهى الصراحة. ساد الجو في لحظات كثيرة شعور بالألفة، رغم وجود فروق، وإن تكن طفيفة، أو مؤقتة، بوجهات النظر، وبعد أن قيل معظم أو كل ما يراد أن يقال، تكلم السلطان:

ـ يجوز أن هذه المرة الأولى نفتح قلوبنا، وكل منا يقول قناعاته وما يفكر فيه. وإذا كان عليّ لوم، فهو أني قصّرت بعقد مثل هذه الاجتماعات، لكنكم تعرفون مشاغلنا والهموم اللي تطاردنا. ما نخلص من مشكلة إلا وتطلع الثانية. لكن إن شاء الله من هذا الشهر، ومهما كانت المشاغل، يلزم أن نلتقي، ولو ساعة، ونتباحث.

بعد هذه المقدمة تنحنح وابتسم، وهو ينظر إلى الوجوه، وتابع:

ـ ما أريد أقول لكم عن المتاعب والمخاطر التي تواجه السلطنة، كلكم تعرفونها زين، بس مع ذلك لا بد أن نفهم على بعضنا، إذا الواحد منا قال كلمة يلزم أن الثاني يفهمها بدون خطأ، يعرف ليش انقالت، وشنهو معناها، ومن هو المقصود بها. أما إذا الواحد منا يسمع كلام الناس، وكلمة تأخذه والثانية ترده، فالمسألة تنلاص علينا ويجوز تتعكر بينا....

ضحك، وكأنه تذكر شيئاً، وإذ استغرب الأخوة، وتطلعت إليه العيون، أضاف بلهجة أبوية:

- قبل سنين قرأت في كتاب - ويلزم كل واحد منكم يقرأه ويحرص عليه، واسمه: كتاب الأمير، قرأت: «على الأمير الذي يجد نفسه مرغماً على تعلم طريقة عمل الحيوان، أي اللجوء إلى القوة، أن يقلد الثعلب والأسد معاً، إذ ان الأسد لا يستطيع حماية نفسه من الاشراك، والثعلب لا يتمكن من الدفاع عن نفسه أمام الذئاب، ولذا يتحتم عليه أن يكون ثعلباً ليميز الفخاخ، وأسداً ليرهب الذئاب».

تنفس بعمق، وتابع:

- وبهذا الكتاب، يقول صاحبه، وأخرج ورقة وأخذ يقرأ - «وعلى الحاكم الذكي المتبصر أن لا يحافظ على وعوده، عندما يرى أن هذه المحافظة تؤدي إلى الأضرار بمصالحه، وأن الأسباب التي دعته لإعطاء ذلك الوعد لم تعد قائمة» وبمكان ثاني يقول: «وعلى الأمير أن لا يخشى كثيراً من المؤامرات، إذا كان الشعب راضياً، أما إذا كان مكروهاً ويحس بعداء الشعب له، فإن عليه أن يخشى من كل إنسان، ومن كل شيء». ويقول صاحبنا، بنفس الكتاب: «ويغدو الأمراء دون شك عظاماً عندما يتغلبون على العقبات والمعارضة، ولذا فإن الحظ عندما يود أن يعلي من شأن أمير جديد، هو في حاجة إلى الحصول على الشهرة، يخلق له الأعداء ويرغمه على شن الحروب عليهم، ويمكنه بعد ذلك من التغلب عليهم، ليرتقي اثر ذلك عالياً، السلم الذي وضعه أعداؤه في طريقه. ويؤمن الكثيرون، تبعاً لذلك، أن على الأمير العاقل، إذا أتيحت له الفرصة، أن يخلق بمكر عداوات له، حتى إذا قهر أعداءه، ضاعف من عظمته».

طوى الورقة، ووضعها في جيبه بعناية، تطلع إلى راكان، وقال:

- وأنا، والشهادة لله، يا جماعة الخير، لا أريد أقرأ دروس على روسكم، ولا أعتبر نفسي أعرف منكم، بس لروحي دوم الدوم أقول: إنما تنفع الذكرى. وهذا اللي قريت عليكم منه، ما هو مقصود أن يطبق مثل ما هو مكتوب، ولا هو مخلوق لبلادنا وعصرنا، لكن البني آدم يستأنس،

يعرف شنهو اللي سواه غيره، وشنهو اللي يفيده، واللي يضره.

هز رأسه عدة مرات، وتابع:

ـ وهالحين إذا تركنا اللي مكتوب بالكتب، ورجعنا لسوالفنا، فشنهي المشاكل؟ الدستور اللي زعّل راكان ومساعد؟ الكلام اللي يسولفه الناس عن المحاكمات للوزراء والأمراء؟ عريضة أهلي العوالي؟

يلزم تعرف، يا راكان، وأنت يا مساعد، أن ما هو كل ما ينقال يصير. زعلتم من كلمة؟ وحتى هذه الكلمة قلناها من قبل، وتذكرون. أما ليش نقولها ونكررها نوبة ثانية هالحين، فيلزم تعرفون: الدنيا كلها، من يوم ما صارت الحرب، قايمة قاعدة: «تخلوا عن النظام في السلطنة لأنه لا يستحق الحماية، إذ لا يمتلك الحد الأدنى من الشروط الإنسانية، فهو إلى الآن لا يملك دستوراً، ولا يعترف بأية حقوق للمواطنين، إضافة إلى...». هذه سوالفهم في أميركا، في أوروبا، بكل مكان، وحنا يلزمنا ما نخاف: تريدون دستور؟ حلت البركة، بس هالحين نريد عونكم ومساعدتكم، وبعدما تخلص الحرب، بعدما تتغير الأمور، الله كريم!

ابتسم وهو يهز رأسه، وبعد قليل:

ـ وأنتم يا أهل موران، ويا أهل العوالي، نريدكم معنا، نريد عونكم بقلوبكم وزنودكم، وإذا لكم مطالب، أي بالله حنا معكم. تريدون فلان شي وفلان شي، ومنها الدستور؟ ما يخالف، يا جماعة الخير، تستاهلون، واللي تريدونه يصير.

يلزم نقول هذا الشي هنا وهناك، وما نخاف. نقول كل اللي يريدونه، بالإذاعة، بالجرايد، بالخطابات. وهم يريدون هذا الكلام، وشرطهم أن نقوله. قلناه يا أولاد الحلال، وبعد ما تخلص الحرب لكل حادث حديث!

التفت راكان إلى أكثر من اتجاه، للتعبير، بالعينين، عن إعجابه وتقديره. قال السلطان بثقة:

ـ وما أريد أذكّرك، يا أبو منصور، بالمثل اللي يقولونه جماعتنا: شيّم البدوي وخذ عباته. أنت تعرفه زين، والدنيا، وين ما تلفت، كلها بدو. يجوز يكون بدو غير ديرة يلبسون غير ملابس بدونا، لكن العقل واحد...

وتغيرت لهجة السلطان، أصبحت هامسة ومتآمرة:

ـ وما أريد أخفي عنكم سر: بعد اللي صار بالدواحس، قال الأميركان: وليش ما نجيب جماعة أفندية، ومعهم عسكر، يحكمون السلطنة، بدل هذول الشيوخ والأمراء؟ وكان بينهم كثيرين موافقين ومتحمسين، وقالوا: توكلوا على الله، ولولا أني طرّشت واحد وراء واحد، مع رسائل وتطمينات، واللي تريدونه يصير، وإلاّ السالفة اللي براس كما واحد منهم صارت، وحنا هالحين أثر بعد عين!

واحتد السلطان قليلاً، وهو يضيف:

ـ فهمت، هالحين، يا راكان، ليش نقول الدستور والدولة الحديثة وغيرها من السوالف الجايفة؟

ـ فهمت طال عمرك، وهالحين صارت القضايا واضحة!

ـ ومسألة الأحكام وتنفيذها بالسجن المركزي، ما تريد تسألني عنها يا راكان؟

هكذا سأل السلطان بسخرية، ولما هز راكان كتفيه بارتباك، تابع:

ـ هذه القضايا، يا راكان، إذا زادت عن حدها تنقلب إلى ضدها، مثل ما يقولون. وأنت تذكر، الجماعة اللي اعدمناهم قبل فترة، وبكل مكان، ربّوا الناس، علموهم أنه ما عندنا لحية مشّطة، واللي نريده يصير. بس يلزمك تعرف: بين المعدومين واحد منا، والناس كلهم يعرفون، فإذا أعدمناه مثل أي واحد عادي، لا بد يشمتون، خاصة بعد ما سند سوّد وجوهنا، وسوّى اللي ما يصير. يقولون وقعت بينهم، وإذا اعدموا اليوم برجس فعقبه يبلشون ببعضهم، فنريد الخوف قبل الشماتة، ونريد كل واحد يتصور نفسه أو أحد من قرايبه معدوم.

وابتسم السلطان بثقة، وقال:

ـ الإعدام هو الإعدام يا راكان. بسيف، بحبل، بطلقة. النتيجة واحدة. وإذا صار بساحة المسجد أو السجن فالنتيجة ذاتها. ما هو بس كذا، نريد الناس يلّمسون على رقابهم ويخافون، ومرات كثيرة الواحد يخاف اللي ما يعرفه، ويخاف أكثر من اللي يطاله وما يشوفه.

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ ومن التقارير اللي وصلتني، ولا بد وصلتك، يا راكان، أن الناس قلوبهم مقطوعة، وهذا من وهم الخوف. يقولون: أولاد خريبط ما هم مصلين على النبي، فإذا السلطان أعدم ابن خاله، ولا أحد قدر يشفع له، فيلزم أن كل واحد يحرص ويتوقى.

قال مساعد:

ـ حنا، طال عمرك، تهمنا هيبة الدولة، وأنا مثل ما سمعت من الجماعة اللي يساعدّونا: أن كل الجيوش في العالم تقيم محاكم ميدانية لمحاكمة الخونة والجبناء، وأن الأحكام التي تصدرها المحاكم تنفذ فوراً، وأمام عيون الجميع.

ـ يا مساعد، يا بعد عيني، أنت تعرف، وما أريد اعلمك: المدينة غير الجبهة. عندكم الموت سهل، كل يوم يموت الناس، ينقتلون، والناس تعودوا. فإذا سويت محكمة ميدان وقتلت وذبحت عندك حجة. هنا، في المدينة، بموران أو بالعوالي، أو بأي مكان، الناس يسألون: ليش انذبح فلان؟ شلون انذبح فلان، بينما عندك ما أحد يسأل، وأظنك تعرف الفرق!

قال السلطان الكلمات الأخيرة بسخرية، وبعد قليل:

ـ المسألة ما هي كم واحد مات، المسألة شلون مات أو ليش مات؟

وحين خيم الصمت، وكان ثقيلاً متجبراً، قال السلطان ينهي الاجتماع:

ـ على كل حال...

وابتسم وهو يضيف:

ـ حنا اليوم أقرب لبعضنا من أي يوم. صرنا نفهم شنهو المقصود، وإذا الواحد منا قال شي الثاني يفهمه زين. وما هو بس كذا، حنا، هالحين، يد واحدة وقلب واحد، وإذا الله سبحانه وتعالى خلصنا من هذي الحرب على خير، الأمور تصير زينة، وما يكون كل واحد إلا راضي.

وفي جو من الانفعال والإعجاب قام السلطان، وانتهى الاجتماع!

موران التي كانت تزخر بالآلاف ممن لا يمكن تصنيفهم بالميسورين أو الفقراء، وإنما هم رهط كبير من الناس استطاع أن يتكيف مع الحياة، بصعوبة مرة، خاصة في سنوات المحل، وبيسر حين يأتي المطر ويفيض الخير، فيجد هؤلاء وسيلة للرزق، ويعتبرون أنفسهم محظوظين وراضين، ما داموا قادرين على تأمين الحاجات الضرورية دون عنت أو مذلة. هؤلاء الناس، ما كادت الحرب تطول حتى تحولوا إلى حالة من الضيق لم يتصوروها، ولم يعدوا أنفسهم لمواجهتها. إذ فجأة، ومثلما تركض المياه نحو المنحدرات، إذا جاءت قوية سريعة وجدوا أنفسهم وقد سُدّت أمامهم أبواب الرزق، وأصبحوا عاجزين عن تأمين الحاجات الأساسية، رغم أنهم ضاعفوا ركضهم، وفكروا طويلاً في مواجهة الصعوبات التي تزيد يوماً بعد آخر.

أصبحت موران، خلال بضعة شهور، تعج بالفقراء، كان هؤلاء يزدادون فقراً ويزدادون عدداً. ومع الفقر كان الجوع والموت والانتظار. فإذا ارتفعت أصواتهم بالشكوى، أو الاحتجاج، وسُمعت تلك الأصوات، كانوا يتلقون جواباً من اثنين: «ما يحلّ مشكلتكم إلا الجندية، لأن للجنود رواتب وأرزاق، واللي ينقتل يتعوض عليه» والجواب الثاني كان رد راكان حين زاره وفد من حي القلعة وشكا صعوبة الحال وضيق اليد، قال للوفد: «ما عندنا، هالحين، وقت للمشاكل الصغيّرة، فإذا انتهت الحرب الله كريم».

بمرور الوقت أخذ يزيد الفقر والفقراء، وأصبح مألوفاً وجودهم وعددهم، لكن ما فاجأ الناس في موران أن يكون بينهم هذا العدد من

الأغنياء أيضاً. صحيح أن الأمر عُرف بالصدفة، ولم يكن بقصد المباهاة أو تحدي الآخرين، ولكن لم يبق أحد إلا وعرف.

فأسبوع دعم المجهود الحربي، الذي افتتحه السلطان، وتبرع فيه، من ماله الخاص، بمبلغ كبير، وتبعه باقي الأخوة، ثم جاء بعدهم التجار، أدهش الكثيرين، لأن بعض المتبرعين لم يكن معروفاً، أو لم يكن يُتوقع أن يكون مالكاً لمثل هذه الثروة. لقد فعل التجار ذلك دون تردد وبسخاء أثار الإعجاب. حتى ابن العليان، الذي كان اسمه الثاني، بعد غزوان، في قائمة المتبرعين من التجار، لم يتوقع مثل هذا العدد، أو مثل هذا السخاء، خاصة وأنه تذكر حملة العوالي، ومدى الصعوبات التي واجهته آنذاك في إقناع التجار بتقديم قرض للدولة، أو كما قال «قرضة حسنة، وإلى أجل، ونسجّلها» لكن معظم التجار تظاهر بالفقر أو بعدم وجود المال السائل في اليد. ووصل الأمر ببعضهم لأن يهرب أو يسافر. الآن، رغم مظاهر التواضع، كانوا أكثر حضوراً وجرأة، لكن دون أن يتجاوزوا، بطبيعة الحال، ما دفعه الأمراء، لأن «العين ما تعلى على الحاجب» كما قالوا بنوع من الحزن أو التسليم، رغم أنه كانت لدى بعضهم الرغبة في أن يدفعوا أكثر مما دفعوا!

غزوان أعلن تبرعه بالمبلغ برقياً. كان في الجو، حين وصلته أخبار أسبوع المجهود الحربي، قيل إنه لم يحدد رقماً، إذ ترك الأمر مفتوحاً، فقط حرص على أن يكون تبرعه أعلى الأرقام بعد الأمراء. أما عندما سلّم صفاء الشلبي، الشيك، في اليوم التالي، فقد تعمد أن يفعل ذلك بعد أن تبرع عثمان العليان، لكي يسجل رقماً أعلى منه، وقد اعتبر ابن العليان نفسه مخدوعاً، لأن ما نقل إليه من سقف لتبرعات الأمراء لم يكن دقيقاً!

لم يكتف غزوان بذلك، ففي أول زيارة لاحقة قدم تبرعاً إضافياً، عبارة عن مواد عينية، لم يعلن عن قيمتها الفعلية، لكن عُدّدت الكميات والأنواع!

«إنها أيام كبيرة» هكذا وصف يونس شاهين، في إحدى الافتتاحيات، حملة التبرعات، ولكي يدلل على أنها كذلك، أشار إلى أن بعض

المتبرعين أصرّ على عدم ذكر اسمه، وأن متبرعين آخرين، خاصة في «المناطق الشعبية»، كما وصفهم، تبرعوا بعدد من رؤوس الغنم أو بالملابس، «وهذا يثبت مدى مشاركة المواطنين وحماسهم في دعم المجهود الحربي، والوقوف وراء أبنائنا المقاتلين».

وقيل أيضاً أن عدداً من الأميرات لم يتأخرن عن التبرع، لكن فضلن أن تذكر أسماء أمراء صغار السن بدل أسمائهن، وقد جاءت هذه التبرعات متأخرة بعض الشيء، لكنها لم تخل من دلالة!

ولأن الحرب مثل موج البحر، تتقدم وتتراجع، فقد ظن الكثيرون، في مراحل معينة، خاصة لما اشتدت وتيرة القتال، أن النصر أصبح وشيكاً، لكن ما كادت تنكسر هذه الهجمات، أو تلحق بقوات السلطنة بعض الهزائم، حتى بدا أن الأمر أصبح معكوساً.

السلطان الذي لم يهدأ ولم يتوقف عن حشد جميع الإمكانيات من أجل المعركة، كان باستمرار يردد على مسامع مساعد، وأخوة وآخرين، جملة بذاتها من كتاب الأمير: «الأمير لا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وعليه أن لا يفكر أو يدرس شيئاً سواها، إذ ان الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة».

الرويشدي الذي كان مفوضاً بالصرف، نيابة عن وزير المالية، قال أمام عدد من الأمراء، وكان يشكو أكثر مما يفاخر:

ـ طويل العمر، رغم حرصه وتدقيقه، إلا أنه بمسائل الحرب ما يحسب حساب!

وقد فهمت هذه الشكوى مديحاً، إذ علق الأمير فارس، وهو من أمراء الجيل الأصغر، وكان مقرباً من السلطان:

ـ الحرب مسألة حياة أو موت. إذا ربحناها ربحنا كل شي، وإذا خسرناها خسرنا كل شيء.

ويبدو أنه قال هذه العبارة نقلاً عن السلطان.

وحين تهدأ وتيرة الحرب، ولكي تبقى أعصاب الناس مشدودة ومتحفزة، غالباً ما تحدث أمور غير عادية، إذ إضافة إلى زيارة الجبهة،

وتفقد القوات، أو الإعلان عن حركات تمرد في الطرف الآخر، وصعوبات الحياة والفقر، فإن شيئاً ما يجب أن يحدث في الداخل، وهذا ما حصل عدة مرات: ترفيعات استثنائية لبعض الضباط، منح عدد من الشيوخ رتباً عسكرية، ثم عمليات إعدام تتم «للخونة والمتخاذلين». صحيح أن هذه الإعدامات لم تعلن رسمياً، ولم تجر في مكان عام، لكن كان يراد أن تصل أخبارها، وهذا ما كان يحصل غالباً، إذ ما تكاد تنتشر الإشاعات حتى تؤكدها الوقائع: الاعتقالات لكل من يمت بصلة قرابة أو معرفة لمن أعدموا. مصادرة الأموال. سحب كل مظاهر الحماية، وتحريض الخصوم أيضاً.

كان السلطان يقول أمام الكثيرين:

ـ بوقت الحرب ما ينقال: يصير وما يصير، هذا أبد ما مسموح به، الشي الوحيد المسموح: شلون يصير، وكل واحد يقول: لا، دواه موجود!

قيل إن أياً من الضباط الذين شاركوا في بداية الحرب لم يصل إلى نهايتها. الذين لم يعدموا جرحوا، والذين لم ينقلوا إلى الخارج أحيلوا إلى وظائف مدنية. أما مشعل الحمود، الذي كان قائداً للجبهة، فقد أصبح مديراً لمعمل الإسمنت، الذي أنشئ مؤخراً، وقبل أن تنتهي الحرب ببضعة شهور!

وقتلى الحرب وجرحاها يزيدون.

ولا يعرف كيف وصل إلى موران بيلي ادلر. نمساوي المولد، يحمل جواز سفر أرجنتيني، يحب المغامرة والبدو والموسيقى، كما قال! كان في الحرب الثانية مهتماً بالتجهيزات الطبية، خاصة مستشفيات الميدان. أما كيف وصل إلى الأمير راكان ومن أوصله، فإن الروايات تتعدد وتتناقض كثيراً. قيل إنه التقى بصفاء في سويسرا، أثناء رحلة من رحلات صفاء لإيداع أموال، وشراء قصر للأمير راكان؛ وقيل إن راتب الفتال هو الذي أوصله، نتيجة توصية من قريب له في ألمانيا، وغير هؤلاء من يؤكد أن بيلي وصل إلى موران وحده، دون معرفة ودون توصية، وأنه قضى

أسبوعين في فندق موران الكبير، قبل أن يصل إلى الأمير راكان، وأن الصدفة وحدها هي التي قادته وأوصلته، نتيجة علاقة نشأت أثناء إقامته في الفندق، إذ تعرف على اثنين من رجال الأعمال، كانا مكلفين بتأمين كميات من الإسمنت المقاوم من أجل إنجاز فرضة بحرية، قريباً من الطريفة، لتكون ميناء إضافياً، خاصة بالنسبة للمشتريات العسكرية، وقام الاثنان بتعريفه على الأمير.

ليس مهماً إذن معرفة كيف وصل بيلي ادلر، أو من أوصله، المهم أكثر من ذلك العرض الذي قدمه للأمير راكان من أجل تأمين خمس مستشفيات ميدان، وبناء ثلاث مستشفيات أخرى في المدن الرئيسية.

كانت السلطنة بحاجة إلى الخدمات الطبية، ولا يعرف لماذا أهمل هذا الأمر، أو أجلّ. أما حين جاء أدلر فقد كان إنقاذاً، خاصة وقد تزايدت الإصابات، وأصبحت الضرورة تقتضي الإسراع في إنجاز المشروع، مهما كانت تكاليفه.

صفاء كان مترجم الأمير راكان، حين عرض أدلر مشروعه. ولم تمض أيام حتى استدعي من جديد. استدعاه الأمير في الليل المتأخر. وإذا كان قد صدف أن استدعي صفاء مرتين في مثل هذه الساعة من الليل، مرة من قبل الأمير مساعد، ليسأل ثم يطلب الإسراع بمجيء المسعفات، وأخرى من قبل الأمير راكان، ليترجم بينه وبين صحفية هولندية، فإن هذه الدعوة المتأخرة، وما رافقها من حذر وسرية، أثارت خوف صفاء واهتمامه.

كان الأمير راكان يريد أن يعرف ما إذا كان صفاء أبلغ شركته بعرض أدلر، فإذا تأكد، لا بد أن يصل معه إلى النتيجة التي يعتبرها أهم من غيرها، أو وحدها التي تعنيه الآن.

بعد أن أكد صفاء، وأقسم، أنه لم يبلغ أحداً، وأنه نسي الموضوع، أشار إلى أنه حين يترجم بين اثنين يصبح مجرد آلة تستقبل وترسل، وبالتالي لا يتذكر معظم ما دار من حديث في تلك الليلة.

لما اطمأن راكان، وتأكد، قال لصفاء كلمة سوف يبقى يتذكرها لفترة طويلة:

ـ أدلر لا يريد أن يعلم أحد بعرضه. . .

ابتسم بمكر ثم تابع وهو ينظر إلى عيني صفاء:

ـ وهذا الكلام مني لك، خاصة بعدما عرفتك: وافقت على أن يورد المستشفيات الميدانية الخمس، وأن يبني المستشفيات الثلاث الباقية، والمربح. . .

وابتسم أكثر:

ـ ينقسم ثلاثة أكوام: كوم لك، لك وحدك، وما أريد ابد الشركة تعرف، والثاني لخوينا، والثالث تحطه لي بالحساب!

وقبل أن يتابع الأمير راكان نظر إلى عيني صفاء ليقرأ فيهما الجواب.

دارت عينا صفاء، صمت قليلاً، ثم خرج صوته من أعماق صدره:

ـ اتفقنا يا طويل العمر.

ـ وحتى لا أحد يعتبر نفسه مغبون، لك خمس وعشرين، ولخوينا خمس وعشرين، بالماية، فشنهو قولك؟

ولم يطل الأمر، تم الاتفاق أن تودع حصة الأمير، وهي خمسون مليون دولار، في حساب مؤقت، لأن التحويل سيكون باسم صفاء، ثم يتم ترحيله إلى الحساب الرئيسي للأمير.

كان شرط صفاء الوحيد، لكي تتم العملية بهدوء وسرية، أن يحصل على إجازة طويلة، وقد تعهد الأمير أن يقنع غزوان بمنحه الإجازة.

تمت الأمور بسرعة ويسر. فقد كانت لدى إليانور الرغبة في قضاء فترة طويلة في موران لتطوير العمل واكتشاف آفاق جديدة، خاصة بعد أن تم «تحرير» كافة ممتلكات الحكيم خلال الشهور الأخيرة، مما دفع كمال للاتصال عدة مرات بغزوان وإليانور من أجل البدء بسلسلة من المخازن الكبرى، ولذلك جاءا معاً.

قالت وداد لإليانور وهي تحتضنها بشوق:

ـ على وجهك شفنا كل الخير. . .

وكمال الذي ترجم العبارة بتصرف، أضاف من عنده:

ـ أنا درست فكرة المخازن الكبرى، وتأكدت أنها وحدها التي يمكن

أن تنجح، خاصة إذا أسرعنا، لأني أخاف أن يسبقنا أحد إليها.

وداد التي كان لديها الكثير لتقول، لتسأل عنه، ظلت تتابع بعيون حائرة الحديث الذي يدور، دون أن تفهم منه شيئاً، رغم أنها سألت عدة مرات حول ما قاله أو ما قالته إليانور، وحين ابتسم لها أكثر من مرة، في محاولة لأن يرشيها لكي تسكت، التفتت إلى غزوان:

ـ وأنت، يا غزوان، طالت غيباتك وما عدت سألت عنا.

وبدأ فصل من العتاب والمرح، إلى أن تغيّر الموضوع أيضاً، حين سألها غزوان عن أكلاته المفضلة، ومتى ستعدها، وكيف سيحاول عدم الالتزام بدعوات الأمراء، لأنه مشتاق إليها، وجاء من أجلها. ووداد التي تغيرت فجأة، قالت بحزن:

ـ بنفسي، يا غزوان، لو أبوك معنا، لكن الله كتب علينا التعب والشقا.

ـ بسيطة يا ماما، وإن شاء الله بيصير خير!

قيل إن صفاء، وهو يغادر موران، وقد فعل ذلك قبل وصول غزوان بثلاثة أيام، حمل معه مبالغ كبيرة لإيداعها في حساب الأمير راكان. لم يُعرف حجم هذه المبالغ أبداً، لأن أحداً لم يستطع أن يتأكد. وقيل أيضاً إنه استطاع أن يصل، وبطريقة غامضة، إلى مجموعة كبيرة من القطع الأثرية والنقود القديمة، إضافة إلى عدد من المخطوطات، كانت جميعها مودعة عند خادمة المستر هاملتون. وقيل إنه حصل على سمات دخول لعدة بلدان، ولعدة سفرات، أما السيارة الأميركية، الكاديلاك، فقد باعها، لأنه يريد أن يستبدلها بأخرى جديدة.

حمل صفاء الشلبي كل هذه الأشياء معه وسافر إلى سويسرا. قال للأمير راكان أنه سيغيب شهراً كاملاً، وخلال هذا الشهر سوف يتصل به حيثما كان. واتفق معه على بعض العبارات للإشارة إلى استلام المبلغ، الذي تم إيداعه في الحساب الرئيسي، كما سيبلغ الأمير بعنوانه ورقم الهاتف، حتى إذا احتاج إليه، أو أراد الاتصال به، لا يجد أية صعوبة. ولم ينس أن يشير أخيراً أنه قد يضطر للسفر إلى عدة أمكنة، للسياحة والراحة،

زيادة في التمويه على غزوان، ولذلك لن يُعرف مكانه أبداً بالنسبة للآخرين!

وسافر صفاء الشلبي، غاب تماماً.

انقضى الشهر، وخلال هذا الشهر لم يكف الأمير راكان عن انتظار تلفون صفاء، ولم يتوقف عن سؤال مكتبه ما إذا اتصل صفاء أم لا. ورغم المشاغل الكثيرة، وبعض الأسفار القصيرة، إضافة إلى الاجتماعات وأخبار الجبهة، فقد ظل قلقاً وظل ينتظر. أما بعد أن تبع الشهر الأول الشهرُ الثاني، دون خبر من أي نوع، فقد تيقن أن صفاء غاب إلى الأبد. حمل معه تلك المبالغ الهائلة وأفلت بها.

سأل غزوان، والذي كان قلقه يوازي أو يزيد، عن أية أخبار من صفاء، فوجده أكثر لهفة لمعرفة أي خبر.

سئل البنك في سويسرا ما إذا تم إيداع مبالغ جديدة باسم الأمير راكان، فكان الجواب بالنفي.

سأل عدداً من الأمراء ما إذا أحد منهم يعرف شيئاً أو سمع خبراً عن صفاء، فكانت التساؤلات أكثر إثارة من الإجابات!

بعث بمدير مكتبه، وعدد من حرسه الخاص، إلى سويسرا لتقصي أخبار صفاء، وإذا اقتضى الأمر لإحضاره بالقوة، فلم يظفروا بأي أثر له.

سئلت الحكومة السويسرية عن صفاء الشلبي، متى دخل إلى سويسرا، ومتى غادرها، فكان الجواب أنه لم يقض في جنيف سوى يوم واحد، غادر بعدها، لا يعرف إلى أين.

وحين سئل البنك الذي كان يتعامل معه حول إيداعات جديدة باسم صفاء ومقاديرها، لم يتلق جواباً أبداً.

لما سئل مساعد عن رأيه حول غياب صفاء، وما يحتمل أن يكون وراء هذا الغياب، وكان قد عرف عن مستشفيات الميدان بعد توقيع العقد، أجاب بسخرية:

ـ الغايب عذره معه، وإذا رجع، بالسلامة، نسأله ويجاوب!

قال الذين يتابعون الأخبار ويعرفون الأسرار، أن أناساً كثيرين جفاهم النوم بعد أن تأكدوا من غياب صفاء الشلبي. وأن آخرين أصيبوا بأعراض مرضية، إذ عاودت بعضهم آلام القرحة، وارتفع عند آخرين السكر في الدم. وقال هؤلاء أن الأمير مساعد أنشأ جهازاً خاصاً سمّاه: الشعلة، وهو مؤلف من غرفة عمليات في موران، وثلاث فرق اقتحام وتنفيذ، وهذه الفرق اثنتان منهما في حالة سفر دائم، خاصة في أوروبا، والثالثة موضوعة بحالة الإنذار القصوى بموران، لكي تتحرك عندما يطلب منها ذلك.

راكان الذي لم يصدق أن صفاء يمكن أن يهرب، ظل، حتى بعد مرور بضعة شهور، ورغم فرق الاقتحام والتنفيذ، على ثقة أن أمراً ما طرأ وأخرّه، ولا بد أن يظهر من جديد. ورغم هذه القناعة، أصيب بحالة من النزق تحولت إلى غضب، ثم إلى إدمان. وأصبح يشك بأقرب الناس إليه، وكل ما تمثلت له صورة صفاء يبدأ بالشتيمة.

بعدما تيقن الجميع أن صفاء لن يعود، وبعدما عجزت المجموعة التي أرسلت لتعقبه عن معرفة أي شيء، أُبلغ السلطان. نقل إليه راكان الأمر بطريقة خالية من الانفعال أو الخوف، فقد اعتبره لصاً أكثر من شيء آخر. والسلطان الذي عرف بالأمر في وقت مبكر، وبعد توقيع العقد ببضعة أسابيع، ربما من خلال العناصر التي تعمل مع راكان نفسه، كان يخاف من أمر أكثر خطورة: أن يكون صفاء في الدواحس، وأنه حمل إلى هناك الأسرار الخاصة بالتسليح، أكثر مما حمل من الأموال.

بعد استفسارات كثيرة، لا تخلو من قسوة، قال السلطان لراكان:

ـ . . . والجماعات اللي يطرّشهم مساعد، ومسباتهم وتهديداتهم سابقتهم، راح تسمّع اللي ما يسمع، وبدل ما تجيبه راح ينهزم أكثر.

وابتسم بسخرية، وسأل بعد لحظات صمت:

ـ ظني، يا أبو منصور، أنه ما قرأ شي من الكتاب اللي ذريته له قبل شهور، ولا حتى صفحة واحدة، ما هو كذا؟

لما ارتبك راكان، ولم يستطع أن يرد بالإيجاب أو النفي، هز السلطان رأسه، وقال:

ـ خوينا يقول: «لقد ثبت أن أولئك الذين تمكنوا من تقليد الثعلب تقليداً طيباً نجحوا أكثر من غيرهم، فالضرورة تحتم على الأمير الذي يتصف بهذه الصفة، وأن يجيد إخفاءها عن الناس، وأنه يكون مداهناً كبيراً، ومرائياً عظيماً. ومن طبيعة الناس أن يكونوا من البساطة والسهولة بحيث يطيعون الاحتياجات الراهنة، ولذا فإن من يتقن الخداع يجد أولئك الذين هم على استعداد لأن تنطلي عليهم الخديعة».

وبعد قليل:

ـ ما هو كذا، يا أبو منصور؟

ولما ظل راكان صامتاً، تابع السلطان:

ـ الفلوس اللي أخذها، وما أريد أسأل إن كانت كثيرة أو قليلة، راحت، بس الخوف: أنه راح العصفور والخيط. فإذا وصل للدواحس وقال لهم فلاني وتركاني، ترى حسبتنا مخوطرة.

قال راكان بغيظ:

ـ اترك المسألة علي، يا طويل العمر، وأنا أدبر الأمر!

كان غياب صفاء قاسياً مستفزاً إلى أقصى حد، فمساعد الذي زرع المنطقة الحدودية بمجموعة من الألغام، وكان مقرراً أن يستدرج قوات الدواحس إلى حقول الألغام هذه، بعد أن يسحب قواته، أو يتظاهر بالتراجع، خشي أن تكون هذه المعلومات قد انتقلت إلى الطرف الآخر، ولذلك ارتبك، وغيّر الخطة تماماً. أما راكان فقد هدّه حجم المبلغ الذي

«سرق» منه، إضافة إلى شعور الخديعة، كما أنه خاف وتحسب كثيراً لأنه كُشف، لهذا لم يعد يعرف كيف يتصرف، خاصة وأن الأرباح التي تحققت من خلال التوظيفات المالية جعلته يعطي صفاء توكيلاً، لكي ينقل من حساب إلى آخر. صحيح أن المبلغ الذي سرقه كبير إلى درجة تولد المرارة، لكنه كان يخشى من النتائج اللاحقة أيضاً. الأمر الذي اضطره للسفر إلى جنيف، ولفترة يومين فقط، من أجل ترتيب الحسابات المصرفية، إذ ألغى جميع التوكيلات السابقة، ونقل كل ما له من أموال إلى حساب واحد، رغم الخسائر التي تترتب على مثل هذا الإجراء.

موران التي صمتت شهوراً، والتي انتظرت المطر والانتصارات، أو توقعت شيئاً يحدث بعد هرب الأمراء ومحاولة الاستيلاء على الإذاعة، عادت من جديد إلى الهذر والسخرية.

قال الكثيرون في حي القلعة، بعد أن سمعوا عن هرب صفاء بأموال لا تأكلها النيران: «رزق المهابيل على المجانين، فإذا كان راكان لصّ الدنيا كلها، فجاء من حمّل وشال، وحلال عليه». وقال أهل حي سبيع: «الزمرد، يا جماعة الخير، اللي أخذه ما يتقدر وما يتثمن: طيارة بحالها حمّلها. زمرد ريحاني، وسلقي، ومجزع. ويقولون إنه ملا صندوقين زمرد شفاف». أما ابن البخيت الذي كان يسمع ولا يصدق، فقد قال في السوق العتيق، حين سمع عن الزمرد: «والزمرد، يا أولاد الحلال، ما هو بس قيمة ومال، الأهم أنه يدفع العين، خاصة عين أم الصبيان، ويقاوم السم، ويفرح القلب، ويسر النفس ويبسطها، ويقوي البصر و...» ولم يوضح، لكن حين ضحك عُرف ما يريد أن يقول.

وأهل موران يسمعون، يرقبون، ثم يتلفتون، وكأنهم ينتظرون شيئاً.

غزوان الذي بقي شهرين كاملين في موران، ولم يتصور نفسه أن يبقى هذه الفترة كلها، لم يستسلم للعذاب النفسي والانتظار، إذ بعد أن قام بكثير من الأعمال التي كان يقوم بها صفاء، التفت إلى ما يجب أن يعمله، إلى الإجراءات والعناصر التي يجب أن يلجأ إليها، والتي قد تساعد في الوصول إلى حل مناسب.

قال للسلطان، بعد أن أشار إلى صفقة لسلاح الأخيرة، وما تضمنته من أهمية ومزايا، وبالتالي ما قد تحدثه من تغيير في موازين القوى:

ـ . . . ولا بد أنكم تأكدتم، يا طويل العمر، من حرصي على خدمة السلطنة، وخدمتكم بشكل خاص، وإذا جاز لي أن أتلقى من جلالتكم ما يفيد الرضا، فإن لي مطلباً أرجو أن يتسع صدركم لعرضه، وتقرير ما ترونه مناسباً.

وبكثير من الحزن والمهارة، إضافة إلى استغلال الجانب الإنساني، أشار غزوان إلى المصاعب الصحية التي يعاني منها «الوالد»، خاصة بعد الفاجعة التي ألمت به، بحيث أصبح يحتاج إلى الرعاية والإشراف المباشر من الوالدة والأسرة، ويجب أن يتم ذلك في جو إنساني، بعد الغربة الطويلة المدمرة التي عانى منها أثناء إقامته في سويسرا، وليس كموران مكان يعطف عليه ويتقبله، لكي تكون نهايته في هذا البلد المبارك والمضياف.

كان غزوان يفكر بطريقة عملية، يريد أن يعوّض عن «الغادر» الذي لا يعرف كيف تركه ولماذا، ويريد أيضاً أن يشغل الوالد، وينقذه من الغربة والهلوسات، وتلك الأفكار السوداء التي سيطرت عليه خلال الفترة الأخيرة، وقد تؤدي إلى دماره أو انتحاره.

السلطان الذي فوجئ بهذا الطلب، التفت إلى أكثر من جهة، وكأنه شعر بالخطر والحصار، ابتسم وقال:

ـ عطنا فرصة نفكر. . .

ـ ولكنه مريض، طال عمرك، وما عاد مثل قبل. . .

وكاد يقول أشياء أخرى، لكنه لم يجد الكلمات، وإن ارتسمت على وجهه علامات الحزن والحيرة. رد السلطان:

ـ اللي بيننا وبينه كثير، يا غزوان، وأنت تذكر، بس إذا كان مريض، ويريد يجي لموران حتى يموت ما يخالف.

ـ هذا هو الواقع، يا طويل العمر.

ـ إذن، ما يخالف، بس أنت الضامن.

إذا كانت العادة أن تتستر المدن على الفقراء، وأن توفر لهم ما يمنع عنهم الموت، فقد بدت موران، بنظر الكثرين، في ذلك الشتاء القاسي، وكأنها مدينة أخرى: نزقة، يابسة، عديمة الرحمة. لا تطيق أحداً، ولا أحد يطيقها. إذ ما كادت الأيام الشديدة البرودة تنقضي، ويبدأ فصل الدفء، وقد امتلأ من بقي من الفقراء بشعور الرضا لأنهم نجوا، وما زالوا أحياء، حتى تفشى مرض غامض. بدأ بصمت، وفي نطاق ضيق، لكن ما لبث أن توحّش وأخذ يفترس الناس. كان يقتل الكثيرين، يقتلهم بسرعة، وقبل أن يعرفوا أو يتحققوا من الإصابة.

خلال شهر واحد، ما بين بداية نيسان ونهايته، مات عدد كبير من الفقراء. كانوا يموتون في الشوارع، في الأبنية القديمة المهجورة، أو في الأبنية التي لم ينته تشييدها. وكان يجري دفنهم بسرعة، لأن الأخبار أخذت تتزايد عن انتشار التيفوس، وقيل، أن معه الوباء الأصفر.

ورغم أن أهل موران، خاصة من كان منهم أقرب إلى البداوة، يعتبرون الموت هو الوجه الآخر للحياة، فلا يخافونه، ولا يرتبكون في مواجهته، كما ويتعاملون معه بسرعة وحسم، إذ يدفنون موتاهم بعد وقت قصير من موتهم، أو على التحديد حالما ينتهون من حفر القبر، والعادة أن يشارك بحفره كل من يصادف وجوده، ويستطيع أن يعاون وأن يفعل شيئاً، فإنهم يعودون بسرعة إلى حياتهم الطبيعة، وكأن الموت لم يكن قريباً منهم إلى هذه الدرجة.

هذه النظرة إلى الموت التي تميز أهل موران، والبدو بشكل عام، تهتز وتتزعزع إذا حصل الموت بشكل غير طبيعي: إذا وقع نتيجة الوباء أو الحرب، أو إذا وقع بسبب القتل.

والوباء، بنظر البدو، غضب السماء، ولأن السماء لا تغضب إلا على أهل المدن، فالنجاة لا تكون إلا بتركها والهرب منها إلى الصحراء. كانوا يغادرون موران متخففين من كل شيء. حتى النظرة يخافون أن يلقوها على المدينة وهم يتركونها. كانوا يفعلون ذلك خلسة، في أواخر الليل وقبل طلوع ضوء النهار، وزيادة في السرية والحيطة يتركون المدينة أفراداً أو على شكل مجموعات صغيرة، لأنهم يعتبرون الجماعة إذا زادت عن حد معين تحمل معها المدينة!

ومثلما هجم الفقراء على موران مع بداية فصل الشتاء، وكانت مواكبهم المسكينة المتعبة تثير الشفقة والحزن، وبعض الأحيان تثير الخوف أو الغضب، فإن رحيلهم جرى بصمت، ولم يحس الكثيرون، بل وساور عدد كبير من أهل موران الشك أنهم ماتوا، ودفنوا بعضهم، غير راغبين أن يتركوا لأهل موران فرصة الشماتة، أو مساعدة الموتى، بعد أن لم يفعلوا شيئاً لمساعدتهم وهم أحياء!

عدد من أغنياء موران القدامى، الذين تعودوا إخراج الزكاة كل عام، وقد وُجّه لبعضهم اللوم لأنهم لم يتبرعوا إلا بالقليل للمجهود الحربي، وفضلوا ألا تذكر أسماؤهم، أخرجوا الزكاة هذه السنة أيضاً، وأضافوا إليها صدقات كثيرة، كانوا يحرصون على تقديمها بسرية يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع. لقد استمروا يفعلون ذلك مما ساعد في إنقاذ البدو وعدد من الفقراء، لأنهم يحسون أن لقمتهم تصبح مُرّة، ولا يمكن ابتلاعها، إذا نام أحد من مدينتهم جائعاً. وهذا ما جعل بين الناس علاقات يحار الغريب في فهمها أو تبريرها، رغم فرق الثروة والجاه.

أما الذين اغتنوا في السنوات الأخيرة، أو حتى في الشهور الأخيرة، فإنهم كانوا يكرهون الغرباء والفقراء دون تمييز، لأن هؤلاء بالإضافة إلى كسلهم، فهم شديدو الإلحاح ويمتلكون نظرات لا تعرف التردد أو الانكسار. أنهم، حين يطالبون، تكون أصواتهم قوية وكأنهم يطلبون حقاً. وصدف مرات كثيرة، في شارع الروض، وقد أصبح أحدث شوارع موران، تشغله المحلات الجديدة المضاءة، والمملوءة دائماً، أن طالب

الفقراء بالزكاة. فكان رد الكثيرين، وكأنهم اتفقوا على هذا الرد، أن «الزكاة أرسلت إلى المقاتلين في سبيل الله».

بعد أن ارتحل أكثر الغرباء الذين بقوا أحياء، شعر تجار شارع الروض بالراحة، تنفسوا ملء رئاتهم، وتطلعوا إلى وجوه بعضهم بمرح، قال تاجر لآخر:

ـ نظف شاعر الروض، خلصنا من الشحاذين والبدو الملاعين.

وضحك الآخر:

ـ الشحاذين أخذهم الله، والبدو بعدما تبضّعوا بقمل موران كله، شيلوا، كل واحد منهم لديرته وعشيرته، وعساهم يروحون وما يردون!

ابن البخيت الذي تزداد عزلته وكآبته يوماً بعد آخر، يجد نفسه مضطراً، لكي لا يختنق ويموت كالكلب، للخروج إلي السوق. كان في أحيان كثيرة لا يجلس في مكان، رغم الدعوات التي توجه إليه، إذ يدّعي أن وراءه أعمالاً لا بد أن ينجزها، فهو يعرف أنه لا يحتمل السكوت، فإذا تكلم، خاصة في هذه الظروف، «فإن الحرب تجبّ ما قبلها» كما كان يردد، محاولاً أن يتجنب الكلام.

رغم هذا الحذر، والذي لم يعهده في نفسه، ولا يعرف كيف يفسره أو يبرره، فكان يرجع، بعد هذه الزيارة، منقبض النفس حزيناً، فإذا سأله العجرمي، أو أحد الأصدقاء، كان يردد، وكأنه يكلّم نفسه:

ـ «رب يوم بكيت منه فلما ... صرت في غيره بكيت عليه»

أو يقول:

ـ «عتبت على عمرو فلما هجرته ... وجربت أقواماً بكيت على عمرو (وعمري)»

سوف ينقضي وقت طويل قبل أن يُعرف أين حملت الرياح هؤلاء الفقراء. قيل إن عدداً كبيراً منهم فتك بهم التيفوس. الذين لم يموتوا في موران، ماتوا عند أطرافها. أما الذين امتد بهم الطريق، فقد قدر لبعضهم أن يصل إلى الماء، وقدر لغيرهم أن يصل إلى أهله. وساقت الأقدار عدداً منهم إلى الزرنوق.

في الزرنوق، وحواليها، إلى مسافة أميال من كل ناحية، يحس

الإنسان أنه ولد من الرمل وأشجار الطرفا والغيوم. إنه جزء من الطبيعة البكر، من الصلب الأقدم للحياة، فالناس هنا نمط آخر مختلف عن أي مكان في الدنيا، يملكون كل شيء ولا يملكون شيئاً. يعيشون لهذا اليوم ولمائة سنة قادمة. يعرفون بعضهم، لكن ليس إلى درجة العصبية والالتحام، ودائماً ينتظرون وقتاً، نجماً، ريحاً، من نوع ما، لكي يتحركوا، لكي يفعلوا شيئاً قبل أن يطويهم التراب.

الذين وصلوا من أهل موران إلى الزرنوق، فرحوا إلى درجة أن سقطت من عيونهم الدموع دون إرادة، حين رأوا الخضرة والماء، وحين رأوا شمران العتيبي أيضاً. أحسوا أن الحياة ليست مجرد رحلة الجوع بين مكانين، وليست المرض، أو النظرات القاسية، أنها تعني أكثر من ذلك ما دام واحد مثل شمران لا يزال حياً وقوياً، وما زال يتطلع، كل صباح، نحو الشرق، ويتساءل، ما إذا حان الوقت لأن يفعل، مع الآخرين، شيئاً. لا ينام قبل أن يعمّر بندقيته، ولا يستيقظ إلا ويدفع يده إلى جبينه يستطلع الأفق والرياح.

كاد الذين وصلوا من أهل موران أن يقولوا له كل شيء، لكنهم قالوا لبعضهم، دون كلمات، أن يؤجلوا الحديث الصعب إلى ما بعد الأيام الثلاثة، أو إلى الوقت المناسب. وشمران نفسه لم يكن مستعجلاً. سأل عن أمطار الطريق، وعن الغدران، وسأل هل أن صعوبات سنوات المحل أبقت عدداً كافياً من البشر لكي تستمر الحياة.

كان يتكلم ويسأل ويتذكر في وقت واحد، وكأنه يهيّئ نفسه، أو يشغلها، لما قد يسمعه ويوجعه.

في اليوم التالي عند العصر ذكروا، عرضاً، أن بين الذين أعدموا في موران قبل شهور صالح الرشدان. قالوا ذلك وهم يفترضون أنه يعرف. أما حين قفز، وكأن عقرباً لدغته، فقد تأسفوا، ثم حزنوا، لأنهم أبلغوه. قال واحد من العوالي قضى وقتاً طويلاً مع شمران في الزرنوق: «لو كان واحد غير شمران سمع مثل هذا الخبر لمات من ساعته» وقال آخر من أقارب شمران: «لو سمع خبر أولاده أو أهله ما حزن حزنه على صالح».

انسحب شمران من حلقة الرجال. غاب فترة ثم عاد. لاحظ الذين نظروا إلى عينيه، بقايا حمرة في العينين ودموعاً. لم ينظر إلى أحد. ظل صامتاً. أما بعد أن ارتفع الأذان، وصلى الناس صلاة العصر، فقد دعا شمران إلى صلاة الغائب على روح صالح.

صلى عليه كما لو كان جثمانه مسجى أمامه. كان صوته يتهدج. ولكنه واضح وحاقد. أما في الليل، مع نسمات الربيع المبكرة الباردة، فقد تذكر أشياء كثيرة، ومعظمها، أوكلها، لها علاقة بصالح. كان صوته صلباً، وكأنه يتحدث عن زمن بعيد، وعن أناس لا يعرفون الخوف أو المداهنة. ولم ينس شتائم صالح ونكاته. رواها وضحك لها، وفي لحظات معينة، على ضوء النار، كان يضيء وجهه ويتوهج، وحين تقدم الليل، قال، وكأنه يضع نهاية لعصر كامل:

ـ كان صالح أشجع منا جميع وأصدق، وهذا اللي خوفهم...

ابتسم بحزن وهو يضيف:

ـ لما قصوا يده، قال: الثانية والمة وقوية. لما قطعوا رزقه، قال: الرزق من الله. لما حبسوه، قال: اللي ينحبس اليوم يطلع ثاني يوم، يطلع وكبده ورمان، وما يخلصون منه...

وصعّد آهة حزينة، وقال يخاطب نفسه:

ـ لو كنا نملك شي من شجاعة صالح، ولو كان صالح يعرف شي من خوفنا، لما كنا هنا، ولما كان هناك، لكن عقولنا قرمتّنا وذبحه جنونه، وإلى حين ما تفتّك العقول من عقالها، والشجاعة من جنانها، راح نظل نصيح عتابا ويردون علينا يا ليل، إلى أن يفرجها مجنون عاقل أو عاقل مجنون!

ولأن الذين جاءوا من موران قدروا أن لا شيء يمكن أن يحزن شمران فوق حزنه على صالح، فقد قال واحد منهم، في لحظة الصمت الذي أعقبت حديث شمران:

ـ ولا بد أنه وصلك، يا أبو نمر، شنهو اللي صار ببدر وصالح...

ظهر التحفز على وجه شمران، بدا أقرب إلى الغضب، ولكي لا يترك المتكلم للظنون أن تذهب بعيداً، أضاف بسرعة:

ـ وما هم وحدهم، ما خلوا أحد بموران إلا وكظّوه، يا أبو نمر. صارت موران من أولها لتاليها سجن.

قال آخر:

ـ سجن وجوع وقلة دين!

ضحك شمران، وقال بلهجة ساخرة:

ـ أقول لروحي، صار شهور ما طرّشوا لا خبر ولا مرسال!

عباس الوائلي من أهل البصرةِ حملته الرياح، لا يُعرف كيف، إلى الزرنوق. كان مرحاً يحب الغناء ويحترف الحزن، إلا في لحظات العذاب واليأس، فإنه يلجأ إلى السخرية، قال بنغم:

ـ لا خبر، لا خبر، لا تشفّيه، لا حامض حلو، لا شربت؛ لا خبر...

هز شمران رأسه، وقال وهو يقوم:

ـ وكّل الله يا رجّال...

وبعد قليل:

ـ ويأتيك بالأخبار من لم تزود!

الحفاوة البالغة التي رافقت وصول طائرة TWA القادمة من نيويورك عن طريق جنيف، بما في ذلك فتح قاعة كبار الزوار في مطار موران، جعلت الظنون تنصرف إلى احتمال وصول وفد من الوفود الرسمية التي أخذت تتردد بكثرة على موران خلال الشهور الأخيرة. وحين شوهد غزوان، برفقة رجل مسن يتوكأ على عصا، ويمسك باليد الأخرى حاجز سلّم الطائرة، وكان يضع نظارات قاتمة، ويلبس ملابس فضفاضة، كأنه اشتراها لتوه، أو استعارها لمناسبة إلزامية، لكن دون اتقان، فقد تزايد فضول الذين يستقبلون الطائرة، لأن عادة غزوان أن يهبط، ومن معه، السلم مباشرة إلى السيارة التي تكون في الانتظار، لتنطلق بسرعة، دون احتفالات أو استقبالات من أي نوع.

هكذا جرت العادة إذا وصل غزوان، أما المغادرة، فغالباً ما تجري بنفس الطريقة، وإن صدف، في عدة مرات، أن فتحت قاعة كبار الزوار، وجرى لبعض الوفود وداع رسمي، شارك فيه عدد من الأمراء وكبار الموظفين. بل وصدف مرتين أو ثلاث مرات أن ارجئ موعد الإقلاع لاستكمال المباحثات، وقد جرت في المطار.

الآن، في هذه المرة، تجري الأمور بشكل مختلف، إذ بالإضافة إلى وجود عدد من النساء في قاعة كبار الزوار، فقد بدا وكأن أغلب المستقبلين يصلون هذه القاعة لأول مرة، إذ ان باقات الزهر، التي أخذت تصل تباعاً، لم يعرف أين يجب أن توضع، أو كيف الوصول إلى ذلك المكان. والأسئلة التي وجهت إلى استعلامات المطار عن مكان قاعة الشرف، أو مكان قاعة كبار الزوار، أثارت الانتباه والتساؤل. وحين أصرّت وداد

الحايك على ضرورة وصول السيارة التي تقلها إلى قاعة الشرف، بدا طلبها غريباً ومستهجناً، رغم الكتاب الأزرق الغلاف والأوراق الذي كان يحمله السائق، والصادر عن مكتب وزير الداخلية. بل أكثر من ذلك كادت تقع مشادة كبيرة نتيجة إصرار كل طرف على «تنفيذ الأوامر»، إلى أن تدخل أمن المطار، وأرشد السائق إلى الباب الجانبي الذي تدخله سيارات تحمل كتاباً من هذا النوع!

وكل شيء في عصر ذلك اليوم من أيام الربيع المبكرة، بدا غريباً ومرتبكاً. فالطائرة تأخرت في الوصول خمسين دقيقة، ولم يعلن عن ذلك إلا قبل عشر دقائق من موعد وصولها. وكمال الذي أخذ يرتدي الملابس العربية قبل أسبوع واحد فقط من هذا اليوم، بدا غريباً، بل ولم يعرفه عدد من أقرب الناس إليه. أما مطيع الذي فكّر بإلقاء كلمة للمناسبة، وقد استغرق اعدادها يومين كاملين، فقد اضطر إلى صرف النظر حين لم يجد أياً من الأمراء في الاستقبال، علماً بأنه أبلغ عدداً من الأقرباء والأصدقاء بنيته هذه. وسعيد الأسطة، الذي عرف بالخبر قبل ساعات من وصول الطائرة، بدا متحمساً في أن يكون ضمن المستقبلين، بل أكثر من ذلك، اتصل بأم غزوان، وعرض عليها أن تُذبح عدة خراف عند سلّم الطائرة، وحين وجدها مترددة، ولم تقطع برأي، سحب اقتراحه بشرط: «أن يكون المضيف الأول للحكيم». حتى بدري المدلل، الذي قضى شهوراً إلى أن سمح له بالعودة، نتيجة وساطات قوية من زوجي بنتيه، لم يتخلف عن الاستقبال، لكنه ظل وراء الحاجز الزجاجي، لأنه لم يسمح له بالوصول إلى قاعة كبار الزوار.

هذه المراسيم لم تكن فقط احتفالاً بوصول الحكيم، أو تعبيراً عن المودة والأهمية فقط، وإنما كانت، وبالدرجة الأولى، شرطاً من شروط الحكيم. فبعد أن وافق السلطان على عودته، وبعد أن زفّ إليه غزوان البشرى بالهاتف، ثم قام بزيارته بعد خمسة أيام، لترتيب مسألة العودة، فقد كان الحكيم واضحاً وحازماً، وحاسماً أيضاً:

- استقبال رسمي لائق؛ معاقبة كافة المسؤولين الذين تسببوا بهذه

الإساءة؛ الاعتذار رسمياً، وبطريقة مناسبة؛ وأخيراً: لا أقبل أية قيود على حريتي وحركتي: أذهب أينما أشاء، واستقبل أي إنسان، وأعبر عن رأي بصراحة.

غزوان الذي وافق على كافة الشروط، أكد له أن الشروط التي قدمها كانت أكثر من ذلك وأقسى، لكن باعتبار أن السلطنة في حالة حرب، وظروف المسؤولين، بمن فيهم السلطان، قد تحول دون استقبالات أو احتفالات، خاصة وأن معظمهم على سفر دائم، وفي جبهات القتال بشكل خاص، فإن الكثير من الأمور سيجري دون إعلان مسبق، ودون ضجة. وهذا ما دعا الحكيم إلى الاقتناع ثم الموافقة!

أكد عدد من الذين يعرفون الحكيم معرفة جيدة، أنهم لم يتعرفوا عليه وهو ينزل سلم الطائرة: بدا لهم هرماً، متعباً، وربما مريضاً. النظارات السوداء، إضافة إلى العكاز، توحي أنه أعمى، أو على الأقل مصاب بضعف نظر شديد. الحركات العصبية، والانفعال، حتى أثناء التحية، توحي بالارتباك، إذ كان يسحب يده بسرعة، ويتلفت حواليه بخوف. حتى كمال الذي هجم عليه، وقبّله عنوة، تبيّن من خلال ردود فعله أنه لا يرحب بأية قبلة أخرى، وهذا ما دعا الذين كانت لديهم مثل هذه النية لأن يترددوا، وقد تأكدوا تماماً وهو يصلّب جسده، ويحاول أن يبقي مسافة بينه وبين أي من المستقبلين.

مطيع الذي قال بضع كلمات، ترحيباً، سمع، وسمع الآخرون، تعليق الحكيم، وهو يقول:

ـ موران أبداً ما تغيرت، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وقد فهم هذا التعليق بأشكال مختلفة، لكنه غيّر الجو، مما دعا غزوان إلى اختصار الاحتفال، إذ غمز كمال طالباً منه ضرورة التحرك.

وداد كانت في منتهى الانفعال. كانت عصبية، متألقة، دائمة الحركة، ولا تعرف ماذا يجب أن تفعل. ورغم أن العيون تعلقت بها لترى كيف تستقبل الحكيم، فإن لحظات الانفعال والهرج منعت الكثيرين من رؤية دموعها وهي تسقط. أما حين انزوت بعيدة، بعض الشيء، فقد كانت

العواطف نحوها هي مزيج من التقدير والانكسار والشماتة والسخرية، وعدم الفهم، أو عدم الموافقة. وحين استقلّت سيارة غزوان، وقد جلس الحكيم في الوسط، فكانت أقرب إلى الخوف وعدم الراحة، لأن الصمت الذي بدر من الحكيم جعل الآخرين يحترمون صمته أو يخافونه.

رضائي الذي أبلغه سعيد الأسطة بوصول الحكيم رفض أن يصدق. اعتبر الخبر نكتة من النكات التي يطلقها سعيد في السوق، لكي يخلق تساؤلات واضطراباً، أو كما كان يطلق عليها رضائي، بعد أن راجت التعابير العسكرية خلال الفترة الأخيرة: قنابل دخان، ليتمكن من إجراء صفقة، أو لترتيب بعض العقود، بعيداً عن الأنظار.

الآن بعد أن تأكد من وصول الحكيم، وبعد أن سمع بالاستقبال الحافل الذي جرى له في المطار، فقد تحسب وخاف. قال في نفسه: «في التجارة الواحد لا يسأل عما يحب ويكره، وإنما يبحث عن المفيد، عن الربح. والحكيم، رغم كل اللي صار بيننا يبقى أخونا وصاحبنا».

لذلك لم يتأخر في الاتصال مجدداً بسعيد الأسطة من أجل ترتيب موعد لزيارة الحكيم، وحين تباطأ سعيد في ترتيب اللقاء، اتصل بمطيع شخاشيرو. لكن مطيع كان جافاً حين رد عليه، إذ أبلغه أنه ليس سكرتير الحكيم، ولا يعرف مواعيد الاستقبال. مما اضطر رضائي للاتصال ببيت الحكيم. ولم يتلق جواباً أيضاً. كانت الأجوبة المعهودة: الحكيم غير موجود، الحكيم نائم، الحكيم في الحمام. ورغم أنه ترك رقم هاتفه، وأكد على ضرورة أن يتصل به، فلم يتلق رداً.

ورغم المنافسة، وما يشبه الجفاء الذي كان بينه وبين غزوان، فقد اتصل به لترتيب موعد «من أجل السلام على الوالد» لكن غزوان اعتذر أنه سيسافر في ذلك المساء، وأنه «لا يعرف مواعيد الوالد وارتباطاته».

بعد هذه المحاولات غير الجدية، قرر رضائي أن يزور الحكيم، أن يذهب إلى البيت مباشرة، دون موعد.

قال رضائي لعدد من أصدقائه، وكان مرتبكاً وحزيناً: «... سمعت

الأصوات في الحديقة، لكن مع ذلك لا أحد يرد. وضعت يدي طويلاً على الجرس، لا جواب. دفعت الباب، قلت يا الله. انفتح الباب. الحديقة كبيرة، أشجار وأزهار. قلت لروحي: امش يا رجل. مشيت. ناديت: يا أهل الدار، لكن لا جواب. تلفت ناحية الصوت: الحكيم تحت شجرة كبيرة راكب على حصان خشبي ويهز. كان يهز ويصبح: عليهم، عليهم. ما صدقت. تنحنحت، وقلت: يا الله. لما شافني توقف. وقف الهز ووقف الحصان. نزل. أخذ عكازته واقترب. تطلع إليّ، وقال: الله يعطيك. قلت له: أنا صاحبك يا أبو غزوان. قال: نعم؟ ومطّها وكأنه يضحك عليّ. قلت له: أنا صاحبك يا أبو غزوان، أنا محمد علي رضائي. قال: محمد علي رضائي؟ نعم؟ وبعد قليل: كنت أعرف واحد اسمه رضائي، لكن هذا مات وشبع موت، وكشر. قت له: أنا، يا أبو غزوان، رضائي. قال: الله يعطيك. وبلّش يصيح: يا أبو عبدالله، يا أبو عبدالله، تعال، لأن الشحاذين كسروا الورد وداسوا الزرع.

«لما بلش يصيح تأكدت أن الرجال عرفني وما عرفني، ولأنه لا يريدني. قلت لازم مضيّع. سألته لآخر مرة: أنا محمد علي ضائي، يا أبو غزوان، ما عرفتني؟ تلفت وبلش: يا أبو عبدالله، زرعك راح، تلحق أو ما تلحق. حملت حالي ورجعت. لما وصلت الباب التفت، شفته خيّل على الحصان وصار يهز، وحتى بعد ما تركت قصر الحير، وابتعدت كنت أسمعه: عليهم عليهم. ولا أعرف: الرجال صاحي أو باع وخلّص».

وداد التي كانت إلى ما قبل وصول الحكيم بصحة جيدة وشديدة التفاؤل بمستقبل العمل، ما لبثت أن تغيرت: عاودتها آلام المعدة، وشعرت بانحطاط. والحكيم الذي كان يعرف كيف يعالج حالات من هذا النوع، لم يحس بمرضها. أما الأطباء الذين أحضرهم كمال لمعالجتها، فإن الأدوية التي وصفوها زادت آلامها، إذ أصبحت لا تعرف النوم، وشديدة القلق، إضافة إلى فقدان الشهية.

لم يمض شهران حتى بعثت وراء غزوان. طلبت مجيئه على جناح السرعة، لأن الأمر خطير ولا يحتمل التأجيل. قالت له من بين دموعها:

ـ أتمنى لربي أن يأخذني ويخلصني. . .

وحين انفتحت عيناه بدهشة واستغراب أضافت:

ـ نيّال اللي ماتوا، لأنهم استراحوا.

وبعد قليل، وبلهجة حزينة:

ـ ما بتنلام سلمى، لأنها حملت همومها وراحت!

ورغم أنها شرحت حالات الحكيم والصعوبات التي عانتها معه، فقد أصبحت تخاف منه وتخاف عليه.

قال أبو عبدالله لأحد أقاربه:

ـ . . . وصاحبنا بايع ومخلّص. . .

وبعد قليل:

ـ نشّف ريقنا: إذا خلص من نحت سيوف الخشب، يخيّل على حصانه ويطارد. وما كفّاه، قبل يومين نادى النجارين، وقال لهم: أريد الحصان يركض. قالوا له: هذا خشب يا أبو غزوان، وما به لا حس ولا حركة. قال لهم: لازم يركض. وبعد ما يتصايح وياهم، قالوا: ما يخالف. نصبوا له عجلات، وهالحين تشوفه ينقله من مكان للثاني، والله يستر. . .

ضحك أبو عبدالله، وأضاف:

ـ ويجوز باكر أو اللي عقبه يزوّجه مثل ما زوّج خزعل قبله!

قال غزوان لأخيه كمال:

ـ يا حبيبي، صرت كبير ولازم تعرف كيف تتصرف. نحن كنا نريده بموران حتى تساعده، فخليه على حصانه إلى أن يتعب، لا تتدخل. اهتم بشغلك، وهو إذا ركب وتعب ينقلب وينام، وإذا عاش اليوم يموت ثاني يوم، فاتركه ولا تنشغل به.

عثمان العليان تشاءم كثيرا من عودة الحكيم، قال لابن البخيت:

ـ . . . وابنه ما هو شي بالنسبة له. هذا لا يحلل ولا يحرّم. دينه ومعبوده الفلس، فالله يستر.

رد ابن البخيت، وكأنه يحدث نفسه:

ـ اللي قبلنا كانو يفهمون أحسن منا، قالوا: «تعايش الناس زماناً بالدين، حتى ذهب الدين. وتعايشوا بالمروءة حتى ذهبت المروءة. ثم تعايشوا بالحياء، حتى ذهب الحياء، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة، وسوف يتعايشون زماناً طويلاً» فابشر يا أبو عزيّز، فهذا زمان الرهبة والرغبة، سيف المعز وذهبه، وما يندري وين نصل!

ـ كذا رأيك يا أبو بادي؟

ـ واللي يجي أخراً، يا أبو عزيّز!

ـ فال الشيطان ولا فالك، يا رجال!

ـ اللي يعيش يشوف، يا أبو عزيّز!

وإذا كان الحكيم قد انشغل بالسيوف والخيول الخشبية خلال النهار، فإن لليل همومه ومشاغله. قيل إنه لا يكاد شعاع من الشمس يغيب حتى يصعد إلى الغرفة العليا، والتي أطلق عليها منذ وقت مبكر اسم المحراب، فيفرد أوراقه ودفاتره، ويبدأ.

قالت وداد في محاول أخيرة لإقناع غزوان أن يحجر عليه:

ـ . . . ويا ابني ما عنده إلا التسبيحة نفسها: المربع، دفاتره، كلها، من أولها لآخرها، ما فيها إلا هالكلمة، وإذا ما صدّقت غافله وشوف.

قال غزوان بيأس:

ـ خليه بهمّه، يا ماما، يمكن الله يفرج عليه، أو يرتاح، وهو ينقش هالكلمة!

ـ ونظل عبيد تحت رجليه؟

ـ ما في حدا عبد لحدا، يا ماما.

ـ لو تسمع أوامره، وتشوف تصرفاته.

ـ لا أمر لمن لا يطاع.

ـ لكنه داوشنا، يا ابني.

ـ اعتبريه غير موجود.

ـ لكنه بخلقتي بالليل والنهار.

ـ شو بدك نسوي فيه؟

ـ خذوه عن وجهي، ما عاد فيّ.

قال غزوان لأمه بحزن:

ـ أعصابك كثير تعبانة يا ماما، ولازم لك سفرة، حتى تغيري جو وترتاحي.

ـ لو الله ياخذني استرحت.

قال غزوان لكمال:

ـ الماما كثير تعبانة، يا كمال، ولازم نفكر بطريقة حتى نخلص من المشاكل...

ولما ظل كمال صامتاً ومنتظراً، تابع غزوان:

ـ لازم واحد من الاثنين: يترك القصر، وإلا تصير فضيحة...

وبعد قليل، وكأنه وصل إلى قرار:

ـ يمكن نبعثه للحريبة، أو لمرج بني نعيم، ونبعث معه واحد يهتم به، وهناك يخيّل بالنهار ويكتب بالليل، أو...

تردد قليلاً، ثم حسم أمره:

ـ وماما بتروح معي، بتقضي هناك كم شهر، إلى أن يفرجها الله، ويخلصنا!

وظلت الأمور معلقة، دون حل، لأن وداد قررت البقاء على أن تقضي أسبوعاً عند كمال، وآخر عند حامد، الذي وصل قبل شهور قليلة، حتى إذا استقر العمل وتأكدت، عند ذاك يمكن أن تفكر بالسفر!

عندما طالت الحرب وتشعبت أصبح لا بد أن تدخل في ذلك الدهليز الأعمى: المجهول. فهي تنشط حيناً، من خلال معركة، لأسباب طارئة، ثم تخمد وتنام شهوراً طويلة، وهكذا تحولت إلى نزيف وعلة؛ لا تشتد فتحسم، ولا تنتهي فتدفن.

الذين كانوا متحمسين في البداية، وتوقعوا نهاية سريعة ونصراً، فقدوا حماسهم وهم يرون الحرب تمتد وتطول دون جدوى. والذين كانوا خائفين من تطوراتها ونتائجها، وأبدوا تحفظهم أول الأمر، ضاقت صدورهم، وأصبحوا أكثر جرأة وحدة وهم يعلنون رأيهم، ثم وهم يشتمون.

السلطان الذي لم يكن يمل من حديث الحرب وتاريخ الحروب، اكتشف، بمرور الوقت، أن حربه تختلف عن كل ما قرأه أو سمعه، وأن رجاله يختلفون عن الرجال الآخرين، فالبدو الذين أظهروا حماساً خلال الشهور الأولى، لأن شيوخهم أكدوا لهم «كلها غارة والثانية ونجيب أجلهم، وبعدها بيكم حيل شيّلوا غنايم وامشوا» تبين لهم أن الأمر مختلف تماماً، ولذلك تراخوا ثم تراجعوا، ولم يجدوا في أنفسهم الرغبة لأن يلتحقوا بالجبهة في السنة التالية، إلا بشروطهم، ثم توقف معظمهم في السنوات اللاحقة.

والجيش النظامي، بحركته الثقيلة، وأسلحته التي تغرق في الرمال، لا يعرف من يحارب، أو كيف يحارب، ولذلك تحولت الخيام إلى أبنية ثابتة في معسكرات الحدود، ونمت الأعشاب والشجيرات الصغيرة في ظلال الأبنية وقريباً من مستودعات المياه. أما الأجانب الذين أبدوا نشاطاً كبيراً

في الأسابيع والشهور الأولى، فما لبثوا أن تغيروا، إذ بعد أن سافر الكثيرون بإجازات طويلة، ولم يعد بعضهم، فإن من عاد منهم انشغل مع أفراد الجيش النظامي في إقامة التحصينات، أو ملء أكياس الرمل، وخلال الوقت الطويل المتبقي كانوا يكتبون الرسائل والمذكرات، ويلعبون الورق، ويتعاركون.

أما الطيارون الذين كان يقع عليهم العبء الأكبر، فلم يعد يُسمع دوي طائراتهم، ولم تعد تشاهد، بعد أن سقطت عدة طائرات بظروف غامضة، كما قيل. وبعد أن توقف وصول المسعفات، بسبب مشادات ومعارك وقعت بين الطيارين أنفسهم، وأدت إلى إصابات وجروح، مما جعل الشركة العالمية تتوقف عن القيام بهذه المهمة، خاصة بعد غياب صفاء الشلبي، موكلة الأمر إلى شركة هولندية، بعثت بدفعة من «الممرضات» ثم توقفت أيضاً!

حتى الرجال الذين يحيطون بالسلطان، وكانوا يمتلئون حماسة للحرب، تغير موقفهم، وتغير الموقف منهم، أو على الأقل من أكثرهم، بعد التحقيقات التي جرت عدة مرات لمعرفة الطريقة التي تسربت بها تقارير عديدة من مكاتب السلطان، ووصلت إلى سند، ثم أذيعت من راديو الدواحس، وسبّبت الكثير من الارتباك والمخاوف، ولذلك أصبح التحفظ والشك، وحتى الخوف، ما يميز سلوك معظم هؤلاء.

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالسلطان الذي كان يجد التفهم والدعم من دول عديدة، وكان يتلقى منها السلاح، ما لبث أن أحس بتغير موقف هذه الدول، سواء بإمدادات السلاح، أو بملاحظاتها حول تطورات الحرب، أو بضرورة تقديم تنازلات من أجل الوصول إلى حل مناسب.

صحيح أن السلطان لم يتخل عن تهذيبه أثناء استقبال ممثلي الدول الأجنبية، وما عُرف عنه من الرغبة بسماع الملاحظات، وحتى وجهات النظر المختلفة، لكنه بدا خلال الفترات الأخيرة ضيق الصدر نزقاً، ولم يتردد مرات عديدة في الاعتذار عن استقبال هؤلاء إذا طلبوا لقاءه شخصياً.

كان يحيلهم إلى الوزراء أو المستشارين، كما أصبح ميالاً، إذا اضطر لاستقبال بعضهم، إلى اختصار مدة اجتماعه بهم، أو إلى اقتصار الحديث على الموضوعات التي جاءوا من أجلها فقط، دون التطرق إلى أحاديث عامة، عكس طريقته في التعامل معهم من قبل.

حتى أمراء مجلس الحل والربط، أو الربع، كما أصبح يطلق عليهم في الفترة الأخيرة، تيمناً بالتسمية التي كان يطلقها خريبط على رجاله المقربين، أصبحوا نمطاً مختلفاً في الشهور الأخيرة، أو هذا ما بدأ يحسه السلطان على الأقل. وقد دفعه ذلك إلى إهمال الدعوة إلى الاجتماع الشهري الذي اقترحه بنفسه بعد هرب سند والطيارين. أكثر من ذلك، بدأ يحس أن هؤلاء الأمراء يبدون اهتماماً بمصالحهم الخاصة اضعاف ما يولونه للحرب.

والناس في المدن والبلدات، وحتى في البوادي أو الواحات الصغيرة، إذ تعودوا الصمت، وتجاهل الحرب خلال الفترة الأولى، فإن المصاعب التي أخذت تتزايد، نتيجة سنوات المحل، ثم التيفوس الذي فتك بالكثيرين لم يعد أحد قادراً على احتمالها أو تجاهلها، خاصة وأن راكان زج الآلاف في سجون الصحراء البعيدة، واعتقد، كما قال لمساعد مرة، «أن أهل موران صاروا جيران مقبرة، فلا أحد يكلم أحد، ولا أحد يسأل عن أحد، لأن كل واحد منهم صار يلمّس على راسه، بعدما قصّينا كم راس» لكن راكان نفسه فوجئ بالدوي ثم بالشتائم. بل ووصلت معلومات، أخذت تتزايد يوماً بعد يوم، أن البدو يتسلحون، وأنهم ينتظرون الوقت المناسب، لكي يفعلوا شيئاً.

خشي السلطان من ردود الفعل، إذا زادت القسوة عن حدها، فطلب من راكان أن يفرج عن الكثيرين، بمناسبة يوم العرش، وقد أشاعت العناصر المرتبطة بالقصر هذه الأخبار، لكن فوجئ الجميع باعتقالات جديدة شملت معظم المناطق. أما الذين كانوا في السجون، فقد بدأت تتوالى الأخبار عن الإعدامات الكثيرة التي تجري بينهم، وحين سأل السلطان عن الأمر، كان جواب راكان مثيراً للشكوك:

ـ المؤامرات، يا طويل العمر، ما تنحصى وما تنعدّ: البدو والمساجين وتجار السوق، وما يندري من هو بعد.

ولما طلب السلطان معلومات أوفى وأدق، وعد راكان أن يقدم إليه تقريراً شاملاً. ومرت أسابيع دون أن يفعل، وفات يوم العرش دون أن يطلق سراح أحد من المعتقلين، فقال السلطان لمساعد بغضب، وقد تعمد ألا يلتقي براكان، لخشيته أن تأخذ الأمور بعداً أو حداً تصعب السيطرة عليه:

ـ . . . وتقول له: فنر السلطان، ما هو واحد غيره، وإذا كانت الماي سرحت تحت رجلين خزعل وما دري فيلزمه ما يغتّر.

وبعد قليل:

ـ يلزمه يعرف: تجيني علوم الصغيّرة والكبيرة، فإذا سكّتُ ما هو لأني ما أدري أو عاجز، وإنما لأن كل شيء بوقته زين، ويلزمه يتوقى غضبة الحليم، لأنها تخرّب الأول والتالي، وأعذر من أنذر.

ومثلما كان للسلطان رجاله وعيونه في كل الأماكن، تقريباً، فإن لمعظم الآخرين وسائلهم لمعرفة ما يدور هنا وهناك، خاصة لراكان، إذ نشر رجاله المعروفين وغير المعروفين، باعتباره وزيراً للداخلية، في القصور والأسواق، في المضافات والسجون. ومثلما كان له رجال في موران، كان له أيضاً في العوالي والحويزة، وكان يتشاور مع الخبراء الموجودين في الوزارة أو الذين يأتون بزيارات، ومن أجل مهمات محددة. ونتيجة كل ذلك أصبح أكثر حماسة لإنهاء الحرب، وأكثر خوفاً من نتائج استمرارها.

أما حين نقل إليه مساعد ما قاله السلطان، وإن بطريقة ملطفة، وبعد أحاديث عديدة، فقد رد بنزق:

ـ فنر تغيّر يا مساعد، تغير واجد. . .

وزفر، ثم تابع:

ـ ولا بد أنك تخبر كلامه قبل الحرب، أو بأيامها الأولى: «أسبوع

والثاني ونخليهم خبر بعد أثر. لاكسر عظامهم، واخرب ديارهم، واخليهم عبرة لمن يريد يعتبر» وغير هذا كثير، وأنت تذكره. أما بعد أن طالت الحرب، واختلف حساب القرايا عن حساب السرايا، فتراه داخ، وتاهت عليه. وأنت تعرف: غلطة الشاطر بألف. ولأنه ما يريد يعترف، بلش بأقرب الناس، وكأنه، هالحين، ناوي يجرب سلاحه براكان، لكن راكان لحمه يابس ومرّ، وحتى لو انطبخ ما ينوكل... يا مساعد.

وبعد قليل، وبحزن:

- وتقول له: لا تسمع كلام الناس ووشوشات الحريم، لأن هذي تخرب البيوت!

قالت فريزة خانم:

- ... والهموم والأحزان، ما تحتاج من ينقلها، تنتقل وحدها، تعدي، والمهموم والحزين ما يرتاح إلا إذا حس أن الناس مثله، أو معه.

ردت ثروت بأسى:

- والله يا ماما لو افرّق أحزاني على ديرة أو عشيرة تزيد عليها!

- الله يساعده هو لأنه حامل فوق همومه هموم الناس كلهم.

- وأظن، يا ماما، أنه ما راح يهدأ له بال ويرتاح إلا إذا انتصر بهذه الحرب، فالله ينصره.

- من حلقك لباب السما، يا بنتي.

قال السلطان لغزوان:

- ... والغريب، يا غزوان، أن الأميركان كل يوم برأي. قالوا لنا ابلشوا وحنا معاكم، ولما وقعت الحرب كانوا معنا، والشهادة لله. لكن ما مر كم شهر إلا وبدأوا يعنفصون: طوّلوا بالكم. خففوا هجومكم. يصير وما يصير. والسلاح...

ضحك بحزن، وأضاف:

- لو اعتمدنا عليهم وحدهم، كان صرنا كالأيتام على مأدبة اللئام، لأنهم إذا أعطوا أول يوم ما يعطون اليوم الثاني، وإذا أعطوا سلاح ما

يعطون ذخيرة. ونبوس أيدي ونترجى، ونقول لهم اللي تريدونه يصير، ويروح القنصل ويجي الملحق، ويروح الملحق ويجي الخبير: وهذا لازم وهذا ما هو بلازم، واليوم وباكر...

زفر وهز رأسه. ابتسم وهو يتطلع إلى عيني غزوان:

ـ لولا جهودكم ومعونتكم كان صرخنا المدد من زمان يا غزوان، وما ينعرف شنهو اللي صار بنا.

قال غزوان بلهجة رصينة:

ـ كان رأي شركتنا، منذ البداية، يا طويل العمر، الاعتماد على مصادر تسليح متعددة ومتنوعة، لأن مثل هذه السياسة وحدها تعطينا المرونة التي نريدها، وتجبر، حتى مصدري السلاح الأساسيين، على الاستجابة إلى مطالبنا بالكميات والمواعيد التي نريد، لأنهم يعرفون أنهم ليسوا المصدر الوحيد.

قال السلطان، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ الواحد ما يتعلم إلا من كيسه، يا غزوان، وهذول الأميركان، مع أنهم أصحابنا، إلا أنهم ما يتأمنون؛ برأسهم ألف سالفة، وجماعتهم من هنا لهناك، ومثل ما يسولفون ويّانا يسولفون وياهم، وما يندري!

قال غزوان، وقد بدا محرجاً ومبرراً:

ـ باكر يصحون لغلطتهم وتتبدل مواقفهم، بس يلزم نطوّل بالنا.

رد السلطان بنزق:

ـ باكرهم بعيد يا غزوان، واللي يده بالنار ما هو مثل اللي يناظر من بعيد، فإذا الواحد ما هزّ لهم عصا، وقرا على روسهم ليل نهار، يجوز ما يتفطنون بنا إلا بعد خراب البصرة.

كتب السفير الأميركي في أحد التقارير: «... من اللافت للنظر، خلال الفترة الأخيرة، أن السلطان أصبح إنساناً متعباً: تخلى عن المجاملة، والرغبة في أية أحاديث خارج موضوع الحرب. حتى الجانب السياسي من الحرب لا يوليه من الأهمية قدر اهتمامه بالقضايا العسكرية البحتة. ليس

ذلك فقط، انه لا يقبل وجهات نظر أخرى، لا أقول مختلفة، وإنما ترى الأمور بمنظار أوسع، أو من زوايا مغايرة.

«وحتى الود الذي يتبادله أي اثنين، وفي التعارف الأول، تحوّل إلى ابتسامة استقبال باردة، وإلى كلمات مليئة بالظلال والشك، أو لا تعني شيئاً. أما ملاحظاته حول سياسة الولايات المتحدة في المنطقة، فإنها تثير الانتباه والمخاوف. لا أريد أن أقول أنها عدائية، لكنها تفتقر إلى الود والتفهم. كما يعتبر أية صلة بالطرف الآخر وكأنها موجهة ضده. بل أكثر من ذلك أصبح يتخوف من بعض الأخوة نتيجة صلاتنا بهم. وإذا استطاع أن يكتم عواطفه، أو يموهها تجاه الأخوة، فإنه تجاه المستشارين، وعدد من كبار الموظفين، لا يتحفظ ولا يوارب، فقد جمّد بعض هؤلاء، أو استغنى عن خدماتهم، بحجة أو أخرى، وكأنه يريد أن يبلغنا أكثر من رسالة عبر هذه التصرفات وعبر هؤلاء.

«إن الملاحظة التي ذكرت لي، في وقت مبكر، حول صفات البدو، من حيث النزق، والتقلب، وعدم إمكانية وجود أو استمرار العلاقة، بسبب الاختلاف أو التفاوت بوجهات النظر . . . هذه الملاحظة كانت تبدو لي أقرب إلى المبالغة أو الكاريكاتير، لكن الآن اكتشف مدى صحتها، ومدى انطباقها أيضاً، خاصة بالنسبة للسلطان».

قال ابن البخيت للعجرمي:

ـ . . . ورأي، يا أبو مشعل، أنك تسافر، لأن عين دامة تظل أرحم من موران. هناك لا عين تشوف ولا أذن تسمع. أما هنا، ومثل ما ينقال بالسوق: إذا ما تطربقت اليوم لا بد تتطربق ثاني يوم.

ـ عظامي تكسرت، يا عبدالله، وحيلي طاح. وفوق مرضي كل يوم والثاني يطرش جماعته: «يلزمك تجي تسلّم». «وطويل العمر يقول: «بطيت». وسوالف من هذا النوع، وهو يحفر من حدر، وما تعرفه راضي أو زعلان، معك أو مع غيرك.

زفر ابن البخيت وقال:

ـ وجاء في كتب التاريخ، يا أبو مشعل، أن أبا بكر الصديق قال:

«اشقى الناس في الدنيا الملوك. فتغامز الناس، فقال: أما علمتم أن الملك إذا ملك قصر أجله ووكّلت به الروعة والحزن، وكثر في عينه قليل ما في يد غيره، وقل في نفسه كثير ما عنده؟»(*).

وضحك بسخرية وهو يضيف:

ـ ظنينا أن خوينا عاقل ويفهم، وأحسن من خزعل، وراح يوم وجا الثاني، أثاري خوينا طلع اجن، لأنه أهلك البلاد والعباد، ومرد الأول والتالي. ذاك المسكين كان ملتهي بحريماته وبيضاته، وكان كافي الناس شرّه؛ لكن ما ينحزر على البني آدم إلا اذا تجرّب!

قال السلطان لنفسه: «أبوي كان يعرف الرجال: متى يتعاون معهم، ومتى يخلّيهم يشبّون على بعض. وهذه السالفة صحيحة من يوم نبي الله يعقوب. حتى موسى النبي ما قدر يتفاهم مع أخوه هارون. غاب عنه كم يوم، فلما رجع لقى بني إسرائيل يعبدون العجل. ووراكان من يوم ما رخيت له الحبل فلت. وإذا ما سوّى مثل سالفة سند يسوّي غيرها، فيلزم يتأدب ويعرف حدوده. وابن المحملجي هالحين سنده، يده ولسانه وفلوسه، وما لنا إلا نخلّيهم قوم. ونشوف».

غزوان الذي رجع إلى الولايات المتحدة بآمال كبيرة، لكن بقلق أكبر، قال لإليانور:

ـ أولهم وآخرتهم بدو. الفلوس عمتهم، والواحد منهم يحسب ما عنده من فلوس ويقارنها براتب رئيس الولايات المتحدة، فيظن أنه أقوى وأهم من الرئيس، وبالتالي يفترض أنه أصبح قادراً على أن يفعل ما يريد، حتى بالنسبة للولايات المتحدة...

ضحك بحزن، ثم أضاف:

ـ حتى السلطان الذي كان يبدو لي في منتهى التعقل والاتزان، الذي تعلّم السياسة على أيدي رجال أكفاء، بدا في الفترة الأخيرة أنه تغير تغيّراً

(*) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ص ٣٧٣.

كبيراً. أصبح نزقاً ويريد أن يملي شروطه. ولذلك أفكر أن نغيّر صيغة علاقتنا...

إليانور التي كانت تعلق آمالاً كبيرة على المشاريع الجديدة، وقد حصلت على وكالة لإنشاء سلسلة من مطاعم الغذاء السريع، فوجئت بكلام غزوان، سألت بقلق:

- المشاريع التي نقوم بها ليست لها علاقة بالسياسة، بأي شكل، فلماذا تحدثني عن راتب الرئيس وتغير السلطان، وكأنك تفكر بإعادة النظر؟

- الاقتصاد، يا إليانور، هو الأب الحقيقي للسياسة، هو الذي يوجهها، ويعطيها ملامحها، ويخلق رجالها، فإذا حصل خطأ لا بد أن ينعكس ويؤثر...

ابتسم بحزن، وبعد قليل وكأنه يتذكر:

- البابا، قبل سنوات، يا إليانور، انشغل بأمور صغيرة: انتخابات غرفة التجارة، أو غرفة الصناعة، لا أتذكر، ورغم أني نبهته عدة مرات أن السياسة ليست هذه الأمور الصغيرة، التي لا تعني في النهاية أي شيء، إلا أنه رفض أن يسمع. قلت له: الذي يسيطر على السلطة تكون له علاقة أقوى بمركز القرار، والقرار، منذ سنوات، في الخارج، وليس عند شيوخ البدو أو أعضاء غرفة التجارة، ولما رفض البابا أن يسمع مثل هذا الكلام، دفع الثمن من صحته ومستقبله...

هز رأسه عدة مرات، وبدا مهموماً:

- السلطان اليوم يكرر نفس الخطأ، وأنا لست مستعداً لأن أشاركه هذا الخطأ.

ردت إليانور بنزق:

- أنتم الرجال، يبدو أن الصفة البيولوجية تؤثر عليكم في كل خطوة: حين تريدون إقامة علاقة مع امرأة، تظهرون رغبة وودّاً غير محدودين، وعندما تشتعل تلك المرأة وتستجيب، وبعد أن تتم تلك العلاقة، تديرون

ظهوركم، وكأن كل شيء قد انتهى، في ذات اللحظة التي تبدأ فيها مشكلة المرأة...

ابتسمت بسخرية، لأنها تذكرت الفترة الأولى من حملها، وكيف كان يعتبر ذلك مادة للتندر، في الوقت الذي كانت فيه تعاني. الآن، وبعد أن شجّعها على البدء بالمشاريع التجارية، يتخذ هذا الموقف المتنكر، قال، وهو ينظر إلى البعيد:

ـ ليست المسألة، يا إليانور، مسألة بيولوجية، أنها مسألة عقلية بالدرجة الأولى: كيف نتخذ مواقف صحيحة في الوقت المناسب.

ـ دائماً تقول الكلمة ذاتها عندما تريد أن تبرر مواقفك.

ـ لا تغضبي يا عزيزتي، لأن هذه الكلمة وحدها الصحيحة...

وبعد قليل:

ـ لا تكون المواقف صحيحة أو خاطئة بذاتها، وإنما من يتخذها، ومتى يتخذها، ولماذا. هذا الذي يعطيها صحتها النسبية، والتي تصبح بمرور الوقت صحة مطلقة.

وظلت الأمور معلقة، بحماس إليانور، وعدم اهتمام غزوان!

ابن العليان، بعد الفتور، ثم القطيعة، بينه وبين السلطان، بدا مهماً وخطيراً حين اتفق مع الورداني لإقامة مشاريع مشتركة، خاصة في بناء الطرق وتنفيذ تعهدات الجيش. وحين بدأ التنافس بين راكان ومساعد. قال الأمير مساعد للورداني:

ـ ... حنا ما لنا اعتراض على غزوان ومشاريعه، لكن غزوان بعيد، ولا يعرف حاجاتنا، فنريد واحد قرّيب، يتشاور معنا ونتشاور معه، لأن هذه حرب، والمعركة كل يوم بمكان، وكل يوم تحتاج شي جديد، فإذا كانت المسألة كتابنا وكتابكم، وخبراء ودراسات، وبعد شهر واثنين، فتراها راح تتلاص علينا، ونتعب.

بان عليه الغيظ. دق على الطاولة، وأضاف بحنق:

ـ ابن العليان عرض نفسه، وعرض آلياته، من الأيام الأولى للحرب،

والرجال عاوّنا، وله دين في رقابنا ما يوفيه لا مال ولا رجال، لكنه ما يقدر وحده، فقلت لروحي: ابن العليان والورداني واحد يكمل الثاني، فاريدكم تتفقون، ومني عهد أن كل المشاريع تنحال عليكم.

قال راكان يرد على غزوان تلفونياً:

ـ موافق، لكن يلزم تطرشون أحد لمساعد، لأنه ميبّس راسه، ويقول: يصير وما يصير».

وبعد قليل:

ـ لا . . . السلطان ما يدري.

ـ . . .

ـ لا . . . وحتى هذا ما يدري.

ـ . . .

ـ وافترض أنه يعرف، شنهو اللي يقدر يسويه؟

وقبل أن يستمع إلى كامل الجملة، أو كامل السؤال تابع:

ـ من رأي يلزم تتصلون به، لأنه آخذ على خاطره، ويقول إنّا أكلنا الأخضر واليابس، وإنّا ما تركنا له أو لغيره شيء.

ـ . . .

اعرف . . . اعرف، لكن يلزم نداريهم، ونترك لهم فرصة.

قال عثمان العليان لابن البخيت:

ـ ظلمناهم يا أبو بادي، قلنا إنهم ما يعرفون إلا أرواحهم، لكن، والشهادة لله، بعضهم يفتهم وما ينسى . . .

وضحك وهو يضيف:

ـ وهالحين إذا نزلت للسوق يسولفون لك أن كل شيء تغير، السوق تحرك، والناس اشتغلوا، والدنيا صارت بخير.

رد ابن البخيت بسخرية:

ـ أي نعم، كل شي تغيّر، وما ظل ألا تهيلون التراب فوق العباد وتدفنونهم أحياء . . .

وتغيرت لهجته:

ـ مصائب قوم عند قوم فوائد.

قهقه عثمان العليان، وبعد أن هدأ:

ـ أنت، يا أبو بادي، ما يعجبك العجب، ولا الصيام برجب.

ضحك ابن البخيت، هز رأسه، وقال:

ـ تذكر شنهو اللي يقولونه بمصر؟ يقولون: اسمع كلامك يعجبني، أشوف أفعالك أتعجب!

ـ هذا اللي حفظته من مصر؟

ـ وسمعت، طال عمرك، غيره: قالوا للديب ح يسرحوك في الغنم قام عيط قالوا دا شيء تحبه، قال خايف يكون الخبر كذب!

وبعد قليل:

ـ السلاطين والأمراء ما يتأمنون، يا أبو عزيّز، وأنت اللي قايل لي هذا الشي، أشوفك اليوم رجلك على رجلهم، فخاف يصير بك مثل ما صار بالغراب والأرنب عندما قسم بينهم القرد.

ـ لا تخف، وأنا أخوك، يا أبو بادي، تقلعت ضروسي واعرف الناس زين.

قال سعيد الأسطة لرضائي، بعد أن اتفق الورداني وابن العليان، وبمشاركة الأمير مساعد:

ـ ... اللي ما عنده أمير لازم يشتري له أمير حتى تمشي أشغاله بموران، وإلا راحت عليه!

رد رضائي بحزن:

ـ اللي تقوله صحيح يا أبو شكيب، لكنه لا يدوم، وتذكر الحكيم، صاحب وناسب وبعدين وقع وانكسرت رقبته.

رد سعيد وكأنه يخاطب نفسه:

ـ قبل ما تنكسر رقابهم راح يخربون بيوتنا، ويطلعونا من السوق يد من ورا ويد من قدّام.

ـ أحسن شي، يا ابن الحلال، نلبد بهذي الأيام، نشتغل شغلة هنا وشغلة هنا إلى أن يفرجها رب رحيم.

قال سعيد بسخرية:

ـ إذا نحن نقول هذا الكلام فشلون راح تصير أحوال الناس؟

قال محمد الحنيطي، وهو مستخدم في كراج سفريات البادية، وقد سمع الناس يتحدثون عن الشركات والأعمال التي صارت للأمراء، بمشاركة كبار التجار:

ـ حنا الفقراء رايحة علينا إذا اتفقوا وإذا ختلفوا، لكن والشهادة لله، اختلافهم رحمة، لأنهم إذا اتفقوا يتفقون علينا، وحنا ما عاد بنا حيل مثل قبل حتى نتحمل!

قال أهل السوق:

ـ يا كبدها يا موران، تحمل وتصبر، لكن يلزم غيرها يحمل ويصبر!

واستمرت الحياة. استمر المحل، واستمرت الحرب تشتعل وتنطفىء، أما الصعوبات التي كان يشكو منها الناس فقد زادت، وزاد معها الظلم. فقال الكثيرون: وما من ظالم إلا وسيبلى بأظلم.

ومثلما بدأت الحرب مفاجئة، انتهت دون أن يحس بها أغلب الناس. ربما انتهت نتيجة التعب، أو اليأس، وربما جاء من قال للطرفين: انهوا الحرب أيها المجانين، لأنها لم تعد ضرورية، ولا تفيد أحداً. لكن الحرب، قبل أن تنتهي، قضت على الكثيرين، لأنها ترافقت مع الوباء والجوع، ثم جاء القحط أيضاً سنين متوالية، لتصبح موران مقبرة كبيرة.

قيل إن خلقاً كثيراً مات في تلك السنين. ماتوا جوعاً وقتلاً، ثم جاء الوباء فقضى على الصغار والمسنين. وقيل إن كثيرين ماتوا فجأة. كانوا يقلّبون عيونهم في صفحة السماء أو في وجوه الصغار والنساء، ثم فجأة التوت أعناقهم وصمتوا نهائياً، خاصة نتيجة الجو الذي خلقه راكان، فقد جعل كل إنسان أكثر زهداً بالحياة، وأكثر رغبة بالهجرة أو الموت. أما الكلمة التي قالها ذات يوم لأخيه مساعد سراً، فلم تعد كذلك في نهاية الحرب وبعد ذلك بسنين. حتى أفراد الجهاز، وعدد كبير من الحاشية، ثم بعض العاطلين عن العمل، وكانوا يتظاهرون بارتباطهم بالجهاز، كانوا يرددونها: «والله لنخلي أهل موران جيران مقبرة».

كتب أحد الدارسين لآثار الحرب على السلطنة: «... من اللافت للنظر أن من جملة نتائج الحرب: غياب جيل من الرجال أعمارهم بين العشرين والأربعين، فهم اما مجندون أو مهاجرون، أو أنهم في حالة تبعث على الأسى نتيجة الإصابات والعاهات، هذا عدا عن الجنون أو الخبل الذي يميز عدداً كبيراً. أما النسوة فقد غرقن في حالة من الحزن الشديد، وأصبحن أقرب إلى التصوف. والمسنون في حالة من الغياب

الكامل والذهول، رغم وجودهم الكثيف في كل مكان».

الذين قضوا فترة خارج موران، في تجارة أو لتأمين ما يمنع الجوع، ثم عادوا لم يصدقوا أن تصبح مدينتهم وناسها هكذا. صرخوا، شتموا، وفي محاولة أخيرة لمنع ما هو أسوأ رفعوا أيديهم مهددين، لكن أغلب هؤلاء انتهوا إلى سجون صحراوية بعيدة، وقد قضى قسم منهم في الطريق إليها، ماتوا قتلاً أو ماتوا غيظاً.

كان عبدالله البخيت إذا جاءه خبرُ واحدٍ من الذين يعرفهم، يرفع رأسه إلى السماء ويسأل:

ـ يا صاحب الخيمة الزرقا، طلبنا منك تلطف، ما طلبنا تسوي الواحد منا عجبة، وإلا نسيت؟

يتطلع إلى الوجوه حوله، يمسد على لحيته، ويتابع بحزن:

ـ وكأنه ما يكفينا عذاب الله، هالحين جاء عذاب العبد. والعبد يبيّن من اسمه...

وبعد قليل يصرخ:

ـ احشفاً وسوء كيلا؟

ولأنه ردد العبارة الأخيرة مرات كثيرة فقد أصبحت مألوفة ويرددها الآخرون.

جاء صحفي بلجيكي ليعدّ تحقيقاً عن موران بعد الحرب، فكتب في أوراقه الخاصة: «ومن أغرب ما يلفت النظر في هذه المدينة أنها تفتقر كلية إلى الشباب. أنها مدينة جديدة من وجوه عديدة، لكن يسكنها المسنون والأطفال فقط، وكأنها مصحّ، خاصة وأن عدد المجانين والمعتوهين كبير وتصطدم بهم أينما ذهبت».

أما بعثة الصحة العالمية التي جاءت من أجل مكافحة مرض الملاريا، وكان أعضاؤها خليطاً من جنسيات وأماكن مختلفة، فقد واجهت صعوبات جمة في جمع المعلومات، لأن السنوات الأخيرة كانت شديدة الجفاف، بحيث لا وجود لأية مستنقعات، أو تجمعات مياه. أما المسنون الذين سئلوا عن أماكن تجمع المياه ومواعيدها وكمياتها، فقد أجابوا إجابات

غريبة أثارت الضحك، مما دعا شفيق عوض أن يكتب في المذكرة التي رفعها إلى رئيسه: «إن أحد الأسباب الأساسية لوجود البعوض، كما هو معروف: وجود المياه الراكدة، وفي أوقات محددة من السنة، وهذا السبب لا يبدو قائماً، أو حتى ممكناً، في هذه البلاد؛ إذ لا تكاد تهطل الأمطار، حتى تمتصها الرمال، وما يبقى منها تبخّره الشمس المحرقة خلال فترة قصيرة، غير كافية لتوالد البعوض، وبالتالي لانتشار هذا المرض. وأعتقد أن بعثتنا وصلت إلى هنا نتيجة خطأ، أو لسبب لا يبدو لي واضحاً».

وهكذا بدت موران بنظر الكثيرين أشبه ما تكون بالمقبرة، فليس في هذه الأرض ذرة من فرح، خاصة حين انقطعت الأمطار وشحبت الأرض، وأصبحت لا تفتح جوفها إلا لتستقبل ضيوفاً جدد، وأصبح الناس لا يرون فيها سوى القبور، ولولا أن هذه القبور تعني لهم شيئاً لما بقوا.

يتذكر أهل موران كيف كانت مدينتهم تفتح عينيها كل صباح على أمل أو على خبر، وكيف كانت تستقبل القوافل والغرباء والرعايا، وكم امتلأت بالفرح والضحكات الصاخبة والأهازيج، ومنها كانت تنتقل إلى الأماكن الأخرى، ومعها القصص والنكات، وما حصل لفلان من الناس حين زار موران أول مرة. أين سكن وكيف رأى المدينة، وعلى من تعرّف هناك. الآن موران قبور وشحوب وغرباء. قال بعض المسنين في السوق العتيق: «من يوم ما جانا الغرباء، ونزّ من الأرض البول الأسود، خاست». وقال غيرهم في نهاية السوق، قريباً من حي القلعة: «القحط وحده يكفي، أما إذا ترافق مع حرب وسلطان غشوم فالدنيا بآخرتها، ولا بد أن تقوم القيامة أو يجي المهدي» لكن الساعة تأخرت والمهدي لم يأت، رغم أن النسوة أبلغن الصغار أن الخضر آت ومعه المهدي. قلن هذا الكلام لمواساة النفس وتقوية العزيمة، وكن مستعدات، ومعهم الصغار، للانتظار زمناً طويلاً.

مع هذا الأسى الذي يعم ويفيض، يزداد الأمراء عدداً وغنى يوماً بعد آخر.

فما كادت الحرب تنتهي حتى أصبح أكثر الأمراء في حالة من الغنى لم

يتوقعوها ولا تخطر ببال. أصبحوا، وحدهم، يملكون الأموال، في موران وفي الخارج، وكثيراً ما أخطأوا في تحديدها وتقديرها. وأصبحوا الذين يملكون شركات البناء وشركات الاستيراد. وإذا كانوا قد ترددوا في أن تظهر أسماؤهم، أو أن يعرف الناس في بداية الأمر، فلم يعبأوا بذلك، في وقت لاحق، تعبيراً عن القوة والتفوق. صحيح أنهم لا يقومون بالأعمال بأنفسهم، وإنما من خلال وكلائهم، أو عن طريق بعض التجار، بعد أن أخذوا ضمانات ثابتة، لئلا تتكرر قصة صفاء الشلبي، وقد ظلت هذه القصة مثاراً للتندر، الأمر الذي جعل راكان يشعر بالإهانة، وبغصة في قلبه لا يمكن أن تنتهي «إلا إذا شلّخت الشلبي وسوبيته ألف وصلة» كما كان يقول. لم يقتصر الأمر على الأمراء الرجال والكبار، فإن الأمراء الفتيان، وبعض الأطفال، أقيمت المشاريع والشركات بأسمائهم. وبدأت موجة من التنافس بين هؤلاء في بناء العمارات الكبيرة والأسواق، أو في استيراد السلع النادرة. لقد حصل ذلك لأنه لم يكن لائقاً لنساء القصور من الأميرات الأمهات والأخوات أن يفعلن ذلك مباشرة، مما اضطرهن للقيام بها من خلال الصغار!

والعادة أنه إذا جاء الخير يعم ويصل إلى الكثيرين، لكنه في موران، وخلال تلك الفترة، فقد اقتصر، بعد الأمراء، على رجال الحاشية والأقارب، وعلى عدد محدود من التجار فقط، إضافة إلى الوكلاء والذين يقومون بالأعمال مباشرة. كان هؤلاء يحصلون على العطايا، والهدايا الكثيرة، وكانوا ينفذون الأعمال والمشاريع التي يعفّ الأمراء عن التزامها، لصغرها أو لعدم أهميتها، وكانوا أيضاً ينهشون من هنا وهناك، حين تواتيهم الفرصة، وحين ينشغل الأمراء ويسهون، كانوا يفعلون ذلك بكثير من الحرص والمهارة، وبسرية كاملة، ودون أن تظهر آثار الغنى!

السلطان في قصر السعد، لا يراه الناس، إلا نادراً، لانشغاله بترتيب الأوضاع في فترة ما بعد الحرب، لأنه يعتبر أن حروب السلام، بعد أن توقف هدير المدافع، هي الأصعب، ومن خلالها سيصل ويحقق ما عجزت عنه القوة العسكرية.

قال السلطان لمجلس الربع، بعد أن مضت فترة طويلة دون أن يلتئم هذا المجلس:

ـ . . . وإذا سألتوني، يا جماعة الخير، شلون صارت الأمور، فبعد ما أكدنا لهم قوتنا، وأنهم لا يقدرون علينا، وبعد ما توسط أولاد الحلال، وقالوا يلزم تتصالحون، ولما تقابلنا وتلاقت العيون، واعتذروا، وقالوا عفا الله عما مضى، قلت لهم: ما يخالف، وإن شاء الله تكون هذه آخر الحروب بينا. وقلت لهم: الحرب صعبة، لكن الأصعب منها أن تصفي القلوب، وحنا، من ناحيتنا، صفت قلوبنا، وحنا أولاد اليوم. قالوا: حنا نريد نبني بلدنا، ونلتفت لأشغالنا، وعهد علينا أن نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا. وابتداء من اليوم، إنشاء الله، ما تشوفون منا إلا كل خير. . .

ابتسم، هز رأسه، وهو يضيف:

ـ وتعرفون: الكلمة الطيبة تطلع الحية من جحرها، وتغسل السم من القلوب، وهذا ما صار، والرأي رأيكم.

قال راكان بنزق:

ـ أهل الدواحس ما يتأمنون، يا طويل العمر.

قال مساعد، وهو يعبث بأزرار ثوبه الذهبية:

ـ اعتبر أن ما قد يحصل بيننا وبين الدواحس، مجرد هدنة، قد تكون هدنة طويلة، لكن الحرب لا بد تنفجر مرة ثانية، بعد سنة، بعد عشر، الله أعلم.

قال راكان بعد أن سحب نفساً عميقاً:

ـ المصيبة وقعت، والنار اشتعلت، لأنه من يوم ما تغير الوضع هناك، جماعتنا فجموا، عين الواحد مثل البريزة، ولسانه شبر، وما عندهم شغل إلا يديرون الراديو من محطة للثانية، يسمعون ويسولفون، وبعدها يقسّمون: فلاني وتركاني، هذا أخذ، وهذا بلع، وهذا عنده هالكثر، وهذا ما خلى لغيره، وبك حيل وسكّت هالأوادم. . .

وزفر، نظر بطرف عينه إلى السلطان لكي يقرأ في وجهة رد الفعل، فلما وجده حزيناً، تابع:

ـ هذا كله من تأثير الدواحس، واللي صار بالدواحس.

قال مزيد:

ـ من رأي اللي صار بينا وبين الدواحس ما يروح بالهين، ولا بيوم أو اثنين، فخلنا مستعدين ونراقب. إذا صدقوا خير وبركة، وإذا لا والله، فسلاحنا جاهز والبادي أظلم.

رد راكان بحدة:

ـ المسألة، هالحين، يا مزيد، ما عادت دبابات وطيارات، وما هي على الحدود، وصلت النار لثيابنا، وصار الخطر من جماعتنا.

قال مساعد ساخراً:

ـ إذ ناظرت الكثيرين تقول: البّس ياكل عشاهم، لكن، والشهادة لله، صاروا اخبث من الحصينيات والعن عن لهايات الرعيان. إذ سألتهم، يقولون: «ما ندري، ما سمعنا»، وإذا غبت عنهم ساعة، أو سهيت، ما يخلون ستر مغطى، وهذا أبو منصور يعرف كل سوالفهم، وخله يسولفوكم.

قال راكان:

ـ الله أكبر إذا ولونا، لن يبقوا ولن يذروا، ويجوز ما يبقى منا مخبّر.

سأل السلطان بسخرية:

ـ هذول هم جماعتنا، يا أبو منصور، ردنا أو ما ردنا، فشنهو دواهم برأيك؟

فوجئ راكان بالسؤال، وكأنه لم يتوقعه، أو لا يملك له جواباً، وبعد لحظات صمت، والعيون تتابعه، أجاب:

ـ لما بدأنا الحرب، طال عمرك، جزرنا كم راس، فتأدب الناس. ومن رأي، هالحين، نجزّ كم راس ونجزها أو نجزرها، حتى يفهم القريّب والبعيد أنه ما عندنا لحية مشّطة، وحنا حنا بالحرب وغير الحرب، لأن

أهل الدواحس ما وافقوا على انتهاء الحرب إلا لأنهم، ويجوز غيرهم، مراهنين على تحريك الناس هنا وهنا، واللي ما قدروا يصلونه بالحرب، يجوز بفكرهم أنهم يصلونه بطريقة ثانية.

قال متعب:

ـ يا جماعة الخير، ترى الناس ضاقت أرواحهم وشبعوا موت، فيلزمنا ما نزيد، وإلا تصير مثل القشة اللي قصمت ظهر البعير، باكر الناس تطلع بروسهم، ويسووا اللي ما يتسوى.

رد راكان، وكأنه يخاطب نفسه:

ـ يخسون، نكسر روسهم ونلعن والديهم...

وبعد قليل، وموجهاً الكلام إلى السلطان:

ـ هذا رأي، يا طويل العمر، ويلزم باكر أو اللي عقبه، ما تعتبون ولا تسألون: ليش صار فلان شيء، وفلان شي.

رد السلطان، وخرج صوته عميقاً:

ـ من رأي: ضربة على الحافر، وضربة على النافر، خذ وعين، مرة نتساهل والثانية عين حمرة، لأن القوة وحدها، يا أبو منصور، ما تفيد، وإلا...

ابتسم وهز رأسه، ثم أضاف بلهجة مختلفة:

ـ حتى صاحبنا، قال بكتابه، ولا بد قريتوه: «تتخذ التدابير اللازمة لارتكاب العنف والقسوة فوراً ومرة واحدة. ويجب أن لا يُعاد إليها من يوم لآخر، وهكذا يتمكن الأمير عن طريق عدم القيام بتبدلات جديدة من خلق الطمأنينة عند شعبه واكتسابه إلى جانبه عن طريق القيام بالمشاريع النافعة له» ورأي أن ما قاله صحيح وسهل، وهذا وحده يخلصنا من كلام الناس والعداوات. أما كل يوم والثاني إعدامات، فترى يجي يوم الناس ما يخافون من الموت، ولا يهابونه، وهذا أخطر شي.

بعد مناقشات طويلة أغلبها على شكل أسئلة واستفسارات، تم الاتفاق على أن تظهر الدولة اللين، وأن تبدأ مجموعة من المشاريع، للتدليل على غناها وقوتها.

عناد الرشيد، طالب الدراسات العليا، وكانت رسالته حول: الأسس المعيارية في بناء الشخصية، كتب في أوراقه الخاصة ما يلي: «... الصحراء هي البيئة، والبيئة ليست مجرد مكان، أنها عقل وسلوك. ورغم أن العقل ابن المكان، أي البيئة، إلا أن التأثيرات المتبادلة، وضمن نسق من المتغيرات المتحركة والمتبدلة، خاصة في العصر الذي نعيشه، تجعل المكان وحده، كبيئة منعزلة ومحصورة، ليس كافياً في تفسير الشخصية. أي أن الجغرافيا، والتي يصرّ عليها بعض العلماء، ويجعلها أساساً في بناء الشخصية، ومن ثم تفسير سلوكها وردود فعلها، لا تكفي في فهم شخصية الفرد، وبالتالي في فهم شخصية المجتمع. أما ما هي العوامل الأخرى المضافة، المتغيرة والثابتة، فإن هناك مجموعة من الفرضيات يمكن أن تساعد في إعادة تحليل وتجزيئ، ثم تركيب جديد، وحسب انساق، لكي نصل إلى أوليات قد تساعد في فهم الشخصية».

قال فياض الفريح، مختار حي سبيع، حين اجتمع السلطان مع المخاتير:

ـ أنت، طال عمرك، أب للجميع، والأب صدره واسع، ويلزم يعرف كل شي.

رد السلطان، وهو يبتسم:

ـ هات اللي عندك يا فياض.

ـ خاف اللي عندي ما يرضي، يا طويل العمر.

ـ خلنا نشوف.

ـ موران، يا طويل العمر، ضاقت روحها، وناسها صاروا ناسين: أغنياء فوق الريح، وفقراء ينامون جوعانين، وهذا أبد ما صار. وإذا كان الرزق من الله فالعدل من العبد، وبعد ما الحرب انتهت يلزم الخير يصل الناس.

قال السلطان بطريقة فخمة:

ـ الناس، يا فياض، من يوم ما الله خلق الدنيا، ما أحد يرضيهم: آكلهم الحسد، ويحبون السوالف، وكل واحد يتلبد للثاني، والواحد بعقله

رضي برزقه ما رضي، وأنت تعرف: رضا الناس ما ينّال، يا فياض، وأنت مختار وتدري.

ـ اللي ادريه، يا طويل العمر، أن الناس يريدون: الإنصاف والستر والسلامة، وهذه الأمور ولا أسهل منها.

ـ كل واحد من اللي قلتهم، يا فياض، يجرّي دمايات قبل ما يصير.

ـ اللي تشوفونه يا طويل العمر، بس اللي عندنا قلناه.

ـ توكل على الله، وما يصير إلا الخير.

أما الخير فقد جاء على شكل لم تره موران من قبل: السجون فتحت أبوابها، وضاقت بمن فيها، فاستحدثت سجون جديدة. المخبرون في الشوارع والمضافات، وهم مكشوفون إلى درجة يدّلون على أنفسهم. لا أحد يجد عملاً أو يريد سفراً إلا إذا وافقت أجهزة لا يُعرف من هي وما أسماؤها. ولكثرتها أعطيت أرقاماً، أو أسماء غريبة. المال عند الدولة وحدها تعطيه لمن تشاء، بغير حساب. الناس يتراكضون ويتساقطون، وكل شيء لم يعد كما كان من قبل. التجار يشكون والموظفون يشكون. البدو يشكون والحضر يشكون. من لم يسجن، فلا بد أن يكون له قريب سجين. ومن وجد عملاً فلا بد أن يكون أحد من أقاربه أو معارفه يدق أبواب الأجهزة يوماً بعد يوم لكي يسمح له بالعمل أو بالسفر. وإذا قال أحد كلمة فهناك آذان تلتقطها بسرعة وتنقلها، وعندها يبدأ الحساب.

قال الذين عاشوا في تلك الفترة، ان الدنيا بدأت تصغر وتضيق حتى أصبحت كحبة الخردل.

وقالوا: الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً.

وقالوا: اختلطت الأمور، واختلت المقاييس، فلا أحد يعرف ما هو الصحيح وما هو الخطأ، ما يجب أن يفعله، وما يجب أن يجتنبه. وفي أواخر الليل، ما بين الفجر الكاذب والفجر الصادق، كانت تكسر أبواب البيوت، ويدخل رجال بسحنات القرود، وبأيديهم الأسلحة، ويأخذون الرجال والفتية، وما يمكن حمله ويذهبون.

قال المسنون: آخر الزمان.

وقالت النسوة: لا بد أن يأتي المهدي، ومعه الخضر.

ـ وقال المعتوهون: المطر والماء والسماء.

ـ وقال العقلاء: اصبروا، فالصبر مفتاح الفرج.

وقال الشجعان: ليس بعد الصبر إلا القبر.

ـ وقال الفتيان: كانت موران جنة ولا بد أن تعود.

قال راكان: اعتقلوا، واقتلوا، ثم حققوا.

قال السلطان: انتبهوا، يا جماعة الخير.

قال عبدالله البخيت: في نهايات العصور تكبر الآذان وتصغر العقول.

قال سائح: أغرب شيء في هذه المدينة أنك لا تفهمها، ولا يمكن أن تحزر عليها.

قال غزوان: موران لا تحكم إلا من بعيد، وكل ما اقترب منها الإنسان فقد قوته وقدرته على السيطرة.

قالت داود الحايك: لا بد أن نسافر، لأن الحسد ملأ القلوب.

قالت فضة: الأمل كله براكان.

قال فياض الفريح: قبل سنين كانت موران: حي القلعة وحي سبيع، الآن، تدور على حي القلعة وعلى حي سبيع بسراج وفتيل وما تلقى منهم أي أثر. والرجال كانوا من قبل، أما هالجين... فما أدري!

قال مساعد لزوجته الجديدة: وبعد فنر راكان، وبعد راكان كليّمك.

فضحكت الزوجة وقالت: عساها ما تطول.

قال مزيد بن خريبط: الله يستر، فالناس غير الناس وموران غير موران.

قال رأفت شيخ الصاغة: «... ومن الأمور التي تبعث على التساؤل والتفكير، أن عدداً من الأمراء يتصرفون بطريقة خاطئة، سواء في جمع الثروة، أو تحدي مشاعر الناس، أو في التنافس فيما بينهم، ولا بد من بحث الأمر مع السلطان، ولفت نظره إلى هذه التجاوزات».

قال ليفي شاوات لغزوان:

ـ اسم شركتنا: الشركة العالمية للتصدير. وهذه مهمتنا، وهذه صفتنا، ولا بد أن نتمسك بذلك، فإذا كان الأمير راكان راغباً في أن يتسلم صادراتنا فعليه أن يقيم شركة أخرى لتتولى الأمر.

رد غزوان وهو يقهقه:

ـ موافق مائة بالمائة، وإليانور موافقة أيضاً، خاصة بعد أن تخلصنا من تجربة المطاعم السريعة، فالناس هناك لهم مزاج لا يمكن أن يتغير بالسهولة التي افترضناها، لا بد للزمن أن يلعب دوره. فلنترك لهم الأشياء التي يستطيعون القيام بها أحسن منا، ولنثبت لهم أيضاً أن القرار أصبح بأيدينا، رغم آلاف الكيلومترات التي تفصل بيننا.

سوف ينقضي وقت طويل قبل أن يُعرف، على وجه الدقة، ما حصل في ذلك اليوم من أيام الربيع المبكرة. فحراس قصر السعد كانوا يتدثرون بالفروات خلال ساعات الصباح الأولى، حين تراءى لهم السلطان بكامل ملابسه ينزل درجات القصر، ويتجه يميناً نحو حديقة الزهور، ويختفي. ظلوا في شك، لأن الوسن، كان يداعب أجفانهم، وكان مروره خفيفاً سريعاً، إضافة إلى أنهم لم يتعودوا مشاهدته في مثل هذه الساعة المبكرة.

فريزة خانم أفزعها حلم في الليل المتأخر وأيقظها، فلم تستطع أن تعاود النوم، لذلك انتبهت للحركة المحاذرة في الجناح المجاور، إلى أن سمعت نحنحة السلطان فتأكدت، ورغم أنها كتمت أنفاسها وانصتت، إلا أنها لم تسمع صوت ثروت أو ضحكتها، فقررت أن تفتح باب غرفتها بشكل موارب، لعلها ترى السلطان قبل أن يخرج لتصنع له القهوة ولتقرأ على وجهه إن نام نوماً عميقاً أم لا. لكن السلطان مر بسرعة متجاوزاً غرفة فريزة خانم دون أن تتمكن من تحيته أو رؤية وجهه.

أما نصار الذي تعود أن ينام في الغرفة الجانبية، عند الدرج المؤدي إلى الباب الخارجي، وكان الباب يفتح من داخل هذه الغرفة، فقد صدف أن غاب عن القصر هذه الليلة والليلة التي سبقتها، بسبب زواج ابنه تركي. كان يعلّل نفسه أن يحضر السلطان الزواج، إد وعده بذلك، لكن أمراً طارئاً أجهض هذا الأمل، فاكتفى السلطان بأن أعطاه ساعتين عليهما صورته هدية للعروسين، ووعد مجدداً أن يقوم بالزيارة في غضون أيام.

حتى ثروت، التي وصفها السلطان بالقطة، لخفة نومها وشدة

حساسيتها، لم تستيقظ هذا الصباح إلا في وقت متأخر، كما لم تنتبه حين نهض السلطان وغادر فراشه. ولا يعرف إن تعمد عدم إيقاظها، أم أنها كانت غارقة في نوم عميق لما غادر القصر. كما أنه لم يعد لتناول القهوة في الشرفة الداخلية، وكان يفعل ذلك كل صباح خلال فصلي الشتاء، والربيع، ويحتمل أن يكون قد توجه مباشرة من حديقة الزهور إلى مكتبه. ولذلك لم تستطع ثروت أن تقدر متى استيقظ، وهل تناول القهوة أم لا، وأي الملابس ارتدى، رغم أنها فتحت الخزائن وألقت نظرة لتحزر، وهي لا تفعل ذلك إلا نادراً.

برودة الطقس، ذلك الصباح من آذار، ورائحة الهواء، وتلك الغيوم الخفيفة المتفرقة، إضافة إلى الغترة الصوفية التي حرص السلطان على ارتدائها، وهو لا يفعل ذلك إلا في الأيام الباردة، ثم سؤاله لصالح الوطبان، أحد المسؤولين عن حديقة الزهور عن احتمال سقوط المطر، يفسّر سرعة مغادرته الحديقة، وتوجهه إلى المكتب في هذا الوقت المبكر، وقد أربك وصوله المفاجئ، وفي مثل هذه الساعة، حرس المكتب والمناوبين، إذ كان معظمهم في حالة من الحرية المفرطة، من حيث المظهر والملابس، الأمر الذي سبّب لهم الكثير من الحرج زاد في ارتباكهم، وحركتهم. كما أن عدداً منهم لم ير السلطان مباشرة أو عن قرب، لأن العادة أن يتركوا المكاتب قبل وصول موظفي النهار. ورغم كل شيء فقد لاحظ هؤلاء أن السلطان أقرب إلى الحزن والهم. ولم يسمعوا منه سوى الرد على تحياتهم، وكان صوته منخفضاً أقرب إلى الهمس.

الناس الذين غادروا بيوتهم مبكرين ذلك الصباح أحسوا بلسعة البرد، ولم يفت أي منهم أن يتشمم الهواء، ثم أن يرفع رأسه إلى السماء ليقرأ رائحة المطر. وصدف أن عاد بعضهم إلى بيته ليغير عباءته أو غطاء الرأس، تحسباً من الأمطار المتوقعة.

ومع أن المطر، أو رائحة المطر، يدخل الفرح إلى الصدور، فإن الحزن الذي ملأ القلوب وفاض حتى وصل إلى الروح، لم يترك مكاناً لابتسامة أو لظل ابتسامة. كانت عيون الناس تنظر إلى الأرض، وكأنها

تبحث عن شيء لم تجده في مكان آخر. وكانت النسوة أقرب إلى الهم والخوف، خاصة بعد أن أخذت أخبار المناطق تصل إلى موران: الإعدامات التي جرت؛ السجون الجديدة التي أقيمت في البادية الشمالية والغربية؛ ثم أفواج المعتقلين التي وصلت خلال الأسابيع الأخيرة. ورغم الحرص الذي تميزن به في قراءة أفكار الرجال أو حركاتهم، فلم يظهرن الخوف، ولم يبالغن في الحذر إلى درجة تلفت النظر، لأنهن يعرفن ردود الفعل الحانقة، والتي تصل إلى درجة الجنون، إذا عرف الرجال.

أما متى بدأ السلطان يوم العمل، ومتى وصل موظفو النهار، وكيف رتبت مواعيد ذلك اليوم، فإن التكتم ترافق مع تعدد الرواة واختلافهم. فالوفد الكبير الذي وصل من العوالي قبل ثلاثة أيام، وقد حدد له يوم الخميس موعداً لمقابلة السلطان، أبلغ الوفد أن الموعد أرجئ ليوم السبت أو الاثنين، لأشغال طارئة جدّت.

ومع أن الوفد أثار، منذ وصوله، صخباً في موران كلها، لكثرة عدده، ولأن عمر زيدان كان ضمن الوفد، فلم تتخذ أية إجراءات قاسية، بناء لأوامر مباشرة من السلطان، كل ما لجأ إليه راكان أن طوق الوفد بعددٍ من المخبرين، وطلب أن تنقل إليه أية كلمة من أي شخص كان، خاصة عمر زيدان، «لأن الناس جيران مقبرة ما هو بس بموران وحدها وإنما بالسلطنة كلها... ويشوفون».

عمر زيدان ذاته ما كان ليبلغ هذا الحد من الحنق والهياج لولا اعتقال ابنه الوحيد، فقد جاءوا إليه في الليل المتأخر وأخذوه. ولما حاول عمر أن يمنعهم، أن يقاوم، دفعوه، أوقعوه أرضاً وأخذوا ناصر وغابوا، ومضت شهور لم يسمع عنه خبراً. وإذا كان قد احتمل الفترة الأولى بصبر، فأخبار الإعدامات، والموت في السجون الصحراوية أفزعته. ومع أنه راجع الكثيرين، وسأل في كل مكان، لكنه لم يتلق خبراً يطمئن إليه، لذلك قرر أن يشكل هذا الوفد ويأتي إلى موران. وقد سبقته تحدياته وشتائمه، حتى قيل إنها وصلت إلى السلطان.

كان يقف وسط شارع التجار في الطريفة ويصيح:

ـ على بالهم أنهم إذا أخذوا ناصر خلصت الدنيا؟ لا، غالطين وواهمين، أخذوا قبله آلاف، وأخذوا بعده آلاف، وبعدنا رجال ونحمل. وهذا التاريخ دونكم أقروه زين، ألف حاكم جا وراح، وكل واحد كأنه طيف أو منام، ويجي يوم ما تنفع الملامة والندم.

وحين يرى في العيون التأييد والصلابة، يهدر صوته:

ـ «أنا حتفهم

أي نعم

أنا حتفهم... الج البيوت عليهمو

أي نعم

الج البيوت عليهمو　　　اغري الوليد　　　بشتمهم والحاجبا

اي وربي وديني

الج البيوت عليهمو　　　اغري الوليد　　　بشتمهم والحاجبا

اي نعم: اغري الوليد بشتمهم　　　والحاجبا، ولألعن والد والديهم»

ومع النغم الذي يجوّده، ينتقل فيه من مقام إلى مقام، من نبرة التحدي إلى ذروة السخرية، تتعالى كلمات الاستحسان وطلب الإعادة والتحدي، ويستجيب عمر زيدان لهذه الطلبات حتى إذا انتهى من الغناء، يخرج صوته متحدياً:

ـ حنا وياهم والزمان طويل، ويشوفون!

لقد وصلت أخبار العوالي إلى السلطان فخاف وتحسب، فهو يعرف الناس هناك أكثر من باقي الأخوة، ويعرف كيف يفكرون وما يمكن أن تكون ردود أفعالهم. وكان يفكر أن يستغل مناسبتين قادمتين ليصلح أخطاء راكان، يوم العرش وذكرى تأسيس السلطنة، لكي يطلق سراح عدد من السجناء والمحكومين، كما قرر أن يستقبل الوفد الذي جاء من الطريفة، ليطيب الخواطر ويهدئ النفوس.

في ذلك الصباح جرت محاولات عديدة للاتصال بالأمير راكان، لكن هذه الاتصالات لم تجد، إذ لم يستطيع أحد أن يوقظه من النوم بعد سهرة

الليلة البارحة، كما لم يبلغ السلطان بالنتيجة، وقيل ربما كان موجوداً خارج موران، لأن معظم الإجابات التي تلقاها مكتب السلطان كان يحتمل تفسيرات عديدة.

أما الرويشدي الذي وصل في التاسعة لمقابلة السلطان، علماً بأن الموعد الذي كان مخططاً له في السابق هو في الحادية عشرة، فإنه لم ينم لحظة واحدة في الليلة الفائتة، لكي يطابق أرقام المصروفات مع أرقام الإيرادات. وقد لجأ إلى حذف بعض المشاريع، وإلى دمج أخرى، في محاولة للوصول إلى نوع من التوزان، لكنه لم يستطع. وكان خائفاً أيضاً من بحث اقتراح تخفيض مصاريف القصور من أجل التغلب على العجز.

لذلك حين وصل كان شديد الاضطراب، أصفر الوجه، وقد نسي أحد الملفات في منزله، ولم يكتشف الأمر إلا حين فرد أوراقه وبدأ، مما اضطره إلى إرسال أحد مرافقيه لإحضار الملف. ضحك السلطان لاضطرابه ونسيانه، ووافق على أن يستقبل بعض الزوار خلال الفترة التي يستغرقها إحضار الملف.

قيل إن السلطان وقف وتمشى في الغرفة قبل أن يبدأ باستقبال الزوار. وفي وقت لاحق قال الرويشدي لعدد من أخلص أصدقائه، ان السلطان وقف طويلاً عند النافذة المطلة على أشجار النخيل، وتساءل عن الطيور السوداء التي كانت تصل على شكل رفوف كبيرة، وحين لم يجبه الرويشدي، التفت إليه السلطان وقال:

ـ أنتم يا أولاد المدن ما تعرفون إلا اللي تقرونه بالكتب!

ويتذكر أهل الزرنوق أن شمران استخرج بندقيته في الليلة ذاتها، وقام بتنظيفها جيداً، وأكد اثنان من أقاربه، رافقاه في جولة الصباح، أنه على غير عادته أخذ معه البندقية وأطلق في الصباح المتأخر، والشمس ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أرماح، مشطاً كاملاً، أطلقه وهو يهزج، وحين استغرب القريبان، قال:

ـ البارودة إذا فات وقت طويل وما لعلع صوتها تصدّي، والفشك إذا فات عليه الوقت يبرّد.

وأكد هذان الاثنان أنهم رأوا في الأفق عدداً من رفوف اليمام.

وفي الليلة الفائتة، أو ربما قبلها بليلة أو اثنتين، قيل إن ابن البخيت أبلغ أولاده، دون مناسبة واضحة، أنه إذا مات لا يريد للقصر أن يدري قبل الدفن، أما في العزاء، وقد شدّد على الكلمات، وكانت تخرج من بين أسنانه المتبقية على شكل صرير:

ـ فإذا وصل واحد منهم اكسروا رجله، وقولوا له: عبدالله ما مات!

بين التاسعة والعاشرة، حين استقبل السلطان عدداً من الزائرين، أُبلغوا قبل دخولهم: «تسلّمون، وتتقهون وتمشون، لأن طويل العمر وراه أشغال كثيرة»، قيلت هذه العبارة لجميع الذين زاروا جلالته.

قال الرويشدي بعد يومين، وبعد أن استعاد قدرته على الكلام «. . . ودخل الأمير ضاري بن عمير، ضعيف، صغير، ولما مد طويل العمر يده. . .

«لا. . . كان طويل العمر بصدر المجلس، وكنت على بعد خمس أو ست مقاعد. . . لا بالله كنت أقرب. ناس تفوت وناس تطلع. سلام وشلونكم وقهوة وفي أمان الله. وفات ضاري. مثله مثل غيره وفجأة اشتعلت الدنيا. . .

«لا. . . الصحيح أن الواحد ما يقدر يستعيد كل شي صار، لأن المسألة صارت بلمح البصر، مثل البرق، دخل بعباته، تلفت هنا، هنا، وابتسم. ابتسم له طويل العمر، وثارت الدنيا. اشتغل الرصاص من كل مكان واشتعلت، وما شفت إلا الدماء والصياح، وواحد يقع وواحد يركض، والأبواب انفتحت، والناس تجمعت، وكل واحد يصيح، وبعدها ما حسيت ولا دريت».

وفي وقت لاحق، وأمام المحقق، قال مدير مكتب السلطان:

ـ لما سألته عن طلبه، قال: أريد أسلّم على طويل العمر. قلت له: طلب ثاني؟ قال سلامتك. اسلم وامشي. قلت له: طويل العمر وقته ضيق وما أريد أوصيك: تسلم وتتقهوى وتمشي. قال: ما يخالف. وبعده ما

دخل إلا واسمع الرصاص والصياح. دخلت، لقيت طويل العمر منكفي والدماء تنزف. كان الروشيدي موجود لكنه اصفرّ وأغمي عليه وتكوم بأرضه. ظنيت أنه انصاب، لكن بعد ما نقلنا طويل العمر، ورجعنا للرويشدي ما لقينا به أي صواب، سالم، لكنه غايب عن الوعي. حملناه وشلناه للمستشفى.

قال شلّيل المشاط، أحد حرس السلطان:

ـ يا سبحان الله، هالولد ما عجبني من يوم ما طب القصر. يتلفت، عيونه عيون حرامية، لما سألت عنه. قالوا: الأمير ضاري. قلت: على خيرة الله، لكن قلبي ما ارتاح، وبعدها صار اللي صار.

أما شعلان المصلح، الذي يصب القهوة لضيوف السلطان، فقد قال:

ـ شفته يتخطر بغرفة مدير المكتب. قلت: واحد من آلاف. لما طب على طويل العمر طبيت وراه، هو يمشي خطوة وأنا أمشي خطوة، لما صار بينه وبين طويل العمر مسافة خطوة مد يده وبلّش. تراجعت. انقلبت وانقلبت الدّلة والفناجيل وانكسرتْ وانكسرتُ، ولولا ذلك كان كظيته مثل البّس!

وقال رواة آخرون روايات أخرى. لكن ما هو مؤكد أن السلطان لفظ أنفاسه قبل أن يصل إلى مستشفى القصر، رغم أن المسافة بين المكاتب والمستشفى لا تزيد على خمسمائة متر.

انتشر الخبر بسرعة البرق، رغم الصمت المدوي الذي أعقب الرصاصات الست التي أطلقت في ذلك اليوم الربيعي.

أما كيف ألقي القبض على ضاري بن عمير، هل سلّم نفسه، أم هجم عليه الحرس وأمسكوا به، ثم انتزعوا سلاحه، فإن الروايات حول ذلك من الكثرة والاختلاف إلى درجة تثير الابتسام والسخرية. ولا يتردد بعض حرس الأمراء، الذين كانوا في القصر، أو في أمكنة بعيدة، من الادعاء أنهم شاركوا في القبض على ضاري!

راكان الذي وصل إلى قصر السعد بعد ساعتين، ولا يعرف أين كان،

أو من أبلغه الخبر، وجد عدداً من الأخوة مجتمعين. كان الصمت، وهزات الرؤوس والعيون الزائغة والحيرة والانتظار.

قيل إن عدداً من الأخوة رشحوا راكان سلطاناً، لكن راكان رفض بحزم أقرب إلى العداء. ولم يُستطع تفسير هذا الرفض أبداً. وقيل إن راكان كان خائفاً ومضطرباً، وأكدت إحدى نساء قصر الروض أنها رأت شتيوي السرحان يخرج من قصر الأمير راكان قبل صلاة الظهر بقليل، وبعده خرج الأمير. وهذه المرأة عرفته، لأنه سبق لشتيوي أن قرأ لها كفها، وصحت الكثير من المعلومات التي ذكرها!

في اليوم التالي دفن السلطان فنر. وعند العصر ثم اختيار الأمير مانع سلطاناً جديداً.

قال أحد موظفي مطار موران، أن الطائرة التي أقلّت غزوان للمشاركة في حفل التشييع من أكبر الطائرات التي هبطت في المطار، كان على متنها غزوان وحده، مع عدد من الحرس الخاص. وقد بقيت الطائرة بانتظاره ثلاثة أيام. أما حين أقلعت مغادرة موران، فقد سافر عليها أيضاً الحكيم وأم غزوان، إضافة إلى أعداد كبيرة من الصناديق والحقائب، وقد وضع قسم منها داخل مقصورة الركاب، في الجزء الخلفي. ولم يعرف أبداً محتويات الصناديق والحقائب، ولم يعرف أيضاً ما إذا كانت لعائلة المحملجي أم لغيرها!

ابن البخيت، حين بلغه خبر الطائرة، حجمها وانتظارها، ثم كيف نقلت الركاب الثلاثة، والصناديق والحقائب، فقد قال ساخراً:

ـ اي بالله، أخذوا الزكاة والفطرة، ومعها خُمس الجد... ومشوا.

وضحك وهو يضيف:

ـ إذا البلد ما هي بلدك، والناس ما هم ناسك، لا يهمك: شمّر واخرا.

وقبل أن ينقضي أسبوع أذاع السلطان برنامج السلطنة في المرحلة الجديدة، وكان من أبرز ما فيه: البدء بإعداد الدستور، وتنفيذ عدد كبير من المشاريع، ووعد بالعفو عن المساجين.

قال عمر زيدان لابنه، الذي كان في سجن عين دامة:

ـ الله راحمكم لأنكم ما تسمعون لغاوي الإذاعة والجرايد...

وزفر ثم أضاف:

ـ كانت الكلمة تسوي قنطار، وكان الإنسان لسانه، أما هالحين...

وضحك بحزن.

قالت هدلة الفرحان، جارة بيت عمير، لزوجها، بعد أن خمد تماماً صوت رأسي الماعز اللذين كانا في بيت عمير، وقد تركا وحدهما بعد أن أخذ الجميع، صغاراً وكباراً. قالت هدلة:

ـ شنهو اللي بلا الناس، ما يشوفون؟ ما يسمعون؟ ما يمشون بين القبور؟

رد حمد الدولعي:

ـ الناس شايفين كل شي يا هدلة، بس يلزم غيرهم يشوف ويسمع ويمشي بين القبور، حتى يتعلم.

وغرق الاثنان في الصمت والتأمل..

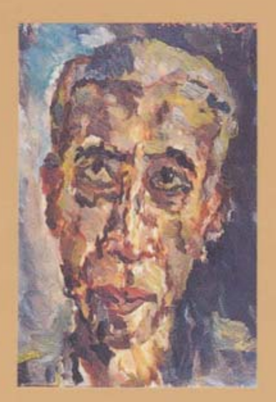
وبدأت موران تتنصت وتتلفت وتترقب... من جديد.

انتهت

صيف ١٩٨٨

مثلما تبدّد الجزء الأكبر من ثروة النفط، تبدّد الجزء الأكبر من الزمن الذهبي الذي كان بمقدوره أن يجعلنا على صلة بالعصر، وعلينا الآن أن نواجه رهانات ما تبقى من عصر النفط، وما بقي من الزمن الذي كان ذهبياً وواعداً.

ولأن البادية بالغة السعة، والظلمات تزداد وتتكاثف، فإن العقل وحده هو الذي يبني أوطاناً قوية، ويترك إمكانية لأجيال المستقبل أن تواصل العيش، وأن تتدارك ما قصّرت عنه الأجيال التي سبقتها، وإلا . . . فإن الفناء المادي ما ينتظر أوطاناً وشعوباً، واللعنات ستكون النشيد الأخير قبل أن يعم الصمت، وتمتلئ الصحراء بالوحشة مرة أخرى!



عبد الرحمن منيف

من مؤلفاته:

أرض السواد (3 أجزاء)

الأشجار واغتيال مرزوق

سباق المسافات الطويلة

عالم بلا خرائط
(بالاشتراك مع جبرا إبراهيم جبرا)

شرق المتوسط

قصة حب مجوسية

أم النذور

سيرة مدينة
(عمان في الأربعينات)

النهايات

لوعة الغياب

الكاتب والمنفى

العراق: هوامش من التاريخ والمقاومة

بين الثقافة والسياسة

عروة الزمان الباهي

التصميم:
مروان قصاب باشي

الإخراج:
آنيا مورينغ

صورة الكاتب:
رسم لمروان قصاب باشي

مُدُن المِلح
بادية الظلمات

* السرد الروائي في معظم صفحات الرواية ليس تعبيراً عن شخصية محددة أو أكثر، وليس وصفاً لحدث فردي بعينه، وإنما تعبير في أغلب الأحيان عن أحاسيس جماعية، عن مشاعر جماعية، عن مواقف وأحداث جماعية.

محمود أمين العالم

* كيف أمكن لمنيف أن يفرد كل هذه الخيوط، أن يتركها تنفلت متحررة باتجاه عوالمها الصغيرة، ليبقى قادراً، في الوقت نفسه، على فتح قنوات التواصل بينها، فإذا هي، وفيما تبدو متجهة نحو هذه العوالم، تكتفي ضمن عالم مجتمعها المتسع المفتوح على مزيد من التحول والاتساع.

يمنى العيد

* عمل يذكّرنا بمائة عام من العزلة فيما يغزله من غموض صوفي، وفيما يرتكز عليه من ميثولوجيا وخرافة شعبية، وفيما توحي به رمزيته من إيحاءات مثيرة.

شيكاغو تريبيون

* العرب بالنسبة للأميركيين هم مجرد مخلوقات متوحشة غريبة لا تستحق أكثر من التقاط الصور لها وهي على ظهور الجمال، دون أن يستحقوا أي جهد لفهمهم كبشر

ديفيد جيلمور

ISBN 9953-68-103-1



المؤسسة العربية للدراسات والنشر - المركز الثقافي العربي